



Bibliotheca Alexandrina



0022788









المؤلفاتُ الكاملة  
المجلدُ الثاني



نجيب محفوظ

الحائز على جائزة نوبل للآداب - ١٩٨٨

# المؤلفات الكاملة

السيرة  
بين القصرين  
بدلية ونهاية  
قصر الشوق  
السيرة

مكتبة البساتين

مَكْتَبَةُ لِبْنَانَاتٍ  
سَاحَةُ رِيَّاضِ الصَّلَاحِ - بَيْرُوتَ  
وَكَلَاءَ وَمُؤَدِّعُونَ فِي جَمِيعِ أُنْجَاءِ الْعَالَمِ  
جَمِيعِ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ ١٩٩١  
الطَبْعَةُ الْأُولَى ١٩٩١  
رَقْمُ الْكِتَابِ 01 R 180118  
طُبِعَ فِي لِبْنَانَاتٍ

# المحتويات

ص	
١	الشراب .....
١٥٩	بداية ونهاية .....
٣٢٥	بين القصرين .....
٥٧٩	قصر الشوق .....
٨٠٩	السُّكْرِيَّة .....



السَّيِّدُ الرَّبُّ





لا تعرف الحور، فلماذا يا ترى هذا العناء كله؟ ألم أرى  
عمري إلى الصمت والكتمان، ألم تغفر الأسرار من  
صدري بغير مفلح تستكن فيه ونموت؟ فما سرّ هذا  
الإحراح العنيف؟ وكيف سللت القلم لأنيش قبرًا  
تراكم عليه ثرى الإخفاء! لقد ضاعت الحياة، والقلم  
ملاذ الضائع. هذه هي الحقيقة. إن الذين يكتبون هم  
في العادة من لا يموتون، ولا يعني هذا أنني كنت أحيًا  
من قبل، ولكنني لم أكن ألوان أرنو لأمل بسم  
استضيء بنوره، وقد خد هذا النور. ولست أكتب  
لإنسان، فليس من شأن المرضى بالحجل أن يطلوا  
إنسانًا على ذوات نفوسهم، ولكنني أكتب لنفسي،  
ونفسي فحسب، فطالما دارت همساتها حتى ضللت  
حقيقتها، ويث في أشد الحاجة إلى جلاء وجهها  
المطموس في صدق وصرخة وقسوة، عسى أن يعقب  
ذلك شفاء غير مقدور. أمّا محاولة النسيان فلا شفاء  
يرجى منها. والحق أن النسيان خرافة بارعة وحسي ما  
كابدت من خرافات. ولعل في شروعي في الكتابة آية  
على أنني قد عدلت عن فكرة الانتحار نهائيًا، وما كان  
الانتحار بالجزء الذي لا يستحقه إنسان قضى على  
نفسين، بل هو دون ما يستحق بكثير، ولكن ما حلني  
والحياة لا تتوزع عن وسيلة في سبيل الدفاع عن  
نفسها؟ ولو كان الماضي قطعة من المكان المحسوس  
لوكّيت عنه فرائًا، ولكّته يتبعني كظلي، ويكون حيثما  
أكون، فلا مناص من أن ألقاه وجهًا لوجه بعين غير  
مختلجة، وقلب ثابت، ومها يكن من أمر فالوت أهون  
من الخوف من الموت، ولأنه لعمل فيه سحر، تستحيل  
به هذه الصحائف نفسًا خالصة بغير حجاب. ولست  
أدعي العلم، فما ناصبت شيئًا للعناء كالعلم، وأرى  
لغيت كسول، ولكنني عانيت تجارب ميرة زلزلتني

١

إني أصعب لما يدعوني للقلم، فالكتابة فنّ لم أعرفه  
لا بالهواية ولا بالمهنة، ويمكن القول بأنه فيما عدا  
الواجبات المدرسية على عهد صباي، والأعمال المكتبة  
المتعلقة بوظيفتي، فإنني لم أكتب شيئًا على الإطلاق.  
والأصعب من هذا أنني لا أذكر أنني سوّدت خطابًا أو  
رسالة طوال الدهر الذي حشته في الدنيا وهو ما ينيف  
على ربع قرن من الزمان. والحق أن الرسالة -  
كالكلام - رمز للحياة الاجتماعية، وعنوان للوشائج  
التي تصل ما بين الناس في هذه الحياة، ولست من  
ذلك كله في شيء. ألسنا نسلّب الأشجار فنبت ما  
اعوج من أغصانها وفروعها؟ فلماذا يُبقي على من لا  
يصلحون للحياة من أفراد الناس؟ لماذا تتسامح بل  
نعمل فنفضهم على الحياة فرضًا أو نفرض الحياة  
عليهم كرمها؟ لهذا يسمون في الأرض غرباء  
مذعورين، وقد بلغ الذعر منهم أحيانًا أن يخطوا على  
وجوههم كالمحمومين فيدرسوا بأقدامهم المتعرة ضحايا  
أبرياء.

أقول مرة أخرى إنني لا أذكر أنني كتبت كتابة  
تستحق هذا الوصف. كذلك طالما أصباني الحديث  
وأعجزني، فكنت إذا اضطررت إلى كلام تلعلعت  
وأدركني العمى والحصر، ولم يكن الإعياء في قوة النطق  
أو الكتابة، إنّه أجّل من ذلك وأخطر وإنّ العمى  
والحصر والمعجز لأشقه عوائبه على وجه اليقين. ولذلك  
حق لي أن أتناول عما يدعيني الآن إلى الكتابة. وليس  
الامر قاصرًا على رسالة تدوّن، إنّه شوط طويل تنقطع  
دونه الأنفاس، وإنّي لأصعب لما يستغزني من نشاط لم  
أهمله، وحاس لم ألقه، حتى ليحبل إليّ أني سأواصل  
الكتابة دون تردّد أو تعب، في الليل والنهار، وبعمرة

وبعنها خلقاً جديداً، ولكن شقّ عليّ الطريق أو تولّاني القنوط، أو خللني حياتي، فلن يبقى أمامي إلا الموت ..

## ٢

ما جزء الميت - عندنا معشر الأحياء - إذا واره التراب؟ أن نفرّ من ذكره كما نفرّ من الموت نفسه! ولعلّ في هذا حكمة غالية، ولكنّ أناثنتنا تأتي إلّا أن تضفي على هذه الحكمة أسفاً حائفاً مضحكاً. ولقد فررت من بيتنا مولداً كلّ شيء ظهري كالحفاف المدهور، ثمّ مضيت أتبّ إلى رشدي في هدوء نسبيّ، وأدرك هول الخطب الذي نزل بي، ففاض بي حنين موجع، وفزعت يداي إلى خزانة الذكريات فاستخرجت كلّ ما بقي منها، ألا وهي صورة!

هي صورة كبيرة يظهر فيها جدّي جالساً على مقعد كبير، بجسمه الضخم وكرسه الكبير، وشاربه الأبيض كأنه هلال فوق فيه، في بلدته العسكرية المحلّة بالناشئين، وأقف أنا عند ركبته لا أكاد أجاوزها إلّا قليلاً، أتلّح إلى عذمة المصوّر بعينين باسنتين وقد التصقت شفتاي في توتّر من يغالّب ضحكة تغالبه. ووقفت أمّي إلى يمين جدّي معتمدة بساعدها الأيسر مسند الكرسيّ الكبير، في فستان طويل يشتمل عليها من العنق إلى القدمين، ولا ينحسر من ساعديها إلّا عن اليدين، بقامة طويلة وجسم نحيل ووجه مستطيل وعينين واسعتين خضراوين وأنف دقيق مستقيم ونظرة حائلة تقطر حائناً ولا تخلو من بريق ينمّ عن الحيويّة وجملة المزاج. يا له من وجه شاء الرحمن أن يكرّره في وجهي حتّى لقد قيل إنّه لا يفرّق بيننا إلّا الشباب! هذه صورة تطلّ عليّ من عالم الذكريات. ولقد ثبتّ عينيّ الملتصّتين على الوجه المحبوب طويلاً حتّى لم أعد أرى شيئاً سواه. كبرت قسوته في عينيّ حتّى خلّني روحاً صغيرواً يعيش في أحضانها، واشتدّ ما يحيط بي من صمت قهقبيّ إلى أنّ هذا القم المطبق سيفترّ بأسساً ويُسمعي من عذب الحديث ما العهد به فبر بعيد. إنّ الصورة شيء عجيب فكيف غابت عنيّ هذه الحقيقة؟

زلزالاً، وليس كالتهارب كاشف عن مطاوي النفوس. إنّي لالتفت على رفع النقاب، وهتك الأسرار، لأضح أصبمي على موطن الداء وممكن الذكريات ومبعث الآلام، ولعلّي بذلك أتضادّ نهاية عذرة، وأنجو من آلام لا قبيل لي بها، وأتلّمس في الظلماء سيّلاً. لست في الواقع إلّا ضحيّة، ولا أقول ذلك تخفيّاً من ذنبي، ولا تهزّياً من تبعي، ولكنّه حقّ وصدق، فالحقّ أنّي ضحيّة، إلّا أنّي ضحيّة ذات ضحيّتين. وأشدّ ما يحزّ في نفسي أنّ إحدى الضحيّتين هي أمّي! أفضّح بها من حقيقة لا تصدّق! كيف أنسيت أنّها سرّ حياتي وسعادتي، وأنّي لا أحتمل الحياة بدونها! ولكنّي كنت أحيأ على حافة عالم الجنون، وفكّذا فقدت كلّ شيء، ووجدت نفسي في خلاه مظلم غريب. . .

إنّي رجل مؤمن عميق الإيمان، وأعلم علم اليقين أنّي سأبعث حيّاً في اليوم الموعود، ولست أخشى آلام ذلك اليوم وأهواله. إذا تحرّدت أمام الله بما في يميني ويما في شألي. - قدر ما أخشى أن أبعث على الحال التي عانيتُها في دنياي. أروم بعثاً جديداً حقّاً، وبومذاك تصحّ الآلامي لا شيء يطويع الفناء إلى الأبد، فيمكنني لقاء أحبائي بقلب صالِب ونفس نقيّة طاهرة.

كانت أمّي وحياتي شيئاً واحداً، وقد ختمت حياة أمّي في هذه الدنيا، ولكنّها لا تزال كامنة في أعماق حياتي، مستمرة باستمرارها. لا أكاد أذكر وجهها من وجوه حياتي حتّى يترامى لي وجهها الجميل الحنون، فهي دائماً أبداً وراء أسالي والآمّي، وراء حسيّ وكراهيتي، أسعدتني فوق ما أطعم، وأشقتني فوق ما أتصور، وكأنّي لم أحبّ أكثر منها، وكأنّي لم أكره أكثر منها فهي حياتي جميعاً، وهل وراء الحبّ والكراهية من شيء في حياة الإنسان؟! فلاعترف بأنّي أكتب لأذكرها هي، ولاستعيد حياتها هي، بذلك تعود الحياة كلّها. وبذلك أبصّل ما انقطع من حبل حياتي، لعلّ الأمل أن يتجدّد في النجاة. يبدو لي كلّ شيء الساعة غامضاً متوارباً، كأنّ الشيطان يفرّ في عينيّ رماذاً، ولكن مهلاً إنّي أتلّمس سبيلي في صبر وأناة، ورائدي أمل الغريق في النجاة، ومن روائي نية صادقة في تمجديد حياتي

وكراهية، وارتعشت يداي، وأصععت عيني انزعاجاً، ثم لم أحر إلا ويدي تمزقها إرباً، ومئت لي يداً تحاول استنقاذها، ولكني تغلبت عليها في حق وهياج، فلبثت صامتة وقد لاح في عينيها الصافيتين الحزن والأسف. وكأنني لم أقتنع بما فعلت فتصدت لها غاضباً وسألته بلهجة تنم عن الاحتجاج: علام تأسفين؟ فبسقت أسارير وجهها بشيء من الجهد وقالت: - يا لك من طفل مشاكس... ألا ترى آتي أسف على صورة شبابي؟... لقد مرقت صورة أمك وأنت لا تدري.

وكانت ذكرى تلك الحادثة تعادوني في فترات متباعدة فتصحر في نفسي، وتملأني حيرة وقلقاً، فألهي متسأللاً حياً داهماً حقاً إلى الاحتفاظ بتلك الصورة ولماذا أحرزها تمزيقها؟ ثم أحاول أن أنفذ بخيالي إلى ما فاتني من حياتها، فأنقلب متفكراً مفتئلاً. هكذا فقدت صورة الشباب الأول، وأتني لأسف على فقدانها - الآن - أسفاً خالصاً، ولكن ليس ذلك أسفاً مضحكاً بعد أن امتدت يدي إلى صاحبة الصورة نفسها فقضت عليها؟!

### ٣

ولم أكن الحظ المائل الوحيد الذي ابتليت به حياتها. روت لي يوماً قصة زواجها، في حلو وحرص شديدتين، خاصة وهي تسرد الذكريات الباسمة على ندرتها، فكانت تذكروها في هجلة واقضاب وخرج، وكأنها في أعيانها تخشاني، أو كأنها أشفت مني أن تخفف لطافة الذكرى من حدة كراهتي لابي.

على جسر إسماعيل رآها أبي أول مرة! وكان «الحانطور» ينطلق بأني وجذني في بعض الأصائل للتنزه والفرجة، ففي مرة مر بها «حانطور» يتربع بصدرة شاب مزهو بشبابه وثرائه أو على الأصح بما ينتظره من ثراء، فوق بصره على وجهها، وسرعان ما وجهه عريت في أعقابها حتى بيتنا في الليل. وكانا كلنا غادرا البيت صادفاه في الطريق وكأنه ينتظر. ولم أدف

هذه أمي بجسمها وروحها، هذه أمي بعينيها وأنفها وفمها، وهذا الصدر الحنون الذي التصقت به عمري. رثاء... كيف أقتنع بأنها رحلت عن الدنيا حقاً؟ أجل إن الصورة شيء عجيب، ويبدو لي الآن أن كل شيء عجيب في هذه الدنيا، وقاتل الله العادة فهي التي تقتل روح العجب والإعجاب فيها. كانت هذه الصورة معلقة بحيث تراها العين في كل حين، بيد ألي أراها الآن شيئاً جليداً، أطالع في صفحتها حياة عميقة كأن نفضة من الروح الطليق قد استكثت بها، وأرى في هاتين العينين نظرة شاردة تبعث الألم. إن هذه الصورة حية بلا ريب، ولن أسترده بصري منها ولو جنت. عكفت عليها طويلاً، ثم تملكني رغبة قوية في تخيل حياة صاحبها في جميع أطوارها من المهد إلى اللحد. تخيلتها طفلة تحبو، وصبية تلهو بهرائسها. ألا ليبتها خلقت في صوراً أستعيد بها أحلام طفولتها السعيدة! ثم تخيلت عهد الشباب الرطيب، وهي عادة حسناء ترنو بظرفها الساجي إلى الأمل والسرور وتلهو بليلة الفتوة المشبوبة، لقد عاصرت عهد الحلو، وكنت ثمرة لخصبه ونضارته، ومع ذلك فقد ضاعت معلة وولت آثاره. خشي الظلام كأنني لم أرتع حضنه وأرضع ثديه. وكنت إذا تخيلته فيها مضى من أيامي تخيلته في حيرة وقلق، وساءلت نفسي في حجل واستياء ألم تنبض بدمه الحار تلك الرغبات الجامعة التي تستأثر الشباب؟ ولعل عاطفتي الغامضة تلك هي التي دفعتني في صباي إلى تمزيق الأثر الباقي لهذا الشباب الأول. فقد دخلت حجرة نومنا ذات يوم فجأة فوجدت أمي منكبة على درج مفتوح في صوان الملايس تنظر في شيء بين يديها، فالتفتت منها في خفة نحوني شطارة الغلمان المدللين، وأدخلت رأسي تحت ذراعها المبسوطة، فرائتها تمسك بصورة عرسها وبادرت تحاول إرجاعها إلى عجبها، ولكني أمسكت بها في عناد، وحملت فيها بدمعة، فرائت شاباً جالساً وأمي واقفة مستتلة إلى كرسيه كالوردة الناضرة. وتعلقت عيني بصورة الرجل فادركت أنه أبي، وإن كنت أراه أول مرة، بل أراه بعد أن امتلا الفؤاد له خوفاً

عن ذلك كله فهو نفسه لم يكن حصل على الابتدائية، ولم يكن يخلو من ميل للشراب والمقامرة. وبذلك صارت كرمته حرماً لرؤية لاذ أو رؤية بك لاذ كما كان يدعى، وظنَّ جدي أنه فرغ من الواجبات الملقاة على عاتقه بتروجه أصغر كرمته. ولكن ما كاد ينقضي أسبوعان على ليلة الزفاف حتى عادت أمي إلى بيت جدي دامعة العينين كسيرة الفؤاد! وانزعج جدي انزعاجاً شديداً، ولم يكذ يصدق عينيه، ثم علم أنَّ الشاب قد عاود سيرته الماضية في الحانات ولها مضرب الأسبوع الأول من زواجه، وأنه كان يرجع إلى بيته عند مشرق الشمس، وأنه أوسمها ضرباً في ذلك اليوم الذي غادرت فيه قصره. واستفزع جدي الأمر، وكان على تربيته العسكرية الصارمة رقيق القلب، ويحذب على ابنته حباً عظيماً، فغضب غضباً شديداً، ومضى لنزهة إلى قصر لاذ، وصبَّ جام غضبه على الشاب وأبيه معاً، ولبثت أمي في بيت جدي حتى وضعت اخني الكبرى. وسعى نفر من أصدقاء الطرفين إلى إصلاح ذات البين، ووصل ما انشطع من حياة الزوجية، وكلَّ مسامحهم بالتجاف فرجعت أمي وطفلتها إلى قصر لاذ مرة أخرى. وامتد مكثها به شهرين، ثم نفذ صبرها فهجرته إلى بيت جدي مهيضة الجناح. والحق أنها لم تلق الراحة إلا أياماً معدودات، ولكنها تصبَّرت وتجلدت حتى أن تصلح الأيَّام ما فسد من حاله، فلم يكن يزداد إلا فساداً، ولم تعد ترى فيه إلا سكيراً هريذاً لا يرحى شيء حرمة، فأبست منه، ولذت ببيت أبيها. وسعى الرجل إلى استردادها، مقراً بإدمانه الشراب، عاولاً إقناع جدي بأنه من الممكن أن تستقيم الحياة الزوجية مع إدمان الشرب، ولكنَّ جدي وقف منه موقفاً صلباً فطلقها، ومَرَّت أشهر فوضعت أمي اخني الأوسط، وعاشت في كتف أبيها متمتعة بعلفه وحشانه. ثم ترامت إليهم أنباء غريبة عن رؤية لاذ تقول إنَّ الفتى الطائش قد حاول في ساحة نزق وجزع أن يندس السم لأبيه متمتلاً حظه من الميراث، ولكنَّ الأب اكتشف الجرمة بوساطة الطبايح، فطرد ابنه من قصره، ووقف نصف

هذا الفصل من القصة يمرُّ بي دون ملاحظة، فسألته عن الغزل في تلك الأيَّام وكيف كان، وتلفتت سؤالي بريية وحذر، ولكنِّي ما زلت بها حتى استامت إليَّ، فاستسلمت لرقة الذكريات. وقالت إنه كان يبعث إليها بنظرات تومض بالابتسام، أو يلفتت نحوها باهتمام وهو يفتل شاربهِ الخزير الأسود، بيد أنه لم يعد حدود الأدب قط. وتفكرت ملياً، وتنت في بيدها الخيال الحالم، فصانيت أحاسيس الدهشة والخيبة والضييق، ثم رملت إليها عيني. ولم يكن لنا من سلوى في تلك الأيَّام إلا مواصلة الحديث. وسألته مبتسماً عن كيف كانت تلقى تلك المقدمات الغزلية. ولم يخف عنها ما في سؤالي من خبث فتضاحكت، وكانت إذا ضحكت اهتزَّ جسمها من الرأس إلى القدم، وقالت إنها كانت تتجاهله بطبيعة الحال، وتنتز فيها أمامها دون أن تلوي على شيء، وتظلُّ على حالها كأنها تمثال ذو يرقع أبيهر! ودخلني شك، وقلت إنِّي أسأله من الباطن لا الظاهر، عن القلب لا الوجه. ونازعني النفس إلى مصارحتها بما يدور في خلدي، ولكنَّ خائنتي الشجاعة، وعقلي الحياء، ولورجعت إلى قلبي لعرفت الجواب، فهذا القلب من ذاك، يجري بها دم واحد، ويسجعان عن خفقات واحد، فهل أنسى ألي وقفت كثيراً كمثل التمثال والقلب شعله ناراً!

وتقدَّم الشاب يطلب يدها، لم يكن ذا عمل ولا علم، بل ولا مال حتى ذلك الوقت، ولكنه كان أحد ابنين لرجل من كبار الموسرين. ولما علم جدي بموافقة الأب واستمداده لتكفل ابنه وأسرته، سُرَّ بالخطبة سروراً لا مزيد عليه، وفرح بجاء الأسرة العريق. وقيل له إنه جاهل جهل العوام، فقال وما حاجته إلى العلم؟ وقيل له إنه بلا عمل، فقال وما حاجته إلى العمل؟ بل قيل له صراحة إنه شاب ذو أهواء جامحة وأنه سكير هريد، فقال إنه يعلم أنه شاب وليس براهب. ولم يكن جدي طامحاً جشعاً، ولكنه كان يروم السعادة لابنته. وبحسب أنَّ المال كليل بتحقيق تلك السعادة، هذا إلى تأثر باسم الأسرة التي تؤدِّ مصاهرته، واطمئنان إلى سمعتها الكريمة، وفضلاً

ثروته لجهة خير، ووقف النصف الآخر على الابن الأكبر، ولعلّه لم يشأ أن يوقفها كلها للأخ الأكبر حتى لا يورث صدر ابنه الشرير عليه فيعرضه بذلك لأذاه... واستيقظ رؤية لاذ بعد حلم طويل بالثروة الواسعة على نقر نسي، فلم يجد يملك من حطام الدنيا إلا ربع وقف ورثه في ذلك الوقت من أمه - وهي غير أم أخيه - يقارب الأربعين جنيهاً شهرياً وبيتاً ذا طابقين في الحلمية انتقل إليه بعد طرده من قصر لاذ. وإثارت تلك الأنباء شجناً في بيت جدّي صفت له ضلوع اللبن يشفقون على مستقبل الولدين الصغيرين، فقد تضاعفت نفقتهم، وتجهّم مستقبلهم. وتشاور جدّي وجدّي وأمي في الأمر، وانتهى بهم تبادل الرأي إلى أن يقابل جدّي لاذ الكبير، وأن يستعطف قلبه للولدين البرشين حتى يغيّر وصيته لصالحهما، ومضى جدّي إلى قصر لاذ، وحدث الرجل فيها جاء من أجله، ولكنّه وجد منه قلباً قاسياً وأذناً صماء، ولعن بمحضره الابن وفزيتته، فعاد جدّي محزوناً ثائراً.

وكان من سخرية الأقدار أن مات لاذ بك في نفس العام الذي سعى ابنه فيه إلى القضاء عليه. وانفضى من الدهر سبعة أعوام فبلغت أختي راضية الثامنة، وبلغ أخي مدحت السابعة أو نحو ذلك. وفي ذلك التاريخ حدث ما غيّر مجرى حياة أسرنا المبادئ. وشاعت الأقدار أن يتمّ ذلك التغيّر بحادثة تافهة ممّا يمرض في الطريق، إذ كان جدّي يخاف نادياً للفيار بشوارع حياد الدين قبيل الفجر بقليل فرأى نفرًا من السوق يلغون بأنفسي ويوسعون ضرباً وهو يتخطّ بينهم هاتجاً مترنحاً، فبادرهم هاتجاً أن يكفّوا عنه، ومضى صوبهم غاضباً، ثم لحق به شرطي على الأثر. وما كاد الفر يتفرّقون حتى رأى جدّي رؤية لاذ في حالة سكر بين وقد سال الدم من أنفه. ودعش جدّي وتولّاه الارتباك موقع الدهشة، ولكنّه تقدّم من الرجل دون تردّد وسنده بذرعه وهو يوشك أن يقع. كان ما مضى قد سحب النسيان عليه ذيلوه أو كاد، وكان الرجل من الناحية الأخرى يوالي إرسال النفقة لولديه

على استهتاره وهرينته، فلم يكن بين الرجلين عدا، ودعاه جدّي إلى «حانطوره» فاطاع، وأمر جدّي السائق بالذهاب إلى الحلمية، ونجّهم عليها في الطريق صمت عجيبي، فلم ينس أحدهما بكلمة، وليّا بلغت العربة البيت أوسع له جدّي لينزل، ولكنّه أمسك بذرّاع الرجل ودعاه إلى بيته. واعتذر جدّي بتأخّر الوقت ولكنّ الآخر لم يقبل اعتذاره وأبى إلا أن ينزل معه وكان ما يزال ثملاً خموراً فاذعن جدّي على رغبه، فمضيا ممّا إلى حجرة الاستقبال ونحوط الفجر الزرقاء تنشب في الظلماء. وأمرني رؤية لاذ على مقعد وجذب جدّي فأجلسه على مقعد قريب، وسرعان ما ولّى عنه سكوته فغلبه الانفعال والثائر وراح يقول بلسان ثقل حلتّ الحمر والانفعال عقده «أرايت الأوباش كيف انبالوا عليّ لكّي وصفنا؟... أرايت إلى الإهانة البالغة تنزل بكرامتي، وأنا رؤية بن لاذ، وبيب القصر العتيق؟ هذه هي الدنيا يا حيّه... وما بالي أدعوك بعني؟ لقد جاوزت الأربعين ولم تُعدّ أنت الخمسين إلا بقليل، فما أحرابي أن أدعوك باخي، ولكنّي أدعوك عني استراماً وإجلالاً، فإنك بمنزلة أبي... أستغفر الله أنت أعظم من ذلك وأجلّ، لا تؤاخذني بما أنطق من لفظ، واللفظ شيء تافه، أمّا ركلي بأنقدام الأوباش شيء خطير، ليس كذلك؟ لقد مات أبي غاضباً عليّ، ويقولون إنّه لا يظفر بالمساعدة من حرم رضاه الولدين، أحقّ هذا يا حيّه؟ حتى ولو كان أحد الوالدين أبي؟ رياه، لقد سمعت هذه الحياة، إنّها حى وهذان وجنون متواصل، لشدّ ما تنوّع نفسي إلى الهدوء والطمأنينة، ليس هذا هو الندم؟ امدد إليّ يلك يا حيّه، ولتقسمن ممّا بهذا الفجر الطالع أن نبدا حياة جديدة لا إثم فيها ولا فجور، رة إليّ زوجي وطفلي وأسكني أسرتي... هلم... واشتدّ احمرار عينيه حتى ظنه جدّي باكياً، ولم يجد بداً من أن يطيب خاطره. وعندما انطلق به المخطّوب صوب المنزل وقد تحرّك سطح الأرض وريداً بالأفواج الأولى من الساعين إلى الرزق، أغمض عينيه في ارتياح، وتكرّر في الأمر مليّاً، وكان يودّ أن يرى ابنته سيّدة لبيت يخصّها. وفي

الزمان يآوي إليه حمام الذكريات، الساجع بالحنين إلى ما انقضى من أعمارنا، فلانقُب في غيابات الماضي عن أقصى ما يستطيع أن يستقبله رأسي من موجات الذكريات، إلى أغمض عيني متوارياً عن عالم المحسوس، كي أهيئ لروحي سكنية تنطلق فيها إلى الماضي الخالد. ولاعترف أنني شديد الحنين إلى الماضي، وقد بت في هذه الفترة الأخيرة أشد ما أكون حناناً إليه، ولعل ذلك مني ليس إلا توقفاً صريحاً إلى الطفولة، وإلى لأدرك ما في هذا الحنين والتوق من خطورة هي سر دالي الأسيف في الحياة، ومع أنني عشت حياتي متطعماً إلى ذلك الماضي - راضياً أو سائحاً - شديد الشعور بما يشدني إليه من رباط وثيق، إلا أنني أقف عاجزاً حيال سجنه الكثيفة، ترتد ذاكرتي حسيمة عن أرق عهوده وأخطرها. ها أنا أغمض عيني في تشوف وتساؤل، فيعشو بصري إلى نور خافت، أرى يدي الصغيرة وهي تمتد إلى القمر من عل كنف أمي. يا ها من ذكرى! ولكم تمتد أيلدنيا إلى أبقار ليست دون ذلك القمر مثلاً، وتبادوني ذكرى جهد مضى بذلته كي أزدرد حلمة اللذي فيصنني شيء مر مذاقه. وشارب جديّ الملائي وأناملني تشبه في سرور لا مزيد عليه. ومخطم أصص الزهور، وكيف هوت إحداها مرة من حافة الشرفة على ذراع البواب النور فكانت تكسرها. وكان من عادي ألا أستسلم للنوم حتى أمتطي منكب أمي فتذهب بي ونحيي بطول البيت وعرضه، وكلما تواترت حشيتها بقلعي. وكنت أرفل دائماً في فساتين البنات، وشعري مسدل حتى المنكبين. وقد بدا لأمي يوماً أن تمهني لي بليلة عسكريّة عملاء بالنجوم والنياشين، فارتديتها مسروراً، وقطعت البيت في عجب وخيلاء، ضابطاً عظيماً ذا صغيرة تهادى على ظهره! ولم يكن جديّ يرتاح إلى ذلك التذليل المفرط. ولكنه لم يجد من وقته متسعاً للإشراف على تربيتي، إذ كان يقادر الفراش عادة عند الظهر ولا يرجع إلى البيت من نادي القمار إلا قبيل الفجر. وكان من ناحية أخرى يشفق من تكليد أمي لسوء طالعها، ولأنه لم يبق له في شيخوخته سواها. عشنا ثلاثاً وليس للأب

نفس الشهر رُدت أمي إلى زوجها السابق واجتمع شمل الأسرة. ولكن لم تدم هذه الحياة الجسدية إلا أسبوعين! بل لعلها لم تدم إلا يوماً واحداً، وعمّلت أمي بفتيتها صابرة متصّرة حتى أقصّها الإشفاق على طفلها من شرّ السكير العريد، فحملتها وفرت إلى جديّ المسكين. وثار الرجل ثورة عنيفة، ومضى لتوّه إلى التائب الزائف وأهال عليه تعنيفاً وتقريعاً وازدراء، واستمع الآخر إليه صامتاً، ثم قال له إنّ زوجة هي الملوحة لأنها لا تؤدّ العيش معه وإنه لا ذنب له إلا أنه يسكراً وغادره جديّ يائساً ويده شهادة الطلاق. انقطعت حياة الزوجية إلى الأبد، وكنت أنا ثمرة تلك التوبة الكاذبة!...

وقد سمعت جديّ يمازحني يوماً فيقول لي: «لقد جئت إلى هذه الدنيا نتيجة لحسبتي أنا دون سواي...» ولكن ما أكثر الذين جاؤوا هذه الدنيا في أحقاب الحفاقات. ونشأت في بيت جديّ، فلم أعرف بيتاً سواه، بل لم أعرف من الأمل غير جديّ وأمي، لأنني حين أنشئت أمي ماحولي كان أبي قد استردّ أمي وأخوتي، وكانت جديّ قد ماتت. ولم أعرف أن لي أباً إلا بلسان أمي، وحديثها المضمع مرارة وحزناً، فتنت كراهيتي له على الأيام. وقد أتم الرجل قسوته عليها فلم يكتب باسترداد ابنه وابنته، ولكنه حال بينهما وبين رؤية أمهما، فمرّت الأعوام تلو الأعوام وهي لا ترى لها أثراً. وتراعت الأخبار إلينا تقول إنّ الرجل يكاد يحبس نفسه دون العالم كله، فأثراً من الدنيا وما فيها بسكر متواصل لا يفيق منه نهائاً ولا ليلاً...



كان بيت جديّ بالمنيل مولدي وملعبي وديناي. وكان يتكون من دورين كبيرين نعيم في الأعلى منها، وله فناء صغير. لست أريد التحلّث هن البيت، ولكنني ألتفت على استعادة الماضي. وما من ماضٍ إلا وله بيت محرم حوله ذكرياته. إنّ حياتي لا تنفصل عن ذاك البيت أبداً، ولن تنفصل عنه ما حييت، وما البيت ببناء وعهارة وهندسة، ولكنه برج ثابت في

مضى يزداد بتدرجي في مدارج النمو، وآي ذلك أتيا أقبلت تخوّلي أشياء لا حصر لها لترقّي عما أتطلع إليه من حرّية وانطلاق. ولتحتفظ بي في حضنها على الدوام. ملأت أفق بقصص الصغاريت والأشباح والأرواح والجنان والقتلة واللمصوص، حتى خلعتي أسكن عالمًا حافلًا بالشياطين والإرهاب، كلّ ما به من كائنات خليق بالخلد والخوف. ذاك عهد بعيد، ولكنّه لا يزال حيًا في صدري ودمي، وهو الذي جعل من الخوف جهرًا أصيلًا في نفسي تدور حوله حياتي جميعًا، فنقص عليّ صفوي، وروائي يتعاضد لا تريم، وما أنا إلا مخلوق خائف لولا قيد الجسد لفرت روحه ذعرًا، وأخاف الناس، وأخاف الحيوان والحشرات، وأفوق من الظلام وما يرسلني من أوهامه، وأنحامي جهدي أن أفرد بقط، وهيئات أن أنام في حجرة بمفردي. على أنّ الخوف كان أعمق في حياتي من هذه الأشياء التي يتمثل في ليها، لقد استطال ظله الكثيف حتى أظلم الماضي والحاضر والمستقبل، والفيظة والنوم، وأسلوب الحياة وفلسفتها، والصحة والمرض، والحب والكرامية، فلم يترك شيئًا خالصًا. وقد عشت جلّ حياتي الماضية غرًا جاهلًا لا أدري لتعاسي سببًا، ثمّ جلّت لي المحن جوانب من حياتي، هاتكة بقسوتها ما استتر من الخفايا الأسفية، بيد أنّ شعوري بالمعز لا يفارقني، وهو يستند في الحق إلى قصور ثقافتي وضمف ثقفي في قواي العقلية. كانت أمّي صبت هذه الآلام ولكنّها كانت الملاذ الوحيد منها، فأبويت إليها في غير حيلة...

ومن ذكريات ذلك العهد التي لا تنسى، موقفنا - أنا وأمّي - على قبر جديّ في اللواسم نكلّله بالرياحين ونقرأ الفاتحة مترجمين. وكنا نتحدّث كثيرًا عن القبور وأهل القبور، وكيف يرقنون، وكيف يستقبلون، وماذا يلقون من شدة وحساب، وكيف ننزل عليهم الآيات نورًا، يُذهب وحشتهم ويلطف جفوتهم، ولما كان القبر قبر أمّ أمّي فقد أحبيته حبًا جمًا. وكنت إذا وجدت منها غرة هربت إلى جانب منه، أنشب في ثراه أظافري، وأحفر في عجلة لمليّ أطلع على ذاك المجهول

إلا ابتسه وليس للآم إلا ابنها، وكانت أمّي تهفو لذكريات أختي وأخي بعين دامعة وفؤاد كبير، وتتلهف على رؤيتها ولو ساعة واحدة، ولم تجد في حزنها من عزاء سواي، فأودعنيّ حضنها، لا تحب أن أبرحه، وتودّ لو أجعل منه مرتعي ومراحي وفنيائي جميعًا. وهفّت نسائم الحياة رغاء، فلم أدرك إلا بعد فوات الوقت أنّه كان حننًا شاذًا قد جاوز حدّه، ومن الحنان ما يهلك. كانت مصابي في صميم أمومتها فوجدت في أنا السلوى والعزاء والشفاء، كزمت حياتها جميعًا لي، أنام في حضنها، وأقضي نهارني على كتفها أو بين يديها، وحتى في الأوقات التي كانت تتعبد فيها لشئون البيت لم أكن أفارقها، أو لم تكن تدعني أفارقها، وحتى في المطبخ كنت أمطي منكبها مفرشًا رأسها بخديّ متسلّكًا بمشاهدة الطاهي وهو يشعل النار ويقطع اللحم ويغزط البصل، بل كنّا نستحمّ معًا فتحتني في طست حارًا، ونجلس أمامي متجرّدة فأرشيها بالماء وأقبض على رغبة الصابون النافشة على جسدها فادلك به جسدي، ولم تكن نغادر البيت إلا قليلًا، فصلتنا بآل أبي مقطوعة، وخالتي كانت تقيم في ذلك الوقت بالمنصورة مع زوجها، فإذا خرجت في النادر لزيارة إحدى الجارات اصطبحتني معها. حلّ أننا كنّا نواظب على زيارة السيّدة زينب، ولعلمها الزيارة الوحيدة التي كنّا ننظرها بفارغ صبر. ولم يكن يسبها شيء مثل أن تنني على امرأة من معارفها بما ينشئ به على الأطفال عادة، فكانت تتعلّز من الشناء وترثي من العين في إشفاق عميق، ومن عجب آني لا أذكر التعاويذ والرقيّ باستهانة أو ازدراء، وآني لأؤمن بها، بل إنّي لأؤمن بكلّ ما كانت تؤمن به أمّي. وقد نلت من الثقافة حفظًا، وحصلت على البكالوريا، ولكن بقي لي إيمان القديم ساليًا غير مقصود، وهيئات أن يترعزع إيماني بالله ورسله وأوليائه والدعوات والتعاويذ والأصرحة.

بيد أنّي لا أستطيع أن أقول إنّي استكنت إلى تلك الحياة بلا تململ. ولعلّي ضقت بها في أحيان كثيرة، وتطلعت إلى الحرّية والانطلاق. ولعلّ ضيقي ذاك

خرجنا معاً لزيارة السيّدة. إذا كنت تحبّي حطاً فلا تفارقي.  
ولاح في وجهي الشفّر والامتعاض فاستطردت تقول:

- لقد حُرمت رؤية أختك وأعيك، ولم يبق لي في الدنيا سواك، وما أنت تودّ فراقى، ساعك الله... فتودّدت إليها قائلاً:  
- إني أحبك أكثر من أيّ شيء في الدنيا، ولكنّي أريد أن ألعب...

ولكنّها لم تكن لتلعب لرغبتي تلك، وكنت إذا ضقت بإصرارها بكيت أو ثار بي الغضب ثورة لا أعف فيها عن شدّ شعوري وعزيق لياهي، ولكنّ شيئاً لم يكن ليجعلها تدع لرغبتي في الابتعاد عنها. وفيها عدا ذلك لم تدخر وسماً لمرضائي. كانت تتابع لي اللعب أشكّالاً والواناً. وإذا لمست ضيقي ومللي دعت بطفل من أطفال الجيران ليشاركني لومي تحت سمعها وبصرها. بيد أنّ ذلك كلّه لم يروغني، فتحيّنت منها غفلة يوماً وانسلت هارباً من الشفّة أكاد أخرج من جلدي فرحاً، واستقبلي الأطفال في الفناء بدعشة وترحاب معاً. ومع أنّه كان بيننا شبه تعارف إلّا أنّه لم يسعني الاقتراب منهم، فوقفت مكاني في ارتباك وحياء، وسرعان ما أطّلت أُمّي من الشرفة ونادتني في حدّة الغضب، ولكنّ أكبر الأطفال تقدّم منّي، ودعاني إلى اللعب، وهو يقول لي: «لا تبالها» ولأوّل مرّة لم أبال صوتها. فاندفعت إلى حلقة اللعب، وأخذت مكاني في سرور لا يوصف، ولم تكد تمرّ دقائق حتى شجر خلاف بيني وبين أحدهم فلطمني حل وجهي، وذهلت ذموراً شديداً فلعلّها كانت أوّل لطمة تلقّيتها في حياتي، وارتميت حل ساعده وغرست فيه أسناني، ولم يتردّد رفاقه فأمالوا عليّ ضرباً وركلاً، وتوعّدهم أُمّي في غضب شديد، ولكنّهم لم يقلعوا عنيّ حتى هدّتهم بقذفهم بالقفّة، فغادرولي في حالة يرثى لها. ودعّني للصمود إليها، وكنت الهث والدموع ملء عينيّ، فقهرني الحياء وتسمّرت قلمي فلم ألبّ نداها، ولم أرفع بصري عن الأرض، ولم أفارق موقعي حتى جاء

المنطوي تحت الأرض. ولشدّ ما كان يجرّ في نفسي أن أسمعها تردّد: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون» أو «آخرتنا التراب» أو «الموت نهاية كلّ حيّ» فسألها مرّة في دهشة:

- سموت جيّماً؟  
فسأها السؤال، وحاولت أن تلهيني عنه، ولكنّي وقفت عنده لا أتزحزح فقالت:  
- بعد عمر طويل إن شاء الله.  
فرمقتها بإشفاق وسألها مرّة أخرى:  
- وأنت يا أمّاه...  
فقالت لي وهي تداري ابتسامة:  
- طبّاه. ساموت يوماً ما...  
فوقع قولها من نفسي موقعاً أليماً وهطت بها:  
- كلّ... كلّ... لن نحوي أبداً.  
وربّيت حل رأسي بحنان وقالت برقة:  
- ادع لي بطول العمر، كما أدعوك يستجيب لك الرحمن الرحيم.  
وبسطت كفّي الصغيرتين ودعوت الله من أحياق قلبي، وعيناي مفروقتان بالدموع.



أظّل الدهر في حجرها كأنني عضو من أعضاء جسدها؟ جاوزت الرابعة من عمري، وجاء سنّ الرفاق واللعب. ولم يكن لي من مهرب في البيت إلّا الشرفة، وهي تطلّ على فناء البيت، وتشرف على الطريق. وكان أطفال الأسرة التي تسكن الدور الأوّل يلعبون في الفناء، فجعلت أنظر إليهم بعينين مشوّقتين، فيتطلّعون أحياناً بأعين قرات فيها دعوة صامتة اهتزت لها جوانحي، واستلذنت أُمّي يوماً في الانقسام إليهم، فقالت لي بارتياح: ماذا حدث لعقلك؟... ألا تترى أنّهم لا يكتفون من العراك؟... ما عسى أن أفعل لو ضربوك أو جرحوك؟... أو خرجوا بك إلى الطريق لا تتقطع به العربات؟ بل ماذا تفيد منهم إلّا الشقاوة وسوء الأدب؟ أمّا أنا فأقصّ عليك القصص، وإذا شئت



لإقامة شقيقتها بيتنا ذلك الشهر، لا لفتور في عواطفها نحوها، ولكن لأن أبنامها استأثروا بي من دونها، وأفسدوني عليها. وشكت مرة إلى خالتي ما تخافه عليّ من حوادث الطريق، فضحكت المرأة باستهانة وقالت لها بلهجة لم تخل من لوم:

- «هل ابك من لحم ودم وأبنائي من حديد!... قوّي قلبك وتوكّلي على الله». أمّا أنا فقد نسبت في مساعدتي الشاملة تعاليم أمي جميعاً، واستسلمت للسُرود شهراً صافٍ حياتي الرتيبة كالحلم البهيج، وألقيت بنفسي في أحضان اللعب بشراة وبهم، لا استشعر تعباً ولا مللاً. وفي الليل إذا أويت إلى البيت كنت أضع علامة زوج خالتي على رأسي وأسكي لهجة في الحديث، وأتمجّج كما يتججّج، وأتقمّ عقب ذلك قائلاً: «استغفر الله العظيم» والكلّ من حولي يضحكون!

كان شهراً كالحلم، ولكنّ الأحلام لا تدم. وقد انقضى. وبدأت بعين الحسرة الحجاب وهي تمدّد وتكوم استعداداً للرحيل. وحسّ القراق، فكان عناق وسلام، وحملتهم العربة جميعاً ومضت، وأنا أودّعهم من الشرفة بطرف داعم كبير.

وقالت لي أمي:

- كفك لعباً وجرياً في الشارع، ثب إلى رشدك، وعد إليّ كما كنت لا تفارقني ولا أفارقك.

وأصغيت إليها في صمت. كنت أحبها مله فؤادي ولكنّي كنت أهفو كذلك للعب والمرح. وبدا لاني أن تحضر لنا خادمة صغيرة، وسمحت لها بأن تلاعبني تحت سمعها ويصرها. فكانت رفيقاً خيراً من علمه على أيّ حال، كانت صبيّة دميمة، ولكنّها كانت أفضل لي من الطامي المرم وأمّ زينب العجوز. وكانت أمي محافظة على صلاحها، فجعلت أقدّمها إذا صلّت، ولعلّها وجدت الفرصة مناسبة فمضت تلقّني مبادئ الدين كما تمرره. عرفت الدين مبتدئاً بالجَنَّة والنار، فانضالفت إلى معجم غلواني كلمات جديدة، بيد أنّها كانت مصاحبة هذه المرة لماعظة صلق وحبّ وإيمان.

البوّاب فحملني إليها. وغسلت لي وجهي وساقّي وهي تقول في انفعال شديد:

- تستاهل... تستاهل... هذا جزء من يخالف رأي أمّه، إنّ الله يغفر كل شيء إلّا من يعاند أمّه، فلن يغفر له. هذا هو اللعب مع الأطفال، فكيف وجدته؟!

ألخني هزيعي أمامها أضعاف ما ألخني الضرب، ورحت أوكدّ لما كذباً أنّ الحقّ كان عليّ، وألّي كنت المعتدي. ومن عجب أنّ أمي نفسها لم تكن تكثر من الاختلاط بالناس، فلم يألّف بيتنا الصيوف إلّا فيها ندر. وكان جدّي يضيّق بعزلتها، ويغتمّها دائماً على المعاشرة لتسرّي عن نفسها. ثمّ شاء الله أن يؤنس وحشتنا، فحلّت خالتي ضيفاً ببيتنا هي وأسرعها! كانت خالتي تقيم مع زوجها - مدرّس لغة عربية - بالمنصورة، فانتقلوا إلى القاهرة ليقضوا بيتنا شهراً من العطلة الصيفية. وجدت نفسي بين سقّة من الأولاد وبنات، فأقلت الزمام من يد أمي على رغمها. وكان أكبر الأولاد في العاشرة، وأصغرهم يحبو، فانقلب البيت المهادئ سرّاً تقفز به القروود والنسانيس، فلمبت ولغوت حتّى كنت أجنّ من القرح والسرود. لعبنا الجديّد والحجلة، والرابور، والاستغاية.

ولمّا ضقنا بالبيت انطلقنا إلى الطريق وأنا لا أكاد أصدّق. وأرادت أمي أن تحول بيني وبين الانطلاق معهم، ولكنّ خالتي نصّلت لها قائلة:

- دعيه يلعب مع الأولاد يا أختي... لو كان بتنا ما جازك أن تحجبيه قبل الأوان!

كانت الشقيقتان مختلفتين في المزاج على تقاربهما في الشبه. كانت خالتي مفرطة في السمنة، ميّالة للمرح والمزاح، لا تكرب نفسها بالقلق على أبنائها بغير داع. وكانت إذا غادر جدّي البيت غتّت بصوت لطيف محاكية «منيرة المهدية». أمّا أمي فتبلى على العكس من هذا كله. فهي نحيفة، منزوية، كثيرة المخاوف والقلق، مفرطة في الخنان لحذّ الشلوذ. وقد أرهقت ظروف حياتها أعصابها، فكانت لا تكاد تخلو إلى نفسها حتّى تلقّها كآبة شاملة. ولعلّها لم ترتع كلّ الارتياح

- أنت الآن تلميذ عظيم، وستفتح المدرسة يوم السبت القادم...

وأعلنت أمي عن ارتياحها، ولكنها لم تستطع إدارة ما احتراها من كآبة، حتى برم بها جدّي وقال لها بشيء من الحنّة:

- ماذا تفعلين غداً إذا بلغ السابعة وأخله أبوه!

فرمقت جدّي بنظرة فزع وألم وهتفت قائلة:

- لن يكون هذا وأنا على قيد الحياة.

وفي يوم السبت المنتظر أوصلني جدّي إلى المدرسة وعاد من حيث أتى. وقد تعلقت بيده وهو يغادري، واستشعرت خوفاً مباحثاً أنساني طول اشتياقي إلى تلك الساعة، واقرحت عليه أن يعود بي! ولكنه ضحك ضحكته الرئانة وقال وهو يومئ بأصبعه إلى التلاميذ:

- إليك أهلك الجدد...

وقفت على كتب من الباب في ارتباك لم أهاب مثله من قبل، وتولّاني الندم، ونظرت إلى التلاميذ المتفرقين في الفناء يخوفون ويحياهم، وتقيّت ألا تقع عين عليّ. ولكن أنالقي وجدة ثيابي لفتنا إلى الانظار فغضضت بصري في خجل شديد. وتساءلت حَتّام يطول ذاك العذاب؟ بيد أن غلاماً اقترب منّي وحياتي، ووقف معي كأننا أصدقاء. ثم سألني بغير مناسبة:

- هل أبوك الذي جاء بك؟

وكنت أعدّ جدّي جدّاً وأباً، فحنيت رأسي دلالة الإيجاب، فعاد يسألني:

- ما مهنته؟... وما اسمه؟

ولئن كان الحديث ضائقي، إلاّ رجّبت بذلك السؤال خاصّة، فقلت بفخار:

- الأميرالاي عبد الله بك حسن.

وقال لي الغلام إن أباه فلان بك كذلك وقد نسبته. ولعلّه ضاق بصمتي وجمودي فغادري وانضمّ إلى غييري من الرفاق. اشتدّت بي الوحشة وتساءلت ترى أستطيع أن أندمج في أولئك الغلمان؟ هل يمكنني حقاً أن ألاعبهم أم تتكرّر المأساة التي وقعت لي في فناء بيتنا؟ وتقيّض قلبي خوفاً، ولو واتني الشجاعة على الانسحاب من موقعي والعودة إلى البيت لفعلت. ثم

وإذاً حال أمي تلك معي إلى تأجيل تاريخ التحاقني بالمدرسة، فقاربت السابعة دون أن أتعلّم حرفاً. وتدخل جدّي في الأمر، فدعاني يوماً إليه وهو جالس بالشرقة على مقعده الطويل المزّاز، وعرك أذني مداعباً وقال لي:

- طالما رغبت في الانضمام إلى أترابك من الغلمان، فالآن قد فكّ الله أسرك، وسنأذن لك بالاشتراك معهم في حياتهم عمراً طويلاً، ستدخل المدرسة! انصتْ إليه في دهشة بادئ الأمر إذ لم أكن أدري شيئاً عن المدرسة، ثم بدا لي أنّه سيطلق سراحي فنظرت إلى أمي بين مصنّق ومكذّب، ولشدّ ما دهشت حين رأيتها تسم إليّ في تشجيع واستسلام، لسانيت الحبور في صدرتي فياضاً، وهتفت بجدّي مستأثلاً:

- هل ألعب في المدرسة كالأطفال؟

فهزّ الشيخ رأسه الأبيض وقال:

- طبعاً... طبعاً... ستلعب كثيراً وتعلّم كثيراً،

ثمّ تصير فيما بعد ضابطاً مثلي...

لسألت في لهفة:

- متى أذهب؟...

فابتسم الرجل قائلاً:

- قريباً جداً، سأقيد اسمك غداً...

وفي صباح الغد - وكنا في مطلع الحريف - ألبسني بدلة وطرבוشتاً وحذاءً جديداً فعاودتني ذكريات العيد السعيد، ومضى بي جدّي إلى حفلة قاسم غير بعيد من بيتنا، ودخلنا ثاني بناء صادفنا إلى اليسار، مدرسة الروضة الأولى الأهلية، وقد وقع عليها الاختيار لقربها من البيت، كانت تتكوّن من فناء متوسط ودور واحد من ثلاث حجرات، فصلين وحجرة الناظر. وقد استقبل الناظر - وهو صاحب المدرسة أيضاً - جدّي بالاحترام والإجلال، ولأطعني في حضرة برقة، وأطرى نظافتي وجدة ثيابي، فأنست إليه واستبشرت به خيراً. وتمّ إنجابي بين تلاميذ المدرسة في دفاق، ودفع جدّي المصروفات، وعدنا وهو يقول لي:

وارتقت السلم وثباً، وفي الشقة وجدت أمي في انتظار، فهتفت بي لِمَا رأيته:

- أهلاً بنور العين...

وقع بصرها مصادفة على البنطلون، فبدأ في وجهها الانزعاج، وتمتمت بصوت منخفض:

- ربّه... بلّت على نفسك!

وانفجرت باكياً، وقلت لها متحجاً:

- لن أعود إلى المدرسة، إنّ جدّي لا يدري عنها شيئاً، وإنّي أكره الناظر والمدرسين والتلاميذ، أنقذني منها ولن أبعدك عنك ما حيت...

فجففت دموعي، ونزعت سلابي، وهي تقول برقة:

- لا تقل مثل هذا الكلام، سألها وتحبها، كيف تبقى في البيت والغلمان جميعاً في المدرسة؟ وهل يمكن أن تصير ضابطاً مثل جدك إذا تركت المدرسة؟  
وواصلت البكاء، وألححت في الشكوى، ولكنّها جعلت نلطف من حزلي وتحذري من البوح بجدّي بشكراي أن يفضض ويحتقرني. ولأول مرّة أمارت دموعي أدناً صباه.

\*\*\*

وبداها - تشجّعي على مواصلة الحياة الجديدة - أن توصلي كلّ صباح إلى المدرسة، فكنا نذهب يومًا، وأدخل أنا للمدرسة بينما تقف هي على الطوار المقابل لها، وأظنّ ملازمًا للسور، أبادها النظرات والابتسام من خلال قضبانها، والكتابة ترين على صدري والضيّق بمسك بخناتي. كرهت للمدرسة وحياتها جميعاً، ولكنّي أجبرت على الذهاب إليها، ولم ينفعني عصياني ولا بكائي ولم ينجي عني شيئاً، فابتنت أنّه قضي عليّ بسجن طويل الأمد. ولأول مرّة وجدته أحسد الكبار على حرّيتهم، وأغبط النساء على قبوعهنّ في البيوت. ولميّ ذلك العهد يرجع سروري بيوم الخميس، فكان اليوم المفضّل عندي من الأيام، أمّا بقيّة أيام الأسبوع فقد جفوتها واستقلتها، وكنت أستمع الكتابة ابتداء من أصيل يوم الجمعة، ويمر السبت والأحد والاثنين

دقّ الجرس فأنقلني من أنكاري، وأوقضونا صفًا، وأدخلونا الفصل. لم أكن أنصوّر حتّى ذلك الوقت إلّا أنّي التحقت بملعب كبير، فلما أن جلست إلى قمطر، وراح المدرّس الشيخ يفتح العام الدراسي بالإرشادات التقليدية الخاصّة بالنظام وعدم الحركة والكلام، أيقنت أنّي دخلت سجنًا... وتركتي الدهشة والانزعاج، نرى أخطأ جدّي أم خدعه؟ وطار خيالي إلى البيت فتعلّلت لي أمي في جلستها وحيدة، وتساءلت ترى هل نسيته؟ إنّها الآن ترأب لم زينب وهي تكنس الحجرات وتنفض الأثاث، ألم تفكّر في؟.. هل تطيق فراتي طول اليوم كلّها؟ وانتهت الحصّة الأولى دون أن ألتفت لحظة واحدة إلى كلام الشيخ، ولا حجب، فقد قرّرت أن يكون ذلك اليوم الأوّل والأخير. وفي دقائق الاستراحة رأيت الناظر يمرّ بباب الفصل، فتنفّست الصعداء. ومضيت نحوه بلا تردّد إذ لم أكن نسيته لطفه وورقته، واقتربت منه في حياء، فالتفت نحوني في دهشة، ورمقي بعينين جامدتين متساثلتين فظننته قد نسي، وقلت بصوت لا يكاد يسمع:

- أنا ابن الأميرالاي عبد الله بك حسن.

فسألني بدهشة:

- وماذا تريد؟

فلممت أطراف شجاعتي وقلت:

- أريد أن أعود إلى البيت.

فصرخ في وجهي بصوت غليظ كالرعد:

- عد إلى قمطر،... عني في عينك...

وأذهلني صراخه، فعدت إلى مكاني يكاد يخفى عليّ من الرعب والألم. ولبثت في مكاني مرّّة عزوًا. وفي أثناء النهار شعرت بحاجة إلى التبرّل ولكنّي كنتها في خوف شديد، ولم أنكر مطلقًا في استدنان المدرّس في الخروج. وفلبي الحياة في الفسحة فلم أستطع أن أسترشد بأحد عن موقع المراض. وجعلت أتملّل لملل الملدوغ، وأشدّ على ركبتي في ألم وجزع. ومرّ الوقت في نفل وعذاب حتّى دقّ جرس الخروج فساطلقت ساقتي للريح، فبلغت البيت في ثوان،

الفاضة. ولما اكلع جدي على الشهادة غضب.  
وقال لامي بحجة:

- هذا نتيجة تدليك... لقد... أفسدته يا سي.

ثم توجه الناظر شرقاً، ومضى لمقابلته في المدرسة.  
ورجع إلينا بعد ساعة وهو يقول بارتياح:

- نجحت يا سيدي بالقوة، وإياك أن تسقط في السنة التالية!

وكان يدايعني أمل بأن سقوطي ربما عدل بهم عن إرسالني إلى المدرسة، فلما بقرني بذلك النجاح المختص بخاب أمل. وجاءت السنة الثانية فلم تكن بخير من الأولى. وزاد من شقائي هفوة لسانية عثرت بها فضاغت من تنفيس حيالي بقية اللذة التي قضيتها في الروضة الأولى، رفعت أصبعي مرة لاستاذن المدرس في الخروج، ولكن بدلاً من أن أدهوه «يا أفندي» انحطت وأنا لا أدري فقلت له «ها نينة».

وضج الغلمان بالضحك، وضحك المدرس نفسه وقال لي بسخرية:

- إيه يا سيد أنك؟ ...

وقهقه الفصل بالضحك، وتولاني الدهول، وليت ذاهلاً حتى أغرورت عيني، لم يكن لي فيهم رفيق أو صديق، فقد بدا عجزني عن اتخاذ الأصدقاء منذ ذاك العهد البعيد، فلم يرحمني أحد منهم، ودعوني منذ تلك الهفوة بنينة حتى غلبت على اسمي الحقيقي، وكنت أحماهم مقهوراً مغلوباً على أمري ونار الغضب تزعج صديري.

وفي نهاية العام جاءتني شهادة الأصفار فأنهت أمي المدرسة. وقرر جدي أن يلحقني بالمدرسة الابتدائية، ولما كنت متخرباً في مدرسة أهلية اشترط الناظر أن أؤتي امتحاناً، ومضى جدي بي إلى المدرسة قبيل افتتاح العام الدراسي، وانتظر نتيجة الامتحان. ولم تكن بحاجة إلى الانتظار، ورجا الناظر أن يقبلي بصرف النظر عن نتيجة الامتحان، وأراد الرجل أن يحامل جدي لكبر سنّه ومقامه فطلب إليّ أن اكتب اسمي «كامل رؤية» ولكني انحطت في كتابة رؤية

والشلاثة في ضيق وتبرّم، حتى يأتي صباح الأربعاء فأنفّس الارتياح، ثم استيقظ عند الفجر الخميس وأتقلب تحت الغطاء في سرور وجور والدنيا لا تسعي من الفرح. ولذلك تفوّقت في دروس الخميس، ولم تعد المحفوظات والديانة... على أنّ ذلك العهد لم يخل من ذكريات تثير الابتسام، وإن بدت لي وقتذاك في إطار من الجذّ والصرامة، من ذلك أننا كنا نبتاع السميد في الفسحة، وإذا أحوزنا الملح استعصنا عنه بالجير الطافح من جدران الفناء. وكان مدرّسنا الشيخ يروق له أن يشرب كوباً من العرقسوس في أثناء الحصة الأولى، فكان إذا تناول الكوب يأمرنا بالوقوف ويأدّره ظهورنا له حتى لا يصيبه مكروه من أميتنا البهمة. وجاءنا يوماً متجهّين وقال أنّه شعر ليلة أمس بمغص وإنه لا يشكّ في أنّ أحدنا استرقّ إليه النظر وهو يشرب العرقسوس، وأنلدنا إذا لم نرشد عن الجاني بالضرب حل أيدينا جميعاً، ولما كنا نهمل الجاني فقد شربنا جميعاً. وكان زميلي الآخر شيخاً هرمًا رقيق النفس، فلم يكن يضرب أحداً إلا إذا أحمته الوسائل، وكانت طريقته المفضلة في إسكات التلاميذ وضبط النظام أن يخرّونا بالعفريت الذي يسكن أرض الحجر من قديم الزمان، قائلاً أنّه لا يحبّ الضوضاء، وكان إذا أفلت الزمام من يده يجلس القرفصاء وينقر على أرض الغرفة ثم يقول بخشوع وريهة «عفوك يا سيّدنا». إنهم لا يدركون شيئاً. لا تركبهم وسامهم هذه المرة.

أما الدراسة فإني لم أتعلّم شيئاً على الإطلاق. ولملّ الفنّ الوحيد الذي أتقنته في مدرسة الروضة الأولى هو قياس الزمن بمراقبة تحوّل ضوء الشمس عن جدران الفصل، وأنا أحد الثواني في انتظار جرس الخروج. وكان المعنى الوحيد الذي يتضمّنه توجيه سؤال من المدرّس أنني سأعرب كذا مسطرة على ظاهر كتفي. ولم أحفظ في بحر عام دراسي إلا بعض السور القرآنية الصغيرة التي كنت أسمع أمي تترنّدها في صلاتها. وجاء الامتحان في نهاية العام فظفرت بهجمة أصفار تكفي لجعلي مليونيراً لو ظفرت بها في غير الشهادة

حتى أبلغ التاسعة، وقُبلت الشفاعة بمعجزة من السماء. وها قد اقتربت التاسعة، وسوف أنتزع من أحضان أمي ما لم يتنازل أبي عن حقه في استردادني. وبكت أمي يوماً في محضر جدّي وقالت له:

- لقد قللت راضية ومدحت فلم تقع عليها عياني منذ تسع سنوات، ولم يبق لي إلا كامل، فهو عزائي الوحيد في هذه الحياة، ولا أدري ماذا أفعل إذا سلبني الرجل لثاه.

وهزّ جدّي رأسه الأشيب متبرّئاً، وكان ذلك الحديث يكرهه، وقال لها:

- وماذا يعني أن أفعل؟ هذا حكم الشرع وما لنا من حيلة فيه، والرجل الذي تعنيه هو أبوه على أيّ حال، وليس برجل غريب!

فهتفت أمي في تألم واحتجاج:

- أبوه!... أتدعو هذا الوحش أباً؟ يا أسفي على راضية ومدحت في البيت الذي جعل السكير منه حانة. إن الأبوة لم تخلج بصدوره فكّر. وكامل قد ترعرع في رعايتي ونهل من حناني، ولم يدب شيئاً من شوائب المخلوقات، فإذا أخذ الرجل هلك بين يديه، وهلكت هنا وحلي...

وخفتها البكاء فأمسكت من الكلام مرغمة، ولساً استرقت أنفاسها استطردت تقول:

- هل تتصوّر يا أبي أن كامل يستطيع أن يعيش بعيداً عن أمه؟ إن يديّ هاتين تطمأنه وتلبسانه وتنبئانه، إنّه يخاف خياله، وإنّه لتضمره زفرات الصراخ، فكيف يأخذ الشرع بأن يُنزع مثل هذا الطفل من أحضان أمه؟!

وقطب جدّي متبرّئاً، وبدا وكأنه ضاق بشكواها، بيد أنّ وجهه لم يكن مرآة صادقة لقلبه، وكثيراً ما كان يبدو ساخطاً والقلب منه نديّ بالرحمة، ولم يزد وقتذاك على أن قال: كفّك شكوى ويكاه. إن قسم له أن يمكث بيتنا مكث، وإن أراد الله أن يذهب إلى أبيه فلا رادّ لفضائه...

ذاك كان قوله، أمّا صنيعه فكان شيئاً آخر. فقد حزم أمره يوماً ومضى إلى أبي ليفاوضه في شأن

فاعتذر الناظر من عدم إمكان قبولي. وعاد بي جدّي وهو يسخر منّي طوال الطريق، وقال لأمي وهو يتنخّص:

- لا فائدة ترجى من إعادته إلى المدرسة الأولى،

لسأحضر له مدرّساً خصوصياً هذا العام.

وانصت إليه وأنا لا أصدّق أفنيّ، سألته وأنا أداري

فرحي:

- هل أبقى هذا العام في البيت؟

فحدجني بنظرة غاضبة من عينيه الخضراوين وقال بفيض:

- يا فرحة أمك بك!

## V

واستقبلت عائماً مشتماً لأوّل مرّة في حياتي، وجلسنا أمناً مطمئناً بين يدي مدرّسي الشيخ، اتّلقن مبادئ العربيّ والحساب. بدأت أخطو الخطوات الأولى في طريق التعليم، وإن مضت ساعات الدراسة في ثقل وضيق كالعادة، ولكي أضمن معاملة حسنة من المدرّس أجلسنا أمي غير بعيد من باب حجرة المدرّس للاستجداء بها عند الحاجة، ولا عجب فإنّ ذكرى العامين اللذين قضيتهما في مدرسة الروضة - ما بين ضرب المدرّسين واعتداء التلاميذ - لم تمحّ من نفسي فكّر. ولم أكن أتصوّر حتى ذلك الوقت أنّ التعليم واجب ضروريّ ساؤنيّه شطراً طويلاً من العمر، ولكنّي عددته عذاباً فُرّض عليّ لسبب لا أدريه، ولم أياس من أن يلين قلب جدّي يوماً ليعفني منه.

هل أنّ أمي لم تكن أسعد حالاً منّي. كانت تمناني عذاباً من نوع أشدّ. وقد ازدادت كآبة في تلك الأيام، فلم تكن تخلو إلى نفسها حتى تبكي مرّ البكاء. ولم تكن تجلس إلى جدّي حتى تفانحه بالأمر اللّبي يقض مضجعها، أجل لم يعد يفصل بيني وبين التاسعة إلا أشهر قلائل، فإذا بلغت حتى لأبي أن يضمّني إليه، وهو لا بدّ فاعل كما فعل بأختي وأخي من قبل. وقد تهذّنا ذلك الخطر حين بلغت السابعة، ولكنّ جدّي كتب إلى عمي - وهو من كبار المزارعين في الفيوم - راجياً أن يستشفع لي عند أبي ليركني في كفالة جدّي

جَدِّي وأصبحت يده تقبلاً وهي تقول بلهفة:

- حُفًّا؟... حُفًّا؟... هل رحم الله قلبي الكسير؟

وأخذ جَدِّي يفتل شاربته في ارتياح بينما عادت أمِّي تسأله بنفس اللمهة:

- أرايت راضية ومدحت؟

فهز رأسه أسفاً وقال:

- كانا في المدرسة!

فدعت لها دعاء حاراً وعيناهما تغوروران. ولم يكن جَدِّي يزورها لكرامته الأب، ولأنه لم يكن ينتظر استقبالا كريماً في بيته. ثم قص جَدِّي كيف قابل أبي في الفراندا وبين يديه زجاجة خمر وكأس مترعة. وكيف تلقاه بهدشة واستغراب، وكيف أنه لم يعد له من عمل في الحياة إلا الشراب، ولعل اضمحلاله ذاك الذي جعله ينقاد لاقتراحه متنازلاً من عناده القديم.

وقد بدا أول الأمر وكأنه يرتاب لبيا يلقي على سمعه، فلما أن تبينه ضحك في سخرية وازدراء من غير ما معاملة أو غضب وقال ببساطة:

- لا صاغ لي للزربة، ولاكون مرضعة من جديد. خله عندك إذا شئت ولكن لا تطالبني بمليم واحد، هذا شرط صريح، وإذا طولبت بمليم واحد فيها يستقبل من الأهم انزعته منكم فلا تقع عليه أعينكم ما حبيت.

وقبل جَدِّي الشرط، وكان يحدهم مقدماً من قبل أن يلعب إليه، ولكنه عجب كيف أن الرجل لم يبد عن أية رغبة في رؤية ابنه، ولا سأل عنه على الإطلاق. ثم قال جَدِّي:

- لم يعد رؤية لاظ إنساناً، لقد انتهى الرجل.

فغمضت أمِّي في حزن وكآبة:

- واحزنناه على راضية ومدحت!

فقال جَدِّي يطمئنها:

- إن راضية في السابعة عشرة ومدحت في السادسة عشرة، ولم يعودا طفلين...

\*\*\*

وئبنا إلى طمانيتنا الموهودة، فنجوننا من ذاك الخوف

استبقائي في كفالته. والحق أن جَدِّي كان يحبني حباً بالغاً. أحبني لأنني كنت أنيس شيخونته، والطفولة تحرّك في الشيخوخة أعياق الصدور، وأحبني لحبه أمِّي التي لبثت إلى جانبه بعد وفاة جَدِّي ترعاه بحنانها وعطفها وحبها. ذهب الشيخ إلى أبي وانتظروا وأبدنا على قلوبنا. ومرّ وقت الانتظار على أمِّي في عذاب لا يمكن أن أنساه مهما امتد بي العمر. لم يكن ليقر لها قرار أو يسكن لها جانب، وجعلت تخاطبني حيناً وتخاطب نفسها أحياناً. ودعيت مرّات إلى مشاركتها في الابتهاال إلى الله أن بكل مسمى جَدِّي بالنجاح. ومضيت أرفقها بعينين محزونتين حتى انتقلت عدوى قلقها إلى صدري فاستعمرت باكياً. انتظرونا طويلاً - أو هكذا خيّل إلينا - يشمئنا حزن وقلق، تسبح أعيننا دمماً، وتلهج ألسنتنا بالدعاء، حتى سمعنا جرس حنطور فهرعنا إلى الشرفة، فرأينا جَدِّي وهو يقطع فناء البيت بخطاه الثقيل... وعدنا إلى الباب ففتحناه، ودخل جَدِّي صامتاً وهو يحدجنا بنظرة لم ندرك لها معنى.

ومضى إلى حجرته فجنّاه وقد خانت أمِّي الشجاعة أن تسأله عما وراءه، وراحت همس بصوت منهجج «يا ربّي... يا ربّي!» وخلع طربوشه بأنة وهو يتحامي عيني أمِّي، ثم جلس على مقعد كبير قريب من فراشه، ثم ألقى علينا نظرة طويلة وقال بصوته الأجنش وكأنما يخاطب نفسه:

- رجل مجرم!... ماذا كنت تنتظرين من رجل مجرم؟

وايضم وجه أمِّي وارتعشت شفتاهما، ولاح في عينيها القنوط، وجعلت أرقد بصري بين جَدِّي وأمِّي في قلق وخوف. وتركتنا جَدِّي لشقاؤنا منهية، ثم رثي لنا فرغ عن وجهه نقاب التجهم، وقهقه ضاحكاً، وقال بصوت ينم عن الظفر:

- لا تقتلي نفسك كمداً يا أم راضية. فقد أذهن الشيطان بغير تعب طويل.

بهتنا بادئ الأمر، ثم هملت وجوهنا بشراً، وتلاّوا نور الفرح في عيني أمِّي، ثم جثت على ركبتيها أمام

الغرياء، وزاد طبعي تعاسة ما جُبلت عليه من صمت وعي وحصر، فلم أحسن الكلام، فكدّ، فضلاً عن الدعاية والمزاح، لذلك جيعه رموني بثقل الدم، وقد ألتقي هذه الصفة، حتى سألت أمي يوماً:

- هل أنا ثقيل الدم يا أمّاه؟

فرمقتني بنظرة ارتياح وقالت بحدّة:

- من قال عنك ذلك؟

فقلت في حياء:

- التلاميذ كلّهم؟

فصاحت بغضب:

- قطعاً لأستهم. إنهم يغسّون عليك أديك

الكامل، والخطور الذي يملك بيننا يتسكّمون على أقدامهم، إنّاك وإن تتخذ منهم صديقاً...

ومنى كنت في حاجة إلى مثل تلك النصيحة؟

وهكذا كابلت الحياة في المدرسة لي وحيدة، يطالعي روح عدواة وبغضاء من الجوّ المحيط بي. ولعلّها كانت لا تخلو من غبطة لو أنّي أسهمت في مسرّاتها، ولكنّ خيالي الشديد أجبرني على مقاطعة الألعاب بأنواعها كالكرة والشطرنج والقسم المخصوص، حتّى الرحلات المدرسيّة لم توافق أمي على الاشتراك فيها أن يصيبي مكروه، وكان التلاميذ يتحدثون عن الأهرام وأبي الهول ودار العاديات والفسطاط فاسترق السمع في حيرة وحزن وكأني أستمع إلى سائحين يقصّون عن بلاد نائية! ولشدّ ما يتتابني من خجل إذ أقّر أن عيني لم تقم من القاهرة - المدينة الوحيدة التي عشت بين أسوارها - إلّا على شوارع معلودات هي كلّ حظي من مشاهدات في هذه الدنيا الواسعة. ولم يكن لي من عزاء في تلك الأيام إلّا أن أنفرد بأمي في الشرفة أو في حجرتها، ثمّ نأخذ بأطراف الحديث، كان ليس لحديثنا من نهاية. وكانت عصا المدرّس تدّكرني بأنّ عليّ واجباً ينبغي أو يؤخّيه قبل النوم، فأتقبل على الكتاب مستكرّها، وأذاكر بلا روح ولا حماس وسرعان ما يترنّع رأسي ويرتق النوم بجفنيّ.

\*\*\*

ويومًا قرّرت علينا - في حصّة الديانة - هذه الآية

الذي اعترض سيلنا مهتدًا، وواصلت الدراسة في البيت أمّا لجها بصحوة وضيق. واستدار العام، وحلّ الخريف وكثر الحديث عن الدراسة والمدرسة، وأيقنت أنّي معاد قريبًا إلى السجن. وقلت يومًا لأمي:

- إذا كنت تحبّيني ولا توافقين على أن يأخذني أبي

فلماذا ترضين بأن تفترّق المدرسة بيننا؟

فضحكت ضحكها الرقيقة وقالت:

- يا للعار! كيف تقول هذا وأنت الرجل الكامل؟

ألا ترغب أن تكون يومًا ضابطًا كبيرًا مثل جدّك؟ وماذا

يبقى إذا هجرت المدرسة إلّا أن تشغل بالّك قول أو

كمساري ترام!

ومضى بي جدّي إلى مدرسة العقّادين بمصر القديمة، ونجحت في الامتحان هذه المرّة. وهلّ العام الدراسي، وانتظمت في المدرسة كارهاً مرهقاً. وكان الخطور بوصلني صباحاً إلى المدرسة، ويعود بي مساءً إلى البيت، وفي نظري ذلك منع جدّي أمي من توصيلي بنفسها كما كانت تفعل على عهد المدرسة الأولى. عدت مرّة أخرى إلى المدرسة، وعانيت من جديد الدروس والنظام وقسوة المدرّسين وسخرية التلاميذ. كانت حياتي المدرسيّة شقاء كلّها. وأكّد ذلك الشقاء أنّني كنت ملجأً مستبدًا في بيتي وعبدًا ذليلاً في مدرستي. وطالما تحيّرت بين الحبّ الذي يغمري في البيت وبين عصا المعلم وسخرية التلاميذ.

وقد اكتسبت عدواة المدرّسين ببلادي وخود ذهني حتى أطلق عليّ بعضهم «الغنيّ المنّاز» وكان مدرّس الرياضة إذا انتهى من شرح درس سألني عنه وما يزال بي حتّى أجيب إجابة ترضيه فيتنفّس الصعداء ويلتفت نحو التلاميذ قائلاً: ولا بدّ أنكم فهمتم ما دام سي كامل قد فهم. ويضجّ الفصل بالضحك!

أمّا التلاميذ فكان دايمهم السخرية منّي ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. وكان عجزني عن إنشاء علاقة صداقة حقيقة مرّة لا شكّ فيها فلم أطفر في حياتي بصديق. وأحقّق أنّي لست أسوأ من كثيرين ممن يتشتمون بصداقات سعيدة، ولكنّي شديد النفور بطبعي، شديد الخجل، عجب للوحدة والعزلة، عليم الثقة في

فحُزب جَدِّي الأرض بقدومه حتَّى ارتجحت أركان  
الحجرة وصاح يقضب:

- عمال؟ بل هي الحقيقة الواقعة، هي الفضيحة  
الماوية، هي الضربة القاصمة لكرامتنا. . .

ولم تحر أُمِّي جوابًا كأنَّما فقدت النطق. وتنفَّس  
جَدِّي بشيء من الجهد ثمَّ قال وكأنَّه يخاطب نفسه:

- أيَّ جنون سلبها الرشاد! . . ليس هذا الدم  
الفساد بدمنا! هذا دم شيطاني يفضح سوء فعله

الأصل القدر الذي استؤيد منه. لقد مات جدُّها وهو  
يصب لعناته على رأس أبيها فعَلَّت اللعنة بلذَّيته.

وازدردت أُمِّي ريقها وتعمت في ارتباك:

- أقطع بها من كارثة! كيف ضلَّت الفتاة؟ لقد  
أفسد السكير العريد عليها حياتها، ما اتصها!

فقال جَدِّي باستياء وحنق:

- لا تتعجلي لها الأعداء. لا شيء في الوجود يسوِّغ  
هذا الفعل الشائن. . .

فغمغمت أُمِّي بصوت بالك:

- لست أنتعل لها الأعداء، ولكنَّها تعيسة ما في  
كُلِّك من شك. . .

وساد صمت عزن، ولبثا يتبادلان نظرات الغمِّ  
والكدر والقنوط، وقد أصغيت إلى ما دار بينهما بانتباه

شديد، فادركت أهونه، وغابت عني خطورته الحقة،  
كان الأمر يتعلَّق بأخت لم تقع عليها عينا. لماذا

هربت؟ وأين اختفت؟ وتساءلت:

- لماذا لم تحضر إلينا؟

فصاح بي جَدِّي حانقًا:

- اخرسا!

وارتمى على مقعد، واستطرد يقول:

- جاءني عمَّها في النادي وأبلغني الخبر. قال إنَّه لا  
يعلم شيئًا عن حقيقة الحال. وقد أشرق له مدحت

للمحضور فورًا، فجاء بلا إبطاء، ثمَّ أخبره الشاب  
باختفاء شقيقته. أمَّا المجرم السكير فلم يزد على أن

قال «في داهية». ثمَّ ذهبت معًا إلى بعض أصدقاء العمِّ  
من رجال المحافظة وأفضينا إليهم بالخبر الشائن سائلين

معاونتهم.

الكرمية «لماذا جاءت الصاخة، يوم يفتر المرء من أخيه،  
وأمه وأبيه الخ. . .» فلا أذكر أَلِّي انزعجت لشيء

انزعاجي لها، لم أطلق أن أتصور أن أفر من أُمِّي في يوم  
مهما كانت لفظاته، وأن أغادرها في أهواله بقماتها

النحيلة الرقيقة وعينها الخضراوين الخنوين، فقاطعت  
الشيخ على غير وعي مَنِّي هاتفاً:

- كلاً. . . كلاً. . .

وأحدثت مقاطعتي دهشة في الفصل لأنِّي لم أكن  
أنبس بكلمة، ولم يدرك أحد ماذا أردت، ولم يلبثوا أن

ضجُّوا ضاحكين، و غضب الشيخ، وحلَّني مسئولة  
الإخلال بالنظام، فاقبل نحوِّي متغيِّظًا ولطمني على

وجهي بعنف وحنق. ورحت باللطمة كمدبر ظاهر  
للبيكاه إذ كنت أقامم دموعي جاهداً ودون جدوى.

لقد زلزلتني هذه الآلة الكرمية، وكانت أوَّل نذير لي  
عن مأساة الحياة. . .

## ٨

حياة رتيبة، كابستها على استكراه، بيد أنَّها لم تحلَّ  
من هزَّات عيفة. فذات مساء عاد جَدِّي مبكِّراً على

غير عادته. وقلقت أُمِّي لأنَّه لم يكن يرجع إلى البيت  
قبل الفجر. وافتحم علينا الحجرة متجهِّبًا، فنهضت

أُمِّي مستظلمة. ووقعت رأسي عن الكتاب، وقبل أن  
تسأله عمَّا به قال بحدَّة وهو يضرب طرف حداله

بعضاه:

- زينب، كارثة نزلت بالأسرة. . . فضيحة  
ستجعلنا مضطَّعة الأفواه!

فنطقت حيناً أُمِّي بالفزع، وهتفت بصوت متهدِّج:

- رحماك يا ربِّي! . . ماذا حدث يا أبي؟

فقسفت نظرة عينيه الخضراوين، وقال بصوت أجشَّ  
غليظ:

- ابتك. . . راضية. . . هربت!

وشحب وجه أُمِّي، وخلجت عيناها، وجعلت ترنو  
إلى جَدِّي بنظرة مستنكرة لا تجد سبيلاً إلى تصديق ما

صكَّ أذنيها، ثمَّ غمغمت بصوت كالآنين:

- هربت! . . . راضية! . . هذا عمال!



تعيمة الحظك، رباه... أين هي الآن؟ خبّرني بكل ما تعلم.

فقال جدي بهلوه:

- سافرتنا إلى بنتها، أنا وعمّها ومدحت، فوجدناها في أسرة طيبة محترمة، وتمترنا إلى زوجها وهو شاب مولف بالخطابة يدهي صابر أمين. فاخبرنا أنه استاجر شقة بشارع هدايت بشبرا وأنه سينقل إليها هذا الأسبوع. وقالت راضية: إن زوجها تقدم لخطبتها ولكن أباهما رفضه بغلظة، وأنه رفض قبله شاباً آخر تقدم لخطبتها كذلك... ولعلها الحمر التي لم تبق على ذرة من إنسانيتها فأنسي واجباته وبدد مربيته، واستبد بها اليأس فهربت مع الشاب. وسافرا إلى أسرته حيث كان المأذون في انتظارهما.

وأصغت أمي إليه وهي تبكي بكاء حاراً، بهت الحزن والارتياح معاً، ثم قالت:

- سأسافر إليها غداً...

فقال جدي بتأكيد:

- ستجديها في بيتها غداً أو بعد غد...

وعادت تسامد:

- لماذا لم تأتي إليّ أنا؟

فقال جدي كمن يعتذر عن الفتاة:

- لعلها حجلت أن تأتي بخطيئها إلينا وهي هاربة من وجه أبيها، وعلى أية حال نحمد الله على هذه النهاية التي لم تكن نحلم بها...

## ٩

ركبنا الحنطور جيماً لأول مرة، فجلس جدي وأمي في الصدارة، وجلس على المقعد الخلفي. كانت أمي من الفرح في نهاية، وقد بدت بعدما عانت في الأيام الأخيرة من همّ وحزن وكانت استرقت شياها الأول. كانت عيناها تتألفان بنور السرور البهيج، وكان لسانها يسبح بالحمد والشكر. وانتقل سرورها إلى صدري ففرحت برحلتنا السعيدة. وجعلت أفكر في شقيقي التي سأراها لأول مرة بعد دقائق بدهشة وسرور وقلن لم أدر له سبباً، ترى ما شكلها؟ وكيف تلفانها؟ وهل

وترت جدي دقيقة ثم استلرد:

- ويل للسكير المجرم... إنه السئول الأول عن

هذه المساة، لأذعن إليه وأحطمن رأسه!

ولاح الانزعاج في عيني أمي فقالت بجزع:

- كلا... كلا... هذا يزيد من حالنا سوءاً.

فقال جدي بإصرار:

- ينبغي أن يجزي عن شره شراً.

فقالت أمي بتوسل:

- لا شأن لنا به... فلنركز اهتمامنا في المشور على

الفتاة علنا نقيم ما اخرج من أمرها...

فحدجها بارتياح وتسامد:

- لماذا تلحقين في الحيلولة بيني وبين الذهاب إليه؟

فلاح في وجهها الارتياك وتمتمت:

- أخاف أن يزداد الأمر سوءاً.

فقال جدي بهنق:

- بل تخافين أن يؤذي الشجار إلى أن يسترد كامل.

إنك لا تقيمين وزنًا لشيء، ولا تكثرين لغير نفسك، ألا لعنة الله عليكم أجمعين...

وليس البيت رداء الحزن فكساه في حداد،

واهتصرنا أيام سود فنكد العيش، وكنت أحتق في

ذلك الجوّ القاتم. وقد شير جدي نظام حياته، وتخلّف

عن سهراته المعتادة في النادي وكان يغيب خارج البيت

طوال النهار دون أن ندري عن مكانه شيئاً، على حين

تفضي أمي النهار ساهمة أو باكية. وجدانا جدي ذات

مساء، فلما أن وقع بهر على أمي بالدرها قائلاً:

- عثرنا على ضالّتنا أخيراً...

فبرحت أمي نحوه وهي تصيح:

- حلاً... اللهم ارحمنا...

فقال جدي بصوت تتم نبراته عن الارتياح

والسرور:

- أرسلت الفتاة المجنونة إلى مدحت كتاباً تنبه بأنها

تعيش في بيت زوجها ببنتها، وتسأله المغفرة عن سلوكها

الذي اضطررت إليه اضطراراً...

وتنهدت أمي من الأحق وقالت وعيناها تلمعان:

- ألم أقل لك...! إن راضية فتاة طاهرة ولكنها

تَحْبَا؟ وقطعت أمي عليّ حبل أنكاري فسالت جدّي بلهفة:

- هل أجد مدحت هناك؟

فقال جدّي وقد اعتمد مقبض عصاه بيديه:

- الراجع أن يكون هناك... لقد تواعدنا على ذلك... ولاحظ في عينيها نظرة حنان ورجاء. وسارت العربة ميمّة شبرا. ورحت أتملّ بمشاهدة المآزة والعربات والتراتم، حتّى بلغ الحنطور مقصده، وانمطفت إلى شارع هدايت، ثمّ وقف أمام بيت متوسط الحجم، مكوّن من ثلاثة أقدار. وغادروا العربة وصعدنا إلى الدور الثاني وأمّي تقول بصوت كالمهمس: «ما أشدّ خفّان قلبي!»، وبقّى جدّي الجرس، وفُتح الباب، ودخلنا. رأيت فتاة وشابّين، وقيل أن أحدهما هرع اثنان منها إلى أمّي، فلم أر إلّا عنقا حارّا. ولم أسمع إلّا تَهْدِيات الدموع. رمقت الثلاثة بحيرة ونخجل وصمت. وطال العناق، وطال البكاء، حتّى تدخل جدّي بينهم ضاحكا وهو يقول:

- إليك زوج ابنتك صابر أفندي أمين.

وتقدّم الشابّ من أمّي فقبل يدها، وقبلت جبينه، ولم ألبث أن رأيت نفسي محكّ أنظار الجميع. وقالت أمّي وهي تبسم خلال دموعها:

- أنصركم كامل...

وهرعت نحوي شقيقي، وضمتني إلى صدرها، وقبلتني بحرارة، وأنا مستسلم بين يديها لا آتي حراكا، ولا أنطق بكلمة، وصاحت بفرح:

- ربّاه، إنّه شابّ يافع!... إنّه نسخة منك يا أمّنا!

ثمّ ضمّني شقيقي إلى صدره وقبلني وهو يقول بسرود:

- يا له من شابّ خجول!

ولم أكن حتّى تلك اللحظة قد أنعمت النظر إلى وجهه من وجوههم، وظللت غاضبا بصري، والحنجل بمسرق جيبني وخنّتي. ثمّ مضوا بنا إلى حجرة الجلوس. فجلست أمّي بين راضية ومدحت، وجلس جدّي لهبّ زوج أختي، وأقعدتني شقيقي إلى جانبها،

وقالت أمّي وهي تحفّف دمعها:

- يا رحمتاه! وجدنتكما شابين بعد أن انترعنا مقي طفلين، الحمد لله والشكر لله...

فقال زوج أختي بتأثر:

- يا لها من حياة هي بالمأساة أشبه! وإنّي لأشكر الله

على أن جعلني الفرصة التي هيأت لكم هذا اللقاء!

وسالت الأشواق القديمة حديثا فياضاً لا ينضب

معينه، واثالت عليهم الذكريات والخواطر، وشكا كلّ

بثّه وهّمه، واسترّجت الدموع بالبسات. وكانت تلوح

في عيني أمّي بين الحين والحين نظرة دهشة كأنّها لا

تصدّق أن الله قد جمع شمل الأسرة بعد تفرّق ونوى.

ولمّا شغلوا بأنفسهم عني أخذت أبقى من الحجل،

وأستردّ أنفاسي، وشعرت بأنّي - لدرجة كبيرة -

وحدني، فداخلني ارتياح، ولكن سرعان ما انتابني قلق

وضيق، وجعلت أسترق النظر إلى راضية ومدحت.

بهرتي جمال أختي، رأيتها أقصر من أمّي قليلا ولكنّها

عمثلة بضّة، ميّالة للبياض، أما وجهها فصورة من وجه

أمّي، وصورة من وجهي أيضا، بعينه الخضراوين

الصافيتين وأنفه الدقيق المستقيم. أمّا مدحت فأمّودج

من نوع آخر، بدين في غير إفراط، مستدير الوجه

والرأس، أبيض الوجه مشرب بحمرة، أسود العينين،

ينمّ مظهره عن الفحولة والقرّة وإن لم يجاوز الثامنة

عشرة. وكان يفقه ضاحكا لأنفه الأسباب، ويسدو

فرحا صحيحا معافى. استرقت إليها النظر باستطلاع

واهتمام، وسرعان ما جذبني إليها شعور بالحُب

والمطف، واستنمت إلى روحها المرحّة الباسمة. بيد

أنّي لم أنعم بشعور الوحلة طويلا، فرمّا ألجمت صوبي

الأنظار ويؤذلت المحاولات لحسلي على الكلام،

واستدراجي لمشاركتهم سرورهم، ولكنني لم أنبس

بكلمة قائنا برّة الابتسام بالابتسام. ولئن كان كلّ

شيء مما يكتنفي يدعو للنبطة إلّا أنّي لم أخجل من

مشاعر قلق غامض رغبني أكثر من مرّة في الرحيل،

وقالت لي راضية باسمّة:

- كان مولدك عسيرا، والله يعلم كم تألّت أمّنا،

ولبّنا أنا ومدحت في الحجرة المجاورة نبكي، ثمّ

بعد ذلك بيتا وبين شقيقي، وكان مدحت يزورنا كلما سئحت له فرصة.

واستقبلتُ علما مشيرا نوّعتني فيه الحيرة وحب الاستطلاع والتجربة القاسية. صدمني في مطلعته هروب أختي وما علمت بعد ذلك من زواجها، فحبلها، ثم إنجابها طفلة. وتساءلت نفسي كما سألت أُمّي عن معنى هذا كله، لماذا هربت من أبي إلى رجل غريب؟ لماذا لم تأتِ إلينا؟ ولماذا تزوّجت؟ وكيف حبلت؟ وكيف خرجت زينب الصغيرة إلى نور الدنيا؟.. وارتبكت أُمّي حوال إلحاحي وتنقّلي، وجعلت تصطنع لي الأجوبة الكاذبة حيناً وتثأني حق أكبر حيناً آخر، فإذا لمجبت تكلفت لي حزمًا غير ممهود ولا مألوف. فلم أظفر منها بشيء ينفع الغلة، وفي الوقت نفسه شعرت بأنّ ثمة سرا يود إخفاؤه عني. ثم جامد العون من حيث لا أدري، ففتوّعت الخادمة لإمالة اللثام عني حذر خيالي وألمه. كانت تكبرني بأعوام، وكانت دميعة قبيحة، ولكنّها كانت تتركس فرائها لخدمتي وكانت تملو لي في أوقات نادرة إذا شُغلت أُمّي بعمل أو حاجة. وبدأ أنها استرقت السمع يوما إلى ما يدور بيني وبين أُمّي عن الألفاظ التي استأرتني من سبائي، فصارحتني مرة بأنّها تعلم أمورا خليفه بأن تُعرف، وانجذبت إليها على قبحها في اهتمام وسرور، وواجهت التجربة بلغة وسداجة. حل أنّ المهدي بها لم يطل، فما أسرع أن ضبطننا أُمّي متلبّسين. ورايت في عيني أُمّي نظرة باردة قاسية فادركت أنّي أخطأت خطأ فاحشا. وقبضت على شعر الفتاة ومضت بها فلم تقع عليها عيني بعد ذلك. وانتظرت على خوف وعجل. ثم عادت متجهمة قاسية، وروت صنيعي باللمسة والعار، وحدثني عني يستوجب من عقاب في الدنيا وعذاب في الآخرة. ووقع كلامها في موقع السياط حتّى أجهشت باكيا، وليت أيتها الأحلى أن تلتقي عيناها حزنا وعجلا.

حدثت معجزة - على حدّ تعبير جدّي - فنجحت في

أدخلنا في النهاية ورأيتك في اللّفة كقبضة اليد فاهلنا عليك بالقبيل.

وقهقه مدحت وقال:

- وأردت أن أطمعك قطعة من الشيكولاتة فحملوني إلى الخارج.

وقالت راضية برقّة:

- وكنا نتخيّل في وحدتنا بيت أينا فنقول لعلّه يجبر الآن، أو أنّه يمشي ويلعب، أو هذا أوان للمدرسة. وعلى فكرة أيّ سنة بلغت من دراستك؟

وشعرت بحرارة احمرار خديّ، وانعقد لساني، فأجاب عني جدّي قائلا بلهجة لا تخلو من تهكم:

- إنّني بعيد السنة الأولى الابتدائية وهو في العاشرة من عمره.

فقال مدحت ضاحكا:

- الحال من بعضه، فقد التحقت بالزراعة المتوسطة بعد سقوط عامين بالتانوي!

وقالت أُمّي:

- إنّ جدّك يريد أن يجعل منه ضابطا..

فهزّ مدحت رأسه وقال:

- عليه إذن أن يحصل على البكالوريا.

وكان جدّي من الذين أخطوا بالمدرسة الحريّة بالابتدائية فقال بازدهاء:

- إنّ بكالوريا اليوم لا تعدل ابتدائية الأس...

ثمّ دار الحديث عن الحياة في بيت أبي، حتّى قالت راضية:

- كنا في الحقيقة نميش بمفردنا، ولم تكن نرى أبانا إلّا مرة في الصباح الباكر، ثمّ نمضي وقتنا معًا، نذاكر أو نلعب أو نتحدّث، وقد حمدنا الله على تلك الوحدة.

وتنّهت أُمّي إلى الشطر الأخير من الكلام. وتنهّدت في إشفاق، فقال جدّي:

- إن كان أبوكما أعفأكما من عشرته وغالطته حقًا، فقد فعل خيرا يستحقّ عليه الشكر والدعاء!

وتقضى النهار كله في جوّ عابق بالحبّ والأشواق، وعدنا إلى المنزل مجبوروي الحاطر. واتّصلت الأسباب

نحلم، فنأديتها حتى استيقظت. ولبنا مستيقظين حتى أسفر الصبح.

وفي اليوم التالي زار جدّي ذلك الضابط المتقاعد، وحدث ما حدث بالأمس فلما جدّي أتى إلى حجرته، ولبنا منفردين زهاء الساعة، ثم جاءا ممّا إلى الشرفة وهي تتعلق بلذاعه وعبث بانفعال وتأثر شديد:

- كلّاً... كلّاً... هذا حال، ولا أحب أن يعلم شيئاً. ولكنّه لم يأبه فيها بدا وقال لي بحزم:  
- إني منتظر في حجرتي.

وجعلت أتي تتوسّل إليه وتفرّج، ولكنّه رجع إلى حجرته وأنا في أعقابها على حين مضت أتي إلى حجرة نومنا في حالة غضب واستياء. وجلس جدّي على مقعده الكبير، وأمرني أن أقرب منه، فالتقيت في رهبة وخوف حتى وضع يده النحيلة على منكبي، ورمقني بنظرة دقيقة ثم قال:

- أريد يا كامل أن أحذّك بأمر هام. لا زلت صغيراً بغير شك، ولكن يوجد في مثل سنّك من ينهش بأعمال الرجال، وأحب أن تفهمي جيّداً، فهل تعدلي بذلك؟

وأجبت بطريقة آليّة:

- أعلك يا جدّي.

فابتسم إليّ متلطفّاً ثم قال:

- الأمر هو أنّ رجلاً فاضلاً غنياً من أصدقائي يرغب أن يتزوّج من أمك، وآلي أوافق على ذلك رغبة منّي في سعادة أمك، فلا بدّ للمرأة من رجل يرعاها، وأنا قد جاوزت السنين، وإخاف أن أموت قبل أن تضطلع أنت بواجبك كرجل فلا تجد من تعتمد عليه في الحياة.

وواصل كلامه باستفاضة، ولكنّ عقلي كلّ فلم يتأبه، ولم أعد أفقه معنى ما يقول.

شكّلت عبارة «يتزوّج من أمك» مسامي، وانفجرت في صماخي، وأتسمت حينها دهشة ورعباً وتضرّراً وتساءلت: هل يعني جدّي ما يقول حقّاً؟ أجل لقد روت أتي لي قصّة زواجها، ولكن كان ذاك قصّة

الامتحان. ونُقلت إلى السنة الثانية، وإن كنت قضيت عامين في السنة الأولى. وليّا أخلّج جدّي على الشهادة قال لي مداعباً:

- لو كنت ما أزال في خدمة الجيش لجلّيتك بفرقة الطوبجيّة، وأمرتهم بإطلاق أربعة وعشرين مدفعاً احتفالاً بِنجاحك.

عل أنّ جدّي إذا كان لم يمكنه أن يطلق لنجاحي أربعة وعشرين مدفعاً، فقد قدّف حياتي بقنبلة - عن قصد حسن - كادت تودي بي. حدث أن زاره يوماً ضابط متقاعد في الخمسين من عمره ممّن عملوا تحت قيادته في السودان. وعقب انصرافه مباشرة جاءنا جدّي في الشرفة وراح يتسرّس في وجهنا في صمت وإن نمّ وجهه عن ارتياح ومرود. ثم قال غاطباً أتي بلهجة مليئة بالمرح:

- اتبعيني بمفردك يا زوزو هانم!

وانفجرت ضاحكاً لذلك التذليل اللطيف. على حين تجعته إلى حجرة نومه وميّت نفسي ببشرى جميلة... وغابت أتي مقدار ساعة ثمّ عادت إليّ، وما إن وقمت عليها حينها حتى بادرتها قائلاً:

- أهلاً وسهلاً يا زوزو هانم...

وتفهّجت ضاحكاً، ولكنّها ابتسمت ابتسامة باهتة على غير ما انتظرت، وجلست على كرسيّها يلوح في عينها السهوم والتفكير، وساورني القلق، فملت نحوها. وسألناها عيّا أمّ بها؟ فقالت لي باقتضاب:

- أمور تافهة لا تمكّ.

ولكنّ تهريباً ضاعف من رغبتي في معرفة ما وراءها، فالتحمت عليها أن تقضي إليّ بمكتون صدرها، فضخت في تبرّم، ورجحت أن أسك. وجلسنا صامتين طويلاً، ثمّ تحدّينا أحاديثنا المعتادة في فتور. ودّعينا إلى العشاء فأكلت لسان معدودات، وليّا تيّاناً للنوم وقفت أمام المرأة طويلاً، ثمّ استقلت إلى جناحي.

ووضعت راحتي على رأسي وقرأت سوراً قصاراً من القرآن كالعادة، حتى رنّ النوم بجفني. واستيقظت في المزيج الأخير من الليل، فخيّل إليّ آتي أسمع حساً كالهمس، فأرهفت أذني فأيقنت أنّها تغمغم، وظلّتها

- لعلّ جئكَ قال لك إنّه يريد أن يزوّجني، ولكنّه لم يقل بلا وبإني وافقت على هذا الزواج، والحقّ أنّي رفضته لأوّل وهلة، وبلا أدن تردّد، ووددت لو لم تعلم عن الأمر شيئاً على الإطلاق، وإسماً أعطاني مهلة للتفكير قلت...

وقاطعتها بحلّة قائلاً:

- ولكن يريد لك أمراً معيّناً عزّماً؟  
فصمتت قليلاً وهي ترنو إليّ بطرف حائر. ثم استطردت متجاهلة اعتراضي:

- قلت إنّ المهلة مضية للوقت، وأبيت أن أجعل هذا الأمر موضوعاً للتفكير، وفلّك من أجلك أنت، من أجلك وحدك، فلا تحزن ولا تغضب، ولا تنظن بأنك الظنون.

ولئن أعرجني كليهما من ظلمات القنوط إلا أنّي أصررت على ترديد اعتراضي حتّى قالت لي بعد تردّد: - لم أقل أبداً إنّ الزواج من العيوب أو الحرّمات، بل هو علاقة شريفة يباركها الله، إنّّي دعمت عيوباً أخرى.

وانعقد لساني حياءً وخجلاً، وربّمت هي على خدي لتسرّيّ هيّ وقالت بصوت ينمّ عن العتاب:  
- يا لك من طفل جعود، ألا تستأهل تفصّحي في نظرك كلمة شكر؟... أتراك تذكرها فيما يقبل من العمر؟ أبداً... لتزوّجن يوماً ولتأخذهن وحيدة بلا رفيق ولا أنيس!

وتكلّبت ساخطاً، وقلت بحماس:

- لن أفارقك ما حييت.

عشت بشمري متمسكة، ولاحت في عينيها الجميلتين نظرة سامة..

١١

سارت حياتي المدرسيّة في بطء وتثاقل بدهوان لليأس، فبلغت الرابعة عشرة وما جاوزت السنة الثالثة الابتدائيّة، وكان جدّي يقول متأفّفاً:

- متى تقبل على الدراسة جيّمة ونشاطاً متى تعرف واجبك؟ ألا ترى إذا أطردت دراستك على هذا المنوال

وتأخّراً بعيداً، ولم أتصوّره حقيقة واقعة أبداً. وذكرت لتوّي الحاحمة المطروقة فغاض قلبي في صديري وقلت لجندي وأنا ألث:

- أمّي لا تزوّج. ألا تفهم ما هو الزواج؟!

ولم يتمالك الشيخ نفسه من الضحك، ثمّ قال مبتسماً:

- الزواج سنّة من سنن الله، والله يفضّل المتزوّجين على غير المتزوّجين، ولقد تزوّجت أنا جدّتك، كما تزوّجت أمّك فيما مضى، وكما ستزوّج حضرتك يوماً ما. أصح إليّ يا كامل، أريدك على أن تلعب إلى أمّك وتقول لها إنّك ترغب في تزويجها مثلي، وإنّ سعادتك تصاعف بسعادتها... ينبغي أن توافّق على ما يسعدّها، وحسبها ما قاست من أجلكم جميعاً.

وجعلت أطراحي تنتفض انفعالاً وتأثراً، ونظرت إلى جدّي كما تنظر الفريسة إلى مملّجها، ثمّ سأله بصوت متهدّج:

- أريد أن يأخذها ذلك الرجل؟

فابتسم وقال لي:

- نعم، ولكن ليرعاها ويسلمها.

فسأله بحلّة وأنا لا أدري:

- وأنا؟.

فقال برقة بالغة:

- إن شئت ذهبت معها، أو بقيت عندي على

الرحب والسعة...

فعضضت على شفّتي بقسوة لأحبس دمعي، ونراجعت فجأة فأفلتت من يده، وركضت خارجاً متجاهلاً نداءه، وهدوت إلى حجرة نومنا، فوجدت أنّي جالسة عمرة العينين من اليكاه، وفتحت لي ذراعها فارغمت بينهما منتفض الأطراف من التأثّر، وبادرني قائلة:

- لا تصدّقه، أعني لا تصدّق أنّ شيئاً مما قال لك

سيق، لا تبك ولا تحزن... واعداه!

وحدجتها بنظرة استغراب واستنكار، وصحت بها:

- ألم تقولي إنّ هذا عار وحرام؟!

فشكّلت عليّ بحنان وهي تقوّم ابتسامة، ثمّ قالت:

فستتهي منها وقد استوفيت سنّ المعاش؟  
ولشدّ ما كانت تأمّي أنّي لذلك التهكم المرّة  
وكانت تسأله دائماً ألا يلقبه في وجهي أن تنكسر نفسي  
فأزداد بلاهة، أو تقول له:

- الذكاء من عند الله، وحسبه ما جملة به من كريم  
الخلق، لأنّه كالعذراء حيّاه وأدباً!

وكان أن كابدت حياتي تطوّراً خطيراً لا أذكر متى  
بدأ ولا كيف بدأ، وأخشى أن يكون الخيال قد زوّد  
منه أموراً على الذاكرة. دبّت في النفس والجسم يقظة  
غريبة، سرت في أطرافي قلقاً واضطراباً. طافت بي في  
وحدتي أحلام جديدة، وغيّبتني في المدرسة شروء ركز  
شعوري كلّ في نفسي. وكنت إذا انطلقت بي العربية  
من المدرسة إلى البيت سرّحت طرفي في أفلاك السماء  
وينفسي لو أحلّق إلى ذراها المتلفعة بتلك الزرقة  
الغامضة. ولشدّ ما انتابني الكآبة وغشي الكدر  
فروّحت عن قلبي بالدمع الغزير. ولا أنسى الأشواق  
الغامضة، والمخاوف المجهولة، والأثبات المهموسة،  
والشعيرات النابتة. ربّاه إنّني كائن يتمكّن من حياة  
غوفة مجهولة، تمثت بي شياطينها في النهار والليل، في  
اليقظة والأحلام.

واكتشفت بنفسي - تحت ضغط تلك الحياة - هواية  
الصبا الشيطانية لم يغري بها أحد إذ كنت معلوم  
الرفاق. فاكشفتها كما اكتشفت أول مرّة في حياة  
البشر. واستقبلتها بالدهشة واللذة، ووضيت بها عن  
كلّ شيء في الوجود، ووجدت فيها أنسا لوحدي  
الغريبة، وعكفت عليها في إدمان، وراح خيالي يقطف  
لي من صور المخلوقات ما أزيّن به مائدة العشق  
الوهمية.

ومن عجيب أنّ خيالي في عشقه لم يعدّ دائرة  
الحوادم بالنبيل اللاتي يسمعن حاملات الحضر والنفول.  
ولم تكن تلك ظاهرة عارضة ثمّ ولّت، إنّها سرّ دفين،  
أو هي داء دفين. كأنّي موكل بعشق السمامة  
والقدارة! إذا طالعت وجهاً ناصراً مشرقاً يقطر نوراً  
وبهاء ملكني الإحجاب، ويسرّدت حيوانتي، وإذا  
صادفني وجه دميم ذو صفة وعافية أنارني وغلّكني،

وانغذته زائداً لأحلام الوحدة وعيبتها. وأفرطت إفراط  
جاهل بالعواقب. وتخيّل إلى جهلي المضطّر أنّ أحداً  
سواي لا يلدي بها، حتّى سمعت يوماً - في فناء  
المدرسة - بعض التلاميذ يتقاذفون بها في غير حيّاه  
فانزعجت انزعاجاً عظيماً وتولّاني خجل اليم. ومنذ  
تلك الساعة أمضيت الألم، وكثّر صفوي تأنيب الضمير  
والشعور بالسنب. . . ولم يكن ذلك ليصدني عن  
عالمستها، فقصيت وحدتي في لذة جنونية سريعة يعقبها  
نكد طويل.

وكانت تسطع في أيّامنا الرتيبة ساعات باسفات  
فتزورنا أسر من الجيران والأقارب، سيّدات وبنات في  
سنّ الصبا، وربّما قدّمت سيّدة بنتها على سبيل  
المداعبة:

- هذه عروس كامل.

فكانت أنّي تلقى هذه المداعبة وأملأها بفتور  
ملحوظ، لا يفضي عل غابطتها، ولا صلي. فازدبت  
شعوراً بالحياء وبالنفور، وبالحوف خاصّة حيال المرأة.  
ثمّ لا تفتأ - عقب انصراف الزائرات - تتنقّد مدايعاتهنّ  
الفاضحة المفسدة للأخلاق. . . ومضيت في حياتي  
الوحيدة الموحشة أهملت تحت ضغطها المتواصل دون  
أن أبدي حراكاً، أنتهب لذاتها الخفية في جزع وياس،  
وأجني مرّ الشعور بالذنب وقد شقّ عليّ الخلاص، في  
عزلة غابت بي عن خضمّ الحياة. حلّ أنّي كنت أدرك  
إدراكاً غامضاً أنّه توجد حياة واسعة فيها وراء أغقي  
الضيّق. كنت أسترق السمع إلى ما يتناثر من أحاديث  
التلاميذ عن السياسة والسبنا والألعاب الرياضية  
والبنات، وكأني أصني إلى سجان كوكب آخر.  
وددت لو كان لي بعض فصاحتهم ومرحهم وجورهم،  
وددت لو يُرفع ذاك الحاسر الأصمّ الذي يجسني  
دوتهم. ولكم رقتهم بعينين حزونتين كأنّ سجين  
ينتظر من خلال القضبان إلى الطلقاء. بيد أنّي لم أحاول  
فكّ أن أتطلق من سجنّي، لم يكن ليغيب حقّي ما  
ينتظري في دنيا الحرّيّة من قسوة ومهانة، بل إنّني لم  
أسلم في سجنّي من أدنى وسخريّة وبهيم، ذاك سجنّي  
للاقتم به، فيه لذتي وألمي، وفيه أمان من الخوف. إنّّه

أعفت مرتين في عامين متتاليين. غلكني الفزع والقنوط وازدحت فزعاً وقنوطاً للامتحان الشفوي، فما كانت لي قدرة على الكلام، ولا قلب أواجه به الممتحن. وقد سألني الممتحن الإنجليزي في العام السابق عن معالم القاهرة التي زرتها؟ وكان كلفاً سألني عن أثر من آثارها أو موقع من مواقعها أجبت بأنني لا أعرفه، فظنني أتهرب من أسئلته وأسقطني. غلكني الخوف وأوردني مهالك القنوط ووجدتني لأول مرة ألقى على الحياة نظرة عاتية شاملة متأثراً بخمد الحياة من البداية إلى النهاية، حتى لم أهد أرى منها إلا البداية والنهاية متعامياً حياً بين هذا وذاك. ميلاد وموت، هذه هي الحياة! وقد فات الميلاد فلم يبق إلا الموت. ساموت وينتهي كل شيء كأن لم يكن، فقيم تمثّل هذا العناء! فم أكابد الخوف والضيق والوحشة والجهد والامتحان! وازدحت برأسي ذكرياتي المحزنة عن الحياة التي أسعها... امتحان لا حيلة لي فيه ثم سقوط فسخرة مريرة، حرمان من أفراح الحياة التي يحظى بها التلاميذ. دعاؤهم لي بالأبكم، ريمهم إني بظل الدم حتى رأيي تلمد مرة قادماً وكان قريباً من باب مسجد المدرسة فكور كفه على أذنه كأنه يدعو للصلاة وصاح في وجهي منشداً: «يا ثقل الدم!» وقهقهه الآخرون ضاحكين. وأذكر أنّ مدرّساً أراد يوماً أن يعتبر معلوماتنا العاتية، فلما جاء دوري ووقفت مبهوئاً لا أجيب عن شيء سألني عن اسم رئيس الوزراء؟ ولازمت الصمت، فصاح بي: «هل أنت من بلاد الوفاق؟!» كانت مناسبات الإضراب كثيرة، ولكنني لم أشارك في مظاهرة على الإطلاق، وقد أضربت المدرسة يوماً وخرجت في مظاهرة من بكرة أبيها، إلّا، فقد تخلّفت في الفناء مرتبجاً خائفاً على كوني من أكبر التلاميذ سناً، ورأيت على تلك الحال مدرّس عُرف وقتذاك بوطيقته فقال لي معتاً: «لماذا خرجت عن الإجماع؟ أليس هذا الوطن وطنك أيضاً؟» ووجدتني في حيرة شديدة بين تعنيف المدرّس وبين وصايا أمي التي تحلّني كل صباح على أتباعها. يا لها من ذكريات خليقة بأن تُعقد الحياة كل قيمة! أليس في الموت غناء

سجن مفتوح الباب ولكن لا سبيل إلى تجاوز عتبة، ولم أجد من متّمس غير الأحلام. كنت أمكث في الفصل غائباً عني حولي وخيالي يصنع المعجزات، يحارب ويقتل ويقهر، يمتطي متون الجياد ويمتلي الطائرات ويقنعم الحصون ويستأثر بالحسان وينگل بالتلاميذ تنكيلاً مروّحاً، حتى لا يست أحياناً حركات رأسي وتقلّصات وجهي انعكاسات من تلك الأغيلة، يرتفع لها الرأس كبرياء ويقطب الوجه قسوة وتشير اليد بالذئير والوعيد!

ولم تقف أحلامي عند حدّ الخلق فطارت إلى ملكوت الخالق. وكان إيماني قديماً راسخاً يعمر قلبي وروحي بحبّ الله وخوفه ممّا. وقد أدّيت الفرائض في سنّ مجترة أخذاً من أمي ومحاكاة لها. ولما أجملت لي لذاتي الخفيفة شعوراً بالذنب لم يكن لي به عهد قويّ شموري الديني، ولضحت إيماني لفة حائرة إلى الله ورحمته فما ختمت صلاتي مرة حتى بسطت يديّ مستغفراً. بيد أنّ أشواقني لم تقف عند حدّ، وانقلبت طلعة لمعرفة الله، وتقيّت من صميم فؤادي لو كان أتاح لعبيده رؤيته وشهود جلاله الذي يحيط بكلّ شيء ويوجد في كلّ مكان. وسألت أمي يوماً:

- أين يوجد الله؟

فأجابني بدعشة:

- إنه تعالى في كلّ مكان...

فرونات إليها بطرف حائر وتساءلت في خوف:

- وفي هذه الحجرة؟

فقالت بلهجة تنم عن الاستنكار:

- طبعاً... استغفروا على سؤالك هذا!

واستغفرت من أصياق قلبي، ونظرت فيها حولي بحيرة وخوف، وذكّرت بقلب مرجع كيف أتى ألم بالإثم تحت بصره القريب لشدّ ما حزني الألم، وغمضي الندم، ولكنني ما نشأت أغلب على أمري.

\*\*\*

وشقّ عليّ النزاع المتواصل فانتهت بي إلى التفكير الجذّي في الانتحار. بلغت وقتذاك السابعة عشرة، وكنت أستمع لامتحان الابتدائيّ للمرة الثالثة بعد أن

وحدثت نفسي قائلًا: «يقولون إنني لا أحسن شيئًا في الحياة... ولكنني سأفعل الآن ما لا يسع أحدًا الإقدام عليه». وألقيت على الماء نظرة متحيرة، وغثُل لي ما سأفعله بسرعة البرق ينبغي أن يتم كل شيء في ثوانٍ وإلا أفسد عليّ تدخُل المارة غرضي، أتسور السور ثم ألقى بنفسي، ولن يستدعي ذلك مع حزم الأمر إلا لحظات. وانقبض قلبي وأنا أنظر إلى الماء الجاري وقد بدا تحت النظرة العمودية سريعًا صانعًا فدار رأسي. واحد... اثنان... وسرت في بدني قشعريرة، ترى ما إحساس الإنسان إذا هوى من شاطئ... وكيف يكون اصطدامه بالماء؟ وكيف إذا غاص تحت لجته؟ متى يغفل الإنسان من عذاب الفرق؟ وشئت قبضي على حافة السور، وتقلعت سائقي، وقلت بلساني أن سيئتي كل شيء حالًا، ولكنني كنت في الواقع أتراجع وأتقهقر وتخور ثوابي. هزمتي الخواطر والتصورات التي اعترضت عزمي. لا ينبغي للمتحرر أن يفكر أو يتخيل، لقد تفكرت وتخلت فانهزمت. واشتد خفقان قلبي. وتراحت قبضتي عن السور. ثم تحولت عنه متبهًا كالذاهل. وحلثني ساقلي المخلخلتان إلى نهاية الجسر حيث تنتظر العربية، فركبت، واستلقيت على المقعد في إعياء حتى خالطني رغبة في النوم.

وطلما ساءلت نفسي عما أنقذني من الموت ذلك الصباح؟ فقال قلبي: إنه الخوف! وقال لساني: إنه الله الغفور الرحيم.

ولا شك أنني بالغت فيها بتملُّق بدوافعي نحو الانتحار، لأنني حصلت على الابتدائية في ختام العام!

## ١٢

فقدت أسرتنا الصغيرة مظهرًا من أجل مظاهرها لانخفضت من أفقها العربية والبدوادان والحدوذي العجوز. باع جدِّي العربية والبدوادين واستغنى عن الحدوذي. وعلمت مما تسقطه من الحديث أنه خسر ليلة في النادي خسارة جاوزت المهود، فاضطر إلى اقتراض ما يساوي معاشه من النقود. ولما كان رجلًا مطبوعًا على

عن هذا كله؟ بل ولاني لامتق الموت. وملا تلك الأفكار عليّ شعاب قلبي فأجمعت على أن أرمي بنفسي إلى النيل... وعندما أتى المساء صليت طويلاً، ثم غث وشدق قبضة على يد أمي، وأنا أظنني في عداد الأموات. وجعلت في الصباح أسترق النظر إلى وجه أمي في خوف وحزن، وأثر في نفسي هدوؤها وجمالها، فغالبنني شعور باليكاء، وأكرمني ألا أستطيع توديعها، وساءلت نفسي في إشفاق كيف تتلقى الصدمة؟ وهل تطيق الصبر عليها؟ ساكون المسؤل عن تكدير هاتين العيتين الصابيتين، وتجهيد صفحة هذا الوجه المبسط، وزوال هذه الطمانينة إلى الأبد ثم خفت الحور فجأة فأمسكتني اليأس بغوة جديدة، وحضرتني إلى الحرب. وأبيت على قدح الشاي وعيناي لا تفرقان وجهها، ثم حينها وفادرت الحجره منقبض الصدر مرير النفس وركبت الخنطور، وألقيت على البيت نظرة وأنا أغمض: «الوداع يا أمه، الوداع يا بيتنا العزيز». وانطلقت العربية حتى طالعتني جسر الملك الصالح فدق قلبي بعنف حتى شق عليّ النفس. ينبغي أن ينتهي الآن كل شيء. ففائق معدودات ثم الراحة الأبدية. ولم يكن لدي علم من عذاب المتحرر في الآخرة، فلم أشك في أنني استهل حياة مطمئة. واقترب الجسر رويدًا، وراح توقيع سنابك الخيل يصك قلبي، ولاحت مني الضائقة إلى النيل فرأيت لآلئ الشمس تتشر على صفحته الدكناء، وخلفتني الخيط على أديمه والأمواج الهادئة الصامتة تتقاذفي بغير مبالاة، مطمئة إلى نتيجة الصراع. وتوثقت لما عقدت العزم عليه بجنون فغاب عن خاطري كل شيء في الحياة فهتفت بالحدوذي العجوز وهو ينمطف إلى الجسر:

- قفا!

فشد الرجل على الزمام وتوقفت العربية، وفادرتني متعجلًا وأنا أقول له:

- اسبق إلى نهاية الجسر وسألتق بك شيئًا على الأقدام.

وانتظرت ريثا أبتعد عني عدة أذرع ثم ملت إلى سور الجسر، وأشرفت على النهر بقلامي الطويلة.



وإلا بدا في أعين الناس وكأن لا أب له..

فقالت أمي بصوت متهجن:

- هذا أب، الجهل به أشرف.

فلاح في وجه جدّي الضيق وقال بحزم:

- كائنك تخافين أن يسترّه إذا رآه، فإنا له من وهم

لا يلدور إلّا في رأسك، ولأني لعل ثقة من أنه سرّ

سروداً كبيراً حين هيأت له الأقدار من يرثي ابنه عنه.

ولكنّي أرى الآن أنّه ينبغي أن يتعرّف كامل إلى أبيه.

وقد صمّمت على أن أذهب به إليه، فمن يدري أنّه لا

يحتاج إليه غداً؟ هل ضمنت أن أبقي له إلى الأبد؟ ولا

تسي أن كامل وشيك الالتحاق بالمدارس الثانوية ورثاً

أقنعت أباه بمعاونتي في تعليمه!

ولا شك أنّ أمي كانت تتحسّن للمعارضة، فلما

سمعت الشطر الأخير من كلامه قتر تحفّزها وبدا الحزن

في عينيها، ولم تبس بكلمة، ولما غادرنا جدّي

اخروقت عيناه بالدموع فافترت منها متأثراً غزواً

وجفّفت عينيها، وقلت لها:

- لا شيء يستدعي البكاء يا أمّاه.

فابتسمت إليّ ابتسامة باهتة وقالت بحزن:

- لا شيء حقاً. ولكنّي أبكي الآثام الماضية بما

كامل... أبكي العثمانية المطفلة التي استمنت إليها

طويلاً. كانت الحياة رهيبة طيبة لا يكتريها علينا

مكثراً، اليوم يتحدّث جدّك عن الغد، وهو إذ يتحدّث

عنه يملؤني خوفاً وقلقاً. لنندع الله ممّا ألا شئت

شمئنا، وأن يطيل لنا في عمر جدّك، وينينا عن

الناس...

ثم تفكرت ملياً، وقالت لي وهي تحدّثني بنظرة

غريبة:

- قابله إذا قابلته بلدب فهو أبوك على أيّ حال،

ولكن لا تسي فيها. بينك وبين نفسك أنّه هو الذي

عدّنا جميعاً.

وجرت على شفهي ابتسامة خفيفة لهذا التحدير

الملفوف الذي لم أكن في حاجة إليه. ليس في وسعي

أن أحبّ شخصاً كرهه أبوه. ثم فكرت في تلك الزيارة

المرتقة بين ابن وأبيه لأوّل مرّة، وحاولت أن اتخيّل

النظام فقد أثر أن يبيع العربية والجوادين على أن يريك

ميزانيته. لشدّ ما أحزننا بيع العربية، وضياح الجوادين،

ودواع عمّ كريم الحوفيّ العجوز الذي قضى عمره في

خدمة جدّي حتّى فوّذ فيها أسنانه. ولقد بكيت الجميع

بكاء مرّاً دون أن أنبس بكلمة. وكان جدّي يعيش في

نادي القهار أكثر ممّا يعيش بيننا، ولم تكن له من سلوى

أو فرجة سواء وخاصّة عقب تركه الخدمة. ولم يكن

يحاول إخفاء سيرته بما تجلّ عليه من صراحة وميل

للمرح، فكثيراً ما كان يفصّل على أمي طرفاً ممّا يصادفه

في سهراته، فيقول هائلاً رأسه الأشيب: «بالأسف

لازمني سوء الحظّ طوال الليل حتّى قبيل الحتام يقليل

لمؤنّست خسارتي جميعاً بضربتين موفقتين»، أو يقول:

«يا للطمع الأشعي! أضاع عليّ بمغامرة واحدة في

أعريات الليل عشرين جنيتهاً ربحتها بشقّ النفس».

ولكنّه كان بوجهه عمّ مقامراً عاقلاً إن جاز لي أن أقول

ذلك، تستأثر به لغة المقامرة الجنوبية دون أن تنسيه

طاقة ميزانيته وواجباته كرب لا سرتنا ولا أشكّ في أنّ

أمر مستقبلي قد شغله كثيراً، لا لدائي فحسب - وإن

غمري دائماً بحبّه ورعايته - ولكن لا ارتباط مصر أمي

بمصري. ثمّ كان ما كان من تصرّف حياتي المدرسيّة

فأخذت الابتدائيّة في السابعة عشرة وقد اقترب هو من

حدود السبعين، وأخذ الفلق يساوره كثيراً وهو أعلم

بما جمع من ثروة لا تكاد تذكر. على أنّه كان يتغلّب

دائماً على قلقه بما طبع عليه من ميل للضالّون مرّقه في

الغالب إلى ما وهبه الله من صحّة حسنة لم تزياله رغم

طعونه في السنّ. إلّا أنّ خسارته الأخيرة ذكّرت به بقلقه

وغاؤه ودفعته إلى أن يعالجها بالحليّة والحرص، فقال

يوماً لأمي بعد تردّد غير قليل وكنا يتحدّثان عن

مستقبلي:

- أرى أنّه لا يجوز أن يجهل كامل أباه هذا الجهل

الطلق.

فامتنع وجهها ودمقته باستنكار وتساءلت:

- ماذا تعني يا أبتاه؟

فقال جدّي بغير مبالاة:

- أعني أنّه يجب أن يتعرّف إليه. لهذا أمر ضروريّ

الفيفساء. تبعت جدي في قلق يزداد بتوغلنا في الحديقة، وعندما أخذت في ارتقاء السلم جفّ حلقي من الاضطراب. وبدا أبي واقفاً ينتظر، فألقيت عليه نظرة سريعة من وراء جدي.

كان وقتذاك في الستين من عمره، ربعة، بدينًا وإن بدا في جلابيه الأبيض الفضفاض أبدن من الواقع بكثير، أبيض البشرة، حمّر الوجه والعنق، متنفخ الأوداج، محضن الوجه بالدم، أما قسبات وجهه فكبيرة واضحة في غير تناظر: أصلع الرأس، أسود العينين، وقد جمحت مقلته وتشابكت بهما خطوط سمر دقيقة كالشعيرات، وقلقت بهما نظرة زائفة شاردة خاملة بددت ما كانت ضخامته خليقة بأن تبعثه في النفس من رهبة. خامرني شعور بالغربة والإنكار والتفوق، وحقدت على جدي المسلول عن الزيارة. اشتدّ بي الإنكار عندما وضع لي آله لم يبد أي الترحيب بنا إلا تلك الوقفة الحاملة. تصافح الرجلان، وسمعت صوتًا غليظًا ذكّرني بصوت أخي مدحت يقول:

- أهلاً وسهلاً... كيف حالك يا عبد الله بك؟  
فرّد جدي قائلاً:

- الحمد لله... وكيف أنت؟!

وتنحى جدي قليلاً ليكشف عني وأوماً إليّ قائلاً وهو ييشم:

- كامل ابنك.

وتقدّمت منه في ارتباك ظاهر وعياني متطلّعتان إليه، فحدجني بنظرة متفحصة في اهتمام شديد وقد لائح في عينيه نور خافت، ثمّ مددت يدي، وعند ذلك قال جدي ولملأه أرواح أن يتفادى من خطأ رأيي حرّاً أن أقع فيه:

- أفر هذا الحجل وقيل يد والدك!

وأدركت مراده فقبضت على اليد الممدودة إليّ ولثمت ظاهرها، ورفعت إليه عيني فوجدته مبتسماً، وسمعت يقول:

- مرحباً بالابن الذي لم يعرف أباه... ما شاء الله (والفتت نحو جدي مستدركاً) صار رجلاً وفرح أباه طويلاً.

صورة لأبي، أو أن أتذكّر صورته القديمة التي مرّتها بيني فلم ألتح... وشعرت بنفور شديد من الزيارة وغثيت لو يعدل جدي عن رأيه.

ولكنه قرّر أن نقوم بزيارتنا في صباح اليوم التالي، وقال لي وهو يستحثني:

- ينبغي أن نكرّ في الذهاب إليه قبل أن يغيبه السرك!

وخرجنا ممّا، قطعنا الطريق إلى محطّة الترام مشياً على الأقدام. ثمّ أخذنا الترام إلى العتبة، ومنها إلى الحليمية، ثمّ سرنا إلى شارع مبارك. وجعل يوصيني في الطريق بما ينبغي أن أتخلّى به في حضرة أبي من الأدب والتؤدّد. قال لي:

- أنت خجول جدّاً، متطرّف على نفسك، وأخاف أن يظنّ ما بك نفوراً منه فيبادلك نفوراً بنفور خصوصاً وأنه لم يمتّ يوماً بحبّ إنسان، فأنفض عنك الجمود ولاقه بالتؤدّد والرقة والألفة.

ووقفنا أمام بيت كبير مكوّن من دورين، لا يبدو من دوره الأوّل إلاّ أعلاه لارتفاع سور البيت، وطرقنا باباً ضحكاً، ففتح عن صرير غليظ، وبرز لنا بؤاب نوبيّ طاحن في السنّ، فلمّ على جديّ باحترام وترحيب وتنحى جانبا وهو يقول:

- رؤية بك في السلامك...

وسكّ الاسم مسمعي، فشعرت على رغمي بما يربطني بهذا البيت. وتغلّكتني رغبة مباغته في الرجوع والتفكير، ولكنّها كانت رغبة لا سبيل إلى تحقيقها، ونظرت فيما أمامي فرأيت حديقة كبيرة، وسرعان ما سطعت أنفي رائحة الليمون الزكية. هي حديقة كبيرة تأخذ الناظر بضخامة أشجارها ما بين نخيل وليمون وتوت ويزدهم جيوها بالفروع والأغصان، وتغطّي أرضها بالأوراق الجافّة، وبها وبالحوّ المحيط بها مسحة حزن وكآبة انسربت إلى نفسي في غير إبطاء. وفي نهايتها يقع البيت، وقد بدا السلالم مقلّماً على سوره جدار خشبيّ يوجب ما بداخله عمن في الحديقة. سبقنا البوّاب إلى الداخل ليستأذن للقدام، ثمّ عاد بعد قليل وهو يدهوننا باحترام، وسار بين يدينا في ممشى من

فضحك جديّ ضحكته العظيمة وقال:

- أجل إنّه رجل... ولكن لا تثرّب عليه إذا كان لم يعرف أباه!

وتفرّس أبيّ في طولاً وعرضاً، ثمّ دعّنا إلى الجلوس، فجلّنا على مقعدين مقارين وجلس على كنبه في الصدر وراء خوان من الخشب الأسود المطعم بالصدف وُضعت عليه قارورة حمراء وكأس ووعاء صينيّ مليء ثلجاً.

كانت القارورة مملوءة إلّا قليلاً، وكانت الكأس فارغة إلّا قليلاً. لم أكن رأيت الخمر أبداً ولكنّي أدركت ثرواً أنّ حبال الشراب الملعون الذي فعل بأسرتنا الأعاجيب، ومرعان ما ملأني التقرّز والنفور. واستدرك جديّ قائلاً:

- أي نعم ما ذنبه المسكين؟... إنّه لم يعرف لنفسه أباً، ولا حيلة له في هذا، ولا داعي لإثارة ذكريات ولّت. بيد أنّي وجدته رجلاً كما تقول، وقد حصل هذا العام على الابتدائيّة، وعيّا قليل يلتحق بالمدارس الثانويّة، فاستنكرت أن يظّل على جهله أباه، واقترحت عليه أن أتّممه لك، فرحبّ باقتراحي مسروراً، وهما أنا قد فعلت والحمد لله.

وكانت عينا أبيّ لا تتحوّلان عنيّ فلم أخفّف من ارتباكِي وحياي، ولمّا ختم جديّ كلامه لاحظت في عينيه الشاردتين نظرة ارتياب وسألني:

- أحسّاً سرّك أن تُقلّم إليّ؟

فأجبت بصوت لا يكاد يسمع:

- نعم...

فسألني وهو ينظر إليّ بمكر:

- أتحبّ أن تمكث معي؟

وانقبض قلبي، ولاحظت في عينيّ نظرة حائرة. ما عسى أن أقول؟ إنّ وصايا جديّ، لا تزال تطرّن في أذنيّ ولكن هبني أجبت بالإيجاب فدعاني إلى البقاء معه فكيف يكون المصير؟! كلا، لا يسعني هذا وغضضت طرفي مطبقاً شغفيّ ولم أنبس بكلمة. وقهقهه أبيّ بصوت ارتعد له جديّ وهو يحيدني بنظرة استياء:

- ترقّق به يا رؤية بك. إنّه لم يترقّق عن أمّه فكـ

وليس أشقّ على النفس من تغيير عادة، ولكنّي أؤكد لك أنّه سرّ جدّاً يتعرّفه بك. لا تأخذ عليه صمته وارتيابه فإنّه كالعذراء حياء.

فهزّ أبيّ رأسه الأصمّ المستدير وفوه لا يزال منفرجاً عقب القهوة، وسألني فيما يشبه التحديّ:

- هلّا مكثت معي فترة من عطلتك؟ شهرًا أو أسبوعين؟

فبادر جديّ قائلاً:

- أنا هذا فمن طيب خاطرا...

وفطنت إلى ما في قول جديّ من إيحاء موجّه إليّ، فوجدتني كالغائر في الصميدة. وتولّاني ضيق كاد ينشقّ له صدري، ولعنت ذلك التصميم المزيج الذي حدا بجديّ إلى سوقي إلى هذا البيت الكئيب. وانمقد لساني في يأس وعناد، حقّ قال أبيّ منهكاً:

- هذا قولك أنت يا عبد الله بك، ولكنّي أنسابل عن رأي كامل بك!...

وألمني تجمّعه، وانقلبّت إلى حال من التماسه فلم أنطق ولم أرفع رأيي. وتذكّرت أمّي بلهفة المستغيث شاني إذا اشتدّ بي كرب. وقهقهه أبيّ ساخراً وقال:

- ولعلّه يُسرّ بمعرفتي ولكن من بعيد...

وتغيّرت لهجته الساخرة فقال بصوت ينمّ عن القوة:

- ألا تعلم أنّي إذا أردت أن تبقى هنا لم يحل دون ذلك حائل؟

وترنّيت لحظة رثياً يجلّت تصرّجه الأثر المطلوب، ثمّ ضحك مستدركاً:

- لا تخف، لا حاجة بي إلى هذا على الإطلاق...

وساد صمت رهيب. ولملّ جديّ أدرك أنّ الرجل قد كشف بقوله ذلك عن شعور عدائيّ. وشعرت أنا بغريزيّ أنّ كليتنا يهد نحو صاحبه نفوراً لا خفاء فيه... وهالني ما صدم جديّ من خيبة مريّة وتوقّعت أن يوسعني تعنيفاً وتقريعاً. ثمّ قال جديّ بصوت منخفض:

- ابنك سيّئ الحظّ يا رؤية بك، فقد حرم نعمة التعبير عيّا يدور بخلفه. إنّه طفل خجول لا يدري عن

الدنيا شيئاً تفرّق به واعلوه...

فقال أبي بغلظة:

- ما هذا الذي تقول يا عبد الله بك!... خجول، عذراء، لا يدري شيئاً! ماذا فعلتم به؟ لقد كانت له أخت عذراء ومع ذلك فقد هربت مع رجل، فمن آية جبله هو؟

وشعرت بطعنة نجلء تصيب قلبي. واندفع الدم إلى وجه جدّي فغطّب غاضباً وقال بكبرياء:

- لقد اختارت أختي أن تمضي إلى زوجها بعد أن يشت من عدالة أبيها!

وروح عني قوله. أمّا أبي فاسترسل ضاحكاً وقد احتقن الدم بوجهه ويدا فلّما قامباً معقوثاً، ثم قال بسخرية:

- تقول بعد أن يشت من عدالة أبيها!... اسمع لي أوّلًا أن أملاً كاشاً (وملاً الكأس وعَلّ منها جرعة) هلاً شربت معي؟... كلاً؟... كما تشاء فلكنّي إنسان داء. ولنعد الآن إلى قولك. ماذا قلت يا حسن بك؟ بعد أن يشت من عدالة أبيها؟ وأنت؟ ألم تياس من عدالة أبيها؟

فنظر إليه جدّي باستنكار وازدراء وسأله:

- ماذا تعني؟

- أريد أن أقول إنّ الفتاة إذا كانت قد يشت من أبيها فإنّ جدّها لم يياس من عدالته، وأي ذلك أنّك جيتني اليوم هذا الفتى لا لتقدّمه لي كما قلت، فقد كان يمكن أن يحدث ذلك في أيّ وقت من الماضي، ولكن لتخبرني أنّه حتّى قليل سيلتحق بالمدارس الثانوية... وهناك المصروفات... هه!!

فخرج جدّي عن طوره وصاح به مغضباً:

- لقد أعباني إصلاحك فيما مضى، ومن الحق أن أحاول ذلك الآن!... لقد ربّيته حتّى صار رجلاً دون أن يكلفك مليّاً واحداً...

فصنّق أبي ساخراً وقال وقد أخذ صوته يعلو:

- آه من مكر الرجال! بالأمس جيتني سائلاً أن أترك الغلام لكم، واليوم ممّن عليّ أن ربّيته حتّى صار رجلاً! مرحى... مرحى، هلاً تذكّرت اتّفاقنا السابق؟

فاشتدّ حتى جدّي وقال بصوت وشت نبراته بانفعاله وتأثّره:

- آبي اتّفاق يا هذا؟... نحن لا نتحدّث عن صفقة تجارية، ولكن عن ابنك، فأين الأبوة والعطف؟!

فقال أبي بتهكّم وازدراء:

- الأبوة؟... العطف؟... يا لها من سجايا كريمة يبدّ أن المال يفسدها. يا عبد الله بك لنعد المذر جانباً فإنّه لا يحمل برجل عسكريّ مثلك خاض حروب السودان! وإنّك لتعزّلي حقّ المعرفة فكيف زوّنت لك نفسك أن تقصّدي بيّدا الرجاء الخائب؟ تفكّر في الأمر مليّاً فإنّما تكفّلت «به» كما اتّفقنا أو أتركه لي إذا شئت.

ونظرت إلى جدّي فوجدت وجهه ملتهباً بحمرة الغضب، وتوقّعت أن ينفجر في الآخر، ولكنّه ضبط نفسه بجهد كبير، وقال بهدوء:

- لولا واجبي نحو ابنك لاستكرهت أن أقف منك موافق هذا، ولست أستجديك شيئاً لنفسى، ولكنّي أريد أن أطمئنّ على مستقبل الفتى خصوصاً وأنّي رجل طاعن في السنّ وقد أموت غداً...

فقال أبي ضجراً:

- إذا متّ غداً تكفّلت به!

فغطّب جدّي مشاء، وهالني تعبيري أبي القاسمي فكرهته في تلك اللحظة ضعف ما كرهته طول حياتي، وكأنّما نقد صبر جدّي فنهض قائماً مكفّهراً الوجه، ونهضت معه كأنّي مشدود إليه. وألقى إلى أبي بنظرة متعالية في ترعّع وغطرسة، وقال:

- لا أستطيع أن أقول إنّك خيّبت ظني لأنّي لم أحسن بك الظنّ قطّ ولكنّها أخطاء ترتكبها كارهين ونحن أدرى بعواقبها. استودعك الله.

وأخذ بيدي ومضى في فقادنا السلامك وأبي يقول متهمكاً:

- مع السلامة يا عبد الله بك.

فكذا كان أوّل لقاء بيني وبين أبي. وقد خرجت منه وينفسي من النفور ما لا يّيل لي به. وما كدلت

تكوينه الجسماني؟ والحق أني رفقته بنظرة غريبة لم يفتن إليها أحد. على أني أحببته كثيراً كما أحبنا كثيراً. وقد عاتبته أمي على ندرة زيارته لنا فقال لها:

- أنت أدري بأخلاق المجنون!

فضحكت بسرور لا مزيد عليه، ورنوت إلى شقيقي بامتنان، فالتفت نحوي وقال أصفاً:

- علمت بما حدث في المقابلة الأخيرة...

فسألته أمي باهتمام:

- هل أخبرك عنها؟

فقال ضاحكاً:

- حدثني بها عم آدم البواب.

وداخلني استياء شديد فهضت مستكراً:

- البواب!... أكان يسرق السمع!

فقال مدحت:

- كلاً، ليس به من حاجة إلى استراق السمع، فما من كبيرة أو صغيرة إلا ويحيطه بها أبي، فهو سميره القديم الذي يقضي إليه بمكنون صدره وإن لم ينبج من شر لسانه في غالب الأحيان. ولكم أ حزني الموقف الذي وقفه من جلتي، فوددت لو لقيته اليوم هنا لأعتر إلى وأقبل يده.

ومجاهذين الحديث طويلاً، وكان مدحت محدثاً ماهراً، يدير الحديث بطلاقة وروح مرحية، ويقفه قهقهة أبينا العالية فيضاهيه في جلجلتها دون برودتها وقسوتها، فسرعان ما غبطته وأعجبته به وتمثيت لو كان في بعض مرحه وطلاقة. وانساق الحديث إلى مستقبله، وكان حصل حل شهادة الزراعة المتوسطة صيف ذاك العام، فقال:

- سافرت إلى عمي في الفيوم ليجد لي وظيفة بواسطة أحد معارفه الكثيرين، لكنني لم يوافق على توظيفي بالحكومة، وعرض علي أن أعمل في عزبته بأجر عالم على أن يؤخر لي أرضاً في القريب العاجل، ورأيت في عرضه فرصة تنفتح لي أبواب الرزق العريض عن طريق الزراعة فقبلت. ولكن أبي لم ترع لهذا العرض وقالت معترضة:

أجتاز باب البيت إلى الطريق حتى انتهت ارتياحاً، ودعوت الله بقلبي ألا يقضي علي يوماً بأن أطرق هذا الباب أبداً. وسرنا نحو ميدان الخمية، وجعلني جدي بحث خطاه منكمس الذقن عمر الرجل، وهو يغمغم بكلام غير مميز ولا مفهوم وجعلت أسترقي إليه النظر محزوناً أسيفاً، وخالفاً في الوقت نفسه لشعوري بثقل مسئوليتي فيما أدتني إلى الخصام. ثم أخذ صوته يتضح رويداً فسمعته يقول وكأنه يتحدث نفسه وحيوان أصجم، لماذا يرزق الله أمثاله أطفالاً؟ لماذا لم يعاقبه بالعقم؟! ويقول أيضاً: يا لك من وغداً ليس بقلبك ذرة من عاطفة الأبوة؟ إنك لم تترك لنا استجابة لرجائنا، ولكنك بعتك بنفقتك.

وحين بلغنا المحطة لأذ بالصمت، ووقعت علي عيناه فحلجني بنظرة قاسية وأصر على أسنانه وقال لي بحدة:

- وأنت يا سي قطران أنتفل عمرك بدلاً ألم يفتح الله عليك بكلمة طيبة؟ ماذا كان عليك لو تظاهرت بالتودد إليه؟ أحسبه يا أحمق سرقني عليك عشفاً وولها!

وأفسزني غضبه كما يفسزني الغضب صادة، وارتعشت شفتاي كالطفل إذا شرع في البكاء، ورأى حالي فنفخ منفيلاً عتفاً، وصاح بي:

- ما أسرع أن تبكي!... ما الذي يبكيك؟... هل ظلمتك؟ هل تجبنت عليك؟... لقد أخطأت خطأ غبي أحمق، وما زدت على أن قلت لك أخطأت، فهل كفرت؟!

ولم أنبس بكلمة طوال الطريق، ولبثت محزوناً منكسر الحاطر، حتى ذكرت أني عائد إلى أمي، وأنني سأحدثها بكل شيء عفاً قليل، فسرني عني.

وزارنا يوماً مدحت أنمي، في الأسبوع الذي تلا مقابلتنا لأبي. ولما تفرست في وجهه تلك المرة أيفنت أنه صورة طبق الأصل من أبي. وتساملت في حيرة عن سيرته وأخلاقه، وهل يشابه أباه فيها كما شابهه في

وحدة إلّاها فهي أشنات لا تجتمع. اللهم عفوك  
ورضاك!

\*\*\*

واستدار الصيف واقترب ميعاد افتتاح الدراسة  
فألحقني جدّي بالسعيدة. وقد ذهبنا معاً، وقال لي في  
الطريق:

- لو كنت رجلاً حلاًماً أحوجني إلى الذهب  
معك، ولكنتك لا تعرف الطريق إلى الجزيرة وأنت ابن  
سبعة عشر، وعلى أية حال احفظ الطريق جيّداً. لقد  
كنت ضابطاً في مثل سنك!

وكان يتظاهر بالتلمّز والسخط، ولكنّي شعرت  
بقلمي أنّه مهتج مسرور، وأحسست بمطفه يمشلي،  
فأعجلني ما يتحمّله في سبيلي من المشقة وهو الشيخ  
السبعيني. وحين عودتنا ضربني بعصاه برقة وقال:

- إنك الآن طالب بالسعيدة، فاجتهد لترفع رأسنا.  
أريد أن أراك ضابطاً قبل أن أرحل.

ودعوت له بطول العمر من أحياق قلبي. وسكت  
ملياً ثمّ قال بغير مناسبة ظاهرة:

- على أيّامنا كانت الابتدائية شهادة عظيمة تعادل  
بحقّ أكبر الشهادات في هذه الأيام!

وهزّ رأسه ثمّ استردك قاللاً:

- كانت أيّاماً، وكنا رجالاً!

١٤

انتهت العطلة الصيفية فأتمّ بي الحزن والكآبة.  
كانت المدرسة المنقّص الأوّل لحياي، فكرهتها كرهها  
عميقاً صادقاً. حقاً كنت بصدد مدرسة جديدة اقترنت  
في ذهني بالرجولة والفخار، ولكنها مدرسة على أية  
حال لا تخلو من مواعيد وفصول وتلاميذ ومدرّسين  
وعقوبات، ودروس تفوق صعوبتها بلا شكّ سابقاتها  
في المدرسة الابتدائية.

وفي صباح السبت الأوّل من أكتوبر استيقظت  
مبكراً بعد انقطاع هذه العادة الثقيلة أربعة أشهر،  
وارتديت البذلة، وتأنّقت كعادتي وانتقيت رباط رقبة  
فاتحراً من صوان جدّي! وألقت أمّي عليّ نظرة طويلة  
ثمّ قالت بسرور:

- أليس الأكرم أن تتولّف في الحكومة؟

فضحك أخي طويلاً ثمّ قال:

- إنّ دبلوماسي لا يؤلّفني لوظيفة محترمة، أمّا عمّي  
فيهنّ لي فرص العمل المثلث والثروة.

- وتعيش في الفيوم حياتك؟!

فقال باستهانة:

- الفيوم من ضواحي القاهرة!

فأقلت أمّي بحزن:

- طالما ميّت نفسي باليوم الذي تستقلّ فيه بحياتك  
لنعيش معاً!...

فقبّل يدها برقة وقال مبتسماً:

- سوف ترييني كثيراً حتّى عملي...

ثمّ ودّعنا وانصرف. وتنهّدت أمّي من الأعياق  
وقالت بحزن:

- غاب عمّي نصف حياته في بيت المجنون،  
وسبغ النصف الآخر في الفيوم!

وتفجّرت قليلاً ثمّ قالت وكأنيّ تحمّلت نفسها:

- إنّ عمّه لم يعرض عليه ما عرض حبّاً في سواد  
عينه، ولكنه يئوي بلا شكّ أن يزوّجه إحدى بناته.

وسألته ببساطة:

- وماذا عليه لو فعل؟!

فحدجني بنظرة غريبة، وهمت بالكلام أكثر من مرّة  
ثمّ تنفّس عيّا همت به.

وقد صدق ظنّها، فجاءنا بعد ذلك بزمان غير طويل  
خطاب مدحت يخبرنا بخطبة لابنة عمّه، ويسّري لنا  
يوم الزفاف ويدعونا لحضوره. ولم تحفّ أمّي استيادها،  
وهاها أن يحطّ بدون مشورتها أوّلًا، وقالت لجدي  
بغضب:

- أرايت إلى شقيق المجنون كيف خطف ابني؟!

ولم نحضر زفافه، لأنّي مرضت قبيل مواعده ولزمت  
الفراش أسبوعين فنسيت أمّي الزفاف بأفراحه وآلامه.

وهكذا تزوّج مدحت دون أن يحضر زفافه لا أبوه ولا  
أمّه، حتّى قال جدّي متعجباً كعادته:

- هذه الأسرة خلقها الله أعجوبة للبشر، كلّ أسرة

- تنفّيل بالوقوف لترّد على خدام أيبك!  
ونفضت فزعاً، ولبّثت متصلياً دون أن أحر  
جواباً، فلطمخني على خدي وصاح بي:  
- تحذّ شمالاً بماذا؟

ولمّا لم أخرج عن صمّي لطمخني على خدي الآخر  
وسألني:  
- لننح مؤقّتاً ما يجدها شمالاً، فما هي التي أسأل  
عها مجدها شمالاً؟

ولازمت الصمت وخدّاي يلتهبان، فانهال عليّ  
لطمعة يميناً ولطمعة شمالاً وأنا لا أجزؤ على تغطية  
وجهي بيديّ، حتّى انفث غضبه فأمرني بالجلوس.  
وضيغ جانب من الفصل بالضحك، وجلست أغلباب  
دموعي. انقلبت مرّة أخرى إلى أدنى المدرّسين وسخرية  
التلاميذ. ومضيت أجنّز الآمي في صمت والرياس  
يفتك بنفسي فتناً ذريعاً. خبا الأمل وانتهت المحاولة  
الجديدة بالإخفاق السريع، وعدت إلى تماشي  
المعهودة. وعمل رغم ذلك تعلقت بغيظ واو كترست  
كلّ وقفي للمذاكرة. عكفت على كتبي ساعات  
متواصلة، ولكنّه كان مجهوداً ضائعاً إلّا أقلّه، والحقّ  
أنّي كنت أثبت عينيّ على الصفحات على حين يتطاير  
خيالي في ديان الأحلام فلا أستطيع لسه. وهي  
أحلام تحرّكها الشهوة وتعبث بها الحلاصات القلدرات،  
ثمّ تنتهي بالمادة الجهنميّة التي أدمنت عليها مذ ناهزت  
الحلم، فلا تنفوت ليلة إلّا وأنصهر في أتونها في لئنة  
مفتعلة وندم موجه طويل.

ولم أقف من رغبتي في صداقة الرفاق موقف الجمود  
المطلق، ولكن أخضعت في مسامي إخطأاً كاملاً. كان  
يقابل تلك الرغبة في نفسي ميل أصيل للوحدة، ونفور  
وخوف من الناس، وانطواء على النفس دفعني إلى  
الكتيان الشديد فلا أحبّ أن يقف إنسان على سرّي  
ولا حتّى مسكني أو عصري، لهذا إلى عجز عن  
الحديث، وعدم فهم للنكتة فضلاً عن تأليفها، فلم  
يجد في أحد من التلاميذ ميزة تجذبه إليّ، عادوا يرموني  
بثقل الدم. أخضعت في اكتساب صديق، وعشت  
العمر بلا صديق. بيد أنّي لم أكن أدرك حقيقة نفسي،

- كالقمر وحقّ كتاب الله... وجه أمك على بشرة  
بيضاء ليس لي مثلها. محروس بعناية الرحمن.

ومضت توصيني بالحيطة في المشي والركوب والنزول  
وعبور الطرق، ودعت لي طويلاً... ولمّا غادرت  
البيت وقفت بالشرقة تراقب سيرتي حتّى غيبي عنها  
منعطف الطريق. وواصلت السير مغتاً محزوناً حتّى  
بلغت محطّة الترام بشارع قصر العيني. ووقفت أنتظر  
الترام وحدي لأوّل مرّة في حياتي، فداخطني إحساس  
بالحرّة لم يداخطني من قبل. وشريّ عنيّ قليلاً فوجدت  
شيئاً من الارتياح، ثمّ لاطفني أمل في بدء حياة  
جديدة! حياة لا تكدرها التعاسة التي لازمتني في  
مدرسة العقّادين. إلّا ماضٍ إلى مدرسة جديدة،  
وسألني أناشاً جنداً، فلماذا لا أبداً صفحة جديدة؟  
اللهمّ إلّا إذا اجتمعت لحاميت نسوة المدرّسين؟ وإذا  
أحسنّت التودّد إلى التلاميذ اكتسبت مودّتهم ودفعت  
زرايتهم، وهذا شيء يقدر عليه الكثيرون فلماذا أعجز  
عنه وسدي؟! ورقص بين ضلوعي حماس بهيج،  
وقلت لنفسني إذا نجحت فيها أخضعت فيه في ماضي  
حياتي هيأت لنفسي حياة طيبة وحبيّت إلى قلبي الحياة  
المدرّسية المفضيّة عليّ بما أردت أم لم أرد. وذهبت إلى  
السعيدة متفتّحة ظلّ الأمل الجديد الذي انبثق في نفسي  
بقفّة على محطّة الترام!...

\*\*\*

ولكنّي وجدت الحياة أشقّ عمّا هيّا في الأمل، فحال  
خجولي الشديد ونفوري من الناس دون اكتساب  
صديق، وضيق شرود ذهنيّ على اجتهادي بهاء! لشدّ  
ما عانيت من شرود ذهني! لقد سلّبي عقلي وأقلّني  
كلّ قدرة على الانتباه وتركيز الفكر، وجعلني صيداً  
سهلاً للمدرّسين. وقد استيقظت مرّة من شرودي- في  
الأسبوع الثاني من حياتي المدرّسية الجديدة- على  
مسطرة المدرّس وهي تصدم جبيني، وصوته وهو  
يسألني بلهجة الوجد:

- قلت تحذّ شمالاً بماذا؟

فحملقت في وجهه بارتباك وفزع حتّى نسيت أن  
أنهض قائماً فزعت بي:

وتبادر أمني إلى تأييدي في قولي فيهز رأسه الأبيض ويتمتم:  
- الأمر له.

ولذلك كنت أتوقع موسم الامتحان بقلق وخوف تتخللها الأحلام المزعجة، ولذلك أيضًا كان يغريني الحياء والغرور بتصنع التعب والتوهمك في الأشهر السابقة للامتحان لأحتل بها على إخفاقي المتوقع. وكانت أمني من ناحيتها تزور أم هاشم وتلدل النذور، وتشدّ حول عنقي التصاويد. ولا أنسى مرّة.. وكنت قريبًا من امتحان الكفاءة - جمادني بامرأة عن يقرآن الغيب مستعملة بقدرتها على إنجابي، فحرفت المرأة بين يديّ البخور، ورتخت في المدفأة عصًا قصيرة وأمرتني أن أقفز فوقها ثلاث مرّات، وفعلت ما أمرت به، فقالت لي بيقين: «ستصبح بإذن الرحمن»، ولمّا سقطت في الامتحان قلت لأمني متعجبًا: وكيف أسقط وقد قفزت المرّات الثلاث؟!

وعلى رغم هذا كله واصلت الدراسة، وطويت عهد الثائويّ وحصلت على البكالوريا وقد ناهزت الخامسة والعشرين...

## ١٥

وداخلني على إخفاقي المتواصل شعور بالزهو والرجولة. إن كثيرين من موظفي الحكومة لا يحملون إلا البكالوريا فانا رجل ذو شأن! ولست أطمع من ورائها انخراكي في سلك الحكومة ولكنّي أرجو أن أخرج بها من البيت، أهي أن أقترّر بها من رفيقة التي تشدني شدة يكاد يمزّق ضلوعي. أجل لقد ملكني شعور جامح هفا بفؤادي إلى التجنّد والانطلاق. لم أعد غلامًا يقاد من أنفه، وها هي الحياة تستفزني للتمرد والثورة. ولكن أيّ تمرد وآية ثورة؟. على ماذا أولمذا؟ لم أجد جوابًا واضحًا، والحقّ أنّي لم أكن أفكر، ولم يكن هياجي فكريًا، ولكن ثورة شعورية تنبعث من أحقاد نفسي، تروم الانطلاق والتغيير، وتنشّو إلى المجهول. لم أستبين هدفًا على وجه التحديد، وعانيت حينئذ مؤلمًا غامضًا كلّما تحرّك بصدري شملني بكابة

فاتهمت الرفاق دون نفسي بالعيوب التي حرمتني الصداقة، واعتقدت زمانًا أنّه لا صديق لي لأنّه لا يوجد من هو أهل لصداقتي! ما أعجب غرور الإنسان! إن الساء والأرض لا تسعانه. وعلى عجزني ونفائصي كان يجرّل إليّ أحيانًا آقي الكمال المطلق، فهذا أحياء القتاتل أدب، وهذا الإخفاق في الدراسة صغريّة بطيئة النمو، وذلك الفقر المدقع في الصداقة والحبّ تسام، وأمدني علم النفس - الذي دُرّس لنا علمًا في السنة الخامسة - بالفاظ غامضة انتفعت بها في إرضاء غروري الكاذب. ومع ذلك كانت تنقل عليّ ساعات بأس فأكاد أستشعّ الحقيقة، وقد قلت لأمني يوشا، وهي الحبيب والصديق والأنيس الذي لم أنظر بسواه:  
- لا صديق لي، التلاميذ يزددوني!

فتولّاهما الغضب، وهضت بي:

- إنّ نعلك بألف رأس من هؤلاء التلاميذ. إنهم لا يحبّون من لا يماريهم في شطارتهم وسوء خلقهم ويحسدونك لحياتك وأدبك. لا تحزن فلا فضيلة وراء البعد عن الناس!  
فقلت عززوني! أشعر أحيانًا بأنّي وحيد فتقلّ الوحدة عليّ!

وهاها قولي ورمفتي بإنكار، وقالت:

- وأين أمك؟... كيف تقول هذا وأمك على قيد الحياة؟ ألست أكترس حياتي لخدمتك وعبادتك؟  
أجل، إنّها تكرّس حياتها لي، وإنّها كلّ شيء في حياتي، ولكن من لي خارج بيتنا؟  
واظردت حياتي المدرسية في تعرّ وتناقل حل رغم كونها تنوكتا على عكاز من المدرسين المخصوصين. ولشدة ما كان يجزن جديّ كلّما سقطت في امتحان، ولم يعد يسخر منّي في مزاح، ولعلّ طلعته في العمر رثه شديد الإخفاق على مستقبلنا، فكان يقول لي:  
- لماذا تخفق هكذا يا كامل؟ أكلّ عام بعامين؟..  
ألا ترى أنّي أنلهف على ريتيك مؤلفًا قبل أن أموت؟ وكان كلامه يقع من نفسي موقفًا عجزًا، ثم أقول له:  
- ما ألوث أن ذاكرت حقّ منتصف الليل.



- ألا تفضل مهنة بعينها؟

واشتئت حيرتي لأن نفسي لم تنزع بي إلى مهنة غير الحرية وذلك بتأثير جدي نفسه وإيمانه، فلم أجد ماذا أجيب، وقلت:

- كنت أمي نفسي بدخول الحرية، أما الآن فلهم كلها بالنسبة إليّ سواء...

- إنّي أختار لك الحقوق فهي خير ما بقي لنا؟ ولا أوصيك بالاجتهاد لأنه من العار أن يخفق الإنسان في الجامعة، وربنا يعيننا على مصروفاتها!

أسفت على ضياع المدرسة الحرية من يدي، ولكنّي لم أدرك فداحة خسارتي إلا حين أيقنت أنّي سأواصل الدراسة أربعة أعوام أخرى على الأقل، أو ثمانية أعوام إذا سرت بالممكّن الذي لازمني في المدرستين الابتدائية والثانوية. وكنت بطبعي أكره الدراسة والمدرسة فنظرت إلى المستقبل بامتناع غير قليل. ولم أكن أدري عن الجامعة شيئاً، ولكن رجحت ألا تكون بغضبة كالمدرسة، وقلت لنفسي إنّ طلابها في سنّ الرجال فلا يمكن أن يُملّوا بي كإخوان لهم من قبل خلفوا في نفسي آثاراً لا تزول، كذلك استبعدت أن يكون العقاب عمّا يجوز أن يعامل به رجال أو من هم في حكم الرجال. وبدأت هل تحبب الدراسة المتغيرة إلى نفسي، ولم أكن عن موهين خطيها، حتّى أستطيع أن أزيدها في صبر وأناة. وفي صيف ذلك العام كُتبت طلياً - بكلية الحقوق.

١٦

وفي صباح السبت من منتصف أكتوبر غادرت البيت مزوّدةً بالدعاء قاصداً الجامعة المصرية. ووقفت على طوار المحطة أنتظر الترام، وهو نفس الترام الذي كان يعملني إلى المدرسة السعيدية، ولم أخلّ ذلك الصباح - على امتعاضي - من شعور بالزهو. وإنّي لفي انتظاري، إذ طرق سمعي صفقة مصراع نافذة فتحت بعنف فلطمعت الجدار، فارتفع بصري إلى الدور الثاني من عارة برتقالية اللون تقع أمام المحطة مباشرة، حيث كانت توجد لافتة حياة طيب حتّى قبل

وحشة. وكنت كلياً استبدت بي تلك الأحاسيس وقعت فريسة ليد الغضب الحمراء، فتار بي الغضب لافتة الأسباب.

وفي تلك الاثناء كان جدي يهدف إلى الشايتين، وكانت أمي تقطع الخطوات الأولى بعد الخمسين.

انقلب جدي شيخاً نحيلاً، ولكنّه حافظ على صحته ونجا من شرّ الأمراض، وتفتح بما وهبه الله من نشاط يحسد عليه، ولم تزاوله روحه اللطيفة ودعابته الحاذقة. أجل اضطرّ إلى تبديل نظام معيشته لأنه لم يعد يحتمل السهر الطويل المتواصل، فكان يذهب إلى مقهى لونا ببارك صباحاً ليجتمع بقلة من صحابه، ويغني في النادي مساء ساعتين ثم يعود إلى البيت في العاشرة، وكان يمشي مشية العسكرية في قوّة ووقار دون أن ينحني له جلع. أمّا أمي فقد سارع إليها الكبر بنسبة أكبر منه إذا عدّت بالقياس إلى عمرها. جفّ عودها، واشتمل مفرق شعرها وسوالفها شيئاً، إلا أنّها تمثت بصحة جيّدة، كما حافظ وجهها على جماله وبهائه. وكانت ربّما استسلمت في أحيان للإهمال فلا تعنى عنايتها المعهودة جهنمها. ولشّد ما كان يتولّى الحزن والاستياء لذلك، حتّى قلت لها مرّة «لا تاني بالمهية التي تلقين بها الضيوف»، ولم تحبّ بي رجائي ذاك فكانت تبدو في وهي على أحسن حال، وطابت نفسي ورضيت.

وظنّ جدي أنّ الفرصة تهيأت لتحقيق الأمل الذي طالما حلم به ألا وهو أن أصبح ضابطاً، ولكنّي كنت جاوزت السنّ المقررة للالتحاق بالمدرسة الحرية، وحسب أنّ الشفاعة تستطيع أن تذلل تلك الصعوبة التي بسّدت حلمي فسعى إلى كثيرين من كبار الضباط، ولكنّه أفهم أنّ القانون لا يتسلح في ذلك. وحزن جدي حزناً شديداً، وقال لي أسفاً:

- لو دخلت الحرية لضمنت لك مستقبلًا حسنًا، ولاطمأنّ قلبي عليك وعلى أمك.

وهزّ رأسه في سخط، ثمّ سألتني:

- علام نويت؟

فنفطرت إليه في حيرة، ولم أجد جواباً، فعاد يسألني:

نقارة ذهبية يزور حاملة بنطلونه، فخفضت بصري ورحلت أقطع الطوار جثة ودعاباً. ولاحث مني التفاتة إلى المحطة المقابلة، للترام الداهب إلى العتبة، فرأيت الفتاة واقفة - وقد عرفتها بقاتنها وزناً - وببدا كتاب. كانت في وقار بدا حلواً بالقياس إلى عمرها الذي لا يجاوز العشرين، ولم يكن بصرها يعلق بأحد ممن يجتشد حولها أو يمر بها، فأثر تحفظها في نفسي أثراً جيلاً ملائي احتراماً وإعجاباً ثم شعرت نحوها بانجذاب وحنان. ولم يكن تأثير المرأة في الأمر الجديد صل نفسي، فإني أرى الحسان في الطريق أو في الترام، وأتبعهن عادة نظرة رجل عابر أمضيه الحبرمان والوحدة والرغبة، وأرجع منهم بالنشوة البليدة والهزة الموحمة. أما هذه الفتاة فلها شأن آخر، فلن يكون موقفني منها موقف العابر، ولكن موقف المقيم ومن هو في حكم الجار، فإني أراها اليوم، وأراها غداً، وإلى ما شاء الله فضاض ذلك من اهتمامي بها وحرك في قلبي آمالاً وهمية، ومثاني بسرو متجدد، فكأنه نوع من التعارف ولون من الأمل الضامض، وملهية سرور سلمي لا يطمح في أكثر منه شخص عجول هباب مثلي. ثم ذهبت إلى الكلية طيب الشعور، متسائلاً: هل يمكن يا نوى أن تتبه إلي؟... وقد ذكرتها في أحادي الليل، في وحدتي النفسية، وهذيان الأحلام الجنسية يبعث بخيالي، فوجدت من نفسي اعتراضاً ومرداً وإباء شديداً، فأبعدتها عن أتون حادتي اللهمة، قائلاً هنا بالحيوانات القدرة التي تلهب أحكم الإحساسات من جسدي...

\*\*\*

وفي صباح اليوم الثالث انطلقت إلى المحطة وكأني من التطلع على موعد، وأرسلت ناظرني إلى المحطة المقابلة، فرايتها بموقف الأسس بقاتنها الفارعة ووجهها البديري ووقارها الجذاب. وسرى في جوارحي الارتياح. ثم حلتني نفسي بأن أجد سبيلاً إلى الاقتراب منها وهي لا تدري بي لأروي ظمأي إلى معرفة وجهها عن كتب، وحُثني الإشفاق من عي الترام الذي تنتظره إلى تنفيذ ما تطمح إليه نفسي دون

شهر تقريباً، فوقع بصري على فتاة في الشرفة واقفة تحشي شيئاً. أدركت لنوي أن أسرة سكنت الشقة بعد أن أخلاها الطبيب، وثبتت عيناها على الفتاة، وجعلت أتابعها وهي ترفع القدر إلى شفتيها فتشرف رشفة، ثم تنفخ السائل الساخن بفم مزمووم. وتبدأ وتعيد لاهية بلذة السراب. وبدا لي منها قامة طويلة وقد نحيف رشيق وبشرة قمحية، في سرة وتايير رسادي، وكأني وشيكة اللهاب إلى المدرسة في احتشام الطالبات. وكانت توليني جانب وجهها فلما اعتدل رأسها رأيت وجهها مستديراً، ترحي هيته بتسوق جميل وإن لم أستطع تبيين معالمه من موقفني، تعلموه هالة من شعر كستنائي، لمبعث في نفسي أثراً بهيجاً. ولم تبق هدفاً لناظرني إلا قليلاً، ثم دارت على عقيها ومرت إلى الداخل. واحتفظت بصورتها في حب استطلاع ريثما جاء الترام، ثم ركب متحففاً بالآثر البهيج الذي بعثه في من كآبة اليوم الذي تبدأ فيه الدراسة. حل آني وجدت في الكلية مزايأ خليقة بأن تلهب ناظرني وإن لم تقل من أسباب نفوري العام من الدراسة. من ذلك أن وقت الدراسة مقصور على أربع ساعات في اليوم تنتهي عادة في الساعة الواحدة، ومنه تمنح الطلبة بحرية الحضور أو الغياب بلا رقيب، ومنه وهو الأهم انعدام فكرة العقاب بل لمست في روح الطلبة أن ما يتهدد أساتذتهم أخطر مما يتهددهم هم. سررت بذلك كله ومثيت نفسي بأن تنتهي هذه الدراسة على مرها كما انتهت الدراسات السابقة، ولم يكن جديداً علي أن أخرج دراسة على كره ونفوري حتى الثالثة. وعندما عدت ذلك اليوم إلى المنزل شعرت بسرور مفاجئ هيأ لي آني رجل خطير، ونصف أستاذ وربع وكيل نيابة!

\*\*\*

وفي صباح اليوم التالي ذكرت الشرفة وأنا أشارك المحطة ففرحت عيني مدفوعاً بتطلع هادئ طبيعي ولكني وجدتها خالية، وتسأل بصري إلى الداخل فرايت امرأة في الجدار المواجه وإلى اليسار عمود سرير فضفاً لامعاً ومصباحاً كهربائياً يتدل من السقف ذا قيمة زرقاء كبيرة، ثم بدا لي وسط الحجرة رجل في الخمسين ذو

مضرّج بالدم وأنا، فأهوي إلى خذها الشبه في إعجاب واحترام وحبّ يسمو عن الشهوات، أجل لا يحبّ خيالي أن يصورها في إلّا في رداثها الطويل تحوط بها حالة الوقار والاحتشام.

\*\*\*

ويجترى في الذهاب إلى المحطة في صباح اليوم الرابع فوجدت الشرفة خالية، ونقلت بعري إلى نافذة على يسار الشرفة رأيت الفتاة من جانب وجهها، وكانت تقف وقفة العناية والاهتمام التي يفهمها الشخص حيال صورته حل وجه المرأة، ومضت تسوي شعرها وتقمحه اللمسات الاحتشامية التي تشبه لمسات التذليل والمداعبة فانشرح صدري وتبعت يدها بجوارحي حتى خلعتي أجد مس الشعر الناعم واشمّ عرقه الطيب. ثم رأيتها تتحول عن المرأة وتطلّ من وراء زجاج النافذة على الطريق فقدرت من اتجاه وجهها أن عينها على طوار المحطة، ونزعت بخجل الفطريّ إلى خفص صفيّ، بيد أنني تشبعت ببعد المسافة بيني وبينها وثبتت عينيّ بجهد قليل. ترى هل وقع بصورها عليّ؟ وهل ذكرت حتى الأمل الذي التفت عيناه بعينها لحظة بديعة؟ كلا إنّا لا نحسّ لي وجوداً، ولن نحسّ بهذا الوجود. لبثت قليلاً، ثمّ تراجمت إلى الداخل وغبأت عن ناظريّ. وقطعت طوار للمحطة ذهاباً وجيئة، ثمّ عدت إلى موقعي، وجاء ترام إثر ترام ثانٍ وأنا بمكاني كالمتنظر. وفي أثناء ذلك ظهرت في الشرفة فتاة في العاشرة في مريّة زرقاء أدركت لتؤي أنّها أختها. ثمّ رأيت فتاة تبرز من العيارة وتتجه صوب المحطة المقابلة. رأيتها تسير لأول مرّة، فتحدثت مشية هادئة مترنّة توافق وقارها الجميل وتناسب قلّها الرشيق وقسمتها السطولية. وتحركت في أصعالي الإعجاب والإحترام. وأرسلت بناظري حتى جاء الترام وصعدت إليه. استوفيت جزاء الانتظار سروراً وإرتياحاً، وربكت الترام مزوّداً باطّيب أزاره الأحلام ولم يخف عني اهتلامي بها وسروري باحتشامها وقارها، فلم أشكّ في أن التطلع لذلك البيت سيكون من الآن فصاعداً هوايتي. وقلت لنفسي: «ما أحوجني إلى رفيقة

ترقد، فالجهد صوب المحطة الأخرى بقدمين قلقتين وقلب يغمص في صدري فرقاً، وسررت بها مسترقاً النظر، فرأيت في عجلة المدحور عينين صليتين صافيتين تقطران ملاحه، وأنفاً صغيراً دقيقاً وشفتين رقيقتين، ولعلّها أحسّت حرارة بصري فرفلت عينها عرضاً فالتفت حينئذ، ومرعان ما استرددت بصري لأنه أيسر عليّ أن أحلق في قرص الشمس إنان اعتدالها من أن أحتمل وقع نظرة عين، ومضيت إلى طرف الطوار ولبثت حائراً لا أدري كيف أعود إلى المحطة الأخرى. وشكل إليّ أنّي ارتبكت شططاً جنوبياً فلوغقت نفسي في روضة عسيرة المخرج، هكذا كانت تتراءى لي أفقه الأمور. ولبثت متسماً حتى استقلت الفتاة الترام وخلا الطوار من المتنظرين فعدلت إلى مكاني لاهثاً، وجعلت أحدث نفسي: أجلّ بها من ملاحه ورشاقة واحتشام! وعشت مع خيالها يومي فلم أكد أنتبه إلى ما يلقى عليّ من محاضرات. وهل قدر ما نازعتني النفس إلى تحلي عواطفني على قدر ما ازدادت كرهاً للمحاضرة التي تعترض سبيل أخيلني، ففاض بي شعور بالتمرد على تلك الحياة الدراسية التي تغلب عقلي وتتجاهل قلبي وشعوري وكأني أنتبه إلى قلبي لأول مرّة، فأحسّ به حضوراً حياً مثل بقية الأعضاء، يهيج جوع المنة، ويرقّ رقّة النفس، ويتشوّف تشوّف الروح، فتشمتت أن أكسّر حياتي لسعادته، وأن استسلم لحسان المنة التي تتفجّر عنها بانيهه.

تهدت من الأحقاد وأنا جالس في نهاية قاعة المحاضرات بجسم حاضر وعقل غائب. وحذنتني نفسي بأن وراء هذه الحياة الجافّة الضيّقة للكبتة بالأغلال حياة ناعمة واسعة حرّة، فهتّت نفسي إليها في جزع ولهفة. وعدت إلى الفتاة، ولم يقطع خيالي هذه المرّة بالرؤية. فخلق ما شاء له هواه فرأيتني الفت نظرها إليّ، واقتربت منها كما فعلت في الصباح، ولكنّي لم أرتبك كما ارتبكت فأولمت إليها في جسارة نادرة، ويغلبها ابتسام المودة فتبسم إليّ، وأهمس لها بما أحبّ وتهمس لي كذلك، ونركب الترام معاً، وفي مكان ما على شاطئ النيل أقول لها أحبّك، فتقول لي بوجه

ولم يتركه وغادرت البيت في ارتياح مطمئناً إلى ما عسى أن يتركه منظرني من أثر حسن في نفس الفتاة إذا شاء القدر أن يلفت عينها إليّ. بيد أن ارتياحي لم يطل، وذكرت أمراً طلالاً نقص عليّ صفوي، ففتر حماسي.. ذكرت ما رميت به كثيراً من ثقل الدم، ولم أستبعد في تلك اللحظة أن يكون ذلك اللعة في إنخفاقي في اكتساب صديق واحد، وسرعان ما تكذّر صفوي ونجّمت لي الدنيا.. وسرت بخطا ثقيلة حتى انتهيت إلى المحطة. ودار بصري ينقب في مكانها حتى استقرّ عليها في الشرفة تحتسي الشاي كما رأيتهما أوّل مرة. هناك نسيت كلدي وممي، وانشرح صدري، وانبثت السرور في كل قطرة من حي. هناك أدركت أنها سروري وفرحي وأنها روحي وحياتي، وأنّ الدنيا من غير طلعة عيناها لا تساوي ذرة من رماد!

\*\*\*

وواظبت على ذلك الموعد الذي لا يدرى به الطرف الآخر شهرين أو يزيد، يوماً بعد يوم دون انقطاع أو تأخير. تطلّمت بناظرني حتى كلّ البصر، ووهبتها الإعجاب والاحترام عن طيب خاطر حتى نُزّلت بها، وتخلّيت السرور والأحلام حتى نسيت الحقيقة والواقع، وسعت في دنيا الهيام حتى سلبت العقل والرشاد، حفظتها عن ظهر قلب، طولاً وعرضاً، إمّاءة ولفّة، وقفة ومشية، سكوتاً وحركة. وعرفت من وراء زجاج النوافذ أسرهما من أب وأمّ وأخت وأخ، كلّ هذا وهي لا تدري بي، ولا تحسّ في وجودها، وكأنّني بالنسبة إليها ليس من سكان هذا الكوكب. وأمضي الجزع والضيق، وأحرقني الرغبة في إثبات وجودي، ولكن شدّني عجزني إلى مسوقي لا أتمدّاه. حلمت في شرودي كثيراً بأنّي أعرّض سبيلها، وأتبعها، أو أنّي أبوح لها بإعجابي واحترامي. أمّا في الحقيقة فلم تكن تبرز من باب المهارة حتى ينفض قلبي حياءً وخوفاً، وحتى أتعباً لنفسي بصري فيها إذا ألجمه بصرها نحوّي. ولعلّه كان أسهل عليّ أن أرمي بنفسي من جسر الملك الصالح من أن أصمد نظره من عينيها. وكنت أتأمل في يأس وجزع متى تشبه لوجودي؟ متى تدري أنّ

لحياتي في مثل كمالها! وضاعف من حسرتي أنّني عشت حياتي بلا رفيق. على أنّي شعرت بقلق من جرّاء إقصائي عن هذه الرغبة، كما شعرت بحياء شديد. ولم تكن تلك أوّل مرة أفصح بها عن الرغبة في الرفيق، ولكنّه كان إقصاءاً عابراً وتشوّفاً عاشاً ورغبة بلا هدف معيّن وشوّفاً غامضاً، أمّا هذه فإفصاح خطير. حرّك حياتي ونفوسني، وتشوّف خاصّ، ورغبة يفرّز بها أمل، وشوق يستمدّ التوقد كلّ صباح. وأعجب ما في شعوري أنّه كان شعوراً بيتياً إن صحّ هذا التعبير، فانصبّ من بادئ الأمر على الفتاة وبيتها، وما ذكرتها قطّ إلّا وتحضرني صورة البيت، فامتزجت الصورتان في غيائتي، وثالثا من اهتلامي وأحلامي نصيباً واحداً! وسرعان ما ثقلت فيها زوجتي! ولا عجب لأنّ امرؤ إذا وقعت عيناه على فضاة في الترام نشطت أحلامه الشاردة فتصوّر أنّه خطبها وعقد عليها وزّف إليها والترام لا يزال في منتصف المسافة ما بين جسر الملك الصالح وجسر عباس! فكيف لا أثقل نشأة الصباح زوجة؟! وملكني الإعجاب والاحترام، وقدسيّة الإحساس البيّتي، وحنان العاطفة الزوجيّة، وانتظم هذه الأحاسيس خيط موصول من الليل الصادق، لعلّه الحبّ الذي لم يعرفه قلبي.

وفي صباح اليوم الخامس أطلت وقفتي حيال المرأة قبل أن أغادر البيت، وألقيت على صورتي نظرة متفحّصة. ينبغي أن أعترف هنا بإعجابي الشديد بذاتي! فلم تكن أنانيّتي بقاصرة على سلوكي، ولكنّها امتدّت إلى حبّ الصورة والإعجاب بها. ولشدّ ما أتعمت النظر إلى هاتين العينين الخضراوين الواسعتين، وهذا الأنف الدقيق المستقيم، وهذا الوجه الطويل المتناسق ذي البشرة البيضاء.. وكان تأثقي مضرب الأمثال في البيت والمدرسة على السواء حتى لأذكر قول أستاذ اللغة العربيّة في مرة: «لو أنّكنت العربيّة إنّك لتلقد رباط رقبتهك لما كنت أسوأ تلميذ عندي!» نظرت إلى صورتي طويلاً ذاك الصباح وجعلت أنّي ترمفني بإعجاب وتمازجني بكلمات كالنزل فقلت لنفسي آه لو تدري لمن أنا أنانيّ!

مقضيًا عليّ باليام الصامت المنفرد وحيثي على قيد  
خطوة مَيّ!

١٧

واغترس سبيل حدث لعمّ في ذاته ناله، ولكنّه  
غير مجرى حياتي. وكانت حيالي الدراسية نزاعًا  
متواصلًا بين عقلي الراكد ونفسي الشاردة يتمخض -  
كما تمخض في الماضي- عن عناء شديد وثمرة قليلة.  
وقد بات الشرود لديّ ملكة أسرة غلبت على نفسي  
جميع قواها العقلية، حتّى أشفت من ألا أنال  
الليسانس قبل الخامسة والثلاثين! على أنّي عرفت من  
خطورة دراسة القانون أشياء غاب عني شيء لا يكاد  
يقيم له الطلبة وزنًا، بل يقبلون عليه في سرور  
ويعملونه رياضة وهواً، ذلك هو درس الخطابة. وكان  
يلقى علينا مرّة في الأسبوع في مدرج عامّ يحضره جميع  
طلبة القسم الإعدادي. وفي أثناء الشهرين الأولين  
استمعنا إلى دراسة نظريّة في فنّ الخطابة ثمّ بدأ  
التدريب العمليّ. وطق الأستاذ يدهو الطلبة إلى  
ارتجال الخطب في الأغراض المختلفة فكانوا يخطبون  
بطلاقة، وبأساليب جهرية، في ثبات وشجاعة  
ورحّة أنصت إليهم في دهشة مقرونة بالإعجاب  
البالغ، ماضونًا بطلاقتهم وشجاعتهم، مذهولًا  
لقدرة على التصديّ لهذا الموقف الرهيب حيال هذا  
الجمع الحاشد، فكانت ألتطّرع بالهجل نياحة عنهم حتّى  
يتفضّد جيني عرقًا! وما أدري في أحد الأيام إلّا  
والأستاذ ينادي:

- كامل رؤية لاظ!

ونفضت قائمًا بحركة عكسيّة، في الصّف الأخير من  
المدرج - المكان المفضّل عندي - حيث لا تقع عليّ  
عين... وأحدث اسمي اهتمامًا ساخرًا، فهمس  
أحدهم قائلاً:

- هذا حفيد لاطوغي!

وتساءل آخر:

- اسم هذا أم فعل؟!

هناك قلبًا غريبًا يكرّ لها من الوداد أضعاف ما يكرّه  
لها الوالدان؟!... أليس غريبًا أن يمرّ شخص مرّ  
الكرام بقلب يودّ لو يفرش شفافه تحت قدميه؟!

وترجّرت أفكاري - تلك الفترة - في قلبي بالآماله  
وأماله، مخاوفه وأفراسه، وشعرت شعورًا قويًا بحاجتي  
إلى نصيح أو مشير، وكانت أمّي هي صديقي الوحيد  
في دنياي، ولكنّي لم ألتوجّه إليها بطبيعة الحال في أزمني  
تلك لشعوري بأنّها ستقف من رغبات قلبي موقف  
العداوة!... بيد أنّي وجدت في بعض المجلات التي  
يقرأها جدّي صفحات خصّصة لأسئلة القراء فأملت  
أن أظفر منها بالمشير الذي أفقد. وأرسلت إلى إحداها  
هذا السؤال الذي أفضّض مضجعي: «رجل ثقل الدم،  
أليس ثمة أمل أن يحبّه محبوبه؟» وكان جواب المجلة  
«الحب مرّ من الأسرار لا شأن له بالحقّة ولا بالثقل،  
وقد يتعاضى عن القبح والدعامة فلا تخف على حيّك  
من ثقل دمك!! وإذا جاز لنا أن نتلف عن طبيعة  
المرأة فلعمّ يصحّ أن نقول إنّها مفرسة بالقوّة  
والشجاعة» سررت بمطلع الإجابة، فلمّا أن بلغت  
ختامها خامرني شعور بالخيبة، وتساءلت عمّا يعنيه  
بالقوّة... أه. لست قويًا على أيّ حال، والحقّ أنّ  
إدساقي العادة المرذولة جعلني نحيفًا أكثر ممّا ينبغي  
وأضفى على بشرتي شحوبًا. وعندما ذكرت الشجاعة  
لم أتمالك نفسي من ضحكة مريرة، وعددت ما ينبغي  
في فله الدنيا من الأناسي والأجواء والفسيران  
والمراصير، فعصر اليأس قلبي!

ولكنّي لم أسلم لليأس لأنّ النار التي تستعر بنفسي  
كانت أقوى من أن تخمدتها ضربة من قبضة اليأس  
الباردة، فأرسلت إلى المجلة هذا السؤال: «كيف  
أجذب محبوبتي؟» وكان الجواب: «انذهب إلى أبيها أو  
وئّ أمرها واطلب يدها إليه وئّ كفيّل بأن تحبّك».   
ربّاه، ما أنسى المجلة! إنّها لا تدري أنّي طالب، وأنّ  
أمامي أربعة أعوام - أو ثمانية - قبل أن أصير رجلًا  
مسؤولًا، وأنّي فوق هذا كلّه أقدر عليّ اقتحام أبواب  
جهنّم مَيّ على طرق باب محبوبتي لأطلب يدها... يا  
أسفا، ألا يعلم هؤلاء الناس ما الخجل؟! ما أراني إلّا

مفتشاً عليّ، وتولاني ذلك الإحساس الحاذق بالقنوط الذي يمسك بختاننا في الكابوس. ولم يخطر لي لحظة واحدة أن أفكر في الموضوع، ولعلّ أنسينه، ولم يكن يدور بخلدني إلا هذا السؤال: متى تنكشف هذه الغمّة؟ ومثل الأستاذ الانتظار فقال:

- تكلم. لا تحشّ الخطأ. أصبح عمّا ببالك جيئاً. ربّاه متى ينقضي هذا العذاب؟ هيهات أن يرثي أحد لي. وما هم الطلبة يتغامزون ويتضاحكون، وقد قال أحدهم بلهجة من يحلّر إخوانه من الاستهانة بي:

- هكذا بدأ سعد زغلول.

وقال آخر:

- وهكذا انتهى!

وصاح ثالث:

- انتصروا إلى بلاغة الصمت.

وامتلاً المكان ضجّة وضجحات فدار رأسي وأخذت أنتفس بصعوبة، ثم صمّمت على إنهاء ذلك الموقف المحزون فغادرت المنصة ومضيت صوب باب الخروج دون التفات إلى نداء الأستاذ، وضجّة الشياطين تلاحقني وتصلّك أنفي، وما زلت أخطب على وجهي عموماً هادئاً حتّى انتهيت إلى عكّة الترام. ورحلت أردد بتصميم وحتى «لن أعود... لن أعود، وكان ذلك التصميم البلسم الشافي لجرّح ذلك اليوم. أجل لن أعود، ولن تقع أعيهم عليّ مرّة أخرى، ولن أعرض نفسي لبسات الهزء والسخرية، وآية فائدة ترجى من العودة إلى الكليّة ما دامت حياة الحقوقي لا تخلو ساعة من هذه المواقف؟! الأفضل أن أسدل الستار على عهد الدراسة كلّها، وحسي ما عانيت من عبوديّة العذاب. وتعرّيت بهذا التصميم عن جميع ما لحقني من مهانة وإحراج بل نسيت به ألمي وحفني فتركّب صدري للحرّق بنسمة ارتياح، وعدت إلى البيت وليس أمام عينيّ إلا ذلك التصميم... وبعد الغداء قصصت على جلدّي وأتمى ما لقيت في يومي من شدّة ومكروه، واختنق صوتي بالبكاء وأنا أقول:

- هذه حياة لا تطلق، ولن أعود إلى الكليّة أبداً.

وقفت مبهوراً خافق الفؤاد، فقال الأستاذ:

- تعال إلى المنصة...

وتسرّرت في مكالي في ارتباك لا يقبل لي به، ورغبت أن اعتذر ولكنّ بعدي عن الأستاذ كان يوجب عليّ أن أحلّي صوتي فسمعه الجميع، فسكّ على رغي. ونظر الأستاذ إليّ دهشاً، ثم قال:

- مالك واقفاً لا تتحرّك؟!... تعال إلى المنصة!

واستدارت الرؤوس إليّ حتّى شعرت بأنّي أحرّق تحت وقعها، واستحثني الأستاذ بإشارة من يده، فقلت على كره:

- لماذا؟

وضحك كثيرون من سؤالي، وقال الأستاذ بحدّة:

- لماذا؟! لكي تحطّب يا أخي كالآخرين!

وقلت بصوت منخفض لم يجاوز صفّين من المدرج:

- لا أدري كيف أخطب!

وطبعت أنّ صوتي لم يبلغ الأستاذ فتطوّع طالب قريب بإبلاغ جلي صائحاً بلهجة ساخرة:

- يقول إنّه لا يدري كيف يخطب!

فقال الأستاذ بلهجة تنمّ عن التشجيع:

- هذا درس تدرّب، وأخلق أن يتفّع به من لا يجيد الخطابة. تعال...

ولم أَر مناصاً من الذهاب، فحرّكت قدمي في جهد وعذاب كأنّي أساق إلى المشقة، ثم ارتقيت المنصة في حالة ذهول، ووقفت محدّقاً في الأستاذ باستسلام واستعطاف مؤلّياً للمدرج جانبي الأيسر. وأدرك الأستاذ ارتبائي فقال بلطف:

- انظر إلى زملائك، واملِك جناتك، وتكلّم كأنك وحدك. لا بدّ من اعتياد هذه المواقف لأنّ حياة الحقوقي لا تخلو ساعة منها وإلّا كانت هراء لا معنى له. كيف تقف غداً في ساحة القضاء سواء تحت ظلّ النيابة أم المحاماة؟! ادعُ شجاعتك واخطب هذا الجمع حاثّاً إليّ على التبرّع لإحدى الجمعيات الخيرية. وتطلّع إليّ الجميع باهتمام شديد لم يحكّ بمثله الخطباء المصاقم، فحملت في الوجوه المتطلّعة دون أن أرى شيئاً، ولقيّ ذهول وخجل محب فكدت أضع

مغروقة العينين. ومع ذلك فلست أشك في أن معارضة جدي كانت نصف جذبة فقط. ولو أنه أراد حقاً أن يكسر عزمي لما وسعني خالفته. والحق أن امر مستقبلنا كان يمثل من تفكيره مكاناً واسعاً وخاصة في تلك الأيام الأخيرة التي استوفى فيها شيخوخته، ولعله ارتاح لاقترح توليفي ليطمئن على مصير أمي.

وهكذا انقطعت حياتي الدراسية بعد أن قضيت ثقباً وشهرين بكلية الحقوق، بيد أنني لم أجد السرور الذي كنت أحلم به. أجل لم أفكر لحظة واحدة في الرجوع إلى تجربة الدراسة القاسية، إلا أنني وجدت نفسي بحاجة شديدة إلى انتحال الأعذار الكاذبة عن انقطاعي عن العلم وفراري من معاهدته، وتصوير نفسي في صورة الضحية البرية. ومع أن محاولتي تلك نجحت لحد ما مع الآخرين أو على الأقل مع أمي الصديقة لي بالحق أو الباطل، إلا أنها لم تنفع معي إلا قليلاً. ملأني السخط والتبرم، وثار بي نزوع نحو تأديب النفس ومعاينتها، وأخذت ذلك النزوع صورة حملة هجائية على نفسي، فواجهت نقالهمي في تسليم واعتراف لأول مرة.

رأيت حياتي كما هي أحياناً شاردة سخيقة، وخجلاً وخوفاً يمتان الهمم، وأنانية مطلقة قضت عليّ بعزلة لا يؤنسها صديق أو رفيق، وجهلاً بالدنيا وما فيها، فلا زمان ولا مكان، ولا سياسة ولا رياضة، حتى المدينة الكبيرة التي ولدت وعشت فيها لا أعرف منها إلا شوارعين، وكأني أعيش في حجرة بمفازة وغشيتي كآبة ثقيلة فاجتريت أحزالي في وحدة قلبية مهلكة. ولكنني أمي لم تفارقني لحظة واحدة في تلك الأيام السود، ولم تطق الوقوف معي موقف المارضة طويلاً فسرعان ما تحولت من جانب المارضة إلى جانب الشايد، وتظاهرت بالسرور والارتياح، وقالت لي يوماً لتسري عني:

- الخير فيها اختار الله، وهل ثلك لأنفسنا شيئاً؟  
وعما قليل تصبح رجلاً مسئولاً، وبخي دورك في تدليل أمك لتقضي بعض ما عليك من دين!  
وقضينا الساعات الطوال ممأ، وأنا آنس بحديثها

وهال جذي الأمر فقال بانزعاج:

- آئت رجل! لا ليك خلقت بتأ. إذن لكتك أكمل الفتيات؟... أتريد أن تقطع حياتك التعليمية في السطور الأخير منها لأنك عجزت عن قول كلمتين!... والله لو كانت أمك مكانك لخطبت الموجودين!

وجعلت أمي تقبض أصابع ينها وتبسطها في تشنج وتقول:

- حسدوه... حسدوه يا ربها!

وحاول جدي أن يشفي عن عزمي تارة باللين وتارة بالعنف، ولكن اليأس ثبت عنادي فلم أنن، ولما فرغ صبره قال لي بحة:

- إذن ضاعت السنة، وليس ثمة فائدة من إلحاقك بكلية أخرى بعد انقضاء شهرين وثقب على افتتاح العام الدراسي.

فركبني الخوف أن يلقي بي تارة أخرى إلى عذاب التعليم فقلت:

- ليس ثمة فائدة من مواصلة التعليم.

وقاطعتني أمي هاتفة بالـ:

- لا تقل هذا يا كامل. بل لتواصلن التعليم سواء في هذا المعهد أم أمي معهد آخر.

وضرب جدي كفا بكف وهو يقول:

- لقد جن، وهذه نهاية التدليل.

ولكنني كنت كمن يدافع عن نفسه حيال الموت، ولم يعد بي من صبر أواجه به الطلبة والدروس والامتحانات، فقلت بقطر:

- لا أستطيع... لا أستطيع... ارحوني!

وثار جدل عنيف صمدت له بقوة لا يقبل لي بها، قوة مصدرها الخوف واليأس، حتى سكت جدي منغيظاً محنفاً. وبعد فترة صمت مرهق سألني:

- أترغب أن تتوظف باليكالوزيا!

فقلت خافض العينين:

- نعم!

واختلست منه نظرة فوجدته صامئاً مقطباً وبه تمثت بشاربه الفضي. وحولت عيني إلى أمي فأريتها

البعيد من «الطوار» حتى لا يصعقني وجودي على كثر منها. وجاءت بعد حين قليل تنهادى في مشيتها التي تجمع بين النشاط والوقار فاستقبلها قلبي بخفقان كزغردة اللسان، وليث غاضاً بصري ولكن في نشوة جعلت الدنيا من حولي أطباقاً وتربينات، وجاء الترام فركبنا معاً، وكانت أول مرة يجتمعنا مكان واحد فسرى من ملمسه إلى جسدي مثل الكهرباء، ووددت لو ينطلق بنا بغير توقف. وإلى الأبد. وحين غادرْتُ الترام عبرت الطريق متعجلاً إلى الطوار وأرسلت بناظرِي إلى مقصورة السيدات فوقعت على ظهرها وهي جالسة عاكفة على كتاب بين يديها. ولما تحرك الترام انفتحت فجأة إلى الرواء فوقع بصرها عليّ ثم ولّتي ظهرها ثانية. انتفضت من الرأس إلى القدم، وتسمرت قدمي في الأرض وعلقت عيني بالترام حتى لم أهدأ أتيت من معاليه شيئاً، ثم واصلت السير غائلاً عني حولي، سكران بالنظرة التي جادت بها السماء، وتساءلت في ذهول ودعشة لماذا انفتحت؟ أيّ داع دعاما إلى ذلك؟ بل أيّ داع يمكن أن يكون هذا إذا لم يكن تلبية لنداء روعي الخفي؟ إن الراديو يلتقط الصوت من تضاعيف الهواء على بُعد الشقة، فما وجه الاستحالة في أن تلمي الروح نداء روح أنصري مشحونة بالمهام والرغبة! وازدهاني ذاك الخاطر وأمنت في سعادة لا توصف بأن لروحي تأثيراً على روحها. ولكن رحمتك اللهم، فلشما ما ارتجفت تحت وقع النظرة الحافظة! ترى هل أنكرت وجهي أم ذكرت به الغي الذي تطلع إليها لحظة على المحطة منذ ثلاثة أشهر؟ وكنت قد اقتربت من الوزارة فعاودتني البقطة وريداً، وقلت لنفسي وكأني أودع ساعة النشوة المولوية وإني أحبها، وهذا هو الحب بلا زيادة ولا نقصان! وخرجت من دنيا المهام لأدخل دنيا الحكومة. وقلّمت نفسي للمدير فقلّمتني ببدوره إلى زملائي في الإدارة وكانوا تسعة. هؤلاء قلّة بالقياس إلى الطلبة وإتهم لرجال حقاً فلا يمكن أن أتوقع منهم زراية أو سخرية، ووجوت من صميم قلبي أن أبداً حياة جديدة غنيّة، ولما لم يُعهد إليّ بعمل ذلك اليوم

الطيب الشافي، ويفضلها وحدها انكشفت عني الغمة وتفتّح قلبي للحياة ونفض عن جوسهره غبار الوسواس...

## ١٨

واستشفع جدي بضابط عظيم من رجالات الجيش عن «عمل ملازماً صغيراً تحت رئاسته في السودان» على حدّ قوله، ليجد لي وظيفة بوزارة الحربية وكُلّل مسماه بالتوفيق ولكن الضابط أخبرني بأنني ربما عُيِّنت في السلم ولمّا قال جدي ذلك تجهّم وجه أمي وقالت باستنكار:

- السلم؟! ألا ترى أنّ كامل لا يستطيع العيش بمفرده؟

وكانت تظنّ السلم بلداً قريباً كالزقاق أو طنطا على الأكثر، فلما عرفت حقيقتها نذت عنها ضحكة عصبية وعذت الأمر مزاحاً. وصاح جدي متبرّحاً:

- وظفني بنفسك، أو عيّنه في حضنك وأريحني! ولكنه لم يأل جهداً فسمي لدى معارفه القدامى من سوايد القرن التاسع عشر عن عملوا قديماً تحت قيادته، ولعلهم تأثروا بشيخوخته الشائبة ونشاطه المولور. وما أيقظ في صدورهم من ذكريات فوعده خيراً، وجدلوا بالفعل وظيفة بإدارة المخازن بليون الوزارة العام. ولم يكن يفصل بين الوزارة وبين بيتنا إلا ثلاث محطات وعشر دقائق مشياً على الأقدام فرضيت أمي وقّرت عينا، وقلّمت مسوغات التمييز وتقلّمت للفرسيون الطيّب العام كالتبّع، وبالاختصار صرت موهّناً من موهّلي الدولة. وكان الشعور الذي لابسني وأنا أغادر البيت ميمّاً الوزارة لأول مرة شعوراً معقّداً، فيه زهو وخيلاء، وفيه فرح بالتحرّر من عبودية البيت والمدرسة على السواء، ولا يخلو من قلق يساورني كلياً أقبلت على جديد من الأمر. ومضيت بقلب خائف إلى محطة «عسبوت» لأنّ طريقنا أصبح واحداً منذ ذلك اليوم السعيد ولو لمحطات معدودات، ولئن لم يكن في الوظيفة إلا هذا لكان حسبي من الهناء والسرور، واحتلت بقلبي الضعيف فوقفت في الطرف



مستولاً، أما الآن فلم أَرُ أُملي إلا مستقبلاً متجهباً  
مريراً لا نجاة منه إلا الموت. أجل أدركت أنني لن أظفر  
بالراحة مدى الحياة، وأنه لن تزيلني الرغبة الخفية في  
الحرب. ولكن إلى أين هذه المرة؟ وما يمكن سر بلوتي في  
عجزي حيال العقبات فحسب، ولكن في تفسيهما  
وتكبيرها، فإني نصّيت من عقلي حرب أعصاب هائلة  
ضد نفسي... لم أؤش نفسي على الحياة في الواقع،  
ولم أؤكثها على احتلاله، فلم أدري ما فلسفة الرضا أو  
الاستهانة، كما أنني لم أؤدر على فلسفة القوة أو الثورة،  
وكان إذا صادفني أمر لا يحتمل - والدنيا كلها عندي لا  
تحتمل - راح خيالي السقيم يصنع من الحبّة قبّة،  
ولاقيت الهَمَّ بما يشبه الصبر في الظاهر على حين  
انطوي على نفسي في كمد قاتل وهم فتاك. لذلك لم  
يخلُ مكان أحلّ فيه من حدو حقيقتي أو وهمي. كان  
التلاميذ والمدرّسون أصدائي القمصاء فغدا الموقوفون  
أعدائي الجدد.

\*\*\*

ولكن كنت أنت العزاء والسورود الحياة صحراء  
قاحلة مهلكة وأنت بها وحكك الواحة الخضراء الرطبة  
تلوذ بها النفس. ووالله ما حملت للوظيفة من شيء إلا  
أن تقلني طريقها إلى عمتك، فمتنهدا أنتظر كلّ صباح  
مطلعك حتّى إذا رأيتك مقبلة في خفّة الغزال ووقار  
الطاووس تراجعت إلى طرفها البعيد فيها يشبه الدهر  
ودعوت الله أن يحقّف عني شدة الحفان ثم أشرق  
إليك اللحظ متحاملاً أن تلتقي العين بالعين لما تقاوما  
جلل لا يصمد له إلا الأكفاء. وإذا جاء الزمان ركبنا  
معاً ولا تدرين سروري به إذ يمحلمان معاً، ثم أغادره  
فيسير بك إلى هدفه المجهول مزودة بدعائي أن يصونك  
المولى ويسمّلك، وتبقى لي بعد ذلك صورتك عاقلة  
بخيالي تذرّ عليّ الأوس في وحشة سجن الجديّد. ولكن  
إلامّ أظلّ على تلك الحال؟ لقد صفق الجزع بقلبي،  
وأضّيت الانتظار.

وزاد من التبايع أنني جعلت أراها في الأصائل كما  
أراها في الأبكار، لأنني كنت أغادر البيت عصراً كما  
يجلو لكثير من الموقوفين في غير معارضة من أمي التي لم

وجدت فسحة لمعاودة خواطري السعيدة عن الحرّية  
التي أمّني النفس بها، والتي أرجو بها أن أستغذ نفسي  
من سجن البيت وعبودية المدرسة، ثمّ عن النظرة  
السعيدة التي أنتزعتها روحي من الأحقاد قوّة واقتداراً.

\*\*\*

وأقبلت على الحياة الجديدة بأمل جدّاب. وظفرت  
بأوّل نوع من الصداقة عرفته في حياتي، وهو ما  
يسمّونه بصداقة والمكاتب هي صداقة جبريّة تفرضها  
زمالة الموقوفين في المكتب الواحد. وقد فرحت بها بادئ  
الامر لأنّه لم يسعني - أنا الذي لم أعرف في حياتي  
صديقاً - إلا أن أفرح بين تسعة من الرجال ينادوني بلا  
كلفة، ويستقبلوني ويودّعونني بأطيب تحية. ولكن  
وأسفاه قام عجبلي حاجزاً منيحاً بيني وبينهم. ثمّ أثبت  
لي التجربة أنّ تلك صداقة لا تستحقّ الأسف عليها،  
فهي تبدأ مع الصباح بالصباح والتحية والمداعبة وقد تنقلب عند  
الظلمة إلى وقعة دنيّة تخمد بإنداز أو عذاب. والأدهى  
من ذلك أنني لم أعرف لي عملاً مستقلاً، ولكن ما من  
واحد منهم إلا ويكلفني بعمل آلي إنقلده صاغراً. وربما  
قضوا أكثر النهار في ثرثرة وتدخين وشرب القهوة وأنا  
مكبّ على الأوراق في شبه سخرة. ولا شكّ أنهم  
فطنوا بحكمهم إلى أنني «فَرّ حَجُول» فاستغلّوا ضعفني  
أسوأ استغلال. وشاق صدرتي، ونحيا سروري بالحياة  
الجديدة في الشهر الأوّل منها، وأهنتني آلي المستجير من  
الرمضاء بالنار زاد من سوء حالتي أنّ الشرود لم ينقطع  
عني أثناء عملي فوقعت مراراً وتكراراً في أخطاء  
السهر، وتواترت عليّ الانتقادات الساخرة والإنذارات  
ممن يدهونهم «برؤساء اليد» فكانتني ردتت إلى المدرسة  
بتلاميذها ومدرّسيها، فعاودتني مراة حياتي للماضية،  
وصحّ عندي أنني لن أظفر براحة حقيقة ما دمت على  
صلة بأحد من الناس... واجترأت الآمي في خفاء.  
ولم أكن أؤثر على شيء فقد غمّ بشقيتي، وكان يديني  
دائماً أن أطيع بقلب دامٍ كظيم، وسخط مكتوم. وزاد  
البلاء حدّة أنني لم أجد حياتي متحوّلاً، ولا أملاً في  
الخلاص ولو بعد حين. وقد كنت أتمكّد في للمدرسة  
أحياناً على أمل أنّها تنتهي يوماً فاصير رجلاً حراً

وابتعت بالفعل فراشا ولكني ركبته في نفس الحجرة  
فطلعت نحوينا معاً، وهي الحجرة التي رايت فيها نور  
الدنيا.

١٩

ثم كان صباح تاريخي في حياتي إذ وقع بصرها  
عليّ. والتقت حينئذ وهي قادمة نحو المحطة،  
وارتعت جوارحي وتساءلت وأنا أعاني الحياة: ترى  
الم تذكر الفتي الذي رآته يوم لبت نداء روعي؟  
وأسكرتني نشوة لم يخمدها مجيء الرجلين المنافسين  
نفسه. وحلنا الترام جيئاً حتى محطة الوزارة فغادرته،  
وهرعت إلى الطوار ثم بحث بناطري إلى مقصورة  
السيدات، وكانت تجلس في الصف الآخر ووجهها إلى  
ناحيتي فالتقت حينئذ مرة أخرى، وهضمت بصري في  
حياء وصودي بالسعادة بترده، ثم هضمت لنفسي وأنا  
أجد في السير «برح الحفاء واقتضعت» وقد تذكّرت  
سعادتي عصراً وأنا جالس في حجرتي غير بعيد عن  
أمي فقلت لنفسي وأنا أخلس منها نظرة غريبة وآه لو  
تدري بأفكارتي! الم تعلمني تجاربي الماضية أن مثل  
سعادتي هذه مما تعدّه هي - أمي - كثيراً لا يُغتفر؟! هذه  
حقيقة لم تنب عن خاطري قط، ومع ذلك بدت لي  
وقتل ذلك غريبة مستغرة كأنما اكتشفها لأول مرة،  
وسدّدت نحو الوجه الوفور الجميل نظرة احتجاج  
واستياء، وقلت لنفسي متغشياً: «ربما كان الضرر يقع  
بي أخفّ لديا من كشف حبي». ولعلني بالغت  
كثيراً، ولكن سيرتها الماضية جعلتني لا أروى إلى الجانب  
البهيج من الحياة إلا في خوف وحياء شديدتين من  
ناحيتها! وكأنما ضقت بكتمان سعادتي في حضرتها  
فغادرت البيت مسروراً وهرعت كالمتعاد إلى المحطة  
القديمة، وسبقني بصري فوقع على الشقيقتين وراء  
زجاج النافذة فتقلّبت في سعادة غامرة، أمشي على  
استحياء. . . واندست في زحمة الواقفين وقلبي يتمنى  
ألا أبرح المحطة حتى يسدل الليل سدوله. وكان الجو  
شديد البرودة فداخلي سرور باتي التحمل قسوة الجو في  
سبيل نظرة من عينها. ولم أشك في أن طول قامتي

يعد بوسعها أن تعارض في ذلك. وكنت أهرع إلى  
محطتي القديمة لتلقاء بيتها، فأقف بين المنتظرين  
مستطلعاً مشرق روعي بطرف مشوّق، فأحياناً أرى  
الأم أو الأب أو الأخ أو الأخت، وأحياناً أراها في  
قستان بسيط أتيق من فساتين البيت يزلزل نفسي زلزلاً  
شديداً.

لم أعد أرى لحياي أملاً إلا في الرفيق الأنيس،  
فهتئ بها هيئاً، واستأسترتي رهبة صادقة حارة في  
السعادة التي لم يكن لها من معنى في نفسي إلا أن أفي  
فيها وأن تفي في. بيد أنني لم أجاهل العقبات، وهل  
كان دأبي إلا تكبير العقبات؟ فلم أنس أنني في أول  
الطريق وأن سرّتي سبعة جنبهات ونصف؟ ثم  
لاحظت بمزيد القلق أن ثمة رجلين يقفان معنا في  
المحطة صباحاً لا يفان بصمان النظر في وجه الفتاة  
باهتمام. أمّا أحدهما فرأيت يفرج مژمات من العيارة التي  
تقيم فيها، وهو رجل في نحو الأربعين تلوح في وجهه  
آي الرزاة والوقار، ويشم بطابع المولّفين الممتازين.  
وأما الآخر فشاب في الثلاثين ميال للضخامة والبدانة  
مع أناقة ووجاعة، إلا أن إيماءاته ونظراته تنم عن  
العجب والزهو. وعجبت لتطلمها المتواصل إليها وما  
من داع إلى العجب، ولكني ظننتي - ويا له من ظنّ  
مضحك - أول من يبيّ له كشف ذلك الكنز. وثار بي  
الغضب والحقد، وتلوت دودة الغيرة في سويداء قلبي.  
إنها لا تحيد عن نظرتها المستقيمة ولكن ترى هل  
تجهلها حقاً كما تجهلني؟ خصوصاً هذا الجبار الذي  
يقطن تحتها أو فوقها؟ وتقضى قلبي فرغاً ومأساً  
ورمقتها بغيظ كأنها المستولة عن اهتمام الناس بها؟  
واكتردت حياتي بين عمل ممقوت وحب حائر  
غريب.

وكان بيتنا في ذلك الحين يعدّ من البيوت السعيدة،  
اطمأنت قلوب أهله، فسكن خاطر الشيخ المحرم،  
وقنعت أمي بما قسم لي ولها. بيد أن جدّي قال لي يوماً  
بلهجة سائرة:

- ألا أنجل يا رجل وابتع لك فراشاً، أنظّل الدهر  
تنام في حضن أمك؟!

وما كان قد كان». ومرة رأيت الأخت الصغيرة في النافذة وأنا مقبل نحو المحطة عصراً، ولما لمحتني التفتت إلى الوراء كأنها تحاطب شخصاً لا أراه، ثم بدت الأم وراء زجاج النافذة وألقت عليّ نظرة متفحصة. رثاءاً لقد داخلي شعور الجاني إذا صُبط مثلثاً بجريمته. ولم يبق ثمة شك في أن البيت يعرفني، وازدحت يقيناً فيها تلا ذلك من أيام! فما كان يقع عليّ بصر أحدكم حتى يتفحصني باهتمام إلا مولائي طبعاً وازدحت اضطراباً.

ورحت أسأل نفسي الحبرى عما يقولون، وعما يظنون، في منظر حسن خدام، ولعلمهم يظنونني موثقاً مغبوطاً ذا مستقبل باهر أواه، ما كنت موثقاً كثيراً إلا في تقدير آتي، ولعلني نمت عند ذاك على قطع حياتي الجامعية، وعزيت نفسي المحزونة بأن سارت يوماً ثروة لا بأس بها! مهما يكن من أمر فلا داعي للخوف من البيت. بل إنّي لأشعر بأنه سمادتي المرسوقة. ولأنّي لأحبّه من جميع قلبي، أناسه وأثاثه وحجراته وحقّ خادمته. إنّي أعيش فيه بروحي، وأجاذب أهله - في الخيال - أشهى الأحاديث، أما حبيبتي فهي ملء القلب والعقل والخيال. وكنت إذا رأيت الفصيل منشوراً على الشرفة يهوى به نسائم الأصائل أرنو إليه بعين محبّ حنون، ويصرى يتنقل بين ألوانه وأشكاله مشغولاً بأهداب رفاق يطرب لها قلبي طرباً قدسياً كأنها يشتف آذانها سجع الحان إلهة! ولكم خاطبت حجرة حبيبتي موصياً إياها بما في اليقظة والنماد، وعندما تحلق بها الأحلام، أو حين تتحدث بنبراتنا التي لم أسعد بساعاتها.

ويوماً دفعني الهوى إلى البقاء في الترام حتى أوصول حبيبتي إلى مدرستها. واضطربت خوفاً وقلقاً من جرّاء المخاطرة التي نشبت فيها، وبلغ الترام العتبة الخضراء وعيناي لا تفرقان مقصورة السيدات لأرى أين تنزل حبيبتي. ودار الترام بنا تحتراً شوارع كنت أراها لأول مرة حتى عبر جسر أبي العلاء. وفي المحطة التالية له غادرت الفتاة الترام. وهبطت إلى الطوار وأنا أتبعها عينيّ فرأيتها تتجه إلى الطوار الأيمن بطولها الفارح

ومعطني الأسود خليقان بأن يذكّرها بي. ورفعت عينيّ في خوف شديد فرأيتها تنظر صوبتي وإن لم أتمكن لبعده المسافة من تحديد تحديدها عنيتها، ومع ذلك سرت إلى أطرافي رعدة السرور. وجاء الترام على رغبتي، ودفعني الحجل دفقاً إلى ركوبه.

لم يعد لحياتي من غاية إلا المحطة وصاحبة المحطة. قصاراي أن أسترّق النظر بعينين خجولتين، وأن أخفضهما سريعاً إذا رنت إليّ العيان اللتان أحبّهما أكثر من الحياة نفسها. ولم تعد فتاتي تجهلني كما جهلني أشهراً أربعة، فأحسّت بلا شك أن فتى يتطلع إليها حيثما تحلّ، وأنه يتعمّد ذلك في صبر طويل وإن كان لا يبدى حراكاً. بل ابتسم الحظّ فجعلت أفوز بنظرة كلّ يوم تقريباً. وإن بدا أن الاتفاق وحده هو باعثها، نظرة حابرة تلقى على المكان كلّ فتصادفني في جانب منها وفيها عدداً ذلك فقد حافظت على وقارها واحتشامها. أجل ما عادت تجهلني مهما تجهلني، وإنه لظفر رائع - بالقياس إلى عجزتي - أن تحسّ وجودي بعد ذلك النضال الصامت الطويل. وثابرت على النظر والصبر وكأني أنتظر أن تحيى الخطوة التالية من ناحيتها هي، أو من ربّ السماوات والأرض...

تلك أيام حلوة سميعة على خلوعها من الأمل. أنفقتها في إحساس عميق بهيج وأحلام لا يحيط بها الخيال، رفّت على قلبي في طهر وقداصة. وقد أوصدت دونها باب خلوتي الليلية، ولقّني الشيطانية.



وتبيّن لي بعد حين أن سرّي المكنون يتسرّب من أعماق صدري على تكتّمي وحرصتي. لا أدري كيف حدث ذلك، ولعلّ الأمر لم يعد أني أتسى نفسي في لحظات المهام فتفتح العين حتى على ما أحرص على كتمانها. وما أدري يوماً إلا والرجلان «المنافسان» يرمقاني برية، وكأنهما فطنا إلى ظهور منافس جديد. ويوماً مرّت بي في موقف من المحطة خادمة الفتاة فالتفت عليّ نظرة ذات معنى ذاب لها قلبي ذوباناً، وساءلت نفسي في خوف وسرور: ترى هل بلغ سرّي البيت نفسه؟ ثم غمغمت في حياة بالغ وانفضحت

الصالحة. ولم يحدّ جديد في حياتي إلّا مواظبتي على الصلاة بعد أن كنت أنقطع عنها في فترات متباعدة. ولعلّ هيان صدري بالحُبّ هو الذي هيأ لي ذلك الاتصال الطاهر بالله خمس مرّات في اليوم، علّ أنّ نفسي لم تتخفّف من ألمها القديم، وزادتها الصلاة ألماً، لما يفرط منّي في ساعات اللذّة الجنونيّة التي اختلسها بليل، فلم يعد يعني الكفّ عنها، بل زدت استسلاماً لها، دون أن يرحمني الندم يوماً واحداً، وليس أشقى من أن يفرحك الندم وأنت ذو إيمان. وما من شكّ في أنّ ذلك الصراع المتواصل هو الذي جذبني إلى إنعام النظر في نفسي وحياتي، فهالني أوّل الأمر ما تسير عليه حياتي من منوال رتيب فالיום فيها بعام والعام بيوم، ألم ينقض عليّ عام منذ تولّفتي بالحرية دون أن يحدّ جديد؟! عمر يمضي في ضيق بالعمل المقضيّ به عليّ، وفي وحشة لا تتبدّد إلّا ساعتين: ساعة المحلّة، وساعة الانس باتمي في بيتنا. وحتىّ تلك الأوقات السعيدة لم تخل من تنغيص والم، فعند حبيبتي كان يطاردني طيف أمي، وعند أمي كان يخيفني طيف حبيبتي. وتولّد من ذلك قلق غير امتزج في نفسي بما يثرّ بها من ندم فشطني بكآبة لا تريم. وإنّي إذا رجعت بالذاكرة إلى تلك الأيام أنعمت باللائمة على نفسي، لا لأنّي لم أجد سبباً وجيهاً لتصاصمي، ولكن لسوء صنيحي المعتاد في تضخيم الأحزان والألام، ولأنّي لم أواجه أمراً في حياتي بما يستوجبه من حزم وشجاعة. ولذلك لم تدبّ أمي حلة لسهومي الذي كان يفلّتها، ولطالما قالت لي بحزن وأسف:

- لماذا تبدو أحياناً كالحزين؟ لمعري ماذا ينقصك؟ أردت أن تكون موكّفاً فكنّت، ومتمكّكاً الله بسطف جذك الذي يحسّ لنا عيشاً رغيداً، وفي حلماتك أمّ لو استرحتها حياتها لوهمتك إيّاهما عن طيب خاطر، وبين يديك الشباب والصحة أدامهما الله لك. فلماذا ينقصك؟

وعجبت كيف تتعامل عمّا ينقصني... أجل إنّه عدّت لي نعماً سابقة، بيد أنّي أجهل فضل تلك

وقدّها الرشيق، ثمّ انعطفت إلى طريق جانبيّ يمتدّ بحذاء القصور المقامة على النيل، وسنحت منها الغائّة وهي تنمط إلى الوراء فوق بصرها عليّ وأنا واقف أنظر صوبها. ارتجفت أوصالي كأنّها متنيّ تبار كهربائيّ، وتصاعد دم الخجل إلى وجهي. وسرعان ما غابت عن ناظريّ فتقدّمت خطوات حتّى أمكنتني رؤية الطريق فرايتها تمتدّ بخطواتها الرشيفة، ثمّ مرّت من باب جانبيّ غير بعيد. وليت متسرّداً، وفكرت في العودة إلى الوزارة التي تأخّرت عن ميعادها بغير اعتذار، ولكن أبّت نفسي أن تنتهي المخاطرة بلا نتيجة. وقدّمت نحو المدرسة بقلب هباب، ثمّ مررت بها متعجّلاً، ولكّني قرأت اللافتة ومعهد التربية العالي للبنات، ورجعت إلى المحلّة وركبت الترام العائد وأنا أتساءل عن معنى ما قرأت. وعلمت ما فاتني علمه في إدارة المخازن فأخبرني موكّلف أنّه معهد لتخريج المعلّكات لمدارس البنات الابتدائيّة، وأنّه يدخلته بعد البكالوريا. وداخلني زهو لأنّ حبيبتي ستصير أستاذة، ولكن لم يغب عني الفارق الكبير بيننا في الثقافة، فلعلّت نفسي الخائرة التي حملتني على الفرار من الجامعة وساورني خوف وكآبة. ثمّ لجأت إلى المحلّة مشيري القديم فأرسلت إليها هذا السؤال: وهل يمكن أن تحبّ فتاة مثقّفة ثقافة عالية شاباً من حلة البكالوريا؟. فذكرت المحلّة في جوابها الأميرة التي أحيّت الراعي...!

وحلمت تلك الليلة بحبيبتي، فكانت أوّل زوادة في المنام...

## ٢٠

تركزت أحلامي في أمرين، أن أتمتّع بدخل حسن - وهو آتٍ يوماً ما - وأن أظفر بعروسي. لم أكن ممن يشقّهم الطموح، وإذا كان لي منه شيء فيها مغي من أيام الأحلام، فقد قُبِر في إدارة المخازن بوزارة الحرية حيث تعدّ علاوة نصف جنيه من الآمال البعيدة. أجل لم تبب بي الهمة في الطموح، ولكن هُتّت نفسي إلى السعادة والطمأنينة، إلى المعيشة الطيبة والزوجة الحبيّة

- إني لا يومن سعادتك ولكنك يردنك معية  
لسعادة بناتنا!

لم أفهم لقولها معنى، وقرأت في عينيها أنها ترجو أن  
أفصح عن عدم اكترائي للأسلمر، ولكنني تشجعت  
ولازمت الصمت، فقالت بلهجة تشي بالقلق:

- الزواج سعة، ولا يجوز أن يتزوج الشخص قبل  
أن تكتمل رجولته.

فسألت في امتعاض: إذا لم تكتمل رجولتي في  
السادسة والعشرين فمى تكتمل إذن؟ ووددت لو  
أصرح بأفكارى ولكن شجاعتي لم تسمحني فواصلت  
الصمت. ونقرست في وجهي ملياً ثم استطردت قائلة  
بجزع:

- إني أريد لك عروساً جديدة بك حقاً. يبهز حسنا  
الاعين، وتطري أخلاقها الأسلمر، من أسرة كريمة ذات  
عقد، فتهمي لك قصراً شاملاً!

فسألتها وأنا أداري غيظي:

- وأين توجد مثل هذه العروس؟

فقالت وهي تمسح شفتها:

- ستوجد حين ياذن الله!

وقلت لنفسي هذا تعجيز بلا ريب. واحتدم الغيظ  
بصدري وتراعى لي وجهها في حالة الغضب والثورة،  
فقلت لنفسي ساعطاً:

- إن آتي إذا احتنت توارى جمالها ونضبت مساحة  
وجهها.

٢١

الزواج! الزواج! لم يعد لي فكرة سواه، ولم أجد  
لحياتي معنى إلا أن تتم به. إذا لم تتزوج فلماذا إذن  
نعيا، بل لماذا وجدنا في الحياة؟ إني أحسن إليه حينئذ  
موجعاً تندى له الضلوع تنضح أشواقاً: إنه جنة المبتلى  
بنار المحيم. ولست أكتف لحظة عن تحمّله في أحلام  
اليقظة الشاردة التي تغيب بي عن الوجود. إني أراني  
لصق حبيتي وحل وجهها الأنيق تغلب الحرير المطرز  
بالفل، والشمع يزهر من حولنا. وأراني أمضي بها إلى  
مسكن في آخر القاهرة ولا أدري لماذا أحب أن يكون

النعم، وكانت لي بمثابة الهواء الذي ناعم به في كل  
لحظة من لحظات حياتنا دون أن يحظر لنا أن نشكر  
عليه. ولكني لا أنفك عن التفكير فيما ينقصني فيمضي  
ما أتطلع إليه عتاً أنعم به. إني شخص لم يقدر له أن  
يعرف شيئاً عن حكمة الحياة، فلم يخرج قط عن دائرة  
نفسه الضيقة، وفي ذلك سرّ دائي، هو الذي حال  
بيني وبين مسرات الحياة، وما فيها من فضائل ومعاني  
وصداقات، وطوى صدري على الغفور من الناس  
والخوف منهم، بل جعلني أهد الدنيا عدواً يترئص  
بي. ولعلّ لم يكن يرضيني إلا أن تخلي الدنيا نفسها من  
هومها لتكرس حياتها لسعادتي، ولتألم يسعها ذلك  
قاطعتها في عجز وخوف وناصبها المضاء، وانكملت  
في أحياق ذاتي جاهلاً ما يمثل صدرها من أناس وآمال  
وفضائل، وحق الحب وهو أول إحساس سام أفهمه  
وقفت حياه جامداً خائفاً، أنتظر في يأس أن يبادر هو  
إليّ...

ثم جاء دور آتي ولو متأخراً، فأضلت أفكر عليها  
وإن لبث ثمدي نازاً مكتونة لا يتطير لها شرر. ونشأ  
ذلك من موقفها الغريب حيال ما يذكرها بزواجي  
عاجلاً أو أجلاً. وقد لمست ذلك بنفسي حين حدثتها  
خالتي - في إحدى زياراتها الرسمية - عن رغبتها في  
زواجي من ابنتها التي صارت شابة ناضجة، فرأيت  
كيف تلقت الاقتراح بنرفزة ظاهرة لم تستطع معها أن  
تحافظ على ما ينبغي المحافظة عليه فيما بين شقيقتين من  
مودة أو جمالة فغادرتنا خالتي مغضبة.

ولسته مرة أخرى حين اقترحت عليها امرأة دلالة -  
كانت تزورنا في مواسم الكساء - أن تخاطب لي عروساً  
لائقة، فرأيت كيف انفجرت فيها غاضبة ساخطة حتى  
انعقد لسان المرأة دهشة وارتباكاً.

لاحظت ذلك بوجوم وغيظ، واستكرته استكثاراً  
شديداً، ولم أجد له تفسيراً أرتاح إليه. ولم تكن بي  
رغبة إلى ابنة خالتي، ولا إلى عروس من عرائس  
الدلالة، ولكنني آست منها كرمًا لزواجي، فأشغقت  
على آمالي، وثارت ثائرتي وبدا لي أن قلبها توجس  
خيفة فقالت لي يومًا:

وتردّدت لحظة ثم استطردت متسائلة:

- ولكن... لماذا تلقي عليّ هذا السؤال؟

وحولّت عنها بصري كثاني خفت أن تقرأ ما في ضميري، وقلت بعدم اكتراث:

- سؤال لا أكثر. أحبّ دائماً أن أعرف ما يحول بخاطرك.

فتهدّج صوتها وهي تقول:

- ليس بخاطري إلّا فوق ما تحبّ لنفسك من السعادة والهناء... ولكن ليس الزواج لهواً ولعباً، وإليك مأساة أمك فهي أكبر دليل على ما أقول. واذكر دائماً أنّ اختيار الزوجة مهمّة شاقّة، وهي من شأن الأمّ قبل أيّ إنسان آخر، لأنّ هذا ميدان تجاربها، وهي تعرف ابنها أكثر ممّا يعرف نفسه، وتستهدف سعادته قبل سعادتها هي، كذلك السنّ أمر عظيم الخطورة، وأنت بعد في حكم الأطفال... لماذا تلقي عليّ هذا السؤال وهنّا ازداد صوتها تهجّاه... إليك مأساة أمك فهي لا ينبغي أن تغيّب عن وعيك. كم تعدّبت، وكم تألمت، وكم كابدت الإهانة تلو الإهانة! كم بكيت حيناً إلى أطفالك الذين عاشوا غرباء عني ونحن في مدينة واحدة! وحتىّ أنت كان شبح فراقك يطاردني ويفضّ مضجعي، ولو أخذوك متى لقضيت غيماً وكمدّاً. وكم غنّيت الموت صادقة لأرتاح من وساوس حياتي المقلقة «خيّل إليّ أنّها تعني حياتها الراحنة بقولها الأخير» ولذلك كرّست حياتي لرعايتك، وضحيّت بسعادتي في سبيك، و... وتردّدت لحظة ولعلّها همت بتذكيري بالرجل الذي رفضته من أجل ثمّ عدلت. ولا تحسب أنّي آمن عليك، فالأمومة تستنكر الحقّ. ليته كان للنبوة بعض ما للأمومة من عطف. لشدّ ما تنسى... ربّاه لا تؤاخضني، أنا لا أدري ماذا أقول. ولكن لا تظنّ بأنك الظنون. إنّنا نعطي كلّ شيء عن طيب خاطر، حتّى إذا شبّ المولود عن الطوق لم يفكر إلّا في أن يولينا ظهره ويحدّ لنفسه مهرّباً. أقول مرّة أخرى لا تؤاخضني. لست أحسن ضبط نفسي وأسفاه. ولكن لقد عشنا ممّا طوال هذا العمر. وليس لي أمل في هذه الدنيا سواك، فإذا نبذتني

في آخر القاهرة. ثمّ أراها تنتظرني بالشرفة فأهرع نحوها وقد انطلقت من قفص إدارة المخازن فتجود لي سعادة ههناة يعجزني تصوّرها حتّى في الأحلام بيد أنّي لم أغفل الأحلام صافية فظالماً أعقبت نشوة الفرح الوهمي كتابة غامضة لا أدرىها، ولم يغلّ خاطري فكّر من وجه أمي المحبوب فكان يتناهي حيله شديد يتصبّب له جيبني عرفاً، ويغامرني شعور بالذنب تعافه النفس. فيتلوّ يوزي اشمثاراً...

ولفصلاً عن هذا كله فإنّني لم ألتخصّص من بعض هوى للمزوجة نفسها! إنّ حبّ الوحدة داء، إنّ أشبه بالمخدر تؤدّ منه فرازاً ولا تستطيع عنه فكاً، ويتفضّه لنفسك وأنت تعالي الحنين إليه. أتؤاتيني الجربة حقّاً على نبد ماضي الطويل؟... إنّ نفسي تنفر إلى البيت الزوجي السعيد حيناً، ثمّ يتملّكها الإشفاق على الوحدة الهادئة والطمانينة المغفلة من المسؤوليّات حيناً آخر. وإنّ الحرب من المسؤوليّات داء قديم حتّى لأضيق بحلاقة الذفن أو عقد رباط الرقية، فكيف أنبري لحمل تبعات البيت والزوجة والذريّة وما يجرّ ذلك من حياة اجتماعيّة متعبة بما تفرضه من واجبات وتقاليديّة! إنّني أتمنّى تلك الواجبات فصره أطراقي، ولكنّي في الوقت نفسه لا أكفّ دقيقة عن الحنين إلى الحياة الزوجيّة.

بتّ أشعر بأنّي فريسة هيّن قاتلين: ترددي وأمي. ومن يدري فلعلّ أمي هي الممّ كلّ. ومجتمعت نفسي الجبري تروم سلاطاً تلوذ به، فأجمعت على أن أقابل الخطر وجهاً لوجه وليكن ما يكون...

ولّاني لجالس إلى أمي ليلة إذ قلت لها بلا سابق إنذار:

- لاحظ يا أمّاه أنّك لا ترغبين في زواجي.

فانتسعت عينها الخضراوان الجميلتان دهشة، وقلقت فيها نظرة حائرة، ثمّ قالت بصوت متغيّر:

- إنّني أرغب في سعادتك دائماً، وهذا شغلي الشاغل. وإذا كنت لم أوافق على ما عرض لي من هذا الأمر في الماضي فلائني وجدته دون ما أرجوه لك، ولا شكّ أنّك تدرك هذا تمام الإدراك. ولكن...

شديد الذبول والهزال لنحوها الطبيعي فتوجع قلبي  
توجعاً أليماً. ولم أطق أن أراها محرومة من جمالها  
وصحتها، فأحزنني منظرها وسادني إصمها نفسها.  
وكانت تعصب رأسها بمنديل فيزرت تحت طرفه  
خصلات من شعرها وتغطها المشيب وتشتتها الإهمال  
فضقت صبراً وتجهّم لي وجه الدنيا. ويوماً - وكنت  
جالساً إلى جانبها - جرت في ثياري شعوري خواطر  
غريبة لعلّ باعثها الخوف والإشفاق، فطرحت على  
نفسي هذا السؤال الخطير: كيف تكون الحياة لو خلت  
من هذه الأمّ الخنون؟ واقشعر بدني، بيد أنّ خيالي لم  
يمسك عن هلهلته، لتصابعت المناظر أمام عينيّ  
واستسلمت لمشاهدتها في حزن صامت تقبل. رأيت  
بيتاً مقفراً ورأيتني تائهاً حائراً كمن ضلّ سبيله في  
مفازة، وهذا جدّي متبرّماً ساعطاً يصبّ جام غضبه  
على الخادم المجوز والطاهي. ولست عجزي عن  
مواصلة هذه الحياة الموحشة فافتحرت على جدّي أن  
اتزوّج لنجد من يكملنا برعايته. ثمّ رأيت حبيبي  
بقامتها الرشيقه ووقارها المحيرب تتعهد البيت وآله  
بعطف سابغ وحبّ شامل. ثمّ رأيتنا جيئاً - أنا  
وزوجي وجديّ - واقفين على قبر عزيز نرويه بدموعنا.  
وانتهت إلى نفسي في فزع فأحسست بالدمع حائراً بين  
جفنيّ. وعرض الندم قلبي، وامتلأت نفسي امتعاضاً  
وثورة، وضمضت لنفسي وللهمّ غفرانك، اللهمّ اكتب  
لها طول العمر، ثمّ هربت على وجهها فقبلته بحنان،  
وقد طاردني ذكرى تلك الحفلات كثيراً حتى تركت فيّ  
آثاراً عميقة من الألم والاحتق. ولازمني همّ مقيم حتى  
بعد أن برأت وعادوها نشاطها وجمالها. وكنت أهود  
إلى ذلك التفكير السقيم في الحياة الذي يقف عند  
طرفها - الميلاد والموت - ويرى ما عدا ذلك هباء في  
هباء، وهو ذلك التفكير الذي تأكّد بي فيها معنى إلى  
محاولة الانتحار لولا أنّ الله سلّم.

جاء الصيف، ومعناه - بمقياس القلب - أنّ حبيبي  
ستنتقل عن الذهاب إلى المعهد فلا تتاح لي رؤيتها إلا

لم أجد لي مأوى. أنتم حياتنا في صغرنا وكبرنا على  
السواء، أمّا نحن فتحبّوننا صغاراً وتكرهوننا كباراً، أو  
أنكم تحبّوننا حين لا نحبّون من تحبّونه غيرنا، ماذا  
قلت؟... أستغفر الله... ساعني يا كامل، إنّني  
مضطربة، لست أحسن الحديث على الإطلاق...  
وعجبت كيف انحدر بها الحديث ذاك المنحدر  
الصعب. بدأ الكلام مقبولاً ثمّ تشنّج. وحاولت أن  
أحول دون استرسالها فلم نجد محالوني، فاضطرت أن  
أفجّره على ما أثار من ألم وحزن، وتبادلنا نظرة طويلة،  
دلّت على العتاب من ناحيتي، وعلى الدمول من  
ناحيتها. لم تكن في كامل وعيها وأسفاه. وقلت  
بأسى:

- أهذا جزاء من يسأل سؤالاً بريئاً؟!

فأغرورت عيناها، وقالت وهي خافضة العينين:

- أنا لا أحسن الحديث أحساناً ويصن بي أن  
أمسك. لا تخش جانبي، وإذا راق لك يوماً أن أغيب  
عن وجهك فما عليك إلا أن تومنّ إليّ ولن نجد في  
أثراً...  
ووضعت يدي على فمها وصحّت بها:

- ساعك الله. حسبنا كلاماً. لقد أخطأت بسؤالي  
البريء خطأ كبيراً!

ثمّ تظاهرت بعدم الاكتراث، بل ضحكت طويلاً،  
وكأنّ ما كان لم يكن، وراح قلبي وحده يهتزّ آلامه.  
أثر فيّ كلامها حتى هزّني هزّاً عنيفاً فحزنت حزناً لم  
أشعر بمثله من قبل. وعجبت كيف يغلبها الانفعال  
على نفسها فتلقي في وجهي ب تلك الاتهامات الجارحة.  
ولم أتحلّ من سحق عطشها لا لأتأبها اتهمتي بالباطل -  
فذاك نثار غضب وقتي لا قيمة له - ولكن لأتأبها قابلت  
رغباتي الكامنة بشوة تجاوزت حدود الحكمة! ونهاديت  
في سخطي فقلت إنّها ذكرت نفسها أكثر ممّا ينبغي  
ونسيتي أكثر ممّا ينبغي... واستسلمت كالمعهد في  
لداعي أناثيتي فرميتها بالأنانية..

وعقب حديثنا الغريب بيومين أصابتها وعكة مرض  
ألزمتها الفراش فلم أمارقها أثناء مرضها إلا في أوقات  
العمل. ومع أنّ الحالة كانت خفيفة إلا أنّ وجهها بدا

في الشرفة أو النافذة. إنَّها تعرفني الآن حقَّ المعرفة كما يعرفني البيت جميعاً، ذلك الفتى الذي يتطلَّع إليها دوماً، ويرنو صوبها بعينين يتجملُّ فيها الإعجاب والحب، ويثابر على ذلك في صبر عجيب زهاء عام دون أن يبدي حراكاً، والأعجب من هذا كله أنَّني كنت أضبط منيها في لفات عارضة وما ترونان إليَّ فاجئاً جنوناً. وإنَّي أكاد أسمعها تتسائل عني أريد، بل أسمعهم جميعاً يتساءلون، وغداً يمدلني ويشقيني ممَّا، والحقَّ أنَّي أحبُّك يا حبيبي، أحبُّك بكلِّ قوَّة نفسي، فإذا سألت بعد لماذا لا أبدي حراكاً؟ أجبتك بأنِّي لم أدرك كيف أبدي حراكاً في حياتي، ووالدي أم، وحظُّ محمود، فكيف يمكن تليل هذه الصعاب؟... أخبرني يا حبيبي أطر إليك بنير جنانين!

وكان يوم غريب في حياتي...

وبدأت الصباح بوقفة الهيام وتطلُّع العشق. ثم ذهبت إلى الوزارة تتنازعي أحاسيس السعادة والشقاء شأني كلِّ صباح، وراح الموظفون يستقبلون اليوم كعادتهم بالثرثرة، فقال أحدهم وكان يليني في مجلسه: - سكوت أمس حقَّ تارجحت بي الكرة الأرضية! وثار اهتمامي فجأة وحضري أبي بصورته وذكرياته. ترك في قوله أنراً لم يدركه أحد ممَّن يجلسون حولي، ولا عجب فالعمر كتب تاريخ أسرتنا ولمُزرت مصالرها، والتفتُّ نحو الموظَّف وتذَّعتُ هذا السؤال همساً بلا وهي تقريباً:

- لماذا تشرب حضرتك الخمر؟

ثم أدركت في التوتُّر سرَّحي وخطي. فعلائي الارتباك والحياء. ولم أكن خاطيت أسداً في الإدارة منذ التحاقني بالخدمة في غير شئون العمل حقَّ أطلقوا عليَّ «غاندي» لما عُرف عن الزعيم من أنَّه ينلِّد يوماً في الأسبوع للصمت. وفرح الرجل بتفطُّلي عليه وقال بصوت مرتفع وهو يومئ إليَّ:

- اختيراً نكلّم!

وسأله أحدهم وهم يصوِّرون انظارهم نحوِي:

- مَن؟

- غاندي.

- وماذا قال؟

فقال الرجل ضاحكاً:

- يسألني لماذا أشرب الخمر!

فقال آخر:

- سكوت دهرًا ونطق كفرًا!!

وتفهقوها ضاحكين، بينا ذهبت في مقعدي صامتاً، وراح أكثرهم يحذثني عن الخمر والنشوة واللذة والنسيان. نلت على ما بدر منِّي ممَّا وضميني موضع سخريه ومزاح. وتفكَّرت في الأمر طويلاً، ثم أفقت إلى نفسي فوجدتها - لدهشتي - تتلفف على تجربة الخمر!! ولشَّد ما عجبت ليها أعقب ذلك من أيام لتلك اللفظة الغريبة بعد ستَّة وعشرين عامًا، قطعها ليها يشبه النسيك إذا استنيت اللذة السريَّة التي جرعتني مرارة الذنب والندم. هل نشت تلك الرغبة في نفسي فجأة؟ إنَّ ظاهراً الأمر بدلَّ على أنَّ ذلك الحديث الذي دار بين الموظَّفين كان الباعث على تلك اللفظة، ولكن هل يعقل أن يبوي إنسان مستقيم مثلي لعارض تافه كذلك العارض؟! لقد ركبني جنون، فتمتَّيت أن ينطفي النهار سريعاً لانسرع باب اللذات الموصد، ولأحطِّم الأضلال التي أذهنت لها طوال عمري، وقلت لنفسي وكان الذي يتحدث شخص ضريب: «سأجرب الليلة الخمر والنساء» وأراحني التصميم لآته خير من الفلق والترقّد، ولأنَّي منيت نفسي بأن أجد وراءه متفكِّساً للضبط الشديد الذي يؤودني، ولم أعرف الترقّد - ذلك الرفيق البغيض - طوال يومي، فعند الوصول كان الترام يجعلني إلى العتبة، ووقفت في الميدان حائرًا لا أدري أين توجد الحانات! ثم رأيت عربة فنادتني الحوذني وركبت ثم قلت له بصوت منخفض في حياء شديد:

- حانة... آية حانة من فضلك!

فحدجني الرجل بنظرة غريبة ثم قال وهو يلهب

ظهر الجواذين بسوعله:

- سأذهب إلى شارع ألفي بك وهناك تختار الحانة

التي تعجبك!



كونياك... جمعة... نبيذ؟!

فسألت في ارتباك أخذ:

- أيما أفضل؟

- هذا يتعلق برغبتك، ولكن الجو حار فالجمعة شراب مفضل.

وخرجت من حيرتي وطلبت جمعة، وغاب دقائق ثم عاد بقدرح يقور ووضعه أمامي، وقبل أن يتعد سأله:

- كم قدرًا من هذه يُسكر؟

فنظر صوب كما نظر الحوذي من قبل وقال:

- تختلف النسبة تبعًا للناس، ولكن إذا كنت مبتدئًا يحسن ألا تتجاوز القدرح الثالث.

فقبضت على القدرح فوجدته باردًا لطيفًا، وأدنت منه أنفي فشممت رائحة حمضية لم أرتع لها، ولكن فأت وقت التردد، وقررت وجهي وأدليت لساني، ولعقت من رغبتي لعقة في خوف وحذر. واشتد توقّر أعصابي فرفعت القدرح إلى فمي وأفرغت ما فيه دفعة واحدة في توقّر كأنما ألجّج شرية. وأنعشتي بروحه، وشممت به في بطني يتلوى نائشًا حرارة غريبة. وانتظرت ذاك الأثر السحري الذي سمعت عنه الكثير. وفي تلك اللحظة جاءت لمة من الأجانب يرطون ويتفاحكون وتحلقوا مائدة كبيرة، فداخلني شعور بالضييق، بيد أنهم لم يلتفتوا نحوني على الإطلاق، فسكن روحي، وعاد شعوري إلى الحرارة الطيبة التي تنتشر في بطني. وحل الدم المتصاعد إلى الرأس نفحة من هله الحرارة إلى المخ فتعكّى كما يتمكّى المستيقظ لدى تلقيه أول شعاع من الشمس، ونفض عنه القلق والحذر، فأحسست ارتياحًا عامًا للذيذا، واتبسطت أسارير وجهي... وما لبثت أن طلبت قدرًا آخر بشجاعة لم أعهد لها في نفسي من قبل، وما كاد النوي يضعه أمامي حتّى رفعتني إلى فمي وتجرحته على دفعتين. وانتظرت في ارتياح شامل وإحساس مركّز في باطني، وسرى لي جسمي سرور عجيب أغمضت له جفني استسلامًا، سرور دار مع دمي، ورقص في خفي، باعثًا لآه هي الجنون نفسه، حتّى وجدتني مخلوقًا أثريًا طليقًا من متاعب عقله وقليه

وانطلقت العربة فذكرتني بالخططور القديم وأيلمه الخولي. وكان بحافظتي عشرون جنبها غير والفكة لأنّ مرتبي وإن كان صغيرًا في ذاته إلا أنّه كان يترك لي كلّ فكفاني وزاد عن كفايتي. ولبّما شعرت بأنّ العربة تقترب من الهدف الذي تلّهقت عليه اليوم كلّ دق قلبي بعنف واعتراني اضطراب شغلني عن رؤية الشوارع التي تخترقها العربة. ووقفت العربة عند رأس طريق طويل يتوسطه صف طويل من السيّارات والحريات. وقال الحوذي وهو يلوّح بسوطه:

- إليك الحانات على الجانبين...

وغادرت العربة بعد أن نقضته الأجرة فوجدت نفسي حيال حانة صغيرة لا تزيد في الحجم على حجرة كبيرة وقد وقف التلّد ببها لآه لم يكن أمّها أحد بعد، وانتابني التردد لأوّل مرّة ففكرت في أن أعود من حيث أتيت. ووقفت متحيّرًا ثمّ تولّاني الشعور الذي ملكني يوم اندفعت إلى سور جسر الملك الصالح لأرمي بنفسي إلى النهر فانتطلقت صوب الحانة ودخلت. وتبيّن لي أنّه يوجد في نهايتها مدخل إلى حديقة صغيرة في حجم المكان الخارجي في وسطها نافورة، وتظّلها عريشة عنب، وفي جنباتها الموائد، فوجدتها آمن للمختلس، وانتقلت إليها وجلست إلى إحدى الموائد بعيدًا عن مدخلها. كنت متوقّرة الأعصاب ولكن لم أحد أفكر في الهرب، وجاعلي نويّ في سرور أسود وسرّة بيضاء فابتسم في أدب ووقف منتظرًا أمري. فقلت بصوت مهموس والدم يتصاعد إلى وجهي:

- خمرًا!

فلم يبد عليه أنّه فهم شيئًا، وتساءل في نبرات كرين النحاس:

- ويسكي؟... كونياك؟... جمعة؟...

نبيذ؟...

وتولّنتي حيرة الجاهل، فقلت بارتباك:

- أريد خمرًا...

فابتسم الرجل ابتسامة ألتني وتساءل:

- أيّ نوع منها تريد؟... ويسكي...

فسألني الشاب:

- أين هي؟ ... وأنا كفيل بإحضارها ...

فقلت:

- البيت أمام المحطة!

فسألني مبتسماً:

- آية عظمة؟

فتفكرت قليلاً حتى عثرت على شاهد للمحطة  
فقلت:

- المحطة أمام المراحيض العموميّة!

فضحكوا جيّماً، وانهاكوا عليّ ففشلاً وتكتيماً،  
وشاركهم ضحكهم بغير مبالاة، ثمّ أشرت أن أغادر  
المكان، فدعوت النادل ونقذته الثمن وحيّيت رفقاء  
السكر، وذهبت وفشائهم تواصل توديعي بلا رحمة،  
كنت أترنّع، فقصدت حربة في الموقف، وتوسّطت  
مقعدها في خيلاء، وقلت للحوذيّ بصوت مرتفع:

- إلى بؤر الفساد!

وتحرّكت العربة وسرعان ما ارجحت إلى سيرها  
الوالي، وجعلت أنظر إلى الطريق في لئّة وبهجة، حتى  
وددت أن يطول المسير إلى غير نهاية، وأدركت أنّ  
مقبل حلّ تجرّبة جديدة لا تقلّ خطورة عن الأخرى،  
لساوري بعض الغلق، ثمّ غلبتني اللهفة. ووقفت  
العربة في شارع معرّب، ولوّح الحوذيّ بسوطه وهو  
يقول ضاحكاً:

- هنا الفساد الأصليّ ...

وسلكته بعد تردّد:

- ألدّيك فكرة عن الأسعار؟

فقال مقهقهاً:

- أدخل مرّة بريال!

والهيّ التعبير على رغبم سكّري، وغادرت العربة  
فوجدتني في دنيا تتوهّج بالألوان كالصواريخ، وتزدحم  
بالسكّاريّ والعابثين، وتختلط بها أصوات الضحك  
بالشتم والصراخ، وتنبعث من جنباتها دقّات الدفوف  
وأغنام مبتلدة من كيان مسلول أو بيان محسّرج. وقد  
سطح أنفي شذاً بخور طيّب. ولم أجِد من نفسي البراءة  
على التخبّط وسط الجموع المبرّدة، فمرّجت إلى أقرب

وحياته. وداخلي إحساس لا عهد لي به بالنقّة  
والعظمة فرفعت رأسي عالياً في سلطنة وأنا أعجب  
للنشوة السحرية التي لم يدر يخلدي قطّ أنّها توجد في  
هذه الدنيا. ثمّ فكرت يديّ في سرور ومددت ساقيّ لا  
أبالي أين تقعان ... وبغتة تخالفت ليعنيّ صورة حبيبي  
بفاتها الهيفاء ونظرها المستقيمة المحتشمة فأتّرع قلبي  
حناناً وشوقاً وهزّني نشوة فوق نشوة الخمر. ما أطفك  
يا حبيبي! لأني أدرك الآن سرّ نشوة الخمر. إنّه الحبّ.

الحبّ ونشوة الخمر من عصر واحد يقطر من صميم  
الروح، وهل الحبّ الموقّف إلّا سكرة طويلة؟! فإن  
فانني الحبّ بين يديك فلن يفوتني في الخمر! لماذا  
أحاف دائي؟! إلّا أنّ المخاوف جيّماً لأوهام، ولأفياها  
اختفت من أفقي في غمضة عين؟! لقد تكشّف لي  
وجه الحكمة ولن أتردّد بعد اليوم، سأوسّو حبيبي إذا  
وقعت عليها عيناّي أو ألوّح لها بيدي. ستمتدّ الدهشة  
لسانها ويصمّر منها الحذّان! ويغيّ دورها في الحجل،  
دقّة بدقّة والبادئ أظلم. وسوف تتسامل في استغراب  
هل تحرّك أخيراً! أجل يا حبيبي، تحرّك، ولن يوقفه  
شيء، ورأيت عند ذاك النادل يحوم حوائليّ فطلبت  
القدح الثالث ثمّ ألحقته بصاحبيه. وعدت إلى خيال  
حبيبي بهجس كلّ قلوب، وما به من عقل. وقلت  
بصوت مهموس وكأنيّ أعظّ جليّساً غير منظور «إذا  
أحببت شئح بهجك إلى حبيبك وليكن ما يكون، ثمّ  
ذكرت أمي، ولكن دون خوف هذه المرّة، لم أشكّ في  
أنّها ستحبّ حبيبي إذا رأتها، وستلذّب غلّوفي القديمة  
إلى غير رجعة، أمّا جدّيّ فما أحراه إذا علم بالنبا  
السعيد أن يقهقه ضاحكاً، وهنا ضحككت بصوت  
مسموع لفت إلى الحاضرين. وألقيت نظرة على ما  
حولني فرأيت الحديقة اكتظّت بالوافدين ... وقد  
تفاحك الأقربون، ولكنّي لم أرتبك، بل ابتسمت  
إلّهم وقلت بجسّارة غريبة «اضحكوا!» فضحكوا،  
وتسامل أحدهم مبتسماً:

- هل من أمر آخر؟

وكنّت من السكر في غاية فقلت بلسان معلم:

- هاتوا لي حبيبي!

وتأخّرت كثيراً ولم أجبها بكلمة وواصلت نزع الملابس حتّى خلعتني قدامي فارقت على المقعد، واستجمعت قواي ونهضت، ولكنّي ترنّحت في صوقي وكذت أهوي إلى الأرض لولا أن أمسكت بعمود السرير. وانزلت أمني من فراشها وأقبلت نحوي متّسعة العينين دهشة وفزعاً، وفترّست في وجهي قليلاً دون أن تنبس بكلمة، ثمّ أجلسني على المقعد وراحت تنزع عني ملابس، ثمّ أنامتني على فراشي، فما سنّ جانبي الحشية حتّى صارح إليّ النوم. ونخلّ إليّ، أو حلّمت، أنّ أمني تتحب...

### ٢٣

استيقظت مبكراً على غير ما كان يُتوقّع. وتذعّرت الأسس كلّها في ثواني. والتفت برأسي في خوف نحو الفراش الآخر فعثر بصري في طريقه بأنّمي وهي تصلّي. والتهب وجهي حياءً، وغادرت الفراش في عجلة ومضيت إلى الحمام في حيرة بالغة. ورجعت إلى الحجرة فوجدتها منتظرة، تحاول أن تبدو هادئة لولا أن غائت عيناها الصافيتان اللتان لا تعرفان الكذب، وتحاميت نظراتها، وحسّتها تحيّة الصباح بصوت لا يكاد يُسمع، فتتّكّت بصوت مسموع، واقتربت منّي، ووضعت يدها على كتفي وقالت بصوت رقيق مفعمة نبراته بالرجاء:

« دعوت لك بعد صلاتي طويلاً والله سميع مجيب. ليس لدينا متّسع من الوقت فأصّر إليّ يا كامل بقلبك قبل أذنك. قلت ما فات. ما كنت أتصوّر ذلك على الإطلاق، ولكنّ أوساط المؤلفين أوساط غريبة وفساد. إنّها زلّة شيطان فُتّب إلى الله عنها. هل من حاجة إلى تذكيرك بمأساة أبيك وأنت من شهدوها وأنتك من ضحاياها؟ ولكنّ قلبي مطمئنّ رغم ما حصل، لأنّك مؤمن تخاف الله ولأنّك ابن أمّك لا ابن أبيك، وخلقني بمن يصلّي بين يدي الله خمس مرّات في اليوم مثلك أن يحرص على الخول بين يديه نقياً طاهراً. لا تنس أنّ هفوة الأسس شرّ كبير، وأنّها ستظلّ سكّينة تقطّع قلبي. لم يعد في وسعي والأسف أن أستيقك إلى جانبي، فإذا

باب ودخلت، وجلدت نفسي عند مدخل فناء واسع مستدير تفتح عليه أبواب كثيرة، وعلى محيط دائرته صفّ الأرائك والكراسي يحتلّها رجال ونساء، وفرشت أرضه برمل أصفر قاتم، وراحت ترتقص عليه امرأة نصف عارية، وكأنّ الجسادة التي خلفتها الحمر قد طارت فتسرّت في مكاني لا أجاوله ولم أدب ما أنا فاعل. ثمّ ثبتت عيني على الراقصة في دهشة لأنّي كنت أشاهد الرقص أوّل مرّة، ألقيت على الجسد اللتوي، الشبه العاري نظرة اشمئزاز وخوف، وأزهجتني حالة وجهها إذ أثقله الطلاء الفاضح، وانفجرت شفناها عن أسنان ذهبيّة فكانت بعرائس الحلوى أشبه. وفجأة لاح أمامي رجل ذو جلباب مقلم زاهي الألوان تنطق قساوته باللمامة والدنامة ودعائي للجلوس، فتراجعت مبتعداً عنه فاصطدمت بشخص ورائي. فدرت على أعقابها لافئدة منه فرايت امرأة من جنس الراقصة ولا شكّ حالت بذرارها بيني وبين الذهاب. كانت تتبسّم ابتسامة كريمة، وتضغّ لادناً مفرقة بأسنانها، فبردت أطراف، وانقبض قلبي جفولاً، وقرأت في وجهي الخوف والحجل فأطلقت ضحكة كالصغير، ومذّت يدها بسرعة فخلعت طربوشي، ووضعت على رأسها وضعت صوب باب قريب في خطوات سريعة. وقال لي الرجل وهو ما يزال بموقفه:

« اتبها بلا تردّد، هذه زوزو المنهجة، لا مثل لها ولا في المذبح! »

ولم أطق الوقوف أكثر من ذلك فغادرت البيت لا ألوي على شيء، غير مكترث لفقدان طربوشي، وركبت أوّل حربة صادفتني وقلت للحوثنّي «إلى المنزل». عدت إلى البيت قبل منتصف الليل مهبط الجناح، مضى الشعور بالهزيمة والإخفاق والحيرة. لم أكن أتصوّر أن يتمخّض الحلم المرسوم عن هذه البشاعة الفظيمة. وكانت النشوة الساحرة قد طارت غلّفة وراها حارّاً ثقيلاً باسخت له روحي، ولم أدب كيف أيقظت أمني وأنا أدخل ملابس، فجلست في فراشها ونظرت في «المنبّه» وهي تغمم متثابرة:

تَلَوَّيْهَا وَتَعَقَّدْهَا وَطَلَّاتِهَا الْكَاذِبَ وَشَقَّائِهَا الدِّفِينَ فَلَمَّا إِذَا  
إِذْ أَنْقَادُ إِغْرَاءِ النُّشُوءِ السَّاحِرَةِ؟!

\*\*\*

ودعني أُمِّي عصر ذلك اليوم إلى زيارة وأُمِّ هاشم  
فخرجنا معاً بعد أن انقطعت عن الخروج في صحبتها  
أصواتاً، وركبنا عربة، فجلسنا ملتصقين جلسة أعادت  
لنفسنا ذكريات «الخطورة القديم»، فحُفَّت رَقَّتْها من  
قلبي النفس المستحوذ عليّ. كانت أُمِّي ترتدي معطفاً  
صيفياً رقيقاً تَقَمِّصُه جسمها النحيل في رشاقة لطيفة.  
وبدا وجهها للملح هادئاً مستلياً وعيناها الخضراوان  
صافيتين تلوح فيهما نظرة حائلة يشوبها شيء من  
الحزن. وقد تَلَقَّعَ رأسها بخيار أسود أحاط وجهها  
بوقار لم يَجُلْ من أثر للاريمية والخمسين عاماً التي  
قطعتها فيها قُسِمَ لها من حياة. وحَنُّ قلبي لها فوددت  
لو أستطيع تقبيلها، وتَفَكَّرْتُ في تَقَدُّمِ عمرها نحو  
الشيخوخة بأسي عميق، ثُمَّ ذَكَرْتُ الحِوَارَ الحائِثَةَ  
التي دارت برأسي على فراش مرضها، فعضضت على  
شفتي بقسوة وحتى. يا لها من خواطر مقبلة! إنَّها من  
صميم الألم الذي التمس في الحرب منه أيُّ سبيل،  
وهُوَ بَيْنَ وَجدي ما كان يَجِلُّ إليّ من أُنْهَا سَرَتْ عَمْرٍ  
جَدِّي الذي ييلف إلى التسعين.

كبر عليّ في تلك اللحظة عصيانها، بيد أنَّي شعرت  
في أحياق نفسي بأنِّي ذاهب إلى توبة كاذبة لا يسمي إلا  
الإذعان لها. وساملي ذلك وأحزني. كيف أُلْقِي أُمِّ  
هاشم بهذا القلب الحائِث وهي التي لا تخفى عليها  
خافية؟ كيف انقلب بين عشيّة وفصحها من وِيعٍ  
طَوبَ إلى شيطان مولع بالمعصية؟ وانتهينا إلى الجامع.  
ودخلنا ونحن نقرأ الفاتحة، وقصدنا الضريح يتوزَّع  
قلبي الحب والإيمان والخوف. ونشمت على قلبي  
ذكريات الأيام الخوالي حين كنت أنفذ للجامع الطاهر  
بقلب سميذ لم يمان بعد الشعور بالذنب وعذاب  
الضمير. وتقدَّمتني أُمِّي إلى المقام وهي تهمس بحرارة:  
«جنتك يا أُمِّ هاشم بكامل، ليتوب عن هفوته بين  
يديك فياركيه وسدِّي خطاءه». ثُمَّ دفعتني نحو باب  
المقام فبسطت راحتي عليه، وشعرت بهودة تسري إلى

خرجت إلى الدنيا فلاحها بقلب التقي المؤمن. ستحب  
اليوم إلى السيِّدة أُمِّ هاشم لتَقْدُمَ توبتك على يديها.  
لم تلتق عينيها بعينيها ذلك الصباح. ومضيت إلى  
الوزارة محزوناً، أستعيد قولها كلمة كلمة، وأنعم فيه  
الفكر. هالتي افتضاح أمري، وقُدِّرَتْ عَفْ الصدمة  
التي تَلَقَّعَتْ أُمِّي البائسة. وذَكَرْتُ الحِبة التي منبت بها  
في فناء البيت الغريب، فطَوَّتْ شِفَتَاي تَفَرُّزاً. هل آتِي  
لم أنس نشوة الحمر. لم أنسا رغم ما أعقبها من خار  
وتعب وفضيحة. ولم يغد مقبها إلى قلبي حتى بعد  
صلاة الصبح التي أدَّيْتُها في صدق وإيمان. ولم يكن  
ضميري مستريحاً، ومثي كان مستريحاً؟ ولكنَّ أحلام  
النشوة الساحرة هجمت عليّ فاجتاحت في سبيلها  
ضميري والآمي وأُمِّي. هي النشوة التي تَنَظَّلُ معاني  
السعادة والطرب مغلفة حتى تجري في الدم فتفتح  
أبوابها السايوة. إنَّها مطلبي. ربَّاه كيف أهجرها  
وأُتُوب عنها؟ وما عسى أن يبقى في بعدها غير اللفة  
الكظيمة والحسرة الفاتلة والقلق الذي يمزِّق حياتي  
إرباً؟ وحتى لو استسلمت لإغرائها الشيطاني،  
فهيهات أن تخلص لي صافية، بل ستضيف إلى  
ضميري نزاعاً جديداً ما كان أغناه عنه، كنت وما  
أزال في جذب ودُفْعٍ متواصلين، بين اقتحام الدنيا  
والجفول منها، بين حبيبي وأُمِّي، بين إيمان العادة  
الجهنميّة ورغبة الإقلاع عنها، فجاءني نزاع جديد بين  
الميل إلى الحمر والثوبة عنها زاذني رهقاً، حتى انقلبت  
أرجوحة تدفعها الشياطين وتجذبها الملائكة، ولا تكف  
عن التأرجح لحظة واحدة. ويلغ بي القلق غايته  
فتأوَّهت متسألًا في حيرة بالغة: لماذا لم يخلق الله الحياة  
نشوة خالصة تدمج جلاً فجيلاً؟ لماذا لا نفوز بالسعادة  
بلا عناء ولا قنوط؟ لماذا يَمْتَنِعُ الحبُّ في قلوبنا بأَسَاءَ،  
والحبيب يندو ويروح على مرعى قبلة مَنَّا؟

ليكن ما يكون، الحمر مفتاح الفرج. هي العزاء  
هي كلمة السرِّ التي تفتح لي باب حبيبي الموصد. لا  
أريد الدنيا ما دامت ثأني أن تغتير ما بنفسها. إنَّ مقبي  
للواقع ليس دون مقبي لتلك الراقصة المخيفة. الدنيا  
نفسها تتكشف لي عن صورة شبيهة بتلك الراقصة في

فحملت في وجهه بغزع، وانعقد لساني، فربّت على كفي وقال بصوت حزين:

- تشجّع يا بني من أجل والدك، وكن رجلاً كما نرجو لك، كان جدّك يتوسّط مجلسنا كعادته كلّ صباح بلونابارك، فشر بصيق في التّشجّع وطلب قدحاً من الماء، ولم تكذّ تخفي لحظات حقّ سقط على المائدة فحسبناه أصيب بإغواء، ثمّ تبيّن أنّ السرّ الإلهي قد صعد إلى بارئه...

هفت بصوت مبهور:

- وأين هو يا سيدي؟

فتمتم الرجل:

- أحضرناه معنا في سيارّة.

وما كاد الرجل يتمّ قوله حتّى رأيت في أسفل السّلم رجلاً أرمية يحملون جثّي ويرتقون السّلم على مهل وحلور، فسارعت إليهم ذاهلاً، وشاركتم في حله وأطرافي ترتعد جميعاً، ثمّ دخلنا الشّقة وهو بين أيدينا، رأيت أمّي في نهاية الصّالة، وقد نذت عنها صرخة فرعة، وأقبلت نحونا لا تبالي بالأغراب، وسألتنا بجزع:

- ما له؟ ماذا به؟

ولكنّها لم تسمع جواباً، أو وجدت في الصمت جواباً فصرخت صرخة مدوّية، وولوت في ترجع «أبي... أبي». وألغناه على الفراش، ثمّ أقبل الرجال عليه يقولون جبينه واحداً في أثر آخر، وعزّوا أمّي، وخرجوا من الحجرة صامتين، وسألني بعضهم عمّا إذا كنت في حاجة إلى شيء فشكرت لهم، وتطرّعت البك الذي قابلته أوّلاً فدلّني على الإجراءات التّقيّة، وأعبرني بأنّه سيقوم بإبلاغ وزارة الحربيّة، وأنّه يستحسن أن تشجّع الجنازة في العاشرة من صباح الغد. ورجعت إلى حجرة جثّي مهرولاً فوجدت أمّي تبكي بكاء مرّاً فلم أمالك أن أجهشت في البكاء، ولكنّها لم تسمح لي بالبقاء في الحجرة، ولكي تشغلني عن الحزن أمرتني أن أبرق بالخبر إلى خالتي وأخي وأن أذهب إلى أخي لأذنّها بموت جدّها. وغادرت البيت لأداه هذه الواجبات، وعدت إليه مرّة أخرى ومعني أخي راضية

فؤادي، فوقفت صامتاً مليّاً، حيال جلال تخشع له القلوب، وخلت الجلدت الطاهر يرمقي بعينين متآلفتين لم يغيّرهما الموت فدعوت بقلبي «أمّ هاشم» أن تلهمني الصواب وأن تنقذني من حيرتي وشقالي، وأن تنوب عليّ. وتردّدت لحظة ثمّ سألتها أن ترضى حيّي التّعيس بعين الرحمة!

وغادرتا المتوى الطاهر وأمي تحفّف عينيها، ثمّ سألتني:

- هل تبت إلى الله؟

فأجبتها دون أن أحوّل إليها عيني:

- نعم.

فتمتمت برجاء:

- توبة صادقة إن شاء الله.

## ٢٤

لم يسمعي مقاومة الزّوة الجديدة. ولم يغن عني شيئاً لا ضميري ولا نوعي، ولا ما جُلبت عليه من غافة الله. كنت من حياتي في قنوط، فعملت جدّ بنفيس، وحيّي حسرة طويلة، وإنّ الأيام لتمرّ ثقيلة بلا عزاء وبلا أمل، فتتظر عيني ويخفق فؤادي، وحيّي إرادتي العجز والخوف، فلم أجد من سلوى إلا نشوة الخمر وبها لكت عليها هل أنّ ذاك المزاء التّعيس لم يخلص لي طويلاً، ولم تملّ الأقدار لي في الاستمتاع به، ففي مطلع الحريف من ذاك العام، وفي يوم من أيّام الجمع - وكنت جالساً مع أمّي نتحدث كعادتنا - دقّ جرس الشّقة، وفتح الخادم الباب ثمّ جاء بدعوتي لمقابلة واحد «بك». وذهبت من فوري فوجدت رجلاً مهيّبا في السّتين أو السبعين، فحيّته بأدب وألغيت عليه نظرة متسائلة، فيادري متسائلاً:

- حضرتك كامل أفندي؟

فقلت وأنا أتفرّس في وجهه:

- كامل رؤية. هذا بيت الأميرالاي عبد الله بك حسن.

فأخذني من يدي إلى الخارج ثمّ مال نحوي قائلاً:

- لكم طول البقاء، لقد توفّي جدّك يا بني...

رفاقه عليه، وأدركت - إن كان فائتي ذلك - أنه كان من الذين يالفون ويؤلفون، تلك الهبة الربانية التي حُرمتها وذهبت نفسي حسرة عليها مدى عمري. وقد تقرر تشييع جنازته في العاشرة صباحاً، ولما حَمَّ الوداع استلأت الشرفة بالباقيات وأطلقت المدافع تحية لجنته، ومُحِلْ نعشه على مدفع سارت بين يديه فرقة من الجيش. وألقيت حل جثاته نظرة الوداع - وهو يجتني في القبر - وأنا أنتحب كالأطفال.

٢٥

قالت لي في حزن بالغ:

- ليس لنا إلا الله.

فقلت وقلبي يستشعر غولاً لا يدره:

- هو نغم المولى والنصير.

ومضت تتكشّف في الحقائق، فعلمت أنّ معاش جدي قد انقطع بوفاته. وأحصيت تركته فوجدت أنه ترك بالمصر أربع مائة جنيه، ولما كانت أمي وخالتي وريشي الوحيدتين فقد حصن الواحدة منها مائتي جنيه صارت كلّ ما لنا عدا مائتي الصغيرة! صرت إذن رب أسرة، وقد لفت عمي نظري لهذه الحقيقة وهو يودّعي، فكرّر لي المزماء، ووّصاني بأنّي قائلاً:

- أكرم أمك ما وسعك، فانت رب البيت، وانت خَلَفَ جَدُّكَ!

وتلقّيت قوله بخوف وتشاؤم، ونظرت إلى المستقبل المجهول بوجوم وامتناع، وآلني أن أجد نفسي مسئولاً عن غيري أنا الذي أُلْتُ أن توكل مسئولتي بغيري! ولما خلا البيت من المعزّين ورحل كلّ إلى طيته، وجلسْتُ وأمي مغردين تبادُل الرأي قالت بلهجة أسيفة:

- اللّهُمَّ عونك.

ورفعت إليها بصري الحائر في خوف وكآبة، سألتها بإشفاق:

- ماذا ترين يا أمّاه.

فقلت بأسى:

- لن تخفي الحياة في سر كما عهدناها. هذا أمر الله

وزوجها. ووجدت في الشابّ خير عون في القيام بالإجراءات المتبعة، أو بالأحرى فقد قام بها وحده واكتفيت بأن أأزمه دون وعي. وما كاد يجيئ المساء حتّى امتلأ البيت بالأهل، فحضرت خالتي وزوجها وأخي مدحت وزوجه وعمي، ولم يتخلّف إلا أبي، وقد قال لمدحت وهو ينعي إليه جدي البقية في حياتك، أرجو أن تعزي أمك وأخاك وأختك، لأنّي لا أحضر لا جنازات ولا أعراساً! وكانت أمي أشدّ الأهل فجيعة وحزناً لأنها لم تفارقه طوال عمرها اللّهُمَّ إلا ثلاثة أشهر قضتها على مضض في بيت أبي... هكذا مات جدي. وقد نمتّ بحياة طويلة فلم يعجزه الكبر، ولم يقعه المرض. وفارق الحياة في مجلسه الأخير بالمقهى بين صحبه المخلصين، في سرّ قل أن يحظى به المحضرون... وكنت لا أزال كلّما خطر على فكري حنين الرأس إجلالاً للذكراء، واستمرت الرحمة والعمو روحه الكبير. كان جدي، وكان أبي، وكان جناح العطف الذي أطلّني نعمت في ظلّه بالعيش الرغيد والحياة الرهيبة الطيبة. ولا أنسى أنّي اتهمت في الساعات السود التي كَثُرَتْ صفو حياتي بأنّه أساء تربيتي، أو أنّه تركني لأنّي تفسد حياتي بتدليلها ولكنّي إذ تدبّرت الأمر لم أسمعني إلا إقامة العذر له، لأنّي رأيت نور الدنيا وهو يتخلّى السّين. وإنّه لمن أشقّ الأمور أن يعرف الإنسان حقيقة جدّه، لأنّه غالباً ما يبدو في حالة من التبجيل والقداسة، لأنّ مؤرخيه من الأهل يكونون عادة من يتجلّونه ويقدّسونه. فإذا ركنت إلى ما لمسته بنفسني من حياته أمكنتني اللثام عليه في غير تحفّظ. وطالما كانت صحته وجّه النظام ودقته العسكرية التي لم تبلغ فكّ الصرامة أو القسوة مشار إعجابي الشديد. وكان حبه علينا لما تبون إلى جانبه مصائب الحياة، وبسحي أنّي لم أعرف مرارة الحياة الحقّة حتّى ودّعناه إلى مثواه الأخير. ومهما يطل بي العمر فلن تخفى من تخلفتي صورته في أيامه الأخيرة وقد كلّلت الشيخوخة هامته بتاج ناصع البياض وأضفت عليه وقاراً وجالاً، وأدكت في عينيه الخضراوين بريق دعابة وعطف. فلم أدهش لحزن

واكتئاب، فتنقبض قلبي جفولاً من هذه الحياة السخيفة التي لا معنى لها. ألم أكن أنفق مرتبي كله في الشراب والطعام والعربات؟ ألم أكن مع ذلك شاكياً متميزاً تعيشاً؟ رباه، كان الماضي عهداً غير منكور العيم؟ ولكني لم أقطن إلى نسيمة إلا الآن حيث لم يبق منه إلا ذكريات، إنني أصعب ما في ذلك من شك، تعميني الأحلام الطائشة حياً بين يدي، ومن كان مثلي فضي عليه بالأل يلدق للسعادة طعماً في هذه الحياة. تجههم في وجه الدنيا، وشعارت عزمي، وامتلأت نفسي تشاؤماً حتى توقعت شراً وراء كل خطوة أخطوها. أجل ألا يجوز أن تستغني عني الحكومة لسبب أو لآخر فأحرم حتى هذا المرتب الضئيل؟... ألا يُحتمل أن يصادفني حادث في الطريق يقضي عليّ بعاهة تعطلني عن السعي من أجل الحياة؟ لماذا وُجدنا على الأرض؟ ولعل هذه الأفكار السود التي جعلتني أسأل أمتي قاتلاً:

- ماذا يُنتظر أن أوث من أبي بعد وفاته؟

ولم ترتع أمتي لمجرّد أفكاري وقالت باستياء:

- لا تبيّ آمالك في الحياة على موت إنسان. الأعيار

بيد الله. وإنّي أستحلفك بالله إلا ما طردت عن رأسك هذه الخواطر.

بيد أنّي استخففت بمخاوفها وألححت عليها أن تحييني على ما سألت، فقالت مدعنة لإلحاحي:

- لأبيك أوقاف تدّر عليه أربعين جنيهاً كلّ شهر، غير البيت الذي يسكنه...

وقدّرت بمعلّية حاسية ما يصيبني من هذا الميراث، فوجدته ستة عشر جنيهاً نصيبني من البيت، إذا أخيفت إلى مرتبي الصغير صار كبيراً بلا شك. واستسلمت للأحلام كالمتاد، ولكنّها لم تغتفر من الواقع شيئاً. وسألته مرة أخرى:

- ما عمر أبي؟

وأجابني على كره:

- لا يقلّ عن السبعين.

تري هل يعمّر كجنتي مثلاً؟ ماذا يكون حالي لو عمّر طويلاً وحرمني ميراثي عشرة أعوام أو عشرين؟! وتذكّرت ما قيل لي من أنّه انتظر يوماً على مضض

وعليّنا أن نذهن ونصبر ونشكر، وإنّه ليسوءني أن أكون حلاً ثقيلًا عليك. ولكن ما باليد حيلة.

فقلت بحرارة:

- لا تقولي هذا. أنت كلّ ما تبقى لي في الحياة، ولولاك ما عرفت لنفسي مأوى أروي إليه.

فافتّر لغرها عن ابتسامة حزينة، ودعت لي طويلاً. ثم قالت:

- سيكون ما ورثته من مال قليل رهن إشارتك تستعين به عند الحاجة، حتى يكبر مرتبك!

ولدت بالصمت متفكراً، وعيناها الحزيتان لا تفارقان وجهي، ثم استدركت بصوت متهلّج:

- لم يعد هذا البيت بالسكن المناسب لنا، فهو كما ترى كبير، وأجرته تعادل مرتبك، ولعلنا نجد شقة صغيرة بما لا يزيد على مائة وخمسين قرشاً في حيناً هذا...

وساد الصمت مرة أخرى، ورحلت أتساءل عما أحياني عن هذا المصير الذي كان متوقّفاً من قبل، حتى عادت أمتي تقول بصوت منخفض:

- وينبغي أن نستغني عن الخدم، وإن نحتاج في المستقبل إلا لخدم صغير.

يا له من ضيق لا أدري كيف يتحمّله صديري! لست أعلم شيئاً على الإطلاق عن الكفاح الذي يشقى به الناس في سبيل الحياة، فلذلك حدّجت أمتي بنظرة ناطقة بالاستغاثة وسألته:

- لماذا تقدّرين تكاليف المعيشة بما فيها من سكن وطعام وخدام وغيرها؟

وتفكّرت أمتي طويلاً، ثم قالت بصوت منخفض:

- بما لا يقلّ عن ستة جنيهات!

ثم استدركت قائلاً لتخفف من وقع كلامها:

- سأرصد مالي لكسائنا وللحوائج الضرورية فيما يخرج من المصروفات اليومية...

ولكنّي لم ألقِ بالأل إلى قوسها، ومضيت أفكر فيما يتبقى لي من مرتبي بعد تكاليف المعيشة، في الجنيه والنصف، وما يتفق منه على المواصلات، وما يبقى بعد ذلك للترفيه عن نفسي. ففكرت بامتصاص

مأرب.

ونجرت هذه الحيلة الجديدة قطرة قطرة، وقد أضافت إلى حسرائي القديمة حسرة جديدة، هي حسرتي على العيش الرغيد والشراب خاصة، وأجمعت على أن أقرر على نفسي كي تنهي لي ولو سكرة واحدة في الشهر، ولا عجب فلم تكن الحمر بالنسبة إليّ غواً وعبثاً، ولكن حياة وهمية أفر إلى أحضانها من آلام الواقع البغيض.

وبمّا قالت لي أمي وقد أنست مني استنامة إلى حديثها:

- لعلك لمست الحكمة التي أملت عليّ أن أرفض

لّيّ زواج لا يليق بك!

وأدركت ما تعني لئري، فكأنما تقول لي: «ماذا

كنت تصنع بحياتك لو كنت رب أسرة!». ولم يداخلني

شكّ في صدق ملاحظتها، ولو كنت رب أسرة لشقيت

بالمعيش أضعاف الشقاء الراهن، ومع ذلك لم أرتح

لقولها، ووقع من نفسي المهضة موقع الشهادة المبررة،

فللّني الحق والغضب، وكابدت مشقة في كظم

عواطفني.

٢٦

وهلّ الحريف. ذلك الفصل الذي أحبته لأنه

البشير بالانتاح المدارس، وستمود حبيبي إلى المنتقى

المعهد على طوار المحطة. حبيبي هي الزهرة الوحيدة

التي تنفتح في الحريف حين تعرى الأشجار وتذبل

الأزهار. ولاحظت أنّ مواعيد خروجها لم تعد منتظمة

كما كانت، ترى هل بدأت حبيبي حياتها كاستاذة؟

وللّني ذاك الخاطر فاهتز عطفائي سروراً. بيد أنّي لا

يمكن أن أنسى أنّ مجرى حياتي قد تغير، وأنّي أزرع

تحت وقر الفقر والقنوط، فحبيبي ميثوس منها، ولكن

ما كان اليأس إلّا ليزيدني هماً وولعاً، ويشبّ في قلبي

أشواقاً وأحزاناً. ما أسرع أن ينقلب الحب اليأس ثورة

على الحياة. أليس من الهزء بنا أن نخلق حياة ثمّ يمال

بيننا وبينها؟. وزاد من لوعتي أنّه كان يجيّل إليّ في

موت أبيه، وكيف ساقه الجزع إلى الشروع في الجريمة التي قضت عليه بالخرمان من ثروة واسعة! إلّا أعاثي نفس المشاعر التي عاناها قبل ثلاثين عاماً، ولعلّه لو كان لي بعض قوّته لسلكت الطريق الذي سلك!

ثمّ استدعت أمي الطاهي المعجوز وأمّ زينب

وأخبرتهما في استحياء وألم بأننا سنتقل إلى بيت شقيقي

وأثرت الكلب على الاعتراف بالفقر، وأنها مضطرة

إلى الاستغناء عنها، وذكرت عهد خدمتهما الطويل

بالأسف، وأثنت عليهما الشاء الجميل، ودعت لها

بالتوفيق، ثمّ نفحتها بما يستعنان به حقّ نجداد عملاً

جديداً. وقد انتحيت المرأة باكياً، ودمعت عينا الرجل

المعجوز ودعا لجنتي بالرحمة والعفو، وقال بضدق

وإخلاص:

- وددت يا سيدي لو متّ قبل أن يفلق هذا البيت

الكريم أبوابه...

ولم تهالك أمي نفسها فبكت، وانتقلت العدوى إليّ

فبكت، ومرّت بي ساعة سوء كابدت فيها ألماً وخزيّاً

لم أشعر بمثلها من قبل. وانتقلنا قبل ختام الشهر إلى

شقة صغيرة في الدور الأوسط من بيت قديم ذي أدوار

ثلاثة بشارع القاسم المتفرع من شارع المنيل. وكان

البيت يقع في وسط الطريق ما بين شارع المنيل

والنيل، أمّا الشقة فتكوّن من ثلاث حجرات صغيرة

فرشناها ببعض أثاثنا القديم، وبعضاً بقيته بمن

بخس. وساءلت نفسي في وجوم: هل تستطيع أمي

النموس بأعباء الخدمة المنزلية بعد ذلك العمر الطويل

من الراحة والدعة؟ إنّه يهدف إلى منتصف الحلقة

السادسة ولم يعد لها من معين إلّا خادم صغير فكيف

تتحمل هذه الحياة؟ وزادت حياتي تغيصاً ودخاني

سخط شامل على الوجود كلّ. على أنّ أمي أقبلت على

العمل بروح عالية فيها مرح كثير فنجحت في إتمامي

بأنّها مسرودة بالحياة الجديدة، وكأنّما كانت تكبت

طوال عمرها رغبة حارة في الخدمة والعمل. وقالت لي

بارتياح لمسته في نبرات صوتها وابتسامة عينها:

- إنّ خدمة بيتك في السعادة التي ليس لي ورامها



أحيان كثيرة أنَّ عينها تتروان إليّ بنظرة فيها حياة. أيتها حياة؟ لست أدري، ولكنها كافية لبحث الجنون في خيالي، فيمثل بنشوة سحرية لا أفق منها حتى تصليني حقيقة مَرَّة من حقائق حياتي. واشتدَّ تطلُّع أهل البيت نحوي، وبِتْ وكأني أسمعهم يتساءلون: ماذا تريد؟ لماذا تلتهمها بعينيك؟ أيّ رجل أنت؟ ألم يكفك عام ونصف عام؟ صدقتم والله، والحق معكم، ولكن ما حياتي أنا؟ ضمروا أنفسكم في مكاني وخبروني ماذا تفعلون؟ هل لديكم علاج للمعجز والفقير؟ فلم يتركني الرجلان الممجان بفتاتي في راحة، فلم يزالا يحومان حولها، حتى بِتْ أعافها خوفا العجز والفسر، وأكرهها كرهى للشقاء الذي يضيقُ عليّ الخفاق، مثل هذه الحياة أَلَدُّ ما فيها الحرب منها! لذلك تلمست السبيل إلى الحانة مهما كلفني الأمر من العناء. ولم يعد شارع الألفي بك بالمرصاد المناسب لحالي، فلجأت إلى حوْشٍ - مشيري في الدنيا بعد أمي - وطلبت إليه أن يحملي إلى حانة متواضعة، وساقني الرجل إلى سوق الحضر وكان هو نفسه - كما أخبرتني - يرتادها من آن لآن، وقال لي مدللًا على حسن اختياره:

- الحانات الكبيرة مظاهر كاذبة لا يتراز الأموال، والخمر هي الخمر، وغيرها ما أسكر بأهض الأثمان! وأنصت إلى محاضراته في عجل أليم لمجارب صدها أسمى عميقًا في نفسي، فتعبًا لي حينًا أنه يرثي نهايتي ويعزِّي عيًّا سلف من زماني. وغادرته متعجبًا، وسرت صوب حانة صغيرة في مطلع عَمْرٍ من الممرات المفضية إلى السوق. وسوروني شعور عزن يأتي أنحلدر إلى الهاوية التي ابتلعت أبي من قبل، ولكني لم يكن هذا ولا غيره بمثابة من المقدور، وكانت الحانة صغيرة مرمية الشكل بها موائد معدودات، تبدو رثة باهتة نادها يوناني عجوز أعمش، وورادها من الشعب الأدنى أو بعض الموظفين البائسين. ولكن الخمر هي الخمر كما قال الحوْشِي. ولا أنكر أنني فرحت بمنظر القوارير على الرف الطويل، وسررت بها سرورًا أنساني آلام الضمة التي شتني ضيق ذات اليد إليها. ورأيت

وأن تسمعي إذا ناجيتها! وبادرتها قائلاً:  
- وإني أحبك يا حياتي، أحبك حُبًا هو من أعاجيب الكون كدوران الأفلاك سواء بسواء، ولشدًا ما أتمنى أن أقول لك (أحبك) في يقظتي ولكني لا أستطيع، إنَّ الحجل أبكم يا حياتي، والفقير سجن شامق الجدران،

الكبير ذو السور تلوح وراءه رموس الأشجار الضخمة. ورأيت البواب العجوز جالساً أمام الباب وقد طعن في السن حتى صار هيكلاً أسود. وخانتني شجاعتي إذ غلوت منه على بعد خطوتين، فلم أنقُف عن السير، وجاوزته، وقد تملكني شعور اليأس فحدّثتني نفسي بالعودة من حيث أتيت. وما جدوى بذلك محاولة فاشلة حتّى! ولكنّي لم أضع في الحرب ولعلّ اليأس نفسه أمّدتني بقوة غير منتظرة، فرجعت إلى البواب مستشعراً عزماً جديداً، مستكراً الحور الذي يباعد بيني وبين بيت لي فيه حقّ غير منكور. حيّت البواب فرّدت تحتي جالساً، فقلت له بلهجة لم تخل من كبرياء:

- كامل رؤية لآذ، خبر البك من فضلك!

وبعض البواب ميتساً، ودعاني إلى دخول الحديقة، ومضى ليخبر البك. هي الحديقة نفسها، لا تزال تسطح جنباتها بشدا الليمون، تملأ سباًها برموس النخيل، وتسرّب منها إلى النفس كآبة ووحشة. وأرسلت بيصري إلى الفراندا في نهاية الحديقة فرأيت البواب يدعوني، فتخلّصت وأنا أطرد عن قلبي شعوراً بعدم الارتباك. وارتقيت السلم، فطالعتي النظر القديم، الرجل والحوان المزركش والقارورة والكأس، مدّ لي يده وعلّ فمه شبه ابتسامة فسلمت عليه، ثمّ دعاني للجولس فجلست على مقعد إلى يمين الحوان. وألقيت عليه نظرة سريعة فرأيت الجسم المكتنز وقد ترهّل. واشتدّ احتقان الدم بالوجه الممتلئ، وهابت العينان في نظرة ذاهلة، وبان للكبر في صفحة وجهه غضون في الجبين وحول العينين، وفبول الحادّين. لم ارتج لمنظره، ولكنّي حرصت على ألا يبدو لي وجهي أثر غماً في نفسي... ولاحت منّي نظرة إلى القارورة الممتلئة للنصف فرمقتها بنظرة غريبة، وذكرت كيف ترامت ليميّ في الزورة الأولى فقلت لنفسي: لشدّ ما يسارع الفساد للإنسان! وكان يتلفّ برؤوب حريريّ وقاية من رطوبة الخريف في تلك الساعة من الأصل. ولم يداخلي ريب في أنّه مفعم غمراً حقّ قمّته، فساوري القلق، وتساءلت عاً دهاني من جنون حقّ

ولا حقّ لامرئ لا يملك من مرتبه إلّا جنبها نصفاً أن يبورح بجبهه لملك كريم مثلك، ولكنّي أحبّك بالرغم من هذا كله، ولا أطيق أن تعرضني عن حقّي، وأكاد أجنّ حين أرى تطلّع السرجلين الثقيلين إليك، فشجّعني يا حياي، أشيري إليّ، ابتسمي لي وجهي، ما في ذلك من بأس ما دمت عباً صادقاً كما لا بدّ تعلمين، وما دمت عاجزاً ميثوساً منه كما لا بدّ تدركين... آه... وقفت طويلاً دون أن تتحوّل عيناك عن النافذة الموصدة، فقلت جفوني وداخلي إحساس خفيف بالدوران والتعب من مشقة المشي وخمار الشراب. ثمّ قرع سمعي وقع أقدام ثقيلة فالتفت صوبها في توجّس فرأيت شبح الشرطيّ مقبلاً، فتحوّلت عن موقعي وحشت خطأي.

## ٢٧

ماذا يحول بيني وبينك؟ افقرنا هكذا كان الجواب، ولم أجأوزه إلى غيره من الأسباب، لأنّه كان العائق الوحيد الذي لا أعدّ عنه مسئولاً، أو هذا ما اعتقدته. كيف أحصل على المال إذن؟ وتفكرت مختبئاً، ثمّ مال به الفكر إلى أبي! ذلك الذي تمّنت موته طويلاً ولكن لم يرض حقّي التمتي شيئاً، فلماذا لا أزوره... لماذا لا استوبه المال الذي أريد؟ وبدا المخاطر غريباً لا يصدّق، وخاصّة بالقياس إليّ أنا الذي أخافه أكثر من الجميع، ولم أؤمله قط، بيد أنّ الجزع كان بلغ منّي منتهاه في تلك الآيام، وجرى الحبّ منّي جرى الدم، واشتدّ إحساسي بغوات العمر لدرجة تستحقّ الرثاء، فداخلي شعور باتّني إذا بلغت الثلاثين فقد انتهت. أمضتني هذه المخاوف، وكانت النظرات الحلوة التي تجرد عليّ بها الحبية توسعي في أثناء ذلك سعادة وتأييماً صامتاً. فلم أر بداً في النهاية من أن أفكر جدّياً في زيارة أبي.

وذهب دون أن أعلن ما في ضميري لأنّي، واهتديت إلى الخلية مسترشداً بكمساري الترام، ولما بلغت شارع عليّ مبارك ذكرت لتوي الطريق الذي قطعت مع جدّي منذ تسعة أعوام، وتراءى ليميّ البيت

التعاسة أن تتجنب بنات، هذا حار كبير مهما قالوا إن الزواج نصف الدين! إلا إذا كان النصف الآخر هو الطلاق!... «ثم غير لهجته»... لماذا لا تطلب يد إحدى بنات عمك؟! ألا تعلم بأن ميراث الواحدة ممن لا يقل عن مائة جنيه كل شهر! ولكن دعنا من هذا كله واسمح لي أن أنظر في وجهك قليلاً فإني لا أكاد أعرفك. ما شاء الله، أنت رجل لا يتفصلك إلا الشارب، لماذا لم ترسل شاربك؟... ثم إنك رجل جميل، ولكنك نحيل مهزول كأنك لا تملك كفايتك من الطعام؟ حار أن يكون شاب في مثل سنك نحيلًا. ومع ذلك فيا لها من سعادة أن يرى الأب ابنه رجلاً، خصوصاً إذا كان يراه لأول أو لثاني مرة! ألا ترى أنني أب عجيب؟ لقد أنجبت ثلاثة ولكني وحيد مهجور. ولست ساعداً على حفي، لأنه من السعادة أن تبقى وحيداً، وما من مرة خلوت بإنسان فكراً إلا واقتربنا خصمين، وهم يقولون عادة إنني غشفي، وأنا أقول إنهم لمخبطون، فإله يفصل بيننا يوم القيامة. لا تدعش إذا سمعتني أقبس من القرآن فإنيما الفضل في ذلك إلى الراديو، ولقد बादت ببني وبين الدنيا ولكن الدنيا تأتي إلا أن تقسم عليّ داري في الراديو. أهلاً أهلاً. أنت ولد باز يا كامل، ولكن ينبغي أن تعتني بصحتك، وتأخذ كفايتك من الطعام حتى تسمن. ألم يترك جدك ثروة؟!

كنت جزعاً يائساً لا أدري كيف أطرق الموضوع الذي جئت من أجله في ضوضاء تلك الثروة التي لا ضابط لها، واشتدّ جزعي وباسي حين رأيته - في أثناء ثورته - يلاً كأنها جديدة، ولكنني انتهزت فرصة طرحه السؤال الأخير وقلت بلهجة لا يشوبها شك:

- لم يترك جدي شيئاً على الإطلاق...  
فهز رأسه الأصغر الأحمر كأنه يقول «هذا ما توقعت» ثم قال:

- مرتّب عال، ذرية قليلة، معاش ضخم، ثم لا يترك شيئاً، كان رحمه الله مقامراً، والمقامر يفضل أن يضر نقوده على المائدة على أن يكتزها في المصرف، وما هو إلا طفل قد عمغن من قلبه حب اللعب، ولست

قمت بهذه الزيارة التي لا رجاء منها. وجعل ينظر صوبي باهتمام، أو لعله حب استطلاع، فعمجت لذلك اللقاء الغريب بين أب وابنه بعد افتراق عمر كامل، وتساءلت في نفسي في دهشة وعدم تصديق عما يقال عن الحب بين الآباء والأبناء. ولم أدر بطبيعة الحال كيف أبداً الحديث، ولكنّه أخذ يتكلم فأنقلني من حيرتي. وقال بصوت غليظ:

- كيف حالكم؟ مات جدك! كان رجلاً لطيفاً، وأحفظ له ذكريات لا بأس بها على رغم ما كان، ولكني لم أشهد جنازته وهو ما لا يفره كثيرون، على أن الإنسان في مثل سني ينبغي أن يعفى من الواجبات، والشيخ والطفل سيان في ذلك، ولا تنس من ناحية أخرى أن جنازتي لا يُنتظر أن يشيها أحد اللهم إلا عم آدم البواب، ولا يبعد أن يشغل عنها عم آدم نفسه بتفتيش جويو وسرقه ما يظنه بها من نقود. هل تشيخ أنت نعتي؟! \*

دهمني سؤاله بعد قلق استحوذ عليّ بتأثير لهجة الثملة، فابتغيت أن مهمتي ستكون شائعة ضيقة، ولكنني بادرته قائلاً:

- أطال الله بقاءك!

فقهقه ضاحكاً، ورأيت أنه فقد ضروره، فسألت منظره وضحكه واستدرك قائلاً:

- يا لك من ولد باز، فجميل جداً أن تحب أباك وتدعوه له بطول العمر والبر بالأب سجية فاضلة لم يكن لي منها نصيب وأسفاه، ولو أوتيت قدرًا من الرياء أو حُفًا من الصبر لكنت الآن من أغنياء البلد المعروفين، مثل عمك قاتله الله، ألم تر إليه كيف لم يفتح بما ووت من مال لا تقنيه النار حتى استأثر بأخيك مدحت - ذلك الثور - فزوجه ابنته؟! ولقد ظننته يوماً سيعتق مذهب الطلاق كأيّيه ولكنّه يشو خانناً كالنساء، وانقلب فلاناً مزارعاً يشارك القطعان معيشتها، ولعله يعلم بثروة عريضة بعد موت عمه، ولكن خاب فإله، فلزوجه أخوات ست كلهنّ مطعم الفحول من عشاق للمال والنساء! ولذلك أقول إنّه من

الخمر، ولو أحب الناس جميعًا الخمر كما أحبها، واستهانوا بالمال، لا يمكن حلّ مشكلة الدنيا بكلمة واحدة. تصوّر معي بلدًا سعيدًا، يشطرونه شطرين فيشيدون المساكن على اليمين والحدائق على اليسار والحكومة في الوسط، ولا يكون للناس من واجب إلا أن يشربوا، هذا بلد يريح ويستريح، ألا تشرب يا بني؟ كلاً. فإذا تعنتت من الشرور؟ إن قيمة المراه الحقيقية فيما يعمل من شرّ، هبني متّ غداً ولم أكن سكيرًا، فما عسى أن يقول عني الناس؟ لا شيء! أنا وأنا شرّيب فسيقولون حقًا: وكان شرّيبًا سكيرًا. بل ولو كنت أتصلّقُ بجالي هذا على الفقراء لما ذكرني أحد بكلمة. الناس ينسون الخير بسرعة ولو كانوا من صناعته، فالشيء الوحيد الذي يخلّد ذكرك هو الشرّ... ما رأيك في كلامي هذا؟

ولم أجده من الإجابة مفراً، فقلت:

- يجب أن نخاف الله ونطيعه...

فأمن على قولي بهزة من رأسه المستدير بدت هزليّة واستدرك قائلاً:

- صدقت! هذا سرّ الوجود. أنا والله لو كان حقًا ما يقولون من الله فإنّ مصرينا لأسود! بيد أنّي عظيم الثقة والاطمئنان، وما أفقد ثقّي وطمأنيني إلا إذا ساء همضي، هنالك تبلى الدنيا عابسة كالخاء! وذلك لأنّي أؤمن بأنّ الله لا يعلّب عباده. كيف أصنّق أنّ إنمّا عظيمًا سبحانه يحرق مخلوقًا مثلي لانه أحبّ الخمر؟ ألا يعجبك كلامي؟ أنت آتستنا. أرى الملل في وجهك. ترى ما الذي دعاك إلى تذكّر أبيك بعد نسيان العمر كلّ؟

وخفق قلبي، ولم أجد أطيع السكوت. ولعلّه لم يكن من الفطنة أن أطرق موضوعي أثر ذاك السؤال، لكنّي قلت في عدم تبصّر:

- أراي في ضيق شديد. وإذا كانت الظروف السيئة قد فرّقت بيننا فإنك أبي على رغم هذه الظروف السيئة.

وقهقه ضاحكًا فكرهت منظره للمرّة الثانية. ثمّ قال بلهجة الهاذية التي تنزع من سامعه آية ثقة فيما يقول:

ألومه لأنّي بدوري شرّيب سكير، والفرق بين المقامر والسكير، أنّ الأوّل عمليّ يضارب ويخادع ويكسب ويخسر، أمّا الآخر فنظريّ يحلم ويحلم ويحلم. وإذا طمع المقامر في الثراء قام بثروته في اللعب فيخسرهما على الغالب، ويمتني نفسه بتعويض خسارته فما يزداد إلا خسرًا حتى إذا مات لم يترك شيئًا، يترك ذنبًا قليلًا، والغريب في الأمر أنّ المقامر جيمًا يخسرون ولا أدرى من يربح إذن! أمّا الشرّيب فإذا طمع في الثراء وجدته عرضًا بين يديه دون أن يكلفه ذلك أكثر من ثلاثين قرشًا لمن قارورة كنهله. أتقول إنّ ذلك عرض وهم؟ لا، لكن، وهل ثمة شيء في الدنيا إلا وهو وهم وخيال؟ أين جدك... كان جدك حقيقة ملموسة فإين هو الآن؟ شمرّ للبحث عنه فلن تجد له أثرًا. فتش عنه في البيت، وفي المقهى، وفي النادي، بل انظر في القبر نفسه، وهالك رقبتي إن وجدت له أثرًا، فكيف يكون حقيقة! رحمه الله! وماذا فعلتم بعده؟ أما زلت طالبًا؟

فقلت وأنا أداري حقني وجزيي بابتسامة باهتة:

- تمعّنت مؤلفًا بوزارة الحرية!

لرفع كأسه ضاحكًا وقال:

- نخب مستقبلك! ما شاء الله! أسرتنا مجيدة ولكن ليس بها من مؤلف واحد، فانت الذي تشق طريقها إلى الحكومة!

ولم أتمالك أن قلت بضيق:

- لست إلا مؤلفًا صغيرًا، وليس لي مرّتب يذكر! فرمقي بنظرة توجّس من تحت حاجبيه الأشبيين وقال بغير مبالاة:

- لا تجزع، الصغير يكبر حقًا. قضت حكمة الدنيا بأنّ الصغير يكبر والكبير يصغر... والظاهر أنّ الله خلق ثروة محدودة واحدة، لا يتغيّر مقدارها، ويتغيّر حظّ الناس منها، وإلا فلماذا لا يثرى الناس جميعًا؟ فاصبر يا بني ولا تشغل نفسك بالتفكير في المال. التفكير في المال مهلكة كادت تورودني في يوم من الأيام، إنّي أصعب لماذا يحبّ الناس المال هذا الحبّ الكبير! لست في حاضري من محبّي المال، أنا لا أحبّ إلا

شهري مقدار أربعون جنيهًا غير أجرة الطابق العلوي، ولكن لا تخيّن عنك نفقاتي، إليك الطباخ مثلاً فهو يسليبي عشرين جنيهًا كل شهر، وإذا خطر لي أن أراجعه مرة دوّح دماغي بحساب طويل لأفقه عنه شيئاً. وإليك الحمر أيضاً فإنه يلزمني منها زجاجة في اليوم أو ما يزيد على خمسة عشر جنيهًا في الشهر، وما يبقى بعد ذلك لا يكاد يني بالضرورات الأخرى كالكساء والتدخين ورواتب الطباخ والبواب والخدام وأجرة العربة التي تجوب بي بعض الشوارع القريبة كلها ستمت طول المكث في البيت. ليس لي من رصيد في المصرف، حقّ إليّ أعالج سوء الهضم بالوصفات البلدية. لا تسألني مالاً يا بني، وإني أقول هذا أسفاً علم الله، ولكن لماذا لا تتزوّج كما تزوّج أخوك من غير أن يبذل ملياً واحداً؟! وإن احترمت نصيحتي فلا تتزوّج على الإطلاق!

وحلجني بصره الزائف، فبدا لي فظيماً كريهاً. ثم استخرج عليه سجارته، وأخذ سيجارة وأشعلها وراح يدخنها بتلذذ. وجعل يرأب دخان السجارة بعينه الخائيتين، فخيّل إليّ أنه نسيبي. ثم وقع في نفسي أنه يعدّني! وملأني الحق، ولكنّي بقيت حل جمودي، وازدحت إحساساً باليأس والحيرة. وساد الصمت ملياً، ثم التفت نحوي، وألقى عليّ نظرة لا معنى لها، ثم ارتسمت حل فمه الواسع ابتسامة وسألني:

- ألا تدخن؟

- كلا...

وعدنا إلى الصمت. ألا يجدر بي أن أذهب؟ وتوثّبت للنبوض لولا أن لاح في وجهه ما جعلني أنظر إليه بدعشة وانزعاج. بدا متعباً وتفقد جينته عرقاً ودارت عيناه في أنحاء المكان وكأنهما لا تريان شيئاً. ورأيت خدّه الأيمن فيها يتصل بفمه يرتسم ارتعاشة عصبية. ثم دمعت عينه البمي... آ... توقفت شيئاً خيفاً لا أدري كنهه، ولكن لم تطل به تلك الحال، انبسط وجهه وعادت إلى عينه الحياة الطفيفة التي تيلو فيها: ونظر صوري مرة أخرى، زائلي الخوف الغامض، وعادوني أحاسيس اليأس والحيرة

- معك حقّ. الويسكي هذا حكمة غالية، إنّه كاللدينا في مرارته، ولكنّ الحكيم الحكيم من يستطيعه ويألفه كما يستطيع الحكيم الدنيا ويألفونها، ويل لمن يجزعون لمرارته أو يقيثون، لن يصبروا إذن مع الحياة. قلت يا بني إنّ معك حقاً. يعجبني والله حسن تمهيدك ولياقتك. تقاطعني غتاراً ثلاثين عاماً أو ما يقارب هذا، لا تؤاخذني على الخطأ لأنّ الحساب لا وزن له عند الشرب فليس حقاً أن يساوي واحد وواحد اثنين، وعسى واحداً يساوي عشرة، قلت إنك تقاطعني عمراً ثمّ تحيثني معتزلاً ببجملته لطيفة. على أنّي أقبل العذر، ولم؟ الحقّ لا آسف على مقاطعة الناس لي. أمّا الضيق الذي تشكو فأمر سيّئ جداً. فما يضايق ابني يضايقي بالتالي، فماذا تعني يا بني؟

حدّثني نفسي باللهاب لأني لم أجد في ذاك الهليان فائدة ترجى. بيد أنّي نبذت الفكرة في احتجلاج وفضب. وعزّ عليّ أن أنكسر على عقبي بعد أن أقدمت على ما أقدمت عليه. واستجمعت قواي، وبذلت فوق ما أحتمل عافة في مقاومة الحجل والارتباك وقلت بصوت منخفض:

- أريد أن أتزوّج!

وعاد الرجل السكران إلى تفهفته الكرية، ثم قال بدعشة:

- ما بال أسرنا لا تنجو أبداً من هذا الداء الويل؟! إنّ أخطك لم تطق صبراً حقّ أختارها بعلماً كما ينبغي فهربت مع رجل غريب وتزوّجته. وهذا أخوك ما كاد يشبّ عن الطوق حقّ كان راقداً في حضن عروسه. ولا أبرئ نفسي فقد حاولت أن أكون زوجاً مرةً وأخرى وثالثة، أغصبت بها من أسرة ولعلك تحتاج مالاً ليتّم لك ما تريد من زواج؟! لا أستبعد هذا فالزواج وإن كان داء كما قلت إلّا أننا ننق عليه أموالاً طائلة، ولي هذا وحده الدليل الناطق على جنون الإنسان! ولعلك جتني وحملت نفسك ما لا تؤدّ من روئي لتسألني مالاً تزفّ به إلى عروسك... لا أستبعد هذا، ولكن من أين لي بالمال الذي تريد؟ هل وقالوا لك إليّ غنيّ ميسور؟ لا أنكر أنّي أتمتّع بدخل

خلصت إلى الطريق محطّم النفس والقلب والأمل.  
وقطعت الطريق إلى المحطة وأنا أسبّ والنعن وأهيمز  
غيظًا وحقدًا: «لم أحتمله أكثر من ليلة واحدة».

ربّاه... لو أنّ ألف صفقة أهدت قفائي في ميدان  
عمومي لما أدّيت كما أدّيت تلك العبارة! وبلغ منّي التأثر  
مداه فإزدحت الدموع بعيني، واستسلمت للبكاء  
مستخفيًا بالظلمة التي تفتش الكون. ليس ثمة فائدة  
ترجى منه. موته وحده بيده أن يغيّر وجه حياتي! أجل  
لا أمل البتّة إلّا في موته. واستقلت الترام وشرودي  
للمهود ينسّ عن كربى بأعلامه الثالثة، فرأيت نفسي  
جالسًا مع مدحت وشقيقتي راضية تنقسم ميراث أبي  
بعد وفاته! واقترحت عليهما أن نبيع البيت الكبير  
فوافقاني في الحال وأصبحت في غمضة عين مالكا لألف  
جنيه! ولم يكن في الحلم أثر لأمي! فقابلت والد حبيتي  
وفاتحته بشجاعة عن رغبتني في مصاهرته وتمّ كلّ شيء  
دون عراقيل! وشعرت بارتياح خفّف من توتر أعصابي  
الذي أوردتني تلك الزيارة المخيفة الفاشلة، بيد أنّي  
تذكّرت بسرعة كيف أنّ الحلم لم يجعل لأمي وجودًا،  
وسرت في بدني رعدة خوف وتقزّز، وتقلّص قلبي  
امتعاضًا وندمًا، كيف سمحت لهذا الخاطر الشيطانيّ  
بأن يلوّث نفسي مرّة ثانية؟! ولازمي الامتناع  
والغضب طوال الطريق. وجعلت أرعد في نفسي:  
«اللهمّ بارك لي في صهرها»، ولم يخن عني ذلك شيئًا  
فعدلت إلى البيت موثّق النفس مشتّت البال، ولم يرتج  
لي جانب حتّى طبعتم على جبينها قبلة طويلة حارة...

## ٢٨

وفي عصر اليوم التالي ذهبت إلى محطة الترام لأفوز  
بذائق السعادة التي لا يهود اليوم إلّا بها. لم يعد لقاء  
الصباح بالتحاليل إلّا فيما ندر، وذلك منذ غدت حبيتي  
جالسة في الشرفة تحدّث شقيقتها، فوقفت متطلّعا،  
منتظرًا زادي من نظرة عينها الذي يملّني بماء الحياة،  
وانعطفت الرأس المحبب نحوي، ولكنّه ما كاد يراني  
حقّ تحوّل عني فيها يشبه الحذّة. ثمّ نهضت قائمة  
وغادرت الشرفة. خففت بصري ذاهلا وقد خبا

والكراهية. ثمّ تأملت بعين الاستغراب الحقيقة الماثلة  
أمامي، وهي أنّ هذا الرجل هو أبي الذي أوجدني في  
هذه الدنيا ودعت هذه الحقيقة حقائق أخرى عمّا يتصل  
بها، بدت في صور محسوسة، فسامني منظرها، وألمني  
وأزعجني. وليت هنيهة من الألم في شبه دخول، ثمّ  
تهدّدت على غير وعي منّي بصوت مسموع، وتنبّه إليّ  
وسألني للمرّة الثانية:  
- ألا تدخن؟

فهزّزت رأسي سلّبا، فقال لي فيهمج:  
- يعمّ القبح أنت! لا عيب فيك إلّا أنّك ترغب في  
الزواج! حدّثني عن زواجك أهر رغبة عاقبة؟ أم هو  
رغبة خاصّة في بنت من بنات حواء؟ وهنا خفق قلبي  
بعنف وكادت الدموع تسارع إلى عيني، هذا ما يبدو  
لي، ترى كيف الحبّ هذه الأيام؟! لا شك أنّه لا يزال  
محفظًا بخطورته وقوّته في خداع البشر! ومع ذلك أكثّر  
هليك النصيحة بالآ تزوّج على الإطلاق. هذه نصيحة  
رجل مجرب. الزواج سخرة. تصوّر أنّ امرأة تملكك  
ودع ما يقال من أنّك أنت الذي تملكها فهو كذب  
سمج، تلك قواك وتسلبك مالك وتستبدّ بحرّيتك ثمّ  
تستدرجك لاستعباد روحك وما تملك لرعاية شخصها  
وأبنائها. فإذا متّ سمعت إلى رجل غيرك قبل أن تهفّ  
دموعها، الزواج شيء سخيف لم أحتمله أكثر من ليلة  
واحدة!

ترنّح قلبي تحت وقع الطعنة التي نفلت إلى  
صميمه، ونذت عني على رذمي آهة من الأصايق،  
فنظر إليّ في شبه بلاهة. ورمقته بنظرة نارية حتّى  
حادتني نفسي بأن أقفله بالقارورة في وجهه، ولكنّي لم  
أكن الرجل الذي يتقدّم مثل ذلك الخاطر، وشعرت  
بالقهر لعجزني، ورغبة في البكاء قاومتها ما وسمني  
الجهد. وسألني في دهشة:

- هل أملك يا بني؟

فنهضت قائمًا في حتق وصحت به:

- السلام عليكم...

ثمّ نعمت على إفلات هذا السلام منّي في اللحظة  
التالية، وغادرت المكان لا ألوي على شيء، ثمّ

يحملني أصول وأجول في البيت بلا داع حتى إذا اصطدم بأحقر موقفك في الدولة انقلب ذلاً ونوعاً، استسلمت لذلك التفكير الحزين طويلاً حتى بدت لي نفسي قطعة من البشاعة والهوان، إنني شخص لا يستحق أن يعيش، إن أنف الأصيل بملاني دعراً وجفولاً، حتى تمثيت أن يكون لزيادة الماهية طريق غير الترقية كي لا أجد نفسي أبداً مسئولاً عن عمل كبير، ولن أنسى أنني بثلثت قصارى جهدي حتى وكّلوا بي في إدارة المخازن الآلة الكاتبة نقاداً لأعمال حفيرة لا تملو الضرب والجمع والطرح، لست إلا مخلوقاً غريباً شذ على قافلة الحياة الحقة، ومن أي ذلك آتي لا أحفل بشيء في الدنيا إلا نفسي وما يتصل بها من قريب، ومن أي ذلك أيضاً آتي لا أقرأ الجرائد على الإطلاق! ولشدة ما كانت دهشة زملائي من الموقفين عظيمة حين تبين لهم اتفاقاً آتي أجهل اسم رئيس الوزارة وقتذاك بعد أن مضت أشهر على توليه الحكم وراحوا يتندرون بجهلي كثيراً وأنا صامت كظلم، وكأني لست من هذا المجتمع، فلا أدري شيئاً عن آماله وآلامه، فادته وزعمائه، أحزابه وهياته. ولكم طرقت أنني أحاديث الموقفين عن الأزمة الاقتصادية وهبوط أسعار القطن وتغير الديمتر فلم أكن أفقه لها معنى أو أجد لها في نفسي صدى، لا وطن لي ولا مجتمع، لا لأنني أسبق الوطنية ولكن لأنني لم أدركها بعداً ولعلني أشعر أحياناً بأنني أحب الناس جميعاً، الناس كشيء معنوي عام، ولكن ما كان أحد من هؤلاء الناس - إذا اتصلت أسبابه بأسبابي - إلا ليثير في نفسي الجفاء والنفور. وحتى إغاي العميق لم يستطع أن يستغني من هذه الوحشية المخفية، فضلاً عن أنه أثقل ضميري بالقلق والتأنيب، وأوسعني إحساساً حاداً بالخفوية من جراء العادة المجنونة التي استبدت بي...

لذلك إذا كان جاء يوم الأحلام انطلقت إلى حانتي الجديدة يسوق الخضار لا ألوي على شيء، وطلبت الدورق الجهتمني الذي لم يعد لي عزاء سواه...

حاسي وقت. ما الذي أغضبها؟ ألم تحتمل جمودي؟ هل يقضى عليّ بالحرمان من نظراتها الحلوة؟ هل قررت أن تقابل جمودي بالإعراض والتجاهل؟ وتولاني الحزن والقنوط والحجل. كان موقفني عجلاً بلا ريب، ثم خطر لي خاطر بدت له أطرافي، وتساءلت في خوف أكون لأحد الرجلين اللذين يناقسان في الإعجاب بها شأن بهذا التحول الجديد؟ لكن صبح هذا، فإذا يبقى لي في الحياة؟! خربتني يا حبيبي بحق شبابك الريان، أهي جفوة عطف غائته الصبر أم إعراض قلب ظفر بجهته في ناحية أخرى؟ لن أنسى بؤس ذلك اليوم، ولا الأيام التي تلت. اخضت حبيبي من أفق حياتي، ونحمت الظهور بالشرقة حين أكون في المحطة، وفي مرات التلاقي النادرة في الصباح حرصت ألا يقع بصرها عليّ. رحت أكل الشرقة والنافلة بينين جالعتين أضناماً التطلع. وكنت أرى الآم أحياناً وهي ترمقي بنظراتها المتصصة، والأخ وهو يلقي عليّ نظرة غريبة، والشقيقة الصغرى وهي ترمقي بنظرة اهتمام، أنا حبيبي فقد توارت، تاركة وراءها شجرة الحياة عارية، فحشوراً صفراء وعروقاً ذابلة، رياء! ليس هذا بعدم اكترت، لو كان عدم اكترت حقاً لما أوجب هذا الحذر كله، ولوقع عليّ بصرها كما يقع اتفاقاً على المخلوقات والأشياء بالطريق. إنما تتجنبني عامدة قاصدة، إنها غضبي بومة، ولا شك أن قصة الغنى الذي يبدو عجا قد ملأت البيت. ولا شك أن جموده الغريب كان موضع تعليق ونقد واستفهام! كيف فاتني أن أقدر حرج حبيبي وحيرتها؟ وتهدت من الأضغى، وتنسدى جبيني عجباً، وامتلأت سخطاً على حظي التنس، وامتلأت السنة سخطاً إلى أنني المتواوية وراء كل شيء! وانطويت على كدر كأنما سفت ربح الخمسين غبارها على نفسي، فلم أجد ذاتي هدفاً لسخطي وكدري وغضبي، وهي عادة قديمة لي إذا ضاقت بي الدنيا أن أوسع نفسي نقداً وهجاء وكشفاً عن عيوبها ومناقصها، فعدت إلى التنديد بمجزي المطلق، وخوفي الشامل من الدنيا والناس وكافة المخلوقات الأخرى، وذلك الكبرياء الكلاب الذي

الوجه، دقيق القسبات صغيرها، وكان يحلّي أصبعه بخاتم ذي فصّ ماسيّ، ويضع على عينيه نظارة سمكية أحثت من نظرة عينه، ويعبت بسلسلة ساعته الذهبية المدلاة من حروة صدائه. سألني بأدب صمًا أفضله من المشروبات، ولما لم أحر جوابًا طلب شابًا، ثم قال:

- اعلوني عن تطلّعي هذا، ولكنتك ستقدّر موقعي بلا شكّ إذا علمت بما حداني إلى دعوتك. واسمح لي قبل كلّ شيء أن أقدم لك نفسي... عمّد جودت مدير أعمال بوزارة الأشغال.

ووقعت كلمة «مدير» من نفسي موقعًا مروّعًا، فقلت:

- تشرفنا يا بك... أنا كامل رؤية لاظ مولفك بوزارة الحربية.

وجاء النادل بأقداح الشاي، ولكنّي كنت أفكر في الفرق الكبير الذي يفصل بيننا كموظّفين. هو مدير أعمال، وأنا كاتب على الآلة الكاتبة بإدارة المخازن. ولحمت وراءه امرأة مثبته في الجدار، ورأيت صورتي معكوسة على صفحتها، فنظرت إلى وجهي المستطيل وعينيّ الخضراوين، وصرخا ما سرى عنيّ شعور بالارتياح والإعجاب! أنا صاحبي فقال لي:

- يا أستاذ كامل، إنّي دعوتك لمشاورة أخوية، وأرجو أن تقدّر رغبة رجل مثلي - اعتبره أخاك الأكبر - في التضاهم الصريح. لست بالمتجنيّ على أحد، ولكنّي أرجو أن نكون صرحاء

واصطنعت الدهشة وقلت:

- أرجو أن تنصح يا سيدي صمًا تريد وستجنيّ دهن إشارتك...

فبسطت ضحكة قصيرة خافتة، ثمّ قال بعد تردّد قليل:

- أنصح عنيّ إذا سألتك سؤالًا ليس لي حقّ في توجيهه؟

ربّاه إنّي أتلهّف على ساعه: أجل إنّي أوقن بأنّه لن يعمل لي نيا سارًا ومع ذلك بدا لي كاشمهي المنيّ. قلت

كنت واقفًا في المحطة قبيل المغرب، لم أكن أنطلع إلى الشرفة والنافذة، ولكنّ حبيبي لم ترق لي منذ جفتني، قاطعتني مقاطعة قاسية، وأضنت حياي كمداً، وكان الشتاء في إيتانه: وفي السماء سحب جيون انعكس ظلّه الثقيل على الأرض، وهبّت ريح باردة، وقفت ملتصًا في معطفي الأسود، أرفع للبيت المحبوب من آن لآخر بصراً مشوّقاً يائساً، وعلى حين فجأة سمعت صوتًا رقيقًا يقول:

- من فضلك يا أستاذ...

فالتفت ورأيتي بدهشة، ولكنّ دهشتي تضاعفت ومازجها خوف كثير حين رأيت أمامي أحد الرجلين اللذين أتممتها بحبّ حبيبي، ذلك الرجل الوقور الذي يغلن في همارتها وغمغمت بارتباك:

- أنندم؟

فقال بصوته الهادئ الرقيق، وبلهجة تنمّ على الوقار:

- تسمح نمشي قليلاً معاً...

فتساءلت بحيرة وإن حدس قلبي الخبر:

- لماذا؟

فقال مبتسماً:

- لديّ أمر أودّ أن أحدثك عنه...

فلم أجد مناصاً من أن أقول:

- بكلّ سرور.

فقال وهو يرفع بصره إلى السماء:

- البقّ بارد جدّاً، فهلاً وافقت على أن نستقلّ الترام

إلى ميدان إسعابل، وهناك نجلس في مشرب الشاي فأحدثك دقيقتين؟ أليدك مانع؟

وركبنا ونزلنا، وجلسنا. حدّثني نفسي سلفاً بموضوع الحديث، وداخلني إحساس بالخوف، بيد أنّ شعوري بأنّ الحديث سيدور حول حبيبي حلني على الذهاب معه بلا تردّد، بل وبرغبة لا تقاوم، ولكنّي تسلمت طويلاً صمًا هو قاتل، وعما يرمي إليه من وراء حديثه، وألقيت عليه أوّل نظرة من قريب ونحن جالسان حول مائدة صغيرة، كان في الأربعين، معروق



مبتسماً في ارتباك:

- بكل سرور يا بك...

فارتقت المائدة شابكاً أصابع يديه، وقال:

- لاحظت أنك تبدي اهتماماً خاصاً بشخص ما، ولعلك أدركت من أعني «ما خفق قلبي خفقة عنية» فلا تؤاخذني إذا سألتك عن حقيقة اهتمامك هذا، هل هناك رغبة أو نية أو صلة؟

أوشكت أن أظهار بالدهشة، وأعلن تجاهلي، ولكنني عدلت عن ذلك في اللحظة التالية. طالما التقت عيننا في المحلة، وطالما رأيته يراقبني وأنا أتطلع إلى الشرفة، كما رأي أراقبه وهو يستد عينيه لنفس الهدف، فهو يعرف كل شيء، ويعرف أنني أعرف، فما جدوى التجاهر إلا أن يكشف عن كذبي؟ فقلت متكلماً ابتسامة كاذبة:

- حضرتك أخطأت الفهم، فقدرت أنني أبدي اهتماماً بشخص ما على حين أنني أنظر إليه كما أنظر إلى سواه. إنها محض عادة سيئة!

وضحكت منظاهراً بالاستهانة، فابتسم إلي، وقرأت في عينيه عدم التصديق ثم بادرني قائلاً:

- إنك جتيلان كما قدرت، فارجو أن تحبرني صراحة هل لك بالأنسة علاقة ما؟ إذا أجبتي بالإيجاب شددت على يدك مهتاً وانصرفت إلى حال سبيلي.

فقلت وقلبي يتقطع ألماً:

- ليس لي بها أية علاقة...

فتردد لحظات ثم سأل في حرج غير قليل:

- ألم تفكر في طلب يدها؟

تناوبتني أحاسيس متباينة. شعرت أول الأمر بعداب لا يوصف، ثم داخلني سرور خفي لأنني أبقت أن الرجل الذي يخاطبني رعديد مثلي وألا لثقت طريقه إلى بيت حبيبي دون أن يعبأ بي، بل أبقت أنه يخافني، فأرضى ذلك غروري إرضاء خفيف عني بعض ألي. ثم وجدتي مدفوعاً إلى الادعاء والكذب بقوة لا تقاوم فقلت بيقين:

- لو فكرت فيما تقول لما منعتني مانع من طلب يدها

من زمن طويل!

وساد صمت. ومضى يترس في وجهي وقد تألفت في عينيه نظرة ارتياح. أي مانع يمنعني؟ يا للسخرية! إن كل شيء يبدو كحلُم غريب، هل حقاً نحن نتكلم عن حبيبي، وهل حقاً أنني لم أفكر في طلب يدها وليس لي من رغبة في ذلك. رباه ما أشد عذابي! وتلكني شعور باليأس لم أشعر بمثله طول حياتي المحافلة باليأس. وأخيراً خرج «البك» من صمته قائلاً:

- أكرر العذرة عن تطفلي. الحق أن نبي قد صدقت أخيراً على طلب يد الأنسة بعد أن زالت من طريقي أسباب صحتني طويلاً عن التفكير في الزواج، وبدأ لي أن أحذرك به حقاً لا أضع رجلي في غير موضعها، والأنا لا يسعني إلا شكرك.

إنه من فصيلة العجزة - فكذا حدثني قلبي - إلا أنه صلاف من هو أجهز منه، فهو سعيد الحظ بلا ريب. فلم يعد لبقائي من مسرع، فنهضت مستأذناً في الانصراف وأنا أقول:

- مبارك يا سيدي.

فنهض في أدب، ويسط لي راحته، وشد على يدي بامتنان فخلته يشد على عني، وشعرت نحو السرور الضاحك في عينيه بعقد ناري، ثم ودعته وغادرت المشرب. وسأقتي قدامي على غير هدى فاستسلمت لها، لأنه لم يكن لي شاة أقصدها، وأخذت نفساً عميقاً وقلت لنفسي: «الحمد لله»، وأهدت القول بصوت مسموع كأنني أهق نفسي! ولعلني كنت أهق نفسي حقاً على اليأس، وأميتها بالخلاص من القلق والعذاب واللهفة التي لازمتني منذ أشهر طوال، أو منذ سكن الحب قلبي. وقلت لنفسي أيضاً: «إنني سعيد، وليس أحق مني بالسرور أحد، انتهت آلامي إلى الأبد!» وعيّل إلي أنني لو ألقيت بنفسي من جسر الملك الصالح - كما كان ينبغي أن أفعل في يوم مغي - لحلقت بدل أن أهوي من شدة السرور ذقت للذة اليأس في سرور هلياني غريب، ومزّت بي لحظات جنونية. والأنا علمت لماذا توارت عن عيني؟ فأخذت أهيئ من نشوتي الجنونية الكاذبة. ثم نشبت في قلبي

العاشرة بقليل فوقف لي عمّ آدم احتراماً، فحيّته ودخلت بلا طلب استئذان، إنّما لأنّي أبيت أن أستاذن في دخول بيت أعمّه يتي، وإنّما لأنّي تناسيت ذاك في قلبي وعني. ومضيت إلى الفراندا وارتقيت السلم متنحنحاً، ولكّني وجدتها خالية، فوقفت مرتبكاً. وأدركني آدم فدفع باباً يفضي إلى الداخل وسبقني وهو يقول:

- كامل بك حضر.

وتنحّى لي، فاجترت العتبة بقدمين ثابتين. وجدت نفسي في حجرة كبيرة مستطيلة تنتهي ببايين في الجدار المقابل علقت بينها صورة بالحجم الطبيعي لأبي في عزّ شبابه. وقد غطّيت أرضها ببساط نفيس منمنم، وصوّت على جانبيها الكتب، وأسدت الستائر على نوافلها وأبوابها. . . ورايت أبي متربّطاً على كفة تتوسط الجناح الأيسر للحجرة، وأدوات الشراب أمامه على منضدة أنيقة كأنّها - لعدم انفصالها عنه - عضو من أعضائه. ولم يكن بمفرده، كان الحلاق على كعب منه يجمع أدواته في حقيبته، ثمّ حيّاه بأدب وذهب، وعلى أثر ذهابه تراجع عمّ آدم ورّة الباب. وألمه بصري وأنا أقترّب منه صوب القارورة فوجدتها لم تجسّ، وداخلني لذلك ارتياح وأمل. ومددت له يدي فتناولها بكفه الغليظة، وجرت على شفّتي ابتسامة باهتة وهو يقول:

- أهلاً بك، أأنت في إجازة؟

لم أرتح إلى استقباله، ولكّني غضضت عن ذلك، والحق أنّ الآم الليلة الماضية، والصداق الناشب في رأسي وبأسي المرير، تغلّبت على ما طُبعتُ عليه من خجل وخوف وتحاذل، فقلت:

- نعم في إجازة خاصّة كي أقابلك في الحال.

فرمقني بنظرة لم يحاول إخفاء ما لاح فيها من قلق ممّا أثار حنفي وغيظي، وتبادل باقتضاب:

- أمر هامّ!

تناسيت كلّ شيء إلاّ المي المريح وأمل الباقي فقلت بانفعال ثمت عنه نبرات صوتي:

- هامّ جدّاً، أو بالأحرى هو حياتي ومستقبلي.

أنياب الغيرة السامة، أيّمكن أن يتمّ هذا حقّاً! لم أستطع أن أصتقّ هذا. لماذا؟ . . . ربّما كان مرجع هذا إلى ثقي التي لا تتزعزع في الله الرحيم ورعايته، ولكنّ من كان يصدّق أن ينتهي بنا الحظّ إلى الحال التي نعيش عليها! وتبدّلت من الأعيان في يأس مرير، ثمّ مرت لي جسمي رعدة من البرد القارص الذي تنبّهت إليه لأوّل مرّة بعد مغادرتي المشرب فاحسكت الملعف حول نفسي خوف البرد لكثرة ما يتهدّني الزكام في الشتاء. وألّمت بي رغبة غريبة، هي أن أجد نفسي طريح الفراش! . . . وتخلّلت بارتياح رفاذي نحو ط به العناية والحنان! وعلى حين فجأة انهارت أعصابي تحت الضغط الشديد الذي تحمّلته، فوجدت ميلاً لا يقاوم إلى البكاء، فاستسلمت له متشجّعاً بالظلمة التي تلتقي ويكبت، ثمّ ازدادت استسلاماً فأجهشت في البكاء حتّى انتعبت وشهقت كالأطفال.

### ٣٠

في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي كنت في طريقي إلى الحليميّة، إلى أبي، كيف انتهيت إلى هذا، خاصّة وأنّه لم يكد يمضي شهر على الزيارة المخيفة! إنّهُ اليأس. . . قضيت ليلة مسهّلة معدّبة لم يمحض في فيها جفن، وتفتّجرت لي أمري طويلاً حتّى تجسّمت لي الأفكار شخصاً تصرّخ بي أنّ انذهب إلى أبيك، مهما كلّفك الأمر، وليكن ما يكون. ولم يكن التردّد بممكن في مثل حالتي، لقد فقدت رشادي، وأذهلني الألم عن مشاعري الطبيعيّة بالتردّد والخجل والخوف فكان أبي - على رغم كلّ شيء - الأمل الوحيد الباقي لي.

واخترت أن أؤوره في الصباح لأنّي أملت أن أجدّه قبل سكره في حال خير من تلك التي وجدته عليها في الزيارة السابقة المشؤومة، وفضلاً عن هذا كلّ فلم يكن بي من صبر أستطيع أن أنتظر به حتّى الأصيل، فتلفتت إلى إدارة المخازن معتزّاً ومضيت لعلّني. وكان الصداق يدقّ غلاف رأسي بمطرقة، بعد ليلة سهاد وهمّ، بيد أنّي تماسكت، واستمددت من رأسي قوّة لم أمهدّها في نفسي من قبل. وبلغت البيت بعد

والحقن فقلت بصوت مرتفع ملا الحجرة الكبيرة:

- إنك لم تنفق عليّ ملياً واحداً، فإذا يضربك لو تنازلت لي عن بضع مئات من الجنيهات؟

ونفخ الرجل عابساً، واشتدّ احمرار وجهه، ثم قال بصوت غليظ:

- يبدو لي أنك لا تفهم ما يقال، ولا تعي ما تقول، قلت لك ليس عندي مال... ليس عندي مال... ليس عندي مال!

وأملت متي زمام نفسي فكشّرت قبضي وضربت فخذي وصحنت به:

- أليس ثمة رحمة في قلبك؟  
فحدجني بنظرة كأنها يقول لي: «لقد أعياني إقناعك»، وقال باقتصاب وعلم مبالاة:  
- كلا:

فومقته بنظرة جامدة وثبت بلا شك بأحاسيس الكراهية والحقن التي تفور بصدري حتى رأيتهم وجهه، ثم صاح بصوت كالخوار:  
- ألا ترعوني كي أعيش البقية الباقية من حياتي في هدوء؟

فصحت به كمن فقد وجهه:  
- متى أزعجت حياتك؟ أنت الذي أزعجت حياتنا.  
إني في حاجة لبعض المال الذي تنفقه على الحمر بخير حساب ولا بدّ أن أخد ما أحتاج إليه.  
فقبض على الكأس الفارغة بأصابع مشتجة وزعق قائلاً:

- هذا كلام مجانين! أنسيتي في وجهي؟ أهكدي؟  
اغرب عن وجهي ولا تعد إلى هذا البيت ما دمّت حيّاً!

فاشتدّ بي الغضب وصحنت بانفعال شديد:  
- هذا بيتي، وما به من مال فهو مالي، ولن تمنعني قوة عيّا أريد، أفاهم أنت؟ أفاهم أنت؟  
فنبض قائلاً والشرر يتطاير من عينيه، وصقّ بقوة جنونية وصرخ في قائلاً:

- اغرب يا ولد عن وجهي وإنيك أن تعود إلى هذا البيت آدم... آدم...

لرّدّد قولبي دون أن يخرج من جوده، وذهوله الذي استحال طبيعة أخرى له:

- حياتك ومستقبلك!  
فقلت برجاء وإشفاق:

- زواجي الذي حدّثك عنه! إن رجلاً يوشك أن يطلب يد الفتاة التي أريد أن أتزوجها، فإذا لم أتقدم في التزوّ الساعفة أفلتت الفرصة من يدي، وضاعت حياتي...

أتراه قاذفي بإجابة ساخنة كعادته؟ وانقبض قلبي في فزع. ولكنّه لم يكن هادئاً ولا مرعباً، ومع ذلك بدا جامداً سقيماً ذاهلاً، بل ميتاً. كان كلّ شيء يسوّغ لي اليأس، بيد أنّي أبيت أن أياس، وثبت ذهني المكثود على فكرة واحدة عصمت عيّا عداها في السباق الجنوني الذي أكابده. انتظرت على جزع حتى قال:

- اطمئنّ فإنّ حياة الإنسان لا تضيق لضيق امرأة.  
فهتفت بحرارة:  
- إنّي أعلم الناس بحياتي!

فقال بعدم تكرات:  
- أنت وشأنك يا بيتي. لن أئذخل فيما لا يعني!  
فقلت بهتاد:  
- إنّي في حاجة قصوى إلى المال، سبق أن أخبرتك حضرتك بذلك.

فسألني بلهجة تمثت عن الملل:  
- وماذا قلت لك؟

فتملّكتي الحقن. ويدا لي في صحوره أظفح منه في سكره، وقلت مدافعاً عن نفسي بإصرار وقنوط:  
- لا بدّ أن أحصل على المال الذي أريد. أرجو أن تقدّر حرجي وشدّتي، فإذا ضاعت متي هذه الفرصة انعدم أمل في الحياة.

وألقى نظرة على الفارورة، ثمّ تعكّب قليلاً وقال:  
- أنت تطلب مالاً وليس عندي مال!

- هذا غير معقول...  
- هو الحق الذي لا شك فيه!  
وأبقت من لهجة واستهائته وتبرّته أنّ الساء أقرب إلى إثارة اهتمامه وعطفه، وتألّب عليّ القنوط والصداق

وفتح الباب ودخل عم آدم كائنه في الانتظار،  
واقرب منا وهو يقول:

- أفندم يا بك... خير إن شاء الله.

ويردني فجأة كأنه «نشأ» انهار عليّ. سكت عني الغضب، ولحد الهياج، وولى قلبي فرازا. وقبضت يد الخوف الباردة على عني فتسمرت في مكاني مرتبكا ذاهلا زائغ البصر. ذهب كامل الذي اصطنعه الغضب واليأس، وبقي كامل الآخر كما خلقته الطبيعة. ولم يرحم الرجل المالح ضعفي فصاح بالبراب قائلا:

- أوصل هذا إلى الباب ولا تسمح له بالدخول مرة أخرى. إنه يتهددني بالقتل.

وحلقت في وجهه بلهول وانزعاج لا أكاد أصدق أنني، فلاح لي في هياجه الجنوني كشيطان رجيم. وصرخ في وجهي:

- اغرب عن وجهي.

ولكني لم أبعد حراغا، أو بالأحرى لم أستطع أن أبدي حراغا، تمنت لو تنشق الأرض وتبتلعي، ومث خوليا وكعدا وخجلا. وانتظر الرجل عابسا، فلما رأي لا تحرك ولا ي ظهره وغادر الحجرة إلى الداخل على حين تفهقر البواب إلى الفراندا. وجدت نفسي وحيدا فعضت على شفتي، واستعدت وهي فاستطعت أن أنفض قائما في وجوم، ثم غادرت الحجرة متحاميا النظر ناحية البواب. وحشت خطاي في الحديقة والبواب يتعني مغفما بالاعتذار والتأسف، متحلا للبك الاعتذار قائلا: «إنه دائما هكذا». وابتعدت عن البيت دون أن أنبس بكلمة...

### ٣١

قطعت نصف النهار الأول متسكنا في الطرق مختنق الانفاس من اليأس والخنق والقهر والحسري والفجل... وعدت إلى البيت في الموعد المعتاد حتى لا تتساءل أمي عما جاء بي قبله. وغلبني النوم بعد الغداء فاستغرقت فيه حتى أول المساء، ثم غادرت البيت مثل النفس كأنما أحمل الأرض على رأسي، وتساءلت

أين أذهب، فما وجدت إلا جوابا واحدا. ناديت الحانة نداء مغريا، واستصرختني قلبي أن آتي وأطيع. بيد أنني لم أخفل عن الحقيقة الراهنة وهي أن ميزانتي - ذلك الشهر - ستختل حثا بعد السكره المشتهة فلا أجد ما أنفقه حتى قبض المرتب الجديد... على أن النداء ظل عني لا يقاوم، وبدا لي في تلك اللحظة التعمية أن نشوة ساعة خير من حيلة لا خير فيها... وتحسست يدي ساعتها الذهبية فقفز إلى خاطري أن أبيعها إذا أحوزني المال، ودخلني ارتياح فابتسم لأول مرة في يومي. على أنني تساءلت في اللحظة التالية عما أقول لأنني إذا التفتت ساعتي، ولا بد أن تفتقد لها يوما ولكنني نفخت ضجرا وهضت حائفا: «أمي، أمي، دائما أمي! سأفعل ما أشاء». واستقلت الترام بلا تردد. وفي الطريق هفت على نفسي ذكرى جدي لنبر ما سبب واضمح، فذكرت أيام الرغد والهناء التي فقدتها بفقدته ثم وجدني أتمنى لو كان قبض يده الكريمة عني ونشاني على البخل والتقتير، أما كنت أكون أقدر على تحمل حيالي الراهنة وقرأت الفاتحة على روحه المحبوبة. ثم غادرت الترام في العتبه وقصدت سوق الخضار حيث توجد حانتي المتواضعة وما انتهيت من نزع معطفي والجلوس إلى مائدة خالية حتى جاء النادل اليوناني بالدورق. حانتي شعبية بلا ريب، ولكنها عذمة لدرجة ما، فإلى جانب الحوذية والمجلبين تمجدلثة من الموقفون الكهول الذين لا تسمح لهم ظروف المعيشة وأهواء الأسر بارتياح الحانات الغالية. ومن هؤلاء موكلف عجوز مفرم بالغناء والطرب. ما يكاد يسكر حتى يسترسل في ترديد الأوار القديمة مثل: «في العشق يا ما كنت أنوح» و«يا ما أنت واحشي»، ولم يكن صوته يخلو من تطريب وأداء ييش له الجلوس ويتطوع نفر منهم لترديد المذهب في انسجام لليد. أعلقت في الشرب، وكالعادة تولاني الشعور بالارتياح والمرح، ذلك الشعور الذي لا أجده إلا بين السكراني في الحانة، المكان الأوحده الذي أتخفف فيه من وقار الحجل والعي والحصر والقلق والمخاوف ونعمت بطمعانية وسرور كائنني أزد إلى أهلي وعشيرتي

سأقي عليه في جلسة سلطنة وأبهة غير شاعر ببرودة الجو وداخلي ارتياح لحركة العربة الخجلة، وسرعان ما خامسني ميل إلى العيب فقلت للحوذني في حذر كاذب:

- إن امرأة تنتظري في الطريق وسأخذها معي...  
فقال الرجل:

- رهن أملك يا بك...

فقلت لنفسي في سخرية إن كل شيء على ما يرام، عربة مريحة وحوذني طريح وليل ستر فلا ينقصنا إلا المواة. ثم قلت مستسلماً لداعي الكلب:

- هي سيئة من الطبقة الراقية فهلاً وجدلت لنا طريقاً آمناً؟

فقال ضاحكاً:

- أظن جاردن سي آمن طريق قريب!

فهضت به:

- خاب فالك، إن قصرها بجاردن سي؟

فقال باهتمام:

- أماننا جزيرة الروضة وإن كان الجو بارداً وأنا رجل عجوز لا أحتمل البرد!

فقلت متحجماً:

- سأعطيك جنبها كاملاً!

وشكر الرجل لي بحياة وقد بيّنا له أنه عثر على كنز، وجعلت أضحك في سرّي وأتحس بأصابعي الريال الذي لم يبق لي غيره حتى نهاية الشهر. ومَرَّ زمن ثم رأيت العصابة المجبوبة - حماره حبيبي - تقترب، وديت في قلبي بقطة غريبة وعلقت بها هينائي. لم أجد أملك حرّية النظر إليها - وكان كلّ عزائي - بعد ما كان بيني وبين خطيئتها المرتقب! لم يعد بوسعي أن أتطلع إلى الشرفة أو النافذة. ترى هل خاطب سعادة مدير الأعمال أباهما؟ هل صارت حبيبي مخطوبة حقاً، ألم تذكر الحب القديم - الصامت العاجز - وهي تنتقل إلى دنياها الجديدة؟ ألم تجد نحوه شيئاً من الأسف؟ وشعرت برغبة في الانتقام من الدنيا جيئاً، وتولّاني إحساس بالذهول والانقباض فلبثت جامداً حتى بلغت العربة شارعنا، فأمرت الحوذني بالوقوف وغادرت

بعد اغتراب ثقیل، ونمّيت لو كان في الإمكان ألا أبرحهم مدى الحياة. وما لبثت أن غمرتني النشوة الساحرة، وأغمم وجداني طرباً. ولم يكن الموكلف الفنان قد بدأ الغناء بعد، وكان يحدّث رفقه بصوت مرتفع يسمعه الجالسون جميعاً، ولا بأس من أن يشتركوا فيه كما يشتركون في الغناء. قال:

- تصوّروا يا هوه أن الطبيب ينصحني بالكف عن الخمر!

- لماذا كفى الله الشر؟

- وجد عندي ضغط دم وتصلّباً في الشرايين.

- اشرب حلبة على السريق تضمن صحتك طول العمر.

- وقال لي إذا واصلت الشراب ستهلك لا محالة.

- العمر بيد الله!

- فقلت: وإذا لم أوصل الشراب فإمهلك يوماً لا محالة.

- إجابة تستاهل عليها دورق كونيّك على شرط أن تدفع ثمنه.

- هل تصدّقون أنّي رأيت هذا الطبيب ذات مساء جالساً في سائت جيمس يشرب ويسكي؟!

- وفكّذا الأطباء جميعاً! ينتش أحدهم جنبهك ويقول لك «ليناك والخمر»، ويغضي به إلى سائت جيمس ويشرب قارورتين...

واعتدل الموكلف المعجوز في جلسته قليلاً، وراح ينقر على المائدة ويبرّز رأسه، ثم غنى قائلاً: «أنصف عجبك يا جميل»، وأنجّمت نحوه الأبصار، وأخذت الجوقة أعبتها للتريد. وكنت أشرب، وأجانب من يماذبي الحديث، وأضحك ملء قلبي ودار رأسي كالعادة بسرعة، ورقصت النشوة في قلبي، وطرت إلى سماء السرور واللامبالاة. ومكثت على ذلك زمناً طويلاً أو قصيراً لا أدري لأنّ السكران يفقد حاسة الزمن، ثم ودّعت الصحاب وغادرت الحانة ورنين الطرب يلاحقني. وضربت على وجهي زمناً آخر، ثم ناديت عربة وركبت دون مبالاة بالجزائرية المتسكرة، ولمرته أن يذهب إلى المنزل. وسوّيت المقعد الخلفي ومددت

وذاك أنني كنت خيالي الذهن حتى بعد أن دخلت الشقة، ولم يثب إلى خاطري أن أوقفها إلا عندما وقع بصري عليها، فلما أن لبّث ندائي قلت ما قلت بلا تردد وربما بلا إدراك ولكني كنت مدفوعاً بقوة لا تقاوم!... ولم أستشعر ندماً وقتذاك، وجعلت أنفأس في وجهها التامم وهي تنزع ملابسي جامد الإحساس متحجّر الشعور. ثم ابتعدت عنها صوب المشجب فتناولت البيجاما وارتديتها صامتاً، وصعدت إلى فراشي واندستت تحت الفطاء... واقتربت مني، ووضعت راحتها على جبيني، وسألني بصوت مرتجف النبرات:

- أتشكو شيئاً. هل أصنع لك قهوة تسند رأسك؟  
فقلت لها:  
- شكراً. لا أريد شيئاً على الإطلاق.

## ٣٢

مضى حبل تلك الليلة وما خلفت من شجن أسبوع، أو أكثر لا أذكر وكنت قد انتهيت من عملي اليومي وجلست أنتظر موعده الانصراف في ملل وتعب، وقبيل الساعة الثانية بقليل استدعيت إلى التليفون فانتقلت إليه في دهشة لأنه لم يحدث قبل هذه المرة أن طلبني أحد بالتليفون ولأنني لم أكن أنتظر أية مكالمات تليفونية إطلاقاً. ووجدت المتحدث شقيقي مدحت وقد قال لي باقتضاب:

- والدنا توفي، احضر إلى الحليمية...  
وعقدت الدهشة لساني فلم أزد أن قلت:  
- سأحضر في الحال.

وأعدت السيارة إلى موضعها ولبثت واقفاً في مكاني. وأتجهت نحووي الأبخار وسألني الزملاء عما هناك؟ فقلت في ذمور:

- مات أبي...

وتلقّيت التصاخي كالمعتاد، وما لبثت دهشتي أن استحالَتْ خوفاً، لأن الموت يخيفني دائماً، وغادرت الوزارة وانطلقت صوب المحكة. مات أبي إذاً هذه حقيقة لا شك فيها. وأخذت أفقي من وقع الدهشة،

العربة، ونقدته ثانية قروش فتناولها في دهشة ونتمت متسائلاً:

- والمشوار الآخر؟

وانطلقت مني ضحكة خافتة على رغمي ومضيت إلى حال سبيلي. وارتقيت السلم في تساليل وتعب، وفتحت الباب بمفتاح في جيبي ورددته بلا حذر، ثم سرت إلى حجرة النوم وأثرت الكهرياء فوقع بصري على أمي وهي مستسلمة لنوم عميق ينم عمقه على الجهد الذي تبذله في يومها الشاق الطويل، فوقفت لحظة أنفأس في وجهها، ثم هفت بها قائلاً:

- نينة!

وفتحت عينها وهي تنمغم:

- من!...! كامل!

فقلت بهدوء واستهانة:

- إني سكران...

فحملت في وجهي بانزعاج، ثم جلست في الفراش باضطراب وقالت:

- إنك ترعيني بدهابتك.

فقلت بغير مبالاة:

- ليس في الأمر دعابة على الإطلاق، لقد شربت دورتي كورنيك أوتار.

وانزلت من الفراش، واقتربت مني بارتياح وعيناها لا تتحوّلان عن عيني حتى شعرت بأنفاسها تتردد على وجهي، ثم امتنع لونها وقالت بصوت متهدج:

- لم فعلت هذا بنفسك؟... كيف تطعم الشيطان بعد أن تبت إلى الله؟

فلم أنبس بكلمة، واشتدّ بي الذهول، واستدركت هي تقول:

- اخلع ملايسك... دهني أساعذك...

وراحت تنزع عني ملابسي وأنا صامت ذاهل. لماذا فضحت نفسي حل ذلك النحو الغريب؟... لم أكن في حالة سكر يتعدّر معها ضبط نفسي، بل من المؤكد أنني رجعت في ليالي سابقة في حالة أشد سكرًا فما أحدثت منكراً، وما تهاونت في حذري كي لا تستيقظ من نومها، فما الذي دهاني تلك الليلة؟ والأعجب من هذا

لم يعد على خلاف عادته، وانتظره الرجل قلقًا حتى قبيل الفجر ثم أرسل لنا الرعية في الصباح الباكر، وأنا أعلم أنَّ والدنا كان يحلو له الخروج من آن لأن عند الأصائل، وهو ثمل - كما تعلم - فيسير قليلًا على قدميه ثم يستقلَّ عربة تطلق به حينًا اتفق ثم يعود إلى البيت بعد ساعة أو ساعتين، ولكنه لم يحدث أبدًا أن قضى الليل خارج بيته، ولذلك أثار غيابه قلق الرجل وأوقعنا في حيرة شديدة. ولم تكن نعلم له من صديق أو جهة، ولكن وقع في ظننا أنه ربما يكون ذهب إلى راضية فمضينا إليها ولكننا لم تكن راته منذ مفارقتها البيت، ولم نشأ أن نضيق الوقت سدى فاتفقنا أن نذهب هي إلى أمنا من باب التقصي، وأن نستفسر - أنا وعمك - عنه في قسم الخليفة، وهناك أخبرنا الباشجويش أنَّ حوذيًا جاء إلى القسم أمس يعمل رجلًا له أوصاف أينا وقد فارق الحياة، وقال الحوذيَّ إنه استقلَّ عربته في ميدان باب الخلق وسار به كرهفته في اتجاه الأمام، ولما أراد أن يستفسر منه عن وجهته بالتحديد في أثناء الطريق وجهه كالنالم، ونداه ليوقفه فلم يفر عن النداء، فأوقف العربته وانتقل إليه وهزه برفق، ثم تبين له أنه فارق الحياة، فلم يَزْ بدأ من أن يجعله إلى القسم، وقد قبضوا على الحوذيَّ على سبيل الاحتياط، ومُحِلَّ أبي إلى القصر العيني حيث أنضج موته ميتة طبيعية بالسكتة القلبية، وانتقلنا إلى القصر العيني فادخلونا إلى بهو الجشت المشرحة...

وسكت مدحت وقد لاحت في عينيه أي الألم والتضيق، ثم استدرك في شبه ثورة مكتومة:

- يا له من منظر!... لا أدري كيف عرفنا

أبي!... كان شيئًا آخر!

واغرورقت عيناه بالدموع، ولم أكن رأيتَه إلا ضاحكًا فاشتدَّ بي التأثر وطفرت الدموع إلى عيني.

ولزم الصمت حتى استعاد رباطة جأشه، ثم أخبرني بما تم الاتفاق عليه من تشييع الجنازة في الساعة الرابعة، ثم قال لي:

- إنه راقد الآن في غدحه فاذهب لتلقي عليه النظرة

الأخيرة...

وأستشعر نسائم ارتياح عميق تنفو على نفسي! بيد أنَّ صورته تثلث لعيني في وضوح بصلغته المستديرة ونظرتة الغائبة، وخيل لي لحظة أنَّي أستمع إلى صوته الأجنس وضحكته الساخرة. ترى متى مات؟ وكيف مات؟ ألا ما أغرب الموت! إنَّ الموت لا يتخلَّ عيًّا له من خواصِّ المأساة حتى في حال رجل كأي حاش جلَّ عمره عيشة الأموات بعيدًا عن الدنيا والناس، فعيشة الأموات شيء والموت نفسه شيء آخر. وطرحت على نفسي هذا السؤال: من عسى أن يحزن موت أبي؟... مدحت؟ راضية؟ بدا لي أنه سيفادر الدنيا غير موذع بحزن أو أسى، وبدا لي ذلك مأساة أقطع من مأساة الموت نفسها. أليس مستكرًا أن يحيا إنسان في هذه الدنيا أكثر من سبعين عامًا ثم لا يترك وراءه رائيًا! وجدت عند ذلك عطفًا وحزنًا وإثنا لمعطفة غريبة لم تجتليج له في صديري من قبل، ولعلها كانت وليدة الارتياح لا الأسى، لأنه في مثل حالتي قد تجود النفس بالحزن لتداري سرورها، أو لتعبر عن هذا السرور بطريق ملتوي، ولعلها عاطفة صادقة أفصحت عن نفسها بعد أن ذهبت - بموته - العواطف التي كانت تعاقبها. مضيت إلى الخليفة، ولما أقبلت على البيت القديم رأيت نفرًا من الأسرة يحلسون صفا على الكراسي الخيزران، يتوسطهم رجل وقعت عليه عيني أول مرَّة وعلمت أنه عمي بعد ذلك، وكان مدحت يجلس إلى يمينه ويديه زوج أختي. وسلمت واجيًا مرتبًا حتى نهض شقيقي ومضى بي إلى الحديقة وقال لي:

- كان يومًا شاقًا مريزًا، ولكن انتهى كل شيء...

فسألته:

- لماذا لم تستدعني قبل ذلك؟

فتنهَّد مدحت وقال:

- كنتُ في شغل شاغل، ولولا أنَّ راضية ذهبت بنفسها إلى أمنا فجماعتنا متألمة لما علمتُ حتى الآن بالخبر. ألا تدري ماذا حصل؟ لقد تلقيت برقية في الصباح الباكر من عم آدم يطلب لي الحضور فورًا لأنَّ والدي لم يعد إلى البيت منذ ليلة أمس، فحضرنا جميعًا، وأخبرنا عم آدم بأنَّ والدنا غادر البيت قبيل غروب الأمس وأنه

أفضل، حال الصباح أم حال المساء؟! ولم أستطع مقاومة موجة رقيقة من الارتياح والسرور! على أن شعوري الذهني العميق احتجج احتجاجاً صارخاً وبث في حناياي الخوف والقلق فتعذبت بالله من الشيطان الرجيم. ورحت أتهرب من إحساس السرور والارتياح الذي يلاحقني، فتكبت متجهماً وأنا لا أدري، ولكن دون جدوى، فسرعان ما هزأ عقلي بهذه المحاولات الصيانية وانطلق يفكر في الثروة المنتظرة. وذكرت ما

سبق أن حلمت به من بيع البيت، فتساءلت: ترى هل يتحقق الحلم؟ هل أصبح مائلاً لآلاف من الجنيهات ونيف؟ ولكن هل تلجأ منافسي في اتخاذ الخطوة الحاسمة أم قضي الأمر وليس ثمة أمل! أكون الثروة المنتظرة وسيلتي للمساعدة المرموقة، أم تكون أداة جديدة من أدوات القدر التي يستعملها في السخرية من المخلوقات الضعيفة! لقد سخر من لقري وعجزي، وأنه لقادر على أن يسخر من ثرائي وقوتي، لئلا ياتي عليّ حل الخاليتين مقضي عليّ بالحسرة والتعاسة! وفتر حماسي ولحد، وعرالي وجوم وقلق، ودعوت الله في رجاء وإشفاق أن يجعل فتاتي من قسمتي ونصبي... وانتهيت من أفكارتي على توقف سير الجنائز أمام الجامع. وأدخل النعش للصلاة عليه، على حين انفصل عنا المعزّون مشكورين. ثم أودع النعش سيارة الموتى، وانطلقت بنا وبه إلى الأسام، وانتهى المطاف...

واجتمعت الأسرة ليلاً في الحجرة الكبيرة التي قابلت فيها أبي لآخر مرة، فجلست وعمي وشقيقي وزوج אחي في جانب منها وجلست أمي وأختي وزوجنا عتي وأخي في الجانب الآخر. وكان عتي رجلاً عملياً - وقد ذكرني مظهره بأبي - فتحدثت عن الإجراءات الواجبة لإثبات الورثة واقترح أن يقدمنا إلى صديق له في وزارة الأوقاف لييسر لنا قبض مرتباتنا الشهرية. وتحدثت أخني محدث فقال إنه يرى أن نبيع البيت ما دام أحدنا لا يرغب في سكناه، ووقع رأيه من نفسي موقفاً حسناً لم أحلم به، فوافقت عليه

ونخط قلمي خفقة خفيفة، وتمكنني خوف شديد، ولكني لم أستطع رفع بصري إليه، ولم أجد مناصاً من التظاهر بالترحيب بفكرته، فأنجذمت صوب الفراندا متعزراً في خوفي وأرتباك، وارتقيت السلم مرزوداً ربيقي فلمحت شقيقتي ولمحتني في وقت واحد، والظاهر أنها أصعبت أمي بحضوري فجاءت على عجل وقابلتني في الفراندا وسألتني في قلق عن وجهتي، فقلت:

- أريد أن أرى أبي...

فقال برجاء وإشفاق:

- هلاً عدلت عن هذا يا كمال؟... إن قلبك أضعف من أن يحتمل مشهد المتقين إلى رحمة الله... وتنهت في ارتياح، وارتفع عن عاتقي حمل ثقيل. لم يكن ما بي شيء غير الخوف. وهل يستطيع أن يواجه الموت في أبشع حالاته وأفظعها قلب تتولاه الرجفة حيال فار أو خنفساء؟! ورجعت إلى الخارج وجلست بين عمي وأخي صامتاً، وقبل الموعد المحدد لسير الجنائز بنصف ساعة أخذ المشيّمون يتوالدون علينا، فجاء بعض الجيران وموظفو إدارة المخازن بالحريرية، ولمّا لم يكن لأبي معارف، لم يكن لعمي أصدقاء في القاهرة، فلم يزد عدد المشيّمين على عشرين. وقال عتي متأثراً أنه سيحيي ليلة الماتم في بيته بالقيوم. ثم أزلت اللحظة الأخيرة، وارتفع صوت أخني راضية بمزق الصمت الثقيل فاهتز قلبي تأثراً ودعمت عيني.

ولم نلبث أن انتظمنا الجنائز. وغشيتني بائس الأمر كآبة ثقيلة استثارها في نفسي منظر النعش، وظلّ الموت، وما عاودني من ذكريات جدّي ووفاته. ثم جعلت المشاورة تنتشع والسكينة تعاودني، واسترقت النظر إلى من يحيطون بي فأريت وجوهاً هادئة، وأخرى باسمه لسبب أو لآخر، فسرّني عتي وثابت إليّ نفسي. وذكرت بغثة كيف كنت أسير في الصباح صوب الوزارة خالي الذهن مما يترصدني من أحداث اليوم، وكيف أسير الآن وراء النعش فعبجت لحياتنا الغريبة، وخيل إليّ في تلك اللحظة أن الحياة تبرز لسانها في شطارة وتهكم مغرقة في الضحك! ثم سألت نفسي عن أيّ الحالين



في المقت لأبي، لكن لم يخطر لي على بال أن أذكرها بهذه الحقيقة العجيبة. ثم عدنا إلى بيتنا دون أن ينس أحدنا بكلمة...

### ٣٣

لم أعد الفقير المعوز الذي كنت، رفع عن كاهلي عبء الحاجة والحرمان، غلوت ذا دخل لا بأس به غير الثروة التي ستوافيني في خلال شهر أو شهرين، ولكن مستي جنون لم يكن لي به عهد، جنون عذب لا يُقعد الفقرا كان لي من الفقر رادع يحذ من طموحي، ويجعل من حبي حسرة طويلة منطوية في ذات نفسي، ولذلك سلّمت بالهزيمة حال مناسي محمد جودت دون مكابرة، وانطلقت في الطريق أنشج كالأطفال، فلما نُقل الفقر غدا الحب مطمعا غير عمال. فتناست الموائع الأخرى، وركبني جنون جديد، جنون من تبدو له السعادة ممكنة، ولا يحول بينه وبينها إلا أن يتغلب على خجله فيفتح سميله ويحرب حقله، لزمت المسكة طويلا في عصر اليوم التالي للوفاء، وجعلت أنطلق إلى النافلة المحبوبة برغبة جنونية، ما عدت أرى حبيبي، وما أدري إن كان الذي أخشى قد وقع، ولكن كان فلن أجي من ثروتي إلا السّم الزهاف، ولكن هبها لاحت وراء النافلة فما عسى أن أصنع! هل تواتني الشجاعة على أن أومئ لها بطرف خفي... لشد ما يتقبض قلبي خوفاً وجسولا... لست من ذلك في شيء... لو كان بي ذرة من شجاعة لاقتحمت باب العارة دون تردد ولا تناذنت في مقابلة البك وعرضت عليه ما يجوز بخاطري. هل يُعدّ هذا من الخطورة بحيث يستدعي كلّ هذا الخوف؟ وبه على أسوأ فرض قد اعتذر من عدم القبول، فلماذا أعدّ هذا الرفض أشد من الموت وأقل من القتل... لماذا لا يكاد يجوز بخاطري حتى أتصيّب عرفاً ويتنزّى قلبي في صدري يا لها... أما يتزوج الناس كلّ يوم بالعثرات والمكسات... كيف يتلمس الأزواج الوسائل ويقتحمون السبل! ليس بيني وبين مبتغاي إلا أن أطرق هذا الباب. فلما سعادة الأمل أو راحة

بحماس نسيت أن أدأبه، ولم تمنّح راضية، وقال عني:

- إنّه بيت قديم ضخم لا يغري إلا شارباً مشرباً، يهذه ويشيد مكانه عارة كثيرة على طراز حديث، على أنّه لا يمكن أن يباع بأقل من أربعة آلاف جنيه.

أربعة آلاف، آه لو يكون مناسي تأخراً وكبر عليّ أن أتصور أن يخيب الله رجائي بعد أن حقّق أحلامي على هذه الصورة الباهرة، إنّ ثقي بالله لا حدّ لها وهو الخبير المطلع. ولاحت منّي النظافة نحو آتي فوجدتها صامتة غارقة في أفكارها وقد ارتفع حاجباها الخفيفان وانفجرت شفتاها عن أسنانها الصغيرة اللامعة، ترى فيم تحلم! وما حقيقة مشاعرها حيال الموتى؟... هل أعادها هذا البيت القديم إلى عهد حياتها المنطوية! وشعرت نحوها بعطف وحسب، ثم ذكرت الأفكار التي تملكني فداخلي إحساس بالقلق والخوف...

ولما اقترب الليل من منتصفه اقترح أنني أن نبيت ليلتنا بالبيت، لكنّ أمي أثرت أن نمود إلى بيتنا على أن نرجع مع الصباح، وبذلك غادرت البيت القديم وصرنا جنباً إلى جنب صوب المسكة، وحذّثني في الطريق قائلة:

- أما كان الأفضل أن نبقوا على البيت.

فقلت بدهشة:

- وماذا نصنع به؟. إنني في أشد الحاجة إلى نصيبي

من ثمنه...

فقالت:

- حسبك راتبك الشهري، أما هذا القدر الكبير فما

أدري والله ما حاجتك إليه!

نرى هل استشعر قلبها خوفاً وساوري القلق والاستياء، واختلست منها نظرة ولكّني لم أتبيّن في الظلمة ما يبدو على وجهها، وواصلت حديثها قائلة في لهجة تنم عن الإشفاق:

- إياك وأن تقرح لموت أحداً لا تذكر أباك من الآن فصاعداً! إلا دعوت له بالرحمة، فما أحب لك أن تسرّ لموت إنسان مهما كان هذا الإنسان!

عجبت لهذا الكلام يلقى عليّ من الفم الذي بثّ

عن كل شيء في الوجود إلا هذا المنظر البهيج الذي ارتفعت له جوارحي فرحاً وخوفاً، ورفعت إلى وجهي عينيها عرضاً فالتفت عينا لحظة قصيرة، وبدا لي أنها تردت قليلاً على عتبة المقصورة، ولكن لم يكن وراءها موضع لقدم ففادرت المقصورة على رغامها، والتمس بصرها قيباً ورائي مكاناً تقف فيه ولكن كان تكسّل الواقفين متهاشكاً، فاضطرت أن تحتل الموضع الذي كنت شاغلة وأسندت ظهرها إلى الباب، ووقفت أمامها عسكاً بمقبض الباب، على مرمى الأنفاس منها، هي هي دون غيرها، جادت بها السهال لتبتل جوارحي . من الحقائق ما هو أعجب من الأحلام، وهذه أعجب الحقائق . ماذا هي؟ ... ترى أهدأ سرور أم خوف أم وقلة نأراً؟ لولا دقة الموقف وشدة حيالي لطاب لي أن أبكي! غبت عن كل شيء، فلم أهدأ أحسن للناس وجوداً على تكتلهم، وحتي حبيبي نفسها لا أذكر لون فستانها ولا ماذا كان بيدها، يبدو لي أن للقلب بصراً إذا اشتدّ تفرسه غطى على بصر العين لينقلب الإنسان أعمى وهو بصير - ولا أدري كيف وانتني الشجاعة فاسترقت إليها النظر، ورأيتها فخفق قلبي بغير رحمة وهنيء لي أن وجودي هو الباعث على هذا التسوّد الفاتن وذلك الارتباك المليح، وتبددت على رجلي فتسوّجت خصلة من شعرها لوقع أنفاسي، ورفعت إليّ عينيها ثم خفضتها بسرعة فزأراً من عيني، أه... عثرت أخيراً على من يفرّ مني... وشاعت في رأسي نشوة اللذ من نشوة الخمر وأحمر وأحمر وجنون لا عهد لي به فثبّت على وجهها عيني في جسارة خارقة، بل هي بالنسبة إليّ جنونية، ثم وبّت إلى شعوري رغبة غريبة أن أنطلق وأن أبوح بما يضغط أنفاسي، وازددت ربي في تسوّر عصبي عنيف، وجعلت أقمّز وأتوّب في قلق وهياج نفسي مروع، وأبدي الجنون الذي يضطرب في وحيي، ودفعني ما عانيت في الأيام الماضية من لفة قلق وقنوط ثم تملّكتني إحساس يشبه إحساس المتحرر إذا تجمّع اللوثة الأخيرة، وتحركت شفاتي بصوت خرج همساً قائلاً:

- أريد أن أقول لك كلمة...

الباس، يلام أتردّد وأحجم؟ إنه بيت وليس بحصن، ورائي طالب زواج ولست ببدوّ، فلماذا أخاف كل هذا الخوف! ليست غاييتي أن أغزو قاهرة ولا حتى أن أخوض معركة، ليس المطلوب أن أكون نابليون أو هانيبال، لا يعدو الأمر أن أقدم نفسي، وأن أعرض سؤالي، وأنا محوط بالرعاية التي يتلقاها ضيف من مضيف كريم، ثم ليكن الجواب ما يكون فما يجاوز على أسوأ حال الاعتذار الرقيق... قلت هذا لنفسي في سر وتائب: ولكن ما إن تجسّم لي الخيال حتى التهابت مني الجبين واشتدّت ضربات قلبي وأحسست رعدة تسري في أطرافي، وحضرتني بغتة ذكرى ساعة الخطابة المشثومة بكلمة الحقوقي التي طوّحت بي بعيداً عن الجامعة، فتبدّدت من الأحياق في قنوط قاتل. إن الإقدام فوق طائفي، وربما كان بوسعي أن أقضي العمر على هذا والطوارء بالكفا، أمّا عبور الطريق وطرق الباب فما لا أستطيع، وبلغ مني الملع أن انقلب الفلق الذي يساورني حتى تحرق القلب والرأس، ثم انتفضت أبنام قلائل عشتها فيما يشبه الهديان، نسيت الثروة التي وقمت عليّ، لقد حاسي للحمة والامل، وترنّز تفكيري في شيء واحد لا يتحوّل عنه، جعلت أهدأ حوله دون أن أجروّهل الدنو منه، أو أستطيع الابتعاد عنه، ووجدت على أمي وجداً لم أحوّل إخفاؤه، فقلت لنفسي في حق بالغ: لو لم أخشها لبمشتها فخطب لي وتكفني شرّ الحسى التي تسرّ في كياني.

مضى تشفع هذه الغمة؟ لم أكن لأرى لها من نهاية لولا حادث عارض! كنت عائداً من الحلمية، فنزلت في العتبة حين الغروب، وصعدت إلى ترام الجيزة. الذهاب عن طريق الروضة كالعادة. وكانت القاطرة مكتظة بالجالسين والوقوف، فرحت أتزعزع حتى أسندت ظهري إلى باب مقصورة الدرجة الأولى. ولما شادر الترام الميدان بقليل سمعت نغماً على الباب فأدركت أن أحد الركابيين يستأذن لفتحها فابتعدت عنه قليلاً دائراً على عقي لأفسح للقادم طريقاً، وفُتح الباب عن وجه أعرفه، رأيت أمامي حبيبي دون غيرها! وثب قلبي وثبة عنيفة زلزلها صدري، وغبت

فحزني الإشفاق من إغلات الفرصة إلى اللنو منها،  
متشجعا بالظلام، ثم قلت بصوت متهدج:

- معذرة... لا تؤاخذيني على تهجمي...

- ماذا تريد؟... وما هذا الذي فعلته أمام الناس؟  
واشتد بي الارتباك، وكنت أسمع صوتها لأول مرة  
فهزتي به غنة لطيفة على حنّته وغضبه، وقلت:

- أسألك المغفرة. إني أود أن أقول لك كلمة من  
زمن طويل ولم تنهيا لي الفرصة إلا اليوم!

وشعرت بصعوبة شديدة في التعبير والكلام، وبأن  
إحساساتي الحارة يخونها الإفصاح، ووجدت قهرا  
وضيقا. وزاد من ضيقي أنها ولّتي ظهرها بغبر أكثر  
وعبرت الطريق إلى الطوار عجلة، فتبعتها بسرعة  
مندفعا، وقلت:

- أرجوك... لحظة واحدة، أصغي لي، كلمة  
واحدة ثم يذهب كلانا إلى حال سبيله...

فقلت دون أن تنظر إليّ أو تكف عن السير:

- بأي حق تكلمني يا هذا؟

فهتفت بدون وعي متي:

- إني أحركك منذ أكثر من عامين...

فقلت بلهجة تنم على الانزعاج:

- ما هذا الافتراء؟

أمكن ألا تكون عرفت؟ يا لي من غيبي... ألم  
تلحن لإرادي حتى نزلنا في غلة المحطة؟ يدل هذا  
على أنها ترغب في سماع كلمتي...! إن الفرصة  
سائحة ولكني أفسدها بالمي والحصر والارتباك.  
واستجمعت قواي وقلت بصوتي المتهدج المضطرب  
النبرات:

- إني أتلف على قول كلمة منذ أشهر وأشهر...  
ماذا يضرك لو أصغيت إليّ؟!

لماذا لم أتكلّم بك أن أسوق هذه المقدمات؟ اللهم  
إني استعنيك على حل عقدة لساني وبدا لي أن حبيبي  
فلتت لحجلي المبيت. لم أدرك البواحت التي حللتها  
على التوقف، ولكني رأيتهما تتحول نحووي وترمقي  
بعميها الجميلتين اللتين أحبها أكثر من نور البصر، ثم  
تسألني بحدّة:

رباه... ترى هل بلغ سمعها؟... أجل،...

رمقتني بعين دهشة وقد توردت وجهها ورمشت عينها!  
وسرّ وقت قاسٍ غليظ. جفّ حلقي وتوالت  
ضربات قلبي في سرعة عنف، آية هالوية أوردني  
جنوني؟ لقد هوى للمتجر وجاء دور الاستغاثّة. مع  
ذلك داخلني ارتياح عميق لأنّي زحزحت أضخم سدّ  
اعترض حياتي. تكلمت، نطق الحجر ولو بعد حين،  
لن أموت على آية حال وسريّ دفين صديري. ولكنّ  
الترام لا يمهلني طويلا، وإنه وشيك الوصول إلى محطة  
حبيبي، وما هي ترمي بنظرها غلّ الغلّة، وما هي  
يدها تتلمّس مقبض الباب لتفتحه، سيتهي كلّ شيء!  
وركني الجنون تارة أخرى فشددت على مقبض الباب  
أمنع فتحه من أين لي بهذه الجراءة؟ وبدا لي الوجه  
الجميل الاستياء، ورمقتني غاضبة، فهمست برجاء  
كأنه البكاء:

- كلمة واحدة...

وتوقّعت لحظات قاسية أن تنفّض الصاعقة على  
رأسي! أن تزجرني أو تهزلي فتستثير غضب  
الحاضرين... ثم عليّ السلام! ما بي قوة لاحتمال مثل  
هذا الموقف، ولكن وقع لاموتنّ حيث أنا! وقف الترام  
ويدي قابضة على الباب، ثم تحرك ثانية وهي بمكانها  
مقلّبة مستاءة ولكن دون أن تبدي اعتراضا جديا أو  
ثورة علنية! وسرت في جسدي رعدة السرور والظفر  
والجنون وخيل إليّ أنّي أحوّل إلى عملاق جبار يخزّ له  
الموت نفسه صريحا بضربة واحدة. وانتظرت حتى  
ايتمد الترام محطتين ثم فتحت الباب وأنا أهس  
ونفّضلي فدارت على عقيها بحركة عصيّة وسارت  
تشق لها طريقا وسط الزحام وأنا أتبعها، واعترض  
نشوي خاطري، ألا يكون استسلامها حياء وارتباكًا  
وتغافيا من الفضيحة؟ ألا يحتمل أن تكون قد كظمت  
غضبها حتى تصبّ عليّ في الطريق بعيدا عن أعين  
النكارة؟ وأوشكت قواي أن تخذلني، وغادرت الترام  
وراهما وأنا قلق مضطرب، كانت الظلمة غاشية  
والطريق كالمقفر إلا من سيّارات تذهب وتجيء،  
وابتعدت عني بسرعة وممت بعبور الطريق إلى الطوار،

- إني أدرك هذا، بيد أنني خفت أن يكون أحد قد

سبقني...

فقلت بصوت لا يكاد يُسمع:

- هب هذا حصل...

فهتفتُ في إشفاق وحسرة:

- آألفتُ الفرصة من يدي؟

فنفخت قائلة:

- لا تبغني إلى أكثر من هذا لاني أقترِب من

البيت...

فسألته وقلبي يفرع بكلِّ قواه إلى التملُّص من

قبضة اليأس:

- أليس ثمة رجاء؟

فقلت وهي تحثُّ خطاها:

- لست أنا الذي أخاطب في هذا الشأن...

وتوقَّفت عن السير، ولبثت هنيهة جامدًا ذاهلاً، ثمَّ

صحتُ وأنا أفرق بأصابعي: يا لي من غيب! لو أنها

أرادت الرض لما أعوزها الجواب القاطع! ألم تدعن لي

في الترام؟ ألم تصغري إليَّ منذ دقائق؟ ألم تقل لي إنها

ليست هي التي تخاطب في هذا الشأن؟ فميم أطمع

وراء ذلك؟ إنها دعوة متوارية لطيفة. وشاع في نفسي

سرور كالخمر، وتخيَّل إليَّ أنني أترنَّع كالشمْل...

### ٣٤

وعدت إلى البيت وذكريات الساعة الماضية تسجِّع

في قلبي أعذب الأحان. تملَّكي شعور بالقوَّة لا حدَّ

له، وازدهاني الغرور والزهو، وحييت في الدقيقة

الواحدة دهرًا طويلًا من السعادة الصافية. وقلت وأنا

أرتقي السَّم: «سأفاتيح أُمِّي بالأمر كله». قلتها بلا

خوف ولا تردّد، ربَّما بلا رحمة أيضًا، وطرقت الباب،

ففتحت لي بنفسها وهي تنتمم مبتسمة كعادتها:

- أهلاً بنور العين...

وجدتها على الأناقة التي أحبُّ أن تلقاني بها،

وتفرَّست في وجهها الوديع الوقور المشرق بانتماسة

الترحيب، فبدت لي خطورة ما أنا مقدم عليه،

- ماذا تريد؟

ماذا أريد؟ لم يتيسَّر لي القول بعد؟ ها هي تنتظر

الكلمة التي أتمنُّها في استئذان قولها، ألم أكن

أعدها؟ وجدت رأسي فراعًا وكأني فقدت النطق.

ماذا ينبغي أن يقال؟ وازدردت ربيعي الجلف في شبه

قنوط، ثمَّ بدا منها ما يدلُّ على نفاذ الصبر، والتحقُّر

للسير، فخرجت عن صمتي هاتفاً:

- صبراً، أرجوك... أنا أريد أن أقول... إليَّ

راضب في... (وقفت عبارة «طلب منك» في

زوري)... إنك تفهمين بلا شك، أليس كذلك؟

فهل يمكن هذا؟

فتأفَّفت وقالت:

- لا بدَّ أن أصود إلى البيت فلا تتبعني من

فضلك...

وتولَّاني الملع فقلت مندفعًا بلا تردّد هذه المرَّة:

- إليَّ أفكر... أعني أنني أرغب في طلب يدك إذا

سمحت لي...

وتهدَّت بصوت مسموع، وغمرني ارتياح

واستسلام، تكلمت أخيراً ونفَّست عن صدري ولكن

ما يكون...

ومضت ثانية من الصمت العميق مثل المفود الذي

يعقب عاصفة هوجاء، ثمَّ أخذت تسير في خطوات

قصيرة دون أن تنبس فعاودني الجزع وتبعتها وأنا أقول

كم يستجدي الجواب:

- هذه كلمتي...

فقلت بصوت منخفض تخيَّل إليَّ أنه بلغ أذنيَّ هادئًا

لا أثر فيه لحدة أو غضب:

- لا يُلحق بك أن تبغني هكذا.

فقلت بعجلة ولهجة:

- إليَّ استأذنتك فلا تركبني بغير جواب...

فقلت بضيق:

- لست أنا الذي أخاطب في هذا الشأن!

نفخف قلبي بعنف وفاض به سرور لا يوصف

وقلت:

- ما أسعني بذلك! هذه هي السعادة حقًا. ترى هل جاءتك هذه النية اليوم؟ الآن؟ لماذا لم تخبرني قبل اليوم؟ ١٩ مبارك، مبارك يا بني.  
وأزعجني تهجّج صوته، واضطراب نبراته، وانفعاله الظاهر، فقلت:  
- إنّي أستاذك لأنّي أحبّ دائمي أن تكوني راضية عني.

فهتفت في هرجة:  
- وهل تتصوّر أن أبخل عليك ساعة واحدة برضاي؟ يا الله، أبعد هذا الحبّ كلّ أجزى عنه بالشكّ في إخلاصي؟... ستجدي راضية عنك ولو قتلتني، أتسى أنّ حياتي كلّها لك؟  
فازددت ريفي وقلت وأنا أختلس منها نظرة قلبي:  
- إنّي أعلم هذا وأكثر يا أمّاه.  
فلاح في وجهها وجوم شديد وبدا عليها أنّها تحاول عبثًا أن تضبط عواطفها:

- هذا ما يعلمه القاضي والدائي. وآبئة أمّ لا تفرح لزواج ابنتها ولو كانت وحيدة ليس لها سواه! هذه حكمة الحياة، أن احتضنك العمر كلّ ثمّ أسلمك شابًا رائعا لعروسك، إنّي أبكي من الفرح.  
اغرورت عينها وهي تتكلّم، ونظرت إليّ خلال دموعها وكأني ارتاحت لوجومي، فقالت متندرة:  
- معلنة يا كامل، ليست هذه بدموع... إنّها دموع الفرح، بيد أنّك فجأتني مفاجأة، ولم تتلفّ في إخباري، ولكن لا داعي للتلفّ، ألا ترى أنّي احتلر بما هو أقيح من الذنب؟ ليفسر في ذنبي حبي الكبير وحسن نيتي وقلبي الذي وهبتك إيّاه وإن لم تعد بك حاجة إليه... وأنتك لتعلم بأنّي إذا انفعلت أفلت زمام لساني من يدي. إنّي أعتك بن اخترت لنفسك، ولكن هل نبئت هذه الرغبة الآن فحسب؟ إنّي لا أطيق أن أتصوّر أنّك رغبت في الزواج من قبل ولم تسعفك الوسيلة. أكنت ترغب في الزواج من زمن طويل؟

فقلت وأنا أدري باتسامة مينة:  
- كلّما يا أمّاه ما فكرت في ذلك إلّا من زمن قصير حين بدا لي أنّي كبرت...  
واعتراني وجوم وغوف، وقلت لها في تردّد غابت عنها أسبابه وبواعثه:  
- لننتقل عيّا قريب إلى مسكن لائق، لاعيدنّ إليك خدمتك وحشمتك!  
فابتسمت وقالت:  
- هذه أسعد أيام حياتي لأنّي أقوم فيها على خدمتك.  
وخلعت ملابسها، وهدت إلى الصلاة فجلستنا على كنبه متجاورين وأنا أقول بقلبي: «اللهمّ عونك ورحمتك، واستحوذ عليّ القلق والحياء، إنّها مهمّة شاقّة، عزينة، ولكن ما منها بدّ. واسترقت إليها نظرة فوجدتها آمنة مطمئنة، غافلة عيّا أضمره لها، فوخزني الندم، وكادت تتخلّى عني قوّة التصميم. بيد أنّي أشفقت من عواقب التردّد والاستسلام للدواعي الخور، فرميت بنفسي في الهاوية قائلاً:  
- أمّاه أريد أن أحذّك بأمر هامّ...  
ورمعتني بنظرة غريبة، خلعتها مربية متوجّسة، حتّى حسبتها قد كشفت حقيقة الأمر كلّ بقسوة إلهام خارقة... أمنت نبرات صوتي على ما يسلور بنفسها... أم فضحتني نظرة عيني؟ أم لم يكن هناك شيء ممّا حسبت وشبّه لي الوهم ما لا حقيقة له؟ أمّا هي فقلت يهدوء وتساؤل:  
- خير إن شاء الله...  
وصمّمت أن أجوز منطقة الخطر دفعة واحدة فقلت مستشعرًا خوفًا لا مراه فيه:  
- سأتركك على الله وأتزوّج...  
رنت كلمة «أتزوّج» في أذنيّ رنينًا غريبًا، أنكرته، وأعجبني كأنّها نفّرت بلفظة جارحة مميّة! رفعت هي عينيها إليّ في دهشة، وأسمت حديثاتها، ولاح فيها ذهول وغيباء كأنّها لم تفهم شيئًا، ثمّ تساملت:  
- تتزوّج؟  
وكنت قد تخيلت أكبر عقبة فلمكتني أن أقول:  
- أجل... هذا ما اتّوّهت.  
ونذت عنها ضحكة متقطعة بالاضطراب والارتباك أشبه، وقالت بصوت متهدّج:

واعتراني وجوم وغوف، وقلت لها في تردّد غابت عنها أسبابه وبواعثه:  
- لننتقل عيّا قريب إلى مسكن لائق، لاعيدنّ إليك خدمتك وحشمتك!  
فابتسمت وقالت:  
- هذه أسعد أيام حياتي لأنّي أقوم فيها على خدمتك.  
وخلعت ملابسها، وهدت إلى الصلاة فجلستنا على كنبه متجاورين وأنا أقول بقلبي: «اللهمّ عونك ورحمتك، واستحوذ عليّ القلق والحياء، إنّها مهمّة شاقّة، عزينة، ولكن ما منها بدّ. واسترقت إليها نظرة فوجدتها آمنة مطمئنة، غافلة عيّا أضمره لها، فوخزني الندم، وكادت تتخلّى عني قوّة التصميم. بيد أنّي أشفقت من عواقب التردّد والاستسلام للدواعي الخور، فرميت بنفسي في الهاوية قائلاً:  
- أمّاه أريد أن أحذّك بأمر هامّ...  
ورمعتني بنظرة غريبة، خلعتها مربية متوجّسة، حتّى حسبتها قد كشفت حقيقة الأمر كلّ بقسوة إلهام خارقة... أمنت نبرات صوتي على ما يسلور بنفسها... أم فضحتني نظرة عيني؟ أم لم يكن هناك شيء ممّا حسبت وشبّه لي الوهم ما لا حقيقة له؟ أمّا هي فقلت يهدوء وتساؤل:  
- خير إن شاء الله...  
وصمّمت أن أجوز منطقة الخطر دفعة واحدة فقلت مستشعرًا خوفًا لا مراه فيه:  
- سأتركك على الله وأتزوّج...  
رنت كلمة «أتزوّج» في أذنيّ رنينًا غريبًا، أنكرته، وأعجبني كأنّها نفّرت بلفظة جارحة مميّة! رفعت هي عينيها إليّ في دهشة، وأسمت حديثاتها، ولاح فيها ذهول وغيباء كأنّها لم تفهم شيئًا، ثمّ تساملت:  
- تتزوّج؟  
وكنت قد تخيلت أكبر عقبة فلمكتني أن أقول:  
- أجل... هذا ما اتّوّهت.  
ونذت عنها ضحكة متقطعة بالاضطراب والارتباك أشبه، وقالت بصوت متهدّج:

فندت عنها ضحكة هستية، وصاحت:

- اسمعوا يا هوه، كامل ييدو آتو كبرا! وأنا؟! لا بدّ

آتي عشت أكثر ممّا ينبغي!

فتأوّهت قاتلاً:

- أمّاه، إنك تحزنيني.

- لا حاش من يزنك. الأمّ التي تحزن وليدها لا

تستأهل نعمة الحياة... ولكنك تقول على نفسك

بالباطل وتزعم أنك كبيرت. يا لك من طفل

مكابر!... لكأنّي أراك تحبو، وأنت تركب منكبي،

ثم وأنت تختال في برّة الضابط وضيفرتك تتهدّل على

كتفك، فكيف تدّعي الكبر؟!

فقلت مفتئلاً:

- ألس على عتبة الثامنة والعشرين!

- أصغر أبنائي على عتبة الثامنة والعشرين! يا لي

من امرأة عجوزا لتكن مشيتك. ومهما يكن من

عمرك فستكون أصغر الأزواج، وسأفرح بك فرحاً

ليس وراءه مذهب لفرحان. ولكن ما بالك واجماً...

أسماك كلامي؟ يعلم الله أنّي لا أحسن الكلام، ولكنّ

الموت أحبّ إليّ من الإسامة إليك...

فقلت بقلب ثقیل:

- ساعلك الله يا أمّاه...

فابتسمت: أي والله ابتسمت وقالت مصطنعة

المرح:

- لنندع هذا جانباً، ولنقدّم الأهمّ على المهمّ. أصغ

إليّ يا كامل، تزوّج بالهنا والسرور، وسأخطب لك

إذا أمرتني.

فتردّدت لحظة ثمّ عمّكتني الضيق فقلت:

- ليس ثمة اختيار، فقد وقع اختياري.

فرنت إليّ بدعشة، ولذت بالصمت ملياً، ثمّ

تساءلت:

- متى تمّ ذلك؟

- منذ زمن يسير...

فلاحت في عينيها نظرة لوم وعتاب كأنما عزّ عليها

أن أكتسها هذا الأمر الخطير، ثمّ خفضت عينيها في

استسلام، وسألت بصوت هادئ، بل هادئ جدّاً:

- من؟

- لا أدري بالضبط، الراجع أنّها مدرّسة، وهي

تقطن العمارة البرتغاليّة أمام القصر العيني.

فعاودتها الدعشة، وتساءلت:

- ألم تحدّث بامرّها أحدّاً؟

- مطلقاً!

فتفكرت ملياً ثمّ واصلت حديثها:

- أليس من المحتمل أن تكون مخطوبة، وهنا خفق

قلبي بهنّف... ثمّ ألا تدري عن أهلها شيئاً...

من أبوها؟

- لا أدري...

- ألم أقل لك إنّك طفل... الزواج أخطر ممّا

نظنّ. لمعلّ وجهها أصعبك، وهذا شيء لا وزن له.

المهمّ أن تعلم آية فتاة هي وأيّ قوم أهلها، وما

مكائنها، وما أخلاقهم. الشابّ في الواقع يتزوّج من

أسرة لا من فرد، وينبغي أن يطمئنّ قبل أن يخطو

الخطوة الأخيرة إلى من ستدلو أمّاً لابنائه ومن يكونون

أخوالاً لهم.

وتولّاني الاوتباك، وأحسست بحرق لأوّل مرّة فقلت

بيقين:

- أسرتها كريمة... لا يداخلي في هذا شكّ.

- ومن أدراك؟

فقلت بلهجة من لا يحتمل في ذلك جدلاً:

- إني واثق.

فبدا في وجهها الاستياء وقالت:

- مدرّسة! إنّ بنات الأسر الطيّبة لا يشتغلن

مدرّسات! والمدرّسة إمّا أن تكون صاعدة دميعة أو

مستهترّة مسترجلة.

فوخزني ألم في صميم الفؤاد وهتكت بحدّة:

- يا لها من آراء فاسدة!... أنت لا تدري شيئاً

عن الدنيا التي نعيش فيها، لقد تغيّر كلّ شيء، ولا

شكّ أنّها فتاة كاملة ومن أسرة عالية!

وغلّبتها الانفعال على هدوئها المصطنع فقلت

بنرفزة:

مرة أجمع الرأي فيها على قرار حتى أجد همسه يفت في عصفدي وينقص صفوي... بيد أن سعادي هذه المرة كانت أجل من أن يؤثر فيها مؤثر.

٣٥

وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى المحطة وفي أمل جديد مسكر. وكأنها كانت تنتظري، رأيتها وراء زجاج النافذة معصوبة الرأس بمنديل أبيض. واستخفي الفرح فابتسم مني القم والعينان والقلب، وتسامت إليها عياني في شجاعة غير معهودة. وما كان أشد سروري وسعادي حين رأيت الوجه الصبيح يهود بابتسامة. انتهى عهد التماسه والحرمان، وانقضت ظلمة النفس، ولاحت طلعة حبيبي بعد اختفاء طويل معذب، وصرنا أصدقاء تتبادل الابتسام يا لها من حقيقة لا تصدق! حتى هذا الصباح كنت أخاف أن يكون لكلام الأمل معنى غير الذي فهمته. أما بعد هذا الانتظار الكثير وهذه الابتسامة المشرقة فاستطيع أن أستلم لنداء السعادة في صفاء لا يشوبه شك. ذهبت إلى الوزارة كالنمل. ما أفريك يا دنيا! إن من يتعسه الحظ برؤية تهمك لا يتصور أنك تجودين مثل هذه الابتسامة. وتلمت الحقيقة التي لا تصدق، ابتسامة حبيبي، فقلت لنفسي إن معنى هذا أن أبواب الساء مفتحة تسع على قلبي هناء، ولكن لا يجوز أن أجد أو أن أصمت بعد اليوم، وفزت بابتسامة أخرى عند الوصول، وثالث في صباح اليوم التالي، وشعرت بأنه ينبغي أن أقطع الجلود بالعمل الحاسم. وجاء صباح الجمعة بعد ذلك اليوم، ففادرت البيت في معطفي الأسود بإحدى الأناقة، تمثلت تصميماً وعزماً. ووجدت حبيبي في الشرفة تتشمس. فتبادلنا تحية الابتسام ثم ألقيت على ما حولي نظرة حذرة. وأومأت إليها أن تنزل لمقابلتي، يا لها من جراءة! من كان يصدق هذا؟ وثبت نظري عليها في إشفاق وخوف، ورنرت إليّ يهود، ثم جرت على شفها ابتسامة لطيفة وتراجعت إلى الداخل، هل تحيى لمقابلتي؟... رآه لقد قضيت ليلة الأمل كلها في عمل «البروفات» لهذه

- لا داعي لإهائتي من أجل فتاة مدرسة لا تعرف عنها شيئاً! وما تصدي إلا إرشادك لما فيه خيرك... اشتد بي الحق، ولو أنني استسلمت له لتفوت بما أندم عليه، ولكنني ضبطت نفسي وقلت برجاء: - معاذ الله أن أقصد إهانتك، فأرجو أن تمسكي عن كلام يسوؤني...

فدارت انفعاها بابتسامة، واستعادت هدوءها مرة أخرى، وقالت بتسليم:

- إن ما يسوؤك يسوؤني، وما يسهلك يسهلني، ونصحتي إليك إذا شئت أن تتبها أن تعرف لرجلك قبل الخطو موضعها، وفكك الله لما فيه الخير والسعادة. فضنطت على يدها برقة، وقلت بصوت ملوّه التردد:

- إن رضاك عني بالدنيا وما فيها...

فابتسمت قائلة:

- سيدعوك قلبي أثناء الليل وأطراف النهار...

وساد الصمت ملياً حتى حسبت الأمر انتهى عند هذا الحد، ولكنها بدت مهتمة متفكرة كأن خاطراً يلح عليها أن تفصح عنه، وخالستني نظرة قلقة أكثر من مرة، ثم خرجت عن الصمت والتردد بأن قالت في حذر وإشفاق:

- ألا يحسن بك أن تؤجل الشروع في الخطبة حتى يحول الحول على موت أبيك؟ إن أعوف ما أخافه أن يقال عنك إنك خطبت ولما ينته الحداد على أبيك كأنك كنت ترصد موته على لفة؟!

ولم أكد أصدق أذناً... وبدا لي قولها نوعاً من المكر المكشوف لا أحبه ولا أطيقه، وصادوني الحق والغيظ، وكدت أنفجر غاضباً، ولكنني استمكنت بالصمت حتى ولت العاصفة، ثم قلت:

- لن يتم الزواج على أية حال قبل مضي عام... وانتهى الحديث عند ذلك كما تمثيت، وشعرت باقي تخبطت أكبر عقبة في سبيلي. وكان ينبغي أن أكون سعيداً، وقد كنت سعيداً بلا شك، ولكن شاب سعادي إحساس بالقلق طلالاً عذبني في حيائي. إنه لا يفتأ يطاردني حتى في أحفل ساعاتي بالسرور، وما من

- صباح الخير...

وغمرني ردة التحية بسرور، فسرنا جنبًا إلى جنب وأنا أقول في نفسي بحرارة: «يا سيّدة يا أمّ هاشم نظرة!» كنت خائفًا حقًا شديد الارتباك والحجل. وحاولت أن أتذكر «بروفات» أمس، ولكنّ الاضطراب غلبني على أمري فوجدت رأسي خاويًا ولساني منعقدًا، وقطعتنا مسافة غير يسيرة دون أن أنبس بكلمة. كيف أبدأ الحديث؟ ما عسى أن أقول؟ وتولاني ضيق شديد لأنّي أدركت بطبيعة الحال أنّه ينبغي أن أتكلّم، وأنّه لا يليق بي أن أصمت هكذا، ومع ذلك فلم يفتح الله عليّ بكلمة واحدة، وبدا كأنّ الكلام وظيفة لم أمارسها قط. وكأنّها أدركت سرّ ارتبائي، فنظرت إليّ وحلّ شفتيها ابتسامة رقيقة، فابتسمت في حياء شديد، ولم أجد ما أقوله إلّا أن أعيد التحية قائلاً:

- صباح الخير.

فازدادت ابتسامتها اتّساعًا وقالت:

- صباح الخير.

ربّاه! أأفلس معجمي، وعُدّت إلى العذاب مرّة أخرى؟ إنّني أشعر كأنّ بدين حديديتين تشدّان على عنقي. ولن أتحمّل هذا الموقف المزري أكثر من هذا. وتكلّمني اليأس فغلب في نفسي الحجل واستغثت بها قائلاً:

- احلّيني!... لا أدري ماذا أقول... هذه أول

مرّة أخاطب فتاة...

ولم تسالك نفسها فنذت عنها ضحكة قصيرة، ولعلّها تشجّعت بحيالي نفسه، فتغلّبت على حيائها، وقالت في دهابة:

- بل هذه ثاني مرّة إن صدقت...

آه! إنّها تشير إلى مطاردتي لها منذ ثلاثة أيّام! وذكرتها بدهشة، كأنني لم أكن بظلمها الجريء. مهما يكن من أمر فقد شجّعتني دهابتها وخفّفت عني الارتباك والحياء، وأمكنني أن أقول:

- لا تسيهي بي الظنّ. فوالله لو أسعفني لساني لما وسعتني الدنيا كلامًا...

المقابلة المألوفة. ولاحت الشقيقة الصغرى في الشرفة، ثمّ تبعتهما الأمّ بعد قليل، وجعلنا نظران نحوي، هل تعلمان؟ هذا ما أتمنّاه حتّى آمن خطر محمّد جودت. وبدت حبيبي وراء النافذة وهي ترتدي معطفها، فحفظت فؤادي خفة عنيفة، وانتظرتُ كمن في حلم. ومن حجب أنّ إحساسي بالسعادة تغيّر فجأة، فتر، كأنه صوت جميل اعترضته سحابة، وساورني قلق لم أدر سببه، وحيرة مؤلمة كأنني أحاول أن أتذكر أمرًا هامًا يضرّ به النسيان، ثمّ شعرت بخطورة الخطوة التي أرفع رجلي لأخطوها، فاستحوذ عليّ التردد والخوف، ونازعتني نفسي إلى الهروب. بيد أنّها كانت لحظة عابرة، ولت عني بسرعة، فاستعدت الثقة والسرور، وتبدّلت لي ارتياح عميق، ورحلت أقطع الطوار محبورًا سعيدًا في انتظار حبيبة القلب المشوّق... ثمّ رأيتهما تبرز من باب العمارة في معطف سنجابيّ فارعة أنيقة مليحة، وجاءت المحطة تحظر في خطواتها الوقور ووقفت بعيدًا عني. وكانت الأمّ في الشرفة كأنها تبارك اللقاء وتضفي عليه شرعًا، فشعرتُ - إلى سعادتي - بالسؤوليّة. وجاء الترام الذي سيقّلنا، فنظرت إليه بامتنان ودهوت له بالسلامة ولساقه بالسعادة وزيادة الأجور! وصعدنا معًا، ورأيتهما تتجه على غير عادتهما إلى مقصورة الدرجة الأولى فبتبعتهما على الأثر، ولم يكن بالمقصورة إلّا رجلًا وامرأة، فجلست فتاتي موزّدة الوجه من الحياء، ولعلّها انتظرت أن أجلس إلى جانبها، وأن أسلم عليها، ولكنّ خاتمتي الشجاعة فجلست على المقعد المقابل لي ارتباك وحياء وسخط على نفسي. وسار الترام بطريق، وأنا أخالسهما النظر في صمت وصبر، حتّى عبر الترام جسر عباس. فهبطت قائلة وغادرت المقصورة وأنا في أثرها، ونزلنا في المحطة التالية. وسارت صوب شارع يمتدّ وشاطئ النيل، فبتبعتهما، وتدانيتهما منها بقلب خائف، متعزّزًا في خجل قهّار وقلت بصوت لا يكاد يسمع:

- صباح الخير...

فابتسمت دون أن تلتفت إليّ وغمغمت في مثل حياتي:



- ماذا أعلم ترى!

فللت بالسمت لحظات أستجمع قواي، وقلت:

- ما تعلمين من آتي...

ورسمت شفتاي «أحبك» دون أن تنطقا بها،  
ولكنها رأت وفهمت بلا أدنى شك. وخففت بصري  
حياء، ودق قلبي بعنف. وانتزعتني من الوجود غيبوبة  
عابرة غيبتني عما حولي. واسترقت إليها النظر فأنفيتها  
صامتة رزينة موزدة الوجه. هذه لحظة مقدسة. أجل  
إن الزمن لينوء بما يعمل من جلال اللحظات التي  
مرت بالإنسانية في تاريخها، ولكن هذه اللحظة من  
أجل ما عرف الزمن رغم هذا كله. ولن ينقص منها  
أنها معادة وأنها تحدث كل يوم آلاف المرات في بقاع  
الأرض الواسعة، فهي الشيء الوحيد للمعاد الذي لا  
يُمل، وما ينبغي أن يُمل وهو يتضمن سر الوجود  
الاعظم، ألا وهو الحب. لم يكن بوسعي أن أضيقها  
إلى صدي. لا لمرور قافلة جال تحمل برتقالاً. ولكن  
لأنه لم يكن بوسعي أن أفسد على الإطلاق، وقطعنا  
شوطاً صامتين، وحال حياتي دون مواصلة الحديث في  
هذه النقطة بالذات، وعادوت التفكير في المسألة من  
وجوهها الأخرى فقلت مبتسماً:

- وماذا تم من أمر محمد جودت؟

وحديثي بلهجة عظيمة، وسألني:

- من أدراك به؟

فقصصت عليها نبأ المقابلة التي تمت بين محمد  
جودت وبيني وهي تصني إلي باهتمام شديد، ثم  
قالت:

- إنه رجل فاضل عتيم، وموكل كبير، وقد رحب  
به أبي، أما أمي فقابلت عرضه بفنور لأنه يكبرني  
كثيراً، ولأنه سبق أن تزوج وله بنت في الخامسة  
عشرة. وقد حدثت أمي عن لقائنا في الطريق منذ  
ثلاثة أيام... فاشتربت أن يعرفوا عنك كل شيء قبل  
أن تعلن عن رأيها.

وخفق قلبي في مزيج من سرور وقلق، وسألتها وإن  
لم أكن في حاجة إلى السؤال:

- وهل تعلم بمقابلتنا هذه؟

وضحكت وهي تصعد في نظرها وتصوب ثم  
قالت:

- ألا ترى أننا لم نتعارف بعد؟

أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال. ليت الحديث  
يكون أسئلة من ناحيتها وأجوبة من ناحيتي! وقلت  
بارتياح:

- كامل رؤية لاذ بوزارة الحرية.

ونمتت لو كان في الإمكان أن أخبرها بإيرادي  
الشهري وثروتي المنتظرة، أما هي فقالت:

- رباب جبر مدونة بروضة الأطفال بالعباسية.

وأعجبني الاسم، فأجيبته كما أحب صاحبته،  
وغضمت كأنما لاستبعاد وقعه في أدني:

- رباب...!

ووجدت أنساً وشجاعة فقلت ببساطة:

- تصوّري... إلي أداوم على اختلاس النظرات

من وجهك من عامين وحتى اسمك لا أعرفه!

فلاحت الدهشة في وجهها الجميل وقلت:

- عامين!

فسرتني دهشتها وقلت بحماسة:

- أجل من قرابة عامين، ألم تعطني إلى هذا؟!

فقلت ضاحكة وأنا أجمع انتباهي في أدنى لأهمل

الصوت الذي شاقني استباه طويلاً:

- منذ أشهر فقط! ما أجل صبرك!

هذه وخزة بلا ريب! كأنها تقول لي: وما الذي  
أسكتك حتى أوشكت الفرصة أن تغت من بين  
يديك! وانتهزت الفرصة لأصرح بما ودت لو كنت  
صرحت به، فقلت وقد أصبح الكلام ممكناً:

- قبل منعني ظروف قاسية، لم يكن بوسعي أن  
أقدم وأنا غير كفه لك، ثم تفسرت الظروف  
وتحسنت الحالة فلم أتردد عن اعتراض سبيلك في  
الترام في جنون أخرجني عن وصي، فالحق آتي لم أنتظر  
وأنا قادر إلا أيلماً معدودات وإن كنت... (كدت  
أقول: «وإن كنت أحببتك منذ عامين» ولكني  
عجزت)... وإن كان ما تعلمين منذ عامين.  
ونظرت فيها أمامها مبتسمة ابتسامة خفيفة وقلت:

فابتسمت ولم تحر جواباً، وذكرت «وظيفتي» بعدم ارتياح وخجل، ولكن لم يخطر لي على بال أن أكذب أو أبذل من الواقع فقلت:

- إني كما قلت لك موكلّف بالحريّة، ولكن لي دخلاً سنّة عشر جنيهاً من أوقاف، وأملك إلى ذلك قدرًا من المال يجاوز الألف الجنيه، وليس في سيريّ ما يشين، وسترين إذا ما تحرّروا عني آتي التزم الصلح حقًا...

فابتسمت قائلة في إخلاص:

- لا شكّ في هذا مطلقًا.

ورنوت إليها بامتنان عميق، وذكرت في تلك اللحظة آلامي وما عانيت من تشوّق إليها وحسرة عليها فهزّلي سرور يجلّ عن الوصف. بيد أنّي تساءلت في خوف: ترى هل أروق في عيني الأمّ؟... ألا تستصغر وظيفتي، أو لا تعجّب أهلاً لهذه الأستاذة المحبوبة؟... وانقبض قلبي ذعرًا، وحدّثني نفسي بأن أفاطمها فيها يكدر صفوي، ولكنّ عقلي الحياء. ثمّ خطر لي خاطر جديد فسألته عن الفور:

- هل تواصلين العمل في وظيفتك إذا تمّ الأمر كما أرجو؟

- ولم لا؟ إني أحبّ عملي حبًّا جماً، وكثيرات من زميلاتي...

وأدركت ما كانت على وشك قوله فحفظ قلبي بنبطة ونظرت إليها نظرة حيّة ملؤها الحبّ والأمل، ثمّ قلت برضا:

- هذا حسن...

ساد الصمت قليلاً فعلا وقع أقدامنا على أرض الطريق المروشة بأشعة الشمس، ولاحت منّي التفاتة إلى النيل فرأيت صفحته السمراء تترقق تحت لؤلؤ النور المنثور، وأخذت أنصفّح وجوه المائة الفلافل الذين يمزّون بنا في حياء وارتباك. وقد لظفت الشمس من بروة الجوّ وبثّت في حنايانا نشاطًا وحبورًا فشرعت بطيب الحياة كما لم أشعر به من قبل، وامتنألت امتنأناً حقّ وددت لو ألثم الثرى شكرًا. بيد أنّي لم أنس ما يشغلني من خطر الأمور، أو ما يبدو لي من خطيرها، فلذلك سألتها:

- أورشديني الآن إلى ما ينبغي فعله.

فسألني في دهشة قائلة:

- ماذا تعني؟

فقلت بحيرة:

- ينبغي أن أتقدّم لطلب ينك.

فنظرت فيها أمامها بحيرة ولم تنبس. وكنت في حيرة من أمري فسألته:

- كيف... كيف يخطف الناس عادة؟!

فندّبت عنها ضحكة رقيقة، وقالت برقة:

- بواسطة السيّدات أو بالاتصال الشخصي، ألم تدر شيئًا عن هذا؟

وذكرني قولها «وساطة السيّدات» بأنّي فأنقبض قلبي فيما يشبه الذعر. ثمّ تساءلت ترى هل أستطيع أن أقوم بما يتطلبه الاتصال الشخصي من لباقة وشجاعة؟ وذكرت عند ذاك أنّي لا أعرف شيئًا عن أبيها فسألته:

- هلّا تكرّمت وأخبرتني عن والدك؟!

فحدّثني بنظرة ملؤها الشكّ وغمغمت:

- ألا تعرف عنه شيئًا؟!

فقلت ببساطة وصدق:

- كلًّا وأسفاه...

وأدركت أنّها كانت تظنّني نشطت لمعرفه ما ينبغي معرفته عن الأسرة التي أطمح للانتماج فيها؟ وصجبت كيف أنّي لم أحرك ساكنًا طوال عهد حيّ قاننا بالنظر واللهفة والياس. وقالت رباب بلهجة لا تخلو من زهو:

- جبر بك السيّد مفتش ربيّ بالأشغال...

فقلت بإجلال:

- تشرّلت.

واستشرعت ثقل التعبة الملقاة على عاتقي، ولنكّني لم أجد بدًّا من أن أقول:

- سأقابله بنفسي، متى يحسن أن أقابله؟

- في بحر الأسبوع القادم لأنّه سيسافر بعد ذلك في رحلة تفتيشيّة كمادته، وهو لا يكاد يغادر البيت عقب عودته من الوزارة...

بسطة لأمالك أنفاسي. حق طالمني باب الشقة المغلق  
فخارت قواي، ووسوست لي نفسي أن أعود، أن أقر  
بنفسي، أن أوجل الزهارة الخطيرة ليوم آخر. ولكنني  
نفيت عني فكرة التأجيل بغضب، وبدا لي أن أنزل  
وأن أخفف عن توقر أعصابي بالمشي ومساودة ترتيب  
أفكاري. وهممت بالتراجع، ولكنني تساهلت في  
اللحظة التالية ألا يرتاب البواب في أسري إذا رأي  
نازلًا بعد دقيقة من غابطته ثم رأي بعد دقائق عائداً  
إلى المارة؟... وهدلت عن فكرة النزول، ووقفت  
مع ذلك ساكناً لا أبدي حراكاً. وجد بصري على  
الباب حق غلت ثقبه عيناً تحقّق في وجهي بسخريه.  
وانتقلت عيني إلى زرّ الجرس وبثت عليه بخوف  
ولهلع. ما عسى أن يحدث لي لو فُتح الباب فجأة من  
وجه من الوجوه التي أعرفها وتعرفني؟ وثقيت في تلك  
اللحظة لو كانت حيّات واصلت مسيرها الوليد دون أن  
تصطدم بهذا الحبّ الذي قلبها رأساً على عقب!  
وجادني بغتة صوت رفيع من الداخل يصيح: «اتصحي  
الرايو يا صباح» فارتعدت أوصالي وأرغفت السمع في  
خوف متزايد. وتلّيت منك يا أمّاه، أما كان الأفضل أن  
تكسولي في مكاني هكذا؟ ثم قرع أذني وقع قدمين  
صاعدتين فتضاعف اضطرابي ولم أجد من التقدّم  
مناصاً، وتذاتيت من الباب، ورفعت يدي إلى زرّ  
الجرس، وترتيت لحظة في اضطراب، ثم ضغطت  
عليه فردّ رنيتاً مزعجاً، وتنحّيت جانباً، منتظراً في  
حالة يرئ لها. وفُتح الباب وبرز وجه أسود كالنجم  
لجارية في الخمسين، فحدجتي بعينين برّاقتين وقالت:  
- أخدم؟

وقلت وأنا أتمحّي أن يكون البك خارج البيت لسبب  
أو لآخر:

- جبر بك موجود؟

ولكنها أجابت قائلة:

- نعم يا سيدي... مين حضرتك؟

فاستخرجت من محفظتي بطاقة وقلمتها لها قائلاً:

- أرجو أن يأذن لي البك بمقابلة قصيرة...

ومضت الجارية بالبطاقة وانتظرت خائقة الفؤاد

وكنا قد توغلنا في الطريق طويلاً فانترحت أن  
نعود، ودرنا على عينيّا عائدين. ولم نتبادل في عودتنا  
إلا كلمات قلائل، وكنت من السعادة في حلم، ولكنني  
لم أغفل لحظة عما أنا مقبل عليه من جلال الأمور...

### ٣٦

واستحوذ عليّ الخوف والقلق، وعلاوني ذلك  
الإحساس الحائق الذي تهرني يوم دهاني استاذي بكليّة  
الحقوق إلى منصّة الخطابة. هل تستطيع قدمي أن  
تحمّلني إلى بيت جبر بك؟ هل أستطيع مكاشفة  
الرجل بما في صدري؟ اللهم أدركني برحمتك فإنّ الحبّ  
يركّبي مركباً صعباً لا يقبل لي به، ولما ضقت بالواقع  
المخيف روحت عن نفسي بالأحلام، فرأيتني في جزيرة  
مهجورة، وليس بها حرمي إلاّ حيبي، حيث الحبّ  
لا يسمي المحبّ خطبة ولا كلاماً ولا اتصالاً بأحد،  
وهفت نفسي في محنتي إلى تلك الجزيرة المهجورة.

ومضى السبت والأحد في عذاب نفسيّ عنيف،  
فصممت على أن أستجير من عذاب الفكر بلقاء الخطر  
وجهاً لوجه. وغادرت البيت عصرًا بعد أن أعطت  
زيتني، وقطعت الطريق واجف القلب وأنا أتلو آية  
الكرسي. ولما عبرت الجسر ولاح لي عن بُعد جانب  
من العمارة تقلت قدمي وكنت أرجع من حيث  
أتيت، ولكن كان تصميمي راسخاً، وكان إشفائي من  
أن تستطع حبيبي قدومي لا يدع لي فرصة للتردد.  
وجعلت أشجع نفسي قائلاً إنه لو لم يكن ثمة أمل لما  
رضيت حبيبي بأن تلغاني يوم الجمعة، ولما مهّدت  
السييل لمقابلة أبيها، ودفعت قدمي الثقيلتين فأخذت  
أقرب روئداً من العمارة. ولم يكن بالنافذة ولا الشرفة  
أحد فارحمت لذلك لأنّي اضطرب في سيري تحت وقع  
الأعين، ثم وجلتني مقبلاً نحو البواب، فوقف الرجل  
متساوياً فقلت:

- جبر بك السيد.

فقال:

- الدور الثاني...

وارتقيت السلم في رهبة وخوف، متوقفاً عند كلّ

- إني تشرفت بمعرفتك يا أستاذ كامل! ... ترى  
أحضرتك من حيناً هذا؟

فقلت وقد سررت بما هيأ لي من سبب للحديث:

- نعم يا بك، إني من سكان منيل الروضة!

- حيّ هادئ لطيف.

فقلت وقد أنست إليه:

- وإني من مواليد أيضاً، وقد أقام به جدّي  
الأميرالاي عبدالله بك حسن منذ أكثر من سبعين  
عاماً!

فقال متفكراً:

- عبدالله بك حسن! ... أظني سمعت بهذا  
الاسم! أهر جدك لوالدك؟

فقلت مضطرباً:

- كلاً، إنه جدّي لأمي، أمّا أبي فمن أسرة  
لاظ...

- وهل كان ضابطاً أيضاً؟

فقلت وقد تزايد قلقي:

- كلاً... كان أبي رحمه الله من الأعيان...

فابتسم قائلاً:

- حسبته كذلك لأن أهل المهنة الواحدة كثيراً ما  
يرتبطون بالزواج فيما بينهم...

وأمّنت على قوله، وسكت الرجل فلم أجد ما  
أقوله، وعدت إلى تلكر محفوظاتي فحضرتني الجملة

الخطيرة التي يتوقّف عليها حكمي في الحياة، ولكن  
خائني لاسي، فللت بالصمت، وما لبث أن عاودني

الاضطراب والهلع، والتهب رأسي حياءً وارتباكاً، وفي  
تلك اللحظة جاءت الخادم الصغيرة - التي تعرفني حقّ

المعرفة - تحمل صينية الشاي، فوضعتها على منضدة  
مكّنت سطحها بمرآة مصقولة، وتراجعت وهي تداري

ابتناسة خفيفة! ورّخت بدخولها بالشاي الذي حلّته  
لأنها استقلدتني من حرج الصمت الذي ثقلت وطلّته

عليّ. وملاً البك قدحين ودعاني للشرب، فتناولت  
قدحي شاكراً ورحمت أرتشفه تمهلاً وعقلي لا يني عن

التفكير. وفرغت منه على رضي، ووجدتني مرّة أخرى  
حيال جبر بك وابتسامته اللطيفة الغامضة التي

مضطرب النفس. وتخلّلت البك وهو يقرأ البطاقة  
بصوت مرتفع فيتبادل الجميع النظرات والابتسامات،  
ويعبرون إلى مكان آمن يروني منه حين دخولي،  
فالتهب وجهي حياءً وازددت اضطراباً، وبرز رأس  
الجارية مرّة أخرى وهي تقول:  
- تفضّل.

ودخلت خافض الرأس، فأرشدتني إلى باب على  
يمين الداخل مباشرة، فدخلت حجرة الاستقبال، وهي  
حجرة أنيقة ذات أثاث كحلّ، فالتجّهت إلى مقعد  
يفصل بين كئيتين وجلست، بعيداً عن سمت الباب.  
لم أكد أصدّق أنّي بلغت حقّاً مجلسي هذا من البيت.  
وجعلت أرهف السمع في خوف وقلق وهلع. وثمّنت  
لو يتأخّر البك ريثما استرّ أنفاسي، ثمّ دفعني العذاب  
إلى ثمّني حضوره سريعاً لوضع حدّ لآلامي. ولا أدري  
كم انتظرت حتّى سمعت وقع أقدام تقترب. دخل  
البك فهضت قائلاً، ثم سلّم عليّ في ادب وترحيب  
وأوام إلى المقعد وهو يقول:  
- تفضّل بالجلوس...

وجلس على الكتبة خير بعيد. كان طويلاً نحيلاً،  
في الخمسين من عمره، له قامة حييقي وعيناها،  
فسرعان ما أحبتّه، وكان يتلقّع ببهاء فضفاضة ضاربة  
للحمرة، ويسطع من راحتيه عطر زكيّ، ونظر إليّ  
مبتسماً وقال مرحباً:

- شرفتنا يا أستاذ كامل... أهلاً وسهلاً...

فقلت بامتنان:

- شكراً لك يا بك...

ترى هل علم بالغرض من الزيارة؟... هل سمع  
قبل الآن بهذا الاسم الذي قرأه في البطاقة؟

على أنّه مهما يكن أمره فلا مناص من مفاتحه في  
الموضوع كما لو كان يجهله. وكنت قد كتبت صورة عمّا  
ينبغي قوله كما تصوّرتّه، وقرأتها مراراً حتّى حفظتها  
قبل مغادرة البيت، فقلت بصوت منخفض:

- إني أسف على إزعاجي سعادتك بهذه الزيارة على  
غير سابق معرفة...

فقال والابتسامة اللطيفة لا تفارق شفّته الرقيقتين:

ولست من ذلك كله في شيء، ولكن رباب لا ترقه، ولو كان بها من رغبة فيه لما قابلتني وشجعتني على مقابلة أبيها، وركب هذا الخطر قلبي المحترق وركني إلى نشوي، ولكنني لم يستطع أن يستأصل الشك والقلق من قراة نفسي. وتتابعت أيام الانتظار وما أزداد إلا كآبة وتشاؤماً، ولذلك أخفيت سرّي عن أمي حتى لا تعلم بإخفاي إذا كان مقدوراً، وكابدت الانتظار ومرارة الشك في وحدة عجيبة، ومن عجب أننا لم نعد إلى موضوع الزواج منذ ذلك المساء العنيف. وقد اعتور سلوكها شيء من التثبط والتأثر لم يخفيا عن إحساسي الدقيق. وبدت في أحيان كثيرة كالطفل الغاضب وانطوت على نفسها. وكنت إذا أقبلت عليها محدثاً تلقيني بريية لا تزيلها حتى تطمئن إلى نوع الحديث. واحتفني تغيرها ولكنني لزمْتُ معها الأدب والتودد. وفي أثناء ذلك أسر لي زميل من المؤلفين بأن «بعضهم» يتحرى عني كما أخبره موظف بإدارة المستخدمين، وسرعان ما ذاع بين موظفي إدارة المخازن أنّي شارب في الزواج، وجعلوا يعرضون لي بما في أنفسهم مداخلين فأزداد امتعاضاً وحقاً، ولمّا انقضت فترة الانتظار مضيت إلى مقابلة جبر بك السيّد، ولكنني لم أذهب إلى بيته - حال دون ذلك خوئي من الخذلان - فقابلته في وزارة الأشغال، ورحب بي الرجل ترحيباً جيلاً وأعلن لي موافقته! هكذا انتهى عدايي ووَدَّتْ لي الروح. وفي تلك المقابلة اتفقنا على يوم الخطبة. وإذا كانت حياة الإنسان خليطاً من الشقاء والسعادة فقد بدا لي أنّ أيام شقاوتي قد ولّت، وآلّي سأجزى هن صبري وتعاسي وخاوفي سعادة صافية ليما بقي لي من عمر. ورجعت إلى البيت ودعوت أمي وأخبرتني بما تمّ، وقد استمعت لي في استسلام ودهشة وقالت لي متسائلة:

- ولماذا أخفيت عني الأمر كله؟

فقلت متضاحكاً في ارتباك:

- لم أكن أقدر أن ينتهي مساعي إلى ما انتهت إليه...

فقلت بحدة:

- يا لله! أكنت تتصوّر أن يرفضوا يداك! يا لك

تستحقني في صمت على الكلام، لا بدّ مما ليس منه بدّ، وإلا انقلبت الجلسة إلى مهزلة تستثير السخرية. لا صطنع شيئاً من الرجولة أمام الرجل الذي أروم مصاهرته أن أصغر في عينيه. ولملت أطراف شجاعتي وقلت وإن هدّج صوتي وتخلخلت نبراته:

- سيّدي، أردت... أعني... الحقّ آتي أرجو التشرف بمصاهرتك...

ولم تكن الجملة التي كتبها وحفظتها لتفتقر عتياً قلت كثيراً، وقد اعتراني الاضطراب بعد أن فتحت في بالكلام ولكن الله سلّم وألصحت عن رأيي بعبارة لا بأس بها ونظرت إلى الرجل فوجدته ما يزال مبتسماً، وترتّب لحظات استغفلت وقعها في نفسي المروعة، ثم قال بأدب جمّ:

- أشكر لك حسن ظنك بنا...

وصمت لحظات أخرى متفكراً ثم واصل حديثه قائلاً:

- ولكن أرجو أن تمهلني أسبوعين لمشاورة أصحاب الشأن الآخرين.

فبادرته قائلاً:

- طبعاً... طبعاً... ولا يعني إلّا شكرك على كرم أخلاقك وحسن ضيافتك؟

وبهضت قائلاً مستأذناً في الانصراف، ولكنّه دعاني للبقاء فترة أخرى، فاعتذرت شاكراً له بجمل أدبه، وسلّمت وذهبت. وتنهّدت في الخارج من الأعياق وشعرت كأني حلاً ثقيلاً رُفع عن عاتقي. وبدا لي الأمر هيئاً لا يستدعي بعض ما عانيت من خوف وقلق وهلع، فابتسمت في ارتياح، ثم استرسلت ضاحكاً...

### ٣٧

تمّلت نشوة الارتياح والتفكير حتى المساء، ثم عاودني الفلق ذلك الرقيق القديم الذي لا يملّ عشري... أيرضى جبر بك بموظف صغير مثلي زوجاً لابتة؟... ألا ترجع كفة عمّد جويوت رغم دخلي من الأوقاف؟... إنّه مهندس كجبر بك، وجار وصديق،

- ينبغي أن نجد علاجًا لحجلك، فوالله ما رأيت مثلك رجلاً.  
ولم آبه لانتقاده وسخريته. كنت سعيداً...

## ٣٨

... ثم هان عليّ عناء الزيارات، اعتمدتها وأنست إليها. أمكنني أن أضغط على زر الجرس دون أن ينخلع قلبي، وأن أمضي إلى حجرة الاستقبال دون أن أعثر بطرف سجادة أو قطعة أثاث، وأن ألقى آلي الجلد غير خافض الرأس ولا ملهوج الحديث، بل أمكنني أن أتحادث أيضاً وأن أضحك إذا دعى الداعي للضحك، في حدود طاقتي. وأسرتني الجلدية أسرة لطيفة حقيقة بالموتة، حبيبتني عنوانها، وحسبها هذا شهادة وثناء، وقد توقفت الأسباب بيني وبين جبر بك السيد فصرنا صديقين، وقربت الألفة بيني وبين نازلي هاتم فكاننا ابن وأُم. وأسرتني الصغيران محمد وروحية بظرفهما، حتى الخادم الصغيرة والجارية السوداء حظيتا بنصيب من وقي، فأحببتهم جميعاً حباً دَلَّ على ما بقلبي من هيام بحبيبتني وشوق مكبوت للمعايشة والتودد.

وكان جبر بك السيد من أولئك الرجال الذين لا يرحون بيوتهم إلا للضرورة القصوى، فإن لم يكن في الوزارة أو في رحلة تفتيشية بالأقاليم فهو في بيته وبين زوجته وأبنائه، بدا لي من أول يوم إيمارنا مهذباً رقيق الحاشية، ولم يخف عن عينيّ - على ضعف ملاحظتي - أنه من الأزواج المطيعين وأنّ زوجته هي الأميرة الناهية في البيت، ولكنّ ذلك لم يضعف من منزلته، ولملّه حظي من حبّ ابنائه بما لم تحظ به الأم نفسها، ولم يخل من ميل للفخر والمباهاة على نجاحه الخمسين، وما أسهل أن تلاحظ ذلك إذا سمعته محدثاً عن عمله ومركزه وصلاته بأقرانه ومرءوسيه، أو منوّهاً برحلاته التفتيشية وملاحظاته، وما أكثر ما ينتقد المهندسين الشبان ممن تلقوا علومهم في إنجلترا وألمانيا، فيقول إنّ علم الهندسة في مصر هو علم الهندسة في أوروبا، وإنّ القدم لا ترسخ في العلم إلا بالتجربة والممارسة، الأمر

من طفل غريب! ألا تعلم أنّ الفتيات لا حصر لهنّ، وخيراً من فتاتك ألف مرة، يرضين بك عن طيب خاطر!

فقلت بلهجة نمت عن عدم رغبي الاسترسال في النقاش:

- إني أنتظر تهنيتك يا أمّه...

فهالت نحوي حتى لثمت خديّ وتمتمت:

- إني أحتق منك بالتهاني...

ودعت لي طويلاً، وكان وجهها كالصفحة المصقولة لا تخفى بها خافية، ولم تكن تحسن مداراة ما يمتلئ في نفسها، فلمست في نظرة عينها خيبة عميقة نصّعت عليّ صفوي، بيد أنّي تجاهلتها وتظاهرت بتصديق كلماتها، وسرعان ما شغلت عنها بسعادتي، وكنت في نفس اليوم لأخي خطاباً أخبرته بما كان ودعوته لشهود الخطبة، وزرت أختي راضية ودعوتها كذلك، وذهبتا جميعاً في اليوم السورود. ولست أدري كيف واتني شجاعتي ذلك اليوم. لقد شبكت ذراعي بلذراع شقيقي مدحت ورجوته أن يكون مرشدي، ولشدّ ما أنعبته بجمودي وارتباكتي وسجلي.

لم أنس بكلمة طوال السهرة، ولم أرفع عينيّ عن الأرض، وليت محاصراً بأعين المستظلمين رجالاً ونساء، ولم تزلالي الرهبة حتى بعد انصراف الأقارب واقتصار الموجودين على الأهل. وقد ضحككت حرم جبر بك وقالت لي:

- أنت خجول يا سيّ كامل... وقد أدركت الآن السرّ في أنّك كنت تخوم حول عروسك أشهراً طويلاً كالحائف...

وخفق قلبي لقولها، واختلست من أمتي نظرة لأرى وقعه في نفسها فوجدتها مشتبكة مع جبر بك في حديث. وجلست طوال الوقت بجانب رباب دون أن أستطيع إرواء قلبي الظامئ لرويتها. وما أقيمت عليها إلا نظرة سريعة حيّة حين دخولها الحجرة في حالة من نور وبهاء ثم غبت في حيائي وارتبائي، وليّا انفصّ الحفل العائليّ وغادرتا البيت ضحك أخي مدحت في الطريق مقهقها وقال لي بدهشة:

أخلو إليها، وأن أتملّ بإدانة النظر إلى وجهها الصحيح في أسن من الرقباء، حلّ آتني لم أخلّ من خوف من مثل هذه الخلوة المأمولة وما أنا حرّى بأن أعانيه فيها من عيٍّ وحصر وحرج واضطراب، فلتعت بالمبلول في حظيرة الأسرة، راضياً أمناً، مكتئباً إلى حين بالنظرة الخاطفة والمحاورة المقتضبة، سعيداً بالنشوة التي يبتئها وجودها في قلبي وروحي، ووجدت حديقها لطيفاً طيبمياً، لا أثر فيه لشهادتها العالية - وهو ما كنت أحاذره وأشفق منه - فلا تفلسف ولا ادعاء ولا حلقه.

وتَمّ الاتفاق فيها بيننا على أن يكون الزواج في العطة الصيفية، ولم يألوا جهداً في إعداد الجهاز، واقرحت نازلي هاتم أن يتقلوا إلى شقة كبيرة على أن أنضمّ إليهم، ولكنّ الاقتراح أزعجني وذكري بأمي، فاعتذرت من عدم استطاعتي بقوله قاتلاً إني لا يمكنني التخلّي عن أمي، وعند ذلك قالت نازلي هاتم:

- والدتك سيّدة عمترمة ولطيفة ولكن يبدو لي أنّها لا تميل إلى المعاشرة!

وفهمت ما تعنيه، والحق أنّ أمي لم تزرز بيت خطيبتي منذ إعلان الخطبة إلا مرة واحدة تحت ضغط وإلحاح، فقلت في ارتباك غير قليل:

- لقد اعتادت أمي الوحدة... ولم تألف الزيارات قط...

وقصصت عليهم جانباً من حياتي متحامياً المفجوات التي لا تطيب ذكراها. ولا أنكر أنّ ملاحظة نازلي هاتم أزعجتي، وذكريتي بأمور أخافها، فدعوت الله مخلياً أن يبقيني مغبّة الشقاق في حاضري ومستقبلي.

وفي مرة، وكنت جالساً إلى فتاتي وأمها فقط، واتني الشجاعة فذكرت عهد تطلمي الصامت إلى «رباب»، وعجبت كيف انتهت إلى هذا الاحتام السعيد وهو ما لم أكن لأحلم به! وضحكت حبيبي وقالت:

- ومع ذلك فلم تكذ تخطو خطوة واحدة حتى تمّ كل شيء في غمضة عين!

وقالت نازلي هاتم:

- طالما تسألنا ماذا يريد هذا الشاب؟ ولشّد ما

الذي يتجاهله الشبان. وكان في تلك الأيام قلماً على مركزه بالوزارة، ولا يفناً شاكياً ما يلقي من اضطهاد سياسيّ مرّ في رأيه إلى صلته بالوزير الوفديّ السابق، حتى أنّه صرّح مرّة بأنّه يفكر في طلب تحويلة إلى المماش والاشتراك في النشاط السياسيّ، ولكنّه لم يستطع الاسترسال في شرح رأيه لتصدّي زوجه له بالمعارضة الحاسمة التي لا تحتمل مناقشة. وكنت أجد حياه شعورين متضادين: شعوراً بالفضالة لشاهه مركزي في الحكومة وقلة حظي من الثقافة، وشعوراً بالزهو لانتسابي لرجل مثله عظيم في قدره ومركزه وعلمه. أمّا نازلي هاتم فعل نقيضه مثالة للقصر مفرطة في السمنة، وكانت على اقترابها من الخمسين ذات وسامة لا بأس بها تدلّ بلا ريب على ما كانت تتمتع به من جمال في صباها. وكانت على سمتها المفرطة بالغة في نشاطها ويقتظها وسهرها على رعاية بيتها وأبنائها وزوجها، وقد شكا زوجها مرّة إلى حرصها الزائد من الحدّ على تنسيق البيت وتنظيفه ومراقبة الخادم والطاهية، وإفراطها في ذلك إفراطاً هو أدنى إلى الموسوسة والإرهاق، ولكنّه لم يخل في شكواه ممّا يشي بإعجابه ورضاه.

وبدت لي طريقة في غير ما تكلف، ولشّد ما ضحكّت من ذكريات تطلمي الصامت إلى الشرفة والنافذة، وقارنت بين حياتي وبين وقاحة الشبان، وعلّقت على ذلك قائلة:

- فمن حسن الحظّ أن تكون لرباب، ومن حسن الحظّ أن تكون رباب لك، فهي ليست كفتيات اليوم أيضاً.

هذا حقّ، حبيبي ليس كمثلهما شيء، هي الحياة والذكاء والجمال، وإنّ الأيام لتزديني بها تعلّقاً وهيئاً وإعجاباً، ما أرخم صوبها، وما أرتشّق إيمانها، وما أجمل رزانتها، وكانت إلى هذا كله أنوثة ناضجة كاملة، وإنّ عينها لتطالعاني بالإخلاص واللموة والصدق من غير ما حاجة إلى خفة مصطنعة أو تكلف غير بريء. ولم أكن أقوز بها في خلوة أبداً، ولم تنهني لي فرصة للانفراد بها منذ إعلان خطبتنا. وشاقتي كثيراً أن

- أترين ضرورة في إحياء ليلة الزفاف؟  
فرمقتني بنظرة استنكار كأنّ تساؤلي أدهشها وقالت:  
- طبعا!

فغمضت في ذهل:

- قيان زفاف ورقص وغناء!

- ينبغي أن تكون ليلة فريدة غناء...

وتملّكني الحوف، ورفعت إليها عينين ملوّهما الرجاء  
والاستعطاف، ثمّ قلت بيأس:

- لا يمكنني أن أرتّب بين المدعوّين! هذا فوق ما  
أستطيع.

فلاحت في وجهها الدهشة والانزعاج وقالت  
بغرامة:

- لست أفهم شيئا... هل يعجزك الحياء لهذا  
الحذّ؟

لقلت بضراعة، وبحرارة من يدافع عن نفسه حيال  
الموت:

- لا أستطيع... لا أستطيع... صتّفتي يا  
سيّدي إنّ الموت أهون عليّ من الزفاف بين المدعوّين  
والقيان...

- هذا شيء عجيب، إنك تكون أوّل رجل يهرب  
من الزفاف!

لقلت بأنّي وقد شعرت بالسنة الخجل تلهب جيبني  
وغنّي:

- ربّما، ولكن ما باليد حيلة، إنّّي استحلفك بالله أن  
ترحميني...

فتساءلت في إنكار:

- وما عسى أن نفعل؟

فقلت بلهفة وقد علوطني الرجاء:

- نكتب العقد في جمع من الأهل فحسب، ثمّ  
أمضي بالعروس إلى بيتنا!

- وكيف يكون هذا فرحا!

لو كان الأمر غير ما يتصل بالخجل لسألت دون  
عناء، والحق أنّي سريع للمطاطعة مهما كلّفتني الأمر من  
تضحية إلا إذا كنت بموقف الدائد عن حياتي، هناك  
أنقلب إلى الاستبانة والتشبّث. وقد استمددت من

حذّرت «رباب» أن تكون من الشبان الذين يطاردون  
الفتيات في الطريق! وقدرنا في وقت ما أنك مشغول  
بالتحرّي عنا كما يفعل طلاب الزواج. فلما طال ترّدك  
بعد ذلك داخلني استياء وتساءلت عنا لم يعجبك  
فيها؟

فقلت مرتبكا مثألفا:

- ما فعلت شيئا من هذا، وحتى الأسماء ظلت على  
جهلي بها حتى اللحظة الأخيرة...

وكان لديّ من المال ما يقدّر بالقياس إلى ثروة،  
فأغدقت على حبيبي الهدايا، وجعلت من شقيقتي  
راضية مشيرتي في هذه الأمور التي أخفيتهما عن أمي  
فمحضتي المشورة وأرشدتني إلى «الواجب» وخاصّة في  
المواسم كعيد الفطر وعيد الأضحى، فأصبحت بفضل  
رأيها غلبيا مشرّفا؟

وظلّت العلاقة بيني وبين أمي على ما يرام، على  
الأقلّ في الظاهر، وحرصت على أن أشركها في مهمّة  
الإعداد للحياة الجديدة لتبدو وكأنّها تباركها، فكلفتها  
بأن تبحث لنا عن شقّة جديدة، ووقع اختيارها على  
عمارة في شارع قصر العيني على بعد محطّات ثلاث من  
عمارة حبيبي، ولم يبد منها ما يعجز صفوي، ولكنّها  
بدت كشخص مغلوب على أمره، تزحزح على رجليه  
إلى هامش الحياة، فانطوت على نفسها انطواء لم أجد  
في معالجته حيلة، وقطع قلبي. ولكن لم يكن في وسع  
شيء في الوجود أن يمتاق تيّار السعادة المتدفّق الذي  
يسكرني ليل نهار. والواقع أنّ تلك الفترة من حياتي  
هي أسعد ما لقيت في الدنيا من أيام...

### ٣٩

وقالت لي نازلي هاتم يوما، وكانت الأسرة قد  
أعدت عداها للزواج:

- إنّ رباب أوّل عهدنا بالأفراح فينبغي أن تكون  
ليلتها بالغة المصرة.

وولّى قلبي فرازا، ولم يعد بدّ من مواجهة الأمر  
الخطير الذي طالما تحمّيته إشفافا وجبّنا. وتساءلت في  
قلق:



وتنقضي نصفه الأول في عييتي، نفضي بي شقيقي مدحت إلى حلاق مشهور عدت من لذه على أحسن حال، حتى قالت لي أختي في دهابة:

- أنت أجل من عروسك!... أليس كذلك يا أمّاه؟

وهتّ أمي بالكلام، ولكنّها أطبقت شفتيها دون أن تنبس، وجعلتّ أتساءل عيّا أراوت قوله. وارتدبت بدلة العرس السوداء على حرارة الجو، ثمّ ذهبت إلى بيت العروس قبل العصر بقليل ومعي أمي وأختي وأختي وزوجها وعتي وبعض بناته وغالي وأسرته. ولما اقتربنا من مدخل العمارة رأيت الأرض قد فُرشت رملاً فاقع اللون، وتدلّت مصابيح كهربائية كبيرة من عمد ملوّنة، فداخلني اضطراب وقلت لنفسي: «هذا خروج من الاتفاق!» وارتقينا السلم وتدأبت إلى أن أسير في المؤخرة شابكاً ذراعي بلذات مدحت... وما كاد أولنا يدخل الشقة حتى استقبلتنا عاصفة من الزغاريد المجلجلة، فشددت على ذراع أخي وشعرت برغبة في التسرّي، ولكن أين؟ وخفضت عيني، وسرت، بل جرّيت أخي، إلى حجرة الاستقبال، دون أن أرى شيئاً ممّا يحيط بي وإن أحسست بأذني وألقي أنّ البيت مكثّف برواد السرور... وأجلست وأنا متشبّث بلذات مدحت وقد همست في أذنه:

- أرجو ألا تفارقتي...

فردّ عليّ هامساً:

- تشجّع ولا بدت عروسك دونك خجلاً!

ولم أكّد أنّفس الصمداء لمزور لحظة الاستقبال المفزعة حتى جاءني جبر بك السيّد ليقضي لصفوة المدحون، فزوقت مرتبكا كالعادة، وراحت يدي تسلم، ولساني يردّد كالألة وتشترنا... تشترنا! ثمّ جلست مرة أخرى دون أن أحفظ أسياً واحداً. ودار حديث طويل، لم يفرغ عقلي لفهمه فضلاً عن الاشتراك فيه، ولم يغب عني حرجي، فتضاعف ارتباك، ونخلّ إليّ أنّ الجميع يتفاسزون بي، أو يهزؤون بي في سرّاتهم. ومزّ الوقت قاسياً حتى دُعيّت إلى كتابة العقد، وخُفّ عني أن تمّ ذلك في حجرة

يأسي وخوفي قوّة فتوسّلت وضرعت وألحفت حتى كُفّت السيّد عن المناقشة وهي تبرز رأسها عجباً، ولم يكن بي خوف أن يظنّوا بي تهرباً من تكاليف الزفاف لما أبديت من سخافة كخطيب كان حديث الجميع، هل أنّ جبر بك السيّد أخبرني بعد ذلك بأنّه مصمّم على دعوة نفر من خاصّة أصدقائه، وأنّه سيولم للجميع وليمة عشاء فاخرة، ثمّ أخبرني بعد حين بأنّ أحد أصدقائه من هواة الغناء والموسيقى تطوّل لإحياء الليلة في حلودها الضيقة، وقال خفّفاً عني وقع الخبر:

- وهكذا يجي ليملك موقفك كبير...

فقلت محزونة:

- يؤسفني والله ألا أحقق رغبتكم في إحياء ليلة زفاف باهرة ولكنّي لا أحتمل أن أؤثّر!

فهزّ كتفيه في عدم اكتراث وقال مبسّطاً:

- لا أحبّ أن أضايقك فلك ما تشاء...

وحمل الجهاز إلى الشقة الجديدة، وفُرشت حجرة خاصّة لامي، وانتقلنا من المنزل إلى الشقة الجديدة قبل الليلة الموصودة بأسبوع. وأشرفت شقيقتي على فرش شقة العروس بنفسها. وبهرت شقة العروس عيني فجعلت أنتقل بين الحجرات في غبطة وفرح سيّوري. ولما جاء دور المخدع اجتريت بابه بعد تردّد، وفي حياة شديد ورهبة. يا له من منظر خلّيق بأن يبرز الفؤاد هزاً! جعلت ألْقَب ناظريّ فيها حولي وأنا بين مستيقظ وحالم. فراش كالذهب، وأغطية حريرية في لون الورد الزاهر، وامرأة مصقولة رقيقة. دبت الحياة في قطع الأثاث فلم تعد جامدة ولا صلبة، وحالت ألوانها الجذابة تنوّدت الحدود والتساع الأعين، وتدلّت عن حواشيها المسدولة مصات خافتة منغومة خفق لها الفؤاد خفقاً متتابعاً.

\*\*\*

وفي صباح اليوم الراهب ساءلت نفسي متى أعود بعروسي وقد خلّفت ورائي الناس والفضوضاء؟ ليت التقاليد كانت تنضي بأن ينتظر الرجل عروسه في بيته من غير هذا المنام كلّ! بدا لي يوماً عسيراً لم يخلّق لامثالي، فلم يفارق قلبي الشهور بالرهبة والحرف.

فسرت في جسدي رعدة وهتفت في هلع:

- كلاً... كلاً... اتفقنا على ألا تكون زقة!

- ليس الأمر كما تتصوّر، فقد أقمنا في الصالة الكبيرة منصّة للعروسين، فتجيء بعروسك وتجلسان عليها، الجميع يريدون أن يروا العروسين لما ذنبي أنا؟!!

كان كلامه ينقلب في مخيلتي صوراً، فرأيتني أمشي وسط الجميع إلى حجرة العروس وأعود بها والمدعوون يحيطون بنا مهللين، ثم نجلس فريسة للاعين!... رتاه... ساقع ممثني عليّ.

وقلت بحرارة:

- ولكن هذه الزقة!... ليس في مقدوري!... أرجو يا بك أن تعفني... لا أستطيع...  
- الأمر أسهل مما تتصوّر، ولا بدّ مما ليس منه بدّ،  
والأ ماذا يقول المدعوون؟!!

فهتفت في فزع:

- دهم يقولوا ما يقولون. لا أستطيع... سأنتظر العروس على بسطة السلم ثم نذهب إلى بيتنا...

ولم يترك الرجل نفسه فضحك وصاح بي حتى علا صوته على صوت المغني:

- بسطة السلم... يا لك من هريس عجيب! وكان مدحت يصغي إلينا صامتاً، فضبط على فزاعي وقال لي بحزم:

- ما هذه الأفكار الصيانية؟!... ألا تريد أن تجيء بعروسك؟! ألا تستطيع أن تشق طريقك بين نخبة من السيدات الفضليات؟ أتريد البك على أن يعتذر عن عدم ظهورك بأنك خجول لا تستطيع الظهور أمام المدعوّات؟! واضمحلتاه

وتشجّع جبر بك بكلام شقيقي، أما أنا فحدجت أني بعينين غير مصدقتين، لم أكن أنصوّر أن نجيش الطعنة القاتلة من اليد التي أعتد عليها، وضحك أني لفزعي وذهو لي، وأراد أن يتكلم، ولكنني قاطعته محزوناً قائلاً:

- كيف تدفني إلى ما لا قيل لي به؟!... أتريد أن تجعلني أضحوكة المدعوّات؟

تكداد تكون خالية، ولكن انفجرت الزغاريد في تسابق عنيف، وعادوني مرة أخرى رغبي في التوازي، وعدت إلى مجلسي الصامت، ومرّ الوقت، ولم يكن بالنسبة إلّي إلا صمتاً وفكراً محترقاً ولهفة على الفرار. ثم دشنا إلى سباط أعدّ على سطح العيارة في الهواء الطلق. والعشاء عشاء جديد ليلي، ولكنّه محتمل بخلاف الحديث، لأنّ المدعوّين يشتغلون بالطعام عمّا عداه فيجد من كان مثلي فسحة للطمانينة والسكينة... وعدنا إلى مجالسنا، شابكاً ذراعي بلذراع أنخي، ثم بدأ الغناء. وكان المغني الهاوي وفرقة - من الهواة كذلك - يتصدّرون حجرة الاستقبال وقد غنى ويا ما أنت وحشي! بصوت لا بأس به، فاق في نظري صوت فنان حانة سوق الخضّر. وجاء جبر بك للجوقة بفنيتين من الويسكي، وتسلّمت كتوس مترعة لآخرين، وقد همس مدحت في أذني:

- ألا تشرب كأساً أو كأسين؟

فنظرت إليه نظرة لم يفهم معناها وقلت بإنكار:

- محال...

قلتها بلهجة تنم عن الاستغظاع، ثم خلوت إلى ذكرياتي في صمت. لشدّ ما همت بنشوة الخمر! أليس عجيباً أنّي لم أذوق منذ الساعة التي اجترأت فيها على غطابة حبيبي؟!... هجرتها في غير ما عشاء كأنها لم تكن. ولم تنازعني النفس إليها ولا مرة واحدة! وتتابع الغناء والحديث وعلا الضحك. وكنت حزيناً بأن أنس الجوّ، وأن يذهب عني الضيق وتوتر الأعصاب، لولا شعوري بخطورة الساعة التي تسري بي!... متى أتلقّى عروسي؟ وأين... وهل يحدث هذا في خفية عن الأبصار؟! ومرّ الوقت. ثم انتهت بغتة على جبر بك السيّد وهو يقف حالي ويضع يده على كتفي قائلاً بصوت منخفض:

- هلّم يا سي كامل أرف الوقت.

ورفعت إليه بصري في ارتياح وغمغمت:

- أن وقت الذهاب!

فقال ضاحكاً:

- ليس في الحال ولكن بعد زقة بسيطة؟

- ارفع رأسك، حلق في وجوه الحسان حتى يفضين حياء!

ولكني تقدّمت على مهل خافض الرأس. لم أشك في أنّ منظري استار الضحك المكتوم. وبلغ سمعي صوت نسائي يتساءل: «أيتها العروس؟» فأجابت أخرى: «الطويل!». كان المكان مكتظًا، وقد رايت عديدًا من السيقان والأحذية البيض على جانبي الطريق الذي أفسح لنا. ثم سمعت صوت أخي يمس في أذني:

- بلغنا المنصة، اصعد إليها، وحي عروسك واجلس.

ارتقيت درجتين، ورفعت عيني في حذر وإشفاق فرأيت حبيبي جالسة تحت ظلّ من الأزهار، في ثوب العرس الأبيض وعلى رأسها هالة من الفلّ والياسمين تسدل منها على الظهر ذبول من الحرير. وكانت بهاء ونورًا وفلًا وإسميًا، وقد غشّت بصرها ولاحت على ثغرها ابتسامة خفيفة. وصرت منها على قيد خطوة، وتذكّرت قول أخي: «حي عروسك واجلس». كيف أحيتها؟. آسألم باليد؟. أم أوجه إليها تحية المساء؟ وتردّدت مرتبًا، ورايت في ابتسامتها الخفيفة الحجلة ما ينم عن انتظار تحيّي، ثم شعرت بما غاب عني لحظات قصار، أو عاودني الشعور بالأعين المكددة بي تكاد تحرق ظهري، ففقدت جنائي، وجلس على المقعد الخالي دون أن أنبس بكلمة أو أحرك يدي.

أخطأت بلا شك؟ ماذا تقول النسوة؟. ماذا تظنّ حبيبي؟. أه يا له من موقف! لوهرفت هذا من قبل ما فُكرت في الزواج أبدًا! الموسيقى تعزف، والزغاريد تهلجل، وأريج الروائح الزكية يتطاير في الجو. الموت أهون من الزواج! هل أظنّ الدهر ضحية للمنصات؟ بالأسس قضت منصة الخطابة بكليّة الحقوق على مستقبل، واليلة تكاد تقضي منصة العروس على حياتي! ترى ماذا يقلن عن عيني اللتين لم تزايدا الأرض؟! وتذكرت بغتة أمي، ترى أين تجلس؟ إنّا تراني في هذه اللحظة بلا ريب، وتضاعف حيائي، وتولاني شعور من يُضبط وهو يقترف عيبًا. ووجدت

وتأثر جبر بك للهجتي الحزينة البائسة، فقال برقة: - المدحورات جميعًا من الأهل. وقد تعرّفت إليهنّ يوم الخطبة، وسرتى صدق قولي...

لم يزل الفرع يتملكني، وتناهى بي الضيق فقلت بتوسّل:

- نشدكنما الله أن ترحاني!

وكأنّ أخي أدرك أنّ الكلام لا يجدي، فوجه خطابه لجبر بك قائلاً:

- يمكن أن ننقح على حلّ وسط فتجيء العروس إلى المنصة بين صريحباتها، وأنذهب مع أخي إليها، فيجلسان معًا بين الأهل ردحًا من الزمن قبل الذهاب...

وأوسا إلى البك ألا يعارض، فلهب الرجل، والتفت إلى أخي منفيًا غمغًا وقلت له:

- يا لك من أخ خائن!.. كيف تسمي هذا حلًا وسطًا وما هو إلا التكيّل بي...

فندّبت عنه ضحكة مجلجلة ذكّرتني بأبنا وقال لي: - إنك تعرّ بلدًا، فدع النضال، وسنذهب معًا... لبتني أجد كلّ يوم زفة فاشقّ سبيلًا طريقًا بين النساء وصمت لحظة قصيرة، ثم لكزني في كتفي وعاد يقول:

- إذا حدّثك نفسك بالنكوص فاهرب واستغن عن العروس!

واستسلمت إلى الواقع في سأس وضيق وهلع. وهزفت الفرقة نشيد الزفة فنفخ قلبي بارتياح وشعرت بدنو الخطر. وقرعت أذنيّ الزغاريد الآتية من الصالة فانهارت قواي، والتفت إلى مدحت قائلاً:

- أما من حيلة؟ أما من طريق؟

فشدّ على ذراعي ونهض وهو يقول:

- طريق واحد يفضي إلى المنصة كأنك طفل يُساق إلى الختان!

وسبار، فتحرّكت قدمائي وقلبي يفرص في صدري...

وقال لي همسًا ونحن نجتاز الباب:

صورها المعكوسة على مراباه التي ترسم حولها نصف دائرة، وراحت ترتع إكليل الفلّ والياسمين، بينما وقفت في وسط الحجرة مرتفعًا حافة الفراش الخشبيّة، مردّدًا بصري بين ظهرها الرشيق وصُورها المتنافسة في الحسن. هُذه الحجرة هي دنيائي، وحسي بها من دنيا، وهُذه الفتاة هي نصيبي من الكون وحسي بها من نصيب، هي حبي وسعادي وأمني، ولئن أسأل الدنيا مطعمًا بعد اليوم.

انتهت حبيبي من نزع إكليلها، وأخلت تسوي ما بعثر من عصلات شعرها الكستنائي في تمهل من يرغب في اكتساب أقصى ما يسعه من وقت. ولكن ستنهي حنًا فترة الانتظار فما العمل؟

ربّاه إنّ قلبي يقف متوتّب، وإني لأجد رعدة ترعش ركبتيّ، وإني لأتساءل في حيرة عن الخطوة التالية بنفس هيّابة وحياء شديد يدور مع دمي. وأدركت رغم اضطرابي أنّه ينبغي أن نبذل ملابسنا، ولكنّي لم أدر كيف يتمّ هذا وكلانا في حجرة واحدة مغلقة! ولدت لي وكأنيما تنتظر منّي شيئًا، فقد انتهت من تسوية عصلاتها وإن تظاهرت بالمكسر، ولاح في وجهها الارتباك والحرج. وإني أعلم أمورًا ولكن فائتي التفاصيل، وأعوزني الحيلة والعزيمة. ليتني استخبرت أخي مدحت، أو ليته كان لي أصدقاء أرجع إليهم في أمثال هذه الأسرار، ولكن قاتل الله الأحياء الذي يقيم بيني وبين أخي والناس سداً، ثبأ له! لماذا لا يزيّلني وقد صرنا وحدنا!

ويلغ ضيقي بصمتي وجسدي متناه، وثار بي الغضب على نفسي، فصمتت لأتكلمن. وهو أضعف الإيمان - وقلت بصوت خريب أنكرته أذنائي: - ما أجملك!

هذه أول كلمة غزل أنقّره بها في حياتي!... وقد سلّدت بصرها نحو صورتني الماثلة في المرأة وابتسمت، ثم غصّت بصرها، وشبكت ذراعها على صدرها. لم يعد يجدي التظاهر بتسوية الشعر فشبت ذراعها في استسلام المنتظر. وازدادت حرجًا، وعضضت على شفتي قهراً وغيتكاً. وبدا لي تغيير ملابسنا كأكبر مشكلة

إحساساً لا يقبل لي بمقاومته يدفعني إلى البحث عن موضعها، وارتمعت عيناها في رفق وحلو، ولكنّها كانت أقرب ممّا أتصوّر، كانت تجلس في الصفّ الأوّل الذي يحدّق بالمتصّة، فالتقت عيناها، وتبادلنا ابتسامة رقيقة. وطار خيالي إلى صورة من الماضي البعيد، فرايتني أقف وراء سور المدرسة الأوّلّة وهي بموقفها على الطوار المقابل للسور، ترنو إليّ بعين التشجيع والتوديع، فشعرت بغمز على قلبي.

وتنقّست الصعداء حين أقبلت نازلي هائم نحونا وقالت مبتسمة:

- الآن إلى بيتكما مصحوبين بالسلامة.

ثم خاطبني هامة:

- ستذهب الجارية صباح مع سيّدتها الصغيرة لأتبا لا تحتمل مفارقتها!... وإني أوصيك بها خيراً، وستجد فيها خير طاهية.

وتنحّت المرأة جانباً مغرورة العينين، ونهضنا من مجلسنا، وأخذت بيد عروسي وغادرتا المكان في سير وثيد والزخاريد والأنغام تودّعنا حتّى باب العيارة. وكان أحد أصدقاءه جبر بك قد وضع سيّارته تحت تصرفنا حتّى نبلغ دارنا. واسترنا السيّارة معاً، ثم انطلقت بنا. والفتّ نحوها متبّداً فكأنّي أراها أوّل مرّة. وقلت بارتياح:

- يا له من موقف قاس!

- يا لك من خجول!... أهذا الحد؟

فندّنت عني ضحكة أداري بها ارتباكها، وجعلت أتملّ غبطة مملا القلب والعين والروح.

أغلقت باب المخدع بيد مضطربة. كان هذا الجناح من الشفّة خالياً صامتا، تفصله صالتان صغيرتان متداخلتان عن الجناح الآخر حيث توجد حجرتا أبي والاستقبال... وكان خدعنا مرتباً يتوسّطه الفراش، وعلى يمين الداخل مباشرة مقعد طويل ذو لون ودي، وفي الجدار المقابل التواليت والمشجب. مضت رباب إلى آخر الحجرة وجلست على مقعد التواليت بين

يضمّتها إليه، فإذا يغفلني؟!

إنّ هي إلّا خطوة أنطعها، فهل تكلف خطوة واحدة كلّ هذا العناء؟ كان قلبي متلهّفاً متعلّكاً، وكان عجلي حارّاً عيماً، أمّا جسمي فكان ميتاً لا حراك به! أأظنّ هكذا أبداً؟... لذا لا أدري موتي بالحديث؟... ولكن ما عسى أن أقول... لقد عند الاضطراب لساني، وكلّ دقيقة تمزّ تركني أشدّ ضعفاً واضطراباً. وعلى حين بفتة انحرف ذهني إلى حجرة أنّي دون داع، وتساءلت ترى هل نامت؟ هل تتخيّل ماذا أفعل الآن؟ وتضاعف اضطراب الحجل بنفسي، وشعرت بما يشبه الاختناق. سلّمت من جانبي باليس والمعجز، وتساءلت هل نبغى على هذا الوضع المضحك حتّى الصباح؟ ووجدت في أعمالي نزوعاً إلى الحرب، ولغماً عليه، وكذبت أنّني لو لم يكن ما كان!... وألفت من أشجاني على صوت حبيبي وهي تقول:

- الجوّ حارّ..

وتحوّلت صوب النافذة لتفتحها، ووجدت فرصة صوابية فخلعت نفسي ورامها وأكلت عنها فتح المصريين وهمت حبيبي بالعودة فقلت كالاستنيت:

- هلا وقتنا في النافذة قليلاً...

ولّبت حبيبي نداء الاستفاته. فوقفنا جنباً لجنب لا يفصل بيننا إلّا قيراط. وكانت النافذة تطلّ على الناحية الخلفيّة للمهارة، وتقع تحتها مباشرة حديقة كنيسة تقوم بجنباتها أشجار عالية تتصاعد ممسات خفيفها في صمت الليل. وهفّت على وجهينا نسمة رطوية أنطلّع إليها كما ينطلّع الطفل إلى القمر؟ ها هي ذي لا يفصلنا إلّا قيراط. وملت بجسمي في تؤدة وحلدر، فتماسّت ملايسنا. ثمّ شعرت رويداً بملس طري، والتصقّ الجنيان. ونذت عني تهلة مسموعة أيقظت حيائي فترثت قليلاً. ونخت أن تصدني أو تبعد عني حياء فأغلب على أمري ولا يصد ثمة أمل، ولكنّها لبثت بمكانها وارتفعت حافة النافذة.

ودفعّت يسراي إلى الورا قليلاً، ووجّهتها ورامها حتّى رسمت خلف خاصرنا نصف دائرة، وجعلت

في الوجود، فهل نبغى على هذه الحال الأليم حتّى مطلع الصبح؟... لماذا لا أمضي نحوها فاضمتها إلى صدري حتّى تحلّ المسألة نفسها بنفسها؟... ولكن كيف أقدم على هذه الخطوة العظيمة؟ إلى أين أستطيع أن أنجّ، وأن أحادث نفسي، أمّا الإقدام على عمل فهو المحال. وامتلاً قلبي غيظاً وآلماً، وازدبت إحساساً بالمعجز والخزي، فصممت أن أخرج من صمّي على الأقلّ، فقلت:

- هلا بدّلت ملابسك يا عزيزتي؟

فقال بعد تردّد:

- ليس أمامك!

لعلّها توقّعت دهابة أو مغازلة ردّاً على قولها، ولكنّي لم أفكر في شيء من هذا، وتركّز تفكيري في إيجاد مكان أتوارى فيه ريثما تخلع هي فستان العرس. وتراجعت قليلاً جامعاً الفراش بيني وبينها، ثمّ جلست على أرض الغرفة مخفياً عن عينيها وأنا أقول:

- بدّلي ملابسك يا عزيزتي...

وحسبني قد ظفرت بالحلّ السعيد. وانهزمت الفرصة فعمضت أخلع ملابسني في هدوء عاقد أن يبدو مني شيء، ووضعت البدلة على الفراش، وتناولت البيجاما وكانت ملقاة على المقعد الطويل، وحشرت فيها نفسي وأنا لا أزال ملازماً موضعي على الأرض. وانتظرت ملياً ثمّ سالته بركة:

- هل انتهيت يا عزيزتي؟

فاجابني بصوت مهموس:

- أجل...

فنهضت قائلاً وهنا وقع بصري على صورتني في المرآة فرأيت الطربوش ما يزال على رأسي فزعرته مبتسماً! ونظرت صوبها في حياء فوجدتها بمجلسها السابق وقد التفتت في روب من الحرير الأبيض، وأدارت المقعد مستقبلة به الحجر. وعدت إلى موقعي مرتفعاً حافة الفراش، رائيًا إليها في خبطة وهيام، وكلّما رفعت إليّ عينيها غضضت بصري في حياء. انتهتينا من تغيير ملابسنا، لكنّ ليس هذا كلّ شيء!... بلعت الليلة وكان لا نهاية لمشاكلها... يبدّ أن قلبي يرغب أن

وذكرت في التوأمي، وتساءلت عما تظن بهذا الاستيقاظ المتأخر، وشعرت بحياء أليم، زاد من ألمه أنه لم يحدث ما يستدعي التأخير فك، وأحسست بضيق نقص عليّ سعادي، وكأنني أدرك لأول مرة أن الليلة الماضية لم تحلّ من فشل وإخفاق. على أنني قاومت هذا الإحساس الخائن، ورفضت عن الانفراد به فغادرت الحجرة. وقابلني في الصالة الجارية صباح - التي انضمت إلى أسرتنا - فهتأني «بالصباحية» وأخبرتني بأن العروس تنتظري في حجرة السفرة لمضيت إليها، ووجدتها جالسة كالوردة اليانعة فانشرح صدري بمنظرها وأقبلت نحوها مهللاً وتبّلت خدّها. وتناولنا إسطارنا ممّا المكوّن من اللبن والشاي والبيض والحلوة. وتبادلنا حلّ المائدة حديثاً عادياً، لسألتها متى استيقظت، وأجابني بأنها استيقظت في الثامنة، وبأنها تستيقظ في العادة مبكّرة منها تأخر بها وقت المنام. ثم جاءت أمي فهتأتنا معاً، وجالستنا بعض الوقت. وانتقلنا إلى حجرتنا، وقضينا النهار في حديث عذب لا يملّ. ونخبعت عنيّ الوحشة فأنست بها وقصصت عليها قصّة حبي من البداية إلى النهاية، وكثّنا تفصّل حديثنا بالتأجيل السعيدة المتبادلة. وسألتها متى أحسّت بوجودي في دنياها، فقالت إنها فطنت لجوّاني حولها وتعلّمتني إلى الشرفة منذ عام أو أكثر قليلاً، وإن أمّها لاحظت ذلك في نفس الوقت تقريباً، ثم صرت بعد ذلك حليط البيت فكانت الحادمة الصغيرة إذا لمحتني من النافذة أتتني من طريق المنيل قالت لهم ضاحكة وهريس ستّ رباب، وكانوا يمزجونها بشدّة، ولما طال بي المطال دون أن أتقدّم خطرة ظلّوا بي الظنون، ونبتها أمّها عن الظهور بالنافذة أو الشرفة في الأوقات التي أكون فيها بالمحطة. وسألتها بلهفة:

- ألم تشعرني نحوي بماطقة؟

فابتسمت ابتسامة رقيقة، فتحت فاهما لتتكلم، ولكنّها أطبقت شفيتها دون أن تنبس. وكان بي نهم شديد لسأع ما يبيل جوانحي فالحضت عليها أن تتكلم، فقالت بصوت لا يكاد يُسمع:

- لا أدري... لا أدري متى أحبتك.

أضيقها على مهل وحذر وخوف حتى مسّت ثياب الروب الحريري، فسرت من مسّها قلبي رجفة ونبتت عنيّ للمرة الثانية تنهدة مسموعة. ثم توتّبت بمجامع قلبي وأحطت خاضعتها بذراعي... ولم أكيد حبيبي لا معارضة ولا حراكاً. ونفضت عنيّ أفكار التردد والمزمنة، وشددتها نحوي مستميتاً بذراعي اليمنى، وتلقّيتها في حضني وأسندت جبينها إلى صدري، فهورت بشفتي على مفرق شعرها، وغمغمت وأنا لا أدري:

- أحبك.

وليتنا في عناقنا، والله أعلم بما لبثنا ثم تراجعتنا متسايكين إلى الفراش، وصعدنا إليه وفراغاي لا تتخلّيان عنها. وأسندنا مكبينا إلى عرقتين عاليتين، وحبيبي وما عليها من روب على صدري وبين ذراعي، ومن عجب أن بصري لم يتطلّع عليها فأنه إلى الساء خلال النافذة. وامتلات نفسي حياة لا عهد لي بها. أمّا جسمي فظلّ جامداً بارداً لا ينش ولا تدبّ به حياة، كأن نفسي استأثرت بكلّ قطرة من حياتي. أسكرتني نشوة وروحية باهرة غشاء طروب سامية، وظللت على حالي حتى مطلع الفجر، ولم أدر كيف استرقّ النوم خطاه إلى جفني...

## ٤١

استيقظت ونور الشمس يملاً نصف الحجرة تحت النافذة المفتوحة، فوقع بصري على المرأة، وهادوني ذكريات الليلة الماضية في لمح البصر. ودارت عيني في الحجرة فوجدتها خالية، وأدركت أن حبيبي غادرتها وأنا أغفّ في نومي، ففتنت قلبي حنائاً وبعثت لها بتحية ودعاء. وقلت لنفسي إن متاعب الخطبة والزواج والزلف قد انتهت، ولن يضرني المستقبل إلّا صفاء لا يكثره مكرّد. وراجعت ذكريات الأسس فساحت نفسي في متاعه النشوة والسعادة. بيد أنه لم يغم عنيّ أنني لم أبداً بعد، وأنني لم أكتب حرفاً واحداً في كتاب الزواج الضخم. وغادرت الفراش ونظرت في الساعة فوجدتها قد جاوزت العاشرة، فهالني تأخيري،

مرّت هذه الحواطر برأسي وحيثي ما تزال بين يديّ. فالتقيت فجأةً لجامدًا من شرّ الفكر، وضاعت سعادة السعادة هباء. وتهدّدت، ولعلّها ضاقت بالوقفة، فوخزني بتهدّتها ولم أهد أطبق جودي. وورعتها بين يديّ، وسرت بحملي المحبوب إلى الفراش، وأثنتا في رفق ثم اضطجعت إلى جانبها. ودفعني الشوق إلى تعجيل شفتيها وخدّيا وعقها بسرعة وغزارة، فداخلتها رقة وأحاطت عني بذراعها البضة والتصقنا طويلًا وتناهى بها العطف والحنان، واضطرعت بقلبي أحاسيس الحبّ والبأس واللذة والخوف فكأنّي في متاعه حتى يذهب بي هليانًا ويحيي بين أخيلة السرور وأشباح المخاوف. إنّ في حلم سعيد ولكنّ الخوف لا يزالني والبأس يثير في وجهي غبارًا، وكيف في بالنجاة وجسمي ميت لا حياة فيه! وأحرق جفاف الخوف قلبي، ووقفت حيال عجزتي وليس حائرًا أسأل، ولكنّي لم أفكر لحظة واحدة في التقهقر، وأين المفرّ؟... بل دفعني اليأس إلى أن أنزع الروب عنها، فجرت يديّ إلى عقدة زئاره وحلّتها، وشعرت بصدرها يرتجف تحت صدري، فأزحت جانبه عن صدرها فبدأ جسمها الرشيق في قميص من الحرير الأبيض لا يكاد يستر شيئًا، وبادوث تُرجع طرف الروب تستر فأزحته مرّة أخرى فاتحصر عن القميص الشفاف، وزوتت إلى هيئة الجسم الفاتنة بعينين لم يترك لها الاضطراب إلّا قليلًا من الإبطار. كان حالي ممّا يرى له. ولم يكن عذاب مختصر يجاهد يائسًا للاستمسك بجماعة بأسوأ من عذاب. ورغم هذا كلّ ثابت على عنادي، واستمدت من يأسى وعذابى قوّة وإن لم تكن تعدي. إنّ الحجل لا يفرّ إبان المعركة لأنّ الفرار يخلج حيال الغريم. أجل إنّهُ يتحامى المعركة، ويفرّ منها بعيدًا عن الأعين، فإذا ولج ميدانها وغدا عطفًا للألغاز يات الفرار. كالمرآك سواء بسواء. فوق احتاله. لذلك أجلست حبيبي ونزعت الروب من ذراعها وتركتها قميصًا شفافًا وجسدًا باديًا. وأدارت عني رأسها، وانفضت في الوسادة. ولم تكن تعلم بأنّ نفسي تحترق يائسًا، وبأنّ

وشعرت بتخدير عميق ودعت لو أنام به دهرًا. وجعلت وجهها بين راحتيّ متمكّنًا شفتيها اللتين برزتا تحت ضغط يديّ، ثمّ وضعت عليها شفتيّ، وذبت في قبلة طويلة، وجدت حبيبي فتنة، حديتها عذب، وبيديتها حاضرة، ودكاؤها باهر حتى بدا حديتي على ضوء حديتها فانّرا باهتًا. وبدت لي لطيفة خفيفة الروح فلم يكن وقارها إلّا تأذّبًا واحتشامًا. ولا أدري لماذا كنت أتمكّلها مثلاً لضبط النفس، بل وللبرود أيضًا، ولكنّي لمست في قبالتها حرارة تذيب القلب، وفي نظرة عينها عاطفة عميقة وإحساسًا مرهفًا. وانطلقت حلّ سمّيتها بأسرع ممّا توقّعت، ورعنا شجّعنا على ذلك ما رأيت من شدّة حيالي.

ولمّا جاء الليل وأغلقت الباب ورائنا قلت لنفسي وبه رهبة زحفت حلّي مع الظلام «الليلة يتمّ الأمر بلذن الله». لم تكن لي تجارب على الإطلاق، ولم أهرق من الحياة الجنسية إلّا العادة الجهنمية التي لم أكّد أنجو منها، ولكنّي عرفت أمورًا بالساع عفوًا. في الوزارة. لا أدري إن كانت تغني عني شيئًا. ورأيت حبيبي واقفة حيال المرأة تمسّح شعرها فرائفي منظر قامتها الرشيق الفارسة، وتدانيت منها، ولفقت ذراعها حولها، فاستدارت حتى شعرت بمسّ صدرها على قلبي. وضممتها إلى صدري في حنان وهيام. إنّهُ الحبّ، ولكنّي أدركت بفريري أنّه ينبغي أن أستزله من النساء كثيرًا كي أقوم بسواجي... ولكن كيف!؟ إنّها تسكن إلى صدري كأنّها طيف من نسج السحاب الطاهر. وإنّي أبعد كروح خالصة لا يحيط بها جسد فكيف أجد جسدي؟! وسرعان ما انسريت إلى نفسي مشاعر قلق وخوف وتوتر أدركتها جميعًا فحيرة الأمل الفاشلة. ولم تكن تراحت لي كتجربة فاشلة إلّا في هذا الصباح، وكذّبت رأيي أو كذبت في أثناء النهار، ولكنّي عدت إليه في تلك اللحظة بتسليم و يقين وبأس. ثمّ استحوذ عليّ الحياء القاتل فأثلج دمي وأوهن عزيمتي. وركبني خوف شديد من الفراش الذي لا أجد لنفسي حذرًا عليه بينا أجد شبه عذر بعيدًا عنه.

هذا المشهد ما هو إلا مهزلة، فتضاعف ألمي وحجلي. ومع ذلك مددت يدي مرة أخرى كأتني ما زلت أطمح في أمل لا أدريه. مددتها وهي ترتجف من اليأس والبرودة فنذ عن حبيبي صوت يمس:

- إليّ خاتفة...

واخجلناها... مّم تخاف؟... لقد الهبتي همتها كسوط تحلت أطرافه بالرصاص، ومع ذلك لم أتوقف... لم تتني لا المقاومة ولا الصدود... حتى بلغ النظر غايته! ماذا دهاني؟ ليس الموت فحسب ما به. إنه شيء جديد مفرغ مزيج، ماذا دهاني؟ رأته حبيبي جميلة لطيفة ولكنّه الجهل والخيال الأعمى! كنت غراً أعمى لم تر عينا نور الحياة، فتخيلت عنه خيالات صيائية فلما أن رأيت النور الحقيقي أنكرته! إنّه مأساة. ولعله لولا موتي لما كانت مأساة على الإطلاق. وقد علمتني تلك التجربة القاسية أنّ الحب يخلق الجمال كما يخلق الجبال الحب... ومهما يكن من أمر فقد ركبني الفزع فوق ما به من يأس وخجل ولم بعد ثمة أمل. ولبتت جامداً وحبيبي ذافئة وجهها في السوادة، مستسلمة تحت رحمة جلاّدها... لبثت جامداً لا أدري ماذا أفعل ولا كيف أتراجع ووجدت في لحظة رهبة قوة عصبية متوترة تدفعني إلى الضحك لولا أن تماسكت وشعرت في اللحظة الثانية برغبة في البكاء، ولولا أنّ البكاء خجل لروّحت بالدمع عن نفسي الملتاعة... ثم استقلت الجمود كما خفته فضممتها إلى صدري وبّلتها ومشاعرها العطف والحزن - علينا ممّا - تسيل من شفقي، كان رثاء بالقبل. ومَرّ الوقت كأنّ دقائقه وثواتيه أسنان منشار يحزّ عني، ومزّت دقائق وريّما ساعات. ثم انقلب الحال مملاً مضيقاً، وفي حركة لطيفة تخلصت من ذراعي... وتغطّت بشياها وبدا لي النوم نهاية مضحكة ولكن ما حيلني؟! قدلت حبيبي دون أن تلقني عيناتا فلم أدب متى رنّ الكرى بجفניה. ولبتت مسهّدا متعباً لا أدري بأيّ وجه ألقاها في الصباح. أيّ شيطان أغرائني بالزواج؟... ألم يكن عذاب الحسرة القديم خيراً من هذا المذاب؟... كيف خائني جسمي؟

٤٢

حبيبي عطف ورحمة. وقد طالعتني في الصباح بالابتسامة المشرقة. ووثبت هنا وهناك بشير وسرور ومرح، فلم يدخلني شك في أنّها عروس سعيدة. ولو بدا لي أنّها تتظاهر بالبهجة لتخفف عني الحرج لما وسعتني الدنيا شقاء، ولكنّها كانت تصدر في مرحها عن وحي فطرة بسيطة سلبية لا تعرف التصنّع ولا التمثيل. وشعرت بصدق وحقّ بأنّ فتاتي تحبني، وبأنّها قلب كبير مليء بالحنان والعطف والأنوثة، فعاودني الأمل. وقلت لنفسي إنّنا ما زلنا في البداية وإنّ مسرّات لا حصر لها تنتظرنا إذا عبرنا الخطوة الأولى الشاقة، وقضينا النهار ممّا، بعضه في الحديث وبعضه الآخر في مشاهدة الرسوم والألعاب التي مهّرت في إيداعها لأطفال الروضة. وحين المساء زارتنا أسرتهما، وجلسنا جميعاً في حجرة الاستقبال ومعنا أمي أيضاً. وتحدّثنا طويلاً، والتهنأنا بليلة الشيكولاطة والمبتس. وحاولوا أن يجرّوا أمي إلى الحديث، ولكنّها - مثل - لم تكن عاتكة ماهرة، فبدلت متحفظة، وشخيل إليّ أنّ عصرها لم يترك أثراً حسناً في نفوسهم، وأنّ رباب شاركهم نفس الشعور، وما لبثت أن سرت العدوى إليّ، وكنت أجد نحوها إحساسين متناقضين: إحساساً بالرغبة في وجودها معي وهو ما ألقته وطّبت عليه، وآخر بالهجل الأليم لوجودها في بيت الزوجية. والحقّ أنّي ما كنت أذكرها حقّ يشنّدي حبيبي خجلاً. ولما انفضّ السامر وأقبل الليل استقبلته بكاءة وخوف، وما كاد باب حجرتنا يغلّق ورأنا حقّ نصب معين السرور والبشر من قلبي، وغاض منه الأمل الذي ابتعته مرح النهار، وبدا لي أنّ فتاتي تمناني بعض ما أعاني، وأنّها تداري قلماً لم تنفع لباقتها في مداراته. تولّت عني الثقة في أقلّ من ثانية، وتحالفت لعميت ذكريات الليلة الماضية، وتمتّيت لو كان في الإمكان أن ننام دون أن



فكابدتُ عدايي وحيدًا صامتًا يأسًا. وكان نهارًا  
معتلًا، بل هيبًا بفضل حبيبي التي تذيب روحها  
راكد الهم، حتى إذا جاء الليل غشيتا كأية لم تنفع  
حيلة في تبليدها: كان كلانا يشعر بالحرج والضيق  
والخوف. ولم تواتني الشجاعة على معاودة التجربة بعد  
إخفاق الليلتين المتعاقبتين، فكنت أقنع بأن نضطجع  
جنبًا إلى جنب، وأضعهما إلى صدري، منتظرًا الرحمة  
في خوف وقلق وطمع، حتى يتشلى النوم من عدايي،  
ولذلك لم يزل الحياء حجابًا بيني وبينها، ولو أتبع لنا  
الامتزاج لرفع الحجاب رويدًا رويدًا، فلم أستطع أن  
أشكو إليها بئي ومهي، وطلبا نازعتني نفسي إلى  
الترويح عنها بالكلام، فما أكاد أفتح شفتي حتى أطيحها  
في ارتباك وخجل. وفي إحدى هذه المرات قالت لي  
بصوت مهموس:

- هل ترغب أن تقول شيئًا؟ ..

ووجدت وراء تساؤلها دعوة إلى الكلام، فخفت  
قلبي بعنف وقلت في اضطراب أخفيته بجهد شديد:  
- أرغب دائمًا أن أقول إنني أحبك!

هذا حق في ذاته، ولكنني كنت أرغب بلا ريب أن  
أقول شيئًا آخر، وأحسست بأنها تقرا صفحة أفكار  
الحفيدة، فجمت الكلب على صدري كالكابوس،  
وغضمت بعد أن جاهدت حيائي جهادًا مريرًا:  
- إن ما مضى من حياتنا المشتركة لا يقاس إلى ما  
يتظرنا من عمر طويل.

وخيل لي أن وجهها تضرع بالاحمرار وإن كنت أراه  
على ضوء المصباح الساهر الخافت، وداعبت شعري  
بأناملها، ثم قبّلتي قبلة عذبة حل شفتي، وسألني في  
أذني:

- أياضًا فبك شيء؟

فالتفت جسمي خجلًا وألّبت. وقلت بإخلاص:

- معاذ الله ...

وصمت على رغبي ملثًا، وقلبي يخفق بشدة  
وعنف، ثم قلت ويوتي لو أتوارى عن ناظرتي:

- إنها مسألة وقت ...

فكذلك تعاقبت الأيام، ومرة أخرى أقول إنه لولا

نجرّب محاولة جديدة، وأيقنت بالإخفاق قبل البدء.  
على أنني لم أجد بدءًا عما ليس منه بد. وأعدت التجربة  
بحدافيرها من قبيل وعناق وإخفاق أجل إخفاق  
وإخفاق وإخفاق. مسكنة حبيبي، لقد استسلمت  
بادئ الأمر فيما يشبه الخوف. ثم انتهت بأن لثمت نفسها  
في حياء وارتباك. انتهينا في ساعة متأخرة كما انتهينا  
أمس، فنامت هي، وقيت مسهّدًا متفكرًا. ماذا  
بها! ... إلى أحبها بكل قوة نفسي، بل إنني أحبها  
عبادة ولئن يخلو بيتي منها بعد اليوم لاهلكن لا محالة،  
أنكمن المأساة فيها دهاني به النظر من انزعاج لم أتوقه!  
ولكن هذا عرض افتراء لأن موتي سابق للنظر فليس  
فيها رأيت دخل فيه، بل إنني ألفت الحقيقة التي غابت  
عني سريعًا وتكاد تنزيم خيالات الوهم الصبيانية حيال  
الواقع الحقيقي، ولم يتغير مهي شيء. وقد أثر في  
حياتها وارتباكها. وهي ترتدي ثيابها - تأثيرًا عميقًا  
فاقسمت لا أقرب ثيابها حتى يغير الله ما بها!

ومضت بنا الأيام في حب طاهر، فامتزج روحانا،  
حتى صارا روحًا واحدًا في جسمين غير متصلين. ولولا  
حبها العميق، ومرحها الطليق، وبساطتها قلبها الكبير،  
لمت غمًا وكمدًا ...

وإنها أيام عجيبة، وإنه شهر حسل غريب! وكانت  
حبيبي مثلاً للشعور الحي والرفقة البالغة والحب  
الصالح. وكثيرًا ما كنت أسترق إليها نظرات متفحصة  
مستريّة فلم أجد منها إلا الصفاء والوداعة والرضا،  
فكاد يقع في روحي أنه لا يعوزنا شيء، وأستطيع أن  
أقول إنني لم أنعم بالراحة إلا في تلك اللحظات. ولما  
هذا ذلك كانت حيائي جحيماً مستعراً لا يلدري به  
أحد، لم تعد سعادتي إلا أوبقات طارئة كأنها إفاقت  
من يعالي سكرات الموت. وشمرت بشدة حاجتي إلى  
المشير. ولكن حيائي وقف في طريقي مدًا منيماً  
كالجلل الراسخ فاستحالت عليّ المشورة حتى مجرد  
تخيلها كان يشب في نازًا ويبعث في نفسي إحساسًا  
قاهرًا للفرار والاختفاء. وفصلًا عن هذا وذاك فلم  
يكن لي صديق، وكانت أمي - وهي صديقي الوحيد  
في دنياي - أبعد من أن أذكرها في هذا الأمر خاصة،

حبها العميق ومرحها الطليق وبساطة قلبها الكبير لم تُعْثِمًا وكَمَدًا.

\*\*\*

وذاث مساء - وكان مضي على زواجنا ثلاثة أسابيع - لاحظت أنّها تخالسي نظرات تنم عن الحيرة، وأنّ لديها ما تقوله، فقلت لها مدفوعًا برغبة قويّة في استدراجها إلى الكلام:

- في عينيك كلام...

فقلت مبسّمة في ارتباك:

- أجل...

فمضيت إليها وكانت جالسة على المقعد الطويل وجلست لصقتها، وقلت مستسلمًا للشعور الطارئ نفسه:

- هاتي ما عندك...

- أمي...

وانفجر الاسم في أذني كالقنبلة، وإنّه لفظ واحد ولكنه يتضمن كتابًا، وإنّي على رغم شبالي أفهم ما ينيه. ولعلّ الأمّ تواجهها بهذا السؤال الطبيعي المعروف فتسمع ردًا على سؤالها جوابًا واحدًا لا يتغيّر وكلاً بعد...! ولما طال السكوت قالت حبيبي برقة:

- إننا لا نفتأ تسألني، ولا أدري ماذا أنفد صبرها...

وقلني الحجل، وتغيّرت غيظًا، ثم قلت بهدوء:

- هذه شؤوننا الخاصة. أليس كذلك؟

فقلت كمن تعتذر:

- طبعًا... إنّي هيّ إلا تريد أن تلمّش علينا. هذا كلّ ما هنالك...

فسألته عزوفًا مغنًا:

- وماذا قلت لها؟

فقلت باهتمام وعجلة:

- لم أقل شيئًا مطلقًا... فقط صارحتها بأن لا داعي للمجلة.

- وماذا قالت؟!

فتضجرت مليًا كأنما لتزن كلماتها، ثم قالت:

- قالت لي إنّ للموقف رهبته، وخاصّة بالنسبة لشاب طاهر خجول، وإنّه إذا دعا الحال فلدينا صباح الجارية...

فأسمعت عيني دهشة وقلت بهذول:

- صباح!

فأومأت برأسها بالإيجاب في ارتباك، فتساءلت بدعشة:

- وماذا تستطيع صباح؟

وتردّدت لحظة، ثم أنشأت تشرح لي ما غمض عليّ أوّل وهلة، وأنصت إليها باهتمام حتى أدركت كلّ شيء، وأخذت أفق من ذهولي رويدًا رويدًا. ولست أخفي أنّي شعرت بارتياح إلى اقتراح الأمّ، فهو يزيل عقبة من سبيلي، ويحلّيني من بعض المسئولية، ويعفيني من مراقبة الأمّ. ولا أظنّها تسأل بعد ذلك عن شيء... وسألت زوجي بحياء:

- وكيف نخبر صباح؟

فقلت ببساطة:

- لقد حضرت صباح جانبًا من حديث أمي...

فهتفت بحياء وانزعاج:

- كيف؟... كيف بالله!

فقلت مبسّمة:

- لا عليك من هذا، إننا أمي أيضًا ولا نخفي عنها شيئًا.

وتبادلنا نظرًا طويلًا صامتًا... ثم سألت في

إشفاق:

- وهل علم أحد من الآخرين؟

قالت بلهجة لا تدع مجالًا للشك:

- مطلقًا...

فداخطني ارتياح، ولكن شعرت بحاجة إلى مزيد

من الاطمئنان، فقلت بلهجة ذات معنى:

- أرجو ألا تخرج «أسرارنا» من هذا الباب!

فحدجني بنظرة عتاب وتساءلت:

- أيدخلك في هذا الشك؟!

وعلت وأنا لا أهوي إلى أثر العادة الجهنمية التي لم يعرفها زوج قبلي. ألا ما أشد حيرتي وقهرتي! كيف يقع لي هذا قلبي بعد هذا عابداً... بل كيف ونظرة إلى وجهها أنفس عندي من الدنيا وأنعمها! إننا حياتي وسعادتي ودنياي جميعاً.

\*\*\*

وجدتها يوماً وكأنها تعالي رغبة الإفصاح عن شيء يمتلج بنفسها، فحققت قلبي قلقاً وخوفاً، ولكن لم يسمعي أن اتجاهل ما رأيت مفضلاً أن ألقى الخطر وجهاً لوجهه على أن أضيق جديداً إلى ما أكنتمه في نفسي من القلق والوساوس، فسألتها:

- ماذا وراءك يا عزيزتي؟

فلاح في وجهها التردد والغيق ولاذت بالصمت، فتضاعف قلبي وقلت بفؤاد منقبض:

- هاتي ما عندك لا تخفي عني شيئاً...  
فنفخت قائلة:

- آه...

ورقم قولها من نفسي موقع الفزع والملع، ما بال هذه المرأة لا تريح ولا تستريح!؟ ولشد ما أبغضتها في تلك اللحظة، على أنني تساءلت متظاهراً بقلة المبالاة:

- ما لها يا رباب؟

فقال بصوت منخفض وهي تنظر فيما بين قدميها:

- لا تفنأ تسألني هل جدٌ جديد في الطريق!

ومن عجب آني فهمت المراد من هذا المجازا فهمته بخيرتي، أو ياطوف الكامن في نفسي وبلا أدنى تردد، ولكني تساءلت متجاهلاً:

- ماذا تعنين يا رباب؟

فاومأت إلى بطنها وهست قائلة:

- تعني هل جدٌ جديد هنا؟!

تولاني فزع شديد، فاطرقت مرتبكاً محزوناً، صم تسأل المرأة! لعلها تريد أن تعرف شيئاً أخرى ضمناً، وحققت عليها حقاً فظيماً. واختلست من رباب نظرة فوجدتها سائمة الطرف، صامتة... أحقاً يضايقها تساؤل أمها أم هي تبغني وفي نفسها غرض؟ أبات بدورها تشارك أمها قلقها وجزعها؟... ولماذا تتوارى

ولكن ليس هذا كل شيء في الزواج. وكيف يكون كل شيء وهو واجب! قلمت به صباح!؟ وتساءلت في سداجة مضحكة عما ينقص حياتي الزوجية، وهل هو ضروري لهذه الحياة! ومن عجب أنني ترددت عن الجزم! وتساءلت ألسناً سعاداء! نحن نعيش في هناء وغبطة، ويحب كلانا صاحبه حباً لا حد له ولا يداخل أحداً شك في سعادتنا، فلماذا تزعجني الأوهام!؟ ولكن الإنسان موكل دائماً بالتفكير فيما ينقصه، حتى ليس ما بين يديه بما هو بعيد عن يديه، فلم تزليني الوسواس، ولم أستم خيالي. وفي ليلة من الليالي، وكنت مضطجاً على ظهري أراود النوم وقد رنق الكرى بجفني حبيبي، طاف بي الفكر مسارع بعيدة حتى نسيت ما حولي أو كدت، فساورني شعور بالوحدة، قزاه في نفسي ما يحيط بي من ظلمة ورويداً وجلت حياة تدب في جسدي، كذلك الحياة التي كان يستثيرها الظلام والوحدة.

وسرعان ما استخفني الفرح فكدت أصبح من فرط سروري. ثم أقبلت على حبيبي النائمة أيقظتها بأقبل حتى فتحت عينيها في انزعاج استحال دهشة، ومرت ثوان قبل أن تستفيق من دهشتها، ثم مدت ذراعيها إلى عنقي فضممتها إلى صدري بلهفة وشوق، ولكني ما كدت أفعل حتى عاد كل شيء إلى أصله، وزحف الموت البارد على جسدي حتى شمله في أقل من ثانية، وانقلبت إلى حيرة غرساء وعجل غزاً وتبادلنا نظرة غريبة على ضوء المصباح الخافت، وبدأ في وجهها أنها لا تفهم شيئاً فسألني:

- أكنت تحلم؟

ما أصدقها من كلمة وإن قيلت احتياطاً، ولشد ما زلزلني تلك الحادثة زلزلة عنيفة قضت قضاء مبرماً على ما كان يترامى لي أحياناً من أمل وإبه، وعرضت لي خلوات أخرى في ظلام الليل وحبيبي غارقة في نومها، وعساوولي ديب الحياة الغريب، ولكن لم تسواتني الشجاعة مرة أخرى على لإيقاظها، ووجدتني أتردى من جديد في الهاوية التي انتشلتني الزواج منها قرابة شهر،

تصعري حبيبي الطاهرة الحشمة هذه الشهوة الوحشية؟ إنَّ هذا لأبغض مما أتصور!

\*\*\*

وانتهت إجازتي فعدت إلى إدارة المخازن بالوزارة، واستقبلني الموظفون استقبالاً حافلاً، لم يكن لي بينهم صديق، ولكنَّ المناسبة - عودة عروس من شهر العسل - أنستهم تحفظهم فاقبلوا عليّ بين مهقٍ ومداعب وتلقّيتهم في صمت وارتيك وسجل، وتكلّموا كثيراً. وتطوّع أحدهم بتحذيري من الإفراط، واستفاض الحديث حقّ المهام عني، وخاصوا في طبيعة الرجل وطبيعة المرأة، واستشهدوا بالأمثال والحوادث والحكايات. أنصت إليهم خفية وأنا أنظر بفحص الآلة الكاتبة، بقلب مكلم ونفس معدّبة، وكم تمّنت أن يشهد أحدهم بحالة «كحالي»، ولكنَّ حالتي لم تقع لأحدهم في حبان، وامتلأت نفسي بما سمعت حتّى دارت بي الأرض، إنَّ رباب امرأة فهل يصدق عليها ما يصدق على النساء إن صحَّ ما يقوله هؤلاء الموظفون؟ أمّك أن تضيق بحياتي أو تحلّ عشري؟ ولكنّها سميحة؟ ما رأيت وجهها إلّا مثالفاً بنور السعادة، وما رنت عينها إليّ إلّا بالحب والإخلاص، إنَّ وجهها لا يعرف الرياء، وإنّه لصفحة نقية ومرنّاد طاهر لا يكتم كذباً ولا يداري إثماً. كذب هؤلاء الموظفون! إنهم حيوانات فلا يرون الناس إلّا حيوانات مثلهن. بيد أنّي غير مطمئن، ولن أدوق الطمأنينة مهما أنمنت نفسي بها، لقد نبث دُمْل الشكّ. ولما خلوت إلى حبيبي ذلك اليوم جعلت أنظر إليها طويلاً متفكّراً دون أن أنبس، حتّى ضحكت وقالت لي:

- هل عاوذك الحنين إلى النظر الصامت القديم؟ وهفت على فؤادي نسمة لطيفة من قديم الذكريات حين فؤادي مضطرب وأمل مشرق وذهله البلوى لا تدور لي في خلدي. وتغلّيت الذكرى ملياً، ثمّ سألته في إشفاق:

- وباب... آئت سعيدة؟

خلف أمّها؟ إنَّ المكر لا يجمل بمن كانت في مثل جمالها وطهارتها! وما كان أغناها عن اللث والدوران! هكذا حلني الفزع على عدم تقدير موقف فتاتي المظلومة. واشتدّ بي الحرج حتّى أرهقني وأعباني، ثمّ تركّز اهتمامي في شيء واحد، وهو أن أسبر مدى ما تعرف نازلي هانم من أسرارنا، فسألته قائلاً:

- وماذا قلت لها؟

فقال ببساطة:

- قلت لها الحقيقة!

فتشجّ قلبي تشجّة حادة وصحت بفزع:

- الحقيقة!

فحلجني بدشة وتساءلت:

- ما لك؟!

فهتفت في انزعاج:

- أحمقاً قلت لها الحقيقة؟!

فقالت بمجلة ولوعة:

- أجل قلت لها إنّه لم يحدث شيء بعد!

وتنفس الصعداء! إنّها تعني حقيقة غير التي تشغل

بالي. هل أنّه بقي في النفس شيء. فقلت بحرارة:

- «رباب» اهكذا كلّ ما قالت؟ لا تخفي حقّ شيئاً

وأنت قلبي وحياتي.

فقالت بارتباك وقد قرأت البراءة في عينيها:

- عمّ تتساءل يا كامل؟ إنّي لم أقل لها كلمة واحدة

زيادة عمّا قلت لك. لقد سألتني عن هذا الأمر فلم

يسعني إلّا أن أجيب بالحقّ والصدق، وهو أمر كما

تعلم لا ينفع فيه الكذب، فهل ترائي أخطأت؟ أم

كنت تريدي على أن أنظر بالجلّ...؟

فقلت في ارتياح نسبي:

- كلا يا عزيزي... لقد أحسنت بصراحتك...

لن أدوق طعم الأمان ما دامت هذه المرأة على مقربة

منّا... رباب، إنّي أحضن همتي وسدي لا صديق ولا

مشير. ولقد ضمت ذرعاً بأنّها وبأني وينبغي وأعاذني

السؤال القديم: هل ما يتقصنا ضروريّ للحياة

الزوجية؟ هل نجد حبيبي مثل هذا الإحساس الحيواني

الذي دفعني إلى اعتناق العادة الأثمة؟! أمّك أن

بالخط الكبير: «الدكتور أمين رضا، اختصاصي في الأمراض التناسلية من جامعة دبلن» ولم أكن رأيتها من قبل، فحدثني نفسي فجأة باللجوء إلى الطبيب. ومع ذلك لم أستسلم للفكرة بغير تردد. ثار خجلي وخوفي، وكذا يثنائي عني خطر لي ولكنّ تلقّني على النجاة كان أقوى من خجلي هذه المرة، فصممت على الذهاب ذات مساء، وذهبت...

كان الطبيب مشغولاً بفحص مريض. فجلست في حجرة الانتظار، وكانت الحجرة خالية فداخلي ارتياح عميق، وإن شعرت بالاستهانة بالطبيب. ولم يطل بي الانتظار، فذهبت بعد دقائق إلى حجرة الكشف ووجدتها آية في فخامتها وأناقته، كاملة العدد، وبها من أدوات الرهبة ما ردّ إليّ الحاروب من تقني. وإلى بين الداخل مباشرة جلس الطبيب إلى مكتب كبير مزدحم بالكتب والكراسات. كان شاباً في الثلاثين على أكثر تقدير، نحيف القوام، طويل القامة، مجعد الشعر، ذا بشرة سمراء وقصات دقيقة واضحة، وميتين حائتين لتلصعمان وراء نظائره أنيقة. وكان ممّا يلفت النظر إليه شارب كثيف فاحم غطى فمه وأكسبه وقاراً ليس من سنّه، حيثه فردّ تحيّي باقتضاب، وحجني بنظرة مستهزمة قرأت فيها الترفع والكبرياء، وثقة بالنفس تبلغ حدّ الغرور، فلم أرتع إليه. وكان منظره عامّة غيياً لأملّي، لأنّي توقّعت أن أرى شيئاً مهيّياً بساماً كطبيب ذهب بّي أمّي إليه مرّة منذ أهوام طوال، فاستأنت ووددت لو لم أكن قدت نفسي إلى هذا الشرك. وقال لي يهدوء:

- تفضّل بالجلوس.

فأذعنت وأنا أرمقه بقلق. وجعل ينظر إليّ منتظراً أن أبدأ بالكلام. ولكنّ فكري تشبّت وجفّ حلقي وليبث ملازماً الصمت حتّى قال مستألاً:

- أفدّم؟

فاستجمعت قواي، ولكّني لم أزد على أن قلت:

- جئت للكشف...

فسألني بدهشة:

- ماذا تشكو على وجه التحديد؟

فستظرت إليّ باستغراب وقالت بصوت يئمّ عن الصدق:

- سعيده جدّاً...

فتساءلت وعيناي تطرقان من فرط الحياء:

- أتحيّني؟

وكانت على بعد شبر ممّي فتزحزحت حتّى التصبّث

بي ورفعت إليّ وجهها موزّداً وغمغمت:

- أجل أحبّك...

فأحطت خاضعتها بلراعي وقبّلت شفيتها وتحدّها، وتناولت يدها الصغيرة الجميلة وجعلت أقبل أناملها أملهة أملهة في حنان وهيام، وكنت في الواقع أمهد بما قلت لما أرغب في الإفصاح عنه ممّا ضقت بكتمان، ولبّما هممت بالكلام خائتي شجاعتي وانصد لساني. أردت أن أبثها همّي، وأن اعترف لها بأنّ ما يعتريني حالها طارئ غريب لا أدري كمّه، وأنّي لم أكن كذلك بل إنّي لست كذلك إذا خلوت إلى نفسي، وأن أسأله المشورة والمعونة، هذا ما كنت أريد البوح به، ولكنّ خائنتني العزيمة فنكصت مغلوباً على أمري. ثمّ سلّمت بالهزيمة كعادتي، وجعلت أسوِّغها لنفسي قائللاً: إنّ البوح بهذه الأسرار حريّ بأن يسيء إليها ويغضبها، وربما قضى على سعداتها قضاء مبرماً.

وعندما أويتا إلى الفراش حدثتني نفسي بأن أعاد التجربة، ولكنّني تردّدت، وتردّدت طويلاً حتّى تمكّنتني الخوف فوراً قلبي فراراً، لقد بتّ أخاف جسمها بقدر ما أحبّها، وتأملت حياتي في صمت الليل وظلمته، فبدت لي غريبة متنافرة، وضاق صدري فلم أجِد من متنفس له غير البكاء فبكيت طويلاً...

#### ٤٤

وخطر لي أن أستشير طبيباً، وجاء الحاطر فجأة، بل لعلّه كان محض مصادفة، ولم أكن فُكرت في استشارة طبيب لحجلي الشديد من ناحية، ولا اعتقادي بأنّ حالتي لا شأن لها بالطبيب من ناحية أخرى، ولكنّ بصري قد وقع يوماً وأنا في طريقي إلى الوزارة على لافتة كبيرة مثبتة على شرفة شارع قصر العيني قد كُتب عليها

وعانيت عذاباً شديداً قبل أن أقول:

- إني رجل متزوج...

ثم سكّ، أو بالأحرى انعقد لساني، ولكنني استطلعت السكوت، على حين استحثني عينا الطبيب الحاذقان فاعترفت بكل شيء! تكلمت بادی الأمر باضطراب وتعذر، ثم تشجعت بما لاح في وجهه من إشارات الجذ والرزانة فندفقت بلا توقف، وشعرت كأنما ألقيت من عاتقي حملاً ثقيلاً، وكأنما بات هو المسئول من الآن فصاعداً عن الشقاء الذي نغص عليّ صغري. وسألني الطبيب:

- متى تزوّجت؟

فقلت:

- منذ قرابة شهر ونصف.

- متى وجدت هذه الحال؟

قلت بامتعاض:

- من أوّل ليلة.

- هل انتابتك قبل الزواج؟

- لم يكن لي تجارب مطلقاً...

وسألني عن الأخرى فتردّدت لحظة ثم أجبت بالصدق. وسألني عن بعض التفاصيل فأجبت صراحة، ولم أخفِ عنه إفسراطي المخيف. وعاد يسألني:

- ألم تمارس عادتك بعد الزواج؟

وأعجبت به لسؤاله الذي بدا لي فراسة ثاقبة فقلت:

- بل...

فقال متفكراً:

- كأن طبيعتك لا تتغير إلّا حيال زوجك.

فقلت بحيرة وأسى:

- أجل...

فسكت ملياً ثم قال:

- سأطرح عليك أسئلة صريحة وأرجو أن تجيبي بالصدق. هل تحب زوجك؟

- جداً...

- أيها شلوذ من أيّ نوع كان، أو برودة في الطبيعة؟

- أبداً...

- هل نشأنا نشأة واحدة منذ الصغر؟

- إني لست من ذوات قريائي...

وألقي عليّ بعد ذلك أسئلة استطلعتني، ولكن لم يكن بي شيء منها، فأجبت بصدق وصراحة. ونهض قائماً، ثم أجرى عليّ فحصه في أناة وعناية، فاحتملته بقلب واجف ونفس يصطرح بها الأمل والياس. وعدنا إلى جلستنا السابقة، فراح يقيد في كراسه ما يعن له ثم اعتدل في جلسته وقال لي:

- جسمك سليم. أجل إنك أسأت إلى نفسك بعادتك المرفولة فتركت بك أثرًا يحتاج لغسيل خاص، ولكن لا علاقة لحالتك الأخرى بهذا فيما اعتقدت، فليس عجزك بنشأني عن سبب فيزيقي، ولعلك تعاني أزمة نفسية، أليس في بلادكم عيادات نفسية؟

فلم أفقه معنى للشطر الأخير من كلامه، وهجبت لقوله «وبلادكم» كأنه أجني عن هذه البلاد. وقلت له بدهشة:

- أنت أعلم متى بما تسأل عنه يا دكتور!

فقال مبتسماً:

- الحقّ آتي حديث عهد بالوطن، ولم أفتح عيادتي هذه إلّا منذ أيام...

فأدركت لماذا وجدت عيادته مقفرة، ولماذا لم أر لافتته من قبل. بيد أنني بت أدرك كذلك أنّ هذه المرمطة التي ابتليت بها قد انتهت إلى لا شيء، فعاودني القنوط والكمد. واستطرد هو قائلاً:

- ليس بك من نقص مطلقاً، وإنك تستطيع أن تقوم بالواجبات الزوجية، وستقوم بها يوماً ما فلا تدع للياس سيلاً إلى نفسك. كثيراً ما يحدث هذا لبعض الشبان ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى حالتهم الطبيعية بعد فترات متفاوتة، فانتظر يومك بثقة لا شك فيها. وأنصحك أن تمرّ عليّ للغسيل حتّى تزول حالة الاحتقان الخفيفة.

أصغيت إليه باهتمام وبكلّ جوارحي، وتنازعتني

خلصة، ولم تعد إلى ذكر أمها، فلم أدر إن كانت المرأة انقطعت عن تساؤلها أم كانت حبيتي تخفي عني ما يدور بيننا من حديث. لشد ما أحياها يا ربّي، إن امتزاجنا في حياة واحدة لم يذهب عني سحرها، بل أسكنها أعمق مكان في قلبي. ولأني لأهم بها وهي لصقي على المقعد أو الفراش كما كنت أهم بها وهي تلوح في الشرفة أو وراء زجاج النافذة. وإنه لمن التماسه حقاً أن ينقص عليّ سوء الحظ تلك الأيام الحافلة بأشهى فرص السعادة والهناء.

وكأنّ سوء الحظ لم يقنع بما رساني به في نفسي، فرماني بأني أيضاً...

وأني على تأنيبها لم تكن لتفزع أبداً في مداراة عواطفها، فإن لم يحنها لسانها خانتها عيناها، وإن لم تحنها عيناها حُمت عليها ما التزمت من حال غريبة سلبية. انطوت على نفسها، وجعلت من حجرتها سجناً لا تكاد تغادره، وكلّما فرغت للمباداة والصلاة، ولم تحفّ على رباب هذه الجفوة الطويلة، وكانت على دملاتها ورقتها تقلب حبال أمني كأيّة امرأة من النساء انفعالاً وغضباً، فكانت لا تفنّن تقول لي: ولشدّ ما تكرهني أمك. ولم تقبل أمني أن تغرّر من سلوكها، معتلةً بأنّها لم تعد صالحة للمجاملة والاختلاط. وكنت إذا ذهبت للجولوس معها تلقّيتي برقة وإبسام، وحسّنتي بخضوع واستسلام، فسرعان ما أشر بغرابة الجوّ، وبأنّ حجاباً ثقيلاً يقوم بين نفسيها، وبأنّ حبال شخص آخر غير الأم التي عرفتها طوال تلك الأعوام. وما أكاد ألتقيها بأنّ زوجي تضيق بتحفظها حتّى تقول لي بحلّة: وإنّ زوجك تكرهني، هذا كلّ ما هنالك. كنت أتعجّل وأتصبر والألم يفضّ نفسي والكابة تغشى روحي...

وذهبت مرّة إلى أختي راضية لقضاء يومين، وكان المكان أعجبها فمكثت اليوم الثالث وأوشكت أن يلحق بها اليوم الرابع. كان أوّل أيام نفرتها في حياتنا المشتركة، فظلّ على قلبي فراقها، ووجدت وحشة لا تطاق في خلوّ البيت منها، وذهبت إلى شقيقتي لأعود بها فلم تحبّ رجائي وعدنا معاً.

اليأس والأمل يحنف وقسوة. متى يأتي هذا اليوم! وهل يأتي حقاً! انتهى الطبيب من عمله وقوله، ولكنني لم أجد حراكاً وظللت منشعباً بمكاني، وثبتت عيناها عليه في استغاثة وضراعة. ثمّ سألت:

ماذا عنيت بالعبادة النفسية؟

أوه... إنّه عبادات من نوع حديث ولا أحسبها توجد في بلادنا. ولكن لا تلق بالألّا قلت، ولا أظنك في حاجة إليها.

قلت إنّي ربّما كنت أعاني أزمة نفسية. فما معنى هذا؟!

قلت لك لا تلق بالألّا قلت. قد غاليت في تقدير، ولست على أيّة حال طبيياً نفسياً فلا أخوض بك أموراً عسى أن تضرّ أكثر ممّا تنفع. إنّ علاجك بيدك فلا تيأس ولا تفقد ثقتك بنفسك واقهر الخوف والقلق، وانتظر الشفاء بثقة لا شك فيها...

وسألت سؤالاً آخر:

أرايك هذا حاسم لا شك فيه؟

فأجابني بثقة:

أجل...

وغادرت العيادة خيراً ممّا دخلتها. عدت وهي أمل ورجاء. وقلت لنفسي: إنّ الطبيب لا يكذب ولا يخفي فاستخفني السرور، وقطعت الطريق إلى البيت مشياً على الأقدام. ومررت في طريقي بالعبارة التي تقطنها أسرة زوجي، عبارة الذكريات، فحلّق بي الخيال بعيداً، وعلى حين فجأة قتر حماسي واستحوذ عليّ القلق، ولم ألبث أن انقلبت إلى التجهّم، بيد أنّي رحت أردد على مسمعي ما أكّده لي الطبيب متلمساً الثقة بأيّ سبيل.

وبالرغم من قلقي السدائم كنت أعمل النفس بالشفاء. وواصلنا حياتنا البرية يمدوني هذا الأمل. وكنت أسترق إليها النظر إذا اشتدّ بي القلق وأسأل نفسي ترى أهي سعيدة حقاً كما تبدو لي؟ أما تزال تحبّي؟ أمّا هي فكانت تبدو سعيدة راضية، محبة

وقلت لها في الطريق متودّداً:

- لم أحتمل البيت بغير وجودك...

فأفترّ ثمرها عن ابتسامه صافية، وكانت تتأثر بالكلمة الطيبة تأثر الأطفال ولكنها قالت لي:

- يحلّ إليّ أنّ وجودي في بيتك لا معنى له، وإنه يضايقكم.

فاحتقني قولها، وقلت باستياء:

- سأمك الله على ما ترميننا من عمة باطلة. لقد تغيّرت يا نينة بلا موجب فتغيّرت الحقائق في نظرك، ولا يسمي إلا أن أقول مرّة أخرى سأمك الله.

نظرت نحوي بغرابة وقالت بدهوء ويقين:

- إنّ زوجك تكرهني، وبالتالي فهي لا تؤدّ بقالي في البيت، وقد ظننت أنّ ما تؤدّ زوجك ينبغي أن تؤدّه أنت.

وشعرت بأنّها لا تسرق بي متعمّدة فكاد ينفضر غضيبي لولا رغبتي الصادقة في المسألة والمصالحة فكظمت نفسي وقلت واجباً:

- إنّ زوجي لا تكرهك، وهي على العكس من هذا نظراً أنّها موضع كرهك لما تبدين نحوها من تحفظ وجفاء ومقاطعة. حرام عليك أن تقولي قولاً ينقص عليّ حياتي...

فبدأ على وجهها الارتباك ولم تنبس بكلمة. ربّاه.

لشدّ ما تغيّرت!... ألا يمكن أن تمنحي ابتسامتها

المشرقة بدلاً من هذه الابتسامة الباهتة؟... ألا تعود

إلى فتح صدرها لي في ثقة وطمانينة؟ ترى هل ينبغي

أن أكاشفها بالامي لتعلم بأنني لم أتزوّج في الواقع

وأنتي أشقى إنسان في الوجود فتصنع عني وتعود إلى

سابق عهدها؟...

ورجعت من الوزارة يومًا فوجدت زوجي باكية،

فهاثني الأمر، وأقبلت نحوها في جزع وألم وانزعاج.

وكانت صباح حاضرة فأخبرتني أنّها - صباح - كانت

تباشر عملها في المطبخ حين دخلت عليها أمي

وجرحها بانتقاد مرّة، فتدخلت زوجي لتصلح الأمر فما

كان من أمي إلا أن رمتها بكلام قارس غادرت للمكان

على أثره باكية...

وذهبت من فوريّ إلى حجرة أمي ناثراً الأعصاب،

فها روعني إلا أن أجدها عمرة العينين من البكاء.

ولمحت عبوس وجهي فهفت في توجّع:

- هل أرسلتك لتؤذي!

فرفعت رأسي إلى السماء وقلت من الصهاق: وما

ربّ السماء خلقي وأرحمني من الدنيا ومن عليها.

ولكنّها صاحت بي:

- بل يأخذني أنا، إنّ عجز لا خير فيها. أما كان

يحمل بزوجك أن تؤجّل شكواها حتّى تلحق ثيابك

وتأكل لقمته؟... ولكن هيهات أن تدعن لغير

عنادها وتجهّرها...

فقلت في استياء وغيظ:

- إنّها تبكي بكاء مرّاً...

فصاحت بي وكأنّها فقدت أعصابها:

- لقد سبّني وشتمتني حتّى شعبت، وهما هي

تستبلك بدموعها الكاذبة لتوغر صدرك وقد

أفلمت...

ما أضيع الحق بين النساء! لقد أعباني الكلام

والنضال ولم أنته إلى شيء. وأعجزني أن أصلح بينهما

فنكد عشنا طويلاً وساد البيت جوّ خصام. وكففت

يدي باتّسا ناراً للآقام أن توفّق بأنابها فيما أخففت

فيه.



وبدأت أشعر في حياتي الزوجية بفراغ! ولم يداخلي

شكّ في أنّ زوجتي تشاركني هذا الشعور. ولم يعد

الليل وحده الذي ينقل على أعصابنا، فما كان انفرادنا

الطويل غائباً عما يمكن أن نطفيه على وثيرة واحدة إلى

الأبد. لذلك اقترحت عليها أن نقتل الوقت بأسباب

التسلية حتّى يمين موعد افتتاح الدراسة ونجد ما

يشغلها. وتقبّلت اقتراحي بسرور ودعّني لزيارة أمها

الكثيرين، ففتقلنا من بيت لبيت وزارونا بدورهم، ثمّ

اقترحنا حل أن نذهب إلى السينا يومين في الأسبوع

فقبلت، ولا أدري إن كنت أروم التسلية حقاً أم

أهرب من حياتي الضائعة! ووجدت في السينا راحة

وإن كنت بطبعي أؤثر الوحدة والعزلة، ولكنّي ضفت



القلب، ونصحها باتباع إرشاداته دوماً لتفادى من النوبات في المستقبل.

وطال رقاعها بالرغم من أنّ الطبيب أكد لنا عدم خطورة الحال، ولكن بدا لي أنّها تعين المرض على نفسها، وأنّ روحها توشك أن تنهار. ووقع في نفسي أنّي المستول عن مرضها فعانيت مرارة التأنيب والندم في حزن وصمت، وكأنّما أردت أن أكفر عن ذنبي فسهرت بنفسي على رعايتها وتعاهدتها بالخدمة والدواء، ولم تأل رباب في القيام بواجبها. لقد ألتني حقاً ولكن من حسن نية، أمّا أنا فقد ألتتها عامداً تحت تأثير غضب خفيف. ومزّت بي أيام قاسية مظلمة، كنت أرنو إلى وجهها الدابل الشاحب بفؤاد كبير، وراحتها بين يديّ، ولساني يلهج بالدعاء. وكانت متعبة خائبة، ولكن قرأت في عينها نظرة راضية سعيدة، كأنّما نسيت بمعلمي وحيي جميع الأمها.

#### ٤٦

وعلى الحرف بجوّه اللطيف وسحابه الرقيق، واستقبلت المدارس عاملاً جديداً، وكنت وزوجي نخرج معاً في الصباح، ونستقل ترامواً واحداً. وكانت الذكريات تتال على قلبي في وجد وحزن، حتّى قلت مرّة:

- في مثل هذه الأيام كنت أهرع إلى المحطة أكاد أموت شوقاً إلى اجتلاء حيك...

فابتسمت رقيقة وقالت:

- وكنت أنتظر بمثل هذا الشوق...

الله عسوبي... ما وجلت مثلها نجيّة راضية مسرورة.

كانت حبيتي سعيدة مغلصة في غير ما تكلف أو رياء. أكانت تجد آلاماً ثم تغلب عليها بما طمّحت عليه من مودة وطهر؟ ومن أدراني بما كان يملج في أعماق صدرها؟ وما كان يدور في خاطرها عني وعن حياتها؟ ولكنّها كانت سعيدة صادقة معبّ وهل من داع يدعوها إلى ذلك النظار الثواصل بالسعادة إذا كانت تسمو أو كارهة؟ يد أنّه لم يداخلي شك كذلك في نضج

على عجل بالزيارات التي أفقد فيها نفسي وأفق فريسة للحياء والارتباك والعين والحصر، وما لبثت أن تخلفت عنها تاركاً زوجي وحدهما تقوم بها.

وكان يوسعي أن أحملها على العمدل عنها أسوة بي، ولكنّي لم أرد أن أحرّمها سبيّاً من أسباب التسلية ونزجية الفراغ، ولعلّني بثّ أخاف في أعماقي أن تضيق بالوقت كما أضيق به. كنت أودّ بكلّ قلبي أن أهيّ لها جميع أسباب الراحة والسرور، وما كنت أتردّد لحظة من بذل جميع ما أملك في سبيل مرضاتها، لقد صارت رباب كلّ شيء، ولم أعد شيئاً مذكوراً.

ولكن بدا لي أنّ أمي لا ترتاح لحيننا هذه. وقد قالت لي يوماً:

- لا يجعل بك أن تسمع لزوجك بقضاء كلّ هذا الوقت خارج البيت...

وضاق صدري بملاحظاتها فقلت بانقضاب:

- أنسيت أنّ زوجي موظّف؟

فقال بلهجتها الانتقادية:

- وإن كانت...

وأشفقت من أن يتأقّى بنا الجدل إلى ما لا تحمد عقباء فقلت برجاه:

- انسها يا أمّاه تستريح وتريحني!

فغلبها الانفعال وقالت:

- لو كنت لسان دفاع لي كما أنت لما احتقرتني وسبّتي...

ولدت بالصمت لعلّها تمسك، ولكنّها استطردت تقول:

- إنّها تنيه بلا موجب، فكيف لو كانت أمّاً!

فقاطعتها صائحاً كالورحش وقد هوى كلامها على رأسي كالطرقة:

- اسكتي... لا تنسبي بكلمة أخرى.

وحججتي بلوتياح دون أن تنبس، ثمّ أطرقت. ولكنّي لم أرث لها ولم أرحها إذ أفضلت الغضب والألم وعي.

وحدث عقب ذلك بأيّام أن شعرت بتعب ألزمها الفراش، وقال لنا الطبيب الذي استدعيته أنّه

راح يذقُ بحفّ تباعاً. تملكفني الملع وخجل قتال،  
وثقل على صدري ضيق غليظ كأنما هويت إلى أعياق  
بئر سحيقة. وإذا بنازلي هائم تقمّمني له، ثمّ تقدّمني لي  
قائلة:

- هذا قريب لم تسعدنا الظروف بتقديده إليك، لآله  
عاد من أوروبا حديثاً، وآله يندر أن يتفصّل علينا  
بزيارة: الدكتور أمين رضا ابن عتيق.

وتصافحنا كالمألوف. التقت عينانا لحظة قصيرة،  
فلم أقرأ في عينيه إلا نظرة ترحيب باسمة، ثم تشرّ  
عيناه بأنّه تذكّرني، وظلّ ملازمًا سمة المترفع المتحصّن  
ضدّ الانفعالات. ولما انتهى من مصافحة الجالسين،  
جلس إلى جوار جبر بك وراحا يتحدثان، وبعت أنا في  
أفكاري الفزعة الشاردة، ترى هل تذكّرني!... لعله  
نسفي شأن الأطباء الذين يلقون وجوهها بعدد  
الدقائق!... ولكّنه طبب جديد قليل الرّوآد!...  
ومع ذلك فلم يبدُ في عينيه أنّه عرفني على  
الإطلاق!... أم يكون عرفني وبجاهلي رافة بها!...  
ليتني أجد وسيلة للتحقّق من هذه النقطة! وعُبه  
عرفني فهل يمكن أن يسوّر برزي لقريبته نازلي  
هائم... ما أبعد هذا عن تصوّر، ولكن ما أبعدني  
عن الطمانينة كذلك! وجدني غريبًا في بحر جثي من  
السواسوس والمخاوف فهل كنت في حاجة إلى  
مزيد!...

ودّعنا إلى الطعام فخرجت من أفكاري وإن علفت  
بآثارها، كالخارج من نار. وجلسنا حول المائدة،  
وعند ذلك التقت نازلي هائم وقالت مبتسمة:  
- أنت خجول يا سي كامل ولكن حذار فالولائم لا  
ترحم الخجولين.

وعلق بعضهم على قولها فسخطت عليها واشتدّ بي  
الضيق، على أنّهم لم يلبثوا أن شغلوا عني بما بين  
أيديهم من لذائذ المأكّل. ولم أكد أشعر بالارتباك الذي  
يركبنني في أمثال هذه المجتمعات لشرود ذهني فيها هو  
أجل وأخطر، فلا يغفل الارتباك إلّا الارتباك! ثمّ عدنا  
إلى حجرة الاستقبال ودارت علينا القهوة. وتناولت  
الفنجان، وقرّبتني إلى فمي، وعل حين بفتة طار خيالي

أنوثتها وحنّ عواطفها. كانت أبعد ما تكون عن  
النزق والطيش، ولكنّها كانت عامرة القلب بالحيويّة  
والحرارة والمطف. لعلّها كانت تحيا حياة يحدوها الأمل  
نفسه الذي انتطّلح إليه صابراً مصتبراً. على أنّ الحقّ  
الذي لا يرثيه فيه أنّي كنت مشغولاً بجمومي على حال لم  
تدع لي إلا قليلاً للانشغال بجموم غيري. ربّما رجع  
ذلك قبل كلّ شيء إلى أنانيّة الفطريّة، وكان لجهلي  
كذلك نصيبه. ولعلّي كنت أحسب أنّي الضحيّة  
الأولى - إن لم تكن الوحيدة - في تلك اللأسة.

وفي أوائل ذلك الحريف دعانا جبر بك ونازلي هائم  
إلى وليمة غداء أقمها للأهل والأقارب لمناسبة غداء  
محمد - شقيق زوجي - من مرض ألمّ به.

ودعيت وزوجي على حين تخلّفت أمّي معتذرة  
بالنظام الجديد الذي تتبعه في غداها منذ أشار عليها  
الطبيب بذلك. مضيت مرتبّجا كالعادة، لأنّ وليمة  
غداء اشتدّ على نفسي من المرض، ولأنّها - هي وأمثالها  
من المجتمعات - تعيد إلى ذهني ذكرى منصّة الخطابة  
بكلّية الحقوقي. وقد تعمّلت أنّ نذهب مبكرين لنسبق  
المدعوّين جميعاً فلا أتمرّض لنظرات أعينهم حين  
دخولي حجرة الاستقبال. ونجحت عتقي فوجدنا  
البيت قاصراً على أهله. هم أهلي أيضاً، ولأني لأحبهم  
جميعاً وإن بتّ أضاف نازلي هائم خوفاً شديداً يثير في  
نفسي أشدّ الألم. وأخذ المدعوّون يتوافدون. فجهّ  
أصنام ربّاب الثلاثة وأصنامها الأربعة مصحوبين  
بزوجاتهم وأبنائهم وحضرت كلّك خاللتها، واحدة  
مصطحبة زوجها، والأخرى - وهي أرملة - برفقة  
كبرى بناتها. ومضت نازلي هائم لتستقبل قادماً جديداً  
فسمعتها تقول له: «لماذا تأخّرت يا سي أمين؟» فردّ  
القادم عليها معتذراً بصوت خيّل لي أنّي سمعته قبل  
ذلك، فتطلّعت إلى الباب باهتمام... ودخل المدعوّ  
الجديد فعرفته من أوّل نظرة. رايت أمامي ذلك  
الدكتور الذي زرته منذ شهرين وبحث له برّ شقائي  
كلّه، ثبتت عيناي عليه في ارتياح بادئ الأمر، ثمّ  
ثمّالكت نفسي بسرعة وقوّة، ولأني على إخفاء ما يعتلج  
بصدري لقادر، ولكّني لم أجد حيلة مع قلبي الذي

- إنك مغرم بتحميل نفسك المهرم على اختلافها  
كأنك المسئول عن الدنيا ومن عليها. ركز اهتمامك في  
عيادتك وحياتك ومسألة زواجك على وجه الخصوص،  
ألا ترى أنك في الثلاثين وهي سنٌ فاصلة؟  
وهنا قالت إحدى خالتي رباب:  
- اطمئني يا أخي فلعلك أن تسمعي أخبارًا سارة  
قبل استدارة هذا العام.

ودار الحديث حول كريمة أحد كبار الأطباء...  
وقالت لي رباب همسا - وكانت تجلس إلى جانبي - إن  
هذه الفتاة التي يتحدثون عنها حسنة مفرطة في الحسن  
والورثة المتظرة ثلثة طائلة، وإنا زاملتها عهدًا في  
الدراسة. والظاهر أن أحد أحوال رباب كان ممن  
تجلبهم أحاديث السياسة، فما كاد حديث الزواج  
يتمهي حتى قال غامطًا الدكتور:

- لا داعي للتشاؤم فكل شيء مصيره إلى الصلاح  
وإن طال الزمن. وما نحن على أبواب انتخابات  
جديدة، ولعل الرياح أن تهب هوائًا ورغاء.  
فاشتدت عينا الدكتور وقال بحدة:

- من الخير لهذا البلد أن تحكمه حكومة فاسدة،  
ذلك أن الحكومة الصالحة لا تستطيع أن تفعل شيئًا ذا  
يال في حدود الأوضاع القائمة، فالخير أن تستبد  
الحكومة الفاسدة حتى تعجل بالنهاية... النهاية  
المحتومة!

فضحك جبر بك وقال:  
- ما زلت ساخطًا متبرمًا. ألا تجد لي مصر ما  
يستحق إعجابك وتقديرك؟  
فأدار الدكتور عينيه البرأقتين في الحاضرين وقال  
مبتسمًا:

- بل... أم كلثوم...  
وضجروا جميعًا بالضحك. وجعلت أصغي إليه  
باهتمام واستغراب، ولكني لم أكد أفقه معنى لما يقول.  
وعجبت لمن يشغلون أنفسهم بهذه الأمور وأشغالها،  
أليس في حياتهم هموم تشغلهم عنها؟ وتغلل لي في  
حديثه رجل جلم وري وثورة، بسادي الغرور  
والعجرفة. وكما كانت دهشة كبيرة حين ذكر أم كلثوم

إلى الحانة القديمة بشوارع الألفي وترامى لعيني قبح  
الحمر!... كيف جاءتني هذه الذكرى، ما الباعث  
عليها؟... لقد وجدت دهشة صادقة، ولكني شعرت  
كذلك بارتياح عجيب، سرور الحبيب بالحبيب،  
الحمر... النشوة... السرور... ألا ما أشد حاجتي  
إلى مهرّب. كان خاطرًا مفاجئًا غريبًا ولكنه كان قويًا  
لا يقاوم... وعدت بانتباهي إلى ما حو لي في حذر  
وخوف. وانجملت عيني إلى الطبيب فوجدته منغمًا في  
الحديث، يلقي أقواله بقة وفصاحة وترفع، وكثيرًا من  
الحاضرين يتوثنون للنقاش في اهتمام وسرور. وجزّ  
الحديث إلى الحياة في بلاد الإنجليز فقال الدكتور: إن  
دراسته شغلت جلّ وقته فلم يتمتع بحياته هناك  
كسائح إلا فيما ندر، على أنه استطاع رغم ذلك أن  
يخبر عن كتب مثانة الأسس التي ينهض عليها بنيان  
الحياة السياسية، وما يتمتع به الشعب من مستوى  
عالي للمعيشة، وحرية شاملة تتناول كل شيء، قال له  
جبر بك:

- كأنك واضبت في إنجلترا على الاهتمام بما كنت  
تهتم به في مصر قبل بعثتك.  
وقال أحد المدعوين ضاحكًا:  
- أجل يا جبر بك، ذكره بمعهد كلية الطب والثروة  
الوطنية.  
وقال آخر:

- من كان يظن أنه سيتهمي بك المظالم إلى بلاد  
العدو وإنك ستعود منها حاملًا له هذا الإحجاب كله؟  
فقال الدكتور مبتسمًا:  
- العداوة لا تنافس الإعجاب...  
فعاد جبر بك يسأله:

- أم تزل كما كنت، وفديًا متطرّفًا؟... لقد  
سُجنت يومًا بسبب الولفدا  
فقال الشاب وقد مگ بوزه برمًا:  
- أرى الآن المصريين جميعًا يعيشون في سجن كبير،  
والحق يا سيدي أن الأخبار الوحيدة التي كانت تسوقنا  
ونحن في إنجلترا هي أخبار مصر...  
وقالت نازلي هانم مبتسمة:

- أين كنت من زمان؟  
فأجبهته مبتسماً وقد سررت لتحيته:  
- الدنيا...

ثم أريته خاتم الزواج فقال:

- مبارك... مبارك... وهل أنجبت طفلاً؟

وشعرت بامتصاص الألم، وهزئت رأسي سلباً، ثم طلبت كأساً من الكونياك وشرت في اعتدال، حتى شعرت بذهاب النشوة في القلب والرأس، وارتسمت على فمي ابتسامة سخرت من جميع الآلام فقلت لنفسي: «أهلاً وسهلاً ومرحباً»، وحرصت على ألا أبجاوز الحد، ثم غادرت الحانة زهاء السابعة، ولم أكد أنتهي إلى شارع حيد الدين حتى تذكرت حانة سوق الخضرا وكان رأسي بحالة تستهين بالعقبات فتساءلت في شبه تأنيب: أأنسى في رغدي الحانة التي أوتيت في فقري؟ وأوقفت تاكسي وركبته وانطلق بي إلى حانة المولكنين المسلمين والحرفية. ووجدتها في حالة غناء ومريدة كما توقعت. وكان الموظف المعجوز يفتي دياً ما بكبره نعره: «فردت الجميع «ويملد نشوف»، ولما لمحي قادماً توقفت عن الغناء وصاح:

- هس يا أولاد الحلال.

وعرفني الرفاق القدماء فتصافحنا في حرارة، وما كنت أطمئن إلى مقعدي حتى سألت المعجوز متفتياً:

- كنت فين يا حلو غايب؟

فقهقهت ضاحكاً وقلت:

- الدنيا...

فقال أحد الصحاب:

- فلنمن الدنيا التي ترغم الحبيب على نسيان أحبائه...

فلمستها مهمهم من طيب خاطر. وحدث أن رأى أحدهم خاتم الزواج في إصبعي فهتف:

- دخلت دنيا يا بك...

وكان لإعلان الخبر أثر شامل فسألني الموظف الفنان:

- كيف وجدت هذه الدنيا؟...

وأفزعني تحول الحديث إلى هذا الموضوع الخطير،

كالشيء الوحيد الذي يستحق إعجابه في البلد، وتساءلت في حيرة: أيشق الغناء حقاً من كان ذا جَذ وصرامة وحدة كهذا الدكتور المجنون؟ ولما كنت أحب الغناء فقد ارتحت لهذه المشاركة الوجدانية، بعد أن أعاني أن أجِد صلة شبه بيني وبينه! وكان الدكتور أول المنصرفين، فقام الحاضرون جميعاً لمصافحته، ومصافحته بلوري وأنا أنفخص عينيه بخوف واهتمام فلم أجِد فيها وراء نظراتها المشرقة ما يريي. ثم غادرتنا نحن البيت في نحر الخامسة. عدنا مشياً على الاقدام ولم تكف حبيبي عن التعليق على المسألة والمدعويين طوال الطريق ولكني لم أستطع أن ألقى إليها انتباهي، واستسلمت لتيار أفكار الزاخر المضطرب، كيف ألقى الحظ العائر في طريقي بهذا الدكتور المجنون؟ وكيف قادني القدر إلى الاعتراف له بسرّي الذي أعانف عليه آذان الحيطان!

#### ٤٧

أوصلت رباب إلى باب العارة ثم عدت أدراجي إلى المحطة معتذراً ببعض أحوال خيالية! استقلت الترام إلى العتبة، ثم مضيت إلى شارع الألفي بك. كان قلبي ينفق في خوف ووهبة كما خفق أول مرة حلتي قدمي إلى هذا الشارع، وترامى لعمري خيال الكأس مفتحة الثغر عن إغراء عتيق. كنت نسيها فلم تخطر لي على بال منذ بلغ قلبي مناه حتى رأيتها اليوم في فنجان القهوة فحرك أحوالي الفؤاد. أمي + زوجي + الدكتور أمين رضا = الخمر. هذه هي المعادلة التي استقرت في نفسي. هل أنني ترددت حين أصبحت من حائني القديمة على قيد خطوة، وتساءلت في حزن وقلق ألا يمتد إقدامي هذا غيابة لزوجي؟ ولكني أنكرت على نفسي هذا المنطق الغريب وشققت طريقي إلى الداخل. وترامى لي فجأة خيال أبي، واثالثت على ذهني صور من ذكرياته، فاستعرضتها في هدوء، وفي غير ما شأته أو كراهية، ثم جلست إلى المائدة وأنا أغمغم، «رحم الله وغفر له».

وجاء النادل مسرعاً فحياي وهو يقول لي:

ولكني لم أجد بداً من أن أقول:

- حلوة... أأنت متزوجاً يا سيدي؟

فضحك الرجل حتى باتت أسنانه المُتَمَرَّة وقال:

- المرأة إذا تجاوزت الشباب لم تعد امرأة...

فقال آخر مؤثماً على قوله:

- صدقت. المرأة أقصر المخلوقات عمراً وإن

هرمت.

وقال غيره:

- إن زوجي تدبّر لي شجاراً نظير كلّ سهره في الحانة، وقد قلت لها: إني على أهمية الاستعداد لأن أهبّر الحانة تحت شرط واحد وهو أن تهجر هي الدنيا!!

وبدوا جميعاً ساخطين على حياتهم فداخطني عزاء لم أجدّه من قبل، وصحبت لهذه الأسباب الغريبة التي تؤاخي بين السكّرين. ثم لاحظت تغيب وفراشه شرباً اشتهر بينا بإدمانه وصمته. فسألت عنه؟ فأجابني المعجوز الفنان:

- لم تعد احمر لتؤثّر فيه، فهو يضيء مساء كل يوم إلى البَدال ويشرب كحولاً صافراً...

وواصلوا ما انقطع من الغناء، ورحلت أثرب كالآيام الماضية. ما أعجب قدرتي على الشرب! إني ضعيف ورعدي حيال كلّ أمر، ولا ثقة لي في عقلي ولا في قلبي. أما معدني فقادرة على ابتلاع حانة! وغادرت الحانة في العاشرة مودّعاً بطبيب التحيات، وتنفّلت من طريق لطريق لا تسعني الأرض من فسرط النشوة والسلطنة، ثمّ هفا عليّ طيف حبيبي فتخيّلتها بعين

السكران: وقد طال بها انتظاري فاستسلمت للرقاد، فانتشت نشوتي، وخفق فؤادي خفقان الوله، وهتفت بنفسي الأشواق، ويحث عيني الزائفان عن تاكمي ثمّ مضيت إليه لا ألوي على شيء وطلبت إلى السائق أن يسرع بأقصى ما لديه من سرعة، فطار به يطوي الأرض طياً، وغادرت عند العبارة، وارتقيت السلم في عجلة، ثمّ دخلت الشقة وسرت إلى حجرتي بلا تردّد، وأدّرت مفتاح الكهرباء فوقع بصري على حبيبي وقد استغرقت في نوم هادئ. وقد تحرّك رأسها لدى سطوع

النور وغمغمت وتنفّست، ثمّ واصلت نومها دون أن تستيقظ، وخلعت ملابسها في عجلة واضطراب ويداي ترتعشان، وأنفاسي ترتدّد في دهشة وسرور وجزع، وهرعت إلى الفراش، وانسدست تحت الغطاء، ضمنتها إلى صدري ووضعت شفتي على شفتيها حتى فتحت عينيها، وأعطرتها قبلاً بنهم وورقة وسرور حتى أفلقت وبادلتي القبل، وبدا ما بيننا كأنه حلم سعيد يضرّ به المنام، حلم لا يصلق بيد أنّه كان حليماً قصيراً لم يستغرق ثانيّتين من الدقيقة. وأفتت من سحره في طمأنينة وسلام، وبني من السعادة نشوة أضاعف ما بي من الحمر، واضطجعت في جبهود، وأغمضت جفنيّ مستسلمة لامتّع الحواطر والأحلام. حل أن أحلامي لم تنسج وشيها هذه المرّة من ساقّة الخيالات، ولكنّها استعملته من الواقع، من صميم حياتي، وألذّ العيش ما كان حلمه السعيد صدى للواقع الراهن! لقد تلقّيت السعادة بامتنان العابد، وأيقنت أن همومي قد انجلت إلى الأبد. وفي صباح اليوم التالي جعلت أرنو إلى حبيبي بقية وسرور، وشعرت حُناً بآئي زوج، وبآئي رجل... ولم تزلاني أحاسيس السعادة والفخار طوال اليوم، وعندما أتى المساء ذهبت إلى شارع الأنفي بك، ثمّ عدت إلى حبيبي طائرًا على جناحي نشوتي، وحللت من الكأس المترعة، بالسرور نفسه والسرعة نفسها، ثمّ اضطجعت ضجعة المطمئن، ما كان لثلي أن ينسي ما تحرّج من غصص العذاب، ولكنّ السعادة الحقّة تستثير عطفنا حتى على ذكريات العذاب.

#### ٤٨

وتنقّضت أسابيع - لمعلّمها لم تجاوز الشهرين - في سعادة وطمأنينة. وإنّني إذ أعود إلى ذكرى تلك الآيام بمضني شعور بالألم والأسى، لا حرة على سعادة ذهبت، ولكن أسفاً على أكبر خدعة ابتليت بها في حياتي. لم يكن هنالك ما يستوجب سعادة على الإطلاق. وإذا كنت قد تممتت بالسعادة زناً رغداً، فما ذلك إلّا لأنني كنت غراً جاهلاً أعمى. وما من بأس أن يتمتّع الأعمى بسعادة وهمية على شرط أن يواصل

سعدت به! أحببت بها من حقيقة تحيرتي، ولكن إلأم  
أكذب نفسي! إنها تبدو كأنها تخاف الليل وتحماءه،  
ولا تكاد ندخلها إلى نفسيها حتى يعنورها قلق تفصحه  
عينها الصافيتان، ثم تنفأ - في هذه الأيام الأخيرة  
خاصة - تعتذر بشق الأعداء، فمن ثقب إلى ثوبك  
إلى رغبة ملحة في النوم. وإذا أذعنت لي فلأنا نذهب في  
تسليم لا سرور فيه، ثم تنتثر جسمها من جسمي في  
شبه استياء وغضب! وأقرز إلى هذا كله بأننا لم تعد  
فتاتي الضاحكة المستبشرة الصافية. شاب ضحكها  
التكلف، ودب في سعادتها الفتور، وانقلب وقها  
توقدًا. حاشاي أن أقول إنها أعلنت سطحا أو أسامت  
أدبًا، حبيبي فوق هذا كله، ولكنني أحسن قلقها  
بقلبي، وأدرك حيرتي بغريزي. رباه إن الدنيا جميعًا لا  
تساوي عرولة إذا تلئت حبيبي؟ فهاذا بها... إنني  
أفقد حبيبي فلا أجدها، ولا بد أن أجدها، أو أموت  
كمداً...

ويلع شغائي غايته إذ ترك نفسورها في نفسي أثرًا  
عميقًا، تغلغل في حناياها، فحرك الداء القديم، وولّى  
الشفاء الساحر، ولم تنفع فيه الحمر. وتناهى به الحزن  
حتى أشفيت على الجنون. أيعاودني العجز؟ وهل أزد  
إلى ذلك البأس المحيت؟. وقلت لها مرة في قنوط:  
- رباب... ماذا بك؟... لست الحبيبة التي  
عهدتها.

فلأنت بالصمت، وغضت بصرها حيرة وإرباكًا،  
فقلت بتضرع متسائلًا:  
- إن قلبي لا يكلمني فتخبرني ماذا غيرك؟  
فهست قائلة وقد لاحت في عينيها نظرة ساهمة:  
- لا شيء...

فهتفت من الأعياق:  
- بل شيء وأشياء، إنني زوجك يا رباب وحياتي  
كلها لك، فلا تخفي عني شيئًا. آه يا رباب إنني أبكي  
آياتنا الماضية.

فتهدئت ولاح في وجهها الارتباك والالم، ثم  
ضمغمت في حذر وإشفاق:  
- وإنني أبكي آياتنا أيضًا...

عياء، أما إذا رُدَّ إليه البصر ورأى سعادته سرابًا فهل  
يجني من ذكريات سعادته إلّا حسرة مضاعفة وهما  
مقيًا؟! وهذه هي حالي بلا زيادة ولا نقصان، وما  
فلئت إليها إلّا في بطن شديد يوافق جهل وبلادتي.

لاحظت أن «رباب» تمضي النهار كله وشطرًا من  
الليل خارج البيت، بين مدرستها وبيوت أهلها  
وأقاربها، وقد رافقتها بأحدى الأمر رغم طبعي النفور،  
ثم شق على الأمر فنكصت على عقبى، ولم أجد  
أصحبها إلّا فيما ندر من الزيارات. وعادت أمي تعلن  
عن ملاحظاتها في مراة وأسى وأنا أدافع عن زوجي  
بلا فتور وإن يجاوب لانتقادها في نفسي صلق عميق،  
وكتت فيها مضى أشجع زوجي على هذه الزيارات  
لتسأل بها عما أشعر به من نقص حياتنا المشتركة، أما  
الآن فلم يعد من موجب في نظري للإصرار فيها.  
ولمت أطراف شجاعتي يومًا وقلت لها:

- كائنك تقاطعين بيتنا يا عزيزي، فهلاً أقللت من  
هذه الزيارات المتواصلة؟  
وحدجتي بنظرة صرية وسألتي بحلّة لم أعدها من  
قبل:

- أما زالت تشغل نفسها بانتقادي؟  
وفهمت أنها تعني أمي، وسألت أن تضمر لها هذا  
النفور، فأجبتها مطلقًا:  
- إن أمي لا تتدخل فيما لا يعنها. ولهذا رجائي أنا  
دون غيري، والحق أني لا أطيع بيتنا إذا كنت  
خارجة...

فقال وقد استرذت هدوءها: هلّم نخرج معًا.  
لماذا تضيق بالناس؟...  
فقلت برقة: هكذا أنا...

ولا أدري ماذا غيرها أثر كلمتي تلك فقلت بحلّة:  
- إن الحياة لا تحدث على غير هذا الوجه.

آه يا حبيبي، لم تكن وقتك لتسمح بمثل هذا  
الضيق، فما الذي حدث؟ وليس هذا كل ما في الأمر،  
فلأن قلبي أحيانًا يرى ما لا تراه عيني. ينبغي أن أشق  
ستار العمى وأن ألقى الحقيقة على مرارتها وجهًا  
لوجه... يجيل لي أن «رباب» لم تسعد بشغائي كما

لا أدري لماذا آتيتي رفعتها. ثم تذكرت بعض ما سمعت في إدارة المخازن فقلت:

- ولكن لا يمكن أن تتم سعادة المرأة إلا بهذا...

فتوزد وجهها وقالت بسرعة وبقين:

- كلاً... كلاً... أنت غطيتي في هذا.

ورنوت إليها في حيرة! ترى حقاً تصدقيني القول؟ ولكن ما عسى أن يجعلها على الكذب! لم أكن إلا غراً جاهلاً، ولن تجد كالفراجل صيداً سهلاً للهجة التاكيد، فأنزيت قولها تأثيراً عريضاً...

هل أكذب حبيبي وأصدق سخفاء المولفين؟! ألم يعبر قولها هذا عن رأي قديم اعتقته قبل أن يموتني عنه مجون الزملاء بإدارة المخازن؟... وفضلنا عن هذا وذاك فليس يوسعي وصلها بعد أن باحت، وبعد أن عاودني من العجز ما عاودني، لذلك كله تظاهرت بالأرتياح، واصطلحت ابتسامة. ثم قلت بتسليم:

- ليس لي وراء سعادتك مطلب يا رباب!

وسرري عنها، ولاح في عينها نظرة ارتياح، وتدانت متى حقاً التصقت بي وبقلبي!

علنا كما كنا. عدت زوجاً حلوياً ذا عادة ذميمة، ورحلت أقول لنفسي: إنه لا ذنب لي فيها انتهينا إليه. إنني رجل كامل ولولو طبعها هي ما انتابني فلهذه النكسة! بل إنني أتحمل هذه الحياة الغريبة إكراماً لها! يا له من عزاء كنت في ميسس الحاجة إليه! ولكن هل حقاً صدقت نفسي؟! ومها يكن من أمر فإن ذكرى عهد السعادة لم تنب عن ذهني لحظة واحدة، كيف انقضى ذاك العهد بتلك السرعة التي لم أتوقعها؟ وكيف آذني حبيبي حتى خرجت عن صمتها بهذه الشكوى السافرة؟ أليس معنى هذا أنني شقي ولا حيلة لي في شقاوتي؟ آه... لشدة ما نازعتني النفس إلى الحزن والفرار! وعادوني ذكريات تتردي في الطرق بحنان ولغة...

هل عاد كل شيء إلى أصله؟!

وما زال الحب يجمعنا في عناق وعطف، وعادت حبيبي إلى مرحها وجوهرها وهي تقضي يومها ما بين مدرستها وبيوت الأهل والأقارب، وبحسبي أن أراها

فتولاني الدهول والازدحام وسألتها في حيرة شديدة: كيف يا رباب؟... إنني لا أفهم شيئاً. أما كان ينبغي لحياتنا أن تكون أوفر سعادة!

ثم وجهها على أنها تعاني من ضروب الحيرة مثلاً أعاني، فازددت دهولاً وازدحاماً وانتظرت أن غمط اللام حماً يحيرها فتجولي ما يحيرني بالتالي. وانتظرت في قلق وإن بات قلبي يمدس أموراً يفرق لها رعباً ويأساً وخزياً. ولما طال بي الانتظار قلت:

- لماذا لا تكاشفي بذات نفسك!

إنها ترغب في البوح بما ينوء به صدرها الرقيق ولكنها لا تجد سبيلاً إلى الإفصاح أو لا تواتيها الشجاعة عليه، وإنني ازداد خوفاً وفنوكم حتى تنامي بي الجزع فقلت:

- رباب... إنك لا تتراحين لما جد في حياتنا!

فحدجتي بنظرة غريبة، ثم خفضت بصرها وراحت تقضم ظفرها في حيرة وارتيك. برح الحفاء. بيد أن صمتها أخذ يضايقي فتساءلت فيما يشبه الضجر:

- أليس الأمر كذلك؟

ورنت إليّ بنظرة توّسل واستعطاف وقالت بصوت لا يكاد يسمع:

- لنعد كما كنا؟... كانت حياة طيبة!

وكأنّ لطفة موت عل وجهي فغضضت عينيّ حياة وفنوكم. ومع أن رغبتها هذه حليفة بأن عينيّ لي علزلاً أداري به ما عاودني من عجز إلا أنني تلقيتها بخزي عمت. ولمعها ثمرات ما لاح في وجهي من أمارات الألم فقالت برقة:

- لست أعني شيئاً يمكن أن يذكرك، ولكنني أهفو

لحياتنا الماضية. كانت حياة طاهرة سعيدة!

فقلت كأنني أكمل حديثها:

- ولم يكن بها ما ينتقص صفوك؟

فطرفت عينها، وتجلّت فيها نظرة عطف وقالت برقة:

- كنا سعداء أليس كذلك؟... ولم يكن ينقصنا

شيء على الإطلاق...

نهضت مستأذناً وغادرت الحجرة. ولاحث مَيّ التناثرة إلى حجرتنا - وكان بابها مفتوحاً كما تركته - فرايت ريباب جالسة على حافة الفراش تقرأ خطاباً. وأدركت لتَوَيَّ أَنْ ساهي البريد جاء به حين كنت منفرداً بأنمي وإلا لعلمت به وقت وصوله، وطننته مرسلًا إليّ من أخي لأنّ ريباب لم تكن تتلقّى خطابات، فعدت إلى حجرتي مستطعمًا، وشارفت بابها وريباب منفردة في القراءة لم تنبّه لي حتّى قلت لها:

- أأخذ الخطاب يا؟

ورفعت رأسها نحوي في دهشة، وطوت يدها الخطاب بحركة آليّة سريعة، وسألتني في اضطراب ظاهر:

- هل نسيت شيئاً؟

فقلت وقد تولّاني قلق لا أدريه:

- كنت في حجرة أمّي، ورأيتك عند مفادرتي لها فترتين هذا الخطاب فظننته لي.

فنهضت من مجلسها وتراجعت صوب التواليت، وكانت بلا ريب تحاول أن تضبط عواطفها، ولكنّ حينها وشتا بما تركه حضوري المفاجئ في نفسها من وقع حميق لم تنرقمه، وقالت وقد نذت عنها ضحكة مقتضية جلفاً لم تجيد في مداراة اضطرابها:

- ليس خطاباً كما تظنّ، إن هي إلا وريقة سجّلت

بها بعض ملاحظات تتعلّق بمعملي المدرسيّ... وداخلي خوف عميق في مفاصلي. لعلّها لم تجاوز الصلوق ولكنّ عدوى اضطرابها انتقلت إلى نفسي فشمرت بذلك الخوف الغريب، كأنّه نذير شرّ مجهول يتجمّع في أفقي المكشّف. ما الذي يدعورها إلى الكذب؟ ولكنّي رأيت في يدها خطاباً بلا ريب! وقد خفت أن أحمّدي في إظهار الشكّ أن يكون الحقّ معها فأقنع في حرج ما أغنائي عنه. على أنّي لم أملك أن قلت:

- ولكنّي رأيت خطاباً بيديك..

ووقع قولي من أذنيّ موقعاً سيّئاً، فخيّل إليّ أنّي لم أحسن اختياره، وأنّه يفصح عن شكّ واضح، ورمقتها في إشفاق. وانتظرت أن تبسط لي الوريقة في حركة

سعيدة مسرورة. ولعلّ طبعها اعتراه تقيّر لطيف يبدو لي سهوياً حين بعد حين كما يبدو في سرعة غضبها لأقلّ هسة تصدو من أمّي.

هل كنت سعيداً؟

كانت حبيبي سعيدة يبدو لي، فكان طبعياً أن أعد نفسي سعيداً. حقّاً لم تنقطع بي الوسواس ولكنّي متى عرفت الحياة بلا وسواس؟... وأطرد تيار الحياة تتقاذفي أمواجه، يسعدني سرور حبيبي، ويشغيني حزن أمّي، أقضي وقتاً ثقيلاً في الوزارة، وأنفق ساعات حالة في الحانة على فترات متباعدة. وحقّ ضميري الذي هانيت طويلاً من شعوره بالخطيئة لم أَلْ أن أغضي عليّ أناته وتأوّهاته بضحكات السرور والعريضة، وكنت كلياً أُلحّ عليّ ونَحْرُهُ أقول لنفسي بصوت مرتفع إليّ سعيد، وكلّ شيء حسن!

ومضى الشتاء فالرياح ثمّ الصيف. وعدنا نستقبل الخريف والعام الدراسيّ الجديد بما يتلذّنا من عزيز الذكريات.

#### ٤٩

وعرض لي أمر بدا تافهاً ولكنّه كاد يقلب حياتي رأساً على عقب، ومن عجب أنّه تكشّف لي عقب مصادفة، فعنّ لي أن أتساءل: أكانت حياتي تستهدف وجهة أخرى لو لم تعرض لي تلك المصادفة؟ ولكنّ ما هي المصادفة؟ ألا تبدو الحياة أحياناً سلسلة متصلة من المصادفات؟ ماذا ألقى برباب في طريقي غير المصادفة؟ وهل كان يتاح لي الزواج منها لو تأخّر موت أبي شهراً واحداً؟ بل ماذا كان يحدث لي لو أصرّ أبي على استردادي كما فعل براضية ومدحت؟ على هذا اللتوال أتساءل: ألم يكن من الممكن أن تكرّد حياتي على وثيرة واحدة حتّى الموت لو لم يطل اللقاء بيني وبين أمّي دقائق معدودات ذلك اليوم الذي لا ينسى؟!

كنّا في أواخر الخريف، وكان الوقت عصراً، وقد ودعت ريباب وغادرت الحجرة لقضاء سهري المسائيّة. والتقيت بأنمي في الصالة وكانت متوتّكة فمضيت معها إلى حجرتها وليبت معها نتحدث فطال بنا الحديث، ثمّ



- إني خطابه، ولن أرجع حتى تعتري لي بكل شيء... .

تراجعت متأهبة حتى استندت إلى امرأة الصوان وقالت بصوت مزمز الشكوى:

- بالله لا تسق بي الظن. لا شيء البتة يستوجب غضبك أو ارتيابك، آواه لا تنظر إلي هكذا... .

ولكني لبثت أرمقها بنظرة صارمة قاسية ونفسي تلتهف على الحقيقة، فلما النجاة وإما الهلاك. رياه إني لفي كابوس طاع. وهل كان يقع في ظني أن أفق منها هذا الموقف إلا في كابوس؟ واستدرت تقول بصوت متقطع الأنفاس:

- لا تنظر إلي هكذا! لقد أعطت حقاً ولكنك أنت المسئول عن خطئي! لقد فاجأتني فركني الاضطراب، فتورطت في كذب لا داعي له... .

رياه ما أخرجني إلى النجاة، ما أشد تلتهفي على قطرة حيث تبلى جوانحي... . وقلت في حيرة:

- كان خطايا... .

فبادرتني قائلة:

- أجل! وكان يبدو لي أمره تافهاً حتى وقع في نفسك الارتياب. وتجهمت وجهك لتخيلت الأمر التافه جليلاً خطيراً فالتمسْتُ هرباً في الكذب، وكان ما كان.

فسألتها وما أزداد إلا حيرة:

- إذا كان خطاباً، فمن أرسله؟

فقالت وبها ملهاً بي من الحيرة:

- لا أدري... .

فنفخت قائلاً:

- ما هذه المعميات؟!

تولّى عنها الذعر وريداً، وتشجعت بانفثاء غضبي

فقالت بصوت ملؤه الأمل:

- دعني أقصّ عليك قصة هذا الخطاب المشوم بالحرف الواحد: لقد تلقتني صباح اليوم بالمدسة، فقصصته بدمعة لاني لم أجد تلقى الخطاب، ووجدته غفلاً من الإغماء، ولم يكن به سوى سخط وقع، خشكه قلم شخص سمحاً وملكني الحقن بادئ

عصبية وأن ترميني بطرف ساخر مؤنب، ولكنّها كانت تمناني أحاسيس أخرى. وكأنا قهرتها عاطفة مجهولة فقالت وهي توليني ظهرها:

- قلت لك إننا وريقة خاصة بملاحظات مدرسية.

ثم رأيتها تزمزها بحركة مباغته، وتحولت صوب النافذة ورمت بها! كانت حركة مباغته أبعد من أن أتوقعها فتسمرت في مكاني كأنما حلّ بي شلل. واستقبلتني بوجهها متظاهرة بعدم المبالاة فتملكتني حتى وغضب وبأس، وشعرت بأنّ جدراً هائلاً قد انقضّ على حياتي فدفنها تحت ركامه، وأنّ عيني تفتّحتان - بعد أوهام العسى - على حقائق بشعة. وهل غير الحقائق البشعة ما يستثير هذا الاضطراب وذلك الحداد الماكر؟ وصحت بلا وعي:

- كاذبة... . لم تكن وريقة ملاحظات كما قلت كلياً وخداعاً. ولكنه خطاب كما رأيت، وقد مزّته لتواري عني سواء... .

وخاص الدم في وجهها فترك صفحته شاحبة كرجوه الموت، ولكن بدا أنّها لا تريد أن تسلّم بغير دفاع المستبش فغمضت:

- أنت غطيت... . وظالم... . لم يكن خطاباً!

فهتفت بها مغنيلاً عنفاً والألم والبأس يطرقان رأسي بهتفاً:

- لماذا مزّته؟... . لماذا تولّك الذعر؟... .

تكلمي... . لا بدّ أن أعرف الحقيقة... . سأنزل إلى الطريق ألتقط القصاصات.

وانجهت نحو النافذة في عجلة واضطراب وأطللت على الطريق فرأيت العطفة الضيقة التي تفصل مؤخرة العمارة عن حديقة الكنيسة، فداخني ياس وأيقنت أنّ الهواء قد حمل القصاصات إلى حديقة الكنيسة. واسودّت الدنيا في عيني، وخيل إليّ أنّها تتمخض من عالم من الشياطين الراقصة في تيّار من هيب. كيف أنزع الحقيقة من بين شفهي؟ ودرت على عقي فوجدتها بموقفها، يحاكي وجهها وجوه الموت، وتلوح في عينيها نظرة ذعر وارتباك، فاشتدت قسوة قلبي، ورميتها بنظرة طويلة رهيبة، وقلت بإصرار وحتى:

وكأني فقدت وعي:

- لماذا مرّته... لماذا مرّته؟

فنفخت فيها يشبه اليأس، ولزمت الصمت ملياً،  
ثم قالت بهدوء واستسلام:

- لقد تسلّمت هذا الخطاب المشوم في المدرسة،  
ولا أظنك تشك في هذا لأنه من الجنون أن يرسله إلى  
البيت. والآن اطرح حل نفسك هذا السؤال: ما  
الذي يدعوني إلى الاحتفاظ بالخطاب وحمله إلى البيت  
إذا كان به ما يريب؟ لماذا لم أمزّقه في المدرسة بعد  
قراءته!

وعقد الصمت لساني حيال وجاعة الحجة ولعلّي  
أصفت حل ما بدر منّي من صياح كاسر. أمّا وربابه  
فعادت تقول:

- لو كنت مدنية لما وجدتي بهذا الموقف السيئ، ولما  
علمت بشيء وهيهات أن اغفر لك سوء ظنك بي...  
فألني قولها، ودخلني شعور أليم بالحجل خفضت  
بهري أن ترى به أي الخزيمة. حل أنّ لبي لم يُنسني ما  
أحبّ أن أجلوه من غامض الأمور فقلت بصوت  
منخفض:

- إنّ قولك مصنّف... ولكن لعلّ صاحب  
الخطاب لم يوقع بإمضائه لظنه أنّه من السهل  
الاستدلال عليه، كان يكون ممّن يمترضون سبيلك  
مثلاً...

ولم يخفّف لين نبراتي من ألمها، بل لعلّه جعلها  
تتأذى فيه، وقالت بامتعاض:

- من عاذني أن أسير فلا ألوي على شيء ولا ألقى  
بالأ لإنسان.

لم أكن في حاجة إلى قولها وقد خبرته بنفسه، ولكن  
لاح لميقي شبحا الرجلين اللذين قاسماني الإعجاب بها  
فيها مفي. فقلت متسائلاً:

- ألا يُحتمل أن يكون جارك الذي شرع في طلب  
يذك... أعني عمّد جودت؟

فقالت بلا تردّد:

- هذا رجل وقور لا ينزل لهذه الأساليب الوقحة،  
وفضلاً عن ذلك فهو وشيك الزواج كما علمت منذ

الامر، ثم لم أعد أباله. وصمّمت على الاحتفاظ به  
لأطلقك عليه وفي ظني أنّي أعدّ لك مفاجأة تضحك  
منها طويلاً. ولكنّي غيّرت رأيي عقب عودتك وخفت  
أن يثير بنفسك ما لا داعي له من الاستياء. وأخفيت  
عنك امره حتّى ظننتك غادرت البيت فاستخرجته من  
حقيبي وأعدت تلاوته وفي نيتي أن أمزّقه ولكنك  
فاجأني وقت تلاوته، ولم يغب عني حرج مركزي، ولم  
يعد بوسعي الاعتراف بالحقيقة، فنزّطت كما قلت لك  
في الكذب، وجنبت من كذبي ما جئت ممّا لا  
أستحقّ.

أصغيت إليها وكلّي أذان. ولمّا انتهت من قصتها  
لبثت بموقفي جامداً متحيّراً. خفّت وطأة الجنون الذي  
ركبني ولكنّي وقفت بباب التصديق والطمانية متردّداً.  
وجلدت نفسي في حيرة قاتلة دعوت الله أن يكشفها  
عني، وأن يبني بصيرة نيرة أنشد بها إلى أصابع هذا  
الصدر الجميل الذي كانها خلقت لتعزّيني. وأرهقني  
التفكير والتردّد فقلت وكأني أسألك نفسي:

- من مرّسه؟!

وكأنّ السؤال ألهما، فنفّضت بهرها مقبلة وقالت:

- قلت كان غفلاً من الإغماء.

فانفلت لساني يقول:

- هذا غير معقول.

فصرت الأرض بقدمها وقالت وقد لاح في وجهها  
الأم والتعسة:

- أتكلّمني يا كامل بعد أن صارحك الحقيقة؟ إنّني  
لا أحتمل هذا...

فاستطردت قائلاً وقد نال منّي تألّها:

- أعني ماذا يفيد الخطاب إذا لم يترك به إشارة تدلّ  
عليه؟ ألم يرسل لك خطاباً قبله؟

- ... هذا أوّل خطاب أتلقاه...

- وماذا كان به؟

فنفّضت بهرها وهي تقول بضميق:

- كلام سخيف عن الإعجاب والجمال...

ووثب إلى خيالي منظر يديها وهما تمرّقان الخطاب  
فلسعني الشكّ وانتفض جسمي في حلع نصحت بها

أعرف نفسي جيّدًا، ولأني لأغار من الوهم ومن لا شيء! فأين مني جزيرة نائية لم تطأها قدم رجل!

وطار الخيال بفتة إلى حجرة أمي فسرت في جسدي قشعريرة وغلغلت تقول لي دلم أقل لك؟ فنفختُ كمن يزيع عن صدره كابوسًا، ولأحت مني الضائقة نحو «رباب» فوجدتها تحملق في وجهي بدهشة، فخطر لي خاطر جديد لم أتوان عن الإفصاح عنه فقلت برقة:

- رباب، لماذا توصلين خلعتك في الحكومة! لماذا تتجشمين هذه المشقة بلا ضرورة؟ لماذا لا تقنعين ببيتك كثير من الأزواج؟

فضربت في وجهي بإمعان وأناة، ثم قالت بهدوء: - ألا تتق بي؟

فابتدعنا قائلًا: معاذ الله ولكي... .

وقاطعتني قائلة:

- إذا كنت لا تتق في فالأولى لي أن أغادر بيتك!

- رباب!

فلم تبالر جزعي وقالت:

- إذا كنت ما تزال تتق بي فسأبقى في وظيفتي.

فقلت بتسليم:

- لك ما تشائين!

فقال باللهجة نفسها:

- لا أحب أن أسمع كلمة أخرى من هذا الموضوع.

وقد كان. وغادرت البيت، وأخذت أضرب في الأرض على غير هدئ حتى تناهى بي الإعياء، فرجعت إلى البيت، وتلاقيت وكان لم يكن بيتنا شيء وتناولنا المشاء معًا، ثم أودنا إلى حجرتنا والتقت أمينا في نظرات ذات معنى.

ولم تسالك أن انفجرنا ضاحكين، ومضينا إلى الفراش فاضطجعنا وقبلتها قبله النوم. ولا أدري لماذا نازعتني نفسي إلى معاودة ما تعاهدنا على اجتنابه. والأعجب من هذا أنه لم تكن بي ذرة من فقه، ومع ذلك كدت أعمم... . لولا أن رقتي الخوف إلى وعيي! ثم خطر لي أن أسأله عما يعملها تقضي على نفسها بالحرقمان؟ وانفجرت شفتاي ولقظ صدري القول،

قراءة شهر في بيت أبي... .

فتفجرت قليلاً ثم قلت متحيرة:

- كان يوجد رجل سمين يواظب على التهامك بعينه في ذلك العهد الذي كنت أحوم فيه حولك، أفلا يجوز أن يكون هو؟

فزوت ما بين حاجبيها مستذكرة، ثم قالت وهي تهز رأسها:

- لا أعلم عنه شيئاً... .

وحاولت أن أذكرها به ولكنها بدت وكأنها لم تحس له وجودًا، فقلت بياس وغيظ:

- أريد أن أرفه كي أؤذبه.

فقال بصوت دلت نبراته على التعب:

- ليكون من يكون! لو لم يدفعني الارتباك إلى تمزيقه لكنا نقره الآن ضاحكين، فهلاً نسيته وحسبنا ما نالنا من كدرا

فعضضت على شفتي، وجنحت إلى الصمت مغيطًا مقهورًا، فاستطردت قائلة:

- إنه أمر تافه، بل ألقه من أن يستحق كل هذا الاهتمام... .

فتهدت قائلاً وأنا لا أدري:

- لبتك لم تمزيقه!

وانتمعت في عينها نظرة غاضبة وتساءلت بهدنة:

- ألا زال يساورك الشك؟

فقلت بهجلة:

- كلا... . ولكي لن أهدأ حتى أؤذبه!

فقال بضجر:

- ولكننا لا نعرفه فما العمل؟

وأحتقني قولها، ولكني تحاميت الإفصاح عن حقيقي أن أستر غضبها. وكان الوقوف أرفعها فمضت إلى كرسي التواليت وجلست عليه، وشعرت عند ذلك بأن ظهري، فدلقت من الفراش واقعدت حافته. إنها صادقة بريئة، والأمرجد تافه، فليتي أستطيع أن أعر من تخيلتي صورة يديسا وهما تمزقان الخطباء لمل المجرم أحد أولئك الفضوليين الذين يراقبونها في نهابها وليأبها! فليتي لم أخلق فريسة سهلة لأنياب الغيرة. إلي

ولكنه جد على طرف لساني! إنه الخوف أيضاً.

٥٠

وعندما فتحت عيني في الصباح الباكر عاودتني ذكريات الأسس، فتأملتني في دمهتي، وقد خيل إليّ أنه لم يكن هنالك ما يستحقّ كل ذلك العناء والألم. وقلت لنفسي: لو أنّها مرّقت الخطاب في الروضة لما علمت به أبداً، وفي هذا آية صدقها، ثمّ تمثّلت لعيني وهي تمزّق الخطاب وترمي به من النافذة، فكأنّما هي تمزّق قلبي وتنثر شظاياه في الهواء، وسرت في جسدي رعدة عنيفة. وهزّزت رأسي غاضباً كأنّي أنفخ الأوهام وغادرت الفراش. ولما فرغنا من فطورنا جلسنا على المقعد الطويل نحسي الشاي. استرقت إليها نظرة فرايت وجهها المحبوب هادئاً باسماً يتمّ من جمال وسلام، فغضّيت النغم على ما فرط منّي في حقّها وقلت لنفسي: وحشاً إنّ الشيطان غوّى رجيم. وفي اللحظة التالية لاح لي خاطر كالبرق، أليس من الجائز أن تكون قد تسلمت الخطاب في البيت وأنّه لم يكن بوسعها أن تمزّقه في مكان آخر؟ ولكنّي سرعان ما نبذته، إذ إنّّه غير معقول - كما قالت بحقّ - أن تبلغ الحفاقة من شخص أن يرسل خطاباً غرامياً إلى بيت الزوج! ألا سحفاً للأوهام، إنّ حبيبي أهل لكل ثقة، والثقة هي كلّ شيء، ولولاهما ما حال دون الشرّ حائل.

وغرجنا ممّا. وركبنا الترام. لعلّ كثيرين يرمقونا بعين الحسد، فهل يتصوّرون كيف نحيا معاً؟ ألا ما أعجب العوالم التي تنطوي عليها النفوس. وأعجب من هذا أمر رباب، فكيف ترغب عن المعاشرة الزوجيّة بهذا الإصرار الغريب؟ لشدّ ما يشوقني أن أغوص في أحقادها. عند ذاك شعرت بحاجتي إلى مرشد أقصّ عليه وأصغي إليه. لم أشعر من قبل بمثل ما شعرت به وقتها من الوحدة والعزلة وقلة الحيلة. وكان طبعياً أن أذكر مرشدي الوحيد في الحياة، أمّي، ولكن سرعان ما تمكّنتني إحساس قويّ بالهفيل والغيظ، حقّ لكأنّ نشر همومي على الملا أهون عليّ

من أن أسأّر أمّي بها.

هل أستطيع أن أجلو السرّ بنفسني؟ أليكون الله قد خلقها خلقاً طاهراً لا تطيب له الحياة إلاّ بالمعنة؟ هذا فرض محتمل يؤيّد الواقع. ولست أسي عليه، فلولا لكنت في مأزق حرج. والحقّ أنّ اتّصالي بها - حقّ في أسعد أوقاته - لم يخلّ من قلق وخوف غامضين. وقد عاودني العجز في إتيان جنوحها إلى النفور، ولكنّي كنت أهيّ ألاّ أن أصوّر نفسي في صورة الضحيّة لشلدوز حبيبي، والفداء لسعادتها. . . ولما بلغت هذا الحدّ من التذكير - وكنت أشرف الوزارة - اضطرب ذهني وشعرت بقلق طاغ لم أدركه. بدا لي الأسر وكأنّه يستدعي الطمانينة الثابتة، ومع ذلك لفّتي حيرة معدّبة فدخلت الوزارة ذاهلاً. . . من عسى أن يكون الوجد الذي كتب الخطاب؟ معقول جداً ألاّ يكون الرجل الوقور عمّاد جودت، فمن يكون؟ لماذا لا يكون الفقي الآخر ذا الجسم البدين والنظرة المتفطّرة؟ وليس هذا بعيد. إنّني في تناول يدي، وإني لأعرف موقفه الذي ينتظر به كلّ صباح. . . ترى هل حقاً جهلته أم كانت تجاهله؟ على أنّي تمثّلت بقلبي ألاّ يكونه، إذ لم يخف عني لحظة أنّه قادر على أن يبطش بي بضربة واحدة؟ وقلت لنفسي ساخناً: لو أنّها أقيت على الخطاب لأمكّنتي كلّ شيء. أيّ شيء أعني؟ لا أدري على وجه التحقيق، لكنّي وجدت عليها مرّة أخرى بعد أن عُدّ الأمر متتهياً. والله ما مرّفته إلاّ خوفاً من أخطائي عليه. ربّاه هل أترى ثانية في الجمعيم؟ حذار أن تتساي! إنّ من يسمح لنفسه بالشكّ في رباب لا يستحقّ أن يكون إنساناً. ألا يحسن بي أن أسأله في التليفون عمّا إذا كانت تلقّت خطاباً جديداً؟ نازعتني إلى ذلك رغبة جامحة ولكن حال دون تنفيذها الخوف. . . ودعاني صوت من الأحقاد إلى الهرب! ولكنّ بمن أعرب؟ وإلى أين؟ إمّا أن أكون مجنوناً أو سخيّاً. إنّنا زوجان سعيدين في الواقع، ولكنّ عقلي شقيّ، فاه لو أستطيع حذف الأسس من الأيّام. آه لو تمحى ذكرى تمزيق الخطاب من خيالي. وإليك خاطراً جديداً: إذا كانت قرأت الخطاب في المدرسة فلماذا

فرائض الدين حتى لم أعد لأطلب إلا على الصوم في حينه، ألسْتُ حَقِيقًا إِذَا عَدْتُ إِلَى هَذِهِ الصَّلَاةِ أَنْ يَطْمَشَ قَلْبِي وَيَخْفَ عَنْ ظَهْرِي وَتَر القَلْبَ وَالْخَوَافَ.

وكان قلبي على الله يتبعًا ظِلَّ النُّبُوَّةِ الظَّلِيلِ، وبعث من غير صافٍ مثلج، ويغمره سكون عميق يدعوني إلى الاستراحة من صفاء الساعية الهنيء. وفي نشوة من نشوات السلام تراءت لي الآمِي كخيوط رقيق من نسج القضاء المهيمن على كُلِّ شيء فنزعت إلى الرضى والتسليم. وقَدُمْتُ بنفسي صفاء روحي ساء بي إلى ذروة من البهجة فوق المني فكأنَّ القلب يعلو غصنًا من أغصان الجنة يهدل عليه حمامة السلام. وليت في نشوئي زمنًا لا أدري كم لبثت حتى اندس إلى خيالي على حين غرة صورة رباب وهي تمزق الخطاب وقد تملكها الملح فالتفت بقسوة وعنف كمن يفتق من نوم

على زلزال هفيف، وتهدت من قلب مكلوم لم تبضت قائمًا، وتلوت الفاتحة مرَّةً أخرى وغادرت الجامع، وقد وقع بصري لدى خروجي من الباب على زَمانٍ مَن يستسلمون الغيب، إلى أومن هؤلاء الناس إيمان أُمِّي بهم. وقد انتظرت حتى انفضَّ من حوله جماعة من السائلين واقتربت منه على حياء، وسأله أن يقرأ لي الطالع. وراح الرجل ينكت بإبهامه في فقرات الرمل وينقل فيها بينها قوائمه. كان نحيلًا كلومياء، شاحب اللون، متلففًا بكساء أبيض، فقال من فم لم تبق فيه إلا لثيابه العليان:

- كثير المم والفكر.

فقلت لنفسي: لقد صدق، وأرهفت السمع بانتباه، فاستطرد قائلاً:

- ولك عددٌ مكر.

فخفق قلبي! أليس هو صاحب الخطاب؟! وواصل الرجل حديثه قائلاً:

- إنه يكر مكره وسيرة الله كيده إلى نحره...

ألا يعني هذا أن «رباب» بريئة؟

- وستجيك ورقة تسر بها طويلاً...

- أتمني خطاباً؟

- رُبَّما، إلى أرى أمامي ورقة...

أعادت قراءته في حجرتنا؟... أَلَدَّها أن تعيد تلاوته أم كانت تستوثق من الميعاد؟ أو شك جيبني أن يتفجر من حمى الفكر...

ولمَّا غادرت الوزارة أسمعني هواء الطريق اللطيف بروح من عنده فتفتست تنفَّسًا عميقًا، وأحسنت انتعاشًا رَدَّني إلى السكينة. وجعلت أرفد: ما أحقني! وفي البيت لاقتني رباب بابتسامة وضأة فانبسط أسارىري، وسألته ضاحكًا:

- هل من جديد؟

- أتمني خطاباً جديداً؟

فقلت وما أزال ضاحكًا:

- نعم.

فقال مبتسم:

- كَلَّا انقطع البريد...

وغادرت البيت عصراً وليس لي غاية، وما كدت أستمق بمكاني في الترام حتى نشأت في صدري رغبة جميلة، هي أن أزور «السيدة» طالما كانت ملجئي وملأخي، ولم أتردد من تنفيذ هذه الرغبة التي ملكت نفسي. وعندما عبرت حتبة المسجد سرت إلى صدري نسمة ارتياح سعيده، وطافت براسي ذكريات محبة إلى قلبي. رأيتني وبين الخيال أسير ممسكاً بيدي أُمِّي إلى الضريح الطاهر. وذكرت يوم جاءت بي لأتوب عن الذنب الذي أكاد آلفه وأحتاحه. يا لها من ذكرى أعقبت ندماً وخجلاً حتى شمرت برغبة في التواري والفرار، ولكنني واصلت السير، نطقت بالضريح قارئاً الفاتحة، وتشجعت إدلالاً بمنزلي منذ الصغر عند صاحبه الطاهرة، فوضعت راحتي على الباب وغمغمت في ضراعة: «يا أُمِّ هاشم، أنت أعلم بقلبي وطيبته، وبأنِّي لم أضمر في حياتي أدنى لإنسان فاجعل جزائي من جنس عملي. هذا دهائي يا ست». وانتبذت ركنًا وترنَّمت على الأرض. سطعت أنفي رالحة ذكية لعلها كانت رذاذًا يرشُّه أحد المجلوسين، ونجاوبت في الأركان أصوات الدعاء يرددوها الطائفون، هل حين مضى شيخ غير بعيد يرتل بصوت مهموس آيات من الذكر الحكيم، وذكرت كيف انقطعت عن

فما العمل إذن؟ الصواب أن أتمس إجازة من الوزارة، ثم أفرغ للمراقبة في خفاء لا يدري به أحد. أيون عليّ أن ألتجسّس على «رباب» ١٩؟ ألا ما أشقّ هذا على نفسي، ولكن كلّ شيء سيون إلّا عذاب الشكّ...

## ٥٩

توقّيت للعمل وبني من الألم ما لا يعلمه إلّا الله، فخرجنا ممّا كعادتنا كلّ صباح وركبنا الترام ممّا، ثمّ نزلتُ في محطة الوزارة وناديت «تاكسي» وأمرت السائق بالذهاب إلى العباسية. سبقتها إلى مكان صمها لأهنيّ نفسي موضعا يصلح للمراقبة. وكانت الروضة تقع بشارع كمال - المتفرّع من الطريق العام إلى اليسار - على يمين الداخل بعد فوات بيتين من مدخله، وقفت في المحطة أتفحص ما حولي فرأيت شارعا فرحيا يقابل شارع كمال على الناحية اليمنى من الطريق تقوم على ناصيته قهوة صغيرة، بدا لي أن أجلس في هذه القهوة حيث يسهل رؤية المدرسة من بعيد، ومراقبة زوجي حين دخولها وحين خروجه. وأنجّمت إليها - وكان بابها يفتح على الشارع الجانبية - واخترت مجلسا على عتبة للدخل يمكنني أن أرى منه ما أريد رؤيته، وأن أتواري إذا دعا الحال بزحزحة الكرسي قليلا إلى الوراء. وأدركت من نظرة واحدة مقدار حقارة القهوة، فكانت موائدها قديمة وكراسيها باهتة رثة ورؤاها من النوبيين، ولكن لم أبال هذا، بل وجدت به مدعاة للمطامنية. جلست وعيناي لا تتحوّلان عن شارع كمال. وكلّما جاء ترام من المدينة اشتدّ انتباهي ويقظتي. ولم يطل بي الانتظار فإني لبث أن رأيت زوجي وهي تعبر الطريق متلفّة بمنّة وبسرة لتفادي من المركبات حتّى بلغت «الطوار» الأيمن لشارع كمال، ثمّ سارت بمعطفها الرصاصي المنمنم، بطولها الفارع الرشيق ومشيتها اللطيفة المهذّبة، في احتشامها المعهود ووقارها المحبوب ثمّ انعطفت إلى مدخل المدرسة وقد وقف لها الأبواب احترامًا، غلبي الحجل والألم لموقفي ذلك، وتركب قلبي المحترق بالمعطف والحبّ وأنا أذكر

ما معنى هذا؟ كان الأمر يزداد غموضًا، وسألته: هل تأتي من قبل العدوّ؟

- كلاً... كلاً... ناحية أخرى فتجنلي بها هومك.

- آية ناحية؟

- يأتيك الخبر من حيث لا تدري.

فتولّني الحيرة وتحمّيت لو يزيد بيانا، ولكنّه عاد يقول:

- إذا جدّت صعاب فسيذلّها هذا الحجاب ياذن الله.

وأعطاني لافاقة صغيرة جدّا من الورق مربوطة بخيط رقيق ثمّ قال:

- ضعه على القلب، وتوكّل على الله...



ذكرت في طريق العودة ما عانيت من ألم منذ عصر أمس فأيقنت أن سعادة عام لا تزن شعاع يوم واحد، لم أعتد إلى مرسي وما أزداد إلا حيرة وتبليلا. إنّ ما يظنني أحيانا من طمأنينة ما هو إلّا سحابة صيف، ولن يبدأ لي جانب حقّ ألقى الحقيقة وجهًا لوجه، ما كنت أحبّ أن تلوث نفسي بالشكّ في الوجه الصبيح الطاهر، ولكنّ بذرة الشكّ قد ألقيت في أعماقي ولن تزال تنمو وتثمر شوكها الجهنميّ. لقد شددت بقوة اليأس على أهداب الطمأنينة فتهدّكت ونحزّقت، وما أطبق أن أحتمل الحياة متردّدا بين ساعة سلام خادعة وساعات عذاب طويل، فما من عهد عن أن أرى وراء الحجب، قد يكون في ذلك هلاكي ولكنّ الحياة تقضي علينا في أحيان كثيرة بأن نجري وراء هلاكنا كأنه اللذّ المني. إني أحبّك يا حبيبي ولعلّ القدر قد رماني بهذا الحبّ ليقضي به عليّ، ولكن هل أملك ردّ قضائه؟ لعلّ أدرك الآن لماذا لم يكن يزياني القلق حتّى في أصفى ساعات سعادتني، أكان قلبي يشهد لحادث من القدور وراء ستار الغيب؟... على أنني لا أحبّ أن أتمادى في التشاؤم، فقد يكون المخوء على غير ما توقّع قلبي، وقد أجد به ما أنلّف عليه من طمأنينة وسلام.

وارتفعت في القهوة ضجة ضحك فانتشلتني من الأحلام، فعدت إلى عصي متباً كالمرضى، وألقيت نظرة على الوجوه السود الدافئة على ثرثرة لا تنقطع بأصوات غريبة مكهربة، ونظرت بين يديّ فإذا بفنجان القهوة لم يمس، فرفعت إلى فمي ورشفت منه رشقات باردة، وعدت بصري إلى الطريق حتى استقرت على باب الروضة. إن «رباب» تياشر الآن عمله في طمانينة، ومن يلدي فعلماً هذا الرعب كله أن يتمنح عن لا شيء، ولعل أن أذكر موقعي هذا يوماً فلا أداري عجباً. أنكذب هاتان العينان الصائيتان؟ أيفدر هذا القلب الطاهر؟ وتتابعت الدقائق في تفكير متواصل، حتى انتهت على طفلة نائمة وهي تفتح، فأنجبه بصري بحركة عكسية إلى الجانب الآخر من الطريق، فرأيت النافذة في الطابق الثاني من عمارة كبيرة وقد أطلت منها امرأة، ولعلها عجت جلوس أفندي مثل في قهوة التوبتين، فنظرت صوبى باهتمام، كان في عينيها جرامة، فارتد بصري في حياء. ومع أن هيئتي لم تثبت عليها إلا لحظات إلا أنها عادت منها بصورة واضحة لوجهها الغليظ وصدرها المكتنز، وداعني إحساس الفلق، لأن النافذة تطل على جلبي مباشرة، وقد رفعت هيئتي في حذر شديد فأريتها تدشن سيجارة وتنظر إلى شيء بين يديها على حافة النافذة، فتشجعت بتحول عينيها عني وأدنت إليها النظر. كانت فوق الأربعين إن صدق نظري - وقُل أن يصدق في تقدير الأعمار - وكانت على رضم ثآفها وتزيتها أقرب للدمامة منها للحسن، ذات وجه مستدير غليظ، وعينين بارزتين ثقيلي الجفنين، وأنف قصير أنفلس، وشفتين ممتلئتين، ووجتين متكوريتين متفخختين، وشعر جعد لامع. وما لبثت أن غابت من النافذة فكاد يذهب عني الفلق، ولكن باب شرفة تجاور النافذة فُتح على مصراحيه وبرزت المرأة من تحت كرسيها، ثم وقفت قليلاً مرتفة حافة الشرفة، فرأيت جسمها المكتنز المائل إلى القصر، ثم جلست على الكرسي واضعة رجلها على رجل. كانت الشرفة أقرب إلى الطريق العام من النافذة، فامكنتي أن ألحظ من فيها دون حاجة إلى

كيف بهرن هذا الجيال الوقور أول مرة، اللهم إذا كانت حبيبي ملكاً فلتحرقني بتمتلك وإذا كانت شيطاناً فلتحرقنا جميعاً، ولتحرق الدنيا معنا فما يكون بها شيء يستحق الرحمة، وارتفعت عيني إلى السماء وغمغت: «رَبِّا! إذا شامت ححكمتك أن تلز سموم الغدر في حنايا هذا الجيال فلتغفر لي الجنون والثورة».

وتفحصت الطريق أمامي متأملًا في رهبة: ترى هل أرى بعد ساعات من يقف متظرًا بموضع من هذا الطريق؟ هل أراها وهما يتبادلان إيماءة أو ابتسامة أو يلحق أحدهما بالآخر؟ ما عسى أن أصنع لو انقضت هذه الصاعقة على رأسي! وانتفض جسمي غضبًا ورجبًا وتحملت الكارثة كما لو كانت قد وقعت، تحملتني حتى تحسنت لانفاري، ثم تساءلت مرة أخرى عيا عسى أن أفعل! ليس أسهل من البطولة والنصر والبطش في أحلام اليقظة، ومع ذلك فلم يسعني الخيال بنفحة منها، ولعلهُ تخرج لأن الخطر الذي تهدني لم يكن بعيدًا بحيث يسمح له بالاستمتاع بأحلامه، كان على العكس قريبًا عملاً، فشكمت الأحلام، وتغلل في الموقف البشع في حدود الواقع، فتصورته بقلب حباب ونفس غلخلة القوائم، تمثل لي العدو شخصًا حقيقيًا في طريق مزحوم بالملازة فما أسعني الخيال على التصدي له جهازًا ونشر فضيحي على الملا، أو غرض معركة لا أشك أني ساكون فيها من الخاسرين! تصور زوجًا غلوعًا صريماً بكلمة من خادعه! تبأ! لكم حنفت في تلك اللحظة على ضعفي! غضبت غضب من يروم دك الجبال، وتهدت تهد من يحجز عن رفع حصاة، ولكن ما من الإقدام بدأ أأري «رباب» مع صاحب الخطاب ثم أقف مكتوف اليدين!؟ حال... لأهجم إذن على غريمي وليكن ما يكون، أو أقتن بمشاهدة الجريمة الساعية في الأرض، ثم أنتظرها في البيت حتى تعود وأقول لها بهدوء واستهانة: «لقد رأيت كل شيء بعيني، عودي إلى بيتك بسلام!». لماذا أقنمت على هذه الخطوة الجنونية؟ لماذا تزوجت؟ ما كان ينبغي لثلي أن يتزوج.

عطف رأسي، فاختلست نظرات من ساقها المرتويتين  
 السمرائين، وشبهها الأحمر الفاتح، وأنقذني وجودها  
 من تيار أفكارها الجهنمي وإن استحوذ عليّ ذلك القلق  
 الطارئ، وراحت تنفخ الدخان من شفتيها الغليظتين  
 وتقلب عينيها فيما حولها، وكلما التقيا بي تفتحتني  
 بجراحة منقطعة النظير حتى شعرت بحرارة الحجل  
 تلهب وجهي، وتساءلت في ارتباك: متى تحضي؟ فلقد  
 أربكني تفرسها في وجهي، ولعلّ ترك في نفسي أثرًا  
 آخر غريبًا لا يخلو من ارتياح حلو وانفعال جنسي لم  
 أعرف له سببًا. وكنت كليًا رفت إليها حين حركت  
 رأسها نحوي وحدجتي بنظرة وقعة ثابتة كأنها ترى  
 بأذنيها، أو أنها تتمتع بحساسية خارقة تنقل إليها  
 النظرات التي تصوب نحوها من أي مكان كان،  
 فركبني الحرف والحذر، وحرصت على ألا أرفع بصري  
 الفلق إليها. ترى هل يطول بي هذا الحذر والتوتر؟  
 وهل حين فجأة ردّ صوتها - صوت يمثل رثان - وهي  
 تقول وكأنها تخاطب أحدًا في الطريق: «إني قلعة يا  
 ماما» ثم خضت قائمة ومضت إلى الداخل! ولم أعمالك  
 أن ابست في استغراب واستنكار، فقد هالني أن  
 تقول «ماما» وهي المرأة التي جاوزت سنّ الشباب، كما  
 أدهشني أن تستجيب لنداء أمها بهذا الصوت الذي ردّ  
 في الطريق بلا داع، وكان يوسمها أن تلهب إليها  
 دون أن تبس بكلمة، أو أن تخاطبها عقب دخولها إلى  
 الحجرة، فبدت لي - إلى جراتها - غريبة الأطوار، محبة  
 للظهور ولتفت الأنظار، متجاهلة لسنن العقل الذي  
 تعتلّ ذروته. هل أتني سرور لدهائها، ولتخلّعي من  
 سطوة نظراتها، وعدت إلى نفسي، وإلى الطريق الذي  
 عليّ أن أراقبه حتى ينطوي النهار. وتتابع الوقت  
 فأتبعني ثقافه، واستحوذ عليّ الضجر. ألا يحسن بي أن  
 أمضي هنا وهناك حتى يقترب موعد انصراف الروضة؟  
 ولكن من يضمن لي ألا تحدث أمور في أثناء تجوالي؟  
 فلاظّل رمين مجلسي هذا حتى يقضي الله أمرًا كان  
 مفعولًا! ولبت بمكاني متجرعًا الصبر دقيقة فلسفية،  
 وجاءني صوت من الشرفة، فرفعت عيني، فرأيت المرأة  
 وهي تنقل الكرسي إلى موضع من الشرفة عملاء أشعة

الشمس ثم تستقرّ عليه... ولاحت منها نظرة إلى  
 القهوة، فلما وقعت عليّ لاح بعينيها الاهتمام والدهشة  
 وكأنها تتساءل: لماذا دعاني إلى ملازمة مكاني بهذه  
 القهوة الحفيرة طوال هذا الوقت، وتعمدت أن تظهر لي  
 دهشتها بغير ما حياء فلم يبق إلا أن تسألني عما يقيني  
 في مجلسي ذلك؟ وأشعلت سيجارة، وراحت تدخن  
 بتلذذ، وتتسلل بالنظر إليّ من وقت لآخر. وصممت  
 على أن أركز انتباهي في هدي، فأرسلت بناظري إلى  
 الطريق، ولكن ظلّ شعوري في شغل شاغلًا وتبددت  
 قوة إرادتي في مقاومة ما يجلبني إلى رفع بصري،  
 وغلبني الحياء والارتباك إذ تيمّأ لي - لضيق الشارع -  
 أنني والمرأة في حجرة واحدة. ولم أخجل من إحساس  
 بالارتياح منشؤه أنني أجد نفسي عطفًا نظرة امرأة لأول  
 مرة في حياتي، ولم بعد يخفى عليّ ذلك الانفعال  
 الجنسي الذي يبعث في أعصابي وجهها الغليظ وساقها  
 المرتويتان، ولئن كانت جرأتها قد أزعجتني فلم تعد  
 في نفسي إشارة من ارتياح شامض، لعلّه نوع من  
 الإعجاب الذي لا يريد أن يفصح عن نفسه،  
 وتساءلت في دهشة: ترى لو كان لجميع النساء ما لهذه  
 المرأة من جرأة أكنت أقطع ما خلا من زماني موحًا  
 بغير رفيق؟! وانسقت وأنا لا أدري إلى مقارنة هله  
 الجرأة الجذابة بذاك الاحتشام الجميل الذي تتحلل به  
 زوجي المحبوبة، ولكني سرعان ما أنكرت المقارنة  
 الوقحة، فاحتلات سخفًا وتقزّزًا، ولبت المرأة  
 بمجلسها ساعة ثم عادت إلى الداخل وأغلقت باب  
 الشرفة، فتهدت في ارتياح عميق وضمغمت: ولا  
 أرجعها الله، وانفرد بي الانتظار، ومر الوقت في إحياء  
 وسام، فجعلت أتلّس بمراقبة سعة أو سبعة من النوبيين  
 هم كلّ من بقي بالقهوة من الزبائن، وقد واصل ثلاثة  
 منهم التثيرة على حين جمد الآخرون على مقاصدهم  
 كتبايل من البرونز. وحينما أرمي بنظري إلى الطريق  
 العام أحيي المائة نساء ورجالًا، وأشاهد مركبات  
 الترام الداهية الآتية، أو أتساءل كليًا قرع أذني أزيز  
 ترام آت من بعيد أن يكون رقم ٣ أم رقم ٢٢، وهل  
 يمر مركبة مكشوفة أو مغلقة ثم أحيي مرآت الصواب



والحطاً. ولَمَّا آن وقت انصراف الروضة حاودتي  
اليفظة، ثُمَّ اشْتَدَّ بي القلق والجزع، وجالت عياني في  
جنبات الطريق ثُمَّ استقرتْنا على باب المدرسة، ولشَدَّ ما  
خفق قلبي حين رأيت جماعة من المدرسات يغادرن  
الروضة، وعلى أثرهنَّ خرجت «رباب» بصحبة فتاة  
من زميلاتنا، وانجھتا نحو شارع العباسية وهما  
تتحدثان وتضحكان. واخرتْنا في الطريق العام فالتجھت  
الفتاة إلى اليسار، وسارت زوجي إلى المحطة، ولَمَّا  
كانت وقفتها بحيث يَنْجُه وجهها صوب شارع القهوة  
الجانبية فقد تراجعت بالكرسي إلى وراء متحياً عن  
مرمي بصرها، وتفحصت الطوار بنائية وقلبي يكاد  
يذب من موضعه من شدة الخفقان فقد حدثتني نفسي  
بأنني سألتقى الضربة القاصمة بعد لحظات. وكان على  
وطوار المحطة شتيت من الرجال والنساء، ولكنَّ  
زوجي انتبذت طرف الطوار البعيد ووقفت وقفتها  
المحتشمة لا تليل برأسها نحو أحد، وتنتظر من أين  
لاخر من وراء كتفها صوب الجهة التي يأتي منها الترام،  
لم أر ما يرييني، ولم تتحوَّل عنها عياني لحظة واحدة  
حقَّ جاء الترام وصعدت إليه، ويارحت مكاني متعجلاً  
وناديت تاكسي وركبته وطلبت من السائق أن يتبع  
الترام عن بُعد وجلست لصق النافذة اليسرى وعيناي  
إلى مقصورة السيدات، حتى بلغنا العتبة، ونزلت  
زوجي من الترام واخترقت المبدان إلى محطة الترام رقم  
١٥ الذهاب عن طريق الروضة، فلدت بالتاكسي حتى  
وقف بي على كتب من قسم الموسيقى، رأيتهما تقف في  
زحمة من الخلق فجعل بصري يدور في الحلقة التي  
تحيط بها ويثبت عليها في مرعة وجنون، وجاء الترام  
فصعدت إليه، ومضى بها، فتبعته محطة بعد محطة حتى  
طوى الطريق إلى محطة حيارتنا ورأيتهما تغادره وتعبّر  
الطريق صوب البيت! وانطلق بي التاكسي محطة  
أخرى، ثُمَّ غادرته وعملت إلى البيت مشياً على  
الأقدام، وشعرت في طريق عودتي براحة مشوبة  
بخجل، وتساءلت في خيرة: ترى هل فتاتي بريئة أم  
ينطوي القدر على ما لم أعتد به في يومي؟ ولَمَّا انتهيت  
إلى الشقة وجدت أمي قلقة لاثخري، وكذلك «رباب»

فَسُرَّت لقبولي دعوتها وقالت برجاء:  
- ليترك تخرج معي دائماً فليس أحب إليَّ من أن  
تذهب وتجيء ممّا...

## ٥٢

وفي صباح اليوم التالي خرجنا ممّا كعادتنا، وأعدت  
ما صنعت بالأمس، فاستقلت التاكسي إلى قهوة  
النوبيين والتجّلت مجلسي بمدخلها، وجاءت رباب في  
موسع الأمس ومضت إلى الروضة، وخاطر لي وأنا  
أُنجمها عينيَّ أنه لو كان لها حساسية المرأة الغريبة - لم  
أذكرها منذ غادرت العباسية بالتاكسي أمس حتى وثب  
للحني هذا الحاطر - فالتفت صوبي ووقع بصرها عليَّ  
فداوت على عقيبها وجاءت إليَّ في دهشة تسألني عما أن  
بي إلى هذه القهوة؟! تصرّوت هذا المنظر في فزع،  
فانكمشت في مجلسي هلمّا، وعضني الندم والألم،  
ولكنَّ زوجي مالت إلى المدرسة آمنة مطمئنة، غافلة  
عن العينين اللتين تراقبانها في حذر وارتباب، حتى  
غَيَّبا الباب عن ناظرٍي، فذهب عني التوتر والخوف،  
وشعرت برهة حيال الانتظار الذي كان عليَّ أن أعانيه  
في تصبّر وتجلّد غاراً آخر، وألقيت نظرة دائرية ضجرة

الشرقة الحشيشي وجهًا لوجه، وليس بالشارع الجانبي دكان، ولا يكاد يمرُّ به أحد إلا فيها ندر، ولَمَّا زبائن القهوة فعاقدون على ثلثهم في الداخل لا يرون شيئاً، ومائتني بموضعها من المدخل وحيدة، فخلتنا منفردين على نحو ما. وشعرت في اللحظة التالية بالارتباك والخرج، ولم أدري كيف يمكنني البقاء هكذا تحت رحمة عينها الوقحتين، فتمنيت لو لم تحقق رغبتني الخفية، وجعلت أنظر إلى الطريق البعيد تارة، أو أعطف بصري من فوق كضفي إلى داخل القهوة تارة أخرى، شاعرًا في أثناء هذا وفلك بوقوع عينها الثقيلتين على وجهي. إنِّي راغب في وجودها ما في هذا من شك، ولكنِّي لم أحتمله، وما من مرة أسترقي إليها نظرة إلا وأجدتها متفرسة في وجهي في هدوء وإيمان وبلا حياة أو تردد، وإنَّ هذا ليملائي سرورًا وخفة ولكنه يسومي ما لا طاقة لي به من خجل وارتباك. إنَّ عينها تنظران طولًا ولكنَّها لا تنظران فحسب، إنَّهما تتحدَّتان بأجل لسان، كلُّها التقت عيناتنا خلقتها تخاطبي فأغضت الطرف وكأني أفر فرائًا. ونظرت نحوها مرة فوجدتها تشعل سيجارة، وأطفاقت عود الثقاب بهزَّتين ثم رمت به نحوي لولا أن أرجعه الهواء، وأخذت نفسًا عميقًا وقد ابتسمت عينها؛ فحققت قلبي بعنف وازددت ربي بصعوبة... ماذا تريد هذه المرأة؟... كيف تواتبها الجراحة على هذا النظر العارم الوقح؟ بل كيف تطاردني هذه المطاردة الصامتة وهي لم تسبق لها أي معرفة، ولم ترني إلا مرة بالأسر ومرة أخرى اليوم. واستحوذ عليَّ الاضطراب، وشغلت بالشرقة اشتغلاً تامًّا فلم أعد ألقي حل باب الروضة إلا فنظرات سريعة لا تكاد ترى شيئاً. ورأيتني أنظر نحوها فوضعت رجلًا على رجل جانبًا عينيَّ قهراً إلى جانب عريض من فخذها أحدث التناؤما واشتباكها طيات سمراء مثيرة فشعرت بمثل سورة الحمر وجفَّ حلقي وطفئت عواطفني على حياتي فذاب كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس النارية فحملت فيها بلا خجل ولا تردد، وما لبثت أن نهضت قائمة وغادرت الشرقة تركني في ثورة جاعة. وقلت لنفسي ساعطًا: أيَّة هاوية تنفغر تحت قدمي! ثم

على شارع القهوة الجانبي وما يبدو لي من شارع العباسية والقهوة بزبائنها السود، تلك الأماكن التي قضي عليَّ بأن أمكث فيها كالسجين المجنون المحبَّب في دبابير الأفكار وشوارد الأحياء الجهنمية... ولكنني كنت ذكرت المرأة الغريبة وأنا أراقب زوجي في ذهابها إلى المدرسة، فرفعت عينيَّ إلى الميارة على الجانب المواجه للقهوة، فرأيت النافذة والشرقة مغلقتين، وتساءلت كيف لي بتحمُّل الانتظار نهارًا كاملاً بلا تسليّة أقتل بها الوقت؟ وكان تساؤلًا مريبًا أداري به رغبة في رؤيتها كرهت الاعتراف بها، ولكن ماذا يدعوني إلى إنكار هذه الرغبة؟ وهل هي رغبة في التسليّة وقتل الفراغ؟ أجل إنَّ المرأة قد أهاجت في صدري انفعالا جنسيًّا، ولكن ليس في هذا جديد، فقد كنت ولا زلت أثقلُ هذه الانفعالات الجنسية من أقيع الأدميات، وأقلدِهم. ولم يغيّر الزواج من حالتي، ولم يشفي من دائي، فَرُويدت إلى عاداتي القديمة جميعًا، وعادوت النظر إلى النافذة مرة أخرى، وكأني أمان انتظاري! فلأحاول فهم نفسي أكثر من هذا، لست طالب تسليّة فحسب، إنِّي أرغب في رؤيتها مرة أخرى، لتلتهمني بنظرها كما فعلت بالأسر فعاودني ذلك الشعور العميق بالارتياح والزهو، وأسترد بعض الثقة المسلوقة، ولم أكد أستغرق في أفكارٍ حتى قرع أذنِّي مطلقًا النافذة، فرفعت عينيَّ، فرأيتها وهي تفتح على مصراعها، ولاحت وراءها المرأة، والتقت عيننا، ولم تكن تتوقَّع رؤيتي بطبيعة الحال. فتجلَّت في عينها دهشة واضحة، ولبثت دقيقة أو نحوها وهي تنزل إليَّ ثم تحوَّلت عنيَّ واختفت، ودخلتني سرور لا يتناسب مع شقاء المهمة التي جئت من أجلها إلى هذا المكان، وأجَّه بصري صوب الشرقة المغلقة منتظرًا أن تفتح. وقد كان. فدفعت يد مصراعها حتى اصطدما بعنف بالحائط على الجانبين، ثم دخلت للمرة ثالثة الكرسيَّ بجسمها الصغير المكتنز، وقد بدت لي في الروب الوردِي كبرميل إلا أنَّه مفصَّل تفصيلًا بيوميًّا، ووضعت الكرسيَّ في ركن الشرقة البعيد. وجلست عليه مستقبلة القهوة بوجهها ومدَّت ذراعها على حافة

إلا إحساساً عابراً، ولم يبق منه أثر في اللحظة التالية. وغشيتني بعد ذلك كآبة وامتناع، ولم تلبث المرأة أن غادرت الشرفة تلبية لنداء من الداخل كما دلّت عليه استجابتها فلم تعد للظهور. وانتظرت طويلاً تتناوبني الأفكار والأخيلة المقزعة حتى انطوى يوم الانتظار ورأيت رباب - كالأمس - قادمة نحو المحطة. ولم يجد جليد فرجنا، هي في الترام وأنا في التاكسي. وعند المساء اقترحت عليّ أن نذهب ممّا إلى سينا رويال فقبلت بلا تردد، ونعبتنا ممّا.

### ٥٣

وفي صباح اليوم الثالث حملني التاكسي إلى نفس الهدف، وذكرت في الطريق المرأة الغريبة فتمثلت لعينيّ بوجهها الفيلزي وجسمها القصير المكتنز. ولم أكن أذكرها لأول مرة ذاك الصباح، فقد لاحظت لحاظي في البيت وأنا أخلّ زيتي أمام المرأة فكانت داعياً لمضافة العناية بتمشيط شعري وعقد رباط رقبتي، وتولّاني إحساس بالخجل والذنب والقلق، وألقيت تبعه هذه الورطة على رباب وسوء تصرفها الذي ساقني إلى هذه المراقبة الحمقاء ولكن هل أستطيع أن أتحقّ علم ظهورها في الشرفة صادقاً؟ هل يمكنني احتياح يوم الانتظار الطويل بغير وجودها، وبغير وقاحتها الممتعة؟ وأنجلت مجلسي من القهوة فجاءني النادل ذو الجلباب الباهت، والمطابقة المائلة إلى قذالة كاشفة عن ذؤابة متصلة، والنعل النجس، وحياتي تحية لعله لا يلقيها إلا للزبائن القدماء، فطلبت القهوة التي أحسوها بتقرّز واستكراه، وتساءلت محتضناً ماذا وراء هذا التجسّس المقيت؟ ألا يحمل بي أن ألقع عمّا أخذت نفسي به ظمناً وسوء ظن؟ لقد عاشت زوجي يومين كاملين في تناول بصري فهل وقعت منها على ما يريب؟ هل لاحظت عليها ضيقاً أو تريباً؟ أليس كالمهد بها صفاء ومودة وسعادة؟ وطاب لي الفكر فداخلي شعور بالطمأنينة والارتياح، وترّقت فسارعت إلى الليل، ونظرت في الساعة، ترى هل أستخيرها عمّا فات من زمن أم أسأله متى تفتح النافذة؟ ومهما يكن من أمر

ثبت إلى الهدوء وريداً فأمضيتي الأسف والخجل والقيت على الشرفة نظرة غاضبة وغمغت كما غمغت بالأمس: «لا أرجعها الله!». قد يكون الانتظار مؤلماً ولكنه خير من هذا الشرّ الذي يتهدّدي. ولم يكن يساورني شكّ في أنها ستعود، وكان بوسعي أن أغادر القهوة إلى غير عودة، وأن أبحث عن مكان جديد يصلح للمراقبة والانتظار، ولكنني ألتفت نفسي بأنّ هذه القهوة الثوارية هي أصلح الأماكن قاطبة لمهمني، ولم تطل غيبة المرأة فعادت إلى مجلسها وفي عينيها نظرة باسمة، ولكنني الغضب لا لعودتها ولكن للسرور الذي استخفي. وقلت امرأة وقحة ما رأيت أغلظ ولا أقبح منها، ولكنني عدت أحاسنها النظر وأتمقّ لو تأخذ راحتها وتضع رجلها على رجل. وعدت أتملّ إثارةها لي بالنظر والاهتمام فازدهاني عطفها وشعرت بنهم الجائع إلى الاستزادة منه، وهل كان هذا الاهتمام إلا لجلباب وجهي ورشاقة قوامي! وقلت لنفسي في غرور صيانيّ لعلها معجبة بالأعين الخضضر والبشرة البيضاء والقامة الفارعة. وهل حين بفتة أنسلّ إلى خاطري صوت هامس يتسائل في سخرية: «وهل أغنى عنك جمالك شيئاً؟». وتمثلت لعينيّ تعاسي الزوجية فكان قطعاً كبيرة من الثلج وقعت على فورة حماسي فأخذتها وخفقت أنفاسي. فترت نشوي وحلّ عملها شعور بالغ بالشقاء والحيلة، وتناصيت الشرفة، وهرعت أفكارني إلى الروضة فتمنّيت لو تنكشف لي الحقيقة مهما كانت بشعة قاسية لانتهى من الأمر كله. تمّنت - إذا لم يكن من الأمر بدّ - أن أرى صاحب الخطاب يلاقي رباب ويحادثها اليوم لا غداً ولا بعد غد، بل كان في ذهني شيء آخر - في تلك اللحظة - لا أدري كيف أعبر عنه. كأنني تمّنت أن يصدق سوء ظني! لست عطفاً، كان هذا هو الواقع، ولكن كيف أفتره؟ هل ثقل عليّ الشكّ فرغيت أن أنجو منه ولو بهذا الثمن الفادح؟ أو ضقت بهذا العجز الغريب الذي يجعل من حياتي الزوجية مهزلة فتمنّيت أن أجد في جريمة زوجي مهزلاً من حياتي؟ أو كان ضميري الرزاح تحت وطأة الشعور بالإثم يلتمس عقاباً وتكفيراً؟ على أنّه لم يكن

أثساعاً. وغلقتي ابتسامة فابتسمت وأنا أطرق في خجل لا يوصف. وأطلقت هذه الابتسامة شحنة حبسية من ارتباكك لشرطي عني قليلاً، واستطعت أن أحس بما يستخفي من سرور. وشعرت شعوراً قوياً بالفارق بين عمرينا فللني هذا الشعور، وتمتت لو يتفكر بي العمر إلى العشرين أو ما دونها. وبهاء...  
 إني أهوي بلا وازع. ولكني لم أعد أبالي شيئاً. ولاحت عني الضمّة إلى شارع كمال فصادفت عند ناصيته شبح فتاة تنعطف إلى اليسار فحال بيني وبينها جدار القهوة. خلعتي رأيت معطفاً رصاصياً كمعطف رباب فخلق قلبي خفقة عنيفة كاد ينخلع لها. ما الذي دعهالها إلى مغادرة المدرسة في هذه اللحظة؟ وما الذي جعلها تتجه إلى اليسار عل حين أنّ طريق المحطة إلى اليمين فيها لو فرض أنّ علزراً دعهالها للعودة؟... وانفضت قائماً وهولت مسرعاً إلى الطريق العام بلا تبصر ولا احتراس، ثم نظرت صوب المنعطف الذي سارت إليه ذات المعطف الرصاصي، فرأيتها: كانت امرأة في الخمسين تحت الحطلى على الطوارا وتنبّدت من الأحياق وغمضت كعادتي كلياً نجوت من مازق وأهوذ بالله من الشيطان الرجيم»، وعدت إلى مقعدي وهي ما يشبه الإعياء والخور. لن أنسى هذه الخفقة التي كاد يتصدع لها صدري، فهذا يكون أمري لو وقع المحلورا ورفعت رأسي صوب الشرفة فرأيت المرأة تمحلق في وجهي دهشة وحينها تتساءلان عنيّ حلّ بي؟  
 وارتمست على شفهي ابتسامة! أجل أنساني الانزعاج خجلي فابتسمت. لم يعد يخفى ما بيننا من ابتسام، وحديث صامت يعبر تارة بالعين وتارة بالحجاب! ولم يعد يخفى عليّ ما يعتلج في صدري من عاطفة جهنمية. ولو كان ما بي حبّ لركبني الخوف وقدرت العواقب، ولكن بدا لي الأمر واضحاً لا لبس فيه فلم تزايلني الثقة. ولبت ساعة أو أكثر أتلقى هذا الغزل في صمت وحياء وسرور جنسيّ عجيب، ثم نهضت المرأة قائمة وهي تتمكّي فافترج الروب عن صدر ريان متفخ يكاد يتهكّك من ضغطة القميص الوردّي الشفاف، ثم ألقت عليّ نظرة وداع باسمة، وغمزت

فقد فتحت النافذة ولاحت وراءها المرأة بغلاظتها وتبرّجها. أئسمت عينها البارزتان دهشة ورفعت حاجبها المزججتين كأنها تقول: «أما زلت ملازماً مكانك!» ثم خفضت رأسها لتسواري عن عينيّ ابتسامتها وخلق قلبي خفقاناً سريعاً في سرور، وعادوني الحجل من نفسي فجعلت أقول لضميري بأنني لا أتطلع لإثم، وإن مثلي حقيق بأن يسر إذا ما وجد من امرأة اهتماماً، أجل إني يريء، وما جئت هذه القهوة إلا لفرض لا شأن له بهذه المرأة، وسائق قطع بعد يوم أو يومين عن هذا الحنيّ كلّ فلا أعود أذكرها بخير أو بشر. أمّا المرأة فقد اخضت من النافذة، ثم فتحت الشرفة ودخلت بكرسيها، وجلست في الركن المواجه لي، وفي عينها ابتسامة من لم يعد بحاجة إلى تعارف. بتّ اليوم أقدر على احتمال هذا الموقف، ولكنني ما زلت أنتظار بالنظر إلى الطريق العام مختلساً من أن لأن نظرة إلى الساقين المملججين خلال قضبان الشرفة الحديدية، ولم يفارقني الارتباك بل لعله تضاعف بهذه الابتسامة التي تلوح في عينها كلياً التقت عيننا، يا لها من امرأة جسور، بوسمها أن تفعل ما تشاء بلا خوف، أمّا أنا فليس لديّ إلا غرض البصر! أهدور لها بخلد آثني متزوج؟ وأني ما جئت إلى هذه القهوة إلا كي أضبط زوجي مثلية بجرمة الخيانة؟! ترى هل تبقى على اهتمامها بي إذا عرفت هذا كله؟ شعرت عند ذلك بخزي أليم. ثم سألته نفسي عنها من تكون. أهي زوجة أم أرملة؟! وماذا تريد؟! وحدث أن ارتفعت المنضدة يساري وافتترشت ظاهر يدي بلفظي، فما كان منها إلا أن ارتفعت حافة الشرفة يسراها وافتترشت يدها بلقنها وهي ترنو إليّ في دحابة! وتلفّيت الدحابة بخجل جعلني لا أرى شيئاً وأرسل قلبي ضربات عنيفة طقت في أذني. إنّها تغازلني صراحة، وأشعر بأنّ «الرجولة» تقضي بأن أخرج من هذا الجمود ولكني لا أبدي حراكاً، واشتدّ بي الارتباك فبتّ في حال يروني لها. وسحبني يساري، وشبكها يميني على صدري فيما أسرع أن سحبت يدها وشبكها بالأخرى على صدرها وقد ازدادت ابتسامتها

أيسر عما أتصور. ما أظن هذا، ولكن ما أروحه لي كذلك، فإذا لم يكن من الكارثة بذ فمن الرحمة أن تقع سريعاً، واستحوذ عليّ القلق والجزع، وأبقت أمني لن أستطيع مع اليوم صبراً. ولاحت مني التفتة إلى النافذة المغلقة فتعلق بها بصري فيما يشبه الاستغاة، وفلكني إحساس عنيف بالضغط الذي يتصرني وتلهفت نفسي على منفذ تسرب منه بعض الأبخرة المزججة في أعناقها. أئني تنفيس ولو جزّ وراء الإثم والحرز.

وعند العاشرة فتحت النافذة وطالعي الوجه الغليظ بإتسامة مشرقة. وتحول انتباهي إليها فأنقذني من نفسي، وثبتت عيني عليها في جراحة لا عهد لي بها، وانبطت أساري وأنا لا أدري فرقت التحية بملها. واختضت من النافذة فسبقتها عيني إلى الشرفة ولكن طال الانتظار عن المعتاد، ثم بدت مرة أخرى في النافذة، فإذا بها قد ارتدت معطفاً وأخذت أميتها للخروج. وخطر لي خاطر الكبرق، هل تدصوني إلى مرافقتها إلى مكان ما؟ وغمرتني موجة من السرد والحيرة والخوف. ما أسوجني إلى غله الدعوة، ولكن هل أترك رباب في هذا اليوم الحاسم؟ إنّه بالعمى كله، وإنّ مصيري معلق بمصر الجديدة فكيف أقام دعوة المرأة إذا دعيت؟ وفرغت المرأة من زيتها، ثم وقفت تنظر إليّ في هدوء وإبتسام. ونظرت إلى شيء بين يديها فتبعتها بصري فإذا بأناملها تطوي ورقة صغيرة، ثم تثنيها من الطرفين، وتقصص الطريق بنظرة شاملة ثم رمت بها فسقطت على كتب من قلبي... وتناولتها بعجلة وبسطها وقد سطع منها شذا طيب غمر فوجدت بها خزين السطرين وانتظري اليوم في تمام الساعة مساء عند الجسر في نهاية خط الترام. ودخلني ارتياح إذ إلتها منحتني مهلة عن غير قصد، ولكن تري هل يسمى إنجاز الوعد إذا ارتبطت به؟ ألا يقع في مصر الجديدة ما يعوقني عنه؟ ولم أجد فسحة للتفكير والاختيار فقد حلجني بنظرة متسائلة وهزت رأسها مستفسرة، فلم أملك أن حثيت رأسي بالإعجاب. وإبتسمت إليّ إبتسامة حلوة وحيثني بإقامة من رأسها ثم أغلقت النافذة، فلدركت أنّها ذاهبة إلى

بعيها قبل أن تغيب وراء الباب، تركتني في معبر التهمت ناره ساعسات الانتظار الباقية، وفي معاد الانصراف غادرت رباب المدرسة وأتجهت كالمادة إلى المحطة. وعدنا إلى البيت كلّ على طريقته. ولم نخرج مساء إذ زارتنا أختي راضية وزوجها فقصينا سهرة عائليّة متممة.

## ٥٤

اليوم الرابع، قالت لي رباب ونحن ننتظر الترام على طوار المحطة:

- سأتاخر اليوم عن معاد عودتي لأنّي سأعود زميلة مريضة تغيبت عن المدرسة من يومين.
- وألقت عليها نظرة مريبة لو رأينا لساءت العاقبة.
- ثم خفضت بصري بسرعة، كاطماً عواظي، وسألتها بصوت ينم عن عدم الاكتراث:
- أين بيتها؟
- في مصر الجديدة.
- ومتى تعودين؟
- وقت الزيارة ومسافة الطريق... لن أتأخر عن السابعة.

بدأت تتلمّص من ظلي الثقيل! واختلست منها نظرة فبدت لي جميلة رائحة، ثم ركبتني نزوة طارئة فتحمّيت لو أموي عليها بفأس فاشقها نصفين. وجاء الترام فصعدنا إليه وأنا في أسوأ حال، وغادرت عند محطة الوزارة وناديت التاكسي، فطار بي إلى فهوة الزبّيين. واستقبلت النافذة المغلقة بنظرة طويلة، ثم عدت إلى أفكار. تلك الزيارة في مصر الجديدة لن أدها تذهب وحدها. كان تصميمي لا رجعة فيه ولكن هل ينجح مساعي؟ هبني تأثرتها إلى مصر الجديدة ثم رأيته وهي تدخل بيتاً أو عبارة فمن يدري بما يقع وراء الجدران؟ قد تكون في عبادة زميلة حقاً، وقد تكون في أحضان عشيق! وانتفضت انتفاضة قاسية، وعضضت على أسناني حتى سمعت صريرها كالقطعطة. ولكني أبيت أن أبطل عزيمتي. لأتبعها فلعلّي أراها ممّا في الطريق، ولعلّي أجد ضبط الجرعة

من هذه الحياة المرة الطافحة بالحقبة والشك. سيتهي كل شيء بعد دقائق معدودات، فلا يبقى دافع لأن أسأل نفسي أمي بريئة أم مذنب، ولا يسوقني وسواس لتجسّم أهوال المراقبة والتجسس، وسيخلو البيت إلا من الوجوه القديمة الآمنة، والحياة الهادئة الوداعة. أجل وددت لو أحطمت الرأس الذي حطمت قلبي، ولكنني أضرت بنفسي عن أن تضع بسبب امرأة أمة. كان غضبي قوياً وحشياً، ولكن حبي السلامة كان أقوى وأعمق. ألم يكن غريباً أن تدور أفكاري حول عوالم الخوف والسلامة حتى في تلك اللحظة المخيفة؟ وترامت لي العناية فتساءلت مرة أخرى أين تغادر الترام؟ ورأيتهما في محطّة الميدان شامخا كل يوم، فنزلت من التاكسي أن أقدحها في الميدان المكتظ. ثم رأيتهما تحترق إلى المحطّة الأخرى التي تنتظر بها عادة، فدرت مع محيط الميدان ووقفت عند جدار القسم. وما أحسّني إلا أن تقف في احتشامها المألوف هادئة ساكنة كأنني لا أشغل من أجلها نازلاً. . . واستبعدت أن تقابل أحداً في هذه الزحمة فتطلّعت إلى رؤية الترام الذي تصعد إليه، وتتابع المركبات بأرقامها المختلفة حتى جاء ترام الروضة فسارعت إليه واستكنّت في مقصورة السيّدة. وتولّتي اللعشة، أيكون الأمر في حيناً؟ وهرعت إلى تاكسي وتبعته الترام. وجعل قلبي يدقّ في حنف، وتشدّ ضرباته كلّها مررنا بمحطّة. . . ثم دخلنا شارع قصر العيني، وقطعنا محطّة وثانية وثالثة ورابعة حتى بلغنا محطّة بيتنا، فما راغبي إلا أن أراها تغادر الترام. ونظرت من نافذة التاكسي الخلفية فرأيتهما تعبر الطريق وتدخل باب عمارتنا! وتوسّدت مسند المقعد وأخضعت عيني في إحياء وذهول. ماذا وراء هذا كله؟ هل فقدت عقلي؟ أم من نهاية هذا العذاب؟ وعدت إلى البيت فوجدتها لم تكد تفرغ من ارتداء الروب بعد أن خلعت ملابسها، ولادعوتها قاتلاً في دهشة:

- حسبك في زيارة زميلتك!

فاقتّر ثغرها عن ابتسامة وقالت:

- لم يكن بها إلا وعكة خفيفة وقد عادت اليوم إلى عملها دون أن تجسّم أحداً مشقة عيادتها.

زيارة أو نحوها. هكذا ارتبطت بالموعد مدفوعاً بضغني الذي يجهل المقاومة وإن كنت لا أدري أين أكون وقت أزوفه، وهكذا سقطت في نفس الخطيئة التي اتهم بها زوجي! أتخيل بي أن أسرّ بهذه الخطوة الجسور أم أندم عليهما؟ وهل ينتهي اليوم بحب أو بمأساة؟ لشدّ ما كرهت الحياة في تلك اللحظة. واتدجّجت في تيار شعوري ألوان من المشاعر المتناقضة من سرور إلى خوف، ومن أمل إلى يأس، ومن حماس إلى فتور، ثم علته موجة طاغية من التلهّف على المغامرة لوأدّا من الهمة الذي ينبّج عليّ فيكاد يجرم بي الأرض. وطويت الورقة بعد أن تولتها عشرات المرات ثم دسستها في جيبتي. وانفردت في الانتظار حتى فتحت الروضة أبوابها ولاحت لي رباب قادمة من بعيد. هذه هي الساعة التي أترّص بها منذ أربعة أيّام هي أشقى أيّام حياتي. سأبتعها ما في ذلك شك تاركاً الموعد للظروف وحدها. وتوقّعت أن تميل إلى اليسار، صوب محطّة الترام الصاعد إلى مصر الجديدة، ولكنّها عدلت إلى اليمين، إلى المحطّة المعتادة التي تنتظر بها كل يوم! وأدركت لتؤي أنها اختلقت قصّة الزميلة المريضة لتنتحل علزاً لغيابها، واضطرب صدري اضطراباً لم أدر كيف أمثالك أنفاسي. هل آن لي أن أنتهي من هذا العذاب؟ ورمقتها بموقفها من الطوار بنظرة نارية وأنا أعجب لهذا الاحتشام الزائف الذي يطوي في أعماقه شراً ظليماً وفسقاً مخجلاً. ثم جاء دور المطاردة التي أرجو أن تكون مجدية هذه المرة. فصعدت إلى الترام، وناديت التاكسي، وجعلت ناظرني إلى مقصوريها لا تتحوّلان عنها. ترى أين تغادر الترام؟ أين تفعل فعلتها؟ لشدّ ما يكبر عليّ أن أنصوّرها في أمثال هذه المواقف المريبة! ولئن تكذّبتني الحقيقة الواقعة وتكشف لي عن وجهها الشائه اللميم فما يشعني ويطغى عليّ أن أدرك رأسها بأحجار هذه المدينة المائلة، ماذا يدفعها إلى هذا الانزلاق الآثم هي التي تمتع عن علاقة الزوجية المشروعة؟ أم إنّها لا تبغيها إلا عوجاً؟ لشدّ ما مرّقتني الحيرة، لشدّ ما عذبني الغضب والحقد. هل أنني منيت نفسي بالراحة من هذا العذاب كله، والخلّاص

للمساءة؟... آ... لا يزال أمامي متسع للهروب. ولكنني لم أبعد حراكاً. إنّ هذه المرأة هي فرصتي الوحيدة لاسترداد الثقة الضائعة. وملكتني روح مغامرة لا عهد لي بها قالت لي: جرب، لن نحسر شيئاً، وعلى أسوأ الفروض فلن نحسر شيئاً جديداً... واستيقظت من أفكارني على سيارة متوسطة الحجم تقف أمامي بحذاء الطوار، ثم انخفض زجاج نافذتها الجانبيّة وبرز منه وجه المرأة الغريبة وهي تجلس أمام عجلة القيادة.

ابتسمت إليّ، ودعيتني إلى الالتفاف حول السيارة لأجلس إلى جانبها من الباب الآخر، فاطمعت في اضطراب وفي أقلّ من ثانية كنت إلى جانبها، فجلبت الباب والتصقت به وأنا لا أكاد أشعر بما حولي من فرط الحياة. وأحسست بعينها على خديّ اليسرى، فلازمت النظر إلى الأسفل، حتّى ضحكتم ملء فيها بصوت يُمدّ إلى غلظة وجهها وجسمها رقيقاً وقالت بلهجة تنمّ عن التعريض:

- لم يعد من داعٍ للحياة

وانطلقت بالسيارة في مهارة وبسر وهي تقول:

- لنذهب إلى طريق الأهرام...

انفجعت بسرعة فائقة فوّلّي قلبي خوفاً، وجعلت كلياً اعتاقها عن الاندفاع زحام أو إشارة المرور تُتّسّس الصعداء... والأصعب من هذا أنّها خفّفت من سرعتها الجنونيّة حين تركت ورامها الطريق المزروحة. واستردت أنفاسي، واسترقت إليها النظر، فرايت جانباً من وجهها الغليظ عن كثب، وذلك الصدر المكتنز، ومثل لعيني صورة ساقها البرونزيّة الرتوية، وذكرت أنّ قيراطكا واحداً يفصلها عن ساقني، فاضطرب دمي. وأدهشني هدوؤها وطمأنيتها فكانتا تصاحب زوجها أو أخاهما لا رجلاً غريباً لا يتمالك نفسه من الحياة والارتباك. سألتني دون أن تحوّل عينيها عن الطريق:

- ماذا أهدوك؟

فقلت في انقباض:

- كامل رؤية...

واكتفيت بذلك عن ذكر اللقب الذي كثيراً ما يثير

تري هل تنتهي وساموسي جيماً إلى قبضة من الریح؟ ولا أتمنّى على الله من شيء إلا أن أسكن إليها في طمأنينة وسلام. وقالت لي وأنا أبذل ثيابي:

- دعيتني خالتي بالتليفون إلى زيارتها مساء اليوم وكلفتي أن أنوب عنها في دعوتك...

فقلت لها وأنا لا أدري ماذا أقول:

- إن شاء الله.

وأدرت في اللحظة التالية أنّي تسرّعت بإجابتي تلك إذ ذكرت الموعد عند جسر العبّاسيّة. ولكن هل أروم حقاً أن أذهب إليه؟ إلى الآن بعيد عن النافذة والشرفة وتأثيرهما أشلا أزال أفكر في المرأة تفكيراً جذباً... أيّ شيطان يخرّزني؟ إنّ قلبي لحبيبي دون سواها، فما بال نداء المرأة الغريبة قهّاراً لا يقاوم؟ وتفكرت طويلاً وما أزداد إلا استسلاماً للنداء الشيطانيّ، حتّى لم يعد يحول بيني وبينه إلا ما أخلت به نفسي من ملازمة زوجي مساءً. ولكن أكانت تدعوني إلى زيارة خالتها لو كانت تضم سرّاً؟ وعاصدت التفكير في جهد لآله ليس أشقّ عليّ من الاختيار بين أمرين. وتركت طويلاً قبل أن أقول:

- أوه لقد نسيت... إلني مرتبط بموعد هام...

فتساءلت فيها بشبه الكدر:

- أتمني أنّك لا تستطيع الذهاب معي؟

فقلت وأنا أشعر بأنّ قلبي تنزل إلى هاوية ما لها من قرار:

- اعتدري عني للست خالتك...

## ٥٥

بلغت جسر العبّاسيّة قبل الميعاد بدقائق... كان الجو لطيفاً والظلام شاملاً فاخترت موقفاً تحت مصباح غازي... ذهبت إلى الموعد بحال من القلق والتوتر ذكّرني بحالي يوم حملتي العربية إلى حانة شالوح الألفي لأوّل مرّة... كلّ هذا من أجل امرأة لا جمال لها ولا رشاقة، يضجّني والله أن أظهر معها أمام الناس! ولما اقترب الميعاد ركبتني الخوف الذي تنلوني كثيراً في فترة الانتظار منذ العصر، ماذا يحدث لو تكرّر وقوع

وأغرقت في الضحك ثم قالت:

- نحن في السيارة لا في الطريق. إلا أن الطريق نفسه لا يمنع أمثالنا من الالتصاق إذا شاموا. لا تتواز وراء الأعداد الكاذبة. خبئي ما عمرك؟ ١٩.

- في الثامنة والعشرين من عمري.

- يا للعار!... وكم امرأة عشقت؟

ولدت بالصمت شاعراً بأنه لا يقبل لي بها. وكأنيما عجبت لصمتي فقلت بإنكار:

- أريد أن تقول إنك لم تعشق امرأة من قبل؟ ١٩.  
وهل أنا أول امرأة في حياتك؟... ربه وعيونك الخضر ألم تجلب أحداً؟ لا شك أنني أدرتك وأنت مشرف على الغرق، فليجزني الله حل صنيعي خير أجزاء... ربه من يصلق هذا؟ كيف تعيش وماذا تصنع بحياتك؟

ولم أحر جواباً، وأثر في قولها تأثيراً موجعاً لم تدرك كتبه. ولعلها قرأت في وجهي الارتباك فسرحتي بالصمت ملياً. ثم سألتني عن عملي فأجبته بأنني موكلف... واستدرت قائلاً إنني في إجازة قصيرة. وساد الصمت مرة أخرى، وفي أثناء ذلك ترحزحت قليلاً صوب حق مس منكمها منكمي في رفق، فبعثت في قلبي للتمكش حياة وبقطة فتتابع وجيبي على نحو في وعجولي ولما لازمت جمودي والتصالي بالباب قالت باقتضاب وهي تكتم ضحكة:

- متى خطوة ومنك خطوة. ألا زلت هيئاً؟ ١٩

ولاقى متي النداء نفساً راغبة وقللاً خائفاً، ولكن جاللت الخوف بمجالدته وترحزحت في حذر وإشفاق حتى مس جانبي - من أسفل الساق إلى أهل المنكب - لمحا طرياً يطاير منه عرف طيب ساحر، وليت هنيهة متمكناً مسه اللهدل وكل جوارحي تنتفض، حتى التفتت نحوي وشعرت بأنفسها تتردد على خدي، وهمست في أذني:

- أما زلت هيئاً؟ ١٩

كلا، لقد أسكرتني العاطفة. وكانت انفاسها لا تزال تتردد على خدي فيال رأسها نحوي حتى غاص فمي في شفتيها الرابيتين وسرعان ما حوالت رأسها عني

الضحك، فتمتت قائلة وعاشت الأسياء، وشعرت بأنه ينبغي أن أسأله كذلك عن اسمها. وتخبرت عبارة مناسبة، واستجمعت قواي للفظها، ولكني لم تنتظر، وقالت ببساطة:

- ادعني عنايت إذا شئت.

وغمغمت في خجل وعاشت الأسياء ولكني لم تسمح إلا مساً، والتفتت نحوي فجأة وقالت مبسمة:

- يا له من حياء غريب! ألم تعلم بأن الحياء موضة قديمة؟ وأن العذارى أنفسهن نبذته بلا أسف؟ فقيم تستمسك به أنت؟

فندت عني ضحكة مرتبكة ولم أنبس بكلمة، فاستطردت قائلة:

- ولكن دعنا من هذا الآن فالدواء الناجع لا ينفع إلا في حينه، وخبئي بالله عليك ما الذي دعاك إلى غخالقة النوبيين في تلك القهوة القلدة؟ ١٩

وتفكرت قليلاً متحيراً حتى وجدت في الكلب منجى فقلت:

- كنت يوماً راجعاً من مشوار طويل فلم أجد من مكان أستريح فيه إلا هذه القهوة.

- هذا عن أول يوم، وما قولك عن اليوم الثاني والثالث؟

وجاهني على البداة جواب حسن، فتلقت على الحياء وقلت بصوت منخفض:

- إنك المسئلة عن بقية الأيام...

فلحظتني ضاحكة وقالت بمكر:

- أحقاً تقول أم أردت التهزب بالقلز؟

فغمغمت:

- بل قلت الحق...

فرمت بنظرها إلى الطريق في دلال وقالت:

- فلياذ إذن لتصق بالباب مبتعداً عني كأتك تكرة

لسي!

وتولاني الاضطراب، ولم أدر ماذا أفعل، ثم قلت

كالمعتذر:

- ولكننا في الطريق...



لها. إني بين يديها أتمزغ في التراب، ولكنّه تراب طيّب حنون يجود بالثقة والسعادة. وأدركت أخطاء الحياة الماضية، وذكرت زوجتي المحبوبة في حزن وقنوط أوشكا أن يقصفا بعمر الساعة الساحرة، ولم أتردد عن تحميلها تبعة تعاسي كلّها... هكذا بدا لي الأمر. هل أنّ قلبي هفا إليها حتّى في تلك اللحظة وفي ذلك المكان! أمّا المرأة فقد ضربت أنفي بأغللتها وسألتي:

- ميسوط؟...

فقلت من قلبي:

- جدّا.

وأخذت يسري بين راحتيها وونت إني طويلاً ثمّ خمضت:

- يا لك من طفل رائح!

فتضاحكت قائلًا في حماء:

- طفل في الحلقة الثالثة!

ولاحت في عينيها نظرة جدّ واهتمام، وانتهت إلى أصابعها وهي تتحسّس خاتم الزواج، ثمّ ألقت عليه نظرة ذاهلة وهتفت بي:

- أأنت متزوج؟ لم يَنزُر لي هذا بخلد!

واستحوذ عليّ الخوف ونظرت إليها صامتًا. وعادت تفهقه ضاحكة ثمّ قالت:

- كيف لم يضطر لي هذا على بال؟ ولكن كيف أصلّق هذا؟ رُبّاه لماذا جريت ودائي؟... ألا

تعمّيك زوجك؟ يا لك من فاسق!

فخفقت عيني في حيرة وإرباك ولم أنبس بكلمة، فسألني باهتمام:

- ألا تحبّ زوجك؟

وضايفني السؤال، وتردّدت لحظة لا أدري ماذا أقول، ثمّ أرغمني حرج الموقف على أن أقول بصوت لا يكاد يسمع:

- إنّيأ سَتّ طيّبة!

فقال ببجلة:

- إني أسألك ألا تحبّها؟

وشعرت بأنّ الكلب يتقلب فضيلة في حضرة

إلى الطريق أمامها، فأحطت خاصرتها الغليظة يسري وانهلكت على جانب عنقها تقيلاً. وانحرفت بالسيارة إلى جانب الطريق وهي تخمغم ضاحكة «رويدك» ثمّ أوقفتها وهي تقول:

- لنسترح هنا قليلاً فهذا مكان آمن...

وألقت نظرة على الخارج فوجدتها اختارت موقفاً وسيطاً في المسافة بين مصباحين من مصابيح الطريق، تشمله الظلمة ويكتنفه الخلاء من الجانبين، وفيها عدا أزيز السيّارات التي كانت تمرّ بنا مرور البرق كان الصمت عميقاً محيطاً، سألتها هامساً:

- أليس ثمة خطر؟

فقال وهي تلفت عني يمينها:

- إنّه آمن من بيتك؟

واستدارت في جلستها حتّى مرّ متكبها المستند، وثنت ساقها اليمنى تحت فخذها اليسرى، فصرنا وجهًا لوجه، وانسرى في صدرها العالي ينحصر عنه عنق الفستان ومال وجهي نحو صدرها فتوسّده في حنان وذهول، وأسكرتني رائحة جسم آدمي أشهى من العرف الذكي. وسكنت إليه ما طاب لي السكون ويدها تمبث بشعر رأسي. ثمّ رفعت إليها وجهي والتهمت شفتيها، والتهمت شفّتي، وكأنّ كلينا يأكل صاحبه ويزدره، وولّى الخوف إذ لم يعد له مسوّغ! وامتلائت حياة وجنوناً وثقة لا حدّ لها، لا أدري كيف واتّني الثقة، كانت المرأة سيّدة الموقف فوجدت فيها المرشد الذي ضلّته حيائي كلّها، أحادت إليّ الثقة والطمانينة لأنّها اختلّتي من كلّ مشوّليّة وأخلّدتني بالهوادة والرفق، أدركت في تلك اللحظة - أكثر من أيّ وقت مضى - أنّ إلقاء آية تيمة عليّ خليق بأن يفقدني نفسي، وأنّي لا أجد هذه النفس المتهافئة إلّا بين يدين ثابتتين قويّتين. ذابت الدنيا في نشوة جنونيّة ساحرة خرجت منها سكران بخمر الظفر والارتياح العميق. وشعرت من الأحياق رغبة إلى هذه المرأة ليست دون الرغبة إلى الحياة، بل هي الحياة نفسها والكرامة والرجولة والثقة والسعادة. افتّر ثغري عن ابتسامة ظفر وسعادة، ورمقتها بنظرة امتنان لم تترك عمقه وهيئات

النساء فقلت باستياء أخففته بإبتسامه:

- كلاً...

فانبطحت أساورها وسألت باهتمام:

- كم مضى على زواجك؟

فقلت وقد أهابت سيرة الزواج أشجاني:

- قرابة عامين!

- ألم تكن تحبها قبل؟

- كلاً...

- زوّجوك منها بغير سابق معرفة؟

- نعم...

نهضت بغضب:

- يا له من إثم لا يُغفر، وهي ألا تحبك؟!؟

فقلت صادقاً لأول مرة:

- إني لا تحب الحب!

وأنتعت عينها دموعاً، وفتحت لها - رأيت في

جانب فيها ستين ذهبيتين لأول مرة - وقالت: أه!

(بصوت مملوط)... نهضت كل شيء، توجد نساء على

هذه الشاكلة، لم لا، ليس كل النساء بالكاملات...

وتبادلت نظرة طويلة في ابتسام وصمت، ثم سألتها

ضاحكاً:

- وأنت، ألسنت متزوجة؟

فقلت وهي لا تحوّل عينها عني:

- لست إلا أرملة، كان زوجي لواء عظيمًا يدهي

عليّ باشا سلام، تزوّجني على كبر وتزوّجته على صغر،

ثم مات من بضع سنين فعدلت إلى أمي نعيش معاً،

والله وحده يعلم مع من أعيش غداً!!

جعلت تصفر بغمها وهي تبسم إليّ. ثم تناولت

حقيبتها واستخرجت منها فرشاة بودرة ومسحت على

وجهها وعنقها وصوّفت خصلات شعرها المبشرة،

وراحت تلقي نظرة على وجهها في مرآة صغيرة مثبتة في

جانب السيارة وهي تسألني:

- متى تنتهي إجازتك؟

- بعد أيام قلائل...

فقلت بدهش:

- سنلتقي كثيراً، كل يوم إن أمكن، ولنا في السيارة

متسع حتى نجد مكاناً صالحاً...

واستوت جالسة أمام عجلة القيادة، ولكني أمسكت

بمعصمها، ثم أحطت عنقها بلراعي، وضحككت

ضحكة قصيرة، وضمتني إلى صدرها الرابي وهي

تقول:

- لماذا تركتني أستهيد زيتي يا شاطر؟!

## ٥٦

عدت إلى البيت في تمام العاشرة، ولم أسأل نفسي

عما إذا كنت قد أخطأت لأن ما استردته من السعادة

والثقة كان فوق الخطأ والصواب، وكانت أمي قد

نامت، أما رباب فقد جلست في الفراش تطالع مجلة.

ما إن رأيت وجهها الصبح حتى أشرق بروحي نور

بهيج وأحسست بأنني أنتقل من دنيا إلى دنيا أخرى.

والمني تقزّز مفاجئ لما صنعت بنفسي، ولكنّه لم يتمكّن

مني، فأنسانيه ذلك الحجاب الكثيف الذي يحول بيني

وبين زوجي... واستقبلتني بإبتسامه وأبلغني سلام

خالتها وعنايبها، ثم أعبرتني بأنّ عشالي جاهز على

السفرة فعمضت إليه والتهمته بنهم متعب جائع.

وعدت إلى مخدعنا وأنا أتساءل عما تفعل رباب لو

علمت بلذني؟! وأخبرتني بأنها ذهبت إلى إعطاء درس

خاصّ لابنة قاضٍ كبير بالسنة الأولى الابتدائية

وسألتني عن رأيي. ومع أنني لم أقف منها على ما يريب

إلا أنني لم أرتع للاقتراح وقلت:

- حسبك ما تتجشّمين من مشقة طول النهار!

فقلت بغير اكتراث:

- صدقت...

وسررت لموافقتها السريعة، وقلت لنفسي في شبه

نسلم: «بهيات أن أقنع صلي شبهة شك؟».

واضطجعت إلى جانبها، فتحت المجلة جانباً، وأطفأت

النور واضطجعت بسلام. كان النوم حريماً بأن يسارع

إلى جفني، لكن حالت دونه يقظة غريبة في النفس،

طار خيالي إلى عنايب، والسيارة في طريق الهرم، إلى

خائن! أصحبت بها من حقيقة! فمن يصلّق أن يتخذ

الزوج العاجز عشيقه؟! غمّيت في تلك اللحظة لو تعلم

زوجي بهذه الحقيقة العجيبة، هل أنها لم تكن إلا لحظة عابرة، وسرعان ما تتبص قلبي خوفاً وخجلاً. لقد تعمقت زوجي وبني شك في خيانتها فعلدت خائناً لا شك فيه، أما هي فما وقعت منها على غير الاستقامة والاحتشام. كيف كان نصيبي منها العجز والإخفاق على حين أنني نعمت بين يدي المرأة الغليظة بهذه السعادة الجنونية؟ لفنتي حيرة شديدة، تلهفت نفسي على بصيص من النور.

وزاد من حيرتي أنني شعرت شعوراً عميقاً بأنني لا خفي لي عنهما متاً. بل لم أجد سبيلاً إلى المفاضلة بينهما، فهذه زوجي وتلك جسدي، وما عذاباً إلا عذاب من لا يستطيع أن يزلوج بين روحه وجسده.

ماذا تكون قيمة الدنيا بفكر هذا الوجه الجميل النسيم بالطهر والكمال؟ ولكن ماذا يبقى لي من لذة ورجولة إذا فقدت المرأة الأخرى؟ وأغرقت في التفكير إغراقاً لم يَدَعْ للنوم سبيلاً إليّ، ومضت تترامى لمعني رباب ثم عنايات، وانحرف الخيال بنته إلى أمي بلا داع فالتحلت مكانها في شريط هذه الصور المتلاحقة وتساءلت في الخيرة حتى شملتني حصال من الحزن والكآبة...

يبد أن أحاسيس الليل قل أن تعيش في ضروء النهار. إنها في الليل تندمج في تيار لمن خامض يطلق في جو أثيري يكتنفه الضباب، فإذا طلع عليه النهار لم يبق منه إلا أصداء خفيفة لا تمنعنا من أن نلتصق سبيلها في الحياة. جاء صباح اليوم الخامس فانطلقت كالعادة إلى العباسية، ترى أفتضي أثر رباب حقاً أم التي ذاك النداء المطاع؟ إن سيرة زوجي لا تدع مجالاً للشك، سيرها كجهرها، فلا شك أنها صدقت فيما قالت عن الخطاب المشوم، وإذا كان ثمة خائن فهو أنا.

وفعبت إلى قهوة النوبيين، فما أوقفها رمزاً لحبي الجديد. وانتظرت حتى فتحت النافذة فتبادلنا التحية بابتسامة لطيفة. وغابت برهة ثم بدت لي مرة أخرى وقد أخذت أهميتها للخروج، وأشارت إليّ إشارة ذات معنى أن أنتظرها في مكان الأمس. لم أتوقع أن نتقابل

صباحاً بيد أنني لم أتردد فناديت النادل ودفعت له الحساب ومضيت من فوري إلى الجسر، وخيل إليّ - في طريقي القصير - أنني أدركت حقيقة من حقائق الحياة، هي أنه لا توجد ثمة حركة بين الرجال إلا ووراءها امرأة! المرأة تلعب في حياتنا الدور الذي تلعبه قوّة الجاذبية بين الأجرام والنجوم. فما من رجل وحيد، إلا وفي خياله امرأة، حاضرة أو غائبة، ممكنة أو مستحيلة، عجيبة أو كارهة، مخلصه أو خائنة. ولهممت فهدأ جليداً، كأنه لقوته بكر جديد، معنى قولهم: إن الحب الحياة والحياة الحب: لم تكن حياة ثم كان حب، ولكن كان حب فكانت حياة، وانقسمت في تلك اللحظة ألا أهرض عن الحب ما حيت!

وجاءت السيّارة فالتحلت مكاني كالأمس. وتساءلت المرأة ضاحكة:

- ما الذي جاء بك الآن؟ ألم يكن موعدنا المساء؟

فقلت مبتسماً:

- أنت أنت السبب...

فابتسمت في سرور وقالت:

- يجب أن نلتزق بالغرا فلا نفصل أبداً...

وتصاعد أزيز المحرك ينذر بانطلاق السيّارة فقلت برجاء:

- الدنيا نهار نهلاً عدلت عن الطرق المزدحمة!

- أخاف أن يراك أحد؟

فقلت بفضول:

- نعم.

- أه! نسيت أنك متزوج!... لا تؤاخذني بما

حضرة الزوج لنذهب إلى مصر الجديدة!

وانطلقت السيّارة بالسرعة الجنونية، وسألتني في الطريق قائلة:

- ماذا فعلت بزوجك الأمس؟

فكفّرت وأنا لا أدري، ولم أحر جواباً، فقالت:

- لهذا الحدّ لا تحبّ ذكرها؟

ثم تساءلت متجاهلة صمّي وإرتباكِي:

- ألا تمانان في فراش واحد؟

وحاولت أن اغتصب ضحكة ولكني عجزت،

الحَيَاة تحفظ لنا بقوارير الويسكي والصودا دوماً، بل أوشكت أن تتوَدِّي التدخين، وكأنَّ لها مزايا وأيّ مزايا. كانت كاملة الأنوثة والحيويّة، فهي متعة للمُشاقِّ على كهولتها ودمامتها المحبوبة، بيد أنَّها كانت كذلك على استهتار وجسارة يقشعر لها البدن. عندها الحبُّ كلّ شيء، وفي سبيله تستطيع أيّ شيء. ولعلَّها لم تكن من النوع المهلك، ولعلَّها لم تكن إلا امرأة هالعة، تشمر دوماً بإبدار الحياة الزاهرة، وذيول الشباب البائع، فلا تطيق أن يمضي يوم بلا حبّ. وكان أعجب ما في حَيِّ لها أنّي فُتنت منها بما هو حريّ أن يُعَدَّ من النفاص في نظر الغير، بكهولتها ودمامتها وجسارتها، وكانت تمْلُؤني ثقة لا حدَّ لها، فلم أكن أحمل شيءَ همٍّ. ولولا ما كان يتناهي من قلق، منشؤه ذلك الانفصال المخيف بين روحي وجسدي، لتملّيت الحياة صفاء خالصاً، هل أنَّها كانت حياة سميعة.

وفي ذات يوم، وبعد فراغي من الغداء مباشرة، ذهبت إلى حجرة أمّي لأشرب فنجاناً من القهوة وأجاذبها الحديث كعادتي كلّ يوم، وسرعان ما لاحظت أنَّها تردّد في وجهي عينيها الصافيتين في قلق وتفكر، ففُتِرت في وجهها الذابل الذي فقد مرحه وسعاده، فأدركت لتُويَّ أنَّها تريد أن تقول شيئاً، وداخلني القلق، ولكنّي قلت مبسّطاً:

- ماذا وراك: هاتي ما عندك!

فلاح التردّد في عينيها لحظت ثم قالت:

- بالأمس سمعت أموراً أدهشتني، فهل أخبرتي عَمّا بين رباب والسَّ والدتها؟

كلّ شيء توقّعتُه إلّا هذا. وغامت عيني بسُحُب ذكريات سود، وتساءل قلبي الحافق: هل عادت المرأة إلى لجأها القديمة؟ ولم تكن رباب قد أخبرتني شيئاً عن زيارة أمّها لها بالأمس إلّا أن أقرّأني سلامها.

وعدت إلى أمّي أقول لها بصوت هادئ أو جعلته هادئاً:

- ليس بينها إلّا كلّ خير. .

وشعرت بامتصاص كثر على صفوي، فقنقنعت ضاحكة وقالت:

- لشدّ ما أرغب في رؤيتها. .

وأردت أن تُسرّي عني بطريقتها فداعبت شفقي بأصبعها وقالت عاكبة الأم التي تداعب طفلها:

- كتكوتي. . .

ووقفت السيّارة أمام مشرب شاي. . . فجلسنا معاً نلقّب الحديث ظهرًا لبطن في لذة وسرور. وأخبرتني أنَّ اختيارها قد وقع على بيت الحَيَاة ليكون مهدًا لغرامنا. وعند الظهر غادرنا المكان، وقد أردت أن تدفع الحساب ولكنّي أبيت عليها ذلك، وافترقنا بعد أن تذاكرنا مرعد المساء. وتكرّر اللقاء. ولمّا انتهت الإجازة بعد ذلك بيومين واصلنا لقائنا في الأمامي. وأقنعتني التجربة الناجحة بأنَّ الحبَّ صمّة وحافية. ولم يخفّ على أحد دأبي على السهر، ومع أنَّ رباب كانت تفضّل - على حدّ نوحا - أن أمضي سهراتي معها في زيارتها التي لا تنقطع، إلّا أنَّها تحاشت مضايقتي، فبأشر كلانا حياته بالسبيل الذي يرضاه. ولم يخفّ ذلك من أمّي أيضاً، وقد قالت لي: لاحظت يا بُنّي أنَّك لم تكن على حالك الطبيعيّة في هذه الأيام الأخيرة، وقد خفت أن أعلن لك ملاحظتي أن تغضب، فإذا وجدت في السهر راحة فاسهر، هكذا الرجال جميعاً!!

## ٥٧

وانقضى شهر أو أكثر على حياة سميعة لا يشوب صفاءها كدر. حلّ السلام مكان الشكّ وهدأت علاقتي برباب إلى أصفى ما كانت عليه من الوَدّة الطاهر والحبّ البريء، أمّا من الناحية الأخرى فقد أسلمت نفسي لمتاعبات في حبّ مضطرب وسرور ظافر. إنّها امرأة موفورة الثروة. وما من مرّة نذهب إلى مهدنا المحبوب بيت الحَيَاة إلّا وتضعها بريال وأحياناً نصف جنيه، وأبت على كرامتي إلّا أن أكون كريماً كذلك، ولو في حدود طاقتي. وهيّئت لي - وهي لا تدري - معاودة الشراب على حال لا تنقطع، فكانت

باهتهم ثم انفجرت قائلة:

- أمك... أمك... ودائماً أمك!

ووخرني الألم الذي يمزّ في نفسي كلما لاحت لي أي الكراهية المتبادلة بينهما، وقلت:

- لا داعي للغضب، لقد سمعتُ ما سمعتُ اتفقاً، ونقلته إليّ بقصد حسن كما هو ظاهر. بالله لا تستسلم للغضب، وخبريني هل عادت أمك إلى ذاك الموضوع القديم؟

وسحبت ساليها من ورائي، وألقته على الأرض، وأطرقت في تجهّم وغيظ وقالت:

- الأمر الذي لم أشأ تمكبر صفوك به أنّها اقترحت عليّ أن أعرض نفسي على طبيب ليرى أسباب عدم الحمل، فرفضت اقتراحها بطبيعة الحال فتشاجرنا!

وواصلنا الحديث البغيض ملأياً حتى طلبتُ إليّ أن أمسك، وأن أقبل طلباً للراحة من تعب اليوم، فأذعنت لمشيئها وبغيت إلى الفراش واستلقيت عليه محزونة مكتئبة، ومضى وقت ليس بالقصير قبل أن أغفو، ولا أدري كم غفوت، ولكنّي استيقظت على شيء أطار عن عينيّ النوم. وفتحت عينيّ في انزعاج فسكّنت مسامعي ضوضاء آتية من الصالة، فأرهفت السمع، ولم ألبث أن أدركت أنّ رباب وأمّي يتبادلان أقسى الكلمات في ضجّة وصياح. وقفزت من الفراش في هلع ووثبت إلى الباب ثم مررت منه إلى الصالة فإذا برباب تصيح وقد تطاير الشر من عينيها:

- هذا نجس لا يليق بسيدة عذرة.

ووقع بصر أمّي عليّ فخفضت بصرها وهي تقول:

- لا يسمعي أن أجاريك في قلة أدبك!

وهضتُ برباب قائلاً: «رباب...» ولكنّها تحاشتني

ورجعت إلى حجرتنا في غضب جنونيّ. ودارت أمّي على حقيها وسارت إلى حجرتها بخطوات ثقيلة فلجّهتُ نحوها صامتاً متألّفاً. رأيتهما تمسك بأكوة الباب ثم تقف دون أن تضغط عليهما كأنّهما عدلت عن الدخول. ورأيتهما تضع راحتها على جبينها فخيلتُ إليّ أنّها تنحي رويداً، وأسرعَت نحوها، فأكدت للسها حتى سقطت على يديّ فتلقيتها بها في رعب وفزع.

فهزّت أمّي رأسها في ارتباب وقالت:

- لعله غابت عنك أشياء، أمّا أنا فلم أستطع استقبال نازلي هاتم لأنّي كنت متعبة، ولما جاءت صباح لتخبرني بقدميها تصبّعت النوم. وطالت الزيارة، فانسلت من الحجرة لقضاء حاجة، ودنوت من باب حجرة الاستقبال، فما راعني إلّا أن أسمع السّت وهي تقول في انفعال وغضب: «غداً شيء لا يُحتمل، فترة عليها رباب بعنف قائلة: «لا تتدخل في شئوننا» فما ملكت أن تراجعت إلى حجرتي...»

التهب جبيني حينه، ثم ركبني الغضب، فشرعت بمقت شديد نحو هذه المرأة الفضولية. واتحمتُ أمّي عليّ أفكارٍ متسائلة:

- ألم تعلم عنها شيئاً؟

فقلت بحزم:

- لا شأن لنا بها.

وعدت بعد ذلك إلى مخدعي فوجدت رباب مستلقية على المقعد الطويل، فلمّا رأيته ألقصت ساليها بمسندة لتضج لي مكاناً فجلست متفكّرة، كيف أخفت عنيّ ذاك النزاع؟ هل أشفقت من إزعاجي؟ ولعلّها لم تلاحظ تغبّر حالي فراحت تقول لي: إنّ اليوم الجمعة، ولأنّها تقترح عليّ أن نذهب معاً إلى السينما، فتركناها تتحدث حتى انتهت فسألناها قائلاً:

- كيف حال والدتك؟

فأجابتي بأنّها على ما يرام، فنظرت إلى عينيها وتساءلت:

- هل مرّت زيارة الأمس بسلام؟

فلاحت في عينيها نظرة ارتباك وقالت:

- ماذا تعني؟

فقلت بحزن وكآبة:

- رباب، لا تخفي عنيّ شيئاً. أعادت والدتك إلى ذاك الموضوع القديم؟

فلاذت بالصمت ملأياً وقد تجهّم وجهها، ثم تساءلت بحدّة:

- من أدراك بذلك؟ أريد أن أعرف كلّ شيء!

فأخبرتها بما قالت لي أمّي، وكانت تصغي إليّ

قواها؟ فهالني الاقتراح وقلت بارتياح:  
- هذا مستحيل.

فابتسمت إليّ متلطفة واستطردت قائلة:

- ألا ترى أننا نحتاج لخدمة وعناية في كل حين،  
فمن ذا الذي يقوم بخدمة هنا؟ وأنت مشغول  
بعملك، وزوجك مشغولة بعملها، وصباح تقوم على  
خدمة المنزل، فلن من تكفل أمر أمنا؟

ولكنني استعظمت اقتراحها، وثرثرت على ما قدّمت  
من حجج قويّة، وقلت بإصرار صادر من أصلي:  
قلبي:

- لن يطول رقادها بإذن الله، ولن نحتاج إلى من  
يلازمها إلّا في الأسبوع الأول كما قال لي الدكتور،  
ولاجدّد خدماً خاصّة تتولّى للعناية بها.

وحاولت راضية أن تشيبي عن إصراري ولكن لم تجدي  
محاولتها، وانتهى النقاش بأن قرّرت الإقامة في بيتي  
حتى أوفّق لإيجاد خادم. وفي اليوم الثالث لمرض أمي  
حضر أخي مدحت - وكنت أشهرته بمرضها في خطاب  
مستعجل - وجاءت معه زوجته. وقد اشتدّت وطأة  
المرض على أمي في الأيام الأولى لمرضها، لم تكن تبدي  
حراراً، ولا تكاد تنبس بكلمة، كانت إذا فتحت  
عينها المتعبتين لاحت فيها نظرة ذابلة خالمة تغلبها  
بيتنا في صمت وتسليم فتعزّز قلبي إرباً، ولم تكن  
نفارقها، وكانت إذا عاودتها بقطة خفيفة تردّد عينها  
بيتنا، وترسم على شفاهها الجائفتين ابتسامة، أو تبسط  
راحتها وترفع بصرها إلى أهل وتغمغم داهية لنا  
بصوت منخفض وإن. ولكن لم تطل بها الفيوينة،  
فتحنّنت حالها قليلاً في نهاية الأسبوع الأول من  
الأزمة. واستطاعت أن تدرّك بوضوح أن أبناءها جميعاً  
يحيطون بها، ولعلها رآهم كذلك لأول مرة في حياتها.  
وقد جمعت الفرائش مرّة فجلست راضية تنظر إلينا في  
صمت طويل، ثم طفح وجهها بالبشر، وهمت  
بصوت ضعيف:

- ما أسعمني بكم... الحمد لله والشكر له.

ولاحت في عينها نظرة رقيقة تتمّ عن الحنان

وتناديتها فلم تجب، وتدلّى رأسها وذراعها. وصرخت  
منادياً صباح فجاءت تجري، فحملناها ممّا وأنماها على  
فراشها. وجئت بزجاجة كولونيا وورشت منها على  
وجهها وعنفها، ودلّكت بها أطرافها، وجعلت أناديا  
بصوت مهتّج مبسوح دون توقّف، وغشيها الإغواء  
دقائق مرّون به كالساعات، ثم فتحت جفنيها عن  
عينين غائمتين، فهفت بها وأنا أزدرد وريقي:  
- أمّاه...

لشخصت بصرها إليّ، وأشارت يدها إلى قلبها  
دون أن تنبس بكلمة، وانطلقت منادراً الشقة إلى  
البِذال في أسفل العمارة، وتلفتت إلى طبييها أن يحضر،  
ثمّ صعدت إلى الشقة وجلست إلى جانبها في حال من  
الدهر والحزن لا توصف. لم تفارقها عينا لحظة  
واحدة حتى استلّت نظرة عينها الفاتمة دمي  
الحبيس. شعرت بأنني أشقى إنسان في الوجود،  
وأغممت نفسي كآبة وامتناساً. ثمّ جاء الطبيب  
وقصصها، وقال إنّها نوبة قلبيّة، تستلزم رقاداً طويلاً  
وعناية كبيرة، ووصف الدواء كالعادة. وكنت قد  
قصصت على الطبيب كيف أضحي عليها عقب شجار  
مع الخادم! فقال لي: إنّ الشجار سبب طارئ ولكنّ  
الداء قديم. وقضينا ليلة عيوساً. أمّا رباب فقد توارت  
في حجرتنا في شقاء بالغ وقد نامت بظلّ تحتها، وما  
زالت تبكي حتى انقطر قلبها من البكاء فلم يسعني إلّا  
أن أطيب خاطرها واربت على منكمها قائلاً:

- حسبك بكاء، هذا قضاء الله، وربنا يحمل  
العواقب سليمة...

## ٥٨

وامتلا البيت بالمواد، فزارتنا أسرة رباب وجتمع من  
أقاربها، وجاءتنا أختي راضية وأسرمتها، وعادت رباب  
المريضة وقبّلت يدها واستوهبتها المعو بعين باكية حتى  
رجوت أن نبدأ - بسبب هذا الحادث - حياة جديدة  
خالية من كدر القلوب. وتحوّلت راضية فرصة خلوّ  
الحجرة من الأغراب وقالت لي:

- إليّ استأذنتك في أن آخذ أمي إلى بيتي حتى تستردّ

والتأثر، ثم استدركت قائلة:

- إذا كان المرض يجمعنا هكذا فكم أتمنى ألا يزول.

ويدت - هل مرضها - سعيدة، فانتقلت سعادتها إلى قلبونا. الثابت أسترنا التي قضى الله على عقدها بأن يفرط منذ البداية: بتنا تحت سقف واحد، وأكلنا وشربنا معاً، وانتظمت قلبونا حققة واحدة. يا لها من أيام ركدت أنفاسنا فيها الإشفاق والحنان والسعادة. بيد أنها كانت أياماً قلائل. فقد تقلبت صحة أمي تقدماً حسناً، وزال الخطر عنها وإن حتم الطبيب عليها بالآ ترحب الفراش شهراً كاملاً على أقل تقدير. وعند ذلك وقّعنا مدحت وعاد بأسرته إلى الغيوم واعدًا بالزيارة من آن لآن. وعادت راضية كذلك إلى بيتها. وكنت قد وُفِّقْتُ إلى اختيار خادم لأمي - على أن تعود أمها كل يوم. انفض السامر، وتفرق الشمل، وعاد كل شيء إلى أصله. ولم يكدهمضي أسبوعان حتى أخذت أمي تسترد حيوتها ويظفها، وأمكنها أن تجلس إلى الفراش مستندة إلى وسادة منكسرة. ولشد ما سررت أن تقوم رباب بواجبها نحو حاتها، ولن أنسى ما عانت من مرارة الألم والقهر في الأيام الأولى للمرض.

ولمّا عادتنا الطمانينة، ولم يعد أمام أمي إلا رقاد وإن يكن طويلاً إلا أنه مأمون، عدنا إلى سيرتنا المألوفة في الحياة. عادت رباب تروح عن نفسها بزياراتها المسالمة، وانطلقت على سبيل القديم. وقد استأذنتها في الخروج بضع ساعات ترويحاً عن النفس، فأذنت لي بحماس، وألصحت لي حياً كان يساورها من ألم لبقائي إلى جانبها كالسجين. وغادرت البيت متفكراً، متسائلاً ترى لو كنت أنا المريض أكانت تستأذن هي في مغادرة الحجره ترويحاً عن النفس؟ وبدا لي منطق الحياة قاسياً ولكن لا حيلة لنا فيه!

وطرت إلى حنايات. وكانت تتلفن لي كل صباح بالزيارة فينت لها الأسباب التي حالت دون لقائنا. وعدنا كما كنا نلتقي في مهندنا فنسكر ونحب. كانت حياة غريبة، وأخوف ما أخافه أن تكون الذاكرة قد

خانتني ولو في القليل من تفاصيلها. أكنت سعيداً حقاً؟ كان قلبي موزعاً بين أمي وزوجي وحنايات، وبين الذكريات العميقة والحيام السامي والحب العارم. وحسبني قد آوت من زوايا الحياة إلى مرأى هادي، ولكن القلب القديم عاد يطرق بابي في حذر وتردد كأنما يمنعه الخجل من اقتحامه بلا سبب ظاهر. أجل كنت أمضي في طريقي، ثم أتوقف حيناً بعد حين في تردّد كأنني أتسائل عن شيء أنسيته، هل أجذ في السيرام يحسن بي أن ألقي نظرة إلى ما حولي، ثم يتبين لي أنه ليس ثمة ما يستوجب التردد فأمضي على وجهي...

ويوماً وجدت رباب على غير ما عهدتها من المرح والنشاط فسألتها حياً بها؟ فقالت لي: إنها قضت نهائياً متعباً بالمروسة، وإنها ترجّح أن تكون مصابة بملفلوفزا. وعدلت ذلك للمساء عن الخروج. وفي صباح اليوم التالي، وعقب استيقاظها بقليل تغيّات بغتة، واستلقت في إسياء ووهن، فاقرحت عليها أن استدعي لها الطبيب، ولكنها لم توافق قائلة: إنه برد خفيف وستعالجه بغير معونة الطبيب. وجاءت أمها تزورها فلبثت النهار كله بمحبرتها. على أنّ رباب أصرت في صباح اليوم الثالث على استئناف عملها وقالت لي: إنها تشعر بأنها استردت صحتها تماماً، ومضت بالفعل إلى الروضة على رغم نصحي لها بالبقاء في البيت يوماً أو يومين آخرين. وعادت من الروضة في ميعادها فوجدتها أسوأ مما كانت في الصباح، ولكنها أصرت على أنها متعّمة بكامل صحتها، ولم تقنع بهذا فارتدت ملابسها وغادرت البيت يوماً أو يومين آخرين. وعادت من الروضة في ميعادها وكنت في بيت الخياطة ولمّا عدت إلى البيت في منتصف الحادية عشرة لم أجده رباب في حجرتنا. وكان صباح كانت تنتظر عودتي فجاءتني على عجل وقالت لي:

- ستيت ست رباب عند والدتها وقد أرسلوا الخادم

لتخبرنا بذلك...

ووقع الخبر من نفسي موقع الدهشة والانزعاج، فسألت صباح قائلاً:

- وما الذي دعاها إلى ذلك؟

فقال الجارية بلهجة تنم عن الإشفاق:

- إنَّها بخير يا سيدي. ولقد زرنا ورأيتهما بنفسي،  
إلا أنَّ حرارهما مرتفعة قليلاً فلم توافق السَّ الكيرة  
على تعرضها للهواء، وآثرت على أن تبيت عندها حتَّى  
تتخفَّض الحرارة.

وغادرت الحجرة بلا تردّد وأنا أقول في حقّ:

- لقد حدّرتما من هذا ورجوتما مراراً ألاّ تبحر  
البيت.

وقابلتني في الصالة نفيسة وخادم أمي وأخبرتني بأنَّ  
أمي ترجو أن أذهب إليها، فمضيت إلى حجرتها  
فانصمحت لي عن أسفها وكلفتني بأن أحلّ دعاءها إلى  
«رباب» فشكرت لها، وغادرت البيت حائفاً قلقاً.

#### ٥٩

كان البيت نائياً تشمله ظلمة إلاّ نوراً يمتدّ من  
حجرة الأم، فقصديها لا ألوي على شيء، ووجدت  
«رباب» مضطجعة في الفراش، والأمّ جالسة في فراش  
يقابله بالناحية الأخرى من الحجرة، فقابلتني بابتسامة،  
وانزلقت الأمّ من فراشها وأقبلت عليّ وهي تقول:

- هذا ما قلّرتناه! قلنا سينزعج ويحیی من توه،  
والأمر لا يعدو أن يكون إنفلونزا.

وأجمعت صوب فراش «رباب»، وتناولت يدها،  
وقلت لها معانفاً:

- ألم أنصحك بعدم مبارحة البيت؟... ماذا  
بك؟... لماذا لم تعودي إلى بيتك؟

فابتسمت إليّ وقالت وهي تشير بأصبعها إلى أمّها:

- أردت أن أعود ولكنّ «ماما» لم توافق.  
فابتدرتني نازلي هائم قائلة:

- إنَّ حالها لا يدعو للقلق مطلقاً، بيد أنَّ تعرّضها

للحواء أمر شديد الخطورة.

فقلت بحزم:

- سأدعو الطبيب بلا إبطاء.

فقالَت الأمّ:

- لم يفتنا هذا، والطبيب نفسه الذي نصّح بعدم  
تعرضها للهواء، ليس في الأمر خطورة البتّة، واستمود

إلى يتها بعد أسبوع أو عشرة أيّام على الأكثر.

وعُلبت على أمری فجلست على كنبه وثيرة تتوسّط  
الفراشين، بيد أنَّ هدوء الأمّ الظاهر انتقل إليّ رويداً،  
وجعلت الأمّ تقول: إنَّ الإنفلونزا بسيطة في ذاتها  
ولكنّ ينبغي أن ننقي نكستها.

فأصغيت إليها بغير وعي على حين رسوت إلى  
مخبرتي بحمّي وروحي، وتطلّعت إلى رباب مبتسمة  
ابتسامة فاترة، يلوح في عينيها الإحياء وقد رانت على  
نظرتها العذبة اللامعة غشاوة. وساد الصمت حيناً، ثمّ  
تذكّرت جبر بك فجأة فسألت عنه، فأجابني الأمّ بأنّه  
في رحلة تفتيشية يعود منها في نهاية الأسبوع، ولما  
دقّت الساعة منتصف الثانية عشرة استأذنت في  
الانصراف، وقبّلت جبين زوجي، وغادرت البيت.

#### \*\*\*

وفي صباح اليوم التالي تركت البيت قبل موعد  
خروجي المعتاد بثلاث ساعات، وكانت «صباح» قد  
استأذنتني في زيارة رباب، فعهدنا بشؤون البيت إلى  
نفسه، ومضيت من تويّ إلى بيت جبر بك، فقابلت  
على السلم محمّد وروحية، فسلمت عليهما وسألتهما  
عن رباب؟ فأجابني الأخت الصغيرة بأنّها بخير،  
ودخلت الشقة وذهبت إلى الحجرة فوجدتها في  
الفراش، والأمّ جالسة على الكنبه، ورذّت تحمّي برقّة  
وابتسام، ولكنّي رأيت في عينيها ذبولاً شديداً كأنّها لم  
تمن ساعة واحدة في لينتها الماضية، وساورني القلق  
واستحوذ عليّ الانقباض. ولكنّي أخفيت ما قام بنفسي  
أن أخفيها، وقلت متمعدّاً الكلب:

- أراك أحسن حالاً؟

فقالَت باستسلام أوجع قلبي:

- الحمد لله...

وجلسْتُ على طرف الكنبه قريباً منها، وثبّت على  
وجهها عينيّ، كانت عاصبة وجهها بتنديل ينيّ، يبدو  
وجهها تحه شديد الشحوب، وتلوح في عينيها  
الذابلتين نظرة سائمة، ففتشت صدري كآبة، وضالّت  
في الدنيا وبدا لي وجهها قبيحاً كالخا، ولاحظت نازلي



هانم كآبتي فقلت بدمشة :

- ألم تجرب وعكة البرد قبل اليوم؟ إنك تدلّكها يا سي كامل أكثر عما ينبغي...

وسري عتي قليلاً بأنّ التي تستهين بالحال هي أمّها، ولو كان بزوجي ما يدعو للقلق لما ملكت الأم نفسها.

وملّث نحو الفراش قليلاً، ووضعت راحتي على خدّها فوجدته ساخناً، ولكنّها ابتسمت إليّ وقالت :

- إذا كان بي تعب فالمشول عنه أرقّ ألم بي الليلة الماضية، وسأسترد انتعاشي إذا ما نمت ولو ساعتين...

فقلت لها برجاء :

- حاولي أن تنامي مهما كلّفت الأمر...

ونظرت لي عينيها طويلاً، فمرت إليّ دقيقة ثمّ خفضت عينيها بلطف، ولم أجد بداً من الانصراف، فنهضت واحداً بالزيارة عقب عودتي من الديوان، وذهبت.

بلغت الديوان بعد الثامنة بعشر دقائق، وعكفت على عملي، ولكنّ العمل لم يستطع أن يثبّني عن نفسي، وعدت بفكري إلى رباب فتمكّلت لي نظرة عينيها السامحة واستشعرت وحشة لم أدر لها سبباً، وحاولت أن أفنى في العمل ولكنّي لم أفر بطائل، وغلبتني على أمري نفسي التي تخلق المخاوف من لا شيء، فاشتدّ بي القلق وجعلت أقول لنفسي: إنّ رباب عجزت عن العودة إلى بيتها، وهي تبدو مهزولة متضخمضة فكيف أطعمن؟... كيف أتركها؟ ولم يكن تهافت قلبي حيال أخفّ الملمات بجديد عليّ، وطالما جالاني النوم لوعكة خفيفة تصاب أمّي، فلعلّ ذلك الخوف كان أثراً من هذا التهافت المقيم. أفضح بها من كآبة ثقيلة! إنّ قلبي يتقبض في خوف وألم، وكأنّه يكاتم صرخة استغاثة تحاول أن تنطلق... لماذا أعذب نفسي بتجرّع غصص انتظار لا موجب له؟ وعند ذلك طويت الأوراق واستأذنت في الانصراف معتذراً بمرض زوجي. وغادرت الوزارة في منتصف العاشرة، فبلغت البيت قبل العاشرة بدقائق... وكنت كلياً اقترت من البيت ازداد قلبي وحشة، حقّ

دخلته فيها يشبه الملح، ودققت الجرس، وفتح الباب بعد قليل، ولشّد ما كانت دهشتي حين رأيت أمامي الدكتور أمين رضا، وكان هو الذي فتح الباب، وكانت الصالة الصغرى التي يفتح الباب عليها مغلقة الأبواب وليس بها سواه، ولم أكن رأيته منذ اجتماعنا في مأدبة الغداء بهذا البيت. ترى ما الذي جاء به في هذه الساعة المبكرة؟ وما الذي أبغاه وحده في هذه الصالة المغلقة؟ ومددت له يدي وأنا أقول :

- السلام عليكم!

فمدّ لي يده قائلاً: «وعليكم السلام»، وكانني لاحظت أنّه يحدجني بنظرة غريبة من وراء عيوناته، فقلت له :

- ألا تنصّل بالدخول؟...

فتحوّل عتيّ وهو يقول :

- إنّني منتظر في حجرة الاستقبال.

وأخّجه بالفعل نحو باب الحجرة، وفتحه، ودخل، ومضيت إلى باب الصالة الكبرى وفتحته ودخلت، وسرت نحو حجرة نازلي هانم، ولكنّي ما قطعت خطوتين حقّ قرع أذنّي صوت غريب لا أدري كيف أصفه، أكان تنهّداً طويلاً؟ أكان صراخاً مكتوماً؟ ولكنّه كان آتياً بلا ريب من وراء باب الحجرة المغلقة، حجرة رباب، وانطلقت نحو الباب، وأدبرت الأكرة وفتحته، ودخلت خافق الفؤاد من الملح، وأخّجه بصري إلى الفراش فرأيت رباب نائمة، مغطاة إلى عنقها، وقد التفت متدبّله حول وجهها من قسّة الرأس إلى أسفل اللقن ماراً بالأذنين، كانت عيناها مقمضتين، وشررة وجهها شاحبة باهتة، يشوبها بياض مخيف. لقد بعث الوجه المصوب في نفسي ذكريات غامضة لم أجد وقتاً لتوضيحها ولكنّه حرّك رعباً كاملاً في أعماقي، ثمّ تبيّن لي في اللحظة التالية أنّ نازلي هانم جالسة على طرف الكتبة دافئة وجهها في وسادة الفراش، مفرقة في نحيب موجع، وأنّ «صباح» واقفة عند أسفل الفراش تولول باكياً فلم تنبّه لدخولي...

ربّاه!... هل حقاً ماتت رباب؟!

ونظرت المرأة إلى بارتياح وارتباك ثم قالت بصوت خففت بالمعبرات:

- اشتد حال ابنتي فجأة فاستدعيت الطبيب فأشار بإجراء عملية في الحال...

فسألته وقد استحلّت شخصاً جديداً غيظاً غير الشخص الذي عرفه المام قرابة ثلاثين عاماً:

- في أي عضو؟

فقالت المرأة:

- قال الدكتور إنه البروتون...

وكنّت أسمع الاسم لأول مرة، ولكنني لم أبالو ذلك، وسألت بالصوت الرهيب نفسه:

- هل أجرى العملية؟

فقالت وهي تبكي:

- نعم... وانتهت بما ترى!

فضربت الأرض بقدم حائقة وصحت بها:

- ولكنني كنت هنا منذ ساعتين ولم يكن بها شيء! ألم تؤكدي لي أنّ الحال أبسط من أن أجزع لها؟

فقالت بصوت تخفّفه الدموع:

- اشتدّت وطأة الألم فجأة!... ما حيلتي؟... ما

حيلتي!

فسألته دون أن تأخذني بها رحمة:

- ومن عسى أن يكون الدكتور القاتل؟!

فرمقتني بنظرة كسيرة خلال دموعها وغمغمت:

- لقد بدل ما في وسمه، ولكنّ قضاء الله سبق!

- من عسى أن يكون؟

فصمتت لحظة كأنها تأخذ نفسها، ثم قالت:

- الدكتور أمين رضا...

فسرّرت في جسدي رحلة شديدة، رقدت قولها في ذهول: «أمين رضا»، ثم هضت بها في غضب وازدراء:

- الدكتور أمين رضا؟! إنه شاب مبتدئ!... ثم

إنّه اختصاصي في الأمراض التناسلية!

فتولّاهم الارتباك وراحت تقول: إنه كان أقرب طبيب إليها، وإنّها ظنّت أنّ الطبيب يفهم الأمراض كافة مهما كان اختصاصه، وإنّ الوقت لم يكن يسمح

هضت كالمجنون:

- خبراني ماذا حدث؟

والفتت نحوي صباح وصاحت وهي تشيح:

- سيدي... سيدي...

ورفعت المرأة وجهها في فزع ظاهر، وحملت في وجهي بعينين حمزتين، وليّت لحظة جامدة لا تتكلّم

ولا تبكي، كأنّ حضري كان عليها أشدّ من الموت،

ثم شهقت وأغممت في البكاء. رددت بصري بين

المرائين في ذهول ثم استقرّ بصري على الوجه

المعصوب. كيف أذعن لحكم هذا الواقع المخيف!

ونازعي قلبي المفتت إلى أن أرغمي على زوجي، وأن

أبكي وأصرخ حقّ أموت. بيد أنّي لم أبدأ حراكاً،

سمرّتي قسوة غريبة في مكاني، وملأني قسوة

وجنوناً... واجتاحني ثورة عارمة تتحدّى قوّة الموت

نفسه ويطش القضاء. أبيت أن أصلق عيني،

واستمعي على الاقتناع. ما معنى هذا؟ ولوّحت بيدي

للأمّ وسألته بصوت كنت أسمعها لأول مرة:

- كيف... كيف؟...

فبسطت ذراعها في قنوط وقد خففتها المعبرات،

ولكنّ صباح أقبلت نحوي في حال من الهذيان مرعبة

وصاحت بصوت مبحوح:

- العملية المشنومة!... لمن الله العملية.

وتحوّلت إلى الجارية في ذهول وصحت بها:

- عملية... آية عملية؟!

وأدركت عند ذلك أنّي أشمّ رائحة غريبة، فأدركت

بصري في الحجرة حتّى وقع على خوان في ركن منها

صمّت عليه أدوات طبّية وأوعية وزجاجات وقطن.

اقتربت من الخوان وتضمّصته بعينين زائفتين، متى

جامدا بهذا كله؟ ومتى استقرّ الرأي عليه؟ كيف حدث

هذا؟... ونظرت إلى المرأة فوجدتها ترمق الجارية

بنظرة قاسية غريبة، فاذاذاد ذهولي وحيرتي، ثمّ تحجّر

قلبي قسوة وجنوناً، فألقت عليها هذا السؤال بصوت

رهيب:

- آية عملية التي تتحدّث عنها صباح؟

الجارية بقبضة يدها ضربة هائلة فتراجعت الجارية في فزع، ثم التفت نحونا ممسكة عن اللطم وصرخت في وجهينا - أنا والطبيب - بصوت كالزئير:

- أنتما اللذان قتلتماها... اغربا عن وجهي.

وانفلت الطبيب من الباب، وليت وحدي أحدهما بنظرة قاسية لا تابه للورع. «أنتما اللذان قتلتماها». إن المرأة تهذي، ولن تأخذني بها رحمة، ولن يبدأ خاطري حتى أعمل عملاً ترتج له القلوب. إنني حيال جريمة، إلا تكن جريمة جهل وغياء، ولا بد أن يؤتي الثمن غالباً. لقد تمخض غضب العمر في عن ثورة جائحة وغضب نارتي وشر مستطير. نسيت الجثة والحزن وتحاللت الشياطين لعيني. لتنفض الدوامي على رموس المجرمين.

وكانت المرأة تمول بصوت مزعج، وصباح تتحبب انتحاناً متواصلًا، تتحولت عنها بحركة مفاجئة، وغادرت الحجرة لا ألوي على شيء، ثم سرقت إلى الخارج مهرولاً كآني أفر فرارًا.

## ٦١

بدت الدنيا لعيني حراء قاتية. وركبني عناد جهنمي دفعني دفعا لا يقبل لي به إلى ارتكاب أي شر أنفس به عن صدري. وكنت في شك من بلوغ آية نتيجة نشغي غلبي ولكنني لم أتردد لحظة واحدة، وناديت تاكسي وأمرته أن يذهب بي إلى النيابة. ودخلت دار النيابة وليس في ذهني خطة معينة أو نية صريحة. وجدتي في زحمة خانقة وصغرت مسامي ضوضاء غير مميزة كهدير البحر، فلبثت حائرا لحظات حتى رأيت شرطيا فتقدمت منه وسألته أن يدلني على حجرة وكيل النائب، فقال لي بخشونة، «في الطابق الثاني»، فارتقيت السلم واسترشدت بموظف إليها، ثم استأذنت ودخلت، رأيت مكتبا في مواجهة الداخل جلس وراءه شاب قصير نحيل، مكبا على أوراق بين يديه، فرفع رأسه حين دخولني، ونفض عيني بنظرة ثابتة، ثم سألني:

- ماذا تريد؟

بالتردد الخ الخ... فانتظرت حتى انتهت وأنا أنفصض غضبا وحشا، ثم انطلقت متي ضحكة باودة كرتين النحاس وصحت:

- طيب تناسلي ويغري عملية في البروتونا... لا عجب إذا كنتم قتلتماها...

ودرت على عقي وانددت إلى الباب وصحت بصوت كالرعد:

- يا دكتور...

وكزرت النداء، حتى جاء من أقصى البيت ممقع الوجه، ودخل الحجرة في خشوع لا يوائم كبرياء الممهود، فشعرت نحوه بهنق وكراهية تضيق عنها الأرض، وبادرته قائلا:

- أخبرتني الهائم أنك أجريت العملية التي قتلت زوجي، فهلا دللتني على ما جعلك تأخذ على عاتقك إجراء عملية جراحية خطيرة على رغم أن الجراحة ليست من اختصاصك؟

وبدا في وجهه الانزعاج، وحدد نازلي هائم بنظرة غريبة أعادت إلى عيني نظرة المرأة إلى صباح فطعن به الحقن، وداخلي شعور غامض بأنهم يدارون عني أمرا خطيرا، وصحت به بوحشية:

- اجبني!

فالتفت نحوي مقلبا، وصمت لحظة كأنما يشاور كبرياءه الضائع، ثم قال بصوت منخفض:

- كانت في حاجة إلى عملية عاجلة...

فقلت وأنا أضرب كفا بكف:

- لماذا لم تدعولي؟... لماذا لم تستدعوا طبيبا جراحا؟

فقال الأم بجزع:

- لم يكن في الوقت متسع!

فزعلت بها:

- ولكن كان فيه متسع لقتلها...

وملحت المرأة في وجهي بجنون وجعلت تتردد: «قتلها... قتلها... قتلها!» ثم انفجرت بغشة ففقدت صوابها، وإنهالت على عختها لطمًا، وقد أرادت صباح أن تحول بين كفيها وعختها، ولكنها ضربت وجه

اختصاصه، فهو يفهم الأمراض جميعاً...

- وهل هو الذي أشار بإجراء العملية؟

- نعم.

- وهو الذي أجراها؟

- نعم! وقد سأله كيف يجري عملية جراحية على

حين أنه ليس جراحاً؟ فقال لي إن الحال كانت

تستدعي عملية عاجلة...

فتفكر الرجل ملياً، ثم سألني:

- هل تشهم هذا الطبيب اتهاماً معيناً؟

فلم أفهم ما يعنيه، ورنوت إليه في حيرة دون أن

أنيس بكلمة، فسألني:

- هل لديك من الأسباب ما يملكك على اتهامه

بقتلها عمداً؟

فخفقت قلبي، وهزئت رأسي سلماً، فقال متسائلاً:

- هل تشك في حدوث خطأ أثناء العملية أتى إلى

الوفاة؟

- هذا جائز جداً يا سعادة البك، وإن يكون مجرد،

خطأ، ولكنه خطأ رجل ليس له خبرة بالجراحة،

فمستوليت لا شك فيها.

فعاود التفكير مرة أخرى ثم قال:

- لا أستطيع أن أفهم برأي قبل أن يفحص

الطبيب الشرعي الجثة، ويوضح أسباب الوفاة...

فاستحوذ عليّ خوف وكآبة، ولم أطق تصوّر عبث

الطبيب بالجثة، وفأخض بي الألم فقلت:

- هلأ استدعيت الطبيب للتحقيق معه أولاً؟

فلم يحفل باعتراضي، وأمسك بساعة التليفون

وطلب رقمًا، ثم سمعته ينادي الطبيب الشرعي، ثم

سألني عن عنوان البيت، وطلب إليه أن ينتقل إليه

ليفحص الجثة ويكتب تقريراً عن سبب الوفاة، وأخبرني

الحديث ثم التفت نحوي قائلاً:

- إذا كان ثمة مسؤولية جنائية فسأذهب

للتحقيق...

وغادرت دار النيابة بعد إتمام الإجراءات الرسمية

وقد فقدت تهويزي، فاستشعرت خطورة ما أقدمت

عليه. ليس الأمر لعباً، إنه نيابة وطبيب شرعي

صدمني هذا السؤال البسيط فاستحال عقلي خواء،

ووقفت ذاهلاً كأنني لا أدري على وجه التحديد لماذا

جئت. ولاح التساؤل على وجه الشاب فأعاد سؤاله

قائلاً:

- ماذا تريد؟

ينبغي أن أتكلّم معها كلّفني الأمر، فقلت تاركاً

مقودي للسان:

- زوجي... (كنت أقول قُلت ولكّني عدلت عن

ذلك خوفاً)... ماتت...

فقطّب الوكيل فيها يشبه الدهشة وقال:

- وما شأن النيابة في ذلك؟ ولكن من حضرتك؟

وتفصّلت تنفّساً عميقاً، ووجدت رهبة الحفوف

تزأبني، وعرفته بنفسي ثم قلت:

- إليك قصّتي يا سعادة الوكيل: تركت زوجي

متوقّكة في بيت أمّها صباح اليوم، وعدت إلى البيت

بعد مفادرتي إياه بساعتين فوجدتها ميتة. وقالوا لي إن

وطأة الشعب اشتدّت عليها فجأة فاستدعوا طبيباً قريباً

من أقرّبا أمّها، فرأى أنّ حالها تستلّج إجراء عملية

عاجلة فقام بها وماتت على الأثر...

وازددت ريفي وأنا أرمق الرجل بنظرة طويلة،

ولسناً وجدته غير قانع بما سمع استطردت قائلاً:

- الواقع أنّ هذا الطبيب أخصّصائي في الأمراض

التناسلية، فهل يجوز أن يجري عملية جراحية؟ وإذا

انتهت هذه العملية بالوفاة ألا يُعدّ مسئولاً عنها فيجب

أن ينال جزاءه؟!

لصمت الرجل لحظة ثم سألني:

- هل نُقلت إلى مستشفى؟

- كلا... أُجريت العملية في البيت حيث ترقد

ميتة الآن.

- من الذي استدعى الطبيب؟

- حماتي...

- وكيف استدعت طبيباً تناسلياً لا شأن له بمرض

زوجك؟

- لقد سألتها نفس السؤال فقالت لي إنه أقرب

الأطباء إليها، وإنّها تظنّ أنّ الطبيب، معها كان

فاستار منظرها وسؤالها خوني وشعور الخزي الذي  
ركبني منذ فارت دار النيابة ولم أعد أطيق حبس السرّ  
الرهيب في صدري. نازعتني نفسي إلى الاعتراف،  
ولّى لقاء الخطر وجهًا لوجه، فقلت بهدوء:

- ذهبت إلى النيابة وطلبت إجراء التحقيق!  
فأتسعت حدقتها وفغرت فاهها، وجعلت تحملني في  
وجهي كأنها لا تصدّق ما سمعت أذناها، ثم غمغمت  
بذهول:

- النيابة...!  
فقلت بهدوء رهيب، وبصوت مرتفع لأسمع من في  
حجرة الاستقبال:

- أجل ذهبت إلى النيابة وسيجيء الطبيب الشرعي  
إلى هنا قريبًا قليل.

وسرعان ما بدا الدكتور خارجًا من الثرى، فوقف  
غير بعيد مجتمع اللون سايم الطرف، وعادت المرأة  
الذاهلة تسأل:

- آية تهمّة وجّهتها إلينا؟  
فقلت وأنا أغلّ الحقد والتشفيّ بوحشة:

- ليس تهمّة، ولكن أجزم بوجود خطأ خطير  
نجمت عنه الوفاة، خطأ خلّيق بأن يقع فيه من ليس  
له خبرة بالجراحة وهو يتصدّى للعبث بأرواح  
العباد...

وساد صمت متوتّر أليم تلاقت فيه الأعين  
وافترقت. ثم شهقت المرأة شهقة عصبية وهضت بي:

- كيف هان عليك أن تسلم جثة زوجك للنيابة؟  
ووعزني ألم عميق فكادت تنهار قواي، ولكنّي  
غطّيت حلّ الألم بغضب مفتعل وصحت بمنف قائلاً:

- بيّون عليّ ذلك ألاّ تصبّح حياتها هنرا!  
وقفر الطبيب فاه ليقول شيئاً ولكنّ الجرس دقّ بغفوة  
هلعت لها القلوب، فمضيت إلى الباب وفتحته، فبدا  
شرطيّ ابتدري قائلاً:

- هل توجد في هذه الشقة المرحومة حرم كامل  
أفندي رؤية المؤلف بالحرية؟

فأجبت بالإيجاب، فتخّى الرجل جانباً وهو يقول  
وسعادة الطبيب الشرعيّ: ودخل رجل ربعة يحمل

ويوليس وفضيحة وقيل وقال، وقد يتمخّض التحقيق  
عن لا شيء فلا يبقى لنا إلاّ القضيحة والقبل والقال،  
بأيّ وجه ألقى الناس بعد ذلك؟ كيف ألقى أهلها  
وأهل والناس جميعاً؟ وألم يكفّ زوجي ما قدّر لها من  
مصير تمسّ حتى أجعلها معرضاً للألباء الشرعيّين  
ومضنة للأفواه؟ وأحرّ قلباه! هكذا عدلت صوب  
البيت مثقل النفس بالهمّ والفكر، ولستأ طالعني العمارة  
توقّفت متردّداً وقد أهاب بي نداء أن أنكص هارباً!  
ولكن لم يكن لي مهرب، ولم يكن بدّ من أن أخرج  
مرارة الكأس حتى التهاة...  
ودقت الجرس، ثمّ دخلت واجماً مستخزياً...

## ٦٢

كانت الأبواب مغلقة إلاّ باب حجرة الاستقبال كان  
موارباً، ولم يكن بالبيت أثر من الضمجة التي تشمل  
البيوت حين الموت، فتولّتي دهشة عفت حل  
اضطراب نفسي. لقد جاوزت الساعة الحادية عشرة  
فكيف لم يطّيروا الخبر المجمع إلى بيوت الأهل  
والأقارب! وعادوني شعور بالارتياح والحق...

فنظرت إلى الخادم الصغيرة التي فتحت لي - وكانت  
ملتهبة العينين من البكاء - وسألتها ألم يحضر أحد؟  
فهزّت رأسها سلّياً في صمت وحزن، فأشرت إلى  
باب حجرة الاستقبال الموارب وسألتها:

- هل ثمة أحد هنا؟  
فغمغمت قائلة والدكتور أمين، فانتفضر جسمي  
غضباً ومقتاً. ثمّ مفتت الخادم إلى باب الصالة الكبيرة  
فدفعته ودخلت وذهبت إلى الحجرة التي ترقد فيها  
ريساب في أقصى البيت. لبثت وحيداً في الصالة  
الصغيرة لا أدري ماذا أنا فاعل، تتابى مشاعر الرهبة  
بما أقدمت عليه وأحاسيس الغضب والقت التي يثيرها  
في نفسي الجوّ المحيط بي. ثمّ سمعت وقع أقدام آتية  
من الداخل، وظهرت من باب الصالة الكبيرة نازلي  
هانم مكلفة في السواد، فالقت عليّ نظرة باردة وسألني  
بانفعال قائلة:

- أين كنت يا سيدي؟

بدفنها في الوقت المناسب، لا تفزعني يا سيدي  
فسيتهي كل شيء في دقائق...

وارتحت المرأة على مقعد مغلوقة على أمرها وراحت  
تنشج باكياً، على حين سرت أنا بين يدي الطبيب إلى  
حجرة رباب! ولما بلغت الباب جاني نحيب صباح  
من الداخل، فدفعت الباب وناديتها دون أن تواتيني  
الشجاعة على النظر صوب الفراش، ولبت الجارية  
ندائي ففتحتها جانباً موسعاً للطبيب الذي دخل  
الحجرة بلا تردد، ثم رددت الباب وراءه، وسألني  
الجارية عن الرجل الذي جثت به فهرتها في جنز  
ودفعتها خارج الصالة. ورحت أذرع المكان جيئة  
وذهاباً في اضطراب شمل أعصابي جميعاً، ورائت على  
صدري كآبة قاتلة، فتصوّرت جثة زوجي الحبيبة بين  
يدي هذا الطبيب الغريب، ينزع عنها الأستار،  
ويبحث بها في برود لا يعرف الرحمة.

لقد ندّ عني أنين مومع، وشعرت بألم حادّ ممزّق  
قلبي لإرباً، ومزّت بي لحظات ذهول لختل إليّ أني  
فريسة كابوس شيطاني، وتلفتت فيما حولي كأنما اتلّس  
منفذاً للنجاة. ولكن هل نيت الوجه الشاحب  
المعصوب يمح على جبينه شبح الموت الرهيب؟  
رباه... لئي أتوب إلى نفسي رويداً رويداً، تاركاً دنيا  
الجنون الذي ركبني إلى عالم الفجعة الواقع، تمكّلت لي  
الحقيقة المروعة في شيء من الهدوء المحزن فكانتني أدرك  
لأول مرة أنّ رباب قد ماتت حقاً. لم تعد من الأحياء.  
وخلت منها حيالي إلى الأبد. لن تعود إلى بيتي كما  
قالت أمّها، ولن أصحبها صباحاً إلى الترام، ولن  
أستقبلها مساء عقب عودتها من المدرسة وهي تغالب  
التعب بابتسامة حلوة، انتهى الشباب الرّيان، وانطفأ  
الحبّ الباهر، وصوّحت آمال وأمال. أين مَنّي ذاك  
التاريخ السعيد الذي بدا على طوار المحطة، فنسج  
ذكرياته من مائة الحبّ الأثيرية، وطاف بي في وديان  
السعادة، ثم خلطني خلطاً جليداً، أين مَنّي هذا  
التاريخ الساحر؟ هل انتهى حقاً في دقيقة من الزمان  
بخطأ طبيب أحق؟... وما ذنبي أنا؟... الموت  
كارتة فظيمة بيد آله غير مقنع!... ألم يكن أحدثها

حقبة طيّبة وتبعه الشرطي على الأثر، وصادف الطبيب  
الشرعيّ الدكتور أمين في مواجهته فسأله:

- هل حضرتك الزوج الذي بلغ النيابة؟

فقلت له وأنا أغلق الباب:

- أنا الزوج يا بك، وهذا هو الدكتور الذي أجرى  
العملية...

وردّد الطبيب عيني بيننا في دهشة، وجرت على  
شفهته ابتسامة خفيفة، ثم سأل الدكتور أمين قاتلاً:

- أيّ عملية كانت؟

فقال الدكتور أمين بصوت منخفض:

- عملية في البروتون...

- وما سبب الوفاة؟

- حدث ثقب في البروتون نتيجة خطأ خارج عن

إرادتي...

وقلت عند ذاك في انفعال شديد موجّهاً خطابي  
للطبيب الشرعي:

- أسأله يا سعادة الطبيب عما جعله يجري عملية  
جراحية وهو ليس جراحاً...

تتردّد الرجل لحظات ثم قال بصوت مرتفع:

- لقد جث لهمة أخرى. أين الجثة من فضلكم؟

وكانت نازلي هاتم واقفة بمكانها على كتب من باب

الصالة الكبرى تردّد عينيها المحمرّتين في وجوهنا في

صمت وذهول، فلمّا أن سمعت الطبيب يسأل عن

مكان الجثة ندّت عنها آهة وهضت بلا وعي قائلة:

- هذا لن يكون أبداً...

فرمقها الطبيب بنظرة سريعة ثم قال لها برقة:

- تجملي بالصبر يا سيدي...

والقت عليّ المرأة نظرة مشتتة بالغضب ثم عادت

إلى الطبيب تقول برجاه:

- إنّ المتوفّاة كريمة رجل من كبار موقفي الدولة،

جبر بك السيّد، كبير مفتشي الوجه البحري، لعلّك

تعرفه يا سيدي، فارحم نصف امرأة مثلي وانتظر

عودته، لقد أبرقت له بالفاجعة.

فقال الطبيب برقة:

- ينهي فحص الجثة بلا إبطاء حتّى يمكن التصريح

بالتحفة. وسأل وكيل النائب عن حجرة المتوفاة، ثم مضى إليها توتاً يتبعه الكاتب، ولم أجد الشجاعة للحاق بهما، فانتظرت خارجاً. ولم يطل غيابهما فعاد مرة أخرى، ونظر الرجل فيها حوله ثم سار إلى حجرة الاستقبال وأنا في أثره، وجلس على كنبه، واقعد الكاتب كرسياً قريباً باسماً أوراقه على نضد. ووجه إليّ أسئلة عن اسمي وعصري ووظيفتي وطلب إليّ أن أروي معلوماتي عن الحادث. فصعدت بأمره والكاتب يستجّل كلّ كلمة أقولها. ثم استدعى الدكتور أمين رضا فجاه الدكتور جامد الوجه صاحب اللون، وسمع له بالجلوس أمامه، ثم وجه إليّ الخطاب قائلاً:

- يوسعت أن تبقى معنا إذا شئت!

وخيل إليّ أنّي وجدت في لهجته ما يشبه الأمر، وكانت رغبتني في حضور التحقيق لا توصف، فجلست على مقعد ملاصق للكنبة التي جلس عليها المحقّق وقد ملكني الرهبة والتأثر. وبدأ الرجل يلقي عليه أسئلة عامّة عن الاسم والعمر والمهنة، ثم قال له:

- أخبرني كيف اتّصلت بهذا الحادث من بادئ الأمر؟

فقال الدكتور أمين بلا تردد:

- استدعيت إلى عيادة الرضعة زهاء التاسعة صباحاً فوجدتها في حال سيئة من الألم، ففحصتها فتبيّن لي أنّ البروتون ملتهب وأنّه يستوجب عمليّة عاجلة فقرّرت إجراؤها إنفاذاً لحياة المريضة، وأعلنت رأيي لأنّها فوافقت، وفي الحال أجريتها، ولكن حدث أن ثقب الغشاء ثقباً خطئياً، وذهبت مجهوداتي في إنقاذها سدى، فتوقّعت...

- هل سبق لك أن عالجت للمتوفاة؟

- كلّ...

- ولا في هذا المرض الأخير؟

- كلّاً، وقد علمت أنّها رقدت ليلة واحدة وكانوا

يظنونها مصابة بنوبة برد.

- هل من عادة هذه الأسرة أن تستدعيك فيها يلمّ

بها من أمراض؟...

- لم يحصل هذا، إلى أنّي لم أزال مهتني إلا منذ

منذ ساعتين؟ ألم تكن كالوردة البانعة منذ يوم أو يومين؟ فكيف أصدّق أنّها صارت وأول ميت منذ ملايين السنين سواء. ثم إنّها حيّة في نفسي، إنّني أراها رؤية العين، وأسمعها، وألصّها، وأنشدها، إنّها ملء النفس والقلب، فهل من سبيل إلى إصلاح خطأ بسيط؟!

وحدثت حركة - لا أدري إن كانت جاءت من الصالة الخارجية أو من الحجرة المحزونة - ولكنّها أعادتني إلى وعيي فعلق خاطري بالطبيب وما يفعله. عاودني اضطرابي وقلقي وغلوقي، ماذا أفعل لو لم يطر الطبيب بشيء ذي بال؟ كيف ألقى القوم فيها بعد؟ لشدّ ما تمّنت أن يُزلّ الله عقابه بالقاتل؟ بيد أنّي لبثت على حال من الاضطراب لم تترك لي سبيلاً إلى نفسي أو عقلي. وطال الزمن واستطال حتّى خُيّل إليّ أنّي شخت وهرمت وآتني أموت. ثم فتح باب الحجرة ولاح وراءه الطبيب بوجه جامد لا يبين عن شيء، وتقدّم خطوات فصار في منتصف الصالة، فوقفت حياله فاغر الفم شاخص البصر، وسمع بأنامله على جبينه ثم قال بنبرات واضحة:

- لقد انتهيت من كتابة تقريري، وسأحوّله إلى النيابة في الحال، وأظنه يستوجب تحقيقاً عاجلاً...

## ٦٣

كان ينبغي أن أشعر بارتياح وتشفّ، ولكن خلوت قواي فجأة فارغيت على أقرب مقعد ومددت ساقي واستسلمت لما يشبه النوم. ولم يحدث في فترة الانتظار التي أعقبت خروج الطبيب إلا اندفاع نازلي هامم وصباح إلى حجرة المتوفاة، وتصادف النواح والبكاء. ولاحت منّي نظرة إلى الصالة الصغرى فرأيت الدكتور أمين رضا يلرعهما في بطه وتناقل، وقد جلس الشرطي على كرسيّ عند باب حجرة الاستقبال.

وعند منتصف الساعة الواحدة دقّ الجرس، فنهض الشرطيّ وفتح الباب، ودخل وكيل النائب يتبعه كاتب وشرطيّ، وخفق قلبي في ارتياح لرؤية رجال الحكومة، ونهضت قائلاً وانجذبت صوب الرجل، ثم رفعت يدي

ولأول مرة تردد الدكتور قبل الإجابة، ثم قال:

- كلاً... .

- كيف أثبت بها؟

- من زميل.

- جراح؟

- أجل... .

- ولماذا لم تحضره؟

- كان مرتبطاً بعمل في نفس الوقت... .

- من عسى أن يكون هذا الدكتور؟

فترد مرة أخرى، ثم تورد وجهه الشاحب وقال بصوت منخفض:

- الحق أتي أحضرتهما من المستشفى، مستشفى فؤاد الأول.

- بصرف النظر عما إذا كان هذا التصرف سليماً أم لا من الناحية الإدارية، ألم يكن الأخلق بك وقد رأيت أنك لا بد متفق وقتاً غير قصير في إحضار الأدوات بطريقة غير مشروعة، ألم يكن الأخلق بك أن تستدعي جراحاً خصوصاً وأن استدعاه لم يكن يستغنى عن الوقت أكثر مما يستغنى إحضار الأدوات؟ فتفكر ملياً ثم يارتبك ظاهراً:

- كنت متأثراً بحال المريضة فلم أفكر في هذا... .

- الأقرب إلى المنطق أنه كان ينبغي أن تفكر في هذا بسبب هذا التأثير نفسه. وحب الحق كما تقول، فلماذا لم تنقل المريضة إلى المستشفى حيث يوجد الاختصاصيون بوفرة؟

- لم توافق أمها على نقلها... .

- ألم يكن هذا أقل خطورة من تسليمها ليد غير خبير؟ ولكن لنضع هذا الآن... .

ويست المحقق صحيفة بين يديه، جرى بصره على سطورها، ثم قال وهو يتأمل في جلسته:

- ما رأيك في هذا، إني أراجع الآن تقرير الطبيب الشرعي فلذا به يؤكد أن التهاب البروتون لا يستوجب هذه السرعة التي تحدثت عنها كما تستوجب بعض حالات الزائدة الدودية مثلاً، فما رأيك في هذا؟

فلاذ الدكتور بصمت عميق، وثم لمعان عينيه عن

شهور لا يجاوز العام، ولا أذكر أن أحداً من الأسرة قد مرض في هذه الفترة... .

- هل تظنهم كانوا يستدعونك في مثل هذه الحال؟

- الواقع أنهم استدعوني في أول حال عرضت لهم.

- ألا يعرفون اختصاصك؟

- بل ولكن شدة الحال جعلت الأم تستجد بي، لقرب عيادتي من ناحية، وللقرابة التي تربطني بها من ناحية أخرى.

- لا أرى في هذه الظروف ما يمكن أن يؤثر في اختيار الطبيب، ثم أنت كيف توافق على تلبية دعاء لحال مرضية تعلم أنها ليست من اختصاصك؟ ألا يشير الأطباء في أمثال هذه الظروف باستدعاء الطبيب المناسب؟

- رأيت اللياقة تقضي بأن أتي الدعوة على الفور، فذهبت وفي ظني أنها حال إغواء أو مغص شديد أو ما شاكل ذلك مما لا يعجز طبيباً على الإطلاق، وأظن هذا ما دار بخلد الذين استدعوني.

- ولكنك وجدت الأمر أخطر مما تصورت فكيف كان تصرفك؟

فأمسك الدكتور عن الإجابة وخفض بصره في ارتباك وترو، فيأدبه المحقق قائلاً:

- لماذا لم تُبَيِّرْ باستدعاء جراح؟

- كانت الحاجة ماسة إلى عملية عاجلة.

- هل مارست الجراحة قبل ذلك؟

- في الكلية طبياً!

- أعني بعد ذلك؟

- كلاً... .

- يدهشي أن أتصور إقدامك على إجراء هذه العملية الخطيرة.

فقال الدكتور أمين وقد تغيرت نبرات صوته قليلاً واعتربها حدة عصبية:

- قلت إن الحال كانت خطيرة وتستدعي إجراء سريعاً!

- وكيف أحضرت الأدوات الطبية اللازمة لهذه العملية! هل كانت توجد بعيادتك؟



تفكيره وقلقه. وعاد المحقق يقول:

- ويقول أيضًا إنَّ العملية تستدعي بضع ساعات للتأهب لها يتناول المريض في أثناءها شربة عادة، ألم تعلم بهذه المبادئ الأزلية في فنِّ الجراحة؟

- علمت أنَّ المريضة تناولت شربة مساء أمس ولم تلق بعدها طعامًا...

- هل أخذتها استعدادًا للعملية؟

- كلا... أخذتها بسبب ما ظنَّ بها من برد، أما فكرة العملية فلم تنشأ إلا بعد حضوري اليوم.

واشتدَّ انتباهي عند ذلك، وعجبت كيف لم يذكر لي أحد أنَّ زوجي تناولت شربة. وذكرت كيف ألبيت بهذا البيت مع أنه كان يوسمها أن تعود إلى بيتنا ولو في ناكسي، وداخلي شعور ثقيل بالغموض والحيرة.

وعاد المحقق يقول:

- إلى حيال عملية أجريت بسرعة جنونية لغير ما سبب فنيَّ يستدعي ذلك، ويبيد طبيب غير جراح كان يوسمه ولا شك أن يدعو جراحًا مختصًا... فما معنى هذا؟

وألقي المحقق على الدكتور نظرة نافذة باردة، فردَّد بصري بينها في قلق متزايد وخوف شريب. ويحث الاضطراب في نفسي توترًا حادًا. ثم سمعت المحقق يقول:

- إلى أتساءل عن الضرورة التي حثمت أن تكون أنت الجراح، وفي هذا الوقت بالذات؟ وسكت مليًا ثم استردك متسائلًا:

- وما سبب الوفاة؟

- ثقب البروتون...

فقال المحقق ببرود:

- يقرّر الطبيب الشرعيّ غير هذا.

فتساءل الدكتور أمين رضا مستكبرًا:

- فما عسى أن يكون السبب إذن؟

- هذا ما يخلق بك أن تدلّني عليه بنفسك!

فقال الدكتور وقد اعتور نبرات صوته ذلك التوتر العصبي:

- لا أفهم ماذا تعني...

- سأزيد لك المسألة بيئاتًا، يقرّر الطبيب الشرعيّ أنَّ البروتون قد ثقب حقًا ولكن يزكّد أنه لا يوجد به شيء على الإطلاق من مرض أو التهاب، وأنَّ حاله لم تكن لتستدعي علاجًا على الإطلاق فضلًا عن عملية جراحية!

- ولكنّي أجريت العملية بنفسِي.

- لم تُجرِ عملية على الإطلاق فبها حذا ثقب البروتون.

فقال الدكتور بصوت متهدج وبعثة غاضبة:

- أتريد القول بأنّي ثقت البروتون بلا داعٍ!... ما معنى هذا؟...

- أنت ثقت البروتون فقتلتها!

- في أثناء إجراء العملية...

- أوكد لك أنك لم تجرِ عملية البروتون...

فصاح الدكتور في غضب:

- أتتهمني بأنّي تظاهرت بإجراء العملية كي أقتلها؟... أتتهمني بالقتل يا حضرة المحقق؟ فقال المحقق يهدوء:

- إنني أتهمك بالقتل حقًا، وستوافقي عمًا قليل على رأيي. وسترى بنفسك - غير حاجة إلى نصيحتي - أنه لن يبيّن لك بعض النجاة إلا الصلص والصراحة. انكفأ وجه الدكتور وازداد تجهّمًا، وركبته حال تعسة من القهر. أمّا المحقق فقد ألقي نظرة إنمرية على تقرير الطبيب الشرعيّ، ثم استطرد قائلاً:

- لماذا أحدثت هذا الثقب القاتل بالبروتون؟

فقال الطبيب في تجهّم، وفيها يشبه اليأس:

- لقد أجبت على هذا من قبل!

- يجدر بك ألا تتغاي وأنت بلا شك شاب ذكيّ، لقد أحدثت هذا الثقب لتخلق سببًا ظاهرًا ومشروعًا للوفاة التي ظننتها لا محالة واقعة...

أطرق الدكتور صامتًا وبدأ كشخص يعترف مستسلمًا، واستطرد المحقق قائلاً:

- كنت تجري عملية حقًا ولكن في موضع آخر من الجسم، ثم حدث ثقب خطأ في هذا الموضع الآخر فظننت لقلة خبرتك بالجراحة أنه سيفضي على المريضة

الثلاثة عن ناظريّ، وغابت الحجرة، ورأيت فراغاً خفيفاً تخرج فيه الحمرة بالسواد، وتراقص فيه أشباح مرعبة من الذكريات والخواطر... عملية إجهاض... كانت رباب حبل! الخطاب. هذا الطيب الشاب... يستطيع الشيطان ولا شك أن يؤلف من هذه الحقائق المتناثرة جرمية مروعة، ساخراً من شكّي الذي دفعني إلى التجسّس حيناً، هازئاً بالطمأنينة التي آوت إليها سادراً حيناً آخر... إنّ المحقّق يسمى جاهلاً وراء جرمية طيّبة، وسيعثر في طريقه الشاكك بجرمة أدهى وأمرّ. ألم يحسد قلبي الكارثة من بادئ الأمر؟ أليكون الطيب هو صاحب الخطاب؟ أم إتهم استشفعوا بقرائنه على التسرّر والكتبان؟ ولكن لا شك أنّ الأمّ كانت تعلم كلّ شيء... كلّ شيء عن حياتي الزوجية، وزلّة ابنتها، ولعلها أرادت أن تطمس آثار الفضيحة بالعملية لولا أن هنك الموت تدبرها. أه يا رباب! إنّ كلّ حذاب نُصاب به في هذه الدنيا حقّ وعدل لأننا نتعال في حبتها على حين أنّها لا تستحقّ إلاّ الموت.

واستيقظت على صوت المحقّق وهو يهتف بي: «هو... أصبح!» فرفعت إليه عينيّ مرعّباً وصدت رويداً رويداً إلى الشعور بما حو لي. قال الرجل: - إنّي أسألك ألم تصارحك زوجك بكراهيتها للمخبر؟ ألم تغضّ إليك برغبتها في إجهاض نفسها؟ واسترقت من الدكتور أمين نظرة سريعة، وقلت لنفسي إنّه يعلم السرّ كلّ من بادئ الأمر، ولعله يعلم اضعاف ما أعلم، فعزّ عليّ أن أكذب وإن أعرّض نفسي لإهانة جديدة، وتتمت قائلًا: - كلّ... .

- أكنت تراها مسرورة بحبلها؟  
فقلت في غير مبالاة وقنوط:  
- لم أعلم أنّها كانت حبل إلاّ هذه الساعة!  
فارتفع حاجبا المحقّق فوق حزيناته، وثبته على عينيه وهو يقدر فكره ثمّ سألني:  
- كيف تملّ إخضاعها الأمر عنك؟  
لشدّ ما زلزلني هذا السؤال! إنّها كلمة واحدة ثمّ

حتّى فما عسى أن تفعل؟ لو عُرف سبب الوفاة الحقيقيّ لكشف الغطاء عن العملية الجراحية وهي غير مشروعة، وهنا هداك عقلك المضطرب إلى حيلة جنونية، وهي أن تثقب البروتون فيظنّ أنّه سبب الوفاة، ثمّ تدعيّ كلّما بأنك كنت تجري عملية في البروتون، بللك تحكم الستار على جرمية العملية غير المشروعة، أمّا قتلك مريضاً خطأ فلا يقع تحت طائلة القانون، ولكنك أخطأت، فالمریضة لم تحت من الثقب الأوّل ولكنك قتلتها وأنت تثقب البروتون.

انفضّ الدكتور انتفاضة عصبية عنيفة، وهض بالمحقّق وكأنه فقد وجهه:

- كلّ... كلّ... لقد تولّيت عمّاماً قبل أن أثقب البروتون!...

وجرت على شفهي المحقّق ابتسامة خفيفة، ألقي على الدكتور نظرة ظالفة، حل حين أطبق الآخر شفثيه في صمت وذهول، ورفع عينيه مرّتين إلى وجه المحقّق في حقّ وقنوط بدا لي وكأنه قد صرع تحت وقع ضربة قاضية فقلّب على أمره. بيد أنّي لم ألقي بالألّ إليه. كان عقلي يتنفّس حرارة حركة وهياجاً، عملية غير مشروعة! عملية البروتون ما هي إلاّ خدعة زائفة للتسرّر على جرمية! إمّا أن أكون مجنوناً أو يكون الرجلان مجنونين!... تولّيت عمّاماً قبل أن يثقب البروتون!... ربه! أكاد أخرج عن طوري ليهزلت لساني هاذباً رغم وجود هذا المحقّق المخيف. على أنّ المحقّق خرق الصمت الثقيل قائلاً في هدوء:  
- اتّفقنا، وأظنّ أنّه أن أن تعترف بأنّه وقع الاختيار عليك بالذات دون أطباء مصر جميعاً لإجراء عملية إجهاض!

لم يتوقّف عند هذا الحدّ، ولكنّه واصل حديثه، ولعله ذكر ليما قال النج وأثره أو شيئاً من هذا القبيل، ولعلّ الآخر نطق ببضخ كلمات كذلك، ولكنّي لم أعد أعي شيئاً ممّا يقال. تملّق ذهني بقوله: «عملية إجهاض» وامتنع عن السير. لقد وقعت صليّ هذه العبارة فشطرتني شطرين، ثمّ مرّقتي إرباً، ودوّت في رأسي حقّ ذملت بها عن كلّ شيء، غاب الرجال

انتفض واقفاً غاضباً، وألقى بالحقيقة من بين شفتيه في غطرسة وكبرياء: «لا تسأله عما لا يدري، إنها لم تكن زوجة إلا رسمياً فحسب». رثاه، لماذا لم أدق عنقه؟ لماذا لم أرمي بنفسه عليه وأنشب أظفاري في قلبه؟ لتلهيَنِّي هذه الذكرى حتى الموت يمثل السوط اشتعلت أطرافه بالنار. ولكن ما الذي جمعه يرمي بنفسه إلى الهلاك؟!

هل حله اليأس من تبرة نفسه من إحدى التهمتين على الاعتراف بالأخرى؟ أو أنه راحه ما جرى الحب على حبيته فنازعته نفسه في ساعة يأس إلى أن يشاطرها المصير الأليم؟ أم هي ثورة ضمير أم ثورة قلب أم الاثنين معاً؟ من لي بأن أطلع على سرّ هذا القلب المتفطرس؟ بيد أنني ازددت حيرة وجعلت أساءل: كيف هان عليه أن يرسلها إلى القبر مكفنة بالفضيحة؟ ألم يكن الأخلق به أن يتنزه الفرصة المبلولة فينقذ نفسه، ويستر شرف المرأة التي أحبها... وأحبته؟... أثره نادماً الآن هل ما بدر منه أم لا يزال منتصب القامة غطرسة وعجرفة؟... إنه لغز، وسيظلُّ لغزاً بالنسبة لي إلى الأبد، وكان قلبي متورثاً من الحقد والغضب فوجلت في المصير الذي قضي عليها به - هي في القبر وهو في السجن - راحة وضطة.

وكانت قدمي قد حملتني إلى ميدان الإسماعيلية، فلم أجد مهرّباً خيراً من حدائق قصر النيل فالجئته صوب الجسر... أه لو أستطيع أن أغيب عن القاهرة عاملاً ولم يدُرْ لي بخلد أن أشجّ جنازة المرأة التي كانت زوجاً لي، إذ لم يعد بوسعي أن أبوء أمام أحد من يحملون بحقيقة المأساة. ولكن هل تزوّجت حقاً؟ لم تكن إلا مهزلة طويلة، أو مأساة على الأصح، ولشدّ با تملكت الدهشة أهلي اليوم أو غداً إذا علموا بأن زوجي ماتت ودفنت دون أن يدعى أحد منهم لتشيع الجنازة، ولكن سرعان ما تلهب دعتهم إذا عرفوا الحقيقة وسرعان ما يلهمهم التندرُّبها بما عداها، وبما لها من أحداثٍ حقيقة بأن تحيي عائل السمر! وتقبض قلبي وشعرت ببرودة تسري في أطرافي. لشدّ ما تعاودني

يصبح سرّي نادرة المتندرِّين. إن مشاعر الحقد والانتقام تستفزني جيماً إلى نشر هذا السرّ الدفين كي اهتك سرّ الأئمة وأنزل انتقامي بالمجرم. أريد أن أقول إنه لم يكن في حياتنا ما يدعو إلى الحيل ليضع المحقّق يده القاسية على الفاسق. ولشدّ ما نازعتني نفسي إلى ذلك، وأوشكت الكلمات أن تثب إلى طرف لساني. بيد أنني لم أنبس بكلمة، وحلّ بي شلل عامّ لا أدري ما كنهه. هل يمكن أن يكون للخجل أثر حتى في مثل هذا الحال؟... هل يمكن أن تفوق رغبي في التسترّ على عجزتي تحمّلي إلى الانتقام؟ لم أستطع التزوّه بالكلمة الفاصلة، وكلّما مرّت ثانية ازدادت عجزاً ونكوصاً، ثم تمتمت قائلاً وأنا ألهث: - لا أدري...

وما أدري إلا والدكتور يتنفض واقفاً ثم يتراجع خطوتين شابكاً ذراعيه على صدره في تحدّ وكبرياء وطرسة! ويقول للمحقّق بثبات وعجرفة: - تسأله عما لا يدري، إنها لم تكن زوجة إلا رسمياً فحسب، وإني أنا المسئول عن كلّ شيء من البداية إلى النهاية...

## ٦٤

غادرت البيت دون أن أرى أحداً من أهله، فلم يعد البيت بيتي ولا الأهل أهلي. ووقفت عند باب العيارة فجرى بصري إلى المحطة، محطة الذكريات، وطاب لي أن أرتدّه بينها وبين الشرفة، ثم أغمض عيني لأرى موكب الذكريات يمرّ كلّمح البصر، صورة صادقة من الحياة، جامعاً بين طريقي لمهاتها ومأساتها. ثم انطلقت في الطريق بلا غاية كأنما أجد في الهروب، استحالة قلبي جمرة من نار يتطاير عنها شرر الغضب والشفاء والمقت. وقد خيل لي أنّ هذه الدنيا الماكفة على هومها ستتناشى شجونها غداً وتفرق في الخلد عن فضيحتي، هل أنني لم أكن قد أفتت من دعتني ولم أزل أساءل عما حلّ الدكتور المجرم على الاعتراف بالحقيقة المائلة! لقد هاضني الجبن فكتمت الحقيقة، ووهبته بذلك فرصة للهروب لو أراد هرباً، ولكّنه

صوبها لا يغمض وقد تقلص قلبي وتوالت ضرباته  
فرايت النور يشع من الشرفة والنوافذ. أما أمام مدخل  
الحانة فقد أقيم عمودان طويلان يتدلّى منهما مصباحان  
كثيران مضاءان. قضي الأمر...

٦٥

ذكرت وأنا أرتقي سلم بيتا أتي فارتعدت فرائصي  
وامتحذ عليّ حتى فظيع كأنه شيطان، ترى ماذا  
أحتقي؟... وسألت نفسي في حيرة عما عسى أن أقول  
لها... ربّاه! ما الذي جاء به إلى البيت؟ هل ظننت  
أنه يسكن في هذه الليلة في حجرة «رباب» وعلى  
فراشها؟ هل أتتني وأصلت ارتقاء السلم كأنه قضاء  
معتوم، ودخلت الشقة بصدر متقبض ووجه مكفهز،  
وجادلي صوت أُمّي وهي تتساءل في لهفة وجزع قاتلة:  
«من؟» فجمدت في مكاني غاضباً حائفاً ثم قلت  
بخشونة: «أنا» فهفت بي بصوت بالك:

- كامل. تعال يا بني...

فحقق قلبي بمضغ، وأيقنت أنها علمت بمصير  
«رباب» وفجئت إلى حجرتها وكانت جالسة في  
الفراش، فعدت إليّ يديها وهي تنشج باكياً وقالت  
بصوت تخفقه العبرات:  
- ليتني كنت فداها!.. كان ينبغي أن تبقى هي  
لك...

فوقفت في وسط الحجرة متجاهلاً يديها الممدودتين،  
وسألتها في جود وغلظة:  
- كيف علمت بالخبر؟  
فهفت بصوتها المختنق:

- كيف نسيت يا بني أن تخبرني؟ إنّي أدرك من هذا  
شدة حزنك. وقد فتّت قلبي رثاء لك... ليتني كنت  
الفداء لك ولها، أنا المجوز المربضة، ولكنّه قضاء  
ربنا.

لم ينل تأثرها جود نفسي، فلم أستجب لها،  
وسألتها وكأني لم أسمع كلامها:  
- كيف علمت الخبر؟

- لقد انتظرت هودتك اليوم في قلق، ولما أن جاء

تلك الرغبة القديمة في الحرب! أين متي بلد بعيد لم  
يطرق أبوابه طارق، من لي بأن أقطع كلّ صلة تربطني  
بماضيّ البغيض! آه لو يمكنني أن أولد من جديد في  
عالم جديد لا تعالمني فيه ذكرى من ذكريات هذا  
العالم، أجل لن أستطيع أن أوصل حياتي على حين  
يتبعني هذا الماضي كالظلّ الثقيل... وقضيت بقية  
النهار متخبّئاً في الطرق أو جالساً شاردًا في الحدائق،  
لا أشعر بحرّ ولا برّد ولا بظمأ، حتى أذنت الشمس  
بالمغرب وانتشرت سمره المساء فوق ردوس الشجر،  
فعدت من حيث أتيت في غلظ ثقيل، وبلغت ميدان  
الإسبانيّة وقد هبط الظلام على الكون فملكتني الحيرة  
ولم أعرف لنفسي ملجأ، ثم وثبت إلى ذهني صورة  
الحانة فجاءت فتبدّت من الأحياق، ونذت عن أعصابي  
المتوتّرة المكلمة أهة ارتياح كأنها حظيت بفرحة بعد  
طول اختناق. وفي اللحظة التالية كان التاكسي ينطلق  
بي إلى شارع الألفي. بيد أنّ ارتياحي ولّى سريعاً،  
وحلّ محله قلق وانقباض وتردد، وجعلت أتساءل: ألا  
يجمل بي أن أوبى وجهي وجهة أخرى! وغادرت  
التاكسي حبال الحانة ولكنّي لم أفسح إليها، ورحت  
أتمشّي على الطوار في غطى بظيفة متقلل الرأس  
والقلب، وغلبي البأس، فانسقت معه إلى داخل  
الحانة وانتبلدت ركناً مفرداً، وشربت كأساً وأخرى،  
وعللت، وما تكاد رأسي تستجيب للخمر، ولكنّي  
شعرت بالجوع بنفث فأكلت بنهم وشهوة عجيبة وما  
كدت أفرغ حتى حلّ بي تعب شمل معدني ورأسي  
وأعضائي جيماً فكانّ جهد اليوم المبرّج قد وجد غرة  
فزحفت عليّ بجحافلِه وناخ عليّ بكلّكله، ونهضت  
مرتجعاً، وغادرت الحانة إلى تاكسي واقف غير بعيد،  
فانطلق بي صوب قصر العيني، علاني التعب والجهد،  
وسرى في جسدي تخدير، وتولّاني شعور طارئ يعدم  
المبالاة، فرمقت مأساتي بعين ساخرة، فبلدت في لحظة  
كأنّني مأساة شخص غريب، أو كأنّني أنزعت من حياتي  
الخاصة واحتلت موضعها من موكب المأساة الإنسانية  
العامة. وجعل التاكسي يطوي الطريق حتى شارف  
موقع الحانة التي استحتجتي بها الدنيا، وانطلق بصري

يخلو منه بيت...

ولكني لم أرحمها، ولم أفهم في الوقت نفسه كنه القوة التي دفعتني إلى تذكيرها بالمضي الأصيل كأنما أمي حقا على «رياب»، بل غالب في الحقد عليها كما لو كانت السبب فيها حل بي من كارثة، وضاعف من حنفي ما وقع في نفسي من أنها تدلني بهذا الحزن فرحا وشجاة، فأردفت في غضب قائلاً:

«الحق أن الدنيا لا تسعك من الفرح... إني أعرفك حق المعرفة كما أعرف نفسي سواء بسواء، فلا تحاولي خداعي، إنك تدارين فرحك بهذه الدموع الكواذب».

فتأوت هاتفة:

«كامل لا تقس على أمك، لا تقل هذا، لم أكرهها علم الله، يمزني ما يمزك...»

فبدوت مني ضحكة باردة كقرعة السوط في الهواء وقلت:

«لأزيدك فرحا فأعلمي أنها لم تمت ولكن قُلت! فحملت في وجهي في فرح ولعلها خافت حلي الجنون وغمغمت:

«اللهم لطفك».

فصحت باستهانة وجنون:

«قُلت حين كان الطيب يبهضها».

فضربت صدرها بيدها وفتنت:

«يبهضها! وهل كانت حلي؟ رياه لم أكن أعلم هذا».

«ولاً أنسا... أخفتته عني لأنني لم أكن أبا الجنين...! وصرخت أنني في فرح:

«كامل، رحمة بنفسك، رحمة بي، أنت لا تدري ماذا تقول».

«بل أدري أكثر مما تتوهمين، لقد عرفت في يوم ما لا يعرفه مثلي في جيل، قلت لك أخفت الأمر عني وذهبت إلى والد الجنين ليبهضها فاعطاً وقتلها...»

«اللهم لطفك يا أرحم الراحمين».

«ألا يزال أرحم الراحمين؟ وداعاً، فلن أعبد بعد اليوم! أما أنت فلعلك تقولين لنفسك في سرور

المساء ولم تحضر بلغ مني الخوف، فرصمت للخدام موقع العماراة وأرسلتها إلى هناك، فعدت إليّ بلحير الأسود...»

ورمقتها بنظرة مسترية وسألتها بصوت منخفض:

«هل علمت كيف ماتت؟

فعاودها البكاء وهي تقول:

«كلًا يا بني! ولا زلت في حيرتي وذهولي، أسفي على الشابة المسكينة، كيف وافاها الأجل على غير ميعاد؟

وداخلني ارتياح سرعان ما فتر ومحمد... فقيم اخدع نفسي براحاة كاذبة وما من قوة في الأرض تستطيع أن تواري فضيحتي؟ واضجرتي بكأؤها، ووفر في نفسي أنه أماراة حزن كاذب عما يصطنعه النساء فقلت بفظاظة:

«ماتت كما يموت الناس آتاه الليل وأطراف النهار، وكما مات جدني وأبي وكما سنموت جميعاً...»

وضغطت على «جميعها» في حنق، ثم بادرتها بمسائل في سام:

«لماذا تبكين؟

فرتت إليّ خلال دموعها بهجوم وكأبة وفتنت:

«وددت لو كنت فداها...»

فغلبي الانفعال وقلت بحدة:

«كذب!... حال أن يرضى إنسان بأن يقتدي آخر من الموت... أكنت تقولين لهذا لو كانت ما تزال على قيد الحياة!؟

وأحدقت في وجهي بارتياح، ثم غضت بصرها في وجوم والم، وساد الصمت ملياً، حتى خرقتة متممة:

«أسأل الله أن يُزيل سكينته على قلبك».

فقلت بجفاء:

«لا حاجة بي إلى الدعاء. بيد أنني أكره الرياء، ولا يمكن أن أنسى أنك أبغضتها حتى قبل أن تقع عليها عينك».

فرفعت إليّ وجهها في استعطاف والم وقالت:

«كامل! رحمة بأمك... يعلم الله أنني لا اخادعك، ولكن مثل ما كان بيننا من نقار لا يكاد

غريب: «لقد نالت الآثمة بعض ما تستحق من جزاء، لقد حدثني قلبي بذلك من أول يوم ولكنتك لم تصنع إليّ!».

فزفرت أمي في شقاء وتعماسة وقالت بصوت كالآنين:

- لشد ما يمزني كلامك، إنك تقتلني بلا رحمة.

فصحت بها كالجنون:

- اسمعي ما شامت لك الشئانة، ولكن إنك وإن تصوّري أننا سنعيش معاً. انتهى الماضي بخيره وشره ولن أعود إليه ما حيت. سأفرد بنصي انفراداً أبدياً. لن أعيش معك تحت سقف واحد، وسأطلب من الوزارة نقلني إلى مكان قصي أقضي فيه البقية من عمري.

أشرق الدمع بعينها وعقد الألم لسانها وليت ترنو إليّ في فزع ووجوم. وكأنه لم يكني ما قلت فأردفت مرعياً مزبداً:

- اذهبي إلى אחتي أو إلى אחي واحسي من اليوم في عداد الأموات.

وولّبتها ظهري وغادرت الحجرة ونحيبها يصرع أذنيّ...

## ٦٦

لم يخطر لي لحظة واحدة أن أذهب إلى حجري، كان ذلك أبعد شيء عن تصوّري، حتى النظر إليها تحاميت، ومضيت إلى حجرة الاستقبال وارتجت على الكنية في إعياء وقنوط، ومضى الليل ثقيلاً مضجراً فلم يعد نصبي من النوم إغشاءات متقلّصات تتخلّلها أحلام مزعجة. ثم أخذ خصائص النوافذ ينضح بنور خافت إيداناً بمطلع الصبح فتفتّت الصعداء وتطكّت متعباً، ثم نهضت قائماً وغادرت الحجرة مدفوعاً برغبة في الهروب والاختفاء. واقتربت من الباب الخارجي في خطو خفيف حذر حتى وضعت يدي على مقبضه، ولكنني جمدت متردداً دون أن أبدي حراكاً، ثم تراجعت في سكون نحو حجرة أمي، ودفعت بابها الموارب في حذر بالغ وأدخلت رأسي. كان شخير

الخادم يتصاعد في انتظام، وحل الفراش رقدت أمي في سكون عميق لا يكاد يُرى من وجهها إلا نصفه الأعلى. ألقيت عليها نظرة قصيرة، ثم تراجعت إلى الخارج، وانجذبت نحو الباب الخارجي مرة أخرى ومرتت منه ثم أغلقت دون أن أحدث صوتاً، وترامى إلى أذنيّ، أو خيل إليّ أن صوتاً يهتف بي، فلظنتها استيقظت على حذري وحرصني وأتت تنادي بي. وتوقفت ويدي على الدوابزين على حين تراخي قلبي ورقى، ولكنني كنت على حال من القنوط لم أحسن معها التدبير فهزّزت منكبي استهانة ونزلت. واستقبلت الصباح الباكر في طريق مقفر أو يكاد فهفا على وجهي نسيم رطب بارد، وتلبّثت متحيرة لا أدري أين أذهب ثم قصدت محطة البيروك حيث موقف التاكسي واستقللت واحداً إلى ميدان الإسماعيلية. ومال بصري إلى العمارة الأخرى في الطريق فرأيت نوافذ مغلقة وسكوناً مطبقاً والمصالحين المعلقين وقد انطفأ نورهما. وانتهيت إلى الميدان فمضيت إلى لبنان وجلست إلى مائدة في أقصى المحلّ، وتناولت فطوراً بسيطاً، وعلاقي تعب مباحث فمددت ساقني، ثم زحف على جوارحي نعاس قهّار لم أجد أملك معه رأسي فاستسلمت لسطانه. وسرعان ما رحت في سبات عميق. وعادوتي البقطة فوجدتني منكفئة على المائدة وقد توسّدت ساعديّ، فرفعت رأسي ناظراً فيما حولي في دهشة وارتباك، وسرعان ما استحوذ عليّ حياء شديد.

وغادرت المكان مغنيصاً عينيّ عن الجلوس وما كان أشدّ دهشتي حين رأيت ساعة الميدان تجاوز الثانية عشرة! تمت دهرًا طويلاً غائباً عن دنياي المتجهمة فما ألدّ أن أنام إلى الأبد! وانجذبت صوب حدائق قصر النيل وأنا أشعر شعوراً أليماً برائحة هيمي وذبول منطري! وساءلت نفسي وأنا أجد في السير عما صوّ أن اصنع بحياتي، ولكن وسوست لي النفس أن أوّجل البتّ في هذه المسألة جرياً مع طبيعتي التي تنكس عادة عن مواجهة المشكلات الخطيرة. ثم وجدتي أفكر في رباب! إن بنسني غضباً عليها لا يزول كأنه عاهة مستديّة، ولشدّ ما أتمنّى لو بُعثت حيّة ولو دقيقة واحدة

هل يعني هجرها طلالاً رقت على خاطري الرغبة في هجرها في صور أحلام غامضة، ولكن هل يعني حقاً أن أهجرها؟ يا لها من خطوة خطيرة ما أخطئي أن أقف منها موقف المتفكر المتردد. لماذا أقسو عليها؟ ليم أنضم منها! وإني لأعلم أن خطرة منها تخاطر على الفؤاد حقيقة بأن ترقني إلى أحضانها نادماً باكياً، يا له من حب بغض لا أجد إلى الخلاص منه سبيلاً.

ورجعت إلى الميدان بعد الساعة الثانية بقليل، ووجدتني أذكر شارع الأنبياء لهفةً مبهودة. وعلى كتب من مكتبة الترام لمحت زميلاً في من الوزارة فتجاهلته، ولكنه لمحني أيضاً وأقبل نحوي في اهتمام ووجوم ووسط لي يده قائلاً:

- البقية في حياتك يا كامل أفندي.

فسرت في جسدي رعدة وتساءلت في قلبي كيف علم بالخير وماذا علم عنه، ونجمت في ارتباك:

- حياتك الباقية.

فقال الرجل وهو يضغط على يدي:

- عن إندك ريشا أتناول لقمة ثم أعود للاشتراك في تشييع الجنازة.

رباه، كنت أظن أن الجنازة شُيعت أمس أو صباح اليوم وانتهى المأزق الحرج، ولكنها لا تزال تنتظر مقامي وقد أذاعوا النعي في الصحف! أي مأزق يترتب بي!... وسألت بصوت منخفض:

- هل قرأت النعي في الأهرام؟

فقال لي بلهشة:

- كلا، لا أظنه ظهر في الأهرام وألا لكنّا علمنا به في الوزارة، ولكنني اطّلمت عليه في البلاغ.

واستخرج الجريدة من تحت إبطه وفتحها ثم أشار إلى عمود وهو يقول: «هاك النعي» وتناولت الجريدة في ارتباك وخجل وجري بصري على السطور الغلظت الآتية: «انتقلت إلى رحمة مولانا كريمة المرحوم الأميرالاي عبدالله بك حسن، والدة مدحت بك رؤية لآل من أعيان الفيوم وكامل أفندي رؤية لآل المولفك بالحرية وحرم صابر أفندي أمين...»

حملت في وجه صاحبي كاللجنون، ثم أعدت تلاوة

ريشا أبعث على وجهها! وهل أنسى أنني فرحت لموتها فرح حائد شامت؟... هكذا أنا ولا داعي للخفاء! بيد أنني على حال من السكينة أستطيع معها أن أفرّ وأن أتأمل. ومن عجب أنني على أناتي المفرطة لا أبخل على خصمي بالإعصاف والمدل. لا حياء في الإعصاف والمداولة ولكن لأنني ألتفت أن أقيم الأعداء للخصم مداراة لعجزني عن الانتقام منه! لذلك تلمّست الأعداء لريب في مأساتها، وقلت لنفسي: إنني أخطأت في تصديق ما أذعت من أنها تكره الحب الجنسي، وإن عجزني حياها هو الذي رمى بها إلى أحضان الغواية، وكيف يمكنني أن أشك في أنها أحبتي بإخلاص؟ وهبت على خيالي الذكريات كما تهفو نسائم عطرة على نار مؤججة، ذكريات النظرات المتبادلة، واللقاء الخالد في الترام، وصدورها عن خطيئها الأول وميلها إليّ في سحر هو أبهج ما اقتنيت من نجف السعادة المولية. كان حباً صادقاً، ولكن عرضت له ربح لنجاة فالتفت جلوده وأغاضت منها ماء الحياة.

ألمست شريكاً في قتلها؟! ودعوت الله في تلك اللحظة أن يختصر الطريق فيقيم القيامة ويرحم العباد من عنة الحياة، كان حبي سروراً إلهياً ثم مضى غلظاً وراه مقناً وغضباً. ولكن هل مضى حقاً؟ هب ما حلّ بي قد تمخض بمعجزة عن حلم مزعج ولا شيء غير هذا ألا يعود حبي أقوى مما كان؟ بل، فهو موجود إذن تحت ركاب البغض والمقت، إن العضو الذي ينفصل عن الجسد لا يعود إليه أبداً فهو غير موجود حقاً، إنما الحب الذي يعود فلا يمكن أن يكون قد ذهب حقاً. ولكن ما جدوى هذا التفكير الأليم؟! وقبّلت كأنما لأخيف الذكريات التي تتألم عليّ. وصممت على الهرب منها ولو بمواجهة المشكلة الخطيرة التي تهربت منها منذ حين قصير ألا وهي مشكلة حياتي وماذا أصبح بها. لا ينبغي أن أترك أمورتي للمقادير. سأجد طريقة للتخلص من ألك ريب ثم أنتقل إلى حبي جديد. أأسخى حقاً إلى الانتقال لبلد بعيداً لشد ما تنازعني نفسي إلى الفرار، بيد أنني أعجز من أن أهجر القاهرة. هذا شعوري وقيمي. فهل أهجر أمي حقاً؟

الليلة البارحة فقرر رأينا على أن نخرج الجنازة اليوم...

وارتعد جسمي المحموم وتمتعت في ذهول:  
- منتصف الليلة البارحة؟ ولكني رأيتها نائمة في فراشها هذا الصباح!...

ولاحظت في عيني مدحت نظرة حزينة وقال برثاء:  
- لم تكن نائمة. إنَّه القلب يا كامل.

تخلَّلت صورة ما بدا لي في وجهها من قنوط، وأطرافي ترتعش، وأعملت ذاكرتي لاستحضار الصورة كما رأيتها، وساءلت نفسي أكان وجه ميت حقاً!...

وغارت قواي، ثم قلت بصوت ضعيف:

- أريد أن ألقى عليها نظرة الدواح...

فوضع أخي يده على منكبي وقال:

- أصبر حتى تتمالك فواك. ثم إنَّ الحجر ملاء بالنساء.

ولكني نحيته عن سبيلي واتسلطت إلى داخل العمارة، وجرى أخي ورائي، فارتقينا السلم وثبًا، ثم مررت إلى الشقة وأصوات البكاء ملاً أذني، فما رأيته إلا أن أجده نفسي محاطاً بالنسوة من جميع الجهات. وذاخ بصري وحلَّ بي إيهام وارتياء، ولكن أدركني أخي فقبض على ذراعي وألجأه بي إلى حجرة النوم وهو يقول:

- لا تقاوم... ينبغي أن تخلو إلى نفسك قليلاً...

وأجلسني على المقعد الطويل، وأغلق الباب، ثم جلس على حافة الفراش أمامي وقال بحزن:

- ثب إلى رشتك. لا ينبغي أن يغلبنا الحزن كالنساء، أليس هي أمي أيضاً؟ ولكننا رجال...

وراح قلبي يرتد، كينول الساعه، بين أمرين في تركيز جنوني بين شجار الأمس المشوم وبين رؤيتي لها هذا الصباح، وهل حين بغتة وثبت إلى ذهني ذكرى لهفتت بأخي:

- كلب الطيب!... لم تمت عند منتصف

الليل... لقد سمعتها تناديني وأنا أحاذر الشقة...

فلاحت الدهشة في وجهه وسألني:

- وهل ليبت نداهها؟... هل تحدثت إليها؟

الني، وجميع جسمي يتنفذ، وصرخت بلا وعي:  
- هذا حال... هذا كذب...

ركضت لا أُلوي على شيء نحو تاكسي غير بعيد وارتفعت داخله وأنا أحث السائق على السرعة. إنَّه للكلب وإقتراء، ولأعلمن جليّة الخبر وعندها أعرف كيف أؤتّب من راضي بهذا العبث السخيف. وانطلق التاكسي يطوي الأرض وعنقي مشرب صوب الطريق، حتى تراءى لعيني مرادق مقام أمام بيتنا، وتنزّى قلبي لي صردى وارتعشت أطرافني جميعاً، وتوقّف التاكسي فغادرته زائغ البصر، لم أكن حزينا أو متألّياً وإنما كنت مجنوناً، ها هو عني جالساً عند مدخل السراق، وهذا أخي مدحت قدماً نحوي. وقد هزعت إليه فاقد الوعي وقبضت على رباط رقبته وصرخت في وجهه:

- كيف تخفون عني الحبرا

وتخلّص أخي من قبضة يدي بجهد وهو يرمقني بقلق وانزعاج، على حين تدان متاعمي وهو يقول:

- أين كنت يا كامل؟ لقد بحثنا عنك في كلّ مكان فلم نعث على أثر...

فرددت بصري بينهما، ثم ألفت على السراق نظرة غريبة وغمغمت:

- أحثّ هذا؟

فقال لي عمي:

- تمالك نفسك وكن رجلاً.

فسألت أخي في همس وإشفاق:

- ماتت حقاً... كيف؟ متى علمتم؟

فقال مدحت في كآبة:

- تلقّيت برقيّة في التاسعة صباحاً. هذا قضاء ربنا.

أين كنت؟ لشدّ ما أروعني أن نضطر إلى الخروج بالجنازة في غيابك.

فصحت به في غضب:

- فيم هذه العجلة؟ لماذا لم تؤجلوا الجنازة إلى غد؟

فقال أخي معترضاً:

- أؤكد الطيب أنّ الوفاة حصلت عند منتصف



- صلتُ يا أخي، إنَّك إذا لم تترك نفسك على تصديق هذه المأسي ولمنألها خرجت من الدنيا كما دخلتها غرًّا جاهلاً. لقد تكلَّت زوجي أيضًا ولكن كان معي شريك هذه المُرَّة هو حشيتها.  
وضرب مدحت ككأ بكفٍّ وهض بي:  
- لا يمكن أن تغادر الحجرة وأنت على هذه الحال...  
فهزرت رأسي في غضب ونبضت قائلاً وأنا أقول:  
- هلم بنا.  
ولم أكد أتم هذه الجملة حتَّى غبت عن الوجود...

## ٦٧

لا علم لي بالساعات الطوال التي قضيتها في غيبوبة تامة، ولكن ثمة أوقات أعزبت كنت أنحبُّ في ظلمات بين الغيبوبة واليقظة. إنَّها دنيا غريبة معتمة، تتوزَّعها الأحلام، فكان بداخلي شعور آتني حتَّى، ولكن حتَّى كبتت وُغْماً وعجزاً، وكمن من مرَّة جهدت في شقاء ويس كي أحرِّك عضواً من أعضائي فأعاني الجهد وسلمت للضغط الحائق والخوف المبهم، وفي أحوال أخرى عابثي الوهم لفعل إليَّ آتني غير بعيد من اليقظة، وآتني أكاد أميز أصواتاً مألوفة وأرى وجوهاً أعرلها حتَّى المعرفة فاستصرختها أن تبرع إلى نجلي، وناديت أمي كثيراً حتَّى أحقني تقاعدها عني وصحبت له عجباً شليداً، وطافت برأسي المسموم أحلام غريبة، فرأيت فيها يرى النائم آتني تمثُّط منكب أمي وآتيا تلعب بي وتعيي كما كانت تفعل على عهد طفولتي، ورأيتني حيناً آخر ممسكاً بتلابيب أخي مدحت في نضال عنيف في جو صاخب وهو يصيح بي: لا تقتلني، وتخلَّ إليَّ آتني رأيت أحلاماً كثيرة ولكن ابتلعتها الظلمة. وطالت غيـبوتي حتَّى ظننتها لا تنتهي، ثم تقفَّحت عيني، وهدت إلى نور الدنيا، وتبدَّت من الأحقاد. ووقع بصري على مرآة تكس صورتي، وشعرت بوجود شخص عند رأسي فحركت عيني نحوه فرأيت أختي راضية جالسة على الفراش ويدعا على رأسي، والتفت عيناها فابتسمت أساورها

فتبدَّت من الأحقاد في شقاء ميمت وقلت:  
- لم ألْب نداهما لآتني كنت ناقلاً عليها... لشد ما كنت فظاً غليظاً معها...  
وسادنا صمت وحزن. وكان رأسي يكاد يضجر من الألم والحصى. ثم قلت وكأني أحدث نفسي:  
- لقد قتلتها ما في ذلك ريب. ربَّاه. كيف هان عليَّ أن أقول لها ما قلت!  
فرمقني أخي بوجوم، وقال بلهجة تنم عن تحذير:  
- إنَّك وإن تستسلم لهذه الأفكار...  
فقلت بعناد ورأسي يدور جنوناً:  
- لم أحمِّد الحق في قولي. لقد قتلتهـا، ألا تفهم?... إذا أردت أن تسترق من صحَّة قولي فادع النبابة والطبيب الشرعي...  
فتأوَّه مدحت قائلاً فيها يشبه الحول:  
- أنت تهلي بلا ريب، وإلا تبالك نفسك فلن أسمع لك بالسير في الجنابة.  
فندت مني ضحكة باردة وقلت:  
- إنَّ أمرتنا مصابة بداء قتل الوالدين، ولقد حاول والدنا أن يقتل جدنا فأخفق، وأعدت الكرة على أمنا فنجحت، وهكذا ترى آتني كنت أعظم توفيقاً من أبي.  
فلاح الفلق في وجه الشاب ونفض قائلاً. ثم ثبت عينيه في وجهي وتساءل:  
- ماذا تنوي أن تصنع بنفسك?... لم يبق إلا ساعة على تشيع الجنابة.  
فقلت في دهشة:

- أسمح بتشيع الجنابة دون تحقيق؟ يا لك من أخ رحيم! ولكنَّ الواجب فوق الأخوة. ادع النبابة، وسأدلك على الطريق إليها فقد عرفتني بنفسي أس، وقل لو كـيل النبابة إنَّك تدعوه لتحقيق مع الشخص الذي دعاه أسس لتحقيق في مقتل زوجة.  
وبدا أخي كأنه تذكر أمراً مزعجاً فصاح:  
- يا له من حدث أليم... كيف لم تبرق إليَّ يا كامل؟ لقد أخبرتني الخادم اليوم فلم أكد أصتق...  
فقلت فيها يشبه الملهيان:

الرهبة غريبة خالية. وشعرت بفراغ خفيف جداً. فقد خلا البيت، وخلت حياتي، وخلت الدنيا جميعاً. وكنت في حياتها أجد طمأنينة راسخة، وأشعر في أحياق قلبي بأنه مهما تكلمت الدنيا فلي فيها حجرة دائمة الإشراف بالإبتسام والحنان، أما الآن فما أشبهني بقارب تمزقت حبال مرساته في بحر هائج عاصف. وحتى شقيقي التي تحنو عليّ في مرضي لما أسرع أن تعتذر لي غداً أو بعد غد بيبتها وأولادها وتركني وحيداً. ربه هل خلقت - أنا الطفل المدلل - لثل هذه الحياة؟!

ونظرت إلى أخي طويلاً في حبّ وامتنان، وانعمت النظر في وجهها بشوق لا تدريه مجدولاً إلى مشابه فيه من وجه أمي، فاهتز صدري ودرّ حناناً وحزناً عميقاً. وألقيت حل ما حولي نظرة حائرة فوجدت أثاث رباب يحدجني بنظرات غريبة، فقلت في ضيق:

- هيهات أن تعيب لي الإقامة في هذا البيت. سأقيم عندك يا أختاه...

فقلت أخي بصدق وإخلاص:

- هذا ما كنت عقدت العزم عليه... أهلاً بك وسهلاً!

وسألته أن تقرب أذنها مني ثم قلت لها بحزن:

- خديني إلى حجرتها لألقي عليها نظرة...

فأظلمت عينها واغرورتها بالدمع، وقالت لي همساً:

- لا يمكن أن تفارق الفراش الآن، ثم إنه لم يعد بالحجرة شيء.

تخيلت الحجره الخالية، أربعة جدران وسفناً وأرضاً. ما أشبهها بحياتي. وتنهتت حزوناً وتمتمت:

- ما أشغالي!

فقلت راضية برجاء وضراعة:

- هلاً تجلّت الحزن حتى تبرا!!

\*\*\*

ولازمت الفراش زهاء شهر، وأقامت راضية عندي أسبوعاً ثم عادت إلى بيتها مضطربة ولكنّها دأبت على زيارتي كلّ يوم عصرًا، ولم تكن تشاركني قبل أن

ولاحت في عينيها نظرة إشفاق وغمغمت بصوت حنون:

- كامل...

وحاولت أن أبتسم. ونذت عنها تنهدة حارة وتمتمت:

- أشهد أن لا إله إلا الله.

تسهّدت بصوت ينمّ عما برّح بها من خوف وهذاب، ووجدتها لا ترفع يدها عن رأسي، ثم شعرت في اللحظة التالية بوجود شيء تحت راحتها، فسألته بصوت ضعيف وقع في أذني كالصفيح المكتوم:

- ما هذا الشيء حل رأسي؟

فجاءني صوت آخر يقول:

- كيس ثلج يا سيدي...

فالتفت إلى الناحية التي جاء منها الصوت فرأيت أخي مدحت جالساً على المقعد الطويل، وأدركت في تلك اللحظة أين أكون، وهجمت على الذكريت التي فطرت منها هذه الغيبوبة الثقيلة، وطالعتني الحياة بوجهها الكالغ مرّة أخرى، ووقع بصري على المنبه فإذا بعقربه قد جاوز العاشرة بقليل، العاشرة صباحاً كما يدلّ عليه ضوء النهار. وإذا فقد انقضت الليلة الكثيبة وأنا في نوم عميق! ونظرت إلى أخي بطرف كسير وتساءلت:

- هل شُيئت الجنّازة؟

فألقي عليّ نظرة طويلة ثم قال باقتضاب:

- طبعاً...

وصمت ملياً ثم استدرك قائلاً:

- لعلك لا تدري أنك غبت عن الوجود ثلاثة أيّام كاملة.

ورنوت إليه بدعشة، ثم أخضعت جفنيّ في ذمول، وتمتمت في حزن بالغ:

- قضى الله بالآل أشيخ لا أمي ولا زوجي إلى مرقدما الأخير.

وتحوّل بصري إلى أخي فرأيت عينيها مغرورتين بالدموع، ففشيّتي كآبة موحشة بدت الحياة خلالها كالموت. لشدّ ما بدت لي الحياة في تلك اللحظة

في أذنّي، وتلك طمانينة السلام تفرّ في قلبي! كان خيالي تشبكاً ولكنّه كان غادراً في كثير من الأحيان، فلم يكن يصعد بي إلى ذاك المرتقى حتّى يتخلّى عني بفتة فاهوي من علّ، ثمّ أعود إلى قلبي القديم وخوفي المقيم...

\*\*\*

وفي ذات صباح من أيّام النقاثة الأخيرة جاءني الخادم العجوز وقالت لي:

- جاءت سيّدة تريد مقابلتك وقد أدخلتها حجرة الاستقبال.

فرفعت إليها عصيّتي في دهشة وسألتها:

- ألا تعرفينها؟

فهزّت المرأة رأسها قائلة:

- لم أرها يا سيّدي قبل اليوم.

ووثب إلى خاطري طيف فانتفض قلبي الضعيف واشتدّت ضرباته حتّى انبهرت أنفاسي. ربّاه أنكون هي حقّاً؟ وهل واتها الجراة حل اقتحام البيت؟ ألم تقلّد العواقب؟ ونظرت إلى الخادم في حيرة شديدة ثمّ تمتمت:

- ادعِها إلى حجرتي...

وألقيت على المرأة نظرة متفحّصة، ثمّ تناولت المشط ورجّلت شعري على عجل، وفي حياء شديداً التجه بصري نحو الباب. ترى هل يصلدني ظني؟ وكيف غابت عن ذاكرتي طوال العهد كأنّها كانت كائنة في دم الصنعة الذي نصب؟ ثمّ سمعت وقع أقدام تقترب، وأطّل عليّ وجه القادم يتسم في شوق وإشفاق، فهتفت فيها يشبه الاستغاثة وقد وشى صولي بما شاع في صدري من الانفعال:

- أنتِ!...

يغمض النوم جفني... وعاد مدحت كذلك إلى الغيوم، ولكنّه كان يمضي عندي نهاية الأسبوع.

ولمّا دخلت طور النقاثة كانت الحفّتي قد عرّقتني وخلفّتي جلداً على عظم. ولم تكن تبقى ثمة حياة إلّا في خيالي، فازدهرت حيويته وامتلأ قوّته ونشاطاً فكاد يبلغ حدّ الهوس. ولم يكن شعور الوحشة والخوف ليفارقي ساعة من ساعات اليقظة. فبلدت في الحياة شاقّة مرعبة لا يقبل لي بها، وامتلأت أذني بذلك النداء القديم الذي يهيب بي - عند الشدائد - أن أُولّي فراژاً.

ولكن أين المفر؟ ليتني أخلق شخصاً جديداً، سليم الجسم والروح، لا يمشّش بآركان نفسه الخوف والجفاء، فألقي بنفسي في عضمّ الحياة الإنسانيّة بلا خجل ولا نفور، أحبّ الناس وعجّوني، وأحبهم ويمعنوني، وألفهم وبالفوني، وأندمج في كائنتهم الكبير عضواً عاملاً نافعا! ولكن أين مّي هذه السعادة؟! وفيهم أحلّل النفس بالأمان الكاذبة؟ لم أخلق لشيء من هذا، وإنّما خلّقت للتصوّف، ومن عجب أن وردت هذه الكلمة على ذهني بغير قصد، لكن سرعان ما تشبّثت بها بدهشة وحيرة... التصوّف؟ لست أدري ما هو حل وجه التحقيق! ولكنّه وحده وعزوف وتفكير

وما أحوجي للوحدة والعزوف والتفكير. عجباً ألم أكن أشكر الوحدة طوال رقادتي؟ الحقّ أنّي لم أشكّ الوحدة التي إلقيتها العمر كلّهُ ولكنّي استوحشت الوحدة التي خلّفتها أمّي. أمّا الوحدة المعهودة فما أشدّ لفتني إليها؟ ينبغي قبل ذلك أن أظهر جسمي ظاهره وباطنه، ثمّ أكرّس قلبي للسباه. لقد خلقت في الواقع متصوّفاً ولكن أضلّيت نوازع الحياة، وتصوّرت نفسي في طهر عجيب، يستحمّ جسدي بماء عطر، وتتسامى روحي في صفاء ونقاء، فلا مشهد أروني إليه إلّا السباه ولا خاطر ينيق في نفسي إلّا الله، وهذه بلابل الجنة تسجع



بِدَلَايَةٍ وَنَهَايَةٍ



- ١ -

وعاد الضابط يتبعه الفتي واجماً، وما إن وقعت عيناه

على شقيقه حتى غمغم في دمهشة:

- وأنت أيضاً؟ .. ماذا حدث؟

وتبادلا نظرة حائرة، ثم تبع الضابط الذي مضى  
متسماً بحجرة الناظر. وسأله حسين في لهجة رقيقة  
مؤدبة:

- ما الذي أوجب استعدادنا من الفصل؟

فأجاب الضابط بعد تردد قائلًا:

- ستابلان حضرة الناظر.

وقطعوا ببقية الرعدة دون أن ينس أحدهم بكلمة.  
وكان الشقيقتان متشابهين للدرجة كبيرة، فكلاهما له هذا  
الوجه المستطيل، وعينان عسلتان واسعتان، وبشرة  
سمراء ضاربة إلى الحمق، إلا أنَّ حسين في التاسعة  
عشرة، يكبر أخاه بعامين ودونه طولاً، على حين يمتاز  
حسين بدقة في قسما وجهه أكسبه وضامة ووسامة.  
ومضى قلقهما يتزايد وهما يقتربان من حجرة الناظر،  
وتخاميل لعينيها منظره الصارم في رهبة وخوف. وزرر  
الضابط سترته، وتفر على الباب، ثم لدعه برقة ودخل  
وهو يومئ إليها أن يتبعه. ودخلا وهما ينتظران إلى  
الرجل وقد انكب على مكتبه في صدر الحجرة يقرأ  
رسالة بمثابة دون أن يرفع بصره نحو القادمين كأنه لم  
يشعر بحضورهم. وحياه الضابط بأدب جثم وقال:

- التلميذان حسين كامل علي وحسين كامل علي.

فرفع الناظر رأسه وهو يطوي الرسالة يديه، وأطفا  
عقب سيجارة في النافذة، وجعل يردد بصره بينهما،  
ثم تساءل:

- في أي سنة أنتما؟

فقال حسين بصوت متهيج:

- رابعة رابع.

ألقى الضابط نظرة كئيب على الرعدة الطويلة التي  
تفتح عليها فصول الستين الثالثة والرابعة، وقد شمل  
المدرسة - التوفيقية - سكون عميق، ثم مضى إلى فصل  
من فصول السنة الثالثة، وتفر على الباب مستأنفاً،  
ودخل متجهاً صوب المدرس وأسر في أذنه بضغ  
كلمات، فسدد المدرس بصره صوب تلميذ يجلس في  
الصف الثاني وناداه قائلًا:

- حسين كامل علي.

فقام التلميذ وهو يردد بين المدرس والضابط نظرة  
ملينة بالترقب والقلق، وغمغم:

- أفندم؟

فقال المدرس:

- اذهب مع حضرة الضابط.

فخرج التلميذ عن قِطره، وتبع الضابط الذي  
خادر الفصل في خطوات بطيئة. ولم يطمئن قلبه لهذه  
الدعوة، وراح يسأل نفسه: ترى أجماءت بسبب  
المظاهرات الأخيرة؟ وكان قد اشترك في المظاهرات،  
وهنف مع الحافزين: «لنسقط تصريح هور» و«لنسقط  
هور ابن الثور»، وقد ظنَّ أنه نجا من الرصاص  
والعصي والمقويات المدرسية جميعاً، فهل كان مغالياً في  
ظنِّه؟ وسار وراء الضابط في الرعدة الطويلة متفكراً،  
يتوقَّع بين لحظة وأخرى أن يجمه بما عنده من هم،  
ولكن قطع عليه تفكيره وقوف الرجل حيال فصل من  
فصول السنة الرابعة ودخوله مستأنفاً، ثم بلغ سمعه  
صوت المدرس وهو ينادي قائلًا:

- حسين كامل علي.

شقيقه أيضاً؟ ولكن كيف يمكن أن توجه إليه تهمة  
من هذه التهم وهو لا يشترك في المظاهرات بتاتاً؟

وقال حسنين:

- ثلاثة ثالث.

فنظر إليها ملياً ثم قال:

- أرجو أن تكونا زَجلين كما ينبغي. لقد توفي والدكما كما أبلغني أخوكما الأكبر والبقية في حياتكما.

ورجما في ذمور وانزعاج، وهض حسنين وهو لا يدري قاتلاً:

- توفي أبها!... مستحيل!

وغمغم حين وكأنه يحدث نفسه:

- كيف؟ لقد تركناه منذ ساعتين في صحّة جيّدة وهو يتأقّب للخروج إلى الوزارة..

فصمت الناظر قليلاً ثم سألها برقة:

- ماذا يعمل أخوكما الأكبر؟

فقال حسنين بعقل غائب:

- لا شيء..

فصاح الرجل:

- اليس لكما أخ آخر مولّف أو شيء من هذا القبيل؟

فهزّ حسنين رأسه قاتلاً:

- كلا..

فقال الرجل:

- أرجو أن تتحمّلاً المصدمة بقلوب الرجال، واذعبا الآن إلى البيت كان الله في عونكما..

- ٢ -

وغادرا المدرسة إلى شارع شبرا يلتسان طريقهما خلل الدموع. وكان حسنين أسرعها إلى البكاء فأراد حسنين أن ينهره في حال عصيّة ولكن أفحمه البكاء واختنق صوته فلم ينس بكلمة. وعبرا الطريق إلى الجانب الآخر، وحقاً خطواتهما قاصدين عطفة نصرالله على مسيرة دقائق من المدرسة. وتساءل حسنين وهو ينظر إلى شقيقه كالمتستفيث:

- كيف مات؟

فهزّ حسنين رأسه وأجماً وغتم:

- لا أدري. لا أستطيع أن أتصوّر. لقد تناول

فطوره معنا، وتركناه في صحّة جيّدة. لا أدري كيف وقع هذا..

وحاول حسنين أن يتذكّر الصباح القريب بتفاصيله فذكر أنّه رأى أباه أوّل ما رآه وهو عائد من المرافق فحيّاه كعادته قاتلاً: «صباح الخير يا باباه فأجابه ميسّاً: «صباح الخير، ألم يستيقظ أخوك؟» واجتمعوا بعد ذلك حول المائدة، فدعا الرجل الأمّ إلى مشاركتهم الطعام فاعتذرت بأنّ نفسها مصدودة، فتدّمّر الرجل قاتلاً: «إذا جلسنا معنا افتتحت نفسك، ولكنّها أصرت على الاعتذار، فقال بعدم اكتراث وهو يقشر بيضة: «دع كيفك». لا يذكر أنّه سمعه يتكلّم بعد ذلك، اللهمّ إلاّ نحنة مقتضية. وكان آخر ما رآه منه ظهره وهو يدخل حجرته بحفّاً يديه في منشفته. ثمّ انتهى، انتهى، أبشع بها من كلمة! واسترق إلى حسين نظرة مروّعة فوجدته عزوّناً وأجماً كأنما كبر وشاخ، وعاد إلى ذكرياته وهو يكابد لوعة حارّة: لا أصدّق أنّه مات، لا أستطيع أن أصدّق. ما هو الموت؟ لا أستطيع أن أصدّقه. انتهى؟ لو كنت أعلم أنّ هذا آخر ما بقي لنا من عمره ما غادرت البيت. من أين لي أن أعلم؟ أهوت الإنسان وهو يأكل ويضحك؟ لا أصدّق. لا أستطيع أن أصدّق. واتّبه على أخيه وهو يجلبه من ذراعه إلى عطفة نصرالله التي كاد يموتها في ذموره. وسارا في طريقهما الضيق تصطفّ على جانبيه البيوت القديمة والحوانيت الصغيرة إلى ما يعترضها من عربات الغاز والحضر والفاكهة. وسبقهما البصر إلى عسايرهما ذات الأدوار الثلاثة والفتاة المستطيل القرب، ثمّ تراسى إلى أنفئهما الصوت فتيّنا صوتيّ أنّهما وأختها الكبرى وهزّهما حتى الأحياق فأجهشا في البكاء، وجريا لا يلويا على شيء، وارتقيا السلم مهرولين إلى الدور الثاني فوجدا باب الشقّة مفتوحاً فتدافعا إلى الداخل، وقطعا الصالة إلى حجرة الأب في نهايتها ثمّ دخلا وهما يلهثان. وثبتت عينهما على الفراش وقد وشى الغطاء بالجسم الممدّد تحته، ثمّ اقتريا من حافته وارتجيا عليها وأغرقا في نشيج حارّ. وكثّت الأمّ والأخت عن الصوّات على حين غادرت الحجرة امرأتان غريبتان.



تغيراً شاملاً لا يدريانه، ولكتبتها وجدناها كالعهد بها لم يتغير منها شيء. هذا الفراش على عيني الداخل، والصوان في الصدر يليه المشجب، وإلى اليسار الكنية التي ارتمت عليها الأخت وقد أسندت إلى حافتها عود انخرست ريشته بين أوتاره، وثبتت عينهما على العود في دهشة مزجوجة بالحزن. طالما لعبت أنامل الراحل بهذه الأوتار، وطالما انتفت حولها الأصدقاء مُطَرِّبين يستعيدون ويعيد، فما أعجب ما بين الطرب والحزن من خيط رقيق، أرقى من هذا الوتر. ثم مرَّ بصرفها الحائر بساعة الراحل على خوان غير بعيد من الفراش، لا تزال تلدور باعثة دقاتها الهلوسة، ولعلَّ الراحل قرأ فيها آخر تاريخ له في الدنيا وأول عهدهما بالتم. وهذا تميصه على المشجب وقد لاحت آثار عرقه بينقته، فزفوا إليها بحنان عميق، وقد بدا لها في تلك اللحظة أن قرَّق الإنسان أشدَّ ثباتاً من حياته العظيمة. ولبت الأم تنظر إليها في صمت. لم تحجر لها خواطرها على بال، ولكتبتها كانت تترك من هول الكارثة ما لم يُدْرَ بخلد. ونذت من حنين تهتة حارة لفتت إليه شقيقه فوضع يده على كتفه وممس في أذنه:

- هلم بنا.

والقى الشبان نظرة أخيرة على الجثمان المسجى وهما يعتقدان - بحكم العادة المتوارثة - أن عيني أبيهما ترياها رغم الموت فلم يولياها ظهرهما أن يسيء إغراضهما إلى شعوره، ويمتا إليه بتحيّة قلبية وتقهرقا إلى الباب ثم غادرا الحجر. ولاحت من حنين نظرة إلى أنفه فطال في وجهه حزناً عميقاً مؤثراً فحقق قلبه وأحسن نحوه بالمعطف، كما أحسن بحاجته الشديدة إلى عطفه.

- ٣ -

وغادر الشقيقان الشقة إلى باب العمارة حيث اصطفت بعض الكراسي فوجدوا أختاهما الأكبر - حسن - جالساً في صمت وكأبة. وجلسا إلى جانبها يشاركانه صمته وكأبته. لم يكن لهما فكرة مما ينبغي عمله، أما حسن فكان ذا تجارب كثيرة. وكان يشبه أخويه إلى حد كبير بيد أنه اختلف عنها في نظرة عينه التي تنم

وأرادت الأم أن تتركها بنفسان عن صدرهما فتهاست وافقة في جلبابها الأسود وقد احترت عينها وانضخ خذاها وأنفها، أما الأخت فقد ارتمت على كنية وأخفت وجهها في مستندها وراح جسمها يتنفض من البكاء. وكان حسين يبكي ولسانه يتلو بطريقة آلية بعض السور الصغيرة استنزاًل للرحمة. وكان حسين يبكي في جوٍّ من الحزن والذهول والإنكار. وقف حبال الموت محتجاً ثائراً ولكن في نفس الوقت خائفاً يائساً. وليس هذا بابي. لا يمكن أن يسمع أبي هذا البكاء كله دون أن يتحرك. رؤاه لماذا يحمده هكذا؟ إنهم يبكون ولكن في تسليم من لا حيلة له. لم أكن لائموراً هذا، ولا أتصوره. ألم أزه يمشي في هذه الحجرية منذ ساعتين؟ ليس هذا أبي. وليست هذه حياة. وبدأ الانتظار وكأن لا نهاية له، فاقترعت الأم من الشائين ومالت نحوها قائلة:

- حُسْبِكَا. قم يا حسين خذ أمك خارجاً.

وأعادت القول حتى قام حسين وأمهض أخاه ولكتبتها لم يغادرا الحجر، وقفا يلتقيان على الحدث المسجى نظرة طويلة غائمة بالدموع. ولم يستطع حسين أن يقاوم رغبة حارة غامضة فانحنى على الجثمان وكشف الغطاء عن وجهه دون ميلالة بالحركة التي بدت من أنه، فطالعه الوجه الغريب موسوياً بميم الفناء، تشوبه زرقعة مروعة، ويرين على صفحته سكون غير دنيوي، في عمق العدم ولاهائيته، فسرت رجفة في أوصاله. لم يكن أحد منها قد رأى ميتاً قبل هذه المرة فركبها الخوف والأسى. ونفذ إلى أمها فحزن قهّار إلى حيث لم تنفذ عاطفة من قبل. ومال حسين نحو الميت ولثم جبينه فعادته الرجفة. ومال حسين نحو كذلك ولثم جبينه في شبه غيبوبة. وأعادت الأم الغطاء على الرأس الفاني، وحالت بينهما وبين الفراش، ثم قالت لها بلهجة حازمة:

- اخرجي.

فتراجعا خطوتين، وثوئي حسين صناد طارئ فتوقف، وتشجع به حسين فتوقف كذلك. وجال بصرفهما بالحجرة فيما يشبه الدهول، وكأتهما كأن يتوقعان

وقعت من هذين الطفلين الكبيرين فكيف تنقصه  
دواعي الحزن والأسف؟ واختلس من الوجهين  
المحزونين نظرة سريعة من عينيه البراقنتين ثم هَضَّ  
شفته. كان يحبها على رغم الظروف التي تدعوها إلى  
الحقد عليها وفي مقتدتها جميعاً نجاح حياتها المدرسية  
ومُتَمَتِّها بعطف أبيه. ولكنّه لم يكن يرى في المدرسة  
ميزة يحسد عليها أحد، ومن ناحية أخرى كان مقتنعاً  
بأنّ أباه يحبه كشقيقه وإن ران على حبه السخط  
والغضب، وأهمّ من هذا كله أنّ الشعور برابطة  
الأسرة كان ولا يزال قوياً في آل كامل بفضل الأم قبل  
كلّ شيء.

وعند الضحى أقبل عليهم رجل وامرأة في ثياب  
رفيعة فعرفوا فيها خالتهم وزوجها عمّ فرج سليمان،  
وقد عزّاهم الرجل وشاركهم جلستهم، على حين  
هرولت الحالة إلى الداخل وهي تصرخ ويا خراب  
بيتك يا اختي، فدوّت العبارة في آذانهم دويّاً مفاجئاً  
وهلّول الشائين البكاء. وراح عمّ فرج سليمان يحدث  
حسن بينا خلا الشقيقتان إلى نفسيهما في صمت طويل.  
والتقت أفكارهما وهما لا يدريان في مصير أبيهما بعد  
الموت. وكان حسين راسخ العقيدة عن وراثة وبعض  
العلم فلم يداخله شكّ في النهاية، وسأل الله بقلبه أن  
يلقى أباه في ذلك اليوم البعيد وهما على أحسن حال  
من رضوان الله. وأمّا حسنين فكان في حيرة من كرب  
الموت لا يدع للعقل راحة للتأمّل والتفكير. وكان يسلم  
بالإيمان تسليّاً وراثياً لا شأن فيه للتفكير، وقد حملته أمّه  
يوماً على أدهاء الفرائض فأذاها دون وهي، ثمّ هجرها  
في شيء من التردد دون تكذيب أو زيف. ولم تتسلط  
العقيدة على فكره. ولم تشغل باله كثيراً، ولكنّه لم يجد  
نفسه خارجاً على حقائقها قط. وقد دفعه الموت إلى  
التفكير ولكنّه لم يطل به، وسرعان ما عاوده التسليم  
تؤيِّله هذه المرّة عاطفة حاقة: «هل الموت هو النهاية؟  
الا يبقى من أبي إلّا التراب ولا شيء وراء هذا؟ معاذ  
الله. لن يكون هذا. إنّ كلام الله لا يكذب». ولبث  
حسن وحده لا يشغله شيء من هذه الأفكار ولم يستطع  
الموت نفسه أن يدعوهما إلى رأسه، كأنه كان وثيقاً

عن جراحة واستهتار، فضلاً عن أنّ طريقتة في ترجيل  
شعره الكثيف المنفوخ، ولبس البدلة، دلّت على عنايته  
بنفسه من ناحية، وعلى قدر غير قليل من الابتذال من  
ناحية أخرى. كان حسن يعلم بما ينبغي عمله ولكنّه لم  
يبدِ حراكاً لأنه كان ينتظر مقدم شخص هامّ. وقد  
سأله حسين بتأثر:

- كيف مات والدنا؟

فأجاب قائلاً وهو يقطب:

- مات فجأة فاذهلنا جميعاً. كان يرتدي ملابس  
وكنت جالساً في الصلاة لما أدري إلّا والدتنا تناديني  
بفرج، فهرعت إلى الحجر، فوجدته ملقى على الكتبة  
وصدره مملو وينخفض. وجعل يوميّ في ألم إلى صدره  
وقلبه فحملناه إلى الفراش، وقدّمنا له كوب ماء ولكنّه  
لم يستطع أن يشرب. ثمّ غادرت الحجر مسرعاً  
لاستدعاء طبيب، ولكنّي لم أكّد أبلغ الفناء حتّى صكّ  
مسمعي صوات حادّ فعدت فرحاً، ووجدت أنّ كلّ  
شيء انتهى..

ورأى وجهي شقيقه يتألم من الألم فازداد وجهه  
كآبة. كان يشعر بحرج شديد جعله يتوجّس خيفة من  
شقيقه أن يظنّا بحزنه الظنون. كانتا يعملان بطبيعة  
الحال بما كان يقع بينه وبين والديه من شقاق وملاحاة  
بسبب حياته المضطربة المستهترّة؛ فخاف أن يحسبها  
دونها حزناً وأسفاً. والحقّ أنّه يجد لوعة الحزن  
والأسى. والحقّ أنّه لم يخض أباه قطّ على رغم ما  
كان. وإذا لم يكن حزنه كحزنها فمرجع هذا إلى تقدّمه  
عنها في السنّ - كان في الخامسة والعشرين - وإلى  
تمرّسه بالحياة حلوها ومُرّها، ومُرّها على الأكثر، الأمر  
الذي يلقف عادة من مرارة الموت. حقّاً كان قلبه  
يحذّره بأنّه لن يجد بعد اليوم من يصرخ في وجهه  
قائلاً: ولا أستطيع أن أحول رجلاً خائباً مثلك إلى  
الأبد، فما دمت قد نبذت الحياة المدرسيّة فسقّ سبيلك  
بنفسك ولا تلتقي بنفسك عليّ. حقّاً لن يجد من يقول  
له هذا بعد اليوم، ولكنّه لن يجد كذلك من يؤويه إذا  
ضاعت به السبل وكثيراً ما تضيق به حقّاً لا يوجد بها  
منفذ لأمل. إنّه أعظم إدراكاً لحقيقة الكارثة التي

عَمَّ جابر سليمان البَقَالُ يخبر منه، والخلق أدهى وأمر، ونقر غيرهم غياهم أشرف من حضورهم. وانتقبض صدره وشبهه كدر صديق. ولكنته كان قليل الصبر فيا وافت الساعة الرابعة حتَّى تدفقت جماعات المولطفين حتَّى سدَّوا عطفة نصرالله سدًّا. ودَّتْ إليه الروح فعاد إلى حزنه خالصًا من القلق. ثمَّ حدث ما لم يدركه في حسان، فجاءت سيَّارة فخمة تنطق بالمرَّ والجاء، ووقفت على بعد يسير من البيت وغادها ساعٍ ففتح بابها ثمَّ نزل منها رجل ينمُّ مظهره على الألقاب والرتب. وتقدَّم بجسمه الطويل العريض الذي عقدت عليه الخمسون هالة من وقار فهرج إليه الإخوة بلحِب، وانلَّس بينهم فريد أفندي محمَّد ليحظى باستقبال الشخصية الممتازة التي ينبغي أن يفسِّرها - كموظف - أكثر من سواه، وتسلم القادِم في صوت منخفض:

- أليس هذا بيت المرحوم كامل أفندي علي؟

فيادوه فريد أفندي قائلًا باحترام:

- بل يا سعادة البك..

ولم يجلوا ما يقدِّمونه له إلَّا كرسياَ غيرَرائًا على قارعة الطريق فشمروا بحرج غير قليل. وكان حسين قد امتلأ ارتياحًا لمقدمه ولكنَّه وجد ضيقًا لسؤاله عن بيت المرحوم ممَّا دلَّ على أنَّه لم يعرف البيت، واقترب من أخيه حسن يسأله:

- ممَّن يكون هذا الرجل؟

فقال حسن:

- أحمد بك يسري، مفتش عظيم بالداخلية،

وصديق حميم للمرحوم..

لسأله بغرابة:

- لماذا سأل عن البيت كأنه لا يعرفه؟

فحلَّجه حسن بنظرة غريبة وقال:

- كان والدنا كثير التردُّد على بيته، أمَّا هو.. إلَّه رجل عظيم كما ترى..!

وصمَّت الشاب لحظة ثمَّ استدار قائلًا:

- كان المرحوم يحبُّه ويعده أعزَّ صديق.

وتنامى حسين هذا، ولم يشأ أن يفسد على نفسه

بالقطرة. والحقيقة أنَّه لم يتأثَّر بأيِّ نوع من التربية أو التهذيب. كان ابن الشارع كما كان يدعوه أبوه في ساعات الغضب. وقد طُبع على العتب فلم يعد قلبه تربة صالحة لبذور العقيدة، وما انفكَّ يتخذ منها ملأه لزاحه ودعايته، وحتَّى الأثر الخفيف الذي علق بقلبه من وحي أمِّه ضاع في غصَم الحياة التي اكتوى بناوها. لذلك تاه به الفكر في وديان بعيدة عن الأبدية تتركز حول هذه الحياة وحظِّه وحكِّ أسرتِه منها. بيد أنَّه لم يطل به المكث مع شقيقه وزوج خالته فقد تراءى عن بُد رجل يهول قادمًا ما إن وقع بصر حسن عليه حتَّى قال بارتياح كأنَّه كان ينتظره:

- فريد أفندي محمَّد!

وكان القادِم يحقِّف جبينه بمندبل على رغم لطافة الجهر الخفيفي، ولكنَّه كان بدنيًا مفركًا في البدانة، ذا كرش عظيمة، ووجه مستدير مكتنز لاحت فيه قسائمه دقيقة صغيرة، على أنَّ بدائنه وكهولته وأناته أيضًا أضفت عليه وقارًا ممَّا يعزِّز به موظفو الحكومة والكتبه منهم خاصَّة. وعلقت به أعيان الإخوة برجاء يستحقُّه ممَّن كان جازًا مثله وصديقًا قديمًا لأبيهم، وأقبل الرجل عليهم معزِّيًا. ثمَّ خاطب حسن قائلًا:

- طلبت إجازة اليوم من الوزارة. هلِّم بنا إلى ديوان المرحوم لصرف الدفنة ثمَّ لاتباح اللوازم الضرورية. وجعل يسأل ممَّا كان وضاه به قبل ذهابه إلى الوزارة من إجراءات استدعيها الوفاة، ثمَّ تأبط ذراعه وذهبا ممًا..

- ٤ -

وعند اقتراب موعد الجنائز بلغ الاضطراب بحسين مدهاء، اضطراب من نوع جديد كان يشغله عن الحزن نفسه. كان يرجو لأبيه جنازة رائعة تليق بمقامه ويمكنه هو التي يجب أن يظهر بها أمام الناس. لم يكن أخواه ليكثرنا كثيرًا لهذا الأمر، أمَّا هو فكان يعدُّ إحقاق الجنائز كارثة كالمت نفسه، غضبًا لأبيه الذي يحبُّه، ولنفسه هو. وتلقَّب حينه فيمن تجمَّع من المشيعين فلم يرَ أحدًا يملأ العين إلَّا جاره المرحوم فريد أفندي محمَّد، أمَّا زوج خالته فكان في حكم العمال، وليس

بإنكار وأسف. ثم نظرت الأم إلى الأبناء وقالت:  
- قوموا للنوم.

وأذعنوا لمشيئها بلا اعتراض بعد يوم شاقّ أليم،  
ومضوا إلى حجرتهم. وكان بالحجرة ثلاثة أسرة صغيرة  
فأغلوا واحدًا لزوج خالتهم الذي لحق بهم على الأثر،  
وشارك حنين حسين في فراشه. ولكنهم لم يستسلموا  
للنوم، أو تأتى النوم عليهم، فراحوا يتحدثون عن  
أبيهم بحزن وحنان، ويذكرون أيامه الأخيرة، وميته  
المفاجئة. ثم قال حسين:

- كانت جنازته تليق بمقامه حقًا.

فقال عمّ فرج سليمان مؤثنا على قوله:

- كان رحمه الله رحمة واسعة رجلاً عظيمًا، فلا  
عجب أن تكون جنازته عظيمة مثله. ولقد امتلأت  
عطفة نصرالله بالمشيعين من البيت إلى شارع شبرا.  
ولم يرتع حنين لصوت الرجل، وكان يشعر  
لوجوده بضيق، ثم ذكر حانقًا أنه رأى القبر العاري،  
فقال:

- المصعب أن والدنا وقد أفنى مالا كثيرا لم يفكر في  
بناء مقبرة تليق بالأسرة.

- هل كان يظنّ أنه سيهلك في مثل هذه السن؟ إن  
والدك في الخمسين. وعندنا في السريف كثيرون  
يتزوجون للمرة الثانية أو الثالثة في هذه السن.  
وصمت الرجل مليا ثم استدار قائلا:

- ولا تنس أن والدك قد هاجر مع جدته من دمياط  
إلى القاهرة وهو في مثل سنك يا سي حنين، فلتسم  
من أهل القاهرة الذين يتوارثون المقابر جيلا بعد  
جيل.

فقال حنين بامتعاض:

- حقًا لسننا من أهل القاهرة وإن كانت أسبابنا بالنا  
في دمياط قد انقطعت.

وذكر في حزن أنه لا يعرف لنفسه أقارب غير خالته  
هذه، وسيبقى هذا القبر للممخور في العراء رمزا  
لضياعهم المخجل في هذه المدينة الكبيرة. وازداد ضيقا  
بوجود هذا الرجل الذي احتل فراشه. فآثر الصمت  
حتى يقطع عليه سبيل الكلام. وساد الصمت حتى

زوها، ووة لو يراه - فلك المفتش - للمشيعون جميعا.  
ثم حلت اللحظة المفجعة لخرج النعش من البيت  
وعلا الصوات من الشقة والتواغل. انتظمت الجنازة  
بالمشيعين جميعا يتقدمهم النعش. وعلقت أعين  
الشقيين بالنعش في ذهول وإنكار، وتساقط دمعهما  
طوال الطريق. وبخلوا المسجد وأدخلوا في توديع  
المشيعين وشكرهم. وأظهر البعض استعدادا لمرافقة  
النعش حتى مستقره الأخير، ولكن حنين همس في  
أذن أخيه الأكبر قائلا:

- لا تسمح لأحد بالذهاب معها كلفك الأمر.

كان حريصا على ألا تقع عين حل القبر حضا  
لكرامة الأسرة. ووقفوا إلى صرف المشيعين، وركبوا  
سيارة الموق وليس في ركابهم إلا عمّ فرج سليمان  
وفريد أفندي عمّد الذي أبى الرجوع إياه لم ينفع فيه  
الرجاء. وانطلقت السيارة بهم إلى باب النصر،  
ووقفت بهم ناحية قامت بها القيور في العراء ثم ووري  
جشان كامل أفندي في قبر غير بعيد من الطريق المتوري  
الذي يشقّ المدافن كأنه من قبور الصدقة. ووقف  
حنين غارقا في الحزن والبكاء، ولكنه حل حزنه كان  
يسترق النظرات إلى فريد أفندي عمّد في حجل  
واستيه ولو علم التلاميذ بالوفاة لجاموا معزين،  
ولرافقي بعضهم حتى إلى هذا القبر. الحمد لله الذي  
لا يحمّد على مكروه سواه. لا مقبرة ولا يمزنون. لماذا  
لم يبن والدنا مقبرة تليق بأسرتنا؟!.

- \* -

انتصف الليل أو كاد، وعلت الشقة إلا من أهلها.  
وأوت الأسرة إلى الصلاة ومعهم الحالة وزوجها.  
وراحت الأم تعيد قصة الوفاة للمرة العشرين في ذلك  
اليوم الحزين، وأنصت إليها حسين وحسين باهتمام،  
على حين وجهم حسن متفكرا.

وتحدث حنين عن أحمد بك يسري متحاشيا مسألة  
جهله لبيت لوجود خالته وزوجها من ناحية، ولأنه لم  
يكن يجب أن يذكرها من ناحية أخرى. وكان شعور  
المطف نحو والده ميلا عليه نفسه فجعل يرنو إلى باب  
حجرته المغلقة بطرف حزين، ويتخيّل فراشه الخالي

وجدت في عفتة جنهين وسبعين قرشاً هي كل ما تملك من نقود حتى تنظم الأمور؟ ورنأ بصرها إلى حجرة الأبناء في سهوم. اثنان في المدرسة، معقنان من المصاريف حقاً، ولكن مبهات أن يخفي هذا عنها شيئاً. أما الثالث ففي حكم الصعاليك؛ وتبدت من الأعماق. ثم حوَّلت عينها إلى نفسها فتضطع قلبها ألتماً. فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها بلا مال ولا جمال ولا أب. وظله هي الأسرة التي باتت مسئولة عنها بلا معين. بيد أنها لم تكن من النساء اللاتي يفضضن هومهنّ بالدموع. وإن حياتها الماضية وإن أمست حلماً سعيداً مولياً إلا أنها لم تكن يسيرة خصوصاً في مطلعها حين كان المرحوم مولفكاً صغيراً ذا جنهيات معدودات، وقد علمتها الصبر والجلد والكفاح. كانت دائماً قوية، وكانت محور البيت الأول، بل كانت حل الأراجيح تقوم بدور الأب، على حين كان المرحوم أدنى إلى حنان الأنهات وضعفهنّ. والأبناء أنفسهم مثال حي على التباين بين الأب والأم، فكان حسن شاهداً تمشياً على رغواة الأب وتدلله، وكان حسين وحسين شاهدين على حزم الأم وحسن تربيتهما. أجل كانت أرملة قوية، ولكنها لم تملك في تلك اللحظة من الليل إلا اجترار الحزن والقلق. .

- ٦ -

في مساء اليوم التالي لم يبق في الدار أحد غير أهلها. وقد تجرَّم أثاث حجرة الراحل في ركن منها وأخلق بابها. واجتمع الأبناء حول أمهم وهم يشعرون بأنه آن لهم أن يسمعوها. وكانت الأم تعلم بأنه ينبغي لها أن تتكلم. ولم يختلط عليها الأمر فيما يجب قوله، فقد كانت فُجرت فاطالت التفكير، ولملح له يكن يميِّرها شيء مثل هذا التناقض بين ظاهرها الدال على الحزم والقوة، وباطنها الذي يتنوى رحة وعطفاً على أسرته البائسة. ونفضت عينها متحامية النظرات المصيرية نحوها وقالت:

- مصيبتنا فلاحه، ليس لنا إلا الله، والله لا ينسى عباده.

لم يكن يوسعها أن تتساءل «ما عسى أن نفعل؟»،

رَبُّ الثوم بأجفانهم. وفي الصلاة لم تبارح الأم وأختها وابنتها مجلسهنّ، ولم يتعين من الحديث عن الفقيد العزيز. وكان الشعور بالفاجعة هنا أعمق من الحجرة الأخرى. وقد ارتسمت أماراته على وجه الأم النحيل البضاوي وعينها الملتويتين. وكانت بأفنها القصير الغليظ وذقبتها المدبّ وجسمها النحيل القصير توحى بأنها وهبت الأسرة خير ما فيها، فلم يبق من حيوتها إلا نظرة قوية تنم عن الصبر والمزم.

وكان التقدير الطارئ عليها من العمق بحيث يتعدّر تصوّر ما كانت عليه أيام شبابه، إلا أن ابنتها نفسها كانت تعيد حياتها وصورته بدقة كبيرة. كان لها هذا الوجه البضاوي النحيل والأنف القصير الغليظ والدن المدبّ، إلى شحوب في البشرة، واحتداد بل قليل في أهل الظهر، فلم تكن تختلف عن أمها إلا في طولها المائل لطول شقيقها حسين. كانت بعيدة عن الوسامه وأدى إلى الدمامه، وكان من سوء الحظ أن خلقت على مثال أمها، على حين واث الأخوة خلقة أبيهم. وكان الحزن قد أُن عليها لبست في صورة بشعة واستغرقت فكرها ذكريات والدها الحبيب. أما الأم فعمل حزنها الشديد دارت برأسها غواطر أخرى. كان يداخلها نحو أختها شعور بعدم الارتياح. ولم تستطع أن تنسى أنها كانت تنفّس عليها حياتها، وأنها كان يحلو لها كثيراً أن تقارن بين حقلها فتقول: إن أختها تزوجت من مولفك أما زوجها هي لعامل في عالج قطن، وإن أختها تقم في القاهرة وهي مقضي عليها بالحياة في الريف، وإن أبناء أختها تلاميذ وأبنائها هي لا حظ لهم إلا حظ العيال، وإن تكرار أختها لا ينضب معينه أما بيتها فلا يعرف السعة إلا في المواسم. لعلها لا تجد الآن ما تحسدها عليه. واعتلات نفسها امتعاضاً إلى ما بها من حزن. إنها تترك من حول الكارثة ما لا يتركه أحد. انتهى زوجها، وأنها لتتلفت يمين ويسرة فلا تجد أحداً تعرفه إلا ضله الأخت التي لا يصدق بها رجاء. لا قريب ولا نسيب. ولم يخلف الراحل شيئاً. ومبهات أن تأمل في معاش مناسب وقد كان مرتبه كله يُستفد في ضرورات الأسرة. وقد

معرضاً، ولا وهي تقريباً:

- كلّ المصروف؟ ولا مليم؟

فحجته أنه بنظرة طويلة ثم قالت بحزم:

- ولا مليم..

أحزنها اعتراضه، ولكنها رَحِبَتْ به لأنه أتاح لها أن تؤكد قولها بما لا يدع سبيلًا إلى الشك فيه، ولكي يسمعه شخص آخر تخشى متاعبه أكثر من شقيقه. وفتح حسنين شففيه، وهمهم دون أن يبين، ثم قال بصوت منخفض:

- ستكون التلميذين الوحيدين اللذين تخلو جيوبهما من مصروف..

فألتفتت أمه بحدة:

- إنك وإهم، المصائب كثيرة، والتلاميذ المصابون لا حصر لهم.. ولو أنك قشّست جيوب التلاميذ جميعاً لوجدت أكثرها فارغاً. وَهَبْ لِكُنَا الوحيدين الفقيرين لها في هذا من حبيب، ولست المشغولة عما وقع..

ولاذ حسنين بالصمت متذكراً أنه يخاطب أمه. كان دائماً يجد عند أبيه من التسامح ما لا يجده عندها، وكان الرجل يحبه كثيراً فلم ينزل من نفسه هذه المنزلة إلا ابنته نفيسة. أما الأم فلم تكن تتخلّ عن حزمها قط. وإساً فرغت من الردّ على اعتراضه استعطرت قائلة:

- كذلك أحلركما من ترك نصيبكما من الغداء

المدرسيّ كما تفعلان عادة.

وكان الشقيقان يقنعان من هدايتها المدرسيّ بلقيات معلودات كي يتناولوا وجبتها الرئيسيّة في البيت. وكان التلاميذ الذين يأكلون في المدرسة حتّى الشيع موضع غمز عادة. ففسّاهل حسنين برقة:

- لماذا لا نأكل في بيتنا كمادتنا؟

فألتفتت الأم بامتناع:

- من يدرى فعله لن يتاح للبيت الطعام الذي

نحب!

وارتسمت على شفقي حسن - الذي أصغى إلى الحديث كلّ في صمت حميق - شبه ابتسامه، أخفاها بتغطية مصطنعة، ولكنها لم تخف على الأم، فصمتت

وبهيات أن تنتظر جواباً من أحد من المحيطين بها، حتّى كبيرهم حسن. وليس في الدنيا أحد تستطيع أن تلقي إليه بهذه الاستعانة فتشركه في بعض مهّتها.

شعرت بالخلاء يكتشفها، ولكنها أبت أن تستسلم للباس، واستدارت تقول:

- ليس لنا من قريب نعتد عليه. وقد رحل العزيز الغالي دون أن يترك شيئاً إلّا معاشه، ولا شك أنّه دون المرتب الذي كان لا يكاد يكفيها. فالحيّة تبدو كالحة الوجه، ولكنّ الله لا ينسى عياله. وكم من أسرة مثلاً صبرت حتّى أخذ الله يبلّغها فشقت طريقها إلى برّ الأمان..

واختنق صوت نفيسة بالكآبة وهي تقول:

- لا أحد يموت جوعاً في هذه الدنيا، وسياخذ الله بيدنا، أمّا المصيبة التي تحمل عن العزاء فهي موته هو. أسفي عليك يا بابا.

ولم تحدث هذه الدموع أثراً عميقاً لأنّ كلام الأم أنذر بأمر خطيرة استأثرت بجعل اهتمامهم، فثبت أعيانهم على أمهم التي عادت تقول:

- لا يجوز إذن أن نأسى من رحمة الله، ولكن ينبغي أن نعرف رأسنا من قلعتنا وإلّا هلكتنا، وأن نوظف نفوسنا على تحمّل ما قدّر لنا من حظّ بصير وكرامة، وربّنا معنا.

وأحسّت بأنّ معين الكلام العامّ قد نفذ، وآتته يبنفي أن تخاطب الأبناء، كلّ بما يعنيه، ورأت عن حكمة أن تبدأ بمن هو أقلّ خطورة، تمهّد به لمن هو أشدّ خطورة، فظفرت صوب حسين وحسين، وقالت بصوت هادئ أن تكشف عما لحق قلبها من تأثر:

- لن يكون في الإمكان إعطائكم أيّ مصروف يوميّ، ومن حسن الحظّ أنّ المصروف ينفق عادة في وجوه تافهة..

وجوه تافهة! اشترك نادي الكرة، السينما، الروايات. أمّله وجوه تافهة؟ وقد تلقى حسين الحكم في وجوه، وتاه عقله متخيلاً الحيلة بسلا مصروف، ولكن دون أن ينس بكلمة. أمّا حسنين فقد انقضّ الحكم عليه كالصاعقة، وسرعان ما قال

مؤدبة، وشعور ممتل عطفًا وتقديرًا للمسئولية، ثم قال:

- إني أدرك كل شيء..

فقلت المرأة في ضيق متسائلة:

- ما عسى أن يجدي الإدراك وحده؟

- لا بدّ من عمل شيء.

فقلت في انفعال:

- هذا ما نسمعه كثيرًا.

- الآن تتغير الحال.

- أليس ثمة أمل أن تتغير أنت؟

فقال حسن في نبرات قوية:

- مثلي لا يضع في الحياة، إني أستطيع أن أشق

سبيلي. والفرص كثيرة والأسلحة في يدي لا حصر لها.

أصبح إني يا أمّاه لن أطالبك بغير المأوى واللحمة..

هذا أسلوبه! يبدأ وكأنه يسلم بكل شيء، ثم

يتنهي وكأنه يطالب بحقوق جليئة. المأوى واللحمة،

وماذا يبقى بعد ذلك؟ ورسمته باستنياه وقالت:

- إنّ حائلنا لا يحتمل هذا المدر.

- المدر؟

- أجل. نحن في حاجة إلى من يطعمنا فكيف نمي؟

لك اللحمة؟ لماذا تضطرنني إلى مصارحتك بهذا؟

فابتسم ابتسامة باهتة وقال:

- أهني إلى حين. حتّى تفرج. لن يضيق البيت بي،

أم تريدني أن تطردني؟ وسوف ألتقط رزقي ما

وجدت إليه سبيلًا. ولكن هي آيّاها انقضت دون أن

أجد عملًا فلا أحسبك ترضين أن أموت جوعًا. وهل

آية حال سأقاسمك رغيفك حتّى أجد عملًا!

وتنهت في ياس. إنها حيال مشكلة حقًا ولا تدري

ماذا تفعل. وأخوف ما تخاف أن يستسلم حياة البطالة

والكسل والتسكع خاصّة إذا فرّ ثأره بموت أبيه فقلت

برجاء:

- أرجو أن تبحث بجدّ وإخلاص عن عمل..

فقال بلهجة تنم عن الصدق:

- أعلك بهذا، وأقسم لك بقبر والدنا.

وأثار قسمة عاصفة حزن في الصدور لموقعه

على أن تواجهه بالحقيقة - إن كان حقًا في حاجة إلى ذلك - بعد هذا التمهيد الطويل. فتسألت بلهجة حزينة:

- وأنت يا حسن؟

هذا أكبر الأبناء، أوّل من أيقظ أمومتها، الحبيب

الأوّل! ولكنّه دليل ملموس على أنّ الأمومة قد تتأثّر

بأمور لا تمتّ للضرورة بسبب. لا يعني هذا بطبيعة

الحال أنّها كرهته. إنّها أبعد ما يكون عن هذا. ولكنّها

أسقطته من حسابها فتوارى من مرمى آمالها في حسرة

بالغة. انزوى في ركن مظلم، ولم يعد حبّه يتحرّك في

فؤاده إلاّ مصحوبًا بالأسف والحزن وقائم الذكريات.

وقد كان ولا يزال المشكلة المستعصية لهذه الأسرة.

كان في البدء ضحية لقرّ أبيه وتذليله، فلم يُبعث إلى

المدرسة إلاّ في سنّ متأخرة. وسرعان ما ظهر تمزّده على

الحياة المدرسيّة، وتكرّر هروبه من المدرسة، وتوالى

سقوطه عامًا بعد عام، حتّى انقطع عنها ولم يجاوز السنة

الثالثة. واستحال ما بينه وبين أبيه إلى تقار وشجار ثمّ

إلى ما يشبه العداوة الحقة، فكان يطرده أحيانًا من

البيت فيقضي أيّامًا متسكّفاً ثمّ يعود إلى البيت وقد

اكتسب شروراً جديدة من مخادعة الأشقياء والغوص في

الإثم والإدمان وهو دون العشرين. ولمّا بلغ اليأس

من أبيه مداه ألقه بحانوت بقال فمكث به شهرًا ثمّ

طرده صاحبه بعد معركة كاد يلهب الحانوت ضحية

لها. ثمّ عمل في شركة سيّارات وكرد منها أثر عراك

أيضًا. ولم يعد يابه لا يفضّض أبيه ولا يحزم أمّه

لفرض نفسه على البيت فرضًا، يلقى سخطهم

باستهانة أو بدهابة أو بشجار ولكنّه لا يترجّح ولا

يبحث جادًا عن عمل. وبدا وكأنّه لا يعمل للمستقبل

حسابًا، وظلّ سادسًا مستهترًا حتّى فجأه موت الأب.

إنّه يدرك خطورة الحال، فهو الوحيد الذي عرف

مرتبّ أبيه، وقدّر على وجه التقريب معاشه. وفهم ما

تعي الأمّ بتساؤلها «وأنت يا حسن». وأنت تقولين إنّ

الله لا ينسى عباده، وأنا عبد من عباده. فلتنظر كيف

يلدكرنا. لماذا أخذ والدنا؟ ولماذا يعلن عن حكمته على

حساب أمثاله من الضحايا؟ ولكنّه طالعها بابتسامة

تألم كثيراً لمصير أخته ولكنه استمخف الاعتراض على اقتراح أرحمت به الضرورة. وشعر في ألمه بأنه تعلم في هذين اليومين ما لم يتعلم في حياته كلها. أما نفيسة فسكت مغلوبة على أمرها. ولم تكن تسمح الاقتراح لأول مرة فقد أقنعتها أنها بضرورته ووجاهته ممّا. وكانت الحياطة هوايتها وملهايتها، فلم يبق إلا أن توكل النفس لقبول الأجر. لهذا كله تضاعف حزنها على أبيها الذي لم تعد بعده شيئاً. ثم قطع حسن الصمت قائلاً بلهجة تنم عن الحسرة:

- من المؤسف حقاً أنّ المرحوم أبى على نفيسة أن تواصل تعلمها في المدرسة. تصوّروا لو كانت أختنا مدرّسة الآن!

وحذوه بغربة فأدرك أنه تورّط فيها يشبه الدهاية وهو لا يدري. أفلم يكن الأولى به أن يعرف للتعليم قيمة فيواصل حياته المدرسية؟! وقطب منيلاً وقال:

- التعليم ينفع أمثاله ممن لا حيلة لهم..

- ٧ -

وفي صباح اليوم التالي مضت الأم إلى وزارة المعارف مصطحبة معها حسن أكبر الأبناء. ولما علم هناك أنها أرملة المرحوم كامل حلّ أفندي أظهر كثير من زملائه استعدادهم لأن يكونوا في خدمتها. وطلبت المرأة صرف المستحق من مرتبه فلما بعضهم على إجراءات إثبات الوراثة. وسألت عن معاشه فلذهب معها أحد الزملاء إلى إدارة المستخدمين. وتبيّن أنّ المرحوم خلع الحكومة حوالي الثلاثين عاماً فبلغ مرتبه ١٧ جنيهًا واستحقّ معاشاً قدره خمسة جنيهات لورثته. لم تكن المرأة تتصوّر هذا، ولا كانت تعلم شيئاً عن نصيب الحكومة في معاش المتوفى، ولكن الذي أفرعها حقاً هو ما قيل عن الإجراءات الطويلة التي تسبق صرف المعاش، والتي تستغرق أشهراً طويلاً. هاها الأمر فلم تملك أن قالت:

- وكيف يتيسّر لنا الانتظار طوال فترة الانتظار؟

وقال حسن مسوِّحاً قلق أمه:

- نحن لا نملك إلا هذا المعاش المنتظر؟

وندم حسن على قوله عقب إلقائه مباشرة لأنه بدا

الآليم.. وهزّتهم وقبر والدناه هزّة عنيفة. فاجهشت نفيسة في البكاء، وغاص قلب حسين في صدره، على حين رمق حسين أخاه بنظرة حيرة وعتاب. ولبثت الأم صامته ملياً تكابد جرحاً عميقاً، ولكنها لم تنس - حق في هذه اللحظة - أنها لم تفرغ بعد من قول ما تريد قوله، فردّدت عينيها اللتين انتفض جفنهما واحمرت اشجارهما بين أبنائها ثم قالت:

- أما نفيسة فتحسن الحياطة. وهي تخط كثيراً لجاراتنا عيّة ومعاملة، ولست أرى بأساً في أن تتفاوض على تعبها مكافأة.

وهفت حسن بحماس:

- عين الصواب..

ولكنّ حسين صاح بغضب وقد اصفر وجهه غضباً:

- خياطة؟!!

فأجابه حسن معترضاً:

- ما عيب إلا العيب، فلتكن..

فقال حسين بحدة:

- لن نكون אחי خياطة، كلا، وإن أكون أختاً لخياطة.

وقطبت الأم في غضب وصاحت به:

- أنت ثور، تأكل وتنام، ولا تدري عن الدنيا شيئاً، وهيهات أن يفهم عقلك الفتي حقيقة حالنا! وفتح فاه ليعترض ولكنها صاحت به:

- اخرس..

فنفخ دون أن ينس بكلمة. ورات الأم أنها فرغت من معارضته فالتفت إلى حسين، فالتقت عيناهما برهة قصيرة، ثم خفض الفتى عينيه ونظم على مضض:

- إذا لم يكن من هذا بدّ فالأمر به..!

فقال الأم بتأثر:

- ما عيب إلا العيب كما يقول حسن. لست أحب لأحد منكم المهانة ولكن للضرورة أحكام، ولا حيلة لي..

وساد صمت مؤلم. وكان حسين أشبه الأبناء بأخلاق أمه في صبرها وعقلها وإخلاصها للأسرة. وقد



غريبًا من شخص في مثل طولهِ ورجولته، ولكنَّ المولف قال دون أن يلتقي بالأى إلى هذا:  
- أعدك يا سيدي بالأى نضج دقيقة واحدة بلا عمل. أمَّا إجراءات وزارة المالية فلا حيلة لنا فيها..  
ما جدوى هذا الكلام الطَّيب؟ ولكن آية فائدة تتظرها من التلتر والشكوى؟! وغادرا الوزارة في شبه ظلام من القلق واليأس. ومضت المرأة:  
- كيف نلقى الحياة هذه الأشهر؟ وكيف نعيش بخسة جنهات بعد ذلك؟!  
وخفض الشاب بصره في وجوم وضيق. ولاح لميقي المرأة المكدودتين بصيص من نور فقالت:

- سأزور أحمد بك يسري. إنه مفتش عظيم نافذ الكلمة، وكان صديقًا عزيزًا لأبيك..  
فقال حسن بأمل:

- رأي حسن. إنَّ الكلمة منه تغير إجراءات الحكومة.

فنظرت إليه باهتمام وقالت:

- لا تضج وتك معي. لعلك تدرك حالنا حل حقيقتها فاذهب وابحث لك عن عمل مهما كلفك الأمر..

وعادت إلى شبرا بمفردها، وليت في البيت حتى مصر. ثم قصدت شارع طاهر أو حي الأحيان كما يستونه. وكان يقع شال عطفة نصرالله بثلاث عطات، متفرعا من الطريق العام. تقوم على جانيه الفيلات الأنيقة والمبارات الحديثة. واسترشدت ببعض السابلة حتى استلكت على فيلا البك. وكانت بناء جيلا مكونا من دورين يحيط به حديقة موقفة. وذكرى للبراب صنتها وحرم المرحوم كامل أفندي عليّ فعاد إليها مسرعا وقادها إلى بهو استقبال فاخر موصل بفراندة كبيرة، ثم أخبرها أنّ البك قادم بعد ارتداء ملابسه. وغشيت إليها أنّ فترة الانتظار قد طالت، ولكنها لبثت بمكانها دون أن ترفع النقاب الأسود عن وجهها. وقد شغلت بأنكارها المضطربة عن رؤية المنظر النفيس الذي يكتنفها. بيد أنّها كانت كبيرة الرجاء في هذا الصديق العظيم. طالما ذكره للمرحوم

فاستبشرت المرأة خيرا بهذا اللقاء، وشكرت له عطفه. وراح البك يجذّنها عن الفقد حتى اغرورقت عينها بالمعوج، وزادها الموقف استغاضة فلم تحاول منعها مدفوعة برغبة غريزية في استئثاره عطفه. ثم ساد الصمت حينًا فأدركت رغم حزنها واضطرابها أنّ شارب البك وسوالفه مصبوغة، وأنّه يخالي في العناية بظهوره، إلى ما تطيب به من روائح زكية حميقة الأثر. وليّا تكرم بسؤالها عن طلبتها قالت:

- جئت مستشفعة بسعادتك لاستعجال صرف معاش المرحوم. قالوا لي يا سعادة البك إنّ إجراءات صرفه تستند أشهرًا.  
فتنكر الرجل مليًا، ثم قال:

- لن أأخر وسيلة في سبيل ذلك، وسأقابل وكيل المالية بنفسى.

فأتلج صدرها ارتياحًا، وشكرته، ثم ترددت لحظات وقالت:

- الحال يا بك تستدعي السرعة، والله الملّغ.  
فقال الرجل باهتمام:

- طبًا، طبًا. إني فاهم كلّ شيء. هل أنت في حاجة إلى مساعدة؟

يا له من سؤال! إنّه لا تملك إلّا جنهين هما ما

الأسرة فلم يكن غريباً أن يبحث لمشكلاته عن حلول عند الآخرين. وضاق صدره بصمت أخيه فسأله:

- ما رأيك؟

فتعامل حسين متجاهلاً:

- فيه؟

- فيها قالت! انحسب حقاً أن حالنا بهذا السوء؟

فهز منكميه قائلاً:

- ولماذا تكذبنا؟

فتأملت عينا الفتى ببريق أمل وقال:

- كي تكسر من حدثنا. كي نخاف ونثمد. وليس هذا عجيباً فالشدة مرعبة في طبعها، ولولا المرحوم والدنا ما عرفنا المرح!

فقال حسين بحزن:

- ليتنا ما عرفناه قطاً

- ماذا تقول؟

- أقول ليتنا ما عرفنا التذلل أبداً، إذن لمانت علينا الحياة الجديدة المضيء علينا بها!

فقال حسين وقد ساوره الحول:

- إذن فأنت تصلح ما قالت! أسطفاً لم يترك والدنا شيئاً؟ ألا يسدّ المعاش نفقاتنا؟

فتنهّد حسين قائلاً:

- إني مؤمن بكل كلمة نطقت بها. هذه هي الحقيقة.

فتعامل حسين في جزع:

- كيف نطبق هذه الحياة؟

فارتسمت حل شفقي حسين ابتسامة حزينة. كان يشارك أمه حزنه وقلقه لكنه رأى من الحكمة أن يقف منه موقف المعارضة فقال:

- كما يطبقها الكثيرون. أم حسبت الناس جيماً يحظون بأب كريم ورزق موفور؟. ومع ذلك فهم يعيشون ولا يتحرون.

قامتلاً حسين خيفاً وهو يحدّق في وجه أخيه وهتف به:

- لشد ما يحقني برودك..

فقال حسين مبتسماً:

تبقياً من المبلغ الذي وجدته بحفظه المرحوم، ولن نجد سواهما حتى يُصرف لها ما يستحق من مرتبه حتى تاريخ الوفاة. ولكن كيف تفصح له عن هذه الحقيقة؟ لم تتعزّض لمثل هذا الموقف من قبل، ولأنه لموقف يستوجب أن تألفه، وعقل الحياة لسانها فسكت قليلاً ثم قالت بصوت منخفض:

- أحمد الله على السر. بوسعي أن أنتظر قليلاً..

وارتاح اليك للجواب. لقد انزلت إلى السؤال متأثراً بالحياة والسوق. ولم يكن ارتياحه ليخل مرتكب في طبعه، ولا لأنه يكره أن يمد يد المساعدة إلى أرملة صديقه، ولكن لأنه كان على ثراه لا يكاد يفي على شيء لكثرة نفقاته على نفسه وأفراد أسرته. كان يضايقه أن يأخذ بيد هذه الأسرة حتى تبلغ برّ السلامة. ولكنه كان على استعداد للبدل لو سألت المرأة إياه. وقد غاب عن المرأة أنّ زوجها لم يكن صديقاً للبك بالمعنى الذي يفهمه اليك من الصداقة. ولعله كان صديقاً من أصدقاء الدرجة الثالثة. كان يحبه ويقرّبه ويودّ سعره وفنه دون أن يعلم ندأ له، أو صديقاً كسائر البكوات والباشوات. ولكن نيته صدقت على السعي لخدمة هذه المرأة حتى يُصرف لها المعاش، إكراماً للذكرى الراحل، وتغاضياً من التزوّد في مساعدتها، ونهضة المرأة مستاذنة في الانصراف فودّعها بالاحترام. ولما خلصت إلى الطريق تنهدت في أمل، ولكنها قالت لنفسها في شبه ندم: ولو أتيت قدرًا من الشجاعة لما ضيّعت على نفسي معونة أنا في أمس حاجة إليها..

- ٨ -

وخلا حسين وحسين لنفسيهما أوّل مرة بعد الوفاة. كانت نفسيه في الطغيان والآن في وزارة المعارف سعيًا وراء همومها الجديدة، وحسن لا يعلم بمكانه إلا الله، وكان حسين متربّعاً على فراشه، والآخر جالساً إلى مكتب المذاكرة بركن الحجرة يرفع بين أصابعه قلمًا في نرفزة ويقول:

- يبدو أنّ الحياة لم تعد نطاق..

وانتظر أن يتكلم حسين، ولكنه تجاهل ملاحظته فرفع إليه بصره في حق. كان حسين آخر عنقود هذه

- لو جارتك في عواطفك لركبك اليأس وأجهشت باكياً.

فقال حسنين بسخط:

- إنَّ من يستسلم للأقدار يشجعها على التيادي في طغيانها!

فابتسم الآخر ابتسامة ساخرة وقال في شبه دعابة:

- هلمَّ نثر عليها. دعنا نهتف لتسقط الأقدار كما هتفنا ليسقط هور.

- ألم تفدنا ليسقط هور؟!

- هيهات أن نفيدنا الأخرى.

وقطب حسنين في كدر وتساءل:

- مَن لنا الآن؟

فابتسم حسنين ابتسامة عريضة فرككت أنفه الذي بدا في تلك اللحظة شيئاً بأنف أمه الغليظ. وقال

بانتصاب:

- الله..!

وزاد الجواب من حنقه! إنه لا يشك في هذا ولكنه لا يفتح به. الله للجميع حقاً ولكن كم في الدنيا من جالغ ومصاب! لم يتنكر يوماً لعقيدته ولكنه يتلَهَّف في خوفه على سبيل محسوس للطمأنينة. وتوهم أنَّ أخاه يجرجه ليتخلص منه فتشبَّث بعناده وقال:

- لقد شاء أن يأخذ والدنا ويرتنا بلا معين!

فقال حسنين وكأنه يهمن في إثارته:

- هو المعين..

فاتفجر حسنين قاتلاً:

- إنَّ هدوءك الكاذب لا يجوز عليَّ.. أأنت مطمئن حقاً؟

فأصغى حسنين إليه في امتعاض وألم، ثمَّ قال ولعلَّه كان يداري عواطفه:

- المؤمن لا تخونه طمأننته..

- إني مؤمن وقلقي ممَّا!

فقال حسنين في غير إيمان بما يقول:

- هذا من ضعف الإيمان.

فقال حسنين بحق:

- أوه، ليكن.. إني أعرف تلاميذ مجاهرون

بالشك!

- أعلم هذا.

- هم أذكياه ومكلمون.

- ألحِبَّ أن تفعل مثلهم؟

فقال في خوف:

- كلاً. لست من هؤلاء الاطلاع. أنت نفسك تقرأ كثيراً؟

فقال حسنين مبتسماً:

- هذا حقٌّ ولكنِّي لم أنتزع الله من قلبي. والحقُّ أننا نغالي في تحميل الله مسئولية مصائبنا الكثيرة. ألا ترى أنَّ الله إذا كان مسئولاً عن موت والدنا فليس مسئولاً بحال عن قلة المعاش الذي تركه..

وشعر حسنين أنَّ تطوُّر الحديث نأى به عن مخاوفه الحقيقية فقال بصيغ:

- دعنا من هذا وخبرني كيف نعيش بلا مصروف؟

أي بلا سينما ولا كرة. والأدنى من هذا كلُّه أني كنت شارحاً في تعلُّم الملاكمة!

فقطب حسنين قاتلاً:

- تحمَّ ما يؤلم أمتاً، إذا لم يكن لي وسعنا أن نساعدنا فلا أقلَّ من أن نريحها من منقصات لا داعي لها. واذكر أنها وحيدة فلا أحام لنا ولا أحوال!

- لا أحام ولا أحوال! كان هذا بيون لو لم تصيح أختنا خيطة! ربَّاه ما عسى أن يقول الناس عتاً؟!

وضاق صدر حسنين، وغلب الحزن، وقمت لفظة وخيطة من نفسه موقماً مؤلِّماً، فقال بغضب:

- نستطيع أن نعيش دون مبالاة بما يقول الناس.

وأراد أن يقطع الحديث فنبض قائماً وغادر الحجره.

- ٩ -

شعرا ببحرٍ وهما يدخلان فناء المدرسة لأوَّل مرَّة بعد الوفاة. لن يستطعا مواصلة الحياة الأولى وستتغيَّر كلُّ شيء، هيهات أن تخفى غلابة على أعين التلاميذ.

وكانا يعانين من هذا شعوراً مؤلِّماً وإن تباينت درجة ألمها.

ولم يكن قد علم بالوفاة إلاَّ قليل فرعان ما ذاع الخبر بين الأصدقاء وأقبلوا عليها معزِّين. وقال

أحدهم محزناً:

شعرا ببحرٍ وهما يدخلان فناء المدرسة لأوَّل مرَّة بعد الوفاة. لن يستطعا مواصلة الحياة الأولى وستتغيَّر كلُّ شيء، هيهات أن تخفى غلابة على أعين التلاميذ.

وكانا يعانين من هذا شعوراً مؤلِّماً وإن تباينت درجة ألمها.

ولم يكن قد علم بالوفاة إلاَّ قليل فرعان ما ذاع الخبر بين الأصدقاء وأقبلوا عليها معزِّين. وقال

أحدهم محزناً:

- أرجو أن تعفي وأخي من الإشتراك في نادي شبرا ..

ولاحت الدهشة في وجه الرئيس، وأزعجه الطلب خاصة فيما يتعلق بحسين - جناح الفريق الأيمن - فقال معترضاً:

- لعلّ أمراً ضابكها!

فقال حسين بتأثر:

- توبّي والدنا!

فوجم الرئيس ملياً، ثم عزّاه برقة، وصمت لحظات ثم قال:

- ألا ترى أنّ هذا لا يدعو إلى حرمان النادي من عضوين بارعين مثلكما؟

فقال حسين بلهجة خاطفة:

- إنّ الحداد يقضي بهذا!

فقال القى باشاً:

- إنّ ظروفنا تقضي بهذا. إليّ أسف!

ثم حيّاه مرة أخرى وغادره متحامياً النظر إلى عينيه، وانضمّ إلى أصدقائه. ووجدهم يتحدثون في السياسة، وكان أحدهم يقول:

- رحمة الله على شهداء الآداب والزراعة ودار العلوم!

فقال آخر:

- لا بدّ من التضحية فالدم هو اللغة الوحيدة التي يفهمها الإنجليز ..

فقال ثالث:

- لم يضيع الدم الطاهر عبثاً، ألم تسمعوا عن الدعوة إلى الاتحاد؟

- وهذه التمسح تلمح إلى المفاوضات ..

ودقّ الجرس فالتجهوا إلى الفصول وهم يتناقشون ..

- ٩٠ -

قطعا فناء البيت في صمت حاملين كتبها، ثم قال حسين وهما يرتقيان السلم:

- عتياً قليل يبدأ فريق نادي شبرا في التمرين استعداداً للمباراة القادمة!

فلاذ حسين بالصمت. وجعل يتخيّل الملعب

- يجمل بديوكما أن يحسنا اختيار الوصيّ عليكما، فإنّي لم أدرك حقيقة الفاجعة بموت أبي حتى ابتليت بوصاية عمّي!

الوصي! وتظاهر حسين بالإصغاء إلى نفر يتحدثون عن المظاهرات الأخيرة والمساعي للبدولة لضمّ الصفوف، ولكنّه سمع حسين يحجب صاحبه قائلاً:

- نحن مطمئنون إلى الوصيّ كلّ الاطمئنان ..

فقال محدثه:

- إليّ أغبطكما حلّ حطكما، بيد أنّ الأمر يتوقف على نوع التركة، فإذا كانت أراضي زراعية تيسر سبل الخلد، وإذا كانت عقاراً ضاقت السبل على الوصيّ بعض الشيء، أو هذا ما نقول أمّي ..

فقال حسين بهدوء:

- من حسن الحظ أنّ تركتنا عقاراً!

وأصغى إليه حسين في غيظ. لم يحتمل الكذب فحسب ولكنّه أشفق من عواقبه. وكيف نواجه الحال الجديدة إذا ظلّ بنا الإخوان اليسار؟ ماذا نفعل وماذا نقول؟ .. إنّه يكذب بلا مهالة. سحقاً له! وصوّب عينيه نحو أخيه محدثاً فتعاشله القى في تسلّس. ثم تسامح تلمذ كيف مات والدهما فأجاب حسين في تأثر قائلاً:

- ليل لنا إنّه مات فجأة. ومن عجب أنّه لمّا رأي خارجاً إلى المدرسة صباح اليوم الذي توفّي فيه، وقبل أن يتوقّى بساعة واحدة، وضع يده على منكبي ورنّا إليّ في حنان وقال لي بلا داعٍ ظاهر ومع السلامة .. مع السلامة! ..

فمن كان يدري أنّه يودّعني؟!

لم يكن شيء من هذا قد حصل، ولا يدري كيف قاله، والأعجب من هذا كله أنّه قاله بتأثر صادق كما لو كان وقع حقاً. وقد تعلق به ارتجافاً مدفوعاً برغبة غامضة في تبجيل والده. وصحب حسين لوصفه ثم دهش لتأثره فكاد يغلبه الابتسام، ونحى وجهه جانباً فرأى من بعد قريب رئيس فرقة كرة القدم فأراد أن ينقّس عن ضيقه بمواجهة الحقائق فمضى إليه وحيّاه ثم قال:

من حالنا، فأظهرت روحًا طيبة ووافقت بلا تردد.

فقال حسين في استياء:

- لو كانت ذات روح طيب حطًا لنزلت لنا هن فرق

الإيجار مع إيفاننا في شقتنا!

فقالت الأم في حنة:

- للناس أهل أخرى غير العناية برفاهيتك!

- وكيف ننام ليلتنا؟

فقالت نفيسة بصوت كبير دلّ على أنّها لم تفق بعد

من صدمة الوفاة:

- سننام في الشقة الجديدة.

وخرج في تلك اللحظة حسن من حجرة المرحوم

حاملًا بين يديه المشجب وهي آخر ما بقي من الأثاث

في الحجرات وقال بسرعة:

- كضاحكم نفاذًا وهلمّوا نرفع الأثاث إلى الدور

التحتاني فليس بيننا وبين الليل إلا ساعتان. - وأراد أن

يضرب لهم مثلًا عمليًا فرفع كبة من جانب ونخاطب

حسين قائلاً:

- ارفع... -

وفتحت نفيسة الباب على مصراعيه وسار الشقيقان

بحملهما الثقل، وجعل حسين يتساهد وهو يهبط في

السلم بحذر: ترى هل يراها أحد من أسرة فريد

أفندي محمّد جارهم الكريم بالدور الثالث؟ وليس

الفراق شرًا ما في الموت. إنّ الفراق حزن المطمئن.

متابعنا تتلاحق بحيث لا تدع لنا وقتًا للتفكير في

الحزن. لشدّ ما نتغفّر ونندهور، ولكن ينبغي أن نصبر

أو في الأقل أن نتظاهر بالصبر. أكبر جريمة في نظري

أن تضاعف بجزعنا شقاء أئمتنا. سأخاطب حسين

بحزم أكثره، ثم تبعتها الأم والأخت بمحلمان ما

يقدران على حمله من قطع الأثاث. ولم يستطع حسين

أن يقف متفرّجًا فانضمّ للعاملين. وما زالت الأسرة في

نزول وصعود والأثاث يتحوّل من فوق لتحت. وكانت

صاحبة البيت قد أدخلت الشقة وجّع أثاثها في الفناء

إلى جانب الحمالين اللين وقضوا ينتظرون دورهم في

العمل. وكانت الأسرة جيّسا - الصامت منهم

والساخط - سواء في الحزن والألم. ولم يكن وجه الأم

واللاعين، فكأنّه يسمع الرئيس وهو ينحى الآخرين

بانفصافها ولظروف الأسرة الجديدة! لا لعب ولا

مسرة ولا رحمة من شكوى حسين المتواصلة. وطرقا

الباب ثم دخلا. وتسوّرت أقدامها وولاه الباب لمنظر

غريب لم يتوقّعه. رأيا أثاث البيت مكوّنًا في الصالة في

اضطراب شامل وقد رُصّت المقاعد فوق الكنبات

ولُفّت الأبسطه وفُكّت الدواليب، ولاحت الأم ونفيسة

مشتمرتين يعلوهما التراب وتتصبّيان عرقًا على لطافة

الجوّ. وهتف حسين:

- ماذا حصل؟

فقالت الأم:

- سنترك الشقة.

- إلى أين؟!

- إلى الدور التحتاني. سنبتادل السكن مع صاحبة

البيت.

شقة أرضيّة بمستوى الفناء التراب، لا شرفة لها،

ونوافلها مطلّة على عطفة جانبية تكاد تبدو منها رموس

الملاّزة، وطبعا محرومة من الشمس والهواء، وتسال

حسين في امتعاض ولو أنّه كان يعرف الجواب مقدّمًا:

- لماذا؟!

فقالت الأم بصوت واضح:

- لأنّ إيجارها ١٥٠ قرشًا!

فقال الشاب متلّمزًا:

- فَرّق الإيجار أقلّ من ٥٠ قرشًا لا يتناسب مع

الفرق بين الشقتين!

فسأته الأم ساخطة:

- هل تتعهد بدفع الفرق التافه؟

- لماذا رضينا إذن بأن تشغل نفيسة خياطة؟

فالتهمت الأم بنظرة من نار وصاحت به:

- كي ناكل، كيلا نموتوا جوعًا!

وحافظ حسين على طلاقة وجهه أن يفتضح

امتعاضه وسأل أمّه بلهجة لا أثر فيها للاعتراض:

- متى تمّ هذا يا أمّاه؟

فقالت المرأة وهي تمسح جبينها بكفّ ثوبها الأسود:

- عرضت الأمر على صاحبة البيت غير خفية شيئًا

الرأس الأصلي. أما وجهه فكان حسن كشفيته إلى جسم طويل مقنول العضلات عريض العظام. سار متفكرًا فيها خاطب به نفسه، ثم واثته فثقة بنفسه فجاء فقال «يا سيدي لا تسمح للهيم بأن يركبك فيما يجوز أن يركب إلا الهائم من عباد الله. سوف تعيش طويلًا وتلقى الحياة بخيرها وشرها. لم أسمع عن إنسان مات

جوعًا. الأغلبية تسدّ الطرق سدًا. ولست طمأنًا فما تريد إلا اللقمة والسترة وكم كاشًا من الكونيك، وكم نفسًا من الحشيش، وكم امرأة من النساء، وكل أولئك متوقفة بكثرة، أكثر من المم على القلب. توكل على الله ولا تحمل همًا، ولم يكن خلو الجيب فقد أشرف على جنازة أبيه، وخرج منها بلريعين قرشًا لم يعلم بها أحد وقد تساءل ألم يكن الأخلق به أن يعطيها لوالده؟ وكلا لو نزلت عنها ما أفادت آتي منها نفقًا مذكورًا، ولكن غياعها يضربني ضررًا لا شك فيه. لا أدري متى يتاح لي الحصول على مثلها» وأخذت قهوة الجبال تلوح لعينيه الخائبتين فحث خطاه حتى انتهى إليها. هي قهوة صغيرة لم تؤت من ميزة إلا وجودها على الطريق العام. ولم يوجد بها في هذه الساعة المبكرة إلا زبونان جلسا إلى مائدة على الطوار يتشتمان ويختمان القهوة، على حين قبع في ركن بالداخل شبان ثلاثة يندل مظهرهم ونظرات أعيهم الحائرة على الفراغ والياس، فلم يكن عجبًا أن يقصدهم الشاب ويتنضم إلى مجلسهم. وما لبث أن طلب أحدهم الورق فتهيئوا للعب الكومي. وكان كل منهم يمي نفسه بأن يربح رزق يومه - خمسة قروش فوق الكفاية - من رفاقته. بيد أن حسن كثيرًا ما يكون اللصائد لمهارته من ناحية ولحقة يده وصيته من ناحية أخرى. لهذا قال أحدهم قبل البدء في اللعب:

- لا نريد غشًا.

فقال حسن:

- طبعًا.

فقال الشاب:

- فلنقرأ الفاتحة..

وقرأوا الفاتحة جميعًا بصوت مسموع، ولعل حسن

لمّا تسهل قراءته، أما نفيسة فابتلت عينها بالدموع. واشتغل حسن بهمة كآته يتملق بجهد أنه فلا تلحف في تأنيبه على تعطله. وكان أقل الإخوة تأثرًا للتغير الذي قلب الأسرة كما ينبغي لرجل ذاق التشريد والنف المستعج. وهمس حسنين في أذن حسين وهو يلهث من الجهد:

- ألا ترى أن خسارتنا بموت أينا لا تعرض أبدًا؟  
وانسابت من عينيه دمعتان.

- ١١ -

صادر حسن البيت مبكرًا، عقب خروج شقيقه المدوسة. لم يكن ثمة داعٍ ضروري لهذا الخروج المبكر، ولكنه أراد أن يتفادى من الاصطدام بوالدته أن يصحبها بنقار هي في غنى عنه بما تكاد من تغر الزمن ونجهم الحقد. انطلق من منطقة نصر الله بلا غاية ولا أمل. «ابحث عن عمل! لا تقف تركد على مسمعي هذه الجملة. أين يوجد هذا العمل؟ صبي؟ يقال؟ هذا معناه الإسعاف ثم البوليس..» ولكنه لم يكن يائسًا للحد الذي توجه به حاله. كان كبير الثقة بنفسه، وكان في طبعه تفاؤل لا يدري من أين يأتيه. ولكنه لم يستطع أن يتجاهل دقة مرقفه وراح يخاطب نفسه قائلًا: «يا أبا علي، مات الوالد رحمه الله فقدت الركن الذي كنت تاوي إليه. حقًا كنت تلتقط رزقك بالشجار والنقار، وتحمّل في سبيله السب واللعن، ولكنه كان على أي حال رزقًا مضمونًا. هذه البدلة التي تجعل منك أفنديًا لا بأس به من تقوده رحمة الله عليه. أجل أي أن يتاعها لك بادئ الأمر ولكنه مذكته بأن تمشي في الطرق باللباس والفاتحة وأن تقتحم عليه مجلسه بقصر أحد بك يسري شبه عاري، فاذن على مضمض وكلف الحياط بأن يفضلها لك. الآن لو مشيت عاريًا بلا لباس ولا فاتحة فلن تمجد من يسأل عن صحتك إلا الشرطي!». كانت البدلة حسنة وإن لم تحل من بقع باهتة عند ثنية الركبة. وكان يربط رقبته بياضون فدا القميص في حال لا يحسد عليها. وكان شره أعجب ما فيه: فقد تركه حتى غزر وإستريمل، ونصاعد في جعودة جعلت منه رأسًا مستقلًا فوق

- نحن ورجالك، وفي الخدمة دائماً .

فهو الأستاذ رأسه في رضى لأنه لم يكن يشعر بالمرّة إلا إذا خاطبه أحد أفراد تحتة التسكين، خصوصاً حسن، ذلك الشرس الجبار، الذي ينقلب بين يديه وديماً متعلّقاً، ثم قال:

- طبعاً. إنك تركد تريبداً حسناً، وصوتك لا بأس به.

فانطلقت أسارى حسن في بشر وقال:

- ولقد حفظت كثيراً من الطفاطيق...

- مثل ماذا؟

- اللي حبك، ظالماني ليه، ليا انكوت بالنار.

فهو الأستاذ منكبه استهانة وقال:

- إن عحك الفنّ الدور والليالي. ماذا يُسمع الآن في الراديو؟ لا شيء. هذا زعيق فارغ وليس بفناء. ولو كانت المحكّة تراعي وجه الفنّ وحده لكتت المذيع الأوّل بعد أمّ كلثوم وعبد الوهاب. وعبد الوهاب نفسه، يخاف كثيراً أن تحوّه حنجرته فتراه يتحاشى النفس الطويل، ويشطره أجزاء قصيرة متوارياً وراء ما يسمّيه بالتجديد، ثم يغني ضغفه بضجيج الآلات. إليك كيف غنى ديا ليل في الحلقة الأخيرة...

وتنحنح ثم راح يغني يا ليل مقلداً عبد الوهاب. وجاء النادل بالنارجيلة والقهوة وهو يغني فتناول الخرطوم دون أن يمسك من الغناء حتى انتهى. وحينذاك هتف رفاق حسن والله... الله... فأنشد نفساً من النارجيلة دون أن يلتفت إليهم، ثم قال لحسن همساً:

- هذا إعجاب بالصوت لا بالفنّ. اسمع هذه

الليالي في نفس واحد كما ينبغي أن تُغنى...

وأشدد بصوت ملا القهوة الصغيرة حتى رفع صاحب القهوة رأسه عن صندوق الماركات وأسارى وجهه تراوح بين الابتسام والاعتراض. وانتهى الأستاذ عليّ صبري، وعاد إلى النارجيلة وفي نيته أن يشكر في هذه المرّة للرفاق استحسانهم إذا أبصروه، ولكن ساد الصمت فلم يُسمع إلا قرقرة الماء في قنينة النارجيلة، وقطب الأستاذ وقال في ثقة:

تعلم حفظها حول هذه المائدة، ثم لعبوا مقدار ساعة فربح أحدهم دوراً، وبيع حسن دورين. كان صافي ربحه أربعة قروش ونصف بعد خصم نصف قرش ثمن فنجان القهوة، واقترح بعضهم أن يملّوا وقت اللعب، ولكن دخل القهوة شاب ما إن رآه حسن حتى نهض قائماً، وأقبل نحوه في احترام وسرور وهو يقول:

- صباح الخير يا أستاذ عليّ صبري.

فمدّ له القادم يده في حركة تشي بشموهه بقدر ذاته، وقال:

- صباح الخير...

وجلسا إلى مائدة متقابلين. واجتاحت نفس حسن موجة كرم عاتية فنادى النادل وطلب للأستاذ صبري قهوة، ثم قال الأستاذ للنادل قبل أن يذهب:

- ونارجيلة...

وغاص قلب حسن في صدره أن يُلزم بدفع ثمن النارجيلة أيضاً فيضع عليه ما ربح باللعب والحطّ واليد والعين. ولكنّه سرعان ما تناسى قلقه ليفرغ إلى استطلاع وجه الأستاذ. وكان عليّ صبري في منتصف عقده الثالث، متوسط القامة نحيل المود، صغير القسبات، أمّا شعره فأنشبه ما يكون بشعر حسن، إلى سوائف تزحف حتى منتصف خدّه، وكان مظهره بوجه عام يدلّ على سوء الحال ولكنّه يغلفه بهنخة كاذبة وغرور خير محدود. قال حسن بأسف وهو يستطلع وجهه:

- لم نسمع صوتك من زمان!

وكان أذاع مرّات من المحفّلات الأهلية ويذا وكان الحظّ يتسمّ له، فلما ألغيت المحفّلات الأهلية وأنشئت محطة الإذاعة الرسميّة حيل بينه وبين إحياء الحفلات، وضاعت مساعيه وراء هذا الأمل هباء. وكان حسن أحد أفراد تحتة الممثل، وطبيعته أن العمل لم يكن يدرّ عليه أكثر من قروش في الحلقة، ولكنّه كان يحبّه ويؤثره على العمل الجديّ الذي لم يصادف فيه توفيقاً على مشقته وحقارته! وقال الأستاذ:

- ساهداً نشاطاً جديداً عما قريب.

فخفق قلب حسن وقال برجاء:

أجمعت على بيع الفراش ولوازمه لما يشيره وجوده من  
الأحزان، ولأنها باتت في ميسس الحاجة إلى نقود.  
وكانت ترجو له ثمنًا أكثر من هذا لعله يسدّ بعض  
حوزها الملح إلى النقود، ولكنها لم تجد بدءًا من الإذعان  
فقال للناجر:

- غلبتنا ساعك الله ولكنني مضطرة للقبول ..

ودفع الرجل إليها بالجنهات الثلاثة وهو يشهد الله  
أنه المغلوب، ثم أمر تابعين بحمل الفراش.

واجتمعت الأسرة في الصلاة تلقى نظرة الوداع على  
فراش فقدها المحبوب. وثقل الراحل لهم فكأثم  
يرونه رؤية العين، وغلب الحزن نفيسة فاجهشت في  
البكاء وأطبقت الأم شفيتها كاتمة آلامها. كانت تحرم  
على نفسها البكاء أمام أبنائها أن تعاودهم حدة الحزن.

لم يكن لهم من أحد يعتمد عليه سواها فوجب أن  
تظهر بمظهر الرجولة. لو وجد هذا الشخص للاذن  
بالمصوح كسائر النساء ولكن لم يكن لها عهد من  
التصبر والتجمل. وفضلًا عن هذا كله فلم تُؤايبها فرصة  
للتنفيس عن حزنها بما يجيها من هموم العيش وأثقاله،

ووجدت نفسها في الغالب مضطرة إلى تناسي أحزان  
القلب لتتناضل ما يتهدد أسرتها من الضراء. ويجز في  
نفسه ألا أجد فراغًا للحزن عليك يا سيدي وفقيدي.

ولكن ما الحيلة؟ حتى الحزن نفسه محرم على أمثالنا من  
الفقراء. ولم يكن حسنين يتصور أن يفرطوا في  
خلفات أبيه ولكنه لم يفكر في الاعتراض. والواقع أن  
حال الأسرة لم تعد تخفى على أحد. ومضى الناجر  
بالفراش وأغلق الباب فساد الوجوم حيثًا، وأرادت  
الأم أن تبذل سماعة الحزن التي أظلمتهم فكانت غاطبة

حسين وحسني:

- هيا إلى حجرتكما للمذاكرة ..

وقبل أن تبدأ حركة قالت نفيسة بانفعال:

- لن أسمع لمخلوق بأن يسّ ثياب أبي ..

فقال حسن مؤتمًا على قولها:

- وما من فائدة ترجى من بيعها ..

وساد الصمت حيثًا، ثم قال حسن مستدرجًا وكأته

يواصل حديثه:

- هذه أصول الفن ..

فقال حسن بحماس:

- لا شك في هذا ..

فقال بلهجة الناصح:

- مؤن صوتك، لا تكف عن التمرين. أكبر من

البالي. ولا تن عن مصّ السكر النبات ..

- يا سلام!

- مفيد جدًا .. ويا حبذا لو استيقظت حين الفجر

وأذنت للصلاة فهو خير مران للحنجرة، وهو ما كان

يفعله سلامة حجازي ..

فضحك حسن وقال:

- ولكني أنام عادة قبيل الفجر ..

- إذن قبل النوم.

- في مسجد؟!

- اللهم الأذان نفسه في هذه الساعة المبكرة. في

مسجد، في حانة، كيفما أئق!

- وإذا كان الإنسان من غير مؤاخلة سكران أو

مسطولاً؟

- يكون أفضل. فما تستطيعه وأنت غائب عن

وعيك أضعاف ما تستطيعه وأنت صاح ..

- ينبغي أن تغالب كثيرًا حتى يفتح الله علينا ..

ثم التفت صوب الرفاق الثلاثة وسألهم:

- ماذا كنتم تفعلون؟

- كنّا نلعب الكومي ..

فقال الأستاذ علي صبري بامتهام:

- هلّم نجرّب حقنًا ..

وبعض الرفاق وأقبلوا نحوها بلا تردد، ثم تحلقوا

المائدة والطمع يلعب بقلوبهم جميعًا، بيد أن حسن كان

قلقًا مشفقًا من مغبة هذا اللعب. وما عسى أن أصنع

مع ابن القديّة هذا؟ إذا كسبت أغضبته وإذا خسرت

ضاع اليوم هنديًا؟!

- ١٢ -

- لا أدفع مليًا واحدًا أكثر من الثلاثة الجنيهات.

قالها تاجر الأثاث وهو يلقي نظرة على فراش

المرحوم. ولم تعد تحدي مساومة الأم. وكانت قد



خيرها لم يَحُلْ من نكده، ويدأ التفكير في تجاهيد وجهها وهي تقول:

- هَلِيَّةٌ مشكورة ولكن الواجب أن عهدي ما يماثلها  
عقب العود من القرفة، فما العمل؟!  
وجد الإخوة خيبة، وأراد حين أن يَخَفِّفَ عن أمه فقال:

- فلْتُؤَيِّدِ الهدية إلى أصحابها شاكرين!  
فقال الأم في حيرة:  
- يعدّ مثل هذا العمل مِصِيًّا لا أثر للموتة فيه...  
فقال حسن متحمّسًا لقول أمه:  
- بل يُعَدُّ سلوكًا عاديًّا...  
وتناول فطيرة، وشمّها ثم قال باستهانة:  
- لا تحملوا همًّا. إنّما تُرَكِّدُ هُلهُ الهدايا في أوقاتها،  
فلذا مات فريد أفندي بعد عمر طويل أهلبًا إلى أسرته  
سَلَّةَ فطائر، ولن يعجزنا صنعه وتكلُّه بإذن الله.  
وراح يلتهم الفطيرة. وتبادل الشقيقان نظرة ثمّ مَدَّا  
يديهما إلى السَلَّةِ، حتّى نفيسة سمعت تمكّثهم فلم تعد  
تقاوم...

- ١٣ -

جلست نفيسة على الكنية في الحجرة التي تنام فيها  
مع أمّها مكبّة على ماكينة الخياطة، وقد نثرت على  
أرض الحجرة قصاصات من الأقمشة. كانت الأم في  
الطبخ، والشقيقان في المدرسة، أمّا حسن فعيث لا  
يلري أحد. وقد باتت الفتاة تضرر لشقيقها الأكبر مرّ  
اللوم، فلو أنّه وجد نفسه عملاً لما وجدت نفسها في  
الوضع التي هي فيه. لا يؤمن أحد بأنّه جالسٌ - كما  
يقول - في البحث عن عمل، ولكنّه يغيب النهار  
ونصف الليل ثمّ يعود كما خرج صفر اليدين. ولم تعد  
الأيام تطلبهم إلّا بما يسوء، فالיום اضطرّت الأم إلى  
الإستغناء عن الخادم الصغيرة لتوفّر أجرها فاصبح  
عليها هي واجبان يوميًا: أن تبتاع حوائج البيت من  
الطريق لتسّد الفراغ الذي تركه الخادم وأن تمكّف  
سحابة يومها بعد ذلك على ماكينة الخياطة. وقد  
مهّدت لها الأم سبيل العمل بنفسها منذ يومين فقالت  
لصاحبة البيت حين جاءت بقطعة من القماش

- وفضلاً عن هذا فلن ينقضي وقت طويل حتّى  
تشتدّ حاجتنا إلى الملابس!

تساءلت نفيسة في ارتياح:  
- أيمكن أن تستعملوا ملابس أبي؟  
ولم يجرؤ أحد على الاعتراض، ولكنّ الرقّة مسّت  
قلب الأم فقالت:

- ما في ذلك من ذنب. وليس فيه ما يسيء إلى  
المرحوم، بل لعلّه ممّا يطيب ثراه. ولكنّي سأحفظ بها  
بنفسي حتّى تمس الحاجة إليها حقًّا...  
وتشجّع حسن بقولها فقال في ارتياح:  
- نطقت عن حكمة. وإنّي أذكرك بأنّ الوحيد  
الذي لا أكاد أختلف طولاً أو عرضاً عن المرحوم أبي.  
وتناسى الشقيقان الحزن الذي ران على صدرهما  
فقال حسن محتجاً:

- إنّ وإن كنت أطول منك قليلاً إلّا أنّه يمكن مدّ  
ثنية البنطلون!  
وقال حسن بلهجة ذات معنى:  
- أو ثنيها مرّة أخرى...  
فقال الأم في ضيق:

- لا داعي للتراح. توجد أكثر من بدلة في حال لا  
بأس بها وسأوزعها تبعاً للحاجة إليها...  
ثمّ بلغ المسامح حُرُوق على الباب فقطع عليهم  
الحديث، وخفّت نفيسة إليه ففتحته، فدخلت خادم  
فريد أفندي عمّده حاملة سَلَّةَ مفكّاة بغطاء أبيض  
وضمتها على السفرة وهي تقول:  
- سَتِي تسلم عليك يا سَتِي ونقول إنّ هذا فطير  
القرفة.

فحملتها الأم السلام والشكر وضعت الخادم من  
حيث أتت. واقترب حسن من السَلَّة وحسر عنها  
الغطاء، فبدت الفطائر بألوانها الوردية وطار عرفها  
الشهي إلى الأنوف. ولم يكن تبعاً للأسرة طوال  
الأسبوعين المتصرمين طعام شهيّ لما أضلت به الأم  
نفسها من الحذر والتقتير. ولاحث الرغبة في أعين  
الإخوة. ولكنّ الأم كانت تتجهّج لها الحواسر، وحقّ  
والحقيقة أنّ تلك الأيام لم تكن تضرهم لها خيراً، وحقّ

لتصليها:

- هل عندك مانع من مكافأة نفيسة على عملها؟

فقال المرأة بلا تردّد:

- أبدًا يا ست أم حسن. هذا حقّ وعدل. وهيات أن نولي ما علينا من دين لست نفيسة.

ما زال سمعها يرتجّع هاتين الجميلتين. وما تذكر أنّها وجدت نفسها في مثل هذا الموقف طوال عمرها. لقد تصاعد الدم إلى وجهها الشاحب فكاد ينضج به، وشعرت بأنّها تموي من حل، وأنّها أمست فتاة أخرى. ليس بين الكرامة والضعف إلا كلمة. كانت فتاة محترمة فانقلبت غيّاطة. وأصبح شيء أنّه لم يستجدّ جديد بالنسبة إلى العمل نفسه، فطلما خاطت ثياب صاحبة البيت، وامرأة فريد أفتندي وابنتها وغيرهنّ من الجيران. فالحيطة هوايتها، ولها فيها من البراعة ما يجعلها قبله الجيران والصديقات، لشدّ ما تغيّر شعورها. أحسّت بالخزي والهوان والضعف، وتضاعف حزنها على أبيها، فبكته بكاء حارًا، وبكت نفسها فيه. مات الفقيد المحبوب فبات موتّه أهزّ ما فيها.

كانت تخطط منقبضة الصدر، لا ضاحكة الغفر ولا مترنّمة كمادتها فيها ولّى من أيام. وكانت تنتظر حضور صاحبة البيت بين أونة وأخرى لتفصّل لها بعض ثياب داخلية بعثت بها إليها هذا الصباح. أجل بعثت بها هذا الصباح فحسب، عقب حديث أمّها بيومين، عمّا جعلها تظنّ أنّها أرسلتها على سبيل الإحسان! وقد أفضت بأنكارها إلى أمّها فانتهرتها قائلة:

- لا تسلطي هذه الأوهام على نفسك وإلا غاب مسعانا جميعًا.

ولم تكن تهرؤ على معارضة أمّها إلى ما باتت تكتّه لها من الرثاء في هذه الأيام الأخيرة. وما أضيائي. هل حسبها راضية عن حالها؟ إنّها تكابد حيرة قاتلة وهي أحقنا بالعطف. إنّ العناسة تنغد في لحنا كما تنفد هذه الإبرة في قطعة القماش. ما كان أبي ليسمع بشيء من هذا ولكن أين هو؟ إنّ حزني عليه يتضاعف يومًا بعد يوم لا للضرّ الذي سنّا بعده فحسب ولكن لأنّ هذا الضرّ نزل من يمينهم ويحبّ لهم الخير. لئي ألم

لأله. لا بدّ أنّه مثلكم لنا، لشدّ ما كان يميني. كأنه يجلس ما يرصدني من شقاء. اضحككي، ما أحبّ ضحكك إلى نفسي، هكذا كان يقول لي كلّما تعالت ضحكتي الرثاءة. وكان يقول لي أيضًا الخفّة أنفس من الجمال كأنّه يمزّي على دماعي. لله ما الطفله وما أعليه، لم يكن مثله أحد في الرجال. مات. مات. لن أنسى ما حيت إجماعته إلى صدره وهو ملقى على الكتبة: أبي يستغيث ولا مغيث. لتندك الجبال على الأرض. حياة بغيضة مضجعة لا خير فيها. أبي ميت وأنا غيّاطة. عمّا قليل نجوء صاحبة البيت لا ضيفة كما كانت ولكن زبونة. كيف القاه؟ بأيّ عين تنظر إليّ؟ حسبي، حسبي، داخ رأسي. وسمعت أمّها تخاطب شخصًا في الصلاة فكفّت يدها عن الماكينة وأرهفت السمع ففرغ أذنيها صوت تاجر الأثاث وهو آخذ في مساوماته التي لا تنتهي وأمّها تحاوره بصوت ملؤه الإشفاق والدم. «ليست أمي بلهاء، وما كانت لتُطلب في مثل هذا الموقف، ولكنّها الحاجة القاسية التي تركبها، متى يصرف لنا المعاش؟ لا أدري، ولا أهد يسري يدري. هيهات أن يكفيننا المعاش. خمسة جنيهات؟ كارثة. جاه الرجل ليحمل المرأة الكبيرة بحجرة الاستقبال وليأخذ أسبوعان على بيع الفراش العزيز. وسيأتي غذا وبعد غد حتّى يترك الشقة أرضًا هاربة. للمذا خلقتنا أسرى أذلال للغذاء والكساء والسكن؟ هذا سرّ متاعبنا. وخفّت إلى باب الحجرة ففتحه وراّت التاجر ومعاونيه يحملون المرأة الطويلة إلى الخارج وقد تُفّح باب حجرة الاستقبال على مصراحيه ووقفت أمّها على عتبها. وكان الرجل الذي يحمل مؤخّرة المرأة قصيرًا فحملت المرأة في وضع مائل وراّت سطحها ينمكس عليه ركن سقف الصالة متارجعًا بحركة الرجلين كأنها سرى بأوصال البيت زلزال. وذكرت وهي لا تدري نعيش أبيها. واشتدّ انقباض صدرها وهي تلقي نظرة الوداع على المرأة التي عاشرتها منذ رأت النور. وعادت إلى مجلسها: «ينبغي أن تكون المرأة آخر ما أحزن عليه. لن تمكس لي وجهًا أسرّ به. الخفّة أنفس من الجمال! هذا قولك يا

ومضت أسابيع. وكان الليل قد أرخى سدوله وشملت الشقة كآبة وما يشبه الصمت. وكان الشقيقان يجلسان إلى المكتب متقابلين، منهمكين في المذاكرة، على حين جلست الأم ونفيسة في الصالة في شبه غلام قانتين من النور - على صيبل الاقتصاد - بما ينبعث من حجرة الأبناء. وتناجى في صوت منخفض شأنهما كل مساء، وكانت هموم العيش أكثر ما يستأثر بحديثهما. لم تنزل الحاجة منهما الأكبر، وما انفك الخوف يقض مضجع الأم ويجعلها ترمق المستقبل بقلق وحزن عميق. بيد أن العادة كانت تحدث أثرها اللطيف في تبوين الحطب وإساعته، فلم يعد التعشيف في الغذاء مزعجاً كما كان بادئ الأمر، وأخذت نفيسة تألف مهنتها الجليلة، وتتطلع إلى زبائن جدد، في شيء من الانكسار وكثير من الرجاء. حتى الشقيقان، تعوداً أن يجعل من غذاء المدرسة وجبتها الرئيسية، وأن يبيتا بلا عشاء في صبر وجدل. كانت العادة تحدث أثرها، وكان حزم الأم يسيطر على ضبط أعصاب الأسرة للكنوة. وفي ذاك المساء جاء فريد أفندي محمد وزوجته يزوران الأسرة فاستقبلتهما الأم ونفيسة بترحاب وقادما إلى حجرة الاستقبال.

وكان فريد أفندي يرتدي جلباباً ومطفأ، أما حرمه فقد التقت بالروب، وكأتهما في شقتها بغير ما كلفة. وجلس الرجل على الكنية ليفسح المجال لجسمه المكتنز وراح يحدث حديثه الودود في لطف وإيناس. وكانت زوجته - ست أم بيته - بدينة مثله مع ميل إلى القصر، ألا أنها كانت تُعذّر أجل امرأة في العيادة ليأبى بشرتها وزرقة عينها. وقد قالت مخاطبة أم حسن متسائلة في لهجة تنم عن العتاب:

- لماذا تلزمان البيت هكذا؟ لماذا لا تروحان عن أنفسكما يزيارتنا كما كنتم تفعلان؟  
فقالت الأم:

- هجم برد الشتاء وما إن يأتي المساء حتى يركبنا الكسل، أما نأرنا فلا يخلو ساعة من هموم البيت...  
فقال فريد أفندي:

أبي وحملك، ولولاي ما قلت أبداً. لا جمال ولا مال ولا أب. كان يوجد قلبان يساورهما القلق على مستقبل، مات أحدهما، وشغلت المصوم الآخر. وحيدة، وحيدة، وحيدة في يأسى وألمى، ثلاثة وعشرون عامًا ما أبشع هذا! لم يأت الزوج بالأمس والدنيا دنيا فكيف يأتي اليوم أم غد؟ ١٩١٩! وبه جاء راضياً بالزواج من خيطة لمن عسى أن يقوم بنفقات الزواج؟ لماذا أفكر في هذا؟ لا فائدة، لا فائدة. سوف أظل هكذا ما حبيت.

ودق الباب، ثم جاءت صاحبة البيت متهللة كعادتها، واحتضنتها وقبلتها. ثم جلستا جنباً إلى جنب وتحدثت المرأة برقة ومودة، ولعلها حرصت على الرقة والمودة أكثر من ذي قبل. وتظاهرت نفيسة بالرضا والارتياح تداري بهما ارتباطهما وخجلها. ولكن من المؤكد أن مبالغة المرأة في إظهار مودتها ألقاها وأذاها وضاعف من ارتباطهما وخجلها. وقد جرّبت المرأة الفستان الذي انتهت نفيسة من خيطه، وقاست الثياب الداخلة، ثم جلست لصقها وغمرت يدها بنقود فضية وهي تقول:

- هيهات أن نوفي دينك السابق.

ومكثت معها ردحاً من الزمن ثم ودعتها وانصرفت. وسطت نفيسة يدها فرأت قطعتين من ذوات العشرة القروش. وثبتت عينها عليهما وصدرها جياش وقلبها خافق. ثم قهرها الحياء والهوأن شيء مؤلم، ولكن ينبغي أن أفكر في هذا. ما جدوى وجع الدماغ؟ روّعي نفسك على قبول ما لا بد منه. هذه حياتي ولا حياة لي غيرها... وجاءت الأم وهي لا تزال تنظر إلى النقود فأخذتها من يدها وسألتها:

- أجرة الثياب كلها أم الفستان وحده؟

فغمخت الفتاة:

- لا أدري..

فقالت الأم وهي تزدد ريقها بصعوبة:

- أجرة حسنة على آية حال.

وتحاشت الأم أن ينم وجهها على شيء مما يقوم في نفسها..

كُلَّ يَوْمٍ أَوْ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، هَذَا رَجَائِي يَا سَتَ أَمَّ حَسَنَ.

وأدركت المرأة أَنَّ الرجلَ يَتَحَيَّ سَيِّلًا غَيْرَ مَأْسٍ بِالكَرَامَةِ لَنَفْعِ ابْنِهَا بِمَصْرُوفِ شَهْرِيَّ يَرْفَعُ عَنْهَا. هَذَا وَاضِحٌ كَالنَّهَارِ وَيَتَّفِقُ مَعَ مَا طَلَبَ الرَّجُلُ عَلَيْهِ مِنْ دُمَائِهِ وَرَقَّةً. وَقَالَتْ بَرَقَّةً وَحَيَاءً:

- إِنَّ حَسِينَ وَحَسِينَ ابْنَاكَ، وَهَذَا طَرِيقُ أَمْرِكَ. ١.

فَقَالَ الرَّجُلُ بِسُرُورٍ:

- فَلْيَسْعِفَانِي بِسُرْعَةٍ إِذْنًا، وَلْيَبْدِئَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ الْقَادِمَ. .

وَصَادُوا إِلَى حَدِيثِهِمُ الطَّوِيلِ، ثُمَّ صَاحَرَ الرَّجُلُ وَزَوْجَتَهُ الشَّقَّةَ حَوَالِي التَّاسِعَةِ. وَهَرَعَتْ نَفْسُهُ إِلَى حَجَرَةٍ أَخَوِيهَا حَامِلَةٍ خَبِيرًا سَارًّا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مِنْذُ عَهْدِ لَيْسَ بِالْقَصِيرِ، وَقَالَتْ بِمَرْحٍ وَقَدْ اسْتَرَدَّتْ شَيْئًا مِنْ طَبِيعَتِهَا الْأُولَى:

- مَفْاجِئَةٌ!

فَرَفَعَا رَأْسَيْهَا إِلَيْهَا فِي اسْتِطْلَاعٍ فَقَالَتْ:

- فَرِيدُ أَفْنَدِي رَاضٍ فِي اخْتِيَارِ مَدْرَسٍ لِسَالِمَ. .

- وَمَا شَأْنُنَا فِي ذَلِكَ؟

- مَتَكَيَا.

- لِأَيِّ مَاتَةٍ؟

- الْإِنْجِلِيزِي. .

فَصَاحَ حَسَنِينَ:

- أَنَا طَبِيعًا!

- وَالْحَسَابُ أَيْضًا.

فَقَالَ حَسِينَ وَهُوَ يَتَهَدَّدُ:

- أَنَا. .

فَقَالَتْ فِي مَكْرٍ:

- يَرِيدُكَ مَمَّا، وَطَبِيعًا بِالْمَجَانِ!

فَهَتَفَا مَمَّا فِي سُرُورٍ وَقَدْ أَدْرَكَهَا مَا وَرَاءَ كَلَامِهَا:

- طَبِيعًا!

- ١٥ -

لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مَا يَدْعُو إِلَى ارْتِدَائِهِ الْبَدَلَةَ فِي ذَهَابِهَا إِلَى شَقَّةٍ فِي نَفْسِ الْعِمَارَةِ فَارْتَدَا مَعْطَفُهَا عَلَى الْبِجَامَتَيْنِ. وَإِلَى هَذَا كَانَتْ أَتَمَّتْهَا تَحَرُّمٌ عَلَيْهَا ارْتِدَاءُ الْبَدَلَةِ - أَنْ

- نَحْنُ أَسْرَةٌ وَاحِدَةٌ، وَيَنْبَغِي أَنْ نَمُضِيَ جُلَّ فَرَاغُنَا مَعًا.

كَانَ فَرِيدُ أَفْنَدِي يَمُنُّ لَا يَرْتَدُّونَ يَوْمَهُمْ بِغَيْرِ دَاعٍ قَهَّارٍ، وَيُورِي طَبِيعَةَ فَرَاغِهِ مَرْتَبَةً عَلَى الْكُتْبَةِ وَمِنْ حَوْلِهِ زَوْجَتُهُ وَبَنَاتُهُ وَسَالِمُ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، يَسْمُرُونَ، وَيَعْصُونَ الْقَصَبَ أَوْ يَشْوُونَ أَبَا فُرُوقَةٍ. وَكَانَتْ الْأُمُّ تَكُونُ مَوْثِقَةً صَادِقَةً لِعَطْفِهِ وَمَرْوَةً، وَلَا تَنْسِي لَهُ مَا تَحْتَسِمُ مِنْ تَعَبِ يَوْمٍ وَلَمَّا زَوْجَتِهَا. وَفَضْلًا عَنْ هَذَا كُلِّهِ لَقَدْ أَقْرَضَهَا بَعْضُ الْمَالِ الْخَيْرِ صَرَفَ الْمَعَاشِ، وَلَمْ يَكُنْ يَفِي عَنْ الذَّهَابِ إِلَى وَزَارَةِ الْمَالِيَّةِ لِلِاسْتِعْلَامِ وَالِاسْتِعْجَالِ. يَبْدُو أَنَّهُ كَانَ مَوْثَقًا تَأَنَّهُ الشَّانَ وَهُوَ مَا غَابَ عَنْ تَقْدِيرِ الْمَرْأَةِ. وَلَمْ يَرُقْ إِلَى الدَّرَجَةِ السَّادِسَةِ إِلَّا حَدِيثًا عَلَى بَلُورَةِ الْخَمْسِينَ. وَكَانَتْ جِيرَتُهُ لِلْأُسْرَةِ تَرْجِعُ إِلَى عَهْدٍ بَعِيدٍ. وَتَوَقَّعَتْ أَوَاصِرَ الصَّدَاقَةِ بَيْنَهَا لَطِيبَ مَعِشَرِهَا وَقُرْبَ أَسْبَابِ الْمَعِيشَةِ بَيْنَ الْأَسْرَتَيْنِ. وَكَانَتْ حَيَاةً لَا بِأَسْ بِهَا، وَلَا تَخْلُو مِنْ أَلْوَانِ التَّرْتِيبِ. ثُمَّ نَعِمَتْ أَسْرَةٌ كَامِلَةً أَفْنَدِي بِرَفَاقَةِ جَدِيدَةٍ حِينَ رَفَعِي لِلْمَرْحُومِ إِلَى الدَّرَجَةِ السَّادِسَةِ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِخَمْسَةِ أَهْوَامٍ. وَاسْتَقْبَلَ فَرِيدُ أَفْنَدِي عَهْدًا جَلِيلًا مِنْذُ حُلُومِ، فُورْتِ يَتَسَّ بِالْسَّيِّدَةِ زَيْنَبُ يَدْرُ إِجْمَارَهُ عَشْرَةَ جَنِيَهَاتٍ شَهْرِيًّا، وَيُلْغُ بِهِ دَخْلَهُ ثَانِيَةً وَعَشْرِينَ جَنِيَهًا، تَمَّا يَمُدُّ ثَرَوَةً فِي عَامِ ١٩٣٣. وَبَاتَ فَرِيدُ أَفْنَدِي سَيِّدَ عَطْفَةِ نَصْرَاهُ، وَزَادَ تَرَفُّلًا عَلَى تَرَفُّلِهِ، وَلَوْلَا حَرَصُ زَوْجَتِهِ عَلَى الْاِقْتِصَادِ لَوَاجِهَةٌ مُسْتَقْبَلُ فَنَاتِهَا وَأَبْنَاهَا الصَّغِيرُ لَقَدْ الرَّجُلُ مَا أَرَادَهُ يَوْمًا مِنَ الْاِنتِقَالِ إِلَى شَقَّةٍ بِشَارِعِ شَبْرَا.

وَتَنَقَّلَ بَيْنَ الْحَدِيثِ مِنْ وَادٍ لِوَادٍ، ثُمَّ قَالَ فَرِيدُ أَفْنَدِي مُفَضِّصًا عَنْ رَغْبَةٍ لَعَلَّهَا كَانَتْ أَوَّلَ مَا بَعَثَ إِلَى هَذِهِ الزِّيَارَةِ:

- يَا سَتَ أَمَّ حَسَنَ، إِلَيَّ قَاصِدُكَ فِي رَجَاءٍ. .

فَقَالَتْ الْأُمُّ:

- مَرَّ يَا سَيِّدِي. .

- ابْنِي سَالِمَ، وَهُوَ فِي السَّنَةِ الثَّلَاثَةِ الْاِبْتِدَائِيَّةِ، ضَعِيفٌ فِي الْإِنْجِلِيزِي وَالْحَسَابِ. وَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى سَيْلِ الْاِقْتِصَادِ - لِأَنَّ الْمُدْرَسِينَ طَلَّاعُونَ كَمَا تَعْلَمِينَ - أَنْ أَعْهَدَ إِلَى حَسِينَ وَحَسَنِينَ بِالْقِيَامِ بِتِلْكَ الْمَهْمَةِ، سَاعَةً

وهو يتصّحّ وجهيها باهتمام وترحيب، ثم نادى سالم، فجاء الغلام ووقف في حياء وارتيابك، فقال فريد أفندي:

- سلّم على أستاذك. أنت تعرفها طبعًا ولكنّها من الآن فصاعدًا شخصان جليدان. هما أستاذك فتلقّب في عصرهما كما تتلقّب لأمم معلميك...

فاقترب منها الغلام في أدب وهو يخالب ابتسامه حيال الشابين اللذين لم يalf احترامها بعد، وأشار الأب إلى حجرة إلى يسار الداخل وقال:

- حجرة الاستقبال أوفى حجرة للدرس، وبها الشقة إذا أراد أحدكم أن يتشّمس..

ومضى الأستاذان إلى الحجرة يستقبلها التلميذ، ويادر الغلام إلى الشقة ففتح بابها، ثم أغلق باب الحجرة. وكاتا يدخلان الشقة لأوّل مرّة لأنّه لم يكن لفريد أفندي ابن في سنّها فتدعوهما صداقته إلى التردّد عليها. ووجدا حجرة الاستقبال بمنزلة حجرهما بوجه عامّ فهي مكوّنة من طاقم فنيهم ذي كنبين فرنسيّين وستة كراسي، ومراة كبيرة ذات حوض ملعب بجوي وردًا اصطناعيًا يد أنّ حجرهما بقيت على يئنها ويبت مرآتها، أمّا خلفه فيبدو أنّ يد النجاد قد جدّت حشوها وكسّامها. وجلس حين على كنبه فجاء سالم بكرسيّ وجلس قبالة وأخذوا بينهما حوارًا صُفّت عليه الكتب والكراسات، على حين خرج حسين إلى الشقة في انتظار دوره. وجعل حين يتصّحّ كراسات الغلام ويكتب، ثم قال له:

- سأعيد الدروس من الأوّل شارحًا ما يغمض عليك على أن نبدأ في الدرس التالي بسميع ما تمّ شرحه.

وبدأ الدرس في اهتمام جيّد.

ووقف حسين في الشقة مرتفّعًا حائفاً كما كان يفعل أيّام كان لهم شقة. وكان المنظر الذي أثاره لا يزال ناشبًا في مخيّلته. السافان البديعتان، والوجه البدريّ ذو العينين الزرقاوين. نظرة هادئة رزينة توجي بالثبات لا بالحقّة. جمال يهر وإن شابه شيء من ثقل الدم ولكنّه لم يترك أثرًا سيّئًا في نفسه. لا يزال دمه

ييلها طول الاستمال - إلا للضرورة القصوى. وكان الضحى بسم الشمس فلطفت حراوتها من بروقة الجوّ. وارتياب السّلم يملأها السرور والأمل. ومزّا في صمودهما بباب شقّتهما القديمة فالتقيا عليها نظرة صامتة، وانتهيا إلى الشقة العليا فوجدا الباب مواربًا ووقفًا لحظات متردّعين. ثم اقترب حسين من الباب ورفع يده لينقر عليه ولكنّ يده جدّت في الهواء ورنّت عيناه إلى الداخل على رغبته. رأى فتاة مولية الباب ظهرها ومنحنية على شيء بين يديها - لعلّها تبحث في درج من أدراج البوفيه - وقد برز ردفاها اللطيفان، وانحسر الفستان عن ساقها وباطن ركبتيها، سالان مدجّتان يكسوهما بياض ضاحك تكاد العين تحسّ طراوتها. وثبتت عيناه على المنظر فلم يبيد حراكتها. وعجب حسين لموقفه فذنا منه في اهتمام وألقى ببصره من فوق كتفه وهو يشرّب بعنقه فغمزته دهشة، ولكن سرعان ما ارتدّد عن فرجة الباب كالهارب وجلب أخاه من ذراعه وهو يرميه بنظرة حادّة كأنّها يقول له وأجنون أنت؟ وليشا حينًا وقد ركعها ما يشبه الشمور بالذنب، وكان المنظر ذرّ في شقوق صدرها الشقّة. ومال حسين على أذن حسين وهمس:

- هبة..

فغمض الآخر متظاهرًا بملم الاكتراث:

- لعلّها..

فتردّد حسين وفي عينيه بسمه شيطانيّة ثم قال:

- ألا نسرق نظرة أخرى؟

فلكّزه في كتفه ونمّاه جانبًا ثم اقترب من الباب وطرقه. وسمعا وقع أقدام آتية، وفتح الباب هن وجه جميل، مستدير، محتلّ، أبيض مشوب بشحوب خفيف، تزينة عيتان زرقاوان صافيتان. وما إن رأت الغادمين حتّى تراجعمت في غفر. ثمّ جاء من بعد صوت فريد أفندي وهو يتحف:

- تفضّل يا حضرتي الأستاذين الكبيرين!

ودخلا إلى الصالة - حجرة السفارة أيضًا - فرأيا فريد أفندي جالسًا على كنبه في مواجهة البوفيه، في جلباب فضفاض، جعل منه كهية المطاد. وسلّا عليه

المقابلة لحجرتها، أما حسين فقد غَضَّ بصره في وقاره  
المعهود. وأما هو فقد رنا إليها بنظرة قوية فخفضت  
عينها في حياء.

- ١٦ -

- كم نَظَرُ أن يكون أجراً؟

فقال حسين متظاهراً بعدم الاكتراث:

- لا تكن شحاذاً ثقيلاً.

فقال حسين بأمل:

- نحن ندرِّس لسالم يوماً بعد يوم وقد مضى زمن لا  
بأس به فلعلَّه يقدِّمنا أجراً أوَّل الشهر، نينة لا تستبعد  
أن يعطي كلَّاً مَنَّا نصف جنيه وهو مصروف عالٍ  
ستمرد أياهم الكرة والسينا وشيكولاتة المصنف في  
الفسحة ...

كانا يرتقيان السَّلم وقد غاب نهار الشتاء القصير في  
ظلمة المساء المبكر. وطرقا الباب كعادتهما وانتظرا أن  
يجيء من يفتحه وهما يطويان في صدرهما أملاً يتجدد  
مساء بعد مساء دون أن يتحقَّق. وجاءت الخادم  
وقادتها إلى حجرة الاستقبال. كانت الصالة خالية  
والضوء ينبعث من حجرة نوم الوالدين في نهاية الصالة  
فسار حسنين وهو يلحظ المكان بجانب عينيه دون  
جلوى ثمَّ جاء سالم وأُخِلق وراءه الباب وجلس أمام  
حسين وبدأ الدرس. وشعر حسنين بخيبة وملل.  
وكان أحضر معه كتاباً يذكره حتَّى يجيء موعد درسه  
فراح ينتظر فيه بعينين غائبتين. وجعل يرفع بصره إلى  
الباب المغلق بحثق شديد، ثمَّ تساءل: بمكر:

- ألا يحسن بنا أن نغلق الشرفة اتقاء للبرد ونفتح

الباب؟

. وهمَّ سالم بالنهوض ولكنَّ حسين أشار له بالجلوس

وقال:

- أغلق الشرفة إذا أردت على أن يبقى باب الحجرة  
مغلقاً.

ورمقه بنظرة ذات معنى فتلقَّاهما حسنين باستياء  
مكتوم. وضاق بمجلسه فقام إلى الشرفة متناسياً أنَّه  
كان يقترح إغلاقها منذ لحظات. ووجد حبال الظلمة  
كأية مثل تلك السحب التي كانت مرَّقةً بصفحة

يتدفَّق حارًّا في عروقه، وقلبه يخفق بنشوة المنظر،  
ورأسه لا يمسك عن خلق الصور والأحلام. هذه  
أسطح البيوت المكددة به وهذه عطفة نصاراه في  
أسفل، وهؤلاء خلق كثيرون ذاهبون آتيون، كلُّ  
أولئك يلوح وراء غلالة حراء نشرها خياله المحتقن  
الدم، متى تعود السكينة إلى نفسه؟ إنَّه يذكر بيته.  
كان يراها كثيراً وهي صغيرة تمجُّل في فناء العماره.  
ولكنَّها اختضت منذ الثالثة عشرة، وانقطعت عن  
المدرسة أيضاً قبل أن تلتحق بالمدرسة الثانوية. ولعلَّها  
في الخامسة عشرة، ولكن كان كأنَّه يراها لأول مرة.  
فإنَّه بحاجة إلى مثل هذه الفتاة. نذهب إلى السينا  
مما، ونلعب ممَّا، وتحدَّث كثيراً. وما من بأس في أن  
أقبلها وأعانقها. ليس في حياتي وجه جميل يجذبني إليه.  
وحسي ما صادقت من فتان المدرسة ونادي شبرا.  
أريد فتاة. أريد هذه الفتاة. في أوروبا وأمريكا ينشأ  
الفتيان والفتيات ممَّا كما نرى في السينا. فلهذه هي  
الحياة. أمَّا فله فما إن رأينا حتَّى توارت عن الباب  
كأننا وحوش نروم التهامها. وكان أجدادنا يقتنون  
الجوارى. لو نشأت في بيت مليء بالجوارى لعرفت  
حياة أخرى على رُغم أمي وإذاراتها ولكلِّها. حتَّى  
الخادمة الصغيرة طردت لفقرنا. ما يجيئنا لنا المستقبل،  
أظنُّ أكبر ذنب يؤخذ به في الآخرة هو أن تترك هذه  
الدنيا دون أن نستمتع بحلاوتها. أجمل منظر حقاً هو  
بطن ركبتيها. في وسطه عضلة رقيقة مشدودة تشف  
بشرتها عن زرقه العروق. لو انحسر الفستان قليلاً  
لرأيت مطلع الفخذ. أجمل منظر في الدنيا منظر امرأة  
تخلع ثيابها. أجمل من المرأة العارية نفسها. يقولون إنَّ  
مدرِّس التاريخ زير نساء. متى أجد نفسي رجلاً  
حرّاً؟! عندنا هذا حصّة تاريخ ويجب أن نحفظ هذه  
الليلة القاتل الجرمانيّة. انكحوا ما طاب لكم من  
النساء، هذا أمرُك يا ربَّ ولكنَّ هذا البلد لم يعد يحترم  
الإسلام. وتابع أحلامه في نشاط حتَّى تراسى إليه  
صوت حسين يدعوه إلى درس الإنجليزي فغادر  
موقفه.

وعند انصرافها بدت لها الفتاة جالسة في الحجرة

حيًا يعاني من إغراء. وجسم لذت. عينان جذابتان. هيئات أن ينفني هذا الفستان الطويل ما استطاع في حسي من صورة الساقين. ووطن الركية خاصة. لا الفستان ولا الباب ولا الظلام. أعظم واجب في هذه الدنيا أن تلاب فتاة جميلة تحبها. إلى أحجب كيف أن فتاة يمنعها الحياء من التحديق في وجه حبيبها تستطيع يومًا أن تنزع ثيابها بين يديه دون مبالاة! هذا التطور خاصة خليق بأن يعث بيح الأمل في موات النفوس. أو لعلها العادة! يجوز. هذه العادة التي جعلتنا نألف للميت على الطوى كيف يموت لي أن أنكر في الحب حل ما نكابد من مساواة الحياة! شكرًا، الشاي به

الكفاية! أحسنت بشكرها صنعًا. لا يحب طبعي الجبن والترفد. وبذلك يمكن أن أقتنص فرص الحب وسط برودة الفقر. الفقرا لو كان الفقر رجلاً لقتلته! ولكنك امرأة. تقتلنا ونحن راوضون. ترى هل يتألم أبي لحالنا؟ ترى ما هيته الآن؟ لغي عليك يا أبي. حطًا إن الحياة أكلوية ضخمة. ولكنك جاءت بنفسها بالسكينة! جاءت لي أنا في الواقع. أريد أن أكون شارلمان عصري. لو عدت يومًا إلى عطفة نصرانه عاكًا بعظمة فروسيته لآلقت بنفسها علي من الشرفة. وما يدري إلا وحسين يقول له:

- دورك.

اللغة الإنجليزية! وحل محل أخيه، وألقى درسًا معتكًا عطفًا وحبًا للغلام الذي يجري في حروقه الدم الذي يجري في حروقه. فلك الدم الذي استشفق في بطن ركبته. وانتهى بعد زمن لم يدرك له طولًا، ثم غادر الشقة ممًا إلى السلم المظلم. ولم يعد يطيق صبرًا فقال:

- كان ظهورها اليوم مفاجأة بديمة!

فقال حسين بلهجة تنم عن الانتقاد:

- حاذر لا تكن وقحًا. هذا بيت محترم!

- ماذا فعلت فاستحق هذا التأييد؟

- لا تفعل شيئًا تندم على فعله إذا كان قريد أفندي

معنا.

وخلبه السرور فقال وكأنه يناجي نفسه:

السما تزد الظلمة عمقًا ووحشة، لم يكن بالأفلاك نجم واحد، ولاحت أضواء المصابيح خافتة تحت غاشية من الضباب، ونخم على الكون سكوت ثقيل وبرودة صامتة كأنما كتمت أنفاسه. «حنبل، حنبل». يجب أن يكون رجلاً وقوراً قبل الأوان. ولا يبدو أنه يريد أن يعاونني. من يدري لعلها لو كانت لها أخت لتغير سلوكه. إنه كأنه جاذ صارم. ينبغي أن أنفض هذه المشكلة بالحل الموفق، وراح يتفكر باهتمام حتى سمع صوت سالم يناديه فغادر موقعه إلى الحجرة. وقال له الغلام:

- تفضل شايًا.

ورأى قدسين من الشاي على الحوان فتناول أحدهما وقد خفف منظر الشاي من تورر أعصابه. وتبل مضى دقيقة سمعا صرير الأكرة فنظرا صوب الباب ففتح قليلاً وبدت بيبة! كانت تحمل السكينة فأعطتها لسالم وهي تقول:

- دخل هذه فرمًا لم يكف ما بالشاي من سكر.

كانت ترتدي فستانًا بنياً تكاد تحس أهدابه أهل القدم فاضفى طولها على قامتها المائلة للعصر ملاحه. وحلق الشقيان في وجهها وهي لا تحوّل عينها عن الضلام. ثم غصّ حسين بصره ولمّا يفق من وقع المفاجأة بنا ظلّ حنين يحمق في وجهها كأنه عجز عن استرداد بصره. ورأى الغلام يميء بالسكينة، وأغلقت الفتاة ترد الباب فملا الجوز قلبه الخافق، وعزّ عليه أن تخفي وهو غارق في ذهوله وجوده، وطفرت من أحياه رغبة في الانفصال لا تقاوم، فقال بعجلة:

- شكرًا. الشاي به الكفاية.!

وتحوّلت حينها إليه في ارتباك، ثم اختضت دون أن تنبس بكلمة، ولعلّ عينها تمتأ عن ابتسامة مكتومة. ومحاشي النظر صوب أخيه فحصر بصره في قلدح الشاي. «مفاجأة لم أكن أنتظرها. حلم سعيد. حل الرغم من الباب المغلق! ورشف رشقة كبيرة من السائل الساخن فلمست لسانه وسقف حلقه وجعلته ينفخ في جزع. ولكن سخونة الشاي لم تغنيه طويلاً

فقال الغلام:

- معي أبله حبيبة ..

وابترد صدره بلثة الارتياح والأمل: «الشاي  
والسكر. السكر خاصة، بل السكرية. سأحقق اليوم  
نمّا إذا كانت تتعمّد الظهور أمامي». وأمر الغلام أن  
يطالع ويدأّ الدرس، وأصغى إليه دقائق ثم مضى  
يغيب عنه. «هل أطلب شيئاً؟ قلّة فوق! ولكن إذا  
تأخّر الشاي فلا بدّ من طلبه. إنّي مضطرب أكثر ممّا  
ينبغي. إنّنا وحيدان في الشقة أنا وهي. لا يتدخّل هله  
الوحدة سالم أو الخدام الصغرى، فنحن وحيدان.  
فلأنعم طويلاً بهذه الوحدة الخيالية. لو كانت الدنيا  
بسيطة كبساطها الحلوة الأولى لقمّت إليها وأخذتها بين  
ذراعيّ، وسألتهابطمتان كامل أن تكشف لي عن  
ساقها. ما الذي يجعلني أحجم عن رغبة كهذه؟ هذا  
سحق الدنيا الذي قتل أبي وأزول بنا ما نحن فيه». و  
انتبه إلى سالم وهو يسأله عن معنى كلمة فذكر له  
معناها، وأمره أن يواصل المطالعة. وقبل أن يغيب عنه  
صوت الغلام سمع وقع أقدام تقترب فأخذه بصره  
ناحية الباب المفتوح، ثم رأى صبيّة الشاي تنقذ  
حاملها، ووقع بصره على الساعدين اللتين تحملانها  
فخفق قلبه خفقة عنيفة ونهض قائلاً كمن به مسّ،  
وجاءه صوت رقيق وهو يظنّ نحو الباب يقول بصوت  
كالمس:

- سالم ..

فظهر حيالها وهو يتخصّصها بنظرة عارمة ثم همس:  
- ألف شكر ..

وتورّد الوجه الأبيض المائل للشحوب ولعلّم له يتوقّع  
ظهوره، ثم غصّت بصرها في ارتباك. ومدّ حسيّن  
يديه فتناول الصبيّة، فاطبقت يده اليمنى على أصابع  
يسراها، وسرى مسّها في يده، وذراعه، وجسمه،  
وروحه، في أقلّ من الثانية. ولم تقف به جرأته عند  
حدّ فضغط على أصابعها ضغطة غير خفيفة،  
فاستخلصت يدها في استياء، وفي وجهها صبوسة،  
وتحوّلت عن الباب في حنة الغضب. وعاد إلى اخوان  
بالصبيّة شديد التأثر، ثم جلس على مقعده وهو يقول

- جاءت نفسها، الله ما ألطفها!

- ليس في هذا ما يعجب ..

- ترى أكلفها أبوها بإحضار السكرية؟

فقال حسيّن بجلل:

- من أدراي بذلك!

- أم جاءت من تلقاء نفسها؟

- ليكون هذا أو ذاك.

- وإذا كان من تلقاء نفسها فهل جاءت تحت بصر

والديها؟

فلم يجبه الآخر وإن ظلّ متنبّها لما يقول في اهتمام

شديد، فعاد حسيّن يتساءل:

- أو جاءت خفية؟!

فهتف حسيّن:

- خفية؟!

لفضط الشابّ حل ذراع أخيه وقال وهما يبادران

آخر درجات السلم:

- ألا يقولون «من القلب للقلب رسول»؟!

- ١٧ -

- جئت الآن وحدي، وسيجيء حسيّن بعندي،

حقّ لا يضيع وقتنا بلا ضرورة!

فقال سالم بأدب:

- هذا أفضل ..

واخذ كلاهما مجلسه، ولكنّ حسيّن قال قبل أن

يبدأ دوسه: الأوفى أن تغلق الشرفة وتفتح الباب!

ونفض سالم فحقق رغبة استاذة. ورأى الصالة

مظلمة صامتة ولكن لم يفتّر أمه، فلا يزال في الوقت

متّسع للشاي، ثم للسكرية! وأراد سالم أن يتوكّد إلى

مدرّسه بأن يفضي إليه بما في نفسه فقال:

- بابا وماما عند سقي ..

فحقق قلبه بعنف، ونظر إلى الغلام طويلاً، ثم

سأله:

- متى ذهباً؟

- بعد العصر ..

وساوره الفلن أن تكون قد ذهبت معها فتساءل:

- وكيف تبقى وحدك في البيت؟



إلى الداخل، ثم جاءه الغلام بالمندبل فتناوله ومضى وقد نسي أن يشكره..

- ١٨ -

ورفع حسين رأسه عن الكتب وتفحصه بدهشة ثم سأله:

- ما لك؟

فضحك حسين ضحكة قصيرة دون أن يجيب، فسأله الآخر بلهجة ذات معنى:

- أعطيت درسا؟

فارتدى حسين على فراشه وتساءل:

- هل أبعد متغيراً؟

- بلا رب.

فتتبد الشاذ قائلاً:

- يحق لي أن أحمده الله هل أننا نجلس فيها شبه الغلام.

- ماذا حدث؟

هل يجبره بما حدث؟ ولكن هل يلقى منه إلا زجراً؟ قال:

- لم يحدث شيء؟

- واضطرابك؟! إنك إذا اضطربت تؤثر نفسك كالخيار.

قال حسين ذلك ثم تساءل في نفسه هل يتوتر أنف الحمار حقاً، كيف اختار هذا التشبيه؟ ولكن الآخر تضاحك قائلاً:

- هيجان شعور، لهذا كل ما هنالك..

- ويعد؟

- ولا قبل!

فقال حسين بجد واهتمام:

- أريد أن أعرف مقصدك.

- لا أفهم ما تقول.

- لا تتجاهل ما أعني أنت تفهم كل شيء. لماذا لا تتركها وشأتها؟ ألا تخاف أن يفعل فريد أنثدي إلى عبك أو أن يبلغ أمرك عن طريق الفتاة نفسها؟ سترمي بنا إلى مركز حرج... فقال حسين مبتسماً:

للغلام في ارتباك:

- استمر..

وترى هل تمجّلت الأمر قبل أن ينضج؟ ما أقبل صبري، فكذا أنا دائماً. يا لها من عبوسة! عبت وتولّت. إن يكن حياء فهو عزّ للمنى، وإن يكن حقاً فلعنة الختام. مبهات أن أراجع. مبهات أن يطيب لي التردد أبداً، لماذا جاءت بنفسها؟ لماذا لم تكلف الخادم بحمل الصينية؟ جاءت لي أنا. هذا واضح. لا داعي للخوف. وكان يتبّه إلى سالم في أوقات منقطعة، ويملّي عليه بعض الأسئلة، ثم يغيب عنه في قلق يراوح بين الإشفاق والسرور. ولما أن انتهى الدرس خطرت له فكرة فصمّ على تنفيذها دون تردد. ونهض قائلاً، وغادر سالم الحجرة ليرسح له الطريق فلخرج مندبل من جيب معطفه وتركه على المقعد، ثم غادر الشقة. ولكنه لم يبرح مكانه بعد إغلاق الباب. وقف يرهف السمع إلى خطوات الغلام حتى ضاعت، وترتّب لحظة ثم نقر على الباب. وانتظر وقلبه يذب وثباً من شدة الحفقان. وإذا جاءت الخادم ضاح تدبيري هباء، ولكن من المحتمل أن تأتي هي. أمرى الله. وأضاء نور الصالة وسمع وقع أقدام قادمة ثم فتح الباب. هي. ولم يبال ما ارتسم على وجهها من أي الدهشة، ولم يضيّع وقته سئى تساءل في رقة وإشفاق:

- أعاف أن أكون أغضبتك!

فتراجعت خطوة دون أن تفتح فاما فقال بعجلة:

- لا أطيق أن تغضبي أبداً..

فغمضت في استنكار كأنها لا تحتمل أن يوجّه إليها خطاباً:

- لا، لا، لا، هذا كثيراً

ولم يستطع أن يتكلّم لأنّ سالم ظهر على عتبة الغرفة اليسرى وهو يتساءل:

- جاءت ماما؟

فقال حسين بصوت مرتفع:

- نسيت مندبلي في الحجرة!

وجرى سالم إلى الحجرة، وسارعت الفتاة بالعودة

- والله يا أخي لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أتركها ما تركتها أو أهلك دونها. . .  
فصحك حسين على رغبته، ثم قال وهو يستعيد مظهر الجذّ والرزاقنة:

- ماذا تريد منها؟

يا له من سؤال! يبدو غاية في البساطة ولكن من له بأن يجيب عليه، ولم يكن طرح على نفسه هذا السؤال فلم يدب له جواباً. كان اندفاعه بوحى من عواطفه وغرائزه دون حاجة إلى تفكير. ثم قال في حيرة:

- في مثل حالتي لا تفرّق بين الباحث والغاية.

- لا أفهم ما تقول.

- ولا أنا بفاهم!

- إذن دعها وشأنها كما قلت لك.

- لن أزال وراها حتى . . .

فتخصّصه حسين بنظرة كثيفة وتهم متسائلًا:

- حتى ماذا؟

- حتى تقع كما وقعت.

- ثم؟!

فقال الشاب الحائر:

- حسبي هذا!

فهوّ حسين رأسه في حدة وقال:

- أنت خطيئ. إنما فتاة مهذّبة، ومن أسرة طيبة،

ولن ترضى عن سلوكك. . .

- هي ما قلت وأكثر ولكنّي لن أنقل عن أملي. . .

وقام إلى المكتب فأخذ كتبه وكراساته وعاد إلى الفراش ثم وضعها على حافة النافذة المغلقة التي تلي فراشه مباشرة، وجلس متريّفًا حيالها كأنه جالس إلى مكتب، فسأله حسين متعجبًا:

- لم لا تجلس إلى المكتب؟

- أريد أن أتربّع لأدقّ ساقبي.

وكان يفكر في أمر ذي بال ففتح كراسة واقطع منها صفحة وأمسك بالقلم وراح يعمل ذهنه في اهتمام ووجد واضطراب. «سأكتب لها كلمة. لن نتاح لي فرصة لمخاطبتها فلا حيلة لي إلا هذه. ولكن ماذا أكتب؟». وركز فكره مستعينًا بالسكون الذي ينشئ

الحجرة لا ينجذبه شيء إلا خشخشة أوراق الكراسة إذا قلبها حسين، ولكن أخذت أذناه تستبين صوت راديو يتسلّل من النافذة المغلقة وانيًا من بيت من بيوت المظلة. وقبّط متظاهرًا بالفسح ولكنّه ارتاح إلى سماعه هربًا من حيرة أفكاره. وأصغى إلى وعادت لهالي الهناء فلم يسم سريعًا بمجامع نفسه وجاش صدره بالحنان وندى بالعطف وهفا قلبه نشوة للحبّ والحياة. وغمرته موجة حماس فامتلا نشاطًا ونمّحّ لو ينطلق إلى الخلاء متلقّفًا بالظلام. وجعل يغيب عن النغم رويدًا بعد أن فتح لروحه أبواب جنة عامرة بالأحلام والروى. ويجب أن أكتب كلمتين. جملتين فصحب، حتى لا أسودّ إلا ورقة صغيرة إذا رميت بها عند قدميها لم يستهين أحد. وحرك القلم كاتبًا: عزيزي بيبة إليّ أسف جدًا لأنّي أغضبتك. «أليس الأفضل أن أقول: لا تغضبي يا عزيزتي؟». سيان. ثم ماذا؟ ينبغي أن أصترف لها بحبي. أريد جملة غير مبتذلة. اللهم هونك. وقطع حسين عليه تفكيره متسائلًا:

- ماذا تكتب؟

- موضوع إنشاء.

- ما هو؟

فقال بلا تردّد:

- أثر الموسيقى في نبضة الأمم. . .

عزيزتي بيبة، إليّ أسف جدًا لأنّي أغضبتك. أيجنّ لك الغضب لأنّي أحبّك؟ ويكفي هذا فخير الكلام ما قل ودلّ. كلا لا يكفي. النغمة ناقصة. استشهد بيت من الشعر. كلاً فهذا يثير الضحك عادة. وضحكة واحدة خفيفة بأن فتوت عليّ الغرض. جملة أخرى مؤثرة. يا ربّ يا معين! ووثبت إلى ذهنه عبارة لا بأس بها فشرع يكتب: والله ما فعلت ما فعلت. . . ولكن حسين قاطعه مرة أخرى قائلاً:

- هل انتهيت من نقط الموضوع؟

فانزعج حسين في غيظ مكتوم:

- تقريبًا. عن إذنك لحظة واحدة!

وعاد إلى الخطاب في تصميم من يريد الفراغ منه فكتب: والله ما فعلت ما فعلت إلا لأنّي أحبّك.

تقول:

- ستّ زينب تني عليك جميل الشتاء. وإني أنوسم  
فيك الخير...

فابتسمت نفيسة ابتسامة باهتة وانفجرت شفتاها  
دون أن تنبس بكلمة. ولعلها قالت إني خيطة ماهرة.

هذا حسن. أمّح أم ذم؟ لا أدري. ترى هل قصّت  
عليك نبا أسرتنا؟ كان أبي كأيبيك. وكنت سيّدة  
ملك. وطالما انتظرت العريس وألكنه لم يأت. ولن  
يأتي. وصالت العروس في رقة وهي تعلم الجواب:

- لماذا ترتدين السواد؟

فأجابتها في حزن:

- توفي والدي منذ شهرين. وكان رحمه الله موثقاً  
في وزارة المعارف.

- حدثتنا بذلك ستّ زينب. البعثة في حياتك.

- حياتك الباقية. نحن من بنا، وخالتي تقيم هناك  
مع زوجها الذي يملك مغلجاً للقطن.

ودخلت عند ذاك خادم حاملة بقجة فوضعتها إلى  
جانب سيّدها وذهبت. وحلّت العروس هدهدها  
فانحصرت عن كرم من الخواطر مختلفة ألوانها. وأدركت  
نفيسة من النظرة الأولى أنها أقمتها للثياب الداخلية.  
ولعلها أرسلت بالفساتين إلى خيطة كبيرة، وارتاحت  
لهذا لأنها كانت تشفق من أن تعرّض سمعتها لتجربة  
شاقة لا يَبَل لها بها، عمل في حدود طاقتها وبيع  
مضمون. وقامت إلى مجلس العروس وراحت تتخصّص  
الأقمشة وتحسبها قاتلة:

- مبارك عليك. يا له من حرير نفيس.

فافتتّر ثغر العروس عن ابتسامة سعيدة وقالت:

- نبداً الآن بالقياس. وهل فكرة أعتلك مانع من  
مباشرة العمل هنا في بيتنا؟ عندنا ما نحتاج إلىه من  
الأدوات كلها، وليس ثمة أطفال في البيت، وفضلاً  
عن هذا كله فيبتا غير بعيد من عطفكم فتستطيعين  
الحضور كل يوم في غير مشقة.

ولم تَر نفيسة بلداً من أن تقول:

- لك ما تشائين يا هاتم.

وقامت الفتاة ووقفت أمامها، وجعلت نفيسة تقيس

وسأحكّك ما حييت، ولا حياة لي إلا برضاك عني.

وأعاد قراءتها بعناية، ثم تنهد في ارتياح عميق،  
وطواها وثنى طرفيها ثم أودعها جيبه. «سأنتهز فرصة  
اقترابها من الباب، أو مرورى بها في الصلاة، ثم أرمي  
بها إليها، ولكن ما يكون...»

- ١٩ -

وجدت نفيسة نفسها في حجرة متوسطة الحجم،  
قامت على جانبيها كنيّتان كبيرتان ووضعة مقاعد، أمّا  
أرضها ففرشت ببساط أسود، وفي جدارها المواجه  
لمدخلها شرفة تطلّ من الدور الرابع على شارع ضيق.  
كان الأثاث قديماً والظاهر أنّ الحجرة كانت محلّة  
لجلوس الأسرة في أوقات الفراغ كما يمكن أن يُستدلّ  
عليه من وجود الراديو بداخلها على كتب من الباب.  
وقد لاحظت الفتاة مذ وطئت قدمها الشقة أنها على  
قدر وافر من الجاهل يبدو في الصلاة الصغرى التي أثّرت  
كمداخل للبيت، والصلاة الكبرى الفاخرة المملّنة  
للسفرة، فحقّ لها أن تصنّق صاحبة بيتهم بمطرفة  
نصرالله حين قالت لها وجئت لك بزينة ملأنة،  
عروس ومن أسرة كريمة، فأرجو أن تقيطي ثيابها بما  
تستحقّ من عناية عليها تفتح لك مغلقي الأبواب.  
وكانت نفيسة مضطربة لدخولها بيتاً غريباً للعمل أوّل  
مرة. وجلست على مقعد قريب من الباب تنتظر.  
وكانت ترتدي ثوب الحداد وقد أرسلت شعرها الأسود  
في ضفيرة قصيرة فيدا وجهها العاطل من الزواق  
والحسن شاحباً بائساً. «بيت غريب وأناس غريباء،  
خطوة جديدة في سبيل المهنة. لست إلا خيطة. لست  
كرامي التي تعرّز عليّ ولكن كرامتك أنت يا أبي». ولم  
يطل بها الانتظار إذ جاءت من الحجرة فتاة في العشرين  
على حسن ورشاقة، فقامت تستقبلها، وسلّمت عليها  
القادمة وهي تلقي نظرة متفحّصة ثم قالت:

- أهلاً وسهلاً. حضرتك ستّ نفيسة التي  
أرسلتك ستّ زينب؟

فقال الفتاة في حياء:

- نعم يا هاتم. وحضرتك العروس؟

فاومأت بالإيجاب مبتسمة، ثم جلست، وهي

- ٢٠ -

وغادرت بيت العروس قبيل الأصيل متعبة. وكانت عطفة نصرالله تبعد عن البيت محبتين فشقت طريقها بين السابلة على مهل وتراخ. وأنعشها الهواء البارد فحُت خطاها. ووجدت ذكريات عما مر بها في بيت العروس تنتال على مخيلتها في لذة وألم معاً: كانت تجلس على كنبه وقد جلس الخطيبان على الكنبه المقابله. كانا ملتصقين. وكانا يتحدثان في صوت مسموع حيناً، وينخفض حيناً فيصير مناجاة ومهماً. وكم وثقت وتقدّك أن ترفع رأسها عن الماكينة إليها ولكنها خافت وعقلها الحياء أن تلتقي عينهما بعينيها. ومرة دفعت وعينها من تحت رأسها المنحني فوق نظرها على ساقين ملتصقين، ثم انتهت على العروس وهي تصرّبه على يده قائلة في لهجة تنم على الدلال والوعيد:

- حذار!

استغرقها الخيال حتى كادت تصطدم بالمأذنة، ثم دخلها إحساس نهم بالتحرق إلى الحب. لم تحط طوال حياتها بقلب يحبها ويعطف عليها، ولم تجد من متفهم عن توقّر أعصابها إلا في الضحك والسخرية من نفسها وإغويتها والناس فاشتهرت بالبعث الضاحك الذي تتوارى خلفه مرارة في الأحقاد. ولم تكن لها حيلة في إحساسها فالواقع أنّ فريزتها الأنثوية كانت الشيء الوحيد بها الذي سلم من التقص والضعف واستوى ناضجاً حارّاً، فلم يغفل صدرها من عذاب سجين وقتت له تربيتها وكرامتها وأسرتها بالمرصاد. ولكن منظرًا كالذي رآته اليوم ببيت العروس كان خليقاً بأن يبرّرها هزة عنيفة قاسية. ولما تخالفت لعينها عطفة نصرالله عابنها أمل جديد داعبها كثيراً في الأيام الأخيرة. هنالك بقالة عمّ جابر سليمان التي تقع قبل حمارهم بقليل، أو هناك سليمان جابر سليمان ابن عمّ جابر وصيّته. ولقد اعتادت التردد على البقالة بعد طرد الخادم لابتياح ما يلزمهم فعرفت الفتى معرفة أخذت تزداد بكمور الأيام. واستحضرت صورة الفتى بقماته الطويلة المائلة للامتلاء ووجهه البيضاوي الأسمر،

الأقمشة عليها. امتلأ أنفها الغليظ برائحة الحرير الجديد، وشمرت لشمه وهو ينزلق بين أصابعها بإحساس غريب، فيه اشتها وفيه ألم. بيد أنّها أحسّت كذلك، حيال استسلام الفتاة وما تعقده على مهارة يديها من رجاء بنوع من السيادة. فكأنها ظفرت بأمل في العزاء، ولكنّه سرعان ما فتر وأخلف وراءه يأساً قائماً «عروس وحرير أحقاً أخيط هذه الثياب لهذه العروس؟». كلاً هذه الثياب الداخلية تبياً للعريس قبل العروس!.. ستدأب أنامله أهدابها الناعمة وماذنها اللطيفة. إنّي أشارك في هذا الزواج. وسأشارك في زيجات كثيرة دون أن أتزوج، قائدة من هذا كلّ بأحلامي المحرقة. يا لها من فتاة مليحة وسعيدة. تكاد السعادة تتروّج في عينيها، اليوم تجهّز الحرير، وغداً تنتظر الحبيب، وتتسم أنفاس الأوممة الحائرة بهفو عليها من أفق وديّ. طمأنت حلفت بهذا وأبي يقول لي إنّ الحقّ أنفس من الجبال، ثم بلغت الثالثة والعشرين بين الإشفاق والرجاء، وموته مات الرجاء. لماذا تخلّقت هكذا دمية؟. لماذا لم أخلق كإخوتي الذكور؟ ما أجل حسنين، وحسين، حتى حسن، إنّي ميتة كأي، وهو في باب النصر وأنا في شبرا وسمعت العروس تسألها:

- أتحبّين أن تتسلّمي بعض أجرك مقلّماً؟

فألت بجملة:

- لا داعي لذلك مطلقاً.

ثم عطّفت الندم على ما قالت فتضاعف حنقها وبأسها. وسمعت أطيط حذاء يقرب فرففت رأسها نحو الباب فمرت شائياً يدخل الحجره هائلاً، وأقبل على العروس فالتحمت يدهما، وتبادلا ابتسامة سعيدة، ثم سألتها:

- أين والدتك؟

- في حجرتها.

ثم التفتت إلى نفيسة وقالت تقدّم لها الشاب:

- حسن خطيب.

ثم عطفت رأسها إليه قائلة:

- ست نفيسة الحياطة...

الوحيد الذي يمكن أن يتصف بالجمال في وجهه. وأبى إلا أن يادها بالكلام فقال:

- أيّ خلع يا ستّ نفيسة؟

فقال الفتاة وهي ترمش ارتباكاً:

- حلالة طحينية بقرش.

فتناول السكين وقطع لها قطعة وافية، ثم فسط قطعة صغيرة وهو يقول بصوت منخفض:

- هذه الزيادة إكراماً لك يا ستّ نفيسة.

ولفت الحلالة في ورقة وقدمتها لها، ثم أخذ القرش وهو يلحظ أباه بطرف خفي، ولما رآه مكباً على الدفر، تشبّع وقال همساً:

- سأحفظ بقرشك بركة!

فابتسمت ابتسامة خفيفة وذهبت. ابتسمت همداً كأنها تشبّعهم وترحب به. وقد كلفها هذا جهداً كبيراً.

ولم يعد يفتح بلغة الميون فتكلم، وحسناً فعلاً. وعلى رغم ضالة شأنه ومنظره اهتز قلبها سروراً، وجاش صدرها بالانفعال. وكانت تحبّ لهذا الموقف - قبل أن يحدث - وهي عاكفة على عملها بيت العروس فلم يفترق الواقع عن الخيال إلا قليلاً. تحبّت نفسها وافقة أمامه لتبتاع الحلالة فجعل يلتهمها بعينه ثم قال لها وهو يتناول القرش وأنت أحل من الحلالة. حقاً لم يقل هذا ولكنه قال قولاً يضاهيه. وتهدت بارتياح ثم طار خيالها إلى ذكريات عشاقها الغابرين! كان أولهم وزيراً وقد رآه في صفحة مجلة المصور ثم راحت تنسج حول صورته وشياً من أحلامها حتى أنجبت له غلاماً فريداً وكان فريد أفندي عمّد نفسه العاشق الثاني، وبسببه خاصمت في الخيال زوجته وأسرته. أمّا سليمان فهو أسوأهم حالاً ولكنه العاشق الوحيد الحقيقي. ولما بلغت منتصف الفناء خافت أن تلومها أمها على قضاء النهار خارج البيت فطلق صدرها وقالت كأنما تردّ عليها:

- كفي عن لومك فإ عدت أحل أكثر مما بي.

وعلا صوتها ورّد في إثر السلم فنظرت فيها حوفاً بحذر، وكتمت بأصابعها ضحكة كادت تغلث من شفيتها!!

وعينه الضيقتين، وتساءلت ترى هل حقاً يبدى نحوها اهتماماً أو أنها واهمة؟ خيل إليها كثيراً أنه يتسم إليها في تردّد ولعلّه لم يستطع أن ينسى بعد أنها كريمة كامل أفندي عليّ. وكانت على جفوة طلعتها تحظى بمظهر الفتيات المحترمت، أمّا سليمان فما هو إلا ابن بقال بسيط، ولا تعلق منزلته في دكان أبيه عن صبي. وكانت تعلم بهذا كله ولكن لم يكن يوسعها أن تنظر من إنسان أيّا كان إذا أبدى نحوها ميلاً. لا يسعها إلا أن تحبّ من يحبّها. بيد أنها ركدت فجأة إلى فتور وامتناع وأطبق عليها شبح اليأس القديم؟ وكان قلبها يقول لها: لا تفرّري بنفسك ولا تسمعي لكواذب الآمال أن تمثي بعقلك. ارتضي اليأس، واقضي منه بالراحة وهي السالوى الوحيدة لفتاة مثلك لا مال ولا جمال ولا أب أب. ولكنك كانت تعلم أنها لن تطيع قلبها أو - على الأصح - صوت مخاوفها. وكانت تزداد استسلاماً كلما قربت من عطفه نصرالله وعاودها الأمل والحنان. الله قادر على كلّ شيء. وكما يقضي عليها بالأحزان يجب إذا شاء الأمل والعزاء، ما لي من رجاء سواه. ولن يجيب عنده رجاء. لم أجن ذنباً استحقّ عليه الموان. ولم تجن أسرتنا ذنباً. فلا بدّ أن نتكشف هذه الغمّة. ولكن من سليمان؟ هل يرضى به حسنين؟ إنهم جميعاً ذوو كبرياء ولا أظنّ الفقر يغالب على كبريائهم. وحسن ليس له من الأمر شيء. حسن!! لفته بتغير من طبعه ويتشكّلنا كما نحن فيه. لا معاش أبي ولا عملي بكافين فإذا صنع هو؟ لن يرضى أحد بسليمان ولن يأتي من هو خير منه. ومن أدراني أنه يفكر في حقاً؟! - ومالت إلى العطفة تسبقها عينها إلى بقالة عمّ جابر سليمان حتى بلغت. وخطر لها أن تمضي إليها لتبتاع شيئاً، أيّ شيء، ومضت إليها دون تردّد. كان عمّ جابر سليمان المعجوز جالساً إلى مكتبه الصغير عاكفاً على دفتر الحسابات، بينما وقف ابنه الشاب سليمان جابر وزمّ الطالوة التي تترصّ مدخل الدكان. وانتبه الفتى إليها حال وقوفها أمامه فنظر إليها متهملاً الوجه وقد لمعت عيناه الضيقتان. كانت قسياه تشي بالغباء والحيوانية والجبن، وكان شاربه الصغير الشيء

وأغلقت الباب، وابتعدت عن موقفه متجهة إلى الباب. ولم يسمح لها بالإفلات فوثب خطوتين ووقف مترعًا سييلها، فحجبته بنظرة غضبي واستقام رأسها في حدة وقالت مستكرة:

- هذا كثير!

فقال الشاب بجراة ورقة ممًا:

- دانيًا غضبي! إلي أعجب لحظي فما أجد منك غير الغضب!

فلاح في وجهها الضجر وقالت باستياء:

- دعني أمر من فضلك...

فبسط ذواحيه كأنه يريد سد الفراغ كله وقال:

- هذه فرصة لم يكن بوسعي أن أحلم بها فلا يمكن أن أدعها فلتت من يدي. ويحق لي أن أستيقظ بعض الوقت بعد اختناك المتعمد الذي هدبني أشد العذاب، لماذا تحضني؟ أو دعيني أسألك ماذا وجدت برسالي؟

ففطيت في استياء وقالت بحدة:

- أتذكر هذه الورقة! يا لها من جراءة غير محمودة لا أوافق عليها...!

وكان يرنو إليها بين الأمل والخوف. «هل أصدق هذا الغضب الظاهر؟.. قلبي يحذني بأنه مبالغ فيه. لعله عرض من أعراض الحياء. إنه كذلك حتمًا. لو أردت أن تشق طريقها ما وسعي منعها. لا أريد أن أصدق. ولكن لماذا أصرت على الاختفاء؟» وقال باستعطاف:

- جراءة تحلت عليها بعد أن أعياني الصبرا

فهزّت رأسها متبرمة وتمتمت:

- الصبرا لا تميت بهذه الألفاظ، ودعني أذهب من فضلك.

فقال في صدق وحرارة:

- ما قلت إلا الصدق. والصدق وحده كان محرّضي على كتابة رسالي الصغيرة، فكُل ما بها صدق. وإنه ليسوعي كَلَّ الإساءة ألا تلقى عواطفي منك إلا الغضب والثغورا

وازدد ريقه وهو يلهث ثم استدرك قائلاً بصوت

غادر حسنين شقة فريد أفندي عمّد، وأغلق الباب وراءه. كان من الكتابة في غاية، وأجه نحو السلم طويًا صدره على اليأس والقهر ولكّنه توقف ويده على الدرابزين، ورفع رأسه متبّيًا حفيف ثوب. فرأى طرف فستان أو معطف وقد عبر صاحبه بسطة السلم الأخيرة المفضية إلى سطح العمارة. من ١٩ من عسى أن يرتدي هذا اللون الأحمر من سگان العمارة اللين يعرفهم حق المعرفة؟ ودق قلبه بعنف وشعر بقوة تدفعه إلى أعلى فالتقى على الباب المغلق نظرة حذر وانصت في انتباه وقلق ثم تحوّل عن موقفه وقطع الردهة أمام الشقة على أطراف مشط متجهًا صوب السلم الأخير الصاعد إلى السطح: لعلمها هي. لم يعد يراها منذ ألقي برسالته المطروقة تحت قدميه، لا في الحجرة ولا في الصلاة. اخضت غاضبة ولا شك غير هابطة برسالته وعواطفه، ولم تعد ساعات الدرس بعدا إلا هذا! وضجرا. وقد ارتقى السلم دون أن يحدث صوتًا حتى بلغ البسطة الأخيرة فرأى شعاع الشمس المسائلة للغروب في مستوى عينه، ونسبت على جيئه موجات لطيفة من الهواء، وألقى على السطح نظرة شاملة ما بين سورده المظّل على عطفة نصرالله وسورده الخلفي فلم يجد أثرًا للإنسان، ولم يكن به من قائم إلا حجرتان خشبيتان للدجاج، إحداهما في مواجهة باب السطح، والأخرى في ركن السطح عند طرف السور الخلفي وهي الخاصة بأسرة فريد أفندي، واقترب من الحجرة البعيدة في سكون ووقف قريبًا من بابها مرهف السمع ولم يسمع بادئ الأمر إلا قوقاة الدجاج، ثم سمع صوتًا يدهو الدجاج وك ك ك ك فلم يستطع أن يتبين حقيقة صاحبه، وخاف أن تكون الأم التي بالداخل فتراجع خطوة مضطربًا، وهمّ بالمهرب، ولكن فُتح الباب وبيدت على عتبة بيّنة في معطف أحمر. وأتسمت عيناهما الزرقاوان دهشة، وثبت بصرها عليه في ذهول، ثم تفرّج وجهها بحمرة شديدة كأن صفحته استحال رقة من غمّل المعطف. ولكن لم يدم هذا إلا لحظات، ثم تماثلت نفسها فجاوزت العتبة

متنهج:

- أجل إني أحبك...

وأدارت وجهها جانباً، وهي لا تزال مقبلة كما بدا من انقباض حاجبها وزمة شفيتها، ولكنها لاذت بالصمت قليلاً - ثم بعث فيه روحاً جليداً من الأمل - ثم قالت بصوت بدا اللطف موقفاً عما سبقه:

- دهني أذهب. ألا تخشى أن يقتحم السطح علينا أحد؟

رباه! ألم يعد يضايقها شيء إلا أن يقتحم السطح عليها أحد؟ وتمتعت في جوارحه نشوة سرور، فقال بحماس وعذبة العليتان تضيئان بنور بهيج:

- دهيني أفصح لك عن شعوري. إني أحبك. أحبك أكثر من الحياة نفسها. بل ليس في الحياة من غير إلا آتي أحبك. هذا ما كتبه. وما أقوله وما أعيده. صدقيني ولا تلزمني السكوت فما أطيع هذا السكوت..

فعمطت وجهها بحصره فطالبع في صفحته النعنة الرزاة والجذ ولكن غيل إليه أنه يرى نوحاً من التأثير لعلها بالغت في كتمانها. ثم سمعها تقول بصوت منخفض كالمس:

- حسبك... هلاً تركتني أذهب؟

ثأب أن تجلو هذا القناع! لشدة ما تستكين لحياها. وتتهدد بصوت مسموع وتتم:

- لا أريد أن أعود لعذابى بغير نعمة أمل. لقد فتحت لك صدري وأريتك قلبي ولا أطمع في أكثر من كلمة طيبة ترد إليّ رومي...

ولكنها بدت أعجز من أن تقول هذه الكلمة، واشتدّت عليها وطأة الارتباك فنذت عنها هذه العبارة:

- رباه... كيف أخادر هذا المكان!

فغلبه التأثير، ولكن زاده التعلق بالأمل عناداً وإلحاحاً فقال بحماسة:

- لا تجزعني هكذا؛ إني أحبك. ألا يشير هذا الاعتراف في نفسك إلا الضيق؟ لن أعود يائساً إلى العذاب. لن. لن..

- وينعه!

وتفحص وجهها المورّد في سمرة الغيب الهادئة فاستقرته عاطفة هيام جائعة فشرع بأن الهلاك أهون من التراجع وقال باستعطاف منبعث من الأمل:

- كلمة واحدة! إذا لم تستطيعي فإيماءة... وإذا تعلمو هذا فحسبي صمت استشف منه الرضى!

فتحركات شفتها دون أن تبس، ثم التصقت، ثم عطفت عنه وجهها وقد اشتدّت نورده عمقاً. ووثب قلبه في صدره من حرارة النشوة، وهتف في طمع مترايد:

- أخذنا الصمت الذي أريد! إني أحبك، وأعاهدك أن أكون لك حق الموت..

ومال وجهها إلى الوراء أكثر دون أن تخرج من صمتها المحبوب فسرت في جسده هزة سرور طافية حتى سكر بصره، وما يدري إلا وهو يسلو إليها، ولكنها تراجمت في جفول كمن يستيقظ من حلم عميق على هزة عنيفة، وفطنت منه لها بشبه الرئب، ثم ولت مسرعة. وتسمر في مكانه مرسلأ ورامها بصراً هائلاً حوثناً حتى غيبتها الباب. وتبدد من القلب وأطلق بصره بعيداً في سمرة الغيب، والأفق أطياب وشيات، فأحسن بروحه تلذّب في الكون وتغنى في جهانه. ثم تحرك في بطة ضموراً متوهجاً حتى شارف الباب، ولكنه شعر وهو يمرّ بالحجرة الخشبية الأخرى بشيء يجلب إحساسه فلاحته منه التفاتة إلى يساره فرأى أعماه حسين واقفاً وراء جدار الحجر..

- ٢٢ -

وقال بدهشة:

- حسين!

وسرعان ما لاحظ تغير لونه. كان الشاب غاضباً مكفهراً الوجه. وكان يبلل غاية جهده ليجبض أعصابه ويتألك نفسه. وتساءل حسين عما جاء به إلى السطح ورجح أن يكون - حين صعد لإعطاء درسه - لمحه وهو يرتقي السلم عافزاً إلى السطح فشك في الأمر وتبعه! هذا هو التفسير المعقول. بيد أن التواري وراء الجدران لاستراق النظر والسمع ليس من شيمه! ولم يدّر له بخلد أن يسأله عما جمعه يقف هذا الموقف، وحل العكس من هذا تولاه الحياء والارتباك. ولم يكن الآخر

فقال حسين:

- لم يحفظ سالم درسه السابق وسأعود إليه غدًا...  
 وذهبا إلى حجرتهما فجلس حسين إلى كرسيه من  
 المكتب، ومضى حسنين إلى النافذة ففتحها وجلس على  
 حافة الفراش. وأسوأ نهاية لأحسن بداية: ما أحقها!  
 كيف سؤلت له نفسه التجسس عليّ. أفسد عليّ  
 شاعريّة الموقف السعيد. كلّ لا يمكن أن يفسدها  
 شيء. سيزول كلّ شيء وتبقى هي وضيفة سعيدة  
 باهرة. هيهات أن أنسى لحظة الصمت الناطق. قالت  
 كلّ شيء دون أن تنبس بكلمة...».

- أخلق النافذة هل أنت مجنون؟

أفزعت صيحة أخيه، ثم ركب الحق والعناد فقال:  
 - الجوّ يحتمل ولطيف...

نصاح به حسين:

- أخلق النافذة بلا مكابرة...

فحملته لهجة أخيه على التناهي في العناد فقال:

- انتقل إلى الكرسي الآخر تبعد عن تيار الهواء إن  
 كان ثمة تياراً

نفخ حسين متفكّكاً وقام إلى النافذة فأغلقها بشدة  
 ففرقت في السكون طفقة مزعجة وتحطم لوح من  
 الزجاج. وساد صمت وربع، وسرعان ما أصابه  
 الغضب فلطم حسنين صارخاً:  
 - أنت السب!

وجرّ جنون حسنين فصره بقبضة يده في رأسه،  
 ثم اشتبكاً في فراك. وما لبثت الأم ونفسي أن هرونا  
 إلى الداخل، وبحضور الأم كتف كلاهما وهو يمدّم  
 ويهيم. ووقفت الأم حيالها تردّ بينهما بصراً غاضباً،  
 ثم استقرّت عينها على الزجاج المحكم. وتساءلت في  
 هدوء ينذر بالعاصفة:

- ما خطبكما؟

فقال حسنين بعجلة وهوجة:

- كان يغلق النافذة بقوة فتحطم الزجاج ثم  
 لطمني...

وقال حسين بصوت متهذّب:

- فتح النافذة في هذا الجو البارد فطلبت إليه أن

- على تحيّر - بأقلّ منه حياء وارتباكاً. لعلّه أراد أن

يداري حياءه وارتبائه بالتناهي في الغضب فقال:

- رأيت أموراً ساءتني كثيراً. كيف تطارد الفتاة هذه  
 المطاردة الوقحة؟ هذا سلوك شائن لا يليق بجار يحترم  
 واجبات الجيرة!

ووجد حسنين في لهجة أخيه القاسية ما أنقله من  
 حيائه وارتبائه فقال عابساً:

- ما أتيت منكراً! ولعلك سمعت ما قالت!

فأغضى حسين عن ملاحظته الأخيرة وقال بحدّة  
 أشدّ:

- وهل من منكر وراء اعتراضك لسيّلها على هذا

النحو غير اللائق؟

- لا أحسبها تعدّ كذلك!

فقال حسين:

- ستخبر أباهما...

- لن نخبره...

فتناهى الحق بحسين وقال بحدّة:

- لشدة ما خفت أن تنهجم عليها، ولو فعلت

لاذبك تاديباً قاسياً...

ودمّش حسنين لهذا الوعيد المتأثر فكاد يطيح  
 الغضب برأسه، ووثبت كلمات شديدة إلى طرف لسانه  
 ولكنّه نجح بأعجوبة في القبض عليها. وصمت ملياً  
 حتّى ذهبت عنه وقدة الغضب ثم قال:

- ما كان لك أن تخالف حدوث شيء كهذا...

فتنكر حسين قليلاً ثم قال مترجماً:

- يصرّي على أيّة حال أن أسمع هذا القول. وإذا  
 حقّ لي أن أنصحك فنصحتي إليك أن تلزم دائياً جادة  
 الشرف.

فقال الآخر ببرود:

- لست في حاجة إلى مثل هذه النصيحة...

وغادر موقفه فتبعه حسين، ونزلاً معاً دون أن ينس  
 أحدهما بكلمة. ولم يذهب حسين إلى شقة فريد أفندي  
 ولا حظ حسنين هذا دون تعليق. أمّا الأم فقالت  
 لحسين متسائلة:

- ما الذي عاد بك سريعاً



يشتجر بينها وبين الآخرين من هراك، خصوصاً وأنها  
كانا يضاديان من الاستماعة بحسن إذا اشتد الحصر  
عليهما أن يتحول النزاع من عراك بين تلاميذ  
متخاصمين إلى معركة حقيقية دامية وخيمة العواقب،  
يبد أنه أصبح من النادر جداً أن يتشاجرا في الأوامر  
الآخيرة، وتندر بالتالي أن تؤذيها الأم بالضرب، وقد  
سُيقت المعركة الأخيرة بفترة سلام طويلة كادت تقارب  
العام. ومهما يكن من أمر فلم يكن أثر الحصار ليحول  
بينها أكثر من يوم، ثم يبدأ المعتدي بمخاطبة أخيه في  
شيء قليل من الارتباك، ولا يلبث أن يتناسى العراك  
كأنه لم يكن. شخص آخر كان يعاني من شجارها  
أكثر مما يعانيان، هي الأم، فكان يترك في نفسها السُّما  
عميقاً وتكدُّ متغلغلاً. ولم تجد من وسيلة لتأديبها خيراً  
من الضرب لعله يصلح ما ألد الأب بتليله لها. ولم  
يكن أبغض لنفسها من أن يشد أحد أبنائها عن  
حلبه، أو أن يدير منه ما يعدُّ افتخاراً على رابطة  
الأسرة المقدسة. وكان لها من حسن عربة بذل الحياة  
أهون عليها من أن تتركز. وحسن نفسه لم ينح من  
لكسائها ولكن بعد فوات الأوان وضياح الفرصة.  
وكانت لا تفنأ تلوم نفسها وأباه على تلفه، ويعدّها  
أشدّ العذاب أنه كان ضحية للتهاون والفقير. وتر  
شطر من الليل والشقيقان صامتان جامدان، واشتد  
السكون بعد أن أوت الأم ونفيسة إلى حجرهما. ثم  
بدأ حسين يطالع في كتاب محاولاً أن يركّز انتباهه  
المشتت. وراح حسين يراقبه اختلاسا وهو يتساءل  
تري ماذا يجد نحوه؟ وكان يحظى بذكرات جميلة  
خليقة بأن تعزّيه عما أصابه وبأن تتيه إلى طمأنينته.  
وسرعان ما ركت على شفته ابتسامة. وكل شيء  
حسن. لاذت بالصمت، ومعناه أنها تحبني. حقاً؟!  
لشدّ ما يشوقني أن اسمعها قولاً تتحرّك به الشفتان  
الشهيتان. ورويدك. كلّ أت قريب. الصمت بداية أنا  
النهاية؟! ولاحت منه الضائقة نحو أخيه فعاوده  
الابتسام. وما كان ضرباً لو أهملت النافلة؟! يبدو أنه  
لا يستطيع متابعة القراءة. لو وُهب مثل حظي السعيد  
لما أعياء النسيان! وداخله نحوه شيء من العطف.

يفلقها فأن يوقاحة فتمت لأغلقها بنسي وحصل ما  
حصل...

فزفرت الأم قائلة:

- رحلك يا ربي ألا يخفي ما بي!

وقبضت يديها على منكبيها وجلبتهما إلى وسط  
الحجرة، وصاحت في وجه حسين قائلة:

- ألا تحجل من نفسك وأنت في سن الرجال.

ودفعت في صدره بقبضة يدها مرتين، ثم لطمته،  
وانقضت على حنين الذي تراجع وهو يصيح:

- هو البائس بالضرب، وهو الذي حكم  
الزجاج...

ولكنها هوت بكفها على فمه، ثم كُتلت له  
الضربات على رأسه ووجهه حتى حالت بينها نفيسة.

وصاحت المرأة:

- حذار أن اسمع لأحدكما صوتاً. أما النافلة

فستبقى مكسورة حتى تصلحها ما بنسكها...

وغادرت الحجرة منكفة الوجه تملأها تعاسة لا حد  
لها. ولبت نفيسة بينها برهة محزونة ثم تمتمت:

- زمن العراك انتهى. أنتما رجلا الآن!

ثم خاطبت حسين مبسمة:

- ضمت بالمواء لحظة فإذا أنت شاعل الآن وقد

فتحتها إلى الأبد؟! الصفا جريدة مكان الزجاج ولأ  
فعليه العوض فيكما...

ولما لم تجد لقولها الأثر الذي انتظرت غادرت

الحجرة. وعاد حسين إلى كرسيه صامتاً على حين ارتمى

حسين على الفراش متغلاً. كثيراً ما ينتهي الشجار

بينها بتدخل الأم على هذا النحو. ولم تكن حياتها تخلو

من ملاحاة وشجار على صداقتها الوطنية؛ وصحبتهما

التي لا غنى لأحدهما عنها. وكانت الغيرة كثيراً ما تعكر

عليها صفوها ولكنها ظلّ رغم هذا صديقين يتبادلان

الأخوة والحب ولا يستغني أحدهما عن صاحبه. وكان

حسين أعقل الأخوين وحسين أقوىهما، فكان الأول

يقوم بمهمة الإرشاد والتوجيه فيما يعرض لها من

مشكلات يتعلّق أغلبها باللبب والمسائل الاقتصادية

الصغيرة، وكان الآخر يعمل عبه الدفاع الأكبر فيها

- ٢٣ -

صادت نفيسة إلى عطفة نصرالله عند الغروب، كعادتها في هذه الأيام الأخيرة. وكان يبدو عليها أنها أخذت تعبر نفسها اهتمامًا وعناية، وهو ما حملته طويلاً حدادًا على وفاة والدتها، فكحلت عينيها وصبغت خدّتها وشفتيها بحمرة خفيفة. شيء خير من لا شيء بل إن دأبه على التردد إليها ومغازلتها خلق بها بعض الثقة بنفسها، والطمأنينة والأمل. ولم تعد تذكر أنه ابن بقال وأنها ابنة مؤلف فلهتمته بها أنزله من نفسها منزلة أثيرة رفعت فوق مقام أفضل الناس في نظرها. وانسألت إلى تشجيعه بدافع من عواطفها المشبوبة المكبوتة، وبأسها الخائق، والرغبة في الحياة التي لا تموت إلا بالموت. وبات مع الآثام صورة مألوفة، بل محبوبة، أثبت لها في جذب الحياة زهرة مترحة بالأمل، فلم تعد تستقبل يومها بعين خائبة لا تنتظر جديدًا. وما هي تنقل خطاها في عطفة نصرالله بعد نهار حافل بالعمل فيها سرور حارّ دافق يسري من القلب ويترشح مع دمها في الأعصاب والأعضاء. قال لها مرة «تريدين حلاوة؟ ما الحلاوة إلا أنت!». ورضًا قوله نفسها فابتسمت في بهجة ومرح. وقد حدّثتها نفسها أن تقول له «لا تكلم، لست من الحلاوة في شيء» ولكنها أمسكت في حيرة وشك، وذكرتها نفسها بقول القائل «لكلّ فولة كيال» من يدري فلعلها ليست بالقبح الذي تظن. وجعلت تطوي الطريق وعيناها إلى الدكان حتى وقفت أمامه وجهًا لوجه. ولاح السرور في وجه سليمان فقال:

- اهلاً وسهلاً كنت أتساءل متى تأتين؟

ومرّت بنظرة إلى مقعد الأب فوجدته خاليًا، ثم لمحت يصلي وراء العمود القائم وسط الدكان محملاً بالعلب والبطرمانات فداخلتها طمأنينة وقالت في دلال:

- ولماذا تصاد؟

فضيحت عينيها الضيقتين وقال مبتسماً:

- حُرّي!...! أسألي قلبي...

فرلعت حاجبيها المزججين وقالت:

- أسأل قلبك؟؟.. ماذا وراك يا قلبه؟!

فقال الشاب همساً:

- يقول قلبي إنه سرّ لرويك ويتنظرو على لطفة!

- حقاً؟!

فاستدرك في جدّ أكثر من ذي قبل:

- ويقول أيضاً إنه يرغب في أن يلقاك الآن في الشارع ليفضي إليك بأشياء هامة...

والتفت إلى أبيه فسمعه يقرأ التحيّات فقال لها

بمجلة:

- في وسعي أن أخيب عن الدكان فاسبقني إلى

الشارع العام!

ونظرت إليه في اضطراب وحيرة. وجدت في نفسها

رغبة إلى ملاقاته، ولكنها أبت أن تلعن دون عمامة من

جانبها والحاح من جانبه فقالت:

- أخاف أن أتاخر...

فقال بجزع وهو يومئ صوب أبيه محملاً:

- دقائق معدودات. اسبقني قبل أن يخنم الرجل

صلاته.

ولم تجد في الوقت منسجماً للتمتع والدلال فتحوّلت

عن موقفها وقلتها يدقّ ثم ألحمت بعد لحظة تروّد إلى

شارع شبرا. ركبتها الاضطراب والقلق والحسوف،

ولكنها أمنت في السير دون أن تفكر في العدول.

خطوة جديدة هون من وقعها طول ما حلمت بها. وما

لبثت أن تغلّبت على الخوف فارغة للأمل الحلو الذي

يتخايل لعينها في نهاية الطريق. ولما انتهت إلى

الشارع نظرت ورأها فرأته يحدّ خطاه وقد ارتدى

جاكته على جلبابه، فهالت إلى اليمين وأوسعت خطاها

مبتعدة عن حيّها. ولحق بها مهرولاً فقال بسرور:

- استأذنت من أبي دقائق...

وألقت على رُبه نظرة لم يخف عنه معناها فقال

كالمتملح:

- لا يمكن أن أرتدي البدلة إلا ساعات العظلة!

وكان يبدو فرحاً سروراً. لم تكن حينه العاشقة من

العمى بحيث تراها جميلة ولكنها كان من أبيه المستبدّ في

ضيق وحرمان فرحب بهذه الفرصة التي تتيح له الممكن

الكلمة التي تتلّف على ساعها ويربح قلبها؟ وعاد وهو يسأل:

- هل نتقابل إذن يوم الجمعة القادم؟

فتردّت قليلاً ثم غمخت:

- إن شاء الله.

وعادت إلى البيت كثيرة الفكر. هذا بدء الحب الذي ظلّا تلّهت عليه. نفّس قلبها الغبار عن جوهرة ودبت فيه حياة سبعة بالنشوة والحرارة والأمل. كلّ هذا حقّ، بيد أنّها قلقة متحرّرة لا تدري شيئاً عمّا يمكن أن يتمخض عنه، ولا عمّا يمكن أن يقابل به نباه في أسرتهما!

- ٢٤ -

انتهى حستين إلى باب السطح ثم تنهّد بصوت مسموع ليبلغها صوته ولكنّها تجاهله وسارت متمهّلة صوب الحجرة الحشبيّة، فتستريح، ثمّ اندفع نحوها بجسارة والشمس تلقي عليها أشعة الدواع، فدارت حلّ حقيقتها وطالعتها بوجه كنوم بأى أن يعلن عن غضب أو رضى، ثمّ غمخت:

- أما هذا من آخر؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال:

- إنّك تؤذيني أدباً لكن أنساه.

فقالت وهي تحافظ على سكون وجهها:

- لبتك تردّج.

ففرّق بإصبعه وعطف:

- هيهات!

ثمّ تنهّد بصوت مسموع وكان يطير من الفرح لما أنسه من رغبته في معادته.

- هيهات أن أثني عن حيّك.

فتورّد وجهها، وعبست قائلة:

- لا تردّد هذه الكلمة.

فقال بعناد وعدوه وتوكيد:

- أحبك!

- أروم إغافني!

- لا أروم إلاّ حيّك.

فقالت بحمّة:

من الحبّ، فتى في مثل حالها من الرأس والعمامة والمجز، ووجد فيها - مهما تكن - أنثى تتسب للجنس المحبوب المميز المثال. وخاف أن تمضي الدقائق دون أن يقول لها ما يريد فقال بعجلة:

- الدكّان يغلّ عاده عقب ظهر الجمعة، فقابليني عصر الجمعة ومن ثمّ نذهب معاً إلى روض الفرج.

فقالت باستنكار:

- نذهب معاً؟! هذه طريقة لا أرضاها.

- ماذا علينا لو فعلنا؟

- لست من أولئك الفتيات!

- حاشاي أن أظنّ بك السوء. ولكنّ ينبغي أن نجد مكاناً آمناً للحديث.

- أخاف أن يرانا أحد من إخوتي.

- من السهل أن نضاض هذا!

فهزّت رأسها وقالت في حيرة:

- لا أحبّ هذه الحياة المليئة بالمخاوف.

- ولكنّ ينبغي أن نتقابل.

فتضوّرت ملياً ثمّ تساءلت:

- لماذا؟

فنظر إليها في دهشة ثمّ قال:

- كي... كي نتقابل!

فقالت بقلن:

- لا... لا... لست لهذا!

- أليس لدينا ما نقوله؟

- لا أدري.

- لديّ الكثير.

- فما هو؟

- ستعلمينه في حينه. ليس لديّ الآن متّسع من الوقت...

فساورها الشكّ حيناً ثمّ قالت وقد تورّد وجهها:

- قلت لك إنّني لست من أولئك الفتيات!

فقال الشابّ بلهجة تنمّ عن الأسف:

- يا سلام يا ستّ نفيسة! أنا رجل سوق وأنهم الناس!

فدخلها الارتياح، وإن تساءلت لماذا لا يقول

- ساصبم اذني.

فرغ صوته قليلاً قائلاً:

- احبك. احبك. احبك!

فلذت بالصمت، وجعل يلتهم وجهها بعينه في شوق وانجذاب حتى لم تعد تحمل وقع نظراته فولته ظهرها مبتعدة ولكن اندفع وراءها فالتفت نحوه مقطعية، وقالت:

- ارجو أن تدعي وتذهب.

فقال بدعشة:

- لا عمل لهذا القول الآن. مضى زمنه ويات قديماً.

نحن الآن في (أحبك)!

- وماذا تريد؟

- أن أحبك؟

وهمت بانتهازه فغلها الابتسام الذي أحياها كتهاته، ثم ضحككت ضحكة مفتضبة مكتومة خرجت من أنفها نفخة لطيفة، ولم تملك أن خفضت رأسها حياء. وهرزته هذه الحركة فهاجت صبرته وأقبل نحوها متسجماً طامئاً ومدّ يده ليمسك يدها، ولكنها تراجعت فيها يشبه الرعب، وغاطبته بلهجة جالئة لا ترك ربة في جذبتها:

- لا تمسني!

فغاضت ابتسامه الظفر في شفتيه ولكنها لم تباله واستطردت قائلة بنفس اللهجة الجملية:

- لا تحاول أن تمسني أبداً. لا أسمح بهذا ولا أتصوره!

فوجم قليلاً ثم قال بدعشة:

- إني أسف. ما فصلت سوءاً. إني أحبك بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى صحيح...

فقالت وهي تنظر إلى قلبها وقد نمت مظهرها على شعورها بخطورة ما تقدم على قوله:

- إني شاكرة لك هذا، ولكن ليس وأناة الذي أملك الرد عليه!

ووقع قولها من نفسه موقع المفاجأة والدعشة. كان يجري وراء عاطفته مستغرقاً فيها دون أن يفكر فيها عداها. كان يجب ولا يرى إلا الحب، فأعاده قولها إلى

رشاده. وفهم ما فاتته ففهمه، وأدرك أنّ الأمر جد لا هو ولعب. ولم يأسف على هذا بل زاد سروراً ولكن غشيته غاشية خوف وقلق لم تخف عليه دواصها. وخرج من حيرته بأن قال:

- إني أدرك رجاعة رأيك، وأوافق عليه، ولكن ليس هذا كل شيء. إني أسأل قلبك أولاً...؟ ولانت ملاحظها ولكنها لم تفقد السيطرة على إرادتها، ففالت:

- أرجو ألا تستدرجني لحديث لا أحبه!

- لا تخشيني!

ولم تكن تعني ما قالت بالغبط ولكنها لم تزلها من أن تغمغم قائلة بصوت ضعيف:

- أجل...

فقال حنين بارتجاع:

- هله طعنة دامية في قلبي!

فقالت بحيرة وارثاك وحياء:

- لا أحب أن أسلك سلوكاً أو أقول قولاً يستوجب الإخفاء!

فلم يملك أن ابتسم قائلاً:

- ولكن هله ضرورة لا بد منها، وما فيها من عيب!

فلم ترتج لقوله ولا لابتسامه واشتد تورّد وجهها فقالت بشيء من الحدة:

- كلّا. لا أحب المداعبات ولا الغزل!

- ولكنني أحبك حباً صادقاً...

- أف. لا تقسري على سماع ما لا أطيق سماعه!

فتساءل مبتسماً:

- هل أقتل نفسي؟

فابتسمت أفكارها دون أن يبدو شيء على وجهها وقالت:

- لا داعي مطلقاً لقتل نفسك. لقد قلت ما عندي!

وأعادته العبارة الأخيرة إلى حيرته وخوفه، فقال بعد تردد:

- لست إلّا شاباً في السابعة عشرة، وتلميذ بالسنة

الثالثة الثانوية، فكيف أفضح هذا الحديث؟

فنحّت عنه وجهها قائلة ببرود:

- انتظر حتى تصير رجلاً!

فقال في دهشة مزوجة بالامتسكار:

- ببيّة!

فقال في هدوء:

- ما من سبيل إلّا هذا. . .

شعر بغيظ، وضاق بما تلقاه به من حزم، ولكنّه احسّ في الوقت نفسه بحبّها يغلبه على أمره ويطيح بخوفه وقلقه، فقال باستسلام:

- لك ما تشائين. سأحدّث من يبدعهم الأمر. . .

فرفعت إليه عينها لحظة ثمّ خفضتها، وبدت حينئذ كأنّها تمّ بالكلام ولكن غلبها الصمت فقال:

- سأحدّث فريد أفندي.

- أنت!

- نعم.

فصاح في وجهها الاعتراض دون أن تنبس، فتسائل:

- هل من الضروري أن تقوم أمّي بهذه المهمة؟

فتردّدت قليلاً ثمّ قالت بصعوبة ووجهها يتفجّر بالاحمرار:

- أظنّ هذا!

وضاق صدره بهذا القول الصريح الذي يساوره الاعتراف في قلعه. تخالفت لمعينة صورة أمّه الحزينة وهي قابضة في الصلاة التي لا يضاء مصباحها توفيراً للنفقات فاضطرب صدره، وقال بصوت منخفض:

- سأحدّثه وأقنعه بمفادته أمّي في الأمر.

فتسائلت الفتاة في دهشة:

- ولماذا لا نتحدّثا بنفسك؟!

أوشك أن يقول ولا أستطيع، ولكنّه أطبق فاه، ثمّ قال متجاهلاً سؤالها:

- لشدّ ما أخاف أن يسخر منّي، أو أن يعترض على استقباليك في الانتظار حتّى أتمّ مرحلة التعليم الطويلة.

وقالت بصبر نافذ وبلا وهي تقرّياً:

- سيوافق على الانتظار ما دمت أوافق عليه!

وعصّت على شفتيها في حياءٍ ولم تطلّع إليها في هفّة وشغف، ومدّت إليها ذراعيه وقلبه يضطرم اضطراماً، ولكنّها تراجعت عنه، مقبّبة لتخفي تأثرها، وتمت:

- كلّاً، كلّاً، أنسيت ما قلت لك؟!

- ٢٥ -

كان الشقيقان يجلسان حول المكتب كعادتهما كلّ مساء. وكان حسين يعتمد وجهه بيده غالباً في أفكاره تنمّ نظراته وقضمه لأظفاره من آنٍ لآخر على قلعه وتوتر أعصابه. وحسين نفسه لم يدبّ عليه أنّه يجيئ نمرة تُذكر من نظره في كتاب مفتوح أمامه، وكان يجتلس من وجه أخيه نظرات متقطّعة فلا يتذكّر نفسه من التيسّم، وعواطف شقّ تتأوب قلبه، وضاق بالصمت فقال بلهجة ذات معنى:

- طالّت المقاضات!

فانتبه إليه حسين في فرع ثمّ تنبّه لآلئ:

- مرّت ساعة، بل أكثر. ترى ماذا هناك؟

فقال حسين ساخراً:

- انقلبت الآية، فلانصّب أن يلعب آل الشاب لطلب يد الفتاة، ولكن في حالتيك يجيء والد الفتاة لطلب يد الفقي!

فقال حسين بنفزة وحنق:

- يجيئ لك أن تسخر منّي فلا تخوف عليك. ترى ماذا يقال الآن في حجرة الاستقبال؟ ماذا نقول أمّي؟!

فقال حسين في هدوء:

- عمّا قليل ستعلم بكلّ شيء!

- أنظمتا ترفض رجاء رجل كفر يد أفندي؟

- من يدري؟ الذي أعلمه علم اليقين أننا سنسخر - في حالة الرفض - مرتباً الشهري الذي لم نحلم به! فرماه حسين بطرف حائر ثمّ تسائل:

- إلّا بطول هذا الانتظار المروع!

وعادا إلى الصمت وكانا قلباً المسألة على جميع وجوهها، وطال حديثها عنها في أوقات متقطّعة منذ أفضى حسين إلى شقيقه بما كان من حديث بينه وبين

وسألت في هدوء:

- ألا تدري فيم كان يجادلني فريد أفندي وزوجه؟  
فارتبك الشاب الذي لم يكن يتوقع استجواباً وظنَّ  
أنه - بالنسبة للمسألة كلها - من المتفرجين، فلم يمر  
جواباً، حتى قالت الأم بخشونة:  
- أجب...

فتحول بصره صوب حسنين في حيرة واستغالة،  
فاقتنعت الأم بهذه الحركة وسألت:

- متى علمت؟

قال في إشفاق:

- أول أمس!

- ولماذا أخفيت عني؟

فلاذ بالصمت لاحقاً أخاه وحطه اللدلين أودطاه في  
المسؤولية بلا ذنب جهته، وتهددت عند ذلك وقالت  
بأسى:

- الأمر لله فإن شقائي بكما فاق ما آلائي من زماي  
الأسود!

وكانت نفسة تكره جو الشقاق بطبعها فأرادت أن  
تلتطف من حدثة. ولا يعني هذا أنها كانت تشجع  
أخاها على رغبته، ولعلها كانت أشد غضباً من أمها،  
بل إنها عدت الأمر كله تدبيراً ذنباً لاخطاف شقيقها،  
ولكنها رغبت صداقة في تحامي نزاع لم يعد يحلني،  
فقالت مخاطبة أمها:

- لا تبجيحك دمك. ما كان كان، فارحونا وجمع  
الدماع.

فانتهرتها أمها بحدثة قائلة:

- اخبرني!

والفتحت إلى حسنين قائلة بازدياد:

- لملك ملهوف على معرفة ما انتهى إليه مسماك  
الذي ذبّره بليل...

وهزت رأسها في أسى ثم قالت:

- لك قلب محمد عليه، فإنه يستطيع رغم فجيعتنا  
وتعاستنا أن يعيش، وأن يستهين بنا جميعاً في سبيل  
سماعته، والحق أني فعلت حين حدثني فريد أفندي  
عن آمالك الواسعة، وهيامك العجيب. ولكنني حدثته

فريد أفندي محمد. وقد رحب الرجل بطلب الشاب  
تروحياً وقع من نفسه موقع الدهشة، فلم يكن ينتظره،  
ولم يكن ينتظر بعضه، ثم وعد بمخاطبة الأم، وتذليل  
آية عقبة مها تكن خطورتها! ولسع حسين - تفسيراً  
لهذا - إلى أزمة الزواج من ناحية، وطية فريد أفندي  
وحبه الماثور لاسرتم من ناحية أخرى. ولم يبق إلا أن  
يأتوا أن ينتظر النتيجة الوشيكة الظهور! وجعل قلق  
حسين يتزايد بمرور الوقت. وبعد دقائق أحلم كل  
شيء. هل تكون بهية لي أو أدفن هذا الأمل الوليد؟ لا  
سبيل إليها إلا بهذا. إني أريد لها ولا غنى لي عنها.  
تري فيم تفكر في هذه اللحظة؟ ألا يتوَّعها القلق  
على مصيرنا؟ إنها تحبني بلا ريب. حسبي هذا من  
الدنيا جميعاً. ثباً له إنه يطالع في هدوء، ويستمتع  
بمراقبة المعركة من بعيد لا حب ولا قلق. لشدة ما  
تسوئنا هذه العاطفة الطاغية من عناء. من قال إنها  
تقيم في القلب؟ الأرجح أنها تمسّش في العقل! وهذا  
سر الجنون! واستيقظ على صوت حسين وهو يقول:  
- إنها خارجنا!

وأرعب حسين السمع ليلفه ما يتبادل الرجل  
وزوجه وأمّه من عبارات المجاملة المألوفة. ومضوا إلى  
الباب الخارجي إلا نفسة قد جاءت إلى باب الحجرة  
ووقفت تنظر إلى أخيها بغرابة ثم قالت:

- يا ما تحت السامي دواهي! أتريد حقاً أن  
تنزّوج؟

وفهم حسين:

- أول الفيت قطرا

وانتقل حسين مدفوعاً بفرجة الدفاع عن النفس  
من كرسيه إلى فراشه في أقصى الحجرة لصق النافذة  
التي حلّ ورق الصحف على زجاجها المقفود. ثم  
سمعوا وقع أقدام الأم وهي قادمة، ودخلت تسير في  
خطا ثقيلة صلبة القصبات جامدة النظرة، ويحس  
عينها من حسنين حتى استقرت عليه في آخر الحجرة  
ولبثت تنظر إليه حيناً ثم مضت إلى الكرسي الذي تركه  
وجلست عليه في شبه إعياء. ساد الصمت ملياً فلم  
يجرؤ أحد على خرقه حتى نظرت المرأة إلى حسين

فأنصت نغمة باهتمام وقلبي يتابع ضرباته، لم يعد جديداً أن تسير متأبطة ذراعاه في شارع من الشوارع المضطربة عن شارع شبرا حيث يغلب الظلام على جنينا ويقل المارة. وكان يبدو لها دائما، على مدامته وحسارته، فتي رائحة الحرارة عاطفته وشدة انكبابه عليها، وكانت لهذا تحبه من أحباقتها، بل باتت محبوبة به.

واعضدت أنه الحبيب الأول والآخر. ليس لها سواه، ولن يكون لها سواه، فتعلقت به بقوة الأمل، وبقوة اليأس، وأحبته بأعصابها ولحمها ودماها، ووجدت فيه غرائزها المشوية العارمة أداة نجاة تنتشلها من الأحياق.

كان أول رجل بعث فيها الثقة، وطمانها إلى أنها امرأة كريمة النساء. وكان إذا قال لها «أحبك»، تحلن خلعاً جديداً فتري الدنيا - هل كثافة الظلام المحيط - نوراً وبهاء. بيد أنها لم تقنع بكلمات الحب، تلهفت إلى شيء آخر ليس دون الحب منزلة، أو أولمها شيء واحد في نظرها. فلم تقنأ تستدرجه حتى قال ما قال ثم تشجعت بالظلمة وتساملت:

- وماذا أنت فاعل؟

فقال بلا تردد:

- كان من الطبيعي أن أعلن أي برأيي ثم نذهب معا إلى والدتك لنطلب بك، ليس كذلك؟  
- أظن هذا...

فتهد بصوت مسموع وقال:

- يا ليت! هذا أمل بعيد المنال في الوقت الراهن...

فانقبض قلبها وتساملت في انزعاج:

- لماذا؟

فقال بغيظ:

- أيها... لمة الله عليه. رجل عجوز أحمق عنيد، ويطمع أن يزوجه من ابنة جيران الثوري البقال عند تقاطع شبرا بشارع الوليد. ولست في حاجة إلى أن أسول لك إقني لم أوافق، ولن أوافق، ولكنني لا أستطيع أن أقترح عليه الزواج من أخرى في الوقت

بدوري عن كفاحنا وتماستنا. حدثت عن أثنائها الذي نبيمه قطعة قطعة لنحصل على الضروري من القوت وعن شقاء أختك التي غتمت الحياطة وتقطع النهار بين هذا البيت وذلك، ثم صارحته بأن أحداً من أبنائي لن يتزوج حتى ينهض بأسرته المتبارة.

وسكنت المرأة وعيناها لا تتحولان عن وجهه وهو خافض العينين تملوه كابة وقنوط، ثم استطردت قائلة بحزن:

- ومهما يكن من أمر فلا يسعني إلا أن أشكر لك عطفك وإنسانيتك!

وقامت المرأة وغادرت الحجرة لا تكاد ترى ما بين يديها من الغضب والحزن وحلفت ورامها صمناً لئلا. وبلغ التأثير من نغمة فتناست غضبها اللذين واقتربت من حسين وقالت متظاهرة بالمرح:

- نية لم تقل كل شيء. وأؤكد لك أن ثمة ما مدهو حقاً لحزنك. وما كان بوسعها إلا أن تبقي على صداقة لريد أفندي ومودته، ومن ذا يستطيع أن ينسى جميله ومروءته؟ قالت له إنها تعد موافقته على طلبك شرفاً كبيراً بيد أنها ذكرت له حالنا الذي يعرفه حتى المعرفة وسألت أن ينتظر حتى تنهض أسرتنا من عثرها مكتفياً بكلمتها على أن تملن الحنطة في حبها إذ أنت رجل مسئول. وقالت له أيضاً أنه يسعدها أن تختار بجهة زوجاً لابنها، فلا داعي للحزن على الإطلاق...

ونظرت الفتاة إلى وجه أخيها والاشراق يماوده فدخلها غيظ مفاجئ ولكنها أحسنت كسائه وقالت بلهجة لم تخل من حدة:

- احذر نية فهي مسكينة حزينة، ومما يعزبها ولا شك أن نشاركتها همومها أما إذا وجدت متاً... ما علينا، لا أحب أن أعود إلى هذا. وحسي أن أقول لك إن الأمور تسير كما تحب (ثم ضاحكة) لمة الله عليك وعلى الحب متاً...!

- ٢٦ -

قال سلمان جابر سليمان:

- فلا يداخلك شك في هذا. ستتزوج كما قلت لك. وهذا عهد مني أمام الله.

الحاضر، وإلا كان جزائي الطرد... .

واصّست جفائفاً في حلقها، ودمقته بإزدهاء، ثم تسامت في قلق:

- والعمل؟

- نصبر، ثم نصبر. ولن نحولّي قوّة في الأرض عن غايته، بيد أنّه يجب أن نأخذ حذرنا أن يفلن الرجل إلى علاقتنا... .

- وإلام نصبر؟

فتردّد في حيرة ثمّ تتمم:

- حتى يموت!

فهضت بانزعاج:

- يموت؟ هبنا متنا قبله!

فصحك ضحكة جافّة في ارتباك وقال:

- دعي هذا لي وللزمن. لم تفق بنا الحيل بعد!

كلام حاتم لا يروي خلة. ولا أستطيع أن أقول له إنّني أخاف أن يتقدّم لي أحد في أثناء الانتظار لطلب يدي. هذه حجةٌ وجيهة في يد غيره من يحظّون بقسط من البهائم أو المال. أمّا أنا فمنّ حتى أن يتقدّم لي في هذه الأيام التي لا يتزوّج فيها أحد. وضيت بالهمّ ولكنّ الهمّ لا يرضى بي. ابن يقال إنّ البيلة تبدو على جسمه قلقة نابية. وشمرت بيد الغهر تقبض على عنقها. وزادها الخوف تملّقا به فلو وزن في هذه اللحظة بالدنيا كلّها لرجح بها في قلبها. إنّها لا تدري

على وجه الوضوح كيف يمكن أن تتزوّج منه حتى ولو ذلك ما يعترضه من عقبات، فإنّ أمّها لا تستطيع أن تقدّم لها شيئاً، فضلاً عن أنّ الأسرة باتت لا تستغني عن القروش التي تربحها لها، ولكنّها تريد، تريد من الأحباء، ويأتي ثمن. وتجهّم وجهها، وتفتح فاهها لتتكلّم ولكن لاحت منها الضغطة إلى شيخ قادم فجمد الدم في عروقها؛ وشهقت شهقة فرقة وكادت تطلق ساقها هاربة لولا أن مرّ القدام تحت الصباح فتتورّ وجهه وتبتدّ تنهّد الأمان بعد الرعب، وعجب سليمان

لشأنها فساءلها:

- ما لك؟

فقال وهي تلهث:

- حسبته أخي حسناً!

واتهزّ الشاب الفرصة ليفصح عن رغبة طامح احتضانه لها فقال:

- لن نأمن الخوف ما دمنا نخيط حل وجوهنا في هذه الطرق. أصحي ليّ، لماذا لا نذهب إلى بيتنا فنمكث فيه قليلاً بعيداً عن الأنظار؟ فصاحت به في دهشة:

- بيتك؟

- نعم أبي يقضي مساء الجمعة حتى منتصف الليل عند شيخ الطريقة الشاذليّة، وأمّي في الزقاقين عند أختي التي جامعا المخاض اليوم، ليس في البيت أحد! ففالت في ذهول وقلبها يدقّ بعنف:

- كيف أذهب معك إلى بيتك؟ .. أجننت يا هذا؟

فقال بفرعة حازّة:

- إنّني ألتصم مكاناً آمناً. بيتي آمن ودعوتي بريئة. أريد أن أدخل إليك في أمان فتعالج همومنا في روية بعيداً عن المخاوف والعيون... .

كان يتكلّم وكانت تصغي مقبّبة. وكانت تتخلّل على رغمها البيت الخالي في قلق وخوف، وحاولت أن تطمس خياله بالتأدي في القضب ولكنه ظلّ قائماً في رأسها. وقالت في حدّة:

- ليس في بيتك... .

فقال الشاب باستعطاف وهو يشدّ حل راحته:

- لمّ لا؟ ظننتك ترخّين بدعوتي. أليس لك ثقة في؟ أليس لك ثقة في نفسك؟ أريد أن نخلو لذاتنا، وأن نتحدّث، وأن أطمك على مدى حيّي وآمالي وخططي. ليس ليما. أدعوك إليه من عيب ولن يدري بنا أحد.

فهزّت رأسها في عناد وقلبها يوالي ضرباته الشديدة. وقتّ لو تستطيع أن تخلو إلى نفسها لتتفكر طويلاً، وشمرت برغبة في الهروب. ولكنّها لم تبد حراكاً، وسارت إلى جانبه وراحته في يده وعبّأ حاولت أن تبعد خيالها عن البيت الخالي المنتظر. ثمّ جاءت لحظة فشمرت بأن باطنها ينقلب رأساً على عقب وأنها تغوص في أعماق ما لها من قرار. وازدادت



اضطرابًا وقلقًا فقالت في ضيق:

- ليس في بيتك!

فشدَّ على يدها بيد مرهقة وقال:

- بل في بيتي. فتجري قليلًا. ماذا تخافين؟ إنِّي أحبُّكِ وأنت تحبِّنيني ونريد أن نتحدَّث عن حبِّنا ومستقبلنا في أمن عن الميؤن. هذه فرصة وهيئات أن نجد البيت خاليًا مرَّةً أخرى. إنِّي أعجب لتردِّدك...

ورأى أنها تشاركه عجه من ناحية أخرى. إنَّها تتردَّد حطًا. ولو أرادت أن ترفض رفضًا حاسمًا لما أعيأها البيان. ولكنَّها يبدو أنَّها تدأب على الرفض المتردَّد الذي لا يحكم إغلاق الباب. إنَّها في الغالب خائفة وضجيلة ولكن لم تمد تستطيع تجاهل الانقلاب الذي حدث في باطنها. وفاضت نفسها بالقلق والاضطراب والتوتر. ثمَّ قالت بصوت ضعيف:

- الأفضل أن نواصل المشي...

فجلبها بإغراء وهو يقول:

- قد نشقُّ الأرض في أيِّ موضع وفي أيِّ لحظة عن أخيك حسن!

فوجدت نفسها تمجاريه في تحوُّله في استسلام:

- إنِّي أخاف هذا!

فقال وهو يتنهد في ارتياح زائرًا من صدره شواظًا من نار:

- لنذهب إلى البيت...

فقاومت يده في وهن وهي تقول:

- كلاً. لن أذهب.

- دقائق معدودات. عطفتنا معتمة ولن يروانا أحد.

وسار بها وهي تبته في تناقل قاتلة:

- كلاً...

وكان قلبها يدقُّ بعنف يكاد تصدح له الضلوع...

- ٢٧ -

وفتح الباب بفتح معه وهمس في أذنها وتنفّس!

فقال بتوسّل:

- لنعد...

فدفعها برقّة وهو يقول:

- لا بدَّ أن تشرّفي البيت...

ودخل وراءها وأغلق الباب فوجدت نفسها في ظلام دامس، وارتفع وجهها إلى السقف في انتظار النور، ولكنها شعرت بيده تتحسّس منكبها لسرت بها قشعريرة وهست في خوف:

- النور.

فقال معتذرًا:

- مصباح الصالة تالف...

فقالت في ضيق:

- أشعل أيّ مصباح نستغيء بنوره.

فأحاط خاصرته بأذنيه وجلبها معه وهو يقول:

- إنِّي أهرق الطريق إلى حجرتي...

وحاولت أن تتخلّص من فراخه ولكنه شدَّ على خاصرته فلم يتخلَّ عنها وسار بها ببطء وجنباهما ملتصقان، فنجم على صدرها ضيق خائق وجعلت تتساءل في نفسها ماذا فعلت بئسي؟ ثمَّ أخذت تآلف الظلمة رويدًا فلاحت لها في الظلام أشباح كراسي وصواري وأشياء أخرى لم تتبيها. وقطعا الصالة في بطنه وحلده، ثمَّ مدَّ يده الأخرى لفتح بابًا مزق صريه الصمت المخيف، وطلعا أمامه من خاصرته ثمَّ ردَّ الباب بقدمه، سرعان ما تخلّصت من يديه وقالت بحلّة:

- أشعل المصباح لقد ضمت بالظلمة...

فجاءها صوته يقول برقّة وحلده في لفة تنم عن الاعتذار:

- آسف يا ستي فإنَّ شقّة عمي ملاصقة لشقّتنا ولا

أمن إذا رأوا نورًا بها أن يطرّق أحد منهم بابنا!

فسأله في دهشة واستنكار:

- هل بقى في الظلام؟

فقال متوكِّدًا:

- في نورك الكفافية...

فقالت في توسّل:

- دعني أخرج....

فتلمّس يدها في الظلام حتّى عثر بها ورفعهما إلى فمه

فقبّلها مرّةً ومرّةً ثمَّ قال بصوت مضطرب:

- أعطيني شفتيك أقبلها، سأقبلها كثيرًا مائة قبله أو ألفًا، سأقبلها حتى أموت...

واندلق عليها وتقبل شفتيها قبله طويلة شرهة حتى مال رأسها إلى مسند الكنية ثم أمطرها قبلًا نهمة حامية، ورفع وجهه عن وجهها ألملة وهمس:

- قبلي... أريد أن أضرر بشفتيك تاكلان شفتي... هه.

وكانت بحال من الإيهام لم تدع لها قدرة على المعصيان فرفعت وجهها قبلًا وقبّلت، ثم غصمت:

- لم نجح هنا لهذا...

- إذن لماذا؟

- لنجلس ونحدث!

فأطبق شفتي على شفتيها، ثم عطف وجهه فجعل يده على فيها وهمس في أذنها:

- هذا أفضل. لقد تكلمنا كثيرًا. وأعيد عليك أنك

زوجي. زوجي ولو ناصبتي الدنيا العداة. هي مسألة

وقت لن يطول...

لعله يظن أنها جزمة متجملة. فلتدعه في وهمه.

ولعل الانتظار أوفق لحال أمرتنا التي لا ترحب

بزواجها الآن، ولا تستطيع أن تعد العدة له. ليس في

الانتظار ضرر ولكنها لن تعلن حبًا في ضميرها. وعاد

سليان يقول:

- مسألة وقت. ولكن ما أحوالنا في فترة الانتظار

إلى التزويج!

ومد يسراه وراء ظهرها، وهناه حول صدرها،

فشعر بتدبيرها تحت ساعده ناهدين صليين فضل دمه

وضمها إليه بوحشية، وانهمرت أنفاسه على خدّها

وعنقها. وعادها الدهول والتخدير والرغبة والخوف،

وامتزج في صدرها الفلق واللثة والياس، ثم اشتدت

الظلمة، ظلمة عميقة غريبة، كأنها تنشر أجنتها على

فضاء لا نهائي، فلا مكان ولا زمان...

\*\*\*

قالت لها أمها:

- تأخّرت أكثر من كلّ يوم.

فقالت واجبة:

- بل تجلسين لتستريحين، وستألفين الظلمة فلا تزعجك.

ومال نحوها - فيها شبه الانقباض - فرفعها بين

يديه، وسار بها إلى نهاية الحجرة وأجلسها على كنية

وجلس لصقها وهي مستسلمة من شدّة الاضطراب

والدهول، ثم قال:

- دعينا من الأخذ والرد. ينبغي أن نجلس في

هدوء وأن نتحدث. لقد تحمّسنا مشقة كبيرة في سبيل

المجيء إلى هنا وسيان أن نمكث في الظلام أو النور.

ليس هذا بلدي بال ولا يصح أن يكثر صفونا...

وتناول ساعدها وأمطره قبلات من شفتيها الغليظتين

وهي ترحف وتحاول عبثًا أن تجمع شتات أفكارها. ثم

تزحزحت بعيدًا عن جنبه الملتصق بها لتستر أنفاسها

فيال نحوها ولكنها حالت دونه يديها وهي تقول

لاهة:

- دعي وحدي، إني تعب...

فاسترد أنفاسه وقال ضاحكًا:

- تشجعي. ما لك خائفة مرتجفة... أنت في بيتك

في بيت زوجك.

وكانت نبضات قلبها تدق في أذنيها وتقرع رأسها،

فتنفست من الأصفاق. وشمرت يده تتناول يدها

فهتت بجعلها ولكنها عدلت عنه وكأنها استسغفت

نفسها، فأبقاها بين يديه وقال بصوت تغيّرت نبراته:

- كلّ شيء هادئ ولطيف. إني أرى جالك رغم

هذه الظلمة.

فقالت بلا وهي تقريبًا:

- لست جميلة...

فذلك يدها براحتيه وقال:

- دعي تقدير هذا لي، إني لا أجنّ للآثية...

وساد الصمت مليًا فتركز انتباهها وهي لا تدري في

راحتها التي تلتهمها كلّها، وسرت فيها دغدغة يبتّ في

ساعدها وفراعيها وصدرها تخديرًا فاقشعر بدنها

وهست:

- حسبك...

فقال بصوت متهيج:

هي بالحفيظة، ولكن هيهات أن يقلل هذا من قيمتها.  
إنه يجيها بقله وجسمه، أو لعل إحساسه غالب عيّا  
عده. اتعني حقاً الآن حتى له؟ عجباً، لقد حسب أن  
الخطبة ستملكه حقراً؟ وحقوقاً؟ قال بدهشة:

- يتّيل إليّ في بعض الأحيان أنه لا قلب لك!

فتورّد وجهها، وانخفضت حينها في حياء، ثم  
رفعتها قائلة في خشونة:

- ما دليل القلب عندك؟

فقال في حماس:

- أن تصرّحي بأنك تحبّيني، ... وأن ...

- وأن ...

- وأن تتبادل قبلة ...

فقالته بحسنة:

- إذن حقاً لا قلب لي.

- يا عجباً ألا تحبّيني يا بية؟

فلاذلت بالصمت في ارتباك وضيق.

- ألا تحبّيني؟

فتتهدت قائلة:

- إذن لماذا تمّ ما تمّ؟

فاجتبل صدره المحترق وهبط برجاه:

- أحبّ أن أسمعها بأذني ...

- لا تكلفني ما لا أطيق!

فتهدّ بدوره في شبه بأس، ثم قال بلين:

- إن أحيك الكلام فلن تبيك قبلة.

- يا خير أسود ...

- يا خير ورديّ كالشهدا من غير هذه القبلة أموت

كمدًا.

- إذن فليرحك الله!

- لا تطيقها أيضًا! لن تكلفك شيئًا. ابقي كما

أنت ثم اتقدّم خطوة وأضع شفتي على شفتيك فتكون

الحياة التي ما بعدها حياة ...

- أو الفراق الذي ليس بعده تلاقٍ!

- بية؟

- أفندم؟

- أنت لا تعنين ما تقولين ...

- أردت أن أنتهي من عملي وقد انتهيت ...

ثم وضعت في يد الأم خمسة وسبعين قرشًا  
واستطردت قائلة:

- أعطوني الحساب كلّه وساحفظ لنفسي ببقية

الجنيه.

وسكتت الأم فمضت الفتاة إلى حجرتها وأخذت

تخلع ملابسها. وفي السكون الشامل تراسى إليها

صوت حسنين وهو يطالع فترك في نفسها أثرًا عجيبًا لم

تدرّ إن كان خوفًا أم حزناً خالصًا ...

- ٢٨ -

- بية ولطافة اللغيب هما شيء واحد في نفسي ...

قالها وهو يومئ إلى الشمس الغاربة، رائيًا إلى

وجهها الأبيض البديع، وقد افترّ ثغرها عن دُرّ،

فقالته:

- لن نقتا تيمني إلى هنا حتى يروانا أحدا

فقال حسنين بزمه:

- إليّ خطيبك، وفي الحقّ في كلّ شيء!

- لا حقّ لك على الإطلاق!

فضحك من قلب جلد ضحكة من لا يصدّق

قولها، وملا عينيه العاشقتين من منظرها. كانت منطّة

في معطفها الأحمر، ينحصر جبهه في أهل الصدر عن

فستان رماديّ، وتهدل على ظهره شفيرتان مكتنزتان.

وكان عمق حرته يضفي على بشرتها البيضاء وحينها

الزرقاوين نقاء وبهاء. «هي مبالاة إلى القصر، فلو

التصقّت بها لمس مفروق شعرها ذقني. ولكنّها بضّة

ريانة فتبا للمعطف الذي يخفي قسبات هذا الجسم

وثناياه، حريصة محافظة. تصجّبي بقدر ما تغيظني!»

وقال متعجبًا:

- لا حقّ لي على الإطلاق!

فقالته في هدوء ينمّ عن القوّة:

- طبعًا ...

اتعني ما تقول حقًا؟ يا لها من جميلة. لقد ساء بها

هذا السطح عن الدنيا وجعل من أفلاك السياه إطارًا

لصورها. وما من شيء يشابهها كهذا الإطار في هدوئه

وحشمته وثنايه. تقول نفيسة عنها إنّها قبيلة الدم، وما

انتقاضاه فتعهرت فزعة ونلقته براحتها ثم هتفت به  
لاهة:

- حسنين، إياك...

لمح في عينها غضباً يتقد فحملت حذته، وارتد  
خجلاً مرتبكاً، فغمغت:

- احلر أن أغير رأيي فيك...

ثم استتركت في جزع:

- أظن أن لك أن تعود...

ودارى ارتباكها بضحكة قصيرة وغمم:

- هل شرط ألا تكوني غاضبة؟

فسكتت هنيهة قبل أن تقول بلهجة رقيقة:

- وهل شرط ألا تعود لهذا مرة أخرى...

وتحول في خطوات قليلة، يلوح في مظهره الارتباك  
والياس فرق قلبها له وقالت وهي لا تدري:

- إن سعدني في أن أصون لك...

وكانما تبثت إلى نفسها لمعتت هل شفتيها ولم  
تبس بكلمة.

- ٢٩ -

وجاءه عبد الأضي فجلب أنكار الأسرة وعواطفها  
إلى وادٍ واحد تلتقي فيه ذكريات الأسس واليوم،  
 واجتمعت الأسرة ليلة الوقفة في الصالة حتى حسن  
كان بينهم، واستعرت في الصلور رغبة كظيمة في  
الاحتفال بالعيد. وطلبت برعوسهم ذكريات الأعياد  
للماضية في حنين دافق لم تعلن عنه ألسنتهم. كان  
الحروف - في مثل هذه الليلة - يربطه في شرفة شفتهم  
الأولى يشرتب بعنقه بين قضبانة نائجا، ملصقا بئواجه  
في عطفة نعراله احتضال الأسرة بالعيد. ولم يكن  
الشقيقان ليقارقاته، فهما إما يلففانه ويسقيانه، أو  
يناطحانه أو يجلان بالغد القريب في أمل وفرح.

وفي الصباح وعقب ذبح الضحية يبدأ سباق إلى شئ  
اللحوم والتهامها، والآن مشغولة بهذا ويتوزع  
الصدقات هل بعض الفقراء كالكئاس وصبي الغزان  
وغيرهما، أما الأب فيتناول فطوره من الشواء على  
السفرة ثم يأوي إلى حجرته في انبساط فيضم حوده إلى  
صدره وعضي في مداوبة أوتاره. وهناك - غير هذا -

- أمحي ما أقول تماماً.

- ولكننا قبله وليست جريمة!

- جريمة في نظري...

- ما سمعت هذا قبل الآن...

فتفكرت قليلاً ثم تنمت:

- ولكنني سمعته كثيراً...

- أين؟

فماودها التذكير، ترقدت ملأ، ثم قالت بصراحة  
وسداجة:

- ألم تقرأ ما تنشره الصباح عن فتيات مهجورات  
لاستهانهن؟ ألا تسمع الراديو؟

ففر فاه، ونذت عنه ضحكة، ثم صاح:

- من يقول إن القبلة استهارة؟ ألم تقرني ما قال  
المنفلوطي في القبلة وهو الشيخ المعمم؟ إنك تحرمين  
هل نفسك ما أحل الحب الطاهر لنا. الصباح؟...

الراديو؟... كلام فارغ!

فرفقت بريرة وحلر وقالت:

- لا تضحك مهي. هو الحق. قالت أمي لي مرة  
وإن الفتاة التي تشبه بالمثاق كما يظهرون في السينما

فتاة ساقطة خائبة الأمل...

بنت الكلب!... أمي التي قالت لك هذا؟...  
الفصيرة الماكرة، أفسدنا علي وأفسدت حياتنا. إن

الغيط يقتلني، ماذا أفدت من الخطبة التي تحمّرت  
بسببها تقرئاً ولو أمراً؟ لا شيء. فشاني عنيدة

مجنونة. السبب أمها بنت الكلب وحالة الخطبة  
وتساءل في يأس:

- أناخلين نفسك بهذا التشكك حقاً؟

- طباً.

- إذن هو حب اسمي فحسب؟

- ليكن.

ونفخصها بنظرة طويلة فرأها ثابتة عنيدة قوية.  
وجرى بصره مع عتقا الرقيق، وتحيل أصله المتوازي

تحت الفستان، والمنكين، والصدر الناهد، فركبته  
عاطفة جاعة حارة، وأفلت زمامه من يده، فأنقض

عليها وهو يسند ثغره صوب شفتيها. ولم تكن تتوقع

- لحيا طيبًا. هذا أمر ربنا لا حيلة لنا فيه  
ونبت عن نفيسة ضحكة ولكنها لم تسترسل خشية  
أن تتهم بتشجيعه وقالت الأم بحزن:  
- هذا أمر ربنا حقًا ولكن كيف لنا بتحقيقه؟  
فقال حسن في ملق بارع:  
- نحققه بفصلك أنت. أنت الخير والبركة. أنت  
الحزم والتدبير. ثم إنك أعظم طاهرة في العالم. كيف  
يمضي العيد دون أن نشبع من المشوي والمسلوق  
والمحسّر والكفتة والكستلينة والمبار والموزة؟ سفرة  
السّ أم حسن، أنعم بها وأكرم...  
وسرى في الجوّ القاتم نسيم مرح لطيف، وجرت  
على قم الأم الجلائل بسمة خفيفة، ولكنها قالت  
بأسف:  
- طاهرة ماهرة ولكنها مقطوعة الدين!  
ونظرت نفيسة إلى أنها نظرات ذات معنى ثم قالت  
لإخوتها:  
- اسمعوا، علمنا أنّ فريد أفندي سيهدي إلينا  
نصف خروف!  
وتطلعت إليها الأبصار في دهشة ووجوم. ولم يعد  
في وسع المرأة السكوت فقصت عليهم كيف حادتها  
فريد أفندي في الأمر بلباقة وكيف رفضت شاكراً فتأثر  
الرجل لحذ الغضب وذكرها بأنهم أسرة واحدة. ألخ.  
وكانت تلوح في عيني حسين نظرة كئيبة، ولدا حسين  
وهو يزدرد ريقه بصعوبة أمّا حسن فقال:  
- يا له من رجل فاضل وفيا!  
فهتف حسين في ضيق وألم:  
- مستحيل... لن يقع هذا...  
فبادره حسن قائلاً:  
- ليس في الأمر ما يمسّ الكرامة، إن هي إلا تقاليد  
مريضة، وليس فريد أفندي بالرجل الغريب...  
وخافت نفيسة أن يمضي تصرّيحها إلى فتنة فقالت:  
- لا داعي للنزاع، فلماذا أيتيم بقول الهدية فلنشتر  
بضعة أرطال من الفواكه.  
فتساءل حسن في حدة:  
- كم رطلاً؟

العبدية والملايس الجليلة وزهرة الصباح في الخلوات  
وفسحة الليل في السينا وما بين هذا وذلك من ألوان  
الخلوى واللعب والمفرقات. وما هي الأسرة مجتمعة  
ولكن بلا أب. وإنهم لينظرون فيما حولهم فلا يجدون  
بشيراً بمقدم العيد ولا أملاً في هجسه، ثم يسترقون  
النظر إلى أتهم المتلفعة بالسواد بأعين مستطلعة والسنة  
قلقة مشقة. كلاً، لا عيد، ولا بشيراً به. وتساءل  
حسين في سرّه وترى هل يمكن أن يمضي العيد كما كان  
يمضي غيره من الأيام؟! وقال حسين لنفسه ولا  
عيد. لئن أحلم ذلك. انتهى، انتهى. حسن وحده  
كان أذنانهم إلى التناول. ولعلّ كثرة تقيّه عن البيت  
جعلته يمتلئ ببعض الشيء عن نوع الحياة التي يجيهاها  
أهل. وكان إلى هذا - شأنه شأن بقية الإخوة - يعدّ  
أنه قادرة على كل شيء، وكثيراً ما يتعزّى عن كسله  
وتلفه فيقول لنفسه ولديهم معاش وأرياح نفيسة! وقد  
اعتاد دائماً إذا رجع إلى البيت أن يخلو إلى نفيسة  
فيسألها «كيف الحال؟» فكانت تجيبه بالشكوى المكرة  
ولكن قلبها لم يكن يطاوعها على تجاهل يده إذا مدّها  
لها طامعاً في بضعة قروش. كان متفلاً رغم ما يخلق  
به من تهمهم، ومثته نفسه بنصيب هائل من اللحم  
يعرض عليه أحياناً طويلاً انتفضت دون أن يلدق اللحم  
طعماً، وضاق بالجوّ الكتيب الصامت فقال على أذن  
نفيسة وسألها همساً:  
- ماذا أعددت للعيد؟  
وفطنت الأم إلى همه فعاجلته متسائلة:  
- ماذا أعددت للعيد يا رجل الأسرة؟  
فضحك قائلاً:  
- لنا أم نحمد عليها! خفيفة الروح وينت نكتة  
ولطيفة. ما أقول يا أمّاه؟ لم يأمر الله بالرزق بعد.  
وحسبكم آتي كفيتمكم شرّي فلم أكل لقمة في بيتكم  
منذ وفاة أبي إلا مرّات معدودات...  
وكانت يشت من نصحه ولومه ممّا فتهدت  
صامتة، وتشجّع حسين بفتح باب الكلام فتساءل:  
- ماذا سنأكل في العيد؟  
فطوّع حسن بالإجابة قائلاً:

- تصوّر الشواء وأنت تغلبه على النار والراحة  
الشهية تملأ البيت.

والتفت حسنين إلى أمه وسألها:

- علام نويت؟

فقالت المرأة دون أن تنظر إليه:

- لم يسمعي إلا القبول...

وساد الصمت، لا لأن أحداً لم يجرؤ على الاحتجاج  
فحسب ولكن لأن هذا القبول أنقلعهم من النزاع  
القائم في صدورهم بين غضبية ضالّهم ورجبتهم في  
الاستمتاع ببهجة العيد ولذائله. وهم إلى هذا كله  
يؤمنون بأنهم إيماناً كبيراً، كأنها لا يمكن أن تخطئ،  
فإذا كانت قد ارتضت قبول الهدية فلا ضير من قبولها.  
هذا ما قالوه لأنفسهم، أو هذا ما قاله لنفسه الحائر  
منهم لينجو من حيرته. وكانت الأم أسوأ حالاً منهم.

ولم تجد من عزاء إلا في هذه الحقيقة وهي أن فريد  
أفندي اضطرها إلى القبول بإلحاحه وحرارة صداقته  
وقد رحبت بإثارة نفيسة للموضوع لعلها تجد في قبول  
الأبناء عزاء، فلما أنست من الابنتين المهينين معارضة  
تضاعف ألماً وصرحت بالحقيقة فيما يشبه الاعتراف  
بالذنب، وضاعف من آلامها أنهم باتوا لا يشبهون إلا  
في الأعياد شأن المساكين الذين كانوا يقصدونهم فيمن  
يقصدون من أهل الخير. انحدر يعقبه انحدر ولا  
تدري أين يقف. أما حسن فقد اطمأن. ولم ير بأساً  
من أن يتلفس فقال بلهجة الوعظ:

- قيل النبي مرة هدية أهداها إليه يهودي فهل  
يكون فريد أفندي شراً من اليهود؟

فتساءل حسنين في دهشة:

- من قال هذا؟

- التاريخ!

- أيّ تاريخ؟

فصاح به حسن: أحسبت أنهم يقولون لك كلّ  
شيء في المدرسة؟

فقال حسنين بحدّة:

- حدّثنا عن التاريخ الذي تعلّمه الشوارع!

فتظاهر حسن بالغضب وقال:

- ما يسعنا شراؤه. عشرة مثلاً!

فصاح حسن في انزعاج:

- عشرة أرطال على أربعة أيام! إنّاكم أن ترفضوا  
الهدية. النبي قيل الهدية يا هوه. أم تريدون أن  
تغضبوا أسرة تودّ مصارعكم!

فصاح به حسنين:

- هذه شحافة!

فقال حسن بيقين:

- كلا. الشحافة شيء آخر أسألني أنا عنه. أمّا هذه  
لهدية، هدية، هدية.

وتكلّم حسنين لأول مرة فقال:

- هدية من النوع الذي كتأّبه في الأعياد إلى  
الكثّاس وصيّ القرآن...

وغضب حسن لأنه كان يطمح أن يضمّ حسنين إلى  
رأيه أو أن يفيّ على الحياد على الأقل، وقال عنيداً:  
- لا تختلط بين الهدية والصدقة، إذا أعطيت  
الكثّاس فهي صدقة، أمّا إذا أعطيت صديقاً فهي  
هدية...

وكان حسنين يعلم بأن مناقشة حسن هذا غير مجدي  
فخفّض عينيه وقال في حياءٍ وألم:

- الواجب أن يكون لكهدي هو الخطيب لا  
الخطيبة...

فقال حسن ساخراً:

- هذا إذا كان هو الذي طلب يد الخطيبة، أمّا إذا  
كانت هي التي طلبت يده...

- حسن!...

- أريخنا من الفلسفة التي لا تشبع من جوع. لا  
عيب في قبول هذه الهدية. كانت هدايا أحمد بك  
يسري تحمل إلينا في المواسم، على فكرة ما باله نسينا  
هذا العام ابن الكلب؟ هذا رجل غير وفيّ. فريد  
أفندي رجل الوفاء حقاً. من حسن الخلق أن نقبل  
هدية. ثق بأنّه إذا كان في القبول ما يمسّ الكرامة  
لكنّت أول الرافضين.

فقال حسنين بكآبة:

- تصوّر ماذا يقولون عتاً!

ثم قال مستطردًا بعد تردد:

- أو خلني إذا شئت به حلاوة أو جبنًا.

فتساءلت مدفوعة بفرقة الحرس:

- ألا تخاف أن يلاحظ أبوك أنني لا أدفع ثمن ما آخذ؟

فضحك قائلاً:

- إنه لا يرى أبعد من موضع قدميه...

وجاء ترام روض الفرج فصعدا إليه وجلسا متجاورين. «كيف أبذل نفوتي على هذا النحو؟ البيت في شدة الحاجة إلى كل ملهم أجني من عمل الطويل. أنني لا تفتأ تبغ قطع الأثاث. حتى أنني حسن أحوال بهذا الشأن من هذا المفسد. ماذا أفعل بنفسي؟ إنني أبعثر نفود أخرى لابتغاء البودرة والاحمر. آواه. إنه ليس رجلاً. لو كان رجلاً لما تعلق بأبيه هذا التعلق المضحك، ولما خافه هذا الخوف. حرمة الرجل يومئذ كما يحرم الطفل مصروفه. بيد أنني أحبه وأريده. إنني له نفساً وجسداً. ليس لي سواء. من أين لي هذه النفس التي تسميني هذا كله؟» وسمعت يهيمس في أذنيها:

- من المؤلف حقاً أن تأتي عادت من بلدة أخوتي فلم يعد البيت خالياً...

ليست بحاجة إلى من يذكروها بهذا، فهي تعلمه حق العلم. بيد أنها سرّت في أحياها بنفحة هذا الباب. ودبت في جسمها بقطة فنشط خيالها وتذجرت الظلمة الشاملة والأصوات الهامسة، تذكّرت هذا في حرارة مشوبة بخوف. ولم تشأ أن تعلق حل قلبه فتجاهلته عن حياء، وتورد وجهها الذي جعله الزواق مثيراً للنظر. أتني عادت، وأني لا يرضى! متى ينتهي هذا كله؟... متى تملك بلا خوف، ويشرع الله؟ آه ثم آه، لشدة ما يركبها الخوف أحياناً فتوة الموت نفسه والراحة من الحياة جيئاً. وعاد صوته الهامس يقول:

- ولكنني سأخلق الفرص بنفسي. لا بد أن تعاد الفرصة. وأن يخلو البيت...

فقال بصوت بارد:

- لا... لا... لا داعي لهذا...

- الله يساعذك... أنسيت؟... أنسيت حقاً؟ لا

- فسباً برت العزة لولا أنك سبب هذه الهدية لكسرت رأسك.

ثم استدرك قائلاً:

- وعلى هذا كله كان الواجب يقضي بأن يهدوا إلينا خروفاً كاملاً لا نصف خروف (ثم ملتفتاً إلى نفيسة) احذري أن تقبلي الهدية إلا إذا كان فيها نصف الكبد أيضاً...

- ٣٠ -

وقفا متقابلين يتسظران الترام. هي في معطفها القديم الذي تود أن تستبدل به أحسن منه ولو نصف عمر، وهو في البلة التي تبدو عليه قلقة جافية. وكان يلوح في وجهه التردد، والرغبة الملبدة في الإفصاح عن شيء يتقل عليه الإفصاح عنه، ثم خاف أن يخي الترام قبل أن يتكلم فقال في ارتباك:

- نفيسة... يجذلي جداً أن أصرّح لك بأمر...

فتساءلت الفتاة:

- ماذا بك؟

فقال همساً:

- أصرني أبي أن أصبح اليوم إلى حضرة شيخ الشاذلية فرفضت حتى أثرت غضبه...

وشعرت بخوف لم تدركه، لعل ذكر أبيه الذي هيجه، وتوقعت خبراً غير سائر، فرمته بعين متسائلة دون أن تنبس، فقال بصوته الهامس:

- ثار غضبه لعنادي وحرمني أجرة يومي!

وحلّت الدهشة محل الخوف وسألته:

- أليس ممل نفود؟

- كلا. أبي رجل جبار، وأنا يأخذ...

فألتفت لنفسها «أمين» ثم تمتمت:

- معي بعض التقود...

فسكت لحظات في قلق ثم سأله في خجل:

- هل تدفعين ثمن التذكيرين أمام الجالسين؟

وفطنت إلى ما يريد، فرقت له، وفتحت حقيبتها وتنازلت شلناً وأعطته إياه فأخذه وهو يلحظ الواقفين بحذر ثم قال:

- شكراً لك. سأردّه إليك في اللقاء الآتي.

أين أياكم؟ فيها عدا أيام العيد لم أتناول لقمة في بيتنا. وماذا يأكلون؟ القول غذائي الوحيد، فوك، فوك. الحمير تجد شيئاً من التنوع. لماذا لا يبحث جاداً عن عمل؟ جرب حظه مرتين فانتهى في كل مرة بمسكة كادت توذي به إلى السجن: كلاً ليست هذه الأعمال النافعة بمقتضاها. ولا يزال يؤثر عليها حياة التسكع والمغامرة الحظيرة. الواقع أنه يتمتع من السركة، إنه ورفاقه يعلمون ذلك حق العلم. إنهم يتصيدون الزبائن الأغراب ويوهومهم بأنهم يلاعبونهم على حين أنهم يسرقونهم. حياة شاقّة عذوبة بالمخاطر في سبيل قروش، كيف يستقيم إلى هذه الحياة! لم يكن لا سعيداً ولا راضياً، وكأنه كان ينتظر معجزة تنشله من هذته إلى حلم من الأحلام. كانت حياته عادة ضاربة كالمختلر المهلك، اعتاد أن يعيش بلا عمل حقيقي حائزاً - رغم هذا - مركزاً مرموقاً مرجعه الرهبة والخوف فلم يحتمل أن يبدأ من جديد صانعاً بسيطاً أو عاملاً مطيعاً ولم يكن يغيث عنه مدى حاجة أمه إلى جده، ولا تزال تلحن في أذنيه شكائهما المكروبة، تطارده كلياً أفاق إلى نفسه. إنه يحب أمه ويحب أسرته، ولكنه ينتظر، ويتنظر، دون أن يحرك ساكناً. لا أزال في البداية. عمل حيواني طويل بقروش. حافلة غير منها...

- مساء الخير يا سي حسن.

ورفع رأسه منتفضاً من سحابت أفكاره فرأى الأستاذ علي صبري يجلس قبلته في هدوء وكبرياء فاهتز صدره فرحاً وهتف به:

- مساء الخير يا أستاذ.

ونادى الأستاذ النادل وطلب نارجيله ثم التفت إلى حسن وقال دون تريث:

- قررت أن تعمل معاً... أهي أن أضمتك إلى

نحني...

وأتستعت حيناً حسن ولاح فيها بريق خاطف. إن التفت هو العمل الوحيد الذي يجبه، لا ليل فني مركب في طبعه، ولكن لأنه يسر ولذيد وينسم جوهه عادة بأروج الحمير والمختدرات والنساء. ومع أن أمه في

يجوز أن غمت في فترة الانتظار. لا أحب الانتظار... ليس الانتظار خيراً مما فعلت بنفسها؟ بل. كلاً. بل بل بل. كلاً كلاً. بل بل بل. كلاً. وتهدئت في حيرة، وعادها شعور اليأس الذي ألقته، ولكنها قالت:

- لا أحب الانتظار مثلك، ولكني لا أحب هذا أيضاً...

فقال بمكر:

- كاذبة. تخمينه وتخمينه. هل نسيت...؟

حال...

- لا أذكر شيئاً...

- لن أنسى ما حدث!.. أنت غايه في الحرارة والحيلة كأن حرارتك لا تزال تلفحني...

- حس. أنت مجنون ولا شك!

- مهما يكن من أمر فسجدت حقاً طرقات خالية مظلمة...

- حذار. بصرك ضعيف كأبيك، وقد نحسب

الطريق خالياً والشرطي أملك!

- البركة في عينك أنت...

ثم قال متنبهاً بعد لحظة صمت:

- متى يتاح لنا الزواج؟

فألها تسأله وأغاضها، وأخجلها في الوقت نفسه، ولأزمها فتور ووجوم بفئة الطريق.

- ٣١ -

انصف الليل ولم يكذب في قهوة الحيات إلا نفر قليل، وكان حسن يجلس إلى مائدة خالية بعد أن فارقتها أصحابه تاركين في جيبه ما استطاع أن يظفر به من قروشهم. كان يجلس كالمفكر ملقياً على المقهى نظرة جامدة من عينيه المتعبتين. هذا صاحب القهوة وقد أخذ يراجع حساب اليوم مكوّناً المراكات في طبق صاج كبير، على حين وقف النادل مستنداً إلى إحدى ضلف الباب واضعاً إحدى يديه في جيب الرملة يعيث بالقروش فيصاعده وسواسها في إغراق شهوي: «رحمك الله يا أبي، ألا تعلم بأنني تبعت كثيراً بعد موتك؟ كان نزعنا لا يبدأ، وكنت أشعر أحياناً بأنني أفتك، ولكن



بالنارجيلة واستمتع الأستاذ بالأنفاس الأولى، وتفتح  
ثم سأل الأستاذ:

- ما رأيك في مَوْلَا: يا صني ليه بتبكي؟  
- عال... عال...

وراح حسن يتشد المَوَال في صوت غير مرتفع.  
مُجِيدًا ما وسعته الإجابة، والآخر يلذب معه برأسه  
ويجيء متظاهرًا بالاستغراق، حتى انتهى حسن،  
فقال:

- هذا فوق الكفاية بالنسبة لستيد. أحب أن أسمعك  
في المنك أيضًا، هل تحفظ في البعد يا ما كنت  
أنوح؟.

فتفتح الشاب مرة أخرى وقد حيت حنجرته  
واشتمل حماسه وأندفع يغني الدور حتى أتى عليه، فقال  
الأستاذ:

- عال، عال، هل تعرف أصول النغم، السيكما  
واليالي والحجاز وغيرها.

وكان لا يداخله شك في جهل الأستاذ بهذه  
الأصول فقال بجرأة ندر أن توجد في غيره:  
- طبًا.

- أسمعني ليالي رست...  
فانشد بعض الليالي كيفما اتفق، فهز علي صبري  
رأسه قائلاً:

- براوو... أخرى هلووند...

وانطلق يغني وهو يغالب سحره القلق في صدره  
والآخر يتابعه باهتمام ظاهري، ثم لاح في وجهه  
التفكر فجأة وبدا كأنه يريد الإنصاح عن شيء هام.  
وكان حسن ينتظر هذه اللحظة بغريزة فسهل متحيرًا  
تري هل يريد أن يندني إلى معركة؟... ماذا يريد  
على وجه التحقيق؟... وقال الأستاذ:

- صوتك حسن. بيد أن العمل في التخت يتطلب  
مهارة أخرى. ينبغي أن نضاهم قلمًا. وهل سبيل  
المثال أقول لك إنك يجب أن تأخذ بقسط وافر من  
أساليب الدعاية...

- الدعاية؟

- نعم. كان تنوّه بقي في المناسبات. أن تسمي

علي صبري كان دائمًا محددًا إلا أنه كان يراه شيئًا خيرًا  
من لا شيء، ولعلّه حبة لما بعده، أجل من يدري؟  
قال:

- حقًا يا أستاذ؟

- بدون شك.

- هل نعمل في صالة أو قهوة؟

فتخلل الأستاذ شعره الشاغر بأصابعه الطويلة النحيلة  
وقال:

- سترسي إلى هذا يومًا قريبًا. وربّما غزونا الراديو  
نفسه. ولكننا سنقتصر بادئ الأمر على الأفراح...

وسرعان ما أخذ المجلس. ولو كان علي صبري  
شخصًا لا يعتقد به رجاء ولو ضئيلًا لصعبه بضرية  
تجعل عاليه سافله. لقد عمل معه بالفعل في بعض  
الحفلات العائلية نظير ريال والمشاء، وما كان هذا  
ليحدث إلا مرّات في العام، فما الجديد في هذا؟  
وشعر بأن هذه الدعوة أمرًا وداعبه أمل جديد، فتظاهر  
بالسرور وقال:

- ستحتل المكانة التي تليق بك يومًا بلا شك. أتت  
لك بحة ليست لعيد الوهاب نفسه.

فانبسط أسارير وجهه، ثم سأله:

- ماذا تختار من آلات التخت؟... كنت حدثني  
عن المرحوم والدك كمؤاد ياروع؟

- لم أتعلّم آلة على الإطلاق...

- ولا الدف؟

فقال حسن بقلق:

- سبق أن جرّبتني كستيد، أظنني أنفج  
وسيدًا...

فهز الأستاذ رأسه قائلاً:

- كما تشاء. هل تحفظ أموارًا كثيرة؟

- مواويل وأدوار وطاقيط...

- أحب أن أسمعك منفردًا...

وشعر حسن في أعماه بسخرية: فتحة كذّابة  
وامتحان لحساب أمل ضئيل! ولكنه كان مصممًا على  
مجارته إلى النهاية. كان يعلم بأن يغني لحسابه الخاص  
يومًا ولو في المقاهي البلدية. وانتظر حتى جاء النادل

- خفت ماذا؟

فضحك عليّ صبري ضحكة قصيرة كشفت عن أسنانه الصفر وقال:

- أكره الناس إليّ من يقول وأخلاقي لا تسمح لي بكبت وكبت أو من يقول وأنت الله أو من يتسامل في خوف «والبوليس»... فهل أنت أحد هؤلاء؟

فقال حسن مبتسمًا وهو يُشعره بأن صبره الطويل يوشك أن يظفر بحسن الجزاء:

- إني أعيش في هذه الدنيا على افتراض أنه لا يوجد بها أخلاق ولا رب ولا بوليس...

فضحك عليّ صبري بقوة زلزلت القهوة كفنائه وقال:

- فلنقصر بقية الليل في بقيتي فما زال في الحديث بقية...

ولبت حسن متفكرًا دون أن يحسب ثقته بنفسه لحظة واحدة. كان قليل الثقة في حديثه ولكنه لم يكن يائسًا منه كل اليأس. كان يشعر في أحاسنه بأن ثمة انتظارًا طويلًا لا يزال أمامه قبل أن تثبت الأرض القلقة تحت قدميه.

- ٣٢ -

كانت الأم ونفيسة جالستين بالصالة قانتين من النور بما يشع من حجرة الإخوة حين زارتها صديقتها صاحبة البيت. ورحبتا بها ترحيبًا يليق بأبائهما البيض على نفيسة. وجلست المرأة بينهما على الكنب. أبت حق أن تضيئ مصباح الصالة. وجعلت هي والأم تتسلخان بالحديث على حين ذهبت نفيسة إلى المطبخ لإعداد القهوة. وكانت الأم تنتظر دائمًا من وراء زيارة صديقتها عملاً مريبًا لنفيسة، وقُل أن خيبت لها رجاء. لم يكن عقلها يخلو أبدًا من هموم العيش، خاصة بعد أن استدار العام واقتربت العطلة المدرسية، وبات من المتوقع قريبًا أن يضاف إلى واجباتها واجب جليل هو تغذية ابنها بدلًا من المدرسة. كانت تشكو إلى صاحبها ما عانت من حياتها في الأشهر المتضفة والمرأة تواسها وتشجعها، حتى عادت نفيسة بالقهوة. وأرادت المرأة أن تملن معها دحاسها إلى هذه الزيارة

لإغراء البعض بطلي لإحياء الأفراح ولكل جزءه طبعًا. أن تكون في حفلة يجيئها مغنٌ ما تملن نغده لصوته وتقول لمن حولك أه لو كان عليّ صبري في مكان هذا المغني. وهكذا...

فابتسم حسن قائلًا:

- هذا حين، وأكثر منه...

فقال عليّ صبري بعد فترة تفكر:

- ثم إنك شاب قوي وجريء وينبغي أن تستغل مواهبك إلى أقصى حد. ولكن دعني أسألك سؤالًا قبل كل شيء: أي المخدرات أحب إليك؟

ما الذي يدعو إلى هذا التحقيق؟ أريد أن يفهمه بهدية؟ إنه يجيد قول الهدايا، أما الجود بها فهذه عادة لا يمارسها. أم يرمي إلى إشراكه في عمل هام؟ ودق قلبه لهذا الخطر. طلالا حلم بتجارة المخدرات. على أنه أثر الحرص والحذر فقال بمكر:

- أظن المخدرات تؤذي الجسم...

فضحك عليّ صبري، ثم انطلق يفتي من اللبالي ما شاء في صوت كالرعد ولي نفس طويل قوي، ثم تسامل:

- ما رأيك في هذا؟

- لم أسمع له مثلًا

فقال سخرًا:

- هذا نتيجة خمسة عشر عامًا من تعاطي الحشيش والأفيون والمنزل، منها خمسة أعوام أدمنت فيها الكوكايين...

- يا سلام!

- المخدرات دم الغناء، وما من مغنٍ يستحق هذا الاسم إلا وقد تعاطى من المخدرات مثلًا التهم من الملوغية والبول المتس.

فضحك حسن وقال بلهجة تتم عن التسليم:

- هذا لو تيسرت...

- صدقت، وهذا ما تحته. إنك لا تكره المخدرات ولكنك لا تستطيعها. وإذن فاعلم أنه من اليسر أن نجعل الأتار خورًا والجبل حشيشًا. إنك جريء قوي ولكني لا أخفي عليك بأنني خفت كثيرًا...

في دهشة. وظلّت الضيفة أنّه كبر على الفتاة أن يحلّي بمثل هذه العروس شابّ تافه كسلطان فقالت:

- نعم سليمان. والظاهر أنّ عمّ جبران لم يمانع لصدائقه لعمّ جابر سليمان. وربّك يعطي الأرزاق بلا حساب...

أدركت رغم هول الصدمة أنّها كانت تفضح نفسها فتأسكت في جهد شديد. لقد انفجرت الصرخة في صدرها بلا وهي وانطلقت من فيها دامية. ولم تعد تستطيع أن تتابع حديث المراتين وشعرت بأنّها تموت موتاً سريعاً منقطعاً. وساعدتها الظلمة على إخفاء معالم وجهها فشكّلت على أصابعها حقاً لا تصرخ مرّة أخرى. ماذا قالت المرأة! ليس ما بها كابوس أو جنون، إنّها حقيقة بلا ريب، سليمان جابر سليمان، دون غيره. وعادتها ذكرى مخاوف قديمة كانت تتشابه من حين لآخر في ساعات انفرادها، مخاوف غامضة أحياناً كقلقي ينشب أظفاره في صدرها، أو واضحة أحياناً أخرى تتبسّى في صور بشعة يقشعر لها البدن. وغالت في ذهابها لحظة أنّ ما بها ليس إلّا حالة مرعبة من هذه الحالات، ولكن لم تكن إلّا لحظة واحدة ثمّ عاودها هذا الشعور الثقيل الرهيب بأنّها تموت. لقد ذاقَت قساوة الدنيا مع أسرها جميعاً ولكنّها لم تصلّق أنّها قاسية إلى هذا الحدّ، وعصّت على شفتيها وهي لا تدري كيف تقاوم هذا الانحلال والتهدّم، السارين في روحها وجسدها. ما هي بخيبة الحبّ، هي بخيبة الحياة كلّها، ولكن يجب أن تتلاك نفسها، وعسى أن تدعوها الضيفة إلى الحديث لأية مناسبة فلا يصحّ أن ترتعش نبرات صوتها، أو تحتجّ من شدّة التأثّر. ولعلّه من الخير أن تولّو بالفرار إلى حين. ولم ترنّ من تحقيق نيتها فتناولت قدح القهوة ومضت إلى المطبخ. هنالك زفّرت من الأحقاد، وشلّت يديها على ضفيرتيها القصيرتين بشدّة وهي تمحلق في سقف المطبخ الملوّث بالهباب وقد عسّش العنكبوت بآركانه، ولبثت في جمود كالذاهلة. ولم يكن أملاً، ولكن خدعة، كذبة مفزعة، ضربة قاضية، سرقة، لطخة، جرماً لا يشدمل، وخلاً، لقد انتهت. انتهت بلا أدنى ريب. لا يمكن أن

فعلت وهي تبتسم ابتسامة حلوة تنمّ عن طيبة قلبها: - جيتك بعروس جديدة...

فضحكت نفيسة ضحكة سرور وقالت: - يحقّ لي أن أطلق على نفسي خيطة العرائس! - أسأل الله أن تعذّي ثياب عروك بنفسك قريباً. فتمتعت الأم قائلة: - آمين.

وأمنت نفيسة على الدعاء بقلبها، حل ما أثار في نفسها من قائم الذكريات. «مضى يمكن أن أكون عروساً؟ ليس قبل أن يموت عمّ جابر سليمان. يا للسخرية! أمل كلّفني نفسي وجسدي. هل يدور هذا لأمني في خلدي؟ إنّها تحب أن هموم المعيشة أكبر الرزايا. يا لها من جاهلة بالساءة! وتساءلت الأم: - من تكون الزينة الجديدة؟

- العروس الجديدة هي كريمة عمّ جبران التوني البقال...

وتبسّيت حواسّ نفيسة لهذا الاسم الذي لا يمكن أن تنساه فدقّ قلبها بعنف وقالت متسائلة:

- دكانه عند تقاطع شارعي شبرا والوليد؟ - بالضبط. وضحكت الأم قائلة:

- أصبحت جوّالة يا نفيسة كشيخ الحارة... فضحكت الفتاة ضحكة آليّة وقالت لنفسها وهي دون غيرها. هي الفتاة التي كان عمّ جابر سليمان يربط في أن يمزّجها لسليمان كما قال لها الفتى. فلتزوّج ولترفع عن صدرها كابوس ذكراها. وتساءلت الأم:

- وهل جبران التوني هذا غني؟ - حل جانب من اليسار لا بأس به... - ومن العريس؟

فضحكت المرأة وقالت: - إنّهُ أقرب ممّا تتصوّرين. هو سليمان ابن عمّ جابر سليمان البقال. - سليمان!

نذّت عن نفيسة كالصرخة، فالتفتت المراتان صوبها

الربيع. وسارت إلى الباب الخالوي ثم عرجت غير  
هَيَّابَة إلى دكان عمّ جابر. كان الرجل المعجوز عاكفًا  
على مراجعة الحساب الختامي لليوم، على حين وقف  
سليمان مرتفعًا الطاولة ناظرًا فيما بين يديه في شروء.  
واقترعت منه وهي تلقي عليه نظرة حادة ملتصقة برفع  
إليها عينيه الصغيرتين ولم تلبث أن لاحظت فيها نظرة  
جفول وإرتباك ثم قال ببلاهة:

.. أيّ خدمة يا ستّ نفيسة؟

فقالت بعزم وثبات:

.. الحقّ بي في الحال...

فأومأ لها بالإيجاب وهو يتظاهر بأنّه يقدّم لها شيئًا  
من الدكان. ومضت إلى الشارع ووقفت تنتظر عند  
رأس عطفة نصرالله وهي تتفحص ما حولها بهناية  
وحذر. وطابت نفسها بما فعلت. فما كان في وسعها أن  
تصبر دون حراك حتى مطلع الصباح. وجعلت تنظر  
داخل المطفة حتى رآته قادمًا بجلبابه وجاكتته مسرعًا  
في خطاه الملهوكة. حقير تائه، شيء تصافه النفس،  
خادع خائن كذاب. ما أحقر هذا! ماذا هي فاحلة به؟  
أترمي على قدميه باكية مستعطفة؟ هل تضرع إليه أن  
يظلّ لها وحدها؟ بدا أنّ هذا كلّ شيء فظيع مستنكر،  
وعلى هذا فقد وثى بمشاعر عميقة صادقة لا تدري  
كيف تفصح عن نفسها، فقبل ساعة واحدة كانت  
تعدّه رجُلها وتعدّ نفسها امرأته، والهلاك أهون من أن  
تنفصم هذه العروة بين يديها. كانت شيئًا وليست الآن  
شيئًا على الإطلاق. عدم خيف ورأس قاتل. والقرب  
منها في حذر وغمغم دون أن يلتفت إليها:

.. خير؟

وأثار صوته حنقها ولكنّها كظمت نفسها وقالت

وهي تسير:

.. اتبعني إلى شارع الأنفي.

ومضت إلى الشارع الجبانّي بعيدًا عن الأعين  
المستطلعة، ثم أبطلت الخطو حتى لحق بها، وبادرته  
قائلة وقد نفذ صبرها:

.. أليس عندك ما ترى إخباري به؟

فساءل متجاهلًا في قلق وخوف:

تتخلّ أمّها هذا، أنا حسين وحسين فيبهات. ربّاه  
كيف استطاع خداعها إلى هذا الحدّ؟ كانوا ممّا يوم  
الجمعة الماضي فأني عجم هذا وأني إجم. ماذا يجدي  
الغضب أو الحقد، أو الكراهية؟ شعرت نحوه  
بالكراهية تقتل أيّ أثر للخير في النفس. ما أشدّ  
حاجتها إلى التفكير والتدبّر، إلّاها تتلّف على مكان  
قعيّ خالٍ ينأى بها عن هذا المحيط الذي باتت تضمّر  
له البغض أشدّ البغض، مكان تستطيع أن تسأل فيه  
نفسها كيف هوت بمثل هذه السهولة، وعشّل هذه  
السرعة، وعشّل هذا الهوان...

.. نفيسة..

بلغ نداء أمّها مسامعها فانتفضت في ذعر، ثمّ  
حققت عليها حقًا شديدًا كأنه الموت، ولم تأت حراكًا  
فأعادت الأمّ النداء فلعبت وهي تمعّن على نواجذها،  
ووجدت الضيفة متأهبة للذهاب وأمّها تودّعها عند  
الباب الخارجيّ. وقالت لها وهي تسلم عليها:

.. تعالي إليّ بعد غد فنلعب ممّا إلى بيت

العروس...

فاومات برأسها بدلالة الإيجاب دون أن تنبس،  
ولمّا أغلق الباب قالت الأمّ:

.. سليمان! والله ما يستاهل هذا الحقّ...

فشعرت بخنجر يخرس في شفاف قلبها، ولم تملّ  
بكلمة. وضاق صدرها بالمكان والجو وأيقنت بأنّها  
أعجز من أن تتحمّل المكث إلى جانب أمّها، وخطر لها  
خاطر كلسان من لب انشق عنه صدرها فمضت بقدم  
ثابتة إلى حجرتها، ثمّ علقت وقد ارتلست معطفها  
فسألتها أمّها بدعشة:

.. أذهابي إلى الخارج؟

فقالَت وهي تتوجّه صوب الباب:

.. نعم سأشتري شيئًا للمشاء ورميًا ذهبت إلى شقّة  
فريد أفندي ساعة...

.. ٣٣ ..

ومالت نحو فناء البيت وأنفاسها تتردّد في قفل  
وصعوبة، كانت السماء صافية مرصّعة بالنجوم، والجو  
باردًا بعض الشيء تتخلّله نسبات لطيفة من طلائع

فقال بلهجة تقطر أسفًا وحزنًا:

- أصرف والأسفاه. الله وحده يعلم بحزني وأسفي...

فألقت عليه نظرة حامية وقد أثارها لهجته الأسفية لحذ الكراهية القاتلة وقالت بصوت مرتعش:

- حزين وأسف، يا لك من مسكين! وماذا تظنني صانعة بحزنك وأسفك؟ إن الحزن وحده لا يصلح الخطأ، فإذا تظنني صانعة بحزنك؟ لقد أوقعتني في ورطة قاتلة فلا يجوز أن تدهني وحدي وبهروب: ألا تفهم هذا؟

وبدا وكأن الحيرة تمسك بلسانه، ونظر صوبها في خوف دون أن يجر جوابًا. وأثارها صمته كما أثارها تظاهره - كانت متأكدة من هذا - بالأسف، فقالت بحدة:

- ما عسى أن أصنع؟

فلازدد ريقه وقال بصوت متقطع منخفض:  
- والأسفاه... إلى أدرك حرج موقفك... لشد ما يؤلني هذا... ولكن... أعني... ما عسى أن أصنع أنا؟

فقالت بحقد وهي تكظم عواطفها الثائرة:  
- أرفض هذا الزواج. لا نجاة لي إلا بهذا...  
- أرفضه؟... فأت الوقت...

- يجب أن ترفضه. لم يأت الوقت بعد. يجب أن تفكر في... لا نجاة لي إلا بأن ترفضه...

وقال بلهجة البائس وهو يشعر بخوف:  
- ليس في وسعي لهذا...

وتولأها القنوط، ولم يجر لها الشخص الحائر المائل أمامها بأقل رجاء. وصاحت بانفعال:

- كان في وسعك أن تفعل ما فعلت. وكان بوسعك أن تقبل الزواج من هذه الفتاة. ولكن ليس بوسعك أن تصلح الخطأ، ليس بوسعك أن تخطئ هذا لإتقاني...

- ما أشد ضيقي! إن أسفي لا حد له...  
- ماذا يفيدني هذا الأسف؟

ولما وجدته صامتًا صرخت في وجهه:

- عيا تسألين؟

فخاطها للدرجة الجنون وقالت بحدة خيفة:

- ألا تدري حقًا عيا أسأل؟ هات ما عندك ركفك خداعًا!

فتنهت في تسليم وغمغم في خوف:

- تصديق مسألة الزواج...

فقالت في سخرية مريرة:

- أظن هذا. ألا تراها مسألة تستحق السؤال؟  
فقال بصوت شاك:

- أي؟

فصاحت بحدة وجسمها ينتفض غضبًا وهياجًا:

- أي، أي، أرجل أنت أم امرأة؟

فقال بذل وخنوع وتسليم:

- رجل ولكن كعدله!

- يعني امرأة!

- ساعك الله. لا أسمع إلا نهرًا وتقريبًا سواء منك أو منه. ماذا أصنع؟

وردته بنظرة حامية وصدرها يستمر حقًا وغيثًا. امرأة، جبان، حقير، كيف أحبته، كيف هانت عليها نفسها فسكنت له! إن سمع+يا إليه، وتعلقها اليأس به، وحرصها اللذيل على استرجاعه، هي شر ما تسجها الدنيا من يؤس وعذاب. وصاحت به:

- يا لك من شاك بالك حقير. كيف سؤلت لك نفسك الغدر بعد ما كان. كيف أخفيت عني الأمر؟

أجب...

فتضخ قائلاً:

- مضى أي إلى هلهة حل رغمي، غير مقيم لرأيي وزناً حتى وجدت نفسي بين أمرين لا ثالث لهما: فلما النزول عند إرادته، وإيما الموت جوعًا.

- لماذا لا تبحث عن عمل في غير دكان أبيك؟

فتعتم في نبرات يائسة:

- لا أستطيع، لا أستطيع...

فاحتدم الغيظ في صدرها وقالت:

- يا لك من جبان حقير. ألا تعرف ماذا يعني هذا

بالنسبة إلي؟

- ما يفيدني أسفك؟

فمنعهم:

- ماذا عسى أن أصنع؟

وركبها شيطان الغضب والياس قالت فت نحره،  
وانقضت عليه بسرعة البرق وأسكت بتلاييه وهي لا  
تلدي ماذا تفعل، وصاحت في وجهه:

- أتسالني عما تصنع! هل حسيتي لعبة تلهو بها  
حين تشاء وتحكمها حين تشاء؟!

لقال وهو يحاول عبثاً أن يخلص سترته من يديها:

- نفيسة، اهبطي، نحن في شارع...

فصاحت به وقد فقدت وعيها:

- جيان، سائل، وغد، غادر...

وسحب يدها بسرعة وهوت بقبضتها على وجهه  
بفسوة جنونية، مرة، وأخرى، حتى رأت الدم يسيل  
من أنفه، وجعلت تلهث وصدرها يضطرب في عنف  
وعدم انتظام، وتحسّس سليمان أنفه بيده وسطها أمام  
ناظره في صمت، ثم أخرج منديل من جيبه ووضعه  
على فمه وأنفه. وبدا هادئاً ساكناً على غير ما كانت  
تنتظر. شعر بادئ الأمر بخوف، ثم حلّ محلّ الخوف  
ارتياح غريب، كأنه جاز منطقة الخطر، ولم يعد لمة ما  
يخافه. انفرجت الأزعة، وزال الخطر، ومقط ما كان  
لها من شبه حتى عليه بعد هذا الدم المسفوح، وقال في  
هدوء وصبر:

- ساعلك الله يا نفيسة، أنا عاذرك.

وهيجهما حديثه فجأة فصاودها الجنون، وانقضت  
عليه مرة أخرى بدافع غريزي، ثم أسكت بتلاييه  
كشيء يريد الإفلات وتآلى عليه - بكلّ قواها - أن  
يفلت. وركبه اللعن فانحلّ ثماسكه، وتتش سترته  
فجأة فخلّصها من يدها وتراجع صارخاً:

- إنيك وأن تلمسيني. ابعدني عني. ابعدني لا حتى  
لك عليّ.

وهجمت عليه ولكنه دفعها في صدرها وصاح بها في  
هياج أحلته الذعر:

- لا تلمسيني. لم أجبرك على شيء. لقد ذهبت  
معي إلى البيت راضية. لا تلمسيني وإلا نساويت

الشرطي!

وواصل تراجعهم حتى ابتعد عنها مسافة غير قصيرة  
ثم دار على عقبيه ومضى مهوولاً كأنه يفرّ فراراً...

وتسمّرت في مكانها وجسمها يتنفض انتفاضاً.  
فقدت سلطان الإرادة على جسدها وروحها وعواطفها.  
وبدا لها الأمر كحلم، أو مذهباً مَرَض، أو حال لا تمت  
بصلة إلى عالم الحقيقة. هذا شارع وفله شجرة وهذا  
مصباح وفؤلاء بعض السابلة، أشياء هذه أم أشياء؟!  
إنها لا تلدي. بدا كلّ شيء بعيداً عن الواقع  
والحقيقة. ولعلّها لم تنب إلى وعيها إلا حين انفجرت  
بأكية بدموع حارّة ملتهبة صاعدة من أصياق  
صدرها...

- ٣٤ -

كان سليمان مسح الطاولة حين رأى ظلّ شخص  
ينعكس عليها فرفع رأسه فرأى حسن واقفاً حياه.  
وسرت في جسده قشعريرة رعب لكان صاعقة انقضت  
على رأسه. وكان حسن يقف بقامته الطويلة، منفوش  
الشعر، وقد حال لون بدنته من كثرة الاستعمال،  
ينبعث من عينيّه نور حادّ ينمّ عن العنف والجرأة.  
وقال سليمان لنفسه «إني هالك. إذا كانت نفيسة قد  
أفضت إليه يسرها فساعتي قد دنت ولا شك» ونظر  
إليه كما ينظر الفأر إلى القطّ دون أن ينبس. وقال  
حسن بصوت مرتفع ردّ في أذنيه رنيناً مؤلماً خفياً:

- السلام عليكم...

وردّ عمّ جابر سليمان من وراء مكتبه قائلاً:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. كيف حالك  
يا سي حسن؟...

وذهل سليمان في خوف عن ردّ التحية وقال لنفسه  
وما هذه بتحية، هي نذير. ربّاه كيف تعرّضت لفناء  
لها مثل هذا الأخ؟!

وقال حسن:

- الحمد لله لقد جئكم لأحدثكم في أمر هامّ  
جداً...

إنه يعلم بهذا الأمر. عمّا قليل يعلم أبوه بالفضيحة  
ها هو الشيطان يقترب. لقد رفع طرف الطاولة ومرق

بالفوائد التي تقترب بإحيائي ليلة الفرح. وأهم هذه  
الفوائد في نظري أنّ شخصاً مهما بلغ من القوة والشر  
لن يحدّثه نفسه بالاعتداء على الحفلة كما يحدث كثيراً.  
فصلاح الاهتمام في وجه الرجل المجوز، وأدرك  
بسهولة ما وراء هذا الكلام الطيّب من الوعيد، ونظر  
في وجه الشاب المخيف مبسّماً وتساءل في لين وروقة  
وابنه يتابعه فاغراً فاه:

- لا تخلو ليلة من حفلة فرح تمرّ بأمن وسلام.  
فضحكك حسن ضحكة غريبة وقال:  
- يوجد كثيرون لا همّ لهم إلا الشر والاعتداء،  
وهم يتصيّدون الأفراح عادة للنهب والاعتداء...  
فقال المجوز بحلر:  
- كان هذا في الزمن الغابر، أما الآن فلعلهم  
يخافون الشرطة.

فقال حسن وهو يبرّز رأسه مبسّماً:  
- إنهم لا يخشون للشرطة حساباً. ويتهمون من  
عدوانهم عادة قبل حضور الشرطة. وما أيسر عملهم  
الذي يتوجّه بادئ الأمر إلى تحطيم المصابيح، فإذا  
انقلب الفرح ظلاماً وركب الخوف الترسوس أتمّ  
المدهوون عملهم وهم يتخبّطون في الظلام لا يدرون  
أين تقع أرجلهم، فتهاجر الزينات وتتقلب المقاعد  
ويندلق الطصام وتُسرق الملابس ويصاب أهل  
العروسين بجروح خطيرة. وإذا انتجابت موجة الشرّ  
يحيد القوم أنفسهم أشدّ حاجة إلى رجال الإصعاف منهم  
إلى رجال الشرطة. وأين الفاعل؟... مجهول...  
وإذا أرشد إليه أحد عرض نفسه لخطر أكبر بمؤمل  
القضيّة من عكمة الجنب إلى عكمة الجنائيات. وأعطني  
عقلك ما جدوى المقاب على فرض نزوله بالجاني بعد  
ضياع الأتفس والأموال؟!

وانصتت همّ جابر بانتباه، وفي تشاؤم ثقيل، وشعر  
بمعجزه حيال الشر المائل أمامه الذي يعرف من سيرته  
ما يعرف الجميع. ولم يدرك كيف يدفعه فتعزّى قاتلاً أنّه  
على أيّة حال يحسن الفناء للدرجة لا بأس بها، وابتسم  
الرجل ابتسامة باهتة وقال:  
- مهما يكن من أمر هؤلاء الأشرار قلن تسول لهم

إلى الدكان. لا يفصله عن قبضة يده شبر. أيّة حلاقة  
جعلته يعتدي على نفيسة؟! ليش يمهله حتى يرفض  
الزواج ويصلح خطاه. ومال حسن على المكتب معتمداً  
حافته بكلتا يديه، وردّد بصره بين الأب والابن،  
وسلمان مُطّرق في توقّع مروع للضربة المجتمعة. وقال  
حسن:

- علمت أنّ زواج سلمان قريب؟  
فقال همّ جابر:  
- إن شاء الله. العقبى لك...  
- وليلة الفرح؟  
- قريباً جداً إن شاء الله.  
فنقر حسن بأصبعه على المكتب وقال بجراحة:  
- نحن جيران يا عمّ جابر وأحسبي غير من يحبي  
هذه الليلة!

واتّسمت حيناً سلمان الصغيرتين. إنّه لا يصلح  
أذنيه... ألهذا الغرض جاء؟! كيف غاب عنه أنّ  
نفيسة تفضّل الموت نفسه على البوح بسرّها لهذا الأخ  
الجبارا ونذت عنه ضحكة. وأردفها بأخرى. ثمّ  
انفجر ضاحكاً ضحكاً عصبياً لم يتالك معه نفسه حتى  
التفت حسن وأبوه نحوه في دهشة وإنكار، وسرعان ما  
أمسك. ثمّ خاطب حسن قاتلاً في أريحية وسرور:  
- لا كانت الليلة إن لم تحبها أنت...

وابتسم حسن في رضا وخلاف الأب عواقب هذا  
الوعد الأحمق فقال:  
- على العين والراس يا مي حسن. لا يمكن أن  
يوجد مانع من ناحيتنا، ولكنني أعشى أن يكون لوالد  
العروس رأي آخر...

فرمقه حسن بريبة ثمّ قال:  
- الرأي رأي والد العريس.  
فقال همّ جابر برقّة:  
- أنت من تفضّل يا مي حسن، ولكن أمهلني حتى  
أشاور همّ جبران التولي...  
فتفكّر حسن ملياً وقد أخذ دم الغيظ يجرى في  
مروقه ثمّ قال بلهجة ذات معنى:  
- شكراً لك يا همّ جابر. ولكنني أحبّ أن أذكرك

نفوسهم الاعتداء علينا وأنت مطرب ليلتنا!

فابتسم حسن في ارتياح وقال:

- إنك رجل كريم يا عم جابر، ولعلّ الأيام  
تسعدني بإحياء فرحك أنت إذا نويت الزواج مرة  
أخرى.

فضحك سليمان ضحكة من ينعم بلذة النجاة بعد  
الخطر المحقق. أما الأب فابتسم ابتسامة صفراء  
ورغمهم:

- عفا الله عنك...

وسعل حسن سعالاً مصطنعاً وقال بلهجة جديدة  
ودون تعلم:

- لا أحب أن أطول عليك. أنّي أن أذهب شاكرًا  
بعد قبض مقدم الألعاب...

فقال المجوز بجزع:

- الآن!

- غير البرّ عاجله. لست إلا مغنيًا متواضعًا لا  
تعدّي أفعابه - هو ونخته - الخمسة جنبهات، وأقنع  
الأب بجنبه واحد...

وصمت الرجل متحيرًا حينًا. ثم قال لنفسه والأمر  
له من قبل ومن بعده، وفتح درج المكتب وتناول جنبهًا  
ووضعه على المكتب فأخذه حسن وذهب وهو يقول:

- ربنا يتم بالخير...

- ٣٥ -

جاء الترام فركبت نفيسة وبحثت على الأثر صاحبة  
البيت. أرادت المرأة أن تصحبها إلى بيت عم جابر  
التوبي لتقدمها إلى آله بنفسها وقد أدخلت نفيسة زينتها  
وصنعت من وجهها غير ما يمكن أن يصنع منه  
وارتدت أحسن ما عندها من الثياب. ولم يكن يغيب  
عن شعورها لحظة واحدة ما في رحلتها من غرابة. وقد  
قالت لنفسها كثيرًا إنّه من الجنون أن تذهب إلى هذا  
البيت ولكنها لم تدرك كيف تبدّل هذه الفرصة السعيدة  
التي فرحت بها أمها أنّها فرح. والحق الذي لا مرية فيه  
أنّ حديثها لنفسها هذا لم يعبر عن حقيقة رغبتها، أو  
أنّه دأري هذه الرغبات مداراة لم تخف عنها. كانت تؤدّ  
رؤية العروس معها كلّها هذا من عتاء، وكانت رغبتها

من القوة والتغلغل بحيث لا يمكن مقاومتها. وليس  
يمكن القول بأنّها كانت تريد أن تقيس جمالها بجمالها،  
فهي تعلم بالبداية أنّها - العروس - أجمل منها، وليس  
في هذا من جديد، ولكن على رغم وضوح هذه  
الحقيقة ظلت رغبتها في رؤية الفتاة مشتتة لا تقاوم،  
وكأنّ رباها وثيقًا يصل أسبابها بأسبابها، ويقرن  
مصيرها بمصيرها. ولم تكن أفادت من أثر الصلدة  
العنيفة التي هورت نفسها وجسدها هرسًا، ولكنّ  
انقضاء أيام أحد الثورة الهائلة، في ظاهرها على  
الأقل، وأصل عملها مرارة سائمة وبأسًا مميّتا، وشعورًا  
معدبًا بالوحشة، كأنّها غريبة بين أهلها، شائقة عن  
المخلوقات، إلى إحساس بالظلم طارح بحث في نفسها  
رغبتين متناقضتين تناوبتا تناوبًا متواصلًا، رغبة في  
التمرد والجموح ورغبة في الاستراحة من الظلم  
والتعذيب حتّى الموت، وقد ركبت الترام وهي على  
هذه الحال، وتلّفت على اللقاء القريب وهاتان  
الرغبتان المتناقضتان تتعاوران. وغادرت الترام بعد  
محطات أربع، وألحقتها إلى شارع الوليد، ثمّ مالتا إلى  
عمارة كبيرة تقوم في أسفلها بقالة عم جبران التوبي.  
وصعدتا إلى الدور الثاني ودخلتا شقة به. واستقبلتهما  
سيّدة في الخمسين متوسطة القامة مفرطة في السمّة،  
بيضاء البشرة، فدخلن جميعًا حجرة الاستقبال، وما إن  
استقرّ بهنّ المجلس حتّى قالت السيّدة زينب صاحبة  
بيت نفيسة:

- هذه سيّ نفيسة، ومستهلّين لها بالمهارة  
والدوق.

فكانت السيّدة:

- حدّثنا سيّ زينب عنك كثيرًا. أهلاً وسهلاً...  
وألما التاء كأنّه سبّ وهجاء، وأغاظها واحتفها  
لسبب لا تدريه، وتزعزعت فثقتها في أعصابها أن يفلت  
زمامها من يدها. أمّا السيّدة فبالت نحو باب الحجرة  
ونادت بصوت مرتفع «عديلة» ودقّ قلب نفيسة،  
ورجّحت أنّها تنادي العروس وغيّل إليها أنّها تسمع  
سلمان وهو يصف بهذا الاسم، وخائلة يصفها إلى  
صلده وقد أذهلته حرارة العاطفة وراح يقول لها بصوته



يتجمع في أمهاتها لم تبق معه بالحقيقة والواقع.  
وصمتت العروس نهيبة ثم عادت تسألها قائلة:

- هل تسكين في عبارة ست زينب؟

فقالته مدفوعة بالإحساس نفسه:

- نعم. منذ أعوام طويلة. كان المرحوم أبي مولفًا  
بوزارة المعارف...

- أخبرتني بهذا ست زينب. ألا تعرفين أن يقالة  
العريس قريبة من هارتكم؟

وجدت شكة دامية في قلبها، وخضعت حينها أن  
تري الأخرى ما ارتسم فيها، ثم تهمت:

- تمنين عم جابر سليمان؟

- هو نفسه. العريس ابنه. ألا تعرفونه؟

- وأعرف أكثر منك!.. لن تعرفيه مثلي قبل  
أشهر!.. وستجلينه حيوانًا وغداً. قالت:

- نعرفه حق المعرفة. ألم تريه؟

- قابلته هنا مرة واحدة...

وسألتها بدافع لم تستطع مغالته:

- هل أصعبك؟

لفضحكت ضحكة كرهتها على أثر سماعها أضعافًا،  
وقالت:

- كانت الحجرة مزدحة بالمدحون، وأنت تعرفين  
هذا الموقف طبعًا!

فقالته بلهجة باردة:

- لست أعرفه.

فضحكت العروس قائلة:

- دعيني أسألك أنت التي تعرفينه حق المعرفة، ما  
رأيتك فيه؟

ودهمها السؤال. لم تكن تتوقعه. وانبارت القوة التي  
تغالب بها أصحابها. انبارت بقة كأنها انفجرت فيها

قبلة غصية. واجتاحتها موجة طاغية من التمرد  
والجموح والجنون، فقامت بصوت غريب:

- ليس هو من النوع الذي يحبيني...

وغاضت آثار الضحكة في عيني العروس، واتسعت  
عينها في دهشة وإنكار، وجعلت تنظر إلى نفسها لحظة

ساعة واجمة كأنها لا تصلق أنفها، ثم تساءلت

التهتج «عليه... أحبك، أحبك أكثر من الدنيا  
والأخرة معًا»، فهذا قوله عاده إذا أذهلته حرارة  
الإحساس. وهو قول كاذب أو هكذا كان بالنسبة  
إليها، والغالب أن الدنيا كذبة كبيرة. وتوجه رأسها  
نحو الباب، مثالة قانطة حاققة، وعلمنا سمعت وقع  
أقدام آتية داخلها إحساس آخر بالخوف فودت لو كان  
بوسعها أن تخفي، ولعله كان إحساسًا عارضًا  
سطحيًا. وجاءت فتاة في مقتبل العمر، متوسطة القامة  
كأنها بيضاء البشرة، بياضية الوجه، كبيرة القسيت  
ولكن في تناقض حسن، بيد أنها سمية لحد الإفراط.  
وتساءلت نفيسة في نفسها كيف تصير إذن إذا تزوجت!  
واضطربت في أمهاتها ضحكة ساخنة متوترة، لم ينج  
لها التنفس. وذهب عنها الخوف الماوض وشمرت  
باضطراب عصبي بذلت جهدًا شديدًا للتغلب عليه.

وتمّ التمازف وتبادل السلام دون أن تنبى غشية أن  
تخونها نبرات صوتها. ولدغتها الغيرة بقة فمزقت قلبها  
شر ممزق. هذه التي سلبتها رجلها، رجلها دون غيرها  
بعد ما كان، فلا توجد امرأة لها مثل ما لها عليه من  
حقوق، فكيف تكون هذه الجموسة عروسة وتكون  
هي الخاططة التي تمد لها ثياب العروس؟! من أجل  
هذا تستحق الدنيا أن تكون طعمة للزنان، ولن تكون  
أحى من الزيان التي تلتهم قلبها. وبه كيف تستطيع  
العمل بهذه الأعصاب المريضة؟! وغادرت المراتان  
الحجرة تاركتين الفتاتين معًا. وجاءت خادم بالأقمشة  
ووضعتها إلى جانب نفيسة على الكتبة فوجدت فيها  
مهرًا من أفكارها وراحت تنفخها باهتمام ظاهري  
وعيناها المنكستان تسترقان النظر إلى قلبي العروس.  
وسألتها العروس قائلة:

- هل سبق أن غطت ثياب عرائس؟

ودفعت إليها حينها فيها يشبه الدهشة كأنها لم تكن  
تتوقع أن توجه إليها خطابًا وقالت باستهانة:

- كثير جدًا...

- أظن هذا يجعل العمل يسيرًا عليك.

- لا أجد فيه أثرًا لصعوبة...

كانت إجابتها تعبيرًا عن إحساس بالتمرد والثورة

بغرابية:

- حقاً؟! ترى ما النوع الذي يعجبك؟

فكانت ببرود دون أن تفارقها هذه الروح الجنونية:

- دعك من هذا... اللهم أن يعجبك أنت، أليس كذلك؟

فكانت ولياً تفنّ من دهشتها:

- أظنّ هذا...

- مبارك عليك...

ولكنّ الفتاة لم تقبل أن ينتهي الحديث عند هذا الحدّ. فأفادت من دهشتها وكبر عليها قول الأخرى فثار بها الغيظ وقالت متسائلة في تهكم:

- وزيوناتك الأخرى من المراسم ألم يكن أزواجهنّ من النوع الذي يعجبك؟

وأدركت نفيسة ما في قولها من التهكم والتحدّي فتبادلت بها روح الشرّ التي ركبها واندفعت قائلة وكأنتها تلقى عبثاً نقلاً عن كاهلها:

- جميعهم جديرون بالإعجاب حقاً، فهم موكفون عزمون!

فاستنكرت العروس هذه الوقاحة التي لم تكن تتوقّعا وتساءلت بغضب:

- ألا يكون الإنسان عترياً إلا إذا كان موكفاً؟

فكانت نفيسة بصوت مرتعش التبرأت أصيهاها التحكّم ليه:

- أعتقد هذا...

فصرخت العروس قائلة:

- وإذا كان خيطة؟

فكانت نفيسة بهقد وغضب:

- لا عليّ أن أكون خيطة. إحقوقي طلبة متقفون،

وكان أبي موكفاً عترياً...

- حقاً لا يستاهل الرحمة كلّ المساكين ما دام يوجد

بهم من هو في قلّة أدبك!

- لا يدعشني هذا السباب من ابنة بقال...

فهيّئت العروس واقفة وهي تستغضب غضباً

وصاحت:

- يا بجمة، يا قلبلة الأدب، اغربي عن وجهي قبل

أن أدعو الخدم ليرموك خارجاً...

ونفضت نفيسة فاقدة الوعي، وتناولت بقبحة

الأقمشة وقلقتها في وجهها فانتثرت الحرائر على كتفي

العروس ونحت قدميها، وتلوت على الأرض في ألوانها

الزاهية، ثمّ خادرت الحجرة مهرولة وصراخ الفتاة

ينطلق وراءها بأقلد أنواع السباب، وتركّت الشقّة في

هوجة القرار. وتراحت أعصابها المتوتّرة وداخلها ارتياح

غريب. وكاد يغلبها الضحك ولكنّ هذا لم يدم طويلاً

فسرعان ما انقلبت واجبة متفجرة وبدا لها سلوكها على

حقيقتها. وما هذا الذي فعلت؟ سيقولون كلّ شيء

لست زئيب وستقول هذه بدورها كلّ شيء لأمي. لا

بدّ أن تغضب أمي وستحزن كثيراً على الريح الذي

أضمت بحياقي. ولكنني أقول لها إنّ العروس خاطبتني

بمعجزة، وأهانتني بلا سبب حقّ ثرت لكرامي. وإذا

لم تقبل علري أبثّ شكواي بصوت مرتفع ليلبلغ

مسمعي حسنين فيغضب لغضبي ويشور لكرامتنا

وينتهي كلّ شيء. هذا حسن. ولكن كيف اندفعت

إلى هذا! أيّ جنون! لم يكن في نقّي شيء من هذا

فكيف حدث؟ وضاع عمل مريح. ولكن لا داعي

للأسف. لديّ عمل لا بأس به في هذا الشارع نفسه.

لست آسفة على ما وقع. وانتهت إلى شارع شبرا ولم

يعد يرى من شعاع الشمس إلا أثر خفيف في أهل

الدور. وصارت على الطوار في اتجاه المحطة فمرّت في

طريقها بجراج لإصلاح السيّارات، وكانت غائبة عتياً

حولها في تيّار أفكارها، فما تدري إلا وشخص يعترض

سييلها وهو يقول وأهلاً وسهلاً ورفعت رأسها فرائت

شأباً ذا بنطلون وقميص خاكّين، مشعراً عن

ساعديه، يدلّ مظهره على أنّه من صالّ الجراج، فألقت

عليه نظرة شدراء وتنتحّت عن موقفه، ولكنّه اعترض

سييلها مرّة أخرى وقال:

- حلمك يا ستّ هانم، انظري إلى يسارك، هذه

السيّارة ملك العبد الله. وهي على قدمها تستطيع أن

تحمّلنا إلى أيّ مكان شئت، عسويك عمّد الفلّ

صاحب هذا الجراج ولا تخرا

فصاحت به:

البح. أما إخوته فالحق أنهم سُروا برؤيته بعد اختفائه الطويل. كانوا يجهّون كما كان يجهّونهم، وسألته نقيصة: - هذا هل حل السلامة. أين كنت طوال هذه الأسابيع؟

وتخلع الشاب سترته وطرحها على المكتب، ثم جلس على الفراش وقال بآس:

- أكل العيش يجب التعب! (ثم ملتفتاً إلى أمه)... ابشري يا ست أم حسن. أخذت نفراجاً فرفعت الأم رأسها ونظرت صوبه برية واهتمام معاً، ثم تحممت في شيء من الأمل: - حقاً؟!

فضحك سروراً يائلاً لاهتمامها بعد ما لاقى من تجاهلها وقال:

- سبق أن أخبرتكم بأن الأستاذ علي صبري ضمني إلى نخته...

فتنهت الأم في جزع وقالت:

- لا أعتقد أن هذا عمل جتني...

- لقد ذهبي الأستاذ منذ أسبوع إلى إحياء ليلة فرح ببولاق وذهبت معه لقاء ربال غير العشاء طبعاً. إلي أعلم أنه مبلغ تالفه ولكن الرزق دأبه التمتع بادئ الأمر...

فقالت الأم في ضيق:

- أتوسل إليك للمرة الألف أن تبحث لك عن

عمل جتني خير نفسك إن لم يكن لخبرنا نحن. ما عسى أن أقول يا حسن؟ ألا تعلم بأننا لا نكاد نشبع أبداً؟

وخفض عينيه في ارتباك. كان حب أسرته العاطفة الشريفة الوحيدة التي ينفق بها قلبه، ولعلها الأثر الوحيد الذي تركته أمه في خلقه. وغصم قائلاً:

- صبرك، لم أفرغ من كلامي بعد...

وهنا قاطعه حسين قائلاً:

- أظن أن علي صبري هذا يمكن أن يكون يوماً

مفتياً حقاً؟!

فرفع حسن حاجبيه الكثيفين في إنكار، وأراد أن

يزيل أثر حديث أمه في مرج:

- ابعد أولاً ناديت العسكري...

ففضحك الشاب وقال:

- لا داعي لذلك. أنا أحب النسوان ولا أحب العساكر...

- ٣٦ -

في الأسابيع التالية أذى الشقيقان امتحان النقل في ختام العام الدراسي، وكلل اجتهدهما بالنجاح فانتقل حسين إلى السنة الخامسة، وحسين إلى السنة الرابعة. كانا يعلمان أنه لا بد لهما من النجاح، وأن حال الأسرة لم يعد يحتمل العثرات، فواصلوا العمل بعزيمة صادقة وجاءت النتيجة كما يجبان. وبدأت العطلة الصيفية التي تمتد حوالى خمسة الأشهر فاستجذت متاعب جديدة للأم تتعلق بغذاء الشايق. وكانت الأم وابنتها تقنعان عادة بأبسط الطعام، وتعتمدان في الغالب على ما تجلبان من السوق من طعام جاهز اقتصاداً لتفقدت اللحم والسمن والورقود، فوجدت المرأة نفسها مضطرة إلى تعديل هذا النظام القاسي مهما كلفها الأمر من عناء وتعبير. وهكذا لم يترأ أحد بالنجاح إلا قليلاً، وبلدت الحياة وكأنتها تزداد مع الأيام تجهماً وتعالهمهم بمبوس بعد عبوس. وفي ذات مساء جاء حسن بعد انقطاع دام ثلاثة أسابيع متواصلة، وأقبل على أسرته ضاحكاً، كعادته، وكثيراً ما يداري بضحكته حرجه وارتبائه، وقال:

- مساء الخير يا أمي، مساء الخير يا أولاد.

أوحشتموني كثيراً...

ورد إخوته التحيّة وهم يرمقونه بدهشة، أما أمه فلبثت تنتظر فيما بين يديها معلنة على سطحها بالصمت والتجاهل. بيد أنها عدلت عينا كانت تلقاه به من التعنيف والحساب أو الحث على العمل. هيهات أن يجدي الكلام بعد ما كان. وألح عليها الحزن الذي يغشى نفسها كلياً فغرت في أمره أو وقعت عليه عينها. حتى السؤال عن غيابها الطويل لم يخطر لها على بال، وإنها لتعلم سلفاً بما آمد - طبعاً - من جواب، سيقول بصوت مؤثر إنه يغيضي حتى يوفّر عليها نفقة إطعامه وإيوائه، وإنه لا يني عن البحث عن عمل

- أحمًا ما تقول؟

- نعم ورحمة أبي...

- أجزأ؟

- خمسة جنينها، لك منها جنين كامل.

وسكت حتى تغلغل أثر كلامه في النفوس ثم ردّ عينيه بين شقيقه وتساءل:

- ما رأيكما في أن تملا محي ستيدين في التخت وكلاهما ذو صوت لا يأس به؟

وانفجر الشقيقان ضاحكين، وواصلوا ضحكهما، حتى قال:

- يا لكما من غبيين. هذه فرصة نادرة للاشتراك في البوفيه الحافل بما لذّ وطاب من المأكّل والمشارب.

ولم يكفّ الشبان عن الضحك في استهزاء، ولكن تمثّل لعينيهما منظر المائدة وقد صُفّت عليها الأطباق، وراح خيالهما يشب من طبق إلى طبق، في عجلة، وبلا رحمة، حتى صاحبت به نفسيه بحدّة وغيظ:

- أتريد أن تجعل من شقيقك متسوّلين في بيوت البقالين؟

فقهقه الشاب قائلًا لاخته:

- إني أدرك تعيّنك يا ستّ نفيسة فإنّ اعتدائك على العروس حرمك حقّ الدعوة إلى هذه الليلة، ولكن ما ذنب هذين المسكينين؟ ليس الأمر هوّا ولعبا ولكن طيورًا ولحومًا وفطائر وخضرًا وفاكهة وحلوى... ففكروا ثم فكروا...

ولم يجد لدعوته من صدق فهوّ منكبيه استهانة ولم يعد الكثرة. كان حسن النية وأراد لأخويه خيرًا ولكنّ حماقتهم صيّمت عليهما هذا الخير، هكذا قال لنفسه في أسف. ولم يشاركه الشقيقان أسفه ولكنّ نفسيهما اهتزتا في حنان لذكر الطيور واللحوم والفطائر والخضر والفواكه والحلوى. ونشط خيالهما في حسرة وألم زاد من شدّعهما اقتراب وقت العشاء الذي يندر أن تعترف به أتمهما. لم يكن للأسرة عشاء عادية، وكانوا يتحامون أن يجهروا بالجوع أن يضاحفوا من تماسة أتمهم وسخطهما، فلاذ الشبان بالتخيّل دون أن ينس أسدهما بكلمة، على حين عكست نفيسة على الكارها، وهي أبعد ما

- سفضخص على هذا البلد الذي لا يفترّ الأستاذ على صبري فتان كبير. إنّ ديا ليل، منه شفاء ودواء. هل سمعته وهو يتنقل من البياني إلى الحجاز ثم يعود إلى البياني؟ لم يفعل هذا إلّا الحموري، وسلامة حجازي مرة أو مرتين. أمّا محمد عبد الوهاب فإذا خرج من البياني فقل أن يعود إليه إلّا في حفلة تالية. وليس يعيه أنه أسيا ليلة جنينها معدودات فلا يزال في أول الطريق، والتاريخ يحذّنا بأن من كبار الفنّانين من أسيا أولى لياله لقاء بضعة أرغفة! وضحك إخوته لهدره أمّا الأمّ فتنبّهت قائلة:

- سلّمت أمرك لله!

فالتقى عليها نظرة من على وقال:

- لنندح حديث الفنّ جانبًا. اللهم أن تعلمي أنّي ساسحي حفلة عرس هذا...

- في تحت على صبري؟

- وحدي! ساسحيها بنفسي!

ونظرت الأمّ نحوه بإنكار، وسالته نفيسة:

- أصبحت مطربًا حقًا؟

- يحدث أحيانًا أن يُختار أحد أفراد التخت من المشهود لهم لإحياء حفلة كمطرب. خطوة لها ما بعدها...

وسألته أمّه بلهجة لا تخلو من مهمم:

- ومن الذي دهاك لإحياء ليلته؟

- عمّ جابر سلمان لإحياء ليلة زفاف ابنته سلمان.

ونخفضت نفيسة عينيهما وقد خبا حاسها، وزان على نفسها كدر غائق...

ودهشت الأمّ وخاطبت حسن متسائلة وهي تومئ إلى نفيسة:

- بعدما حدث؟

فضحك حسن قائلًا:

- تمّ الاتفاق بيننا قبل معركة ستّ نفيسة في بيت العروس، ولم يجرؤ الرجل على خرقه!

وساد الصمت قليلًا والأعين تحدّق فيه في غير تصديق، كان في صوته حلاوة ولكن ليس للدرجة التي تجعل منه مطربًا. وأخيرًا سألت أمّه في حيرة:

الحتام فكان عقب انتهاء الحفلة وقد التفت حوله أفراد التخت يطالبونه بأجورهم فقال لهم ببساطة:

- أليس حسبكم ما التهمتم من طعام؟

- والأجرة؟

فقال بوحشية:

- خلعوها بالقوة إن استطعتم!

وانفصلوا عنه ساخطين غاضبين يائسين. شيء واحد أسف له أشد الأسف هو أن أسرته لم تشاركه طعامه الشهى، أنه ونفيسة وحسين وحسين. وكان يوده أن يعطي أمه فوق ما أعطى ولكن شرته الطويل علمه الحرص. على الأقل ما دامت هذه الحال. وما هو يقصد كلوت بك، بل درب طياب بالذات حيث يتنظره علي صبري الذي منه بضروب من العيش توافق مزاجه وتلهب حماسه. وكان علي صبري قد أخبره بأنه ينتظره في قهوة وسط الدرب أمام بيت زينب الخنفاء، فارتقى السلم المفضي إلى الدرب وحس خطاه بين بيوت مغلقة لم تستيقظ بعد. وجد الدرب كالقفز حتى المقاهي الصنيرة كان عائلها يفضون عنها رماذ سهرة الأمس. ويلغ وسط الدرب ورأى الأستاذ علي صبري جالساً أمام باب القهوة فأنه إليه وسلم وجلس على كرسي إلى جانبه. لم تمد قهوة كما كانت يومًا ما، ولكنها باتت مشروع قهوة جديدة إذا صدق ظنه، فبعض العمال يكفون على تبيض الجدران وإعدادها للحال الجديدة. قال علي صبري مزهواً:

- هنا حيث ترائي جالساً سنبداً حياة جديدة. . .

فولت حسن الدهشة لأنه لم يكن سمع عن هذا المشروع على كثرة ما سمع عن مشاريعه وتسامل:

- والتخت والأفراح؟

فبصق الأستاذ بصفة أصابت جدران بيت زينب الخنفاء أمامها - وكان لا يزال مغلقاً - ثم قال:

- سيعمل التخت في هذه القهوة. أما الأفراح فربما يجعلها ماتم. انتهى زمان الأفراح، ولا نسمع الآن إلا عن «حفل عائلي» اقتصر على آل العروسين والراذيو احتكرته أم كلثوم وعبد الوهاب وشرقة من المطربين المختصين بالنشاز، وهيئات أن يكون لنا عيش في هذا

تكون عن لذة الطعام، ولذة الحياة عامة. وقعا حديث حسن إلى أشجائها وبأسها وخاوفها، وتساءلت في دهشة أحقاً يجي حسن - شقيقها - ليلة الزفاف؟

- ٣٧ -

وحوالى التاسعة من صباح اليوم التالي لليلة الزفاف كان حسن يسير في ميدان الخازندار متجهاً إلى كلوت بك حيث دعاه الأستاذ علي صبري إلى مقابلة. وكان متعباً عقب سهرة الأمس التي لا زالت ذكرياتها تدور برأسه. كانت ليلة وكان جريئاً ليس كمثله جرائه شيء. وقد شق طريقه في السرايق الذي أقيم على سطح بيت عم جابر سلهم بقلمين ثابتين حتى بلغ المنصة بين أيدي تصف وحناجر غيت للمغني الجديد، وردت تحياتهم برزاقه وجلس وسط تحته المكون من عود وقانونجي وكمانجي عملوا معه كعازفين وسيدة ممّا. ثم غنى «قد ما أحبك زعلان منك» وما لبث أن لمس بنفسه الفتور الذي استحوذ على الجميع، ولكنه واصل الغناء دون مبالاة، وأكثر من الشراب. وهند يده الوصلة الثانية تصايح كثيرون يطلبون «في الليل لينا غلى» ولم يكن يحفظها فغنى «بستان جالك» وسرهان ما انقطعت الأسباب بين المدهوّن والمطرب، هذا يذبح صوته بفناء لا غناء فيه وأولئك يشربون ويضحكون ثم بلغ الحرج غايته حين وقف سكران مترنماً ولال بلسان ثقيل موجهاً خطابه للمطرب:

- والله لو لم تكن فتوة لقلت لك اسكت. . .

وعرفه حسن، كان حداداً في أول عطفه نصرائه، وتوعد شراً ولكنه وأصل غناؤه «والله زمان، زمان والله والله زمان، زمان والله ذكر هذا ضاحكاً وهو يحدّ خطاه ثم قال لنفسه: «ما كان كان. لا داعي للأسف ما دمت قد انتزعت الخمسة جنيهات». وليس هذا لحسب، وهل يمكن أن ينسى اليوفية؟ لشد ما أبل فيه بلاه حسناً وقد بلغ القمة حين ازدرد حمامة بعظماها. لم يكن أكلاً ولكن كان التهاماً وخطفاً وسبلاً وعرائكاً، وبلغت المعركة ذروتها حين فرغت صحيفة اللحم البرقي فما كان منه إلا قبض على يد المدعو الذي يليه واستصفي ما فيها من شرائح. أما حسن

البلد...

وقوة وجرة لمن لها؟ أنت!

فقال حسن متظاهراً بالاستياء:

- صدقت يا أستاذ (وسكت لحظة ثم تسام) ولكن ماذا يفعل التخت هنا؟

فمد الأستاذ ساقه فبلغنا منتصف الطريق الضيق وقال مشيراً إلى القهوة التي يعدّها المآل:

- إليك قهوة بالنهار، وحانة بالليل وسيرقص فيها نسوان الستّ زينب الخنفاء - وهي حل فكرة شريكتي - وبين ساعة وأخرى أغني، جمال العمل واسع، والرزق مضمون. ولكن عليك بحفظ أغاني عبد الوهاب يا حلو..

- لا أكاد أحفظ منها شيئاً!

- لا بدّ مما ليس منه بدّ. وطاقيق آم كلثوم أيضاً، هذا حكم الزمان!

فقال حسن ضاحكاً:

- ربّنا معنا.

فقال عليّ صبري باطمئنان:

- إني متفائل خيراً. هذا المكان مبارك، وهو أصل ثروة عمّد العربي نفسه.

وتسامل حسن من أين للأستاذ الثروة التي يبدأ بها هذه الحياة الجديدة؟ زينب الخنفاء؟ هي فوق الأربعين حل أحسن الفروض، وليس بها من جمال فيها عدا جسمها البقري، ولكنها لقيمة وذات ساعدين مثقتين بالذهب. لا داعي للحسد ما دام سيحفظي بتعصبي من هذه الثروة. فُرجت، ولعلّ ليالي التسكّع والجوع قد غارت إلى غير رجعة. ثم سمع الأستاذ يقول:

- ولكنّ عملك كسّيد ثانويّ بالقياس إلى ما يُنتظر منك!

- وماذا يُنتظر منّي؟

ألقي سؤاله بثقة وزهو كأنه عالم حقاً بما يُنتظر منه، فقال الأستاذ:

- إنك أدري الناس بهذه الأحياء، فهي كلّ متر مربع بلطيحي أو بريحي أو سكر عرييد فمن هؤلاء؟ أنت! وهناك المخدرات وتجارتها فنّ هائل يطلب مهارة

وابتسم حسن ابتسامة عريضة، ظلّت مرتسمة على شفثيه طويلاً. ودخله سرور وحماس وفخار. هله في الحياة حقاً، حياة تدبّ تحت مهاوي النبايت ومساقط الكراسي وفي دهاليز العرّز، حيث السماء ذهب والأرض أشواك والطريق مسارب شتى يفضي بعضها إلى اللّلة والعزّة وبعضها إلى السجن والموت فهنا وطنه ومراحه، وما هو بالغريب في هذا الدرب المتعرج المتلاطم الشرافت، حيث تختلط آهات الدلال بعواء المريدة، وأريج البخور بعرف الخمور، وسباب المتعاريض بقيء المخمورين، إلى غناء وعزف وقصف. يوسعه أن يقضي بين أحضانها أعماراً دون ملل، يأكل ويشرب ويربح ويسكر وعشش ويفغّي. وأشرق وجهه بنور الأمل وألقى على ما حوله نظرة. كان السكون يتبدّد تحت وقع أقدام القادمين، فهذه ضحكات معطوطة، وأرداف متارجعة، ونظرات فاجرة عارمة. وفتحت الأبواب وأحرق البخور، وصفت المقاعد، وطلّقت ضحكة ولعلمت أخرى... صباح الخير..

- ٣٨ -

قال حسنين بتأثر:

- شكراً للصيف!

فتساءلت في حياء وهي تدرى ما يعني:

- لماذا تشكر الصيف؟

- لأنّه جرّك من معطفك السميك فتبدّدت لي

فستان يجلو عحاسنك ومفاتنك...

فتورّد وجهها، وتطّبت تداري لمسة السرور الذي

يعمّها الشتاء، وقالت:

- ألم أهلك عن هذا؟ لا تفتأ تتساعى في ما

يضايقي...

وأصغى إليها حل شفثيه ابتسامة حائرة، وعيناه تلتهجان جسمها البقريّ بارتياح. فستان مؤدّب محتشم ولكنّه حل تحفّظه يكشف عن الساعدين وأفضل الساقين والعتق الرقيق الشفاف، وبشي بقسات الجسم اللدن المدملج. ثمّ علّق بصره بالمشربّة الدخيلة

- إني أعجب ألا تؤذين حقاً أن تطيع شفتاي على شفتيك؟

نفخت في غيظ قائلة:

- يَشْرِكْ بلا شك أن تغيظني!

- وأن تستنمي إلى دقات قلبي وفراعي تشدان على خاصرتك؟

فأعرضت عنه عابسة، فقال في ضيق:

- إذا لم يكن هذا هو الحب فما هو؟

فغمغمت في توسل:

- كما كنا طوال العهد الماضي...

- لقاء وحديث واحترق!

- لقاء وحديث فحسب.

- تكلمين على نفسك.

- ساعك الله.

- أو تحمين بلا قلب!

- ساعك الله.

فضرب الأرض منيغماً عتقاً وجعل يذهب ويحيى أمامها في حيرة وجبوس، فلما في وجهها القلق وقالت:

- اعطتلك أنك تناسبت طلباتك المزعجة وطبت نفساً بحياتنا الوديمة اللطيفة لها الذي ينزع بك اليوم إلى إلحاحك الخفيف القديم؟ كن طفلاً مهذباً وأمسك عن الإلحاح والطمع. الحب الحقيقي لا يعرف هذا العبث...

فهز رأسه في قهر ورأس وجيب. وما أدراكها بالحب الحقيقي؟! أي لغز؟! أحبه حقاً؟ لا يسهه أن يشك في هذا، ولكنه حب لا يفهمه، أو أنه لا يستطيع فهمها هي. يا لها من شابة زينة هادئة. حيناً زرقاوان صافيتان، ليس لهما فزة من شططة أو خفة، ولا حرارة، باردتان. ومن عجب أن يكون هذا الجسم الفتان لصاحبة هاتين العينين الهادئتين الباردتين. إن نار الحب لا تُروى بالماء ولكن بنار مثلها. أو أشد منها. وهكذا يمضي اليوم كما مضى الأسس وكما يمضي الغد، بلا أمل. وكثيراً ما يبدو له أن حديث الحب يزعجها ويقلقها، وأنها تشرة طمانيتها حين يشوبها إلى الصمت، أو إلى حديث آمالها البعيدة، وهي لا تمَلْ

المكورة فوق الصدر صوّرتها الحياطة حقاً لشديين ناهدين يكادان لشدة نبوضها يطيران لولا ما يسكنها من صدر أبيض صافٍ، تحيل أنه يدغدغهما بأنامله فانبعث في جسده قشعريرة الرغبة، وتحيل أنه يشد عليها وأنها يقاومان الشد بصلابتها فازدرد ريقه في ظمأ. ولكنها لا تريد ولا تسلمح وتصرّ على عنادها بغير هواده. وكان يظنها تلين مع الزمن ولكن لم يعد ثمة أمل وقال بحزن:

- هبة، إنك تتكلمين بقسوة شأن من لم يلق قلبه الحب...

ولاحت في عينيها نظرة اعتراض وقالت:

- إني أنكر الحب الذي تريد، وإنك تسيء فهمي عمداً...

- ولكن الحب واحد لا يتجزأ...

فالتت بإصرار وحدة:

- كلاً، كلاً، لا أوافقك على هذا الرأي.

فتنهّد في قهر وألقى بنظره إلى الأفق البعيد. كانت الشمس قد توارت خلفه ورامها حالة حواء مترامية، أنصاها حرة دامية، تحفّت عند الوسط كأنها تقطر من ورد مصفى، ثم تشحب عند أطرافها الدانية حتى تبتلعها زرقة عميقة صافية تمنمها هنا وهناك سحاب رفاق كتبتدات وانية. وارتد بصره إلى وجهها وقال برجاه:

- إني أحبك، وإني خطيبك، وما أريد إلا أن يحظى حبنا بحقه من الحياة البرية...

فنجلت في عينيها الحيرة، وبدت حبناً وكأنا تتعذب، ثم قالت:

- لا أستطيع ولا أريد...

فابتسم ابتسامة لا معنى لها وقال:

- إنك تدفعيني إلى أحضان وحشة غريبة لا أطيقها. إني أتمرّق إلى أن أطبع قبلة على شفتيك وأن أضمك إلى قلبي. هذا حقّي، وحقّ حبنا...

- كلاً، كلاً إنك تخيفني...

- ألا تخميني؟

- لا تسال عما تعلم...

الحديث من هذه الآمال، وبه تنسى نفسها والزمان والمكان، فتشع عيناها نورًا بهيجًا، وتتدفق في أطرافها حيوية جديدة. وفي هذه الساعة يجتمع قلبه بيد أنه حب لا يخلو من تكبر، أو من غيظ وحتى في بعض الأحيان، ويتقلب متسائلًا لماذا لا ينشرح صدرها أيضًا بالحب نفسه؟ لماذا تخافه وتخجل من ذكره وإشارته؟ ولأن يبق هذا الحجاب قائمًا بينه وبينها؟ وتقرس في وجهها طويلاً فيا يشبه الحق ثم تسأل:

- هل أكابد هذا الحرمان إلى الأبد؟

وابتسمت - على رغمها - وقد زادت الابتسامة من حقه وقالت:

- ليس إلى الأبد!

وشعر برجفة في قلبه، رنا إليها لا يحول عنها عينه ثم قال بالفتاب:

- الزواج؟!

نخفضت عيناها حتى لم يعد يرى إلا جفنين مسدلين وخدين موردين، وحينذاك شبت بنفسه رغبة في الانتقام والإيذاء ولو باللسان فقال:

- وإذا تم الزواج بذلت في ما تتمتعين عنه بنفس واضحة أليس كذلك؟ تبهيني شفتيك وصدرك وجسديك وتنزهين عنك ثوبك فتبدلين عارية كالبلور...

ولكنها كانت قد غادرت كأنها تفرّ وحكت خطاها نحو باب السطح. وكانت الكلمات تُلغف من فيه بحرارة وحتى وثقت.

- ٣٩ -

أصبحت قهوة علي صبري ملهى صغيرًا بما تحفل به من غناء ورقص ولحن، وقد رُجبت على هامتها لافتة كبيرة شكر عليها بالخط المريض وعلي صبري. وأقيمت في نهايتها من الداخل منصة للتخت، ونُصّدت الموائد والكراسي على الجانبين وحذاء مدخلها. وكان الأستاذ علي صبري قد انتهى من الوصلة الأولى وآس الجلوس بكتوسهم وسميرهم، حين جاء زنجي - طويل رشيق مفتول العضلات بتطاير الشر من عينيه - فوقف على عتبة القهوة وصاح بصوت مرفق:

- أين صاحب القهوة؟

فجاءه الأستاذ علي صبري مداريًا دهشته بابتسامة باهتة وتسأل:

- أفتد؟

فقال الزنجي بتحد:

- سمعت أن لديك أقدر خمر توجد في، هذه الناحية، وليا كانت الخمر الجيدة لم تعد تؤثر في، فقد قصدتك لاسكر...!

وأزاحه عن سبيله بحركة خفيفة وألججه صوب مائدة يجلس إليها نفر من الأفندية فألقى عليهم نظرة وحشية وقال بلهجة أمرة:

- أدخلوا هذه المائدة!

ولم يتسع الأفندية إلا أن ينهضوا صامتين وغادروا القهوة، فجلس الزنجي على كرسي وطرح ساقيه على كرسي آخر وهو يقرس في الوجوه بتحد وقحة. واقترب صبي القهوة من الأستاذ علي صبري وهمس في أذنه قائلاً:

- محروس الزنجي. فتوة رهيب يعرفه الحى كله...

لساله الأستاذ بقلق:

- ترى هل يمكث طويلاً؟

- إنه يرتاد ما يشاء من القهوات فيأكل ويشرب دون أن يمرؤ أحد على مطالبته بشئ مما يلتمه، ولعله جاء ليعرفك بنفسه، أو لعل...

وتردد الغلام قليلاً فحثه الأستاذ قائلاً:

- تكلم...

- لعل أحد أصحاب المقاهي في الدرب اتفق معه على تخريب قهوتنا...

واختلس علي صبري نظرة من الزنجي فرأه كالنائم، أمناً مطمئناً كأنه في بيته، وقد أحل الزبائن الموائد القريبة منه، فانتفض قلبه خوفاً وإشفاقاً، ثم تراجع في سكون إلى منصة التخت حيث يجلس حسن مع بقية الأفراد، وأوراً إليه ثم انتحى به وراء المقصف، وأسر إليه ما قال الغلام ثم سأله:

- ألا يحسن بنا أن نستهدي المعلمة زينب الخنفاء



وصاح به:

- عليك وعلى أهلك اللعنة، ماذا تريد؟  
وحافظ حسن على هدوئه الظاهري، وقال بنبرات واضحة:

- سمعتك تهتف طالبًا كونياك فأريت من واجبي أن أخبرك بأن الدفع هنا مقدم...

ف سحب محروس سابقه من الكرسي أمامه وأغرق في ضحك طويل مفتعل وهو يضرب على ركبته من شدّة الانفعال، ثم أخذ يبتغي من انفعاله حتى ذهب عنه الضحك، ورمى ببصر هائز إلى الشاب، وتساءل سائرا:

- حامي القهوة؟.. هه؟

فقال حسن يهدوء:

- وأحب أن أقول لك أيضا إن هذه المعاملة خاصة بالزبائن غير المحترمين...

ومرت ثوان، وفي أنفائها كان الزبائن القريسون يتدافعون إلى خارج القهوة، وامتلا الطريق إليها يلي مدخل القهوة بالمزّة والنسوة من كل لون ورس، حل حين نشط عمال المقصف إلى إخفاء القوارير وما يخافون عليه من التلف من الأكواب والألات الموسيقية وغيرها. وجد محروس وعلى شففيه الغليظتين بسمه هازلة، ثم دفع قدمه بفتة بقوة فاصابت ساق حسن اليسرى فمال مترنحا إلى الوراء. كان يراقبه بيقظة وحذر بيد أنه ركز انتباهه في يديه متوقفا أن يقلده بشيء أو يشير عليه خنجرا فلم يتبّه إلى ذليفة قدمه حتى كانت منقضة عليه، فانكمش مناسكا، وتغادى بهذا من السقوط، ولكنه مال إلى الوراء مترنحا وهو يعض على نواجذه ليتغلب على الألم الذي بعث جنون الغضب في دمه. ولم يدعه الزنجي ثانية واحدة فوثب عليه كمن يثب إلى الماء، وخاف حسن أن يؤخذ فرصة سهلة فأسلك عن مقاومة الميل إلى الوراء وقفز إلى الخلف بسرعة عجيبة فاستسلم بجدار القهوة زائفا من خصمه الجبار. ولم يسمح له الزنجي بثانية يتألك فيها توازنه فانقض عليه مويها ضربة إلى بطنه فحال الآخر دونها بيديه، ولكنها كانت ضربة خادعة. قصد

لتعالج هذه المصيبة بحكمتها؟

فقال حسن وهو يتفحص عن بُعد الزنجي محروس:

- لا أوافق على أن نستغيث بامرأة. لن نتجدي هذه السياسة في هذا الدرب، دع الأمر لي...

- يقولون إنه فتوة شديد البأس.

فابتسم حسن قائلا:

- هذا ما يقال عني أيضا ولكن أهل الدرب لا يعلمون، دع الأمر لي...

وخطر له خاطر فقال لنفسه سائرا: ولست أتي رجحا التي تكابد من حياتها المرّ في سبيل العيش! ثم قال للأستاذ:

- ستكون معركة شديدة، لكن هيهات أن يكون لنا

عش هنا بلا معركة ظافرة!

- وإذا لم تكن ظافرة!

- اعتمد على الله وعلى...

لن يفر من المعركة مهما تكن النتيجة، وهل من سبيل إلى رفع مكانته عند الأستاذ وفي الحيّ كله إذا تغاضى من هذه المعركة؟ ولعلّ عليّ صبري على حق في تحوّه، فالقهوة قهوته والمال ماله، ولكن مستقبله هو يتوقّف على نتيجة هذه المعركة، وفي سبيل هذا فليذهب عليّ صبري نفسه إلى الجحيم. ولا ينبغي أن ينسئ إلى هذا كله فتبات زينب الحفظة بما من سبيل إليهنّ إلا بنصر إن أجلا أو عاجلا، فحسكه في الحياة، وربما حظ أسرته المنهارة - خطرت له هذه الحظارة كلعني المتداعي - يتوقّان على غوض المعركة.

وتحرّك الزنجي محروس وهو يتمسك ويتجشأ ثم صاح بوحشية:

- أين الكونياك الفذر الذي حدّثونا عنه كثيرا؟!

وغادر حسن موقفه في ثبات وهدوء واقترب من الزنجي بخطر ويهد حتى وقف أمامه، ثم قال يهدوء:

- سلام عليكم!

فرفع الزنجي عينيه الملتهيتين صوبه في تكبر، وتفتّص جسمه الصلب وعينه البراقين برية وشر، ثم عبس في حق فاستحال وجهه هيئة غير آدمية

ثم أحسَّ ييد توضع على كتفه ورأى الأستاذ علي صبري يتسهم إليه بوجه تعلوه صفرة الموت، وسمعه ييمس في أذنه:

- تعال معي أقدم لك كأساً من الكونياك...

فسار معه دون أن ينس، وجلس على كرسيه على منصة التخت وجاءه الرجل بكأس مترعة فتجرعها، وطلب أخرى فأحضرها له، ثم قال بإشفاق:

- لشدة ما تعبت!

فغغم حسن بثقة:

- كانت معركة لا بد منها.

وجاء النادل يقول ضاحكاً:

- أطلق الناس عليك لقب «الروسي» لائق صرعته برأسك!

وشعر حسن برغبة في تحاشي الأنظار، فقال لعلي صبري:

- دعنا نغش أثر المعركة فابداً الوصلة الثانية...

- ٤٠ -

استعاد حسن توازنه بفضل قوته وحيوته واعتياده العراك يومًا بعد يوم. وكان الليل قد جاوز منتصفه بساعة أو أكثر، وأعلنت قهوة «علي صبري» تلفظ آخر المترنحين من رؤادها. وأطفئت الأنوار الخارجية في الدرب فساده شبه ظلام ومضت البيوت تغلق أبوابها مفتوحة سهراتها الداخلية التي لا تنتهي عادة قبل الفجر، على حين مرَّ شرطيان ييزان الأرض بوقع أقدامهما الثقيلة. وكان حسن يجلس على كتب من علي صبري في نهاية القهوة يعلقان على إيراد الليلة حين قصدهما غلام يعمل نادلاً ببيت زينب الخنفاء فحياما ثم مال على أذن حسن وهمس هاسماً:

- بعضهم يريدك...

وسمع علي صبري ما همس به الغلام فلاح الاهتمام في وجهه وتحم:

- امرأة؟!

فقال حسن بعدم اكتراث:

- أظن هذا...

- ألا تفضل مثلي الحب الطياري؟

بها محروس أن يكشف خصمه عن عنقه، ويسرعه البرق قبض يديين حديديتين على رقبته وضغط برحشية ليكنم أنفاسه. وبدا للجميع أنَّ للمركة في حكم المنتهية، ودارت الأرض بعلي صبري، وابتضت وجوه رجال التخت والعامل، وتبادلوا نظرات زائغة لا تخلو من دعوة إلى العمل. ولكنَّ أحدًا منهم لم يجرؤ ساكنًا، أما الفتيات فصرعن في الصوات استقبلاً للجنة التي ستقع. وتأكد حسن بعد تمكّن خصمه من عنقه - وفي يده غيبوبته - بأنه لا قبل له بفك الحصار القاتل، وأنه مائت لا محالة إذا توالى، فعضَّ على نواجذه وشدَّ على عضلات رقبته ليركز فيها قوته، ثم نثى ساقه اليمنى وطعن أسفل بطن خصمه بركبته بكلِّ ما تبقى فيه من قوة. وشعر في اللحظة التالية بترامي قبضة الزنجي حول رقبته فاستطاع أن يتنفس وهو يرحف حقداً وحنفاً، ثم ثأماً بطعنة أخرى، حدث هذا كله في نصق الدقيقة الأولى لمحاولة كتم أنفاسه، وانفكَّ الحصار، وتراجع محروس بوجه تنعقد في عبوسه الضمنية وحينئذ تغشى نظراتها الحمراء سحابة ذمول قاتمة. ولم يضع حسن وقتاً مطمئناً إلى سيطرته على الموقف فانفضَّ على خصمه الذي بذل مجهوداً جبّاراً للتغلب على الله ونطحه بجهته بقوة خارقة في رأسه، مرة أخرى، فكان لا صلدامها طقطقة تقشعر لها الأبدان، دون أن يشبه عن هدفه ما كالم الآخر من لكيات مزلزلة. وتفرَّج الدم من رأس محروس وسال على وجهه كأنه لب ينبت من قطران، وبدا وكأنه يترنح من دوار، وتغلب حسن على آلام ساقه وعنقه وصدره ووجهه لعنق خصمه المكشوف ضربة من حافة كتفه - كالسكين - فشقق الزنجي وسقط على الأرض غائباً عن الوجود. وقف حسن عند رأس خصمه وصدره يعلو وينخفض، تنزه نسوة الظفر، وتهرس عظامه آلام قاسية أخذ صراخها الباطني يتعالى بعد زوال الخطر. ولعلَّه لو غابت العين لارتضى أن يرغمي إلى جانب خصمه ولكن أقام ظهوره الأبصار المتطلعة إليه فتجلد وتماسك، واثثال على أذنيه صراخ وغوغاه وضجيج، وشعر بحركة غريبة تسري في القهوة كلها،

الباب منتظرًا أن تألف عيناه الغلام. وساد صمت شامل حينًا ثم مضت أذنائه تلقطان حَسَّ أنفاس ترتدُّ، فصغى إليها مبتسًا، وتوقَّع قولًا أو فعلًا ولكن لم يحدث شيء، وألججه على مهل إلى يساره متسميًا الأنفاس المترددة حتى مسَّت ركبته شيئًا صلبًا، جسَّه بيده، فأدرك أنه حافة فراش خشبي، ووقف ينظر إلى أسفل بعينين برّاقتين حتى شَقَّت الظلمة الشاملة عن كتلة مظلمة ممتدة لا تبيِّن لها معالم. وهوى إليها بهامه رويدًا رويدًا حتى انفرست أظلمته في لحم طريٍّ ثم انبعثت تحت أصبعه رقيقة ونَدَّت عن الظلمة ضحكة مكتومة...

\*\*\*

ثم أضاء النور وأخذ يرتدي ثيابه. وأخرج من جيبه نصف ريال ووضعهُ على الفراش والمرأة تراقبه بعينين ضاحكتين، ثم وثبت إلى أرض الحجرة وسارت بجسمها العاري إلى صوان ففتحته وعادت بورقة من ذات الخمسين قرشًا وحطَّتها فوق نصف الريال دون أن تنبس بكلمة، فتسالم ضاحكًا:

- أهو الباقي؟

فقالت بدهوه:

- أجرك!

وأتم ارتداء ثيابه في هدوء متظاهرًا بعدم الاكتراث ضابطًا عواطفه حتى لا يَشمَّ وجهه من فرحه، ثم تناول النقود ودسَّها في جيبه. وسألكه وهي ترمقه بنظرة عميقة:

- تراقن؟

فقال مستعيا بالكذب:

- لي رغبة!

فتسالمت في اهتمام بدا في لمة عينيها:

- في هذا الدرب؟

- في الآخر.

- الفرنجية؟

- بنت عرب!

وساد السكون دقيقة، ثم سأله:

- ألا تزال لك فيها رغبة؟

فابتسم حسن ابتسامة ذات معنى وقال:

- لكنته حبٌّ لا نفع فيه. انتظر وسنرى...

ودَّع الأستاذ وقام ثم تبعَ الغلام إلى البيت الذي يواجه القهوة، وطرق الغلام الباب ففتح عن شقٍّ في حذر ففرق منه الغلام وتبعه حسن، ثم أغلق الباب. ووجد حسن نفسه في مدخل البيت وقد انتثرت على الكنبات بأركانه فتيات، اتحت كلُّ برجل تشاوبه وتداعبه، وحل كرسِي في الصدر جلس رجل ضريع ينفخ في الناي، على حين أخذت المعلمة زينب الحنفاء يجلسها على أريكة عالية ملفَّقة بملابها السوداء وحل وجهها برقع ذو عروس ذهبيَّة كبيرة تخفي به أنفها المتكامل. وألقى حسن على الحاضرين نظرة متشخصة فلم يَرَفْة خالية، ولكنَّ الغلام مال إلى السائر المسدل على مدخل السلم وأزاحه ودخل فتيحه، وارتقيا الأدراج ممًا في سكون حتى تسالم حسن:

- من هي؟

- الست سناء...

وذكرها لثو، امرأة عُرفت بسمعتها العميقة وشعرها الجعد وجسمها المكتنز، واشتهرت بشفتين غليظتين وعينين دعجاوين وكانت تجلس سحابة النهار على كرسِي عند مدخل البيت واضعة ساقها على ركبتيها كاشفة عن فخذيها حتى السروال الحريري الأبيض. وانتهى إلى الدور الثاني وسارا في دهليز طويل يفضي إلى صالة صغيرة تعلّق بها أبواب ثلاثة، ومضى الغلام إلى الباب الأوسط وطرقه ثلاثًا فجاء صوت له رنين النحاس يبتف:

- ادخل...

ودفع الغلام الباب قليلًا وتَنَحَّى جانبيًا فتقدَّم حسن إلى الداخل وقبل أن يردَّ الباب وراه شعر بيد الغلام تربَّت ظهره فالتفت صوبه فضحك الغلام وقال وهو يبتعد:

- اقرأ لنا الفاتحة...

وأغلق الباب فوجد نفسه في ظلام داس. وحذَّته نفسه أن يتحسَّس وضع الزرِّ الكهربائي ليضيء الحجرة ولكن سرهان ما عدل عن خاطره، ووقف مستندًا إلى

فلم يشأ أن يجيب بلا أو نعم، قائمًا بابتسامته ذات معنى، فسأته ضاحكة:

- أين تقطن؟

- شبرا.

- ما أبعدنا عن مكان عملك، هل ثمة ما يضطرك إلى المبيت هناك؟

- كلاً...

- مسكني قريب في عطفة جندف بكلوت بك.

تعرفها؟

- سوف أعرفها من الآن فصاعدًا...

- ٤١ -

كانت الشمس تميل إلى الغروب حين غادرت نفيسة بيت إحدى زبائنها بشارع الوليد، وكان يلوح في وجهها الضيق، وهي حال لا تفارقها إذا خلت إلى نفسها، ولكن زادها تعاسة أنها لا تحجي من عملها إلا مبالغ زهيدة تبذلها حاجة أسرته الشهيدة فلا تكاد تبقي لها على شيء. وكانت إلى هذا تبدو في مظهر جديد ينم عن تغير غير بال، فتزنت في فستان برتقالي مزخرف بأزهار البنفسج أعلن عن جسمها الطويل النحيل، وأخذت زيتتها في غير تحفظ. وسارت وشارع الوليد حتى انتهت إلى شارع شبرا، وانعطفت مع الطوار وهي ترمي ببصرها إلى الجراج عن بعد فلدبت في قلبها بظفة وحيوية. وأعادها منظر الجراج - وصاحبه محمد الفل - إلى ذكريات صراع عنيف نشب في نفسها في غير ما رحمة ولا هودة طوال الأسابيع الماضية، وجعلت تقدم رجلاً وتؤخر أخرى حتى توقفت عن السير تماماً، وعقل الخوف قلمها، ومع أنها كانت قد انتهت من تركها المذهب إلى نهاية، إلا أن الخوف ركبها وهي تخطو الخطوات الأخيرة. وألا يحسن بي أن أسترشد من التفكير؟ كلاً، كلاً، لن أبحثي من التفكير إلا وجع الدماغ. سيمترض سبيلي كما يفعل كل مساء. لا أستطيع أن أنكر أنني ابتسمت لدهائنه فإذا بعد هذا؟ فأت أوان التراجع. وهو لا يعني دواعيه ولا مقاصده، ولست أجهلها، إنني أدرك كل شيء، أدرك لماذا يدعوني إلى سيارته، لا يحاول

خداعي كما فعل غيره، فالأمر واضح، فهل أقدم على هذا؟ لماذا يتعلق بي؟ لست جميلة، وميهات أن يفتر هذا الزواق من الحقيقة شيئاً. ولكنّ الدعامة نفسها سلعة لا بأس بها في سوق الخلاعة، وعشاق اللذة - أو بعضهم - لا يرفعون عن مطلب. هذه هي الحقيقة. الزواج أمره مختلف أمّا اللذة فلا اختلاف عليها. هل أدع نفسي تهوي؟ ولماذا أمنعها؟ لن أخسر جديداً. ليس ثمة ما أخاف عليه. ولكن ألا يحسن أن أمد نفسي حبل التفكير؟ وعادتها ذكريات اليأس الذي أمّرت غصصه ريقها، وكيف لم بعد ثمة أمل على الإطلاق. على أن الأمر لم يكن مجرد يأس فحسب، فهناك هذه الرغبة المشبوبة التي تشتعل في دمها ولا حيلة لها فيها. وكلها استنامت إلى قبضة اليأس شگتها في الأحياق كشوكة مستمرة. هذه الرغبة وحدها تأبى عليها أن تعتزل الحياة وتتوارى حتى كرهتها فيها تكره من حياتها. بيد أنها لم تعترف بها أمام شعورها، وأنكرتها، وقالت لنفسها إنها ترضى (الموان) في سبيل التقود التي تهمس حاجة أسرتها إليها. ولم تكن في هذا كاذبة، فإنه حق لا شك فيه، ولكنها صارت نفسها بحقيقة وتجاهلت الأخرى، وسرها - إن كان ثمة سرور - أن تبدو لعينها شهيدة، وضحّة لليأس والفقر، وبرز الفتى عند ذلك من الجراج ووقف يحدث بعض العمال فحفظ قلبها ولم تتحوّل عنه عينها. وأدركت بغريزتها أنها لن تراجع فسلمت - على البعد - وهو مولها ظهري، سلمت تسليماً نهائياً، وانتهى في تلك اللحظة الصراع العنيف المحزن الذي نشب في قلبها منذ أسابيع. وزغرت في يأس وحرارة وغادرت موقفها. واقترت منه في خطوات وثيدة متجاهلة إياه، حتى أحسّت به يمتدح سبيلها قليلاً بجرائه المألوفة:

- الصخر نفسه يلين يا ست، هاك السيارة عند منعطف الطريق تنتظرك منذ أجيال.

ثم سار إلى جانبها متشجماً بابتسامتها وهو يقول:

- كفك تلتلأ، لو كان لي صبر أيوب لنفد...

ما ألد الغزل ولو كلب، حال خنزيرة ولكنّها تردّ إليها اعتبارها وكرامتها كأنني مهيضة الجناح. وليشه

يدري من أنا، ومن كان أبي». ثم سمعته يقول بلهجة تتم عن وعيد:

- هاك السيارة فإذا لم تصعدي إليها رقتك بذراعي أمام الراح والغادي.

وكانا بلغا موقف السيارة في العطفة الثانية فقبض على يدها وفتح بالأخرى باب السيارة، وأزدردت ريقها واندفعت إلى الداخل في حركة عصبية، وجلست، فأغلق الباب وراءها، ودار حول السيارة ودخل من الباب الآخر وهي لا تكاد تدري به، ومالت إلى الوراء لتباعد بين وجهها وبين النافذة المشرقة على الطريق، ثم غشيتها غرابة. بدا لها كل شيء غريبًا خيالًا لا يمت للواقع بسبب، الطريق الذي تساقط عليه ظلمات المساء وأشباح المازة، والسيارة المرمية المهلهلة، ونفوسها، وأصوات الناس، ودوي عجلات الترام، واستعدت إرادتها بقوة لتعود إلى وميها واسترقت نحوه نظرة وهو جالس أمام عجلة القيادة بقوام فارغ ووجه محروق صلب ووجنتين بارزتين وأنف ضخيم صخري ولم عريض كضم البولنج فأعادها منظره إلى عالم الحديقة، والوحي والأعصاب، والدم والخوف.

واستخرج الرجل قارورة من تحت مقعده وفتح سداتها ثم نظر فيها حوله في شيء من الحيرة ورفع فوهتها إلى فيه وأفرغ في جوله جرعت غزيرة، والتفت إليها بوجه متقلص العضلات وسألها:

- ألا تشربين قليلًا من النبيذ؟

فالتت بهجلة واضطراب:

- كلا، لا أتناهى الخمر...

فرفع حاجبيه دشة وهو يمحض، وأعاد القارورة إلى موضعها، وبدأت السيارة تتحرك وهو يقول:

- من الحكمة أن أشرب الآن حتى إذا بلغنا مقصدنا بلغته في سلطنة...

وانطلقت السيارة مقرقرة تشق سبيلها بسرعة مستهترة. وعجبت نفيسة من جرأته وبدأ لها قنوطًا جسورًا، وفي الوقت نفسه غير أهل للثقة أو الشرف. ولكن ما حاجتها إلى الرجل الشريف؟ لم تمد أهلًا له، ولم يعد ضالًّا لها، ولا تخاف شيئًا في الوجود بقدر ما

تخافه على نفسها. وسمعته يقول صاحكًا في زهر:

- ما أطول نَفَسك في التلألأ!.. ولكن طلالا قلت لنفسي مصير الحل أن يقع، وما هو قد وقع...

ورحبت بالكلام لتهرب من أفكارها واضطرابها، فارتسمت على شفتيها ابتسامة وتساءلت:

- ومن أدرك أتي وقعت؟!

فضحك ضحكة وقال:

- سنرى ما يكون في صحراء المأظة...

وتساءلت في قلبي:

- صحراء المأظة؟.. هل نقيب طويلًا؟

- حتى منتصف الليل!..

فتملكها فزع شديد تراهي لما خلاله وجه أتمها وشقيقتها، وقالت بلهجة المستصرخ:

- يا خير اسود، يجب أن أعود إلى البيت قبل العشاء؟.. أوقف السيارة بريك...

فقال بدعشة وفتر:

- حقًا؟ لا تخافي، سنعود قبل العشاء، ولكن ماذا تخافين؟

- أهلي...

فلحظها بارتباب ساخر وسألها بلهجة ذات معنى:

- أهلك!.. ألا تعلمون؟!

ووخزها قوله حتى خرم قلبها كالطعنة الخافقة. أهلها يعلمون؟ ماذا يظن بها؟! واندفعت تقول:

- كيف يعلم أهلي! إخواني طلبة بالجامعة، وكان أبي موكفًا.

وهز رأسه متظاهرًا بالتصديق، وقال لنفسه ساخرًا:

ولا أم غشالة إلا أتي، ولا إخوة صعاك إلا إخواني، الأمر لله وضاعف من سرعة السيارة ليبلغ هدفه في أقصر وقت، ومضى يستشرحمًا النبل فطاب نفسًا وسألها:

- ما اسمك؟

- نفيسة.

ولم يعجبه الاسم فسألها:

- لماذا لم تتقي اسمًا أرقش منه؟

- إنه يعجبني!

وانطلقت السيارة مقرقرة تشق سبيلها بسرعة مستهترة. وعجبت نفيسة من جرأته وبدأ لها قنوطًا جسورًا، وفي الوقت نفسه غير أهل للثقة أو الشرف. ولكن ما حاجتها إلى الرجل الشريف؟ لم تمد أهلًا له، ولم يعد ضالًّا لها، ولا تخاف شيئًا في الوجود بقدر ما

- عاشت الأسياه يا ست نقيسه. لا مؤاخلة. . .

وأخيرًا سالت السيّارة إلى الطريق الصحراويّ تغوص في ظلمة شاملة، ولاحت المدينة عن بعد في أنوارها الموصولة كأنها مارد جبار ذو أعين نارية لا حصر لها، وأخذ يهتئ من سرعة السيّارة حتّى أوقفها، وأطفأ مصابيحها، وبغتة مدّ ذراعه حول خصرها وجذبها نحوه بعنف لم تتوقّعه. فاندلقت عليه متأوهة، ففغر فاه المريض وأطبّق على فيها حتّى منتصف ذقنها، وضّمتها إلى صدره بوحشية وأغفاسه تتردّد في أنفه في نخير ممحرج، فشمعت بادئ الأمر بالم ولعلّ، ثمّ مضت الآمها تغيب في ظلمة باطنية غريبة كما غاب شبحهما في الظلمة المحيطة الشاملة وأمنت بأنّها مدينة للظلام بالشيء الكثير، فقد شجّعها، وفي الوقت نفسه أخفى عيوبها، وبلدت قصارى جهدها - مدفوعة بحافز فطريّ - لإرضائه. ولملأها وجدت بادئ الأمر حياه إلى ما نجد من قلق وخوف ولكن سرعان ما شملتها حرارة جنونية تذيب الخوف والقلق والحياه.

ثمّ قال لها بإغراء:

- ألا يحسن بنا أن ننظر ثمرة أخرى؟

فقالت بضراعة وهي تحفّف العرق المتصبّب من جبينها:

- لا أستطيع، أرجو أن نعود في الحال. . .

وتناول الفارورة وأروى ظمأه بجرعات متتابعة، ثمّ انطلق بالسيّارة بوجه جامد، وظلّ صامتًا حتّى بلغا ميدان المحطّة، وقال بخلطة:

- توجد ثمرة دانية، ألا نعود؟

فقالت ببرجاء وجزع:

- كلا، كلا. . . لا أستطيع. . .

وقطب ساخطًا فجأة، وقال بظفاعة لم تتوقّعها:

- الله يقرّك، هذه رحلة لا تستاهل البترول الذي احترق.

ووقع قوله من نفسها موقع السوط فانعقد لسانها، وأغمم فؤادها خيبة ومرارة وخجلًا، ونظرت نحوه في ذهول، ولكنّه لم يلتفت إليها، ودفع السيّارة صامتًا ساخطًا إلى شبرا. عسى أن تكون رغبته في المزيد علويًا

ولكنّ أما كان يجعل به أن يترقّى بها أو في الأقلّ أن يمسح خشونته بكلمة رقيقة؟ وواصل انطلاقه صامتًا، ثمّ عرج إلى شارع جانبيّ لينزها في أمن من الأعين. وأوقف السيّارة إلى جانب الطوار. وتساءلت وهي تنادى موضعها عمّا تفعل إذا سئى لها موعداً آخر أتقبل رغم إهانتها أم ترفض على رغبها؟ وجابيتها حيرة لم تستعدّ لها، بيد أنّه مدّ لها يده بنصف ريال وهو يقول:

- هذا يكفي لمرة واحدة. . .

ولمّا رأى جودها ترك القطعة الفضيّة عند قدميها وانطلق بالسيّارة خلفًا وراءه خيالًا من دخان خائق، وقرقرة مزجيرة. وركبها جنون غضب أعمى فتسمّرت في موقفها وجسمها يتغضض. وأصل انفضاضها وهي تمعّض على نواجذها، ثمّ مضت تزفر في عجلة كأنها تنفّس عن صدرها أن يتفجر. لم يتكلّف موعداً آخر. مرةً عابرة. . . كأنّي. . . ربّاه، مرةً عابرة. ثمّ يرمي لي بنصف ريال! وخطر لها خاطر فلبّخ غضبها وخمد، وحلّ عله خجل ونعيبة، أجل، ألا يجوز أنّها لم ترق له ولم تعجبه؟! هذا عتمل. هذا مرجح. هذا مؤكّد! وأمضى شعور ألهم بالجنون والقهر، ثمّ تنبّهت لموقفها من الطوار فهتّت بمغادرتها ولكنّها ذكرت القطعة الملقاة عند قدميها فنظرت إليها بغرابة دون أن تدري ما هي فاعلة، ثمّ ذكرت لتزّها القطعة ذات الخمسة قروش التي اقترضها سلبان منها يومًا على عطة الترام، ثمّ يوم قلدها إلى مسكنه، والظلام الدامس وشجارها معه في الطريق، وتغرّول أبيها بخفة دمها، ثمّ عاد انتباهها إلى القطعة الفضيّة تحت عينها، فرنت إليها طويلاً دون أن تحسّول عنها. أيّ شيء ثمة يدعوهها إلى تركها؟! . . .

- ٤٢ -

وفي ذات ليلة زار حسن الأسرة زيارة غير متوقّعة بعد انقطاع غير قصير، وكانت الأسرة مجتمعة بهجرة الإخوة التي تتخذ منها مجلسًا مختارًا في شهور الصيف. جاء هذه المرة ويده قفّة فوضعها وراء الباب وأقبل عليهم مسلّمًا ضاحكًا فاستقبلوه بترحاب كالعادة، أعلته الإخوة في غير تحفّظ، أمّا الأمّ فرمقت القفّة بنظرة

- كان فيلسوفًا رحيماً، ومن أي رحمة الله امتنع عن أكل اللحوم رحمة بالحيوان ...

- إني أدرك الآن لماذا فتحت الحكومة المدارس، إنها تفعل كي تقيس لكم اللحوم فتأكلها دون منافس ...

ونفض حسن وزهد إلى حيث ترك القفّة وعاد بها ووضعها أمام أمه، ثم نزع عنها فطاء من الورق فبلدت تحتها فخذ خروف مكتنز تتصل على سطحها حمرة اللحم ببياض اللبن. وإلى جانبها علبه من الصفيح متوسطة الحجم. وصاح حسين:

- لا أصدق عيني، وما هذا داخل العلبه؟

- سن!

وبقيت في الإخوة حيوية ولعت أهيئهم، وسرت عدوى الفرح إلى قلب الأم فابتسمت وتمتمت:

- ضمناً للغد غداء فائزاً!

وهتف أكثر من صوت:

- بل عشاء فائزاً، الساعة.

- متى ينتهي طهيها؟

- نتنظر حقّ الفجر ...

ونفضت نفيسة فحملت القفّة وسبقت أمها إلى المطبخ.

وكفّت الأم عن المعارضة وقامت أيضاً فسادرت الحجرة وهي تومئ إلى حسن أن يتبعها فتبعها على الأثر مبهتاً ابتسامة ذات معنى، فالتبّلت به ركناً في الصالة وسأله بلهفة:

- هل تيسرت سبل الرزق حقاً؟

- بعض الشيء! لا أدري ما يأتي به الغد ...

- هل أطمئن إلى أنك ستتمد لنا يد المعونة؟

- كلياً وإتاني الرزق. أرجو هذا ...

وصمت لحظة ثم سأله:

- أين تقطن؟

وكان يعلم أنها تضمه فيها لا يجدي معه الكلب فقال:

- عطفة جندف بكلوت بك رقم ١٧.

فسأله بعد تردد:

- امرأة؟

متسائلة وغمغمت ساخرة «إيش جاب الغراب لأمه؟» فقال ضاحكاً وهو يتخذ مجلسه بينهم:

- لا تتعجلي. الصبر طيب ...

بيد أنهم لم يلقوا بالألفظة. ولم يكن من عادتهم أن ينتظروا خيراً منه، قالت له نفيسة:

- لا نراك إلا كالأزهار!

- أعوذ سائح في أرض الله الواسعة، يلتقط رزقه في جهد ومشقة، ولكن لا تعجبني إذا لم ترضي إلا زائراً فقد وجدت لنفسي مكاناً!

وتطلعت إليه الأبصار في اهتمام وسأله أمه:

- هل هذاك الله أخيراً ووجدت عملاً؟

- تحت علي صبري ولا شيء غيره ولكن الله فتح عليه وعلينا.

فكالت الأم بامتعاض:

- لا يدخل عقلي بحال أن هذا عمل بالمعنى الصحيح ...

فقال حسن مستنكراً:

- يا أمه! ١١٩ إني في التخت أغني بينا في المهن الأخرى أتشاجر كما تعلمين ...

وسأله حسين:

- وهل وجدت لنفسك مكاناً حقاً؟ . أين؟

فسكت ملياً ثم سأله:

- ولماذا تريد أن تعرف؟

- كي نزورك بدورنا!

- كلاً. ليس مسكني معداً للزيارة، وليس هو خاصاً بي إذ يقطنه أفراد التخت جميعاً، دعونا من هذا ونخبروني متى أكلتم اللحم آخر مرة؟

فقال حسين ساخراً:

- الحق أنا نسينا، دعني أتذكر قليلاً ... تتخايل لعيني شريحة لحم في ظلام الذكريات ولكن لا أدري أين ولا متى.

وضحك حسين قائلاً:

- نحن أسرة فلسفية على مله المعري.

فتساءل حسن:

- ومن يكون المعري هذا؟ . أحد أجدادنا؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال :

- نعم .

- زواج ؟

فضحك مرة أخرى وتتمم :

- كلا . . .

ولم يَزِ في الظلام ما ارتسم على وجهها من أمارات الامتعاض، ولكنها كانت قد يشت منه من زمن بعيد فاحفت نفسها من لومه أو نصحه، بيد أنها سألت باهتمام وحرارة :

- اليس رزقا شريفا ؟

فقال بلهجة مطمئنة وتوكيد :

- بل، لا تشكّي في هذا . . . إنا نحبي أفراسنا كثيرة ونغني في المقاهي والصالات . . .

- ٤٣ -

وانقضى عام آخر. وواصلت الحياة سيرها لا تلوي على شيء، ومعنى كل فرد من أفراد الأسرة في سبيله بما يلحق من غير وشر. ولو أتيح للأب أن يعود إلى الحياة لأزعجت الدهشة لما طرأ من تغيير على أسرته شمل الأرواح والأجساد والصحة ونظرات الأعيان، ولكن كان حيا سمرهم، سمره أن المرأة هي زوجته وأن الأبناء أبنائه، أما الذي كان ينكره، ولا يعرفه منها أجهل ذاكرته فهو البيت. اختفى الأثاث أو كاد، فلم يبق بحجرة الاستقبال إلا كنية وساط باحت ناحل كان مفروشا بحجرة نوم الأم ثم وضعوه بحجرة الاستقبال بعد بيع سجادتها، واقتصرت غرفة الأم على كبتين تستعملان نهارا للجلوس ليلا للنوم، وشملت الصالة - حجرة السفارة قديما - فيح البولييه والمائدة والكراسي، وانتهى بهم الحال إلى تناول طعامهم على صينية مقعدين الأرض، بل بيع فراش حسن. ولولا الضرورة القصوى لبيع الفراشان الباليان. كانت حياة شاقة عسيرة، ولولا حزم الأم، وحسن تدبيرها، لما نهض المعاش وكسب نفيسة القليل بضرورة السكن والمأكل. أما حسن فلم تتعد معونته لأسرته زيارات متباعدة كانت للأسرة بمثابة المواسم يطيب لها فيها الطعام والأمل، وربما ابتاع لأمه من أن لآخر جلباها أو

منديلا أو بعض الثياب الداخلية، وفيها هذا هذه الأوقات فلم يكن يراه أو يسمع به أحد. وكان يعتذر لأمه بمشاق الكفاح وقلة الرزق، ولم يكن في اعتذاره غلو دافيا. وإحقق أنه وجد الحياة أشق مما كان يتصور. كان يغني في تحت علي صبري، وينزي للعراك إذا دعا الداعي، ويتجر بالخدرات في حدود ضيقة، وفي حوزته امرأة لا بأس بجهاها وتقودها، ولكن ظل كسبه دون ما كان يحلم به بكثير فضلا عما أوجبه حياته عليه من الإنفاق السخي ليطفر بقلوب أحواله، وليطفر بالمظهر اللائق به . . . وكان النزاع بين ضروريات حياته وأتانيته من ناحية وحبه لأسرته من ناحية أخرى لا يبدأ بنفسه، يتغلب ذلك حينما، ويتغلب هذا في أغلب الأحيان، يمسك يده مستسلما لتتار حياته الجارف، ثم يهود بما في طوقه، ويتمنى كثيرا لو يرد أسرته إلى سابق عهدها بالحياة، ثم ينسى أسرته في خضم مغامراته، ثم يعود إلى تدجرها في ندم وألم، وهكذا إلى غير نهاية. ومهما يكن من أمر فلم نجد فيه الأسرة الرجل الذي يقبل عثرتها أو يأخذ بيدها وإن تشمت في زيارته نسائم الترفيه والراحة. الأم وحدها كانت عصب حياة الأسرة، وفي سبيل الأسرة انهذ حيلها وهرمت في عامين كما لم تهرم خلال نصف قرن من الزمان، فنحلت وهزلت حتى استحالت جلدا وعظما، بيد أنها لم تستسلم للمحنة، ولم تعرف الشكوى، ولم تتخل عن سجاياها الجوهريّة من الصبر والحزم والقوة. وكانت تعمل النهار كله، تطبخ وتغسل وتكنس وتمسح وترقق وترفو، وترعى أبنائها خاصة، تراقب لهمها، وتحثها على العمل، وتفرض نزاهتها النافه، وتكبح من نزواتها، خصوصا طفلها المتقلب حسنين. وبين هذا وذاك تكف على التفكير في الحاضر والمستقبل، وتجتز كثيرا من الآلام التي تبعتها في نفسها ابتها نفيسة في مجاولها الدائم بين بيت وبيت، تعمل كثيرا وتربح قليلا وتواصل سعيها في مشقة ويأس. لشدا ما تتجرع غصص الألم في سكون متجملة بصبر لا يحزن، لائلة بإيمان لا يتزعزع، متشبثة بأهداب أمل لا بد أن يتحقق وإن طال انتظاره. ويفضلها



- هيهات أن يموت شيء من هلاك روح شابة .  
فقال حسين ضاحكاً :

- لقد عشت يا أمّاه نصف قرن في ظلّ الاحتلال  
فلندعُ الله أن يمّد لنا في عمرك نصف قرن آخر في  
كف الاستقلال ...  
فقال الأمّ متعصّبة :

- احتلال، استقلال، لا أدري أيّ فرق بينهما . خير  
لنا أن ندعو الله أن يكشف عتّا الغمة وأن يبدّلنا من  
عسرتنا يسراً ...

فقال حسين بحسب وإيمان :

- لو لم يكن الاحتلال لما تركت أسرتنا بعد موت أبي  
بلا معين ! فتمّ مخاطباً حسين : أليس كذلك ؟  
فقال حسين بأمل :

- أعتقد هذا !

ورصدت الأمّ نظرها بينهما في شك كبير . لم تكن  
تحفل بهذا الأحاديث العامة التي تساق إليها أحياناً من  
حيث لا تدري ، أمر واحد يحسّها ، وتنسى من أجله  
الدنيا وما فيها ، هو أن تبلغ بئذين الشابين اللذين  
تحبّهما أكثر من الحياة نفسها برّ الأمان ، وأن تراهما  
رجلين ناجحين سعيدين قد أمنا شرّ الحياة ، وآوت  
الأسرة منها إلى ركن ركين ...

- ٤٤ -

وفي نهاية العام حصل حسين على البكالوريا . وقد  
ذاقت الأسرة في فترة الانتظار السابقة لظهور النتيجة  
مرارة الإشفاق والشك . ولم يكن أحد يمرّ على أن  
يتكهّن بما يمّد ليا لو أخفق حسين وحرّم من المجانيّة .  
ولم تكن الأمّ تتصوّر أن ينتهي صبرها هذه النهاية ، ولا  
أن تنكشف آمالها عن مثل هذا القنوط . وعندما تناول  
حسين الجريدة من البائع وأجرى بصره الزائغ في  
صفحاتها باحثاً عن ثمرته ، التفّ به أخوه وأخته وأمه  
بقلوب خافقة ينضّ في أحبالها الأمل ويطلّ لها الخوف  
والمدايب . فانتظمت اللحظة الزهية على نفوسهم إلى  
الأبد . ثمّ كان يوم سعيد ، أول يوم سعيد منذ عامين  
كثيرين ، قطابت النفوس ، ولهجت الألسن بالشكر لله ،  
وراحوا يُفصّحون عن سعادتهم بالحديث اللطيف

عرف الشقيقان سبيلهما . فلم يجد أُنّهما عن جائته ،  
وأمكنهما - على ما يكتشفها من تقشّف وحرمان - أن  
يواصلوا اجتهدهما في مثابرة تدعو للإحجاب . وكان  
حسين بعد ما يلقاه من ظروف العيش أهون ممّا يجد  
في حبّه من حرمان ، ولكنّ فتاته لم تكن دون أمّه  
عتاقاً . فأرغمت على الرضى بحبّ ظاهر متقشّف لا  
يستسيغه طبعه الحامي . وأوشكت الحياة الخاصّة أن  
تلهي الشقيقتين عمّا انتاب حياة الوطن في تلك الفترة  
من التطوّرات الهامة . ولحقّ أنّ حسين لم يبدِ اهتماماً  
يستحقّ الذكر بالسياسة العامة ولعلّ حسين كان أكثر  
اهتماماً بالسياسة من أخيه ، ولكن ليس إلى القدر  
الذي يجعل منه تلميذاً سياسياً ، وانصهر اهتمامه في  
الغالب على النقاش الحزبيّ أو الاشتراك في المظاهرات  
السلميّة . وكانت الأمّ أيضاً الحائل بين ابنيها وبين  
الاشتراك في الحياة السياسيّة ، فلم تكن لتفقه حرفاً في  
السياسة ، واستغرقت الأسرة مشاغلها فلم تترك نصيباً  
للوطنيّة . ولما ذاعت الأخبار المحزنة عن ضحايا  
المظاهرات من الطلبة أصابها الفزع وراحت تقول  
مخاطبة الشابين :

- قتلوا يا ولداه فهل تغني عنهم السياسة أو  
المظاهرات ؟ فجمعوا أهلهم وخبروا بيومهم وضاعوا  
هباء ...

وقال لها حسين متعصّبا عن شعور مكبوت لتخلّفه  
عن الثائرين :

- إنّ الأوطان تحيا بموت الأبطال ...

فرمت بنظرة صارمة فخفض عينيه وقد عدل عن  
مواصلة حديثه الحماسيّ . ثمّ جدّت أحداث فتكوّنت  
الجبهة الوطنيّة ، وشرع في المفاوضات ، وانتهت  
المفاوضات إلى الاتفاق ، وسرى في البلد ارتياح عامّ ،  
وحينذاك عاد حسين إلى حديثه ، وكان أجراً على أمّه  
من أخيه ، فقال لها يوماً :

- أرايت أنّ الأرواح التي زهقت لم تلهب تضحياتها  
مبيّناً .

ولم تغضب هذه المرّة لشعورها بأنّ الخطر قد زال  
وحلّ محلّه السلام ولكنّها لم تتنّى عن رأيها فقالت :

كلامه فقال بإشفاق:

- إني أقرّ مبدأً عاماً يجوز عليك اليوم وعلى غداً.

- تعني أنه يجب أن أجد وظيفة؟

فزأغ عن الجواب الصريح وتساءل:

- ما رأيك أنت؟

فالتفت حسين صوب أمه وسألها مبتسماً:

- ما رأيك يا أمّاه؟

وأثّرت ابتسامته في نفسها تأثيراً عميقاً، وأدركت أنه

يضع مصيره بين يديها. وأنه يحملها وحدها مسؤولية

مستقبله. ولكنها لن تقضي عليه بما لا يحب، لن تفعل

ولو ذاقوا الموان أربعة سنوات أخرى. إنه الوحيد

الذي يلحق لمشيئتها بلا تردد أو تلّصّر فهل يكون

جزاؤه الفداء؟ وقالت الأم بوضوح:

- رأيي رأيك يا حسين...

فابتسم حسين ابتسامة غامضة وقال مدفوعاً برغبة

عابثة في مضايقة حسنين:

- أرى أن أكمل مرحلة التعليم العالي...

فقالت نفيسة بسرور:

- أحسنت...

وقال حسنين بعد تردّد:

- أماننا أربعة أهوام عجاف أخرى...

فقال حسين مبتسماً:

- عام واحد لحسب ثم تتولّف أنت في نهايته إن

شاء الله!

فضحك حسنين مغلولاً على أمره وقال بلهجة

المعتدل:

- لعلك تظنّ أنني أريدك على أن تتولّف لتتيح لي

فرصة أكمل فيها تعليمي العالي في هدوء وطمأنينة،

ولكنّ الحقيقة أنني أودّ أن أرحم أسرتنا ممّا تعانيه،

وفضلاً عن هذا وذاك فإذا كان على أحدنا أن يضحي

بذاته - إذا اعتبرنا التولّف بالكالوريا تضحية - فانت

الذي يجب أن تبدل هذه التضحية، لا لآني أريد لك

ما لا أريد لنفسي، ولكن لأنّ أسرتنا تستطيع أن تتنفع

بتضحيتك الآن على حين يجب أن تنتظر عاماً آخر حتّى

يمكنها الانتفاع بتضحيتي أنا.

حيثاً، وبالصمت المطمئنّ الباسم حيثاً آخر. ثم وجدوا

أنفسهم يطوفون باب المستقبل، ويفكرون في الغد

القريب والبعيد ممّا، فنسوا سعادتهم وهم لا

يشعرون، وتحايلت لأعينهم مرّة أخرى الصعاب التي

تكتف حياهم، فحلّ التفكير وهوومه محلّ السعادة

الصافية العابرة، عرف حسين حقيقة جديدة في حياته

وهي أنّ السعادة قصيرة الأجل وأنها لا تعمّر في النفس

طويلاً كالخزن أو الحسرة. ولم يكن التفكير في مستقبله

بالأمر الجليد عليه، كان بطبيعة الحال ذا أسال

وأحلام، ولكنّ الحقائق لم تكن تلصّب عنه كذلك،

وكأنه أراد أن يستدرجهم إلى إعلان آرائهم فتساءل:

- ماذا لديكم عن الخطوة التالية؟

وكان للأمّ رغبة، فهي تودّ أن تنتهي الحال التي

يكابدونها بأيّ ثمن. وكانت تعلم - قد خلا البيت ممّا

يمكن الانتفاع بثمن بيعه - أنهم لن يستطيعوا مواصلة

هذه الحياة بعد الآن. بيد أنّها لم ترتع إلى إملاء رغبتها

عليه، ونفرت من التحكّم في مستقبله كما تتحكّم في

حياته. أجل لم يعد طفلاً، فإذا وافق حلّ رأياً ختاراً

فيها وإلاّ فليقص في أمر نفسه بما هو قاضٍ، وليملّوا

هم في حبال التصرّب والتجلّد، بل والجروح حتّى يأمر

الله بالفرج. لذلك قالت بانقضاب:

- فلتتدبّر الأمر طويلاً.

ولكنّ حسنين كان يفكر بسرعة مدفوعاً بمواقفه

كعادته، وكانت أنانيّته تتوارى خلف ما يظنّه الصالح

العالم، فقال:

- لم تعد الحياة تطلق. غذاؤنا سيّئ ونحن في حُكم

الجوع وبائنا متداعية ممزّقة أو مرفّقة، وبيننا عارٍ فلا

يصحّ أن نطيل أمد العذاب. لا سبيل إلّا أن نبدأ

حياتنا العمليّة...

وكان حسين يفهم أخاه خير الفهم، فأدرك لئوّه ما

يرمي إليه، وكان مقتنعاً بما يريد أن يذهب إليه ولكن

سأه مكره فثبّت عليه وقال:

- لماذا تقول «نبدأ»؟. لماذا تستعمل صيغة الجمع

بين الأمر يتعلّق بي وحدي؟

وأدرك حسنين أنّ أخاه نفذ كعادته إلى ما وراء

شقّ الأزهار التي كست الأرض بألوان هيبجة بدهشة،  
لَمْ صعدا إلى السلامك، ثمّ إلى يسو الاستقبال  
الكبير، والتخذا مجلسها يارتباك على كتب من الباب  
بالموضع الذي اختارته أمّها قبل ذلك بعامين. وجرى  
بصرهما سريعا على البساط الغزير الذي يغطي أرض  
الحجرة الواسعة، والمقاعد الكثيرة الأنيقة، والطنافس  
والوسائد، والستائر التي تنهض على الجدران كالعالمقة،  
والنخفة المتدلّية في حالة لالاعة من سفوف عال انتشرت  
بجوانبه المصابيح الكهربائية. وأشار حسنين إلى النخفة  
وقال بسداجة:

- مثل نجفة سيّدنا الحسين!  
وكان حسنين يفكر في أمور أخرى فقال:  
- نعم... دهنا من النخفة، ما عسى أن نقول؟..  
ينبغي أن تساعدنا بلسانك!

فقال حسنين هازئا:  
- انتظر! أنّك ستحدث شيطاناً؟.. تكلم بشجاعة،  
وسألتكم أنا أيضاً. ملعون أبوه!  
ونذت عنه اللعنة - لا تخنق - ولكن ليشجع  
أخاه، وليتشجّع هو نفسه. وألقى نظرة ذاهلة على ما  
يحيط به من أي الثراء ثمّ تسامد بصوت منخفض:  
- هل يثير موت رجل كاحد بك حزناً في نفوس  
ورثته؟

فقال حسنين بنصف وهي:  
- أما كنّا نحزن لوفاة والدنا لو كان غنياً؟  
فقطّب الشاب متفكراً ثمّ قال:  
- اعتقد هذا. ولكن لعلّ الحزن أنواع ودرجات..  
آه... لماذا لم يكن أبونا غنياً...  
- هذه مسألة أخرى...  
- ولكنّها كلّ شيء. تخبرني كيف صار هذا البك  
غنياً؟

- لمكّه وجد نفسه غنياً...  
فالتصمت عينا حسنين السليّتين وقال:  
- يجب أن نكون جميعاً أغنياء...  
- وإذا لم يكن هذا؟  
- إذن يجب أن نكون جميعاً فقراء...

فضحك حسين قائلاً:

- منطق زائف. لآي أعلم علم اليقين أنّك لن  
ترضى بالتضحية لا العام القادم ولا الذي بعده...  
وقالت الأمّ حسناً للجدل:  
- افعل ما تشاء يا حسين، ولا اعتراض لنا...  
فابتسم إليها في صفاء وقال:

- لم أهيّ منّا قلت حرقاً واحداً ولكنّي أردت أن  
يعرف حسنين أنّي أحسن فهمه. ولست ألوّه أيضاً  
على تفكيره فله عذره. ينبغي أن يضمتي أحداً ويرضى  
بالتوكّل الآن، وهذا هو واجبي أنا، أنا أخوه الأكبر،  
وأنا صاحب البكالوريا. إنّني أدرك الحال على حقيقتها،  
وأعلم أنّه من الفسوة الشريرة أن أفكر في تكملة  
تعليمي، فلا أرض بحقيقي، ولندعُ الله جميعاً أن يوفّقنا  
إلى ما نريد...

وقرأ الارتياح في أعينهم جميعاً رغم ما تنطق به  
الستتهم من عبارات الأسف، فداخله شعور طيب  
بالسرور والارتياح على حزنه وأسفه. وأسرتنا كانت  
تنسى معاني الارتياح والطمأنينة. ها أنا أهدى إلى  
نفوسها بعض هذه المعاني. علامّ أسف! مدرّس أو  
كاتب سيّان. لو كنّا نقتصد في أحلامنا، أو كنّا نستلهم  
الواقع في خلق هذه الأحلام، لما ذقنا طعم الأسف أو  
الحليّة.

- ٤٥ -

وقالت الأمّ:

- لدينا أحد بك يسري صديق المرحوم والدكم،  
وهو يستطيع أن يوفّقك في غمضة عين...  
وتفكرت الأمّ ملياً ثمّ واصلت حديثها قائلة:  
- لن أستطيع الذهاب إليه بنفسي لأنّ معطفي لم  
يعد لائقاً للظهور أمام الناس المحترمين، فامضِ إليه  
أنت، وخذ معك أخاك تشجّع به. وما عليك إلا أن  
تقولاً للبواب إنّكما ابنا المرحوم كامل أفندي عليّ...  
وذهب الشقيقان عسراً إلى شارع طاهر وقصدا  
بيت البك وطلبا مقابلته كما أوصتهما أمهما فغاب  
البواب دقائق ثمّ جاء ليدعوهما إلى حجرة الاستقبال.  
ودخلا يسيران في ممشى الحديقة الوسط وهما ينتظران إلى

- وإذا لم يكن هذا؟

فقال بحق:

- إذن نثر ونقتل ونسرق...

فابتسم حسين قائلاً:

- هذا ما نفعله منذ آلاف السنين...

- يمز عليّ أن أتصور أن تعفي حياتنا في هناه وقذاره

إلى الموت...

فقال حسين مبتسماً:

- لا قدر الله...

وقبل أن يفتح حسين فمه سمعا وقع أقدام آتية من الفراندا، ثم دخل اليك بجسمه الطويل العريض في بدلة بيضاء حربية، وسلم عليها مرحباً وهو يتفرّس في وجهيهما بعينين ضاحكتين، ثم سألها وهو يجلس:

- أهلاً يا بني الحبيب المرحوم، كيف حال والدتك؟

فشكرا له بلسان واحد، وقد نسي حسين في طيب اللقاء حقنه على حين عاود حسين ارتبائه. وتوجّس أحمد بك خيفة من هذا اللقاء الذي لا بدّ أن يسفر عن بذل وعطاء، وكان يسلم سلفاً بأنّه لن يستطيع أن يرفض لها رجاء إذا سألته. والحق أنّه لم يكن بخيلاً، بل كان جواداً، ولكن لا عن طيب خاطر، كان يهود في يوم وضيق دون أن يستطيع أن يقول «لا»، وتقلب حسين على ارتبائه وقال بصوت رقيق مؤدّب تعفي نبراته عن ألفاظ الرجاء والضراعة:

- حصلت يا بك على البكالوريا، وظروف أسرنا تضطّرني إلى البحث عن وظيفة، لذلك رأيت والدتي أن ترسلني إلى سعادتك لما لنا جيثاً فيك من عظيم الرجاء...

فجعل اليك يعيث بشاويه الغزير المصبوغ، ثم قال:

- وظيفة؟... باب الحكومة ضيق في آياتنا هذه، ولكنني سأبذل ما في وسعي يا بني. لا اعتقد أنّي سأجد لك وظيفة في الدخالية ولكنني صديق لوكيل المعارف، وكذلك وكيل الحرية، جهّز طلب استخدام وسأكتب لك توصية قوية...

وشكرا له كرم أخلاقه ثم سلّم وغادرا الفيلا، وألقى حسين على الفيلا نظرة توديع وهما يبتعدان عنها، وعاد يبصره إلى وجه أخيه فوجده راضياً حالياً شامل نفسه في دهشة: ترى هل يفرح الآن بما عدّه بالأمس تضحية؟ ثم قال:

- أيقنت الآن فحسب، ويعد أن تنسّم عبير الحياة الحقة في هذه الفيلا، أنّه من الظلم أن نعدّ أنفسنا بين الأحياء...

وكان حسين مشغولاً بالتفكير في طلب الاستخدام والتوصية القوية فلم يعمّر بالردّ صل أخيه، فقال حسين حانقاً:

- إني أعجب لما تتحلّ به من رضى وهنداء ولكنّه تظاهر لا يمكن أن يخدعني... فغمغم حسين مبتسماً:

- وما جدوى الحق؟.. لن نغيّر الدنيا!

- يجب أن تتغيّر. من حقنا ولا شك أن ننعم بالسكن النظيف والمأكّل الصحيّ والمركز المرموق. ولكنني أراجع حياتنا جملة فلا أجد بها خيراً أبداً... فمدحه حسين بنظرة غريبة لم يفهم معناها وقال له:

- ولكنك تتمنّع بالحبّ، وستكمل تعليمك. أليس هذا خيراً؟

ونظر إليه ثم نظر في ما أمامه، ترى ماذا يعني؟ وشعر بعدم ارتياح، وتضاعف ضيقه. ثم روج عن صدره متسائلاً:

- ألم يكلفك هذا التضحية بنفسك؟ إنّ لنا حقوقاً بدئية ولا يجوز أن يضع شيء منها، فإين نحن من هذا؟.. كيف نميش؟.. ماذا تكابد أمتنا؟.. أين نحنوا حسن؟.. كيف انقلب أختنا خيطة؟...

وقطب حسين وقد تنصّر عليه صفوه، وتناسى جوهر الموضوع ووقف عند الصفة الأخيرة حانقاً، وصاح بأخيه في لهجة تتمّ على العتاب:

- خيطة...

فقال حسين في هياج وانفعال:

- نعم خيطة، هل تكره هذا حقاً؟ أمحق حقاً لو

وتبذلها حالاً بعد حال، فجاء السفر حثيثاً لهذا الرجاء، ونجّرت الأم بين فرحها وحسرتها، وأيقنت أنّ الوظيفة لن ترقّه من الأسرة إلّا قليلاً، وأنّ خيراتها ستبتدأ ما بين طنطا والقاهرة. وإلى هذا كلّه فقد لاح في أفق الأسرة شيخ فراق جديد لم تالقه، فتوجّست قلوبها، وصجبت الأم لهذا الخطّ الذي يأبى أن يمنحها ابتسامة إلّا تحت عبوسة متجهّمة، والذي يمدّ يد النوى بينها وبين الابن الوحيد الذي لا يخلق لها المتاعب. كانت ترى في حسين صورة من نفسها الهادئة الصابرة، وكانت تجد عنده من الأنا والراحة ما لا تظفر به عند غيره. أجل لم يكن أحبّ الجميع إلى قلبها، إذ كان حسين الطفل المشاكس الذي يحظى بهله المنزل، ولكنه بدأ لعينها وقد ذاك كأنفس ما تملك في حياتها. ووقع الفراق من نفس حسين موقعاً سيئاً، وخزّن له حُزن وجل لم يتبدد عن يده يوماً واحداً في حياته، وضاعف أثره في نفسه تعلقه الشديد بأمّه وإحسانه وما كان يأمل من الترفه عنهم بوجوده بينهم. وكان يقول لنفسه كثيراً «سأعيد نفسي إلى بيتها سيّدة عذرة حال تسلمي أوّل مرّتي من الحكومة» ولكنه رأى حلمه يتبدّد، وهذا يلعب إلى بعيد مخلفاً أسرته المحبوبة ورواه على حال ليست أفضل كثيراً ممّا كانت عليه. ولملّ هذا ما جعله يغيث إلى أحد بك يسري مستشفى بنغوده على إيقاله في القاهرة ولكنّ البك - وكان قد ضاق به - أخبره بأنّ رغبته بعيدة عن التحقيق في الوقت الحاضر. ثمّ اعترضته مشكلة جديدة تتعلق بالنقد التي يجب أن تتوافر له ليقم بها أسباب معيشته في طنطا حتّى يتسلم أوّل مرّتي له في نهاية الشهر، من أين له بهله النقود، وألمحه نحو أخته نفيسة ولكنّ الفتاة كانت تنزل لائقها عن جلّ أرباحها المحدودة ولا تكاد تُبقي لنفسها على شيء إلّا ما يلزم لكسالتها، وإلى هذا فما تبقى من أثاث البيت لا يفي ثمنه - إذا بيع جميعه - بمطلبه، فلم يجد من ملاذ أمله إلّا أخاه حسن وخاطب أمّه فيما تراه له فوافقت عليه ولم يداخلها شكّ في نجدة ابنها الأكبر إذا وسع ذلك، وأطلعت على عنوان أخيه الأوّل مرّة لفصح من توه إلى شارع كلوت

كانت تزوّجت كما تالها من الفتيات؟ كلب. لو كانت تزوّجت، بل لو لم تكن خيطة لا يضطرّ كلانا إلى الانقطاع عن المدرسة والبحث عن مهنة حقيرة. هذه هي الحقيقة...

واشتدّ الغضب بحسين، لا لآله لا يسلم بما قال أخوه، ولكن لآله يسلم به في أعماه، ولآله ما كان يرهب حقّاً بزواج الفتاة وسعادتها. «إنّا نأكل بعضنا بعضاً، ينبغي أن نُسرّ بتهريج حسن وعيشه ما دام يعيشنا كلّ شهر بفعل خروف. وينبغي أن نُسرّ بأختنا الخيطة ما دامت تمّد لنا لقمتنا الجلاءة. وهذا الشابّ المتلترّ ينبغي أن يسرّ بانقطاعه عن التعليم ما دام سيتمّ تعليمه هو. يأكل بعضنا البعض. أيّ وحشية. أيّ حياة لعلّ لا أجد إلّا عزاء واحداً وهو أنّ قوّة أكبر ممّا جئنا تطحننا طحناً وتلتهمنا التهاماً وإنّا نصد ونقاتل». وتركّز تفكيره في الخطر الأخير، ليساً سَه العزاء الوحيد، فسكتت نفسه، وسكت عنه الغضب وقال وكأنّه يخاطب نفسه:

- نحن لا يأكل بعضنا البعض. لا تقل هذا (لم تكن هذه العبارة من قول شقيقه ولكنّ لم يقطن لهذا)... لا تقل هذا أبداً. نحن أسرة باتسة ولنا نظائر وأشياء لا يحيط بهم حصر. وواجب كلّ واحد ممّا أن يهود بما يقدر عليه من البذل والتضحية... ١ ثمّ طلب إلى أخيه في حزم أن يحسّك من الجدل، وكانا بلغا عكّة الترام... - ٤٦ -

وتبيّن لحسين أنّ الوظيفة - أو التضحية التي رضي ببذلها عن طيب خاطر - لم تكن مثلاً سيئاً، فقد انصهرت ثلاثة أشهر وهو يتردّد في همّ ويأس ما بين فيلاً أحمد بك يسري ووزاري المعارف والحربية، وأخيراً أخبره البك بأنّه أمكن إلحاقه بوظيفة كاتب بمدرسة طنطا الثانوية، وحقّه على تقديم نفسه للقومسيون والاستعداد للسفر لتسليم عمله في أوّل أكتوبر. وسرّ الفقي. وسرّت الأسرة، ولكنه سرور لم يكن خالصاً، وشابه مرارة. كانت الأمّ تنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر كي تنتشل الأسرة من هذبتها

رائحة السلم، ووجد نفسه في دهليز شبه مظلم تكتفه حجرتان واحدة إلى يمين الداخل والأخرى في مواجهته وإلى اليسار المراق. وابتم حسين إلى أخيه وقال كالمتنفر:

- هل أنت مبكر؟ .. الساعة الحادية عشرة!

فتساب حسن طويلاً ثم قال ضاحكاً:

- إني أستيقظ عادة حوالي العصر. المغنون ليهم نهار ونهارهم ليل. ولكن خبرني قبل كل شيء كيف حالكم؟

- بخير والحمد لله. . . وكيف أنت؟

فقال وهو يسير به إلى الحجرة التي إلى يمينه:

- نحمده. . .

دخل حجراً صغيرة تكاد تقسم مناصفة بين فراش وصوان يمينها إلى الجدار الداخلي كنه خلقت فوقها على الحائط صورة كبيرة تجمع بين حسن وامرأة لحيمة عميقة السمرة قد اعتملت منكبه بساعديه المشبكين، فثبتت عيناً حين عليها في دهشة لفتت نظر أخيه فتسالم ضاحكاً:

- ماذا يدور برأسك؟

فسأله حسين بسداجة:

- هل تزوجت يا أخي؟

فاجلسه على الكنبه ووثب إلى الفراش وترجع عليه وهو يقول:

- تقريباً. . .

- خطبت؟

- الثالثة. . .

- الثالثة؟

- أهني الفرض الثالث!

فرفع الشاب إلى عينين داهشتين في وجع ثم ابتمس ابتساماً آتية على الرضم منه ولاح في وجهه ما يشبه الحياء فضحك حسن عالياً وقال باستهانة:

- هي زوجة في كل شيء إلا المقد. . .

فسأله حسن في خوف:

- أليست وحذك الآن؟

فحنى رأسه دلالة الإيجاب، ثم تساب بصوت

بك وراح يبحث عن عطفة جندف. وكان غادر البيت كبير الأمل ثم تسأل القلق إلى نفسه رويداً رويداً حتى تسأل في النهاية ترى هل يعطيني حسن ما أريد حقاً؟ وإذا لم يفعل فهل تضيع الوظيفة من أجل بضعة جنيهات لا يجدها؟ ثم اهتدى إلى عطفة جندف وهو على حال من التشاؤم مؤلة، ووجدما عطفة ضيقة متعرجة، تقوم على جانبيها بيوت متداعية، وتسطع في هوائها الفاسد رائحة السمك المفلن، وتكتك بالمآزة وعربات اليد، وتتجاوب في جوها نداءات الباعة ثم تتخللها شتائم ونحنات عسكرة وصبقات غليظة، ثم تأخذ أرضها المغطاة بالأتربة ونفايات الخضر وروث الدواب في الصعود تدريجياً حتى خيل إليه في النهاية أنها مقامة على سفح تل. ومضى الشاب إلى البيت رقم ١٧ وهو بيت قديم من دورين يلتفت الانتظار بشيقه فكأنه عمود ضخيم، وقد جلست غير بعيد من مدخله بائنة دوم ولب وفول سوداني فدخل كالترنود وارتقى سلماً حلزونياً بغير درابزين وقد زكمت أنفه رائحة نتنة صاعدة من بحر السلم، حتى انتهى إلى الدور الثاني وطرق الباب. كانت الساعة حوالي الحادية عشرة صباحاً، وكان أخوف ما يضافه ألا يجد أخاه في الشقة، وزاد من خوفه أن أحداً لم يلب الطارق. وهادو الطرق بشدة ويأس حتى كادت يده، ثم وقف يائساً لا يدري ماذا يصنع، وقبل أن يتحول عن موقفه جابه صوت غليظ من الداخل يغف بحنق:

- من ابن الكلب الذي يطرق الباب في هذه الساعة المبكرة؟

- أنا حسين يا حسن. . .

وقال الصوت بدهشة «حسين»، ثم سمع خشخشة المزلاج وهو يرفع، ونقش الباب، فرأى أخاه بشعر هائج مشعث وجهين عمرتين متفتحين لمد له يده وهو يهتف بلهشة:

- حسين!.. أهلاً وسهلاً، ادخل، خيراً إن شاء

الله. ماذا وراءك؟

فدخل حسين في شيء من الارتباك، وسرعان ما تطاير إلى أنفه عرف بخور طيب بدا عذباً مريحاً عقب

تصرف المرتبات مؤخرًا!

وأدرك حسن ما يعنيه قبل أن يتم كلامه، فتعكر دون أن يبدو على وجهه شيء مما يدور في نفسه. ثم سأله:

- وما المرتب الذي تنتظرون؟

- سبعة جنيهات.

- يا خبيثها يوم أرسلتك إلى المدرسة!.. وطبعًا لا تملك من نفقات السفر ومعيشة شهر أكتوبر مليًا؟

فابتسم حسين في تسليم وهو يعجب لما شعر به نحو أخيه - في هذا الموقف - من الارتباك والحياء كأنه يسأل رجلًا غريبًا. وجعل حسن ينظر إليه صامتًا وعقله لا يفي عن التفكير. «جاء حسين في ظرف غير مناسب. إنني أنتظر نفقًا لا أحري متى تأتي ولكن يدي الآن فارغة. مصفاة لا يبقى فيها شيء. ثيابا لا يمكن أن أصارحك بالحقيقة، لتعلم القليلة قبل ذلك. إنه في حاجة ملحة إلى النقود، ولا بد أن يحصل عليها. مستقبل الأسرة يتوقف على هذه الجنيهات، وليست في الواقع بالكثير، لمن أوقيات حشيش، ويغن مثلها أي في أرض في أسبوع بدرب طياب. سناء مفلسة أيضًا، لم أعد أبقي لها على شيء. ولكن لا بد أن أعيته، كيف؟ ولماذا لم يحضر إلا اليوم؟ إلام بقي أسرتنا شوكة في جني؟!». وظل ينظر إلى أخيه صامتًا حتى امتلأ حسين قلقًا وخوفًا. ثم غادر حسن الفراش فجأة ونهب إلى الصوان ففتح درجًا وعكف عليه دقائق ثم عاد إلى مجلسه ومد يده إلى أخيه فإذا فيها أربع أساور ذهبية، وقال بسرعة:

- خذ هذه الأساور، ويعمها في الحال وانتزع

بشمها...

وبجدت يد حسين فلم تتحرك، واتسعت عيناه انزعاجًا وإنكارًا، وهتف وهو لا يدرى:

- ما هذا؟! أساور من هذه؟

فقال حسن ببساطة وقد ضايقه انزعاج الآخر:

- أساور سناء، أمرائ!

- وبأي حق أخذها؟

- إن أعصاك بمعطيك إياها. لا شأن لك

مرتفع كالذهب، ثم قال محذرًا:

- طبعًا لن تحبب أحدا؟

- طبعًا...

فضحك حسن وقال:

- لا أحب إيلاء مشاعره، هذا كل ما هنالك.

وبهذا المناسبة ألم تحبب النساء؟

فهو الشاب رأسه سلبًا في حياه فسأله مستطردًا:

- وحسين؟

فارتج قلبه في خوف والم لم يدر لها سببًا، ثم قال:

- ولا حسين...

فتعكر حسن مليًا ثم قال:

- هذا أفضل بالنسبة لك... (ثم ضاحكًا) إذا

لويت الزواج يومًا فانصدي أزودك بنصائح عظيمة.

فقال حسين يهدو:

- لست أفكر في الزواج كما تعلم...

- أمن الممكن أن يتزوج حسين قبلك؟

لفحق قلبه، ولكنه قال بهدوء:

- هذا مؤكد لأنه مرتبط بوعد قديم...

فقال حسن بتأثر:

- على أية حال إذا انتهى حسين من دراسته فليس

ثمة عائق. أه، على فكرة، ماذا جد من أبناء الوظيفة

التي تبحث عنها؟

وسرّ حسين بما حيّا له من فرصة يلج بها موضوعه

فقال:

- لقد جعلت لأعبرك بأنني تميت كائنًا بمدرسة

طنطا الثانوية، وبأنني سأستلم عملي في أول

أكتوبر...

فقال حسن بدهشة:

- هل تسافر إلى طنطا؟ وما الفائدة التي تجنيها

أمك إذا فتحت بيتًا جديدًا في طنطا؟

- فائدة قليلة، ولكن ما الحيلة؟

- هذا سوء حظ قارس، وهذه هي نتيجة المدرسة!

فابتسم حسين يخالف ارتباك، ولم أطراف شجاعته

وقال:

- سأسافر في نهاية سبتمبر، وأنت تعلم أن الحكومة

وكانت الأساور ما تزال في يده. فخفض حينه وقال  
بخجل:

- إني أشكر لك كرمك، وأقبله على العين والرأس،  
وأرجو أن تملّهُ قِيتًا أقضيه عند الميرة بإذن الله...  
- أقبله هدية إذا شئت، ولا تنس أن تحبر أمك بأني  
اقترضت النقود من الأستاذ صبري...

وأثار ذكر أمه ألمًا حادًا في نفسه فوجد امتعاضًا،  
وتضاعف هذا الامتعاض وهو يتناول الأساور ويدسها  
في جيبه، ثم قال:

- يؤسفني أنني أزعجك، وأظن أنه ينبغي أن  
أذهب كي تواصل نومك...  
فمدّ حسن له يده بالسّلام، وضغط على يده بأسفًا،  
ثم قال:

- مع سلامة الله. بلح تحياتي للجميع، وقل لأمك  
بأنني سأزورها قريبًا...

وغادر الشقة شاعرًا بغربة وإنكار. وهبط السلم  
الذي لا درابزين له في حله، ولكنه لم يتنبه للراحة  
التي من شدة إغراقه في تيار أفكاره...  
- ٤٧ -

كانوا يجلسون بحجرة الإخوة التي تصبح من الآن  
فصاحداً حجرة حسنين وحده. ورثت نفسه إلى وجه  
حسين فغمر الألم قلبها وهتفت:

- رباه. هذه آخر ليلة نجتمعنا معًا  
أحسّت الأم بطعنة تصيب فؤادها الذي علمه  
الدهر من الصبر فتوتًا، ولكنها ابتسمت، أو رست  
ابتسامة على شفيتها الجافتين، وقالت بمطف:

- حسين رجل كامل، وسيعرف كيف يعيش وحده  
دون ارتباك أو اضطراب. وإني مطمئنة كلّ الاطمئنان  
إلى أنه لن ينسنا، فسيذكرنا دائمًا كما سنذكره دائمًا.  
وهذه هي الحياة يا عيطة، ومصير كلّ أسرة إلى التفرّق  
السميد - على ما به من حزن - حيث ينهض كلّ بدوره  
الجديد...

وكان حسن يعرف أمه جيدًا فأدرك أنها تداري  
حزنها بالحكمة والحزم كعادتها دائمًا، فصمّم على أن  
يسالغ وحشة قلبه بالحزم كذلك. لقد بكى مرّة

بصاحتها...

واشتدّ انزعاجه وتساءل في امتعاض كيف يعيش  
أخوه؟ ثم غتم:

- لست مرتاحًا إلى أخلعها، أما من سبيل آخر؟  
وحقق حسن على هذا والتعقّف فقال بجفاء:  
- إذا كنت حنيئًا حقًا فما عليك إلا أن ترفضها،  
وليس عندي غيرها!...

فرمقه بارتباك، ولكنه قرأ في وجهه الصديق فأحسّ  
بضيق وقهر. «أساور امرأة!.. وإني امرأة!.. محال.  
شيء لا يصنق ولا يمكن أن يدور بي بخلد، ولم أعلم

- ولو في كابوس - بأنه وقع لي. كيف يمكن أن أحترم  
نفسي بعد ذلك؟ أرفض؟ والعمل؟ ليس لديه نقود  
أخرى، ينبغي أن أصلقه. ولكن محال أيضًا أن أضيق  
الوظيفة، وما عسى أن أصنع لو أفلتت الفرصة؟ كلّ

لا يمكن أن أرفض. لا يمكن أن أقبل. لا يمكن أن  
أرفض. لا يمكن أن أقبل. أرفض. أقبل. أرفض.  
أقبل. أقبل. شيء واحد يستحقّ اللعنة، هو  
الحياة، الحياة والحظ... والوالدان اللذان أتيا بنا إلى  
هذه الدنيا. كان يلعب بأوتار العود ولا يبالي شيئًا!

سحقًا لي، كيف أفكر؟ هيهات أن أذهب من مخيلتي  
صورة جثائه. رحمة الله عليه، ليس الذنب ذنبه.  
كالدجاج تلطخ رزقنا بين القاذورات. حجرة الدجاج  
على السطح ملتقى حسنين وبيّة. شيء تمشّو منه

النفس، فلأرفض. ولكن لا حيلة إلا بالإذعان. لن  
يدري أحد. ولكني سأذكره ما حييت، وسأعجل منه  
ما حييت. إنه ينتظر الجواب إني الإذعان وإني الموت.

فأخلعها كذّين ثم أقضيه عند الميرة. إنك تخادع  
نفسك. بل إني صادق ولاقضيّ ديني. أرفض أو لا  
تزم بعد الآن أنك رجل شريف. إني جائع. شريف  
وجائع. وإن أرفض. ثبًا للحياة. إني أدرك الآن ماذا

ساق أخني إلى هذا الزور. أسرة ضالمة وحياة قاسية.  
يجب أن أبست في الأمر وإلا تفجّر رأسي  
كالدجاج...  
- ماذا قلت؟  
ورفع حينه في ذهول وقد أثر فيه صوته تأثيرًا غيّا.



سيرتك الحميدة في بلدك الجديد، وأن تحلر صحبة  
السوء. . .

فابتسم حسين قائلاً:

.. اطمئني كلّ الاطمئنان يا أمّاه. . .

على أنّ عبارة «صحبة السوء» استدعت إلى مخيّلته  
صورة عطفة جنب وبليت الذي لا درابزين له  
والأساور الذهبية فشرع بفنور أغاض الإشراف الذي  
رسمته الابتسامة على وجهه فأنحنى على الحقيبة ليوارى  
وجوهه عن الآخرين، أمّا الأم فاستطردت قائلة باهتمام:  
- ولا تنس أسرتك. حقاً ليس ثمة حاجة إلى  
تنبيهك لهذا، ولكنّي أحبّ أن أدتّرك بأننا سنظلّ في  
حاجة إلى رعايتك حتى يتوقّف حسين وتزوّج نفسه!  
- ما توقّفت إلّا لهذا.

وسرّت في نفس نقيّة فشمعية رعب، ونفدت  
كلمة «تزوّج» إلى أعياقتها وخالها تبش ما استمر من  
غيبتها. ألا يزال هذا الأمل يذاعب أمّاه؟.. ألا  
تدري أنّ الموت أحبّ إليها منه؟ ونظرت إلى وجه  
حسين بغرابة، إنّه لا يدري، وهيأت أن يخطر لهم  
هذا على بال. ميهات ميهات. وغابت الحجره عن  
عينها فخلّ إليها آتيا تراهم وقد أحدقوا بها في ثورة  
جنونيّة وقد جمحت أحينم ملتزمة بنار الغضب ثمّ  
انقضّوا عليها كالوحوش. وهزّت رأسها لتطرد عنها  
أشباح هذه الأوهام المرجحة فصادت إلى حاضرها، ولكن  
سرعان ما وجعلت نفسها تتذكّر عمل الرهم منها  
ساعات ضعفتها تلك الساعات التي تلحد فيها عمّا  
يدفعها إلى تسليم نفسها من دواهي اليأس والفقر،  
هنالك تنسى كلّ شيء إلّا الرغبة المحرومة الجائفة  
فتمتّل بنفسها أنفع تمثيل. تذكّرت ساعات الضعف  
هذه وهي بينهم صامتة فعلاها خجل ألم وخوف لا  
يقبل لها به، وعادت تردّد بصرها بين أمّها وشقيقها  
بغرابية. ما يزال أمامها فرصة للتراجع، لا لربّ  
الصدع طبياً فقد ولّى أوانه، ولكن... ربه لا  
تدري ماذا تقول، ما الفاتنة؟ أيّ أمل قد بقي في  
الحياة؟.. لقد قضى عليها بأن تقضي على نفسها...  
وواصلت الأم حديثها قائلة:

كالاطفال ولكنّه لن يبكي مرّة أخرى. وجمّع مقلداً أمّه  
في ابتسامتها:

- سوف نلقّي في الإجازات، ولعلّي أنقل يوماً إلى  
القاهرة. فقال حسنين بأمل:

- لا بدّ أن يحدّث هذا يوماً ما...

وكان حسنين يحدّث كآبة وحزناً. لم يفتقر من شقيقه  
مد رأى نور الدنيا فلم يدرك كيف يلغى الحياة بدونه.  
كان شقيقه وصديقه ممّا، أجل كثيراً ما نشب النزاع  
بينهما، وبلغ الشجار أحياناً ولكن لم يكن لأحدهما غنى  
عن الآخر. لو كانت بهيّة أقلّ عناداً لما شكّا الوحدة  
قلّة. يد أنّه بوسعهم أن يتعرّض عن الفراق بالرسائل  
يجتريها له من أن لأن فتصل ما ينقطع بينهما من أسباب  
العشرة والحديث، ولعلّه يستطيع أن يسافر إليه في  
العطلة. ترى هل يمكنه أن يجري عليه راتباً شهرياً؟  
خمسون قرشاً أو ثلاثون خصوصاً وهو يعلم بأنّ راتب  
الدروس الخصوصية ينقطع بانتهاء السنة المدرسيّة!  
ليت شجاعته تؤايبه الآن فيحدّثه بأسانيد... ولكن  
صبراً، ولو زلّ هذا إلى فرصة أوفى..

وكانت الأم تواصل الضغنى بلا توقّف. لقد وُفّقت  
إلى الظهور بالمظهر الذي تحبّ أن تظهر به، أو الذي  
اعتادت أن تظهر به، ولكنّها كانت تعاني ألماً عميقاً  
بلغت شدّته ذروعا عند المساء، كانت تكابد تأنيباً خفياً  
لشعورها بأنّها تؤثر حسنين بأكثر جهاد، والأنا ماذا  
تري؟.. ترى الأخ الوديع يضغى بمستقبله ويرمي  
بنفسه بين أحضان النوى في سبيل الأسرة، بل في  
سبيل حسنين بالذات. وضاعف من آلامها أنّها كانت  
تري الواجب يمتّ عليها عوض حديث أبعد ما يكون  
عن العواطف، حديث إن دلّ ظاهره على الحذب على  
الفق المسافر لباطنه يرمي إلى الدفاع عن الأسرة قبل  
كلّ شيء. وجعلت تزجّله وهو يلحّ عليها حتى اقتنعت  
بأنّها إذا لم تسقه الآن فقد تفلت منها الفرصة إلى  
الأبد، ونظرت إلى حسين بإشفاق وحزن - وكان يرتّب  
ثيابه في حقيّة أبيه - وقالت:

- إنك رجل عاقل، وهذا ما يجعلني جديرة  
بالاطمئنان ولست أطمع في شيء أكثر من أن تواصل

كبيراً، ووجد نحو الأسرة التي يحبها - الأب والأم والفتاة وتلميذ السابق - امتثاناً عميقاً، وجرى الحديث بين ذكريات الماضي وآمال الحاضر لطيفاً صادقاً، مباركة عليك الوظيفة، تسافر مصحوباً بالسلامة، ستترك ورايك وحشة، لقد خسر سالم أستاذاً لا يوحى، إلخ وبهية نفسها على حياها وتحفظها قالت برقة «نعود بالسلامة قريباً إن شاء الله» فشكر لها تلطفها بلسانه وقلبه «فتاة حسنة حقاً، مهذبة عتشة، وحسين شاب رائع وسيكون زوجاً رائعاً. ترى ألم يقبل هذا الثغر؟ طالما شكا محضتها متدنراً فيا لها من فتاة نادرة حقاً! سأسافر غداً وبمسون صُوراً وذكريات، وستجتمعون كاجتماعكم هذا، وربما لا تذكروني إلا قليلاً، أو لا تذكروني بتاتاً، ولكن كيف أكون؟ وأين؟ وهل أملك مع وحدتي إلا أن أذكركم؟ كلما اشتد الدهر ازدادت قسوة وصبراً، ولاظنن هكذا إلى الأبد...»

- ٤٨ -

غاب وجه حسين في زحمة المؤذنين، وتراجع سقف عجلة مصر الحرمة حتى بدا من الداخل مظلماً، كل شيء يتراجع بسرعة متزايدة، وداعاً يا مصر. وهاد حسين برأسه إلى الداخل واعتدل في جلسته وهو يغمض عينيه ليخفي دموع رقيقة غالبت إرادته طويلاً ورمش سريعاً لينفض نداهما عن أهدابه. وكان إلى يساره أفندي يتصنّع جريئة حل حين جلس قبالة فروتيان يتجادبان الحديث ومع أن العربة كانت نصف ممتلئة إلا أن ضجة الراكبين كادت تملو على صلصلة عجلات القطار، وذكر في حزن مرگب بسرور أنه رأى دموعه في عيني حسين، أجل لقد تمجددا وهما يتحدان على طوار المحطة، ولكن حين تحرك القطار وأخذ الفئ يلوّج له يده الغروقت عينه بالدموع. وفي البيت كانت نفيسة تبكي صراحة حتى التهبت عيناها، لشد ما يذكر وجهها - الذي حرمه الله نعمة الحسن - بعطف ورنه وحنان. أمّا أمّه - وقد اهتمت على رغبه - فقد ضمته إلى صدرها وقبّلت خديّه، ولعلها تفعل هذا لأول مرة، أو في الأقل فهو لا يذكر أنها قبّلت قبل

- أنظر ماذا يلزمك من نقود كي تنهض بضرورات المعيشة وأرسل إلينا الفائض من مرتبك. لا بدّ من هذا يا حسين لأنّه لم يعد يبقى لدينا ما يستحقّ البيع. - سأبذل قصارى جهدي.

وتبدّد أمل حسين - أو كاد - من الفوز براتب شهري من أخيه بعد أن طالبت الأمّ بالفائض من مرتبه. أجل لا يعدد أن تحسّ الأسرة بشيء من الترفيه ولكنّه لن يروي جفاف يده، خاصة في العطلة الصيفية الطويلة. ترى هل تطالبه أمّه إذا وكّفت يوماً ما بما تطالب به حسين؟ غير معقول. إذا انتهى هو من دراسته فستخفّ أمّه من أثقل واجبات الأسرة، ويسعه وقتذاك أن يتزوّج وأن يعنى بأسر نفسه. إنّ نفيسة وحسين يتصنّيان للزوجة في إلتانها، وقد وجد نحوهما عطفاً ورثاء دون أن يمنعه هذا من الفرح بحقله.

لم تفرغ الأمّ من الإفصاح عما يدور بنفسها كلّ، فودت لو تخبّره من أن يستدرجه أحد إلى الزواج. ولم تكن تجهل أنّ كثيراً من الآباء والأمهات يتصنّون العزّاب أمثالهم في غربتهم بسهولة؛ ولكنّها لم تدب كيف توجه إليه هذا التحذير وعن يمينه أخوه الأصغر قد خطب وتهيأ للزواج وهو ما يزال تلميذاً... عدلت عن رغبتها كارهة، ولكن مطمئنة في الوقت نفسه إلى رجاحة عقله وحسن تقديره. وتحدّثوا طويلاً ما شاء لهم الحديث. ثمّ جاء فريد أفندي عمّد وأسرته لتوديع حسين. واستقبلوهم ما يستقبلونهم عادة بالترحيب والسرور، فليس ثمة أحد إلا وقدر مودّتهم وكرمهم وحسن جبرتهم. أجل لعلّه طراً على بعض النفوس تغير باطني منذ ثمت خطبة حسين لبهية غير الرسمية، فالأمّ مثلاً آمنت بأنهم رماو شبابهم حول الفئ قبل أن ينهض، وأنهم راموا باستئثارهم أشدّ أمانها تألقاً، أمّا نفيسة فلم يكن يوسعها أن تحبّ شخصاً يطمح إلى امتلاك حسين خاصة. ولكنّ هذه المشاعر الصامتة لم تكن لتؤثّر في رابطة الود والإخاء التي تجمع بين الأسرتين، ولم يكن من الحق أن تنسى الأمّ أبدي فريد أفندي ومروته. وقد سرّ حسين بزيارة التوديع سروراً

إن مصر تأكل بنينا بلا رحمة. مع هذا يقال عنا إننا شعب راضٍ. هذا لعمرى متهى اليؤس. أجل غاية اليؤس أن تكون بائسًا وراضيًا. هو الموت نفسه. لولا الفقر لوصلت تعليمي هل في ذلك من شك؟ أجاه والحظ والمجن المحترمة في بلدنا هذا ورائية. لست حاقداً ولكني حزين. حزين على نفسي وعلى الملايين.

لست فرداً ولكنني أمة مظلومة، وهذا ما يؤيد في روح المقاومة ويعزّي بنوع من السعادة لا أدري كيف أسميه. كلاً لست حاقداً ولا يائساً أيضاً، وإذا كانت فرصة التعليم العالي قد أفلتت من يدي، فلن تفلت من يد حسنين، وديما وجدت نقمة الزوج المناسب. سوف تروى الروح إلى أسرتنا فنذكر أيامنا السود بالفخار ولاحت منه الضائقة إلى يساره فوجد الأندني الذي كان يتصمّع الجريدة قد طواها ونظر إليه نظرة من ضلّ بالوحدة وألصقت، وكأنه كان ينتظر هله الالتفاتة للمارضة فقال بلا داعٍ ولا تمهيد وهو يلوح بالجريدة المطوية:

- لولا الطلبة ما التفت الزعماء، من كان يتصور أن يجلس صديقي مع النحاس على مائدة واحدة؟  
ورحب حسين بالحديث ليربح رأسه من أفكاره وقال:

- هذا حق يا سيدي.  
- ومن كان يصدّق أن يعترف الإنجليز بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة، وأن ينزلوا عن التحفّظات الأربع؟.. أتظنّ أن تلغى الامتيازات حقاً؟  
- أعتقد هذا.

فقال الرجل بسرود:  
- سيحكم النحاس إلى الأبد. انتهى عهد الانقلابات. حضرتك وفدي.  
- نعم...

- قرأت هذا في سباحة وجهك. الوطني هو الوفدي، وما الأحرار الدستوريون إلا إنجليز بطرايش بصرف النظر عما يقال عن الائتلاف وفوائده.  
- هذا حق لا شك فيه....

- حضرتك مسافر إلى الإسكندرية؟

هذه المرة لشد ما تأخذ نفسها بالحزم حيالهم، هذا طبعها، ولكن هيهات أن يطعمس حناتها العميق. ولم تشأ أن تبكي وهي تودعه إذ أنها تشام من دموع التوديع، ولكنّها قرأ في تغلّص جفنيها نديراً بالبكاء لا يلبث أن يستفيض دموعاً إذا وراه الباب عن عينها. قال لنفسه لعلها بكت طويلاً، ولعلها لا تزال تبكي، وشعر لهذا بكاءة وحزن. ولم يكن رآها تبكي قبل وفاة والده فاشتدّ تأثره، «يا لها من امرأة عظيمة. شاء الله أن يبطل أسرتنا بمصيبة قاصمة ولكن سبق لطفه فقتر أن تكون هذه المرأة أمنا. ماذا يكون مصيرنا لولاها؟ كيف خلّدتنا وكستنا؟ كيف سيطرت على توجّهنا؟ كيف نهضت بضروريات أسرتنا في هذه الظروف القاسية؟ يا لها من معجزة تحجّر العقول. حقّ حسن أخي ظني أنّه لولا المرحوم أبي لأمكن أن نجعل منه رجلاً غير الرجل. آه... لاقتصدن في الكلام عن حسن. لولاه ما عرفت سبيل إلى وظيفتي، نقوده هي كلّ مالي حقّ آخر الشهر. الأساور؟ يا للذكرى! انس، ينبغي أن أنسى كي أحيى. سأقضي الدين يوماً وأسدل الستار على أسوأ الذكريات». وأرسل بصره من النافلة فأرأى من أفكاره فرأى الحقول تترامى حقّ الأفق، والحفصة يانعة ناضرة بهجة تجل رموسها مع الهواء في موجات متصلة، وهنا وهناك فلاحون وثيران تلوح كالدمى تكاد تبلمها الأرض، وسوائم ترعى، وفوق هذا كله سماء الخريف مثقلة بيباض شاحب ينحصر في أكثر من موضع عن بحيرات من زرقة صافية. ومزّ القطار بجداول صلب ذات أشعة الشمس على سطحه زئبقاً يبهز الأعين. ورأى أسلاك البرق في أمواجه المتواصلة تشمّلها حركة منتظمة كأنها تسبح في الفضاء على وقع طقطقة القاطرة الرتيبة. ثمّ مدّ بصره أخرى إلى الأرض المنبسطة، الصامتة الصابرة، الخيرة، فذكر دون وعي أنه... كنهه الأرض الخضراء صبراً وجوداً والدهر يحرقها بسنانه! لم يعد بوسعه أن تقوم بزيارة محترمة لأتيا لا تمجد الثياب اللامعة وتفتّم عيناه فغابت عن ناظره بهجة المنظر ودعا الله أن يرزقه حقّ يرقه عن أمه المتصبرة وأسرته المتجلدة. «يا للعجب.

- إلى طنطا فقط.

- شي الله يا سيّد يا بلوي، لقد عشت في طنطا أحوالاً ..

ولاح الاهتمام في وجه حسين فسأل:

- إني مؤلف جديد، فهل دلتني هل فندق معتدل الأسعار يصلح للإقامة؟

فجعل الرجل يدحك ذقنه بيده متفكراً ثم قال:

- عليك بفندق بريطانيا بشوارع الأمير فاروق لصاحبه ميشيل تسطنسي.

يمكن أن تقيم في حجرة نظير جنه ونصف شهرًا ..

ثم تحدثنا طويلاً عن الإقامة في الفنادق وسكنى الشقق والمقاصلة بينها ..

- ٤٩ -

كانت حجرتي بالفندق صغيرة، ذات فراش لشخص واحد وصوان ومقعد خشبي ومشجب، وكان جوّها يشي بالرطوبة الكامنة، إذ كان بها نافذة واحدة تفتح على عطفة جانبية ضيقة ويحول بينها وبين الفضاء جدار بيت قديم، فلم تجد الشمس سبيلاً إليها. وكان يوجد بالفندق حجرات تطلّ على شارع الأمير فاروق ولكنها مرتفعة الإيجار فعزل عنها إلى غلده الحجرة البسيطة قاللاً لنفسه: ومن العدل أن أعيش كما يعيشون في عطفة نصر الله. وكان أوّل ما فعل أن تفتح النافذة وأطلّ منها مدفوها بحبّ الاستطلاع فوقع بصره على عطفة حقيرة تقوم على جانبيها بيوت قديمة فجعب للمفارق الكبير بينها وبين الشارع الذي تتفرّع منه، ثم رأى جدار البيت الذي يحجب عته الفضاء لدخله ضيق وأيقن بأنّه لن يظفر في وحدته بتسليّة. وتحول عن النافذة إلى امرأة الصوان فطالع صورته في هيئة غريبة، بدا وجهه طويلاً وقسياته شاهقة إلى ما تنائر على صفحتها الباهتة من إفراوات الذهب، فتضاحك وقال مخاطباً صورته «إني أجمل منك بفضل الله ورحمته» ثم مضى يخلع ثيابه، وارتدى جلبابه، وربّ ملايحه القليلة في الصوان الذي بدا على صفرة فارغاً، والواقع أنّه لم يكن يملك غير بدلة وجلبابين وملابس داخلية

من نسختين، وجميعها قديمة عملت بها يد الرفو والترقيع، وحلى سبيل الاطمئنان دسّ يده في جيب الجاكّة وأخرج رزمة الجنيهاات وعدّها ثم أعادها إلى مكانها وقد عاودته ذكرياتها الاليمّة، ثم ذهب إلى الفراش وثرّج عليه. لا يدري ماذا يفعل في بقية النهار، ولما لم يجد أحداً يجادته ولا عملاً يعمله فقد استسلم بكلّيته إلى التملّات والأحلام. وشعر بالوحدة والدعشة، وأدرك أنّه سيعاني مرّ العناء من فراغه. أجل أنّه يحبّ القرامدة ولكن حتّى إذا أمكنه ابتناع ما يريده من الكتب فسيظلّ لديه من الفراغ ما يضيق به. لم يألّف الحياة في هذا الصمت الثقيل، وشعر في وحدته الصامتة بأنّه شيء ضائع تافه لا يحفل به أحد ولا يابه له أحد. أين صوت حسنين الحادّ العصبيّ الذي لا يفتأ يضحّ بالضحك أو بالشكوى، أين صوت نفيسة الرفيع وتعليقاتها اليومية الساخرة على الجيران والحوادث. ولكنّه لم يشأ الاستسلام لشعوره، وأقر أن يبحث شئون ميزانته التي سينظّم معيشته على أساسها. مرّبه سبعة جنيهات، مبلغ لا بأس به في ذاته لولا ما يندقّ به من ظروف. منه أجرة سكن ١٥٠ قرشاً، و٢٠٠ قرش للأكل لا يجوز له أن يتعدّاها بحال، فوّل للفستور، وطبق خضر باللحم وأرز ورغيف للعشاء، وحلاوة طحينيّة أو جبن للعشاء، وإذا دحا الأمر أقلع عن العشاء كما اعتادوا أن يفعلوا طوال العامين المنصرمين، وبها يمكن من أمر فلن يسمح لمعدته بأن تكون مصدرًا للمتاعب والارتباك، أنّه أعظم من هذا ووسعوه أن يقرّر خله الحقيقة الآن، وهو في مأمن من معارضة حسنين، وإنّ تحمّل المضايقة في سبيل الحياة التي يرضى فيها عن نفسه لالذّ من شهوة الطعام. ثمّ ٢٠٠ قرش لاته، وهو قدر زهيد، وكان بوّده لويضاغفه ولكن لا حيلة له فلم يبقّ لتنفقاته الثريّة وكساهه إلّا ١٥٠ قرشاً فيما عدا الضرائب التي تخصم عاقبة من المرتّب. ثمّ تسامد فيما يشبه الحياة ألا يمكنه أن يقتصد ولو ميلّاً قليلاً في صندوق التوفير؟ أنّه لا يطيق الحياة بلا اقتصاد من أيّ قدر كان، ولا يظنّ أنّ إنساناً احتضته لمّ كلّته يستطيع أن يمارس

اليوم الأول للمفراق ثم يهون الأمر رويدًا رويدًا. وتحير ماذا يفعل، هل يقضي سحابة اليوم في هذه الحجرة أو ينطلق إلى الخارج ليجول جولة في المدينة الجديدة، ثم خطر له خاطر هبط على نفسه كما يهبط أداة النجاة على التخطيط بين الأمواج، وهو أن يكتب رسالة لأخيه. وجاء بخطاب ويبدأ يكتب بلا عنوان فوصف رحلته والفندق وصاحبه قسطندي وحجرته وأشواقه ثم حله لحياته إلى أمه ونفيسة ثم توقف متأملًا هل يهدي تحية إلى بيبه؟ هل يذكرها بالاسم، أو يصفها بخطبة أخيه أو يفتح بتحية عامة لأسرة فريد أفندي؟ ثم أثار الأخير بعد تردد طال أكثر مما ينبغي...

- ٥٠ -

وغادر حجرته في الصباح الباكر، ولكنه وجد الخوفا ميشيل قسطندي جالسًا إلى مكتبه البالي عند أسفل السلم. وقد سأله الرجل عما إذا كان يحتفظ بشيء لعم في حجرته، فابسم حسين على رغبته وقال له «الأشياء الثمينة في جيبي». وانطلق إلى الطريق. ثم قصد إلى مطعم فول في نهايته كان عرف موقعه في أثناء جولته أمس بالمدينة، وتناول لظوره، ولفت نظره بصفة خاصة سلطة مختص لم يعرف لها نظيرًا في القاهرة. وقضى في المدينة حتى التاسعة ثم ذهب إلى المدرسة الثانوية ليقدم نفسه إلى الباشكاتب ويسلم عمله رسميًا. وقد اهتزت نفسه لرأى المدرسة، وهاودته ذكريات قرية حية لاحت في عينيه كالحلم. وحسرت البواب بشخصيته فمضى به إلى حجرة الباشكاتب وطلب إليه أن ينتظر حتى يجسر الرجل عما قليل. وجلس حسين على كرسي قريبًا من المكتب وجعل ينظر خلال الباب المفتوح إلى فناء المدرسة في جو يثل عليه الصمت. بعد أسبوع يبدأ العام الدراسي وتفتل هذه المدرسة بحياة حارة. وذكر كيف كان - منذ أشهر - يقضي أسعد أوقاته بالمدرسة في مثل هذا الفناء، وكيف كان يمتلئ خشوعًا حيال أي موقفك من موكليها. إنه الآن أحد هؤلاء الموكفين، بيد أنه لم يستسلم للزهو. إن التلميذ حلم أما الموكلف فحقيقة، التلميذ مشروع مستشار أو وزير أما الموكلف فدرجة

الحياة بلا اقتصاد. والحق أن أمه بين النساء كالمنايا بين الدول قادرة على الاستفادة من كل شيء ولو كان زبالة! كانت تترقب البطلون حتى إذا بلغ اليأس قلبته، فإذا أدركه اليأس مرة أخرى قصت أطرافه وجعلت منه سرورًا داخليًا، ثم تصنع من بعضه طاقية وتستعمل بقيته سمحة. ولا يلفظه البيت إلا فتيتًا. لا بد من الاقتصاد منها كلفه الأمر، وإن قسوة الحياة التي عصمتهم بلا رحمة حربية بأن تجعل من الاقتصاد عفة لهم. وعندما بلغ هذا الحد من التكفير تداعت إلى نفسه مشاعر الخوف التي كانت تلعب أسرته بسبب وبلا سبب والتي لم يكن من باعث لها إلا الفقر. أجل كانوا في خوف دائم من أن تزيد النفقات الضرورية على الإيراد المحدود، كان يتعرض أحدهم للمرض، أو يهد من ناحية المدرسة طلب، أو تتصل نفيسة عن الكسب ردحًا من الزمن أو أو أو، مما لا يقف عند حد، أراه لشدة ما يشعر بغض الألم في صميم قلبه وهو يهتز هذه الذكريات، ومن خلالها يراعى لعينه وجه أمه المعروف الجاف كمثل حي للصبر والألم، أحب الوجوه إلى قلبه على بؤسه ودمايته، ومن عجب أن نفذت إلى نفسه - وتذاك - نسمة مطلولة بفتة لشعوره بأنه بات قادرًا على التخفيف عنها بما يثقل كاملها. أجل إنه من الغد موكلف من موكلي الدولة، وبعد أحوام قصيرة أو طويلة يصبح حسين موكفًا أيضًا من درجة أهل، وسيفخر هو مدى الحياة بأنه فتح بشهادة متوسطة ليبر لأخيه الحصول على شهادة عليا. ترى هل يذكر حسين هذه العبر؟ إنه يبدو مشغولًا بأمر نفسه عما عداها، ذكي بلا ريب، ومجهذ، بيد أنه... آه فليمسك من نقده في غيبته. فما أشد حنينه إليه، وما أكبر شوقه حتى إلى عناده وملاحاته. ومزق الصمت صغير قطار قطع عليه أفكاره وخفق قلبه. وكان الفندق غير بعيد من المحطة، فلم يكن بد من أن تذكره القطر بين آن وآن بالقاهرة وأهلها. وعاودته ذكريات الوداع فنهشت قلبه حتى سح حنينًا دافقًا. ثم غشيت قلبه سحابة مظلمة من الوحشة والكآبة فقال لنفسه يصبرها ويعجزها: لعلها ضريبة

- إن شاء الله. أحببت أن أعرفك بنفسي، هذا كلُّها هنالك. لَئِي أَلَمَن نفسي كثيراً. اللمن مريح في أحايين لا حصر لها، ولولا لمت كثيرون كمذاً. ستعلم عَما قريب معنى العمل في مدرسة (تَمَّ متنبِّهاً) وصل الكتاب الخاص بتعيينك من الوزارة (ويُبحث عنه في أوراقه حتى وجدته) وهو الرقم ١١٧٥ بتاريخ ٢٦ من سبتمبر سنة ١٩٣٦. وقد جئنا ونحن في أشدَّ الحاجة إليك، وستبدأ الآن في مراجعة كشوف الأسماء والمصروفات. لقد تزوج الكاتب السابق من كريمة مفقش بالوزارة فنقله فجأة إلى القاهرة. حضررتك متزوجة يا حسين أفندي؟

فقال حسين مبتسماً:

- كنت تلميذاً حتى الربيع الماضي!

- وهل تظنُّ أنَّ التلمذة مأمنة من الزواج؟ لقد تزوجت وأنا تلميذ بالثانوي، وهذه أيضاً من عادات أَسْرَتنا كسمية الابن الأكبر باسم أبيه، وكان لنا عادات أخرى عظيمة أبطلها صديقي باشا لا ساعه الله...

فنظر حسين متسائلاً، فاستطرد الرجل في حزن قائلًا:

- والذي حَسَّان بك وفدي كبير وأحد أعضاء الهيئة الوفديَّة. وقد طالبه صديقي باشا أثناء حكمه المشوم بالانفصال عن الوفد ولسيَّ أي كما ينتظر منه حرمه معونة بنك السليف في عزِّ الأزمة فبيعت الأرض وضاعت الثروة.

فقال حسين:

- ولكنَّ النحاس قد عاد إلى الوزارة؟

- ولكنَّ الأرض ضاعت. والأدهى من هذا كله أنَّ صديقي انضمَّ إلى الوطنيين وقد خطب أوَّل هذا العام في مستقبلي بدموق فيلنهم تحيات «زعيمي النحاس» يا خسارتك يا حَسَّان حَسَّان حَسَّان!

فتظاهر حسين بالتأثر وغمغم:

- ربَّنا يَعوْضُكم عن خسارتكم غيرًا...

فهوَّ الرجل رأسه، وسكت دقيقة، ثُمَّ قال:

- حطَّك سعيد إذ حُتِّت في المدرسة بعد أن ولَّى

ثامنة لا أكثر. ولم يطل به الانتظار فما عَظَم أن صغَّت أُنْثِيه سَعلة غليظة ونحنحة عميقة ثُمَّ أَرَبَز بصقة، ورأى على الأثر رجلاً يقتحم الحجرة مهرولاً، قصير القامة، رقيق الجسم، كرويَّ الوجه، أعمش العينين، تملوه صلعة ناصمة البياض، وقد قبض على طريوشه بيد وراح يَحْتَفِ صلعته بمنديل باليد الأخرى، وما إن وقعت عيناه على الشاب حتى صاح به:

- بسم الله الرحمن الرحيم، كيف طلعت هنا؟..

هل بَتَّ ليلتك في حجرتي؟.. تلميذ مستجدًا؟

فوقف حسين مرتبكًا وقال:

- أنا يا بيك الكاتب الجديد حسين كامل عليّ...

فقهقه الرجل ضاحكًا. ولكن أدركه السعال وعاودته النحنحة فامتلا فمه مرَّة أخرى ونظر حوله في حيرة، ثُمَّ جرى إلى الخارج، وغاب نصف دقيقة ثُمَّ عاد أحسن حالاً وهو يقول كالمعتل:

- لمن الله البرد، أصاب به كلُّ مطلع فصل من فصول السنة فتجدني في حيرة دائمة ما بين فصول السنة وفصول المدرسة، لا مؤاخلة يا حسين أفندي السلام عليكم أوَّلًا...

فمدَّ حسين يده مبتسماً وهو يرِدُّ تحيته بأحسن منها، ثُمَّ جلس الرجل إلى مكتبه ودعاه إلى الجلوس فجلس، وأنشأ الباشكاتب يقول:

- لاسمي حَسَّان حَسَّان حَسَّان. العادة في أَسْرَتنا أن يتسمَّى الابن الأكبر باسم أبيه، ألم تسمع بأسرة حَسَّان بالبحيرة؟ كلاً... كلاً كلاً يا سيدي، الله الغني، التلاميذ الكلاب يدعوني بحَسَّان أس...

فضحك حسين ملء قلبه، ولكنَّ الرجل حدَّجه بنظرة انتقاد من بصره الأعمش وقال:

- علام تضحك؟ ألم تتخلَّص بعد من عقليَّة التلاميذ؟ وبئذه المناسبة أقول لك لَئِي رجل عصبي جدًّا ولكنَّ قلبي طيب. وكثيرًا ما ألَمَن أبا أحسن واحد، بلا قصد سيِّئ ومع الاحترام الكَثِير للشخص الملعون! فافهمي ولا تنس آتِي في سَرِّ والدك! فقال حسين في ارتباك شديد:

- لن يحصل بيتنا ما يثير الغضب إن شاء الله.

وفرش الأخرى بالاثاث الجديد وكان للحجرة نافذة تطلّ على شارع وفيّ الله - حيث يوجد مدخل البيت - وينسرح أمامها الفضاء بلا عائق لارتفاعها حيّا حولها، فشمع الغنى - بعد ضيق - براحة الفضاء وطلاقة الجوّ، وشُرّ لذلك كثيرًا. وكان يوم انتقله إلى الشقة الجديدة يومًا سعيدًا حقًا، إذ إنّه وجد نفسه - لأول مرّة في حياته - صاحب بيت وأثاث ومرتب. ولم يكن نسي ذلك الإحساس اللطيف بالارتياح والسرور الذي انبعث في نفسه وهو يتسلّم مرثبه صباح ذلك اليوم، ولا كيف دارى ابتسامه انطلقت من قلبه إلى شفتيه حيّاه أن يطلع الصراف على فرحه، ولكنّ هذا السرور كلّه لا يعدّ شيئًا إلى السرور الذي امتلأ به قلبه وهو يبعث بالجنهين إلى أمّه، كانت لحظة عظيمة عرف أثنائها أنّ صبره الطويل لم يلعب سُدًى. وما كاد يستقرّ به المقام حتّى زاره حسان أفندي مهتًا وقال له ولن تكون غريبًا ما دمت بيننا فشكر له فضله وحفظ له في نفسه من الاعتنان ما هو خليل بقلبه الشكور، وغفر له ما يلقي منه في اللدوسة من حدة الطبع وسوء التصرف والارتباك في العمل، والحقّ أنّه قد ألف هوسه متعزّيًا بطيبة قلبه وشفقة روحه، ولم يرضَ حسان أفندي أن يتركه منفردًا ودعاه إلى قضاء سهرته بشرفة شقته فذهب معه متبكيًا وجلسا ممّا وحسان أفندي يقول:

- يبدو لي أنّك لا تحبّ المقامي فاجمل من هذه الشقة نايك اللطيف...

وكانت الشرفة مهتأة للجلسة الطيبة ففي جانبها الأيمن كرسيّان كبيران من القش بينهما خوان وفي الجانب الآخر شلّة كبيرة تقوم ورائها رسادة، وحلّ خوان في ركن من الشرفة وضمت صينيّة صُغت بها قُلّتان وإبريق وقد حام على الماء المجمع في وسطها الليمون البزهر. وراح حسان أفندي يتحدّث بلا توقّف تقريبًا وكيفما اتّفق، وقد بدا في جلبابه الفضفاض أصغر منه في البدلة فلم يكن شيئًا يذكر، أو كان لسانًا فحسب. ورحب حسين بالجلسة لما عناه من الفراغ في الأسابيع الماضية، فلم يكن يلري ماذا

عهد الإضراب، كادوا يحرقون بنا المدرسة أثناء المظاهرات الأخيرة لعن الله المظاهرات والطلبة وصدقي باشا. أين تقيم يا حسين أفندي؟ - في فندق بريطانيا.

- فندق ١٩ خيبيك الله، معدرة، أعني ساعك الله. الفنادق مقام غير صالح للإقامة الطويلة ويجب أن تبحث فورًا عن شقة صغيرة.

- ولكنّي لم أحلّ معي أناثًا؟ فتفكر حسان أفندي وهو يفرض أظافره باهتمام طارئ ثمّ قال:

- فرش حجرة لن يكلفك كثيرًا ويمكن أن تؤدّي ثمنه مقدّمًا بضمانتي إذا شئت...

وهادو التفكير وهو يتفرّس وجه الشاب واستطرد: - توجد شقة مكوّنة من حجرتين على سطح البيت الذي أقيم فيه لن تزيد أجرتها عن جنيه واحد فما رأيك؟

ثار اهتمام حسين لأول مرّة بعد سماع قيمة الإيجار فقال:

- سافكر في الأمر جتّيا... - الأمر واضح مثل  $1 + 1 = 2$  والآن هلّم إلى العمل فإنّ الأوراق أكوام ملّ تزوّج ابن القديمة ونُقل إلى القاهرة...

- ٥١ -

وقرّر حسين أفندي أن يبقى في الفندق حتّى يتسلّم مرثبه أوّل الشهر الجديد، وأخذ يتنقح بمرور الأيام بوجود الانتقال إلى شقة خاصّة يتهيّأ له فيها الشعور بالاستقرار والطمأنينة على وجه أفضل. وكان حسان أفندي دائبًا على تزوين فضائل الإقامة في شقة له، حتّى هلّ الشهر الجديد فابتاع له فراشًا وصوآنا صغيرًا ومعدّات بحوالي الجنهين ثمّ التفتّق على أدائها على أربعة أقساط بضمان حسان أفندي، وليّا كان إيجار الشقة جنهيّا فلم تزد نفقاته شيئًا. وكانت الشقة الجديدة تشغل نصف سطح البيت الذي يقيم حسان أفندي بطبقته الوسطى، وكانت مكوّنة من حجرتين غير المرافق. فأغلق الشاب حجرة لمعد الحاجة إليها

اللعب والكلام معاً، وكان اللعب نفسه يبيّن له فرصاً لا تنتهي للثروة فكان يطلق على آية نقلة للقطع مزهواً بلعبه سائراً من لعب الشاب، ثم صاح به بعد أن غلبه أول عشرة:

.. العن سوء الحظ الذي رمى بك بين يدي،  
وهيهات أن تلوق الفوز ما دمت حياً...

وعادوا للعب بحماس وتحفز، وانهمك فيه حسين انهماكاً شديداً فلم يفرق حتى طرق سمعه صوت أقدام خفيفة تقترب من الشرفة، والتفت نحو الباب بحركة عكسية فرأى فتاة تحمل بين يديها صينية شاي، وسرعان ما استردّ بصره في حياء وارباك لآه أدرك من أول نظرة أنّ الفتاة لا يمكن أن تكون خادمة. وأحسن بشخصها إحساساً غامضاً وهو ينحني قليلاً ليضع الصينية على كرسيّ خيزران، ثم به وهو يلعب مبتعداً. ولم يكن بصره قد ارتدّ عنها فارهاً، أجل خلقت به صورة وجه تمثل ميل إلى البياض، وعينين سوداوين - أو لعلهما عسلتان؟ - ذواتي نظرة مليحة. ولبث في ارتبائه موزة الوجه على حين أمسك حسّان أفندي من ثروته بنشة، ثم عاد يقول بصوت منخفض:

- هذه ابنتي إحسان، لم أر أبناً في أن تقدّم لنا الشاي ما دمت أعدك كأحد أبنائي...  
وحركّ حسين شفثيه كأنه يتكلّم ولكنه لم ينس بكلمة، وقال حسّان أفندي وهو يصبّ الشاي في القدحين:

- البنت في البيت نعمة كبرى، لقد تزوّج أخوانها واحدة في القاهرة واثنان في دمهور ولم يبق غيرها!  
تمتم حسين في ارتباك:  
- ربّنا يفرّحك بها...

ومضيا بحسبان الشاي في صمت. وأخذ الارتباك يذهب عن حسين غلظاً وراه شعوراً بالخرج لم يدركه سبباً واضحاً، أو لعلّه تهرب من السبب وتجاهله. ووجد إلى هذا أنّه لا يزال متأثراً بما خلق في مخيلته من صورة الفتاة على غموضها، تأثراً يعرفه في نفسه حيال آية فتاة ولا دلالة خاصة له سوى أنّه انفعال مكتوب

يفعل بالوقت، ولم تنفع القراءة في تزجية فراغه إلا قليلاً، لا لأنه كان يضيّق بها ولكن لأنّ تقوده لم تسعفه بشراء ما يحبّ من الكتب فاكفى مضطراً بكتاب غير الجريدة اليومية. وجرب الاختلاف إلى المقهى ولكنّه لم يبتش له وخاف أن يجرّه إلى بعثرة تقوده المدة فيها لا يجدي وكان يلعبه حريصاً، لهذا كلفه رغب بدعوة حسّان أفندي وصدقت نيته على أن يجعل منها تسلية عسوية مهما كلفه هذا. وتأتى الحديث إلى الشقة الجديدة فقال حسّان أفندي:

- لا ييمك تنظيف شقتك فقد أمرت الخادم بأن يتعهدها بالتنظيف كلّ صباح، وسوف أوصي غشالة تعرفها والجاهة بأن تذهب إليك كلّ يوم جمعة.  
فشكر حسين صنيعه في حياء وتأثّر، ولكنه تضايق بعض المضايقة لأنه كان يستطيع أن ينظف حجرته بنفسه، ولأنّ قيام الخادم بهذه الخدمة اليومية يوجب عليه أن يفضحه ببعض التقود بين آن وآخر الأمر الذي لا يمكن أن يتقبّله بارتياح. وضحك حسّان أفندي بسرور ثم قال:

- أمّا مفاجأة المفاجآت التي أعدّها لك فهي الزرد... هل تجهد ليعها؟  
فقال حسين بسرور:  
- بعض الاجادة...

فصادر الرجل الشرفة في حماس ثم عاد بالتردد ووضعها على الحوان وهو يقول بفخار صياني:  
- أنا بحمد الله خير من يلعبها بالوجه البحريّ، وربما بالقليّ أيضاً...  
سّرّ حسين حقاً بهذه التسلية التي لم يكن يتوقّعها وتساءل:

- عادة أم حبس؟  
فقال حسّان أفندي بقة:  
- اختر لنفسك ما تشاء، إنك على الحالين مغلوب...

وبدأ يلعبان. وقد اتضح لحسين أنّ حسّان أفندي يرشّ وجه المستمع إليه من قرب برذاذ ريقه إذا حادته فامل أن يلعبه اللعب عن الكلام، ولكنه كان يواصل



بأنَّ أمه قرّرت أن ترصد النقود التي يرسلها لضرورات الكساء وحده، وإنه ظفر منها بجاكته الجديدة يرتديها مع البنطلون القديم، وأنها ابتاعت لنفسها رويًا ترتديه فوق فساتينها الخفيفة فيكسيها دفقًا تستغي به عن الملابس الصوفيّة، وكان من نتائج ذلك - رصد نفوقه لضرورات الكساء - أنهم لم يستطيعوا الانتفاع بها في تحسين حالهم المذائبة التي ظنّت على ما يعلم من التضاعة والسوء. وحُدثه عن نفيسة فقال إنها تنظر من أن لأن يتقمّ يسر وإنّ الأمّ لم تعد تستولي على جلّ كسبها كما كانت تفعل قبل ورود نفوقه، فتوفّر لديها مال قليل تنفقه على ثيابها كي تظهر أمام الناس بالمظهر اللائق بهم. أمّا حسن فيبدو أنّ حياته الجديدة تستأثر به استئثارًا شغله عنهم، أو لعلّه ظنّ بعد تولّفه - حسين - أنهم لم يعودوا بحاجة إليه فأنقطع عنهم انقطاعًا كليًا. وواصل موافاته بأنباء استعداده لامتحان البكالوريا في نهاية العام قائلًا إنّهُ يستبسل في مذاكراته لأنّه يعلم ما يعنيه سقوطه. وفي آخر رسالة وردت منه تودّد إلى أخيه تودّدًا كبيرًا ثمّ سأله في ختامها هل يطعم أن يمهّ يشمن بنطلون منجّجًا على أشهر ثلاثة نظرًا لأنّ الجاكته الجديدة قد فقدت بهامها فوق البنطلون القديم الناحل؟ ووقف حسين عند هذا الرجاء متفكرًا، لا يدري إن كان يستطيع أن يحقّق له رغبته دون مساس بالقدر الذي يودعه صندوق التوفير. لكنّ فيه يفكر وهو يعلم بأنّه لن يجيّب لحسين رجاءه؟ ربّما كان يوسعه أن يزجره لو لم يفرّق بينها هذا البعاد، ولكنّ البعاد رَقّق قلبه وجعل حنيه إلى أهله قوّة لا تقاوم. أجل إنّهُ حريص لا يرحّب بشأنًا يبعثره النقود. لكنّ حرصه يتخلّل عنه بلا عناه كبير إذا كان البلد لأهله. لن يضيره التفتير على نفسه ثلاثة أشهر كثيرًا في سبيل إرضاء حسين. إنّهُ يعرفه حقّ المعرفة، ويعلم بأنّه يمدّ ما يقدّم من خير وإيجابًا على الآخرين، فإذا لم يسمعه بالبطلون نسي في حقّه صنع الجاكته. ووجد إلى هذا شعورًا غريبًا يدفعه إلى أن يضرر بجميله الفتي الذي يؤمن بأنّه سيكون له مستقبل باهر غداً. لقد خسّى مستقبله في سيله وينبغي أن تكون التضحية كاملة.

على كلّ شابّ بصفة عاتية، وكلّ شابّ بكر بصفة خاصة، ولعلّ ابتعائه هذه المرّة في بيت - لا في الطريق ولا في الترام - هو الذي أشاعه في جوّ من الحيرة والبهجة والعمق. وكان حتّى أن يفكر في أمور أخرى بعيدة عنه بعد القاهرة فتسلوه مشاعر خوف وحذر، وليث حسان أفندي يراقبه صلتًا، ثمّ ضاق بالصمت فقال:

- اشرب شايبك وتأنّب للمشرة الآتية، وقعت في غلامي ولا نجاة لك.

- ٥٢ -

كانت على درجة من الحسن تسوّج تألّره، وقد صدق ظنّه فيها تلا من أيام وأسابيع فراها في الطريق بصحبة أمّها، ولحمها في البيت أكثر من مرّة. ومن حسن الحظّ أنّها لم تثر من هيئة أبيها إلّا عذّيه المتنفّخين، ولكنّها جعلها طابعًا خاصًا ولم يفتّحها وجهها. وأدرك بسهولة أنّ شقّة حسان أفندي باتت تجذبه إليها بقوّة لا يبرّزها نشدان التسلية وحده. وكان يمتلئ شبابًا وحبويّة، فكان قلبه كان ينتظر أوّل طارق، وسرعان ما ترعرعت بين جنبيه عاطفة يضطرم فيها الليل والرضبة والاحجاب، فرامها أنسا لوحتته ورويّا لظمته، ولكن لم تغب عنه وثقة موقفه لحظة واحدة من بادئ الأمر، فلم يكن يغفل عن متابعه ولم يَنُزّل له بخلد أن يتراسخ في القيام بواجبه، بيد أنّه لم يعالج أمره بالحزم، وكان هذا فوق طاقته، وكان عليه أن يختار بين الاغضاء من ناحية وبين الانزواء في حياة جافّة موحشة لا نسمة فيها ولا أمل. واشتدّت به الحيرة، وفكر مرارًا في العودة إلى الفندق متحلًا عذرًا من الأعداء، ولكنّه لم يفعل، ثمّ وجد نفسه يسلم للأقدار تارنًا لها الأمر كلّهُ تقضي فيه بقضائها. وتواصلت الأيام دون أن يحدّ جديد، وكان نادرا ما يرى الفتاة ولكنها لم تغب عن خاطره قطّ، أمّا حسان أفندي فلم يفرج عن مألوف ثرثرته ونجامل الأمر كلّهُ. وفي أثناء ذلك لم تنقطع عنه أخبار أسرته بفضل رسائل حسين التي لا تترك كبيرة ولا صغيرة، فكانه يواصل حياته بينهم، ويشاركهم عواطفهم جميعًا. وقد أخبره

حال توكلّف أخيك، أمّا إذا أصرّ على تكملة تعليمه ووافقت والدتك على هذا فلا يحقّ لها أن تعارض في زواجك، أجل لا يحقّ لها أن تدلّل واحدًا على حساب حرمان الآخر من حقّه الأوّل في الحياة.

ووجد حسين حديث الرجل مؤثّرًا أكثر منه مقننًا، ولكنّه لم يشأ أن يقطع بالرفض أن تنفصم ما بينه وبين الرجل من أسباب المودة، فقال:

- اعتقد أنّه من الممكن أن أحقّق آمالي دون أن أقضي على آمالي.

وكان حديث الزواج يدور دون هدف معيّن في الظاهر ولكنّ التضاهم الصامت من الهدف كان تأسًا بينهما، وسبقت إليه إشارات فيما ينشأ بينهما من أحاديث كلّ مساء، وكانّ حسين لم يشأ أن يقطع بهذا القدر من التضاهم فقال في حياء شديد:

- وأظنّ أنسة إحسان لم تُعدّ أولى غطى للشباب...

فضحك الرجل عاليًا وقال:

- إحسان صغيرة طبعًا ولكنّ الزواج لم يخلق للكبار...

لم يتقدّم الموقف عن هذا الحدّ فيها تلاً ذلك من أيّام حتّى اقترح حسن أفندي أن يقمّه لبعض أقاربه في حفل عائليّ فلم يتّسع حسين إلّا القبول. وبجمل أن يظهر أمام الأقارب بمظهره الذي لا يسرّ حبيبًا، وركبه فجأة ما يشبه الجنون - هكذا وصفه فيها بعد - ففصل بدلة جديدة على أنساق وإبتاع حذاء وطربوشًا مدلولًا إلى هذا كلّه بمواقفه ونزوته الطارئة حتّى إذا جاء أوّل الشهر أدرك أنّه من المستحيل أن يرسل النقود إلى أمّه، وأرسل بدلًا منها خطاب اعتذار كاذب يقول فيه إنّ مرضًا ألمّ به وإنّه أنفق في العلاج ما ناهت به ماله من المخلوطة. وقد كتب الرسالة بيد باردة ونفس منقبضة مقتنمًا في أحبابه بأنّه هوى من غطى إلى غطى، وأنّ تعاقب الأخطاء قد أفقده اتّزان التفكير وسداد الرأي فلم يحسن حتّى اختلاق العذر...

- ٥٣ -

ثمّ كان يوم الخميس، وكان حسين مستلقّيًا على

وعاوده ذلك الشعور السعيد الحزين بأنّه الضحية الصابرة على الأقدار التي تجهّمت لهم، وإنّه الدرع الذي يتلقّى ضربات دون أن يتحكم، وإنّه عزاء يستمدّ منه قوّة وسرورًا، ويضفي على حياته معنى خلقيًا باهرًا.

ثمّ حدث ما لم يقع له في حساب - هكذا قال لنفسه وإن لم يكن صادقًا إذ كان يومًا يجالس حسن أفندي ويتنازعان الحديث كالعادة، فسأله الرجل:

- ألم تفكر في الزواج؟

فاضطرب الشابّ، وشعر بما يشبه الذعر، ثمّ غمغم قائلًا:

- كلا...

فرجع الرجل حاجبيه مستنكرًا وقال:

- ولهم تفكر إذن؟ ولماذا تعيش؟ هل تنظر للرجل من غايه، خاصّة إذا اطّمان جانبك بالوظيفة، سوى الزواج؟

وتردّد حسين قليلًا ثمّ قال:

- عليّ واجبات خلقة بالتقديم عمّا عداها.

ثمّ صارحه بما يكتف أسرته من متاعب مستعينا بالمبالغة أحيانًا حتّى يقوّي مركزه حيماله. وأصغى الرجل إليه باهتمام حتّى انتهى من قصّته، ولكنّه لم يبدّ عليه الانتعاش، ولم يكن على استعداد للانتعاش بما يحول بينه وبين أمانه، ثمّ هرّ رأسه الأصابع باستهانة وقال:

- أراك تبالغ في تقدير خطورة الحال. حبسك الصبر حتّى يحصل أخوك على البكالوريا، ثمّ تكون في حلّ من التحرّج من مسؤوليتك، وعليه هو أن يتوكّل بدوره. النخاس باشا نفسه تزوّج فهل ترى نفسك أكبر مسئوليّة منه؟

فضحك حسين في ارتباك وقال:

- ولكنّ أخى مصمّم على استكمال تعليمه...

فعاد الرجل يقول هازئًا:

- اسمع إذا كانت لك أهداف في الحياة كإصادة دستور سنة ١٩٢٣ مثلاً فالأخطى بك أن تؤجّل زواجك، ولكنّ دستور سنة ١٩٢٣ قد عاد والحمد لله فلماذا لا تزوّج؟ يجب أن تتزوّج في نهاية هذا العام

- لشد ما انزعجنا جميعًا خصوصًا وأنتك طمانتنا على صحتك في خطابك الأسبق...

ثم استدرت بعد وقفة قصيرة:

- وتوهمنا في الأمر عطوبة، والعياذ بالله، لسا رأينا من اضطرارك قطع نفوذ هذا الشهر عتًا...

وشعر بمثل شكة الأبرة في نفسه، وقال بعجلة مبتسًا ابتسامة باهتة:

- اضطررت إلى استدعاء طبيب وشراء أدوية فانفقت أكثر من جنيهين، وأنت تعلمين بأنه ليس لدي احتياطي للطوارئ!

- لا عليك من هذا إني مسرورة لأنني وجدت في صحة جيدة، وعسى بك أن تبث برسالة في الحال إلى أخيك لتطمته هو ونفسه اللذين تركتهما في أشد حالات القلق...

ثم ألقت نظرة مفتحة على حجرته، فعلق بصرها بالبلدة الجديدة على المشجب في خوف وقلق وتبها عقله لاختلاق كلبه جديدة، ولكنها قالت:

- حجرتك نظيفة وأثاثها جيد، هلم أرني شقتك...

فضحك حسين قائلًا:

- ليست شقتي إلا هذه الحجرة، وتوجد حجرة أخرى مغلقة لعدم الحاجة إليها.

- كأنك تستأجر حجرة بإيجار شقة!.. ألم يكن الفندق أفضل؟...

- على العكس فإن إيجارها ينقص عن الفندق حين قرشًا.

- أخبرتنا بأنك لم تحتاج إلى خادم أفلا يتعبك تنظيفها؟

- كلاً، هذا عليّ حين كما تعلمين!

فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت:

- يبدو لي أنك مرتاح وسرور يا بني، ولذا فأنا سعيدة..

وخيل إليه أن الأزمة قد مرت بسلام فقال بارتياح صادق:

- أنا السعيد يا أمه، وأسألك بك شهرًا كاملاً.

فراشه يقرأ جريدة الصباح التي يحتفظ بها عادة لوقت العصر، فسمع دقًا على الباب فظنه خادم حسان أفندي ومضى إلى الباب وفتحته وإذا به يرى أمه أمامه. أجل أمه دون غيرها، ففغر فاه دهشة ثم أخذ يدها بين يديه هاتفاً:

- أمه!.. في طنطا؟ لا أكاد أصلق عيني!

وشد على يدها، ثم قبل خديها أو تبادلًا بالأخرى قبلتين، وفي طريقهما إلى حجرته سألها بدعشة:

- لماذا لم يجرى حسين بحضورك كي أنتظر في المحطة؟ فجلست المرأة على الكرسي الذي قلّمه لها وهي تقول مبتسمة:

- لم أجد صعوبة تذكر في الارتفاع إلى مسكنك، إن الارتفاع إلى مسكن في شبرا أشد من هذا بكثير. وقد اقترح حسين أن أنتظر حتى يجرك عن حضوري برسالة خاصة ولكنني لم أجد داعيًا لازعاجك وأنت مريض كما لم أحتمل البقاء في القاهرة وأنا أعلم أنك هنا وحيد ومريض...

مريض! ألفتته هذه الكلمة من نشوة اللقاء فشمع بالخوف يقبض قلبه، ولكنه قاوم الخوف بقوة الخوف نفسه فضحك وقال:

- يوسف! أني أزعجتك يا أمه، ولكنني ما كنت أطمع في هذه النتيجة السارة وهي حضورك بنفسك!...

وجملت لتفحصه بعناية بوجه ينم عن إشفاق ورحمة ثم قالت:

- ماذا بك يا بني؟.. كيف حالك؟.. حدثني عن مرضك!

وداخله ارتباك بلذ قصاره كي لا تلوح أماراته في وجهه. وكان وثاقًا من أن مظهره لا يبي مرض، بل لم يكن يخفي عليه أن صحته تقلت تقلبًا ملحوسًا منذ تولفته لتحسن حالته الغذائية بصفة عامة، قال ببساطة:

- لا شيء ذي بال. أصبت بنزلة معوية حادة ولكنها لم تلازمي أكثر من يوم ويضع يوم... فقالت وعيناها لا تحولان عنه:

فما تمالكك أن ضحككت وقالت:

- بل هذه الليلة فحسب. ليس لي مكان أنام فيه، وسأكلُك أكثر مما تحتمل ما دمت تحمي بطعامك من السوق.

وقبل أن يتكلم دق الباب فقام إليه، وسمعت الأم صوته يقول بلهجة رفيعة وسليدي حسان يسأل عتبا أشرك اليوم، ثم سمعت حسين يعتذر بحضور والدته من القاهرة، وأغلق الباب وعاد الشاب إلى مجلسه من الفراش فوجد أنه تنظر إليه بعينين متساثلتين فقال:

- خادم جاري حسان أفندي بأشكايب المدرسة... وكانت تعلم من رسائله أنه الرجل الذي أقنعه بالانتقال إلى الشقة وعاونته على ذلك بضمانته لأثاثه الجديد فقالت:

- يبدو من قول الخادم أنك تمضي عنده فراخك. وتوهم لحظة أنها مكلعة على سره كله فقال دون أن ينظر إليها وهو يشعر بلسعة الحروف تجري في لعابه وتعتري زوره:

- كثيرًا ما أفعل. إنه رجل طيب وهو إلى هذا رئيسي وقد وجدت في صحبته ما أغنياني عن المقاهي ومفاسدها... لا بد للإنسان من تسليية يزوجي بها فراخه...

ثم قامت الأم إلى الحمام فغسلت وجهها، وشعلت معطفها لتناولها حسين ونفض عنه الغبار بفرشاته وهو يدعو الله أن تمر الزيارة بسلام. أجل قد تولاه القلق وشاف على سره الانتضاح واضطرب لوجودها في موطن هذا السر فلحن الظروف السخيفة التي أجبرته على منع النقود عنها. وعادت المرأة إلى مجلسها وأخذت تسائله عن أحواله وحياته، ولكن لم يمتد حبل الحديث طويلاً لأن الباب دق مرة أخرى فذهب حسين ليفتحه فيها يشبه الحقن وكان القادم هو الخادم نفسه وقد قال بصوت بلغ مسمعيها:

- السك الكيرة ترهب في أن تحمي السك والدتك. وعضبت الأم بسرعة وخرجت إلى الردهة وقالت للخادم:

- لا يوجد مكان هنا لاستقبالها، سأزورها

بنفسى...

وذهب الخادم فعادا إلى الحجرة وحسين يقول:

- لا داعي لهذه الزيارة، ولا يجوز أن نفترق دقيقة واحدة في المدة القصيرة التي تمكث فيها هنا.

فتبكت قائلة:

- مجاملات لا بد منها، ولا يخفى عليك أنه يهمني أن أجامل أسرة رئيسك...

وعادوا حديثهما ربحاً من الزمن حتى خفت حلة النور وأقبل الأصيل فهضت الأم لترتدي معطفها قائلة وأن لي أن أزور حرم جارك وراقبها الفتى بعينين كثيتين حتى غادرت الشقة، ثم تهب من الأهليق وتساءل وترى هل يساورها شك؟.. كيف تنتهي هذه الرحلة؟

- ٥٤ -

ولبت وحده منثلاً قلقاً، وتزايد قلقه بمرور الوقت، ثم لم يعد يشك في انتضاح سره، ثم تساءل مدافعاً عن نفسه فيم هذا الوهم كله؟ صي أن يمر كل شيء في سلام، لا يمكن أن يلحقوا إلى شيء، هذا مؤكد، ولكن هل تغيب عنها الحقيقة إذا رأت إحسان؟ وتنبه إلى زحف الظلام فقام وأشعل المصباح الغازي، ثم سمع الباب يدق فلق قلبه معه في حنف ومضى إليه ففتحه فدخلت أمه وهي تقول:

- لا أظنني غبت كثيراً.

وعادا إلى الحجرة فوقف هو مستنداً إلى حافة النافذة وراحت هي تخلع معطفها وحذاءها في صمت، وجعل يقول لنفسه «وراء هذا الوجه شيء»، بل أشياء، إلي أعرف هذا. أراهم حل أنها لم تتجشم السفر لتطمئن على صحتي. ليست أمي بالألم الضميقة، إنها حنونة حقاً ولكنها قوية ما في هذا من شك. ما أقطع هذا الصمت، متى ينقطع؟ وسألهما متظاهراً بعدم الاكتراث:

- كيف وجدتهم؟

فارتقت فراشه وترتبت عليه ثم قالت بانتضاب:

- لا أدري لماذا لم يرتع قلبي إليهم!

إنه يدري لماذا، برج الحفاء، ووقع المحذور.

وقال:

- الحقُّ أنَّ حسانَ أفندي رجل طيّب...

- ربّما. لم أقابله بطبيعة الحال...

لن يسألها عمّا لم ترتع إليه منهم، فليتجاهل المسألة، ولن يطول هذا طويلاً على آية حال. ووجدتها تنظر إلى يديها اللتين شبكتهما على حجرها. إنَّها تفكر فيما ينبغي قوله. لشّد ما أخطأ! ما كان ينبغي أن يستسلم لإغراء الظروف التي انتهت بمنع إرسال نفوده هذا الشهر. كيف ضلّ عائل الأسرة؟! ورأى أمّه ترنو إليه بطرف واجم ثم تقول:

- أمّا وقد اطمانت عليك فلا أظنّ أن ينجلي أن أصارك بأنّ منع النفود عمّا قد أخافني. احلوني يا بنيّ! إذا اعترفت لك بأنّه ساووي بعض الظنّ بأن يكون المرض مجرد اعتذار! فصاح وهو لا يدري:

- أمّاه!

- معدرة يا بنيّ! إنّ بعض الظنّ إثم، ولكنّي كنت أذكر طويلاً فيما يمكن أن يلقى شابٌ وحيد في بلد غريب. أجل إني أؤمن بعقلك ولكنّ الشيطان شاطر فحفت أن يكون أضلك، ولا تسلم عن حزني وأنت تعلم بأنّي أعتد بعد الله عليك. أخوك حسن لم يعد مثلاً، ونفيسة فتاة تعيّسة الحظّ، وحسين تلميذ وسيظلّ تلميذاً طويلاً، وأنت أدري به! وإنّا لنشقى ونجوع في مغالبة حقلنا، وقد خسرت نصيبك من المعاش وسنخسر عمّا قريب نصيب أخيك منه.

فقال حسين بانفعال:

- لست في حاجة إلى من يذكّرني بهذا يا أمّاه، لقد أخطأت... اضطررت إلى منع النفود اضطراراً لا حيلة لي فيه. إني جدّ حزين يا أمّاه. فقالت برقة وكأبها تحدّث نفسها:

- أنا الحزينة...

ثم استطردت بعد لحظة صمت:

- أنا الحزينة لأنّي أبعد كثيراً وكأني أحول بين أبنائي

وبين سعادتهم!

فقال بقلق:

- لشّد ما تظلمين نفسك، أنت أمّ رحيمة كأحسن

ما تكون الأمّ رحمة...

- يسرّني أنّك تفهمني يا بنيّ.

وتنهّدت وهي تنظر في عينيه ثمّ قالت:

- لا ألقيني شيء في حياتي كما ألقيني مستقبل أعتك نفيسة. أوّد لو أغمض عينيّ ثمّ افتحتها فأجدّها في بيت زوجها. ولكن كيف؟! لست أملك لتجهيزها ملهياً، وأخوف ما أخاف أن أسوت قبل أن أطمئن عليها. أنتم رجال أمّا هي فمن الولايا اللاتي لا نصير لهنّ.

فصاح حسين مستكراً:

- لن تكون بلا نصير ونحن على قيد الحياة...

فتنهّدت مرّة أخرى قائلة:

- مدّ الله في أعماركم، ولكنّ الفتاة لا تضمن

سعادتها في بيت أخيها المتزوّج!

ولاحت في عينيه نظرة ذات معنى. إنّه يفهم ما يقال. إذا كانت الفتاة لا تضمن سعادتها في بيت أخيها المتزوّج، وما دام حسين في حكم المتزوّجين، فلا يجوز له أن يتزوّج! منقن معقولاً ورحيم أيضاً! بيد أنّه ينطوي على حكم بالإعدام. ما صغى أن يقول؟ لم يعد يخاف أن تنهال عليه ضرباً كما كانت تفعل أحياناً، ولكنّه لن يتخذ من هذا الأمان مسوّغاً لإغضابها، وعمل العكس سيّخذ منه دافعاً برئاً للمبالغة في إكرامها، وقال بهلوه:

- اطمنّي يا أمّاه. أرجو ألاّ تجد نفيسة نفسها يوماً

في هذا المأزق!

فهزّت رأسها هزّة كأنّها تقول له لنندع المداراة جانباً ولنتكاشف ثمّ قالت:

- الحقّ لقد أُلئت عليّ بعض الخواطر فلم أجد فرجة إلّا في أن أسافر إليك على مشقة السفر وكثرة النفقات.

فابتسم بلا وعي تقريباً:

- إذن لم تحصري كي تطمئنّي على صحّتي!

وندم في اللحظة التالية على إغلات هذا القول منه،

ولكنّها ابتسمت إليه ابتسامة حزينة وقالت:

الإيجار كما تعلمين...

فكان جوابها أن دعت له بالتوفيق والسداد، ثم جاء القطار فودّعت وصعدت إلى عربة من عربات الدرجة الثالثة وانحشرت بين جمع حافل من القرويات والقرويين، وغشيت كآبة ثقيلة، لأنه كان يقف منها موقف التوديع لأول مرة في حياته، ففهم القطار المذهب قلبه غمرة قويّة، ولأنه عزّ عليه أن يراها منزوية في العربة الخفيفة وسط البؤس والبائسين، وعاد إلى البيت كثير الهمّ والفكر. وأنا الملوم. أتى أدفع ثمن حقاقي. أتى شيطان يخصني بعنايته؟ هذه هي المرة الثانية، الحية تلاحقني دائماً، لا مفرّء. وجاءه خادم حسن أفندي يدعو والدته إلى الغداء فأخبره بأنها سافرت إلى القاهرة. وجاءه مرة أخرى في المساء يدعو إلى السهرة المعتادة فلم يسمع إلا الذهاب.

وجلسا حول خوان النرد في الحجرة بعد أن أحكم الشتاء إغلاق الشرفة. وسأله حسن أفندي:

- كيف عادت والدتك بهذه السرعة؟

فاجاب حسين مبتسماً:

- لا يمكن أن يستغني عنها بيتنا أكثر من يوم...

- نجني الخموس وتذهب الجمعة؟ .. رحلة لا

تستحقّ مشقة الفطار!

- ولكنّها حققت لها ما تريد فاطمات عليّ وتبركت

بزيارة السيّد...

وأشار الرجل إلى داخل الشقة قائلاً:

- قالوا لي إنّها ست طيبة جداً.

- بعض ما عندكم...

فتسأل الرجل وهو يرمش بعينه المعشواين:

- كنّا نودّ لو زارتنا قبل الرحيل!

- كانت متعبّة، وقد حاولت أن أوخّر سفرها إلى

العصر ولكنّها اعتلّرت بحاجة بيتنا إليها...

فقال الرجل بأسف:

- وأعدنا لها غداء طيباً فاخترت لها بنفسها ثلاث

دجاجات مسنّنة...

فابتسم حسين في ارتباك وعثم:

- باللهنا والشفّا لكم...

- أصبح ليّ يا حسين، أترغب في أن تتزوّج؟

فتظاهر بالانزعاج ليخفي اضطرابه وقال:

- أتى أعجب لما يدعوك إلى هذا الظنّ!

- ليس أحبّ ليّ من أن أراكم أزواجاً سعداء،

ولكن هل ترغب في أن تعجّل بالزواج حتّى قبل أن

تنهض أسرتك من كبوتها؟

- لم أفكر في هذا مطلقاً...

- ألا يضايك تطعني هذا؟

- مطلقاً!

- وإذا اقترحت عليك أن تؤجّل التفكير في الزواج،

ألا تجد في اقتراحي ظلماً؟

- هو عين العدل والرحمة...

فخفضت عينيها قائلة في حزن:

- ليس شقائي الحقّ فيما نزل بنا ولكن فيما أراه

واجباً ممّا يبدو لعين المتعجّل قسوة وأنانية...

- لست هذا المتعجّل على أيّة حال!

فتردّت لحظة ثمّ قالت:

- إنّ ما أراه من حسن قلبك لكلّامي يشجّعني هل

أن أنصحبك بأن تترك هذه الشقة وتعود إلى حجرتك

بالفندق.

برح الخفاء وأصيب بدهول، ثمّ غمغم متسائلاً:

- الفندق؟!

فقالت بحزم:

- أنت لا تدري من أمر الناس شيئاً. ولعلّ جيرانك

أناس طيّبون ولكنهم لا يفهمون إلّا بمصلحتهم. وإذا

حافظت على جيرانهم كرهتنا وأنت لا تدري؟

- ٥٥ -

ولم يعودا إلى هذا الحديث مرة أخرى فلم تكن

الثرثرة من طبعها شأن الكثيرات من النساء. وقد قضيا

صباح الجمعة في سعادة شاملة، حيناً في البيت، ثمّ

انطلقا في المدينة لزيارة السيّد البدويّ، ولكنّها صمّمت

على الذهاب إلى المحلّة مع الضحى فلم يسمع إلاّ

الإذعان لها مرغماً. وذهبا ممّا وقطع لها تذكرة، وفي

أثناء انتظار القطار قال لها:

- سأبقى في البيت حتّى نهاية الشهر لأنّي دفعت

تدرك متاعب أسرة كآسرتنا...

ونلت عن الرجل ابتسامة خيلاء داراهما بهيوسة مصطنعة وتتم:

- عالج أموركم كما تشاء ولكن لا تنس نفسك. قال تعالى: ولا تنس نصيبك من الدنيا. وكل آت قريب، ما هي إلا أشهر معدودات ثم يحصل أخوك على البكالوريا فيتغير الموقف. ارم الزهر لنرى من يكون البادئ باللعب...

- ٥٦ -

ويعد مضي أسبوعين جاءته رسالة من حسين ينيته فيها بأنه أقر رسم الامتحان وأنه يذكر ليل مبار لضمان النجاح. وكان عظيم الثقة بذلك أخيه ومقدرته فلم يداخله شك في النتيجة المأمولة. ونزعت به نفسه إلى الأحلام مع أنه لم يكن من الذين يستسلمون لسحرها عادة، إلى أنه كان يؤمن بكذب هذه الأحلام بالذات. ورغم هذا كله تحمّل أخاه قد فاز بشهادته. واقتنع بأنه ينبغي أن يتوكل ليحصل العبد عنه، ثم تحمّل نفسه يبدأ حياة سعيدة بضمير مطمئن! إنه لا يطمح إلى أكثر من حياة مطمئنة هائلة في ظل الزوجية. وقد علمت هذه الحياة التي حملها منفرداً في شقته المقفرة معنى الأسرة فعن إلى حضنها الدافئ حين المرور تحت مطر منمهر إلى المأوى. لم يعد يطيق الاختلاف إلى المطاعم العائنة لتناول غذائه، وبات وكأنه يخاف الانفراد بنفسه في حجرته ولو إلى حين قصير، وأتميه لحذ السقم ما تتطلبه حياة الأزعب من رعاية متواصلة لشقته وأثاثه وملاسه، وكل هذا يور إلى جانب ما يعاني من جوع قلبه واشواقه. ولم يكن يحب الفتاة بالذات بقدر ما أحب فيها المرأة والحياة الزوجية، ولكنّها كانت المثال المحسوس لأحلامه فهنا إليها قلبه وحنينه. وزاد من تعلقه بها أنه لم يكن يراها إلا في القليل النادر مما تجود به المصادفات السعيدة، وحسب حسين أنهم يتعمّدون إخفاءها، ولكن تبيّن له أنّ حسان أفندي رجل عاطف حقاً وأنه قد يتسلمح ولكن بالقدر الذي لا ينجّس حياة ولا يمازج حياء. ولو أنّ حسين رضي بالوظيفة لضى من توّه إلى فتاته

وضحك الرجل، ثم فتح علبة الترد ولكنه بدلاً من أن يشرع في إعداد القطع للعب سألها باهتمام:

- ألم نفاخها بما وأنفقاء عليه؟

فشعر حسين بحرج ولكنه قال:

- كلاً...

- له؟

- إنّا تعذّن رجل بيتها فكيف أفاخها بهذا؟

فتناول الرجل زهر الترد في قبضته وهزه ورماه، ثم قال:

- أنت رجل خوّاف. كانت أمك خليفة بأن تفرح لهذا النبا.

- إنه خليق بالفرح إذا جاء في حينه...

فضحك الرجل ضحكة عالية ثم قال بيده:

- لي فلسفي الخاصّة في الحياة، التي بنسك في عباها ولا تخش شيئاً. هل سمعت عن شخص واحد بمصر مات جوعاً؟

فقال حسين مبتسماً:

- أصل شعبنا اعتاد الجوع!

فضحك حسان أفندي واستطرد قائلاً:

- كلّ الناس يعيشون. أغمض عينك ثم اتحمها تمجد الصغير كبيراً والتلميذ مولفّاً والأزعب متروّجاً ولا تمجد غاسراً إلا من كان غوّافاً مثلك. هذه هي الحياة...

خوّاف؟ وضابته هذه الصفة فثار عليها ثورة باطية. ليس الخوف ولكنه أدرك الموقف على حقيقته. أكان يكون شجاعاً حقاً لو تحلّى عن المرأة وتركها تعود مهينة الجناح غائبة الأهل؟ ليس الخوف. الرجل الاحقّ يسي فهمه. إنه مصاب في آماله ولا يجد من يرحمه ولا من يفهمه. وعندما بلغ هذه النقطة من أفكاره وجد رائحة غريبة مفاجئة، أجل وجد سروراً في أن يكون على حقّ وإن أساء الناس فهمه، بل أكثر من هذا تركّز السرور في أن يسي الناس فهمه وهو على حقّ، سرور غامض كذلك السرور الذي يغلّمه وهو يستسلم لعنت القضاء. وقال مبتسماً:

- أنت يا حسان أفندي من أسرة كبيرة فلا يمكن أن

يهرَّب الفلّار وراء رجُل كرسِيّ لن تغني عنه شيئًا:  
- بوسعي أن أعلن الخطوبة فورًا على أن أنتظر بعد ذلك...

فتسأل حسن أفندي بفتور:

- كم عامًا؟

آه إنَّ الرجل يظنُّه لا يحسب حسابًا إلَّا لآخيه، ولا يكاد يدري شيئًا عن نفسه ومشكلتها المستعصية، لئنه كان يوسعه خطأ أن يصارحه بالحقيقة كلُّها بغير خفاء!.. وأجابه قائلًا في إشفاق شديد:

- أربعة أعوام!؟

ونظر إليه ليرى وقع تصرُّفه من نفسه ثم بادر قائلًا:

- لن مضرينا الانتظار شيئًا، ألا تتق في؟  
ومكَّ الرجل بوزره وهو يمز رأسه ثم قال بهلوه خفيف:

- أربعة أعوام! يا ترى من يعيش!.. أتريدني على أن أقول لأمِّها إنِّي رفضت ابن عمِّها الذي يرغب في الزواج منها الآن كي تنتظر أربعة أعوام!؟.. يبدو لي يا حسين أفندي أنك لم تكن جادًا فيما أظهرت من رغبة!

وانتفض حسين في ألم بالغ وهتف:

- ساعدك الله يا حسان أفندي! إنِّي رجُل غلص ولا زلت عند رغبتى الصادقة، ولا أدري سببًا وجيهاً يحول بيني وبينها.

فقال الرجل بفتور:

- لست أبا ولا أمًّا فلا عجب ألا ترى وجاعة السبب، والآن فلندع النقاش جانبا وأجيبني باختصار ألا تستطيع الإقدام على الزواج في هذا العام؟

وساد الصمت، وطال دون أن ينبس حسين بكلمة. لم يجد شيئًا يقوله، وتفكر طويلاً في حيرة، ثم أطبق شفثته في يأس وقهر. وابتسم حسان أفندي ابتسامة باهتة، وأطبق شفثته بدوره وقد نمَّ وجهه البيضاوي الصغير على الجمود والكدر. وطال الصمت والجمود وفاحت رائحة الحصام الكفبار في يوم خاسيٍّ فلم تعد تحتملها الأعصاب. ومع ذلك لم يحتمل

وضمَّها إلى نفسه وحيى الحياة الحقَّة. هُلِّما حلمه، ولكنَّه يجزَّد حلم، ولا يدري متى يتحقَّق. وسيواصل حسنين تعليمه وما ينبغي له أن يحدث لهذا، أجل فليدع الأمور تجري كما يشاء الله وليتظر. ولكنَّ تبيُّنَ له ذات مساء أنَّه لن ينعم بالانتظار في هدوء وطمأنينة، إذ قال له حسان أفندي عقب فراغها من احتساء الشاي مباشرة:

- جدَّ أمر هام يستحقُّ أن أشاورك فيه.

رفع إليه حسين عينيه متسألًا فقال الرجل باهتمام:  
- الأمر أنَّ ابن عمِّ إحسان - وهو تاجر ومزارع بالبحيرة - يرغب في طلب يدها، وقد رأيت أن أسألك عن رأيك قبل البتِّ في الموضوع برأيي!

وكانت مفاجأة سيِّئة وجع لها الشاب في قهر وحيرة كأنه لا يصدِّق. والحقُّ أنَّ بعض الشكِّ ساوره ولكنَّه وجد نفسه في مأزق لا يخرجُه منه تشكُّكه. وشعر بحقِّ إنسان وضعته ظروف قاسية بين لا ونعم وهو عاجز عن الكلام، فما صمَّى أن يقول!؟ إذا قال نعم خان أسرته، وإذا قال لا قطع ما بينه وبين حسان أفندي. وتراءى لعينه على اضطرابه وحيرته وجه الفتاة التي تعلَّقت بها آماله فشرع بقبضة اليأس تشدُّ على عنقه، ورمز الرجل الذي يحسُّه بنظرة باردة تخفي وراءها حقًّا مترايبًا. وكان الآخر يتفرَّس في وجهه صابرًا فلما طال الصمت غمغم متسألًا:

- ما قولك يا حسين أفندي؟

ولم يجد بدءًا من الكلام فقال بلهجة تنمُّ عن الرجاء:

- لقد فضلت لك ظروفنا بما لا يحتاج إلى مزيد.

فقال الرجل فيها يشبه الضجر:

- سيفرغ أخوك من حواسته في أوائل الصيف القادم.

- ولكنَّه فيما أرى مصمَّم على مواصلة تعليمه...

فقال الرجل بضيق:

- فكرة سخيفة لا يصحُّ أن تلذعن لها وتتحمَّل مسئوليتها.

وأراد أن يتفادى من الخطر المائل فقال متهمًّا كما



أن يستسلم للحزن، أجل إنه يعلم أنه سيجزن طويلاً ما دام الشعور لا يخضع للعقل، ولكنه يؤمن أيضاً بأن لكل شيء نهاية، حتى هذا الحزن الحائق لا بد أن يدركه العزاء. وانتظر هذا العزاء كما ينتظر فريسة الكابوس صحوحة النجاة، إنه أتى لا ريب فيه كما علمته المحن، وهناك لن يجد ما يندم عليه وسيجد ما يفخر به ويملطن ضميره. إن شعوره بالواجب يفوق مشاعره الأخرى، ولشد ما أخطأ الرجل حين اتهمه بالخوف، ويحسبه أن أمه تفهمه وأنها تعلمه الأمل والعزاء، وافتت ثغره من ابتسامة لهذا الأمل المنتظر وهو يعاني مرارة الحزن الراهن...

- ٥٧ -

وحوالى منتصف الصيف استقبلت الأسرة - بمعطفة نصر الله - يوماً سعيداً حين نجح حسين في امتحان البكالوريا. وجلسوا لثلاثهم جلسة هناك وصفاء، فمرت ساعة لا يشوبها كدر، وتلقت الغبطة قلوب نهكها التعب. وجاء فريد أندي محمد وأسرته للتهنئة فشعر حسين حبال خيطيته بشعور سعيد بخلاء ساذجة كأن البكالوريا قد أضفت عليه رجولة جديدة خلقة باحترامها وعطفها. كان كعادته مرحاً لطيفاً فتحدث طويلاً متشياً بالفوز والضحكات تنطلق من فيه تباحاً، وكان منظر بيته مما يستثير سعادته وألمه ممّا، كان يسعد أنه تلتقي عندهما خفية فيقرأ في نظراتها الصافية المحبة العميقة الهلّة، ولكنه لم يكن يحظى بالصفاء تحت نظراتي إلا قليلاً ثم ينلج في قلبه لسان لهب، ثم يذكر حرماته الطويل فيثور حنقه، ويرمق العامين المنطويين بحسرة وأسف. واسترق إليها النظر خلال الحديث فانصهر بصره على وجهها البدرى وجسمها البض، وتخلّتها - كما كان يطيب له أن يتخلّتها كثيراً - متجردة إلا من شعرها المتسدل فبلغ ريقه درجة الغليان. وجعل يتساءل صامتاً ألا يمكن أن تغتير من سياستها بعد حصوله على البكالوريا؟ أليس من العدل أن عبه قبلة على سبيل التهنة؟... وظلّ وعيه منتقلاً بيننا وبين أخيلته وبين الحاضرين، وكان السرور شاملاً بيد أنه لم يخل من عذاب لا يكاد يرحمه

حسين أن تحمي القطيعه من ناحيته فتساءل بصوت حزين كأنه كان ينتبأ الجواب سلفاً:

- ألا يمكن الانتظار؟

فقال الرجل بترقّة:

- كلّا!

ومكث حسين قليلاً في حجله ولم ثم غرض مستأنفاً في الانصراف فأذن له. وغادر الشقة لا يكاد يرى ما أمامه من شدة الحزن واليأس، غادرها وهو يعلم أنه لن يعود إليها مرة أخرى. وذهب إلى حجرته فأوقد المصباح الغازي وارمى على الفراش. وألقى على ما حوله نظرة سخط وعداوة، عداوة لكل شيء، كان في تلك اللحظة عدواً لنفسه وللشجر جميعاً وأضعف أنا أم قوي؟ وما صنعت بنفسه أم إقدام أم فرار؟ كل شيء بغيض مقب، هذه الحجرة التي أودعها وحجرة الفندق التي تنتظرني بالوحشة نفسها وحسناً أندي وطنط وحسين وأمي وأنا. ربما تصوّر الرجل أنه يستطيع أن يضاهي في عمله بالمدرسة... ثباً له، سيجدني أصلب ممّا يتصوّر. ولكن ما قيمة هذا كله الموت أرحم من الأمل. لست أعجب لهذا فللوت من صنع الله والأمل ولید حماقتنا. الأولى غيبة والثانية غيبة فهل قضى عليّ أن أمي بالحياة مرة بعد أخرى؟ لماذا لا يتوكل بالبكالوريا؟ لماذا لا يحب نفسه ما أحبّ في؟ وانتهى به الضيق فلم يعد يحتمل وحدته فقام إلى المشجب وارتدى بدلته وغادر البيت، وجعل يخط على وجهه من شارع إلى شارع في ليل بارد حتى أحياء المشي لمضى إلى مقهى. وأنعمته المشي والبرد من حيث لا يدري فالتخلد بمجلسه وهو أهدأ نفساً. وراح يتسل بمنظر الجلوس ويستمتع إلى ما يتظاهر من سرهم فلم يخل من كلمة أو لفظة تدعو إلى الابتسام. وغبت فورة الغضب الجنونية وانحسرت مرجتها الصارخة عن حزن عميق لكنه هادئ وصامت. ولا يخلو في الوقت نفسه من ندم. أكان يؤثر حقاً أن يوافق الرجل على رأيه؟ هل يسره أن يترك أسرته تحت رحمة الأقدار؟ يا له من أحقاد من حقّه أن يموت، ولكن ليس من حقّه أن يغضب هذا الغضب الجنوني. وليس من الحكمة

في حضرها.

ثم خلت الأسرة إلى نفسها مرة أخرى فداخلها إحساس جديد - غير السرور الصافي - بالمسئولية، لأنهم تعلموا أن الظفر بالكالوريا سمادة يعيقها تفكير ومتاعب. وكان إتمام تعليمه العالي أمراً مفروغاً منه فيها بينهم ولكن الرأي لم يستقر على اختيار بعينه. وقد قالت نفيسة:

- عليك الآن أن تختار المهنة التي تريد.

فقال حسين الذي كان قد قتل الأمر بحثاً:

- التعليم العالي مرحلة طويلة شاقة، ومستقبله مجهول.

فنفرت إليه المراتان في دهشة فاستطرد قائلاً:

- لقد تكثرت في الأمر طويلاً، وانتهيت من تفكيري إلى أنه يجب أن أختار مدرسة من مدرستين البوليس أو الحرية!

وهضت نفيسة بسرور:

- ما أجل هذا!

ولم يحفل بسرورها لأنه كان يفكر في الصعاب التي تعترض آماله فقال:

- دراسة عامين فحسب ثم أصبح ضابطاً، والنجاح مضمون تقريباً لأنها دراسة باللعب أشبه، والوظيفة في النهاية لا شك فيها. هذه ميزات لا يستهان بها! فهتفت نفيسة بالحماس نفسه:

- دراسة عامين، ثم تصير ضابطاً!.. ما أشبه هذا بالأحلام!

وتساءلت الأم بإشفاق:

- والمصروفات؟!

ونظر إليها طويلاً كالحائر ثم قال:

- البوليس غالية جداً، ولكن الحرية معقولة... مصروفاتها سبعة وثلاثون جنيهًا.

فتطلعت إليه المراتان بوجوم ودهشة فبادرها قائلاً:

- ليس الأمل في المجانية معقولاً أو على الأقل في نصف المصروفات، ولنا في أحمد بك يسري شفيح عظيم القدر في هذه الحال..

ولم يذهب الوجوم من نظرة الأم وبدت قلقة حيال

هذا الأمل. ف قالت:

- حدثني فريد أفندي محمد عن معهد التربية الابتدائي فوجدت فيه ميزات تستحق التقدير، فمدة دراسته ثلاثة سنوات بالمجان تضمن بعدها وظيفة مدرّس.

فقال الشاب بامتعاض:

- إنني أكره أن أعمل مدرّساً، وأكره أكثر أن ألتحق بمعهد بالمجان.

- ولكنك لا ترى مانعاً من دخول الحرية بالمجان.

- ثمّة فرق كبير يقوم بين معهد يقوم على المجانية ومعهد قد يعطيني من مصروفاته كلّها أو نصفها. يقول الناس عن الحال الأولى إنني تعلمت بالمجان أما في الأخرى فهيها أن يعلم بها أحد غير كاتب المدرسة!

فهزت الأم رأسها غير مقتنعة وتمتعت:

- المسألة أخطر من هذا!

- لا يوجد ما هو أخطر من هذا، أنا أكره الفقر وسيرته، ولا أحب أن أخفض رأسي بين أناس مرفوعي الرأس!

ولم يكن هذا فحسب دافعه الحقيقي إلى هذا الاختيار، والواقع أنه طمع إلى المدرسة الحرية مدفوعاً بنفسه الظمأى إلى السيادة والقوة والمظهر الحلاب، بيد أن أمه ظلت على قلقها وعدم اقتناعها فتساءلت:

- وإذا لم يتيسر إعفاؤك من المصروفات؟

ففكر متجهماً ثم قال:

- سأحتاج بادئ الأمر إلى الدفعة الأولى من المصروفات وفي مرجوي أن أناها من أخي حسن! لا أظنه يتخلّى عني كما لم يتخلّى عن حسين، أمّا الباقي فليس بمتعذر توفيره إذا نزلت لي عن نقود حسين، إلى ما يمكن أن تجود به نفيسة (نظراً إلى اخته) ولا أظنها تبخل عليّ خاصة وأن عملها يبيحها بكسب لا بأس به...

ونقل بصره بين أمه وأخته ليسر وقع كلامه ولكنه لم يحظ بما يشجعه فاستطرد يقول برقة:

- عايمان شدة يكرّان كما مرّ غيرهما وبعدهما الراحة

والهناد

ثم ذكر النقود التي يريدها فهاله الأمر، ماذا لو عجز حسن عن أن يمدّ له يد الملوثة؟ وشعر بإصبع باردة تقبض على قلبه وتوشك أن تمصق بأماله. واعتدى أخيراً إلى حطقة جنيف وأخذ يرتقي أرضها القلوة باحثاً عن البيت رقم ١٧ حتى انتهى إليه، ورأى غير بعيد بائع بطاطة جالساً القرفصاء على الأرض أمام عربته فسأله مشيراً إلى البيت:

- هل يقيم هنا حسن أفندي كامل؟

فسأله الرجل بلوره:

- تعني حسن الروسي؟

فقال حسنين بدمشة:

- حسن كامل عليّ المغني؟

فقال الرجل:

- هذا بيت حسن الروسي الذي يعمل بقهوة عليّ صبري بدرب طياب ..

وأغضى حسنين في حياه منزعباً انزعاجاً قظيماً، لم يعد يشك في أنه حبال بيت أخيه وقد توكد ذلك بلذكرى عليّ صبري، ولكنه لم يتصور أنه يعمل بهذا الدرب الذي فرقع اسمه في أفنة كالكبلة. وهذا اللقب: الروسي ما معناه؟ ودخل البيت وكأنه يفرّ فزكمته رائحة بثر السلم التنة وارتنى السلم الحلزوني وهو يشعر بأنه يهبط إلى هاوية ما لما من قرار. وطرق الباب فجعله صوت امرأة يصيح في ابتذال «من؟» ثم فُتح الباب عن امرأة قصيرة بدنية عميقة السمرة تنطق مسحتها بجمال وفح. حجبته بنظرة نافذة وسألته!

- ماذا تريد؟

فقال حسنين بصوت منخفض من الاضطراب:

- حسن كامل ..

- من أنت؟

- أعوه ..

فانبطت أساور المرأة وتنحّت جانباً وهي تقول:

- سي حسنين؟

فتعتم في ذهول:

- حسنين!

ودخل في تيّب وحياه. من تكون هذه المرأة؟

وثابر على ترديد بصره بينهما في رجاء، ثم قال

بإغراء:

- أم ضابط وأخت ضابط! .. تصوّروا هذا؟! تصوّروا مغادرتنا هذه العطفة إلى شقة محترمة بالشوارع العامّة!

ورقت نفيسة لنظرته المتوسّلة فاجتاحها موجة إثارة وكرم فقالت:

- لا تحمل هماً من ناحيتي، ساهبك أقصى ما يمكني إن أمه!

فتجلّت في عينيه نظرة امتنان وغمغم:

- شكراً لك يا نفيسة، ولن تكون أقي دونك كرمًا، وسيمضي كلّ شيء على الوجه الذي نحب جميعاً ..

ودعت له الأم بالتوفيق، لم تكن ترجو من ورائه خيراً كثيراً. وكان أقصى ما تطمح إليه أن يؤجل زواجه - بعد توقفه - عامين حتى ترسم ما تهتم من أسرتها، ولكن لم يسمعها إلا أن تنزل له عن نقود الانقاذ التي يرسلها حسين وأن تدعو له بالتوفيق من أحباق قلبها. وتأثرت نفيسة بما غمرها من إثارة وكرم ارتقيها بها إلى منزلة عالية من الصفاء والسرور والحياس، ونعمت بهذه السعادة لحظات غالية. ولكنها لم تدم طويلاً، اصطدم تبارها الدافق بعقبة كتود من الذكريات السود فتشوّف عن الجريمان الساجع وتجمّع وتطعن، وفتّر الحياس فخنفت عينيها في الخود، ليس الفرح الصافي من حقها، وما عسى أن يصنع السرور بنفس ملوثة منطوية على البشاعة والشقاء؟

- ٥٨ -

قال حسنين لنفسه وهو يغادر ميدان الحازندار إلى شارع كلوت بك وسيقول حسن إنا لا نسعى إليه إلا إذا طمعنا في تقوده! ونألم لهذا الحاضر، ولكنه خفف من وقعه قائلاً إنه هو - حسن - الذي لم يشأ أن يتردّد أحد منهم على بيته. وجعل يتساءل في حبّ استطلاع عما سيجد في هذا المسكن المحرّم! ثمّة شيء وغير طبيعي، ولكنه لا يستغرب من حسن!.

من أخبار حسين ثم قال بلهجة تتم عن العتاب:  
- انقطعت عنا كائنك لست منا ولنا منك، وباتت  
أنا في حزن شديد..

وهز حسن رأسه في كآبة وقال:

- إني غارق في حياتي حتى قمت رأسي، ولكن  
توظيف حسين طمأنني عليكم..

وتساءل حسين متأثراً بما طرأ على أخيه من تغير في  
مظهره ترى هل بقي على حبه القديم لم؟ وانساق  
بفريزته إلى التودد إليه قبل أن يتطرق إلى مهمته  
وتساءل في قلق:

- ما هذا يا أخي؟

فقال حسن ضاحكاً:

- غلغلت معارك. لم تكن حياتي لتخلو من عراك  
وقد أصبح المراك من أهم واجباتي في الحياة  
الجديدة..

وود لو يسأله عن هذه الحياة الجديدة ولكنه تحامى  
ذلك بفريزته أيضاً، لقد قصد هذا البيت المحرم في  
سبيل الحياة، وحسن يتخذ من العراك واجباً في سبيل  
الحياة أيضاً، فما أظن ما تسببنا الحياة من خسف  
ومن كان يعلم بهذا المصير ونحن صغار نلعب! كان  
حسن طفلاً حاداً شاطرًا، وكان أبي يحبه أكثر من أي  
شيء في الوجود، ثم بدا وكأنه انقلب له عدوًا، ولكن  
لم يكن يتصور أحد أن ينتهي به المطاف إلى هذا  
البيت! لا شك أن حسين أدرك الحقيقة في زيارته لهذا  
البيت في سبتمبر الماضي، ولكن ترى هل تعلم أمي  
بكل شيء؟.. لم تواته شجاعة على السؤال الصريح  
ولكنه تسامح في مكر:

- ما العلاقة بين الغناء والعراك؟

فقهقه حسن ضاحكاً ثم قال:

- هما شيء واحد في عرف الكثيرين..

وهنا جادها صوت المرأة من خارج وهي تقول:

- إني ذاهبة، هل تريد شيئاً؟

فقال لها باقتضاب:

- مع السلامة..

ولم يستطع حسين أن يقاوم حب استطلاع فساله

وكيف عرفت أسماءهم؟ هل تزوج حسن؟ وشعر  
بقسرية باردة. أمكن أن يقال عن هذه المرأة إنها  
زوجة أخيه؟ وإن أمه حاتنها؟ وتغنى من أعياق قلبه أن  
تكون مجرد رفيقة. ومضت المرأة إلى باب في نهاية  
الدھليز ونقرت عليه ففتح بعد قليل وظهر حسن على  
العتبة، وكأنه شعر بوجوده فأنه بصره إليه ثم هض  
بدهشة وسرور:

- حسين..

وهرع نحوه وشد على يده بترحيب وشوق، وقبل  
أن يتكلم أحدهما تسلك من الحجرة نفر من الرجال  
متابعين، ألقوا على حسين نظرة عابرة وقال بعضهم  
خاطباً حسن:

- مسافر عصر اليوم إلى السويس بإذن الله،  
وتلحق بنا غداً..

ثم غادروا الشقة. كانوا من ذوي الجلاليل، تلفت  
سحتهم النظر بفريزتها ولا يكاد يخلو وجه أحدهم من  
تشويه. وداخل حسين شعور بالقلق، من يكون  
هؤلاء الرجال؟.. أفراد التخت؟.. ما أبعد هذا عن  
التصور! لقد ذكره منظرهم برجال المصائب كما  
يظهرون على الشاشة وطرات عليه فكرة مرعبة بأن  
شقة أخيه تناصب القانون العداء! وألقى على حسن  
نظرة متوجسة فراه يرتدي جلياباً مقلداً فضفاضا،  
ويبدو في صحة وقوة ولكن يلوح فوق حاجبه الأيسر  
وفي صفحة عنقه اليسرى ندبان كبيران كأنهما أثرا  
طعنتين شديتين، رياه. إن أخاه لا يخلو من تشويه  
إجرامي! أيضاً! ولعله الآن يستطيع أن يدرك حقيقة  
الأسباب التي حجبت عن عالمهم. وأوما حسن إلى  
الحجرة في نهاية الدھليز وقال للمرأة:

- ربي الحجرة واجمعي الأشياء..

وشبك ذراعه بذراع حسين وأجه إلى حجرة النوم،  
ثم أغلق الباب وادعاهما وأجلسه إلى جانبه على الكتبة  
وهو يقول:

- كيف حالكم؟.. كيف والدة؟.. ونفيسة؟..

وما أخبار حسين؟

وحديثه عن الأسرة يعقل شارد وروى له ما يعلم

بقلق:

- هل تزوجت يا أخي؟

- كلاً..

فلاح الارتباك في وجه حسنين غير خاف فتساءل

حسن:

- أسركَ هذا؟

- نعم... .

- لماذا؟

فقال الشاب بسداجة:

- أفضل أن تختار زوجك من وسط كوستنا.. .

فقطب حسن كالمتاء وقال:

- إنها أفضل من سيدات كثيرات، تحبني وتخلص لي

ولا تفسد عليّ مجال.. .

واوشك أن يقول له «ومن مالها الخاص أصطبت

حسين ما احتاجه من نفقات» ولكنه أمسك رحمة بأخيه

- لم يستطع التغير الذي لحق بطبعه أن يؤثر في عواطفه

نحو أخيه حتى حين استيائه - ولما رأى القلق والندم

يلوحان في صفي الشاب قال برقة:

- إن إخلاص الزوجة لزوجها لا يخلو من متعة

وراءه أما هذه المرأة فإخلاصها غير مشوب.. . سوف

تعلمك الحياة أموراً كثيرة تجهلها.. .

فهز حسنين رأسه متظاهراً بالانتعاش، وابتم إلى

أخيه ابتسامة رقيقة متوقفاً. ثم ذكر أمراً كاد ينساه

فرحب به ظناً منه أنه خليف بأن يضيي على الجوّ الذي

كاد يتوتر زخماً من المرح فسأل أخاه ضاحكاً:

- علمت وأنا أسأل عن بيتك أنهم يدهونك الرومي

لها معنى هذا؟

فضحك حسن ضحكة عالية أهدأت الطمأنينة إلى

نفس الآخر وهو يشير إلى رأسه:

- نسبة إلى هذا.. . إنّي أكسب بعرق جيبني على

نحو ما (ويسط يده ونطحها يراسه ثم نظر إلى أخيه

نظرة ذات معنى ضاحكاً) أو بالأحرى بدم جيبني.. لا

يدّ من العرق كي تعيش ولكنه يختلف العضو الذي

يعرق بين فرد وآخر.

قال بحزن:

- ثمة أناس يكسبون دون أن يعرق لهم جبين!

ويدا حسن وكأنه لم يفهم قوله على حقيقته فقال

بحس:

- هذه غاية الشطارة.. . أن تكسب بعرق جباه

الآخرين! وسقم حسنين هذا الحديث الذي يجري بلا

ضابط فصمّ على أن يطرق الموضوع الذي جاء من

أجله. وصمت قليلاً ثم قال بصوت منخفض:

- أظنّ يسركَ أن تعلم بأنّي نجعت في امتحان

البيكوريا.. ؟

فهتف حسن بسرور:

- مبارك. أسرّ طبعاً بسرورك وسرور أتنا!

تفرّس في وجه الشاب ثم استطرد في لهجة لا تخلو

من إشفاق وسخرية:

- وظيفة، ثم طنط أو الرقازيق، أليس كذلك؟

فقال الشاب متهازئاً هذه الفرصة التي هيّأها الآخر

كي يتقدّم خطوة جديدة في سبيل غرضه:

- كلاً، في ثبتي أن التحق بالكلية الحربية!

- الحربية.. . عظيم جداً!.. الحمد لله على أنّك لم

تختار مدرسة البوليس!

- مصروفاتها كبيرة.. .

- لا أخي هذا ولكنّي لا أستلطف ضباط البوليس!

فحدج الشاب نظرة تساؤل فقال حسن مبتسماً:

- ضباط الجيش رجال أفراح، نراهم أمام المحمل

وفي الاحتفالات الكبرى أما ضباط البوليس فلا نراهم

إلا عادين وراء خراب البيوت.. .

وساد الصمت وراحا يتبادلان النظرات، حسنين في

قلق وحياء وحسن في ابتسام له معناه، ولينا كذلك

طويلاً حتى انفجر حسن ضاحكاً فضحك الآخر وهو

يفضّ بصره حياءً، وواصل الضحك حتى تعباً، ثم

سأله حسن بلهجة ذات مغزى:

- كم؟

فضحك حسنين مرّة أخرى وقد أحمرّ وجهه من

الحياء. ثم قال:

- الدفعة الأولى من المصروفات. يؤسفني أن أقول

وشعر حسنين بغرابة نحو أخيه، وفكر ملياً، ثم

أن ينسى جميله ولا ما أبداه نحوه من عطف أخوي، ولكنه لم يستطع كذلك نسيان المرأة والرجال المشوهين والتدينين الخاطئين، نقش هذا كله على صفحة قلبه بمداد التفقز والرب. ربه، لقد انقلب حسن إلى نوع آخر من الآدميين، لم يعد من الأسرة ولا من المجتمع الذي يعرفه. إنه يترنج كأنما ضربة قد هوت على رأسه فافقدته وعيه، وكلما جد في السير امتلا شعوره بغداحة الخطب. وذكر حاجته إليه التي جعلته يستوهبه نقوداً لا يدري من أين أتت، فاشتدّ اشمتزازة وحنقه، ولعن هذه الحاجة من أعماق قلبه في يأس وقهر. وأمر من هذا كله أن حاجته لم تنته، فسيعود إليه بعد أيام ويمد إليه يده سائلاً ترى من أيّ سبيل تأتيه النقود من السويس! إن قلبه لا يكذب، وفيها رأى بعينه الكفاية لمن ينشد الدليل، ورغم هذا كله سيعود إليه ويسأله أن يتم صنيعه له! هل يستطيع أن يشطب لكرامته حقاً؟ هل يستطيع أن يرة هذه الجبهات إلى أخيه ويصبح في وجهه إن لا أرضى عن حياتك القدرة؟ ونذت عنه ضحكة مبسوطة مرة... إنه يعلم أنه يذلي هليئاً سخيفاً. سيعود إليه راضياً ويأخذ النقود - إذا تفضل بها - شاكرًا ممتنًا. ولو علم أنه ذاهب إلى السويس ليرتقا ما وسعه إلا أن يدعو له بالتوفيق. وقال وكأنه يحاور ضميره المتوجع «مهما يكن من أمر فهو بالنسبة لنا أخ فاضل كريم».

- ٥٩ -

وفي عصر اليوم نفسه مضى إلى فيلا أحمد بك يسري بشارع طاهر. والواقع أنه كان يندفع بحرية هائلة نحو الأمل الذي رنر فيه حياته جميعاً، فلما الحرية أو الموت. وجلس في السالمك ينتظر البك مسترخياً طرفه في أطراف الحديقة أو في الشطر الأمامي منها على الأصح. وكان مشّت اللب فرأها رؤية غامضة، وتقلّ بصره الشارد بين نخيلها الرشيق المنفوس وسط دوائر من الحشائش المنسقة سُورت بنات الشيع وانتشرت في رقاعها شجيرات الورد على هيئة أجلة. وارتاح لحظة من أفكاره فاستقرّ ناظره على دائرة حشائش كبيرة تتوسط المكان ما بين مدخل الفيلا

إتبا مبلغ لا يستهان به ولكنّي سأدبر الدفعة الأخرى ومصرفات العام الثاني من نقود حسين وما وعدتني به نفسي!

وذكر حسن كيف كان يُمدّ فيها مضى الخائب الفاشل في الأسرة جميعاً: الآن يروونه ملازمهم في المليّات! وأحسن زهواً ولكنّ هذا لم يغيّر من شعوره الطيب المتأصل في نفسه نحو أسرته بل لعله ضاعفه. وسأدل أخاه مبتسماً:

- كم هذا المبلغ الذي لا يستهان به؟

فقال حسنين في خوف:

- عشرون جنيهاً!

ولاح الانزعاج في عيني حسن وقال وهو لا يدري:

- عشرون جنيهاً؟.. إن جيشنا كله لا يساوي هذا

المبلغ!.. هل تنوي الالتحاق بمدرسة اللوات؟

وانتظر حسنين في اضطراب وقلق ولم ينس بكلمة حتى عاد الآخر يقول بجذّ واهتمام:

- هذا مبلغ جسيم حقاً، ولا يمكنني أن أعطيك -

اليوم على الأقل - أكثر من عشرة جنيهاً!

وسادت فترة من صمت أليم، ثم نفخ حسن في صيق وقال:

- لو جئتني قبل أسبوع!.. وهل آية حال ساسافر

هذا إلى السويس ولعلّي أعود بما يكفيك!

وتفكر ملياً على حين قال حسنين بصوت منخفض:

- يؤسفني أنّي أزعجتك!

فقرصه في أنفه ضاحكاً وقال:

- كيف تعلمت هذا الأدب وعهدي بك طويل

اللسان! لا تززع سايتك بما تريد ولو قتلت تيتلاً ونشلت عفظته.

ثم أعطاه عشرة جنيهاً، وحمله السلام إلى أمه وأخته، وطلب إليه أن يستمسك بالحكمة إذا تحدّث عمّاً رآه في بيته. وشدّ حسنين على يده شاكرًا وغادر الشقة. وما إن انفراد بنفسه حتى قال بصوت ثقيل كتيب «حياة حسن فضيحة يجب التسرّع عليها، ولعلّ ما خفي منها أدهى وأفطع». وقطع الطريق متفكراً مغتّباً يلغى إحساس بالاشمتزاز والحنف. لم يكن بوسعه

فوجد فيها من فتاة الدراجة أثرًا يشبه الأثر الذي تركته الحديقة والفيلا ونجفة هو الاستقبال، طموحًا وثورة وسخطًا! «ما أجل أن أملك هذه الفيلا وأنام فوق هذه الفتاة». ليست شهوة فحش ولكنها قوة وعزة. فتاة مجد تتجرد من ثيابها وترقد بين يديّ في تسليم مسيلة الجفون وكأن كل عضو من جسدها الساخن يبعث في قاتلاً وسيلتي. هذه هي الحياة. إذا ركبها ركب طبقة بأسرها! ثم عاودته ذكرى بيبة فتضايف الله وامترج به ما يشبه الندم والحجل. وهنا سمع وقع أقدام آتية من ناحية السلم فالتفت صوبها منقطعًا عن تيار أفكاره فرأى أحمد بك قادمًا في بدلة بيضاء من الحرير وقد رشق في عروة الجاكطة وردة حمراء فانفضض قائمًا وأقبل نحوه في أدب وانحس على يده مسكًا في إجلال وابتسم إليك مرحبًا وسأله وهما يجلسان:

- كيف حال الأسرة يا بني؟

فقال حسنين بتودد:

- يقبلون بك الكريمة ويذكرون صنائعك.

فغمغم البك:

- أستغفر الله.

وأبش البك أنه سيتلقى عمًا قليل رجاء بتوظيف هذا الشاب أو نقل أخيه إلى القاهرة الخ... لم يكن يومه يخلو من مثل هذا، وكان يضيّق بالرجاوات ولكنه كان في قرارة نفسه يميّحها كذلك ولا يطيق أن يخلو بيته يومًا من صاحب حاجة. وقال:

- خير يا بني؟

فقال حسنين بحماسة:

- جيتك يا سعادة البك مستنجدًا بشفاعتك في إلحاحي بالكليّة الحربية...

ودعش البك وكأنه كان يتوقع كل شيء إلا هذا الطلب الاستعراضيّ وتساءل دون أن يغني دهشته:

- ولماذا اخترت هذا الباب الضيق؟!

وتألم الشاب لما لاح في وجه الرجل من دهشة وكرهه لحظتها كراهية عمياء، بيد أنه قال بنفس اللهجة المتروكة المهذبة:

- يبدو لي يا سعادة البك أنه توجد فرصة ذهبية هذا

والسلامك فاستسلم إليها فأثرا من قلقه. وكانت تنبثق من وسطها نخلة قصيرة ذات جذع أبيض ترفّ عليها روح الطفولة وتنشئ سطوحها شجيرات الورد بوفرة حتى غامست أعضائها وتمناقت أزهارها فاستزجت في هالة كبيرة انثالت عليها الحمرة والخضرة والصفرة في ونام واتلاف وسلام. وابتسم وهو لا يدري. وكان الظل قد زحف على أرض الحديقة وما وراءها من الطريق ولاحت آثار الشمس المائلة في أهل الدور على الجانب الآخر للطريق ولكن الهواء هنا مائلًا للسخونة مغميًا يعرف الياسمين الجاثم على سور الفيلا. وورد على خاطره هذا السؤال «هل يمكن أن أقتني يومًا فيلا كهذه؟» وتحلّ الحياة فيها ما بين المخذع والحديقة وما يتبعها عادة من سيطرة وأسرة محترمة. هذه هي المرأة الثانية التي يزور فيها فيلا أحمد بك يسري، وفي كلتا المراتين انفجر في صدره بركان من الطموح والسخط والتلهف على منع الحياة النظيفة المحترمة. وكان أخوف ما يخافه أن ينحصر في حياة كحياة حسين فيقطع عمر ما بين الدرجتين الثامنة والسادسة بلا أمل ناظر. في الحياة متع عالية وهواء نقي وينبغي أن يأخذ نصيبه منها كاملاً. وتوقف عن التفكير فجأة حين لمح دراجة تمرق من الجانب الأيسر للحديقة وعليها فتاة. وكانت الفتاة توجه الدراجة في حذر على عملي الفسيفساء بين دوائر الزهور فاستغرقها الحذر عن النظر فيما حولها. كانت في السادسة عشرة، ترتدي لستانًا أبيض هفهافاً وتعصب رأسها بإيشارب منمنم، ذات قامة نحيلة وصدر ناهد ويشرة نفية. وقد أعجله النظر إلى ساقها المدملمتين اللتين تتناوبان الارتفاع والانخفاض فلم يكذب يتبين وجهها، وانخفضت وراء جناح الفيلا الأيمن قبل أن يستدرك ما فاتته منها. وثار في عينيه اهتمام ويقظة. إذا لم تكن هذه الفتاة كريمة أحمد بك فمن تكون؟ وابتدرت غمخته تستدعي صورة بيبة بجسمها اللدن المتلّ ووجهها البدريّ، شبهة جميلة ولكنها ليست من هذه الرشاقة في شيء! ثم ذكر أخته نفية فعجب للاختلاف البين بين مخلوقات من جنس واحد، ثم شعر في قلبه بغمز ألم وعطف وعاد إلى نفسه

اليافس. وثار في أعراقها حبّ استطلاع وطمع ولذلك لم تقادر موقفها حين انقطع تيار السيّارات، وحوّلت نحوه عينها فوجدته ما يزال يخلّق فيها، وكأنّه تشبّع بنظرتها فتقدّم منها في خطوات ثقيلة وهمس وهو يمرّ بها:

- اتبعني إلى سيّارتي...

ثمّ واصل سيره إلى سيّارة واقفة لصق الطوار مثله في الهرم والوقار، يكاد يعلو سلمها على الطوار شبرين ويقف عند بابها سائق كالتثال. وصعد إليها دون أن يغلّق الباب وراءه وأمر سائقه فأخذ مكانه خلف حجلة القيادة. ماذا يريد الشيخ؟ وابتسمت خواطرها في تشوّف، ثمّ عادت تنصّت إلى همس الطمع. وكأنّه استيطاها فخلع نفاذته ثمّ أوما لها بيده لما عمالكت أن ابتسمت، وألقت على ما حولها نظرة متفحّصة ثمّ ألجّته نحو السيّارة، يمدّوها الطمع وحده لأوّل مرّة. وأوسع لها فجّلت إلى جانبه وما عمت أن سطعت أنفها رائحة الحمر الفاتحة من فيه، فاستحوذ عليها الفلق، وقالت:

- لا أستطيع أن أتاخر.

فقال بلسان ثقيل:

- ولا أنا أيضًا!

وأمر السائق بالسير فانطلقت السيّارة. ولم يفارها شعورها بالغربة في أثناء الطريق، ثمّ غشيتها سحابة حزن وخوف لإحساسها بأنّها تدهور إلى ما لا نهاية. لم يسبق لها قبل هذه المرّة أن ذهبت مع رجل قبل تعارف طويل أو قصير، ولو بعد رفته مرتين أو ثلاثاً، إلى أنّها لم تكن تغفل من رغبة. أمّا هذه المرّة فما هي تستسلم لعابر سبيل، مدفوعة بالطمع وحده، وبلا أدنى رغبة. أيّ تدهور وأيّ نهاية! ترى كيف عرف أنّها ضالّة! هل انقلب وجهها - على دمامته - شيّ بتدهورها؟ وتقبّض قلبها فرقاً، وجهتها حيرة قديمة جديدة ممّا، بين أن تتزوّج لتبدو في هذه الهيئة المبتللة أو أن تتعكّل فتكشف عن دمامتها النقب! ووضع الرجل كفه على يدها وقال بصوت ملعش:

- جميلة كالقمر!

العام لم يوجد مثلهما في السنين الماضية لما تعصّرت الحكومة من زيادة عدد الجيش، ومهما يكن من أمر فشفاختك أهمّ من كلّ شيء! وتسامل اليك بالتصّاب:

- والمصرفات؟!

وكرهه مرّة أخرى. وسرعان ما تناسى وجه المجانيّة أو صنم على أن يؤجّله لفرصة أخرى وقال بثقة وطمأنينة:

- إلى حل استعداد لأداء المصرفات كاملة!

ففكر اليك مليّاً ثمّ قال:

- إنّ وكيل الحربيّة صديق قديم وسأحدثه بشأنك...

فكان جواب حسنين أن أقبل على يده يحاول تقليدها فسحبها الرجل وبهض قائلاً - ربّما إلهة للزيارة - ففتح حسنين بالاحتذاء على يده مسلماً وكرّر الشكر وغادر السلامك مرح الصدر بالأمل. وذكر وهو يقطع الحديقة فتاة الدراجة وقفلت صورها وهو يرنو إلى أثر العجلتين في المشي، ولكن لم يدم هذا إلا لحظة قصيرة، ثمّ استأثر بوجهه كلّ مستقبله وأماله...

- ٦٠ -

في نفس الساعة كانت نفهية في ميدان المحطة... كانت النساء تتشّخّص ليهوط المساء على حين واصل الميدان في حياته الصاخبة يستبق على أديمه الانسان والحيوان والترام والسيّارات. وكانت الفتاة واقفة على طوار مثال نهضة مصر تنتظر انقطاع تيار السيّارات لتعبر الطريق إلى محطة الترام فلاحظت أنّ رجلاً واقفاً على بعد أذرع منها ينظر إليها نظرة غريبة باتت مع الايّام تفهمها حتّى فهمها. وتولّتها دهشة وتساملت: حقّ هذا؟! كان رجلاً في السنين؟! يجمع في جسمه بين ترمل العمر ووقاره، مرتدياً بدلة صوفيّة على حشيرة الجوّ وبهض يديه على مذهبة أنيقة عاجيّة المقبض، ويضع على عينيه نظارة زرقاء. وقد انحسر طربوشه المائل إلى الورا عن جبهة هريضة لفحت الشمس أسفلها وبدا أعلاها لامع اليافس فيها فوق حرّ الطربوش، أمّا سوائفه وما لاح من قداله فشدّيد



بالغربة ومغالبة الضحك. وأخيراً ارتقى غموراً وقال بصوت غليظ:

- مَدِّي يدك إلى مقعد السائق وناوليني الزجاجاة.  
ورفع سدّاتها وعَلَّ منها ثم أسلم ظهره إلى المسند  
وراح يتنفس تنفساً ثقيلاً غليظاً. ولم تعد تحتمل ثقل  
الانتظار فقالت برجاء شبيب بالتؤدد لأنها تعلّمت أن  
تخاف هذه الآونة أكثر من أي شيء آخر:  
- أن لنا أن نعود.

فقال وكأنه يخاطب نفسه:  
- ليتني لا أعود أبداً...  
ولم تدرك ما يعني ولكنها استجمعت شجاعته

وغصمت:  
- تسمح!  
ودسّ يده في جيبه وأخرجها في تكاسل ثم ترك  
ريالاً يسقط في حجرها فتناولته في دهشة وانزعاج  
وحجته باستنكار وتساءل وهي تميّز غيظاً:  
- ما هذا؟

فقال بجفاء مباغت وعينه تعكسان برق الحمر:  
- نعمة كبرى! إذا لم ترضي به صاد إلى موضعه  
السابق إلى الأبد...  
فقال بحق:  
- أظنّ مقامك أهل من هذا بكثير...  
فصبّ في فيه جرعة كبيرة ومصمص يشفيه مقطباً  
وقال:

- هذا حق، ولكنّ الريال أهل من مقامك بكثير  
أراهن على أنه لا توجد امرأة لها مثل هذا الأنف  
وتطمع في مثله!  
وجرحت الاهانة صدرها فاضطرب وقالت وهي

تغالب الغضب بالخوف:  
- لماذا تحدّثني بهذه البلهجة؟  
- لأنك طماع... ولأنك السبب فيما يقع لي.  
اعلمي أنّي لا أحمل ممي إلا الفكة، وحقّ هذه  
تحاسيني زوجي عليها عقب عودتي إلى البيت، وأعود  
عليّ أن أشريك من أن تضربني هي.  
ولاذت بالصمت وهي تنفض غضباً وغيظاً فعاد هو

ولم يفتر ثغرها عن ابتسامة كما كانت تفعل قديماً  
ونجّمت:

- لست من الجبال في شيء...  
فقال مستنكراً:  
- لا تخلو امرأة من جمال  
كاذب أو خادع فلشدّ ما يعمي الفسق العيون،  
وقالت ببساطة:  
- إلّا!...!

ففر باصبعه على ثديها وقال:  
- لولا جمالك ما وجدت هذه الرغبة!  
ودت لو تستطيع أن تصلّق قوله، ولكن مبهات،  
فلم يظفر بأحد يجيبها أكثر من ساعات. لعلّه يريد أو  
يجزّف أو يعاني مرارة اليأس مثلها سواء بسواء. لقد  
كابدت من الرجال ما جعلها تحقد عليهم ولكن دون  
أن تحمد لهذا رغبة جسدها الذي يسيمها الموان  
فكرهته كما تكره الفقر. ما هي إلا أسيرة للجسد  
والفقر ولا تدري كيف تستغل نفسها منها. جرفها  
التيار وجرحتها الصخور فلم تعد ترى من خير في أن  
تأوي إلى الشاطئ عارية مشخة بالجراح وبلا نصير أو  
رحيم، ثم سمعت صوته يقول متنبّهاً «وصلناه»  
فالتفت إلى الخارج فرأت السيارة تدور مع طريق  
دائريّ تقوم على جانب منه الأشجار الضخمة كاشباح  
علاقة وعلى الجانب الآخر يجري النيل في رقعة عظيمة  
من الظلمة إلا ما انغرس في جناحه البعيد من رماح  
الأنوار المتتالة من المصابيح، وقالت كالمتائلة:

- الجزيرة؟  
فضحك ضحكة فاجرة وقال بلهجة ذات مغزى:  
- تعرفينها طباً...  
وترتّب ريشاً خادر السائق موضعه واخضى في

الظلام فخلع نكّارته وهو يقول:  
- أربني شطارتك فكُلّ شيء يتوقّف عليها...  
كان هرمًا مجنوناً، يكاد ينزّ خراً. وأهال عليها  
بداعية غليظة فعضّها بوحشية وراح يقرصها حتى  
أوشكت أن تصرخ. ولاحت في الجوّ نلر هزه  
وسخرية، ثم تمب حتى اليأس، انفرج عن إحساس

يقول:

- ضايقتني امرأة ذات مِرَّة في مثل موقفنا هذا فصفتها وقلدت بها خارج السيَّارة نصف عارية، ماذا فعلت فيها تظنَّين؟ لا شيء! كانت تعلم بلا ريب أنَّ الشرطيَّ اضطرَّ عليها متى ومع ذلك فهي مظلومة وأنت مظلومة وأنا مظلوم أيضًا، والظالم الحقيقيُّ هي زوجي...

فزفرت زفرة غيظ وتحتمت:

- نعود من فضلك...

فقال وهو يتأهب:

- لك هذا. افتحي النافذة ونادي السائق...

وانطلقت السيَّارة في طريق العودة فترحزحت حتى نهاية المقعد، وسهمت إلى الظلمة بعين خائبة.

- ٦١ -

يعترف لوساطة أحمد بك بالدور الخطير الأوَّل الذي لعبته في قبوله فقال لآله إنَّ الفضل الأوَّل لمزاياه الجسميَّة وتفوّقه في الرياضة. وقال لنفسه في زهو غياله المختال يستمرض الآميين الذين ستؤثّر فيهم بزلته الرسميَّة تأثيرها السحريُّ - الجنود والغنيات وعامة الشعب بل واحد بك يسري نفسه وهو مرح نشوان. وحل الخبر السارَّ بنفسه إلى أسرة فريد أفندي محمَّد فاستقبلته بفرحة تجلّ عن الوصف. وقال له فريد أفندي ضاحكًا وشرفتنا يا حضرة الضابط. وقال الشابُّ على مسمع من بنية لغرض في نفسه «ساخيب عنكم أربعين يومًا قبل أن يُسمع لنا بالخروج مرَّة كلَّ أسبوع» وكان يطعم أن يحظى تلك الساعة بما حرَّم عليه عامين ولكنّه لم ينح له أن يخلو إلى الفتاة إلَّا دقائق، ولم تكن الدقائق لتضعه من نيل مشتاه لو أرادت الفتاة أن تجود له به ولكنها لم تترحزح عن تعفّفها حتى في هذه اللحظة. وغلها الحياء كعادتها، فانكمشت وقلبها يخفق بالعطف والألم تأثّرًا بالدواع. وقال لها بعجلة في صوت لا يكاد يسمع وأريد قبلة حارّة من شفئك ولبّا رأى حياها وجودها قال بجزع «أنا بين عليّ هذا حتى في هذه اللحظة... لا يمكن أن أتصوّر أنّك تحبّيني!» وخرجت الفتاة عن صمتها قائلة في قلق «بل لهذا أرفض أن أذهن لك!» وتساءل في إنكار «لا أفهم ما تعنين» فقالت بشجاعة مؤثّرة «أرفض لأنّي أحبّك» وكان يسمع هذا الاعتراف الصريح البسيط الأوَّل مرَّة فبلغ به التأثير حدَّ السكر وهمُّ بالاقتراب منها ولكنها أشارت إليه بحذرة وهي تومئ برأسها ناحية باب الحجرة المفتوح، وما لبث أن عاد فريد أفندي وزوجه فلفظ بقية الوقت عمودًا بين نشوة السكر وقلق الشوق وحتى الغيظ، ثمّ وقّعهم ونزل إلى شقته وهو يقول لنفسه «هذا حبّ عاقل! حبّ يسيطر عليه الحزم والتدبير. كأنّها رسمت خطة حكيمه كي تضمّن زواجي بها. ولكن هل يعرف الحبُّ الحقيقيُّ هذا المنطق البارد؟» وكان حديثه لنفسه في الواقع خاضعًا لما استحوز عليه من غيظ

وكان يوم قبول حنتين طالبًا بالكليّة الحربيّة أسعد الأيام جميعًا. وكان يحسبه مطلبًا غير عسير كشأنه حيال مطالبه، ثمّ أخذ يتبيّن صرعه وعناؤه حتى اقتنع آخر الأمر بأنّ تدبيره للدفعه الأولى من المصروفات كان أخصّ متاعبه. وقد طال تركّده إلى فيلأ أحمد بك يسري وكاد الرجل ييأس من قبوله فنصح به بالعدول عن اختياره ولكنّ تصميم الشابّ وتقذّم تربيته وحسن هيئته وتفوّقه في الكرة والعدو ثمّ شفاعه أحمد بك قبل كلّ شيء، كلّ أولئك ساعد على إحداث المعجزة - على حدّ تعبيره بعد اليأس - وتمّ القبول وكاد يميّز من الفرح، والحقّ أنّه علّق آماله كلّها على هذا القبول بحيث لم يكن يدري ماذا يفعل أو كيف يولي وجهه وجهة أخرى لو أخفق مسماه. كان طموحه إلى الحربيّة يتغفّر من صميم روحه الملهوفة على السيادة الثائرة على تعاسة حياته وفيئتها، وبلدت الكليّة لعينيه كمصنّع سحريّ قادر على تحويله من إنسان مهزول مضموذ إلى ضابط مرموق في ظرف عامين، وبأقلّ جهد، وكان سمع مرّة صاحبًا له يصف ضباط الجيش بقوله «الضباط مرتّبات عالية ونفخة كاذبة وعمل كاللعب لا خير فيه» فهامت بالحربيّة نفسه وقوي حلمها في روحه. وليّا علم بقوله في الكليّة أيّ أن

الكلية فجرى بصره مع الفناء التاسع وأبنتها الفضة المترامية، ثم جثت طويلاً على تمثال المدبجين المقامين عند مدخلها فهال المنظر وبت في نفسه إعجاباً وخيلاء. وكان بادئ الأمر مطمئناً إلى مزياه الجسدية من طول قامته ورشاقته قدّه ووسامته ولكنه تحلّ عن كثير من إعجابه بنفسه حين تفحص الآخرين ورأى بينهم شباباً غصّاً وفتوة ناضرة وجالاً رائعاً، إلى ما لاحظ على بعض الأفراد من خيال الاستغرافية. ثم وقعت عيناه على شاب قلعاً من حجرة تعلّق على الفناء عرف فيه زميلاً قديماً في التوفيقية سبقه إلى الالتحاق بالكلية بعلم أو يزيد وكان يوتدي قميصاً وينظرون قصيراً من الحاكي وهل ذراعه اليسرى أربعة شرائط. لم يكن من أصدقائه ولكنه تعرّف به في فناء المدرسة، ومع أنّه لم يكن يذكر من اسمه إلا «حرفان» ولم تكن هذه العلاقة الواهية لتفريه بالإقبال عليه في غير هذا الظرف، إلا أنّه رغب بالتسليم عليه ليعلم صداقته بهذا الطالب القديم أمام الطلبة المستجدين. ونقذ فكرته فمضى إليه حتّى واجهه ومدّ إليه يده مبتسماً وهو يقول في آلفه:

كيف أنت يا حرفان؟

وسرعان ما سالت الابتسامة حل شفتيه للنظرة الجملة التي رمالها الآخر في تفهم وصلف، وقد أطال تفحصه في تكبر وما يشبه الغضب، ثمّ أس يده بيده واسترقها بسرعة كأنه يخاف عليها عدوى خبيثة دون أن ينبس بكلمة! وشعر حسنين بانبيهار شامل وذهول قاتل، وظنّه نسبه أو أساء فهمه فقال كاللستيث:

.. ألا تذكرني؟ .. أنا حسنين كامل عليّ..

فلم يؤثر الاسم في الآخر أيّاً تأثّر ولم يطرأ حل صلابته أيّ لين، ولكنه خرج عن صمته وقال بخشونة وجفاء:

.. لا صداقة هنا. أنت طالب مستجد وأنا

باشجاويش..

نطق بهذه الكلمات ثمّ خب. ووجد حسنين نفسه في موقف خزي لم يقفه في حياته فأنجبت أطرافه

وحسرة، وعدّ وداعه لها أسوأ وداع ممّي به عاشق. ثمّ أمضى شطراً من الليل بين أمّه وأخته. ولم تستطع نفيسة - كماداتها - مغالبة مشاعرهما فلمتعت عينها وقالت في حزن وقضي علينا بأن نعيش وحدنا ولم يخلّ هو من كآبة خليقة بمن يفارق أهله لأول مرة ولكن هوّن من وقعها أنّ روحه كانت تنفخ كثيراً إلى الحياة المستقلة، في بيت غير البيت ووسط غير الوسط. أمّا الأمّ فحافظت حل هدونها الظاهرية، ولم تشجّع نفيسة على الاسترسال في حزنها وقالت لها بحدة ولا تبكي كالاطفال، سنراه كثيراً، وحسناً سروراً أنّه نال ما تمّنى. بيد أنّ قلبها كان في وادٍ آخر، حرّك الفراق الشويك أشجانها فرجعت أوتاره الأحزان المنطوية، فلذكرت وداع حسين، وتحتلّت خلوّ البيت من أبنائها جميعاً، وتداعت إلى ذمعتها - حل كره - ذكرى رحيل زوجها، فعجبت لحيناتها التي لا تمجد لها بمساعدة إلا مصحوبة بدواع وفراق. فهل قدّر لها أن تخفي البقية الباقية من حياتها وحيدة؟ وهي في سبيل هذه النهاية تصبّرت وتجلّدت وهانت ما عانت من مرارة الكفاح؟! ولكنها لم تستسلم لحزنها إلا بمقدار يسير، ونادت قوتها الكامنة، وذكرت ما صادف ابنها من أيّ التوفيق لتستعين به على تبديد كآبتها. معها يكن من أمر فلانها تؤمن الآن بأنّ ما بللت من حبر وكفاح لم يضع سدى، وأنّ سفينتها الفضالة في سبيل الهداية إلى مرفأ آمن. ويحقّ لها أن تفرح فيها من ثمرة نجح في هله الأسرة إلا وهي غرس يديها وعصاره قلبها. وفي الصباح الباكر ودّع حسنين أمّه وأخته ومضى في سبيله إلى الكلية الجديدة..

- ٦٢ -

ثمّ وجد نفسه في فناء الكلية بين جماعة المستجدين من الطلبة وبحث عيناه فيما بينهم لعله يجد صاحباً قديماً من التوفيقية فيلوذ من وحشته ولكنه لم يظفر بوجه قديم. وضايقه هذا وإنّ أحسن زهواً لكونه الطالب الوحيد من مدرسته الذي قبل في الحرية. وتمّنى كثيراً أن يبدأ أحد بالكلام، وطال انتظاره. ولكن أبى كبرياؤه أن يكون هو البادئ. ثمّ مضى يتسلّ مشاهدة

وتقررت شفتاه، وانتبذ موضباً بعيداً متحامياً النظر إلى أحد أقرانه وإن تخيلهم وهم يتغامزون ويتضاحكون. ماذا دهاه الآخر! ترى هل أماته لضغينة اضبطنها عليه أو فقد رشاده؟ أم المكن أن يكون هذا هو النظام المتبع في هذه الكلية؟! ولبت مستغرقاً في أفكاره لا يرى عما حوله شيئاً حتى نودي على الطلبة المستجدين ودُعوا إلى أول طابور لهم باللباس المدنيّة. ووقفوا صفين متوازيين بإرشاد الباشجاويش عمّد عرفان وبعض الجنود، وقد تجبّ النظر إلى صاحبه القديم الذي وجده معلقاً فوق رأسه كالسيف وكظم عواطفه المستمرة أن يلوح منها أثر في وجهه. ثمّ جاء ضابط عظيم عماماً ببعض الضباط من رتب أقل، وألقى عليهم نظرة ثابتة ثمّ راح يخطبهم عن الحياة العسكريّة التي أتروها. وكان يخطب باللغة العاميّة بصوت أجش يوافق ما ارتسم على أساريره من الصلابة والعنف، وكان يفصل بين كثير من جملة هذه العبارة والعقاب الصارم، حتى صارت كضربات الإيقاع وملأ القلوب رهبة وحلماً. وما إن انتهى من خطبته حتى بدأ أول يوم في الحياة العسكريّة الجديدة. واستقبل به حسين حياة جديدة لم يسبق له بها عهد. وبدأ اليوم - والأيام جميعاً - شاقاً طويلاً، يبتدئ بالدشّ البارد في الصباح الباكر، ويثنى بالطابور، ثمّ الدروس، جهد متواصل، وخشونة في المآكل والملبس والمعاملة حتى إذا جاء وقت النوم استلقوا كالقتل. وكانت خشونة المعاملة أظف ما يلاقونه. كان الرؤساء يرونها قرضاً واجباً، ويكفي أن يحظى طالب بشرط لأقدميّة حتى يمارسها كحق من حقوقه، وهو يمارسها في غير رأفة ويسطوة تبلغ في أكثر الأحيان إهانة صريحة وتجرعاً متمدداً. ولم يكن ثمة مجال للاعتراض أو الاحتجاج إذ لم يكن للكلية من شعار محرم عليه كالطاعة العمياء الخرساء البكاه. ولم يجد حسين من عزاء في ذلك الجوّ الرهيب إلا أنّه سيصير يوماً أوباشياً ثمّ باشجاويشاً. وهناك يقضي ديونه دفعة واحدة! وقد ذكر عهد التوقيفة - الذي وصفه يوماً بالإرهاب - بالترحم والرشاء. وبلغ منه الضيق أحياناً أن ندم على اختياره هذه الكلية الجهنميّة

وتحقّق لو تواتيه الشجاعة هل التخلّص منها. وكان يشاركه إحساسه هذا كثيرون في الأيام الأولى على وجه الخصوص. وقد عصروهم قساة الحياة فسارع إليهم الهزال، ولعلّ حسين كان الطالب الوحيد الذي لم يخضع لهذا القانون الطبيعي، بل لعلّ جسمه اكتسب ارتواء غير متظر لأنّ غذاء الكلية - على خشونته - هيأ له وجبات منتظمة لم يعتدها في أعوام الشلّة الأخيرة. بيد أنّه تعرّض لآلام نفسيّة غير متوقّعة في أيام الجمع التي يُسمح فيها عادة بالزيارات. كان فناء المدرسة الخارجيّ يمثلّ بالأباء والأمهات والأقارب فيحظى الطلبة جميعاً بنهار جمع ويعودون إلى حجراتهم مثقلين بالهدايا من حلوى وفاكهة ودمس الطعام، حتى الطلبة الرقيقون لم يُعدوا أقارب من القاهرة، فلم يكن ثمة طالب يقضي هذا اليوم السعيد وحيداً إلّا، لم يزره أحد ولم ينتظر أحداً. وكانت أمّه قد أخبرته - قبل رحيله - بأنّها لن تستطيع زيارته لأنّها - كما يعلم - لم تتمكن من ابتاع معطف جديد يليق بالظهور أمام أقرانه، أمّا نفسيّة فقد قالت له بمزاحها المألوف ولا أظنّ أنّه عمّا يشرّفك أن أبعد أمام زملائك بهذا الوجه، ولم يكن ثمة أمل في أن تزوره بجهة لحيائها وعدم احتيادها الظهور في مجتمع من الأغراب، فلم يبقَ إلّا فريد أفندي وكان بطبعه كسولاً لا يكاد يفارق بيته إلّا لضرورة قصوى، ومع هذا فقد زاره مرّة وحمل إليه هديّة من البسكويت. واعتاد في أيام الزيارات أن يختار موقفاً عند مدخل الفناء الداخليّ يراقب منه الزوّار بعينين كئيبتين ويتملّ بمشاهدة النساء والفتيات مأخوذاً بجمالهنّ وأنانقهنّ وآتي النعيم البادية في وجوههنّ وثيابهنّ. وعجب لهُمّ الضوايق التي تباعد بين الأدميين، وبدت لعيّنه عمرة بقدر ما هي مزعجة. وثارت بنفسه انفجالات السخط والغضب والتمرّد فلم يجد من متنقّس إلّا في أن يناقش ربه الحساب، متسائلاً - فيها يشبه التحديّ - عن أسرار حكمته التي جعلت من الدنيا ما هو كائن! وسأله مرّة زميل له عن سرّ عزله فقال بلا تردّد:

- أبي متوفّي. وأخي مدرّس بطنطا. أمّا الأسرة

بدت لعينيه غريبة لكتبتها على غرابتها استارت حثائه  
وذكرياته. ووقفوا ثلاثتهم والممران ترنوا إلى  
بإعجاب وحب، ثم دعت له الأم وأصصت عن  
سرورها بعبارات مقتضبة. ثم لافقت بالصمت، أما  
نفيسة فلم يسكن لسانها لحظة ولشد ما أوحشتها...  
والبيت من غيركم كالقبر... واضطرب وجهي...  
ولم يتمكن حسين من القيام بإجازته هذا العام لمرض  
زميله وقد كدنا نجو من الحزن... «هل حقاً كنتما  
تتراسلان؟... لقد أخبرني بهذا منذ عشرة أيام...  
وماذا تعلمت؟ هل تستطيع الآن أن تطلق بندقيّة؟»

وكان يجب على أسرتها في دعاية، ثم خلع طربوشه  
ووضع عصاه وقلّقه على المكتب ولبث واقفاً وهو ينظر  
إلى سترته ليرى ما فعل العناق بها. وجلست أمه على  
الفراش وهي تقول:

- اجلس يا بني...

فتردد لحظة ثم قال:

- أخاف أن ينكر البطلون!...

فساءلت المرأة بدعشة:

- هل تظنّ واقفاً طالما أنت لابس البدة؟!

وابتسم في ارتباك ثم جلس على الكرسي في حذر  
ومدّ ساليه وهو يفضح بطلونه باهتمام، وقال:

- إن كسرة واحدة بالبطلون خليفة بأن توقع عليّ  
عقاباً صارماً لا يقلّ عن حبس شهر بالكليّة.

ونظر في وجه أمه ليرى أثر هذه الكلبة في نفسها  
فقرأ في صفحته الانزعاج فاستطرد قائلاً بصوت يئمّ  
عن التضرّج:

- حياتنا شاقة لا يمكن أن يتصوّروها إنسان، فنهزنا  
كله وشطر من الليل نقضيها في الحلاء بين المدافع  
والقنابل والرصاص، وقد تودي هفوة بسيطة بحياة  
فرداً

فأصصت عينا نفيسة في فزع، وتساءلت الأم في  
اضطراب:

- كيف يُلقون بأبناء الناس إلى الهلاك؟!

وهضت نفيسة في انفعال:

- لماذا اخترت هذه المدرسة؟

فمحافظة لم تألف الظهور بين الناس على هذا النحو!  
بيد أنّ الأفكار السوداوية لم تجد من نفسه مرتعاً  
خصيباً إذ إنّ الحياة العسكرية لا تمهل الأفكار حتى  
يستفحل خطبها، وقد علمته أن ينسج باطنه أكثر  
وقته. ثم بمرور الأيام، أخذ يالفت شدتها وجوها  
الحائق فمضت تحفّ وطائها وتحتمل، إلى ما ظفر به من  
صدقات جديدة ابتل بها صدره الموحش فاستطاع أن  
يضحك ملء قلبه - رغم كلّ شيء - كمعهه القديم.  
ومكدا انقضت الأربعون يوماً...

- ٦٣ -

وخيل إليه - لدى غروجه من الكليّة بالملايب  
الرمسية - أنّه حقّق حقاً بديماً بتصديبه للعالم بالبدة  
الملوّنة... كان ينطلق كالعامود في استقامته،  
كالطاووس في خيالاته، ملقياً على صورته التي تمكسها  
مرايا الخوانيت والمقامي نظرات ارتياح تشمل الشريط  
الأحمر والطربوش الطويل والحذاء اللامع، ملوّحاً  
بمصاه القصرية ذات الرأس الفضيّ، قابضاً على قلّقه  
كأنه يتحلّى العالم. ولما تراحت لعينه عطفه نصرافه  
جاش صدره بمشاعر متنازعة من العطف والنفور، ثم  
مضى إليها مطمئناً إلى أنّ أحداً لن يراه ممّن يؤدّ ألا  
يروه - لم يُطلع أحداً من أقاربه على عنوانه - راجياً أن  
يراه جميع الذين يؤدّ أن يروه، وأحدثت به الأعين  
ولوّحت له الأيدي من رقاع الأحذية إلى الحدّاد ومن  
بالع السجاير إلى جابر سليمان البقال. وتطلّع رأسه إلى  
شرفة فريد أفندي فوجدها مغلقة فسرّ لما تبيّن له من  
مفاجأة سعيدة غير مسبوقة بتنبئه، ثم قطع فناء البيت  
إلى الشقّة وطرق الباب وانتظر مبتسماً. وجاءه صوت  
نفيسة وهي تزعم «من؟» وفتح الباب فما إن رآته حتى  
هضت كالمنجونة:

- حسنين!

وشدّت على يده في انفعال وجعلت تهرّج بقوّة  
وفرح، وجاءت الأم مهولة على صوت ابنتها فاستسلم  
لذراعها النحيلتين وهي تفضّه إلى صدرها وقبل  
جبينها في سرور شائب شيء من القلق على سترته التي  
طوّقتها ذراعها، ثم سار بينهما إلى حجرته القديمة التي

- لو كنت وقحاً لسألتك أن تحشيها بالفتق

والبنق!

- ولكنتك لست وقحاً والحمد لله...

هكذا تهربت بالمزاح وأدرك حسنين أنه لم يعد  
بوسعها أن تسخو أكثر مما سخت فقال ضاحكاً:

- آه لو رأيتم الهدايا التي كانت تحمل إلى الطلبة!..

وفي مرة أهدى إليّ صديق قطعة من حلوى اسمها  
«بودنج»!

- بودنج!

- نعم بودنج...

فضحكت نفيسة قائلة:

- لولا الملامة لقلت إنها سلاح لضرب النار!

ثم سأله أنه:

- لماذا لا تحمل ملابسك؟

فقال في شيء من الخجل:

- سأذهب إلى السينا!

ولاح التلمز في عيني الأم فاستدرك قائلاً:

- وسأعود مبكراً لنسهر معاً، وسنمضي الغد معاً  
كذلك!

وعادوا إلى الحديث والذكريات طويلاً، ولكنه لم  
يعد يسمعه أن يملك خياله الذي ينأزعه إلى الشقة  
العليا! وكان يجد صعوبة في قطع الحديث والإفصاح  
عن رغبته في زيارة جارهم فريد أفندي، وأخيراً قال  
بعدم اكتراث:

- أن لي أن أترككم للدعاب إلى السينا ولعلي أجد  
بعض الوقت لزيارة فريد أفندي!

- ٦٤ -

مته نفسه بالانفراد بفتاته على وجه من الوجوه  
ولكنه لم يدر كيف، فقد اجتمع في حجرة الاستقبال  
بالوالدين، واستفاض الحديث العادي وهو ينتظر  
حضورها بصبر نافذ. ثم جاءت تسير على استحياء  
وقد لفها روب ووردي لم يبد منه غير أطرافها فلمت  
عليه سلاًماً رسمياً والدعا يتخصصها بنظرة ضاحكة  
تنم عن إعجاب. وجلست إلى جانب أمها، واتصل  
الحديث كما كان ولكن عجزها استأثر بأعناق وعيه

فوز رأسه بقة وقال:

- لا تخافي عليّ! إليّ اللعب بالنار بمهارة استحققت

إعجاب الضباط جميعاً!

فقال الأم بصوت متهيج:

- ما عسى أن تصنع بإعجابهم إذا أصابك سوء لا

قدر الله؟!

فقال حسنين في سرور خفي:

- وماذا تصنعين إذا ذهينا إلى الحرب؟.. ألم تسمعا

بأن هتلر يعدّ عدته لإشعال نار الحرب؟ وإذا نشبت

الحرب هجم موسوليني على مصر فتدعى جميعاً للقتال!

وحديثه الأم بارتياح، ثم سأله بجدّ واهتمام:

- أحطاً ما تقول يا بني؟

وتراجع قليلاً...

- هذا ما يقوله بعض الناس!

- وما رأيك أنت فيما يقوله هؤلاء الناس؟

وقبل أن يجيب صاحبت به نفيسة:

- إذا صحّ ما يقولون فأتارك المدرسة بلا تردد.

فضحك الشاب ملء فيه وقال مشفقاً من إفساد

سرور اللقاء:

- ما أردت إلا إغاثتكم!.. (ثم غيّر لهجته

متسائلاً)... فلندع الهذر جانباً وخبريني يا ست

نفيسة ماذا تعدين لي غداء للغد؟!

فاينسبت الفتاة وأدركت أنّ أبحاثها «ضيئها» نصف

نهار الخميس ونهار الجمعة وأنّ إكرامه واجب عليها

قبل أيّ إنسان آخر. فقالت:

- سأشتري لك دجاجتين تطبخها نية في ملوخية!

- عال!.. والحلوى؟

- برتقال.

- نفسي في الكنافة. فطلما رأيت هداياها تحمل إلى

الطلبة أيام الجمع فيتحبّب ويقي من بعيد!

ولم يتمّ الفتاة للكنافة قدراً ما اهتمت للسمن اللازم

لها ولكنها لم تتراجع في نشوة الكرم التي غمرتها

فقالت:

- وستحلّ بالكنافة كما تشتهي!

فقال الشاب بعد تردد:

- كذبت على أمي بقولك إنك استأذنت والدتك،  
وستغضب نفسي لأنك لم تدعها معنا!  
فأشار إليها بالسكوت وأخذها من يدنها إلى الفناء  
ثم إلى المعطفة، وصارا معاً والوالدان يظللان عليهما من  
الشفرة. وكانت بيته ترتدي المعطف الأحمر الذي يحلو  
نقله بشرتها فبدت كالقطعة الجميلة. بيد أن القلق لم  
يلهب عنها وقالت له في لوم:

- ستعلم أسرتك برحلتنا إن عاجلاً أو آجلاً...  
ولم يدع له سروره بالظفر مكاناً لهم فقال ضاحكاً:  
- لم نرتكب إثماً، ولن تحرق الدنيا!  
- ألم يكن الأخلاق بك أن تدعو نفسي معنا؟  
- ولكني أريد أن أنفرد بك!  
فقالت بقلق، وكانت تحاف نفسي أكثر من أي  
خلوق آخر:

- أنت لا تبالي شيئاً والأسفاه...  
ولم يكن لديه من وسيلة للانتقام من تحفظها  
وبرودها سوى الكلمات الصريحة وأحياناً النابية فقال:  
- وددت لو كنت ارتكبت معصية معك حق  
استأهل هذا الوصف عن جدارة...  
فتضج وجهها بالاحمرار وعبت في استياء دون أن  
تبس بكلمة لأنها كانت قد اندسا بين الواقفين على  
طوار المحطة، وجعل ينظر إلى وجهها الساخط في  
سرور باطني، ثم هس مبتسماً:  
- أعني معصية خفيفة!

فأعرضت عنه حتى جاء الزام فصعدا إلى الدرجة  
الأولى ولم يكن بها إلا سيّدة أجنبية فشرع بارتياح،  
وجلس لصقها، ثم سالها في دعابة:  
- كيف كان شوقك إليّ في غيابي؟

فقالت في شبه غضب:  
- لم تخاطبني لي على بالك قط...  
فهز رأسه كالخزين وقال:  
- ما ألقى شيء كما ألقى إحسامي بنشورك إليّ..

فقالت ببرود وهي تخفي ابتسامه:  
- أصارحك بأن الكليّة الجديدة قد زادت دمع  
تقللاً

فوجد مشقة في تتبّع الكلام النافه ومشقة أكبر في  
الاشتراك فيه. ثم أخذ يستشعر بالملل والضيق، وكلما  
استرق إليها نظرة وتحيل قوامها البضّ ثار دمه وحقد  
على الجلسة وشهوها. ورأى في عينها هدأة وطمأنينة  
كأنه لا يكدّر صفوها مكدّر، وأنها كذلك دائماً كأنما  
لا يجري في عروقها دم، وليس أحبّ إليها من أن  
تجلس بين والدتها تصغي لحديثه وهي في مأمن من  
نزواته... لذلك يحنق عليها أحياناً، ولكنّه لا يستطيع  
أن يتجاهل ما بنته في حناياه من طمأنينة وثقة فكان  
يشعر بأنه يأوي من حبه إلى ركن ركين وعاطفة عميقة  
ثابتة لا تزعمها الحداث. واستمرّ الحديث فلم يجد  
من نفسها شجاعة على الاشتراك فيه فأنعته بهزّة من  
رأسها أو ابتسامه من شفيتها فبلغ منه الضيق نهايته،  
وفكر في هرج فخطرت له فكرة جريئة لم يقعد عن  
تنفيذها مدفوعاً بجسارته، فقال موجّهاً خطابه إلى فريد  
أنفندي:

- هل تأذن لي في أن أصبح بيته معي إلى السنين؟  
وتبادل الزوجان النظر على حين خفضت بيته عينها  
مرددة الوجه، ثم قال فريد:  
- أظنّ العالم الحديث يستسيغ هذا السلوك بين  
خطيين...

ولكنّ زوجته قالت بلهجة المعارضة:  
- أخاف ألا يروق هذا للسنت والدتك.  
ولم يتورّع حسنين عن الكلب إنقاداً لمشروعه  
فقال:

- لقد استأذنتها فوافقت بسرور.  
فاتبست أسارير المرأة وقالت وهي تنظر صوب  
زوجها:

- ما دام والدنا موافقاً فلا مانع عندي.  
وطلب إليها فريد أنفندي أن تأخذ أهبتيا للذهاب  
مع الشاب لمضت متعرة في خطوات الحجل، وما  
هي إلا دقائق حتى كانتا يغادران الشقة معاً. ولاحظت  
بيته أنه جعل يسير في حذر عندما اقتربا من شقة  
الأسرة كأنه يخاف أن يتبه إليها أحد من الداخل  
فساورها قلق وهمست في أذنه:

المشتهة... .

فرمته بنظرة وعيد ثم نظرت فيما أمامها. وحاول في الظلام أن يعابثها بكوعه أو يقدمه ولكنّها لم تشجّع، ثمّ اضطرت تحت ضغطه وإلحاحه أن تترك راحتها في راحته على اللراع التي تفصل بين كرسيّيهما، ومضى الوقت في سعادة شاملة... .

- ٦٥ -

وفي مساء الجمعة كان يقف عيذان الملكة فريدة ينتظر الأتوبيس رقم ١٥ ليحمله إلى الكنيّة. وكان أمضى نهارًا سعيدًا في أسرته وتناول غداءه لذيذًا، وبدلت نفيسة في مرحها المألوف ولكنّها - على ذلك - قالت له على مسمع من أنّها وبلهجة ساخرة:

- ودعت لو رايتك وانت ذاهب مع «الهانم» إلى السينا!

وأدرك أنّ سرّه انفضح وأنّ الحرب أعلنت فضحك عاليًا ونظر صوب أنّه فرأها صامته وعلى شفيتها ما يشبه الابتسامة، وشكر في نفسه بذلك العسكرية التي أنقذته من لكياتها إلى الأبد. وعادت نفيسة تقول بنفس اللهجة:

- ما أجلكما من زوجين! حضرتك في طول الغمود والهانم طول الشر ودعها الثقيل يوسع لكها الطريق!

فهرتا أنّها قائلة:

- لا تكوني عبّابة وفيك كلّ العبرا

فقالت الفتاة ضاحكة:

- أنا على الأقلّ خفيفة، ولكن لك حقّ يا مي حسين فوجهي لم يخفق للسينا!

واعترضها ما وسعه الاعتذار ولكنّه شعر بندم كما يشعر الآن، وما ضره لو كان دعاها للذهاب معه؟ كان يستعيد ذكريات اليوم وهو واقف ينتظر، وما لبث أن انضمّ إليه كثيرون من زملائه، ثمّ جاء الأتوبيس فصعدوا إليه مترامحين ولحق بهم آخرون رأى بينهم بعض من قابلهم أمس في السينا فترجّع لديه أنّهم سيعلقون على فئاته شأنهم في هذه الأحوال، وشَرّ لذلك سرورًا كبيرًا وانتظر على لغة الحديث الذي سيكون دون جوابه. ولم يطل به إلى انتظار لأنّ أكثر من

وذكر وهو لا يدري ما تعرّض به نفيسة من ثقل دم ففاته فرنا إليها متأملًا فوجدها جيلة فوق ما يشتهي، ولكنّها لا تخلو من هذه الصفة! وما غاب عنه أنّه يحبّ هذه الصفة كما يحبّ العاشق نقاض معشوقه. وعدل فجأة عن معابثها فقال بحرارة:

- لم تنبيني عن نفسي لحظة واحدة طوال ذلك الفراق، وقد تعلّمت جديدًا وهو أنّ الحبّ في القرب - على طموحه المعبّد - جنةٌ أمّا على البعد فهو مأساة كاملة.

ونخفضت عينيها دون أن تنبس ولكنّه شمّ في استسلامها وما اعترافها من سهوم رائحة الوجد الصامت وامتلأت رثاءه بارتياح عميق... . وتحذّث كيفما اتفق حتّى بلغ الترام ميدان المحطة فغادره ومضيا صوب عباد الدين. وطلب إليها أن تتأبّط ذراعه ففعلت بعد تردّد، ولبّا كانت تسير شخصًا - غير أنّها - لأول مرة فقد تولّاه ارتباك وحياه. وشعرت بكوعه وهو يسّ - عفواً أو قصداً لديها فسحبت ذراعهما من ذراعه، وتساءل عجبًا:

- ماذا فعلت!

- هذا أروح لي... .

فتغيّظ لإفلات الفرصة وقال:

- سيكون من المعجزات تحويلك إلى زوجة بللمى الصحيح لهذه الكلمة، أيّ امرأة محبة تمانق وتقبّل الخ الخ!

وبعد حين قصير كانا يجلسان جنبًا لجنب في السينا، وعادوه شعور بالزهر والخيلاء، غير أنّه استأثر هذه المرأة بميزتين بذلك العسكرية وحيبيته. ومَرّ به كثيرون من زملائه الطلبة وخطفت أعينهم من فئاته نظرات متفحصة فتزايد شعوره بالسرور، ومال نحوها وممس:

- ألا ترين أنّ جالك يجذب الأنظار من المقاعد والألواح؟

فأفترّ ثغرها عن ابتسامة حيّة فأطلق مرحة وممس مرة أخرى:

- قلبي يحذّثني بأنّي سأنال الليلة القبلية



وضحكوا جميعاً، ثم غيروا مجرى الحديث. وانظروا على نفسه في غمّ وغمّ يعاني سكرات المزجة. تبرا من فتاته وهو لا يلدي. أه لو علموا أنها خطيئته وأنه استعصى عليه نيل قبله منها بعد ماثرة عامين! طابع بلديّ، ممثلة أكثر مما ينبغي، قصيرة أكثر مما يُستحب، دم ثقيل من رتبة لواء، أهله بيّة حقاً؟ وهي إلى هذا كله دقة قديمة! لا يخلو هذا القول من حقّ فهي لا تدري كيف تصعبه في الطريق ولا كيف تحسن الحديث والدعاية، ولا يكاد يذكر من قولها إلّا التانيب والتلّخر. كيف يسمه إذا تزوّجها أن يظهر بها أمام الناس؟ سيقولون هذا وأكثر منه. وشمر بكرب وامتناض، وخاب عمّا حوله غارقاً في أفكاره فلم ينتبه إلى وقوف الأتوبيس أمام محطة الكليّة حتّى نهض الطلبة قائلين...

- ٦٦ -

وفي الأسبوع التالي صعد في الوقت المعتاد لزيارة فريد أفندي، وكان الأب وسالم الصغير في مشوار فجلس مع الأم وبهية، واستمتع بقدر من الحرية لا يتاح له بمحضر الأب. وبلدت بهية في فستان بقّيّ تنبسط على أهل صدره شبه مروحة من الحرير المزركش يفرغ من قبضها أسفل البنية وتنتشر أهدابها فوق الثديين، فلم يكن يتقصها إلّا المعطف وتصيح متأهبة للمذهب معه إلى السينة إذا دعاهما. ولكنّه كان أبعد ما يكون عن التفكير في هذا، وكان صوت نفيسة لا يزال يطنّ في أذنيه وهي تقول له بعد أن أصعبته نصف ريال لسهرته:

- هذا لفسحتك أنت وحلك!

ولكن لم تكن نفيسة كلّ شيء، كان في الواقع لا يجد الشجاعة للظهور معها مرّة أخرى أمام زملائه، ويات يخلج منها وهو لا يلدي. كان يحسبها أجل فتاة، ولكنّه لم يكن يضع عينه بعد وجاءت ملاحظات زملائه الساخرة آية على عيابه! ردنا إليها فالتقت حينها، وهناك نسي أفكاره، وانبعث حرارة دمه واضطربت به الرغبة مستهينة بكلّ شيء، مليحة شهية، لا يستطيع أن يماري في هذا ولكن كيف

واحد منهم بدأ متحقّراً، فقال قاتل منهم وهو يشير إليه:

- أما علمتم؟.. رُئيّ الصنديد أمس وفي يده فتاة! وودّ أن يسمع الجميع وأن يخلصوا حديثه وحده.

وتساءل البعض:

- من أيّ نوع؟!

- النوع البيّ... .

- جميلة؟!

وتركز انتباه حسنين واشتدّ عيه أمّا التحدّث فقال:

- لها عينان زرقاوان ولكن يخلب عليها الطابع البلديّ!

وتصاعد الدم إلى وجهه وشعر بفنور قضي في الحال على حماسه ونشوته، على حين واصل الآخرون حديثهم في ضحك وصخب:

- ممثلة أكثر ممّا ينبغي قصيرة أكثر ممّا يُستحب!

- ودعها ثقيل من رتبة لواء!

- دقة قديمة على وجه العموم، أين وجدتها؟!

وأدرك أنّ السؤال الأخير موجّه إليه ولكنّه لم ينس بكلمة، وجعل يضحك متظاهراً بالاستهانة وهو يعاني شعوراً جارحاً بالخلج والقهر. وقال شابّ بلهجة تنمّ على الإشفاق:

- احذر أن تكون خطيئتك!

واندفع قاتلاً بلا وهي تقريباً:

- كلا طبعاً!

- حبيبة؟!

فقال مدفعاً بمشاعر الألم والخللان التي تصطرع في نفسه:

- نوع من التسلية ليس إلّا!

- إذن فلا بأس بها. حلوا؟!

وأجاب باضطراب شديد: نعم...

- غيّب الله أملك! لماذا تنقّ وتكّ عينا؟! ألم تدري

بأنّ التقاليد تقضي بأن تكون ليلة الخميس للمشيقة

ويوم الجمعة للخطيبة أو من يقوم مقامها؟!

فتكلّف الشاب ضحكة وقال:

- ساصحّ جدول النساء في المستغل!

- ماذا أحدث ذهابنا معاً إلى السينما في بيتك؟  
 ووجد فيها تعنيه بسؤالها عذراً ينفعه في تجنب ما  
 يريد تجنبه فقال:  
 - لا شيء ذا بال إلا أن والدي ساءها أن أدعوك إلى  
 مخالفة تقاليد أسرتك المحترمة!  
 فقالت ببرود:  
 - ليس مما يسيء إلى الأمر المحترمة أن تذهب فتياهما  
 إلى السينما!  
 - كما لا يسيء إليهما العناق والقبل ولكنك - مثل  
 أمي - لا تصدّفين!  
 فتجاهلت إشارته وتساءلت:  
 - هل منعتك من العودة إلى تلك المخالفة؟  
 - كلاً!.. ولكنك تخاف أن أسيء من غير قصد إلى  
 أسرتك الكريمة.  
 - ألم تخبرها بموافقة والدي؟  
 - أخبرتها ولكنّها اعتقدت أنّها وافقا متورّطين.  
 - هل أفهم من هذا أنّنا لن نخرج معاً بعد اليوم؟  
 ولم يستطع أن يجابها بما يبكر فقال:  
 - بل نخرج حين نشاء.  
 وندم على قوله أثر التفوّق به، أمّا هي فابتسمت في  
 حياء وقالت بصوت منخفض:  
 - ظننت أنّنا سنذهب اليوم إلى السينما!  
 وحسب هذه الدعوة تحميء من ناحيتها هي، ومع  
 أنّه رفق لها إلا أنّه لم يستسلم لموافقتها فقال:  
 - لولا أنّي مرتبط بموعد كما قلت لك.  
 - آه... هذا أهمّ من ذهابي معك!  
 - ليس الأمر كذلك لكن سبق مني وعدا... ثم...  
 ثم لا يجعل بنا أن نعاود ما نفقته أمي مخالفة للتقاليد  
 بهذه السرعة!  
 فهزّت رأسها في ابتسامة حزينة وقالت:  
 - إذن فليس الموعد الذي يمنعك!  
 فقال بتسليم:  
 - كيلا الأمرين معاً!.. لا تؤاخذني أمي على  
 عقليتي القديمة.  
 فخرجت عن ضبط عواطفها لأوّل مرّة قائلة:

يتعاسى عن هذه الحقيقة المرعبة وهي أنّه يتحاشى  
 الظهور معها أمام الناس! وكانت الأمّ لا تمسك عن  
 الحديث وهو يجاورها باقتضاب وشروء حتّى قالت له:  
 - ما لك يا سيّ حسين كأنك مشغول البال!  
 فأفاق إلى نفسه مضطرباً وقال كالمتلذز:  
 - كان الأسبوع الماضي حافلاً بالتمرينات القاسية  
 حتّى غادرنا الكلية كالأموات!  
 وواصل الحديث وهو أشدّ انتباهاً له حتّى استأذنت  
 الأمّ لأداء الصلاة فخلّا لها الجوّ، ويادرك الفتاة قائلة:  
 - ما لك؟  
 فقال مبتسماً ليذهب عنها الشك:  
 - لا شيء!  
 - لست كمادتك!  
 وتطرّ له خاطر مآكر بعشه في نفسه خلّو المكان  
 وعواطفه الثائرة فقال متظاهراً بالحزن:  
 - لا أنسى تحفظك معي!  
 - أعود إلى هذا؟  
 - طبعاً!.. هذا حتّى ولا أنزل عنه ما حييت.  
 فقالت الفتاة برجاء:  
 - حسبت أنّا انتهينا من هذا؟  
 - إنّ في حيرة من أمرك، جميع زملائي لهم خطيبات  
 مثلك ولكنّهن لا يحرمهن حقوقهم من العناق والقبل.  
 وخمضت موزدة الوجه:  
 - لسن مثلي ولست مثلهن!..  
 هذا حتّى، ولعلّ زملاهم لم يقتصدوا في توكيد هذا  
 ولكنّها لا تدري ماذا تقول! وتغكر فيها ينطوي عليه  
 قولها من سخرية لم تُلز لها بخلد، وقبل أن يتكلّم  
 حبلّت هي بتغيير مجرى الحديث فسألت:  
 - أذهب أنت إلى السينما؟  
 وأدرك أنّها تهمي له فرصة ليدعوها للذهاب معه،  
 وساوره إحساس بالضيق ولكنّ إشفاقه كان أكبر من  
 حرجه فقال:  
 - كلاً سأواني بعض الزملاء إلى موعد سابق!  
 وخضضت عينها في خجل، ثمّ ساد صمت أليم،  
 وأخيراً سألته بلهجة ذات معنى:

بشجاعة الرجل الذي يستصحب هذه المرأة دون مبالاة بأحد. ولاحقاً منه الفتاة إلى يساره فرأى في الكرسي الذي يليه فتاة حسناء مرتدية جاكته رمادية وتأثيراً، وغفل إليه لحظة أنه لا يرى هذا الوجه لأول مرة. وراح يتنقب في طوايا ذاكرته، وفي أثناء ذلك انتقل بصره إلى امرأة تليها ثم إلى رجل ما إن رآه حتى دق قلبه بعنف ونهض قائلاً ومدّ له يده بأعجب وهو يقول:

- مساء الخير يا سعادة البك.

فالتفت الرجل صوبه - كان أحمد بك يسري - وابتمس إليه مسلماً، ثم قلّمه إلى زوجه وكريمته وعقب على التعرف به قائلاً «ابن المرحوم كامل أنندي عليّ» فسلم عليها في غايّة من الأدب وعاد إلى جلسته وسوّ يد الفتاة يسري في جسده، وسأله البك عن حاله في الكلية فأجابها شاكراً ثم فرغ كلّ خاله. ونظر إلى أماله وهو يشعر بارتياح لأنه جاز فترة التعارف وهو ثابت متأكد لأصحابه مع أنه كان يقدّم إلى عضوين في هيئة الجنس اللطيف العالية لأول مرة في حياته. ومَرَّ عند ذاك نادل يحمل ألواناً من الشيكولاتة والمشرروبات لوزة لو كان يملك من النقود ما يسمفه بتقدم بعض منها إلى الأسرة، ولكن لم يكن في جيبه إلا قروش، فسحق على إفلات هذه الفرصة منه، وحقد على فقره كما لم يفقد عليه من قبل! ثم أطلقت الأنوار وعادت الحياة إلى الشاشة، ولكنه لم يندمج فيها ووجد من وعيه وخياله إياه وجوهاً. تأكد لديه الآن أنه لم يكن يرى هذا الوجه البديع لأول مرة، وذكر السائق العارية التي كشفت عنها حركة الدراجة بعذيقه الفيل. ترى أي أثر قد تركه في نفسها؟ واثق أثر أخلفه قول أحمد بك من أنه وابن المرحوم كامل أنندي عليّ؟ كان والده موكّفاً صغيراً، وفضلاً عن هذا فلا شك أن الرايين تملكان بما يملك البك لأسرته من شفاعاة تارة ليوكف حسين، وتارة ليحققه بالكلية الحربية، وبهيات أن يغيب عنها حقيقة مستواه الاجتماعي. ولعلّ الفتاة لم ترفه إلا صنعة لمعروف والدها، ولعلّها قالت لنفسها إنه لولا يد أبيها ما ارتدى - هو - بدلتة ذات الشريط الأحمر! كلّ هذا محتمل، بل هو مؤكّد، وقد التهب

- فكيف تسمح لنفسية بالخروج كلّ يوم!؟  
ولم تعجبه نهجتها، وساء ما تفضّمته فقال بلهجة لم تخل من حدة:

- لولا العمل لما غادرت نفيسة البيت أبداً!  
وبادرت قائلة بلين وإشفاق وأسف:

- لم أقصد سوياً بأحد. أرعت أن أقول إن الخروج لا يعيب إنساناً...

وساد الصمت قليلاً ثم سمعا وقع أقدام الأم وهي راجعة فتساءلت بهيّة في لهفة وإشفاق:

- حسنين أنت غاضبة؟

ولم يستطع أن يجيبها بسبب ظهور الأم فابتسم لها ابتسامة رفيقة أثابت إليها طمأنيتها... ومكث معها ساعة ثم ودّعها وانصرف.

- ٦٧ -

لم يكن ثمة موعد كما زعم وقد ذهب إلى السينما بمفرده ودخلها بعد بدء العرض بدقائق فأرشد إلى كرسيه في الظلام. وجعل يشاهد الجريدة بنصف انتباه والنصف الآخر هائم في البيت الذي غادره محتلياً بالكذوبة. وذكر كيف ضنطت على يده بحنو وهي تودّعه، ضغطة لليلة أرعشت قلبه وغفرت لها ما تقدّم وما تأخر من إساءة! «أمنيتي الآن أدلّ إلى التحقيق، لو مارست ضبط النفس بدل التهاكك والتوسّل لفزت بما أشتهي من زمن. لو عبت في وجهها مرتين لما أصرت على قول ولاه. ما أحفني! لن أقنع بقبلة. لاضمتها إلى صدري حتى يسططق عظمها تحت ذراعي، بعيداً عن أعين النقاد التي لا تعجبها إلا الملاحاة والرشاقة والموضة. ولكن هل أصرّ على إخفاها عن الآخرين بعد أن أتزوج منها؟ لماذا لا أستعين بالناس وأستهم؟ يا له من شرّ لا يقيّل لي بالتعطي عنه! هكذا أنا، وارتاح من أفكاره بتركيز وعيه على الشاشة فرأى هتلر وهو يستقبل سفراء الدول بمناسبة عيد ميلاده، ثم شاهد فصلاً من الصور المتحركة وأضيئت الأنوار. ودار برأسه فيها حوله متفرّساً في الوجوه فاستوقف نظره امرأة هائلة مفرطة في السمنة حدّ مرّر مجلس لصق زوجها وتنازعه الحديث، ولم يسمعه إلا الإعجاب

تركيز انتباهه في الشاشة، ولكنه كان قد استنفذ حيويته كبيرة لهذا المظهر متمباً علماً، وتصبر عليه في جهد حتى انتهى وأضيت الأنوار. والتفت الأعين فحى رأسه تحية ثم انخرط في تيار الخارجين. انفلت من الزحام فتمشى في الطرق ساعة ثم استقل الترام إلى شبرا. وأقبل على حيه فبدت له عطفة نصرالله أشد كآبة من عهدنا، وزكمت أنفه رائحتها التي يختلط بها التراب بالدخان بمواد شمعية كثيرة فقطعها برماً خالي العينين.

- ٦٨ -

وتواصلت الأيام حتى أوشك العام الدراسي على الختام. وفي ثلثة الأخير علم أن وزارة التربية قررت تخريج دفعة الشاب مكتفية بعام دراسي واحد على أن يُتم الخريجون تدريبهم في الفرق التي يلحقون بها، وذلك لتواجه زيادة عدد الجيش بعد إقرار المعاهدة. وضوعف العمل للطلبة ولكنهم أقبلوا عليه مستبشرين متحمسين، والواقع أنها كانت حقيقة أقرب ما تكون إلى الخيال فلم يكن ثمة واحد منهم يصدق أنه سيكون ضابطاً بعد عام دراسي واحد، وكان آخر هؤلاء جميعاً حسنين نفسه. ثم انتهى العام وتخرج الشاب واستخفت الطرب الأم وكانت أشبه بملأح تاله تمزق شرابه ونقد طعامه إذ تكشف الضباب لعينيها فجأت من مرأ آمن، ولهج لسانها بحمد الله وجملت تقول في حرارة وإيمان عميق وأنت وحدك يا ربّي الذي أخلت بيدي، ومن كان يرى حالنا بالأمس ونحن نتخبط في ظلمات اليأس ويرانا اليوم وكل شيء من حولنا يدهو للأمل يقتر من صميم قلبه بصديق ورحمتك. وغبطت نفسها على سعادتها لأول مرة في حياتها وأخلت تحتها الطويلة تتراعى لعينيها الدابنتين في هالة من الفخار والسرور وكأنتا لم تكن سوى عبوسة مصطنعة على جيبن الأقدار الرحيمة، فابتلت عينها بدموع الفرح والشكر. وكانت تقتصد من نقود حسين ونفيسة ما تعلم لسداد مصروفات السنة التالية فأخذ حسين ليهيئ به ملابس الضابط الكاملة وشغل بذلك طول المهلة التي تُمنح للخريجين قبل توزيعهم على الفرق المختلفة. ولما كان ترتيبه بين الأوائل فقد

جيبه خجلاً ومسخماً. ولقد رأيت سائقك على الدراجة، عاجية جذابة ولكنها ليست بمعجزة. لا توجد معجزات في هذه الدنيا. ألست تسامين كائي فتاة، وتغيبين عن الوجود كائي امرأة، وتحيلين كما تحيل الخادمة التي طردناها، لفقراء، وتعوين حين المخاض كائي كلية! وحك أنفه بسبابته فجاءت تنسم شذاً لطيفاً مما علق بإراحته عند السلام، فيه إثارة للأعصاب ونفاذ إلى القلب كآله السحر، فأسكره عرفه ويث في نفسه رضى وسلاماً مسحاً عن صدره أدران الحقن والألم. ولحظ طيفها اللطيف فحنس أنها شابكة ذراعيها على صدرها، وثقى لو تربع ساعدها على يد المقعد فتمس ساعده عفواً. ثم تحل صورة وجهها الذي ألقى عليه نظرة خاطفة وهو يسلم عليها، بطوله المتلّ وعينيها السوداوين اللتين تتأان عن حيوية وغمّة، وهالة شعرها الأسود العميق السودا، ويشربها النقية التي تزين وجنتها اليسرى شامة، ثم راح يستحضر صورة بيبة، ويعرض الصورتين جنباً إلى جنب حيال مخيلته حتى اقتنع بأن هذه الفتاة ليست أجل من فتاته، ولكنه شعر في الوقت نفسه بأن بيبة جمال جامد وهذه جمال متحرك، كأنما يث في النفس حرارة ويشع في الخيال حياة. وليس هذا فحسب فلأنها تمثلت لعينيها الطموحتين كرمز حيّ للعالم الواقية التي يتطلع إليها بشغف جنوني. لم تكن فتاة بقدر ما كانت طبقة وحياة. ويرغم نشوئه الراحنة لم يصدع عن حقيقة شعوره، ولم يتوهم أنها تغفلت في قلبه حيث استكنت بيبة. فهذه على سلبيتها المطلقة - تنقبض على جذور غرائزه وأعصابه، ولكن الأخرى تخاطب مباشرة طموحه الذي لا يقف عند حد، ولعله عرف على ضوء عينيها جانباً من نفسه كان غامضاً وهو أنه يؤثر في أعماله الطموح على السعادة والسلامة! ثم هبط عليه نزوة فتور مفاجئ فقال لنفسه «إني أحلم أحلاماً سخيفة. ولكن ألا يحق لي أن أروح عن صدرى بالأحلام؟ أليست الأحلام نفسها حلماً؟ بلى، إنها حلم، ولا يكدر صفوها إلا شعورنا الوهمي بأننا حقيقة!». وانقضى زمن لا يدريه قبل أن يتمكن من

- كلام يقال ولكنّه لن يغني عَنّا شيئاً وأنت أخبر بالنفوس!

- لا أحبّ لك يا بنيّ أن تنقّص عليك صفوك بأمثال هذه التخيّلات!...

فاستدرك قائلاً وكأنّه لم يسمع قولها:

- هذه العطفة الحفيرة تعرفنا على حقيقتنا، فلهاذا لا أطيق البقاء فيها...

وأشفقت الأمّ من تكدير سعادتها الشاملة فقالت بتوتّل:

- تتسوّى هذه الأمور مع الزمن فلا تتعجّل بحمل منها!

وحدها بنظرة غريبة وغبطها في نفسه على قوّة أعضائها، ولكنّه سرعان ما تغيّط لعدم اكتمالها بالاضطرار التي تهوّل في رأسه وقال بحدّة:

- قد تسوّى هذه الأمور مع الزمن حقّاً ولكن بعد أن تكون قد قضت عليّ!

فلاحت في عيني المرأة نظرة ارتياح وقالت له في عتاب:

- أراك كعادتك نافذ الصبر متعجّلاً للمتاعب، ونصيحتي لك ألاّ تخلط الأراحم الحقيقية بأفراح وهميّة لا أهميّة لها.

فقال باستنكار:

- لا أهميّة لها!

ماضي نفيسة وما يعرفه هذا الحيّ عَنّا لا أهميّة له؟ - إذا لم تأخذ نفسك بالإيمان بهذا فلن تنعم بالسعادة أبداً.

فتحدّ حسين قائلاً:

- أودّ أن أسدل على الماضي ستاراً كثيفاً.

- تجمل بالصبر وسيكون لك هذا.

فالتهمب الشاب غيظاً وقال كمن ضاق صدره:

- لا أخاف شيئاً بخوفي الصبر الذي تدعيني إليه. انتظري إلى هذه العطفة الحفيرة وفدا البيت العاري هل أستطيع أن أضيئها إلى الأبد عن أمين زملائي ١٩ وشعرت المرأة برعاسة وأدركت أنّ حياتها لن تخلو من همّ وكدر. وقالت له ببرارة:

ألحق بسلاح الفرسان بالقاهرة وتبيّنا للأسرة من حسن التوفيق ما لم تكن تحمل به، وارتدى حسين بدلة الضابط تحقّق حلمه القديم وجعلت أمّه تنظر إليه بعينين أذهلها الفرح حتى شدّت عن المألوف من صمتها ووزانتها، فهذا هو الابن المحبوب، زهرة حياتها وأملها المنشود. وقد قال لها مرة:

- إذا حان موعد الاحتفال بالمحمل فستباح لك ولنفيسة فرصة باهرة لتشاهداني على صهوة جوادي على رأس فرقة الفرسان!

فلم تتألمك أن قالت له:

- هذا إذا اتبعت لي معطفاً يليق بالظهور في الطريق الفاصّ بالمفرّجين!

فضحك الشاب قائلاً:

- صبرك حتّى أقبض مرتبي!

كانت آياتاً سعيدة صفت لهم فيها الدنيا وطابت. بيد أنّ الشاب كان يفكر في أمور كثيرة، وكان يروم أن يقيم سعادته المتاحة على أسس ثابتة لا يتطرّق إليها الفساد، فانتهاز فرصة انفرادها بأمّه مرة - كانت نفيسة في الخارج - وقال لها بصوت يسمّ عن الاحتمام الشديد:

- أمّاه، يجب أن تقطع نفيسة عن عملها المزري في الحال لأنّه لا يجوز لأخت الضابط أن تكون غيّاطة.

فابتسمت الأمّ وقالت في بساطة:

- سترغب بهذا مجامع قلبها يا بنيّ...

كان ينتظر هذا القول بلا ريب بيد أنّه لم يمح من نفسه ما يحتاج بها من مثار الفكر فاستطرد متنبّها في كآبة:

- ليتنا نستطيع أن نحمو الماضي من صفحة الوجود... أخاف أن يميّزنا قرم بما كان. وأنت أعلم بنفوس الناس، وأكره ما أكره أن يترامى شيء من هذا إلى أحد من زملائي فاقد كرامتي بين أقرائي...

فسرى إليها بعض همّه ولكنّها ربت على كضه مبسمة وقالت باستهانة:

- كنّا فقراء، وأكثر الناس فقراء ولا عيب في هذا...

فهوّ رأسه معترضاً وقال في أسى:

- خطوة خطوة! كنا لا نجد الطعام فانظر أين نحن

الآن!

فهز رأسه في حزن وقال:

- ما أردت إغضابك يا أمّاه ولكنّي أنكر في هذه الأيام كثيرًا في المتاعب التي تتهدّدنا. وقد ذكرت لك بعضها، ولمعلّ ما بقي أدهى وأمر. فانظري مثلاً إلى أخي حسن وسيرته في الحياة! كيف نستقبل الحياة في هدوء وحولنا هذه المتاعب؟!

وتقرّست في وجهه بدهشة وكأنّها تعجب لقدرته على اصطباذ الهموم، وغمّست فيها يشبه اليأس:

- دع الخلق للمخالق. كنّا هكذا دائماً فلم نملك ولم يقض علينا.

فقال الشاب بإنكار:

- لم أكن ضابطاً أمّا الآن فقد أصبحت سمعي مهتّداً!

وتجهم وجه الأم ولاذت بالصمت في كرب شديد فتتهدّ حسين قائلاً:

- ينبغي أن يتغيّر كلّ شيء، حتّى قبر والدينا المكشوف بين قبور الصدقة. تصوّري ماذا يظنّ بنا زملائي لو علموا بمكانه!

ودارت الأم مشاعرها بابتسامة وقالت برجاء:

- إليّ أحبّ لنا ما تحبّ ولكنّي أوصيك بالصبر وأحذرك حواقب ثورة لن نجهدي الآن إلا الحزن. تريد أن نحمو الماضي وتغيّر البيت وتنشئ مقبرة وتبدّل أخاك من حال إلى حال، ولكن هيهات أن يتمّ لك ما تريد قبل زمن طويل فكيف يكون العمل؟ طالما غمّيت أن تسعدنا وأن تسعد معنا فإذا لم ترَوْض نفسك على التسليم بالواقع وتأخذها بالصبر شقيت وشقينا!

وضاق بالكلام ضيقه بمناعه فلمسك عنه. ولم يقع قولها من نفسه النائرة موقع الانتعاج أو القول فخيّل إليه أنّها لا تشاركه آماله وعواطفه، وأنّه وحيد في معركة الحياة أو الموت. إنّ نفسه تهفو لحياة أفضل وأنظف، ولن يجيد عن هدفه، وليلدافعن عن سعادته وآماله بكلّ ما أوتي من قوّة ورغبة في الحياة. ودقّ الباب عند ذلك، وكان المساء يمدّ رواقه، فحس أنّها

نفيسة عاتلة من عملها، فهرع إلى الباب في تصميم جديد.

- ٦٩ -

ودخلت الفتاة مبتسمة وكانت لا تُرى تلك الأيام إلّا مبتسمة مستبشرة. واستبانّت في وجه أمّها سهوًا فاقتربت منها وقالت مداعبة:

- تحلّي يا أمّاه عن هذا الجلد الذي لا داعي له فقد انتهت متاعبنا.

وردّد حسين قولها في نفسه عزوئًا، هل حقًا انتهت متاعبهم؟ إنّ ميزانيّة الجليش كلّ لا تكفي لإنهاء متاعبهم! ثمّ رفع بصره إليها وقال بلهجة ذات معنى:

- أن لك أن تسترضي...

فتساءلت ضاحكة:

- أتعني أن أترك مهنتي؟

- نعم....

- أتركها غير أسفة، وسألزم بيتي كالهوانم، ألسن شقيقة ضابطاً؟!...

ولم يتالك أن قال ساخراً:

- وشقيقة سي حسن أيضاً!

فردّت عينيها بينه وبين أمّها في دهشة وتساءلت عمّا جعله يتحمّ أخاه بهذه اللهجة المرّة، أمّا هو فسألها متهمّاً:

- ألا يسرك هذا؟

وقالت الفتاة برقة وعطف:

- مها يكن من أمر أخيها حسن ففضله لا يمكن أن ينكر.

وتدارك الشاب قائلاً:

- لست في حاجة إلى من يذكّرني بهذا، وعلم الله أنّي أحبّه، ولكن لا حيلة لي إذا قلت إنّ سلوكه في الحياة ليس بما يشرف.

وثقبت العبارة الأخيرة قلبها فلاحث في عينيها نظرة زائغة، وتخيّلت أمورًا فبردت أطرافها رعبًا، ثمّ خيّل إليها أنّه يعينها بالذات، ولم تعد ترتاح للصمت فضعفت في فتور:

- وآية أسرة تملو من شيء من هذا القبيل!

فقال حسنين بامتاعض:

- ولكنه لا يوجد في الأوساط المحترمة.

وركبها الضيق والقلق فرغبت في الاختفاء ونظارت بالضحك وقالت في مرح متكلف:

- لا يستحيل أن يوجد شقيقان أحدهما وزير والأخر لصر، بالله لا تكثر صفونا، وأعلم أنني صنعت لك صينية كثافة فدعني أسخنها ونأكل في سلام!

وغادرت الحجرة إلى المطبخ بوجه مكفهز ونفس حائرة يشع في قلبها خوف وقلق. إنه يدورها إلى القلوب في البيت أسوة بالنساء المحترمات، وإنها ترحب بهذا ولكن ما كان كان ولا سبيل إلى إصلاحه. وهي تستطيع إذا شامت أن تتحل لسلوكها الأعداء وأن تقول لنفسها إنها إنما ارتفعت تلك الحياة للحصول على النقود التي أقامت بها أود أسرته في أكلع ساعات حياتها، ولهذا حزن ولكنه ليس الحق كله فهتاك أيضا

الرغبة المعبدة واليأس القاتل. وكم وقت في ساعات يأس لو تموت هذه الرغبة ولو تموت هي بموتها ولكنها كانت تزداد رغبة وانحدارا ويأسا ثم تمردا واستسلاما. وعانت كثيرا شقاء الذنب وكان عزاؤها الوحيد - إن كان هزاء على الإطلاق - أن الأقدار لا يمكن أن تدخر لها حياة أفضل. وكم تمزقها الحيرة الآن بين ماضٍ تميم ورغبة لا تسكت عنها. وحتى هذه الحياة

الجديدة الموهودة لا تدري إن كانت تستطيع حقًا أن تخلص لها بعد ما كان، فلن تفيض رغبتها ولن يتحل عنها اليأس، وفيهم تأخذ نفسها بصبر لا مطمع لامل ورايه وليس لديها ما يصح المحافظة عليه؟ هل يمكن أن تقنع من الحياة بانتظار طويل عمل للموت؟ لا تدري إن كان بوسعها حقًا أن تخلص للحياة الجديدة، وأن تتعذب هذا طويلا متصلا بعد أن خسرت كل شيء. إنها تمقت الماضي وتمناه ولكنها تشد إليه بقوة شيطانية فلا تستطيع منه فكًا، ولن تقشأ تنبهه يائسة مقفلة بالذنب مرتعبة، كمن يسلم للسقوط من علو شاقق في كابوس بعد أن أيس من اليقظة. وجعلت تنظر في سهم إلى صفحة الكثافة الموردة حتى تحيكت نفسها في الصينية تحترق وقد اسودت بشرتها، وفي تلك اللحظة

بلدت الحياة لها عابئة قاسية، تعبت في قسوة. وتقسو في عبث. فصامت ولماذا خلقتي الله؟. ومع ذلك كانت تحب الحياة، ولم يكن يأسها وعداها وخوفها إلا آيات على هذا الحب، وكانت إلى هذا كله تنتظر مع الغد موعدًا لم تضر النكوص عنه.

وحملت الصينية بخفة بالية وعادت إلى الحجرة فوضعتها على المكتب وهي تقول في مرح وكأني نسيت أفكارها وخافوها:

- أقدم لك آخر كثافة من عرق جبني، وعليك وحذك منذ الآن أن تحمي الستائر!

وأقبلوا على الكثافة بشهوة وقد تطهرت الأنف من همومها، وقالت الأم وهي تغرز أصابعها في الصينية:

- ليت حسين كان معنا. ولوح لها حسنين بإصبعه حتى ابتلع ما في فيه ثم قال:

- أن لنا أن نسعى إلى نقله إلى القاهرة. كان أحمد بك يسري قد وعد بنقله بعد مرور عام أو نحوه وما قد أوشك أن يمضي عابان على تعيينه في طنطا.

كان يرغب في معايشرة أخيه كمهدما القديم، وكان يأمل أن يجد فيه عونًا على متاعبه، وقد رحب إلى هذا وذلك بفرصة تتيح له زيارة أحمد بك في قصره.

- ٧٠ -

ذهب مع أصيل الغد إلى فيلا أحمد بك يسري وفي نيته أن يقدم له فروض الشكر المناسبة فتمزجه ثم يستشفعه لنقل أخيه إلى مدرسة من مدارس القاهرة. وقد وقف البواب احترامًا للضابط ثم قاده إلى السلامك ومضى إلى الداخل لانياء البك بحضوره. وجلس حسنين إلى الكرسي الذي جلس عليه أكثر من مرة في أوقات متباعدة وظروف مختلفة، وراح يسرح طرفه في الحديقة. وجرى بصره في المشى الطويل المتفرج الذي رأى الدراجة تقطعه في مهل وحلر منذ أكثر من عام وتساءل ترى ألا تزال تلهو بهذه الرياضة؟ وابتسم للذكرى حينًا ثم تسأل مرة أخرى أحفًا جاء للشكر والشفاة وحدهما؟ وعارده الابسام. بيد أنه كان في حيرة من أهدافه قلقًا حيال البواعث التي

الارتباك حيال البك وأنداده من عليّة القوم. وذهب  
البواب لاحضار الليمون لَمَّا البك فسأله بركة:

- أين كان تميمك؟

فقال حسين بزهو مكتوم:

- سلاح الفرسان بالقاهرة.

- كنت من المتقدمين؟

- الثامن. . .

وهنا الرجل، ثم ساد الصمت. وكان في عزمه -  
لو قابل البك منفرداً - أن يعدّد أباياه على أسرته وما  
بذل من شفاعة عموده له ولأخيه على أن يتدرّج من  
الثناء إلى عرض مسألة أخيه حسين، ولكنّه عدل عن  
هذا مصحّباً على الاحتفاظ بكبريائه أمام المرأتين، وأمام  
الفتاة خاصّة، ولم يرَ ضيراً في تأجيل مسألة شقيقه إلى  
غد أو بعد غد على أن يحدث البك عنها في مكتبه  
بالوزارة. وجاء خادم نوويّ بأقداح الليمون دار بها  
عليهم. وانتبه حسين فرصة رفعه للقدح إلى فمه  
فاسترق إلى الفتاة نظرة من فوق حافة القدح فرأها  
وهي تحسّو شرابها في رفق ولطافة، فلم يندّ عن زورها  
هذه الحركات العصبية التي يعيها الأزداد العنيف،  
وتقرّزت السائل في رقّة فانسكب في هواده وحياء، وقد  
اكسى وجهها بجلوه بديع واسترخاء حالم كأنّها تستنيم  
للمسرات النعاس، وأعاد القدح إلى الصبيّة ثملاً بنشوة  
افتان تبعثها الأنافة والرشاقة وأمارات الأرستقراطية.  
وتخيّلها فجأة بين ذراعيه مستكنة مستنجة فأصرّ على  
أسنانه. وما هذا الجنون الذي ينيث في دمي. ليس  
شهوة فحسب، بل ليس شهوة على الإطلاق، بيّة  
أشهى منها وإن كان يجلبني الظهور معها أمام الناس،  
ليس ركوب هذه الفتاة بعمل جنسيّ ولكنّه غزو كامل  
وقتح مظفر. هذه! . وانتبه من أفكاره على صوت  
أحمد بك وهو يسأل:

- كيف حال الأسرة؟؟

فخطر له خاطر غلّي أنّه يرفع من كبريائه، وكانت  
الأكاذيب تبعث في نفسه أحياناً بوحى البلدية فقال بلا  
تردد:

- الحمد لله. انقضت متاعبنا بعد أن كسبنا

تحركه، مشفقاً من الاساءة إلى خطيئته، ثم ذكر زيارته  
الأخيرة - التي أعقبت تحرّجه - لبنت فريد أفندي  
وكيف مرّت في أحاديث ملولة وشعور ألّيم بالحرمات.  
حتّى أنّه لم يظفر بجلسة منفردة واحدة بفتاته، ذكر هذا  
فوجد من التلّثر ما هوّن عليه إحساس التائب الذي  
دبّ في أحياقه لسروره بذكريات فيلاً أحمد بك. ونفض  
عن رأسه أفكاره واستسلم لمشاعر الطموح التي تتوجّع  
في قلبه في محيط هذه الفيلا الرائعة فانتالت على غيّلته  
الأحلام، ماضٍ جلديد وبيت جلديد وقبر جلديد وأهل  
جلدد ومال موفور وحياة وضاعة لامعة. ومع أنّه صار  
ضابطاً، ولعلّ كثيرون يرمقونه بعين الحسد لذلك، إلّا  
أنّه أدرى الناس بقلبه الذي يحترق غفّة على الحياة  
السامية النظيفة، هذا القلب الذي أوردته الجرح موارد  
القلق والسخط والشقاء، ولبت على استسلامه  
للاحلام حتّى عاد البواب من الداخل وتنحّى عن  
الباب في أدب وهمس «سعادة البك قادماً». وبهض  
حسين، ثمّ ظهر البك في بدنه البيضاء والوردة  
الحمرات تزّين عروته، ولَمَّا رأى الشابّ ألقى على بدنه  
العسكرية نظرة شاملة ثمّ قال ضاحكاً:

- أهلاً بالضابط.

وانحنى الشابّ على يده مسلماً وهمّ بالكلام ولكنّه  
رأى حرم البك تبعه قائمة من الداخل وفي أثرها  
الفتاة. وأدرك أنّه جاء في وقت غير مناسب لغرضه لأنّ  
الأسرة متأهبة للخروج، وقد توجّد هذا لديه حين لمح  
السّيّارة تدور في المشى الواسع وتقف عند أسفل  
السلاملك منتظرة الداهيين، فما كان منه إلّا أن سلّم  
على المرأتين وتأثّر بخطوتين قائلاً:

- جئت لأقدّم لسعادتك فروض الشكر لمناسبة  
تحرّجي، وأرى أن أستاذن في الانصراف الآن حتّى لا  
أؤخّركم.

ولكنّ البك قال:

- بل نجلس لنشرب ليموناً ممّاء، ما يزال أماننا  
فسحة من الوقت. . .

وجلسوا فجلس وهو يبلل قصاره لضبط أعصابه . تردّد:  
فلم يكن أبغض إليه من أن يتولّاه الاضطراب أو



## القضية!

فسامل البك:

- أي قضية؟

فقال بثبات وثقة:

- قضية قديمة بين أمي وأخوالي على أوقاف وقد حكم لأمي بنصيحها كاملاً!

فقال الرجل:

- مبارك... مبارك...

وشعر حسنين بارتياح وزهو، ثم وهو يقول:

- لقد أحرزتم وأنا أسف يا سعادة البك.

ونهبوا جيئاً وهبطوا إلى موقف السيارة، وثمّ لو يدعوه الرجل إلى الركوب معهم، ولكنّه مدّ له يده مودّعاً فسلم عليه وحنى رأسه تحية لأسرته ومضى إلى الباب مسرعاً. كانت الزيارة تبدو خفيفة لأنّه لم يمسّ الموضوع الذي جاء من أجله ولكنّه كان يرى توفيقه بهذا اللقاء غير المنتظر وهذه الكلبة التي جمادت بها البداية السعيدة أخطر من غرضه الأوّل الذي لن يؤثّر فيه تأجيل يوم أو يومين...

- ٧١ -

وقلّب وجهه في السماء ولمّا يبرح شارع طاهر فطالع في صفحاتها نظرة الغروب الشاحبة فتسامل ترى هل يجد أمّاه حسن في بيته إذا جازف بزيارته؟ كان مصمّماً على مجابهته برأيه وإن كان ضعيف الأمل في إصلاح ما فسد من أمره، ولكنّ تركيز أفكاره في مستقبله ومستقبل أسرته جعله يستهين بكلّ شيء حتّى مناقشة حسن نفسه. ومضى يشقّ طريقه بعزيمة لا تتثنى ولكنّه كان يعمل قلباً أثقله الهمّ والشكّ. واستقلّ الترام حتّى ميدان الحازندار ثمّ ألجأه إلى شارع كلوت بك وقد تحوّل انتباهه إلى بدلته العسكرية التي فرضت عليه الظروف. كانت أمّه قد استغلتّ ملبأه القديمة في أغراض جديدة كعادتها - أن يخرق بها طرقاً مريّة! لم يكن الاختيار يبلده، وكان يرى في حسن مشكلة الأسرة للعقدة الأولى. لقد تخلّلت نغمة عن مهنتها، وسوف يسجر قريباً عطفة نصرالله ببل وشبرا جيئاً، وورثاً أسدل ستار النسيان على الماضي البغيض كلّهُ،

فلم يبقَ إلّا حسن وهيئات أن يطمئنّ له جانب ما دام شقيقه مقارناً حياته الآئمة. وطالته عطفة جندف فعرج إليها متجنّباً الانظار التي تطلّعت إليه في دهشة وقطعها مسرعاً إلى بيت أخيه ورمى إليه كالمأروب مستقبلاً الرائحة التنتية، وارتقى السلم الخلزونيّ عمتعساً، ذاكراً في ضيق ونجبل زيارته الأولى لهذا البيت منذ عام، حتّى وقف أمام باب الشقة في شبه ظلام وطرق الباب. وفتح الباب عن وجه رجل غريب - وجه شائه من الوجوه التي لم تبحر ذاكرته منذ زيارته الأولى - وما إن وقع بصره عليه حتّى دفع الباب فأغلّقه في وجهه بسرعة غريبة وقد ندّت عن فيه صرخة قاتلة: «بوليس!» فلحش الشابّ، ثمّ حدث ما هنالك فانزعج وأحسّ بخزي وألم لم يحسّ بمثلها من قبل. وليث متسكّراً في مكانه لا يدري ماذا يفعل. وفكر في العدول عن الزيارة، ولكنّه لم يبرح مكانه ووجد من نفسه تصميماً عنيداً على إنجاز مهمّته مهما كلّفه الأمر. ليست المسألة لهواً وعيئاً، هي حياة أو موت، ولن يستطيع السير في حياته قدماً ووراء هذا البيت. وطرق الباب مرّة أخرى، وانتظر وهو يعلم بعث الانتظار، ثمّ أعاد الطرق بشدّة. ترى هل يمكن أن يكونوا قد هربوا من الشقّة من إحدى النوافذ؟ وأراد أن ينادي أخاه بصوت مرتفع فيعرّف عليه بصوته ولكنّه خاف أن يعرّفه كيا يريد ثمّ يعلن شخصيّة لصاحبه الملعور ليطمئنه فتداع الصلة التي يشقّ ألا تُعرف أبداً، وصح هذا فمن أدراه أنّ حسن لم يشبّر أحدًا بحقيقة شقيقه ولو على سبيل الفخار؟! وأصرّ على أسنانه في خزي ويأس، ولكنّ اليأس أمده بقوة عناد جديدة فطرق الباب بقبضة يده بعنف وصاح ديا حسن، يا حسن، أنا حسنين! - ولم يطل انتظاره بعد النداء ففتح الباب وبدأ حسن خلفه يطالع بعينين ذاهلتين. وبدأ كمن يفيق من صلعة، وثبت بصره لحظلات دون أن يتحرّك، ثمّ دبّت في عينيه بقطة، وشاع في نظريتها الاشماس وهض:

- حسنين!! ضابطاً... لا أصدّق عيني!

وشدّ على يده. وورث بالأخرى على ذراعه، وجذبه

ويثقل المهمة التي جاء من أجلها. ومع هذا فلم يخطر له لحظة واحدة أن يعدل عتاراه واجبه، وعزم على أن يتسلل إلى هدفه برفق فابتسم وقال:

- أخاف أن أكون قد أزعجتك بزيارتي!

- ابصق هذه العبارة من فيك!.. ما هذا القول يا حضرة الضابط؟

فأشار حسنين ناحية الخارج وقال متصنفاً الدهشة:

- لقد فتح الباب لي رجل غريب ثم صرخ مرتعباً

«بوليس» وأغلق الباب في وجهي!

فقهقه حسن عالياً وقال:

- حصل سوء تفاهم نادر ولكنني عرفت صوتك

فانتهى الأمر بخير..

فوجد حسنين صعوبة قبل أن يقول متسائلاً:

- وما الذي أعناه؟

فألقى عليه نظرة كأنها تسالله إيهمل حطاً أم

يتجاهل! ثم قال بعدم اكتراث:

- يوجد أناس كما تعلم يخافون البوليس!

فتساءل الشاب بإشفاق:

- أليس من الخطر أن تفتح أبواب بيتك لمشعل

هؤلاء؟

فصمت حسن قليلاً ثم قال:

- بل ولكن الإنسان ليس حرّاً في اختيار أصحابه!

فقال بدهشة:

- كيف هذا يا أخي؟.. الإنسان حرّ بلا شك في

اختيار أصحابه..

فقال حسن بلهجة من يرغب في تغيير مجرى

الحديث:

- فلندع هذا جانباً ولنختر حديثاً اللطيف!

- لا أستطيع أن أدعه حتى أطمئن عليك...

فقال حسن ضاحكاً:

- لا أخوف عليّ، اطمئن!

- إني أعجب لما يدعوك إلى مصادقة هؤلاء

الأشرار... أنت فتان محترم وتستطيع أن تختار من بين

زملائك أحسن الأصدقاء.

وخفض حسن عينيه ليخفي نظرة التعجب التي

إلى الداخل وهو يضحك ضحكة عصبية عالية. ثم سار به إلى حجرة النوم وهو يقول:

- ضابط.. يا لها من مفاجأة!.. مبارك مبارك..

هذا يوم سعيد..

وجلس حسنين على الكنب، وأغلق حسن الباب ثم

جاء فجلس إلى جانبه. وكان الشاب يبدل جهداً جباراً

ليتنفّس على اضطرابه ويتألك أعصابه، ونظر إلى أخيه

متبسّماً وقال:

- إني أحقّ الناس بالتهنئة ولكنك أنت أحقهم

بالشكر.

فضحك حسن بسرور ولملّ شعوره بالسرور كان

مضاعفاً بعد ما كان من انزعاجه وقال:

- علام استحقّ الشكر؟ ما أهت إليك إلّا بعض

حقك عندي. دعنا من هذا ونعترّي عن حال الأسرة،

وكيف أمنا ونفسه وما أخبار حسين؟

وداح يحدّثه عتار يريد بباطن فاطر وظاهر متكلّف

الاهتمام. وكاد الحديث يسوقه وهو لا يدري إلى سؤاله

عتار قطعته عنهم، ولكنه أمسك عن السؤال في اللحظة

الاعبرة ذاكراً أن انقطاعه هذا خير غير مقصود وأن

وصاله شرّ ما يبتلون به وهو على هذا الحال، ولما فرغ

من حديثه قال حسن:

- الحقّ آتي أحنّ إليهم كثيراً ولكن حياتي لم تعد

تسمح لي بإشباع هذا الحنين. نحن في بلد واحد

ولكنني في الواقع كأني في بلد بعيد منقطع عن العالم،

وربّما خُفّفت عني الآلم أحياناً أنهم لم يعودوا بحاجة إليّ

وأني أهت بعض الواجب عليّ. وفضلاً عن هذا

فلست تمجّديني في سرّ متصل، فقد يمتلئ جيبني بالنقود

أيّاماً ثم يفرغ أسابيع. وفي حالة امتلائه تمجّدي مضطراً

للإنفاق بغير رومي. لا عليك من هذا، لقد أصبحت

ضابطاً فمبارك عليك حقك ولا يصحّ أن أخطئ

بفرحي شيئاً آخر... مبارك يا حضرة الضابط!

وجعل حسنين يصني إليه وهو يتفرّس في وجهه

فهاله ما يرى من تغرّز وتشويه وغرابة كأنه يستهلك في

العام الواحد من حياته المحفوظة بالممالك أرواماً

طوالاً. لقد انتهى حسن، وشعر بالتقباض وتشاؤم،

- هما شيء واحد...

- حقاً؟ لا أرى رأيك أو دعني أسألك لماذا لم توجه إليّ هذه النصيحة من قبل؟... منذ عام مثلاً؟

لا يسعه - بعد أن قال له، وهو لا يدري، إنه إنما جله لهذا الأمر - أن يذمي أنه كان يجهله، وركبه الضيق، ولكنه تهرب من سؤال أخيه قائلاً:

- ألا ترى وجه الحير لك فيها أريد؟

فتجاهل حسن سؤاله وقال بنفس اللهجة الساخرة:  
- كنت قبل عام في حاجة جنونياً إلى النقود فلم نتمّ بالنصح والإرشاد أمّا الآن وقد أصبحت ضابطاً فلا يَمَكُ إلا الدفاع عن هذه النجمة اللامعة!

ومع أنّ وجه حسين لم يتغيّر إلا أنّ قلبه ملأ بالغيظ والحزن وكأنما أهابه أن يقرأ الآخر أهمله هذه السهولة الساخرة ولكنه قال بلهجة لينة:

- أخيه...

وأشار إليه الآخر أن يسكت فسكت، ثم قال باستهانة:

- ساكون معك صريحاً إلى أبعد حدّ، وإذا كنت تسأل نفسك حقاً عن عملي فلنّي أقول لك إنّ فتوة قهوة بدرب طيّاب (ثم مشيراً إلى الصورة فوق رأسه) وعشيق هذه المرأة، واقع مخدرات.

وهنف حسين في انزعاج:

- لا أصنّف هذا!

فقال الرجل مبتسماً في هدوء:

- بل تصدّقه كلّ التصديق، ولعلّك تحتمه ليساً مغي، وما قد صحّ تخمينك، فإذا ترى؟!

فرنا الشابّ إليه صامتاً في إشفاق وألم، حتى ضاق بصمته فقال محزوناً:

- ليس أحبّ إليّ من أن تبدأ حياة جديدة شريفة! فضحك حسن عالياً ثم قال بسخرية:

- بفضل حياتي غير الشريفة أمكنني أن أدلع عن أسرتنا عائلة الجوع، وأن أزود أخاك حسين بما كان في حاجة إليه كي يباشر عمله الحكومي، وأن أهنيّ لك قسط المصروفات الذي جعلك ضابطاً والحمد لله.

ووزعه كلامه بمثل شكّ الإبر فترامت له الحياة

لاحت فيها. غضب الرجل، ولو ثار غضبه حيال شخص آخر غير حسين لانفجر، ولكنه كظمه وعالجه بالحسنى. أغضبه شعوره بأنّ أخاه يعلم من أمره أكثر ممّا يتظاهر به، وأنه يعامله معاملة الأطفال. ولو أنّه صارحه بذات نفسه، بل لو أنّه وصفه بالشرّ كما وصف أصحابه لما غضب كما يغضب الآن. وعزم على أن يكشف القناع عن الحديث الكاذب فقال باقتضاب ويصوت - رغم كظمه غضبه - غير الذي تكلم به من قبل:

- إنّ واحد من هؤلاء الأشرار

وفغر حسين فاه دهشة فقال الآخر بجفاء:

- حسين إنّك والتظاهر بالدهشة. لست غيباً ولست غيباً فيحسن بك أن تحدّثني بالصراحة التي تموّدت أن تحدّثني بها دائماً. ما وجه الغرابة في أن أكون شريفاً؟ ألم أكن طوال عمري هكذا!

ونفض الشابّ عنقه في وجوم وخجل وتشتّت منطقه فانهقد لسانه، وارتاح الآخر لارتياكه فعاوده مرحة وأراد أن ينهي هذا الحديث المؤلّف فقال:

- لا عليك من هذا، ولعن الله الرجل الرعيد فلولا فزعه الصبيان ما جرى الحديث بيننا هذا المجري السخيف، ولنعد الآن إلى الأهمّ (ثم ضاحكاً) لا شك أنّك جيتني لحديث آخر!

فجمع الشابّ ما تشتّت من أفكاره وقال متنبّها:

- الحقيقة أنّي ما جئت إلا لهذا الأمر!

فلاح الاستكثار في وجه حسن وقال متهاكماً:

- حسبك جئت تطلب نقوداً!

وشعر الشابّ بغضب أخيه ولكن لم يثن عن عزيمته فقال بلهجة رقيقة متوقفاً إليه:

- بفضلك السابق لم أعد في حاجة إلى نقود ولكن مهتني الآن أجلّ من النقود، إنّني أريد أن أطمئن عليك...

فحلجه بنظرة ثاقبة وقال بسخرية:

- لا زلت أطالبك بالزيد من الصراحة... إنّك يا حضرة الضابط تريد أن تطمئن على نفسك لا عليّ أنا! فقال حسين وهو يشعر بقر وغيظ:

ورغم كلام الناس..

وتتهد حسنين في ضيق وقنوط، وحق عليه في تلك اللحظة حقاً أسود غمّي معه لو كان شيئاً لم يكن حقاً، ولكنه كائن، ومسلط على رأسه كالسيف القاتل، فما عسى أن يفعل؟ وتتهد مرة أخرى وتساءل:

- أليس ثمة أمل في أن تعود إلى الحياة الشريفة؟..  
أهذه كلمتك النهائية؟!

وغضب حسن، وكأنه أشفق على أخيه من غضبه فانفض قائلاً وقطع الحجرة الصغيرة ذهاباً وإياباً مرتين مفرغاً بخار غضبه في حركاته العنيفة، ثم استند إلى حافة السرير، وشبك ذراعيه على صدره، وقال بلهجة من نفذ صبره:

- حياة شريفة، حياة شريفة! لا تعد هذه العبارة عسل سمعي فقد أسقمتي. ميكانيكيّ بقروش معدودات في اليوم، أهذه هي الحياة الشريفة؟.. السجن أحب إليّ منها! ولز أني استمسكت بها طوال حياتي لما حلّت كثفت هذه النجمة، المحسب أنّ حياتي وحدها غير الشريفة؟.. يا لك من ضابط واهم.. حياتك أنت أيضاً غير شريفة، فهذه من تلك، ولقد جعلت منك ضابطاً بنفوذ محرمة مصدرها تجارة المخدرات وأموال هذه المرأة (وأشار إلى الصورة)، فانت مدمن بهذلك هذه الموس والمخدرات، ومن العدل إذا كنت ترغب حقاً في أن أقنع عن حياتي الملوثة أن تهجر أنت أيضاً حياتك الملوثة، فاخلع هذه البذلة وليبدأ حياة شريفة معاً!

واصفر وجه حسنين وغضب بصره في ذهول وبأس وقد امتلأ صدره غيظاً وحقداً. وانفجرت شفتاه أكثر من مرة كأنه يسم بالكلام ولكنه كان يطبقها في تسليم اليأس. ولم يرجه حسن على ما بدا من قهره ووجوهه فقال:

- أرايت أنك تؤثر النجمة على الحياة الشريفة؟! ولست ألوّك فأنا مظلّك أوثر رزقي على الحياة الشريفة (ثم ضاحكاً).. نحن شقيقان وبصري في عروقنا دم واحد!

ونفض حسنين عابساً وهو يقول:

ضيفة خائفة، ولكن رغبته الحارة في الدفاع عن نفسه أبته عليه أن يسلم بالهزيمة فقال:

- كان هذا بفضل نبك ولا فضل لهذه الحياة الخطيرة في ذاتها!

- لا تغالط نفسك. إثم يدعوني بالروميّ لا بالنيل. ثم ما هي الحياة غير الشريفة؟ ليس ثمة إلا حياة فحسب، وكلنا يسعى للرزق..

- توجد حياة آمنة، وحياة يفرضها مجرد توهم البوليس..

- هذا من صف البوليس، ولا ذنب لنا، بالله عتري ماذا تريد عليّ أن أصنع؟

فقال حسنين بحماس وقد لاح له بارقة أمل:  
- احجز هذه الحياة واشتر لنفسك عملاً شريفاً كسابق عهدك.

وانفجر الرجل ضاحكاً وتساءل في دهشة:

- صبيّ ميكانيكيّ؟.. هذا كمن يطلب إليك أن تستقيل من الجيش لتبدأ من جديد بالتوفيق! وهل حق الشاب في أحاطه مرة أخرى، ولكنه تسامع في هدوء وابتسام:

- ألا تدري ما النهاية المحتومة لحياتك؟

فقال متعجباً في بساطة:

- أن أسجن أو أقتل.. وإذا قُدر عليّ أن أقتل أولاً نجوت بطبيعة الحال من السجن!

فظاهر بالضحك وما يزداد إلا حقاً، واشتد حنقه خاصّة لاستهائه، ومع أنّه يش منه أو كاد إلا أنّه استطرّد قائلاً:

- أرى أنّ خطورة حياتك لا تغيب عن فطنتك، فلست في حاجة إلى أن أبصرك بعواقبها الوحشية، وإني استحلفك بالله أن ترعى نفسك بالحكمة..

فالقى عليه نظرة طويلة باسمه كأنه يقول له ولا تحاول خداعي بتوذكه وقال:

- لا تخف عليّ، أستغفر الله أعني لا تخف على نفسك أو سمعتك، لا تحمل نفسك هموماً فارغة، هبني كشيء لم يكن، لا تكثرت لما يقول الناس عنكم بسببي فإنك تستطيع أن تحيا الحياة التي تروق لك على

بقوة عنيفة ولكن يرغب به عنها ما يرغب به من عطفة  
نصر الله وعطفة جنبد. لم تعد الأمل الذي يرنو إليه،  
وما هي إلا لوعة في دمه يبني منها شفاء. وأدام النظر  
إليها حتى خال وجهها الملائ الملهب عقابا جسما  
فوجد وغزا في قلبه، وطرد أفكاره دون أن يت فيها  
برأي وسعها تقول له:

- لا تخمق في هكذا...

ما الذي أن يمتصها إلى صدره ويمطرها قبلا إنه لا  
يدري ما هو فاعل بها غدا ولكنه يلمس على طول  
حرماته.

وقال مبتسما:

- إني أكره في ثقيلك قلة حارة نبدا بها حياة  
جديدة.

- لا يملوك إلا هذا الكلام!

- هل ثمة ما هو أسوأ؟

فتردت قليلا ثم خفضت عينها قائلة:

- يوجد ما هو أهم!

وحس ما تعنيه بلا ترد. وصاوره لثق. ولكنه  
تجاهل غلته متسائلا:

- أهم من القبة؟!

- أحب أن تحذني جادا ولو مرة...

- ولكي أود أن أتركك جادا!

فتضمرت ليا يشبه الحيرة، كأنها تغالب خطرة ثم بدا  
كأنها تغلبت على حيرتها فقالت:

- ألا تدري ماذا قالت أمي؟

صدق حدسه! لا بد مما ليس منه بدا وتساءل  
متباهما:

- ماذا قالت؟

فقالت بصوت منخفض وفي عناه من حياء:

- قالت لي لقد طال انتظارك، وما قد صار ضابطا!  
وأحسن في أمهاته بحق حلم كأنه سمع تمهيدا،  
ومع أنه كان يعلم بأنه ليس له حق في حقته إلا أنه  
كره الأم في تلك اللحظة. ثم تساءل:

- هل تتمتع الزواج؟

فتضمرت وجهها بالاحمرار وغمضت:

- لا تسخر مني جزاء ما أوليتك من نصيحة!

ثم انجهم نحو باب الحجرة وهو يقول:

- استودعك الله..

ولما وضع يده على أكمة الباب سألته الآخر برقة  
مفاجئة:

- ألا تريد أن تسلم علي؟

فتحول إليه ومد له يده، فشذ عليها الآخر وأبقاهما  
في يده وهو يقول ضاحكا:

- يؤسفني أنني أغضبك. انسى ما كان ولنيت كما كنا

ولو على البعد، ستجدي دائما «الروسي» الذي عهدته.

ولا تنس أن تهدي سلامي إلى أمنا ونفيسة. مع ألف  
سلامة..

- ٧٢ -

وأطلع أمه على صورة واضحة من سيرة حسن فقد  
كان صدره أضيئ من أن يتسع لها وحده. واستمع لما  
جاد به لسانها من ضروب العزاء والنصح بقلب  
مغلق، كان في الحقيقة متجسسا متشائلا حائدا. ولما  
كان لديه بضعة أيام من الفراغ قبل أن يبدأ عمله  
بالفرقة فقد خطر له أن يسافر إلى طنطا للقاء حسين،  
وعاوده شعوره القديم بالحاجة إلى مشاورة أخيه فيها  
يلم به من أحداث. بيد أنه لم يقدم على تنفيذ فكرته  
وبدا كالتردد، ولما بين هذا وذلك لم يجد من سلوى  
إلا في شقة فريد أفندي. ولكنه كان يلعب إليها  
ناشدا عزاء لا مليئا شوقا، ولم تغب عنه حقيقة مشاعره  
فحمل كتابته المائمة مستولية تغيره، ثم أخذ يستبين أن  
تغيره أصحى من أن يكون أثرا عارضا وقتيا، وتساءل في  
حيرة ألم يعد يحبها؟ عرض له هذا التساؤل أول ما  
عرض في ضحى اليوم الذي جاء بعد زيارته لحسن  
بيومين، وكان يخالس بيته على انفراد بحجرة الاستقبال  
على حين شغلت الأم بالمطبخ، فجعل ينظر إلى الفتاة  
متسائلا ألم يعد يحبها؟ هي فتاته بجسمها وروحها،  
ولم تزل ماثرة رغبة جامعة ولكن كأنه يرغب في أن يولي  
عنها فيما يرغب أن يولي عنه من ماضيه جيما. وتغير  
بين رغبته فيها وما يتساءل عنه من انتهاء حبه لها!  
أيمكن أن يرغب فيها ولا يحبها في آن؟ إنه يجلب إليها

- كلاً ولكنها ترى أنه أن تعلن الخطبة.

- ألم يتم هذا؟

فتحست بنصر عيناها في حياء وغمغمت:

- ثمة أمور لم تزل ناقصة...

وفهم ما تشير إليه في استياء لم يدر سببه. لم يكن ثمة شيء مستغرب فيها يطلبون ومع ذلك حتى عليهم جيئاً وركبه شعور المألوف إذا تهلّده خطر، وتفرّس في وجهها وهو يذكر ما قال زملاؤه عنها في الأتوبيس وقال لنفسه وفنائه طيبة ولكنها ليست أهلاً لأن تكون زوج ضابط مثلي، ولو تمّ هذا الزواج لكان الأول من نوعه! ثم قال لها في هدوء باسم:

- هذه أمور لا وزن لها.

- ولكنها هامة جداً في نظر الناس فطلما تسادل

أفكارنا عن الحاتم...

وعجب لحاسها، وثق لو كانت تعلن عن بعض هذا الحاس في الحب. ولكنها تريد أن تتزوجني لا أن تحبني. هذا سرّ بروحها وتحفظها. وإذا لم يكن حب، بل وحب قهار جنوني، فما الذي يخريني بالزواج منها؟! وقال:

- لا داعي للعجلة، ستحقق آمالنا في الوقت

المناسب.

- متى يكون هذا الوقت المناسب؟

فقرّب ما بين حاجبيه كأنه يفكر وقال:

- أظنّ إذا رُفعت إلى رتبة الملازم أول أصبح في

وسمي أن أفتح بيتاً مع معاونة أهلي الذين لا يستغنون عني كما تعلمين.

وبدا في وجهها الوجوم وجعلت تقرض ظفرها حانية الرأس خابية العينين. ومع أنه ارتاح لتصرّيعه الذي مدّ له في حرّيته إلا أنه رفق لمنظرها، وجرى بصره على جسمها فدق قلبه وتناسى أفكاره وخاوفه وحسنه فنهض إليها وجلس إلى جانبها على الكنية، ولكنها تباعدت إلى نهاية المقعد وحالت دونه بساعديها قبل أن تذهب روح المقاومة الطارئة مسحة الحزن من عينها. وقبض على ساعديها وهوى على كفّيهما يقبلها، حتى قامت مبتعدة عنه وهي تهتف:

- دعني... دعني... لم تمد كما كنت.

وقام في أعقابها مدفوعاً بغفورة إحساسه وجنون أعصابه وطوقها بلذرايه وأطرافه ترتعش، ودافعت بقوة فهوى بفيه إلى شفتيها فألمأت رأسها إلى الوراء فمست شفتله طرف ذقنها، ثم تملّست من ذراعيه ووقفا وجهها لوجه وهما يلتهان، وصاحت به بصوت متهذج:

- لا تهجم عليّ غصبا!

وانقلبت شهوته غضباً فحدّثته نفسه بهجر الحجر، وسار خطوتين صوب الباب، ثم تحوّل إليها بشتة وقد انقلب غضبه شهوة جنونية فانقضّ عليها مصمّماً على إرواء عواطفه، وطوقها بلذرايه رغم مدافعة يديها، وضمّها إلى صدره بعنف ووحشية، ثم طبع شفتيه على شفتيها، وكلّمها مالت بوجهها عنه أتبعها وجهه لازقاً فاه بفيها، ملائقاً دفعات مقاومتها بقوة وحشية، حتى سكنت بين ذراعيه في شبه إغيار. ولم يبال خوررها فراح يضمّها إلى صدره حتى استشعر طراوة جسمها اللدن على بطنه وفخله فترسّب إلى إحساسه في ارتياح حميق كأنه تحفّف جديد عن لذة الحياة. ونذت عنها مقاومة طارئة ضعيفة كصهوة الموت ولكنه قضى عليها بروحشيته. وجرّ انفعالاً وتطلّعاً واستزادة، وانصهر قلبه وسرى ذوبه في أعصابه باحثاً لذة خيالية، ثم انهياراً في تسليم متوقّع مفاجئ ممّا. وأفاق كمن يفيق من حلم فوجدتها بين ذراعيه وشفتيه على خدّها، ولما شعرت بلذرايه تتراخيان عنها دفعت في صدره مترجمة وقالت وهي تتهدّد في صوت ضعيف:

- لن أصفح عنك...

ولم يترك قولها في نفسه أثراً، لا حسناً ولا سيئاً، فلم يأبه لها وكأنّ إحساسه تجاهل وجودها. شعر بظفر وارتياح ثم غلبه عليها فتور فتراجع إلى مقعده الأول وجلس عليه في دهشة. ولبت هي بموقفها كالمترددة ثم عادت إلى مجلسها في استياء وراحت تعاتبه وتعنه دون أن يلقي إليها بالاً. ورنا إليها بغرابية وسامل نفسه: أهله هي؟ أهذا أنا، أين هي وأين أنا؟ ثم ران عليه فتور ثقيل أكثر ممّا يحتمل.

وجعل يصغي إليها دون أن يحتمل نفسه مشقة

- لقد شُفِيت لتكون أبًا بارًّا...  
فابتسم حسين على ما أثار قوله في نفسه من  
ذكريات محزنة ولكنه لم يعلق عليها بكلمة وقال مشيرًا  
إلى نجمة الضابط:  
- إني فخور بك...  
فقال حسين بتأثر:  
- إني مدين بها لنبل تضحيتك.  
وهبط قوله على قلبه يردًا وسلامًا، وتعم:  
- لا تبالغ! أنت رجل جدير بكل شيء...  
وقال حسين لنفسه (هَذَا شقيق لا يشين، ولولا  
ماضي نفسه وحاضر حسن وماضيهِ ما أُجِدَ إنسان على  
الأرض أسعد مِنِّي) ثُمَّ قال لأخيه بسرو:  
- أبشر لقد رجوت أحد بك يسري أن يسعى  
لتفلك إلى القاهرة فعدني خيرًا...  
- عفارم! وبئله المناسبة أعيرك أنني سأعود معك  
إلى القاهرة قائلاً بإيجازي السنوية...  
ثم غادر الفراش وهو يقول:  
- اغسل وجهك ونفّس بثلثك من وعشاء السفر  
وهلمّ نطلق إلى المدينة فلا خير في البقاء في هُله  
الحجرة الضيقة...  
وارتدى بدلته ثُمَّ خرجا معًا يتمشيان في طرقات  
المدينة، ثُمَّ مضى به إلى قهوة السمير وجلسا معًا  
يواسلان حديثهما. وتكلم حسين عن حياته في طنطا  
كثيرًا، وشكا إلى أخيه وحدته وكيف عوّدته على غشيان  
المقهى كُلِّ مساء فيمضي ساعتين على الأقلّ مع نفر من  
الموظفين يلعبون الزرد حينًا ويسمرون حينًا آخر، ثُمَّ  
يعود إلى الفندق فيطالع ساعة أو أكثر قبل النوم،  
وحثّه عن آخر كتاب ابتاعه وهو الاشتراكية لمكثونالد  
الترجم من الإنجليزية وكيف أنّ النظام الاشتراكي لا  
يتعارض مع الدين ولا الأسرة ولا الأخلاق. كان في  
وحده وضيقه يسعد بأحلام الإصلاح ويتخيل مجتمعا  
خيرًا من المجتمع الذي يعيش بين أحفانه، وحالًا  
خيرًا من الحال المقنّورة له، وأسعده الأمل في إمكان  
تحقيق خياله دون الاعتداء على العقائد التي أُشرب  
حبّها والإيمان بها منذ طفولته.

الاعتذار، وانتهاز فرصة حضور أمّها فجالسها دقائق ثُمَّ  
قام مستأذِنًا في الانصراف. ولمّا غادر الشقّة شعر  
برغبة في الهرب، وحينذاك عاودته فكرة السفر إلى  
طنطا فابتسم لها في ترحاب ومحاسن.

- ٧٣ -

عندما انتهى إلى فندق بريطانيا بشوارع الأمير فاروق  
بطنطا كانت الساعة حوالي الخامسة مساء وقاده غلام  
إلى حجرة أخيه فنقر على الباب ووقف مبتسبًا انتظارًا  
للمفاجأة السارة وفتح الباب وظهر حسين في جلبابه،  
وسرعان ما اتّسمت عيناه دهشة فأقبل على القادم وهو  
يبتف:

- حسين!... لا أصلّق عيني!

وتعانقا عناقًا حارًّا، ثُمَّ دخلوا الحجرة الصغيرة  
وحسين يلقي عليه نظرة متخصّصة في حبّ وإعجاب ثُمَّ  
قال بصوت متنهّج من التأثر والسرور:

- يا لها من مفاجأة سعيدة. أهكذا يجعم  
العسكريون بلا إنذار؟ مبارك. لقد أرسلت برقية  
تهنئة...

- واصلتني ورأيت أنّ أجبك بنفسني شاكرًا!

- وكيف حال نينة ونفيسة؟

- على خير حال. وجدت لديّ بضعة أيام إجازة  
قبل بدء العمل فضلت أن أمضيها معك...

- أحسنت صنعًا. وحسن؟ أما من جديد عنه؟

وغاض البشر من وجه حسين ولكنه أبى أن يخلط  
باللقاء كدرًا فقال:

- دعنا منه الآن على الأقلّ...

وحلس حسين ما أحزنه ولكنه لم يكن أقلّ رغبة  
منه في تأجيل التكد إلى وقت آخر فدعاه إلى الجلوس  
على الكرسي الوحيد ووثب هو إلى الفراش. وتبدلا  
نظرات مشوّقة متخصّصة فلمس كلّ منهما ما طرأ على  
الأخر من أمارات الصحة والعافية وإن كان وزن  
حسين قد زاد أكثر ممّا يتصوره أخوه، كذلك وجدته قد  
رَبّ شاربها بطول شفتيه وعرضها ممّا أكسبه مظهر  
رجولة وقور وجعله يبدو أكبر من سنّه، وقد داعبه  
قائلًا:

- والأسفاه، كان حسن ضحيةً للمرحوم والدنا،  
وكان والدنا ضحيةً لضيق ذات اليد

فقال حسين بجزع:

- ألا تستطيع إقناعه بالإقلاع عن أسلوب حياته؟

فقال الآخر متبهاً:

- لن يقطع عنها مهما قلنا أو فعلنا، شيء واحد  
يستطيع أن يعدل به عن حياته وهو أن نبهي له رأس  
مال مناسب كي يبدأ حياة جديدة، فهل يسعنا هذا؟  
وتبادلا نظرة بالسة لأن السؤال لم يكن في حاجة إلى  
جواب، ثم قال حسين بحلّة:

- أنتركه في خبّه كي يقضي حل آمالنا!

- لقد قضي حل نفسه.

- وعلياً! كيف تواجه العالم ولك مثل هذا الأخ؟  
سوف تظهر أسوأنا يوماً في الجرائد بين أعمدة  
الحوادث والجنايات!

فتنهد حسين عزوفاً متفكراً في كلام أخيه الذي  
رجّع أصداء أفكار طالما أكرته في وحدته، ولكنه قال  
معارضاً أخاه ونفسه معاً:

- لا ذنب لنا، ولا يصح أن ندع الخوف يتهوّل في  
قلوبنا. قد يصيبنا رشاش من ألسنة الناس، الآن أو  
فيما بعد، ولكننا لن يمكننا مواجهة الحياة إذا لم نذرع  
بقدر من عدم المبالاة...

بدا له حسين كأنه لا يعي ما يقول، أو كأنه لا  
يياي السعة الطيبة التي هي أمر كل أمل في الحياة بيد  
أنه مهما يكن من أمره فهو ليس ذا أصدقاء كأصدقائه  
يشفق من أن يكلّموا على أسرار أسرته، كذلك لا  
تتازعه نفسه إلى المجد والطموح فليس في أماله ما  
يخاف عليه ألسنة الناس. أجل أخطأ تقديره ولن يجد  
من أخيه مشاركة وجدانية، وحتى عليه في تلك  
اللحظة كثيراً. واحتقر استسلامه وهذومه. واندفع  
قائلاً وكأنه لا يروم إلا الترويح عن حنقه:

- هل نعدّ أنفسنا شرعاً؟

فقال حسين بدهشة:

- ولم لا؟

- ولكننا استعنا على تقويم حياتنا بنقود ملوثة!

ثم تساءل في نفسه ترى هل أنضت أمّه للشباب  
بالسرّ الذي دفعها إلى زيارته منذ عام ونصف؟ ولما لم  
يشر حسين إلى الموضوع بكلمة اطمأن إلى أنها كتبت  
الأمر كله وهو ما ترجّح لديه من بادئ الأمر. وذكره  
هذا الحفاط بالآلام الماضية ولكنه ذكرها بقلب خالٍ  
هادئ لولا حنينه العائم إلى الرفيق والحبّ ما تشكّى  
قطعة، ثم وجد نفسه وهو لا يدري يسأل حسين عن  
خطيئته وأجاب الشاب إجابة عاتمة قائلاً: «بخير  
والحمد لله، وسأله نفسه هل يصارح أخاه بما طرأ في  
نفسه من تغير وتطوّر؟ ولكنه جفل عن هذا، وأقبله  
إلى المستقبل إذا جدّ جديده من الأمر، وكان يعلم سلفاً  
بأنّ حسين لا يمكن أن يوافق على نوابه أو يرضى عن  
منازعه. وتواصل الحديث بينهما طويلاً لطيفاً حتى عزم  
حسين على خوض الموضوع الخطير الذي يشغله فقال  
متبهاً:

- تصوّر كم كانت الحياة جميلة لولا ماضينا وأخونا  
حسن...

وأحسّ حسين بما وراء هذا التهديد من حزن وسخط  
فقال ببساطة:

- أعتقد أنّ الأمان قد انتهت، أمّا ماضينا فليس فيه  
ما يجدل، وأمّا حسن فلن يضرّ وأسفاه إلّا نفسه...  
فهزّ رأسه دلالة على عدم الموافقة وقال في حزن:

- أنا علمت أنّ حسن قد انقلب مع الزمن بلطجياً  
وتاجر تحذرات؟!

ومع أنّ حسن كان يتخيّل شقيقه الأكبر حل أسوأ  
حال إلّا أنه لم يكن يظنّ أنّه ترقى إلى هذا القرار،  
فهتف في ارتياح:

- لا تقل هذا..!

فكان جواب حسين على ارتياحه أن قصّ عليه ما  
شاهده في زيارته الأخيرة لحسن وما سمع، وأصغى  
إليه أخوه في صمت ووجوم. ولما طال صمته سأله  
حسين:

- ما رأيك؟

فبسط له راحته كأنه يقول له: «ما حيلتنا؟» ثم  
ختم:



مكان اللوح الزجاجي المحكم، كل أولئك ذكريات عزيزة. أما سريرهم فلم يعد له أثر، بيع في الوقت المناسب كالشئ، ولحق بسريره حسن، وكأنه لم يعد من أهل البيت! ومع أنه كان يقدس هذا بالبداهة إلا أنه شعر بحزن وكآبة. وهنا شعر بنفيسة وهي تغادر الحجر قائلة:

- أمهلاني ساعتين أعد لكما غداء طيباً  
وابتسم ارتياحاً. إنه لم يلق طعاماً طيباً منذ عهد بعيد، ريثما منذ وفاة والده. أجل كان طعامه طيباً وهو موثف أفضل من طعامه وهو تلميذ كما يشهد بذلك ارتواء جسمه، ولكنه لم يطلق لشهوته العنان قط. هل أنه كان مشغولاً بما هو أخطر من لذة الطعام وهو تذوق عودله السعيدة إلى منتهى الأول وجوه الأصل. كان حنانه كالفترة الحلوة يتردد في حواسه جيئاً، حتى هواء عطفة نصرائه الفاسد وجد له ميل ألفة ورقية وموتة فكأنه الصحة والعافية. وجعل يحدث أنه وبينما تترددان في أنحاء الحجر الصغيرة حتى استغرقتا على جاكته حسنين المعلقة بالشجب فنظر إلى النجمة طويلاً. سهرق حسنين عائداً بعد عام حتى يصير ضابطاً عظمياً على حين يبقى هو كاتباً في الدرجة السابعة - أو السادسة على أحسن فرض - بلوال مدة خدمته. هل أنه لم يجد أي أثر لشعوره الحسد أو الحق، كان أبعد ما يكون عن هذا، بل كان سروره بأخيه لا يدا، ولكنه وجد نفسه يتأمل في صمت حزين الفوارق الطاغية التي تميز بين الموثقين، وامتد خياله وهو لا يدري إلى الفوارق الطاغية التي تفصل بين الناس عامة. ترى ألا يمكنه إذا نقل إلى القاهرة أن يلتحق بمعهد ليبي عسى أن يتغير من حال إلى حال؟ وابتنم قلبه لهذا الخاطر السعيد وأودعه صدره كامل احتياطي بلجا إليه في حينه فينتجيه من مصير كصير حسان أفندي حساناً! وحتى حسان أفندي نفسه لم يكن يرقى إلى الدرجة السادسة لولا الوزير الوفدي! وذكر عند ذاك أموراً سمع بها في طنطا فسأل أخاه:  
- هل حقاً ما يقال عن احتيال سقوط الوزارة؟  
فضحك حسنين قائلاً:

تطالير الشر بشتة من عيني حسين، وحلق في وجه أخيه وهو صامت، وكأن آلامه الدفينة قد طفت حل سطح قلبه داعية معها من الأعماق أسوأ الذكريات، ثم قال بحدثة:

- كنا في موقف دفاع عن النفس، والدفاع عن النفس يُجَلُّ القتل...  
وشعر حسنين بارتياح خفي لغضب أخيه، وجعل يتساءل في حيرة عما دفعه إلى مجابته بهذا التصريح الأليم. ثم استطال الصمت حتى شبا الموضوع فغاضبا في غيره، غير أنه مضى زمن غير قصير قبل أن يطيب لها الحديث...

- ٧٤ -

وبعد بضعة أيام عاد الشقيقان إلى القاهرة فكان يوم في حيلة الأسرة لا ينسى. وقبِلَت الأم حسين طويلاً ثم عانقته نفيسة عناقاً حاراً، وأمضى الشاب ساعة طويلة من الظهور وهو يحدث عن طنطا وحياته بها والمرأتان منصتان. وجعلت نفيسة تتفرس في شاربته ويدانته الأخلعة في النمر فهالها تغيره وقالت باستنكار:

- فهم تبدو كالرجال وأنت طفل!

فقال حسين مبتسماً:

- لم أعد طفلاً.

وقال حسنين ضاحكاً:

- نحن رجال وأنت أختنا والكبرى!

فقال الفتاة بحدثة:

- كنت أكبرها فيها مضى أما من الآن فصاعداً فانتما تكبراني، هل تفهman؟

ثم التفتت إلى أمها وسألتها في اعتراض:

- هل يعجبك هذا الشارب الذي يكثر نفسه

ويكثرنا معه بلا داع؟

وكان الوقت ظهراً فراح حسين يتجمل ملابسه، وقد بدا البيت لعينه غريباً، بيد أن حبه العميق لأسرته ولبيته استيقظ ودر حناها فملكه ارتياح شامل، ارتياح من اهتدى إلى ماواه بعد أن تحبّط ضالاً طويلاً، وأجال طرفه في حجرة المذاكرة، هذا المكتب القديم، وغلين

الكرسيين، وهذه النافذة التي تقوم صفحة الجريدة منها

- غير مسموح للضابط بالاشتغال بالسياسة .

فضحك الشاب، ثم قال :

- كيف تسقط بعد أن نفخ الإنجليز أيديهم من سياستنا؟

وتساءلت الأم :

- أنموذ مرة أخرى إلى المظاهرات؟

- من يدري؟

فعادت تقول بقلق :

- لا شأن للجيش مع المظاهرات؟

فقال حسين بمكر :

- إذا قامت ثورة فلا بدّ من تدخل الجيش !

وضحك حسين، وأدركت الأم ما تعنيه ضحكته .

فمرت حسين بنظرة شذراء وهزّت متكيها استهانة .

وعادت نفيسة لتقول لهم إنّ الغداة يتهمّا حل أحسن

حصال، ثمّ سألتهم عن السّلطة المفضّلة لسيّدهم،

وغادرت الحجرة مشفرة هن ساعديها والعرق يتصبّب

من جبينها، وساد الصمت لعاد حسين إلى أفكاره

وفكر هذه المرّة في الإجازة وكيف يمضيها . كان

الموظفون في طنطا يدعونه باليهوديّ لأنّه لا يقامر ولا

يسكر ولا ينفق أكثر من قرش واحد في القهوة،

ولكنّهم جهلوا حقيقة حاله . أجل إنّهم يمالّ بطبعه إلى

الاقتصاد ولكن هل تركت مسؤولياته له شيئاً يقتصد؟

ولم تذهُ أمّه لأنكاره طويلاً فعادت تنازعه الحديث،

وخيل إليها أنّها ترنو إليه بحنو نادراً ما تعلته، ترى هل

ذكرت كيف قست عليه يوماً؟ لقد قست عليه حقاً،

ولكن قسوة الدهر عليهم جميعاً كانت أعظم . ترى

ماذا هي فاعلة مع حسين؟ .. ولكن لماذا لا يبدو

الفق متحمّساً لزواجه! لماذا لم يحنّ عنه؟! وحوالي

الساعة الثانية جاءت نفيسة حاملة صينيّة الغداة،

فوضعتها على المكتب وهي تقول :

- نأكل اليوم على المكتب لأنّ الموظفين لا يصحّ أن

يأكلوا على الأرض .

جمعتهم المائدة لأوّل مرّة منذ عامين، ثمّ عادوا إلى

جلستهم على الفراش الصغير وواصلوا الحديث في

أنس وسرور، وحوالي منتصف الرابعة دقّ الباب

الخارجي فغادرت نفيسة الحجرة لتفتح للقادم . وولب

لرأس حسين خاطر عجيب، أتكون أسرة فريد أفندي

قد جاءت لتنهّي العائد؟ .. وفي هذه الساعة؟

وعادت نفيسة جرياً ووقفت على عتبة الحجرة وهي

تنظر إليهم بعينين متسمتين تلوح فيها الدهشة

والانزعاج، ثمّ هضت قائلة :

- ضابط وعساكر . .

- ٧٥ -

ووقف الشقيقان في دهشة وحسنيين يتناول جاكته

ويرتديها بسرعة متسائلًا :

- ماذا يريدون؟

وكانت نفيسة ترقد بصرها بينهم وبين القادمين

فقال فتحة بدهر :

- ربّاه . . . لقد دخلوا الصالة .

واندفع الشابتان خارج الحجرة فوجدوا ضابطاً

وشرطيّين ورجلاً آخر يبدو من مظهره أنّه مخبر، فتقدّم

حسنيين من الضابط متسائلًا :

- ماذا تريد حضرتك؟

فقال له الضابط :

- لا مؤاخلة، لديّ أمر بتفتيش هذه الشقّة !

وأطلعه على أمر كتابيّ فنظر فيه حسنيين بعينين لا

تريان شيئاً، على حين سأل حسين :

- لعلّك أعطت الشقّة . ماذا يدور لتفتيش بيتنا؟

فقال الضابط :

- نحن نبحث عن حسن كامل عليّ الشهير

بالروميّ !

وجم الشابتان وهما ينظران إلى الضابط في انزعاج

وقنوط، وكانت المراتان تقفان على عتبة الحجرة فركبهما

الدهر وتسمّرتا في مكانهما . وعاد الضابط يقول :

- لقد قبض على بعض شركائه ولكنّه اخضى قبل

القبض عليه، ولعلنا نلقاهم على مسكنه الأوّل ونحقّقنا

من هذا بواسطة شيخ الحارة . .

فقال حسنيين بصوت متهدّج :

- ولكنّه لا يقم هنا . لقد غادر بيتنا منذ أعوام ولا

نلري عنه شيئاً .

- بوتي لو أقتل... لن يروح عن صدري أقل من القتل.

وضاقت الأم بعنفه بنفسه فمغمت قائلة:

- هتئى من روعك يا بني، ماذا يجدي ضربك نفسك هكذا؟

فصاح في غضب:

- دهيني أقتل نفسي ما دمت لا أجد من أقتله!

وخرج حسين عن صمته فقال بصوت غريب:

- يجب أن تتدبر أمرنا في هدوء.

فرماه بنظرة من عيني عموميتين وقال:

- أيّ أمر تتدبره...؟ لقد اقتضينا وانتهينا!

- هله مصيبة لا حيلة لنا فيها ولكننا لم ننته، فلتدبر أمرنا.

لم يكن صدره ليحتمل المناقشة فمضى إلى حجرته وارمى على فراشه، وكان الحزني يخنفه والغضب يجره فمقت أخاه المنذب مقتاً قتالاً ودّ معه لو يخفّيه عنه الموت إلى الأبد. واستسلم لخواطر دموعه جنونية راح يجترها في ذهول وهذيان، ولحق به حسين فجلس على الكرسي صامتاً متحليماً بإثارة، وكان هو نفسه في حالة تستحق الرثاء. لم يبلغ منه الحزن يوماً ما بلغه في تلك الساعة، فلم يغب عنه ما أصاب سمعهم من طعنة قاتلة، وما يتهددهم من قلال في الحاضر والمستقبل وما نزل بأخيه الأكبر من قضاء لا قائمة له بعده. ماذا جنت أسرته حتى تستحق هذا كله؟ وأخذت تتجمع في ذاكرته ذكريات من آلام الماضي ويربطها بالأم الحاضر فبدت له كدمل خطير يتكشف فجأة عن مضاعفات ساءة في الوقت الذي يظنّ به الاندمال والشفاء. وكعادته قرن آلام أسرته بالأم الناس فوجد نفسه يتألم حزناً شاملاً، وكان يلقي على تامله هذا كآبة لا شك فيها ولكنها كثيراً ما توشي بشيء من الصبر والعزاء. ثم نزعته به نفسه إلى تلمس بصيص نور في ظلامه المحيط، وجعل يسترق النظر إلى وجه أخيه المكفهر متحلياً فرصة لمحادثة.

وليت الأم وابنتها بموقفها ونفيسه لا تمسك عن النحيب. لم يعد يوسع المرأة المحنكة أن تحسن التفكير

فهو الضابط رأسه وقال:

- هل أيّ حال ساقوم بتفتيش الشقة تنفيذا للأمر...

وبدا التفتيش فتراجع أحد الجنديين إلى الباب واقتحم الضابط والأخيران الحجرات، وقد جمد الشقيقان في موقفها كأنهما استحالا حجرين. وقال حسين لنفسه «سأذكر هذه الساعة ما حبيت»، وتبع خياله الضابط وهو يتنقل من حجرة إلى حجرة، وكأنه يرى معه الحجرات الخالية العارية ويقلب أثاثها البالي الحقير ظهراً لبطن. لم يكن تفتيشاً عن حسن فحسب، لأنّ حسن لا يمكن أن يخفى في كُرج الكتب أو تحت حشية الفراش، فالفضيحة أظف مما يتصور. وحتى في تلك اللحظة الرهيبة لم يستطع أحد أن يتنزع من نفسه الخجل الجارح الذي عفى عزة نفسه والضابط يتك بعيني المتخصصين حقارة البيت وفقره، وبلغ سمعه - على ذوله - صوت بكاء مكتوم فارتفع بصره إلى نفيسة وصاح بها بحدة جنونية:

- اكتمي أنفاسك!

وانتهى التفتيش فأمر الضابط رجاله بمغادرة الشقة ثم اقترب من حسين وقال برقة:

- أكثر الأسف، وأنه ليسرني أيّ لم أهر على شيء كان حرباً بأن يسبب لكم المتاعب!

ورفع يده إلى جبينه بالتحية وغادر الشقة غلغلاً وراه سكوتاً عزناً، وتبادل الشقيقان نظرة ذاهلة دون أن ينسا بكلمة، وأقبلت المرأتان نحوهما بوجهين مبتئين. وانتبه حسين من ذهوله بشفة متأوّهة فوثب إلى الباب وأبرز رأسه رامياً بظهره إلى فناء البيت فرأى رجال البوليس في نهاية الفناء يشقون طريقهم وسط لمة من الرجال والصبية بينهم البقال والحدّاد ورائع السجائر فتراجع وهو يهرب صدره بقبضته صائحاً:

- الجميع يتفرّج على فضيحتنا. اقتضينا وانتهينا. وعادوت نفيسة البكاء ونظرت الأم إلى حسين كأنها تستغيث به ولكنّ الشاب لم يدبّر ماذا يقول، وبدأ كأنه يقاوم طعنة قاسية. وجعل حسين يلوح الصالة وهو يواصل ضرب صدره بعنف ويقول:

والندب، غلبت على أمرها. وقهرها الحزن والأسى. وكان قلبها يعاني الآلام التي تتوزع قلوب أبنائها جيئاً يضاف إليها ألم خاصّ دفين يجيئها بقدر ما يعلّسها، وتشفق إشفاقاً شديداً من ذبوعه واقتضاحه، هو ألمها لحسن نفسه. أين ذهب؟ ماذا يفعلون به لو قبضوا عليه؟؟ أيّ مصير يرصد؟ لا ينبغي أن تذكر له إلا عطفه وحنانه، وآثمه جاذ لهم بخير ما في نفسه، وآثمه كان ملاذهم في اللذات. يا له من طريد لا نصير له ولا حبيب! حتى أهله يتكرونها ويمقتونها. حين حسود أصابتهم، نفسوا عليها الموكلف والضابط ونسوا الآلام التي تركتها حطاماً، وتبددت في عصية لأثما لم تعد تحتمل نحيب نفيسة وانتهرتها قائلة:

- كفك بكاء ارحمني فإنّي لا أجد من يرحمني!

ولكنّ نفيسة لم تكن تملك من نفسها شيئاً، حتى الآلام الموقف الحقيقية غابت عنها في حالتها العصبية. غلبها خوف شريب ترتعد منه الفرائص. ولم تكن تبكي حزناً أو أسفاً أو غضباً ولكن بكاء هستيرياً تغالب به خوفاً لا يُغلب خيال إليها معه آثما هي هي المطاردة. وتوقع قلبها شرّاً فظيماً، أنطلق عما وقع، فتلفتت فيما حولها في دعر كأنها تخشى أن يتفقد عليها فجأة. وسمعت أمها تقول بصوت ضعيف دهلمي بنا إليها، فرسبت بالدعوة لتفرّ من مشاعرها وسارت وراء أمها إلى الحجرة في خطوات ثقيلة، ثم خفت قلبها وهي تجوز العتبة كأنها تجفل من لقاء أخويها...

- ٧٦ -

ثم التفت حسنين إلى حسين وسأله بوحشية:

- أين نطفته هرب؟

وكانت مرّت فترة من الوقت ثاب فيها حسين إلى بعض نفسه فلم يرتح للهجة الشاب القاسية وقال:

- من لي بأن أعلم! (ثم بلهجة لا تخلو من تأنيب) تذكر أنّه أخونا!

- بعد هذا كلّ!

- نعم، بعد هذا كلّ...

نطفها بصوت عميق ليعزّي قلباً يعلم أنّه - على صمته - في أمسّ حاجة إلى العزاء، ولكن ثارت ثائرة

الأخر وصاح به:

- لقد قضى علينا...

فقال حسين بصوت متعب:

- لا تبالغ ولا تصح. ينبغي أن تنفّر في هدوء.

- إنّ الحّي كلّ يتحدث عن فضيحتنا...

فقال حسين في هدوء:

- في وسعنا أن نمجر الحّي كلّ...

فتطلم إليه حسنين بعينين حائرتين انشقت ظلّمتها عن بصيص أمل. لهذا دعاه بمفوله نفسه مليّة وكأثما هي التي تتكلم، وغمغم قائلاً:

- ماذا قلت؟

- لم لا؟ القاهرة واسعة لا تحبّد، وسيطوي النسيان

فصنّت في أقلّ من أسبوع!

فتبدّ حسنين في شبه ارتياح، ولكنّه قال في حذر:

- لن نحمو الماضي.

- فلننكر في المستقبل...

- ولكنّ الماضي سيطارده المستقبل إلى الأبد...

فقال حسين بملل:

- فلننكر جيئاً في الانتقال إلى مكان آخر. ويجب

أن يتمّ هذا قبل انتهاء إجازتي.

وقالت الأم برجاء:

- أجدد بنا أن نفكر في هذا حقاً.

وردد حسنين نظره بينها حائراً. قد يُقبض على

أبيه وقد لا يُقبض عليه ولكنه سيظلّ على الحالين

يطاردهم ويتهدّدهم. لن يطمئنّ لهم جانب وهو على

قيد الحيلة. ثمّ تساءل في فتور:

- أين نذهب؟

فقالت الأم في أمل:

- إلى شارع شبرا ببيدًا عن هنا.

فتدّت عنه حركة تتمّ عن الجرع والسخط وقال:

- أبعد من هذا، أبعد من هذا... إلى مصر

الجديدة!

فقال حسين في شيء من الارتياح:

- كما تشاء...

فلاح في وجهه تردّد طارئ، ثمّ قال متنبّها:

الجليلة إلى مكرماتهم السابقة. سحقاً لهم، لشدة ما يضيق صدره بالمكرمات قديماً وحديثاً، وأنه ليتطلع إلى قوم جدد لا يحول بينه وبينهم المكرمات ولا يربط الماضي البغيض أسبابه بأسبابهم. «انظري بحزن وحريرة كيف شئت، لست لك، لست لك، ينيهي أن يتغير كل شيء». ماذا تفني في هذا الجسم؟ الآلة لحم طري؟ الأسوق ملأى بهذه اللحوم. جو بغض. لو طال المقام بي هنا أكثر من ذلك سأبغض أسرتي نفسها. وطالت الزيارة فجعل يتحملها في صبر حتى انصرفت الأسرة قبيل المغرب بقليل. وقد دنت الفتاة في يده ورقة مطوية وهي تسلم عليه، ولما أن خلا إلى نفسه وبسطها وجد بها هذه العبارة «قابلي فوق السطح». كانت أول رسالة توجهها إليه، وتخص الحظ بعناية وغرابة فوجده بخط الأطفال أشبه، وذكر لتوه تعليمها الابتدائي! بيد أنها كانت على إيماءها صيغة الدلالة حتى لكأنها صرخة استغاثة. ولا شك أنها كتبتها خلسة في شقتها قبل الزيارة عما يدل على أن قلبها توجس خيفة من أن يواصل فراره منها الذي بداه بالرحيل إلى طنطا. وأحسن بغض في قلبه وشمله عدم ارتياح فسخط كما يسخط على كل شيء حوله. ولكن فيم يسخط؟ أليس من الخير أن تلتم بما طرأ على نفسه؟ وهل كان يظن أن الارتياح لن يسرّب إلى نفسها بعد سفره المفاجئ؟ ليكن. لن يرضخ لضغط الظروف حتى يدمر نفسه بنفسه، ولن يفامر بسعادته ومستقبله من أجل عاطفة طفلية قديمة ووعد صبياني. وخاف أن يخلو إلى نفسه أكثر مما خلا فمضى إلى حجرته وقال مخاطباً أمّاه:

- هلم بنا لنخرج.

ونفض حسين موافقاً على دعوته وغادرا الحجره ممّا. ووجد ما يشبه النلم، وثقى لو كان حسين قد تكاسل عن تلبية دعوته بهذه السرعة ليعاود التفكير ولم تكن القرصة قد ضاعت تماماً، فلم يزل يوسعه أن يرجع نفسه، ولكنّه لم ينس بكلمة، وواصل سيره إلى جانب أخيه. لعلها تنتظر الآن أمام حجره الدجاج! وخفق قلبه خفقة شديدة. تنتظر بلا أمل؟ وما أتبع

- ولكننا في حاجة ماسة إلى أثاث جديد!

فقال الأم بضيّق:

- لا تزد الأمور تعقيداً، ماذا يهمّ الأثاث إذا لم تقع

عليه العين!

- لا أستطيع أن أعفي بيتنا عن أصدقائي إلى

الأبد!

فقال حسين:

- هذه مسألة أخرى، ويوسعك أن تتنازع كتبة

وكرسيين كبيرين ويساعداً أسبوعياً فتجعل منها حجره

استقبال مؤقتة. وإذا شئت خرجنا معاً اليوم أو غداً

للبحث عن شقة؟

وبذلك خفّ التوتر قليلاً وإن غشيت جوّ المكان

كآبة استسلموا لها جميعاً في صمت حتى دقّ الباب

وجاء فريد أفندي وأسرته. كانت زيارة منتظرة ولكنها

جاءت في أسوأ حال، وذكر حسين في عجب كيف

حلم بها منذ ساعات، وكيف يتلقاها الآن بفؤاد كبير

ونفس فائرة. أمّا حسين فقد ثار غضبه بلا سبب

ظاهر، ولو لم يره فريد أفندي ونفيسة تنقله إلى حجره

الاستقبال، لمضى هارباً إلى الخارج. واجتمعوا في

حجرة الاستقبال، ولقي حسين من الأسرة تحية حارة

ثم استفاض الحديث عن الماضي والحاضر. وكانوا

يتوقعون أن يثير الزوار مسألة التفشيش والبوليس ولكنّ

آل فريد أفندي تجاهلوا الأمر كليّة كأنهم ما علموا به.

ولم يلفّ هذا التجاهل من حقّ حسين، أو بالحريّ

زاد من ثورته الباطنة وشعر بجرح عميق في كرامته.

والتقت عيناه بعيني هبة أكثر من مرّة فوجدها ترمقه

بحزن وحريرة لم تحفّ عنه بواجبها منذ سفره المفاجئ

إلى طنطا. ليكن، لقد ضايق صدره بهذا كله. الآن،

وفي وقلة حنقه وضيقه، يستطيع أن يواجه خواطره

الباطنة بصراحة وشجاعة. لن تكون هذه المرأة حاته،

ولا هذا الرجل حماه. . . ولا هذه الفتاة زوجة! كلّ

أولئك هم عطفة نصرالله بلا زيادة، عطفة نصرالله

بذكرائها السود وحاضرها الأخير. إنهم يعلمون بما

جاء بالبوليس كما يعلم الجيران جميعاً ولكنهم يتكلمون

عليهم بتجاهل الأمر، ولعلهم يضيفون هذه المكرمة

هَذَا! وفي نفس المكان الذي لمس حرارته وسمع بهه وشكواه؟ ما أعجب هَذَا! وحاول أن يطرد هذه الصورة عن غيخته بتصميم عفيف، ثم سمع أمه وهو يخاطبه قائلاً:

- لن نصْبَح وقتنا، ولن ينقضي هَذَا الشهر حتى نكون قد انتقلنا إلى البيت الجديد.

- ٧٧ -

وانقضت الأيام في البحث عن مسكن جديد حتى اهتدوا إلى بيت بشارع الزقازيق بمصر الجديدة، ذي موقع ساحر وإيجار مستطاع على حد قول حسين، وفي اليوم المحدد للانتقال اجتمعت كلمتهم على حمل الأثاث مساء على غير المألوف لإخفائه عن أعين المستطلعين، وتُقدِّد ذلك، ولبت حسين في الشقة مع الأثاث المكوَّم على حين عاد حسين إلى عطفة نصرالله ليصحب أمه وأخته إلى المقام الجديد. وودَّعوا جهنهم ليلاً غير أسفين، بل مستبشرين خيراً، ولما بلغوا الحي الجديد تولَّتْهم دهشة مزوجة بكبار لما شاهدوا من اتساعه وصمته ومناظر المارات والفيئات المقامة على جانبيه وهوائه الجاف النقي فلم تتمالك نفسية نفسها من أن تقول باسمه على رغم أن الموقف لم يخل من ذكريات حزينة ولقد صرنا من الطبقة العالية حقاً.

وكانت الشقة الجديدة في بيت مكوَّن من دودين تحيط به حديقة بسيطة فارتقوا إليها سلكاً ذا سبع درجات وهنالك وجدوا حسين في انتظارهم وقد أشعل المصباح الغازي، ونشطت المراتان إلى فرش الحجرات الثلاث الصغيرة وصاوبها الشبان فلم يستغرق تجهيز الشقة الجديدة بالأثاث البسيط أكثر من ساعة تحلَّلتها لثرة واحة. ويدت الكراسي والكتبتان والفرش خريبة نافرة وسط الحجرات الأنيقة، ولم يفت حسين التعليق على هَذَا بتلذُّر كالعادة ولكنَّه وجد بعض العزاء في حجرة الاستقبال التي كانت تفتح على الخارج فلا يضطرُّ القادم إلى عبور الصالة الداخلية إليها. وتحدَّثوا غير قليل عن الوسط الجديد والعمارات والشوارع وما يتخيَّلونه من الجيران، وتحدَّث حسين عن ضرورات الحياة الجديدة كما يراها حتى قال:

- أمران لا يمكن تأجيلهما وهما النور الكهربائي وخدام صغير قبغير هذين لا يصح أن نبقي هنا يوماً واحداً.

ولم يعترض على قوله أحد إذ كان مفهوماً أنه هو الذي سيُدخل النور الكهربائي ويستحضر الخادم. ثم فكَّر في الوسط الجديد من زاوية جديدة فتساءل في نفسه ترى هل تصلح أمه وأخته لمخالطة هؤلاء القوم؟ وخيَّل إليه أنه سمع تعليقات السيدات والهوانم عقب زيارة لبيته فتصاعد دمه إلى رأسه وقال مخاطباً أمه في لهجة تنم عن التحدير:

- لا ينبغي أن نعرف أحداً في حيننا الجديد ولا يعرفنا أحد فلا نزور ولا نُزار.

فقال أمه بعدم اكترار:

- لا رغبة لي في معرفة أحد...

وقالت نفيسة:

- لا صديق لنا هنا نأسف على قطعه!

فقال لها الشاب بقلق:

- يا حبذا لو أحملت صديقاتك الأخريات أيضاً!

فاضطربت نفس الفتاة، ومع أن الانقطاع عن العالم «الخارجي» كان من أمانها إلا أنه كان أمنية تعجز عن تحقيقها دائماً، ولا تفتأ تساق إليه بقوة بغيشة أسرة، فتساءلت في إشفاق:

- وهل أبقي حياتي سجيئة؟!

وتدخل حسين للدفاع عن أخته فقال:

- لا تغال يا أخي في طلباتك...

فقال الشاب في حنة:

- لا أريد أن يزورنا أحد من حيننا القديم.

- لن يتجنَّهم أحد زيارتنا فيها عدا فريد أفندي وأسرته.

وصممت حسين طويلاً سطخه. وذكر زيارة التوديع التي قامت بها أسرة فريد أفندي أمس، وكيف عرفوا العنوان الجديد وكيف ثقي وقتذاك لو يغمض عينه ثم يفتحها فلا يجد أثراً للماضي كله، خيره وشره!.. ترى هل أفضت الفتاة لوالديها بما تجد من نفوره؟.. ترى هل فلتت من هذه العلاقة بيسر أم تشب به متاعب لا

حياته قد دنت، فإنما النجاة وإما الهلاك. وتبادلا نظرة طويلة، هي في إنكار وتساؤل وهو باهتامة باهتة لا معنى لها. ولم تلبث أن سألته مستكبرة:

- لماذا لا تزورنا؟

فقال واجبا:

- أسباب لا تخفى عليك تمنعني من الظهور في حيننا القديم!

ولكنها لم يبد عليها الاقتناع وعادت تسأله:

- لم لم تقابلني فوق السطح بعد أن تركت الورقة في يدك!

- كنت وأخي مرتبطين بموعد هام.

ففسادت بلهجة وشت بهزينا:

- وسفرك المفاجئ إلى طنطا دون أن تخبرني؟

فقال وهو يتحاشى عينيهما:

- اضطرت إلى السفر فجأة...

فهتفت في افعال:

- لم تعد تبالي حتى باختلاق الأعداء المعقولة!

إن الموقف دقيق حقًا، بل أليم، ولكن التخاذل معناه الموت بالنسبة إليه، ولن يتهاون في حق حريته ومستقبله. وتنبه متظاهرا بالحزن وضغم قائلا:

- إن ظروفي أهد من أن تقدرها.

- أفصح عما تريد بقوله. لا ألهم شيئا إلا أنك تغيرت. لم تعد كما كنت. لست غيبية ولا حقاء، أنت لا تريد أن تراني.

- ساعلك الله.

ولعل ضيق الوقت حل عقدة لسانها فقالت في تألم ظاهر:

- لا تلتني إلى بهذه العبارات اللبهمة. أريد أن أفهم كل شيء. ماذا بك؟ لماذا تغيرت هكذا؟ صارحتني بما في ضميرك كله.

وحال تشبته بالنجاة والفرار دون إحساسه بما في كليتها من يأس وعذاب فقال:

- لم أتغير ولكن ظروفي تغيرت.

فقالت باستغراب:

- تغيرت ظروفك حقًا ولكن إلى أحسن!

يعلم بها ١٩! ليصمدن معها كان الأمر، الحرّة والمجد تورق المتاعب جيشا. أجل لو تغلب على الماضي فيستمتع بأشرف ما في الحياة من طمأنينة وسلام.

ثم انتحى حسنين بالشباب ليوافق معه ميزانيتها لما جد عليها من تكاليف النقل وشراء ما سموه «حجرة الاستقبال» إلى ما ينتظر من نفقات جديدة للنور والحداد. وقامت نفيسة للفرجة من نوافذ الشقة واستطلاع الدنيا الجديدة. وخلت الأم إلى نفسها فاستجمعت ما مرّ بها من حوادث في الأيام الأخيرة حتى انتهت بها اللطاف إلى هذا الحيز الجديد، فلم يستقرّ وعيها إلا على شيء واحد، هو حسن! ترى أين يوم الفتى؟ ماذا صنع الله به؟ لم تكن تخلق إلى أفكارها حتى يظلمها من ثنائها فيستثير دفين الحسرة والام... هكذا باتوا أولى لئاليهم بمصر الجديدة.

- ٧٨ -

- جئنا نفق بالبيت الجديد جعله الله مقاسما سعيدا...

قالت أم بيهة ثم جلست هي والفتاة على الكنية الجديدة. كان الوقت عصرا وكانت الأسرة مجتمعة ما عدا نفيسة التي غادرت البيت قبل وصول الأم وابتنتها بنصف ساعة.

وأنت أم بيهة ثناء جيلًا على المسكن الجديد وحبه الباهر، وشكت الوحشة التي شعروا بها بعد فراقهم، واعتذرت عن تغيب فريد أفندي بانهاكه في العمل بالوزارة بعد الظهور لمناسية موسم الإجازات. ثم جرى الحديث المألوف واشترك حسنين كالمتاد ولكنّه كابد قلقًا لم تخفف عنه بواعثه وشعورًا مؤلما بالحرج.

وجعلت بيهة تخالسه نظرات حزينة، فصيحة بغير بيان، فازدادت حاله توترًا، ثم أعريت أم بيهة فجأة عن رغبتها في الانفراد بالأم، الأمر الذي زاده قلقًا وتوترًا، وما لبثا أن غادرتا حجرة الاستقبال معًا.

ووجد حسين نفسه غريبًا بين خطيئين فغادر الحجرة متحلاً بعض الأعداء، وخلا الجو، وهو ما لم يكن يتوقعه حسنين بحال. وكان يعرف بدهاء ما دعا أم بيهة إلى الانفراد بأمه، فادرك أنّ الساعة الفاصلة في

- هذا في الظاهر فقط أما في الحقيقة فهي أنني بت أدرك مسئولياتي الشاقة.

فقلت بلهجة لا تخلو من غيظ:

- ألم تكن تدرك مسئولياتك من قبل؟ .. إنَّ مسئولياتك جيمًا لا تحول بينك وبين ما تريد إذا كنت تريده حقًا!

- أريد ولا أستطيع.

فرنت إلي شاحبة الوجه وغمغمت:

- بل تستطيع ولا تريد.

ولم يجد ما يقوله، وتضاعف إحساسه بعذاب الموقف، ومع ذلك ازداد تصلبًا وتشبثًا فتمتم:

- أنت غفظة.

وكانت تنحصر في جزع وبأس وكأنتا تريد أن تنفذ إلى أمي، وابتلعت ريقها بمسحة ثم قالت:

- كلاً، لست غفظة. لو كنت تريد حقًا لما قلت لا أستطيع. إن هي إلا معاذير (ثم متبذرة على رجليها) لم تعد تحبني وتريد أن تتخلص مني. هل ثمة سبب آخر!

ومع أن هذا ما كان يؤمن به في أمي إلا أن سماعه هاله وأكرهه لرفع حاجبيه منكراً وقال:

- لشدة ما تظلميني!

ولم تسكن غيظت خاطرها، أو بالحري مكنت لقبضة اليأس من عنقها. وزاد إحساسها بغيث الوقت من جزعها فتناست حياءها المطبوع وهضت:

- أنت الظالم، لقد خطبتني ثلاثة أعوام ثم بدا لك أن تتخلص مني...

ونحامي عينيها فنظر إلى الأرض. كان متحرجاً متألمًا ولكن تصميمه على عدم التراجع كان أعظم فقال:

- إن ظروفي أقسى من أن تدركها على حقيقتها. أما صبر طويل.

ورقت لهجتها فجأة وقد تورّد وجهها وقالت برجاء:

- إذا لم يكن ثمة سبب آخر فيوسعي أن أشاركك الصبر!

فترجس خيفة من تغير لهجتها وقال:

- إنه صبر طويل.

فالتت باللهجة نفسها:

- لا بأس، إلا أنني أرجو أن تملن خطبتنا بالطرق الملهودة.

وذهب حيال انقلاب الحديث إلى هذا المجرى بعد أن أوّشك أن ينقطع، وركبه الخوف والضيق والجزع فهتف وهو لا يدري:

- كلاً!

وجعلت تحملق في وجهه في ذهول، ثم خفضت عينيها في بأس، واحمرّ وجهها خجلًا. وحركت شفيتها مرة ومرة كأنتا تريد الكلام ولا تستطيع ثم غمغمت:

- أرايت أنني كنت على حقّ لما قلت لك إنك تريد أن تتخلص مني؟...

ويلغ منه الارتباك ميلًا لم يعهده من قبل، ولاذ بالصمت مليًا، ثم قال كالتلعثر:

- إليّ جدّ حزين، ربّما أقمت لي العذر يومًا.

فالتت في إعياء وقهر:

- حسبك، لا أريد سماع كلمة أخرى.

وساد صمت ثقل السوطاة كالمرض صلا الحجرة بأنفاس اليأس الخائفة، ولكن وجد الشاب على حرجه وألمه لوّنًا من الراحة، فمها يتكلّ هذا العذاب فلا بدّ أن ينتهي، وهناك يجد نفسه حرًا طليقًا. وتساءل وهو

يسترق إليها نظرة ترى ماذا يدور في رأسها؟ ألا زالت تريده؟ أم كرهته؟ أم تمتنى الانتقام منه؟ لشدة ما أحبها عهدًا طويلًا، ولكن هكذا انتهى كل شيء.

وتساءل ترى فيم تتحدث الأمان؟ وعلام انتهى الحديث الذي طال؟ ثم قال لنفسه وإنّ مصري يتقرّر بيدي لا بيد أخرى. ثم تراسل إليه صوت المرأتين وهما تتكلمان قادمتين فحقق قلبه واستحوذ عليه قلق

مفاجئ. وعادت إلى مجلسها بوجهين يلوح فيها الرضا - مما ضاعف قلقه - ثم دق الباب وكانت القادمة

نفيسة، ورجع حسين إلى الحجرة، فوجد حسين في المعيطين به ما انتزع من أفكاره وردّ إليه شيئًا من هدوئه. ومع أن بيّة بدت على حال من الوجوم لا تخفى إلا أن الحديث لم يشدّ عن المألوف حتى انتهت



يكون لديك من الأسباب ما يبرز الإقدام على هذا الخطوة الفظيعة.

وقالت الأم المنزعجة:

- يا للفضيحة!... لقد تم الاتفاق بيني وبين الأم في نفس الوقت الذي كنت تهلم فيه ما نبني، فما صي أن تظن بي المرأة؟ ألا يمكن أن تشك في أنني كنت أخادعها وأنا أعلم بنواياك؟... ماذا فعلت يا بني؟...

ما سبب هذا كله... وماذا يعيب الشابة؟

وضاقت نفيسة بالتكلمين فصاحت بحدة:

- دعونا نسمع صاحب الشأن.

وقال حسين غاطباً أمه:

- بية شابة لا غبار عليها، ولكن تبين لي بوضوح أنها ليست الزوجة التي أطمح إليها.

فقالت الأم:

- لقد خطبتها ثلاث سنوات فكيف يليق أن تهجرها بلا سبب مقنع؟

وهز حسين رأسه مؤثماً على قول أمه ثم قال:

- هذا حق. إن فسخ خطبة أمر فظيع. ولا يجوز أن يقع بلا سبب مقنع!

وتساءلت نفيسة باهتمام:

- كيف تبين لك أنها ليست الزوجة التي تطمح إليها؟ دعوه يتكلم...

فقال حسين بضيق:

- لا ريب أن بية لا تصلح زوجة لي. حقاً لقد خطبتها بنفسي ولكني لم أكن أدري هذه الحقيقة وقتذاك...

فقالت الأم بقلق:

- بية فتاة جميلة ومؤتمة، ولأبيها فضل علينا لا ينسى...

وقال حسين بلهجة تنم عن استياء:

- إنني أعجب لحكمك هذا، ما هي الزوجة الصالحة في نظرك؟ فصمت حسين قليلاً ثم قال:

- أريد زوجة من وسط أرقى، مثقفة، وعلى شيء من الثراء...

فتساءل حسين بنفس اللهجة:

- أهذه هي الأسباب التي جعلتك تنكح بمهلك؟

ونظر حسين صوب أمه في قلق متسائلاً فادركت أنه يسأل عما دار بينها وبين أم بية، ونظرت إليه نظرة لا تخلو من فتور وقالت:

- حدثني ست أم بية عن وجوب إعلان الخطبة بصفة رسمية، ووافقتها في النهاية على رأيها.

وقطب الشاب في حق وضرب يداً بالأخرى وهتف بها:

- تسرعت يا أماء!

وشعر بما أحدثه قوله من دهشة فعاد يقول:

- لا لوم عليك بطبيعة الحال ولكنني فسخت الخطبة!

وحدثت به الأعين التي تأبى تصديق ما سمعت وتساءلت الأم:

- ماذا تقول؟

فقال ضاحكاً على خراج الألفاظ:

- لقد فسخت الخطبة اليوم، الآن، وغادرتنا بية وهي تعلم أن كل شيء بيننا قد انتهى.

وصاح حسين متزعجاً:

- لا!

وقالت الأم:

- إنك تحترقني بتصريحك هذا، ولست أفهم شيئاً!

هل وقع بينكما خلاف بغتة؟ متى؟ وكيف؟

وكانت نفيسة آخذة في خلع حديثها فأسكت وقالت:

- تكلم يا حسين. هذا خبر لم يتوقعه أحد!

فقال الشاب بهجوم:

- الواقع أنني عقدت العزم على فسخ الخطبة من زمن غير قصير ولكنني لم أشأ أن أخبر أحداً، واليوم حين انفردت بها في هذه الحجرة لم أجد متعدي عن إعلان تبني فانتهي كل شيء.

أرجو ألا يسألني أحد عما قلت أو عما قالت فهذا لا يعني أحداً سواي.

فقال حسين باهتمام وأسف:

- كان موقفاً قاسياً على الفتاة بلا شك، وأرجو أن

فقال حسنين متبهذا:

- نحن فقراء، وبيبة في حكم الفقراء كذلك، وأخاف إذا متّ قبل نهاية المرحلة - كوالدنا - أن أترك أبنائي لقساوة الحاجة كما تركنا... .

وهضت نفيسة قائلة بحماس:

- صدقت!!

فغضب حسين لحساس أخته وسأله:

- هل قدّرت خطورة الخطوة التي أقدمت عليها؟

فقال حسنين بحزن:

- لشدة ما حَزَّ في نفسي الأسف ولكني لم أوافق على ضياع حياتي... .

- وتوافق على ضياع حياتها؟!

- لن تضيع حياتها، لا زالت في عفوان الشباب، والمستقبل أمامها باهر.

فسامل حسين في حق:

- هل تسمح لي بأن أصف لك سلوكك؟

فنظر إليه في وجوم ولم ينس بكلمة فهزّ حسين رأسه في انزعاج وتسامل:

- إني أصعب كيف تسخط على سلوك حسن وله من الأحذار ما ليس لك!

وامتقع الشاب وقال بحلّة:

- لا شك أنّ سلوكي لم يضل من قسوة ولكنّه سيستهي بغير بالنسبة لي ولها، وهو على آية حال أفضل من زواج غير موثّق.

وأعرض الشاب عنه يائساً، وضربت الأمّ كفّاً بكفّ وهي تتمتم:

- يا لها من إساءة شديدة لأطيب الناس طرّاً، ربّه كيف أخفي وجهي!

ومع أنّها كانت صادقة فيما تقول إلّا أنّ أمها لم تخل من ارتياح خفيّ. وقد كانت تشفق من أن يبادر حسنين إلى الزواج فتعود الأسرة إلى الترنّج والقلق،

وكانت ترمق نفيسة دائماً بعين الخوف متسائلة في حزن عن المستقبل القريب والبعيد. ولكن إذا كان هذا حقّاً

لا شكّ فيه فتحّ كذلك ما تمهد حيال أسرة فريد أفندي من أسباب الحجل والالم. أمّا نفيسة فلم تكن

تحسن إخفاء عواطفها فقالت:

- لا خوف على بيبه، ستتزوج اليوم أو غداً.

فقال حسين بامتعاض:

- هذا كلام يصدق على كلّ فتاة ولكنّه لا يصلح دفافعا عن خطئنا... .

فقالت نفيسة متهمّة:

- لا يصدق على كلّ فتاة!... . والدليل على ذلك أنّه

لا يصدق على أخت حضرتك!

وغطّف تهكمها من التوتر العامّ، وانتهز حسنين

الفرصة فقال بلهجة دبّ فيها الحساس:

- ليس الأفضل أن أختار زوجة من نوع خاصّ

ككرمة أحمد بك يسري مثلاً!

وقالت نفيسة بمرح:

- وما هذا على الله بكثير. من يسري لمكنا نراك

يوماً في فيلاً محترمة وتصدّق علينا خيراتك يوماً بعد يوم... .

ولم يلقِ حسين إليها بالاً، وقالت الأمّ وكأنّها تحدّث نفسها:

- سيعلم فريد أفندي بالخير هذا المساء، ما عسى

أن يقول عتاً؟! ليني أجد الشجاعة لأزورهم واعتذر إليهم!

ففكر حسين طويلاً ثمّ ختم بهدوء وحزم:

- لا تنقصني أنا هذه الشجاعة.

ووقع قوله من نفوسهم موقع الاهتمام، وسأله

نفيسة:

- أتلعب حقّاً؟.. وما عسى أن تقول لهم؟

فقال الشابّ مقبلاً:

- أقول ما يفتح الله به عليّ. ربّه لا شكّ أنّ في

دعنا شيئاً نجساً... .

ومضى يرتدي ملابسه، ثمّ غادر الشقّة... .

- ٨٠ -

لم يقصد غايته رأساً ولكنّه مضى إلى مشرب شاي

بمصر الجديدة فجلس ساعة يقلّب الأمر على وجوهه

ويعدّ له عدته. سرّح خياله بين ذكريات الماضي

وحوادث الحاضر، وسامل عقله طويلاً وسامل قلبه،

حسب بنات الناس العوبة يلهو بها عل هواء، يخطب حين نحول له الخطبة، ويفسخ حين يطيب له الفسخ!! لقد عاملته كإني ولم يَنُزَّر لي بخلد أنه يطوي صدره عل قلب بهذا الحبث والغدر...

وزاد شعور حين بالحرج وطأة فقال يتتحل الأعدار كيفما اتفق:

- أعي فتي طائش وقد أصغعت حادثة حسن صوابه.

تساءل الرجل في إنكار:

- وما ذنبنا نحن؟.. هذا عذر غير مفهوم!

- أقصد أن المصيبة أثارت أعصابه وأفسدت حكمه فضاق صدره بالدنيا جميعاً.

فلوَّح الرجل يده في عuf وقال ساخطاً:

- كلام غير مقنع. إني رجل مجرب وأعلم أن الرجل لا يخدر بخطيبته لئلا هذا السبب. قل غير هذا الكلام إذا شئت أن أصدقك. قل إنه صار ضابطاً ويات بطمع في نوع آخر من النساء.

فقال حسين بلهجة حزينة:

- وجدت بحياتي لو أصلح الأمر.

- فسد الأمر ولا صلاح له. إنه عيث لا يليق بالشرفاء، ولو كنت غير الرجل لقاضيته وأدبته، ولكني أهد الله عل ما كشف لي من حقيقة نفسه بعد أن خُذعت به طويلاً. ما هو إلا شابٌ نذل جبان، ولا تؤاخذني عل قول الحق...

ووقعت هذه الأقوال من نفس الشاب موقناً ألياً فخفض بصره ملياً ثم قال بصوت ضعيف:

- إني جدٌ آسف، بل كنّا آسفون، ولا مطعم لنا الآن إلا الإبقاء عل الودة القديم...

وساد الصمت برهة ثم تمتم الرجل بفنور:

- ما عهدنا منكم شرّاً...

وشعر حسين بقلق وتوتر، وذكر ما انتهى إليه رأيه قبل حضوره بقلب خائف مضطرب وتساءل فيما بينه وبين نفسه ترى هل من المناسب الآن الإقدام عل الإفصاح؟ ومع أنه لم يجد من الجواب مشجعاً إلا أنه أي التراجع أو التأجيل، ونظر إلى الرجل بعينين

ثم قرّ فكره عل رأي. وكان في تفكيره جريئاً حازماً قاطعاً عل غير عادته، فلم تعترضه الصعوبات ولم تشبهه المخاوف، حتى عجب للسرعة التي بت بها في الأمر وتساءل في دهشة: ترى أمي من وحي الساعة أم أثر لما تمجّح في نفسي خلال ثلاث سنوات؟.

واستحوذ عليه شيء من الاضطراب، وعاد يسأل نفسه، ويستعرض الظروف المختلفة ولكن لم تكن قوة لثبته عيّا عقد العزم عليه. وقام من مجلسه تتعلج في صدره انفعالات شتى من بسطة السرور وقبضة القلق وأريج الغامرة، ثم أخذ سبيله إلى عطفة نصرالله فبلغها في أول الليل. ومضى يقترب من البيت القديم وهو يشعر بثقل المهمة وحرج الموقف، ولكنه أقدم بخطى ثابتة وعزيمة لا تنثني. ثم طرق الباب بقلب خائف ففتحت له الخدام، وحادثته بدهشة أثارت أعصابه، ثم قاده إلى حجرة الاستقبال. وما عثم أن جاء فريد أفندي بجسمه المترهل فراه لأول مرة مكفهراً الوجه، يتوشع الغضب في نظرة عينيه. وما كاد يفرغ الرجل من مجاملات السلام ويستقرّ عل مجلسه حتى قال بانفعال وتأثر شديدتين:

- عشرة العبر كله، وجيرة الصمرة كله، وصداقة العمر كله، تمزقوها جميعاً في دقيقة واحدة! فنظر حسين إلى الحيوان أسامة في ارتباك وقثم بصوت منخفض:

- إن ما بيننا من ودّ قديم لا يمكن أن يتغير، وإن نس لا ننسى لفضلك ونبل أخلاقك ما حيناً... فلم يهره الرجل الضائاً وضرب كفّاً عل كتف وهو يقول:

- لم أدر حين خبّرتني كيف أصبقت أذني. إن طبيعة قلبي تأبى أن تصبّق هذا الغدر الشائن... - إني عاذرك يا سيدي. وصديقي أننا لم نكن أذن لتصديقك منك، حتى إني تركت أمي في حال يرثى لها...

- كنت ألاحظ أنه يتأقل عن زيارتنا، وقيل لي في تفسير ذلك أعدار صبيانية زادتني تشاؤماً، حتى علمت هذا المساء بأنّه جاهر بنكث عهده، ما شاء الله، هل

حذرتين وتساءل:

- هل أستطيع أن أقابل الأنسة بيّة؟

فقال الرجل بجزع وهو يلطم الهواء بظاهر كفه:  
- ما الداعي لهذا؟ .. فلندعها وحدها، هذا خير ما

يفعل!

وعلب التائر الشاب. ترى ماذا تفعل المسكينة؟ وماذا أحدثت الصدمة بنفسها الرقيقة؟ وماذا هو فاعل أقدم أم ينكسر؟ ألا يقع كلامه من هذا الجسّ المكهرب موقعا مضحكا! ولكنه شعر شعورا خفيا بأنه إذا تراجع هذه اللحظة فلن يقدم أبدا، وتهدّد تهديدا عميقة أزاح بها التردّد عن صدره وقال بسكينة ظاهرة يداري بها اضطرابه:

- سيدي، لا أدري كيف أحرب عينا في نفسي، ولست أزعج ألي اخترت وقتا مناسبا، ولكنني لا أستطيع أن أقاوم ما يدفعني إلى قول كلمة كثيرة وهي أنني أرجو أن تبارك يوما رغبتني الصادقة في طلب يد الأنسة بيّة!

وأشعّت عينا الرجل دهشة وبدا أنه كان يتوقّع كلّ شيء إلا هذا، ولعله أراد أن يتكلّم ولكن أرتج عليه، أمّا حين فكان قد عبر قوّة أزمته فقال مستردّا بمضى هدوئه:

- لا تحسبن أنّ ما يدفعني إلى هذا الرجاء هو ما أشعر به حيال تصرّف أمني من خجل، أو ما عسى أن تصوّره عطفًا على حال الأنسة. كلّاً، وأقسم على هذا، إنّا رغبة قائمة بذاتها، منبعثة أوّلاً وآخرًا من تقديري لكمينكم ولكم.

وواصل فريد أفندي دهشته الصامتة على حين استمعدّ حسين من انطلاقة لسانه وصمّت الرجل شجاعة وحرارة فاستطرد قائلا:

- شيء واحد يجرّني في هذا المسمى كلّهُ وهو ما أشعر به من أنني غير كفء لها.

فخرج الرجل عن صمته لأوّل مرّة متمتعا:

- لا تغفل من شأنك يا حسين أفندي، أنت عندي بمنزلة الإبن...

فقال حسين وقد تورّد وجهه:

- شكرا...

وتفكّر الرجل قليلا كالحائر ثم قال:

- لا يعني إلا شكرك على رغبتك هذه، ويسرني - علم الله - أن أنتظر حتى يجيء الوقت المناسب...  
التحدّث بشأنها لم يثن بعدد!...

- هذا طبيعي جدّا يا سيدي، ويوسعي أن أمدّ...  
أعني أن أنتظر حتى يجيء الوقت المناسب...  
وانتهى الحديث عند هذا الحدّ...

- ٨١ -

وعاد إلى مصر الجديدة غارقا في أفكاره فلم يكد يرى شيئا من الطريق، ولكنه استعرض صفحة مطوية طويلة من حياته كما فعل في مشرب الشاي قبل أن يتّجه إلى بيت فريد أفندي. وكان على حيرته يشعر بسرور وأمل لم يشعر بمثلها طيلة حياته. لقد أحبّ الفتاة فيما مضى ولكنّ حين مات قبل أن يترصّع ويذهر، ولم يبقَ منها في قلبه الحكيم الوالي إلا المثال الذي يحلم به للزوجة الصالحة، ولأنه يذكر أنّه تألّم كثيرا وصبر كثيرا، فتعلّم أنّه شيء من الحكمة يمكن أن يمرّ في دنيا الألم على مسرّات عالية، ويخرج من التجربة ساكن القلب بسام الثغر، وكان يقول لنفسه متعزّيا إنّ مواجهة سوء الحظّ بالصبر والتسامح، سرور ينبغي أن يمدّ من حسن الحظّ... وهكذا تعزّى ونسي من زمن طويل. ولما أن فُتح له باب الأمل المغلق على حين غفلة نسي أنّه كاد ينسى وأزهر الحبّ في قلبه كأنّ نالته لم تهدأ لحظة واحدة من الزمان. وانطلق في سرور لا تشوبه شائبة حتى بلغ البيت. ووجد الجميع في انتظاره لما إن وقعت أعينهم عليه حتى صاحوا به:

- ماذا لقيت؟!

ورأى أن يهدّد للخبر العجيب الذي يحمله بأن يهول من خطر الأمور فقال وهو يهزّ رأسه أسفا:

- وجدتهم على حال من التائر انزويت معها خجلا وخزيّا، ولأوّل مرّة في حياتي رأيت فريد أفندي الرجل الوديع ثائرا غاضبا كاسرا...

وسألته الأمّ بحسرة:

- خبّرني عَمّا حصل كلّهُ. ألم تقابلك أمّ بيّة؟

- لا يخلو الأمر من هذه الرغبة، بيد أني أكره للفتاة تقديرًا كبيرًا، وأعتقد أنه إذا لم يكن بد من الزواج فالأفضل أن يكون من فتاة مثلها... فتساملت نفيسة في هبة سافرة: - ومن قال إنه لا بد من الزواج؟! وتدخلت الأم متسائلة: - وماذا قال لك فريد أفندي؟ فأجاب نفيسة بالنيابة عنه قائلة: - قال علي العين والرأس طيبًا... وأجاب حسين دون أن يعبأ بها: - شكر لي طلمي ولكنك اعتلر بأنه لا يستطيع أن يخاطب الفتاة الآن بهذا الشأن وطلب إلي أن أمهله إلى حين... وعاد حسين يسأل باهتمام: - أكنت تضرع هذه الفتاة حين غادرتنا؟ فأجاب حسين بقطنة: - كلا... فقال الآخر بإشفاق: - أخاف أن تستين بعد حين أنك غير راغب في الزواج حقًا! فقالت نفيسة متهمكة: - ربنا يسمع منك... فصاحت بها أنها غاضبة: - نفيسة! أمّا حسين فقال عجبًا أخاه: - إلي أحب بطيحي الحياة المستقرة... فقال حسين بارتياح: - ليس أحب إلي من سعادتك وسعادتها... وصمت قليلًا ثم استدرك قائلًا بصوت منخفض: - ولي أنا أيضًا آملي، كان أتزوج من كريمة أحمد بك يسري. ثم نظته يا أخي أملاً آخرق؟! فقال حسين مبتسمًا: - لم لا؟! إنك كنهه لها... وهتكت نفيسة ضاحكة في شيء من الاضطراب: - لنا الله. أردنا أن نسترة واحدًا والغالب أننا

- كلا، قابلي الرجل وحده وقبل أن أفتح فمي بكلمة انهل علينا تانيًا وتريعا... وأعاد عليهم كلام الرجل - فيها عدا الكلمات القارصة - مضيقًا عليها من عنده ألوانًا من التأثير والحزن ليستثير لهم ويستدر عطفهم حتى ملاحم الوجوم والحجل، إلا نفيسة فقد قالت: - ما كان ينبغي أن تلقاه الليلة. وعلى أية حال فالحظ الأول ينصب على من يقبل تلميذًا صغيرًا كخطيب لابنته فضلًا عن أن يكون هو الساعي بحيله إلى عقد الخطبة. ولا أجد حسين مستحقًا، لئوم فقد كان تلميذًا كما قلت لا يعرف ما يضره مما ينفعه، فلما أن بلغ طور الرجولة تبيّن أنّ الفتاة لا تصلح زوجة له فإذا عليه إذا تركها؟! وصمّ حسين على أن يشق طريقه إلى هدفه فقال بهدوء غاطيًا أخته: - تكلمي عن الفتاة برفق من فضلك فقد تصيح خطيبة أخيك الأخر! وحلفت فيه الأعمى بهشة. ونذت عن نفيسة آهة سريعة، وتساءل حسين: - ماذا تقول؟ فقال حسين وهو يتغلب على ارتياكه بقوة إرادته: - يجوز أن تصيح خطيبة لي... - لك أنت! - لي أنا... وهتكت نفيسة: - كلام لا يدخل المخ! - ولكنك الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان. وسألت الأم وهي تتفرس في وجهه: - هل غطبتها حقًا؟ فقال الشاب خافضًا عينيه: - نعم، قلت له إنه يسري إذا وافق على أن أطلب إليه يد الفتاة... فسأله حسين بقلق: - أفعلت هذا رغبة في إصلاح الأمور؟ فتردد حسين قليلًا ثم قال:

منسخر الاثنى، وهله إصابة عين حامية...

ونتمت الأم بهود:

- هل بركة الله، إني مطمئنة إلى أنّ أبنائي لن

ينسوني...

فقلت لها نفيسة:

- ما أجملك بالزوج وأسراره، سليني أنا عليه.

ضحك حسين قائلاً:

- أمّا أعرف بنا منك...

وساد الصمت فراح حسين يتسامل في نفسه وهو يسترق النظر إلى أخيه: ترى أكأنت خطبته بنت ساحتها حقاً؟

- ٨٢ -

وربما كان الانتظار حكمة، ولكن ماذا يجدي الانتظار إذا طار الطائر؟ هكذا تسامل حسين ليا يشبه الغضب، وبعد انقضاء قرابة شهر لم ين فيه من التفكير والتدبر ساعة واحدة. قالوا له - خاصة حسين - إنه ينبغي أن ينتظر حتى يكون ثروة صغيرة ثم يتقدم لطلب يد الفتاة، ولكن رأيهم صواباً، ولكن من ضمن له أن تنتظره الفتاة حتى تتكون هذه الثروة؟ ومما شجعه على نبذ هذا الرأي «الحكيم» أنّ أحمد بك يسري على علو مقامه قريب إليه بحكم العلاقات القديمة، فطمع في أن يوسع له صدره. أمّا إذا أفلتت من يده الفرصة السعيدة فليس لديه إلا أن ينتظر أحوالاً طوالاً قبل أن تفتح له الأبواب أسرة كهذه. ألا يمكن أن يطلب يد الفتاة ثم يستمهل البك حتى يستكمل استعداده؟.. يمكن بلا ريب، وإذا لم يمكن فإن احتمال الرضا لا يجب أن يقعه عن السعى، إنه أجرأ من أن يقعه شيء عن غاية، ثم إنه لا يطبق هذه الفضيلة التي يدعونها بالصبر. الآن، ودون خوف أو تردد، ولكن ما يكون. كان الشاب يدير هذه الأفكار في رأسه وهو يقترب من فيلا أحمد بك يسري بشوارع طاهر. صمّم وشرع في التنفيذ بلا مبالاة. هذه هي الحياة التي يتلهف عليها بكل قوة نفسه. وليس ثمة ما يزعجه فقد اختفى حسن وصارت نفيسة آنسة محترمة والمضي في طور الاحتضار، وما يريد إلا الحياة

التنظيف السعيدة لنفسه وذويه. وكان قد أخذ زيتته وتبدّى في منظر حسن يجمع إلى رشاقة الشباب فحولة الرجولة. وما انتهى إلى الفيلّا حتى أدخل إلى السلاسل فجلس ينتظر بقلب خائف ونفس قلقة، وأليس حجيّاً أن اتقدم لطلب يد فتاة هذه فيلّتها وأنا لا أملك إلا ما تبقى من مرتبي! وهناك قضية الوقف الوهميّة التي حدّثت البك عنها ولكن هيهات أن تغني عني شيئاً. لماذا لم يكن لأبي وقف؟ ولكن هذه مسألة أخرى، فلو كنّا من أصحاب الوقف لكان الماضي غير الماضي والحاضر غير الحاضر، لكن ما يكون، لن أتراجع، ومهما يكن من أمر فلن يقطع رأسي، إذا ربحت ربحت الدنيا جميعاً وإذا خسرت لم أخسر شيئاً يذكر. إني آسف يا بني، سلام عليكم يا سعادة البك، هذا أظف ما يتوقّع. إني كنّاه يا بغير جدال. ما عسى أن تريد ممّا ليس لدي؟ المال؟ عندها المال بالقطار. ما أحفكم يا أهل هذا البيت إذا رفضتم يدي! في هذا الموضع رأيتها أوّل مرّة على دراجتها، ساق تستاهل ثقلها ذهباً وفخداً سبحان الخالق. مسكينة نفيسة. ترى أين حسن الآن؟ ليه يفرّ إلى بلد غريب فيختفي إلى الأبد. لا تكاد ذكره المزعجة تفارقني فمضى أوتاح من الماضي كلّ. لن أتراجع. في هذا الموضع كادت عمري بها الدراجة. أقدام البك؟ وأنصت في اهتمام ثم نهض قائلاً في احترام حين رأى البك قادماً نحوه وسلم في إجلال والآخر يقول:

- أهلاً بحفزة الضابط، كيف حالكم؟

وأجاب الشاب وهو يذل أقصى جهده للسيطرة على انتباهه وإرادته:

- شكراً لك يا سعادة البك.

وتساءل البك ضاحكاً بلهجة ذات معنى:

- ألا يزال أخوك في طنطا؟

ورحب حسين بلئي حديث يطيل له مهلة الاستعداد فقال باهتمام ظاهري:

- بل يا سيدي!

وكانا قد اطمأنّا إلى جلسيتها فقال البك:

- ليس في الإمكان نقله هذه المظلة ولكي أخذت

المحارب المخرج مهدنة آمنة وقال:

- هذا طبيعي يا سعادة البك ولكني أرجو حقاً ألا  
أكون قد تجاوزت حدتي.  
فابتسم البك قائلاً:

- لا تُعِدْ حل مسمعي هذا القول.

وبهض الشاب مستأثراً في الانصراف ثم غادر  
القبلاً. واستعاد في الطريق كل كلمة قيلت وما  
صاحبها من حركات وإشارات ولمحات. وحاول أن  
يستشف ما وراءها من معان ومقاصد، ومع أنه كان  
يؤوّل كل شيء بخيال جريء طموح متفائل إلا أنه  
وجد انقباضاً وقلقاً، وفي النهاية قال لنفسه وهو يبرّز  
كتفيه استهانة: «إذا ريمت ريمت الدنيا جميعاً وإذا  
غسرت لم أغسر شيئاً يذكر».

- ٨٣ -

لم يفتخر حسين في معاودة زيارة فريد أفندي حتى  
أوفت إجازته على نهايتها، كأنما أراد أن يمدّ للرجل في  
مهلة تفكيره حتى يستخلص منه رأياً قاطعاً. ولم يكن  
يكفّ في أثناء ذلك عن مشاورة والدته، ولم تبد المرأة  
اعتراضاً ولكنها نصحته أن يؤجّل زواجه عاماً حتى  
يستكمل استعداده. ومن عجب أنّها لم تقنع في إسداء  
مثل هذه النصيحة للشاب الآخر المتعجل ولكنّ حسين  
نفسه لم يكن ليوافق أخاه على تعجيله الذي وصفه  
وبالتهور ولم يخفّ عليه أنه إذا وُفقّ حسين إلى هذه  
الزيجة الحياتية، وتمّ زواجه هو بعد علم، فستجد أمه  
وأخته نفسيهما وحيدتين بلا عائل، ولهذا طمأن والدته  
إلى أنه مصمم أن يضمّ زوجته إلى البيت في كف  
معيشة واحدة، واطمأن قلبه وفكره فمضى إلى بيت  
فريد أفندي، واستقبله الرجل بترحاب أنمّش آماله،  
ومع أنه لم يكن للزيارة إلا معنى واحد لا يخفى على  
أحد إلا أنه خاطب الرجل قائلاً في شيء من الارتباك:  
- جئت أستودعكم الله قبل عودتي إلى وطننا  
غداً...

فابتسم فريد أفندي ابتسامته الرقيقة وقال:

- مع سلامة الله، وإن شاء الله نسمع قريباً عن  
نقلك إلى القاهرة...

وعداً صادقاً ينقله في المظلة القاحلة...

وكان حسين يعلم بهذا ولكنه قال بامتنان:

- هذه مأثرة جديدة تضاف إلى مآثرك السابقة.

وساد صمت، وشعر الشاب بأنّه يقتحم لحظة رهية  
من حياته، وأنه لم يعد وراءه ثمة مجال لتترّد أو  
ترجع، فالتقى بزمزمه قائلاً بصوت لم يحل من  
اضطراب في نبراته:

- الواقع أنّي قصدتك يا بك في شأن يخصني أنا...

فرجع إليه الرجل عينيه متسائلاً:

- خير إن شاء الله؟...

فاعتدل الشاب في جلسته كأنه يستمدّ من اعتداله  
قوة وقال:

- إني أستشفح بسعادتك لغاية بعيدة أراها فوق  
مطامي.

فتسأله البك مبتسماً وهو يدلّل بأصابعه شارب  
الخلط المصبوغ:

- أتريد أن ترتقي لواء؟

فضحك الشاب ضحكة عصبية سرعان ما غاضت  
من أنشاوره وقال بصوت منخفض:

- أصرّ من هذا. إني طامح إلى شرف  
مصاهرتك...

وحلّ اهتمام مفاجئ على النظرة الباسمة، وخيّل  
إليه أنّ الرجل استحوذت عليه دهشة رغم ما يتظاهر  
به من الرزانة وضبط النفس، ولكن آية دهشة يا  
ترى؟ دهشة المفاجأة أم الانزعاج؟ ودقّ قلبه بقوة  
وشعر شعوراً عميقاً بخطورة اللحظة التي يكابدها. أما  
الرجل فقال بعد صمت وتفكير:

- لا يعني إلا أن أشكر لك حسن ظنك...

وتأثّر للقول الرقيق تأثراً لم يحلّ من ألم خامس وقال  
بتوكيد:

- أرجو ألا أكون قد تجاوزت حدتي...

فقال البك مبتسماً:

- حاشا الله. إني أكرّر الشكر بيد أنّي أؤجل

الجواب حتى أشارك أصحاب الشأن.

فارتاح حسين لهذه المهلة التي رحّب بها ترحيب

فقال حسين برجاء:

- أرجو أن يتم هذا في العطلة القادمة...

وسأدل نفسه ترى هل يفتح «الموضوع» أو ينتظر حتى يتكلم الرجل؟.. لقد شاور أمه في الأمر كأنه أصبح حقيقة مفروغاً منها، ومع هذا فمن يعلم بما دار في نفوس أهل هذا البيت؟! وساوره قلق، أخذ يتزايد كلما طال انتظاره للكلمة التي يؤد سماعها، حتى جاءت الست أم بيبة فنهض لاستقبالها في أدب وشدة على يدها في حرارة، وتبادل بمقدمها خيراً. وقد قالت وهما يجلسان:

- إلى سعيمة برؤيتك يا بيّة، كيف حال والدتك؟

فقال حسين بحرارة:

- بخير يا سيدي. وهي تقرئك السلام.

ثم نظر فريد أفندي إلى زوجته وقال لها:

- حسين أفندي جاء يودّعنا لأنه مسافر غداً وأظن من المناسب أن نخبره بما قرّ الرأي عليه (ثم عملاً رأسه إلى الشاب) بخصوص ما حدثتني عنه يا حسين أفندي يسرني أن أقول لك «إننا موافقون».

وتبع فؤاده كلام الرجل في خفان متواصل، استحال إليها خالصاً عند بعض المقاطع، ثم انتهى بوثبة فرح فقال بصوت متهدج:

- شكراً لك يا سيدي ألف شكر، إلى سعيد حقاً.

فابتسم الرجل وقال غامطاً لزوجته:

- وسينقل إلى القاهرة في العطلة القادمة.

فضحكت المرأة قائلة:

- خبر سائر، نحن نود بطبيعة الحال «أن تكونوا» هل مقربة منّا.

فتورد وجه الشاب وقال بصوت وثى بسروره:

- سيتحقق هذا بإذن الله.

ثم قال فريد أفندي:

- ولكن يحسن بنا أن نتظر فترة معقولة قبل إعلان الخطية.

ثم ضحك ضحكة لم تخل من الارتباك واستطرد قائلاً:

- حتى ينقضي وقت مناسب بين الخطيتين.

فخفض حسين عينيه وهو يتمتم:

- إني رهن إشارتكم.

وقام فريد أفندي وغادر الحجرة، وغاب دقائق، ثم عاد تتبعه بيبة. ومع أن حسين جلس الأمر إلا أنه وقع من نفسه موقع المفاجأة البكر فنهض باذلاً مكنون قوته لتهالك نفسه. ثم ثم لها يده في صمت، تلاتت يدهما، وشعر بيدها على يده ناعمة الملمس رقيقة الموقع، باردة الملمس، فاهتز صدره ودر رقة وشكراً. وشعر بأنه يبنني أن يقول كلمة، وألح عليه هذا الشعور، ولكنه وجد رأسه فارغاً، ولم يسعفه الموقف بالتفكير فجلس دون أن ينس بكلمة. وسرعان ما تناسى مشاعر الأسف المنبعثة من خسرته في موجة السرور والرضا التي غمرت حواسه جميعاً فنزلت عليه سكية لطيفة أشبه بالشفاة الذي يعقب نوبة ألم. ما أجملها! كيف يعنى بعض الناس عن هذه المزاييا المكتملة؟! إنها الوداعة والفضيلة اللتان ترويان الختان الظامئ إلى حياة البيت السعيد. لا تثير استفزازاً من أي نوع كان ولكنها تبث سلاماً وطمانينة. لماذا جاء أبوها؟ ليس لهذا إلا معنى سعيد واحد، قال إننا موافقون ثم جاء ببقية «إننا شاهداً ملموساً. بوذه لو يسه أن يستخير أفكارها هل آفقت من الصدمة؟ هل برئ الفؤاد؟ أبدات حقاً تستشعر ميلاً إليه؟ ولم يتركه الوالدان لتأملاته فعادوا حديثهما الذي بدا الآن تافهاً متطفلاً. ألا يمكن أن تحدث معجزة فيغادرا الحجرة؟ وقد التقت عيناه بعينيها مرّة فناه في صفاء وزرقة لحظة بيبيجة. عنده ما يقوله ولديها ما يقال بلا ريب. ومهما يكن من أمر فالآيام آتية، وسيفصح عما في ضميره، عن كل كبيرة وصغيرة. وفي أوقات ما بين الحديث كان يتجمع في إحساس رقيق سعيد أقتعه بأن في الدنيا سروراً خليقاً بأن يكفر عن جميع أكدارها. سرور يقطر صفاء. ليديم طويلاً، لتدم هذه الجلسة، هذه الحال، هذا المتظر، هذا الإحساس، ليديم عمرًا، ليشمل الحياة جميعاً...

وتواصل الحديث ولكنها لم تشارك فيه اللهم إلا بإيماءة أو خمضة، حتى وجب الذهاب فنهض



مستأذناً، وسلم عليها، وغ:ادر الشقة وهو يشعر لأول مرة بأنه مقبل من حياته على وقت حصاد...

- ٨٤ -

وسافر حسين، وانقضت أيام من فترة الانتظار التي دعاها حسين بمئة وتحت الاختبار. والتي عاناها في تجلده اضطراري والأمل والياس يشجاذبانه. وقد أسف على سفر أخيه لأنه كان يفضل بلا شك أن يتلقى رة أحد بك يسري وهو غير بعيد عن مشورته، كان في الحقيقة يأنس إلى مشاورته وإن غلب عليه الاستبداد برأيه والاندفاع وراءه؛ على أن إقدام حسين على الشروع في الزواج كان قد ترك في صدره راحة لأنه كان في أحواله متعباً لسبقه إلى استكمال حياته بالزواج والآخر منزو تحت الأعياء كأنه محروم من الانتفاع بحياته. ولا يعني هذا أنه لم يكن مشغولاً بمستقبل أسرته فالحق أنه كان يرجو من وراء زيجته النفيسة خيراً كثيراً لنفسه ولأسرته على السواء. هكذا سوى متاعبه الداخلية بهذا المنطق ليفرغ لملاقاة حظه بقلب مطمئن. وإنه لعل تلك الحال إذ دعاها أحد الأصدقاء من زملائه إلى موافاته إلى كازينو لونا ببارك بمصر الجديدة، وكان هذا الصديق - ويدهى عليّ البرديسي - أقرب زملائه مودة إلى قلبه، نشأت صداقتها وتوثقت بالكلية، ثم حافظت على حرارتها رغم تعيينه هو بسلاح الفرسان والتحاق الآخر بالطيران، ومضى إلى مواعده فوجده في انتظاره، وجلسا معاً في حديقة الكازينو، ثم طلب الصديق قديح من الجمعة. وأدرك حسين من اللحظة الأولى أن صاحبه قد دعاها لأمس، لأنه على غير عادته - وبالرغم من مرحه الظاهر - بدا جاداً متفكراً، وما لبث أن سأل:

- أتذكر الملازم أحمد رأفت؟

فقال حسين بعدم اكتراث:

- طبعاً، إنه من دفتنا، وأقلته ضابطاً بالطوبجية، ليس كذلك؟ ..

فأوما الصديق دلالة على الموافقة وقال بضييق ومرة:

- سمعته بالأمس يتحدث عنك في جمع من

الإخوان بما أغضبي وساءني.

فحملق حسين في وجهه بدهشة. كان يتوقع أي شيء إلا هذا. وتساءل في استنكار:

- ماذا قال؟

فقال عليّ البرديسي بوجوم:

- كذا، أنا وبعض الأصدقاء، نلعب الورق في بيته بالمعادي.

- ويعد؟

- لا أذكر المناسبة التي أثارته الحديث. كذا سكارى. ولكني سمعته يخوض في أمور تملك خبرتي أولاً هل سمعت حقاً إلى طلب يد كريمة رجل يدهى أحمد بك يسري؟

وفجر الاسم زلزالاً في صدر الشاب فدفق قلبه دقة عنيفة، وذكر لثوره أن أحمد رأفت هذا على صلة وثيقة ببعض أقارب أحمد بك يسري. وبذل جهداً صادقاً ليتأكد من أحواله، ثم قال باقتضاب وهو يكابد شعوراً غليظاً بالتشاؤم والحول:

- ربما ..

- أتعلم أن أحمد رأفت صديق لهذه الأسرة؟

- هذا جائز، ولكن خبرني ماذا قال؟

فصمت البرديسي كالشرقه حيناً ثم تمت بصوت منخفض والخرج باو في أسأريه:

- فهمت من حديثه أن الأسرة لم توافق. يؤسفني أن أبلغك هذا ..

وشعر بالحيرة يضغطة كحمل ثقيل فتضائل تحت وأحسن بانهاير في كرامته ورجولته. ثم فار غضبه حتى أوشك أن يشلم لثرائه ولكنه ثار على الاستسلام في اللحظة الأخيرة، وأبى إلا أن يتظاهر بعدم الاكتراث، بل نذت عنه ضحكة وتساءل:

- أهذا ما أسألك يا صديقي؟

فقال الصديق بوجوم وقلق:

- هذا أمر عادي، يحدث كل يوم، ولكنه ذكر في غير لياقة الأسباب التي تبرر عدم موافقة الأسرة، ومع أنها أسباب تافهة لا يمكن أن تحط من قدر إنسان إلا أنه ساءني جداً أن يرتددا في جمع حافل من السكارى.

فهو حسنين رأسه في حرارة وردد قول صاحبه في  
سخرية اليمية:

.. إن الفقر ليس جريمة.. ١. بديع!.. وماذا  
قال أيضًا؟

- لا شيء.

- حسب! أخ قاطع طريق وأخت خد.. عاملة،  
هه؟ ويريد بعد هذا أن يتزوج من كريمة بك قد  
الدنيا!

قال البرديسي:

- اعتقد أن حسن الخيار قد أخطأك في التلقم من  
هذه الأسرة العيابة.

فابتسم حسنين ابتسامة مريضة ومتم:

- صدقت...

ثم راح يقول لنفسه «إني غائص في العلين حتى قمت  
رأسي، ليس لهذه الحال من علاج إلا أن أدق حتى هذا  
الأحد رافت. ولكن هل يغير هذا من الواقع شيئاً؟  
كلما إنه دفاع غير مجد بيد أنه لا يجوز أن تغيب عني  
حقيقة هامة وهي أن الكلمة القوية تستطيع أن تنتزع  
الاحترام انتزاعاً وتفرضه فرضاً. إني قادر على هذا  
والحمد لله فلا تنقصني الشجاعة أو القوة». كان حسن  
أحقرنا شأنًا ولكنه كان على ذلك أعظمنا احترامًا. هذا  
درس يتنفع به». ثم سمع صديقه يقول في عزاء:

- لا تكثر أكثر مما ينبغي.

فقال وهو يبرز منكبيه متظاهرًا بالاستهانة:

- نصيحة معقولة. ليس في أسرنا ما يشين. كنا  
أغنياء في يوم ما ثم دهمنا آهام شداد فلاقيناها بشجاعة  
حتى تغلبنا عليها. ليس في هذا ما يشين.  
- بل فيه من دواعي الفخار ما فيه.

فضرب الأرض فجأة بقدمه وقال مستعر العينين من  
الغضب:

- ولكني أصرف كيف أؤدب من تحدته نفسه  
بإهانتني.

- هذا حق لا شك فيه.

وساد صمت مرهق بالثعب والالام فلم يجد البرديسي  
خيرًا من أن يطلب قدسين آخرين من الجعة، ثم تمت

كان يشعر دائمًا بأن مطرقة ثقيلة من ماضيه معلقة  
فوق رأسه تهدده في كل حين، وها هي قد أهوت على  
بالوخه ونثرته هشيًا. ليس الأمر بحاجة إلى إيضاح أو  
سؤال، ولكن أمن الممكن حقًا أن يتجاهل كل شيء؟  
ورفع بصره إلى وجه صديقه الواجم وسأله بلهجة  
آلية:

- خبني عما قال.

فعبس الشاب في ضيق وتبرم ثم استطرد:

- إنه حقيق بالإهمال ولكن من الإنصاف أن تعلم  
بما يقال عنك ولست في حاجة لأن أقول لك إني  
غضبت لك غضبة صادقة ألجمت السنة الهاذين...  
إذن اتحدوا منه مائة هليانهم! وأني مائة! كان  
ينبغي أن يفكر في هذا كله يوم أقدم على تلك الخطبة  
المشوشة. وابتسم إلى صديقه ابتسامة باهتة وقال:

- لا يجالني شك في شهادتك. إني أقدر إخلاصك  
حق قدره، ولكن أرجو أن تعيد على سمعي كل كلمة  
قيلت. كلمة كلمة.

وبدا الشاب متأنفًا، واكتفى بأن يقول في امتعاض  
شديد:

- قال كلامًا كثيرًا عن أخ لك... حتى قلت له محنتًا  
إني أعرف قاطع طريق في بلدتنا أخوه وزير في القاهرة!  
فامتنع وجه حسنين، وتأذى للدفاع صاحبه كأنه  
يسمع التهمة نفسها، بيد أنه ضحك في ياس وقال:  
- العادة أن عين الرضا لا ترى إلا الوزير أما عين  
الغضب... ما علينا، وماذا أيضًا؟

فقال الشاب في تهرب:

- وكلام سخيف من هذا القبيل.  
ولكن حسنين هتف به في ضيق غلبه على أمره  
لجأة:

- أرجوك، أرجوك، لا تخفي عني شيئًا...

فقال الشاب عابسًا من التخرج:

- أكره أن أخوض في الحرمات.

- أختي؟

- قال إنها كانت تعمل لتتزوج؟ وقلت له خاضبًا إن  
العمل الشريف لا يعيب أحدًا وإن الفقر ليس جريمة.

مبتسماً:

- ستجد إذا شئت من هي خير منها. . .

فقال حسين باستهانة:

- أوه، البنات في البلد أكثر من الهواء وأرخص من

التراب!

وحلّ من الجمعة في ظمأ، وشغل الصديق بقدهه أيضاً فعاد الصمت. «آه لو كان في وسع الإنسان أن يخلق حياته من جديد، فيولد في أسرة جديدة، وينشئ ماضياً جديداً. ولكن ما بالي أعذب نفسي بالأمان الكاذبة. هذا أنا، وهذه حياتي، ولن أسمح بأن أتحكم. لم تنته المعركة بعد».

- ٨٥ -

ولمّا غادر الكازينو مودّحاً من صديقه كانت الصدمة والجملة تكادان تذهيان بعقله. وكان ينبغي أن ينقّس عن صدره قبل كلّ شيء، ومهما كلفه الأمر يبد أنه استسحق فكرة مواجهة الضابط أحد رافق وأغراه شعوره المتطوي على التحدي والغضب بما هو أجمل وأخطر. «إنّ غضبي على هذا الشاب المغرور غير عادل. لقد سمع قولاً بليّظاً فركّده. ليس لي عليه حقّ ولا أستطيع الزعم بأننا كنّا أصدقاء. إذا سنحت فرصة للتحريّش به في المستقبل فلن أدعها تغلّت بسلام، ولكنّ لندع تأديبه حقّ سnoch هذه الفرصة. هذني الحقيقي هو البك نفسه ذو الشارب المصبوغ. سأقول

له إنّ أقلّ ما يستحقّه رجل تقدّم لطلب كرمك هو أن يحافظ على كرامته خصوصاً إذا كان ابن صديق قديم، إذا تتعلّ من التهمة قلّخته بالدليل القاطع وقتل له إنّ الفقر ليس بعيب بخلاف التشنّج على الناس فهو عيب حقير. إذا غضب ولا بدّ أن يغضب كما يحتمّ مركزه الكبير فلن أقتصد في إظهار غضبي حقّ أفرغ بخار صدري المكتوم.» وبهذا الشعور المتفجّر وما ينبثق حوله من إشعاعات الجمية ألقي بنفسه في أوّل ترام صادفه فحمله إلى ميدان المحطة، ثمّ استقلّ الترام إلى شارع طاهر، وعندما ترامت له فيلاً أحد بك يسري تتأقلت قدما كأنه يمهّل نفسه لمعاودة التفكير. وتردّدت في أعماقه هوائف تنيب به إلى التراجع ولكنّها ذابت في

تبار الحتمي المستعر في رأسه فدفع إلى الفيلاً دفماً حقّ وجد نفسه حيال البواب الذي وقف له احتراماً. وشقّ طريقه إلى الداخل دون استئذان وهو يشعر بغربة سلوكه وسخافته ولكنّ دون أن يفتي. كانت الشمس قد مالّت نحو الأفق فلاحت شجيرات الورد والشيح الناعسة في ظلّ المغيب، وارتسمت على أرض المعشّي الوسيط آثار عجلات السيّارة في هيئة خطّين عريضين منحنيين، فألتجّه نحو السلامك، تشي نظرة الحيرة والتردّد التي تتاب تصممه من حين إلى حين بأنّه لم يقتنع كلّ الاقتناع بوجاهة البواش التي تدفعه إلى هذا التحدي. ومع هذا ارتقى السلم بسرعة غير متوقّعة، وما كاد يبلغ الفراندا حقّ وقف متمسّراً تحت صلعة دهشة مفاجئة ثمّ تدرّ له بخاطر في هلبانه الطويل المتصل. رأى الفتاة - نفسها - جالسة على كرسيّ كبير وقد رفعت رأسها عن كتاب أو نحو وتطلّعت إلى القادم بهمين متسائلتين. وثبتّ عيناه عليها في جود ذاهل وقد صعد صدره من الأحاسيس بالجزري أذابه ذوباً. ثمّ أدرك أنّه حيال موقف لو استسلم فيه لضممه لباه بخزي جديد فلق ما تعرّض له من ألوان الإهانة، فاستمدّ قوّة جديدة من خوفه مصمّماً على الخروج من وورطه بكرامة واستهانة. وأفاده التصميم فتمالك نفسه، وحنى رأسه باحترام وقال مبتسماً في لطف:

- مساء الخير يا آنسة. مصلدة عن إزعاجي غير المقصود لك. هل أستطيع أن أقابل البك؟

فأقلت برقة - وكان يسمع صوتها لأوّل مرّة - دون أن يتورها أدنى ارتباك:

- والدي معتكف اليوم لوعكة خفيفة.

وحنى رأسه مرّة أخرى، ولملّه وجد ارتياحاً إلى هذا الخلاص الذي جاء من حيث لا يتظر، وقال وهو يرمّ بالذهاب:

- أستودعك الله. . .

ودار على عقبيه وسار خطوة، وخطوة أخرى، ثمّ توقّف في تصميم مباغت. اختفى منطق السلام وحلّ محلّه غضب واستهتار وتلبّته الحال الغريبة التي دفعته

- كنت أودّ أن أسمع رأيك، ولكن حسي هذا،  
إني آسف، وأرجو أن ترفعي تحيائي إلى البك.

ودار على عقبيه مسرعاً وبهبط السلم ثم سار نحو  
الباب. ومزت بخاطرته مناظر متباعدة في سرعة  
وتدفّق. كموقفه مع بيته في بيتهم الجديد، وحديث  
البريدي في الكازينو. وهذا الحديث القريب ولست  
عاشقاً خائباً والحمد لله. كنت على وشك أن أكونه  
ولكن الله سلم. بيد أنني رجل خائب وهذا أنفع.  
أحبّ أن أفكر طويلاً في هذه الأمور المعقّدة. إني أشعر  
بمرض من نوع جديد، أين الداء؟ أين الخطأ؟ أين  
العلاج؟

ولمّا خلص إلى الطريق كان مقتنعاً بأنّه ارتكب  
سخافة لا معنى لها.

- ٨٦ -

قالت الأم مبتسمة وإن تمت نظرة عينها عن أمي:  
- من عجب أنك ترمي بنفسك في أمور خطيرة دون  
أن تأخذ العدة لها. هبهم وافقوا على الزواج فهذا كنت  
تفعل؟ ألم تفكر في هذا؟ ألم تحذرك جميعاً من عواقبه؟  
كان قد مضى على حديث صاحبه البريدي حوالي  
عشرة أيام ومع هذا لم تغب هذه المسألة عن أذهانهم،  
وكانوا كلّها مجتمعهم جلسة في الشرفة المطلّة على الطريق  
في أوقات العصاري ولاح في وجهه الشرود أو التفكير  
انبرت الأم للحديث ترجو أن تبلغ به موضع التعرّي  
من قلبه وانضمت إليها نفيسة مازجة الجلد بالمزاح.

وقال حسنين في ضجر:

- لا يبدو لي الغد خيراً من اليوم.

فقال نفيسة:

- كلام فارغ.

وصدّقت الأمّ على كلامها قائلة:

- وستبدلي لك الأيام أنّه كلام فارغ، وستزوّج من  
خير منها...

وتساءل في نفسه لماذا يبدو المشائم الوحيد في هذه  
الأسرة؟ أمي أسرة بلهاء أم هو الأبله؟ أليس الدور  
الذي يلعبه الشيطان في هذه الدنيا انحط من أحوار  
الملائكة مجتمعين؟ بل، فلماذا لا يرويه كذلك! ولقد

من مصر الجديدة إلى شبرا.

ودار حول نفسه مرّة أخرى وواجه الفتاة في جرة  
غير مبالٍ بنظرها المترقّعة المتسائلة ثمّ قال بصوت أعلى  
تمّا يستدعي الموقف:

- معذرة، تمرّ عليّ أن أودّع هذا البيت الوداع  
الأخير دون أن أعرب عن أفكاري.

فطلّت على تساؤلها الصامت دون أن تنبس بكلمة  
فاستطرد متسائلاً:

- أظنّ بلغك أنني طلبت يدك؟

فقال وهي تفضّ بصورها:

- لم تجر العادة بأنّ يحدّثني أحد من زوّار أبي.

فقال فيها يشبه الدهشة:

- ظننتها عادة غير مستكرة في الأوساط الراقية!

- ليس في جميع الأحوال.

فتبادى في الاستهانة قائلاً:

- اسمعي لي أن أتكلّم رغم هذا، إنني قصدت  
البك لمحدثته في الأمر نفسه لانه لما إني أنّ طلبي عُدّ  
وقاحة لا تفتخر.

فقال دون أن ترفع بصورها:

- يحسن بك أن تؤجّل حديثك لحين لقاء البك.

فقال وعينه لا تتحوّل عن وجهها:

- ولكن ما يسعني به الحظّ من لفائفك - وأنت  
صاحبة الشأن الأوّل - يحتمّ عليّ أن أتكلّم، يمتني أن  
أعرف رأيك، هل يعدّ طلبي وقاحة حقّاً؟

فقال بما ينم عن الضجر:

- أرجو أن تؤجّل حديثك لحينه.

ومع أنّ ضجرتها كان شيئاً متظّراً إلّا أنّه آله وأحقته  
فقال:

- إنّ الذي يسعى إلى يد فتاة يتقدّم عادة بخير ما  
فيه ولكن يحدث أحياناً لسوء الحظّ ألا يروا إلّا شرّاً ما  
فيه، ك بعض مساوئ تتعلّق بأسرته مثلاً.

فنهضت قائمة عابسة، وهي تقول:

- لا مفرّ من الذهاب.

وانجذبت نحو مدخل البهو فلاحقها بصوت مرتفع  
قائلاً:

معهم حتى السيارة وأعطى الرجل النود وصرفه  
مستقبلاً الآخر، ثم سأل في اضطراب وجزع:

- ماذا حدث؟

فقال الرجل:

- سي حسن أخي وصديقي، ولعلك تعلم أنه كان  
هارباً من وجه البوليس فانتهاز بعض أعدائه هذه  
الفرصة وتربصوا له في بعض الأماكن التي يقطعها  
مستخفياً وانقضوا عليه غدراً وسلبوه ماله ولاذوا  
بالفرار، وقد نحمل المسكين على نفسه حتى بلغ  
مiski ورجاني أن أذهب به إلى أهله فأخذنا التاكسي  
إلى عطفة نمراله حيث لعبنا الجيران أنكم انتقلتم  
إلى هذا البيت فجبنا من تونا.

وكان حسين يصني إلى الرجل في شبه ذهول،  
ومع أن إحساسات شق تماورت قلبه إلا أن إحساس  
الخوف والقلق غلبها جميعاً، ولما انتهى الرجل من  
حكايته غغم الشاب:

- شكراً لك يا سيدي على مروءتك، هلاً تفضلت  
بالبقاء ساعة حتى تستريح...

ولكن الرجل رفع يده إلى رأسه شاكراً وقال:

- إني ذاهب في الحال، ولي كلمة قبل الذهاب وهي  
أنه يجب الإسراع إلى علاج الجرح الخطير ولكن حذار  
من استدعاء الإسعاف أو حمله إلى القصر وإلا أتى  
الأمر إلى التحقيق ثم إلى البوليس؟

وحياه الرجل ومضى إلى حال سبيله، فعاد الشاب  
إلى الحجرة كمن يشق سبيله في ظلمة حالكة والأرض  
تميد به. ووجد أخاه كما تركه راقداً وكأنه اطمأن إلى  
الجرح الجديد فأسلم إلى غيبوبة تامة، وانكبت عليه  
المرأتان في جزع باء، ولما أحسنا بالقادم تطلعتا إليه  
بنظرة استغاثة. ودنا إلى الراقداً طويلاً ثم تساملا  
بصوت غريب:

- ألم يتكلم؟

فقال الأم وهي تزدد ريقها الجلف:

- غغم كلمات لا تعني شيئاً ثم راح في غيبوبة.  
أغثنا بدكتور.

ولكن الجريح حرك يده بجهد، وبدأ كأنه يستطيع

أرسل إلى حسين كتاباً بأخر أنباء زواجه فهاذا كان  
جوابه؟ لم يكذ زيد شيئاً عما تقول أنه أو اخته! أماتوا  
وهم أحياء! ألم تعد تستهويهم الحياة الرفيعة الشريفة؟!  
وقطع عليه أفكاره جرس الباب الخارجي الذي رنَّ  
رنيناً متواصلاً، ثم صوت الخادم وهي تصيح بحالة  
مزعجة بعد أن فتحت الباب «سيدي... سيدي» فهرع  
إلى الصالة مستظلاً تتبعه أمه وأخته فرأى عند باب  
الشقة المفتوح رجلين غريبين يستندان ثلثاً بينهما، جريماً  
فيها يبدو من عصاة قلدر تلوّق رأسه وتترّ دماً، وقد  
مال عنقه إلى كتف أحد الرجلين. واقترب حسين من  
القادمين مبهوراً متزعجاً لا يدرك شيئاً ولا يفهم شيئاً  
حتى صار على قيد خطوات منهم وعيناه لا تتحوّلان عما  
انحسرت عنه العصابة من وجه الجريح. بشرة شاحبة  
تشوبها زرقة تثير من الأحماق ذكرى الموت، وتعلوها  
شوضى خفيفة من شعر نابت وأثار التهلب، ولكن  
العينين المنمضتين رمشتا في إعياه فلاحات خلال  
أهدابها نظرة واهنة غير غريبة سرعان ما انتقلت  
حركتها الضعيفة إلى ذاكرته وانفجرت بها كالقنبلة.  
وقبل أن يتحرك لسانه جاء صوت أمه من الخلف  
مؤكّداً ما انفجر في رأسه هائماً في نبرات يمزّقها الخوف  
والإشفاق:

- حسن... هذا حسن...

فصاح حسين مردداً قول أمه في ذهول:

- حسن...

وهنا قال الرجل الذي يستند عنقه بكشفه ويشترك مع  
الآخر في حمله:

- يجب أن نتيه في الحال...

وتقدّم الشاب في ذهول منهم وانحنى فوق قلمي  
أخيه وبسط ذراعيه تحت ساقيه ورفعها في رفق وساروا  
معاً متعاضدين في حمله إلى حجرة نومه، وأناموه على  
الفراش في جزع لا يوصف. وفي الصالة أشار الرجل  
الذي تكلم أول مرّة - وكان يرتدي جلباباً وطاقية - إلى  
الآخر - الذي كان يتزيّا بزّي الأفندية - وقال:

- لا مؤاخلة، هذا سائق التاكسي.

فادرك حسين أنه يلتمح إلى أجرة التاكسي فسار

أن يغالب غيبيهته عند الضرورة فقال بصوت باهت ضعيف تجرّد من فحولته المبهودة:

- لا دكتور... الدكتور... يبلغ... البوليس.

والقى عليه نظرة متفحّصة فرأى العصاية المخضّية بالدم تخفي رأسه وجهته وجانبًا من صفحتي وجهه فلا تبدو إلا عيناه المتلفتان بالإعياء والدبول ودقته النابتة الشعر، وقد فغر فمًا ترتّد فيه أنفاس ثقيلة محشرجة، على حين تمزّق رباط رقبته وجيب الجاكيت وانتثرت خيوط الأزرار، وراحت مئاه تنقبض وتنبسّط، وثبّت بين آونة وأخرى. وقف حسنين حيال هذا المنظر ذاهلاً فتناسى ضاؤه وتركّز شعوره في إحساس عميق بالألم والإشفاق، نسي برهة كلّ شيء إلا أنّه حيال أخيه الجريح، وأنّه ينبغي إنقاذه بأيّ ثمن. ثم جعلت تطفو من أحياه مشاعر خوف وقلق طالما طلّدت في الأيام الأخيرة في هيئة نذر تتهدّد سمعته ومستقبله، فانقبض قلبه، ودخله ألم جارح لهذه المشاعر ذاعا من ناحية، ولتأنيب الضمير على إحساسه بها في مثل هذا الموقف من ناحية أخرى. وكأنّه فزع إلى الحرب من باطنه بالكلام فقال غاطيًا الجريح برقة:

- دهني أحضر طبيبًا. حياتك أهمّ من أيّ شيء آخر.

وقالت الأمّ ونفيسة برجاء معًا:

- نعم يا حسن، دعنا نحضر الطبيب.

ولكنّه رفع جفنيه الثقيلتين وقال بنبرات المضغوطة المتعبة:

- كلّ، لا تخافوا. هذه ضربة تافهة...

ثمّ حاول أن يأخذ نفسًا عميقًا واستراح لحظة، ثمّ استدرّك قائلاً مغمض العينين:

- غدروا بي. الويل لهم. إن كان لي عمر فالويل لهم. ولكن لا تستدسّوا طبيبًا. الطبيب يبلغ البوليس...

فقال حسنين وكان لا يزال فريسة للترّاع الناشب من باطنه:

- لا بدّ من إحضار طبيب، وليس عسيرًا أن نقتعه بتكثّم الخبر.

وتوسّلت إليه الأمّ قائلة:

- ارحمني يا حسن واقبل هذا...

ففنخ الرجل مغمضًا في سحر:

- ارحموني أنتم ودعوني في سلام... أف.

وجعلت الأمّ ترتّد بصرها بين وبين حسنين ولكنّ الشابّ كان من العناء في بلوى. برح الحفاء وتبيّن حقيقة مشاعره، فليس ثأله لأخيه بشيء يذكر إلى جانب الحرف الذي يلقي عليه ظلًّا ثقيلًا من شبهه الجاثم. وقضي علينا، قلبي لا يكذبني على الأقلّ في الشرّ، قضي علينا في مصر الجديدة كما قضي علينا في شبرا وسيطاردنا البوليس جميعًا كالجرّمين. أكاد أرى بعينيّ رأسي المحموم الضابط وهو يفتش الحجرات ويلقي القبض على المجرّم المهرب. هل سلّدت منالده الحياة؟! أتقول إنّه أخي؟ أجل إنّه أخي، ولكنّها حياتي التي تتحكّم تحت قدميه في طريقة الوعرة. أف، لشدّ ما ضاق صدري! ثمّ سمع أمّه وهي تهتف به في بأس:

- أخشي يا حسنين! ألا ترى أنّه يموت بين أيدينا!

وكلاً لن يموت، أمّا أنا فلا! أموت موتًا بطيئًا قاسيًا.

إنّ كرامتي تتحضر. وهبه مات حيث هو الآن فسأني طبيب للكشف عليه ثمّ يلحق به البوليس والنيابة ولن يكون لهم سبيل على الحقّة ولكن ستفوح التّانة من البيت في هيئة فضيحة رائحة! ثمّ حانت منه التّانة إلى أمّه وكانت تردّد بين الرّائد وبينه نظرة حائرة زائفة فزع، ومع أنّها كانت مطبقة الفم إلا أنّه سمع نظرتها تلك صرخة مدوّية ترزّق نياط القلب. وعجب لنفسه فقد حدّد عليها بادئ الأمر ثمّ خيّل إليه أنّ ذكريات غامضة سريعة تطرق قلبه في لمح البصر فتخاذل وضعف وعاد يرتكز بصره في العصاية الملوّنة بالدم، واستردّ قوّة تفكيره فحضر له خاطر باهر يتمم حلّ أثره بلا وعي وكيف نسبت هذا؟! ثمّ قال غاطيًا أمّه في عجلة:

- سأحضر طبيبًا صديقًا من مستشفى الجيش،

انتظري قليلًا فلن أخيب طويلاً.

وهرع إلى ببلته فليسها متعجلاً وغادر البيت لا

يلوي على شيء...

- ٨٧ -

فلو آتاه مات في أرض بعيدة.

ثم ثبت عينيه على الوجه الذي أخذ يخفي تحت الأريطة فسرت في جسده رعدة، وامتلاً يأساً وانقباضاً وأخيراً سمع الطبيب يخاطبه قائلاً:

- انتهيت من الممكن عمله الآن، هلم معي إلى الخارج...

وانتظر حتى غسل الرجل يديه وارتنى جاكته ثم صار بين يديه إلى حجرة الاستقبال ولم يجلس الرجل وبدأ متفكراً، ثم قال يلهو غير منتظر:

- لا أظن الحال خطيرة جداً ولكنه سيحتاج إلى علاج طويل. يا له من اعتداء وحشي، لماذا لا تبلغ البوليس؟

فقال حسنين بجزع وإن رده قول الطبيب إلى بعض رشاده:

- إني أتفادى من الفضيحة، ومهما يكن من أمر فنحن أسرة واحدة...

فهز الطبيب رأسه فيما يشبه التلثم ثم قال بشيء من الحزم:

- سأعود لرؤيته صباحاً فإذا وجدته على ما يرام فيها أولاً فسأجدي مضطراً للتبليغ.

وساوره القلق فقال برجاء وكأنه يخاطب نفسه:

- أرجو ألا يحدث هذا.

ثم خاطب الطبيب قائلاً:

- إني أشكر لك ما نجحت من جهد وتعب.

وأتمه الرجل إلى الخارج فوصله إلى الباب الخارجي وهو يشد على يده باعتناء، ولم يشأ الطبيب أن يذهب قبل أن يكرر على مسامحه قائلاً في توكيد:

- سأعود صباحاً...

ووقف يتابعه بناظره وهو يستغل سيارته حتى انطلقت به مزجرة في طريقها فتهدد كأنه يزيح ثقلًا لا يتحزح ثم عاد إلى الحجرة ينقل خطوته في كآبة، وما كاد يلج الباب حتى هزعت إليه أمه وسألته في لغة وجزع:

- ماذا قال الطبيب؟

وكرر لغفتها وجزعا من أحقاد صدره ولكنه لم يجد

وقف حسنين مستنذاً إلى حافة النافذة يراقب الطبيب وهو مكب على عمله الدقيق وقد غادرت الأم والأخت الحجرة ولبثا وراء الباب المغلق يكاد يسمع تردد أنفاسهما. كان عابساً شديد التأثر، وتولاه الفزع، ثم أخذ يهدأ رويداً، ويغيب في أحقاد نفسه. وكان قد أخبر الطبيب لدى مقابلته أن أخاه أصيب بجرح في رأسه عقب معركة مع أحد أفراد الأسرة ورجاه أن يسهله مبدئاً له رغبته الحارة في تكتم الخبر حتى لا تخدش كرامة الأسرة بفضيحة عائلة! ومضى الطبيب معه في تحفظ، ولما أجرى الكشف الابتدائي على رأس الجريح قال:

- كسر عميق، إلى ما استنزف من دم غزير. لا أدري ما وجه الحكمة في عدم إبلاغ البوليس؟

فقال حسنين بتوسل:

- فلتحاش هذا يأتي ثمن!

فقال الطبيب وهو يتهمًا للعمل:

- الظاهر أنك لا تدري خطورة الأمر!.. وعلى أي فلنرجل هذا إلى حين!

وتركه طوال العملية الجراحية غير مستقر ولا مطمئن، بل قضى حديثه الأخير على نوازع عطف كانت تتحرك في أحقاد. كان في ذهابه إلى المستشفى وعودته بالطبيب مجال حسن هيا له جواً طيباً تنمو فيه إحساسات العطف وتزكو فنزعت به الذكريات إلى الآثام الخوالي التي كان حسن فيها المرقه الوحيد عن بأساتهم، واليد المبسوطة التي تجود تتحقق لهم الآمال. ولكن سرعان ما استثار القلق الخوف فتجبر قلبه ونضب معين العطف ولم يعد يرى في الرجل الجريح إلا نذير الشر الذي يتهدد سمعته ومستقبله. ها هو يرقد في غيبوبة شاملة لا يشعر بالأسلحة الدقيقة التي تعبت بلحمه وعظمه، وهكذا كانت حياته دائماً جرحاً عميقاً يتبلى سواء بالآلام. أما هو فلم يفق من غيبوبته قط: أو لم يشأ أن يفيق منها. ألم يضرع إليه بالدموع أن يثير حياته؟ بل، وكان جزاؤه السخرية الآلمية،

بدًا من أن يقول في هدوء:

- إنه مطمئن إلى الحالة وسيعود صباخًا، كيف حاله الآن؟

فغالت نفيسة:

- لم يبق بعد.

وارتمى على الكرسي الوحيد بالحجرة وأغمض عينيه... وأنا الجريح حقًا. إنه ينام نومًا عميقًا في غيبوبة سعيدة فمن لي يمثل هذه الغيبوبة. لا أظنّ الحال خطيرة جدًّا، هكذا يقول الطبيب الغافل. كما إنَّها خطيرة جدًّا. وإبلاله أخطر من موته. إذا ساءت الحال أبلغ الخبر إلى البوليس، وإذا تحسنت جثم على صدري حتى يبلغ أعداؤه البوليس عنه، فالفضيحة آتية لا ريب فيها... أين المهرب من هذه الآلام جميعًا. إنِّي أمقت هذا الجريح وأمقت نفسي وأمقت الحياة جميعًا. أما من حياة غير هذه الحياة، ومخلوقات غير هذه المخلوقات؟ والظاهر أنَّ أفكاره انكمست على صفحة وجهه فتقبضت أساريه في امتعاض وألم، ولاحت من أمه الطفافة إليه فاشتدَّ بها التأثر وقالت له بركة:

- هوّن عليك، أخوك بخير، والله حافظه وحافظنا...

وفتح عينه في دهشة، ورمقها بنظرة غريبة دون أن ينبس بكلمة...

- ٨٨ -

وجاء الطبيب في صباح اليوم الثاني ثم غادر البيت معلنًا اطمئنانه، وبذلك نجا حسنين من الخطر القريب الداهم ليفرغ لقلق متصل وعذاب بطني وأوهام لا تفارقه ليلاً ولا نهارًا. وانقضت أيام والأسرة في هدوء نسبي، ومضى الرجل الجريح يفيق ويستردَّ حيويته شيئًا فشيئًا، ويعودته إلى الحياة ساووته أفكار قديمة لم تلبث عدواها أن سرت إلى النفوس المحيطة به. وقد ابتسم في بادئ الأمر ابتسامة حزينة يشوبها تسليم لم تألفه طبيعته وقال كلمتذر:

- أنبتكم كثيرًا، والظاهر أنَّ الله لم يخلفني إلا للتعب... فليساخني الله!

والتمعت فيها حوله بسات المجاملة والتودّد فلم ينخدع بها، أو لم ينخدع بها جميعًا، فالت عيناه نحو حسنين وقال:

- لا شك في أنَّك غاضب ولعلَّك تؤدُّ أن تذكّرني بجواظك السالفة...

فغمغم الشاب قائلاً:

- لا أودُّ إلا سلامتك...

فابتسم الرجل ابتسامة غامضة، ثم ما عزم أن تجهّم وجهه، وتكالبت عليه الأفكار، فقال في لهجة مضطربة غير التي تكلم بها أول الأمر:

- سلبوني نقودي، الوليل لهم، كنت عازمًا على الحرب، ولا بدّ من الحرب.

وتحسّ رأسه يبلده وأغمض عينه، ثم تمتم وكأه يتحدث نفسه:

- ماذا فعل الله بسنا؟.. هل يكتفون عنها؟.. لن تستسلم لعدو من أعدائي، ولكنّها لن تستطيع الحرب معي، فلت الوقت وفقدنا نقودنا...

وأنصت حسنين صامتًا، جافلاً من ملاقة هذا الهذيان بغير الصمت، واخلس من أمه وشقيقته نظرة فوجدهما يتبادلان نظرة حائرة ثم عاد حسن يقول في نبراته المضطربة:

- يجب أن أخفي. إنَّ الصديق الذي حلني إلى هنا رجل خالص ولكنّه أجهل من أن يحفظ سرًّا، وليس أحبّ إليه من أن يروي قصّة مروته لرفيقته، فتتغلها هذه لجارها، حتى تبلغ أحدًا ممن يترصّون بي، فلا تدري إلا والبوليس يقتحم علينا البيت.

وتنهّد حسنين في رأس، وحانت منه الفتاة صوب أمه فالتقت عيناهما لحظة قصيرة قبل أن تنفض بصرها، وامتلا حقًا فغاضبها في سرّه... لماذا أتيت بنا إلى الدنيا؟.. لماذا اقترفت هذا الجرم الشنيع؟.. ثم سمع أخاه يهتف بعنف:

- يجب أن أخفي. سأغادر البيت حلالاً أقدر على المشي، ورثًا غادرت القطر كله...

واستروح حسنين نسمة باردة كالأمل لأول مرّة مذ جاء الرجل عمومًا كالقضاء والقدر. «هل يمكن أن



تأثرت نفوسهم كالشظايا: فوثب حسين قائماً وهو يخلق في وجه الخادم، ورمى حسن بقدمه من على الفراش إلى أرض الحجرة وهو ينظر إلى النافذة في عبوس متمنياً «الحرب!»، على حين ردت الأم بينها عينين زائفتين وكان حلقها من الجفاف بحيث لم يسمع لكلمة بالخروج. وحمد حسين في مكانه دقيقة، ثم استسحف جوده فهز منكبيه في يأس وغادر الحجرة إلى الباب الخارجي حيث وجد الشرطي واقفاً وتبادلا تحية آلية ثم سأله الشاب في استسلام:

- أفندم؟

فقال الرجل بصوت أجش:

- هل حضرتك الضابط حسين كامل علي؟

- نعم...

- حضرة ضابط نقطة السكاكيني يرغب في مقابلتك في الحال.

ونظر حسين فيما وراء الرجل حتى الطريق فلم يرَ غيره ممن كان يتوقع رؤيتهم، ودخله شيء من الطمأنينة، ولكنه تساءل في حيرة:

- ماذا يريد حضرتي؟

- أمرني أن أبلغك رغبته دون أن يزيد.

وتردد الشاب قليلاً ثم استطرد ريثما يرتدي ملابسه وعاد إلى الحجرة، ووجد أخاه وراء بابها ينتصت لما إن رآه حتى سأله في لهفة «هل جئنا؟»، وكثرت الأم السؤال في صوت مريض، فأعاد حل مسميها ما دار بينه وبين الشرطي وهو يرتدي ملابسه، وما كاد ينتهي حتى قال حسن:

- لعل الضابط من معارفك فأراد أن ينهك قبل أن يكس البيت. هذا واضح. أصبح لي، إذا سألك عني فقل له إنك لم تربي منذ أعوام. لا تتردد ولا تخش عاقبة الكذب فلن يقولوا لي على أثر. سأخفي عقب ذهابك مباشرة فقلها ولا تخف وربنا معكم...

تسالم حسين وهو يخفي عنه عينيه حتى لا يقرأ فيها ما تنقش في أعماقه من أمل جديد:

- وهل لديك من القوة ما يعينك على الحرب؟

يحدث هذا قبل أن تقع الواقعة!.. هل يخفي حقاً فلا تقع عليه عين ولا يعرف له أثر؟ فليقتد حيث هو، يجب أن أحيا حياة مطمئنة!.

ثم مر يوم ويوم ويوم حتى غدا جو البيت على كآبته معهوداً مألوفاً، فلامس حسن الشفاء أو كاد وأخذ يفكر جذياً في مغادرة البيت ثم في الحرب من الوطن كله ويرسم لذلك الخط في صمت وتفكير متواصل، ولم تعد نفيسة تلزم نفسها القبر في البيت فعادت إلى زيارتها التي لم تكن تنقطع يوماً، وكذلك عاود حسين حياته العادية ما بين عمله وبيته والتادي ولكن رأسه لم يتوقف عن التفكير في أخيه والخطر الذي يتهدد سمعته بسبب إقامته بينهم. وقد دار بينه وبين أمه مرة حول هذه النقطة الحساسة فقال لها بعد إشتاق وتردد:

- إذا كان البوليس لم يمتد إلى عمل إقامته حتى الآن فيمجزئة من الله لا يمكن أن تستمر طويلاً...

ونظرت إليه المرأة نظرة غريبة احتار في تفسيرها بادئ الأمر، أهي عتاب صامت، أم تسليم بالقضاء من العجز عن ملاقاته، أم استنكار يداريه الخوف من الإفصاح، كل أولئك بدا راجعاً حيث لولا أن برح الخفاء فهتكه دعة ترقرت في صهريجها في بطنه كالحية وفي تردد هو العذاب، هنالك ملاء الانزعاج لأنه لم يكذب يذكر أن رأى أمه باكية على كثرة المحن والملمات، وتراجع فيها يشبه الفرار وصور من خزنها وغزنها تنثال على مخيلته في دهشة وألم، فكأنه يشهد احتضار أسد هصور. حل أنه حين خلا إلى نفسه تناسى آلام الآخرين وانفرد بالآلام هو وخاوفه، فاشتد به الاستياء والحنق، ولعن نفسه وأمه معاً...

وفي عصر اليوم التالي مباشرة أرادت هذه المخاوف أن تخطو خطوة جديدة. كان يجلس وأمه وأخوه على الفراش يتجاذبون الحديث، وكانت نفيسة في الخارج. ورن جرس الباب فجاءت فذهبت الخادم لتفتح، ثم عادت في ارتباك ظاهر وقالت للشاب:

- سيدي. عسكري بوليس يرغب في مقابلتك...

فقال حسن وهو يجذب بدلته من حل المشجب:

- إني على خير عافية... مع سلامة الله.

وخادر حسين الشقة ومضى في صجة الشرطي، وكان أول ما بدا له أن يسأله عن اسم الضابط لعله يكون حقاً من معارفه ولكن الشرطي ذكر له اسماً غريباً لم يسمع به من قبل فعادته الحيرة. وبدلاً له الأمر شديد التعقيد. بيد أن عزم حسن على الاختفاء بث في نفسه طمأنينة لا حد لها. ويلغا نقطة البوليس قبل المغرب بقليل، وقاده الشرطي إلى حجرة الضابط ثم أوى التحية قائلاً:

- حضرة الملازم حسين كامل علي.

كان الضابط جالساً إلى مكتبه، وعلى بعد ذراع من المكتب وقف رجلاً وامرأة من أهل البلد تلوح في وجوههم آثار معركة حديثة العهد، ولكن الرجل نهض لاستقبال حسين ومد له يده وهو يقول: وأهلاً وسهلاً! ثم أمر الشرطي بإخلاء الحجرة وإغلاق الباب. وطلب إلى الشاب أن يجلس على كرسي أمام المكتب فجلس وهو يقول لنفسه: ترى ما معنى هذا كله؟.. ترحاب ومجاملة ثم ماذا؟!

وخرج الضابط من مجلسه ووقف في مواجهته مستنداً يمينه إلى حافة المكتب، وجعل يتفحصه بنظرة غريبة تلوح فيها حيرة من لا يدري كيف يبدأ حديثه أو من يجد في ذلك قدراً من الصعوبة لا يخفى. وشعر بفترة السكوت حل قصرها غليظة لا تحتمل، واشتد به إحساس كربه استحوذ عليه منذ اللحظة التي وطأت قدماء فيها أرض نقطة البوليس، إحساس بالرهبة والقلق والضيق وضابط مهذب يتخرج من لقاء التهمة في وجهي، هذا غريب في ذاته، تكلم وأرحني فطلما تراءى ليالي كابوس هذه اللحظة. إني أعلم سلفاً ما تريد قوله. تكلم..

ونفذ صبره فقال:

- دعاني الشرطي لمقابلة حضرتك!

فقال الضابط:

- إني آسف لإزعاجك. كنت أود أن ألتاك في ظرف خير من هذا، ولكنك أدري بما يتطلبه الواجب

أحياناً.

وزفر حسين آخر نسمة من أصل ضعيف في السلامة وقال في وجوم:

- إني أشكر لك كرم أخلاقك، وما أنا مصغر إليك...

فقال الضابط باهتمام ورقة ممّا:

- أرجو أن تتلقى ما سأقول بشجاعة، وأن تسلك سلوكاً جديرًا بضابط يقدس القانون...

فقال الشاب وهو يعاني ما يشبه الهزال والخور:

- هذا طبيعي جداً.

فعض الضابط على أسنانه كما بدا من تقبض صدفيه ثم قال بانتصاب:

- الأمر يتعلق بأختك...

ورفع حسين حاجبيه في استنكار ثم قال:

- تعني أخي؟

- الست أختك، ولكن معلومة أحب أن أسألك أولاً هل لك أخت تدعى نفيسة؟

فقال حسين في ذهول:

- نعم، هل وقع لها حادث؟

فعض الرجل طرفه وهو يقول:

- يؤسفني أن أخبرك بأنّها ضُبطت في بيت بالسكاكيني...

وزفر حسين واقفاً متصلاً الجسم، مصفراً الوجه محملاً في وجهه عذبة، وهو يلهث قائلاً:

- ماذا تقول؟

فربت الرجل على كتفه متأثراً وقال:

- ادعُ كل قوة في نفسك كي تضبط أعصابك.

الموقف يستلزم الحكمة لا الغضب. أرجو أن تساعدني على القيام بواجبي ولا تجعلني أندم على ما اتخذت من إجراءات راحيت فيها المحافظة على كرامتك قبل كل شيء.

أنصت إليه وهو لا يزال يميلق في وجهه، تمتلئ عيناه بوجهه تارة فلا يرى سواه، ويغيب عنها أخرى فيسمع الصوت ولا يرى شيئاً، وثالثة لا يرى إلا شفتين تطبقان وتنفرجان فيثال من بينهما كلام هو

- تركناها في هذه الحجرة لأنه أعني عليها حين علمت بأنّي أرسلت في طلبك بدل أن أطلق سراحها. اسلك سلوك رجل يحترم القانون واذكر أنّي مسئول عن الأرواح. إنّك رجل محترم ومهذب فعالج الأمر بالحكمة. لا يصحّ أن يعلم أحد منّي في النقطة شيئاً ولكنّ هذا يتوقّف على سلوكك أنت، تذكّر هذا جيّداً...

فكرّر قوله بنفس الصوت الميت:

- دعني أراها من فضلك...

مضى الضابط إلى الباب المغلق متثاقلاً وفتح، واقترب حسين منه كمن يمضي في حلم، وألقى بنظرة من فوق كتفه كمن ينظر ليتعرّف هل جئته في المشرحة، فرأى لصق الجدار المواجه للباب أريكة ارتقت عليها فتاة قد ألقت برأسها إلى الحائط، عيناها نصف مفتوحتين ولكنّها مظلمتان لا تريان شيئاً ميتة أو مغنى عليها أو لعلّها في ذهول الإلحقة الأولى، وقد اتصلت بجبهتها شعيرات مبتلة وعلت بشرتها صفرة الموت. لكنّها نفسها دون غيرها. «قلبي لا يكذبني في المصابيح أبداً لو كانت ميتة لأدعيت أنّي لا أعرفها بلا تردّد، ولم تبدي حراكاً كأنّها لم تحسّ للمقامين وجوهاً، أو أنّها لم تستطع أن تبلي حراكاً. ونظر الضابط صوبه متسائلاً ولكنّ عينه لم تتحوّلاً عنها، جمد بصره وتجمّر وفشيه ذهول وجد فيه مهرباً مؤقتاً ممّا كان وما سيكون ونعيم عليهم سكون الموت، وانقضت فترة طويلة أو قصيرة، ثمّ شقّ الصمت صوت باطني يصرخ في أذنه «اتنهي...»، وتخلّلت لعينه صورة أنّه كما رآها منذ ساعة واقفة بينه وبين حسن في حيرة بالسة والرجل يتوقّب للفرار. وتلك اللحظة لو يقتحم تجارب الكفر والقسوة والموت «ماذا ينتظر هذا الضابط أن أفعل؟.. ماذا ينبغي أن أفعل؟ ربّاه كيف أضادر هذا المكان؟!.. ثمّ سمع الرجل يقول:

- لقد قلّمت ما عني من واجب نحوك فهلت ما عندك من حكمة...

فسأله بدوره وهو يتخامى عينيه:

- أين الآخر؟!

الفزع والبأس والغربة، وبين هذا وذاك ترمش عيناه في حركة عصبية فتلتقطان منظرًا غريباً هنا وهناك، بندقيّة مثبتة في جدار أو صفًا من البنادق أو حجرة، ورّمًا امتلا أنفه برائحة دخان عيوس أو رائحة جلود غريبة، ثمّ ينحلّ وجهه ويتراجع فجأة إلى ذكرى بعيدة لا صلة لها بالحاضر فيلوح لذاكرته منظر عطفة نصرالله وهو صبيّ يلاعب حسين البلب وضبطت في بيتا أنّي بيت؟! إنّ أحدنا فاقد العقل ولا شكّ ولكن من هو؟ ينبغي أن اتحقّق من أنّي عاقل أولاً... وتتبدّد في وهن، ثمّ سأله في استسلام:

- ماذا تقول يا سيدي؟

- يوجد في هذا الحظي بيت تستأجره ستّ روميّة وتؤجّر حجراته بالساعة للعشاق. كبسات البيت عصر اليوم فوجدنا الستّ... وجدناها مع شاب، واعتقلناها طبعاً وشرعنا في اتخاذ الإجراءات القاسية التي تعرفها فاضطّرت تحت تأثير الخوف أن تعترف لي بأنّها شقيقة ضابط على أمل أن أطلق سراحها... - أحني أنسا؟... أأنت متأكد؟... دعني أراها...

- اضبط نفسك، أروك، لو كنت متأكّداً من أنّها أختك لأطلقت سراحها. ولكنّي خفت أن يكون اعترافها خدعة، قد عرضت المسألة على المأمور فوافق على وقف الإجراءات على شرط التأكّد من صدق قولها...

ومن عجب أنّه لم يعد يداخله أدنى شكّ في حقيقة الواقعة فسرعان ما آمن بها قلبه المتشائم، ووجد في فظاحتها ترجيحاً لأصداء خوف قديم طالما ناوش قلبه وعذّبه. أجل لم تخلق هذه الواقعة إلّا لحظه ولأسرته، أنّه يعلم هذا علماً لا يتطرق إليه الشكّ. ألهذه هي نهاية المطاف؟! ثمّ غلبه ذهول شعر معه أنّه أثر من آثار ماضٍ منظرٍ انقطعت صلته بالحاضر فضلاً عن المستقبل، كان، هذا هو، ولكنّه لا يكون ولن يكون. ثمّ انبثت منه لفة على النهاية فقال بصوت ميت:

- أين هي؟... دعني أراها من فضلك...

فاشار الضابط إلى باب مغلق وقال:

وأدرك الضابط ما يعنيه فقال بلهجة لا تخلو من حزم:

- طُبِّقَتْ عليه الإجراءات وأُطلق سراحه.

فغمغم قائلاً:

- لنترك هذا المكان شاكرين.

- ٩٠ -

في الخارج لفحه هواء بارد وكان الظلام قد خيم فابتعد عن نقطة البوليس في خطوات ثقيلة تتبعه هي على بعد ذراع منكسة الوجه، سارا مع قضبان الترام ولم يكن يدري أين ينتهي به المسير لأنه لم يسبق له المجيء لهذا الحي، ومع أن الليل كان في أوله إلا أن الطريق بدا مقفراً، وتساءل في نفسه ترى أين ينتهي الطريق؟ ثم بدا له تساؤله أية في الغرابية، فلم يكن المهم أن يعرف أين ينتهي الطريق ولكن الجدير بالمعرفة حقاً أن يعلم ما هو صانع إياه. كان يحسب أنه سيبدأ بالتنفيذ ثوراً بعد خروجه من النقطة، وكانت هي تتوقع هذا، ولكن أقدامها تقلّبت بها دون أن يفعل شيئاً، وكان يشعر بوجودها ورائه في ضيق لا يُحتمل، ويسمع وقع قدميه كأنه رصاص في ظهره، ويحور أول فأول آية رغبة في أن ينظر إلى الخلف، ومع أنه بدا في صمته - ذلك الصمت المائل الذي وقف حائلاً بينها - وكأنه يفكر تفكيراً متواصلاً إلا أنه في الحقيقة كان فارغ الرأس. كان فارغ الرأس بحال مزعجة، لم يُؤدّها إرادة، ولكنها فُرِضت عليه قسراً وبُثت في نفسه إحساساً بالقلق، إحساس من يتلفّح على السيطرة على إرادته سيطرة غاشمة فلا يجد إلى ذلك سبيلاً. واصطلحت قدمه بحجر صغير اعترض سبيله فانطلقت في صدره شرارة حق، وكأنها جذبت إليها أفكاره الماربة في الظلام، وسرعا ما وجد نفسه يتساءل في صمت أين تنقها؟.. أين يحسب رأسها بحذائه؟.. لا بدّ لصدوره من متفكّر. وظلّ الصمت الجهنمي سائداً. وبينما كان يجمع عزمه لزرحة هذا الصمت تطوّعت هي - وهو ما عجب له - لزرحته. لسمعا تغمغم في نبرات مرتعشة مهتجة قائلة:

- لقد أجمرت. إلي أعلم هذا... ولن أسالك

غفراناً لست جديرة به.

هل حقاً وانتها قواها على الكلام! يا للشيطان! وأحدث صوغاً - حل ضعفه - زوبعة من الهياج في صدره، زوبعة عمياء طاغية صبت الغضب في أطرافه صباً فتوقّف عن السير والتفت نحوها في سرعة غريبة وارتفع ذراعه في الهواء وهوى على وجهها كالقذيفة فتراجعت مترنحة دون أن تنبس ثم سقطت على ظهرها واصطدم مؤخر رأسها بالأرض. لم تنبس بكلمة ولا نذ عنها أي صوت، ولكنها جلست على الأرض بسرعة ثم لمّت نفسها ووقفت وأخلت في التراجع حتى ارتكنت إلى جدار بيت. واقترّب منها فتزأى لعينها تصميمه رغم الظلمة التي تُظِلّ وجهه فلوّحت له بيدها كأنها تسأله أن يلف ثم اندفعت قائلة في عجلة وتوسّل:

- قف، لا تفعل، لست أخاف حل نفسي ولكني أخاف عليك، لا أريد أن يمكّ سوء بسبي.

وزادته رقة كلامها هياجاً على هياج فصاح بها بصوت كالخوار:

- لا تريد أن يمكّني السوء بسبك؟.. يا عاهرة لقد صبت السوء عليّ صباً.

فأعادت بتوسّل حار:

- ولكني لا أطيق أن يسبقوا إليك ولو كان السبب هلاكياً.

- هذا مكر حقير لن يفعلك في إنقاذ حياتك الحقيمة، عبيات، لن ينالني سوء بقتك.

فهتفت في حرارة:

- لا ينبغي أن يمكّك عقاب وإن هان، ثم بماذا تحب إذا شئت حقاً ذلك إلى قتلي؟ دعي أم أنا بهذه المهمة فلا يكثر لك مكدر ولا يدري أحد.

فتساءل فيها يشبه الدهول:

- تقتلين نفسك؟

فقالت وهي تلهث:

- نعم...

شعر فجأة - قبل أن يتألك نفسه - بأن حلاً ثقيلاً تزعج عن عاتقه وهوى بعيداً. كان مدفوعاً بغضب

فسرت في جسدها رعدة وقالت بلذً:  
- لا تملب نفسك ولا تملبني، سيتهي كل شيء  
في لحظات.

- أكان يعرفني؟

فقالت بعجلة وتوكيد:

- كلا..

فتردد مرة أخرى وقد تضاعف عذابه ثم تساءل:

- أول مرة؟!

فعاودتها الرعدة بيد أنها قالت بتوكيد أيضاً:

- نعم...

ف ضرب الأرض بقدمه وصاح بها:

- كيف استسلمت للخوابة؟

- أمر الشيطان.

- أنت الشيطان... لقد قضيت علينا.

فهتفت في رجاء:

- كلا... كلا... سيتهي كل شيء الآن ولن

يدري أحد.

- أتعين ما تقولين؟

- طبعاً...

- وإذا ساورك الخوف!

- كلا، إن ما ورائي في الحياة أقطع من الموت.

وعادا إلى الصمت وكلامهما يشع بجهد ونصب،

ومضي مدد البصر مع قضبان الترام في حيرة، ثم سألها

بلهجة ساخرة:

- إلى أين نحن ذاهبان، فلعلك أدرى بهذا الحيز

معي؟

ولم تجب، ولكن تقبّلت أسأريها من الألم. ثم

لاح لها ميدان المظاهر فترامت لعينها آثار الحياة

والصمران وترامت لأذنيها أصوات لأحياء، وجعل

ينظر في قلق حتى بُثت عيناه على صفّ من التاكسيات

فمضى إلى مقعها وفتح لها الباب فدخلت ثم دخل

ورامها. وفكر قليلاً والسائق ينتظر أوامره، ثم قال له

بصوت منخفض:

- جسر الزمالك من فضلك.

مستمر وإحساس معذب بالواجب ولكنّ العواقب -

كذبيح الفضيحة والعقاب - ما فتت تتخيل لعينيه،

فالآن بعد هذا الحكم الذي قضت به على نفسها يسمعه

أن يسترد أنفاسه وأن يستين بصيصاً من النور في هذه

الظلمة الخائفة. وغمغم متسائلاً وهو لا يزال مستغرقاً

في أفكاره:

- كيف؟

فقالت وهي تزدد ريقها:

- بأي وسيلة كانت.

فتنكر قليلاً متجهّم الوجه ثم قال وهو يرمقها

بقسوة:

- النيل...

فقالته يدهو:

- لكن.

فنفخ حقاً وضيقاً ثم تراجع في تناقل وهو يغمغم

«هلّي» فغادرت الجدار وتقلّعت في خطو ثقيل، ثم

دار حول نفسه وواصل السير فبتهت كما كانا. أحسن

هذه المرة شيئاً من الطمأنينة ولكن غضبه قد عنصرأ

كان يعتز به وهو لا يدري. لقد شعوراً بالكرامة كان

يلازمه وهو مصّمم على قتلها بنفسه، فاستحال من

شخص يتدفع وراء الكرامة إلى آخر ينشد السلامة.

وغصّ حيناً بقهر خائق، ولكنه لم يكن من القوة بحيث

يعدل به عما تراهى له من سبيل النجاة، ولم يكن من

الضعف بحيث يتركه في سلام، ونفس هن صدره

قللاً في خشونة:

- كيف فعلت هذا؟! أنت؟! من كان يتصور

هذا!

فتبكت قائلة في استسلام اليأس:

- أمر ربنا.

فصاح مزعجاً:

- بل أمر الشيطان.

فقالته بنفس الصوت المتهد:

- نعم...

فتردد لحظة ثم تساءل:

- من هو؟

انطلقت السيّارة بسرعة إلى شارع فاروق في طريقها إلى العتبة ثم إلى أمبابة.

كانا يجلسان كغريبين، أمّا هو فقد ألقى ببصره إلى الطريق خلال النافذة مولياً إياها نصف ظهره وأمّا هي فقد خفضت رأسها وغابت في ذهول عميق. لم يكن في رأسها شيء، أو شيء ذو بال، كآلة السكون الذي يعقب عاصفة هوجاء أو جود الموت بعد نزع اليم. وقد بلغ بها الهياج ذروة الجنون قبل أن تسقط مغشى عليها ويعودتها إلى الوعي تكالبت عليها الأفكار المفزعة، واستعرضت عينها شريط حياتها في رعب جهنميّ حتى أثقلت المغموم رأسها فأنحى على صدرها كما ينحني رأس من سُدّت في وجهه منافذ الحياة تحت جدار منهار. ويعد ما كان من الاعيار الكامل وظهور حسنين، وما كان بينهما في الطريق، شعرت بأن كلّ شيء قد انتهى، وأخلّ الهول مكانه من رأسها، تاركاً وراءه فراغاً صامتاً، فلم يعد به شيء، أو شيء ذو بال إلا أن تكون ذكرى بعيدة من ذكريات الصبا أو منظرًا مما يتعكس على عينيها من أرض السيّارة. بيد أنّها كانت تكابد تجربة جديدة لا عهد لها بها من قبل، إذ هانت عليها الحياة حقاً، بالفعل لا بالقول، هانت الهوان الذي يجعل من الموت نجاة. أجل طالما تلمّرت فيها مغشى من حياتها وسخطت، حتى ثمنت الموت أحياناً، ولكنّها لم تسع إليه مع ذلك لأنه كان لمة أمل في الحياة يدبّ متوارياً في أحقادها. الآن تقطعت بها عن الدنيا الأسباب، واقتلعت الجلود التي تشدّها للبقاء، ووجدت مع هذا اليأس العميق راحة زحزحت عن كاهلها الأعباء، فلم تعد تفكر في شيء ذي بال، ورمقت الموت الذي تهب الأرض إليه باستسلام كآلة التخدير. وقد دارت السيّارة حول منصف وهي متطلقة في سرعتها فارتجت الفتاة في مجلسها وتبّهت إلى ما حولها فيها يشبه الفزع، ومع أنّها ظلت منكسة الرأس إلا أنّها أحست بوجوده إلى جانبها وترأى شبهه الجاثم عن يمينها إلحظها في غموض فتقبّض قلبها السّام وخزناً وترى فيم يفكر؟ ألا يجد غير

البغض والغضب؟ متى يمسي كلّ شيء وقد انقضى؟ هلّه هي النهاية الوحيدة. ترى هل تجدس أمّي الحقيقة؟ لا داعي للتفكير. إني ميتة.

وليت حسنين مضطرباً متوتر الأعصاب يتجاذبه الغضب واليأس والرهبة. وكيف تنتهي هذه المحنة؟ وكيف أخرج منها؟.. أمكن حقاً أن يسدّل عليها الستار دون أن تفوح منها رائحة حرية بأن تجعل من هذا العناء كلّ عبثاً لا طائل تحته؟ إني أختنق. إن الماضي لا ينمحي ولكنّه يسابق مستقبل. لماذا لا نعيش بلا مبالاة؟ قضي الأمر ولا داعي للتفكير في هذا. لا داعي للتفكير مطلقاً. ما أشدّ عذابي، كيف أنقلب على هذه التعاسة كلّها مهلاً، إني أسوقها إلى الموت، وهي تعلم أنّها تُساق إلى الموت، ترى هل تواتبها القدرة؟ لا شك أنّها تفكر الآن تفكيراً متواصلاً، ولكن فيها تفكير؟ لا ينبغي أن أفكر فيها. الموت خير نهاية لها. لا يمكن أن تلتقي عيننا فهو فوق ما أحتمل وفوق ما تحتمل هي. الأمر يتعلق بأخذك، أه قاتل الله هذا الضابط، يؤسفني أن أعبرك أنّها شُبلت في بيت بالسكاكيني، من يتصور هذا وليس الموت بنهاية ولكنّه بداية لتعاسة أخرى تنتظري في البيت. حتى متى أوصل هذا التفكير؟ آية مدخنة هذه؟ لعله مصنع، نحن نقرب من جسر أبي العلاء، هذه المدخنة تنفث دخاناً أسود كثيفاً، لو تحترق أفكاري وتذوب في أنفاسي لظرت أقلر منه. لا أريد أن يمّسك سوء بسبي، صدقت، يجب أن تهلكي وحلك. متى يطوى الطريق؟

وعبرت السيّارة جسر أبي العلاء فاندفعت إلى داخلها موجات غامرة من هواء بارد رطب مشبع بأريج النيل فاستقبله الشاب بترحاب من يُضلي نازلاً حامية على حين سرت في أطرافها رعدة بثّت في حناياها خوفاً غامضاً، ودلم لحظات ثم ارتدّت بعده لحالها الأولى من الاستسلام والجمود واليأس. وضاعفت السيّارة من سرعتها حتى شارفت جسر أمبابة فنفخت قوّة اندفاعها رويداً، ثم التقت السائق نحو حسنين متسألًا فقال له هذا بصوت منخفض «قف»، ودفع له حسابه وغادر

صيات. رآها في وضوح تام تحت الأضواء المشرقة  
فثبت عينه على جانب وجهها المنعكس وهي تقطع  
الأرض قطعاً قطعاً حتى بلغت المنتصف فتوقفت عن  
المسير، ورفقت رأسها، وأجالت فيها حولها، ثم  
استدارت نحو السور وألقت ببصرها إلى الماء  
المصطحب الجاري. وجعل يكتم أنفاسه ويزدرد في  
تشنج ريقه الجاف وهو يترقب، ولكن ظهر في تلك  
اللحظة عند الطرف الآخر من الجسر زجلان ومضيا  
يقطعان الجسر في سرعة وهما يتحدثان، ثم لاح الترام  
القادم من أمبابة وهو ينعطف نحو الجسر عزفاً الصمت  
بمجيئه، فاسترد الشاب أنفاسه ولكن إلى حين قليل،  
ومر صرمان ما ركب القلق والضيق، وكان قلبه يخفق  
بعضف حتى خيل إليه من شدة وقع النيش في أذنيه أن  
العالم الخارجي يسمع دقات قلبه. ثم مرت به لحظات  
فتوهم أنه يشهد منظرًا غريباً عنه لا شأن له به، ولكنها  
كانت لحظات ثم انقضت وغلبت الرهبة على ما في  
نفسه جميعاً فلم يعد يستشعر حقداً ولا غضباً، ثم  
اكترت الأفكار في رأسه في ثوابن شعر في حيرة يائه  
يروم حل مسألة معقدة غامضة، ولكن لا قدرة له حل  
حلها أو ليس لديه فسحة من الوقت للتفكير فيها، فهو  
منها في حيرة أي حيرة. وفي أثناء ذلك كان الرجلان  
قد عبرا الجسر، وسبقهما الترام إلى الطريق، وما زالت  
الفتاة تهملك في الماء. ونظر هنا وهناك فلم ير أثراً  
لإنسان. ونجتمعت نفسه في لحظة ترتب ملية بالفزع  
والرعب. رآها تعطف رأسها يميناً وشمالاً. وبغضه،  
وفي حركة سريعة يائسة تسورت السور. وازلزل قلبه  
وهو يتابع حركاتها وجعلت عينه، لا يمكن... ليس  
هكذا... أمّا هي فألقت بنفسها، أو تركت نفسها  
تهوي، وقد انطلقت من حنجرها صرخة طويلة  
كالعواء تمثل لعني البئلي بسأعها وجه الموت، فجأها  
بصرخة فزع ولكنها ضاعت في صرختها. وشعر وهي  
ترمي بنفسها أن يوسعها أن يجد للمسألة المعقدة التي  
تجتمه حلاً، ولم يكن الحل فيها فلتت بنفسها، كان  
يمكن أن تكون نهاية أخرى، وكأنها حاول أن يستدرك  
الخطأ بصرخته ولكنها ضاعت، ثم صك مسمعيه

السيارة ففادرتها أيضاً من الباب الآخر، وما لبث  
التاكسي أن عاد من حيث أتى فوجدنا نفسيهما وحيدين  
على كيب من مدخل الجسر. وكانت المصابيح المعلقة  
على جانبي الجسر تشع نوراً قوياً أحال ظلمته نوّراً،  
بينما أطبق الظلام على ضفاف النيل بطول امتداده  
شمالاً وجنوباً - رغم المصابيح المتبادلة الخافتة - فبدت  
الأشجار المترامية على جانبيه كأشباح صليقة، وكان  
المكان مقفراً إلا من صاغر مرع هنا أو هناك وقد  
تناوحت الغصون بأنين ريح باردة كلما كف هبوبها  
تعالى هسيس النبات كالحمس. لازما موقفها في جمود  
كالدهول، ثم استرق إليها النظر فرأها مقوسة الظهر  
قليلاً منكسة الرأس غير أن منظرها لم يلق من صدره  
إلا قلباً متحجراً ونفساً عتق الهمة فيه كل راحة. وثار  
حنفه على جموده فجاء فقال بغلظة:

- آئت مستعدة؟

فتمتمت بصوت غريب لا عهد له به:

- نعم...

ونفذ الجواب على بساطته إلى أعماقه فلم يعد يطبق  
موقفه، وتزحزح عنه في خطو ثقيل، وقبل أن يتعد  
عنها ذراعين سمعها تقول بتوسل:

- لا تذكر إسماتي:

فندّ عنه صوت خفيض وهو يوسع خطاه كالمهروب  
قائلاً:

- فليرحمنا الله جميعاً...

تركها وحدها حبال الجسر، وهدف إلى الطوار  
الممتد إلى يمين الجسر على شاطئ النيل، ثم جدّ في  
المسير. حلكته نفسه بالهروب ولكن قوة شغوا جعلت  
تجذبه إلى السور، وخارت مقاومته عند شجرة  
صفصاف ضخمة المذبح على بعد ثلاثين متراً من مبدأ  
الطور فتوازي ورامها في إعياها وأرسل الطرف نحو  
الجسر. ولاح له الجسر كتلة صلبة متوجهة بأنوار  
المصابيح تمسك من طرفيها بالشاطئين في عناد وتصميم  
كأنه وحش يفرز أنيابه في فريسته، وعند رأس الجسر،  
وعلى الجانب المواجه له، رآها تتحرك في خطو ثقيل  
خافضة الرأس، يعلوها جمود غريب كأنها تمثني في

اصطدامها بالماء فنَلَّت عنه صرخة أخرى...

- ٩٢ -

وثب إلى منحدر الشاطئ وعيناه محمقلتان في المكان الذي ابتلعها تحت الجسر، ثم جحد في موقفه يكاد يحجره أن يلفظا عينيه من شدة الحماسة. وتوقع مرّات أن تطفو على ظهر الماء ثم أدرك أنّ النيل المنفذ إلى ما تحت الجسر لا بدّ أن يكون قد جرفها معه فلعلّها تتخطى في جوف الجسر أو تفوح فيها يليه من النهر. ومربّ خاطره أن ينزع سترته ويقلّب بنفسه وراءها لعلّه يتشلها ولكنّه لم يحرك ساكناً، ووجد هذه الحادثة ما يشبه السخريّة المزيّدة غروراً وشعر بأنّه لم يعد لعلقه سيطرة عليه. وما يدري إلاّ وصوت من وراء يسأله باهتمام محسوس:

- اسمعت صرخة؟

فالتفت إلى الوراء فرأى شرطياً تنمّ حركاته على الاهتمام فقال له في دھول:

- نعم، لعلّه غريق...

وجعل الجنديّ يحدّق في الظلام فوق النهر ثمّ حثّ خطاه نحو الجسر. وأعاد الجنديّ إلى شيء من وعيه فراجع إلى موقفه الأوّل ولم يعد في طاقته أن يضبط نفسه فاندفع عدواً صوب الجسر ثمّ عبره إلى سوره المطلّ على الناحية الأخرى من النهر وألقى ببصره إلى النّيار المتدفّق. وما لبث أن رأى آثاراً للحادثة لا تحطكها العين، رأى قارباً يشقّ الماء بسرعة قادماً من الشاطئ الأيسر نحو وسط النهر، وسمع أصوات استغاثة وصراخاً آتية من الشاطئ البعيد. وكان سطح النهر فيها يلي الجسر مضاد بما ينكس عليه من أنوار المصابيح فتصعّقه عيناه هنا وهناك، ولكنّه لم يعثر على ضالّته. ثمّ تبعت عيناه القارب الذي أخذ يقترب من الوسط شاملاً سبيله في الرقعة المضادة، ثمّ اندفع مع النّيار حتّى خرج منها إلى الظلام. ووجد نفسه يتساءل وتري هل يفوز القارب في سباق الموت هذذا؟. ولم يستين حقيقة مشاعره، أو لعلّه هرب من باطنه بتركيز حواسّه في القارب فتابعه حتّى رآه يتوقّف عن التجديف ثمّ رأى شخصاً يقفز منه إلى الماء، على حين

تمالت أصوات الباقيين بالقارب. خلد هي اللحظة الفاصلة، وتتابع خفقان قلبه حتّى جفّ حلقه، وحاول عبثاً أن يرى شيئاً خلال الظلمة التي لفت القارب أو أن يميّز كلمة معيّنة في هدير الأصوات المختلفة، ثمّ كُتّل منه البصر فلم يعد يرى شيئاً وكأنّه عمي. وأخذ يتنبّه - دون التفات - إلى تمجهر خلق كثيرين حوله، ثمّ سمع أحدهم يقول:

- القارب يصود إلى الشاطئ فلعلّه انتشل الغريق...

ومثّلت في أوصاله رجفة وتساءل «تري أنجت أم هلكت؟ أذهب أم ألق؟»، ولكنّه تحوّل عن موقفه وسار في اتجاه الشاطئ الذي يقصده القارب مدفوعاً برغبة لا تقاوم في تعلّيب نفسه إلى أقصى حدّ، ولم يعد السير ليسعف جزعه فأطلق ساقيه للريح وعيناه تسبقانه إلى بقعة من الشاطئ تمجهر عندها كثيرون. وبلغها والقارب يرسو إلى الشاطئ فلدا من التجمهرين يساقين متخاذلتين واندسّ بينهما وأطرافه ترتجف على رغبته ثمّ ألقى بيمين متحجّرتين إلى القارب الذي اكتنفه ستار خفيف من الظلمة. وكان يقف غير بعيد منه ضابط النقطه المواجهة للشاطئ ونفر من الشرطة. ثمّ بدت أشباح الرجال وهي تنتقل من القارب إلى الشاطئ حاملة بينها الفريق فصاح بعض التجمهرين:

- هل نجا من الغرق؟

وأدّاه السمع ليتلقّى الجواب ولكن لم ينس أحدهم بكلمة ومضوا يرتقون منحدر الشاطئ في شيء من الجهد والأعين معلقة بهم حتّى ميّزت حقيقة الحمل فصاح بعضهم في ارتباك:

- إنّا امرأة يا ولداه!

وتساءل آخر:

- كيف غرقت؟

فصاح غلام:

- رمت بنفسها من فوق الجسر فرأينا زوج النوّي واستصرخت زوجها لإنقاذها...

وجعل حسين يجمعهم ناظره في طائف من الغرابة والدھول فلم يدرك كيف يصلّق أنّ هذه هي أخته وأنّ



التحليل صدمة للماء الغليظ، وصاذا دار بذهنها وهي تتخبط بين أمواجه، وأني جهد وجدت والظمي يكتم أنفاسها، وأني عذاب ذاتك ورغبة الحياة تثب بها إلى سطحه فيشدّها باطنه إلى الأحياق. إن محاولة الغريق البائسة للنجاة أشبه بأحلام الشقي بالسعادة، كلتاها أمنية ضائعة. أتراها تراني الآن من عالمها الآخر؟ أراضية هي أم غاضبة أم ساعرة؟ ماذا ترى في صوفي هذا؟ لماذا وقع هذا كله. وذكر بقية أنه فحجبت صورها الجثة عن عينه، وهز رأسه كأنها ليطردوا من عيونه، وصم بقوة على أن يتحامي التفكير فيها، وعاد باتبعه للمحرم إلى الجثة. وهل رغبه وجد نفسه يتذكر أيادي الفتاة عليه، ما كانت تكن له من حب وما جاءت به من كرم، فما كان يخطر لها ببال أن تكون نهايتها على يديه، وشعر بإحماه وقنوط وتساءل في جرحه ولماذا هذا كله؟. وأغمض عينه لأنه لم يعد يطيع النظر إليها. كان رأسه مغموماً، وغُيِبَ الهم كل رغبة في الحياة في قلبه، وانقلب وجه الدنيا في عينه كهذا الوجه الأزرق الناطق بالعدم، وقال لنفسه، وهو يتنهد من الأحياق «رأته، لقد بقي علي». وسمع عند ذلك صوت الضابط وهو يأمر الشهود بالذهاب معه إلى النقطة، ثم رأى الجثة لمحمّل ورأى القوم يمشون بها إلى الجهة الأخرى من الطريق فأتبعهم طرفه حتى حال الظلام بينه وبينهم. وفي أقل من دقيقتين وجد نفسه وحيداً يكتنفه حفيف الأشجار التي تكاد تطبق أعضائها الغليظة المتوترة على البقعة كلها. وتراجع في تراخ وتربح حتى أسند ظهره إلى جذع شجرة وراح فيها يشبه السبات وكأنه يتردى في هاوية ممتدة ليس بها بارقة أمل. وقضي علي. كنّا جميعاً فريسة للشقاء فما كان ينبغي لأحدنا أن يعيّن الشقاء على أخيه. ماذا فعلت؟ إنه اليأس الذي فعل، ولكنّي قضيت عليها بالعقاب الصارم. أتي حتى أخذت نفسي! أحيى آتي الثائر لشرف أسرتنا؟ إنني شرّ الأسرة جميعاً. حقيقة يعرفها الجميع، وإذا كانت الدنيا قبيحة ففني أقيح ما فيها. ما وجدت في نفسي يوماً إلا تمثيلات الدمار لن حولي فكيف أبحث لنفي أن أكون

أحدًا لا يعلم بهذه الحقيقة وآته لا يفعل شيئاً إلا أن يقف بينهم كالغريب المستطلع. وبلغ الرجال طوار الطريق وسرعان ما نشطوا إلى عملية الإسعاف ليفرغوا ما في جوفها من ماء. وقد أمر الضابط المصاكر بتشتيت المتجمهرين ولكن أحدًا منهم لم يتعرض لحسين فلبث بمكانه جامداً لا يطرף لا تتحوّل عيناه عن الجسم المقوّس الذي تعبت به أيدي الرجال الغليظة. واتبه الضابط إليه فاقترّب منه وحيّاه بإهامة من رأسه وسأله:

- أشهدت الحادثاً

فخرج الشاب عن ذهنه في انزعاج ولكنه أجاب بحمالة:

- كلا...

وأمام الرجل الفتاة على الأرض وجثا أحدهم إلى جانبها ثم جثّ نبضها وأصقّ أذنه بصدرها فوق القلب، ثم رفع رأسه قائلاً:

- صعد السرّ الإلهي إلى بارئه، لا حول ولا قوة إلا بالله...

وعاد الشاب إحساسه بالغرابة، وغلبه الإحساس على ما عداه، فلم يشعر لا بحزن ولا بارتياح، ولم يتحرك فكره لا إلى الأمام ولا إلى الوراء، وكأنه لم يطق هذا الفراغ المخيف فركّز انتباهه في الجثة الراقدة غير بعيد عن قدميه. جرى بصره عليها وقد تبعثر شعرها والتصقت خصلات منه بخدّها وجبينها، وزان على الوجه جود صامت لا يغير بيقظة وعلمته زرقه مروّعة، وشغل إليه أنه يرى أعماق دقيقة حول الفم الفاضل والعينين كأنها تقلّصات العذاب الذي كان آخر عهده بالدنيا، أمّا الفستان المشيع بالماء فقد لزق بالجسد وتلوّثت أهدابه بتراب الأرض فتعلّنت، وبدت قدم ما تزال ممسكة بفردة حداثتها والأخرى في جوربها. ورجع بصره إلى وجهها فجاش صدره وامتلأ فراحه باضطراب وثوران ولماذا اضطرب هكذا؟ أم أتنع حقاً بأنّ هذه هي خيرة نهاية؟ أم أسفها إلى الموت بنفسه؟ ينبغي أن تطمئن نفسي. بيد أنني أتمسك عينا داخلها من شعور وهي تموي إلى الماء، وكيف تلقى جسمها

حافظًا جديداً، وابتمد عن الشجرة وهو يلقي نظرة  
الوداع على نقطة البوليس ما في شعوره إلا السأم  
والتزوع إلى الحرب. «لا أريد أن يمسك سوء بسبيي.  
أمر ريتا. أمر الشيطان. النيل. ليكن. وإذا ساورك  
خوف. كلاً، إنَّ ما ورثني في الحياة أقطع من الموت.  
أأنت مستعدة؟ لماذا تغيب الملازم حسنين، ألم يرسل  
خطاب اعتذار؟ رأيت صاحب هذا الوجه عقب  
انتشال الجثة وسألته هل شاهدت الحادثة وكان  
مذهولاً.» وبلغ الموضع نفسه من الجسر فارتفق السور  
وألقي ببحره إلى الماء تتدافع أمواجه في هياج  
واضطراب. وأغل رأسه من الفكرة. «إذا أردت  
هلم. لن أصرخ. فلأكن شجاعاً ولو مرة واحدة.  
ليرحمنا الله...»

قاضيًا وأنا رأس المجرمين! لقد قضي عليّ.» وألقى  
نظرة على ما حوله في حيرة وخوف «أين أذهب؟ أيمكن  
أن أمرق من هذه المحنة كما مرقت من غيرها من  
قبل؟.. لشد ما تهزأ بي الأمانى. لا تبال، حسن..  
ولكن هل يسعك هذا؟ أحمل نفسك بشرتها وأنشدتها  
النسيان ثم السعادة، هاها. إني أحببت نفسي بلا  
رحمة. طالما أحببت أن أعمو الماضي، ولكنَّ الماضي  
التهمَّ الحاضر، ولم يكن الماضي المخيف إلا نفسي، لماذا  
لا أواصل الحياة بهذه الأعباء؟ لا أستطيع. كان ينبغي  
أن أحب الحياة إلى النهاية، ومهما يكن من أمر، ولكنَّ  
لي طبيعتنا خطأ جوهري لا أدرسه. لقد قضي  
عليّ...»  
واستوى واقفاً إنَّما لآله ضاق بمسندته وإنَّما لآله وجد

بَيْنَ الْقَصَرَيْنِ



وعادت به إلى الحجره وهو يمسك على السقف من  
قوة زجاجته دائره مهتره من الضوء الشاحب تحف به  
حاشية من الظلال، ثم وضعته على خوان قائم بإزاء  
الكتبة. وأضاء المصباح الحجره فبدت برقعته المربعة  
الواسعة وجدرانها العالية وسقفها بمئذ الألفية  
للتوازية، إلا أنها لاحت كريمة الأثاث ببساطها  
الشيرازي وفراشها الكبير ذي العمد النحاسية الأربعة  
والصوان الضخم والكتبة الطويلة المنطاة بسجاد صغير  
المسطح مختلف النقوش والألوان. وانجهت المرأة إلى  
المرأة وألقت على صورتها نظرة فرائت منديل رأسها  
البيتي منكمشاً مزاجياً وقد تشعثت عصلات من  
شعرها الكستنائي فوق الجبين، لمعت أصابعها إلى  
عقدته لمعنها وسوته على شعرها وعقدت طرفيه في  
أناة وعناية، ومسحت براسيتها على صفحتي وجهها  
كأنما لتزيل عنه ما علق به من آثار النوم. كانت في  
الأربعين متوسطة القلعة، تبدو كالنحيفة ولكن جسمها  
بض ممتلئ في حدوده الضيقة لطيف التنسيق والتجويد.  
أما وجهها فبالل إلى الطول مرتفع الجبين دقيق  
القسا، ذو عينين صغيرتين جميلتين تلوح فيها نظرة  
هسلية حادة، وأنف صغير دقيق يتسع قليلاً عند  
فتحتيه، وفم رقيق الشفتين ينحدر تحتها ذقن مدبب،  
وبشرة قمحية صافية تلوح عند موضع الوجنة منها  
شامة سوداء عميق نقي. وقد بدت وهي تتلصع  
بخيارها كالمتعجلة. والجهت صوب باب المشربة  
فتحتة ودخلت، ثم وقفت في قفصها المغلق تردّد  
وجهها بمتة وسيرة ملقاة نظراتها من الثوب المستديرة  
الدقيقة التي غلا أضلالها المغلفة إلى الطريق.  
كانت المشربة تقع أمام سبيل بين القصرين،  
ولتقي تحتها شارع النحاسين الذي ينحدر إلى الجنوب

١

عند منتصف الليل استيقظت، كما اعتادت أن  
تستيقظ في هذا الوقت من كل ليلة بلا استعانة من  
منبه أو غيره ولكن بإيحاء من الرغبة التي تبيت عليها  
فتواظب على إيقاظها في دقة وأمانة. وظلت لحظات  
على شك من استيقاظها فاختلطت عليها رؤى الأحلام  
ومهمات الإحساس، حتى يادوها القلق الذي يلتم بها  
قبل أن تفتح جفنها من خشية أن يكون النوم غابها  
فهزت رأسها هزة خفيفة فتحت عينها على ظلام  
الحجرة الدامس. لم يكن كمة علامة تستدل بها على  
الوقت، فالطريق تحت حجرها لا ينم حتى مطلع  
الفجر، والأصوات المتقطعة التي تترامى إليها أول  
الليل من سائر المفاهي وأصحاب الحوانيت هي التي  
تترامى عند منتصفه وإلى ما قبيل الفجر، فلا دليل  
تطمئن إليه إلا إحساسها الباطن - كأنه عرق ساحة  
واح - وما يشمل البيت من صمت يتم عن أن يعلمها لم  
يطرق بابه بعد ولم تضرب طرف عصاه على درجات  
سلمه.

هي العادة التي توقظها في هذه الساعة، عادة قديمة  
صاحبت شبابها منذ مطلعها ولا تزال تستأثر بكهولتها،  
تلقتها فيها تلقت من آداب الحياة الزوجية، أن  
تستيقظ في منتصف الليل لتتظر بعلمها حين عودته من  
سهرته فتقوم على خدمته حتى ينام. وجلس في  
الفراش بلا تردد لتتغلب على إغراء النوم الدائى  
وتسملت ثم انزلت من تحت الخشطاء إلى أرض  
الحجرة، ومضت تلمس الطريق على هدي عمود  
السرير وضلقة الشباك حتى بلغت الباب ففتحتة،  
فانساب إلى الداخل شمع خافت ينبعث من مصباح  
قائم على الكونصول في الصلاة، فدلقت منه وحملته

وحدها في البيت الكبير، وأن الشياطين لا يمكن أن  
تضلّ طويلاً عن هذه الحجرات القديمة الواسعة  
الخالية، ولعلها أوت إليها قبل أن تحمل هي إلى  
البيت، بل قبل أن ترى نور الدنيا، فكم دبّ إلى  
أذنيها همساتهم! وكم استيقظت على لفحات من  
أنفاسهم، وما من مغث إلا أن تتلو الفاتحة والصمدية  
أو أن تبرح إلى المشرية فتمدّ بصرها الزائع من ثوبها  
إلى أنوار العريات والمقاهي وترهف السمع لالتقاط  
ضحكة أو سعلة تستردّ بها أنفاسها.

ثم جاء الأبناء تبعاً ولكنهم كانوا أوّل عهدهم  
بالدنيا حقاً طرّاً لا يبدّد خوفاً ولا يملثن جانباً، وعلى  
العكس ضاعف من خوفها بما أثار في نفسها التهافت  
من إشفاق عليهم ويزعج أن يمسهم سوء، فكانت  
تحويم بذراعيها وتغمرهم بأنفاس العطف وتحيطهم في  
القبضة والنام بدرع من السور والأحبة والرقا  
والتعاويد، أما الطمانينة الحقّة فلم تكن يلتوقها حتى  
يعود الغائب من سهرته. ولم يكن غريباً وهي مفردة  
بطفلها تنوّم وتلاطفه، أن تضمّه إلى صدرها فجأة ثم  
تنتصت في وجل وانزعاج ثم يعلو صوته هائفاً وكأنها  
تخاطب شخصاً حاضراً: «أبعد عني، ليس هذا  
مقامك، نحن قوم مسلمون موحدون» ثم تتلو  
الصمدية في عجلة وهوجة. وعندما طالت بها معاشره  
الأرواح بتقدّم الزمن تحفّفت من غشافها كثيراً  
واطمأنت للرجوع إلى دعاباتهم التي لم تجرّ عليها سوءاً  
فكّ فكانت إذا تراسى إليها حسّ طائف منهم قالت في  
نبرات لا تخلو من دالة: «ألا تحترم عباد الرحمن! الله  
بيننا وبينك فاذهب عنا مكرّماً». ولكنّها لم تكن تعرف  
الطمانينة الحقّة حتى يعود الغائب، أجل كان مجرد  
وجوده بالبيت - صاحباً أو نائلاً - كفيلاً ببثّ السلام في  
نفسها، فتحت الأبواب أم أغلقت، اشتعل المصباح أم  
خمد. وقد خطر لها مرّة، في العام الأوّل من معاشرته،  
أن تعلن نوعاً من الاعتراض المؤدّب على سهره  
المواصل فما كان منه إلا أن أمسك بأذنيها وقال لها  
بصوته الجهوري في لهجة حازمة: «وأنا رجل، الأمر  
النهائي، لا أقبل على سلوكي أيّه ملاحظة، وما عليك

وبين القصرين الذي يصعد إلى الشبال، فبدا الطريق  
إلى يسارها ضيقاً ملتوياً متلفاً بظلمة تكثّف في أعاليه  
حيث تطلّ نوافذ البيوت الناعمة، وتحفّ في أسافله ممّا  
يلقى إليه من أضواء مصابيح عريات اليد وكلويات  
المقاهي وبعض الحوانيت التي تواصل السهر حتى  
مطلع الفجر، وإلى يمينها التّفّ الطريق بالظلام حيث  
يخلو من المقاهي، وحيث توجد المتاجر الكبيرة التي  
تغلق أبوابها مبكراً، فلا يلفت النظر به إلا ماذن  
فلاوون وبرقوق لاحت كأطياف من المركة ساهرة تحت  
ضوء النجوم الزاهرة. منظر ألقته منها العينان ربع قرن  
من الزمان ولكنّها لم تسأمه، ولعلّها لم تدبر ما السام  
طوال حياتها على رتابتها، وعلى العكس وجدت فيه  
أنيساً لروحيتها واليافاً لوحدها عهداً طويلاً عاشته وكأنه  
لا أنيس ولا أليف لها.

كان ذلك قبل أن ياتي الأبناء إلى هذا الوجود، فلم  
يكن يحوي هذا البيت الكبير - بفنائه الرّيب ويشره  
الصميقة وطابقي وحجراته الواسعة العالية الأسقف -  
سواها، أكثر النهار والليل. وكانت حين زواجها فتاة  
صغيرة دون الرابعة عشرة من عمرها، فسرعان ما  
وجدت نفسها، عقب وفاة حماها وسيدها الكبير ربة  
للبيت الكبير، تعاونها على أمره امرأة عجوز تغادرها  
عند جفوم الليل لتنام في حجرة القرن بالفناء تاركة  
ليّامها وحيدة في دنيا الليل الحافلة بالأرواح والأشباح،  
تفغو ساعة وتارق أخرى حتى يعود الزوج العتيد من  
سهره طويلة.

ولكي يطمئنّ قلبها اعتادت أن تطوف بالحجرات  
مصطحبة خادماتها مائة يدها بالمصباح أمامها فتلقي في  
أركانها نظرات متقصّصة خائفة ثم تتلقاها بإحكام،  
واحدة بعد أخرى، مبتدئة بالطابق الأوّل مُشّية بالطابق  
الأعلى، وهي تتلو ما تحفظ من سور القرآن دفّفاً  
لشياطين، ثم تنتهي إلى حجرتها فتغلق بابها وتندسّ  
في الفراش ولسانها لا يمسك عن التلاوة حتى يغليها  
النوم، ولشّد ما كانت تخاف الليل في عهدا الأوّل  
بهذا البيت، فلم يغب عنها - هي التي عرفت عن عالم  
الجنّ أضعاف ما تعرفه عن عالم الإنس - أنّها لا تعيش

الذي تحبه . هذا الطريق الذي تنام الطرق والمحاريق والأزقة ويقي ساهراً حتى مطلع الفجر، فكم سأل أرقها وأنس وحشتها وبُدد مخاوفها لا يثير الليل منه إلا أن يثني ما يحيط به من أحياء بالصمت العميق فيبهن لأصواته جواً تملو فيه وتوضح كأنه الظلال التي تملأ أركان اللوحة تضيئي على الصورة عمقاً وجلالاً، هذا ترون الضحكة فيه فكأنها تنطلق في حجرها، ويسمع الكلام العاديّ فتميزه كلمة كلمة، ويمتد السعال ويخشوشن فيترامى لها منه حتى خفاسته التي تشبه الأتین، ويرتفع صوت النادل وهو ينادي: «تعميرة نادية» كهتاف المؤذن فتقول لنفسها في سرور: «الله هؤلاء الناس..» حتى هذه الساعة يطلبون مزيداً من التعميرة، ثم تذكر بهم زوجها الغائب فتقول: «دُرى أين يكون سيدي الآن؟...» وماذا يفعل...؟  
فلتصحبهُ السلامة في الحبل والترحال. أجل قيل لها مرة إن رجلاً كالسيد أحمد عبد الجواد في ساره وقوته وجماله - مع سهره المتواصل - لا يمكن أن تخلو حياته من نساء. يومها تستمت بالغيرة وركبها حزن شديد، ولما لم تواثب شجاعتها على مشافهته بما قيل أفضت بحزنها إلى أمها، فجعلت الأم تنسج من خاطرها بما وسعها من حلو الكلام، ثم قالت لها: «ولقد تزوجك بعد أن طلق زوجته الأولى، وكان بوسعك أن يستردها لو شاء، أو أن يتزوج ثانية وثالثة ورابعة، وقد كان أبوه مزواجاً، فأمهدي ربنا على أنه أبداً زوجة وحيدة.» ولو أن حديث أمها لم ينجذ مع حزنها وقت اشتداده إلا أنها مع الأيام سلّمت بما فيه من حق ووجهة، فليكن ما قيل لها حقاً فلعلم من صفات الرجولة كالسهر والاستبداد، وشر على أي حال غير من شرور كثيرة، وليس من المين أن تسمح لوسواس بأن يفسد عليها حياتها الطيبة المليئة بالهنا والرهق، ثم لعل ما قيل بعد هذا كله أن يكون همها أو كلبها. ووجدت أن موقفها من الغيرة، شأنها حيال المتعاصب التي تترصّ سبيل حياتها، لا يعدو التسليم بها كقبضه نافذ لا تمكك حياله شيئاً، فلم تنبذ إلى وسيلة في مقاومتها إلا أن تنادي الصبر وتستعدي مناعتها

إلا الطاعة، فحاذري أن تدلّعي إلى تأديبك، فتعلمت من هذا الدرس وغيره مما لحق به أنها تطيق كل شيء.. حتى معاشر العفاريث - إلا أن يحمر لها عين الغضب، فعليها الطاعة بلا قيد ولا شرط، وقد أطاعت، وتغانت في الطاعة حتى كرهت أن تلومه على سهره ولو في سرها، وقر في نفسها أن الرجولة الحقة والاستبداد والسهر إلى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمة لجوهر واحد، ثم انقلبت مع الأيام تباهي بما يصدر عنه سواء ما يسرها أو يحزنها، وظلت على جميع الأحوال الزوجة المحبة الطمعة المستسلمة، ولم تأسف يوماً على ما ارتضت لنفسها من السلامة والتسليم، وإنها لتستعيد ذكريات حياتها في أي وقت تشاء فلا يطالها إلا الحير والغبطة، على حين تلوح لها المخاوف والأحزان كالأشباح الحاقوية فلا تستحق إلا ابتسامة رثاء. ألم تعاشر هذا الزوج بعلته ربع قرن من الزمان فجنّت من معاشرته أبناء هم قرّة عينها وبيتاً مترعها بالخير والبركة وحياة ناضجة سعيدة.. بل، أما مخالطة العفاريث فقد مرّت كما مرّ كل ليلة بسلام وما امتدّت يد أحدهم إليها أو إلى أحد من أبنائها بسوء اللهم إلا ما هو بالمزاح والمداعبت أشبه، فلا وجه للشكوى، ولكن الحمد كل الحمد لله الذي بكلامه أطمأن قلبها وبرحمته استقامت حياتها.

حتى ساعة الانتظار هذه، على ما تقطع عليها من اللبذ المنام وما تستاديا من خدمة كانت خليفة بأن تنتهي بزوال النهار، أحبتها من أحبا قلبها، فضلاً عن أنها استحالّت جزءاً لا يتجزأ من حياتها، ومازجت الكثير من ذكرياتها، فلأنها كانت ولم تزل الرمز الحي لحبها على بعلها وتغافنها في إسماعه، وإشعاره ليلة بعد أخرى بهذا الثنائي وذلك الحبيب. لهذا امتلأت أوتياخا وهي واقفة في المشرية، وراحت تغلّ بصرها خلال ثقوبها مرة إلى سبيل بين القصرين ومرة إلى منعطف الخرنفش وأخرى إلى بوابة حمام السلطان ورابعة إلى الماذن، أو تسرحه بين البيوت المتكاثرة على جانبي الطريق في غير تناسق كأنها طابور من الجنود في وقفة راحة تتخفّف فيها من قسوة النظام. وابتسمت للمنظر

هيته ووقاره، خالماً مزاحه الذي لولا استراق السمع لثقلت من مستحيل المستحيلات، ثم سمعت وقع طرف عصاه على درجات السلم فملت يدها بالمصباح من فوق الدرابزين لتتبر له سبيله.



وانتهى الرجل إلى موقفها فراحت تتقدمه رافعة المصباح، فتبعها وهو يتمتم:  
- مساء الخير يا أمينة.  
فقالت بصوت خفيض ينم عن الأدب والاحضوع:  
- مساء الخير يا سيدي.

وفي ثوانٍ احتوتها الحجرة، فانتهت أمينة إلى الحوان لتضع المصباح عليه، في حين علقت السيد عصاه بحافة شبّاك السرير وخلع الطربوش ووضعه على الوسادة التي تتوسط الكنية، ثم اقتربت المرأة منه لتتزع عنه ملابسه، وبدا في وقفته طويل القامة عريض التكوين ضخم الجسم ذا كرش كبيرة مكتنزة اشتملت عليها جميعاً جبّة وقطان في أنيقة وبجبة دلتا على رفاحية فوق وسفاه، ولم يكن شعره الأسود المنسبط من مفرقه على صفحتي رأسه في عناية بالغة، وخالفه ذو الفص الماسي الكبير، وساعته الذهبية، إلّا لتؤكد رفاحة ذوقه وسفاهه. أمّا وجهه فمستطيل الهيئة مكتنز الأديم قويّ التعبير واضح الملامح، يدلّ في جملة على بروز الشخصية والجمال بعيني الزرقاوين الواسعتين، وأنفه الكبير الأشمّ المنتسب على كبره مع بسطة الوجه، وفمه الواسع بشفتيه المعتلتين، وشاربه الفاسم الغليظ المقنول طرفاه بدقّة لا مزيد عليها. وليّا تدانث المرأة منه بسط ذراعيه فخلعت الجبّة عنه وأطبقتها بعناية ثم وضعتها على الكنية، وصادت إليه ففكت حزام القطن ونزعت وجعلت تدرجه بالعناية نفسها لتضعه فوق الجبّة، على حين تناول السيد جلبابه فارتداه ثم طاقته البيضاء فلبسها، وتمكّى وهو يتشاهب وجلس على الكنية ومضى ساقيه مسنداً قدامه إلى الحائط. وانتهت المرأة من ترتيب ملابسه فعدلت عند قدميه

الشخصيّة، ملاذها الأودح في مغالبة ما تكره، فانقلبت الغيرة وأسبابها، كطبّاع زوجها الأخرى وكعماشة المغايرت، ممّا تحتل.

جعلت تنظر إلى الطريق وتنصت إلى السّيار حتّى تراس إلى إليها وقع منابك جواد فعطفت رأسها صوب النّحامين فرأت (حظوراً) يقترب ويبدأ ومصباحه يستلّمان في الظلام، فتنبّدت في ارتياح وغمغمت وأخيراً... ها هو «حظور» أحد أصدقائه يوصله بعد السهرة إلى باب البيت الكبير ثم يمضي كالعادة إلى الحرنفش حاملاً صاحبه ونقرأ من الأصدقاء اللّين يقطنون هذا الحيّ، ووقف «الحظور» أمام البيت، وارتفع صوت زوجها وهو يقول في نبرات ضاحكة:  
- استودعكم الله...

وكانت تنصت إلى صوت زوجها وهو يودّع أصحابه بشغف ودهشة، ولولا أنّها تسمعه كلّ ليلة في مثل هذه الساعة لأنكرته، فما عهدت منه - هي وأبنائها - إلّا الحزم والوقار والتزّنت، فمن أين له هذه النبرات الطروب الضميمة التي تسيل بشاشة وردّة؟! وكان صاحب «الحظور» أراد أن يمازحه فقال له:

- أما سمعت ماذا قال الجواد لنفسه بعد نزولك من العربية؟ قال إنّ من المؤسف أن أوصل هذا الرجل كلّ ليلة إلى بيته وهو لا يستحقّ أن يركب إلّا حماراً...  
وانفجر الرجال بالعربة ضاحكين فانتظر السيد حتّى عادوا إلى السكن ثم قال بيّبه:

- أما سمعت بماذا أجابته نفسه؟ قالت إذا لم توصله أنت فسيركب البك صاحبنا...  
وضجّ الرجال ضاحكين مرّة أخرى. ثم قال صاحب العربة:

- فلنؤجل الباقي إل سهرة الغد...

وتحرّكت العربة إلى شارع بين القصرين والجه السيد نحو الباب فبادرت المرأة المشربة إلى الحجرة، وتناولت المصباح ومضت إلى الصالة، ومنها إلى الدهليز الخارجيّ حتّى وقفت في رأس السلم، وترامت إليها صفقة الباب الخارجيّ وهو يغلق، وانزلاق المزلاج، وتغيّلت وهو يقطع الفناء بقامته المديدة مستردّاً



الساعة إقبالاً منه في الحديث وتبسُّطاً في فنونه قلَّ أن تظهر بمثل في أوقلت إفاغته الكاملة. وإنَّها لتذكر كم ارتعت يوم أركت أنه يعود من سهرة مثلاً، واستدعت الحمر إلى ذمتها ما يقترن بها من وحشة وجنون وبغلة الدين وهي الألفظ، فتقرَّزت نفسها وركبها الذعر وعانت لدى عودته كلياً عاد الآثام لا يَلَّ لها بها. وعوضي الأيَّام والليالي بُت لها أنه حين عودته من سهرة يكون ألطف منه في جميع الأوقات، فيخفف من صرامته، وترقُّ ملاحظته، ويسترسل في الحديث، فاستأنست إليه وإطمانت وإن لم تشأ أن تضرع إلى الله أن يخفر له مصيبته ويحب عليه. ولكم ثمت لو يتعلِّع بنفس اللين النسبي وهو صالح متبه، وكم عجت هذه المعصية التي تترقُّ حواشيه، وتحبِّرت طويلاً بين ما نجد نحوها من كراهية دينية موروثة وبين ما نجي منها من راحة وسلام، ولكنَّها دفنت أفكارها في أحقاد نفسها، ودارتها مداراة من لا يطيق أن يعترف بها ولو فيها بينه وبين نفسه. أمَّا السيد فكان أحرص ما يكون على وقاره وحزبه، وما يصدر عنه من لطف لخلصة بصدور، ورعاً جرت على شفثه ابتسامه عريضة. في جلسته هذه - لذكرى طافت به من ذكريات سهرته السعيدة فصرغان ما يتبَّه إلى نفسه، ويطبق شفثه، ويسترق إلى زوجه نظرة فيجدها كعادتها بين يديه خافضة العينين، فيطمئن ويعود إلى ذكرياته. والحقُّ أنَّ سهرته لم تكن تنهي يعوده إلى بيته، ولكنَّها تواصل حياتها في ذكرياته، وفي قلبه الذي يجلبها إليه بقوة هم إلى مسرات الحياة لا يروى، وكأنه لا يزال يرى مجلس الألسن تزيَّته النخبة المختارة من أصدقائه وأصفيائه، ويتوسَّطه بدر من البندور التي تطلع في سياه حياته حيناً من بعد حين، وما برحت تطنُّ في أذنيه الدعايات واللطائف والناكات التي تجود قريحته بدورها إذا هزَّ السكر والطرب، وبغده اللُحج خاصَّة يراجعها في عناية واهتمام ينضغان بالمعجب والزهو، ويتذكر أثرها في النفوس وما لاقت من نجاح وإبتهاج جعلاه الحبيب الأوَّل لكلِّ نفس، ولا عجب فإنَّه كثيراً ما يشعر بأنَّ الدور الذي يلعبه في سهرته من

الملودتين وراحت تخلع حذاءه وجوريه، وليَّاً كشف قلعه اليمى بدا أوَّل عيب في هذا الجسم المائل الجميل في خصره الذي تآكل من توالي الكشط بالموسى في موضع كاللؤلؤ مزمن. وغادرت أمانة الحجره فغابت دقائق ثمَّ صادت بطست وإسريق، فوضعت الطست عند قدمي الرجل ووقفت والإبريق في يدها. حلَّ أهبة الاستعداد، فاستوى السيد في جلسته ومدَّ لها يديه فصبَّت له الماء ففعل وجهه ومسح على رأسه وتغمض طويلاً، ثمَّ تناول المنشفة من فوق مسند الكنية ومضى يخبِّف رأسه ووجهه ويديه بينما حلت المرأة الطست وذهبت به إلى الحمام. كانت هذه الخدمة آخر ما تؤدِّي من خدمات في البيت الكبير، ولد واطبت عليها ربع قرن من الزمان يميَّة لا يعتريا الكلال، بل في سرور وانسراح، ويتبسَّ الحماس الذي يستغرُّها إلى النهوض بواجبات البيت الأخرى من قبيل مطبخ الشمس حتَّى فيها، فاستحقت من أجله أن يطلق عليها جاراتها اسم «النحلة» لدأبها ونشاطها الثواصلين.

وصادت إلى الحجره فأغلقت الباب وسحبت من تحت السرير شلَّة فوضعتها أمام الكنية وترتَّمت عليها إذ لم تكن ترى لنفسها الحقَّ في أن تجلس إلى جانبها تداًباً. ومضى الوقت وهي ملازمة الصمت حتَّى يدهوها إلى الكلام فتكلم، وتراخى ظهر السيد إلى مسند الكنية، وبدا عيب سهرته الطويلة متبَّاً فنقل جفناه اللدان جرى في أطرافها احمرار طارئ من أثر الشرب، وجعل يزرغ أنفاساً ثقيلة غمورة. ومع أنَّه كان يعاقر الحمر كلَّ ليلة، إلى إفراط في الشرب حتَّى السكر، إلَّا أنَّه لم يكن ليقرَّر العودة إلى بيته حتَّى تزيله سورة الحمر ويستعيد سيطرته على نفسه حرصاً منه على وقاره والمظهر الذي يجب أن يبدو به في بيته. وكانت زوجه الشخص الوحيد من آل بيته الذي يلقاه في أعقاب سهرته، ولكنَّها لم تلمس من آثار الشرب إلَّا رائحته، ولم تلاحظ على سلوكه شلوذاً مريباً، إلَّا ما كان يبدو منه أوَّل عهده بزواجها وقد تناست، وعلى العكس من المنتظر جنت من مصاحبتها له في هذه

تبيته في أعقابها لأسلوب طيب من الحياة هو الذي تلهّف عليه زوجها المطيعة المستسلمة حين تجدد نفسها بين يدي رجل حلو المعشر يتبسّط معها في الحديث ويفضي إليها بما في طويته على نحو يشعرها ولو إلى حين بأنّها ليست جارية فحسب ولكتّها شريكة حياته أيضًا. وهكذا راح يحدّثها عن شئون البيت فأبناها بأنّه أوصى بعض التجار من معارفه على شراء خزين البيت من السمن والقمح والحب، وجعل يحمل على ارتفاع الأسعار واخضاه المواد الضرورية بسبب هذه الحروب التي تطحن العالم منذ ثلاثة أعوام، وكعادته كلّما ذكر الحرب اندفع يلحن الجنود الأستراليين الذين ينتشرون في المدينة كالجراد ويمشون في الأرض الفسّاد. والحقّ أنّه كان يحنّ على الأستراليين لسبب خاصّ به وهو أنّهم بجبروتهم حالوا بينه وبين مجالي اللهو والطرب في الأزيكّة فارتدّ عنها مغلوبًا على أمره - إلّا في القليل النادر من غشّاس الفرص - لأنّه لم يكن يسمح أن يعرّض نفسه للجنود الذين يسلبون الناس متاعهم جهارًا ويتسلّون بصبّ ألوان الاعتداء والإهانة عليهم بخير رادع. ثمّ مضى يسأل عن حال الأولاد كما يدعوهم بلا تفرقة بين كبيرهم الكاتب بمدرسة النحاسين وصغيرهم التلميذ بمدرسة خليل أغا ثمّ تسال بلهجة ذات معنى:

- وكها!؟ إناك وإن تسرّي على شيطنته!

فذكرت المرأة ابنها الصغير الذي تسرّ عليه حقًا فيها لا خطر له من اللعب البريء، وإن كان السّد لا يعترف ببراءة أيّ لون من ألوان اللعب واللهو، وقالت بصوتها الخافت:

- إنّه يلتمز أوامر أبيه.

وصمت السيّد قليلاً فبدأ كالشارد، وعاد يقطف من ذكريات ليله السعيدة، ثمّ تراجع مؤثّر ذاكرته إلى ما سبق سهرته من أحداث يومه فذكر فجأة أنّه كان يومًا حافلًا، ولما كان في حال لا يستحبّ منها كتاب شيء مما يظف على سطح الرمي فقد قال وكأنّه يخاطب نفسه:

- يا له من رجل كريم الأمير كها الدين حسين!

الخطورة كأنّه أمل الحياة المنشودة، وكأنّ حياته العمليّة بجملتها ضرورة يؤدّيها في سبيل الفوز بساعات مترعة بالشراب والضحك والغناء والعشق يقضيها بين صحبه وخلصائه، وبين هذا وذلك تسجع في باطنه أنغام حلوة لطيفة ثمّ تردّد في المجلس السعيد فذهب معها وجاء وهتف وراءها من أعماق قلبه: «آه... الله أكبر»، هذا الغناء الذي يحبّه ما يحبّ الشراب والضحك والصحاب والبور، فلا يطيق أن يخلو منه مجلسه، ولا يابه للشفقة البعيدة يقطعها إلى أطراف القاهرة لسمع الحامولي أو عثمان أو المليلاوي حيثما تكون مغانيهم، حتّى آوت أنغامهم إلى نفسه السخية ما تأوي البلباب إلى شجرة مورق، فاكسب دراية بالنغم والمذاهب وتوجّح حجة في السمع والطرب، وكان يحبّ الغناء بروحه وجسمه، أمّا روحه فتطرب وتغمرها الأريحية، وأمّا جسمه فتحتاج حوائص وترقص أطرافه خاصة الرأس واليدان، ولهذا احتفظت نفسه لبعض المقاطع الغنائية بذكريات روحية وجسدية لا تنسى، مثل: «وليه بقى تلاويك وهجرك» أو «يا ما بكرو نعرف..» وبعده نشوف» أو «اسمع بقى وتعالى لينا أقول لك» وكان حسبه أن تغرّ إليه نغمة من هذه النغبات معانقة حواشيها من الذكريات كي تهبّج موطن السكر من نفسه ليهزّ رأسه طربًا وترقّ على شفّيته ابتسامة أشواق ويفرقع بأصابعه وقد يشدو مترنمًا إذا كان إلى نفسه خاليًا، ومع هذا فلم يكن الغناء هو متفرّدًا يجلبه لذاته فحسب، ولكنّه كان زهرة في طاقة يجلو بها وتحلو به ومرحبًا بين الصديق الصافي والحبيب السوئي والشراب الملتق والملمحة اللطبة، أمّا أن يصفو له وحده - كما يتلقّى في البيوت عن الفونوغراف - فهو جميل حبيب بلا شك، ولكنّه غاب عن جوه ويسته وملابساته، وهيئات أن يقطع به القلب، إنّه يتوق إلى أن يفصل بين النغمة والنعمة بنكتة تهنّئ لها النفوس، وأن يسابق التزجيد بالتهل من كأس مترعة، ويرى أثر التطرب في وجه الصديق وهين الحبيب، ثمّ يتعاونون جيمًا على التهليل والتكبير. يبيد أنّ السهرة لم يقتصر أثرها على بحث الذكريات، فمن مزاياها أيضًا أنّها

سمعت السيد وهو يتجشأ فتمتت :  
- صَحةٌ وعافية... .

### ٣

وفي هدوء الصباح الباكر، وفيول الفجر لا تزال ناشبة في أسهم الضياء، تعالى صوت المجرين من حجرة الفرن بالفناء في ضربات متتابعة كدويّ الطبل، وكانت أمانة قد غادرت الفراش قبل هذا بنحو نصف ساعة. فتوضّأت وصَلَّتْ ثُمَّ نزلت إلى حجرة الفرن فأيقظت أمّ حنفي - امرأة في الأربعين خدمت وهي صبيّة بالبيت وفارقتها للزواج ثُمَّ عادت إليه بعد طلاق - وبينما غضبت لخدمتها لتعجن عكفت أمانة على إعداد الفطور. وكان للبيت فناء مُتَّسع، في أقصاه إلى اليمين بئر سَدَّتْ فُوهتها بعارض خشبيّ مدّ بَيْتَ أقدام الصغار على الأرض وما تبع هذا من إدخال مواشير المياه، وفي أقصى اليسار على كُتب من مدخل الحرم حجرتان كبيرتان أقيمت الفرن في إحداها واستعملت بالتالي مطبخاً، وأعدّت الأخرى غُرّاً. وكان لحجرة الفرن حل عزلتها علاقة بقلعها لا تُبْنى، فلو حُصِبَ الزمن الذي قضته بين جدرانها لكان عمراً، إلى ما تَنَزَّهَ به الحجرة من مباحج المراسم عند حلولها حين تتطلّع إليها القلوب الماشئة لأفراح الحياة، وتتعلّب الأفواه لألوان الطعام الشهية التي تقدّمها موسماً بعد موسم كخشاف رمضان وقطائفه، وكعد عيد الفطر ولطائره، وخروف عيد الأضحي الذي يسنن ويدلّل ثُمَّ يذبح على مشهد من الأبناء فلا يقدم دمة رثاء وسط هجة شاملة، هنالك تبلو عين الفرن الموقّسة يلوح في أحياها وهج النار كجلوة السرور المشتعلة في السرائر وكأثا زينة العيد وبشائره. وإذا كانت أمانة تشعر بأنّها في أعلى البيت سيّدة بالنبالة ومُكَلَّمة لسلطان لا تملك منه شيئاً، فهي في هذا المكان ملكة لا شريك لها في ملكها، فهذه الفرن تموت ونحيا بأمرها، وهذا الوقود من فحم وحطب في الركن الأيمن يتوقّف مصيره على كلمة منها، والكانون الذي يمتلئ الركن المقابل تحت رفوف الحللى والأطباق والصينيّة النحاسية ينم أو

أما علمت بما فعل...؟ أم أن يعتلي حرش أبيه للترقى في ظلّ الإنجليز.

ومع أنّ المرأة علمت ب وفاة السلطان حسين كامل أمس إلّا أنّها كانت تسمع اسم ابنه لأوّل مرّة، ولم تجد ما تقول ولكتّها - مدفوعة بعواطف الإجلال للمتكلم - كانت تخاف ألاّ تملّك على كلّ كلمة يقولها بما يرضيه فقالت :

- رحم الله السلطان وأكرم ابنه.

فاستطرد السيد قائلاً :

- وقبل العرش الأمير أحمد فؤاد أو السلطان أحمد فؤاد كما سيدهي من الآن فصاعداً، وقد تمّ الاحتفال بتوليته اليوم فانتقل في موكبه من قصر البستان إلى سراي عابدين... وسبحان من له الدوام. وأصغت أمانة إليه باهتمام وسرور، اهتمام يستثيره في نفسها أيّ نبأ يجيء من العالم الخارجي الذي تكاد لا تعرف عنه شيئاً، وسرور يبعثه ما تجد في حديث بلغها معها عن هذه الشؤون الخطيرة من لفظة عطف تزدعيمها، إلى ما في الحديث نفسه من ثقافة يلدّها أن تعيدها على مسمع من أبنائها وخاصة فتاتيهما اللتين تجهلان مثلها العالم الخارجي جهلاً تاماً، ولم تجد لتجزيه عن كريم عطفه خيراً من أن تردّد على مسمعه دعاء تعلم مقدّماً بقصد ارتياحه إليه كما ترتاح إليه هي من أحياها فقالت :

- ربّنا قادر على أن يعيد إلينا أفندينا عباس.

فهزّ الرجل رأسه ونغم قائلاً :

- متى...؟ متى...؟ علم هذا عند ربّي... ما نقرأ

في الجرائد إلّا عن انتصارات الإنجليز، فهل يتصورون حقاً أو يتصور الألمان والترك في النهاية؟ اللهم استجب... .

وأخفض الرجل حينه إعياه، وتساب، ثُمَّ تمكّى وهو يقول :

- أخرجني المصباح إلى الصلاة.

وبضت المرأة قائمة وذهبت إلى الحوان فتناولت المصباح وضت إلى الباب، وقبل أن تجرّوز العتبة

استيقاظه أسوأ أوقات يومه جيئاً، ينادر الفراش مترجاً من الإعياء والدوار، ويستقبل حياة عاطلة من حلو الذكريات ولطيف المشاعر وكأنتها تستحيل دقاً في الدماغ والجفون.

وتوالت دقات العجيج على رموس النائمين بالدور الأول فاستيقظ فهمي، وكان استيقاظه يسيراً على رغم سهره عاكفاً على كتب القانون، فإذا استيقظ فآوّل إحساس يبادره صورة وجه مستدير تتوسط صفحته العاجية عينان سوداوان فيهمس باطنه قائلاً: «مرهم»، ولو أذهن لسلطان الإغراء للبت تحت الغطاء طويلاً، نخالاً إلى الخيال الزائر الذي جاء يصحبه بالطف الهوى، فيزني إليه ما دعاه الشوق ويبادل الحديث ويروح له بأسرار وأسرار، ويتدأ إلى بجساره لا تتأق في غير هذا الرقاد الدافئ في مطلع الصباح، ولكنه كصادته أجبل نجواه إلى صباح الجمعة وجلس في فراشه، ثم مدّ بصره إلى أنفه النائم في الفراش الذي يليه وهتف:

- ياسين... ياسين... أضح.

انقطع شخير الشاب، ونفخ فيما يشبه الضيق وقتم من أنفه:

- صاح... استيقظت قبلك.

فانتظر فهمي مبتسماً حتى عاود الآخر شخيره فصاح به:

- أضح...

تقلب ياسين في فراشه متلجراً فانهصر الغطاء من جانب من جسمه الذي يضاهي جسم والده ضخامة وبدانة، ثم فتح عينين حمزتين تلوح لهما نظرة غائبة ارتسمت فوقها تقطعية تنطق بالتملأ: «أف... كيف طلع الصباح بهذه السرعة... لماذا لا ننام حتى نشبع... النظام... دائماً النظام... كائننا عسكري، ونهض معتمداً على يديه وركبتيه وهو يمزك رأسه لينفض عنه التماس فلاحته منه الثغاة إلى الفراش الثالث حيث يفك كمال في نومه الذي لن ينترعه منه أحد قبل نصف ساعة فينبط عليه «يا له من غلام سعيد!». ولما أفاق قليلاً ترتع على الفراش وأسند

يزهرد بالسنة الذهب بإشارة منها. وهي هنا الأم والزوجة والاساتذة والفنانة التي يترقب الجميع والثقة ملء قلوبهم ما تقدم يداها، وآية ذلك أنها لا تفوز بإطراء سيدها إذا تفصل بإطرائها إلا عن لون من الطعام أحكمت صنعه وطويه، وأم حنفي كانت اليد اليمنى في هذه المملكة الصغيرة، سواء تصدّت للإدارة والعمل أم تخلّت عن مكانها لإحدى فتياتها لتتمرس بقفها تحت إشرافها، وهي امرأة بدينة في غير تنسيق ولا تفصيل، ثما لحمها ثموا سخياً فراش في ثمره السمنة لحسب وأهمل اعتبارات الجمال، بيد أنها رضيت عنه كلّ الرضا لأنها كانت تعدّ السمنة في ذاتها الجمال كلّ الجمال، ولا حجب فقد كان كلّ عمل لها في البيت يكاد يعدّ ثانوياً بالقياس إلى واجبها الأول وهو تسمين الأسرة - أو بالأحرى إنائها - بما تعدّ هنّ من «بلاييع» سحرية هي رغبة الجمال وصره للكون، ومع أنّ أثر البلاييع لم يكن ناجحاً دائماً إلا أنه برهن على جدارته في أكثر من مرة فاستحق ما ينط به من آمال وأحلام. فليس عجيباً بعد هذا أن تسمن أم حنفي، حل أنّ سميتها لم تقلل من نشاطها، فما إن أبطلتها سيدها حتى نهضت بنفس متفتحة للعمل، وخضت إلى «ماجور» العجيج. وتعالى صوت العجيج الذي يؤذي وظيفة جرس المنبّ في هذا البيت، فترامى إلى الأبناء في الدور الأول، ثم تصاعد إلى الأب في الدور الأعلى، منلراً الجميع بأن وقت الاستيقاظ قد أوف. وتقلب السيد أحمد عهد الجواد على جنبه ثم فتح عينه، وسرهان ما قُطب حانقاً على الصوت الذي أزعج منامه، ولكنه كظم حنقه لأنه كان يعلم أنّه يجب أن يستيقظ، وتلقى أول إحساس ينلقاه عادة عقب استيقاظه وهو ثقل الرأس فقاومه بقوة إرادته وجلس في فراشه وإن كانت تغلبه الرغبة في معاودة النوم. ولم تكن لياليه الصاعية لتسببه واجب النهار، فهو يستيقظ في هذه الساعة الباكرة مهما تأخر به وقت النوم حتى يتسنى له اللعاب إلى متجره قبيل الثامنة، ثم له في القيلولة فسحة من وقت يعتاض بها عما فاتته من نوم، ويستعيد نشاطه للسهرة الجديدة. لهذا كان وقت

أصحابه، وغير الوجه الحازم الصارم الذي يواجه به آل بيته، هذا وجه خاضع الجناح تقطر التقوى والحب والرجاء من قسيته المتراخية التي ألانها التزلف والتؤدب والاستغفار. لم يكن يصلي صلاة آليّة قوامها التلاوة والقيام والسجود، ولكن صلاة عاطفة وشعور

واحساس يؤذيها بنفس الهماس الذي ينفضه على ألوان الحياة التي يتقلب فيها جميعاً، كما يعمل فيضاً في عمله، ويصادق فيفرط في موقفه، ويعشق فيذوب في عشقه، ويسكر فيفرق في سكره، خلاصاً صادقاً في كلِّ حال. هكذا كانت الفريضة حجةً روحيةً يطوف فيها برحاب المولى، حتى إذا اقتفل من صلاته ترتع ويسط راحته وراح يدعو الله أن يكلاه برعايته ويغفر له ويبارك في ذنوبه وتجارته.

وفرغت الأم من تجهيز الفطور فتزكت للفتاتين إعداد الصينية وطلعت إلى حجرة الإخوة حيث وجدت كمالاً ما زال يغط في نومه، فاقبلت عليه باسمة وحطت راحتها على جبينه وثلت الفاتحة، وجعلت تناديه وتهزّه برفق حتى فتح عينيه، ولم تدعه حتى يفرق الفراش. ودخل فهي الحجرة فلما رآها ابتسم إليها وحياها تحية الصباح فردت عليه قائلة ونظرة الحب تفرق في عينها:

- صباح النور يا نور العين.

وبنفس الرقة صبحت على ياسين وابن زوجها فردّ عليها بمودة خليقة بالمرأة التي تنزل من نفس منزلة الأم الجديرة بهذا الاسم. ولما عادت خديجة من حجرة الفرن تلقاها فهي وياسين - وياسين خاصة - بما يغمرانها به عادة من دعاية. وكانت ثمار دهابة سواء بصورتها المتناثرة أو بلباسها الحاذق رغم ما لها من نفوذ على الأخوين بما تتمتع من شؤونها بمهارة فائقة يندر أن تجود بمثلهما عائشة التي تلوح وسط الأسرة كالرمز الجميل رواء وجاذبية وعدم فائدة. ويادها ياسين قائلاً:

- كنتا نتحدث عنك يا خديجة، وكنتا نقول إنه لو كان النساء جميعاً على شاكلتك لارتاح الرجال من متاعب القلوب.

رأسه إلى يديه، ورغب في معابة الخواطر اللذيلة التي تحملوها أحلام اليقظة ولكنه كان يستيقظ - كأيّه - على حال من ثقل الرأس تتعطل معها الأحلام، ولاحت لمخيلته زئوبة المودة فلم تترك في حساسيته أثراً مما تترك في صحوه وإن افترت شفتاه من ابتسامة.

وفي الحجرة المجاورة كانت خديجة قد غادرت الفراش دون حاجة إلى متبّه العجين. كانت أشبه الأسرة بأنها في نشاطها ويقظتها، أما عائشة فتستيقظ عادة على الحركة التي كانت تنبعث في السرير من نبض شقيقتها وإنزالها إلى أرض الحجرة في صف متمم مجز وراه جداً وملاحة انقلاباً مع التكرار نوعاً من الدهابة الفظة، فإذا استيقظت وفزعت من النفاذ لم تنهش، ولكنها تستسلم لحلم طويل من أحلام اليقظة السعيدة قبل أن تغادر فراشها.

ثم دبّت الحياة فشملت الدور الأول كله، ففتحت النوافذ وتدفق النور إلى الداخل وعلى أثره هذا الهواء حاملاً صلبة عجالات سوارس وأصوات العيال ونداء بالغ البليدة، وتواصلت الحركة ما بين غرفتي النوم والحمام وبدا ياسين في جلبابه الفضفاض بلحمه المتكتل، وفهي بطوله الفارع وقبّله النحيف وكان - فيما عدا نحافته - صورة من أبيه. وهبطت الفتاتان إلى الفناء لتلحقا بأمتها في حجرة الفرن، وكان في صورتها اختلاف قبل أن يوجد مثله في الأسرة الواحدة، خديجة سمراء وفي قسامة وجهها تنافر ملحوظ، وعائشة شقراء تشع هالة من حسن ورواء.

مع أن السيد أحمد كان في الدور الأعلى بمفرده إلا أن أمينة لم تدعه في حاجة إلى إنسان. وجد على الخوان طبق فنان ملوفاً حلبة ليغير ريقه عليها، وذهب إلى الحمام فتنظر إلى أنفه حرف البخور الطيب، وألقى على الكرسي ثياباً نظيفة مرتبة في عناية، فاستحم بالماء البارد كمادته كل صباح - عادة لا ينقطع عنها شيئاً أو شتاء - ثم عاد إلى حجرته مستجداً حيوية ونشاطاً، ثم

جاء بسجادة الصلاة - وكانت مطوية على مسند الكنية - فبسطها وأتى فريضة الصبح، صلى بوجه خاشع، وهو غير الوجه البسم المشرق الذي يلتقي به

فقلت هل البداة:

- ولو كان الرجال على شاكلتك لارتاحوا جميعاً من متاعب الروموس...  
عند ذلك هضت الأم قائلة:  
- أعد الفطور يا سادة.

## ٤

كانت حجرة الطعام بالدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم والوالدين، وكان بنفس الدور غير هاتين الحجرتين أخرى للجلوس وأربع خالية إلا من بعض أدوات اللب التي يلهو بها كمال في أوقات فراغه. وكان الساط قد أعد وصُتت حوله الثلث، ثم جاء السيد فتصنّره مترنماً، ودخل الإخوة الثلاثة تباعاً فجلس ياسين إلى يمين أبيه، وفهمي إلى يساره، وكمال قبائته. جلس الإخوة في أدب وخشوع، خاضعي الروموس كأنهم في صلاة جامعة، يستوي في هذا كاتب مدرسة النحاسين وطالب مدرسة الحقوق وتلميذ خليل آغا. فلم يكن أحد منهم ليجترئ على التحديق في وجه أبيه. وأكثر من هذا كانوا يتجنبون في عصره تبادل النظر أن يغلب أحدهم الانتماس لسبب أو لآخر فيعرض نفسه لزجرة خفيفة لا يقبل له بها. ولم يكن يجمعهم بأيهم إلا عباس الفطور لأنهم يهودون إلى البيت عصرًا بعد أن يكون السيد قد غادره إلى دكانه عقب تناول الغداء والقبلولة، ثم لا يعود إليه إلا بعد منتصف الليل، وكانت الجلسة على قصر مدتها شديدة الوطأة على نفوسهم بما يلتزمون فيها من أدب عسكري إلى ما يركبهم من رهبة تضاعف من حساسيتهم وتحميلهم عزيمة للهفوات بطول تفكيرهم في تمامها، فضلاً عن أن الفطور نفسه يتم في جو يفسد عليهم تذوقه واستلذاده، ولم يكن غريباً أن يقطع السيد الفترة القصيرة التي تسبق مجيء الأم بصينيتي الطعام في تفحص أبنائه بعين ناقلة حتى إذا حثر على خلل ولو تافه في هيئة أحدهم أو بقعة في ثوبه انبال عليه نهراً وتأنباً، وربما سأل كمال بغلظة: «غسلت يديك؟» فإذا أجابه بالإيجاب قال له أمراً: «أزنيها» فيسقط الغلام

كفّيه وهو يزدد ريقه فرقاً، وبدلاً من أن يشجعه على نطافته يقول له مهدداً: «إذا نسيت مرة أن تغسلها قبل الأكل قطعتهما وأرحكك منها». أو يسأل فهمي قائلاً: «أذكر ابن الكلب دروسه أم لا؟» ويعرف فهمي بالبداية من يعني لأن «ابن الكلب» عند السيد كناية عن كمال فيجيب بأنه يحفظ دروسه جيّداً. والحق أن شطارة الغلام - التي استوجب عليها حتى أبيه - لم تقعد به عند الجذ والاجتهاد كما يدل عليها نجاحه وتفوقه، ولكن السيد كان يطالب أبنائه بالطاعة العمياء الأمر الذي لا يطيقه غلام اللعب أحب إليه من الطعام، ولهذا يملأ على إجابة فهمي قائلاً بامتعاض: «الأدب مفضل على العلم»، ثم يلتفت إلى كمال ويستطرد بحدة: «سامع يا بن الكلب».

وجاءت الأم حاملة صينية الطعام الكبيرة فوضعتها فوق الساط وتقهقرت إلى جدار الحجرة على كتب من خوان وضمت عليه «قلاة»، ووقفت متأهبة لتلبية آية إشارة. وكان يتوسط الصينية النحاسية اللامعة طبق كبير بيضوي امتلا بللمس المقل بالسمن والبيض، وفي أحد طرفيها تراكت الأربعة الساخنة، وفي الطرف الآخر صنت أطباق صغيرة بالجبن، والليمون والفلفل المخلّل، والشطة والملح والفلفل الأسود، فهاجت بطون الإخوة بشهوة الطعام، ولكنهم حافظوا على جودهم متجاهلين المنظر البهيج الذي أنزل عليهم كأنه لم يحرك لهم ساكناً، حتى مد السيد يده إلى رفيف فتناوله ثم شطره وهو يتمتم: «كلوا»، فامتدت الأيدي إلى الأربعة في ترتيب يتبع السن، ياسين ففهمي ثم كمال وأقبلوا على الطعام ملتزمين أدبهم وحياهم. ومع أن السيد كان يلتهم طعامه في ورة وحجلة وكان فكاه شطراً آلة قاطعة تعمل في سرعة وبلا توقف، ومع أنه كان يجمع في لقمة كبيرة واحدة من شتى الألوان المبدمة - الفول والبيض والجبن والفلفل والليمون المخلّلين - ثم يأخذ في طحنها بقوة وسرعة وأصابعه تُعدّ للغة التالية، إلا أنهم كانوا يأكلون متمولين في أناة بالرغم مما يحتملهم من صبر لا يتحقق وطبيعتهم الحامية، فلم يكن لهيب عن

أحدهم ما قد يتعرض له من ملاحظة شديدة أو نظرة قاسية إذا تهاون أو ضعف فنتي نفسه وغفل بالتالي عما يخالطها به من التآني والأدب. وكان كمال أشدهم تبرؤاً لأنه كان أعظمهم تحوقاً من أبيه، وإذا كان أكثر ما يتعرض له أحد أخويه عرة أو زجرة فأنزل ما يتعرض له هو ركلة أو لكمة، فلذلك كان يتناول طعامه في حذر وضيق، مسترقاً النظر بين آونة وأخرى إلى المتبقي من الطعام الذي يتناقص سريعاً، وكلما تناقص اشتد قلقه، وانتظر في جزع أن يصدر عن أبيه ما يذلّ على فراقه من طعامه فيخلو له الجوّ ليملا بطنه. وعلى رغم سرعة أبيه في الاتهام وضخامة لقمته وتشبّهما بشقّ الاصناف كان يعلم بالتجربة أنّ ما يتهدّد الطعام - وما يتهدّد هو بالتالي - من ناحية أخويه أشدّ وأكبر، لأنّ السيّد كان سريع الأكل سريع الشبع، أمّا أخواه فكانا يبدآن المعركة حقاً عقب جلالة السيّد عن السفرة، ثمّ لا يتخلّيان عنها حتّى تغلو الأطباق من كلّ شيء يؤكل، ولهذا فما كاد السيّد ينهض قائماً ويفارق الحجر حتّى شمر عن ساعديه وهجم على الطبق كالجنون مستغلاً يديه اللاتين، يداً للطبق الكبير، ويداً للأطباق الصغيرة، يبدّ أن اجتهدوا بدا قليل الجدوى فيما انبعث من نشاط الآخرين فلجأ إلى الحيلة التي يستغيث بها كلّها. هدّد سلامته مهدّد في مثل هذه الحال، وهي أن يعطس في الطبق عامداً متعمّداً، وعطس، فتراجع الأخوان، ونظروا إليه حائقين، ثمّ غادروا المائدة وهما غارقين في الضحك، فتحقّق له حلم الصباح وهو أن يجد نفسه وحيداً في الميدان.

وعاد السيّد إلى حجرته بعد أن غسل يديه فلحقت به أمينة ويدها قدح مزجت به ثلاث بيضات نيّات بغليل من اللبن وقمّته له فتجرّعه ثمّ جلس ليحسو قهوة الصباح، ولهذا القدح الدمس خاتمة فطوره، وهو «وصفة» من وصفات يداوم عليها بعد الوجبات أو فيها يبنها - كزيت السمك، والجوز واللوز والبندق المسكّر - رعاية لصحّة بدنه الضعيف، وتعمييضاً له عمّا تستهلكه منه الأهواء، إلى اقتصاره على اللحوم بأنواعها والأغذية المشهورة بدسمها حتّى ليعدّ الأكلة

الخفيفة بل والعادية «لعباً» وتضييع وقت» لا يميلان بمثله. وقد وصّف له الحشيش كفاتح للشهية - إلى فوائده الأخرى - فجربه ولكنه لم يلقه وانصرف عنه غير آسف وقد ساء به ظنّه لما يورث من ذهول وقور مشيع بالهدوء ميّال للصمت مشعر بالانفراد ولو بين الصقوة من الأصداقاء، فغفر من أهراضه تلك التي تتجافى مع سجيّته المولمة بصبوات المرح ونشوات الهياج ولذات الاندماج في النفوس ووثبات الزواح والقهقهة، ولكيلا يفقد مزايده الضرورية لفصول العشاق احتاض عنه بنوع نفيس من المنزول اشتهر به محمد المجعي بائع الكسكي عند مطلع الصالحية بالصاغة، وكان يعلّمه خاصّة لصفوة زبائنه من التجّار والأعيان، ولم يكن السيّد من مدعي المنزول ولكنه كان يلمّ به بين حين وآخر كلّما استقبل هوى جديداً خاصّة إذا كانت المشوقة امرأة خبيرة بالرجال وأحوالهم. فرغ السيّد من حسو قهوته ثمّ نهض إلى المرأة وداح يرتدي ملبسه التي قدّمها إليه أمينة قطعة قطعة، والتي على صورة هندامه نظرة متفحصة، ومشط شعره الأسود المرسل على صفحتي رأسه، ثمّ سوّى شاربه وفتله، وتقرّس في هيئة وجهه ثمّ عطفه رويداً إلى اليمين ليرى جانبه الأيسر، ثمّ إلى اليسار ليرى جانبه الأيمن، حتّى إذا ارتاح إلى منظرة مدّ يده إلى زوجته فنالته زجاجة الكولونيا التي عبّأها له عمّ حسين الحلاق فغسل يديه ووجهه ونضح صدر قفطانته ومنديلته، ثمّ وضع الطربوش على رأسه وأخذ عصاه وغادر الحجر ناضراً بين يديه ومن خلفه عرفاً طيّباً. ذلك القرف المفطر من شقّ الأزهار يعرفه أهل البيت جيّماً، وإذا تشقّقه أحدهم بمثل لعينيه السيّد بوجهه الوقور الحازم، فينبعث في قلبه - مع الحبّ - الإجلال والخوف. إلّا أنّ انتشاره في هذه الساعة من الصباح كان إبدائياً بذهاب السيّد، فالتفوس تلقّاه بارتياح غير منكور على برامته، كارتياح الأسير إلى صلايل السلاسل وهي تنفكّ عن يديه وقدميه، ويعلم كلّ باتّه سيستردّ حرّيته عمّا قليل في الكلام والضحك والغناء والحركة دون ثمة خطر. كان ياسين وفهمي قد فرغا من ارتداء ملابسهما، أمّا

تلكأت عائشة حتى خلا لها الجوف فانتقلت إلى جانب المشربية المطل على بين القصرين ومدّت بصرها من ثقب الشباك في اهتمام ولغة. بدا من لمعة عينها وعصها حل شفتيها أنّها تنتظر. ولم يطل بها الانتظار فقد مرق من عطفة الخرنفش ضابط بوليس شاب ومضى مقلًا متمهلاً في طريقه إلى قسم الجالية، عند ذلك صادرت الفتاة المشربية في عجلة إلى حجرة الاستقبال، وانجهمت إلى نافذتها الجانبية وأدارت أكرتها ففرجت مصراعها من زيق ووقفت وراءه وقلبا بهمت ضربات بالغة العنف من العاطفة والظوف ممّا، ولما اقترب الضابط من البيت رفع عينه في حذر دون أن يرفع رأسه - فلم يكن أحد يرفع رأسه في مصر وتذكّك - فأضاهت أساريره بنور ابتسامة متوازية انمكست على وجه الفتاة إشراقة مؤرّدة بالحياه فتهدّت... ثمّ أغلقت النافذة وهي تشدّ عليها بعصبية - كأنها تخفي آثار جريمة دامية - وتراجعت عنها مغمضة العينين من شدة الانفعال، فأسلمت نفسها إلى مقعد وأسندت رأسها إلى يدها وساحت في جوّ مشاعرها اللانهاي. لم تكن سعادة خالصة، ولم يكن خوفًا خالصًا، كان قلبها موزعًا بين هذا وتلك فهما يتجاذبانها بلا رحمة، إذا استناعت إلى نشوة الفرح وسحره قرعت قلبها مطرقة الخوف محدّرة متوحّلة فلا تدري أيّ عمل بها أن تفلح عن مغامرتها أم تتهدى في مطاوعة قلبها. كلا الحبّ والخوف شديد، ولبت في تمهوجها كثيرًا أو قليلًا، فاستكنت هواثف الخوف والتائب، وضمت تنعم بسكرة الحلم في ظلّ سلام، وذكرت - كما يلد لها أن تذكر دائمًا - كيف كانت تنفض الستارة المسدلة على النافذة يومًا فلاحت منها نظرة إلى الطريق من النافذة التي فتحت نصف فتحة لطرده الغبار فوقعت عليه وهو يتطلّع إلى وجهها في دهشة مقرونة بالإعجاب، فتراجست ليا يشبه الدهر، ولكنّه لم يلهب قبل أن يترك في غيبتها أثرًا باقيًا من منظر نجمات الدهية وشرطه الأحمر، منظر يجلب اللبّ ويسرق الخيال، فظلّ يتخالّل لعينها طويلًا، وفي نفس الساعة من اليوم التالي - والأيام التالية - راحت تقف

كحال فقد هرع إلى الحجرة عقب خروج أبيه مباشرة ليشبع رغبته في محاكاة حركاته التي يجلس النظر إليها من زيق الباب الموارب، فوقف أمام المرأة ينظر إلى صورته بإمعان وارتياح ثمّ قال مخاطبًا أمّه بلهجة أمّة وهو يُلفظ نبرات صوته وزجاجة الكولونيا يا أمينة، وكان يعلم أنّها لا تليّ هذا النداء ولكنّه جعل يمسح على وجهه وجاكيتيه وينظرونه القصير يديه كأنه يبلّها بالكولونيا، ومع أنّ أمّه كانت تغالب الضحك إلا أنّه ثابر على التظاهر بالجدّ والصرامة، وراح يستعرض وجهه في المرأة من جانبيه الأيمن إلى الأيسر، ثمّ مضى يسوّي شاربه الوهمي ويفتل طرفه، ثمّ تحوّل عن المرأة ونجّشًا، ونظر صوب أمّه، ولما لم يجد منها إلا الضحك قال لها محتجًا: «لماذا لا تقولين لي صحّة وعافية؟» فغمغمت المرأة ضاحكة: «صحّة وعافية يا سيدي»، هنالك غادر الحجرة مقلّدًا مشية أبيه عرجًا ممناه كأنه يتوكأ على عصاه.

وبادرت الأمّ والفتاتان إلى المشربية ووقفن وراء شباكها المطل على النخاسين ليترنّ من ثقبه رجال الأسرة في الطريق، وبدا السيّد وهو يسير في تودة ووقار يحفّ به الجلال والجمال راكعًا يديه بالتحية بين حين وآخر وقد وقف له همّ حسنين الحلاق والحاجّ درويش بائع الفول والفولبي اللبان ويوميّ الشربلي، فأتبعنه أصبًا مترعة بالحبّ والزهو، وتلاه فهمي في مشيته المتعجّلة، ثمّ ياسون في جسم الثور وأناقاة الطاووس، وأخيرًا ظهر كمال فلم يكدهم يخطو خطوتين حتى استدار ورفع بصره إلى الشباك الذي يعلم أنّ أمّه وشقيقته مستخفيات وراءه، وابتسم، ثمّ واصل سيره متابعًا حقبة كتبه متقبًا في الأرض عن زلعة يركلها.

كانت هذه الساعة من أسعد أوقات الأمّ، بيد أنّ إشغالها من شرّ الأعين على رجالها لم يقف عند حدّ، فلم تكن تمسك عن تلاوة: «ومن شرّ حاسد إذا حسد» حتى يغيبوا عن عينها...

وغادرت الأمّ المشربية، وتبعها خديجة، حل حين



القلق الطارئ وأجابتها بضحكة مقنطبة، ثم جرت إلى حجرة الطعام فوجدت السباط معداً حقاً وأنها مقبلة بالصينية، وقالت لها خديجة بحدة حال دخولها: - تتلغئين بيدياً حتى أهد كل شيء وحدي... كفاية لنا الغناء...

ومع أنها كانت تتلخف معها في الحديث تفادياً من حدة لسانها إلا أن إصرار الأخرى على قرصها بلسانها كلياً سنحت فرصة جعلها تتعلّق أحياناً بإغاضتها فقالت مصطنعة الجذ:

- ألم تتفق على تقسيم العمل بيننا في البيت؟ فعليك هذا الواجب وعلّ الغناء...

ف نظرت خديجة إلى أمها وقالت متهمّة وهي تعني الأخرى:

- يمكن نارية تكون عالمة!

ولم تغضب عائشة، وبالعكس قالت باهتمام مصطنع أيضاً:

- وماله!... أنا صوبي كالكروان.

ومع أن قولها السابق لم يستر خفيها لأنه كان بين الدعابة إلا أن كلامها الأخير استثاره لأنه كان واضح الحق، ولأنها تفتّس عليها جمال صوتها فيها نفس عليها من مزايها فقالت في تهكم:

- اسمعي يا ستّ هانم... هذا بيت رجل شريف لا يجب بناته أن تكون أصواتهنّ كصوت الحميم ولكن يبيهنّ أن يكنّ كالصورة لا فائدة منهنّ ولا نفع.

- لو كان صوتك جيلاً كصوبي ما قلت هذا!

- طبعاً!... كنت تغنين وأردّ عليك، تقولين يا أبو الشريط الأحمر يا لي... فأقول لك أسرني ارحم ذاتي، ونترك للسّ مشيرة إلى أمها الكنس والمسح والطبخ.

وكانت الأم - التي إلّقت هذا النّصار - قد أخذت مجلسها فقالت بجرأة:

- أمسك يا الله واجلسنا لنأكل فطورنا بسلام.

وأقبلتا على السباط وجلستا وخديجة تقول:

- أنت يا نيتة لا تصلحين لتربية أحد...

فتصمتت الأم في هدوء:

وراء الخصاص دون أن يراها، ولمست في فرحة ظافرة كيف يتعلّق بعينه إلى النافذة المخلفة باهتمام وتشوّق، ثم كيف أخذ يستين شبحها وراء الخصاص فتشعّ أساريره ضياء البهجة، وقلبه المشبوب - الذي يتمكّن مستيقظاً لأزل مرّة - يتظر هذه اللحظة في لغة ويلوقتها في سعادة ويودّعها فيها يشبه الحلم، حتى دار الشهر دورته وعاد يوم التفيض مرّة أخرى فأنبرت إلى الستارة تنفضها وراء النافذة المواربة متممّة - هذه المرّة - أن تُرى، وهكذا يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، حتى غلب التمشّك للمزيد من الحبّ الخوف الجاثم فخطت خطوة - جنونيّة - وفرجت مصراعي النافذة ووقفت وراءها وقلبه يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معاً، كأنها تعلن حبّها له، بل كانت كمن يقدف بنفسه من علوّ ساحق ليُنْثي ناراً مستعرة تحيط به.



استكنت عواطف الخوف والتأنيب ومضت تنم بسكرة الحلم في ظلّ سلام، ثم أفأقت من حلمها، وصمّت على أن تتحاشى الخوف الذي ينقص عليها صوفها فجعلت تقول لنفسها استدراؤاً للطمأنينة: ولم تُزلزل الأرض ولم كل شيء بسلام، لم يرن أحد وإن يراني أحد، ثم إليّ لم أقترف إثماً وبغضت قائمة، ولكي توهم نفسها بخلوّ البال ترتخت - وهي تفسد الحجرة - بصوت حذب: «ها أبو الشريط الأحمر يا لي! أسرني ارحم ذاتي»، وردّدها مرّة ومرّة حتى جاءها صوت أختها خديجة من حجرة الطعام وهي تزعم في تهكم:

- يا ستّ منيرة يا مهيديّة، تفضلي، أهدت لك خادمك السفرة.

وأثابت صوت أختها إلى نفسها تماماً فيها يشبه الرّجّة فهوت من عالم المشال إلى عالم الواقع مرتجة بعض الشيء لسبب غير ظاهر - ما دام كل شيء قد مرّ بسلام كما قالت لنفسها - ولكنّ اعتراض صوت أختها - بالذات - لغناها وخوارها أرحبها، ربّما لأنّ خديجة كانت تقف منها موقف المتقّد، بيد أنّها طاردت هذا

- ساعك الله، سأترك لك أمر التربية على ألا تنسي نفسك.. «ثم مدت يدها إلى الطبق».. بسم الله الرحمن الرحيم...

كانت خديجة في العشرين من عمرها، فهي كبرى إخوتها فيما عدا ياسين - أخاها من الأب - الذي ناهز عامه الواحد والعشرين، وكانت قوية مثقلة - والفضل لأم حنفي - مع ميل إلى القصر، أما وجهها فقد قس من قسأت الولدين على نيج لم يُرَاج فيه الانسجام، ورثت عن أمها عينها الصغيرتين الجميلتين، وعن أبيها أنفه العظيم، أو صورة مصغرة منه ولكن ليس إلى القدر الذي يغتر له، ومهما يكن من شأن هذا الأنف في وجه الأب الذي يناسبه ويكسبه جلالاً ملحوظاً فقد لعب في وجه الفتاة دوراً مختلفاً.

أما عاتشة فكانت في السادسة عشرة من ربيعها، صورة من بديع الحسن، رشقة القذ والقوام - وإن عدّ هذا في محيط أسرهما من الميوب المتروك علاجها لأم حنفي - ووجه بدريّ تزينة بشرة بيضاء مشربة بحمرة، وجهان زرقاوان أحسنت اختيارهما من الأب مع أنف الأم الصغير، إلى شعر ذهبيّ دلّله به قاتون الوراثة فخصّنها به وحدها من ميراث جدتها أبيها. وطبيعيّ أن تسود خديجة ما يقوم بينها وبين شقيقتها من فوارق، ولم تكن براعتها الفالقة في التدبير المنزليّ والتطريز ولا نشاطها الدائب الذي لا يكلّ ولا يملّ يجنّنين عنها شيئاً، فوجدت على الغالب نحوها هيرة لم تراع إضاعها مما حل الفتاة الحسناء على اليمّ بها في كثير من الأحيان. ولكن من سوء الحظ أنّ هذه الغيرة الطبيعية لم تترك واسب سوداء في النفس، وكفّاه أن تروّج عن حدّتها بسخيرة اللسان وسلطته، وأكثر من هذا أن كانت الفتاة رغم مشكلتها الطبيعية أمّا بالفطرة عامرة القلب بالحنو نحو الأسرة التي لا تعفي أفرادها من مראה تبكّهم، فلم تكُنْ خيراً إلا نويات تطول أو تقصر ولكنّها لم تحرف بسجّتها إلى الحقد أو البغضاء، بيد أن دأبها على السخيرة - الذي اقتصر في الأسرة على الدحابة - خلق منها فيما وراء ذلك من الجيران والمعارف عيابة من الدرجة الأولى، لا تقع

عينها من الناس إلا على مناقصهم كعقرب البوصلة المتجذب إلى القطب أبداً، وإذا تواردت المناقص تمحّلت في الكشف عنها وتكبيرها، ثم راحت تطلق على ضحاياها أوصافاً تناسب عيوبهم كادت تغلب عليهم في محيط أسرهما، فهذه حرم المرحوم شوكت أقدم صديقة لوالديها تدعوها «المدفع الرقّاش» لتناثر ريقها أثناء الحديث، وهذه السّت أم مريم جارعم بالبيت الملاصق لبيتهم تسمّيها «الله يا أسيادي» لاستمرارها بعض الأدوات المنزليّة من يبتهم بين حين وآخر، كما تدعو شيخ كتاب بين القصرين «شّر ما خلق» لتريده هذه الآية ضمن سورتها كثيراً بحكم وظيفته مع قبح وجهه، ويالغ الفول «الأقرع» لصلعه، واللّبان «الأحور» لضعف بصره، إلى تسميات غفّة بعض الشيء خصّت بها أسرهما، فألقها «المؤدّن» لتكبيرها في الاستيقاظ، وفهمي «عمود السرير» لنحافتها، وعاتشة «البوصة» للسبب نفسه، وياسين «حبة كثر» لسمته وأناقته. ولم تكن سلطة لسانها من وحي السخيرة فحسب، فالحق أنّها لم تحلّ من قسوة حلّ من عدا أهلها من الخلق وهكذا اتّسم نقدها للناس بالعنف، وتجاهل عن التسامح والعفو، كما غلب عليها عدم الاكتراث للأحزان التي تلّم بالناس يوماً بعد يوم، وتبدّت هذه الغلظة في البيت في معاملة أم حنفي معاملة لا تلقاها من أحد سواها، بل في معاملة الخيوان الأليف كالقطط التي تحظى من عاتشة بإعزاز يفوق الوصف. وكانت معاملتها لأم حنفي مثار خلاف بينها وبين أمّها، فالأمّ تعامل الخدم كما تعامل أهل بيتها سواء بسواء، وكان ظنّها بالناس أنّهم ملائكة فلم تدبّ كيف تسيء الظنّ بأحد، حلّ حين دأبت خديجة على سوء الظنّ بالمرأة تحشّياً مع طبيعتها التي تسيء الظنّ بالناس جميعاً، ولم تحفّ تحزّنها من يبياتها غير بعيد من غرفة الحزين فقالت لأمها: «من أين تحبّسها هذه السمعة المفرطة؟»... من الوصفات التي تصنعها!؟ كلّنا نتعاطى وصفاتها فلا نسمّن سمعتها، ولكنّه السمن والعمل اللدان تطفح منها بغير حساب ونحن نيام».

الأكل فقالت بصوت هادئ يختلف كل الاختلاف عن الصوت الذي كانت تزقق به منذ حين قصير:

- نية... حلمت حلمًا غريبًا...

فقالت الأم قبل أن تزدد لقمته مبالغة في إكرام ابنتها المخيفة:

- خير يا بنتي إن شاء الله.

فقالت خديجة باهتمام مضاعف:

- رأيت كأنني أمشي على سور سطح، رُما كان سطح بيتنا أو غيره، وإذ بشخص مجهول يدفعني فاهوي صاروخا.

وأسكتت أمنة عن تناول طعامها في اهتمام جديّ فلازمت الفتاة الصمت قليلاً لتستأثر بأكبر قدر من الاهتمام حتى غمست الأم:

- اللهم اجعله خيرًا.

وقالت عائشة وهي تغالب ابتسامة:

- لم أكن أنا الشخص المجهول الذي دفعك...

اليس كذلك؟

وخافت خديجة أن يشد الجوّ بالمزاح فصاحت بها: - إنه حلم وليس لمًا فكُني من هلكك وثم خاطبة أمها... هويت صاروخا ولكنني لم أرطم بالأرض كما توقعت بل وقعت على جواد، حلني وطار.

وتهدت أمنة في ارتياح كأنها أدركت ما وراء الحلم واطمأنت إليه، وعادت إلى طعامها مبتهمة، ثم قالت:

- من يدري يا خديجة؟... لعلة العريس...

لم يكن يباح الكلام عن «العريس» إلا في هذه الجلسة، وفي إيجاز بالإشارة أشبه، ويجب قلب الفتاة الذي لم يكره شيء كما أكره أمر الزواج، وكانت على إيمان بالحلم وتأويله بحيث وجدت لكلام أمها سرورًا حقيقًا، بيد أنها أدركت أن تداري حياها بالسخرية كعادتها - ولو من نفسها - فقالت:

- أتظنين الجواد عريسًا؟.. لن يكون عرسي إلا حارًا.

فضحكت عائشة حتى تطاير نثار الطعام من فيها، ثم شافت أن تسيء خديجة فهم ضحكتهما فقالت:

لكنّ الأم دافعت عن لمّ حضي ما وسعها الدفاع، وليّا ضاقت بإلحاح ابنتها قالت: «ولتناكل ما تشاء، الخبز كثير، ويعطها له حدّ لا يتعدّاه فلن نجوع على أيّ حال». ولم يعجبها قروها وراحت تفحص صفائح السمن وللايص العسل كلّ صباح وأمّ حضي ترى هذا باسمه لأنها كانت تحبّ الأسرة كلّها إكرامًا لستها الطيبة. وهل التقيض من هذا كان حنان الفتاة حيال أهلها جميعًا فلم يكن يبدا لها بال إذا أصابت أحدهم وعكة، وليّا مرض كمال بالخصبة أبت إلا أن تشاركه فراشه، حتى عائشة نفسها لم تكن تطيق أن يلّم بها أمون سوء، فلم يكن مثل قلبها لا في بروه ولا في رحمة.

وبأنحاذها مجلسها من السباط تناست ما نشب بينها وبين عائشة من نقار وأقبلت على القول والبيض بشهية كانت مضرب الأمثال في الأسرة. وكان للطعام بينن - إلى فائدته الغذائية - غاية جمالية عليا بصفته الدعامة الطبيعية للسمنة، فكان يتناولونه في توبة واهتمام، ويبالغن في سحقه وطحنه، فإذا شبعن لم يمكن ولكن يستردن منه حتى يمتلئن، على تفاوت لطافتين، فكانت الأم أسرعهن إلى الانتهاء، تليها عائشة، ثم تنفرد خديجة ببقايا المائدة فلا تتخلّى عنها إلا وهي أطباق مفسولة. ولم تكن نعافة عائشة لتتناسب مع اجتهداها في الأكل فضلًا عن عصيانها لسحر البلايع، ممّا دعا خديجة للسخرية منها والقول بأن المكر السيئ هو الذي يجعلها تربة غير صالحة للبذور الطيبة التي تلقى فيها، كما كان يطلب لها أن تملأ نحافتها بضمف دينها فتقول لها: «كلنا نصوم رمضان إلا أنت، تنظاهرين بالصوم، وتندسّين في حجرة الخزين كالقارّة وتقتلن بطنك بالجوز واللوز والبندق، ثم تظفّرين معنا بنهم يحسبك عليه الصائمون ولكنّ الله لا يبارك لك». وكانت ساحة الفطور من الأوقات النادرة التي يمتلئ فيها إلى أنفسهم، فكانت أخلق الاوقات بالمكاشفة ونفض الرائر خاصة في الأمور التي يدهو إلى كتمانها عادة الحياه البالغ الذي تتسم به مجالس الأسرة الحولية للجنسين، وكان لدى خديجة ما تقوله رغم انهماكها في

على سبيل الاستعلاء أو على سبيل المشاكسة، فلماذا قالت:

- أنزل لك عن التنظيف إذا كنت تستقلين الغسيل، أما التحكك بالغسيل للبقاء في الحمام حتى ينتهي العمل في المطبخ فعمل مرفوض مقدّمًا. ونجماهلت الفتاة ملحوظتها ومضت إلى الحمام وهي تلندن فقالت خديجة متهمّة:

- يا يخطك بالحمام يردّ فيه الصوت كما يردّ في نفير الفونوغراف فغنيّ وسَمعي الجيران.

وغادرت الأمّ الحجرية إلى الدهلز ثمّ إلى السلم وركّبت إلى السطح لتجول فوقه جولتها الصباحية قبل أن تنزل إلى حجرة الفرن. لم يكن التشاحن بين الفتاتين بالجدد عليها بعد أن انقلب مع الأيام عادة مالوفة في غير الأوقات التي يوجد فيها الأب في البيت، أو التي يطلب فيها السمر بين أفراد الأسرة، وجعلت تعامله بالرجاء والدعابة والرفقة البالغة، وهي السياسة الوحيدة التي تتهجها إزاء أبنائها لأنّها صادرة من طبع لا يطبق سواها، أمّا ما تقتضيه التربية أحيانًا من الحزم فشيء لم تعرفه، ربّما سمّته دون أن تقدّر عليه. وربّما حاولت تجمّده فغلّبتها التآثر والضعف، وكاتبها لا تحتمل أن يقوم بينها وبين أبنائها غير أسباب الموقّة والحبّ، تاركة للاب - أو لشخصيته التي تسيطر من بعيد - تقويم الموعج والإزام كلّ حدوده. لهذا لم يضعف النقاد

السخيف من إعجابها بفتاتها ورضائها عنها، حتى عائشة المولعة لحذّ الحوس بالفنّاء والوقوف أمام المرأة، لم تكن دون خديجة مهارة وتدبيرًا بالرغم من تكاسلها. وكان هذا حريًا بأن يمدّ لها في أوقات الراحة لولا ما طبعت عليه من وسوسة بالداء أشبه، فهي تأبى إلا أن تشرف على كلّ صغيرة وكبيرة بالبيت، وإذا فرضت الفتاتان من عملها نشطت هي بالمكنسة في يد والمنفضة في يد وراحت تتفقد الحجرات والصالات والدهلز، متخصّصة الأركان والجدران والستائر وسائر العفش حتى أن تزيل نقطة غبار منسية، واجدة لدّة وارتياسًا كأنّها تزيل قلبي من عينها، ومن وسوستها تلك أنّها كانت تفضي الشباب المصدّة للغسيل قبل

- لئلاّ ما تظلمين نفسك يا خديجة!.. ما فيك من شيء يعاب.

فحدجتها خديجة بنظرة تنمّ عن الحذر والشكّ على حين راحت الأمّ تقول:

- أنت فتاة نادرة المثال، من يضارحك في مهارتك أو نشاطك... وروحك الخفيفة ووجهك اللطيف؟ ماذا تريدن أكثر من هذا؟

فسمّت الفتاة بسبّابتها أرنبة أنفها وتساءلت ضاحكة:

- ألا يسدّ هذا طريق الأزواج؟

فكالت الأمّ مبتسمة:

- كلام فارغ... ما زلت صغيرة يا بنت. وتضايقت للذكر الصغر لأنّها لم تكن تعدّ نفسها صغيرة بالمقياس إلى سنّ الزواج، وعاطبت أمّها قائلة:

- لقد تزوّجت يا بنت وأنت دون الرابعة عشرة.

فكالت الأمّ التي لم تكن في الحرقّ دون ابنتها قلقلًا:

- لا يتقلّم أمر أو يتأخّر إلاّ بإذن الله..

وقالت عائشة في صديق:

- ربّنا يفرّحنا بك قريبًا يا خديجة.

فلحظتها خديجة بريّة وفكرت كيف طلبت إحدى جارعاتهم يدما لانها فرفض الأب أن تزوّج الصغرى قبل الكبرى، وتساءلت:

- أتوقّين حقًا أن أتزوّج أم تتمّين أن يخلو لك السبيل فتزوّجي؟!

فكالت عائشة ضاحكة:

- لا الاتنين معًا..

٦

ولبّا فرغن من الفطور قالت الأمّ:

- عليك يا عائشة الغسيل اليوم، وعلى خديجة تنظيف البيت، ثمّ تلحقان بي في حجرة الفرن.

كانت أمينة تزوّج بينهما العمل عقب الفطور مباشرة، ومع أنّها ترضيان بحكمهما، وترضى به عائشة بلا مناقشة، إلّا أنّ خديجة تكلف بتوجيه للملاحظات

غسلها، فإذا عثرت على قطعة منها قد خرقت قذارها المألوف لم تترك صاحبها دون أن تتلطف في تنبيهه إلى واجبه، من كمال الذي يناهز العاشرة إلى ياسين الذي كان ذا ذوقين متناقضين في العناية بنفسه يتجلىان في تألقه المفرط في مظهره من البدلة والطربوش والقميص ورباط الرقبة والحذاء، وإهماله للمعب لثيابه الداخلية. ومن الطبيعي ألا تغفل هذه العناية الشاملة السطح وسكانه من الحمام والدجاج، بل كانت ساعة السطح حافلة بالحب والسرور، فيها من أغراض العمل ما فيها، إلى ما تجده من فرحة اللهو والمرح. ولا عجب فالسطح هو الدنيا الجديدة التي لم يكن للبيت الكبيرها عهد قبل انضمامها إليه، خلقتها بروحها خلقاً جليداً على حين ظل البيت محافظاً على الهيئة التي شيد عليها منذ عهد سحيق. هذه الأقسام المثبتة في بعض جدرانها العالية يدل على الحمام من وضعها، وهذه الأكواخ الخشبية يقفون الدجاج في سارحها من تركيها، وكما يملكها الفرح وهي ترمي الحب أو تضع على الأرض آنية السقا فيستيق إليها الدجاج وراه ديكها، وتبذل مناقيرها على الحب في سراحة وانتظام كإبر آلة الحياطة، تخلف في الأرض التربة بعد حين ثورات دقيقات كآثار الرذاذ. وكما ينشر صدرها إذ تنظر فتراها رانية إليها بأعين دقيقة صافية، مستطلعة متسائلة، ناقة مفروقة، في موقفة متبادلة ينز لها قلبها الحنون. أحبت الدجاج والحمام كما تحب مخلوقات الله جميعاً، فهي تناغمها مناجاة رقيقة تحسب أنها تفهمها وتتأثر لها، ذلك أن خيالها يخلع الحياة الشاعرة العاقلة على الحيوان، وأحياناً الجسد نفسه. وعندها بمنزلة اليقين أن هذه الكائنات تسبح بحمد ربها وتصل بعالم الروح بأبواب، فعالمها بأرضه وسيله، حيوانه ونباته، عالم حي عاقل. ثم لا تقتصر مزايده على نعمة الحياة ليكملها بالعبادة. لم يكن غريباً بعد هذا أن تكثر مناقيرها من الديوك والدجاج معتلة بسبب أو بأخر، هذا لأنها معمرة وتلك لأنها بيضة وهذا لأنها تستيقظ على صياحه، ولعلها لو تركت وشأنها ما أرتضت أن تعمل سكينتها في رقابها، وإذا دعته الظروف إلى اللبح

تخترت الدجاج أو الحمام فيها يشبه الضيق، ثم تسفها وترحم عليها وتبسل وتستغفر، وتلبسها وعزاؤها أنها تستمتع بحق منحه الله الثمان وأوسع به على عباده. أما أعجب ما في السطح فكان نصفه الجنوبي المشرف على النحاسين حيث غرست يداها في الأيام الخالية حديقة فريدة لا نظير لها في أسطح الحي كله التي تغطي عادة طبقة من قاذورات الدواجن، بدأت أول ما بدأت بعدد قليل من أضراس القرنفل والورد، وراحت تستكثر منها عاماً بعد عام حتى نُضدت صفوفها بحذاء أجنحة السور وثبت نموها بهيجاً، وخطر لخيالها أن تقيم فوق حديقتها سقيفة، فاستدعت نجاراً فأقامها، ثم غرست شجرتي ياسمين ولبلاب ثم أنشبت سيقانها في السقيفة وحول قوائمها، فاستطالت وانتشرت حتى استحالت المكان بيتاً معروفاً ذا سياه خضراء ينتش منها الياسين ويتضرع في أرجائها عارف طيب ساهر. هذا السطح بسكانه من الدجاج والحمام، وستانه المعروف، هو دنياها الجميلة المحبوبة، وملهاها الأثير في هذا العالم الكبير الذي لا تعرف عنه شيئاً، وكشأنها في مثل هذه الساعة مضت تتمهله برعايتها فكنسته، وست زرعها، وأطعمت الدجاج والحمام، ثم تملت طويلاً المنظر المحيط بها بفكر باسم وحيتين حائتين، ثم ذهبت إلى نهاية البستان ووقفت وراء السياج اللطيفة المشابهة تمذ بصرها من لغراتها إلى ما يليها من فضاء لا تحده حدود. كم ترونها المآذن التي تنطلق انطلاقاً ذا إيماء عميق، تارة عن قرب حتى تلتى مصابيحها وهلاها في وضوح كماءن قلاوون وبرقوق، وتارة عن بعد غير بعيد فتبدو لها جملة بلا تفصيل كماءن الحسين والغوري والأزهر، وثالثة من أفق سحيق فتترامى أطياناً كماءن القلعة والرافعي، وتقلب وجهها فيها بولاء واقتنان، وحب وإيمان، وشكر ورجاء، وتخلق روحها فوق فراها أقرب ما تكون إلى السماء، ثم تستقر منها المينان على مثلة الحسين، أحبها. حب صاحبها. إلى نفسها، فتفرض نظرتها حنائاً وأشواقاً، مشوبة بحزن يطوف بها كلها ذكرت حرامها من زيارة

الصدقة. والحق لم يكن السيد مرهوبًا خوفًا إلا بين أهله، أما بين سائر الناس من أصدقاء ومعارف وعملاء فهو شخص آخر، له حقه الموفور من المهابة والاحترام، ولكنه شخصية محبوبة قبل كل شيء، ومحبوبة لظرفها قبل أي من سجاياها الحميدة الكثيرة، فلا الناس يعرفون السيد الذي يقيم في بيته، ولا أهل البيت يعرفون السيد الذي يعيش بين الناس. وكان دكانه متوسط الحجم، مكسدة رفوفه وجنباته بجوالات البُرِّ والأرزِّ والثقل والصابون، وعند ركنه الأيسر في قبالة المدخل يقوم مكتب السيد بدفاتره وأوراقه وتليفونه، وإلى اليمين من مجلسه تقوم الخزانة الخضراء داخل الجدار يوحى منظرها بالصلابة ويذكر لونها بالأوراق المائلة. وفي منتصف الجدار فوق المكتب على إطار من الأنوس نقشت بداخله البسمة مسمومة باللعب. ولم تكن حجلة الدكان تدور قبل الضحى. فجعل السيد يراجع حسابات اليوم السابق مباشرة ورزها عن أبيه وحافظ عليها بحيوته الموفورة، على حين وقف الحمزوي عند المدخل شامخًا ذراعيه على صدره مواصلة تلاوة ما تيسر من الآيات في صوت باطنى غير مسموع دلت عليه حركة شفته المستمرة، ووسوسة خافتة تند من أن لأن عن أحرف السين والصاد، ولم يتوقف عن تلاوته حتى جاء شيخ ضمر رتبته السيد كل صباح. وكان السيد يرفع رأسه من الدفتر في فترات متباعدة فيستمع إلى التلاوة أو يمدّ بصره إلى الطريق حيث لا ينقطع ثيار المائة وعربات اليد والكارو، وسوارس التي تكاد تترنح من كبرها وثقلها، والباعة المثوّن وهم يتركون بقطايق الطماطم والملوخية والبامية كل على منبهه، ولم تكن الفروشاء لتحول بينه وبين تركيز ذهنه بعدما اعتادها وألفها أكثر من ثلاثين عامًا فاستقام إليها حتى ليعجزه سكوتها. ثم جاء زبون فشغل الحمزوي به، وأقبل نفر من أصحاب السيد وجيرانه من التجار فمن يحبون أن يقضوا معه وقتًا طويلاً ولو لزم من وجيز يتبادلون فيه التحيّة ويغيّرون ريقهم - على حدّ تعبيرهم - على دهابة من دعاباته أو نكتة من نكتة، الأمر الذي جعله يفاخر

ابن بنت رسول الله وهي على مسير دقائق من مشواه. وتهدئت خلة مسموعة، استردتها من استراقها فثابت إلى نفسها وراحت تتسلل بالنظر إلى الأسطح والطرقات فلم تزايلها الأشواق، ثم استديرت السور وقد فاض بها التطلع إلى المجهول، المجهول بالنسبة إلى الناس جيمشًا وهو عالم الغيب، والمجهول بالقياس إليها وحدها وهو القاهرة. بل الأحياء المتاخة التي تترامى إليها أصواتها. ترى ما هله الدنيا التي لم تر منها إلا المآذن والأسطح القريبة؟ ربع قرن من الزمان خلا وهي حبيسة هذا البيت لا تفارقه إلا مرّات متباعدة لزيارة أمّها بالخرنقش. وعند كل زيارة يصطحبها السيد في حطوط لائه لا يحتمل أن تقع عين على حرمة سواء وحدها أو بصحبته، لم تكن ساخطة ولا متنفرة، إنّه أبعد ما تكون عن هذا. يهدّ أثنا ما تكاد تنفذ بصرها من ثغرات الياسمين واللبلاب إلى الفضاء والمآذن والأسطح حتى تملو شفيتها الرقيتين ابتسامة حنان وأحلام. ترى أين تقع مدرسة الحقوق حيث يجلس فهمي في هذه اللحظة؟ وأين مدرسة خليل أها التي يؤكّد كمال أنّها على مسير دقيقة من الخمسين؟... وقبل أن تغادر السطح بسطت كتيّها ودعت ربّها قائلة: «اللهم أسألك الرعاية لسدي وأبنائي، وأمي ويس، والناس جميعًا مسلمين ونصارى، حتى الإنجليز يا ربّي وإن خرجهم من ديارنا إكرامًا لفهمي الذي لا يحبهم».

## ٧

عندما بلغ السيد أحمد عبد الجواد دكانه الذي يقع أمام جامع برقوق بالنحاسين كان جبل الحمزوي وكيله قد فتحه وهيا للعمل، فحيّاه السيد تحية رقيقة وهو يتشمّ ابتسامة وضيئة وألجّه إلى مكتبه. وكان الحمزوي في الخمسين من عمره، أنفق منها ثلاثين عامًا في هذا الدكان، وكيلًا لمنشه الحاج عبد الجواد ثم وكيلًا للسيد بعد وفاة أبيه، وظلّ على الوفاء للسيد بداعٍ من العمل والحبّ معًا، فهو يعلّم ويحيّ كما يعلّم ويحيّ جميع من يتصل به بسبب من أسباب العمل أو

بنفسه كصحف فائق البراعة، لا يخلو حديثه من لمحات غير مقطوعة الصلة بالثقافة العامة التي اكتسبها، لا من التعليم حيث توقف فيه دون الابتدائية، ولكن من قراءة الصحف ومصادقة نخبة من الأعيان والمؤلفين والمحاميين الذين أهله لمخالطتهم - غالبة النذ للند - حضور بدنيته ولفظه وظرفه ومزائنه كتاجر موفور الرزق، فاستجد لنفسه عقلية غير العقلية التجارية المحدودة ضاعف من اعتزازه بها ما حباه أولئك الممنازون من حب واحترام وتكريم، ولما قال له أحدهم مرة في صدق وإخلاص: «لو أتيح لك يا سيد أهد أن تدرس القانون لكنت محامياً مفزحاً نادر المثال» نفخ قوله في غيلاسه الذي يمس سداراته بظرفه وتواضعه وحلو معاشرته. ولم يطل بأحد من الوافدين الجلوس لدهبوا تباعها، وتزايدت حركة العمل بالدكان، ثم فجأة دخل رجل مهزولاً كأنها دفعت به قوفاً، وقف في منتصف الدكان وهو يضيق عينه الضيقتين ليحد بصره، وسدما صوب مكتب السيد، ومع أنه لم يكن يفصله عنه أكثر من ثلاثة أمتار إلا أنه أجهد في معانيته بلا طائل ثم هض متسائلاً:

- السيد أحمد عيد الجواد موجود؟

فقال السيد بأساً:

- أهلاً وسهلاً بالشيخ متولي عبد الصمد، تفضل، حلت البركة...

وعطف الرجل رأسه لمصادف اقتراب الحمزاوي منه ليسلم عليه ولكنه لم ينتبه ليد الممدودة وعطس على غير انتظار فتراجع الحمزاوي وهو يخرج منجله وقد التفت في صفحة وجهه ابتسامة وتقطعية، واندفع الشيخ إلى المكتب وهو يتمتم «الحمد لله رب العالمين»، ثم رفع طرف عيائه ومسح به على وجهه، وجلس على الكرسي الذي قعّمه السيد له، وبدأ الشيخ في صحفة يحسد عليها على سعة التي جاوزت الخامسة والسبعين، ولولا صيانه الكليتان الملتهبتا الأشفاق، وفوه المندثر، ما وجد ما يشكوه، وكان يتلقف بعبارة بالية ناصلة وإن أمكنه أن يستبدل بها خيراً منها بما يجود به المحسنون، ولكنه استمسك بها لأنه - فيما يقول - رأى

قال للشيخ مرتجاً:

- أوحشتنا يا شيخ متولي... منذ عاشوراء لم نستمتع برؤيتك.

فقال الرجل ببساطة وبغير مبالاة:

- أغيب كما يحلو لي، وأحضر كما يحلو لي، ولا أسأل عن السبب... فابتسم السيد الذي ألف أسلوبه وتمتم قائلاً:

- إذا غبت أنت فلأن يرتكك لا تغيب... فلم يتد على الشيخ أنه تأثر لإطرائه، وعمل العكس حرك رأسه حركة تدل على فناد الصبر وقال بخشونة:

- ألم أتبه عليك أكثر من مرة بالأ تفانني بالحديث، وأن تلزم الصمت حتى أتكم أنا؟

فقال السيد وبه رغبة في التحنك به:

- معذرة يا شيخ عبد الصمد، لئن كنت نسيت تنبيهك فمعدري أني أنسيته لطول غيابك. فغضب الشيخ كماً بكف وهض:

- عذر أتج من ذنب... (ثم منلراً بسبابته) إذا تماديت في غالفتي امتعت عن قبول هديتك! فاطبق السيد شفته بأسطاً راحته استسلاماً حاملاً نفسه على الصمت هذه المرة، تشرت الشيخ متولي ليتأكد من دخوله طاعته، وتنحن ثم قال:

- ابداً بالصلاة على سيد الخلق الحبيب. فقال السيد من الأصاق:

- عليه الصلاة والسلام.

- وأنى على أيبك بما هو أهله، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته، كأي به متخذاً مجلسك

هذا، لا فارق بين الأب وابنه إلا أن الراحل حافظ  
على العمامة واستبدلت بها هذا الطربوش...

لتمتم السيد مبتسماً:

- فليغفر الله لنا...

لتسابب الشيخ حتى دعت عيناه ثم استطرد قائلاً:  
- وأدعو الله أن يمنَّ على أبنائك بالفلاح والتقوى،  
ياسين وخديجة وفهمي وعائشة وكمال وأتهم آمين...  
وقع نطق الشيخ باسمي خديجة وعائشة من أذني  
السيد موقفاً غريباً على الرغم من كونه هو الذي ألقى  
إليه باسميهما منذ عهد طويل ليكتب لها حجابين،  
وليست أول مرة ينطق الشيخ باسميهما، ولا آخر مرة،  
ولكن لم يكن يتفكر اسم واحدة من حرمة بعيداً عن  
الحجرات - ولو على لسان الشيخ متوكل - حتى يقع من  
نفسه موقفاً غريباً ينكروه ولو إلى حين. يتبد أنه خضع  
قائلاً:

- آمين يا رب العالمين...

لتتبد الشيخ قائلاً:

- ثم أسأل الله المثلان أن يمدد إلينا أفئدتنا عباس  
مؤيداً بجيش من جيوش الخليفة لا يُعرف له أول من  
آخر...

- نسأله وليس شيء عليه بكثير...

فعلا صوت الشيخ وهو يقول غاضباً:

- وأن يقي الإنجليز وأعرانهم بهزيمة منكرة فلا تقوم  
هم بعدها قائمة.

- ربنا يأخذهم جميعاً...

فحرك الشيخ رأسه في أمي وقال بصرة:

- كنت بالأمس سائراً في الموسكي فاعترض سبلي  
جندياناً إسرائيليان وطالباني بما معي فما كان مني إلا أن  
نفضت لها جبوري وأخرجت الشيء الوحيد الذي كان  
معي وهو كوز ذرة فتناولوه أحدهما وركله كالكرة  
وتخطب الآخر عمامتي وحلَّ الشال ومزقه ورمى به في  
وجهي.

وتابعه السيد وهو يغالب ابتسامة تراوده فما لبث أن  
داراهما بالمبالغة في إظهار استيائه صائحاً في استنكار:

- قاتلهم الله وأهلكهم...

فأنتم الرجل حديثه قائلاً:

- رفعت يدي إلى السماء وصححت: يا جبار مرق

أنتهم كما مرقوا شال عمامتي...

- دعوة مستجابة بإذن الله...

ومال الشيخ إلى الوواء وأغمض عينيه ليستريح  
قليلاً، ولبث على حاله والسيد يتفرس في وجهه  
مبتسماً، ثم فتح عينيه وتخطب السيد بصوت هادئ  
ونبرات تنذر بموضوع جديد، قائلاً:

- يا لك من رجل شهم جميل المروءة يا أحمد يا بن

عبد الجواد...

فابتسم السيد في رضى وقال بصوت خفيض:

- أستغفر الله يا شيخ عبد الصمد...

فيادره الشيخ قائلاً:

- لا تتعجل، إنَّ مثلي لا يُلقي الشاء إلا تمهيداً

لقول الحق، على سبيل التشجيع يا بن عبد الجواد...

فلاح الاهتمام والحدار في عيني السيد وتمتم قائلاً:

- ربنا يلطف بنا...

فأشار إليه بسبائته المعجزة وتساءل فيها يشبه  
الوحيد:

- ماذا تقول، وأنت المؤمن السورج، في ولعك

بالنساء؟

كان السيد معتاداً لصراحته فلم ينزعج لا تقضاضه،  
وضحك ضحكة مقتضبة ثم قال:

- ما عليَّ من ذلك، ألا يتحدث رسول الله ﷺ عن

حبِّ للطيب والنساء؟

فقطب الشيخ ومكَّ بوزة عتجاً على منطق السيد  
الذي لم يسجبه وقال:

- الحلال غير الحرام يا بن عبد الجواد، والزواج غير

الجرى وراء الفاجرات...

فمدَّ السيد بصره للأشياء وقال بلهجة جدية:

- ما ارتقت نفسي يوماً أن تعتدي على عرض أو

كرامة فكَّ، والحمد لله على ذلك...

فضرب الشيخ ركبتيه يديه وقال بغرابة واستنكار:

- عذر ضعيف لا يتحلله إلا ضعيف، والفسق لعنة

ولو يكن يفاجرة، كان أبوك رحمة الله مولماً بالنساء



بالضكير الذي أو التامل الباطني. شانه في ذلك شان الذين لا يكادون يخلون إلى أنفسهم، ففكره لا يعمل حتى يمتد إلى العمل شيء خارجي، رجل أو امرأة أو سبب من أسباب حياته العملية، وقد استسلم لتأثر حياته الزاخر مستغرقاً فيه بكنيته، فلم يَر من نفسه إلا صورتها المنعكسة على سطح التيار ثم لم يتأخر توثيقه للحياة مع تقدّم العمر لأنه بلغ الخامسة والأربعين ولم يزل يتمتع بحياة فَيَاضَة مشبوبة لا يتأثر بها إلا الشاب البالغ، لذلك جمعت حياته شتى المتناقضات التي تراوح بين العبادة والفساد، وحازت جميعاً رضاه على تناقضها دون أن يدهم هذا التناقض بسند من الفلسفة ذاتها أو تدبيراً يصطنع الناس من ألوان الرهاء، ولكنه كان يصدر في سلوكه عن طبيعته الخاصة بقلب طيب وسريّة نفعية وإخلاص في كل ما يفعل، فلم تصف بصلوه عواصف الحيرة، ويات قدير العين. وكان إيمانه عميقاً. أجل كان إيماناً موروثاً لا دخل للاجتهاد فيه، بيد أن رقة مشاعره ولطافة وجدانه وإخلاصه أضفت عليه إحساساً رقيقاً سامياً نأى به عن أن يكون تقليدًا أعمى، أو طوقوساً بمعناها الرهبنة أو الرهبة فحسب، وبالعجلة كان أبرز ما يتحيز به إيمانه بالحب الحبيب النقي. بهذا الإيمان الحبيب النقي أقبل يؤقي فرائض الله جميعاً، من صلاة وصيام وزكاة في حب وبسر وسرور، إلى سريرة صالحة وقلب عامر بحب الناس ونفس تسفر بالمرءة والنجلة جعلت منه صديقاً عزيزاً يستبق القوم إلى الري من منتهى الملعب، وبتلك الحيوية الفَيَاضَة المشبوبة ضح صدره لمسرات الحياة ولذائنها، يمش للمكامل الفاضل، ويطرب للشراب المعنى، ويصم بالوجه القسيم، فينبل منها جميعاً في فرح وبهجة وولع، غير مثقل الضمير بإحساس خطيئة أو وسواس قلق، فهو يمارس حقاً منتهى إيمانه الحقة، وكأنما لا تعارض بين حق الحياة على قلبه وحق الله على ضميره، فلم يشعر في ساعة من حياته بأنه بعيد عن الله أو عرضة لنقمته، وآخاه في السلام. أكان شخصين منفصلين في شخصيّة واحدة؟! ... أم كان في اعتقاده في الساحة الإلهية

فتزوج عشرين مرةً فلماذا لا تنتهج سبيله وتتجنب طريق المعاصي؟

فضحك السيد ضحكة عالية وقال:

- آنت وليّ من أولياء الله أم ماخوذ شرعي؟! كان أبي شيء عقيم فأكثرت من التزوج، وبالرغم من أنه لم ينجب سواي إلا أن عقاره تبدد بيني وبين زوجات أربع ماتت هنّ، إلى ما ضاع على النفقات الشرعية في حياته، أمّا أنا فالب ثلاثة ذكور وأنثيين، وما يجوز لي أن أنزل إلى الإكثار من الزوجات فأبند ما يشر الله علينا من رزق، ولا تنس يا شيخ متوًّى أن غواني اليوم هنّ جوارى الأيسر واللالي أحلّهن الله بالبيع والشراء، والله من قبل ومن بعد غفور رحيم ...

فتأوه الشيخ وقال وهو يبرّ نصفه الأيمن ويسرة: - ما أبرعكم يا بني آدم في تحسين الشر، والله يا بن عبد الجواد لولا حيي لك ما باليت أن تحدّثني وأنت قاعد على فاجرة ...

فيسط السيد راحتيه وقال بأسياً:

- اللهم استجب ...

فنفخ الشيخ منبراً وهتف قائلاً:

- لولا مزاحك لكنت أكمل الناس ...

- الكمال لله وحده ...

فالتفت إليه وهو يشير بيده كأنه يقول «قلندخ هذا جانيّاه ثم سامله بلهجة المحقق الذي ضيق عليه الخناق:

- والهمز؟ ... ماذا تقول فيها؟!

وصرحان ما فترت روح السيد ولاح في عينيه الضيق وازم الصمت ملياً، وآس الشيخ من صمت تسليماً فصاح بظفر:

- أليست حراماً لا يقارفه من يحرص على طاعة الله وعيبتة؟

فبادره السيد قائلاً في حاس من يدفع بلاء عققاً:

- لشد ما أحرص على طاعة الله وعيبتة!

- باللسان أم بالعمل؟

ومع أن الجواب كان حاضراً إلا أنه تمهل متعجراً قبل أن ينطق به. لم يكن من عادته أن يشغل نفسه

الشيخ وهو يقول ضاحكاً:

- في صحتك ...

فتناولها الشيخ وهو يقول:

- رزقك الله رزقاً واسعاً وغفر لك ...

فغمغم السيد «أمين» ثم سألها بأسياً:

- ألم تكن يوماً من أهل ذلك يا سيدنا الشيخ؟

فضحك الشيخ قائلاً:

- ساعك الله، أنت رجل كريم طيب القلب،

وبهذه المناسبة أحذركم من التهادي في الكرم فإنه لا

يتقن وما يطالب به التاجر من القصد ...

فتسادل السيد دهشاً:

- أتغري بي باسترداد الهدية؟

فنهض الرجل وهو يقول:

- هديتي لا تجاوز القصد فأبداً بغيرها يا بن عبد

الجراد والسلام عليكم ورحمة الله ...

وغادر الشيخ الدكان مهرولاً وغاب عن الأنظار.

ولبت السيد مفكراً، ومضى يدير في نفسه ما ثار من

جدل بينه وبين الشيخ ثم بسط راحتيه في ضراعة وتتم

«اللهم اغفر لي ما تقدم وما تأخر من ذنب، اللهم

إنك أنت الغفور الرحيم».

## ٨

عند العصر غادر كمال مدرسة خليل آغا يضطرب

في ثيار زاهر من التلاميذ الذين يسكنون الطريق

بزحماتهم ثم يأخذون في التفرق، بعضهم إلى الدراسة،

وبعضهم إلى السجدة الجديدة، وآخرون إلى طريق

الحسين، على حين تتحلّق جماعات منهم تحوّل الباعة

المتجولين الذين يسترزسون ثياراتهم عند رموس

الطرق المتفرقة عن المدرسة بما تحمل سلاهم من

اللبّ والفول السودانيّ والدوم والحلوى، وإلى هذا فلا

يخلو الطريق في هذه الساعة من معارك تشب هنا

وهناك بين تلاميذ اضطروا إلى كتمان خلافاتهم في أثناء

النهار تفادياً من العقوبات المدرسية. وكانت المرات

التي سبق فيها إلى الاشتباك في معركة نادرة جداً،

ولعلها لم تتعدّ المزيّن طوال العامين اللذين قضاهما في

بحيث لا يصدّق أنها تحرم هاتيك المرات حقاً، وحقّ

في حال تحريمها فهي حُرمة بأن تغفر عن اللذنين ما لم

يؤفوا أحدًا؟ الأرجح أنه كان يتلقّى الحياة بقلبه

واحساسه دون ثمة تفكير أو تأمل، وجد بنفسه غرائز

قويّة، يطمح بعضها لله فراضها بالعبادة، ويتحفّز

بعضها الآخر للذات فأرواها باللهو، وغلطها بنفسه

جيمًا آمنًا مطمئنًا دون أن يشقّ على نفسه بالتوفيق

بينها. لم يكن يضطرّ إلى تبريرها بفكره إلّا تحت ضغط

انتقاد كالذي جابهه الشيخ متولّي عبد الصمد، وفي

هذه الحال يجد نفسه أصيب بالتفكير منه بالتهمة

نفسها، لا لأنه يهون عليه أن يكون متهمًا أمام الله،

ولكن لأنه لا يصدّق أبدًا أنه متهم، أو أن الله بغضبه

حقًا أن يلهو غرًا لا يصيب أحدًا بأذى، أمّا التفكير

فكان يتعبه من ناحية ويكشف عن ثقافة علمه بدينه

من ناحية أخرى، لذلك تجهّم للسؤال الذي ألقاه

الرجل عليه متحذّرًا وهو «باللسان أم بالعمل» وأجابه

بلهجة لا يخفى فيها الضيق:

- باللسان والعمل معًا، بالصلاة والصيام والزكاة،

بذكر الله قائلاً وقاصداً، وما عرّى بعد ذلك إذا روت

عن نفسي شيء من اللهو الذي لا يؤذي أحدًا أو

يغل فریضة، وهل حرّم محرّم إلّا لهذا أو ذاك؟

فرغم الشيخ حاجيه وأغمض حينه معلنًا عن عدم

اقتناعه ثم تمتم:

- يا له من دفاع في سبيل الباطل!

وتحوّل السيد فجأة من الضيق إلى المرح كعادته

فقال بأريحية:

- الله غفور رحيم يا شيخ عبد الصمد، إليّ لا

أنصّره عزّ وجلّ غاضبًا أو متجهّمًا أبدًا، حقّ انتقامه

رحمة خافية، إليّ أقدم بين يديه الحبّ والطاعة والبرّ،

والحسنة بعشر أمثالها ...

- أمّا في حساب الحسنات فأنت رابع ...

فاشار السيد إلى جميل الحمزاوي ليأتي بجديّة الشيخ

وهو يقول مسرّوًا:

- حسّينا الله ونعم الوكيل.

وجامه الوكيل باللقّة فاحذها السيد وقلمها إلى

عرف عنه من مساحة نفس ورقة شاتل حتى الآن عريكتهم فأصذبوا عن الغلام فضوم بل وتمهلوا بحمائه كأحد أبنائهم، ولم يته اليوم حتى بعث السيد بن يحمل إليهم نفحة من هداياه، ونجا كمال من عصي الفتوات ولكنه كان كالمتجسر من الرمضاء بالتار، لأن عصا أبيه فعلت بقدميه ما لم تكن لتفعله عشرات العصي.

غادر الغلام للمدرسة، ومع أنه كان لرزين الجرس المؤذن بانتهاه اليوم الدراسي فرحة في نفسه لا تعادها فرحة في تلك الأيام إلا أن ناسم الحرية التي نشقها خارج بوابة المدرسة يصدر رجب لم تحس أصداء الدرس الأخير الحبيب. درس الديانة - من قلبه. وقد قرأ عليهم الشيخ ذلك اليوم سورة وقل أرحم لي أنه استمع نقر من الجن، وشرحا لهم، فتركرز فيه بوجهه، ووقع أصبعه أكثر من مرة سائلاً عما أخلق عليه، ولما كان الأستاذ يعطف عليه لإكباله على الاستماع لدرسه باهتمام بارز، إلى حفظه للسور حفظاً جيّداً، فقد أوسع صدره لأستلته بحال يندر أن يخطئ بها أحد التلاميذ، وراح الشيخ يحدّثه عن الجن وطوائفهم، وعن المسلمين منهم خاصة الذين سيظفرون بالجنة في البهائم أسوة بإنسوانهم من البشر، وحفظ الغلام عن ظهر قلب كل كلمة نطق بها، ولم يزل يديرها في نفسه حتى هذه اللحظة التي يعبّر فيها الطريق قاصداً دكان البسبوسة على الجانب الآخر، فإلى شغفه بالديانة كان يعلم أنه لا يتلقاها لنفسه فحسب، وأن عليه أن يعيد ما وحي منها في البيت على أمه - كما اعتاد أن يفعل مد كان في الكتاب - فيلقي إليها بمعلوماته ويستعيد هي على ضوءها ما عندها من معلومات عرفت من أبيها الذي كان شحاً أزهرها، وتذاكران معارفها طويلاً ثم يحفظها الجديد من السور التي لم يسبق لها حفظها. وانتهى إلى دكان البسبوسة فمد يده الصنيرة بالملايم التي احفظ بها منذ الصباح، ثم تناول القطعة في ارتياح شامل لا يشعر به إلا في مثل هذا الموقف اللذيذ، مما جعله يحلم كثيراً بأن يكون يوماً صاحب دكان حلوى ليأكلها لا ليعيها، ثم واصل سيره في

المدرسة، لا لندرة خلافاته التي لم تكن نادرة في الواقع، ولا لكرامية للمراك فقد أوره اضطراره إلى تجنبه أسفاً عميقاً، ولكن لتعظم الكثرة الغالبة من التلاميذ عليه في السن مما جعله هو وقلة من أترابه غرباء في المدرسة يتمتّون في بطولياتهم القصيرة بين تلاميذ طعنوا فيما بعد الخامسة عشرة وكثير منهم ناهزوا العشرين، فشقوا طريقهم في سلف وكبرياء وقد طرّرت شواربهم. من هؤلاء من كان يتعرض له في فناء المدرسة بلا سبب فيخطف الكتاب من يده ويقذفه بعيداً كالكرة، أو من يسلبه قطعة من الحلوى فيدسها في فمه بغير استئذان موصلاً ما كان فيه من حديث، فلم تكن الرغبة في المراك لتقصه ولكنه كظمها تقدراً للصراخ، وما لبثها حتى دعاه إليها أحد أقرانه الصغار، فوجد الهجوم عليه منتقلاً لعواطفه النائرة المكبوتة واسترداده لثقتة بقوته ونفسه. وليس المراك، أو المعز عنه، بأسوا ما لاقى من وقاحة المعتدين، فإلى هذا ما كان يترامى إلى أذنيه، سواء كان المقصود به أم غيره، من الشتم والسباب، منه ما فطن لمعناه فحذره، ومنه ما جهل فرقته في البيت بحسن نية فأنار به عاصفة من الثورة والغزغز اتصلت أنباؤها في صورة شكوى لضابط المدرسة الذي كان صديقاً لآبيه، ولكن سوء الحظ وحده هو الذي قضى بأن يكون أحد غريميه في المركبتين الوحيدتين اللتين خاضهما من أسرة فتوات معروفة بالدراسة، فلما كان عصر اليوم التالي للمعركة وجد الغلام في انتظاره عند باب المدرسة عصابة من الشبان مدجنين بالعصي في حالة من شر مستطير، ولما أشار إليه غريمه لهدل عليه تنبه لحركته وأدرك ما يترص به من خطر فتراجع هارباً إلى المدرسة وهو يستغيث بالضابط، وحسباً حاول الرجل أن يصرف العصابة عن مقصدها، وأغلظوا له القول حتى اضطر إلى استدعاء شرطه ليوصل الغلام إلى داره، وزار الضابط السيد في دكانه وأنبأ بما يتهدد ابنه من شر ناصحاً إياه بمعالجة الأمر بالحلم والكرامة، ولما السيد إلى بعض معارفه من تجار الدراسة فمضوا إلى بيت الفتوات مستشفعين له، وهنالك استعان السيد بما

مؤكدة له أنَّ كبر الرأس من كبر العقل، وأنَّ النبيَّ عليه السلام كان كبير الرأس، وآله ليس وراء التشابه بين الرسول وبينه من مطعم لطمع. ولما انتزع نفسه من صورة المدخنة واصل سيره رائياً هذه المرة إلى جامع الحسين الذي قضت نشأته بأن يكون لقلبه مئار أخيلة وعواطف لا تنضب. ومع أنَّ المكاة التي نزلها الحسين من نفسه - تيمناً لمنزله من نفس أمه خاصة والأسرة عامة كانت وليمة قرابته من النبيِّ إلا أنَّ معرفته للنبيِّ وسيرته لم تكن شقيماً إلى معرفته بالحسين وسيرته، وما تفرد نفسه دائماً إليه من استعادة هذه السيرة والتزود منها بأنبل القصص وأصدق الإيمان. حتَّى لقد وجدت منه على مرَّ القرون مستمعاً مشغولاً وغيباً مؤثماً وأسيماً بكاء، فلم ييؤنَّ من بلواه إلا ما قيل من أنَّ رأس الشهيد بعد فصله عن جسده الطاهر لم يرض من الأرض مسكناً إلا في مصر فجاء طاهراً مسبّحاً ثم ثوى حيث يقوم ضريحه. وكم وقف حيال الضريح حالاً مفكراً، يؤدُّ لو يندد ببصره إلى الأحياق ليطلع على الوجه الجميل الذي أكلت له أمه أنه قاوم غير الدهر بصره الإلهي فاحتفظ بنضارته ورونقه حيث بقيه ظلمة الثوى بنور غرته، ولما لم يجد إلى تحقيق أمنيته سبيلاً فتح بمنجانيته في وقفات طويلة، مفصلاً عن حبه، شاكياً إليه متابعه الناشئة من تصوراته عن العفاريث وخوفه من تهديد أبيه مستنجداً به على الامتحانات التي تلاحقه كلُّ ثلاثة أشهر، ثم خائفاً مناجاته عادة بالتوسل إليه أن يكرمه بالزيارة في منامه. ومع أنَّ عادة مروره بالجامع صباحاً ومساءً خففت بعض الشيء من شدة تأثره به إلا أنه لم تكن تقع عليه حينه حتَّى يقرأ له الفاتحة ولو تكرَّر ذلك منه مرَّات في اليوم الواحد، أجل لم تستطع العادة أن تقطع من صدره بهجة الأحلام، فلم يزل ينظر الجدران السامقة مجلوها مع قلبه، ولم يزل لمثلثته العالية نداء ما أسرع أن تلييه نفسه. قطع طريق الحسين وهو يقرأ الفاتحة ثم انتعطف إلى خان جعفر، ومنها اتجه إلى بيت القاضي، ولكنه بدلاً من أن يمضي إلى البيت غترقاً النحاسين عبر الميذان إلى درب قمرز على وحشته

شارع الحسين وهو يقضم منها مسروراً مترقماً. نسي وقتذاك أنه كان سجيناً النهار كله، وأنه كان عروماً من الحركة فضلاً عن اللعب والمرح، وأنه كان عرضة في أية لحظة لعصا المدرِّس السلطنة على العروس، يئد أنه رغم هذا كله لم يكره المدرسة كراهية مطلقة لأنه كان يظفر بين جدرانها بأسباب من التقلير والتشجيع - بسبب تفوقه الذي يرجع كثير من الفضل فيه إلى شقيقه فهمي - لا يحظى بعشر معشارها عند أبيه. ومرَّ في طريقه بدكان ماتوسيان لبيع السجائر فوقف كعادته كلَّ يوم في مثل هذه الساعة تحت لافتتها يصمد عينيه الصغيرتين إلى الإعلان الملوَّن الذي يصور امرأة مضطجعة على ديوان وبين شفثتي القرمزيين سيجارة يتطاير منها دخان متعرج، معتمدة يساعدها على حافة نافذة يلوح وراء ستارها المنسرة منظر يجمع بين حفل نخيل ومجرى من مجربات النيل، وكان يدعوها فيها بينه وبين نفسه «أيلة عائشة» لما بين الاثنين من شبه يتمثل في الشعر الذهبي والعينين الزرقاوين، ومع أنه كان يناهز العاشرة إلا أنَّ إعجابه بصاحبة الصورة فاق كلَّ تقليد، فكلم تحليها متممة بالحيلة في أبهى مناظرها، وكم تحلَّ نفسه وهو يقاسمها حياتها الرغيلة بين حجرة ناهمة، ومنظر ريفي متاح لها - لها - أرضه ونخيله وماؤه وسياؤه، يسبح في الوادي الأخضر أو يعبر النهر في قارب بدا في نهاية الصورة كالطيف، أو يزر النخيل فيساقط عليه الركب، أو يجلس بين يدي الحساء طامح الطرف إلى عينها الحاتتين. على أنه لم يكن جبلاً كاسويه، ولعله كان أشبه الأميرة بائنة خديجة، فمثلها قد جمع في وجهه بين هيئتي أمه الصغيرتين وأنت أبيه الضخم ولكن بكامل هيئته لا مهلئاً ببعض التهذيب كما ورثته خديجة، إلى رأس كبير يبرز عند الجبهة بروراً واضحاً جعل عينيه تبدوان غائرتين أكثر مما هما في الواقع، وكان من سوء الحظ أن تبه إلى غرابة صورته بحال مثيرة للسخرية حين دعاه أحد الرفاق بابي «راسين» فهاج غضبه وأورطه في إحدى المعركتين اللتين خاضهما، ولم يسكن خاطره الانتقام فشكا في البيت حزنه إلى أمه التي تكثرت لكدره وراحت تعزيه

وإثارته لمخاوفه ليتغذى من المرور بدقّان أبيه. كان يرتعد فرقا من أبيه ولا يتصوّر أنّه يخاف العفريت لو طلع له أكثر منه إذا زعق به غاضبا، وضاعف من كربه أنّه لم يقتنع يوما بالأوامر الصارمة التي يلاحقه بها للحيلولة بينه وبين ما تصبو إليه نفسه من اللعب والمرح، فلو أنّه أذعن لمشيته خالصا لقضى وقت فراغه كلّه متربّعا مكتوف اليدين لذلك لم يسمع أن يطيع تلك المشية الجبّارة العاتية واختلس اللهو من وراء ظهره كلّها حلالا له، في البيت أو في الطريق، وظلّ الرجل على جهل بأمّره إلّا أن يبلغه شيء بوشاية من أهل البيت إذا ضايقوا بقلوّه وإفراطه، من ذلك أنّه جاء يوما بسلم وارتفاه إلى عرش اللباب والياسمين فوق السطوح، ورأته أمّه وهو على تلك الحال بين السماء والأرض فصرخت فرقة حتّى أجبرته على النزول، ثمّ غلب إشفاقها من منبّة لعبة خطيرة كتلك على خوفها عليه من شدّة أبيه فصرّحت للسيد بما كان منه، وسرعان ما دعا به وأمره أن يمدّ قلمه وإنهال عليها بعضاه غير مبالٍ بصراخه الذي ملأ البيت، وغادر الغلام الحجرة وهو يظلم ليجد إخوته في الصلاة وهم يخالبون فمّحكمهم إلّا خديجة التي حملته بين يديها هامة في أذنه وتستاهل... كيف تعلو اللباب وتناطح السماء! أحسبت نفسك زليلا؟! هل أنّه فيها عدا الألعاب الخطرة كانت أمّه تسترّ عليه وتبيح له ما يشاء من اللعب البريء. ولشدّ ما يحبّ كلّما ذكر كيف كان هذا الأب نفسه ظرفيا لطيفا معه على عهد طفولته القريبة، وكيف كان يتسلّ بمداعبه وكيف كان ينفذه من آن لآخر بالوراء شقّ من الحلوى، وكيف هوّن عليه يوم الحتان - على فظاظته - فملا حجره بالشيكلات والمثلّس وشمله بطفه ورعايته، ثمّ ما أسرع أن تفتّر كلّ شيء فتبدّل عطفه صرامة، ومنافاته زعقا، ومداعباته ضربا، حتّى الحتان نفسه أذلة أداة لإرهابه حتّى اختلط عليه الأمر ردحا من الزمن فظنّ أنّه من الممكن حقّا أن يلحقوا ما تبقى له بما ذهب! وليس الخوف وحده الذي شعر به نحو أبيه لإجلاله له لم يكن دون خوفه منه، كان يعجب بمظهره العظيم

القويّ، ومهابته التي تمنعها الهام، وأناقته لمبسه، وما يعتقد فيه من قدرة على كلّ شيء، ولعلّ حديث الأمّ عن سيّدنا هو الذي هوّله عنده فلم يتصوّر أنّه يوجد في الدنيا رجل يضارعه في قوّته أو إجلاله أو ثروته. أمّا عن الحبّ فقد كان كلّ من في البيت يحبّ الرجل لحذّ العبادة فانسرب حبّه إلى قلبه الصغير بإيجاء البيت، يتدّ أنّه ظلّ جوهره مكتونة في حقّ مغلق من الخوف والرعب. مضى يقترب من قبور درب قورم المظلم الذي تتخذ المفاير مسرعا لألعابها الليلية، والذي آثره لنفسه طريقا عن المرور بدقّان أبيه، وعندما دخل في جوفه راح يقرأ «قل هو الله أحد» بصوت مرتفع رنّ في السظلمة تحت السقف المنحني، وسبقته حينه إلى قوّة القيو البعيدة حيث يشعّ نور الطريق، ثمّ حثّ خطاه وهو يردّد السورة لطرد من تحدّثه نفسه بالظهور من العفريات، فالعفريات لا سبيل لها على من يذرع بأيات الله، أمّا أبوه فلن يدرأ غضبه عنه إذا لار أن يتلو كتاب الله كلّ. وخرج من القيو إلى الشطر الآخر من الدرب، وعند نهايته طالع سبيل بين القصرين ومدخل حتام السلطان، ثمّ لاحظ لعينه مشرّبات يشه بلوتنا الأخضر القاتم، والباب الكبير بمطرفه البرنزية فافتتّر ثغره عن ابتسامة فرح لما يدخره له هذا المكان من أفانين المرح، فعما قلل يهرع الغلمان إليه من جميع البيوت المجاورة إلى فناء الواسع الذي يحوي عدّة حجرات تتوسطها القرن فيكون لعب وفنو وبطاطة. وفي تلك اللحظة رأى سوارس وهي تقطع الطريق على مهل متّجهة إلى بين القصرين فوثب قلبه وشاع فيه سرور مأكّر، وما لبس أن دسّ حقيبة كتبه تحت إبطه الأيسر وجرى ورامها حتّى أدركها ثمّ وثب إلى سلّمها الخلفي، ولكنّ الكمساري لم يتركه في سروره طويلا فجاءه يطلّاب بشن التذكرة وهو يرمقه بنظرة تنمّ عن ريبة وتحذّر فقال له متوقّدا أنّه سيخادوها حالما تغف لأنّه لا يسمعه النزول وهي سالرة، فتحوّل الرجل عنه إلى السائق وعطف به أن يوقف العربية وهو يزجر غاضبا فاتتهز الغلام فرصة تحوّل عنه وشبّ على أمشاط قلميه وصفحه ثمّ وثب إلى الأرض وانطلق

هاربًا وشاتمًا الكمساري تلاحقه أشد من الأحجار المطينة... لم تكن غطّة مدبّرة، ولا هي من مختار شطارته، ولكنه رأى غلامًا يفعلها في الصباح فراقت له، ثمّ وجدها سائحة لإعادتها بنفسه ففعل.

## ٩

واجتمعت الأسرة - ما عدا الأب - قبيل المغرب فيما يعرف بينها بمجلس القهوة. وكانت الصالة بالدور الأول مكانه المختار حيث تحيط بها حجرات نوم الإخوة والاستقبال ورابعة صغيرة أعدت للدرس وقد فُرشَت الصالة بالحُشُر الملوّنة وقامت في أركانها الكنبات ذوات المساند والوسائد. وتدلّى من سقفها فانوس كبير يشعله مصباح شاذي في مثل حجمه. وكانت الأم تجلس على كتبه وبسطه وبين يديها مدفأة كبيرة دفنت كتبة القهوة حتى النصف في جرحها التي يعلوها الرمد، وإلى يمينها خوان وضعت عليه صينية صفراء صنّت عليها الفنانين، يجلس الأبناء حياها سواء من يؤذن له بإحضار القهوة معها كياسين ولهمي ومن لا يؤذن له بحكم التقاليد والأداب فيقعن بالسر كالشقيقتين وكيال. تلك ساعة محببة إلى النفوس يستأنسون فيها إلى رابطتهم العائلية، وينعمون بلذة السر، وينضون جميعًا تحت جناح الأمومة في حب صافي وموقّة شاملة. ويدت في جلساتهم راحة الفراغ وتحرّره فكانوا بين مرتبّ ومضطجع، وبينها جعلت خديجة وعائشة تسحّان الشاربين على الضراخ من شربهم لتقرأ لهم الطالع في فلجيتهم راح ياسين يتحدث حينًا ويقرأ في قصة اليتيمين من مجموعة مسامرات الشعب حينًا آخر. كان من عادة الشاب أن ييب بعض فرائحه لمطالعة القصص والأشعار لا لإحساسه بنقص تعليمه - فالابتدائية وقتذاك لم تكن مطلبًا صغيرًا - ولكن غرامًا بالتسلية وولمّا بالشرع والأساليب الجزلة. وقد بدا بجسمه المكتنز في جلبابه النضفاض كقربة هائلة إلا أنّ مظهره لم يتعارض - بحكم الزمن - مع قسامة في وجهه الأسمر المعتلّ بعينه السوداءوين الجذابتين وحاجبيه المقروّنين وشفتيه

الشهوأتين، ونمّ بجملته - رغم حداثة سنّه الذي لا يمازج الواحدة والعشرين - على رجولة مفعمة بالفحولة. ولبد كمال لصقه ليلتقط ما يرمى إليه بين آونة وأخرى من نواذر القصص وهو لا يكفّ عن الاستزادة منها غير مكترث لما يحدّثه إلحاحه على أخيه من الضيق كي يشبع أشواقًا تشتمل بخياله في مثل هذه الساعة من كلّ يوم، ولكن ما أسرع أن يشغل عنه ياسين بالحديث أو بالاستغراق في المطالعة متفصّلًا عليه بين حين وآخر - كلّما اشتدّ إلحاحه بكلمات مقتضبة إن وجد بها الجواب على بعض أسئلته فما أخرى أن تستثير أسئلة جديدة لا جواب لها عنده، ثمّ لا يفتأ يرمق أخاه وهو آخذ في المطالعة التي تبيح له مفتاح العالم السحريّ بعين الحسد والحزن، فكم حزّ في نفسه حجزه عن قراءة القصّة بنفسه، وكم أحزنه أن يحدّثه بين يديه بحيث يقلّبها كيف شاء دون أن يسمعه حلّ رموزها فالولوج منها إلى دنيا الرؤى والأحلام، فقد وجد في هذا الجانب من ياسين ماثلاً لخياله حيّا له من ألوان المسرة ما حيّا، وهيج من أسباب الظما وحذابه ما هيج، وكثيرًا ما كان يرفع عينيه إلى أخيه ويسأله في لهفة: «وماذا حدث بعد ذلك؟» فينضج الشاب قائلًا: «لا تفصّل عليّ بأسئلتك ولا تتعجّل حثّك فإن لم أقصّ عليك اليوم فنذا»، ولم يكن يحزنه شيء كاستنظاره للغد حتّى اقترنت لفظه الغد في ذهنه بالحسرة، ولم يكن نادرا أن يتحوّل إلى أمّه بعد تفرّق المجلس وبه أمل أن تقصّ عليه ما «حدث بعد ذلك» ولكنّ المرأة كانت تجهل قصة اليتيمين وغيرها ممّا يقرأ ياسين إلّا أنّها يمزّ عليها أن تركه خائبًا فتروي له ما تحفظ من حكايات اللصوص والعفاريت فيروغ خياله إليها رويذًا ظافرًا بزاد من العزاء. في مجلس القهوة ذلك لم يكن عجيبًا أن يشعر بالثّ ضائع مهمل بين أهله، لا يكاد يلمّض إليه أحد، وأنهم مشغولون عنه بأحاديثهم التي لا تنهي. فلم يتورّع عن الاختلاق في سبيل الاستئثار باهتمامهم ولو إلى حين، ولذلك رمى بنفسه في مجرى الحديث معترّضًا تيّاره بجرأة وقال بلهجة حادة فجائية كانطلاق القليقة كأنها تذكر أمرًا

خطيرًا بفتة :

الأيمان على صدقه ولكن احتجاجة ضاح في ضجة من الضحك جعلت الغليظ والرفيع من حناجر الرجال والنساء في هارموني واحدة، وتحركت طبيعة خديجة الساخرة فقالت:

- ما أكثر ضحكائك، لو صدقت فيها تروي من أخبار لما أبقيت حل أحد من أهل النحاسين حيًا.. ماذا تقول لرينا لو حاسبك على أخبارك هذه؟

ووجد في خديجة مهاجمًا يقدر عليه، وكعادته كليًا ارتطم بمسخرتها راح يعرض بأنفها قائلاً:

- أقول له إن الحق على منخور أخني...!

فقالت الفتاة وهي تضحك:

- من بعض ما عندكم. السنن في البلوى سواء!

وهنا قال ياسين مرة أخرى:

- صدقت يا أختاه.

وتحوّلت إليه متطرّفة للالتقاط ضاح فبادرها قائلاً:

- هل أخفبتك... لماذا... ليس إلا أنني

جاءرت بالموافقة على رايك...

فقالت له حانقة:

- اذكر عيريك قبل أن تمرّض بعيوب الناس...

فرفع عينيه متظاهراً بالحيرة ثم تمتم:

- والله إن أكبر عيب ليهون إلى جوانب هذا

الأنف...

وتظاهر فهمي بالاستنكار ثم تساءل في نبرات

وشت بانضيمه إلى المهاجمين:

- ماذا قلت يا أخي، أهر أنف أم جريمة؟

ولسّا كان فهمي لا يشترك في مثل هذا النضال إلا نادراً فقد رحّب ياسين بقوله في حاس وقال:

- هي الاثنان معاً، ففكر في المشوّلثة الجنائية التي سيتجملها من يقمّم هذه العروس إلى عرسها المنكود.

وتفهق كحال ضاحكاً بصوت كالصغير المتقطع ولم ترتج الأم إلى وقوع ابنتها بين كثرة من المهاجمين فأرادت أن ترجع الحديث إلى أصله وقالت بهدوء:

- خرج بك الكلام الفارغ من موضوع الحديث، كان حديثاً عن السيّد كمال أصدق في أخباره أم لم يصدق، ولكن أظنّ أنّه لا داعي إلى الشكّ في صدقه

- يا له من منظر لا ينسى الذي رأيته اليوم وأنا عائد... رأيت غلاماً يشب إلى سلّم سوارس ثم صفع الكمساري وركض باكراً سرعة فيما كان من الرجل إلا أن عدا وراءه حتّى أدركه ثم ركله في بطنه بكلّ قوّته...

وقلّب عينيه في الوجوه ليرى أثر حديثه فلم يجد ثمة اهتمام ولمس إعراضاً عن خبره الكثير وتصميماً على مواصلة الحديث، بل رأى يد عاتشة تمتد إلى ذقن أمّه وتحملها عنه بعد أن همت بالإصغاء إليه، ولجّح إلى هذا ابتسامة هازلة ترتسم على شفقي ياسين الذي لم يرفع رأسه عن الكتاب، فركبه العناد وقال بصوت مرتفع:

- وسقط الغلام يتلوى وازدحم حوله الناس فإذا به قد فارق الحياة...

وأبعدت الأمّ الفئجان عن فمها وهتفت:

- يا ولداه...! أتقول إنّ مات؟

وسرّ باهتمامها وركّز قوّته فيها كما يركّز المهاجم اليأس قوّته في نقطة ضعيفة من سور منيع لقال:

- أجل مات، ورايت بعينيّ دمه وهو يسيل

بغزارة...

وحده فهمي بنظرة ساخرة كأنّها تقول له «إني أذكر لك أكثر من قصّة من هذا النوع» وقال متسائلاً في تهكم:

- قلت إنّ الكمساري ركله في بطنه؟... فمن أين

سال الدم؟

وانطفأت شعلة الظفر التي تلالأت في عينيه مدّ جذب أمّه إليه، وحلّ عليها سهوم الارتباك والحق، ولكن أسفه الخيال فاسترقت نظرة عينيه حيويّتها وقال:

- لسّا ركله في بطنه سقط حل وجهه فشجّ رأسه!

وهنا قال ياسين دون أن يرفع عينيه عن التبتتين:

- أو أنّ الدم سال من فيه، فالدم قد يسيل من الفم دون حاجة إلى جرح ظاهريّ، هنالك أكثر من تفسير لحرب المكلوب - كالعادة - فلا تخف...

واحتجّ كمال على تكليب أخيه وراح يحلف بأغلظ

بعد أن حلف... أجل كمال لا يخلف كذباً أبداً...  
 وياخ سرور الغلام الانتقامي لتوه، ومع أن إخوته  
 واصلوا المزاح حيناً آخر إلا أنه انقطع عنهم بروحه،  
 متبادلاً مع أنه نظرات ذات معنى، ثم خالطاً بنفسه  
 متفكراً في قلق وكدر. كان يدرك خطورة الحلف  
 الكاذب فيما يثير من سخط الله وأوليائه، ويعزّ عليه  
 جداً أن يخلف كذباً بالחסين خاصة لولمه به، ولكنه  
 كثيراً ما وجد نفسه في مأزق حرج - كما وجد اليوم - لا  
 يخرج منه في نظره إلا بالخلف الكاذب، فينشق وهو لا  
 يدري إلى التورط فيه. بيد أنه لم يكن ينجو، خاصة  
 إذا دُكر بجريرته، من المهّم والقلق، وهوة لو يقتلع  
 الماضي السئ من جلوره، وأن يبدأ صفحة جديدة  
 نظيفة، وذكر الحسين، وموقفه عند أصل مثلته حيث  
 تتراعى وكأن هامتها تتصل بالسبأ، وسأله في ضراعة  
 أن يعفو عن زلته وهو يشعر بغضاضة من اجترأ على  
 حبيب بإساعة لا تغتفر. وغرق في توشلاته ملياً ثم أخذ  
 يفتق إلى ما حوله ويفتح أذنيه إلى ما يدور من حديث  
 فيه الكمد وفيه الجديد، وقليل منه ما يسترعي انتباهه،  
 ولكنه لا يكاد يغفل من ترديد ذكريات متزعة من ماضي  
 الأسرة البعيد أو القريب، وأنباء عما يجري من مسرات  
 الجيران وأحزاهم، ومواقف حرجة للأخوين أمام أبيهما  
 الجبار، تنبهي خديجة إلى استعادة وصفها وتحملها على  
 سبيل الفكاهة أو الشائنة. ومن هذه وتلك تمت للغلام  
 معرفة تبلورت في خيئته على صورة غريبة تأثر تكوينها  
 غاية التأثير بما تجاذب طرفه من روح خديجة التهجمية  
 وروح أمه السمحة العفوة. وانتبه أخيراً إلى فهمي وهو  
 يقول مخاطباً ياسين:

- إن هجوم هندنرج الأخير شديد الخطورة ولا  
 يبعد أن يكون الهجوم الفاصل في هذه الحرب.

وكان ياسين يحفظ على آمال أخيه ولكن في هدوء  
 متّسم بقلة الاكتراث، تحقّق مثله أن ينتصر الألمان  
 وبالتالي الترك وأن تستردّ الخلافة سابق عرشها، وأن  
 يعود عباس ومحمد فريد إلى الوطن ولكن أمنية من  
 هذه الأمان لم تكن تشغل قلبه في غير أوقات الحديث  
 عنها، وقد قال وهو يترّ رأسه:

- مضى أربع سنوات ونحن نردّد هذا الكلام...  
 فقال فهمي بجرأ وإشفاق:  
 - لكلّ حرب نهاية، ولا بدّ أن تنتهي هذه الحرب،  
 ولا أظنّ الألمان يهزمون!...  
 - هذا ما ندعو الله أن يتحقّق، ولكن ماذا يكون  
 رأيك لو وجدنا الألمان كما يفهم الإنجليز؟  
 وليّا كانت المعارضة تشعل حدّته فقد حلا صوته  
 وهو يقول:

- المهّم أن نتخلّص من كابوس الإنجليز، وأن تعود  
 الخلافة إلى سابق عظمتها فنجد طريقنا ممهداً...  
 وتدخلت خديجة في الحديث متسائلة:  
 - ولماذا تحبّون الألمان وهم الذين أرسلوا زبلن ليلقي  
 قتاله علينا؟

وراح فهمي يؤدّد - كما دته - أنّ الألمان قصصوا  
 الإنجليز بقتالهم لا المصريين، فانتقل الحديث إلى  
 مناطيد زبلن وما يقال من ضخامتها وسرعتها  
 وخطورتها، حتّى استوى ياسين في جلسته وبهش إلى  
 حجرته ليرتدي ملابس مهيّأة لمغادرة البيت إلى سهرته  
 المعتادة، وعاد بعد فترة وجيزة وقد تبيّن وأخذ زيتته،  
 فتراى أنيق الملبس، جميل المظهر، وبدأ بجسمه  
 الضخم وفحولته الناضجة وشاربه النابت أكبر من سنّه  
 كثيراً، ثمّ حياهم وانصرف وشيّه كمال بنظرة تنمّ حيّا  
 يخبئه عليه من التمتّع بحويّته في انطلاق ساحر، فلم  
 يفب عنه أنّ أخاه لم يعد يجأش - منذ تعيينه كاتباً  
 بمدرسة النحاسين - على ذهابه وإيابه، وآله يسهر كما  
 يشاء ويعود حين يشاء، ما أجلّ هذا وأسمعه، وكم  
 يكون إنساناً سعيداً لو ذهب وجاء كما يحبّ، ومدّ  
 سهرته إلى حيث يشاء، وقصر القراءة - حين تنمّ له  
 أداتها - على الروايات والأشعار، ثمّ سأل أمه فجاءه:

- أميكنني إذا وثّقت أن أسهر في الخارج كياسين؟

وابتسمت الأم قائلة:

- ليس السهر في الخارج بالغاية التي يصحّ أن نحلم  
 بها من الآن  
 فصاح عتجاً:

- ولكن أبي يسهر، وياسين يسهر كذلك.



فرفعت الأم حاجيها ارتباكاً وتمتمت:  
- شدّ حيلك أولاً حتى تصير رجلاً ثم موقفاً،  
ووقتها يفرجها ربنا!

ولكن كمال بدا متعبلاً فسامل:  
- ولماذا لا أتوكل بالابتدائية بعد ثلاثة أعوام؟  
وصاحت خديجة في سخرية:

- تتوكل دون الرابعة عشرة! ... ولماذا تصنع إذا  
بلت على نفسك في الوظيفة؟!  
وقبل أن يعلن ثورته حل أخيه قال له فهمي  
بازدراء:

- يا لك من حمار... لماذا لا تفكر في دخول  
الحقوق مثلي؟... إن ظروف ياسين القاهرة هي التي  
جعلته يأخذ الابتدائية في العشرين من عمره، ولولاها  
لأتم تعليمه... ألا تدري كيف تتمق يا كسولاً!

## ١٠

عندما صعد فهمي وكال إلى سطح أليت كانت  
الشمس على وشك الاختفاء، فلاحت قرصاً أبيض  
مسائلاً تولدت عنه حيويته وبردت حرارته وانطفأ  
توهجه، وقد بدا بستان السطح المسقوف باللبلاب  
والياسمين في ظلمة وانية، ولكن الشات والغلام مضيا  
إلى شطر السطح الآخر حيث لا يصحب فلول النور  
حجاب، ثم مالا إلى السور الملاصق لسور السطح  
المجاور، سطح الجيران. وكان فهمي يرقى بكمال إلى  
هذا الوضع كل مغيب بحجة مراجعة دروسه في الهواء  
الطلق حل الرغم من أن جو نوفمبر أخذ يميل إلى  
البرودة في هذه الساعة من اليوم، وأوقف الغلام  
بحيث جعل ظهره إلى السور، ووقف هو لقيه بحيث  
أمكنه أن يمدّ بصره إلى سطح الجيران الملاصق دون  
تلفت كمال بدا له. وهناك بين حبال الغسيل لاح  
فتاة - شابة في العشرين أو نحو ذلك - وقد انهمكت في  
جمع قطع الثياب الجافة وتكديسها في سلة كبيرة. ومع  
أن كمال راح يتكلم بصوت مرتفع كعادته إلا أنها  
واصلت عملها وكأنها لم تنتبه إلى مجيء الطارين. أمل  
كان يجيء به دوماً في مثل هذه الساعة لئله يفوز منها

بنظرة إذا اتفق ودعاه إلى السطح بعض شائها، ولم  
يكن تحقيقه سيراً كما دلّ تورّد وجهه الناطق بفرط  
سروره، وخفقان قلبه المتابع ببهجة مفاجئة، فجعل  
ينصت إلى أصيه الصغير بعقل ناكه وعينين أقلقها  
استراق النظر، وهي تترامى تارة وتحتجب أخرى، أو  
يبدو بعضها ويغيب بعضها، كيفاً اتفق موقفها من  
الثياب والعلامات المنشورة... كانت فتاة متوسطة  
القامة صافية البشرة مع ميل إلى البياض، سوداء  
العينين، تنطق مقلتهاها بنظرة تفهيم حياة رثّة  
وحزينة، إلا أن جمالها وعاطفته المتوثبة وإحساسه  
بالقنطرة لرقبتها لم تستطع أن تحو القلق الذي يدبّ  
وراء قلبه - وانياً حين حضورها ثم قوياً إذا خلا إلى  
نفسه - لجرائها على التعرّض لعينيه كأنه ليس بالرجل  
الذي ينبغي أن تتوارى فتاة مثلهما عن عينيه، أو كأنها  
فتاة لا تبالي التعرّض للرجال، وطلما ساد نفسه ما  
بالها لا تفزع مولية كخديجة أو عائشة لو وجدت  
إحداً من نفسها في مثل موقفها! أيّ روح صبيب يشدّ  
بها عن التقاليد المرحية والآداب المقدسة، وألا يكون  
أهدأ جانباً لو بدا منها ذلك الاحتشام المقتد ولو حل  
حساب سروره الذي يفوق الوصف بريقها؟!...  
يبدّ أنه ذاب على انتحال الأعداء لها من قديم الجوار  
ووحدة النشأة، ودعاً الوداد أيضاً. ثم لا يفتأ وراء  
نفسه يحاورها ويخاضها حتى تشجع وترضى. ولياً لم  
يكن جريئاً كجرائها لقد جعل يختلس من الأسطح  
المجاورة النظر ليطمئن إلى خلوها من الرقيب لأنه لم  
يكن مما يُفرض الطرف عنه أن يجرح شاب في الثامنة  
عشرة حرمة الجيران، وعاشقة من كان منهم في طيبة  
جارهم السيد محمد رضوان ولهذا أقلقه دائماً شعوره  
بخطورة فعلته، وخوفه من أن يترامى نبؤها إلى أبيه  
فتكون الطامة. ولكن استهانة الحب بالخوف صعب  
قديم فلم يقدر شيء منها على إفساد نشوته أو انتزاعه  
من حلم ساعته، فمضى يراقبها وهي تلبو أو تختفي  
حتى خلا ما بينه وبينها وباتت تواجهه ويدها  
الصغيرتان ترتفعان وتنخفضان وأصابعها تنقبض  
وتنبسط على مهل وتؤدّد كأنها تعتمد إطالة عملها.

إلى موقفه هذا مساء بعد مساء؟... وكيف يلقي قلبها هذه الخطى البهرية من ناحيته؟... وتحيل نفسه متخبطاً صور السطوح إلى مكانها في الظلام، وتحيلها على أطوار شتى تارة تنتظره على ميعاد، وتارة تباهت بمقدمه حتى يتم بالفرار، ثم تصور ما يكون بعد ذلك وما يند عنه من بوح وشكوى وعتاب، ثم ما قد يستتبع هذا أو ذاك من عناق وقُبَل، بيد أنها كانت محض تخيلات وأوهام، وكان أدرى الناس - بما جبل عليه من دين وأداب - بطلانها ومغالها. وبدا الموقف صامتاً إلا أنه كان صمتاً مكهرباً يكاد ينطلق بغير لسان، وحتى كمال لاحت في عينيه الصنيرتين نظرة حائرة كأنه يسأل نفسه عن معنى هذا الجذ الغريب الذي يثير استغلاعه على غير جدوى، ثم نفذ صبره فرفع صوته قائلاً:

- لقد حفظت الكلمات، ألا تسمعها لي؟

وأفاق فهي على صوته فتناول الكؤساء منه ومضى يسأله عن معاني الكلمات والأخر يجيب حتى وقعت عيناه على كلمة عزيزة وجد بينها وبين ما كان فيه سبباً وأى سبب فرفع صوته صمداً وهو يسأله عن معناها قائلاً:

- قلب...؟

وأجلب الغلام وتبجح الآخر يتلمس أثر موقع الكلمة من وجهها، ثم رفع صوته مرة أخرى متسائلاً:

- حب...؟

وارتبك كمال قليلاً ثم قال بصوت يدل على الاعتراض:

- ليست هذه الكلمة في الكؤساء...

قال فهي باسم:

- ولكنني ذكرتها لك مراراً، وكان يجب أن نغفلها...!

وقطب الغلام كأنه يشد قوس حاجبيه لاصطياد الكلمة الهاربة ولكن أخاه لم يتظر نتيجة محاولته وواصل امتحانه بنفس الصوت المرتفع قائلاً:

- زواج...

وحس قلبه ذاك التعمد وهو بين الشك والتمني ولكنه لم يقتصد في الانطلاق مع فرحته إلى أبعد الآفاق حتى استحال باطنه رقصاً وأنغاماً، ومع أنها لم ترفع عينها إليه فكأنه إلا أن هيتها وتوزد وجبتها ونغماتها النظر إليه تمت جبراً عن شدة إحساسها بوجوده أو انعكاس وجوده على إحساسها. وبلدت في هدولها وصمتها موفورة الرزاة كأنها ليست هي التي تشيع الفرحة والهجة في بيته إذا زارت شقيقته، أو ليست هي التي يعلو صوته في جنبات الدار وترد ضحكاتها، هنالك يقبع وراء باب حجرته وكتابه في يده استعداداً للظواهر بالاستدكار إذا طرقة طارق، ويروح يستقبل بوجهه المرتكز أنغامها الناطقة والضاحكة بعد استخلاصها من أصوات الآخرين الملازمة لها التي لا يكاد يشعر بها كأنها وعيه مغناطيس يجلب إليه الصلب وحده من بين أخلاق شتى، وربما لحظ بمضاً منها وهو يعبر الصالة، وربما التقت عينهما في لحظة خاطفة ولكنها كافية لإسكاره وإذهاله كأنه تلقى بها رسالة خطيرة دار رأسه بخطورتها، وملاً بنظراته المسترقة من وجهها عينه وروحه، على الرغم من أنها كانت مسترقة خاطفة إلا أنها مستأثرة بروحه وإحساسه فكانت شديدة النفاذ والقوة التي تأتي النظرة منها بما لا يستطيعه النظر الطويل والسبر العميق، كأنها ابتياق البرق الذي يتوهج لحظة تصبيرة فتضيء شرارته الرحاب وتحطف الأبعصار، ولعل قلبه يسرور مسكر حبيب ولكنه لم يجزل - كحالة أبداً - من ظل أمي يتبعه كما تتبع رياح اقمسين مشرق الريح، لأنه لم يكن يكف عن التفكير في الأربعة الأهوام التي يتم تعليمه فيها، والتي لا يدري كم من يد قد تمتد في أثنائها إلى الشرة الناصجة لتقطعه. ولو كان جر البيت خير هذا الجور الحائق الذي تشد على عنقه قبضة أيه الحديديّة لأمكنه أن يلتصق إلى سلام قلبه أقصر السبل، ولكنه خاف دائماً أن يتنفس من أماله فيمرضها لزجرة من أبيه قاسية تطيرها وتبددها. وتساءل وهو يمد بصره فوق رأس أخيه ترى أي أفكار تدور برأسها؟ ألا يشغله حقاً إلا ما تجمع من قطع الملابس؟... ألم تشعر بعد بما يجلبه

كعادتِهن متلاصقات كآتهن جسم واحد فزوروس ثلاثة في حين ترتع كيال على كنية أخرى قبالتها فأنما كتابه في حجره يقرأ فيه حيناً، ويغمض عينيه ليحفظ عن ظهر قلب حيناً آخر، ويتسل بين هذا وذاك بالنظر إليهن والإصغاء لحديثهن، ولم يكن فهمي يوافق على استذكاره لدروسه بعيداً عن مراقبته إلا على كره ولكن فزوق الغلام في المدرسة شفع له في اختيار المكان الذي يحب أن يستذكر فيه. والحق كان اجتهداه فضيلته الوحيدة التي تحمد له، ولولا شقاوته لاستحق عليها تشجيع أبيه نفسه، ولكنه على اجتهداه وتفوقه كانت تلم به ساعات ملل فيضيق بالعمل والنظام حتى ليغبط أمه وأخته على خلل بالهن وما يظن به من راحة وسلام، وربما تقي فيما بينه وبين نفسه لو كان حظ الذكور في هذه الدنيا كحظ النساء. إلا أنها كانت ساعات عابرة فلم تستطع أن تسبه ما يتمتع به من مزايا دعت به أحيان كثيرة إلى التطاول عليهن بالفخر والمبالاة لداعٍ ولغير ما داعٍ فلم يكن من النادر أن يسألن وفي صوته رقة من التحدي ومن منكن تعرف عاصمة الكاب؟ أو «ما معنى شاب بالإنجليزية؟» فيجد من عائشة صمناً لطيفاً على حين تقر له خديجة بجهلها ثم تعرض به قائلة: «ليس هذه الطلاسم إلا من كان له رأس كراسك» أما أنه تقول له في إيمان ساذج: «لو علمتني هذه الأشياء كما تعلمي الديانة لما قصرت فيها دونك». فذلك أن أمه - على استكانتها ووقتها - كانت شديدة الاعتزاز بشقاقتها الشمسية المتوارثة عن أجيال متعاقبة منذ القدم، ولم تكن تغفل أنها بحاجة إلى مزيد من العلم أو أنه استجد من العلم ما يستحق أن يضاف إلى ما لديها من معارف دينية وتاريخية وطيبة، وضاعف من إيمانها بها أنها تلقته عن أبيها أو في بيته الذي نشأت فيه، وكان الأب شيخاً من العلماء الذين فضلهم الله - لحفظهم القرآن - على العالمين. فلم يكن معقولاً أن تعدل بعلمه علماً ولو لم تجهز برأيها إيماناً للسلامة، ولهذا كثيراً ما أسامت الظن ببعض ما يقال للأبناء في المدارس ووجدت ثمة حيرة شديدة سواء في تفسيره أو في السباح بتلقينه للناشئين،

ونحن إلى عند ذلك أنه لح على شفتيه شبه ابتسامة فتوالت ضربات قلبه في سرعة وحارة، وملاء شعور بالظفر لأنه أمكنه أخيراً أن ينقل إليها شحنة من الكهرباء التي تستمر في صدره، بيد أنه تسامل لماذا يا ترى لم تفصح عن تأثيرها إلا عند هذه الكلمة، الأتيا استنكرت سابقتها أم أن الأخيرة كان أول ما وعت أذناها؟... وما يدري إلا وكيال يقول عجباً بعد أن احياه التذكر:

- هذه الكلمات صعبة جداً...

وأمن قلبه بقوله أعنيه البرية، وذكر على ضوئها حاله ففترت فورة سروره أو كانت. وهم بالكلام ولكنه رأها انحنت على السلة ثم حملتها وأجهت نحو السور الملائق لسطح بيته ووضعتها عليه وراحت تضبط الغسيل براحيها، قريبة من موقعه لا يفصلها عنه إلا ذراعان، ولو شامت لاخترت موضعاً آخر من السور ولكن كأنها تعمّدت أن تصدّى له وجهها لوجه، فلبت في هجومها جريئة لحذ أخافه وأريكه، وإن عاود قلبه الحفقتان السريع الحار حتى شعر بأن الحياة تيج له من كنوزها لوئاً جليداً لم يذره، لطيفاً يبيحاً مفعلاً حيوية وأفراساً. ولكن وقتتها القريبة لم تكلّ لها لبث أن رفعت السلة بين يديها واستدارت موكية صوب باب السطح حتى مرقت منه وغابت عن ناظره. وجعل ينظر إلى الباب ملياً دون مبالاة بأعنيه الذي عاود التشكي من صعوبة الكلمة ثم شعر برغبة في الانفراد لتملي ما استجد من تجارب الهوى قلبه عينه في القضاء في تظاهر بالدعشة كأنما يتبّه إلى الظلمة الزاحقة في الأفق لأول مرة، وغتم قائلاً:

- آنا لنا أن نعود...

وكان كيال يستذكر دروسه في الصلاة، تاركاً حجرة الاستذكار لفهمي وحده، ليكون غير بعيد عن مجلس أمه وأخته: وكان ذلك المجلس امتداداً لمجلس القهوة إلا أنه يقتصر على النسوة وحديثهن الخاص الذي يجدن فيه على تفاهته متعة لا تدانيها متعة، وقد جلسن

كان لا يشرب جرعة الماء من الفلّة إلا إذا دعاها للشرب قبله ليضع شفتيه موضع شفتيها المبثّل بريقها. ومضت الجلسة كما يمضي كلّ ليلة حتى قاربت الساعة الثامنة فقامت الفتاتان ودعّتا أمّهما وذهبتا إلى حجرة نومهما، وعند ذلك عبّلت الغلام بقراءة درسه حتى فرغ منه ثم تناول كتاب الديانة وانتقل إلى جانب أمّه حل الكتب المقابلة له وهو يقول لها بصوت ينم عن الإغراء:

- استمعنا اليوم إلى تفسير سورة عظيمة سمعجبك جدًا.

فاستوت المرأة في جلستها وهي تقول باحترام وإجلال:

- كلام ربنا عظيم كلّ...

وسره اهتمامها وهزه شعور بالنبطة والعزة لا يحده إلا حين هذا الدرس الأخير من اليوم. أجل كان يجد في هذا الدرس الديني أكثر من سبب للسعادة، فإنه يقوم في أثناء نصفه على الأقلّ بدور المدرّس، ويحاول ما استطاع أن يستعيد ما يعلّق بذاكرته من هيئة مدرّسه وحركاته وما يتخلّله فيه من إحساس بالاستعلاء والقوّة، وإنه يستمتع في نصفه الآخر بما تلقّيه عليه أمّه من ذكريات وأساطير، وإنه يستأثر وحده في شطريه بأمّه دون شريك. ونظر كيال في الكتاب فيما يشبه الإدلال ثم قرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم. قل أوحى إليّ أنّه استمع نقر من الجنّ فقالوا إنّنا سمعنا قرآنًا عجيبًا، يبدي إلى الرشد غامضًا به ولن نشرك ربنا أحدًا...» حتى أتمّ السورة ولاح في عيني الأم التردّد والحيرة، إذ كانت تحلّله من التزوّد باسمي العفريت والجنّ درءًا لشرور تذكر بعضها على سبيل التخويف وتمسك عن البعض إشفاقًا ومبالغة في الخيطة، فلم تدرّ كيف تتصرّف وهو يتلو أحد الاسمين الخطيرين في سورة شريفة، بل لم تدرّ كيف تحول بينه وبين حفظها أو ماذا تفعل لو دعاها كالمتعاد إلى حفظها معه. وقرأ الغلام في وجهها هذه الحيرة فداخله سرور مأكّر، وجعل يبدأ ويعيد ضاغطًا على مخارج الاسم الخطير وهو يلحظ حيرتها متوقّفًا أن تفصح أخيرًا عن إشفاقها

بيد أنّها لم تمش باختلاف يذكر بين ما يقال للغلام في المدرسة عن أمور الدين وبين ما لديها منها، ولما كان الدرس المدرسي لا يكاد يتّسع إلا لقراءة السور وتفسيرها وتبيين المبادئ الدينية الأولى فقد وجدت متسّحًا لقصّ ما عندها من أساطير لا تنفصل في اعتقادها عن حقيقة الدين وجوهره بل لعلها رأت فيها دائمًا حقيقة الدين وجوهره، وجلّها معجزات وكرامات من النبيّ والصحابّة والأولياء، وتعاوّد شقّ للوقاية من العفاريات والزواحف والأمراض فصدّقها الغلام وآمن بها، لأنّها صادرة عن أمّه من ناحية، ولأنّها جديدة في موضوعها فلم تتعارض مع معارفه الدينية المدرسية من ناحية أخرى، وفضلًا عن هذا وذاك فلم تكن عقلية مدرّس الديانة كما تتكشف في تبسّطه في الحديث أحيانًا - لتختلف عن عقلية أمّه كثيرًا أو قليلًا، ثمّ إنّه خُفّ بالأساطير شغفًا لم يظفر بمثله في الدروس الجلفة فكان درس أمّه من أسعد ساعات اليوم وأحفلها بالمتعة والخيال. أمّا فيها هذا الدين فلم يكن النزاع نادرًا إذا عيّن أسبابه، من ذلك أنّها اختلفت مرّة عن الأرض وهل هي تدور حول نفسها في الفضاء أو تهبط على رأس ثور، ولما وجدت من الغلام إصرارًا تراجمت متظاهرة بالتسليم، ولكنّها تسكّلت إلى حجرة فهمي وسألته عن حقيقة الثور الذي يحمل الأرض وهل ما زال على عهد يحملها. ورأى الشاب أن يترقّب بها ويحييها باللغة التي تحبّها فقال لها إنّ الأرض مرفوعة بقدره الله وحكمته. وعادت المرأة قائمة بهذا الجواب الذي سرّها وإن لم تجح من مخيلتها ذلك الثور الكبير. حل أن كيال لم يؤثر هذا المجلس لاستلكاره رغبة منه في الفخر بعلمه أو حبًا في النزاع الفكريّ، كان في الحقّ يحبّ بكلّ قلبه ألا يفارقهن ولو في وقت عمله، وكان يجد لمراهن سرورًا لا يعادله سرور، فهذه الأم يحبّها أكثر من أيّ شيء في الدنيا ولا يحتمل تصوّر الوجود بدونها لحظة واحدة، ولهذا خديجة وهي تلعب في حياته دور أمّ أخرى رغم سلاطه لسانها ووخز مزاحها، وهذه عائشة التي وإن لم تتحمّس يومًا لخدمة إنسان إلا أنّها أحبّه حبًّا عظيمًا فبأدائها حبًّا بحبّ حتى

بتأثير الضياء، وسامل نفسه متى يرى الله، وفي أي صورة يتبدى، وإذا به يسأل أمه مغبراً مجرى الحديث فجأة مرة أخرى:

- أيجاف أبي الله؟!

فتركتها الدهشة وقالت في إنكار:

- يا له من سؤال غريب! ... أبوك رجل مؤمن يا بني، والمؤمن يخاف ربه.

فهز رأسه في حيرة وقال بصوت خفيض:

- لا أتصور أن أبي يخاف شيئاً.

فهتفت المرأة في عتاب:

- ساعك الله ... ساعك الله ...

واحتذر من قوله باتسامة رقيقة، ثم دعاها إلى حفظ السورة الجندية، وراحا يتلوها آية آية ويعيدان. ولما استغرغا جهدهما نفث الغلام لذهاب إلى حجرة النوم فبعتته حتى اندس في فراشه الصغير، ثم وضعت راحتها على جبينه وتلت آية الكرسي، وانحنى فوقه وطبعت قبلة على خده فأحاط عنقها بلراصه وردة قبيلة طويلة صادرة من أعياق قلبه الصغير. وكانت تلقى دائماً صعوبة في التخلص منه عند توديعه مساء لأنه كان يلدل كل حيلته ليستبقها إلى جانب أطول مدة ممكنة إن لم يفر باستبقائها حتى يغيب في نومه وهو بين ذراعيها، ولم يجد وسيلة للفرج غابته خيراً من أن يطلب إليها أن تتلو على رأسه. إذا خمت آية الكرسي - سورة ثانية ثم ثالثة، حتى إذا انس منها ابتسامة اعتذار توّسل إليها معنّاً يخوفه من وحدته في الحجرة أو بما يترامى له به من أحلام مزعجة لا تدفعها إلا تلاوة طويلة للسور الشريفة، ورثاً عمادي في تشبّهها إلى حدّ تصعّب المرض، غير واجد في تحابله هذا جوراً، بل رآه عن يقين ممارسة متقوصة لحق من حقوقه المقدسة التي هضمت أضعف هضم يوم فصل عن أمه ظلياً وعدواناً وجيء به إلى هذا الفراش المفرد بحجرة أخويه. كم يذكر مع الحسرة هذا غير بعيد من ماضيه حين مضجعهما كان واحداً، وحين ينام متوسداً ذراعيها وهي تسكب في أذنه بصوتها الرقيق قصص الأنبياء والأولياء، وحين النوم يقشاه قبل رجوع

في لون من ألوان الاعتذار، ولكنها على شديد حيرتها لاذت بالصمت فمضى بعيد عليها التفسير كما سمعه حتى قال:

- ها أنت ترين أن من الجرن من استمع إلى القرآن وآمن به، فلعن سگان بيتنا من هؤلاء الجرن المسلمين وإلا ما أبقوا علينا طوال هذا العمر.

فقال المرأة في شيء من الغيظ:

- لعلمهم ... ولكن من الجائز أن يكون بينهم خيرهم، فيحسن بنا ألا نرثد أسلافهم!

- لا أخوف من ترويد الاسم ... هكذا قال مدرّسنا.

فحدجته المرأة بنظرة عتاب وقالت:

- المدرّس لا يعرف كل شيء! ...

- وإن كان الاسم ضمن آية شريفة؟

وشعرت جبال تساؤله بقهر ولكنها لم تجد بداً من أن تقول:

- كلام ربنا بركة كله.

واقتنع كمال بهذا القدر ثم واصل حديثه عن التفسير قائلاً:

- ويقول شيخنا أيضاً إن أجسامهم من نار!

ولمخ بها الفلق غابته فاستعافت بالله وسمعت حدة مرّات، أما كمال فاستطرد قائلاً:

- وسألت الشيخ هل يدخل المسلمون منهم الجنة فقال نعم فسألته مرة أخرى كيف يدخلونها بأجسام من نار، فأجابني بحدة قائلاً إن الله قادر على كل شيء.

فرنا إليها باهتمام ثم تساءل:

- وإذا التقينا بهم في الجنة ألا نحرقنا نارهم؟!

فابتسمت المرأة وقالت في ثقة وإيمان:

- ليس فيها أدنى أو خوف.

وسرح الغلام بعينه حاكماً وإذا به يسأل مغبراً مجرى الحديث فجأة:

- أنرى الله في الآخرة بأعيننا؟

قالت المرأة بنفس الثقة والإيمان:

- هذا حق لا ريب فيه.

فلاححت في نظراته الخلة أشواق كما تلوح في الغلس

- ما سمع أحد في شخيراً فكم، ولكنّها لا تدعي  
أنام بثرتها المتواصلة.

فقالت الأمّ في عتاب:

- أين وصيّتي لكيا بأن تكفّ عن هذركما وقت النوم؟  
وردّت الباب وسارت إلى حجرة الاستذكار فطرفت  
بأبها بخفة ثمّ فتحت وأدخلت رأسها وهي تقول  
باسمة:

- أفي حاجة إلى خلمة يا سيّدي الصغير؟

لرفع فمعي رأسه عن الكتاب وشكرها مشرق  
الوجه بانتسامة لطيفة، فردّت الباب وابتعدت عنه  
وهي تدعو لفتاتها بالفلاح وطول العمر، ثمّ عبرت  
الصالة إلى الدهليز الخارجي وارتقت السلم إلى الدور  
الأعلى حيث توجد حجرة نوم السيّد وصورتها يسبقها  
تاليًا الآيات.

## ١٢

لما غادر ياسون البيت كان يدري بطبيعة الحال  
وجهته التي يقصد مساء بعد مساء ولكنّه بدأ - كماداته  
دائمًا إذا مشى في الطريق - وكأنّه لا وجهة له. كان  
شأنه إذا سار أن يسير متمهلاً في هواده ورفق، مختلاً  
في عجب وزهو، كأنّه لا يفغل لحظة واحدة عن أنّه  
صاحب هذا الجسم العظيم وهذا الوجه الفائنس  
حيويّ وفحولة، وهذه الملابس الأنيقة الأخلّة حطّها -  
وأكثر - من العناية، إلى منشة حاجيّة لا تفارق يده  
صيفًا أو شتاء، وطربوش طويل مائل بمنّة حتّى يكاد  
يمسّ حاجبه، ومن عادته أيضًا إذا سار أنّه كان يرفع  
عينيه - دون رأسه - مستطلاً ما وراء النوافذ لعلّ  
وعسى، فلم يكن يقطع طريقًا حتّى يشعر في نهايته بما  
يشبه الدوار من كثرة تحريك عينيه، إذ كان ولعه  
بالتهام النسوة اللاتي يصادفنه داء لا شفاء منه، فهو  
يتضمّصهنّ مقبلات ويتبع عينيه أردافهنّ مدبرات،  
ويظنّ في قلقه كنور هائج حتّى ينسى نفسه فلا يعود  
يتلّبر مداراة مقاصده، الأمر الذي تنبّه له مع الزمن  
عمّ حسنين الحلاق والحاجّ درويش بائع الفول والفولبي  
اللّبان ويومي الشربتي وأبو سريح صاحب المقل

أبيه من سهرته، وينحسر عنه بعد نبوض الرجل إلى  
الحمام، فلم يكن يرى مع أمّه ثالثًا، وكانت الدنيا له  
بلا شريك. ثمّ بقضاء أعمى لم يذّر له حكمة فرّقوا  
بينها، وتطلّع إليها ليرى أثر نفيه في نفسها فيما عجب  
إلا بتشجيعها المرحي بموافقتها وتبشّتها له قائلة: «الآن  
صرت رجلاً فمن حقّك أن يفرد لك فراش خاصّ»،  
من قال إنّه يسره أن يكون رجلاً أو أنّه يطمح إلى أن  
يفرد له فراش خاصّ؟! ومع أنّه بلّل أوّل وسادة  
خاصّة له بدمعه، ومع أنّه أنذر أمّه بأنّه لن يعفو عنها  
مدى الحياة، إلا أنّه لم يجرؤ على التسلّل إلى مضجعه  
القديم لأنّه كان يعلم أنّ وراء تلك الحركة الجائرة  
الغادرة نهمّ إرادة أبيه التي لا تردّ، ولشّدّ ما حزن حتّى  
رست عكازة الحزن في أحلامه، ولشّدّ ما حنّ على  
أمّه - لا لأنّه لم يسمع أن يموت حتّى على أبيه فحسب - ولكن  
لأنّها كانت آخر من يتصوّر أن يحبّ عنده الأمل، بيّد  
أنّها عرفت كيف تسترضيه وتردّه إلى الصفاء وويّذا  
ودابت على ألاّ تفارقه بادئ الأمر حتّى يوافيه النوم،  
وجعلت تقول له: «لم نفرّق كما تزعم، ألسنت ترانا  
معا؟ وسنبقى دائماً معاً، لن يفرّق بيننا إلاّ النوم الذي  
كان يفرّق بيننا ونحن في فراش واحد». والآن لم تعد  
تطفو على شعوره حسرة بما تخلف عن تلك الذكري،  
واستنام إلى حياته الجديلة، بيّد أنّه لم يكن يدعها  
تذهب حتّى يستنفذ الحيل لاستبقائها إلى جانبها أطول  
مدّة ممكنة، وقد قبض على راحتها في حرص شديد كما  
يقبض الطفل على لعبته بين أطفال يتخاطفونها.  
وراحت هي تلو الآيات على رأسه حتّى خافله  
الكري، فودّعته بانتسامة رقيقة وغادرت الحجرة  
وانجهدت إلى الحجرة التالية ففتحت بابها في خفة  
ونظرت صوب فراش لاح شبّعه في جانبيها الأيمن  
وتساءلت في رقة: «فمتي؟» فجاءها صوت خديجة وهي  
تقول:

- كيف يتأتّى لي النوم وشخير ستّ عائشة يملأ عليّ

الحجرة؟!

ثمّ سُمع صوت عائشة وهي تقول في نبرات

ناعسة:

الأرائك. واتخذ مجلسه على أريكة تحت الكوة - مجلسه المختار منذ أسابيع - وطلب الشاي. جلس بحيث يواجه بصره في سر ودون إثارة ظن إلى الكوة، ومنها يصعد كلباً يشاء إلى نافذة صغيرة في بيت على الجانب الآخر للطريق، لعلها كانت الوحيدة بين النوافذ المغلقة التي لم يعن بإحكام أخلاق خصاصها، ولا عجب فقد كانت تايبة لمسكن زبيدة «العالة» ولم تكن «العالة» مطعمه فدون هذا مراحل من المجون عليه أن يجتازها في صبر وأناة، ولكنه راح يرصد ظهور زئوبة العوادة ربيبة «العالة» ونجمة تحتها السابعة. وكانت فترة توظيفه بالحكومة عهداً حافلاً بالذكريات جلمه بعد طول تقشّف إجباري عاناه عاذراً في ظل أبيه الرهيب، فانطلق من ثمة كالشلال ينحدر في مهاوي الأزيكة على ما لاقى من مضايقات الجنود الدين قفلتهم حجلة الحرب إلى القاهرة، ثم ظهر في الميدان الاستراتيجيون فاضطروا إلى التخلي عن مغالي الحب فراراً من وحشيتهم وضاعت به السبل نفسي يتغلب في أزقة حبه كالمجنون وأقصى ما يطعم فيه من لذة بالغة برتقال أو غجيرة بمن يقرآن الطالع، حتى رأى يوماً زئوبة فتبعها مدحوراً إلى موطنها، ثم تعرض لها مرة بعد مرة ولا يكاد يظهر منها بما ييل صدره. كانت امرأة وكل امرأة عنده رغبة، بيد أنها كانت إلى هذا ذات حسن فهوسته، وليس الحب لديه إلا تلك الشهوة العمياء أو هذه الشهوة المبصرة وهي أسعى ما عرف من ألوانه، وجعل مدّ بصره خلال القنبان إلى النافذة الخالية في جزع وقلق أنشأه نفسه فحسا الشاي دون أن يتبته إلى سخوته إلا وهو يزدرد وراح ينفض متألماً، ثم أعاد القدح إلى الصبيّة الصغراء مسترقاً النظر إلى السّيار الذين أزعجته أصراهم المرتفعة كأنها هي المسؤلة عن لسعته أو أنها السبب في عدم ظهور زئوبة بالنافذة... وثرى أين الملعونة؟... اتعمد الاخضاء... من للحقّق أنها تعلم بوجودي هنا... ولعلها رأيته قادمًا... فإذا اصططعت النفل إلى النهاية ألحقت هذا اليوم بأنامي المحرقة. وعادوا استراق النظر إلى الجلوس ليرى هل يلاحظ أحد منهم ولكنه وجدهم

وغيرهم فعنهم من حله عمل الدعابة ومنهم من أعطه مأخذ الانتقاد لولا أنّ الجيرة ومنزلة السيّد أحمد عبد الجواد شفعتا له بالإغفاء والتسامح. كانت حيويته من العنف بحيث ملكت عليه فراغه كله، فلم تدع له وقتاً يستريح فيه من استغرازها، وشعر دائماً بالستها تلهب حواش ووجدانه، وكأنتها عفريت يركبه ويوجهه حيث يشاء، بيد أنه عفريت لم يخف أو يضيّق به، ولم يودّ الخلاص منه، بل لعلّه رام منه المزيد. ولكن سرعان ما توارى عفريته واستحال ملاكاً لطيفاً حين اقترب الشاب من دكان أبيه، هناك أخفى طرفه واستقامت مشيته، وتحلّى بأدب وسهاء، وحثّ خطاه لا يلوي على شيء، ولما مرّ بباب الدكان التفت إلى داخله فرأى خلعة كثرين ولكنه التقى بعيني أبيه وهو جالس وراء مكتبه فانحنى في إجلال واقعاً يده إلى رأسه في أدب، فردّ الرجل نمحته مبسّماً، ثم استأنف مسيره مسروراً بهذه الابتسامة كأنها حظي بنعمة نادرة المثال. والحق أنّ عطف أبيه المهود، ولو أنه اعتوره تغفّر ملموس منذ أن انحطت الفتى في سلك موثقلي الدولة إلا أنه لم يزل في نظره نوعاً من العنف الملّكف بالكياسة، فلم يزايل المولّف خوله القديم الذي ملا قلبه وهو تلميذ، ولم يفارقه شعوره بأنه ابن وأن الآخر الأب، وما فوّق يتضامل محضره على ضخامته كأنما يستحيل عصفورة يرعشها وقع الحصة، وما إن ابتعد عن دكان أبيه وصار بمنحى من عينيه حتى استردّ خيلاءه وعادت عيناه إلى اللذبية غير مفرقة بين الهوانم وبالمات الدم أو البرتقال، إذ كان العفريت الذي يركبه مولماً بالنساء كافة، متواسماً يستوي عنده الرقيق والوضيع منهنّ، فبالعات الدم والبرتقال - على سبيل المثال - وإن شابتن الأرض التي يقتلعها لونا وقذارة لا يغفلن أحياناً من ميزة حسن، كثنين ناهدين أو عيين مكحولتين. وماذا يروم غير هذا؟... ثم انجّه صوب الصاغة ومنها إلى الغوريّة، ومال إلى قهوة سي علي على ناصية الصناديق، وكانت شبه دكان متوسطة الحجم يفتح بابها على الصناديق وتطلّ بكوة ذات قضبان على الضرورة وقد اصطفت بأركانها

انتحسر طرف ملائمتها عند أعلى الرأس من مندبل قمرزي ذي أهداب منمنعة، لمت تحت عينان سوداوان ضاحكتان تفت نظريهما لعباً وشيطنة. واقتربت من العربية ومدّت يدها بالعود فتناولته امرأة، ثم رفعت قدماً إلى أهل المجلة فاشتراب ياسين بمنقه وهو يزرد ريقه فلمح نثية الجورب معقودة فوق الركبة على أديم بدا منه صفاء عذب خلال أهداب فستان يرتفلي...  
 «آه لو تفنوص بي الأريكة في الأرض مستراً...  
 ريتاه... إن وجهها أسمر ولكن لحمها المكنسون أبيض... أو شيد الميل للياض... فكيف يكون الورك!... وكيف يكون البطن!... البطن يا هو...» وثبتت زئوتة راحتها على سطح العربية وتحاملت عليها حتى حكّت ركبتها على حافة العربية ثم مضت تتحرك رويداً على أربع... «يا لطيف... آه لو كنت على باب البيت... أو حتى في دكان عمّد الطرابيشي... انظر إلى ابن الكلب كيف يملق في الطابية بعينه... ما أجدر أن يسمي نفسه منذ اليوم عمّد الفاتح... يا لطيف... يا منقلد...» وأخذ ظهرها يستقيم حتى نبضت وافقة على سطح العربية، وفتحت الملامة وقبضت على طرفيها وجعلت تهزها بيديها هزات متتابعات كأنها طائر ينفق بجناحيه، ثم لفّتها حول جسمها لفّة محكمة وشت بدقائق تقاطيعه وتفصيله وأبرزت - خاصة - عجيذة مذلّجة ورقاقة، ثم جلست عند مؤخرة العربية فتكوّر ردفها تحت الضغط متبلوراً ذات اليمين وذات اليسار فينم الوسادة... ونهض ياسين وغادر القهوة فوجد العربية قد تحركت فتبعها متمهلاً وهو يلهث ويصرّ على أسنانه من شدة الانفعال. وراحت العربية تسير سيرتها المتمهلة المتأيلة والنسوة على سطحها يتأرجحن معها نمة ويسرة فركّز الشاب عينيه في وسادة الوسادة، يلحظ معها ويحيي حتى خالها بعد حين ترقص. وكانت الظلمة قد بدأت تغشي الطريق الضيق وأخذت كثرة من الدكاكين تغلق أبوابها، إلى أن غاليت المازة كانت من جمهور العاملين العائدين إلى بيوتهم منهوكي القوى فوجد ياسين بين الظلمة والجمهور المنحب

جيماً منهمكين في أحاديثهم التي لا تنتهي، فداخله ارتياح وأرجع بصره إلى الهدف المرموق، يثبّ أنه اعترضت تيار أفكاره ذكريات عن متاعب اليوم التي صادفته في المدرسة إذ شكّ الناظر في أمانة متمهّد اللحوم فقام بتحقيق اشتراك هو فيه بوصفه كاتب المدرسة، ثم بدا منه شيء من التراخي في عمله حل الناظر على نهره كما نقص عليه صفوه بقية اليوم وجعله يفكر في أن يشكو الناظر إلى أبيه - وهما صديقان قديمان - لولا خوفه أن يجد أباه أشدّ عليه من الناظر... «اطرح عنك هذه الأفكار السخيفة... انتهننا من المدرسة والناظر عليها اللعنة... حسبي الآن ما آتني من الفارحة بنت الفارحة التي تبخل علينا بنظرة، وإذا بأحلام عارية تشال على خياله، أحلام كثيراً ما تمثّل على مسرح أوهامه وهو يرثو إلى امرأة أو يستعيد ذكراها، تحلقها عاطفة هوجاء تنزع عن الأجساد أغطيتها وتجلوها عارية كما خلقها الله غير مستتية جسده هو، ثم تخفي في فنون من العبت لا حاصم لها، ولكنّه ما كاد يستقيم إلى هذه الأحلام حتى انتبه على صوت حوذيّ وهو يصيح على حماره «يس» فرمى بصره ناحية الصوت فرأى عربية كارو تقف أمام بيت العالمة. وتساءل ترى أجاءت العربية لتحمل أفراد التخت إلى فرح من الأفراح؟... ونادى صبيّ القهوة ودفع إليه الحساب متأهباً لمخادرة المكان في أية لحظة إذا دعا داع. ومضت فترة انتظار وترقّب ثم فتح باب البيت وبرزت امرأة من نسوة التخت وهي تجرّ رجلاً أعمى مرتدياً جلباباً ومغطاً وحيونات سوداء ومتأبطاً القانون، وصعدت المرأة إلى العربية وتناولت القانون ثم أعطت يده الأعمى، وأعانه الحوذيّ من ناحية أخرى حتى لحق بالمرأة وجلسا متجاورين في مقعّة العربية، وتبعتهما على الأثر امرأة ثانية تحمل دفاً، ثم ثالثة متأبطة صرّة، وقد تبدّين في ملائمتين اللفّ سافرات، كاسيات - بدلاً من البراقع - باقنعة من زواق لافق الألوان جعلهنّ يعرائس المولود أشبه. ثم ما هذأ... رأى ببصر شيق وقلب خافق العود وهو يبرز من الباب في جرابه الأحمر... وأخيراً بدت زئوتة وقد



حانوت كبير ظاهره بدالة وباطنه حانة يفصل بينها باب صغير. ووقف عند مدخلها غلطاً بالزيان ريشا يتخصص الطريق أن يكون أباه هنا أو هناك، ثم انهم صوب الباب الصغير الداخلي ولكن ما كاد يتقدم خطوة حتى لح في طريقه رجلاً واقفاً أمام الميزان والحواجة كستاكى نفسه يزن له لفة كبيرة، فاجلبج رأسه إليه بلا إرادة، وسرعان ما اكفهر وجهه وسرت في بطنه رجفة قاسية تقضي لها قلبه خوفاً واشمئزازاً. لم يكن في مظهر الرجل ما يسبغ هذه الحواطف العدائية. كان في الحلقة السادسة، مرتدياً جلباباً فضفاضاً وحمامة، وقد ابيض شاربه وعلاه الكبر والوداعة، إلا أن ياسين واصل سيره مضطرباً كأنما يقف قبل أن تطلع عليه عين الرجل، ودفع باب الحانة بشيء من القوة ثم دخل تكاد تلمح به الأرض...

### ١٣

ارمى على أول مقعد صادفه غير بعيد من الباب وقد بدا خائر القوى ساحماً، ثم دها النادل وطلب تزورق كونيك تبرأت تحت على نفاذ صبره. وكانت الحانة بالحجرة أشبه، تدل من سقفها فانوس كبير، وضعت بجنياتها موائد خشبية وكراسي خيزران جلس إليها نفر من أهل البلد والمال والأفندية، وتوسط للكان تحت الفانوس مباشرة مجموعة من أخص الغرغل. من عجيب أنه لم ينس الرجل، وأنه عرفه من النظرة الأولى، متى رآه آخر مرة... لا يستطيع أن يميز، ولكن من المحقق أنه لم تقع عليه عيناه في مدى اثني عشرة سنة إلا مرتين إحداها التي زلزلته الآن. وقد تغير الرجل ما في ذلك من شك فغدا شيئاً حديثاً وقوراً... ألا سحق الله المصادفة العمياء التي ألقت به في سبيله. والتوت شفتاه تقزراً وامتصاصاً وشعر عيرارة الهوان تجري في ريقه. يا له من هوان ملأ ما يكاد يفيق من دواره القديم بالعناء والعناد كالتى ترقه إليه ذكرى من الذكريات الممتعة أو مصادفة لعينة كالتى حدثت اليوم فيقلب ليلياً منكراً... ضائعاً. وعلى رغبه حملت عيناه في الماضي البغيض،

منسجاً لإتمام النظر والأحلام في أمن ودعة... واللهم لا تجعل لهذا الطريق من نهاية، ولا تلهه الحركة الراقصة من ختام... يا لها من عجيبة سلطانية جمعت بين المعجزة واللطف يكاد البأس مثل يحس بطاوتها وشذبتها معاً بالنظر المجرد... وهذا المرقع العجيب الذي يشطرها تكاد تنطق الملاعة عنده... وما خفي كان أعظم.. لقي أدرك الآن لماذا يصلي بعض الناس ركعتين قبل أن يبي بمرسوسه... أليست هذه قبة؟... بل وحت القبة شيخ... ولقي لجلوب من مجاذيب هذا الشيخ... يا هوه... يا عدوى... وتحتج والعربة تقرب من بوابة المتولي فالتفت زئوبة وراها ورائته. ثم خيل إليه، وهي تعبد رأسها، أنه لمح على شفتها بشير ابتسامة فلق قلبه في عنف وسرت في وجدانه سكرة سرور ملتعب، ومرت العربة من بوابة المتولي ثم مالت إلى اليسار، وهناك اضطر الشاب إلى التوقف عن متابعتها لأنه رأى عن كعب معالم زينات وأنوار وجهوزاً مهلاً فترجع قليلاً ويصره لا يفارق العوادة، وجعل يراقبها بهم وهي تنزل على الأرض، وهي ترمي ناحيته بنظرة عابثة، ثم وهي تتجه إلى بيت العروس حتى واراها الباب في ضجة من الزغاريد. وتهد تهتة حامية، ولفته حيرة حانقة ليدا قلماً كأنه لا يدري أي وجهة يقصد... ولعنة الله على الاستراليين!... أين أنت يا أزيكية لا يلك همي وأشجائي وأزود منك بشيء من الصبر... ثم دار على عقبه وهو يهتم وإلى العزاء الباقي... إلى كستاكى، وما كاد ينطق باسم البذل اليوناني حتى تندى رأسه حيناً إلى حيا الشراب... كانت المرأة والحمر في حياته متلازمتين متكاملتين، ففي مجلس المرأة عاقر الحمر لأول مرة، ثم صارت يحكم العادة من مقومات لذته وبواعثها، بيد أنه لم يتج لها. المرأة والحمر... أن يتلازما دائماً، وخلت لبال كثيرات من النساء، فلم يجد بداً من أن يخفف لوعته بالشراب، ولكور الإهم واستحكام العادة بات وكأنه المولع بالحمر لذاتها. وعاد من نفس الطريق الذي جاء منه، وقصد بدالة كستاكى عند رأس السكة الجديدة.

في قلبه الريبة الغامضة، ولية رمى إلى صدره بالبلور الأولى لغفور غريب - تغور ابن من أمه - التي قدر لها أن تنمو وتستفحل حتى انقلبت مع الزمن كراهية كالداء العضال، وكثيراً ما قال لنفسه إنه ربحاً كان في وسع الإرادة القوية أن تنجح لنا أكثر من مستقبل واحد ولكننا لن يكون لنا - مهما أوتينا من إرادة - إلا ماضٍ واحد لا مفر منه ولا مهرب. والآن يتساءل - كما تسأل من قبل كثيراً - متى فطن إلى أن أمه لم تكن الشخص الوحيد في حياته؟ ... بعد جداً أن يعرف هذا على وجه اليقين، وما يذكر إلا أنه في فترة ما من طفولته وعت حوائثه شخصاً جليداً كان يطرا على البيت من حين لآخر، ولعله - ياسين - كان يتطلع إليه بغرابة وشيء من الخوف، ولعل الآخر بذل ما في وسعه لإيناسه وإرضائه، إنه يحملي في الماضي على استكراه وتغور شديدين، ولكنه وجد المقاومة لا تجدي، كأنما ذلك الماضي قُتل يوة لو يتجاهله حل حين لا تمسك يده عن جسده من أي لآخر. ثم إن هناك أموراً لا يمكن أن تنسى ... فهي مكان ما وقت بين النور والظلمة وتحت أهل نافذة أو باب مطم بمثلثات من الزجاج الأزرق والأحمر ... في ذلك المكان كان يذكر أنه أطلع فجأة - في ظروف فرضها النسيان - على ذلك الشخص الطائر وهو كأنه يفتسر أمه، فما ممالك أن صرخ من أحقاد قلبه وولول باكياً حتى أقبلت المرأة عليه في اضطراب باء وراحت تغطّي خاطره وتسكن نائره. وانقطعت من شدة الامتناع عند ذلك سلسلة خواطره فقلب عينيه فيما حوله واجماً، ثم صب من النور في القلح وشرب، وقد لمح وهو يعيد القلح إلى موضعه نقطة من سائل منداحة فوق طرف جاكته فظنّها خراً وأخرج منديله وأنشأ يديكها، ثم خطر له خاطر فتخصص ظاهر القدم فرأى قطرات من الماء عالقة بأسفله فرجح عنه أن ما سقط على سترته ماء لا لمر واسترد طمأنينته. . . ولكن أي طمانينة خادعة! لقد رجعت عيناه إلى امرأة الماضي البغيض. لا يذكر متى وقعت الواقعة السالفة، ولا كم كان عمره حين وقوعها، ولكنه يذكر بلا ريب أن الشخص المقترس لم

بقوة الهياج النار في رأسه وقلبه، فانتشّ الظلام من أشباح شائكة طالما نواشته كرموز للعذاب والكراهية، فميز من بينها دكاناً فاكهة يقوم على رأس عطفه قصر الشوق، وطالته صورة غامضة المعالم، هي صورته وهو صبي، فراه وهو يحثّ خطواته المتقاربة إلى ذلك الدكان حيث استقبله ذلك الرجل ثم حمله قرطاساً مليئاً بالبرتقال والتفاح فتناولوه مسروراً وعاد به إلى المرأة التي بعثته وانتظرت، إلى أمه دون غيرها والأسفاد وانعكست الذكري على جبينه عريسة حنق وضيق، ثم استعادت خياله صورة الرجل فتساءل جزعاً أكان يعرفه لو وقعت عليه عيناه؟ . . أكان يذكر فيه الصبي الصغير الذي عرفه قديماً ابناً لتلك المرأة؟ . . وقرصته قشعريرة فزع فتخاذل جسمه البارد الفارع وتضائل في حسه حتى استحال لا شيء. وجيء عند ذلك بالذئوق والقلح فصب ونهل في نهم وعصبية متمجلاً حقد الشارين من الانتعاش والنسيان. ولكن فجأة تراءى له من أحقاد الماضي وجه أمه فلم يتمالك من أن يصق. أيها يلحن: الحظ الذي جعلها أمه أم جعلها الذي شغف كثيرين حباً وأحاطه بالكوارث؟ ... والحق أنه لم يكن يومه أن يفتّر أمراً مما قدر عليه، ولم يكن بوسع إلا أن يذهن للقضاء الذي هرس عزة نفسه، أليس من الظلم أن يكفر بعد ذلك عن حكم القضاء كأنه هو الجاني الأليم؟ . . ولم يدر لم استحق اللعنة، فالأطفال الذين استقبلوا الدنيا في حضانة أمهات مطلقاً مثله غير قليلين، وحل خلاف أكثرهم وجد من أمه حثاً غير مشوب وحباً لا يعرف الحدود وتديلاً سابها لا تشككه رقابة أب تمتع بطقولة سميعة قوامها الحب واللين والنعامة. ولا تزال ذاكرته تحتفظ بالكثير من ذكريات البيت القديم بقصر الشوق، كسطحه الذي يشرف على أسطح لا عداد لها ويرى مآذن وقباباً من نواحيه الأربع، ومشرّيته التي تطل على الجبالية حيث تمر ليلة بعد أخرى مواكب الزفاف تضيئها الشموع ويكتنفها الفئوات فينجلي أكثرها عن معارك تشتجر فيها النبايت وتسيل الدماء. في ذلك البيت أحب أمه حباً لا مزيد عليه وفيه شاعت

يستوثق من تفاصيل ذكرياته، ولكنه كان بلا ريب يشرب للإدراك والفهم، ويعاني نوعاً من الروبة الغامضة التي تتكشف للقلب دون العقل، ويكابد ألواناً من القلق أطول من هامة حمامة السلام، فتبهت في نفسه تربة لتلقي بذرة النور التي صارت مع الأيام إلى ما صارت إليه. ثم انتقل في التاسعة من عمره إلى حضنة أبيه الذي لم يكن رآه إلا مرات معدودة تحميًا للاحتكاك بأمه. انتقل إليه غلاًماً على الفطرة لم يتلق من مبادئ العلم كلمة واحدة، ومضى يكفر عن سيئات التدليل الذي غلته به أمه تطلق العلم بنفس كارهة وإرادة خاطرة، ولولا شدة السيد وطية جو البيت الجديد ما دُفع إلى التجاع في الابتدائية بعد أن تيف على التاسعة عشرة من عمره. وينمو عمره وإدراكه حقائق الأشياء، استعرض حياته الماضية في بيت أمه وقلها على وجوهها، ملغياً عليها من خبرته الجديدة أنواراً فاضحة تكشفت له الحقائق ببشاعتها ومرارها، وكلما تقم في الحياة خطوة بدا له الماضي سلاحاً مسموماً متفرساً في صميم نفسه وكرامته، وقد دأب أبوه بادئ الأمر على أن يسأله عن حياته في بيت أمه ولكنه على حداثة سته، تحاشى نبش الذكريات المحزنة وغلب كبريائه الجريح على الرغبة في استئارة اهتمام أبيه وحسب الثروة الذي يستهوي أمثاله من الغلمان، ولزم الصمت حتى تراسى إليه نأ غريب عن زواج أمه من تاجر لحم بالمليضة فيكي الغلام طويلاً، واشتد ضغط السخط على صدره حتى فضض فانتطلق يحث أباه عن «الفكهاني» الذي زعمت يوماً أنها رفضت الزواج منه إكراماً له... وانقطعت صلته بها من ذلك العهد - منذ إحدى عشرة سنة - فلم يعد يدري عنها شيئاً إلا ما ينتقل إليه أبوه من حين لآخر كطلاقها من الفحام بعد انقضاء حامين على زواجها منه، ثم زواجها من باشجويش في العام التالي لطلاقها، ثم طلاقها مرة أخرى بعد حوالي عامين إلخ... إلخ... وفي فترة طينتها الطويلة سمعت المرأة كثيراً إلى رؤيته، فكانت ترسل إلى أبيه من يستأذنه في السياح له بالذهاب إليها، ولكن ياسين صد

ينقطع عن البيت القديم، وأنه كثيراً ما تودد إليه بما لَّد وطاب من ألوان الفاكهة، ثم كان يراه بعد ذلك في دكان الفاكهة عند رأس المسطة إذا استصحبته أمه معها في مشوار، ويسداجة الأطفال كان يلتفت نظرها إليه فكانت تجذبه في عطف بعيداً عنه وتمنعه من الإيلاء إليه حتى تعلم أن يتجاهله وهو في صحبتها بالطريق، وازداد الشخص في نظره إبهاماً وضوضاً، ثم حذرت من أن يعود إلى ذكره أمام خال عجزو كان وقتذاك على قيد الحياة ويزورهم من حين لآخر فاتبع تحذيرها وما يزداد إلا حيرة. ولم يفتح الحظ منه بذلك القدر فكانت أمه - إذا غاب الرجل عن البيت أبهلاً - يكون مبعوثاً إليه ليدعوه إلى أن يحضر «الليلة» وكان الرجل يستقبله بلطف ويملا قرطاساً من التناح والموز، ويمحله موافقة أو اعتذاره كيما اتفق، ثم بلغ به الحال أنه إذا اشتاق إلى لليل الفاكهة استأذن أمه في أن يذهب إلى الرجل ليدعوه «الليلة»، ذكر هذا وجهه ينل غزياً ثم نفخ في قهر، ثم صب وجرح، ورويدا اتبعت الحميا في دمه، وبدأت تلعب دورها الساحر في معاونته على حمل متاعبه... وقلت ألف مرة إنه يجب أن أدع الماضي مدفوناً في قبره... لا فائدة... لا أم في وحسي امرأة أبي الرقيقة العلية... كل شيء طيب ما عدا ذكرى قديمة بيدي أن أميتو... ترى لم أجاري إلحافها علي فأنبثتها من قبرها حيث بعد حين... لم... سوء الطالع وحده الذي رمى بالرجل في طريقي اليوم ولكن مصيره أن يموت يوماً... أوه أن يموت كثيرون... لم يكن الرجل الوحيد... يئد أن خياله الشائر واصل إسماء في ظلمات الماضي رغم مقاومته النظرية ولكن على حال أخف توخراً، أجل لم يعد في تلك القصة بالذات من بقية طويلة، ولعلها هذه البقية - ممتاز بما يضيئها من نور نسبي بعد عبور طور الطفولة للمتم. كان هذا في السنوات القلائل التي سبقت انتقاله إلى حضنة أبيه، وقد وجدت أمه الشجاعة لتصارحه بأن ذاك «الفكهاني» يتردد عليها طلباً ليدها، وأنها مترددة في قبوله، وأنها غالباً سترفض إكراماً له! ترى أصتق ما قيل له؟... هيئات أن

قبل اليوم أَدُّ باطنك بهذا اللون الراق... أف ينبغي أن أعو الفكر من رأسي... الحق أن أمي كالخضرس الثائر، لا يسكن حتى ينخلع... .

## ١٤

جلس السيد أحمد عبد الجواد وراء مكتبه بالدكان تبعث أنامل يسراه بشاربه الأنيق كشأنه كلها جرفه تيار عواطره، ويرنو إلى لا شيء بوجه تنم معاله عن ارتياح ورضى. إنه يرضيه بلا ريب أن يشمر بما يكتنه له الناس من حب ومودة، ولو عرض له من حبه دليل كل يوم لأوجد له كل يوم سروداً مشرقاً لا يلبيه التكرار، وقد أتاه اليوم دليل جديد بسبب اضطرابه إلى التخلف ليلة الأمس عن شهود حفلة أنس دهاه إليها أحد الأصدقاء، فما استقر به مجلسه بالدكان هذا الصباح حتى وافاه الداعي وبعض الإخوان من المدعوين وأوسموه عتاباً لتخلفه وحملوه تبعه ما ضاع عليهم من بهجة وطرب، ثم قالوا- فيها قالوا- إنهم لم يضحكوا من قلوبهم كما تعودوا أن يضحكوا معه، ولم يملأوا للشراب لذته التي يملئون في منادمته، وأن مجلسهم خلا- على حدّ تعبيرهم- من روحه. وما هو يستعيد أحوالهم في سرور وزهو لكفا كثيراً مما لاقى من حدة الملام من ناحيتهم وحرارة الاعتذار من ناحيته، بيد أنه لم يخل من تأنيب ضمير حريص بطبعه حل إرضاء الحلالن، بذار إلى النمل من موارده الصداقة والمودة في إخلاص وإيثار، فكاد يكثر صفوه لولا ما أشاعت ثورة الأحباب الناطقة بحبهم في نفسه من أريحية الرضا والمحب، أجل طلالا كان الحب الذي يجلبه إلى الناس ويحلبهم إليه مميّناً لقلبه يفتن عليه ما يشاء من فرح بيج وزهو بريء وكأنه خلق للصداقة قبل كل شيء. وثمة آية أخرى على هذا الحب- والأصدق أن يقال إنه حب من نوع آخر- تجلّت له ضحى اليوم حين أَلَسَتْ به أمّ علي الخاطبة وقالت له بعد حديث دارت فيه حول غرضها ما شاء لها الدوران: «ألا تعلم أن ست نفوسة أرملة الحاج علي الدموقي تملك سبعة دكاكين في المغربلين؟» وابتسم

عن دعوتها بإياه ونفور شليدين رغم نصيح أبيه له بالتسامح والعفو. والحق أنه وجد عليها موجلة حامية نابعة من صميم قلب جريح، فأغلق فونها باب العفو والغفران وأقام وراءه متاريس حتى وكراهية مؤمناً إلى هذا بأنه لم يظلمها ولكن أنزلها بحيث أنزلتها بإعلاها. وامرأة. أجل ما هي إلا امرأة... وكل امرأة لعنة قلدوة... لا تدري امرأة ما العفة إلا حين تنفي أسباب الزنا... حتى امرأة أبي الطيبة، الله وحده يعلم ماذا كان يمكن أن تكون لولا أبيها، وقطع عليه أفكاره صوت رجل علا قائلاً: والحمر كلها فوائد، ومن يقل غير هذا أطلع رأسه... الحشيش والمنزول والأفيون كثيرة الضرر... أما الحمر فكلها فوائد... فتساءل صاحبه: «وما فوئدها؟» فقال الرجل مستكراً: «وما فوئدها؟ ما أعجب سؤالك!... كلها فوائد كما قلت... وأنت تعلم هذا وتؤمن به...» فقال صاحبه: «ولكن الحشيش والأفيون والمنزول مفيدة كذلك فيجب أن تعلم هذا وتؤمن به...» الناس جميعاً يقولون هذا فهل تخالف الإجماع؟ وترى الرجل قليلاً ثم قال: «كلها مفيدة إذن، الكحل، الحمر والحشيش والأفيون والمنزول وما يستجدها؟ فعاد صاحبه يقول بلهجة تنم عن ظفر: «ولكن الحمر حرام!» فقال الرجل عتداً: «وهل ضاقت السبل، زك... حُج... أطلعهم المساكين... أبواب التكفير واسعة والحسنه بقشر أمثالها...»

وابتسم ياسين في شيء من الارتياح، أجل أمكنه أخيراً أن يتسم في شيء من الارتياح: وتلذهب إلى الجحيم، ولتأخذ الماضي معها... لست عن شيء مسئولاً... كل إنسان ملوث في هذه الحياة وعن يزع السناريز عجبا... شيء واحد يمتني جيذاً هو عقارها. دكان الحمازوي وربع الغورية والبيت القديم بقصر الشوق... ولأي أجد أمام الله إذا ورثته كاملاً يوماً أن أترحم عليها بلا أسف... آه... زؤوية... كدت أنساك وما أنسايتك إلا الشيطان. امرأة عذبتني وامرأة أنس عندها العزاء... آه يا زؤوية ما علمت

السيد، ولطعن بالغريزة إلى ما تومئ إليه المرأة وحديثه قلبه بأنها ليست خاطبة فحسب هذه المرة ولكنّها رسول موصى بالكتبان، ألم يخجل إليه في أكثر من مناسبة أنّ الست نفوسة تكاد تعلن عن وقها أثناء ترقدها على دكانه لابتياح حوائجها؟. يئد أنّه أراد استدراج المرأة ولو على سبيل التفكّه فقال باهتمام ظاهري: «عليك باختيار زوج صالح لها، فما أحرّ المطلوب!»، وظنّت أمّ علي أنّها بلغت الغاية فقالت: «قد اخترتك من دون الرجال. فما قولك؟»، وضحك السيد ضحكة مجملجة وشت بسروره ونقته بنفسه ولكنّه قال بلهجة قاطعة: «ولقد تزوّجت مرتين، أخلفت في الأولى ووقفتي الله في الأخرى، ولن أبهر بنعمة الله». والحقّ أنّه طمأّن تغلب على مغريات الزواج على كثرة ما عبّأ له من فرص مواتيّة، بقوة إرادة لا تنتهي، وكأنّه لم ينس مثل أبيه الذي انزلق إلى زيجات متلاحقة بلا وحي، بلتحت ثروته وجسّرت عليه المناصب، ولم يثبّ له هو- عقبه الوحيد- إلاّ حل شيء من المال لا يغي، ثمّ أنّه من ربحه ودخله في بسطة من العيش هيأت لأسرته هناك ورغدًا وأتاح له ما يشاء للإنفاق في سرّاته وملاهيّه فكيف يقدم على ما يخلّ بهذا الوضع البديع المتناسق الذي يكفل له الكرامة والحرية؟! أجل لم يجمع السيد ثروة، لا لتقصور في وسائلها عن جميعها ولكن لما طبع عليه من جود جعل إنفاقها والاستمتاع بأنّهارها المعنى الوحيد لها الذي يؤمن به، إلى إيمان عميق بالله وفضائله ملا نفسه طمانينة وثقة وأمنة من الخوف الذي يساور كثيرين عن أرزاقهم ومستقبلهم. على أنّ صدّه عن مغريات الزواج لم يمنعه من السرور والزهو كلّما رامت فرصة طيبة، وبالتالي لم يستطع أن يتناسى أنّ سيّدة جميلة كالست نفوسة توتّه بملأها. وغلبت هذه الذكرى على خواطره فراح يراقب وكيهه والزمانين بعينين غائبتين وأسارير حائلة باسمة، وكرر- بأسًا أيضًا- ما قال له صاحب من صاحبه صباح اليوم وهو يعابه معرّضًا بأناقته وتعلّقه: «حشّبك». حسبك يا عمجوز!... عجوز!؟... إنّ في الخاصة والأربعين حقًا، ولكن ما قول العاذل في هذه القوّة العارمة

والصحة الدافقة والشعر السبط اللامع السواد! لم يبن إحساسه بالشباب ولا تراعى، وكأنّ نفوته ما تزداد مع الأيام إلاّ قوّة، إلى أنّ مزاييله لم تكن لتغيب عنه، بل كان على تواضعه وسجاسة نفسه شديد الشعور بها، منطويًا في أعماقه على زهو وعجب. يحبّ النساء حبًا جمًّا، وكأنّه يتواضعه ولطفه يستردي منه ويحبّ الرفاق يحكر حسن عليه، ولكن مع أنّ نفته بنفسه بلغت حدّ الاعتقاد بأنّه غير الرجال قوّة وجهه وظرًا وكياسة إلاّ أنّه لم ينزل أبدًا على أحد من الناس، لأنّ تواضعه كان طبعًا وسجيّة كذلك، ولأنّه نبع من فطرة تسيل بشاشة وإخلاصًا وحبًا. والحقّ أنّه كان يتزع بفطرته إلى أن يحبّ كما يحبّ، ولا يحسك عن نشدان المزيد من الحبّ، فأعجبت طبيعته بهوي من غريزته الطامعة للحبّ إلى الإخلاص والوفاء والصفاء والتواضع، تلك السجاياء التي تجلب الحب والرضا كما تجلب الزهور الفرائش، ومن هنا استوى أن يقال إنّ تواضعه كياسة أو طبيعة والأصحّ أن يقال إنّّه طبيعة تستمدّ كياستها من وحي الغريزة لا لتدبير الإرادة فتجلّت طبعًا بسيطًا لا تكلف فيه ولا تمعّل، ولذلك كان السكوت عن فضائله ومواراة مزاييله بل والتنقّر بحبويه وهنائه التماسًا للعطف والحبّ أحبّ إليه من نشرها والمباهاة بها اللذين يجرّان عادة إلى الاستفزاز والحسد، وهي كياسة سديلة دفعت المدينين إلى التنويه بما يغضي عنه حكمة وحياء، وأذاعت سجاياءه على نحو لم يكن ليقدّر عليه بنفسه دون التضحية بأجل جوارب شخصيته، وبما يحظى من جاذبيّة وحبّ لا تشوبها شائبة. وبهذا الوحي الغريزيّ نفسه استهدى حقّ في جانب حياته للماجن، في مجالس أنسه وطربه، فلم يتخلّ فيها- مهما لعب الشراب برامه- عن لباقة وكياسته، ولو شاء بما أوتي من حقّة الروح وحضور البدنية وحلاوة الفكاهة وحلّة السخريّة، لاحتسح السّار بلا عتاء، ولكنّه كان يدير مجلس الأنس بمهارة وأريحيّة تفصح للمجال لكلّ سامر، ويشجّع أهل الدعابة وإن خالفهم التوثيق بضحكاته المجملجة، إلى حرصه الشديد على ألاّ يخلف مزاحه في نفس جرحًا، فإن اضطرّه الموقف إلى الحملة

ناحية الدّكان تحت ضغط امرأة هائلة مضت تغادرها في بطنه شديد على قدر ما تسمح به طيّات لحمها وشحمها وقد سبقتها إلى الأرض جارية سوداء فمذّت لها يدها لتحتمد عليها في أثناء نزولها. وكلّحمّل وقفت ملياً وهي تتنهد كأنّها تستجمّ من عناء النزول، وكلّحمّل راحت تتأيل وتخطّر إلى ناحية الدّكان بينما حلا صوت الجارية في هجة شبه خطافية لتعلن عن مولاتها:

- وسّع يا جدّج أنت وهو للستّ زبيدة ملكة العوالم.

وتنّت عن الستّ زبيدة ضحكة مسجوعة وقالت تخاطب الجارية بلهجة تنمّ عن زجر كاذب:

- الله يسأحك يا جلجل... ملكة العوالم مرّة واحدة!... هلاً عرفت فضيلة التواضع!

وهرع إليها جبل الحمزاوي مفترّ الثغر عن ابتسامة هريضة وهو يقول:

- أهلاً وسهلاً، كان حقاً علينا أن نفرش الأرض بالرمّل.

وبهض السيّد وهو يتفحصها بنظرة تنمّ عن دهشة وتفكير ثمّ قال متعجباً تحية وكيله:

- بل بالحقّاء والورد ولكن ما حيلتنا والحقّ يقبل إذا أقبل غير مسبوق ببشير؟...

ورأى السيّد وكيله وهو يتجّه إلى كرميّ لياقي به فسبقه إليه بخطوة واسعة بدت كالوثبة ففتحن الرجل جانباً وهو يداري ابتسامة، وقدم السيّد لها الكرميّ بنفسه وهو يرمي براحته مرحّباً كأنّه يقول لها «تفضّلي» يبدّ أنّ راحته انبسطت - ربّما بلا شعور منه - لآخر طاقته وانفجّر ما بين أصابعه حتّى صارت يده كالروحة، ولعلّه تأثّر في بطنها بما تركه في خياله منظر العجيبة الهائلة التي ستملا مقعد الكرميّ وتفيض على جوانبه حتّى. وشكرته المرأة بابتسامة من وجهها الذي أسفر حسنة بغير حجاب، وجلست وهي تشعّ بزواقتها وخليها نوّاء، ثمّ التفتت إلى جارياتها وخاطبتها قائلة وهي تعني بالخاطب غيرها:

- ألم أقل لك يا جلجل أنّه ليس ثمة ما يدعونا

على قرين داوى عواقب حملته بتشجيعه والتوّدد إليه ولو بالسخرية من نفسه. فلا يتفضّل المجلس إلّا وقد حظي كلّ سائر من أطايب ذكرياته بما يشرح الصدر ويستائر الفؤاد. على أنّ كياسته القطريّة أو فطرته الكبسيّة، لم تقتصر آثارها الطيّبة على حياته الضاحكة فحسب، ولكنّها امتدّت إلى جوانب هامة من حياته الاجتماعيّة، فأعلنت عن نفسها أروع إعلان في كرمه المأثور - سواء ما يتجلّى منه في الولائم التي يدعو إليها من حين لآخر في البيت الكبير أو في الهبات التي ينفع بها المحتاجين ممّن يتصلون بعمله أو بشخصه - وفي شهامته ومرومته ونجدته التي فرضت له حلّ أصدقائه ومعارفه نوعاً من الرصاية المشربة بالحبّ والوفاء فيغيثون إليها إذا دعت الضرورة إلى المشورة أو الشفاعة أو الخدمة فيما يعرض لهم من هوم العمل والمال أو شئون المسائل الشخصيّة والعائليّة كالخطبة والزواج والطلاق، أجل ارتضى لنفسه وظائفاً يؤدّيها بلا أجر - خير الحبّ - فكان سمساراً ومأنوناً ومحقّقاً، ثمّ وجد دائماً في أدائها - حلّ مشقّته - حياة مليئة بالبهجة والغبطة. مثل هذا الرجل الذي تجرد نفسه بفضائل اجتماعيّة كثيرة ثمّ يطويها كأنّ في نشرها أدنى وأيّ أدنى، مثل هذا الرجل يكون خليقاً - إذا خلا إلى خواطره وانفثع عنه الحياه الذي يتولاه حيال الناس - بأنّ يتعلّم مزاياه طويلاً ويستسلم لزهوه وعجبه. لذلك راح يستعيد عقاب أصدقاؤه المحيّن ودعوة أمّ علي الخاطبة بلذّة وسرور وانشراح تعانفت في قلبه عن نشوة خالصة حتّى تطفلت على خلوته لذعة أسف مغمضى يحدّث نفسه... ونفوسه هائم سيّدة ذات مزايا لا يستهان بها... يتنمّأها كثيرون ولكنّها رغبّت فيّ أنا... يبدّ أنّي لن أتزوّج، هذا أمر مفروغ منه، وليست هي بالمرأة التي تقبل أن تعاش رجلاً بغير زواج... هذا أنا وبغله هي فكيف يمكن أن نلتقي!... ولو صادفتني في غير حله الأتام التي سدّ فيها الاستراتيجيون علينا المنافذ هان الأمر ولكنّها تصدّت لنا ونحن في حاجة إليها فروأسفاه.

وقطع عليه أفكاره وقوف حنطور أمام مدخل الدّكان فمدّ بصره مستطعلاً فرأى العرية وهي تميل

تخلو من خشونة مذبة:

- أريد سكرًا وبنًا وأرثًا فهل يغني الإنسان فيها عن الدكان شيئًا!... (وينبرات اختلط فيها عدم الاكتراث بالدلال)... ثم إن الرجال أكثر من همم على القلب.

وكان السيد قد تفتحت له من الطمع أبواب، وشعر بأنه مقبل على شيء أجل خطرًا من البيع والشراء، فقال محتجًا:

- ليست كل الرجال سواء يا سلطنة، فمن قال لك إن الإنسان لا يغني عن الأرض والسحر والبن شيئًا؟! الإنسان حقا من يجهد في الفداء والحلاوة والكيف! فساءله ضاحكة:

- إنسان أم مطبخ هذا؟

فقال السيد بلهجة تدل على الظفر:

- لو نظرت من قرب لوجدت تشابها عجيبا بين الرجل والمطبخ... كلاهما حيلة للبطون...

وغضبت المرأة بصرها مليا، وانتظر السيد أن ترفعه إليه موسوماً بابتسامتها المشرقة، ولكنها واجهته بنظرة رزينة فاحسن لتوه ألقا غيرت «السياسة» أو لعلها لم ترتع كل الارتياح لانزلاقها فعللت عنه ثم سمعها تقول في هدوء:

- أفدك الله!... ولكن حسبنا اليوم الأرض والبن والسحر.

وتحول السيد عنها متظاهرا بالجد ودعا إليه وكيله ثم وصاه بصوت مرتفع بطلبت الست فأوحى مظهره بأنه قرّر أيضا المدول عن «التؤدة» والعودة إلى «العمل»، ولكنها لم تكن إلا متناورة استمداد على أثرها ابتسامته الهجومية وتمتم مخاطبا السلطنة:

- الدكان وصاحبه تحت أمرك!

وكان للمتناورة أثرها فقالت المرأة في دهابة:

- أريد الدكان وثأبي ألا أن تجود بنفسك!

- نفسي بلا ريب غير من دكاني، أو خير ما في دكاني.

فأشرق وجهها بابتسامة مأكرة وهي تقول:

- هذا يخالف ما سمعناه عن جودة بضاعتك!

للتخطيط هنا وهناك لا يتباع حوائجنا وعندنا هذا الدكان الفاخر؟

فأتمت الجارية على قول سيدتها قائلة:

- صدقت كعادتك يا سلطنة، لذا نذهب بعيدا وعندنا السيد الكريم أحمد عبد الجواد!

فتراجع رأس الست كأنها هالها ما صرحت به جلجل وألقت عليها نظرة استنكار ثم ركدت صنيها بين السيد والجارية لتشهد على استنكارها وقالت وهي تداري ابتسامة:

- واخجلت!... حدثتك عن الدكان يا جلجل لا من السيد أحمد!...

وشعر فؤاد السيد الذكي بالجرؤ الوقى الذي يغفه حديث المرأة فاندمج فيه بغريزته المتوكة وتمتم بأسيا:

- الدكان والسيد أحمد شيء واحد يا سلطنة.

فرفعت حاجبيه في دلال وقالت بعناد لطيف:

- ولكننا نريد الدكان لا السيد أحمد.

ويدا أن السيد أحمد لم يكن الشخص الوحيد الذي شعر بالجرؤ العتيب الذي خلطته السلطنة، فهذا جميل الحمزاوي يراوح بين مساومة الزبائن واستراق النظر إلى ما تهر من جسم العاللة، وهؤلاء الزبائن جعلوا يجيلون أبصارهم بين البضائع لتمر في الذهاب والإياب بالست، بل بدا أن الزيارة المباركة قد لفتت بعض الأنظار في الطريق فرأى السيد أن يقرب من السلطنة وأن يولي الباب والقوم ظهره العريض ليحول بينها وبين تطفل المتطفلين، بيد أن هذا ما لقيه ما كان فيه من أسباب الحديث فقال يصل منه ما انقطع:

- قضى الله جلّت حكمته أن يكون الجهاد أحيانا أسعد من الإنسان.

فقالت بلهجة ذات معنى:

- أراك تغالي. لن يكون الجهاد أسعد حقا من الإنسان، ولكنه كثيرا ما يكون أجل فائدة.

فتقهها السيد بعينه الزرقاوين متظاهرا بالدهشة:

- أجل فائدة!... (ثم مشيا إلى الأرض)... هذا

الدكان!

فوهته ضحكة قصيرة عذبة ولكنها قالت بلهجة لا

فقهه السيّد قائلاً:

- ما حاجتك إلى السكر وفي لسانك هذه الحلاوة كلها؟

وأعقب هذه المعركة الكلاميّة فترة سكون بدا فيها كلاهما راضياً عن نفسه، ثمّ فتحت العاللة حقيبتها وأخرجت امرأة صغيرة ذات مقبض فضّي وراحت تنظر في صورتها فمضى السيّد إلى مكتبه ووقف مستنداً إلى حائطه وهو يترسّس في وجهها باهتياً. والحقّ لقد حثّته قلبه حين وقعت عليها عيناه بأنّها جادت بالزيارة لأمر غير الشراء والبيع، ثمّ جاء حديثها باستجاباته الحارّة مؤكّداً لظنّه، فلم يعد أمامه إلّا أن يقرّر من الآن هل يوصلها بتأريضه أو يودّعها الوداع الأخير. ولم يكن رآها لأوّل مرّة، فقد رآها مرّات في أفراح بعض الأصدقاء، وعرف عن الرواة أنّ السيّد خليل البّان التخلّدها خليله دهرًا حقّ انفصلا منذ عهد غير بعيد، ولملّ هذا ما جعلها تستبضع من دكان جديد... وهي موفورة الحسن وإن لم تتعدّ منزلتها كعالمة المرتبة الثانية بين العوالم، بيد أنّ المرأة بمه أكثر من العالمة، وإنّها لشهية لطيفة وبها من طيّات اللحم والدهن ما يدفئ المقرور في زمهرير الشتاء الذي غدا على الأبواب، واعترض أفكاره جيء الحمزوي حاملاً ثلاث لفائف، فتناولتها الجارية، ودسّت السيّد يدها في الحقيبة لتخرج النقود فيها بدا، ولكنّ السيّد أشار إليها علناً وهو يقول:

- يا له من عيب!

وتظاهرت المرأة بالدهشة وقالت:

- أيّ عيب يا سيّد... ليس في الحقّ عيب.

- هذه زيارة ميمونة يحمّي علينا أن نحییها بما هي أهل من الإكرام، ومبهمات أن نوقّحها حقّها. وكانت قد نهضت وهو يتكلّم فلم تبيد مغلومة جليّة لكرمه ولكنّها قالت:

- ولكنّ كرمك هذا سيجعلني أتردّد مرّة ومرتين قبل أن أقصّدك مرّة أخرى.

فقهه السيّد قائلاً:

- لا تخافي، إني أكرم الزبون في المرّة الأولى ثمّ

أعرض خسارتي في المرّات اللاحقة ولو بالسرقه! هذا شعارنا نحن التجّار.

فابتسمت السيّد، وملّت له يدها قائلة:

- الكريم مثلك يسرق ولا يسرق... أشكرك يا سيّد أحمد.

فقال من كلّ قلبه:

- المغو يا سلطنة.

ووقف ينظر إليها وهي تتبخّر صوب الباب حقّ صعدت إلى العربة والتخلّت مجلسها، وجلست جلجل على المقعد الصغير قبالتها، وتحركت العربة بحملها النفس، ثمّ غابت عن ناظره، هنالك قال الحمزوي وهو يقلب صفحة من دفتر الحساب:

- كيف يمكن أن يسدّد هذا الحساب؟!

فألحى السيّد على وكيله نظرة باسمه وقال:

- اكتب مكان الأرقام «بضائع أتلفها الهوى».

ثمّ ضمّم وهو يمضي إلى مكتبه «الله جميل يحبّ الجيال».

## ١٥

وحين المساء أغلق السيّد الدكان وغادره تحفّ به المهابة ويتضوّع منه حُرف طيّب ثمّ مضى صوب الصاغة، ومنها إلى الغوريّة حقّ قهوة سيّ عليّ فلحظ في مروره بها بيت العالمة وما يكتنفه فرأى الدكاكين التي تمتدّ على جانبيه لا تزال مفتوحة وتبار السابلة في تدفّق، فواصل السير إلى بيت أحد الأصدقاء حيث قضى ساعة ثمّ استأذن عائداً إلى الغوريّة وقد غشيت ظلمة فانقلبت كالمقفرة، وجعل يقرب من البيت أمناً مطمئناً، ثمّ طرق الباب وانتظر وهو يدقّق النظر فيها حوله ولم يكن ثمة نور إلّا ما تُرامى من كزّة قهوة سيّ عليّ، ومصباح غازي على حربة يد عند منعطف السكّة الجنيبة. وفتح الباب وبدا شيخ خادم صغيرة لبّادها متسائلاً بصوت قويّ غير متردّد ليوجي بما يؤدّ من الصدق والثقة:

- السيّد زبيدة موجودة؟

فرفعت إليه الخدام رأسها وسألته بدورها في تحقّق



أملته عليها ظروف وظيفتها:

- من أنت يا سيدي؟

فقال بصوته القوي:

- شخص يروم الاتفاق معها على إحياء ليلة.

وغابت الخادم دقائق ثم عادت وهي تقول:

«تفضل»، وأوسعت له فدخل ورتقي ورامها في سأم

متقارب الدرجات انتهى به إلى دهليز ثم فتحت له باباً

في مواجهته انتقل منه إلى حجرة مظلمة فظّل واقفاً على

كتب من المدخل وهو ينصت إلى أقدام الخادم وهي

تجري، ثم وهي تعود حاملة مصباحاً، وتتبعها بعينه

وهي تضعه على خوان ونحيه بكرسي إلى وسط الحجرة

وتقف عليه لتشعل المصباح الكبير للدّلّ من السقف

ثم تعيد الكرسي إلى موضعه وتحمل للمصباح الصغير

وتفادر الحجرة قائلة في أدب: «تفضل بالجلوس يا

سيدي»، وأغمه السيد إلى كنية في صدر الحجرة وجلس

في ثقة وهدوء دلاً على اعتياد هذا الموقف وأمثاله،

وطمأنينة إلى الخروج منه بما يرضي ويطيب، ثم علح

الطربوش وحطه على عُرْقَة تتوسط الكنية ومدّ ساقه في

ارتياح. رأى حجرة متوسطة الحجم نظّدت بجنباتها

الكتب والمقاعد وفرشت أرضها بسجادة فارسية وقام

حيال كل كنية من كتابها الثلاث الكبرى خوان مطّعم

بالصدف، وقد أسدلت الستائر حل نافذتها وبابها

فحبست في جوها شذا بخور سرّ به متسلّكاً بالنظر إلى

فراشة راحت ترفّ على المصباح في نشاط عصبي،

وانتظر بعض وقت جاءت في أثائه الخادم بالقهوة،

حقّ تراسى إلى أذنيه وقع شيشب منقوم ذي دقات

مدغدغة فتنتهت أعصابه وحقّ إلى الباب الذي

سرعان ما امتلأ فزاهه بالجسم للقفل المائل وقد لفت

لُفّة شهوانية في فستان أزرق، وما كانت حين المرأة

تقعان عليه حتى توقفت دهشة وهعت:

- بسم الله الرحمن الرحيم... أنت...!

فجرى بصره على جسمها في حجلة وهم كما يجري

الغبار على جوال أرزّ ليجد لنفسه متقدّماً، وقال

بإعجاب:

- باسم الله ما شاء الله...!

فواصلت تقدّمها بعد التوقّف وهي تقول في خوف

مصطنع:

- عينك...! أعوذ بالله...!

فنهض السيد مستبلاً يدها الممدودة بترحاب

وتشتمّ شذا البخور بأنفه العظيم وقال:

- أتحافين الحسد وعندك هذا البخور؟!

فاستخلصت يدها من يده وتراجعت إلى كنية

جانبية وجلست وهي تقول:

- بخوري غير وبركة، إنّه أخلط من أنواع شقّ

بعضها عربيّ وبعضها هنديّ أؤلف بينها بنفي، فهو

جدير بأن يخلّص الجسد من ألف عفريت

وعفريت...

فعاود السيد الجلوس قائلاً وهو يلوح بيديه في

يأس:

- إلّا جسدي...! بجسدي عفريت من نوع آخر

لا يهلّي معها البخور، الأمر أجل وأخطر...

فصريت المرأة صدرًا ناهضًا كالقربة وهعت:

- ولكي أحبي حفلات أفرح لا حفلات زار!

فقال السيد برجاء:

- سنرى إن كان لدائي عندكم شفا!

وساد الصمت قليلاً فجعلت السلطانة تنظر إليه فيها

بشبه التفكير وكأنّها تستخيره عن سرّ حضوره وهل جاء

حقاً للاتفاق على إحياء ليلة كما قال للخادم؟...

وغلبيتها الرغبة في الاستطلاع فسأته:

- فرح أم ختان؟

فقال السيد بأساً:

- لك ما تشائين!

- عندك غشون أم حروس؟

- عندي كلّ شيء...

فأنذرت به نظرة كأنّها تقول له «كم أنت متعب!» ثم

تمتمت في همّ:

- نحن في خلعك على أيّ حال...

فرفع السيد يديه إلى قبة رأسه في هيئة تتمّ من

الشكر وقال بوقار يناقض نواياه:

- عظم الله قدرك... يبدّ آثي ما زلت مصرّاً على

- يا لك من رجل مظهره الوقار والتقوى وباطنه  
الخلاعة والفجور، الآن صَدَقْتَ حَقًّا ما قيل لي  
عنك...

واستوى السيّد في جلسته في اهتمام وتساءل:  
- وماذا قيل؟.. اللهم اكفنا شرّ القيل والقال...  
- قالوا لي إنّك زير نساء وهبد شراب...

فتتهد بصوت مسموع يذيع به اورتياحه وقال:  
- حسبه ذمًا والعياذ بالله...

- ألم أقل لك إنّك رجل قارح فاجر؟  
- هي الشهادة في بآتي حوزت القبول إن شاء  
الله...

فرفعت المرأة رأسها في غفوسة وقالت:  
- يُفعلك!... لست كمن عرفت من النساء...  
إنّ زبيدة مصروفة ولا فخر بعزّة النفس ودقّة  
الاختيار...

فبسط السيّد راحته على صدره ونظر إليها في تحدّ  
مُشرب بالطف وقال بطمأنينة:  
- عند الامتحان يُكرّم المرء أو يهان...  
- من أين لك بهذه الثقة وأنت لم تتحنّ بعد  
بشهادتك؟

فقهقه السيّد طويلاً حتى قال:  
- لا تصدّقي يا ختونة... وإن كنت في شك...  
ولكنه في منكبه قبل أن يتمّ جلته فامسك ثمّ أهرقا  
في الضحك ممّا، وسرّ بمشاركتها لآياه في ضحكها،  
وحلس وراء ذلك - بعد ما جرى بينها من تلميح  
وتصريح - لو أنّ من الجهر بالرضا جيّته في وجهه بسمّة  
دلال سالت بطرفها المكحول، وراح يفكر في أن يحمي  
هذا الدلال بتحيّة تليق به لولا أن قالت له محرّرة:  
- لا تحملي على مضاعفة سوء الظنّ بك...  
فأعاده قولها إلى تدنّرها ما رقدته عن القيل والقال،  
وسألها باهتمام:

- من الذي حدّثك عني؟  
فألتفت بالتحضاب وهي تلحظه بنظرة اتهام:  
- جلييلة...  
وفجأة الاسم كأنه عاذل يطرق مجلسها فابتسم

أن أترك لك الاختيار  
فتتهدت بغيط بالدعابة أشبه وقالت:  
- إنّني أفضل أفراح المراس بطبيعة الحال!  
- ولكنّي رجل متزوج ولا حاجة بي إلى زفّة من  
جديد...!  
فصاحت به:  
- يا لك من رجل مهذار... إذن ليكن ختناً...  
- ليكن...  
وتساءلت وهي تمحاذر:  
- وليدك؟  
فقال ببساطة وهو يفتل شاربه:

- أنا...  
فأطلقت السلطنة ضحكة مائعة وقوّرت العدول  
عن التذكير في مسألة إحياء الليلة التي حُنت غيببتها  
وهتفت به:  
- يا لك من رجل قارح، لو طالتك يدي لقصمت  
ظهرك...  
فنهض السيّد وأقبل عليها قائلاً:  
- لا أحرمك رضى فعدّ...  
وجلس جانبها فهمت بضمه ولكنّها تردّدت ثمّ  
أمسكت، فسألها بقلق:

- لماذا لم تتكرّمي بضمي؟  
فهزّت رأسها وقالت ساخرة:  
- أخاف أن أنقص وضوئي...  
فتساءل في لهفة:  
- أأطمع لي أن نصلي ممّا؟  
واستغفر الله في سرّه عقب النطق بدعابته مباشرة  
لأنّ هذره وإن كان لا يقف به في سكرة المجون عند  
حدّ إلا أنّ قلبه لم يكن ليطمئنّ ويواصل ابتهاجه حتى  
يستغفر في باطنه صادقاً ممّا يعث به لسانه مازحاً. أمّا  
المرأة فتساءلت في دلال ساخر:

- أتعني، يا صاحب الفضيلة، الصلاة التي هي  
خير من النوم؟  
- بل الصلاة التي هي والنوم سواء...  
ولم تتهاك إلا أن تقول ضاحكة:

- إني من صلب رجال يتزوجون في السنين ...  
 - بدافع الحب أم بدافع الحرف؟  
 فقبحه السيد قائلا:  
 - يا ولية آتني الله ودعنا نتكلم في الجلد ...  
 - الجلد؟ ... أتعني إحياء الليلة التي جثت تنفق عليها؟  
 - أعني إحياء العمر كله ...  
 - كله أم نصفه؟  
 - ربنا يقرئنا على ما فيه الخير ...  
 - ربنا يقرئنا على الطيب ...  
 واستغفر الله في سره مقلداً ثم تساءل:  
 - نقرأ الفاتحة؟  
 ولكنها نبضت بغنة متجاهلة دهوته وحضت متظاهرة بالجزع:  
 - رباه ... سرقني الوقت ولديني الليلة عمل هام ...  
 ونهض السيد بدوره، ومدّ يده فتناول يدها ثم بسط راحته المحضبة بالحناء، ورنأ إليها بشوق وافتنان، وأصرّ على احتضانه بها رغم جلبها إياها مرّة ومرة، حتى قرصته في أصبعه ورفعت يده إلى شاربته مهذبة:  
 - دهني أو أخرج من بقي بغرّة شارب واحدة ...  
 ورأى ساعدها قريباً من فيه فزهد في النقاش وقرب منه شفتيه رويداً حتى غاصت في لحمه الطريّ فطابir منه إلى أنفه رائحة قرنفلّة ذات طعم حلو، ثم تنهد مغمضاً:  
 - إلى الغد؟  
 فتخلّصت من يده مقاومة من ناحيته هذه المرّة، وحلّقت إليه طويلاً ثم ابتسمت وتمتمت:  
 عصفوري يا أمه عصفوري  
 لالعب وأوزي لئاموري  
 وجعلت تردّد «عصفوري يا أمه» مرّات وهي تودّعه، وغادر السيد الحجرة وهو يردّد مطلع الأغنية بصوت منخفض ملؤه الوقار والرزانة كأنما يستخبر الألفاظ حياً ورامها من معاني ...

ابتسامه دلّت على حرجه. جلييلة، تلك العالة المشهورة التي عشقها دهرًا حتى فصل بينهما الشيع تمّ عاشا وما زال على موقّة متبادلة على البعد، بيدّ أنّه كثير بالنساء لم يَرِ بدءاً من أن يقول في لهجة صادقة:  
 - لعنة الله على وجهها وصوبها ممّا! ... (ثمّ متهرّجاً) ... دهينا من هذا كله ولنتكلّم في الجلد ... فتساءلت منهكة:  
 - ألا تستحقّ جلييلة كلمة أرقّ وألطف؟ ... أم هذا شأنك عند ذكر من قطعتن من النساء؟  
 ودخل السيد شيء من الحرج إلّا أنّه ذاب في موجة الزهو الجنسي التي أثارها في نفسه حديث عشيقته جديدة عن عشيقته ولّت، وأخذ ملياً بنشوة ظفر حلوة ثمّ قال بلهجة مبهودة:  
 - لا يسعي وأنا محضّر من هذا البهاء أن أخادعه إلى ذكريات طويت ونسيت ...  
 ويالرغم من أنّ السلطانة حافظت على نظرتها التهكميّة إلّا أنّها استجابت للنساء كما بدا في رفع حاجبيها ومدادتها لا ابتسام خفيفة انلمست إلى شفتيها، ولكنها غاصت بازدياد قائلة:  
 - لسان تاجر يسخر بالخلاوة حتى ينال غرضه ...  
 - لنا أجملة نحن التجار بما يظلمنا الناس ...  
 وهزّت كتفيها استهانة ثمّ سألت في اهتمام غير خاف:  
 - متى رافقتها؟  
 فلوح السيد بنزاعه كأنه يقول وما أهدمه من زمن! ثمّ تمتم:  
 - منذ أزمان وأزمان ...  
 فصحك في نهك وقالت بنبرات تنمّ عن التشقّي:  
 - في أيام الشباب الذي مضى ...  
 فرنا السيد إليها معانٍ ثمّ قال:  
 - بروقي أن أمض من لسانك الأدنى ...  
 ولكنها واصلت حديثها بنصّ اللهجة قائلة:  
 - أخذتكم لحماً وتركتم عظاماً ...  
 فأوماً إليها محدّراً وقال:

جلست زبيدة مترعة على الديوان وإلى يمينها زُتوبة العَوَدة وبيئتها، وإلى يسارها عبده عازف القانون الضربير، واسترت النسوة جلوساً عن يمين وشمال ما بين عمكة بالدُف أو ماسحة على الدربجة أو عابثة بالصنج. وأثرت السلطانة السيّد أحمد بأول مجلس في الجناح الأيمن، واتخذت الباقون من صحبه مجالسهم بلا كلفة كأنهم أصحاب الدار، ولا عجب فلم يكن الجوّ بالجديد عليهم، ولا السلطانة بالتي يرونها لأول مرة، وقدم السيّد أحمد أصحابها إلى العائلة مبتدئاً بالسيّد علي بائع الدقيق فضحكت زبيدة قائلة:

- ليس السيّد علي بالغريب فقد أحيت فرح كرمته في العام الماضي...  
ثمّ ثقب بالسيّد الفار تاجر النحاس، وليّاً رماء أحدهم بأله من رَوَاد بجة كثر بدر الرجل قائلاً:  
- وجئت تائباً يا ست.

وتتابع التعارف حتى تمّ، ثمّ جاءت الجارية جلجل بأقداح الشراب ودارت على المدعوّين، ومضت النفوس تستشعر حيوة مشبعة بالأريجية والمرح، وبدا السيّد هريس الحلقة بلا منازع، بهذا دعاه الأصدقاء، وبهذا شعر في أمهله، وقد وجد لذلك بادئ الأمر لوبّاً من الارتباك قلّ أن يلتمّ به، فداراه بالإسراف في الضحك والمرح، حتى إذا أخذ في الشراب زايه بلا عناء، فاستعاد طمأنينته واندمج في الطرب بكلّ قلبه. وجعل كلّما لجّ به الشوق - والأشواق في مغاني الطرب تثار - يمدّ بصره إلى سلطنة المجلس بهم فيتلجج ناظره عند طليّت جسمها المكتنز، فطاب قلباً بما أفاه عليه الحظّ من نعمة، وهنّا نفسه على ما يترقبها من لذيد المسرّات، هنّاه الليلة والليالي الأعرصات: وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان، هذا التصريح الذي تحمّلتها به، يجب أن أكون عند كلمتي، آية امرأة هي يا ترى، وأيّ ملئى مداها، سأعرف الحقيقة في الساعة المناسبة ثمّ ألبس لكلّ حال لبوسها، لكي تضمن الانتصار على غريم ينبغي أن تفرّض فيه الغاية من المناعة والبأس. لن أحمّد عن شعاري القديم وهو أن أجعل من لُذّي أنا مطلباً ثانوياً ومن لُذّيها هي الهدف

كان ما يُطلق عليه بهو الحفلات بيت العائلة زبيدة يتوسط الدار كالمصالة، أو كأنّ الصالة بالفعل استجذت لها أغراض أخرى. ولعلّ أهمّ أغراضها أنّها كانت تقوم فيه - هي وجوقتها - بالتجارب الغنائية وحفظ الأغاني الجديدة، وقد اختارته لبعده عن الطريق العامّ بما يفصل بينها من حجرات النوم والاستقبال. وجعله أنساعه - إلى هذا - صالحاً لإحياء الحفلات الخاصّة التي تتراوح عادة بين الزار والغناء، والتي تدعو إليها الخاصّة من أصدقائها ومعارفهم المقرّبين. ولم يكن الباعث على هذه الحفلات أريحية كرم فحسب - إن كان ثمة كرم على الإطلاق فإنّه غالباً ما ينهض بأعيانها الأصدقاء أنفسهم - ولكنّها رمت من روائها إلى الإكثار من الأصدقاء الممتازين الخلفيين بأن يدعوها لإحياء الحفلات أو يقوموا لها بالدعائية النافعة في الأوساط التي يتخلّبون فيها، ومن بينهم - إلى هذا كله - تتنقّى الخليل بعد الخليل. وجاء دور السيّد أحمد عبد الجواد ليشرّف البهو السعيد عاملاً بالخاصّة من معارفه. والحقّ أنّه تبدّى على نشاط جمّ عقب المقابلة الجريئة التي ثمت بينه وبين زبيدة في بيتها فرحان ما حُلّ رسله كرم الهدايا من النفل والحلوى والهدايا... إلى مدفأة أوصى على صنعها ونقشها وطلّيتها بالفضّة لتكون - جيّهاً - عربوناً للموّة المقبلة. ففي لقائه هذا دعه السلطانة، تاركة له الخيار في دعوة من يشاء من أصدقائه، إلى حفلة تعارف تكريماً للحبّ الجديد - ولشّد ما كان اليهود موسوماً بطابع بلديّ جذّاب بكنياته المتلاصقة المزركشة الناعمة الموحية بالخفاصة والحلافة، الممتدة على الجسامين حتى المصدر حيث يقوم ديوان الست تكتنفه الثلث والوسائل المعدّة للجرقة، أمّا أرضه المستطيلة مفروشة بسجّاد متعدّد الألوان والشكوك، وعلى كونسول يتوسط الجناح الأيمن - كالشامة رواء وصفاء - أوقدت الشموع منفرسة في الفناير، غير مصباح ضخم يتدلّى من قفّة منوّدة يتوسط سفّ الحجره ذي منافذ على سطح الدار تفتح في الليالي الدافئة وتغلّق بأضلاع زجاجيّة في ليالي البرد.

- كيف ترون صاحبكم؟

فقالوا في نفس واحد:

- معلوماً!

وهنا حرك عازف القانون الضرب رأسه بمئة ويسرة وقد تدلّت شفته السفلى وتحم:

- قد أحذر من أنذر.

ومع أنّ حكمته لاقت ترحيباً إلا أنّ السّت التفت نحوه كالغاضبة ولكنزته في صدره هاتفة:

- اسكت أنت وسدّ فاك الذي يبلع المحيط...

وتلقّى الضرب الضربة ضاحكاً ثمّ فتح فاه كأنما ليتكلّم ولكنّه أغلقه مرّة أخرى مؤثراً السلامة فوجهت المرأة رأسها صوب السيّد وقالت بلهجة تنم عن الوحيد:

- هذا جزء من يجاوز حلّه.

فقال السيّد متظاهراً بالانزعاج:

- ولكنّي جئت لامتصّ قلّة الأدب.

فدلّت المرأة صدرها بيدها وصاحت:

- يا خيراً... أسمعتم قوله؟!...

فقال أكثر من واحد منهم في وقت واحد:

- إنّه خير ما سمعنا حتى الآن.

وأضاف إلى هذا أحد الرفقاء قائلاً:

- بل عليك بضربه إذا جاوز حدود قلّة الأدب.

وقال آخر مؤثراً على قوله:

- الزمي طاعته ما قلّ أدبه.

فتساءلت المرأة وهي ترفع حاجبيها لتعلم عن دهشة لا أثر لها في نفسها:

- لحدّ هذا تحيّر قلّة الأدبا!

فتنّهّد السيّد قائلاً:

- ربّنا يديها علينا.

فيا كان من العالة إلا أن تناولت النّف وهي تقول:

- ساسمعكم شيئاً أفضل.

وتقرت عليه فيما يشبه العبث، ولكن علا النقر في حومة اللفر كالنذير حتّى أسكته، وداعب الأذان متوقّداً فينبّل القوم حالاً بعد حال، تحفّر أفراد الجوقة للملح، وقرّغ السادة الكتوس ثمّ مدّوا رموسهم نحو السلطنة

والنهاية، وبذلك تتحقّق لأنّي حلّ أكمل وجهه. ومع

أنّ السيّد لم يخر من ألوان الحبّ - على وفرة مغامراته -

إلاّ الحبّ العضويّ وحُبّ اللحم والدم، إلاّ أنّه تنزّج

في اعتناقه إلى أرقّ صورة وأنقاها، فلم يكن حيواناً

بحتاً ولكنّه إلى حيوانيّته وهب لطافة إحساس ورفاقة

شعور وولع مغفل بالغناء والطرب، فسبا بالشهوة إلى

أسمى ما يمكن أن تسمو إليه في مجالها العضويّ. بهذه

البواعث العضويّة وحدها تزوّج أوّل مرّة ثمّ ثاني مرّة،

أجل أنّ عاففته الزوجيّة - بكمور الأيّام - بمناصر

جديدة هادئة من المودة والألفة ولكنّها ظلت في جوهرها

جسديّة شهوانيّة، ولسّا كانت عاطفة من هذا النوع -

خاصّة إذا أوتيت قوّة متجدّدة وحيويّة دافقة - لا يمكن

أن تستقيم إلى لون واحد فقد انطلق في مذاهب العشق

والهوى كالثور الهائج، كلّما دعت صبرة استجاب لها في

نشوة وحماس. لم يَر في آية امرأة إلاّ جسداً، ولكنّه لم

يكن يبغي هامة لهذا الجسد حتّى يجده غليظاً حطّاً بأن

يرى ويلمس ويشمّ ويداق ويسمع، شهوة نعم ولكنّها

ليست وحشيّة ولا عصياء، بل هلّبتها صنعة، ووجّهاها

فنّ فالتحذت لها من الطرب والفكاهة والبشاشة جرّاً

وإطاراً. فلم يكن أشبه بشهوته من جسمه، فهو مثلها

في الضخامة والقوّة اللتين توحيان بالقسوة والوحشيّة

ولكنّه - مثلها أيّها - فيما ينطوي عليه في أحباله من

لطف ورقة وموقّة على ما يشرّبل به أحياناً - متعمّداً

من الصرامة والشدّة. ولذلك فلم يترجّز خياله

النشيط - وهو يلتهم السلطنة بنظرته - في المضاجعة

ونحوها ولكنّه تاه - إلى هذا - في أفانين من أحلام

اللهو واللعب والغناء والسرور. وأحسّت زينة بحرارة

حينه فالتفت تخاطبه وهي تقلّب عينها في وجوه

المدعوّين بمحبّ ودلال:

- حسيك يا حريس، هلا استحييت حيال رفاقك!

فقال السيّد متعجباً:

- وما انتفاخي بالهياه حيال قنطار من اللحم

والدهن!

فاطلقت العالة ضحكة ربّانة وتساءلت في غاية من

الانبساط:

وساد المكان صمت يكساد ينطق من شلّة التهيؤ للطرب. وأومات العالة إلى الجوقة فانطلقت تعزف بشرف عشان بك، وراحت الرموس تذهب مع الأنغام ونحيء، وسلم السيد نفسه لرنين القانون الذي جعل يلذع قلبه فيشعل فيه أصداه الأنغام المختلفة من عهد طويل حافل بلبالي الطرب كأنها ذرات نفضت على جمر مكنون، أجل كان القانون أحب آلات الطرب إلى نفسه - لا لمهارة العقاد وحدها - ولكن لمر مستلهم من طبيعة أوارته، ومع أنه كان يعلم أنه يستمع إلى العقاد أو سي بعده إلا أن قلبه العاشق دأى بعشقه ما قصر دونه الفن. وما إن فرغت الجوقة من عزف البشرف حتى انطلقت العالة تنشد والذي أسكر من عذب اللها فلحقت بها الجوقة في حماس، وكان أجل ما يطرب فيها صوتان متجاوبان، أحدهما غليظ عريض للمعازف الضرير والآخر رفيع يندى بالطفولة لزنوبة العوادة، فجاش صدر السيد بالانفعال فابتدر الكاس الذي بين يديه فأفرغه في جوله وأندلع بإشارك في إنشاد التوشيح وقد وشت نبرات صوته - عند مطلع الفناء - يشرق في حلقه لاندفاعه إلى الإنشاد قبل أن يتم بلع ريقه، وما لبث أن تشجع بيقه الرفاق فحلوا حله وسرعان ما انقلب البهو جوقة تنشد عن صوت واحد. وليّا ختم التوشيح بهيات روح السيد - بحكم العادة - لاستيعاب التقاسيم واللبالي ولكن العالة ذهلت الختام بضمكة من ضحكاتها الرثانة معلنة عن سرورها وعجبها، وضمت تيمى أفراد الجوقة المستجيبين مداعبة وتسالم هن الدور الذي يرقون ساعه، وانزعج السيد في باطنه ومرّت به لحظة كدر امتحن فيها ولعه بالفناء امتحاناً قاسياً لم يقطن إليه كثيرون ممن حوله، ولكنه أدرك في اللحظة التالية أن زينة ليست كفتاً لتقاسيم اللبالي شأن جميع العوالم بما فيها «دبة كثر» نفسها، فتيمى لو تختار المرأة مطلقوة خفيفة ممّا تغني للسيدات في الأفراح، مفضلاً هذا عن محاولة غناء دور من أدوار الفحول مستعجز حتى عن إجابة ترجميمه، وصمّم على أن يتغادى من المتاعب التي تخافها أنه بأن يقترح أغنية خفيفة تناسب حجرة الست فقال:

- ما وأيكم في عصفوري يا أمّة؟

وحدها بنظرة ذات معنى كأنها ليثير في نفسها إيماء هذه الطفطوقة التي توجت بها حوار تعارفها في حجرة الاستقبال منذ أيام قاتل، ولكن جاء صوت من أقصى البهو يصيح ساخراً:

- الأؤى أن تطلبها من أمك... .

وسرعان ما ضاع الاقتراح فيما تفجّر من فقهات أفسدت على السيد خطته، وقبل أن يكرّر المحاولة طلب نقر «يا مسلمين يا أهل الله» وطلب آخرون «سلامتك يا قلبي» ولكن زبيدة التي تحاشت أن ترضي فتة على حساب أخرى أعلنت أنها ستفنيهم «صل روجي أنا الجاني» فاستقبلت بترحاب حار. ولم يجد السيد بداً من توطين النفس على الانبساط مستمياً بالشراب، وباحلام ليلته الواعدة، فتألق نغره بابتسامة وضيفة أدرك بها ركب النشوى بلا كسر، بل وجد عطفاً على رغبة المرأة في محاكاة الفحول إرضاء لمستمحيا الراسخين في السماع وإن لم يُخلّ حالها من غرور تألفه الغوالي. وثميا تنهت الجوقة للغناء نهض أحد الرفاق وهض بهمس:

- دعوا الدف للسيد أحمد فهو به خير!

فهزّت زبيدة رأسها عجباً وتساءلت:

- حقاً؟

فحرك السيد أصابعه في سرعة ورشاقة كأنها يعرض عليها مثلاً من صنعة فقالت زبيدة باسمّة:

- فيم العجب وأنت تعلمي جليلة!

وضحك السادة في غير ما تحفظ، وتواصل الضحك حتى حلا صوت السيد الفار وهو يسأل السلطانة قاتلاً:

- وماذا تنوين أن تعلّمي أنت؟

فقالت بلهجة ذات معنى:

- ساعلمه القانون... ألا يروقك هذا؟

فقال السيد باستعطاف:

- علميني المنك إن شئت.

وحث كثيرون السيد على الانضمام إلى التخت وأخذ الدف لما كان منه إلا أن نهض وعلع الجبة فيدا بطوله وعرضه في القفطان الكموني كجواد يقف

بلغت الحمر بالضرب نهايته وثرت الشهوات نثراً  
فتركهم كأدواح راقصة في حومة عاصفة هوجاء.

ورويداً وويداً شارب الدور الحتام وراحت زينة  
تختمه مرتدة نفس المطلع الذي افتحت به وهو وحل  
ورحي أنا إلجاني، ولكن بروج يوحى بالدهة والتذكير  
والوداع والنهاية، وغابت الأنعام كما تغيب طيارة  
بحبيب وراء الأفق. ومع أن الحتام قول بعاصفة من  
التهليل والتصفيق إلا أنه سرعان ما ساد القاعة صمت  
دلّ على همود أنفس أحياء الجهد والانفعال، ومضت  
فترة لم يسمع فيها إلا سعلة أو نحنة أو حكة عود  
ثقاب أو كلمة لا تستحقّ المراجعة، وقال لسان الحال  
للمدحون «تفضلوا بسلام» فلاحات من بعضهم  
نظرات إلى قطع الثياب التي تخففوا منها في فورة  
الطرب فوضعوها وراءهم على مساند، ولكن البعض  
الأخر ممن تملقت نفوسهم بحلاوة السهرة أبوا أن  
يخادروها حتى يرشعوا آخر لحظة متاحة من الرحيق،  
فصاح أحدهم:

- لا نبرح حتى نرت السلطنة إلى السيد أحد.

وقيل الاقتراح بترحاب وتأيد، على حين أفرق  
السيد والعائلة في الضحك غير مصدقين، وما يدريان  
إلا ونسر من الصحاب يمحطون بها ويهشون بها ثم  
يشيرون إلى الجوقة لتشرع في النشيد السعيد.

وقفا جنباً لجنب، هي كالحقول ومر كالحمل،  
علاقين ملكتين بالحسن، ثم تأبطت في دلال ذراعه  
وأشارت إلى المدحون بها ليسحوا الطريق. وفرت  
الدقافة على الدفّ فانطلقت الجوقة وكثرة من المدحون  
يرددون نشيد الرقة «انظر بعينك يا جميل» ومعنى  
العروسان في خطو ويد يتبختران طرباً وسكراً فلم  
تتألك زهوة مع هذا المنظر إلا أن تمسك عن اللعب  
بأوتار العود ريثما تطلق زغردة بجلجلة طويلة النفس  
لو تمسدت لبدت لساناً متعرجاً من لب يشقّ الفضاء  
كالشهاب. وتسايق الأصدقاء يزجون النهايات بها:

- بالرفاء والبتين.

- ذرّة صلحة من الراقصات والمغنيات.

وصاح به أحدهم محملاً:

مستوفراً على رجله الخلفيتين، ثم شمر عن ساعديه  
ومضى إلى الديوان ليأخذ مجلسه إلى جانب الست،  
ولكي تفسح له قامت نصف قومة مترجحة إلى اليسار  
فانحسر الستان الأحمر عن ساق لحمة مرتوية بيضاء  
مشربة بلون وردّي من أثر الحفّ والتفّ على أسفلها  
بخلخال ذهبي أعيأ ضمها ذراعيه، ورأى بعضهم ذاك  
المنظر فصاح بصوت كالرعد:

- تمها الخلالة!

وكان السيد يغمز لثني المرأة بعينه فهتف وراه:

- قل ليها الصدر الأعظم.

فصاحت العالة محمّلة:

- خفضوا أصواتكم أو يبيتنا الإنجليز في السجن.

فهتف السيد الذي لمحت الحمر برأسه:

- أذهب ملك مؤيّدًا مع الشغل.

وعلا أكثر من صوت يقول:

- لا عاش من يتركها تذهب وحديا.

وأرادت المرأة أن تحسم النزاع الذي أثاره منظر  
ساقها فمدّت يدها بالدفّ إلى السيد وهي تقول:

- أربي شطارتك.

وتناول السيد الدفّ، ومسح عليه براحة يمينه،  
وبدأت أصابعه تنقر عليه في مهارة على حين انطلقت  
آلات الطرب عازفة، ثم غنت زبيلة وهي تنزل إلى  
الأعين المحمّلة إليها:

على ورحي أنا الجاني

ويغني في الهوى رسالي  
ووجد السيد نفسه في موقف عجيب، تمفو إليه  
أنفاس السلطنة بين اللفتة واللفتة فتلتقي بإشعاعات  
الحمر المتطايرة من يافوخه بين الحسوة والحسوة، فما  
أسرع أن غابت عن وعيه أصداه الحاصولي وعطان  
والمليلاوي، وعاش في لحظة الراحة قائماً سعيداً، ثم  
سرى إليه من نبرات صوتها ما حرك أوتار قلبه فاستمر  
نشاطه ولعب بالدفّ لعباً لا يذاتيه المحترفون، وما  
بلغت المرأة في الغناء قولها وأمانة يا رايح مئة تبوس لي  
الحلو من فمّه حتى كان من النشوة في سكرة عاتية  
ملهمة مدغذغة محرقة، ولحق به الرفاق أو سبقوه إذ

- لا تؤجل عمل اليوم إلى غد.

ولم تزل البجوة تواصل الإشاد، والأصدقاء يلوحون بأيديهم مودعين، حتى توارى السيد والمرأة وراء الباب المقضي إلى داخل الدار.

## ١٧

كان السيد أحد جالساً إلى مكتبه بالدكان حين دخل ياسين على غير انتظار، ولم تكن زيارة غير متوقعة فحسب، ولكنها كانت قبل كل شيء غير مألوفة، إذ لم يكن من الطبيعي أن يزور الفتى أباه في دكانه على حين يتحاشاه على قدر استطاعته في بيته، وإلى هذا بدا شارد اللبّ ساهم النظرة... وأقبل على أبيه مكثفياً برقع يده إلى رأسه بطريقة آلية دون أن يلتزم ما يلتزم عادة محضره من أصب بالغ وخضوع كأنما نسي نفسه، ثم قال بلهجة نكت عن شديد تأثره:

- السلام عليكم يا أبي، جئت لأحدثك في أمر هام...

ورفع السيد إليه عينيه متسائلاً وقد ساوره قلق استعان على إخفائه بقوة إرادته ثم قال بهدوء:

- خير إن شاء الله...

وجاء جميل الحمزاوي بكريسي وهو يرحب بمقدمه فأمره والده بالجلوس ففرب الشاب الكرسي من مكان أبيه وجلس، وبدا لحظات كالتردد، ثم زفر لائزاً بتردده وقال بنبرات متهذجة وفي اقتصاب مؤثر:

- المسألة أنّ أمي شارعة في الزواج...

ومع أنّ السيد توقع خبراً سيئاً إلا أنّ خياله لم ينبج في جولته التشاؤمية إلى تلك الناحية التي أودعها ركناً مهجوراً من ماضيه، لذلك لقيت منه المفاجأة صيداً خافلاً، وسرعان ما قفّب كما يقفّب كلما عرض له حارص من ذكريات زوجه الأولى، وتولّاه لذلك ضيق، ثم انزعاج لما عسى ابنه مباشرة في صميم كرامته، وكشأن السائلين الذين يلقون السؤال لا ليعرفوا جديداً ولكن ليلتمسوا منفذاً للنتيجة من الواقع وهم يائسون، أو ليهيئوا لأنفسهم مهلة للترقي وتقالك الأعصاب، وسأله:

- ومن أدراك بهذا؟

- قرييها الشيخ حمدي، زاوني اليوم بمدرسة النحاسين وألقى عليّ الخبر مؤكّداً بأنه سيتم في ظرف شهر...

الخبر حق لا ريب فيه، وما هو بالأول من نوعه في حياتها، ولن يكون الأخير إذا اتخذ الماضي مقياساً للمستقبل، ولكن أيّ ذنب جناه هذا الشاب ليلقى هذا الجزء الصارم المتجدد الأذى؟! ووجد الرجل نحو ابنه رثاء وعطفاً، وهرّ عليه أن يقف من آلامه موقف العجز وهو الذي يقصده الناس في الملمات، وتساءل فيها بينه وبين نفسه ماذا تكون حاله لو كان هو البطل بهذه الأم... فانبض صدره وتضاعف رقاؤه وعطفه نحو ابنه، ثم شعر برغبة تدفعه إلى السؤال عن ذلك الزوج المتظر، ولكنه لم يستسلم لها، إنّما لأنه أشفق من أن تزيد جرح ابنه عمقاً وتأساعاً وإنّما لأنه أنكرها على نفسه لما آتس بها من حبّ استطلاح، لا يليق بالأمسة الراحنة، وموجّه إلى المرأة التي كانت زوجاً له، بيد أنّ ياسين قال متعلّفاً من تلقاء نفسه وكأنه يجيب خاطرته:

- ونحن تتزوج!... من شخص يدعى يعقوب زينهم صاحب خبز في الدراسة... في الثلاثين من عمره!

واشتدّ انفعاله وتهدّج صوته وهو ينطق العبارة الأخيرة كأنها يلفظ شغليّة، فانتفل إحساسه إلى أبيه تفزّراً واشتمزاً، وجعل يردد في سرّه: في الثلاثين من عمره... يا له من عمل فاضح... إنّه فسق في ثياب زواج... غضب الرجل لغضب ابنه، وغضب لحساب نفسه هو كما اعتاد أن يغضب كلياً تراسي إليه نباً من ميافها كأنها يتجدّد شعوره بتبعته في اعتبارها يومئاً زوجة له، أو كأنها يمزّ عليه - ولو بعد مرور ذاك الزمن الطويل - أنّها أفلتت من تاديبه والإذعان لسنّته! وإنّه ليذكر آهلم معاشرته لها - حل قصرها - كما يذكر الإنسان حمى هاضته، وريماً كان مغالباً في تصوّره، ولكن رجلاً في مثل اعتدائه بنفسه جدير بأن يرى في مجرد الرغبة عن الإذعان لمشيته جريمة لا تغتفر وهزيمة



قفل ياسين في حزن وقنوط:

- ولكتُها شيء كائن يا أبي! ... ومها يكن من أمر  
تعالننا فلن تزال آتني إلى ما شاء الله، سواء في نظري  
أم في نظر الناس جميعًا... لا مقر ولا خلاص...  
ونفخ الشاب من الأصابع، ودنا إلى أبيه بعينه  
السوداوين الجميلتين - اللتين ورثها عنها - في استغاثة  
صارخة وكأنه يقول له: «إِنَّكَ أَيْ الْجَبَّارِ الْقَادِرِ فَمَدَّ لِي  
يَدَكَ»، فبلغ التأثّر بالسيد غايته ولكتُها وأصل تظاهره  
بالهدوء المقرون بالاستهانة قائلًا:

- لا أنكر عليك ثَلَاثَ وَلَكِنِّي أنكر عليك أن تغالي  
فيه، كذلك يطيب لي أن أعذرك على غضبك ولكن  
قليلًا من العقل حريّ بأن يتركك على غضبك ولكن  
نفسك في هدوء ماذا عليك من زواجها؟... امرأة  
تتزوج، كما تزوّج النساء كل يوم وكل ساعة، وليست  
هي بالتي تحاسب على مثل هذا الزواج لما سلف من  
سلوكها، بل لعلها خليقة بأن تشكر عليه، وكما قلت  
لك مرارًا لن يرتاح لك بال حتى تسقطها من حسابك  
كأنها لم تكن، فافعل بالله وأرخ نفسك، وتعرّ - مها  
يكن من أمر القبل والقال - بأن الزواج علاقة  
مشروعة... شريفة...

قال السيد هذا بلسانه فحسب - إذ كان يناقض كل  
المنافضة ما طبع عليه من غيرة منطرفة فيها يتجمل  
بالآداب المطلقة للأمر - ولكنه قال بحرارة كالصلق،  
منتشوها ما مارسه من لباقة أقلته لأن يكون الحكم  
الحكيم ووسيط الخير الذي لا يعجزه فضّ نزاع بين  
الناس، ومع أنّ كلامه لم يضع هبله - حيث إنه من  
المستحيل أن يضع كلام للسيد هبله حيال أحد من  
أبنائه - إلا أنّ غضب الفتى كان أحق من أن يتجرّ  
بنفخة واحدة فوقع منه موقع قدح بارد من إبريق بالماء  
المخفّ، وما لبث أن خاطب أباه قائلًا:

- هو علاقة مشروعة حقًا يا أبي ولكتُها تبدو أحيانًا  
أبعد ما تكون عن الشرع، لئني أسأل نفسي عمّا يدفع  
هذا الرجل إلى الزواج منها؟!

وبالرغم من خطورة الحال قال السيد لنفسه في  
شيء من السخريّة وألّو بك أن تسأل عمّا يدفعها

قتالة. ثم إنَّها كانت - ولعلها لا تزال - جميلة مترعة  
أنوثة وجاذبيّة فتمّ بمحافرتها أشهرًا حتى بدا منها شيء  
من المقاومة لإرادته التي نزع إلى فرضها على المصلين  
به من آله، ولم ترّ بأسًا في الاستمتاع بالحرية ولو بالقدر  
الذي يتيح لها زيارة أبيها من آنٍ لآن، فغضب السيد  
وحاول منها بالزجر أولًا ثم بالضرب للبرج أنخيرًا، فما  
كان من المرأة المذلّة إلا أن فرت إلى والديها وأصمى  
الغضب الرجل المتعجرف فظنّ أنّ خير سبيل إلى  
تأديبها وإرجاع عقلها إلى رأسها هو أن يطلقها إلى  
حيث - إلى حين طبعًا لانه شديد التعلّق بها - فطلقها،  
وتظاهر بإهمالها أيّامًا وأسابيع وهو ينتظر أملًا أن يجيئه  
وسيط خير من أمها، فليًا لم يطرق بابها أحد داس  
كبريائه ويمت هو بمن يحسّ النبض تمهيدًا للصالح فعاد  
الرسول يقول إنهم يرحّبون به على شرط ألا يسجنوا أو  
يفرّجوها... ولكنه كان ينتظر موافقة بلا قيد ولا  
شرط فثار غضبه ثورة عاتية وأقسم فيها بينه وبين نفسه  
ألا يضمّنها رباط إلى الأبد. فكذا غضب كلاهما إلى  
حال سبيله، وهكذا قضى على ياسين أن يولد بعيدًا  
عن أبيه وأن يلقى من حياته في بيت أمّه ما لقي من  
ضروب المذلّة والألم...

ومع أنّ المرأة تزوّجت أكثر من مرّة، ومع أنّ الزواج  
كان - في نظر ابنها - أشرف سقطات، إلا أنّ هذا  
الزواج الجديد للتوقع بدا أظلم من سوابقه وأعمى في  
الإيلام، لأنّ المرأة استوت على الأريمين من ناحية،  
ولأنّ ياسين اكتمل شابًا مدرّجًا بوسعه إذا شاء أن يدفع  
عن كرامته الإساءة والموان من ناحية أخرى، فقد  
جاوز إذن موقفه القديم الذي ألزمه إياه حدائته سنّه  
حين كان يتلقى الأنباء المشيرة عن أمّه بالندش  
والانزعاج والبكاء إلى موقف جديد بدا فيه أمام نفسه  
رجلًا مستولًا، لا يصحّ له أن يلقى الإساءة مكتوف  
اليدين. دارت هذه المصاوير بذهن السيد، وقدّر  
خطورتها بقلق، ولكنه صمّم على التهور من شأنها ما  
وسعته الحيلة ابتعادًا بابنه الأكبر عن المتاعب، فهزّ  
كتفيه المريضين متظاهرًا بالاستهانة وقال:

- ألم تتعاود على اعتبارها كشيء لم يكن! ١٩٠٠

هي اء، وقبل أن يحاور ابنه واصل ياسين حديثه قائلاً:  
- إنه الطمع... ولا شيء غيره!

- أو لعلها رغبة صادقة في الزواج منها...

ولكن الشاب هاج ناثره وهتف في حق وألم مماً:

- بل الطمع وحده...

وبالرغم من خطورة الموقف لم تخف على السيد حدة  
اللهجة التي خاطبه بها ابنه، بل لم يتخل الرجل من  
ضيق إلى تقديره لحاله وحزنه أن يعود إلى تأكيد قوله  
السابق، فلما لم يفعل استطرد قائلاً في هدوء نسبي:

- إن ما يدفعه إلى الزواج من امرأة تكبره بعشرة  
أعوام هو الطمع في مالها وعقارها...

وجد السيد في تحول النقاش إلى هذه النقطة فائدة لم  
تفب عن ألميته، فهو يزرع الفی من تركيز تفكيره في  
أمر أشد حساسية وأبعث للألم ويحسبه أن يصرفه عن  
النظر فيما يدفع أمه إلى الزواج إلى ما يدفع الرجل،  
ولم هذا كله لم يخف عليه ما في رأي ابنه من وجهة  
فيها يتعلق بالزواج فسرعان ما انتع به وشاركه غاؤه  
فيه. أجل إن هتية - أم ياسين - غنية لدرجة لا بأس  
بها، وقد سلمت لها ثروتها من المقار حل ما خاضت  
من تجارب الزواج والهوى، بيد أنها كانت فيما مضى  
شابة حسنة ذات سحر وسلطان، يخاف منها ولا يخاف  
عليها، أما الآن فبعد عن الاحتمال أن تملك نفسها -  
فضلاً عن أنفس الآخرين - ما ملكت، وإذن ثروتها  
خليفة بأن تتبدد في معركة الغرام التي لم تعد من  
رؤماتها، وإنه لحرام وأبي حرام أن يخرج ياسين من  
جسم هذه الماسة جريح الكرامة وصفر الیدين، وقال  
السيد مخاطب ابنه وكأنه يحاور نفسه ويستلهمها  
الرأي:

- أراك حل حق يا بني فيما تقول، إن امرأة في سنّها  
صید يسير خلق بأن يخزي العظامين من البشر، فما  
عسى أن نفعل؟ أنتلمس سبيلاً إلى ذاك الرجل لنحمله  
على العدول عن مغامرته... إن الحملة عليه  
بالوکید والتهدید سلوك لا ترتضيه آدابنا وما عرفنا به  
بين الناس، كذلك التوسل إليه بالرجاء والاعتناع مهانة  
لا تهمسها كرامتنا... فلم يبق أمامنا إلا المرأة

نفسها!... ولست أجهل ما حفرت بينك وبينها من  
قطیعة كانت بها - ولا تزال - خلیقة، بل الحق أنني لا  
أرتاح إلى أن تصل ما انقطع بينك وبينها لولا ما  
استجد من أهدار قهرية، فللمضرورة أحكام، ومهما  
يشق عليك الرجوع فهو رجوع إلى أمك، ومن يدري  
لعل ظهورك المفاجئ في أفقها يردّها إلى شيء من  
الصواب...

ويدا ياسين أمام أبيه، كالوسيط أمام المنوم  
المغناطيسي في اللحظات التي تسبق ما يوحى به إليه،  
ذاهلاً صامتاً، فوشى حاله بنفاذ تأثير الرجل إلى نفسه،  
أو لعله دلّ على أنه لم يفلح بهذا الاقتراح، وأنه يمتثل  
أن يكون ممّ دار بنفسه قبل عبثه، بيد أنه تتم فائلاً:

- أليس ثمة حلّ أوفق...

فقال السيد بقوة ووضوح:

- أراه أوفق الحلول...

فقال ياسين وكأنه يجادل نفسه:

- كيف أرجع إليها؟!... كيف أزعج نفسي في  
مأرض فرت منه وليس أحبّ إليّ من أن يُبتر من  
حياتي بترّاً... لا أمّ لي... لا أمّ لي...

ولكن بالرغم من ظاهر قوله شعر السيد بأنه وثّق  
إلى جذبته إلى رأيه فقال بلباقة:

- هذا حق، ولكن لا أظنّ أنّ ظهورك أمامها فجأة  
بعد ذلك الغياب الطويل يفي بلا أثر، لعلها إذا رأتك  
بين يديها شائفاً ناضجاً أن تتحرك أمومتها فتجفل ممّا  
عساه يسيء إلى كرامتك وتعدل عن سيرتها... من يدري؟!  
فطامن ياسين رأسه غارقاً في أفكاره، غير مبالي بما  
دلّ عليه من ضيق وئاس، كان يرتعد خوفاً من وقوع  
الفضيحة، ولعلّ هذا كان أفضح ما يكرّبه ولكنّ خوفه  
على ضياع الثروة التي ينتظر أن يرثها يومًا لم يكن دون  
ذلك، وما عسى أن يفعل؟!... مهما يقلّب أوجه  
الرأي فلن يجد حلاً أوفق ممّا أراى أبوه، بل إن صدور  
الرأي عن أبيه ألبسه في نظره - حلّ لتقلل حاله -  
وجاعة وأصفاه هو من هموم كثيرة. ليكن... هكذا  
قال في نفسه، ثمّ قال مخاطباً أباه:

- كما ترى يا أبي...

صاحبها ويقول: وثنية تطلب منك أن تحضر الليلة، أو كآته يراه وهو عائد بقرطاس الفاكهة ضاحك الأساير، أو وهو يلفت نظرك في الطريق إلى الرجل فتجلبه من ذراعه بعيداً أن يلفت إليهما الانتظار، أو وهو ينشج باكياً أمام منظر الاقتراس الوحشي الذي يخلفه خلقاً جديداً. كلما ورد على ذهنه - على ضوء تجاربه الراهنة فيقلب البشاعة نفسها، طفتت الصور الملتهية تطارده وهو يحيد في الفرار منها، ولكنه ما إن يتلمس من قبضة إحداهما حتى يقع في قبضة الأخرى، مطاردة عنيفة وحشية أثارت في أحاسيسه بركان الحق والحقد فواصل السير إلى غايته وهو على أسوأ حال وكيف أمرق إلى العطفة وحل رأسها هذا الدكان... وهذا الرجل. أثروا بوقفه القديم منه... لن ألتفت نحوه، أي قوة مآكرة تغري بالنظر، أيعرفني إذا التفت عينانا؟... إذا بدا منه أنه عرفني قتله. ولكن كيف له أن يعرفني؟... لا هو ولا أحد من الحي، أحد عشر عاماً، تركته غلاماً وأعود إليه نوراً ذا قرنين! ثم لا تواتينا القوة على إبادة الحشرات السامة التي لا تلتك تلدغنا...؟

وسال إلى العطفة مسرعاً بعض الشيء، متحيزاً القوم وهم يستطلعونه بأنظارهم متساكين دأبن ومق رأينا هذا الوجه، ورتقي في الطريق المتصاعد في غير استواء، جليماً عزمه على نقض الغبار الحائق من وجهه ورأسه ولو إلى حين، وتشجيعاً لعزمه فر بنفسه بعيداً وراح يتأمل ما حوله ويحدث نفسه قائلًا: ولا تغيب الطريق المتعب فكم كنت نرحب به صغيراً وأنت تترحلق على متحلده فوق لوح من الخشب! بيد أنه عاد يقول حين تراه له جدار البيت: (إلى أين أسير؟... إلى أي؟... يا للعجب. لا أصتق، كيف ألقاها وكيف تلقينا؟... ودعت لو... وماك يميناً إلى عطفة مسدودة ثم أجه إلى قول باب في جانبها اليسر. هو البيت القديم بلا أجن شاك، قطع الطريق إليه كما كان يقطعه وهو صغير، بلا تردد أو تساؤل وكأنه ما تركه إلا أمس القريب، ولكنه اتضح بابيه هذه المرة بإضطراب غير معهود، ورتقي في الدرج

لما بلغت به قدام طريق الجبالية انقبض صدره حتى شعر بأنه يحتق. لقد غاب عنه أحد عشر عاماً. أحد عشر عاماً تصرمت فلم ينازعه القلب إليه مرة واحدة، أو ترف عليه ذكرى من ذكرياته إلا في حالة قائمة مقبضة نسج وشيها من مائة الكابوس، والحق أنه لم يكن غادره ولكن واثته فرصة ففر منه فراراً، ثم ولأه ظهره غاضباً يائساً، ثم تحببه بكل قوة فلم يعرفه بعد ذلك كفاية في نفسه أو معيراً إلى سواء من الأحياء بيد أنه هو الحي كما عهد في طفولته وصباه، ولم يتغير منه شيء، ما زال شيئاً تكاد تسد حربة يد إذا اعترضت سبيله، وما هي بيوته تكاد تتماشى مشربياتها، ودكاكينه الصغيرة في تلاصقها وزحمتها والطين الصادر عنها كخلايا النحل، وأرضه التربة بلجواتها المقصعة وحلاً، وغلمان الذين يشنون جوانبه ويطبعون على أدمه آثار أقدامهم الحافية، وسابله الذين لا ينقطع لهم تيار، ومقل عم حسن ومطعم عم سليمان، كل أولئك باقي كما عهد فتكاد ترف على شفثه ابتسامة حنان يريد نثر طفولته أن يفتت عنها لولا مرارة الماضي وسقم الحاضر...

وتراءت لعينه عطفة قصر الشوق فخفق قلبه بقوة حتى كاد يصم أذنيه، ثم لاحت على رأس منعطفها الأيمن سلال البرتقال والتفاح منضدة على الطوار أمام دكان الفاكهة لمض شفتيه وغض طرفه في حزني. الماضي ملطخ بالعار، مدفون الرأس في الطين من الخجل، دائم الجوار بالشكوى من الحزني والألم، ولكنه كله في كفة وهذا الدكان في كفة وحده، بل إنه يرجح به، إذ أنه رمزه الحي الباقي على الزمن. جمعت في صاحبه وسائله وفاكهته وموقعه وذكرياته الحزني متبجحاً، والألم ناطقاً بالهزيمة مولولة. وإذا كان الماضي أحداثاً وذكريات هي بطبيعتها عرضة للتدخل أو النسيان فهذا الدكان يقوم شاهداً مجسماً يكشف مخلخله ويغضخ منسبه. وكان كلما تقدم من المنحطف خطوة تقهر عن الحاضر عخطوات طاولاً الزمن على رغم إرادته وكأنه يرى في الدكان «غلاماً» يرفع رأسه إلى

وبالشجوش. وركبه توتر وضيق فأدرك أنه لم يعطى باب البيت القديم لحسب ولكنه نكأ جرحاً متورماً وغاص في قبحه. ولم يطل انتظاره، ولعله جاء أقصر مما يتصور، إذ ابتدر أذنيه وقع أقدام متتابعة متدافعة، وصوت يتردد محاوراً نفسه بكلام علا جرسه ولم يستين ألفاظه، ثم أحس بها - وهو لم يزل موالي الباب ظهره - وضلقة الباب المغلقة تطلق تحت صلدة منكبها، ثم جاءه هتافها وهي تقول بأنفاس مبهورة:

- ياسين... ابني... كيف أصبقت حتى؟... ربي... صار رجلاً؟...

وتدافع الدم إلى وجهه المكتنز، واستدار نحوها في ارتباك وهو لا يدري كيف يلفها ولا كيف يكون اللقاء، ولكن المرأة أحفته من تدبير أمره فهرعت إليه واحتوته بذراعيها وضمت إليها بشدة عصبية وراحت تقبل صدره - وهو غاي ما وسع شفتها أن تبلغه من جسمه المنتصب - ثم اختنقت نبراتنا واغرورقت عينها فدفنت وجهها في صدره مستسلمة ملياً ريثما تسترد أنفاسها. لم يكن حتى تلك اللحظة قد أتى حركة أو نطق بكلمة، ومع أنه شعر شعوراً حقيقاً أنها بأن وجوده أشد من أن يحتل إلا أنه لم يبد منه ما يتم من حياة: أي حياة، فلان وجوده وخرسه، بيد أنه كان متأثراً غاية التأثير وإن لم يتضح له نوع التأثير بادئ الأمر بحال يطمئن إليها، ولكنه، على حرارة استقبالها، لم يجد رغبة للارتقاء في حضنها أو تقبيلها، لعله لم يستطع أن ينزع الذكريات المحزنة الناشئة في نفسه كمرض مزمن رافقه منذ الصبا، ومع أنه وجه إرادته بعزم وتصميم إلى إشلاء المسرح من الماضي في اللحظة الراحنة ليملك فكره وحكمته، إلا أن الماضي المطرود انعكس على صفحة قلبه ظللاً قائمة كذبابة نقت عن الفم بعد أن خلقت وراهما جرثومة تسري، فأدرك في ذلك الموقف الرهيب أكثر مما أدرك في ماضيه كله الحقيقة المحزنة التي طالما أمت فزاده وهي أن أمه قد اقتلعت من صدره. ورفعت المرأة رأسها إليه وهي تدعوه إلى تقريب وجهه فلم يستطع الإياب وأدى وجهه منها فقبّلت في خديّه وجيئه، التقت أثناء العناق عينهما

بخطرات ثقيلة بطيئة. وبالرغم من قلقه وجد نفسه يتفحصه باهتمام مطابقاً بينه وبين صورته المحفوظة في خياله فألفاه أصبقت قليلاً عما في ذاكرته وقد تأكلت بعض جوانبه وتبهت أجزاء صغيرة من أطراف درجاته المظلمة حل بشر السلم، وسرعان ما حجبت الذكريات الحاضر كله. ومز وهو على تلك الحال بالدورين المسجورين حتى انتهى إلى الدور الأخير، ووقف لحظات يتنصت وصدره يعلو وينخفض، ثم هز منكبيه كالمتسعين وقرع على الباب، وبعد دقيقة أو نحوها فتح الباب عن وجه خادم متوسطة العمر ما إن تبينت فيه رجلاً غريباً حتى توارت وراء الباب وهي تسأله في أدب عتياً يريد. وثارت أعصابه فجأة وبلا داعٍ معقول لما بدا من الخادم من جهل بشخصه فدخل بالأقدام ثابتة واتجه نحو حجرة الاستقبال وهو يقول بلهجة امرأة:

- قولي لسكنا ياسين هنا...

وترى ماذا نظن الخادم بها؟... والثقت وراهما فوجدتها مسرعة إلى الداخل، إنما لأن لهجة الأسرة خلبتها على أمرها، ولما... وحسن على شفتيه وهو يرق إلى داخل الحجرة. إنها حجرة الضيوف كما قدر بلا وهي في لهجته وحذته ولكن ذاكرته كانت تعرف أركان البيت بلا دليل، ولو وجد في ظرف غير الظرف لطلب مسترجعاً ذكرياته من الختم الذي كان يحمل إليه وهو يبكي إلى المشربية التي كان ينظر من وراء ثقبها إلى مكب الزقة مسدود وراء مساء. تراءى أثاث الحجرة الرامن هو أثاث الماضي البعيد؟

إنه لا يذكر من الأثاث القديم إلا امرأة طويلة ثبتت في حوض مذهب تنبثق من ثغرات في سطحه ورود صناعية مختلفة الألوان، وترتد في زاويتي المتباعدتين فتاير تتدل من أعناقها أهلة بلورية طالما ولع بالعبث بها والنظر خلالها إلى المكان فيلوح في حلل غريبة يذكر إغرامها وإن غاب عنه منظرها، ولكن لا داعي للتساؤل، فاثاث اليوم غير أثاث الأمس، لا لجذته فحسب، ولكن لأن حجرة امرأة مزواج خليفة بأن تنغير أو تتجدد، كما تنغير أبوه، وتاجر الفهم،

صباح مساء بأدّ له أمّا، ولكن أيّ شيء وأيّ أشياء؟  
ودلع إليها عينيّه في حيرة دون أن ينبس فالتفت

عيناها لحظة، وابتدرته المرأة قائلة:

- لماذا لا تتكلم؟

فخرج ياسين من حيرته بتهدئة مسموعة ثمّ قال  
وكأنه لم يجد بدءاً بما قال:

- ذكرتك كثيراً، ولكن آلامي كانت أظلم من أن  
تطلق.

وقبل أن يتمّ كلامه كان النور الذي ينبعث من  
نظرتها قد خمد، واحتلت الحديقتين غمامة غريبة ولتور  
ساقتهما رياح تهبّ من جوف الماضي الأسيف، فلم تعد  
تطيق التحديق في عينيّه وخففت جنبها وهي تقول  
بلهجة حزينة:

- ظننتك برئت من أحران الماضي، وإنيّا عليم الله  
لا تستحقّ بعض ما أوليتها من غضب حملك على  
هجري أحد عشر عاماً.

وعجب لعناها عجباً أحقته، واستكره استكراً ذرّ  
على غضبه المكثور فلفلاً فاتفعل انفعلاً لولا القصد  
الذي جاء من أجله لثار بركانه، أتعني المرأة حقاً ما  
تقول؟ أهاان عليها ما فعلت هذا الحد؟ أم تظنّ به  
الجهل بما كان؟ أيّد أنّه ضبط أعصابه بقوة إرادته التي  
لم تغفل عن هدفها وقال:

- تقولين إنّها لا تستحقّ غضبي؟ ... أراها تستحقّ  
الغضب كلّ الغضب وأكثر.

فتركت ظهرها يسقط على مسند الكنبه كثيره  
تهمّ، ورمته بنظرة بين العتاب والاستعطاف قائلة:

- ما وجه العيب في أن تتزوّج امرأة بعد طلاقها؟  
فشعر بنيران الغضب تتأبّج في عروقه وإن لم تبدّ  
منها آثار إلّا في انطباق شفته ثمّ التصاقها، لا زالت  
تتكلم ببساطة كأنها مقتنعة على يقين ببراءتها ...  
وتتساءل عن وجه العيب في أن تتزوّج «امرأة» بعد  
طلاقها، حسن، لا عيب في أن تتزوّج «امرأة» بعد  
طلاقها، أمّا أن تكون المرأة أمّه فهذا شيء آخر، شيء  
آخر جدّاً، وأيّ زواج الذي تعنيه؟ ... إنّه زواج  
وطلاق ثمّ زواج وطلاق ثمّ زواج وطلاق ... هناك

فلدم جيبنا تأثراً بارتباك وحياته لا لمعاطفة أخرى، ثمّ  
سمعها تنغمخ:

- قالت لي ياسين هنا، قلت ياسين! من يكون  
هذا؟ ولكن من يكون غيره؟ ليس لي إلّا ياسين  
واحد، ذاك الذي حرّم بقي على نفسه وحرّم نفسه  
عليّ، فهذا حدث؟ وكيف استجيب الدعاء آخر  
الدهر؟! وجئت هدواً كالمجنونة لا أصدّق أفني، وما  
أنت، أنت دون غيرك والحمد لله، تركتني غلاماً  
وعدت إليّ رجلاً، كم قتلتني الشوق إليك وأنت لا  
تحسّ لي وجوداً ...

وأخلسته من ذراعه إلى الكنبه فمضى معها وهو  
يسائل نفسه متى تنحسر هذه الموجة الطافية من  
الاستقبال الحارّ حتّى يتبيّن الطريق إلى هدفه، وجعل  
يسترق إليها النظر في استطلاع مقرون بالدعشة  
والقلق؟ ... كأنها لم تتغيّر إلّا أن يكون جسمها قد زاد  
امتلاء ولكنّه لا يزال محافظاً على حسن تقطيعه، أمّا  
الوجه القمحي المستدير والمعان السوداوان المكونتان  
فعل سابق عهدهما تقريباً من القسامة الباردة. ولم  
يرتج إلى ما رآه على صفحة الوجه والعتق من زوايق  
كأنه كان ينتظر أن تتغيّر أحوام العظيمة من دأبها القديم  
على العناية بنفسها ولعلها بالتزيّج لداعٍ ولغير ما داعٍ  
أيّ حقّ في تلك الأوقات التي تخلو فيها إلى نفسها.  
وجلسا جنباً إلى جنب وهي تحقّق إلى وجهه بحنان تارة  
وتقميس طولوه وعرضه بعينين معجبتين تارة أخرى ثمّ  
تمتمت بصوت متهذّب:

- أه يا ربي لا أكاد أصدّق عينيّ، أنا في حلم، هذا  
ياسين! أيّ عمر خضب هباء، كم دعوتك ورجوتك،  
ويعشت إليك الرسول تلو الرسول، ماذا أقول؟ ...  
دعني أسألك كيف قسا قلبك عليّ هذا الحد؟ ...  
كيف أهرضت هن دعوائي الحارّة؟ كيف تصاممت عن  
نداء قلبي المكروب؟ ... كيف ... كيف ... كيف  
نسيت أنّ لك أمّاً منزوية هنا؟

ووقف انتباهه عند الجملة الأخيرة فوجدها غريبة  
تدهو إلى السخرية والرائه ممّا، وكأنها أفلتت منها في  
ذهول الانفعال، أجل يوجد شيء وأشياء، تذكره

يعدل به عن النضاد إلى غرضه ولو بتأجيله، فقال بصوت يدلّ على أنّ ألفاظه التي يتفوّه بها أقلّ بكثير من المعاني التي يوحى بها:

- هذا يتوقّف عليك أنت، فإن شئت كان لك ما تحيّن...

فتجلّت في عيني المرأة نظرة قلق مُتّ حَيّا تعاني من إجماع الخوف وقالت:

- إنّي أرغب في مودتك من أخصاق قلبي، وطلما تمنّيتها، وكم سعت إليها فردّدتني بلا رحمة.

ولكنّه كان مشغولاً عن كلامها الحارّ بما يضطرب في ذهنه فقال:

- يبيدك ما تمنّين، يبيدك أنت وحدك، إذا جعلت من الحكمة رائدك.

فتساءلت المرأة في انزعاج:

- ماذا تعني؟

فأحرقه تجاهلها وقال بتلخّر:

- مضمون كلامي واضح، هو أن تعدلي حيّا لو صحّ ما بلغني عنه لكان فيه الضربة القاضية حيّاً

فأتست عيناها وتجهّم وجهها في يأس غير خائف، وتمتمت وهي لا تدري:

- ماذا تعني؟

بيد أنّه ظلّ أنّها تصرّ على التجاهل فقال بغيظ:

- أهي أن تلغي مشروع الزواج الجليد، وألا

تسمحي لنفسك بمساودة التفكير في شيء من هذا القليل، لم أهد طفلاً، وليس بصبري متنسح لعنة جديدة.

أطردت في حزن بالغ، ولازمت الإطراق كأنّما احتلتها سيرة من النوم، ثم رفعت رأسها في بطء فلاح الحزن في وجهها أصمت ممّا قدر، ثم قالت بصوت ضعيف وكأنّها تخاطب نفسها:

- إذن جئت من أجل هذا؟

ودون تفكير فيا يقول قال:

- نعم!

فوقع جوابه كطلقة نارية فإذا بكلّ شيء حوله يتغير ويتبدّل سريعاً، ويكفّه الجوّ. وقد استرجع فيا بعد-

ما هو أدهى وأمر، ذلك «الفكهاني»...! أيذّكرها به...؟ أيصغفها بما في نفسه من مرّ ذكرياته؟ أيصارحها بأنّه لم يعد جامعاً كما تظنّ؟ وأرغمته حدة الذكريات على الخروج عن اعتداله هذه المرة فقال بامتعاض شديد:

- زواج وطلاق، زواج وطلاق، هذه أمور شائعة لم تكن لتليق بك، ولشّد ما مرّقت نياط قلبي بلا رحمة...

فشبكت ذراعيها على صدرها في استسلام اليأس وقالت بإشفاق حزين:

- إنّه سوء الحظّ ولا شيء غيره، إنّي سيّئة الحظّ، هذا كلّ ما هنالك.

فبادرها قائلاً، وقد تقلّصت أساوره وانتضج لذهن لفظ الكلمات كأنّما يلفظ مستحيّاً تعافه النفس:

- لا تحاولي أن تبركي ساحتك فيا يزبدني هذا إلّا

السمّا على ألم، من الحير أن نسدل على آلامنا ستاراً يخفيها ما دعنا لا نستطيع أن نمحوها من الوجود محوّاً.

ولاذت بالصمت على كره والقلب يشفق لإشفاقاً شديداً من هائج الذكريات على طيب اللقاء وما بعثه في نفسها من آسأل، وجعلت تلحظه بقلق كأنّما

تستخبره حيّا يطوي عليه صدره، فلمّا ثقل عليها صمته قالت متشكّية:

- لا تليج في تعديبي وأنت وحيدتي.

ووقع الكلام من نفسه موقعاً غريباً كأنّما يُكشف له لأوّل مرّة، بيد أنّه وجد فيه باعثاً جديداً للهِياج والتوتّر، إنّه ابنها حقّاً، إنّما أنّه الوحيدة كذلك، ولكن كم رجلاً...! وأشاح عنها بوجهه ليخفي ما ارتسم على صفحته من آي التقرّز والغضب ثمّ أغمض عينيه فراّداً من ذكريات مناظر بشعة، عند ذاك سمعها تقول برقة وتوسّل:

- دعني أعتقد بأنّ سعادتني الراحة حقيقة لا وهم، أجل حقيقة لا وهم، وبأنّك جيتي متعشّفاً عن قلبك أحزان الماضي كلّهُ إلى الأبد...

فنظر إليها نظرة طويلة مرّجّة وشت بخطورة أفكاره إلى حين، ولم يكن شيء في تلك اللحظة يستطيع أن

هذه الفضيحة بأيّ شئ.

ومن شدة اليأس والحزن خرج صوته متلفعاً بالبرودة وهي تقول:

- وماذا يبتك منها؟

فصاح في دهش:

- كيف لا تهتفي فضيحة أمي؟!

فقال في حزن مشوب بما تيسر من التهكم:

- أنت في الحق لا تعذبني أمّا لك.

- ماذا تمنين؟

فغمضت في يأس متجاهلة تساؤله:

- ما دمت قد خلعتني من نفسك فيجدر بك أن

تدعني وشأني.

فهتف غاضباً:

- حسبي ما كان، لن أسمع لك بتلوث سمعي

من جديد.

فقال وهي تزدد ريقها:

- لا شيء هنالك مما يلوث السمعة، والله شهيد.

فسأها مستكراً:

- أتصبرين على هذا الزواج؟!

فصمت ملياً، مطرقة بحزونة خارقة في اليأس، ثم

نكت عنها تهبة عميقة، ثم قالت بصوت لا يكاد يسمع:

- تعني الأمر، وكتب العقد، ولم يعد بوسي منعه!

فانتفض ياسين قائلاً وقد تصلب جسمه البدين

وعلت وجهه صفرة وركز بصره في رأسها المطرق وهو

يغلي غضباً، ثم صاح بها بصوت كالزئير:

- يا لك من امرأة... جرمة...!

فغمضت بصوت مغسوس يدلّ على الاستسلام

المطلق:

- ساعاك الله.

عند ذاك خطر له أن يلطمها بما يعرف - مما تظنّ أنه

يجهله - من ماضي سريها، يحدث «الفكهاني»

الأسود، قذيفة يصبها على رأسها بفتة فتثرب ورياً ويثر

بها أظفح النار، وتومج في عينيه برق خفيف تطاير من

تحت جبهة عابسة مكفورة تجمعت في أعاندها نُكْر

وهو خالٍ إلى نفسه - ما دار من حديث بينه وبين أمه

في هذه المكالبة فآثرت أقواله جميعاً حتى بلغ هذا الجواب

الأخير تردّد حيله لا يدرى أخطأ أم أصاب، وظلّ

على تروّحه طويلاً. أمّا المرأة فقد غمضت وهي تنظر

فيها أمامها:

- لشدة ما اتقن أن أكذب أذني.

وأدرك أنه تمجّل بعد فوات الفرصة، وسخط على

نفسه حائقاً، ثم صبّ سخطه على ما حوله. فاندفع

قاتلاً بلا وهي مدارياً غطاه بما هو أضمن في الخطأ:

- إنك تفعلين ما تشائين دون تقدير للعواقب،

وكنت أنا دائماً الضحية التي تتلقى الإساءة بلا ذنب

جنته، وقد ظننت الصبر رائك إلى شيء من العقل فما

أعجب إلا لقاتل يقول إنك شارعة في الزواج من

جديد!... يا لها من فضيحة تتجدّد كلّ بضعة أعوام

كان لا نهاية لها...!

من شدة اليأس راحت تصفي إليه فيها يشبه

اللامبالاة، ثم قالت بأشئ:

- أنت ضحية، وأنا ضحية، كلانا ضحية لما

يوسوس به إليك أبوك وتلك المرأة التي تعيش في

كنها!

وصحب لهذا الانحراف في مجرى الحديث الذي بدا

له مضحكاً، بيد أنه لم يضحك، ولعله ازداد غضباً

وهو يقول:

- ما دخل أبي وزوجه في هذا الشأن!... لا

تتمكسي من يمالك بإلقاء التهم في وجوه الأبرياء.

فهتفت بصوت يشبه الرنين:

- ما رأيت ابناً أقسى منك!... أهذا خطابك لي

بعد فراق أحد عشر عاماً!

فلوّح بيده في احتجاج غاضب وقال بحمّة وسخط:

- الأم الحافظة خليفة بأن تلد ابناً قاسياً.

- لست خاطئة... لست خاطئة... ولكنك

قاسٍ غليظ القلب كأيك.

فنفخ في ملل وصاح بها:

- رجعتي إلى أبي!... حسناً ما نحن فيه... انتهى

الله وتراجعي عن الفضيحة الجديدة... أريد أن أسمع

ولمّا فلم يطرقه بكلمة واحدة، أنسيه كأنما لم يكن هو  
الباعث الأول لهذه الزيارة... .

## ١٩

فتحت الستّ أمانة الباب وأدخلت رأسها وهي  
تقول برقتها الموهوبة:

- أي حاجة إلى خدمة يا سيدي الصغير؟

فجاءها صوت فهمي قائلاً:

- تعالي يا نينة، لحس دقائق فقط... .

فلنحت المرآة مسروقة بتلبية الدعوة فرائه واقفاً أمام  
مكتبه يلوح في وجهه الجذّ والاهتمام فأخذهما من يدها  
إلى كنبه غير بعيدة من الباب وأجلسها ثمّ جلس إلى  
جانباها وهو يتسائل:

- ناموا جيّماً؟

وأدركت المرأة أنّها لم تُدعَ لتقديم خدمة عابرة وإلاّ  
ما كان هذا الاهتمام وفعله الخلوة فانتقل الاهتمام  
بسرعة إلى نفسها المطوعة للإيجاء وقالت نجيبه:

- ذهبت غديجة وعاشقة إلى حجرتهما في معاد كلّ  
ليلة، أمّا كمال فقد تركته الآن في فراشه.

كان فهمي يترقّب هذه اللحظة منذ أوى إلى حجرة  
المذاكرة عند أوّل المساء فلم يستطع كعادته تركيز  
انتباهه في الكتاب الذي بين يديه، وجعل يتابع، بين  
آونة وأخرى، أحاديث أمّه وشقيقته في جزع لا يدري  
مقّى يتنهون، ثمّ إلى أمّه وكمال وهما يحفظان ممّا جملة  
من سورة حم. حتّى ساد الصمت ثمّ جاءت أمّه  
لتحيّيه تحيّة المساء فدعاها إليه وقد تناسى به لتوتّر  
الانتظار. ومع أنّ أمّه بدت كلامها الوديع، ومع أنّه  
لم يشعر حيالها فكّه بتحقّظ أو خوف، إلاّ أنّه وجد  
عسراً في التعبير ممّا يريد الإفصاح عنه، فعلاها ارتباك  
الحياء، ومضت فترة صمت ليست بالقصيرة قبل أن  
يقول مختلج الجنتين:

- دحوتك يا نينة في أمر يسمّي جدّاً.

واشتدّ الاهتمام بالمرأة حتّى تمثّله قلبها الرقيق خوفاً  
أو شبيهاً بالخوف وقالت:

- إني مصنيّة إليك يا بنيّ... .

الشّر والوعيد، وفقر فاه ليطلق قليفته، ولكنّ لسانه لم  
يتحرّك، التصق بسقف حلقه كأنما جذب إليه حُجّه الذي  
لم يُعيّمه العناية عن البلاء، ومَرّت اللحظة الرهيبة في  
سرعة الزلزال المخاطف الذي يشعر فيه الإنسان  
بأنفاس الموت تتردّد على وجهه لحظات ثمّ يعود كلّ  
شيء إلى مستقرّه، وزفر وهو كظيم، وتراجع غير آسف  
وجبينه يسبح عرقاً بارداً. وقد ذكر موقفه هذا - فيما  
بعد - فيما ذكر من مواقف هذه المقاتلة الغريبة فارتاح  
لترجيحه كلّ الارتياح وإن عجب له أشدّ العجب،  
وكان أعجب ما عجبه شعوره بأنّه إنّما تراجع رحمة  
بنفسه لا رحمة بها وكأنّه تسترّ على كرامته لا على  
كرامتها وإن لم يكن ثمة ما يجهله من الأمر!

وأفرغ غضبه في كفّيه فجعل يضرب واحدة على  
الأخرى ويقول:

- بجرمة... . فضيحة مجسّمة!... كم سأضحك  
من شبّاني كلّما أذكر أنّي أملت غيباً من هُله  
الزيارة!... (ثمّ بلمهجة تنكّحية)... إني أعجب  
كيف طمعت بعد هذا في موتيّ؟!

فجاءه صوتها وهو يقول في انكسار وحسرة:

- متني نفسي أن نعيش حبل موقّة رغم كلّ  
شيء... . وبعثت زيارتك المفاجئة في قلبي آمالاً حارّة  
غيّلت ليّ معها أنّي أستطيع أن أهبك أسمى ما في قلبي  
من حبّ... بلا كدر.

وابتعد عنها متفهّراً كأنما يفتر من لين كلامها الذي  
لم يعد شيء يورث غضبه مثلاً يؤرّقه. وشعر حائفاً  
يائساً بأنّه لم تعد ثمة فائدة من بقائه في هذا الجوّ  
الكرهية فقال وهو يستدير ليأخذ سمّته إلى الخارج:

- ودعت لو أستطيع قتلك... .

فنفضت بصرها وقالت في حزن بالغ:

- لو فعلت لأرحمني من حياتي... .

وبلغ به الضيق النهاية فالتقى عليها نظرة أحيوة  
مظلمة بالملتق ثمّ غادر المكان وأرض الحجرة ترتجّ  
تحت وقع قدميه. وعندما انتهى إلى الطريق، وأخذ  
يتوب إلى نفسه، ذكر لأوّل مرّة أنّه نسي حديث العقار



- فتنفس تنفساً عميقاً ليخفف عن أعصابه وقال: - ما رأيك فيما لو... أمني أليس من الممكن أن...  
وتوقف متردداً، ثم هير هجته قائلاً بركة وتردد وارتيك:  
- ليس لي من أفغي إليه بلخيلة نفسي إلا أنت...  
- طبعاً طبعاً يا بني.  
فقال متشجعاً عبا قبل:  
- ما رأيك إذا اقترحت عليك أن تخطبي لي مريم بنت جازنا السيد محمد رضوان...؟  
وتلفت أمانة كلماته بدهشة أولاً، فاجابته أولاً ما اجابت باهتمام تدل على الحيرة أكثر من الفرح ثم انفضح الخوف الذي قبض صدرها حيناً وهي تترقب إلفصاحه صمياً يريد، ثم اتسمت ابتسامتها واهشرت معلنة عن سرور صافي، وترددت لحظت لا تدري ماذا تقول، ثم اندفعت قائلة:  
- أهله وغبثك حقاً... سأقول لك رأيي صراحة... إن يومنا أمضي فيه لأخطب لك بنت الحلال نحو أسعد أيام حياتي...  
فتوزد وجه الشاب وقال بامتنان:  
- شكرًا لك يا أمه...  
ورثت إليه ببسة لطيفة وقالت برجاء:  
- يا له من يوم سعيد، لقد تعبت كثيراً وصبرت كثيراً، وليس بالكثير على الله أن يجزييني حل تعمي وصبري بمثل هذا اليوم المرتجى، بل بأنام مثله كثيرة ليقر عيني بك، ويأخذنيك خديعة وعاشة...  
وغابت حينها في رؤى الأحلام السعيدة التي بدا لها ما أيقظها فجأة فتراجع رأسها في قلق كفظة أقبل نحوها كلب، وتقمتم في إشفاق:  
- ولكن... أبوك؟  
واجسم فهمي غمضاً وقال:  
- من أجل هذا دهوتك للمشاورة...  
ففكرت المرأة قليلاً ثم قالت وكأنها تخاطب نفسها:  
- لا أدري ماذا يكون موقفه من هذا الرجاء؟ أبوك شخص غريب، غير الناس جميعاً، وقد يرى جريمة فيما
- يراه الغير شيئاً عادياً...  
فقطب فهمي قائلاً:  
- ليس في الأمر ما يدعو إلى التنبؤ أو الاعتراض...  
- هذا رأيي...  
- وفني عن البيان أن الزواج سيؤجل حتى أتم دراستي وأجد لنفسني عملاً...  
- طبعاً... طبعاً...  
- فهم يكون الاعتراض إذن؟  
فنظرت إليه نظرة كأنها تقول له: «ومن ذا يجاسب أبك إذا أراد أن ينبد المتلق جانباً؟» هي التي لم تعرف حياله إلا الطاعة العمياء أصاب أم أخطأ، عدل أم ظلم، بيد أنها قالت:  
- أرجو أن يبارك رجلك بالقبول...  
فقال الشاب بحماس:  
- لقد تزوج أبي وهو في سني هذه. ولست أقصد شيئاً من هذا، ولكني سأنتظر حتى يكون الزواج طبيعياً لا اعتراض عليه من أي ناحية...  
- ربنا يحقن رجاءنا...  
وسكنا إلى الصمت ملياً وهما يتبادلان النظرات، مجتمعين في فكرة واحدة وهما عن بداهة يدريان إذ كان كلامهما يفهم صاحبه خير فهم، ويقرأ ما يدور بخاطره في غير ما عسر. ثم قال فهمي مفصلاً عما يشغلها معاً:  
- بقي أن نفكر فيما يفائحه بالموضوع...  
وابتسمت المرأة ابتسامة أفقدها التكثير والفنق روحها، وأدركت أن ابنها الأريب يذكرها بالواجب الذي لا يستطيع أن يؤذيه أحد سواها بالأسرة، ولم تعترض على هذا لأنه لا سبيل غيره، إلا أنها قبلت على كره كما تقبل أموراً كثيرة وهي تسأل الله حسن العاقبة، وقالت بركة وعطف:  
- ومن غيري يفائحه... ربنا معنا...  
- إلى آسف... لو كان يوسعي أن أفائحه لفعلت.  
- ساحته، وسبواقي بإذن الله. مريم فتاة جميلة، مؤدبة، من أسرة كريمة...  
وسكتت لحظة ثم استدرت متسائلة كأنها عطر لها

الحاظر لأول مرة:

- ولكن أليست هي في مثل سنك أو تزيد؟

فقال الفتى جزعًا:

- لا يهني هذا بتاتًا!

فقالت مبتسمة:

- على بركة الله، ربنا معنا... «ثم وهي تنهض»

أدخلت الآن لعناية المولى، وإلى الغد...

ومالت نحوه وقبلته ثم غادرت الحجرة وأغلقت الباب وراءها. لكن كم أدهشها أن ترى كمال جالسًا على الكنية مكبًا على كراسي بين يديه فهبطت به:

- ما الذي عاد بك إلى هنا؟

فنهض الغلام مبسّمًا في ارتباك وقال:

- تدكرت أنني نسيت كراسي الإنجليزي فعدلت لأدخلها ثم بدا لي أن أستمع الكلمات مرة أخيرة.

وذهبت معه مرة أخرى إلى حجرة النوم ولم تتركه حتى نلّحد تحت الغطاء، ولكنه لم ينام. وكان النوم أهجر من أن يغلب اليقظة الماكرة التي تتبع في شعوره، فلم يلبث أن وثب من السرير ومضى إلى سمعه وقع أقدام أمه وهي ترقى السلم إلى الدور الأعلى، ثم فتح الباب وجرى إلى حجرة شقيقته ودفع بابها ودخل دون أن يفلح ليوسع للمصباح المعلق بالصالة منفذًا يضيء منه جانبًا من الظلمة الغاشية في الداخل، ويهرع إلى الفراش وهو يحس وأبلة خديجة! فجلست الفتاة في الفراش دهشة فوَّج إلى جانبها وهو يلهث من الانفعال، وكأنه لم يقنع بمستمعة واحدة ليستودعها السر الذي أطار النوم من عينيه نمدّ يده إلى جسم عائشة وهزّه، ولكن الفتاة كانت قد تنبّهت إلى القادم وأزاحت عنها الغطاء ثم ردت رأسها بين الاستطلاع والاحتجاج متسائلة:

- ماذا جاء بك الآن؟

لم يابه لهجة الاحتجاج لأنه كان على يقين من أنّ كلمة واحدة يشير بها إلى سرّه خليقة بأن تقلبها رأسًا على عقب، ويقف لهذا قلبه بهجة وسرورًا، ثم قال هامسًا كأنه يحاذر أن يسمعه رابع:

- عندي سرّ غريب...

فسأله خديجة:

- أيّ سرّ هذا؟... هات ما عندك وأرنا

شطارتك...

ولم يعد باستطاعته الكتمان فقال:

- أخي فهمي يريد أن يخطف مريم...

عند ذلك جلست عائشة في الفراش بلورها في حركة آلية سريعة كأنها التصريح رشّة ماء بارد ألقيت في وجه وسنان، وتقاربت الأشباح الثلاثة في شكل هرمي كما بدا على الضوء الخافت النافذ إلى الحجرة والمتمكس على أرضها فيها يلي الباب المفتوح على هيئة متوازي الاضلاع ملهذب الأطراف تبعًا للذهبة ذبالة المصباح الذي تعرّض - بترك الباب مفتوحًا - إلى تيار وإن نسّم من خصائص النافذة إلى الصالة في لطف هسات تليح سرًا، ثم تساءلت خديجة في اهتمام:

- كيف عرفت هذا؟

- تركت فراشي لأحضر كراسي الإنجليزي، وعند باب أخي جادني صوته وهو يتكلم فلبت في الكنية...

ثم أعاد على مسمعيها ما تسرّب إليه من وراء الباب الموارب وهما تنصتان إليه في اهتمام تلك عليها الأنفاس حتى فرغ من حديثه، وهنا تساءلت عائشة كأن بها حاجة إلى المزيد من الاقتناع:

- اتصديقين هذا؟

فقال خديجة بصوت كأنه ينبعث من تليفون بمدينة بعيدة:

- اتصديقين أن يخترع هذا «مشيرة إلى كمال» حكاية طويلة عريضة كهذه؟

- لك حقّ «ثم ضاحكة لتخفّف من حدّة اهتمامها» اختلاق موت غلام في الطريق شيء، أمّا هذه الحكاية فشيء آخر.

فتساءلت خديجة دون أن تلقي بالًا إلى احتجاج كمال الذي اعترض على التعريض به:

- كيف وقع هذا يا ترى؟

فضحكت عائشة قائلة:

- ألم أقل لك مرة إنّ أسك في أنّ اللبلاب هو الذي

جملة من العيوب والنقائص، يئد أنها لم تنهالك نفسها -  
حوال وصفها بطول اللسان تلك الصفة التي لخديجة  
منها أكبر نصيب - من أن تبسم مستترة بالظلمة،  
وتحاشيت إثارتها فقالت بتسليم:

- لنعد الأمر ...

فقالت خديجة بقة وزيان:

- الأمر لله في السماء ولاه في الأرض وسوف نرى  
ماذا يكون رأيه غداً ... «ثم صوّته الخطاب إلى  
كياله» ... أن لك أن تعود إلى سربك بسلام.  
عاد كمال إلى حجرته وهو يقول لنفسه «لم يبقَ إلّا  
ياسين، وسأخبره غداً» ...

## ٢٠

جلست خديجة وعائشة القرصاء متراجعتين لصق  
الضلفة المخلقة من باب حجرة الوالدين بالدور الأهل  
وهما تكتبان أنفاسهما في حذر ومقدان أذانهما إلى الداخل  
في اهتمام وتلقف. كان الوقت قبيل العصر بقليل،  
وكان السيد قد نهض من قبلوته فوضاً وجلس كمادته  
يحتمي القهوة منتظراً الأذان ليصلي قبل عودته إلى  
الدكان، فتوقعت الاختنان أن تفتح الأم أيها في الأمر  
الذي أنيها عنه كمال، إذ لم يكن أنسب لذلك  
الغرض من هذا الوقت. وتناهى إليها من الداخل  
صوت أبيهما الجمهوري وهو يتحدث عن أمور البيت  
العادية فانصتتا في جزع وترقب وهما يتبادلان النظر  
متسائلتين حتى سمعتا أخيراً الأم وهي تقول في أدب  
بالغ ولهجة خاشعة:

- سيدي، إذا أدنت لي حلتك عن شأن رجائي  
فهني أن أبلغك إياه.

عند ذاك أومأت عائشة بلقنها إلى الداخل كأنها  
تقول «هذا هو الحديث» على حين راحت خديجة  
تتخيل حال أمها وهي تنهت للكلام الخطير فرفق قلبها  
لها وعظمت حل شفعتها في إشفاق شديد، ثم جامه  
صوت السيد وهو يتساءل:

- ماذا يريد؟

وساد الصمت قلباً، أو طويلاً بالقياس إلى اللتي:

يدعو فهمي إلى السطح كل يوم؟!

- إنه اللباب الآخر الذي التفت حول ساقه هو.

فترنمت عائشة بصوت خفيض:

- لا ملام عليك يا عيوني في حبه.

فنهزها خديجة قائلة:

- هس ... ليس هذا وقت الغناء ... مريم في

العشرين وفهمي في الثامنة عشرة ... كيف توافق نينة  
على هذا؟!

- نينة؟! ... نينة حمامة ودیمة لا تدري كيف تقول

لا، ولكن صبراً، أليس من الحق أن أقول إن مريم

جميلة وطیبة؟! ... ثم إن بيتنا هو البيت الوحيد في

الحلي الذي لم يعرف الأفراح بعد ...

كانت خديجة - كمائشة - تحب مريم، ولكن الحب

لم يستطع أبداً أن يخفي عن حينها مواضع الانتقاد في

المحبوب أيما كان شأنه، فلم يكن يعجزها - عند

الضرورة - الوقوف عند مواضع الانتقاد فحسب، ولما

كانت سيرة الزواج تثير غاؤها الكامنة، وغيرتها، فقد

انقلبت على صديقتها دون مشقة، وأبى قلبها أن يقبلها

زوجة لأخيها، ومضت تقول:

- مجنونة أنت؟! ... مريم جميلة ولكنّها دون فهمي

بمرآح بعيلة ... فهمي يا حمامة طالب بالعلي،

وسيكون قاضياً يوماً ما، فهل تصوّرين مريم زوجاً

لغاض كبير المقام؟! ... إننا مثلنا على أكثر تقدير،

بل هي دوننا في أكثر من ناحية ولن تتزوج إحدانا

بغاض ...!

وتساءلت عائشة في نفسها: «من قال القاضي

أحسن من الضابط؟!» ثم سألتها عتجة:

- لم لا؟!

فواصلت الأخرى حديثها دون اهتمام باعتراضها:

- يستطيع فهمي أن يتزوج بفتاة أجمل من مريم

مائة مرة، وفي نفس الوقت تكون متعلّمة وغنيّة وبت

بسك أو حتى بنت باشا - فلماذا تسرع بخسبة

مريم؟! ... ما هي إلا أتمّة طويلة اللسان، أنت لا

تعرفها كما أعرفها ...

وأدرت عائشة إن مريم انقلبت في نظر خديجة إلى

خدنية ارتياح، ثم سمعا صوت الأم المستخفي وهي تقول:

- لا تحبم نفسك مشقة الغضب يا سيدي، كل شيء يور إلا غضبك، ما قصدت من ناحيتي إساءة فلك، ولا تحبها ابني وهو يحتملي رغبته ببراءة، ولكنه رجائي بحسن نية فأريت أن أعرض الأمر عليك، وما دام هذا هو رأيك فسابلغه إياه، وسيدعن له بكل خضوع كما يلذن لأمرك دائمًا...

- سيدن أراد أم لم يرد، ولكني أريد أن أقول لك إنك أم ضعيفة لا يرجى منها خير...  
- إنني أتمنئهم بما توهي به...

- خبرني عما دهاه إلى التفكير في هذا الرجاء؟ وأرهقت الفتاتان السمع في اهتمام وانزعاج وقد فاجعا هذا السؤال الذي لم تتوقعا، ولكنهما لم تسمعا لأمتها جوابًا وتصورتها وهي ترمش في ارتباك وخوف فمطفت قلبهما في إشفاق شديد:

- ماذا أخرسك؟... خبرني هل يراها؟  
- كلا يا سيدي، إن ابني لا يرفع عينيه إلى جارة ولا إلى غيرها...

- كيف رغب في خطبتها دون أن يراها؟... ما كنت أحسب أن لي أبناء يسترقون النظر إلى حرمان الجيران!

- معاذ الله يا سيدي معاذ الله... إن ابني إذا سار في الطريق لا يلتفت بمئة ولا بسرة، وهو في البيت لا يكاد يغادر حجرته إلا لضرورة...

- ما الذي دهاه إلى يلاها إذن؟  
- لعله يا سيدي سمع شقيقته وهما تتحدثان عنها...

وسرت في بدن الفتاتين رعدة شديدة ففغرنا ثغريهما في فزع وهما تتصنان...

- متى كانت شقيقته خاطبتين!... يا سبحان الله أينبغي أن أحمر دكاني وعلمي وأتبع في البيت لأضبطه وأدفع عنه الفساد!

فهتفت الأم في نبرات باكية:  
- بيتك أشرف البيوت، بالله يا سيدي إلا ما هونت

تسترقان السمع، ثم قالت المرأة برقة:

- فهمي يا سيدي شاب طيب، حاز رضاك بجته وتقوة وأدبه، حماد الله من شر الأعين، ولعله بلغني رجاءه إدلالًا بمنزلته عند والده...

فقال الأب بلهجة تحببها معها راضيًا:  
- ماذا يريد؟... تكلمي.

ومال رأسها نحو الباب وكل منها يحملق في الأخرى ولا تكاد تراها فجاءها الصوت المتهاافت وهو يقول:

- سيدي يعرف جاورنا الطيب السيد محمد رضوان...

- طبعًا...  
- رجل فاضل مثل سيدي وأمرة كريمة وجيران ولا كل الجيران...

- نعم...  
واستطردت بعد تردد:

- فهمي يسأل يا سيدي هل يميز له والده أن...  
يخطب منهم كريمة جاورنا الطيب لتبقى حل فته حتى يصير أهلًا للزواج؟

وهنا علا صوت السيد وقد خلطت نبراته بالغضب والاستنكار:

- يخطب!؟... ماذا تقولين يا ولية؟... هذا الغلام!... ما شاء الله... أعيدي على سمي ما قلت...

فقال الأم بصوت متهدج وقد تحببها خديجة وهي تنكمش في ذعر:

- ليس إلا أنه يتساءل، مجرد تساؤل يا سيدي والأمر لك...

فقال الصوت المتفجر بالغضب:

- لا عهد لي ولا له بهذا التذلل المائع، ولا أدري ما الذي أنلف تلميذًا حتى يتحدى في مطالبه إلى هذا الحد؟... ولكن أأنا مثلك خليفة بأن تفسد أبناءها، فلو كنت أأنا كما ينبغي لما جسر على مفاتحتك بمثل هذا المذلل الوقع...

ركب الفتاتين خوف ووجوم خالطهما في قلب

التي ببعض الأصدقاء ففَضَّ عليهم «نادرة اليوم» لا كفاجعة لأنه يكره أن يلقى أحدًا بالفاجعات، ولكن كدعاية سخيفة، فملأوا عليها بما حلا لهم من المزاح، فلم يلبث أن شاركهم مزاحهم، فغادرو وهو يقهقه في غير تحفظ... بدت له «النادرة» في الدكان على غير ما بدت في حجرته بالبيت. وأمكنه أن يضحك منها، بل وأن يعطف عليها، حتى قال لنفسه أخيراً بأساً راضياً «من شاة أباه فما عَلم»...

## ٢١

حين مرق كمال من باب البيت كان المساء يزحف في خطوات حاسسة غاشياً الطرقات والأزقة والمآذن والقباب، ولعلمه لم يعمل بسروره يئله الحرجة المفاجئة التي قل أن تُتاح له في مثل ذلك الوقت المتأخر إلا زهوه بالرسالة الشفوية التي حمله إليها فهمي، فلم يغب عنه أنه عهد بها إليه وحده دون غيره، في جرٍّ من السرية والتكتم الأمر الذي أضفى عليها - وعليه بالتالي - أهمية خاصة أحسها قلبه الصغير ورقص لها طرباً وفخاراً. وتساءل في صجب حين زلزل فهمي حتى ركبته حال من القلق والحزن بدا في لباسها القاتم شخصاً غريباً لم يره ولم يسمعه من قبل، هو مثال وحده، إذ أباه يشور كالبركان لأتفه الأسباب، وإن ياسين حل حلالة حديثه قابل للالتهاب، حتى خديجة وصائشة لا تحلوان من نوبات عفرته، هو مثال وحده، ضحكته ابتسام وغضبه تقطيب، وعدوه عتيق حل صدق صواطفه وأصالة حماسه، فلم يذكر أنه رآه على الحال التي رآه عليها اليوم. لن ينسى كيف خلا إليه في حجرة المذاكرة، بعمر زائع وصوت متهدج، ولا كيف خاطبه لأزل مرة في حياته بلهجة توسل حارة صجب لها أشد العجب حتى استوجب حفظ الرسالة التي حملها أن تكرّر عليه مرّات ومرّات. وقد أدرك من فعوى الرسالة نفسها أن للأمر صلة وثيقة بالحديث الغريب الذي استرق السمع إليه من وراء الباب، والذي نقله إلى شقيقته فاثار بينهما جدلاً ونزاعاً، وبالجملة أنه يتعلّق بمرم، تلك الفتاة التي كثيراً ما تعابته ويعابها، ويأنس إليها

عليك الغضب، انتهى الأمر وكأن ما كان لم يكن... فصاح الرجل بصوت ملؤه الوعيد:

- قولي له أن يتأقّب ويستحي ويلزم جلوده، وأن من الخير أن يتفرّغ لدروسه...

وسمعت الفتاتان حركة في الداخل فقامتا في حذر وابتعدتا عن الباب على أطراف أصابعهما...

رأت السّت أمانة أن تغادر الحجرة كشأنها إذا نذّ عنها عفوًا ما يثير غضبه فلا تعود إليها بعد ذلك إلا إذا دعاهما، إذ علّمتها التجربة أن مكنتها بين يديه حال الغضب ثم سعيها إلى تسكينه يرقق الكلام لا يزيد النار إلا استعثاراً. ووجد السيد نفسه وحيداً فزايسته آثار الغضب المحسوسة التي تتوزع عادة في عهته وبشرة وجهه وحركات يديه وكلامه، ولكن بقي الغضب في أحياق صدره كالعكارة في فعر القدر.

من المحقّق أنه كان يغضب في البيت لأتفه الأسباب لا أثباتاً خلطته الموضوعية في سياسة بيته فحسب، ولكن مدفوناً كذلك بحدة طبعه التي لا تشكها بين آله فرملة الكياسة التي يظن استعمالها خارج البيت، وربما ترويحاً عما يعاني بين الناس كثيراً من ضبط النفس والتسامح واللطف ومراعاة الحاطر واكتساب القلوب بأيّ ثمن، وليس بالنادر أن يتفصح له أنه استسلم للغضب في غير موجب ولكنّه حتى في تلك الحال لا يندم على ما فرط منه لاعتقاده بأن غضبه للثأله من الأمر عسبة بأن تمنع وقوع الخطير منه ممّا يستحقّ الغضب عن جدارة، يئد أنه لم يعد ما بلغه عن فهمي فُلك اليوم هفوة نافهة بل رأى فيها نزوة قبيحة لا يجوز أن تعتلج في نفس تلميذ من آل بيته، وما كان يتصوّر أن تتسرّب «المواطف» إلى بنين البيت الذي يحرص على أن يشبّ في جرٍّ من النقاء الصارم والطهارة المنتقشة، ثم جادت صلاة العصر فرصة طيبة لرياضة النفس خرج منها أهدأ قلباً وأزوّج يالاً، فوسمه أن يترجّع حل سجادة الصلاة ويوسط راحته ويسأل الله أن يبارك له في ذريته وماله، وأن يدهو خاصة لفخر أبنائه بالهدى والرشاد والتوفيق. فلما أن غادر البيت كان نجمه مظهرة يراة بها التخويف لا أكثر. وفي الدكان

حيثاً ويضجر منها حيثاً آخر، دون أن يعرف لها هذه الحظوظة التي أحاطت بهدوء أخيه وسلامته، مريم؟... لماذا استطاعت دون سائر البشر أن تفعل هذا كله بأخيه العزيز الرابع؟! ووجد في البحر غموضاً، كذلك الغموض الذي يختف حياة الأرواح والأشباح، والذي طالما استار حجب استطلاع وخوفه، فتوَلَّب قلبه للنفاذ إلى مكتون سره في تطلُّع وحيرة، ولكنَّ حيرته لم تصرفه عن تسميع الرسالة لنفسه كما سمعها لأخيه من قبل حتَّى يضمن ألا يضيع منه حرف واحد من مضمونها، فمرَّ تحت بيت آل رضوان وهو يستمعدها، ثم مال إلى أوَّل عطفة تليه حيث يوجد باب البيت. لم يكن البيت بالغريب عنه، فطالما تسلَّل إلى فناءه الصغير حيث تزوي في ركن منه حرية يد مندثرة العجالات كان يركبها مستعجلاً بخياله على إصلاح عجلاتها وتحريكها حيث شاء، وطالما تردَّد بين حجراته بغير استئذان لفقول بالترحيب والمداخلة من ربة البيت وابنتها اللتين يعدَّهما «هل حداثة سنَّه» صديقتين قديمتين، فكان يألف البيت بحجراته الثلاث التي تتوسطها صالة صغيرة وضعت بها مكتبة خياطة وراء النافذة التي تطلُّ على حُمام السلطان مباشرة كما يألف بيته بحجراته الواسعة ويصالته الكبيرة حيث يجتمع مجلس القهوة مساء بعد مساء. وإلى هذا خلقت بعض متعلقات البيت أثراً في نفسه استجابت له عهداً طويلاً من صباه، كعشٍّ يلمح في أهل المشربة المتصلة بحجرة مريم الذي تبدو حافته فوق ركن المشربة المتصق بالجدار كقطع من محيط دائرة يشبك حوله القش والريش ويلوح منه أحياناً ذيل البياض الأمل أو متقارفاً كفيها أثق وزمهما فيبتلع إليه تتنازعه رغبته، إحداهما - وهي المنبعة من نفسه - تدعوه إلى اللعب به واختطاف الصغار والأخرى - وهي المكتسبة عن أمه - توقفه عند حدِّ التطلُّع والعطف والمشاركة الخيالية في حياة البياض وأسرتها، وكصورة للسفيرة عزيزة معلقة بحجرة مريم أيضاً زاهية الألوان وقرافة البشرة وميمة القسبات فالتت بجهاها الحسناء التي تتالعله صورتها عصر كلِّ يوم بدكان ماتوسيان فكان يديم النظر إليها

متسائلاً عن «حكايتها» فتصنَّ عليه مريم من أنباتها ما تعلم وما لا تعلم بزلقة لسان تستهويه وتستأثرو. لم يكن البيت بالغريب عليه إذن، فشقَّ سبيله إلى الصالة دون أن يشعر به أحد، وألقى على أوَّل الحجرات نظرة عابرة فلمع السيد محمد رضوان راقداً في فراشه كما اعتاد أن يراه منذ سنوات. كان يعلم أنَّ الشيخ مريض، وقد سمع عنه كثيراً أنَّه مشلول، حتَّى سأل أمه مرة عن معق الشلل... فجذعت وراحت تستعيد بالله من شرِّ الاسم الذي نطق به فانكمش متراجئاً، ومنذ ذلك اليوم والسيد يستثير رئاه واستطلاعاه للقرون بالحوف. ثم مرَّ بالحجرة التالية فرأى أم مريم واقفة أمام المرأة ويدها ما يشبه المعجون تمطه فوق خدَّها وعنتها وتحلده جلبلات سريعة متتابعة ثم تتحسَّ موضعه من بشرتها بأناملها لتعرف منه وتطمئن إلى نعمته. ومع أنَّها كانت فوق الأربعين إلا أنَّها كانت بارعة الحسن كابنتها، شغوفة بالضحك والدعابة، لها تلقاه حتَّى تقبل عليه في مرح فتقبله ثم تسأله فيها يشبه نفاذ الصبر «متى تبلغ رشداك لأتزوجك؟» فعملوه الحياء والارتباك وإن استلَّ مداعباتها وودَّ الإكثار منها. وكما أثارت فضوله هذه العمليَّة التي تمكف عليها من حين لآخر أمام المرأة، وقد سال أمه عنها مرة فنهرت - والنهر أقصى ما تخارس من ضروب التأديب - مؤذبة لئامه على سؤاله عيلاً لا يعنيه، بيد أنَّ أم مريم أكبر سباحة ورقَّة فلما لحظه مرة يرمقها بدعشة أوقفته على مقعد أمامها ولزقت بأناملها ما حسيه أوَّل الأمر عجيبة ووسط له صفحة وجهها وقالت ضاحكة واشتغل وأرلي شطارتك» فمضى يفلد حركاتها حتَّى أثبت لها شطارته بخفَّة غبكته عليها، ولكنه لم يفتح بللَّة التجربة فسأها «لماذا تفعلين هذا؟» فقهقهت «هلاً انتظرت عشرة أعوام أخرى حتَّى تعرف بنفسك؟! ولكن لا داعي لانتظار أليست البشرية الناعمة أحسن من الحشنة؟... هذه هي؟...» وقد مرَّ ببابها بخفَّة حتَّى لا يشعرها بنفسه لأنَّ رسالته كانت أخطر من أن تسمح له بمقابلة أحد إلا مريم وحدها التي وجدها في الحجرة الأخيرة متربِّعة على فراشها تفترق لباً وبين يديها

طبق فنجان قد امتلا بالقشر فلما رآته قالت بدهشة:  
- كمال! ... وكادت تسأله عما جاء به في هذه  
الساعة ولكنها عدلت عما هتت به أن تخيفه أو  
تخجله... شرفت البيت... تعال اجلس إلى

جانبي...  
- كيف استطعت أن تفلت من بين أيديهم في هذه  
الساعة!؟... لعل تيزة تبحث عنك الآن في كل  
حجرات البيت.

آه لقد استنام إلى الحديث واللعب حتى أوشك أن  
ينسى الرسالة التي جاء من أجلها، ولكن تساؤلا ذكرا  
بهمته فرنا إليها بعين أخرى، العين التي تود أن تنظّر  
في ذاتها عن السر الذي زلزل أعماه الرزين الطيب. ألا  
أن تشوّفه تهاقت حيال شعوره بأنه يحمل أبناء غي  
سائرة، فقال بوجوم:

- فهمي الذي أرسلني.

ارتسمت في صينها نظرة جديدة تفيض جدّا  
وتفرّست في وجهه باهتمام لترى ما وراء فحشها  
الجو قد تفرّس كأنها انتقل من فصل إلى فصل، و  
سمعا تسال بصوت خافت:

- كه!؟

فقال لها بصراحة دلت على أنه لم يقدر خطأ  
الأنباء التي يحملها رغم شعوره الفطري بخطورتها:  
- قال لي بلّثها بحياتي وقل لها إله استأذن والده  
خطبتها ولكنه لم يوافق على أن يعلن خطبته و  
تلميذ، وطلب إليه أن ينتظر حتى يتم حراسته.

كانت تحدّق إلى وجهه باهتمام شديد فلما به  
السكوت خفضت عينها دون أن تبس بكلمة  
ففتشت الجلسة صمت واجبة ضاق بها قلبه الصب  
وتلهّف حل كشفها مها كلّفه الأمر فقال:

- إله يؤكّد لك أن الرفض جاء على رغبة و  
يتعجّل السنين حتى يحقق ما يتمنى.

ولمّا لم يجد لكلامه أثرًا في إخراجها من غش  
الصمت ازداد تلهّفه على إعادتها إلى ما كانت عليه  
بهجة ومرح فقال بإفراء:

- هل أحذّك عا دار بين فهمي وبين نية  
حديث عنك؟

لمدّ لها يده بالسّلام. ثم فكّ أزرار حذائه فني  
الرقة الطويلة وخلعه، ووثب إلى الفراش في جلباب  
مقلّم وطاقية زرقاء منمنمة بخطوط حمراء. وضحكت  
مريم ضحكتها الرقيقة ودست في يده شوية لبّ وهي  
تقول:

- فزفز يا صفور وحرك أسنانك اللؤلؤة...  
أذكر يوم حضضت معصمي وأنا أدغدغك...  
هكذا...  
ومدّت يدها صوب إبطه ولكنه - بحركة عكسية -

شبك ذراعيه على صدره ليحمي إبطيه، وتدّت عنه  
ضحكة عصبية كما لو كانت أناملها تدغدغه بالفعل،  
ثم هذب بها:

- في عرشك يا أبله مريم...

فأمسكت عنه وهي تتعجّب من عوفه قائلة:

- لماذا يقشعر بدنك من الدغدغة!؟ انظر كيف لا  
أبالى بها.

وراحت تدغدغ نفسها باستهانة وهي ترميه بنظرة  
أفراء فلم يملك أن قال لها متحذّفاً:

- ذهني أدغدغك أنا وسنرى!

فما كان منها إلّا أن رفعت ذراعيها فوق رأسها  
ففرس أصابعه تحت إبطها وراح يدغدغها بما وسعه  
من عفة وسرعة، مشبّها عينه في عينيها السرداوين  
الجميلتين ليتلفّ أوّل بادرة تنفّض عنهما، حتى  
اضطرّ أن يسترّ يديه متنبّها في ياس وشجل فتبعته  
بضحكة رقيقة ساخرة وقالت:

- أرايت أيّما الرجل الصغير العاجز!... لا تزعم  
أنك رجل بعد اليوم وشمّ بلهجة من تلذّر أمرا هائلا  
بغفة... يا داهي!... نسيت أن تغلّبي... ألم  
أنبه عليك مرارا بأن تكون تحية لقاتنا قيلة!؟  
وأدنت وجهها منه فمدّ شفتيه ولثم خدّها، ثم رأى

تساءلت بلهجة بين الاكترات وصلحه:

- ماذا قال وماذا قالت؟

فانشرح صدره بهذا النجاح الجزئي وقصّ عليها ما ترامى إليه من حديث من وراء الباب حتى أتى عليه، فخيّل إليه أنها تنبّه، ثم قالت بترنم:

- إنّ والدك رجل شديد خفي، الكلّ يصرفه هكذا.

فقال وهو لا يدري:

- نعم... أبي كذلك.

ورفع رأسه إليها في خوف وحذر ولكنّه وجدها كالثغابة، فسالها متذكّراً ما وضّاه به أخوه:

- ماذا أقول له؟

فضحكت من أنفها وهي بهزّ كتفيها، وهمت بالكلام، ولكنها أمسكت متفجرة ملياً، ثم قالت وقد التمتعت في عينها نظرة مأكرة:

- قل له إنّها لا تدري ماذا تفعل لو تقدّم لها خاطب

في أثناء هذه المدة الطويلة من الانتظارا

وحسّ كمال بحفظ الرسالة الجديدة أكثر ممّا حسّ بفهمها، وسرعان ما شعر بأنّ مهمّته قد انتهت فأودع بقية اللبّ جيب جلبابه، ومدّ لها يده بالسلام، ثمّ انزلت إلى أرض الحجرة خارجاً.

## ٢٢

بدت عائشة وهي تنتظر في المروّة شديدة الإعجاب بنفها، دون الأسرة اللامعة، بل أنّى فضاة في الحيّ كله تتعلّ بمثل هذه المحصلات الدنيوية وهاتين العينين الزرقاوين؟ إنّ ياسين يتخلّل بها جهائاً، وفهمي لا يخلو إذا تحدّث إليها لأمر أو لآخر من نظرات تنمّ عن الإعجاب، حتّى كمال الصغير لا يخلو له الشراب من قلّة إلا من الموضع المبتلّ بريقها، وهذه أمّها تدلّها فتدعوها وقمر وإن لم تحبّ قلبها نحو نحاتتها ورقتها الأمر الذي جعلها تحت أمّ حضي على تركيب وصفة لتسميها. أمّا عائشة فلملّها كانت أحرف الجميع بحسنتها البارحة كما تدلّ عليه عاينتها الشديدة به واستئناسها إليه، هل أنّ هذه العناية المفرطة لم تمرّ

بخديجة دون تعليق، بل مؤاخلة وتقريع، لا لأنّها تستقيم إلى الإهمال فالحق أنّ خديجة هي الوريثة الأولى لأنّها في الواقع بالنظافة والأناقة، ولكن لأنّها رأت الفتاة تستقبل النهار عادة بنمشيط شعرها وإصلاح هندامها حتّى قبل القيام بواجبات المنزل كأنّها لا تطيق أن يبقى جمالها ساعة من العمر غير محاط بالعناية والرعاية، ولكن لم تكن العناية بالجمال وحدها هي الباعث على هذا التجمّل الباكر، فعند ذهاب الرجال كلّ إلى عمله - تأوي إلى حجرة الاستقبال وتفرّج بين ضلّفي الشبّاك المطلّ على بين القصرين زيقاً رقيقاً فتقف ورواه سادة بصرها إلى الطريق يعلوها قلق الانتظار واضطراب الخوف. هكذا وقفت ذاك الصباح فظنّ طرفها حائرّاً ما بين حُلم السلطان وسبيل بين القصرين وفؤادها الفتى يواصل خفقاته حتّى تراهي عن بُعد «الكتكرو» وهو يتعطف قادماً من الحرفنفس خاطراً في بسلته العسكرية والنجمتان تلمعان على كتفه، وجعل كلياً اقترّب من البيت يرفع في حذر عينيه دون رأسه، حتّى تدلّ من البيت فهفت في أساريه ابتسامة خفيفة آية في الحفّة - تدرك بالقلب أكثر ممّا تدرك بالحواس - كأنّها الهلال في ليلته الأولى، ثمّ اغتضى تحت المشرّبة فاستدارت في عجلة لتتابع مشاهدته من النافذة الأخرى المطلّة على النحاسين فما راعها إلا أن ترى خديجة منتصبة على الكنبه بين النافذتين ملقبة بنظرها على الطريق من فوق رأسها...

فرّت منها آهة، وأسمعت حينها في رعب فاضح، فتسّمّرت في موقفها... متى وكيف جاءت! كيف علت الكنبه دون أن تشمر بها؟... وماذا رأت؟... متى وكيف وماذا؟ أمّا خديجة فقد ثبتت بصرها وهي تضيقّ عينها رويداً صامتة، مطيلة الصمت كأنّها لتطيل تعليمها، ثمّ تماكنت عائشة بعض نفسها فحفظت عينها في جهد شديد ومالت نحو القرائش متظاهرة - عبثاً - بضبط الأعصاب وهي تضمّم:

- أوعيتي يا شيخه!

لم تُبد خديجة أكثرأناً، ظلّت بموقفها على الكنبه



اضطراب زلزل أركان نفسها فكدت تشرق بالبكاء،  
إلا أنّ اليأس نفسه دفعها إلى الاستقامة في الدود عن  
نفسها فهضت بصوت طمس اضطراب نبراته معانيه:

- ما هذا الكلام غير المفهوم؟

ولكن لم يبد على خديجة أنّها سمعت كلامها  
فواصلت غاطبة نفسها قائلة:

- ولهذا أيضاً تتزيّن في الصباح الباكر! طالما سادت  
نفسي أيقظ أن تتبرّج بنت قبل الكس والمسخ  
والتنفيض! ولكن أيّ كس وأيّ تنفيض يا خديجة يا  
مسكينة، يا من ستعيشين بلهاء، وتؤوين بلهاء، اكتسي  
أنت ونفسي أنت، ولا تتزيّني لا قبل العمل ولا حتى  
بعده، ولذلك تتزيّنين يا تمسة! انظري من زيق  
الشبك من اليوم إلى الغد فإن اعنّى بك عسكري  
دورية أقطع فراخي!

فهضت عائشة في اضطراب وعصبية:

- حرام عليك... حرام.

- ها حتى يا خديجة، هذه فنون لا تستطيعين فهمها  
بمملك المظلم، حيون زرق، وشعر من سبائك  
الذهب، شريط أحر ونجمة لامة، شيء مفهوم،  
شيء مفهوم ومعقول.

- خديجة، أنت غخطة، كنت أنظر إلى الطريق  
فحسب، لا لأرى أحداً ولا لبرائي أحد.

فالتفت خديجة إليها كأنها تنبه إلى اعتراضها لأوّل  
مرة وتساءلت كالمعتلة:

- هل تخاطبيني يا شوشو؟! لا مؤاخلة إني أفكر في

بعض الأمور الهامة فأجّلي حديثك إلى حين...

وعادت غرّ رأسها في تفكير وتخطب نفسها قائلة:

- شيء مفهوم ومعقول، ولكن ما ذنبك أنت يا سيّد  
أحمد عبد الجواد؟ أسفني عليك يا سيّد يا شريف يا  
كريم، تعال شوف حرمك يا سيدي وثاج راسي!

وقف شعر الفتاة عند سماع اسم أبيها، فدار  
رأسها، ورد عل ذهنها قول السيّد لأمها وهو يحمل  
على رغبة فهمي في خطبة مريم: وأخبرني هل  
راها؟!... «ما كنت أحسب أنّ لي أبناء يسترقون  
النظر إلى حرمان الجيران»، لهذا رأيته في الابن فكيف

وهيئها إلى الطريق خلّل الزيق... ثم غتمت  
ساعة:

- أرعبتك؟... اسم الله عليك!... أصلي  
بمع!...

وهضت عائشة حل نواجذها في غيظ وحتق ويأس  
بعد أن تراجعت قليلاً إلى مأمن من عينيها، إلا أنّها  
قالت بصوت هادئ:

- رأيتك فجأة فوق رأسي دون أن أشعر بدخولك،  
لماذا تسترقين الخطو؟

فولبت خديجة إلى الأرض، ثم جلست على الكتبة  
في استرخاء ساخر وهي تقول:

- أسفة يا أخي، في المرة القادمة سأعلق جرساً في  
عنقي مثل حربة المطافئ لتنبهي إلى حضوري فلا  
ترتعي.

فالتت عائشة في غيظ والزعج لم يفارقتها:

- لا لزوم لتعلق الجرس، حسّبك أن تسيري  
كالناس الذين خلقهم ربنا...

فالتت الأخرى بنفس اللهجة الساخرة وهي ترميها  
بنظرة ذات معنى:

- ربنا يعلم أنّي أسير كالناس الذين خلقهم، ولكن  
الظاهر أنّك إذا وقفت وراء النافذة - أقصد وراء هذا  
الزيق - استغرقت فيما أمامك بحيث تفقدين الوعي بما  
حولك فلا تبين كالناس الذين خلقهم ربنا.

ففضت عائشة مغمضة:

- فكذا أنت دائماً.

وعادت خديجة إلى الصمت قليلاً، ثم حولت  
عينيها عن فريستها، ورفعت حاجبها كأنها تفكر في  
مشكل حسي، ثم تظاهرت بالسرور كأنها اهتمت  
للحلّ الموق، وقالت غاطبة نفسها هذه المرة دون أن  
تنتظر إلى الأخرى:

- إذن لهذا فهي تفني كثيراً! يا بو الشريط الأحمر يا  
لي أسرتني ترحم ذلي!... وكم حسبه بسلامة نقي  
شناه بريقاً لمجرد التسلية!

ونطق قلب الفتاة خفقة قاسية، وقع المحلور ولم  
يحد ينفع التعلّق بأوهام الأسانج الكاذبة، وركبها

يكون في البنت! وهضت بصوت خنوق التبرات:

- خديجة... لا يليق هذا... أنت غخطة...  
أنت غخطة...

ولكنّ خديجة تابعت حديثها دون التفات إليها:

- تُرى ألهذا هو الحب؟! يمكن! ألم يقولوا عنه:  
«الحب كبش في قلبي... قرّبت أرواح منه طوكرو».

تُرى أين طوكرو هذه؟! لتُلهّا في النخاسين، بل  
لعلّها في بيت السيّد أحمد عبد الجواد.

- لم أهد أحتمل كلامك، أرحمني من لسانك،  
رباه... لماذا لا تصدّقيني؟!

- لتبّري أمرك يا خديجة ليس ما نحن فيه لعلّا،  
وأنت الأخت الكبرى، والواجب هو الواجب مهما بدا  
مراً، يجب أن يعلم أولو الشأن، هل تضفين بالسّر إلى  
والدك؟! الحقّ أنّي لا أدري كيف أخطأه في مثل هذا  
السّر الخطير، ياسين؟! ولكنّه كلمه وغاية ما يرجي  
منه أن يترنّم بكلام غير مفهوم، فهمي؟ ولكنّه يعطف  
بذوره عل الشعر الذهبي أصل البروى كلّها، أظنّ من  
الأفضل أن أخبر نينة، وأترك لها التصرف بما ترى.

ونذت عنها حركة كأنّها تمّ بالقيام فهرعت عائشة  
إليها كدجاجة مذبوحة وأمسكت بكفّنها صالحة  
بصدر يعلو وينخفض:

- ماذا تريدن؟

فتساءلت خديجة:

- أتهذبنني؟!

هتّت عائشة بالكلام فخنقتها العبرات بفتة وهيمت  
بكلام مرّقه البكاء شرّ تمزّق، وجعلت خديجة تحقّق  
إليها صامتة متفكّرة، ثمّ زایل أسارىها عتب السخريّة  
حقّ تمجّهم وجهها وهي تصغي في غير ارتياح إلى تشييع  
الفتاة، ثمّ قالت بلهجة جدّيّة لأوّل مرّة:

- لقد أخطأت يا عائشة.

وأمسكت ووجهها يشتدّ تمجّهم، وكأنّ أنفها ازداد  
بروزاً، وبدا عليها التآثر واضحاً فاستطردت قائلة:

- يجب أن تقرّي بخطئك، خبّريني كيف سوّلت  
لك نفسك هذا العبث يا مجنونة؟!

فغمغمت عائشة وهي تمجّف عينيها:

- أنت تسيّبن الظنّ بي.

فتفتحت خديجة مقلّبة كأنّها ضاقت بهذه المكابرة  
الضالعة، بيد أنّها عدلت نهائياً عن نيّة الاعتداء أو  
حقّ المعابرة، إنّها تعرف دائماً أين ومتى تقف فلا تتجاوز  
الحدّ، وقد أثبتت السخريّة ميولها العدوانيّة القاسية  
ففتعت بها كما تقنع بها عادة، ولكن بقيت لديها ميول  
من نوع آخر - أبعد ما تكون عن العنوان والقسوة - لم  
تشجع بعد، ميول تنبّعت من عاطفة الأخت الكبرى،  
بل من عاطفة أمومة لا يخطئها فيها أحد من الأسرة  
مهما اشتدّت حملتها عليه، وتحت تأثير الرغبة في إشباع  
هذه الميول الوديّة قالت:

- لا تكابري، لقد رأيت كلّ شيء بعيني، لست  
الآن أهزل ولكيّ أريد أن أصارحك بأنك أخطأت  
خطأ كبيراً، هذا عتب لم يعرفه هذا البيت في الماضي  
ولا يودّ أن يعرفه في حاضره أو مستقبله، إنّهُ العليش  
وحده هو الذي أوقصك فيه، أصغني إليّ وأعطني  
نصيحتي، لا تعودني إلى هذا أبداً، لا يفضي شيء وإن  
طال كبائنه، فتصوّري ماذا يكون أمرنا جميعاً لو لمحك  
أحد من الجيران، وأنت أدري بالنسبة للناس، تصوّري  
ماذا يكون لو غي الخبر إلى أبي والعياذ بالله!

فكنست عائشة رأسها تاركة الصمت يعتبر من  
اعترافها، وقد تضرّج وجهها بحمرة الحجل، فُلّك  
الدم الذي ينزفه الضمير في الداخل إذا جرّحته  
خطيئة، وعند ذاك تدهّبت خديجة قائلة:

- حذار، حذار، فاممة؟... «ثمّ نسمت عليها  
نسمة سخرية فغرّقت لهجتها شيئاً ما، ألم يترك؟! فهاذا  
يقمده عن أن يتقمّد لك مثل الرجال الشرفاء؟ وقنها  
نقول لك مع ألف سلامة، بل في ستّين داهية يا  
سقي...»

استردّت عائشة أنفاسها، فافتّر ثغرها عن ابتسامة  
لاحت كلمة اليقظة الأولى في السين عقب غيوبة  
طويلة، وكانّ خديجة حرّ عليها - برؤية هذه الابتسامة -  
أن تفلت الفتاة من قبضتها بعد أن نعمت بامتلاكها  
فترة طويلة فصاحت بها:

- لا تطغي أنّك بلغت برّ الأمان، إنّ لساني لا

ولبت دون حراك ثواني، مستغرقة في خواطرها الجليدية، في الحلم السعيد الذي تفتحت لها دنياه الغناء فجأة وإن بدا شغلها الشاغل طول الأعوام الأخيرة، ثم أُلقيت إلى نفسها فاندت خديجة بلهجة لا تحتمل التأجيل فجاءت الفتاة على الأثر، وما إن التقت عينهما حتى غلبها الابتسام وقالت وهي لا تملك نفسها من الفرح:

- ثلاث سيدات غريبات في حجرة الاستقبال... ارتلتي غير ملائسك... واستعدي...

ولما تورد وجه خديجة تورد وجهها أيضًا كأنها انتقلت إليه عدوى الحياء، ثم غادرت الصلاة إلى حجرتها في الدور الأعلى لتستعد بدورها لاستقبال الزائرات، وجعلت خديجة تنظر إلى الباب حيث اختضت أمها، غائبة الطرف، وقلبيها يخفق لحدة الألم متسائلة «ما وراء هذه الزيارة؟» ثم نزلت نفسها من موقفها، وسرعان ما استرد عقلها نشاطه الفائق فاندت كيال الذي جاءها من حجرة فهمي فبادرته قائلة:

- اذهب إلى أيلة مريم وقل لها إن خديجة تتركك السلام وترجو أنك ترسل لها معي علبة البودرة والكحل والأحر...

وتلقف الغلام الأمر وهو يمدو إلى الخارج، أما خديجة فأسرعت إلى حجرتها ومضت تحمل جلبابها وهي تقول لعائشة التي لحظتها بعين متسائلة:

- اختاري لي أحسن لستان... أحسن فستان بلا استثناء...

فتساءلت عائشة:

- ما الداعي إلى هذا الاهتمام؟... زائرة؟ من؟

فأجبت خديجة بصوت خافت:

- ثلاث سيدات... «ثم وهي تضغط على خارج اللفظ»... غريبات...

فتراجع رأس عائشة في دهش، ثم أُلصقت حينها الجميلتان سرورًا، وهتفت:

- آه... هل يُفهم من هذا أن... يا له من خبر!

- لا تسرعي في الحكم... فمن يلدي عيًا هناك...

فالتجهت عائشة نحو صوان الملابس لتنتقي الفستان

يسكت إذا لم تحسني مشاغله...

فتساءلت الأخرى في ارتياح:

- ماذا تعنين؟

- لا تركيه وحده حتى لا تلوذه نزعة الشر، ألهيه بشيء من الحلوى ليشغل بها عنك، علبة ملابس مثلاً من شنجرلي...

- لك ما تشتهين وأكثر.

وساد الصمت فشغلت كلتاها بأفكارها. هل أن قلب خديجة كان... كما كان من بلدى الأمر- مرتعًا لغروب من المشاعر متباعدة... غيرة وحنق وإشفاق وحنان...

## ٢٣

كانت ست أمينة مشغولة بإعداد أدوات القهوة استعدادًا لجلسة العصر التقليدية فجاءتها أم حنفي مهرولة، يشر لمعان عينيها بأنباء سارة، ثم قالت بلهجة موحية:

- سني ثلاث سيدات غريبات يروهن في زيارتك...

أخلت الأم يديها من كل شيء، وانصبت قاعتها في عجلة ذلك على تأثير الخبر في نفسها، وحدجت الحلام بنظرة اهتمام شديدة كأنه من المحتمل أن تكون الزائرات من البيت المالك أو من السهاء نفسها، ثم تمتمت استزادة من التوكيد:

- غريبات!؟

فأجبت أم حنفي بلهجة تنم عن فرحة الظفر:

- نعم يا سني، طرقت الباب ففتحت لمن فقلن لي وأليس هذا بيت السيد أحمد عبد الجواد؟ فقلت لمن «بل» فقلن «الهاشم فوق؟» فقلت «نعم» فقلن «نريد أن نتشرف بالزيارة» فسلنهن «أقول من الزائرات؟» فقالت لي إحداهن ضاحكة ودعي هذا لنا، وما على الرسول إلّا البلاغ، فبشكت يا سني طائفة وأنا أقول لنفسي «يا رب حق لنا الأحلام»...

فقالت الأم بعجلة دون أن يزايل الاهتمام عينيها:

- ادعيهن إلى حجرة الاستقبال... أسري...

المناسب وهي تقول ضاحكة:

- في الجُرْثِي... إِنَّ الفَرْح يُشَمُّ كالروائح الزكية...

فضحكت خديجة لتخفي اضطرابها، واقرت من المرأة ونظرت إلى صديقتها بإيمان، ثُمَّ أَخْضَتْ أَنْفَهَا بِوَراحتها وقالت بتهكم:

- لا بأس بوجهي الآن، وجهه مقبول، وَثُمَّ رافعة راحتها... أَمَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ فَرَيْتَا وَحْدَهُ الْمُنْجِي! فقالت عائشة ضاحكة وهي تساعد في نفس الوقت على ارتداء فستان أبيض موكى بأزهار بنفسجية:

- لا تغمطي نفسك... أَلَا يَسْلَمُ شَيْءٌ مِنْ لِسَانِكَ... لَيْسَتْ الْعُرُوسُ أَنْفًا فَحَسْبُ، هُنَاكَ الْعَيْنَانِ وَالشَّعْرُ الطَّوِيلُ، وَالِدَمُ الْخَفِيفُ! فلوت خديجة بوزها قائلة:

- الناس لا ترى إِلَّا الْعُيُوبَ... هَذَا صَحِيحٌ بِالْقِيَاسِ إِلَى مَنْ عَلَى شَاكِلَتِكَ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَلَى شَاكِلَتِكَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ...

- سوف أجهيك حين أفرغ لك... فرئت الأخرى على خاضعتها وهي تسوي الفستان قائلة:

- ولا تنسي هَذَا الْجِسْمَ الْبَغِيضَ الْمَتَلُؤَ... يَا لَهُ مِنْ جِسْمٍ!

فضحكت خديجة في سرور وقالت:

- لو كَانَ الْعَرِيسُ أَمْعَى مَا عَمِلْتُ حَسَابًا لشيء... وَإِنِّي أَرْضَى بِهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَلَوْ كَانَ شَيْخًا مِنْ شَبَوَخِ الْأَزْهَرِ...

- وماذا يهيب شيوخ الأزهر!... أَلَيْسَ مِنْهُمْ مَنْ خَمِرَاتِهِ كَالْبَحْرِ!

ولمَّا فَرَّغَتَا مِنَ الْفَسْتَانِ نَذَتْ هُنَّ عَائِشَةُ نَفْعَةً تَأْتَفُ فَسَأَلَتْهَا خَدِيجَةُ:

- ماذا بك؟

فقالت بتلثم:

- لَيْسَ فِي يَدَيْنَا كُلَّهُ نَقْطَةُ بُوْدَرَةٍ أَوْ كَحْلٍ أَوْ أَحْمَرٍ كَانَ

لَيْسَ بِهِ نَسَاءٌ...!

- مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ تَبْلُغِي هَذَا الْاِحْتِجَاجَ لَوَالِدِنَا...

- أَلَيْسَتْ نَيْتُهُ سَيِّئَةً وَمَنْ حَقَّقَهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ؟

- إِنَّمَا جَمِيلَةٌ هَكَذَا بِلَا زِينَةٍ!

- وَحَضْرَتُكَ؟ هَلْ تَلْقَيْنِ الزَّائِرَاتِ هَكَذَا؟

فقالت خديجة ضاحكة:

- أُرْسِلَتْ كَيْلٌ إِلَى مَرْيَمَ لِيَعُودَ بِالْبُوْدَرَةِ وَالْكَحْلِ وَالْأَحْمَرِ، وَهَلْ وَجْهِي وَجْهٌ أَقَابِلَ بِهِ الْخَاطِبَاتِ عَاطِلًا؟ وَلَيْتَا كَانَ الْوَقْتُ لَا يَحْتَمِلُ تَبْدِيدَ دَقِيقَةٍ بِلَا عَمَلٍ فَقَدْ نَزَعَتْ خَدِيجَةُ مَنَدِيلَ رَأْسِهَا وَأَخَذَتْ لِحْجَ ضَفِيرَتَيْهَا الْغَلِيظَتَيْنِ الطَّوِيلَتَيْنِ، هَلْ حِينَ جَاءَتْ عَائِشَةُ بِالْمَشْطِ وَرَاحَتْ تَمَشُّطُ شَعْرَهَا الْمُسْتَرْسِلَ وَهِيَ تَقُولُ:

- يَا لَهُ مِنْ شَعْرِ سَبِطٍ طَوِيلٍ... مَا رَأَيْتُكَ؟ سَاجِدُهُ فِي ضَفِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، أَلَا يَكُونُ ذَلِكَ أَرْوَعَ؟

- بَلْ ضَفِيرَتَيْنِ... وَلَكِنْ خَتَرْتَنِي هَلْ أَبْقَى الْجُرَابَ فِي قَدَمِي أَوْ ادْخُلَ عَلَيْهِنَّ عَارِيَتِ السَّاقَيْنِ؟

- إِنَّ الْوَقْتَ شَتَاءٌ يَسْتَجِيبُ لَيْسَ الْجُرَابَ وَلَكِنِّي أَخْشَى إِذَا أَبْقَيْتُهُ أَنْ يَسْرِجَ بِسَاقِكَ حِينَ تَحْتَمِدِينَ إِخْفَافَهُ...

- صَدَقْتَ، إِنَّ الْمَحْكَمَةَ أَرْحَمُ مِنَ الْحَجَرَةِ الَّتِي تَنْتَظِرُنِي الْآنَ...

- قَوِي قَلْبُكَ، رَيْتَا يَوْمَنَا...

وهنا دخلت الحجرية كَيْلًا مَسْرُوحًا وَهُوَ يَلْهَثُ فَفُئِمَ إِلَى أَخْتِهِ أَدَوَاتِ الزَّيْنَةِ وَهُوَ يَقُولُ:

- قَطَعْتُ السَّكَمَ وَالطَّرِيقَ جَرِيًّا...

فقالت له خديجة باسمه:

- عَفَّارُمُ، عَفَّارُمُ... مَاذَا قَالَتْ لَكَ مَرْيَمُ؟

- سَأَلَتْنِي هَلْ عِنْدَنَا ضُفُوفٌ... وَمَنْ هُنَّ، فَاجْتَبِئْهَا بِأَنِّي لَا أَدْرِي...

فتجلَّت في عيني خديجة نظرة اهتمام وهي تسأله:

- وَهَلْ قَنَعَتْ بِهَذِهِ الْإِجَابَةِ؟

- حَلَفْتَنِي بِالْحَسَنِ أَنْ أَسْرَحَ لَهَا بِمَا عِنْدِي فَحَلَفَتْ

لَهَا بِأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدِي غَيْرُ مَا قُلْتُ...

فضحكت عائشة قائلة ويداها لا تَكْفُفَانِ عَنِ

الْعَمَلِ:

- مستخفّن ما هنالك... -

فقالَت عائشة ضاحكة:

- طبعًا أنا... ١ -

فلكرّتها بكوعها، ثمّ تهتّت قائلة:

- لو تمرّني أنفك كما أعارفتي مريم حلبة بودربما!

- تناسي أنفك ولو الليلة على الأقلّ، إنّ الأنف -

للأمل - يضحك بالدأب على التفكير فيه... -

أوشكتا عند ذاك على الفراغ من صليّة التجميل، فترأى انتباه خديجة عن التركيز في مظهرها وأنّجه في رهبة إلى موقف الامتحان الذي ينتظرها لشمرت بخوف لم تشعر بمثله من قبل، لا بالقياس إلى جدته فحسب ولكن - قبل كلّ شيء - بالقياس إلى خطورة هواقبه، وما لبثت أن قالت متشكّية:

- آية جلسة هذه التي فُعي عليّ بها... تصوّري

نفسك في مكاني، بين نسوة غريبات لا تدوين أيّ خلق خلّقهنّ ولا أيّ أصل أصلهنّ، وهل جئن بنّة صادقة أو لمجرّد الفرجة والتسليّة، وماذا يكون من لمري لو كنّ عبايات شتمات (ثمّ ضاحكة ضحكة مقتضبة) مثلي مثلاً... هه؟ وماذا يوسعي إلّا أن أجلس بينهنّ في أدب واستسلام ألتقى نظراتهنّ من اليمين واليسار، ومن الأمام والخلف، وأصعد بأمرهنّ بلا أني تردّد، إذا طلبن قياتاً قمت، أو شيئاً مشيت أو كلاماً تكلمت حقّ لا يهوين شيء من جلومي وقلامي وصمّي وكلامي وأعضائي وتساقي، وعلينا بعد هذه «البهيلة» كلّها أن نتوقّد إليهنّ ونُطري لطفهنّ، وكرمهنّ، ثمّ لا ندرى بعد ذلك أنفوز بالرضى أو نفوز بالفضب، أف... أف... ملعون الذي أرسلهنّ! فعاجلتها عائشة قائلة بلهجة ذات معنى:

- بقّد الشرّ عنه!

فقالَت خديجة ضاحكة أيضًا:

- لا تدعي له حقّ نتأكّد أنّه من نصيبنا... آه يا

دبي كم أنّ قلبي يندّ!...

فتراجعت عائشة خطوة خطوة عن مرمى كوعها وقالت:

- صبرك... ستجدين في المستقبل فرصاً كثيرة

للاتنقام من مجلس اليوم الرهيب، فكم سيُصلين من

فقالَت خديجة وهي تذرّ البودرة على وجهها:

- إنّها بنت هزيمة، وهيهات أن يفوتها شيء، وأراهنك على أنّها سوف تزورنا غدًا على الأكثر لإجراء تحقيق شامل... -

ولم يشأ كمال أن يناذر الحجره كما كان المنتظر، أو لعلّه لم يستطع مفادرتها تحت إغراء المشهد الذي يمثّل أمام عينيه، والذي يراه لأول مرّة في حياته فلم يسبق له أن رأى وجه أخوته وهو يلقى هذا التغير الذي استحال معه وبهجاً جديدًا، البشرة تبيّض والوجنتان تتوردان والمينان تصطبغ أشفارهما بسواد لطيف يرسم لها حدودًا جذابة ويضفي على حديثها صفاء بهيجًا، وجهه جليد هشّ له قلبه فطرب هاتئًا:

- أنت يا أبله الآن كالمرسوس التي يشتريها بابا في مولد النبي... -

فضحكت الفتاتان، وسألته خديجة:

- هل أعجبك الآن؟

فاقترب منها مسرعًا ومدّ يده صوب أرنبة أنفها وهو يقول:

- لو تزول هذه!

فتفادت من يده، ثمّ قالت لأختها:

- أشرّجي هذا النّام.

فلقبضت عائشة على يده وجلبته إلى الخارج رغم مقاومته حتّى أخرجهت وأغلقت الباب، ثمّ عادت إلى استئناف عملها الجليل، فواصلتا نشاطهما في صمت وجهد. ومع أنّه كان من الملتقى عليه في الأسرة أن تقتصر مقابلة المحاطبات على خديجة وحدها إلّا أنّ الفتاة قالت لعائشة على سبيل المكر:

- ينبغي أن تتأهّمي أنت أيضًا لاستقبال الزائرات.

فقالَت عائشة يمثّل مكر أختها:

- لن يكون هذا قبل أن تزليّ إلى عرسك!

ثمّ استدركت قائلة قبل أن تتكلّم خديجة:

- أمّا الآن فكيف للنجوم أن تطلع مع القمر؟!

فرمتها أختها بنظرة صتريّة وتساملت:

- من يكون القمر؟

- الخبر هو أنّ حسن أفندي إبراهيم ضابط قسم الجليّة - وهو من معارفى كما تعلمون - قابلي ورجاني أن أبلغ والدي رغبته في خطبة عائشة . !

وأحدث الخبر - كما قدر فهمي من قبل ما دعه إلى التردد وطول التفكير - آثاراً جدّ متباعدة، فتطلّمت الأمّ إليه باهتمام شديد، على حين صفر ياسين وهو يرمق عائشة بنظرة مداعبة ويبرّز رأسه، وخفضت الفتاة الصغيرة رأسها حياءً ولتخفي وجهها من الآخرين أن تفضحها أسرارها فتعلن للناظرين ما يضطرب في قلبها الخافق، أمّا خديجة فقد تلقت الخبر بدشّة بادئ الأمر لم تلبث أن انقلبت غوماً وتشاوماً لم تذر لها سبباً واضحاً ولكنها كانت كتلميذ يتوقّع بين أونة وأخرى ظهور نتيجة الامتحان - إذا تنأى إليه نجاح زميل له بلبسته المتجبة من مصدر خاص، وتساءلت الأمّ في ارتباك لا يتناسب ومناسبة الفرح الزاهية:

- أهذا كلّ ما قال؟

فقال فهمي وهو يتحاشى النظر ناحية خديجة:

- بدائي بقوله إنّه يؤدّ أن يتشرف بطلب يد شقيقتي

الصفري.

- وماذا قلت له؟

- شكرت له حسن ظنه بطبيعة الحال . . .

لم تطرح عليه السؤال تلو السؤال في رغبة استطلاع شيء تؤدّ معرفته، ولكن لنداري ارتباكها وتتزعج من المفاجأة مهلة للتروّي. ثم راحت تتساءل ترى هل لهذا الطلب علاقة بالزائرات اللاتي جئنها منذ أيام ١٩ وذكرت عند ذاك كيف قالت إحداهن - قبل ظهور خديجة - وهي بمعرض الحديث عن أسرة السيّد أحمد إتهنّ سمعن أنّ السيّد كريمين فادركت وقتها أتهنّ جئن لرؤية الفتاتين ولكنها تصامت عن الإشارة، وقد انتسبت الزائرات إلى أسرة تاجر بالدرب الأحمر - غير والد الضابط الذي قال فهمي عنه مرّة إنّه موظّف بوزارة الأشغال - ولكن هذا لا ينبغي نفيّاً قاطعاً العلاقة بين الأسرتين لأنه المألوف أن تبعث الأسر بخاطبات من بعض فروعها دون الأصل على سبيل الحرص، وكم ودّت أن تسأل فهمي عن هذه النقطة بالذات

نار لسانك وأنت ستّ البيت . . . ولعلهنّ يذكرن امتحان اليوم وهنّ يقلن لأنفسهنّ يا ليت الذي جرى ما كان! . . .

وقعت خديجة بالابتسام. لم يكن في الوقت متسع لرّد الهجوم، ولم تجد في الهجوم - الذي تجد فيه عادة سروراً شافياً - لئلاّ على الإطلاق لغلبة الرهبة على نفسها وحيرتها بين الخوف والرجاء، وليّا فرغت من مهمّتها وقفت تلقى على صورتها نظرة شاملة، وعائشة - إلى الوراء خطوتين - تردّد نظرها بعناية بين الصورة والأصل، وجعلت خديجة تتمتم:

- أحسنت يدك، منظر حسن أليس كذلك؟ . . . هذه خديجة حقّاً . . . لا بأس بأنفي الآن . . . جلّبت حكمتك يا ربّ، بقليل من الجهد صار كلّ شيء مقبولاً فلماذا (لَمْ مستدركة) استغفر الله العظيم، لك في كلّ شيء حكمة . . .

وتراجعت خطوات وهي تفحص صورتها بعناية ثم قرأت الفاتحة في سرّها، وانفتحت نحو عائشة قائلة:

- ادعي لي يا بنت . . .

وغادرت الحجر . . .

## ٢٤

اكتسب مجلس القهوة بحلول الشتاء ميزة جديدة ثمّثلت في المدّة الكبيرة التي توسّطت الصالة لتكاكلت حولها الأسرة، الذكور في معاطفهم والنساء ملتزمات بخياراقرن، فهبّ لهم المجلس إلى لئلاّ الشراب وحلو السمرة متعة الدفء. وقد بدا فهمي - على حزنه الصامت الطويل في الأيام الأخيرة - كمن يتحمّز لمواجهة أهله بخبر هامّ، ولم يكن تردّد وطول تفكيره إلاّ دليلاً على خطورة الخبر وأهمّيته، بيدّ أنّه انتهى من تفكيره وتردّد إلى التصرّح على إربلاخه ملفّياً عنه بعد ذلك على والديه والأقارب، فلذلك قال:

- عندي خبر هامّ لكم فاسمعوا . . .

فتطلّمت إليه الامين باهتمام لن يشدّ عنه أحد، لأنّ ما عُرّف به الشاب من آثاران جعل الجميع ينتظرون خبراً هامّاً حقّاً كما قال، أمّا فهمي فاستطرد قائلاً:

تساءلت:

- ألا يحسن بنا أن نفكر فيما عسى أن أجيب أباك إذا سألني عما دعا الضابط إلى طلب عائشة بالذات، ولماذا لم يطلب يد خديجة، ما دام لم يَزْهله ولا تلك؟...

وانتهبت الفتاتان إلى ملاحظة أنها ممّا، ولعلها ذكرتا موقفهما وراء النافذة في وقت واحد، بيد أن خديجة تلقت الذكرى بامتصاص ضاعف من امتصاصها الراحن، واحتج قلبها على الحظّ الأعمى الذي يأبى إلا أن يجزي النزق والاستهتار بالإحسان، أمّا عائشة فقد اعترضت تيّار سرورها ملاحظة أنّها كسا تعترض الحلق- وهو نشوان بازرداد أكلة للذيلة شهية- شوكة حاققة مدموسة في الطعام، وسرعان ما امتصّ الحروف حرارة الفرح التي كان يتفطر بها روحها. فهمي وحده الذي ثار على قول أمّ، لا دافعاً كما بدا من عائشة- فأنه ما كان يجز الدفعا من عائشة تحت سمع خديجة في هذه النقطة الحساسة بالذات- ولكن غضباً لحزنه الكظيم الذي لم يسهه الجهر بالدفاع عنه حيال أبيه، فقال محتداً يخاطب أباه في شخص أمّ، وهو لا يدري:

- لهذا تصف ظالم لا مبرّر له، من عقل أو حكمة ألا يعرف الرجال أشياء كثيرة عن نساء غدرات هن طريق الفضليات من قريباتهم اللاتي يقصدن بحليهنّ إلا الجمع بين رجل وامرأة في الحلال. ولكنّ الأمّ لم تقصد باعتراضها إلا تورّأه وراء أبيه حتى تمجد هرجاً من المأزق الذي وجدت فيه نفسها بين عائشة وخديجة. فلما صارحها فهمي باحتجاجه لم تمجد بدءاً من مصارحته بما يدور:

- ألا ترى أنه من الأفضل أن تنتظر حتى يأتينا بها الزائرات؟!

ولم تعد خديجة تطيق الصمت مدفوعة بكبريائها التي أبّت عليها إلا أن تعلن عدم البلاء بالامر كله بالرغم مما يصرّط داخلها من القلق والتشاؤم. فقالت:

- هذا شيء وذاك شيء آخر وليس ثمة داعٍ لتأجيل

وكأنها أشفقت من أن يجيء الجواب مصداقاً لمخاوفها فيفضي على آمال ابنتها الكبرى ويُسِمها خيبة جديدة، بيد أن خديجة نابت عن أمّها- اتفاقاً- بطرح ما يعتلج في صدرها خارجاً حين دارت هبوطها بضحكة فاترة وقالت متسائلة:

- لعلّه هو الذي بعث بالزائرات اللاتي زرنا منذ أيام.

ولكنّ فهمي يادر قائلاً:

- كلا، فقد قال لي إنه سيرسل أمّه إلينا في حالة الموافقة على طلبه...

ولكنّه بخلاف لمجته الموحية بالصدق، لم يكن صادقاً فيما قال، فبعد فهم من حديث الضابط أنّ السيّدات اللاتي زرن والدته قريباته، بيد أنّه أشفق من إسلام شقيقته الكبرى التي كان- على حبّه عائشة واقتناعه بجدارة صديقه الضابط- يطلب عليها عطفاً أخوياً، وبالم أشدّ الألم لسوء حقلها، ولعلّه كان لا ممي به من خيبة أثر قويّ في البلوغ بهذا المعطف ذروته. وضحك ياسين ضحكة غليظة وقال بجلجل صياح:

- يبدو أننا سنجمع قريباً بين فرحين...

فهتفت الأمّ في فرح صادق:

- ربّنا يسمع منك...

- هل لمخاطبين أبي نيابة عني؟...

نذّ عنه السؤال وهو مشغول بمسألة الخطبة عمّا عداها، ولكنّه- عقب التعلّق به- وقع من أذنيه موقعاً قريباً، فكانه ألقي عليه من حافظة ذكرياته لا من طرف لسانه، أو كأنه حين ألقي على سمعه لم يقف عند أذنيه ولكنّه خاص إلى أصحابه ثمّ طفا عائلاً به ما علق به من ذكرياته، وللحال ذكر سؤالاً مماثلًا لهذا السؤال توجّه به إلى أمّ في ظروف مشابهة فانقبض قلبه، وهاجت آلامه، وعاوده إحساسه بالظلم الذي وادّ أمه، وجعل يقول لنفسه كما قال لما مرّأزاً في الأيام الأخيرة، كم كان يكون سعيداً بيومه مستبشراً بغده راضياً عن الحياة كلّها لولا إرادة أبيه القاسية، وانزعته الذكرى من الاهتمام بشؤون غيره، فاستسلم للحزن الذي يقرض شغاف قلبه، أمّا الأمّ ففجّرت ملهاً ثمّ

هَذَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ...  
فَقَالَتْ الْأُمُّ يَهْدُوهُ مُؤَثَّرٌ:  
- كُلُّنَا مُتَّفِقُونَ عَلَى تَأْجِيلِ زَوَاجِ عَائِشَةَ حَتَّى تَتَزَوَّجَ  
خَدِيجَةَ.

وَلَمْ يَسْمَعْ عَائِشَةُ إِلَّا أَنْ تَقُولَ بِرَقَّةَ وَتَسْلِمَ:  
- هَذَا أَمْرٌ مَفْرُوحٌ مِنْهُ...

امْتَلَأَ صَدْرُ خَدِيجَةَ حَقَقًا لَدَى سَبَاحِ النِّبَرَاتِ الرَّقِيقَةِ  
الَّتِي تَتَكَلَّمُ، وَلَعَلَّ رَقَّتَهَا نَفْسَهَا كَانَتْ أَشَدَّ مَا أَحْتَفَهَا،  
رَبَّمَا لَأَتَاهَا أَوْحَتْ بِعَطْفِ ابْنَتِهِ كُلِّ الْإِبَاءِ، أَوْ لَأَتَاهَا وَدَّتْ  
لَوْ تَلَعَنَ الْفَتَاةَ مَعَارِضَتَهَا صَرِيحَةً لِتَتَبَّحَّهَا لَهَا فُرْصَةً  
لِمُهَاجَمَتِهَا بِمَا يَشْفِي حَقَّتْهَا عَلَى حِينٍ قَامَ ذَلِكَ الْعَطْفُ  
الْكَاذِبُ الْبَغِيضُ دَوْمًا يَدْفَعُ عَنْهَا الْأَذَى وَيَضَافِعُ مِنْ  
حَقِّ الْمُرْتَضِ الْمُتَحَفَّرِ، وَأَخِيرًا لَمْ يَسْمَعْهَا إِلَّا أَنْ تَقُولَ  
بِلَهْجَةٍ لَمْ تَحُلْ مِنْ حِدَّةٍ:

- لَا أُوَافِقُ عَلَى أَنَّ هَذَا أَمْرٌ مَفْرُوحٌ مِنْهُ، فَلَيْسَ مِنْ  
الْحَدَلِ أَنْ يَحْمِلَكُمُ حَقٌّ عَائِسٌ عَلَى كَسْرِ حَقِّ  
سَعِيدٍ...

وَتَبَّعَ فَهَمِي إِلَى مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ كَلَامُ خَدِيجَةَ مِنْ  
حُزْنٍ غَاضِبٍ بِالرَّغْمِ مِنْ ظَاهِرِهِ الْمُوَحِّي بِالِإِثَارِ فَانْتَزَعَ  
نَفْسَهُ مِنْ قُبْضَةِ أَحْزَانِهِ الشَّخْصِيَّةِ نَادِمًا عَلَى مَا صَدَرَ  
مِنْهُ مِنْ قَوْلٍ فِي غَضَبِهِ نَمَّا قَدْ حَسِبَ خَدِيجَةَ مِيلًا صَرِيحًا  
مِنْهُ إِلَى قَضِيَّةٍ أَسْتَحْتَا فَقَالَ مُوجِّهًا خُطَابَهُ إِلَيْهَا:

- إِنَّ مَفَاحِمَ بَابَا عَنْ رَغْبَةٍ حَسَنٍ أَفْنَدِي لَا تَعْنِي  
التَّسْلِيمَ بِتَقْدِيمِ زَوَاجِ عَائِشَةَ عَلَى زَوَاجِكَ، وَمَا عَلَيْنَا  
مِنْ بَأْسٍ إِذَا لَنَّا مُوَافَقَتَهُ عَلَى الْخَطْبَةِ، أَنْ نُوْجِّلَ إِعْلَانَهَا  
لَوْ تَنْ مَنَاسِبًا...

وَلَمْ يَكُنْ يَأْسِرِينَ مُفْتَتِحًا بِوَجَاعَةِ الرَّأْيِ الَّذِي يَحْتَمُّ  
تَقْدِيمَ زَوَاجِ عَلَى زَوَاجِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَحِدِ الشَّجَاعَةَ الْكَافِيَةَ  
لِلْإِنْفِصَاحِ عَنْ رَأْيِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَوَّحَ عَنْهُ بِكَلَامٍ يَفْهَمُ مِنْهُ  
مَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ فَقَالَ:

- الزَّوْجُ مَصِيرٌ كُلُّ حَيٍّ، وَمَنْ لَمْ تَتَزَوَّجِ الْيَوْمَ  
فَسَتَزَوَّجِ غَدًا.

وَهِنَا انْطَلَقَ صَوْتُ كَيْمَالِ الرَّفِيعِ الَّذِي كَانَ يَتَابَعُ  
الْحَدِيثَ بِاهْتِمَامٍ مُتَسَائِلًا عَلَى غَيْرِ انْتِظَارٍ:

- نِينَةُ... لِمَاذَا كَانَ الزَّوْجُ مَصِيرٌ كُلِّ حَيٍّ؟

وَلَكِنَّهَا لَمْ تَحْتَفِ بِالْإِلْتِزَاطِ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَحْدِثْ تَسَاوُلُهُ  
مِنْ أَثَرِ إِلَّا حَتَّى يَأْسِرِينَ الَّذِي قَمَقَعَ بِضَحْكَةٍ غَلِيظَةٍ دُونَ  
أَنْ يَنْبَسَ بِكَلِمَةٍ، عَلَى حِينٍ قَالَتْ الْأُمُّ:  
- أَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ فَتَاةٍ مُسْتَزَوِّجَةٍ الْيَوْمَ أَوْ غَدًا، وَلَكِنْ  
هُنَاكَ اعْتِبَارَاتٌ لَا يَنْبَغِي إِغْفَالُهَا...

وَعَادَ كَيْمَالُ يَسْأَلُهَا:  
- وَهَلْ سَتَزَوِّجِينَ أَنْتِ أَيْضًا يَا نِينَةُ؟  
وَضَحَّ الْجَمِيعُ ضَحْكًا مُخَفَّفًا هَذَا مِنْ حِدَّةِ التَّوَرُّعِ،  
وَانْتَهَزَ يَأْسِرِينَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ السَّائِحَةَ فَتَشَجَّعَ قَائِلًا:  
- أَعْرِضِي الْأَمْرَ عَلَى أَبِي، فَالْكَلِمَةُ كَلِمَتُهُ عَلَى أَيِّ  
حَالٍ...

وَقَالَتْ خَدِيجَةُ بِإِصْرَارٍ غَرِيبٍ:  
- لَا يَدَّ مِنْ هَذَا... لَا يَدَّ مِنْ هَذَا...

كَانَتْ تَعْنِي مَا تَقُولُ: لَأَتَاهَا مِنْ نَاحِيَةٍ تَعْلَمُ بِإِسْتِحَالَةِ  
إِنْخِفَاضِ مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ عَنْ أَبِيهَا، وَلَأَتَاهَا مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى  
تَعْتَقِدُ بِأَنَّ وَالِدَهَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقْبَلَ تَقْدِيمَ زَوَاجِ عَائِشَةَ  
عَلَيْهَا، وَلَأَتَاهَا - إِلَى هَذَا وَذَلِكَ - مَا زَالَتْ تَهْزُلُ عَلَى  
التَّظَاهَرِ بِالْإِلْمَالَةِ، وَمَعَ أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ بِمَا بَيْنَ  
الضَّابِطِ وَالزَّائِرَاتِ مِنْ سَبَبٍ... إِلَّا أَنَّ الْفَلَقَ  
وَالْتَشَاوُغَ اللَّذِينَ شَعَرَتْ بِهِمَا مِنْ بَدَائِ الْأَمْرِ لَمْ يَتَخَلَّيَا  
عَنْهَا لَحْظَةً وَاحِدَةً...

## ٢٥

مَعَ أَنَّ السَّيْلَةَ أَمِينَةٌ جَرَّبَتْ فِي حَيَاتِهَا أَكْثَرَ مِنْ سَبَبٍ  
مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَكَثَّرُ الصُّغُرُ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ قَدِيمَةً  
عَهْدَ بَنُوغٍ طَارِئٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ، امْتَنَزَعَ بِطَاعِ  
خَاصٍّ بِهِ، إِذْ يَدَا فِي ذَاتِهِ - عَلَى خِلَافِ سَوَابِقِهِ - نَمَّا  
يَجْمَعُ النَّاسَ عَلَى اعْتِبَارِهِ مِنْ أَسَسِ السَّعْلَةِ الْجَوْهَرِيَّةِ  
فِي الدُّنْيَا، وَمَعَ هَذَا انْقِلَبَ فِي بَيْتِهَا، بَلْ فِي قَلْبِهَا  
خَاصَّةً، بِأَحْثَا هَائِمًا مِنْ بَوَاصِثِ الْفَلَقِ وَالْكَدْرِ، وَكَمْ  
كَانَتْ صَادِقَةً وَهِيَ تَسْأَلُ نَفْسَهَا: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ  
مَقْصَمَ عَرِيسٍ، الْأَمْرَ الَّذِي تَتَلَقَّفُ النُّفُوسُ عَلَى  
اسْتِقْبَالِهِ، يَجِزُّ عَلَيْنَا هَذَا التَّعَبُ كُلَّهُ!... وَلَكِنْ هُكَلَا  
جَرَى الْخِلَالِ، فَتَنَازَعَ قَلْبُهَا أَكْثَرَ مِنْ رَأْيِ دُونَ أَنْ  
تَعْلَمَنَّ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهَا، رَأَتْ حِينَئِذٍ أَنَّ الْمَوْافَقَةَ عَلَى زَوَاجِ



أجل، علمت ببله العلاقة، وهي مفردة بفهمي، وقد اقترح عليها الشاب أن تخفي أمرها عن والده عند مفاخته بالخير فوعده بالتكفير في المسألة طويلاً، وتركت بين قبولها ورفضها، ثم مالت أخيراً إلى كتابتها كما اقترح فهمي، ولكنها حين جويت بسؤال السيد وهي تشمر بنظرة عينيه كضوء الشمس الوهاج تشتت عزيمتها وتبدد رأيها فقالت بلا تردد:

- نعم يا سيدي، علم فهمي أنني قسريات صديقه...

فعبس السيد غاضباً وكهمده إذا غضب امتلات صفحة وجهه البيضاء بالدم وتطاير الشرر من عينيه. من يستهن بخديجة فكأنما استهان بشخصه، ومن يمس كرامتها فكأنما طعن في مصمم كرامته، ولكنه لم يبر كيف يعلن غضبه إلا عن طريق صوته الذي علا وغلظ وهو يتسامل بحق وازدراء:

- من هو هذا الصديق؟

فقالت وهي تجهد للتلقي بالاسم قللاً لا تدري له من سبب:

- حسن إبراهيم ضابط قسم الجبلية.

فقال السيد متشاكلاً في انفعال:

- قلت إنك أدخلت خديجة وحدها حل السيدات؟

- نعم يا سيدي.

- هل زرتك مرة أخرى؟

- كلا يا سيدي ولأ كنت أخبرتك.

فسأله متتوهاً كأنما هي المسؤلة عن هذه الغرابة:

- أرسل قريباته لرايها خديجة، وإذا به يطلب

عائشة؟ ما معنى هذا؟

فازدردت الأم ورفضها الذي جف بين الأخذ والرد وتتمت:

- في مثل هذا الحال لا تدخل المحاطبات البيت المقصود إلا بعد أن يزور كثيراً من بيوت الجيران متحرّيات مما يحتمن، وبالفعل قد أشرفن في حديثهن معي إلى أنني سمعن بأن للسيد كرميتين، ولعل تقديم واحدة دون الأخرى...

عائشة قبل خديجة كغيلة أن تقضي حل مستقبل ابنتها الكبرى، ورأت حيناً آخر أن الإلحاح في معارضة الأقدار موقف شديد الخطورة قد يعود على الفتاتين بأوخم العواقب، وإلى هذا وذاك - شئ عليها أكثر أن توصل الباب في وجه عريس رائع كالضابط الشاب ليس من اليسير أن يبرود الخطأ بمثل مرة أخرى. ولكن ما عسى أن يكون موقف خديجة إذا تمت الموافقة وما عسى أن يكون حظها ومستقبلها؟... لم تدر لنفسها مستتراً، خاصة وأن ما طبعته عليه من سلبية شاملة جعلها أصعب من أن تجهد حلاً موقفاً لمشكل من المشاكل، ولهذا وجدت راحة وهي تتحضر لإلقاء العيب كله على عاتق السيد، بل وجدت هذه الراحة بالرغم مما يخامرهما من خوف كلياً أقدمت حل مفاخته بأمر ترتب في حسن تقبله له، وقد انتظرت حتى فرغ من احتساء قهوته ثم قالت بصوتها المهموس الناطق بالأدب والخصيخ:

- سيدي... حدثني فهمي قال إن صديقاً له رجاء أن يعرض عليك رغبته في خطبة عائشة...

سدّت العيان الزرقاوان نظرة اهتمام ودمشة من فوق الكنية إلى حيث تجلس المرأة على شلثة غير بعيدة من قلبه، كأنما يقول لها: وكيف تخشيتني عن عائشة وأنا في انتظار أخبار عن خديجة بعد ما كان من نيا الزائرات الثلاث؟... ثم تسأل ليستوثق مما سمع:

- عائشة؟

- نعم يا سيدي...

ونظر السيد أمامه في ضيق، ثم قال وكأنه يجثث نفسه:

- قررت من زمن بعيد أن هذا سابق لأوانه... فقالت المرأة في عجلة أن يظن بها معارضة لرايه: - إنني أعلم رايك يا سيدي، ولكن يجب أن أطلعك على كل شيء يدور بيننا...

تفحصها الرجل ببصر حاد كأنه يسبر ما في قولها من صدق وإخلاص ولكن لمحت عيناه بخاطر طارئ حال بينه وبين تفحصها، فتسأله في اهتمام وقلق:

- ترى لهذا علاقة بالسيدات اللاتي زرتك؟

- كيف يطلب هذا الضابط يد عائشة بالرغم من أن أحدًا لم يرها؟  
فقال بحماسة وقلبا يرتجف:  
- قلت يا سيدي لعلهم سمعن عنها.  
- ولكنه يعمل في قسم الجليالية أي في حينا، وكأني من أهله.

فقال الأم في تأثر شديد:  
- إن عين رجل لم تقع على إحدى ابنتي منذ انقطاعها عن المدرسة في سن الطفولة.  
فصرب كفا بكف وصاح بها:  
- مهلاً... مهلاً... هل حسبتني أشك في هذا يا ولية؟ لو شككت فيه بأشبهني القتل!...

إنما أتحدث عما يجري في عقول بعض الناس ممن لا يعرفوننا، وإن عين رجل لم تقع على إحدى ابنتي... ما شاء الله، وهل كنت تريدني أن تقع عين رجل عليها؟... يا لك من مجنونة مهذرة، إنني أردت ما قد تشبع به ألسنة السفهاء من الناس، أجل... إنه ضابط الحية، يسير في شوارعنا صباح مساء فلا يبعد أن يقوم عند البعض ظن احتمال رؤيته لإحدى الفاتنتين إذا حلما بزواجه منها... لا أحب، لا أريد أن أعطي ابنتي لأحد لثير الشبهات حول سمعي، بل لن تنتقل ابنتي إلى بيت رجل إلا إذا ثبت لدي أن دافعه الأول إلى الزواج منها هو رغبته الخاصة في مصاصتي أنا... أنا... أنا... ولم تقع عين رجل على إحدى ابنتي... مبارك... مبارك... مبارك يا ست أمينة.

وأصفت الأم دون أن تنبس بكلمة فساد الصمت الحجرة، ثم نهض الرجل فأذنبا عيونه بأنه سيشرح في ارتداء ملابس استعداداً للعودة إلى الدكان فبادرت بالقيام، ونزع السيد ذراعيه من الجلباب ورفع له ليخلعه، ولكنه توقف قبل أن يجهز طاقة الجلباب ذقنه، وقال للجلباب مكرم فوق منكبه كلبدة الأسد:

- ألم يقدّر سي فهمي خطورة الطلب الذي تقدّم به صديقه؟...  
(ثم عرّك رأسه في أسف)... يحسدني الناس على

أرادت أن تقول «ولعلّ تقديم واحدة دون الأخرى وتحدّ لدين ما سمعن عن جمال الصغرى» ولكنّها أمسكت خوفاً من مضاعفة غضبه من ناحية، وإشفاقاً من الجهر بهذه الحقيقة التي ترتبط في ذهنها بألوان قاتمة من الفلق والأسى من ناحية أخرى، فلمسكت مكتفية بإتمام الحديث بإشارة من يدها كأنها تقول «والخ الخ» وحجج السيد إليها بنظر حادّ حتّى غصّت الطرف استخداها، وانقلب إلى حال من الامتناع والحزن كتفت الغضب في صدره فمضى يفرع أضلعه يروم متنفساً أو ينفذ صرخة، ثمّ صاح بصوت عاصف:  
- عرفنا كلّ شيء، ها هو ذا عريس يتقدّم طالباً يد ابنتك فاسمعيني رأيك؟...

شعرت بسؤاله يستلججها إلى حضرة لا قرار لها فقالت بلا تردد وهي تبسط راحتها في تسليم:  
- رأي رأيك يا سيدي ولا رأي لي غيره...  
فصاح في زعجرة:

- لو كان الأمر كما تقولين ما فاضحني في الأمر.  
فقال في لهجة ملهوجة وإشفاق:  
- ما حدّثتك يا سيدي إلا لأخبرك عما جدّ في الأمر، لأنّ واجبي يقضي عليّ بأن أطلعك على كلّ ما يتصل ببيتك من قريب أو بعيد...  
فهزّ رأسه في حقن قائلاً:

- من يدري. إي والله من يدري... ما أنت إلا امرأة، وكلّ امرأة ناقصة عقل، والزواج خاصّة يفتكّن عن الرشد، فملكك...  
فقاطعه بصوت متهدج:

- سيدي أموز بالله عما تظنّ بي، إنّ خديجة ابنتي ومن لحمي ومن عظمي كما هي ابنتك... وإنّ حكيها ليفتّ كبدي، أمّا عائشة فما تزال في قول ربيها ولن يضرها أن تنتظر حتّى يأخذ الله بيد شقيقتها.

فراح يحسّ براحته على شاربه الغليظ بحركة عصبية حتّى توقف فجأة، كأنها تدعّر أمراً وتساؤل:

- هل علمت خديجة؟  
- نعم يا سيدي.  
فلوّح بيده غاضباً وهو يصيح:

نقار بريء، وإلى هذا وذلك كان إحساسه الباطني بأنه نصف أخ فقط يقعده عند مواجهة الخطير من شئون الأسرة الحساسة عن إبداء الرأي الخلقى بجرح أحد من أفرادها... ولم تكن عائشة قد نبست بكلمة فقصرت نفسها على الكلام قسراً أن يشي صمتها بالأمها التي صممت على إخفائها والتظاهر بعدم الاكتراث لما مهما سلمها ذلك من عذاب وتوتر، بل أجمعت على إعلان الارتياح بجمارة لجو البيت الذي لا يعترف للعواطف بحق من حقوقها... والذي تُدارى فيه أهواء القلوب بأقنعة الزهد والرياء، فقالت:

- لا يصح أن أتزوج قبل خديجة، والخير كل الخير فيما يجرى أبي (ثم مبتسمة)... لماذا تتمجلون الزواج؟... ومن أداركم بأننا سنحظى في بيوت الأزواج بحياة سعيدة كالتي نحظى بها في بيت أبينا؟! ولما تواصل الحديث كشأنه كل مساء حول المداناة لم تمسك عن الاشتراك فيه بما وسعها قوله بالرغم من شرود ذهنها وتشتت نفسها، وكما في الواقع شابهت الدجاجة المدبوحة التي تتدفع مبسوطة الجناحين - كأنها تنتفض حيوية ونشاطاً - على حين يتدفق الدم من عنقها مستصفاً آخر قطرات الحياة.

على أنها توقعت هذه النتيجة قبل عرض الأمر على أبيها، أن لا ثمة غامض داهب أحلامها كما يداهنا الأمل في كسب النمرة الأولى في البانصيب الكبير... وقد تطوَّعت أول الأمر للمعارضة في زواجها مدفوعة بالرغبة الظنن والسعادة، وبالمعطف على شقيقتها السيئة الحظ، الآن خدمت الأرمية ونضب المعطف، فلم يبق إلا الامتناع والسخط والباس. ليس لها من الأمر شيء. هذه إرادة الأب ولا معقب لها، وما عليها إلا الإذعان والاستسلام، يل عليها أكثر من هذا الرضى والارتياح، لأنَّ عض الوجوم ذنب لا يقض، أما الاحتجاج فإثم لا يطيقه أدبها وحيائها. أفادت من سكرة السعادة الغامرة التي انتشت بها يومًا ولبلة على ياس مظلم، ما اكتف الظلمة نحيء عقب النور الباهر، في تلك الحال لا يقتصر الألم على الظلمة الراهنة، ولكنه يضاعف مرَّات ومرَّات بالحسرة على

إنجاب ثلاثة ذكور، والحق أني لم أنجب إلا أنثاً... خمس إنثاء...

## ٢٦

على أثر مغادرة السيد للبيت ذاع رايه في خطبة عائشة، ومع أنه قبول بتسليم عام - تسليم من لا حيلة لهم سوى التسليم - إلا أنه كان متباين الصدى في النفوس، أسف فهمي للخبر، وساءه أن تفقد عائشة زوجاً صالحاً مثل صديقه حسن إبراهيم، أجل كان قبل أن يبت أبوه في الأمر مترقداً بين التحمس للمريس المتقدم وبين المعطف على موقف خديجة الدقيق، فلما أن قضى الأمر واستراح جانبه المشفق على خديجة أسف جانبه الآخر الراضب في سعادة عائشة وامكنه أن يجهر برأيه فقال:

- لا شك أن مستقبل خديجة يمتنا جميعاً ولكنني لا أوافق على الإصرار على حرمان عائشة من الفرص الحسنة التي تتاح لها، الحظ غيب لا يعلمه إلا الله، ولعل الله يدبر للمناظر حظاً لو فر من المتقدم.

ولعل خديجة كانت أشد الجميع شعوراً بالخرج لوقوفها للمرة الثانية عثرة في سبيل أختها، لم تكن تفكر في الخرج وهي تحت المطرقة، ولكن حين ثا إليها رأي أبيها الحاسم، وتفهم الخطر الذي يتهدما، زایلها الحزن والألم وحلَّ محلها شعور أليم بالحجل والخرج، ومع أن حديث فهمي لم يترك في نفسها أثراً حسناً لأنها طمعت في أحياها أن نجد من الجميع حاماً لرأي أبيها وأن تبقي هي الوحيدة المعارضة له، إلا أنها قالت معلقة عليه:

- صدق فهمي فيما قال، وكان هذا رأيي دائماً... فعاد ياسين يؤكد رأيه السابق قائلاً:

- الزواج مصير كل حي... لا تخافوا... ولا تجزعوا...

قنع هذه المرة بالكلام على ولعه بعائشة وشدة استيائه لما حاق بها من ظلم، ولكنه خاف أن يعلن رأيه صراحة أن تسيء خديجة فهمه أو تظن أن ثمة علاقة بين هذا الرأي وبين ما ينتشب بينهما كثيراً من

وارتفع لها هذا العذاب كله، ومع أنها كانت مثالة حاتقة ساخطة إلا أن ألمها وحنتها وسخطها وقفت عند شخص أبيها وارتدت عنه خالبة ارتداد الوحش المائج إذا اعترضه مروضه الذي يحبه وشغفه، لم يسمعها أن تحمل عليه، ولو في أحياق سريرتها، وظل قلبها على ولائه وحبه فلم تضمر له إلا الإخلاص والوفاء كأنه إله لا يجوز أن تقابل قضائه إلا بالتسليم والحب والوفاء.

شدت الصغيرة ذاك المساء حول اليأس حول عنتها الرقيق فآمن قلبها المتفتح بأنه نضب وأجذب إلى الأبد، وضاعف من توتر أعصابها الدور الذي صممت على أن تحمله بينهم، دور البشر واللامبالاة وما سامته نفسها من المشاركة في سمرهم حتى نامت هامتها الدحية بحمله، وانقلبت الأصوات في أذنها وفرا، لما جاء وقت الانسحاب إلى حجرة النوم حتى مضت في إحياء كاللغز، وهناك في أمن من ظلمة الحجر تحبهم وجهها لأول مرة وعكس صورة صادقة من قلبها.

بهد آله حتى بها رقيب - عذبية - أبقت من بادئ الأمر أن تصعما لن يجدي معها شيئا وقد نحاتت في المجلس نظرانا أما الآن - إذ جلست إليها - فلا مهرب منها ولا مفر. وتوقعت أن تهجم الفتاة على الموضوع بعنادها المعروف، وانتظرت تسلك صوبها إلى أذنها بين لحظة وأخرى، ورغب قلبها بالحديث، لا لأنه سيمت رجاء جديدا، ولكن لأنها أملت وراء الاعتذار والحرج اللذين ستملها الفتاة صادقة حثيا شيئا من العزاء. ولم يطل الانتظار لها لبث أن جامها الصوت يشق الظلمة قائلا:

- عائشة، إلي حزينة آسفة، ولكن علم الله لا حيلة لي، وكم وددت لو تواتني الشجاعة فأرجو أبي أن يعدل عن رأيه.

وتساءلت هي وراء هذا الكلام من صلق أو رياء منفعة بثورة حتى ثارت بها لدى سماع النبرات الأسيفة مباشرة، وكتبها اضطرت إلى العودة إلى استعادة النبرات التي ظلت تتحدث بها في مجلس أمها فقالت:

- يوم الحزن والأسف، ما أخطأ أبي وما ظلم ولا

النور الذاهب وتساءل نفسها إذا كان ثمة نور أمكن أن يضيء مليا فليأذم لم يواصل الضياء، لماذا يغيب، لماذا غبا، فتكون حسرة جديدة تنضم إلى بقية الحسرات التي ينسجها الحزن حول قلبها منتزعا إياها من ذكريات الماضي وواقع الحال وأحلام المستقبل، وعلى إغرائها في التفكير في هذا كله وحضوره - تيمنا لذلك - في شعورها فلما تعود تتساءل وكانت تتساءل لأول مرة، وكان الحفيظة الكزة ترتطم بشعورها للمرة الأولى: هل حقا غبا النور؟!

هل تمزقت الأسباب بينها وبين الشاب الذي ملأ قلبها ونياها؟!

سؤال جديد رغم تكراره، وصلمة جديدة رغم نفاذها إلى المظلم، فلك أن الحسرة الكاوية لا تنفك يتنازعها اليأس المستقر في الأحياق والأمال المتطيرة في الهواء كلما تطاير منها شعاع الأمل المتطاير، ثم تعود تستقر في الأحياق، ثم تطفر مرة أخرى، وثالثة، حتى تأوي إلى مستقرها - وقد وقعت النفس آخر آمالها - فلا تناديه إلى الأبد، انتهى كان لم يكن، لا سبيل إليه أبدا، ما أمون الأمر عليهم، عاجله كما يعالجون أمور يومهم العادية مثل ماذا نأكل غذا، أو حلمت ليلة أمس حلما غريبا، أو رائحة الياسمين تملا جو السطح، كلمة من هنا... كلمة من هناك... واقتراح يعلن ورأي يسط، في هدوء وحلم غريين، ثم تمزية بناسمة، وتشجيع كأنه الدصابة. ثم تغير الحديث وتشعب، انتهى كل شيء، وأدرج في التاريخ الذي تنزل عليه الأسرة النسيان. أين قلبها من هذا كله؟... لا قلب لها، لا يتصور وجوده أحد، لا وجود له في الواقع، ما أشد غريتها، ضالمة مفقودة، ليسوا منها وليست منهم، وحيلة منبوذة مقطوعة الصلات، ولكن كيف تنسى أن كلمة واحدة لو جاد بها لسان أبيها، كانت تكفي لتغيير وجه الدنيا وخلقها خلقا جديدا؟... كلمة واحدة لا أكثر، لا تزيد عن لفظة «نعم» ثم تحدث المعجزة، لم تكن لتكلفه إلا عثر ما تكلف من جهد في المناقشة الطويلة التي انتهت إلى الرفض. ولكن لم تجر بذلك مشيئة،

- أريد أن أعرف هل تتركان بيتنا إذا تزوجتما؟  
فصاحت به خديجة:  
- انتظر حتى يحين الزواج!  
فساءل في عناد:  
- ولكن ما هو الزواج؟  
- كيف أجيبك وأنا لم أتزوج... اذهب ونم الله لا يسيتك...  
- لن أذهب حتى أعرف.  
- يا حبيبي توكل على الله وفارقنا.  
قال بصوت حزين:  
- أريد أن أعرف هل تغادران البيت إذا تزوجتما؟  
فقالت في ضجر:  
- نعم يا سيدي... ماذا تريد أيضًا؟  
فقال في جزع:  
- إذن لا تتزوجا... هذا ما أريد...  
- سمعًا وطاعة...  
فعاد يقول في احتجاج ناثر:  
- أنا لا أطيق أن تذهبا بعيدًا عنا وسادمو الله ألا يزوجكما...  
فهتفت:  
- من فمك لباب السبا... حال... حال...  
رنا يكرمك. تفعل فارقنا مع السلامة...

## ٢٧

سرى في البيت شعور بأنه يستقبل من حياته المرحقة بالتزمت يوم راحة يستطيع - إذا شاء - أن يستريح فيها نسمة من الحرية البرية في أمن من الرقيب. فظن كمال أنه خدا في حل من أن يقطع اليوم كله في اللعب داخل البيت أو خارجه، وتساءلت خديجة وعائشة ألا يمكن أن تنسلا ساء إلى بيت مريم لقضاء ساعة في هو ومرح؟ لم تحي هذه الراحة نتيجة لانقضاء شهور الشتاء الكال وحلول بشار الربيع ملوثة بالدفء والبشاشة، إذ ليس من شأن الربيع أن ييب هذه الأسرة حرة يمررها إياها الشتاء، ولكنها جاءت نتيجة طبيعة لسفر السيد أحمد إلى بور سعيد في مهمة تجارية تدعوه كل

داعي للمجلة!

- هذه ثاني مرة يؤجل زواجك بسبي!  
- لست آسفة مطلقًا.  
فقالت خديجة بلهجة ذات مغزى:  
- ولكن هذه المرة غير المرة الأولى.  
أدركت الفتاة ما وراء هذه الكلمات بسرعة البرق، فحقت قلبها خفقان اللوعة والحسرة، ويكى وذًا وحبًا، ذلك الحب الكامن يثار بالإشارة تحيته من الخارج عفواً أو قصداً كما يثار الجرح أو الدقل باللمس والشك، وهمت بالكلام ولكنها أمسكت مضطرة لأن أنفاسها لم تسعفها خفاف أن تفضحها نبراتها، وعند ذلك تنهدت خديجة قائلة:  
- لهذا تمديدني في غابة الحزن والأسف، ولكن رنا كريم، وما شدة إلا وبسدها الفرج، فعسى أن ينتظر ويصبر ويكون من نصيبك بالرغم مما بدا.  
وهتفت جوارحها: وما ليش... أنا لسانها فقال:  
- سنان عني، الأمر أبسط مما تتظن.  
- أرجو أن يكون كذلك... إني جد حزينة وآسفة يا عائشة.  
وفتح الباب فجأة وبدا شبح كمال في الشعاع الخافت الذي تسلك من فرجة الباب فصاحت به خديجة في ضيق:  
- لماذا جئت؟ وماذا تريد؟  
فقال الغلام بصوت يشي باحتجاجة على سوء مقابلتها له:  
- لا تهبري... وأفسحي...  
ووثب إلى الفراش وركع بينهما، ثم دس يدا إلى واحدة ويذا إلى الأخرى، وراح يدغدغهما ليهن لحدته جسرا طيبا غير الجو الذي أنذرت به نبرة خديجة، ولكنها تترتا يديه، وقالتا بصوتين متابعين:  
- أن لك أن تنام، فاذهب ونم.  
ولكنه هتف في غيظ:  
- لن أذهب حتى أعرف ما جئت أسأل عنه!  
- ثم تسأل في هذه الساعة من الليل؟  
فقال مغفرا لهجة حتى تسجيبا له:

استجاب قلبها للنداء، ولا كيف تطلّع بصرها إلى ما وراء الحدود المحرّمة، ولا كيف تراءت المغامرة ممكنة بل مغرية بل طاعية، أجل بدت زيارة الحسين عزيرًا قويًا - له صفة القداسة - للطفرة اليسارية التي نزعت إليها إرادتها، ولكنّها لم تكن وحدها التي تمخّضت عنها نفسها إذ لبّت دعاءها في الأحراق تيارات حبسية متلفنة على الانطلاق كما تلقي الفرائز المتعكّشة للقتال نداء الدعاه إلى الحرب بحجة الدفاع عن الحرّية والسلام. ولم تُثر كيف تعلن عن استسلامها الخطير، ولكنّها نظرت إلى ياسين وسألته بصوت منهّدج:

- زيارة الحسين منية قلبي وحياتي... ولكن...

أبوك؟

فضحك ياسين قائلاً:

- أي في طريقه إلى بورسعيد ولن يعود قبل ضحى الغد، وبوسعك - زيادة في الحيلة - أن تستعيري ملاءة أم حنفي اللثّ حتى إذا اتّفقت أن رآك أحد وأنت تغادرين البيت أو وأنت تعودين إليه ظنك زائرة... وردّت حينها بين الأبناء في خجل وبهيج كأنها تشدّ المزيد من التشجيع، فتحتست خديجة وهائشة للاقتراح، وكأنها تمترّبان بحساسها عن رغبتهما الحبيسة في الانطلاق، وفرحتهما بزيارة مريم التي باتت - بعد هذا الانقلاب - في حكم المقرّر، وهض كمال من أمهات قلبه:

- سأذهب معك يا نينة لأدلك على الطريق...

وحدها لمهي بنظرة عطف آثاره في نفسه ما طالعه في وجهها البريء من سرور حال كرور الطفل إذا مُني بلعبة جديدة فقال لها في تشجيع واستهانة:

- ألقى نظرة على الدنيا، لا عليك من هذا فلائي أخاف أن تنسي المشي من طول لزومك للبيت... وفي فورة الحساس جرت خديجة إلى أم حنفي ثم عادت بملامتها، وتزاحمت الأصوات بالضحك والتعليق، فغدا اليوم عيدًا سعيدًا لا عهد لأحد به، واشترك الجميع - وهم لا يدرون - في الثورة على إرادة الأب الغائب. والتعتّ الست أمانة في الملاءة وأسدت البقع الأسود على وجهها، ثم نظرت في المرأة فلم

عدّة أعوام إلى السفر يومًا أو بعض يوم، واتّفقت أن سافر الرجل صباح الجمعة فجمعت العطللة الرسمية بين أفراد الأسرة... ومجاوبت رغباتهم الظمأى إلى الحرّية في البحر الطليق الآمن الذي خلقه على غير انتظار رحيل الأب عن القاهرة كلّها، بيد أنّ الأم وقفت من رغبة الفتاتين وجماع الغلام وقفة المتردّد، لأنّها كانت تحرص على أن تواظب الأسرة على سيرتها المألوفة، وإن تلتزم - في غياب الأب - الحدود التي تلتزمها في حضوره خوفًا من مخالفتها أكثر منها اقتناعًا بوجاهة شدّة وصرامته، ولكنّها ما تدري إلاّ ياسين يقول لها:

- لا تعارضي بالله... إنّنا نحيا حياة لا يحياها أحد من الناس، بل أريد أن أقول شيئًا جديدًا... لماذا لا تروحين عن نفسك أنت؟... ما رأيكم في هذا الاقتراح؟

وتطلّعت إليه الأعين في دهشة ولكنّ أحدًا لم ينس بكلمة، ولعلمهم - كأنهم التي رمته بنظرة تأنيب - لم يحملوا قوله عمل الجدل، إلاّ أنّه استطرد قائلاً:

- لماذا نظرين ليّ هكذا؟... لم أخطئ في البخاري، وليس ثمة جريمة والحمد لله، ما هو إلاّ مشاور قصير ترجمين منه وقد ألقيت نظرة على جزء صغير من الحمي الذي عشت فيه أربعين عامًا دون أن تري منه شيئًا...

فتنهّدت المرأة متممة:

- ساعك الله...

فحققه الشاب قائلاً:

- غلام يساعني؟... هل اقترلت ذنبي لا يُغتفر؟ والله لو كنت مكنالك لمضيت من توي إلى سيلنا الحسين ألا تسمعين؟... حبيك الذي تهيمن به على البعد وهو قريب، قومي إنّك يدعوك إليه..

وخفق قلبها خفقانًا لاحت آثاره في احمرار وجهها فخفضت رأسها لتخفي تأثيرها الشديد، انجذب قلبها إلى الدعاء بقوة تفجّرت في نفسها فجأة على غير انتظار لا منها ولا من أحد من حولها حتى ياسين نفسه، كأنما زلزال قد وقع بأرض لم تعرف الزلازل، فلم تدرك كيف

يكن أقصر الطرق إلى جامع الحسين إلا أنه كان لا يمر - كطريق النخاسين - بدكان السيد فضلاً عن خلوه من الدكاكين وانقطاع المارّة عنه إلا فيما ندر، وتوقّعت لحظة قبل أن توغل فيه، والتفتت صوب المشرّبة فرأت شبحي ابتيتها وراء ضلّقة منها بينما رفعت ضلّقة أخرى عن وجهي ياسين وفهمني الباسمين، فاستملت من منظرهما شجاعة استعانت بها على ارتباكها، ثم جلّست في السر - هي وغلّامها - يقطعان الدرب المغفر في شيء من السطمانينة، لم يغب عنها القلق ولا الإحساس بالذنب وليكنّها تراجعاً إلى حاشية الشعور الذي احتلت مركزه عاطفة استطلاع حسّية نحو الدنيا التي يترامى لها درب من دروبها وميدان من ميادينها وضرائب من مبانها وعديد من أناسها، ووجدت سروراً سافجاً لمشاركة الأحياء في الحركة والانطلاق، سرور من قضت ربع قرن سجنه الجدران ما عدا زيارات معدودات لأنّها في الخرنفش - يضع مرّات في العام - تقوم بها داخل حنطور بصحبة السيد فلا تسعفها الشجاعة حتّى لاستراق النظر إلى الطريق... وجعلت تسأل كمال عمّا يصادفها في طريقها من مشاهد وأبنية وأماكن، والغلام يجنّدها في إسهاب مزهوّ بغور المرشد الذي يقوم به، فهذا هو قبر قورمز المشهور الذي يجب - قبل الدخول فيه - تلاوة الفاتحة، وقاية من المفاريت التي تسكنه، ولهذا ميدان بيت القاضي بأشجاره الباسقة وكان يسمّيه ميدان وفنن الباشاء مطلقاً عليه اسم الزهر الذي يعلو أشجاره، أو يسمّيه أحياناً أخرى «ميدان شجري» ساحباً عليه اسم بائع الشيكولاتة التركي، أمّا هذا البناء الكبير فهو قسم الجماليّة، ومع أنّ الغلام لم يجد به ما يستحقّ اهتمامه سوى السيف المدلّى من وسط الحديدان إلا أنّ الأمّ ألقت عليه نظرة مليئة بحب الاستطلاع الخليلق بمكان يقيم به الرجل الذي سعى إلى طلب يد عائشة - حتّى بلغا مدرسة خان جعفر الأوّل، التي قضى بها عائلاً قبل التحاقه بمدرسة خليل آغا الابتدائية، فأنشأ إلى شرفها الأثرية وهو يقول في هذه الشرفة كان الشيخ مهدي يلصق وجوهنا بالجدار

تسالك من أن تضحك طويلاً حتّى اهتزّ جلدها، وارتدى كمال بلكه وطربوشه وسبقها إلى فناء البيت، وليكنّها لم تتبعه، ركبتها شعور الرهبة الذي يلازم المواقف الفاصلة، فرفعت عينها إلى فهمي وتسألت:

- ما رأيكم. هل أذهب حقاً؟

فصاح بها ياسين:

- توكلي على الله...

وتقدّمت منها خديجة ووضعت يدها على منكبيها ودفعها برفق وهي تقول:

- الفاتحة أمانة...

ولم تزل تدفعها حتّى أوصلتها إلى السلم، ثم رفعت يدها فنزلت المرأة والجميع في أعقابها... ووجدت أمّ حنفي في انتظارها، فألقت الحادّ على سيّدها - أو بالأحرى على الملاة الملتصّقة بها - نظرة فاحصة، ثم هزّت رأسها هزّة انتقادية، وتقدّمت منها وأعدت لفّ الملاة حول جسمها وعلمتها كيف تمسك بطرفها في الوضع المناسب، فالتفتت لها سيّدها التي كانت ترتدي للملاة اللفّ الأوّل مرّة، وعند ذلك ارتسمت ملامع قائمتها وقدها في تفصيل وسم، تخفيه عادة جلايبها الفضفاضة، فألقت خديجة عليها نظرة إعجاب باسمة وغمزت بعينها لعائشة وأغرقتا في الضحك...

ولافت وهي تمرّ عتبة الباب الخارجي إلى الطريق لحظة دقيقة جفّ لها ريقها فضع السرور في نوبة القلق ووطأة الإحساس بالذنب، وتحركت في بطن وهي قابضة على يد كمال بحال عصبيّة، وبلدت مشيتها مضطربة غلغللة كأنّها عاجزة عن مبادئ المشي الأوّليّة، إلى ما اعتراها من حياء شديد، وهي تتعرّض لأعين الناس الذين عرفتهم من عهد بعيد من وراء خصاص المشرّبة - عمّ حسنين الحلاق ودرويش بائع الفول والفولّي اللّبان ويّومي الشربتي وأبو سريع صاحب القل - حتّى توهّمت أنّهم سيحرفونها كما تعرفهم - أو لأنّها تعرفهم - ووجدت مشقة في تثبيت حقيقة بدنيّة في رأسها وهي أنّ عمّاً منهم لم تقع عليها ملهى الحياة، وعلى تلك الحال عبرا الطريق إلى درب قورمز لآته وإن

يلقي في حضرته ليلة كاملة حتى الصباح، وتقبل ما يخلق به أن يقبله له عند اللقاء من أي الحب والخضوع وما يجدر به أن يقبله عند قدميه من أمانه ورغبته وما يرجوه بعد ذلك عنده من العطف والبركة، تحيل نفسه وهو يقرب منه خافض الرأس ليساله الشهيد برقة «من أنت؟» فيجيبه وهو يقبل يده «كمال أحد عبد الجواد» ويسأله عن عمله فيقول له «تلميذ - ولن ينسى التنويه بصفوته - مبدسة خليل آخاء» ويسأله «ما جاء به في هذه الساعة من الليل، فيجيبه بأنه حب آل البيت عامة والحسين خاصة، فيسم إليه عطفًا، ويدعوه إلى مرافقته في تجواله الليلي، وعند ذلك يبرح له بأمانه جملة قائلًا: «أضمن لي أن ألعب كما أشاء داخل البيت وعجارجيه، وأن تبقى عاتية وعديبة في بيتنا إلى الأبد، وأن تغتير طبع أبي، وأن تمد في عمر أبي إلى ما لا نهاية، وأن آخذ من المصروف قدر كفايتي، وأن تدخل الجنة جميعًا بغير حساب»... هذا وتبار الزائرات الزاحف في بطنه يدفعها رويدًا حتى وجدا نفسيهما في موى الضريح، طالما تلقت أشواقها على زيارة هذا المثنى كما تلقت على حلم يستحيل تحقيقه في هذه الدنيا، ها هي تقف بين أركانه، بل ها هي لصق جدران الضريح نفسه، تشرف نفسها عليه خلال الدروع، وتود لو تترى لتتمل مذاق السعادة لولا شدة ضغط الزحام، وصلت يدها إلى الجدران الخشبية، واقتدى كمال بها، ثم قرأ الفاتحة، وسحبت بالجدران وقبعتها ولسانها لا يني عن الدعاء والتوسل، وقت لو تقف طويلاً أو تجلس في ركن من الأركان لتعبد النظر والتأمل ثم لتعبد الطواف، ولكن خادماً المسجد وقف للجميع بالمرصاد، لا يسمح لواحدة بالتكلم ويحث المباحثات، ويؤجج مندراً بعصاه الطويلة، وهو يدعو الجميع إلى إتمام الزيارة قبل حلول ميعاد صلاة الجمعة، ارتوت من المنهل العذب ولكنها لم تطفئ ظمأها، وهيأت أن يزور لها ظمأ، لقد أهاج الطواف حينها فضجرت عينه وسال وزعر ولن يزال يتشد المزبد من القرب والابتهاج، ولما وجدت نفسها مرغمة على مغادرة المسجد انتزعت نفسها منه

لاقل هفوة، ويركلنا بحداته محسًا أو مستًا أو عشراً كما يحلو له، ثم أوما إلى دكان يقع تحت الشرفة مباشرة وقال بلهجة لم يقب عنها مزمارها وهو يتوقف عن السير «وهذا هم صادق بائع الحلوى»، ثم لم يقبل الترحيح عن موضعه حتى أخذ قرشاً وابتاع به ملبأً أحمر، انعطفا بعد ذلك إلى طريق خان جعفر فلاح لها عن بعد جانب من المنظر الخارجيّ لجامع الحسين، يتوسطه شباك عظيم الرقعة محلى بالزخارف العربية، وتعلوه فوق سور السطح شرفات متراصة كسنة الرمال فتسامت والبشر يسبح في صلوه «سهدنا الحسين؟» ولما أجاها بالإنجاب مضت تقارن بين المنظر الذي تقرب منه - وقد حثت خطاها لأول مرة منذ غادرت البيت - وبين الصورة التي خلقها خيالها له مستعينا في خلقه ببنافج من الجوامع التي في تناول بصرها كجامع قلاوون فوجدت الحقيقة دون الخيال لأنها كانت تنفخ في الصورة طولاً وعرضاً على قدر يناسب منزلة صاحب الجامع من نفسها بيد أن هذا الاختلاف بين الحقيقة والخيال لم يكن ليؤثر شيئاً في فرحة اللقاء التي ثملت بها جوانحها. ودأرا حول الجامع حتى الباب الأخضر ودخلا في زحمة الدخالات. ولما وصلت قدما المرأة أرض المسجد شعرت بأن يدها يذوب رقة وعطفًا وحنانًا، وأنها تستحيل روحًا طائرًا يرفرف بجناحيه في سياه يسطع بجناحيها غرف النبوة والوحي فاغرورقت حينها بالدمع الذي أسعفها للترويح عن جيشان صدرها وحرارة حياها وإيمانها وأرجحية امتنانها وفرحها وراحت تلثم بأعين شديدة مستطلعة، جدرانه وسقفه وعممه وأسطحه ونجفه ومنبره وعجاريه، وإلى جانبها كان كمال ينظر إلى هذه الأشياء من ناحية أخرى خاصة به ترى أن الجامع يكون مزاراً للناس في النهار والمزيع الأول من الليل، وبيتاً من بعد ذلك لصاحبه الشهيد يذهب فيه ويحيى مستعملاً ما فيه من أثاث على نحو ما يستعمل المالك ملكه، فيطوف بأرجائه ويصلي في المحراب ويرتقي المنبر ويعلم النوازل ليشرف على حبه المحيط، وكم غمق حالماً لو ينسوه في الجامع بعد أن يخلق أبوابه فيمكنه أن يلقي الحسين وجهاً لوجه وأن



بكلام اختلطت أسلته بأجودته، وأفاق كيال من الصلعة بعض الشيء فراح يردد حينه بين أمه الملقاة عند قدميه وبين الناس في حال ناطقة بالحروف والاستغاثة ثم ارتمى على ركبتيه إلى جانبيها ووضع كفه على منكبيها وتنادها بصوت تفتت نبراته بحرارة الرجاء ولكنها لم تستجب له فرفع رأسه مقلِّباً حينه في وجوه الناس، ثم صرخ باكياً في نحيب حارّ علا على الضبيّة التي تكتفه حتى كاد يسكنها وتطوّع البعض لمواساته بكلمات لا تفي لها، وانحنى آخرون لسوق أمه مستطلعين بنظرات كمنت ورامها رفبتان: تشدد إحداها السلامة للضبيّة، وتترع الأخرى - في حال اليأس من السلامة - إلى أن ترى الموت - ذلك الحتم المؤجّل - وهو يطرّق باباً غير بابهم، ويتزعج روحاً غير روحهم كأنهم يوقنون أن يقوموا بشبه يروفاً أمّة لاخطر دور قضي عليهم جميعاً أن يخضوا الحياة بلعبة، وصاح أحدهم قائلاً: «صعدنا باب السيّارة الأيسر في ظهرها»، وقال السائق الذي غادر السيّارة ووقف مختنقاً بجوّ الاتهام الذي يطبق عليه ولقد انحرقت عن الطوارىفة فلم استطع أن اتفادى من صدمتها، ولكنّي فرملت بسرعة فجمعت الصلعة خفيفة، ولولا رعاية الله لدمستها... وجاء صوت من المحذّرين إليها قائلاً: «ما زالت تنبّش...» ألهمي عليها فقطعة، وعاد السائق يقول وقد لمح الشرطيّ قائداً يترنّع سيفه بجنبه الأيسر وإثنا صلعة خفيفة... لم تتمكن منها أبداً. إنها بخير... بخير يا جماعة والله... ثم انتصبت قلعة أوّل رجل تقدّم لقصصها وقال كأنما يلقي خطبة «ابتعدوا ولا تمنعوا المسوء... فتحت عينها... بخير... بخير والحمد لله...» كان يتكلّم بابتهاج لا يخلو من زهو كأنه هو الذي رآه إليها الحياصة، ثم تحوّل إلى كيال الذي غلبه بكلمة عصبيّ فاسترسل فيه في اتّفعال لم يجد معه مواساة المواسين، تحوّل إليه وريّت على خنّته بحنان وقال له «حسبك يا بني... أمك بخير... انتظر... حلم ساعدني حل إقامتها... ولكنّ كيال لم يمسك عن البكاء حتى رأى أمه تتحرك فيال نحوها ووضع يراها على كتفه، وعاون الرجل

انتراحاً، وأودعته قلبها وهي توليه ظهرها، ثم مضت حسرى يحدّثها شعورها بأنّها تودّعه الوداع الأخير، بيد أنّ ما طبعت عليه من فتاعة واستسلام أخذها حل ما استسلمت له من الحزن فردّها إلى تمجّل ما ظفرت به من معاذة طارت بها هواجس الفرقاء، ودعاهما كيال إلى مشاهدة مدرسته فمضيا إليها في نهاية شارع الحسين. ووقفا عندهما مليّاً. وليّا أراحت الرجوع من حيث أتت أنذره ذكر العودة بانتهاء الرحلة السعيدة مع أمه التي لم يعلم بمثلها من قبل فأبى التضييق فيها واستهات في اللطاف عنها فاقترح عليها أن يسيرا في السجّة البلديّة حتى الغوريّة، ولكي يقضي حلّ المقاومة التي بدت في صورة تقطيع باسمة من وراء البرقع حلّفها بالحسين فتبكت. واستسلمت لهذه الصغيرة، ومضيا يشقان طريقها في زحمة شديدة وبين تيارات متلاطمة من السائرين في جميع الجهات عمّا لم تجد حشر معشاره في الطريق المهدئ الذي جاءت منه لمعلاها الارتباك، وأخذت تفقد نفسها في اضطراب شامل، ولم تلبث أن شكت إليه ما تلقى من عناء وإحباط، ولكنّ نهالته على إتمام الرحلة السعيدة جعله يصمّ أذنيه عن شكائهما ويشجّعهما على مواصلة السير ويلهيها عن متاعبها بلفت نظرهما إلى الدكاكين والعربات والملاّزة، وهما يقتربان في بطن شديد صوب منعطف الغوريّة، وعند ذلك المنعطف لاح لناظره دكان فطائر فسال لعبه وثبتت عيناه عليها لا تتحوّلان وراح يفكر في وسيلة لإقناع أمه بالدخول إلى الدكان وابتهاج فطيرة، وبلغا الدكان وهولا يزال يفكر، ولكنّه ما يدري إلّا وأمه تفلت من يده فالتفت نحوها في ذهول ورعب دون أن يئني حراكاً ولكنّه على ذهنه ورعبه رأى بجانب عينه - في نفس الوقت تقريباً - سيّارة تفرمل محدثة صوتاً عنيّاً ومرسلة ورامها ذبلاً من الدخان والغبّار فكانت تدوس الملقاة لولا أن انحرقت عنها مقدار شبر، وتعالى صياح وحلثت ضجّة وهرع الناس إلى المكان من جميع نواحي الطريق كما تهرع الصبيّة إلى صفّارة الحارّي ففربوا نحوها حلقة خليطة بدت أعيناً مستطلمة وروعوساً مشرّبة والسنة تهب

الطريق حتى شغقت من الأحايق وخطابت كمال وكأنا  
تخاطب نفسها ديا ربي ماذا حدث؟ ماذا رأيت يا كمال؟  
كأنه حلم مفزع، خيل لي أنني أهوي من حل إلى  
هاوية مظلمة، وأن الأرض تدور تحت قدمي، ثم  
غبت عن كل شيء حتى فتحت عيني على ذلك المنظر  
المخيف، رياه... هل أراد حقاً أن يلعب بي إلى  
القسم؟ يا لطيف يا رب... يا منجي يا رب، متى  
نبلغ بيتنا؟ بكيت كثيراً يا كمال لا دمعت عينيك  
أبداً... جففت عينيك بهذا اللنديل حتى تغسل وجهك  
في البيت... أه.

وتوقفت من السير بعد أن أوشكا أن يطوها طريق  
الصاغة، واعتمدت يدها على منكب الغلام وقد  
تقلص وجهها، فرلح كمال وجهه إليها مترعها وسأله:  
- ماذا بك؟

فأخضت عينها وهي تقول بصوت ضعيف:  
- إني تعب، تعب جداً، لا تكاد تحملني قدمي،  
أدع أول حربة تصادفك يا كمال.

ونظر كمال فيها حوله فلم ير إلا حربة كارو واقفة  
عند باب مستشفى فلاورن فنادى الحوذي الذي يادر  
إلى سوق العربة حتى وقف بها أمامها واقترت الأم  
مها متكة على كف كمال ثم صعدت إلى سطحها  
بمعونته واعتمداً على منكب الحوذي الذي وكأه لها  
حتى ترينت وهي تتهد في إحياء شلده، وجلس كمال  
إلى جانبها. ثم وثب الحوذي إلى المقدمة ونخس الحمار  
بقبضة سوطه فمشى مشية الوليدة والعربة ترتع وراءه  
مطلققة... وتأنعت المرأة متممة وما أشد ألمي،  
عظام كفي تنفكك هذا وكيال يرمقها في جزع  
وقلق... ومرت العربة في طريقها بديكان السيد دون  
أن يعيرها التأناء، ومضى كمال يتطلع إلى الأمام حتى  
لاحظ لعينه مشربيات البيت... لم يعد يذكر من  
الرحلة السعيدة إلا نهايتها المحزنة...

فتحت أم حنفي الباب فأذهلها أن ترى سيدتها  
متربة على حربة كارو، وقد ظلت لأول وهلة أنه زوجها

على إقامتها حتى أمكن بجهد شديد أن تقف بينها في  
إحياء وتصور وقد سقطت عنها الملاءة التي امتدت بعض  
الأيدي لتعيدها إلى موضعها - بقدر الإمكان - حول  
كتفها، ثم قدم لها الفطائر الذي وقعت الحادثة أمام  
ديكانه مقعداً فأقعدوها عليه وجاعها بقبح من الماء  
فجرت جرحه سال نصفها حل عتقا وصلدها  
فمسحت يدها على صدرها بحركة حكيمة وهي تزر  
زفرة عميقة. وجعلت تردد أنفاساً مضطربة بصعوبة  
وتنظر في وجوه المحلقين بها في ذهول وهي تتسائل  
وماذا جرى...؟ ماذا جرى...؟ رياه لماذا تبكي يا  
كمال؟ وعند ذلك اقترب الشرطي منها وسأله هل  
بك سوء يا سيدي؟ وهل تستطيعين السير إلى القسم؟  
فصدم اسم «القسم» عقلها لرجها من الأحايق وهضت  
بفزع - لماذا أذهب إلى القسم...؟ لا أذهب إلى  
القسم أبداً فقال لها الشرطي ولقد صمكت السيارة  
فأوقعتك، فإذا كان بك سوء وجب أن تلحي أنت  
وهذا السائق إلى القسم لتحرير المحضر ولكتبا قالت  
وهي تلهث وكلاً... كلاً... لن أذهب... أنا  
بخير فقال لها الشرطي وتوكدي ثمة تقولين، انهي  
وامشي لئلا إن كان أصابك سوء، ولم تردد عن  
النهوض - مدلوعة بالفزع الذي أثاره ذكر القسم -  
فنهضت وأصلحت ملاءتها ثم سارت تحت الأعين  
المستطلعة وكيال إلى جانبها ينفض من الملاءة ما علق  
بها من تراب، ثم قالت للشرطي وهي ترجو أن تنتهي  
هذه الحال المؤلمة بأي ثمن (إني بخير... (ثم مشية  
إلى السائق... دعوه... لا شيء به، لم تعد تشعر  
بخوف فيما ركبها من خوف، هالما منظر الناس  
المحلقين بها، خاصة الشرطي الذي يتصمهم،  
وارتعدت تحت وقع النظرات المصوبة نحوها من كل  
مكان متحذبة باستهانة بالفة تاريخاً طويلاً من التستر  
والتخفي فتخالبت لعينها فوق هذا الجمع صورة  
السيد وكأنا تفرس في وجهها بعينين ياردينين  
متحجرتين مندوتين بما لا تطيق تصوّره من الشر، فلم  
تأل أن قبضت على يد الغلام وأجهت به صوب  
الصاغة فلم يعترض سبيلها أحد وما غيبتها متعلق

يلجّ عليها من أسئلة إلى حين، وحلا الأم إلى حجرة الفتاتين وأجلساها على الكتبة، ثم سألها فهي قلقاً معذباً:

- تخبريني عَمَّا بك يا نينة، أريد أن أعرف كل شيء.

ولكنّها مالت برأسها إلى السوراء ولم تنبس بكلمة ريثما تسترّ أنفاسها على حين حلا يكاء خديجة وعائشة وأمّ حنفي وكيال حتى فقد فهمي أعصابه فثار بينَ ونهرهن حتى أمسكن، ثمّ جلب كيال إليه ليستجوبه عَمَّا يريد، كيف وقع الحادث، وماذا فعل الناس بالسلق، وهل أخذوكي إلى القسم، وكيف كان حال الأمّ في أثناء ذلك كله، لهذا وكيال يبيح على أسئلته بلا تردد وفي إسهاب، ومن أكثر التفاصيل، وكانت الأمّ تتابع الحديث بالرغم من وهنا فلثا سكت الغلام استجمعت قواها وقالت:

- إني بخير يا فهمي، لا تزجج نفسك، كانوا يريدون أن أنهب إلى القسم فرفضت، ثمّ واصلت السير حتى نهاية الصاغة وهناك خارت قواي فجاء، لا تزجج، سأسرّ قواي بعد راحة قصيرة.

إلا أنّ ياسين عان- إلى انزعاجه للحادث - حرجاً شديداً لأنه كان المشوّل الأوّل عن الرحلة المشوومة - بهذا وصفت بعد الحادث - فاقترح عليها أن يستدوها طبيباً، وغادر الحجرة لتنفيذ اقتراحه دون انتظار لمعرفة رأي الآخرين، وارتعدت الأمّ للذكر الطيب كما ارتعدت من قبل للذكر القسم فربّعت فهمي أن يلحق بأخيه وأن يتيه عن عزمه مؤكدة له بأنّها ستبرأ دون حاجة إلى طيب ولكنّ الشاب رفض الإذعان لرجائها مبيّناً لها أوجه الفائلة المنوطة بجميعه، وفي أثناء ذلك تعاونت الفتاتان على نزح الملامة عنها، وجادتها أمّ حنفي بقلع ماء ثمّ أحاطوا بها جميعاً وهم يفتحصرون بقلق وجهها الذي حلاه الشحوب ويسألونها مراراً وتكراراً عَمَّا تجد، وهي تحاول ما استطاعت أن تتظاهر بالهدوء أو أن تقنع بأن تقول إذا ألجّ عليها الأمّ وثمة ألم خفيف في كفي اليمنى ثمّ تستلرك قائلة ولكن لم يكن من دأج لاستدعاء طبيب، والحق أنّها لم ترتج

يكون قد خطر لها أن تختم رحلتها بجولة في العربة على سبيل اللهو فلاححت على وجهها ابتسامة ولكن إلى لحظة قصيرة إذ ما لبثت أن رأت صبي كيال الحمزتين من البكاء فارتدّنت حينها إلى سيدها في انزعاج واستطاعت هذه المرأة أن تلمس ما تعاني من إعياء فنذّرت عنها أمّة وهرعت إلى العربة هائقة وسقي، مالك، يُعد الشرّ عنك فقال الحوذني وتعيب بسيط إن شاء الله، حاويني على إنزالها وتلقّتها المرأة بين ذراعيها، وسارت بها إلى الدخل وتبعها كيال واجماً عزوئاً، وكانت خديجة وعائشة قد غادرتا المطبخ وانتظرتا في الفناء وكلتاها تفكر في دعابة تلقى بها القادمين فيا راعها إلا أن تطلع عليها أمّ حنفي من الدهليز الخارجي وهي تكاد تحمّل الأمّ حملاً فنذّرت منها صرخة، وهرعت إليها فزعتين وهما تفتضان:

- نينة... نينة... مالك!

وتعاونوا جميعاً على حملها، ولم تكفّ خديجة في أثناء ذلك عن أن تسأل كيال عَمَّا حدث حتى اضطرّ الغلام إلى أن يغمغم في خوف بالغ:

- سيّارة!

- سيّارة!...

هكذا هضت الفتاتان معاً مرّدتين الاسم الذي وقع من نفسيهما موقفاً مفرّقا فاق الاحتمال. فولولت خديجة هائقة وبا خبر أسود... يُعد الشرّ عنك يا نينة! أمّا عائشة فانمقد لسانها وأنحمت في البكاء، ولم تكن الأمّ غائبة عن الوجود وإن كانت من الإحياء في نهاية لهمست على إحيائها رغبة في تسكين اضطرابها:

- إني بخير، لم يحدث سوء، ما بي إلا تعب.

وتنامت الضجّة إلى ياسين وفهمي فخرجوا إلى رأس السلم، وأطلّ من فوق الدرابزين وما لبثا أن نزلوا مهرولين منزوعين وهما يتساءلان عَمَّا حدث، ولم تملك خديجة إلا أن تشير إلى كيال ليجيب بنفسه مشقة من ترديد الاسم الرهيب فالجّه الشابان إلى الغلام الذي جاد يغمغم بحزن وارتباك:

- سيّارة!

ثمّ انتحب باكياً، وتحوّل الشابان عنه مؤجّلين ما

للخوف مطلقاً... والآن دعولي أحمل...  
ومعها يكن من أمر فقد استروحوا نسمة سلام بعد  
أن جئتم منهم الحناجر، وبدا هذا الأثر واضحا بين  
الجماعة خارج الحجره فتمتعت خديجة:  
- فلتنحل بها بركة سيدنا الحسين الذي ما خرجت  
إلا لزيارته.

وكانما نذكر كمال بقولها أمرا هائلا أنسيه طويلا فقال  
بدهشة:

- كيف أمكن أن يقع لها هذا الحادث بعد تبركها  
بزيارة سيدنا الحسين؟

ولكن أم حنفي قالت ببساطة:

- ومن أحرانا بما كان يحدث لها - والعياذ بالله - لو لم  
تتبرك بزيارة سيدها وسيدنا؟

ولم تكن عائشة قد أفانقت من أثر الصدمة فضايق  
صدرها بالحديث وهضت برجاء حاز:

- آه يا ربّي متى ينتهي كلّ شيء كائنه لم يكن!

وعادت خديجة تقول بأسف وحسرة:

- ما الذي ذهب بها إلى الغوريّة؟! لو رجعت بعد  
الزيارة إلى البيت مباشرة لما حدث لها الذي حدث!

فلنق قلب كمال خوفاً وانزعاجاً ونهشم ذنبه لعينه  
جرمة نكراه ولكنّه حاول التملّص من الشبهات فقال  
بلهجة تنم عن لوم:

- أرادت أن تتمشّي في الطريق وهبّا حاولت أن  
أثنيها عن إرادتها.

فحلجته خديجة بنظرة اتهام وهمت بالردّ عليه ولكنّها  
أسكتت إشفاقاً وعطفاً على وجهه الذي علاه  
الاصفرار، ثمّ قالت لنفسها «حسبنا ما نحن فيه  
الآن».

وفتح الباب وغادر الطبيب الحجره وهو يقول  
للشائين اللذين تبعاه:

- ينبغي أن أعودها يومًا بعد يوم حتّى يجهز الكسر،  
وكما قلت لكم لا داعي للخوف مطلقاً.

واقترح الجميع الحجره فرأوا أنهم قاصدة في  
الفراش، مستندة الظهر إلى وسادة مكسورة وراءها ولم  
يكن ثمة تغيير إلا ارتفاع في كتف الفستان فوق منكبيها

لاستعدائه أبداً، لأنّها من ناحية لم تلق طيباً قط - لا  
لحصانة صحتّها لحسب - ولكن لأنّها نجحت دائماً في  
مداواة ما يلزم بها من توتّع أو انحراف بعلّها الخاص  
فلم تؤمن بالطبّ الرسمي، إلى أنّه اقترن في ذهنها  
بالحوادث الخطيرة والخطوب القاصدة، ومن ناحية  
أخرى فقد شعرت بأنّ استدعاء الطبيب من شأنه أن  
يسوّل الأمر الذي تودّ له السرّ والطّي قبل عودة  
السيد... ولم تأل أن أفصحت لأبنائها من مخاوفها،  
ولكنّهم لم يمتسوا في تلك اللحظة الدقيقة إلا بشيء  
واحد، هو سلامتها.

ولم يغيب ياسين أكثر من ريع ساعة لأنّ عيادة  
الطبيب كانت في ميدان بيت القاضي، ثمّ عاد يتقدّم  
الرجل الذي أدخل على الأمّ حال حضوره، وأعطيت  
الخرفة فلم يبق بها معه إلا ياسين وفهمي، وسأل  
الطبيب الأمّ عمّا تشكو فأشارت إلى كتفها اليمنى وقالت  
وهي تزدد رفقها الذي جفّ من الخوف:

- أشعر هنا بأم.

وعلى قلبي إشارتها، إلى ما حلّته به ياسين في  
الطريق عن الحادث جملة، تقدّم لفحصها، وطال وقت  
الفحص في شعور الشائين المتظرين في الداخل،  
وشعور المتظنرات وراء الباب مرهفات السمع خافقات  
القلب، وتحول الطبيب عن المصاية إلى ياسين قائلاً:

- كسر في الترقوة اليمنى، هذا كلّ ما هنالك.

وأحدثت «لفظة» الكسر ارتباكاً في الداخل  
والخارج، وعجب الجميع لقوله «هذا كلّ ما هنالك»  
كأنّ وراء الكسر شيئاً يتسع له احتياهم، على أنّهم  
وجدوا في ذات التعبير، واللهجة التي لقي بها ما  
يفرّج بالطمأنينة فسامل فهمي وهو بين الخوف  
والأمل:

- وهل هو شيء خطير؟

- كلا البتّة، سأعيد العظم إلى سابق موضعه وأشدّه  
ولكن عليها أن تنام بضع ليالٍ وهي قاعلة مستندة  
الظهر إلى وسادة لأنّه سيتعلّر عليها أن تنام على الظهر  
أو الجنبين، وسوف يجهز الكسر وتعود إلى ما كانت عليه  
في ظرف أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر، لا داعي

- خصوصًا إذا قلنا له إِنَّ خروجنًا كان لزيارة سيدنا الحسين.

وردت المرأة حينها الحايثيين بين ياسين وفهمي وتساملت:

- ما عسى أن أقول له؟

فقال ياسين الذي هاضته شدة مسئولته:

- أيّ شيطان أضلني حين نصحت لك بالخروج، كلمة جرت على لساني ولقيتها ما جرت، ولكن هكذا شادت الاقدار لترمي بنا في هذا المأزق الاليم، هل أني أقول لك بأننا سنجد ما نقوله، وأيا كان الأمر فلا ينبغي أن تشغلي تفكرك بما سيكون. دعي الأمر، وحشيك ما قاصيت في يومك من الآم وبخاوف.

تكلم ياسين بحماس وعطف معًا، فصب سخطه على نفسه، وعطف على الآم عطف المثلّم لخالها، ومع أنّ كلامه لم يقدّم ولم يؤخّر إلا أنّه ألّف روحه من شعوره الضيق بالحرج، والضح به في نفس الوقت عمّا عساه يدور في عقول بعض - أو كلّ - من يقفون إلى جانبه فاضنهم عن الإفصاح عنه بأنفسهم إذ أنّ التجربة علّمتهم بأنّه أحيانًا ما يكون السبيل غير السبيل للدفاع عن النفس هو الهجوم عليها وأنّ الاعتراف بالذنب يغري بالصفح بقدر ما يغري الدفاع عنه بالغضب، وكان أخوف ما يخاف أن تنتهز خديجة الفرصة السانحة لتحمّله جهازًا مسئولية ما أدّت إليه مشورته وتضللها سبيلًا إلى مهاجمته فسبها إلى غرضها قاطعًا عليها الطريق، ولم يكذب قلّة فالحق أنّ خديجة كانت حلّ وشك أن تطالبه - بهفته المشوّل الأوّل عمّا وقع - بأن يجد لها مخرجًا، فلما ألقى خطابها استجبت من مهاجمته خاصّة وأنها لا تتجاهه عادة إلا على سبيل النكار لا الكراهة، بذلك تحسّن موقفه بعض الشيء ولكنّ الموقف العام بقي على سواه، وظلّ كذلك حتى خرجت خديجة من صمتها قائلة:

- لماذا لا نذهي أنّها سقطت من السلم؟

فصلّمت إليها أنّها بوجه يتلفّح على النجاة من أيّ سبيل، وقلّبت بين فهمي وياسين وقد لاحت بعينها لمعة أمل، بيد أنّ فهمي تسامل في حيرة:

الأيمن وثق بالرباط الذي تحته، فهرعوا إليها وهضوا: - الحمد لله.

وكم اشتدّ بها الآم والطبيب يعالج الكسر فأنت أنيّا متواصلًا، ولولا ما طبعت عليه من حياء لهرعت عاليًا، ولكن زایلها الآن الآم، أو هكذا بدا، وشعرت براحة نسبية وسكينة، بيد أنّ زوال حدّة الآم مكّنت لعقلها من استئناف نشاطه فاستطاعت أن تفكر في الموقف من مختلف نواحيه وما لبث أن ركبها الخوف فقالت متسائلة وهي تردّد بينهم بصرا زائفًا:

- ما عسى أن أقول لأبيكم إذا رجع؟

اعترض هذا السؤال - ساخرًا متحمّيًا - نسبات الطمأنينة التي سكنوا إليها كما تعرض الصخور الناتئة سبيل سفينة آمنة، على أنّه لم يحنّ مفاجأة لوجههم، بل لعلمه اندسّ في زحمة المشاعر الاليمة التي ورت بها قلوبهم لدى ارتطامها بالخبر ولكنه ضاع في زحمتها فتأجّل حسابه إلى حين، الآن قد عاد ليحتلّ الصدرة من نفوسهم، فلم يجدوا مهربًا من سواجته، ودأوا بحقّ أنّه أشدّ عليهم وعلى آثمهم من الإصابة التي خرجت منها وشيكة الشفاء. وشعرت الآم - للصمت الذي قوبل به سؤالها - بعزلة المذنب إذا تحلّى عنه وفاته حين الكشف بحمته فتمتعت بنبرات شاكية:

- سيعلم حقًا بالحادث، وسيعلم أكثر من هذا بخروجي الذي أقرّ إليه.

ومع أنّ أمّ حنفي لم تكن دون أفراد الأسرة قلقًا ولا أقلّ إدراكًا لخطورة الموقف إلا أنّها أرادت أن تقول كلمة طيبة، تليقًا للجرّ من ناحية، ولأنّها كانت تشعر من ناحية أخرى بأنّ الواجب يقضي عليها - كخدام الأسرة القديمة الآمنة - بالآ تلوذ عند الشدائد بالصمت أن يظنّ بها عدم اكتراث، فضالت وهي أدرى يمد قولها عن الواقع:

- إذا علم سيدي بما وقع لك فلن يسمع إلا أن يتناسى هفوتك حامدًا الله على نجاتك.

وقوبل قولها بالإهمال الذي يستحقّه عند قوم لا تحصى عليهم من حقيقة الموقف. خالية، إلا أنّ كمال آمن به، وقال متحمّسًا وكأنّه يتمّ كلام أمّ حنفي:

- والطبيب؟... سيروحها يومًا بعد يوم وسيقابل  
أبي بالضرورة.

ولكن ياسين أبي أن يغلّق الباب الذي تسكّلت منه  
نسمة أمل حية بأن تستنقذه من آلامه وخوافه فقال:

- تتقّ مع الطبيب على ما ينبغي أن يقال لأبي؟

وتبدلت النظرات بين التصديق والتكليب، ثمّ  
شاع في الوجوه البشر للإحساس المشترك بالنجاة وتغيّر  
الجزء الغائم إلى جوّ بهيج كما تبدو وسط السحاب  
المكفهر فجوة زرقاء على غير انتظار فتنداح بمعجزة  
عجيبة حتّى تشمل القبة الساوية في دقائق معدودات  
ثمّ تضيء الشمس، قال ياسين وهو يتنهد:

- نجونا والحمد لله.

فقال خديجة بعد أن استعادت في الجوّ الجديد  
نشاطها المألوف:

- هل نجوت أنت يا صاحب المشورة...

فقهقه ياسين حتّى اهتز جسمه الضخم وقال:

- أجل نجوت من عقرب لسانك، طالما توقّعت أن

تتمدّ إلى بين حين وآخر لتلسمي...

- ولكنّها هي التي أنقذتكم، ومن أجل الورد يسقى  
العليق...

كادوا ينسون من فرحة النجاة أنّ أمهم طريحة  
الفرش مكسورة الترقوة، ولكنّها هي نفسها كادت أن  
تنسى...

## ٢٩

فتحت هينها فوق بصرها على خديجة وعائشة  
جالستين على الفراش عند قدميها رانيتين إليها بعينين  
يتنازعهما الخوف والرجاء، فتنبّدت ثمّ التفتت صوب  
النافذة فرأت خصاصها ينضج بضوء الفمحي فتمتمت  
كالستغربة:

- تمت طولاً...

فقال عائشة:

- ساعات معدودة بعد أن طلع عليك الفجر دون  
أن يفض لك جفن... يا لها من ليلة لن أنساها  
مهما امتدّ بي العمر...

وعاودتها ذكريات الليلة الماضية من الأرق والالم  
فنطقت عينها بالراء - لنفسها وللفتاتين اللتين سهرتا  
إلى جانبها طول الليل يبدا لهما الألم والأرق - وتحركت  
شفاتها وهي تستعيد بالله بصوت غير مسموع ثمّ  
همست قائلة فيا يشبه الحياء:

- شدّ ما أتعبتكما...

فقال خديجة بلهجة توحى بالدعابة:

- تعبك راحة، ولكن لئالك وأن تصودي إلى

إرعابنا... (ثمّ بنبرات غلبها الشائس)... كيف

هاجيك ذلك الألم المخيف؟... لقد حسبتك

استغرقت في النوم وأنت على أحسن حال، واستلقت

لأنام بدوي، وإذا بي أستيقظ على أنينك، ثمّ لم

تسكي عن أه... أه حتّى مطلع الفجر...

ويملّ وجه عائشة بالتأوّل وهي تقول:

- على أيّ حال أبشري، لقد أخبرت فهمي عن

حالك حين سألتني عن صحتك في الصباح فقال لي إنّ

الألم الذي ابتاك دليل على أنّ العظم المكسور كان

أخذًا في الالتئام...

وجلبها اسم فهمي من جثة أفكارها فتساءلت:

- ذهبوا بسلامة الله؟

فقال خديجة:

- طيبًا، كانوا يؤثون عبادتك ليطمئنتوا عليك

بأنفسهم ولكنّي لم أسمح لأحد بأن يوقظك من النوم

الذي لم تدخله حتّى شيتنا...

فتنبّدت الأمّ في استسلام:

- الحمد لله على كلّ حال، ربّنا يجعل العواقب

سليمة... في أيّ وقت نحن الآن؟...

فقال خديجة:

- كلّها ساحة ويؤذن الظهر...

ودعاهما تأخّر الوقت إلى أن تخفض هينها متفجرة

ثمّ رفعتها فإذا بها تمكسان نظرة قلق، وتتمت:

- لعلّ الآن في الطريق إلى البيت...

وأدركتا من تعني، ومع أنّها شعرتا بديب الخوف

في قلبيها إلّا أنّ عائشة قالت بثقة:

- أملاً به وسهلاً، لا داعي للقلق، اتفقنا على ما

كلّ سلاح - كاسلوب من أساليب الشجاعة السلبية، واستجمعت فكرها لتتجرأ ما يجب قوله بيد أنّ الشك في سلامة تدبيرها لم يزيلها قطّ وتغنّت في أصياق شعورها معلناً عن ذاته بحال من القلق والتوتر وتبدّد الثقة وجامها وقع طرف عصاه على أرض الصالة فغمضت «رحمتك يا ربّ وهونك» ثمّ طلّع بصرها إلى الباب حتّى اعترضه جسمه الطويل العريض، ورأته وهو يدخل مقرباً ملفّياً عليها نظرة متخصّصة من عينه الواسعتين حتّى وقف في منتصف الحجرة وهو يتساءل بصوت خائفه رقيقاً على غير عادته:

- مالك؟ ...

فقالته وهي تغضّ بصرها:

- حدّ الله على سلامتك يا سيّدي، بخير ما دعت بخير...

- لكنّ أمّ حنفي قالت لي إنّك مريضة...

فأشارت بإسرها إلى كفها وقالت:

- أصيب كفتي يا سيّدي لا أراك الله سوّداً...

فتساءل الرجل وهو يتفرّس في كفها باهتمام وقلق:

- ماذا أصابها؟

حمّ الأمر، وجاءت الدقيقة الفاصلة، ما عليها إلا أن تتكلّم، أن تنطق بكلمة النجاة، فتمزّ الأزمة بسلام وتستزبد من العطف المتاح، ورفعت عينها وهي تتولّب، فالتقت عينها بعينه، أو بالأحرى عيناها في عينه، فاشتدّ وجب قلبها، وتناهب بلا رحمة، هناك تبجّر ما جمعت في رأسها من رأي، وانتثر ما كتّته في إرادتها من عزم، ودمشت عيناها في اضطراب وذهول، ثمّ رنت إليه بطرف حائر دون أن تنبس بكلمة، وحجب السيّد لاضطرابها فتصجّلها متسائلاً:

- لماذا حدث يا أمينة؟

لا تدري ماذا تقول، كأنه ليس لديها ما تقوله ولكن بات في حكم اليقين أنّه لم يعد بوسعها أن تكذب، أفلتت الفرصة دون أن تدري كيف، ولو أنّها أعادت المحاولة خرجت من صدرها متبورة مكشوفة، كانت كمن يسير وهو منمّز تنوّماً مغناطيسياً على خبل إذا دُعي إلى إعادة خاطره وهو صابر، وكلّما مرّت الثواني

ينبغي أن يقال وانتهى الأمر...

ولكنّ اقتراب عودته أشاع في نفسها المهزولة القلق فتساءلت:

- ترى هل يمكن التسرّع على ما وقع؟

فقالته خديجة بصوت ارتفعت حدّته بنسبة قلقها للترديد:

- ولمّ؟ ... سنخبره بما تمّ الاتفاق عليه فيمّر الأمر بسلام...

تمتّت في تلك الساعة لو بقي ياسين وفهمي إلى جانبها ليشجّماها، تقول خديجة سنخبره بما تمّ الاتفاق عليه فيمّر الأمر بسلام، ولكن هل يظنّ ما وقع سرّاً مغلفاً إلى الأبد... ألا تجد الحقيقة فرجة تنفذ منها إلى الرجل؟... كم تخاف الكذب بقدر ما تخاف الحقيقة، ولا تدري أيّ مصير يترصّس بها... وردّدت عينها بمطف بين الفتاتين وفتحت فاهما لتتكلّم حين دخلت أمّ حنفي مهزولة وهي تقول بصوت مهموس كأنها تخاف أن يسمع خارج الحجرة:

- سيّدي جاء يا سيّ...

وخفت قلوبهنّ في اضطراب. وجلت الفتاتان عن الفراش في وثبة واحدة ثمّ وقفتا حيال أمّهما يتبادلن جيماً النظر صامتات حتّى غمضت الأم:

- لا تتكلّما أنتما فإني أخاف عليكما منيّة خادعتة، ارتكبا لي القول والله المستعان...

وساد صمت مشحون بالتوتر كالصمت الذي يركب أطفالاً في الظلام إذا فرغ أذانهم وقع أقدام من يظنونهم عفاريت يمجسون في الخارج، حتّى تراسى إليهنّ وقع أقدام السيّد على السلم وهي تقترب فازاحت الأمّ كابوس الصمت بمشقة وغمضت...

- إذا تركناه صعد إلى حجّره لم يجد أحداً!...

ثمّ التفتت صوب أمّ حنفي قائلة:

- أخبريه بأنّي هنا، مريضة، ولا تزيدني...

وازدردت ريقها الجافّ، أمّا الفتاتان فمرتقا من الحجرة مستبقيتين وغادرتاهما وحيدة، ووجدت نفسها وكأَنَّها في عزلة عن العالم كلّهُ فاستسلمت للمقادير، وكثيراً ما يبدو هذا الاستسلام في سلوكها - الأعزل من

جوه المنقبض نُذِر الخوف والوحيد، وتحجرت من أمره لا تدري عن أيّ قضاء يتمخض ولا إلى أيّ مصير يقلف بها، حتى جاءها صوته وهو يقول في هدوء غريب:

- وماذا قال الطبيب؟ ... هل ثمة خطر على الكسر؟!

فالتفت رأسها صوبه بلهول ... أجل توقعت كل شيء إلا أن يجرد بهذا القول اللطيف، ولولا رغبة الموقف لاستعادته لتتركد من صخّة ما سمعت، وغلبها التأثير لظفرت من عينها دمعان غزيران فشددت على شفيتها أن تفحم في البكاء، ثم غمغت في ذلّة وانكسار:

- قال الطبيب إنّه لا داعي للخوف مطلقاً، نجاك الله من كلّ سوء يا سيدي ...

ووقف الرجل بعض الوقت وهو يقاوم رغبة تدعوه إلى المزيد من السؤال حتى تغلب عليها فتحوّل عن موقفه ليفادر الحجرة وهو يقول:

- الزمي فراشك حتى يأخذ الله بيدك ...

### ٣٠

هرعت خديجة وحائشة إلى الحجرة بعد ذهاب والدهما، ووقفنا حوال أمّهما تنتظران إليها بعينين مستظلمتين تنطق نظراتهما بالاهتمام والقلق، ثم لاحظنا احمرار خديجة من أثر البكاء، فوجئنا وتساءلت خديجة وقد استشعر قلبها الخوف والتشاؤم:

- خير إن شاء الله؟ ...

فلم تصدّ الأم أن قالت بإقتضاب وهي ترمش بعينها ارتباكاً:

- اعترفت له بالحقيقة ...

- الحقيقة؟!

- فقلت باستسلام:

- لم يسعني إلا الاعتراف، فما كان من الممكن أن يخفى الأمر عليه إلى الأبد، وحسناً فعلت ...

- فلقدت خديجة صدرها بيدها وهضت:

- يا نهارنا الأسود ...

على حين بهتت عائشة فحملت في وجه أمّها دون

غاضت في الارتباك والهزيمة حتى أثقت على اليأس ...

- لماذا لا تتكلمين؟ ...

ها هي لهجة بدأت تنمّ عن نفاد صبر ولا يبعد أن تفتح قريباً بالغضب، ربّاه لشدّ ما هي في حاجة إلى العون، أيّ شيطان أغواها بتلك الخرجة المشثومة ...

- عجبا ألا تريدن أن تتكلمي؟!

ويات السكوت فوق طاقاتها فتمتعت بصوت متهدج مدفوعة باليأس والفرح:

- أعطت خطأ كبيراً يا سيدي ... صدمتني

سيارة ...

وانصمت عينا السيّد دحشة ولاح فيها انزعاج مقرون بالإنكار ... وكأنه بات يشكّ في صحّة قواها العقلية، ولم تمد المرأة تحتمل التردد وصمّت على أن تبوح باعترافها كاملاً مهما تكن العواقب، كمن يقدم مغامراً بحياته - على إجراء عملية جراحية خطيرة ليتخلص من آلام داه لا يُقِلّ له به، وتضاعف عند ذلك شعورها بفداحة الذنب وخطورة الاعتراف فدمعت عيناها وقالت بصوت لم تُعَرِّ يغضه نبراته الباكّة إمّا لأنه غلبها على صوبها أو لأنّها أرادت أن تبذل محاولة يائسة لاستمرار العطف ...

- ظننت أن سيّدنا الحسّين يدعوني إلى زيارته فليّت ... ذهبت للزيارة ... وفي طريق العودة صدمتني سيارة ... قضاه الله يا سيدي ... ولقد نهضت من سقطني دون معاونة أحد (قالت العبارة الأخيرة بوضوح) ولم أشعر بادئ الأمر بأيّ ألم فحسبني بخير وواصلت السير حتى عدت إلى البيت، وهنا تحرك الألم فأحضروا لي الطبيب ففحص كظفي وقرّر أنّ به كسراً ووعد بأن يمودني يوماً بعد يوم حتى يجبر الكسر، لقد أعطت خطأ كبيراً يا سيدي وجوزيت عليه بما استحقّ ... والله غفور رحيم ...

انصمت السيّد إليها صامتاً جامداً، لم تتحوّل عنها عيناه، ولم يتدّ في وجهه أثر ممّا يتلجج في صدره على حين نكست هي رأسها في تحشّج بحال من يتسظر النطق بالحكم، وطال الصمت، واشتدّ، وشاعت في



أن تنبس بكلمة، ولكنَّ الأمَّ ابستت فيها يشبه الزهو المقرون بالحياء، وتورَّد وجهها الشاحب وهي تستعيد ذكرى العطف الذي شملها به حين لم تكن تتوقَّع منه إلَّا غضبًا كاسخًا يعصف بها وعسقلها... أجل شعرت بزهو وحياه وهي تنهتُ للحديث عن عطف السيد عليها في عنتها وكيف نسي غضبه فيما اعتراه من تأثّر وإشفاق، ثمَّ غمغمت بصوت لا يكاد يسمع:

- كان بي رحيًا أطال الله عمره، أنصت إلى قصتي صامتًا، ثمَّ سألني عن رأي الطبيب في خطورة الكسر وفادرتني وهو يشير عليَّ أن ألزم الفراش حتَّى يأخذ الله بيدي.

وتبادلت الفتاتان النظرات في دهشة وعدم تصديق ولكن زابلها الخوف سريعًا فتهدت في ارتياح عميق وأضاء وجهها بالبشر، وهضت خديجة:

- أرايت بركة الحسين؟

- أرايت بركة الحسين؟

وقالت عائشة بخيال:

- لكل شيء حدود حتَّى غضب أباء، ما كان يسهه أن يغضب وهو يراها على خله الحال، الآن صرنا قيمتها عنده... (ثمَّ هاطبة أمَّها في دعابة)... يا لك من أمَّ محظوظة، هيئًا لك التكرم والمطاف! فعاد وجه الأمَّ التورَّد وقالت يتلثم وحياه:

- أطال الله عمره... (ثمَّ متهددة) والحمد لله على

النجاة!

وتدكرت أمرًا فالتمت إلى خديجة وقالت باهتمام:

- يجب أن تلحقني به لانه سيحتاج إلى خدمتك حتًا...

وشمرت الفتاة - لما يركبها في محضر أبيها من الارتباك والاضطراب - كآتها وقعت في شرك، فقالت عتمة:

- ولماذا لا تذهب عائشة؟

ولكنَّ الأمَّ قالت في عتاب:

- أنت أقدر على خدمته، لا تتلخفي يا شابة إذ رَمَا

يكون في حاجة إليك الآن...

وكانت تعلم أنَّ احتجاجها لن يغي عنها شيئًا كما لا يغي عنها عادة كلَّما دعيت إلى أداء واجب ترى الأمَّ

غير خديجة، ماذا تصنعون لو لم أكن موجودة!

ولكنَّ خيالها تحلَّى عنها بمجرَّد مغادرتها المحبرة وحلَّت محلَّه رهبة واضطراب فعبجت كيف يتأقَّ لها أن تمثّل بين يدي الرجل، وكيف تقوم على خدمته، وماذا تلقى منه إذا تلجلجت أو اعططت! على أنَّ السيد كان قد خلع ملابسه وأرتدى جلبابه بنفسه، ولمَّا وقفت بالباب تسألها عَمَّا هو في حاجة إليه أمرها بأن تصنع له فتجان قهوة، فبادرت تمثّلها ثمَّ قدّمتها له خافضة العينين خفيفة الخطى من الخوف والحياء... ورجعت إلى الصلاة فمكثت بها لتكون رهن إشارة إذا دعاها فلم يفارقها إحساس الرهبة حتَّى تسامت كيف يا ترى يمكث أن تواصل خدمته طوال الساعات التي يقضيها في البيت يومًا بعد يوم حتَّى تنقضي الأسابيع الثلاثة!... وبدا لها الأمر شاقًّا حتَّا وأدركت لأزل مرَّة خطورة الفراغ الذي تسبّب أمَّها في البيت فدعت لها بالشفاء، حبًّا فيها من ناحية ورحمة بنفسها من

ناحية أخرى...

السؤال وكأته لم يعبا بسباع الجواب الذي استتجه مقلّمًا، أو لعلّه أراد أن يسجل عليها الخطأ بلا اكتراث بإقرارها به... ولم يزد بعد ذلك على أن يشير إلى باب الحجرة آذناً لها بالانصراف، وعندما مضى إلى الخارج سمعه يقول غاطبًا نفسه:

- ما دام الله لم يرزني رجلاً فليهيئ الصبر.

ومع أنّ الظواهر دلّت على أنّ الحادث قد هرّ نفس السيّد حقّ غير المألوف من سلوكه تغيّرًا دهش له الجميع إلّا أنّه لم يستطع أن يثني إرادته عن قضاء سهرته الليلية التقليدية... لما جاء المساء حقّ ارتدى ملابسه وغادر حجرته ناشراً بين يديه شداً طيّباً، إلّا أنّه مرّ في طريقه إلى الخارج بحجرة الأمّ وسأل عنها فدعت له طويلاً منّة شاكرة... لم ترّ في ذهابه إلى سهرته - وهي طريحة الفراش - نجائباً للمطبخ، ولعلّها وجدت في مروره بها وسؤاله عنها تكرّماً فلق ما كانت تنتظر، بل أليس مجرد امتناعه عن صَبّ غضبه عليها منتهى لم تكن تحمل بها؟... وكان الإخوة - قبل مبارحته حجرته - قد تساءلوا (وَرَى هل يحصل الليلة عن سهرته؟) ولكنّ الأمّ أجابت قائلة: «ولماذا يبقى بعد أن علم أنّ الحال مطمئنة؟» ولعلّها تمثّت فيما بينها وبين نفسها لو يتمّ نعمت عليها فيعدل عن سهرته كما يليق بزوج أصيبت زوجه بما أصيبت هي به، ولكنّها كانت أدري بطبعه فسبته بانتحال العذر له حقّ إذا انطلق إلى سهرته كما يتوقّع أمكنها - مدارة لوقفها - أن تصوّغ انطلاقه بالعذر الذي انتحلت لا بفلة الاكتراث. ولكنّ خديجة قالت وكيف يطيق السهر وهو يراكم على هذه الحال؟ فاجابها ياسين ولا عليه إذا فعل ما دام قد اطمأنّ عليها، حزن الرجال غير حزن النساء، وذهاب الرجل إلى سهرته لا يتنلق مع حزنه، بل لمعلّ التفرّج عن نفسه واجب عليه ليتسوّى له مواصلة حياته الشاقّة. ولم يكن ياسين يدافع عن أبيه بقدر ما كان يدافع عن رغبته في الانطلاق التي بدأت تتحرّك في أعماقه، إلّا أنّ مكروه لم يجزّ على خديجة فسألته: «هل تطيق أنت مثلاً أن تسهر في قهزوتك الليلة؟» فبادرها قائلاً وهو يلعننا في سرّه:

ومن سوء حظّها أنّ السيّد شعر برغبة في الراحة عقب تعب السفر فلم يذهب إلى الدكان كما كانت تأمل، واضطّرتّ تيمّناً لذلك أن تبقى في الصالة كالسجينة، وفي أثناء ذلك صعدت عائشة إلى الدور الأعلى وتسلّلت إلى الصالة حيث تجلس اختها، دون أن تحدث صوتاً لترتها نفسها وتغمز لها بينهما على سبيل التنديد بها لما لم تعود إلى أمّها تاركة لآبائها وهي تغلّ من الغيظ إذ كان ممّا يغنها أشدّ الحقن أن يمايها أحد بالمزاح وإن لدّها ما هي أن تعاتب الجميع، ولم تستردّ حرّيتها - إلى حين طبعاً - إلّا عندما أسلم السيّد جنبه للنوم فطارت إلى أمّها وأنشأت تحنّنها عمّا قدّمت لأبيها من خدمات حقيقية وروميّة وتصفّ لها ما قرأت في عينيه من أي العطف والتقدير لخدماتها... ولم تنس أن تعرّج على عائشة فتهاك عليها بالزجر والتوبيخ على ما بدا منها من تصرف صبيانيّ، ثمّ عادت إلى الأب بعد استيقاظه فقدّمت له الغداء، وليّما فرغ الرجل من غداءه جلس يراجع بعض الأوراق وقتاً غير قصير ثمّ دعاها إليه وطلب إليها أن تبحث له ياسين وفهمي بمجرد رجوعهما إلى البيت...

وقلقت الأمّ للطلب وخافت أن يكون قد حرّ في نفس الرجل غضب مكظوم وآتاه يروم الآن - في الشائين - متنقّساً عن غضبه، وليّما جاء ياسين وفهمي وعلمها بما كان، ثمّ بلّغها أمر أبيها بمقابلته، دار بخاطرهما ما دار بخاطر المرأة من قبل وذهبا إلى حجرته وهما يتوجّسان خيفة، ولكنّ الرجل غيّب ظنونهما فقد لاقاهما بهوده غير معهود وسألها عن الحادث وظروفه وتقرير الطبيب. فحدّثته طويلاً بما يملكان وهو يصني إليها باهتمام، وفي النهاية سألمها:

- أكتفي في البيت حين خروجهما؟

ومع أنّ هذا السؤال كان متوقّفاً من بادئ الأمر إلّا أنّه وقع من نفسها - بعد الهدوء العجيب غير المنتظر - موقع الانزعاج فخافا أن يكون مقدّمة لتغيير طبقة النعمة التي ارتاسا إليها اريياح النجاة، ولم يسمحا الكلام فلاذا بالصمت... بيد أنّ السيّد لم يلحف في

فربما تساملت تُرى ألم يفقد البيت - أو أحد من أهله - بتخليها عنه شيئاً من نظامه أو راحته؟ وأيّها يا تُرى أحب إليها، أن يبقى كل شيء كما كان بفضل فتاتها. فرس يديها - أم أن يخل شيء من توازنه يكون خلية أن يذكر الجميع بالفراغ الذي خلفته وراءها؟ وهب السيد بالذات استشعر هذا الفراغ فهل يكون ذلك مدعاة لتقليده لاهيتها أو لسخطه على ذنبا الذي ج هذا كله؟ تحيرت المرأة طويلاً بين عاطفتها المستحبة نحو نفسها وعاطفتها الصريحة نحو فتاتها، ولكن المحقق أنه لو اختل شيء من النظام لأحدث لها كراً شديداً، كما أنه لو حافظ على كماله كان لم يطرأ نقص لما خلت من ضيق...

أما الواقع فهو أن فراغها لم يسد أحد، وألب البيت أنه أكبر من الفتاتين على نشاطيه وإخلاصهما... ولم تمرّ الأم لهذا لا في الظاهر ولا الباطن، توارى شعورها نحو ذنبا، ودافعت ع خديجة وحاشية دافعا حاراً صادقاً، ثم ركبها الجنز والألم فلم تعد تطيق صبراً على انزوائها...

## ٣١

وفي فجر اليوم الموعود الذي انتظرت طويلاً هب من الفراش في خفة صبيانية من الفرح كأنها ملك به إلى عرشه بعد نفي... ونزلت إلى حجرة الفرس متدركة عاتبا التي انقطعت عنها ثلاثة أسابيع لناد أم حنفي، واستيقظت للمرأة وهي لا تصلّق أذنيها، نهضت إلى سيدتها فعاتبتها ودعت لها، ثم باشرت ع الصباح في سرور لا يوصف، وعند شروق أول شه للشمس صعدت إلى الدور الأول فتلقها الأبد بالتهان والأقبل، ثم مضت إلى حيث ينضم ك فابقظت، وما فتح الغلام عينيه حتى بهت دهو وفرحاً، ثم تعلّق بعنقه ولكتها باحترق إلى التخلد من ذراعيه برقة وهي تقول:

- ألا تخاف أن تردّ كضي إلى ما كانت عليه؟  
فامطرها قبلاً ثم ضحك متسائلاً في خبث:  
- متى يا عزيزي نخرج معاً مرة أخرى؟

وطيباً لا، ولكن أنا شيء وبابا شيء آخر.

ولما فارق السيد الحجرة أودعها الشعور بالراحة الذي يعقب النجاة من خطر عقق. فتألق عيناها بابتسامه وقالت:

- لعله رأى أن جزائي كفاف ذنبي فعفا عني، عفا الله عنه وعنا جميعاً...

فغرب ياسين كفاً بكفّ وهو يقول عتجا:

- إن رجالاً غيورين مثله، منهم أصلقاء له، لا يرون بأسا في السباح لنسائهم بالخروج كلياً دعت ضرورة أو بجمالة، فما باله يقيم لكفن من البيت سجنًا مؤبداً؟

فلحظته خديجة بهزء وسألته:

- لم تُلّني بدفعاك هذا وأنت بين يديه؟

فانقلب الشاب مقهقها حتى ارتجت كرشه ثم أجابها قائلاً:

- يلزمني مثل أنفك أولاً كي أدافع به عن نفسي عند الضرورة...

وتسامت أيام الرقاد، فلم يماودها الألم الذي هصرها أول ليلة وإن تهّد جذعها وكفها الوجع لأقل حركة تأتيتها، ثم تقدّمت نحو المشفاء بخطوات سريعة بفضل بنيتها القويّة وحيويتها الدافقة التي تكره بطبعها السكون والعمود مما جعل الإذهان لأوامر الطبيب مهمة شاقّة غطى عذابها على آلام الكسر إبان احتدامها، ولعلها لولا تشدّد الأبناء في مراقبتها خفرت وصايا الطبيب وبهضت حبل لأمورها... حل أن رقادها لم يمنحها من نشر الرقابة على شئون البيت من فراشها، ومراجعة الفتاتين بدقة متعبة فيما يعهد إليها به... خاصّة من دقائق الواجبات التي تخاف عليها الإهمال أو النسيان، فتسأل وتلجّ في السؤال وهل نفخت أصل الستائر؟... ونحصاس الشبابيك؟... هل يتحرّرت الحمام لأبيك؟... هل سقطت اللبلاب والياسمين؟

الأمر الذي احتق خديجة مرّة فقامت لها واعلمي أنك إذا كنت تمنين باليت قبراً فإني أعني به أربعة وعشرين... وإلى هذا كله أوردتها تخليها الإجابي عن مركزها المرموق شعوراً معقداً عانت منه كثيراً،

فأجابته بلهجة لا تخلو من عتاب باسم:

- عندما يديك الله فلا تسوقني رغم إرادتي إلى الطريق الذي كدت أهلك فيه...!

وأدرك أنها تشير إلى عتاده الذي كان السبب المباشر فيما وقع لها فضحك ملء فيه ضحك ملذّب وإتته النجاة بعد أن ظلّ ذنبه معلقاً فوق رأسه ثلاثة أسابيع، أجل لشدة ما خاف أن يمرّ التحقيق الذي باشره إخوته إلى معرفة الجاني المستتر، وقد أوشكت الريبة التي سلّتها عليه خديجة حيناً وباسين حيناً آخر تكشفه في الركن المتزوي فيه لولا صمود أمّه في الدفاع عنه وتصدياً لتحمل مسؤولية الحادث وحدها، فلما انتقل التحقيق إلى يدي والده تنامى به الخوف وتوقّع بين لحظة وأخرى أن يدعى إلى مقابله، هذا إلى عذابه - طوال الأسابيع الثلاثة - وهو يرى أمّه المحبوبة طريحة الفراش، شديدة الضياء، عاجزة عن الاستلقاء والنهوض معاً... الآن مضى الحادث، ومضت في أثره عقابيه، وانتهى التحقيق، وعادت أمّه ترقطه في الصباح، وسوف تنيمه في المساء، رجع كلّ شيء إلى أصله، ونشر الأمان الوثيق، فحقّ له أن يضحك ملء فيه وأن يهني ضميره على الراحة المتاحة...!

وغادرت الأمّ الحجرة فصعدت إلى الدور الأعلى، ولما تدانست من باب حجرة السيد ترمى إليها صوته وهو يرعد في صلاته وسبحان ربّي العظيم، فخلق قلبها ووقفت على قيد خطوة من الباب كالترددة، ثم وجدت نفسها تسادل وتدخل لتصبّح أو الأجدر أن تمدّ مائدة الفطور أولاً؟ لا حلّ سبيل التساؤل حقاً ولكن فرائزاً مما شاع في نفسها من الخوف والحجل، أو كليهما معاً، كما يقع للإنسان أحياناً أن يخلق مشكلة وهمية يلوذ بها من مشكلة راحته يشقّ عليه فضها... ومضت إلى حجرة المائدة فاقبلت على العمل ببنائية مضاعفة، ألا أنّ قلقها تزايد، فلم تستطع بجملة التفكير التي اقتنصتها، ولم تجد لها راحة كما أمّلت ولكن عنت انتظار

أشدّ عنتاً من الموقف الذي نكصت عن مواجهته... وعجبت كيف جفّلت من دخول «حجرتها» كأنها كانت تهمّ بدخولها لأول مرة، خاصة وأنّ السيد لم ينقطع عن

زيارتها يوماً بعد يوم في أثناء رقادها، ولكن الحقّ أنّ برهما رفع عنها الحماية التي ضربها حولها المريض فشعرت بأنّها ستلقاه بمفردها لأول مرة منذ كشفت خطيتها... ولما جاء الأبناء تباعاً خفّت وحشتها قليلاً، وما لبث أن دخل السيد الحجرة في جلبابه الفضفاض ولكن لم يثدّ في وجهه أثر لئس رؤيتها، وقال يهدوء وهو يتجه إلى مكانه في المائدة:

- جئت؟ (ثمّ خاطباً الأبناء وهو يتخلّد بجمسه)... اجلسوا...

وأخذوا في تناول فطورهم على حين وقفت هي بكانها المعتاد، ومع أنّ الخوف تنامى بها حال دخوله إلا أنّها مضت تستردّ أنفاسها بعد ذلك، أي بعد أن تمّ أول لقاء بعد الشفاء ومرّ بسلام، وشعرت عند ذاك بأنّها لن تجد مشقة في الانفراد به في حجرته حيناً قليل... وانقضت المائدة فعاد السيد إلى حجرته، ولحقت به بعد دقائق حاملة صينية القهوة التي وضعتها على الحوان وتحتّ جانباً في انتظار فراغه من احتساؤها لتساعده على ارتداء ملابسه. وحسب السيد قهرته في صمت عميق، لا ذاك الصمت الذي يقع هفواً أو كالراحة عقب التعب أو كفضاء لصدر فارغ من شجون الحديث، ولكنه صمت صامت مسرّب بالتمدّد، ولم تكن تعدم أملاً - ولو ضئيلاً - في أن يتعلّف عليها بكلمة رفيقة، أو في الأقلّ أن يلتمّ بشأن من شجون حديث المعتاد في مثل هذه الساعة من الصباح، فحيرها صمته المتعمّد وعادت تسائل نفسها ألا يزال بنفسه شيء، وأخذ القلق ينشب لبسه في قلبها مرة أخرى، حلّ أنّ الصمت الغليظ لم يمتدّ طويلاً... كان الرجل يفكر في سرعة وتركيز لم يلق معها طمئناً، لا ذاك التفكير الذي ينبعث من وحي الساعة، ولكن آخر عنيداً قديماً لم يزايل نفسه طوال الأيام المتقضية... وأخيراً تساءل دون أن يرفع رأسه عن فنجال القهوة الفارغ:

- استرددت صحتك؟

فقال أمينة بصوت خفيض:

- الحمد لله يا سيدي.

فاستطرد الرجل قائلاً بهراة:

- إني أعجب - وهيأت أن ينتهي لي عجب - كيف

أقدمت على فعلتك!

فدق قلبها بعنف وأطردت في وجوم... لم تكن تطيق غضبه وهي تدافع عن خطي ارتكبه غيرها فكيف بها الآن وهي المذنبة!... وعقل الخوف لسانها ولكته بانتظار الجواب وأصل حديثه متسائلاً في استنكار:  
- أكنت غمدوها بك طوال هذه السنين وأنا لا أدري؟

عند ذاك بسطت راحتيها في جنزع وألم وهمت بأنفاس مضطربة:

- أعوذ بالله يا سيدي، إن خطي كبير حقاً ولكني لا أستحق هذا القول.

ولكن الرجل واصل حديثه يملؤه الرهيب الذي يهون إلى جانبيه الزميق قائلاً:

- كيف اقترفت هذا الخطأ الكبير!... ألاي أبتعدت عن البلد يوماً واحداً؟

فلالت بصوت منهذج وشت نبراته بالرجفة التي ملكت جسمها:

- أخطأت يا سيدي، وعندك العفو، كانت نفسي تتوق إلى زيارة سيدينا الحسين، وحسب أن زيارته المباركة تشفع لي في الخروج ولو مرة واحدة.

فهز رأسه في شيء من الحقة قائماً يقول دلا فائدة تُرجى من الجداله ثم رفع إليها عينيه متجهتاً ساخناً وقال بلهجة لا تقبل المراجعة:

- ليس عندي إلا كلمة واحدة! غادري بقي بلا تواب.

هوى أمره على رأسها كالضربة القاضية فبهتت لا تنبس بكلمة ولا تستطيع حراكاً، طالما توقعت في أشد أوقات عنتها - وهي تنتظر عودته من رحلة بور سعيد - ألواناً من المخاوف، كأن يصب عليها غضبه أو يصمتها بزعيقه وسبابه، حتى الضرب لم تستعبده، أما الطرد من البيت فلم يزجج لها خاطراً، لا لشيء إلا أنها سكنت إلى معاشرتها حساً وعشرين عاماً فلم تتصور أن ثمة سبباً يمكن أن يفرق بينهما أو ينزعها من البيت

الذي صارت جزءاً منه لا يتجزأ... أما السيد فقد تخلّص - بكلمته الأخيرة - من حبه فكر فوجع دماغ طوال الأسابيع الثلاثة المنقضية... وقد بدأ الصراع في اللحظة التي اعترفت فيها المرأة بخطئها بأكية وهم طريحة الفراش، لم يصق أذنيه لأول وهلة، ثم أنه يفيق إلى نفسه وإلى الحقيقة البغيضة التي تتطالع متحذية كبريائه وصلفه، بيد أنه أجل حقه ريثما يره ما أصابها، أو أنه - وهو الأصغر - لم يسه أن يفقد فيها تحدى كبريائه وصلفه لما اعتراه من قلق عميق بل حد الخوف والجزع على المرأة التي يالفها وعجم يزاها لعطف عليها عطفاً أنساه خطاها وسأل الله، السلامة، انكمش جبروته حيال الخطر المحقق: واستيقظ ما تظوي عليه نفسه من حنان مونور فعاد يومذاك - إلى حجرته محزوناً مكتئباً وإن لم يهجم وجهه... إلا أنه مضى يستعيد طمأننته وهو يرا: تتألل للشفاء يخطئ سرعة ثابتة، ومضى بالتالي يم النظر إلى الحادث كله - أسبابه ونتائجه - بعين جدي أو بالأحرى بالعين القديمة التي اعتاد أن ينظر بها بيته، فكان من سوء حظ - حظ الأم طبعاً - أن يه النظر في هدوء وهو خال إلى نفسه، وأن يقتنع بأنه غلب العفو ولئى نداء العطف - وهو ما نزعته إله نفسه - فقد أضعاب هيته وكرامته وتاريخه وتقاليده جم وأفلت منه الزمام وانتثر عقد الأسرة التي باى إلا يسوسها بالحزم والصرامة، وبالجمللة لن يكون في ثا الحال أحمد عيد الجواد ولكن شخصاً آخر لن يره أن يكونه أبداً... أجل كان من سوء الحظ أن يه النظر في هدوء وهو خال إلى نفسه، إذ لو أتيح له ينقش عن غضبه حين اعترافها لانفثا خنقه و الحادث دون أن يسحب وراعه عواقب خطيرة، ولأ لم يسهه الغضب في وقته كما لم يكن ممأ يرضي كبر أن يعلن غضبه عقب شفاها - بعد هدوء دام ثلا أسابيع - إذ أن هذا الغضب يكون أقرب إلى الز المتعمد منه إلى الغضب الحقيقي، ولما ك حساسيته الغضبية تستعر عادة من طبع وتعمد م ولما كان الجانب الطبيعي منها لم يجد متفناً في -

بيئاً أو يكسر قلباً أو ينزع أثماً من بين أبنائها. وجعلت تدبر هذه الأفكار في رأسها كأنها لتدخل بها بعض الطمأنينة إلى نفسها المزعزعة، وألقت في هذا الخائفاً إن دلَّ على شيء فعل أن الطمأنينة لا تريد أن تستقر بنفسها كيعض المرعى الذين يزدنون تغنياً بقوتهم كلما ازدادوا إحساساً بضعفهم إذ كانت لا تلدي ماذا تصنع بحياتها أو ماذا يمكن أن تغني الحياة لها لو غاب الرجاء ووقع المحذور. وترامى إلى أذنيها وقع عصاه على أرض الصالة وهو يضي خارجاً فاطر أفكارها وأنصت باهتمام تتابعه حتى غاب وشمرت عند ذلك بالأم جارح لحالها وسخطها على الإرادة المتحجرة التي لم تترغ لضعفها حقاً، ثم نهضت فيها يشبه الإعياء وغادرت الحجرة لتزول إلى الدور الأول فجاءتها عند رأس السلم أصوات الأبناء وهم ينزلون تباحاً فمدت رأسها من فوق الدرابزين فلمحت لهماي وكيال وهما يتابعان يأسين إلى الباب المقضي إلى الفناء، هناك خمزت خطرة من الحنان قلبها فأذهلته، وعجبت لنفسها كيف تركتها يلهيان دون أن تودعهما، أليست قد تحرم عليها رؤيتهما... ألياً أو أساميع؟ وربما لا تراهما مدى العمر إلا لحناً كالغرباء... وعادوها همز الحنان متتابعاً وهي بموقفها من السلم لا تريم، بيد أن قلبها - على امتلاكه - كبر عليه أن يصدق أن يكون هذا المصير الأسود نصيبها المفلتور، لإيمانها اللانهائي بالله الذي حفظها في وحدتها الغابرة من العفارت نفسها، ولثقتها ببرجلها التي تأبى أن تنهار، ولأنها لم يصيبها في حياتها الماضية شرٌ خطير خليف بأن يسلبها الطمأنينة إلى الحياة الواعدة فإلت نفسها إلى اعتبار عنتها تجربة قاسية ستمر بها دون أن تنشب فيها، ووجدت خديجة وعائشة مشبكتين في جدال كعادتهما ولكنها نزعتهما عما كانتا فيه حين رأتا وجوهها ونظرة عينيهما الخافية، ولعلها خافتا أن تكون قد برحت الفراش قبل أن تستردَّ كامل صحتها فساتنها خديجة في قلق:

- ماذا بك يا نينة؟

- لا أدري والله ماذا أقول... إني ذاهبة...

ومع أنَّ العبارة الأخيرة جاءت مقتضبة غير محدودة

فقد وجب على الجانب المتعبد - وقد أتيحت له فرصة من الهدوء لمعاودة التفكير - أن يجد وسيلة فعالة لتحقيق ذاته على صورة تتناسب وخطورة اللتب، وهكذا انقلب الحظر الذي يهدد حياتها حيناً والذي أتمها من غضبه بما أثار من عطفه أداة عقاب بعيدة المدى بما أتاح له من وقت للتدبير والتفكير... ونهض مقلباً فوَلَّاهَا ظهره مستقبلاً ملابس على الكتبة ثم قال بجفاء:

- سأرتدي ملابس بنفسي.

كانت لم تزل مستمرة في مكانها ذاهلة عما حولها فأفادت على صوته، وسرعان ما أدركت من قوله ووقفته أنه يأمرها بالانصراف فأعجبت نحو الباب في خطى لا وقع لها، وقبل أن تجاوزه أدركها صوته وهو يقول:

- لا أحب أن أجعلك هنا إذا عدت ظهرًا.

### ٣٢

خارت قواها في الصالة فارمجت على طرف كتبة وكلماته الغاسية الحاسمة ترتد في باطنها، ليس الرجل هازلًا، ومتى كان هازلًا؟ ولم تستطع مبارحة مكانها - على رغبتها في الفرار - أن يثير نزولها قبل مغادرته البيت على خلاف المألوف ربة الأبناء الذين لا تحب لهم أن يستقبلوا يومهم أو يذهبوا إلى أعمالهم متجرعين خبر طردها، وثمة إحساس آخر - لعله الحياء - أقبلها عن أن تلقاهم في ذل المطرود وقررت أن تبقى حيث هي حتى يغادر البيت، أو أن تأوي إلى حجرة المائدة وهو الأفضل حتى لا تقع عليها عيناه إذا مضى إلى الخارج ففسلكت إلى الحجرة كسيرة الفؤاد وقعدت على شلثة ساعمة واجبة. ثرى ماذا يعني؟ أيطردها إلى حين أم إلى الأبد؟ إنَّها لا تصدق أنه ينوي طليقها، هو أكرم من هذا وأنبى، أجل إنه غضوب جبار ولكن من الإصراف في التشاؤم أن تغيب عنها أي شهادته ورموته ورحمته. وهل تنسى كيف حزن لحالها حين الرقاد؟... وكيف عادها يومًا بعد يوم مستصرًا عن صحتها؟... مثل هذا الرجل لا يكون عليه أن يخرَّب

الهدف إلا أنها اكتسبت من نظرتها الياقوتية ونبراتها الشاكية معنى حالاً ريعنا له فهتفتنا معاً:

- إلى أين؟!

فكالت بانكسار وهي تشفق سلفاً من وقع كلامها من أذنيها بل ومن أذنيها هي نفسها:

- إلى أمي.

فهرعتا إليها مذعورتين وهما تقولان:

- ماذا تقولين؟ ... لا تعيدي هذا القول ... ماذا

جري؟!

وجدت في فرع فثانيتها عزاء ولكنّه كشائه في مثل هذا الموقف ففجّر أشجانها فكالت بصوت متهذج وهي تمنع دموعها:

- لم تَنْسَ شيئاً ولم يَعْثُ (رَدَدَتْ هَذَا بِأَيْ دَلْ عَلَى حَقِّ حُزْنِهَا) ... كان يضر في الغضب ويؤجله ريثاً أبرد، ثم قال لي غادري بقي بلا ثواب ... وقال لي أيضاً لا أحب أن أجعلك هنا إذا عدت ظهراً (ثم بلهجة تنم عن عتاب أسيف وخيبة أمل) سمعاً وطاعة ... سمعاً وطاعة ...

فصاحت خديجة بحال عصبية:

- لا أصتق. لا أصتق، قولي قولاً آخر ... ماذا

جري للبدنيا؟!

وصاحت عائشة بصوت متهذج:

- لن يكون هذا أبداً، أهانت عليه سعادتنا جميعاً

هذا الحد؟!

وعادت خديجة تتسائل في حدة وحنق:

- ماذا يقصد ... ماذا يقصد يا نينة؟

- لا أدري، هذا قوله بلا زيادة ولا نقصان.

اكتفت أوّل وهلة ببلد القول، ولملأها رغبة بالانقصار عليه أن تستزيد من عطفها وتمزّي بجزعها، ولكن غلبها الإشفاق من ناحية والرغبة في طمأنينة نفسها من ناحية أخرى فاستمرت قائلة:

- لا أظنه يقصد أكثر من إبعادي عنكم أليماً عقاباً

لي على ما فرط مني.

فتسالت عائشة محتجة:

- أما كفاه ما وقع لك؟!

فتنهكت الأم محزونة وغمقت قائلة:

- الأمر ... يجب الآن أن أذهب.

ولكن خديجة اعترضت سبيلها وهي تقول بصوت

خشن بالبكاء:

- لن ندعك تلحين، لا تتركي بيتك، فلا أظن

يصّر على غضبه إذا عاد ووجدك بيتنا.

وقالت عائشة برجاء:

- انتظري حتى يعود فهمي وإسفين، ولن يرضى أب

أن يتزعك من بيتنا جميعاً.

ولكنّها قالت فيها يشبه التحلير:

- ليس من الحكمة في شيء أن نتحلّى غضبه

لمثله من يلين بالطاعة ويشند بالعصيان.

وهنّتا بالاعتراض مرة أخرى ولكنّها أسكتتها بإشار

من يدها واستمرت قائلة:

- لا جدوى من الكلام، لا بدّ من الذهاب

ساجع ثيابي وأرحل، لا نجزعنا، لن يطول افتراقنا

وسنجتمع مرة أخرى إن شاء الله.

وانتقلت المرأة إلى حجرتها بالدور الثاني والفناتان ا

أعقابها وهما تبكيان كالأطفال، وأعلنت تخرج ملابس

من الصوان حتى أسكت خديجة يدها وسألت

بانفعال:

- ماذا تفعلين؟

وشعرت الأم بدموعها تغالبها فامتعت عن الكلا

أن تفضحها نبراتها، أن تستسلم للبكاء الذي صمّم

على مقاومته ما دامت برأى من ابتيتها، فأشارت بيد

كأفها تقول «الحال يوجب أن أجمع ملابسي».

ولكنّ خديجة قالت بحدة:

- لن تأخذني معك إلا تغيرة واحدة ... واح

فقط.

فندّت عنها تنهدة. وقت تلك اللحظة لو يك

الأمر كلّ حلاًّ معجّزاً، ثم قالت:

- أخاف أن تنور ثائرتي إذا رأى ملابسي بمكانها!

- سنحفظها عندنا.

وجمعت عائشة الثياب إلا تغيرة واحدة كما اقتر

اختها فاذعنت الأم لها في ارتياح عميق كأنّ به

بعض أهل الطرق الذين كانوا يجتمعون لها يليها من العطقة فيضيئون المصابيح ويفرشون الحصر وينشدون الأذكار. ولما فتح الباب أطل منه رأس جارية سوداء في العقد الخامس، ما إن رأت القادمة حتى تهلل وجهها وهضت مريحة بها، ثم تنحّت جانباً لتوسع لها فدخلت أمينة، وليثت الخادم بموقفها كأنها تنتظر دخول قادم آخر فادركت أمينة ما تعنيه وقفتها فهمست بامتعاض:

- أخلفي الباب يا صديقة. . .

فصالت الجارية بدهشة:

- ألم يأت السيد معك؟

فهزّت رأسها بالنفي متجاهلة دهشتها وهضت - هابرة فناء البيت الذي تصبّره حجرة القرن وتقع البشر في ركنه الأيسر - إلى سلم ضيق فرقته إلى الدور الأول والأخير. ثم اجتازت دهليزاً إلى حجرة أمها ودخلت، رأت أمها مترتبة على كتبة في صدر الحجرة الصغيرة قابضة بكتلتا راحتيها على مسبحة طويلة متدلية في حجرها، متجهة العينين صوب الباب في تطلّع آثاره بلا ريب طرق الباب ثم وقع القدمين المقترتين، ولما تدانست أمينة منها تساءلت:

- من...؟

وافتر ثفرتها وهي تسامل عن ابتسامة خفيفة تنم عن البشر والترحاب، كأنها حلمت هوبة القادم، فأجابتها أمينة قائلة بصوت منخفض من الانقباض والحزن:

- أنا أمينة يا أُمّي. . .

فألقت العجوز يساقها إلى الأرض وتحسّت بقدميها موضع الشيشب حتى عثرت عليه فدستها فيه ووقفت باسطة ذراعيها منتظرة في شوق فرمت أمينة بالبقجة إلى طرف الكتبة وانطوت بين ذراعي أمها وهي تقبل جبينها وعذنيها والأخرى تلم ما يتقوقع فشتيها عليه من الرأس والحذ والعنق، ولما انتهت المناق ربت العجوز على ظهرها بحنان ثم لبثت بموقفها متطلعة صوب الباب وعلى شفتيها ابتسامة تلمن عن ترحيب جنيد، كما فعلت صديقة من قبل

ملايسها في البيت مما يثبت لها حقاً في العودة إليه، ثم جاءت ببقجة وصررت فيها للملابس التي سمح لها بها، وجلست على الكتبة لتلبس جوربها وحذاءها والفتاتان حيالها تنظران في حزن ذاهل حتى رق قلبها لها فقالت متكلّفة الهدوء:

- سيعود كلّ شيء إلى أصله، تشجّعوا حتى لا تستغزوا غضبه، إني أعهد إليكما بالبيت وآله ولي كلّ الثقة في كفاءتكما، ولا شكّ عندي في أنّك متجدّين من عائشة كلّ معاونه، لوما بما كنّا نقوم به معاً كما لو كنت معكما، كلتاكما شابة خليقة بأن تفتح بيتاً وتعمّره.

ونضمت إلى ملايتها فارتدتها وأسلت على وجهها البرقع الأبيض في تهلّج متعبد لتؤجّل ما استطاعت اللحظة الأخيرة الملبّنة المحيرة ووقن حيال بعض لا يدرين كيف تكون الخطوة التالية. لم يسعفها صوتها على النطق بكلمة الدواع، ولم توات إحدىاهما الشجاعة على الأرقاء في حضنها كما تؤدّ ورت الثواني عملة بالمعابد والقلق يد أنّ المرأة المتجلّلة خافت أن يخونها فجعلها فخطت خطوة نحوها ومالت إليها فقبلتها بالتابع وهي همس:

- تشجّعوا، ربنا معنا جيّماً.

هناك تعلّقت بها وأفحمتا في البكاء.

وقد صادرت الأم البيت بعينين ذارفتين ترمي الطريق خلال دمعها وهو يتبع. . .

### ٣٣

طرت باب البيت القديم وهي تفكر - بالم وحياء ممّا - فيما سيحدثه مجيئها مضطرباً عليها من الانزعاج والكدر، وكان الباب يفتح على عطفة مسدودة متفرعة من شارع الخرنفش تنتهي بزاوية أقيمت بها الصلاة عهداً طويلاً ثم هجرت من أعوام لقدمها ولكن بقيت آثارها المتهذّمة لنذكرها - كلما زارت أمها - بطفولتها حين كانت تنتظر بابها أباهما حتى يفرغ من صلاته ويعود إليها، وحين تمّد رأسها داخلها في أويقاد الصلاة لتلهو بمنظر الرُكع السجود، أو حين تفرّج على



فأدركت أمينة للمرة الثانية ما تعنيه هذه الوقفة وقالت  
بامتعاض واستسلام:

- جئت وحدي يا أمي...

فتحّول الرأس إليها كالنساء، وتمتعت للمرأة:

- وحلكت!... (ثم مبتسمة ابتسامه متكلفة لتطرد

ما انتابها من قلق) سبحان الذي لا يتغير!

وتراجعت إلى الكتبة فجلست وهي تتسائل بلهجة  
ألمصحت هذه المرة عن قلقها:

- كيف الحال?... لماذا لم يحضر معك كعادته؟

فجلست أمينة إلى جانبها وهي تقول بلهجة التلميذ  
الذي يعترف برداءه إجاباته في الامتحان:

- إنه غاضب عليّ يا أمي...

ورمشت الأم واحة ثم غممت بنبرات حزينة:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قلبي لا يكذبني

أبدأ، وقد انقبض وأنت تقولين لي وجئت وحدي يا

أمي، ترى ماذا هيّج غضبه هل ملاك كرم مثلك لم

يُحَظَر رجل به قبله!... خبّرني يا بنتي...

فقال أمينة متبهمة:

- زرت سيّدنا الحسين في أثناء سفره إلى بور

سعيد...

فتفجرت الأم في حزن وكآبة ثم تساءلت:

- وكيف علم بأمر الزيارة؟

حرصت أمينة من بادئ الأمر على ألا تشير إلى

حادث السيّارة رحمة بالمعجوز من ناحية وتحققًا من

المسئولية من ناحية أخرى، ولهذا أجابتها بما أهدته

سلفًا لهذا السؤال قائلة:

- لعلّ أحدًا رأي فوشى بي عنده...

فألتفت المعجوز بحدّة:

- لا يصرفك أحد من البشر إلّا من اختلط بك

داخل بيتك، ألم تشعّهي في أحد?... هذه المرأة أمّ

حنفي؟ أو ابنه من المرأة الأخرى؟

فبادرت أمينة قائلة بثقة ويقين:

- لعلّ جارة رأيتي فأخبرت زوجها بحسن نيّة فأعاد

الرجل الخبر على مسمع السيّد غير مقدّر لخطورة

هواقه، ظنّي ما تشائين إلّا الشكّ في أحد من أهل

بيتي...

فهزّت المعجوز رأسها في حيرة وشكّ وأنشأت

تقول:

- طول عمرك سليحة الطوية، الله وحده هو المثلّع

وهو الكفيل برّد كيد الكائده، ولكنّ زوجك?...

الرجل العاقل... الداعل هل الحسين... ألم يجد

وسيلة لإعلان غضبه إلّا طرد عشيرة العمر من بين

أولاده!... سبحانك يا ربّ... الناس تكبر تعفل

ونحن تكبر نتهور، هل من الكفر أن تزور امرأة فاضلة

سيّدنا الحسين! ألا يسمح أصدقاؤه، وهم لا يفلّون

عنه غيرة ورجولة، لزوجاتهم بالخروج لمختلف

الأغراض!... أبوك نفسه الذي كان شيخًا من حلة

كتاب الله كان يأنّ لي في اللعاب إلى بيوت الجيران

للتفرّج على المحمل.

وغلب الصمت والكآبة مليًا حتّى التفتت المعجوز

ناحية ابتها وعلى شفيتها ابتسامه عتاب حائرة ثمّ

تساءلت:

- أيّ شيء أفرّك بعصيانته بعد ذاك العمر الطويل

من الطاعة العمياء!... لشدّ ما يميّزني هذا... إذ

مهما يكن من حيّة طبعه فهو زوجك ومن السلامة

المحرص على طاعته من أجل راحتك وسعادة الأولاد،

أليس كذلك يا ابنتي?... أعجب شيء أنّي لم أجندك

يومًا في حاجة إلى نصيح ناصح!...

فندّبت عن أمينة ابتسامه ارتسمت على زاوية ثغرها

على صورة انحراف خفيف من الارتباك والحياء،

وغمغمت:

- نتحمّك الشيطان!

- عليه لعنة الله، أيزلّ اللعين قلميك بعد خمسة

وعشرين عامًا من الوثام والسلام... ولكنّه هم

الذي أخرج أبانا آدم وأثنا حواء من الجنة!... لشدّ

يمزني يا ابنتي، ولكنّها سحابة صيف ثمّ تنقش ويعود

كلّ شيء إلى أصله... (ثمّ وهي كأنّها تتحدّث نفسها)

ماذا كان عليه لو استصرى بالحلم!... ولكنّه رجل،

ولن يخلو رجل من عيوب تخفي عين الشمس... (ثمّ

بلهجة ترحيب وسرور متكلفة) اخلمي ملابسك

واسترحي، لا تجزعي، ماذا يضربك من قضاء عطلة قصيرة مع أمك في الحجرة التي ولدت فيها؟؟  
 فجرى بصرها في غير اكتراث على الفراش القديم الذي حال لون عنده، والسجادة البالية التي انجرد وبرها ونسلت أطرافها وإن بقيت رسوم ورودها حافظة لجمرتها وبخضرتها، ولكن صدرها - لما رأت عليه من فرقة الأحساب - لم يكن مهيباً لتلقي موجات الذكريات، فلم تخرج دعوة أمها في قلبها الخنثان الذي تبيحه عادة ذكريات متباعدة لهذه الحجرة وهي قريبة العين، ولم يسمح إلا أن تتهدد قائلة:  
 - ما هي إلا قلق على الأولاد يا أمي...  
 - إنهم في رعاية الله، ولن يطول بُعدك عنهم يؤذن الرحمن الرحيم...

والسبعين بمقعدها عن أن تنهض في الصباح كعادتها منذ نصف قرن لتحسّس سيلها - بدون إرشاد الجارية - إلى الحمام فتوضأ ثم تعود إلى حجرتها فتصلي، أما بقية النهار فتقطعها في التسبيح والتأمل الصامت الذي لا يدري به أحد طالما كانت الجارية مشغولة بأعمال البيت، أو مستأنسة إلى حديث المرأة إذا طرقت للحياة، حتى الصفات التي تلازم عادة وفرة النشاط للعمل وحلة الحجاب للحياة لم تزايلها بحال، مثال هذا شدة حماسيتها للجارية على كل صغيرة وكبيرة فيها تتعلق بالصروفات، وتنظيف البيت وترتيبه وتلوكؤها إذا تلكت في مهمّة، وتأخرها إذا تأخّرت في مشوار، ولم يكن بالنادر أن تحلّنها على المصحف لتطمئن إلى صحّة تقاريرها على غسل الحمام والأواني وتنفيذ النوافل، دقة بالسوسة أشبه، ومن الجائز أن تكون مثابرتها عليها استمراراً لعادة تأصّلت في صدر الشباب، كما أنّه من الجائز أن تكون تكلمة عمّا يعترى الشيخوخة ويلحق بطباعها المتطرّفة استمساكها بالبقاء في بيتها في شبه وحدة كاملة بعد وفاة بعلها، ثم إصرارها على البقاء فيه حتى بعد فقدانها لبصرها، متصانعة عن دعوات السيد المتكرّرة بالانتقال إلى بيتة لتعيش في رعاية ابنتها وأحفادها، عمّا عرضها لتهمة الخرف وجعل السيد يعرض عن دعوتها نهائياً، ولكن الحق أنّها كرهت هجر بيتها لتعلّقها الشديد به، ولتحاميتها ما عسى أن تلقى في البيت الجديد من إحمال غير مقصود أو ما يستوجب وجودها من إلقاء أعباء جديدة على عاتق ابنتها المثقل بالواجبات، ولنفورها من الزجّ بنفسها في بيت اشتهر صاحبها بين آله بالشراسة والغضب أن تسزلق وهي لا تدري إلى ملاحظاته الأمر الذي تشفق من عواقبه على سعادة ابنتها، وأخيراً لما تطوّر عليه في قرارة نفسها من حياء وكبرياء حبّاً إليها الحياة في البيت الذي تمكك معتمدة - بعد الله - على المعاش الذي تركه لها زوجها الراحل، على أنّ ثمة أسباباً أخرى لإصرارها على البقاء في بيتها لا يمكن تبريرها برهاقة الحساسية أو سداد البصيرة، كخوفها - إذا أحلت البيت - من أن يحد نفسها مضطّرة

قامت أمينة لتخلع ملاءتها على حين انسحبت صديقة - حزينة أسيفة لما سمعت - من موقفها عند مدخل الحجرة الذي لزمته أثناء الحديث، ثم عادت المرأة إلى مجلسها جنب أمها وما لبث أن قلبتا الحديث ظهراً لبعن وهما تبدآن وتعيّدان وكأنّ في تقابلها جنباً لجنب ما يدعو إلى تأمل قوانين الوراثة العجيبة وقانون الزمن الصادم، كأنها شخص واحد وصورته المنعكسة في مرآة المستقبل أو نفس الشخص وصورته المنعكسة في مرآة الماضي وبين الأصل والصورة على الخالين ما يشير إلى الصراع الرهيب الناشب بين قوانين الوراثة التي تعمل على التشابه والبقاء من ناحية وبين قانون الزمن الذي يدفع إلى التعرّف والنهاية من ناحية أخرى، ذلك الصراع الذي ينجل عادة عن سلسلة من المواقف تلحق تآعباً بقوانين الوراثة حتى يفسد قصارها أن تؤدّي وظيفة متواضعة في نطاق قانون الزمن الصادم. في نطاق ذلك القانون استحالَت الأم المعجوز جسدياً نحيلاً ووجهاً ذابلاً وصينين لا تبصران إلى تطوّرات باطنية لا تنالها الحواس، حتى لم يبق لها من هبة الحياة إلا ما يدعونه بجمال الشيخوخة أي السمات الهادئ والوقار المكتسب الحزين والرأس المرصع باليباض. بيد أنّها كانت تنحدر من جيل معرّف عرف بصلابة المقاومة فلم يكن طمعها فيها بعد الخامسة

عرفتها بخيرها وشرها، فربما قالت لها على أثر مشافئة عما ينتشب بينها «يا ستي أليست العبادة أولى بوقتك من الشجار والنقار على النافذة من الأمور؟! فتجيبها غنمة «يا لثيمة إنك لا توصيني بالعبادة حباً فيها ولكن كي يخلو لك مجال اللعب والإهمال والقذارة والسلب والنهب، إن الله يملأ بالنظافة والأمانة فمراقبتك وعاسبتك عبادة وثواب» ولأن الدين قد شغل من حياتها تلك المكانة العالية فقد ساء أبوها ومن بعده زوجها إلى مكانة رفيعة من نفسها فوق ما كان لها بحكم القرابة، وطلما غبطتهما على ما شرفا به من حيازة كليات الله ورسوله في صدرها، ولعلها ذكرت هذا حين خاطبت أمينة موساية ومشجعة فطالت:

ما أراد السيد بإخراجك من بيتك إلا إصلاص غضبه على مخالفتك لأمره ولكنه لن يجاوز حدود التأديب، أجل لن يبق سوى بمن كان لها أب كايك أو جد كجك...

وابتل صدر أمينة بذكر أبيها وجدها كما يتل صدر المنقطع به الطريق في الظلمات إذا تراسى إليه صوت التفسير وهو يصف «هوه» فأمّن قلبها بقول أمها لا لتلغها على الطمأنينة فحسب، ولكن لإيمانها قبل كل شيء ببركة الشيخين الراجلين، فلم تكن إلا صورة من أمها في حسنها وإيمانها وجل طابعها. وانتالت على وجدانها في تلك اللحظة ذكريات أبيها الذي أغم قلبها وليلة بالحب والإيمان خلّدت الله أن يتشعلها من وطنها إكراماً لبركه. وحدث العجز إلى مواسم فقالت وجل شفتها الجافتين ابتسامة رقيقة:

إن الله يراك دائماً برحمته، إذكري عهد الوفاء لا أرجعه الله وكيف نجّاك الله من شره ففضى أخواتك وأمسك سوء!

غلبها الابتسام على كآبتها فابتسمت، وتفرّست في غيش من الماضي كاد يحجره النسيان فوضحت - بعض الوضوح - من خليط الذكريات صورة أحييت في نفسه أصداء من عهد الرعب، وهي صبية تمجّل خارج أبواب خلقت على أخوات مستلفتات على أسرّة المرض والموت، وهي وراء النافذة تنظر إلى سيل من النعوش

إلى اختيار أمر من اثنين: فلما أن سمع للغرباء بأن يسكنوه وهو أعز شيء لديها بعد ابتها وأحفادها، ولما أن تتركه مهجوراً فتتخلد العناريت ملجأ بعد أن ظل طوال عمره مقاماً لشيخ من حلة كتب الله هو زوجها، إلا أن انتقالها إلى بيت السيد كان خليقاً بأن يخلق لها مشاكل معقدة لا تقضى في نظرها بمسور الحلول لأنّها ما انفكت تسأل نفسها وتذلل أقبول ضيفته بدون مقابل وهو ما لا ترتاح إليه بحال، أم تنزل له عن معاشها لقاء إقامتها في بيته وهو ما يخلق غريزتها في الامتلاك التي أضحت - مع الكبر - عنصراً جوهرياً من عناصر «وسوستها» العامة؟!

هل قد توقّعت أحياناً عند إلحاحه عليها في الانتقال إلى بيته أنه يضم نية استغلالية نحو معاشها وبيتها الذي سيخلو بعد انتقالها ففزعته إلى الرض لحدّ الصناد الأعمى ولما نزل السيد عند إرادتها قالت له بارتياح ولا تؤاخذني بإصراري يا ابني، ربنا يكرمك بما أوليتني من عطف، ألا ترى أنه لا يعني أن أهرج بقي؟... وما أجدرك أن تمهاري صجوراً مثلي على علاتي بيد التي أستحلفك بالله إلا ما سمحت لأمينة والأولاد بزيارتي الحين بعد الحين بعد أن أسمى خروحي من البيت متعلّزاً وهكذا بقيت في بيتها كما أرادت متمتعة بسيادتها وحرّيتها وكثير من عادات الماضي المميز. وإذا كان بعض هذه العادات، كالمغلااة الشائفة في الاهتمام بشئون البيت والمال، مما يتنافى مع هدوه الشيخوخة الحكيمة وتساعها، وبالتالي مما يبدو كعراض من أعراض الهرم الانتكاسية، فمما عادة أخرى مما حافظت عليه جديرة بأن تزين الشباب، ويأن تضفي على الشيخوخة جلالاً، تلك هي العبادة. كانت ولم تنزل مطمح حياتها ومشرق آمالها وسعادتها، ورضعتها صغيرة في كنف أب شيخ من شيوخ الدين، وتغلغلّت في أمالها بزواجها من شيخ آخر لم يكن دون أبيها ورعاً وتقوى. وظلّت تمارس بحب وإخلاص غير مفرقة في إخلاصها بين ما هو دين حقاً وما هو خرافة خالصة حتى عرفت بين جاراتها بالشبهة المباركة. صديقة الجارية وحدها هي التي

ابتها أَوَّلًا وجاءك رقيب ليكشف عن سرقاتك؟» ولكن أمينة لم يكن يهتمها وقتذاك أن تسرق المرأة أو تلتمز الأمانة، ولم ترد الجارية على سيدها إكرامًا للضيعة من ناحية ولأنها من ناحية أخرى ألفت مرارة سيدها وحلاوتها فلم يعد لها غناء عن الاثنين. وباستدارة النهار اشتد تعلق فكرها ببيتها ونهالك عليه لأنه في ذلك الوقت يعود السيد إلى البيت للغداء والقبولة، ثم يرجع الأبناء تباطؤًا عقب خروج الرجل إلى الدكان، فرأت بخيالها الذي استمد من الألم والحزن قوة خارقة، البيت وآله كأنهم شهود. رأت السيد وهو يخلع جبته وقطعانه دون مساعدتها التي تخاف أن يكون قد ألف الاستغناء عنها منذ رقادها الطويل. وحاولت

أن تقرأ ما يدور وراء جبينه من أفكار ونوايا، هل يستشعر الفراغ الذي خلفته وراهاها، وكيف كان إحساسه حين لم يجد لها من أثر في البيت، ألم يرد لها ذكر على لسانه لسبب أو لآخر؟... وما هم الأبناء، عائدون، وما هم يروعون إلى الصالة بعد طول اشتياق إلى مجلس القهوة فيلقون مجلسها شافراء، ويسألون عنها فتجيبهم نظرات أعينهم المتجهمة الدامعة، ترى كيف يتلقى فهمي الخبر، وهل يدرك كمال - وهنا خفق قلبها خفقة جارية - معنى غيابها؟ أيتشاورون طويلًا؟... ماذا ينتظرون؟... لعلهم في الطريق يستيقنون إليها... يجب أن يكونوا في الطريق، أم يكون قد أصدر أمرًا بعدم زيارتها؟ يجب أن يكونوا في الحرفش... سترى حيا قليل...

- أتحذيني يا أمينة؟

يبدأ السؤال قاطعت المعجوز خيالها فالتفتت إليها في دهشة ممزوجة بالخياء، إذ فطنت إلى أن كلمات - من حليتها الباطن مع نفسها - قد تسلفت في خفلة منها إلى طرف لسانها عدتة الحسن الذي التقطته أذن أمها المرهقة فلم تَرِ بدلًا من أن تجيبها قائلة:

- إني أتساءل يا أمي ألا يحبي الأولاد لزيارتي؟

- أظنهم جاموا...!

قالت المعجوز وهي ترهف السمع مائة رأسها إلى الأمام فأنصت أمينة صامتة قتراس إلى إليها صوت مطرقة

لا يقطع والناس تغر من طريقها، أو وهي تسمع إلى جواهر من الشعب التقت في ذعرها ويأسها برجل من رجال الدين - كما كان يتفق لأبيها - وراحت تمأر بالشكوى وترسل الدعوات إلى رب السماء، وعلى رغم استحصال الشر وهلاك أخواتها جيشًا فقد أفلتت من براثن الولاء سالمة أمينة لم يكتر صفوها إلا عصير الليمون والبصل الذي كانت تجبر على تجرعه مرة أو مرتين في اليوم. واستطردت الأم بصوت ثقت رفته وحنته حل الاسترسال في الأحلام كأنها قد ردها التذكر إلى المهد الخالي فاستعادت حياته وذكراته - العزيزة الغالية لاقتربا بالشباب - خالصة من شوائب الألم النسي، فقالت:

- ولم يفتح حظك السيد بإنقاذك من الولاء لكنته أبفاك وحياة الأسرة وكل ما لها في الدنيا من أمل وهزاء وسعادة فترهرعت في صميم قلوبنا.

لم تمد أمينة ترى الحجرة - بعد هذا الخطاب - كما كانت تراها قبله، بعث جذة الشباب في كل شيء، في الجدران والسجادة والسرير، في أمها وفيها هي نفسها، ورد أبوها إلى الحياة وأخذ مجلسه المعهود، وعادت تصغي إلى مناضة الحب والتدليل وتعلم بقصص الأنبياء والمعجزات، وتستعيد نوادر السابقين من الصحابة والكفار إلى غرابي باشا والإنجليز، بعثت الحياة الماضية بأحلامها السحرية وآمالها الواعدة ومساعدتها المرجوة ثم قالت المعجوز بلهجة من يقرر النتيجة النهائية لا مهد به من مقدمات منطقية:

- أليس الله حافظك ورايحك؟...

يبدأ القول نفسه تضمّن عزاء موحيا ذكرها بحالها الراحنة فاستيقظت من حلم الماضي السيد حائلة إلى كاتبها كما يعود السالي إلى اجترار أحزانه بكلمة مواساة تلقى إليه بحسن نية، وأبشت إلى جانب أمها في حال من القراغ الصارم لم تمهدا إلا حين مرضها فأنكرتها وضاعت بها ولم يشغل حليتها التواصل مع أمها إلا نصف انتباهها حل حين بقي النصف الآخر مرغى للضيقة والقلق، ولما جاءت صديقة ظهرًا بصيئة الغداء قالت لها المعجوز بقصد تسلية

وترد طويلاً بين معاودة الاعتذار عن اقتراسه، هل  
سمح من الجدة أن تعاتبه أو تضم له حقاً، وبين  
السكوت على ما به من رغبة في التنفيس عن تحرجه،  
ثم خرج من تردده بأن ترجم كلام فهمي إلى لغة  
أخرى قائلاً:

- أجل نحن اللبنيون وأنت القهمة، (ثم ضافطاً  
على ضارج الكلمات كأنها يضبط على عناد أبيه  
وصلابته) ولكنك ستعودين، وسوف تنقش السحابة  
التي تظللنا جميعاً.

ولفت كمال وجهها إليه من ذلتها، وانهاه عليها  
يسيل من الأسئلة، عن معنى مغادرتها البيت، وكم  
تطول إقامتها في بيت جدته، وهنا يحدث لو صادت  
معهم، وغير ذلك من الأسئلة التي لم يسمح عنها جواباً  
واحداً حقاً بأن يسكن خاطره الذي لم ينضج في  
تسكينه عزمه على أن يبقى مع أمه حيث هي، فلك  
العزم الذي كان أول من يرتاب في قدرته على تحقيقه،  
وتغيرت وجهة الحديث بعد أن فرغ كل منهم من  
التعبير عن عواطفه، فأخذوا يعالجون الموقف معالجة  
جدية لأنه - كما قال فهمي - «لا يجدي التكلم فيما كان  
ولكن ينبغي أن تصالح فيما سيكون» وقد أجاهه ياسين  
على تساؤله قائلاً «إن رجلاً كأنها لا يرضى بأن يمر  
بحدائق كخروج اثنا عشر كريماً، فلم يكن بد من أن  
يملن غضب بطريقه لا يسهل نسيانها، ولكنه لن يجاوز  
حدود ما فعله بدا هذا الرأي مغناً لما صادف من  
ارتياح النفوس إليه فقال فهمي مفسحاً عن اقتناعه  
ومرجوه مفاً «والدليل على صحة رأيك أنه لم يقدم على  
فعل شيء آخر، ومثله لا يؤجل عزمه لو صحت نيته  
عليه». وتكلموا كثيراً عن «قلب» أبيهم فاتفقت  
كلماتهم على أنه قلب غير رغم ثورته وحذته وأن أبعد  
شيء عن تصوره هو أن يقدم على فعل من شأنه أن  
يسبى إلى السمعة أو يؤذي أحداً وعند ذلك قالت الجدة  
على سبيل الدعابة وهي تعلم باستحالة ما تدعو إليه:  
- لو كنتم رجالاً حطاً لالتصمت الوسيلة إلى قلب

أبيكم ليتحول عن عناده...

فتبادل ياسين وفهمي نظرات ساخرة من هذا

الباب وهي ترسل ضربات سريعة متلاحقة كأنها  
صوت يبعث في لغة بصريجات استغاثة حارة فحرفت  
وراء هذه الضربات المعصية قبضة كمال الصغيرة كما  
كانت تعرفها وهي تدق عليها باب حجرة القرن،  
وسرعان ما سرعت إلى رأس السلم وهي تنادي  
صديقة لتفتح الباب، ثم أطلقت من فوق الدرابزين  
فراحت الغلام وهو يشب فوق درجات السلم وفي أثره  
فهمي وياسين وتعلق كمال بمنقها فعاقها قلباً عن  
عتاق الآخرين، ثم دخلوا الحجرة وهم، من جيشان  
النض وتبليل الحاطر، يتكلمون في وقت واحد لا يبالي  
أحدهم ما يقول الآخرون، ولما رأوا الجدة واقفة  
مبسطة الذراعين مشرقة الوجه بانتسامة ترحاب مفعمة  
بالحب أمسكوا عن الكلام إلى حين وأقبلوا عليها تباهاً  
فساد صمت نسبي تحلته هسات القبل التبادلة وأخيراً  
هتف ياسين بصوت ينم عن الاحتجاج والحزن:

- نحن الآن لا بيت لنا، ولن يكون لنا بيت حتى  
تعودي إليه.

وأوى كمال إلى حجرها كالحارب وهو يقول مفسحاً  
لأول مرة عن نيته التي طوى صدره عليها في البيت  
وفي الطريق:

- سألني هنا مع نينة... وإن أعود ممكياً...

أما فهمي فقد رنا إليها طويلاً صامتاً، كشأنه إذا  
أراد أن يمحذها بالنظر، فوجدت في نظراته الصامته خير  
معبّر عما يحتاج في صدرها ممّا. هذا الحبيب الذي لا  
يفوق حبه لها إلا حبها له، والذي يندر أن يشير في  
أحاديثه معها إلى عواطفه ولكن تشي به خطرات نفسه  
وكلياته وفعله، وقد قرأ الفتي في عينها نظرة تدل على  
الأم والحجل فاشتد تأثره وقال بحزن وتأمّل:

- نحن الذين اقترحنا عليك الخروج، وشجبتك

عليه، ولكن ما أنت وحدك لتفكر العقب...

فانصمت الأم في ارتباك وقالت:

- لست طفلة يا فهمي، وما كان ينبغي لي أن

أفعل...

فتأثر ياسين لهذا الحوار المتبادل، واشتد كربه لفرد  
إحساسه بالخروج بصفته صاحب الاقتراح المشعوم،

وعادت قلدا أمينة الخفيفتان فمضت المعجوز  
تنتصت في قلق حتى هفت بها:  
- أتبيكين؟ يا لك من عبيطة! كآلك لا تطيقين أن  
تبقي ليلتين في حضن أمك!

## ٣٤

بدت خديجة وعائشة أصيح الجميع بنحياب الأم،  
فألى حزنها الذي يشاركها فيه الإخوة حملتنا وحدها  
أحباء البيت وخدمة الأب بيد أن أحباء البيت لم تكن  
لتنوء بهن، أما خادمة الأب فهي التي عملنا لها ألف  
حساب ونزعت عائشة إلى الحرب من منطقة أبيها معتلة  
بأن خديجة سبق لها أن تدرت على خدمته في أثناء  
رقاد الأم فوجدت خديجة نفسها مرعفة على العودة إلى  
تلك المواقف الدقيقة الرهيبة التي تكابدها وهي على  
كثب من السيد أو وهي تقضي له حاجة من حاجاته.  
ومنذ الساعة الأولى للحجاب الأم قالت خديجة «ينبغي  
ألا تطول هذه الحال، إن الحياة بدونها في هذا البيت  
عناء لا يطلق، فأمنت عائشة على قولها ولكنها لم تجد  
من حيلة في وسعها غير الدموع فلرشفها، وانتظرت  
عودة إخوتها من بيت الجلمة حتى جاءوا وقبل أن تلفظ  
كلمة مما يدور في نفسها راحوا يحدّثون عن حال أمهم  
في ومقاهها فوقع الحديث من نفسها موقع الغرابة  
والاستنكار لأنها كانت تسمع عن قوم غرباء لا يتاح لها  
لقاؤهم فغلبتها الانفعال وقالت بحدة:

- إذا قنع كل منا بالسكوت والانتظار فرمّا تلاحقت  
الأيام والأسابيع وهي مبتعدة عن بيتها حتى يضيئها  
الحزن، أجل إن مخاطبة بابا في هذا الشأن مهمة شاقة  
ولكنها ليست أشق من السكوت الذي لا يليق بنا،  
ينبغي أن نجد طريقة... ينبغي أن نتكلم...

ومع أن صيغة «نتكلم» التي خضت بها جملتها  
جاءت شاملة لجميع الحاضرين إلا أنه قصد بها - كما  
فهم بالبداية - شخص أو شخصان شعر كلاهما لدى  
سياحها بارتباك لم تفت بواعثه على أحد، بيد أن  
خديجة واصلت حديثها قائلة:

- لم تكن مهمة مخاطبته فيما يعرض من أمور بايسر

والرجولة المزعومة التي تلوب لدى ذكر أبيهم،  
وخافت الأم من ناحيتها أن يتطور الحديث بين الشاتين  
والجلمة إلى ذكر حادث السيرة فافهمتها بالإشارة -  
وهي ترددها بين كفتها وأمها - أنها أنضت عنها  
الأمر، ثم قالت مخاطب أمها وكأنها تنبهي للدفاع عن  
رجولة الشاتين:

- لا أحب أن يتعرض أحدهما لفضبه للتركه لنفسه  
حتى ينفو...

وهنا تسامد كمال:

- ومضى ينفو؟

فاشارت الأم بسبابتها إلى فوق وهي تنغمم «ربنا  
عنده العفو». وكلماته في مثل هذه الحال دار  
الحديث حول نفسه فأعاد كل ما سبق له قوله بنفس  
الألفاظ أو بالألفاظ الجديدة من إثارة متواصل للظنون  
الوردية فطال الحديث دون أن يستجذ به جديد، حتى  
شتم الظلام ووجب الرحيل. وحين وجب الرحيل  
وغشيت كآبته القلوب كالضباب شغل به الفكر عن  
الكلام فساد سكون كالسكون الذي يسبق العاصفة،  
اللهم إلا كلمات لا يراد بها إلا التخفيف من وطأة  
الصمت أو التهرب من الاعتراف بجورم الدوداع وكأن  
كلًا منهم يلقي تبة إصلاته على عاتق غيره رحمة  
باجانب الآخر، هنالك حلس قلب المعجوز ما  
تضطرم به النفوس حولها فرمشت حينها المظلمتان  
ولعبت أصابعها بحبات السبعة في عجلة والسرعة،  
ومضت بها دقائق بدت على قصرها كاتمة للأنفاس  
كالحظات التي يترقب فيها الحلم في كابوس سقطه من  
علو شاطئ، حتى جاءها صوت يأسين وهو يقول «اطنن»  
أن لنا أن نذهب، وسنعود لناخذك معنا قريبًا إن شاء  
الله وتسمت المعجوز لترى كيف تهتج نبرات ابتها  
عند الكلام، ولكنها لم تسمع كلامًا بل سمعت حركة  
دالة على نبوض الجلوس، وأصوات قبل وهممة  
توديع، واحتجاج كإك على انتزاعه بالقوة فيكاه، ثم  
جاء دورها في التسليم في جو مشيع بالحزن والفتور،  
وأخيرًا أخذت الأقدام تتعد تاركة إياها في حدة  
وشجن.

فرغ حاجبيه في ارتباك متطلماً إليها بنظرة كأنها يقول لها «أنت أدري بالمواقب!» حثاً كان يتمتع عزايها لا يتمتع ببعضها أحد في الأسرة فهو طالب بمدرسة الحقوق، وهو أكثرهم عقلاً وأنفلسهم رأياً، وله من ضبط النفس في المواقف الحرجة ما يدل على الشجاعة والرجولة ولكنه سرعان ما يفقد جملة مزياه إذا مثل بين يدي أبيه فلا يعرف غير الطاعة العمياء. ويذا وكأنه لا يدري ماذا يقول فحشته على الكلام بإقامة من رأسها فقال متحيراً:

- هل ترينه يقبل وجالي؟... كلاً... ولكنه سيبرني قاتلاً: «لا تتدخل فيها لا بينك». هذا إذا لم يثر غضبه فيوجه لي كلاً أشد وأقوى!

وارتاح ياسين إلى هذا الكلام «الحكيم» الذي وجد فيه دليلاً عن موقفه أيضاً فقال وكأنه يكمل رأي أخيه:

- وربما جرّ تدخلاً إلى محاسبتنا من جديد على موقفنا يوم غروجهما فنتح على أنفسنا فتحة لا تدري كيف نسلها!

فالتفت الفتاة نحوه مغيظة عنيفة وقالت بمرارة وسخرية:

- لا منك ولا كفاية شرك!

فقال فهمي الذي استمدّ من فريزة وحبّ البقاء قوة جديدة للدفاع عن نفسه:

- فلنفكر في الأمر بعناية شاملة... لا أظنه يقبل لي أو لياسين رجاء ما دام يعتبرنا شركين في الخطأ، وعليه فالحقبة خاسرة إذا تقدّم أحدهما للدفاع عنها، أمّا إذا حدثت واحدة منكباً فلعلها تنجح في استعطافه أو لعلها تجدّ - على أسوأ الظنون - إهرافاً هادئاً لا يبلغ حدّ العنف، فليهاذا لا نجحته إحداكم؟... أنت مثلاً يا خديجة؟!

فانقبض قلب الفتاة التي وقعت في الشرك وحلجت ياسين وفهمي بنظرة غيظ وهي تقول:

- ظننت هذه المهمة أخلق بالرجال!

فقال فهمي مواكباً هجومه السلمي:

- العكس هو الصحيح ما دمنا نتوسّعي لنجاح

هل نية مما هي علينا ومع ذلك لم تكن تتردد عن مخاطبته إكراماً لأيّ واحد مثلاً، فمن الإنصاف أن نتحمّل نفس التضحية من أجل خاطرها.

تبادل ياسين وفهمي نظرة فضحت إحساسهما بالخناق الذي أخذ يضيّق حولهما سريعاً ولكن واحداً منهما لم يمرّ على فتح فيه أن ينتهي به الكلام إلى أن يقع عليه الاختيار ليكون كبش الفداء فامتسلاً لانتظار ما يجيء به النقاش كما يستسلم الفأر للهرة، وتركت خديجة التعميم إلى التخصيص فالتفت إلى ياسين قائلة:

- أنت أعونا الأكبر وإلى هذا فانت مولف، أي رجل كامل. فانت أجدرنا بهذا الواجب.

ملا ياسين صدره بالهواء ثم نفخ وهو يبعث بأنامله في ارتباك ظاهر ومجتم قائلاً:

- والدنا رجل ناري الغضب لا يقبل مراجعة لرايه، وأنا من ناحيتي لم أجد خلاصاً بل صرت رجلاً ومولفكاً كما تقولين، وأخوف ما أخاف أن ينفجر في غضباً فيفلت مني زمام نفسي ويثور غضبي بدوره!

ولهمهم الابتسام على أحسابهم المتوترة المحزونة فابتسموا، وأوشكت عائشة أن تضحك فأخضت وجهها في كئيها، ولعلّ حالم المتوترة نفسها بما هيأهم لقبول الابتسام كمسكن وقوي للتوتر والألم كما يحدث للنفوس أحياناً عند اشتداد الحزن من الاستسلام للطرب لألفه الأسباب على سبيل التخفيف عن حال بأضدادها، ذلك أنهم عدوا قوله نوعاً من الدعاية الجديرة بالضحك والسخرية، وكان هو أوّل من يعلم بمعجزه التأم من مجرد التفكير في الغضب أو لنقلومة حال والده وأوّل من يعلم أنه قال ما قال فراّ من مواجهة أبيه وأقواء لسطه، فلما رأى هزهم لم يسه إلا أن يتسم بدوره وهو يرمّز تنكيه كأنما يقول لهم ودعوني وشأني. فهمي وحده بدا متحفكاً في ابتسامه لشعوره أنّ القرعة تنصيبه قبل أن تغيب ابتسامته، وصدق شعوره إذ أعرضت خديجة عن ياسين في ازدراء ولمس وخاطبته قائلة برجاه وإشفاق:

- فهمي... أنت رجلنا...!

تعفهم من إحساس بالذنب، بل لعلها كانت أول دافع إليه، حيث أن الإنسان ركز تفكيره في النجاة عند الخطر حتى إذا ظفر بالنجاة عاد ضميره يناوشه، كالجسم الذي يستنفد حويته كلها في المضو المرض حتى إذا ما استرد صحته تورعت حويته بالتساوي على الأعضاء التي أحملت إلى حين، وكأن خديجة أرادت أن تنخفف من هذا الإحساس فقالت:

- ما دعنا نعجز جميعاً عن مخاطبة بابا فلنستعين بجارتنا الست أم مريم.

وما إن نطقت باسم «مريم» حتى لحظت فهمي بحركة عكسية فالفتت عينهما لحظة قصيرة في نظرة لم يرتجع لها الشاب لإيمائها فأشاح عنها بوجهه متظاهراً بعدم الاكتراث، فذكر أن اسم مريم لم يجز على لسان أمام فهمي منذ نبئت فكرة خطبتها، إنما مراعاة لمواظفه، وإنما لأن مريم اكتسبت معنى جديداً بعد احترافه ببيتها سلوكها في زمرة المحرمات التي لا تتسامح تقاليد البيت بلوكها علانية حبال صاحب الشأن، وبالرغم من أن مريم نفسها لم تنقطع عن زيارة الأسرة متظاهرة بجهل ما دار بشأنها وراء الأبواب... ولم تفت ياسين لحظة الارتباك المتبادل بين فهمي وخديجة فأراد أن ينطلي على أثرها المحتمل بتوجهه الانتباه إلى وجهة جديدة فوضع يده على كتف كمال وقال بلهجة بين التهكم والتعريض:

- هذا رجلنا الحق، هو وحده الذي يستطيع أن يرجو والده ليحد إليه أمه!

لم يحمل كلامه حمل الجمل أحد، وأولهم كمال نفسه، بيد أن قول ياسين وثب إلى ذاكرته في اليوم التالي وهو يقطع ميدان بيت القاضي عائداً من المدرسة، بعد نهار مضى أكثره في التفكير في أمه المنفية، فتوقف عن السير صوب درب قرمز، وانضت إلى طريق النحاسين متردداً وقلبه المحزون يتابع خفقاته في كآبة وتأم، ثم غير طريقه متجهاً نحو النحاسين في خطوات متباطئة دون أن يجمع عزمه على رأي، يسوقه العذاب الذي يعاني لفقد أمه، ويرجمه الخوف الذي يركبه لمجرد ذكر أبيه، فضلاً عن مخاطبته أو التوسل

المسعى، ولا تنسي أنكما لم تتعرضا لنفسه طول حياتكما إلا في النادر الذي لا يقاس عليه، فهو يالف الرفق بكما كما يالف البطش بنا!

فأطرت خديجة متفجرة في قلق غير خالف، وكأنها خافت إن طال صمتها أن تشتد عليها الحملة فتستقر المهمة الخطيرة في قرعتها فرفعت رأسها قائلة:

- إذا كان الأمر كما تقول فصالحشة أخلق مقي بالكلام!

- أنا... أ... كيه ١٩

نطقت بها عائشة في فرع من وجد نفسه في رمي الخطر بعد أن اطمأن طويلاً إلى موقف المخرج الذي ليس له من الأمر شيء خاصة وإثنا - لحداثة سنّها وغلبة إحساس الطفولة للندلة عليها - لم تكن تندب لشيء هام فضلاً عن إحطار مهمة يمكن أن تعرض لأحد منهم، إلا أن خديجة نفسها لم تجد فكرة واضحة لتبهر اقتراحها بيد أنها أصرت عليه في عناد مشيع بالمرارة والتهكم فقالت تهيب شقيقتها:

- لأنه ينبغي الانتفاع بصفرة شعرك ورقة عينيك في إنجاح مسمانا!

- وما دخل شعري وحيفي في مواجهة أبي؟  
لم تكن خديجة تهتم في تلك اللحظة بالإنفاق بقدر ما تهالك على إيجاد خرج لها ولو بتحويل الأذهان إلى أمور هي بالمعابة أشبه تمهيداً للتعقير، فالقرار من أسلم السبل الممكنة كمن يقع في مازق حرج وتعوze الحجة في الدجاج عنه فليجأ إلى الزواج ليمهد لنفسه مقراً في ضجة من السرور بدلاً من الشجاة والأزواء لذلك قالت:

- أعرف لها تأثيراً ساحراً في كل من يتصل بك، ياسين... فهمي... حتى كمال، فليذا لا يكون لها نفس التأثير عند أبي؟

فتورد وجه عائشة وقالت بانزعاج:

- كيف أخطأه في هذا الشأن وأنا لا تقع على عيناه حتى يطير ما في رأسي؟

عند ذاك - وبعد أن تمزوا تباعاً من المهمة الخطيرة - لم يعد يشعر أحد منهم بتهديد مباشر ولكن النجاة لم



الآب غيبًا وهذب بحذة:

- تكلم... هل فقدت النطق؟

ونجست قوته كلها في إرادة واحدة وهي أن يخرج من صمته بأي ثمن أتقاء لغضب أبيه ففتح فاه قائلاً كيفاً اتفق له:

- كنت عائدًا من المدرسة إلى البيت...

- وماذا أوقفك هنا كالمتوه؟

- رأيت... رأيت حضرتك فأردت أن أقبل بك...!

فتجلت في عيني السيد نظرة استرابة، وقال بجلاء ونهم:

- أهذا كل ما هنالك!... أوحشتك لهذا الحد؟

ألم تستطع أن تنتظر إلى الصباح لتقبل بيدي إذا أردت؟... اسمع... إنك وإن تكون قد عملت عملة في المدرسة... سأصرف كل شيء...

فقال كمال بسرعة واضطراب:

- لم أحصل شيئاً وسحاة وأنا...

فقال الرجل بفاد صبر:

- إذن تفضل... صبرت وفي بلا مناسبة... عُر من وجهي...

فغادر كمال موقفه لا يكاد يرى موضع قدمه من الاضطراب، وتحرك السيد من مكانه ليدخل ولكن حاولت الغلام الحمية بمجرد تحول عيني أبيه عن عينه، وصاح بلا شعور قبل أن يغيب الرجل وتضيع الفرصة:

- ربيح نينة الله يخليك...

وأطلق ساقيه للريح...

٣٥

كان السيد يجتني قهوة العصر في حجرته حين دخلت خديجة وقالت بصوت كاد من التخشع ألا يسمع:

- جارتنا ست أم مريم تريد مقابلة حضرتك...

فصاح السيد متعجباً:

- حرم السيد محمد رضوان؟ ماذا تريد؟

إليه، لم يكن يتصور أنه يستطيع أن يقف بين يديه محدثاً في هذا الأمر، ولم تقب عن شعوره المخاوف الصسية بأن تحقيق به لو فعل، ولم يصمم على شيء إلا أنه رغم كل هذا واصل السير البطيء حتى لاح لعينه باب الدكان كأنما يتروح إلى إرضاء قلبه المملب ولو إرضاء عميقاً. كالخداة التي تحوم حول خاطف صغارها دون أن. تجمد الشجاعة على مهاجته. وتداني من الباب حتى وقف على بُعد أمتار منه وطال الوقوف وهو لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يستقر على رأي، وفيما خرج من الدكان رجل وهو يهقه عاليًا وإذا بأبيه يتجه حتى عتبة الباب مودعًا وهو يفرق في الضحك كذلك، فأذهت المفاجأة، فتسمر في مكانه مستشرقًا وجهه أبيه الضاحك الطليق في إنكار ودهشة لا توصفان، لم يصدق عينيه ويخيل إليه أن شخصية جديلة قد حلت في جسم أبيه، أو أن هذا الرجل الضاحك... على ما به من شبه بأبيه... شخص آخر يراه لأول مرة، شخص يضحك، ويفرق في الضحك، وينطلق البشور من وجهه كما ينطلق الضوء من الشمس، واستدار السيد ليدخل فوقع بصره على الغلام المتطلع إليه بلهول فأخلته الدهشة لموقفه وهيته على حين استرقت أساريره بسرعة مظهر الجلد والرزانة، ثم سألوه وهو يتفكر في وجهه:

- ماذا جاء بك؟

وللحال دبّت في أحماق الغلام غريزة الدفاع عن النفس - رغم ذوهله - فتقدم من أبيه ومدّ يده الصغيرة إلى يده وتطامن عليها حتى لثمها في أديم وخشوع دون أن ينبس بكلمة. فسأله السيد مرة أخرى:

- أتريد شيئاً؟

فازدرد كمال ريقه وهو لا يجد ما يتلفظ به إلا أن يقول مؤثراً السلامة وأنه لا يريد شيئاً وأنه كان في طريقه إلى البيت ولكن السيد استبطه فلاح في وجهه الضيق وقال بخشونة:

- لا تقف كالصنم وقل ماذا تريد...

ونقلت خشونة الصوت إلى قلبه فارتعد، وانعقد لسانه فكان الكلام قد الترقى بسقف حلقه، فإزداد

فقلت خديجة:

- لا أعرف يا بابا...

فامرأها بإدخالها وهو يمسك عن التمتع. ومع أن مجيء بعض الفضليات من الجارات لمقابلته - لسان يتعلّق بتجارته أو لصلح يسمى به يبين وبين أزواجهن من أصدقائه لم يكن مع ندرته بالجديد عليه إلا أنه استبعد أن يكون ما دها هذه السيدة إلى مقابلة واحد من هذه الأسباب. وخطرت على ذهنه، وهو يتساءل، مريم وما دار عن خطبتها بينه وبين زوجها، ولكن أي علاقة ثمة بين هذا السر الذي لا يمكن أن يتعلّى دائرة أسرته وبين هذه الزيادة؟ ثم ذكر السيد عمّد رضوان لاحتمال أن تكون الزيارة لسبب يمتّ إليه يبدّ أنه كان ولم يزل مجرد جار، لا تربطه به إلا صلة الجيرة التي لم ترتفع يوماً لمربة الصداقة، فالتصّر تراورها قديماً على المناسبات الضرورية حتى شلّ الرجل فعاده مرّات، ثم لم يعد يطرق بابه إلا في الأعياد. هل أن ست أم مريم ليست بالفريفة عليه، فإنه لذكر أنها قصصت دكانه مرّة لا يتابع بعض الحواشي وهناك عرفت بنفسها استرحام لاهتمامه فبلل لها من كرمه ما رآه جديراً بحسن الجوار، ومرّة أخرى التفت بها عند باب بيته إذ صادف خروجه فقدمها للزيارة مصطحبة كرمتها وعند ذلك أدهشت بجوارها حين حيّته قائلة «مساء الخير يا سي السيد، أجل علمه اختلاطه بالأصدقاء أن بينهم من يتسامح فيما يتشدّد فيه متطوّفاً من التزام الآداب المتوارثة للأسرة، فلا يرون بأساً من أن تخرج نسائهم للزيارة أو للاستبضاع، ولا يجنون حرجاً في توجبه تحية بريئة كالتي وتبتهها أم مريم إليه، ولم يكن - رغم حيلته - بالذي يظن فيها يرتضون لأنفسهم ولنسائهم، بل لم يكن يسمي الظنّ حقّ ببعض الأعيان من أصدقائه الذين يصطحبون زواجهم ونسائهم في العزبات للتنزّه في الخلوات أو لغشيان الملاهي البرية مكثفياً في مثل هذه الحال بترديد قوله ولكم دينكم ولي دينه، أي أنه لا ينزع إلى تطبيق آرائه على الناس تطبيقاً أعمى، إلى أنه يحسن التمييز حقاً بين ما هو خير وما هو شرّ، إلا أنه لا يفتح

صدره لكلّ وما هو خير ضالماً في ذلك مع طبيعته التخليدية الصارمة حتّى أنه عدّ زيارة زوجته للحسين جريمة قضى فيها بأقصى عقوبة أصدرها في حياته الزوجية الثانية، ولهذا كله لاقت تحية أم مريم له من نفسه دهشة مقرونة بما يشبه الانزعاج دون أن يسمي بأخلاقها الظنّ. وسمع بخارج باب الحجرة نائحة فادرك أن القادمة تنلّره بالدخول، ثم دخلت ملقّة في ملاعها، مستورة الوجه برفع أسود تتوسّط عروسه الذهبية عينيّ مكحولتين دهجاوين وقدانت منه بجسم جسم لحيم مترنّع الأرواف، فنبض السيد لاستقبالها وهو يمدّ يده قائلاً:

- أهلاً وسهلاً، شرفت البيت وأهله.

فمدّت له يدها بعد أن لفّتها في طرف الملاعة أن تتقبض وضوئه وقالت:

- ربّنا يشرف قدرك يا سي السيد...

ودعاهما للجلوس فجلست، ثم جلس وهو يسألها جملة:

- كيف حال السيد عمّد؟...

فكانت متكبّبة بصوت مسموع كأنّ السؤال حرّك أشجانها:

- الحمد لله الذي لا يحدّد حلّ مكروه سواء، ربّنا يلطف بنا جميعاً...

فهزّ السيد رأسه كالأسف وتمتم:

- ربّنا يأخذ بيده ويمنحه الصبر والعافية...

وأعقب حديث المجاملات صمت قصير فأخذت السيدة تنهياً للحديث الجذّي الذي جاعت من أجله كما تنهت المطرب للغناء بعد الفراغ من عزف اللقمة الموسيقية حلّ حين غصّ السيد بصره تحسّناً تاركاً على شففيه ابتسامة لتعلن ترحبه بالحديث المنتظر:

- يا سيّد أحمد، أنت في المرومة مثل يضرب في الحزن كلّ، فلن نجيب رجاء لمن يقصدك مستشفّاً مروءتك.

فتمتم السيد بصوت حيّ وهو يتساءل في نفسه وثرى ما وراء هذا كلّ؟!...

- أستغفر الله...

وعذب، فلما قالت «بل أعز من الأخ» جهر الصوت بحنان دافئ نشر في الجو المحتشم نفحة طيبة، لتسحب وتساكن، ولم يعد يطبق غضب بصره حل الشك فرفعه مستائياً. . . واسترق إلى وجهها النظر - فوجدتها - حل غير ما توقع - تتطلع إليه بعينها الدهجاءين، فجاش صدره وتغضض بصره مستعجلاً بين الدهشة والحرص ثم قال مواصلاً الحديث كي يغفل عن تأثيره:

- أشكرك حل ما أوليتني من أخوة. . .

وعاد يتساكن ثرى أكانت تتطلع فكذلك طوال الحديث أم صادف رفع بصره إليها تطلّعها إليه؟ وما القول في أنها لم تغضض بصرها عند اللقاء المتين؟ ولكنه سرعان ما هزأ بأفكاره قائلاً لنفسه إن ولعه بالنساء وخبرته بمشاريعهن أرهفا حاسة سوء الظن عنده، وأن الحقيقة بلا رب أبعد ما تكون عن تصوّره، أو لعل المرأة من النساء اللاتي يفضن الحنان طبعاً وسجية فيظنن من لا يعرفهن حرّاً وما هو بالفرز، ولكي يتحقّق من صدق رايه - لأنه لم تزل ثمة حاجة إلى التحقيق - رفع بصره مرّة أخرى فما هاله إلا أن يراها راتية إليه، فتشجع هذه المرّة وثبت عليها عينه قليلاً فلم تزل ترنو إليه باستسلام جسور حقّ غضب بصره في حيرة شاملة، وعند ذاك لاحظه صوبها الناعم وهو يقول:

- سأرى بعد هذا الرجاء إذا كنت حقاً أثيرة عنلك. . .

أثيرة؟! لو قيلت هذه الكلمة في غير هذا الجو المشيع بالحماسية المكهرب بالشك والغيرة، لمّت دون أن تترك أثراً، أمّا الآن؟! وعاد النظر في غير قليل من الحرج فقرأ في عينيها بعض الممانى التي عايش ظنونته، هل يصدق إحساسه؟ وهل يمكن هذا حال استشفاعها لزوجها؟ ولكن كيف يصعب من كان في مثل خبرته بالنساء؟ سيئة لعب ذات بعل مشلول. وسرت في وجدانه وثبات بهيجة ملأته حرارة وزهواً، ولكن متى نشأت هذه العاطفة؟ أي قديمته وكانت تحيّن الفرص؟ ألم تزد دكانه مرّة فلم يند عنها ما يريب. . . ولكن الدكان ليس بالمكان الذي تطمئن إليه مثلها في

- المسألة أنني جئت الساعة لأزور أخي ست أم فهمي فها هالتي إلا أن أعلم بأنّها ليست في البيت وأنتك غاضب عليها! . . .

وأصكت المرأة لتسبر أثر كلامها ولتسمع رأي السيد فيه، ولكنه لاذ بالصمت كأنه لا يجد ما يقوله ومع أنه شعر بعدم ارتياح إلى فتح هذا الموضوع إلا أن ابتسامه الترحيب ظلت معلقة بشفتيه. . .

- هل توجد ست أكمل من ست أم فهمي؟! ست العقل والحياء، جارة عشرين عامًا وأكثر، لم نسمع غلغلا منها إلا ما يسرّ الحاضر، فما عسى يمكن أن نجني مما تستحقّ عليه غضب رجل عادل مثلك؟! . . .

فتابّر السيد على صمته متجاهلاً تساؤلها، ثم دارت برأسه خواطر زادت من عدم ارتياحه. . . ثرى أجمعت زيارة المرأة للبيت اتفاقاً أم أنها استدعت بتدبير مدبر؟! عذيفة؟ عالة؟ أمينة نفسها؟ إنهم لا يملّون الدفاح من أهمهم، هل ينسى كيف تجرّأ كمال على الصراخ في وجهه مطالباً بعودة أمه، الأمر الذي حرّضه فيها بعد لعلقة ساخنة تطاير بخارها من يافوخه؟! . . .

- يا لها من سيئة طيبة لا تستأكل عقاباً. . . ويا لك من سيّد كريم لا يلقى به العنّف، ولكنه الشيطان اللعين أخزاه الله وما أجدر نيلك بإفساد كبد. . . وشعر عند ذاك بأنّ الصمت هذا أثقل من أن يحتمل مجاملة للزائرة فتتمت قائلاً بانقضاب متعمّد:

- ربّنا يصلح الحال. . .

فكانت أم مريم بحماس متشجّعة بما أصابت من نجاح في استدراجه إلى الكلام:

- لشّد ما يعزّ حلّ أن تترك جارنا الطيبة بيتها بعد ذلك العمر الطويل من السر والكرامة. . .

- ستعود المياه إلى مجاريها، ولكن لكلّ شيء ميعاد. . .

- أنت أخي، بل أعز من الأخ، وإن أزيد حلّ هذا كلمة واحدة. . .

جدّ جديد من الأمر لم ينب عن وعيه البظ فسلّجه كما يستجل المرصد الزلزال البعيد - مهما تلبّ حركته - خيّل إليه وهي تقول «أنت أخي» أنّ صوبتها رقّ

بث هوى مكتم غير مسبوق بتمهيد كما فعلت زبيدة العالمة، أم هي عاطفة بنت ساعها وجدت مع الفرصة السانحة في الغرفة الخالية؟ لو صحَّ هذا فهي «زبيدة» أخرى في لباس سيئة مصونة، وليس غريباً أن يجهل أمرها - وهو العلم ببنات الهوى - ما دام يحرص الحرس كله على احترام الجيران احتراماً مثاليّاً، وأياً كان الأمر فكيف يجيبها؟ «أنت آثر عندي ممّا تظنين؟» قول جميل ولكنها حرية بأن ترى فيه تحية استجابة لدعائها، كلاً إنّه لا يريد هذا، إنّه يأباه كل الإباه، لا لأنّه لم يشع بعد من زبيدة، ولكن لأنّه لا يقبل أن يجهد من مبادئه في تقليد الاعراض عامة، وما يمسّ الأصدقاء والجيران منهم خاصّة. لهذا لم تسود صفحته نقطة واحدة يمكن أن يغزى بها أمام صديق أو جار أو أحد من الأطهار على إقراطه في العشق والصبوات، ولم يزل دأبه أن يخاف الله في لوه كما يخافه في جلّه فلا يبيع لنفسه إلا ما يراه مباحاً أو في حدود المغفوات. لا يعني هذا أنّه أوتي إرادة خارقة تصممه من الأهواء، ولكنه لهج بالهوى المبلول، وصان طرفه عن الحرمت حتى أنّه لم يتمدّد النظر إلى وجه امرأة من حيّه طوال صمره، على أنّه ممّا يذكر له أنّه صدّ مرة من هوى متاع رحة بأحد معارفه، إذ جاءه يوماً رسول يدهو إلى لقاء أخت ذلك الرجل - أرملة نصف - في ليلة سيّها فتلقى السيّد الدهوة صامتاً وصرف الرسول متلفظاً كعادته ثمّ قاطع الطريق الذي يوجب به البيت أحوالاً متواصلة. ولعلّ أمّ مريم كانت أوّل تهمرة - عرضت لمبادئه - يكادها بحبي، ومع أنّها أصعبت إلا أنّه لم يستجب لنوازع الهوى، وغلب صوت الحكمة والوقار، صائناً سمعته التي يتحدث بها الناس عن موطن المؤاخلة، كأنّ هذه السمعة الطيبة آثر عنده من اقتناص لذة مواتية، متعرّياً في نفس الوقت بما يتاح له. من حين لآخر من غرائبات مأمونة الصواب، وهذه الروح الزاكية للعهد المخلصة للإخوان لا تزاله حتى في مغاني اللهو والشهوة، فلم يؤخذ عليه أبداً أنّه سطا على عظمة صاحب أو طمع بطرف إلى خيلة صديق، مؤثراً الصداقة على الأهواء، لأنّه كما اعتاد أن يقول

«الصديق وّد دائم والعشيقه هوى عابر»، ولهذا قنع بانتقام خليلاته بمن يدهنّ بلا خليل، أو ينتظر حتى تنقطع علاقة فيهبس لانتهاز فرصته، وأحياناً يستأذن الخليل القديم قبل أن يتودّد إلى من كانت خليلته، مواصلاً العشق في سرور لا يشوبه الندم ولا تكدر صفوه إحسن النفوس. ممجّى آخر أنّه نجح في التوفيق بين «الحيوان» المتهاك على اللذات وبين «الإنسان» المتطلع إلى المبادئ العالية توفيقاً اتسلافياً يجمعهما في وحدة متسجمة لا يطغى أحد طرفيها على الآخر ويستغلّ كلّ منها بحياته الخاصّة في سر وارتياح، كما ولّق من قبل في الجمع بين التدينّ والغواية في وحدة خالية من الإحساس بالذنب والكبت ممّا، غير أنّه لم يكن يصدر في وفائه عن إخلاص مجرد للأخلاق ولكن - إلى هذا أو قبل هذا - عن رغبته التلبية في أن يظلّ حائرّاً للحبّ متمتّعاً بالسمعة المظفرة، إلى أنّ غزواته المظفرة في العشق هوّنت عليه الإصرار عن الحبّ الموسوم بالحيانة أو الندالة، وفضلاً عن هذا وذلك فإنّه لم يعرف الحبّ الحقيقي الذي كان خليفاً بأن يدمعه إلى إحدى التين: فلما الإزدحام للعاطلة القويّة دون مبالاة بالمبايئات، ولما الوقوع في أزمة عاطفية خلتية حاقّة لم يقدر عليه الاكتواء بنارها. فلم يكن في أمّ مريم إلا صنف لليل من الطعام لن يضيره - إذ هدّته تناوله بسوء المهضم - أن يحنل عنه إلى غيره من الأصناف للمأمونة الشهية التي تحفل بها المائدة، لذلك أجابها برقة قائلا:

- شفاعتك مقبولة إن شاء الله وستسمعين ما يسرك  
حيّاً قريب...

فقلمت المرأة وهي تقول:

- ربّنا يكرمك يا سي السيّد...

ومدّت له يداً بقّة فمدّها لها يده وهو يقبض بصره فحتّل إليه - وهي تسلّم - أنّها ضغطت قليلاً على يده، وجعل يتسائل أفله طريقتها في التسليم أم أنّها تعصّت الضغط على يده، وحاول أن يتذكّر كيفية تسليمها عند استقباليها ولكن الذاكرة لم تسعف، وقضى

على البيت من حين لآخر، حرم للمرحوم شوكت، والمرحوم شوكت من قبل، أسرة ارتبطت مع أسرته بأصرة الودِّ الخالص من عهد الجنود، كان للراحل منزلة الأب من نفسه، ولم تزل أرملة عند - وعند أسرته بالتيمة - بمنزلة الأم، هي التي خطبت له أمة بنفسها، وتلقّت أبنائه يديها وهم يستقبلون نور الدنيا، وإلى هذا كله قال شوكت أناس صدقاتهم شرف، لا لأصلهم التركيّ فحسب، ولكن لمرتبتهم الاجتماعية وعقاراتهم الكثيرة ما بين الحمزاوي وبين الصوريين، وإذا كان السيد من أوساط الطبقة الوسطى فهم من أهل القمة فيها بلا جدال، ولعلّ الأمومة التي تشعر بها المرأة له ويشر بها لها هي التي جعلته يقف من شفاعتها المنتظرة موقف التّهنّيب والخرج، فليست هي بالتي تلتزم الاحترام في مخاطبته، ولا بالتي تنمب في استعطافه، فضلاً عن عرفته به من صراحة جارحة لها مبرراتها من شيخوختها ومكانتها ماءً أجل ليست هي...

وأمسك عن أفكاره لدى سبائه وقع خطواتها، ثم نبض وهو يقول بترحيب:

- أهلاً وسهلاً، زارنا النبيّ... -

اقتربت منه سيّدة طاهرة في السنّ، تدبّ على مظلة وهي ترفع إليه وجهها ناصع البياض كثير التجاعيد لم يكذب حجب منه شيئاً برقعها الأبيض الشفاف، وتلقّت تحيّة باتسامه جلت عن أسنانها اللهيّة، وسلّمت، ثم انحلت مجلسها إلى جانبه بلا كلفة وهي تقول:

- من يعيش يرّ، حقّ أنت يا زين الرجال!... وحقّ هذا البيت تحدث فيه هذه الأمور التي لا يعطى التحدّث عنها!... شئت وربّ الحسين وبادرك الحرف...

واسترسلت في الكلام مطلقة العنان للسانها يقول ويعيد غير تاركة للسيد من فرصة لمقاطعتها أو التعقيب عليها، حدّته كيف جاءت للزيارة، وكيف اكتشفت غياب زوجها وظننت بادئ الأمر أنّها خرجت في زيارة فلنقت صبري يدي دحشة وقلت ماذا حدثت للعالم؟!... وكيف سمع لها السيد بالخروج مستهيناً

أكثر الوقت الذي سبق عودته إلى الدكان وهو يتفكر في المرأة، حديثها، وليتها، وتسليمها...

٣٦

- تيزة حرم المرحوم شوكت تريد مقابلة حضرتك. وهي السيّد خديجة بنظرة حراء وصاح بها:

- لماذا؟

ولكن أعلنت نبراته الغاضبة ونظراته الثائرة على أنّه لم يقصد الوقوف عند مدلول ولماذا، وكأنّه أراد أن يقول لها دلم أكد أفرغ من وسط الأوس حتى جيتي بوسط جديد اليوم، من قال لك إنّ هذه الخيل تموز على؟... كيف تجسرين أنت وإخوتك على المكر يا؟

واصفّر وجه خديجة وهي تقول بصوت متهلّج:

- لا أدري والله...

فحرك رأسه حركة كأنها تقول لها دبل تدبرين وأدري أنا أيضاً ولن يمسك مكرك إلا إلى أوعم المواقب، ثم قال ساخطاً:

- خليكها تشغل، لن أشرب قهوتي براحة بال بعد الآن، أصل حجرتي محكمة وقضاة وشهود، وفله هي الراحة التي أجدها في بيتي، لعنة الله عليكم أجمعين!...

احتضت خديجة قبل أن يتمّ كلامه كما يخفي الفأر إذا قرعت سمعه قرعة، وظلّ السيد لحظات متجهّماً حائفاً، حتى خطرت على ذهنه خديجة وهي تنسحب خائفة فتمرت قدمها ببقايه وكاد رأسها يصطدم بالباب، فارتسمت على شفّته ابتسامة إشفاق مسحت غضبه المتشّفة وقطرت على صدره عطفاً، يا لهم من أطفال يأبون أن ينسوا أمهم ولو دقيقة واحدة، وأنهم يصبره إلى الباب وهو يتهمّناً لاستقبال الزائرة بوجه انبسطت أساوره كأنه لم يصبّ غضبه منذ ثوان على فكرة زيارتها، ولكن لم يجد له خيلة فيها يركبه من غضب - وهو في بيته - لافتة الأسباب أو بلا سبب على الإطلاق، وقضاً عن هذا كله كان للقادمة منزلة خاصّة لا يرتقي إليها أحد من النساء اللاتي يتردّدن

يزوّج الصغرى حتى تزوّج الكبرى سيرتكم هذه المرة  
برغبة عزيزة لا يسهه إمامها... رغبة عالته بها من لا  
تجهل تصميحه ذلك مما دلّ على أنّها ترفضه سلفاً وتأتى  
أن تنزل عند حكمه...

- ما لك صامتاً كأنك لم تسمعي؟

وابتسم السيّد ارتباكاً وحياء، ثمّ قال على سبيل  
الملاحظة والمجاملة ريثاً يقلّب الأمر على وجوهه:  
- هذا شرف عظيم لنا...

فرمته السيّدة بنظرة كأنها تقول له «ابحث لك عن  
طريقة أخرى غير معسول الكلام» وقالت بلهجة  
هجوميّة:

- لا حاجة بي إلى الضحك عليّ بأجوف الكلام،  
لن أرى بغير الموافقة الثابتة، لقد نذيتي لخليل لاختيار  
زوجة له فقلت له عندي عروس هي خير ما يمكن أن  
تظفر به فسرّ لاختياري ولم يعدل بمصاهرتك شيئاً...  
فهل جاء زمن تقابل فيه مثل هذه الرغبة، متى أنا،  
بالصمت والتهرب؟! الله... الله...

الإلمّ يقع في هذه المشكلة الملعنة التي لا يمكن أن  
يخرج منها دون أن يصيب إحدى ابنتيه بصلصة  
قاسية؟!... ونظر إليها كما يستجدي عطفها على  
موقفه، وضمغم:

- ليس الأمر كما تصوّرين، رغبتي فوق العين  
والرأس، ولكن...

- آه من لكن!... لا تقل إنك قرّرت ألا تزوّج  
الصغرى حتى تزوّج الكبرى، من أنت حتى تقرّ هذا  
أو ذاك؟!... دع ما لله وهو أرحم الراحمين. إن  
شئت ضربت لك عشرات الأمثال عن أخوات صغار  
تزوّجن قبل الكبر فلم يتخلّ زواجهنّ دون زواج  
أخواتهنّ بأحسن الأزواج، وخديجة شابة ممتازة ولن  
تعدم زوجاً صالحاً عندما يشاء الله... إلآم تقف  
حائلاً بين عائشة وبين حظّها؟!... أليست هي  
الأخرى جدية بعطفك ورحمتك؟!!

قال لنفسه: إذا كانت خديجة شابة ممتازة فلماذا لا  
تختارها؟!... وهمّ بإحراجها كما أحرجه ولكنّه  
خاف أن ترميه بإجابة تنضمّن إساعة - ولو بحسن نية -

بالشرايع الإلهية والقوانين البشرية والفرمانات  
العثمانية!... بيد أنّها سرعان ما حرفت الحقيقة كلّها  
وثبت إلى رشدي وقلت الحمد لله الدنيا بخير، هذا  
حقاً هو السيّد، وهذا أقلّ ما يتظر منه ثمّ غيّرت  
لهجتها الساخرة وراحت تؤيّه على قسوته، ولم تقتصد  
في الرثاء لزوجها التي تعدّها آخر امرأة تستحقّ عقاباً،  
وجعلت كلّها همّ بمقاطعتها تصبح به «هس»، ولا  
كلمة... دع حديثك الحلو الذي تحسن تنميّه فلن  
أخدع به، إلّا أريد صلاً صالحاً لا مزوّناً، وصارحته  
بأنّه يغالي في المحافظة على أسرته مغالاة خسرّت  
المالوف، وأنّه يجعل به أن يأخذ نفسه بشيء من المودة  
والرفق، استمع السيّد إليها طويلاً، ولمّا سمحت له  
بالكلام - بعد أن أحيّاها الكلام، شرح لها وجهة نظره  
المعروفة ولم يمنعه دفاعها الحارّ، ولا مكانتها عنده من  
أن يؤكّد لها بأنّ سياسته مع أسرته عقيدة لا يتحوّل  
عنها وإن وعدنا في النهاية - كما وعد أمّ مريم من قبل -  
خيراً، وطنّ أنّ أن للجلسة أن تنفض ولكنّه ما يدري  
إلّا وهي تقول:

- غياب أمينة هائم مفاجأة غير سارة لي لأنّ كنت  
أريدها لأمر هامّ جدّاً، ولأنّ الخرج لم يعد بالهسيّة  
السيرة على صحتي، ولا أدري الآن إن كان يحسن بي  
أن أتكلّم فيها أودت الكلام فيه أم أنتظر عودتها؟!  
فقال السيّد مبتسماً:

- كلنا تحت أمرك...

- وعدت لو كانت هي أوّل من يسمعي وإن كنت لم  
تترك لها من الأمر شيئاً، ولكن لئن فاتني هذا فعزائي  
لها فرصة سعيدة للعودة...

فاحتار السيّد في فهم حديثها وحجج إليها متأسلاً:  
- ما وراء هذا؟

فقال وهي تنكت السجادة بسنّ مظلمة:

- لا أطيل عليك، لقد وقع اختياري على عائشة

لتكون زوجاً لخليل أبي...

ودعش السيّد دهش من أخذ على غرة من حيث لم  
يتوقّع فركبه الارتباك، بل الانزعاج، لبواحت غير  
خافية، أدرك من أوّل وهلة أنّ تصميحه القديم على ألا

يصنق هذا من لا يرويه إلا مكشراً أو صاغياً أو  
صاحكاً ساخراً... إن مسة حزن تلذع فلة من  
كبد خليفة بأن تنقص العيش كله وتطيق وجه الحياة  
في عنيه، ولكم يسعد أن يجد بكل غال في سبيل  
إسعاد فتاته سواء هذه التي يرى في وجهها الجميل  
وجه أمه أو تلك التي لم تُحب من الحسن إلا لونها  
شاحياً، كلتاهما من نبض قلبه وعصارة روحه، بيد أن  
الزواج الذي تقدمه حرم المرحوم شوكت لقية بكل ما  
في هذه الكلمة من معنى، ففى في الخامسة والعشرين،  
ذو دخل شهري لا يقل عن الثلاثين جنبها، حقاً إنه  
كثير من الأعيان لا عمل له، وحقاً إن حظه من  
التعليم ضئيل لا يمتد معرفة القراءة والكتابة، ولكنه  
يُتصف بجملة من خلال أبيه الطيبة وكرم الأخلاق،  
ما عسى أن يفعل؟... يجب أن يحسم أمره لأنه لم  
يألف التردد ولا الشورى ولا يقبل أن يبدو أمام أهله -  
ولو لحظة قصيرة - كمن لا رأي قاطع له، ألا يشارو  
خاصته للمقربين؟ إنه لا يرى غضاضة في مشاورتهم  
كلها جدّ أمر، والواقع أن سرهم يبدأ عادة بمناقشة  
الهموم والمشاكل قبل أن تطير بهم الخمر إلى الدنيا التي  
لا تعترف بالهموم والمشاكل، ولكنه قدر ما يستبد في  
باطنه برأيه فلا يجيد عنه، فهو من الذين يلتصمون في  
الشورى ما يؤيد رأيهم لا ما يعذل بهم عنه، ولكنها  
حق في هذه الحال عزاء ومتنفس، ولما ضاق الرجل  
بأفكاره هتف قائلاً:

- من يصنق أن ما بي من هم لا يحتمل ما هو إلا  
نتيجة لحير أكرمني به الله؟...

## ٣٧

لم يكن لأمنية من عمل في أيام مظاعها إلا الجلوس  
إلى جانب أمها والاسترسال في الحديث، في كل ما  
يخطر على البال من أحاديث مجاذبا الماضي البعيد  
والماضي القريب والحاضر، ما بين الذكريات العزيرة  
والمأساة الراحلة ولولا عذاب الفراق وشبح السلاقي  
لاطمأنت إلى حياتها الجديدة كعطلة للاستجمام من  
هناء الواجبات أو كرحلة خيالية في عالم الذكريات.

خديجة وبالتالي له هو، وقال بصوت ملؤه الجدة  
والإهتمام:

- ليس إلا أنني أشفق على خديجة.

فقالت بحدة كأنها هي المطالبة لا هو:

- كل يوم تقع أمور كهذه دون أن تترك أحداً، إن  
الله يكره من عبده العناد والمكابرة، اقبل رجائي وتوكل  
على الله، لا ترفض يدي فلاني ما مدحتها إلى أحد  
قبلك...

فدارى السيد انفعاله بابتسامة وقال:

- هذا شرف عظيم كما قلت لك منذ لحظة...

فقط أمهلني قليلاً ريثما أراجع نفسي وأرتب أموري،  
ومستجدين رأيي عند حسن ظنك إن شاء الله...

فقالت بلهجة من يجهز على الحديث:

- لا يجوز أن أدخل من وقتك أكثر مما أخلت، ثم  
إنه كلما طال الأخذ والرد خيل لي أنك لا تتقبل رغبتي  
بقبول حسن، ومثلي من طمع إذا قالت لك أريد أن  
تبادرها بنعم دون لت وعجن، فلن أزيد مما قلت إلا  
كلمة واحدة: خليل ابني وابنتك وعاشة بنتك  
وينتي...

وقامت فقام السيد ليوذعها، لم يكن يتوقع إلا كلمة  
توديع ومحبة، ولكنها أبت إلا أن تذكره بوصاياها جملة.  
كأنها خافت أن يفوته شيء منها فأعادت تفصيلاً، وما  
يدري - أو تلوي - إلا وهي ترجع لتأييد بعض آرائها  
وتوكيد البعض الآخر، ثم غلبها تداعي الأفكار  
فاسترسلت فيه بلا ممانعة حتى أعادت حل مسمعه جل  
ما قالت عن الخطبة، وإلى هذا كله لم تشأ أن تنهي  
ذاك الحديث دون أن تودع حديث الأم المبعلة بكلمة  
أو كلمتين أو ثلاث وإذا بتداعي الأفكار يغلبها مرة  
أخرى تسترسل فيه حتى كاد الرجل يفقد أعصابه، ثم  
أوشك أن يضحك في النهاية وهي تقول له: ولا يجوز  
أن أدخل منك أكثر مما أخلت» وأوصلها إلى الباب  
مشفقاً في كل خطوة من أن تتوقف عن المسير وتشترك  
في الكلام كزة أخرى، ثم عاد أخيراً إلى مجلسه وهو  
ينتفس من الأحقاد. عاد مفتتاً مكتئباً، قلب رقيق،  
أرق مما يظن الكثيرون، بل أرق مما ينبغي، فكيف

كبيرة ولا صغيرة بما في أحوالها إلا سجلته، لشد ما وثقت أن تتلقى النبأ السعيد يبدؤه خليق بمسومتها، ولكنّ الفرح استغفها فضحكت أسارىها ونطقت بابتهاج صياني، وفي نفس الوقت تولّاهما حياء لم تذّر له سبيًا، وطال جودها في مكانها ففض صبر كمال فشدّها من يدها راميًا بقله إلى الوراء حتى طأوعته ناعضة، ووقفت قليلاً في ارتباك غريب وما تدري إلا وهي تلغضت إلى أمّها متسائلة:

- أذهب يا أمّي؟

بدا السؤال الذي نذّ عنها - في نعمة الارتباك والحياة - غريبًا، فابتسم فهمي وياسين، ودهش كمال وحده فيها يشبه الانزهاج وراح يؤكّد لها نبأ العفو الذي جاملوا به، أمّا الجلّة فقد شعرت بشعورها كله وحسدت باطلها فرّق قلبها ونحاشت أن تظهر الإنكار لسؤالها ولو بابتسامة خفيفة، وقالت بلهجة جدّية:

- إلى بيتك مصحوبة بسلامة الله...

فلهبت أمينة لتزني ملامحها وتصرّ ليابها وكيال في أعقابها، وهنا غاطبت الجلّة الشاين متسائلة بلهجة خففتها بابتسامة رقيقة:

- أما كان الأخلف بايكي أن ياتي بنفسه... ١٩

فأجابها فهمي كالمعتز قائلاً:

- أنت أدري يا جلتّي بطبع أبينا...

على حين قال ياسين ضاحكًا:

- فلنحمد الله على ما كان... ٢٠

فهمحت الجلّة بأصوات غير مفهومة ثمّ تنهّدت قائلة كأنّها تردّ على مهمتها:

- على أيّ حال السيّد أحد رجل ولا كلّ الرجال.

وغادروا البيت ودعاها الجلّة لهم بالبركة يتردّد في أذانهم، وقطعوا الطريق لأوّل مرّة في حياتهم حتّى بدا المنظر في أعيينهم بالفا في غرابته فتبادل فهمي وياسين نظرات باسمة. وتذكّر كمال يوم سار - كما يسير الآن - ممسكًا بيد أمّه يقودها من عطفة إلى عطفة، ثمّ ما تلا ذلك من آلام وخواف لا يحيط بها الكابوس نفسه فتصعّب طولًا، يبيد أنّه تناسى سريعًا أحزان الماضي في فرحة الساعة، ووجد من نفسه ميلًا للدعابة فقال لأمّه

بيد أنّ مرور الأيام دون وقوع الشيء الذي تخاف وما بلغها من شفاعة أمّ مريم وحرم المرحوم شوكت لدى السيّد، كلّ أولئك ثبت قلبها وروح عن نفسها، إلا أنّ زيارات الأبناء المسائيّة التي لم تنقطع يومًا واحدًا طلّت جوى صدرها بنفحات أمل متجدّدة. ومع أنّ الزمن الذي يتغيّبونه عنها فيه البيت الجديد لم يزد كثيرًا عن نظيره في البيت القديم - في كلتا الحالتين لم تكن تجتمع بهم إلا حين فراغهم من جلسة المساء - إلا أنّها باتت تشتاق إليهم اشتياق المغترب في بلد بعيد إلى أحباب فرّق الدهر بينه وبينهم، اشتياق من حرّم عليه تنفس جوهم والعيش بين ذكرياتهم، والإشراف على مواطن جذهم ولغومهم، كأنّ الجسم كليًا قطع في طريق الفراق قبراها كابد القلب أميالًا، ودأبت العجوز على أن تقول لها كليًا وجدت منها صمًا أو آنت في حديثها الشroud:

- الصبر يا أمينة، إني أرني لحالك، الأمّ غريبة ما ابتعدت عن أبنائها، غريبة ولو حلّت في البيت الذي ولدت فيه.

أجل إثنا غريبة، كأنّه ليس البيت الذي لم تعرف حياتها الأولى سواء موطنًا، وكأنّها ليست الأمّ التي لم تكن تطيق البعد عنها لحظة واحدة، لم يعد «بيتها» ما هو إلا منقّى تنتظر بين جدرانها على لف العفر من الساء. وجاء العفر بعد طول انتظار، حمله الأبناء ذات مساء، دخلوا عليها وفي أعيينهم لمعة كسا البرق خفق لها فؤادها خفقة اهتز لها الصدر كله حتّى أشفقت من أن تكون ذهبت في تأويلها إلى أبعد ممّا تحتمل، ولكنّ كمال جرى نحوها وتعلّق بمنقها ثمّ هف بها وهو لا يتألك نفسه من الفرح:

- البسي ملائك هيا بنا...

وفهقه ياسين قائلاً:

- جاء الفرج (ثمّ هو ولهمي ممّا) دهانا أيّ وقال لنا ادعيا فعمدا بأنكيا...

وغضت بصرها لتداري فرحتها الغامرة. ما أعجزها عن كتمان ما يضطرب في نفسها من شقّ العواطف، كأنّ وجهها مرآة شديدة الحساسية لا ترك



صاحكًا:

- تعالي نخطف أرجلنا إلى سيدنا الحسين... ١

فضحك ياسين بلهجة ذات معنى:

- رضي الله عنه، إنه شهيد يجب الشهاد... .

يلو- نهاية، هذه أمي قد رفع عنها الهم، ولكن حزني  
يبدو كأن لا نهاية له، ووجعت عاتشة إلى أفكارها  
التي لا يكمل على سرها أحد، تترامى لها الأحلام وتلم  
بها الذكريات وإن عثت بالقياس إلى أخيها أهدأ حالاً  
وأسرع إلى النسيان خطوة، ولكن أمانة لم تكن تقرأ  
الأفكار فلم يتقص عليها صفوها منقص، ولما آوت  
إلى حجرها لبلاً تبين لها أن النوم لا يجد مسعاً في  
نفسها التي أفعمها الفرح فلم تلذقه إلا لما حثى  
انتصف الليل فغادرت الفراش إلى المشرية تنظر  
كمهدا مسرحة البصر من خصائص النوافذ إلى  
الطريق الساهر حتى جاءت العربة تنهذى حاملة بعلمها  
إلى بيته، خفق قلبها بشدة، وتورد وجهها حياء  
وارتباكاً، كأنها ستلقاه لأول مرة، وكأنها لم تفكر طويلاً  
في هذه اللحظة... لحظة اللقاء المنتظر، كيف تقابله؟

كيف يعاملها بعد هذه الغيبة الطويلة؟... ما عسى  
أن تقول له أو يقول لها؟ لو يسمعا أن تتصنع النوم  
ولكنها لا تجد التشيل فك لا تطيق أن يدخل عليها  
وهي مستلقية، بل لا يسمعا أن يحمل وأجب الخروج  
إلى السلم بالمصباح لنضي له، وأكثر من هذا كله أنها  
بعد نظرها بالمودة وزوال السخط عنها- شاحت أريجها  
الرضا في قلبها ففعلت عيماً سلف بل وحلت نفسها  
الذنب كله حتى رأت بملها- بالرغم من أنه لم يُعز  
بالذهاب إلى بيت أمها لمصاحتها- حقيقاً بالاسترضاء،  
فتناولت المصباح ومضت إلى السلم ومدت ذراعها من  
فوق الدوابزين ووقفت تتابع وقع القدمين المقترنين  
بفؤاد خائف حتى صعد إليها، لغيت برأس مطاط فلم  
تر وجهه عند اللقاء، ولم تدرك أي تغير طرأ عليه حين  
مراها، حتى سمعته يقول بلهجة طبيعية لا أثر فيها من  
الماضي القريب الأسيف:

- مساء الخير.

فغمضت:

- مساء الخير يا سيدي...

وذهب إلى الحجرة وهي في أهو رافعة يدها  
بالمصباح، وبدأ يخلع ملابسها صامتاً ففتحت منه  
لعائته وياشرت عملها وقلبها يرد أنفاس الراحة.

ولاحت لهم المشرية وشبحان يتحركان وراء  
عصاهما فهما قلب الأم إليها في حنو وإشفاق، ثم  
وجدت وراء الباب أم حنفي في استقبالها فقمرت يدي  
سيدتها بالقتل، والتفت في فناء الدار بخديجة وعائشة  
اللتين تعلقتا بها كالأطفال، وروقا السلم في مظاهرة  
صاخبة، ونشوة من الفرح مطربة حتى استقروا جميعاً  
في حجرها فتبادروا إلى نزع ملابسها- رمز الفراق  
البغيض- وهم يضجون بالضحك، فلما جلست بينهم  
كانت تلهث من الانفعال والتأثر. وأراد كمال أن يعبر  
عن فرحه بها فلم يجد خيراً من أن يقول لها:

- هذا اليوم أعز عندي من المحمل نفسه!

واجتمع شمل الأسرة لأول مرة منذ زمن غير يسير  
في مجلس القهوة، فعدوا إلى السمر في جو من المسة  
ضاحف من بهجة ما سبقه من أيام فراق وكآبة تزفاد  
لثة اليوم اللطيف يهيء في أحقاب أسبوع من الزمهرير،  
ولم تكن الأم- التي استقبلت خزانها رغم فرحة  
اللقاء- أن تسأل الفتاتين عن شئون البيت متذرة من  
حجرة الفرن حتى اللباب والياسمين، كما سألت كثيراً  
عن الأب، وكما سرها أن تعلم أنه لم يسمح لأحد  
بمعاوته عند خلع ملابسها أو عند ارتدائها، فمهما يكن  
من أمر الراحة التي تهيأت له في خياها فتنة تغير قد  
طرأ على نظام حياته حمله بلا ريب عنه سيزول  
بعودتها، عودتها التي تكفل له- وحدها- الحياة التي  
يألفها ويرتاح إليها... الشيء الوحيد الذي لم يخطر  
لأمانة على بال أن تكون بعض القلوب السعيدة بعودتها  
قد وجدت في هذه العودة بالذات مبرراً لاجترار الحزن  
والأسى! ولكن هكذا كان، فهذه القلوب التي شغلت  
بحزن الأم عن أحزانها عادت إلى التفكير في أحزانها  
بعد أن اطمأنت على سلامة الأم، كالمص الشديد  
الطارئ نسي به ومدماً مزماً حتى إذا ذهب عادتنا الأم  
الجفون، عاد فهمي يقول لنفسه ولكل حزن- فيها

غير في خطورة، كل شيء في هذا البيت يخضع خضوعاً أعمى لإرادة عليا ذات سيطرة لا حد لها هي بالسيطرة الدينية أشبه، حتى الحب نفسه - بين جدرانها - يسترق خطاه إلى القلوب في حياء وتردد وعدم ثقة بالنفس، فلا يتمتع بما يتمتع به عادة من سطوة واستبداد، إذ لا استبداد هنا إلا لتلك الإرادة العليا، ولذلك فعندما قال الأب «لا» استقرّ قوله في أحياق نفسها وأمنت الفتاة إيماناً راسخاً أن كل شيء قد انتهى حقاً، لا مهروب ولا مراجعة ولا رجاء بنافع، كأن «لا» هذه حركة كونيّة كاختلاف الليل والنهار، غير مجد أي اعتراض عليها، ولا عهد من اتخاذ موقف موافق لها، وعمل هذا الإيمان من ناحيته - بشعور وبغير شعور منها - على إنهاء كل شيء فأنتهى، على أنها تساءلت فيها بينها وبين نفسها: إذا كانت الموافقة على زواجها قد تمت ولما ينقض على الرضخ السابق ثلاثة أشهر فلم تكن من نصيب الشاب الذي هفا فؤادها إليه؟... ألا ينطوي حقلها السعيد نفسه - تبساً لذلك - على معاكسة غير مفهومة؟ بيد أنه تساؤل ظلّ في طي الكتمان، لم يكلم عليه أحد ولا أمها نفسها، لأن إعلان الفرح بالعريس - كخشية معنوية فحسب - حدّ استهتاراً يجافي الحياء، فما بالك بإظهار الرغبة في رجل بالذات! ولكن بالرغم من هذا كله، وبالرغم من أنّ العريس الجديد كان مجهولاً لديها إلاّ فيها حدّثت عنه أمّه في جملة حديثها عن أسرته فقد سعلت بالبشرى إليها سماعة، ووجدت حواظها عليها الطامّة قطباً تنجذب إليه في هيباتها، كأنّ حبها نوع من «القابلية» أكثر منه تعلقاً برجل بالذات، فإذا استبعد رجل وحلّ محله آخر ظفرت قابليتها بما يشبهها، ومضى كل شيء في سبيله، وقد يكون رجل أثر عندها من آخر ولكن ليس إلى الحدّ الذي يفسد معه طعم الحياة أو يدفع إلى التمرد والمصيان، ولما طابت نفساً ورفق قلبها رفيف القبلة انبثت منها نحو اختها - كشأنها في مثل هذه الحال - عطف ورحمة غير مشويين، فوثقت لو أنها سبقتها إلى الزواج، وقالت لها بين الاعتذار والتشجيع:

ومع أنها ذكرت صباح القطيعة المشوم حين نهض لارتداه ملابسه وقال لها بجفاء «سأرتدي ملابستي بنفسي» إلا أنّ ذكره خطرت عارية عن أحاسيس الألم واليأس التي غشيتها وقتذاك، وشعرت وهي تتمهله بهذه الخدمة التي لم يسمح بها لسواها بأنها تستردّ أعزّ ما تملك في الوجود. واتخذ مجلسه على الكتبة فترجعت على الشلّة عند قدميه دون أن ينس أحدهما بكلمة، وكانت تتوقّع أن يشيع «الماضي الأسيف»، بكلمة، نصيحة أو تحذير أو ما شابه ذلك، وعملت لذلك ألف حساب ولكنّه سألها ببساطة:

- كيف حال أمك؟

فاجابته وهي تتهدّد بارتياح:

- بخير يا سيدي وتهديك التحية والدعاء.

ومضت فترة صمت أخرى قبل أن يقول فيها يشبه عدم الاكتراث:

- حرم المرحوم شوكت فافقتي برغبتها في اختيار حاشية زوجاً للخليل.

فرفعت إليه أمانة عينها في دهشة ناطقة بأثر المفاجأة، ولكنه هزّ كتفيه استهانة، وكأنما خاف أن تدلي برأي يتفق أن يكون موافقاً لقراره الذي لم يعلم به أحد فتقوم عندها شبهة ظلّ بأنه أخذ برأيها فسبق قائلاً:

- نكحرت في الأمر طويلاً فأنتهى بي التفكير إلى الموافقة، لا أريد أن أعترض حظّ البنت أكثر ممّا فعلت، والله الأمر من قبل ومن بعد.

### ٣٨

تلقت حاشية البشرى بفرح جدير بفتاة تستشرف حلم الزواج منذ الصبا الباكر لا يشغلها عنه شاغل، وكادت لا تصدّق أذنها حين زفّت إليها الخبر، هل حقاً وافق أبوها؟ هل بات الزواج حقيقة قريبة لا حلاًّ ذا دعايات قاسية؟... لم يكن قد فات على الحية التي منيت بها إلاّ قرابة أشهر ثلاثة، ومع أنّ وقعها في نفسها كان شديداً قاسياً إلاّ أنه مضى يخفّ ويهون حتى أمسى ذكرى شاحبة تستر - إذا استبريت - حزناً رقيقاً

فيا يتعلّق بالمواطف - عادة متأسّلة وضرورية أخلاقية طبعت عليه في ظلّ الإرهاب الأبويّ، وبين الحق والامتصاص من ناحية والكتكان والتظاهر بالرضى من ناحية أخرى لاقّت من حجابها جذاباً متصلاً وجهها مكرّداً. وأبوها؟ ماذا عدل به عن رأيه القديم؟ أهانت عليه بعد عزازا؟ هل نفد صبره في انتظار زواجها فقرّر التضحية بها وتركها للأقدار؟ أشدّ ما تمعّب لتخليهم عنها كأنها شيء لا يكون، نسبت في ثورعها مواقفهم السابقة في الدفاع عنها فلم تذكر إلا «حياتهم» الأخيرة، عل أنّ غضبيتها العامة هذه لم تكن شيئاً بالقياس إلى ما تجمّع في صدرها نحو عائشة من مشاعر الغيرة والحق! كرهت سعادتها، وكرهت أكثر مداراتها هذه السعادة، وكرهت جمالها الذي بدا في عينها أداة تتكبل وتعلقب كما يبدو البدر الساطع في عين المطارد، ثمّ كرهت الحياة التي لم تعد تدخر لها إلا اليأس، وتتابعت الأيام لتزيدها حزناً على حزن بما حلت إلى البيت من هدايا العريس ونفحاته وما نشرت في الجوّ كله من بواحت الغبطة والفرح فوجدت نفسها في غربة موحشة تتوالد فيها الأشجان كما تتوالد الحشرات في البركة الأسنة، ثمّ شرع السيّد في تجهيز العروس فاستأثرت حديث الجهاز بجلسات الأسرة المسائية، تعرض عليها أنواع من الأثاث والشباب فتسطري شيئاً وتعرض عن شيء، توازن بين لود ولون، في اهتمام نسوا فيه الشقيقة الكبرى وما يجب له من عزاء وبجمالة، وحقّ هي نفسها اضطرت - مجازة - لما تتظاهر به من رضى - إلى المشاركة في نشاطهم وحساسهم ومناقشتهم التي لا تنتهي. بيد أنّ هذا الموقف العاطفيّ المقدّد، الذي يبدو لعين الغريب من الأسرة كنثير شرّ لا تحمد عواقبه، قنّير فجأة حين إنهم التفتيح إلى تفصيل ثياب العروس وبالتالي حين تعلّقت الألبصار بخديجة وتركّز فيها الاهتمام كله والأمل كله. وقد توقّعت هذا الواجب كأم لا مفرّ منه، فيحنّتها قبول أشدّ الحق ولا يسمها رفضه ولا فضحت خبيثتها، ولكنّها حين تطلّعت إليها الألبصار فارتعشتها أمّها بائسة خيراً ورنّت إليها شقيقتها بعين ملوّهة الحياة والرجاء

- وددت لو تقدّمتني إلى بيت الزوجية!... ولكنّها القسمة والنصيب، وكلّ آت قريب.

ولكنّ خديجة - التي تضيق عند الهزيمة بعزاء العطف - تلقت قولها بامتصاص شديد لم يثفّ عليها. وقبل ذلك اعتذرت لها أمّها قائلة برقتها وحياتها المهودين:

- تمثّينا جميعاً أن يكون دورك السابق - وعملنا على هذا أكثر من مرّة - ولكن لمعلّ عنادنا فيما ليس لنا فيه من حيلة هو الذي حاقّ حطّك إلى اليوم، فلندع الأمور تسير كما يشاء الله، وكلّ تأخيرة فيها خيرة.

ووجدت من ياسين وفيهمي نفس العطف يبدئانه تارة بالكلام المباشر، ويصدوان عنه تارة أخرى ليسيا يحيطان به من جمالة حلت - ولو إلى حين - محلّ المزاح الفارص الذي كان مألوفاً بينهما وبينها وبين ياسين خاصّة، الحقّ أنّه لم يعدل حزنها على سوء حظّها إلاّ نرفزها من العطف الشائع في جوّها لا لنفور من العطف مرغّب في طبعها، ولكن لأنّ مثلها مثل المصائب بالانفلوتزا يضار بالتمرّص للهواء الطلق الذي ينعشه عادة وهو صحيح، فما كانت تأبه لمطف تعلم أنّه بديل غير مجتهد لامل ضائع، ولعلّها ارتابت - إلى هذا كله - في البواحت التي تدفعهم إلى إغداق العطف عليها، ألم تكن أمّها الواسطة دائي بين الحاطيات وبين أبيها؟ فمن يدرى أنّها كانت تقوم بالوساطة أداء لواجب ربّة البيت لا سميّاً وراء رغبة خفية في تزويج عائشة؟ أوّليس فهمي هو الذي حلّ رسالة ضابط قسم الجبالية؟... ألم يكن يومه أن يعدل به عن رأيه من وراء وراء؟

أوّليس ياسين... ولكن بائي وجه تلوم ياسين وقد خانها من هو أقرب منه إليها؟... فائي عطف هذا؟ ببل أيّ رياء وأيّ كذب! لذلك برمت بالعطف، وذكرته به الإسائة لا الإحسان، فاستلأت حقّاً وامتصاصاً ولكنّها طوعها في الأعناق أن تظهر بمظهر الكاره لسعادة أختها أو تعرض نفسها - هكذا صور لها سوء ظنّها - لشائنة الشامتين، عل أنّه لم يكن لها عيّد عن كتان عواطفها لأنّ الكتان في هذه الأسرة - خاصّة

أتيا كانت - منذ صباها - تجاري أمها في تديتها وعماظتها على الفراش بمثابة دلت على يقظة عاطفتها الدينية، لا كعائشة التي تلمّ بالعبادة في نوبات حاسية متباعدة ولا تطبق المداومة عليها، وطالما تعجبت خديجة - وهي بمعرض المقارنة بين حقلها وبين حقل أختها - من سوء الجزاء الذي تثاب على إخلاصها، وحسن الجزاء الذي تثاب به الأخرى على تباولها. . . وإني أحافظ على الصلاة أمّا هي فلم تطق المحافظة عليها يومين متتاليين، وإني أصوم رمضان كله وأمّا هي فتصوم يوماً أو يومين ثمّ تتظاهر بالصوم على حين تنسلّ خفية إلى المخزن فتألف بطنها بالثقل حتى إذا أطلق مدفع الإفطار هرعّت إلى المائدة قبل الصائمين! . . . وحقّ من ناحية الجبال لم تسلم لعائشة بدون قيد ولا شرط، نعم إتيّا لم تجهر برأيها لأحد، بل لعلها تؤثر كثيراً أن تهاجم نفسها بنفسها لتقطع الطريق على التحفّزين ولكنتها كانت تظلم النظر إلى وجهها في المرأة وتناجي نفسها قائلة: «عائشة جيلة بلا شكّ ولكنتها نحلة، السمّة نصف الجبال، أنا سمينة، واكتناز وجهي يغفكي على كبر أنفي، لم يبق إلا أن يشدّ بخفي حيله». هل أتيا فقدت لثقتها بنفسها في الأزمة الأخيرة، ومع أتيا عاودت كثيراً تلك المناجاة عن الجبال والسمّة والبخت إلا أنّها عاودتها هذه المرّة لتدري - أمام نفسها - إحساسها الملقق بعدم الثقة كما تلجأ أحياناً إلى المنطق لتستمدّ منه الطمأنينة على أمور - كالصحة والمرض والسعادة والشقاء والحب والكراهية - لا تمتّ إلى المنطق بسبب. . .

ولم تنس أمينة - رغم كثرة مشاغلها كأمّ العروس - خديجة، أو أنّ فرحها للعروس كان يذكرها بحزنها على أختها كما تذكرنا الراحة التي نحظى بها بفعل غنّير بالألم الذي سعادونا بعد حين، وكان زواج عائشة قد أثار خاوتها القديمة من خديجة فأرسلت - التماساً للطمأنينة من أيّ سبيل - أمّ حنفي إلى الشيخ رموف بالباب الأخضر حاملة منديل خديجة ليقرأ طالعها. وصعدت المرأة بنوع من البشري ف قالت لسيدتها إنّ الشيخ قال لها «ستحملين إليّ رطلين من السكر عمّا

وقال فهي لعائشة حل مسمع منها: «لن تكوني عروساً حقاً حتى تحيك لك خديجة ثياب العرس»، وقال ياسين معلّقاً على قوله: «صدقت. . . هذه الحقيقة فوق الجدل»، حين حدث هذا كله فترحتها وعقل ثورتها الحياء فطفت عواطفها الطيبة المطمورة، كما يستخرج الماء العذب الأخضر من البلور الكائنة تحت الطين، ولم ترتب في بواحي هذا الاهتمام كما ارتابت من قبل في بواحي المطف «الزائف» لشعورها بصدق من ناحية ولأنّه أنّهم إلى براعتها التي لا شكّ فيها من ناحية أخرى. فكانه اعتراف جامع بأهليتها وعظورة شأنها، وبأنّ هذه السعادة - التي أبت أن تكون من نصيبها - لن تستكمل عناصرها حتى تسهم هي فيها، فاستقبلت العمل الجديدي بنفس تحفّفت إلى أقصى حدّ ممكن من انفعالاتها السوداء، إنّ الانفعالات السوداء تلمّ بهذه الأسرة كما تلمّ بغالية البشر ولكنتها لا تغفر منها بقلب أسود فترسب فيه وتستقر. منهم من قابلته للغضب كقابلية الكحول للاشتعال، ولكن سرعان ما يسكت عنهم الغضب فتصفو نفوسهم وتغفر قلوبهم كأيام من شتاء مصر يطلخهم صحابيا حتى تظفر رذاذاً، وما هي إلاّ ساعة أو بعض ساعة حتى تنفث السحب عن زرقة صافية وشمس ضاحكة. لا يعني هذا أنّ خديجة نسيت أحزانها ولكنّ الساحة صفّتها من الضخينة والحقد، ويوماً فيوماً لم تعد تعتب على عائشة ولا على أحد من أهلها بقدر ما حبت على بختها حتى نصبت في النهاية هدفاً لامتناهيا وتلّمرها، ذلك البخت الذي قرّر عليها في الحسن وأجل زواجها حتى جاوزت العشرين وكثّر غداها بالقلق والمخاوف، واستسلمت أخيراً - كأمها - للمقادير. عجز جانبها الحامي الموروث من أبيها، كما عجز جانبها المقدر المكتسب من موقتها حيال بيتها، عن معالجة حقلها العائر، فوجدت السلامة في أن تولد بالجانب السلمي الموروث عن أمها فاستسلمت للمقادير كالفائد الذي تعيه الحيل عن بلوغ الهدف فيختار موقفاً ذا حصانة طبيعية ليهت فيه قوله، أو يدعو إلى الصلح والسلام. وراحت تشكو يتّها في الصلاة ومناجاة الرحمن. والحقّ

المؤادة مغازلة خرج بها من دور التحضير - ملازمة  
قهوة سي علي مساء والنظر والسير وراء حربة الكارو  
والابتسام وقل الشارب وتلعب الحاجب - إلى دور  
المفاوضة والتأقّب للعمل. حدث ذلك في عطفة  
التريبة الطويلة الضيقة المسقوفة بالحشيش الملتوية ذات  
الدكاكين الصغيرة المتلاصقة على الجانبين كخلايا  
النحل. ولم تكن التريمة بالجديدة عليه، كيف وهي  
سوق النسوان من جميع الطبقات يتقاطرون عليها  
لا يتباع ما خفّ حمله وجعلت فوائده من مختلف صنف  
المطارة ذوات البهجة والجمال والضعف، فهي هدفه كلها  
خلا طريقه من هدف يجلبه إليه، وهي مراحه صباح  
الجمعة يقطعها متمهلاً - بحكم الزحمة والرغبة معاً -  
من طرف إلى طرف كأنها يستعرض الدكاكين لا انتقاء  
حاجة وهو في الحقيقة يتخصّص الوجوه والأجسام وما  
تنحسر عنه البراقع وما تطبيق به الملاحظات، ما يرى  
جملة وما يرى تفصيلاً، ما يسطع هنا وهناك من روائح  
زكية، ما يندّ من حين لآخر من أصوات أو يوسوس  
من ضحكات، ملتزماً عادة حدود الأدب لغلبة  
العناصر الطيبة على الزائرات، قائماً بالمشاهدة والموازنة  
والنقد، لافكاً من الملاحظات صوراً ممتازة يزين بها  
متحف ذاكرته، لا يفوق سعادته إذا ظفر بلون بشرة  
صافية لم يره من قبل، أو يلحظ حين لم يتعرض لكفه،  
أو لثدي عجيب في نهوه، أو لعجيزة خورت المالكوف  
في ضخامتها أو حسن تكوينها فيرجع مرّة وهو يقول  
«فاز بالسبق اليوم نهد السّت التي كانت واقفة أمام  
الدكان الفلاني» أو «هذا يوم الكفل الرابع رقم ٥» أو  
«ها لها من حقيبة ويا لها من حقيبة... هذا يوم  
الحقائب المشرقة» إذ تأثى به مزاجه إلى التهاك على  
جسم المرأة متجاهلاً شخصيتها ثم إلى تركيز العناية في  
أجزاء من الجسم متجاهلاً جملة، وكأنه في هذا كله  
ينعش آماله ويبلّدها أبداً كرجل لا يقفم على النسوان  
غاية في دنياه - عند القرص المحتملة المخدرة ليوم أو  
لفد، إلى ما يسع له في هذه الجولات الجنسية من  
صيد طيب في أحوال نابرة، ففي ذات أصل - وهو  
بمجلسه تحت الكوة بقهوة سي علي - رأى المؤادة تنادى

قريب، ومع أنّها لم تكن أوّل بشرى من هذا النوع  
تزوّت إليها عن غديجة إلا أنّها أثلتها خيراً ورحبت بها  
كمسكّن للقلق الذي لا يزيلاها...

## ٣٩

«ألم يثن الأوان يا بنت المركوب؟» ثبّت يا  
مسلمين، ذبت كالصابونة ولم يبق منها إلا رغوة، هي  
تعلم بهذا ولا تريد أن تفتح النافذة، تدلّلي... تدلّلي  
يا بنت المركوب، ألم تتفق على هذا المهاد؟ ولكن لك  
حق... فسرّة لثدي من صدرك تكفي لخرباب  
مالطة... وفردة تالية تطير مع هنديج، عندك كتز،  
ربّنا يلفظ بي، ربّنا يلفظ بي ويكلّ مسكين مثلي  
يؤزّقه الشدي الناهد والمعيّزة للمدلجة والعين  
المكحولة، العين المكحولة في الآخر، إذ ربّ ضريرة  
ربّ الروادف كاهب الثنين خير ألف مرّة من عصفاء  
مسحاء مكحولة العينين، يا بنت الصلّة وجارة  
التريبة... تلك لثنتك أصول الدلال وهذه تمكك  
بأسرار الجمال، لهذا يهتد لثديك من كثرة من عبث بها  
من العشاق، أثقنا على المهاد لست أحلم، افتحي  
النافذة، افتحي يا بنت المركوب، افتحي يا أجل من  
اقشعرت له سرتي، ومصّ الشفة ورضع الحلمة  
لا تنتظرن حتى مطلع الفجر، سجديني طوع بنائك،  
إن أردت أن أكون مؤنّخ حربة الكارو التي تتأرجحين  
عليه أكنّه، إن أردت أن أكون الحمار الذي يجرّ العربة  
أكنه، يا وقعتك يا ياسين، يا خراب بيتك يا بن عبد  
الجواد، يا شاة الأسترالين فيك... يا أنا يا طريد  
الأزيكية وحبيس الجمالية، الحرب يا هوه، شتبا غلديم  
في أوروبا ورحت ضحيتها أنا في النحاسين، افتحي  
النافذة يا روح أمك، افتحي يا روحي أنا...».   
فكّدا جعل ياسين يحدث نفسه وهو جالس على  
الأريكة بقهوة سي علي، وعينه تتطلّمان إلى بيت زيدة  
الصالّة خلل الكوة المطلّة على الغوربة، كلما شكّه  
الجزع غرق في أحلامه وخوابره فترقه جزعه وبعيج  
أشواقه معاً، كبعض النزمات الطيبة التي تعالج الأرق  
وتتعب القلب، كان قد تقلّم خطوة في مغازلة زئوبة

هل للعشق لوازم أيضاً؟ فقال وهو يغالب الضحك «هي ولوازم اللقاء شيء واحد» «بلا زيادة ولا نقصان؟» «بلا زيادة ولا نقصان» «ولا واحدة طالمة ولا واحدة نازلة؟» «... ولا واحدة طالمة ولا واحدة نازلة» «ولعلها التي يسمنها الزنا؟» «يلحمه وعظمه!» فنلت عنها ضحكة، قالت «أثقفنا... انتظر حث تنتظر كل مساء بقهوة سي عليّ وعندما أفتح النافذة قم إلى البيت». انتظر مساء ومساء ومساء، مساء خرجت مع الجوقة على الكارو، ومساء ذهبت مع العالمة في حنطور، ومساء لم يبدُ على البيت أثر للحياة، وما هو ينتظر وقد أهما أعصاب رأسه طول النظر إلى الشباك. ومرّ مؤين من الليل فاعلقت الدكاكين وأقفر الطريق وشعل الغورية ظلام، ووجد - كما يقع له كثيراً في إقفار الطريق وظلامه مثاراً غريباً لمكمن الشهوة في جسده فازداد جزعاً على جزع، يتدّ آله لكل شيء نهاية حتى الانتظار الذي يبدو وكأن لا نهاية له فترامى إليه من ناحية الشباك الغارق في الظلمة طقطقة نفخت في حواسه روح أمل جديد كما تبعث روح الأمل في نفس التائه في القطب إذا ترامى إلى سمعه أزيز الطيارة التي يجلس ألتها جاءت للبحث عنه بين الثلوج، ولاحت فرجة يشع منها ضوء، ثم تورد شبح العودة وسط الفرجة فقام من فورهِ وغادر القهوة هائراً الطريق إلى بيت العالمة ودفع الباب دون أن يطره فانفتح كأن يداً رفعت مزلاجه فمرك إلى الداخل ليجد نفسه في ظلمة دامية لا يتنهد معها إلى موقع السلم فلزم موقفه ليأمن الاصطدام أو العثار ووثب إلى رأسه سؤال لا يخلو من قلق: ترى أدمته زئوبية على غير علم من العالمة؟ وهل تبيع لها العالمة الاجتياح بعشاقها في بيتها؟ ولكنه أبرز لسانه استهانة لأن رادعاً لم يكن ليثبه عن مغامرة، ولأن ضبط عاشق في بيت تقوم جدرانها على مهج العاشقين ليس غماً تحاف عواقبه وانقطع عن التفكير حين لاح له منيه ضوء شاحب يهبط من أعلى، ثم لمح يترنح على الجدران التي وضحت رويداً فتبين موقفه على بعد ذراع من أولى درجات السلم عن يمينه، وما عثم أن رأى زئوبية قادمة ويدها مصباح فمضى نحوها

البيت بمجرد ما فنهض من تزه وتبعها، ومالت إلى حطفة التريعة فمال ورواهما، ثم وقفت أمام دكان فوقف إلى جانبها، وانتظرت حتى يفرغ المطار من بعض الزبائن فانتظر ولم تلتفت ناحيته فاستدلّ بذلك «التجاهل» على ألتها فطنت لوجوده - كما لا بد أن تكون حدثت متابته لها من بادئ الأمر - فهمس قريباً من أذنها «مساء الخير» فواصلت النظر إلى الأمام إلا أنه لمح بجانبها انحراف ابتسامة ورداً لتحيتها، أو مكافأة له على طول متابته لها مساء بعد مساء، فتتهدت تهدد الراحة والظفر مطشاً إلى جني ثمرة صبره لسان لماب شهوته كما يتحلب ريق الجائع النهم إذا تطايرت إلى أنفه رائحة الشواء الذي يبتأ له ورأى عن حكمة أن يتظاهر بألتها جاءد معاً فأتى ثمن مشترياتها من الحناء والمفاتيح عن طيب خاطر خليق برجل يؤمن بأله - بأداء هذا الواجب اللئلي - يكتب حلاً ألد وأمتع، غير مكثرت لما بدا منها من الميل إلى الإكثار من المشتريات حين أطمأنت إلى أنه سيدفع الثمن. وفي طريق العودة قال لها بمجلة من يخاف وشك انتهاء الطريق «يا ست الحسن والجبال قضيت العمر كما تشهدين ورامك، وجزاء المحب اللقاء فقط؟» فلحظته بنظرة شيطنة متسائلة في تهكم «اللقاء فقط؟» فكان يضحك بروحه وجسمه كحالهِ إذا أخذته نشوة فرح ولكنه بادر إلى إحكام إغلاق فيه أن يحدث ضجة تلفت الانتظار وأجابه هامساً «واللقاء ولوازمه!» فقالت بلهجة انتقادية «الواحد منكم يطلب بكل بساطة (اللقاء)... كلمة صغيرة... ولكنه يعني بها عملاً ضخماً لا ينال عند بعض الناس إلا بالسؤال والشفاعة وقرعة الفاتحة والكهر والجهاز والمافون، أليس كذلك يا حضرة الأندني الذي يضاهي الجمل طرولاً ومرحاً؟» فتورد وجهه فيما يشبه الارتباك وقال «يا له من تأديب مهيا يمكن من قسوته فزأه من شفتيك كالشهد، أليس هكذا العشق يا ست الحسن مد خلق الله الأرض ومن عليها؟» فقالت وهي ترفع حاجبها حتى حاذيا طرف هروس البرق فبدت كعسوب باسط جناحيه وومن ادراكي بالعشق يا جلي؟... لست إلا عودة، ترى

لتحت ومن تحت لفوق، ولكنّه قبل أن ينقذ نية من عشرات الزوايا التي اعتلجت في صدره قالت زئبوبة كأنها تصل ما انقطع من حديثها:

- رجل لا نظير له في لطفه وطيبه، أما كرمه فحدثت عنه من اليوم إلى الغد... هكذا يكون العشق أولاً فلا... .

لم يغب عنه ما في إشارتها إلى «كرم» عشيق العالة من معانٍ، ومع أنّه سلم من بادئ الأمر بأنّ غرامه الجديد سيفرض عليه ضرائب باهظة إلا أنّ تلميحها - الذي بدا له مبتدلاً - ضابقتها، فلم يسهه إلا أن يقول مدفوعاً بفرصة الدفاع عن النفس:

- لعله رجل واسع الثراء  
فقالت وكأنها تحييه على مناورته:  
- الثراء شيء والكرم شيء آخر... رُبّ ثري يخيل...

فتساءل لا عن رغبة في المعرفة ولكن تضاداً من الصمت الذي خاف أن يفضح استيائه:

- تُرى من يكون هذا الرجل الكريم؟  
فقالت وهي تدير عجلة المصباح لترفع فتيلته:  
- إنه من حينا ولا بدّ أنّك تسمع عنه... السيّد أحمد عبد الجواد... .  
- من... !

فللتفت نحوه دهشة لترى ما أفرعه فالقته متصّلب الغامة جاحظ العينين فسألته مستكبرة:  
- ما لك؟

كان تلقى الاسم الذي نطقت به كأنه مطرقة هوت بعنف على يافوخه فنذّ عنه التساؤل في نبرات صارخة من القزع وهو لا يدري، وغلب حياءً حوله لحظات مليئة بالدخول، ثمّ تراءى له وجه زئبوبة في حالة من الدهشة والإنكار فخاف انفضاح أمره وركّز إرادته كلّها في الدفاع عن موقفه فعمد إلى التمثيل يداري به فزعه ففرب كأنه بكفّ كأنه لا يصدّق ما قيل عن الرجل لظنه الوقار به وتقمّ مستغرباً:

- السيّد أحمد عبد الجواد!... صاحب دكايا النحاسين؟

في سكرة من الشوق وضغط في حنان على ساعدها امتناناً ورغبة حتى ضحككت ضحكة رقيقة أوسعت على رقبتها بأنّها لا تحاذره وتساءلت بمكر:

- طال انتظارك؟  
فمسّ سوافه بأنامله وهو يقول بصوت شاكٍ:  
- شاب شعري الله يساعك (ثمّ بصوت خافت) الستّ هنا؟

فحاكت صوته الخافت على سبيل المزاح وقالت:  
- نعم... في خلوة مع رفيق قدّ الدنيا...  
- ألا تغضب إذا علمت بحضوري في هذه الساعة؟  
فاستدارت وهي تهزّ منكبيها استهانة ورقيت الدرج وهي تقول:

- وهل أنسب من هذه الساعة لحضور عاشق مثلك؟

- إذا لا ترى بأساً في اجتاحتنا بيتنا؟  
فحزكت رأسها حركة راقصة وقالت:  
- لعلها ترى كلّ البأس في عدم اجتاحتنا!...  
- عاشت... عاشت... .

فاستطردت في لهجة تنمّ عن الفخار قائلة:  
- لست عوادة فحشِب، أنا بنت أختها، وهي لا تضنّ عليّ بنال... تقدّم بسلام...  
ولمّا بلغ الدهليز جاءهما من الداخل صوت غناء لطيف يصاحبه هود ودقّ فأنصت ياسين قليلاً ثمّ تساءل:

- خلوة أم حفلة؟  
فهست في أذنه:

- خلوة وحفلة ممّا، عشيق السلطانة رجل صاحب طرب ومزاج، لا يطيق أن يخلو مجلسه ساعة من العود والدقّ والكاس والضحك... حتى لك...  
ومالت إلى باب ففتحته ودخلت وهو ورائها، ووضعت المصباح على كونهول ثمّ وقفت أمام المرأة لتلقي نظرة فاحصة على صورتها فتتأسى ياسين زينة وعشيقها الطروب وسدّد عينيه المبهوتين إلى الجسم المشتهى الذي بدا لناظره متجرّداً عن الملاحة لأوّل مرّة سدّدها بقوة وتركيز وحركتها في أناة وتلذّد من فوق

كأخطر شيء في الحياة ولم يستطع لها مقاومة فابتسم إلى الفتاة وهو يترأسه هزة حكيم كأنما يقول ديا لها من أيام كلها عجائب! ثم سالها بلهجة من يدفعه حب الاستطلاع وحده:

- ألا أستطيع أن أراه من حيث لا يراي؟

فقلت معترضة:

- أترك عجب، وما الداعي إلى هذا التجسس؟

فقال برجاء:

- منظر يستحق المشاهدة فلا حرمتي منه!...

فضحكت باستهانة وقالت:

- عقل طفل في جسم جمل، أليس كذلك يا

جملي؟... ولكن لا عاشر من يتحجب لك رجاء...

أنزوي في الدهليز وسادخل عليها بطبق من الفاكهة تاركة الباب مفتوحاً حتى أرجع...

وغادرت الحجرة تتبعها حل الأثر بفؤاد خافق

وانزوي في ركن من الدهليز المظلم على حين تابعت

العودة سيرها إلى المطبخ، وبعد قليل عادت حاملة

طبقاً من العنب فألمحت إلى الباب الذي يبعث منه

الغناء فنقرت عليه، وانتظرت دقيقة ثم دلفته ودخلت

دون أن تفلقه وراءها، هناك بدا مجلس الطرب في

صدر الحجرة تتوسطه زينة محتضنة العود وهي تلعب

بالأوتار بأناملها وهي تغني ديا مسلمين يا أهل الله

وعلى كتب منها جلس «أبوه» دون غيره - وقد اشتد

خفقان قلبه لدى رؤيته - متجرداً من جبهته مشتمراً من

ساحديه راحشاً الدف بين يديه متطلماً إلى العالمة بوجه

يقطر بشاشة ويشراً. لم يلبث الباب مفتوحاً إذ ريشا

رجعت زئوبة، دقيقة أو دقيقتين، ولكنه رأى فيها

منظراً عجيباً، حياة غامضة، قصة طويلة عريضة،

استيقظ في أعقابها كالذي يستيقظ من نوم طويل عميق

على قلقة زلزال عنيف، رأى في دقيقتين عمراً كاملاً

ملخصاً في صورة كمن يرى في حلم هنيئة صورة

جامعة لأحداث شيء يستغرق وقوعها في عالم الحقيقة

أصواتاً طويلة، رأى أباه حشاً، أباه دون غيره من

البشر، ولكن لا كما تعود أن يراه، فلم يسبق له أن

رأه متجرداً من جبهته في جلسة مريحة مناسبة مع

فدحجته بنظرة انتقاد مر لإزعاجها بلا سبب وسألته

مستهزئة:

- نعم هو... فهذا استمرحك كأنك عذراء تُفَضُّ

بكارها؟

فضحك ضحكة آليّة وقال كالدهاش وهو يحمّد الله

في سرّه على أنّه لم يذكر لها اسمه كاملاً يوم التعارف:

- من يصلّق عن هذا الرجل الوقور الورع؟

فرمته بنظرة ارتياب وقالت ساخرة:

- أملاً ما أزعجك حقاً؟... ولا شيء غيره؟

أظنته من المعصومين؟... وماذا عليه من هذا؟...

هل يكمل الرجل إلا بالمشق؟...

وقال بلهجة المعتدل:

- صدقت... لا شيء يستحقّ الدعش في هذه

الدنيا (ثمّ ضاحكاً في عصبيّة) تصوّرني هذا الرجل

الوقور وهو يطارب السلطنة الغرام ويشرب الخمر

ويطرب للغناء!...

فقلت وكأنّما تكمل حديثه بنفس لهجها الساخرة:

- ويلعب بالدفّ بيد ولا يد حيّوة الدلفاة ويثر

النكات كالدرر فيقتل من حوله ضحكاً، وليس عجيباً -

بعد هذا تله - أن يرى في دكانه مثلاً للجدّ

والوقار... فالجدّ جدّ واللهر هو، وساعة لربك،

وساعة لقلبك...

يلعب بالدفّ بيد ولا يد حيّوة الدلفاة!... يثر

النكات فيقتل من حوله ضحكاً!... من عسى أن

يكون هذا الرجل؟

أبوه السيّد أحمد عبد الجواد؟ الصارم الجبار

الرهيب التقويّ الورع؟ الذي يقتل من حوله رهباً؟

كيف يصلّق ما سمعت أذنائه؟ كيف،

كيف؟... ألا يكون ثمة تشابه في الأسياء والآ

علاقة بين أبيه وبين هذا العاشق الدلف؟ ولكنّ

زئوبة وافقت على أنّه صاحب دكان «النحاسين» وليس

في النحاسين من دكان تحمل هذا الاسم إلا دكان

أبيه!... ويأه هل ما سمعه حقيقة أو أنّه يهني؟

لشدّ ما يؤدّ أن يطلع على الحقيقة بنفسه، أن يرى

بعينه دون وسيط، رهبة عمّكته لحظتُه فبدأ تحقيقها



لوقوع شيء باعتباره بعيداً عن التصديق ما دعت إليه واقفاً! إنه هناك فمن السخف أن أتساءل ذاهلاً هل يمكن تصديق هذا. فلا صدق ولا تعجب... وماذا عليه من هذا؟ ولم يشعر إلى تفكيره بارتياح فحسب ولكنه فرح فرحة فاقت كل تقدير، لا لأنه كان بحاجة إلى مشجع لبواصل حياته الشهوة، ولكن لأنه كأكثريه الغارقين في الشهوات المحرمة - يستأنس إلى الشبيه، فكيف إن وجد في شخص أبيه - القدوة التقليدية - الذي طالما أزعجه، بشعور وبلا شعور منه، أن يجد نفسه ولقاء على طرفي نقض، تناسي كل شيء إلا فرحه، كأنها أعز ما ظفريه في حياته، وشعر نحو أبيه بحب وإعجاب جديدين - غير الحب والإعجاب اللذين اكتسبهما قديماً تحت ستار كثيف من الإجلال والخوف. حب وإعجاب ينبعان من أصباق النفس ويتخلطان بجذورها الأولى، بل كأنها وحب الذات والإعجاب بها شيء واحد، لم يعد الرجل بعيداً عزيز المثال مطلق الأبواب ولكن دانياً قريباً، قطعة من نفسه وقلبه، أباً وأبناً روحاً واحداً، ليس الرجل الذي يرحش الدف في الداخل السيد أحمد عبد الجواد ولكنه يأسين نفسه، كما يكون وكما يجب أن يكون، وكما ينبغي أن يكون، لا يفرق بينها إلا اعتبارات ثانوية من العمر والتجربة «هنيئاً لك يا والدي، اليوم اكتشفتك، اليوم عيد ميلادك في نفسي، يا له من يوم ويا لك من أب، لم أكن قبل الليلة إلا يتيماً، أشرب وألعب بالدف لعباً، ولا يد حيوة الدلالة، إلي فخور بك، هل تنفي أيضاً يا ثري؟...»

- ألا يغني السيد أحمد عبد الجواد أحياناً؟...  
- ألا زال فكرك مشغولاً به؟ يا ويل الناس من الناس... بل يغني أحياناً يا جلي... يشترك في الهنك إذا سكر...  
- وكيف صوته؟...  
- غليظ جميل كمنته...

«إلى هذا الأصل ترجع الأصوات التي تنفي في بيتنا، الجميع يفتنون، أسرة عريقة في الغرب، لبتني أسمعك ولو مرة، لا أحفظ لك في ذاكرتي إلا الزعن

سجيتها، ولا رأى شعره الفاحم ثائر الأطراف كأنما جاء يعلم حاسر الرأس، ولا رأى ساقه العارية كما لاحت على حافة اللبوان تحت ذيل القفطان المنحصر، ولا رأى - إي والله - الدف بين يديه يرحش باعثاً شخصته الرائعة المتقطع بالنظر الرشيق، ولا رأى - ولعله أعجب ما رأى - هذا الوجه الضاحك المتألق الرتيان بالوة والصفاء الذي أدخله كما دخل كمال من قبل حين رآه يضحك أمام الدكان يوم قصده مدفوعاً برغبته في الإفراج عن أمه، رأى هذا كله في دقيقتين، ولماً أغلقت زوينة الباب وعادت إلى حجرها آتت بموقعه يستمع إلى الغناء وعشخشة الدف برأس دائر، نفس الصوت الذي استمع إليه حال دخوله البيت، ولكن أي تغير؟ اعتور الأثر الذي ينطبع منه هل نفسه، أي معاني وصور جديدة ينقلها الآن إلى وجدانه كرتين جرس المدرسة ييش له الطفل إذا سمعه وهو غريب عنها وينقلب في أذنيه نليراً لتأجب جمه إذا سمعه وهو ضمن تلاميذها. ونفرت زوينة هل الحجره كأنما تدعوه ليلحن بها فألقى من غيبوته ومعنى إليها وهو يحاول أن يتالك نفسه كيلا يبدو أمامها مضطرباً أو ذاهلاً فدخل وحل شفتيه ابسامة عريضة:

- هل أنسك نفسك ما رأيت؟!

فقال بلهجة تشي بالرضا والارتياح:

- منظر نادر، وغناء يديع...

- ألمحب أن نفضل مثلها؟

- في ليلتنا الأولى؟... كلا... لا أحب أن

أخلط بك شيئاً آخر ولو كان الغناء نفسه!...

ولئن تكلف بادئ الأمر الحديث ليلنو أملمها - وأمام نفسه على السواء - هادئاً طبيعياً فقد انتهى إلى الانهياك فيه بلا تكلف ثم إلى استرداد حاله الطبيعية بأسرع مما قدر، كالذي يتصنع هيئة الباكلي في مأثم فينخرط في البكاء. على أنه ربما عاودته الدهشة فجأة فيقول لنفسه وأعجب بها من حال لم تخطر لي هل بال من قبل، أنا هنا مع زوينة وأبي في الحجره القرية مع زبيدة، كلتا في بيت واحد! ولكنه سرعان ما يتر كفيه ويستطرد في حديثه مع نفسه «كيف أحل نفسي مشقة المعجب

خديجة ومريم وبعض الفتيات، واستقلت الأم وبعض النسوة من الأهل والجارات السيارتين الأخريين، على حين اتخذ كمال مجلسه إلى جانب سائق سيارة العروس، ورغبت الأم في أن يضي الركب إلى السجيرة عن طريق الحسين لتلقي نظرة جديدة على مقامه الذي كلفها الشوق إليه قبل ذلك غالباً ولتستوب صاحب المقام البركة لعروسها الحسان، فاخترت السيارات الطرق التي قطعتها هي ذلك اليوم مع كمال، ثم مالت إلى الفورية عند المنعطف الذي كادت تلتقي فيه حشوها حتى وقفت بهن عند بوابة المتولي أمام مدخل السجيرة الذي يضيق عن دخول السيارات، وترجلن جميعاً ودخلن العطفة فطالعتن معالم الزينات وهرع إليهن غلمان الحارة هاتفين وتعالن الزغاريد من بين آل شوكت، أول بيت إلى يمين الداخل - حيث ازدحمت نوافذه بعروس المطلات المزفريات، ووقف عند مدخله العريس خليل شوكت وشقيقه إبراهيم شوكت وباسين وفهمي، وتقدم خليل مبتسماً من العروس ومنحها ساعده فارتبكت ولم تجيب حراً حتى بادرت مريم إلى يدها فشبكها بساعده، ثم سار بها إلى الداخل ساراً بحذاء الفناء المزدحم والورد والمليس ينال على أقدامها وعلى أقدام من تبعها من حاشية العروس حتى وارهق باب الحرم، ومع أن قران عائشة بخليل ثم قبل ذلك اليوم بشهر أو أكثر إلا أن منظر اشتياكها وسيرها معاً لاقى من ياسين وفهمي - والأخير خاصة - دهشة مقرونة بالحياء وشعوراً بالإنكار أشبه كأن جو أسرعها لا يهضم حتى طفوس حفات الزفاف المشروعة، ويذا هذا الأثر بصورة أوضح عند كمال الذي جعل يجلب أمه من يدها في انزعاج وهو يشير إلى العروسين الللين يتقدمان الجميع على السلم كأنه يستعديها على دفع شر فظيع، وخطر للشائين أن يسرقا النظر إلى وجه أبيهما ليريا أي أثر تركه ذلك المنظر الفريد، فشملاً المكان بنظرة سريعة ولكنهما لم يقفاه على أثر، لم يوجد عند المدخل، ولا فيها يلي هذا من فناء البيت الذي اصطفت به الأرائك والمقاعد وأقيمت في صدره منصة

والنهر، غنوتك الوحيدة المشهورة بيننا «يا ولد - يا ثور - يا بن الكلب» أريد أن أسمع منك «الوداد في الملاح شذف» أو «حييت يا جميل» كيف تسكر يا أبي؟ كيف تعريد؟ ينبغي أن أعرف لأحتلي مثالك وأحيي تفاليدك، كيف تعشق؟ كيف تمنان؟... واتبه إلى زئومة فراها أمام المرأة وهي تسوي أهداب شعرها بأناملها وقد لاح لإبطها من فرجة الفشان أملس ناصعاً يتصل منحدره بأصل نهد كقرصة العجين فسرت في يده سكرة الهياج وانقض عليها كأنه فيل ينقض على غزال... .

## ٤٥

وقفت ثلاث سيارات تطوّع بتقديمها بعض الأصدقاء أمام بيت السيد أحمد في انتظار العروس وحاشيتها لحملهن إلى بيت آل شوكت بالسجيرة، كان الوقت أميلاً وقد انحسرت أشعة شمس الصيف المائلة عن الطريق واستقرت على البيوت المواجهة لبيت العروس. ولم تكن ثمة مظاهر تدل على عرس، اللهم إلا السورود التي ارتدت بها أولى السيارات الثلاث فلفتت أنظار أصحاب الدكاكين القريبة وكثير من المارة، ومن قبل ذلك اليوم فت الحطبة ووردت الهدايا ونُقل الجهاز وحُدد القران فلم تنطلق من البيت زغردة أو تعلق ببابه زينة أو تشي بما يدور داخله علامة من علامات الأفراح المألوفة التي تفاخر الأسر بإصلاحها في أمثال هذه المناسبات، وتتملك بسوانحها لتفصح عن مكنون حنيها للمسرة بالفناء والرقص والزغاريد، ثم كل شيء في صمت وهدوء فلم يدري به إلا الأقارب والأصدقاء وخاصة الجيران، وإلى السيد أن يترشح عن تزمت أو أن يسمح لأحد من آل بيته بأن يترشح عنه ولو ساعة واحدة، وفي ظل هذا الجو الصامت غادرت العروس والمدعوات البيت رغم احتجاج أم حنفي على المخرجة الصامتة، فمررت عائشة إلى السيارة في سرعة خاطفة كأنها تخاف أن يشتعل فشان العرس أو قنانه الحرير الأبيض الموكى بالفل والياسمين تحت نظرات المتطلعين، وتبعها

إلى الجُلوس بين أفراد مختفها، وبهذا وغيره جذب الانتظار إليه فأخذت المدعوّات في مدامته، ولكن أمّه لم ترتع إلى الضجّة التي أثارها، وآثرت على كره منها - إشفاقاً على البعض من عبث وإشفاقاً عليه من أهين المعجبات - أن تحمله على مغادرة المكان، انضمّ إلى مجلس الرجال، وتردّد بين الصغرى، ثمّ وقف بين فهمي وباسين حتّى ختم صابر دور «بس» له تمثّق بها جميل واستأنف نحواله حتّى مرّ بالنظرة فأضراه حبّ الاستطلاع بالنظر إلى داخلها فمدّ رأسه وما يدري إلّا وعينه تلقيان بعيني والده لتسرّر في مكانه وحجز من استردادهما، وراه أحد أصدقاء أبيه - السيّد محمّد حُفّت - فداده فلم يجد بداً من تلبية النداء ليتفادى من إغضاب أبيه فتدائى من الرجل على كره وخوف حتّى وقف أمامه منتصب الغامة مضموم الذراعين إلى جانبيه كأنّه عسكريّ في طابور، وصافحه الرجل قائلاً:

- ما شاء الله... في أيّ سنة يا حمّ؟

- سنة ثالثة رابع...

- حال... حال... سمعت صابر؟

ومع أنّه كان يجب على أسئلة محمّد حُفّت إلّا أنّه راضى من بادئ الأمر أن تكون إجاباته بحيث ترضى أباه... فلم يدر كيف يجب على السّؤال الأخير أو أنّه تردّد قبل أن يعدّ الإجابة ولكنّ الرجل بادره متلفظاً:

- ألا تحبّ الفناء؟

فقال الغلام بتوكيد:

- كلّاً...

وبدا من بعض الحاضرين ما يدلّ على أنّهم سيعلّقون على هذه الإجابة - آخر ما ينظر من شخص يتنهي إلى عبد الجواد - مازحين، ولكنّ السيّد حلّزهم بعينه فلمسكوا، أمّا السيّد محمّد حُفّت فعاد يسأله:

- ألا تحبّ أن تسمع شيئاً؟

فقال كإل وهو يلحظ أباه:

- القرآن الشريف.

فتصالت أصوات الاستحسان وسمح للفناء بالانصراف فلم يثبّت له أن يسمع ما قيل عنه وراه ظهوره حين فقهه السيّد الفار قائلاً:

الفناء. والواقع أنّ السيّد خلا إلى نغر من خاصّة أصدقائه بمنظرة الفناء فلم يفارقها مدّ حلّ بالبيت مصمّماً على ألا يفارقها حتّى ختام الليلة مهتدّاً بنفسه عن والجهشور الصاحب خارجهما، لم يكن أشدّ إحراجاً لنفسه من الظهور بين آله في ليلة زفاف، إذ لا يرضى أن ينشر فوقهم رقابته في يوم خالص السور، ولا يطيق من ناحية أخرى أن يشهد عن كتب انطلاقهم مع دواعي الفرح، وفضلاً عن هذا وذاك لم يكن أكره لديه من أن يرى - بينهم - على غير ما عهدوا من وقار صارم، ولو كان الأمر بيده لتّم الزفاف في صمت شامل ولكنّ حرم المرحوم شوكت وقتت من اقتراحه في هذا الشأن موقف معارض لا تليّن صلابته، وأبّت إلّا أن يجيها ليلة حافلة فأنثقت على إحيائها مع العالة جلييلة والمغني صابر، وبدا كإل لفرط ابتهاجه بما أتيح له من حرّية وسرور كأنّه عريس الليلة، وكان أحد أفراد قلائل أبيض لهم التنقّل كفيّاً شاموا بين الحرّيم في الداخل وبين مجلس الطرب في فناء الدار، لبث طويلاً مع أمّه بين النساء منقلاً طرفة بين زيتون وحليهنّ مصيلاً إلى دهاباتهنّ وأحاديهنّ التي يستأثر الزواج بخلاصتها، أو منصفاً معهنّ إلى العالة جلييلة التي تصدّرت البهر كالحمل ضخامة وزينة وراحت تنشّد الطفاطيق وتعاقر الشراب جهاراً، فاستأنس إلى الجوّ الضاحك لغرابته وجاذبيّته - والأهمّ من هذا كلّ - لوجود عاتقة على حال من التبرّج لم يحلم بها من قبل، وشجّته أمّه على البقاء لظنّ تحت رعايتها، يبدّ أنها عدلت عن موقفها بعد حين واضطّرت إلى أن تحفه همساً على الانتقال إلى مجلس أنصوبه لأمر لم تتوقّع حدوثها، من ذلك ما بدا من اهتمامه بمعاينة، بفسانها حيناً وبزواقاتها حيناً آخر، فخيّف منه على هندامها، أو ما بدر منه من ملاحظات صبيانيّة صريحة نحو بعض السيدات كما هتف بأمره مرّة وهو يشير إلى امرأة من آل العريس قائلاً: «انظري يا نينة إلى أنف هذه السّ... أليس أكبر من أنف أبله خديجة؟ أو ما فاجأ به الجميع وجليلة تغني من الاشتراك مع التخت في ترديد ومماة حلوة... ومين أجبيها حتّى دعته العالة

- إن صَحَّ هَذَا فالغلام ابن زنا!

فضحك السيد أحمد عبد الجواد وقال وهو يشير إلى حيث كان يقف كمال:

- هل رأيتم أمكر من ابن الكلب يذمي التقوى أمامي... رجعت مرة إلى البيت فترأى صوته وهو يفتي «يا طير يا ليلى على الشجرة».

فقال السيد علي:

- أه لو رأيته وهو ينصت بين أخويه إلى صابر وشغفاته تتحركان مع الغناء في انسجام تام ولا انسجام أحمد عبد الجواد نفسه.

على حين خاطب محمد عفت السيد أحمد متسائلاً:

- المهم أن نخبرنا هل أصعبك صوته في دور «يا طير يا ليلى على الشجرة»؟

فضحك السيد قاتلاً وهو يشير إلى نفسه:

- ذاك الشبل من هذا الأسد.

فهبط الفار قاتلاً:

- الله يرحم اللبوة الكبيرة التي أنجبكم.

غادر كمال النظرة إلى الحارة وكأنه يفتي من كابوس

ووقف بين الغلمان الذين ازدحم بهم الطريق، وما

لبث أن استعاد ارتياحه فتسكى مزهواً بملابسه

الجديدة، مغتبطاً بحريته التي جعلت من المكان كله -

فيما عدا المنظرة المخفية - مجالاً مباحاً لقدميه دون

معتصر أو رقيب، فأي ليلة خلد في الزمان! شيء

واحد جميل ينتص عليه صفوه كلما خطر له فؤاده هو

انتقال عائشة إلى هذا البيت الذي باتوا يدهونه وبيتهاه

هذا الانتقال الذي نفل على رغبته دون أن يستطيع

أحد إقناعه بوجاهته أو فلالته، تسامد طويلاً كيف

سمح أبوه به وهو الذي لا يسمح لظلل امرأة من آله

بأن يلوح وراء عصاص النافذة فتلقى الجواب ضحكاً

عالياً، وسامد أنه في حجاب، كيف تفرط في عائشة لحد

النزول عنها للغير فأجابته بأنه سيكره يوماً وأخذ مثلها

من بيت أبيها فتشبع إليه بالزغاريد، وسأل عائشة هل

يسرها حقاً أن تهجرهم فأجابته أن لا، ولكن الجهاز

حمل إلى بيت الرجل الغريب ولحقته به عائشة التي لا

يطيب له الرأي إلا من موقع شفتيها، حقاً أن الفرع

الراهن ينسي أشياء ما كان يتصور أن ينساها لحظة

ولكن خاطرة الآسى تفتش فؤاده الجندل كما تفتش

السحابة الصغيرة وجه القمر في ليلة صافية السماء،

ومن حجب أن سروره بالغناء في تلك الليلة فاق أي

سرور عدا، كاللعب مع الغلمان أو مشاهدة النساء

والرجال في مرحهم المطلق أو حتى عيش السراي

والألطف على مائدة العشاء، ولئن أدهش اهتمامه

الجنتي بسياح جلييلة وصابر - الذي لا يتفق مع سنه -

كل من لاحظته من النساء والرجال، فلم يدهش أحداً

من أسرته التي تعرف سوابقه في الغناء مع معلّمته

عائشة كما تعرف حسن صوته الذي تعدّه أحسن

أصواتها بعد عائشة وإن كان صوت الأب - الذي لا

يسمعونه إلا مزججراً - أحسبها جميعاً، وقد استمع كمال

طويلاً إلى جلييلة وصابر ولكنّه على غير المنتظر وجد

غناء الرجل وعزف نغمة أحب إلى قلبه وأخذ لنفسه،

فرسخت منه في ذاكرته جبل غنائية مثل وتعشق

ليه... علشان كده - جُلَّ يردّها بعد ليلة الزفاف

طويلاً في سقفة اللباب والياسمين فوق سطح بيتهم،

وشاؤت أمينة وخديجة كمال في بعض ما أتبع له من

أسباب السرور والحزنة، فلم يسبق لها - مثله - أن

شهدتا ليلة كذلك الليلة بما حفلت من أنس وطرب

ومرح، وأصبح أمينة خاصة ما لاقت من الرعاية

والمجاملة بصفتها أم العروس، هي التي لم تنعم في

حياتها برعاية أو مجاملة، حتى خديجة اختفى همتها في

أنوار الفرع كما تختفي الظلمة عند إشراق الصباح،

نسيت أحزانها بين الضحكات الناعمة والأنغام العذبة

والأحاديث الطليّة، وازدادت لها نسياناً بفضل حزن

جنيد خالص الطويّة منشؤه شعورها بفراق عائشة

الوشيك، شعور أثمر حباً وعطفاً خالصين فتوارت

الأحزان القديمة أمام الحزن الجديد كما تتوارى الأحقاد

أمام الأرمية، أو كما يقع لشخص حيال آخر يحبّ منه

جانباً ويكره جانباً أن تتوارى - ساعة الفراق مثلاً -

الكرامية لجانب أمم الحزن على الجانب الآخر، هذا

إلى ما شاع في نفسها من ثقة حين تبدّت في زينة

أضفت على جسمها ووجهها سواء لفت إليها أنظار

واراها باب الحرم، ثم عاد إلى مجلسه مزلول النفس كأنه قارب تعرض بثلة لإعصار، بيد أنه كان قبل رؤيتها هادئ النفس لاهياً بشجون السمر شأن السالي النامي، والحق عز به أوقات فيجد نفسه على هذه الحال من السلو والنسيان كأن قلبه يستجم من العناء، ولكن ما إن تخطر خطرة أو تنفخ ذكرى، أو يجري اسمها على لسان، أو... أو، حتى يخفق فؤاده السَّاء، ويفرز الحسرة تلو الحسرة كالفرس المرسوس الملتهب تحيى عليه فترة فيسكن الله حتى إذا هرس لقمة أو مس جسيماً صلباً انفجر به الألم، وهناك يقرع الحب أضلعه من الداخل كأنما يوم متفئساً، صائحاً بأعلى صوته أنه لا زال حياً لم يطلق سراحه العزاء أو النسيان. طمناً تمخى لو يعنى عنها الراغبون حتى يستري على قدميه رجلاً حرّ التصرف في تقرير مصيره، وقرب أمته كثر الآثام والأسابيع والأشهر دون أن يتقدم لها مخاطب، ولكنه لم ينعم بالطمأنينة الحققة، ولم يزل عرضة للقلق والخوف يتناوبان الحين بعد الحين يتنصان صفوه ويكتران أحلامه ويخلقان له ضرورياً من الألم والغيرة إن تكن وهمية فليست دون الواقع - فيما لو تحققت - ضراوة وقساوة، حتى بات التمني نفسه وتأخر وقوع البلاء من بواحت تجدد القلق والخوف وبالتالي الألم والغيرة فودّ كلياً اشتدّ به العذاب أن يقع البلاء ليلقى نصيبه من الحزن دفعة واحدة لعله بعد ذلك يبلغ بالياس ما لم يبلغ بالألماني العائشة من الراحة والسلام، ولكنه لم يستسلم للشجن في مجلس طرب تكتنفه أنظار الأصدقاء والأقرباء، إلا أنه كان تلقى من منظر مريم وهي تسير وراء أخت وأثره لا يمكن أن يعفي بلا ردّ فعل محسوس، ولما لم يسهه أن يجترّ به أحزانه وأن يجلو المستور من نفسه فقد استهلكه - بطريقة عكسية - بالإغراق في الحديث والضحك والتظاهر بالنبطة والسعادة، حلّ أنه كلياً خلا إلى نفسه ولو لحظات شعر في أعماقه بمزلة قلبية عبا حوله، وأدرك مع مرور الوقت أنّ رؤيته مريم وهي تخطو في معية المروس قد هيّجت حبه كما تهيج ضوضاء مفاجئة مهموماً ذا قابلية للأرق، وأنه لم ينعم على الأقل هذه

بعض النساء فلهن بالشاء عليها ثناء ملاها أملاً وأحلاماً عاشت بها زمناً رغداً.

وجلس ياسين وفهمي جنباً لجنب - يراوحان بين السمر والسباع، وجلس خليل شوكت - المريس - ينضمّ إليهما بين ساعة وأخرى وكلما وجد فرجة بين أشغال ليلته الشائقة المتعة، وبالرغم من الجلو المشيح بالهجة والطرب انطوى ياسين على قلق فارستمت في عينه نظرة شرود زمزمة وواح يسائل نفسه بين حين وآخر ترى هل يتاح له أن يروي ظمأه ولو بكأس أو بكاسين؟ لذلك مال مرة على أذن خليل شوكت - وكان صديقاً للأخوين وهمس قائلاً:

- أدركني قبل أن تضيق الليلة.

فقال له الشاب وهو يغمز بعينه مطمئناً:

- أفردت مائدة في حجرة خاصة لأمثالك من الأصدقاء.

عند ذاك اطمأنّ بآله وعاودته حيويته للسمر والدعابة والسباع، لم يكن في نيته أن يسكر، ففي مثل هذا المكان الخافل بالأهل والمعارف يعدّ القليل من الخمر فوزاً كبيراً، خاصة وأنّ والده وإن انزوى في المنظرة - غير بعيد - فلم يكن وقوفه على أسرار حياته يزعج حن مكانته التقليدية من نفسه، لم يزل قائماً بحصنه الحصين من المهابة والإجلال، ولم يزل هو بموقف الطاعة والعبودية، حتى السرّ الذي اطلع عليه خفية لم يفكر في البوح به لإنسان ولا لفهمي نفسه أقرب المقربين إليه، لهذا كله قنع من بادئ الأمر بكأس أو بكاسين يتملّق بها رغبته الجائعة، ويتهيأ بها لتدلقّ المرح والسمر والطرب وغيرها من المرات التي لم يعد لها عنده طعم بغير شراب. فهمي - بخلاف ياسين - لم يجد، أو لم يطمئنّ إلى أنه سيجد رياءً لظمه، ثار شجنه من حيث لا يتظر عند مجيء المروس، ذهب مع المريس وياسين لاستقبالها بقلب خلى فوق بصره على مريم وهي تسير وراء المروس مباشرة ومتألّقة الثغر بانسامة تحية للمكان كله، لاهية بالزخايرد والورود عنه، وقد شفت فتاعها الحريري عن ديباجة وجهها الصافي، فتبعها نظره بقلب خافق حتى

الحرية والانطلاق، وعلى حال لم يمهدا من التبرج والحركة، وجودها في بيئة الزفاف وما توحى من خواطر الحب والوصول، كل أولئك أطلقها من قممها إلى حيث يراها القلب أملاً غير عسير، وكأنما تقول له «انظر أين تراني الآن، ما هي إلا خطوة أخرى فتجني بين ذراعيك» ولكن ما لبث هذا الأمل أن ارتطم بالواقع الشائك مسهماً في إحداث الرجّة العنيفة، ولعل ذلك أيضاً لأن رؤيتها والمكان الجديد زادتا رسوخاً في نفسه وتغلغلاً في حياته. ونشويها في ذكرياته، فلو أن الصور تتمتع في أنفسنا بالندماجها في مختلف الأماكن التي نمتد إليها نجاربنا، وكما اقترنت مريم قديماً بسطح البيت ويستأن اللبلاب والياسمين وكما وتسميع الكلمات الإنجليزية ومجلس القهوة وحديثه مع أمه في حجرة المذاكرة والرسالة التي عاد بها كمال فستقرن منذ الليلة بالسكّرية وفناء آل شوكت ومجلس الطرب وفناء صابر وزلفاء عائشة وغير ذلك مما ينشال على سمعه ويصره وكأفة حواسه، ومثل هذه العملية... لا يمكن أن تتم دون أن تشارك في إحداث الرجّة العنيفة التي دوت تحت... وحديث في فترة الاستراحة أن تراس صوت العالمة إلى مجلس الرجال من التوافد المطلقة على الفناء وهي تغني «حبيبي غاب» فنشط إلى السراع باهتمام شديد ويجمع حواسه كلها في النغبات، لا لأن صوت جلييلة أعجبه ولكن لظنه أن مريم تنصت إليها في تلك اللحظة، لأن الجملة الغنائية تخاطب أذنيها في وقت واحد ممّا، لأنّها ألقت بينهما على حال واحدة من الإنصات ودعاً من الإحساس، لأنّها خلقت لها موعداً يلتقيان فيه بروحيهما، وحله هذا كله على احترام الصوت وحسب النغبات كي يجتمع بها في إحساس واحد. وحاول طويلاً أن يفض إلى نفسها بالرجوع إلى نفسه، أن يتلمّس ذبذبات تأثرها بتأنيدها بالرجوع إلى تأثره، ليعيش في ذاتها لحظات بلا حجاب على بعد المسافة وكثافة الجدران، وحاول إلى هذا أن يستغبر الجمل الغنائية على آثارها في النفس المحبوبة، ماذا تركت في قلبها جملة «حبيبي غاب» أو يبقى له زمان بما يحسّس جواب»، تُرى هل غابته في الجسج

الليلة - بصدر مستقر، وأن شيئاً عما يدور حوله لن يستطيع أن ينتزع من مخيلته صورها أو الابتسامة التي حيث بها جرّ الاستقبال الحارّ المشبع بالزغاريد والورود، ابتسامة حلوة صافية وشت بقلب خليّ مشوّق للهدوء والسرور، ابتسامة لا يوحي رواؤها بأنّه يمكن أن ترسم على موضعها من الشفتين تقلصات الألم، فهو منظرها قلبه وكاشفه بأنّه يكابد الألم متفرداً ويعمل متاعبه وحده، ولكن ألا يقهقه هو الآن حالاً، يجرّك رأسه مع الانغماس كالتبسط الطروب؟... ألا يجوز أن يندفع الناظر بحاله ويظنّ به ما ظنّ هو بها؟... وجد في تفكيره شيئاً من العزاء ولكن ليس أؤكد من عزاء المصاب بالتيفود حين يسأل نفسه «ألا يحتمل أن أضفى كما يشفى فلان الذي أصيب به قبلي»، وما لبث أن ذكر رسالتها التي عاد بها كمال إليه منذ أشهر وهي: قل له إنّا لا تدري ماذا تفعل لو تقدّم لها خاطب أثناء هذه المدة الطويلة من الانتظار... وتساءل كما تسأل عشرات المرات من قبل هل ثمة عاطفة وراء هذه الكلمات؟... أجل لا يستطيع إنسان مهما بلغ به التمتّع أن يؤاخذها على كلمة منها، بل لا يستطيع أن يتجاهل ما تفسّته من عقل وحكمة ولكن هذا نفسه ما أشعره بالعجز حيالها وما أحقّه بالتأني عليها، إذ ينلر أن يرضي العطل والحكمة طموح عاطفة لا تعرف بطبعها الخلود، وعاد إلى الحاضر، إلى مجلس الطرب، إلى الحبّ الملتج. ليست رؤيته لها وحدها التي رجّته هذه الرجّة العنيفة، فلملّ ذلك لأنّه رآها لأول مرة، في مكان جديد - فناء بيت آل شوكت - بعيداً عن داره التي لم يرها خارج نطاقها من قبل، كان وجودها الدائم في المقام القديم قد سلّكها في الآلة العادة اليومية على حين بعت ظهورها المفاجئ في المكان الجديد - ذلك الظهور الذي خلّقه في عينيه خلقاً جليداً - حياة جديدة في وجدانه، أبقت الحياة الأصلية الكامنة، ثمّ تعاونتا ممّا على إحداث هذه الرجّة العنيفة، ولعلّ ذلك أيضاً لأنّ وجودها بعيداً عن بيته وما يقترن به من تقاليد صارمة أقامت بينه وبينها سدّاً من اليأس، وجودها في جرّ من

لم يكن أشبه بفهمي في عزائه الباطنية - وإن اختلفت الأسباب - من أبيه الذي لزم النظرة بين نفر من خاصّة خلّاته، حتى الأصدقاء الذين لم يطبقوا التوقّر، والغناء لجلجل في الخارج، انقضوا من حوله وتفرّقوا بين المستمعين يطربون ويلهون، فلم يبقَ معه إلا نفر الذين جلسوا حوله أحبّ إليهم من اللهو نفسه فلبثوا جميعاً في رزاة غير معهودة كأنما يؤقّون واجباً أو يشهدون مأثماً، هذا ما قدروا من قبل، حين دعاهم السيّد إلى ليلة الزفاف، لما خبروه من طبيعته المزوجة التي عرف بجانب منها بين أصدقائه وبالجانب الآخر بين آل بيته، ولم يفهم وجهه من وجوه التناقض بين مجلسهم الوفور هذا الذي يحضرون فيه «بليلة زفاف» وبين مجالسهم المسائية المربدة التي لا يحضرون فيها بشيء! وما عتَموا أن جعلوا من توقّره موضعاً للمزاح الخفيف الهادئ فما إن علا صوت السيّد عثت مرة وهو يضحك حتى بادره السيّد الفار واضحاً سبابته على شفته كأنما يلمّره بخفض صوته وممس في أذنه عللاً زاجراً: نحن يا رجل... ومرة أخرى وكان الصمت قد غلبهم ملياً فلذا بالسيّد على قلب عينيه في وجوههم ثم يقول رافقاً يده إلى رأسه كالشاكِر: «شكر الله سبحانه» وعند ذلك دعاهم السيّد إلى اللحاق بصحبه في الخارج ومشاركتهم هومهم ولكن السيّد عثت خاطبه بلهجة تنم عن شلّيد العتاب قائلاً: نتركك في مثل هذه الليلة! وهل يعرف الصديق إلا عند الضيق! فما تملك السيّد أن ضحك قائلاً: ما هي إلا عنة ليلي زفاف أخرى حتى يتوب الله علينا جميعاً... هل أن ليلة الزفاف تفضت في نظر السيّد أحد معاني أخرى غير التوقّر الإيجاري في مجلس أنس وطرب، معاني تحفّضه وحله كآب ذي طبيعة خرفت المألوف من الطابع، فلم يزل يجد لفكرة زواج كرمته إحساساً غريباً لا يرتاح إليه وإن لم يفره عقله أو دينه. لا يعني هذا أنه ودّ ألا تتزوّج كرمته، فالحقّ أنّه كسائر الأباة جميعاً رجا السّر لفتاته، ولكن لعلّه عثى كثيراً لو لم يكن الزواج الوسيلة الوحيدة لهذا والستر» ولعلّه عثى لو كان الله قد خلق البنات على

الذكريات... أو لم تتحرر موجة منه عن وجهه... ألم يتقبض قلبها لشكّة ألم أو لحزة حسرة؟ ألم لها سادراً طوال الوقت لا يجد في النعمة إلا فرحة الطرب... وتصورها وهي تهب انتباهها للنغم سافرة متبرجة الحيويّة أو تغرها يفتر عن ابتسامة كتلك التي لمحا على شفتيها عند مجيئها فآلته لأنّه توسّم فيها رمز السلو والنسيان، أو وهي تحدت إحدى أختيه كما يعلو لها كثيراً وهو ما يحسدها عليه على حين لا تحدان فيه الأمر الذي يدهشه لحدّ الانزعاج إلا حديثاً عادياً كسائر الأحاديث التي تشتبك في غيرها من فتيات الجبران، أجل طالما حجب لموقف أختيه منها، لا لأنّها لا تكثران لها فالحقّ أنّها تحبّها، ولكن لأنّها تحبّها كما تحبّان غيرها من فتيات الجبران كأنّها مجرد وفتاة من فتيات الجبران، وكيف تلقيناها بترحيب عاديّ دون أن يضطرب لها نفس كما يلقى هو فتاة عابرة أو أيّاً من أقرانه طلبة مدرسة الحقوق، وكيف تتحدّثان عنها لتقولان «مرم قالت أو مريم فعلت» وتتطلقان بالاسم كما تتطلقان بأيّ اسم... أمّ حنفي مثلاً كأنّه ليس الاسم الذي لم ينطق به على مسمع من غيره إلا مرة أو مرّتين وهو يعجب لموقعه من أذنه أو كأنّه ليس الاسم الذي لا ينطق به في وحدته إلا كما ينطق بالأساء المبحّلة المنقوشة في خياله بتهاويل الأحلام التي لا ينطق بأحدهما حتى يردف «رضي الله عنه» أو «عليه السلام»... وكيف إذن عكّل الاسم - بل الشخص نفسه - عندهما من سحره وقديسيّته! وعندما انتهت جليلة من الأغنية تعالى اختلاف والتصفيق فركّز فيه انتباهه باهتمام لم تحظّ الأغنية نفسها بمثل لأنّ حنجرة مريم ويليها اشتركت فيه، وتحقّ لو كان يوسعه أن يميّز صوتها من تلك الأصوات وأن يفرز تصفيقها من ذلك التصفيق ولكن لم يكن ذلك بأسهل من تمييز صوت موجة بالذات من هدير الأمواج المتلاطمة على الشاطئ، على أنّه وهب حبّه للفتاة كله وللتصفيق كله بلا تمييز كالآلّم التي يترامى إلى سمعها أصوات التلاميذ من المدرسة التي يتبعها ابنها فتدعوهم جميعاً بالبركة والسلامة.

طبيعة لا تختم الزواج. أو لعله تخفى في الأقل لو لم يكن أنجب إنثاءً قط، أما وتلك أمان لم تتحقق ولا سبيل إلى تحقيقها فلم يكن بد من أن يرجو الزواج لفتاته ولو كما يرجو الإنسان أحياناً - لئلاسه من دوام العمر - مئة شريفة أو مئة مريحة طالما أصبح عن نفوره هذا سبيل متباعدة سواء عن شعور أو لا شعور، فربما حدث بعض خلصاته قاتلاً: «تسألني عن إنجاب الإناث؟ إنه شر لا حيلة لنا فيه ولكن الشكر إلى الله واجب على أي حال. لا يعني هذا أنني لا أحب أبنتي فالحق أنني أحبها كما أحب ياسين وهدمي. وكحال سواء بسواء ولكن كيف يطمئن خاطري وأنا أعلم بأن سألها يوماً إلى رجل غريب مهما يبدو من من مظاهر الله وحده المطلق على باطله؟... ما حيلة البنت الضعيفة حيال رجل غريب وهي بعلة من رعاية أبيها؟... وكيف يكون مصيرها لو طلقها يوماً وقد مات أبوها فلجات إلى بيت أخيها لتعيش حياة المنبوذين؟! لست أخاف على أحد من أبنائي لأنه مهما يحدث لأبيهم من أمر فهو رجل قادر على أن يواجه الحياة، أما البنت... اللهم احفظنا!» أو يقول فيها يشبه الصراخ: «البنت مشكلة حقاً... ألا ترى أننا لا نألو أن نؤذيها ونهذيها ونحفظها ونصونها؟... ولكن ألا ترى أننا بعد هذا كله نحملها بأنفسنا إلى رجل غريب ليفعل بها ما يشاء... الحمد لله الذي لا يخذل على مكروه سواء... ونعسى هذا الإحساس القلق الغريب في النظرة الانتقادية التي وإلى بها خليل شوكت «العريس» نظرة متعسفة عبادة أبت أن ترجع قبل أن تغفل بعيب يرضي تعنتها، كأنه ليس من آل شوكت الذين ألفت بينه وبينهم أسباب المودة والولاء من قديم الزمان، أو كأنه ليس الشاب الذي شهد له كل من رآه بالرجولة والجهل والوجاهة، لم يسعه أن ينكر مزية من مزاياه، ولكنه وقف طويلاً عند وجهه الرئاسي ونظرة عينيه المادئة الثقيلة الموحية بالكسل فطلب له أن يستبدل بها على ما تركه الفراغ في حياته من حيوانية قاتلاً لنفسه «ما هو إلا ثور يعيش ليأكل وينام» لم يكن اعترافه بمزاياه أولاً ثم فضحه عن أي عيب يليصقه به

أخيراً إلا منطقاً عاطفياً يعكس ما يكمن في نفسه من رغبة في تزويج الفتاة ونفوره من فكرة الزواج، فالاعتراف مهبط إلى تحقيق الزواج والفحص عن العيوب نفس عن العاطفة العدائية، كمدمن الأفيون الذي تستدله لذته وترهبه خطورته فينشده بكل سبيل وهو يعلمه، بيد أنه تناسى مشاعره الغريبة وهو بين أصدقاءه الحميمين يتسل بالحديث حيناً وبالسباح حيناً آخر، ففتح صدره للرضى والغبطة ودعا لفتاته بالسعادة والحياة المطمئنة، حتى نظرت الانتقادية لخليل شوكت استحالت إحساساً ساخراً غير مشوب بالحق. وعندما دعي المدعوون إلى المواعد افترق فهمي وياسن لأول مرة فقاد خليل شوكت الأخير إلى المائدة الخاصة حيث بذل الشراب بغير حساب ولكن ياسين بدا حليماً مقلداً للعواقب فأعلن قناعته بكأسين وقام بشجاعة - أو بجبن - تيار الشراب المتدفق حتى إذا ما لاحت النشوة فهجرت ذكرياته عن لذة النشوات ووهنت إرادته فرغب في الاستزادة من النشوة إلى القدر الذي لا يخرجها عن حدود الأمان فتناول كأساً ثالثة ثم قر بنفسه عن المائدة إلا أنه - على سبيل الاحتياط أو لأنه لم يزل حيناً في الجثة وعيناً في النار - أخفى زجاجة معلومة حتى النصف في مكان خفي للرجوع إليها عند الضرورة القصوى، وعادوا إلى مجلسهم بأرواح جديدة راقصة انطلق منها إلى الجو المحيط سرور محزون من القيود...

وفي الحرم كان السكر قد بلغ بالعالة جليلة حد السلطة، وإذا بها تقلب حينها في وجه المدعوين وتتساءل:

- من منكّر حرم السيد أحمد عيد الجواد؟  
فجذب تساؤلها الأنظار وأثار اهتماماً شاملاً حتى غلب الحياة أمينة فلم تنبس بكلمة وجعلت تهمل في وجه العالة بحيرة وإنكار، ولما أعادت العالة السؤال تطوأت حرم للحرم شوكت بالإشارة إلى أمينة وهي تقول:

- ما هي حرم السيد أحمد نعيم يا ترى التساؤل؟  
فتحصتها العالة بعينين ثاقبتين ثم أطلقت ضحكة

طبيعة لا تختم الزواج. أو لعله تخفى في الأقل لو لم يكن أنجب إنثاءً قط، أما وتلك أمان لم تتحقق ولا سبيل إلى تحقيقها فلم يكن بد من أن يرجو الزواج لفتاته ولو كما يرجو الإنسان أحياناً - لئلاسه من دوام العمر - مئة شريفة أو مئة مريحة طالما أصبح عن نفوره هذا سبيل متباعدة سواء عن شعور أو لا شعور، فربما حدث بعض خلصاته قاتلاً: «تسألني عن إنجاب الإناث؟ إنه شر لا حيلة لنا فيه ولكن الشكر إلى الله واجب على أي حال. لا يعني هذا أنني لا أحب أبنتي فالحق أنني أحبها كما أحب ياسين وهدمي. وكحال سواء بسواء ولكن كيف يطمئن خاطري وأنا أعلم بأن سألها يوماً إلى رجل غريب مهما يبدو من من مظاهر الله وحده المطلق على باطله؟... ما حيلة البنت الضعيفة حيال رجل غريب وهي بعلة من رعاية أبيها؟... وكيف يكون مصيرها لو طلقها يوماً وقد مات أبوها فلجات إلى بيت أخيها لتعيش حياة المنبوذين؟! لست أخاف على أحد من أبنائي لأنه مهما يحدث لأبيهم من أمر فهو رجل قادر على أن يواجه الحياة، أما البنت... اللهم احفظنا!» أو يقول فيها يشبه الصراخ: «البنت مشكلة حقاً... ألا ترى أننا لا نألو أن نؤذيها ونهذيها ونحفظها ونصونها؟... ولكن ألا ترى أننا بعد هذا كله نحملها بأنفسنا إلى رجل غريب ليفعل بها ما يشاء... الحمد لله الذي لا يخذل على مكروه سواء... ونعسى هذا الإحساس القلق الغريب في النظرة الانتقادية التي وإلى بها خليل شوكت «العريس» نظرة متعسفة عبادة أبت أن ترجع قبل أن تغفل بعيب يرضي تعنتها، كأنه ليس من آل شوكت الذين ألفت بينه وبينهم أسباب المودة والولاء من قديم الزمان، أو كأنه ليس الشاب الذي شهد له كل من رآه بالرجولة والجهل والوجاهة، لم يسعه أن ينكر مزية من مزاياه، ولكنه وقف طويلاً عند وجهه الرئاسي ونظرة عينيه المادئة الثقيلة الموحية بالكسل فطلب له أن يستبدل بها على ما تركه الفراغ في حياته من حيوانية قاتلاً لنفسه «ما هو إلا ثور يعيش ليأكل وينام» لم يكن اعترافه بمزاياه أولاً ثم فضحه عن أي عيب يليصقه به



رثانة وقالت بلهجة تتم من الرضى:

- حسناء وحتى بيت الله، إن ذوق السيد لا يجارى...

ويدت أمانة كالعلواء في حياها، بيد أن الحياء لم يكن كل ما تعانته، ساءلت نفسها في حيرة وأزعاج مما يعنيه حديث العالة عن حرم والسيد أحمد عبد الجواد، وعن إطرانها ذوق السيد بلهجة لا يدعيها لنفسه إلا الحخير به، وشاركتها شعورها عائشة وخديجة التي رقدت عينها بين العالة وبين بعض الفتيات من صديقاتها كأنها تسألهن رأين في هذه المرأة السغيرة، ولكن جليلة لم تابه لما أثاره كلامها من ازعاج فحوّلت عينها إلى العروس وتفحصتها كما تفحصت أمها من قبل ثم أرعشت حاجبيها وهي تقول بإعجاب:

- قمر ورسول الله، أنت بنت أبيك حقاً، ومن ير هاتين العينين يذكر من توّه عينيه... (ثم مفهقة)... أراك تتسامدن من أين طُده المرأة معرفة السيد أحمد؟!... لآي أعرفه من قبل أن تعرفه زوجة نفسها، إنه ربيب حينا وقرين صباي، وكان والدنا صديقين، أم تحسبن العالة لا أب لها؟... كان أبي شيخ كتاب من أهل البركة... ما رأيك يا زينة السئات؟...

وتجهت السؤال الأخير إلى أمانة فدخلها الحوف وما طبعت عليه من لين وتودّد إلى أن تهيّبا - وهي تقاوم ما ركبها من ارتباك - قائلة:

- رحمه الله، كلنا أبناء حواء وأدم.

فجعلت جليلة تحرك رأسها بمنة ويسرة وهي تضيّق عينها كأنها بلغ تأثرها بالذكرى وموعظتها غايته، أو لعل رأسها السكران وجد في هذه الحركة رياضة التّدبها، ثم استطردت قائلة:

- وكان رجلاً خيولاً، ولكنني نشأت بفطري لعوياً لا أبالي كأنها رضعت الفنج في المهدي، كنت أضحك الضحكة في الدور الأعلى فتضطرب لها جوانح الرجال في الشارع، فما يبلغه صوتي حتى ينهال عليّ ضرباً ويرميني بشر الصفات، ولكن ما حيلة التأديب ليعن

قدّرت عليها فتون العشق والطرب والدلال؟!... ضاع التأديب هباء، ومضى الرجل إلى الجنة ونعيمها، وقضي عليّ بأن اتّخذت ما رماني به من شر الصفات شعاراً لي في الحياة... هي الدنيا... ربنا يطعمك خبزها ويكفيك شرّها... ولا حرمانا الله جميعاً من الرجال سواء في الحلال أو في الحرام...

وعزف الضحك في جنبات الحجر حتى غشى على تأوهات اللحم التي نذت هنا وهناك، ولعل ما استثاره قبل أي شيء آخر هو وجهه التناقض بين الدهاء الإياشي الأخير وبين ما سبقه من عبارات توسي - في ظاهرها على الأقل - بالجلّة والثبات، أو بين ما تكتّمت به المرأة من سائر الجذّ والرزانة وما جهرت به أخيراً من مزاح مكشوف، حتى أمانة نفسها - وعلى رغم ارتباكها - ما تمالك أن ابتسمت وإن تغطت وجهها لتوازي ابتسامتها، حل أن النساء كنّ يستجن - في مثل هذا المجلس - لدهابات مهرجات العوالم ويرشن بمزاحهن وإن خلس الحياء أحياناً كأنها ينفسن به على طول تزمتن، وواصلت العالة السكرانة حديثها قائلة:

- وكان جميل الله الجنة مثواه سليم العلوية، وآي فلك أنّه جامدي يومًا يجرل طيب مثله وأراد أن يزوّجني منه (وكررت ضاحكة)... أيّ زواج يا صمرا؟ وماذا بقي للزّوج بعد ما كان غماً كان!... وقلت لنفسني انفضحت يا جليلة وواقعتك كحل...

واسكتت ملياً تستزيد من التشويق، أو لتستع أكثر بصمت الانتباه المركّز فيها الذي لا تحظى بمثله حين الغناء نفسه، ثم عادت تقول:

- ولكن الله سلم فأذكرني النجاة قبل الفضيحة المتوقّعة بأنام إذ هربت مع المرحوم حسونة البغل تاجر المنزل، وكان للمرحوم أخ عواد عند العالة نيزك فعلمني العود، ثم طاب له صوتي فعلمني الغناء، وأخذ بيدي حتى ضمّني إلى تحت نيزك التي حللت محلّها بعد وفاتها، ومارست الغناء دهرًا عرفت فيه من العشاق مائة و... وقبّعت وهي تذكر بقية العلد ثم التفتت إلى الدفافة وسألته) وكما يفنؤ؟

فبادرتا بالدَّفَاة قائلة :

- وخسة في عين من لم يصلْ حل النسيء...

وتعالى الضحك مرة أخرى فجعلت بعض المشغوفات بالحديث يسكن الضاحكات ليصفو الجؤ للعالة ولكنها نهضت بفتة وأجهت نحو باب الحجرة غير ملقية بالآ إلى اللاتي تساملن عن وجهتها دون أن يحظن بجواب، ولكن أحدا لم يلح عليها في السؤال لما اشتهرت به عند الناس من أنها صاحبة نزوة إذا نادتها لبثت دون مراجعة، وهبطت السلم إلى باب الحريم ثم مرقت منه إلى فناء الدار، ولما جذب ظهورها المفاجئ بعض الأنظار القريبة تلبثت بكائها لتتيح لنفسها أن ترى من الجميع تستمتع بما يحدث منظرها فيهم من اهتمام طمعت في أن تتحدث به صابرا وهو في ذروة التطريب، وتحقق رغبتها إذ سررت عدوى الالتفات نحوها - كالتأجب - من فرد إلى فرد وتردد اسمها على اللسن، ثم شعر صابر نفسه - رغم انهياكه في الغناء - بالفجوة الفجائية التي فصلت بينه وبين جمهوره فمد بصره إلى المهدف الذي استشرفته الأعين حتى استقر على العالة وهي تنظر إليه من بعيد برأس مائل إلى الوراء من سلطنة السكر والخيلاء فاضطر إلى الإمساك عن الغناء وأشار إلى تحت فتوقف عن المزف، ثم رفع يديه إلى رأسه تحية لها... كان صابر خيرا بنزوات جليلة - وحل خلاف الكثيرين - عالما بطيبة قلبها، ومقدرا في الوقت نفسه لحظر معاندتها، فأظهر لها التوقد بلا تحفظ، ونجحت حيلته فانطلقت أساور المرأة بالشر وهضت به «واصل ضناك يا سي صابر فما جئت إلّا لسياحه» فصق المدهوون وعادوا إلى صابر مهللين على حين اقترب منها إبراهيم شوكت شقيق العريس الأكبر وسأها بلطف عن حاجتها فذكرت بسؤال السبب الحقيقي الذي دعاها إلى للمجيء وسأله بدورها بصوت تروى إلى الكثيرين ومنهم - وهو الأهم - ياسين وفهجي:

- ما لي لا أرى السيد أحمد عبد الجواد؟... أين

يختبئ الرجل؟

فأخذ إبراهيم شوكت يدها وسار بها إلى المنطرة

باسما، على حين تبادل فهمي وياسين نظرة ملكت دهشا واستغرابا وشيئا ما بعينين متساثلتين حتى واراها الباب، ولم يكن السيد دون ابنه دهشا لدى رؤيتها مقبلة نحوه فحلجها بنظرة انزعاج وتساؤل بينما تبادل صحبه نظرات باسمه ذات معانٍ، وشملت جليلة الجميع بنظرة عابرة قائلة:

- مساء الأنس يا رجال...

وركزت عينها في السيد فما تمالكت أن أغربت في الضحك وهي تسامل ساعرة:

- هل أخافك مجيئي يا سيد أحمد؟

فأشار السيد إلى الخارج عذرا وهو يقول لها جأذا:

- احظلي يا جليلة، ماذا حلك على المجيء إلى هنا تحت أنظار الناس جميعا؟

فقالت كالمعتدة وإن لم تزايها بسمه ساعرة:

- عزّ عليّ ألا أعتك على زواج كرمك...!

فقال السيد في ضيق:

- لك الشكر يا ستي، ولكن أما فكرت فيما يشهركم لذي من يشهد من ظنون؟

فصبرت جليلة كفا بكفت وقالت فيما يشبه العتاب:

- هذا أحسن ما عندك في من استقبال...! (ثم

موجهة الخطاب إلى صحبه)... أشهدكم يا رجال على الرجل الذي لم يكن يتبل صدره حتى يفرز فردة شاربته في سري، انظروا إليه كيف لا يطيق الآن رؤيتي...

فلوح السيد لها بيده كأنما يقول لها ولا تزيد الطين بلّة وقال ببراءة:

- علم الله ما بي استياء لرؤيتك ولكنه الحرج كما ترين...

هنا قال السيد عليّ كأنما ليذكرها بما لا ينبغي لها أن تنساه:

- لقد عشنا حبيبين وافترقنا صديقين، وليس بينكما ثار، ولكن أهله فوق وأبنائه في الخارج...

فقالت متبادية في إغاطة السيد:

- لماذا تنظّم بالتقوى بين أهلك وأنت بركة فسق! فرماها بنظرة احتجاج قائلا:

- جليلة... ١... لا حول ولا قوة إلا بالله.

- جليلة أم زينة يا ولي الله!

- حسبي الله ونعم الوكيل...

فأرعثت له حاجبها كما أرعشتها لعائشة من قبل ولكن هل سبيل التهمك لا الإعجاب هذه المرة وقالت بصوت هادئ جاذ كالثقافي ينطق بالحكم:

- سيان عندي أن تعشق زينة أم غيرها من النساء ولكن يؤسفني ورأس أمي أن تمرغ في التراب بعد أن غرقت حتى أذنك (مشيرة إلى نفسها) في القشة...

عند ذاك نهض السيد محمد عفت - وكان من أقرب المقربين إليها - وقد خاف أن يتهادى بها السكر إلى ما لا تحمد عقباه فتناول يدها وجذبها برفق صوب الباب هامسا في أذنها:

- حلفتك بالحسين إلا ما رجعت إلى مستماتك المنظرات على نار...

فطارحته بعد ممانعة ولكنها التفت نحو السيد وهي تبعد رويدا وقالت:

- لا تنس أن تبلغ تحياتي إلى القارعة، ونصيحتي إليك - بحق الآخرة - أن تغتسل بعدها بالكحول لأن عرقها مضاعف للدماء.

شيعها السيد بنظرة ساخطة وهو يلحن الحظ الذي قضى بأن ينكشف أمام كثيرين خاصة أهله - ممن عرفوه مثالا للجد والرزاق، أجل لم يزل ثمة أمل في ألا يبلغ الحادث أحدا من آله ولكنه أمل ضعيف، ولم يزل ثمة رجاء في ألا يفهموه إذا بلغهم - بما طبعوا عليه من براعة - هل حقيقته ولكنه رجاء غير مضمون لأكثر من سبب بيد أنه على أسوأ الفروض لا يحق له أن يمزج لأن خضوعهم له من ناحية وسيطرته عليهم من ناحية أخرى أثبت من أن يزعزعها مزعزع ولا هذه الفضيحة نفسها، فضلا عن هذا فإن احتمال انكشاف أمره لدى أحد من أبنائه أو لديم جيمًا لم يكن هنده يومًا بالفرض المستحيل، ولكنه لم يقلق لذلك أكثر مما ينبغي، لظفته بقوة، ولأنه لم يعتمد في تربيتهم على القدوة والإقناع فيخاف انحرافهم عن الجادة تبعا لما قد يظهر لهم من انحرافه عنها، ولأنه استبعد أن يقلعوا

على شيء من أمره قبل أن يبلغوا أشدهم أي حين لا يهتبه كثيرا أن ينكشف لهم سره، ولكن شيئا من هذا لم يستطع أن يلفك من أسفه على ما وقع. حقا لم يتخل من سرور ومن تيه جنسي، إذ أن عجيبة امرأة كجليلة بنفسها إلى مجلسه لتنهت أو لتعابه أو حتى لتتهكم بعشقه الجديد «حادث» له مفزاه الهام في الأوساط التي تشهد ليايله، وظاهرة لها دلالتها البعيدة لرجل مثله لا يعدل بالهوى والطرب والأنس شيئا، ولكن كم كانت تكون سعادته صافية لو وقع الحادث الجميل بعيدا عن هذه البيئة العائلية!

أما ياسين وفيه فلم تتحول حينها عن باب النظرة منذ وجهته جليلة حتى خرجت منه مصحوبة بالسيد محمد عفت. دهش فهي دهشة بكرا دار لها رأسه كياسين حين سمع زئوية وهي تجيبه قائلة: «إنه من حيننا ولا بد أنك تسمع عنه... السيد أحمد عبد الجواد...»، هل حين ركب ياسين حب استطاع بهم فادرك - في سعادة - أبقيت في قلبه نشوة الإعجاب والمشاركة الوجدانية التي شعر بها نحو أبيه في حجرة زئوية - أن جليلة مغامرة لغري في حياة أبيه التي بات يؤمن بأنها سلسلة ذهبية من المغامرات، وأن الرجل فاق كل ما تصوّر خياله عنه، ولبت فهمي يأمل ويرجو أن يعلم بين حين وآخر بأن العائلة إنما أرادت مقابلة والده لسبب أو لآخر يتعلق بدعوتها إلى إحياء فرح عائشة حتى جاء خليل شوكت وأخبرها ضاحكا بأن جليلة «تذهب السيدة» وأنها «تتوّد إليه تتوّد الصديق للصديق» وعند ذلك لم يطق ياسين صبرا على كتمان ما عنده من سرّ ووثيت نشوة الشراب به إلى الإدلاء بمعلوماته فانتظر حتى غادر خليل ثم مال على أذن أخيه قائلا وهو يتألم ضحكة «كتمت عنك أشياء تخرجت من البوح بها في حينها، أما وقد رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت فسأبوح لك بهاء ومغنى يقصّ عليه ما سمع وما رأى في بيت زينة العالة، وفهمي يقاطعه من أرونة لأغري قائلا في دخول «لا تقل هذا...» «هل فقدت وعيك»، «كيف تريدني على أن أصدقك» حتى أن الشاب على قصته بكل تفاصيلها.

الأكل، ويعشق والعشق كان ملهاته الخلفاء، أقرأ ديوان الحياصة والأخبار التي بهامشه، ليس على أيبينا حرج، اهتف معي ليخني السيد أحمد عبد الجواد، ليخني أبونا، سائررك لحظة ريشا أزور - هذه المناسبة - الزجاجة التي أخفيها تحت الكرسي.

بعودة العالة إلى التخت شاع في الحرم نبأ مقابلتها للسيد أحمد عبد الجواد فانقل من لسان إلى لسان حتى تناهى إلى الأم وخديجة وعائشة ومع أمهن كن يسمعن شيئاً كهذا لأول مرة إلا أن سيدات كثيرات - ممن بين بعضهن وبين السيد سبب من أسباب المودة - تلقين النبا في غير ما حدش وغضن بأهنيهن باسيات شأن الذي يعرف أكثر مما يقال، ولكن واحدة منهن لم تسؤلها نفسها الخوض في الموضوع إنما لأن الخوض فيه جهازاً أسراً لا يجعل بين أسام كريماتهن وإنشاً لأن دواهي للمجاملة أملت عليهن بأن يمكن منه حيال أمينة وكرميتهن، غير أن حرم المرحوم شوكت قالت لأمينة مداخية وحذار يا أمينة هائم فالظاهر أن عين جليلة زاغت إلى السيد أحمداء، فابتسمت أمينة متظاهرة بعدم الاكتراث ودم الحياء والارتباك ينفذب وجهها، لأول مرة تلمس دليلاً محسوساً على ما قام بنفسها قديماً من شكوك، ومع أنها ألقت الصبر والتسلیم بما قدر عليها إلا أن ارتطامها بدليل محسوس حرّ في قلبها فأحسّت عذاباً لا عهد لها به وجرحاً دائماً في صميم كبريائها، وأرادت امرأة أن تعلق على قول حرم المرحوم شوكت بكلمة مجملّة تليق بأن العروس فقالت «من يكن له وجه كوجه ست أم فهي قسامة فلا يحقّ لها أن تخشى زيفاً عين زوجها إلى امرأة أخرى» فاهتزّت جوانحها للثناء وعادتها إبتسامها الحية ووجدت - هل أيّ حال - بعض العزاء عيّا تعانیه من ألم صامت، إلا أنه لبّاً بدأت جليلة أغنية جديدة فملأ صوتها مسمعيها ثار بها غضب مفاجئ وشمرت ثوائف بأن زمام نفسها سيفلت من قبضتها ولكنها سرعان ما كظمته بقوة خليقة بأمره لم تعترف لنفسها قطّ بحقّ الغضب. هذا هل حين تلقّت خديجة وعائشة النبا بدهش فتبادلتا نظرة حائرة وتساءلتا بعينيها عيّا يعنيه الأمر كله، بيد

لم يكن فهمي، بما نشأ عليه من عقيدة ومثالية، على استعداد لفهم - بله هضم - السيرة الخفية التي تنكشف له لأول مرة خاصة وأن والده نفسه كان من أركان عقيدته ودعائمه مثاليته، ولعلّ ثمة وجهاً من التشابه بين شعوره وهو يعاني هذا الكشف لأول وهلة وبين شعور الجنين - إن صدق الخيال - وهو ينتقل من مستقرّ الرحم إلى مضطرب الحياة، ولعله لو كان قيل له إنّ جامع قلاوون انمكس وضعه فصارث المثلثة أسفل بنائه والضريح عاليه، أو كان قيل له إنّ محمد فريد خان رسالة مصطفى كامل وباع نفسه للإنجليز لما كان هذا أو ذاك بأدعى إلى إنكاره وانزعاجه. «أبي يذهب إلى بيت زبيدة لشرب ويغني ويضرب الدفء... أبي يذهن لمداخية جليلة وتودّدها... أبي يقترق السكر والزنا، كيف اجتمعت الثلاث!... إذن هو غير الأب الذي عرفته في البيت مثلاً للورع والقوة!... أيتها الصحيح... كآني أسمعته الآن وهو يركد: الله أكبر... الله أكبر، فكيف ترجيده للغناء... حياة تمثيل ورياء! ولكنه صادق، صادق إذا رفع رأسه للدعاء، صادق إذا غضب... أليكون أبي ذليلاً أم يكون الفسق فضيلة!...»

«ذهلت!... ذهلت أنا أيضاً عندما نطقت زقوة باسمه، ولكن سرعان ما استخففت نفسي وسألتها ماذا عليه من هذا!... كفرا كهذا الرجال جميعاً أو هكذا يجب أن يكونوا...»

«هذا القول جدير بياسين حقاً... ياسين شيء وأبي شيء آخر... ياسين... ما ياسين!... ولكن كيف يحقّ لي أن أركد هذا الآن وأبي، أبي نفسه، لا يخطف عنه في شيء إن لم يثقّ تدهوراً... كلاً ليس تدهوراً... ثمة أمر أجعله... أبي لا يخطئ... غير قابل للخطأ. فوق الشبهات... وعلى أيّ حال فوق الاحتمار.

ما زلت ذاهلاً! ١٩

لا أتصور شيئاً مما قلت!

«لماذا... اضحك وافهم الدنيا، يغني وماذا في الغناء من عيب؟ ويسكر وصدقني أن السكر اللذ من

فأشارت بيدها إلى الأمام، في اتجاه السيد الذي كادت تبتهله الظلمة «هس»، ولكنه كان مشغولاً باستحضار صور عما مر به في بيت الثرس إلى غيخته، رأى أنها متناهية في غرايتها وليها بعثه في نفسه من حيرة لجلب يدها إليه ليعتمد بها عن خديجة وأم حنفي ثم هس متسائلاً وهو يشير إلى الواء:

- أما علمت بما يدور هناك؟

- لماذا تقصّد؟

- نظرت من ثقب الباب.

فانقبض قلب الأم جزعاً لأنها خدمت أيّ باب يعني ولكنها سألته مكلّبة نفسها:

- أيّ باب؟

- باب غرفة العروس!

فقالت المرأة بانزعاج:

- بما له من عيب أن ينظر الإنسان من ثغوب

الأبواب!

فهمس من فوره:

- ما رأيته أعجب!

- اخرس...

- رأيت أبله عائشة وهي خليل يملسان على

الشيزلنج... وهو...

فلكزته في كتفه بشدة حتى أمسك ثم همست في

أذنه:

- يجب أن تحجب عما تقول، لو سمعك أبوك

لقتلك.

ولكنه قال بإصرار وبلهجة من يشعر بأنه يكشف لها

عن حقيقة لا يمكن أن تنصّر هي وقورها:

- كان يتناول ذقتها بيده ويقبلها.

ولكزته مرة أخرى بقسوة لم يمهدها من قبل فأدرك

أنه أخطأ خطأ وهو لا يدري وسكت خائفاً، ولكنه

عندما كانا يقطعان فناء البيت المظلم متأخرين عن بقية

الأسرة - وقد تحلّفت عنهما أم حنفي لتسكّ الباب

وتضيقه وتترسه - ألح عليه ما يكابد من حيرة ورغبة في

الاستطلاع فخرج من صمته وخوفه وسألها بـرجاء:

- لماذا يقبلها يا نينة؟!

أن دهشها لم يقترن بانزعاج كما حدث لفهمي ولا بالم كما حدث لأمها، ولعلها وجدت في قيام أسرة كجيلية من تحتها وتكبدها مشقة النزول إلى مجلس أبيهما لتحية ومهادته شيئاً مثيراً للإعجاب حقاً، ثم شعرت خديجة برغبة غريزية في استطلاع وجه أمها فاسترقت إليها النظر ومع أنها رأته تبتسم إلا أنها تكابد السآ وارتباكاً يتفصان عليها صفوها وأحسّت بضيق وما لبثت أن حثت على العائلة وحرّم المرحوم شوكت والمجلس كله.

ولسّا أزلت ساعة الزفة نسي كلُّ همّه. أسابيع مضت فشهور وصورة عائشة في ثوب الزفاف لا تبرد الأذهان.

\*\*\*

بدت الغورية متلفعة بالظلام والصمت حينما

غادرت الأسرة بيت العروس عائلة إلى النحاسين.

سار السيد أحمد في المقدمة وحده، وتبعه على بعد أمتار

فهمي وياسين الذي أفرغ ما في صمته كما يتالك نفسه

ويتحكم في مشيته أن يجزونه وجهه الزائع من فرط

الشراب، ثم جاءت في المؤخرة أمينة وخديجة وكيال

وأم حنفي، انضم كيال إلى القافلة على رغبة فلولا

الحادي الذي يتقدمها لوجد سبيلاً إلى عصيان يد

والدته وانقلب راجعاً إلى حيث غادروا عائشة، وجعل

لهذا يتلفت بين خطوة وأخرى صوب بوابة المتوكلي

ليودع أسفاً محزوناً آخر ما لاح من مظاهر الفرح،

ذلك المصباح المضيء الذي رقي عامل في سلم خشبي

إليه ليقنعه من مربطه فوق مدخل السجّرية، لشد ما

يقطع قلبه أن ينظر إلى أسرته ليجدها قد تحلّت عن

أحب أفرادها إليه بعد أمّه، ورفع بصره إلى والدته

وسألها هامساً:

- متى تعود أبله عائشة إلينا؟

فأجابته بمثل صوته:

- لا تكرر هذا وادع لها بالسعادة، ستزورنا كثيراً

ونزورها كثيراً.

فهمس مرة أخرى عتفاً:

- ضحككم عليّ!

فألت له بحزم:

- إذا عدت إلى هذا أعبرت والدك!

#### ٤١

ولعلّي أشبه الناس به على وجه التعريب لأني مؤمن  
وأحبّ النسوان وإن قلّ نصبي من الحزم، أنت  
نفسك مؤمن وحازم وتحبّ النسوان، ولكن بينا نحقق  
إيمانك وحزمك إذا بك تنكص عن الثالثة (ثم  
ضاحكاً) والثالثة هي الثانية!

لعلّه نسي عند آخر كلامه باعث الإعجاب الذي  
دفعه إلى الاسترسال فيه، فجاء قوله دفأً عن أبيه في  
الظاهر فقط، أما في الحقيقة فلم يكن إلا تعبيراً عن  
شعور وّجاج حاج به دمه المضمور، عن نشوة جاهة  
ركبته عقب اختطاف الرقباء الذين يجلدهم، شهوة  
أثارها خيال مكهرب بالشراب، فرغب جسمه في  
الحبّ رغبة جنونية عجزت إرادته عن شكهما أو  
ملاحظتهما، ولكن أين يجد مطلبه؟ هل يتسع له  
السوق؟ زنوبة... ماذا يحول بينه  
وبينها؟... طريق قصير، ضجعة قصيرة، ثم يعود  
فيتم نوباً حقيقاً هادئاً، هنّ للأخيلة الغرية هشاشة  
شخص لا عقل له يراجمه فاندفع إلى تحفيها بلا  
تردد، وما لبث أن قال لأخيه:

- اجسّوا حارّ، ساصعد إلى السطح لانتسم هواء  
الليل الرطيب.

وغادر الحجر إلى الدهليز الخارجي، ومضى يبط  
متلصّساً طريقه في ظلمة غاشية، عاذراً غاية الحذر أن  
يندّ عنه صوت. ثرى كيف يستطيع الوصول إلى زنوبة  
في هذه الساعة من الليل؟ هل يطرق الباب؟ ومن  
حسى أن يحني لفتحه؟ وبمّ يجيبه إذا سأله عن  
مقصده؟ وإذا لم يستيقظ أحد لفتح الباب؟ أو إذا جاء  
الخفير ليراقبه بتفقه المروء؟ عامت هذه الخواطر  
على سطح غيّه كالفقاع ثم انداحت غارقة في تيار  
الخمر الجارف فلم يتجهّم لها كعوائق ينبغي تقدير  
عواقبها ولكنّه انبسم لها كدهابات تما قد يؤنس وحشة  
مغامرته، ثم جاوزها خياله طائراً إلى حجرة زنوبة  
المطلّة على مفرق الغوريّة والصنادقيّة فتحيلها في  
قميص النوم الأبيض الشفاف الذي يتقوس مطاوعاً  
فوق الهدبين وحول الردفين وتنحسر حاشيته عن  
ساقين مدملجتين خريّتين فجرت جنونه وودّ لو يثب فوق

أوى ياسين إلى حجرة النوم وهو على حال من  
السكر شديدة، ما كاد يخلو إلى فهمي ويأمن الرقباء -  
سرعان ما غطّ كمال في نومه عقب وضع رأسه على  
المخدة مباشرة - حتى جمحت به رغبة في العريضة كود  
فعل للجهد العصبي الذي بذله طوال السهرة، خاصة  
في طريق العودة، كيما يضبط نفسه ويسطر على  
سلوكه، ولكنّه وجد الحجر أضيق من أن تتسع  
لعرينته فمال إلى التنفيس عن صدره بالكلام فنظر نحو  
فهمي وهو يمزج ملايمه وقال ساخراً:

- لارن بين خبيتنا وبين براعة أينا!... حقاً إنّه  
لرجل...

وعلى رغم ما حرّك هذا الكلام من ألم فهمي  
وحيرته إلا أنّه فتح بأن يقول وهو يرسم على شفّته  
المتعصّتين شبه ابتسامة:

- البركة فيك فأنت نعم الخلف.

- أيجزلك أن يكون والدنا من كبار القناصة؟

- وددت لو تحدّد يد التغيير إلى صورته المائلة في  
نفسى.

فقال ياسين وهو يفرك راحتيه في سرود:

- الصورة الحقيقيّة أبيض وأمتع، أعظم به من أب  
هو المثل الأعلى، أه لو رأيته وهو قابض على السيف  
والكأس بين يديه تزهّر عظام... عظام يا سيد  
أحد!

فتساءل فهمي في حيرة:

- وحزمو وتقواه؟

فقطب ياسين ليركّز فكره في المسألة ولكنّه وجد  
نفسه في حال الجمع بين الأضداد أروح لما من التوفيق  
بينها فقال مدلولاً بالإعجاب وحده:

- ليس ثمة مشكلة على الإطلاق، عقلك الرعدي  
وحده الذي يخلق المشكلة من العدم، أبي حازم ومؤمن  
ويحبّ النسوان، شيء بسيط واضح ١ + ١ = ٢،

لها التي بدأت مع صباه، لم يلتفت إليها قط. بيد أنه كان وتذكلك على حال من الهيجان فقد معها أية قدرة على التمييز فأعته الشهوة، وأين شهوة؟ شهوة مولمة بالمرأة لذاتها لا لمناياتها ولا لألوانها، تعشق الحسن ولا تعزف عن القبح، والكل عندنا في «الأزمات» سواء كالكلب يلتهم بلا تردد ما يصادفه في القمامة، عند ذلك بدت له مغامرته الأولى - زئوة - عفيفة بالمشاهير مجهولة المواقب، ولم يعد «الوصول إليها» في هذه الساحة من الليل، وطرق الباب، وما يقول لفاتحه، والخبير دهابات يسم لها، ولكن عرائق يجدر به أن يتفادى منها. تقدم في خفة وحذر قافراً فله، ذاهلاً عن كل شيء إلا قطار اللحم المنطرح عند قدميه الذي بدأ لعينه التمتين وكأنه أخذ أهبة لاستقباله. حتى توقفت بين الساق القائمة والأخرى الممدودة، ثم انحنى عليها قليلاً قليلاً بلا وعي تقريباً، ووافره شديد من الداخل والخارج معاً، وما يدري إلا وهو ينطح فوقها، لعله لم يتعمد الذهاب إلى هذا الحد لدعة واحدة، ولعله هم بشيء من التمهيد كان لا ينبغي أن يسبق الحركة العنيفة الأخيرة، ولكن الجسم الذي انبطح عليه اضطرب اضطراباً فزع شديدة ونذت عنه صرخة مدوية - سبقت يده التي رامت كتفها - فمزقت السكون الشامل ولطمت عه لطمعة قوية ردت إليه وهيه فأتطبق راحته على لمها وهو يمس في أذنها بقلق وخوف بالغين:

- أنا ياسين، أنا ياسين يا أم حنفي، لا تخافي... وطفق يكرر قوله حتى اطمأن إلى وعيها إياه فاسترد راحته، ولكن المرأة - التي لم تحسك عن المقاومة قط - تمكنت أخيراً من تنحيته عنها، فاستوت جالسة وهي تلهث من الجهد والانفعال ثم سأله بصوت أزعجه أجهأ إزهاج:

- ماذا تريد يا سي ياسين؟

فقال لها بلهجة هاسمة ملؤها الرجاء:

- لا ترفعي صوتك هكذا، قلت لك لا تخافي، ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف بتاتاً...

فعدلت تسأله بجفاء وإن خفضت من صوتها قليلاً:

الدرجات لولا الظلمة الغاشية. خرج - بخروجه إلى الفناء - إلى ظلمة اخفت قليلاً بما نفسته النجوم عليها من أضواء خافتة بيد أنها بدت لعينه اللتين كابدتا ظلمة السلم طويلاً نوراً أو كالتنور. وعندما خطا خطوتين متجهاً إلى الباب الخارجي في آخر الفناء جذب عينه نور ضئيل ينبعث من سراج على وضغ أسام حجرة الفرن فالتقى عليه نظرة لا تخلو من استغراب حتى عثر قريباً على جسم منطرح على الأرض فتنوره على ضوء السراج فعرف أم حنفي التي بدت وكأنها استجبت النوم في الهواء الطلق فراراً من جو حجرة الفرن الخافت. وهم بمواصلة السير ولكن ثمة شيء استوقفه فعطف رأسه مرة أخرى صوب القائمة فامكنه أن يتبينها من موقفه، الذي لم يفصله عنها إلا بضعة أمتار، بوضوح غير منتظر، رآها مستلقية على ظهرها ثانية ساقها اليمنى التي رسمت في الهواء بحافة الجلباب المتصقة بالركبة هزماً قائلاً وكشفت في نفس الوقت عن فخذه اليسرى التي لاحت عارية فيما يلي الركبة ثم شرقت في ظلمة الفرجة التي انحسر عنها الجلباب بين الساق القائمة والأخرى الممدودة مع أن إحساسه بضيئ الوقت وجوب البدار إلى غايته لم يتردد إلا أنه لم يسترد بصره عن الجسم الملقى غير بعيد منه، أو لعله لم يستطع استرداده وأنساق وهو لا يدري إلى تفروسه بإيمان بدا في بقعة عينه المدمرتين وانفراج شففيه المتلتئين، فاستحالت بقعة العين - وهي تنمض الجسم اللحم الذي شغل فراغاً كبيراً كأنه جاموسة مسنة - رغبة مريبة حتى استقر البصر على الفرجة الممتعة ما بين الساق القائمة والساق الممدودة، ثم تحول التيار المضطرب في شرايينه من التطلع صوب باب الخروج إلى حجرة الفرن، وكأنه يكشف لأول مرة المرأة التي خالطها أحياناً طويلة بغير ميالة. على أن أم حنفي لم تحظ ببسمة واحدة من سيات الحسن، وبدا وجهها أكبر من سنها الحقيقية التي لم تكذب تجاوب الأربعين، حتى اكتنازها باللحم والدهن كان - لتنافره وسوء تنسيقه - بالانتفاخ الغليظ أشبه، ولذلك، وديماً أيضاً لطول انزوائها في حجرة الفرن وقدم معاشرة

- ماذا جاء بك؟

نفسها إلا أنه من الخوف والارتباك لم يستطع أن يحرّك ساكنًا، فضاق صدر الأب ولاحظ في عيونه برادر الانفجار لم يجز صائحًا وعيناه - اللتان انكمسا عليهما ضوء المصباح المرتعش بارتعاش اليد القابضة عليه - ترسلان شرًا... .

- اطلع يا جرم يا بن الكلب... .

فما ازداد إلا استمسكًا بجسمه حتى هجم عليه السيد فقبض على ذراعه يمينه وشدّ عليها بغلظة ثم جذب به شدّة نحو الباب فاندفع بقوة الجذبة الحارقة فكاد يقع على وجهه، وتماثل توازنه وهو يلتفت وراءه فرحًا، وفرّ بنفسه وثيًا وهو لا يبالي ظلمة.

#### ٤٢

علم بفضحته ياسين شخصان - غير أبيه وأمّ حنفي - هما ستّ أمينة ولهمي، سمعا صرخة أمّ حنفي، فشاهدوا من نافذتهما ما دار بين الشاب وبين السيد، ثمّ حلما ما هنالك دون حاجة إلى كبير ذكاء، حل أن السيد كاشف زوجه بزلة ابنه وسألها مدققًا عما تعلم من أخلاق وأمّ حنفي، فدألت أمينة عن خادمتها بما علمت من طبيعتها واستقامتها ودكرت السيد بأنّه لولا «صرختها» ما درى أحد بما كان، فقبض الرجل ساحة وهو يسبّ ويلعن، سبّ ياسين، وسبّ نفسه لأنه «ما كان ينبغي أن ينجب أطفالًا ليكذبوا صفوه بأهوالهم الشريرة» واستعاض به الغضب لسبّ البيت وأهله جميعًا... . وظلّت أمينة صامنة كما واصلت صمتها فيها بعد كأنما لم تدب شيئًا، كذلك تجاهل فهمي الأمر كلّهُ، تظاهر بالاستغراق في النوم حين عاد أصوه إلى الحجرة لاحقًا عقب الموقعة الحاسرة، ولم يتدّ منه فيها بعد ما يتمّ عن علمه بشيء، كره أن يعلم الآخر بوقوفه على ما نزل به من ذلّ ومهانة إكرامًا لاحترام يكنه له بصفته أسماء الأكبر، احترام لم يُلهيه كلّ ما تكشّف له من استهتاره وبجونه أو ما تقدّم هو به عليه من علم وثقافة، أو ما يبدو من ياسين نفسه من عدم مبالاة يلزام أحد من إخوته باحترامه بما يعابثهم من مزاح ودعابة، أجل لم يزل

فجعل يرتّب على يدها متوقّدًا وهو يتهدّد في شبه ارتياح لم يتخلّ من عصبية كأنما رأى في خفصتها لصوتها أمارة مشبّعة وقال لها:

- ماذا أغضبك؟ لم أريد بك سوءًا (مبتسمًا ابتسامة وشت بها لبرائته) هلّتي إلى حجرة القرن... .

فقال المرأة بصوت مضطرب ولكنّه ذو دلالة حازمة:

- كلّ يا سيّدي، اذهب إلى حجرتك، اذهب، الله يلعن الشيطان... .

لم تزن أمّ حنفي كليتها بهيوان ولكنّها ندّت عنها كما اقتضى الحال. لعلّها لم تتعب أصلق التعبير عن رغباتها، ولكنّها حرّبت ثمنًا ويغير شعور منها على شدّة المفاجأة، مفاجأة لم تسبق يومًا بتمهيد من أيّ نوع كان، التي انقضّت عليها في نومها كما تنقضّ الحداة على الفرخ، فصلّلت الشابّ وزجرته بلا أدنى تفكير حقيقيّ في الصّد أو الزجر، يتدّ أنّه أساء فهمها فاستلّا حقًا وثارت برأسه الخواطر... . وما العمل مع بنت الكلب هذه لا يمكن أن أتراجع بعد أن كشفت نفسي وتخلّدت إلى حدّ الفضيحة، لا بدّ مما أريد ولو بلغت إلى القوّة وفكر بمجلة في أنجح وسيلة للتخلّب على ما تراءى له من مقاومة ولكنّه - قبل أن يتخذ قرارًا - سمع حركة غريبة، لعلّها أقدام، آتية من باب السلم، فوثب قائمًا وهو من الفزع في نهاية، مزدردًا شهوته كما يسزدد اللصّ نصّّ المساس المسروق إذا بسوخت في مكانه، واستدار صوب الباب ليعلم ما هنالك فرأى والده وهو يجتاز العتبة ماذا ذراعه بالمصباح. تسرّ في مكانه تحطّفت الدم مستسلًا ذاهلًا يائسًا. أدرك من توه أن صرخة أمّ حنفي لم تضع هباء، وأنّ النافذة الخلفيّة لحجرة الأب كانت له بالمرصاد، ولكن ما جدوى الإدراك المتأخّر؟... . لقد وقع في فخّ القضاء والقدر. وجعل السيد يتحرّس في وجهه بقسوة صامتة، مطيلًا الصمت، وهو ينتفض غضبًا، ودون أن يحول عينيه القاسيتين أشار بيده إلى الباب يأمره بالدخول، ومع أنّ الاختفاء كان أحبّ إليه في تلك اللحظة من الحياة



تعرّضت لِهَبةِ هواءٍ عنيفةٍ، وراح يقول لنفسه وهو شاعرٌ بخداه ولو طاولت الشيطان وهجرت البيت لأحدثت تقليدًا خبيثًا لا يليقُ بأسرتنا، مها يقلُّ أبي أو يفعلُ فهو أبي ومهيئات أن نضام حيالِ تأديبه، ثم قال بصراحته التي يصطنعها إذا غلبته روح الدعابة وديثًا من التواضع يا ياسين بك، دعنا من الكرامة وحياء أمك، آتيها أحب إليك كرامة سيادتك أو كونيناك كوستاكي وسرة زُنُوبه. هكذا عدل عن التفكير في مغادرة البيت ولبت بتظار الدهوة المتوقّعة حتّى وقعت فجمع نفسه ومضى كاركًا متوجّسًا، دخل الحجرة خافض الرأس خفيف القدم ويوقف بعيدًا عن مجلس أبيه من غير أن يجرؤ على التسليم عليه، وانتظر. وألقى السيّد عليه نظرة طويلة ثم هز رأسه كالمتعجب وهو يقول:

ـ ما شاء الله... طول وعرض، شارب وقفا، إذا وآك الرائي في الطريق قال لنفسه بعجبٍ ينعم الرجل ونعم الابن، فليت القائل يميء إلى البيت ليراك على حقيقتك!...

ازداد الشاب ارتياكًا وحياءً ولكنّه لم ينس بكلمة ومضى السيّد يتضمّصه بسخط ثم قال بالقتضاب ويلهجة جافّة آمرة:

ـ قرّرت أن تزوّج...!

ودعش ياسين دهشة لم يكد يصدّق معها أذنه، كان يتوقّع سبًا وعلفًا فحسب ولكن لم يخطر له بال أنّه سيسمع قرأًا خطيرًا يغيّر مجرى حياته كلّها فما تمالك أن رفع صوته إلى وجه أبيه حتّى إذا ما التقنا بعينه الزرقاوين الحادّتين خفضها متورّد الوجه لآثًا بالصمت، وطفن السيّد إلى أن ابنه بوغت بهذا القرار «السعيد» بدلًا من المعاملة الفلّكة التي كان يتوقّعها فثار حتفه على الظروف التي أمّلت عليه أن يلقاه بجانب دمت خليف بتكذيب ظنه بجبروته المعروف فيث حتفه في نبرات صوته، وهو يقول عابثًا:

ـ الوقت ضيق وأريد أن أسمع جوابك...

ما دام الرجل قد قرّر أن يزوّجه فهو يأبى إلّا أن يسمع جوابًا واحدًا، ولا مانع من أن يُسمعه الجواب

يكنّ له احترامًا لمحلّ حرصه على الإبقاء عليه راجع إلى ما يأخذ به نفسه من تأديب وجدّ ورزاة أكسبته مظهرًا أكبر من سنّه، بيد أنّ خديجة لم يفتّها أن تلاحظ - غداة الواقعة - أنّ ياسين لم يتناول فطوره على مائدة أبيه فسألته باستغراب عن المانع فأجابها بأنّه لم يهضم عشاء الفرح، وشمرت الفتنة - بسوء ظنّها الطبيعيّ المرفه - بأنّ ثمة علّة لتخلّفه غير عسر الهضم فسألت أمّها ولكنّها لم تجد جوابًا شافيًا، ثمّ رجع كيال من حجرة الطعام وهو يتساءل أيضًا، لا بدافع من حبّ الاستطلاع أو الأسف، ولكن أملًا أن يجد في الجواب ما يبشّره بفترة أخرى يخلو الميدان فيها من منافس خطير كياسين، وكاد الأمر ينسحب لولا أنّ ياسين غادر البيت مساء من غير أن يشترك في مجلس القهوة الممهود، ومع أنّه اعتدل لفهمي والآن بارتباطه بيماد إلّا أنّ خديجة قالت بصراحة «في الأمر شيء»، لست حيطة... انقطع فراحي إن لم يكن ياسين متضيقًا». وعند ذاك اضطّرت الأم أن تعلن غضب السيّد على ياسين لسبب لم تعلمه... وانقضت ساعة وهم يخنّون السبب حتّى أمانة وفهمي اشتراكًا مع الآخرين مداراة للواقع. وظل ياسين على تمهّبه للمائدة أبيه حتّى دُعي ذات صباح إلى مقابلته قبل الفطور. لم تفجّله الدهوة، وإن أزعجته رهم ذلك - فكّم توقّعها يومًا بعد يوم لاسيتقائه من أنّ أباه لا يمكن أن يتنق من زلّته بتلك الجلبة العنيفة التي كادت أن تلقيه على وجهه، وآله لا بدّ عائد إليها بطريق أو بآخر ولعلّه توقّع أيضًا معاملة لن تليق بحال بمولّف مثله ممّا حمله حينًا على التفكير في مغادرة البيت إلى حين أو إلى الأبد. أجل لا يجمل بأبيه - أبيه كما عرفه في بيت زينة خاصّة - أن يلقى زلّته بهذا العنت كلّ، كما لا يجمل به هو أن يعرّض نفسه لمعاملة لا تليق برجولته فالأكرم له أن يفارقه، ولكن إلى أين؟... ليس إلّا أن يعيش حيشة مستغلّة بمرده، ولن يعجزه هذا، بيد أنّه قلب الأمر على مختلف وجوهه، قدّر النفقات وتساءل عمّا يبغى له بعدها للملاّذ: لقهوة سي علي ونحانة كوستاكي وزُنُوبه. هنالك فتر حامسه حتّى انطلقا كما تنظفان شمع سراج

الذي يريد، لا طاعة لأمره فحسب، ولكن تلبية لرغبته هو أيضاً. أجل ما كان والده يعلنه بقراره حتى انطلق خياله يصور له «عروسة» حسنة، امرأة تكون ملك يمينه ورهن إشارته حين يشاء فأبجج الخيال قلبه حتى أوشك أن يفضحه صوته وهو يقول:

- الرأي رأيك يا بابا...

- تريد أن تزوج أو لا؟ ... انطق...

فقال الشاب بحذر من يرغب الزواج وهو غير مستعد له مالياً:

- ما دامت هذه إرادتك فأني موافق على العين

والرأس.

فخفف السيد من خشونة لهجه وهو يقول:

- سأطلب لك كريمة صديقي السيد محمد حقت تاجر الأقمشة بالحمزاوي، لغية ظفرها برقية ثور مثلك.

فابتسم ياسين ابتسامة خفيفة وقال مدهأً:

- ولكني بفضلك أصبح كفتاً لها.

فومقه بنظرة حادة كأنها ليغذ بها إلى أحياق مدهاته وقال:

- من يسمع كلامك لا يتصور فعالك يا منافق...

اغرب عن وجهي...

وهم ياسين بالتحرك ولكنه أوقفه بإشارة من يده ثم تسامد مستتركاً كأنما عرض التساؤل له آنفاً:

- أظنك حوشت المهر؟

لم يجر جواباً وهلاه الارتباك فاغتاض السيد وتسامد مستتركاً:

- ولكنك عشت رغم تولفك في كفائي كما كنت تعيش وأنت تلميذ لماذا صنعت بمرتبك؟

فلم يزد على أن حرك شفثه دون أن ينس فحرك الأب رأسه متعصاً وذكر قوله له منذ هام ونصف وهو يوصيه لمناسبة تولفكه ولو طالبتك الآن بأن تتعهد بتفقات نفسك بوصفك رجلاً مسؤولاً ما عخرقت المألوف بين الآباء والأبناء ولكني لن أطالبك بمليم واحد كي أهنئ لك فرصة لاقتصاد مقدار من المال تجده بين يديك إذا دعت الحاجة إليه» وذل ذلك

التصرف من جانبه على ثقته بابه، والحق أنه لم يتصور أن يفتح أحد من أبنائه - بعدما نال من تأديبه وعيبيه الصارمين - إلى هووى من الأهواء الجساعية التي تبند المال، لم يتصور أن يتقلب ابنه «الصغير» سكيراً ماجناً، فالخمر والنساء التي يراها في حياته هو لوئاً من اللهو لا يمس رجولة ولا يؤذي إنما تتقلب إذا «لوئت» أحداً من أبنائه جريمة لا تغفر، ولذلك فإن زلة الشاب التي كشفها في فناء البيت طمانته بقدر ما أغضبته لأن أم حنفي في نظره لا يمكن أن تغري شاباً إن لم يكن تحمل ما فاق طاقته من الاستقامة والعفة... أجل لم يشك في براعة ابنه يتد أنه ذكر ما لاحظه كثيراً - ولعبه بالأناقة وتحبيرة النفيس من البذل والقمصان وأربطة الرقية وكيف لم يرجع إلى ذلك وحذره الإصراف ولكن تحذيراً هيئاً، إنا لأنه لم ير في الأناقة جريمة، وإنما لأن تشبه ابنه به وتكراره لصورة من صور سلوكه - الذي لا يرى بأساً في أن يكره أبنائه - حركاً في صدره العطف والتسامح، ولكن كيف كانت نتيجة ذلك التسامح؟ وهي ما وضع له الآن من تبذيره نفوقه في التافه من الكماليات. ونفخ الرجل مغنيلاً عحقاً وقال له عتداً:

- اغرب عن وجهي...

غادر ياسين الحجره مغضوباً عليه بسبب تبذيره لا بسبب زلته كما توقع وهو ذاهب إلى الحجره، تبذيره الذي لم يكرهه من قبل فسلم إليه نفسه بلا تفكير ولا تدبر، ينفق ما في جيبه حتى يفرغ غارقاً في ساعته، بتعامياً صاً يستقيل «المستقبل» كأنه شيء لا وجود له، ومع أنه غادر الحجره مرتبكاً وجلاً لنهره أبيه إلا أنه لم يخلل من ارتياح صميم إذ أدرك أن تلك النهره لا تعني طرده فحسب ولكن أيضاً أن السيد سيتكفل بتفقات زواجه، ومضى كالطفل الذي يضيئ أبوه بإلحاحه في طلب قرش فيبتدعه إليه ويدفعه خارجاً فينسى شدة الدفعة في فرحة الظفر، ولبث الأب ساعطاً راح يرتد «يا له من حيوان، جسم طويل عريض ولكن بلا مخ» أغضبه إصراره كأنه لم يتخذ هو من الإصراف شعاعاً في الحياة - ولكنه لا يرى بأساً في إصراره كسائر أهواؤه - ما

تتغير في الواقع بتغير الأحوال وإن عمل من جانبه على ألا يفطن أحد إلى نية التغير الباطنة ثم قال: «الحق أني لا أقبل أن أمُد يدي الآن على ياسين ولا حتى على فهمي، والحق أني جنبت ياسين تلك الجلبة تحت تأثير غضب ثائر ومن غير أن أقدر للمدى الذي ذهبت إليه ثم استورد قائلاً وهو يكرّ إلى فترة من الماضي البعيد وكان أبي رحمة الله عليه يلتزم في تربيتي شدةً تهون إلى جانبها شدةً مع أبنائي ولكنه سرعان ما غيّر من معاملته لي منذ أن دعاني إلى معاونته في الدكان، ثم استحالت معاملته صداقةً أبويةً منذ تزوجت أم ياسين، وقد بلغ بي الاعتزاز بالنفس أن عارضت في زواجه الأخير لكبره من ناحية وحدانية سنّ العروس من ناحية أخرى فلم يزد على أن قال لي: «أعراضي يا ثور... وما دخلك في هذا الشأن؟ إني أقدر منك على إرضاء أمه امرأة» فما تماكنت أن ضحك وتليت خاطره معتزلاً ذكر هذا كله فورد على ذهنه المثل القائل «إذا كبر ابنك أجهه» فشر - ربما لأول مرة في حياته - بتقيد مهمة الأبوة كما لم يشعر بها من قبل. في نفس الأسبوع أذاعت الأم خطبة ياسين في مجلس القهوة، كان فهمي قد علم بها عن طريق ياسين نفسه، أمّا خديجة فما تماكنت أن ربطت بين الخطبة وبين ما عرف من قبل عن غضب الأب على ياسين ظلماً منها أن الغضب إنما وقع نتيجة لرغبة ياسين في الزواج قياساً على ما كان بين الأب وفهمي للسبب نفسه فصرحت برأيها كالمسائلة فقال ياسين ضاحكاً وهو يخطف من الأم نظرة لا تخلو من حياء وإرتباك:

- الحق أن ثمة علامة قوية بين الغضب وبين الخطبة...

فصالت خديجة متظاهرة بالاستكثار على سبيل السخرية والمزاح:

- بابا معلوم في غضبه لأن حضرتك لا يمكن أن تشره أمام صديق كبير مثل السيد محمد عفت...

فجارها ياسين في سخريتها قائلاً:

- وسوف يزداد موقف أبي حرجاً إذا ما علم السيد الكبير المذكور أن للعريس أختاً مثل حضرتك!

دام لا يفقره وينسبه واجباته أو يدهور شخصيته، ولكن كيف يضمن أن يصمد أمامه ياسين؟... فلم يكن يحرم عليه ما يحلّ لنفسه من استبداد وأنانية فحسب ولكن شغفاً عليه وإن دلّ شغفه هذا على ثقة بالنفس وعدم ثقة بالأخر لا يخلوان من غرور. وزايله الغضب كعادته، بنفس السرعة التي ركبها، فصفت نفسه وانبسط أساريه وأخلت الأمور تتبّنى له بوجه جديد لطيف مساح... «تريد أن تشبه بأبيك يا ثور... إذن لا تأخذ جانباً ويحمل الجوانب الأخرى، كن أحمد عبد الجواد كله إن استطعت أو فالزم حدودك، أحسبتي حقاً سخطت على تديرك لآني كنت أرجو أن أزورك بنفوك؟ خست... إنما رجوت أن أجسك مقصداً كي أزورك بنفوكي على وفرة النقود لديك، هذا هو الرجاء الذي غيّبت. وهل حسبتي لم أفكر في اختيار زوجة لك إلا بعد ضبطك مثلياً بالزنا، وأيّ زناً... زناً حقير كحقارة ذوقك وذوق أمك؟ كلا يا بطل إني أفكر في سعادتك منذ تولّقت، كيف لا وأنت أول من جعلني أباً... وأنت شريك في المذاب السلي أضمننا إياه أمك اللعينة؟... ثم أليس من حقّي أن أفرح بك خصوصاً وأنه عليّ أن أنتظر طويلاً حتى أفرح بالثور الآخر أخيك أسير المشق وبأثرى من يعيش؟... في اللحظة التالية استرجع ذكرى ذات سبب وثيق بموقفه الراهن ذكر كيف قصّ على السيد محمد عفت «جرمة» ياسين وما كان من زجره وجلبه تلك الجلبة التي كادت تلبيه على وجهه وهو يصدد طلب يد كرمته للشباب - الواقع أن الموافقة على ذلك تمت بين الرجلين من قبل مفاغة ياسين - وكيف قال له الرجل «ألا ترى أنه يعمل بك أن تغيّر من معاملتك لابنك كلياً قارب سنّ الرشيد خاصة إذا تولّقت وصار رجلاً مسؤولاً؟ (ثم ضاحكاً) الظاهر أنك من الآباء اللين لا يرتدون حتى يجهز أبناؤهم بالثورة عليهم». وكيف أجابه بثقة قائلاً: «هيهات أن تمرّض الرابطة بيني وبين أبنائي لتغيّر الزمن» صدرت عنه الإجابة الأخيرة بجاهة وثقة لا حدّ لها، على أنه اعترض له بعد ذلك أن معاملته

عند ذلك تسامد كمال :

- هل سيتركنا ياسين كما تركتنا أبله عائشة؟

ف قالت له أمه باسمه:

- كلا ولكن سنتنضم إلى بيتنا أخت جديدة هي

العروس...

ارتاح كمال إلى هذه الإجابة التي لم يكن يتوقعها، ارتاح إلى بقاء «روايته» الذي يمتعه بحكاياته ونوادره ومؤانسته ولكنه عاد يتساءل لماذا لم تبق عائشة أيضاً؟ فاجابته أمه بأن العادة قضت بأن العروس تنتقل إلى بيت العريس وليس العكس، لم يلد من سرّ هذه العادة وكم غمّي لو كان العكس هو المتبع ولو بضحي ياسين ولطائفه. بيد أنه لم يستطع أن يجهز برغبته فافصح عنها بنظرة ناطقة رنا بها إلى أمه، فهمي وحده الذي أثار الحبر أشجانه لا لأنه لم يشارك ياسين فرحته ولكن لأن سيرة الزواج غدا شأنها أن توظف عاطفته وتستثير حزنه كما تستثير سيرة النهر حزن أم فقدت ابنها... في موقعة ظافرة...

#### ٤٣

تحرك الحنطور مقلداً الأم وخديجة وكمال في طريقه إلى السكّرية. أهنكون زواج عائشة إلهاداً بمعد جديد من الحرية؟ أيقدر لهم أخيراً أن يطلعوا على نور الدنيا من حين لآخر وأن يتنقّسوا هواءها الطليق؟ بيد أنّ أمينة لم تستسلم للساؤل أو تسبق الحوادث، فالسلي حرّم عليها زيارة أمها فيما ندر قادر على أن يجرّم عليها زيارة ابنتها كذلك. ولم تنس أمه مضت أيام كثيرة على زواج الفتاة زارها خلالها الأب وياسين ولهمي وحقي أم حنفي دون أن يؤذن لها هي بزيارتها أو تواتبها شجاعته على الاستئذان للزيارة، تحرّزت من تذكيره بأن لها ابنة في السكّرية يجب أن تراها، ولازمت الصمت وإن لم تريح صورة الصغيرة مخيلتها، حل أنه لئلا ضاقت صدرها بالأم التصبّر استجمعت إرادتها وسألته:

- إن شاء الله يكون سيدي عازماً على زيارة عائشة قريباً لنطمئن عليها؟...

فطن السيد إلى ما وراء السؤال من رغبة خفية فحقق عليها، لا لأنه كان قرّر أن يحول بينها وبين زيارة عائشة، ولكن لأنه وء- كشأنه في مثل هذه الحالة- أن يصدر السياح منه منحة غير مسبقة بطلب أن تقوم بنفسها شهية بأن طلبها ذو أثر في استصدار السياح، ففكرة أن تسمى إلى تذكيره بهذا السؤال الماكر، ومن قبل فكر في الأمر بضيق فاحقته أن يجده ضرورة لا يحصى منها، ولذلك هض بها حانقاً:

- عائشة في بيت زوجها ولا حاجة بها إلى أحد مثلاً، على أنني زرتها كما زارها أنخواها فإذا بقلبك عليها؟ غاص قلبها في صدرها وجفّ ريقها بأساً وقهراً، أمّا السيد فقد تعمّد أن يلزم الصمت كأنه انتهى من الأمر كله معاقبة لها على ما عدّه مكرّاً منها لا بغضب، ثمّ أمهلها طوال الوقت وهو ينتقل النظر إلى ما شفي أسارىها من كمد، حتى حان وقت انصرافه إلى عمله فقال لها بجفاء واقتضاب:

- اذهبي غداً إلى زيارتها...!

تدافع دم الانشراح إلى الوجه السلي لا تخفي بصفحة خالية لهدت في سرور الطفل لها عثم أن عاوده حنقه فصاح بها:

- لن تترى بعد ذلك إلا إذا سمح لها زوجها بزيارتنا...!

فلم تملّ على قوله بكلمة ولكنها لم تنس عهداً حمله وهي تشاور خديجة في مفاصله فقالت بعد تردد وإشفاق:

- هل يسمح سيدي بأن آخذ معي خديجة؟ فهزّ رأسه كأنما يقول وما شاء الله... ما شاء الله... ثم قال لها محتثاً:

- طيباً... طيباً... ما دمت قد قبلت أن أزوج ابنتي فيجب أن تنضمّ أسرني إلى أبناء الشوارع!... غلبها، ربّنا يأخذكم جميعاً...

تمّ لها فوق ما طمع من السرور فلم تُلقِ بالاً إلى الدعا الأخير الذي ألفت سماعه... وأكثر- في أوقات غضبه أو تظاهره بالغضب على السواء- كانت تعلم بأنّه من طرف لسانه وآنه أبعد ما يكون من قلبه، مثله

أُمّها وأختها وهو على ذلك الوضع

بدت عائشة سيدة كلّ السادة بنفسها وبحياتها الجديدة وزيارة أهلها، حدّثهم عن زيارات أبيها وياسين وفهمي، وكيف غلبها الشوق إليهم على خوفها من أبيها فواتها الجراحة على أن ترجعه بالسباح لهم بزيارتها... قالت ولا أدري كيف طاوطني لساني حتى تكلمت! لعلّ مظهره الجديد الذي لم يترأّ في به من قبل هو الذي شجّعني، بدا لطيفاً وديماً باسماً، إي والله باسماً، على أنّي تركّضت رغم ذلك طويلاً، خفت أن يتقلب فجأة فيتمهني، ثمّ تركّضت على الله ونطقت: «فأنتها أُمّها عن رقه كيف كان فقالت وقال لي بالقضاب: إن شاء الله، ثمّ استطرد مسرعاً بلهجة جليّة تنمّ عن تحذير: ولكن لا تنظي المسألة لعباً فكلّ شيء بحساب. فسحق قلبي ورحمت أدمه له طويلاً تركّضاً واسترضاءه، ثمّ رجعت إلى الوراء قليلاً فوصفت حالها عندما قيل لها «السّد الكبير في حجرة الاستقبال» قالت «ركضت إلى الحِمام فسلّمت وجهي لأزبل كلّ أثر للمساحيق حتى تساهل سي خليل همّاً يدهو إلى ذلك كلّه ولكنّي قلت له: أدركني، لا أستطيع أن ألقاه بفستان صينيّ يكشف عن ذراعي! ولم أبرح موضعي حتى تلعّعت بشال كشميريّ!»، ثمّ قالت «ولمّا علمت نية... (ضاحكة) أهني نية الجديدة... كما فعّض عليها سي خليل ما جرى فسحكت وقالت له: إلى أحرف السّد أحد تمام المعرفة... هو هذا وأكثر (ثمّ ملتفتة إليّ) ولكن أعلّمي يا شوشو أنّك لم تعود من آل حيد الجواد، أنت الآن شوكيّة فلا تسالي الآخرين...». أصاب منظرها البهيح وحديثها من نفوسهم موضع الحبّ والإعجاب فحملت كمال فيها كما فعل في ليلة الزفاف وتساءل محتجاً فلماذا لم تكوني تبدين هكذا وأنت في بيتنا؟! فأجابته على الفور ضاحكة «لم أكن وقت ذاك شوكيّة» حتى خديجة رافقتها بعين الحبّ. انقطعت بزواج الفتاة دواعي الملاحظة التي كانت تنشب بينها بسبب الاختلاط، ومن ناحية أخرى لم يبقَ من الإحساس بالحق الذي ركبها عند السباح بزواج الفتاة قبلها إلّا أثر باهت ممّكته «بختها» من دون

كمثل القلعة تبدو، حين تحمل صغارها، وكأنّها تلتهمها. تحقّق الرجاء وانطلقت العربية بهم في طريقها إلى السكّريّة. بدا كمال، لزيارة عائشة وخروجه بصحبة أمّه وأخته وزكويه الحنطور، أوفر الثلاثة سروراً، وكأنّه لم يستطع كتمان فرحه أو أنّه رغب في إعلانه على الملأ أو لعله أراد لفت الأنظار إلى شخصه وهو يتخذ مجلسه في الحنطور بين أمّه وأخته فيما اقتربت العربية من دكان عمّ حسين الحلاق حتى وقف بنته هاتفاً «ها عمّ حسين... انظروا! فنظر الرجل إليه ولمّا لم يجد وجهه غصّ بصره في عجلة مبتسماً فذابت الأمّ خجلاً وارتباكاً وجلبته من طرف جاكته أن يعيد الكرة أمام الدكاكين التالية وراحت تؤنّبه على فعلته «الجنونيّة». بدا بيت السكّريّة - وليس كذلك بدا في حلة الأنوار ليلة الفرح - عتيقاً هزماً ولكنّ ذلك عطفه نفسه فضلاً عن ضخامة بنيانه ونفاسه أثلّاه على السوّد والجاه، قال شوكت أسرة «قديمة» وإن لم يبق لهم من عزّة القدم - خاصّة بعد توزيع الثروة بالتوارث والاستكبار على التعليم - إلّا الاسم، وقد أقلمت العروس بالدور الثاني على حين نزلت حرم المرحوم شوكت - ومعها ابنتها الأكبر إبراهيم - الدور الأوّل لمعجزها مع الكبر عن ارتقاء السّم فبقي دور ثالث شاغراً لم يسمهم أن يشغلوه وإبوا أن يسكنوه. وكما ادخلوا شقة عائشة همّ كمال، متطلّفاً مع سجيّته كما لو كان في بيته، يهوس خلاها كي يعثر بنفسه على أخته مستمتّاً بلذّة المفاجأة التي تخيلها وهو يرقى في السّم ولكنّ أمّه لم تدعه يفلت من يدها رغم مقلومته وما يدري إلّا والخادم تقودهم إلى حجرة الاستقبال ثمّ تركهم وحدهم! شعر بأنهم يعملون معاملة «الغريباء» أو «الضيوف» فانقبض صدره وانكسرت نفسه وجعل يردّد في جزم «أين عائشة؟... لماذا تبقى هنا؟ فلا يسمح إلّا كلمة «هس» ويخجلوا من منته من الزيارة مرّة أخرى إذا خلا صوته!... ولكنّه سرعان ما زابله الألم حين جاءت عائشة مهولة مشرقة الوجهة بابتسامة غطّى سناها على أضواء حلتها الزاوية وزيّنتها الباهرة فجرى نحوها وتعلّق بمنقها، فتبولد التسليم بينها وبين

وإذا بخليل شوكت يدخل ضاحكاً وهو يرسل  
 بجسمه الرينة في جلباب حرير أبيض. كان ذا وجه  
 بيضاويّ ممثليّ؟ أبيض البشرة في عينيه جحوظ خفيف  
 وفي شفثيه غلظة، أمّا رأسه الكبير فينتهي بجبين ضيق  
 يفترق عند قمته شعر أسود كثيف يشبه في لونه  
 وتسريحته شعر السيّد، تلوح في عينيه نظرة طيبة ودخول  
 لملها أثر للراحة والفراغ والرضى. انحنى على يد الأم  
 ليقبّلها فجلبتها بسرعة في خجل وارتباك وهي تتمتم  
 شاكراً ثمّ سلّم على خديجة وكال وجلس وكأنّه - على  
 حدّ تعبير كمال فيها بعد - واحد منهم. وانتهاز الغلام  
 فرصة تشاغل العريس بتحديثهم وتفرّس في وجهه  
 طويلاً، ذاك الوجه الغريب أصلاً الذي برز في محيط  
 حياتهم ليحتل مكاناً مرموياً يؤقّله لأن يكون أقرب  
 الأقرباء أو بالأحرى أن يكون قريباً لوجه عائشة، كلّما  
 خطر هذا على باله جرّ وراءه ذاك كما يجرّ الأبيض  
 الأسود. تفرّس فيه طويلاً وهو يردّد في نفسه قوله  
 المثلث ثقة ولن تعود إليكم يا سيّ كمال، فوجد نحوه  
 إنكاراً ونفورا وحقدًا وكادت تتسكّن من قلبه لولا أن  
 قام الرجل فجأة ومضى إلى الخارج ثمّ عاد حاملاً  
 صينية فضيّة ملئت حلوى من مختلف الألوان فقدم له  
 بأسباً - وإن كشف افتقار ثغره عن بيتين ركب  
 إحداها الأخرى - نخبة من أشهى الأصناف، وجاءت  
 حرم المرحوم شوكت معتمدة على ذراع رجل استدّلوا  
 بمشابهته خليل على أنّه أخوه الأكبر، ثمّ وكّد استدلالهم  
 لتقديم الأرملة بقولها لإبراهيم ابني... ألم تعرفوه  
 بعد؟! وعندما لاحظت ارتباك أمينة وخديجة حال  
 التسليم قالت باسمه «نحن كالأسرة الواحدة من قديم  
 الزمان ولكن بعضنا يرى البعض الآخر الساعة لأوّل  
 مرّة... لا بأس...! فطنت أمينة إلى أنّ المرأة  
 تشجعها وتبرّون عليها الأمر فابتسمت، ولكن ساورها  
 شيء من القلق وتساءلت: تُرى هل يوافق السيّد على  
 مقابلتها لهذا الرجل - وإن عدّ عضواً جديداً في  
 الأسرة كخليل سواء بسواء - بغير نقاب؟... وهل  
 تكاشفه بالمقابلة أو تتحاشى ذكرها إثاراً للسلمة؟...  
 كان إبراهيم وخليل أشبه بالتوأمين لولا فارق

الفناء، فلم يعد ينطوي قلبها إلّا على الحبّ والشوق،  
 لشدّ ما تفتقداه كلّما أنست من نفسها حاجة إلى أنيس  
 تغضي إليه بذات نفسها. ثمّ تحدّثت عائشة عن البيت  
 الجديد، عن المشريّة التي تطلّ على بوابة التوتلي،  
 والمآذن التي تتطّلع من قرب، وتيّار السائلة الذي لا  
 ينقطع. كلّ شيء حولها يذكّرها بالبيت القديم وما  
 يكتنفه من سبل وأبنية فلا اختلاف فيما عدا الأسماء  
 وبعض المعالم الثابتة «ولكن على فكرة البوابة العظيمة  
 لا نظير لها عندكم (ثمّ بشيء من الفتور) وإن كان  
 المحمل لا يبرّح تحتها كما أخبرني سيّ خليل!» وواصلت  
 حديثها ونحت المشريّة مباشرة مجلس يضمّ ثلاثة لا  
 يفارقونه قبل جثوم الليل: شحاذ كسيح وبائع مراكيب  
 وضارب رمل، أولئك جيران الجدد، إلّا أنّ ضارب  
 الرمل أسعدهم خطاً، لا تسألوا عن أفواج النساء  
 والرجال اللذين يجلسون القرفصاء أمامه مستخبرين من  
 طوالمهم، كم وددت لو كانت مشريّة أوطاً كيما  
 أسمع ما يقول لهم، وألّا منظر، منظر سوارس القادمة  
 من الدروب الأحمر إذا تقابلت مع حربة حجارة قادمة  
 من الغوريّة فضاق عنها مدخل البوابة وركب كلّ  
 سائق رأسه متحدّياً الآخر أن يتراجع ليفسح السيل،  
 يبدأ الكلام لئلاّ بعض اللين فيحة، ثمّ يخشوش، ثمّ  
 عهد الخناجر بالسباب والشتائم، ونحيي في أثناء ذلك  
 عربات كارو وعربات يد فيفصّ بها الطريق ولا يدري  
 أحد كيف يعود الحال إلى ما كان عليه، هنالك ألف  
 وراء الخصائص أكتمت الضحك وأتأمل الوجوه والمناظر  
 وما أشبه فناء البيت الجديد بفناء بيتهم، حجرة الفرن  
 والمخزن وحمايتا سيّكة الفناء والجارية سويدان ولا أجد  
 لي عملاً فلا أذكر المطبخ حتّى تحمل إليّ صينيّة الطعام  
 وعند ذاك لم تتمالك خديجة نفسها من أن تفضح قائلة  
 «نلت ما طالما تمثّيت!» لم يجد كمال في الحديث شيئاً ذا  
 بال إلّا أنّه أحسن في نعمته العامّة بما يوحي «باستقراره»  
 المتحدّثة فدخاله الانزعاج وسألها:

- ألن تعودي إلينا؟...

فملا الحجرة صوت يقول:

- لن تعود إليكم يا سيّ كمال...

فانتقل إلى جوار العروس وأبدي لها إشارة فهمت منها أنه يريد أن يخلو بها فقامت وأخذته من يده وغادرا الحجرة، فظنه قائمًا بجالسها في الصلاة ولكنه جذبها من يدها إلى حجرة النوم وود الباب وراها حتى أوتج. انطلقت أساريره وعلت صوته، وتطلع إليها طويلاً ثم تصفح الحجرة ركناً وركناً وهو يتشمم رائحة الأثاث الجديد مزاجها أريج زكي لعلمه بقية مما انتشر من أيدي المتطهين وصدورهم، ثم رنا إلى الفراش الوثير، إلى النمرتين الورديتين المتجاورتين على الغطاء فوق الوسائد وسألها وما هما؟ فأجابته «وسادتان صغيرتان» فسألها «أنتوسدينها؟» قالت باسمه وكلاهما للزينة فقط، فأشار إلى الفراش بمسائل «أين تنامين؟» فأجابته باسمه أيضاً «في الداخل» فسألها كأنه متأكد من أنه ينام معها «وسي خليل؟» فأجابته وهي تقرر صوته بوقفة «في الخارج...» عند ذلك التفت صوب «الشيزنج» بغرابة، وسار إليه وجلس، ودعاها إلى الجلوس جنبه فجلست، وما لبث أن غاب في الذكريات غائبا بصره لخيافي نظرة مريبة وصمها بالريبة اشتداد أنه بالحلمة عليه مساء ليلة الزفاف وهو يسر إليها بما رأى من ثقب الباب، وأودته نفسه على أن يروح لها بسر، أن يسألها عنه، تحت ضغط إغراء لا يخلو من قسوة، ولكن الرجل الناجم من الشعور بالريبة عقله فشكك رغبته على رغبته، ثم رجع إليها حينين صافيتين وأبتسم إليها، فابتسمت إليه وسالت نحوه ففعلت، ثم غضبت قائلة وعلو وجهها ابتسامة حلوة:

.. لاملأ جويك بالشيكولاتة...

#### ٤٤

تصايح الغلمان المتجهرون أمام البيت وعلى طوار سبيل بين القصرين مهللين، تميز صوت كمال وهو يتف «هلت سيارة العروس» وردها ثلاثاً فخرج ياسين - وهو في كامل زينة وأبته - من بين الجساعة الواقعة عند مدخل الفناء ومضى إلى الطريق فوقف أمام البيت متجهاً صوب النحاصين فرأى موكب

الس، على أن اختلافها بدا أقل من القليل بالقياس إلى اختلاف صبرها، والحق أنه لولا قصر شعر إبراهيم، ولولا شاربه المفتول، لما كان ثمة ما يميزه عن خليل، كأنه لم يبلغ الأربعين، أو كأن شبايه ومظهره لا يثارتان بمرور الأعوام، لذلك ذكرت أمينة ما حدثها به السيد مرة عن المرحوم شوكت من أنه «كان يبدو أقل من عمره الحقيقي بعشرين عاماً أو يزيد» أو قوله عنه «إنه رغم طيبته ونبله كان كالحوان لا يسمح لفكره أبداً بأن ينقص عليه صفوه»، اليس عجيباً أن يبدو إبراهيم في الثلاثين مع أنه تزوج في صغر شبابه وأنجب طفولين ثم ماتت زوجته وعطلاه؟ ولكنه مرق من تجرته القاسية سالماً لم يمس، ثم عاود الحياة مع أنه في محول ودعه وفراغ شأن آل شوكت جميعاً، راق خديجة أن تسترق النظر - كلها أمنت أعين الرقيب إلى الشقيقتين، إلى أوجه الشبه العجيبة بينهما، بوضاوة الوجه وامتلأه، جمحوظ المينين الواسعتين، البدانة، الحمول، فحرك كل أولئك السخرية الكامنة في نفسها حتى ضحككت ألكارها ومضت تدخر في ذاكرتها من الصور ما تعود إليه إذا ضمها مجلس القهوة ومالت جرياً على مستها في التهمك إلى العبث والإضحك، وإلى هذا فكرت باهتمام في اختيار اسم وصفتي هائب لها على مثال الأسماء الوصفية التي تطلقها على ضحاياها من الناس أو بالأحرى أسوة بلمها التي تطلق عليها والمذلل الرشاش لتناثر ريقها عند الحديث. واسترقت مرة نظرة إلى إبراهيم فيما راعها إلا أن تلتفي عينها بعينه الواسعتين وهما تنفرسان في وجهها باهتمام من تحت حاجبيه الكثيفين ففقت بصرها في حياء وارتباك، وتساملت في خوف المريب عما عسى أن يظنه بنظرها، ثم وجدت نفسها تفكر بقلق في منظرها وما يمكن أن يتركه في نفسه من أثر. ثرى أسخر من أنفها كما سخرت من بدائنه وحلوله؟... واستغرقها التأمل والقلق...

سثم كمال الجلسة التي وإن تكن جمته بعاشة إلا أنها جمته بها على نحو ما تجمع بين الضيوف فلم تتحقق - عدا ما منحت من حلولى - شيئاً من رغباه،

فقطعا الفناء بين صقّين من المتظرّين يتبعهما المدحورات من آله اللواتي تعالت زغاريدهنّ كأنّهنّ لا يباليين السيّد أحد وقيامه على خراج منهنّ، هكذا لعلّت الزغاريد في البيت الصامت لأوّل مرّة وعلم مسمع من سيّده الجبار فلعلمها وقعت من أذان أهله موقع الدعشة، تيّد أنّها دعشة مزجت بالفرح ولم تحلّ من شناعة بريئة مرحة وروّحت بها القلوب عن قرار الحظر الصارم الذي قضى بالألّا تكون زغاريد ولا غناء ولا هو، وبأنّ تمضي ليلة زفاف الابن البكر كما تمضي غيرها من الليالي. وتبادلّت أمانة وتحدّيجة وعائشة النظرات متسائلات بأسيات وتكأكان على خصائص نائلة مطلة على الفناء ليشهدن أثر الزغاريد في نفس السيّد فرأينه يحدث السيّد عمّد عمت ضاحكا فتتممت أمانة قائلة: ولن يسمعه الليلة إلّا أن يضحك معها يبدو ممّا لا يروقه! وانتهزت ثمّ حثي الفرصة السانحة فاندست بين المزغردات كالبرميل وأطلقت زغرودة قويّة مجلجلة غطّت على الزغاريد كلّها وعوّضت بها ما ضيّعت. في ظلّ الإرهاب. من فرص المرح والمرّة على عهد خطيبي عائشة ياسين، وأقبلت على سيّداتها الثلاث وهي تزفرد حتّى استغرقن في الضحك، ثمّ قالت هنّ «زغردن ولو مرّة في العمر... إلّاه لن يدري الليلة من المزغردات!»، رجع ياسين بعد إصباح العروس إلى باب الحرم فالتقى بفهمي الذي لاحظ على شفّته ابتسامة موحية بالحرج والإشفاق لعلّها أثر ممّا خلّفته في نفسه هذه الضجّة البهيجة «المحرّمة»، وكان يخالس أباه النظر ثمّ يركّض إلى وجه أخيه ضاحكا ضحكة مقتضبة مغضوضة، فما كان من ياسين إلّا أن قال له بلهجة لا تخلو من استياء:

- أيّ استنكار في أن نحمل ليلة الزفاف بالفرح والزغاريد؟... وماذا كان عليه لو وافق على استدعاء عالة أو مغرّ؟!

تلك كانت رغبة الأسرة التي لم تجد إلى الإلصاح عنها من سبيل إلّا أن تحرّض ياسين على الاستشفاع بالسيّد عمّد عمت على أبيه، ولكنّ السيّد اعتدل وأبى إلّا أن تكون ليلة زفاف صامتة وأن تقتصر مسرّاتها على

العروس وهو يتقدّم حل مهل كأنه يتختر. في تلك الساعة الحافلة بالسعادة والرهبة على رغم الأعين المحفلة فيه من داخل البيت وخارجه ومن فوق ومن تحت، بدا ثابتا غير هيّاب مفعيا رجولة وفحولة، لعلّ ممّا أهّده في ثباته إحساسه بأنّه عمّد الأنظار فغالب بشجاعة ما يخفق بين جوانحه من اضطراب أن يبدو للناظرين في حال تخجل منها الرجولة، ولعلّه أيضا علم بأنّ أباه منكمش في مؤخّرة الجماعاة المنتظرة عند مدخل الفناء. التي تضمّ آل العروسين من الذكور. بحيث لا يمتدّ إليه عيناه، فوسعه أن يتألك نفسه وهو يرنو إلى السيّارة المرفّعة بالورود التي تحمل إليه عروسه يل روجه منذ أكثر من شهر وإن لم تقع عيناه عليها بعد، أو الأمل الذي صاغه بأحلامه الظالمة لسعادة لا تقع بما دون الدوام. وتوقّفت السيّارة أمام البيت على رأس ذيل طويل من السيّارات فاعلذ أهبه للاستقبال السعيد وقد استجدّت عنده الرغبة في أن يستشفّ الثقاب الحريّريّ ليرى وجه عروسه لأوّل مرّة، ثمّ فصع باب السيّارة وترجّلت جارية سوداء في الأربعين قويّة البنية لسمّاة البشرة نجلاء العينين فاستدلّ بما يلوح على حركاتها من الثقة والإدلال على أنّها الجارية التي تقرّر إلحاقها بخدمة العروس في بيتها الجديد، تنعت جاتيا ووقفت مستعبدة القائمة كالديبدان ثمّ خاطبته بصوت كرنين النحاس وهي تبتسم من أسنان ناصعة البياض قائلة:

- تفضّل خذ عروسك...

تقدّم ياسين من باب السيّارة ومال إلى الداخل قليلا فرأى العروس في حلتها البيضاء بين خادتين على حين استقبله حرف طيّب مفتحة للجوارح فناه في جوار الحسن منيها، ومدّ لها ذراعه لا يكاد يرى شيئا كما يكلّ بصر طالع نورًا ساطعا، وحفل الحياء العروس فلم تجب حراكا فتطوّعت التي إلى يمينها فتناولت يدها وطرحتها على ذراعه هامسة بنبرة ضاحكة:

- تشجعي يا زينب...

دخلا جنبًا جنب وهي من الحياء تحول بينه وبينها بمروحة كبيرة من ريش النعام وارت بها رأسها وعنفها



- هات ما عندك ولا تحنّ!

- رأيتهما تخرج منديلًا ثمّ تمسّط!

والتوت شفتاه تقزّزًا كأنّما كبر عليه أن تدّ الفعلة  
عن هروس في زيّق فتفتها، فما تمالك ياسين أن ضحك  
قائلًا:

- لحذّ هنا حال، ربّنا يجعل المواقب سليمة!

ألقى نظرة كثية على الفناء الخالي إلّا من الطاهي  
وصيانه، وبعض الأولاد والبنات فتخلّ ما كان ينبغي  
أن يوجد من معالم الزينة وسراقط الطرق ويجلس  
المدحّون، من قضيّ بهذا؟... أبيه!... الرجل  
الذي يفوح عرقه بللمجون والعريضة والطرب...  
أعجب به من رجل يجلّ لنفسه اللهو الحرام ويمزّم على  
بيته اللهو الحلال، وراح يتخلّل مجلس السيّد كما رآه  
في حجرة زبيدة بين الكأس والعود فما يدري إلّا وقد  
وثبت إلى ذهنه فكرة غريبة لم تخطر له من قبل على  
شكّ وضوحها فيما رأى، تلك هي التشابه بين طبعي  
أبيه وأمه! طيبة واحدة في شهواتها وجربها وراء  
اللذّة في استهتار لا يقيم وزنًا للتقاليد، ولعلّ أمّه لو  
كانت رجلًا لما قصّرت عن أبيه في اللهج بالشراب  
والطرب أيضًا! لذلك انقطع ما بينهما - أبيه وأمه -  
سريًا، فما كان لظه أن يطيق مظهرها وما كان لملها أن  
تطيق مثله، بل ما كانت الحياة الزوجيّة تستقيم له  
لولا وقوعه على زوجته الراحنة! ثمّ فباحكًا ضحكة لم  
يتح لها روعه من هذه «الفكرة الغريبة» رويًا من  
السرو وعرفت الآن من أكون، لست إلّا ابن هذين  
الشهواتين، وما كان لي أن أكون خير ما كنت! في  
اللحظة التالية تساءل ثرى ألم يخطئه الصواب عند  
إغفال دعوة أمّه إلى زفافه؟! تساءل رغم إصراره على  
الاعتقاد بأنّه لم ينتجب عن الصواب، لعلّ أباه رام  
إراحة ضميره حينًا قال له قبل ليلة الزفاف بعلّة ليالٍ  
«أرى أن تلبّغ أمك، ولك إن شئت أن تدعوها إلى  
شهود زفافك» ذلك قوله بلسانه لا بقلبه فيها يعتقد، فما  
يتصوّر أن يرضى أبوه له بأن يذهب إلى حيث يقيم  
لكلّ الرجل الحقير الذي أخلّته أمّه زوجًا لها من بعد  
أزواج كثيرين، وأن يتودّد إليها على سرّائها منه بأن

العشاء الفاجر. وعاد ياسين يقول أسفًا:

- لن أجد من تزفّي هذه الليلة التي لن تتكرّر أبد  
الدهر!... سادخل حجرة العروس غير مشيّع  
بالأناشيد والنفوف كآني راقص يمزّ جلّعه دون  
إيقاع.

ثمّ لاحت في عينيه ابتسامة مرحة مأكرة فقال:

- الذي لا شكّ فيه أنّ أبانا لا يطيق «العالم» إلّا في  
بيوتهم!

مكث كمال في الدور الأعلى الذي أهدّ جلوس  
اللدوّرات ساعة ثمّ نزل باحثًا عن ياسين في الدور  
الأول الذي هُمن لاستقبال المدحّون ولكنّه وجده في  
فناء البيت يتفقد المطبخ المنتقل الذي أقامه الطاهي  
فأقبل نحوه مسرورًا إدلّالًا بلداء المهمة التي عهد بها  
إليه وقال له:

- فعلت كما أمرتني فبعت العروس حقّ حجرتها  
وتفصّصتها بعد أن حسرت القلب عن وجهها...

فانتحى به جانبًا وهو يسأله بأسًا:

- هه... كيف عودها؟

- في عود أبله خديجة...

ضاحكًا:

- في هذه الناحية لا بأس؟... أتمجيك كمأشقة؟

- كلّ... أبله عيشة أجمل كثيرًا...

- يغرب بيتك أتريد أن تقول إنّها كخديجة؟

- كلّ إنّها أجمل من أبله خديجة...

- كثيرًا؟

فهزّ رأسه مفكرًا فسأله الشابّ بلهفة:

- حدّثني عمّا أعجبك فيها؟...

- أنفها صغير كأنّ نينة... وعيناها كعيني نينة

أيضًا...

- ثمّ؟...

- لونها أبيض وشعرها أسود ورائحتها حلوة

جدا...

- نعمه... ربّنا يشرّك بخير...

وخيل إليه أنّ الغلام يغالب رغبة في معاودة الكلام

فسأله في شيء من القلق:

المادة وغير قليل من الأمسى. وجاء كمال الذي كان يترامى في أي مكان فجأة وخاطب ياسين والبشر يتألق في وجهه:

- الطامي قال لي إن الحلوى تزيد على حاجة المدعويين والمدعوات وأنه سيبقى منها مقدار وغير...

#### ٤٥

زاد مجلس القهوة وجهًا جليدًا بانضمام زينب إليه، وجهًا زكاه يريق الشباب وفرحة العرس، وفيها عدا هذا، وفيها عدا فرش الشجرات الثلاث المجاورة لحجرة الوالدين في الدور الأعلى بجهاز العروس، فلم يحدث زواج ياسين تغييرًا يذكر في النظام العام للبيت سواء من الناحية السياسية التي ظلت خاضعة بكل معاني الكلمة لسلطان السيد وإرادته أو من الناحية الإدارية الداخلية التي ظلت وحدة تابعة لهيمنة الأم كما كان الحال قبل الزواج. التغيير الجوهرى حقًا كان الذي طرأ على النفوس ودار مع المخاطر فندت رؤيته على الحواس، إذ لم يكن من اليسر أن تشغل زينب مكانة الزوجة للابن البكر وأن يجمعها رفيقًا أفراد الأسرة بيت واحد دون أن يطرا على المواطن والمشارع تطور ذو شأن، رمقتها الأم بنظرة امتزج فيها الرجاء بالحلل، هذه الفتاة التي قضى عليها بأن تعاشرها دهرًا طويلًا ربما امتد حتى نهاية العمر، أي إنسان تكون؟ ماذا تخفى وراء ابتسامتها الرقيقة؟ بالجملعة استقبلتها كما يستقبل مالك البيت سائكا جليدًا فيؤمله ويحاذره، أما خديجة فعل رغم المجاملات التي تبودلت بينها جمعت تسد نحوها عينين نافلتين مفطورتين على السخرية وسوء الظن، متقببة من العيوب والمآخذ بحرص ساخط لم يلق من انضمامها إلى البيت وفوزها بالزواج من أخوها إلا شيئًا خفيًا، فلما اعتكفت الفتاة في حجراتها الأولى من الزواج ساءلت خديجة أمها وهما في حجرة القرن ورى هل حجرة القرن مكان غير لائق (بها)؟ ومع أن الأم وجدت في تجمعهما ترويضًا عن حيرة ظنوها إلا أنها انحسرت موقف الدفاع عن الفتاة وأجابتها قائلة: وصبرك، لم تزل حروسًا في بده

يدعوها إلى شهود زفافه، لا كان الزفاف، ولا كانت أي سعادة في هذه الدنيا إن حملته يومًا على أن يصل ما انقطع بينه وبين تلك المرأة... تلك الفضيحة... تلك الذكرى المخزية! وما كان منه إلا أن أجاب أباه وقتذاك قائلًا: ولو كان في أم حقًا لكنت أول من ادعو إلى زفائي! انتبه فجأة إلى الأولاد والبنات وهم يرتون إليه ويتهايمون فخص البنات بنظرة وسألهن بصوت جهوري ضاحك وهل تحملن بالزواج من الآن يا بنات؟ وألمه نحو باب الحرم وهو يذكر قول خديجة الساخر له بالأمس «لأنك وأن تستسلم غدا للحياه بين المدعويين ولأعرفوا الحقيقة المرة وهي أن أبك الذي زوجك ونقد مهره وجلة تكاليف ليلتك، ولكن تحرك بلا توقف، تنقل بين حجرات المدعويين، ضاحك هذا وكلم ذاك، اطلع وانزل، تفقد المطبخ، اهتف وازعق، لعلك توهم الناس بأنك حقًا رجل الليلة وسيداه! لمضى ضاحكًا وفي ثبته أن يمثل النصيحة الساخرة فخطر بين المدعويين بجسمه الطويل الجسم في أناة بديعة ووسامة جذابة وشباب ريق، ذهب وجاء، ونزل وطلع، وإن لم يفعل شيئًا، بيد أن الحركة نفست من نفسه طوائف الفكر فصفحت نفسه لفنان الليلة. ولما خطرت العروس على قلبه سرت في بده تشعيرة بهيمة، ثم ذكر آخر ليلة قضاه عند زئوبة العودة من شهر، كيف أنبأها بزواجه الوشيك وهو يودعها وكيف هفت به بلهجة اصطنعت الغبط «يا بن الكلب... كمت الخبر حتى نلت وطسرك!... مع المركب إلى توفى أحسن من التي نجيب... مع ألف شبيب يا بن المركوب»، لم يعد لزئوبة من أثر في نفسه، ولا لغيرها، أسدل الستار على هذا الجانب من حياته إلى الأبد، ربما عاود الشراب في يظن أن تموت رغبته فيه، أما النساء فلم يتصور أن تزيغ عيناه إلى امرأة عابرة وبين يديه حسناء طوى بانه، حروسه للة متجذدة، ربي للظلم الوحشي الذي طالما قلقل كيانه، ثم راح يتسلل حياته المقبلة، الليلة، والليالي الآتيات، الشهر والعالم فالعمر كله، ووجهه يسطع بهجة ناطقة لخطها فهي بعين مليئة بحب الاستطلاع والخبطة



تدري أنّ زواج عائشة هو الذي قَدَّر له أن يفتح لها أبواب الحظِّ المغلقة.

- ما أجل أن تكون السلفة هي الشقيقة فيزول سبب جوهرية من أسباب وجع النماغ في الأسر (ثمّ) ضاحكة فلا تبقى إلا حنايتها وأظنّ أمرها هيناً!  
- إن تكن سلفتها هي شقيقتها فحنايتها هي أمّها بلا نقصان.

لم تزل الأتان تتجاملان. لقد أحبتّ المعجوز وهي تزفّ إليها البشري بقدر ما أبغضتها يوم غخطبت عائشة! يجب أن تعلم مريم باخبر اليوم، لا تطبق أن تؤجله إلى الغد، لا تدري ما الدافع إلى هذه الرغبة الملحة، لعلّ قول مريم لها غداة غخطبت عائشة «ماذا كان عليهم لو أنّهم انتظروا حتى تتمّ غخطبك أنت؟»، فأغراها وقتذاك سوء ظنها المطبوع باتهام برامته الظاهرة. ولما انصرفت أسرة شوكت قال ياسين بقصد التحرّش والدعابة:

- الحقّ آلي مذ رأيت إبراهيم شوكت قلت لنفسي ما أجدر هذا الرجل الثور الذي لا يبدو أنّه يفرّق بين الأبيض والأسود أن يقع اختياره يوماً على زوجة مثل خديجة.

فابتسمت خديجة ابتسامة خفيفة ولم تنبس بكلمة فهتف بدعشة:

- هل عرفت الأدب والحياء أخيراً!

بيد أنّ وجهه نطق وهو يمازحها بالرضا والغبطة فلم يحكر صفرهم إلا حين تساءل كمال في قلق:

- أتركنا خديجة أيضاً؟

فقالت الأمّ تعزّي وتعزّي نفسها:

- ليست السكّرية بعيدة.

على أنّ كمال لم يستطع أن يدلي بما عنده في حرّية كاملة إلا حين انفراد به لئلاّ يترنّع قبالتها على الكتبة وسألها بصوت يذمّ عن الاحتجاج واللوم:

- ماذا جرى لنفلك يا نينة؟ ... أتفرطين في

خديجة كما فرطت في عائشة؟

فأفهمته أنّها لم تفرط فيها ولكنها ترضى بما يسعدّها.

خديجة وزينب في أفق الأسرة فتبها فبهي إلى ضبط لسانها أن يبلغ الفتاة شيء من ملهها، وأشار عملاً إشارة خفية إلى كمال الذي دأب على التقلّب بينهم وبين العروس تنقّل الفراشة - حاملة اللقاح - بين الأزهار! ولكن ضاب عنه - كما ضاب من الأسرة جميعاً - أنّ القدر كان يعمل من جانبيه على الحيلولة بين الفتاتين، إذ زارت البيت حرم المرحوم شوكت وعائشة زيارة لم يعلم أحد من قبل بأن تترجّ بالنهاية التي توجت بها، قالت المعجوز مخاطب الأم على مسمع من خديجة:

- يا أمانة هائم جتلك اليوم خاصّة لأخطب خديجة لابني إبراهيم...

فرحة بلا تمهيد وإن طال انتظارها حتى شقّ، فلذلك سمع صوت المرأة في أفق الأمّ سجعاً جيلاً حتى إنّها لم تذكر أنّ قولاً - قبله - بلّ صدرها بندي الطمأنينة والسلام كما بلّ فكاد يستحقّق الفرح وهي تقول بصوت متهدّج:

- ليس لي في خديجة أكثر ممّا لك، هي ابتسكت ولتجدني في جاك أضعاف ما تجد في بيت أبيها من السعادة...

استرسل الحديث السعيد إلا أنّ خديجة جعلت تغيب عنه ليلياً يشبه اللهول، خفضت عنها في حياء وارتباك وقد زایلها روح السخريّة التي طالما توهّجت في حلقتها، فشملتها وداعة غير معهودة ثمّ جرت مع تيّار خواطرها، جلاه الطلب مفاجأة، فكما بدا عسيراً في غيابه بدا غير مصدّق في حلوله حتى لقد غشيت فرحتها موجة ثقيلة من اللهول... ولأخطب خديجة لابني إبراهيم؟... ماذا دهاء؟... أنّه على حوله الذي أثار هزماً حسن المحيّا وجيه في الرجال، فهذا دهاء؟!

- ومن حسن الطالع أن يجمع بين الأختين في بيت واحد.

صوت حرم المرحوم شوكت يؤكّد الحقيقة ويذكر وجوبها... ليس ثمة شك... إبراهيم مثل خليل ملاً وجاناً فانيّ حكّ انخرفته لها الاقدار، لشدّ ما أسفت على أنّ عائشة سبقتها إلى الزواج إذ لم تكن

ونادراً ما يعلنه - أكثر من نصف دقيقة؟ ... وتمتعت في قلبي:

- أمه ...

فقاطعتها عتداً:

- هل أتبع لإبراهيم أن يراها؟!

فصالت وقد وكى عنها السرور لأول مرة في تلك الليلة:

- دخل علينا مرة في شقة عائشة باعتباره لوطاً من الأسرة فلم أر في ذلك من بأس.

فتساءل مزيجاً:

- ولكني لم أعلم بذلك.

كل شيء يتدرج بالشر، ترى هل يبوي على مستقبل الفتاة بضربة قاضية؟ ... على رغمها اغرورقت حينها باللمع وما تدري إلا وهي تقول مستهينة بغضبته المكفهرة:

- سيدي، حياة عذيفة وديعة بين يديك، هيهات أن يتسم لها الخطم مرتين.

فرماها بنظرة قاسية وراح يدير ملمعاً مهيباً مهمباً كأنها رقه الغضب إلى حالة من حالات التعبير بالاصوات التي مر بها أسلافه الأئولون، ولكنه لم يزد على ذلك شيئاً، لعله أضمر الموافقة من أول الأمر ولكنه أي أن يسلم بها قبل أن يسجل سخطه - كالسياسي الذي يلجم خصمه وإن اقتنع بالغاية التي يستهدفها - فوداً عن مبادته.

#### ٤٦

مضى شهر العسل وباسين مضرب بكليته لحياته الزوجية الجديدة، لا يعمره عنها عمل في النهار حيث وافق زواجه أواسط العطلة الصيفية، ولا سهر بالليل خارج البيت لأنه لم يكن يغادره إلا للضرورة القصوى كابتياح زجاجة كوكاك مثلاً، ولما حدا هذا لم يجد لنفسه عملاً أو معنى أو صفة خارج نطاق الزوجية فانللق عليها بقوة وحاس وتناول خليفة برجل ظن أنه ينقل الخطوات الأولى في برنامج ضخم من التمتع الجسدية سيتم يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر وعلماً

فقال محذراً كأنها يتبها إلى شيء فاتها ويوشك أن يفوتها مرة أخرى:

- ستذهب هي الأخرى، ربما ظننت أنها ستعود كما ظننت بعائشة، ولكنك لن تعود، وستزورك إذا زارتك كالضيفة فما إن تشرب القهوة حتى تقول لك السلام عليكم، إني أقولها في صراحة إنها لن تعود. ثم محذراً وواضحاً في آن:

- مستجدين نفسك وحدك بلا رفيق، من يمينك على الكنس والتفويض؟ ... من يمينك في حجرة الفرن؟ من يبالسنا في جلسة المساء؟ ... من يضحكنا؟ ... لن نجلدي إلا أم حنفي التي سيخلوها المبدان لسرقة طعامنا كله.

فألهته مرة أخرى أن في الزواج سعادة؟ ... - أؤكد لك أنه لا سعادة مطلقاً في الزواج. كيف يحظى أحد بالسعادة بعيداً عن نينة؟ ومردفاً بحاس:

- ثم إنها لا ترغب في الزواج كما لم ترغب فيه عائشة من قبل ... لقد صارحتي بذلك ذات ليلة في فراشها!

ولكنها قالت له إنه لا بد للفتاة من أن تتزوج، فلم يتالك من أن يقول:

- من قال بأنه لا بد للفتاة من أن تذهب إلى بيوت الغرباء! ... ثم ماذا تفعلين لو أجلسها الآخر على الشيزلنج وتناول دقها هي الأخرى و...

عند ذاك زجرته وأمرته بالألا يتكلم فيها لا يعنيه لضرب كفاً بكفت وهو يقول منلراً:

- أنت حرة ... وسترين!

في تلك الليلة لم يمشى لامينة من بقطة الفرح جفن كأنها الساء المقصرة لا تغشاها الظلماء، فظلت مستيقظة حتى جاء السيد بعد منتصف الليل، ثم رقت إليه البشرى لتلقاها بقبضة أطارت عن رأسه الحبار بالرمح مما في هذا الرأس من نظريات غريبة عن زواج البنات، إلا أنه تجهّم بغتة متسائلاً:

- هل أتبع لإبراهيم أن يراها؟ - ساءلت المرأة نفسها ألا يمكن أن يدوم ابتهاجه -

المرأة، ليس يدري كيف يخلص حُفًا للثوابا الحسنة التي فرش بها طريق الزواج، يبدو جانب - على الأقل - من أحلامه الساذجة عسير التحقيق وهو ظنّه بأنّه سيستغني بأحضان زوجته عن العالم الخارجي، وإنه سيلبد بكفها العمر كله، ذلك حلم من أحلام الشهوة في سداجتها، وسيجد من الآن فصاعدًا أنّ الانقطاع عن عالمه وعاداته بما يشقّ عليه وليس ثمة ضرورة تدعو إليه، وإنه ينبغي أن يتلمّس وسيلة أو أخرى - الوقت بعد الوقت - ليحصن الحرب من نفسه وأفكاره وبعيته، حقّ المغنّي المجد إذا طال في تقاسيم الليالي انبثت في نفس السامع الشوق إلى الدخول في الدور، ثم إنّه في الانطلاق من عبه فرصة للاختلاط بالأصحاب المتزوجين لعله يظفر عندهم بأجوبة مسكّنة للأسئلة الحيرى التي تلحّ عليه، ولن يتأقّل له من وراء ذلك الدواء الشافي لكلّ داء... وكيف يؤمن بعد اليوم بوجود دواء شافٍ لكلّ داء؟ يحسن به من الآن ألا يرسم برامج بعيدة المدى، لا تلبث أن تنهار ساخرة من قدرته على التخيل. ليقنع من تسويق حياته بالخطوة تلو الخطوة حتى يرى أين يرسو، وليبدأ بتفصيل اقتراح اقترحه هي - زوجته - عليه بأن يخرجًا معًا.

با تدري الأميرة ذات مساء إلّا وباسين وزوجه يغادران البيت من دون أن يطلعا أحداً على مقصدهما بالرغم من أنّها قضيا معهم سهرة المساء. بدا الخروج بالنظر إلى وقته المتأخّر من ناحية وإلى وقوعه في بيت السيّد من ناحية أخرى حادثاً غريباً أثار شقّ الظنون فما عثمت خديجة أن استدعت نور جارية العروس وسألتهما. هيّا تعلم عن خروج سيّدتها فأجابته الجارية بصوتها الرئان في بساطة متناهية:

- ذهب يا سنيّ إلى كشكش بك.

فهتفت خديجة وأمّا في نفس واحد:

- كشكش بك!

ليس الاسم غريباً عليهم، اتقنم ذكره الدور وتغنّى بأغانيه كلّ من هبّ ودبّ ولكّنه على ذلك يبدو بعيداً كأبطال الخرافات أو كزبّين إيليس السياه. أن يذهب ياسين بزوجه إليه أمر مختلف جدّاً ليس دونه أن

بعد عام. ولكّنه أدرك في الثلث الأخير من الشهر أنّ تفأوله بلا بدّ أن يكون مبالغاً فيه على نحو ما أو أنّ خللاً لا يدري كتبه قد طرأ على حياته. كان يعاني في حيرة بالغة ولأوّل مرّة في حياته ذاك المرض المتوكلن في نفس الإنسان الملل. لم يعرفه من قبل عند زوّية ولا حتّى عند بائمة الدم لأنّه لم يملك هذه أو تلك كما يملك زينب الآن يمينه ويموزها تحت سقف بيته، فأنيّ فتور يتبيّح من تلك «الملكيّة» الأمنة المطمئنة... الملكيّة ذات الظاهر الحلالّ للمغربي لدرجة الموت والباطن الرزين الثقيل لحُدّ اللامبالاة أو التفرّز كأنّها الشيكولاتة المزيّفة التي تُهدى في أوّل إبريل بقرّة من الحلو وحشون من الثوم، وأنّي مأساة في أن تنمّج نشوة القلب والجسد في آيّة العادة المنظّمة العاقلة الباردة المتكرّرة القاتلة للشعور والجلّة كأنّها رؤية روحانيّة رفيعة تمجّدت في صلاة لفظيّة ترتدّها الذاكرة بلا وهي... وراح الفتي يتسامل هيّا دهي ثورته، هيّا هدى شياطينه، عن ذاك الشيع وأين جاء، عن تلك الفتنة أين ذهبت، أين ياسين وأين زينب، أين الأحلام، أفدا شأن الزواج أم شأنه هو، وكيف إذا تنابعت الشهور في أعقاب الشهورا ليس أنّه لم يعد له رغبة فيها، ولكّنها لم تعد رغبة الصائم في للبد المأكّل، هاله أن يدركها الهدوء حيث انتظر لها الازدهار، وضاعف من حيرته أنّه لم يبد على الفتاة عارض من عوارض رة الفعل أو بالأحرى أنّها تزيد حيويّة ورغبة فحينما يظنّ أنّ النوم بات واجباً بعد طول التنب لا يدري إلّا وساقها تطرح على ساقه كأنّها طرحت عفواً حتّى قال لنفسه «يا حبيّاً... أحلامي عن الزواج تحقّقت عندهما هيّا إلى هذا كلّ وجد في عتقا نوعاً من الاحتشام وإن طاب له أوّل الأمر أنّه جعله يميم آخرًا في وديان الذكريات التي ظلّ أنّه ودّعها إلى الأبد، طفت على رأسه من الأعماق «زّوية» وأخريات كما تطفو ودائع البحر عند هدوء العاصفة لا لشرّبيّت فانقذ أنّه مرق إلى عشّ الزوجيّة حامر القلب بالنيّة الحسنة، ولكن للموازنة والمقاومة والتقلّل، وليقتنع أخيراً أنّ «العروس» ليست المفتاح السحريّ لدنيا

وذاك الكرب كله، ليس كشكش هذا صاحب التمثال الصغير الذي يباع في الأسواق بجسم متوتب في دعابة ووجه ضاحك ذي لحية عريضة ووجه فضفاضة وعمامة مقلوطة؟ ليس هو من تُنسب إليه الأغاني المرحية التي استظهر بعضاً منها بشده مع صديقه فؤاد بن جميل الحمزاوي وكيل أبيه؟ فبأي شر يتهمون هذه الشخصية اللطيفة التي ارتبطت في خياله بالفكاهة والمرح؟... لعل مصدر هذا الكدر إلى اصطحاب ياسين لزوجته لا لكشكش بك نفسه، فإن كان ذلك كذلك فهو يتفق معهم في الانزعاج من جرأة ياسين خصوصاً وأن زيارة أمه للحسين وما أعقبها من أحداث لا يمكن أن تبرح غيخته، أجل كان الأجدر بياسين أن يذهب وحده أو أن يأخذه وهو إن كان يريد رفيقاً لا سباً وآله في عطله الصيف فضلاً عن نجاحه المتفوق في المدرسة، وما يدري إلا وهو يقول متأثراً بالكتابة:

- ألم يكن من الأفضل أن يأخذني أنا...؟

اندس تسأله في الحديث كما تندس نعمة هريفة مقبسة في لحن شرقي صميم، فقالت خديجة:

- من الآن فصاعداً يحقّ علينا أن نعلمك في قلّة عقلك...!

فتنت عن فهمي ضحكة قائلاً:

- ابن الوذّ حوام...

يبد أن المثل رنّ في أذنيه رنيناً جانحاً وكّد أثره السيئ لمخلوق أمه وأخته خديجة في حينه باستغراب فانتبه إلى خطئه غير المقصود وتداركه قائلاً وقد دخله امتعاض وتوجل:

- أخو الوذّ حوام!... هذا ما قصدت أقوله...

دلّ الحديث في جملة حل تعامل خديجة حل زنب من ناحية، وخوف الأم من العواقب من ناحية أخرى، يبد أن أمينة لم تعلن ما في نفسها كله. في تلك الليلة عرفت في نفسها أموراً لم تكن تعلمها من قبل. أجل كثيراً ما وجدت نحو زنب إنكاراً وضيقاً ولكنه لم يبلغ أن يكون نفوساً أو كراهية لمزته إلى خيلاء الفتاة بداع وخير داع، ولكن هالما اليوم أن تحرق الآداب والتقاليد، وأن تحمل نفسها ما لا يحل-

يقال ذهباً إلى محكمة الجنائيات. وقّعت الأم حينها بين خديجة وفهمي وتعاملت فيما يشبه الخوف:

- متى يعودان...!

فاجابها فهمي وإبتسامه لا معنى لها تقضم على شفثيه:

- بعد منتصف الليل، وربما قبيل الفجر.

صرلت الأم الجارية وانتظرت حتى غاب وقع أقدامها ثم قالت في لهجة وانفعال:

- ماذا ده ياسين؟ كان جالساً بيتنا في كامل عقله... ألم يعد يعمل حساباً لآبيه؟

فقالت خديجة في حق:

- ياسين أحقل من أن يلبّز رحلة كهذه، ليست قلّة العقل حيله ولكن به غيوع لا يليق بالرجال، أقطع ذراعي إن لم تكن هي حرّضته.

فقال فهمي مدفوعاً برغبة في تلطيف الجو للتوتر وإن نفر بطبعه للموروث من جرأة أمه:

- ياسين ذو ميل قديم إلى الملاهي.

فضاحف دفاعه من حق خديجة التي اندفعت قائلة:

- لسا بصدد الحديث عن ياسين وميوله، له أن يحب الملاهي كما يحلّ له، أو أن يواصل السهر في الخارج حتى مطلع الفجر كلياً شاء، ولكنّ اصطحاب زوجه المصون معه فكرة لا يمكن أن تصدر عن ذاته فلعلها جاءت عن إيهام عجز عن مقاومته خصوصاً وأنه يبدو مستكيناً بين يديها كالقطعة الأليفة، ثم إنّها فيما أرى لا تتورّع عن رغبة كهذه. ألم تسمحها وهي تروي قصص الرحلات التي شاهدتها بصحبة والدّها؟ لولا إيسازها ما أخذها معه إلى كشكش بك - يا للفضيحة! - في هذه الأيام التي ينجر فيها الرجال في البيوت كالغيران رهياً من الأستراتيجين.

لم يقف التعليق على الحادث عند حدّ لما أثاره في النفوس - سواء المهاجمة أو المدافعة أو المحايدة - من امتعاض، كمال وحده تابع النقاش المحتدم في صمت يقظ من دون أن يغلط إلى السرّ الذي جعل من كشكش بك جريمة تكراه استوجبت ذلك النقاش كله

بصوت خافت مضطرب كأنها تتاجي نفسها:

- تأخر الوقت ولما يعد ياسين وزوجه!

فحملق السيد في وجهها وتساءل في عجب:

- وزوجه؟... أين ذهب؟

ازدردت المرأة رقيقاً وقد ركبتها الخوف، من السيد ومن نفسها معاً، ولكن لم تجد بلداً من أن تقول:

- سمعت الجارية تقول إنهما ذهباً إلى كشكش بك! - كشكش!

عزف الصوت عائلياً في شراسة وتطالير الشر من العينين اللتين ألمهبا الكحول، وراح يطرح عليها السؤال تلو السؤال مزجراً مدعماً حتى طار النوم عن رأسه فأن أن يزابل مجلسه حتى يعود «الضالان» فانتظر وهو يغلي من الحقد، ولما كان غضبه ينعكس على نفسها رعباً فقد ارتعبت كما لو كانت هي المدنية، ثم غصت بالندم على ما بدر منها، ندم عاجلها مبادراً عقب البوح بسرهما مباشرة كأنها لم تبح إلا كي تندم، فلم تكن تبخل بغالٍ منها خلا ساحتها لو تستطيع أن تصلح خطأها، وقست على نفسها بلا تحفظ فأنهت بالوقية والشر، ألم يكن الأجدر بها أن تستر عليها على أن تنهها إلى خطيتها غداً إن كانت تريد الإصلاح حقاً لا الانتقام؟.. ولكنها أذهنت لعاطفة شريرة، عن عمد وسوء نية، فهبات للفق وهروسه نكدًا لم يدر لها بخلد وجرت على نفسها ندماً بات يحرق نفسها المعلقة حرقاً بلا رحمة، وراحت تدعو الله - عجل من ذكره - أن يلفظ بهم جيماً، مضى الوقت تفرق دقائقها قلبها بالأم حتى انتهت على صوت السيد وهو يقول متهاكاً بمراة:

- جاء مي كشكش...

فأرهفت السمع وهي تتطلع بناظرياً إلى النافذة المقترحة المطلّة على الفناء فتأمر إليها صرير الباب الكبير وهو يخلق، وقام السيد وغادر الحجرة فقاسم بطريقة آلية ولكنها تسمرت في مكانها جثاً وخزناً وضربت قلبها تدافع حتى سمعت صوته الجهر وهو يخاطب القادسين قائلًا «اتبعاني إلى حجرتي» فتناهى بها الخوف فتسللت من الحجرة هاربة.. عاد السيد إلى

في نظرها هي - إلا للرجال، عابت هذا السلوك بعين امرأة قضت عمرها حبيسة وراء الجدران، امرأة دفعت صحتها وسلامتها ثمناً لزيارة بركة نزين آل البيت لا لكشكش بك، فهاج انتقادها الصامت شعور طافح بالمرارة والغضب كأن منطلقها غداً يردّها فيها بينها وبين نفسها «إما أن تنال الأخرى الجزاء أو فلنذهب الحياة هباء». هكذا تلوث بالحق والموجدة - في الشهر الأول من معاشرة لامرأة جديدة - القلب الطاهر الورع الذي لم يعرف طول حياته المحفوظة بالجد والصرامة والتعب إلا الطاعة والعفو والصفاء. ولما آوت إلى حجرتها لم تدر إن كانت تود - كما دعت بلسانها أمام أبناؤها - أن يستر الله حل «جناية» ياسين أم أنها ترجو أن ينال أو بالأحرى أن تنال زوجه جزاءها من الزجر والتأنيب؟ بدت تلك الليلية وكأنها لا ينعها من أمر الدنيا جيماً إلا أن تُصان تقاليد الأسرة من كل عيب وأن يدفع عنها ما يتحرش بها من عدوان، بدت غيورا على الآداب إلى حد القسوة فطمعت حوافها الرقيقة المثالفة في الإهمال باسم الإخلاص والفضيلة والدين متعللة بها فرازا من ضميرها المتألم كالخلم الذي ينفس عن غرائز مكبوتة باسم الحرية أو غيرها من المبادئ السامية. جله السيد وهي على تلك الحال من التصميم إلا أن منظره بك الخوف في حناياها فانتقد لسانها، راحت تتابع حديثه وتجبج من أسفته بلعن شارد وفؤاد خائف لا تسري كيف تنفس عما احتدم بخاطرهما، وكلما مرّ الوقت واقترب ميعاد النوم أحت عليها رغبة عصبية في الكلام، كم وقت لو تكشّف الحقيقة بنفسها كأن يحمي ياسين وزوجه مثلاً قبل إخلاد أبيه إلى النوم فيتنبه السيد بنفسه إلى فعلته النكراء فيجبه العروس الرضاء برأيه في سلوكها بغير تدخل منها هي - الأم - لا شك أنه يجزها بقدر ما يريحها.. انتظرت طويلاً في لفة وقبل أن يطرُق الباب الكبير، انتظرت دقيقة بعد أخرى حتى تتأهب السيد وقال بصوت متراخ:

- أطفئي المصباح...

حاققت بها الهزيمة فانهلكت عقدة لسانها فقالت



ياسين الذي أخفى حينه في الأرض، ثم قال وهو يرفع رأسه في أسف شديد:

- الأمر جدٌ خطير ولكن ما حيلتي؟... لم تعد طفلًا وإلا كسرت رأسك، ولكنك وأسفاه رجل وموكلت وزوج أيضًا وإن كنت لا تتورع عن البعث برباط الزوجية، فما عسى أن أصنع بك؟ أهذه نهاية تربيتي لك؟... (ثم بصوت أذهب في التأسف)... ماذا دعاك؟... أين الرجلوة؟... أين الكرامة؟... يمز عليّ والله أن أصق ما وقع.

لم يرفع ياسين رأسه ولم يتكلم فظنَّ صمته خوفًا وشعورًا بالخطأ - إذ لم يتصور أن يكون ما به سكر - ولكنه لم يجد في ذلك عزاء، هذا الخطأ أقطع من أن يترك بلا علاج حاسم، فليذا لم يكن من سبيل إلى العلاج القديم - العصا - فلا أقل من الحزم وإلا انتثر سلك الأسرة جميعًا، قال:

- ألم تعلم بأنِّي أحرّم على زوجي الخروج ولو لزيارة الحسين؟ كيف إذن سؤلت لك نفسك أن تأخذ زوجك إلى ملهى داهر لتسر فيه إلى ما بعد منتصف الليل؟... يا أحمق أنت تدفع بنفسك ويزوجك إلى الماوية فأيّ شيطان ركبك؟

وجد ياسين في الصمت آمن ملاذ أن تفضسه نبراته أو أن يسترسل في الحديث بطلاقة مربية تنم في النهاية على سكره، لا سيّما وأنّ خياله أصرّ على التسلسل - هازئًا بالموقف الخطير - من الحجرة فانطلق إلى أدق بعيدة بدت لرأسه الشمل راقصة تارة ومتروحة أخرى، ولم يستطع صوت أبيه على ما ابتمت في نفسه من الرعب أن يسكت الأنغام التي غناها المهرجون في المسرح فكانت تثب إلى ذهنه - على رغبته - بين لحظة وأخرى كالأشباح في ليل المرحوب هامة:

أبيع هلدومي عشان بوسة

من خنك القشدة يا ملبس

يا حلوة زيّ البسبوسة

يا سهليّة كيان واحسن

تغيب تحت تأثير الخوف ثم تظهر راجعة، ولكن أباه ضاق بالصمت فصاح به غاضبًا:

يجلسه يتبعه على الأثر ياسين وزينب، فحلج الفتاة بنظرة عميقة متجاهلاً ياسين ثم قال بحزم وإن نقى نبراته من الخلطة والجفاء:

- أصبني إلى يا بنية جيّدًا، أبوك أخي أو أوتق صلة وموكة، فانت ابنتي كخديجة وعائشة على السواء، ما قصدت أبدًا أن أكثر صفوك ولكن ثمة أمور أهدّ السكوت عنها جريمة لا تغتفر، من ذلك أن تبقى فتاة مثلك خارج بيتها حتى هذه الساعة من الليل، لا تحسي أنّ في وجود زوجك معك عزلًا عن هذا السلوك الشاذ لأنّ الزوج الذي يستهن بكرامته على هذا النحو غير خليق بأن يقبل من العثرات التي هو للأسف أول دافع إليها، وليّا كنت على يقين من براعتك أو بالأحرى من أنّه لا ذنب لك إلا أنك جاريته على هواه فرجائي إليك أن تعاوني على إصلاح أمره بالألا تستلمي إلى غواياته مرة أخرى...

وجئت الفتاة واستحوذ عليها الدهول، وعلى أنّها كانت تحظى في كنف أبيها بقسط من الحرية إلا أنّها لم تجد في نفسها شجاعة حمل مناقشة الرجل به معارضة، كأنّ إقامتها في بيته شهرًا أعدت شخصيتها بعدوى الخضوع لإرادته التي يفرق حيالها كلّ حي في البيت. احتجّ باطنها بأنّ أباه نفسه استساخ أكثر من مرة أن يسطعها إلى السنياء، وأنّه لا يحقّ له منعها من شيء سمح به زوجها، إلى اقتناعها بأنّها لم تخرق أدبًا أو تهتك حرمة، قال باطنها هذا وأكثر بيد أنّها لم تستطع أن تتلق بكلمة واحدة حياها حينه المزمّنين بالطاعة والاحترام وأنّاه الكبير الذي بدا - وهو يرفع رأسه - كأنه مسّوس مصوّب نحوها، فانتكم حديثها الباطني تحت مظهر من الرضى والأدب كما تنتكم الأمواج الصوريّة في جهاز الاستقبال بالمدهاع بإخلاق مفتاحه، ثمّ ما تدري إلا وهو يسأله وكأنّه يتنادى في تحته لها:

- ألك اعتراض على قولي؟

فهزّت رأسها بالنفي ورسمت شفتاها حرف ولاه دون أن تتطرق به فقال لها:

- اتفقنا، تفضلي إلى حجرتك بسلام...

غادرت الحجرة شاحبة الوجه فالتفت السيّد صوب

يعود إلى سياتها هي قبل كل شيء! على أن «جاءها» لم يعد مثار وسأوسها مذ طلب إليها رجل اتفق له أن رآها يمينه، بيد أن جميع مظاهر السعادة التي أحاطت بها لم تستطع أن تمحو من نفسها خفقات الحنين الذي دبّ في أحياها لوشك اليبس، حين خليق بفتاة مثلها لم يخفق قلبها بحبّ شيء في الوجود كحبّها لأها وبيتها جميعاً من والديها المعبودين إلى الدجاج والبلابل والياسمين، حتى الزواج نفسه الذي طالما تحرّقت في انتظاره بجزع الملهوف لم يكن ليهوّن عليها سראה الفراق، من قبل أن تطلب يدها بدت كاللاهيّة عن حبّ البيت وإصرازه، وربما غلب عليها الشجر في مضطرب الحياة فوارى عواطفها العميقة الصادقة لأن الحبّ كالصحة، يهون في الرصال ويحزّ عند الفراق، فلما أن اطمأنت على مستقبلها أبي قلبها أن يتقل من حياة إلى حياة دون جزع شديد كأنها يكفّر عن إثم أو يضمن بفال، تطلّع كمال إليها صامتاً، لم يعد يتساءل هل تعودين، بعد أن عرف أن التي تتزوّج لا تعود إلاّ أنّه خاطب شقيقته مخمّفاً (سوف أزوركما كثيراً) عقب الخروج من المدرسة فرحبتا به ممّا بيد أنّه لم تعد تغفّر به الآمال الكاذبة، كثيراً ما زار عائشة فلم يظفر بعائشة القديمة. يجد مكانها أخرى مترجّبة تلقاه بتوقّد بالغ يشعره بالغربة ثمّ لا يكاد يخلو إليها حتى يدركها زوجها الذي لا يفلتر البيت قائماً من ألوان التسلية بسجائره وغلبيته وعود يعبث بأوتاره بين حين وآخر، لن تكون خديجة خيراً من عائشة، فليس من رفيق في البيت إلاّ زينب، وهي لا تتوقّد إليه كما يجب إلاّ بمشهد من أمّه كأنها تتوقّد إليها هي فإذا غابت الأمّ تجاهلته كأنه لا يكون! ومع أنّ زينب لم تشعر بأنّها ستغدو عزيزاً يذهب خديجة إلاّ أنّها استنكرت الجوّ الرزين الصامت الذي يغشى يوم الزفاف، فتعلّلت بذلك لتفصح عمّا تكته لروح السيّد المسيطرة من حقّ وغيط فراحت تقول متهمّة «ما رأينا بيتاً يحرم فيه الحلال كبيتكم هذا... حكماء» غير أنّها لم نشأ أن توفّق خديجة من غير كلمة مجاملة فنوّعت كثيراً بمقدرتها، وأنها «ست بيت» خليقة بأنّ بيتاً عليها

- انطلق حدّثني عن رأيك غزّي مصمّم على ألاّ يمرّ الحادث بسلام... .

خاف عاقبة الصمت فخرج عنه متهمّياً مضطرباً ثمّ قال وهو يبدّل نصارى جهده ليشكّ نفسه:

- كان والدها يعاملها بشيء من التسامح... (ثمّ متعجّلاً) ولكنّي أقرّ بأنّي أخطأت...

فصاح السيّد مغضباً ومتجاهلاً الجملة الأخيرة:  
- لم تعد في بيت أبيها، عليها أن تحترم آداب الأسرة التي صارت عضواً فيها، أنت زوجها وسيدها وبيدك وحكك أن تصوّرها في أيّ صورة تشاء، خبرني عن المستول عن ذهابها معك أنت أم هي؟

ضمر على سكره بالفتح المنصوب له ولكنّ الخوف دفعه إلى التوازي فغمغم:

- لئلاّ علمت بشي في الخروج توسّلت إليّ أن أصطحبها...

ف ضرب السيّد كفّاً بكفّ وهو يقول:  
- أيّ رجل في الرجال أنت؟... كان الجواب الخلق بها لعمدة... . لأنه لا يفسد النساء إلاّ الرجال وليس كلّ الرجال جدّياً بالقيام على النساء... وتذهب بها إلى مكان ترقص فيه النساء نصف عرايا... ؟

تخابلت ليمينه الصور التي أفسدها تعرّض أبيه له على رأس السّم وعادت الأنغام تتجاوب في رأسه «أبيع هندومي... ولكن ما يدري إلاّ والرجل يقول له متوجّداً:

- لهذا البيت قانون أنت تعرفه فلوكن نفسك على احترامه ما رغبته في البقاء فيه... .

## ٤٧

قامت عائشة بترتين خديجة خير قيام بعمّة لا تجاري ومهارة فائقة كأنّ التزين غير مهمّة تؤدّيها في الحياة على أكمل الوجوه، فبذت خديجة حروماً حقاً تأخذ أهبتها للانتقال إلى بيت العريس وإنّ أدهت - جرماً على عادتها في التقليل من شأن الخدمات التي يؤدّيها لها الغير- أنّ أكبر الفضل في إظهارها بالمظهر اللائق إنّما

- أهي السيّد رضوان أن يبقى في الدنيا بعد رحيلك عن جوارحه...

فردّت عليه بابتسامة شاحبة غاب عنه ما وراءها فمضى يتفحصها بعناية وهو يَرّ رأسه متظاهراً بالرضى ثم قال متنبّهاً:

- صدق من قال «لئس البوصة تبقى عروسة»...  
فقطبت معلنة عدم استعادهما لمجاراته ثم غرته قائلة:

- اسكت، إني متطيّرة من موت السيّد رضوان في يوم زفائي.

فقال ضاحكاً:

- لا أدري أيكما جئى على صاحبه؟

ثم وهو يواصل الضحك:

- لا أخوف عليك من موت الرجل، لا تشغل فكرك به، ولكنّي أخاف عليك من لسانك فهو الأحقّ بأن تتطيري منه، ونصيحتي التي لا أتُلّ ترددها أن تنقّيه في شراب مشبع بالسكّر حتى يغلو ويصلح لمخاطبة العريس...

عند ذلك قال فهمي متلعّناً:

- مهيا يكن من أمر السيّد رضوان ليوم زفافك لم يُخلّ من بركة طالع انتظار الأرض لها: ألم تعلمي أنّ الهدنة قد أعلنت؟

فهتف ياسين:

- كدت أنسى هذا! ليس زفافك المعجزة الوحيدة في يومنا هذا. حصل ما لم يحصل منذ أحوام فانتيت الحروب وسلمّ خليوم.

فصاغت الأم:

- هل يلهب الغلاء والأستراليون؟

فقال ياسين ضاحكاً:

- طبعاً... طبعاً... الغلاء والأستراليون ولسان خديجة هاتم.

لاح التفكير في عيني فهمي، ثم قال وكأنّه يخاطب نفسه:

- حُلب الألمان!... من كان يتصوّر هذا؟!... لا أمل بعد اليوم في أن يعود حبّاس أو عمّد فريد،

بعلمها، فأثّنت عائشة على قولها وأردفت قائلة:

- لا عيب فيها إلّا لسانها!... ألم تجرّبه يا زينب؟  
فما غالتك أن ضحككت قائلة:

- لم أجرّبه والحمد لله ولكنّي سمعته وغيري يجرّبه. وتعالى الضحك، وخديجة أبوى الضاحكات، حتّى رأين الأم ترهف السمع بفتة هانفة «هس» فأمسكن مرّة واحدة، فترامى إليهنّ صوّات من الخارج فصاحت خديجة من فورها منزوعة:

- مات السيّد رضوان!

كانت مريم وأمّها قد اعتذرتا عن عدم شهود الزفاف لاشتداد المرض على السيّد عمّد رضوان فلم يكن غريباً أن تستدلى خديجة بالصوّات على موت الرجل، وغادرت الأمّ الحجرة مهرولة فغابت دقائق ثمّ عادت وهي تقول بأسف شلبد:

- مات الشيخ عمّد رضوان حقّاً... يا له من موقف حرج!  
فقال زينب:

- عذرنا واضح كالشمس، لم يعد في وسعنا تأجيل الزفاف أو منع العريس من الاحتفال ببلهته في بيته وهو بحمد الله بعيد، أمّا أنتم فهل تطالبون بأعق من هذا الصمت البليغ؟

لكنّ خديجة شردت في غواطر أخرى انقبض لها قلبها خوفاً فتطوّرت من النبأ المحزون وضغمت كأنّها تخاطب نفسها:

- يا لطيف يا ربّ...

فقرأت الأمّ أفكارها فانقبض صدرها بدورها ولكنّها أبت أن تستكين لهذا الشعور الطارئ أو أنّ ابنتها تستكين له فقالت باستهانة متصنّعة:

- لا شأن لنا بفوضى الله فالخاية والموت بيده، والتشاؤم من عند الشيطان...

انضمّ ياسين وفهمي إلى التجمّعات بحجرة العروس بعد أن فرغا من ارتداء ملابسهما فأخبرا الأمّ بأنّ السيّد ناب عن الأسرة - بالنظر إلى ضيق الوقت - في تقديم واجب العزاء إلى آل السيّد رضوان، ثمّ حلج ياسين إلى خديجة وقال ضاحكاً:

وعين مرتعشتين «ألا يعني هذا أنه يراك القنوة الصالحة للزوجة الصالحة؟ (ثم ضاحكة) يا لك من امرأة سعيدة الحظ! ولكن من عسى أن يصلّق هذا كله؟ كآتي كنت في حلم سعيد! أين كان يتّخر هذا العطف الجميل؟ ثم دعت له طويلاً حتى افرورت عينها بالدموع... وجاءت ثم حفي تعلّمهم بوصول السيّارات...

## ٤٨

خلا مجلس القهوة من وجه خديجة كما خلا من وجه عائشة من قبل، هل أن خديجة تركت فراها لم يسدّ لكآتها استلّت روحه وسلّته حيويته وحرمة مزاجها لا يستهان بها من الفكاهة والمرح والتفان، أو كما قال ياسين لنفسه «كانت في مجلسنا كالملح في الطعام، ليس الملح في ذاته لذيقاً ولكن ما لذّة الطعام من دونه؟» بيد أنه لم يجهر برأيه بجملة لزوجته إذ أنه لم يزل - على خيبة أمه في الزواج التي لم يعد لها من دواء في البيت - يشفق من جرح مشاعرهما على الأقلّ كيلا تسيء الظنّ بسهره المتواصل ليلة بعد أخرى في «القهوة» كما يزعم لها، ولكن كان مزاجه يفوق جدّه، إن كان ثمة جدّ، إلا أنه فقد النديم الذي طالما طارحه الدعابة وهيّا له دواحيها فلم يبق له إلا أن يقنع بالقليل في هذه الجلسة التقليدية، ها هو يترنّع على الكنية، يحسّو القهوة، ويمدّ بصره إلى الكنية المقابلة له فيرى الأم وزوجه وكيال مستغرقين في أحاديث لا طائل تحتها، ولعله يتعجّب للمرّة المائة من رزانة زينب المعتمة فيذكر ما رمتها به خديجة من «ثقل الدم» ويسلم بوجهة نظرها!... ثم يفصح ديوان الحياصة أو غادة كربلاء ويفرأ، أو يقصّ حل كمال شيئاً عما قرأ، ويلتصت إلى يمينه فيرى فهي متوجّبة للحديث، عن أيّ شيء يا ترى، محمّد فريد، مصطفى كامل،... لا يدري ولكنّه سيكلّم بلا ريب، بل يبدو اليوم منذ عودته من المدرسة كالسّماء المنلّرة بالطر، هل ينكسه؟... كلّاً، لا حاجة به إلى ذلك، ها هو يستقبله باهتمام شديد، ويحلّجه بنظرة موحية ناطقة ثم يسأله:

كذلك آمال الخلافة قد ضاعت، لا يزال نجم الإنجليز في صعود ونحنا في أفول فله الأمر... فقال ياسين:

- اثنان كسبا الحرب هما الإنجليز والسلطان فؤاد، فلا أولئك كانوا يملّون بالقضاء على الألمان ولا هذا كان يحلم بالعرش...

وسكت لحظة ثم استطرد ضاحكاً:

- وثالث لا يقلّ حظه عن السابقين هو عروستنا

التي ما كانت تحلم بالعريس...

فرمته خديجة بنظرة وعيد وقالت:

- تأي أن أغادر البيت من غير أن ألدك...

فتراجع وهو يقول:

- من الخير أن أطلب الهدنة فلست أعظم شأنًا من

خلهم أو هندنج...

ثم نظر إلى فهمي الذي لاح في وجهه التذكير بحال لا يتفق مع المناسبة السعيدة فقال له:

- اطرح السياسة وراء ظهرك وتجنّب للطرب وللميد

الماكّل والمشارب...

ومع أن خديجة تناوبتها أفكار كثيرة وخطرت حل قلبها أحلام وأحلام إلا أن ذكرى قرية - من ذكريات الصباح فعصب - ألّحت عليها من شدّة تأثرها بها حتى كادت تحجب غيرها من الشجون، تلك دعوة أبيها لها حل انفراد لمناسبة اليوم الذي يعدّ مبدأ حياة جديدة في حياتها، قابلهما بلطف ورحمة كانا بلساً شاملياً من وعكة الحياء والرهبة التي اعترفتها حتى تعمّرت في مشيتها، ثم قال لها برقة وقعت من نفسها موقفاً خريباً لا عهد لها به:

- ربّنا يسدّ خطلك ويصنّ لك التوفيق وراحة

البال، وما من نصيحة تُسدّي إليك خيرًا من أن أقول:

اقتدي بأنك في كلّ كبيرة وصغيرة...

وأعطاهما يده فقبّلتهما ثم غادرت الحجرة لا تكاد

تري ما بين يديها من الانفعال والتأثر، وجعلت تردّد

طول الوقت «كم أنه لطيف رقيق رحيم!» ثم تذكر

بقلب ملؤه السعادة قوله «اقتدي بأنك في كلّ كبيرة

وصغيرة» وتقول لأمها التي أصفت إليها بوجه متورّد

.. ألم تبلغك أنباء جليدة...؟

يسأله هو عن أنباء جليدة! عندي أنباء لا حدّ لها... الزواج أكبر خدعة، الزوجة تنقلب بعد أشهر شربة زيت خروع، لا تحزن على ما فاتك من مريم أنيا الساميّة الغرّة، انزهد أنباء أخرى؟! لنئيّ منها الكثير لكنّها على وجه البقين لا تحمك البتّة، ثمّ إنّ الشجاعة تحزنني إذا سوّلت لي نفسي إذا اعتها على مسمع من زوجي، وما يدري إلاّ وهو يستشهد - في سرّه طبعاً - بقول الشريف:

عندي رسائل شوق لست أذكرها

لولا «الرقيب» لقد بلّغتها فلك

ثمّ تسال بدوره:

- أيّ أنباء جليدة تعني؟...

فقال فهمي باهتمام شديد:

- ذاع بين الطلبة نبأ عجيب كان حديثنا اليوم كلّهُ وهو أنّ وفداً مصرياً مكوناً من سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمي بك وعليّ شعراوي باشا توجه أمس إلى دار الحياة وقابل نائب الملك للمطالبة برفع الحماية وإعلان الاستقلال...

ورفع ياسين حاجبيه في اهتمام ولاحت في عينيه نظرة شكّ مقرونة بالدهشة، لم يكن اسم سعد زغلول بالجلديد عليه وإن لم يجد وراء الاسم في نفسه شيئاً ذا بال اللهمّ إلاّ ذكريات غامضة اقترنت بحوادث أرى عليها النسيان من زمن دون أن تترك في قلبه - الذي لا يكاد يعبأ بالأمور العائمة - أثراً عاطفياً يدلّ عليها ولو من بعيد، إلاّ أنّ الاسمين الآخرين كانا يقعان في أذنه لأوّل مرّة، يتبدّ أنّ غرابة الأسماء ليست شيئاً يذكر إلى جانب الحركة التي قام بها أصحابها إن صحّ ما يقول فهمي، إذ كيف يتصوّر أن يطالب الإنجليز خدلة انتصارهم على الألمان والحلّفة باستقلال مصر؟! وسأله:

- ماذا تعرف عن هؤلاء السادة؟

فقال فهمي بلهجة لا تخلو من امتعاض خليق بمن يؤدّ لو كان هؤلاء السادة من أعضاء الحزب الوطنيّ: - سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعيّة، وعبد

العزيز فهمي وعليّ شعراوي عضوان بها، الحقّ أنّي لا أعرف شيئاً عن الآخرين أمّا سعد فأكاد أكون عنه فكرة لا بأس بها ممّا تراسل إليّ عن كثيرين من زملائي الطلبة الوطنيين الذين يختلفون فيه كثيراً، منهم من يعدّه دُتّياً من أقطاب الإنجليز ولا شيء أكثر من هذا ومنهم من يقرّ له بمزايا عظيمة جديرة بأن ترفعه إلى مصافّ رجال الحزب الوطنيّ أنفسهم. ومهما يكن من شأن الفلحطة التي أقدم عليها مع زميله - ويقال إنّهُ كان الداعي إليها كذلك - عمل جيد لعلّ لا يوجد الآن من ينهض به مثله بعد نفي المبرّزين من الوطنيين وحلّ رأسهم زعيمهم محمّد فريد...

بدا ياسين جاداً أن يظنّ به الآخر استهانة بحمايه وردّد قائلاً وكأنّه يسأل نفسه:

- المطالبة برفع الحماية وإعلان الاستقلال...

- وسمعتنا أيضاً أنّهم طالبوا بالسفر إلى لندن للسعي إلى الاستقلال، وأنهم لهذا القصد قابلوا السير «ريچاند ونجت» نائب الملك...

لم يستطع ياسين أن يواصل مداراة حيرته فأعلنها بأساويه وهو يسأله بصوت مرتفع بعض الشيء:

- الاستقلال!... أعني هذا حقّاً؟... ماذا تعني؟...

فقال فهمي بلهجة عصبية:

- أعني إخراج الإنجليز من مصر، أو الجلاء كما عبّر عنه مصطفى كامل ودعا إليه...

يا له من أسل!... لم يكن السعي إلى تحديث السياسة من طبعه ولكنّه يقبل دعوة فهمي كلّما دعا إليه، أثقّة لتكديره، وطلياً لنوع طريف من التسلية، وربّما ثار اهتمامه بين الحين والحين وإن لم يبلغ درجة الحساس، بل ربّما شاركه أمانيه بطريقة سلبية هادئة، ولكنّه أثبت طوال حياته أنّه قليل الاكتراث بهذا الجانب من الحياة العامّة، كأنه لا غاية له وراء التّمسّ بطليّات الحياة ولذاتها، لذلك لم يجد في نفسه استعداداً

للاخذ بهذه الأقوال مأخذ الجدّ وتسال مرّة أخرى:

- هل يقع هذا في حدود الإمكان حقّاً؟

فقال فهمي بحماس لا يخلو من لوم:

- لا ياس مع الحيلة يا أخي! ...

فأثارت هذه الجملة في نفسه ماثيره أمثالها من ميل إلى السخرية بيد أنه تسامح مظاهراً بالجد:

- وكيف لنا بأن نخرجهم؟

ففكر فهمي قليلاً ثم قال عابثاً:

- لهذا طلب سعد وزميله السفر إلى لندن!

تابعت الأم الحديث باهتمام مرتجة فيه وهيها كله كي تفهم أقصى ما يسعها فهمه من كذابها كلما ثار حديث في الشؤون العامة البعيدة كل البعد عن اللغو المنزلي، تلك الأمور تشوقها، وتذهي القدرة على فهمها، ولا تردّد إذا منحت فرصة من المشاركة فيها غير مبالية بما تحدثه آراؤها في أحايين كثيرة من الاستهانة المشربة بالمعطف، ولكن لم يكن شيء ليحظم عبادتها أو يصدّها عن الاهتمام بهذه الشؤون والكبيرة

التي يبدو أنها تبصّها مدفوعة بنفس البواحث التي تدفعها إلى التعلّق بدروس كمال الدينيّة أو مناقشة ما يلقى عليها من معلوماته الجغرافيّة والتاريخيّة على ضوء معارفها الدينيّة أو الأسطوريّة، وقد أكسبها هذا الجلد شيئاً من الإلمام بما يقال من مصطفى كامل ومحمد فريد وأفندينا المبدع، أولئك الرجال الذين ضاعف من حبّها لهم إخلاصهم للخلافة الأمر الذي قُرّبهم في نظرها - كشخص يقدّر الرجال بحسب منازلهم الدينيّة - من مراتب الأولياء الذين تبيهم بهم، ولما أن ذكر فهمي أنّ سعداً وزميله يطلبان السفر إلى «لندن» خرجت عن صمتها فجأة متسائلة:

- أيّ بلاد الله لندن هذه؟

فبادرها كمال باللهجة للمنغومة التي يسّح بها التلاميذ دروسهم:

- لندن عاصمة بريطانيا العظمى وباريس عاصمة فرنسا والكاين وعاصمتها الكاب...!

ثمّ مال على أذنها هامساً «لندن بلاد الإنجليزي» فتولّت الأم الدهشة وقالت غاطبة فهمي:

- يذهبون إلى بلاد الإنجليزي ليطلبوهم بأن يخرجوا من مصر! ... ليس هذا من اللوق في شيء...!

كيف تزورني في بيوت وأنت تغمر طردي من بيتك؟

أضجرت مقاطعتها الشاب فنظر إليها باسماً معاتباً في آن ولكنّها ظنّت أنّها بسبيل إقناعه فأردفت قائلة:

- وكيف يطلبون إخراجهم من ديارنا بعد إقامة طالت هذا الدهر كله؟ لقد ولدنا وولدتم وهم في بلادنا فهل من «الإنسانيّة» أن تنصليّ لهم بعد ذاك العمر الطويل من العشرة والنجابة لنقول لهم بصريح العبارة - وفي بلادهم أيضاً - اخرجوا؟!

ابتسم فهمي كالنّاس على حين قهقه ياسين، أمّا زينب فقالت جادة:

- كيف تواتبهم الجرة على أن يقولوا لهم هذا في بلادهم! ... هب الإنجليزي قظوهم هناك فمن ذا يدري بهم؟ ... ألم يجعل جنودهم المشي في الشوارع البعيدة من المخاطر غير المأمونة؟ ... فكيف بمن تحدّث نفسه باقتحام ديارهم؟!

وّد ياسين لو يسترمل مع المرائين في حديثها الساذج إرواء لعواطفه الظامّة إلى المزاح ولكنه لس فحجر فهمي فأشفق من إغضابه، فتحوّل إليه مواصلاً ما انقطع من الحديث وهو يقول:

- في كلامها حقّ لم تحسنا التعبير عنه، خبّرني يا أخي ما عسى أن يصنع سعد حيال دولة تعدّ الآن سيّدة العالم بلا منازع؟

فوافقت الأم على قوله بلهجة من رأسها كأنّ الحديث كان موجهّاً إليها وراحت تقول:

- كان عرابي باشا أعظم الرجال وأشجعهم، لا يقاس به سعد ولا غيره، وكان فارساً وكان مقاتلاً، فلماذا لقي من الإنجليزي يا ولدها؟ أسروه ثمّ نفوه إلى بلاد وراء الشمس...!

فلم يتالك فهمي من أن يقول لها بلهجة جمعت بين الرجاء والضيق:

- نينة! ... هلا تركتنا نتحدّث؟!

فابتسمت فيها يشبه الحياء مشفقة كلّ الإشفاق من إغضابه فغيّرت لهجتها الحاسية كأنّها هي بتغيير لهجتها تعلن تغيّر رأيا كله ثمّ قالت برقة واعتذار:

- يا سيدي لكلّ عجنه نصيب، فليذهبوا في رعاية الله، وعسى أن يحظوا بمعطف الملكة الكبيرة...!

له ملابسه، فشيئه فهمي بنظرة لا تخلو من غضب، غضب من لم يظهر بمشراكة وجدانية تتجاوب مع نفسه المتأججة، لشد ما تثير أحداث الوطنية أكبر الأعلام في نفسه، في دنياها الساحرة تترأى لعينيهِ دنيا جديدة، ووطن جديد وبيت جديد، وأهل جدد، يتفلسفون جميعاً حيويّة وحاسة ولكن ما إن يقين على هذا الجوّ الخافت من الفتنور والسذاجة وعدم المبالاة حتّى تشبّ بين أضلعه نار الحسرة والألم فتروم في قهرها متنقّساً - أنّها ما كان - تنطلق منه إلى السماء، ردّ في تلك اللحظة بكلّ قوّته لو ينطوي الليل في غمضة عين ليجد نفسه مرّة أخرى في مجمع الطلاب من إخوانه فيروي ظمأه إلى الحسّاس والحرّيّة ويسمو في وقته حاسمهم إلى ذلك العالم الكبير من الأعلام والمجد، لقد تساءل ياسين عن ماذا يصنع سعد حيال بلد تعدّ اليوم بحق سيّدة العالم، وهو نفسه لا يدري على وجه التحقيق ماذا يصنع سعد، ولا يدري ماذا يمكن أن يصنع، ولكنّه يشعر بكلّ ما في قلبه من قوّة بأنّ ثمة ما يجب عمله، ربّما لم يجده ماثلاً في عالم الواقع، ولكنّه يشعر به كامناً في قلبه ودمه، فما أجدره أن يبرز إلى ضوء الحياة والواقع أو فلتنفض الحياة عبثاً من العيث وباطلاً من الأباطيل...

#### ٤٩

بدا الطريق أمام دكّان السيّد أحمد - كعادته - مكتظاً بالسبلة والكرّكيات وروّاد الدكاكين المتراصة على الجانبين إلّا أنّ هالمة ازدادت بشغافته مقفّرة من جوّ نوفمبر اللطيف الذي حجبته شمس وراه سحائب رقاق لاحت رقاعها ناصعة البياض فوق مآذن قلاوون وبرقوق كأنّها بحيرات من نور، لم يكن شيء في السماء ولا في الأرض قد خرق المألوف ممّا اعتاد السيّد أن يراه كلّ يوم، ولكنّ نفس الرجل، والأفئس الموصولة بنفسه وربّما أنفُس الناس جميعاً تعرّضت لموجة عاتية من الانفعال والشعور خرجت بها من طورها أو كادت حتّى قال السيّد إنّهُ لم تمرّ به أيّام كهذه الأيام اجتمع الناس فيها حول نبأ واحد وخفت قلوبهم بإحساس

فما يدري الشابّ إلّا وهو يسألها في غرابة:

- أيّ ملكة تصدقني؟

- الملكة فيكتوريا يا بنيّ، أليس هذا اسمها؟ ...

طلما سمعت أبي وهو يتحدّث عنها، هي التي أمرت بنفي حراي ولكنّها أعجبت بشجاعته كثيراً فيها قيل...

فقال ياسين ساخراً:

- إذا كانت قد نفت حراي الفارس فهي أجدر أن

تنفي سعداً العجوزاً! ...

فالتأتأت:

- مهيا يكن من أمرها فهي لم تزل امرأة يحمل صدرها ولا شكّ قلباً رقيقاً فإذا أحسنوا مخاطبتها وعرفوا كيف يتودّدون إليها جبرت بخاطرهم...

وجد ياسين سروراً كبيراً في منطق الأمّ التي جعلت تتحدّث عن الملكة التاريخيّة كما لو كانت تتحدّث عن أمّ مريم أو غيرها من الجارات، ولم يعد يرغب في مجارة فهمي، فسألها بظراء:

- خبيرتنا حياّ يحسن أن يقولوا لها؟

فاحتلّت المرأة في جلستها مسرورة بهذا السؤال الذي أثار لها بالجدارة «السياسيّة» وضمت تفكر باهتمام لاح في تقارب حاجبيها في صيغة مناسبة لأوّل «مفاوضة» يبدّ أنّ فهمي لم يمهّلها حتّى تتمّ تفكيرها فقال لها باقتضاب واستياء:

- الملكة فيكتوريا ماتت من زمن بعيد، لا تعمي

نفسك بلا طائل!

انتبه ياسين عند ذلك إلى غاشية المساء الزاحفة من خلال خصائص النوافل فأدرك أنّه أنّ له أن يودّع المجلس ليمضي إلى سهرته، ولما كان يعلم حقّ العلم بأنّ ظمأ فهمي لم يردّ بعد فقد رغب في أن يقدّم له اعتذاره عن ذهابه في صورة تأييد من نوع ما للنبا الذي أخذ بهلّه فقال له وهو يهبط:

- إنّهم رجال يدركون بلا شكّ خطورة ما أقدموا عليه فعلمهم أمّوا له الوسيلة الناجحة، فلننقّ لهم بالتوفيق.

وغادر المجلس وهو يشير إلى زينب لتلتحق به فتجهّز





السيد فهمس في أذن صاحبه:

- كاتني لشدة سروري بهذا التوكيل الوطني، تَبَلَّ يعلّ الكأس الثامنة بين فخلي زبيدة...!

فحركَ محمدَ عَقَّت رأسه في تأثر كأنَّ الصورة التي جَسَمها خياله عند ذكر الكأس وزبيدة قد أسكرته، وزغمغم:

- يا ما بكرو نسمع...

ثم غادر الدكان والسيد في أحبابه مبسّ:

- ويعدو نشوف...!

ثم عاد إلى مكتبه وأقر المزاج منبسّط في أساريه وانفعال الحواس في قلبه لا يحمّد، شأنه في كلّ ما يعرض له من مهام الحياة بعيداً عن داره، فهو يحمّد الجلد كلّهُ كلياً دها الداهي إلى الجلد ولكنّه لا يتردّد من تلطيف جوّه بالمزاج والدعابة كلياً لاحت له صادراً في ذاك من طبع لا يملك معه حيلة وإن بدا قلدره عجيبة حل التوفيق بينهما، فلا جدّه بقاهر مزاحه ولا مزاحه يفسد جدّه، وليّا كانت دهايته ليست ترقاً ممّا يدور حل هاشم الحياة، ولكن ضرورة تروّحها كالجلد سواء بسواء، فلم يسمه يوماً الاقتصار على الجلد الخالص أو تركيز همتّه فيه، وبالتالي قنع دائماً من «وطنيتّه» بالعاطفة والمشاركة الوجدانية دون الإقدام على عمل يغيّر وجه الحياة الذي أنس إليه فلا يرغب عنه بديلاً، لذلك لم يدر له بخلد أن ينضمّ إلى لجنة من لجان الحزب الوطني على شدة تعلقه بجمادته، ولا حتى أن يحمّس نفسه لشهود اجتماع من اجتماعاته، ليس في ذلك إهدار لوقته «التمين»؟ ليس الوطن في حاجة إليه على حين يتلفّظ هو على كلّ دقيقة منه ليضيقها في أسرته أو تجمّادته أو على الخصوص في لهوّه بين الأحباب والخلان؟! لكن إذن وقته خالصاً لحياته، وللوطن ما يشاء من قلبه وعواطفه، بل ماله كلياً تيسّر، إذ لم يكن يضرّ به إذا وجب التبرّج لغرض من الأغراض، وإلى ذلك فلم يشعر مطلقاً بأنّه مقصّر في واجبه على نحو ما، وعلى العكس عُرف بين صحبه بالوطنية، إمّا لأنّ قلوبهم لم تشعّ بعواطفها كما سخا قلبه، وإمّا لأنّ

حدادته شهرتهم حيث حركوا منها أهواء عميقة مكبوتة كالنواء الجديدي يستأثر بأفكار المرضى بداه قديم استصصى علاجه بالرغم من استعماله لأوّل مرّة، ودعا الحمازوي فوقّم بإمضائه كذلك، ثم التفت إلى صاحبه وهو يقول باهتمام شديد:

- المسألة جدّ فيها بيدوا...

فصرب الرجل حافة المكتب بقبضة يده ثم قال:

- هاية الجلد، كلّ شيء يسير بقوة وتصميم، أما علمت بما دها إلى طبع هذه التوكيلات؟ قيل إنّ «الرجل» الإنجليزي تسامد من الصفة التي كلّمها بها سعد وزميلاه في صباح ١٣ نوفمبر الماضي فما كان من الوفد إلا أن عمد إلى هذه التوكيلات ليثبت أنّه يتكلّم باسم الأمة...

فقال السيد بتأثر:

- لو كان محمد فريد بيتنا ما عدا هذا.

- لقد انضمّ إلى الوفد من رجال الحزب الوطني محمد عليّ علوية بك وجد اللطيف المكبّي...

ثم هزّ متكيه ليغض عنها الماضي كلّهُ ثم قال:

- كلنا نذكر سعداً بما كان يثير من ضجة عظيمة على عهد تولّيه لشارة المعارف ثم الحفاتيّة، ما زلت أذكر ترحيب اللواء به منذ ترشيحه للوزارة وإن لم أنس حملاته عليه بعد ذلك، بل لا أنكر أنّي ملّت مع انتقاد المنتقدين له لشدة تعلقني بالمفقود له مصطفى كامل، ولكن سعد أثبت دائماً أنّه جدير بإعجاب المعجبين، أمّا حركته الأخيرة فهي خلقية بأن تحلّ من القلوب في أزمّ مكان...

- صدقت... حركة مباركة، لنذخ الله أن يتولّاها بتوقيفه...

ثم باهتمام:

- تشرى أيؤذن لهم في السفر؟... وماذا تُراهم فاعلين إذا سافروا؟...

طوى السيد محمد عَقَّت التوكيل ثم نهض وهو يقول:

- ما اللغد بعيد...

في طريقها إلى باب الدكان غلبت روح الدعابة

ومال الرجل نحوه ليفضي إليه كيف غمى إليه  
الحبيب...

٥٠

في نفس الوقت الذي شغل فيه الوطن بحرته كان  
ياسين دائياً بحزم وعزم على الاستمرار بحركته هو  
كذلك، فإن انطلاقة إلى سهراته الليلية - بعد امتناع  
موسم بالاستقامة فيها أحبب الزواج من أسابيع - لم  
يفز به بلا نضال، ثمة حقيقة كثيراً ما ردها لنفسه  
كاعتذار عن سلوكه الجديد. هي أنه لم يكن يتصور -  
وهو في سكرة حلم الزواج - أنه سيرتد إلى حياة  
التسكع بين القهوة وحانة كورسكي، اعتقد غلصاً أنه  
ودَّع ذلك إلى الأبد مضمراً لحياته الزوجية أحسن  
النيات، حتى دهمته الحيرة المستحصية في الزواج كله  
فجزعت أعصابه عن تحمّل الملل أو الحياة الفارغة كما  
دعاها، وفزع بكل قوة نفسه المدللة الحساسة إلى  
الترفيه والتسلية والنسيان، إلى القهوة والحانة، لا  
كحياة هو حائرة كما ظنّها في الماضي والزواج أمل  
مخسر، ولكن كحياة هي كل ما تبقى له من متعة بعد  
أن غدا الزواج خيبة مريرة، كالذي تشرّده الآمال عن  
وطنه فيرده الإخفاق إليه تائباً، يئد أن زينب التي  
عهدت عنده التودّد الحارّ والتملّك النهم، بل الإعزاز  
الذي بلغ به يوماً أن ذهب بها إلى مسرح كشكش بك  
مستهيئاً بالسياج المسلح من التقاليد العارمة الذي  
يهربه أبوه حول الأسرة... زينب هذه كابدت من  
انصرافه عنها إلى منتصف الليل بعد أخرى وعودته  
ثملاً يرتفع، صدمة عزّ عليها احتمالها فما تمالك أن  
كاشفته بأحزانها، وكان يعلم بداهة أن طفرة مفاجئة في  
حياته الزوجية لا يمكن أن تمرّ بسلام فتوقّع من بادئ  
الأمر المعارضة على أي لون جاءت، عتاباً أو خصاماً  
وأعدّ العتّة المناسبة ليحسم موقفه بقول أبيه له ليلة  
ضبطه راجعاً من كشكش بك «إنّه لا يفسد النساء إلا  
الرجال، وليس كلّ الرجال جديرًا بالقيام على النساء»  
فما تشكّت حتى قال لها: ولا داعي للحنّ يا عزيزة،  
منذ القدم واليسوت للنساء والدنيا للرجال، هكذا

الذين سحت قلوبهم لم يلحوا إلى حدّ التبرّع بالمال  
مثله، فتميّز بوطنته، وعرف هو ذلك فأضافه إلى بقية  
مزاياء التي يباهي بها سراً في أحياق قلبه، ولم يتصور أن  
الوطنية يمكن أن تطالبه بأكثر مما يجود به، ذلك القلب  
المولع بالغرام والطرب والمزاح لم يفيق - على ازدحامه -  
بالمعاطفة القويّة، وهي وإن قمت بالقلب عمالاً  
لحيويتها إلا أنها كانت قويّة صميقة تشغل النفس  
وجسمها، لم تجته عرضاً ولكن نشأت مع صباه فيها تلقته  
أفئدة من أحاديث البطولة التي رواها السلف عن  
هرايب، ثم اتقنت جذوتها بمقالات اللواء وخطبه،  
وكم كان منظرًا فريداً - أهاج التأثير والضحك مغا -  
يوم زُيّن وهو يكي كالأطفال عند وفاة مصطفى  
كامل، تأثر صحبه لأن أحداً منهم لم يسلم من وهكة  
حزن ثم أفرقوا في الضحك في مجلس الطرب الليلي  
حين تذكّروا المنظر إذ لم يكن من اليسير أن يُرى «ربّ  
الضحك» وهو يجهش بالبكاء اليوم، بعد سني الحرب  
الحامدة، بعد موت الزعيم الشاب ونفي خليفته، بعد  
انقطاع الأمل من عودة أفندينا، بعد هزيمة تركيا،  
وانتصار الإنجليز، بعد هذا كله، أو بالرغم من هذا  
كله، تسري أنباء حبيبة حاملة حقائق كالأساطير...  
مواجهة الرجل الإنجليزي بمطالب الاستقلال، إضواء  
التوكيلات الوطنية، التساؤل عن الخطوة التالية،  
قلوب تنفض عن جوهرها الغبار، أنفس تشرق  
بالآمال، ماذا وراء هذا كله؟... إنّ خياله السلميّ  
الذي ألف الاستكانة يتسائل دون جدوى، وإنّه  
ليرتجّل الليل ليهرع إلى مجلس الطرب حيث باتت  
الأحاديث السياسية «مزة» الشراب والطرب فالتلفت  
مع جملة المفريات التي تعجّب حنانه إلى سهرته كزبيدة  
وحبّ الإخوان والشراب والطرب وإنّه لتبدو في ذلك  
الجو الخلّاب عذبة الروح لطيفة التناول تغني القلوب  
بشقى عواطف الحساس والحبّ من دون أن تستأديه ما  
لا طاقة له به... وإنّه ليفكر في هذا كله إذ اقترب  
منه جميل الحمزاوي وهو يقول:

- أما سمعت من الاسم الجديد الذي أطلق على  
بيت سعد باشا...؟ إنهم يدعونه «بيت الأمة»...

مثال زوجها، فلم تَر في استمتاع ياسين بحريته حبياً ولكن شكوى زوجه بدت هي السجب. فهمي وحده قُدر أحرانها فتطوّر لتزيد لها حل مسموع من ياسين ولو أنه أيقن من بادئ الأمر أنه يدافع عن قضية خاسرة، ولعل ما شجّعه على ذلك كان كثرة تلاعبها في قهوة أحمد عبده بخان الخليلي، تلك القهوة التي تقع تحت سطح الأرض كأنها كهف منحوت في جوف جبل، مستقوفة بريموع الحليّ العتيق، منزلة عن العالم بحجراتها الضيقة المتقابلة، وباحتها التي تتوسطها نافورة صامتة، ومصابيها التي تولد ليل نهار، وجوها المادئ الحالم الرطيب. كان ياسين قد مال إلى هذه القهوة لدنوها من حانة كوستاكي من ناحية ولاضطرابه إلى هجر قهوة سي عليّ بالقهوة بعد قطع زوّية من ناحية أخرى، ثمّ لَمّا خَصّت به القهوة الجديدة من طابع أثريّ صادف هوى من نفسه الميّالة للشعر، أمّا فهمي فلم يعرف طريق المقاهي لحلال طرأ على سلوكه كطالب مجتهد ولكن نثية لداء تلك الأيام الذي دعا الطلبة وغيرهم إلى التجمّع والتشاور، واختار وفر من زملائه قهوة أحمد عبده - لنفس ميزاتها الأثرية التي جعلتها بآمن من العيون - للاجتماع مساء بعد مساء للحديث والتشاور والتبؤ وانتظار الحوادث. كثيراً ما التقى الأخوان في حجرة من الحجرات الصغيرة ولو حين قليل أي حقّ يصل زملاء فهمي أو يأزف ميعاد ياسين للانتقال إلى حانة كوستاكي، وفي مرّة من هذه المرات أشار فهمي إلى كدر زينب شبيباً دهشته لسلوك أخيه الذي لا يتفق مع حياة زوجية ناشئة. ضحك ياسين ضحكة رجل يرى لنفسه الحقّ، كلّ الحقّ، في أن يضحك من سذاجة الآخر الذي ارتضى بأن يخاطبه بلسان الناصح فيما يجهل، بيدّ أنه لم يشأ أن يبرّد سلوكه مباشرة مؤثراً أن ينقّس عن صدره بما يمنّ له من قول، قال مخاطباً الشاب:

- رغبتي يوماً في الزواج من مريم، ولست أشك في أنك حزنّت جدّاً الحزن لموقف أليك الذي منع تلك الرغبة من أن تتحقّق... أقول لك، وأنا أدري بما أقول، إنك لو علمت وتذكّرت بما يخفي الزواج وراء

الرجال جميعاً، والزواج المخلص يحافظ على أماته وهو بعيد عن زوجته كما يحافظ عليها وهو بين يديها، ثمّ إنني أتزوّد من السهرة ترويضاً عن النفس ووجهة يعلنان من حياتنا متعة كاملة وليست عرضت بسكره محتجّة بأنّها وتخاف على صحّته ضحك وقال بنفس اللهجة الجامعة بين الرقّة والحزم وكلّ الرجال يسكرون، إن صحتي تتحسنّ بالسكر (ثمّ ضاحكاً مرّة أخرى) سلي أبي أو أباك! إلا أنّها مِتت بالاسترسال في مناقشته جرماً وراء أمل كاذب فتدّ حبل الحزم متشجّماً يملّه الذي هوّن عليه ما لم يكن ييؤن من إغاضابها فراح ينوّه بما للرجال من حقّ مطلق في أن يفعلوا ما يشاءون، وما حل النساء من واجب الطاعة والتزام الحدود وانظري إلى امرأة أبي هل رأيتها اهرتضت يوماً على تصرف لابي؟... حلّ ذلك فهنا زوجتان سعيدان وأسرّة مطمئنة، ينهي الآن نمرود إلى هذا الموضوع... لمعلّم لو كان تركّ إلى شعوره وحده ما اصططنع في خطابها ما اصططنع من سياسة فإنّ خبيته في الزواج جعلته يجد نوعها أحياناً ما يشبه الرغبة في الانتقام، وأحياناً أخرى نوعاً من الكراهية المتقطّعة وإن لم يكفّ من الرغبة فيها بين هذا وذاك، ولكنّه رأى عواطفها إكراهاً أو خوفاً من أبيه الذي علم معظم تملّقه بابيها السيّد عمّند حقّت. والحقّ لم يكن يكرهه شيء كإشفاقه من أن تشكوه إلى أبيها فيشكوه هذا بدوره إلى أبيه، حقّ لقد صمّم جاداً، إذا وقع شيء ممّا يحاذره أن يستغلّ بسكن مها تكن العواقب ولكنّ شاوهم لم تتحقّق، أثبتت الفتاة رغم حزنها أنّها امرأة «عاقلة» كأنّها من طراز امرأة أبيه نفسها، قلّرت موضعها حقّ قدره ونزلت عند حكم الواقع، مطمئنة - لبعليها - بما يركده دالّياً من إخلاصه وبراعة سهراته، قانعة من الألم والحزن بيئتها في دائرة الأسرة الضيقة - مجلس القهوة - من دون أن تظهر بتأييد جدّيّ، وكيف لها بذلك في بيئة ترى الخضوع للرجال ديناً وعقيدة، بل لعلّ السّت أمينة استنكرت شكواها وسخطت على ما تطمح إليه من استئثار غريب ببعليها، لأنّها لم يكن يسعها أن تتصوّر النساء إلا على مثالها هي ولا الرجال إلا على

سطحه لحملت الله على الفشل...

دهش فهمي لحذ الانزعاج لآته لم يتوقع أن يباغت في أول جملة يخاطب بها بالفاظ تجمع بين «مريم» و«الزواج» والرغبة، أفكار لميت على مسرح صدره أودارًا لا تنسى ولا تحصى آثارها، فلملّه بالغ في إظهار دهشته ليخفي ما أثارته الذكريات في نفسه من الشجن والتأثر، ولعلّه لذلك لم يستطع أن ينس بكلمة، فتابع ياسين حديثه وهو يلوح بيده سأمًا وملأًا قائلًا:

- ما كنت أتصور أن ينجلي الزواج عن هذا الحواء، إنه في الحق لا يعدو أن يكون حلماً كاذبًا، وقاسيًا ككل شيء غيب الخداع!

بدا له قوله عسير المضم مثيّرًا للرب كبا يخلق بشابٍ تدفق بتابع حياته الوجدانية نحو هدف واحد لا يتمثل له إلا في صورة «زوجة» وتحت مقولة «الزواج» فعز عليه أن يتناول أخوه المشتهر مقوكه المقدسة بهذه المرأة الساخرة، وتتم في دهشة بالغة:

- ولكن زوجك سيّدة... كاملة!

فهتف ياسين ساخراً:

- سيّدة كاملة! هو ذاك، أليست كريمة رجل فاضل؟... وريبة أسرة كريمة؟... جملة... مهذّبة... ولكن لا أدري أيّ شيطان موكل بالحياة الزوجية يجعل من جميع المزايا السالفة أعرافًا تافهة لا يُلقى إليها بهال تحت ضغط الملل ألكسليم كأنها بعض ما تدفق على الفقر من صفات الذيل والسعادة كلياً ترائى لنا أن نعزّي فقيراً عن فقره...

فقال فهمي ببساطة وصدق:

- لا أنهم حرفاً عما تقول.

- انتظر حتّى تعرف بنفسك...

- لماذا إذن يصّر الناس على الزواج منذ بدء الخليقة؟...

- لأن الزواج - كالموت - لا يتفق معه التحليل ولا الحذر...

ثم مستطرداً وكأنه يخاطب نفسه:

- لشد ما عثب بي الخيال فسبا بي إلى عوالم تفوق

مباهجها الأحلام، وظلما ساءلت نفسي: هل يجمعني حقاً بيت واحد بفساد حسنة إلى الأبد؟ يا له من حلم!... ولكنّي أؤكد بأنّه ليست ثمة مصيبة ألدح من أن يجمعك بيت واحد بحسنة إلى الأبد... وغمغم فهمي في حيرة رجل بعزّ عليه - فيها يكابد من أشواق الشباب - تصوّر الملل:

- لعلّه بدت لميتك أشياء وراء الظاهر الذي لا يعاب!

فقال ياسين وهو يضحك بمرارة:

- لا أشكو إلا الظاهر الذي لا يعاب!... شكواي في الحق منصّبة على الجبال نفسه... هو... هو الذي مللت لحذ السقم، كاللفظ الجديد يبهرك معناه لأول مرة ثم لا تزال ترتده وتستعمله حتّى يستري عندك والفاظ مثل «الكلب» و«الدودة» و«الدرس» و«سائر الأشياء المبتللة»، يفقد جدّته وحلاوته، وربما نسيت معناه نفسه فغداً مجرد لفظ غريب لا معنى له ولا وجه لاستعماله، ولعلّه لو عثر عليه الغيري في إنشائك أخذهم العجب لبراعتك على حين يأخذك العجب لغفلتهم، ولا تسلّ عا في ملل الجبال من فجعة، إذ أنّه ييسو ملأً بلا علو مقبول، وبالتالي قضاه عتوما... فباعتدّ الضاد من يأس ليس له من قرار. لا تعجب لقولي، إنّي عاذرك لأنك تنظر من بعيد، والجبال كالسراب لا يُرى إلّا من بعيد...

على مرارة اللهجة شك فهمي في حقيقة بواعثها إذ أنّه مال من بادئ الأمر إلى اتهام أخيه - لا الطبيعة البشرية - لما عوفه عنه من انحراف السلوك، ألا يجوز أن تُردّ شكواي في الحق إلى ما ليج به من مجون في حياته السابقة على الزواج؟... أصرّ على هذا الظنّ إصرار رجل يأبى أن يتجمع في أعزّ آماله، ولسّا كان ياسين لا يتّهم بأراه أخيه بقدر ما يتّهم بالإفصاح عا في صدره هو، فقد واصل حديثه وهو يتسم لأول مرة ابتسامة وضية:

- أصبحت أهدك موقف أبي حتّى الإدراك!...

وأفهم ما جعل منه ذاك الرجل العريد الراكض وراء العشق أبداً!... كيف كان يتأقّق له أن يصبر على

بذلك، وبذلك وحده تراءت له الحياة الزوجية محتملة، بل أثيرة ذات مزايا تفنقد. «فيم تطمح آية امرأة وراء البيت الزوجي والارتواء الجنسي؟... لا شيء...». إنهن حيوانات أليفة كالحيوانات الأليفة ينبغي أن يعاملن، أجل لا يجوز للحيوانات الأليفة أن تتطفل على حياتنا الخاصة وإنما عليها أن تنتظر في البيت حتى نفرغ لمدايعتها، أن نكون زوجاً خالصاً للحياة الزوجية هو الموت، منظر واحد وصوت واحد وطعم واحد لا تزال تتكرر وتكرر... حتى تغلب الحركة والجعود سئين، والصوت والصمت توأمين، كلاً كلاً، ما لهذا تزوجت... إن قيل إنها يضا، ألسنت ذا مأرب من السمراء، بل والسوداء... وإن قيل إنها مدمجلة لها عزائي عن النحلة والجمجمة، أو أنها مهذبة سليمة نبل وكرم فهل عطلت من المزاياب ربيبة الصريات الكارو؟... إلى الامام... إلى الامام...»

## ٥١

كان السيد مكباً على دفتاره حين طرقت فتية الدكان حذاء ذات كعب عال فرجع حيه باهتمام غريزي، قرأى امرأة تشتمل للملأمة اللث منها على جسم لحم وتنحسر حائلة البرقع الأسود على جبين ناصع وحيتين مكحولتين، فاستبسمت أساوره في ترحاب طال تشوقه إليه، وعرف من نوه الست أم مريم أو حرم المرحوم رضوان كما صارت تدعى أحياناً، ولما كان جميل الحمزاوي مشغولاً ببعض الزبائن فقد دعاها للجلوس على كتب من مكتبه، فاقبلت المرأة تخطر وجلست على المقعد الصغير الذي فاضت عنه أعطافها وهي تلقي إليه بتحية الصباح، ومع أن التحية من ناحيتها والترحاب من ناحيته جريا على النحو المهود الذي يتكرر كلما جاءته «زبونة» تستحق التكريم، فإن الجوق الذي غشى ركن الدكان من حول المكتب شعبن بكهرياء تموزها البراءة، لاحت أمارات لها في الجفنين المسبلين حياه حول عروس البرقع من ناحية، والنظرة المترصعة فوق سفحي الأنف العظيم من ناحية أخرى، كهرياء خفية صامتة إلا أن نورها

طعام واحد ربع قرن من الزمان وقد قتلي الملل بعد خمسة أشهر؟

فقال فهمي وقد قلق لإحكام أبيه في الحديث:

- حتى على افتراض أن شكواك صادرة من تعاسة مرتبة في الطبيعة البشرية، فالحل الذي تبشر به... (هم بأن يقول: بعيد عن الطبيعة السوية ثم عدل عنه ليكون أكثر منطقية فقال)... بعيد عن الدين...

فقال ياسين الذي كان يقنع من الدين دون اكتراث جدي لأوامره ونواهي:

- الدين يقيد رأيي، وأي ذلك أنه سمع بالزواج من أربع غير الجوارى اللاتي كانت نكتك بين قصود الخلفاء والأغنياء، فقد فطن إذن إلى أن الجهال نفسه - إذا ابتلته العادة والألفة - مل وأسمم وقتل...

فقال فهمي بأساً:

- كان لنا جد عسي مع زوجة وصبح مع أخرى فلعلك أن تكون ورثته... فستم ياسين متنبهاً:

- لعلي...

على أن ياسين - حتى ذاك الوقت - لم يكن أقدم على تحقيق حلم من أحلامه المتحررة، حتى أنه رجع إلى القهوة فالحانة ولكنه ترقد قبل أن يخطو الخطوة الأخيرة، قبل أن ينزل إلى زنوبة أو إلى غيرها، وما الذي جعله يفكر ويتردد؟... ربما لم يخل من إحساس بالمسئولية حيال الحياة الزوجية، وربما لم ينج من تيب لرأي الدين في «الزوج الفاسق» الذي توكد لديه أنه غير رأيه في «الشاب الفاسق» وربما أيضاً أن غيبة أقوى أمل ترد في جوانبه صدمت نفسه من لذات الدنيا حتى يفتق، على أن واحدة من أولاد لم تكن لتقيم في مسيله عائلاً جدياً خليفاً بأن يقف بحري حياته، إلا أنه وجد إغراء لا يصمت في سيرة أبيه التي استحوذت عليه، وما بدا من زوجه من «حكمة» قرننها في ذننه بامرأة أبيه فينبط خياله إلى رسم تخطيط لحياتها المستقبلية معه على مثال حياة الست أمينة مع أبيه، أجل غمى كثيراً لو تطمش زينب إلى الحياة التي تقدر عليها كما تطمش امرأة أبيه إلى حياتها، فيشب هو مثل وثبت أبيه الموقفة ليعود آخر الليل فيحظى بيت هادي وزوجة مستنمية.

تحاشى هذا الحاطر أن يفسد عليه الجو كله، ثم تسامح: هل يهاجم أو يمسك حتى يستدرجها إلى الهجوم؟ لكل طريقة للأناب... تيد أنه لم يشأ أن ينسى أن عجيبها وحده خطوة كبيرة من جانبها تستحق حسن الاستقبال من جانبها، فاستطرد قائلاً وكأنه يتمم حديثه الأول:

- بل فرصة طيبة كي أراك!

تحرك الجفنان والحاجبان حركة ربما دلت هل الحياة أو الارتباك أو كليهما معاً، ولكنها فضحت قبل كل شيء فطنتها إلى ما وراء مجاملتها الظاهرة من معانٍ خفية، هل أنه رأى في حياتها استجابة لشعورها الباطني الذي دفعها إلى زيارته أكثر منه استجابة لقوله، فإزداد اطمئناناً إلى تخمينه الأول وراح يؤكد ما عنده في نعمة رقيقة قائلاً:

- أجل فرصة طيبة كي أراك.

عند ذاك قالت بلهجة تنم عن عتاب حبيس:

- لا أعلن أنك تعد رؤيتي فرصة طيبة!

فوقعت لهجة العتاب من صدره موقع الرضى والسرور، لكنه قال كالمستحج:

- صدق من قال إن بعض الظنّ إثم.

فهزّت رأسها هزة كمن تقول له «مبهات أن يؤثّر فيّ مثل هذا الكلام» وقالت:

- ليس ثلثاً فحسب، إليّ أعني ما أقول، إنك رجل لا يعوزك الفهم، وأنا كذلك وإن توخّيت غيره... فلا يجوز لأحدنا أن يحاول خدع صاحبه.

ومع أنّ صدور هذا الكلام عن امرأة لم يتّضح هل وفاة زوجها شهران أثار في نفسه شعوراً بالسخرية والمرارة، فإنه تطوّع لانتحال الأعداء لها - الأمر الذي لم يكن ليفكر فيه في ظروف أخرى - قائلاً لنفسه: ما أخرى صبرها على مرضه الطويل بأن يشفع لها، ثم تخلّص من شعوره الطارئ بقوة وقال متصنّفاً للأسى:

- غاضبة عليّ؟ يا له من حقدٍ سيّئٍ لا أستحقّه!

فقالت في شيء من الاندفاع ربما كان الباعث عليه ضيق المكان والزمان عن ملاعبات الأخذ والردّ:

- قلت لنفسي وأنا في الطريق إليك «ما ينبغي أن

الكامن كان متحرّزاً في انتظار لمسة كي يسلمع ويشمّع ويستمر نازلاً... كأنه كان ينتظر هذه الزيارة التي انجابت عن آمال مهموسة وأحلام مكبوتة، ولكن لأن وفاة السيّد محمد رضوان أثارت منه فكراً وميجت رغبات كما يبيح انطواء الشتاء شقّ آمال الشباب في الطبيعة والأحياء، زال بموته الشجا الذي اعترض إحساسه بالمرودة فأمكنه أن يذكّر نفسه بأن المحروم لم يكن إلا جازاً - لا صديقاً - ورجل، كما أمكن شعوره بجمال هذه المرأة الذي أمّرض عنه قديماً حفاظاً على كرامته أن يصبر عن ذاته ويطلب نصيبه من الثقة والحياة، إلا أنّ عاطفته نحو زبيدة، كان أدركها العطب كالفأكة في نهاية موسمها، فالت المرأة منه - هل خلاف الزيارة السابقة - ذكراً متوكّياً وحائساً متحرّزاً... هل أن خاطرة ثقيلة - أن تكون الزيارة بريئة - مزّت به ولكنّه نفاها عن نفسه بقوة، مستشهداً بما بدا منها في الزيارة القديمة من رقيق الإشارات وديع الريب، مؤكّداً ظنونه بأنّ الزيارة نفسها التي ليس ثمة ما يوجبها إن لم يكن مثل ما يلود بنفسه، ثم صمّ أخيراً على أن يتلصص سبيله كخبر قديم... فقال لها برقة بأساً:

- خطوة حزينة!

فقالت في شيء من الارتباك:

- الله يكرمك، كنت راجعة إلى البيت فمررت بالدكان فترامى لي أن أخذ لوازم الشهر بشقي.

فطن إلى «اعتذارها» عن المجهيء ولكنّه أهى أن يصدّق فإن يترامى لها أن تأخذ لوازم الشهر بنفسها ليس شيئاً إن لم يكن وراعه دافع، لا سبياً وأنها تدري بالبهادة والغريزة أنّ عجيبها بعد «مقدمات» الزيارة القديمة خليق بأن يثر في نفسه الريب، وإن يسلو لعينه «تمسكاً» غير خافي الدلالة، فزادته مبادرتها إلى الاعتذار ثقة وقال:

- فرصة طيبة لأحييتك ولاكون في خلعتك!

فشكرته في اقتضاب أصغى إليه بنصف انتباه إذ شغل بالتفكير في الكلمة التالية، لعلّه كان من الطبيعي أن يعرّج هل ذكر الزوج الراحل تمرّحاً ولكنّه

- العفو كثيرًا ما يكون كلمة السر لولوج الجنة.  
ثم وهو يرون إلى ابتسامة عذبة لاحت في عينيها:  
- الجنة التي أعتيها تقع عند ملتقى بين القصرين  
بالتخاسين، ومن جبل التوفيق أدبًا بابها يفتح على  
عطفة جانيبة بعيدًا عن أمين الرقيب، وألا حارس لها  
وفطن إلى أن حارس الجنة السجادة سمي «المرحوم»  
الذي كان حارسًا للجنة الأرضية التي يتلمس طريقه  
إليها، فشاب خاطره ضيق وخاف أن تكون المرأة قد  
فطنت إلى نفس الحقيقة الساخرة ولكنّه وجدها مهومة  
فيا يشبه الحلم لتتهدد وهو يستنفر الله في سرّه. وكان  
جبل الحمزاوي قد فرغ من زيارته، فاقبل على السيّد  
ليقضي حوائجها فسنحت للسيّد فرصة للتأمل، فراح  
يذكر كيف رغب ابنه فهمي يومًا في خطبة مريم ابنة  
هذه المرأة، ثم كيف ألمه الله الرفض، وقد اعتقد  
وقتك أنّّه إنّما يتنقذ مشيئة حرمه فحسب، فلم يثر له  
بخلد أنّه جنب ابنه شرّ مأساة يُكب بها زوج، وهل  
يمكن أن تنجح فتاة إلا على مثال أمّها؟... وأي  
أمّ؟... امرأة خطيرة... قد تكون جهره شينة  
عند أمثاله من الصيادين، ولكنّها في البيوت مأساة  
دائمة، ترى أيّ طريق سلكت طوال الأعوام التي  
عاشها زوجها مثلاً؟... كلّ القران تشير إلى  
طريق واحد، ولعلّ كثيرين من الجيران يعرفون، بل  
لعلّه لو كان في بيته من يحسن ملاحظة هذه الأمور لما  
خفي عليه شيء، ولما بقيت زوجته على الولاء لها  
والإيمان بها حتى هذه الساعة، وهاودته رغبة -  
استحوذت عليه أوّل مرّة عقب الزيارة الربية القديمة،  
ولم يجد عندئذ سبيلًا آمنًا إلى تحقيقها دون إشارة  
الريب - وهي أن يحول بين المرأة المستهتر وبين بيته  
الطاهر، الآن يرى الطرف مهيبًا - لتحقيق رغبته،  
وذلك بأن يوحى لها بقطع أساليب بزوجه رويدًا رويدًا  
متحلاً ما يمنّ له من أعذار حقيقة يبلوغ الهدف دون  
مساس بكرامتها، هذه المرأة التي باتت أقرب ما تكون  
إلى فؤاده وأبعد ما تكون من احترامه في لحظة واحدة!  
وكما انتهى الحمزاوي من إعداد حوائجها غشيت مائة  
يدها إلى السيّد فسلم بأسًا وهو يقول بصوت خافت:

تلحي... فلا يحقّ لي الآن أن ألوّم إلا نفسي!  
- بعض هذا الغضب يا سيّد... إلّا أسألك  
نفسى حمًا جنيت؟  
فتساءلت بلهجة ذات معنى:  
- ما عسى أن تصنع إذا حيّيت إنسانًا بتحية فلم يرّد  
بتلها ولا حقّ بأسوأ منها؟  
فأدرك من توه أنّها تشير إلى ما بدا منها في الزيارة  
القديمة من توفّد قابله بالصمت، ولكنّه تجاهل  
الإشارة... وقال بجراحة لأسلوبها الرمزي:  
- لعلها لم تبلغ سمعه لسبب أو لآخر.  
- إنّه قويّ السمع والحواس جميعًا.  
فجرت على فمه ابتسامة عجّبت لم يتالكها، قال  
بلهجة المذنب إذا أنشأ يعترف:  
- لعلّه لم يرقها حيلة أو تقوى.  
فقالت بصراحة أعجبت وهزّت فؤاده:  
- أمّا الحياء فلا حياء له، وأمّا سائر الأعداء فمن  
أين للقلوب الصادقة أن تبالغوا؟  
فندّبت عنه ضحكة ما لبث أن اختزلها وهو يسترق  
النظر إلى جبل الحمزاوي الذي بدا منهمكًا في العمل  
بين نفر من الزبائن، ثم قال:  
- لا أحبّ أن أهود إلى الملابس التي قست عليّ  
وقدّلك، على أنّه لا يجوز لي أن أياس ما دام ثمة ندم  
وتوبة وعفو!  
فتساءلت في إنكار:  
- من يدرينا بالندم؟  
فقال بلهجة حارّة برع في تجرّعها عالمًا بعد عام:  
- تجرّعته طويلًا والله شهيد!  
- والتوبة؟  
فقال وهو يبتغي بنظرة متوجّهة:  
- أن ترّد التحية بعشر أمثالها؟  
فتساءلت في دلال:  
- ومن أدراك بأنّ ثمة عفوًا؟  
فقال بلباقة:  
- أليس العفو من شيم الكرام؟  
ثم في نشوة مسكرة:

- إلى اللقاء.

فتمخمت وهي همّ بالانصراف:

- نحن في الانتظار.

خادرته أوفر سعادة، نشوان بالظفر والشُجب، ولكنّها خلقت له أيضًا همًّا لم يكن، همًّا جديرًا بأن يحتل مكانًا بارزًا من مشاغله اليومية، سوف يتساءل من الآن فصاعدًا عن أمن السبل للانسحاب من بيت زبيدة بنفس الاهتمام الذي يتساءل به عمّا فعلت السلطة العسكرية وعما بيّت الإنجليز وعما ينوي سعد، أجل جدّ جديد من السعادة يجرّ وراءه - كالعادة - فئلاً من الفكر. لولا حرصه الشديد على حبّ الناس له، ذلك الحبّ الذي يعظي منه بأسعد سماعته، لمان عليه هجر العالة بعد أن بلى حبه وذوت أزاره وأغرقه الشيع في مستنقع آسن، ولكنه يشفق دائمًا من أن يترك وراءه قلبًا حائقًا أو نفسًا حاقدة، وكم يؤذ كلبًا ضيق اللئل أنفاسه لو يبداه الحبيب بالمحجر من ناحيته ليكون مهجورًا بدل أن يكون هاجرًا، وكم يؤذ أن تنتهي علاقته بزبيدة كما انتهت أخوات لها من قبل، بكدر عابر تفصله هدايا الوداع المتقاة، ثم يستحيل على صداقة وطيدة، فهل تتقبّل زبيدة - التي يظنّ أنّها ليست دونه شبيهاً - اعتذاره بقبول حسن؟ وهل يطمع في أن تغفر له هداياه ما اعتزم من هجر؟... هل تثبت أنّها امرأة كبيرة القلب سخية النفس كزميلتها جليلة مثلاً؟ هذا ما ينبغي أن يفكر فيه طويلًا وأن يبيّن له أنجح الذرائع. وتتبدّد تهكّة طويلة كأنما يشكو ما جعل الحبّ فائتًا لا يلوم ليكني القلب متاعب الأهواء ثم شرد به الخيال طويلاً النهار فترأى له وهو يندب في الظلماء متلمّسًا سبيله إلى البيت الموعود، والمرأة تنتظر بيدها سراج.

## ٥٢

«أعلنت إنجرلتر حمايتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية، فهي حماية باطلّة لا وجود لها قانونًا بل هي ضرورة من ضرورات الحرب تنتهي بنهايتها...».

كان فهمي يملئ الكلمات، كلمة كلمة، في أناسة ويصوت واضح الثبرات والألم ياسين وزينب يتابعون باهتمام درس الإملاء الجديد الذي انكبّ كمال على كتابته، مركّزًا وجهه في ألفاظه من دون أن يفقه معنى كلمة عمّا كتب صوابًا أو خطأ. لم يكن غريبًا أن يلقي فهمي على شقيقه الصغير درسًا في الإملاء أو غيرها في جلسة القهوة، ولكنّ موضوع الإملاء بدا جديدًا حتّى للألم وزينب، أمّا ياسين فنظر إلى أخيه مبتسمًا:

- أرى هذه المعاني قد ملكت عليك نفسك... فلم يفتح الله عليك بالإملاء لهذا الغلام المسكين إلا خطبة سياسية وطنيّة يفتح لها الملقن من أبواب السجون.

فبادر فهمي إلى تصحيح رأي أخيه قائلاً:

- هي من خطبة سعد أمام سلاطين الاحتلال في جمعية الاقتصاد والتشريع.

فتساءل ياسين باهتمام ودهشة:

- وكيف كان ردّهم عليه؟

فقال فهمي بانفعال:

- لم يحجّ ردّهم بعد، والكلّ يتساءل عنه في حيرة وقلق، إنّها غضبة مزجّرة في وجه أسد لم يؤثّر عنه الحلم أو العدل.

ثمّ وهو يتحدّث مغنيًا عنفًا:

- كان لا بدّ من غضبة بعد أن مُنح الولد من السفر، وبعد أن استقال رشدي باشا من الوزارة فخيّب السلطان المأمول بقبول استقالتة.

ثمّ مضى إلى حجرته مسرعًا، وهاد وهو ييسط ورقة مطوية وقدمها إلى أخيه وهو يقول:

- ليست الخطبة كلّ ما عندني، اقرأ هذا المنشور الذي يورّع سرًّا متضمّنًا رسالة الولد إلى السلطان...

فتناول ياسين المنشور وراح يقرأ:

- وبا صاحب العظمة...».

يتشرّف الموقّعون على هذا أعضاء الوفد المصريّ أن يرفعوا إلى مقام عظمتكم بالنيابة عن الأمة ما يلي:

لما اتّفق المحاربون على أن يمحّلوا مبادئ الحرّيّة والعدل أساسًا للصالح وأعلنوا أنّ الشعوب التي فُيرت



العمل لاستقلال بلادكم، غير أنّ حلّ المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين أظهرّا احترامهما لإرادة الأمة لا يمكن أن يتفق مع ما تجلبتم عليه من حبّ الخير لبلادكم، والاعتداد بمشقة شعبكم، لذلك عجب الناس من مستشاركم كيف أتّم لم يفتخروا إلى الأمة في هذا الظرف العصيب وهي إنّما تطلب منكم - يا أرشد أبناء عرّزها الكبير عمّد عليّ - أن تكونوا لها العون الأوّل على نيل استقلالها، معها كلّكم ذلك، فإنّ منكم أرفع من أن تحدّها الظروف. كيف فلت مستشاركم أنّ عبارة استقلال رشدي باشا لا تسمح لرجل مصريّ ذي كرامة وطنية أن يخلفه في مركزه؟... كيف فلتهم أنّ وزارة تؤلف على برنامج

مضادّ لمشيئة الشعب مقفّية عليها بالفلّ؟!

عفوًا مولانا قد تكون مدّخلتنا في هذا الأمر وفي غير هذا الظرف غير لائقة... ولكنّ الأمر قد حلّ الآن من أن يُراعى فيه أيّ اعتبار غير منفعة الوطن الذي أنت خالعه الأيمن. إنّ لولانا أكبر مقام في البلاد فعليه أكبر مسئولية عنها، ولي أكبر رجاء لها، وأتأنا لا نكليه النصيحة إذا تضرّعتا إليه أن يتعرّف رأي أئمة قبل أن يتخذ قرارًا نهائيًا في أمر الأزمة الحالية، فإنّا نؤكّد لسئته العلية أنّه لم يبق أحد في رعاياه من أقصى البلاد إلى أقصاها إلّا وهو يطلب الاستقلال، فالحيلولة بين الأمة وبين طلبتها مسئولية لم يتحرّر مستشارو مولانا أمرها بالدقّة الواجبة، لذلك دلّمنا واجب خدمة بلادنا وإخلاصنا لولانا أن نرفع لسئته شعور أئمة التي هي الآن أشدّ ما تكون رجاءه في استقلالها وأخوف ما تكون من أن تلعب به أيدي حزب الاستعمار، والتي تطلب إليه بحقّها عليه أن يفضب لغضبها ويقف في صفّها فتتال بذلك غرضها... وآه على ذلك قدير...»

رفع ياسين رأسه عن المشور وفي عينيه دموع وفي قلبه نبض جليد من التأثير، بيد أنّه هرّ رأسه قائلاً:  
- يا له من خطاب!... لا أحسبي أستطيع أن أؤجّه مثله إلى ناظر مدرستي دون أن ينالني العقاب الرابع...!

رفع فهمي منكبيه استهانة وقال:

الحرب مركزها يؤخذ وأبها في حكم نفسها، أخذنا على عاتقنا السمي في استقلال بلادنا والدفاع عن قضيتنا أمام مؤتمر السلام ما دام أنّ الحقّ للأقوى قد زال من ميدان السياسة، وما دامت بلادنا قد أصبحت بزوال السيادة التركية حرّة من كلّ حقّ عليها لأنّ الحماية التي أعلنها الإنجليز بلا اتّفاق بينهم وبين الأمة للصّرية باطلة، ولم تكن في الواقع إلّا ضرورة حربية تزول بزوال الحرب، اعتمادًا على هذه الظروف وصلّى أنّ مصر غرّمت كلّ ما قدوت عليه من المغارم في صفّ الغالين بحقّ حرّة الأمم الصّغرى، لا يكون لدى مؤتمر السلام ما يمنع من الاعتراف بحريّتنا السياسيّة جرمًا على المبادئ التي أسّس عليها.

عرضنا رغبنا في السفر على رئيس وزراءكم صاحب الدولة حسين رشدي باشا، فوجد بمساعدتنا على السفر وثوقًا منه بأنّا إنّما نعبّر عن رأي الأمة كافة... فلما لم يُسمح لنا بالسفر وجسنا داخل حدود بلادنا بقوة الاستبداد لا بقوة القانون، وحيل بيننا وبين الدفاع عن قضيتنا هذه الأمة الأسفة، ولمّا لم يستطع دولته أن يحتلّ مسئولية البقاء في منصبه في حين أنّ الشعب يصادق في مشيئته، استقال هو وزميله صاحب المال عليّ يكن باشا استقالة نهائية فبولت من الشعب بتكريم شخصيهما والاعتراف بصديق وطنيهما. ولقد كان الناس يظنون أنّه كان لها في وقتيهما الشريفة دفاعًا عن الحرّية عهد قويّ من نفحات عظمتكم، لذلك لم يكن ليتوقّع أحد في مصر أن يكون آخر حلّ لمسألة سفر الوفد بقبول استقالة الوزيرين، لأنّ في ذلك متابعة للطامعين في إفلاتنا وتمكينا للعبة التي ألقيت في سبيل الإدلاء بحجّة الأمة إلى المؤتمر، ولإدانتنا بالرّضى بحكم الأجنبيّ علينا إلى الأبد.

قد نعلم أنّ عظمتكم ربّما كنتم مضطّرين لاعتبارات عائلية أن تقبلوا عرش أيبكم العظيم الذي خلا بانتقال أخيك المفطور له السلطان حسين، ولكنّ الأمة من جهة أخرى كانت تعتقد أنّ قبولكم لهذا العرش في زمن الحماية الوقتيّة الباطلة رعاية لتلك الظروف العائلية ليس من شأنه أن يصرفكم عن

- الأمر قد جُلّي الآن عن أن يراهي فيه أي اعتبار غير منفعة الوطن...!

ردّد العبارة عن ظهر قلب كما وردت في المنشور، فلم يتالك ياسين أن يقول ضاحكاً:

- أحفظت المنشور... ولكنّي لا أعجب لهذا، كأنك كنت تترصد طول حياتك لمثل هذه الحركة كي تلقى إليها بكل قلبك، ولعلّي لا أدخل من مثل شعورك وآمالك، ولكنّي لا أنكر على الاحتفاظ بهذا المنشور... خصوصاً بعد استقالة الوزارة وتحرش الأحكام العرفيّة...!

فقال فهمي في فخار:

- إني لا أحتفظ بها لحسب، ولكنّي أقوم بتوزيعها ما سمع الجهد...!

فالتصمت عينا ياسين في قلق وهم بالكلام... ولكنّ الأمّ كانت أسبق إليه منه فقالت بانزعاج:

- لا أكاد أصدّق أدنيّ، كيف تعرّض نفسك للشرّ وأنت سيّد العقلاء؟!

لم يذّر فهمي كيف يبيها، ولكنّه شرع بما جرّه عليه تهوره من حرج، لم يكن أشفق عليه من عاداتها في هذا الأمر، كانت الساء أقرب إليه من إقناعها بأنّ تعرض نفسه للخطر في سبيل الوطن واجب ما دام الوطن كلّهُ لا يساوي في نظرها قلّامة ظفر، بل قد بدا له أنّ إخراج الإنجليز من مصر أيسر من حلها على الاقتناع بوجوب إخراجهم أو إغرائها ببضهم، فما إن يدور الحديث حول ذلك حتّى تقول ببساطة ولماذا تكرههم يا بنيّ!... أليسوا أناساً مثلاً لهم أبناء وأمّهات؟! فيقول لها بحسنة: «ولكنّهم يحتلون بلادنا...» وتجنّس بحسنة الغضب في نبراته فتلوذ بالصمت وهي تداري نظرة إشفاق لو نطقت لقلت له ولا عليك من هذا... ومرة قال لها وقد ضاق بمنطقها: «لا حياة لقوم إذا حكمهم أجنيّ» فقالت له في استغراب: «ولكنّا لا نزال أحياء رغم أنّهم يحكمونا من زمن بعيد، وقد أنجبناكم جميعاً في ظلّ حكمهم...» إنهم يا بنيّ لا يقتلون ولا يتمرّضون للمساجد ولا نزال أمة عمّد بخير! فقال الشاب

يائساً: «لو كان سيّدنا محمّد حيّاً ما رضي أن يحكمه الإنجليز» فقالت بلهجة الحكيم: «هذا حقّ، ولكن أين نحن من الرسول عليه الصلاة والسلام...؟ كان الله يعينه بملاكته...» فهتف بها حانقاً: «سيمعل سعد زغلول ما كانت الملائكة تعلمه ولكنّها هضت وهي ترفع ذراعيها كأنّها تدفع بلاء لا دافع له: ولا تقل هذا يا بنيّ، استغفر ربّك، اللّهمّ رحمتك وغفرانك!...» هذه هي، فكيف يبيها الآن وقد استشعرت في توزيع المنشور خطراً يتهدّه؟... لم يسمعه إلّا أن يركن إلى الكذب فقال متصنّفاً الاستهانة:

- ما أردت إلّا المزاح فلا تنزعجي للآثي...!

فعاذت المرأة تقول بنبرات تنمّ عن ضراعة:

- هذا ما أؤمن به يا بنيّ، هيئات أن يجيب ظنيّ في أرشد الراشدين، ما لنا نحن وفلذه الأمور إذا رأى باشواتنا أن يخرج الإنجليز من مصر فليخرجهم بأنفسهم.

بدا كمال طوال الحديث وكأنّه يحاول أن يتدعّر أمراً ذا بال، لما بلغ الحديث تلك النقطة حتّى صاح:

- مدرّس العربي قال لنا بالأمس إنّ الأمم تستقلّ بمزائم أبنائها...!

فهتفت الأمّ ساعطة:

- لعلّه قصد بخطابه كبار التلاميذ، ألم تحذني يوماً بأنّ عندكم تلاميذ قد ظهرت شوايرهم؟

فتساءل كمال بسداجة:

- وأخي فهمي أليس تلميذاً كبيراً؟

فقالت الأمّ بحسنة على غير مألوفها:

- كلا ليس أخوك كبيراً، إني أعجب لذلك المدرّس كيف سوّلت له نفسه أن يتحدّث إليكم في غير الدرس...! إذا شاء أن يكون وطنياً فليوسّج هذا الكلام إلى أبنائه في البيت لا إلى أبناء الناس...!

كاد الحديث يحسّ ويستمرّ لولا أن سمعت كلمة عابرة فغيّرت مجراه، أرادت زينب أن تتودّد إلى الأمّ بتأييدها في دفاعها فحملت على مدرّس العربي ونعتته بأنّه «مجاور حقير عملت الحكومة منه رجلاً ذا شأن في

- أما سمعتم بأمر الأبناء؟... مألطة!  
وضرب يداً بيد وراح يقول:  
- النفي إلى مألطة، لم يعد أحد منهم بيتنا، نفوا  
سعداً وأصحابه إلى جزيرة مألطة...  
وهض الجميع في نفس واحد:  
- نفوهم!...

أثار «النفي» في نفوسهم ما خامرهم منذ الصبا من  
ذكريات قديمة أسيفة عن عرابي باشا ونبايته، فساءلوا  
وهم لا يملكون قلوبهم من الجزع: أيجري نفس المصير  
على سعد وزغلول وصحبه؟... أينقطع حقاً ما بينهم  
وبين الوطن إلى الأبد؟... انموت هذه الآمال الكبار  
وهي لا تزال في مهد الإزهار؟... وشعر السيد بحزن  
لم يشعر بمثله من قبل، حزن ثقل غليظ شاع في  
صدره كما يشيع الفئان، حال تحت وطأته خمروداً  
وهوذاً واختناقاً وجعلوا يتبادلون نظرات ساهمة واجمة،  
ناطقة بغير لسان، صارخة بلا صوت، شائرة بلا  
صخب، وفي الريق مرارة واحدة، ثم جاء في أثر الفار  
صاحب وثاني وثالث مرتدين نفس النبا، أملين في أن  
يجدوا عند الآخرين مسكناً لما يستعمر في نفوسهم، فلا  
ينظفرون إلا بالخزن الصامت والوجوم الكتيب والثوران  
الكظيم.

- هل تضعب الآمال اليوم كما ضاعت بالأمس؟  
فلم يجز أحد جواباً، ولبت المسائل بقلب حينه في  
الوجه دون جدوى، لا جواب تأتي إليه النفس من  
مضطربها وإن أبت أن تسلم جهازاً بما يمتها خوفاً،  
نفي سعد... هذا حق، ولكن هل يعود سعد ولو  
بعد حين؟... وكيف يعود سعد؟... آية قوة تعيده؟  
لن يعود سعد، فابن تلعب هذه الآمال العراض؟.  
لقد انبثقت من الأمل الجديد حياة حارة عميقة بأى  
استحوارها عليهم أن يسلمهم للباس ولكنهم لا  
يدرون كيف يعملون النفس ببيتها من جديد.  
- ولكن اليس ثمة أمل في أن يكون الخبر شائمة  
كاذبة؟

لم يجر أحد القاتل التفاتاً في حين لم يغفل هو بهذا  
التجاهل لأنه لم يقصد بقوله في الحق إلا تلمس

غفلة من الزمان... ولكن ما إن سمعت الأم هذه  
الإماتة توجه إلى «المجاور» حتى أفانقت من انفعالها  
وأبت أن تسكت عنها رغم أنها قبلت تأييداً لها،  
مدفوعة بكل ما تنطوي عليه نفسها من إجلال لذكرى  
أبيها فتحوّلت إلى زينب وقالت بهدوء:

- أنت يا ابنتي تحقرين أشرف ما فيه، الشيخوخة  
خلفاء الرسل، إنما يلام الرجل على خروجه عن حدود  
وظيفته الشريفة، ألا ليتك قنع بأن يكون مجاوراً  
وشيكاً!...

ولم يفت ياسين سرّ تحوّل الأم المفاجئ، فبادر  
بالتدخل ليحمو الأثر الذي تركه دفاع زوجته  
البريء...

### ٥٣

- انظر إلى الطريق، انظر إلى الناس، من يقول بعد  
هذا إن الكارثة لم تقع؟!

ولكنّ السيد أحمد لم يكن في حاجة إلى مزيد من  
النظر، الناس يتساءلون، ويرجسون، وأصحابه  
يخوضون في الحديث خوفاً حاراً تجاهوت فيه الحسرة  
مع الحزن مع الغضب، إلى أن أخبر قد تركد على  
السنة كافة من مرّ به من الأصدقاء والزبائن، أجمع  
الكلّ حل أن سعد وزغلول وصفوة أصحابه قد اعتقلوا  
وسيقوا إلى مكان مجهول في القاهرة أو خارجها، قال  
السيد حقّ وهو يحتمن الوجه بدم الحق:

- لا تشكروا في صفة الخير فإنّ لأخبار السوء رائحة  
تزكم الأنوف... ألم يكن هذا متوقفاً بعد خطاب  
الوفد للسلطان؟... أو بعد رده على الإنذار البريطاني  
بذلك الخطاب الجبار إلى الوزارة الإنجليزية؟...

فقال السيد بوجوم شديد:

- يحتفلون بالباشوات الكبار... يا له من حدث  
غيف، ترى ما عسى أن يصنعوا بهم؟

- الله وحده يعلم، البلد يفتن في ظلّ الحكم

المرفي...

ودخل عليهم السيد إبراهيم الفار تاجر النحاس  
مهزولاً وهو يبيت لاهثاً:

متسكراً على ما أثلج صدره من ارتياح:

- نشرب في مثل هذا اليوم!؟

فحجده السيّد أحمد بنظرة ذات معنى، ثم قال متهاكاً:

- دعهم يشربوا وحدهم وهلمّ بنا إلى الخارج يا بن... الكلب.

نلت عنهم ضحكات لاوّل مرّة ثمّ جاءوا بالقوارير وكأنّما أراد السيّد أن يحتل عن السلوك فقال:

- إنّ اللهو لا يغيّر ما بقلوب الرجال!

فأمّنوا على قوله، كانت أوّل ليلة يتردّدون طويلاً قبل الاستجابة إلى نداء الصّبوات، وما لبث السيّد أن قال متأثراً بمنظر القوارير:

- إنّما ثار سعد لإسعاد المصّرّين لا لتعليبهم فلا تحجلوا عند الحزن عليه من معاقرة الشراب.

لم يكن الحزن يمنعه من المزاح، بيد أنّ الليلة لم تنبأ بصفاء خالٍ من الكدر، حتّى وصفها السيّد فيما بعد بأنّها «ليلة مريضة تدابوا فيها بجرعات من الحمراء»

\*\*\*

استقبلت الأسرة مجلسها التقليديّ في جوس من الوجوم لم تعده من قبل، انطلق فهمي في حديث ثوريّ والدموع في عينيه، واستمع ياسين أسفاً حزناً، وودّعت الأم أنّ تبدّد الكآبة أو تخفّف البلوى ولكنّها أشققت من انقلاب غرضها عليها، ثمّ ما لبثت عدوى الحزن أن انتقلت إليها فرقّ قلبها للشيخ المعجوز الذي انتزعوه من بيته وزوجه إلى منفى بعيد، قال ياسين:

- أمر عزن، وجالنا جميعاً، عباس ومحمّد فريد وسعد زهلول... مشرّكون بعيداً عن الوطن...

فقال فهمي بانفعال شديد:

- يا هم من أوغاد هؤلاء الإنجليز!... نخاطبهم باللفة التي كانوا يستعطفون بها الناس في محتهم فيجيئون بالإنذارات العسكرية والنفي والتشريد...

لم تطّلي الأم أنّ ترى ابنها منفعلاً على تلك الحال فنسيت مأساة الزعيم وقالت برقة واستعطاف:

- ارحم نفسك يا بني، ربّنا يلطّف بنا...!

ولكن هذه اللهجة الرقيقة زادته هياجاً فصاح دون

مهرب - ولو وهمي - من اليأس الخائق.

- أسرّه الإنجليز... ومن ذا يغالب الإنجليز!

- رجل ولا كلّ الرجال، بحث لحظة من الحياة باهرة، ومضى.

- كالحلم... وسوف يُنسى فلا يبقى منه إلّا ما يبقى من حلم عند الضحى...

وهتف هاتف بصوت أبسه الألم:

- الله موجود...

فهتفوا بصوت واحد:

- نعم... وهو أرحم الراحمين...

ذكر اسم الله فكان كالفطب للمغبط، جلب إليه شواردهم وجمع أفكارهم التي شتتها اليأس. وفي مساء ذلك اليوم - ولأوّل مرّة منذ ربع قرن أو يزيد - بدا مجلس الإخوان مجالماً للهو والطرب يشاه الوجوم، وتجنّبه أحاديثه جيماً إلى الزعيم المنفيّ. قهرهم الحزن، وإن يكن وجد بينهم من تنازعه الحزن والرغبة في الشراب مثلاً، فقد غلب الأولى على الثانية احتشاماً للشعور العامّ ومجاعة للموقف، بيد أنّه لبّ طال بهم مطال الحديث حتّى استفدوا أغراضه لأدوا بما يشبه الصمت، وما لبث أن ركّبهم قلق خفيّ وشى بحكّة الإدمان التي تنفّ في أحمالهم فبدوا وكأنّهم يتنظرون إشارة الجسور الذي يتقدّم الصفوف، ولكن السيّد محمّد عفت قال فجأة:

- أن لنا أن نعود إلى بيوتنا...

لم يكن يعني ما يقول، ولكن كأنّما أراد أن ينلدهم بأنهم إذا تركوا الوقت مضى كما مضى فلن يبقى أمامهم إلّا أن يعودوا إلى بيوتهم، وكانت المعارضة الطويلة لفتنتهم دقيق التفاهم بالإشارة فتشجّع عليّ عبد الرحيم باع التديق بهذا الإنذار الخفيّ وقال:

- نعود إلى البيت دون كأس تخفّف من بلوى هذا اليوم!

فأحدث قوله في النفوس ما يحدث الجراح في أهل المريض إذا خرج عليهم من حجرة الجراحة وهو يقول «الحمد لله... نجحت العملية»، إلّا أنّ الذي تنازعه الحزن والرغبة في الشراب قال فيها يشبه الاحتجاج

أن يلتفت إليها:

من زوج ياسين إدراكًا لبراهن هذه المواقف فبدأ رأسها لم يتلَّ من ذكرى عرابي كما أن قلبها لم يتلَّ من أسف حل أفندينا، أجل لم تكن كلمة «النفي» عاطلة من المعاني في نفسها، بل لعلها غلت من الأمل الجليدي بأن يداعب شخصًا كهفي فقد اقترنت في ذهنها - كما اقترنت في ذهن زوجها وأصحابه - بالياس من العودة،

والأ فابن أفندينا؟... ومن أجدر منه بالصودة إلى وطنه؟... ولكن أياها ففهي حل حزنه ما امتد النفي بسعد. ترى أي نص في هذه الأيام يأتى إلا أن يبتهم بنبا ويصحبهم بنبا حتى زلزل أمنهم وكثر صفوفهم؟ كم تمنى أن يعود السلام إلى ربوعه، وأن تطيب هذه الجليلة كما طابت العمر كله، وأن تنبسط أسارير ففهي ويلد الحديث، كم تمنى... مألطة... مألطة... مألطة!

فكذا صاح كمال فجأة وهو يرفع رأسه عن خريطة البحر الأبيض وقد ثبت أصبعه على رسم الجزيرة ونظر إلى أخيه بظفر وسرور كأنما عثر على سعد زغلول نفسه، ولكنه وجد منه وجهًا متجهًا كالحمار، لا استجاب إلى ندائه ولا أعاره أدل اهتمام فاخ الغلام وأعاد بصره إلى رسم الجزيرة في ارتباك وسهارة، ومضى يتأمل طويلاً وهو يقبس ببصره للمسافة بينه وبين الإسكندرية وبين القاهرة ويتخيل صورة مألطة الحقيقة ما شاء له الخيال، ومنظر أولئك الرجال الذين يتحدثون عنهم وهم مسوقون إليها. ولما كان قد سمع ففهي وهو يقول عن سعد إن الإنجليزي قد ارتفع على أسنة الرماح فإنه لم يسمه أن يتصوره إلا محمولاً على أسنة الرماح، لا مثاليًا أو صارعًا كما يتوقع في مثل تلك الحال ولكن «ثابتًا كالطود» كما وصفه أخوه أيضًا في مرحلة أخرى من الحديث، وكم ود لو يستطيع أن يسأل أخاه عن مئة ذلك الرجل الساحر المعبود الذي يثبت على أسنة الرماح كالطود، ولكنه حيال نورة الغضب التي التهمت سلام المجلس كله أجل تحقير رغبته إلى فرصة أنسب، وأخيرًا ضاق ففهي بمجلسه بعد أن أبقن أن ما بصدرة من عاطفة أكبر من أن تروج عنها محادثة أخيه في هذا المكان الذي يقف من

- إذا لم تقابل الإرباب بالغضب الذي يستحقه فلا عاش الوطن بعد اليوم، لا يجوز أن تنعم البلاد بالسلام وزعيمها الذي قُدم نفسه فدية لها يعاني عذاب الأسر...!

فقال ياسين متفكرًا:

- من حسن الحظ أن الباسل باشا بين المتفنين، إنه شيخ قبيلة مرهوية الجاناب ولا أظن رجاله يسكنون على نفيه...!

فقال ففهي بحدة:

- والأخرون؟ اليس وراءهم رجال أيضًا؟... إنها ليست قضية قبيلة ولكنها قضية الأمة كلها...!

جرى الحديث بلا توقف وما يزداد إلا حدة وعنفًا ولكن المراتين لاذت بالصمت إشفاقًا ورحمًا، لم تستطع زينب أن تترك بواعث هذه الثورة العاطفية فلم تفهم لها معنى، نفي سعد ورجاله معه، ومن المؤكد أنهم لو عاشوا كما يعيش «عبد الله» ما فكر أحد في نفيهم، ولكنهم لم يريدوا ذلك، أرادوا أمورًا خطيرة مرادها وخيم المواقف دون ثمة ضرورة تدعو إليها، ومهما يكن من أمرهم فإذا يمت ففهي على هذا الغضب الجنوني كأن سعدًا أبوه أو أخوه؟ بل ماذا بحث ياسين - وهو الرجل الذي لا يأتوي إلى فراشه إلا مترنحًا من السكر - على هذا الأسف؟ أيجوز حقًا من كان مثله على نفي سعد أو غيره من الناس؟ كأن حياتها في حاجة إلى مزيد من التنفيس حتى يغير ففهي عليها صفو الجليلة القصيرة بهذه الثورة التي لا معنى لها. جعلت تفكر في هذا كله وهي تلحظ زوجها من آني لآخر متبجبة ساخطة لسان حالها يقول له:

«إن كنت صادقًا حقًا في حزنك فلا تلعب هذا المساء - هذا المساء فقط إلى الحانة؟» ولكنها لم تنس بكلمة، كانت أحكم من أن تلقي بأفكارها الباردة في هذا التيار الناري، في هذه الناحية الأخيرة شابتها الأم التي سريًا ما تفقد شجاعتها حيال الغضب وإن هان، لذلك لاذت بالصمت وانطوت على ضيق شديد وهي تتابع مشقة الحديث الثائر المائج، ولكنها كانت أعظم

أنه انتزع نفسه من الفراش، أما أبوه فلعله الآن متصبب القامة تحت ماء الدش البارد، وما هو نور الصباح ذو البهاء والحياة تستأذن طلائعه في رقة بالغة، كل شيء يواصل حياته المهددة كأن شيئاً لم يحدث، كأن مصر لم تغلق رأساً على عقب، كأن الرصاص لا يعزف باسماً عن الصدور والرءوس... كأن الدم الزكي لا يثقب الأرض والجدران. وأغمض الشاب عينيه وهو يتهد مبتسماً إلى تيار مشاعره الزاخر بما يحمل في موجاته المتلاحقة من حماس وأمل وحزن وإيمان.

حقاً لقد حيي في الأيام الأربعة المتطورة حياة عريضة لم يكن له بها عهد من قبل، أو أنه لم يعرفها إلا أحياناً في أحلام اليقظة، حياة طاهرة رفيعة، حياة تجود بنفسها عن طيب خاطر في سبيل شيء باهر أضمن منها وأجل، تتعرض للموت بلا مبالاة، وتستقبله بعناد، ويهجم عليه باستهانة، وإذا أفلتت غالبة مرة عادت إليه كزة أخرى متجبة عن ذكر العواقب جانبا، شائعة طوال الوقت إلى نور رائع عنه لا تحيد، مدفوعة بقوة لا يقبل لها بها، مسلمة مصيرها لله وهي تشعر به محيطاً بها كالهواء يفسرها من كل جانب. هانت الحياة كوسيلة حق لم تعد تزن ذرة، وجلت كخاية حق وسعت السماوات والأرض، تأخى الموت والحياة فكانا يداً واحدة في خدمة أمل واحد، هذه تؤدبه بالجهد وذاك يؤدبه بالفداء، لو أن الانفجار الرهيب لم يقع لامت غماً وكمداً، فما كان يحتل أن تواصل الحياة سيرها الهادئ الوليد على أطلال الرجال والآمال، كان لا بد من انفجار ينقش عن صدر الوطن وصدره كالزلزال الذي ينقش عن أبخرة باطن الأرض المتجمعة، فلما وقعت الواقعة وجدته على ميعد فائق بنفسه في نبضها... متى حدث هذا؟ وكيف حدث؟... كان راكباً ترام الجيزة في طريقه إلى مدرسة الحقوق فوجد نفسه بين شرذمة من الطلاب يتناقشون ملوحيين بقضائهم: نفي سعد وهو يعبر عن قلوبنا قلوباً أن يصود سعد ليواصل جهاده وإما أن ننفي معه، وانضمم الراكون من الأهالي إليهم في الحديث والوعيد حتى الكمساري أحمل عمله ووقف ينصت ويتكلم، يا لها من

شعوره موقف المتفرج إن لم يكن موقف الإنكار، نازعت نفسه إلى الاجترار بإخوانه في قهوة أحمد عبده حيث يظهر بقلوب تستجيب لقلبه ونفوس تسابقه إلى الإعراب عياً يضطرم في قراوتها من الإحساس والرأي، هناك يسمع أصداه الغضب المتقد في قلبه ويستأنس بإيماءاته الجسورة الملتهبة في جو باهر من التعكش إلى الحرية الكاملة، مال إلى أذن ياسين وهمس:

- إلى قهوة أحمد عبده...

فتنفس ياسين من الأحياء لأنه كان بدأ يتسامل وهو من الحزج في غايته - عن وسيلة ليقة ينسحب بها من المجلس، ليمضي إلى سهرته، دون أن يزيد من غضب فهمي اشتعلاً، لم يكن ما به من أسف تصمتاً، أو لم يكن تصمتاً كله، هو النبأ الخطير قلبه، ولكنه لو ترك إلى نفسه لتناساه بغير جهد كبير، ولما فرض على أحصابه ما فرض من تكلف مجازاة لفهمي وبجملته له واحتراماً لغضبه الذي لم يسبق له أن رآه على مثله من قبل، غادر الحجرة وهو يقول لنفسه: «حسي اليوم ما بذلت من جهد في سبيل الحركة الوطنية فإن لبني حل حقاً».

#### ٥٤

على ضربات المعجن المتصاعدة من حجرة القرن فتح فهمي عينيه، كانت الحجرة مغلقة النوافذ، في شبه ظلام إلا ما لاح من نور باهت وراء خصائص النوافذ، تراس إلى أذنيه همس أنفاس كإل التردد فنعطف رأسه إلى فراشه القريب، ثم انثالت عليه ذكريات الحياة، هذا صباح جديد، إنه يستيقظ من نوم عميق سلمه إلى تعب شمل النفس والجسم، وأنه لا يدري إن كان يستيقظ صباح الغد بهذا الفراش أم لا يستيقظ أبداً، لا يدري ولا أحد يدري، فالوقت يحسب شوارع القاهرة طويلاً وعرضاً ويرقص في أركانها، يا للمعجب، ها هي أمه تمجن كمهددا منذ قديم، وما هو كمال يفت في نومه ويتقلب في أحلامه، وذاك ياسين يذل وقع قدميه فوق سقف الحجرة على

الحقائبة يشق طريقه بين جوعهم فقابلوه بيتاف واحد وتنسقط الحماية... تنسقط الحماية فتلغاهم الرجل ببرود لم يخفق به حدّ اللطف ونصحهم بالمودة إلى دروسهم داعياً لإيادهم إلى ترك السياسة إلى آبائهم، هناك تصدى له أحدهم قائلاً:

- إن آبائنا قد سُجنوا، ولن ندرس القانون في بلد ينداس فيه القانون.

وتعالى الحُتاف من أصلياق القلوب كهزم الرعد فانسحب الرجل. ودّ الشاب مرة ثانية لو كان هو القاتل، أشدّ ما تتألم المعاني على روحه ولكن يسبقه السابقون إلى إهلائها فيشدّد حاسة ويمرّزى بأنّ فيما ينتظرو عوشاً عفاً بفوته، وجزت الأمور سراً، دها الداعي إلى الخروج فخرجوا مظاهرين وتوجّهوا إلى مدرسة المهندسخانة فسرعان ما انضمت إليهم ثم إلى الزراعة فخرج طلبتها إليهم هاتفين كآتهم على مهجاء، ثم إلى الطب فالتجارة وما بلغوا ميدان السيكة زينب حتى انتظمتهم مظاهرة كبيرة انضمت إليها جموع الأهالي وتعالى الحُتاف لصر والاستقلال وسعد، وكلما تقدّموا خطوة ازدادوا حاسة وثقة وإيماناً بما يلقون في كلّ مكان من مشاركة تلقائية واستجابة بديعية، وما يصادفون من نفوس متحفزة تصدّعت بالفضب حتى وجدت في مظاهرهم اكتئاف. تساءل - وهشّه لحدوث المظاهرة تكاد تغلب انفعاله بالتظاهر نفسه - وكيف حدث هذا كله؟! لم تكن مضت إلا بضعة ساعات على الصباح الذي شهد قنوطه وانزاهه، ها هو الآن، قبيل الظهر، يشترك في مظاهرة نائرة بكاشفه فيها كلّ قلب بأنّه صدى لقلبه، ويردّد هتافه، ويناشده بإيمان لا يترعزع أن يسير إلى النهاية، فأي سرور سروره، وأي حماس حماسه... لقد انطلقت روحه في سماء من الأمل لا تحمها الأفاق، نادمة على ما اعتروها من قنوط، خجلة بما رمت به الأبريله من ظنون، وفي ميدان السيكة زينب بدا له منظر جديد من مناظر ذاك اليوم العجيب. رأى مع الرائين جماعات من فرسان البوليس وعلى رأسها مفتش إنجليزّي تتقدّم صاحبة ورائها فيولاً من الغبار، والأرض تضطرب

ساعة!... فيها أشرق بنفسه الأمل من جديد بعد ليلة من الحزن واليأس قاتمة، فأيقن أنّ هذه النار المتقدة لن تبرد، ولما أقبلوا على فناء المدرسة وجلسوا مكتئفاً صانحين مرعدين فسبقتهم قلوبهم إليه، ثم هرعوا إلى زملائهم تحذّهم نفوسهم بحدث وشيك، وما لبث أن انبرى أحدهم منادياً بالإضراب!... شيء جديد لم يسمح من قبل، بيد أنهم هتفوا بالإضراب وهم يتأبطون كتب القانون، وجاءهم ناظرهم المستر والتون في لطف غير معهود ونصحهم بالدخول إلى الفصول فكان الجواب أن سعد شاب منهم إلى أصل السلم المفضي إلى حجرة السكرتير وراح يخطب بحماسة فائقة فلم يسع الناظر إلا الانسحاب. وأنصت إلى الخطيب بمجامع روحه وعيناه شاخصتان إلى عينيته، وقلبه يتابع دقّاته في سرعة ونشاط، ثم ودّ لو يصعد إلى موقفه فيفيض من معين قلبه المستعر، ولكنه لم يكن ذا استعداد قويّ للخطابة فتحن بأن يردّد غيره هواتف نفسه، وثابع الخطيب بانتباه حاسي حتى وقف عند مقطع من خطابه فصاح مع زملائه جميعاً في نفس واحد «يها الاستقلال» ثم تابع الإنصات باهتمام بحدّ الحُتاف فيه حيوية جديدة حتى انتهى الخطيب إلى مقطع ثان فهتف مع الحاتفين وتنسقط الحماية وإلى الإصغاء بجسم متصلّب من الانفعال وهو يحض على أسنانه ليحبس الدمع الذي زفره جيشان نفسه حتى إذا بلغ الخطيب المقطع الثالث هتف مع الحاتفين «يها سعد»، هتاف جديد، وكلّ شيء جليديداً بدا ذلك اليوم، يبدّ أنّه هتاف مطرب رجّعه قلبه من الأعياق وظلّ يردّد مع دقّاته المتتابعة، كأنه صدى للسانه، بل هتاف لسانه كان صدى لقلبه، فإنّه ليلكر كيف ردّد قلبه هذا الحُتاف في صمت مكظوم طوال الليلة السابقة للانفجار التي باتها مغموماً عسوراً، كانت عواطفه المكبوتة، حبه وحماسه وطموحه وتطلّعه إلى لكل الأعلى وأحلامه تائهة مبعثرة حتى انطلق صوت سعد مدوّناً فاجلبت طائرة إليه كما يجلب الجمل السابح في القضاء إلى صغير صاحبه، ثم لا يدرون إلا والمستر إيموس نائب المستشار القضائي البريطاني لوزارة

متشابهات في أفراحها وأحزانها، مظاهرات فتفاف  
فرصاص فضحايا، ألقى بنفسه في خضمها جيمًا  
يندفع بهماس، ويسمو إلى أفلاك بعيدة من الإحساس  
النيل، ويضطرب بالحياة ويعضه ندم على النجاة! ثم  
ضاعف من حماسه وأمله انتشار روح الغضب والثورة  
فيما لبث أن أضرب عمال الترام وسائقو السيارات  
والكتاسون فبلت العاصمة حزينة غاضبة موحشة.  
وترامت الأخبار حاملة البشرى بقرب إضراب المحامين  
والموظفين. إن قلب البلاد يخفق حيا نائرا ولن تذهب  
الدماء هدرا ولن يُسنى المنفون في مناهم، لقد زلزلت  
البقطة الواعية أرض وادي النيل.

تقلب القلق في فراشه فاستردّ وحيه من جثة  
الذكريات وجعل يتابع دقائق العجن مرة أخرى مغلبًا  
ناظره في أركان الحجر التي أخلت تستين على النور  
المشرق رويدًا وراء التوافل المخلقة. أمه تعجنا ولن  
تزال تعجن صباها بعد صباح، هيهات أن يشغلها  
حدث عن التفكير في إصداق الموائد وغسل الثياب  
وتنظيف الأثاث، إن كبار الحادثات لا يهبط صغار  
الأهبال، ويستمتع صدر المجتمع دائما للجليل والتافه  
من الأمور فيرتحب بها جنبًا إلى جنب، ولكن مهلاً،  
ليست الأم على هامش الحياة هي التي أنجبته والأبناء  
وقود الثورة، وهي التي تغذيه والغذاء وقود الأبناء،  
الحق أن ليس ثمة شيء تاله في الحياة... ولكن ألا  
يجيء يوم يبرز فيه الحداث الكبير المصريّ جيمًا فلا  
تتفرّق عنده القلوب كما تفرّقت في مجلس القهوة منذ  
خمس أيام؟ ألا ما أبعد هذا اليوم! ثم جرت على  
شفته ابتسامة إذ وثب إلى ذمته هذا السؤال: «ما عسى  
أن يصنع والده إذا علم «بجهاده» المتواصل يومًا بعد  
يوم؟ ماذا يصنع أبوه الجار المستبدّ وماذا تصنع أمّه  
الرقيقة الخنون؟» اتسم في حيرة وهو يعلم أن المتاعب  
التي قد تعترضه في تلك الحال ليست دون المتاعب التي  
قد تعترضه إذا نعى سرّه إلى السلطة العسكرية نفسها،  
ثم أزعاج الغطاء عن صدره وجلس في الفراش وهو  
يغمض: «سيان أن أحيأ أو أن أموت، الإيمان أقوى  
من الموت، والملوت أشرف من اللذ، فهنيئًا لنا الأمل

تحت وقع السنايك، إنه ليلذكر كيف مدّ بصره نحوهم  
في ذهول من لم يسبق له أن وجد نفسه عرضة لشلل  
ذلك الخطر الداهم، وتلفت فيها حوله فرأى وجوهًا  
يلمع في محارها الحاس وال غضب فتهدت في عصبية  
ولوح بيده هاتفاً، أحاط الفرسان بجموعهم ولم يعد  
يرى من الخضمّ الهائل الذي يضطرب فيه إلا رقعة  
محدودة يفرق في رموسها المشرّية، ثم تراسى إليهم أن  
البوليس اعتقل طلابًا كثيرين عن تصدوا لمخالفته أو  
كانوا على رأس المظاهرة للمرة الثالثة ذلك اليوم ممّ،  
وكان ثمنه أن يكون بين المعتقلين ولكن من دون أن  
يخرج من الدائرة التي يتحرك فيها بجهد جهيد.

على أن ذلك اليوم كان يوم سلام بالقياس إلى اليوم  
الذي تلاه، بدا يوم الاثنين منذ مطلع الصباح يوم  
إضراب شامل اشتركت فيه جميع المدارس بأعلامها  
وحشود من الأهالي لا يحيط بها الحصر، بُعثت مصر  
بلدًا جديدًا يجرى إلى الاحتشاد في الميادين للحرب  
بنفس طال كتمه، وألقى هو بنفسه بين الجموع في  
نشوة فرح وبماس كآله ضالّ عثر على أهله بعد  
فراق طويل، وسارت المظاهرة سيرا مشهودًا مازة  
بدور المعتندين السياسيين معلنة احتجاجها بمختلف  
اللغات، حتى بلغت شارع الدواوين وهناك سرت بين  
الجسور موجة اضطراب عنيفة وصاح صائحهم:  
«الإنجليز» وما لبث أن فرّق الرصاص مغطيًا على  
أصوات الهائنين فسقط أول القتل، وواصل قوم  
تقدمهم في حماس جنوني، وتسرّ آخرون، وتفرّق  
كثيرون يؤفدون بالبيوت والمقاهي، وكان هو ضمن  
الأجريين، اندسّ وراء باب وقلبه يبيت ضربات فزعة  
متناسيًا كل شيء إلا حياته، ولبث على ذلك زمانًا لا  
يُدريه حتى شمل السكون الدنيا جميعها فمدّ رأسه، ثم  
قلعه، رمى إلى حال سبيله غير مصدّق بالنجاة وعاد  
إلى بيته فيها يشبه الدهول، وفي وحدته الحزينة ممّ لو  
كان من الذاهيرين أو في الأقل من الثابتين، وفي وقلة  
الحساب المسير وعد ضميره الفظ بالتكفير، ومن  
حسن الحظّ أن بدا ميدان التكفير متسمًا وقرينًا.  
وجاء الثلاثاء والأربعاء فكانا كالأحد والاثنين، أيام



كلّما تدانست منه، وأثّه حُتم عليها أن تتأخّر عنه مسيرة أمتار. على تلك الحال مضى إلى مدرسة خليل أخا صباح الحميس وهو خلعس أيلم المظاهرات في القاهرة، وليّا بلغا باب المدرسة اقترت أم حنفي من البوّاب وسألته تنفيذاً للأمر اليوميّ الذي تلقّته في البيت:

- هل يوجد تلاميذ في المدرسة؟

فاجابها الرجل بغير اكترات:

- منهم من يدخل، ومنهم من يذهب، والناظر لا يتعرّض لأحد!

كانت هذه الإجابة مفاجأة سيّئة لكيال، كان مهيباً النفس لسباع الإجابة التي باتت مالوفة منذ يوم الاثنين وهي «التلاميذ مضربون» فيعودان إلى البيت حيث يحضي سحابة النبار في حرّية حبيّبة إلى قلبه الثورة من بعيد، ونازعته نفسه إلى الحرب تفادياً من عواقب الإجابة الجديلة فغاطب البوّاب قائلاً:

- أنا عن يدهون.

وابتعد عن المدرسة والمرأة في أثره، يد أنّها سأله: لماذا لا تدخل مع الداخلين؟ فرجاها متردداً لأوّل مرّة في حياته - أن تقول لأثّه أنّ التلاميذ مضربون، وزيادة في الرجاء والتودّد دعاها - وهما يمرّان بجامع الحسين - بطول العمر والسعادة، إلّا أنّ أم حنفي لم تستطع إلّا أن تصارع الأم بالحقيقة كما سمعتها فأثّبت الأم هل كسله وأمرت المرأة بأن تعود به إلى المدرسة فغادرا البيت وهو يسلفها بلسان حادّ راميّاً إليها بالخيانة والغدر، لم يجد في المدرسة إلّا ليداته... فوي الأسنان الصغيرة، أمّا من عدهام، وهم الأغلبية الساحقة، فكانوا مضربين، وألقى في فصله، الذي كان يتوافر له من صغار التلاميذ ما لم يتوافر لغيره من الفصول - نحواً من ثلث التلاميذ، بيد أنّ المدرّس أمرهم أن يراجعوا دروسهم السابقة وانكبّ هو على تصحيح بعض الكراسات فتركهم في شبه إضراب في الواقع. فتح كيال كتاباً متظاهراً بالقراءة دون أن يميّره أدل انتباه فقد ساهم البقاء في المدرسة بلا عمل فلا هو مع المضربين - ولا هو في البيت يتمتّع بالفراغ الذي جادت

الذي هانت إلى جانبه الحياة، أهلاً بصباح جديد من الحرية، وليتّقص الله بما هو قاضٍ».



لم يعد أحد يستطيع الإذعاء بأنّ الثورة لم تغيّر ولو وجهاً من وجوه حياته، حتّى كيال نفسه عرض لحرّيته التي تمّتّع بها طويلاً في ذهابه إلى المدرسة وإيابه منها طارئٌ ثقیل ضاق به كلّ الضيق وإن لم يستطع له دفعا، ذلك أنّ الأم أمرت أم حنفي بأن تتبعه في ذهابه إلى المدرسة وعند إيابه منها، وألّا تتخلّ عنه بحال كي يتعود به إلى البيت إذا صادفها مظاهرة دون أن تدع له فرصة للتلقؤ، أو مطاوعة نزوات الطيش، دار رأس الأم بأنباء المظاهرات والاضطرابات وارتجّ قلبها لحوادث الاعتداء الوحشيّ على الطلبة فعانت من ذلك الزمن أمّاماً كالحالات ملائمتها هلمّا وجزعاً فودّعت لو تستقي ابنها إلى جانبها حتّى تشوب الأمور إلى مستقرّها، ولكنّها لم تجد إلى تحقيق مرادها من سبيل خصوصاً بعد أن وعد فهي - وهو من ثقها في عقله - لا تزعزع - أنّه لا يشترك في الإضراب بتاتاً، وبعد أن رفض الأب فكرة استبقاء كيال في البيت لعلمه بأنّ المدرسة تحول بين صغار التلاميذ وبين الاشتراك في الإضراب. سلّمت الأم بذهاب الأخوين إلى المدرسة على كره منها ولكنّها فرضت على كيال رقابة أم حنفي وهي تقول له: ولو كان بوسعي أن أخرج كيا أشاء لتبتك بنفسي» وقد عارضها كيال بما وسعه من قوّة لآثّه أدرك بالبداهة أنّ هذه الرقابة التي لن تخفي عن أمه خافية من شئونه ستغني قضاء مبرماً على كلّ ما يتمتّع به في الطريق من ألوان العبث والشطارة، وإثّا ستلحق هذه الفترة القصيرة السعيدة من يسومه بالسجنين اللذين يتردّد بينهما: البيت والمدرسة، إلى هذا امتعّصت نفسه، أشدّ الامتناع من السير في الطريق مصطحباً هذه المرأة التي ستلتف الأنظار حتّى يبدانها المفردة ومشيتها المهلكة، ولكنّه لم يسمه إلّا أن يذعن لرقابتها سيّياً بعد أن أمره أبوه بقيولها، قصارى ما استطاعه تنفيذاً عن صدره أنّه كان ينتهرها

فلم يجد من تصب عليه غضبها إلا سعد زغلول نفسه متهمه إياه بأنه سبب هذا الشر كله، وأنه ولو عاش كما يعيش عباد الله في دعة وسلام ما تعرض له أحد بسوء ولا اشتعلت تلك النيران. لذلك كان حماس الغلام يستمر لفكرة الصراع نفسه، وحزنه يفيض بفكرة الموت في ذاته دون أن يكون لنفسه معنى واضحاً لما يدور حوله من بعيد أو قريب، وكم أسف يوم دعا تلاميذ خليل آغا إلى الإضراب - لأول مرة - فسنتح له فرصة ليشهد مظاهرة عن كتب أو يشترك فيها ولو في فناء المدرسة، ولكن الناظر بادر إلى حجز صغار التلاميذ في فصولهم فأفلتت الفرصة ووجد نفسه وراء الجدران ينصت إلى الهتافات العالية في دهشة غموزجة بسرور خفي، لعل مبعث الفوضى التي نشبت في كل شيء فحسنت بالروتين اليومي الثقيل بلا رحمة. أفلتت ذلك اليوم فرصة الاشتراك في مظاهرة كما ضاعت اليوم فرصة الاستمتاع بالفراغ في البيت، وسيبقى مغلولاً في هذه الجلسة المملة ينظر في الكتاب بعينين لا تريان شيئاً، ويسترق لمسات مع رفيقه على القمطر في حذر وخوف حتى يدرك نهاية النهار الطويل، ولكن ثمة شيء استرعى انتباهه فجأة، قد يكون صوتاً غريباً بعيداً أو وثناً في الأذن، ولكي يستوتق من حاسته نظر فيما حوله فرأى رموس التلاميذ مرفوعة وأعينهم تتبادل النظرات ثم تتجه معاً صوب النوافذ المطلّة على الطريق، إنه حقيقة وليس وهماً ما استرعى انتباههم، إنها أصوات مندبجة في صوت ضخم غير متمايز تسمع لبعدها كهدير الأمواج من بعيد، الآن وقد أخذت تشتت يمكن أن تسمى ضوضاء، بل ضوضاء تقترب، وسرت في الفصل حركة وتعالى الحمس ثم ارتفع صوت قاتلاً: «مظاهرة» فنفخ قلب الغلام وعلت عيناه لمة تجمع بين السرور والاضطراب، وجمعت الضوضاء تقترب وتقترب حتى وضحت هتافاً يردد ويذجر في جميع الجهات المحيطة بالمدرسة، وعادت تصرخ أذنيه الأسماء التي ملأت ذهنه طوال الأيام الماضية. سعد... الاستقلال... الحياية، وتدفان الحنات وعلا حتى أطلق على فناء المدرسة نفسها فوجعت

به هذه الأيام العجيبة بلا حساب. ضاق بالمدرسة كما لم يضق من قبل، وهنا خياله إلى أولئك المصريين في الخارج بدشة واستطلاع، كثيراً ما تساهل من حقيقة أمرهم، أهم كما تدعي أمه «متهورون» لا يرحمون أنفسهم ولا أوليهم ملقين بأرواحهم إلى التهلكة، أم هم كما يصنفهم فهمي أبطال قداثيون يجاهدون عنو الله وعدوهم؟ وكثيراً ما مال إلى رأي أمه لحنقه على التلاميذ الكبار - فئة المصريين - الذين خلقوا في نفسه وتغوس أضرابه من التلاميذ الضغار أسوأ الآثار بما يتألم على أيديهم من خلفة واستكبار وهم يتحلقونهم في فناء المدرسة بضخامة أجسامهم وقحة شواربهم، بيد أنه لن يستسلم إلى هذا الرأي كل الاستسلام طالما كان لقول فهمي من الإقناع في نفسه ما لا يقبل له بالاستهانة به، لن يسمع أن يسلبهم ما يضيفه عليهم من ضروب البطولة حتى وء لو يسلخ من مكان آمن على معاركهم الدامية، قامت قيمة الدنيا ما في ذلك من شك، أو فليأذا يهرب المصريون وينطلقون جماعات إلى الاشتباك بالجنود؟ وأني جنود؟! الإنجليز؟ الإنجليز الذين كان يكتفي ذكر اسمهم لإخلاء الطرقات!... ماذا حدثت للدنيا وللناس؟... ذاك صراع عجيب فقي عصفه بأن تُنقش عناصره الجوهريّة في نفس الغلام بلا وهي أو قصد تغدو أسماء سعد زغلول، الإنجليز، الطلبة، الشهداء، المنشورات، المظاهرات، من القوى المؤثرة الموحية في أعماقه وإن وقف من معانها موقف المستطلع الحائر. وضاعف من حيرته أن آله استجابوا للحوادث استجابة متباعدة وأحياناً متناقضة، فينا يجد فهمي نائراً يحمل على الإنجليز بحق قاتل ويمن إلى سعد حيناً يغتبر الدمع، إذا يباسين يناقش الأخبار في اهتمام رصين مشوب بأسف هادئ لا يمنعه من مواصلة حياته المعتادة بين السمر والضحك وتلاوة الأشعار والقصص، ثم السهر حتى منتصف الليل، أما أمه فلا تكف من دهاء الله أن ينشر السلام ويميد الأسان ويصني قلوب المصريين والإنجليز جميعاً، والأدهى من كل أولئك زينب زوجة أخيه التي أفرعتها الأحداث

فقال عم حمدان:

- لم تر شيئاً كهذا من قبل، ربنا يجمعهم.  
تضجر المظف في الحناجر يزلزل الجوّ زلزلاً، حيناً  
عن قرب كأنه يدوي في الدكان، وحيناً عن بعد في  
ضوضاء شديدة غير متميز كزيم الريح، وتواصل بلا  
انقطاع، في حركة بطيئة مستمرة دلت عليها تفاوت  
درجات الشدة والارتفاع بين الأمواج القادمة  
والذاهية، وكلما عُرِّن أنه انقطع جاء غيره حتى بدا وكأن  
لا نهاية له، تركزت حاسة كمال في أذنيه وهو يرهف  
السمع في اضطراب وقلق، يبد أنه لَمَّا تتابع الوقت  
دون وقوع مكروه استرد أنفاسه ومضى بماوده الشعور  
بالطمأنينة، ثم وسعه أخيراً أن يفكر فيها يدور حوله  
كطائر لا يلبث أن يزول فتساقط متى يجد نفسه في  
البيت ليبري لآته ما وقع له؟. «التحمت علينا  
الفصول مظاهرة لا أول لها ولا آخر، وما أدرى إلا  
وتبارها الزاخر يمحيط بي ويجرفني إلى الشارع، وهضت  
مع من هتف: ليحيى سعد، لتسقط الحياية، ليحيى  
الاستقلال. وما زلت أنتقل من طريق إلى طريق حتى  
هجم الإنجليز علينا وأطلقوا الرصاص». ستغرق عند  
ذلك لحذ البكاء ولا تكاد تصدق أنه حي يروى وستلو  
آيات كثيرة وهي ترتجف. «ومرّت رصاصة جنب رأسي  
ما زال زعيقها يطن في أذني، وتحبّط الناس كالجانين،  
وكنت أهلك مع المالكين لولا أن جلبني رجل إلى  
دكان...».

انقطع حبل أحلامه على صباح حال غير منتظم  
ووقع أقدام متداخلة في اضطراب، فخط قلبه ونظر في  
وجوه من حوله فرأهم عمليين في الباب كمن يتوقّع  
ضربة على أُم رأسه، واقترّب عم حمدان من الباب  
وانحنى حتى نظر من الفرجة في أسفله ثم تراجع وأنزله  
حتى ألصقه بالأرض بسرعة وهو يتمتم في اضطراب:  
- الإنجليز...!

وصاح كثيرون في الخارج: «الإنجليز...  
الإنجليز» ونادى آخرون «الثبات... الثبات» وهتف  
غيرهم «موت وبغيا الوطن...» ثم سمع الغلام لأول  
مرة في حياته الصغيرة طلقات الرصاص عن بعد قرب

قلوب التلاميذ وأيقنوا أنّ الطوفان لا بدّ منفرقهم،  
ولكنهم قابلوا ذلك بسرور صيالي تنكّب عن تقدير  
العواقب في حية نزوعه إلى الفوضى والانطلاق، ثم  
ترامى إليهم وقع أقدام مقبلة في سرعة وصخب، ثم  
فتح الباب على مصراعيه تحت وقع صدمة عنيفة  
واندفعت إلى الحجرة جماعات من الطلبة والأزهريين  
كما تندفع المياه من فوهة الحفزان وهم يصيحون:  
«إضراب... إضراب... لا ينبغي أن يبقى أحد»،  
وفي لحظات وجد نفسه غائصاً في موج مصطبغ  
يدلعه اسمه دفناً يعطل كلّ مقاومة وهو من  
الاضطراب في غاية، تحرك في بطنه شديد تحرك حبوب  
البن في فوهة الطاحونة لا يدري أين تقع عينه، ولا  
يرى من الدنيا إلا أجساماً متلاصقة في ضجة تصك  
الأذان حتى استدلّ بظهور السهاء فوق رأسه على بلوغ  
الطريق، واشتدّ الضغط عليه حتى كادت تكتم أنفاسه  
فصرخ صرخة حاداً عالياً متواصل من شدة الفزع،  
وما يدري إلا ويد تقبض على ذراعه وتجلده بقوة وهي  
تشقّ بين الناس طريقاً حتى ألصقته بجدار على  
الطوار، فراح يلهث ويتلمّس فيها حوله منجى حتى  
عثر على دكان حمدان بالتح البسوسة وقد أنزل بابها  
الحديدي إلى ما فوق العتبة بقليل، فهرع إليه ودخل  
زحفاً حل ركبتيه، ولَمَّا قام في الداخل رأى عم حمدان  
الذي كان يعرفه حتى للمعرفة وامرأتين وبعض صغار  
التلاميذ فاسند ظهره إلى جدار القاعة التي تحمل  
الصوالي وصدره يعلو وينخفض بلا توائٍ وسمع عم  
حمدان وهو يقول:

- أزهريون، طلبة، عمّال، أهالي... جميع  
الطرق المؤدية إلى الحسين مكتظة بالبشر... ما كنت  
أحسب قبل اليوم أنّ الأرض تستطيع أن تحمل كلّ  
هؤلاء البشر.

إحدى المرأتين يدهشة:

- كيف يصرون على التظاهر بعدما كان من إطلاق  
النار عليهم؟

المرأة الأخرى بحسرة:

- ربنا الهادي، كلّهم أبناء ناس يا ولداه.

ودفعه حتى لا يدع له فرصة للمناقشة فاندفع الغلام راكضاً حتى بلغ منعطف خان جعفر، فرأى شيئاً واقفاً وسط الطريق يشير إلى الأرض ويضاطب نفراً من الرجال فنظر حيث يشير فرأى بقعاً حمراء ملبسة بالتراب، وسمعه يقول بلهجة رثائية:

- هذا الدم الزكي يستصرخنا إلى مواصلة الجهاد، وقد شاء الله أن يسفك في رحاب سيد الشهداء لنصل في الاستشهاد حاضرينا بماضينا، والله معنا...

وأحسّ فرعاً يركبه، فاستردت بصره من الأرض الدامية وانطلق يعدو كالجنون.

## ٥٦

كانت أمينة تتلمس طريقها إلى باب الحجره خلال ظلمة السحر، في حذر ويقظ أن توقف السيد، حين تراس إلى أذنيها لفظ غريب صاعداً من الطريق يطن طنين النحل. لم يكن يطرق أذنيها في هذه الساعة التي اعتادت أن تستيقظ فيها إلا صلصلة عجلات عربات الدبش وسعال العمال المجكرين وعتاف رجل يعمل له عند مرجعه من صلاة الفجر أن يردد في الصمت الشامل صائحاً بين حين وآخر «وحدوه» أما هذا اللفظ الغريب فلم تسمعه من قبل، وحارت في تفسيره فتطلعت إلى معرفة مصدره فمضت بخطواتها الخفيفة إلى نافذة بالصالة مطلة على الطريق ثم رفعت خصاصها وأخرجت رأسها فوجدت في الخارج ظلمة غثطلة عند الأفق ييشائر ضياء ولكن ليس إلى الحد الذي تستطيع معه رؤية ما يجري تحتها، بيد أن اللفظ ازداد ارتفاعاً، وازداد في الوقت نفسه شموخاً، حتى تبيّنت فيه أصواتاً آدمية مجهولة النسب. دارت عينها في الظلام الذي أخذت تالقه شيئاً ما فرأت تحت سبيل بين القصرين وما يليه من تقاطع النخاسين مع درب قرمز أشباحاً آدمية غير واضحة المعالم، وأشياء على هيئة أهرامات صغيرات، وأخرى كأنها الأشجار القصر، فارتفعت في حيرة ونزلت قاصدة حجرة فهمي وكيال، ثم تردت، أتوقظه ليرى ما هنالك ويحل لها تلك الألغاز أم تتوَجَّلْ ذلك إلى حين استيقاظه؟ ثم

فعرها بالبداهة وارتعدت أوصاله، وما إن نثت عن المراتين صرخة حتى أُنجم في البكاء، وجعل همّ حمدان يقول بصوت متهيج: «وحدوا الله... وحلوا الله» ولكن الغلام شعر بالخوف، بارداً كلكوت يزحف على جسمه كله من قسمة إلى رأسه. وتوالت الطلقات، وصغت الأذان صلصلة عجلات وصهيل خيل، تابعت الأصوات والحركات في سرعة فائقة تلاحقها زيجرات وصراخ وأنين، فترة اهتراك خاطفة بدت للفاعمين وراء الباب دهمراً في حضرة الموت... ثم حلّ صمت غيف كالإغشاء الذي يعقب تبريح الألم، تسامل كيال بصوت متهيج مبحوح:

- ذهبوا!؟

فوضع همّ حمدان سيّابته على فيه وهو يغمغم «هس...» وتلا آية الكرسي، فتلا كيال في سره. إذ غاتته قدرته على الكلام - وقُلْ هو الله أخذه لعلها تطرد الإنجليز كما تطرد العفاريت في الظلام. على أن الباب لم يفتح إلا عند الظهر فانطلق الغلام إلى الطريق المقفر ثم أطلق للريح سابقه، ولها هو يمز بالسلم المأبط إلى قهوة أحمد عبده لمح شخصاً صاعداً عرف فيه أخاه فهمي فهرع إليه كغريق عثرت يده على أداة النجاة وقبض على ذراعها فالتفت الشاب نحوه فزحاً، وليّا عرقه هتف به:

- كيال؟! أين كنت أثناء الضرب؟

ولاحظ الغلام أن صوت أخيه مبحوح مطموس المخارج، بيد أنه أجابه بقوله:

- كنت في مكان همّ حمدان وسمعت الرصاص وكل شيء...

فقال له بمجملته وهرجته:

- اذهب إلى البيت ولا تقل لأحد أنك قابلتي...

سامع؟

فسأله الغلام بارتباك:

- ألا تعود معي؟!

فقال باللهجة نفسها:

- كلا... ليس الآن... سأعود في موعدي المعتاد، لا تنس أنك لم تقابلني قط.

المظاهرات في منابتها...

وجعل يقطع الحجرة ذهاباً وإياباً وهو يقول في سرّه  
حانقاً «هيهات... هيهات» حتى سمع أمه تقول:

- سأوقظ والدك لأخبره بالأمر...

قالتا المرأة أخيراً ما عندها من حيلة، كأن السيد -  
الذي يحملها جميع مشكلات حياتها - كليل أيضاً بأن  
يحد حلاً لهذا للمشكلة يبلغ به برّ الأمان، ولكنّ الشاب  
قال لها بأشئ:

- دعيه حتى يستيقظ في وقته...

فتساءلت المرأة في رهبة:

- ماذا تفعل يا بنيّ وهم مرابطون أمام مدخل بيتنا؟

فهزّ فهمي رأسه في حيرة قائلاً:

- ماذا تفعل؟ (ثمّ بلمحة أكثر ثقة) لا داعي

للمخوف، ليس إلّا أنّهم يرهبون المظاهرين...

قالت وهي تزدد ريقاً جالماً:

- أخاف أن يمتدوا على الأمنين في يومهم...

ففكر قليلاً في قولا ثمّ قتم:

- كلاً لو كان الاعتداء على البيوت مقصدهم ما

وقفوا ساكنين حتى الآن...

لم يكن مطمئناً إلى قوله كلّ الاطمئنان ولكنّه وجده

أوفى ما يقال، وعادت أمه تسأله:

- وحتى متى يقيمون بيتنا؟

بطرف شارده أجابها:

- من يدري؟... إنّهم ناصبون الحيام فلن

يرحلوا سريعاً...

تبّه إلى أمّها تسأله كما لو كان قائد القوات

العسكرية فنظر إليها في حطف وهز يداري بسمه

ساعة فرّجت ما بين شفّته الممتصتين، وفكر لحظة في

مداعبتها ولكنّ كتابة الموقف صلبت نفسه، فعادوه الجذ

كما يقع له أحياناً إذا روى ياسين له «نادرة» من نواذر

والده تدعوه بطبيعتها إلى الضحك ولكن يصمّه عنه

القلق الذي يمتريه كلّما أطلع على جانب من شخصيّة

أبيه الخفيّة، وسمعا وقع أقدام عهول نحوهما، ثمّ

اقتحم الحجرة ياسين تتبعه زينب على الأثر، وصاح

الشاب الذي بدا متضخّ العينين مشتمّ الشمر:

أبت أن تزججه طارية رغبها حتى موعد استيقاظه عند

مطلع الشمس الوشيك، ثمّ صلبت، ثمّ عادت

مدفوعة بحبّ الاستطلاع إلى النافذة فاطلّت منها. بدا

وشي الشروق ناشياً في غلالة السحر وأصواء الصباح

تسيل من ذرى المآذن والقباب، فأمكنها أن ترى

الطريق في كثير من الوضوح وفشت عينها عن

الأنشباح التي راعتها في الظلام فتبيّنت حقيقتها ونذت

عنها آهة فزع وارتدّت مهرولة إلى حجرة فهمي

فأيقظته بلا احتراس فانتفض الشاب جالساً في فراشه

وهو يتساءل متزعجاً:

- ما لك يا أمّاه...؟

فقال وهي تلهث:

- الإنجليز يملأون الطريق تحت بيتنا...

هبّ الشاب من فراشه وإباً إلى النافذة ورعى

ببصره فرأى تحت سبيل بين القصرين مسكراً صغيراً

يشرف على رموس الطرق التي تتفرّع عنه، يتكوّن

من عدد من الحيام، وثلاث لوريّات وشرافم متفرّقة

من الجند، وفيها يلي الحيام أقيمت البنادق أرباعاً أرباعاً،

كلّ مجموعة تتساند رموسها وتفرّق قواعدها على هيئة

هرم، وقد وقف الحراس كالتائبين أمام الحيام وتبعثر

الأخرون وهم يترابطون ويتصاحكون، ورمى الشاب

ببصره ناحية النحاسين فرأى مسكراً ثانياً عند تقاطع

النحاسين بالصاغة كما رأى في الناحية الأخرى من بين

القصرين مسكراً ثالثاً عند منعطف الحرنفش، ابتدره

خاطر أموج لاؤل وهلة أنّ هؤلاء الجنود قد جاءوا

للقبض عليه... ولكنّه ما لبث أن استشفه معتزلاً

عنه بقومته المزعجة من النوم الذي لم يكد يفيق منه،

وهذا الإحساس بالمطاردة الذي لم يفارقه منذ شبّت

الثورة، ثمّ وضحت له الحقيقة رويداً، وهي أنّ الحمي

الذي أئتم السّلطة المحتلة عظامراته المتواصلة قد

احتلّ احتلالاً عسكرياً. لبث ينظر خلال الحصاص

مضخّصاً الجنود والحيام والبنادق واللوريّات وقلبه يخفق

في رهبة وحزن وحق، حتى يقول عن النافذة شاحب

اللون وهو يتهمّ خاطباً أمّه:

- إنّهم الإنجليز كما تقولين، جاءوا للإرهاب ومنع

- أرايتم الإنجليز...؟

وهفت زينب:

- أنا التي سمعتم ثم أطلت من النافذة فرايتهم وأيقظت سي ياسين...

وواصل ياسين الحديث قائلاً:

- لقد نفرت على باب والدي حتى استيقظ وأخبرته ولساً أراهم بنفسه أمر بالآ يفادر البيت أحد والآ يرفع مزلاج البيت، ولكن ماذا هم فاعلون؟... وما عسى أن نصنع؟... ألا توجد في البلد حكومة تخميناً؟... فقال له فهمي:

- لا أظنهم يتعزّضون لغير المتظاهرين.

- ولكن حتى متى نظل هبوسين في بيوتنا؟... إن البيوت ملأى بالنساء والأطفال كيف يسكرون تحتها؟

فلمخف فهمي في ضيق:

- سيجري علينا ما يجري على غيرنا فلنصبر ولننتظر...

وهفت زينب في عصبية ظاهرة:

- لم نعد نسمع أو نرى إلا الرعب والحزن، وينا على أولاد الحرام...

عند ذاك فتح كمال حينه فرددها دهشاً في المجتمعين في حجرته على غير انتظار، ثم جلس في فراشه وتطلّع إلى آتة بعينين متسائلتين فالتزيت من فراشه ودرّبت يديها الباردة على رأسه الكبير ثم قرأت بصوت مهموس وعقل شارد الفاتحة، فسأها الغلام:

- ماذا جاء بكم إلى هنا؟

رأت أن تبليغه الخبر في أحسن صورة ممكنة فقالت برقة:

- لن تذهب اليوم إلى المدرسة...

فتساءل بابتهاج:

- بسبب المظاهرات؟

فقال فهمي بشيء من الحذّة:

- الإنجليز يسئون الطريق!

شعر كمال بأنّه أدرك سرّ تجمعهم فقلب حينه في الوجوه مدهولاً، ثم وثب إلى النافذة ونظر من

خصاصها طويلاً ثم عاد وهو يقول باضطراب:

- البنادق أربع أربع...

ونظر إلى فهمي كالمستغيث وعتم في خوف:

- سيقتلوننا...؟

- لن يقتلوا أحداً، جاءوا لمطاردة المتظاهرين...

ومضت فترة صمت قصيرة وإذا بالغلام يقول وكأنّه يخاطب نفسه:

- ما أجمل وجوههم!...

فسأله فهمي ساغراً:

- هل أعجبوك حقاً؟...

فقال كمال بسداجة:

- جداً، كنت أعجبهم كالشياطين...

فقال فهمي بمرارة:

- من يدري، لعلك لو رأيت الشياطين أعجبك منظرهم...

لم يرفع مزلاج الباب في ذلك اليوم، ولم تفتح نافذة من النوافذ المطلّة على الطريق ولو لتغيير الهواء وإدخال الشمس، ولأول مرة تبسط السيّد أحمد في الحديث على مائدة الإفطار فقال بلهجة العلم الخبير إنّ الإنجليز يتشكّون في منع المظاهرات وإلهم لهذا احتلوا الأحياء التي تكثر بها المظاهرات وإنه رأى أن يمكنوا يومهم في البيت حتى تتفصح الأمور. استطاع الرجل أن يتكلم ببطء وأن يحافظ على مظهره الممهود من الجلال والآ يدع منفذاً لأحد يتسرّب منه إلى القلق الذي تفكّي في باطنه مُدّ هَبّ من فراشه على نقر ياسين، ولأول مرة كذلك جسر فهمي على مناقشة رأي أبيه فقال بأدب:

- ولكن يا والدي قد تطلّني المدرسة إذا مكثت في البيت من المضرين!

لم يكن السيّد يعلم شيئاً طبعاً عن اشتراك ابنه في المظاهرات فقال:

- للضرورة أحكام، أخوك مولف وموقفه أدق من موقفك ولكن العذر واضح...

لم تواته شجاعته على مراجعة أبيه خشية أن يفضيه من ناحية، ولأنه - من ناحية أخرى - وجد في أمره بمنع مغادرة البيت علناً يبرّر به أمام ضميره امتناعه عن

فإذا بهنَّ عُجِلْنَ من  
سود الشباب شِعَارُهُنَّ  
فطلعن مثل كواكب  
يسطعن في وسط الدجى  
وأعلنن يمترن الطريق  
ودار سفد قصدهنَّ  
فاهتزت نفس ياسين وقال ضاحكاً:  
- ما كان أجدرني أنا بحفظها...  
وفكر فهي في خاطر طارئٍ ثم تساهل بحزن:  
- ترى أترامت أنباء ثورتنا إلى سعد في منفاه؟...  
أعلم الشيخ الكبير بأنّ نصيحته لم تذهب هباءً أم ثراه  
غارقاً في يأس المنفى؟...

#### ٥٧

لبثوا على السطح حتى الضحى، وراق للأخوين أن  
يراقبا المسكر البريطاني الصغير، فأبيا نفراً من الجنود  
قد أقاموا مطبخاً وراحوا يصنّون الغذاء، وتفرّق  
كثيرون ما بين مدخل دواب قمرز والنحاسين وبين  
القصرين في غلاء من المأزّة، وبين حين وآخر كان  
يتجمّع كثيرون في طابور على نداء النفير ثمّ يأمّلون  
بنادقهم ويركبون أحد اللوريات الذي ينطلق بهم  
صوب بيت القاضي ممّا دلّ على قيام مظاهرات في  
الأحياء القريبة، وكان فهي يراقب تجمّعهم وذعابهم  
بقلب خائف وخيال متقدّد...

وأخيراً غادر الأخوان السطح تاركين كمال يلهو  
كيف شاء وحده، وأبوا إلى حجرة المذاكرة، فأقبل  
فهو على كتبه يراجع ما فاتّه في الأيام المتفضية،  
وتناول ياسين وديوان الحياصة وأغادة كربلاء وخرج  
إلى الصلاة يستعين بها على قتل الوقت الذي توافر  
وراء جدران مسجده كما يتوافر الله وراء السجود، كانت  
الروايات - بوليسية وغيرها - أشدّ استحواداً على قلبه  
من الشعر، ولكنّه أحبّ الشعر كذلك. وعرفه من  
أيسر سبله، يفهم ما يسهل فهمه، ويقنع من الصعب  
بموسيقاه، فندر أن يلجأ إلى الهامش المشحون  
بالشروح، وربما حفظ البيت وترنّم به وهو لا يفقه من

الخروج إلى الطريق المحلّ بالجنود المتعطّشين إلى دماء  
أمثاله من الطلبة. انفضّت المائدة فأوى السيّد إلى  
حجرته، وما لبثت الأمّ وزينب أن اشتغلتا بواجباتهما  
اليومية، ولما كان اليوم مشمساً، وهو يوم من أيام  
مارس الأخيرة التي تكتنز في أعطالها نسائم دافئة من  
أنفاس الربيع فقد صعد الإخوة الثلاثة وجلسوا تحت  
عرش اللبلاب والياسمين. ووجد كمال في شخص  
الدجاج تسليه وأبى تسليه فانتقل إليها، وراح ييلر  
للدجاج الحبّ ويطاردها مسروراً بدجلتها ويلتقط ما  
يعثر عليه من البيض في حين راح الأخوان يتحدثان  
بالأنباء المثيرة التي تتناقلها الألسنة عن الثورة المستمرة  
في جنبات الوادي من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه.  
تكلم فهي عمّا يعلم من قطع السكك الحديدية  
والتلفونات والتليفونات وقيام المظاهرات في شقّ  
المديريات والمعارك التي تنشب بين الإنجليز والثوّار  
والمذابح والشهداء والجنازات الوطنية التي تشيع فيها  
النموش بالمشراة والعاصمة المصرية طلبتها وعملها  
ومحارمها والتي لم يمد بها من وسيلة للمواصلات إلا  
العربات الكارو، ثمّ قال الشاب بحرارة:  
- هلله الثورة حقّاً؟... فليقتلوا ما شئت لهم  
وحشيتهم فلن يزيدنا الموت إلا حياة...  
فقال ياسين وهو يبرّز رأسه عجباً:  
- ما كنت أتصوّر أنّ في شعبنا هلله الروح  
المكافحة...

فقال فهي وكأنّه نسي كيف أشفى على اليأس قبيل  
نشوب الثورة حتى فاجأته بزلزالها وبيهرته بنورها:  
- بل إنّهُ ممثّل بروح الكفاح المخالد التي تشتعل في  
جسده الممتدّ من أسوان إلى البحر الأبيض، استثارها  
الإنجليز حتى ثارت ولن تخمد إلى الأبد.  
فقال ياسين وحل شفثته ابتسامة:  
- حتى النساء خرجن في مظاهرة...  
فتمثّل فهي أحياناً من قصيدة حافظ في مظاهرة  
السيدات:

خرج الغواني يستحجج  
من ورخت أرقب جمعهنَّ

معناه إلا أقله، أو يتصور له معنى لا يثبت إلى حقيقة بسبب، أو لا يدرك له معنى على الإطلاق، ولكن رغم هذا كله رسب في عقله من صوره وأفغاطه ما يعدّ لثروة يتيه بها مثله حتى دأب على استغلالها لمناسبة ولغير مناسبة وهو الأكثر، فإذا عرض له يوماً أن يكتب رسالة تيباً لها تهبّو الكتاب وأقيم عليها من الألفاظ الرثانة ما يعلق بحافظته، وضمناً ما فتح الله به عليه من ماثور الشعر حتى حُرف بين معارفه بالبالغة، لا لأنه كان بليهاً حقاً، ولكن لقصورهم عن مجاراته وارتياحهم حيال غريب محفوظاته. قبل اليوم لم يعهد مثل هذا الفراغ الطويل الذي قضى عليه بأن يكابده ساحة فساحة محروماً من أسباب الحركة والنسبية، وربما كانت القراءة خليقة بأن تسعفه على تحمله لو كان به صبر عليها، ولكنه اعتاد أن يلتم بها في رفق، وفي الأوقات القصيرة التي تسبق خروجه إلى سهرته اليومية دون غيرها، وحتى في تلك الأوقات لم يكن يجد بأساً في أن يقطع القراءة بالمشاركة في أحاديث مجلس القهوة، أو يطالع قليلاً ثم يدعو كمال ليروي له ما قرأ مستلذاً بإقبال الغلام على الإصغاء بذلك الشغف الماثور عن الأطفال والغلمان. إذن لم يكن الشعر ولا الرواية بالتي تستطيع أن تؤنس وحشته يوماً كيومه هذا، وقد قرأ أحياناً من الشعر وفصولاً من وحادثة كربلاء، ومضى يتجرّع الملل قطرة فقطرة، لاحقاً الإنجليزي من أحلق قلبه، ضجراً برماً ضيق الصدر، حتى حان وقت الغذاء، جمعته المائدة مرة أخرى، وقُدّمت لهم الأم حساء وديجاجات عمرة وأرزاً، وأُثمت أطباقها - التي حرمت من الخضر بسبب الحصار للمضروب حول البيت - بجن وزيتون ومش، وأحضرت صلاً أسود بدلاً من الحلوى، ولكن لم يأكُل بشهوة إلا كمال أما السيد والأخوان فلم يسعدوا بقابلية قوية للطعام لقبرعهم يومهم بلا عمل ولا حركة، يبد أن الطعام هياً لهم فرصة للهروب من الفراغ بالنوم وصلى الخصوص السيد ياسين اللذين كان يسعها الظفر بالنوم وقتاً شاماً وكيفاً أحباً. وغادر ياسين فراشه قبيل المغرب فنزل إلى الدور التحتاني لشهود جلسة القهوة

ولكنها كانت جلسة قصيرة إذ أن الأم لم يسعها أن ترك السيد وحده طويلاً فودعتهم وطلعت إليه، ولبث ياسين وزينب وفهمي وكمال يتسامرون في جو يغلب عليه الفتور حتى استأذن فهمي ومضى إلى حجرة المذاكرة ثم دعا إليه كمال لغفود الزوجان منفردين. «ما عسى أن أصنع من الآن إلى ما بعد منتصف الليل؟»... أزعهج هذا السؤال الذي ألح عليه طويلاً وبدا له اليوم كئيباً ذمياً منتزحاً بالقوة الغشوم من مجرى الزمان الذي يتدفق في الخارج حافلاً بالمرات كما ينتزع الغصن من الشجرة فستحيل حظاً. لولا الحصار العسكري لكان الآن بمجلسه المحبوب بقهوة أحمد عبده، يحسو الشاي الأخضر، ويسامر معارفه من رؤاها ويمتّع النفس بجوها العتيق الذي يستهوي شعوره بمقدمه ويستأثر خياله بحجراته المطبوعة تحت انقراض التاريخ. قهوة أحمد عبده أحب المقاهي إلى قلبه، ولولا الغرض - والغرض مرض كما يقولون - ما اختار غيرها، ولكنه الغرض الذي جلدبه فيما مضى إلى الكلوب المصري لقربه من مقام بالعة الدم وهو نفسه الذي أخراه بالانتقال بعد ذلك إلى قهوة سي عليّ بالفورية لوموعها أمام بيت زُتونة العوادة. فهو يبدّل المقاهي تبعاً لغرضه، بل إنه يبدّل من تعرض له صداقتهم فيها تبعاً له، ففصيا وراء الغرض لا مفعى ولا أصدقائه له، أين الكلوب المصري وأصحابه؟... أين قهوة سي عليّ ومعارفها؟... بين حياته ذخبوا، ولعله لو صادفه أحدهم لمجاهله أو تهرب منه، والدور الآن حل قهوة أحمد عبده وسأراها، والله وحده يعلم ما يجتذبه الغد من مفاد وأصدقائه. حل أنه لم يكن يمتك بقهوة أحمد عبده طويلاً فسرعان ما يسترق الخطى إلى بقالة كوستاكي أو بالأحرى إلى حانته السرية ليحظى بالقرورة الحمراء أو والمادة كما يحلو له أن يدعوها... أين منه والعادة هذا المساء الكالـح؟ وسرت في بذهن لتذخر حانة كوستاكي رعدة شهوة، ثم ما لبث أن لاحت في عينيه نظرة سام عميقة وتكلمت لتكلم السجين. بدا البقاء في البيت حيرة طويلة زاد من حدة ألمها ما طاف بمحيطه



لم يكن حل حال يطبق معها حتى العتاب فوقع  
تساؤلها التهكمي من نفسه موقع الضربة الطائشة من  
الدمل فاندفع قاتلاً بصراحة مؤلة وإصرار:

- بل...

ومع أنها تحامت النظار من بادئ الأمر إلا أن هجته  
آذنها أشد إيلذا فقالت بحة:

- لا ذنب لي في هذا، أليس عجيباً ألا تطبق  
التخلف عن سهرك ولو ليلة واحدة...

فقال متسكفاً:

- حليني حل شيء واحد يجعل البيت محتملاً...

فقالت خاضبة وهي تقول في نبرات منيرة بالكاء:

- سأعطي لك المكان لعله يطيب لك...

وولت كالمهابة وهو يتبعها بصراً جامداً، ثم قال  
لنفسه ديا لها من حقاء لا تلوي أن القدرة الإلهية  
وحدها هي التي تبقي عليها في بقي. ومع أن الشجار  
نفس من حقه قليلاً إلا أنه كان يفضل ألا يقع حتى  
لا يضاسف من كآبة فراقه، ولم يكن يهجز من  
استرضائها لو أرادها ولكن عقله القتور الذي ران على  
مشاعره جيماً. خير أنه لم يخش دقائق حتى شمله هدوه  
نسي فرن صدى عباراته القاسية التي وجهها إليها في  
أذنيه فاقز بقسوتها، وبأنه لم يكن ثمة ما يدعو إليها،  
وداخله شبه ندم، لا لمثوره فجأة حل ثالة حب لها في  
زوايا قلبه ولكن لحرصه على ألا يشذ في معاملتها عن  
حد الأدب - ربما إكراماً لأبيها أو خوفاً من أبيه - حتى  
في فترة الانتفال العصبية التي أخذ على نفسه فيها  
إخضاعها لسياسته بالصلابة والحزم، واحتذر من  
إسرافها بالفضب، ولم يكن الغضب بالانفصال  
المستغرب في هذه الأسرة، لما يركبهم الحلم إلا حين  
قيام الأب بينهم مستائراً لنفسه من دونهم بكافة حقوق  
الغضب.

يبد أن غضبهم كالبرق سريع الاشتعال سريع  
الانطفاء ثم يردون إلى ألوان من الأسف والندم، إلى  
هذا كله حصن ياسين بالمكابرة فلم يدفعه أسفه إلى  
مصالحة زوجه بل قال لنفسه: «هي التي استشارت  
غضبي... ألم يكن بوسعها أن تخاطبني بلهجة

من صور الهناء وذكريات النشوة المقتربة بالحانة  
والغارورة، فعدت الأحلام وضاعت من وجدته، وقد  
جبرت حينه المهوف على موسيقى الحمر الباطنية  
ولعبها بالرأس ذلك اللعب المدخل الحار السائل بهجة  
وأفراحاً، فلم يدرك قبل ذاك المساء أنه أعجز من أن  
يصبر على هجر الشراب يوماً واحداً ولم يحزن لما بدا له  
من ضعفه وعيوديته، ولا لام نفسه على إسرافها الذي  
جر عليه التعاسة لأهون الأسباب، كان أبعد ما يكون  
عن لوم نفسه أو السخط عليها، ولم يذكر من بواحث  
أله إلا الحصار الذي شته الإنجليز حول البيت، وأنه  
يمترق ظمأ ومورد النشوات غير بعيد، ثم لاحت منه  
الظنّة إلى زينب فوجدها تفرس في وجهه بنظرة كأنما  
تقول له حانقة «ما لك شارباً، ما لك واجماً، أليس  
لوجودي أي أثر في التسرية هناك؟... أدرك معناها  
كله في لحظة خاطفة التقت فيها عنيناها، ولكنه لم  
يستجب لعناها الحائق الحزين، وبالعكس لعله أحقته  
وأثار ثأرتة، أجل لم يقدح على شيء كما حدق على  
اضطراره للبقاء معها طوال الليل، بلا رغبة، ولا  
مسرة، وحتى عروفاً من النشوة التي يستعين بها على  
تحمل حياته الزوجية. جعل يسترق إليها النظر  
ويتساءل في خرابة أليست هي هي... أليست هي  
التي خلعت لي ليلة الزفاف؟... أليست هي التي  
شفتني هيأماً ليلي وأسابيع؟ فما لها لا تحرك في  
ساكنها... أي شيء طرأ عليها! ما لي أتلعلل برماً  
وسأماً فلا أجد من حسنها وأدبها ما يضيئي عن سكرة  
تأجلت! ومال - كما فعل مرّات من قبل - إلى رميها  
بالنقص فيها برحت فيه زنوبة ومثيلاًها من ضروب  
الخدمة والشطارة، والحق أن زينب كانت أولى تمهاريه  
في المعاشرة الدائمة. فلم تغل به معاشره المؤادة ولا  
بالعة الدوم، ولم يكن تعلقه بإحداها بماجمه من التقل  
إذا سحت دواعيه، وقد ذكر لحظات حيرته هذه  
والكآره عنها بعد كرور أعوام طوال فعرف من نفسه  
ومن الحياة عامة ما لم يجر له في خاطر. وانتبه على  
تساؤلها:

- لعلك غير مرتاح إلى البقاء في البيت؟!

وهو لا يدري عن قطع السطح من أوله إلى آخره مقصراً خط ذهابه وإيابه إلى الثلثين ثم إلى النصف، وكلما مر بها اضطرب جسمه برغبة عارمة. جارية سوداء... خادم؟... وإن كانت، له سوابق غير منكورة، ليس حثاً أن تقع بغيته على طراز زئوبة، ميزة حُسن واحدة تغني كما أخذت عينا بائعة الدوم المكحولتان بحارة الوطاويط اللتان شفعتا لثن إبطينها وتلبّد الطين على ساقها. بل اللدامة نفسها - ما دامت قد رُجيت على امرأة - اعتذار مقبول عند شهرته العمياء كما تطلع إليها عند أم حنفي أو عند ضاربة رمل هوراء خلا بها وراء بوابة النصر، نور على آية حال ذات جسم مكنت صلب يوحى - لا شك - ملمسه بالفترة والصراع، إلى أنها جارية سوداء تعد بطرافة في الوصال وجدة في التجربة وتحقق للأشور عن بنات جنسها من بحث الحرارة والدفء. وبدا الجوف من حوله مهيباً أمناً عظيماً فاستحسرت رغبته وتوثبت أعصابه

واسترسل قلبه في دقائق متتابعة فرسى بنظرة ثابتة موضعها ومال في سيرة إليها بحيث (يتحقق) له أن يبتك بها على نحو ما حين مروره بها مؤجلاً الجهر برغبته حتى يتاح له جسّ النض في جوّ من الحذر أن تكون - كما حنفي - بلهاء فتجواب أركان البيت بفضيحة جديدة، تتقدم في خطوات وثيلة محملاً صوباً، يود بكل ما اضطرم في صدره من شهوة لو تنفذ كلمات عينية - رغم الظلمة الفاشية - إلى نفسها، حتى اقتراب منها فاختلطت دلت قلبه، ثم حاذفا لمس كوعه أهل جسمها ولكنّه واصل سيره كأن ما وقع كان عفواً، غير أنّ رعدة سرت في بدنه عند لمس الوضع الذي لم يتحقق من هويته في الغيبوبة التي تاه فيها عالمه فلم يبق منه عند الإفاقة النسيبة في نهاية السطح إلا مسّ طريّ غزير الحنان وما ندّ عن صاحبه من تراجع بريء أيد ما رجّحه من عدم ارتياها في أمره فاستدار مصمّياً على إعادة الكرة. أهاد نحوها ثانية ذراعها حتى مسّ كوعه إحدى يديها - لم يخطئه إحساسه هذه المرة - ثم لم يسحب كما كان ينتظر من شخص يدهي أنه ضلّ السبيل، بل تركه يصافح الشدي الأخرى مصافحة

أرقاً. إته يجب دائماً أن تتحل بالصبر والحلم والمعفو كيما ينطلق على مواء مطمئناً إلى خطوطه الخلفية. اشتد ضيقه بسجنه بعد غضبها وانسحابها فغادر المكان إلى السطح. وجد الجوف لطيفاً واللبل ساجياً والظلمة شاملة إلا أنها كثيفة تحت عرش اللبلاب والياسمين، رقيقة في نصف السطح الآخر المسقوف بقبة السماء المرصعة بلائق النجوم. وراح يقطع السطح ذهاباً ورجية ما بين السور المطل على بيت مرهم ونهاية حديقة اللبلاب المشرقة على قلاوون، مستسلخاً لحالات شتى، وفيها هو يسير الموهنا عند مدخل السقيفة تسلل إلى أذنيه خفيف، أو لعله همس، بل أنفاس تتردد بين لحظة وأخرى لمحمق في الظلام متعجباً وهتف متسائلاً:

- من هنا؟

لجأه صوت يعرفه حتى المعرفة وهو يقول في نبرات نحاسية:

- أنا نور يا سيدي...

تذكر من توه أن نور جلوية زوجه تأوي ليلاً إلى حجرة خشبية لصق حُصّ الدجاج تحري بعض الكراكيب، نظر صوب السطح حتى مرّ شبحها القائم على بعد خطوة منه كأنه قطعة من الليل تكاثفت وتجمّدت، ثم تراءى له يفاض عينيها الناعم كدائرتين مرسومتين بالطباشير على سبورة حالكة السواد، واصل سيره دون أن ينبس وصورتها ترسم في مخيلته بطريقة تلقائية، سوداء في الأربعين متينة البنين، غليظة الأطراف، ناعمة الصدر، حيلة الأرداف، ذات وجه لامع، وعينين بترائتين، وشفتين متملكتين، فيها قوة وخشونة وغرابة، أو هكذا بدت له مد طرات على بيته. وفجأة، وعلى حين غرة، تقبّرت في صدره نية الاعتداء كما تنفجر بعض المفرقات بلا سابق إنذار، ولكن قوّة مسيطرة كأنها تركّز فيها هدف حياته، فملكته كما ملكته على عتبة باب الفناء حيال أم حنفي ليلة زفاف عائشة، انبثت في وجدانه الحامد حياة فوّارة، وانتشر القلق في دمه حتى تكهرب، وحلّ محلّ الملل والسأم اهتمام حارّ ثائر جنونيّ، كل أولئك في لمح البصر، ودبّ النشاط في مشيته وفكره وخياله، وكثّ

شهوته من ناحية ويخلفو لهجتها من الاحتجاج الذي يستوحيه مدلول عبارتها، فجلبها بيده وهو يغمغم:

- تعالي يا حلوة.

أسلست ليد، ريمًا عن رضى وريمًا عن طاعة، وهو يغمز خدّها وصفحة عتها بقبلاته مترنّما من شدّة الانتفال، وفي نشوة السرور جعل يقول:

- ماذا غيك حتى طول هذه الأشهر!

فأجابته بلهجتها العادية الخالية من أيّ احتجاج:

- عيب يا سيدي.

فقال وهو يبتسم:

- ما أروقُ عانتك، زيليني منها!...

ولكنّها أبعدت شيئًا من المقاومة عند مدخل الحجرة قائلة:

- عيب يا سيدي... (ثمّ كاللهجة)... الحجرة ملأى بالبحر.

فدفعها وهو يحس في قفاها:

- أنام على المقارب من أجلك يا نور.

جارية، هكذا بدت بأدق ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ، وقفت مستسلمة بين يديه في الظلام فوضع شفتيه على شفتيها وقبّلها بحرقة وتشوّق وهي ساكنة مستسلمة كأنّها تشاهد منظرًا لا دور لها فيه، حتّى قال لها بانفعال: «قبّلي»، ثمّ أعاد لصق شفتيه بشفتيها وقبّل فقَبَلته! ثمّ طلب إليها أن تجلس فردّت قولها «عيب يا سيدي» الذي بدا مضحكًا من ابتذاله على وتيرة واحدة فأجلسها بنفسه فاستجابت بلا غمّة، وما لبث أن وجد لذة جديدة في تركدها بين السليّة والإذعان فجذّب في طلب المزيد منه وتناوبت الممانعة اللفظيّة والإذعان الفعلّي فبسي الزمن، ثمّ خيل إليه أنّ الظلام من حوله يتحرّك أو أنّ مخلوقات غريبة في طيّاته تتراقص، ريمًا للجهد أصابه من طول ما لبث إن كان طال ليته غائّه على وجه اليقين لا يدري كم لبث، أو

لعلّها التّيارات المتوقّدة للتلاطمة في رأسه تولّد من ارتطامها في بصره أنوار وهميّة، ولكن مهلًا، إنّ جدران الحجرة تتلوّج، ناضجة بضوء خافت ذابت فيه الظلمة الداجنة ذوبانًا يشك الأسرار، ورفع رأسه

واقفة لا تبالي بدفع الريب، ومضى وهو يقول لنفسه ستدرك غايته بلا شكّ، بل لعلّها أدركتها فنذ عنها ما يوحي بأنّها أرادت أن تنتحي جانبًا ولكنّها أبطلت، أو بوغت فذهلت، على أيّ حال لم تتغيّ باليد، ولم تحرك ساكنًا، فلن تصرخ فجأة كما فعلت بنت المركوب، لن تجزّب مرّة ثالثة. عاد هذه المرّة متجملًا جزعًا، فتناقل حيالها، ثمّ مذّ كوعه إلى الصدر الناهد كقربة صغيرة منتفخة، ثمّ حرّك ذراعه حركة ناطقة بالتردد والريبة ممّا، وهمّ بمواصلة السير مدفوعًا برغبة في الفرار لولا أن وجد منها استسلامًا أو بلادة أغرقت ثمالة وهي في تيار من الجنون فتوقّف متسلّلاً بصوت خرج من بخار الشهوة منصهرًا متهدّجًا:

- هذه أنت يا نور!

فقال الجارية وهي تتقهقر وهو يتبعها كيلا تفلت منه حتّى التصق ظهرها بالخائط وأوشك هو أن يلتصق بها:

- نعم يا سيدي...

أراد أن يقول أيّ كلام يمنّ له حتّى يتمكن من الجهر بما يضطرب في أعماقه كاللاكلم الذي يلوح يقبضته في الهواء متحمّسًا الفرصة ليضرب ضربته الغاضبة لساها وأنفاسه تترامى على جبينها:

- لم تدهبي إلى حجرتك؟

فقال الجارية التي تعثّرت في نطاق حصاره:

- كنت أشمّ الهواء قليلًا...

وكأنّها غلب الهم تركده فمدّ راحته إلى خاصرتها ثمّ جذبها برفق إلى صدره وهي تبدي غمّة تحول بينه وبين ما يريد، ثمّ همس في أذنها وهو يلصق خدّه بخدّها:

- هلّني إلى الحجرة.

فتمتعت في ارتباك:

- عيب يا سيدي...

رنت نبرات النحاسيّة في الصمت رنينًا أزعجه، لم تكن تعدّلت أن ترفع صوتها ولكنّها - فيا بدا - لا يتأتّى لها الهمس أو أنّ من طبع همسها الرنين ولو في أخفض درجاته، على أنّه سرعان ما زايه الانزعاج لتوقّد

وجعلت ترتجف كما بدا من ارتجاف الصباح بيدها وارتعاش ضوئه المنعكس على الجدار المواجه للباب ثم ولّت هاربة وعويلها يترقّق الصمت. قال ياسين لنفسه وهو يزدد ريقه «انفضحت وما كان كان» ولبت بموقفه ذاهلاً عما حوله حتى انتبه إلى نفسه فغادر الحجر إلى السطح دون أن يخطر له أن يتجاوز. لم يدر ماذا يصنع ولا إلى أيّ مدى تداع الفضيحة، اتحصص في شقته أم تتغل إلى الشقة الأخرى؟... ثم راح يوتّخ نفسه على ذعره وضعفه اللذين منعه من أن يلحق بها كي يحصر الفضيحة في أضيق حدود، ثم تساءل وهو في أشدّ حالات الضيق كيف يتلقى هذه الفضيحة؟ هل يسمح الحزم هنا أيضاً؟ ربما لو لم يتسرّب نبؤها إلى أبيه. وسرع حركة آتية من ناحية الحجر المششومة فالتفت نحوها فرأى شبح الجارية يناديها ويده لفة كبيرة، ثم هرولت نحو باب السطح ومرت منه، هزّ كفيه استهانة، ولما هو يتحسّن صدره يده أدرك أنّه نسي أن يولّي الفائلة فعاد إلى الحجر مسرعاً.

## ٥٨

في الصباح الباكر طرّق الباب، وكان الطارق شيخ الحارة، فقابل السيّد أحمد وأخبره بأنّه مكلف من لدن السلطات بإبلاغ سكان الأحياء المحتلة بأنّ الإنجليز لن يتّرمضوا إلاّ للمتظاهرين وأنّ عليه أن يفتح دكانه، وحمل التلميذ أن يذهب إلى مدرسته والموظف إلى وظيفته، وحذّره من حجز التلاميذ أن يظنّوا من المضرين لافتاً نظره إلى الأوامر المشدّدة بمنع المظاهرات والإضراب، بلملك استرد البيت نشاطه الذي يستقبل به الصباح. وتنفّس رجاله الصعداء لإطلاق سراحهم بعد حبس البارحة، واستروحت النفوس شيئاً من الطمأنينة والسلام. قال ياسين لنفسه تعقيباً حل زورة شيخ الحارة: «الأحوال خارج البيت تتحسن أمّا داخله فهي طين ووحل»، أجل قضت أكثرية أهل البيت ليلة نكراه أحاطت بها الفضيحة ومزّق أوصالها النكد، زينب لم يستطع الصبر الذي تغلق به صدرها على حزنها وتلمّزها أن يصمد للمظهر المروّع الذي رآه

محملاً فرأى نوراً خافئاً يتسلّل من شقوق الجدار الخشبيّ مقتحماً عليه خلوته، ثم ارتفع صوت زوجه في الخارج وهي تنادي الجارية قائلة:

- نمت يا نور؟... نور. ألم تري سي ياسين؟

فانفض قلبه فرحاً ووثب قائلاً وانذفع على عجل ولهفة يتخلف ثيابه ويرتديها وهو يتخصّص الحجر ببصر زائف لعله يجد غيباً بين كراكيها، ولكنّ نظرة واحدة آيسته من الاختفاء على حين صكّ أذنه وقع شيشب يقترب فلم تتمالك الجارية من أن تقول بصوت بالّ:

- أنت السبب يا سيّدي، ماذا فعل الآن؟

فلكرها في كفتها بقسوة حتى أمسكت، وحلّق في الباب بفزع وبأس وهو يتقهقر - بدافع لا شعوريّ - إلى الركن البعيد عن المدخل حتى التصق بالجدار، وتجمّد في موقفه يترقب. تتابع النداء ولا يجيب، ثم انفتح الباب ولاحت ذراع زينب يتلقمها مصباح وهي تهتز:

- نور... نور...

فلم يسمح الجارية إلاّ أن تخرج من صمتها مغممة بصوت شاحب حزين:

- نعم يا سيّتي.

فالت زينب بصوت ينم عن الحق والتعنيف:

- ما أسرع أن تنامي يا شبيخة! ألم تري سي ياسين؟... سيّدي الكبير أرسل في طلبه فبحث عنه في الدور التحتانيّ والفناء وما أنا إلاّ أجده فوق السطح، هل رأيته؟

وما أتمت كلامها حتى كان رأسها قد برز داخل الحجر وهو يطلّ على الجارية المرتبكة في جلستها باستغراب، ثم بهركة غريزيّة التفت إلى يمينها فوق بصرها على زوجها الملتصق بالحائط بجسم ضخم كأنما ترهل وتخاذل من الخزي والهوان، التقت عينها لحظة قبل أن يغضّ بصره، ومرت لحظة أخرى في صمت قاتل، ثم نذت عن الفتاة صرخة كالعواء وتراجعت وهي تهتز ضاربة صدرها بيسراها:

- يا فضيحتك السوداء!... أنت!... أنت!

عيناها في حجرة جارتها فتضجر صدرها قاذفاً بشواظه كل سبل، تعمّدت تعمّداً أن يقرع حويلها آذان السيد فجاءها مهرولاً متسائلاً... وكانت الفضيحة... قصّت عليه كل شيء متشجّعة بانفعالها الجنوني الذي لعلها لولاه ما وانثا شجاعته على مواجهتها بما قصّت لما باتت تجمد نحوه من تيبب لم تجمد مظه حيال أحد من الناس، انتظمت بذلك لكرامتها الذبيحة، وللصبر الذي تجرّعته حيناً مختارة وحملت عليه في أكثر الأحيان: وجارية! خادمة! في سنّ أمّها وفي بيتي! ماذا عساه أن يفعل في الخارج إذن؟ لم تكن تبكي غيرة أو لعل الغيرة توارت إلى حين وراء حجب كثيفة من التقرّز والغضب كما توارى النار وراء سحب الدخان، وكأنّها غدت تؤثّر الموت على أن تبقى معه تحت سقف واحد ولو يومًا واحدًا بعد ما كان، أجل هجرت غدعها فقصت الليل في حجرة الاستقبال يفضي أكثره تهلّي هليان المحمومين وثاقمة الله نورًا ثيلًا مريضًا مزعجًا. أصبحت وهي مصمّمة على هجر البيت. لعلّ هذا التصميم وحده الذي وجدته فيه مسكّنًا لأوجاعها. ماذا يوسع حياء نفسه أن يفعل؟... لن يستطيع أن يمنع المنكر بعد أن وقع، ولن يسمه معها يكن جبروته أن يتزل بزوجه العقاب الذي يستحقه حقّ يستشفي صدرها، أقصى ما يراه أن يمزجره، أن يصبّ عليه غضبه، ويسبّته - الفاسق - خافض الرأس كي يواصل فيها بعد سيرته الخبيثة!... هيهات. لقد رجّاه السيد أن تدع الأمر بين يديه، ونصحها طويلاً أن تعرض عن زلته مستوصية بصبر الفضيليات من مثالاتها، ولكنّها لم تمدّ تحتسل الصبر أو المنقور. جارية سوداء فوق الأريعين!... كلا. ستهجّره هذه المرة بلا تردّد، ستفضي إلى أبيها يبتها كلّهُ، وستبقى في كنفه حتّى يثرب إلى رشده، فإذا جاءها بعد ذلك ناعماً، وغفّر من سلوكه أو فلتلخب هذه الحياة كلّها - بخيرها وشرّها - إلى الشيطان، انحطّ ياسين حين ظنّها قد طوت صدرها على كريبها عقلاً وحكمة، الحقّ أنّه غلبها الجزع من بادئ الأمر فبّنت منها إلى أمّها، ولكنّ الأمّ أثبتت أنّها

امرأة حكيمة فلم تدع الشكوى تتسرّب إلى الأب، وأوصت ابنتها بالصبر قائلة إنّ الرجال يسهرون - كوالدنا مثلاً - واتّهم أيضاً يثربون، وإنّه حشها أنّ بيتها عامر بالخير، وأنّ زوجها يعود إليها مهما سهر ومهما سكر. أصغت الفتاة إلى النصيحة على مضض، وجاهدت نفسها أنّها جهاد متحمّلة بالصبر ولم تأل أن تحمل نفسها على الرضى بالواقع والقناعة من أحلامها المريضة بما سمحت به الحقيقة خصوصاً وقد دبّ الجنين في بطنها مبشّراً بالأسموة المرموقة. ربّما كمن التلّز في أمّها بيد أنّها راحت نفسها على التسليم متأسّية بلتها تارة وطوّراً بامرأة سيّدها الكبير، ثمّ لم تجلّ الحالك من رغبة تختلج في صدرها بين حين وآخر حتّى يمكن أن يفعل زوجها في سهراته الحمريّة، وحدث أن أغضبت إلى أنّها يخالولها، بل لم تحفّ عنها ما لحق بالرجل من فتور في صوابه. ولكنّ الأمّ الحكيمة أفهمتها أنّ ذلك الفتور ليس حتّى نتيجة لما يقع في خاطرها، وإنّه وفيه طبيعيّة، وإنّ الرجال جيّماً لنبيه سواء، وأنّها سوف تقتنع به بنفسها كلّما تقفّمت بها تجارب العمر... على أنّه لو صدقت وسأوسها لباذا تراها فاعلة؟... هل تراها تهجر بيتها لأنّ زوجها يلثم بغيرها من النساء؟... كلا. وألف مرة كلا، لو تخلّلت امرأة عن مكانها لسب كهذا لأفترت البيوت من الفضيليات، والرجل قد يطمح طرّفه إلى امرأة أو أخرى ولكنّه يعود دائماً إلى بيته ما دامت زوجته خليفة بأن تبقى عنده المرجع الأخير والمأوى الثابت، والمأبة للصائرات. ومضت تدلّجها بالمطلقات بلا ذنب واللاهي يشركون في أزواجهنّ أخريات، أليس طيش زوجها - إن صحّ - خطياً أخفّ من سلوك أولئك؟ ثمّ إنّهُ لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره، ومصره يعقل فيثوب إلى بيته ويشغل بذكرته عن الدنيا جيّماً، ومعنى هذا أنّه ينبغي لها الصبر حتّى لو صدقت وسأوسها لها بالها والوساوس لم تصدق؟! رعدت المرأة لهذا، وغيّره ممّا يجري مجراه، حتّى سلس جماع الفتاة وآمنت بالصبر وراحت نفسها عليه. بيد أنّ واقعة السطح قصّت على كلّ ما وكلّت النفس عليه فانهار البنيان جيّماً كان لم

يكن.

لنفسه ما لا يُحِلُّ لأحد من ذويه، له أن يفعل ما يشاء وعليه التزام الحدود التي يريدهم على أن يلتزموها فاعلٌ غضبه على ما في ذنب ياسين من «تحدُّ» لإرادته واستهانةً بوجوده وتشويه» للصورة التي يجب أن يتصوَّره بها أبناؤه، كان أضعاف غضبه على اللبب نفسه، على أن غضبه - كما هي عادته - لم يستمر طويلاً، ما لبث أن خبا لظاه وخمد توقَّده فعاوده الهدوء رويداً وإن شاب مظهره - مظهره فقط - الوجوم والأسى، عند ذاك أمكنه أن ينظر إلى «جريمة» ياسين من أكثر من زاوية واحدة، أمكنه أن يتأملها بعقل مستقرٍّ فانجَلَّ له قناعها عن مواضع شقٍّ ساخرة تسلَّى بها عن وحدته الاضطرارية. أوَّل ما ابتدر ذهنه أن يلتبس للمذنب علزاً، لا حياءً في التسامح فإنَّه يكره التسامح في بيته، ولكن لِيَتَخَذَ من ذاك العذر المرجى «مبرِّراً» لخروجه عن إرادته، كأنَّما يقول لنفسه «إنَّ ابني لم يشقَّ عصا الطاعة... مبهات، ولكن عذره كيت وكيت»... ولكن هل يلتبس له العذر عند شبابه باعتباره عهد طيش ونزق؟... كلاً. إنَّ الشباب عذر عن اللبب وليس علزاً عن خروجه عن إرادته وإلَّا لجاز لفهمي بل لكأل أن يتبادي في الاستهانة بتعاليمه، ليلتبس العذر إذن عند رجولته، هذه الرجولة التي تحلُّ له أن يستغلَّ بنفسه عن إرادته ولو شيئاً ما وتعفيه هو - السيّد - من تحمُّل مسؤولية فعله، كأنَّما يقول لنفسه: «إنَّه لم يخرج عن إرادتي، مبهات، ولكنَّه بلغ السنَّ التي لا يعدُّ فيها ذنبه خروجا عن إرادتي»... وغفَّي عن القول إنَّه يأبى أن يعترف أمامه بهذا الحقِّ ولن يقفوه لو يجاسر على المطالبة به، بل إنَّه لا يعترف له به فيما بينه وبين نفسه إلَّا في حال الوقوع في معصية تستوجب مبرِّراً للخروج عن إرادته، ولم ينس حقَّ في تلك الحال أن يذكر نفسه التماساً للمزيد من الطمأنينة - بأنَّه آتبه تأديباً خليقاً نادراً قلَّ من يستبيحه من الآباء فقويل بخضوع كامل قليل من يتحمَّله من الأبناء... وعرج خاطره إلى زنب متفكِّراً ولكنَّه لم يجد نحوها أيَّ عطف، لقد واساها إكراماً لأبيها العزيز الحبيب، ولكنَّه لا يظنُّ أنَّ الفتاة جديرة بأبيها حقاً، ما

ومع أنَّ السيّد لم يسطن إلى هذه الحقيقة المؤسفة فظنَّ الفتاة قد استطلت لنصيبه إلَّا أنَّ غضبه كانت أشدَّ من أن تمرَّ بسلام، وقد أحسنت الجارية صنفاً بفراوها، أمَّا ياسين فلم يبرح السطح، لبث يفكر منزحجاً في العاصفة التي ترتص به، حتَّى ترامي إلى أذنيه صوت أبيه وهو يناديه بنبرات كفرقة السياط فلحقَّ قلبه، ولكنَّه لم يجب ولم يستجب وتسرَّ يالئاً في مكانه، وما يدري إلَّا والرجل يقتحم عليه السطح ثمَّ يقف ملمدماً لحظات وهو يضغصُّ المكان حتَّى يمش على شبحه فينجه إليه ويقف على كعب منه شابكاً فزاعبه على صدره مصرباً نحوه رأساً متصبلاً متعرجاً، ملتزمًا الصمت ومعليله كي يعليل له به العذاب والإرهاب، كأنَّما أراد بصمته أن يعتر له عا يجد نحوه ممَّا يعي الألفاظ حمله، أو أنَّه أراد أن يرمز به إلى ما كان يؤدِّبه به من مُبرِّح الركل والكمم فمنعه منه استواءه رجلاً وزوجاً، ثمَّ لم يعد يستطيع مع الصمت صبراً فأنهال عليه مباءً وتمنيفاً وهو يتنفض غضباً وهياجاً «أنت تحدَّائي تحت سمعي وبصري!... فلتذهب أنت وتخزيك إلى جهنم... دَنَسْتُ يبي يا وغد، مبهات أن يتطرَّ هذا البيت ما دمت فيه... كان لك قبل الزواج عذر واو فأيَّ عذر لك الآن؟!... ولو أصاب كلامي حيواناً لأقبحه ولكنَّه ينصبَّ على حجر... إنَّ بيتاً يضمُّك خليف بأن تُستنزل عليه اللعنات... نفس عن صدره المستعر بكلمات كالرصاص المنصهر وياسين بين يديه ساكن صامت خافض الرأس كأنَّه يوشك أن يلوب في الظلام، حتَّى أجهد الرجل الزغفُّ فولاه ظهره وغادر المكان وهو يلعن ويلعن أباه وأمه، ومضى إلى حجرته يفور بالغضب فوراً. في ثورة الغضب رأى زلَّة ياسين جريمة تستحقُّ الإيابة، وفي ثورة الغضب لم يعد يذكر أنَّ ماضيه كلُّه صورة مطوَّلة متكرِّرة من ذلَّة ياسين، وأنَّه لا يزال دائباً على سلوكه وقد انتصف به العقد الخامس وشبَّ أبناؤه فصار منهم الأزواج والزوجات. لا لأنَّه في ثورة الغضب ينسى حقاً، ولكنَّه لأنَّه يحلُّ

ورود الوازع الأخير على ذهنه، وتخلل إليه أنه يذهب ياسين على رُؤس شبابه وجنون زلته معاً... مهما يكن من أمر الطليعتان مختلفتان، لم يكن السيد - كابه - مغرمًا بالمرأة بلا قيد ولا شرط، امتازت شهوته دائمًا بالرغاية وحداها الانتخاب الرفيع، بل أثرت في ميزاتها ميزات اجتماعية ضمت إلى الميزات الطبيعية المألوفة، كان مغرمًا بالجمال الأنثوي في لحمه وبخبرته وأناقته، فلم تخل جليلة أو زبيدة أو أم مريم وعشرات غيرهن من ميزة أو أكثر من هذه الميزات، وفضلاً عن هذا كله فلم يكن مزاجه ليصفو ويطيب إلا بالنظر البهيج والمجلس الأنيس وما يتبعهما من شراب وسمر وغناء، فلا يكاد يمضي طويل وقت على عشقة جديدة حتى تغفل إلى هواه فتعثر له ما تنفخ إليه نفسه من جو عذب يعقب فيه الورد والبحور والمسك، وكما كان يمشق الجبال مجرّداً كان يمشقه كذلك في حالته الاجتماعية اللائحة. تجلبه المكانة المرموقة والصيت البعيد، ولذلك له أن ينزه خاصته بعشقه ومعشوقاته إلا فيما ندر من أسوأ توجب التستر والكتيان كحال أم مريم، على أن هذا الحب والاجتماع لم يكن ليفرض عليه تضحية بالجمال، فالجمال والصيت - في هذا المجال - يسيران جنباً لجنب كالشيء وظله، وغالباً ما يكون الجمال اليد الساحرة التي تشق السيل إلى الصيت والمكانة المرموقة، وقد عشق أشهر عوالم عصره فلم تخيب إحداهن نزوعه إلى الجمال ولعله بالحسن. هذا ما جعله يذكر نزوات ياسين بازدياد وهو برّد مستكراً وأم حنفي! نورا... يا له من حيوان! إنه بريء من هذا الشلوك بيد أنه ليس في حاجة إلى أن يتسامل طويلاً عن مصدره فإنه لم ينس بعد ذلك المرأة التي أنجبت ياسين فأودعته طبيعتها المولعة بالقذارة، إنه مسئول عن قوة شهوته أما هي فمسئولة عن نوع هذه الشهوة النزاعة إلى الخسيس. وقد عاوده في الصباح التفكير والجنتي في المسألة فكاد يدعو الزوجين إليه كي يصغي ما بينهما. وما بينه وبين كليهما - من حساب، ولكن أرباب ذلك إلى متع من الوقت أنسب من الصباح.

كان يضلّ بزوجة كريمة أن تضضح زوجها - مهما تكن الظروف - على النحو الذي فضحت به ياسين... لشد ما أهولت!... لشد ما صرخت!... ماذا كان يصنع هو - السيد - لو أن أمينة فجأته يوماً مثل هذا التصرف؟!... ولكن أين هي من أمينة؟!... ثم كيف قصّت عليه ما رأت دون حياء... أف!... أف! لو لم تكن هذه الفتاة كريمة عمّد عفت لحق ياسين أن يؤدّبها بل لما رضي هو أن تمرّ هذه الواقعة دون عقاب زاجر، لقد أعطى ياسين ولكنّها أعطت خطأ أكبر. ثم عاد إلى ياسين سريعاً فراح يفكر - بباطن مبتمس - في الطليعة الواحدة التي تجمع بينهما، تلك الطليعة المورثة عن الجدّ بلا ريب، ومن يسري لعلها تضطرم الآن في صدر فهي تحت قناع التهذيب والاستقامة، بل ألا يذكر كيف عاد يوماً إلى البيت على غير انتظار فترامى إلى سمعه صوت كمال وهو يغني وبا طير يا ليلى على الشجرة؟!... تأثّر لحظتك ذلك وراء الباب - لا ليطأه بل أنه وصل بعد انتهاء الغناء فحسب - ولكن ليتابع الصوت مثلاً معدنه سايراً طول نفسه، حتى إذا ما ختم الغلام النغمة صفق الباب بقوة وهو يعمل ومضى إلى الداخل طائفاً صدره على ابتهاج لم يفعل إليه أحد، كم يلدّه أن يرى نفسه مترعاً من جديد في حياة أبنائه على الأقلّ في ساعات الهدوء والصفاء، ولكن رويداً... إن ياسين طليعة خاصة به لا يشركه هو فيها، أو أنه لا تجمع بينهما طبيعة واحدة إذا روعي المعنى الدقيق لهذه الكلمة، ياسين حيوان أصم... ينقض مرة على أم حنفي ويضبط مرة أخرى مع نور، يتمرّع في التراب دون مبالاة، وما هكذا هو أجل إنه يترك مقدار الضيق الذي أم ياسين لا تضطره إلى قضاء الليلة في شبه سجن، يترك لأنه كابه هو أيضاً كتيماً عزوفاً كمن فقد عزيزاً، ولكن مبه كان يتنزه في بستان السطح - كما فعل الفتي - فصادف جارية - ولنفترض أنها تكون ملية لنوّه - أكان يقدم على المغامرة؟!... كلاً. مؤكّد كلاً، ولكن أيّ وازع كان يشكمه؟!... لعله المكان! الأسرة! ولعله العمر الرشيد. أه. لقد تضايقت عند

ولكنه لم يفعل بغير استعطفها. لم يتجاسر على أن يتحداهم ولو بالنظر وهو يتلقس سبيله تحت رحمتهم، تخشى أن ينحرف بصره إلى أحدهم، ومضى إلى البيت متسائلاً في سرية عما كانوا يفعلونه لو أنهم علموا بأنه راجع من مظاهرة اشتبكت مع جنودهم في شبه معركة، أو أنه ودَّع في مطلع اليوم عشرات المنشورات التي تعرض على قائلهم، جلس يستعرض ما لاقاه في يومه مستحضرًا أقله كما وقع وأكثره كما كان يتمنى أن يكون. فكلما كان رآه أن يعمل نهارًا وأن يعلم مسله. تمخذه في الحالين أسمرى المواقف وأقلعها، حبَّ قومه من ناحية والرغبة في التفتيل والإبادة من ناحية أخرى، أحلام يسكر بها وقتًا يطول أو يقصر ثم يفق منها على حسرة لاستحالتها وفقر لسخافتها تصوراتها، أحلام تنسج لحمتها وسداها من معارك يتقدّم صفوفها كجان دارك، واستيلاء على سلاح للعدو ثم الهجوم عليه، هزيمة الإنجليز، خطبة خالدة في ميدان الأوبرا، اضطراب الإنجليز إلى إعلان استقلال مصر، عودة سعد من المنفى ظافرًا، لقاء بين وبين الزعيم وكلمة الزعيم، مريم بين شهود الافتتاح التاريخي. أجل كانت أحلامه تتوزج دائمًا بصورة مريم رغم انزوائها - طوال تلك الأيام - في ركن قصي من قلبه الذي شغلته الشواغل كلها كما ينزوي القمر وراء السحب إبان العاصفة. وما يدري إلا وأمه تقول له وهي تشدّ المندبل حول رأسها في ارتباك:

- ذهبت زينب إلى بيت أبيها غضبانة.

آه... كاد ينسى ما أمّ بأخيه وأسرته في الصباح، الآن تأكد لديه ما حسده حين علم باختفاء الجارية نور، وتخافى عيني أمه حياه أن تقرا ما يدور بخلده خصوصًا وأنه أيقن بأعلاها على جليّة الأمر، ولم يستبعد أن تضطر إلى إدراكه له أو في الاقسل أن ترجعه، فلم يتجرأ ما يقول لا سبًا آله لم يعتد في عاداتها أن يبدى خلاف ما يظن، ولم يكن أبغض لديه من أن يقوم المكر مقام الصراحة بينها، ففطن بأن يتمم قائلًا:

- ربنا يصلح الحال...

ولمّا ساءل فهمي ياسين عما دعه إلى التخلّف عن المائدة أجاب مقتضبًا وشيء تافه سوف أحدثك عنه فيما بعده وظلّ فهمي جاهلاً سرّ غضب أبيه على أخيه حتى علم باختفاء الجارية نور فحسب الأمر كله. شهد الصباح الأسرة على غير مالولها فقد غادر ياسين البيت مبكرًا ولزمت زينب حجرتها ثم غادر الرجال البيت واجفين متحاشين أن يرفعوا بصرا صوب الجنود والألم من وراء خصاص المشربة تدعو الله أن يقيهم من كل سوء. ولم تشأ أمانة أن تقحم نفسها في «واقعة» السطح فنزلت إلى حجرة القرن وانتظرت بين حين وآخر أن تلمح بها زينب كالعادة. لم تكن تقراها على غضبتها لكرامتها فعدتها لتدليل آثار استيهاها، وجملت تسامد وكيف تذهي لنفسها من الحقوقي ما لم تلّعه امرأة فقط؟...»

لا ريب أنّ ياسين قد أعطى فندس البيت الطاهر ولكنه أعطى في حقّ أبيه وحرمة لا في حقها هي... آلت ملائكا بالقياس إلى هذه الفتاة؟... ولكن لما طال بها الانتظار لم تعد تستطيع تجاهلها وأقنعت نفسها بوجوب الذهاب إليها مواسية فصعدت إلى شقتها ونادتها، ثم دخلت الحجرة فلم تمر لها حل أثر، ومضت من حجرة إلى حجرة وهي تنادي حتى فشت البيت ركنًا ركنًا، ثم ضربت كفاً بكفّ وهي تقول «رباه... هل ارتفعت زينب أن هجر بيتها؟...»

## ٥٩

لم تتجأ أمانة سحابة النهار من قلق، فإن احتمال تعرض الجنود لأحد من رجالها في ذهابه أو إتيانه لم يكذب يفارق رأسها. وكان فهمي أول المائدين فتخففت لدى رؤيته من بعض آثار قلقها ولكنها رآته متجهيًا فسأله:

- ماذا بك يا بوي؟

فهتف فهمي متأففاً:

- أكره أن أرى هؤلاء الجنود...

فقالته المرأة بإشفاق:

- لا تكيّ لهم الكراهية، إن كنت تحبني لا تفعل...



الوسكي، ملأ الامتنان والزهو، توّرد وجهه المكتنز وضجحت أساريره وكأنّ عبارة «ثانك يو» نشان سامر تقلّده على الملأ، إلّا أنّها ضمنت له أن يلهب ويحيي أمام المسكر أمّاء، وما كاد الرجل يبدي أوّل حركة للدهاب، حتّى قال له متوقّداً من أحباق فؤاده:

- حطّ سعيد يا سيّدي.

ومضى إلى البيت كالترّشح من الفرح. أيّ حطّ سعيد ظفر به هو... إنجليزيّ - لا أسترليّ ولا هنديّ - وابتسم له وشكّره... إنجليزيّ أي رجل يتمثّل في خياله كأفغوزج لكحال الجنس البشريّ، ربّما أبغضه كما يبغضه المصريّون جميعاً، ولكنّه في فرة نفسه يحترمه ويحله حتّى ليختلّ إليه كثيراً أنّه من طبقة غير طبقة البشر، هذا الرجل ابتسم له وشكّره... وقد أجابته إجابات صحيحة مقلّداً ما وسعته مرونة شديقه طريقة النطق الإنجليزيّة فنجح نجاحاً باهراً استحقّ عليه الشكر... كيف يصلّق ما ينسب إليهم من الأعمال الوحشيّة!! لماذا نفوا سعد زغلول إذا كانوا على هذا الظرف كلّهم؟ غير أنّ حماسه فتر بمجرد أن وقع بصره على السّت أمانة وفيهم واستطاع أن يقرأ نظريّتها، وسرعان ما اتّصل ما كان انقطع من حين من جبل همومه، انتبه إلى أنّه يواجه مرّة أخرى المشكلة التي هرب منها مع الصباح الباكر. تسامد وهو يشير بأصبعه إلى فوق:

- لماذا لا تجلس معكم؟ ألا تزال غضبانة؟

فتبادلت أمانة مع فهي نظرة ثمّ تمنت بارتباك:

- ذهبت إلى أبيها.

فرفع حاجبيه دهشة وانزعاباً ثمّ سأها:

- لماذا تركتها تذهب؟

فقالّت أمانة وهي تتنهد:

- تسلّلت دون أن يشعر بها أحد.

شعر أنّه يجب أن يقول قولاً يرضي كرامته أمّام

أخيه وأتمّه فقال باستهانة:

- إلى حيث...

وقرّر فهي أن يقام رفيقه في اللواذ بالصمت كي يوهم أخاه أنّه لم يكلم على سرّه وبالتالي أن ينفي

لم تنبس أمانة بكلمة كأنّ اختفاء زينب من الضاعة بحيث تكفي جملة إخباريّة وأخرى دعائيّة في معالجته، وما لبث فهي أن دارى ابتسامه كادت تنفض لحفظه إذ أدرك أنّ أمّه تكاد مثل شعوره وأنّها تعاني ارتباكاً لمعجزها الفطريّ عن التمثيل، لم تكن تحسن الكلب، وحتى إذا اضطرتّ إليه أحياناً كشفها طبيعة لا تستقرّ على بساطتها الاقنعة، حلّ أنّ ارتباكها لم يعلّ فما هي إلّا دقائق حتّى رآها ياسين مقبلاً نحوها. خيل إليها أنّه يطالعها بوجه لا يقدر المتعجب التي ترصد في البيت وإن لم يعلم بعد بمدى ما بلغت، ولم يدهش فهي لذلك كثيراً لما يعلمه من استهائته بالمتعجب التي تنوء بغيره من الناس، ولكنّ الحقيقة أنّ ياسين غلبه شعور باهر أنّه اجاز مغامرة ظافرة أنسته إلى حين جلّ متاعبه. كان في طريقه إلى باب البيت حين اعترض سبيله جنديّ كأنّما انشلت عنه الأرض فارتعدت مفاصله وتوقّع شراً لا قبل له به أو في الأقلّ إهانة جارحة على مرأى من أصحاب الحوانيت والمآزة، ولكنّه لم يتردّد في الدفاع عن نفسه، فقال برقة وتودّد خاطباً الجنديّ كأنّما يستأنّه في اللورد:

- من فضلك يا سيّدي.

ولكنّ الجنديّ طلب عود نقاب وهو يتنسم - أجل يتنسم - فذهل ياسين لابتسامته حتّى استعصى عليه أن يفهم مراده حتّى أحاده، لم يكن يتصوّر أنّ جنديّاً إنجليزيّاً يتنسم على هذا النحو، أو - إذا كان الجنود الإنجليز يتنسمون كسائر البشر - أن يتنسم له أحدهم لبها يشبه الأدب، فاستحقّه سروراً أريكه حتّى لبث جامداً لحظات لا يجري جواباً ولا يبدي حراكاً، ثمّ توتّب بكلّ ما فيه من قوّة لأداء هذه الخدمة البسيطة لذلك الجنديّ العظيم المبتسم، ولمّا كان غير مدبّر فلا يحصل ثقاباً فقد بادر إلى الحلاج درويش بالغ القول وابتاع عليه نقاب وهرع إلى الجنديّ ماداً له يده بها فتناولها الجنديّ وهو يقول:

- أشكرك.

لم يكن أفاق من أثر الابتسامة السحرية فجاء الشكر كقدح البيرة الذي يعلّ به من استوفى طاقته من

شبهة إذاعته هذا السرّ من أمّه فسأله ببساطة:

- ما الذي دعا إلى هذا التكذّب؟

فحده يأسين بنظرة متضمّصة ثمّ لَوّح بيده الغليظة وهو يحدّد بوزء كأنّما يقول له وليس ثمة ما يدعو إلى التكذّب، ثمّ قال:

- بنات اليوم لم تعد يهِنّ طاقة على حسن المباشرة.

ثمّ ناظرًا إلى ستّ أمينة:

- أين هنّ ستّات الأمس؟

نكست أمينة رأسها حياء في الظاهر، وفي الحقّ لتداري ابتسامه لم تستطع مغالبتها حينما ربط ذهنها بين الصورة التي يتخلّلها يأسين الآن، صورة المتكامل الواضع المجنّب عليه، والصورة التي ضبط بها مساء أمس فوق السطح. حل أنّ انزعاج يأسين كان أعظم بكثير من القدر الذي سمح له الموقف بأن يظهر به،

فلأنّه على فداحة الحيلة التي تُثني بها في حياته الزوجيّة لم يفكر لحظة في قطع هذه الحيلة، وجد فيها ملاذًا مستقرًا ورعاية إلى ما بدّرت به من أبوة وشبكة رَحَب بها ألقا ترحيب، ثمّ دائمًا أنّ تبقى وراء ظهره ليعود إليها من شئّ جولته كما يعود الرّحالة في نهاية العلم إلى وطنه، ولم يغب عنه ما سيجرّه عليه ذهاب زوجته من نزاع جديد بينه وبين أبيه وبين السيّد عَفّت، إلى ما يلبس هذا كلّ من فضيحة متفوح والحقها حقّ تزكم الأنوف... بنت الكلب!... لشدّ ما كان مصصًا على أن يستدرجها إلى الاعتراف بأنّها أعطت خطأ أكبر من خطئه، بل لعلّه اقتنع بذلك لدرجة تقرب من اليقين، فاقسم ليحملتها على الاعتذار وليأخذ نفسه بتأديبها بمختلف الوسائل، ولكنّها ذهبت... قلبت خطئه رأسًا على عقب... وضعت في مازق غير

يسير. بنت الكلب!... وانثَرع من تيار أفكاره على صوت صراخ يمزّق الصمت المحيط بالبيت فالتفت صوب فهمي وأتمّه فوجدتهما يرفهان السمع باهتمام وقلقى، وتواصل الصراخ فأدركوا بسهولة أنّه صادر عن امرأة، ولكنّ تسادلت أحيتهن عن الناحية التي يترامى منها وعن سببه: أنمي ميت أم صراك أم استغاثة، وراحت أمينة تستعيد بالله من الشرور جميعًا حتّى قال

فهمي:

- إنّه قريب... لعلّه في طريق بيتنا.

ونفض فجأة مقبلاً جيئه وهو يتساءل:

- ألا يكون الإنجليزي قد هاجبوا امرأة ماوّة بالطريق؟ وهرع إلى المشريّة والأخوان في أمّره، بيد أنّ الصراخ انقطع غير تارك وراءه دليلًا على الناحية التي تراسى منها، فرمى ثلاثتهم بأنظارهم خلال الخصاص يتضمّصون الطريق فاستغرّزت على امرأة لفتت الأنظار بوقفتها الغريبة وسط الطريق وبعن أحاط بها من المازة وأصحاب الحوانيت، على أتهم عرفوها لأوّل وهلة وهضوا معًا:

- أمّ حنفي...

وتسألت أمينة التي كانت أرسلتها لتعود بكيال من المدرسة:

- ما لي لا أرى كيال معها؟ وماذا يولفها هكذا

كالجهاد كيال... ربّله... أين كيال؟

ثمّ مدفوعة بشعور غريزيّ:

- هي التي كانت تصرخ... عرفت الآن

صوبها... أين كيال؟... أهشولي...

لم ينس فهمي ولا يأسين بكلمة. استغرقها فحص الطريق عائمة والمسكر الإنجليزي خاصّة حيث رأوا أنظار المتجمّعين - وفي مقدّمتهم أمّ حنفي - تتجه. لم يكن ثمة شكّ لديها أنّ أمّ حنفي هي التي صرخت حتّى جمّعت الناس حولها، بل شعرا بالبداهة أنّها كانت تستغيث لأنّ ثمة خطرًا يهدّد كيال، ثمّ تركّزت غاؤها في الإنجليزي. ولكنّ أيّ خطر هو؟... وأين كيال؟... ماذا حدث للغلام؟ إنّ الأمّ لا تكفّ عن الاستفالة بدورها وهما لا يدريان كيف يسكنان خاطرها، لعلّها في حاجة إلى من يسكن خاطرها... أين كيال؟... إنّ الجنود ما بين جالس وواقف وماضٍ ولطيفة، كلّ مشغول بشأنه كأنّ شيئًا لم يقع وكان أحدًا من الناس لم يتجمّع. وهض يأسين بفتة وهو يلكز فهمي في كتفه:

- ألا ترى هؤلاء الجنود الواقفين على هيئة دائرة

تحت سبيل بسين القصرين؟... إنّ كيال يقف

بينهم... انظر.

فلم تملك الأم أن صرخت قائلة:

- كمال بين الجنود... ها هو يا ربّي... ربّاه... أغويوني.

أربعة جنود حياقة وقفوا على هيئة دائرة متشابهة الأذرع، وقد مرّت حيناً فحيناً أكثر من مرّة دون أن تمعّرا على ضالّتهما، في هذه المرّة لمح كمال واقفاً وسط الدائرة كما لاح من فرجة انشقت عنها ساقا الجنديّ الذي يوليهم ظهره، خبّل إليه أنّهم سيتخادفونه بأرجلهم كالكرة حتّى يقضوا عليه، أنساه خوفه على أخيه نفسه فاستدار قائلاً بنبرات مضطربة:

- سأذهب إليه مهما تكن العواقب...

ولكنّ يد ياسين قبضت على منكبه وهو يقول بصوت حازم وقصّ... ثم خاطب الأم بصوت هادئ باسم قائلاً:

- لا تخافي... لو أنّهم أرادوا أن يصيبوه بسوء ما تركدوا... انظري إليه ألا يبدو منهمكاً في حديث طويل؟ ثم ما هذا الشيء الآخر الذي يده؟! أراهن على أنّها قطعة من الشيكولاتة!... ههني روعك... إنّهم يتسلّون به ويمتدّاء شدّ ما ألزعنا حل لا شيء. سكن روع ياسين، وما لبث أن تلخّر مغاسرته السعيدة مع الجنديّ فلم يستبعد أن يوجد له من زملائه نظائر في لطفه ورّفته، ثم رأى أن يدهم قوله ويثبته في فؤاد الأم اللطاع فأشار إلى أمّ حنفي التي لم تزل في موقفها قائلاً:

- ألا تريان أنّ أمّ حنفي لم تكفّ عن الصراخ إلّا حين لم تجد داعياً له. ها هم الناس يفضّون من حولها تعلوهم الطمأنينة.

فغمضت أمينة بصوت مرتعش:

- لن يطمئنّ قلبي حتّى يعود إلّي...

وتركزت أعينهم في الغلام، أو فيها يلوح منه بين آونة وأخرى غير أنّ الجنود استردّوا أذرعهم للشباكة وضمّوا سيقانهم المنفرجة كأنّما اطمانوا إلى عدول كمال عن التفكير في الحرب، فبدأ الغلام بكامل هيئته، بدأ بأسماً يتكلّم كما استدلّوا عليه من حركة شفّته

وإشارات يديه التي استعان بها على الإفصاح عن أفكاره فدلّ التضام بينه وبينهم على أنّهم يستطيعون إلى حدّ ما استعمال اللغة العربيّة، ولكن ماذا يقول لهم أو ماذا يقولون له؟... هذا ما لم يستطع أحد أن يجنّسه، بيد أنّهم ثابروا إلى رشدهم، حتّى الأم نفسها استطاعت أخيراً أن تشاهد المنظر العجيب الذي يمثّل تحت ناظرها بدهشة مزوجة بقلق صامت دون عويل أو استفائّة، حل حين جعل ياسين يضحك قائلاً:

- الظاهر أنّنا خالينا في التشاؤم حيناً فنبشّ أن احتلال هؤلاء الجنود لحنا سيكون مصدر متاعب لنا لا تنتهي. ومع أنّهم بدأ عتثاً لسلوك الجنود مع كمال، إلّا أنّه لم يرتح إلى ملاحظة ياسين فقال دون أن تتحوّل حينه عن الغلام:

- ربّما اختلّفت معاملتهم للرجال أو النساء عن معاملتهم للأطفال. لا تقلّي في تفاؤلك.

وكاد ياسين يندفع متحمّساً عن مغاسرته السعيدة، ولكنّه أدرك لسانه في اللحظة المناسبة فأمسك تفادياً من إثارة أخيه، ثم قال حل سبيل اللطافة والتردّد:

- ربّنا يجنّسنا منهم حل غير.

وتساملت أمينة في لفّة:

- ألم يكن لهم أن يدعوه مشكورين؟

ولكنّ بدا حل دائرة كمال أنّ ثمة جديداً ينتظر، فقد تراجع أحد الجنود الأربعة إلى خيمة قريبة ثمّ عاد بعد قليل بكروسيّ خشبيّ فوضعه أمام كمال، وما لبث الغلام أن وثب إلى الكرسيّ فوقف منتصب القامة مشدود الذراعين إلى أسفل، كأنّما يتنظم طابور القسم للمخصوص، وقد انحدر طربوشه إلى قدّاله - دون شعور منه في الغالب - كاشفاً عن مقدّم رأسه الكبير البارز. ما غطبه؟ ماذا وراء هذه الوقفة؟ لم يطل بأحد التساؤل إذ سرعان ما علا صوته الربيع وهو يشد:

يا عزيز عيني بئّي أروح بلدي

يا عزيز عيني السلطة عدت ولدي

فنبشاً مقطّماً مقطّلاً بصوته اللطيف والجنود يتطلّعون إليه فاغري الاقواء صاحكي الاساور تلاحق أكتفهم ترفينه بالتصفيق، وكان أحدهم قد تألّز بما

في الضحك وهو يضرب ركبتيه بكفيه، ثم قال وهو يغالب الضحك:

- أرايتموني حقاً...؟

عند ذلك جاء صوت أم حنفي وهي تقول بنبرات متشعبة:

- كان الأفضل أن يروا تعاسي... علام هذا الفرح كله بعد أن سيئت مفاصلي؟... حادثة أخرى كهذه والله يرحمي...

لم تكن قد خلعت ملاءمتها فلبت كزكية فعم متفخعة، يعلو وجهها الشحوب والإحياء وتلوح في عينها نظرة استسلام غريبة، فسألته أمية:

- ماذا حدث؟... ماذا دعاك إلى الصراخ؟...

لقد لطف الله بنا فلم تشهد شيئاً مفرحاً...

فأسندت أم حنفي ظهرها إلى سلفة الباب وأعلنت تقول:

- حدث ما لن أنساه يا ستي... كنا عائدتين وإذا بشيطان من هؤلاء الجنود يفكر بأماننا ويشير إلى سيدي كمال ليذهب إليه ففرع سيدي وجرى إلى درب قرمز، ولكن جندياً آخر اعترض سبيله فانهرف إلى بين القصرين وهو يصرخ فغاص قلبي من الخوف وجعلت أستغيث بأهل صوتي وعياني لا تفارقانه وهو يجري من جندي إلى جندي حتى أحاطوا به... كدت أموت من شدة الخوف وزأخ بصري فلم أجد أرى شيئاً، وما أدري إلا والناس قد اجتمعوا حولي ولكني لم أكف عن الصراخ حتى قال لي عم حسين الحلاق: «رَبَّنَا يَكْفِهِ شَرُّ أَوْلَادِ الْحَرَامِ. وَحَدَّثَ اللَّهُ... إِيَّاهُمْ بِلَافُظُونَهُ...» أه يا ستي لقد حضرنا سيدنا الحسين ودفع عنا الشر...

فقال كمال معترضاً:

- لم أصرخ أبداً...

فصرت أم حنفي صدرها بكفها قائلة:

- لقد ثقب صراخك أذني حتى جئتني...

فقال بصوت منخفض كالمتنذر:

- ظننتهم يريدون قتلي، ولكن أحدهم جعل يصفر لي ويسرّت كفتي ثم أعطاني (وهنا جسّ جيبه)

أدركه من بعض معاني الأغنية فراح يهتف «أرّوح بلدي... أرّوح بلدي... فتشجع كمال بما حظي من سرور سامعيه وأقبل يجرّد من إنشاده ويصنّ من ترنمه ويعلي من صوته، حتى خمت الأغنية بين التصفيق والاستحسان الذي شاركت فيه الأسرة من وراء الحصاص بقلوب ملؤها السرور والإشفاق. أجل شاركت الأسرة في الاستحسان بعد أن شاركت بقلوبها أيضاً. في الغناء، تتبّعوه بإشفاق وقلق، دحوا له بالسلمة والإجادة، خافوا عليه الزلل أو النشاز كأنما يقني بالإجابة عنهم جميعاً، أو كأنما هم اللذين يقتون من حنجرتهم، وكأنّ كرامتهم - أفراداً ومجموعة - أمست متعلّقة بنجاح الغناء، نسيت أمية في لحظة هذا الشهور خافوها، حتى فهمي لم يكن يفكر في أثناء ذلك إلا في الغناء وما يرجو له من نجاح، فلما انتهى بخير تنهدوا من الأحياق ووقوا أن يبادر كمال إلى العودة قبل أن يطرا طارئ يفسد عليهم مسك هذا الحتام. والظاهر أنّ الحفلة أذنت بانتهاء فقد قفز كمال إلى الأرض فسلم حل الجنود لرداً فرداً ورفع يده عنيّاً ثم انطلق يعدو صوب البيت. فهولت الأسرة من المشرية إلى الصالة لتكون في استقباله. أقبل عليها لاحقاً موزة الوجه مبتلّ الجبين تنطق عيانه وأساويزه وحركات أعضائه المرسلة بلا أنزاع أو غاية بالفرح والفوز. أترع قلبه الصغير سعادة غامرة ما كان يوسعه إلا أن يملن عنها بكل سبيل ودحو الآخرين إلى الاشتراك فيها كالقيضان الزاخر يضيّق عنه النهر فيخسر الحفول والوديان، وكانت نظرة واحدة تلقى بروية كافية لأن تزيه مغامرته معكوسة على صفحات الوجوه... ولكنّ الفرح أحياه لهتف بهم:

- عندي خبر لن تصدّقوه ولن تصوّروه...

ففهقه ياسين متسائلاً في سخرية:

- أيّ خبر يا عزيز حبي؟

كشفت هذه الجملة الغشاوة عن عينه كأنها نور شمع فجأة في الظلام فرأى الوجوه على ضوئها مفعبة ناطقة، بيد أنّ علمه برؤيتهم لمغامرته عوّضه عما ضاع من فرصة إدهاشهم بحديثه العجيب فأغرق

فقال كيال مسترئدا ارتياحه بضحك أخيه:

- امسك أحدهم بأذني وقال لي وسعد باشا  
نو... ع.

فعاد ياسين يتسامل:

- وماذا قالوا أيضًا؟

فقال كيال ببراعة:

- سالوني... ألا يوجد بنات في بيتنا؟

فتبدلت نظرة جدية بينهم لأول مرة منذ قديم كيال،  
ثم سألهم فهمي بامتنان:

- وماذا قلت لهم؟

- قلت لهم إن أبله عائشة وأبله خديجة تزوجتا،  
ولكنهم لم يفهموا كلامي فقلت ليس في البيت إلا

نينة، فسألوني عن معنى نينة فقلت...

رمى فهمي أخاه ياسين بنظرة كأنها يقول: وأرايت  
كيف أن سوء ظني في عملاء؟ ثم ساءرا:

- لم يغطوه الشيكولاتة لوجه الله...

فابتسم ياسين ابتسامة باهتة وغمغم قائلاً:

- ليس ثمة ما يدعو إلى الفلق...

وأين أن يترك هذه السحابة تقشى مجلسهم لسأل  
كيال:

- وكيف دعوك إلى الغناء؟

فقال كيال ضاحكاً:

- في أثناء الحديث انطلق أحدهم ينفث بصوت

منخفض، فاستأذنتهم في أن أسممهم صوتي...

فهمه ياسين قائلاً:

- يا لك من قتي جريء!... ألم يعاودك الخوف

وأنت بين أرجلهم؟

فقال كيال في مبالاة:

- أبداً... (ثم بتأثر) ما أجملهم!... لم أر

أجمل منهم من قبل. عيون زرق... وشعر من

ذهب... وشررة ناصعة الياض... كأنهم أبله

عائشة!

وجرى فجأة إلى حجرة للذاكرة وربع رأسه إلى

صورة لسعد زغلول ثبت في الجدار إلى جانب صورة

الحديو ومصطفى كامل ومحمد فريد... ثم عاد وهو

شيكولاتة فذهب عني الخوف...

زابل أمينة السرور، لعله كان سروراً زائفاً

متعجبلاً، الحقيقة التي يجب ألا تغيب عنها هي أن

الفزع ركب كيال دقائق، وأنه يجب أن تدعو ربنا

طويلاً كي ينتجيه من حواقبه، لم تكن ترى في الفزع

مجرد شعور عابر، كلا... إنه شعور شلّ تكتفه حالة

غامضة تأوي إليها العفريت كما تأوي الخفافيش إلى

الظلام، فإذا أحاط بشخص... خصوصاً الصغار... منه

بضر سقى العاقبة، لذلك فهو يستوجب في نظرها

مزيداً من العناية والحماية، تلاوة من القرآن كانت أم

بخوراً أم حجاباً، قالت بحزن:

- أفرعوك! قاتلهم الله...

وقرأ ياسين ما يدور في خاطرها... فقال مداعباً:

- الشيكولاتة رقيقة ناجمة للفزع... (وهضاباً

كيال)... هل دار الحديث بالعربي؟

رغب كيال بالسؤال لأنه فتح له مرة أخرى أبواب

الخيال والمغامرة، متشلاً إياه من مضايقات الواقع،

فقال وقد استعادت أسابره ابتسائها:

- كلموني بعربي غريب!... ليك سمعته بنفسك!

وداح يحاكمي طريقتهم في الكلام حتى ضحك

الجميع، حتى أمه ابتسمت... فعاد ياسين يسأله

وكان يهبطه:

- ماذا قالوا لك؟

- كلاماً كثيراً!... ما امسك، أين يترك، أتحب

الإنجليز؟

فهمي ساءراً:

- وسم أجبتهم حل هذا السؤال الفريد؟

فرمق أخاه كالترقد... ولكن ياسين أجاب عنه

قائلاً:

- طبعاً قال إنه يجيبهم... ماذا كنت تريد أن

يقول...؟

حل أن كيال استلرد يقول متحمساً:

- ولكني قلت لهم أيضاً أن يعيدوا سعد باشا.

فلم يتالك فهمي أن ضحك عائياً... وسأله:

- حقاً!... وماذا قالوا لك؟

يقول:

- إنهم أجمل من سعد باشا كثيراً...  
فهو فهمي رأسه كالأسف وقال:

- يا لك من خائف...! اشتريك بقطعة من الشيكولاتة... لست صغييراً ليغفر لك هذا القول، من مدرستك من يشهد كل يوم، غيبة الله عليك...

وكانت أم حنفي قد أحضرت الموقد والكنجة والفناجين وعلبة البن... وأخذت أمينة تخبز القهوة للجلسة التقليدية، عاد كل شيء إلى أصله إلا ياسين فقد حاول التفكير في زوجه الغائبة، على حين انتفى كمال جانباً وأخرج الشيكولاتة من جيبه وراح ينزع عنها الغلاف المورّد اللامع، بدا أن تعنيف فهمي ضاع في المسواة إذ لم يكن في قلبه وقتذاك إلا الرضى والحب...

## ٦٠

تعمّدت مشكلة ياسين الزوجية فبلغت درجة من الخطورة لم يتوقّعها أحد، وما يدري السيد أحمد إلا وعُمدت حُفّت قادم عليه في الدكان في اليوم التالي لالتجاء زينب إلى بيته، ثم قال قبل أن يستردّ يده التي شدّ عليها السيد بالسّلام:

- يا سيد أحمد... جئتكم برجاء... يجب أن تطلق زينب اليوم قبل الغد إن أمكن...

بهت السيد، أجل قد ساءه سلوك ياسين أكبر إساءة، ولكنه لم يتصوّر أن يبعث رجلاً فاضلاً كالسيد محمد حُفّت إلى المطالبة بالطلاق، لم يتصوّر أن تدعو هذه «المفوقات» إلى الطلاق مطلقاً، بل لم يجرّ له على بال أن يحمي المطالبة بالطلاق من ناحية الزوجة أبداً، فخيّل إليه أن الدنيا انقلبت رأساً على عقب، وأبى أن يصدّق أن محدثه جادّ في طلبه فقال بلهجه اللطيفة التي طالما استأثرت قلوب أصدقائه:

- ليت الإخوان كانوا معنا ليشهدوا عليك وأنت تقلّني بهذه اللهجة الغاسية!... أصح إليّ... باسم صداقتنا أمتنع من أن تجهري للطلاق ذكراً على

لسانك...

ثم تفرّس في وجهه ليسبر أثر كلامه فيه، ولكنه وجدته متجهماً كالخا ينلر بالشر والتصميم، فبدأ يستشعر الخطورة والتشائم... دعاه إلى الجلوس فجلس وما تزداد صورته إلا ظلاماً. إنه يعرفه حق المعرفة، عنيد شديد المراس إذا ركبته الغضب كفر بالموثقة والمجاملة فتمزقت على سنان حدته أسباب القرى والمظف جميعاً، قال السيد:

- وسُخِد الله... ولتحدث في هدوء...  
فقال عمّد حُفّت وكأته يقبس لهجة من نار الغضب الذي توقّج به خذاه:

- صداقتنا في حرز، فلندعها جانباً... ابنك ياسين لا يعاشر، تحققت من هذا بعد أن عرفت كل شيء، كم تصبّرت المسكينة!... حضنت همومها طويلاً، أخفت عني كل شيء، ثم بثّتها جملة حين تصدّع صدرها... يسهر طول الليل ويعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكراً، أماتها ولفظها، ثم ماذا كانت عقي صبرها الطويل! أن تضبطه في بيتها مع خادمتها! (ويصق على الأرض)... جارية سوداء؟... بنتي لم تحلق لهذا... كلاً وربّ السماوات، أتت أعرف الناس بمنزلتها عندي، كلاً... وربّ السماوات، لا كنت عمّد حُفّت إذا سكّت على هذا....

قصة معقدة، ولكن ثمة جديداً صلحه حتى زلزله هو قوله إن ياسين يعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكراً!... أعرف طريق الحانة أيضاً!... متى؟... كيف؟... آه ليس في الوقت متسع للتفكير أو الانزعاج، ليخفّف انفعاله كله، الساعة تتطلب هدوءاً وضيقاً للنفس، يجب أن يملك الموقف ليفغى استفعال الشر... قال بتراب أسيفة:

- إن ما يجزك يجزني أضغاثاً، ومن سوء الحظ أن سومة من السوءات التي حدثني عنها لم تتصل لي بعلم أو تجرّ لي على بال، اللهم إلا الحادثة الأخيرة وقد أدّبت عليها تأدياً لا يستبيحه لنفسه أب غيري، ما عسى أن أصنع؟... لقد أخذته بالتأديب العنيف منذ كان

لا يتسامح من ذرة غبار إذا مسّت لها ظفراً!...  
لكنّه رغم هذا كلّهُ تملّك عليه أن يقيس الأمور بغير  
مقياسه، وكان يفاخر دائماً، بأنّ عمّد عفت حل فظاعة  
غضبه إذا غضب، لم يحدّ عليه ولو مرة واحدة طوال  
معاشرتها للمديدة!... قال متسائلاً:

- رويدك، ألا ترى أنّ مبادلتنا واحدة وإن اختلفت  
التفاصيل؟ جارية سوداء أو حلة... أليست كلتاها  
امراًة؟

فانتفضت أوداج عمّد عفت وضرب حافة المكتب  
بقبضته... وانفجر قائلاً:

- أنت لا تعني ما تقول! الخادمة خادمة والسيدة  
سيّدة، لماذا لا تعشق الخادِمات إذن؟! لم يشابه ياسين  
أباه، لآني أسف لكون ابنتي حبل، كم أكره أن يكون  
لي حفيد تجري في دمه القدارة!...

ونعزته الجملة الأخيرة لغضب، ولكنّه استطاع أن  
يفلق قلبه حل غضبه بقوّة حلمه الذي يجرّبه أصدقاءه  
وأحبّابه، حلم بين الأصدقاء لا يعادله في قوّته إلّا  
غضبه بين آله... ثمّ قال بهلوه:

- أقترح عليك أن تؤجّل الحديث إلى وقت

آخر...

فقال عمّد عفت عتداً:

- أرجو أن تحقّق رجائي الساعة!...

آه... لقد بلغ به الامتناع حدّاً لم يكن الطلاق  
نفسه معه بالحلّ المستكره ولكنّه كان يشفق حل صداقة  
العمر من ناحية، وتعرّض عليه الهزّة من ناحية أخرى،  
أليس هو الرجل الذي يتشفع به الناس ليفشّ  
الخصومات ويصل ما انقطع من الصوّدات  
والزيجات!؟... فكيف تحلّ به الهزّة وهو يدافع هن  
أبنة فيرضى بحكم الطلاق!؟... أين حلمه!؟...

أين كياسته!؟... أين لباقتة!؟...  
- لقد أسهرت إليك لأوّل أسباب الصداقة  
بيننا... فكيف أقبل أن أعرضها للوهن!؟...

فقال الرجل بإنكار:

- صدّقنا في حرزنا... لسنا أطفالاً، ولكن

كرامتي لا يمكن أن تمس...

صبيها، ولكن وراء إرادتنا دنيا وشياطين تمزّ من  
تصميمنا وتفسد علينا نوايانا الطيبة.

قال عمّد عفت وهو يتحاشى عيني السيّد بالنظر إلى  
المكتب:

- لم أجنّ لأرجّح إليك لربّما أو أحملك تقصيراً، أنت  
كاتب مثالي يحنّ ولا يجاري... ولكن هذا لن يغيّر  
من الحقيقة المحزنة، وهي أنّ ياسين كان غير ما أردت  
له أن يكون، وآلّه بحالته الراهنة لا يصلح للحياة  
الزوجية.

فقال السيّد في عتاب:

- رويدك يا سيّد عمّد!...

فقال الرجل مستدرّكاً ولكن مصمّياً على رأيه:  
- على أيّ حال لن يصلح زوجاً لابنتي، سيجد من  
تقبله حل علاقه ولكن غيرها، لم تحلق ابنتي لهذا...  
أنت أدري الناس بمنزلتها عندي...

أهل السيّد رأسه من رأس الرجل وقال بصوت  
منخفض... وكلّما يداري ابتسامة:

- ليس ياسين بين الأزواج بنادرة، فكم منهم من  
يسكر ويهرىد ويعمل البدع!

فقبّط عمّد عفت ليعني عن نفسه شبهة الاستجابة  
لهذا الكلام الوحي بالدعابة... وقال بجفاء:

- إن كنت تشير إلى جماعتنا أو إلّا أنا خاصّة، فالحقّ  
آتي أسكر وأهرىد، وأعتق، ولكنّي... بل نحن  
جيشاً، لا نوحل في القافورات!... جارية  
سوداء!... أهله التي تعني حل ابنتي بأن تتخلّصها  
ضرة!؟... كلّ... كلّ وربّ السواوت... لن  
تكون له ولن يكون لها...

أدرك السيّد أحمد أنّ عمّد عفت - ربّما كابتة سواء  
بسواء - مستعدّ لأن يعفو عن أمور كثيرة، إلّا أن يخلط  
ياسين بين كرمته وبين جارتها السوداء، إنّه يصرّفه  
تركياً في عناد البغل، ثمّ ورد حل ذهنة قول صديقه  
إبراهيم الفار يوم كاشفه بنّته في خطبة زينب لابنة  
ياسين، فقد قال له: «أصيلة بنت أصيل، عمّد أعونا  
وحبيبتنا، ابنة ابنتنا، ولكن هل فكّرت رويداً في منزلة  
الفتاة من نفس أبيها... هل فكّرت في أنّ عمّد عفت

فقال السيد برقة:

- ماذا عسى أن يقول الناس عن زيجة انقطعت ولما تتم عامها الأول؟

فقال محمد عفت بصحيفة:

- لن يرجع عاقل العيب إلى ابنتي...

آه... مرة أخرى... ولكنك تلقاها بنفس الحلم، بدا وكأن استيائه لمجزة عن التوفيق قد غفك استيائه من عبور الرجل الغاضب فلم يتم بالرضا المنطلق عليه اهتمامه بتبرير إغضابه... راح يمرّ نفسه بأن الطلاق بيده هو وحده، إذا شاء منحه وإذا شاء منعه، محمد عفت يعلم ذلك حق العلم، لذلك جاء يستوجهه إياه باسم الصداقة التي لا شفع له غيرها، فإذا قال لا فلا راد لكلمته، وسترجع الفتاة إلى ابنه طوعاً أو كرهاً... ولكن تسمي الصداقة القديمة في خبر كان، أما إذا قال نعم فسيتم الطلاق ولكن تصان الصداقة ويعترف له بالجميل، وليس من العسير أن يتلذذ بكل أولئك في المستقبل لوصول ما انقطع، وإذا فالطلاق وإن يكن هزيمة إلا أنه هزيمة مؤقتة تتضمن تساهلاً ونبلاً غير منكورين وقد تقلب فوزاً بعد حين. وما إن اطمأن إلى سلامة موقفه ولو بعض الشيء حتى شعر بالبرقة في معانيه على ما فرط في حقه... فقال بلهجة ذات معنى:

- لن يكون الطلاق إلا عاراً... أليس كذلك؟... بيد أنني لن أتبدل رجاءك ما دمت مصرّاً عليه، إكراماً لك، إكراماً للصداقة التي لم ترع لها حقاً في مخاطبتي... فتبد محمد عفت... إما ارتياحاً للنهاية المنشودة أو احتجاجاً على عتاب صديقه أو للاثنتين معاً، ثم قال بلهجة قاطعة غلت من حدة الغضب ولأول مرة:

- قلت ألف مرة إن صداقتنا في حوز... إنك لم تسئ إليّ فقد، على العكس من ذلك فلأنك تكرمي بتحقيق رجائي وإن كرهته...

فردّد السيد قوله عزّزاً:

- نعم... وإن كرهته...

ثار حنقه حلماً غاب الرجل عن نظريه. انفجر

الغيط المكبوت فالتهم نفسه ومحمد عفت وياسين، ياسين خاصة، ثم تساءل: ترى هل يمكن أن تبقى الصداقة في حوز حقاً فلا يصيبها رشاش الحوادث المتوقعة؟... آه. لم يكن ليضن بنفس في سبيل صون حياته عن مثل هذه الهزة القاسية... لكنه العناد التركي، لكنه الشيطان، بل لكنه ياسين، أجل ياسين دون غيره... قال له بغضب وازدراء:

- كذّرت صفوؤك لم تكن الأيام لتكذّره ولو اجتمعت له...

ثم قال له بعد أن أحاد على مسمعه حديث محمد عفت:

- خيّت أصلي فيك فصبي الله ونعم الوكيل، ربّيك وآبتك ورعيتك... ثم انجل تعمي كله عن ماذا؟... سكر صعلوك تسوّل له نفسه الاعتداء على أحقر المخامات في بيت الزوجية، لا حول ولا قوة إلا بالله، ما كنت أتصور أن يخرج من حضناتي ابن على هذه الصورة فالأمر له من قبل ومن بعد، ما عسى أن أصبح بك؟... لو كنت قاصراً لكسرت دماغك، ولكن لتكسّرئها الأيام، ها أنت تال جزاءك الحق فتتبرأ منك الأسرة الكريمة وتبصك بأبھس الأثيان!...

لعله وجد نحوه بعض الرثاء، يئذ أن سطخه غلب ثم استحال شعوره كله ازدراء، لم يعد يملأ عينيه رغم فتوّه وجماله وضخامته، يوحد في الغدابة كما قال محمد عفت قاتله الله، وعجز عن كبج جراح امرأة، ما أصغره، سرعان ما لحقت به الهزيمة التي لم يتخو هو نفسه من هوانها من جرّاء طيشه. ما أحقره، ليسكر ويعرّد ولعشق تحت شرط أن يظل السيد المطاع، أما أن ينهزم على تلك الصورة المخزية فما أحقره، لم يشابه أيام كما قال أيضاً محمد عفت قاتله الله، إني أفعل ما أشاء ولكي أظن السيد أحمد وكفى، حكمة رائعة تلك التي ألهمني أن أنشئ الأولاد على مثال فريد للاستقامة والطهارة، فإنه لما يشق أن ينهجوا نهجي ويخطوا في نفس الوقت بالكرامة والاستقرار، ولكن وأسفاه ضباع جهدي هباء مع ابن هنية!...



- أمرك يا أبي...

أيّ عيشة وأيّ بيت وأيّ أب، زجر وتأييد ونصائح، أجزع نفسك... أقب نفسك... انصح نفسك، أنسيت زينة؟... وجليّة؟... والغناء والشراب؟ ثمّ تطالنا بمهامة شيخ الإسلام وسيف أمير المؤمنين، لم أعد طفلاً، اغتري بالقصّر ودعني وشائي، تزوّج... أمرك يا فندم... طلق... أمرك يا فندم... ملعون أبوك.

٦١

خفّت حدّة المظاهرات شيئاً ما في حريّ الحسين بعد احتلال الجنود الإنجليز له فامكن للسيد أحمد أن يستأنف عارسة عادة قديمة انقطع عنها مضطراً إلى حين، أمكنه أن يصطحب أبناءه إلى مسجد الحسين لتأدية صلاة الجمعة... عادة قديمة دأب عليها منذ عهد بعيد... كان يدعوا ابنه إليهما حالما يبلغ صباه ليؤتجه قلبه إلى العبادة مبكراً، مستوحياً من وراثة البركة لنفسه ولأبنائه وللأسرة جميعاً، ربّما كانت أمانة وحدها التي لا تتراجع إلى تحريك القافلة في نهاية كلّ أسبوع حاملة رجالها، ثلاثة رجال كالجبال طولاً وعرضاً إلى فتوحهم وإشراقهم، كانت تُبهمهم ظاهرياً من خصائص المشيئة فيخيل إليهما أنهم ملئقي الأنظار تنزعج وتدهو الله أن يقيم شرّ العين، وما ملكت يوماً أن أفضت بمخاوفها إلى السيد فبدا وكأنه تأثر لتطيرها حيّاً، بيد الله لم يستسلم للخوف طويلاً وقال لها: وإنّ بركة الفريضة التي نلعب لتأديتها حقيقة بأن تحفظنا من كلّ شر.

وكان لهي يتي دعوة الجمعة ببشاشة قلب أولع بتأدية الفرائض منذ الصغر، مطيعاً في ذلك. قبل إرادة أبيه - عاطفة دينية صادقة، تمتاز إلى صدها بقدر من الاستنارة لا بأس به، استمّله مما أطلع عليه من آراء أحمد عليه وتلاميذه... لذلك كان الوحيد في الأسرة الذي يقف من إيمانها بالتعاويد والرقى والأحجية وكرامات الأولياء موقف التشكك، وإن أبت عليه ضمانة خلقه أن يجهر بتشككه أو يعلن استهائه،

- وهل وافقت يا أبي؟...

تردّد صوت ياسين كالخشخشة... فاجابه بخشونة قاتلاً:

- نعم، إيقظة على صداقة قديمة ولأنه أوفى حلّ في الوقت الحاضر على الأقلّ. جعلت يد ياسين تنقبض وتنبسّط في حركة آلية مصيية، كأنها كانت تشط الدم من وجهه حتى انقلب شديد الشحوب، شعر بهوان لم يشعر بمثله إلا فيما كابد من سلوك أمّه، حموه يطالب بالطلاق!... أو بمعنى آخر زينب تطالب بالطلاق أو حلّ الأقلّ توافق عليه!... أيّها الرجل وأيتها المرأة؟! ليس عجيباً أن يبتذ الإنسان حذاه أمّا أن يبتذ حذاه صاحبه! كيف رضي أبوه له بهذا الحزني الذي لم يسمع بمثله من قبل!... حلج أباه بنظرة حادة وإن عكست ما يمتلج في صدره من آثام الاستفالة، ثمّ قال بلهجة حرص الحرس كله على أن ينقّها من أيّ أنسر للاحتجاج أو الاعتراض، كأنها يريد بها أن يذكّره بما عسى أن يكون انسب:

- ثمة طريقة لمعالجة الزوج الناشز...

شعر السيد بشعور ابنه فادركه التألّر، ولذلك لم يبدل عليه بعض ما يدور في نفسه... فقال له: - أعلم ذلك... ولكنّي اخترت أن نكون من الكرماء. عمّد عفت عقل تركي حجري ولكنّ قلبه من ذهب، هذه الخطوة ليست الأخيرة، ليست النهاية، لم أفضل مصاحبتك وإن كنت لا تتأهل خيراً، دعني أنصرف كما أشاء...

كما تشاء!... مثلاً يرّد لك مشيئة! تزوّجي وتطلقّي... تخيبي وقتيني، لست هنا، خديعة عائشة فلهي ياسين... الكلّ واحد، الكلّ لا شيء، أنت كلّ شيء... كلّ شيء... لكلّ شيء حدّ، لم أعد طفلاً، رجلاً مثلك سواء بسواء، أنا الذي أقرّر مصيري، أطلق أو أودعها بيت الطاعة، تراب حداثي بمحمد عفت وزينب وصداقتكما...

- ما لك لا تتكلم؟...

فقال دون تردّد:

هكذا رآهم طريق النحاسين مرة أخرى وهم يمشون الخطى إلى بيت القاضي، السيد في المقدمة ياسين وفهمي وكمال وراهم صفاء حتى اتحدوا مجالسهم في الجامع وراحوا يصوتون إلى خطبة الجمعة بين رموس مشرقة إلى المنبر في صمت شامل، لم يكن السيد على شدة إنصاته يكف عن الدعاء الباطني، وتوجه قلبه إلى ياسين خاصة، كأنما رآه بعدما لحق به من عثار الحظ أحق بالرحمة، فعدا الله طويلاً أن يصلح من شأنه ويقوم ما أوجع من أمره ويعوضه عما فقد خيراً... على أن الخطبة جبهته بمحاسبه، انحلت ما بينه وبينها فطالما وجهها لوجه في حالة مرعدة من صوت الواعظ الجمهوري الرئاس الناقد حتى خيل إليه أنه يعنيه بالذات، وأنه يشد على أذنه صارخاً فيها بأعلى صوته، وأنه لا يستبعد أن يخاطبه باسمه قاتلاً: «يا أحمد ازجر... تطهر من الفسق والحمر وتب إلى الله ربك» فأم به قلق وضيق كما أمّا به يوم ناقشه الشيخ متولي عبد الصمد الحساب، وهو ما يقع له كثيراً عند سماع الخطبة فيستمرسل في طلب الغفران والعفو والرحمة، ولكنه - كاتبه ياسين - لم يكن يطلب التوبة وإن طلبها فبلسانه دون قلبه، يقول بلسانه «اللهم التوبة» على حين يقتصر قلبه على طلب الغفران والعفو والرحمة كأنهما آلتان موسيقيتان تمزجان مما في أوركسترا واحد فتصير عنهما نغمتان مختلفتان، لأنه لم يتصور أن يرى الحياة بغير العون التي يراها بها ولا أن تبدوله بغير الوجه الذي تبدو به، فإذا ألح عليه القلق والضيق المستوليان عليه نهض للدفاع عن نفسه... ولكنه يلقى دفاعه في صورة دعاء واستغفار فيقول «اللهم إنك أعلم قلبي وإيماني وحبي، اللهم زهني استمسكاً بتأدية فرائضك وقدره على صنع الخير، اللهم إن الحسنه بعشر أمثالها، اللهم إنك أنت الغفور الرحيم»... وبهذا الدعاء تعاوده الطمأنينة ورويدا.

لم تكن لياسين مثل هذه المقدرة على التوفيق أو أنه لم يشعر فك بحاجة إليها، لم تكن موضع تفكيره يوماً، يوم بالحياة كما يشتهي ويؤمن بالله كما يؤمن بوجوده هو، ثم يستسلم للتيار دون مقاومة أو عاتمة، قرعت

بل كان يتقبل حجاب الشيخ متولي عبد الصمد الذي يجيء به أبوه بين حين وآخر برضى ظاهري. أمّا ياسين فكان يأتي دعوة أبيه لأنه لم يكن من تلميذاته بد، لعله لو ترك لشأنه ما فكر يوماً في أن يمس جسمه الضخم في زحمة المصلين، لا عن تزعم في العقيدة، ولكن استهانة وتكاسلاً... لذا كان يوم الجمعة عنده هم يكابده مع مطلع الصباح، فإن حان وقت الذهاب إلى الجامع ارتدى بدلته في شيء من التلذر، ثم يسير وراء أبيه كالأسير، ولكن كلما اقترب من الجامع خطوة تخفف من تلذره وريداً، حتى يدخل الجامع منشراح الصدر فيؤدي الصلاة ويدعو الله أن يغفر له ويعفو عن ذنوبه، دون أن يسأله التوبة كأنما يشفق في أعماه أن يستجيب دعائه فيقلب زاهداً في اللذات التي يجيها حياً لا يرى للحياة بدلته معنى. كان يعلم علم اليقين أن التوبة واجبة، وأن مغفرة لن تكتب له بدونها، ولكنه كان يرجو أن نجى في الوقت المناسب حتى لا يحسر الدائنين، ولذا كان على تكاسله وتلذره يحمد في النهاية الظروف التي تدفعه إلى تأدية فريضة هائلة كفريضة الجمعة يمكن - عند الحساب - أن تحو بعضاً من سيئاته وتخفف من أوزاره، خصوصاً وأنه لا يكاد يؤدي غيرها لفريضة.

أمّا كمال فلم توجهه إليه الدعوة إلا حديثاً. مد جاوز العاشرة، نهض إلى تليتها في زهو وخيلاء وفرح، شعر شعوراً خامساً بأنها تتضمن احتراماً بشخصه، وأنها تمنحه مساواة من نوع ما مع فهمي وياسين وأبيه نفسه، ثم سره على وجه الخصوص أن يسير في ركاب أبيه أمّا دون أن يتوقع من ناحيته شراً، وأن يقف في الجامع إلى جانبه على قدم المساواة مؤتمنين جميعاً بإمام واحد. بيد أنه كان يستغرق في صلاته اليومية - في البيت - استغراقاً لا يظفر بمثله في صلاة الجمعة بالنظر إلى ما يعتره من ارتباك لقيامه وسط خلق لا يحيط بهم حصر، وإشفاقه من أن تنذ عنه هفوة تلتفتلها إحدى حواسن أبيه، إلى أن شدة شعوره بالخين - الذي يجبه أكثر من نفسه - وهو في مسجده كانت تحول بينه وبين التوجه الخالص لله كما ينبغي للمصلي...

ذاك انتشر سلك النظام، استرقت الحزينة أنفاسها،  
 نهض كلُّ لوجهته، منهم من قصد الضريح للزيارة  
 ومنهم من ألَّه نحو الأبواب للخروج ومنهم من تلَّث  
 للحديث أو ترثَّى حتى ينفث الزحام... فاختلطت  
 تياراتهم أيَّما انتشار، ألفت الساعة السعيدة التي مني  
 كيال بها... ساعة الزيارة ولثم الجدران وقراءة الفاتحة  
 إصالة عن نفسه وإنابة عن أمه كما وعدما، بدأ يتحرك  
 ببطء في ركاب أبيه... وما يدري إلا وشابُّ أزهرى  
 يبرز من الزحمة فجأة فيترض سيلهم في حركة عنيفة  
 لافئة للأنظار، ثم يسقط ذراعيه لينتهي الناس جانبًا  
 ومضى يتقهقر أمامهم وهو يتخصَّص ياسين بنظرات  
 ثاقبة مريبة وقد عبس وجهه وتطايرت نار الغضب من  
 صفحته المكفهرة. عجب السيّد له فجعل يردّد بصره  
 بينه وبين ياسين، هل حين بدا ياسين أشدَّ عجبًا فراح  
 بدوره يردّد بصره بينه وبين أبيه متسائلًا، ثم انتبه  
 أناس إلى المشهد فرجزوا فيه أنظارهم مترقِّين في دهشة  
 واستطلاع وعند ذلك لم يتمالك السيّد أن خاطبه متسائلًا  
 في استياء:

ما لك يا أخي تنتظر إلينا هكذا؟!

فاشار الأزهرى إلى ياسين وصاح بصوت كالرعد:  
 - جاسوس!

نفلت الكلمة إلى صدر الأسرة كالرصاصة فدار  
 رأسها وحلقت أعيانها وجعلت في أماكنها، هل حين  
 جرت التهمة على الألسن فرقدتها في فزع وحلق وأخذ  
 الناس يتجمعون حولهم وأقربهم تشبَّك في حذر  
 لتحصّره في دائرة ما لها من منفذ، وكان السيّد أوّل  
 من ثاب إلى وجهه، ومع أنّه لم يفهم شيئًا مما يدور  
 حوله... إلّا أنّه أدرك خطورة الصمت والانكماش  
 فنهض بالشابِّ غاضبًا:

ماذا تقول يا سيّدنا الشيخ؟... أيّ جاسوس  
 تعني؟!

ولكنّ الشاب لم يابه للسيّد، فاشار مرّة أخرى إلى  
 ياسين وصاح:

- حذار أيّها الناس، هذا الشاب الخائن جاسوس  
 من جواسيس الإنجليز اندس بينكم ليستغلّ الأبناء ثم

أذنيه كلمات الواظف فتحرّك صوته الباطني سائلًا الرحمة  
 والمخفرة بطريقة آله وفي طمأنينة شاملة دون أن  
 يستشعر خطورة حقيقته، إنّ الله أرحم من أن يحرق  
 مسلمًا مثله جهنوات عابرة لا تؤثّر أحدًا من عباده، ثم  
 هنالك التوبة... ستأتي ويؤمّن فتحرم ما قبلها،  
 واسترق نظره إلى أبيه وتسلم وهو بعض على شفّته  
 كأنما يحكم ضحكة ناعرة ممّا عسى أن يدور بخاطره وهو  
 ينصت بهذا الاهتمام البادي إلى الخطبة؟... أهو يعاني  
 العذاب كلّ صلاة جمعة أم تراه يتلقى ويضادع؟...  
 كلا... لا هذا ولا ذلك... إنّهُ مثله - ياسين - يؤمن  
 برحمة الله الواسعة، لو أنّ الأمر بالخطورة التي يصفه  
 بها الواظف لاختار أبوه إحدى السبلين، استرق إليه  
 نظرة أخرى فرآه كالجواريذ الكريم الجليل بين القاعدتين  
 المتشدّتين إلى المنسب، شعر نحوه بإحراج وحبّ  
 خالصين، لم يمد للحق أثر في نفسه، ومع أنّ الغضب  
 بلغ به مداه يوم الطلاق، حتّى بثّ منه إلى فهمي  
 قائلاً: ولقد خوّب أبوك بيني وجعلني أضحكة بين  
 الناس، إلّا أنّه تناسى الآن حقّه كما تناسى الطلاق  
 والفضيحة وكلّ شيء، ثمّ هذا الواظف نفسه ليس غيّرًا  
 من أبيه... بل هو على وجه اليقين آمن في الضلال،  
 حدّثه عنه مرّة أحد الأصحاب في قهوة أحد عهده  
 فقال: وإنّه يؤمن يشيئين... بالله في الساء وبالظلمان  
 في الأرض، إنّهُ من طراز حسّاس ترفّ عيه وهو في  
 الحسّين إذا تأوّه غلام في القلعة، يبد أنّه لم يحقد عليه  
 لذلك، وعلى العكس وجد فيه كما وجد في أبيه ما يجد  
 الجندي في الخنادق المحفورة في الخطوط الامامية التي  
 على المدوّ أن يقتحمها قبل أن يصل إليه.

ثمّ دها الداعي إلى الصلاة فقام الرجال قومة  
 واحدة، وقفوا صفوفًا متراصة صلات صحن الجامع  
 الكبير، صار المسجد أجسادًا ونفوسًا ذُكر كيال  
 احتشادها مشهد المحمل في التحاسين واتصلت الأزياء  
 في خطوط طويلة متوازية وتحدتها اليقل والجلبب  
 والجلاليب، ثمّ انقلب الجمع جسمًا واحدًا تصدر عنه  
 حركة واحدة مستقرًّا قبلة واحدة، وتردّت التلاوات  
 الهامسة في مهمة شاملة حتّى أذن بالسّلام... عند

- هذا السيد أحمد عبد الجواد من أهل النحاسين المصروفين... ولا يمكن أن يضم بيته جاسوسًا، فترثوا حتى تنجلي الحقيقة.

ولكن الأزهرى صرخ حائقًا:

- لا شأن لي بالسيد أحمد أو السيد محمد، هذا الشاب جاسوس مها يكن من أمر أبيه، رأيت مضحك الجلادين الذين زحوا القبور بأبنائكم.

وما عثم أن صاح أناس لا حصر لهم:

- ليضرب بالأحذية...

وسرت في التجمهرين حركة عنيفة، فاقبل متحمسون من كل صوب ملوحين بالأحذية والمراكيب حتى شعر ياسين بالانقباض والياس، دارت عيناه فيها حوله فلم تقعا إلا على وجه متعرج يفور بالغضب والبغضاء، والتصق السيد وفهمي بجانب ياسين بحركة غريزية كأنما ليندفع عنه الأذى أو ليقاسمه إياه، وهما على حال من اليأس والقهر لم تكن دون ما يأخذ بخناقهما، على حين انقلب انتحاب كيال صراخًا كاد يشطي على أصوات الثائرين. كان الأزهرى أول المهاجمين فرمى بنفسه على ياسين قابضًا على بنوة قميصه ثم جلبه بمنف لينثره من الماوى الذي لاذ به بين أبيه وأخيه حتى لا تحطه الأحذية، ولكن ياسين قبض على معصمه مقاومًا ودخل السيد بينهما، ورأى فهمي أباه في الموقف المثير لأول مرة في حياته... فاستقره غضب شديد أذهله عما يحدث بهم من خطر، دفع الأزهرى في صدره دفعة قوية ركنه إلى الوراء فصاح به متوعدًا:

- حذار أن تتقدم خطوة واحدة!

فصرخ الأزهرى وقد جنّ جنونه:

- أذبوهم جميعًا...

عند ذلك علا صوت قوى يقول بلهجة أمرة:

- انتظروا سيدنا الشيخ... انتظروا جميعًا...

فالتجهت الانتظار إلى الصوت، فإذا بأفندي شاب يبرز من بين الجموع إلى الدائرة المحصورة يتبعم ثلاثة في مثل سته وزئه، تقفموا في خطوات ثابتة توسعي بالثقة والعزم حتى وقفوا بين الشيخ وفويه، تهاشم

ينقلها إلى سافته المجرمين.

ركب الغضب السيد فتسلم من الشاب خطوة وصاح به غير متالك نفسه:

- أنت عرف بما لا تعرف، فلماذا أن تكون جرمًا أو مجنونًا، هذا الشاب ابني لا غناي ولا جاسوس، كلنا وطنيون وهذا الحي يعرفنا كما نعرف أنفسنا.

فهز الشاب منكبيه استهانة وصاح بصوته الخطاطي:

- جاسوس إنجليزي حقير، رأيت بصفي رأسي مرارًا

وهو يناجي الإنجليز عند بين القصرين، عندي شهود على ذلك، ولن يجرؤ على تكليمي... إني أتعده...

ليسط الحائنان...

وتجاوبت في أركان الجامع مدععة غاضبة، تعالى اهتلاف هنا وهناك «ليسط الجاسوس»، وصاح غيرهم «فليؤذّب الحائنان».

ولاحت في أعين الفريقين ثلر الوعيد ترتصد بادرة أو إشارة كي تنفض على الفريسة، لعلهم لم يؤخر إقدامها إلا منظر السيد المؤثر الذي وقف لصق ابنه كأنما يتلقى عنه ما يتهدده من أذى، ودمع كيال الذي أفرق في الانتحاب، أما ياسين فقد وقف بين السيد وفهمي فاقد الوعي من الاضطراب والوجل، وجعل يقول بصوت متهيج لم يسمعه أحد:

- لست جاسوسًا... لست جاسوسًا... الله على صديق قولي شهيد...

ولكن الغضب بلغ بالناس مداه، فتجمهروا حول الدائرة المحصورة وهم يتدافعون بالثناك ويتوعدون «الجاسوس» شرا، على أن صوئا من وسط الزحام ارتفع هاتقًا:

- تمهلوا يا سادة... هذا ياسين أفندي كاتب مدرسة النحاسين...

فانطلقت أصوات كاهدير:

- مدرسة النحاسين أو الحذايين فليؤذّب الحائنان.

وكان رجل يشق طريقه بين الأجسام بصموية ولكن بعزم لا يقهر، فما بلغ الصف الأممي حتى رفع يديه وهو يزهق: «اسمعوا... اسمعوا... ولما هدأت الأصوات قليلاً قال وهو يومئ إلى السيد أحمد:

يألو جهداً في الدفاع عنه فشكرهم، وإن كان لا يدري متى جاءوا ولا كيف دافعوا عنه، وعدل من الزيارة لما استحوذ عليه من انفعال فأنه صوب الباب مطبق الفم متجهماً الوجه وتبعه الأبناء في صمت ثقيل.

## ٦٢

في الطريق استرد أنفاسه، فداخله ارتياح لا يبعده من الناس الذين شاركوا في «الحادث» ولو بمجرد الرؤية. كره وقتذاك كل شيء وراه وقطفه باللغات، لم يكدر يرى من الطريق الذي يسير فيه شيئاً، فتبادل التحية مرتين مع اثنين من معارفه على نحو مقتضب متكلف لم يعهد فيه من قبل، تركّز شعوره في ذاته - ذاته الجريحة - وسرعان ما قار بالغضب... كان أحب إليّ أن تنتهي الحيلة من أن أقف ذلك الموقف المزري، كالأسير بين طغمة من اللثم، ولهذا المجاور القتل مدعي الوطنية الجوهان تبسم عليّ بكل وقاحة، لم يزع لي حرمة سنّ أو مهابة، لم أخلق لهذا، ليس وأنا الذي يسان تلك الكهينة، وبين ابنائي... لا تعجب... أبتأذك هم أصل البلوى... هذا الثور ابن الموه لن يعفبك من متاعبك أبداً. ففسّ الفضائع في بيتي وأوقع بيني وبين أعزّ الأصدقاء، ثم توجّح حاملاً بالطلاق... لم يكفه هذا كله، كلا. ابن حنّة لا بد أن يسامر الإنجليز جهاراً كي أدفع أنا الثمن للسفلة المتجهمين، انذهب بهم إليها كي يكمل متحف عشاقها بالإنجليز والأستراليين.

- يدولي أنني لن أخلص العمر من متاعبك؟  
نلت عنه هذه الجملة بحدة، بيد أنه قادم رغبته في تأديبه لأنه رغم غضبه قدر حاله الذي يرى لها، رآه ذاهلاً شاحباً متوجعاً فلم تطاوعه نفسه في الهجوم عليه، حسب الآن ما حاق به، ليس وحده الذي يتحف بالمتاعب، هنالك البطل، ولكن فلنؤجل منه حق نفيق من متاعب الثور، شور في البيت، في الحانة... شور أمام أم حنفي ونور، أمّا في المعركة فهو رجل خرج لا فائدة منه ولا عائدة، يا أولاد الكلب!

كثيرون متسائلين «بوليس... بوليس؟» بيد أن التساؤل انقطع حينما مدّ الأزهرى يده إلى يد قائد الجياعة وشدّ عليها بحرارة، ثم سأل الأفندي الأزهرى بنبرات حاسمة:

- أين هذا الجاسوس؟

فأشار الشيخ إلى ياسين بازدراف وتقرّز، فالتفت الشاب إليه وثبت عليه حينه متفحصاً إليه بدقة وقسوة، وقبل أن ينبس بكلمة تقدّم فهي خطوة إلى الأمام كأنها ليستحي انتباهه فلمحه الآخر... وسرعان ما أستمعت حينه دهشة وإنكاراً فغمغم قائلاً:

- أنت...

فاينتم ابتسامة شاحبة وقال بلهجة لا تخلو من تبسم:

- هذا الجاسوس أخي!

فالتفت الشاب إلى الأزهرى متسائلاً:

- آأنت متأكد مما تقول؟

فبادره فهي قائلاً:

- ربّما صدق في قوله... إنه رآه يجادث الإنجليز ولكن أسماء التفسيراتها إساءة، إن الإنجليز معسكرون أمام بيتنا وهم يتعرّضون لنا في اللعاب والإياب فتتوطأ أحياناً في محادثتهم على كره... هذا كل ما هنالك.

وهمّ الأزهرى بالكلام ولكن الشاب أسكته بإشارة من يده، ثم خاطب الجميع قائلاً وهو يضع يده على منكب فهي:

- هذا الشاب من الأصدقاء المجاهدين، كلانا يعمل في لجنة واحدة فكلامه عندي مصدّق... أعطوا سيبلهم.

لم ينبس أحد بكلمة، انسحب الأزهرى بلا تردد ومضى الناس يتفرّقون، صاحب الشاب فهي ثم ذهب يتبعه رفاقه، ربت فهي على رأس كبد حق كفت عن البكاء، ساد الصمت فأخذ كل يضمّد جراحه، انتبه السيد إلى وجوه نفر من معارفه قد أحاطوا به وراحوا يراسونهم ويحتدرون إليه عن الخطأ الكبير الذي وقع فيه الأزهرى ومن ضلّ به من الناس، ويؤكّدون له أنهم لم

دون تردّد.

ومع أنّ فهمي اعتاد في الأسابيع الأخيرة أن يواجه أخطاراً شتى، حتى الطلقات النارية ألف أزيزها، إلاّ أنّه لاقى تحقيق أبيه بقلب ما قبل الثورة، ركبته الرهبة وشعر بأنّه لا شيء، وتركّز تفكيره في تحاشي غضبه ونشاند النجاة فقال برقة وأدب:

- الأمر بسيط جدّاً يا بابا، لعلّ صديقي بالغ في قوله كي يتشلنا من ورطتنا.

فقال السيّد وقد نفذ صبره:

- الأمر بسيط جدّاً... حال... ولكن أيّ أمر هو؟... لا تُفهِبْ عَنِّي أيّ شيء.

وكان فهمي يقلب الأمر على مختلف وجوهه في سرعة خاطفة ليختار ما يصحّ قوله وتؤمن مغيبته... قال:

- سيّها لجنة وهي لا تعملو أن تكون جماعة من الأصدقاء يتحدّثون كلياً اجتماعوا في الشؤون الوطنية.

فهتف السيّد مغيباً عنقاً:

- لهذا استحققت لقب المجاهد...!

نطق صوت الرجل بالاستنكار العنيف كأنما حرّ عليه أن يحاول ابنة اللب به... وارتسم السعيد في تحدّيات حيوسته. فسارع فهمي - دفاعاً عن النفس - إلى الاعتراف بشيء ذي بال ليقنع أباه بأنّه امتثل لأمره كالتهم الذي يتطوّر بالاعتراف طمناً في الرافة... قال فيها يشبه الحياة:

- يحدث أحياناً أن نقوم بتوزيع بعض النداءات الحارّة على الوطنية...!

فتساءل السيّد بانزعاج:

- المنشورات!... هل تعني المنشورات؟!

ولكنّ فهمي حرّ رأسه سلماً، خاف أن يعترف بهذا الاسم الذي يقرن في البلاغات الرسميّة بالهوى العقوبات، وقال بعد أن وجد صيغة مقبولة تخفّف من خطورة اعترافه:

- ليست إلاّ نداءات تحثّ على حبّ الوطن.

ترك الرجل السبعة تسقط من يده إلى حجرة، وراح يضرب كفاً على كتف ويقول وهو لا يتألّك نفسه

الله يقطع الأولاد والحلف واليهوت، آه... لساذا تسوقني قلعماي إلى البيت؟! لم لا أتناول لقمتي بعيداً عن الجوّ المسموم؟! ستولول هي الأخرى إذا حملت بالخبر، لست في حاجة إلى مزيد من القرف، إلى الدخان... سأجد حتّى صديقاً أقصّ عليه رزقي وأشكوا إليه همّي... كلّ... لديّ متاعب أخرى لا تقبل التأجيل أكثر من هذا. البطل، مصيبة جديدة يجب أن نجد لها حلاً، إلى الغداء المسموم، ولولي... ولولي... ولولي... ملعون أبوك أنت الأخرى.

لم يكذب فهمي يغيّر صلابته حتى دُعي إلى مقابلة والده، فلم يملك ياسين حلّ لحوده وكرهه إلاّ أن يمتنم قاتلاً:

- جاء دورك...

فتساءل فهمي متجاهلاً المعنى الكامن وراء ملاحظة أخيه:

- ماذا تعني؟

فضحك ياسين - أجل وسعه أخيراً أن يضحك - وقال:

- انتهى دور الحفنة وجاء دور المجاهدين...!

لشدّ ما تمّ أن تغيب النعوت التي نعت بها صديقه في الجامع وراء ضجّة الثورة وذهول الانفعال، ولكنّها لم تغيب، ها هو ياسين يردّدها، ولا شك أنّ أباه يدعوه من أجل مناقشتها. تنهّد فهمي من الأحاق ثمّ ذهب، وجد السيّد مترجماً على الكنية يهتف ببحّات سبخته وفي عينه نظرة تنمّ عن تفكير كثيب، فحيّاه بأدب جمّ ووقف على بعد مترين من الكنية في خضوع وامتنال، وردّ الرجل تحيّة بحركة خفيفة من رأسه تدلّ على الضيق أكثر ممّا تدلّ على التحيّة، وكأنّما تقول له: وإني أردّ تحيتك مرغماً كما تقضي اللياقة ولكن أديك الزائف هذا لم يعد ينطلي عليّ. ثمّ حذجه بنظرة متجهّمة ينبعث منها شعاع الارتباك كأنّه مصباح كشّاف يفتش عن غشّي بالظلام وقال بحزم:

- دعوتك لأعرف كلّ شيء، أريد أن أعرف كلّ شيء، ماذا قصد في لجنة واحدة؟ صارحتي بكلّ شيء

منشورات... ١٩

من الانزعاج:

- أنت من مؤرعي المنشورات!... أنت!...

زاعج بصر السيد من شدة الانزعاج والغضب:

مؤرّع منشورات!... من الأصدقاء المجاهدين!...

كلانا يعمل في لجنة واحدة!... هل بلغ الطوفان

موقعه!... طاماً راحه فهمي بأدبه ويزه ذكائه، لولا

أنّ الشئاء في نظره مفسدة وأنّ القضاة حليبي وتقويم

لاوسع ثناء، كيف اتجلى هذا كله عن مؤرّع

منشورات... مجاهد... كلانا يعمل في لجنة

واحدة!... إله لا يحضر المجاهدين، هو أبعد ما

يكون عن ذلك، طاماً تابع أنباهم بحاس ودعا لهم

عقب كل صلاة بالتوفيق، طاماً ملأه أخبار الإضراب

والتهريب والمعارك أملاً وإحباطاً، ولكن الأمر يختلف

كل الاختلاف إذا صدر عمل من هذه الأعمال عن ابن

من أبنائه، كأنهم جنس قام بذاكه خراج نطاق

التاريخ، هو وحده الذي يرسم لهم الحدود لا الثورة

ولا الزمن ولا الناس، الثورة وأعمالها فضائل لا شك

فيها ما دامت بعيدة عن بيته... فإذا طرقت بابه،

وإذا تحدّث أمنه وسلامه وحياة أبنائه، تغفّر طعمها

ولونها ومفازها، انتقلت هوشاً وجنوناً وعقوباً وقلة

أدب، فلتشتعل الثورة في الخارج ولشارك فيها هو

بقلبه كله، وليبدل لها ما في وسعه من مال... وقد

فعل ولكن البيت له وحده دون شرك، ومن عملته

نفسه - فيه - بالاشتراك في الثورة فهو رائد عليه هو لا

على الإنجليز، إنّه يترحم ليل نهار على الشهداء

ومعجب كل الإعجاب بالشجاعة التي يتذرّع بها أحم

فيها يروي الرواة، ولكنّه لن يسمح لأبن من أبنائه بأن

ينضمّ إلى الشهداء ولا تطيب نفسه بهذه الشجاعة التي

يتذرّع بها أحم، فكيف سولت نفس فهمي له بالإقدام

على هذه الخطوة الجبوتية؟... كيف ارتضى - وهو خير

أبنائه - أن يمرض نفسه إلى الهلاك للمين؟... انزعج

الرجل انزعاجاً لم يشعر بمثله من قبل، فاق انزعاجه في

مازق الجامع نفسه، فلم يتسالك أن يسأله بصراحة

ووعيد كأنه أحد مفتشي البوليس الإنجليزي:

- ألا تعلم ما جزاء الذي يُضبط وهو يؤرّع

رغم خطورة الموقف وما يقتضيه من تركيز فكره

فيه، أبغض السؤال ذكرى قريبة اهتزت لها نفسه،

ذكرى هذا السؤال نفسه بنصّه ومعناه حينما طرحه عليه

الرئيس الأعلى للجنة الطلبة التنفيذية - بين جملة أسئلة

أخرى - وهو يصعد اختياره عضواً فيها، ثم ذكر بالتالي

كيف أجابه وقتذاك بعزم وحماس وكلنا فداء للوطن،

وقارن بين الطرفين اللذين ألقي فيهما السؤال الواحد،

فاعتراه شعور بالسخرية، بيد أنّه أجاب والده برقة

وبصوت يوحي بالتهوين:

- إني أقوم بالتوزع بين الأصدقاء من الزملاء فقط،

ولا شأن لي بالتوزع العام... فليس ثمة مخاطرة أو

خطر...

فهبط السيد بخلقة وكأنه يدري خوفه على ابنه

بحثة الغضب:

- إن الله لا يكتب السلامة لمن يمرض نفسه

للهلاك، وقد أمرنا سبحانه بالأل نمرض أنفسنا

للهلكة...

وذكر الرجل أن يستشهد بالأية التي تترجم هذا

المعنى، ولكنّه لم يكن يحفظ من القرآن إلا السور

القصيرة التي يتلوها في صلواته، فخاف أن يسهو عن

لفظ أو يحزله فيحمل نفسه وزراً لا يفتخر، فاكتمى

بترديد المعنى وكرره حتى بلغ مداه، ولكنّه ما يدري إلا

وفهمي يقول بلهجة للمهابة:

- ولكن الله يحث المؤمنين على الجهاد كذلك يا

بابا...

سأله فهمي نفسه فيها بعد متعجباً كيف واتته

شجاعته على حماية السيد بهذا القول الذي فصح ما

داراه من استمساك برأيه!... لعله احتس بالقرآن

فوقف وراء معنى من معانيه مطمئناً إلى أنّ أباه

سيحجم في تلك الحال عن مهاجمة، وقد بوغت السيد

مباغته شديدة بجرأة ابنه وحجته معاً، ولكنّه لم

يستسلم للغضب لأنّ الغضب ربكاً أسكت فهمي

ولكنّه لن يسكت حجته، فتنامى جراته إلى حين ريثما

يقرع حجته بحجة مثلها من القرآن نفسه حتى تتم

لرجل خفيف وعجوب، وهو يعبد بقلدر ما يخافه فلن يكون عليه أن يصلبه بعضيان، وثمة إحساس آخر لا سبيل إلى تجاهله هو أن وراء الثورة على الإنجليز مثالية نبيلة، أما وراء التمرد على أبيه فليس إلا انحرزي والتعاسة، وماذا يدعو إلى هذا كله؟... لماذا لا يعده بالطاعة ثم يفعل ما يشاء؟... لم يكن الكذب في هذا البيت بالرفيلة المخزية، ولم يكن في وسع أحد منهم أن يتمتع بالسلامة في ظل الأب دون حماية من الكذب، وهم يجاهدون به فيما بينهم وبين أنفسهم، بل ويتفقون عليه في الموقف الحرج، وهل كان في نية الأم يوم تسلمت في غيبة السيد إلى زيارة الحسين أن تعترف بفعلتها؟ وهل كان في وسع ياسين أن يسكر، وهو أن يحب مريم، وكما أن يتعترف بين خان جعفر وانحرش بلا حماية من الكذب؟... ليس الكذب مما يتوزع عنه أحد منهم، ولو أنهم التزموا الصديق مع أبيهم ما ذاقوا للحياة طمًا، لهذا كله قال بهوده:

- أمرك مطاع يا بابا... .

وأعقب هذا التصريح صمت تنفس فيه كلاهما من الراحة، فظن فهمي أن استجوابه قد انتهى بسلام، وظن السيد أحمد أنه انتشل ابنه من الهاوية، وبينما كان فهمي ينتظر أن يؤذن له بالانصراف، قام الأب فجأة وألحقه إلى صوان الملايس ففتحه ودس يده فيه والشاب يراقبه بعينين لا تدركان شيئاً ثم حاد إلى مجلسه حاسلاً القرآن، ونظر إلى فهمي ملياً ثم مد يده بالكتاب إليه وهو يقول:

- أقسم في كل هذا الكتاب...

وترجع فهمي بحركة عكسية نذت عنه قبل أن يتدبر أمره، كأنما يفر من لسان لخب امتد إليه فجأة، وتسمر في موقفه وهو يمحلق في وجه أبيه مرتبكا ملهورا يائسا، فلبث السيد ماداً يده بالكتاب وهو ينظر إليه في غرابة وإنكار، ثم احمر وجهه كأنه يلتهب وانبعث من عينه برق خفيف، وتساءل في ذهول وكأنه لا يصدق عينه:

- ألا تريد أن تقسم؟

ولكن لسان فهمي انمقد فلم ينس بكلمة ولم يبد

الهداية للابن الضال، وله بعد ذلك أن يعود إلى محاسبته كيفما شاء، وفتح الله عليه فقال:

- ذاك كان جهلاً في سبيل الله...

اعتبر فهمي جواب أبيه قبولاً للمناقشة والمحاجة، فتشجع مرة أخرى قائلاً:

- جهادنا في سبيل الله كذلك، كل جهاد شريف فهو في سبيل الله...

أمن السيد بقوله في قلبه، ولكن هذا الإيمان نفسه وما خلفه من شعور بالضعف أمام عدته، هو ما جعله يرتد إلى غضبه دون إبطاء... يتد أنه لم يكن غضباً لكبريائه فحسب، ولكن أيضاً لإشفاقه من أن يتأذى الشاب في غيّه حق يودي بنفسه، فكف عن الجدل وتساءل مستنكراً:

- أحسبني قد دوتلك لتناقشي!

انتبه فهمي إلى ما تنطوي عليه كلمات أبيه من نذير، فضاعت أحلامه وانمقد لسانه... أما السيد أحمد فعاد يقول بحلّة:

- لا جهاد في سبيل الله إلا ما أريد به وجه الله وحده - أي الجهاد الدنيوي - لا جدال في هذا... .  
والآن أريد أن أعرف ألا يزال أمري مطاحاً؟  
فبادره الشاب قائلاً:

- بكل تأكيد يا بابا...

- إذن أقطع كل صلة بينك وبين الثورة... ولو اقتصر دورك على توزيع المنشورات على خاصّة أصدقائك!

إن قوة في الوجود لا يمكن أن تحول بينه وبين واجبه الوطني! لن يتراجع مطلقاً ولو خطوة واحدة، انتهى زمان ذلك إلى غير رجعة، إن هذه الحيلة الحازة الباهرة التي تنبعث من أميالي قلبه وتضيء جوانب نفسه لا يمكن أن تفيض وهيئات أن يفيضها هو يبيده، كل هذا حق لا شك فيه، ولكن لماذا لا يلتبس وسيلة إلى إرضاء أبيه ونحامي غضبه؟... إنه لا يستطيع أن يتحده ولا أن يجهز بمخالفة أمره... أجل استطاع أن يبور على الإنجليز وأن يتحدى رصاصهم كل يوم تقريباً، ولكن الإنجليز عدو خفيف ويعيض مما أتا أبوه



ناحية أخرى، فاسترسل قائلاً في ضراعة ورجاء:  
- ساعني يا بابا، أملك مطاع فوق العين والرأس  
ولكني لا أستطيع، إننا نعمل يداً واحدة فلا أرضى ولا  
ترضى لي أن أنكس وأتحلف على إخواني، هيهات أن  
تطيب لي الحياة إن فعلت، ليس ثمة خطر وراء ما  
نعمل، غيرنا يقوم بأعمال أجل كالأشتراك في  
المظاهرات وقد استشهد منهم كثيرون، لست خيراً  
منهم، إن الجنازات تشيع بالشرعات ممّا ولا هتاف  
فيها إلّا للوطن، حتى أعمل الضحايا يعضون ولا  
يكونون. في حياتي؟... وما حياة أيّ إنسان؟... لا  
تغضب يا بابا وفكر فيها أقول... وأكزّر على مسمك  
بأنه ليس ثمة خطر وراء عملنا السلميّ الصغیر...  
وغلبه الانفعال فلم يعد يستطيع مواجهة أبيه ففرّ  
من الحجرة هارباً، كاد يصطدم وراء الباب بإسفين  
وكال اللذين وقفاً ينصتان وقد ارتسم على وجهيهما  
الارتياح.

### ٩٣

كان ياسين ماضياً إلى قهوة أحد عهده حينما التقى  
في بيت القاضي بأحد أقرباء أمّه، فاقبل الرجل نحره  
باهتمام ثمّ صاحبه وهو يقول:  
- كنت ذاهباً إلى البيت لمقابلتك...  
جلس ياسين وراء كلامه أنباء عن أمّه التي أورتته  
الحموم، فأحسن صيفاً وتساءل بقنوت:  
- خير إن شاء الله...؟  
فقال الرجل باهتمام غير عادي:  
- والدتك مريضة، مريضة جدّاً في الواقع، أصابها  
المرض منذ شهر أو أكثر ولكني لم أعلم به إلّا في هذا  
الأسبوع، وقد ظهره بدائي الأمر حالة عصبيّة فسكروا  
عنه حتى استحصل ثمّ تبين بعد فحص الأطباء أنّه  
ملاريا شديدة...  
دهش ياسين للخبر الذي لم يكن يتوقّعه، كأنّه  
يتوقّع حديثاً عن طلاق أو زواج أو شجار وما شاكل  
ذلك، أمّا المرض فلم يقع له في حساب، تساءل وهو  
لا يكاد يتبيّن مشاعره من شدّة اعتلاجها:

حراكاً، فتساءل الرجل بصوت هادئ تخلّته رعشة  
متهدّجة أنلوت بما يفور تحته من غضب مستعر كما  
ينلر البرق بقعقة الرعد:

- أكنت تكذب عليّ...؟

لم يطرأ على فهمي تغيّر إلّا أنّه غصّ بصره فراوّا من  
عيني أبيه، ووضع السيّد الكتاب على الكنية ثمّ انفجر  
صائحاً بصوت مدوّ غاله فهمي كضوفاً تهوي على  
خذيّه:

- أنت تكذب عليّ يا بن الكلب...! أنا لا أسمع  
للمخلوق بأن يضحك على ذقني، ماذا تظنّ بي وماذا  
تظنّ بنفسك...! أنت حشرة عيشية جرمية، بنت  
كلب خدعت بظاهرها طويلاً، لن أنقلب امرأة على  
آخر الزمن، سامح؟! لن أنقلب امرأة على آخر  
الزمن، حيرتوني يا أولاد الكلب وجعلتموني أضحكة  
الناس، أنا أسلمك بنفسي إلى البوليس، فاهم؟!  
بنفسني يا بن الكلب، الكلمة هنا كلمتي أنا، أنا أنا  
أنا... (ثمّ متناولاً الكتاب مرّة أخرى) أقيم...  
أرك بأن تقسيم...

بدا فهمي وكأنّه في ضيوبة، كانت عنده ميثبتين على  
بعض الصور الغريبة المنقوشة على السجادة الفارسيّة  
دون أن تريا شيئاً، وكأنّ تلك النقوش قد انططبت  
بإدماة النظر على صفحة عقله فاستحال شيئاً من  
الفوضى والحفواء، وكلّما مرّت ثانية أضمن في الصمت  
والياس، لم يبق له إلّا أن يلوذ بهذه اللقاومة السلبية  
اليائسة، وينهض السيّد والكتاب في يده فاقترّب خطوة  
منه ثمّ زعق:

- أتوقمت أنّك رجل...! أتوقمت أنّك تستطيع  
أن تفعل ما تشاء...! لو أشاء أضربك حتى أكرس  
راسك...

لم يملك فهمي عند ذلك إلّا أن يبيكي، لا خوفاً من  
التهديد فما كان يبالي في موقفه وثأّره بأيّ أدنى يصيبه،  
ولكن تنفيساً عن قهره وترويحاً عن الصراع الناشب في  
صدره، ثمّ جعل يعفّ على شفتيه ليكنم البكاء، ثمّ  
اعتراه الحجل لما ركبه من ضعف بيد أنّه وسعه أخيراً  
أن يتكلّم لشدّة تأثّره من ناحية ومداراة لحجله من

- وكيف حالها الآن...؟

قال الرجل بصراحة لم يخف مفزاعها على ياسين:

- حالها خطيرة... اعتمد العلاج دون أن ييسر بأذى تقدم، وبالأحرى ازدادت الحال سوءاً، وقد أرسلتني إليك كي أصارحك بأنما تشعر بدنو أجلها، وأنها ترجو أن تراك دون تأخير...

ثم بلهجة ذات معنى:

- يجب أن تذهب إليها بلا تردد، هذه نصيحة ورجاء، والله غفور رحيم.

لعل كلام الرجل لم يجل من مبالغة أراد بها دفعه إلى الذهاب ولكنه ليس احتلاقاً كله، فليذهب ولو بدافع الواجب وحده، ما هو يخترق مرة جديدة منحى الطريق المفضي إلى الجليّة بين بيت المال وحارة الوطن، إلى بيته عطفة التيبه حيث تلبد بأثمة الدوم في ذكريات الظلام المرتعشة وإلى الأمام طريق الآلام، سيرى حياً قليل دكان الفاكهة فيخض البصر ويسأل كالمصّ الحار، كلما ظنّ أنه لن يعود إليه عادت به تماسه، ما من قوة كانت تستطيع أن تعيده إليها... إلا الموت؟... الموت!... ترى هل تحت النهاية حقاً؟... قلبي يخفق، ألياً؟... حزناً؟... لا أدري إلا أنّي خائف، إذا ذهب فلن أعود إلى هذا المكان مرة أخرى... سيفشى النسيان مسالف الذكريات... ثم تردّ إليّ البقيّة الباقية من أملاكي، ولكنني خائف... وحائق على هذه الافتكارات الخبيثة، اللهم احفظنا...

حقّ إذا حظيت بعيشة أرغد وبأل أصغر فلن ينجر قلبي من الآلام، حين الموت سأودّع أمّا بقلب ابن... أم وابن أليس كذلك؟... لست إلا معدّياً لا وحشاً ولا حجرة، بيد أنّ الموت زائر جديد حلّ لم أشهد عمره من قبل، وددت لو كانت النهاية بغيره، سنموت جميعاً... حقاً؟ يجب ألا أستسلم للخوف، إنّ أنباء الموت لا تقطع عنّا ليل نهار في هذه الآثام، في شوارع الدواوين والمدارس والأزهر، وهناك في أسبوط كلّ يوم ضحايا، حتى المسكين الغولي اللّبان فقد ابته أمس، ما عسى أن يصنع أهل الشهداء؟... أيقضون

العمر يكاه؟... إنهم سيكون ثمّ ينسون وهذا هو الموت، أف... يجيّل إليّ أنّه ليس ثمة مفزّع من المتاعب الآن، ورائي في البيت فحيمي وعنده وأمامي أمّي فيما أبغض الحياة وإذا كان الأمر مكيدة ووجدتها في خير وعافية؟... ستفزع الثمن غالباً... يقيناً لتدفعن الثمن... لست لعبة أو أضحوكة، لن نجد والابن إلا حين الموت، ترى ماذا بقي لي من ثروة؟... وإذا دخلت البيت اتقي بذلك (الرجل) هنالك؟... لا أدري كيف أقابله... ستلتقي حيننا في لحظة رهيبة، الويل له، أئجهاله أو أطرده هذا هو الحلّ، هنالك ألوان من العنف لا تخطر له بهال، ولكن ستجمعنا الجنائز حتّى... وهذا مضحك، تصوّر أن يسير وراء النمش أقدم الأزواج وأحدثهم وبينها الابن دافع العينين... حتم وقتذاك أن تلتمع عيناى... أليس كذلك؟... لن يكون في وسعي أن أطرده من الجنائز فتلاحقني الفضيحة حتى اللحظة الأخيرة... ثمّ تدفن، أجل تدفن وينتهي كلّ شيء، ولكنني خائف ومتألم وحزون، إنّ الله وملائكته يصلّون... هذه هي الدكّان المجرمة... وهذا هو... لن يعرّفني هيهات، إنّنا نتنكر بالعمر، يا عمّ... أمّي تقول لك...

فتحت له الخادم الباب - نفس الخادم التي استقبلته منذ عام فانكرته - فطلعت إليه كالتسائلة لحظة، وسرعان ما غلبت نظرة التساؤل وراء لمة كأنما تقول له: «آه... أنت الذي تنتظره ثمّ أنسحت له وهي توميّ إلى حجرة حل بين الداخل قائلة:

- تفضّل يا سيّد... لا يوجد أحد...

جذبت العبارة الأخيرة انتباهه بقوة كأنما جاءته جراًباً شائلاً لبعض حيرته، فادرك أنّ أمّه أدخلت له الطريق، ألمه إلى الحجر، تنحّج، ثمّ دخل، وقعت عيناه على عيني أمّه وهما ترلعان إليه من فراش على يسار الداخل، حينئذ حجبت صفاءهما المهود غشاوة باهتة فلاحت نظرتيهما الواهنة كأنما تتطلع إليه من بعيد، وبالرغم من ذيولهما وما أوحى به انطفأؤهما من عدم الاكتراث لشيء فقد ثبّتا على وجهه ثبوت

جديدة استمدتها من عصفه.. تقول:

- في أول الأمر كانت تتأبني رعدة غريبة فحسبتها طارئة عصبية، تصحولي بالطواف ببيت الله وبالتبحر فزرت الحسين والسيدة وتبحرت بأنواع شتى من البخور الهندى والسودانى والعربى، ولكن لم تكن الحال تزداد إلا سوءاً... أحياناً كانت تخلكني رجفة متواصلة لا تدعني حتى أكون قد أشفيت على الهلاك، ولمر بي أوقات أجد جسمي بارداً كالثلج، وأوقات أخرى تمتد النار في جسدي حتى أصرخ من شدة الحرارة أحياناً صممت... (أسكت من النطق بالفاعل متنبهة في اللحظة الأخيرة إلى الخطأ الذي كانت ستقع فيه). أخيراً استحضرت الطبيب، ولكن لم يتقدم بي العلاج خطوة واحدة نحو الصحة إن لم يكن تأخر خطوات، لم تعد شمة فائدة ترجى.

فقال ياسين وهو يضغط برقة على راحتها:

- لا تيسى من رحمة الله، إن رحمة واسعة.

فافتقر نغرها للمتعب من ابتسامة ضعيفة وقالت:

- يسرني أن أسمع هذا، يسرني أن أسمع منك أنت قبل الناس جميعاً، أنت عندي أهل من الدنيا ومن عليها، صلتك إن رحمة الله واسعة، طمأنا سامي الحظ، لا أنكر المحن والأخطاء، العصاة لله وحده. آنس- جزعاً- من حديثها ميلاً إلى ما يشبه الاعتراف، فانتفض صدره وجعل جفوياً حاداً من أن ترد على مسمعه أمراً لا يطبقه ولو على سبيل التلم والتكثير. فتوترت أعصابه حتى أوشك أن يتبدل حالاً بعد حال، قال بتوسل:

- لا تعني نفسك بالكلام.

رفعت إليه عينها باسمة وهي تقول:

- مجيئك ردة إلى الروح، دعني أقول لك إنني لم أقصد في حياتي سوءاً بإنسان، كنت أشد كسائر الخلق راحة اليأس فيعاندني الحظ العاثر، لم أسئ إلى أحد ولكن كثيرين أسأوا إلي.

شعر بأن رجاءه أن تخفي الساعة بسلام سيخيب... وأن عاطفته الصافية تعاني أزمة من التضييق، فقال بلهجة التوسل السالفة:

العرفان، وانفجرت شفتها عن ابتسامة خفيفة وشت بظفر وارتياح وامتنان، لم يكن يبدو منها إلا وجهها إذ اشتملت ببكائية حتى الذقن، وجه أدركه من التفتير فوق ما أدرك العينين، جف بعد اكتناز واستطال بعد استدارة وشحب بعد تورّد وشفت جلده الرقيق عن عظام الفك والوجنتين البارزة فبدأ صورة للرشاء والفناء، وقف ذاهلاً منكراً كأنه لا يصدق أن شمة قوة في الوجود تجرّو على هذا العبث القاسي، فقبض قلبه فزحاً كأنه يرى الموت نفسه، تخلّت عنه كأنها ارتدّ طفلاً وافقد أباه أهما افتقاد، ثم دفعه تأثير لا يقاوم إلى الفراش حتى انحنى فوقها مغمماً في نبرات أسيفة:

- لا بأس عليك... كيف حالك؟

ملأه شعور صادق بالرحمة غابت في حرارته الآله المزمنة كما تغيب- في أحوال نادرة- ظاهرة مرضية ميسوس منها، كالثقل، عند هجوم فزع هائل مفاجئ... كأنه يلقى أم طفولته التي أحبها قبل أن توارى عن قلبه الآلام، فتشبّت- وعنده مرسلتان إلى الوجه الغالي- بهذا الشعور المستجد الذي رده أحوالاً طويلة إلى السواء- إلى ما وراء الألم- كما يتشبّت المريض المتهاك بصحوة طارئة يخاف عليها إحساساً باطنياً بوشك الزوال، تشبّت به بشدة خليفة برجل يقدر القوى المضادة التي تهلكه، وإن دلّ تشبّه نفسه على أن الآله لم تزل تضلّهم في الأضواء منلوة لئلا بما يترصده من حزن إذا هو تهاون فخلط بشعوره الصافي ما يفسده من مشاعر أخرى، وأخرجت المرأة من تحت الغطاء يداً مصوصة مصروقة اكتست بشرتها الجافة بمزيج من سواد باهت وزرقة كأنها يد مخطئة منذ آلاف السنين فتناووا بين يديه بتأثر شديد، وعند ذلك سمع صوتها الضعيف المبحوح وهو يجيبه قائلاً:

- كما ترى، صرت خيلاً.

فغمغم:

- ربنا يدركك برحمته، ويركك إلى خير مما كنت.

فلندت عن رأسها المصوب بخيار أبيض حركة دعائية كأنها تقول: «ربنا يسمع منك»، وأشارت إليه أن يجلس فجلس على الفراش ثم استرسلت- بقوة

- دعي الناس بخيرهم وشرهم، صَحَّحَ الآنَ أهمَّ من أيِّ شيءٍ آخر...

فَرَبَّيْتُ عَلَى يَدِهِ بِاسْتِعْطَافٍ كَأَنَّمَا تَسْأَلُهُ أَنْ يَتَرَقَّى بِهَا، ثُمَّ هَمَسْتُ:

- فَاتَتْنِي أَشْيَاءٌ، لَمْ أُؤْذِ إِلَى اللَّهِ حَقَّهُ، وَدِدْتُ لَوْ طَالَ عَمْرِي حَقِّي أَسْتَدْرِكُ بَعْضَ مَا فَاتَنِي، بِيَدِ أَنْ قَلْبِي كَانَ دَائِمًا مَعْنِي بِالْإِيمَانِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ.

فَقَالَ وَكَأَنَّهُ يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ وَعنها مَعًا:

- الْقَلْبُ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ، هُوَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْقَ الصُّوْمِ وَالصَّلَاةِ.

فَشَدَّدْتُ عَلَى يَدِهِ بِامْتِنَانٍ ثُمَّ غَبِرْتُ مَجْرَى الْحَدِيثِ قَائِلَةً بِتَرْجَاهٍ:

- وَصَدْتُ إِلَيَّ أُخَيْرًا، لَمْ أَجْزِ عَلَى دَعْوَتِكَ حَقِّي أَنْتَهَى بِي الْمَرْضَى إِلَى مَا تَرَى، دَاخِلُنِي شَعُورُ بَأْتِي أَوْدَعِ الْحَيَاةَ فَلَمْ أَطِقْ أَنْ أَفَارِقَهَا قَبْلَ أَنْ أَمْلَأَ صَفِيَّ مَعَكَ، فَأُرْسِلَتْ إِلَيْكَ وَبِي مِنَ الْخَوْفِ مِنْ رَفْضِكَ أَكْثَرَ مِمَّا بِي مِنْ خَوْفِ الْمَوْتِ نَفْسِهِ، وَلَكِنَّكَ رَحِمْتَ أَمْسَكَ وَأَقْبَلْتَ تَوَدَّعًا فَلَكَ الشُّكْرُ وَدَعَاءُ أَرْجُو أَنَّ يَنْظُرَ.

اشْتَدَّ التَّأَثُّرُ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَرَ كَيْفَ يَمُتُّ عَنْ شَعُورِهِ، تَنَاقَلَتْ الْكَلِمَاتُ الْحَنُونَةُ فِي فِيهِ مَعْتَرَةً لَهَا شَبْهُ الْحَيَاةِ أَوْ الْغُرَابَةِ حَالِمًا أَرَادَ تَوْجِيهَهَا إِلَى الْمَرَاةِ الَّتِي أَلْفَ مَجَافَاتِهَا وَنَبَذَهَا، بِيَدِ أَنَّهُ وَجَدَ فِي يَدِهِ أَدَاةَ تَعْبِيرٍ طَيِّمَةً حَسَّاسَةً، فَضَغَطَ عَلَى رَاحَتِهَا مَقْشَعًا:

- وَبَيْنَا يَكْتُبُ لَكَ السَّلَامَةَ.

وَجَعَلَتْ تَلْوُدُ حَوْلَ الْمَعْنَى الَّذِي أَفْصَحَتْ عَنْهُ جَمَلَتِهَا الْأُخْرَى، مَرْدَّةٌ نَفْسَ الْأَلْفَاظِ تَارَةً أَوْ مُسْتَبَدِّلَةً بِهَا غَيْرَهَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى نَفْسِ مَعْنَاهَا طَوْرًا آخَرَ، وَرَاحَتْ تَقْصُلُ الْحَدِيثَ بِإِزْدِرَادٍ رَاقِيًا بِجَهْدٍ مَلْحُوظٍ أَوْ بِالصَّمْتِ الْقَصِيرِ رِيثًا تَسْتَرِدُّ أَنْفَاسَهَا، مِمَّا دَعَا مَرَّاتٍ إِلَى أَنْ يَرْجُوها بِالْكَفِّ عَنِ الْحَدِيثِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَنْتَسِمُ لِمَقَاطِعَتِهِ ثُمَّ تَعُودُ إِلَى مُوَاصَلَةِ الْحَدِيثِ، حَقِّي تَوَقَّفْتُ وَقَدْ لَاحَ فِي وَجْهِهَا اِهْتِمَامٌ طَائِرٌ كُلَّمَا تَذَكَّرْتُ شَيْئًا ذَا بَالٍ... وَقَالَتْ:

- نَزَوَّجْتُ؟

فَرَفَعَ حَاجِبِيهِ فِي شَيْءٍ مِنَ الضَّيْقِ وَتَوَرَّدَ وَجْهَهُ،

وَلَكِنَّهَا أَخْطَلَتْ فَهَمَهُ فَبَادَرَتْهُ كَالْمُعْذَرَةِ:

- لَا عِتَابَ... حَقًّا كُنْتُ أَوْدُ أَنْ أَرَى عَرُوسَكَ وَفَزَيْتُكَ، وَلَكِنْ بِحَسْبِي أَنْ تَكُونَ سَعِيدًا. فَمَا مَلِكُ أَنْ قَالَ بِاقْتَضَابٍ:

- لَسْتُ مَتَزَوِّجًا، طَلَّقْتُ مِنْهُ شَهْرَ تَقَرُّبًا.

الْأَوَّلَ مَرَّةً لَاحِظَ آيَ الْإِنْتِبَاهِ فِي عَيْنَيْهَا، لَوْ كَانَ فِي الْإِمْكَانِ أَنْ يَلْتَمَسَا لَاتِمَعَا... وَلَكِنْ انْبَعَثَ مِنْهَا شَبْهُ ضَوْءِ كَالضُّوءِ الْحَالِمِ اللَّيْلِ تَنْضَحُ بِهِ سِتَارَةٌ كَثِيفَةٌ، وَتَمَتَّتْ:

- طَلَّقْتُ يَا بَنِي! مَا أَحْزَنَنِي!

فَابْتَدَرَهَا قَائِلًا:

- لَا تَحْزَنِي، لَسْتُ حَازِنًا وَلَا أَسْفَا (ثُمَّ بِاسْتِثْنَاءٍ) أَخْطَلَتْ الشَّرَّ وَرَاحَتْ.

وَلَكِنَّهَا تَسَاعَلَتْ بِنَفْسِ اللَّهْجَةِ:

- مِنَ الَّذِي اخْتَارَهَا لَكَ... هُوَ أَمْ هِيَ؟

فَقَالَ بِلَهْجَةٍ نَحَتْ عَنْ رَغْبَتِهِ فِي قَفْلِ بَابِ هَذَا الْحَدِيثِ:

- اخْتَارَهَا اللَّهُ، كُلُّ شَيْءٍ قِسْمَةٌ وَنَصِيبٌ!

- أَحْلَمُ هَذَا، وَلَكِنْ مِنَ الَّذِي اخْتَارَهَا لَكَ؟ امْرَأَةٌ أَيْكَ؟

- كَلَّا أَيْ الَّذِي اخْتَارَهَا، وَلَا خَبَارَ عَلَى اخْتِيَارِهِ فَهِيَ مِنْ أَسْرَةِ كَرِيمَةٍ... وَلَكِنَّهَا الْقِسْمَةُ وَالنَّصِيبُ كَمَا قُلْتُ.

فَقَالَتْ بِهَرُودٍ:

- الْقِسْمَةُ وَالنَّصِيبُ وَاخْتِيَارُ أَيْكَ... هَلْهُ هِيَ!

ثُمَّ بَعْدَ وَقْفَةٍ قَصِيرَةٍ:

- حِيلٌ...؟

- نَعَمْ...

وَهِيَ تَنْتَبِّه:

- اللَّهُ يَنْكُدُ حَيْشَةَ أَيْبِكَ!

تَعَمَّدَ أَلَّا يَعْقُبَ عَلَيْهَا، كَمَا يَجْتَنِعُ عَنْ حَلِّكَ قَرْحَةَ تَأْكُلُهُ لَعَلُّهَا تَسْكُنُ... فَشَمَلَهَا صَمْتٌ، وَأَغْمَضَتْ الْمَرَاةَ عَيْنَيْهَا كَأَنَّمَا أَنْكَبَهَا التَّمَبُّ. بِيَدِ أَنَّهَا فَتَحَتْهَا هَنْبِيَةً فَابْتَسَمَتْ إِلَيْهِ وَهِيَ تَسْأَلُهُ بِصَوْتٍ رَقِيقٍ لَا أَثَرَ فِيهِ لِانْفِعَالٍ:

أنه ارتاح إلى نومها كلَّ الارتياح ولكنَّه ما كاد ينفرد بنفسه حتى هاجمه الخوف... خوف لم يدرك له سببًا فتمتَّق لو تصحو من سباتها وتعود إلى الحديث، حتّام ينتظر... هبها استغرقت في النوم حتَّى الصباح...! لن يسمعه أن يبقى طويلًا فريسة للخوف والقلق فكلّذا، يجب أن يضع حدًّا لآلامه... غداً أو بعد غد تكون تبتة أو تعزية... تبتة أو تعزية؟! أيُّها أحب إلى نفسه؟! يجب أن يقف عن الحركة، تبتة كانت أم تعزية لا ينبغي أن أسبق الحوادث، غاية ما يمكن قوله لو قدّر علينا أن نفرق الآن لافترقنا صديقين، تكون غير نهاية لأصوأ حياة، أمّا إذا مَدَّ الله في عمرها... سرح طرفه وهو شارد فوقع على امرأة الصوان - في الجهة المقابلة - التي عكست صورة الفراش فرأى جسم أمّه مطروحاً تحت البكائبة كما رأى نفسه بكاد يحجب نصفها الأعلى إلّا يدها التي أخرجهتها عند استقباله فحملها برفق وأدخلها تحت الغطاء ثمَّ ثبته حول عنقها بعناية، عاد ينظر إلى المرأة فخطر له هذا الحافطاً ربّما عكست هذه المرأة غداً فراشاً غالياً عارياً... ليست حياتها - حيلة أيّ إنسان... لم -؟ - بأسخ دوائاً من هذه الصور الوهمية... فاشتدَّ به شعور الخوف وهمس لنفسه «يجب أن أضغ حدًّا لآلامي... يجب أن أذهب»، بيد أن بصره تمحّز تاركًا المرأة فالتقى بغفران وضمت عليه نارجلة الثقب غرطومها حول عنقها كالشعبان فثبت عليها في دهشة وإنكار سرعان ما حلَّ مكانها شعور هائج بالقرّز والغضب، فُلِّك الرجل! هو بلا رب صاحب هذه النارجيلة... تحيَّله متربِّحًا على الكتبة القائمة بين الفراش والحوان وقد انطلق على النارجيلة يشهق ويؤزفر مثلثدًا وأمّه تروّج له على الجحمرات... أه تُرى أين هو الآن، في مكان بالبيت أم في الخارج؟ هل رآه من حيث لم يره؟... لم يعد يحتمل البقاء مع النارجيلة أكثرًا ثمَّ بقي فالتقى نظرة على وجه أمّه التي وجدها مبتثرة في النوم ثمَّ زأبل مجلسه بخفّة ومار إلى الباب، ولما التقى بالخادم في الردهة الخارجية قال لها:

- ستك نامت، سأعود غداً صباحًا.

- تُرى هل يمكن أن تنسى الماضي؟  
فغفّ بصره منتفضًا وهو يشعر برغبة في الحرب لا تقاوم، ثمَّ قال برجاء:  
- لا تعودني إلى ذكراه، فليذهب إلى غير رجعة.  
لعلَّ قلبه لم يعب ما يقول، ولكنَّ لسانه قال ما ينبغي أن يقال... أو لعلَّ ذلك القول كان تعبيرًا صادقًا عن شعوره لحظئذ، تلك اللحظة التي استغرقه فيها بكليّته الموقف المحيط به، ولعلَّ قوله: «فليذهب إلى غير رجعة» قد وقع من سمعه - ومن قلبه - موقفًا غريبًا خلف وراءه قلقًا، ولكنَّه أيّ أن يجعله موضوعًا لتأمله، فرَّ من ذلك فرائًا، وتشبَّث بعاطفته الصافية التي عقد العزم على التشبُّث بها من بادئ الأمر، أمّا أمّه فعادت تسأله:  
- وهل تحبَّ أمك كما كنت تحبُّها في الزمن السعيد؟ فقال وهو يربّت على راحتها:  
- أحبُّها وأدعو لها بالسلامة.  
سرعان ما وجد المزاء عن قلقه وجهاده الباطنيّ فيها انطبع على وجهها الداوي من روح السلام والارتياح العميق، ثمَّ شعر براحتها تضغط على يده كأنها تبته ما يكتنه صدرها من امتنان، وتبدلًا نظرة طويلة هادئة باسمه حاملة أشاعت في الحجرة جبرًا من الطمأنينة والموثقة والحزن، لم يعد يبدو منها ما يدلُّ على رغبتها في الحديث أو لعلَّ الجهد حال بينها وبين هذه الرغبة، ثمَّ تراخت جفونها وريدًا حتَّى انطبقت، جعل ينظر إليها كالتسائل ولكن لم تندَّ عنه حركة، ثمَّ انفجرت شفتاها قليلًا وانبعث منها ضحير خفيف متقطع. اعتدل في جلسته وهو يتوسّم وجهها ثمَّ أغمض عينيه قليلًا ربّما يستحضر صورة الوجه الآخر الذي طالته به منذ عام فاستقبض صدره وعلوّه شعور الخوف الذي طارده طوال الطريق، ترى هل يتاح له أن يرى ذلك الوجه مرّة أخرى؟ وبأيّ قلب يلقاه إن علا؟! لا يدري، لا يجب أن يتصور المصير في علم الغيب، يؤدَّ أن يقف عقله عن الحركة وإن يتبع الحوادث لا أن يسبقها، وأحاط به شعور الخوف والقلق، عجبًا! لقد ركبت رغبة في الحرب وهو ينصت إلى حديثها حتَّى غيَّل إليه

والفتت إليها مرة أخرى وهو يغادر الباب الخارجي قائلاً:

- غداً صباحاً.

كأنما ينهّ الرجل نفسه إلى موعد حضوره ليخفي من وجهه، مضى إلى حانة كُتّاكي رأساً. شرب كمادته ولُكّته لم يطب بالشراب نَفْثاً أعياه أن يطرد عن قلبه الخوف والقلق، ومع أنّ أحلام الثروة وراحة البال لم تغب من ذهنه إلا أنّها لم تستطع أن تمحو عن مخيلته صورة المرض وخواطر الفناء. ولما عاد إلى البيت عند منتصف الليل وجد امرأة أبيه في انتظاره بالدور الأول فنظر إليها متعجباً ثمّ تسامح خالق القلب:

- أمي؟

فاحت أمانة رأسها وقالت بصوت خافت:

- جاءنا رسول من قصر الشوق قبل عيبك بساعة، العمر الطويل لك يا ابني...

#### ٦٤

تطوّرت العلاقة بين كمال والجنود البريطانيين إلى صداقة متبادلة، وقد حاولت الأسرة أن تلدّع بمأساة ياسين في جامع الحسين لتضع الغلام بقطع علاقته مع أصدقائه ولكنّه أجابهم بأنّه «صغير»، أصغر من أن يتهم بالجاموسية، ولكي يضايق من منعه إياه بالقوة كان يمضي إلى المسكر رأساً بعد عودته من المدرسة تاركاً حقيبة كتبه مع أم حنفي فلم تكن ثمة وسيلة إلى منعه إلا باستعمال القوة الأمر الذي لم يروا له موجباً لا سيّما وأنّه يرح في المسكر تحت أمتهم متقبلاً في كلّ موضع بالترحيب والتكريم، حتّى فهمي نفسه أغضى عنه ولم يكن يجد بأساً في التسلّي بمشاهدته وهو يتنقل بين الجنود «كفرد يلهو في غابة من الوحوش».

- قولوا لسدي الكبير.

هكذا اقترحت أم حنفي وهي تشكو تجرّؤ الجنود عليها - بسبب الصداقة اللعينة - ومحاكاة بعضهم لمشيئها بطريقة «يستحقّون عليها قطع رقبته» ولكنّ أحداً لم يأخذ اقتراحها مأخذ الجدّ، لا رحمة بالغلام

فحصب، ولكن رحمة بهم هم أنفسهم خشية أن يجرّ التحقيق إلى معرفة تسرّهم الطويل على خلد الصداقة، فتركوا الغلام وشأنه، ولعلّهم لم يخلوا من رجاء في أن يقوم الشعور الطيّب المتبادل بين الغلام والجنود حائلاً بينهم وبين ما يخطر على بالهم أن يتعرّضوا له من بحث وأذى في اللهاب والإياب! أسعد ساعات يومه كانت تلك التي يدخل فيها المسكر، لم يكن جميع الجنود وأصدقاءه بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ولكن لم يعد أحد منهم يجهل شخصه، كان يصالح الأصدقاء وشدّ على أيديهم بحرارة على حين يكتفي برفع يده، تحية للآخرين، ورمياً صانف بجبهته قيام أحد الأصدقاء بنوبة الحراسة فيقبل الغلام عليه هاشاً باشاً وهو يمدّ يده فما يروعه إلا أن يلقى منه جوداً غريباً مثيراً كأنما يتجاهله أو كأنما تحوّل إلى صنم فلا يدرك أن ليس في الأمر تجاهل أو غضب إلا من إغراق الآخرين في الضحك. ولم يكن من النادر أن يباغت وهو بين الأصدقاء بصغير الإنذار، هنالك يهرعون إلى الخيام ثمّ يصودون بعد قليل وقد ارتدوا ملابسهم ونحوذاتهم وحلوا بنادقهم، ويتحرّك لوري من موقفه وراء سبيل بين القصرين إلى وسط الطريق فيمضون إليه ويقفزون إلى داخله حتّى يكتكّل بهم، بات يدرك من المنظر الذي أمامه أنّ مظاهره قامت في جهة ما وأنّ الجنود ذاهبون لتفريقها وأنّ قتالاً سينشب بينهم وبين المتظاهرين، ولكن لم يكن يميّه في تلك الأوقات إلا أن يتفدّد الأصدقاء بصره حتّى يمازح عليهم في زحمة اللوري وأن يملا منهم عينيه كأنما يودّعهم، وأن يسطّ كتيه واللوري يتعد بهم صوب النحاسين داعياً لهم بالسلاسة ثمّ تالّها الفاتحة!... على أنّه لم يكن يقضي في المسكر أكثر من نصف ساعة كلّ أسبيل وهو أقصى ما وسعه أن يتغيّه عن البيت عقب عودته من المدرسة، نصف ساعة لم تكد تغفو فيها حاسة من حواسه دقيقة واحدة، يدور حول الخيام، يسير بين اللوريات مستطعاً قطعها قطعة قطعة، يقف حيال أهرام البنادق طويلاً متفحصاً أجزاءها جزءاً جزءاً خاصة فوهة الماسورة التي يكمن فيها الموت... يقف على بعد لا

التيحة مجهولة والاحتمال متأرجحاً بين الطرفين على أنَّ المعركة لا تلبث طويلاً حتى تستوجب نهاية تنتهي إليها، هنالك يجد نفسه في موقف حائر، أيّ جانب ينتصر؟ ... في جانب أصدقائه الأربعة وهل رأسهم جوليون، وفي الجانب الآخر مصريون يخفق معهم قلب نهبي... في اللحظة الأخيرة يقرّر النصر للمتظاهرين فينسحب اللوري بقلة من الجنود بينهم الأصدقاء الأربعة وإن كان قد ختم المعركة مرةً يصلح شريف احتفل به المتحاربون من الطرفين بالغناء حول مائدة حفلت بأقداح الشاي ويختلف ألوان الحلو... وكان جوليون أمز أصدقائه، امتاز إلى جماله بدمائه الخلق فضلاً عن براعته النسبية في التكلم بالعربية، وهو الذي جعل دعوته إلى الشاي حقاً ثانياً كما بدا أشدّ الجنود تأثيراً بفنائه حتى كان يدعو كل يوم تقريباً إلى غناء «يا عزيز عيني» فتابه باهتمام ثم يغمغم في تشوّق وحزن:

- أروح بلدي... أروح بلدي!

وأنس كمال منه هله الروح فلزاده له ألفه واطمئناناً حتى قال له مرةً جاداً وكأنما يبلّغه من هرج من كربه:

- أرجعوا سعد باشا وعودوا إلى بلادكم...!

ولكنّ جوليون لم يلقَ اقتراحه بالارتياح الذي كان ينتظر وعلى العكس طلب إليه - كما فعل من قبل في ظرف مشابه - ألا يعود إلى ذكر سعد باشا قائلًا:

«سعد باشا... نوا» وهكذا فشل - على حدّ تعبير ياسين - أولّ مفوض مصري...! ما يدري يوماً إلا واحد «الأصدقاء» يقيم له صورة كاريكاتورية رسمها، فنظر كمال إليها بدهشة وانزعاج وهو يقول لنفسه «صوري؟» ليست هله صوري! ولكنّه شعر في قرارة نفسه بأنّها صورته دون غيره ولو على وجه ما، ثم رفع عينيه للواقفين فالتفاهم يضمكون فادرك أنّها نوع من المزاح وأنّ عليه أن يتخلّله بسرور فجارهم في ضحكهم مدارياً بالضحك خجله، ولما أطلع عليها فهمي تقرّس هذا فيها بدهشة ثم قال:

- ربه... لم تترك حيّاً إلا إيزرته!...! الجسم التحيف الصغير الرقبة الطويلة الهزيلة، الأنف

يسمح له بتجاوزه ونفبه ذاهبة حشرات على اللعب بها أو على الأقلّ لسها، ولما كانت زيارته توافق ميعاد الشاي فكان يمضي مع أصدقائه إلى المطبخ القائم عند مدخل درب قرمز ويباخذ مكانه في نهاية طابور «الشاي» كما يدعونه ثم يعود وراءهم حاملاً قلع شاي باللبن وقطعة من الشيكولاتة فيجلسون على سور السيل يحسون شرابهم وينشد الجنود أغاني جماعية وهو ينصت لهم باهتمام منتظراً دوره في الغناء، تركت حياة المسكر في نفسه أثراً عميقاً بثّ في خياله وأحلامه لحظة شاملة، أثراً نقش على صفحة قلبه إلى جانب الآثار التي نقشتها حكايات أمينة عن عالم الغيب والأساطير، وقصص ياسين الذي جلب روحه إلى دينها الساحرة، والأطياف والرؤى التي تتخيل له في أحلام اللحظة وراء أغصان الياسمين واللباب وأصص الزهور - فوق السطح - عن حياة النمل والمصافير والدجاج، من ثمّ أنشأ عند سور السطح الملاصق لسطح بيت أم مريم معسكراً كامل العدة والمعد، أقام خيمته بالمناهل والأعلام، وأسلحته بعيان الخشب، ولورياته من القباقيب وجنوده من نوى النسر، وعلى كتب من المسكر مثل المتظاهرين بالمحصى. يبدأ التمثيل عادة بنشر النوى جماعات بعضها في الخيام وعند مدخلها وبعضها حول البنادق غير أربع بينها حصاة (مثله هو) يتحون جانباً، يأخذ في عمارة الغناء الإنجليزي ثم يجيء دور الحصاة لتفني «زوروني كلّ سنة مرة» أو «يا عزيز عيني»، يتنقل إلى المحصى فينضد صغوقاً ويصف «يحي الوطن... تسقط الخليفة... يحيي سعد»، يعود إلى المسكر مصغراً فتتنظم النوى صغوقاً كذلك وعلى رأس كلّ صفّ عمرة، ثم يدفع قبقاباً وهو ينفخ عمّاكياً أزيز اللوري، ويضع النوى على سطح القباقيب ثم يدفعه مرةً أخرى صوب المحصى فتنبش المعركة وتسقط الضحايا من الجانبين... ولم يكن يسمح لمواطفه الشخصية بأن تؤثر في سير المعركة، على الأقلّ في بدنها ووسطها، كانت تتحكّم فيه رغبة واحدة هي أن يجعلها معركة «صادقة مشوّقة» يتنازعها الدلع والجلد من الجانبين وتتبادل الإصابات فتظلّ

الكبير، الرأس الضخم، العينان الصغيرتان...  
ثم صاحكًا:

- الشيء الوحيد الذي يبدو أنَّ «صديقك» يضمّر نحوه إصجابًا هو بذلك الأنيقة المهندمة ولا فضل لك في ذلك وإلّا الفضل لثنية التي لا تترك شيئًا في البيت إلاّ هندمته!

ورمى إليه بطرف شامت ثم قال:

- بأن السرّ الذي حبّيك إليهم!... إنهم يتسلّون بالضحك على شكلك وأناقتك المفردة، يعني بالعربي لست إلاّ وقرة جوزه في نظرهم... ماذا كسبت من وراء خيانتك!؟

ولكنّ كلام فهمي لم يحدث أثرًا لأنّ الغلام كان يدرك مدى عداوته للإنجليز فخطبًا مناوره يراى بها الضربة بينه وبينهم!... وجاء يومًا المسكر كعادته فرأى جوليون عند أقصى جدار السبيل يتطلّع باهتمام إلى العطفة التي يفتح عليها بيت المرحوم السيّد عمّاد وضوان فمضى نحوه ولكنّه رأى يلوّح بيده محدثًا إشارات غامضة لم يفقه لها معنى يبدّ أنّه توقّف عن التقدّم مليًّا إحساسًا غريزيًّا خفي عنه معناه، ثمّ أغراه حبّ الاستطلاع بأن يلدور حول الخيام المنصوبة أمام واجهة السبيل متسلّلًا إلى ما وراء جوليون وأنّ عمد بصره إلى الهدف الذي يتطلّع إليه، هنالك رأى كوة في جناح بيت آل وضوان الذي يسمّى العطفة القصيرة يلوّح منها وجه مريم واضمحًا ياسيًا مستجيبيًا! وقف يردد النظر بين الجنديّ وبين الفتاة في ذهول كأنما يأبى أن يصدّق عينه، كيف اقترفت مريم الظهور في الكوة!؟... كيف تصدّعت لجوليون على هذا النحو الفاضح!؟ هو يلوّح بيديه وهي تبسم!... أجل ما هي الابتسامة لا تزال مطبوعة على شفثيها!... وما هما عيناها يستغرقهما النظر إليه حتّى أنّها لم تفتن بعد إلى وجوده هو! ونذت عنه حركة لفتت إليه جوليون فما

كاد يطلّع على موقفه حتّى أغرق في الضحك وهو يربطن على حين تراجعت مريم بسرعة خاطفة في ذعر يبنّ. راح يتطلّع إلى الجنديّ في ذهول وقد زاده فرار مريم رنية على رنية وإن بدا له الأمر كلّ غموضًا في

غموض.

سأله جوليون متودّدًا:

- تعرفها!؟...

فأخى رأسه بالإيجاب ولم ينبس. غاب جوليون دقائق ثمّ عاد حاملًا لقافة كبيرة قلّمتها إلى كمال قاتلًا وهو يشير إلى بيت مريم:

- اذهب بها إليها...!

ولكنّ كمال تراجع جافلاً وهو يبرّز رأسه بمنة وسرة في عناد، لم تريح تلك الحادثة مخيلته، ومع أنّه شعر بخطورتها من بادئ الأمر إلّا أنّه لم يدرك مدى الخطورة على حقيقتها إلّا حين قصّ القصّة في مجلس القهوة مساء. استوت أمينة في جلستها وهي تتباعد وقد ظلّ فنجان القهوة معلقًا بين أصبعيها لا هي تقرّبه من فيها ولا هي تفضعه على الصنيّة على حين غادر فهمي ويسون الكتبة المواجهة لمجلس الأمّ مهرولين إلى الكتبة التي تجلس عليها هي وكمال وجعلوا يحدّقان إليه باهتمام ودعش وانزعاج فاق كلّ ما توقّع.

قالت أمينة وهي تزدرى ريقها:

- أرايت هذا حقًا!... ألم تخدمك حينك!؟

وتأفّف فهمي:

- مريم!؟ مريم!؟ أمّا أنك أنت عمّا تقول!؟

وتسأله ياسين:

- أكان يشير إليها وكانت تبسم إليه!؟... أرايتها تبسم حقًا!؟...

وأعادت أمينة الفتنجان إلى الصنيّة فأسندت رأسها إلى راحتها قائلة بلهجة تتنّم عن الوحيد:

- كمال! الكلب في مثل هذا الأمر جريمة لا ينفرها الله... راجع نفسك يا بني... ألم تعدّ الحقّ في شيء!؟

وحلف كمال بأعظم الأيمان فقال فهمي بياس ومرارة:

- إنّه لا يكلّب، ليس في وسع عاقل أن يتهمه بالكلب فيها قال، ألا تدركون أنّ اختراع مثل هذه القصّة هو أبعد ما يكون عن تصوّر واحد في سنّه!؟...



فصاغت الأم بصوت حزين:

- وكيف يعني أن أصدقه!

فقال فهمي وكأنه يحدث نفسه:

- أجل كيف يمكن تصديقه!... (ثم بصوت حاد)

ولكنه وقع... وقع...!

وقعت الكلمة الأخيرة من نفسه موقع الحنجر، كثرها وكأنها يكرر الطعن متعمداً، حقاً شغلته من مريم الشواغل فلم تعد ذكرها تلوح إلا في حاشية أحلام يقظته، ولكن الطعنة التي أصابت سمعتها نفذت إليها خلال قلبه. إنه ذاهل... ذاهل...

ذاهل، لا يدري إن كان نسي أم لم ينس، يجب أم يكره، يغضب للكرامة أم للغيرة... ورقة شجر جافة في مهب زوينة متواحة...

- كيف يعني أن أصدقه؟... طالما كانت ثقتي في مريم كثفتي في عذبية أو عائشة، أتها من الفضليات، أبوها طيب الله ثراه كان من الأكرمين... جيران العمر ونعم الجيران...

قال ياسين - الذي بدا طول الوقت مستغرقًا بالتفكير - بلهجة لم تخلُ من سخرية:

- علام تمجبون؟... منذ القدم والله يخلق من صلب الأبرار أشرارًا.

فقال أمينة محتجة كأنها تأي أن تصبّق أتا خدعت طوال ذلك الدهر:

- يشهد الله آتي لم ألاحظ عليها ما يسوء فكم... فقال ياسين بجلو:

- ولا أحد منا، حتى عذبية العيابة الكبرى، بل خدع بها من هو أظن منك وميّا

فهتف فهمي متألّياً:

- من أين لي أن أطلع على الغيب؟! إنه أمر يشقّ

تصوره.

وحقق على ياسين لدرجة الغليان، ثم بدا له الخلق جرمًا بغضاء، الإنجليز والمصريّون على السواء... الرجال والنساء - والنساء خاصة - إنه يحنق... هفت نفسه إلى الاحتفاء ليتنقّ في وحدته نسمة راحة يبدّ أنه لم يبرح مكانه كأنما شدّ إليه بحبال غلاظ...

ألقه ياسين إلى كمال متسائلاً:

- متى رأتك؟

- عندما التفت إليّ جوليون...

- ثم فُرت من النافذة؟

- نعم...

- هل رأت أنك رأيتها؟

- التقت عيننا لحظة...

ياسين ساخرًا:

- مسكينة!... إنّا دون شك نتخيل الآن مجلسنا

هذا وحديثنا ذا الشجون!

- إنجليزي!...

هتف فهمي وهو يضرب كفًا على كف.

- بنت السيد عمّد رضوان!...

ضمخمت أمينة متبّدة وهي همز رأسها هجيبًا...

فقال ياسين متفكرًا:

- مغالطة إنجليزي ليست بالمسألة الهينة هل فتاة،

هذه درجة من الفساد لا يمكن أن تظهر طفرة...

فسأله فهمي:

- ماذا تعني؟

- أعني أنه لا بدّ أن تسبقها درجات من الفساد

فقال أمينة برجاء:

- استخلفكم بالله أن تمسكوا عن هذا الحديث...

فواصل ياسين حديثه، كأنه لم يسمع رجاءها،

قائلًا:

- مريم بنت سيّدة لها في التبرّج فنون بشهادتك

أنت وعذبية وعائشة...!

فهتفت أمينة بصوت ملؤه العتاب والزجر:

- ياسين!...

فقال ياسين كالترجيع:

- لويد أن أقول إنّا أسرة تعيش في حقّ مغلق لا

تكاد تعلم شيئًا حيّا يدور حولها، قصارى جهننا أن

تتصور الناس على مثالنا، اختلطت بنا مريم أرواها

طوالاً ولكنّا لم نعرفها على حقيقتها حتى كشفها لنا

آخر من ينشد عنه كشف الحقائق!...

وريت على رأس كمال ضاحكًا، ولكنّ أمينة عادت

تقول بنو سُلَ حَزَّ:

- أَسْتَحْلِفُكُمْ بِاللَّهِ أَنْ تَغْيِرُوا مَجْرَى الْحَدِيثِ . . .

ابتسم ياسين ولم ينس، فأطبق الصمت، لم يعد فهمي يتحسّل البقاء بينهم فاستجاب إلى الصوت الباطني الذي يستصرخه ملهوفاً على الفرار. . . بعيداً عن الأنظار والأساع، هنالك يستطيع أن يخلو إلى نفسه، أن يعيد إليها الحديث من ألفه إلى ياقه، كلمة كلمة، عبارة عبارة، جملة جملة، ليفهمه ويفهمه ثم ينظر أين يكون وضعه. . .

## ٦٥

كان الليل قد جاوز منتصفه عندما غادر السيّد أحمد عهد الجواد بيت أم مريم متلفاً بظلمة العطفة المسدودة. بدا الحزن كله - كما أمسى يبتو مع المزيج الأوّل من الليل مذ صكر الإنجليز فيه - غارقاً في النوم متدنّياً بالظلام، لا مقيى يسمر ولا باع يسرح ولا دكان يسهر ولا ماز يدبّ، فلم يكن فيه أثر للحياة أو النور إلّا ما انبث من للمسكّر، ومع أنّ أحدًا من الجنود لم يترصّ له بسوء في الذهاب أو الإياب إلّا أنّه لم يكن يخلو فكّر في قلق وتوجّس كلّما اقترب من المعسكر في طريقه إلى البيت خاصّة وآله يعود - آخر الليل - حل حال من الإعياء والاسترخاء والدلّول يشقّ معها مجرد التفكير في السير الأمن المطمئنّ، انحدر إلى طريق النحاسين ثمّ انعطف عن متّجهها إلى البيت وهو يفتلس النظر إلى الديدبان حتّى دخل أشدّ مناطق الطريق خطورة. . . تلك التي يتشرّ فيها النور المنبث من قلب المعسكر، هنالك حاوذه الإحساس الذي يخامسه كلّما دخلها وهو أنّه هلّك يسير لأيّ صائد، فحثّ خطاه ليخرج منها إلى الظلام المضي إلى مدخل بيته ولكنّه ما كان يخطو خطوة حتّى صكّ أذنيه صوت أجشّ غليظ يزعم وراءه راطناً فأدرك على جهله رطانته - من عنف اللهجة واقتضابها - أنّه رماه بأمر لا يقبل المناقشة فتوقّف عن السير والفت وراءه مرتاحاً فرأى جندياً - غير الديدبان - يتّجه نحوه بقوة شاكمي السلاح، ماذا جدّ حتّى دعا إلى هذه المعاملة؟ . . .

أَيكون الرجل ثملًا؟ أم لعله أذهن لنزوة اعتداء طارئة؟ أم هو يبتغي السلب والنهب؟ جعل يرقب اقترابه بقلب خائف وحلق جافّ وقد طار الحمار من رأسه. وقف الجنديّ حل بعد خطوة منه ثمّ وجّه إليه بلهجة امرأة كلاماً سريعاً قصيراً - لم يفهم منه بطبيعة الحال كلمة واحدة - وهو يشير بيده الخالية صوب شارع بين القصرين فحملك السيّد في وجهه بيأس واستعطاف وهو يعاني مرارة العجز عن التفاهم معه كي يقتنه ببراهته عمّا يتّهمه به أو كي يعرف على الأقلّ ما يريد، ثمّ خطر له أنّه قصد بإشادته إلى بين القصرين أن يأمره بالابتعاد ظلّاً منه أنّه غريب فراح يشير إلى بيته بدوره ليفهمه أنّه من سكانه وآله عائد إليه ولكنّ الجنديّ تجاهل حركته وهو يدمدم ثمّ أصرّ على إشارته وهو يصرّ رأسه في نفس الاتجاه كأنّما يئنّه حل الذهاب، ثمّ بدا أنّه ضاق به فقبض على منكبيه وأداره بقوة فدفعه في ظهره فوجد السيّد نفسه يتحرّك متّجهاً نحو بين القصرين والأخر وراءه فاستسلم - ومفاصله تكاد تسبب - إلى المقادير، جاوز في مسيره المجهول للمسكّر ثمّ سبيل بين القصرين وهناك اختفى آخر أثر للضوء المنبث من المعسكر فخاض أمواج الظلام الدامس والصمت الثقيل، لا منظر يرى إلّا أشباح البيوت ولا صوت يسمع إلّا وقع القدمين الخليقتين اللتين تتبعانه في نظام ميكانيكيّ كأنّهما بعدان الدقائق الباقية له في الحياة، ولعلّها ثوان، أجل كان يتوقّع في آية لحظة أن ينفخّ عليه بخبطة تهوي به إلى النهاية ممضى يترقبها بعينين عمهقتين في الظلام وفم مطبق من الجرح وحرقة تتحرّك حركة عصبية من أنّ لأن كلّما ازدرد ريقه الجفاف الملتهب حتّى بوغت بوميض يجذب بصره إلى أسفل فكاد يصرخ كالأطفال من الملع وقد تهاوى قلبه ولكنّه تبيّنه دائرة من الضوء تذهب ونحيء فأدرك أنّها شعاع من بطارية أضواءها سائقة ليتعرّف على طريقه خلال الظلمات. استردّ أنفاسه بعد أن تخفّف من الدهر المبالغ ولكنّه لم يستشعر نسمة راحة حتّى تلقّفه خوفه الأوّل، خوف الموت الذي يساق إليه، فعاد يترقّب حظه بين لحظة وأخرى كأنّه

غريق توهم في تحبسه أنه يرى محاسناً يتوكل لمهاجته ثم  
تبيّن له أنّ ما رأى اشباح طافية ولكن فرحته للنجاة  
من الخطر الوهمي لم تكده تنقّس حتى اخضت تحت  
ضغط الخطر الحقيقي المحيط به، إلى أين يسوقه؟ لو  
يستطيع أن يراهنه فيسأله! يبدو أنه سيواصل مسوقه  
حتى يدفع به إلى قراقة باب النصر، لا أثر للإنسان ولا  
لحيوان، أين الغفير؟ وحيد تحت رحمة من لا يرحم،  
مضى كان مثل هذا العذاب... هل يذكر؟  
الكابوس... أجل إنه الكابوس. كابده أكثر من مرة  
خلال نوم مريض، إنّ ظلمة الكابوس نفسها لا تخلو  
أحياناً من بارقة أمل قد يشرق بنس النائم إحساس  
حنون بأنّ ما يعانيه حلم لا حقيقة وبأنه سينجو من  
شره الآن أو بعد حين، مبهات أن يجود الدهر بمثل  
ذلك الأمل، إنه صابر لا نائم ولهذا الجندي الشاكي  
السلاح حقيقة لا خيال ولهذا الطريق الذي يشهد ذلك  
وأمره شيء ملموس خفيف لا وهم، عذابه حقيقة لا  
سبيل إلى الشك فيها، إنّ أقل حركة عارمة تنذّ عنه  
خلقة بأن تطيح رأسه... لا سبيل إلى الشك في هذا  
أيضاً. قالت له أمّ مريم وهي تودّعه: «وإلى الغد»  
الغد؟ هل يطلع ذلك الغد؟ سل القدمين الثقيلتين  
التي تترجّان الأرض وراء ظهورك... سل البندقية  
ذات السنوكي الحادّ الملتبّ، قالت له أيضاً وهي  
تمسّحه وتكاد رائحة الخمر المتطايرة من فمك أن  
تسكرها، الآن طارت الحمر وطار عقله، ولت ساعة  
الصبوة، منذ دقائق معدودة... كانت الصبوة كلّ  
شيء في الحياة. الآن العذاب هو كلّ شيء... وليس  
بين هذا وذاك إلا دقائق معدودة، دقائق  
معدودة!... عندما بلغ منعطف الحرنفش جلب  
عينيه شعاع يومض في الظلام للحفظ الطريق فرأى  
بطارية تتحرك في يد جندي آخر يسوق بين يديه  
أشباحاً لم يتبيّن عددهم!... تسال ترى هل صلدت  
إلى الجنود أوامر بالقبض على من يصادفون من الرجال  
ليلاً!... وللى أين يسوقونهم؟... وأيّ عقاب  
سيقضون به عليهم؟ تسال طويلاً وهو من الدهش  
والانزعاج في نهاية يده أنّ رؤيته للمضحيا الجلد

أدخلت على قلبه شيئاً من العزاء والارتياح، لم يعد على  
الأقلّ وحيداً كما كان يظنّ، وجد في بلواه أنشداً  
يؤنسون وحشته ويشاركونه الصبر، كان يتقدّم قائلهم  
بمسافة قصيرة فراح ينصت إلى وقع أقدامهم مستأناً  
إليها كما يستأنس الضالّ في مفاذه إلى أصوات آدمية  
ترامت إليه مع الريح، ولم تكن أمانة أحرّ على نفسه  
أنّذ من أن يلحقوا به لينضمّ إلى جماعتهم، سواء كانوا  
معارف أو غرباء، لتخفف قلوبهم ممّا وهم يحسّون  
الحظي نحو الصبر المجهول. هؤلاء الرجال أبرياء وهو  
يريد فهم القبيض عليهم؟ فهم القبيض عليه هو مثلاً؟  
لا هو من الثّوار ولا من المشتغلين بالسياسة ولا حتى  
من الشّبان فهل يكلّمون حل الألفة ويحاسبون حل  
المشاعر؟... أو تراهم يعتقلون أفراد الشعب بعد الله  
لفروا من اعتقال الزعماء لو كان يعرف الإنجليز  
فيسال أسره؟... أين فهمي لبحادثه نياحة عنه؟...  
وخزه الألم والحزن، أين فهمي ويسمين وكيال وخديعة  
وحاشة وأتهم؟ هل يمكن أن تصوّر أسرته ما آل إليه  
حاله من هوان وهي التي لم تره إلا جباراً جليلاً؟ هل  
تتصوّر أنّ جندياً دفعه بعنف حتى أوشك أن يطرحه  
أرضاً وأن يسوقه كما تساق السائمة؟ وجد لذكر آله  
آلماً وحزيناً فكادت تلمع عيناه. كان يمرّ في طريقه  
بأشباح بيوت ودكاكين يعرف أصحابها، ومضاه كان  
يوماً - خاصة عهد الصبا والشباب - من سيّاهاء  
فأحزنه أن يمضي بها سيرا دون أن تنبش لنجدته أو  
حتى ترثي لحاله، شعر حقاً بأنّ أحزن صنوف الهوان ما  
حلق به في حياته، ثمّ رفع عينيه إلى السماء باحثاً بفكره  
إلى الله المطلق على قلبه، بحث إليه بفكره دون أن  
يجري له ذكرٌ على لسانه ولو همّاً مستحيّاً من أن  
ينطق باسمه وجسمه لم يتطرّف من أنفاس الشراب  
وعرق الغرام، وما لبث أن تضاعف خوفه من أن  
يباعد دنسه بينه وبين النجاة، أو أن يلقى مصيراً كفافة  
لما سلف من استهتاره، فغشي صدره تطلّز وكأبه،  
وأشفى على اليأس، حينما شارب سوق اللبمون تراسى  
إلى الصمت الذي لا يؤنسه إلا وقع أقدام أصوات  
مبهمة تلهف عملياً في الظلام - وهو يتقدّم بين

ويفرغونها فيها، الكلّ يحمل بهمة وسرعة والأعين تسترق النظر في خوف إلى الجنود الإنجليز الذين رابطوا عند مدخل البوابة. اقترب منه شرطي ورعى إليه بمقطف وهو يقول بصوت غليظ ينم عن وعيد:

- افعل كما يفعل الآخرون...

ثم همساً:

- أسرع حتى لا يصيبك أذى...

كانت هذه الجملة أوّل تعبير «إنساني» يلقيه في رحلته المخيفة فسرت في صدره سرى النسمة في حلق المختنق، انحنى على المقطف فتناوله من علاقته وهو يسأل الشرطي همساً:

- هل يطلق سراحنا إذا تمّ العمل؟

فاجابه بنفس الصوت:

- إن شاء الله.

تهدّ من الأعمى، راودته نفسه على الكباء، شعر بأنّه يولد من جديد.. رفع يسراه الجبّة من طرفها ودسّه في حزام القفطان كيلا تعوقه عن العمل ومضى بالمقطف إلى طوار البوابة حيث تراكت الأتربة فوضعه بين قدميه وراح يملأ كفيه بالتراب ويفرغها في المقطف حتى امتلأ ثمّ حله بيده وذهب إلى الحفرة فأفرغه فيها وعاد إلى الطوار، واصل العمل بين جماعات مختلفة من الناس ضمت الأفنديّة والمعتمين، الهرمين والشبان، يعملون جميعاً بهمة عالية مستمدين من رغبتهم في الحياة، وإنه ليملاً مقطفه إذ لكزه كعج فالتفت إلى مصدره فرأى صديقاً يدهي غنمهم يحملو صاحب معصرة زيتون بالجالية ثمّ يثّلون بمجالس لهو بين حين وآخر ففرح به فرحة عظيمة كما فرح به الآخر، وسرحان ما تهاهما:

- أنت وقمت أيضاً!...

- قبلك.. وصلت قبيل منتصف الليل ورايتك وأنت تتسلّم مقطفك فجمعت في ذهابي وإلهابي أتبع طريقاً جميل إليك رويداً رويداً حتى جاورتك.

- أهلاً.. أهلاً، اليس ثمة أحد من أصدقائنا؟

- لم أعرّح غيرك.

- قال لي الشرطي إنهم سيطلقون سراحنا حالما نتمّ

الخوف والرجاء - فتناهت إلى أذنيه جثة لم يَدْر إن كان مصدرها إنسان أو حيوان، غير أنّه تبيّن بعد قليل لغمّاً فلم يتألمك أن قال لنفسه في لغة «أصوات آدمية» ومال مع الطريق فلاحت لعينه أضواء متحركة حسبها بادئ الأمر بكارّيات جديلة ولكنّها وضحت مشاغل رأى على نورها جانباً من بوابة المفتوح يقف تحت جنود بريطانيون، ثمّ تراءى له جنود من البوليس المصريّ ردّ منظرمهم إلى صدره الدماء، ساهرف ما يُراد به، لم يبق إلا مسيرة خطوات، ماذا دعا إلى تجهيز الجنود الإنجليز والمصريّين عند البوابة؟ لماذا يسوقون الأهالي من شقّ أنحاء الحميّ؟ همّا قليل أعرف كلّ شيء، كلّ شيء؟ فلاستعد بالله ولاسلمّ إليه أمري، سأذكر هذه الساعة الرهيبة مدى العمر إن كان في العمر بقية، الرصاص... المشتقة... أنشواي... أنضمّ إلى سجلّ الشهداء؟ أصبح نبأ من أنباء الثورة يتناقله عمّد حقّت وعلّي عبد الرحيم وإبراهيم الفار كما كتّا تتناقل الأخبار في سهرات المساء؟ تصوّر السهرة ومكانك شافر؟ رحمة الله عليك... كان وكان... لعدّ ما يبكرك، وستذكرك طويلاً، ثمّ تنسى، ما أشدّ اضطراب قلبي، سلمّ أمرك للذي خلّقتك، اللهمّ حوالينا ولا علينا. ما إن اقترب من موقف الجنود حتى انجهمت الأنظار إليه باردة قاسية متوحدة فغاص قلبه في الأحاديث خلّقاً وراه في الأضلع اللّيا حاداً، تُرى هل آن له أن يتوقّف؟ تتناقلت قدماء ولقّه التردد والحيرة..

- ادخل...

هتف بها شرطيّ وهو يشير إلى داخل البوابة فنظر السيّد إليه نظرة ناطقة بالتساؤل والاستعطاف والاستغاثة، ثمّ مرّ بين الجنود لا يكاد يرى ما بين يديه من شلّة الفزع ويودّ لو ينفكي رأسه بذراعيه استجابة لغريزة الخوف التي تستعصره. هنالك تحت قبة البوابة رأى منظراً عرّفه بما يراود به بغير حاجة إلى سؤال، رأى حفرة عميقة كماخندق تمتدّ في الطريق، كما رأى جمهوراً من الأهالي يعملون بلا توقّف وتحت إشراف الشرطة لسدّ الحفرة بأن يحملوا الأتربة في مقاطف

العمل.

- قبل لي ذلك أيضًا، ربنا يسمع منك.

- سيئوا ركني الله يخرج بيوتهم..

- لم تعد لي ركب على ما أظن!

وتبادلا ابتسامة مقتضية..

- ما أصل هذه الحفرة؟

- يقال إن فتحات الحسينية حفرها أول الليل

ليمنعوا مسير اللوريات ويقال أيضًا إن لوريت وقع فيها!

- إن صحَّ هذا فقل علينا السلام!

وعندما تجاوزا مرة ثانية عند كوم الأتربة كانا قد ألفا

الموقف بعض الشيء لمعادونتهما الروح حتى أتيا لم يتالكا

أن ابتسما وهما يملآن مقطفيهما بالتراب كمثال البناء

فهمس خنيم:

- حسينا الله ونعم الوكيل على أولاد الكلب..

فهمس السيد بأسًا:

- أرجو أن يعطونا أجرًا مناسبًا!

- أين يقبس عليك؟

- أمام البيت.

- طيبًا!

- وأنت؟

- كنت بالأمم منزولة، ولكنني ألفت نملًا، الإنجليز

أقوى من الكوكابين!

- أقوى من القوي نفسه!

مضى الرجال يلعبون ويمشون عجلين ما بين طوار

الأتربة والحفرة على ضوء المشاعل، انواروا التراب حتى

انتشر في فراخ القبة خائفًا جواً خائفًا فعلامهم البهر

وتصيب منهم العرق من جبهاتهم واضربت وجوههم

وتتابع من انتشاق الغبار سعالهم فكأثم أشباح انتشقت

عنهم الحفرة، على أي حال لم يعد وحده، هذا

الصديق ولؤلاء الرجال من حبه، جنود البوليس

المصريون معهم بفقرهم، أي ذلك أنهم جردوا من

سلاحهم.. لم يعد السيف ذو القمد المعلق يتلذذ

من أحزمتهم، اصبر.. اصبر لعل هذه الغمة أن

تتكشف، هل كنت تتصور أنك ستعمل حتى مطلع

الصبح ورثًا حتى الضحى، شدَّ حيلك، ليس ثمة

أنك ستحمل التراب وتُسحَّر في سدَّ الحفرة؟ لا تريد

الحفرة أن تمتلئ، لا فائدة ترجى من الشكوى، ولن

تشكو؟ جسمك قوي صلب العود يستطيع أن يتحمل

رغم سكرة الليلة وهبتها، كم الساعة الآن؟ ليس من

الحيلة أن تنظر فيها، لو لم يقع لي هذا لكنت الآن

مستلقيًا على الفراش منتفًا بلليل النام، كنت أستطيع

أن أغسل رأسي ووجهي وأشرب شرية روية من القلة

المعطرة بالزهر، هنقًا لنا هذه المشاركة في جميع

الثورة، لم لا؟ البلد ثلث.. كل يوم.. كل ساعة

ضحايا وشهداء، بيد أن قراءة الصحف وتناقل الأخبار

شيء أمّا حمل التراب تحت مهدد البنادق فشيء آخر،

هنقًا لكم أيها الناكثون في أسرركم، اللهم احفظنا،

لست لها.. لست لها، اللهم اهزم المشركين بقوتك،

نحن ضعفاء.. لست لها، هل يتصور فهم أي خطر

يتهدده؟ لأنه يستذكر دروسه الآن غير حامل بما يجيق

بأبيه، قال لي: ولا لأول مرة في حياته، قالها بدموعه

ولكن سيان حندي. للمعنى واحد، لم أقل لأمه، لن

أقول لها، أكتشف لها من عجزتي؟ أستمين بضعفها

بعد أن أخفقت بقوتي؟ كلا.. لئلا جاهلة بكل شيء،

يقول إنه لا يمرض نفسه للخطر، حقًا؟ اللهم

استجب، لولا هذا ما رحته أبدًا، اللهم احفظه،

اللهم احفظنا جميعًا من شر هذه الأيام، كم الساعة

الآن؟ إن طلع علينا الصباح أمّا القتل، لن يقتلونا

أمام الحلق. الصباح؟

- بصفت على الأرض كي ألتصق من الغبار اللازق

بسقف حلقى فرمالي أحد الأبلة بنظرة وقف لها شعر

رأسي!

- لا تبصق، تشبه بي، لقد بلعت من التراب قدرًا

يكفي لسدَّ هذه الحفرة!

- لعل زيادة دعت عليك!

- لملها..

- ألم يكن سدَّ حفرتها أطيب من سدَّ هذه الحفرة؟

- بل أشق!

تبادلا ابتسامة سريعة ثم قال خنيم متهدًا:

- انقصم ظهري يا هو!

كله؟ يا بن بنت رسول الله، غزوة الخندق.. هكذا دعاها سيدنا الواعظ، كان عليه الصلاة والسلام يعمل مع العاملين ويرفع التراب بيديه.. كافرون وكافرون لماذا يتصر كافرو اليوم! فساد الزمن.. فسادى أنا، هل يصكرون أمام البيت حتى تنتهي الثورة؟

- ألم تسمع الديكة؟

أرهف السيد أذنيه ثم غمغم:

- الديكة تصيح! الفجر؟

- نعم.. ولكنّها لن تمثّل قبل الصباح.

- الصباح!

- اللهم آتي عصور، عصور جدًا.

أنّجه ذهن السيد إلى أسفل فشعر بأنّه محصور أيضًا، وأنّ جانبًا من آلامه يعود بلا شك إلى ذلك، وسرعان ما اشتدّ ضغط المئات عليه كأنّما هبّجها تفكيره فيها، قال:

- وأنا كذلك.

- والعمل؟

- ما باليد حيلة!

- انظر هناك إلى ابن القرد الذي وقف يبول أمام دكان حل الزجاج!

- آه..

- إخراج شويّة بول أهمّ الآن عندي من إخراج الإنجليز من مصر كلّها..

- إخراج الإنجليز من مصر كلّها؟ إخراجوا أوّلًا من النخاميين.

- ربّه.. انظر.. لا يزال الجنود يأتون بالناس!

رأى السيد جماعة جديدة تشقّ طريقها صوب الحفرة.

- مثلك، عراونا اتنا نشارك المجاهدين بعض الأهم.

- ما رأيك في أن أرمي بالقنطف في وجه الجنود وأهتف بأهل صوتي وبجها سعد؟

- اشتغلت المنزلة من جديد؟

- يا للخسارة!.. كانت قطعة وقد فُصّ العين حرّكتها بالشاي مرّة ومرتين وثلاثًا، ثمّ ذهبت إلى السطيميكشيّة أسمع الشيخ علي محمود في بيت الحمزاوي، وعدت قبيل منتصف الليل وأنا أقول لنفسي والوليّة الآن تنتظر لا أفعل من خيب لها رجاء حين طلع ابن القرد وساقني من قفائي..

- ربّنا يمؤّض عليك.

- آمين.

جاء الجنود برجال آخرين بعضهم من ناحية الحسينيّة والبعض الآخر من ناحية النخاسين وسرعان ما انضمّوا إلى «المال». ألقى على المكان نظرة فوجده ازدحم بالجُمهور أو كاد وقد انتشروا حول الحفرة في جميع الجهات، يذهبون إلى الطوار ويرجعون إليها في حركة لا تنقطع وأتوار المشاغل تضيء منهم وجوهًا لاهتة نال منها الإعياء واللّدّ والخوف كلّ مثال. الكثرة بركة وأمان، لن يذهبوا هذا الجُمع الغفير من الناس، لن يأخذوا البريء بالذنب، تُرى أين المذنبون؟ أين هؤلاء الفترّات؟ هل يعلمون الآن أنّ إخواننا لهم وقصوا في الحفرة التي حفرها؟ قاتلهم الله هل حسبوا أنّ حفر حفرة سيعيد سمّا أو يخرّج الإنجليز من مصر! لا تنقطع عن السهر إن كتب الله لي عمرًا جديدًا، أنقطع عن السهر؟ لم يعد السهر يأمّن، كيف يكون طعم الحياة، لا طعم للحياة في ظلّ الثورة، الثورة.. أيّ جنديّ يقبض عليك.. تحمّل التراب بكفّيك، فهمي يقول لك لا، متى تعود الدنيا إلى أصلها؟ صداق؟.. بل صداق وغنيان، دقائق من الراحة.. لا أطعم في مزيد! ببيجة في سابع نومة، أمانة تنتظر كما تنتظر «وليّة» غنيم، هبهات أن يخطر لكم ما حلق بأيّكم، ربّه إن التراب يملأ أنفي وعيني، يا سيدنا الحسين، امتلئي.. امتلئي.. أما كفاك هذا التراب

استيقظ السيد أحد من نومه حوالى العصر وكان نبأ واقمته قد ذاع في الأهل والأصدقاء فوفدوا على البيت واجتمعوا به مهتئين بالسلامة فراح يقصّ القصّة ويعيدها بأسلوب لم يتخلّ - رغم جدّيّة الأمر - من فكاهة وغمويل حتى أثار شقّ التعليقات. كانت أمانة

لم تتكلم إحدى شقيقتيه - ولو مرة واحدة - بأن تحببه قائلة مثلاً «اذهب أنت وصالحك بك غداً»! يَدُّ أنه بمرور الزمن اعتاد الصلة العجيبة التي تربط بين شقيقتيه وزوجيهما وسلم يحكمهما وقنع بالزيارة القصيرة عجمي بين الحين والحين فيسعد بها دون طمع في مزيد. وبالرغم من هذا فلم يكن يتالك أحياناً إذا رآهما مقبلتين من أن يقول متمنياً «لو تعودان إلى البيت فتشيان فيه كما كنتم»! فتبادره أنه لئلا «رُتْنَا يكفيناها شرّ تمنياتك الطيبة». بيد أن أعجب ما صادفه في حياتها الزوجية كان ذلك التغير الذي طرأ على البطن... وما صاحبه من أعراض بدت تارة مرعبة كالمرض وطوراً غريبة كالأساطير، وفدت على حافظته ألقافاً جديدة كالحل والوحش وما اكتنف الأخير من قبحه وتوكل والتهام لحبات الطين الجائلة... ثم ما شأن بطن عائشة؟... متى يقف عن النمو الذي جعله كالقربة المنفوخة؟... فغداً بطن خديجة بدا - فيها يبدو - يخطو نفس الخطوات، وإذا كانت عائشة ذات البشرة العاجية والشعر الذهبي قد وجمت على الطين فعل أي شيء، توحم خديجة؟ غير أن خديجة لم تحقق غاؤه فتوحدت على المخالل حتى استأثرت منه أسئلة لا حصر لها لم يظفر أحدها بجواب مقنع...! وتقول أنه إذ بطن عائشة - وبطن خديجة بالتالي - سيتمسك من طفل صغير سوف يكون قرّة عينه... ولكن أين يقيم هذا الطفل، وكيف يعيش، وهل يسمع ويرى، وماذا يسمع وماذا يرى، وكيف وجد، ومن أين جاء؟... حل أن هذه الأسئلة لم تمحل، ظفر عنها بأجوبة جديدة حقاً بأن تلحق بمعارفه عن الأولياء والعفاريث والرقى والتعاويذ وغير ذلك من المواد التي تزخر بها دالرة معارف أمه... لذلك سأل عائشة مستطعلاً باهتمام:

- متى يخرج الطفل؟

فاجابته ضاحكة:

- اصبر لم يبق إلا قليل.

فتساءل ياسين:

- أظنك في الشهر التاسع؟

فاجابته:

أول من سمع القصة، ألقاها عليها وهو مشّت النفس خائر القوى لا يكاد يصلق حقاً أنه نجا فطلعت وحدها الجانب المضعف خالطاً، وما كادت تغادره نالماً حتى استرسلت في البكاء وجعلت تدعو الله أن يرعى أمرتها بعنايته ورحمته، ودعت الله طويلاً حتى كلّ لسانها. ولكنّه حينما وجد نفسه عموماً بأصدقائه خاصة المقرّبين منهم أمثال إبراهيم الفار وعلي عبد الرحيم ومحمد عفت، استرد الكثير من روحه المعنوية فتغلّر عليه أن يغفل الجانب الفكاهي من الحوادث حتى غلب على ما عداه فانتهت الحديث إلى نوع من المزاح كأنها كلن يقصّ عليهم مغامرة من مغامراته. وبينما حفل الدور الأعلى بالزائرين اجتمع شمل الأسرة بالدور التحتاني فيها عدا الأم التي شغلت مع أم حنفي بتوتية القهوة والأشربة، شهدت الصلاة من جديد اجتياح ياسين وفهمي وكسك وخديجة وصائشة في مجلس الأم التقليدي، وقد انضمّ إليهم خليل شوكت وإبراهيم شوكت سماعة النهار ولكنّها صعدا إلى حجرة الأب عقب استيقاظه بقليل فخلا الجو للإخوة، وكان الحزن الذي غشيه طوال النهار على ما أصاب والدهم قد زایلهم بعودة الطمأنينة إلى نفوسهم فنبغت قلوبهم بالمواطف الأخوية وتوتّروا للسمر والمرح كمهلهم في الأيام الخوالي. حل أن الطمأنينة لم تستقرّ بنفوسهم حتى رأوا والدهم بأعينهم، أقبلوا عليه واحداً في إثر واحد فقبّلوا يده ودعوا له بطول العمر والسلامة ثمّ غادروا الحجرة في نظام وأدب عسكريين. ومع أن السيد اكتفى بمقدّم يده لياسين وفهمي وكسك بالتابع دون أن ينس بكلمة إلا أنه اهتم إلى خديجة وعائشة وسألها في رقة عن الحال والصحة، رقة لم تحظيا بها إلا بعد زواجهما، وكان كمال يلاحظها بدهشة مقرونة بمرور كأنها هو الذي يحظى بها. ولحق أن كمال كان أسعد الجميع بزيارات شقيقتيه كلّما هلت... كان ينعم في أثنائها بسعادة عميقة لا يعجز عليه صفوها إلا التفكير في النهاية المتوقّعة. ودائماً كان عجمي النذير يلهه النهاية من أحد الرجلين - إبراهيم أو خليل - إذا غمى أو تنابث ثمّ قال «وأن لنا أن نلعب» أمر مطاع لا يرده،

- نعم ولو أن حاتي تصرّ على آتي في الثامن!.

فقالت خديجة بحدّة:

- أصل حاتك تصرّ دائماً على أن يكون لها رأي خالف، هذا كلّ ما هنالك!.

ولما كان الجميع على علم بما ينشب كثيراً بين خديجة وحاماتها من نزاع فقد تبادلوا النظرات ثمّ ضحكوا.

وقالت عائشة:

- أودّ أن اقترح عليكم أن تنتقلوا إلى بيتنا فتبقوا معنا حتّى يجلو الإنجليز عن شارعكم.

فقالت خديجة بحماس:

- أجل، لم لا؟. إنّ البيت كبير وستنزلون على الرحب والسعة، فيقيم بابا وبنية عند عائشة لأنّها في الدور الأوسط، وتقيمون أنتم عندي.

رغب كمال بالاقتراح فتبادل بلهجة تتمّ من التحريض:

- من يقول لبابا؟

ولكنّ فهمي قال وهو يرمّز منكبيه:

- إنكنا تعلمان حتّى العلم أنّ بابا لا يمكن أن يوافق.

فقالت خديجة بأسف:

- ولكنّه يحبّ السهر فيكون عرضة لتحرش الجنود، يا هم من مجرمين!.

ساقوه في الظلام وحلّوه التراب!... آه. رأسي يدور كلّما تصوّرت هذا.

فقالت عائشة:

- كنت أنتظر دوري لتعيل يده وأنا أنفخص جسمه جزءاً جزءاً لأطمئنّ عليه، كان قلبي يلدّ... وهينائي تغالبان الدمع... لعنة الله على الكلاب أولاد الكلاب!

فابتسم ياسين... وقال لعائشة محدّراً وهو يلحظ كمال غامراً بعينه:

- لا تسيّ الإنجليز هكذا فإنّ لهم بيتنا أصدقاء!

فقال فهمي متهمّاً:

- لعلّه ممّا يُسرّ له بابا أن يعلم أنّ الجنديّ الذي يقبض عليه ليلاً ما هو إلّا صديق من أصدقاء كمال.

فابتسمت عائشة إلى كمال متسائلة:

- ألا تزال تحبّهم بعد ما كان منهم؟

فغمغم كمال وقد تورّد وجهه حيّاه وارقباًكاً:

- لو عرفوا أنّه أبي ما تمرّضوا له بسوء!

فها تملك ياسين إلّا أن يضحك ضحكة عالية حتّى أنّه غطّى فمه بيده وهو ينظر في حذر إلى السقف كأنّما خاف أن يقرّاس صوت ضحكته إلى الدور الأعلى... ثمّ قال ساخراً:

- الأحرى بك أن تقول: إنهم لو عرفوا أنّك مصريّ ما صوّا العذاب على مصر والمصريّين، ولكنّهم لا يعرفون؟

فقالت خديجة بلهجة لاذعة:

- دع هذا الكلام لغريك أنت...! اتنكر أنّك من أصدقائهم كلّك!؟

ثمّ خاطبة كمال بلهجة لاذعة:

- أتواثيك الشجاعة بعد ما عرف عن صداقتك لهم حل أن تصلّي الجمعة في سيّدنا الحسين؟ فلفطن ياسين إلى مرمى هجومها وقال مظهرًا الأسف:

- يحقّ لك أن تتطاولي عليّ ما دمت قد تزوّجت فاكسبت بعض حقوق الأمّين...

- ألم يكن لي هذا الحقّ من قبل!؟

- الله يرحم أّام زمان...! ولكنّه الزواج بعيد إلى البائست الروح!... اسجدي شكراً للأولياء... ولتعاويد وأقراص أمّ حنفي.

فقالت خديجة وهي تغالب ضحكة:

- يحقّ لك أن تهتّم على الناس بالحقّ وبالباطل بعد أن ورثت المرحومة وصرت من عداد الملّأك.

فقالت عائشة بفرح صبيانيّ كأنّها لم تذر من الأمر شيئاً:

- أخني في عداد الملّأك!... ما أجل أن أسمع هذا!...! أنت غفّ حقّاً يا سي ياسين!؟

فقالت خديجة:

- دعيني أهدّ لك أملاكه، اسمعي يا ستيّ: دكان الحمزاوي وريع الغورية وبيت قصر الشوق...

فقال ياسين وهو يرمّز رأسه مخمّضاً عينيه:



النساء.

فهزئت رأسها كأنما تقول «أفدتني أفادك الله» ثم قالت متنبهة:

- آه من حزن الرجال! ... ولكن خبرني وحياتي عنك ألم ينفذ الدخان والريح والبيت من لوحة الحزن؟

فقال متأففاً:

- صدق من قال: إن قبح اللسان من قبح الوجه ...

- من قال هذا؟

أجابها بامسأ:

- حاتك!

فضحكت عائشة، وضحك لهفي وهو يسأل خديجة:

- ألم تتحسن العلاقات بينكما؟

فأجابته عائشة بالنابئة عنها قائلة:

- سوف يتحسن ما بين الإنجليز والمصريين قبل أن يتحسن ما بيننا ...

فقالت خديجة بحق لأول مرة:

- امرأة قوية، ربنا عليها، والله أنا بريرة ومظلومة ...

فقال ياسين متهمكاً:

- نصدقك يا أخي بلا قسم، هذا شيء نشهد به أمام الله في يوم العذاب!

فعاد لهفي يسأل عائشة:

- وأنت كيف حالك معها؟

فقالت عائشة وهي تلحظ خديجة بإشفاق:

- على ما يرام ...

فهتفت خديجة:

- آه من أختك عائشة ... تعرف كيف تسوس وتطاطى الرأس ... اتفحص ...

فقال ياسين متصمماً الجذ:

- على أي حال فلحسبك الرحمة ولك صادق التهنئة!

فقالت بسخرية:

- ومن شر حاسد إذا حسد ...

فتابعت خديجة حديثها دون مبالاة بمقاطعتها:

- وما خفي من الحلي والتقود المحببة أعظم ...

فهتف ياسين في أسف صادق:

- اخضت كلها وحياتك، سرت، سرقها ابن

الكلب، جعلت أبي يسأله عما إذا كانت تركت حلياً أو

نقوداً فقال اللص «ابحثوا بأنفسكم، علم الله آتي كنت

أنفق عليها في أثناء مرضها من جيبى الخاص ...

اسمعوا يا هوه ... جيبه الخاص ابن الغسالة! ...

فقالت عائشة بتأثر:

- يا ولدا! ... مريضة طريحة الفراش تحت رحمة

رجل طامع في مالها! ... لا صديق ولا حبيب،

غادرت الدنيا من دون أن يحزن عليها أحد.

فتساءل ياسين:

- من دون أن يحزن عليها أحد؟

فاشارت خديجة من خلال باب موارب إلى ملابس

ياسين المعلقة بالشجب وقالت محتجة احتجاجاً

ساعراً:

- وهذا البايون الأسود! ... أليس آية على

الحزن؟

فقال ياسين جامداً:

- لقد حزنت عليها حقاً، ربنا يرحمها ويغفر لها، ألم

نكن تصافينا في آخر لقاء؟ الله يرحمها ويغفر لها

ولنا ...

فخففت خديجة رأسها قليلاً رافعة حاجبيها ثم

نظرت إليه من أعلى كمن ينظر من فوق نظارته وهي

تقول:

- إحم ... إحم ... اسمعوا سيدنا الواعظ (ثم

وهي ترميه بنظرة شك) ولكن لم يبد عليك فيما أظن

حزن شديد؟

فرماها بنظرة منيظة قائلاً:

- ما قصرت في واجبي نحوها والحمد لله، أقممت

لها مأثماً استمر ثلاث ليالٍ، وكل جمعة أزور القرافة

عملاً بالرياحين والفواكه ... أم تريدني ألطم وأعول

وأحس التراب على رأسي! إن للرجال حزناً غير حزن

- التهمة الحققة لك أنت قريباً إن شاء الله حين تزف  
إلى عروسك الثانية!... أليس كذلك؟

في تلك إلا أن ضحك ثم قال:

- ربنا يسمع منك...

فتساءلت عائشة باهتمام:

- حقاً؟...

لفكر قليلاً... ثم قال في شيء من الجذ:

- المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، ولكن من يعلم

بما يأتي به الغد؟ ربما ثانية وثالثة ورابعة...

فهضت خديجة:

- هذا ما أتوقعه. الله يرحم جدك!

فضحكوا جميعاً حتى كمال، ثم عادت عائشة تقول

بصوت أسيف:

- مسكينة زينب!... كانت فتاة لطيفة وطيبة...

- كانت... وكانت حمقاء أيضاً، أبوها - مثل

أبي - لا يطلق، لورضيت بمحاشرتي كما أحب ما فرطت

فيها أبداً...

- لا تعترف بهذا، حافظ على كرامتك، لا تشمت

بك خديجة...

قال باستهانة:

- نالت الجزاء الذي تستحقه، فلينقمها أبوها

ويشرب مامها.

فغمغت عائشة:

- ولكنك حبل يا ولده!... أغرضي لوليدك بأن

ينمو بعيداً عن رعايتك حتى تستردّه غلاماً!؟...

آه، أصابت مقتل، ينمو في حضنة أمه كما نما أبوه

من قبل، ربما كابد تعاسة كعاسه أو أشد... ربما تمت

معه كراهية لأمه أو لأبيه، تعاسة على أي حال. قال

عابساً:

- ليكن حظه كحظ أبيه، ما باليد حيلة!

وساد الصمت قليلاً حتى سأل كمال خديجة:

- وأنت يا أبله متى يخرج الطفل...؟

فأجابته ضاحكة وهي تتحسّر بطنها:

- إنه لا يزال في سنة أولى.

فعاد يقول لها ببراعة وهو يتغرس في وجهها:

- نحفت جذاً يا أبله وصار وجهك قبيحاً...!

ضحكوا جميعاً وهم يشكون أفواههم بأيديهم،

ضحكوا حتى شعر كمال بالحياء والارتباك، أمّا خديجة

التي لم يكن الاستياء من كمال ممّا تستطيعه فقد مالت

إلى أن تجاري التّيار فقالت ضاحكة:

- اعترف لكم بأنّي خسرت في أيام الوحم كلّ

اللحم الذي تميت أمّ حنفي أحواماً في جمعه ولسمّه،

نحفت ويسرّز أنفي وغارت عيناي ونحيل إليّ أنّ

والرجل، يقلّب عينيه مفتشاً عبقاً عن العروس التي

زفوها إليّ؟...

ثمّ ضحكوا ثانية حين قال ياسين:

- الحقّ أنّ زوجك مظلوم لأنّه على غباوته البادية

وسيم المطلعة فسبحان من جمع الشاميّ عسل

للمغربيّ...

تجاهلته خديجة وخاطبت فهمي قائلة وهي تومئ إلى

عائشة:

- كلاهما - زوجي وزوجها - في الغباء سواء! لا

يكادان يرحان البيت ليل نهار، لا هم ولا عمل، أمّا

زوجها فوقعه كلّ ضائع بين التّبخين وعزف المود كأنّه

شحاذ من الشّحافين الذين يمزّون على البيوت في

الأعياد، وأمّا زوجي فلا تراه إلاّ مستلقياً يندخّن ويثرثر

حتى يدوّخ معاشي...

فقالت عائشة كالمتلعة:

- الأعيان لا يعملون!

فقالت خديجة هازئة:

- العفوا... يحقّ لك أن تدافعي عن هذه الحياة،

الحقّ أنّ الله لم يجمع بين متشابهين كما جمع بينكها،

كلاكما في الكسل والدعة والخمول شخص واحد،

والنبيّ يا سيّ فهمي عمّ اليوم كلّ وهو يدخّن ويعزف

وهي تزوّق نفسها وتلهب ونجيء أمام المرأة...

تسأل ياسين:

- لم لا ما دامت ترى منظرًا حسناً. ١٩...

وقيل أن تفتح خديجة فاما سالها مستعجلاً:

- عتبرني يا اختاه ماذا تصنعين لو جاء وليدك شبيهاً

بك؟

كانت شبت من مهاجته فلجأته جلة:

- سيجيء يذنب الله شيئاً بابيه أو جدته أو خالته، أمّا... (ثم ضاحكة) أمّا إذا لم يذنب إلا أن يجيء شيئاً بأمه فالتني يكون أحسن به من سعد باشا! ولكن كيال قال بلهجة خير علم:

- الإنجليزي لا يهتمهم الجمال يا أبلأ، لآتهم يعجبون كثيراً براسي وأنفي...

فهربت خديجة صدرها بيدها هاتفة:

- يدعون صدائتك وهم يحشون بك!... رأنا يسلط عليهم زبلن من جديد.

ورمت عائشة فهمي بنظرة رقيقة وهي تقول:

- كم يسر دهاؤك بعض الناس...

فابتسم فهمي مغتملاً:

- كيف أسرّ ولهم في بيتنا أصدقاء مغفلون؟

- يا خسارة تربيتك له...

- من الناس من لا تنفع فيه التربية.

فتساءل كيال عتجاً:

- ألم أنزع جوليون أن يعيد سعد باشا؟

فقال خديجة ضاحكة:

- في المرة القادمة حلّفه برأسك الذي يحبب به.

شعر فهمي أكثر من مرة بأن من حوله يسمون كيلاً

بدت فرصة إلى استدراجه إلى الحديث والتسلية، بيد

أن ذلك لم يجد شيئاً في التخفيف من الإحساس

بالغربة الذي غشيه طوال الوقت، هو إحساس كثيراً ما

يفصله عن آله وهو بينهم فيشعر بالغربة أو الوحدة

رغم زحمة المجلس، ينفرد بقلبه وحزنه وحاسه بين

أناس لا هين ضاحكين، حتى نفي سعد يتخللون منه

دعابة إذا لزم الأمر... إختلس منهم النظرات تباحاً

فوجدتهم راضين، عائشة... هاتفة وإن تكن تعبت

قليلاً بسبب الحمل ولكنها سعيدة بكل شيء حتى

بتعبها، خديجة... متروبة ضاحكة، ياسين... صحة

وعافية وغبطة، من من هؤلاء يكثر من حوادث هذه

الأيام! من منهم يشه بقي سعد أم نفي، جلا

الإنجليز أم مكشوا! إنه غريب، أو غريب على الأقل

بين هؤلاء. ومع أن هذا الإحساس كان يلقي منه عادة

نفساً مسباحة فإنه لم يلق هذه المرة إلا حقاً وامتناعاً،

وَمَا كان ذلك لما عاناه في الأيام الأخيرة. كثيراً ما توقع

أن يسمع عن زواج مريم، كان ذلك همه وكرهه بيد

أنه سلم به سلفاً تسليم اليأس، وكاد يألّفه بكون

الأيام، إلا أن حبه نفسه تراجع عن بؤرة شعوره الذي

شغلته الشواغل الكبرى، حتى وقعت واقعة جوليون

فزول زلزالاً. تفازل إنجليزياً لا مطمع لها في الزواج

منه فأي معنى تنضمته هذه المغازلة؟ هل تصدر إلا عن

متعتة؟ مريم متعتة؟ وفيهم كانت أحلامه الماضية؟

ولم يكن يخلو بكامل حتى يدعو إلى إعادة القصة من

جديد عتجاً عليه أن يصف التفاصيل بدقة، كيف

لاحظ ما يدور، وأين كان موقف الجندي، وأين كان

موقفه هو، وهل هو متأكد من أن مريم نفسها التي

كانت في الكوة؟ وأنها كانت تنتظر حقاً إلى الجندي؟

وهل رآها تبسم إليه، وهل وهل وهل، ثم يسأله وهو

يعض حل أسنانه كأنها يبرس الشفاء الذي يحلّبه:

وهل تراجعت في خوف حين وقعت حينها عليك؟ ثم

بشي متعجلاً المواقف والمناظر، موقفاً موقفاً، ومنظراً

منظراً، ويتخلل الابتسامة طويلاً حتى كأنه يرى

الشفين المتفرتين كما رآهما يوم زفاف عائشة وصاحبتهما

تبع العروس في فناء بيت آل شوكت.

- يبدو أن نية لن نجالسنا اليوم.

قالت عائشة بصوت يدل على الأسف.

فقال خديجة:

- الزوار يملأون البيت.

ياسين ضاحكاً:

- أشف أن يشبه الجنود في كثرة القادمين فيغثوا أن

اجتماعاً سياسياً ينمق في بيتنا.

خديجة في مبالهة:

- إن أصدقاء بابا يجيبون عين الشمس...

فقال عائشة:

- رأيت السيد محمد عتت نفسه على رأس

القامين.

فأمنت خديجة على قولها قائلة:

- كان صديقاً حياً لبابا من قبل أن نرى نود

الدنيا.

فعاد فهمي يقول متظاهراً بالاستهانة:

- هذه مسألة قديمة عفاها النسيان، إنجليزي...

مصري... سيان، دعونا من هذا كله...

وجد ياسين نفسه تملأه التذكير في ومسالمة

مريم... مريم!... لم يكن ينظر إليها فيما مضى -

إن مرّت في مجال بصره - إلا عابراً، ثم زاده زهداً فيها

تعلق فهمي بها، حتى ذاعت فضيحتها في الأسرة...

هناك ثار اهتمامه، تساءل طويلاً أي فتاة هي؟ ودّ لو

ملا عينيه منها، تخفى لو كان سير الفتاة التي استرعت

تشوّق «إنجليزي»... إنجليزي جاء الحيّ مقاتلاً لا

مغازلاً، لم يبد سخطه عليها إلا مجارة للحديث كلها

تناولها أمّا في الباطن فقد اطربه غاية الطرب وجرد

ومفضوحة، جريئة مثلاً على كتب من فلا يفصله عنها

إلا جدار، شاع في صدره العريض المكتنز ذاك الطرب

البيهي الذي يدعوه إلى الصيد وإن وقف - احتراً

لحزن فهمي الذي يبيته - عند حدّ الشعور واللذة

السلبية المجردة، لم يعد في الحيّ من يستثير اهتمامه

كمريم.

- أن أوان اللعاب.

قالت خديجة ذلك وهي تنهض صلي حين ترامى

إليهم صوت إبراهيم وغيليل وهما يتحدثان قادمين من

الردحة الخارجية. قام الجميع، من يمشي ومن يمشك

ملاسه، إلا كمال فقد لزم مجلسه وهو يتطلّع إلى باب

الصالة بحزن وقلب خائف...

٦٧

جلس السيّد أحمد إلى مكتبه، مكباً على دفتاره،

يزاول عمله اليومي الذي يتناسى به - ولو إلى حين -

همومه الشخصية والمهموم العامة التي تتطاول بها الأنبياء

الدائمة. غدا يجب الدكان حبه مجالس الانس والطرب

لأنه على الخالين يظهر بما ينزعه من جحيم الفكر، إلا

أن جرّ الدكان حافل بالمساومة والبيع والشراء والربح

وغير ذلك من شؤون الحياة العادية، حياة كلّ يوم، فلا

تخلو من أن تبعث في نفسه شيئاً من الثقة المرحية

يلمسان حودة كلّ شيء إلى أصله، إلى حالته الأولى من

فقال ياسين وهو يترّ رأسه:

- اتهمني بابا ظليماً بأنني قطعت ما بيننا.

- ألا يفرّق الطلاق بين أمزّ الأصدفاه؟

ياسين باستاء:

- إلا أصدقاء أهلك!

عائشة بفخار:

- من ذا تطاوعه نفسه على خاصمة بابا؟ والله ما في

الدنيا كلها نظير له...

ثم وهي تتنهد:

- كلما تصوّرت ما وقع له أمس شاب شعر

رأسه...

أخيراً ضاقت خديجة بهجوم فهمي فعزمت على أن

تعالجه بطريقة مباشرة بعد أن أخفقت - فيها رأت -

الطرق غير المباشرة، فالتفتت إليه متسائلة:

- أرايت يا أخي كيف أن رأينا أكرمك يوم لم يأن

بتحقيق رغبتك نحر... مريم!

نظر فهمي إليها بين الدعشة والحياء، سرعان ما

تركزت فيه الأبصار حتى كمال تطلّع إليه باهتمام، وساد

صمت نهم عمقه عن شعور مكبوت طال في الصدر

لجماله أو إخفاؤه حتى أصبحت عنه خديجة بجرأة

فتطلّعوا إلى الشاب في صمت المتنظر للجواب كأنما هو

نفسه الذي طرح السؤال، غير أن ياسين رأى أن ينهي

الصمت قبل أن يستفحل فيبحث صلي الألم فقال

متظاهراً بالسرور:

- أصل أخيك وليّ والله يحبّ أوليائه...

وكان فهمي يكابد حرجاً وحياء فقال باقتضاب:

- هذه مسألة قديمة عفاها النسيان...

فقالت عائشة بلهجة المعتذر:

- لم يكن سي فهمي وحده الذي خدع بها، كلنا

خدعنا بها...

فقالت خديجة مدافعة عن نفسها - بأقصى ما في

وسعها - تمة الغفلة:

- على أيّ حال أنا لم أقتنع لحظة واحدة فيما مضى،

حتى مع اعتقادي ببراءتها، بأنّها جديرة به...

بين الورد والامام كأنه راكب جلاً، قال السيد فوق مكتبه ومدّ يده حتى التقت بيد الرجل وشدّ عليها متمتاً «الكريسي على يمينك، تفضل بالجلوس» فاستد الشيخ متولّي عصاه إلى المكتب وجلس على الكريسي ثم اعتمد ببليده على ركبتيه وهو يقول:

- الله يحفظك ويعصونك...

فقال السيد من قلبه:

- ما أطيب دعائك وما أحوجني إليه!

ثم ملتفتاً صوب جبل الحمزاوي الذي كان يزن أرضاً لزبون:

- لا تشن أن تهني لغة سيدنا الشيخ...

فجاء صوت جبل الحمزاوي قائلاً:

- من ذا الذي ينسب سيدنا الشيخ!

فبسط الشيخ راحتيه ورفع رأسه وهو يهزّ شفتيه بالدعاء في هينة لم يسمع منها إلا وصورة متقلّعة، ثم عاد إلى وضعه الأوّل فصمت لحظة ثم قال بلهجة الافتتاح:

- أبدأ بالصلاة على نور الهدى.

فقال السيد بحرارة:

- عليه أزكى الصلاة والسلام...

- وأئني بالترحم على أبيك طيب الذكر.

- رحمه الله رحمة واسعة.

- ثم أسأل الله أن يقرّ عينيك بأسرتك وذريتك وذريّة ذريّتك وذريّة ذريّتك.

- آمين.

متنبّها:

- وأدعوه أن يمد إلينا أفتلينا عباس ومحمد فريد

وسعد زغلول...

- اللهم استجب.

- وأن يحضر بيت الإنجليز بما أتموا وما

يألّمون...

- سبحان المتقم الجبار.

عند ذلك تنحى الشيخ ومسح على وجهه بكفه ثم

قال:

- أما بعد فقد رأيّتك في منامي تلوح يديك فما

الاستقرار والسلام. السلام؟ أين ذهب ومضى يأخذ بالعودة؟... حتى في هذا الدكان تجرّي أحاديث الدماء همساً مفاجئاً، لم يعد الزبائن يقتنعون بالمساومة والشراء فما تالو ألسنتهم أن ترقّد الأنباء وتندب الأحداث، فوق زكّاب الأرض والبزّ سمع من معركة بولاق ومدابيح أسيوط والجنازات التي تشيع فيها النعوش بالعمرات والشباب الذي انتزع من العلو مدفعاً رشاشاً أراد أن يدخل به الأزهر لولا أن سبته المنيّة فانغرس في جسمه عشرات المقلوفات، هلهه الأنباء وغيرها مما يصطبغ بلونها القاني تفرق أذنيه بين حين وآخر في المكان الذي يلوذ به ناشداً النسيان. ما أنعس الحياة في ظلّ الموت، هلاً عجّلت الثورة بتحقيق غايتها من قبل أن يمتدّ أذاها إليه أو إلى أحد من ذويها...! إنّه لا يبخل بمال ولا يهزّ بعاطفة أمّا بللى الحياة فامر آخر، أيّ عذاب صبه الله على العباد فهانت النفوس وجرت الدماء لم تعد الثورة «فرجة» حماسية، إنّها تهدّد أمنه في الذهاب والإياب، وتتوقّد ابنه «العاصي». فترحاسه لها، هي دون غايتها، يحلم بالاستقلال ويعودة سمد ولكن دون ثورة أو دماء، أو زعر، يهتف مع المصانفين ويحمّس مع المتحمسين ولكن عقله يقاوم التيار متعلّقاً بالحياة فكمت وحده في المجرى كاصل شجرة اقتلعت العواصف أهصانها، لن يوهن شيء وإن جلّ من حبّه للحياة، فلتبّق له إلى آخر العمر، وليؤمّن فهمي إيمانه لتبقى له حياته إلى آخر العمر كذلك، فهمي الحاقّ الذي رمى بنفسه إلى التيار بلا حزام نجاة...

- هل السيد أحمد موجود؟

سمع السيد صوت السائل وهو يشمر بالاندفاع شخص داخل الدكان كأنه مقلوف أحمى ورفع رأسه من مكتبه فرأى الشيخ متولّي عبد الصمد يتوسّط المكان رامساً بعينه الملتبّتين مدقّقاً النظر - عبثاً - صوب المكتب فهشّ قلبه وابتسمت أساريره ثم هف بالقادم:

- تفضل يا شيخ متولّي، حلّت البركة...

فلاح الاطمتنان في وجه الشيخ وتقدّم بهزّ أعلاه ما

فتحت عيني حتى صبح عزمي على زيارتك.

فابتسم السيد ابتسامة لا تخلو من حزن وقال:

- لا أعجب لئلك فإني في موس الحاجة إلى بركتك، زائدك الله بركة على بركة..

فقال وجه الشيخ نحو السيد في عطف وتساءل:

- أحتق ما بلغني عن حادث بوابة الفتوح؟

فأجاب السيد مبتسماً:

- نعم... من أبلغك يا ترى؟

- كنت ماراً بمعصرة حميدو غنيم فاستوقفني وقال لي

والم يبلغك ما فعل الإنجليز بحبييك السيد أحمد وي؟

فاستوضحته منزجاً فقص عليّ العجب العجيب...

قص عليه السيد الحوادث بتفاصيله، لم يكن يمل

ترديده، ولعله قصه في الأيام القلائل الأخيرة عشرات

المرات.

وأصغى الشيخ وهو يتلو همساً آية الكرسي: أفزعت

يا بني؟ كيف كان فزعك... خبيني... لا حول

ولا قوة إلا بالله... ولكن هل قتست بالسلامة؟...

أنسيت أن الفزع لا يمضي إلى حال سبيله؟... صليت

طويلاً وسألت الله النجاة! هذا جميل ولكن يلزمك

حجاب..

- كيف لا... يزيدينا بركة يا شيخ متولي...

والأولاد وأئهم، ألم يدركهم الفزع؟

- طبناً... قلوب ضميقة لا عهد لها بالقسوة

والإرهاب، الحجاب... الحجاب... وفيه

الشفاء...

- أنت الخير والبركة يا شيخ متولي... فقد نجاني الله

من شر كبير، ولكن ثمة شر لا يزال يتهدني ويقض

مضجعي.

قال وجه الشيخ نحو السيد في عطف مرة أخرى

وتساءل:

- ماذا بك يا بني عفا الله عنك؟

فرنا السيد إليه بطرف واجم وغمغم في ضجر:

- ابني فهمي...

فرفع الشيخ حاجبيه الأشبيين متسائلاً أو منزجاً ثم

قال برجاء:

- محفوظ بإذن الرحمن...

فهز السيد رأسه بأشئ وقال:

- عفتي لأول مرة والأمره...

فبسط الشيخ متولي ذراعيه أمامه كأنها يتقي بها

البلاء وهتف:

- معاذ الله، فهمي ابني، وأنا أعلم علم اليقين أنه

طبع على الرّ.

فقال السيد أحمد متسكطاً:

- باني حضرته إلا أن يفعل كما يفعل الشبان في هذه

الأيام الدامية...

فقال الشيخ في دهش واستنكار:

- أنت أب حازم ما في ذلك شك، ما كنت أتصور

أن ابناً من أبناك يجرؤ على أن يرد لك أمراً...

حز هذا القول في قلبه حتى أدهاه وضاق به صدره،

ثم وجد من نفسه نزوعاً إلى التهورين من عصيان ابنه

ليدفع عن شخصه تهمة الضعف أمام الشيخ وأمام

نفسه معاً فقال:

- لم يجرؤ على هذا صراحة طبناً ولكني دعوته إلى

أن يملف على المصحف بالآ يشترك في أي عمل من

أعمال الثورة فبكي، بكى من دون أن يجسر على قول

لا، ما عسى أن أصنع؟ لا أستطيع أن أحبه في البيت

ولا يسمعي أن أراقبه في المدرسة، وأخاف أن يكون تيار

هذه الأيام أقوى من أن يقاومه شاب مثله، ماذا

أصنع؟... أهله بالضرب؟... أضربه؟... لكن

ما عسى أن يجدي التهديد مع شخص لا يبالي بتمريض

نفسه للموت!

فمسح الشيخ على وجهه وتساءل بقلق:

- وهل ألقى بنفسه في المظاهرات؟

فقال السيد وهو يرمز منكبيه العريضين:

- كلاً ولكنّه يوزع المنشورات، لئلا فيقت عليه

زعم أنه يكفي بالتوزيع على خاصة أصدقائه.

- ما له ولله الأفعال... إنه الوديع ابن الوديع

ولله الأفعال رجال من صنف آخر، ألم يعرف أن

الإنجليز وحوش لا تتطرق الرحمة إلى قلوبهم

الغليظة؟... وإئهم يتفلون صباح مساء بدماء

صغارها، بالأمس قال ابني فؤاد لأمه إنه ودّ لو يشترك في مظاهرة!

فقال السيّد بقلق:

- يعملها الصغار ويقع فيها الكبار!... ابنك فؤاد صديق ابني كمال وكلاهما في ملوسة واحدة، ألا تحذّره نفسه... ألا تحذّرها نفسها مرّة بأن يسيرا في مظاهرة!... هه!... ما من عجيبة تعدّ الآن عجيبة!..

فقال الحمزاوي وقد ندم على ما فرط منه:

- ليس إلى هذا الحد يا سي السيّد، على أنّي أثبتة بلا رحمة على ثمنياته الساذجة، إنّ سي كمال لا يخرج إلا مصحوبًا بأمّ حنفي حفظه الله ورحمه...

ساد الصمت فلم يحد يسمع في الدكان إلا خشخشة الورقة التي يلفّ فيها الحمزاوي هدية الشيخ متولّي عبد الصمد، ثمّ تنهّد الشيخ وقال:

- فهمي ولد عاقل، لا ينبغي أن يجنّ الإنجليز من نفسه العزيزة، الإنجليز... حسبي الله... ألم تسمع بما فعلوا في العزيزة والبدرشين؟...

كان السيّد حلّ حال من القلق لم يجد معها رغبة صادقة في التنازل، إلا أنّه لم يتوقّع جليدًا فوق ما يقرع سمعه هذه الأيام، فاكثى بأن يرفع حاجبيه متظاهرًا بالاهتمام فأنشأ الشيخ يقول:

- كنت أوّل أمس في زيارة الحبيب النسيب شدّاد بك عبد الحميد بسرائه العامرة بالمباسة، دهاني إلى الغداء والعشاء فالتفتني بأحجبه له ولال بيته، وهناك حدّثني بحديث العزيزة والبدرشين... سكت الشيخ قليلاً فتساءل السيّد أحمد:

- تاجر الاقطان المعروف؟

- شدّاد بك عبد الحميد أكبر تاجر قطن، لعلك عرفت ابنة عبد الحميد بك شدّاد فقد كان يومًا على صلة وثيقة بالسيّد عمّد عفت؟...

فقال السيّد ببطء ليحي نفسه في التذكير:

- أذكر أنّي رأيته مرّة في مجلس السيّد عمّد عفت قبل نشوب الحرب، ثمّ سمعت عن إبعاده عن القطر عقب عزل أفندينا، أمّا من جديد عنه...؟

المصريّين المساكين؟... كلّهم بالحسنى، حفظه، بيّن له النور من الظلام، قل له إنّك أبوه وإنّك تحبّه وتحفّظ عليه، أمّا أنا فسأعمل من ناحيتي على إهداد حجاب من نوع خاصّ وأدعو له في صلاتي وخاصّة صلاة الفجر، والله المستعان من قبل ومن بعد...

قال السيّد بحزن:

- إنّ أبناء القتل تتواتر كلّ ساعة معلنة أي التحليل لمن يعتبر فما الذي أصاب عقله؟ لقد ضاع ابن القولي اللبّان في غمضة حين فشده مائه معي وعزّي والده المسكين، كان الشاب يورّع سلاطين اللين الزبدي فصادف في طريقه مظاهرة فأغراه الفضا بالاشتراك فيها بلا وعي، وما هي إلا ساعة أو نحوها حتّى خرّ صريعًا في ساحة الأزهر، لا حول ولا قوّة إلا بالله... إنّ الله ورثا إليه راجعون، لمّا تأخّر عن موعد عودته فلقى أبوه فمضى إلى زبائنه يسأل عنه، قال له بعضهم إنّهم جاءهم بالزبدي وذهب وقال آخرون إنّهم لم يمسّ عليهم كعادته، حتّى بلغ حروقًا باع الكتافة فوجد عنده الصنيّة وما تبقى من السلاطين التي لم تورّع وأخبره الرجل بأنّه تركها عنده واشترك في مظاهرة المساء، فجئ جنون المسكين وقصد من توء قسم الجمالّة فوجّهوه إلى قصر العيني وهناك عثر على ابنه في المشرحة، لقد علم بالقصّة بعد ما فيها كما قصّها علينا القولي ونحن في بيته نعرّيه، علم كيف فقد الشاب وكان لم يوجد وأمس حزن أبيه المبرح وسمع صوات أهله، هلك المسكين فلم يحد سعد ولم يخرج الإنجليز، لو كان حجرًا لمقل ولكتّه غير أبائي فلله الحمد والشكر...

فقال الشيخ متولّي بصوت أسيف:

- أعرف ذلك الشاب المسكين، إنّ أكبر أبناء القولي ليس كذلك؟... كان جدّه مكاريًا وكنت أكرتي حماره للذهاب إلى سيّني أبي السعود، إنّ للقولي أربعة أولاد ولكن الفقيد كان أحبهم إلى قلبه.

هنا اشترك جميل الحمزاوي لأوّل مرّة في الحديث قائلاً:

- أيّامنا هذه مجنونة وقد تلفت عقول الناس حتّى

يُظلم... أين رحمة الله؟... أين انتقامه؟...  
الطوفان... نوح... مصطفى كامل. تصور...  
كيف يمكن أن تبقى معه بعد ذلك تحت سقف واحد؟  
أي ذنب جنت... وهو بأي وجه؟...  
ضرب الشيخ بيده ثلاثاً على ركبتيه ثم عاد إلى

الحديث وقد تهذج صوته فصار بالنواح أشبه، قال:  
- وأضرمو النار في البلدتين مستعينين بما على  
أسقف الدور من حطب وقش وقش وما صبروا عليها من  
بترول، استيقظت القرى في فزع رهيب وفر أهلها  
عن بيوتهم كالجانين، وعلا الصراخ والأنين، وامتدت  
السنة للهيب في كل مكان حتى استحالت البلدتان  
شعلة من النيران...

هتف السيد بلا وهي:

- يا رب السماوات والأرض!

فمضى الشيخ قائلاً:

- وضرب الجنود نطقاً حول البلدتين المشتعلتين من  
بعيد يترصون بالأهالي البؤساء الذين انطلقوا هائمين  
على وجوههم تبعهم الأغنام والكلاب والقطط ويومون  
سبيلاً للنجاة من النار، لما إن بلغوا مواقف الجنود حتى  
انهال هؤلاء على الذكور ضرباً وركلاً، ثم حجزوا  
النساء ليسيروا حليهن ويتكوا أعراضهن، فإذا قاومت  
إحداهن قتلت، وإذا نلت من زوج أو أب أو أخ  
حركة دفاع رمي بالرصاص...

ثم التفت الشيخ متولياً إلى السيد الداهل وضرب  
كفّاً على كتف وهو يعف:

- وساقوا بقية الضحايا إلى معسكر قريب وهناك  
أجبروهم على التوقيع على مكتوب يتضمن اعترافيهم  
بجرائم لم يرتكبوها وإقراراً بأن ما أنزله الإنجليز بهم  
جزاء حتى على ما فعلوا، فهذا ما حصل يا سيد أحمد  
للعزيزية والبدريين، هذا مثل من أمثلة التنكيل التي  
نساءها بلا رحمة ولا شفقة، اللهم فاشهد...

وساد صمت كتيب الهم خلا فيه كل إلى أنكاره  
وتجليلاته حتى قطعه جيل الحمزاوي وهو يعف متأثراً:

- ربنا موجود...

فهتف السيد مؤثراً على قوله:

فقال الشيخ متولياً بلهجة سريعة عابرة كأنما يضع  
كلامه بين قوسين ليعود إلى حديثه الأول:

- لا يزال مبعداً عن البلاد، وهو يقيم في بلاد  
فرنسا ومعه زوجته وأولاده، أشد ما يخاف شدة بك أن  
يموت قبل أن يرى ابنه في هذه الدنيا...

وسكت مرة أخرى، ثم مضى يترأسه هيئة وسرة  
ويقول بصوت متفوم كأنما ينشد مطلع توشيح نبوي:

- بعد انتصاف الليل بساعتين أو ثلاث والناس نيام  
حاصر البلدتين بضغ مئات من الجنود البريطانيين  
مدججين بالسلاح...

انتبه السيد انتباهة قاسية... حاصروا البلدتين  
والناس نيام؟... أليس أولئك المحاصرون من جنس  
هؤلاء الذين يمسكون أمام البيت؟... يدموا  
بالاعتداء على فائي خطوة تالية يضررون؟...

ضرب الشيخ على ركبتيه كأنما إنشاده يتنوع من  
الإفراج ثم استطرد قائلاً:

- واقتحموا على العمدتين دارهما فلزروهما بتسليم  
السلاح ثم مرقوا إلى الحرم فهبوا الحلى وأهانوا النساء  
وجزوهن من شعورهن إلى الخارج وهن يولرن  
ويستغثن وما من منقذ، عطفك اللهم على  
المستضعفين من عبادك...

دار العمدتين!... العمدية شخصية حكومية أليس  
كذلك؟... لست عمدية ولا داري بدار عمدية، ما  
أنا إلا رجل كسائر الناس، ما صبي أن يضمنوا  
بأماننا... تصور أمانة مجرورة من شعورها، أيقظي  
عليّ بأن أغنى الجنون!... الجنون؟...

واصل الشيخ حديثه وهو يترأسه قائلاً:

- وأجبروا العمدتين على أن يذلواهما على بيرت  
مشايخ البلدتين وأهاليها ثم اقتحموا البيوت عظمين  
الأبواب، هبوا كل ثمين، اعتدوا على النساء اعتداء  
إجرامياً بعد أن قتلوا اللاتي حاولن الدفاع عن  
أنفسهن، وضربوا الرجال ضرباً مبرحاً، ثم غادروها  
بعد أن لم يبقوا فيها على ثمين لم يسلب أو عرض لم  
يظلم...

ليذهب كل ثمين إلى الجحيم... «أو عرض لم



بنفسها. ها هي عائشة تتأهب لاستقبال أول مولود تستهل به أمومتها، كما استهلّت هي أمومتها بخديجة، هكذا تحتل الحياة التي ابتضت منها إلى غير نهاية، ومضت إلى الأب فزقت إليه البشرى بنبرات رقيقة مهذبة، مبالغة هذه المرة في حباها وبهليها أن يستثف وراء صوبتها رغبته الحارة في الانطلاق إلى ابتها غير أن السيد تلقى الخبر في هدوء ثم أمرها بالذهاب دون إبطاء... راحت ترتدي ملابسها على عجل وقد شعرت بأن المزاج التي تكسيها امرأة ضعيفة مثلها بإتجاب الأطفال خليفة بصنع المعجزات أحياناً، وعلم الأخوة بالخبر عند استيقاظهم عقب ذهاب الأم بغلبل. علت وجوههم ابتسامة وتبادلو نظرة متسائلة. عائشة أمّا اليس ذلك غريباً؟ ما وجه الغرابة فيه. كانت نية أصغر منها يوم ولدت خديجة. هل ذهبت نية لتخرج الطفل يديها؟ ابتسامتان. هذا نادر لي، عسا قليل تلد بنت الكلب أيضاً... من تعني؟ زينب. آه لو سمعتك بابا. عائشة أم، وأنا أب، وأنا خال وحّم، ستكون أنت أيضاً خال وحّم يا سي كمال، يجب أن تخلف اليوم عن المدرسة لأنّك إلى أبلا عائشة. جميل جداً، استأذن بابا إن استطعت حل المائدة... أووه. نحن في حاجة إلى مزيد من المواليد لنسدّ العجز الذي أوقعه الإنجليز بنا... لو تخلفت عن المدرسة ما حدث شيء غير عاديّ، ثلاثة أرباع التلاميذ مشربون أكثر من شهر، قل هذا لبابا وسيقتنع حتّى بحبّك فيضربك ببطيخ الفول في وجهك. أووه. مولود جديد، بعد ساعة أو ساعتين يصير بابا جداً ونية جدّة ونحن أنحوالاً. شيء خطير، كم مولوداً يا ترى يصرى نود السدينا في هله اللحظة؟... وكم إنساناً يغيب عنه هذا النور في هله اللحظة؟... يجب أن نبلي جثتي. استطيع أن أذهب إلى الحرنفش للإبلاها إذا تخلفت عن المدرسة قلنا لك لا شأن لنا بمدرستك، قل لبابا وسيرحب بفكرتك. أووه. لعلّ عائشة تتأمّل الآن. مسكينة المحبوبة، إنّ الطلق لا يلين للشعر الذهبي والأعين الزرق وينا يقرّمها بالسلامة، عند ذلك نشرب المغات

- نعم! (ومشيئاً إلى الجهات الأربع) في كلّ مكان... .

وخاطب الشيخ متولّي السيد قائلاً:

- قل لفيهم إنّ الشيخ متولّي ينصحه بالابتعاد عن موارد التهلكة، قل له سلّم إلى الله ربك فهو القادر وحده على إهلاك الإنجليز كما أهلك من قبلهم يمين شقوا عصا طاعته... .

ثم مال الشيخ نحو عصاه ليتناولها فأشار السيد إلى جميل الحمزاوي فجاءه بالهدية ووضعها في يده ثم ساعده على النهوض. صافح الشيخ الرجلين ومضى وهو يقول:

- وعلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد عليهم سيفلون... صدق الله العظيم...

## ٦٨

عند الغلس، ونور الصباح يولد روهداً من ظلمة الفجر، طرقت خادم من السكّرية بيت السيد فالتصرت أمينة بأنّ عائشة قد جاءها المخاض. كانت أمينة في حجرة القرن فعمدت بالعمل إلى أم حنفي وهرعت إلى باب السلم. بدا حل أم حنفي الاستياء ربّما لأول مرة في تاريخ خدمتها الطويل. بهذا البيت، أما كان يجرى لها أن تشهد ولادة عائشة؟ لها كلّ الحق... . كأمينة سواء بسواء، فتحت عائشة عينيها في حجرها، كلّ ابن في هذا البيت له أمّان: أمينة وأمّ حنفي، كيف يحال بينهما وبين ابتها في هله الساعة الرهيبة!... هل تذكرين ولادتك؟... وريح الطببكية، كان المعلم في الخارج كعادته وكانت وحيدة بعد منتصف الليل، وجلت في أم حسّنة صديقة وقابلة مصاد... ترى أين أمّ حسّنة الآن؟... ألا زالت على قيد الحياة؟ ثمّ جاء حنفي بعد تأوهات الأم، ذهب بين تأوهات الأم أيضاً، وهو في المهدي، لو عاش لكان ابن عشرين. الآن... . سيدي الصغيرة تتأمّل وأنا هنا أهنيّ الطعام. امتلا قلب أمينة بفرح موصول بإشفاق، هو الإحساس الذي خفق به قلبها أول مرة يوم استقبلت التجربة

مع شخص يجلس إلى جانبه فالتفت نحوه فاسترد كمال عينيه وهو يزدرد ريقه، عند ذلك لمح في داخل النظرة إبراهيم شوكت وماسين وفهمي قبل أن يقر إلى الداخل، رقي في السلم وثبا حتى انتهى إلى دور عائشة فدفق باباً موارباً ودخل فالتقى بخليل شوكت زوج أخته واقفاً في الصلاة، ورأى باب حجرة النوم مغلقاً وقد تراسى من وراءه إلى سمعه أصوات تتحدث ميز منها أمه وحرر المرحوم شوكت وصوتاً ثالثاً لا يعرفه، سلم على زوج أخته ثم سأله وهو يتطلع إليه بطرف باسم:

- أهلاً عائشة ولدت؟

فرجع الرجل سبابته إلى شفتيه محذراً وهو يقول:

- هس...؟

أدرك كمال أنه لم يرحب بالسؤال، بل أنه لم يرحب بمقدمه كسالف عادته فحجل وعانى قلقاً لم يدير له سبيلاً، وأراد أن يتقنم من الباب المغلق ولكن صوت خليل أوقفه وهو يبتف باقتضاب ينم عن الضجر:

- لا...

فتحول نحوه متسائلاً ولكن الرجل قال له في حجلة ولهجة:

- انزل يا شاطر والعجب تحت...

انكسرت نفس الغلام فتظهر متأقلاً بالبحا وقد حُر عليه أن يهزى على عذاب انتظاره طوال اليوم لهذا الجزء البخش، ولياً بلغ عتبة الصلاة صك أذنيه صوت غريب أت من الحجرة المخلفة، بدأ رقيقاً حاداً عاليًا، ثم غلظ وترقّل حتى يخ، وانتهى بحسرة طويلة قاسية، ثم غاب لحظة مقدارها تردد النفس المقطوع، ثم بعث أمه عميقة شاكية، بدأ له غريباً أول الأمر كانه لم يعرف صاحبه، ولكن نبرة من نبراته المعبدة تجرّت وسط الحدة والغلظة والحسرة فوشت بهوية مصدره، صوت عائشة بلا ريب، أو هو عائشة مذابة منصهرة، ثم تأكد من ظنه عند تروك الأهة العميقة الشاكية، فارتعشت جوارحه، وشغل إليه أنه يراها تتلوى على حال من الألم دعت إلى تحيّلته بصورة الفطة القديمة، وعطف رأسه صوب خليل فالفاه

ونشعل الشموع، ذكر أم أنى؟... أتيا تفضل...؟ الذكر طبعاً، ربما بدأت بأننى كلتها. لم لا تبدأ بذكر كأيها؟ هاها، عندما يحين ميعاد انصراف المدرسة يكون الطفل قد خرج فلن أتمكن من مشاهدة خروجه. أتريد أن تراه وهو يخرج؟ طبعاً، أجل هذه الرغبة حتى يكون المولود ابنك أنت!... كان كمال أشد الجميع تأثراً بالخبر، شغل به عقلاً وقلباً وخيالاً، لولا شعوره برقابة ضابط المدرسة عليه وأنه يحصى حركاته وسكناته ليكنفها أول فأول إلى أبيه لما كان في وسعه أن يقوم الإضراب الذي يناديه للهاب إلى السكينة. ومكث في المدرسة جسداً بلا روح، هامت روحه في السكينة تتسامل عن القادم الجديد الذي ترغّب مقدمه أشهراً وهو يحس النفس بالاعلاج على سره المكنون. شهد مرة ولادة فطة وهو دون السادسة إذ استرعت انتباهه بموائها الحادة فهرع إليها تحت عرش اللباب فوق السطح فوجد لها تلوى التلوى وقد جعظت حينها، ثم رأى جسمها يتصنع عن فلة ملتفة فراجع متقزراً وهو يصرخ بأهل صوته. طافت هذه الذكرى بمخيلته وأحت عليه حتى عاوده تقززه القديم وانتشرت حوله مضجرة مقلقة كالضباب غير أنه لم يستسلم للخوف، أبى أن يتصور أن ثمة علاقة بين الفطة وعائشة إلا ما يكون بين الحيوان والإنسان وهو- في إيمانه- أبعد مما بين الأرض والسماء، ولكن ماذا يحدث في السكينة إذن؟... ماذا طرأ على عائشة من خرابب الأمور؟... ثمة أسئلة حيارى لا تنعم بجواب... ما كاد يغادر المدرسة مصراً حتى اندفع يقطع الطريق عدواً إلى السكينة.

دخل فناء بيت آل شوكت وهو يلهث، ومضى إلى باب الحريم فلاحته منه التفاتة إلى النظرة فيما يدري إلا وعينه تلقتان بعيني والده الذي جلس شابكاً راحته على مقبض عصاه القائمة بين رجله. تسمر في مكانه جامداً محملاً كأنما نؤم تنوماً مضططسياً، لم يطرف ولم يبد حراكاً، ركب شعور بالذنب لا يدره قلبه يتربّب انقباض العقاب عليه وبرودة الخوف تسري في أطرافه حتى اشبك السيد أحمد في حديث

ابني بدا اليوم خَوْفًا هل غير عادته، على أنه لا ضرر  
الْبَيْتَ من مجيء الطبيب (ثم مناجية نفسها بصوت  
خفيض) الطبيب ربنا وربنا هو الطبيب...

لم يعد السيد يطبق ما يلزم به عادة من وقار ويرود  
أمام أبنائه فسألها في قلق غير خاف:

- ماذا بها؟... ألا أستطيع أن أراها؟...

فابتسمت المرأة وقالت:

- سترأها عمًا قريب وهي بخير وعافية، الحق هل  
ابني المجنون هو الذي أزعجكم بغير موجب...

كان وراء الصدر المريض القوي والوقار الحازم  
المهيب قلب يتحلب أشد العذاب، كان وراء العينين  
الواجمتين الرزيتين دمع متجمد... ماذا دهم  
الصغيرة؟ الطبيب؟ لماذا تحول العجوز بيني وبينها؟  
ابتسامة رقيقة أو كلمة حنونة متى أنا، متى أنا خاصة،  
حقيقة بأن تخفف من آلامها، زواج وزوج والى، لم  
تلق في بيتي مرارة الألم قط، العزيرة الجميلة الصغيرة  
رحمتك اللهم، فسد طعم الحياة، إنه ليفسد لاهون

ألقى يتهددهم، فهمي... أراه واثمًا مثلك... هل  
أدرك معنى الألم؟... من أين له أن يعرف قلب الأم؟  
العجوز مطمئنة واثقة بما تقول، ابنها أزعجتا بغير  
موجب، اللهم استجب، أنت أعلم بحالي بأن تنجيها  
كما نجيتني من الإنجليز، قلبي لا يطيق هذا العذاب،  
عند الله الرحمة، وهو قادر على حفظ أبنائي من كل  
سوء، لا طعم للحياة بغير ذلك، لا طعم للسرور  
والطرب واللهو إذا انغورت في جني شوكه حافة،  
قلبي يدعوهم بالسلاسة، لأنه قلب أب، ولأنه لا  
تطيب المرات إلا لخلي، هل ألقى سائر الليل بقلب  
سعيد؟... أحب إذا ضحكت أن تنطلق الضحكة  
من أحيا قلبي صافية، القلب الفلق كالوتر المختل،  
حسي فهمي، إنه يلح علي كرجع الأسنان، ما أبغض  
الألم، دنيا بلا ألم، لا شيء على الله بكثير، دنيا بلا ألم  
ولو تكون قصيرة، دنيا تقرر فيها عيني بهم جميعًا.  
هناك أضحك وأغني وألهم، يا أرحم الراحمين،

عائشة يا أرحم الراحمين!

بعد غيبة ثلث ساعة عاد خليل مصحوبًا بالطبيب

يقبض راحته ويبسطها وهو يتمتم «يا لطيف يا رب»  
فتميل إليه مرة أخرى أن جسم عائشة يتقبض وينبسط  
مثل راحة الرجل، لم يعد يملك من نفسه شيئًا فركض  
إلى الخارج مضطربًا في البكاء، وعندما انتهى إلى باب  
الحريم استرعى سمعه وقع أقدام هابطة وراه فرجع  
رأسه فرأى الجارية سويدان نازلة على عجل فمرت به  
دون أن تنبه إليه حتى وقفت على عتبة باب الحريم ثم  
نادت سيدًا إبراهيم فجاء الرجل مسرعًا فقالت له  
والحمد لله يا سيدي، لم ترد على ذلك شيئًا ولم تنتظر  
حتى تسمع ما يقول ولكنها دارت على عقيها وهرعت  
إلى السلم فرحمت فيه دون تردد، رجع إبراهيم إلى  
المنظرة متلهل الوجه فلبث كمال وحده لا يدري ما  
يفعل ولكن لم يضر دقيقة حتى عاد إبراهيم يتبعه  
السيد أحمد فيسين ثم فهمي فنحنى الغلام جانبًا حتى  
مروا ثم صعد إلى أحفادهم خلف القلب، وقابل خليل  
الأثنين أمام مدخل الشقة فسمع أباه وهو يقول له:

- الحمد لله على السلامة...

فغمغم خليل في وجوه:

- الحمد لله على كافة الأحوال...

فسأله السيد باهتمام:

- مالك؟...

فقال بصوت منخفض:

- إني ذاهب لاستدعاء الطبيب...

فتساءل السيد قلقًا:

- المولود؟...

فأجابته وهو يبرأ رأسه سلبيًا:

- عائشة... ليست على ما يرام، ساجي

بالطبيب حالاً...

وذنب غلظًا وراه وجوهًا وقلوبًا واضحين، ثم  
دعاهم إبراهيم شوكت إلى حجرة الاستقبال فمضوا  
إليها صامتين. وجاءت حرم المرحوم شوكت بعد قليل  
فسلمت وهي تبسم لتدخل الطمأنينة إلى قلوبهم ثم  
جلست وهي تقول:

- فاست للسكنية طويلاً حتى أنكنت قواها، ولكنها  
حال عارضة وستروى وشيئا، إني واثقة بما أقول ولكن

- الأعيار بيد الله، ولكني وجدت قلبها ضميماً، من المحتمل أن تموت الليلة، وإذا مرّت الليلة بسلام جازت الخطر للمائل ولكني لا أظنّ أنّها تتمرّ طويلاً، في تقديري أنّه لا يمكن أن يمتدّ بها العمر إلى ما بعد العشرين، ولكن من يعلم؟ الأعيار بيد الله وحده...  
ولمّا ذهب الطبيب إلى طيّته التفت خليل نحو أمّه وعلى شفّتي ابتسامة خفيفة تمّ عن أسف وقال:  
- كان في نقيّ أن أسميها نعمة باسمك...

فقالت المرأة وهي تلوح بيدها مؤثّبة:  
- الطبيب نفسه قال: إنّ الأعيار بيد الله أفنكون أنت أضعف إيماناً منه، سمّها نعمة، يجب أن نسمّيها نعمة إكراماً لي، وسيكون عمرها بلذّن الله مديداً كعمر جدّها!  
كان السيّد يحدث نفسه: دعا الأحقّ الطبيب ليطلع على زوجه بغير موجب، بغير موجب!... يا له من أحمق. ولم يستطع أن يكتم غيظه فقال وهو يداريه بلهجة رفيقة:

- خطاً الخوف يفقد الرجال حسن الرويّة، أما كان يجمل بك أن تفكر قليلاً قبل أن تبادر إلى إحضار رجل غريب ليريّ زوجك بملء عينه؟  
لم يجب خليل، ولكنّه نظر فيمن حوله وقال بجهد:  
- لا يجوز أن تعلم عائشة بما قال الطبيب...

٦٩

- لماذا في الطريق؟...  
تساءل السيّد أحمد وهو ينهض في عجلة من وراء مكتبه، فلذهب صوب باب الدفّان يتبعه جميل الحمازوي وبعض الزبائن. لم يكن طريق النحاسين طريقاً هادئاً. كان أبعد ما يكون عن الهدوء، صوته الجهر لا يخفت من الفجر إلى ما قبل الفجر، حناجر عالية حتّافة بنداوات الباعة ومساومات الشارين ودعوات المجلّوبين ودعابات السابّلة، يتحدّثون وكأهمّ يخطبون، حتّى أنخصّ الشؤون تترامى إلى جوانبه وتطير حتّى مآذنه، إلى ضوضاء شاملة تصدر عن صليل سوارس حيناً وطققة الكارو حيناً آخر، لم

فدخل الحجر من فورهما ثمّ أضلق الباب وراحهما، وعلم السيّد بمقدمهما فقام وأنجّه إلى باب حجره الاستقبال ووقف على العتبة قليلاً وهو يمدّ البصر إلى الباب المغلق ثمّ عاد إلى مجلسه فجلس. قالت حرم المرحوم شوكت:  
- لتفكّرني صدق رأيي حللاً يتكلّم الطبيب...  
فغمغم السيّد وهو يرفع رأسه إلى أعلى:  
- عنده العفو...

عماً قليل يعرف الحقيقة فيمرق من ضباب الشكّ مهياً تكن المواقب. إنّ قلبه يخفق خفقاناً سريعاً متواصل، فليصبر، لم يبق إلّا القليل. إنّ إيمانه بالله قويّ عميق لا يتزعزع فليسلم إليه أمره، سيخرج الطبيب طال مكثه أم قصر وعند ذلك يسأله عماً وراحه، الطبيب؟... لم يفكر في ذلك من قبل، طبيب عند نساء؟... مع الرحم وجهاً لوجه، أليس كذلك؟ ولكنه طبيب... ما الحيلة؟ اللهمّ إنّ ربنا يأخذ بيدها فلنسأله السلامة، وجد السيّد إلى قلبه حياءً وامتصاصاً. واستمرّ الفحص زهاء ثلث ساعة ثمّ فتح الباب ففرض السيّد ومضى من توه إلى الصلاة، وتبعه الأبناء حتّى تجتمعوا حول الطبيب. كان الطبيب من معارف السيّد فصاحبه بأسياً ثمّ قال:

- بخير وعافية...  
ثمّ في شيء من الجهد:

- جاءوا بي للوالدة ولكني وجدت أنّ التي في حاجة إلى العناية خطاً هي المولودة...

تنفّس السيّد بارتياح لأول مرة منذ حوالي الساعة فتساءل ووجهه يشرق بابتسامة لطيفة:  
- أأطعنّ إذن على عهدتك؟

فقال الطبيب وهو يتظاهر بالدهش:  
- نعم، ولكن ألا تمكّ حفيدتك؟  
فقال السيّد بأسياً:

- لا عهد لي بعد بواجبات الجدّ...  
وتساءل خليل:

- أليس ثمة أمل في حياتها؟  
فقال الرجل وهو يزوي ما بين حاجبيه:

التي تألفت ارتحالاً ما بين النخاسين والصاغة وبيت الغاضي هاتفة غلوريا لسمد، وسعد وسعد ثم سعد، في المآذن التي اعلى المؤنن شرفاتها يشكرون ويدعون ويغنون، في العريات الكارو التي تجمعت بالمشرات حاملة المئات من النسوة التلغعات بالملامات اللث وهن يرقصن ويرقدن الأغاني الوطنية، لم يعد يرى إلا آدميين أو بالأحرى هاتفين، اخضت الأرض وتوارت الجدران وتعالى الخفاف لسعد في كل مكان كأنها الجوف قد انقلب اسطوانة هائلة تدور بلا توقف مرودة اسمه. وجرى نبا فوق الرموس الحاشدة أن الإنجليز يجمعون معسكراتهم القائمة عند مفترق الطرق نائماً للرحيل إلى العباسية فاستمر الحماس وحمت النشوات. لم تَز السيد أحمد منظرًا كهذا من قبل فراح يقلب عينين متألفتين وفواحه يخفق وثباً وباطنه يردد مع النسوة الراقصات «يا حسين... حلة وإنشالك» حتى أدق جبل الحمزاوي رأسه من أذنه قائلاً:

- الدكاكين تودّع الشريات وترفع الأعلام...  
فقال له بحاس:

- اصنع كما يصنعون وأكثر، أربي هُتَكَ...  
ثم بصوت متهلج:

- خلق صورة سعد تحت البسمة...

فنظر إليه جبل الحمزاوي كاتفرقه ثم قال عجزاً:

- هذا موضع ترى فيه الصورة من الخاراج ألا

يجس بنا أن نترتب حتى تستب الأمور؟

فقال السيد باستهانة:

- مضي عهد الخوف والدعاء إلى غير رجعة، ألا

ترى أن المظاهرات تمر تحت أعين الإنجليز دون أن

يتعرضوا لها بسره؟ خلق الصورة وتوكل حل الله.

غار عهد الخوف والدعاء، أليس كذلك؟ سعد حرّ

طليق ولعله في طريقه الآن إلى أوروبا، لم يعد بيننا وبين

الاستقلال إلا خطوة أو كلمة، مظاهرات الزغاريد

بدلاً من مظاهرات الرصاص، الأحياء من قوم

سعداء، اخترقوا النيران وغرخوا سالين، رحمة الله على

الشهداء، فهمي ١٩ نجا من خطر لم يفتقره، والحمد لله

والشكر لله، أجل نجا فهمي، ماذا تنتظر؟... صلّ

يكن طريقاً هادئاً بحال ولكن تعالت ضجّة فجائية وفدت من بعيد في يحدى الأمر كهدير الأمواج ثم غلظت واشتدّت حتى صارت بعزيف الريح أشبه وقد لغت الحريّ كله قريحه وبعيده، بدت غريبة شائعة حتى في هذا الطريق الصاخب، غلبا السيد أحمد مظاهرة نائرة كما ينبغي لرجل عاشر في تلك الأيام، ولكن جلجلت في طياتها زغاريد مبشرة بالأفراح، فمضى الرجل متسائلاً إلى الباب ولم يكده يلفه حتى اصطدم بشيخ الحارة الذي أقبل مندفعاً وهو يتف بوجه ظفر منه الطير:

- أبلغك الخبر؟

فقال السيد وعينه تلعبان تفاؤلاً من قبل أن يسمع شيئاً:

- كلا... ماذا وراهم؟

قال الرجل بحماس:

- سعد باشا أخرج عنه...

فما عمالك السيد أن تسامل صالِحاً:

- حقاً؟

فقال شيخ الحارة ييقن:

- أذاع النبي الساحة بياناً يهله البشري...

في اللحظة التالية كانا يتناقضان، واشتدّ التأثير

بالسيد أحمد فاغروقت عيناه ثم قال وهو يضحك

مدارة لتأثره:

- كان العهد به دائماً أن يلبح الإنتادات لا

البشريات فماذا غيره ابن الهرمة؟

فقال شيخ الحارة:

- سبحان الذي لا يتغير...

وصالح السيد ثم غادر الدكان وهو يصيح والله

أكبر، الله أكبر، النصر للمؤمنين!

وقف السيد حل عتبة الدكان مغلياً حينه في أنحاء

الطريق بقلب ارتد إلى برامة الطفولة ويحبها، طالع

أثر الخبر السعيد في كل مكان... في الدكاكين التي

سدّت مداخلها بأصحابها وزياتها وهم يتبادلون

التهاني، في الترافض التي تزاغت فيها الأحداث

وانطلقت الزغاريد من وراء خصاصها، في المظاهرات

إلى الله ربك.

الحال التي تلبّست في المظاهرات على ضوء ملاحظة

فهني حتى قال بفرابة:

- الواحد منّا ينسى نفسه وهو بين الناس نسياناً  
غريباً فكأنه يبعث شخصاً جديداً...

سأله فهني باهتمام:

- أكنت تشعر بحماس صادق؟

- هتفت لسعد حتى يَحْ صوتي واغرورقت عياني  
مرة أو مرتين.

- كيف اشتركت في المظاهرة؟

- بلغنا نياً الإفراج عن سعد ونحن في المدرسة  
ففرحت فرحاً عظيماً حقاً، أكنت تتوقع غير هذا؟...

وإذا بالمدّرمين يقترحون الانضمام إلى المظاهرة الكبيرة  
في الخارج فلم أجد من نفسي ميلاً إلى مجاراتهم  
وفكرت في التسلّل إلى البيت، غير أنّي اضطورت إلى  
السير معهم حتى تسخ لي فرصة للزفان، ماذا حصل  
بعد ذلك! وجدت نفسي في بحر متلاطم من الناس  
وجوّ مكهرب من الحساس لما ملكت أن ذهلت عن  
نفسي واندمجت في التّيار كاشد ما يكون المرء - صدّقني  
في هذا - حاسماً وأملاً...

فهزّ فهني رأسه وهو يغمغم:

- شيء عجيب...

ضحك ياسين عالياً ثم قال:

- أحسبتي لافد الوطنية؟ المسألة أنّي لا أحبّ

الزباط والعنف، ولا أجد حرجاً في التوفيق بين حبّ

الوطن وحبّ السلامة...

- وإذا شئت التوفيق بينهما؟...

فقال مبتسماً ولكن دون تردّد:

- قلّمت حبّ السلامة! نفسي أوّلًا... ألا يستطيع

الوطن أن يسعد إلا بالتهام حيائي؟! يفتح الله، أنا لا  
أفترط في حيائي ولكني سأحبّ الوطن ما دمت «حيّاً».

قلّت أمينة:

- هذا عين العقل (ثمّ متعلّعة إلى فهني) هل عند

سيدي رأي آخر؟...

قال فهني بهدوء:

- كلّاً طبعاً، إنّه عين العقل كما قلت...

لما اجتمعت الأسرة مساء وشت الخناجر المبحوحة

ببوم مليء بالهتاف، كان مساء سعيداً، ثمت عن  
سعاده الأعين والثغور والحركة والكلام حتى أمينة نهل

قلبها من نخب السعادة المبلول مشاركة للأبناء  
واستبشاراً بعودة السلام وفرحاً بالإفراج عن سعد:

- من المشيئة رأيت ما لم تَر عين من قبل، هل  
قامت القيامة ونصب الميزان؟! وأولئك النسوة هل

جئتن؟! لا يزال صدى ترددهن يرنّ في أذني وما  
حسين... حلة وانشالت.

قال ياسين ضاحكاً وهو يبعث بشعر كمال:

- تحية شيعوا بها الإنجليز الراحلين كما يشيع  
الضيف الثقيل بكسر الفلّة وراهه...

نظر إليه كمال من دون أن ينبس على حين عادت  
أمينة تتسامل:

- أروحي الله عنا أخيراً؟...

فأجابها ياسين قائلاً:

- بلا ريب (ثمّ خاطباً فهني) ماذا تظنّ؟

قال فهني الذي بدا في فرح الأطفال:

- لو لم يسلم الإنجليز بمطالنا لما أفرجوا عن سعد،  
سوف يسافر إلى أوروبا ثم يعود بالاستقلال، هذا ما

يؤكدّه الجميع، ومهما يكن من أمر سيبقى يوم ٧ إبريل  
سنة ١٩١٩ رمزاً لانتصار الثورة.

فعاد ياسين يقول:

- يا له من يوم! اشترك المؤثّقون في المظاهرات  
علانية، ما كنت أظنّ أنّ بي هذه القدرة العظيمة على

السير المتواصل والختاف العالي!...

فضحك فهني قائلاً:

- وددت لو رأيك وأنت تتهف متحمّساً، ياسين  
يتظاهر ويتحمّس ويتف... يا له من منظر فريد!

يوم عجيب في الأيام حقاً، اكتسحه سيله الزاخر  
فحمله بين أوراجه العاتية كوريقة لا وزن لها حتى طار

به كلّ مطار، لا يكاد يصنّق أنّه ثاب إلى رشده وإنّه  
أوى إلى برج المراقبة الهادئ يشاهد من منظاره

الحوادث في هدوء وعدم اكتراث!... جعل يستحضر

- كنت كلما يلقي نبأ أسيف تقطع قلبي حزناً وقلت  
لنفسى ويا ترى أكان يقع هذا لو لم يقم سعد قومه؟  
هل أن رجلاً يجمع الكل على حبه لا بد أن الله يجبه  
كذلك...

ثم متبته بصوت مسموع:

- أسفى على المالكين، كم لثا تبكي الآن  
بحرارة؟... كم أماً لم تزدها فرحة اليوم إلا حسرة  
على حسرة.

قال لها فهمي وهو يغمز ياسين بطرفه:

- الأم الوطنية حقاً تزهد لاستشهاد ابنها...

فوضعت أصبعها في أذنيها وعتفت:

- اللهم إني أشهدك على ما يقول سيدي

الصغير... أتم تزهد لاستشهاد ابنها! أين؟ على

هذه الأرض؟ ولا تحت الأرض في عالم الشياطين...

فهقه فهمي عائلاً ومضى بفكر ملياً، ثم قال وعيناه

تلمعان باستحيين:

- نية...! سأبوح لك بسرٍ خطير أن له أن يذاع.

لقد اشتركت في المظاهرات وقابلت الموت وجهاً

لوجه...

سهمت إليه غير مصدقة ثم قالت وعلى شفيتها

ابتسامة باهتة:

- أنت؟...! محال... إنك من لحمي ودمي

وقلبك من قلبي، لست كالأخرين...

لقال يقين وهو يتسهم إليها:

- أقسم لك على ذلك بالله العظيم...

انخفضت الابتسامة وأتسمت المنيان في دخول، ثم

رددت بعصرها بينه وبين ياسين الذي حذجه بسلوره

بنظرة متسائلة، ثم غفمت وهي تزهد ريقها:

- رياء!...! كيف أصدق أنف؟!

ثم بعد أن هزت رأسها في حيرة الهمة:

- أنت؟...

كان يتوقع انزعاجها ولكن ليس - بالنظر لمجيء

اعترافه بمد زوال الخطر - إلى الحد الذي بدا عليها،

فلدهرها قائلاً:

- ذاك تاريخ مضى وانتهى، لا داعي الآن

ولم يَرَ كمال أن يعي مجزول عن الحديث لا سيما أنه

كان مقتنعاً بأنه لعب في يومه حوزاً خطيراً حقاً فقال:

- وامررنا نحن كذلك ولكن الناظر قال لنا: إننا ما

زلنا صفاراً، وإننا إذا خرجنا من المدرسة دامت

الأقدام، ثم سمح لنا بالتظاهر في فناء المدرسة

فتجمعتنا فيه وهفتنا (هنا هفت عائلاً: يحيا سعد) طويلاً

جداً، ثم لم نعد إلى الفصول لأن للدرسين كانوا قد

غادروا المدرسة منتظمين إلى المظاهرات في

الخارج...

رماء ياسين بنظرة ساخنة وقال:

- ولكن أصدقائك ذهبوا...

- في داهية...

نذت عنه هذه العبارة بلا تفكير وهي أبعد ما تكون

من حقيقة شعوره، لأن الحال تقتضيها من ناحية،

ولأنه أراد أن يداري بها هزيمته أمام سخرية ياسين من

ناحية أخرى، أما قلبه فكان يكابد دهشة وغمزاً، لم

ينس كيف وقف لدى حودته من المدرسة في المكان

المهجور الذي كان يحتله المعسكر بقلب عينيه في أرجائه

في صمت أليم وعيناه مغروقتان. سوف يمضي وقت

طويل قبل أن ينسى مجلس الشاي على طوار سبيل بين

القصيرين والإعجاب الذي كان يحظى به خناؤه،

والمودة التي كان يلقاها من الجنود خاصة جوليون،

والصداقة التي ربطته بالسادة المتفوقين الذين يعلنون في

اعتقاده على سائر البشر أنها أمانة:

- سعد باشا رجل سعيد الحظ، الدنيا كلها تحب

باسمه، ولا أفندينا في زمانه... رجل مؤمن بلا ريب

لأن الله لا ينصر إلا المؤمنين. نصره على الإنجليز

الذين غلبوا زيلن نفسه، أي فوز وراء هذا؟...

لقد ولد الرجل في ليلة القدر.

سأها فهمي بآساً:

- أحميته...؟

- أحبه ما دمت تحبه...

بسط فهمي راحته ورفع حاجبيه مستكراً ثم قال:

- لا يعني هذا شيئاً...!

فتهدت لينا يشبه الارتباك ثم قالت:

للانزعاج...

فقلت بإصرار ونفزة:

- صه... أنت لا تحب... أمك، سماعك الله...

فضحك فهمي في شيء من الارتباك. قال كمال لأنه وهو يتسم بمكر:

- أتذكرين يوم دكان البسبوسة وضرب النار؟ رأيته وأنا عائد في الطريق المغفر فنبه عليّ بالأخبار أحدًا يأتي رأيته...

ثم نظر إلى فهمي وسأله باهتمام وتشوق:

- قصّ علينا يا سي فهمي ما لقيت في المظاهرات، كيف كانت تقع المعارك؟ وكيف يصرخ الفتى؟ ألم تطلق النار فعلاً؟...

فتدخل ياسين في الحديث قائلاً للأمام:

- ذاك تاريخ مضى وانتهى، اشكركي الله على نجاته، لهذا أولى بك من الانزعاج...

سألته بجفاء:

- أكنت تعلم بذلك...؟

فبادرها قائلاً:

- لا وسحاة تربة أمي (ثم مستتركا) وديني وأيامي وديني...

ثم نهض من مجلسه، منتقلاً إلى جوارها فوضع يده على منكبيه وقال برقة:

- أنطمئنين حين كان ينهي الانزعاج وتنزعجين حين ينهي الاطمئنان! وحدي الله، زال الخطر وعاد السلام، ها هو فهمي بين يديك... (وضاحكا) ابتداء من الغد ستقطع القاهرة طولاً وعرضاً، ليلاً ونهاراً، بلا خوف أو قلق...

وقال فهمي جاداً:

- نينة، رجائي إليك ألا تكثري صفونا بحزن لا موجب له...

تهدأت... فتحت فاهها لتكلم ولكنها حركت شفيتها دون أن تنبس، ابتمت ابتسامة شاحبة لتعلن استجابتها لرجائه، ثم تكست وجهها لتخفي عنها المغرورقتين...

بات فهمي تلك الليلة وهو عائد العزم على استرضاء أبيه مهما كلفه الأمر، وفي صباح اليوم التالي صمّم على تنفيذ عزمه دون تردد، ومع أنّه لم يضمّر لأبيه - طول فترة العصيان - أي إحساس بالغضب أو التحدي فإن ضميره كابد شعوراً بالذنب ناء به قلبه الحساس المشرب بالطاعة والولاء. حقاً لم يتحذاه بلسانه ولكنّه خالف إرادته بالفعل، بل خالفها مراراً وتكراراً، فضلاً عن امتناعه عن القسم يوم دعاه إليه في حجرته وإعلانه بالبقاء متمسكه برأيه رغم إرادة الرجل، كلّ أولئك أحله - على حسن نيته - موقفاً عاقلاً شريراً لا يرضاه لنفسه ولا يحتمله، ولم يكن سمي إلى استرضائه من قبل خشية أن ينفك الجرح دون أن يسهه أن يلامه، لأنه قدّر أن يدعو السيد إلى القسم تكفيراً عما بدر منه فيضطر مرة أخرى إلى الامتناع مؤكداً عصيانه من حيث أراد أن يتسلّ عنه. الحال اليوم غيرها بالأمس، انتشى قلبه بالسرور والظفر، الوطن كله ثمل بخمر السعادة والغور، فلا يطيق أن يقوم بينه وبين أبيه حجاب من سوء الظن ولو لحظة واحدة، الاسترضاء، فالعفو الذي يفرّ إليه، ثم السعادة الحقة التي لا تشوبها شائبة، دخل حجرة أبيه قبيل ميعاد الفطور بربع ساعة فوجده يطوي سجادة الصلاة مغمماً بالدعاء، لمح الرجل بلا ريب ولكنّه تجاهله لمضي إلى الكتب دون أن يلتفت صوبه وجلس. عند ذلك تراءى فهمي بموقفه عند الباب ملفوفاً بالارتباك والحياء لمندجه بنظرة جافة مستنكرة كأنما تتسائل ومن هذا الواقف وماذا جاء به؟! فتغلب فهمي على ارتبائه وتقدّم من مجلس أبيه في عصى خفيفة حتى اتقى على يده فتناولها فلتشها باحترام لا حدّ له، وصمت ملياً ثم قال بصوت لا يكاد يسمع:

- صباح الخير يا بابا.

واصل التحديق فيه صامداً كأنه لم يسمع نحيته حتى غصّ الشاب بصره ارتباكاً وغمغم في نبرات ثمت عن الياس:

- إني آسف...



صمت وإصرار على الصمت...

- أسف جداً، لم ألق طعم السكينة منذ...

وجد أن الكلام كاد يستلججه إلى ذكر ما وء من كل قلبه أن يتحاشاه فأمسك، وما يدري إلا والسيد يسأله بجفاء وتبرم:

- وماذا تريد؟...

رحب بإقلاعه عن الصمت أيما ترحيب فتهد بارتياح كأنه لم يستشعر جفاه وقال برجاء:

- أريد أن تكون راضياً عني...

قال السيد بضجر:

- عُر من وجهي...

فقال فهمي وهو يشعر بقبضة اليأس تتراخي قليلاً من عنقه:

- عندما أنال رضاك...

تسأل السيد متحولاً فجأة إلى التهكم:

- رضائي... لم لا؟... هل فعلت لا سمح الله ما يستوجب السخط؟!

رحب بالتهكم أضعاف ترحيبه بالإقلاع عن الصمت، التهكم عند أبيه أول خطوة نحو الصفح، غضبه الحقيقي صفع أو لكم أو سب أو كل أولئك جميعاً، التهكم أول يشير بالتحوّل، انتهز الفرصة وتكلم، تكلم كما ينبغي لرجل قد يعمل في المحاماة غداً أو بعد غده، هذه فرصتك! وتكلم، الاستجابة لنداء الوطن لا تمّد حسيائناً لإرادة حضرتك، لم أفعل شيئاً يحسب بين الأهوال الوطنية حقاً، توزيع منشورات على الأصدقاء... وما توزيع المنشورات على الأصدقاء؟ أين أنا ممن بدلوا الحياة رخيصة؟ فهمت من كلام حضرتك أنك تخالف على حياتي لا لأنك تستكر حقاً الواجبات الوطنية، فقت بشيء من الواجب وأنا مطمئن إلى آتي - في الواقع - لا أخالف لك إرادة... إلخ... إلخ...

- علم الله أنه لم يخطر ببالي قط أن أعصي لك أمراً.

قال السيد بحدة:

- كلام فارغ، تتظاهر بالطاعة الآن لأنه لم يعد ثمة داع إلى العصيان، لم لم تطلب رضائي قبل اليوم...؟

قال فهمي بحزن:

- كانت الدنيا في دم وكرب وكنت من الحزن في شغل شاغل...

- شغلك عن طلب رضائي؟!

قال بحرارة:

- شغلني عن نفسي لا عن طلب رضاك...

ثم بصوت منخفض:

- لن أستطيع أن أعيش بغير رضاك...

قطب السيد، لا غضباً كما تظاهر، ولكن ليخفي الأثر اللطيف الذي بعثه كلام الشاب في نفسه، هكذا يكون الكلام والآ فلا، يهيد صناعة الكلام حقاً، هذه هي البلاغة اليس كذلك؟ ساعد أقواله على مسامع الأصدقاء الليلة لامتحن لثوره في نفوسهم، ترى ما عسى أن يقولوا؟ الولد سرّ أبيه... هذا ما ينبغي أن يقال، قدّمنا قبل لي إثني لو أتممت مراحل التعليم لكتبت أبلغ المحامين، لقر أبلغ الناس بغير التعليم والمحاماة، الحديث اليوم كالقانون سواء بسواء في الكشف عن موهبة البلاغة، كم من محامٍ أو من مؤلف كبير ينكمش في المجلس أمامي كالعصفور! ولا فهمي نفسه يستطيع أن يسد مكاني يوماً ما، سيقولون لي وهم يضحكون حقاً الولد سرّ أبيه، امتناعه عن القسم لا يزال يمزّ في نفسي، لكن اليس من دواعي الفخر لي أنه اشترك في الثورة ولو من بعيد؟ ليشه اشترك في الأهوال الكبيرة ما دام الله قد كتب له العمر حتى اليوم، سأقول من الآن فصاعداً إنه خاض غمار الثورة، أظنون أنه اكفى بتوزيع المنشورات كما كان يؤكّد لي؟ لقد رمى ابن الكلب بنفسه في التيار الدامي، يا سيد أحمد ينبغي أن تشهد لابنك بالوطنية والشجاعة... نعم أنا أن نقول لك هذا في إبان الخطر أمّا وقد استقرّ السلام فلا حرج من قوله... أتذكر أنت شعورك الوطني؟... ألم يثن عليك جامعو التبرعات من مثلهي الوفاء... والله لو كنت شاباً لفعلت ما لم يفعله ابنك ولكنّه عصاني! عسى لسناك وأطاع قلبك! الآن ما عسى أن أفعل؟ يريد لثمي أن يبه الضو ولكنّي أخاف أن يستهين بمخالفتي!

- وأنا لن أستطيع أن أنسى أنك خالفت إرادتي،  
أحسبت أن الخطبة الفارغة التي صيحتني بها على غيار  
الريق يمكن أن تؤثر في؟  
همّ فهمي بالكلام ولكنّ آتاه دخلت في تلك  
اللحظة وهي تقول:  
- الفطور جاهز يا سيدي.

وقد دهشت لوجود فهمي على غير انتظار فرقدت  
حينها ببينها، وتلكات قليلًا لعلها تسمع شيئًا مما يدور  
ولكنّها رأت في الصمت - الذي خافت أن يكون يجيشها  
باعت - ما دعاهما إلى مفاداة الحجر على عجل. غرض  
السيد للانتقال إلى حجرة المائدة فتنحى فهمي جانبًا  
وقد علاه حزن شديد لم يُقَفْ أثره عن حفي الرجل  
فتردّد لحظات ثم قال أخيرًا بصوت سلمي:  
- أريد مستقبلًا ألا تصرّ على حماقتك وأنت  
تخاطبني..

وسار فتبعه الشاب عتًا باسم الأساور، ثم سمعه  
يقول متهمًا وهما يقطعان الصالة:  
- أظنك حاسب نفسك على رأس الذين أفرجوا  
عن سعد!

خاف فهمي البيت قري العيون فعضى من توه إلى  
الأزهر حيث اجتمع بزملائه أعضاء لجنة الطلبة العليا  
للتنظر في تنظيم المظاهرات السلمية الكبرى التي  
سمحت السلطة بقبلها للإحزاب عن ابتهاج الشعب  
والتي تقرّر أن يشارك فيها عتقو الأمة بكافة طبقاتها،  
دام الاجتماع وقتًا غير قصير، ثم تفرّج، المجتمعون كل  
إلى وجهته فركب الشاب إلى ميدان المحطة بعد أن  
هرب الدور الذي عهد به إليه وهو الإشراف على  
تجهّعات طلبة المدارس الثانوية. لكن كان يمدّ ما يمهّد  
عادة إليه - بالقياس إلى غيره، من الأدوار الثانوية إلا  
أنه كان يقوم به بدقّة وعناية وبقطة كأنما هو أسعد ما  
يحظى به في حياته غير أنّه لم يكن يخلو في جهاده من  
تماسة خفيفة لم يعلم بها أحد سواه، منشوها ما اقتنع  
به من أنّه دون الكثيرين من أقرانه جرأة وإقدامًا..  
أجل لم يتكهّن عن مظاهرة من المظاهرات التي دعت  
إليها اللجنة ولكنّه كان يفقد جناحه عند ظهور

اللوريات المحمّلة بالجنود وبخاصّة عند إطلاق  
الرصاص وتساقط الضحايا... فمرّة لاذ بمقهى وهو  
يرتعد، ومرّة أخرى جرى على وجهه شوكًا بعيدًا حتى  
وجد نفسه في قفافة المجاورين، أين هو من حامل  
اللواء في مظاهرة بولاك، أو مذبحه بولاك كما غدت  
تسمّى، الذي استشهد ويده قابضتان على اللواء  
وقدماه ثابتان في الطليعة وحجرتة متهف بالثبات؟  
أين هو من أقران ذلك الشهيد الذين تبادروا إلى اللواء  
ليرفعوه فسقطوا فوقه وقد تقلّدت صدورهم نياشين  
الرصاص؟ أين هو من ذلك الشهيد الذي انتزع  
المدفع الرشاش من أيدي الجنود في الأزهر؟ أين هو  
من هؤلاء جميعًا وغيرهم ممن تطير الأنباء بأي بطولتهم  
واستشهادهم؟ كانت أحوال البطولة تترأى لعينيه  
رائعة باهرة تحطف الأبصار، وطلما انصت إلى نداء  
باطني ييب به إلى الإقدام والتأني بالأبطال، ولكن  
كانت تحلله أعصابه في اللحظة الحاسمة لما إن تنحسر  
موجة المعركة حتى يجد نفسه في المؤخرة إن لم يكن  
خفيًا أو هاربًا، ثم يعود إلى التصميم على مضاعفة  
البلد والكفاح والتهاكسك بضمير معذب وقلب حائر  
ورغبة في الكمال لا تحدّ، متعزّيًا أحيانًا بقوله «ما أنا إلا  
محارب أعزل، ولئن فاتني الرابع من أحوال البطولة  
فحسبي أنّي لم أتردّد مرّة واحدة عن الإلقاء بنفسي في  
أتون المعركة». في طريقه إلى ميدان المحطة جعل  
يراقب الطرق والمركبات، كان الجميع يتوجّهون - فيها  
بدا - وجهته، طلبة وعشّالًا وموظّفين وأهلين راكبين  
وراجلين، تظلمهم جميعًا طمانينة خفيفة يقوم ذاهبين إلى  
مظاهرة سلمية مصرّح بها، إنّه مثلهم، يشمر  
بشعورهم، لا كهمده القديم حين كان يلتبس طريقه  
إلى موعد المظاهرة بنفس ثائرة وقلب تنقل ضرباته كلّما  
تخايل لعينيه شبح الهلاك. ذلك عهد مضى، اليوم  
يمضي مطمئنّ الجانب باسم الثغر... انتهى الجهاد؟  
خرج منه سليًا لا عليه ولا له. ولا له؟ ليت عانى  
شيئًا ممّا تعرّض له الآلاف كالتجنّج أو الضرب أو  
إصابة غير عميّة! ليس من المحزن أن تكون السلامة  
المطلقة جزءًا من أوتي قلبًا قلبه وحاسًا كحاسه!

الحلقة بالحقيقة العارية. موزّع منشورات وجندي من جنود المؤخرة! هذا هو بلا زيادة، اليوم يوكل به قيادة المدارس الثانوية فيواجه زمعامة كبيرة. ترى هل يقدر الآخرون عمله أكثر مما يقدره هو؟ أشد ما يجيونه بالاحترام والمحبة، ثم بعدد اجتماع ألا وكان له فيه رأي مسموع، والخطابة؟ ليس من الضروري أن تكون خطيباً... أليس كذلك؟ ليس عمالاً أن تكون خطيباً وأنت غير خطيب ولكن أيّ خسارة ستعني بها يوم تمثل اللجنة العليا بين يدي الزعيم فيستيق الخطباء وتلوذ أنت بالصمت، كلاً لن ألوذ بالصمت، سوف أتكلّم، سأطلق لقلبي العنان أجاد أم لم يجد، متى تقف بين يدي سعد؟ متى تراه لأول مرة فتعلا منه عينيك؟ إن قلبي يخفق وهيناي تحنّان للدعوى، سيكون يوماً عظيماً، ستخرج مصر كلها لاستقباله، لن يكون يومنا هذا إلى ذلك إلا كالقطرة إلى البحر، رتاه امتلا الميدان، امتلات الشوارع القضية إليه. عبّاس نوبار الفجالة، لم تسبق كهذه مظاهرة، مائة ألف، طرابيش عظام، طلبة... عيال... مؤلفون... الشيوخ والقساوسة، القضية... من كان يتصوّر هذا، لا يبالون الشمس... هذه مصر، لم لم أذع باباً؟ صدق ياسين... الواحد منا ينسى بين الناس نفسه، يعلو حل نفسه، أين همومي الشخصية؟... لا شيء، أشد ما يخفق قلبي، سألتحدّث عن هذا طويلاً الليلة وما بعدها. ترى هل ترتعد نية مرة أخرى؟ منظر جليل تخشع له القلوب وتطمئن، أريد أن ألس أثره في وجوه الشياطين! ها هي تكتانهم تشرف على الميدان، الرابة اللعينة ترفرف، هناك رموس في النوافذ... فهم تنهاس؟! اللبدبان تمثال لا يرى شيئاً، لم تغضّر رقّاشاتكم على الثورة، افقها هذا، سترون عيّاً قريب سعد في هذا الميدان عاتفاً مظفراً تغفونه بالسلاح ونعيد بغير سلاح، سوف ترون قبل الجلاء. تحرك الموكب العظيم فتدققت موجاته تابعاً مركدة الهفافات الوطنية، بدلت مصر مظاهرة واحدة، بل رجلاً واحداً، بل هتافاً واحداً، تابعت طوابير الطوائف طويلاً، طويلاً جداً، حتى خيل إليه أنّ الطلائع

كطالب مجتهد لم يتج له أن يظفر بأية شهادة... أنتكر سرورك بالنجاة؟ أكنت تفضّل أن تكون من الشهداء؟ كلاً، أكنت تتمنّى لو كنت من المصابين غير المالكين؟ نعم، كان ذلك في وسعك فلم تكسبت؟ لم تكن تضمن أن تقع الإصابة غير مميّنة أو أن يكون السجن عابراً، أنت لا تكوه النجاة الراحنة ولكنك تتحقّق لو كان أصابك شيء دون أن يغيّر من هله النهاية الجميلة، ينبغي إذا جاهدت مرة أخرى أن أكمل على الغيب؟ أمضي إلى المظاهرة السلميّة بقلب مطمئن وضмир قلق. بلغ الميدان زهاء الواحدة بعد الظهر، قبل الميعاد المحدّد لقيام المظاهرة بساعتين فأخذ مكانه في الموضع الذي حدّد له! باب المحطة. لم يكن بالميدان إلا للمشرفون وجاعات متفرّقة من شقّ الطوائف، وكان الجوّ معتدلاً إلا أنّ شمس أبريل صبّت حل من تعرض لأشعتها لئلى، ولم يطل الانتظار فأخذت الجموع تتوافد على الميدان من مختلف الطرق المقضية إليه، ومضت كلّ جماعة صوب عملها، بذلك شرع فهمي في عمله بلهّة وضخار، بالرغم من بساطة العمل الذي لم يحدّ أن يكون ترتيباً للمدارس كلّ وراء عملها إلا أنّه ملا نفسه زهواً وخلاء سبّا وأنه كان يشرف على طلبة كثيرين عن يمينه سناً حتى بدت التسمّة عشر عامّاً التي يجزّاه وراه ذبلاً قصيراً في زحمة التلاميذ الذين ناهز كثير منهم الثانية والعشرين والرابعة والعشرين وفلتت شوايرهم، ولاحظ أحياناً ترمقه باهتمام وشغافها تنهاس عليه كما سمع اسمه - مقروناً بصفته الشعبيّة - يجري على بعض الأكسن وفهمي أحمد عبد الجواد مندوب اللجنة العليا فحرك أوتار قلبه حتى أظنّ شفتيه دون أن تندّ عنها بسمة حياء أو ارتباك من «مهابة». أجل ينبغي أن يحافظ على منظر مندوب اللجنة العليا، على الجذّ والصرامة الخليلقتين بالرحيل الأوّل من شباب المجاهدين كي يتنصح المجال لأخيلة المتطلّعين لحلم ما يخفي وراءه من أعمال البطولة والكفاح، فلتتحقّق تلك الأصيل الحارقة - التي حجز عن تحقيقها في الواقع في أخيلتهم، لن تفتّر له رغبة في المزيد منها وإن خنز قلبه إحساسه

ستشارف عابدين قبل أن يتحزح هو وجماعته أمام باب المحكمة، أوّل مظاهرة تسير دون أن تقطع المدافع الرقائشة الطريق عليها، لا رصاص من ناحية ولا زلّط من الناحية الأخرى، واقتّر ثغره عن ابتسامة، رأى الجماعة التي تعسكر أمامه مباشرة تتحرك فدار على عقبه كي يواجه مظاهراته «والخاصة» ورفع يديه فسرت في الصفوف حركة تأهب وتوثّب، ثمّ هتف بأصل صوته وهو يسير مقهقراً. وأصل مهمة القيادة والعتاف حتّى مدخل شارع نوابر ثمّ تخلّ عن الثانية لغيره ممّن أحاطوا به مترصّدين دورهم بأفواه قلقة متحركة كأنما قد جامداها المخاض والطلق فلا تستريح حتّى تقلّف بيتافاتها، دار على عقبه مرّة أخرى سائراً بوجهه، يشرب بعنقه تارة لشاهد ما تقدّم من جسم المظاهرة التي لم يعد يرى لها أوّل وتخلّفت بمنّة ويسرة تارة أخرى ليرى من اكتنكت بهم الأرصنة والنوافل والشرفات والأسطح من جوع المشاهدين الذين جعلوا يرتدون الحفالات. امتلات نفسه بمنظر الألوف الحاشدة قوّة إلى قوّة وطمانينة على طمانينة، كأنها دروع منصوبة حوالها، قوّة متباسكة لا ينفذ منها الرصاص، إنّ قوّة البوليس تتمهّد النظام بعد أن أحيما الطعان والمهجم، إنّ منظر هؤلاء الرجال الذاهبين الجاهلين على صهوات جيادهم كأنهم حراس تابعون للمظاهرة قائمون على خدمتها، لأبلغ دليل على انتصار الثورة، الحكمدار؟! أليس هذا هو وسل بك... بل هو أنّه يعرفه حتّى المعرفة، وهذا وكيل الحكمدار يحبّ وراه مقلّبا على الأفق نظرة جامدة مترنّمة كأنما تتججّ احتجاجاً صامتاً على السلام الذي احتضن المظاهرة، ما اسمه؟ هل يمكن أن ينسى الاسم الذي ملا الأسباع في الأيام السود الدامية؟! أوّل جيم أليس كذلك؟ جا... جو... جي... يأمى أن يستجيب إلى الداكرة، جوليون!! أوه كيف تسلّل هذا الاسم البغيض إلى وعيه؟! هوى عليه كالتراب فاطفاً حماسه، كيف لنا أن نلّقي نداء الحلياس والظفر ما دام القلب ميّناً قلب ميت؟! لم يكن ميّناً منذ دقيقة، لا تستسلم للحزن، لا تدع قلبك يبتعد عن المظاهرة، أمّ تعاهد نفسك على

النسيان؟ بل إنّك نسيت بالفعل، مريم... من هي؟! تلك التاريخ القديم؟! نحن نعيش للمستقبل لا للماضي... جيز... جيز... مستر جيز... مستر جيز... هذا هو اسم وكيل الحكمدار لعنة الله عليه، عد إلى العتاف كي تنفض عن نفسك هذا الغبار الطارئ. مضت «مظاهراته» تقترب رويداً من حديقة الأزيكّة التي لاحت أشجارها الباسقة فوق الأحلام المنتشرة بطول الطريق على حين بدا ميدان الأوبرا من بعيد رموساً متلاصقة كأنها تثبت من جسد واحد ملا الأرض طولاً وعرضاً. كان يهتف بقسوة وحساس والجمهور يردّد هتافه بصوت ملا الجوّ كهزيم الرعد، ولساً شارفوا سور الحديقة دوت - على حين يفتت - فرقة حاقّة فسلّكت حنجرته وتلّقت فيها حوالبه متسائلة في انزعاج، صوت معهود كثيراً ما صكّ أذنيه في الشهر المنصرم وكثيراً ما تردّد صدها في ذاكرته في هدأة الليل بيد أنّه لم يستطع أن يألّفه لما يكاد يدوّي حتّى يخطف دمه ويوقف قلبه على الحفقات...

- رصاص؟!...

- غير معقول، ألم يصرّحوا بالمظاهرة؟...

- أسقطت من حسابك العذر؟

- ولكن لا أرى جنوداً... ١٩...

- حديقة الأزيكّة معسكر هائل مكتظّ بهم...

- لعلّها فرقة عجلة سيّارة...

- لعلّها... ١٠

أرهف أذنيه لما يدور حوله من دون أن يثوب إلى السكينة، وما هي إلا لحظات حتّى دوت فرقة ثانية... أه... لم يعد ثمة شكّ، رصاصه كسابقتها، أين ترى استقرّت؟ أليس يوم سلام؟! شعر بحركة اضطراب تسري بين المتظاهرين وافدة من الأمام كاللوجة الثقيلة التي تدفعها إلى الشاطئ باخرة تمخر وسط النهر، ثمّ تراجع الألوف وانتشروا باعثن في كلّ ناحية دلفات جامعة جنوبيّة من الاضطراب والارتباك والارتطام، تعلوها صيحات مفزعة من الغضب والخوف، وسرعان ما انتشرت الصفوف المتناسقة وانتهى البيان المشهّد. تلاحقت جملة من

واللهجة الجذبة التي يتكلمون بها ثم الساعة جاوزت الساعة مساءً. ألا يرون الحزاي وهو يرفع الزكائب إلى الرفوف ليبدأ بإغلاق الدكان؟ أليس يكونون من جلمعي التبرعات، لكن سعد قد أفرج عنه وإنهت الثورة، وأنا لم أجد صالماً الآن إلا للسهرة يا هؤلاء اعلموا أنني لم أضل رأسي ووجهي بالكولونيا وأمسك شعري وشاربي وأحبك جيتي وقسطاني كي ألقى وجوهكم! ماذا تريدون؟ غير أنه خيل إليه وهو يرنو إلى محدثه أن وجهه ليس غريباً عليه، رآه من قبل؟ أين؟ متى؟ تذكر، من المؤكد أنه لا يراه لأول مرة، أه... قال بأسياً وقد شاع الارتياح في وجهه:

- أليس حضرتك الشاب النبل الذي تقدم لإنقاذنا في الوقت المناسب يوم حل الناس علينا في مسجد الحسين رضي الله عنه؟ فقال الشاب بصوت خفيض:

- بلى يا سيدي...

صدق عليّ، يقول البهاء إن الأحمر تضعف الذاكرة؟ لكن ما بالهم ينظرون لي هكذا؟ انظر، انظر؟ هذه النظرات لا تنبئ عن خير، اللهم اجعله خيراً، أعود بالله من الشيطان الرجيم. قلبي ينبض لأمر ما، جاموا لأمر يتعلّق بـ...

- فهمي؟ جثم تريدونه... لملكم؟

- نكس الشاب عينه ثم قال بصوت متعجّب:

- مهتناً شاكراً يا سيدي ولكنها فرض واجب، ربنا يلهكم الصبر...

مال السيد فجأة إلى الأمام معتمداً على حافة المكتب وهتف:

- الصبر؟ علام؟... فهمي؟...

قال الشاب بحزن بالغ:

- يؤسفنا أن ننمي إليك أختانا المجاهد فهمي أحمد...

صاح بلهجة منكورة وإن لاحظت في عينه نظرة قاطعة بالتصديق والباس:

- فهمي؟...

- استشهد في مظاهرة اليوم...

الطلقات الحادة فتعالى صراخ الغضب وأتت الأم، ماج بحر الخلق وهاج وتداخلت موجاته إلى جميع المنافذ لا تبقى على شيء في طريقها ولا تدر. اهرب، ما من الحرب يذ، إن لم يقتلك الرصاص قتلتك الأذرع والأقدام، همّ بالحرب أو بالتراجع أو حتى التحول من موقفه ولكنه لم يفعل شيئاً، ما وقوفك وقد تشتت الجميع؟ في غلاء أنت، اهرب... صلت عن ذراعيه وساقه حركة بطيئة وانية مترامية. ما أشدّ الضوضاء، ولكن يمّ علا صراخها؟ هل تذكر؟ ما أسرع ما تفلت منك الذكريات. ماذا تريد؟ أن تهتف؟ أيّ هتاف؟ أو نداء فحسب... من؟ ما؟ في باطنك يتكلم، هل تسمع؟ هل ترى؟ ولكن أين؟ لا شيء، لا شيء، ظلام في ظلام، حركة لطيفة تعرّد بانتظام كدقات الساعة ينساب معها القلب... تصاحبها وشوشة. باب الحقيقة. أليس كذلك؟ يتحرك حركة تمجيحية سائلة، يلذّب رويداً، الشجرة الساقطة ترقص في هودة، الساء... الساء؟ منبسطة عالية، لا شيء إلا الساء هادئة باسمه يقطر منها السلام.

## ٧١

سمع السيد أحمد عبد الجواد وقع أقدام على مدخل الدكان فرفع رأسه عن مكتبه فرأى ثلاثة شبّان يتقدّمون نحوه تعلوهم سياه الجعد والرزاة حتى وقفوا لصق مكتبه وهم يقولون:

- السلام عليكم ورحمة الله...

فنبض السيد قائلاً بأدبه المهود:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته (ثم مشيراً إلى الكراسي) تفضّلوا...

ولكنهم لم يلبّوا الإشارة شاكرين وقال أوسطهم:

- حضرتك السيد أحمد عبد الجواد؟

فقال السيد بأسياً وإن لاح في عينه التأؤل:

- نعم يا سيدي...

ماذا يريدون يا ترى؟ الشراء مستبعد...

للشراء والمشية العسكرية التي جاموا عليها! ما للشراء

وقال الذي إلى يمينه:

- انتقل إلى جوار الله وطنياً نبيلًا وشهيدًا كريمًا...  
تلقى كليتهم بأذن أصمها الشقاء على حين ختم  
الصمت شفثته واسترسلت عيناه في نظرة شاردة غائبة.  
مضت هنيهة ختم الصمت فيها عليهم أجمعين حتى  
جميل الحمزاوي تسمر تحت الرفوف ذاهلاً بمد إلى  
الرجل بصراً ملؤه الجزع، أخيراً عاد الشاب يغمغم:  
- لشد ما أحزننا فقدته ولكن ليس لنا إلا أن نتلقى  
نفساء الله بصبر المؤمنين، وإني لك لمن المؤمنين بما  
سيدي...

لأنهم يعزّونك، لا يعلم هذا الشاب أنك أول من  
يحسن إلقاء التعازي في مثل هذا الموقف... ماذا  
تعني هي للقلب المصاب؟ لا شيء! من أين للكلام أن  
يطفىئ النار... مهلاً... ألم تحضر الرزية بقلبك قبل  
أن يتكلم قائلهم؟ بل... تخاليل لعيني شبح الموت،  
الآن والموت حقيقة تلتقي إلى سمعك تأهي أن تصدق،  
أو تخونك شجاعتك فلا تريد أن تصدق، كيف أصدق  
أنّ فهمي مات حقاً، كيف تصدق أنّ فهمي الذي  
كان يطلب رضاك من ساعات فتناقلت عنه، فهمي  
الذي تركنا هذا الصباح مبتلياً بصحة وعافية وأملًا  
وسرورًا، مات... مات! لن أراه بعد اليوم لا في  
البيت ولا في أي مكان من ظهر الأرض؟ كيف يكون  
البيت من غير؟ كيف أكون أنا بعده؟ أين تدع  
الأممال المعقودة عليه؟ لم يعد ثمة أمل إلا في  
الصبر... الصبر؟ أه... هل تشعر بوخز الألم الحاد؟  
هذا هو الألم حقاً... كنت تتحدح أحياناً فتزعم أنك  
متألم. كلا. لم تتألم قبل اليوم، لهذا هو الألم حقاً...  
سيدي، شدّ حيلك وسلم أمرك إلى الله...

رفع السيد رأسه إلى الشاب، ثم قال بصوت  
مريض:

- ظننت عهد القتل قد انتهى...

فقال الشاب بنبرات غاضبة:

- كانت مظاهرة اليوم سلمية، وقد أذنت بها  
السلطات فاشتراك فيها صفوة الرجال من شق  
الهيئات، وسارت أول الأمر في أمان حتى بلغ منتصفها

حنيفة الأزيكية، وما تدري إلا والرصاص ينهال علينا  
من وراء السور بلا سبب، لم يترص أحد للجند لا  
بخير ولا بشر حتى اختلف بالإنجليزية امتعنا عنه  
تفادياً من الاستغزاز، ولكنهم منهم جنون القتل فجاءه  
فعمدوا إلى باندقهم وأطلقوا النار، وقد انعقد الإجماع  
على توجيه احتجاج شديد إلى دار الحماية، بل قيل: إن  
اللني سوف يعلن أسفه علماً بدر من الجنود...

قال السيد بنفس اللهجة المريضة:

- ولكنّه لن يردّ حيلة إلى ميت...

- وأسفاه!...

قال السيد بتفجع:

- لم يشترك في المظاهرات الخطرة، هذه أول مظاهرة  
ينضم إليها...

تبادل الشبان نظرة ذات معنى فلم ينبس أحدهم  
بكلمة... وكأنما ضاق السيد بالحصار المضروب حوله  
فقال وهو يزفر:

- الأمر لصاحب الأمر، أين أجله الآن؟

قال الشاب:

- في قصر العتيق، ثمّ وهو يشير إلى السيد متمهلاً  
لياً رآه يتسجّل اللهب، تستفتح جنازته مع ثلاثة عشر  
شهيداً من إخواننا في تمام الساعة الثالثة من مساء  
الغد...

هتف السيد في جزع:

- ألا يترك في تشييع جنازته من بيته!...

فقال الشاب بقوة:

- بل تشييع جنازته مع إخوانه في احتفال شعبي...  
ثمّ بجرأة:

- القصر عاصر الآن بقوّات من البوليس، ولا بأس  
من الانتظار ما دنا نحرص على تمكين أهالي الشهداء  
من توديعهم قبل تشييع الجنازة، لا يليق أن يشيخ  
فهني في جنازة عادية كمن قضوا في بيوتهم...  
ثمّ مدّ له يده مودّعاً وهو يقول:

- اصبر وما صبرك إلا بالله...

وصافحه الأخوان مكرّرين له العزاء، ثمّ ذهبوا  
جميعاً... أسند رأسه إلى راحته وهو يغمض عينيه

السعادة؟ رفع رأسه المقل بالفكر فلاحات لعينيه المظلمتين مشربيات البيت فذكر أمينة لأول مرة حتى أوشكت أن تخونه قدامه... ما عسى أن يقول لها؟ كيف تتلقى الخبر؟ الضعيفة الرقيقة التي تبكي لمصرع عصفورا! أتذكر كيف حملت دموعها للمقتل ابن الفولي اللبان؟ ماذا تصنع للمقتل فهمي؟... مقتل فهمي!... أهله هي ثيابك حطاً يا بني؟... يا بني العزيز التعميس!... أمينة... ابتنا قتل، فهمي قتل... يا له... أأمر بمنع الصوت كما أمرت بمنع الزهاويد من قبل؟... أم تصوت بنفسك أم تدمو الناحات؟... لعلها تتوسط الآن مجلس القهوة بين ياسين وكمال متسائلة عما أشر فهمي، سوف يتأخر طويلاً، لن تريه أبداً... ولا جئت، ولا نعمة، يا للقصة، سأراه أنا في القصر أما أنت فلن تريه، لن أسمح بهذا... قسوة أم رحمة؟ ما الفائدة؟... وجد نفسه أمام البيت فاعتلت يده إلى المطرقة ثم تذكر أن المفتاح في جيبه فأخرجته وفتح الباب ثم دخل... تراسى عند ذلك إلى سمعه صوت كمال وهو يغني بعلوية:

زورولي كل سنة مرة حرام الحجر بالمرة

فجاءه صوت جيل الحمزاوي وهو يعزبه بنبرات باكية، ولكنه بدا ضيق الصدر بالتمزية، ولم يعد يحتمل البقاء فزائل موضعه يسير بحفكي بعلية ثقيلة حتى غادر الدكان، ينبغي أن يخرج من حبرته، فإنه لا يدري حتى كيف يجزن، يود لو يخلو إلى نفسه ولكن أين؟ سينقلب البيت جحيماً بعد دقيقة أو دقيقتين، وسيلحق به الأصدقاء فلا يدهون له فرصة للتفكير... متى يتأكل الحسارة التي مني بها... متى يتجهأ له أن يغيب فيها من الدنيا جميعاً؟ يبدو هذا بعيداً... ولكنه أتى لا ريب فيه، وهذا قصارى ما يجد من عزاء في راحته... أجل سيأتي وقت يخلو فيه إلى نفسه ويفرغ إلى حزنه بكل كيانه، هنالك ينعم النظر في موقفه على ضوء الماضي والحاضر والمستقبل، أطوار حياته كلها من طفولته وصباه إلى ريق شبابه، ما أثار من آمال وما خلف من ذكريات مطلقاً لدموعه العنان حتى يستفدها من آخرها، حقاً أن أماله فسحة من الوقت يمسد عليها فلا داعي للجزع، انظر إلى ذكرى الملاحاة التي نشبت بينها عقب صلاة الجمعة أو ذكرى ما دار بينها هذا الصباح من استعطاف وعتاب، كم يستغرقان من وقته تأملاً وتذكراً وشجوناً؟ كم يستهلكان من قلبه؟ كم ييجان دموعه؟ كيف يجزع؟ الأيام تذكر له كل هذه





قَصِيرُ الشَّوْءِ



- ١ -

الشد اختلن في جوربه، وأغمض عينيه وهو يحثف  
بمديله جيته وخلفه وعنقه، على حين كانت أمينة  
تضع المصباح على الخوان، ثم وقفت تترقب قيامه  
لتساعده في نزع ثيابه، وهي تنظر إليه باهتمام مشوب  
بقلق، وتود لو تواتبها شجاعته فتسأله أن يعفي نفسه  
من الدأب على السهر الذي لم تعد تنهض به صحته  
بالاستخفاف الممهد قديماً. ولكنها لم تدرك كيف تفسح  
عن أفكارها الأسفية! تواتت دقائق قبل أن يفتح  
عينيه، ثم نزع الساعة اللعينة من قفطانة والحانم  
المناسي فأودعها داخل الطربوش، ثم نهض ليخلع  
الجبة والقفطان بمعاونة أمينة، هناك بدا جسمه كالمهد  
به: طولاً، وحرشاً، وامتلاء. لولا شميرات اختصصها  
المشيب من فوديه، وعنصها أدخل رأسه في طاقة  
الجلابيب الأبيض غلبه الانسجام فجأة، إذ ذكر كيف  
تفتأ السيد على عيد الرحيم الليلة في مجلس الأئس،  
وكيف اعتذر عن ضيقه ببر أصاب معدته. وكيف  
تعهدوا أن يعيروهم به زاعمين أنه لم يعد يحتمل  
الشراب، وأنه ليس كل الرجال من يستطيعون معاشره  
الخمر إلى نهاية العمر الخ الخ، وذكر كيف غضب  
السيد على وجد في دفع الرية عنه، يا عجيباً. لهذا  
أخذ يعير بعض الناس أهمية لهذه الأمور التواقة؟  
ولكن إذا لم يكن ذلك كذلك فلم فاعر هو في صخب  
الحديث الضاحك بأنه يستطيع أن يشرب حانة دون أن  
تضطرب له معدة؟

أغلق السيد أحمد عبد الجواد باب البيت وراءه،  
ومضى يقطع الفناء على ضوء النجوم الباهت في  
خطوات مترامية، وطرف عصاه ينفز في الأرض  
الترية كلما توكأ عليها في مشيته المتتابة. تشوق وجوانبه  
تحمي بمثل الوهج إلى الماء البارد الذي سيغسل به  
وجهه ورأسه وعنقه كي يطفئ - ولو إلى حين - من  
حرارة يوليه والنار المستمرة في جوفه ورأسه، فهش  
لفكرة الماء البارد حتى انبسطت أساريره. ولياً جاز  
باب السلم لاح له الضوء الوالي الملبط من أهل  
يتحرك على الجدران واثباً بحركة اليد القابضة على  
المصباح، فرمى على السلم يداً على الدرايزين ويذاً  
على عصاه التي بعث طرفها دقائق متتابعة اكتسبت من  
قديم لإفاناً خاصاً غدا يتم عنه كما تنم عنه سباته.  
وعند رأس السلم بدت أمينة والمصباح في يدها، حتى  
إذا انتهى إليها توقفت ومصدره يعلو وينخفض ريثما  
يسترد أنفاسه، ثم حيأها تحيته الليلية المألوفة قائلاً:  
- مساء الخير.

فغمضت أمينة وهي تتقدمه بالمصباح:  
- مساء الخير يا سيدي! .

في الحجرة هرع إلى الكنية فتهالك عليها، ثم  
تخلص من عصاه وخلع طربوشه، وطرح قذاله على  
السند ماداً ساقه إلى الامام حتى انحسر جناح الجبة  
عن قفطانته، وكشف القفطان عن رجلي سرواله

لسان، وذو الصوت المبحوح الذي يعقب على حوادث اليوم بلا تعب أو ضجر، وذو الصوت العصبى الذي يتعبد بخته في «الكومي» و«الولده»، ووالده هنية الطفلة المصابة بالسعال الديكى الذي يُسأل عنها فيجيب ليلة بعد أخرى «عند الله الشفاء»، آه... كأن المشربة ركن من القهوة هي جليسته. كانت ذكريات الطريق ترسم على مخيلتها وراء حنين لا تفارقان الرأس المتوسد لسند الكنية، فلما انقطع التيار تركّز انتباهها في الرجل فتيتت في صفحتي وجهه حمرة شديدة احتادت أن تطلعاها في أعقاب الليالي الأخيرة، ولم تكن ترتاح إليها فتصامت في إشفاق:

- سيدي بخير..؟

فاعتدل رأسه، وهو يتمتم:

- بخير، والحمد لله (مستتركا) ما أفلح الجوا!

الزبيب خير مُشكر في الصيف.. هكذا قالوا له وأعادوا، ولكنه لا يطيقه، فلما الرسكي وألا فلا. عليه إذن أن يعانٍ حمار سكرة صيف - وصيف شديد - كل ليلة. شدّ ما ضحك هذه الليلة.. ضحك حتى كلّت عروق عنقه. ولكن فهم كان الضحك؟! لا يكاد يذكر شيئا، وليس هناك شيء يروى أو يعاد، ولكن جَرّ المجلس كان مشحونا بكهرياء لطيفة بحيث إن أي لمسة كانت لمجدت اشتعالا، فما هو إلا أن قال السيد إبراهيم الفار: «أبحر الإسكندرية من سعد اليوم إلى باريس» وكان يقصد أن يقول: «أبحر سعد من الإسكندرية اليوم إلى باريس» حتى انفجروا ضلحكين، فمُدت «نادرة» من نوادر الحمر اللسانية. وابتدروهم قائلين: «وسيمكث في المفاوضة ريثما يسترده صحته، ثم يبحر إلى الدعوة ثلثية لندن التي تلقاها من» أو «وسيتل رامتزي مكندوالد من الاستقلال على الموافقة» و«يسعود حاملا مصر إلى الاستقلال»، وجعلوا يتحدثون عن المفاوضة المنتظرة ويعلمون عليها بما يحلوهم من المداجات..

حقا.. إنّ دنيا الأصدقاء على رحابتها تتلخص في ثلاثة: محمد عفت، وعليّ عبد الرحيم، وإبراهيم الفار.. فهل يستطيع أن يتصور للدنيا وجودا من دون

جلس حل الكنية مرة أخرى ومدّ ساقيه للمرأة التي راحت تملح الحذاء والجورب، وغابت عن الحجرة قليلا، وعادت بالطست والإبريق وجعلت تصبّ له الماء فيخسل رأسه ووجهه وعنقه ويتمضمض، وأخيرا ترتب في جلسته مستعرضا نسمة الهواء التي تهفو في لطف ما بين المشربة والنافذة المطلّة على الفناء.

- يا له من صيف فظيع صيف هذا العام!

فقالت أمينة وهي تسحب الشلّة من تحت السرير، وترتب بدورها عليها حل كتب من قلميه:

- ربنا يلطف بنا (ثم وهي تتنهد) الدنيا كلّها كوم وحجرة القرن كوم! السطح هو المتنفس الوحيد في الصيف بعد مغيب الشمس.

بدت في جلستها غيرها بالأس، نهفت واستطال وجهها، أو لعله تراءى أطول مما هو لا حلّ بالحقين من رفق، وقد انتشر المشيب فيها انحصر عنه متدليل رأسها من غصلات، فأضفى عليها روح كبر أكثر مما تستحق.. وغلظت الشامة في وجنتها قليلا، على حين تمّت حينها - إلى نظرة الخضوع القديمة - من شرود مُزج بالحزن، كما اشتكت حيرتها لما طرأ عليها من تغير. ولئن كانت قد رغبته به بدائى الأمر على سيل التمزّي إلا أنّها أخذت تصامد في قلق: أليست هي في حاجة إلى صحبتها ما دام في العمر بقية؟ بل! والآخرين في حاجة إلى صحبتها أيضا، ولكن كيف يعاد الشيء إلى أصله؟! ثم إنّها تقدّمت سنون، لعلها لم تكن بالكثرة التي تبرّد هذا التغير ولكنها بما يترك أثرا ولا شك.

هكذا كانت تقف في المشربة الليالي المتعاقبة تراقب الطريق من وراء الحصاص، فتري طريقا لا يتغير، والتغير يدب إليها غير متوان. وعلا صوت النادل في القهوة فتطأير إلى الحجرة الصامتة كالصدى، فابتسمت وهي تسترق النظر إلى السيد.

ما أحبّ هذا الطريق الذي يسهر الليالي سائرا إلى قلبها، إنه الصديق الخافل عن القلب الذي يجبه من وراء حصاص، معاله ملء نفسها، سياره أصوات حيّة تعيش في سامعها، هذا النادل الذي لا يستكنّ له

- نعم، أخبرني عمّد عَقَّتْ بِذَلِكَ الليلة! ..  
 - مَنْ؟  
 - موغلف يلدحى عمّد حسن، رئيس إدارة  
 المحفوظات بالمعارف.  
 فتساءلت بوجوم:  
 - يلدو آتَه متقدّم في السن؟  
 فقال كاللمترض:  
 - كلّاً، في الحلقة الرابعة، خمسة وثلاثين.. ستة  
 وثلاثين.. أربعين عامًا على الأكثر!  
 ثمّ بلهجة تحكّمية:  
 - جرّبتُ حقّها مع الشباب فأخفقت، أعني  
 الشباب الذين لا يرفعون رأساً، فلتنجربَ حقّها مع  
 الرجال العقلاء!  
 فقالت أمينة بأسف:  
 - كان ياسين أوّلُ بها، على الأقلّ من أجل خاطر  
 ابنها..  
 كان هذا رأي السيّد، وعنه دافع طويلاً لدى محمّد  
 حقّت، بيد أنّه لم يعلن موافقته على رأيا مداواة لخبية  
 مسماه، فقال مستحقّاً:  
 - لم يعد للرجل به من ثقة، والحقّ أنّه غير جدير  
 بالثقة، لذلك لم ألتجّ عليه، لم أقبّل أن استقلّ صداقتنا  
 في حله على ما لا خير فيه..  
 فتمخضت أمينة في شيء من الإشفاق:  
 - هفوة شباب لا يضيق عنها العفوا!  
 هان على السيّد أن يعترف بجائاب من مسماه  
 الخائب، فقال:  
 - لم أقصّر في حقّه ولكنّي لم أصادف ترحيباً، وقال  
 لي عمّد حقّت برجاه: وإنّ السبب الأوّل في اعتذاري  
 هو إشفائي من تمرّض صداقتنا إلى الشقاق، وقال  
 لي أيضاً: ولا أستطيع أن أرفض لك رجاء، ولكنّ  
 صداقتنا أضرّ لدنّي من رجائك.. فأمسكت عن  
 الكلام..  
 قال عمّد عَقَّتْ هذا حقّاً، ولكنّه لم يصرّح به إلّا  
 مدافعة لإلحاحه. والحقّ أنّ السيّد كان شديد الرغبة في  
 وصل ما انقطع من مصاهرة عمّد عَقَّتْ لمكاته من

وجودهم؟! إنّ إشراق وجوههم بالبشر الصادق حين  
 رؤيته، سعادة لا تदानها سعادة. التقت عيناه الخلتان  
 بعينيّ أمينة المستظلتين، فقال وكأنّه يذكرها بأمر هامّ:  
 - غداً..  
 فقالت، وقد شاعت في وجهها ابتسامة:  
 - كيف أنسى!  
 فقال بشيء من الفخار لم يحاول مداراته:  
 - قبل لي إنّ نتيجة البكالوريا كانت سيّئة هذا  
 العام..  
 فقالت وهي تشاركه فخاره بمعاودة الابتسام:  
 - ربّنا ينتج مفاصده، وعدّ في عمرنا حتّى نشهد  
 نجاحه في الدبلوم..  
 فتساءل:  
 - هل ذهبتِ اليوم إلى السكّرية؟  
 - نعم، ودعوتهم جميعاً، وسوف يصطرون إلّا  
 الست الكبيرة التي اعتدلت بتبعها، فقالت: إنّ ابنها  
 سينيوان عنها في تبتة كمال.  
 فقال السيّد، وهو يوسّس بذقنه صوب جبهته:  
 - جامعي اليوم الشيخ متوكّي عبد الصمد بأحجية  
 لأولاد خديجة وعائشة، ودعا لي قاتلاً: وإن شاء الله  
 أعمل لك أحجية لأولاد أسفادك..  
 ثمّ وهو يبرّز رأسه بأسياً:  
 - لا شيء على الله ببعيد، ها هو الشيخ متوكّي نفسه  
 كالخديد رغم الثمانين!..  
 - ربّنا يمتك بالصحة والعافية!  
 فتفكّر مليّاً، وهو يعدّ على أصابعه، ثمّ قال:  
 - لو امتدّ العمر بأبي - رحمه الله - ما زاد على عمر  
 الشيخ كثيراً..  
 - رحم الله الراجلين..  
 وخيّم الصمت ريثما ذهب الأثر الذي تركه ذكر  
 (الراجلين)، ثمّ قال الرجل بلهجة تمّ تذكّر أمراً  
 هامّاً:  
 - زين خطبت!  
 اتّسمت عينا أمينة، وهي ترفع رأسها قائلة:  
 - حقّاً!..  
 - حقّاً!..

- لو أن الأمر أمر مقام ما عدل بابنك أحداً، عل الأقل من أجلك أنت..

فشعر باستياء حتى لعن في سره - عل حبه - محمد عفت، ولكنّه عاد يبرّ خطاً تحت النقطة التي يتعزى بها، فقال:

- لا تنسني أنّه لولا حرصه عل أن يضع صداقتنا في حوز حريز ما تردّد عن قبول رجائي..

فقالت أمينة معربة عن نفس الإحساس:

- طبعاً، طبعاً يا سيدي، إنّها صداقة العمر، وليست لهواً ولعباً.

عابده التناوب مرّة أخرى، فتمتم قائلاً:

- خلني للمصباح خارجاً..

قامت أمينة لتنفذ أمره فأغمض عينيه قليلاً، ثمّ غض دفعة واحدة كأنها ليقاوم الكسل وأنّجه نحو الفراش فاستلقى عليه... إنّهُ الآن خير حالاً! ما أهنأ الرقاد بعد التعب! أجل. لا يخلو رأسه من نبض قارع، ولكنّ رأسه لا يكاد يخلو من شيء ما، فليحمد الله عل أيّ حال! الصفاء الكامل ماضٍ مغنى، ثمة شيء نفقده كلّنا خلونا إلى أنفسنا ولكنّه لا يعود، يلوح لنا من الماضي بلذكرى شاحبة كهذا الضوء الخافت الذي تشفّ عنه شراة الباب. فليحمد الله عل أيّ حال! ولينعم بحياة يغبطه عليها الغابطون! الأجدى أن يقطع برأي فيها إذا كان سيقبل الدعوة أم لا، أو فليدع ما للغد للغد، إلّا ياسين.. فإتة مسألة الأمل واليوم والغد، ليس صغيراً من بلغ الثامنة والعشرين، وليس المشكل أن يبحث له عن زوجة أخرى، ولكنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم. متى تسطع هداية الله فتصلاً الأرض حتى يهر نورها الأملين؟ هنالك بيتف من الأعماق أنّ الحمد لله، ولكن ماذا قال عمّد عفت؟ إنّ ياسين يصول ويحول في الأزيكية حتى سراديبها.. كانت الأزيكية مغنى آخر حينما كان هو يصول فيها ويحول، وهزه الحنين مرّات إلى معاودة بعض مشاربها إحياء للذكريات، فليحمد الله عل أنّه علم بسرّ ياسين قبل أن تعلّم، ولأضحك الشيطان من أصباق قلبه

نفسه ومكانة أسرته من المجتمع، ولم يكن يطعم في أن يجد لياسين زوجة خيراً من زينب، ولكنّه لم يسمع إلّا التسليم بالهزيمة، خاصّة بعد أن صارحه الرجل بما يعلم عن حياة ياسين الخاصّة، حتى قال له: ولا تقل لي إنّنا نحن أنفسنا لا نختلف عن ياسين، فالحقّ أنّنا نختلف بعض الشيء، والحقّ أنّي لا أرتضي لزينب ما ارتضيت لأمناء.

تساءلت أمينة:

- هل علم ياسين بما كان؟

- سيعلم غداً أو بعد غد، هل تريه يكثر لذلك؟ إنّهُ أبعد ما يكون عن تقدير الزيجة المشرفة..

فهزّت أمينة رأسها أسفاً، ثمّ تساءلت:

- ورضوان؟

فقال السيّد مقبلاً:

- سيبي عند جدّه، أو يلحق بأمّه إن لم يصبر عل فراقها، الله يخيّر من خيره..!

- مسكين يا ربّي، أمّه في ناحية وأبوه في ناحية، أطلق زينب فراقه..؟

فقال السيّد فيها يشبه الأزدياء:

- للضرورة أحكام (ثمّ متسألماً) متى يبلّغ السن؟.. ألا تذكرين؟

فطغرت أمينة قليلاً، ثمّ قالت:

- إنّهُ أصغر قليلاً من نعمة بنت عائشة، وأكبر قليلاً من عبد المنعم ابن خديجة، فيكون في الخامسة يا سيدي، سوف يستردّه أبوه بعد عامين، أليس كذلك يا سيدي؟

قال السيّد، وهو يتألم:

- يا ترى من يعيش (ثمّ مستطرداً) وكان متزوّجاً، أمني الزوج الجديد!

- وله أولاد؟

- كلّاً لم ينجب من زوجة الأولى..

- لعلّ هذا ما حسنه في عيني السيّد عمّد عفت..

فقال السيّد بامتعاض:

- ولا تنسني مقامه..

فقالت أمينة معترضة:

كيف تكون مسرة دون تأنيب أو توجس خيفة.  
قدماً استخريت السنين فأجابني بأن تاريخ ابتدائية هذا  
سيوافق تاريخ ليسانس ذلك، حصل لم يحج وتذر لم  
يوف. ١٩ .. ٢٠ .. ٢١ .. ٢٢ .. ٢٣ .. ٢٤ ..

شباب العمر الياق الذي حُرمت من احتضان يمه،  
من قسمة التراب كان، يا انصداع القلب الذي  
يسمونه الحسرة.

- سطر ح عاتشة بالبقلاوة، وتذكر أيام زمان يا  
سقي...

سطر ح عاتشة وأتم عاتشة سطر ح أيضاً، نهار وليل  
وشيع وجوع وقظعة ونوم، وكأن شيئاً لم يكن. سلى  
الزعيم الذي زعم بأنك لن تعيش بعده يوماً واحداً،  
عشت لتحلني بترتي، إذا زلزل القلب فليس معناه أن  
تزلزل الدنيا، كأنه نسى نسى حتى تزار المقابر، كنت  
ملء العين والنفس يا بني ثم لا يذكر ونك إلا في  
المواسم، أين أنتم يا هؤلاء؟ كل مشغول بشواغله،  
إلا أنت يا خديجة قلب أنك وروحها حتى وصيتك  
يوماً بالصبر، لم تكن كذلك عاتشة، مهلاً لا ينبغي  
أن أكون ظلمة، حزنت حزنها كما ينبغي، كمال لا لوم  
عليه، رفقاً بالقلوب الغضة، بات الأول والأخير،  
شاب شعرك وصرت كالخيال، هكذا تقول أم حنفي،  
لا كانت الصبغة ولا كان الشباب، تقارئين المحسين  
وهو لم يتم العشرين، حبلى ورحم وولادة ورضاعة  
وحب وأمال، ثم لا شيء... ترى هل خلا من  
الأفكار رأس سيني؟ دعيه وشأنه ليس حزن الرجال  
كحزن النساء، هكذا قولك يا أمي جعل الله الجنة  
مثواك، يحز في نفسي يا أمي أنه عاد إلى سيرته، كأن  
فهمني لم يمت، وكأن ذكره قد تبخرت، بل يلومي كلها  
لج في الحزن، ليس هو أبه كما أنا أمه؟... يا أمينة  
يا مسكينة... لا تفتحي صدرك لهذه الأفكار... لو  
صح أن تحكم على القلوب بقلب الأم لبدت القلوب  
أحجاراً... إنه رجل وليس حزن الرجال كحزن  
النساء... لو استسلم الرجال للأحزان لنامت بها  
كراهلهم المظلة بالأعياء، عليك إذا أنست منه حزناً أن  
تسري عنه... إنه ركنك يا ابنتي المسكينة. غاب

الهازئ. أومعوا الطريق للأبناء فقد شيوخاً، عنها صلك  
الاستراتيجون أول الأمر، وأخيراً هذا البصل  
الاستراتيجي...

- ٢ -

تابعت دقات المعجين من حجرة القرن في هدأة  
السحر مع صباح الديكة، كانت أم حنفي مكبة على  
جرة المعجين بجسمها اللحيم، يلوح وجهها ريان على  
ضوء المصباح المنبعث من فوق سطح القرن، لم ينل  
الكبر من شعرها ولا شحمها ولكن شابست ملاعها  
جهامة واخشوشنت قسباتها، وإلى يمينها تعلت أمينة  
على كرسي الطبخ تفرش ألواح المعجين بالردة استمداً  
لاستقبال الأقراص، ثوابيل العمل - في صمت - حتى  
توقفت أم حنفي من المعجين. فاستخرجت يدها من  
الجرة ومسحت حل جبينها البتل بالعرق بطن مرفقها،  
ثم لوت بقبضتها المنطاة بالمعجين كفتاز سلاكمة  
أبيض، وقالت:

- أمامك يا سقي يوم شاق ولكنه للذي، كثر الله من  
أيام السرد...

لفمغت أمينة دون أن ترفع رأسها عن عملها:

- علينا أن نلثم مائدة شهية...

فابتسمت أم حنفي، وهي تومئ بلفظها إلى سيدتها،  
قائلة:

- البركة في المعلمة...

ثم غرست يدها في الجرة مرة أخرى، وعادت إلى  
ملاكمة المعجين.

- وددت لو قنعنا بتوزيع الثريد على فقراء الحسين.

فقال أم حنفي بلهجة معاتبة:

- لن يكون بيتنا غريب.

فتنتمت أمينة بصوت لم يخل من ضيق:

- ولكنها وليمة وضجة على أي حال، فؤاد ابن

جميل الحمازوي نال البكالوريا أيضاً، ولا تزن رأى ولا

من سمع!!

ولكن أم حنفي أصرت على المعاتبة، قائلة:

- ما هي إلا فرصة نجتمع فيها بمن نحب...

أنفسنا وراء من نحبهم إذا ذهبوا؟! في عام الحدا  
والتشقق كاد الحزن يقتله قتلاً، عام طويل لم يلق فيه  
شرباً، ولم يسمع نغماً، ولم تتدّ عن فيه ملحّة حقّ  
شابت شعيراته... أجل لم يتسلّل الشيب إلى شعره  
إلا في ذلك العام، رغم أنّه عاد إلى الشراب والسباع  
رحمة بالأصدقاء المقرّبين الذين انقطعوا عن اللذات  
إكراماً لحزنه، كذب وصدق، عاد إلى الشراب لنفاد  
صبره ورحمة بالأصدقاء الثلاثة، لم يكونوا كالأخرين،  
وما على الآخرين من ملام، حزناً لحزنك، ثمّ جعلوا  
يراحون بين مجلسك الجافّ ومجالسهم النديّة فأيّ  
تثريب عليهم؟! بيد أنّ الثلاثة المحيّين أبوا أن ينالوا  
من الحياة نصيباً أوفى ممّا ارتضيت لنفسك، وعدت  
رويضاً إلى أشياء، إلا المرأة رايتها كبيرة فلم يلحوا  
عليك أوّل الأمر، لشدّ ما تأيبت وحزنت، لم يؤثر فيك  
رسول زيلة، رددت أمّ مريم بوقار حزين حازم وأنت  
تكايد آلاماً لا يقيّل لك بها، ظننت أن لن تعود أبداً،  
وخاطبت نفسك المرّة تلو المرّة... «أعود إلى أحضان  
الفواني ولهمي في قبضة التراب؟!» آه... ما أحوجنا  
في ضعفنا وتعبنا إلى الرحمة! فليداوم على الحزن من  
يضمن ألا يموت غداً، من قال هذه الحكمة؟ واحد  
من اثنين: عليّ عبد الرحيم أو إبراهيم الفار. عمّد  
حقّت بك لا يهود بالحليكم، رفض رجائي، وزوّج  
البت من رجل غريب، ثمّ ضحك عليّ بالقبل، لا  
ينكر غضبه ويشفق من أن يطالعني به كما وقع قديماً،  
هو أيّ وفاء وأيّ ودّ أتذكر كيف استرجّ دمه  
بدمك في القرفة؟ ولكنّه القاتل فيها بعد وأخاف  
عليك الكبر إن لم تفعل... تعال إلى العمّامة. ولما  
أنس ترفقاً قال: ولكن زياره بريشة... لن يجرّدك  
أحد من ملايسك ويريمك على امرأة. لم أحزن قليلاً  
علم الله، بموته مات جزء جسم منّي. مات أملي  
الأوّل في الدنيا، منذاً يلومني على الصبر والعزاء؟ قلبي  
جريح وإن ضحك! ترى، كيف هنّ؟ ماذا فعل بهنّ  
الزمان في خمسة أعوام؟ خمسة أعوام طوال؟

\*\*\*

كان شخير ياسين أوّل ما تلقّني كمال من عالم

ذلك الصوت الحنون وصادف قلبي مترعة بالحزن  
فلم يكذبني أحد، وشهد شاهد حكمته ليلة عاد في  
أخريات الليل لملاً، ثمّ ارتقى على الكتبة مجهشاً في  
البكاء، وتحمّيت ليلتيّ له السلامة ولو بالنسيان  
الأبدّي، أنت نفسك ألا تنسين أحياناً؟ ثمة ما هو  
أفطع من ذلك، هو تحمّلك بالحياة وحرصك عليها.  
هذه هي الدنيا. هكذا يقولون! فتردّدين ما يقولون  
وتؤمنين به. كيف جاز لك - يوماً - بعد هذا أن تحنّقي  
على ياسين يرمه ومواصلة مالوف الحياة! مهلاً، الإيمان  
والصبر... سلّمي إلى الله، فكّل ما جاك من عنده،  
وأمّ فهمي، إلى الأبد، سوف أظلّ ما حسيت أمك يا  
بني وتظلّ ابني...

تابعت دقائق المعجن، ففتح السيّد عينيه على نور  
الصباح الباكر، وراح يتمكّل ويتأبّب بصوت مرتفع  
مخطوط، تصاعد كالندم أو الاحتجاج، ثمّ جلس في  
الفراش مستنذاً براحيته على ساقيه المملودتين، فهذا  
ظهوره مقوّساً وقد نضح أعلى الجلباب الأبيض بالعرق،  
وجعل يحرّك رأسه بمنّة ويرة كأنّما لينفض عنه وطأة  
الوخم، ثمّ انزلق إلى أرض الحجرة، ومضى متهادياً  
إلى الحمام إلى الدشّ البارد... الدواء الوحيد الذي  
يخفّر عليه بدنه فيعيد إلى رأسه أثّرائه وإلى نفسه  
احتدائها، تجرّد من ثيابه، ولما تعرّض لرشاش الماء  
وردت ذهنه ذكرى الدعوة التي وُجّهت إليه أمس،  
فخفق فؤاده الذي تلقّى الذكرى والإحساس المتعش  
بالماء البارد ممّا، عليّ عبد الرحيم قال: ونظرة إلى  
الوراء، إلى حبيبات زمان، لا يمكن أن تمحي الحياة  
هكذا إلى الأبد، إنّي أعرف الناس بك. أتقديم على  
هذه الخطوة الأخيرة؟ خمس سنوات مضت وهو يأن  
أن يخطوها. أكان تاب إلى الله توبة مؤمن مصاب؟ أم  
أضمر التوبة وخاف أن يجرّ به؟ أم أطلقها نيّة صادقة  
دون تورّط في التوبة؟... لا يذكر، ولا يريد أن  
يذكر، ليس صغيراً من يدنو من الخامسة والخمسين.  
ولكن ما فكره قد تغلغل وتزلزل؟ كحاله يوم دُهي  
إلى السباع قلبي، هل يلتي النداء إلى حبيبات زمان  
بالمثل؟ متى يبعث الحزن ميتاً؟ هل أمرنا الله أن نهلك



عابرة. صادفها بعد ذلك في الموسكي مع أمها، فالتفت الأعين حل سهوة، ولكن سرعان ما لاح فيها العرفان، وثمت بسبات لا تكاد ترى بالعين المجردة عن عرفانها، فتحرّك قلبه، تحرّك للعرفان - فحسب - أول الأمر، ثمّ للطف الأثر الذي خلّفه وجه حاجي مكحول العينين، وجسم نابض بالقوّة والحويّة، ذكره بزنب في إيانها... فمضى إلى طيّه متفكراً هالماً. غير أنّه بعد خطوات، أو حال هبوطه إلى قهوة أحمد عبده، هفّت عليه ذكرى حمزة بثت في قلبه الشجن، بُعث فهمي في خياله بشقّ ذكرياته: صورته وأماراته وأسلوبه في الحديث والحركة ففتر وجهه وباح وغشيه حزن غليظ، يجب أن ينتهي كلّ شيء... لم؟...

عاد يتساءل بعد ساعة، أو بعد أيام، فكان الجواب: فهمي... آية علاقة بين الاثنين؟. وديوماً أن يخطبها، ولمّ لم يفعل؟... أبوك لم يوافق. فقط؟... هذا في الأقل أصل المسألة. ثمّ جاءت فضيحة الإنجليزيّ، فمحت ما بقي من أثر بايت... أثر بايت؟... أجل لأنه حل الأرجح كان نسي. إذن نسي أولاً، وبذل أخيراً؟ نعم، فآية علاقة هنالك؟... لا علاقة؟ ولكن!!... أهني شعور الأخوة، هل يمكن أن يرقى شكّ إلى شعورك؟... كلّ وألف مرّة كلّاً. الفتاة تستحقّ... نعم، وجهها وجسماً؟... وجهها وجسماً فما انتظارك؟...

في النافلة كان يلحمها حيناً بعد حين، ثمّ فوق السطح... فوق السطح مرّات، ومرّات... لم طلّقت؟... لسوء في خلق زوجها، فيكون الطلاق من حسن حظّها. أو لسوء في خلقها فيكون الطلاق من حسن حظك أنت. - قم أولاً غلبك النوم.

تظلم وهو يتخلّل شعره الملهوج بأصابه الغلاظ، ثمّ قال:

- يا بختك بعطنتك المدرسيّة الطويلة!
- ألم أستيقظ قبلك؟
- ولكن يوسعك أن تواصل النوم إذا شئت...
- لا أشاء كما ترى...

البقطة، فلم يتالك أن يناديه وهو إلى معاكته أرغب منه إلى إيقافه في ميعاده، ولاحقه بصوته غير متوائٍ حتى ردّ عليه الآخر بصوت كالترع تشكّياً وتلمّزاً، ثمّ تقلّب بجسمه الضخم فطغظ الفرائش فيها يشبه الأنين والتوجّع ثمّ فزع عينين حراوين وتأوّه.

لم يكن ثمة - في رأيه - ما يدعو إلى هذه المعجلة ما دام أحد منها لن يذهب إلى الحفام قبل عودة الأب منه، لم يعد من السير استعمال حَمّ الدور الأول منذ قضى التنظيم الجليل للبيت - منذ خمسة أعوام - بنقل الحجلات إلى الدور الأعلى فيها عدا حجرة الاستقبال والصالة المتصلة بها التي فُرشت بأثاث بسيط باعتبارها مدخلاً لها، ومع أنّ ياسين وكمال لم يرتحبا - قطّ - بالإقامة مع الأب في دور واحد، إلّا أنّهما لم يعبدا بدأ من احترام الرغبة في مقاطعة الدور الأول الذي لم تعد تدخله قدم إلّا حين يلتمّ بالبيت زائر. أغمض ياسين عينيه، ولكنّه لم يتم، لا لأنّ معاودة النوم كانت حيناً فحسب، ولكن لأنّ صورة انبعثت في خياله فأشعلت إحساسه... وجه مستدير، تتوسط صفحته العاجيّة هينان سوداوان. مريم! فاستجاب لداعي الأحلام... واستسلم لتخدير ألفد من تخدير المنام.

قبل أشهر معدودات، لم تكن بالنسبة إليه موجودة قطّ، وكأنّها لم تكن، حتى سمع أمّ حنفي تتحدّث - ذات مساء - إلى امرأة أبيه، فتقول: وأما سمعت بالخبر يا سقّي؟... ست مريم طلّقت من زوجها وعادت إلى أمّها هنالك عاوده ذكر مريم، وفهمي، والجنديّ الإنجليزيّ، صديق كمال وإن غاب عنه اسمه، ثمّ ذكر بالتالي اهتمامه القديم بشخصيتها الذي جاش بها صدره عقب ذبوع الفضيحة، ما يلدي إلّا وقد أضاءت فجأة في نفسه لوحة معتبرة، كما تغيّء الإعلانات الكهربائيّة في الليل، سُطّر عليها ومريم... جارتك... الجدار لصق الجدار... مطلقاً... ذات تاريخ وآن تاريخ... أبشره، ولكنّه ما لبث أن جفل من نفسه، لأنّ اقترانها بذكرى فهمي صمته وآله وأهاب به أن يفلق هذا الباب وأن يُحكّم إغلاقه، وأن ينم - إن كان ثمة ندم - على فكرة خفيّة

الرمال... وخلق كثيرون يحظون بحبك... أنا... أنا الذي خفقت قلبه تنن لشكاتها الجدران فأتلقى في سفير الانتظار. هيهات! أن تنسى وجهك المنطلق باليسر وأنت تغتمغن: «سنسافر غداً... ما أجمل رأس البراء ولا اكتنابي وأنا أتلقى نذير الفراق من ثغر يومض بمنسا السرد كمن يتلقى السم مدسوساً في طاقة من الزهر الفواح، ولا غيرتي من الجهاد الذي قدر على إسماعك حون عجزت وحظي بموكتك حين حرمت. ألم تلحظي حين الوداع اكتنابي؟ كلاً لم تلحظي شيئاً، لا لآتي كنت واحداً بين كثيرين ولكن لأتلك يا حبيبة لا تلحظين... كأنما كنت شيئاً لا يسترعي انتباهك... أو كأنما أنت مخلوق بديع غريب استوى فوق الحياة يطالمننا من علل بعينين هاتمتين في ملكوت لا ندره... هكذا وقفنا وجهها لوجه... أنت شعلة من سعادة سادرة، وأنا وماد من وجوم وكابة... تحظين بحرمة مطلقة أو تدعين لسنن فوق مداركناء وأنا أدور في فللكك مجلوساً بقوة هائلة... كأتك الشمس، وكأني الأرض، هل وجدت عند الشاطئ حرية لم تنعمي بها في مغاني العباسية؟ كلاً، وحق قدرك عندي... لست كالآخرين... في حديقة القصر والطريق، آثار عاطرات لقدميك... وفي قلب كل صديق ذكريات وآمال... أنسة سهلة متمعة، تطوف بنا على غير مثال، كأن الشرق قد استورها الغرب في ليلة القدر... أي جليلد من الجود ترى تبين إذا امتد الشاطئ وترامى الأفق واكتظ الساحل بالمعجيين؟ أي جليلد يا أملي وحسرتي؟! القاهرة في غيبتك خواء تنضج كابة ووحشة، كأنها عكارة الحياة والأحباء... ثمة مناظر ومعالم، ولكننا لا نحاطب وجدداً ولا نحرّك قلباً، كأننا عاديات الدنيا وذكرياتها في قبر فروهوني لم يفض... ما من مكان بها يبدني بعزاء أو تسلية أو مسرة... إخالني حيناً مختنفاً وحيناً سجيناً وحيناً مفقوداً ضالاً غير مفقود. يا عجباً أكان وجودك ينيل أملاً أقدنني البهاد؟ كلاً يا قضايتي وقذرتي، ولكنك كالأمنية، الاستغلال بجناحتها بزد وسلام وإن

ضحك ياسين ضحكة لا معنى لها، ثم تسأل:

- ما اسم الجندي الإنجليزي صديقك القديم؟

- أوه... جوليون...

- أجل جوليون...

- ما الذي دعاك إلى السؤال عنه؟

- لا شيء!!

لا شيء؟ ما أسخف لساننا، اليس ياسين خيراً من جوليون؟ في الأقل جوليون عابر وياسين مقيم، في وجهها شيء يتسم إليك دواماً، ألم تلاحظ ماثرتك على الظهور فوق السطح؟ بل وذكر جوليون، ليست ممن يفوتن معنى، وقت تحيك... أول مرة أدارت رأسها باسمه، في المرة الثانية ضحكت، ما أجل ضحكتهما في الثالثة أشارت إلى أسطح البيوت مخدرة، ساعود بعد الغروب. هكذا قلت في جرة، ألم يرسل جوليون إشارته من الطريق العام؟

- لشد ما أحببت الإنجليزي في صفري!... انظر كيف امقتهم الآن مفتاً...

- سعد بطلق سافر ينشد صداقتهم!

هتف كمال بحدة:

- والله لا يفضنهم ولو وحدي...

وتبادلاً نظرة أسمى صامتة، تنهى إليها وقع قبكاب السيد وهو راجع إلى حجرته مبسلاً عوقلاً، فانزلق ياسين إلى الأرض وغادر الحجرة وهو يتثاءب.

فقلب كمال على جنبه ثم استلقى على ظهره مسترخياً وثى ساعديه شابكاً راحته تحت رأسه، ومضى ينظر فيها أمامه بعينين لا تريان شيئاً... لتسعد بك رأس البراء لم تحلق يشرك الملائكية لتصل حر القاهرة، فلتنطج بموت قدميك الرمال، وليهنا بمشهدك الماء والهواء، سوف تشمدين بالمصيف، وعيناك تنطقان بالمرّة والحين، فأتطلع إليها بقلب مشوق وعين تسائل الغيب - في حرة - عن المكان الذي استهواك فاستحق عن جدارة رضاك... ولكن متى تعودين ومتى ينسكب في أفني تريفك المسحور؟ كيف المصيف؟ ليتني أدري... قيل إنه حرية كالهواء، ولقاء بين أحضان الماء، وأهواء بعدد حبسات

اعتصمت بالحوال، هل يُقني المشتاق المتطلع إلى ظلمة الساء معرفته أنَّ البدر يسطع فوق المكان الآخر من الأرض؟ ... كلاً وإن لم يدر للبدر امتلاكاً. إنما أطمع إلى الحياة في صميمها ونشوتها ولو يفادح الألم، بل أنت حالة في ما خلق الفؤاد والفضل لهذا المخلوق السحري: الذاكرة. هن إجازها غفلت حق عرفتك، اليوم أو غداً أو بعد دهر في العباسية أو رأس البر أو في أقصى الأرض لن تخرج غيظي عنك السوداء والسجبان، وحاجبك المقرونان، وأنتك السوي اللطيف، ووجهك الدرّي الخمرى، وبيدك الطويل، وقامتك الهيفاء، وما شئت من سحر يكتفك مزيئاً بكل وصف مسكراً كمرف الفلّ والياسمين، لا ملكن هذه الصورة ما ملكت الحياة، وبعد الحياة لتقوّن حوائق وموانع فيكون المصير لي... إلى وحدي بما أحببت هذا الحب كله... وألا فخريني عن معنى هذه الحياة ينشد أو عن طعم للخلود يرام. لا تزعم أنك سبرت جوهر الحياة إلا أن تحب، السمع والبصر والذوق والجدّ واللهم والمودة والظفر مسرات تبوي عند من فعم الحب قلبه، من أول نظرة، يا قلبي. ما ارتدّت عنها عياني حق آمنت بأنّها زيارة مقيم لا زيارة عابر، لحظة خاطفة حاسمة، ولكن في مثلها تخلق الأرواح في الأرحام وتزلزل الأرض... رياه لم أهد أنا... قلبي تلاطمه جدران الأضلع، أسرار السحر تنفث معانيها، العقل يتهاوى حق يسّ الجنون، اللذة تسطع حتى تعاقب الألم، أوتار الوجود والنفس تمجد بالنغم المكتون، دمي يصرخ مستغيثاً لا يدري ممّ يستغيث، الأعشى يهرى والكسيح يسير والميت يحيا، حلفك بكلّ حزيز ألا تذهبي أبداً، أنت يا إلهي في الساء وهي في الأرض، آمنت بأنّ ما مضى من حياتي كان تمهيداً لبشارة الحب، لم أمت صغيراً ولم ألق بمدرسة غير فؤاد الأول ولم أصادق أول ما صادقت من تلاميذها حسين ولم... ولم... كل أولئك كي أذهى يوماً إلى قصر آل شداد، يا للذكرى يكاد القلب من وقعها يقتلع، كنت وحسين وإسمايل وحسن منهمكين في شقّ الأحاديث حين ورد مسلمنا

صوت رنيم عينا، التفت وأنا من الدهول في غيبة... من تكون القادمة؟... كيف لفظة أن تقتحم على غرباء مجلسهم؟... ثم سرعان ما انقطعت عن التساؤل... وتناست التقاليد جيئاً... وجدفتي حيال خلق لا يمكن أن يكون من هذه الأرض جاء. بدت وكأنها صديقة للجميع إلّا، فقال حسين يعارف بيتنا: «صديقي كمال... أخوتي عابله ليلتلي عرفت لم خلقت... لم أم... لم دفعتني المفاهيم إلى العباسية، وحسين، ولصر آل شداد، متى كان فلك؟ كان الزمان نسيّاً منسياً وأسفاً إلا اليوم، كان يوم الأحد... عطلة مدرستها الفرنسية الذي صادف عطلة رسمية لعلها مولد النبي، وهل اليقين كانت مولدي أنا، ما قيمة التاريخ؟ سحر التقوم آله يوهنا بأن الذكرى بُعث حية وتعود ولو أنّ شيئاً لا يعود، لن نقف نحمد في البحث عن التاريخ، ولن نقف تردّد مطلع السنة الثانية بالمدرسة... أكتوبر نوفمبر... حين زيارة سعد للمصعيد وقبل نفيه للمرة الثانية... مستخبراً الذاكرة والشواهد والأحداث وليس إلا أنك تشبّت تشبّت اليأس باستعادة سعادة مفقودة وعهد مضى إلى الأبد. لو ملحت بك عند التعارف كما كنت لصافحتك فعرفت منها، وهو ما تتخيّله حيناً بعد حين بشعور ملؤه الشكّ والهيام، كأنما هي مخلوق غير جسيان لا من له... وهكذا ضاعت فرصة كالحلم كما ضاع الزمان، ثم أقبلت على صديقها تحادثها وعادتها - بشير كلفة - وأنت قابع في مقعدك تحت الكشك تكابد حيرة المشتبّق بتقاليد حيّ الحسين، حتى عدت تتساءل: ترى، أي تقاليد خاصة بالصور، أم نفحة من باريس التي نشأ المبهود بين أحضانها؟... ثم تستغرق في رخامة الصوت وتستطعم نبراته وتنثني بتفسيره وتمتلئ بكلّ حرف يندّ عنه، ولعلك - يا مسكين - لم تترك وقعها أنك تولد من جلده، وأنت كالوليد سوف تستقبل دنياك الجديدة بالارتياح والدموع. وقالت ذات الصوت الرنيم: «سنذهب هذا المساء لمشاهدة الغندورة». فسألها إسمايل باسمًا:

حُبُّوا أو موتوا... لسان حالك وأنت تسير مزهواً  
فخوراً بما تحصل بين جنبيك من نور الحب  
وأساره... يزهديك علو فوق الحياة والأحياء،  
ويصل أسيابك بالسموات جسر مفروش بورود  
السعادة، وأنت أنت الذي تخلو حيناً آخر إلى نفسك  
فتطغى عليك حساسية ألحمة مريضة بإحصاء التفاصيل  
وتقلصها بلا راحة في كائنك الصغير ودنياك المتواضعة  
وهناك الأدمية... رباه، كيف تخلق نفسك من  
جديد؟ هذا الحب طاحية يته فوق كافة القيم وفي  
ركابه يتألق محبوبك، لا تكمله الفضائل ولا تنقصه  
الثلث، النقصه تلوح في تاجه الدرزي حسناً يشغلك  
إصجاباً، هل أزرى بها في نظرك أن تخرج على التقاليد  
المرعية؟ كلا، بل إن خروجها بالتقاليد المرعية أزرى.  
يطيب لك أحياناً أن تسأل نفسك: ماذا تروم من  
حيها؟ أجب بكل بساطة: أن أحبها، أيجوز أن تنبثق  
في النفس هذه الحياة كلها ثم يتسالم عن غاية  
وراما؟ لا شيء وراما. العادة هي التي ربطت بين  
لفظي الحب والزواج، ليست فوارق السر والطبقة  
هي وحدها التي تجعل من الزواج غاية مستحيلة في  
مثل حالي، ولكنه الزواج نفسه، بما يستنزل الحب من  
سياه إلى أرض العقود والعرق... وسألك الذي  
يأبى إلا أن يحاسبك، ولم جلالت عليك لقاء التهاك في  
حيها؟ أجبه بلا تردد: إهتامة فائقة، ويا كماله  
الغالية، وزيارتها للحديقة في الأوقات السعيدة  
النادرة، وترائيا مع الصالح الندي، وسيارة المدرسة  
تمضي بها، ومعايشها الخيال في سجات القفلة وبهويم  
الأحلام. ثم تسألك النفس الطماعة المجنونة: أمن  
المحال أن يكون العبود مشغولاً بأمر عابده؟...  
أجيبها غير مستسلم لإغراء الآمال الكواذب: حسن أن  
يذكر عند العودة اسمنا... ٤٠٠

- بسرعة إلى الحمام، هل تأخرت؟!

مالت عينا كمال - وقد لاح فيها رجع المفاجأة - إلى  
ياسين الذي عاد إلى الحجرة وهو ينشف رأسه  
بالفوط، ثم وثب إلى الأرض فبدا فرعه الطويل  
نحيقاً، وألقى نظرة طويلة على المرأة كأنها يتحصن

والحيتين منيرة المهدية؟... فتوقدت كما ينبغي لانس  
نصف بارسية، ثم أجابت: «لما تحبها»، ثم اشترك  
حسين وإسمايل وحسن في حديث عن منيرة وسيد  
درويش وصالح وعبد اللطيف البناء، ثم ما أدري إلا  
والصورت الرشيح يسأل: «وأنت يا كمال، ألا تحب  
منيرة؟»، أتذكر ذلك النداء الذي نزل على غير انتظار؟  
أعني أتذكر النعمة الطبيعية التي تمسها؟ لم يكن  
قولاً، ولكن نغماً وسحرًا استقر في الأحياء كي يفرّد  
دوماً بصوت غير مسموع ينصب فؤادك إليه في سعادة  
سهاوية لا يديرها أحد سواك، كم رُوعك وأنت تتلفاه،  
كأن هاتفاً من السماء اصطفاك فرداً اسمك، سُقيت  
المجد كله والسعادة كلها والامتنان كله في نيلة واحدة  
وددت بعدها لو تهتف مستجداً: «وَمَلُونِي...  
فُكُونِي»، ثم أجبت وإن كنت لا أذكر بماذا أجبت،  
لبث دقائق ثم ودّعنا وضعت، في عينيها السوداوين  
نظرة أنيقة، تنم إلى جمالها الفاتن عن صراحة هيبة  
وجرأة مصدرها الثقة - لا الاستهتار أو الضعة - وترُفع  
مروّع، كأنها تمجذبك وتدفئك معاً... جمالها فتنة لا  
أدرك له كتباً ولا أدري له شيئاً، وكان يجزل إلي كثيراً  
أنه ليس إلا ظناً لسحر أعظم يكمن في شخصها...  
من أجل أيّ هذين أحبها؟... كلاهما لفر، ولغز  
ثالث هو حسي. يتراجع ذلك اليوم كل يوم يوماً إلا أن  
ذكرياته ناشبة في قلبي أبداً. لبناتها مكان وزمان وأسياء  
وصحاب وأحاديث يتقلب القلب في جنباتها نشوان  
حتى يخال أنها الحياة جميعاً، فيتسالم فيها يشبه الشك:  
هل كانت ثمة وراء ذلك حياة؟... هل حقاً مضى  
زمن قبلها خلا من الحب قلبي وأقفست من تلك  
الصورة الأنيقة نفسي؟ ربما أسكرتك السعادة حتى  
تخزن حل ما ضاع من ماض جليل وربما لسعك الألم  
حتى تلدب حسرات حل السلام الذي ولّى، وبين هذا  
وذاك لا يجد قلبك إلى الاستقرار سبيلاً، فيمضي  
ملتصماً الشفاء في شقّ العقاقير الروحية، يستلمها من  
الطبيعة آناء، ومن العلم آناء، ومن الفن شيئاً، وفي  
العبادة أحياناً كثيرة... قلب استيقظ فانتقلت من  
صميمه شهوة مولدة بالمرسات الإلهية... أيها الناس

أن يتعرف على تاريخ آخر شتمة تلقاها من أبيه، حتى تذكر أنه كان ذلك قبل عامين على وجه التقريب، أو بعد حبه - الذي غدا يؤرخ به - بهاء، إذ شعر وقتذاك بأن مصداقته لشبان من طراز حسين شذاد وحسن سليم وإسماعيل لطيف تتطلب زيادة كبيرة في مصروفه كي يتأقّل له مجاراتهم في لهوهم البريء، فشكا أمره إلى أمّه راجياً إياها أن تخاطب أباه في شأن الزيادة المأمولة، ومع أنّ غاطية الأب - في مثل هذا الأمر - لم تكن يسيرة على الأم، إلّا أنّها هانت بعض الشيء بتأثير معاملته لها عقب وفاة فهمي، فحدّثته منوّهة بعلاقة جديدة مشرقة لابنها بأصدقاءه من «الأكابر»، وعند ذاك دعا السيّد كيال، وصبّ عليه غضبه، حتى صاح به: «هل ظننتني تحت أمرك أو أمر أصحابك!... ملعون أبوك وأبوهم»، فغادره كيال خائب الرجاء وقد ظنّ أنّ الأمر انتهى عند ذلك... ولكنّه ما يدري إلّا والرجل يسأله عن هوية أصدقائه على مائدة إفطار اليوم التالي، وما إن سمع اسم حسين عبد الحميد شذاد، حتى سأله باهتمام: «من العباسية صاحبك؟»، فأجاب كيال بالإيجاب، وقلبه يخفق، فقال السيّد: «كنت أعرف جدّه شذاد بك، وأعرف أيضاً أنّ أباه عبد الحميد بك كان مبعداً في الخارج لسابق علاقاته بالخليوي عباس... ليس كذلك؟»، فأجاب كيال بالإيجاب مرّة أخرى، وهو يغالب وجده الذي أهّاه الحديث عن والد معبودته وذكر لتوّه ما علم من الأعوام التي قضتها الأسرة في باريس، حيث ترصّعت معبودته في نور مدينة النور، فيما تمالك أن شعر نحو أبيه بإجلال وأكبار جديدين وموقّعة مضاعفة، وعدّ معرفته لجّد معبودته رقية سحرية تنسبه - ولو من بعيد - إلى منزل الوحي ومبعث السنّا. ثمّ ما لبثت أمّه أن رقت إليه بشرى موافقة والده على مضاعفة مصروفه.

منذ ذلك اليوم لم يتعرّض لشتمة جديدة، إمّا لأنّه لم يرتكب ما يستوجبها، وإمّا لأنّ أباه رأى أن يعفيه من الشتم إطلاقاً... وقف كيال إلى جانب أمّه في الشرية يشاهدان السيّد أحمد في الطريق، وهو يرتدّ - في وقار ولطف - تحيّات عمّ حسين الحلاق والحاج

رأسه الضخم وجبينه البارز وأنفه الذي تراهى لكبره وقوّته كأنّه منحوت من الجرانيت، ثمّ تناول فوطته من على شبك السرير ومضى إلى الحمام.

وكان السيّد أحمد قد فرغ من الصلاة، فعلا صوته الغليظ بالدعاء المعتاد للأولاد ولنفسه، سائلاً الله الهداية والستر في الدارين... وفي أثناء ذلك كانت أمينة تعدّ المائدة، ثمّ ذهبت إلى حجرة السيّد، فدعته - بصوتها الوديع - إلى تناول الفطور، ونجّحت إلى حجرة ياسين وكحال فُكرت الدعوة.

أخذ الثلاثة أمّاكنهم حول الصينية، ويسلم الأب وهو يتناول رغيفاً معنّاً يده الأكل، فتبّه ياسين ثمّ كمال، على حين وقفت الأمّ وقفتها التقليدية إلى جانب صينية القلّل. كان مظهر الأخوين يدلّ على الأدب والخشوع، ولكنّ خلا قلبهما - أو كاد - من الخوف الذي كان يركبهما - قديماً - في حضرة الأب، ياسين: لأنّ بلوغه الثامنة والعشرين منحه امتيازاً من امتيازات الرجولة، وضماناً ضدّ الإهانات الجارحة والاعتداءات التعمّسة، وكمال: لأنّ بلوغه السابعة عشرة، وتقدّمه في الدراسة وهباه نوعاً من الضمان أيضاً إلّا يكن بقوّة ضبان ياسين، فإنّه لم يخلّ من العفو والتسامح على الأقلّ في المغفوات النافهة، إلى أنّه آنس من أبيه في السنوات الأخيرة أسلوباً من المعاملة تخفّف من البطش والإرهاب بدرجة محسوسة، ولم يكن من النادر أن يدور حديث مقتضب بين الأكلين بعد أن كان الصمت يتحكّم في مجلسهم تحكّماً خفياً، إلّا أن يسأل الأب أحدهم فيجيب بمجلة ولهجة ولو يضمّ ممثّل بالطعام. أجل لم يعد غريباً أن يخاطب ياسين أباه، فيقول مثلاً: «وزرت أمس رضوان في بيت جدّه، وهو يقرّضكم السلام ويقلّ يديكم»، فلا يعدّ السيّد الخطاب جرأة غير معروضة، ولكنّه يقول له ببساطة: «رَبَّنَا يُغْفِظْهُ وَيُرْهَاه... ولا يبعد عند ذلك أن يتساءل كيال بأدب، عندئذٍ بذلك تطلّوا خطيئاً في علاقتك التاريخية بأبيه: «مضى يستحقّ رضوان شرّاً لأبيه يا بابا؟». فيجيبه السيّد: «عندما يبلغ السابعة»، بدلاً من أن يصيح به: «اخترس يا ابن الكلب». طلب لكيال يوماً

عرشه فوق النقاد!

- أنت اليوم عريس! اليوم عيد من أعيادك الظافرة، أليس كذلك؟ لولا نحافتك ما وجدت ما أواخذك عليه...

قال كيال مبتسماً:

- إني راضٍ عنها.

ألقي ياسين على صورته نظرة أخيرة، ثم وضع الطربوش على رأسه وأماله بمئة بمثابة حتى أوشك أن يمس حاجبيه، ثم قال وهو يتجشأ:

- أنت حمار كبير يحمل البكالوريا، تمسح بالطعام والراحة فهذه هي العطلة، كيف تسول لك نفسك أن تقرأ في العطلة أضعاف ما تقرأ في عامك الدراسي؟! اللهم إني بريء من النحافة وأصحابها!

ثم، وهو يغادر الغرفة والمتنقة العاجية في يده:

- لا تنس أن تختار لي قصة جيّلة، مثل «باردليان»، و«فوستا»، هه... مهى زمن كنت تستجديني فصلاً من رواية، هالك زمناً أغبر أشحكك فيه القصص!

ارتاح إلى الوحشة التي يخلو فيها إلى نفسه، فبهض وهو يفهم: من أين له البدانة والقلب لا ينم؟ لم تكن تحلو له الصلاة إلا خالطاً، صلاة بالجهاد أشبه ويشترك فيها القلب والمقل والروح، جهاد من لا يضرّ بجهد للفوز بالضمير الطاهر النقي ولو لاحق نفسه بالحساب تلو الحساب على الهفوة والخطأ... أما الدعا في أعقاب الصلاة، فلها، لها وحدها...

- ٣ -

عيد المنعم : الفناء أوسع من السطح، ولا بد أن نزيع الغطاء عن البئر لنرى ما فيها...  
نعيمه : ستغيب ماما وخالتي وجذتي...  
عثمان : لن يروانا أحد...

أحد : البئر عظيمة، وموت من ينظر فيها.

عيد المنعم : نرفع الغطاء، ثم ننظر من بعيد... (ثم بصوت مرتفع)... هيا بنا نزل.

أم حنفي : (معتزلة باب السطح) لم يبق في حبل للنزول والطلوع، قلتم نطلع السطح فطلعتنا السطح،

درويش بائع الفول والقولبي اللبان ويومي الشربتي، وأبو سريع صاحب المقل. ثم رجع إلى الحجرة حيث وجد ياسين واقفاً أمام المرأة يتألق في عناية وصبر. جلس على كنية بين السريين، وراح يتأمل جسم أخيه الطويل البدين ووجهه المورّد المكتنز بنظرة باسمّة غامضة، كان يكرّ له حياً أخوياً صادقاً، بيد أنه لم يكن يستطيع - كلياً أنعم فيه الفكر أو النظر - أن يقاوم شعوراً خفياً بأنه حيال «حيوان أليف جميل»، على رغم أنه أوّل من هرّ أوتار أذنيه بأنغام الشعر ونفشات القصص، ربّما تسامح، تساؤل من يرى في الحبّ جوهر الحياة والروح، أمن الممكن أن يتصور ياسين عاشقاً؟ فيتمثل الجواب ضحكة باطنية أو منطلقة، أجل ما للحبّ وفله الكرش المترعة! ما للحبّ وهذا الجسم اللحم! ما للحبّ وفله النظرة الشهوانية الساخرة! ثم لا يتألم أن يهد نحوه إحساساً بالآزدهاء الملتفّ بالعطف والودّ، وإن لم يخلّ أحياناً - خاصة في الأوقات التي تعترى حبّه فيها نوبة من نوبات الألم والهبوط - من عاطفة إصجاب بل حسد، كذلك بدا ياسين لعينه أبعد ما يكون عن عرش الثقافة، الذي يؤهّ إياه قديماً حينما كان يظنّه عالماً سحراراً مالكا لفنون الشعر والقصص، تكشف له قارراً سطحياً يقطع من وقت مجلس القهوة بضع ساعة يتخلّل فيها بلا جهد أو عناء بين الحامسة وقصة من القصص قبل انطلاقه إلى قهوة أحمد صيده، حياة عاطلة من بهاء الحبّ وأشواق المعرفة الحقيقية وإن كنّ لصالحها حياً أخوياً لا تشوبه شائبة... لم يكن كذلك فهمي، كان مثله الأهل في الحبّ والمقل، ولكنه بدا أخيراً كالتخلف بعض الشيء عنيّ يطعم إليه، أجل ساوره شكّ يقارب اليقين في أن فتاة كريم يمكن أن تبث في النفس حياً حقيقياً كالحبّ الذي يضيء به نفسه، كما ارتاب في أن تضاهي الثقافة القانونية التي نزح إليها أخوه الراحل المعرفة الإنسانية التي يتشوّقها بكلّ قوّة نفسه، كان يتأمل من حوله بعين تنفضح على التأمّل والنقد، وذهب في ذلك كلّ مله، إلا أنه وقف عند عتبة أبيه لا يجرؤ على أن يرفع قدماً، لاح الرجل لعينه شيئاً هائلاً يترّعب على

رضوان : في شرفة بيتنا وفي السلامك أخص ورد  
أحر وأبيض وقرنفل ...

عشان : عندنا خروفان ودجاج ...

أحد : ماء ... ماء ... ماء ...

عبد المنعم : أنا في الكتاب، من منكم في الكتاب؟

رضوان : أنا حافظ والحمد.

عبد المنعم : الحمد، كبة ليه

رضوان : إخص، أنت كافر.

عبد المنعم : هذا ما يتفق به العريف في الطريق ...

نعمة : قلنا ألف مرة لا تردّد كلامه ...

عبد المنعم : (لرضوان) لماذا لا تعيش مع باباك خالي  
ياسين؟

رضوان : أنا عند ماما.

أحد : أين ماما؟

رضوان : عند جدّي الآخر!

عشان : أين جدّك الآخر؟

رضوان : في الجبلية! ... في بيت كبير وسلامك.

عبد المنعم : لماذا أمك في بيت، وأبوك في بيت؟

رضوان : ماما عند جدّي هناك، وبابا عند جدّي  
هنا ...

عشان : لم لا يوجدان في بيت واحد مثل بابا  
وماما ...؟

رضوان : القسمة والنصيب، هذا ما تقول جدي  
الأخرى!

أم حنفي : قزّموه حتى أقزّر، لا حول ولا قوّة إلا  
بالله! ارحوه والعبراء ...

أحد : نامي لأركبك ...

رضوان : انظروا إلى العصفورة فوق عود اللبلاب ...

عبد المنعم : هاتوا سلّمًا، وأنا أقبض عليها ...

أحد : لا ترفع صوتك، إنّا ننظر إلينا ونسمع كلّ  
كلمة نقولها ...

نعمة : ما أجملها، عرفتها! هي العصفورة التي رأيته  
أس فوق حبل الفسيل عندنا ...

أحد : الأخرى في السكّرية، فكيف عرفت الطريق  
إلى بيت جدّي ...؟

وقلتم نزل الفناء فنزلنا إلى الفناء، نطلع السطح مرة  
ثانية فطلعنا السطح مرة ثانية، ماذا تريدون من  
الفناء؟ ... الجوّ حارّ تحت، أمّا هنا فالنسمة جارية،  
وعيًا قليل تغيب الشمس.

نعمة : سيرفمون غطاء البئر لينظروا فيها ...

أم حنفي : سنادي ستّ خديجة وستّ عائشة.

عبد المنعم : نعمة كذّابة، لن نرفع الغطاء، ولن  
نقترب منه، سنلعب في الفناء قليلًا ثمّ نعود، ابقى هنا  
حتى نعود.

أم حنفي : أبقى هنا؟! رجّلي على رجلكم، الله  
يسدّكم ... ليس في البيت كلّ مكان أجمل من  
السطح، انظروا إلى هذا البستان!

عمدّ : نامي لأركبك ...

أم حنفي : كفاية ركوب، اختر لنفسك لعبة أخرى،  
الله، الله ... انظروا إلى الياسمين واللبلاب، انظروا  
إلى الحمام ...

عشان : أنت قبيحة كالجاموسة، ورائحتك نتنة ...

أم حنفي : الله يساعذك، عرّقي سال من الجري  
وراءكم.

عشان : خلتنا نر البئر ولو شوية صغيرة.

أم حنفي : البئر ملأى بالمقاريت، ولذلك سدّدناها.  
عبد المنعم : كذّابة، لم تقبل ماما ولا خالتي هذا ...

أم حنفي : الحقيقة عندي أنا، وأنا وسقّي الكبيرة، كنّا  
نراهم رؤية العين، فانتظرنا حتى دخلوا، وألقينا على  
فوهة البئر الغطاء الخشبيّ وأثقلناه بالحجارة. لا  
تذكروا البئر، وقولوا معي: «باسم الله الرحمن  
 الرحيم» ...

عمدّ : نامي لأركبك.

أم حنفي : انظروا إلى اللبلاب والياسمين! ليت  
عندكم مثلها، ليس في سطحكم إلا الدجاج  
والخروفان اللذان تستنوبهما للعيد.

أحد : ماء ... ماء ... ماء ...

عبد المنعم : هاتي سلّمًا لنطلع عليها!

أم حنفي : يا سائر يا ربّ، الولد لخاله، العيبوا في  
الأرض لا في السماء.

عبد المنعم : يا حمار، العصفورة تطير من السجيرة إلى هنا وتعود قبل المساء.

عثمان : أهلها هناك وأقاربها هنا...

محمد : ناسي لأركبك، أو أبكي حتى تسمعي ماما...

نعمة : نلعب الحجلة؟

عبد المنعم : بل نتسابق...

أم حنفي : من غير شجار بين السابق والمسبق.

عبد المنعم : اسكتي يا جاموسة...

عثمان : ناع ع... ناع ع ع.

أحمد : ماء... ماء... ماء.

محمد : سأدخل السباق راكباً، ناسي لأركبك...

عبد المنعم : واحد... اثنان... ثلاثة...

احتفى السيد أحمد عبد الجواد بالمدهوعين فأخلى نفسه لهم النصف الأول من النهار كله، ثم توسّط مائدة الوليمة التي ضمت: لإبراهيم شوكت، وخليل شوكت، وإسوين وكيال. ثم دعا بالرجلين إلى حجرة نومه في جلسة عائليّة، فمضوا يتسامرون في جو من المودة والمأنسة وإن لم يخلُ من تحفّظ من ناحية السيد وتأذّب من ناحية صهره، مصدره ما يلتزمه الرجل في المعاملة مع آل بيته حتى الوارد من الخارج منهم على رغم المقاربة في السنّ بينه وبين إبراهيم شوكت زوج خديجة.

ودعي الأطفال إلى حجرة الجدّ ليقبلوا يده ويتلقّوا هداياه النفيسة من الشيكولاتة والملمن، فتقدّموا إليه بترتيب أسنانهم: نعمة بنت عائشة أولاً، فريضوان بن ياسين، فعبد المنعم بن خديجة، فعثمان بن عائشة، فأحمد بن خديجة، ثم محمد بن عائشة. راحي السيد المساواة المطلقة في توزيع عطفه وإتساماته على أحفاده، متتهراً فرصة خلوّ الحجرة من مراقبين - عدا إبراهيم وخليل - ليتخفّف بعض الشيء من تحفّظه المألوف، فهزّ الأيدي الصغيرة بترحاب، وقرص الخلد الموردة بحنان، ولثم الجباه وهو يداعب هذا ويمارح ذاك، وظلّ مراعيًا المساواة حرصاً عليها حتى مع رضوان أخطى الصغار بحبّه.

كان من عادته إذا خلا إلى أحد من أحفاده أن يتخصّصه بشغف، مدفوعاً بمواقف أصيلة كالأبوة وأخرى دخيلة كحبّ الاستطلاع. وكان يجد لذة كبيرة في تتبع ملامح الأجداد والآباء والأمهات في السلالات الجليلة الصاحبة التي لم تكد تلقّن احترامه فضلاً عن مخالفته، وقد أسره جمال نعمة ذات الشعر الذهبيّ والعينين الزرقاوين التي شافت أمّها نفسها حسناً ورواء، فأتحفت الأسرة بقسبات غنيّة من الحسن بعضها مشتقّ من أمّها والبعض الآخر متوارث عن آل شوكت، وعلى هذا المنهج من الجمال سار شقيقاها عثمان ومحمد مع ميل واضح إلى ملامح الأب - خليل شوكت - خاصّة في عينيه الواسعتين البارزتين ذواتي النظرة الهادئة الحاملة، وعلى خلاف هذا تجلّى عبد المنعم وأحمد ابنا خديجة، فبشرتهما وإن تكن شوكتيّة، إلّا أنّ صنيهما هما عينا الأم أو الجدّة الصغيرتان الجميلتان، أمّا الأثف فينلر بمشابهة أنف الأم أو الجدّ على الأصحّ، أمّا رضوان فما كان له إلّا أن يكون جبرلاً حظي بمحبي أبيه أو عينيّ هيئة السوداوين المكحولتين وبشرة آل عنت العاجيّة، وأنف ياسين المستقيم. أجل تفرقت الملاحه في وجهه أسرة. مضى زمن طويل مدّ كان يتعلّق به أطفاله بلا خوف من ناحيتهم ولا تكلف من ناحيته كما يفعل الأطفال اليوم، يا لها من أيام! وبها لها من ذكريات! ياسين وخديجة وفهمي ثم عائشة وكيال، ما منهم إلّا وقد دغدغه تحت إبطه وأركبه منكبيه، ترى هل يتذكّرون؟ لقد كاد هو ينسى، هل أنّ نعمة تبدو رغم ابتسامتها الوضيئة متحلّية بالحياه والأدب، أمّا أحمد فلم يكفّ عن المطالبة بالزبد من الشيكولاتة والملمن، على حين وقف عثمان ينتظر نتيجة المطالبة بفارغ الصبر، وأمّا محمد فهورل إلى الساعة الذهبيّة ولخاتم الماسيّ في جوف الطربوش وكبشهما لما استخلصهما خليل شوكت من يده إلّا بالقوّة. ومزّت لحظات توزّع السيد الارتباك والحيرة، فلم يدر ماذا يفعل وهو محاط، بل مهذّب من كلّ جانب بالأحفاد الأعزّاء... وقيل العصر فاندثر السيد البيت إلى الدكان، ويلهابه تجمّعت الصالة - حيث اجتمع بقيّة



خديجة، ولكن خليل شوكت بادر قائلاً:  
- صدقت خديجة هاتم، إذ لطواجينها فضلاً علينا  
جميعاً، لا يمكن أن تنسى ذلك يا أخي...

فرد إبراهيم نظره بين زوجته وحملته، وهو يتسم  
كللمتذر، ثم قال:

- معاذ الله أن أنكر هذا الفضل، ولكني بصدد  
التحدث عن المعلمة الكبيرة (ثم وهو يضحك) وعلى  
أي حال فأنا أنوره بفضل والدتك لا والدي أنا!

وانتظر حتى غُت أصوات الضحك التي أثارها  
قوله الأخير، ثم وأصل تقرظه متلفتاً نحو الأم، وهو  
يقول:

- نمود إلى الطواجين، ولكن لم نقصر كلامنا على  
الطواجين!؟ الحق أن الصنوف الأخرى لم تكن دون  
الطواجين لثة وفخامة، خلدوا مثلاً: البسطاطس  
المحشو، الملوخية، الأرز المقلقل بالكبد والقوانص،  
الحاشي المتزوجة، والله أكبر على الدجاج ولحمه  
المكتنز... غبرني أيّ غذاء تطعمينه يا حاتي؟  
أجابته خديجة في تهكم:

- من الطواجين تطعمه!  
- سأفكر طويلاً عن إقرارتي بالفضل لاهله، ولكن  
الله غفور رحيم، مهما يكن من أمر فلندعُ أن يكثر  
من أيام الأفراح... مبارك عليك البكالوريا يا سي  
كيال، وعسى للبلبلوم إن شاء الله...

قالت أمينة باهتان، وكانت موزدة الوجه من الحياء  
والسرور:

- ريتا يفرحك بمبد التمتع وأحد، ويفرح سي خليل  
بنعمة وعثمان وعهد، (ثم ملتفتة إلى ياسين) ويفرح  
ياسين برضوان...

كان كيال يسترق النظر إلى إبراهيم حيناً وإلى خليل  
آخر، وعلى شفثيه ابتسامة ثابتة يداري بها حادثة ملله  
من الحديث، الذي تنمذمت متعته وتقضي اللياقة  
بالاشتراك فيه ولو بحسن الإنصات. إن الرجل يحدّث

عن الطعام وكأنه لم يزل على المائدة سكران بشهوة  
الأكل. الطعام... الطعام... الطعام... لم  
استحق هذا التقديس كله؟ هذان الرجلان العجيبان

أفراد الأسرة - بكامل حرّيتها. ورثت صالة الدور  
الأصل أختها بالدور المهجور، ففُرشت بحصيرها  
وكنباتها، وعلّق بسقفها الفانوس الكبير، فندت مجلساً  
ومعفى لمن تبقى من الأسرة في البيت القديم. وقد  
حافظت طوال اليوم - رغم امتلاكها - على هدونها،  
حتى إذا لم يعد يبقى من السيد إلا ما سطع في الجوّ من  
عرق الكولونيا التي تطيّب بها، استرقت أنفاسها،  
فتصالت بها الأصوات والضحكات، ودبّت فيها  
السرعة، وأخذ المجلس هيته كالمهد القديم، فتربّت  
أمينة على كنية أمام أدوات القهوة، وعلى الأخرى  
المواجهة لها جلست خديجة وعائشة، وعلى ثالثة جانيّة  
قعد ياسين وكيال، وما لبث أن انضمّ إليهم إبراهيم  
شوكت، وخليل شوكت - بعد ذهاب السيد - فجلس  
إبراهيم إلى يمين حاته، وخليل إلى يسارها.

لم يكد إبراهيم يستقرّ على مجلسه، حتى خاطب  
أمينة قائلاً بلهجة متوقدة:

- بارك الله في اليد التي قدّمت لنا أشهى الطعام  
واللّهُ (ثم وهو يردّد هنيهة البارزتين الحاملتين في  
الجلوس كأنهما يلقي مضايرة الطواجين...  
الطواجين!... معجزة هذا البيت، ليس الطاجين بما  
يجريه من المأكول - وإن لّد وطاب - ولكن بتسيكه قبل  
كل شيء. التسيكه هو كل شيء. هو الصنعة، وهو  
المعجزة، دسّوني على طواجين كالتي التهنئنا  
اليوم!...

كانت خديجة تتابع كلامه باهتمام، وهي بين التأييد  
له اعترافاً بمهارة أيّها الاحتجاج عليه لتجاهله إيّاه،  
فلما أمسك كي يبيّن للمنتصتين فرصة للإقرار برأيه، لم  
تتالك من أن تقول:

- هذا حكم مسلم به وليس في حاجة إلى شهادة  
شاهد، غير أنّي أدكر - وأحبّ أن أفكر أيضاً - بأنك  
ملأت بطنك في بيتك مراراً من طواجين لا تقلّ صنعة  
عن طواجين اليوم!

ارتسمت ابتسامة - ذات معنى - على وجوه عائشة  
وياسين وكيال، وبدا على الأم أنّها تغلب حياءها،  
لتقول كلمة تجمع بين الشكر لإبراهيم وإرضاء

لا يبدو أنها يتغيران مع الزمن، كأنهما بمنى في تياره .  
إبراهيم اليوم هو إبراهيم الأمس، لم يكد يطرأ عليه  
من إشرافه على الخمسين إلا أثر غير ملحوظ تحت  
العنين أو فيها حول طرفي الفم، ونظرة زينة ثقيلة لم  
تكسبه وقاراً بقدر ما أكسبته مزيداً من الحمول، ولكن  
شعرة واحدة - سواء في رأسه أم في شاربته المقتول - لم  
تسب، ويدانته لم تزل مدججة قوية لم يعتورها ترهل،  
إلى أن التشابه الذي جمع بين الشقيقتين إلا في أغراض  
لا يعتد بها: كالاختلاف بين شعر خليل السبط المرسل  
وشعر إبراهيم القصير المحلوق، وكأثقلها في الصحة  
والنظرة الخاملة كان مما يبعث على الضحك والازدراء  
حقاً. وكانا يرتديان بلطتين من الحرير الأبيض وقد نزع  
كل منهما جاكته فلاح قميصه الحريري والأزوار  
الدهية تلمع في عرا أكلهم. مظهر ينم عن وجاعة  
هي كل ما هنالك. في بحر السنوات السبع التي  
وصلت بين الأستين، كان يخلو إلى هذا أو ذاك منها  
كثيراً أو قليلاً، ولكن حديثاً واحداً ذا طعم لم يجر  
بينهم!... ليم الانتفاذ؟ ولولا ذاك ما كان هذا  
الانسجام الموقن بينهما وبين شقيقته! إن الازدراء -  
من حسن الحظ - لا يناقض العطف والإيثار بالخير  
والمودة. أوه... يبدو أن حديث الطواجن لم يته بعد،  
ها هو سي خليل شوكت يتهاى ليلني كلمته:

.. حالي...  
أدرك ياسين مرمي هذه الملاحظة، فضحك ضحكة  
عالية، وسرعان ما صج المجلس بالضحك، حتى أمينة  
ابتسمت ابتسامة عريضة واعتز نصفها الأعلى بضحكة  
مكتومة فدارت استسلامها بخفض رأسها كأنها تنظر في  
حجرها، بقيت خديجة وحدها جامدة الوجه وانتظرت  
حتى هدأت العاصفة، ثم قالت بتحد:  
- لم يكن خلافاً حول الطعام وطهيه، ولكن حول  
حقني في الاستقلال بشئون بيتي، ولا علمي من هذا...  
تجددت في النفوس ذكرى المعركة القديمة التي  
استمرت في العام الأول من زواج خديجة بينها وبين  
حاتها حول «الطبخ»، وهل يظل واحداً للبيت كله  
تحت إشراف الأم، أو تستقل خديجة بطبخها كما  
أرادت. كان خلافاً خطيراً هدد وحدة الأسرة الشريفة  
وترامت أنباؤه إلى بين القصرين، حتى علم به الجميع  
ما هذا السيد الذي لم يجر أحد على إبلاغه إياه، لا  
هو ولا سائر الخلافات التي نشبت تباعاً بعد ذلك بين  
الحيلة وكبتها. وأدركت خديجة مد لكرت في الكفاح  
أن عليها أن تعتمد على نفسها وحدها، فزوجها على  
حد تعبها «رجل نائم» لا هو لها ولا عليها، كأنها  
حرصته على استخلاص حقها قال لها كالداعب: «يا  
س... دعينا من وبع الدماغ»، ولكنه إذا كان لم  
يؤيدها فإنه كذلك لم يشكها. فانسرت إلى الميدان  
وحيدة ورفعت رأسها حبال العجوز المبهلة بجرأة لم  
تكن متوقعة ويعناد لم يخلها حتى في ذلك الموقف  
الدقيق. عجبت العجوز لجرأة البنت التي تلقها على  
يدها من عالم الغيب. وسرعان ما احتدم الخصام وجرت  
الغضب، وراحت تذكرها بأنه لولا فضلها عليها ما  
صبح ولو في الأحلام أن تنظر مثلها بزواج من آل  
شوكت، ولكن خديجة رغم ثورتها كظمت غيظها

.. لم يهأ أخني إبراهيم الحق فيما قال، يند لا  
علمناها، ومائدة جذيرة بأن ينادي بها المندون...  
كانت أمينة في أحبالها تحب النساء، وكثيراً ما تعاني  
مرارة الحرمان منه، لشعورها بالجهل الدائب الذي  
تبذله عن حب وطواعية في خيمة البيت وآله، وكثيراً  
ما نهت إلى سماع كلمة طيبة من السيد، ولكن السيد  
لم يكن من عادته أن يعود بالثناء عليها وإذا جاد ففي  
اقتضاب وفي أحوال نادرة لا تكاد تذكر، لذلك  
وجدت نفسها بين إبراهيم و خليل في موقف عجب غير  
مألوف مألواً سروراً حقاً، ولكنه هيج لحد الارتباك  
حياءها، فقالت تداري مشاعرها:

- لا تبلغ يا سي خليل، أنت لك تم من يالف  
طعامها يزهد في أي طعام سواه!...

فوقفت عند التصميم على نيل ما تراه حقاً لها دون اللجوء إلى حيلة لسانها الماثورة، لسابق منزلة المعجوز من ناحية، ولخوفها من أن تشكوها إلى أبيها من ناحية أخرى، ثم هذاها مكرها إلى أن تجرّس عائشة على العصيان، ولكنها وجدت من الفتاة الكسول إعرافاً وجبناً، لا حياءً في الحياة ولكن إثارة للراحة والدعة اللتين غمّعت بهما - بغير حساب - في ظلّ الحضانة الإجبارية التي فرضتها حمايتها على الجميع، فصبت غضبها عليها ورمتها بالضعف والتبلة، ثم ركبتها العناد فواصلت «الجهاد» بلا توائٍ أو تردد حتى ضاق صدر المعجوز فسأمت كارهة بحقّ يكثها «العجربة» بالاستقلال بمطبخها وهي تقول لابنها الأكبر: «أنت وشأنك. إنك رجل ضعيف لا قبل لك بتأديب زوجك، وجزاؤك الحق أن أحرم من طعامي إلى الأبداء». ظفرت خديجة ببغيتها فاشتركت أدوات جهازها النحاسية، وهباً لها إبراهيم المطبخ كما رسمت، ولكنها خسرت حمايتها وفكت بأسباب اللوعة التي ربطت بينها مذ دجرت في المهذ، ولم تحتمل أمانة فكرة الخصام فصبرت حتى هذأت النفوس ثم سمعت سعيها عند السيدة البجيلة مستعينة بإبراهيم وخليل حتى تمّ صلح، ولكن أيّ صلح كان؟... كان صلحاً لا يكاد يستقرّ حتى يصطدم بتقار، ثم يعقبه صلح، فنقار من جديد، وهكذا... وكلّ واحدة منها تلقي التبعة على الأخرى، وأمانة بينهما حائرة، وإبراهيم واقف موقف المحايد أو المتفرّج، كأن الأمر لا يعني، فإذا رأى أن يتدخل تدخل واثياً وقنع بترديد النصيحة في هدوء بل برود غير مبالٍ بتوبيخ أمه أو عتاب زوجها، ولولا إخلاص أمانة وحماسة خلقها لسارت المعجوز بشكواها إلى السيد أحمد، ولكنها عدلت عن ذلك كارهة ومضت تنسّ عن صدورها في أحاديثها الطويلة مع كلّ من يلقاها من الأهل والجيران، معلنة على رؤوس الأشهاد بأن اختيارها خديجة زوجة لابنها كان أكبر خلطة ارتكبتها في حياتها وأن عليها أن تتحمل الجزاء.

قال إبراهيم معقّباً على كلام خديجة، وهو يتسم،

كأنما ليخفف بابتسامته من وقع تعقيه:

- ولكنك لم تكفي بالمطالبة بحقك، بل طعنت بلسانك ما حلا لك الطعن، هذا إذا لم تكن خاتني الذاكرة...

ورفعت خديجة رأسها المصوب بمندبل يتيّ في تحدّ، وقالت وهي ترمق زوجها بنظرة تهكم وغيط:

- ولم تخونك الذاكرة!؟ هل من أفكار أو مشاغل ترهقها حتى تخونك! ليت للناس جميعاً ذاكرة هائلة مطمئة خالية البال كذاكرتك! لم تخنك ذاكرتك يا سي إبراهيم، ولكنها خاتني أنا! والحق أنّي لم أتعزّز لمقدرة نيتك، ولم يكن لي بها شأن ولا حاجة إليها، فإني أعرف بحمد الله كافّة واجبات وأعرف كيف أؤديها على خير وجه، ولكنّي كرهت أن أقبح في بيتي وأن يمينني الطعام من الخارج كنزلاء الفناق، وفضلاً عن هذا كلّه فإنّي لم أطق - كما يحلو لبعض الناس - أن أمضي بهاري نائمة أو لاهية وغيري يقوم عهام بيتي.

أدركت عائشة من تروها المقصود من «بعض الناس»، فضحكت وليّاً تكمل خديجة كلامها، ثم قالت بلهجة لطيفة كأنما دافعها الإشتاق:

- افعل لي ما يحلو لك ودعي الناس - أو بعض الناس - وشأهم، لا شيء. الآن يدهو إلى كندر، فانت سيدة مستقلة - عسى لمصر - وتعملين من طلوع الفجر إلى نزول الليل: في المطبخ، والحمام، وفوق السطح، وتعمين في وقت واحد بالأنثاء والدجاج والأولاد، والجارية سويدان لا تجرّو على الاقتراب من شقتك أو حمل ابن من أبنائك، ربه... لم هذا العناء وقليل منه يعني!

أجابت خديجة بحركة من قنيتها، وهي تغالب ابتسامه دلت على أنّها وجدت في كلام عائشة ما استأنست إليه، وعند ذلك قال ياسين:

- بعض الناس يُخلّقون للسيدة، وبعضهم يُخلّقون للعبودية...

فقال خليل شوكت، وهو يتسم كاشفاً عن نيتيه المراكبتين:

- خديجة هاتم مثال صالح لست البيت، غير أنّها

تتجاهل حقها من الراحة. شعرت بأنهاء رأس خديجة نحوها، أو على الأقل

فالنحافة موضة كذلك عند كثيرات... !

فقال إبراهيم شوكت مؤثماً على قوله: فقالت خديجة بتهجم:

السكوت تغادياً من وجع الدماغ... .

نظر كمال إلى أمه، وكانت تملأ فئجان خليل للمرأة

الثانية واستحضر صورة أبيه مقرونة بذكرات جبروته،

فعلت شفيعه ابتسامة، ثم مدَّ بصره إلى إبراهيم

مدهوشاً وهو يقول:

- كأنك تخالفها!

فقال الرجل وهو يهز رأسه الكبير:

- أنا أنضاض من النكد ما وجدت سيلاً إلى

السلامة، وأضحت تغادي من السلامة ما وجدت سيلاً

إلى النكد!

هتفت خديجة:

- اسمعوا الحليم (ثم وهي تشير إليه كالخديجة)

أنت تغادي من اليقظة ما وجدت سيلاً إلى النوم!

فقال لها أمها، وهي تحدجها بنظرة تحدير:

- خديجة!

فربت إبراهيم على منكب حماته، قائلاً:

- عندما من هذا كثيراً... ولكن أشهدني بنفسك!

وكان ياسين يردد بصره بين خديجة القوية الممتلئة،

وعائشة النحيفة الرقيقة بحركة متعمدة للفت الأنظار،

ثم قال كالمتنكر:

- حدثتمونا عن تعب خديجة المتصل من الفجر إلى

الليل، فأين أثر ذلك التعب؟!... كأنها هي الالهة

وكان عائشة هي العاملة... .

فقال خديجة، وهي تبسط راحة يدها في وجهه

مفرجة بين أصابعها الخمس:

- ومن شر حاسد إذا حسد!

ولكن عائشة لم ترتع لمجرى الحديث الأخير،

فلاحت في عينها الزرقاوين الصافيتين نظرة اعتراض،

واندفعت لللدود عن نحاتتها متجاهلة الغاية الواضحة

من ملاحظة ياسين، وهي تعاني شيئاً من الغيرة

فقال:

- لم تعد السهانة موضة العصر (ثم مستدركة عندما

خفق قلب كمال عندما تناهت كلمة «النحافة» إلى

سمعه، فوثب من باطنه إلى غيخته صورة القامة

الفارعة والقذ المشوق، فركس قلبه بطرب روحاني

وانبثقت منه النشوات، ثم احتضته فرحة صافية نسي

في حلمها الهادئ العميق نفسه ومكانه وزمانه. فلم

يذكر فيها لبث حتى انتبه على ظلّ سحابة من الأسمى

نحيء كثيراً ذليلاً لحلمه، لا كما يجيء الغريب الدخيل

أو العنصر المتناثر، ولكنها تسرب إلى الحلم الباهر

كأنها غيط من نسجه أو نعمة من هارمونيته. تنفس

تنفساً عميقاً، ثم جال بصره الحالم في الوجوه التي

يجيئها من قديم، والتي يبدو أنها تتباهى على نحو أو

آخر بحسبها، خاصة الوجه الأشقر الذي هام زمناً

باحتماء الماء من موضع شفيعه... استرجع حلمه

الذكرى في حياه - وما يشبه التألف - ف شعر بأن أي

نموذج من الجمال خلا النموذج المعبود خليف بأن يثير

تعبه وإن حظي بعطفه وحبه.

- لن أرضى عن النحافة ولو في الرجال (واصلت

خديجة حديثها). انظروا إلى كمال ما أجدره بأن يعنى

بزيادة وزنه، لا تظنن يا بني أن طلب العلم هو كل

شيء.

أصغى كمال إليها باسماً في استهانة وهو يتفحص

جسمها الذي تراكم لحمه وشحمه، ووجهها الذي

توارت بالاكتماز عيوبه، ممجّباً بروح السحافة والنفوذ

التي تكتنفها، غير أنه لم يجد في نفسه الرغبة في مناقشة

رأيها، أمّا ياسين، فقال بتحدٍّ وسخرية ممّا:

- إذا فانت راضية عني، لا تكابري في هذا!

كان ثانياً ساقه اليمنى تحت طارحاً الأخرى على

الأرض، وقد فصح - من الحُر - طوق جليابه، فبدت

من فتحة فائتته الواسعة خصلات من شعر صدره

الأسود الليث، فألقت عليه نظرة نافلة، ثم قالت:

- لكثك زديت حبيبتين، ثم إن شحمك وصل إلى

المخ، ولهذا شيء آخر.

نفخ ياسين كالناس، ثم التفت إلى إبراهيم شوكت متسائلاً في إشتاق وعطف:

- خبّرني عمّا تصنع بين زوجك - وهذه حاملنا - وبين والدتك؟

أضعل إبراهيم سيجارة، وأخذ نفساً، ثم نفخه وهو يحكّ بوزّه مشاركاً أخاه خليل - الذي لم يكن ينزع غليونه من فيه إلا حين يتكلم - في تعفير جوف الصالة، ثم قال في علم اكتراث:

- أدنّا من طون وأدنّا من عجّين، هذا ما تعلّمت من التجربة!

فقالت خديجة، هاطبة ياسين بصوت مرتفع وثنى بغضها:

- لا تدخل للتجربة في ذلك، التجربة بريئة وحياتك عندي. المسألة أنّ ربّنا أعطاه طبيعاً مثل دندورة عمّ بدر التركي، ولو تحرّكت مثقلة الحسّون ما اهتزّت له شعرة...!

رفعت أمينة رأسها، فرمقت خديجة بنظرة حتاب ومجدير حتّى ابتسمت الابنة وخفضت حينها فيها يشبه

الحياه، وإذا بخليل شوكت يقول في فخار لطيف:

- هذا طبع آل شوكت، وهو طبع سلطانيّ. أليس كذلك؟

فقالت خديجة - بلهجة ذات مغزى - وهي تضحك لتخفّف من وقع كلامها:

- من سوء حظّي يا سيّ خليل أنّ والدتك لم تتطع بهذا الطبع السلطانيّ!

فبادر بها أمينة قائلة وقد نفد صبرها:

- حاتك لا نظير لها في النساء، سيّدة جلييلة بكلّ معنى الكلمة!

فبال رأس إبراهيم يمسرة، وهو يجلد زوجته بنظرة من غلّ التمتع بها عيانه البارزتان، ثم قال وهو يتهدّد في ظفر:

- وشهد شاهد من أهلها، الله يكرمك يا حاتّ... (ثمّ مخاطباً الجميع) يا هوه آتني ستّ كبيرة، وفي سنّ تستوجب الرعاية والحلم، وزوجي لا تعرف عن الحلم شيئاً...

فانبرت خديجة للدفاع عن نفسها قائلة:

- أنا لا أغضب بلا سبب، ولم يكن الغضب من طبعي في يوم من الأيام، وهناك أهلي فسلهم عمّا تشاء!

ساد الصمت. كان أهلها لا يدرون ما يقولون، حتّى ندّت عن كمال ضحكة، فلفتت إليه الأنظار، فلم يتألّك أن يقول:

- أبلة خديجة أغضب حليلة عرفتها! فتشجّع ياسين قائلاً:

- أو هي أحلم غضوب، والله أعلم... انتظرت خديجة حتّى هدأت ثائرة الضحك التي أعقبت ذلك. ثمّ أومأت إلى كمال وهي تمزّ رأسها في حجرة، قائلة:

- خاني الذي حمله على حجري أكثر ممّا حملت أحمد وعبد المصم.

فقال كمال كالمتملّص:

- لا أظنّي أمّيت سرّاً... وسرعان ما التخلّت أمينة موقفاً جديداً للدفاع عن خديجة التي بدلت في مركز لا تحسد عليه، فقامت باسمه:

- جُلّ مَنْ له الكيال... وجاراهما إبراهيم شوكت في لباقة قائلاً:

- صلقت، إنّ لزوجي مزاجاً لا يُستهان به، لعنة الله على الغضب الذي يصيب أوّل ما يصيب صاحبه، لا شيء في الدنيا يستحقّ في نظري الغضب!

فقالت خديجة ضاحكة:

- يا بختك!... لذلك تمغي الأيام - عيني عليك باردة - وأنت من التغيّر في حصن!

بدا على أمينة الاستياء - أوّل مرّة - بصورة جدّيّة، فقامت في حتاب:

- ربّنا يصون له شبابه، هو وأمّاله! تسامح إبراهيم ضاحكاً، وهو لا يفتني مروءة بدعاه حاته:

- شبابه! فقال خليل شوكت بمجيبة، وإنّ وجهه الخطاب لأمينة:

- إِنَّ النّاسعة والأربعين في آل شوكت تُعدّ من مراحل الشباب!

فعدت أمينة تقول في إشفاق:

- يا بنيّ لا تتكلّم هكذا ودعونا من هذه السيرة...  
ابسمت خديجة لما بدا من أمّها من إشفاق كانت هي حل علم وإيمان بأسبابه وبواعثه، ذلك أنّ الإشادة بالصحة جهراً في البيت القديم - صراحة - مكروهة، لتجاهلها «العين» وشرّها، وهي نفسها - خديجة - لم تكن لتعالن بقوة صحة زوجها لو لم تكن قضت السنوات الست الأخيرة من حياتها بين آل شوكت، حيث لا تحظى عقائد كثيرة - كالخسد مثلاً - بإيمان عميق، وحيث يخوضون في أمور شقّ بلا خوف - كيبتر الجنّ والملوث والمرضى - يحول الإشفاق والخلر دون الخوض فيها في البيت القديم، إلى هذا كله، كانت العلاقة بين الزوجين أوثق مما تبدو في الظاهر، فلم يكن ثمة ما يهتددها من قول أو فعل، كانا زوجين موفّقين، يشعر كلاهما في أعماقه بأنّه لا شيء له من الآخر رغم شقّ المآخذ، وقد كان مرض إبراهيم يوماً فرصة غريبة جلتّ مكنون ما يعمر صدر خديجة من محبة وولاء. أجل! لم يكن النغار ليسكت بينهما، على الأقلّ من ناحيتها هي، فلم تكن أمّه هدفها الوحيد، ورغم سياسة الرجل وبروده لم يُعْهِها أن تكتشف فيه موضعاً كلّ يوم لانتقاد. مثل: كثرة نومه، قبوعه في البيت بلا عمل، تكبّره على مجرد فكرة أن يكون له عمل في الحياة، ثروته التي لا تنتهي، لمجاهله لما ينشعب بينها وبين أمّه من نزاع وملاحسة... حتّى مرّت أيام وآيام - على حدّ تعبير عائشة - لم يكن لها من حديث إلا شكّه ولسعه - ولكن رغم هذا كله - أو بفضل هذا، من يدري؟! فالتفتار نفسه يقوم أحياناً بوظيفة الشطّة في تهيج شهوة الطعام. ظلّت عواطفها قوية ثابتة لا تتأثر بما يكثر الظاهر، كانت التيارات المائية العميقة التي لا يتحوّل مجراها بفورات السطح وتشنجاته، إلى ذلك لم يسع الرجل إلا أن يقلّر نشاطها حتّى قدره، بعد أن لس آثاره في رونق مسكنه ولذّة مطعمه وأناقته ملبسه وهندسة أبنيه... فكان

يقول لها مداعباً: «الحقّ أنّك لفتّ يا هجرية!» رغم رأي أمّه في هذا النشاط الذي لم ترتدّ عن الجهر به في أوقات الخصام، وما أكثرها، فتقول لخديجة ساخرة: «هذه فضيلة الخدم لا الهوانم»، فتبادرها خديجة قائلة: «أنتم أناس لا عمل لكم إلا الأكل والشرب، سيّد البيت الحقيقي من يخدمه»، فتقول المعجوز مواصلة تهكمها: «لأنّك هذا الكلام في بيتك كي يخفوا عنك أنّك لم تكوني تصلحين في نظركم إلا للخدمة»، فتصبح خديجة: «أنا أعلم بسبب حنقك عليّ، أعلم به منذ لم أجعل لك وزناً في بيتي»، فتصرخ المعجوز: «يا ربّي اشهد. السيّد أحمد عبد الجواد رجل طيّب، ولكنّه أنجب شيطانة، أنا استحقّ ضرب الشبّ جزاء اختياري لك». فتضفي خديجة وهي تغضم، حقّ لا تبسّ المرأة كلامها: «أنت تستحقّين ضرب الشبّ... لا أجادلك في هذا».

نظر ياسين إلى عائشة، وقال وهو يتبسّم في خبث: - ما أسعدك بنفسك يا عائشة، علاقتك حسنة مع جميع الأحزاب!

فأدركت خديجة ما وراء كلامه من التعريض بها، وقالت له وهي عزّز كضها مظاهرة بالاستهانة:

- وقّاع يسعى بوقعة بين أختين!

- أنا!... حسبي الله، فهو المطلع على حسن نبيّ!

وهي عزّز رأسها كالأسفة:

- لم تكن يوماً ذا نيّة حسنة!

وقال خليل شوكت، معلّقاً على كلام ياسين:

- نحن نعيش في سلام، وشعارنا: «عش ودع غيرك يعيش»!

فضحكت خديجة حتّى بدلت أسنانها اللامعة

الدقيقة، وقالت بلهجة لم تخل من تهكم:

- بيت سي خليل بيت أفراح، لا يزال هو يلعب بأوتار العود، وأهائهم تسمع أو تستعرض نفسها في المرأة أو تحدث هذه أو تلك من صومجها من النافذة أو المشربية، ونعومة وعشيان وعحدّ يلعبون بالمقاعد والوسائد، حتّى إنّ عبد المنعم وأحمد إذا ضافا بربابتي قرّاً إلى شقّة خالتها فانضمّا إلى فرقة التخریب...!

أخاطب في عمرها كما يجدر بالأمهات!  
تسامل ياسين بعدم اكتراث:  
- لماذا يشترط الناس أن تكون العروس أحدث سنًا  
من العريس؟

فلم يجبه أحد، حتى قالت أمينة:  
- لن يطول انتظار نعيمة للعريس المناسب!  
فعلدت خديجة تقول:  
- ما أجملها يا ربّي! لم أرَ لجمالها مثيلاً...  
تساملت عائشة ضاحكة:  
- وأنها؟...! ألم تري أنّها؟  
فقطعت خديجة لتضفي على كلامها صفة الجديّة،  
وهي تقول:

- هي أجل منك يا عائشة، لن تستطعي المكابرة  
في هذا!  
ثم ما لبثت أن عاودتها سخرتها فقالت:  
- وأنا أجل منك يا أمينة!

وهؤلاء الناس يتحدثون عن الجمال! ماذا عرفوا من  
كنه الجمال؟ تعجبهم الزان: بياض العاج، وسبائك  
الذهب. سلولي أنا عنه، ولن أحذركم عن السمرة  
الصفافية والأعين السود السواجي والقامة الهيفاء  
والأناقة البارسيّة. كلّاً كلّ أولئك جميل، ولكنّه  
عسوط وشكول والدوان تخضع في النهاية للحواس  
والقياس. الجمال هزّة في القلب جارحة وحياة في  
النفس عامرة وبخّان تسبح الروح على أثره حتى تمانق  
السهاوت... حذوني عن هذا إن استطعتم...  
- لم يلتصق نساء السكّرية ودّ خديجة هائم؟...  
ربّما كان لها مزايّا - كما يشهد بذلك زوجها - ولكنّ  
الناس علّة يستهويها الوجه الصبيح واللسان  
الحلو...!

قال ياسين ذلك كي ينكش خديجة من جديد، بعد  
أن رأى الحديث يتحوّل عنها في سلام، فرمت بنظرة  
كأنّها تقول له: «تأبّي أن أرحمك».

ثمّ قالت وهي تتهدّد بصوت مسموع:  
- حسي الله ونعم الوكيل، لم أكن أعلم أن لي هنا  
حالة أخرى.

تساملت عائشة باسمه:  
- ألهذا كلّ ما ترين في بيتنا السعيد؟  
قالت خديجة بنفس اللهجة:  
- أو تغفّين ونعيمة ترفض...!  
عائشة بجهاشة:  
- حسي أنّ جميع الجارات يجيبني، وأنّ حاتي تحبني  
كذلك...!

- لا أتصوّر أن أفصح صديري لإحدى أولئك النسوة  
الثريات، أمّا حاتك فتحبّ من يملّقها ويسجد  
لها...  
- يجب أن نحبّ الناس، وما أسعد أن يحبّنا الناس  
كذلك، حقّاً من القلب للقلب رسول، إثّرنا جميعاً  
بشئنا وكثيراً ما قلن لي: «أحكك لا ترهب بنا ولا  
تتعب من تطهّينا»... (ثمّ غاطبةً أمّها وهي  
تضحك)... لا تزال تسمّي الناس بأسماء هزليّة،  
ثمّ تتدبّر بها في البيت، فيحفظها عبد المنعم وأحمد،  
ويرقدانها في الحارة بين الغلمان فتلعب!

عاود الضحك الصامت أمينة، كذلك ضحكت  
خديجة في شيء من الارتباك، كأنّها طافت بها ذكريات  
بعض مواقف محرّجة، حل حين راح خليل يقول في  
ابتهاج غير خاف:  
- بالجملة نحن تحت صغير، فيه الموادّ والمطربة  
والراقصة! حقّاً لا يزال بنقصنا جماعة المنشغلين  
والمرددين، ولكنّي أنوّم في أولادي خيراً، والمساءلة  
مسألة وقت!

فقال إبراهيم شوكت، موجّهاً الخطاب إلى أمينة:  
- أشهد أنّ بنت بنتك نعيمة راقصة بارعة!  
ضحكت أمينة حتى تورد وجهها الشاحب، ثمّ  
قالت:

- رأيتها وهي ترفض، ما أطفها!  
قالت خديجة بحسب نطق بختائها العائليّ المألوف:  
- ما أجملها! كأنّها صورة من صور الإعلانات.  
فقال ياسين:

- ما أجملها عروساً لرضوان!  
فقالت عائشة ضاحكة:  
- ولكنّها بكريّة الأسرة...! أه... لم يمكنني أن

الناس...٤.

قال إبراهيم شوكت، غاطبًا كمال:

- لسا كما تهمنا أنتك. لقد دخلت امتحان

الابتدائية سنة ١٨٩٥ ودخله خليل سنة ١٩١١،

كانت الابتدائية على أيماننا شيئًا عظيمًا على خلاف

الحاصل الآن حيث لا يكاد يفتح بها أحد، لم نواصل

التعليم، لأنه لم يكن في ثبنا أن نتوقف، أو بمعنى آخر

لم تكن في حاجة إلى الوظيفة!...

أعجب كمال إعجابًا ساخرًا بقوله ودخلت امتحان

الابتدائية، ولكنه قال جملًا:

- هذا أمر طبيعي...

كيف يكون للعلم قيمة ذاتية عند ثورين

سمعين؟، كلاًهما تجربة ثمينة علمتني أنه من الجائز

أن أحب - أي حب كان - من أحقر... أو أن أتمنى

الخير - كل الخير - لشخص تثير مبادله في الحياة نفوري

وتقرّزي، لا أملك إلا أن أكره الحيوانية من صميم

قلبي، صار ذلك حقيقة وحققاً مدّ هفت على القلب

نسمة الساء

هفت ياسين في حماس هزلي:

- لتحمي الابتدائية القديمة!

- نحن حزب الأغلبية على أي حال!

تضايق ياسين من إقحام خليل نفسه - وأخاه ضئلاً

- على حزب الابتدائية التي لم ينالها، ولكنه لم يجد بداً

من التسليم، على حين راحت خديجة تقول:

- سيواصل عبد المنعم وأحد التعليم حتى ينالا

الدبلوم العالي، سيكونان عهداً جديداً في آل شوكت،

اسمعوا وقع هُلمين الاسمين جيّداً: عبد المنعم إبراهيم

شوكت، أحمد إبراهيم شوكت... ألا يرون الاسم

رنين «سعد زغلول»؟

فصاح إبراهيم ضاحكاً:

- من أين لك هذا الطمّوح كله؟

- لم لا؟... ألم يكن سعد باشا مجاوراً بالأزهر؟

من الجراية إلى رئاسة الوزراء، وكلمة منه تقيم الدنيا

وتقعدها، ليس شيء على الله بكثير!

تساءل ياسين متعجباً:

- هلاً قصت بأن يكونا مثل علي أو ثروت؟

ثم إذا بها تعود من جديد إلى ذلك الموضوع، ولكن  
بلهجة جدية تاركة ياسين وشأنه على غير ما توقّع،

فتقول:

- ليس عندي متسع من الوقت كي أضيقه في

الزيارات، البيت والأولاد ينتهمون وقتي كله، خاصة

وأن زوجي لا يتمّ لا بالبيت ولا بالأولاد!

قال إبراهيم شوكت، مدافعاً عن نفسه:

- أنقي الله ولا تغالي شأنك في كل شيء، الأمر وما

فيه أنه ينبغي لمن كان له زوجة كزوجتي أن يقف

موقف الدفاع من حين لآخر، الدفاع عن قطع الأثاث

التي تكاد تنهري من كثرة النفخ والمسخ، والدفاع عن

الأولاد الذين تحمّلهم فوق ما يطيقون... آخر العهد

بذلك، ما علمت من دقّتها عبد المنعم إلى الكتاب ولما

يبلغ الخامسة من عمره!

قالت خديجة بفخار:

- لو أثبتت رأيكم لاستبقيته في البيت حتى يبلغ

سنّ الرشد! كأنّ بينكم وبين العلم عداوة، كلّ ما

حبيبي، سينشأ أولادي على ما نشأ عليه أخوانهم. لآني

أذاكر عبد المنعم في دروسه بنفسه!

ياسين مستنكراً:

- أنت تذاكرينه؟

- لم لا؟ كما كانت نية فلذاكر كمال، أجالسه كلّ

مساء ليمعني ما يحفظونه في الكتاب.

ثم وهي تضحك:

- وبذلك أيضاً استذكر مبادئ القراءة والكتابة التي

أخاف أن أنساها بمرور الزمن...

توزّد وجه أمينة حياءً وسروراً، فزنت إلى كمال كأنها

تستجديه إشارة إلى ذكر الليالي الخوالي فابتسم إليها

ابتسامة ذكور ولتنتش خديجة ابتنيها على ما نشأ عليه

أخوالها، ليكن منها من يتأثر كمال الذي يشقّ السبيل

إلى المدرسة العليا، ليكن منها من يتشبّه بـ... آه

ما أضعف الصدور المتصدّعة من تحمّل الخفقات

الواهة، لو امتدّ به العمر لكان اليوم قاضياً أو في

الطريق إليها، كم حدّثك عن أماله أو آمالك! أين

مضى كلّ ذلك؟ ليتني عاش ولو فرداً من غبار



فصاحت كالستميذة بالله:

- الحونة؟! لن يكونا من الذين يبتغى النامس بسقوطهم ليل نهار!

أخرج إبراهيم من جيب بطلونه منديلاً، ومسح به وجهه الذي زادت حرته عمقاً بحرارة الجمر ونفخ حرماً بما يشرب من ماء مثلوج وقهوة ساخنة، ثم قال وهو أخذ في تحفيفه:

- لو أنّ لشدة الأتھات فضلاً في خلق العظلاء، فأبشري من الآن بما يتظر ابنك من مجد كبير!

- تريدني عل أن أتركها وشأنها؟

قالت عائشة برقة:

- لا أذكر أنّ نية انتھرت أحداً منّا فضلاً عن

ضربه، ألا تذكرين؟

فقالت خديجة كالأسفة:

- لم تلجأ نية إلى الشدة، لأنّ أباً كان هناك! كان ذكره كافياً لإلزام كلّ حدّ، أمّا عندي، أو عندك فالحال من بعضه، فالأب غير موجود إلّا بالاسم (اضطّرت أن تضحك) ما عسى أن أفعل والحال كذلك؟ إذا كان الأب أمّا، فصل الأم أن تكون أباً...!

ياسين متهجّجاً:

- يقيني أنّك نجحت في أبوتك! أنت أب... هذا

ما شمرت به طويلاً، ولكن كانت تقصني معرفته!

فظاهرت بالرضى قائلة:

- أشكرك يا حبة كثر...

وخديجة وعائشة، صورتان متعارضتان... تتأمل جيّداً، أنّها نظراً الأجدر بأن تكون معبودتك على مثالها... استغفر الله! معبودتي على غير مثال، لا أتصورها ربّة بيت. ما أبعد هذا عن التصوّرات معبودته في ثياب البيت تنهه طفلاً أو ترحي مطبخاً؟! يا للفرع ويا للفرز، بل لاهية أو سادرة أو رافلة في حلّة باهرة في حديقة أو سيّارة أو ملهى، ملاك في زيارة طارئة سميلة للعالم، جنس مفرد غير سائر الأجناس لا يعرف إلّا قلبي، لا يجمعها وغولاء النسوة إلّا تسمية العاجز عن معرفة الاسم الحقيقي، لا يجمع جمالها وجمال

عائشة وسائر ألوان الجمال إلّا تسمية العاجز عن معرفة الاسم الحقيقي، هاك حياتي أكزسها لعرفتكم، هل نمة وراه ذلك ظلماً لعرفان؟..

- يا ترى ما أخبار مريم؟

تساءلت عائشة حال خطرت صديقتها القديمة ببأها، فأحدثت الاسم أنثراً متباعدة في كثير من الجالسين، تغيّر وجه أمانة حتّى نمت أسايريه عن الامتناع الشديد، فهاهل ياسين السؤال كأنه لم يسمعه متشاعلاً بضمّص أظفاره، وودت رأس كمال جملة من ذكريات هزّت نفسه هزّاً، أمّا خديجة فأجابتها بلهجة باردة:

- أيّ أخبار جنيدة تتوَعّعين؟ طلّقت وعادت إلى بيتها!

انتبهت عائشة - بعد فوات الفرصة - إلى أنّها انزلقت سهواً إلى وروطة، وأبّتها أساءت إلى أنّها بهفوة لسان. ذلك أنّ أنّها آمنت منذ عهد بعيد بأنّ مريم وأمّ مريم لم تصدقا في حزبها على فهمي، إن لم تكونا شمتا بهم من أجل ذلك، لا سبق من معارضة السيّد في خطبة مريم للفقيد. وكانت خديجة البائدة بترديد ذلك الظنّ، فتابعها الأمّ عليه بلا تردد أو تفكير، وسرھان ما تغيّرت عواطفها نحو جاريتها القديمة حتّى أوحى ذلك بالتنكر فالقطيعة.

قالت عائشة بارتباك، محاولة الاعتذار عمّا بدر منها:

- لا أدري لماذا دعاني للسؤال عنها؟

فقالت أمانة بانفعال ظاهر:

- ما ينبغي لك أن تغفري فيها.

كانت عائشة قد أعلنت شكها - عند ذلك التاريخ - في واقعية التهمة التي ألصقت بصديقتها، معتلة بأنّ الخطبة وما دار حولها بقي طليّ الكتمان، فلم ينته نبوه إلى بيت مريم في حينه، عمّا ينبغي على الفتاة وألها دواحي الشبهة... ولكن أنّها لم تر رأيها محتجّة بأنّ مسألة خطيرة كهذه المسألة عمّا يتعلّق منع تسرب خبرها إلى أصحاب الشأن فيها، فلم تلبث عائشة وراه رأيها طويلاً خشية أن تتهم بمحاباة مريم أو بفتر حاسما للذكرى شقيقها، لكنّها بإزاء انفعال أنّها، وجدت

نفسها مسافة إلى تلطيف وقع مفوتها، فقالت:

- لا يدري بالحققة يا نينة إلا الله... لعلها بريئة  
تَمَّا رَمِينَا بِهِ.

فاستدّت انمعاض أمانة على خلاف ما توقّعت عائشة،  
حقاً لاحت في وجهها بواور غضب بدت غريبة عنها لما  
حُرف عنها من حلم وهذوء، وقالت بصوت متهدّج:  
- لا تحذّثني عن مريم يا عائشة.

وصاحت خديجة مشاركة أنّها في عواطفها:

- قطعت مريم وسيرتها!

فابتسمت عائشة في ارتباك دون أن تنبس. وقد  
لبث ياسين متشاعلاً بأظافره حتى انتهى ذلك الحديث  
الخامس، وأوشك مرة أن يشترك فيه متشجعاً بقول  
عائشة ولا يدري بالحققة يا نينة إلا الله... ولكن  
اندفاع أمانة إلى الردّ عليها بذلك الصوت المتهدّج غير  
المعهود أسكته. أجل أسكته وانطلق لسانه باطنياً  
بالشكر على نعمة السكوت. وكان كمال يتابع الحديث  
باهتمام وإن لم يبدُ أثره على وجهه، وقد أكسبه حمل  
الحبّ عهداً طويلاً - في ظروف حسّاسة غير مواتية -  
قدرة على التمثيل تحكّم بها في كتمان عواطفه ومطالعة  
الناس - إن دعت الضرورة - بمظهر على نقض غيره،  
فلذكر ما سمع قديماً من «شائعة» آل مريم، ومع أنّه لم  
يأخذ التهمة مأخذ الجدّ إلا أنّه تذكّر عهد الرسالة  
السريّة التي ذهب بها إلى مريم والدة الذي عاد به إلى  
فهمي، ذلك سرّ قديم صانه ولم يزل مستمسكاً بصونه  
رعاية لمهد أخيه واحتراماً لرغبته، وقد لدّ له أن  
يعجب كيف لم يفقه معنى الرسالة التي حلها إلا  
أخيراً، حين انبثقت معانيها في نفسه خلقاً جديداً...  
كان - هل حدّ تعبيرة - حجراً يحمل نقوشاً مبهمّة حتى  
جاء الحبّ فصلّ رموزها، ولم يفقه أن يلاحظ غضب  
أمّه، وهو ظاهرة جديدة في حياتها لم تكن تعرفها قبل  
العهد المشنوم، لم تعد كما عهد، أجل لم تتغيّر تغيّراً  
خطيراً أو دائماً ولكنّها خدّت عرضة بين الحين والحين  
لنوبات لم تكن تظنّها عليها ولم تكن إذا طرأت تستسلم  
لها، ما عسى أن يقول في ذلك؟ إنّ قلب الأمّ الجريح  
الذي لا يعرف عنه إلا شلّرات وقع عليها ضمن

مطالعاته، شدّ ما يتألم لها، ثمّ ما وراء عائشة وخديجة؟  
هل يمكن أن ترمي عائشة ببرود نحو ذكرى فهمي؟ لا  
يتصوّر هذا ولا يطيقه، إنّها امرأة سليمة الطوية وفي  
قلها متّسع للصدقة والمودة، تميل فيما يبدو - ولها  
عذرها - إلى تبرئة مريم، ولعلّها تحنّ إلى عهدهما بهذا  
القلب المفتوح للناس جميعاً، أمّا خديجة فقد ازدردتها  
الحياة الزوجيّة، لم تعد إلا أمّاً وريّة بيت، لا حاجة بها  
إلى مريم أو غيرها، لم يبقَ لها من ماضيها إلا عواطفها  
الثابتة نحو أسرتها، نحو أمّها خاصّة، فهي تدور حيث  
تدور، ما أعجب هذا كله!

- وأنت يا سي ياسين إلّا ما تبقى أعزب؟

وجّه إبراهيم هذا السؤال إلى ياسين، مدفوعاً برغبة  
صادقة في تنقية الجوّ ممّا شابّه، فاجابه ياسين مازحاً:

- غادرتي الشباب وقُضي الأمر!

فقال خليل شوكت بلهجة جدّيّة، ذلّت على أنّه لم  
يفطن إلى ما في قول ياسين من مزاح:

- لقد تزوّجت وأنا في مثل سنّك تقريباً، ألسنت في

الثامنة والعشرين؟

فتضايفت خديجة من ذكر سنّ ياسين الذي كشف  
بطريقة غير مباشرة هن سنّها، فحاطبت ياسين قائلة  
بلهجة حادّة:

- هلاًّ تزوّجت وأرحت الناس من حديث

هزويّتك؟

فقال ياسين راحياً - قبل كلّ شيء - إلى التوقّد إلى  
أمانة:

- مرّت بنا أهوام أغتست الإنسان رغالبه!

ارتدّ رأس خديجة إلى الوراء، كأنّها دفعته قبضة يد،  
ثمّ رمته بنظرة كأنّها تقول «غلّبتني يا شيطان»، ثمّ  
قالت وهي تتنهد:

- آه منك! قل إنّ الزواج لم يعد يروقك وهو  
الأصلق!

فقالت أمانة عنته لتوقّده:

- ياسين رجل طيّب، والرجل الطيّب لا يمتنع من  
الزواج إلّا مضطراً، الحقّ أنّ لك أن تفكّر في استكمال  
دينك...

باب النصر وهي قريبة من بيت جئك، فخلعها ولا تشاجر!

فقال رضوان، وهو يترأسه بإياه:

- فيها أموات لا كنوز، فليأخذها هوا

عند ذاك علا صوت عائشة، وهي تقول برجاء وإغراء:

- صلوا على النبي، أمامكم فرصة نادرة كي تسمعوا نعيمة وهي تفني، ما رأيكم في هذا الاقتراح؟...

فجاءها الاستحسان والتشجيع من أركان الصلاة جميعاً، حتى رفع خليل نعيمة بين يديه ووضعها على حجره، وهو يقول لها «أسمي هذا الجمهور صوتك. الله... الله... إيساك والخجل، أنا لا أحب الخجل»، ولكن نعيمة غلب عليها الخجل، فلدنت وجهها في حجر أبيها حتى لم يعد يلمسه إلا هالة من نضار الذهب، وحانت من عائشة الضافة، فرأت محمد وهو يحاول عبثاً أن ينزع الشامة من خد جئته، وقامت إليه وعادت به إلى جلسها رغم عنامته، ثم واصلت تشجيع نعيمة على الغناء، وألحَّ معها خليل حتى همت الصغيرة في أنذ أبيها بأنّها لن تفني إلا إذا توارت عن الأنظار وراء ظهره، فسمح لها بما أرادت، فزحفت على أربع حتى لبنت بين ظهره ومسند الكنية... وعند ذاك شمل الصلاة سكون باسيم مترقب، وامتدت فترة السكون فأوشك خليل أن يفقد صبره، ولكن صوتاً رقيقاً لطيفاً بدأ يتكلم فيها يشبه الخمس، ثم أخذ يتشجع رويداً رويداً، حتى سرت في نبرات الحرارة فعلا مغتياً:

حود من هنا وتعال عندنا  
يا اللي أنا وانت نحب بعضنا  
وراحت الأيدي الصغيرة تصفق على إيقاعه.

- ٤ -

- أن لك أن تحبرني عن المدرسة التي تسوي  
الالتحاق بها... -

كان السيد أحمد عبد الجواد مترقباً على الكنية

يا طالما فكر في استكمال دينه، لا ليجرب حقه من جديد فحسب ولكن رغبة في رد الإهانة التي لحقت به يوم اضطر - يدافع من أبيه - إلى تطبيق زينب إنفاذاً ولشيشة أبيها عمّد عفتاً ثم كان مصرع فمعي فصرعه عن التفكير في الزواج حتى كاد يالف هذه الحياة الطليقة ويعتادها، غير أنه قال لأمينة، وكان يؤمن بما يقول:

- لا بدّ مما ليس منه بدّ، وكلّ شيء رهن بوقته... قطع عليهم أفكارهم بنقطة ضجة وصباح وضوضاء جاءت من ناحية السلم، مختلطة بوقع أقدام متدافعة، فانجذبت الأبصار متسائلة نحو باب السلم، وما هي إلا لحظة حتى ظهرت أم حنفي على عتبة الباب عابسة لاهة، وهي تصيح:

- الأولاد يا سق، سي عبد النعم وسي رضوان متشابكان، رمولي بالخصي وأنا أخلص بينهما... قام ياسين وخديجة، فهرعا إلى الباب، ثم نفذا إلى السلم، ومضت دقيقة أو دقيقتان عادا بملعها، ياسين قابضاً على يد رضوان، وخديجة دافعة أمامها جسد المنعم وهي تلكنه برحمة في ظهره، ثم تابعت البقية مهللة، فجزّرت نعيمة إلى أبيها خليل، وعشيان إلى عائشة، ومحمد إلى جدته أمينة، وأحمد إلى أبيه إبراهيم، ثم جعلت خديجة تتهرع جسد المنعم وتنلوه بأنه لن يرى بيت جدّه مرة أخرى، حتى صاح بصوت باك، وهو يشير متهماً إلى رضوان الذي جلس بين أبيه وكيل:

- قال إتهم أخفى متاً...

فصاح رضوان محتجاً:

- هو الذي قال لي إتهم أخفى متاً، وقال أيضاً:  
إتهم بملكون بؤابة المتولي بكنوزها!

فطُلب ياسين خاطره، وهو يقول ضاحكاً:

- اعدره يا بني، إنه مزاح مثل أمّه...!

فقالت خديجة لرضوان، وهي لا تتألك نفسها من الضحك:

- تتشاجران على بؤابة المتولي؟! عندك يا سيدي

- فؤاد بن جميل الحمزاوي، وهو من كنت تخلم عليه البالي من بَيْدِكَ سيلتحق بمدرسة الحقوق، ولد ذكِيّ متفوّق ولكنّه ليس أذكى منك، وقد وعدت أباه بالمعاونة في تسديد مصروفاته حتّى تتحقّق له المجانيّة، فكيف أنفق على أولاد الناس في المدارس المحترمة وابني يتعلّم بالمجان في المدارس الحقيرة؟!...

كان هذا التصريح الخطير عن «المعلّم ورسالته» مفاجئة مزعجة لكيال. لمّ هذا التحامل كلّهُ؟ لا يمكن أن يرجع ذلك إلى علم المعلّم الذي هو تلقين العلم، فهل يرجع إلى مجانيّة المدرسة التي تخرّجه؟ لم يكن يتصوّر أن يكون للفقير دخل في تقدير العلم أو أن يكون للعلم قيمة خارجة عن ذاته. كان يؤمن بذلك إيماناً عميقاً لا يمكن أن يتزعزع، كما يؤمن بكفالة الآراء السامية التي يطلع عليها في مؤلفات رجال يميّزهم ويمتزّ بهم، مثل: المنفلوطي، والمونيسي وغيرهما. كان يعيش بكلّ قلبه في عالم «المشاة» كما ينمّس على صفحات الكتب، فلم يتردّد فيها بينه وبين نفسه من تحفظة رأي أبيه رغم جلاله ومكانته من نفسه، معتزلاً عن ذلك بجناية المجتمع المتأثر عليه، وأثر «الجهلاء» من أصحابه فيه، وهو ما أسف له كلّ الأسف، بيد أنّه لم يسعه إلا أن يقول ملتزماً خاية ما يستطيع من الأدب والرقّة، وكان في الواقع يردّد نصّاً من مطالعته:

- العلم فوق الجاه والمال يا بابا...

ردّد السيد رأسه بين كيال وبين صوان الملابس، كأنما يشهد شخصاً غير منظور على غرق الرأي الذي سمع، ثمّ قال باستياء:

- حقّاً؟ عشت حتّى أسمع هذا الكلام الفارغ، كأنّ ثمة فرقاً بين الجاه والعلم! لا علم حقيقيّ بلا جاه ومال. ثمّ ما لك تتكلّم عن العلم كأنّه علم واحد! ألم أقلّ لك إنّك غرّ صغير؟ هنالك علوم لا علم واحد. للصعاليك علومهم، وللباشاشرات علومهم. افهم يا جاهل قبل أن تندم!

كان على يقين من احترام أبيه للدين ولأهله بالتالي، فقال بمكر:

بحجرة نومه، حل حين جلس كيال على طرفها المواجه للباب شابكاً ذراعيه على حجره يكتشفه الأديب والطاعة. ودّ السيد لوجهه الفتى قائلاً: «الرأي رأيك يا أبيه». بيد أنّه كان مسلماً بأنّ اختيار المدرسة ليس من الأمور التي يذمي نفسه فيها حقّاً مطلقاً، وأنّ موافقة الابن عامل جوهريّ في الاختيار، إلى أنّ مدى علمه بالموضوع كلّهُ كان محدوداً جدّاً، وقد استمدّ أكثره ممّا يثار أحياناً في بعض مجالسه بين أصحابه من الموقّفين والمحامين الذين أجمعوا على الإقرار بحقّ الابن في اختيار نوع دراسته تضادّاً من الإخضاع والفضّل، لهذا كلّهُ لم يستكف أن يجعل الأمر شوريّ مسلماً أمره إلى الله...

- نوبت يا بابا بإذن الله، وبعد موافقة حضرتك طبّاً، الالتحاق بمدرسة المعلّمين العليا!

نذت عن رأس السيد حركة موحية بالانزعاج، وأُتسعت عيناه الزرقاوان الواسعتان، وهو يجلج ابنه بغرابة، ثمّ قال بنبرات ناطقة بالاستنكار:

- المعلّمين العليا!... مدرسة المجانيّة! اليس كذلك؟

فقال كيال بعد تردّد:

- ربّما، لا أدري شيئاً من هذا الموضوع...

فلوح السيد بيده مستهزئاً، كأنما أراد أن يقول له: «وبغني أن تتجسّل بالصبر قبل أن تقطع برأي فيها ليس لك به علم»، ثمّ قال بازدراء:

- هي كما قلت لك، ولذلك ينذر إن تجلب أحدًا من أولاد الناس الطيبين، ثمّ إنّ مهنة المعلّم... أتدري شيئاً عن مهنة المعلّم أم أنّ علمك بها لا يعلو علمك بمدرستها؟ هي مهنة تميّس لا تحوز احترام أحد من الناس، إلّا عليهم بما يقال عن هذه الشئون، أمّا أنت ففرّ صغير لا تدري من أمور الدنيا شيئاً، هي مهنة يختلط فيها الأفندي بالمجاور، خالية من كلّ معاني العظمة والجلال، ولقد عرفت أنا من الأعيان والموقّفين المحترمين يابون - الإله كلّهُ - أن يزوجوا بناتهم من معلّم مها تكن مكانته... ثمّ بعد أن نجشّاً ونفخ طويلاً:

- لا يجب! وما دخل الحب في العلم والمدارس؟! قل لي ماذا يحب في مدرسة المعلمين؟ أريد أن أعرف أمارات الحسن التي فتنتك فيها، أم أنت ممن يحبون الرماة؟ تكلم ما أنا مصغر إليك...

نلت عنه حركة، كأنه يستجمع قواه لإيضاح ما غمض على أبيه من الرأي، ولكنه كان مسلماً بصعوبة مهمته، ومقتنماً في الوقت نفسه بأنها ستجر عليه مزيداً من السخريات التي ذاق أمثلة منها فيها سلف من الغشاش، وفضلاً عن هذا كله، فلم يكن يستين هدفاً واضحاً محدداً حتى يستطيع بدوره أن يوضحه لأبيه، فما عسى أن يقول؟ في وسعه إذا تأمل قليلاً أن يعرف ما لا يريد، فليس القانون يبعثه ولا الاقتصاد ولا الجغرافيا ولا التاريخ ولا اللغة الإنجليزية وإن كان يقدر أهمية اللاتين الأخيرتين لما يتطلع إليه، هذا ما لا يريد، فما الذي يريد؟ إن في نفسه أشواقاً تحتاج إلى عناية وتأنل حتى تنضح أهدافها، ولعله غير متأكد من أنه سيظفر بها في مدرسة المعلمين، وإن رجح عنه أن تكون - هذه المدرسة - أقصر سبيل إليها. أشواق تنمّرها مطالبات شتى لا تكاد تجمعها صفة واحدة: مقالات أدبية، واجتماعية، ودينية، وملحمة عشق وألف ليلة وليلة، والحامسة، والمنفلوطي، ومبادئ الفلسفة، إلى أنها ربما لم تكن مقطوعة الصلة بالأحلام التي كاشفه بها ياسين قديماً، بل والأساطير التي سكتها في روحه أنه من قبل ذلك... كان يحلوه أن يطلق على هذا العالم الغامض اسم «الفكر»، وعلى نفسه اسم «المفكر»، فيؤمن بأن حياة الفكر أسمى غاية للإنسان تتعالى بطبعها النوراني على الملقة والجاه والألقاب وسائر ألوان العظمة الزائفة... هي كذلك! وضحت معاملها أم لم تنضح، فاز بها في مدرسة المعلمين أم لم تكن هذه المدرسة إلا وسيلة إليها، لا يملك عقله أن يتحول عن هذه الغاية أبداً، ولكن من الحق كذلك أن يقر بأن ثمة صلة قوية تربطها بقلبه أو بالحرجي بحبه! كيف كان ذلك؟ ليس بين «محبته» وبين القانون أو الاقتصاد من سبب، ولكن ثمة أسباب وإن دقت وخفيت بينها وبين الدين والروح والخلق والفلسفة وما

- إن الأزهريين يتعلمون كذلك بالجمان ويشغلون بالتدريس، ولكن أحداً لا يستطيع أن يحضر علومهم...

فاوما له بلقته باحظار، وهو يقول:

- الدين شيء، ورجال الدين شيء آخر!

فقال مستمداً من اليأس قوة يستعين بها على مناقشة الرجل الذي لم يتعود إلا طاعته:

- ولكنك يا بابا تحترم علماء الدين وتحبهم!

فقال السيد بلهجة لم تخل من حدة:

- لا تخلط بين الأمور، أنا أحترم الشيخ متولي عبد الصمد وأحبه كذلك، ولكن أن أراك موقفاً محترماً أحب إليّ من أن أراك مثله، ولو سرت بالبركة بين الناس ودفعت عنهم السوء بالأحبة والتساويد... لكل زمان رجال، ولكنك لا تريد أن تفهم!

تفحص الرجل الشاب ليسر أثر كلامه فيه، فغض كمال بصره، وعض على شفته السفلى، وجعل يرمش، ويحرك زاوية فيه اليسرى في عصبية. يا حبيباً! أهذا الحاضر يصير الناس على ما فيه ضرر عتق لهم؟ وأوشك أن ينحصر غاضباً، ولكنه تذكر أنه إنما يعالج أمراً خارجياً عن نطاق سلطته المطلقة، فكظم غيظه، وسأله:

- ولكن ما الذي جعلك تتحسّن للمدرسة المعلمين وحدها كأنها استأثرت بالعلم كله؟! ما الذي لا يروقك في مدرسة الحقوق مثلاً؟ أليست هي المدرسة التي تخرج الكبراء والوزراء؟ أليست هي للمدرسة التي تتقّف بعلومها سعد باشا وأضرابه من الرجال؟

ثم بصوت منخفض، وقد عكست عيناه نظرة واجبة:

- وهي المدرسة التي وقع اختيار المرحوم فهمي عليها بعد روية وتفكير، ولو لم يعاجله الأجل لكان اليوم من رجال النيابة أو القضاء، أليس كذلك؟ قال كمال بتأثر:

- جميع قولك حتى يا بابا، ولكنني لا أحب دراسة القانون!

ضرب الرجل كفاً بكفّ، وهو يقول:...

التائبين للتائبين فيها!

حوّل السيّد وجهه عنه، ولسان حاله يقول: «اللَّهُمَّ طَوِّلكَ يا روح»، بيد أنّه لم يكن غاضباً حقّاً، ولعلّه رأى الأمر كلّهُ مفاجأة مضحكة لم تحطّر له ببال، ثمّ أعاد إليه وجهه، وهو يقول:

- بصفتي والدك أريد أن أطمئنّ على مستقبلك، أريد لك وظيفة محترمة، هل يختلف انسان في هذا؟ الذي يمتّني حقّاً أن أراك موكّفاً مهاباً لا مدرّساً بائساً وإن أقاموا له مثلاً كإبراهيم باشا أبي أصبح! يا سبحان الله! عشنا وشفنا وسمعنا العجب! ما لنا نحن وأوروبا؟ أنت تعيش في هذا البلد، فهل هو يقيم التائبين للمعلمين؟... فلي على مثال واحد للمعلم! (ثمّ بلهجة استنكارية) خبّرني يا بني: أتريد وظيفة أم مثلاً؟!

ولمّا لم يجد إلّا الصمت والارتباك، قال فيها يشبه الحزن:

- في رأسك أفكار لا أدري كيف اندست إليه، إني أدعوك إلى أن تكون واحداً من الرجال العظام الذين يترؤن الدنيا بجلالهم ومراكزهم، فهل عندك مثال تتطلّع إليه لا أدريه؟ صارحني بما في نفسك حتّى يرتاح بالي وأدرك غرضك، الحقّ أنّي في حيرة من أمرك! فليتقدّم خطوة جديدة ينصح بها عن بعض ما في نفسه وأمره الله، قال:

- هل من الميب يا بابا أن أتطلّع إلى أن أكون كالمنفلوطي يوماً ما؟ قال السيّد بدعشة:

- الشيخ مصطفى لطفي المنفلوطي؟! رحمة الله عليه رأيته أكثر من مرّة في سيّدنا الحسين... لكنّه لم يكن معلّماً فيها أعلم، كان أعظم من هذا بكثير، كان من جلساء سعد وكتابه، ثمّ إنّهُ كان من الأزهر لا من المعلمين، ولا شأن للأزهر نفسه بعظمته، كان هبة من الله... هكذا يقولون عنه! نحن نبحت في مستقبلك والمدرسة التي يبنّي أن تدخلها ولندعُ ما لله، فإن كنت أنت الآخر هبة من الله أيضاً، فستكون في عظمة المنفلوطي وأنت وكيل نيابة أو قاضٍ، لم لا؟!

شكلك ذلك من المعارف التي يستهويه التهل من متابعها، هل نحو يشبه ما بيننا وبين الغناء والموسيقى من أسرار يتشوّف إليها في هرّة الطرب وأريجّة النشوة. إنّهُ يجد هذا كلّهُ في نفسه ويؤمن به كلّ الإيمان، ولكن ما عسى أن يقول لآبيه؟ لجأ مرّة أخرى إلى المكر، وهو يقول:

- إنّ مدرسة المعلمين تدرّس علوماً جليلة، كتاريخ الإنسان الحافل بالعظمت، وكاللغة الإنجليزيّة! كان السيّد يتخصّص وهو يتكلّم، وإذا بمشاعر الاستياء والحقن تزايله فجأة. تامل - وكأنّه يراه لأوّل مرّة - نحافته وضخامة رأسه وكبر أنفه وطول عنقه، فوجد في منظره غرابية تضاهي ما في آرائه من شدوذ، وأوشكت روحه الساخرة أن تضحك في باطنه، ولكنّ عطفه وحبه أبيا عليه ذلك، خير أنّه تسامد فيها بينه وبين نفسه: النحافة ظاهرة مؤقتة، الأنف عندي مصدره، ولكن من أين له هذا الرأس المجيب؟ اليس من المحتمل أن يعرض له شخص - مثلي - تمّن يتنبّون عن الميوب صيداً لمزاحهم؟ ضابقتهُ هذه الفكرة مضايقة ضابقت من عطفه عليه، فعندما تكلم جاء صوته أهدأ نبرة وأدنى إلى الحلم والنصح، قال:

- العلم في ذاته لا شيء، والعبرة بالنتيجة، القانون يفضي بك إلى وظيفة القضاء، أمّا التاريخ والعظمت فمؤدّاها أن تكون معلّماً بائساً، عند هذه النتيجة قف طويلاً وتامل (ثمّ ونبرات صوته تعلو قليلاً في شيء من الحدة) لا حول ولا قوّة إلّا بالله، عظمت وتاريخ وسخام، هلاًّ حدّثني بكلام معقول؟! نورّد وجه كهال حياه وآلماً وهو يستمع إلى رأي أبيه.

في المعارف والقيم السامية التي يقدّسها، وكيف استنزها إلى مستوى السخام وقرنها به، غير أنّه لم يُعَدِّم عزاء فيها ورد ذهنه - في لحظة تلك - جليل دون شكّ، إلّا أنّه ضحيّة زمان ومكان ورفاق. ترى هل يجدي معه النقاش؟ هل يعزّب حظه مرّة أخرى مستعِثاً بمكر جديد؟

- الواقع يا بابا أنّ هذه العلوم تحوز أكبر التقدير في الاسم الراقية؟ إنّ الأوروبيين يقدّسونها، وقيمونها

- اهتدي يا بابا إذا لم يكن أحسن التعبير عن رأيي، أريد أن أوصل دراسي الأدبية التي بدأها بعد الكفاءة، أن أدرس التاريخ واللغات والأصلاق والشعر، أما المستقبل فأمره بيد الله!  
فهذه السيد منهكًا حائفاً، وكأنها يتم سرد ما سكت كمال عنه:

- وادرس أيضًا فن الحياة والقره جوز وفتح المتدل ونين زين نين. لم لا، اللهم غفرانك، أكنت حقا تدخر لي هذه المفاجأة؟... لا حول ولا قوة إلا بالله! اقتنع السيد أحمد بأن الحال أعظم مما قدر، فحار في أمره، وجعل يسأل نفسه: أخطأ فيما أباح لابنه من حرية القول والرأي؟ كلما مد له في جبل الصبر والتسامح لج الآخر في العناد وتحدي في الجدل... وما لبث أن قام في نفسه صراع بين نزته الاستبدادية وبين تسليمه بحق واختيار المدرسة، حرصا على مستقبل كمال من ناحية وكراهية للانحياز من ناحية أخرى، ولكنه انتهى على غير عادته - أو بالأحرى على غير عادته في الزمن القديم - بتغليب الحكمة، فعاد إلى النقاش وهو يقول:

- لا تكن غرًا، ثمة شيء في عقلك لا أدره أسأل الله لك منه النجاة، ليس للمستقبل هزًا ولعبًا، ولكنه حياتك التي لن تكون لك حياة غيرها، فكر في الأمر طويلاً، الحقوق خير مدرسة لك، إلى أفهم الدنيا خير منك، ولي أصدقائك من كافة الطبقات ولا خلاف بينهم في ذلك، أنت طفل أحمق، ألا تدري ما هي النياحة وما هو القضاة؟ هذه وظائف تميز الأرض هزًا وفي وسعك أن تتبرأ واحدة منها، كيف تُعرض عنها بكل بساطة وتختار أن تكون... معلمًا؟!

شد ما يتألم - لا غضبًا لكرامة المعلم فحسب - ولكن غضبًا لكرامة العلم أولاً وأخيرًا، العلم الحقيقي في نظره! لم يكن حسن الظن بالوظائف التي تميز الأرض هزًا، فظلمًا وجد الكتاب المسيطرين على روجه يطلقون عليها العظمة الزائفة والمجد الزائل وغير ذلك من نعوت الاستهانة والاستخفاف، فأسمن - تبًا لاقوالهم - بأنلا عظمة حقيقة إلا في حياة العلم

كمال، وهو يناضل في استئابة:

- لست أتطلع إلى شخص المتقاربي فحسب ولكن إلى ثقافته أيضًا، ولا أجد مدرسة هي أقرب إلى تحقيق غرضي، أو في الأقل إلى تمهيد السبيل إليه من مدرسة المعلمين، لذلك أترتها، ليس بي من رغبة خاصة في أن أكون معلمًا، بل لملي لم أقبل هذا إلا لأنه السبيل المتاح إلى ثقافة الفكر...

الفكر؟!... ورد قطع أخية الحامولي والفكر تاه اسعفني يا دموع العين الذي طلما أحبه واستعاده فيها مضي من زمانه، أهذا هو الفكر الذي يسعى وراء ابنه؟ سأله بدعشة:

- ما هي ثقافة الفكر؟

جئت به الحيرة، فازدرد وشفه، وقال بصوت منخفض:

- لملي لا أعرفها، (لَمْ يَتَسَمَّ متوكدًا) لو كنت أعرفها لما كان بي حاجة إلى طلب تعلمها! فسأله مستكبرًا:

- إذا كنت لا تعرفها فبأي حق اخترتها؟... هه... هل بهم بالضعفة لوجه الله؟

تغلب على ارتباكها بجهد شديد، وقال مدحرجًا باستهائته في الدفاع عن سعادته:

- إنها أكبر من أن يحاط بها، إنها تبحث فيها تبحث عن أصل الحياة ومآلها!

تأمله مليًا في ذهول قبل أن يقول:

- أمن أجل هذا تريد أن تضحي بعقليتك؟ أصل الحياة ومآلها؟! أصل الحياة آدم، ومصيرنا إلى الجنة أو النار، أم جند جديد في ذلك؟

- كلا، أعلم هذا، أريد أن أقول... فعاجله قائلاً:

- هل جنت؟... أسألك عن مستقبلك، فتجيبني

بأنك تريد أن تعرف أصل الحياة ومآلها؟! وماذا

تعمل بعد ذلك؟... فتفتح دكانًا لاستطلاع الغيب؟!

خاف كمال إن هو استسلم للارتباك والصمت أن

يُغلب على أمره أو يضطر إلى التسليم بوجهة نظر أبيه،

فقال مستنجدًا شجاعته:

بنفسه، سواء في أصدقائه من المولفنيين أو في بعض اتصالاته الحكومية المتعلقة بعمله، فأراد أبنائه على أن يكونوا مولفنيين وأحدهم لذلك، كذلك لم يكن يخفى عليه أنَّ التجارة لا تحظى بربح ما تحظى به الوظيفة من التقدير في نظر الناس وإن أخلفت أضعافها من المال.

وهو نفسه شارك الناس شعورهم وإن لم يعترف بذلك بلسانه، بل كان يعتز بإكبار المولفنيين له فيعد نفسه من الناحية «العقلية» مولفناً أو نذاً للمولفنيين، ولكن من غيره يسعه أن يكون تاجراً ونذاً للمولفنيين معاً؟ ومن أين لأبنائه بشخصية مثل شخصيته؟ أه يا لها من غيبة أمل! كم تحق قديماً أن يرى ابناً من أبنائه طبيباً، وكم ناط بفهمي أميته حتى قيل له إنَّ البكالوريا الآداب لا تؤتي إلى مدرسة الطب فرضي بالحقوق واستبشر بما بعدها خيراً، ثم علّق أمه بكلمة فاختار قسم الآداب فعاد الرجل يحلم بما بعد الحقوق، ولكنه لم يتصور فك أن تتجلى المعركة بين آماله وبين الأقدار بوفاة «نابهة» الأسرة، وإصرار كمال على أن يكون معلماً! أي غيبة أمل! وبدا السيد حزينا حثاً، وهو يقول:

لقد أخلصت لك النصيحة وأنت حرّ فيها تختار لنفسك، ولكن ينبغي أن تذكر دائماً أنني لم أوافقك على رأيك، ففكر في الأمر طويلاً، لا تتسجل، فما يزال أمامك فسحة من الوقت ولأ نلت على سوء اختيارك مدى الحياة، أهوذ بالله من الحق والجهد والسخف!! وطرح الرجل رجله على الأرض آثماً حركة دلت على شروعه في القيام ليأخذ أميته لمخادعة البيت، فنهض كمال في أدب وحياء، وانصرف.

عاد إلى الصلاة فوجد أمه وباسين جالسين يتحادثان، وكان موزع النفس كائيف البال لمعارضته لأبيه وإصراره على معارضته رغم ما أبدى الرجل من حلم ولين، ثم لما بدا عليه انزعاج من ضيق وحزن، فقصّ على ياسين خلاصة ما دار في الحجر من نقاش، وأنصت إليه الشاب وعمل جبهته علامة احتجاج وعمل شفثه ابتسامة ساخرة، وسرعان ما صارحه بأنّه من رأي السيد وأنّه يجب لجهله للقيم

والحقيقة، واقرنت من ثمّ كلّ مظاهر السلطان والجاه في ذهنه بالزيف والتفاهة، غير أنّه تحاشى الإفصاح عن إيمانه لهذا أن يستغل غضب أبيه، وقال بركة وتودّد:

ـ على أيّ حال مدرسة المعلمين مدرسة عليا

تفكر السيد ملياً، ثمّ قال متبرّماً يائساً:

ـ إذا لم تكن بك رغبة في الحقوق، وبعض الناس يعشقون التماسه، فاختر مدرسة محترمة: الحرية، البوليس... وشيء خير من لا شيء!

فقال كمال منزعجاً:

ـ أدخل الحرية أو البوليس وقد نلت البكالوريا؟

ـ ما حيلني إذا لم يكن لك في الطب نصيب؟!

عند ذلك شعر بغضه آت من ناحية المرأة ألقى عينه اليسرى، فمدّ بصره صوب الصوان، فرأى أشعة شمس العصر المائلة المتسربة إلى الحجر من النافذة المطلّة على الفضاء، وقد زحفت من الجدار للمواجه للفراش حتى غيّت جانب المرأة، مؤنفة باقتراب موعد انصرافه إلى الدكان، فترجّح قليلاً مبتعداً عن الضوء المتمكس، ثم نفخ نفخة وثبت بضيئه وأندرت ـ أو بئرت ـ في الوقت نفسه بوشك انتهاء الحديث، وتساءل واجماً:

ـ ألا توجد مدرسة أخرى غير هذه المدارس المغضوب عليها؟

فقال كمال وهو يغضّ بصره حرجاً لمجزه عن إرضاء أبيه:

ـ لم يبق إلا مدرسة التجارة ولا أرب في فيها!

ومع أن مبادرته إلى الرفض أحتقته، إلّا أنّه لم يجد من نفسه نحو المدرسة الجديدة إلا الفتور، لظنه أنّها إنما تخرج «تجاراً»، ولم يكن يرضى لابنه أن يكون تاجراً. لم يغب عن علمه أول الأمر أن متجراً كمستجره ـ وإن هيأ له حياة صالحة ـ فإنّه أعزّ من أن يبقى هله الحياة لمن يخلفه فيها من أبنائه إذا وحي ما سيفرّق من دخله على بقية المستحقين، فلن يعمل على إعداد أحد منهم ليحلّ محله، على أن ذلك لم يكن السبب الجوهري لفتوره، كان في الحق يكبر الوظيفة والمولفنيين ويدرك خطرهم ومنزلتهم في الحياة العامة كما لمس ذلك



- ولكنهم يقولون إنَّ المعلم لا يحكِّ له في المناصب  
الرفيعة!

فللَّوحت يبيها باستهانة قائلة:

- المعلم موفور الرزق. أليس كذلك؟ حسبك  
هذا، إنِّي أسأل الله لك الصحة وطول العمر وصالح  
العلم، كان جتَّك يقول: «إنَّ العلم أحرَّ من المال»!

أليس عجباً أن يكون رأي أئمة غيراً من رأي أيه؟  
ولكنه ليس برأي، إنَّه شعور سليم، لم تفسده ممارسة  
الحياة الواقعية التي أسست رأي أيه. ولعلَّ جهلها  
بشئون العالم هو الذي صان شعورها عن الفساد، ترى  
ما قيمة شعور - وإن سبأ - إذا كان مصدره الجهل؟  
والأ يكون لهذا الجهل نفسه أثره في تكوين آرائه؟ ...

نار حل هذا المنطق، وقال بجلوه: إنَّه عرف الدنيا  
غيرها وشربها في الكتب وآثر الخير عن إيمان وتفكير،  
وقد يلتقي الشعور الفطري الساذج بالرأي الحكيم  
دون أن تبوي سداجة الفطرة من أصالة الحكمة.

أجل! إنَّه لا يشك لحظة في صدق رأيه وجلاله، ولكن  
هل يلزم ماذا يريد؟ ليست مهنة المعلم بالتي تمجده،  
إنَّه يعلم أن يؤلف كتاباً، هذه هي الحقيقة، أيَّ  
كتاب؟ لن يكون شعراً، إذا كانت كرامة أسراه  
تحمي شعراً، فمرجع ذلك إلى أنَّ عابدة تميل النثر  
شعراً لا إلى شاصرة أصيلة فيه، فالكتاب سيكون  
نثراً، وسيكون مجلداً ضخماً في حجم القرآن الكريم  
وشكله، وستحلق بصفحاته هوامش الشرح والتفسير  
كذلك، ولكن عمَّ يكتب؟ ألم يحِ القرآن كلَّ شيء؟ لا  
ينبغي أن يئأس، ليجد موضوعه يوماً ما، حسب الآن  
أنَّه عرف حجم الكتاب وشكله وهوامشه، أليس  
كتاب عزَّ الأرض خيراً من وظيفة وإن هزَّت الأرض؟!  
كلُّ المتعلمين يعرفون سقراط، ولكن من منهم يعرف  
القضية الذين حاكموه؟!

- • -

- مساء النور... -

لا تحب! هذا ما قسَّرت وما أنا به عليم. هي  
البداية دائماً... منذ قديم وإلى الأبد، ها هي توليك

الجليلة في هذه الحياة، وتطلَّع لآخرى وهمية أو  
سخيفة. تريد أن تجود بحياتك للعلم؟ ما معنى هذا؟!  
إنَّه سلوك رائع كما يبدو في فصل من فصول المنطوطي  
أو في نظرة من نظراته، أمَّا في الحياة لما هو إلَّا عبث لا  
يقدم ولا يؤخر، وأنت تعيش في الحياة لا في كتب  
المنطوطي... أليس كذلك؟ الكتب تقرّر أموراً غريبة  
وخارقة، مثال ذلك، أنك تقرأ فيها أحياناً وكاد المعلم  
أن يكون رسولاً، ولكن هل صادفت مرّة معلماً يكاد  
أن يكون رسولاً؟ تعال معي إلى مدرسة النحّاسين أو  
تدجّر من تشاء من معلّمين، وفلن على واحد منهم  
يستحق أن يكون آدمياً لا رسولاً! وما هذا العلم الذي  
تريد؟ أخلاق وتاريخ وشعر؟ كلُّ أولئك جهل  
للتسليّة، حافظ من أن تغفل من يدك فرصة الحياة  
الرفيعة، كم انحسر أحياناً على معاكسة الظروف التي  
حالت بيني وبين مواصلة الدراسة!

تسامد عنلما خلا إلى آتته حل أثر ذعاب الأب  
وياسين، ترى ما رأيها؟... لم تكن ممن يؤخذ رأيهم  
في مثل هذا الأمر، بيد أنّها تابعت أكثر حديثه مع  
ياسين، إلى أنّها كانت على علم برغبة السيّد في إلحاقه  
بمدرسة الحقوق، الأمر الذي باتت تتطوّر منه فلم ترتع  
إليه، على أن كمال كان يعرف كيف ينظر بموافقتها من  
أقصر سبيل، قال لها:

- إنَّ العلم الذي أروّج في دراسته وثيق الصلة  
بالدّين، ومن فروعه: الحكمة والأخلاق، وتأمّل  
صفات الله وكنه آياته ومجولاته! تطلّق وجه أمانة،  
وقالت بحماس:

- هذا هو العلم حقاً، علم أبي، علم جتَّك، إنَّه  
أجلّ العلوم!

وتجسّرت قليلاً وهو ينظر إليها من طرف خفيّ  
باسماً، ثمَّ عادت تقول بنص الحواس:

- منذ الذي يجتدر المعلم يا بني؟ ألم يقولوا في  
الأمثال «من علمني حرفاً صرت له عبداً»؟

فقال مردداً حجة أبيه الذي هاجم بها اختياره،  
وكأنما يستورها رأياً يؤكّد به موقفه:

ظهرها، ابتعدت عن الحائط نحو جبل الغسيل، تحبك المشايك، ألم تحبكيها من قبل؟ ... بل ولكنك تدارين موقفك، إني أفهم كلّ الفهم، عشرة أعوام في المجون ليست بالخبرة القليلة، متّع عينيك بمنظرها قبل أن يستقرّ الظلام الزاحف فلا تبدو إلا شبحاً، سمحت واكتنرت، زادت حسناً عما كانت أيام صباها. كالغزال كسأت ولكنّها لم تكن تملك هذه الأرداف العيلة، وويّداً... لم يزل لها من رشاقة البكارة نصيب محترم، ما عمرك يا شاطرة؟ زهم أهلك قديماً أنك في سنّ خديجة. رأي خديجة أنك تكبريتها بسنوات وسنوات. امرأة أبي تؤخذ هذه الأيام أنك في الثلاثين مستشهدة بذكريات قديمة من نوع: أيام كنت حبل في خديجة كانت صبيّة في الخامسة ألغ، ما قيمة العمر؟ هل أنت ستماشرها حتى الكبر؟! في الأيام القصيرة تستوي الشابة والنصف، جميلة وجذابة ومشبعة دسمة، آه، نظرت صوب الطريق ولحظتك، أرايت مقتلها وهي تلهظك كاللداجة؟ لن أبرح موقفك يا مليحة، فني تعرفين الشيء الكثير عن جماله وقوّته وماله، أليس هو خيراً من ذلك الإنجليزي القديم...؟

- هل التحيّة عندكم لا تستحقّ ردّاً ولو بمثلها؟  
ولتلك قلداها مرّة أخرى، مهلاً... ألم تبسم؟ بل ومن سوّى جمالها فجعله فتنة، لقد ابتسمت، مهذت هذه الخطوة الأخيرة فأحسنتم التمهيد، لا شك أنّها تعلم بكلّ حركاتي ومناوئاتي السابقة، أنّ لي... وأنّ لك... من حسن حظّي أنّك لست من المصابيات بداء الخشمة، ذاك الإنجليزي... جوليون، الجواد الكريم الغلام أسماك موطاً المتن، ألا تسمعين حنّته؟

- أليس للجوار عندكم إكرام؟... إني أشحظك تحيّة هي من صميم حقوقي!

جامه صبرت رقيق خالفت - بدا لتحول الوجه عنه كانه آتٍ من بعيد - وهو يقول:

- ليست من حقّك... على هذا النحو! أجيّب الطارق. رُفعت سقّاطة الباب. لن تظفر بالمناشاة حتى تلتق الزجر. اثبت، الثبات...!

الثبات... كما يتف به المجاورون.

- إذا كان صدر منّي ما أغضبك فلن أخشعه لنفسي ما حيت؟

هي في عتاب:

- إنّ سطح بيت أمّ عليّ، الداية، في مستوى سطحنا وسطحكم، ما عسى أن يظنّ الناظر إذا رأى موقفك منّي وأنا أنشر الغسيل؟...

ثمّ في تساؤل هازئ:

- أم تريد أن تجعل منّي أسدوتة؟!

بعد الشرّ هنك؟ هل راحمت هذا الحمار في موقفك مع جوليون في الزمن القديم؟ لكن مهلاً، إنّ جمال عينك وهجيزتك يغفر ما تقدّم وما تأخر من ذنبك!

- لا أبشاني الله في الحياة لحظة واحدة إن كنت قصلتكم بسوء، لقد تواريت تحت سقيفة الياسمين حتى غابت الشمس، ولم أقترّب من السور حتى لبت عندي خلط سطح أمّ عليّ الداية...!

ثمّ وهو يتنهد بصوت مسموع:

- وعذري بعد ذلك أنّي واليت صعود السطح أبداً كي أظفر بهذه الحلو... فلما وجدتها الساحة استخفني السور، وعلى أيّ حال ربّنا يستر...!

- عجيبة...! ثمّ هذا التعب كلّهُ؟

سؤال لا يبحث عليه الجهل، يسألنّ عما يعرفنّ، ارتفعت أن تحاورك فاهناً بحوارها...!

- قلت لنفسي: أن تحيّيها وتردّ تحيّيكَ اللد من الصّحة والعافية!

التفتت إليه برأس دلّت حركته في شبه الظلام على تكتم الضحك، وقالت:

- لسانك أطول من جسمك، ترى ماذا وراء

كلامك؟

- وراءه؟... هلّا اقتربت من السور؟ عندي حديث طویل، منذ أيام وأنا أغادر البيت إلى الطريق، لاحظت منّي التضاة إلى الأرض فرايت ظلّ يد تتحرك، فنظرت إلى فوق فرايتك مطّلة من السور، رايت منظرًا جيلاً لا يمكن أن ينسى...

دارت على عقيها ولكنها لم تقترب خطوة، ثمّ قالت

في هبة تنم عن الاتهام:

- ثم رأيتك أخيراً فرأيت شائبة جميلة كالزهرة،  
تطلّع في غلام الليل فتتوّره، فكأنما أراك لأول مرة،  
سألت نفسي أكونك هذه جاريتنا مريم التي كانت  
تلعب مع خديجة وعاشة؟ كلا... هذه فتاة اكتمل  
لها الحسن ونضج، وشمرت بأن الدنيا تتغير من  
حولي...

قالت، وقد عاود صوتها عيبه:

- في تلك الأيام لم تكن عينك تستبحيان التطلع إلى  
أحد! كنت جازاً بمعنى الكلمة، ولكن ماذا بقي من  
تلك الأيام؟ تغير كل شيء، هدنا كالأغراب، وكأنا لم  
نتبادل كلمة، ولم نشأ معاً نشأة الأسرة الواحدة. هذا  
ما أراه أهلك.

- دعينا من هذا، لا تخمليني هنا إلى همّ.

- اليوم تطلّع بعينيك... في النافذة، وفي  
الطريق، وما أنت تقطع على السطح  
ماذا عنك من الذهاب إن كنت حقاً تريد به؟  
كذلك ألدّ من الشهد يا نور الغلام...

- هذا قليل من كثير، إليّ أطلع إليك أيضاً من  
حيث لا تدرين، وأراك في الحبال أكثر مما تتصورين،  
أقول لنفسي الآن وأنا على بيّنة مما أقول: إنّما القرب  
وإنما الموت!

هسيس ضحكة مكتومة اهتز لها قلبه، ثم تسألت:

- من أين لك هذا الكلام؟

أشار إلى صدره، وهو يقول:

- من قلبي!

مسحت بقلمها على أرض السطح عدلة بالشيب  
خفيفاً ينلر بالتحرك ولكنها لم تزايل موضعها، وقالت:  
- ما دام الأمر قد بلغ القلب، فينبغي أن أذهب  
بحيأس علا به صوته أولاً حتى انتبه إلى نفسه  
لخفته:

- بل يجب أن تأتي، أن تسألني إليّ، الآن وإلى  
الأبد... (ثم بكى) إلى قلبي... هولاك وما يملك!

وبلهجة وعظية عابثة:

- لا تفرط في نفسك على هذا النحو، حرام عليّ أن  
أحرمك قلبك وما يملك...

- كيف تنظر إلى فوق؟... ولو كنت جازاً حقاً  
كما تقول ما سمحت لنفسك بأن تجرح جارتك،  
ولكنك سترّ النية فيما بدا منك باصتراف فيما يبدو  
منك الساعة!

حقّ أنّه سترّ النية، أليس الفسق من سوء النية؟  
سوء نية من النوع الذي تحبّه، آه من النوان، بعد  
ساعة ستطالبين به حقّ من حقوقك، بعد ساعتين  
سأهرب وتجدّين في أثري، على أيّ حال ليلتنا غلّ...  
- ربّما يعلم بحسن نيتي، نظرت إلى فوق لأنّي لا  
استطيع أن أمنع النظر من مكان تكونين فيه، ألم  
تدركي هذا؟ ألم تشرعي به؟ جارك القديم يتكلّم وإن  
تأخّر به الزمن.

هازئة:

- تكلم. أطلق الحرية للسانك الطويل، ارفع  
صوتك، ماذا تفعل لو اتحمت عليك السطح امرأة  
أبيك فرأتك ورائتي؟

لا تزوغي يا بنت اللبوة، سيكون من المعجزات أن  
أطوي عنك، أمخافين امرأة أبي حقاً؟ آه... إنّ ليله  
في حضنها تساوي العمر كله!

- سأسمع وقع الأقدام قبل مجيئها، خلّينا فيما نحن  
فيه...

- ما هذا الذي نحن فيه؟

- إنّهُ يجلّ عن الوصف!

- لا أجد شيئاً مما تقول، لعلّ هذا ما أنت وحدك  
فيه!

- لعلّه، إنّهُ لامر مؤسف حقاً، أمر مؤسف أن  
يتكلّم قلب فلا يجد من يستجيب له، إليّ أذكر أيام  
زياراتك ليلتنا. تلك الأيام التي كنّا فيها وكأنا أسرة  
واحدة، وأتحمّس...

غمغمت وهي تبرز رأسها:

- تلك الأيام!

لم عدت إلى الماضي؟ أخطأت خطأ كبيراً، احذر أن  
يفسد عليك الألم جهدك كله، ركّز إرادتك كي تسبي  
كلّ شيء إلا الحاضر...

فقال بجراءة:

- أمرك مطاع، ليس السطح بالمكان المأمون، ألم  
تعلمي بأن لي بيتاً في قصر الشوق؟

هتفت مستنكرة:

- بيتك! أهلاً يا سي بيته!

فسكت قليلاً، كأنها يخاف، ثم تساءل:

- حني فيم أفكر؟

- لا شأن لي بهذا...

صمت، ظلام، خلوة، ما أفلح تأثير الظلام في

أصباي...

- إني أفكر في سوري سطحننا المتلاصقين، بم

يومي منظرهما إليك؟

- لا شيء...

- منظر حبيين متلاصقين...

- لا أحب سماع هذا الكلام...

- تلاصقها يدكر أيضاً بأنه ليس ثمة ما يفصل

بينهما.

- هيه!

نلت عنها كاستدراج مليء بالوهد، فقال ضاحكاً:

- كأنها يقولان لي: احبها

تراجعت غطوتين حتى التصق ظهرها بملاءة

منشورة، ثم همت في تحلير جنتي:

- لا أسمع بهذا!

- هذا... ما هذا؟

- هذا الكلام.

- والفعل؟

- سأترك غاضبة!

كلّك وحياتك الغالية... أتمنين ما تقولين؟ أنا

أضيق مما أظن؟ أم أنت أمكر مما أتصور؟ لم تكلمت

عن رضوان وأمه؟ هل تلوح بالزواج؟ ما أشدّ رغبتك

إليها؟ رغبة جنونية...

قالت مريم بفتة:

- آه... ما الذي يدعوني إلى البقاء؟

ودارت حول نفسها، ثم تطلعن رأسها لتسرّ من

تحت الغسيل، فأرسل صوته وراها قائلاً في جزع:

إلى أي مدى ذهب بك الفهم؟ إني أخطب فيك

اللبوة التي أحبها، لست بلهاء وحتى ذكرى جوليون،

تعالني يا بنت القديمة، أخاف أن أخيه في الظلام من

شلة النار التي تستمر في جسدي...

- هو وما يملك لك من طيب خاطره، سمعته في أن

تقبله وتملكيه، وأن تكوني له وحده!

قالت ضاحكة:

- أرايت يا ماهر؟... تريد أن تأخذ لا أن

تعلمي...

من أين لك بهذا اللسان؟ ولا زنوبة في زمانها،

ملعونة الدنيا من غيرك!...

- أريد أن تكوني لي كما أكون لك... أين الظلم

في هذا؟

صمت، ونظر متبادل بين الشبيين، حتى قالت:

- لعلهم يتساملون الآن عما أتركك!

فقال مستعظفاً بمكر:

- ليس ثمة في الدنيا من يتم بأمره!

عند ذاك خيّر لهجتها متسائلة بجذ:

- كيف ابنك؟... لا يزال عند جدّه؟

ماذا وراء هذا السؤال الغريب؟

- بل...

- ما عمره الآن؟

- خمس سنوات...

- وما أخبار والدته؟

- إنها تزوّجت أو ستزوّج في القريب العاجل...

- خسارة... لم تركها ولو إكراً لرضوان؟

يا بنت اللبوة!... أفضحي عما ترومين...

- أهله رغبتك حقاً؟

وهي تضحك ضحكة خافتة:

- يا بخت من وقى رأسين في الحلال!

وفي الحرام؟!

- لكنني لا أنظر إلى الوراء...

ساد صمت بدا غريباً مليّاً بالفكر... حتى قالت

بصوت جمع بين التحذير واللين:

- إليك وأن تقطع على السطح مرة أخرى.

- تلهين دون تحية!

اشرب رأسها فوق جبل الغسيل، ثم قالت:  
- البيوت من أبوابها، هذه تحتي...

وانجھت مسرعة نحو باب السطح فمرت منه.

عاد ياسين إلى الصالة فاعتذر لأمنية عن طول غيبته بحرارة الجوّ في الداخل، ثم ذهب إلى حجرته ليرتدي بذلته. كان كمال يُبجعه حينه في دهشة وتفكير. ونظر إلى أمّه فالتفأها هادئة مطمئنة وكانت فرحت من احتساء قهوجها وقراءة الفنجان، فتساءل ترى ماذا يحدث لها لو علمت بما دار فوق السطح...؟ هو نفسه لم يزايله القلق منذ اكّلع مصادفة على منظر المتناجين حين مضى وراء أخيه مستطعمًا غيبته، فعل ياسين ذلك، هل هانت عليه ذكرى فهمي؟ لا يستطيع أن يتصور هذا، كان ياسين يحب فهمي حبًا صادقًا، وقد حزن عليه حزنًا شديدًا، لا يجوز أن يرتاب في إخلاصه، إلى أن هذه «الحوادث» كثيرًا ما تقع، ثم إنه لم يدرك أن يربطون دائمًا بين فهمي ومريم! لقد علم المرحوم بواقعة جوليون في حينها، ثم مرّ زمن طويل بدا عليه أنه نسيها نسياً تاماً وشغل عنها بما هو أجلى وأخطر، وما كانت تستحقّ غير ذلك وما كانت يومًا كفتاً له. إنه عمّا يدور إلى النظر حقاً أن يساهل: هل يمكن أن ينسى الحب؟ الحب لا يُنسى، هذا ما يؤمن به، ولكن من أدرأه أن فهمي أحب مريم بالمعنى الذي يفهمه - أو يشعر به - هو من الحب؟ لعلها كانت رغبة قوية، كنهله الرغبة التي تستحوذ الساعة على ياسين، بل كتلك الرغبة القديمة إلى مريم نفسها التي ناوشته هو على عهد البلوغ وصابت أحلامه، أجل وقع هذا أيضًا، وعال منها اللين: ألم الرغبة وألم الندم، وكانت في القوة متعادلين فلم يتغلب من شرهما إلا زواج مريم واختافاها. يسمّه أن يعلم الآن هل تألم ياسين وهل وعزه الندم؟ وإلى أي مدى؟ لا يتصور أن يكون الأمر جرى سهلاً مهما يكن ظنه بحيوانية ياسين وقنور حماسه للشغل العليا، وهل رغم نظرتة المتساهلة للأمر كلّ شعر بامتصاص وقلق كما ينبغي للإنسان لا يعدل بمثاليته شيئاً في الوجود.

رجع ياسين من الحجرة وقد ارتدى ملابسه وأخذ زيتته، فحياها وانصرف، وبعد قليل سمعا نقر استئذان على باب الصالة فدعا كمال القادم - وهو على يقين من هويته - لدخل شابّ مثاله في السن، قصير القامة، وسيم الطلعة، مرتدياً جلباباً وجاكته، فقصّد أمانة وثقل بعدها، ثم صافح كمال وجلس إلى جانبه... كان في سلوكه - رغم ما انحط به نفسه من التآنب - ألفة كأنما كان واحداً من أهل البيت، وأكثر من هذا فقد أثبت أمانة تحادثه وهي تدعوه بكلّ بساطة وبها فؤاده، وتساءله عن صحّة أبيه جميل الحمزوي ووالدته، فبهجتها مستشعرًا السرو، والامتنان في حسن استباحتها، وترك كمال صديقه مع والدته، ومضى إلى حجرته ليرتدي جاكته، ثم يعود إليه فينتلقا ممّا.

- ٦ -

سارا جنباً إلى جنب صوب درب قرمز، متجنيبن طريق النحاسين، ليطافيا من المرور بالدكان حيث يوجد والداه... كمال بقامته الطويلة النحيلة، وفؤاده بقامته القصيرة، تكاد صورتاهما تلفتان الأنظار بتناقضهما. تساءل فؤاد بصوت هادئ:

- أين تذهب هذا المساء؟

فأجابته كمال بصوته الانفعالي:

- قهوة أحمد حبه...

كان كمال - عادة - يقرّر، وفؤاد يوافق رغم ما عُرف من الأخير من رجاحة العقل، ورغم نزوات كمال التي كانت تبسو مضحكة في عين رفيقه، مثل دعواته المتكرّرة له للذهاب إلى جبل المغنم والقلمة والحبيبة لتسريح النظر - على حدّ تعبيرة - في خلفات التاريخ وعجائب الحاضر، ولكن الحق أن العلاقة بين الصديقين لم تخلُ من تأثر بلفظ طبعتهما، وكون الأول ابن صاحب الدكان والأخر ابن وكيله، وعصق هذا التأثير أن فؤاد احتاد في صباه أن يؤثّر ما يكلف به من شراء بعض حوائج لبيت السيّد أحمد، وأن يكون صنعة لكرم أمانة التي لم تكن تفرض عليه بأحسن ما

لمشاهدة شارلي شابلن، فلنلعب الآن عشرة دومينو...

خلعا طربوشيهما ووضعاهما على مقعد ثالث، ثم نادى كمال النادل، طلب شايًا أخضر ودومينو. بدا المفهى المدفون كجوف حيوان من الحيوانات المنقرضة، طمر تحت ركاب التاريخ إلا رأسه الكبير، فقد نشبت بسطح الأرض فاخرًا فاه عن أنياب بارزة على هيئة مدخل ذي سلم طويل، وثمة في الداخل صحن واسع مرتع الشكل مبلط بالبلاط المصري تتوسطه فسفة رُصت على حافتها أصص القرنفل، وأحدقت بها من الجهات الأربع أرائك قرشت بالحصير المزركش والوسائد، أما جدرانها فقد انتظمتها مقاصير صغيرة الحجم متجاورة، كأد الواحد منها كهف منحوت في الحائط، لا نافذة بها ولا باب لها، واقتصر أثنائها على مائدة خشبية وأربعة مقاعد ومصباح صغير يشتعل ليل نهار في كوة بأعلى الجدار المواجه للمدخل. وكان القهوة اكتسبت من موقعها الغريب بعض صفاته، فهي تهوى في هدوء غير مألوف لسائر المقاهي، وضوء غير باهر، وجو رطب، وقد انطوت كل جماعة على نفسها في مقصودتها أو فوق أريكتها، تدخن النارجيلة وتحسو الشاي ويميم في دردشة لا نهاية لها، تكاد تشملها نغمة صبا وانية متصلة إلا أن تقطعها في فترات متباعدة سعة أو ضحكة أو قرقرة مدخن منهم.

كانت قهوة أحمد عبده في نظر كمال مجتل للمتنازل ونخفة للحام، أمّا فؤاد - وإن لم تغب عنه طرافتها أول عهده بها - فلم يمد يدها إلا مجلسًا كثيبًا تفشاه الرطوبة والهواء الفاسد، ولكنّه لم يكن يملك إلا أن يلقي كليًا ذمّي إليها!

- أتذكر يوم أن رأنا أخوك سي ياسين ونحن في مجلسنا هذا؟

قال كمال باسًا:

- نعم، سي ياسين متسامح ولطيف ولم يشعرني أبدًا بأنه أخي الأكبر، بيد أنّ رجوته يومذاك ألا يشير إلى مجلسنا في البيت لا خوفًا من أبي، فإنّ أحدًا عندنا لا يجرؤ على مكاشفته بمثل هذا الأمر، ولكن إشفافًا من

عندها من مآكل - وكثيرًا ما يصادف مجيئه أوقات الغداء - وأصلح ما يمكن استغناء عنه من ملابس كمال، فربط بينها منذ البدء شعور باستعلاء من ناحية وبالتبعية من ناحية أخرى... وهو وإن مضى يزول بحلول شعور الصداقة عمله، إلا أنّ أثره النفسي لم يقتلع من الأعماق، وقد قضت ظروف بالأّ يجد كمال من رفوق تقريبًا طوال العطلة الصيفيّة إلا فؤاد الحمزاوي، ذلك أنّ رفاق صباه من أهل الحمي لم يواصلوا التعليم إلى النهاية: منهم من توقف بالابتدائية أو الكفامة، ومنهم من اضطرّ إلى مزاولة عمل من الأعمال البسيطة مثل صبيّ قهوة بين القصرين وصبيّ الكؤاء البلديّ بخان جعفر. كان كلاهما من أقرانه في الكتاب، وما زال ثلاثهم يتبادلون تحية الزمالة القديمة كلما اتفق لهم اللقاء، تحية مشربة بالاحترام من ناحيتهم لما يضيفه طلب العلم عليه من امتياز، مشبعة من ناحيته بالمولدة الصادرة عن نفس مطبوعة على التواضع والبساطة، أمّا أصدقائه الجدد الذين اكتسب صداقتهم في الميآسية: حسن سليم، وإسمايل لطيف، وحسين شذاذ فكانوا يقضون العطلة في الإسكندرية ورأس البر، فلم يبقَ له من رفقٍ إلا فؤاد.

بلغا مدخل قهوة أحمد عبده بعد مسيرة دقائق، فهبطا إلى مستقرهما الغريب في جوف الأرض تحت حيّ خان الحليل، وانجهدا إلى مقصورة خالية، وفيما هما يجلسان متقابلين حول المائدة تشم فؤاد في شيء من الحياء:

- ظننتك ستذهب هذا المساء إلى السينما!

وشي قوله برغبته في الذهاب إلى السينما، ولعلّها راودته قبل أن يذهب إلى مقابلة كمال في بيته ولكنّه لم يفسح عنها، لا لآته لا يستطيع أن يشي كمال عن رأي فحسب، وإنّما لأنّ كمال هو الذي يقوم بنفقات السينما إذا ذهب إليها معًا، فلم نواته شجاعته على التلميح إلى رغبته حتّى استقرّ بهما المجلس بالقهوة حيث يمكن أن يؤخذ قوله مأخذ الملاحظة البريقة العابرة.

- سندهب يوم الخميس القادم إلى الكلوب المصريّ

والتسلية، بل الحق لم يكن ثمة فارق - في اهتمامه وحساسه - بين جده ولجوه. على أنَّ تفوق فؤاد في المدرسة لم يكن دون تفوقه في الدومينو، كان أول فرقته بينا كان هو في الخمسة الأوائل، فهل ثمة دور للحكم في ذلك أيضًا؟ كيف يملأ تفوق الشاب الذي ينطوي له في الأحياق على شعور بالاستعلاء ظنَّ أنه ينبغي أن يمتدَّ إلى المواهب العقلية حل السواء؟ لم يُقدم رأياً يؤول به من تفوق صاحبه، فهو يقول إنه يكرس وقته كله للمذاكرة وإنه لو كان عقله بالتفوق الذي يزعمون لأغنى عنه بعض هذا الوقت، ويقول أيضًا: إنه يتجنب الألعاب الرياضية وقد برز هو في أكثر من نوع منها، ويقول أخيراً: إنَّ فؤاد يقتصر في مطالعته حل الكتب المدرسية، وإذا تراءى له أن يقرأ كتاباً غير مدرسي في العطلة لاحظ في اختياره أن يكون مفيداً لدراسة اللاحقة، أمّا هو فلا يحدّ مطالعته حدود ولا توجهها منفعة، فإِ وجه الغرابة في ذلك في أن يسبقه الشاب في الترتيب؟ غير أنَّ سخطة هذا لم يمرض صدقتها للوهن، كان يحبّه ويحسد في رفقته مؤانسة ومسرة إلى أنه لم يضرّ - حل الأمل فيما بينه وبين نفسه - بالانقراض بفضائله ومزاياه.

تواصل اللعب وانتهت العشرة - حل غير ما أنذر به مطلعها - بانتصار كمال فنتلقى وجهه، وضحك ضحكة عالية، ثم سأل فريده: «عشرة أخرى؟» لكنَّ فؤاد قال بامسأ: «حسبنا اليوم ما كان» لعله كان ملُّ اللعب، أو لعله أشفق من أن نجده نتيجة العشرة المقترحة حثية لأمال كمال فيقلب سروره غمًا، فهو كمال رأسه كالتمعجب وقال:

- إنَّك كالسمك من ذوي الدم البارد!  
ثم بلهجة المتشدد، وهو يملك أرنبة أنفه العظيم يابهاه وسبأته:

- إني أعجب لك، إذا غلبت لم تأبه للأخذ بشارك، وتحبُّ سعد ولكنك تتكسح من الاشتراك في مظاهرة أريد بها تحيته يوم ولي الوزارة، وتبارك بسيدنا الحسين ولكن لم تبرز لك شعرة يوم ثبت لنا من تاريخه أنَّ جشانه غير ثاوٍ في ضريحه القريب! إني أعجب لك...

إزعاج والذني، تصوّر أنها ترتعب إذا علمت بتركدنا على هذه القهوه أو غيرها، وتظنُّ أنَّ أغلبية رواد المقاهي من الحشاشين وميتي السمعة!

- وسي ياسين، ألم تعلم بأنه من رواد المقاهي؟  
- إذا قلت لها هذا قالت لي: إنَّ ياسين كبير ولا أخوف عليه، أمّا أنا فصغير! الظاهر أنَّ ساطل معلودًا في الصغار في بيتنا حتى يدركني المشيب!

جاء النادل بالدومينو، وقد حين من الشاي حل صينية فاقعة الاصفرار، فتركها جميعًا على المائدة وذهب، تناول كمال قدحه من فوره وراح يحتسيه من قبل أن تخفَّ حرارته، ينفخ السائل ثم يتمرّزه، وينفخ مرة أخرى ويصمصص شفثه كئلاً لسعته الحارّة، ولكنَّ ذلك لا يردعه فيعاود المحاولة في عناد وجزع كأنه يحكم عليه بالفراغ منه في دقيقة أو دقيقتين، حل حين جعل فؤاد يراقبه صامتًا أو يحدّ بصره إلى لا شيء وهو مستند إلى ظهر مقعده في زانة أكبر من سته، تلوح في عينيه الواسعتين الجميلتين نظرة عميقة هادئة، ولم يحدّ يده إلى قدحه حتى كان كمال قد فرغ من مغالبة قدحه، وعند ذاك أقبل يتحسّى الشاي في ثأً مستطعماً مدافه مستلذاً نكهته، وهو يغمغم بعد كل حسوة «الله... ما أطيبه»، والأخر يحدّ على الفراغ منه بصبر نافذ كي يأخذ في اللعب، وهو يقول منلرًا:

- لأهزمك اليوم. لن يخالفك الحظُّ أبد الدهر...  
فيتمس فؤاد مغمغماً:

- سنرى...  
وأخذوا يلعبان...

كان كمال يولي المباراة اهتمامًا عصيًّا، كأنه يخوض معركة تتوقّف على نتائجها حياته أو كرامته، بينا مضى فؤاد في تقلم قطعه بهوده ومهارة فلم تفارق الابتسامة شفثه، أقبل الحظُّ أم أدير، حش كمال أم عيس، وقد خرج كمال - كعادته - عن طوره، فهتف به: ولعب سخيف، وحظ سعيد. فلم يزد الآخر عن أن ضحك ضحكة مهذبة لا تثير حنقًا ولا توحى بتحدّ. طلما قال كمال لنفسه وهو يتميّر غيظًا «لن يبرح حظُّه راكبًا حقيقيّ»، ولم يكن يلقي اللعب بالتسامح بالخلق باللهو

- لا يمكن أن أتبدع حقيقة سامية لا شيء إلا أن من حولي لا يؤمنون بها...

فعاد يقول في هدوء مسكن:

- روح جديرة بالإعجاب!... ولكن ألا يحسن بك أن تقدر مستقبلك في ضوء الواقع؟  
فتسائل كمال بازدرأ:

- ترى لو كان زميننا قد أخذ بهذه النصيحة، أكان يفكر جدياً في أن يلهب إلى دار الحياة للمطالبة بالاستقلال؟

ابتسم فؤاد ابتسامة كأنها تقول «رغم ما في حجتك من وجهة فهي لا تصلح قاعدة عامة في الحياة»، ثم قال:

- ادخل الحقوق حتى تضمن عملاً محترماً، ولك بعد ذلك أن تواصل ثقافتك كما تشاء!

- لم يجعل الله لامرئ من قلوب في جوفه، ثم دعني أحجج حل ربطك العمل للمحترم بالحقوق! كأن التدريس ليس عملاً محترماً!!

فهاهر فؤاد يقول بتوكيد يذوق به عن نفسه الشبهة:

- لم أقصد هذا مطلقاً، وهذا الذي يقول إن حفظ العلم ونشره ليس عملاً محترماً... لم لي كنت أريد

ورأي الناس وأنا لا أدري، والناس كما أشرت إلي شيء من هذا تبهرهم أضواء القوة والنفوذ!

فهز كمال منكبيه استهانة، وقال بإصرار:

- إن حياة تكوّن للفكر هي أجل حياة...

هز فؤاد رأسه كالوافق دون أن ينبس، وظلّ لاثلاً بالصمت حتى سأله كمال:

- ما الذي دعاك إلى اختيار الحقوق؟

ففكر قليلاً ثم أجابه:

- لم أكن مثلك واقفاً في غرام الفكر، فكان علي أن أختار دراسة عالية على ضوء المستقبل وحده، فاخترت الحقوق...

أليس هذا هو صوت العقل؟ بل إنّه هو، شدّ ما يثير حنقه، تمرّده، أليس من الظلم أن يمضي المعلقة الطويلة وهو حبيس هذا الحيّ ولا رفيق له إلا هذا والعقل؟ ثمّة حياة أخرى تعارض حياة الحيّ العتيق

شدّ ما يحفقه البرود، إنّ ما يستمونه «العقل» لا يطيقه، وكأنّه يحبّ الجنون ويحبّ به، إنّه يذكر يوم قيل لها في المدرسة: «إنّ ضريح الحسين رمز له ولا شيء غير ذلك». عاداً يومذاك ممّا وفؤاد يردد ما قاله مدرّس التاريخ الإسلاميّ، وكان كمال يتساءل متزعجاً: كيف أوتي صاحبه تلك القوة التي تحمّل بها الحبر كأنّه شان لا يعنيه؟! أمّا هو فلم يستسلم لتفكير، لم يستطع أن يفكر البتّة، وكيف لاثار أن يفكر؟ سار كالترنح من هول الطعنة التي نفلت إلى صميم قلبه، كان يبكي خيالاً نضب رجلاً تبدّد، لم يعد الحسين بجارهم، بل لم يكن بجارهم يوماً من الأيام، أين ذهبت القبلات التي كُتبت على باب الضريح في صدق وحرارة؟ أين يذهب الاعتزاز بالقرب والإدلال بالجار؟ لا شيء من هذا كله، لم يبقَ إلا رمز في الجامع وحشة وغيبة في القلب، وبكى ليلئذٍ حتى بلّ وسادته، تلك كانت الصدمة التي لم تحرك في صديقه العاقل إلا لسانه حين علّق عليها مرقداً أقوال مدرّس التاريخ، ألا ما أبشع العقل!

- هل علم والذك برغبتك في دخول مدرسة المعلمين؟

قال كمال بحذّة جلجت معبّرة عن ضيقه ببرود صاحبه وبه المتخلف عن مناقشة أبيه ممّا:

- نعم!...

- وماذا قال لك؟

فقال يروجّ عن صدره بمهاجمة حنّته من طريق غير مباشر:

- وأسفاه!... إنّ والذي كآثر الناس ثمّن يبيمون بالمظاهر الزائفة، الوظيفة... النيابة... القضاء... هذا كلّ ما يميّنه، لم أدري كيف أقنعه بجلال الفكر والقيم السامية الحقيقية بالتشدّد في هذه الحياة! غير أنّه ترك لي حريّة التصرف...

جملت أصابع فؤاد تعبت بقطعة من الدومينو، وهو يقول في حذر وإشفاق:

- قيم جليلة بلا شك، ولكن أين البيت التي ترفعها إلى المنزل اللاتقة بها؟



- كَلَّا؟ ظننتك ترحب ببقاء تحت القيو أو في فناء البيت المهجور. نضج جسمها، وعيًا قليل تصيران امرأتين بكل معنى الكلمة، وصل فكرة كانت قمر مرتدية الملاحة اللفت ولكنها كانت سافرة فقلت لها ضاحكا: لو لبست البرقع ما تحجرت على عاداتك!

قال كمال بإصرار:

- كَلَّا...

- لِمَ؟

- لِمَ أهد أطبق الفذارة!

ثم بحدة ثمت عن ألم دفين:

- لا أستطيع أن ألقى الله في صلاتي وثيابي الداخلية ملوثة!

فقال فؤاد بسداجة:

- تطهر واغتسل قبل الصلاة!

فقال كمال، وهو يبرأ رأسه للاستعارة الضائعة:

- إن الماء لا يطهر من الدنس...

فذلك الصراع القديم، كان يعني في لقاء قمر مضطربا بالشهوة والقلق ويعود بضمير معذب وقلب باك، ثم عقب الصلاة يستغفر استغفارًا حارًا طويلًا، لكنه يعني مرة أخرى مغلوبًا على أمره ثم يعود بالعذاب ليستغفر من جديد... يا لها من أيام نضحت بالشهوة والمرارة والعذاب، ثم انبثق النور، هنالك وسعه أن يحب وأن يصلي مقًا، كيف لا؟! والحب من منبع الدين يقطر صافيًا قال فؤاد في شيء من الحسرة:

- انقطعت علاقتي بترجس منذ فُتحت من اللعب في

الحارة!

فسأله كمال باهتمام:

- ألم تكن - وأنت المؤمن - تتعذب بتلك العلالة؟

فقال فؤاد، وهو يخفض البصر حياء:

- هنالك أمور ما منها بد...

ثم متسائلا وكأنه يداري حياء:

- أترفض حقًا انتهاز هذه الفرصة؟

- بكل تأكيد!!

- لوجه الدين وحده؟

معارضة الضد للضد، وثمة رفاق آخرون يخالفون فؤاد مخالفة التقيض للتقيض، إلى تلك الحياة وإلى أولئك الرفاق يهفو نفسه، إلى العباسية، إلى الطراز الطريف من الشباب، وقبل كل شيء إلى الأناقة الرغبة والنعمة الباريسية والحلم البديع... إلى معبده، آه... إن نفسه تنازعته إلى البيت، إلى حجرته كي يظل إلى نفسه ليدعو كرامته، يراجع تاريخًا أو يستعيد ذكرى أو يستجمل نقشة. ألم يثن له أن يقوِّض هذا المجلس ويذهب؟

- قابلت أنا ما فسألوني عنك...

تساءل كمال، وهو ينزع نفسه بمشقة من ثمار الوجد:

- من؟

فؤاد ضاحكا:

- قمر وترجس!

قمر وترجس ابنتا أبو سريح صاحب اللؤلؤ، قمر، الرزقة المظلمة بعد الغروب، العث المشوب بالسداجة الدنسة أو الدنس الساذج، المرافقة المحبوبة، ألا يذكر هذا كله؟ ما لشتيته تنقلصان تفرؤا؟ ذلك التاريخ قديم نسيًا، قبل حلول الروح القدس، لا يذكره إلا ويثر قلبه سحقًا وآثًا وعجلاً كما ينبغي لقلب أترع بشراب الحب الطهور.

- كيف قابلتها؟

- في زحمة مولد الحسين، فسرت إلى جانبها دون تردد أو ارتباك، كأننا أسرة واحدة جاءت لتطوف بالمولد!

- يا لك من جريء!

- أحيانًا، سلّمت فسلمنا، وتحدّثنا مليًا، ثم سألني

قمر عنك!

تورّد وجهه قليلًا، وهو يسأل:

- ثم؟

- اتفقنا مبدئيًا على أن أعبرك، ثم تقابل جميعًا

هز كمال رأسه في نفور، ثم قال باقتضاب:

- كَلَّا...

فقال فؤاد في دهمش:

إلى كلياته عن الزواج والسرورية، فصنم على مداراة  
هفته وعلى تصحيح معناها ما أمكن، فقال:

- الذين يحبون ما فوق الحياة لا يتزوجون، هذا ما  
عنيت.

ابتسم فؤاد ابتسامة خفيفة أو لعله كان يقاوم  
ضحكة، غير أن عينه العميقتين لم تنبأ عبا وراءهما،  
واكتفى بأن قال:

- هذه أمور خطيرة، والحديث عنها الآن سابق  
لأوانه، فلندعها مرهونة بأوقاتها...

فرفع كمال منكبته استهانة وثقة، وقال:  
- فلندعها ولنتنظر...

فؤاد في واد وهو في واد، عل ذلك فهما صديقان،  
لا يسمعه أن ينكر أن الخلاف في نفسه يجلبه إليه على ما  
في ذلك من جهد تعانیه أعصابه المرة بعد المرة، ألم يش  
له أن يحدو إلى البيت؟ الرحمة ومنساجاة النفس  
تتجاوزانه، الكرامة النائمة في درج مكتبته يهيج جيشان  
صدره، لا بد للمكثود في مكابدة الواقع من انتجاع  
بعض الراحة في الانطواء...

آن أن نعود...

- ٧ -

كان الحنطور يتابع سيره على شاطئ النيل حتى  
وقف أمام حوامة في نهاية المثلث الأول من طريق  
أماية، وما لبث أن غادره السيد أحمد عبد الجواد ثم  
تبعه على الأثر السيد علي عبد الرحيم.

كان الليل قد جثم في مجتمه ووشيت الظلمة كل  
شيء إلا أضواء متباعدة تطل من نوافذ الحوامات  
واللهيات التي ينتظمها الشاطئان من جسر الزمالك  
فهايكما، وأنوار خافتة لاحت عند موقع القرية في نهاية  
الطريق كالسحابة الناضجة بهرج الشمس في سماء  
ملبلة بالهيم الدكن.

كان السيد أحمد يهيء للمؤامة للمرة الأولى على  
رغم اكتراء عمده حقت لها منذ أربع سنوات - فلك أن  
صاحبها خصصها لمجالس الغرام وقد حرّمها السيد  
أحمد على نفسه منذ مصرع فهمي - فتقدمه علي عبد

- أليس هذا كافيا؟

ابتسم فؤاد ابتسامة عريضة، وقال:

- كم تحمّل نفسك ما لا يحتمل...

فقال كمال بإصرار:

- إني لكذلك وما ينبغي لي أن أكون غير ذلك...

وتبادلا نظرة طويلة، انصهت في عيني كمال عن

الإصرار والتحتي، فانمكتت في عيني فؤاد مهدنة

وابتسامة كاشفة الشمس الجهنمية التي تنعكس على

سطح الماء للاء ضاحكا، ثم واصل كمال حديثه:

- إني أرى الشهوة غريزة حقيرة، وأمقت فكرة

الاستسلام لها، لعلها لم تخلق فينا إلا كي نلهمنا

الشعور بالمقاومة والتسامي حتى نعلو عن جدارة إلى

مرتبة الإنسانية الحقة، إما أن أكون إنسانا وإما أن

أكون حيوانا...

فترث فؤاد قليلا، ثم قال بهدوء:

- أظن أنها ليست شرا خالصا، فهي الدافع إلى

الزواج، فالذرة!!

خفق قلب كمال خفقة خفيفة لم تجر لفؤاد في خاطر،

أهذا هو الزواج في النهاية؟ لكنه لم يكن يجهل هذه

الحقيقة في جلستها وإن كان في حيرة لا يدري كيف

يوفق الناس بين الحب والزواج، إنها مشكلة لم يرتطم

بها في حبه، لأن الزواج بدا دائما - ولاكثر من سبب -

فوق مرتقى أمانيه ولكن ذلك لم يمنع من قيامه مشكلة

تتطلب الحل. ما كان يتصور أن يكون اتصال سعيد

بينه وبين معبودته إلا عن طريق العطف الروحي من

ناحياتها والتطلع الحيان من ناسيته، طريق بالعبادة

أشبه، بل هو لعبادة نفسها، فائق شأن للزواج في

هذا؟

- الذين يحبون حقا لا يتزوجون.

تسائل فؤاد بهش:

- ماذا قلت؟...

فطن حتى قبل تساؤل فؤاد إلى أن لسانه خنان

إرادته، فبدا عليه الارتباك لحظة حرجية، وراح يتلذّج

آخر أقوال فؤاد قبل ندود هذه الجملة الغريبة عنه حتى

اهتدى بشيء من الجهد - على حداثة العهد بساها -

الرحيم ليندكه على المعبر، حتى إذا قارب السلم، قال

محدّثاً:

- السلم ضيقٌ ودرجاته مرتفعة ولا درابزين له،

ضخ يلك على كتفي وانزل على مهل...

مببطاً بحذر شديد، وتخبر الملاء المتلاطم على

الشاطئ، ومقدم الموائمة يداهب آذانها، وقد فغمت

أنفيتها رائحة نباتية مزججها عرف الطمي الذي جاد به

الفيضان في ذلك الوقت من أوّل سبتمبر، قال عليّ عبد

الرحيم وهو يتحسّر زرز الجرس على جدار المدخل:

- هذه ليلة تاريخية في حياتك وحياتنا، ينبغي أن

نطلق عليها اسماً مناسباً احتفالاً بيا، ليلة رجوع

الشيخ؟... ما رأيك؟...

قال السيد أحمد، وهو يحدّ قبضته على منكبيه:

- لكنني لست شيخاً، الشيخ الحقيقي كان

أبوك!...

عليّ عبد الرحيم وهو يضحك:

- سترى الآن وجوماً ثمها منذ خمس سنوات...

قال السيد كالتردد:

- لا يعني هذا أنني أكثر من سلوكي أو أحيد عن

عقلي (ثم بعد لحظة سكوت) قد... قد...

- تصوّر كلّنا يمدد بالآ يقرب اللحم إذا ترك في

المطبخ!

- الكلب الحقيقي كان أبوك يا بن الكلب...

ردّ الجرس، فتحّ الباب بعد نصف دقيقة من وجه

نوره عجزو، تنحى جانباً وهو يرفع يديه إلى رأسه تحية

للقادمين، فدخل الرجلان ومالا إلى باب على يسار

الداخل فجازاه إلى دهليز قصر مضاء مصباح كهربائي

يتدلّى من السقف، وقد تحلّى جداره المتقابلان بمرآتين

قام تحت كلّ منهما مقعد جلدي كبير وبخوان، وكان في

نهاية الدهليز المواجه لمدخله باب آخر موارب وشي

بأصوات السار التي اهتز لها صدر أحمد عبد الجواد،

فدفعه عليّ عبد الرحيم ودخل، فتبعه السيد، ولكنّه ما

كاد يمر عتبة حتى وجد نفسه حيال الحاضرين وهم

وقوف، وقد أقبلوا نحوه مرتحين مهلّكين يكاد يظفر

البشر من وجوههم، وكان عمّد عفت أسرعهم إليه

فعانقه، وهو يقول:

- طلع البدر علينا...

ثمّ عانقه إبراهيم الفار، قائلاً:

- آتاني زماني بما أرتضي...

وتنحى الرجال جانباً، فرأى جليلة، وزبيدة،

وامرأة ثالثة وقفت متأخرة عنها خطوتين ما لبث أن

تذكر فيها زئوبة الموائمة. آه... الماضي كلّ قد جمع

في إطار واحد، وتطلّقت أساريره وإن بدا عليه شيء

من الارتباك، ولكنّ جليلة ضحكت ضحكة طويلة،

ثمّ تنحّت ذراعها وعانقته، وهي تقول بنبرات غنائية:

- كنت فين يا حلو غايب...

ولمّا أطلقتها رأى زبيدة على بعد ذراع كالتردد وإن

أضواء وجهها نور الترحيب والسرور، لمدّ نحوها

ذراعه فشلت عليها، وعند ذاك زوّت ما بين حاجبيها

المزجوجين في عتاب، قائلة بلهجة لم تغلّ من عهدهم:

- من بعد تلتاش سنة...

فما تمالك أن ضحك من أحقاد صدره، وأخيراً رأى

زئوبة بموقفها لم تبرحه، ولقد ارتسمت على ثغرها

اهتسامة حياء كأنّها لم تجد من ماضيها ما يعطيها حقاً في

رفع الكلفة بينهما، لمدّ لها يده مصافحاً، وهو يقول

مشجّماً ومجاملًا:

- أهلاً بأمرية الموائد...

وردجوا إلى مجالسهم، فبك عمّد عفت ذراعه

بلراح أحمد ومضى به إلى مجلسه، فاجلسه إلى جانبه،

وهو يتسادل ضاحكاً:

- وقعت أم الهوى رماك؟

فضمضم السيد أحمد:

- رمانى الهوى فوقعت...

أخذ المكان يستبين لعينيها اللتين غابتا عنه أوّل الأمر

في حرارة اللقاء ومزاح المرتحين، فوجد نفسه في حجرة

متوسطة الحجم، تطلّ على النيل بشاغلتيين وعلى الطريق

زمرديّ، وقد أطلق خصاص نوافذها وفتح زجاجها،

يتدلّى من سقفها مصباح كهربائي ذو غطاء مخروطي

من البلّور يركّز نوره على سطح خوان توسط الحجرة

روحاً خائياً رغم ما يكتنفه من لالاء برّاق يستغني  
حيثاً وراء الإيتمام واللعب ثمّ يبين على حقيقته فيما  
بين ذلك فظنّاً فيه تعي الشباب، إنه الرثاء الصامت،  
أليست زبيدة في الخمسين من عمرها؟ وجليلة جاوزتها  
بأعوام، إنّا لدته ولن تكابر في هذا مهما أنكره لسانها،  
ثمّة تغير في قلبه أيضاً ينذر بالثغور والتقلص، لم يكن  
كذلك حين جاءه، جاء يجري لاهئاً وراء صورة لم يعد  
لها من وجود، لكن، حاشا أن يستسلم للهزيمة...  
اشرب، واضرب، واضحك، لن يندفعك أحد على  
رغمك إلى ما لا تود...  
قالت جليلة:

- لم أكن أصدّق أنّ صبيّ سنعمان عليك في هذه  
الدنيا!

وجد إغراء شديداً في أن يسألها:

- كيف ترييني؟

فتدخلت زبيدة بينها قائلة:

- كالعهد بك، جل ولا كلّ الجمال، شعرة بيضاء  
تلمع تحت طربوشك ولا شيء خلاف ذلك!

فقالت لها جليلة متحجّة:

- دعيني أحبّ أنا، لأنّ سؤاله كان لي (ثمّ هاطبة  
السيد) أراك كما كنت، لا غرابة في ذلك، ما ونحن  
إلا أبناء الأمس القريب!

فطن السيد إلى ما رمت إليه، فقال متكلّفاً الجسد  
والصدق:

- أمّا أنثى فقد ازدادتما حسناً ورواة، لم أكن أنتظر  
هذا كلّ.

زبيدة، وهي تفضّضه باهتمام:

- ما الذي غيّبك عنّا ذلك العمر كلّ؟ (ثمّ  
ضاحكة) كان بوسعك، لو كان فيك خير، أن تلقانا  
لقاء بريئاً، ألا يكون لقاء بيتنا إلا إذا كان الفراش  
محتناً؟

قال السيد إبراهيم الفار، وهو يرعش ذراعه في  
الهواء ليحسر كمّ القفطان عنه:

- لا علم له ولنا بأنّ ثمّة لقاء بريئاً يمكن أن يجمع  
بيتنا وبينكنّ!

حاملاً الأقداح وقوارير الويسكي، وقد قرّشت الأرض  
ببساط متجانس اللون مع الجدران والسقف، وقامت  
في كلّ جانب من الحجرة كتبة كبيرة شطّرت بنمرقة  
وعُشّيت بغطاء مزركش، أمّا الزوايا فقد احتلت  
بشلت وسائد. جلست جليلة وزبيدة وزّنية على  
الكتبة المجاورة للنيل، واقتصد الرجال الثلاثة الكتبة  
المواجهة لها، بينما انتشرت على الشلت آلات الطرب  
كالعود والدفّ والدربجة والصنج. أجال بصره في  
المكان ملياً، ثمّ تهتّد بآرياح، وقال بتلذذ:

- الله... الله، كلّ شيء جميل، لم لا تفتحون  
النافلتين المطّلتين على النيل؟

فاجابه عمّد حتّ:

- يُفتحان عندما ينقطع مرور السفن الشراعية،  
وإذا بلّيتم فاستروا...

فبادره السيد أحد بامسّ:

- وإذا استرتم فابتلوا!

فهتفت جليلة كاللحديثة:

- أروا شطارة زمان!

لم يقصد بقوله إلا المزاح، والحق أنّ إقدامه على  
هذه الخطوة الثورية - عجيته إلى العوامة - بعد طول  
الإحجام أورهه قلقاً وترقّداً، لكنّ ثمّة شيء آخر، تغير  
من نوع ما عليه أن يكتشفه بنفسه ولنفسه، فليست  
بصره وليمن النظر، ماذا يرى؟ هاك جليلة وزبيدة،  
كلتهما كالحمل - كما كان يقول قديماً - أو لعلّها  
ازدادتا شجّاً ولحماً، ولكن ثمّة شيء يكتشفها، لعله إلى  
متناول الشعور أقرب منه إلى تناول الحسّ، إلا أنّه  
وجه من وجوه الكبر بلا مرأى، لعلّ أصحابه لم يفتنوا  
إليه لأنهم لم ينقطعوا عن المرتأتين مثلها انقطع، ترى  
ألم يطرا عليه هو أيضاً مثل الذي طرا عليهما؟ انقبض  
قلبه ولتر حماسه، الصديق العائد بعد غيبة طويلة هو  
أفصح مرآة للإنسان، لكن كيف السبيل إلى هذا  
التغير حقّ يقبض عليه؟ ليست هنالك شعرة بيضاء  
واحدة في رأسها... ولكن ما للشيب ورووس  
الغواني؟ وليس ثمّة تمجّدات كذلك. هل غلبت على  
أمرك؟ كلّاً، إليك نظرة هاتين العينين، إنّا تمكس

زبيدة متأقفة:

- أعوذ بالله منكم يا رجال، لا توقون المرأة إلا مطية!

فقههت جليلة قائلة:

- يا ست أتك احدي ربنا على ذلك، أكنت تكتنزين هذا الشحم كله لو لم تضمرني في نفسك أن تكوني مطية أو حشية؟

فقال لها زبيدة معاتبه:

- علي بيبي ويون انتهم كي أحقق معه ...

قال السيد أحمد بأساً:

- كنت محكوماً عليّ بخمس سنوات بريئة يدون شغل ...

فعاذت زبيدة عهاجه قائلة في تهكم:

- يا ولداه! حرمت على نفسك اللذات كلها، كلها يا ولداه، حتى لم يبق لك منها إلا الطعام والخمر والطرب والمزاح والسهر حتى مطلع الفجر كل ليلة فقال السيد كالمعتذر:

- هله اشياء لا بد منها للقلب الحزين، أما الأخرى ...!

زبيدة وهي تلوح له بيدها كأنها تقول له «أه منك»

٥٥:

- علمت الآن أنك تمدنا شراً من كافة اللذوب والحطابا ...

عمد عقت هاتفاً مقاطعاً، كأنها تذكّر أمراً هاماً كاد يغفل منه:

- هل جئنا من أقصى الأرض كي نتكلم، هل حين نطل علينا الأقداح ولا نجد من يعنى بها! أملاً الأقداح يا عليّ، اربطي الأوتار يا زئوبة؟ اغلغ ملابسك يا حضرة المحترم، أنت حاسب نفسك في مدرسة؟ انزع الجلبه والطربوش، لا تظن أنك أفضيت من التحقيق، ولكن يجب أولاً أن تسكر المحكمة وأن تسكر النيابة ثم تعود إلى التحقيق، جليلة أصبرت على تأجيل السكر حتى يحضر سلطان الفرشة أو كما قالت، هذه الولاية تعزك إعراز الشيطان للضال للزمن، بارك الله لك فيها وبارك لها نيك ...

نهض السيد أحمد ليخلع الجبّة، قام عليّ عبد الرحيم ليتوسّل - كعادته - مهمّة الساعي، صدرت عن أوتار العود همسات غير مؤلفة للاختبار، ذللت زبيدة في غمضة، سوّت جليلة بأناملها خصلات شعرها وطوق الفستان فيها بين ثدييها، تابعت أمين بتشوق يديّ عليّ عبد الرحيم وهو يملأ الأقداح، ترعّب السيد أحمد في مجلسه وهو يجيل بصره في المكان والناس حتى التفت عيناه أتقافاً بعينيّ زئوبة قابضت الأعين تحمّ، فلمّ عليّ عبد الرحيم الدفعة الأولى من الكنوس. قال عمّد عقت: صحتكم وعجبتكم، قالت جليلة: نخب العودة يا مي أحمد، قالت زبيدة: نخب الهداية بعد الضلال، قال أحمد: نخب الأحباب الذين فرّق الحزن بيبي ويهمهم ... شربوا عندما رفع السيد أحمد كأسه إلى شفته، رأى من فوق سفح الكأس وجه زئوبة مرفوحاً كذلك إلى كأسه فهزته نصارته، قال عمّد عقت لعليّ عبد الرحيم: أملاً الثاني، وقال له إبراهيم الفار: والثالث في أثره حتى تثبت الأساس، قال عليّ عبد الرحيم وهو يشعر: خدام القوم سيّدهم. وجد أحمد عبد الجواد نفسه يتابع أنامل زئوبة وهي تربط الأوتار، فتسأل عن عمرها ثم قدره بين الخامسة والعشرين وبين الثلاثين، سأل نفسه مرّة أخرى هّا جاء بها ... العود؟! ... أم أنّ خالتها زبيدة عجمها لها سبيل الرزق؟ قال السيد إبراهيم الفار: إنّ النظر إلى ماء النمل يلوّخه. فوهت به جليلة: يا ابن الداجنة! سأل عليّ عبد الرحيم: إذا ريمت امرأة في حجم جليلة أو زبيدة إلى الماء فهل تغرق أم تطفو؟ فاجابه السيد أحمد بأنّها تطفو إلا إذا كان بها ثقب، سأل السيد أحمد نفسه هّا يمدت لو نزلت به نفسه إلى زئوبة، فاجابت نفسه بأنّ ذلك يكون لفصحة لو أراده الآن، أمّا بعد خمس كنوس فلن يظفر من حرج، وأمّا بعد زجاجة فيكون واجباً ... اقترح عمّد عقت أن يشربوا كأساً في صحّة سعد زغلول ومصطفى النحاس اللذين سيسافران في نهاية الشهر من باريس إلى لندن للمفاوضة، اقترح إبراهيم الفار أن يشربوا كأساً آخر في صحّة مكdonald صديق المصريين، تسامد عليّ عبد

قالت جلييلة بغفر وارتياح:

- لست ممن يحب عندهم الرجاء.

هم بأن يقول «عند الامتحان يُكرم المرء أو يهان»، ولكنه خاف أن يُدعى للامتحان أو أن يُفهم قوله على أنه تقديم في الامتحان، على حين كان كلما أنعم النظر تمنّج منه شعور بالفور وبالزهد لم يتجر له في خاطر قبل المحي. أجل ثمة تغرّلا ينكر، مغى الأمس، وليس اليوم كالأمس، لا زبيدة بزييدة ولا جلييلة بجليلة، وليس ثمة ما يستحقّ المغامرة، ليقنع بالأخوة التي نُوّهت بها جلييلة، وليمتدّها حتى تظلّل زبيدة نفسها، قال برقة:

- من أين للكبر أن يدرك آدميًا وهو بينكن؟

تساءلت زبيدة وهي تقلّب حينها في الرجال الثلاثة:

- أيكم الأكبر؟

فقال السيّد أحمد ببراءة:

- أنا ولدت في أعقاب ثورة هراي...!

فقال عمّد عفت عتجا:

- قل كلامًا غير هذا، لقد بلغني أنك كنت من

جنود هراي...!

فقال السيّد أحمد:

- كنت جنديًا من بطونهم، كما يقال الآن: تلميذ

من منازلهم...

فتساءل عليّ عبد الرحيم كالداهش:

- وماذا صنعت المرحومة والدتك وأنت داخل

خارج إلى الحركة؟

صاحت زبيدة بعد أن أفرغت الكأس في فيها:

- لا تمربوا بالهزار، إني أسألكم عن أحوالكم...

قال إبراهيم الفار بتحدّ:

- ثلاثتا بين الخمسين والخمسة والخمسين، فهل

تكاشفاننا بمعركا؟...

هزّت زبيدة كتيها استهانة، وقالت:

- أنا ولدت...

ثم ضاقت عينها بالكحولتان وهما تُرفسان إلى

المصباح في حال تدنّج، غير أنّ السيّد أحمد عاجلها

الرحيم عمّا عناء مكثونالد بقوله: وإنّه يستطيع أن يملّ القضية المصرية قبل أن يفرغ من فنجان القهوة الذي كان بين يديه. فأجابته أحمد عبد الجواد بأنّ ذلك يعني أنّ الإنجليزي يشرب فنجان القهوة - في المتوسط - في نصف قرن، تذكر السيّد أحمد كيف ثار على الثورة عقب مصرع فهمي وكيف ثاب رويّدًا إلى مشاعره الوطنية الأولى لما أسبغها الناس عليه من تقدير وإكبار بصفتها والد لشهيد نبيل، ثم كيف انقلبت مأساة فهمي مع الزمن مقخرة بيامي بها وهو لا يدري!

رفعت جلييلة كأسها صوب السيّد أحمد وهي تقول:

- صحتك يا جلي، طلالا كنت أسأل نفسي هل

نسيتنا حقًا السيّد أحمد؟ ولكنّي علم الله علركت

ودعوت الله أن يلهمك الصبر والعزاء، لا تعجب فانا

أنتك وأنت أخي...

فسألها عمّد عفت بخبث:

- إذا كنت أخته وكان أهلك كما تدّعين، فهل يفعل

الأخوان ما فعلنا في زمانكما؟

فأطلقت ضحكة أعادت إلى الأذهان ذكريات عام

١٩١٨ وما قبله، وقالت:

- سل أخوالك يا روح أمك...

قالت زبيدة وهي تلاحظ أحمد عبد الجواد بمكر:

- بدا لي رأي آخر في تفسير غيبته الطويلة...

سألها أكثر من صوت عمّا بدا لها، على حين تتمم

السيّد أحمد بصوت المستعبد:

- يا سائر أستر...

- بدا لي أنّه ربّما كان حصل عنده ضعف ممّا يدرك

الكحول أمثاله، فاعتلّ بالحزن واحتضى...

قالت جلييلة معترضة وهي تمزّ رأسها على أسلوب

العوامل:

- إنّه آخر من يدركه الكبير!

فسأل السيّد عمّد عفت السيّد أحمد:

- أيّ الرأيين أصحّ؟

فقال السيّد أحمد بلهجة ذات معنى:

- الرأي الأوّل يعبر عن الخوف والآخر يصبر عن

الرجاء؟

متنّها ما توقّعت من إقامه:

- عقب ثورة سعد باشا؟!

ضحكوا طويلاً حتى ألعبت لهم الوسطى، ولكنّ جليلة لم ترتّب بالحدث قياً بدا، فصاحت بهم:

- دعونا من هذه السيرة المقطونة! ما لنا نحن والأعيارا لیسال عنها صاحب الأمر في سياواته، أمّا نحن فالمرأة منّا شابّة ما وجدت من يرغب فيها، والرجل منكم شابّ ما وجد من يرغب فيه...

هذف عليّ عبد الرحيم بقية:

- هتوني!

وسئل حمّا عيّنا عليه، فواصل الحثاف قائلاً:

- سكرت...

قال أحمد عبد الجواد: إنهم ينبغي أن يلحقوا به قبل أن يفضل وحده في عالم السكر، حتّمهم جليلة على أن يتركوه وحده جزاء تمجّله، أوى عليّ عبد الرحيم في ركن وفي يده كأس مرتحة وهو يقول لهم: ابحتوا عن ساقى غيري. قامت زبيدة إلى حيث تركت ملابسها الخارجية وفحصت في حقيبتها عن حقّ الكوكابين حتى اطمأنت إلى أنّه في مكانه، اغتم إبراهيم الفار فرصة خلّق مكان زبيدة فجلس فيه ثمّ أسند رأسه إلى كفّ جليلة وهو يتنهد بصوت مسموع، نهض عمّد عفت إلى النافذتين المطلّتين على النيل وأزاح الحصاص عنها جانباً فلاح سطح الماء ظلّات متحركة عدا خطوط من الضياء الهادئ رسمتها على الأمواج الأشعة للرّسلة من مصابيح الذهبيات الساحرة، لعبت زُتوية بلوتار العود محدثة نغمة واقصة فالتجّمت عنها السيّد إليها مليّاً ثمّ قام ليملأ كأسه لنفسه، عادت زبيدة فجلست بين عمّد عفت وأحمد عبد الجواد وهي تفرّب الأخير على سلسلة ظهوره، علا صوت جليلة وهي تنفّ:

«يوم ما عصّتي المصّة...»

هذف إبراهيم الفار ببلوره: هتوني... اشترك عمّد عفت وزبيدة في غناء جليلة عند جملة: «وجابولي طاسة الخفصة»، اشتركت زُتوية في الأغنية، فعاد السيّد أحمد النظر إليها وما يدري إلّا وهو ينضمّ إلى المغنّين. جاء صوت عليّ عبد الرحيم من ركن الحجر

مؤنّداً. هذف إبراهيم الفار ورأسه لا يزال مستنّداً إلى كفّ جليلة: مفتون سنّة وسَمِيع واحد هو أنا. قال السيّد أحمد لنفسه دون أن يتوقّف عن الغناء: سوف تلقى وهي من الرضى والسروى في نهاية، ثمّ سادل نفسه أيقظاً: إلبيلة حابرة أم معاشرة طويلة؟ قام إبراهيم الفار فجأة واندفع يرقص، جعل الجميع يصفقون على الواحدة ثمّ غنّوا معاً:

«خلني في جيبك به... بين الحزام والمنطقة.

سادل السيّد أحمد نفسه: ترى أتقبل زبيدة أن يكون اللقاء في بيتها؟... انتهت الأغنية والرقص فاستبقوا إلى التراسق بالدعابلات دون توقّف، جعل أحمد عبد الجواد كلياً أطلق دعابة يسترقّ النظر إلى وجه زُتوية ليرى أثرها فيه، اشتدّ المرح والمرج، ومعنى الوقت منسرقاً...

- آن لي أن أذهب...

قال عليّ عبد الرحيم ذلك، وهو يهبط متجّها إلى ملابسها. فصاح به عمّد عفت ساعطاً:

- قلت لك أن أحضرها معك حتى لا نقطع السهرة!

تساءلت زبيدة وهي ترفع حاجبها:

- من هي المحروسة؟

فقال إبراهيم الفار:

- رفيقة جديدة، معلّمة قدّ الدنيا وصاحبة بيت

بوجه البركة...

فسأله السيّد أحمد باهتمام:

- من...؟

أجاب عليّ عبد الرحيم، وهو يحبك الجبّة ضاحكاً:

- صاحبك القديمة سنّة القلي...

فالتّمت عنها السيّد الزرقاوان، وتجلّت فيها نظرة

حالة، ثمّ قال بأساً:

- اذكروني عندها وأقرّتها السلام...

قال عليّ عبد الرحيم، وهو يفتل شاربه ويتأفّب

لللعاب:

- سألت عنك واقترححت عليّ أن أدعوك إلى قضاء

سهرة في بيتها بعد مواعيد العمل، فقلت لها إنّ بكرو

اسم النبي حارسه قد بلغ السن التي تعدّ في أمرهم  
سوجبة للدخول في وجه البركة وغيرها من وجوه  
الفسق، فلا يأمن أبوه إن جاء أن يلتقي به في إحدى  
جولاته...!

وضحك الرجل ملء شفقته، ثم سلّم وغادر  
الحجرة إلى الدهلز، تبعه على الأثر عمّد عفت وأحمد  
عبد الجواد ليرصلاه إلى الباب الخارجيّ. واستمروا  
يتحدثون ويتفاحكون حتى غادر السيّد عليّ العوّامة،  
وعند ذلك غمز عمّد عفت فزاع أحمد عبد الجواد،  
وهو يتسائل:

- زبيدة أم جليلة؟

فقال السيّد أحمد ببساطة:

- لا هذه ولا تلك!

- لم؟ كفى الله الشرّ!

فقال بلهجة القانع:

- خطوة خطوة، سوف أكتفي ما بقي من هذه  
الليلة بالشراب وسباح العود...!

ألح عليه أن يقدم رجلاه خطوة أخرى، ولكنّه  
اعتذر فلم يفلح عليه، عاداً إلى الحجرة المبعثرة الفائلة  
الرومي فاستردّها مجلسيها. قام إبراهيم الفار مقام  
الساقي، انفضحت أمارات السكر في وجه العيون  
وسلس الحديث ونحّز الأعضاء، غنّوا جميعاً وراء  
زبيدة:

«البحر يضحك له...».

لوحظ أنّ صوت السيّد أحمد عبد الجواد علا حتى  
كاد ينفخي على صوت زبيدة، روت جليلة تاتيش من  
مخافاتها. مذ وقع بصري عليك شمعت بأنّ الليلة لن  
نمرّ بلا مضامرة، ما أملح الصغيرة، الصغيرة؟ هي  
كذلك ما دعت تكبرها بربع قرن. تحمرّ إبراهيم الفار  
على العصر الذهبيّ للتحسّاس على أيّام الحرب، فقال  
لهم بلسان ثقيل «كنتم تقبلون يندي من أجل رطل  
نحاس» فقال له السيّد أحمد: «إن كان لك عند  
الكلب حاجة قل له يا سيدي». اشتكت زبيدة شدّة  
السكر فقامت تتمشّي ذهاباً ورجية، وعند ذلك جعلوا  
يصغفون حل إيقاع مشيتها المترنّحة ويغنون بها:

«تانا خطكي العتبة... تانا خطكي العتبة».

الحمر تشلّ العضو الذي يفرز الحزن، غمغمت  
جليلة قائلة: «حسبنا»، ونهضت فغادرت الحجرة إلى  
ردهة تفضي إلى مخدعين متقابلين، فالت إلى المخدع  
المجاور للنيل ودخلت، وما لبث أن ترامت إليهم  
طقطة الفراش وهو يتلقى جسمها العظيم، راقّ زبيدة  
تصرّف جليلة فالتبت أثرها إلى المخدع الآخر باعثة  
وراءها طقطقة أعنف، قال إبراهيم الفار: «إنّ لسان  
السريّر قد نطق». تناهى إليهم من المخدع الأوّل  
صوت وإن يترنّم عاكياً بحّة منيرة: «يا حبيبي تعالى»،  
فقام عمّد عفت وهو يجيب مترنماً كذلك: «وأديني  
جبي». نظر إبراهيم الفار إلى أحمد عبد الجواد  
متسائلاً، فقال له السيّد: «إذا لم تستح فاصنع ما  
شئت»، فقام وهو يقول: «ولا حياء في العوّامة!...»  
خلا الجوّ، ها هي الساعة التي رصدها طويلاً، نحت  
الصغيرة العود جانبا وترنّعت وهي تسبل حاشية  
الفسان على ساقها المشابكتين. ساد صمت وتبدل  
نظر ثمّ مدّت بصرها إلى لا شيء، تكهرب الصمت  
فلم يعد يحتمل، نهضت فجأة فسألها: إلى أين؟  
فغمغمت وهي تفرق من الباب: «الحمام»، قام بدوره  
إلى مجلسها فجلس وتناول العود وراح يهت بهت بأوتاره،  
وهو يتسائل: «أليس ثمة حجرة نالقة؟ لا ينبغي  
لقلبك أن يدقّ هكذا كأنّها الجنديّ الإنجليزيّ يسوقك  
أمامه في الظلام، ليلة أمّ مريم هل تذكر؟ لا تعد إلى  
ذكراسها فهي ألم، صادت من الحمام... ما  
أنفرها!...».

- أتضرب العود؟

أجاب بآساً:

- علميني...

- حسبك الدفّ، فؤلك من رجاله!

وهو يتنهد:

- تلك أيّام خلّت، ما الطفها، كنت طفلة! ما لك

لا تجلسين؟

تكاد تلمسك، ما أحلّ أوّل الصيدا

- غطي العود وأسمعي...



الصامت حتى عجب الرجل لشأنها فباخ حماسه ووجد وعزة في كبريائه، ثم جعل ينظر إليها وحل شفتيه ابتسامة متكلفة حتى سألهما:  
- ماذا أغضبك؟

فلازمت الصمت ملياً، ثم شبكت ذراعيها على صدرها.

- إني أنساك عيّا أغضبك؟

قالت باقتضاب:

- لا تسل عيّا تعلم...

ضحك فجأة ضحكة عالية معلناً بها عن استهائه وعدم تصديقه، وقام بدوره لعل الكاسين ثم قدم لها كأسها، وهو يقول:

- روقي مزاجك...

فتناولت الكاس تأتياً ثم أعادتها إلى المائدة، وهي تضمّن «الشرك» فراجع إلى مجلسه وقعد، ثم رلع كاسه إلى شفتيه ونحّرها دفعة واحدة وقهقه ضاحكاً.

أكان في وسعك أن تتوقع هذه المفاجأة؟ لو أستطيع أن أرجع في الزمن ربيع ساعة إلى الوراء، زؤوية... زؤوية... ولا شيء غير زؤوية فهل تصدّق ذلك؟ لا تشقّت حبال الصدمة، من يدري لعله دلال موضة

١٩٢٤ يا حصاني ١٩٠٠، ماذا تغير في؟... لا شيء... لكنّها زؤوية... أليس ذلك هو اسمها؟

لكلّ رجل حتّى من امرأة تعرض عنه، وما دامت زينة وجليلة وآم مريم يسمّن إليك فمن غير زؤوية - هذه الخفضاء - تعرض عنك؟ تحمل حقّ تحمل، ليس الأمر على أيّ حال بكارة، آه، انظر انظر، سالها مليحة منملجة، أساسها متين، لم تظنّ أنّها أهرضت عنك حقّاً؟...

- أشرى يا حلوة...

قالت بصوت يجمع بين الأدب والحزم:

- عندما يروق لي الشراب...

فسدّ نحوها بصره، ثم تسامى بلهجة ذات معنى:

- متى يروق لك...؟

فقطعت معلنة عن صدق فهمها لإشارته ولم تجب...

- شبعنا غناه وعزناً وضحكاً، عرفت الليلة أكثر من ذي قبل لماذا يفتقدونك في كلّ سهرة؟  
فاتسم ابتسامة وشت بسروره، ثم قال بمكر:  
- ولكنك لم تشبعي شرباً؟

فأجابت بالإيجاب وهي تضحك، فوثب كالجلود إلى المائدة، ثم عاد يزجاجة مملوءة حتى النصف، وكاسين، وجلس وهو يقول: ولنشرب معاً. الشرعة اللذيلة تنفث عنها شيطنة وسحرًا، سلها عن الحجرة الثالثة... سئل نفسك: ليلة أم معاشر... وعن العواقب لا تسل، أحمد عبد الجواد بجلالة قدره يفتح ذراعيه لزؤوية الموضة... بصحاف الفاكهة كانت تقف بين يديك... لكن لتحلّ بك السعادة جزءاً نصارتك، أمّا الكبر فلم يكن أبداً من شيعي... رأى كلّها القابضة على الكاس قريبة من ركبته، فمدّ راحته وربّت عليها بلطف، ولكنّها سحبتها في صمت إلى حجرها دون أن تلتفت إليه، فسأله نفسه ترى هل يملو التدلّل في هذا الوقت المتأخّر خاصّة إذا كان الداعي مثله وكانت المدحوة مثلها؟ خير أنّه لم يجد عن سنن الملاينة والملاطفة، فسأله بلهجة ذات معنى:

- أليس ثمة حجرة ثالثة في العزامة؟

قالت تخبّج على ظاهر السؤال متجاهلة مزماره وهي تشير صوب باب الدخيل:

- في الناحية الأخرى...

تسامد وهو يفتل شاربته ميتسباً:

- أليست تسح كلينا؟

فقال بصوت لا أثر للدلال فيه، وإن لم يجلوز حدود الأدب:

- تسحك وحدك إن طلب لك النوم؟

فسأله كالداهش:

- وأنت؟

فألت بنفس اللهجة:

- مستريحة كما أنا...

تزعزع قليلاً مقرباً منها، ولكنّها قامت فوضعت كأسها على المائدة، ثم مضت إلى الكتبة المقابلة له، فجلست راسمة على وجهها صورة الجنّد والاحتجاج

تسأل السيد، وكان يشعر في تلك اللحظة أنه يتدهور:

- ألم يصادف توقدي القبول؟

فطامنت من رأسها لتختفي وجهها عن عينيه، وقالت برجاء حازم:

- هلّا كفت عن هذا؟

فملكه غضب فجائي فجاء كرد فعل لإحساسه بالتدهور، فتسأل داهشًا:

- لم تحبين إلى هنا؟

قالت باحتجاج، وهي تشير إلى المود المستلقي على الكنية غير بعيد عنه:

- أجيء من أجل هذا...

- فقط؟... لا تناقض بين هذا وبين ما أدهوك إليه...

تسألت باستياء:

- بالقوة؟

فقال وهو يعاني سكرات الخيبة والحنق:

- كلاً، ولكني لأجد سبباً للرفض!

فقالت بهيود:

- لعل عندي أسباباً...

ضحك ضحكة عالية فاضية، ثم غلبه الحنق، فقال هازئًا:

- لعلك تخافين على بكاوتك!

رنت إليه بنظرة طويلة قاسية، ثم قالت بحنق وتشف:

- أنا لا أرضى إلا بمن أحبه...

هم بأن يضحك مرة أخرى، ولكنه أمسك بعد أن ضاق صدره بهذه الضحكات الآلية المحزنة، ومد يده إلى القارورة فصب منها في كأسه بلا تدبر حتى امتلأت إلى النصف، ولكنه تركها على المائدة، وراح ينظر إلى المرأة في حيرة لا يدري كيف يخرج من المأزق الذي دفع نفسه إليه... الأفعى بنت الأفعى لا ترضى إلا بمن تحبه، هل يعني هذا إلا أنها تحب كل ليلة رجلاً؟ هيهات أن تحمي من صفحتك فضيحة الليلة! السادة هناك في الدواخل، وأنت هنا تحت رحمة عوادة

متدلة... اسلخها بلسانك... اركلها بقدمك... ادفعها أمامك إلى الحجرة قهراً. الأجدد أن تشيع عنها بوجهك وتغادر المكان فوراً، في أعياننا لعنة تلذل الاعتناق، ما ألطف جدها، لا ثمار في حلاوتها، طاش الرأي ووجب الألم...  
- لم أكن أتوقع هذا الجفاء...

وقكب مصحماً وقد تجهّم وجهه، فنهض رافعاً كتفيه في استهانة، وهو يقول:

- ظننتك مثل خالتك لطافة وذوقاً فخاب ظني، ولن ألوم إلا نفسي...

سمع وسوسة فشتيتها وهي تمتص ريقها مصّة الاحتجاج والانتقاد. ولكنه مضى إلى ملابسه فانخذ بلبسها على حجل حتى انتهى منها في أقل من نصف المدة التي تتطلبها عادة أناقته. كان مصحماً خاضعاً، ولكنّ اليأس لم يبلغ به نهايته، ظلّ جزء من نفسه متمرداً يأبى أن يصنق ما وقع أو يعزّ عليه أن يسلم به، فتناول عصاه وهو يترقب بين لحظة وأخرى أن يحدث شيء فيكذب ظنه ويصنق أماني كبرياله الجريح، كان تفسك فجأة حاسرة عن وجهها قناع الجدل الزائف، أو أن يهرع إليه مستنكرة غضبه، أو أن تثب أمامه لتحول بينه وبين الدهاب، أجل كثيراً ما تكون مصّة الرقيق التي نلت عنها مناورة يعقبها الاستسلام، غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث.

ولبثت وهي بمجلسها تنظر إلى لا شيء، متجاهلة إياه كأنها لا تراه، فانغدر الحجرة إلى الدهليز ومنه إلى الباب الخارجي ثم إلى الطريق وهو يتنهد في حزن وأسف وضيظ. قطع الطريق المظلم مشياً على الأقدام حتى بلغ جسر الزمالك وجو الخريف الرطيب يتسلل في لطف إلى داخل ملابسه، ومن هناك استقل ناكسي، فطوى به الأرض طيًّا وهو ذاهل من السكر والفكر، حتى انتهت إلى ما حوله في ميدان الأوبرا والسيارة تدور به في طريقها إلى المتبة المخضراء، في أثناء دوراتها حانت منه التفاتة فلمس على ضوء المصابيح سور حديقة الأزيكية فعلق به بصره حتى غيَّبه عنه منقطع الطريق، ثم أغمض عينيه وهو يشعر



كله؟ هل يسرك حقاً أن تترك من وراء الخصاص  
 لنهزاً من تدهورك؟ إنك لا تدري ماذا تصنع بنفسك،  
 اتعبت عينيك في محجربها ودغمت دماغك، لن تبدو  
 لك، والأدهى من هذا أن تتفرج عليك ساخرة من  
 وراء خصاص، ماذا جاء بك؟ تريد أن تملأ عينيك  
 منها. اعترف، تريد أن تقيس أبعاد جسمها اللدن...  
 أن ترى ابتسامتها وإغضاباتها... أن تتابع أناملها  
 المخطّبة، فهم هذا كله؟ لم يسلف لك شيء كهذا مع  
 من فقتها حسناً ورواء وشهرة، أغضى عليك أن تتعذب  
 وتبوء في سبيل الشيء الحقير. لن تبدو... تطلع  
 كيفما شئت... الفث إليك الأنظار... السيد أحمد  
 عبد الجواد في قهوة سي عليّ يسترق النظر من الكوة،  
 لشد ما تدهورت!! من أدراك أنها لم تفش سرّك؟  
 لعلّ التخت يدري، ولعلّ زينة نفسها تدري، ولعلّ  
 الجميع يدرون!! مدّ يده للحلّاة بالخاتم الماسي إلى  
 فصنته ثم توسل إلى فاصرت حل صده... هذا  
 هو السيد أحمد عبد الجواد الذي تشيدون به...  
 لشد ما تدهورت!! أقصى التدهور ما تنحدر إليه، بل  
 ما تصرّ على الانحدار إليه وأنت أعلم الناس بما  
 ينطوي عليه فعلك المشين من مذلة وهوان، إذا عرف  
 السرّ أصحابك وزبيدة وجليطة، فإذا أنت صانع؟  
 حقاً أنت ماهر في مداراة الخرج بالثكّة، ولكن سوف  
 تنحسر موجات الضحك والقهقهة عن الحقيقة  
 المرة... هذا مؤلم وآلم منه أنك تريدها. لا تكذب  
 على نفسك، فانت تريدها حتّى المساء. ماذا  
 أرى؟... تسامد وهو ينظر إلى عربة كارو جاءت  
 فوقفت أمام بيت العائلة، ثم ما لبث أن فتح الباب  
 فخرجت صيّدة الدفّافة ساحبة ورامها عبده  
 القانوني، ثمّ تبعها بغيّة الجوفة، فادرك أتم ذاهبون  
 إلى فرح من الأفراح. وشعر الرجل شعوراً غريباً  
 يخفقان قلبه وهو يتطلّع إلى الباب في ترقّب مشوق  
 محزون. اشرب ببقه في غير ما حيلة متجاهلاً ما حوله  
 من الناس، ثمّ رتت ضحكة وراء الباب، ثم برز  
 العود في جراب مجي يسبق صاحبه التي خرجت في  
 نشاط ثوريّ ضاحكة ثمّ وضعت الصدود على مقدّم

إخلاقتها، يسير في خطوات وثيلة وعيناه تتفحصان  
 الطريق والتوالد، لاح وراء نافذتي زينة ضوء، ولكنّه  
 لم يدر ماذا كان يدور وراءهما، أوغل في الطريق وقتاً  
 ثم عاد من حيث أتى، فوصل مسيره إلى بيت عمّد  
 عفت بالجاليّة حيث يلتقي الاصدقاء الأربعة قبل  
 انطلاقهم إلى السهرة ممّا. قال السيّد مخاطباً عمّد  
 عفت:

- ما أنظف ليالي العوامة، لا يزال قلبي يحنّ إليها  
 فقال عمّد عفت ضاحكاً في ظفر:  
 - هي ومن إشارتك في أيّ وقت تشاء...  
 وعقب عليّ عبد الرحيم على ذلك بقوله:  
 - حنتت إلى زينة، يا حكوت...  
 فيادر السيّد قائلًا في جدّ:  
 - كلّ...  
 - جليطة؟

- العوامة ولا شيء عداها...

فسأله عمّد عفت بمكر:

- أنريدها سهرة قاصرة علينا، أم ندهو إليها  
 صديقات الزمان الأوّل؟

فضحك السيّد ضحكة أعلن بها هزيمته، ثمّ قال:  
 - بل تدهورنّ يا بن الماكرة، وليكن ذلك مساء  
 الغد، لأنّ الوقت تأخّر بنا الليلة، ولكنّي لن أجاوِز  
 الاستمتاع بالمجالسة والمؤانسة...

قال إبراهيم الفار «إحم»، وقال عليّ عبد الرحيم:  
 «علّ روعي أنا الجاني»، وقال عمّد عفت ساخراً:  
 «سّمه كما تشاء، تعلّدت الأسماء والفعل واحد».

ثمّ كان اليوم التالي كأنما اكتشف قهوة سي عليّ  
 لأوّل مرّة. انجذب إليها قبيل الأصيل، وجلس على  
 الأريكة تحت الكوة، فأقبل عليه صاحب القهوة  
 مرحّباً، فقال له السيّد وكأنّه يبرّد جبينه إلى القهوة لأوّل  
 مرّة:

- كنت راجعاً من بعض الأعمال، فنازعني النفس  
 إلى احتساء شايبك العذب.

زيارة لا يبدو أنّها من السهل أن تتكرّر... وويّداً  
 وويّداً!! ستفصح نفسك أمام الناس، ما جدوى هذا

العربية، وصعدت إليها بمصونة حيوشة، وجلس في الوسط حتى لم يعد يرى منها إلا منكبا يبدو خلال زاوية انفرجت ما بين عيوشه وعبد الضير. أصر السيد على أمانته حينئذ وحققا معا. أتبع العربية عينه وهي تتأرجح ذات البمين وذات الشكال موغلة في الطريق، تخلفه في صدره إحسانا عميقا بالكآبة والهوان، وتسأل: هل يقوم فيتيها؟ غير أنه لم يحرك ساكنا ولم يزد على أن قال لنفسه: وكان المجيء إلى هنا حماقة جنونية.

ذهب في المساء الموعود إلى العوامة بإمبابه، لم يكن استقر على رأي فيها ينبغي أن يفعل على كثرة ما أدار الأمر في ذهنه. ثم أخيرا، رهن حل مشاكله بيد الظروف والفرص... حسب أنه ضمن رؤيتها ومجالستها والانفراد بها في آخر الليل، سوف يحس النبض من جديد ويزداد أهد الكثرة مستميتا فله المرة بكافة ضروب الإغراء، دخل العوامة كالوچل، وحل حال لو رآها على غيره وحسن بواضها لأغرقه ضحكًا وسخرية. هنالك وجد الإخوان وجلبلة وزيدة ولكنه لم يحتر للعوامة حل أثر! وقد استقبل استقبالًا حارًا، وما كاد يجلس جثته وطربوشه ويخضع مجلسه حتى انفجرت القهقهات من حوله فاندمج في جزمها بقوة مرويته. حدثت ونكت ومازح وداعب مغالبًا قلقه عاودًا منه، غير أن خاوفه كمنحت تحت ثيار المرح دون أن تتبدد كما يحسن الالم إلى حين تحت تأثير المخدر، وما برح يأمل أن يفتح باب فتحي منه أو أن يشير إليها بكلمة تفسر غيابها أو تعيد بقرب حضورها، وكلما مضى الوقت متناقلًا متتابعًا شحب أمله وقر حماسه وغيم المأمول من صفوه.

تري أيها كان الطارئ: حضورها أول أمس، أم تخلفها اليوم؟ لن أسأل أحدًا، الظواهر تنم على أن سرك لا يزال مصونًا، لو علمت به زيدة ما تورعت أن تجعل منه فضيحة وجرسه. ضحك كثيرًا وشرب أكثر، سأل زيدة أن تغنيه وأضحك من الفم وأبكي من صميم قلبي، «أوشك مرة أن يخلو بمحمد عفت ليكاشفه بما يريد، أوشك مرة أن يحس نبض زيدة

نفسها بيد أنه غبط نفسه فخرج من أزمته مصون السر والكرامة.

ولما قام على عبد الرحيم عند منتصف الليل لذهب إلى رفيقته بوجه البركة، قام معه على غير توقع من أحد ليعود إلى بيته، وعيًا حاولوا أن يشوه عن عزمه أو أن يستظفروه ساعة، فذهب خلفًا وراءه دهشة، وخيبة للذين حلدوا وراءه بوجهه الرسوم ظنونا لم تقع.

ثم كان يوم الجمعة فخرج إلى جامع الحسين قبيل الصلاة بقليل، وأنه ليسير في شارع خان جعفر، إذ رآها عابرة من حارة الروابط في طريق الجامع... آه... لم يخفق قلبه مثل تلك الخفقة من قبل، وأعجبها على الأثر جود شمل حركته النفسية كلها، حتى غفل إليه - فيها يشبه الفيورة، وخلافًا للواقع - أنه توقف عن السير، وأن العالم من حوله صمت صمت القبور، كمثل السيارات التي تتوقف عركتها عن الدفع فيخرس أنيزها ولكنها تسير بقوة القصور الدائري في سكون شامل، ولما أفاق إلى نفسه وجدها تنفذه بمسافة غير قصيرة، فضعها على الأثر دون تدبر أو روية، فمر بالجامع دون أن يصرخ إليه، ثم مال وراءها عن بُعد إلى السكة الجديدة. ماذا يعني؟ إنه لا يدري!! كان يطبع ردة الفعل طاعة عمياء، لم يكن سبق له أن تعقب امرأة في الطريق ولا في أيام شبابه الأول فأخذ يتشابه الحرج والخلد، ثم دهمته فكرة سلخرة مفزعة مفا: أن يترك سر المطاردة الخفية، ياسين أو كمال! على أنه حرص على ألا تقصر المسافة بينه وبينها حيا كانت عليه مذ بدأت المطاردة، وراحت عيناه ترتويان من هيبة جسمها اللطيف بهنم وظلما وهو يستقبل موجات متتابعة من الأشواق والآلام، حتى رآها تعمد عن الطريق إلى دكان صائغ من معارفه يدهي يعقوب، تباطأت قلماء كي يتيح لنفسه فرصة للتبكير وتضاعف شعوره بالحرج والخلد: ألا يعود من حيث أتى؟ أم يمر بالدكان دون أن يلتفت نحوها؟ أم ينظر إلى الداخل وينتظر ما يحدث؟

كان يقترب من الدكان رويدًا، حتى إذا لم يبق بينه

العربية، وصعدت إليها بمصونة حيوشة، وجلس في الوسط حتى لم يعد يرى منها إلا منكبا يبدو خلال زاوية انفرجت ما بين عيوشه وعبد الضير. أصر السيد على أمانته حينئذ وحققا معا. أتبع العربية عينه وهي تتأرجح ذات البمين وذات الشكال موغلة في الطريق، تخلفه في صدره إحسانا عميقا بالكآبة والهوان، وتسأل: هل يقوم فيتيها؟ غير أنه لم يحرك ساكنا ولم يزد على أن قال لنفسه: وكان المجيء إلى هنا حماقة جنونية.

ذهب في المساء الموعود إلى العوامة بإمبابه، لم يكن استقر على رأي فيها ينبغي أن يفعل على كثرة ما أدار الأمر في ذهنه. ثم أخيرا، رهن حل مشاكله بيد الظروف والفرص... حسب أنه ضمن رؤيتها ومجالستها والانفراد بها في آخر الليل، سوف يحس النبض من جديد ويزداد أهد الكثرة مستميتا فله المرة بكافة ضروب الإغراء، دخل العوامة كالوچل، وحل حال لو رآها على غيره وحسن بواضها لأغرقه ضحكًا وسخرية. هنالك وجد الإخوان وجلبلة وزيدة ولكنه لم يحتر للعوامة حل أثر! وقد استقبل استقبالًا حارًا، وما كاد يجلس جثته وطربوشه ويخضع مجلسه حتى انفجرت القهقهات من حوله فاندمج في جزمها بقوة مرويته. حدثت ونكت ومازح وداعب مغالبًا قلقه عاودًا منه، غير أن خاوفه كمنحت تحت ثيار المرح دون أن تتبدد كما يحسن الالم إلى حين تحت تأثير المخدر، وما برح يأمل أن يفتح باب فتحي منه أو أن يشير إليها بكلمة تفسر غيابها أو تعيد بقرب حضورها، وكلما مضى الوقت متناقلًا متتابعًا شحب أمله وقر حماسه وغيم المأمول من صفوه.

تري أيها كان الطارئ: حضورها أول أمس، أم تخلفها اليوم؟ لن أسأل أحدًا، الظواهر تنم على أن سرك لا يزال مصونًا، لو علمت به زيدة ما تورعت أن تجعل منه فضيحة وجرسه. ضحك كثيرًا وشرب أكثر، سأل زيدة أن تغنيه وأضحك من الفم وأبكي من صميم قلبي، «أوشك مرة أن يخلو بمحمد عفت ليكاشفه بما يريد، أوشك مرة أن يحس نبض زيدة

والشجاعة على الانتقال المباشر من تعقب امرأة وقت الصلاة إلى الجامع، ألم ينفض نزقه وضوعه؟ بل ألم يجعله غير أهل للوقوف بين يدي الرحمن؟ عدل عن الصلاة عزوئاً متألفاً فسار في الطرقات ساعة على غير هدى، ثم عاد إلى البيت معاولاً التذكير في ذنبه، على أن رأسه - حتى في تلك اللحظات الحساسة المليقة بالندم - لم يخلق باه دون زئوة! قال غاطباً محمد هفت، وكان قد سبق إلى بيته مساء ليخلو إليه قبل توافد الأصديقاء:

- أريد منك خدمة، أن تدعو مساء الغد زبيدة إلى العومة!

ضحك محمد هفت، وقال له:

- إن كنت تريدنا فليهم هذا اللف والدوران! لو طلبتها أول ليلة لفتحت لك ذراعها على الرحب والسعة...

فقال أحمد عبد الجواد في شيء من الحرج:

- أريد أن تدعوها وحدها...

- وحدها؟ يا لك من رجل أناني لا تفكر إلا في نفسك، والفار وأنا؟ بل لنجعلها ليلة من ليلي العمر، ولنُدعُ زبيدة وجليلة وزئوة أيضاً...

تساءل أحمد عبد الجواد فيها يشبه الاستنكار:

- زئوة؟

- لم لا؟ إنها احتياطي لا بأس به، يرجع إليه عند الضرورة...

ما أني! كيف تُمَتِّت بنت القديمة ولم؟

- أنت لم تدرك بعد غايقي، الحق ألي لا أنوي المجيء غداً!

قال محمد هفت في استغراب:

- تطلب أن أدعو زبيدة؟ وتقول إنك لن تجيء غداً! ما هله الألفاظ!

ضحك أحمد ضحكة عالية يداري بها ارتباكها، ثم لم يجد بداً من أن يقول كالبائس:

- لا تكن بغلاً، سألتك أن تدعو زبيدة وحدها،

كي تبقى زئوة في البيت وحدها!

- زئوة يا بن أم أحمد؟

وبينها إلا أقدام خطرت له خاطرة جريئة، فاندفع إلى تنفيذها بلا تردد متجاهلاً خطورتها، وهي أن يقتل إلى الطوار ثم يسير متمهلاً أمام الدكان على أمل أن يراه صاحبه فيدعوه كعادته إلى الجلوس فيلبي دعوته! مضى متمهلاً فوق الطوار حتى بلغ الدكان، فنظر إلى الداخل كأنما ينظر عفواً، فالتفت حينها بعيني يعقوب... وإذا بالخوجا يتف به:

- أهلاً بالسيد أحمد، تفضل...

ابتسم السيد متوذكراً ثم خرج إلى الداخل فتصافحا بحرارة ودعا الخوجا إلى كوب خروب، فقبل الدعوة قبول الكرام، وجلس على طرف كنية جلدية من قبل الخوان المنصوب عليه الميزان. لم يبدُ عليه أنه فطن إلى وجود ثالث في الدكان حتى جلس فترامت أمام عينه زئوة وهي واقفة حيال الخوجا تقلب بين يديها قرمكا فتظاهر بالدهش، والتفت حينها وهو على تلك الحال... ابتسم فابتسم، ثم بسط راحته على صدره عتياً، وهو يقول:

- صباح الخير... كيف حالك؟

فقلت وهي تعاود النظر إلى القوط:

- بخير ربنا يكرمك...

كان الخوجا يعقوب يعرض استبدال القوط بأسورة مع دفع فرق اختلافاً عليه، فانتهاز السيد فرصة انشغالها ليملا عينيه من صفحة خدّها، ولم يغب عليه ما في المساومة والاستبدال من فرص تتيح له التدخل بالحسنى، لعل وصى... غير أنها قطعت عليه سبيله وإن لم تدبر بما أضمر، فترقت القوط إلى صاحبه وهي تملنه بأنّها عدلت نهائياً عن المبادلة، وطلبت إليه إصلاح الأسورة، ثم حيتته، وحيّت السيد بإحاطة من رأسها وغادرت الدكان! حدث هذا كله بسرعة لم يكن ثمة داعٍ إليها فيها بداً له، فأخذ وانزعج واستحوذ عليه القصور والضيق. ولبت مع الخوجا يعقوب يتبادلان حديث المجاملات المألوف حتى شرب كوب الخروب، ثم استأذن في الانصراف وذهب.

ذكر - في حجل شديد - صلاة الجمعة التي أوشكت أن تقوته، ولكنه تردد في المضي إلى الجامع، لم تواته

مضى إلى الحجرة ثم جلس في الموضع الذي كان يجلس فيه في المعهد القديم على الكتبة الوسطى، فنزع طربوشه وحطه على التمرة التي تشطر الكتبة، ومُد ساقه وهو يلتقي نظرة فاحصة على ما حوله... إنه يذكر المكان كما لو كان في ينفاده إلا أمس القريب، هذه الكتبات الثلاث، وهذه المقاعد، وهذا البساط الفارسي، وهذه الأخرنة الثلاثة المطلمة بالصدف، كل شيء كان بصفة عامة كما كان! هل يذكر متى جلس آخر مرة في هذا المكان؟ إن ذكرياته عن بهو الطرب وحجرة النوم أوضح وأثبت، بيد أنه لا يمكن أن ينسى أول لقاء تم بينه وبين زينة في هذه الحجرة، في هذا الموضع بالذات! وبجملته ما دار فيه، لم يكن أحد يومذاك مثله خلق بال وثقة بالنفس؟ ترى متى تعود؟ ماذا أحدثت زيارته في نفسها؟ إلى أي درجة سيرتفع غرورها؟ وهل أدركت أنه جاء من أجلها هي لا من أجل خالتها؟ إن أعطى هذه المرة فقل عليه السلام!

سمع وقع شبشب خفيف، ثم بدت زئوبة عند الباب في فستان أبيض منمنم بورد أحمر، ملفضة بوشاح مرصع بالترتر، أما رأسها فحاصر، وأما شعرها فمجدول في ضميرتين غليظتين استرسلتا على ظهرها... استقبلها واقفاً باسماً متفائلاً بالزينة التي تبثت فيها، فحيته بابتسامة، وأشارت إليه أن يجلس، ثم جلست على الكتبة التي تتوسط الجدار الذي إلى يمينه، وهي تقول بصوت لم يخل من دهش:

- أهلاً وسهلاً، أيّ مفاجأة!

فابتسم السيد متسائلاً:

- من أي نوع يا ترى هذه المفاجأة؟

قالت وهي ترفع حاجبها في حركة غامضة لم تتم حين إذا كانت ستتكم جائة أم ساعرة:

- سارة طبعاً!

ما دنا قد أطمنا أقدامنا حتى جاءت بنا إلى هنا فملينا أن نتحمل الدلال بكافة أنواعه: ثقيله وخفيفه. نفحص جسدها ووجهها - في هدوء - كأننا ننقب فيها عينا لوعه وحيث بوقاره، فساد الصمت حتى رفعت إليه وجهها دون أن تنبس، ولكن في حركة تمت

ثم وهو يسترمل في الضحك:

- لم كل هذا الضحك؟ لم تطلبها أول ليلة في العروامة؟ ولو أشرت إليها بأصبعك لطارت إليك، ولزقت فيك بالقرام!

ابتسم ابتسامة فارغة، رغم شعوره الآليم بالامتعاض، ثم قال:

- نفذ ما أمرت به، هذا ما أريد...

قال محمد عفت وهو يقتل شاربه:

- ضمف الطالب والمطلوب!

فقال أحمد عبد الجواد جاثلاً جاثلاً:

- لكن هذا سرّاً بيننا...

طرق الباب في ظلام دامس وفي غلاء من المازة، وكانت الساعة تدور في التاسعة، ففتح الباب بعد حين دون أن يبدو الفاتح، ثم جاءه صوت ارتج له فؤاده ازعجاجاً يتساءل قائلاً: «من؟» فقال يدهو وأنا، وهو يدخل بغير استئذان، ثم ردة الباب وراءه فوجد نفسه قبالتها وهي واقفة على آخر درجة من السلم مائة ذراعها بالمصباح، حدى حدى بنظرة داهشة، ثم غمضت:

- أنت!

فوقف صامئاً ملياً، وعلى فيه ابتسامة خفيفة تتم عن الإشفاق والقلق، ولما لم يأس منها اعتراضاً أو غضباً تشبّع قائلاً:

- ألهذا هو استقبالك لصديق قديم؟

فولت كشعها، ومضت ترقى في الدرج، وهي تقول:

- تفعل... تفعل...

تبعتها صامتاً، وقد استتج من فتحة الباب بنفسها أنها يفردها في البيت، وأن مكان الجارية جلجل التي ماتت منذ عامين لا يزال شافراً... تبعتها حتى دخلا إلى الدليليز، فعلقت المصباح بمسار في الجدار على كتب من الباب، ثم دخلت وحدها حجرة الاستقبال، فأوقدت المصباح الكبير المدلى من السقف - زادت هذه الحركة أطمئناً إلى استنائه - ثم خرجت فأولعت له بالدخول وذهبت...

- كنت وتذاك، أعني أنه كانت ثمة ظروف...  
ففرقت بأصابعها، وقالت ساخرة:

- لعلها نفس الظروف التي حالت بيني - يا عيني - وبين الآخرين!

ألقي بظهوره إلى مسند الكنية في حركة سريعة غثييلة  
ثم مدَّ نظره إليها من فوق أنفه العظيم، وهو يبرز رأسه  
كالستعيد بالله منها، ثم قال:

- أنت حققة، وها أنا أعترف بأنني لا يقبل لي بك!  
فدارت ابتسامة بعثها النساء، ثم تظاهرت  
بالدهشة، وهي تقول:

- لا أفهم مما تعني شيئاً، الظاهر أنك في وادٍ وأني  
في وادٍ، المهم أنك قلت إنك جئت لمقابلة خالتي، فهل  
من رسالة أبلغها إياها عند عودتها؟

ضحك السيد ضحكة قصيرة، ثم قال:  
- قولي لها إنَّ أحد عبد الجواد جاء ليشكوكي إليك،  
فلم يجعلك!

- تشكوكي أنا! ماذا صنعت؟  
- قولي لها إنني جئت أشكو إليها ما لقيت منك من  
قسوة ليست من شيم الحسان!

- يا له من قول خليق برجل يجعل من كل شيء  
مادة لمزاحه ودعابته!  
فاعتدل في جلسته، وقال جاداً:

- معاذ الله أن أجعل منك مادة للمزاح أو  
الدعابة؟! إنَّ شكواي صادقة، ويُنيلُ إليَّ أنك واقفة  
على سرِّها، ولكنَّه دلال الحسان، وللحسان الحقُّ كلُّ  
الحقِّ في التلذُّل، ولكنَّ عليهم مراعاة الرحمة أيضاً.  
لمصصمت بشتيتها قائلة:

- عجب!...  
- لا عجب ألبتة!! أتذكرين ما كان بالأمس في  
دكان يعقوب الصانع؟ هل يستحقُّ ذلك اللغاء الجاف  
مَنْ كان يمتزَّج بمثل موتني لكم وقدم عهدي بكم؟  
وحدثت لو استعنت بي مثلاً فيها كان بينك وبين  
الصانع، ووجدت لو أتممت لي الفرصة كي أضع خبرتي  
في خدمتك، أو أن تتواضعي درجة أخرى فتسمعي  
لي بأن أفضض بالأمر كله كما لو كانت الاسورة أسوري

عن تباؤل مُشرب بأدب، كأنما تقول له: ونحن في  
الخدمة.

فتساءل السيّد في مكر:  
- هل يطول انتظارنا للسلطنة؟ ألم تفرغ بعد من  
ارتداء ملابسها؟

فحدجته بنظرة غريبة وهي تضيّق عينيهما، ثم  
قالت:  
- السلطنة ليست في البيت...

فتساءل متظاهراً بالدهشة:  
- أين هي يا ترى؟  
فقالت وهي تهزُّ رأسها، راسمة على شفتيها ابتسامة  
هامضة:

- علمي علمك...  
فكر في إجابتها قليلاً، ثم قال:  
- ظننتها تطلعك على خطك سيرها؟

فلوّحت يدها كالستكرة، وقالت:  
- إنك حسن الظنِّ بنا (ثم ضاحكة) السلطة  
المسكّرية زمانها انتهى! وإن شئت فأنت أحقُّ مِنِّي  
بالاكلاج على خطك سيرها!

- أنا؟!  
- لم لا، ألسنت صديقها القديم؟  
قال، وهو يحدجها بنظرة باسمة صيفة ناطقة:

- الصديق القديم والغريب سواء، ترى هل يطلع  
أصدقاؤك القدماء على خطك سيرك؟  
رفعت منكبها الأيمن وهي تمكُّ بوزها، قائلة:

- ليس لي أصدقاء، لا قدماء ولا حديثون...  
فراح يبت بفرقة شاربه وهو يقول:

- هذا كلام لمن لا عقل له، أمّا من له ولو شيء من  
العقل فلا يتصور كيف يمكن أن تكوني بين قوم  
ييصرون ولا يستبقوا إلى صداقتك...

- إن هي إلّا تصوّرات الكرماء أمثالك! ولكنّها لا  
تعدو التصوّرات الخياليّة، الدليل على هذا أنك صديق

قديم لهذا البيت، فهل راق لك يوماً أن تهبي قسماً  
من صداقتك؟  
فكَبَّ في ارتباك، ثم قال بعد تردّد:



أو كانت صاحبها صاحبي!...

ابتسمت، وهي ترفع حاجبيها في شيء من الارتباك، ثم قالت بالقضاب:

- شكرك...

تنفس الرجل تنفّساً عميقاً ملاً به صدره العريض، ثم قال بحماس:

- مثلي لا يقنع بالشكر، ماذا يفيد الجائع إن أحرضت عنه، وأنت تقولين له: «هل الله؟»، الجائع يريد الطعام، الطعام الشهوي اللذيذ.

شبكت ذراعيها على صدرها وهي تتظاهر بالدهش، ثم قالت ساخرة:

- أنت جائع يا سي السيد؟ عندنا ملحوخة وأرانب تتاهل فمك...

وهو يضحك عائلاً:

- عال، أنفقنا، ملحوخة وأرانب، تضاف إليها زجاجة ويسكي، ثم نحلّ بشيء من المود والرقص، وتتمدّد ساعة ممّا حتّى نهمس...

فلوّحت له بيدها كأنها تهفّ به «إلى الورداء»، وقالت:

- الله الله، سكنتا له دخل بحماره... بُهّلك!

ضمّ أصابع يمينه الخمس، حتّى صارت كضمّ مزموم، وجعل يرفعها ويخفضها بتؤدة، وهو يقول بلهجة وعظيمة:

- يا بنت الحلال لا تضيّمي السوق الغالي في الكلام...

وهي تهمز رأسها في زهو ودلال:

- بل قل لا تضيّمي الوقت الغالي مع الكهول...! مسح السيد صدره العريض بكفه في حركة توحى بالتحديّ الباسم، ولكنها همّزت منكبها ضاحكة، وهي تقول:

- ولو...

- ولو؟ يا لك من طفلة، حرام عليّ النوم إن لم أحلّمك ما ينبغي أن تعلمه، هاتي الملحوخة والأرانب والويسكي والعود وزنّار الرقص، هيا... هيا...

ننت سيّابة يسراها وألصقتها بحاجبيها الأيسر، ثمّ

أرعشت حاجبيها الأيمن وهي تسام:

- ألا تخاف أن تكبنا السلطنة على غفلة؟

- لا تخافي، لن تمود السلطنة الليلة...

فحدجته بنظرة حلّقة مريبة، وتساءلت:

- من أدراك بذلك؟

انتبه إلى عثرة لسانه، فأوشك لحظة أن يغلبه الارتباك، ولكنه تخلّص منه قائلاً في لباقة:

- السلطنة لا تبقى في الخارج حتّى غلّه الساعة إلّا لضرورة تستدعي بقاءها حتّى الصباح!

جعلت تحقّق في وجهه طويلاً دون أن تنبس، ثمّ همّزت رأسها في سخرية ظاهرة، ثمّ قالت بصوت مليء بالثقة:

- يا لكور الكهول! يصفهم لهم كلّ شيء إلّا مكرهم! هل حسبتني غفلة؟ كلّاً وحياتك، إلّا أعلم كلّ شيء...

عاد إلى العثّ بفرقة شاربه في شيء من الضيق، ثمّ سألتها:

- ماذا تعلمين؟

- كلّ شيء!

وترنّمت قليلاً لتزيد من ارتباكها، ثمّ استطردت:

- أتذكر يوم جلست على قهوة سيّ عليّ لتسترق النظر من نافذة القهوة؟ يومها عينك حفرت جدار بيتنا من شدّة النظر! وليّا ركبت العربية الكارو مع أفراد التخت ساملت نفسي: ترى هل يتجنا مهلاً ورامنا كما يفعل الصبية؟ ولكنك عقلت وانتظرت فرصة أحسن! قهقه الرجل حتّى اشتدّت حمرة وجهه، ثمّ قال بتسليم:

- اللهمّ اعف عنا...

- ولكنك نسيت عقلت أسس، عندما رأيته أمام خان جعفر فبعتني حتّى دخلت ورائي دكان يعقوب...

- عرفت هذا أيضاً يا بنت أخت زبيدة؟

- نعم يا زين المشاق، بيد أنّي لم أكن أتصوّر أنك ستدخل ورائي الدكان، ولكني ما لبثت أن وجدتك جالساً فوق الكتبة ولا فحريت النوان نفسه، وليّا

- لم تسألني عما جعلني ألتفت عن الذهب إلى العوامة - يوم دعانا عمدة عفت - بناء على اقتراحك...

- كي تزيد النار اشتعالاً!

ضحكت ثلاث ضحكات متقطعة، ثم صمت ملياً، ثم قالت:

- فكرة لا بأس بها ولكنها قديمة، أليس كذلك يا زين الفساق؟... سظل الحقيقة سرّاً حتى أرى أن أفشيها عندما يحلو لي...  
- أقدم حياتي ثمّالة...

ابتسمت ابتسامة صافية لأول مرة، ولاحت في عينيها نظرة رقيقة جادت في أعقاب سخرياتها، كما يحيي الملهو في أعقاب زوينة، وبشر حالها بسياسة جديدة ومعنى جديد، فاقتربت منه خطوة ومدّت يديها إلى شاربه برشاقة وراحت تمجّله بعناية، ثمّ قالت بنبرات لم يسمعها من قبل:

- إذا قدّمت حياتك ثمّاً لهذا، فإذا يبقى لي أنا؟  
وجد راحة عميقة لم يجد مثلها منذ تلك الليلة الحاسرة في العوامة، وكأنما كان يفوز بامرأة لأول مرة في حياته، تناول يديها من فوق شاربه وأودعها بين راحتيه الكبيرتين، ثمّ قال بحنان وأعتان:

- أنا نشوان يا ست الكل، نشوان لحّد يعجزني عن الوصف، دمت لي إلى الأبد، إلى الأبد، لا حاش من ردّ لك وجهاً أو طلباً، أفني نعمتك صلياً وهيئي مجلسنا، الليلة ليست كاليالي الأخرى، وهي تستحقّ أن نحضل بها حتى مطلع الفجر...  
قالت وهي تلعب بأناملها بين راحتيه:

- ليست هذه الليلة كاليالي الأخرى حقاً، ولكن ينبغي أن نقنع منها بالقليل...  
القليل! هل ثمة صدّ بعد هذا اللطف كلّ؟ لم يعد بك صبر.

مضى يريّث كفّيهما، ثمّ بسط راحتيها، ونظر بالفتان في لون الحنّاء الوردية الذي يصبغها، وما يدرى إلّا وهي تسأله بصوت ضاحك:

- هل تقرّ الكفّ يا سيّدنا الشيخ؟

تظاهرت بالدهشة لرؤيتي كدت أطلق لساني فيك بما قسم، ولكنّ الموقف أمل على الأدب...

تساءل ضاحكاً، وهو يضرب كفّاً بكفّ:

- ألم أقل إنّك عقدة؟

فواصلت الحديث وهي في نشوة من الفوز بالسرور:

- وما أدري ليلة إلّا والسلطانة تقول لي: استعدي، إنّنا ذاهبتان إلى عوامة عمدة عفت، فمضيت لاستعدّ، ولكنّي سمعتها تقول بعد ذلك: إنّ السيّد أحمد هو الذي اقترح الدهرة! لعب في حبي الفناء، وقلت لنفسني: السيّد أحمد لا يقترح شيئاً لوجه الله، وفهمت الفولة، فلم أنهب معتلّة بصداع!

- يا لي من مسكين! وقعت في خالِب من لا يرحم، هل عندك مزيد؟...

- لو اطلعتم على الغيب لاختبرتم الواقع...

- ما أحلّ هذا الكلام! قلّد الوعاظ، يا أفسح خلق

الله!

وهو يضحك هائلاً:

- الله يسامحك...  
ثمّ متسائلاً في سرور غير خائب:

- فهمت الفولة هذه للمرّة أليّساً، ولكنك بقيت، فلم تغادري البيت أو تخفي نفسك...

وبهض قبل أن يتمّ جلسته فاتّجه نحوها، وجلس إلى جانبها، ثمّ تناول طرف الوشاح الرصع بالترتر فقبّله، وهو يقول:

- اللهمّ إني أشهد بأنّ هذه المخلوقة الجميلة اللدّ من أنعام عودها، لسانها سوط، وحبيها نار، وعاشقها شهيد، وسوف يكون هذه الليلة شأن في التاريخ كلّ...  
أبعدته عنها بكفّها قائلة:

- لا تأخذني في دوكة، هو!، عد إلى مجلسك...

- لن يفصل بيننا شيء بعد الآن...

جذبت وشاحها فجأة من يده وبهضت مبتعدة قليلاً، ثمّ وقعت على بعد ذراع منه لمعن فيه نظراً صامتاً، وكأنما تراجع نفسها في أمور ذات شأن، ثمّ قالت:

النفقات الأخرى، أه، لا تمسقوا أولاد السفلة!...

.. لماذا تختارين مكانًا بعيدًا عن العمران؟...

اقتربت منه حتى مسّت ركبتيها ركبتيه، وقالت:

.. لست دون عهّد عهّدت جاشا، ولست دون

السلطانة خطًا ما دمت تحبّي كما تقول، وفي وسعك أن

تسهر فيها أنت وأصحابك، إنّا حلّمي فحقّقته

لي...!

أحاط وسطها بلذامه، ولبت صامتًا ليستشعر في

هلهو مسّها ولينها، ثم قال:

.. لك ما تشائين يا أملي...

فكان الشكر أن ألصقت راحتيها بخدّيه، ثم

قالت:

.. لا تظنّ أنّك تعطي دون أن تأخذ، اذكر دائمًا أنّه

من أجلك سأفادو هذا البيت الذي عشت عمري فيه

إلى غير رجعة، واذكر أنّي إذ أطالك بأن تجعلني سيّدة

فما ذلك إلّا لأنّه لا يليق بمن كانت صاحبة لك أن

تكون أقلّ من سيّدة...!

شدّ ذراعيه حول وسطها حتى التصق صدرها

بوجهه، ثم قال:

.. إلّي أدرك كلّ شيء يا نظري، سيكون لك ما

تحبّين وأكثر، أحبّ أن أراك كما تحبّين أن تري نفسك،

والآن هيّئي لنا مجلسنا، أريد أن أبدا حياتي من

الليلة...

أمسكت بساعديه، ثم ابتسمت إليه ابتسامة

اعتذار، وقالت برقة:

.. عندما ننتجع في عوامتنا على النيل...

قال لها محذّرًا:

.. لا تشيري جنوني، هل تستطيعين أن تقاومي

صولتي؟

فتراجعت وهي تقول بلهجة تجمع بين التوسّل

والإصرار:

.. ليس في البيت الذي عملت فيه وصيفة، انتظر

حتى يجمعنا المسكن الجديد، مسكنك ومسكني، عند

ذاك أكون لك إلى الأبد، ليس قبل ذلك وحياتك

عندي وحياتي عندك...!

ابتسم، وقال مداعبًا:

.. أنا من الشهود لهم في قرامته، ألحّين أن أقرأ لك

كفّك؟

أحنت رأسها بالإيجاب. فراح يتأمّل راحتها اليمنى

متظاهراً بالتفكير، ثم قال باهتمام:

.. في طريقك رجل سيكون له شأن في حياتك...

تساءلت ضاحكة:

.. في الحلال يا ترى؟

ارتفع حاجباه وهو يمن النظر في كفّها، ثم قال

دون أن يبدو على وجهه أثر ولو خفيف للمزاح:

.. بل في الحرام!

.. أعود بالله! ما عمره؟

نظر إليها من تحت حاجبيه، ثم قال:

.. غير واضح ولكن إذا قسته بمقياس قدرته فهو في

عصفوان الشباب!...

تساءلت بمكر:

.. أهو كريم يا ترى؟

آه، لم يكن الكريم سيّا يزجيك عندهنّ قديمًا.

.. لم يعرف البخل قلبه...

فكرت قليلاً ثم عادت تتساءل:

.. هل يرضيه أن أبقي كالتابعة في هذا البيت؟

المجل وقع هاتوا السكاكين...

.. بل سيجعلك سيّدة قدّ الدنيا...

.. أين يا ترى سأقيم في كتفه؟

زيدة نفسها لم تكلمك شيئاً من هذا، سيقولون

فيك ويحيدون...

.. شقة جميلة...

.. شقة؟!

عجب للهمجتها المستنكرة، فسأها داهشًا:

.. ألا يمجيك هذا؟

قالت وهي تشير إلى راحتها:

.. ألا ترى ماه يجري؟... انظر جيّدًا...

.. ماه يجري!... أتؤنّين السكنى في حمام؟

.. ألا ترى النيل... عروامة أو ذهبيّة...!

أربعة جنيهات أو خمسة شهريًّا دفعة واحدة، غير

- ١٠ -

وخبر إن شاء الله...

هَذَا مَا رَكَّه أَحَدُ عَبْدِ الْجَوَادِ فِي نَفْسِهِ وَهُوَ يَطَالِعُ يَاسِينَ مُقْبِلًا نَحْوَهُ فِي الدَّكَانِ... كَانَتْ زِيَارَةُ غُرْبَةٍ وَغَيْرِ مُتَوَقَّعةً، أَصَادَتْ إِلَى ذَاكَرَتِهِ زِيَارَتَهُ الْقَدِيمَةَ لِلدَّكَانِ، يَوْمَ جَاءَهُ لِيُشَاوِرَهُ فِيمَا تَرَامَى إِلَيْهِ مِنْ اعْتِزَامِ الْمَرْحُومَةِ أُمِّهِ الزَّوْجِ لِلْمَرَّةِ الرَّابِعَةِ، وَالْحَقُّ أَنَّهُ أَيقَنَ أَنَّهُ لَمْ يَجِئِهِ لِنِيبَالِ التَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ وَلَا لِلْحَدِيثِ فِي شَأْنٍ عَادِيٍّ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَمْدَحَهُ فِي الْبَيْتِ، أَجَلَ إِنَّ يَاسِينَ لَا يَجِيءُ إِلَى مُقَابَلَتِهِ فِي الدَّكَانِ إِلَّا لِشَأْنٍ خَطِيرٍ. صَافَحَهُ، ثُمَّ دَعَاهُ إِلَى الْجُلُوسِ، وَهُوَ يَقُولُ:

- خبر إن شاء الله...

جَلَسَ يَاسِينَ عَلَى كُرْسِيِّ قَرِيبٍ مِنْ مَجْلِسِ أَبِيهِ وَوَاءَ مَكْتَبِهِ، مَوْلِيًا بِقِيَّةِ الدَّكَانِ ظَهَرَهُ حَيْثُ وَقَفَ جَمِيلُ الْحَمَزَاوِيِّ أَمَامَ الْمِيزَانِ يَزِنُ بِضَاعَةً لِبَعْضِ الزَّبَائِنِ، وَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ فِي شَيْءٍ مِنْ ارْتِبَاكِ وَكَدِّ حِمْلِهِ، فَاخْلَقَ الرَّجُلُ دَفْئًا كَانَ يَسْجَلُ فِيهِ أَرْقَامًا وَاعْتَدَلَ فِي جَلَسَتِهِ مُتَأَمِّيًا مَا يَجِيءُ، وَقَدْ بَدَلَتْ إِلَى عِيْنِهِ الْحَزِينَةِ نَصْفَ مَفْتُوحَةٍ، وَفَوْقَ رَأْسِهِ صُورَةُ سَعْدِ زَهْلُولٍ فِي بَدَلَةِ الرِّيَاسَةِ مَعْلُوقَةٍ فِي الْجِدَارِ تَحْتَ إِطَارِ الْبَسْمَلَةِ الْقَدِيمِ. وَلَمْ يَكُنْ قَصْدُ الدَّكَانِ اعْتِبَاعًا وَلَكِنْ مِنْ تَدْبِيرٍ وَتَفَكُّيرٍ بِاعْتِبَارِهِ أَمِنْ مَكَانٍ لِمُقَابَلَةِ أَبِيهِ بِمَا جَاءَ مِنْ أَجَلِهِ، إِذْ أُنْ وُجِدَ جَمِيلُ الْحَمَزَاوِيِّ بِهِ وَمِنْ يَتَّفَقُ وَجُودِهِمْ مِنَ الزَّبَائِنِ خَلِيقٌ بِأَنْ يَبْعَثَ لَهُ دَرَحًا وَإِقْيَا مِنَ الْغَضَبِ إِذَا جَاءَتْ دَوَاعِيهِ، وَكَانَ يَحْسِبُ أَلْفَ حَسَابٍ لِنُغْصَبِ أَبِيهِ رَغْمَ الْحَصَانَةِ الَّتِي اكْتَسَبَهَا بِتَقَدُّمِ الْعُمَرِ وَالْمَعَامَلَةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي يَحْطِي بِهَا بِوَجْهِ حَامٍ...

قال ياسين بأدب بالغ:

- اِسْمَحْ لِي بِغُلِيلٍ مِنْ وَتَكَ الْغَالِي، لَوْلَا الْضُرُورَةُ مَا تَجَرَّأْتُ عَلَى إِزْعَاجِكَ، وَلَكِنِّي لَا يُمْكِنُ أَنْ أَخْطُو خُطْوَةً دُونَ اسْتِئْذَانِ بَرَأَيْكَ، وَاعْتِدَ عَلَى رِضَاكَ...

ابْتَسَمَ بَاطِنُ السَّيِّدِ أَحْمَدَ هَازِنًا مِنْ هَذَا الْأَدَبِ الْجَنِّمِ، وَجَعَلَ يَتَأَمَّلُ فَتَاهَ الضَّمْخِ الْجَمِيلِ الْأَتِينِ فِي حُلُرٍ مَلْعَقًا عَلَيْهِ نَفْرَةً إِيْجَالِيَّةً شَمَلَتْ شَاوِرَهُ الْمَجْلُولِ عَلَى طَرِيقَتِهِ - هُوَ - وَبَذَلَتْهُ الْكَحْلِيَّةَ وَقَمِيصَهُ ذَا الْبَيْقَةِ

الْمُنَشِّيَّةَ وَالْبَابِيُونَ الْأَزْرَقَ وَالْمُنَشَّةَ الْعَاجِيَّةَ وَالْحِلْدَاءَ الْأَسْوَدَ اللَّامِعَ، وَلَمْ يَكُنْ يَاسِينَ قَدْ مَسَّ مَظْهَرُهُ - تَأَذُّبًا فِي حَضَرِ أَبِيهِ - إِلَّا فِي نَفْطَتَيْنِ، فَأَخْفَى طَرَفَ مَنْدِيلِهِ الْحَرِيرِيِّ الَّذِي يَطْلُ مِنْ جِيبِ جَاكَتِهِ الْأَعْلَى، وَعَدَّلَ طَرَبُوشَهُ الَّذِي يَمُوجُهُ عَادَةً إِلَى الْيَمِينِ. يَقُولُ: إِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْطُو خُطْوَةً دُونَ اسْتِئْذَانِ بَرَأَيْهِ!! مَرَحَى... هَلْ اسْتِئْذَانٌ بِهِ وَهُوَ يَسْكُرُ؟ وَهُوَ يَسِيحُ عَلَى وَجْهِهِ فِي وَجْهِ الْبَرَكَةِ الَّذِي حَرَّمَهُ عَلَيْهِ؟ هَلْ اسْتِئْذَانٌ بِهِ لَيْلَةً وَثَبَّ عَلَى الْجَارِيَةِ فَوْقَ السُّطْحِ؟ مَرَحَى!! مَرَحَى!! مَاذَا وَرَاءَ هَذِهِ الْخَطْبَةِ الْمُنْتَبِهَةِ؟

- طبَّعًا، هَذَا أَقَلُّ مَا يُنْتَظَرُ مِنْ رَجُلٍ عَاقِلٍ مِثْلِكَ،

خبر إن شاء الله؟

التَفَتَ يَاسِينَ الضَّائِقَةَ سَرِيعَةً لَحَظَ بِهَا جَمِيلُ الْحَمَزَاوِيِّ وَمِنْ مَعَهُ، ثُمَّ قَرَّبَ الْكُرْسِيِّ مِنَ الْمَكْتَبِ، وَاسْتَجْمَعَ شَجَاعَتَهُ، قَائِلًا:

- اعْتِزَمْتُ - بَعْدَ مُوَافَقَتِكَ وَرِضَاكَ - أَنْ أَكْمَلَ

نِصْفَ دَفْعِي...

مُفَاجَأَةً حَقِيقِيَّةً. غَيْرَ أَنَّهُا مُفَاجَأَةٌ سَازَّةٌ عَلَى غَيْرِ مَا تَوَقَّعَ، وَلَكِنْ مَهْلًا! لَنْ تَكُونَ سَازَّةً حَقًّا إِلَّا بِشَرْطٍ، فَلْيَنْتَظِرْ حَتَّى يَسْمَعَ الْأَهَمُّ مِنَ الْحَدِيثِ!! أَلَيْسَ لَمَّةٌ مَا يَدْعُو إِلَى الْقَلْقِ؟ بَلْ! تِلْكَ الْمَقْتَمَةُ الْبَالِغَةُ فِي الْأَدَبِ وَالتَّوَقُّدِ، يُبَيِّنُهُ الدَّكَانُ مَكَانًا لِلْحَدِيثِ لِلدَّوَاغِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَخْفَى عَنْ لُطْفَةِ الْقَطْرِ، أَمَّا الزَّوْجُ فِي ذَاتِهِ فَعَالِمًا بِمَنْهَاهُ لَهُ، ثُمَّ إِنَّهُ حِينَ الْخُحِّ عَلَى عَمْدٍ عَقَّتْ لِبُرْدٍ إِلَيْهِ زَوْجَتَهُ، وَثُمَّ إِنَّهُ حِينَ دَعَا اللَّهَ فِي أَحْقَابِ صَلَواتِهِ أَنْ يَهْدِيَهُ إِلَى الرِّشَادِ وَبَيْتِ الْحِلَالِ، بَلْ لَعَلَّهُ لَوْلَا إِشْفَاقُهُ مِنْ أَنْ يَجْرِجَهُ مَعَ أَصْدِقَائِهِ كَمَا أَحْرَجَهُ مِنْ قَبْلِ مَعَ عَمْدٍ عَقَّتْ لَمْ تَرُدَّ مِنْ تَزْوِيجِهِ مَرَّةً أُخْرَى، فَلْيَنْتَظِرْ! وَهِيَ أَلَّا يَتَحَقَّقَ شَيْءٌ مِنْ خَوَافِهِ...

- اعْتِزَامُ جَمِيلٍ أَوْافِقٍ عَلَيْهِ كُلِّ الْمَوَافَقَةِ، فَهَلْ وَقَعَ

اخْتِيَارُكَ عَلَى أَسْرَةٍ مَعِينَةٍ؟

خَفَضَ يَاسِينَ عَيْنَيْهِ لِحَظَةٍ، ثُمَّ رَفَعَهَا قَائِلًا:

- وَجَدْتُ بِغَيْثِي، بَيْتَ كَرِيمِ خَبْرَانَهُ بِطُولِ الْجَوَارِ،

وَكَانَ رَبِّي مِنْ مَعَارِفِكَ الْمَحْمُودِينَ...

معلو وويلو - وهذا طبيعي - أنه لا يدري شيئاً عن سيرة أم الفتاة التي يرومها زوجة، تلك سيرة يعرفها هو وحده معرفة الفاعل، ولعلّ آخرين سبقوه إليها أو لحقوا به، فما العمل؟ أجل قد تكون الفتاة مهذبة، ولكن من المؤكد أنها لم تغفر بأحسن أم ولا بأحسن بيعة، ومن المؤسف أنه لا يستطيع أن يجهر برأيه - ذاك - ما دام لا يسمعه أن يقرن القول بالدليل، خاصة وأنه رأي خليف بأن يقابل - نحن نسمعه لأول مرة - بالإبتكار والانزعاج، والأدهى من ذلك أنه يخاف أن يلمح إليه فيدفع ياسين إلى البحث والاستقصاء فيعثر آخر الأمر على أثر بصيائه هو - أيه - فتكون الفضيحة التي ليس وراءها فضيحة.

المسألة إذن دقيقة حرجية، ثم إن ثمة شوكة حادة تكمن في تضاعفها - هي - تاريخ قدم يتصل بغهمي، ألا يذكر ياسين ذلك؟ كيف هان عليه أن يرغب في فتاة تطلع إليها قديماً أخوه الراحل؟ اليس هذا سلوكاً بغيضاً؟ بل إنّه كذلك وإن كان لا يشك في إخلاص الشاب لأخيه الراحل، إن منطق الحياة القاسي يقيم عدلاً لأمثاله، إن الرغبة طاغية أعمى لا يرحم وهو أعبر الناس بملك!

فتكّب الرجل لشره بتضايقه، ثم قال:

- إن قلبي لم يرتح لاختيارك، لا أهري لماذا، كان المرحوم السيد محمد رضوان رجلاً طيباً حطاً، ولكنّ الشلل حال بينه وبين رعاية بيته من زمن بعيد سابق لوفاته، لم أقصد بهذه الملاحظة إساءة الظنّ بأحد، كلا! ولكنه كلام يقال، ربّما وقده بعض الناس، هه؟ الأهمّ عندي أنّ الفتاة مطلقة، لماذا خلّفت؟ هذا سؤال من أسئلة كثيرة ينبغي أن تعلم جوابها، لا يصحّ أن تأمن مطلقة حتى تستقصي كلّ شيء عنها، لعلّ هذا ما أردت قوله، والدنيا ملأى ببنات الناس الطيبين.

قال ياسين متشجّماً بأسلوب إيه، الذي اقتصر على النقاش والبلص:

- بحثت بغمي وبواسطة آخرين، فتبين لي أنّ الحق كان على الزوج، إذ كان متزوجاً وأعطى عنهم

رفع السيد حاجبيه متسائلاً دون أن ينيس، فقال ياسين:

- المرحوم السيد محمد رضوان!

- لا...!

نذت عن السيد أحمد قبل أن يتالك نفسه، نذت عنه في تأقّف واحتجاج حتى شعر بأنه ينبغي أن يبرّر تأقّفه واحتجابه بسبب وجهه يداري به حقيقة مشاهره، ولم يعوزه ذلك، فقال:

- البست كرمته مطلقة؟ فهل ضاقت الدنيا حتى تتزوج من ثيب؟...

لم يفتأ ياسين بهذا الاعتراض، كان يتوقّعه منذ اللحظة التي عزم فيها على الزواج من مريم، غير أنه كان قويّ الأمل في التغلب على معارضة أبيه التي لم يتصور أن تكون إلّا صدى لتفضيل البكر على الثيب أو تحبّباً لامرأة عسيّة بأن تذكّره بمأساة ابنه الراحل، وكان يؤمن بحكمة أبيه ويرجو أن تستهين في النهاية بهذين الماخذين الواهين، بل كان يعتمد كلّ الاعتماد على مواقفته في التغلب على المعارضة الحقيقية التي يتوقّعها عند امرأة أبيه... تلك المعارضة التي وقف أمام التفكير فيها حائراً حتى خطر له أن ينادر البيت مغادرة الحارب كي يتزوج كما يحلوه مواجهتها الجميع بالأمر الواقع، ولولا أنّ إغضاب أبيه كان فوق طاقته لفعل، إلّا أنه عزّ عليه أن يتجاهل عواطف أمّه الثانية - بل أمّه الأولى - قبل أن يبدل قصاره لاستئثارها واقتناعها برأيه، قال:

- لم تضيق بي الدنيا، ولكنّها القسمة والنصيب... أنا لا أبحث عن المال أو الجاه، وحسي الأصل الطيب والخلق القويم...

إن كان ثمة عزاء وسط هذه الأمور المقدّمة المؤسفة، فهو صدق رأيه الذي لا يكلب أبداً. هذا هو ياسين بلا زيادة ولا نقصان، إنسان - أو حيوان - تسير المتاعب بين يديه ومن خلفه، ولو جاء بنياً سعيد أو زفّ إليه بشرى سائرة لما كان ياسين وخجابه تقهيره ورأيه فيه، لعله ممّا لا يعيبه ألا يبحث في الزوجة عن المال أو الجاه أمّا الخلق فمسألة أخرى، ولكنّ البخل

- إني حل يقين مما أقول! خبرته بنفسه وسمعته بانفي، لا شك في ذلك مطلقاً...

في ظروف أخرى لم يكن هذا القول - ولا أبلغ منه - كافياً لإقناعه بصديق ياسين، لكنه كان في الحق متمسكاً إلى تصديقه، فصدقه وأمن به، وامتلا قلبه نحوه بامتنان عميق وسلام شامل. لم تعد مسألة الزواج - في تلك اللحظة على الأقل - مما يكرهه، ولاذ بالصمت ملياً هاتئاً بالسلام الذي غمر قلبه، ورويداً رويداً مضي بستره شعوره بالموقف ويرى ياسين بعد أن غيبه عن عينه الانفعال، فعاد يفكر في مريم وأم مريم وزواج ياسين وواجبه وما يستطيع قوله وما لا يستطيع قوله، قال:

- مهما يكن من أمر فلني أود أن تولي المسألة تفكيراً أصح، وحللاً أشد، لا تتعجل، مد لنفسك فسحة التدبر والمراجعة، إننا مسألة مستقبل وكرامة وسعادة، وإني حل استعداد لأن أختار لك بنفسه مرة أخرى إذا وعدني وعد رجل صادق ألا تجعلني أندم على تدخلتي لما فيه صلاحك، هه؟ ما رأيك؟

صمت ياسين متفكراً، مستاء من تحول الحديث إلى مجرى ضيق عصفوف بالحرج، حلقاً أن الرجل يتحدث بعلم عجيب، ولكنه لم يغيث قلقه وعدم ارتياحه. فإذا أصر على رأيه بعد ذلك فقد يجزها النقاش إلى شقاق غير مستحب، ولكن هل ينكص تفادياً من هذه المناقبة؟ كلا! لم يعد طفلاً سيتزوج بمن يشاء كما يشاء، ولكن فليعنه الله حل الاحتفاظ بموثة أبيه! قال:

- لا أريد أن أجسك تمناً جديداً، شكراً لك يا بابا، غاية ما أفتي أن أحظى بموافقتك ورضاك...

لوح السيد يده في فناد صبر، وقال بلهجة لم تقل من حنة:

- تأتي أن تفتح عينيك على ما في رأيي من حكمة...

فقال ياسين برجاء حاز:

- لا تغضب يا بابا، استخلفك بالله ألا تغضب، إن رضاك بركة، ولا أطيق أن تضن علي بها، دعي أجرب حكي وأدع لي بالتوفيق...

ذلك، فضلاً عن عجزه عن الإنفاق حل بيتين في وقت واحد وسوء خلقه!

سوء خلقه! إنه يتكلم - بلا حياء - عن سوء الخلق، البغل يملك بمائة بكر مزاح سهرة كاملة! قال:

- إذن فرغت من البحث والتقصي!

قال ياسين بحياء، وهو يتعرب من عيني أبيه الحاذقين:

- تلك خطوة بدئية...

فسأله الرجل وهو يفيض عينية:

- ألم تدرك أن تلك الفتاة ترتبط بذكريات أليمة لنا؟

اعتراه الارتباك حتى اختطف لونه، وهو يقول:

- لم يكن من الممكن أن يغيب عني هذا، ولكنه وهم لا أصل له، فلني أعرف عن يقين أن المرحوم لم يهتم بالامر كله إلا آياتاً ممدودات ثم نسيه نسياناً تاماً، وكاد أجزم بأنه ارتاح فيها بعد إلى فشل سماعه إذ افتنع بأن الفتاة لم تكن طليته كما توهم...

تري: أيقول ياسين الحق، أم يدافع عن موقفه؟ كان نحيي المرحوم ولعله الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يزعم أنه مطلع على ما لا علم للآخرين به من خاصة شئونه، فليت كان صادقاً! أجل، ليت كان صادقاً إذن لأعفاه من عذاب يؤزقه كلما ذكر أنه وقف يوماً حثرة في سبيل سعادة الفقيد أو كلما خطر بباله أنه ربما مات تمس القلب أو ناقماً عليه استبداده وتمتته، تلك الآلام التي نهشت قلبه، هل يريد ياسين أن يعفيه منها؟

سأل ياسين بلهفة لم يغلظ الشاب إلى عمقها:

- أأنت حقاً على يقين مما تقول؟ هل صارحك به؟ ولثاني مرة في حياته رأى ياسين أباه على حال من الانكسار لم يشهد مثلها إلا يوم مصرع فهمي، وهو يقول له:

- كاشفتني الحقيقة عارية عن كل تخفيف، الحقيقة الكاملة، هذا يعني فوق ما تتصور، (وكاد يحترق له بآله، ولكنه أمسك الاعتراض وهو على طرف لسانه)... الحقيقة الكاملة يا ياسين!

فقال ياسين دون تردد:

لا يعني أنه أضمر نحوه سوطاً أو أنه انحله ذريعة مؤقّنة لقضاء ليلاته، فالحق أيضاً أن نفسه - رغم تقلباتها التي لا تنفك عنها - كانت تنفّر عن حياة الزوجية والبيت المستقرّ...

مرّ هذا كلّ بخاطره وهو متّخذ مكانه - إلى جنب كمال - بمجلس القهوة، ذلك المجلس الذي يبدو أنه يشهد آخر أيامه فيه، ومضى يحيل طرفه بين كتاباته وحصره للملّة والفانوس الكبير المدلّى من سقفه في كثير من الأسى، وكانت أمينة مترنّمة كعادتها على الكنبه القائمة بين بابي حجرة نوم السيّد وحجرة المسالمة، عاكفة على المجمره رغم دفء الجو لتصنع قهوتها، وقد تلعّنت بخمار أبيض فوق جليباب بتسجّريّ نمّ عن ضموّرها، واكتفتها هدوء يشاب عند الصمت بأمارات الحزن، كما الشاطئ إذا استكنّ شفت عّما في باطنه. شدّ ما شعر بالأسف والحرج وهو يخالط أهبة الانفصاح عّما في ضميره، ولكن لم يكن من الانفصاح يدّ، فقال بعد أن فرغ من احتساء قهوته دون أن يلحق لها طمعاً: - والله يا نينة لديّ مسألة أريد أن استشيرك فيها...

ويبدل مع كمال نظرة دلّت على أنّ الأخير على علم سابق بموضوع الحديث، وأنه يترقّب عواقبه باهتمام لا يقلّ عن اهتمام ياسين نفسه. قالت أمينة:

- خير يا بنيّ...

قال ياسين بالقتضاب:

- قرّرت أن أتزوّج...

فتجلّى في عينيها العسليّتين الصخريّتين اهتمام باسم، ثمّ قالت:

- خير ما قرّرت يا بنيّ، لا ينبغي أن يطول انتظارك أكثر عّما طال.

ثمّ لاحظت في عينيها نظرة متساهلة، ولكنّها بدل أن تفصح عن تساؤلها، قالت وكأنّها تستدرجه إلى الاعتراف كأنّ ثمة سرّ:

- خاطبت والدك أو دعي أخاطبه، ولن يعجزه إن يجد لك زوجة جميلة خيراً من الأولى...

قال ياسين في رزاة بدلت لها أكثر عّما يستلذهي الأمر:

اقتنع أحد عبد الجواد بأنّ عليه أن يسلم بالأمر الواقع، فسلم به في حزن وليس... أجل! ربّما كانت مريم - رغم استهتار أمّها - فتاة شريفة وزوجة صالحة، ولكن لا شكّ كذلك في أنّ ياسين لم يوقّف إلى اختيار أصلح الزوجات ولا أفضل البيوت.

الأمر لله، مضى الزمن الذي كان يملّي فيه إرادته إملاء فلا يجد رادّاً لها، ويأصين اليوم رجل مشلول ولن يجيى من محاولة فرض رأيه عليه إلاّ العصيان... فليسلم بالأمر الواقع، ويسأل الله العلامه...

عاود النصيح والتبصير فلجأ ياسين كرتة أخرى إلى الاعتذار والتوقّد حقّ لم يعد ثمة زيادة لمستريد... غادر الدكان وهو يقطع نفسه بأنّه نال موافقة أبيه ورضاه، على أنّه كان يعلم أنّ الأزمة الخطيرة حقّاً هي التي تنتظره في البيت، وكان يعلم أمّها أنّه سيترك البيت حتّى، لأنّ مجرّد التضمير في إمكان ضمّ مريم إلى الأسرة ضرب من الجنون، فرجاً أن يتركه بسلام غير مخلف وراءه عداوة أو حقداً، إذ لم يكن من السير عليه أن يستهين بامرأة أبيه أو يتكرّر لعندها وفضلها عليه، لم يكن يتصوّر أن تدلعه الأيام إلى وقوف هذا الموقف الغريب من البيت وآليه، ولكن تعقّلت الأمور وضاعت السبل حقّ لم يبقّ من مغدّ إلاّ الزواج. والعجب أنّه لم تنب عن فطنته السياسة النسائيّة التي برّسنت للإيقاع به، سياسة قديمة تتلخّص في كلمتين: التوقّد والتمنّع. ولكنّ الرغبة في الفتاة كانت قد تسرّبت إلى دمه ولم يعد يدّ من إدراؤها بأيّ سبيل ولو كان الزواج، وأعجب من ذلك أنّه كان يعلم من تاريخ مريم ما يعلمه أفراد أسرته جيّماً - عدا والده بطيئة الحال - ولكنّ رغبته طغت فلم يصبّه ذلك من فكرته أو يزهده فيها، وقال لنفسه: لم أكرب قلبي على ماضٍ فات لست مسئولاً عنه، سيبدأ ممّا حلة جديدة، ومن هنا تبدأ مسئولتي، وإنّ تقني بتفسي لا حدّ لها، وإذا حدث أن خيبت ظنيّ نبذتها كما نبذ الحداة البالي... والحقّ أنّه لم يستلهم فيها حزم فكره ولكنّه استخلمه في تبرير رغبته الجاهلة التي لا تزدرج، فاقبل على الزواج هذه المرّة كبديل من مخادعة استتمت عليه، غير أنّ ذلك

- هتني روعك، ليس أكره عندي من إغضابك،  
هتني روعك ولتتكلم في هدوء...

- كيف أسمع لك وأنا أتلقى منك هذه اللطمة  
القاسية؟! قل إن الأمر لا يبدو أن يكون مزاحاً  
سخيّاً، مريم؟! الفتاة المستهترّة التي تعرف من أمرها  
ما تعرف جيساً؟!... هل نسيت تاربيخها  
الفاضح؟!... هل نسيت حقاً؟ أتريد أن تحيي بهله  
الفتاة إلى بيتنا؟!!

قال وهو يزفر كأنما يطرد من صدره الكرب  
والاضطراب:

- لم أقل هذا تفكّر، هذا أمر لا أهمية له، المهم  
عندي حقاً أن تنظري إلى المسألة كلها نظرة جديدة  
خالية من التحامل...

- أيّ تحامل يا هذا؟! هل أذهبت عليها بالباطل؟  
تقول إن أبك وافق، فهل أضمرته عن عيشها الفاضح  
مع الجنود الإنجليز؟ ماذا جرى لأولاد الناس الطيّبين  
يا ربي؟!!

- هتني روعك، دعينا نتحدّث في هدوء، ماذا  
يجدي هذا الحياج؟!!

صاحت بحمّة لم تكن من طباعها في الزمن الأوّل:  
- إنّ روعي لا يمكن أن يبدأ ما دام الأمر يتعلّق  
بالكرامة.

ثمّ بصوتٍ بائٍ:

- وأنت تسيء إلى ذكرى أخيك الغالي.

ياسين وهو يزدرد ريقه:

- أسيء؟ رحمه الله وأسكنه فسيح جنّاته، إنّ هذا  
الأمر لا يمسّ ذكره في أيّ شيء، صدّقني فإنّي أدرى  
بما أقول، لا تقلّبي مرقده!

- لست أنا التي ألقاك مرقده، إنّما يلقى مرقده حقّاً  
أعوه الذي يتطلّع إلى هذه الفتاة، أنت تعلم هذا يا  
ياسين!! ولا تستطيع أن تنكره...

ثمّ في انفعال شديد:

- لعلك كنت تتطلّع إليها حقّاً في ذلك الزمن  
البعيد!

- نينة!!

- خاطبت أبي بالفعل، وليس هناك حاجة إلى  
تكليفه عناء جديداً لأنّي اخترت نفسي، وقد وافق  
أبي، فأرجو أن أحوز موافقتك أيضاً...  
تورد وجهها حياءً وسروراً بما أولاهما من أهمية،  
فقال:

- ربّنا يوفّقك إلى ما فيه الخير، عجل حقّ تعمّر لنا  
الدور المهجور، ولكنّ من بنت الحلال التي قرّرت أن  
تتخلّها زوجة؟

تبادل مع كمال نظرة أخرى، ثمّ قال في عناء:

- جيران تعرفينهم!...

ارتسم بين حاجبيها تقطيب التذكّر وهي تحدّ نظرها  
إلى لا شيء، حركة سيّأتها كأنما تحصى من في مخيلتها  
من الجيران، ثمّ قالت:

- إنك تحبّري يا ياسين، هلّا تكلمت وأرحتني!

قال وهو يتشمم ابتسامة شاحبة:

- جيراننا الأقربون!

- من...؟!!

نذت عنها في إنكار وانزعاج وهي تمحلق في وجهه،  
فخفض رأسه وأطبق شفثيه متجنّب الوجه، فصادت  
تقول بصوتٍ متهتج، وهي تشير بإصبعها إلى الوراء:  
- أولئك؟! مستحيل، هل تعني ما تقول يا  
ياسين؟!!

فاجاب بالصمت المتجنّب حتّى زعقت:

- غير أسود... أولئك الذين شمتوا بنا في أجّل  
مصائب؟!!

فلم يتألّك أن هتف بها:

- أنتحلفك بالله أنّ تردّدي هذا القول، وإنه وهم  
باطل، ولو اتقن به قلبي لحظة واحدة...

- طبعاّ تدافع عنهم، ولكنّه دفاع لا ينطلي حلّ  
أحد، لا تتمب نفسك في إقناحي بالهلال، يا ربي!!  
أيّ ضرورة تدعو إلى هذه الفضيحة؟! كلهم نقائص

وعيوب، فهل من فضيلة واحدة تبرز لهذا الاختيار  
الجبّار؟ قلت إنّك نلت موافقة أبيك، الرجل لا يعلم  
عن هذه الأمور شيئاً، قل إنّك خدعت...

قال ياسين بتوسّل:



بإسامة ساعة، إنها معلورة كما قلت، ولكن كيف أطلعها بوجهي صباح مساء، وهذا ظننا؟ ثم بعد لحظات صمت مشحونة بالكآبة:

- لا تصلّق أنّ مريم أمت قلب المرحوم، لقد استاذن المرحوم يومًا في أن يخطبها بفرض أبوك، وتنامي المرحوم الأمر حتى نسيه فأنهى كل شيء، فما ذنب الفتاة في ذلك، وما ذنبي أنا إذا أردت أن أتزوجها بعد ست سنوات من ذلك التاريخ؟ قال كمال بجماع:

- لم تعد الحقّ فيما قلت، وسوف تفتنّ نينة به عاجلاً، فارجو أن يكون كلامك من عدم البقاء في البيت مجرد هفوة لسانية...

فقال ياسين وهو يبرّز رأسه في حزن: أنا أوّل من يعزّ عليه هجر هذا البيت، ولكنّي سأتركه عاجلاً أو آجلاً ما دام انتقال مريم إليه مستحيلاً، فلا تنظر إلى مسألة ذهابي إلّا من هذه الزاوية، سأنتقل إلى بيتي بقصر الشوق، ومن حسن الحظّ أنّ شقّة أمي لا تزال خالية، وسأقابل والدي في الدكان وأوضح له أسباب ذهابي متحاشياً كل ما يعكر صفوه، لست غاضباً، سأترك البيت أسفاً عليه كلّ الأسف، أسفاً على فراق أهله وأولهم نينة، لا تحزن ستعود المياه إلى مجاريها في وقت قريب، ليس في هذه الأسرة قلب أسود، وقلب والبتك أنصعها بياضاً... ومضى إلى صوان ملابسه ففتحه، وجعل ينظر إلى ملابسه ولوازمه، وتردّد قليلاً قبل أن يتخذ ما عقد المزم عليه، فالتفت إلى كمال، وهو يقول:

- سأتزوج من هذه الفتاة كما قضت بذلك المقادير، ولكنّي - علم الله - مقتنع كلّ الاقتناع بأنّي لم أسئ إلى ذكري فهمي، أنت أعلم يا كمال بما كان من حبيّ له، كيف لا؟ إذا كان هناك من سيء بهذا الزواج، فهو أنا... 1...

- ١١ -

قلعت خدام صغيرة ياسين إلى حجرة الاستقبال ثمّ انصرفت. كان يقوم بزيارة بيت المرحوم السيّد محمد رضوان لأوّل مرّة في حياته، وكانت الحجرة - على

- لم تعد في ثقة في شيء، كيف تبقى لك ثقة في شيء بعد هذا الغدر؟ هل ضاقت الدنيا وأقفرحت حتى لم تجد من فتاتها زوجة إلّا الفتاة التي أمت قلب أخيك؟ ألا تذكر ما أصابه من حزن وهو يستمع معنا إلى قصّة الجنديّ الإنجليزي؟...

بسط ياسين فراصيه في توسّل، قائلاً: - فلنرجل هذا الحديث إلى وقت آخر، سأبث لك فيما بعد أنّ المرحوم لم ينداء ربّه وليس في قلبه أيّ أثر لهذه الفتاة، أمّا الآن فلم يعد الجوّ صالحاً للكلام... صاحت به غاضبة:

- مبهات أن يصلح عندي جرّ هذا الكلام، إنك لا ترعى ذكري فهمي... 1

- ليتك تتصوّرين ما مجده في كلامك من حزن! صاحت، وقد بلغ بها الغضب متهاه: - أيّ حزن؟ إنك لم تحزن على أخيك! من الغريه من حزن عليه أكثر منك! - نينة... 1

وهمّ كمال بالتدخل في الحديث، ولكنها أسكتته بإشارة من يدها، وهضت:

- لا تلّعنني نينة، لقد كنت لك أمّا حقاً، ولكنك لم تكن لي أبناً ولم تكن لابي أمّا!

لم يعد يحتمل البقاء، فبض عزموناً مكتباً، وغادر الصالة إلى حجرته، وما لبث كمال أن لحق به ولم يكن دونه حزنًا وكآبة فقال له:

- ألم أحذرك؟... فقال ياسين مقطّلاً:

- لن أبقي في هذا البيت دقيقة واحدة بعد الآن... 1

فقال كمال بجزع: - يجب أن تعلمي، أنت تعلم أنّ والدي لم تعد كذا كانت، إنّ أبي نفسه بغضي عن بعض هفواتها أحياناً، ما هي إلّا غيبة لا تلبث أن تسكت فلا نحاسبها على كلامها، هذا رجائي إليك... 1

قال ياسين، وهو يتنهد: - لن أحاسبها يا كمال، لن أبيع جميل الأصوام

يحملها على السكوت... في قصر الشوق صادفتك  
أول مفاجأة سعيدة في هذا الجوّ العاصف! هو موت  
الفكهايّ وحلول ساحاتيّ علّه، إلى القبر... سمع  
نحنة عند الباب، فألهم بهره إليه وهو ينهض، وما  
لبث أن رأى ست بيهة وهي تدخل بجنتها، إذ أن  
مصراع الباب المفتوح لم يكن ليُتسع لها إذا دخلت  
بعرصها، ولح عن غير قصد الخطوط التي تحد تفاصيل  
جسمها الجسيم، فلم يتالك من العجب عندما مرّت  
أمام عينيه جبينها التي كادت قمتها تبلغ منتصف  
ظهرها ويفيض أسفلها على فخلها، فكأنها كرة  
منطاد! وأقبلت نحوه في عخطوات متمهّلة نادت  
بقناطير اللحم والشحم، ثم مدّت له يدًا بضّة يضاء  
برزت من كمّ فستانها الأبيض الضففاض، وهي  
تقول:

- أهلاً وسهلاً، شرفت ونوّرت...

فصافحها ياسين بأبهى، وليث واقفاً حتى جلست  
على الكتبة المجاورة فجلس... كان يراها عن كتب  
لأول مرّة، إذ أن علاقتها القديمة بأسرته واكتسابها مع  
الأيام منزلة أشبه بمنزلة الأمّ في السن والاحترام حملاه  
على تحبّ تفحصها - كما يفعل مع غيرها من النساء -  
كلما لمحها عن بُعد في الطريق، لذلك خيل إليه أنه عثر  
على كشف جديد. وكانت ترتدي فستاناً قد غطى على  
جسمها من الحق إلى ما فوق القلمين، وحقى القدمان  
وارتعاها في جورب أبيض رغم دفء الجوّ، بينما امتدّ كُثا  
الفتان على ذراعيها وباعديها حتى المصمين، ولقّت  
رأسها وعنتها بخمار أبيض طرح ذيله المريض على  
أعلى الصدر والظهر قبلت في احتشام يناسب المقام  
ويوافق العمر الذي قارب الخمسين - فيها علم - وإن  
تبسّلت في صمّة ريانة تنطق بصفاء المزاج وشباب  
القلب. ولاحظ فيها لاحظ أنّها تطالعه بوجه طبيعي لم  
يمهّ زخرف أو زواق رغم ما حُرف عنها من حبّ  
التبرّج وإتقان التزيّن، الأمر الذي نصبها من قديم  
مرجعاً لكلّ ما يتعلّق باللوق النسائي من ملابس  
وزواق في الحرف كلّها. وذكر بهذه المناسبة كيف كانت  
أمية تدافع عن هذه المرأة كلما عرّ لأحد أن ينتقد

طراز الحجرات بيت أبيه - واسعة الأركان، مرتفعة  
السقف، فيها مشرّبة تشرف على شارع بين القصرين  
ونافذتان تطلّان على العطلة الحاتية التي يفتح عليها  
مدخل البيت، وقد قرّشت أرضها ببسط صغيرة،  
واصطفت في جوانبها الكتبت والمقاعد، وأسدت على  
الباب والمنافذ ستائر من خمل رسديّ باهت من  
القدّم، وعلى الجدار المواجه للباب علّقت البسمة في  
إطار أسود كبير، بينا توسّطت الجدار الأيمن - فوق  
الكتبة الرئيسة - صورة للمرحوم السيّد عمّد رضوان  
تخلّه في أوسط العمر...

اختار ياسين أول كتبة صادفته إلى يمين المدخل،  
فجلس وهو يتفحص المكان بمثابة حقّ ثبتت عينه على  
وجه السيّد عمّد رضوان الذي بدا وكأنّه يبادل النظر  
بعيني مريم! ابسم ابتسامة راضية وراح ينشّ لا شيء  
بمنشئة العاجية... ثمة مشكلة قد واجهته مدّ فكر  
في المهيّء لحظية مريم، هي خلل البيت من جنس  
الرجال وعدم توفيقه إلى إنابة أحد من جنس النساء  
عنه. فكانت النتيجة أن جاء وحده كأنه مقطوع من  
شجرة - على حدّ تعبيرة - الأمر الذي أحججه بعض  
الشيء كرجل ورت عن وسطه الاعتزاز بالأهل  
والأسرة، غير أنّه كان مطمئنّاً من ناحية أخرى إلى أن  
مريم لا بدّ وأن تكون قد مهّدت له السبل عند أنّها،  
بحيث أن مجرد إعلان زيارته سيهيّ بما جاء من أجله،  
ومن ثمّ يبيّن له جواً طيّباً لإنجاز مهمّته.

عادت الخادم إلى الظهور حاملة صينيّة القهوة،  
فوضعتها على المنضدة أمامه، وتراجعت وهي تحفر بأنّ  
سّها الكبيرة في الطريق إليه... وسّها الصغيرة ترى  
هل علمت بحضوره؟ وما صدّى ذلك في نفسها  
الرييقة؟ سوف يحملها بحسبها إلى قصر الشوق،  
ولتفعل بنا القوّة ما تشاء! من كان يظنّ لأمية هذه  
القدرة على الغضب؟ كانت في وداعة الملاك. قال الله  
الحزن! كذلك غضب أبوه وهو يعترف له في الدكان  
بأنّه هجر البيت ولكن غضب رحيم كشف عن تأثيره  
وحزنه. ترى: هل تُظلمه أمينة على تاريخ مريم؟  
غضب النكلى شيء خفيف، ولكن كمال وعد بأن

أعود فادعوا لها بالصبر... المسكية!  
- جزاك الله كل خير على نبل خلقك وطيبة قلبك،  
حقاً إنَّها مسكية وفي حاجة إلى الصبر!  
- ولكن ما فني أنا؟!

- لا فني لك، إنه الشيطان لمة الله عليه...  
هزّت المرأة رأسها هزّة الضحية البرية، وصمتت  
قليلاً، حتى حانت منها الثغاة إلى فججال القهوة الذي  
بدا كلنسي على صينيّة القهوة، فقالت وهي ترمي  
إليه:

- ألم تشرب قهوتك بعد؟  
فرفع ياسين الفنجال إلى فيه، وحسا المحسوة  
الأخيرة، ثم أعاده إلى الصينيّة، وتحنن قليلاً، ثم  
أنشأ يقول:

- شدّ ما سامني ما انتهت إليه صداقة الأسترون،  
ولكن ما باليد حيلة، على أيّ حال ينبغي أن نتنامي  
فلك تاركين أمره للزمن، والواقع أنني لم أكن أحب أن  
أثير أسف الذكريات، لها فلذا جئت، وأنا جئت  
لفرض آخر هو أبعد ما يكون عن الذكريات  
الأسيفة...

هزّت المرأة رأسها هزّة كأنها تطرد الذكريات  
الأسيفة، ثم ابتسمت ابتسامة استعداد لسباع جديد،  
كانت تميز رأسها وابتسامتها كالألة الموسيقيّة المصاحبة  
للمغني إذا خيّرت عزفها تمهيداً لدخول المغني في طبقة  
جديدة من النغم، قال ياسين مستمداً من ابتسامتها  
طلاقة:

- أنا نفسي لا تخلو حياتي من ذكريات أسيفة تتصل  
بحياتي الماضية... أعني تجرّبي الأولى في الزواج  
الذي لم يوفقني الله فيه إلى بنت الحلال ولكني لا أريد  
أن أرجع إلى ذلك، الواقع أنني جئت بعد أن عزمت -  
متوكلاً على الله - على فتح صفحة جديدة مستبشراً  
الخير كلّها فيها اعترمت...

التقت حينئذ على الأثر فطالع فيها الترحيب  
الجميل... ترى: هل كان موفقاً في الإشارة إلى  
زواجه الأوّل؟ ترى ألم يترام إلى سمع هذه المرأة شيء  
عن الأسباب الحقيقيّة لفشل ذلك الزواج؟ لا تشغل

إفراطها في التبرّج، ثم كيف انقلبت تحمل عليها لافه  
الأسباب في السنوات الأخيرة رامية إيّاها بفلة الحياء  
وتجاهل ما يستوجبها عمرها من احتشام.

- خطوة عزيزة يا ياسين الفندي...  
- الله يكرمك!!

كاد يختم جملة بقوله «يا تيزة» ولكن إحساساً  
غريزياً خوفاً في اللحظة الأخيرة من النطق بها، خاصّة  
وأنه لاحظ أنها لم تذكّه «يا ابني» كما كان المنتظر،  
وعادت المرأة تسأل:

- كيف حالكم؟ والدك وأمّ فهمي وخديجة وعائشة  
وكيال؟

أجاب، وهو يشعر بحياء لسؤالها عن الذين  
ناصربوها العداة بلا سبب وجه:

- كلّهم بخير، سألت عنك العافية...

لا شك أنها تفكر الآن في الجفاء الذي قوبلت به في  
بيت أبيه عقب وفاة فهمي فاضطرّها إلى الانقطاع عن  
أسرته بعد معايشة دامت العمر كلّها. يا له من جفاء!!  
بل يا لها من عداوة صامتة!! لم يكن إلّا أن أعلنت  
امراة أبيه يوماً أنّ «شعوراه» يحذّنها بأن مريم وأنها لم  
تصدقاً في حزمها على فهمي! لم تكن الله الشراً؟  
قالت إنه من غير المعقول أن يكون رفض السيّد خطبة  
مريم لم يبلغها في حينه عن طريق أو آخر أو حتى  
استنتاجاً، ومن غير المعقول أن تملأ به ولا تضطفناه  
عليهم! وكدت كثيراً أنها سمعت أنّ مريم تنسب  
فهمي في الماتم فتقول: «أسفي على شبابك الذي لم  
تتمتع به» فترجمها إلى «أسفي على شبابك الذي وقف  
أهلك في سبيله فلم تتمتع به!». وزادت على ذلك ما  
شاه لها حزنها وقهرها، ولم تنفع معها حيلة في تحوّلها  
عن «شعوراه»، وسرعان ما تغيّر سلوكها نحو مريم  
وأنها حتى كانت القطيعة... قال وهو لم يزل تحت  
تأثير الحياء والحرص:

- لعن الله الشيطان!

فقالت بهيجة مؤمنة على قوله:

- ألف لمة!... طلالا ساءلت نفسي عمّا جئنت  
حتى الآن ما لقيت من السّت أمّ فهمي، ولكني

ولكن هيتها - بعد ابتسامتها - تقول له أيضًا «رايتك». لينس المفوة فهذا خير حل، ولكن هل تصير مريم مثل أمها يومًا ما؟ متى يجيء هذا اليوم؟ لا لأم مزبلا لا يعود بها الزمان إلا في النادر، يا لها من امرأة! إن غير وسيلة لتغير أفكاره وتبديد سحابة الشك هي أن يَزِقَّ الصمت، قال:

- إذا حاز طلبي القبول، فستجديني رهن إشارتك لمناقشة التفاصيل الهامة...

ضحكت ضحكة قصيرة، فبدأ وجهها في إشرقتها لطيفًا شائبًا، وقالت:

- كيف لا يجوز القبول يا ياسين أفندي؟ أصل وجوار على رأي المثل...

قال، وقد توّرد وجهه:

- إنك تأسريني بلطفك!

- ما علوت الحق، والله شهيد!

ثم متسائلة بعد فاصل صمت قصير:

- هل تمت موافقة البيت؟

تجهلت في عينه نظرة جدّ لحظة، ثم ضحك ضحكة لائقة من أنفه، وقال:

- دعيها من البيت وسيرته!

- لم كفى الله الشر؟

- ليس البيت على ما يرام!

- ألم تشاور السيد أحمد؟

- أبي موافق...

فضربت يداً على يد، وقالت:

- فهمت، أم فهمي؟ أليس كذلك؟ إننا أوّل من تبادر إلى ذهني وأنت تفانحين بالموضوع، طبعًا لم توافق، هه؟ سبحان الذي لا يتغيّر، امرأة أبيك امرأة غريبة!

هرّ كفيه استهانة، وهو يقول:

- لا يقدّم هذا ولا يؤخّر...

قالت متشجّة:

- طلالا ساءلت نفسي عمّا جنيت؟ أيّ إساءة أسأت بها إليها!

- لا أحبّ أن أقدم على حديثنا حديثًا آخر لا يجني

بالك، إن ملاحظتها الجميلة توحى بالتسامح إلى غير حدّ، ملاحظتها الجميلة! أليس كذلك؟ بلى، لولا فارق السنّ لكانت أجمل من مريم، كانت بلا مراد أجل من مريم في شبابه الذاهب... كلاً! إننا أجل من مريم رغم فارق السنّ!... إننا لكذلك!...

- أظنك فطنت إلى مقصدي، أعني إلى أنني جئت طالبًا يد كركمك مريم هائم...

أضواء الوجه الرقراق ابتسامة بثّت فيه حيويّة جديدة، وقالت:

- لا يسعني إلا أن أقول أهلاً وسهلاً، ينضم الأسرة وينضم الرجل، أمس أوقفنا سوء الحظّ فمين لا خلاق له، اليوم يسعي إلى مريم رجل جدير حقًا بإسعادها، وستكون بفضل الله جديرة بإسعاده، ونحن - معها فرق بيننا سوء التفاهم - أسرة واحدة من قديم الزمن... اغتبط ياسين حقّ راحت أصابعه تسوّي البايون بلمسات سريعة غير مقصودة، ثم قال وقد توّرد وجهه الأسمر الجميل:

- أشكرك من صميم قلبي، جزى الله حقّ لسانك الحلوة، نحن أسرة واحدة كما قلت رغم أيّ شيء، ومريم هائم فتاة يزدان بها حينًا كلّ أصلًا وخلقًا، أرجو أن يؤمّضها الله من صبرها خيرًا وأن يؤمّضني بها من صبري خيرًا.

غمغمت «آمين» وهي تنبض، ثم أقبلت بجسمها المفتخر نحو المنضلة، فتناولت صينيّة القهوة وهي تتدّعي ياسمينه، ثم استدارت حاملة إياها فأعطتها الحامد التي جاءت على عجل، ولفّت عنها فجأة لتقول له «أنستنا» فباغته وهو يحمل في ردفها التقييلتين! وشعر لتوّه بأنه «ضبط في حالة تلبّس» فبادر بخفض عينيه ليومها بأنّه كان ينظر إلى الأرض، ولكن بعد فوات الأوان... وارترك وجعل يسأل نفسه عمّا عسى أن تظنّ به، ثم اختلس منها نظرة بعد أن عادت إلى مجلسه فلمح على شفتيها ابتسامة خفيفة كأنّها تقول له «رايتك». لعن عينه اللتين لا ترفان الحياء، وتساءل عمّا يمكن أن يكون قد دار في رأسها... أجل إننا نحاول أن تبدو كأننا لم نر شيئًا،

بخطورة الموقف. إما أن يكون مجنوناً وإما أن تكون - المجنونة، أو فلا هذا ولا ذاك؟ مَنْ له بمن يتشبه من حيرته! استقام جسمها المائل، فوقفت، ثم تحولت عن النافذة متجهة إلى مجلسها. فبادر إلى رفع عينيه صوب البسلة - قبل تحوّلها - متظاهراً بالاستغراق في تفحصها، ولم يلفت رأسه نحوها حتى صدرت عن الكنبه طقطقة تنبئ بجلوّسها، وعند ذلك التفت عينهما، فرأى في عينها نظرة باسمه مكررة أشعرته بأنّه لم تخف عنها خافية، وكأنّها تقول له بأفصح لسان ورأيتك! لبث حيناً مضطرب النفس والخطار، ولم يكن على يمينه من شيء فخاف أن يكون ظلماً أو أن يكون عرض نفسه أمامها للاتهام، وبدا له أنّه سيحاسب على كلّ حركة تبدر منه، وأنّ أيّ هفوة قد تنقلب فضيحة.

- ما زال الجوّ مائلاً إلى الحرارة والرطوبة...  
جاء صوتها هادئاً طبيعياً، ودلّ - إلى ذلك - على رغبتي في إزاحة الصمت، فقال بارتياح:  
- أجل إنّه كذلك...

عادته الطمأنينة، غير أنّه ما لبث أن تخالط لعينيه المنظر الذي رآه عند النافذة، وجد نفسه على رغبته يجرّته ويتيه في جاذبيّته، ويتمنّى لو كان عازراً على مثله في إحدى مغامرته. لو كان لريم مثل هذا الجسم! ألا في مثله فليتأمل التناسل. ولعلّها ظنّته - لصمته - لا يزال مشغولاً بما أثارت من حديث علاقته مع امرأة أبيه، فقالت لها يشبه الدهابة:

- لا تشغل بالك، لا شيء في هذه الدنيا يستحق شغلة البالي!

ثمّ لوّحت يديها ورأسها - واهتزّ جسمها لها بين ذلك اهتزازة خاصّة - كأنّها تحسّ على الاستهانة بالهموم، فابتسم مطوّحاً وهو يغمغم: «نظمت بالحق». غير أنّه كان يبذل قصاره ليمكّن نفسه. أجل فقد حدث أمر جليل. لم يكن في ظاهره إلّا تلك الحركة الشاملة التي أرادت بها الإفصاح عن الاستهانة وحسّ عليها، إلّا أنّها كانت حركة بالغة الخطورة من حيث دلالتها على الخلاعة والدلال والاستهتار، وقد

منه الإنسان إلّا وجع الدماغ، ليكن ظلّها ما يكون، المهمّ أنّي ماضٍ إلى هدف، ولا يعنيني إلّا موافقتك أنت...

- إذا لم يتّسع لك بيتك فبيتنا تحت أمرك...  
- شكراً... لديّ بقي بقصر الشوق بعيداً عن الحيرة كلّها، أمّا بيت أبي فقد غادرته من أيام...  
ضربت صدرها بيدها هاتفة:  
- طردتك...!

قال ضاحكاً:  
- كلّاً لم يبلغ الأمر إلى هذا الحدّ، المسألة وما فيها أنّ اختياري ألهما لأسباب قديمة لها صلة بالحرّوم أخى (هنا نظر إليها نظرة ذات معنى)، ومع أنّي لم أجد في معارضتها وجه حقّ مقنع، فإنّني رأيت من اللباقة أن أهدّ للزوجيّة بيتاً جديداً...

سألته، وهي ترفع حاجبيها وتبرّز رأسها فيها يشبه الشكّ:

- لم لم تنتظر في بيتك حتى يحين ميعاد الزواج؟  
فضحك ضحكة تسليم، وقال:  
- أثرت الابتعاد نوعاً من تفاهم الخلاف!  
فقالت كالتهمّة:

- ربّنا يصلح الحال...

وقامت مرّة أخرى قبل أن تتمّ جلستها، فالتجّهت إلى النافذة المطلّة على العطفة الجانيّة وفحصتها لتضع لنور الاصول بعد أن بات باب المشرّبة غير كافٍ لإضاءة الغرفة، وجد نفسه على رغبته وحذرته يسترق النظر إلى كنزها النفيس وهو يطالعها كالقبّة. رآها وهي تعتمد على الكنبه بركبتها ثمّ تميل على حافة النافذة لتشيك مصراعها فرأى منظرًا عجيباً ترك في نفسه أثراً دائماً. تساءل وهو يشعر بجفاف حلقه: لم لم تدعّ الخادم لتضع النافذة؟ كيف ارتفعت أن تعرض أمام ناظره - اللعين باغتها منذ قليل في حالة «تلبّس» هذا المنظر الذي لا يضيّ عنها مزاجه؟ لم وكيف وكيف ولم؟ كان فيها يتّصل بالنساء مرهف الحسّ سيّئ الظنّ، فلاح له شيء كالكشك يتردّد على عتبة إدراكه لا يريد أن يدخل ولا يريد أن يخرّج، ولكنّه بادر فاعمض عينيه متأنّراً

حيثاً وتقرر حيناً دون انقطاع وفي صمت مرعب.  
التنظرات معاني لا تحصى على ذي عينين!! لا بدّ من  
إيصال أفكاره إليها بالنظرات وحدها حتى يرى ردّ  
الفعل... اعرف لقدعك قبل الخطو موضعها وليسقط  
الثنائي، خلدي هذه النظرة الناريّة وخبريني إن كنت  
صادقة عن أيّ مجنون يسعه أن يتجاهل سوء مقصدها  
أو يذّهي براءتها؟ انظرها هي ترفع عينها وتخفضها  
كالشاردة وهل حال بينة من الفهم المرعب، تستطيع  
الآن أن تقول إنّ الفيضان وصل إلى أسوان وإنه لا  
مناص من فتح الخزّان، وأنت تخطب إليها ابنتها؟  
مجنون من لا يؤمن بالجنون بعد اليوم، أنت الآن  
أشهى شيء إلى نفسي، ولكنك بعد ذلك الطفوفان...  
منظر لا يوحى بالياس أبداً!

- هل تقيم في قصر الشوق بمفردك؟

- نعم...

- قلبي عندك...

جلة قد تصدر عن شيطان، وقد تصدر عن ملاك،  
تري هل تنصّت مرهم الآن وراء الباب؟

- أنت جرّبت الوحدة بنفسك في بيتك هذا، إنّا  
شيء لا يُحتمل...

- حقّاً لا يُحتمل

وفجأة امتدّت يدها إلى خمارها فنزعته من حول  
رأسها وعنفها وهي تقول كالمتلذذة ولا تؤاعلني الدنيا  
حازّة. فبدا رأسها في منديل يرتقائي وأسفر عنقه  
الوضي. رنا إلى عنقه ملأ في قلق مترابّد، ثمّ لحظ  
الباب كالمستال عمن صي أن يكون رابضاً وراءه...  
أغشوا الذي جاء يضطّب البت فوقك في الأم. وقال ردّاً  
على اعتذارها:

- خلدي راحتك، أنت في بيتك، ولا غريب في  
البيت...

- ليت أنّ مرهم كانت في البيت لأزّلت إليها الخبرا  
خفق قلبه خفقة حادة كإشارة المجوم، وتساءل:

- وأين هي؟

- عند جماعة من معارفنا في الدرب الأحمر.

وداعاً يا عقلي! خاطب ببتك يريك وأنت تردّيته،

نَدّت عنها في لحظة نسيان فخرجت بها عمّا التزمته  
طوال الجلسة من تآلب واحتشام وكشفت عن خيبتها  
طبيعتها وهي لا تدري، أو وهي تدري؟ لا يستطيع  
أن يقطع بهذا أو بذلك ولكنّه لم يعد به شكّ في أنّه  
حيال امرأة جديرة حقّاً بأن تكون أمّ مرهم ذات  
التاريخ القديم! أي أن يتراجع عن رأيه مهما يكن من  
أمر، فهذه الحركة الراقصة المفاج لا يمكن أن تصدر  
عن سيّدة مصونة! ولم يكن إزعاجه إلّا لحظة عابرة،  
فسرعان ما حلّ عليه إحساس بسرور شهوانيّ مأكّر،  
وداح يتذكّر أين ومتى رأى هذه الحركة من قبل، على  
زقونة؟ جليّة ليلة اتصمت على أبيه النظرة بيت آل  
شوكت؟ آه... هذه هي!.. وخيّل إليه أنّها رغم سنّها  
أشهى من مرهم والذّ، وغلبيت فطرته فحدّثته نفسه بأن  
يحصّ النبش وألّا يبق إن أمكن عند حدّ! وشعر  
برغبة في الضحك من غرابة أفكاره، ويأنّه سيلسك  
طريقاً وعزّاً لم يعرق من قبل، ولكنّه لم يعتد يوماً أن  
يزجر النفس عن هوى... أين يتأتّى به هذا  
المسلوك؟ هل يمكن أن يعدل عن مرهم إلى أمّها كلا!  
إنّه لا يضرر ذلك قطّ، ولكن تصوّروا كلّاً قد عثر على  
عظمة وهو في طريقه إلى المطبخ فهل يتحقّق؟... يند  
أنّها مجرد أفكار وتخيّلات وفروض! فلأنتظروا...  
وتبادلا ابتسامة في الصمت الذي عاد فسحب ذيله  
بينهما، أمّا ابتسامتها فكانت فيها بدا تحيّة مضيف  
لضيف، وأمّا ابتسامته فقد انغمست، على فم حائر  
بهمسات الاعتداء المختنق.

- نورت بيتنا يا ياسين أفندي...

- يا سقّي بيتك لا ينقصه النور، أنت تنورين البلب  
وما فيها...

ضحكت ضحكة مالت برأسها إلى الورداء، وهي  
تتمتم:

- الله يكرمك يا ياسين أفندي!...

كان ينبغي أن يعود إلى الحديث عن طلبه أو أن  
يستأذن في الانصراف على أن يستسي موعداً آخر  
لمواصلة الحديث، ولكنّه لم يعد إلى الحديث ولم يستأذن  
في الانصراف... بل راح يمدجها بنظرات رية تطول

لمريم ذكر بينها إلا حين قالت له مرة:  
- لم أستطع أن أخفي عن مريم نيا زيارتك، لأن  
خادمنا تمرقك، ولكني قلت لها: إنك فاهتني يرغبتك  
في خطبتها بعد تلليل العقبان التي تعرض سبيلك في  
محيط الأسرة!

ووجد نفسه مذهولاً عن مناقشتها، فأبدى موافقته  
واستحسانه. واستقبلاً ممّا حياة حافلة بالمتعة، وجد  
ياسين ذات «الكنزة» مليّة بين يديه، فأنطلق انطلاق  
الجواد الجامح، ولم تكن الحجرة التي أنشئت على عجل  
واقصاد الملكان الصالح لمطارحة الغرام، ولكنّه لم يأل  
عن حبيّة الجوّ الحلاب بتوفير الطعام والشراب حتّى  
يطيب له الوصول فيواصل صلاته بذلك اللهم  
الغريزي الذي لا يعرف حلاً أو اعتدالاً. وما لبث أن  
أدركه الملل قبل أن يتمّ الأسبوع الأوّل دورته. هي  
نفس الحلقة التي تدور فيها شهرته حتّى غدا اللواء  
نوحاً من الداء بيد أنّه لم يؤخذ على غرّة، كلاً ولم  
يضمّر نحو تلك العلاقة الغريبة من بادئ الأمر أيّ نية  
حسنة ولا قدر لها أيّ دوام، بل لعلّه لم يبلغ من وراء  
الغازلة في حجرة الاستقبال إلا ضجعة عابرة، غير أنّه  
وجد من المرأة تعلّقاً به وحرصاً عليه وأملًا في أن يكون  
فتح بها راضياً وعدل عن مشروع الزواج، فلم يرَ بداً  
من مجاراتها كيلا يفسد على نفسه لذتها مؤمناً بأنّ الزمن  
وحده كفيل بإرجاع كلّ شيء إلى أصله! وما أسرع أن  
رجع كلّ شيء إلى أصله بالنسبة إليه هو، بل ربّما  
أسرع ممّا قدر، وكان جاراها وهو يظنّ أنّ جدّة حاسنها  
خليقة بأن تحفظ برونقها أسابيع أو شهراً، ألا يا ربّما  
كذب الظنّ!... أمّا عن مظهرها الشهيّ فبحسب أن  
جملة يرتكب أكبر حماقة في حياته العامرة بالخلفات،  
ولكنّ الكهولة تكمن وراء ذلك كما تكمن الحنّى وراء  
نورّد الحدين الكاذب، وإنّ القناطير المنظرة من اللحم  
البشريّ المتحكيكة تحت طبّات الثياب - على حدّ قوله -

ليرحم الله من يحسّون الظنّ بالنساء، لا يمكن أن  
يكون في رأس هذه المرأة عقل، جارة العمر ولا تعرفها  
إلا اليوم!... مجنونة... مراعاة في الخمسين!...

- متى تعود مريم هانم؟  
- قبيل المساء...  
قال بخفيّ:  
- أشعر بأنّ زيارتي قد طالت...  
- لم تعط زيارتك، أنت في بيتك...  
فسألها بخفيّ أيضاً:

- ترى هل أطعم في أن ترقي في الزيارة؟  
فابتسمت ابتسامة عريضة، كأنّها تقول له: وإني أدرك  
ما وراء هذه الدهوة، ثمّ أطرقت في حياء وإن لم يغيب  
عنه ما في حركتها من تمثيل، ولكنّه لم يبالها، وراح  
يصف لها موقع بيته من الحارة وموضع شقّته من  
البيت، وهي مطرقة صاخطة باسمه. ترى ألم تشعر بأنّها  
تسيء إلى ابنتها أبليغ إساءة، وأنّها تعتدي عليها أنكر  
اعتداء!؟

- متى تتكرّمين بالزيارة؟  
ضخمت وهي ترتفع وجهها:  
- لا أدري ماذا أقول!  
فقال بتوكيد وثقة:  
- أقول أنا بالنهاية عنك، مساء الغد، ستجدينني في  
انتظارك!

- ثمة أمور يجب أن نعمل حسابها!  
- سنعمل حسابها معاً... في بقي!  
وقام من لوره وهمّ بأن يتقدّم نحوها، فأشارت إليه  
وهي تلتفت نحو الباب محذّرة، ثمّ قالت وكأنّها لا  
تقصّد إلا التفاذي من صولته:  
- غداً مساء...!

- ١٢ -

وعرف بيت قصر الشوق ببيجة زائرة مواظبة.  
كانت إذا نشر الظلام ستاره، تلتفّع بملامتها، وتغني  
إلى الجلاليّة، فإلى بيت هنيّة... وهنالك تجد ياسين في  
انتظارها بالحجرة الوحيدة المفروشة في الشقّة. لم يجر

فقال بغير مبالاة أدمشته:

- لن يضيرها ألا تقتنع، فليس كل كلام بمفرض إلى خطبة ولا كل خطبة بمفرضة إلى زواج، إنها تعلم علم اليقين...

ثم بصوت منخفض:

- ولن يضيرها أن تفقدك، إنها شابة في عزّ جمالها، ولن تُعدم خاطبًا اليوم أو غدًا...

كانت تتلذذ عن أنانيّتها، أو تلمح إلى أنها هي - لا ابنتها - التي يضيرها فقد، فلم يزد قولها إلا ضيقًا ومللًا، إلى أنه أخذ يتوجّس خيفة من معاشره امرأة تكبره بعشرين عامًا، متأثرًا بما يتردّد بين العاتية من أن مخادنة الكهلات تذبل الشبان، حتى شحنت ساعات اللقاء - من ناسيته - بالبورنر والحلر لمفتها مفتًا...

وإنه لعلّ ذلك إذ صادف مريم يومًا في السجّة الجديدة، فطغّم منها دون تردّد، وسلّم عليها، وسار إلى جانبها كأنه من ذوي قرياتها، كانت قلقة عابسة، فاضربها بأنّه كان يفتح والده بالمواقفة حتى ظفر بها، وأنه يعدّ مسكنه بقصر الشوق ليكون صالحًا لها، واعتذر عن طول غيبته بكثرة مشاغلها، ثم قال لها: واضعري والدنك بالثني ساجيء. هذا لقابلتها للائتنافق حل عقد القرائاء ومضى سعيًا بانتهاز الفرصة التي سنحت حل غير ميعاد، غير عاين - في غمرة السعادة - بما سيكون موقف بيهجة منه. وفي مساء ذلك اليوم جاءت بيهجة في معادها إلى قصر الشوق، ولكنها جاءت هذه المرّة كسيرة النفس، بادوته هاتفة قبل أن ترفع برقعها:

- بعثني خيلة وغدرا...

ثم انحسرت حل الفرائش، وهي تنزع برقعها في نرفزة، وتقول:

- لم يطف بخاطري أنك تضمير لي هذا الخدر كله، ولكنك جبان غادر كسائر الرجال...

قال ياسين برقة المعتذر:

- ليس الأمر كما تتصورين، الحقّ أنّ قابلتها صدقة...

فصاحت بوجه مكفهّر:

«وسرض»، وأن يجمع العزم حل قطع علاقته بها. وعادت مريم - بعد خمود النزوة الجنونيّة - إلى سابق مكانتها من نفسه، كلاً، لم تكن بارحتها، ولكنّ النزوة الطارئة غشيتها كما تغشى السحابة العجل وجه القمر، عجبًا! لم تعد رغبته في مريم مجرد استجابة لولمه الخالد بجنسها وإن غلب ذلك عليها، ولكنها أرضت من ناحية أخرى حينته إلى تكوين الأسرة التي كان يعتدّها مصيرًا عتومًا ومرغوبًا فيه أيضًا. واستوصى بالصبر - كارعًا - حل أن تتوب بيهجة إلى رشداه، أن تقول له يومًا «حسبنا لعبًا وهلمّ إلى حروسك» ولكنه لم يجد لامله صدق في نفسها، كانت تواظب حل الزيارة ليلة بعد أخرى، وما تردّد إلا إغراقًا وبهاكًا، وشر بأنّها تمثل مع الزمن إيمانًا بحقها عليه كأنه بات عمور حياتها وملك ميمها.

اجل! لم تكن تنظر إلى الأمر بعين الاستهانة أو اللهو، وإلى هذا تكشف نفسها له عن خفة وطيش ونزق أقمته جيمًا بأنّ سلوكها الشاذّ معه في أوّل مقابلة لم يكن أمرًا مستغربًا، فاستهان بها وازدها وتضخّمت عيوبها في عينه الزاريتين حتى ضاق بها كلّ الضيق وصمّم حل التخلص منها في أوّل فرصة تسنح، وإن حرص حل لتجّيب اللطافة أن تبعر المراقيل في طريق مريم. قال لما مرّة:

- ألا تساءل مريم عن سرّ اختفائي؟

فقالت وهي تطمئنه بحركة من رأسها:

- إنها حل نيّة من معارضة أمرتك.

فقال بعد تردّد:

- أصارحك بأننا كنّا نتحدث أحيانًا فوق السطح،

وأتّي ركدت لها مرّات بأنّي مصمّم حل الزواج منها مهما يكن من معارضة المعارضين.

فحدجته بنظرة نافلة، وهي تتساءل:

- ماذا تريد؟

قال متظاهراً بالبراءة:

- أريد أن أقول إنها سمعت منّي ذلك التوكيد،

وإنّها علمت بعد ذلك بزيارتي لك، فينبغي أن تقتنع بسبب وجهه لاختفائي!...



- أدرك خطورة التسليم بملكك، فغض بصره ولاء بالصمت، فقالت وهي تزفر من الغيظ:  
- أرايت أنك كذاب كما قلت لك؟  
ثم صارخة:  
- أرايت؟! أرايت يا غادر يا ابن الغادر؟!  
قال بعد تردد:  
- إن سراً لا يمكن أن يخفى إلى الأبد، تصوّري ماذا يقول الناس لو كشفوا سرّ علاقتنا، بل تصوّري

ماذا تقول مريم!  
فصرخت بأصواتها من الحق، وقالت:  
- يا لك من خنزير! لم تذكر هذه الاعترافات يوم وقفت أمامي سائل اللعب كالكلب؟ أه يا جنس الرجال، جهنم الحمراء عقوبة تافهة لكم!  
ابتسم خفيفاً، وكان أوشك أن يضحك لولا فرملة الجلين، ثم قال بتودّد ورقة:  
- لقد قضينا وقتاً طيباً سوف أذكره دائماً بكلّ خير، حسبك غضباً واستياء، ما مريم إلا ابنتك، وأنت أؤلّ من يوم سعادتها...

وهي تحرّ رأسها بهتكم:  
- أأنت الذي ستعلمها؟! اسمعي يا حيطان، المسكينة لا تدري أيّ إبليس ستزوّج، أنت دائر ابن دائرة، وربّنا يكفينا شرّاً ما وقعت فيه...  
قال بهدوء الذي التزمه من أوّل الأمر:  
- عند ربّنا الصلاح، إنّي أرغب رغبة صادقة في بيت مستقرّ، وزوجة بنت حلال!  
قالت هازلة:

- أقطع ذراعي إن صدقت، سوف نرى، لا تنظرن بأموقي الظنون، إنّ سعادة ابنتي مقدّمة عندي على كلّ اعتبار، ولولا أنك خدعتني وغدرت بي ما كان يخفى أن أهديك إليها على الحدا!  
سامل ياسين نفسه: ترى هل مرّت الأزمة بسلام؟ وانتظر أن تلبس بقمعها وتودّعه، ولكنّها لم تحرّك ساكنها، ومضى الوقت - وهي يجلسها من الفراش، وهو يجلسه على الكرسيّ قبالتها - لا يدري كيف، ولا متى تتعرّض هذه الجلسة الغريبة المتوتّرة، واسترق

- كذاب! كذاب! حقّ من هو قادر على أن يعرفك ما أنتهي. هل تظنني أصفّك ما حييت بعد ما كان (ثمّ) وهي تحاكيه محاكاة كاريكاتورية الحقّ أنّي قابلتها صدفة! أيّ صدفة يا عمر؟! وهبها صدفة حقاً، فلمّ كلمتها في الطريق أمام الرابع والغادي؟ اليس هذا فعل الغادر السيّ النية؟ (ثمّ) وهي تعود إلى المحاكاة الكاريكاتورية الحقّ أنّي قابلتها صدفة...!  
فقال في شيء من الارتباك:

- وجددتني معها فجأة - وجهها لوجه - فامتدّت يدي بالسلام عليها! ما كان يوسعي تجاهلها بعد ما كان من محادثنا فوق السطح.  
فصاحت به بوجه مصفرّ من الغضب:  
- فامتدّت يدي بالسلام عليها! اليد لا تمتدّ إلّا إذا مدّها صاحبها، قطعت اليد وصاحبها، قل إنك مددت يدك إليها لتتخلص مني...  
- لم يكن من السلام بدّ، أنا إنسان وفي وجهي دم!  
- دم؟! أين هو ذاك؟ دم يلمّشك يا غادر يا ابن الغادر...

ثمّ بعد أن ازدورت ريقها:  
- ووعدك إياها بالجميء للاتّفاق على عقد القران، هل أألت منك أيّضاً كما أفلتت بك؟... تكلم يا سيّ دم...  
قال بهدوء صجيب:

- إنّ كلّ الحقّ يعلم الآن بأنّي هجرت بيت أبي لأتزوّج من ابنتك، فلم يكن من المستطاع تجاهل ذلك وأنا أحذنها...  
فصاحت بحدّة:

- كان يوسمك أن تتحلل من الأعداء ما تشاء لو كانت بك رغبة إلى ذلك، لست تمنّ يعيهم الكلب، ولكنك أردت التخلص مني، فله هي الحقيقة...  
قال وهو يتحاكى نظريتها:

- ربّنا يعلم بحسن نيتي!  
فحملته بنظرة طويلة، ثمّ سألت في تحدّد:  
- أتعني أنك توطّأت في وعدك لما على غير رغبة منك؟

- ١٣ -

- يا سيّد أحمد لا تؤاخذني إذا صارحتك بأنك تبهّر  
نفوك هذه الأيام بلا حساب...

قال جميل الحمزاوي ذلك بلهجة جمعت بين أدب  
المستخدم وإدلال الصديق. وكان الرجل لا يزال قويّ  
البنية جيّد الصحة على بلوغه السابعة والخمسين من  
عمره، أمّا رأسه فقد رصّعه المشيب، ولم تؤثر السنون  
في نشاطه شيئاً فلم يزل يومه ينقضي على حركة دالة في  
خدمة الدكان وعملاته كعهده منذ التحق به على أيام  
منشئه الأول. وقد اكتسب مع طول العهد حقولاً ثابتة  
واحتراماً جديراً بنشاطه وأمانته، فزّل من نفس أحمد  
عيد الجواد منزلة الصديق، ولم يكن عطف الرجل عليه  
الذي يمثّل أخيراً في معاونته على إلحاق ابنه فؤاد بمدرسة  
الحقوق إلّا مضاعفاً لإخلاصه وموجباً عليه مصارحته  
عندما نجب للصحافة لدفع ضرر أو لتحقيق منفعة. على  
أنّ أحمد قال بلهجة مطمئنة، ولعله كان يشير إلى  
الرواج الذي لم تزل تحمل السوق بسكرته:

- الحال معدن، والحمد لله...

فقال جميل الحمزاوي بأساً:

- ربّنا يزيد ويبارك، غير أنّي لا أزال أكرّر القول  
عليك بأنك لو كنت اتخذت من التجار خلقهم كما  
اتخذت حرفتهم، لكنت الآن من كبار الأغنياء...

ابتسم أحمد ابتسامة الرضى والقناعة وهو يبرز منكبيه  
استهانة. ربح كثيراً وأفقد كثيراً، فكيف يأسف على ما  
جنى من لذات العيش؟ لم يفقد يوماً حاسة التوازن بين  
دخله ومنصرفه، ولم يخلّ رصيده من الستر، وقد  
تزوّجت عائشة وتزوّجت خديجة، وطرق كمال باب  
المرحلة النهائية من حياته الدراسية، لهذا عليه لو تمّتع  
بعد ذلك بغيّات الحياة؟ على أنّ الحمزاوي لم يعد  
الحقّ في ملاحظته على تبليده. فالحقّ أنّه يبدو - هذه  
الأيام - أبعد ما يكون عن الاعتدال والقصد، تشعبت  
وجوه نفقاته: فإلهاديا تستنزف ماله لا يُستهان به،

والمرّامة تستحلب دسمه، وعظّيته تستأديه القرايين،  
وفي الجملة فإنّ زنوبة تدفعه إلى الإسراف دفماً، وهو  
من ناحيته يدفع بلا مقاومة تذكّر، لم يكن كذلك في

النظر إليها، فوجدما ترونو إلى الأرض كالسارحة حل  
حال من التسليم نزلت به إلى المطف عليها، حل  
تعود مرّة أخرى إلى المهاترة؟ غير مستبعد! ولكنّها -  
فيما يبدو - تفكر في موقفها الدقيق بينه وبين ابنتها  
وتحتفي أمام مقتضياته، وما يبدري إلّا وهي تتزع  
الملاحة عن نصفها الأعلى وتغمغم والجو حارّ ثم  
تزعزعت حتّى نهاية الفراش فاستندت إلى شباكه،  
ومدّت ساقيها غير عابئة بالخذاء الذي انفرز كعباء في  
طبّات اللحاف، ثمّ واصلت شرودها، ترى: ألا يزال  
لديها ما تقول؟ سأله بلهجة بالغ في رقتها:

- هل تسمحين لي بأن أزورك غداً؟...

تجاهلت سؤاله دقيقة أو نحوها، ثمّ حدثته بنظرة  
كاللعة، وقالت:

- على الرحب والسعة يا بن القديّة!

ابتسم قائماً وهو يشعر بنظراتها تلهب وجهه،  
وعادت هي تقول بعد هنيهة:

- لا تظنّي بلهاء، كنت موثقة النفس على توقّع  
هذه النهاية عاجلاً أو آجلاً، ولولا أنّك تجبّلتها  
بطريقة... (ثمّ بتسليم وازدراء مقبلاً)... ما  
علينا...

لم يصدّقها، ولكنّه تظاهر بتصديقها، ومضى يقول:  
إنّه كان واثقاً من ذلك، وإنّه يرجو أن تعفو عنه  
وتشمّله برضاها، ولكنّها لم تكن بالإصغاء إليه،  
وتزعزعت مرّة أخرى - إلى حافة الفراش، فطرحت  
ساقها على الأرض، وقلّمت فأخلت تحبّك ملائمتها،  
وهي تقول: «أستودعك الله»... فقام صامتاً وتقلّمها  
إلى الباب وفتحها، ثمّ تقدّمها مرّة أخرى إلى الخارج،  
وما يبدري إلّا وصفة تبوي على فقاء، على حين مرقت  
المرأة من جانبها إلى السلم وتركت وراءها كالأدهل وكفّه  
منطرحاً على موضع الصفة، التفت نحوه ويدعا على  
الدرازين، وقالت:

- تعيش وتعاقد غيرها، آذيتني أكثر من هذا، ألا  
يحقّ لي أن أشفي غليلي ولو بصفحة يا ابن

الكلب... ١٤

عينها، وذكر بها جليلة وزينة، شد ما يستبسل أولئك النسوة في معركة الحياة والشباب، أما أمانة فسرعان ما هابت فريسة للحزن والذلون... وقرّبت بهيجة الكرسي من المكتب، ثم قالت بصوت خافت:

- لا تؤاخذني يا سيّد على هذه الزيارة، للضرورة أحكام...

فقال أحمد - من فوره - وقد كان يبدو رزيناً جامداً:  
- أهلاً وسهلاً، إنّ زيارتك تشرف لنا وتكريم...

فقالت باسمّة، وقد ثمت نبرات صوته على الامتنان:

- تشكر، والحمد لله على أنّي وجدتكم بخير وعافية!!

فشكرها بدوره، ودعا لها بالصحة والعافية، فعادت تشكر له شكره ودعاه وتدعو له من جديد، ثم سكنت لحظات، وقالت باهتمام:

- جيتك لأمر هامّ، قيل لي: إنّهُ بلغ إليك في حينه، وإنّهُ نال موافقتك، وأعني طلب ياسين أفندي ليد ابنتي مريم، فهل صحيح ما قيل لي؟ هذا ما جئت من أجل التحقق منه...

خفّض أحمد عبد الجواد حينه أن تقرّأ فيها الحقن الذي اشتملت به جوانحه وهو يتابع كلامها، ولم يندع بظواهرها بالاهتمام بموافقتها، فلتحاول خداع غيره ثمّ يبهلون خيابه، أمّا هو فيعلم علم اليقين أنّ موافقته وعلمها عندها سواء، بل ألم تدرّك ما وراء تخلفه عن زيارتها مع ابنه...؟ ولكنّها جاءت لتحمّله على الإقرار بالموافقة، وزيماً لفرض آخر لا يلبث أن يستبينه، رفع إليها حينئذ هاتين هاتين، وقال:

- حدّثني ياسين عن رغبته فدهوت له بالتوفيق، كانت مريم ولم تزل ابنتنا...

- الله يبارك لي في عمرك يا سيّد. هذه المصاهرة مستشرقة بين الناس...

- أشكر حسن ظنّك...

فقالت بحماس:

الآنم الخالية، حقّاً كان يتفق عن سعة!! ولكن امرأة لم تستطع أن تخرجه عن حدّ الاعتدال أو تضطرّه إلى ركوب الإسراف. كان بالأس مستنعماً قوّته، ولم يكن يبالي إن تذلّلت عليه أن يتدلّل عليها ثباتها بفنّونه وفنولته. اليوم أنّ حوصه على حبيبته عنقه فهان عليه الغالي، وكأنّه لم يعد يروم من مطلب في هذه الحياة وراء استبقاء مودّتها واستئالة قلبها، وبها لها من مودة متعزّزة، وبها له من قلب عصي!! ولم يكن في واقع حاله لغبين عن فطنته، شعر به شعور الألم والحزن، وذكر به أنّام حرّته في لفّة وأسى وإن لم يقرّ بأنّها ذهبت وتولّت، ولكنّه لم يجرّك أصيصاً للمقاومة الجذبة ولم يكن ذلك في طوقه! وقال غاطباً جبل الحمزاوي لها يشبه السخرية:

- لعلّك من الظلم أن تعلّني تاجر!!... (ثمّ في تسليم)... الله هو الغني...

وجاء نفر من الناس فشغل هم الحمزاوي، وما كاد أحد يخلو إلى نفسه حتّى رأى قاصداً يزعم الباب على سمته ويّسّجه إليه متخفّراً. كانت مفاجأة وذكر لثوّ أنّه لم تقع عيناه على القادم منذ أربع سنوات أو يزيد، ثمّ نهض مرحّباً مدلولها بأدبه وحده، وهو يقول:

- أهلاً وسهلاً، بجاتنا المكرّمة...

فمدّت له أمّ مريم يدها ملفوفة في طرف ملاعها قائلة:

- أهلاً بك يا سيّد أحمد...

ودعاهما إلى الجلوس فجلست على الكرسي الذي جلست عليه يوماً يُعتبر الآن من التاريخ، ثمّ قعد وهو يتسامل... لم يكن رأها منذ جاءت لمقابلته في هذا الدكان بعد مرور عام على وفاة فهمي محاولة استدراجه إلى بيتها مرّة أخرى. عجب يومئذ لجرائعها - ولم يكن أفاق من الحزن - فقابلها بجفاء وشيّعها ببرود. ترى ما الذي جاء بها اليوم؟! وألقى عليها نظرة شاملة فوجدتها كالمعهد بها: جسامة وأناقة، يفوح من أعطافها الطيب، وتتألّق حينها فوق البرقع. غير أنّ تبرّجها لم يجدي في إخفاء ديبب الزمن، فلاحت أمارات الكبر تحت

- ويسرني أن أصارحك بأنني أجلت إعلان موافقتي  
حتى أتأكد من موافقتك أنت!

قارحة!.. لعلها أعلنت موافقتها حتى قبل أن ترى  
ياسين!

- أكرر الشكر، يا ست أم مريم...

- لذلك كان أول ما قلت لياسين أفندي، دعني  
أتأكد أولاً من موافقة والدك، فإن كل شيء يؤول إلى

سخطه!

الله... الله!.. لم تكذب تشرق البطل حتى نشطت  
لرمي الأحابيل حول صاحبه...

- ليس بمستغرب أن يصدر عنك ذلك القول  
النبيل!

لواصلت حديثها في حارس مظفر، قائلة:

- إنك يا سي السيد زنجنا، وغير من يفخر به حينا  
كله!

مكر النساء، ودلال النساء، ما أضيق بهما معاً،  
هل خطر لها ببال أنه يتمرغ في التراب مناشدة لعطف  
عزادة زهد فيها السكاري؟

قال في تواضع:

- استغفر الله...

فقالت بلهجة حزينة علا بها صوبها قليلاً، حتى  
خاف أن يبلغ الموجودين بالناحية الأخرى من الدكان،  
فحرك رأسه نحوهم محذراً:

- لشدة ما حزنتم عندما أنبأني بأنه هجر بيت

والده...

لبدارها قائلاً وقد تجهّم وجهه:

- الحق أن سلوكه أغضبني. فعجبت كيف تأق له  
أن يرتكب تلك الحيلة، كان ينبغي أن يستشيرني  
أولاً، ولكنّه حمل مشاعه إلى قصر الشوق، ثم جاء  
يعتذر إليّ! عتب صبياني يا ست أم مريم. وقد  
ويسته ولم أكرت خلافه المزعوم مع أمينة. ذلك تعلل  
سخيف حاول به أن يبرّر حماقة أسخف منه!!

- هذا ما قلته له وحياتك، ولكن الشيطان شاطر،  
وقلت له أيضاً: إن ست أمينة معلومة، ربنا يصبرها  
على ما ابتلاها به... وعلى أيّ حال فمثلك يرجي منه

الصفح يا سي السيد...

فأشار بيده إشارة قصيرة، كأنها تقول «دعينا من  
هذه»، فقالت متوتدة:

- لكنني لا أقنع إلا بالصفح والرضى...

أف، ليت يستطيع أن يصارحها بمدى اشمئزازه  
منهم جميعاً، هي وابنتها والبطل الكبير...

- ياسين ابني على كل حال، وفقه الله إلى  
الهداية...

أملت رأسها إلى الوراء قليلاً، وأبقت على وضعه  
ملئاً ونيماً تستمتع بلذة النجاح والارتياح، ثم عادت  
تقول في نبرات لطيفة:

- ربنا يحبر خاطرك يا سيد أحمد، ساءلت نفسي وأنا  
قادمة إليك؛ ترى: أيكسفي ويردني خائبة، أم يعامل  
جارته القديمة بما تعود أن يعاملها به في الأيام الخالية؟  
الحمد لله فانت دائماً عند حسن الظن بك، مد الله في  
عمرك وتمتع بالصحة والعافية!!

تظن أنها ضحككت على ذقته، يحق لها هذا، ما أنت  
إلا أب خائب مات خير أبنائه، وخائب الابن الثاني،  
وركب الثالث رأسه، كسل هذا على رضي يا  
قارحة...

- إنني عاجز عن شكر...

وهي تحفض رأسها:

- مهما قلت فبك فهو دون ما تستحق، طالما أقررت

لك به فيما مضى...

آه، ذلك الماضي! أوصدي ذلك الباب وحياة البطل  
الذي جثت تسليتين حتى ملكيته! وسط راحته على  
صدره آية على الشكر، فراحت تقول بلهجة حائلة:  
- كيف لا، ألم أعزك إعزازاً لم يحظ به إنسان قبلك  
ولا بعدك؟

هذا هو المطلوب، كيف لم يفطن إليه من أول  
لحظة؟! لم تجهي من أجل ياسين ولا من أجل مريم،  
ولكن من أجلي أنا، بل من أجل نفسك! أنت أنت لم  
يغير الزمن منك شيئاً، إلا شبابك، ولكن رويدك!!  
هل تستطيعين أن ترتقي الأمس الذي ولّى؟ مر بقولها  
دون تعلّق مكتفياً بإتسامة شكر، فابتسمت إبتسامة

قال بلعب، ولكن بلهجة تعبر بلطف عن رغبته في إنهاء الحديث:

- اطمئني يا ست أم مريم إلى أنني لا أتل نفسي حزناً، فلأنني أتل عن ألم بشق ضروب التسلية... تسامت وقد فتر حماسها قليلاً:

- أيكفي هذا للترفيه عن رجل ملك؟  
فقال بقناعة:

- لا تتطلع النفس إلى شيء ورأه...  
بدا أنه تنقص صفوها، وإن تظاهرت بالارتياح وهي تقول:

- أحمد الله على أنني وجدتك على ما أحب لك من راحة البال وصفاته...

لم يعد ثمة قول يقال، فنهضت وهي تمذ له يدها ملفوفة في طرف الملاحة، فتصالحا، ثم قالت وهي تهم باللعاب:

- فتك بعافية...

وذهبت وهي تحوّل عنه عينين لم يجد التصنع في إخفاء ما غشيتها من غيبة...  
= ١٤ =

طوت سوارس شارع الحسيّة، ثم أخذ جوادها الموزولان يجّبان فوق أسفلت العباسيّة والسائق يلهمها بسوطه الطويل. كان كيال جالساً في مقدّمة العربة على طرف المقعد الطويل فيما يلي السائق، فلمكنه أن يرى بلفنة من رأسه - في غير جهد - شارع العباسيّة تمتدّاً أمام عينيه، في اتّساع لا عهد للحى القديم به وطول لا يلوح له منتهى، أرضه مستوية ملساء، وبيوته على الجانبين ضخمّة ذوات أفنية رحبة بعضها يزدان بحدائق غنّاء.

كان يهضر للعباسيّة إعجاباً كبيراً ويكنّ لها حبّاً وإجلالاً يبلغان حدّ التقديس، أمّا الإحجاب فمرّقه إلى نظافتها وهندستها والمثلوء المريح المخّم على ريوحه، وكلّ أولئك سيّات لا يفرها حيه العتيق الزيّاط. وأمّا الحبّ والإجلال فمرجعها إلى أنّها وطن قلبه ومنزل وحي حيه ومثوى قصر معبودته.

منذ أعوام أربعة وهو يتردّد عليها بقلب مرهف

عريضة كشفت عن أسنانها من تقرب البرقع، وقالت فيها يشبه العتاب:

- يبدو أنّك لا تذكر شيئاً...

أراد أن يعتذر عن قوّه دون أن يمسّ إحساسها فقال:

- لم يبقَ في الرأس عقل أنذكر به...  
فهضت بإشفاق:

- لشدّ ما أفرقت في الحزن، الحيلة لا تحتمل هذا ولا تسيفه، وأنت - ولا تؤاخذني على ما سأقول - رجل ألّفت الحياة المليحة، فالحزن إذا أثر في الإنسان العاديّ قهراً يؤثّر فيك أربعة وعشرين قهراً...

موحظة يراد بها منفعة الواعظ، ليت أنّ ياسين كان يتعصم بمثل شعبي، لذا أنقّز منك؟ أنت دون شكّ أطوع من زئوبة وأقلّ نفقة بما لا يقاس، ولكن يبدو أنّ قلبي أصبح مولماً باللعاب. قال يدهاء ومسكناً ممّا:

- من أين للقلب المحزون أن يضحك؟

اندفعت تقول بحماس وكأنيما شامت برق أمل:

- اضحك يضحك قلبك، لا تنتظر حقّ يضحك هو، هيهات أن يضحك وحده بعد ما عانى من طول الوجوم، عد إلى حياتك القديمة تعد إليك بهجتها الغافية، ابحث عن مسرّات زمانك الأوّل وأحبابه، من أدراك أن ليس ثمة قلوب تهفو إليك وتقيم على عهدك رغم إعراضك الطويل عنها؟

طرب الفؤاد على رضعه وتاه هذا ما ينبغي أن يقال حقّاً لأحد عبد الجواد، وما كان يسكب في أذنيه على قرح الكئوس في ليالي الطرب، أين العواطف لتسمع هذا المديح علّها تخفّف من غلواتها؟! لكن يرقده من أنت عنه راضب! قال بصوت لا أثر فيه للطرب:

- ولّى ذلك الزمان...

مال نصفها الأهل إلى الوراء استكاثراً، وقالت:

- لم تزل شاباً وربّ الحسين!... (ثمّ وهي تبسم في حياء) جلّ له طلمة اليدرا لم يورّ زمانك ولن يورّي أبداً، لا تكبر نفسك قبل الأوان، أو دع الحكم على ذلك للآخرين فلعلهم يرونك بغير العين التي ترى بها نفسك...

تحمله سوارس في هذا الطريق نفسه وقلبه من الحب خالٍ لم يحس، ماذا كان يجد من مشاعر وآمال وخوف ورجاء؟ لا يذكر حياة ما قبل الحب إلا ذكرى مجرّدة، ينكرها ما عرف للحب قدوه، ويحس إليها كلنا بما به ألم، ولكنّها لشنة إحساسه بخاطره كادت تلتحق بالأساطير، لذلك بات يؤرخ بالحب حياته، فيقول: كان ذلك قبل الحب «ق. ح»، وحدث ذلك بعد الحب «ب. ح».

وقفت العربية عند الوابلية، فأعاد الخطاب إلى جيبه، وغادرها متجهاً إلى شارع السرايات وعيناه تتطلّمان إلى أول قصر على اليمين فيها يلي صحراء العبّاسية. بدا القصر بنوده من الخارج بناء ضخماً عاليًا، يتصل مقدمه بشارع السرايات وينتهي مؤخره بحديقة رحيبة ترامت رهوس أشجارها العالية من وراء سور رماديّ متوسط الارتفاع يحيط بالقصر والحديقة معاً ويرسم مستطيلاً هائلاً ممتدّاً في الصحراء التي تكتنفه من الجنوب والشرق. كان منظره مطبوعاً على صفحة نفسه، يستأمره جلاله وتفتته أي فخامته، ويرى في عظمته تحية مزججة من جدارة بصاحبه، وتلوح لعينه نواخل مغلقة وأخرى مرخاة الساتر، فيلمح في تحفظها وانطوائها ما يرمز إلى حزة عبويه وعصمته وامتناعه وغموضه، وهي معاني تؤكدها الحديقة المترامية والصحراء الفارقة في الأفق، وتعرض هنا أو هناك نخلة سامقة أو لبلاب متسلق جدراً أو جدائل ياسمين مسترسلة فوق سور فتناوش قلبه بذكريات انعدت فوق هاماتها كالشار تسأله بحدث الوجد والألم والعبادة وقد غدت ظلّاً للحبيب ونفحة من روحه وانمكاساً للمحبه، ناشرة بجملتها - وبما عرف من أنّ باريس كانت لأهل القصر منفى - جواً من الجبال والحلم توأم مع حبه في سموه وقداسته وبلده وتطلّعه إلى المجهول.

رأى وهو يقترب من مدخل القصر البواب والطاهي وسائق السيّارة جالسين فوق أريكة على كنب من الباب كعادتهم في العصاري، فلما بلغ مجلسهم وقف البواب، وقال له «حسين بك ينتظرك في الكشك»

وحواشٍ مشحونة حتى حفظها عن ظهر قلب، فحيثما مدّ بصره ارتدّ إليه بصورة مألوفة كأنها وجه صديق قديم، وجميع معلّمها ومناظرها وهدوينا وعدد من أهلها قد اقترن في ذهنه بأفكار وعواطف وأخيلة أمست - في جللتها - جوهر حياته ومعقد أحلامه، فحيثما ولى وجهه فتمّة منايا يدعو القلب للسجود.

وأخرج من جيبه خطاباً تلقاه من البريد أول أمس، وكان مرسله حسين شذاد ينثيه فيه بعودته - وصديقه حسن سليم وإسماعيل لطيف - من المصيف، ويدعوه إلى مضابلتهم جميعاً في بيته الذي تسير به سوارس إليه... نظر إلى الخطاب بعين حالة شاكّة وامقة ساجدة عابدة متعبدة، لا لأنّ مرسله شقيق معبودته فحسب، ولكن لفته أنّ الخطاب كان مودعاً في مكان ما بالبيت قبل أن يكتب حسين عليه رسالته، وآله وإحال كذلك غير مستبعد أن تكون عندها الجميلة قد وقعت عليه في ذهابها أو مجيئها أو أن تكون أناملها قد لمست لسبب أو لآخر أو حتى عفواً، بل حسب أن يظنّ أنّه كان مودعاً في نفس المكان الذي يحلّ فيه جسمها وتعمره روحها كي يستحيل الخطاب إلى رمز قلبيّ تمفو إليه روحه وشتاق إلى قلبه. ومضى يقرأ الخطاب للمرة العاشرة حتى وقف عند هذه الجملة «عدنا إلى القاهرة مساء أول أكتوبر أي أنّها شُرّفت العاصمة منذ أربعة أيّام وهو لا يدري، كيف لم يدري؟ كيف لم يفتن إلى وجودها سواء بالفريزة أو بالشعور أو بالصيرة؟ كيف جاز للوحشة التي غشيت طوال الصيف أن تمّد ظلّها الثقيل على هذه الأيّام الأربعة المباركة؟ هل رأت الكتابة المتواصلة على حسانيته بطبقة من البلاغة والجمود؟ على أيّ حال فالساعة يرفّ قلبه وتخلّو روحه في أجواء من السمر والسعادة! الساعة يشرف على الدنيا من ذروة رفيعة تبلو منها معلّمها في حالة من الشفافية والنزاهة كأنها أطياب في دنيا الملائكة! الساعة يضطرم وجدانه بنشاط الحيويّة ونشوة الجهور وسكرة الطرب! الساعة - أو حتى في هذه الساعة - يطوف به طائف الألم الذي يلزم مسرة الحبّ عنده ملازمة الصدى للمصوت. قديماً كانت

خلال علوم شتى كالجغرافيا والفلكية والكيمياء والطبيعة، فهي أيُّ من أولئك نجد تفسيراً لسمرة المصيف! هذا سؤال متلخّر عن أوانه لآثنا انتهينا من الدراسة الثانوية! إلينا إذن بأعبار القاهرة، بل عليك أنت أن نخشّنا عن رأس البزّ، وعلى حسن وإسماهيل أن يحدّثنا بمدك عن الإسكندرية، انتظروا فلكلّ وقت حليته...

لم يكن الكشك إلا مظلة خشبية مستديرة تقوم على عمود ضخم، وأرضه رملية تحلق بها أصص الورود، ويقتصر أثاثه على المائدة الخشبية والكراسي الخيزران، وقد جلسوا وراء المائدة على هيئة نصف دائرة مولّين وجوههم شطر الحديقة. بدوا سعداء باللقاء وكان الصيف يفرّق بينهم فيها عدا حسن سليم وإسماهيل لطيف اللذين يصيغان عادة في الإسكندرية، ومضوا يضاحكون لأقلّ سبب، وأحياناً لجزء بآلد النظر كأنما يجتزون ذكريات مزاج ماضية. وكان الأصدقاء الثلاثة يرتدون قمصاناً حريرية وبطولات رماضية. كمال وحده بدا في بدلة رصاصية خفيفة، إذ كان يعتبر رحلة العباسية ذات صفة رسمية على خلاف حبه الذي يجول فيه مكتفياً بلبس الجاكيت فوق الجلباب. كل شيء من حوله كان يخاطب قلبه فيهرّج من الأحياق. هذا الكشك الذي تلقى فيه رسالة الحب، وهذه الحديقة التي خصّت وحدها بسرّه، وهؤلاء الأصدقاء الذين يجيهم للصدافة ويحبهم مرّة أخرى لاقتراحهم بسيرة حبه، كل شيء يخاطب حبه وقلبه، يتساءل متى يحي؟ وهل يمكن أن تمضي الجلسة دون أن تقع عليها عيناه المشوّقتان؟ وعلى سبيل التعويض راح يطيل النظر إلى حين شدّاد ما وسعه ذلك، ولم يكن ينظر إليه بعين الصديق فحسب، لأنّ أعزّته لميوتة أضفت عليه سحرًا من السحر وسرًا من السرّ، فبات يكرّ له - إلى الحب - إكبارًا وتقديسًا ودهشًا. وكان حين يشبه شقيقته إلى حدّ كبير بعينيهِ السوداءين وقامته الطويلة الرشيقة وشعره البسط العميق السواد ولغثاته وسكنتاته الجامعة بين السمرّ واللطافة، فلم يكن ثمة فارق جوهريّ بينها إلّا في أنفه الأثني المثلّث ويشرته التي

لدخل مستقبلاً مزيجًا من عرف القلّ والقرفل والورد التي تُضدّت أصصها على جانبي السّم المفضي إلى الفراندا الكبيرة التي تطالع القادم على بعد سير من الباب، ثمّ مال بمنّة إلى عمّ جانبيّ يفصل القصر عن السور ويسير بينها حتى مشارف الحديقة فيها يلي الفراندا الخلفيّة للقصر.

ليس من المهيّن على قلبه الخفّاق أن يمضي في هذا المحراب الكبير، ولا أن يطأ أديمًا وطته قدمها من قبل، إنّه يكاد من إجلال يتوقّف، أو يحدّ يده إلى جدار البيت تبرّكًا، كما كان يحدّها إلى ضريح الحسين من قبل أن يعلم أنّه لم يكن إلّا رمزًا، ترى: في أيّ مكان من القصر يرحح بحبوه الساعة؟ وما عسى أن يفعل إذا طالته بلفتها الفاتنة؟ ليه يهدمها في الكشك كي تجزى عين عن طول التنصّر والتشوّق والتسهّد!!

ألقي على الحديقة نظرة شاملة حتى سورها الخلفي الذي ترامت وراءه الصحراء، وكانت الشمس المائلة فوق القصر صوب الشارع تجلو منها أصالي الأشجار والنخيل وسدائف الياسين المبكّنة للسور من كلّ نواحيه، وفوائر الأزهار والورود ومرتجحاتها وأهلتها تكتنفها عمزات الفسيفساء، ثمّ سار في عمّ وسط يفضي إلى كشك قائم وسط الحديقة، وقد تراءى فيه عن بعد حسين شدّاد، وضيافه: حسن سليم وإسماهيل لطيف جلوسًا على كراسي خيزران حول مائدة مستديرة خشبية انتشرت عليها أكواب حول دورق ماء. سمع هتاف ترحيب صدر عن حسين فأذنته بانتباههم إلى مقدمه، وما لبثوا أن قاموا للقاءه فماتتهم واحدًا واحدًا بعد فراق دام الصيف كلّهُ، حدّاه على السلامة، أنت أوحشتنا جدًّا، شدّ ما أسرمت وجوهكم فلا خلاص إلّا بينكما وبين إسماهيل، بل أنت بيننا كأدويّ بين ملوّنين، صيّا قليل يعود كلّ شيء إلى أصله، كنّا نتساءل لم لا تلوّنا شمس القاهرة؟ منذا يجرّو على التعرّض لشمس القاهرة إلّا من رام ضربة شمس! ولكن ما سرّ هذه السمرة المكتسبة؟... أذكر أنّنا تلقّينا تفسيرًا لهذا في بعض دروسنا، أجل لعلّه في الكيمياء، لقد درسا الشمس

ولاح في وجهه الحسن الدقيق القسيات التحفّر  
للتصال، فتسالم متحدثًا:

- من أين لي بما يجعلني أطمئن إلى رأيك؟  
وكان يعتزّ بجتهاده ودكائه ويريد الجميع أن يقرّوا  
له فيها، ولم يكن أحد يماري في ذلك، ولكن لم يكن  
أحد كذلك ينسى أنّه نجل سليم بك صبري المستشار  
بحكمة الاستئناف، وأنّ نعمته بهذه الأبوّة ميزة يفوق  
أثرها كلّ ما للذكاء والاجتهاد من أثر، بيد أنّ حسين  
شّداد تحاشى ما يبهجه، فقال:

- في تفوّقك الضمان الذي تسأل عنه...  
ولم يتركه إسحاق لطيف كي يستمتع بإطراء حسين  
له، فقال:

- وهناك والدك، وهو فيها اعتقد أهمّ من التفوّق  
بكثير...!

ولكنّ حسن قابل الهجوم باستجابة غير متوقّعة، إمّا  
لأنّه ملّ مناجزة إسحاق الذي لم يكده يفتقر عنه يومًا  
طيلة اصطيفائها بالإسكندرية، وإمّا لأنّه بات يرى في  
صاحبه مشاكسًا وعترةً، فأصلح أن يأخذ أقواله دائمًا  
مأخذ الجدّ. حل أن رابطة الأصدقاء لم تكن تخلو من  
نقار جليّ يبلغ أحيانًا حدّ الشغب دون أن يوهن من  
قوّتها. تسالم حسن سليم وهو يرمق إسحاق متهمًّا:

- وأنت كيف انتهى سعي الساعين لك؟

ضحك إسحاق ضحكة عالية، كشف عن أسنانه  
الحامّة المصفرة من أثر التدخين الذي كان من أوائل  
روّاده من تلاميذ الثانوي، وقال:

- نتيجة لا تسرّ، لم تقبلي الطب ولا الهندسة لنقص  
المجموع، فلم يبقَ أمني إلاّ التجارة والزراعة،  
فأخترت أولاهما...

لاحظ كمال في تأثر كيف تجاهل صاحبه مدرسة  
المعلمين كأنّها ليست في الحسبان، غير أنّه وجد في  
إيثاره لها، مع قدرته حل دخول الحقوق التي لا نزاع  
في مكانتها، وجد في ذلك مثاليّة تمزّي بها حل حزنه  
ووحشته. ضحك حسين شّداد ضحكته اللطيفة التي  
تجمل جمال ثغره وهينته، وقال:

- آه لو اخترت الزراعة! تصوّروا إسحاق في حقّ

غشيتها سمرة المصطاف. ولما كان كمال وحسين  
وإسحاق من الناجحين في امتحان البكالوريا ذلك  
العام - مع ملاحظة أنّ الأوّلين كانا في السابعة عشرة  
والآخرين في الحادية والعشرين - فقد تحدّثوا عن  
الامتحان وما تفرّج عنه من شئون المستقبل، وكان  
البائس بالحديث إسحاق لطيف، وكان إذا تحدّث  
تطاوّل بمنه كأنما ليداري قصر قلمته وضالّة حجمه -  
على الأقلّ بالمقياس إلى أصدقائه الثلاثة غير أنّه كان  
مدمج الخلق مفتول العضلات، وفي نظرة عينيه  
الضيقين الحامّة الساخرة وأنفه المذبذب الحادّ وحاجبيه  
الكثيفين ولحمه العريض القويّ ما يكفي لتحلير من  
تحدّثه نفسه بالتهجّم عليه. قال:

- نتيجتنا هذا العام مائة في المائة، لم يحصل شيء  
كهذا من قبل - على الأقلّ - فيما يخصّي أنا. كان  
ينبغي أن أكون في السنة النهائية من التعليم العالي  
كحسن الذي دخل معي مدرسة فؤاد الأوّل في يوم  
واحد وسنّ واحدة، وقد سألتني أبي ساخرًا لما رأى  
رقمي في الجريدة بين الناجحين «تري هل يمدّ الله في  
عمرى حقّ أراك من حلة الدبلوم؟».

قال حسين شّداد:

- لست متأخّرًا إلى الحدّ الذي يسبّر بأس  
والدك...

قال إسحاق ساخرًا:

- صدقت ففضاء عامين في كلّ فصل ليس بالشيء  
الكثير...

ثمّ روجّها الخطاب إلى حسن سليم:

- أمّا أنت فلعلّك مشغول منذ الآن بما يمسد  
الليسانس؟

كان حسن سليم بالسنة النهائية بمدرسة الحقوق،  
فأدرك أنّ إسحاق لطيف يدعو إلى إعلان رأيه فيما  
يتوّه عقب الفراغ من الدراسة، غير أنّ حسين شّداد  
سبقه إلى الرّد على إسحاق قائلًا:

- لا داعي لأن يشغل نفسه، سوف يحصل حقًا على  
وظيفة في النيابة أو في السلك السياسي!

خرج حسن سليم من هدوئه التّسم بالكبرياء،



- أجل بصفة مؤقتة أنها المشاكس، فمن غير المستبعد إذا سارت الأمور على ما أشتهي أن أنقطع دراساتي المحكّلة كي أسافر ولو بوحدة دراسة القانون في معاهدنا، وهناك أهل من منابع الثقافات بغير قيد، وهناك أفكر وأرى وأسمع...

إسحاق لطيف مصرًا على محاكاة لهجة وحركاته، وكأنا يتم ما ظن أن الآخر سكت عنه:

- وأفوق وألس وأشم...  
واصل حسين شدّاد حديثه بعد فاصل ضحك قائلاً:

- ثق بأن مقصدي غير ما تعلم به!  
صدّقه كمال بكلّ قلبه بلا حاجة إلى دليل لا لاثه يكرمه عن شبهة الكذب فحسب، ولكن لاثه يؤمن بأن الحياة التي يتطلّع إلى الاستمتاع بها في فرنسا خليفة وولدها باستهواء النفوس، مبهات أن يدرك إسحاق هذه الحقيقة على بساطتها، لا هو ولا أضرابه ممن لا يؤمنون إلا بالآرقام والمظاهر. طابا أثار حسين أحلامه، هذا حلم منها يمتاز بالرحابة والجبال، حلم عامر بشمار الروح والفكر والسمع والبصر! كم طاف بي في نومي أو في يقظتي، ثم بعد شدة التطلع وطول السعي انتهى المطاف بي وبه إلى مدرسة المعلمين!!  
وسأل حسين:

- أتعني حقًا ما قلت من أنك لا تريد أن تعمل؟!  
فقال حسين شدّاد وفي عينيه السوداوين الجميلتين

نظرة حائلة:

- لن أكون مضاربًا في البورصة كأي، لأنّي لا أطيع حياة: العمل المتواصل جوهرها والمال غايتها، ولن أكون موكّفاً، لأنّ الوظيفة عبودية في سبيل الرزق، وورثي موفور. أريد أن أسبح في الدنيا سائماً، أقرأ وأرى وأسمع وأفكر، وأنقل من جبل إلى سهل ومن سهل إلى جبل...

قال حسن سليم معترضاً، وكان يرمقه طيلة الحديث بنظرة استخفاف دارها بتحقظه الاستقرائي:

- ليست الوظيفة وسيلة إلى الرزق دائماً، إنّي مثلاً

يقضي عمره بين الفلاحين...

قال إسحاق بقناعة:

- لا عليّ من هذا لو كان الحقل في عياد الدين...  
عند ذاك نظر كمال إلى حسين شدّاد متسائلاً:

- وأنت؟

مدّ حسين بصره إلى بعيد متفكراً قبل أن يجيب، فأتاح لكمال فرصة كي يتوسّمه، شدّ ما فتته فكرة أنّه شقيقها، أي أنّ بينهما ما قام يوماً بينه وبين خديجة وعائشة من مخالطة وألفة، تصوّر يمزّ عليه أن يعتقه، لكنّه يبالهسا ويغادها ويفرد بها ويلمسها، يلمسها؟! ويؤاكلها! ترى كيف تتناول طعامها؟ هل تتمطّق؟ هل تأكل الملوخية والملّس مثلاً؟ ما أبعد هذا عن التصوّر أيضاً! المهمّ أنّه شقيقها، وآله - كمال - يلمس يده التي تلمس يدها، لو أتبع له أن يشم أنفاسه التي تمائل ولا شك أنفاسها؟! أجاب حسين شدّاد:

- مدرسة الحقوق بصفة مؤقتة...

ألا يتحمل أن يتخذ من فؤاد جميل الحمزاوي صديقاً؟ لم لا؟ لا شك أنّ الحقوق مدرسة جليّة الشأن حقًا ما دام حسين سيلتحق بها، من المجازفة أن نحاول إقناع الناس بقيمة مثال معنوي...

قال إسحاق لطيف ساخراً:

- لم أكن أعلم أنّ من الطلّاب من يلتحق بمدرسة ما بصفة مؤقتة! حدّثنا عن هذا من فضلك...

قال حسين شدّاد جاداً:

- جميع المدارس عتيدي سواء، ليس في هذه المدرسة أو تلك ما يجذبني إليها، حقًا أريد أن أتعلم، ولكنّي لا أريد أن أحمل، ولن أجد في مدرسة من مدارسنا ما أبتغيه من علم لا يراد به حمل، ولكنّي لم أظفر في بيتنا بشخص يوافقني على رأيي، ولا أرى مناصاً من أن أجربهم إلى حدّ ما، وساءلتهم أيّ مدرسة تختارون؟ فأجاب أبي: وهل يوجد غير الحقوق؟ فقلت إذن لتكن الحقوق!

إسحاق لطيف محاكياً لهجته وحركاته:

- بصفة مؤقتة...

ضحك عم، ثم استطرده حسين شدّاد قائلاً:

- ورمًا تزوجت هناك كي أنقضي العمر سائحًا في عالمي الواقع والحياة!

لم يبدُ على وجه حسن سليم أنه يولي الحديث اهتمامًا جليًا، أما إسماعيل لطيف فرفع حاجبيه الكثيفين، تاركًا عينيه تُفصحان عما يضطرب في صدره من مكر وسخرية. كمال وحده الذي بدا متأنثرًا متحمسًا، إنه يستشرف نفس الآمال مع شيء من تعديل لا يمس الجوهر، لا تمهة الساحة ولا الزواج في فرنسا، ولكن من له يله المعارف التي لا تتقيد بنظام أو امتحان؟ إنَّها أجلى بلا جدال من التراب الذي سيحس به رأسه في المعلمين كي يفوز في النهاية بلترات من التبر، باريس؟! غدت حاليًا جيلًا منذ عُلِمَ بأنَّها احتضنت عهدًا غصًا من عمر معبودته، لا تزال تدعو حسين بسمرها، وتفتن خياله هو بشقٍّ وهودها، كيف الشفاء من لوعة الآمال؟ قال بعد تردّد وإشفاق:

- يجيئ لي أن أقرب المدارس في مصر إلى تحقيق ولو جزء يسير من رغبتك هي المعلمين العليا!

تحوّل إسماعيل لطيف نحوه فيها يشبه القلق، وسأله:

- ماذا اخترت أنت؟ لا تقل مدرسة المعلمين! ربه، نسيت أن بك لوعة قريبة الشبه بلوثة حسين! ابتسم كمال ابتسامة عريضة كشفت عن مرونة منخره العظيمين، وقال:

- التحقت بالمعلمين للسبب الذي ذكرت!... فظهر حسين شذوذًا إليه باهتمام، ثم قال بأسًا:

- لا شك أن ميولك الثقافية أمتعتك كثيرًا قبل أن يقع اختيارك...

فقال له إسماعيل لطيف بلهجة تمت عن الاتهام:

- إنك مسئول للدرجة كبيرة عن توكيد ميوله هذه، بل الحق أنك تتكلم كثيرًا وتقرأ قليلًا، أما المسكين فيأخذ الأمر مأخذ الجد ويقرأ لحظ العمى، انظر إلى تأثيرك السيئ فيه كيف دفع به إلى المعلمين نهاية الأمر!...

استطرد حسين حديثه متجاهلاً مقاطعة إسماعيل:

- هل ثبت لديك أن في المعلمين ما تؤذ؟

في غنى عن السعي إلى الرزق، ولكن يجتني بلا شك أن أشغل وظيفة سامية، فإنه يجب على الإنسان أن يعمل، وإن العمل السامي هدف يُراد لذاته.

وقال إسماعيل لطيف، مصدقًا على قول حسن:

- هذا حق، الأعمال القضائية والدبلوماسية وظائف يتمناها أغنى الأغنياء (ثم ملتفتًا إلى حسين شذوذًا) لم لا تختار لنفسك وظيفة من هذه الوظائف وهي في حدود طاعتك...؟

وقال كمال غاطبًا حسين أيضًا:

- السلك السياسي حقيق بأن يحق لك العمل السامي والسياسي معًا!

ولكن حسن سليم قال بلهجة ذات معنى:

- إنه باب ضيق!

فقال حسين شذوذًا:

- للسلك السياسي مزايا رائعة بلا ريب، إلا أنه في الغالب وظيفة شرفية فلا يتعارض كثيرًا مع رغبتني عن عريضة العمل، وهو ساحة وفراع يتحان لي ما أحب من الحياة الروحية والجهالية، ولكنني لا أظنني بالغه، لا لأنه باب ضيق كما قال حسن، ولكن لأنني أشك في أني سأواصل التعليم النظامي حتى نهايته...

إسماعيل لطيف، وهو يضحك متخافتًا:

- يغلب على ظني أنك تريد فرنسا لأموال لا شأن لها بالثقافة، وحسنًا تفعل...

ضحك حسين شذوذًا وهو يبرّ رأسه سلًا، ثم قال:

- كلاً، أنت تفكر بأموالك، إن لرغبتني عن التعليم المدرسي أسبابًا أخرى، أولاً: أنني غير مكترث لدراسة القانون، ثانيًا: أنه لا توجد مدرسة يمكن أن تحلني بما أريد الإلمام به من شقّ المعارف والفنون، كالمرح والتصوير والموسيقى والفلسفة. ما من مدرسة إلا وستشعر رأسك بالتراب كي تعثر فيه - إن عثرت - على ذرات من التبر، في باريس يتاح لك أن تشهد محاضرات في شقّ الفنون والمعارف دون تقيد بنظام أو امتحان، إلى ما يتجهّأ لك من الحياة السامية الجميلة...

ثم مستطردًا بصوت خافت، وكأنه يخاطب نفسه:

تخرجوا في المدوسة...

انقطع حديث المدوسة عند ذاك، فساد الصمت،

وحاول كمال أن يلقي بروحه في أحضان الحديقة، غير أنَّ الحديث ترك في رأسه حرارة كان عليه أن يتنظر حتى تبرد، وسنحت منه نظرة، فرأى دورق الماء المثلوج على المائدة، فخطرت له خاطرة قديمة ظلما منته بالسعادة في مثل ظرفه هذا، أن يملأ كوباً ويشربه لعله يلمس بشفتيه موضعاً منه يكون قد اتفق أن لمسه شفتاها وهي تشرب مرة، فقام إلى المائدة، وملاً من الدورق كوباً وشربه، ثم عاد إلى مجلسه مركزاً انتباهه في نفسه وهو يتربص، كأنما كان يتنظر - فيما لو حالفه الحظ فاصاب الهدف - أن يتغير شأنه، أن تنبثق من روحه قوة سحرية لا عهد له بها، أن ينتشي بنشوة إلهية يرقى بها في معارج السحابات السعيدة، ولكنه، أجل! ولكنه قنع في النهاية بلذة المغامرة وبجعة الأمل، ثم راح يتسامل في قلق: متى نجيء؟... هل يمكن أن تلحق هذه الفترة الواحدة بأشهر الفراق الثلاثة الماضية؟... وعادت عنده إلى الدورق، فطافت به ذكري حديث قديم دار بينه وبين إسمايل لطيف عن هذا الدورق أو بالحرى عن الماء المثلوج الذي لا يقدم شيء خلافه في سراي شذاد! وكان إسمايل قد أشار - وهو بصدد الحديث عن ذلك - إلى النظام الاقتصادي الدقيق الذي تخضع له السراي من السطح إلى البدر، وتساءل: أليس ذلك نوعاً من البخل؟، غير أن كمال أبى أن توصم أسرة محبوبته بما يشين، فدفع عنها التهمة مستشهداً ببذلها وشدهما وحشهما والسيارتين اللتين تملكهما: الميرفا، والقيات التي يكاد يختص بها حسين، فكيف تقيم بعد ذلك بالبخل؟! هنالك قال إسمايل - ولم يكن يعوزه طول اللسان - إن البخل أنواع، وأنه لئلا كان شذاد بك مليونيراً بكل معنى الكلمة، فإنه رأى لزماً عليه أن يحيط نفسه بمظاهر الجاه، ولكنه اكتفى بما يمد في بيته من الضروريات، أما الفاضلة المتبعة التي لا يجيد عنها فرد من الأسرة، فهي ألا يتسامح في إنفاق مليم واحد في غير موضعه وبلا موجب... الخدم

قال كمال بحماس، وقد انشرح صدره بأول صوت يتساءل عن مدرسته بلا احتقار أو استنكار:

- حسبي أن اتاح لي دراسة الإنجليزية لأخذ منها وسيلة ناجعة للاكتلاخ غير المحدود، وإلى هذا فهناك فرصة طيبة - فيما أظن - لدراسة التاريخ والتربية وعلم النفس...

فكر حسين شذاد قليلاً، ثم قال:

- عرفت كثيراً من المعلمين الذين خالطتهم عن كتب في دروسي الخصوصية، لم يكونوا مثلاً طيباً للرجل المتقف، ولكن لعل النظام الدراسي العتيق هو المسئول عن ذلك...

فقال كمال بحماس لم يثر:

- حسبي الوسيلة، التضافة الحققة تتوقف على الإنسان لا المدرسة!

وتسامل حسن سليم:

- أتتوي أن تصير معلماً؟

ومع أن حسن طرح سؤاله بأدب، فإن كمال لم يطمئن إليه كل الاطمئنان، إذ أن التزامه الأدب كان طبعاً مأثوراً عنه فلا يزلله إلا عند الضرورة القصوى أو حيث يشرع غيره في العراك، وذلك نتيجة طبيعية لرزاقته من ناحية، ولتربيته الأستقرائية النيلة من ناحية أخرى، فلم يكن من اليسر على كمال أن يعرف إن كان سؤال صاحبه يخلو حقاً من الاستنكار أو الازدراء، لذلك حرك منكيه استهانة، وقال:

- لا مقر من ذلك ما حدث مصمماً على تعلم ما أروم من العلم!

وكان إسمايل لطيف يتفحص كمال من طرف خفي... رأسه وأنفه، وعنقه الطويل وقامته النحيلة، وكأنما كان يتخيل أثر هذه الصورة في التلاميذ عامة وفي أشتياهم خاصة، فما ملك أن غمض:

- تلك لعمرى كارثة!

أما حسين شذاد، فعاد يقول في لطف وشي يميله إلى كمال:

- الوظيفة شيء ثانوي عند ذوي الأهداف البعيدة، على أنه لا ينبغي أن تنسى أن نخبة من ناجي مصر قد

لم يبدُ على حسن سليم أنه اكتريث لحديث العظمة، ولم يكن كمال يتوقَّع غير ذلك، فظلَّ صاوله حتَّى وقف على رأيه العنيد المتصجرف - ولملَّه رأي أبيه المستشار أيضًا - في سعد زغلول الذي يكاد هو من حبِّ وإخلاص أن يقدمه. لم يكن سعد زغلول إلا مهرجًا شعبيًّا في نظر حسن سليم، وكان يردُّ هذا الوصف في تفَرُّز وازدهار مثيرين خارقًا المعتاد من أدبه ودمائه، ثمَّ يضي في السخرية من سياسته ومآثراته البلاغية، منوِّها في الوقت نفسه بعظمة عدلي وثروت ومحمد محمود وغيرهم من الأحرار الدستوريين الذين لم يكونوا في نظر كمال إلا «خونة» أو إنجليز مطرشين! أجاب حسن سليم بهلوه:

- كنتا نتحدَّث عن المفاوضات التي لم تستمرَّ إلا ثلاثة أيَّام، ثمَّ قُطعت!

فقال كمال بحماس:

- يا له من موقف وطني جدير بسعد حلفًا، طالب بحقوقنا الوطنية متفَرِّغًا عن المساومة، ثمَّ قطع المفاوضات حين وجب قطعها، وقال قوله الخالدة: «لقد دهونا إلى هنا لكي نتحرر، ولكننا رفضنا الانتحار، وهذا كلُّ ما جرى».

قال إسحاق لطيف، وكان يجيد في السياسة مائة للعبث:

- لو قُبل أن يتحرر لتُرج حياته بأجل خدمة يمكن أن يؤدِّيها إلى بلاده!

انتظر حسن سليم حتَّى فرغ إسحاق لطيف وحسين من الضحك، ثمَّ قال:

- ماذا أفدنا من هله المأثورة؟ ليست الوطنية عند سعد إلا نوعًا من البلاغة التي تستهوي العامة، ولقد دهونا إلى هنا لكي نتحرر ألخ ألخ»، ويعجبني الصديق في القول ألخ ألخ!... كلام في كلام، هنالك رجال لا يتكلمون ولكنهم يعملون في صمت، وقد حقَّقوا للوطن الفائلة الوحيدة التي جناها في تاريخه الحديث...

احتدم الغيظ في قلب كمال؛ ولولا ما يكتنه لحسن من احترام لشخصيته وسنَّه لانفجر، وعجب كيف

يتناولون أدنى الأجور ويأكلون أقلَّ الطعام، وإن كسر أحدهم طبقًا خصم ثمنه من مرتبته. حسين شدَّد نفسه في الأسرة الوحيد لا يعطى مصروفًا أسوة بأمثاله من الأبناء أن يتمرَّد بمثرة التقود بلا ضرورة، أجل ربحًا ابتاع له أبوه كلَّ عيد عددًا من الأسهم أو السندات، ولكنه لا يعطيه قرشًا في يده... أمَّا زرار النجل العزيز، فلا يقدم لهم إلا الماء المثلوج!... ليس هذا بخلاف، وإن يكن بخلاف أرسطراطيًّا؟ ذكر كمال ذلك الحديث وهو ينظر إلى الدورق، وتساءل كما تساءل قديمًا في ارتياح: أمن الممكن أن ترتقي إلى أسرة معبودته هنة بن الهنات؟ أم قلبه أن يصلِّق هذا إياه من ينزّه الكيال عن المآخذ وإن هانت يده أنه حُويل إليه أن ثمة شعورًا بما يشبه الارتياح يعابه هامسًا في أفنه ولا تنزع... ليس هذا النقص إن صحَّ ممَّا ينزها ولو درجة إليك، أو يرفعك ولو درجة إليها؟، ومع أنه وقف من أقوال إسحاق موقف التحفظ والارتياح، فإنَّه وجد نفسه بعيد النظر وهو لا يدري في ورذلة البخل، فيبشِّرها إلى نوع فنه وآخر ليس إلا سياسة حكيمة تمُد الحياة الاقتصادية بأسس بارعة من النظام والدقَّة، فمن الإسراف كلُّ الإسراف تسميته بخلاف أو اعتباره ورذلة، كيف لا، وهو لا يتعارض مع تشديد القصور واقتناء السيارات واتخاذ كافة مظاهر البُلخ والبلهنة؟ كيف لا، وهو يصدر عن نفوس سامية مطهَّرة من الحباث والضمَّة؟

استيقظ من أفكاره على يد إسحاق لطيف وهي تجبُّس على ذراعه وتترَّه، ثمَّ سمعه وهو يقول غاطبًا حسن سليم:

- حذار، ها هو مندوب الوفد يردُّ عليك! أدرك من فوره أنهم طرَّقوا حديث السياسة وهو عنهم مأوَّء حديث السياسة... ما أشقَّ وما أَلَدَّ، دهاه إسحاق مندوب الوفد فلعله يتهمهم، فليتهم ما شاء له أن يتهمهم، الوفد عقيدة تلقَّاه عن فنهني واقتربت في قلبه باستشهاده وتضحيت. نظر إلى حسن

سليم، وقال بأسًا:

- أيُّها الصديق الذي لا تبهره إلا العظمة، ماذا قلت عن سعد؟

يتابع «شاب» مثله أباه - وهو من جيل قديم حل أيّ حال - في انحرافه السياسي!

- أنت تقلل من شأن الكلام كأنه لا شيء، الحق أن أخطر ما تمخض عنه تاريخ البشرية من جلال الأمور يمكن إرجاعه في النهاية إلى كلمات، الكلمة العظيمة تنضج الأمل والقوة والحقيقة، نحن نسير في الحياة على ضوء كلمات، هل أن سعد ليس صانع كلمات فحسب، إن سجله حافل بالأعمال والمواقف! تخلل حسين شذاد شعره الفاحم بأنامله الطويلة الرقيقة وهو يقول:

- أوافق على ما قلت من قيمة الكلمة بصرف النظر عن سعد...!

لم يعبأ حسن مقاطعة حسين شذاد، فقال مخاطباً كمال: إن الأمم تمها وتتقدم بالمقول والحكمة السياسية والسواعد، لا بالخطب والتهريج الشعبي الرخيص...

نظر إسحاق لطيف إلى حسين شذاد، وهو يتسامل ساخراً:

- ألا ترى أن من يُعجب نفسه في الكلام عن إصلاح هذا البلد كالناخع في قرية مقبوبة؟ التفت كمال إلى إسحاق ليخاطب من وراء حسن بما تركه عن مخاطبته وجهها لوجه، قال متفكساً عن غيظه:

- أنت لا تهتم السياسة في شيء، لكن مزاحك يفصح أحياناً عن موقف وقلة من المحسوسين على المصريين كأنك ناطق بلسانهم، تراهم يائسين من نبؤس الوطن، يأس الاحتقار والتعالي لا يأس الطموح والتطرف، ولولا أن السياسة مطية لأطباعهم لاعتزلوها كما تفعل أنت!

ضحك حسين شذاد ضحكته اللطيفة، ومد يده إلى خراخ كمال، فشد عليها قائلاً:

- أنت مجادل عنيد، يعجبني حماسك وإن لم أشاركك الإيمان به، هل أتني كما تعلم عايد، لا من الولدتين ولا من الدستوريين، لا استهانة كإسحاق لطيف، ولكن لا اعتقادي بأن السياسة تفسد الفكر

والقلب، ينبغي أن تملو عليها حتى تترامى لك الحياة ميداناً لانهائياً للحكمة والجمال والتسامح، لا معترك صراع وكيد...

ارتاح إلى صوت حسين فسكنت فورته، كان يطرب لموافقته إذا وافقه على رأي، ويتسع صدره لمعارضته إذا عارضه فيه، ومع أنه كان يشعر بأن تبريره للحياة ما هو إلا اعتذار عن ضعف وطنيته، فإنه لم يحتج عليه لذلك ولم ير فيه نقصة ولكن ربيغها عفوه وحلمه وتسامحه، قال يجاريه:

- الحياة هي هذا كله، هي الصراع والكيد والحكمة والجمال، تأتي وجه تتجاهله من وجوها تفقد به فرصة لاستكمال فهمك لها وقد تركت على التأثير فيها بما يوجهها نحو الأحسن، لا تحتقر السياسة أبداً، فالسياسة هي نصف الحياة، أو هي الحياة كلها إذا عدلت الحكمة والجمال بما فوق الحياة...

حسين شذاد كالمعتدل:

- فيها يتعلمن السياسة، أصارحك بأنني لا أثق في جميع أولئك الرجال...

سأله كمال كالتودد:

- ماذا نزع ثقتك من سعد؟

- بل دعني أسألك عما يجعلني أضع لفتي فيه... سعد وعلمي وعلمي وسعد، ما أسخف هذا كله، هل أنه إذا كان سعد وعلمي سيئين عندي في الناحية السياسية فأنتي لا أراهما كذلك كرجلين، إذ لا يمكن أن أجاهل ما يمتاز به علمي من كرم الأصل وعظيم الجاه والثقافة، أما سعد - ولأنك أن تغضب - فما هو إلا أزهرى قديم!...

آه، شذ ما يجرّ في نفسه أن يند عن حسين أحياناً ما يشي بتعاليه عن الشعب فيشعر وهو من الحزن في نهاية كأنه يتعالى عنه هو لو - وهو الأدهى والأسوأ - كأنه ينطق بلسان الأسرة جميعاً، أجل، إنه إذا حادثه أشعره كأنما يتكلم عن شعب غريب «عنها» ماء، ولكن أكان ذلك عن خطأ في التصوير أم عن جمالة؟ ومن عجب أن موقف حسين لهذا لم يغضبه من ناحية دلالة العلامة بقدر ما أحزنه من ناحية دلالة الحفاضة به، فلم يستر

- لم أسمع من هذا الذكر إلا منكم، والحق الذي لا ريب فيه، أنه لم يعد بين أبي وبين الخديو إلا الصداقة والوفاء، وفضلًا عن ذلك فليس ثمة حزب - كما تملكون - يهدو اليوم إلى عودة الخديو...

قال حسن سليم:

- أسمى الرجل وعهده في فمة التاريخ، الحاضر يمكن تلخيصه في كلمتين، وهما، أن سعد يأبى أن يقوم في مصر من يتكلم باسمها غيره ولو كان غير الرجال وأحكمهم!

لم يكذب تلقى الضربة كيال حتى جاوبه قائلاً:

- الحاضر في كلمة واحدة، أن ليس في مصر من يتكلم باسمها إلا سعد، وأن التضاف الآتية حوله جدير في النهاية بأن يبلغ بها ما نرجو من الآمال...

وشبك ذراعيه على صدره، ومدّ ساعديه حتى مسّ طرف حدائه رجل المائدة، وهمّ بالاسترسال في حديثه لولا أن جاءهم من وراء صوت غير بعيد يتساءل «ألا تريدن يا بدور أن تحمي أصدقائك القدماء؟» فانعقد لسانه، ووثب قلبه وثبة عنيفة رجبت صدره رجاً أفرزه أول الأمر وآله، وفي أسرع من لمعان البرق استغرقتة سكرة طافية من السعادة كاد يغمض لها عينيه من شدة التأثر، ثم وجد أن كل خاطرة تنبض بها نفسه قد أجهت صوب الساء، قام مع الأصدقاء كما قاموا، واستدار معهم إلى الوداء، فرأى على بعد خطوة من الكشك حائدة واقفة ممسكة بيد بدور شقيقتها الصغرى ذات الأعرام الثلاثة، وهما يتطلّمان إليهم بأعين هادئة باسمه... ها هي ذي بعد انتظار ثلاثة أشهر أو يزيد، ها هو «الأصل» الذي تملاً «صورته» روحه وجوارحه ويقطه، ونومه، ها هي قائمة أمام عينيه شاهدة على أن الألم الذي لا حد له والسرور الذي لا وصف له واليقظة المحرقة للنفس والحلم المندوم في الساء، إن كل أولئك ريمًا رجعت في آخر الأمر إلى آدمي لطيف ترك قدماء انطباعاتها على أرض الحديقة! ورنا إليها فجذب مفتابيسها شعوره كله حتى سلبه الإحساس بالزمان والمكان والأناسي والنفس، فعاد وكأنه روح مجردة تسبح في فراغ نحو ميودها... على

عداوته الطبقية ولا إحساسه الوطني... انهمزت هذه المشاعر حيال باشاعة وضيفة تتم عن الصراحة وحسن الطوية، وتراجعت أمام حبّ لا تنال منه الآراء والأحداث، على الضدّ من هذا كان شعوره حيال موقف حسين شذاد منه، فكان - رغم صداقتها - يبيح غضبه لوطه، ولم يشفع له عنده تأذبه في الخطاب وتحفظه في إظهار مشاعره، بل لعله آنس فيها «حكمة» تضاعف من مسئولية وتؤجّد تعصّبه الأرستقراطي الموجه ضدّ الشعب، قال مخاطباً حسين:

- ألي حاجة أنا أن أذكرك بأن العظمة شيء غير السياسة تضطرنّا أحياناً إلى مناقشة البديعيات...

قال إسحاق لطيف:

- إن ما يعجبني في الوفديين - أمثال كمال - هو شدة تعصّبهم!

ثم وهو يجيل بصره في الجالسين:

- أمّا ما يسود منهم، فهو شدة تعصّبهم أيضاً! قال حسين شذاد ضاحكاً:

- أنت سعيد الحق، لأنك مهما أبدت في السياسة من رأي، فلن يمرض سيملك معقب...!

هنا سأل حسن سليم حسين شذاد قائلاً:

- تزعم أنك تريباً بنفسك عن السياسة، فهل تصرّ على ذلك حتى إذا تعلّق الأمر بالخديو السابق؟

الجهت الأعين نحو حسين في تحدّ باسم لما هو معروف عن تشييع والده شذاد بك للخديو السابق، الأمر الذي أبعد من أجله أعراماً قضاه في باريس، ولكنّ حسين قال في غير ميالة:

- لا تعني هذه الأمور في كثير أو قليل، كان والذي ولا يزال من رجال الخديو، ولكنّي لست مطالباً باعتناق آرائه...

سأله إسحاق لطيف، وفي عينيه الضيقتين يريق ضاحك:

- أكان والدك من الذين يهتزون «الله حيّ»... عباس جي؟

فقال حسين شذاد ضاحكاً:

سعيداً فخوراً، ليست التي بين يديه إلا غللة من جسد الأسرة، فهو يضم الكلّ إذ يضم الجزء إلى صدره، هل أمكن اتصال العبد بمعبوده إلا عن وساطة كهذه الوساطة؟... والسحر ككلّ السحر في هذا الشبه الغريب بين الطفلة وشقيقتها، كأن المطمئنة إلى صدره عابدة نفسها في طور من أطوار حياتها الماضية، كانت يوماً مثل بدور سناً وحبّاً وجوداً فتأثّل... فليهنأه هذا الحبّ الطاهر... ليمد بعناق جسم تعانقه هي... وتقبل وجنة تقبلها هي... وليلحم حتى يبرد منه العقل والقلب. لأنه يدري لم يحبّ بدور ولم يحبّ حسين ولم يحبّ القصر وحديقته وخدمه، لأنه يحبّها جميعاً إكراماً لعابدة، أمّا الذي لا يدري فهو حبّ عابدة نفسها... ركدت عابدة عنينا بين حسن

سلم وإسماعيل لطيف، ثمّ سالتها:

- كيف وجدتما الإسكندرية؟

فقال حسن:

- رائعة!...

حل حين تسام لإسماعيل:

- ماذا يجلبكم إلى رأس البر دوماً؟

فقال بصوت رخيم مشرّبة نبراته بعلوسة موسيقية:

- صيقتنا مرّات في الإسكندرية، ولكنّ الاصطاف

لا يطيب لنا إلا في رأس البر، هنالك الهدوء والبساطة

والقّة لا تجدّها إلا في بيتك!

فقال إسماعيل غامحاً:

- من سوء الحظّ أنّ الهدوء لا يطيب لنا...

ما أسعده هذا المنظر... هذا الحديث... هذا

الصوت، تأثّل أليست هذه هي السعادة؟! فرائشة

كنسمة الفجر تقطر ألواناً بهيجة وترشف رحيق

الأزاهر... هذا أنا، لو يدوم هذا الموقف إلى

الأبد!...

قالت عابدة:

- كانت رحلة متمّة، ألم يجلبكم حسين عنها؟

قال حسين بلهجة انتقادية:

- بل كانوا يتناقشون في السياسة!

أن إدراكه لها هي نفسها لم يكن حبّاً بقدر ما كان روحياً، تمثّل في نشوة ساحرة وضغط شادية وسبعة عالية، بينا وهنت منه الرؤية أو تلاشت، كأن قوّة انفعاله الروحي استأثرت بكلّ حيويّته فغودت حواسه وقواه العاقلة والمدرّكة والملاحظة في سبات أشرف به على نوع من الفناء، لذلك كانت دائماً أطروح لذاكرته منها إلى حواسّه، لا يكاد يرى منها وهو في محضرها شيئاً، ولكنّها تتراءى فيها بعد في ذاكرته بقامتها الهفاه ووجهها البدريّ الخمريّ وشعر عقيق السواد مقصّوص وآلا جرسون، ذي قصّة مسترسلة حلّ الجبين كاسنان المشط وحين ساجيتين تلوح فيها نظرة لها هدوء الفجر ولطفه وعظمته، كان يرى هذه الصورة لذاكرته لا بحواسّه كالنغمة الساحرة نفث في مياحها فلا نذكر منها شيئاً حتّى تفاجئنا مفاجأة سعيدة في اللحظات الأولى من الاستيقاظ أو في ساعة انسجام، فتزدّد في أحياق الشعور في حلّ متكامل. وتساملت أسلامه وأمانته: ترى هل تغبّر من طريقتها المألوفة فتدّ يدها للمصافحة فيلسفها ولومرة في الحياة؟ لكنّها حينهم باتسامه ونغمة من رأسها، وهي تتبادل بذلك الصوت الذي يزري بأحبّ الألمان إليه:

- كيف حالكم جميعاً؟

فاستبقت الأصوات إليها بالتحية والشكر والتهنئة

على سلامة العودة، عند ذلك حبشت أناملها الرشيقة

برأس بدور وهي تقول لها:

- صالحي أصدقائك!

فلتت بدور شفقتها داخل فيها وعصّت عليها وهي

تردّد عنينا بينهم في حياء حتّى استقرّنا على كمال،

فابتسمت وابتسم! قال حسين شدّاد، وكان حلّ علم

بما بين الطفلة وكحال من مودة:

- إنّا يتسم لمن تحبه!

- إنّني هذا حقّاً؟ (ثمّ وهي تدفعها نحوه) إذن

سلمي عليه...

مدّ لها كمال يديه متورّد الوجه من السرور، فاقبلت

نحوه، فربّما بين يديه حتّى أنّها في حضته، وراح

يقبّل خدّها في حنان وتأثّر شديدين، كان بهذا الحبّ

فالتفتت ناحية كمال قائلة:

- هنا شخص لا يحلوه إلا حديثها. . .

أفلاذًا. . .

- هُزم المختلط بالرغم من أنّ فريقه يضمّ أبطالاً

انبرى كمال للدفاع عن المختلط - كما دافع عن سعد

- صاذاً عنه هجيات حسن سليم. كان أربعتهم من

لاعي الكرة على تفاوت في الخلق والحساس، فكان

إسمايل أمهرهم إلى حدّ أنّه برز بينهم كالمحترف بين

الهواة، حل حين كان حسين شذاد أضعفهم، أمّا كمال

وحسن فكانا بين ذلك، وقد اشتدّت المناظرة بين كمال

وحسن، ذلك يرجع هزيمة المختلط إلى سوء الحظّ وهذا

يردّها إلى تفوّق لاعبي الأهلي الجدد. . . واستمرّ

الجدل دون أن ينزل أحدهما عن رأيه. تسامد كمال: لم

يجد نفسه دائماً في الجانب المضادّ للجانب الذي يفف

فيه حسن سليم؟ الولد الأحرار، المختلط الأهلي،

حجازي مختار، وفي السنيما يفصّل شارلي شابان

يفصّل الآخر ماكس لنندرا

غادر المجلس قبل الغيب، وفيما هو يسير في الممرّ

الجانبّي المضي إلى الباب الخارجيّ إذ سمع صوتاً

يصف:

- ها هو ذا. . .

رفع رأسه مسحوراً فرأى عابدة في إحدى نوافذ

الدور الأوّل، تجلّست بدور حل حافة النافذة بين يديها

وهي تشير لها إليه، وقف تحت النافذة مباشرة مرفوع

الرأس، يتطلّع بوجه باسم إلى الطفلة التي لوّحت له

بيدها الصغيرة، ويلمح بين لحظة وأخرى إلى الوجه

الذي استقرّت في هيئته ورموزه آماله في الحياة وما بعد

الحياة، وقلبه يتلاطم بين الضلوع سكرًا، لوّحت له

بدور بيدها مرّة أخرى، فسألته عابدة:

- تلمهين إليه؟

حنّت الصغيرة رأسها بالإيجاب، فضحكت عابدة

من هذه الرغبة التي لن تتحقّق، حل حين مضى هو

يتوسّسها متشجّعًا بضحكاتها - غارقًا بروحه في حور

عينها وملتحق حجابها مسترجعاً صدى ضحكاتها

المترعة ونبرات صوتها الدافئ حتّى اضطربت أنفاسه من

وجد وهيام، وليّا كان الموقف يحلّ عليه أن يتكلم،

فقد سأل معبودته وهو يشير إلى معبودته الصغيرة:

من عينها نظرة تلقى إليك كالرحمة، صفاؤها يحلو

روشا ملائكيًا، بعثت كما يبعث عبّاد الشمس في

ضوئها المشرق، لو يدوم هذا الموقف إلى الأبد. . .

- لم أكن المسئول عن إثارة المناقشة اليوم. . .

فقالت باسمه:

- لكنك اختتمت الفرصة. . .

ابتسم في تسليم، وعند ذلك حرّكت عينها إلى بدور

هاتفة:

- أتسوين أن تسلمي بين فراعيمه. . . كضالك

سلماً. . .

غلب الحياء بدور، فدفنت رأسها في صدره،

فجعل يريّت حل ظهرها في حنان، غير أنّ عابدة

توحّدها قائلة:

- إذن سأترك وأرجع وحدي. . .

فرفعت بدور رأسها ومدّت لها يدها وهي تغمغم

ولاء، فقبلها كمال وأنزلها إلى الأرض، فجبرت إلى

عابدة وقبضت حل يدها، ألقت عابدة عليهم نظرة

شاملة ثمّ لوّحت بيدها تحيّة وذهبت من حيث أتت.

عادوا إلى مقاصدهم فواصلوا الحديث كيفما اتفق.

فكذا كانت تقع زيارات عابدة في كشك الحديقة،

مفاجأة سعيدة قصيرة ولكنّه بدا قانعًا، وشعر بأنّ

تصبّره طيلة أشهر الصيف لم يذهب هدرا، لم لا يتحر

الناس ضنًا بالمعاضة كما يتحرون فرارًا من الشقاء؟

ليس من الضروري أن تسبح كما يوقّ حسين أن يسبح

كي تلقى منع الحواسّ والعقل والروح، فمن الجائز أن

تتموز بكلّ أولئك في لحظة غشافة دون أن تبرح

مكانك! من أين لبشر أن يؤثّر القدرة حل إحداث هذا

كله؟ أين فورة السياسة وحرارة الجدل واحتدام

الخصام وتصادم الطبقات؟. . . ذابت كلّها وتوارت

تحت نظرة من عينك يا معبودتي، ما الفاصل بين

الحلم والحقيقة وفي أيّما تراني أهمّ الساعة؟

- موسم الكرة سيبدأ عمّا قريب. . .

- كان الموسم الماضي موسم الأهلي دون شريك!



الفكر بأمر في بال.

أنس من صوتها ما يشبه العتاب، فقال:

- العقل يحذ دائمًا ما يشغله!

فرفعت إليه عينيها الصغيرتين المملتين كالنائلة،

ثم قالت في شيء من الحياء:

- مفي زمن كنتا لا نجد وقتًا يتسع لحديثنا!

حقًا؟ ذلك ماضٍ مفي، عهد الدروس الدينية

وقصص الأنبياء والشياطين، عهد تعلقه بها لحذ

الجنون، انقضى ذلك العهد، فهم يتحدثان اليوم؟ إلا

تكن دودشة لا مفي لها فلا وجه للكلام حل

الإطلاق، ابتسم كأنها يمتلئ بابتسامته عن صمته

السابق واللاحق معًا، ثم قال:

- نحن نتكلم كليًا وجدنا للكلام موضوعًا.

فقال برقة:

- ليس للكلام حدود لمن أراد أن يتكلم، ولكنك

تبدو غائبًا دائمًا أو كالفائب...

ثم بعد تفكير:

- أنت تقرأ كثيرًا، في عطلك تقرأ كما تقرأ في وقت

دراسك، لم تستوف يومًا حلك من الراحة، أخاف

أن تكون أنيمت نفسك أكثر مما ينبغي...

فقال كمال بلهجة دلت على أنه لم يرحب بهذا

التحقيق:

- اليوم طويل جدًا، وقراءة ساحات لا يمكن أن

تُعب إنسانًا، ليست إلا نوعًا من التسلية وإن تكن

تسلية مفيدة...

فقال بعد تردد:

- أخاف أن تكون القراءة سبب ما يبدو عليك كثيرًا

من الصمت والشرود...

كلًا ليست القراءة، القراءة ملاذ من التعب لو

تعلمين، شيء آخر يشغل عقله طيلة الوقت ولا يسلم

منه وقت القراءة نفسه، شيء لا علاج له عندها ولا

عند غيرها من البشر، إنه مرض قلب يتبدد حائرًا ولا

يلدري ماذا وراءه عنائه يروم! قال بمكر:

- القراءة كالقهوة لا ضرر منها! ألا تحبين أن أصير

«عاليًا» كجدي؟

- هل دُكرتني في المصيف؟

قالت عابدة وهي تتراجع برأسها قليلًا:

- سلها هي، لا شأن لي بما بينك وبينها!

ثم مستدركة قبل أن ينس هو بكلمة:

- هل دُكرتها أنت؟

آه، موقفك فوق السطح بين مريم وفهمي، قال

بحرارة:

- لم تغب عن ذاكرتي يومًا واحدًا...

نادى عند ذلك صوت من داخل القصر فاعتذلت

عابدة في وقتها ورفعت بدور بين يديها، ثم قالت

معلقة على كلامه وهي تهم باللعاب:

- يا له من حبٍ عجب!

وغابت عن النائلة...

## - ١٥ -

لم يبق من رواد مجلس القهوة إلا أمينة وكمال،

وحق كمال كان يبرحه عند الوصول إلى الخارج فقلبت

الأم بمفردها أو تدعو أم حنفي إلى مؤاسنها حتى يحين

وقت النوم. وكان ياسين قد غلف ورائه فراخًا، ومع

أن أمينة حرصت دائمًا على ألا تعود إلى ذكره فإن كمال

شعر لغيبه بوحشة غاضبت أبعج ما كان يحيد في مجلس

القهوة من متعة. وكانت القهوة - قديمًا - شراب

المجلس الذي يجتمع حوله الأبناء للسمر. فانقلب

اليوم - عند الأم - كل شيء فيه، فأسرفت في حوسها

إسرافًا وهي لا تدري حتى صار صنع القهوة وحسوها

سلوة وحدها، فربما احتست خمسة أو ستة - وأحيانًا

عشرة - فناجل تباعًا، وكان كمال يتابع إفراطها بقلق

ويحذرهما من عواقبه، فترد عليه بابتسامة كأنها تقول له

«وماذا أفعل إذا لم أشرب؟» ثم تقول له بلهجة الواثق

المطمئن «لا ضرر من القهوة... جلسا متقابلين،

هي على الكتبة الفاصلة بين حجرتي النوم والمائدة،

وهو على الكتبة المتوسطة لحجرتي نومه ومكتبته، وكانت

عاكفة على المجمرة التي دفنت الكتبة حتى نصفها في

جراحيها، وكان صلدًا شارد النظرة، وفجأة سأله:

- فهم تفكر يا ترى؟ دائمًا تُسرى وكأنك مشغول

كلما أردت، تصوّر أي حرمان كنت تمنّين به نفسك  
لو لم يفكّ أبي قيودك!

رفعت إليه عينها فيها يشبه الاربابك أو الحجل،  
كأنما كبر عليها أن تدكّر بامتياز نالته نتيجة لتكلمها، ثم  
أطرقت في وجوم ولسان حالها يقول وليتي بقيت كما  
كنت وبقي في فقيدي، غير أنها تخاصمت الإنصاح عمّا  
جاش به صدرها إشفاقاً من تكدير صفوه، وقنعت بأن  
تقول وكأنّها تعتذر عمّا حظيت به من حرّية:

- ليس خروجي بين حين وآخر فرجة أستمع بها،  
إني أزور الحسين لأدو له، وأزور أختك لأطمئن  
عليها ولا حلّ لمشكلات لا أدري من كان غيري  
يحلّها!

فابتدته المشكلات التي تمنّي، ولما كان يعلم أنّها  
زارت السكّرية اليوم، فقد تساهل:

- هل من جديد في السكّرية؟

قالت وهي تتنهد:

- العادة...

هزّ رأسه أسفاً، وهو يتنسم قائلاً:

- مخلوقة للنقار، هذه هي خديجة...

قالت أمينة بحزن:

- قالت لي حاتما: إنّ أيّ عداثة معها خاطرة غير  
معمودة العواقب...

- الظاهر أنّ حاتما - نفسها - قد خرفت!

- لها من الكبر أهدار، ولكن ما عدل أخذك؟

- ترى آثارها على الحقّ أم أثرت الحقّ عليها؟

وضحك ضحكة ذات مغزى، فتهدّت أمينة مرّة  
أخرى، وقالت:

- أخذك حامية الطبع، وسرعان ما تضيق حقّ  
بالنصيحة الخالصة، وبأ وبلي إذا جاملت حاتما مراعاة  
لسنّها ومكانتها، هنالك تسألني وعينها تحمّز إنّ وأنت  
معي أم عليّ؟، لا حول ولا قوّة إلّا بالله، معي أم  
عليّ؟... هل نحن في حرب يا أباي؟. ومن الغريب  
أن يكون الحقّ أحياناً على حاتما ولكنّها تتبادر في  
الحصام حقّ ينقلب الحقّ عليها هي...!

هيهات أن يسخطه عليها شيء، كانت ولا تزال أمّه

فشاعت البهجة والفخار في الوجه المستطيل  
الشاحب، وقالت:

- بل، إني أودّ ذلك بكلّ قلبي، ولكنّي أحبّ أن  
أراك دائماً منشراح الصدر...

قال بأسفاً:

- إني منشراح الصدر كما تحبين، فلا تشغلي البال  
بمحض أوهام.

كان يلاحظ أنّ رعايتها له ازدادت في السنوات  
الآخيرة أكثر ممّا ينبغي، وأكثر ممّا يؤدّي، وأنّ تعلّقها به  
وحدها عليه وإشفاقها عمّا يضرّه - أو ممّا تنوّه أنّه  
يضرّه - باتت شغلها الشاغل إلى حدّ ضايقه واستغزّه  
للذود عن حرّيته وكرامته، بيد أنّه لم تغب عنه أسباب  
هذا التطوّر الذي بدأ عقب مصرع فهمي وابتلائها  
بفقدته، فلم يجاوز أبداً في ذوده عن حرّيته حدود  
اللطيف والأدب:

- يسرّني أن أسمع هذا منك وأن يكون حقاً  
وصدقاً، لست أبني إلّا سعادتك، ولقد دعوت لك  
اليوم في سيّدنا الحسين دهاء أرجو أن يمنّ الله  
بإستجابته!

- أمين...

ونظر إليها وهي ترفع الكنجة لتعلاً فنجانها للمرّة  
الرابعة، فانفرج ركنها فيه عن ابتسامة خفيفة... ذكر  
كيف كانت زيارة الحسين لديها أمنية في حكم  
المستحيل، ها هي اليوم تزوره كلّما زارت القرافة أو  
السكّرية، ولكن ما أفدح الثمن الذي دفعته نظير هذه  
الحرّية الضئيلة! هو نفسه له أمانيه التي في حكم  
المستحيل فأنّى ثمن تقتضيه كي تتحقّق؟ ألا إنّ أيّ  
ثمن - وإنّ جُلّ - يوفّر في سبيل ذلك، عاد يقول  
صاحباً ضحكة مقتنبة:

- إنّ لزيارة الحسين ذكريات لا تُنسى...

تحسّست ترقبها يديها، وهي تبسم قائلة:

- وأثر باقي لا يزول...

فقال كمال في شيء من الحاسر:

- لست اليوم حبيسة البيت كما كنت قديماً، أصبح  
من حقّك أن تزوري خديجة وعائشة أو سيّدنا الحسين

دون الوجه الملائكي بما لا يقاس، وتشر فيها حولها شلى حُلُومًا وروعة أسرة، ودّ لو يعلم كيف يتحدان وكيف يأتلغان، وكيف يتخاصمان إن كانا يتخاصمان.

شغفا بمعرفة حياة تمتّ إلى حياة معبودته بأوثق الوشائج والصلوات، أتذكر كيف كنت تطالعهما بين المتعبّد الراني إلى كبار الكهنة والسدنة؟ قال يهدوه:

- لو تطبعت خديجة ببض طباعك لغصمت حياة سعيدة...

ابسمت أساورها في سرور، غير أنّ سرورها ارتطم بالحقيقة المرّة، وهي أنّ طباعها لم تستطع حل دمائها أن تضمن لها السعادة دوائًا، ثم قالت والابتسامة لا تفارق شفقتها لتداري بها ألكارها السوداء التي تشفق من إطلاعه عليها:

- هو وحده الهادي، ربنا يزيد طبك حلوة حتى تكون من الذين يميّون الناس ويحبهم الناس...

ليادها متسائلًا:

- كيف تمجدينني؟

فقالت بإيمان:

- أنت كذلك، وأكثر...

لكن كيف يتأتّى لك أن تمجّد الملائكة؟! ادع صورها السعيدة وتأمل قليلاً، هل يمكن أن تمجّلها مسهدة طريحة حبّ وجوى؟ وما أبعد ذلك عن خوارق الظنون، إنّها فوق الحبّ ما دام الحبّ نقصًا لا يدرك الكمال إلّا بالحبيب، أصبر ولا تلو قلبك من الألم،

حبك أن تحبّ، حبك منظرها الذي يشعشع بالنور وروحك، وأنغام نبراتها التي تسكر بالتطريب جوارحك، من المعبودة ينشئ نور تتبدّى فيه الكائنات خلقًا جنهيدًا، الياسمين والبلبل من بعد صمت يتناجيان، والمآذن والقباب تطير فوق بساط الشفق صوب السماء، معالم الحية العتيق تنطق عن حكمة الأجيال، أوركسترا الوجود تتساف زفرات الصراخ، الخنا يفيض من الجصور، الأناقة تزخرف الأزقة والدروب، عصافير الغبطة تزفرف فوق القبور، الجيادات تيه في صمت التاتلات، قوس قزح يتجلى في الحصرة التي تطرح عليها قدميك، هذه دنيا معبودي!

الثانية ومورد حنان لا ينضب، أين منها عائشة الجميلة السادرة التي تشبّت بالشوكيّة حتى ذؤابتها!

- وعمّ أسفر التحقّق؟

- بدأ الشجار بالزوج هذه المرّة وعل غير المألوف، دخلت الشقة وهما يتجادلان في عصف حتى عجبت لما أهاج الرجل الطيّب، فتدخلت بينهما بالسلام، ثم عرفت سبب هذا كله، كانت معترمة أن تنفض الشقة، ولكنّه ظلّ نائمًا حتى التاسعة فاصرت على إيقاظه حتى استيقظ غاضبًا، وركبه عناد مفاجئ فأب أن يغادر الفراش، وسمعت والدته الزعق، فجاءت على حجل، وما لبثت النار أن اشتعلت، ولم يكد هذا الشجار أن ينتهي حتى شبّ آخر بسبب أحد الذي عاد من الطريق مطيئ الجلباب، فغريته وأرادت أن يستحمّ من جديد، فاستغاث الولد بأبيه، وتصلّى الرجل لحيايته، فكان الشجار الثاني في نصف نهار وهو يضحك:

- وماذا فعلت؟

- بللت ما في وسعي ولكنّي لم أسلم، فلامتني طويلاً على وقولي موقف الوسيط، وقالت لي: كان ينبغي أن تنضمّي إلّي كما انضممت أمّه إليه!

ثمّ وهي تتبّد لثالث مرّة:

- قلت لحديجة: ألا تذكرين كيف كنت ترينني أمام والدك، فقالت بحلّة: وهل تغلّين أنّه يوجد رجل مثل أبي في هذه الدنيا؟!.

وردت غيظك على غير ميعاد صورة عبد الحميد بك شدّاد وحرمة سيّته هائم، وهما يسيران جنبًا إلى جنب، من الفراندا إلى السيّارة المتريفة المنتظرة أمام باب القصر، لا سيّد ولا مسود ولكن صديقين متساوين، يتحدان في غير كلفة وهي تتأبّط ذراعه، حتى إذا بلغا السيّارة تنحى البك جانبًا حتى تركب هي أوّلًا. هل يتأتّى لك أن ترى والديك في مثل هذه الصورة؟! يا لها من خاطرة مضحكة! يتحرّكان في جلال خليك بالمعبودة التي أنجبها، ولو أنّ الهانم لم تكن دون أمّه كهولة إلّا أنّها كانت تولدي معطفاً نفيساً آية في اللوق والأناقة والفندرة، وتطلق سافرة الوجه، وجه مليح وإن يكن

ترضى أن تدفن ابناً في كل حصة أروام، لا بدّ للحياة  
 المثالية من قرابين وشهداء... الجسم والعقل  
 والروح قرايبها، فهمي ضحى بحياة واحدة في سبيل  
 ميتة رائحة، فهل تستطيع أن تلقى الموت كما لقيه؟  
 قلبك لا يتردد عن الاختيار ولو حكم قلب هذه الأم  
 المتحيرة، ميتة تستنزف جرحاً وتضمد جروحاً، يا له  
 من حب... أجل، ولكنه ليس الذي يفي وبين بدور  
 وأنت تعلمون، الحب العجيب حقاً هو حتى لك، هو  
 شهادة للعالم ضدّ المتشاكسين من خصوصها، علمني أنّ  
 الموت ليس أظف ما نخاف وأنّ الحياة ليست أبيع ما  
 نبتغي، وأنّ من الحياة ما يغلظ ويفرّ حتى يلتصق  
 الموت، ومنها ما يرقّ ويشرى حتى ينفو إلى الخلود،  
 ومناداتك لك ما أطربها، بصوت لا تدري كيف تصفه،  
 لا رفيع النبرة ولا غليظها، مثل وفاء السلم الموسيقي  
 المنبشة من كيان، رنينه في صفاء النور، ولونه لو  
 تحيّلت له لوناً في زرقه السياه العميقة، دافئ الإيمان،  
 داعية إلى السياه...

## - ١٦ -

- يوم الخميس القادم سأقصد زواجي متوجّلاً على  
 الله...  
 - ربّنا يوفّقك!  
 - سيكون التسليف من نصيبي إذا رضي عني  
 أي...  
 - إنّه راض عنك، والحمد لله...  
 - سيقتصر الحضور على الأهل، ولن تلقى هنالك  
 ما يضايق حضرتك.  
 - عظيم عظيم!!  
 - وعدت لو كانت نية في الحاضرين، ولكن...  
 - ما علينا، اللهم أن تمرّ الليلة في هدوء...  
 - لم يبق عني هذا بطيئة الحال، أنا أعرف الناس  
 بطبعك، ولن يحدو اليوم كسابة العقد وشرب  
 الشراب...  
 - عظيم، ربّنا يديك إلى سواء السبيل...  
 - كلّفت كمال أن يبلغ والدته تحيّي وأن يرحبوا

- كنت مساةً بالأزهر في الطريق إلى الحسين،  
 فقابلتني مظاهرة كبيرة عطف بهتلات ذكرتني بالماضي،  
 هل جدّد جديد يا بني؟  
 قال:  
 - الإنجليز لا يريدون أن يذهبوا بسلام!  
 قالت بحدّة، وفي عينيها نظرة غضب تبرق:  
 - الإنجليز... الإنجليز... متى تنزل عليهم  
 نعمة الله العادل؟  
 انطوت دهرًا لسعد نفسه عن مثل هذه الكراهية،  
 لولا أن أقمعها في النهاية بأنّه لا يجوز أن يبخسوا  
 شخصاً أحبّه فهمي! وعادت تتساءل في قلق ظاهر:  
 - ماذا تعني يا كمال؟ هل نعود إلى أيام البلاء؟  
 فقال بامتعاض:  
 - لا يعلم الغيب إلّا الله!  
 فاعتراها ضيق بدا في تقلّصات وجهها الشاحب،  
 وقالت:

- اللهمّ يئس العذاب فلتركهم لغضب القهار، هذه  
 هي الحقة المثل، أمّا أن نلقي بأنفسنا إلى التهلكة فهو  
 الجنون والعياذ بالله!

- هذني من روعك، لا عهد من الموت، الناس  
 هوئون بسبب أو بأخر، وبلا سبب على الإطلاق!  
 قالت في استياء:

- لا أنكر أنّ قولك حقّ، ولكنّ هجنتك لا تعجبني!  
 - كيف تريد أن أتكلّم؟  
 قالت بصوت مؤثّر:

- أريد أن تعلم موافقتك على أنّه من الكفر أن  
 يخرّص الإنسان نفسه للتهلكة...

قال في تسليم، وهو يداري ابتسامة:

- أوافق...

فرمقه بارتياح، وقالت بتوسّل:

- وأن تقول ذلك بالقلب لا باللسان...

- بالقلب أتكلّم...

ما أعظم الفارق بين الواقع والمثالي، أنت تتطلّع  
 بحماس إلى المثل الأعلى في الدين والسياسة والفكر  
 والحبّ، الاتهامات لا يفكرن إلّا في السلامة، أيّ أم

قديم، وإن تفروحا كان... مختلفة، فهجمت عليه ذكريات الماضي محدثة في نفسه معالم مألوفة في البيت، مر بها من قبل في ظروف جد

طبعاً... طبعاً!!

.. أرجو أن تكرر على سمعي أنك راضٍ عني. الدور الجديد الذي جاء بمثلته كوالد وقود للعريس،

- إني راضٍ عنك، والله أسأل أن يكتب لك وراح يلعن في سرّه ياسين الذي أوقعه - وأوقع نفسه

التوفيق والفلاح، إنه سميع الدعاء...

هكذا سارت الأمور ضدَّ مشيئة السيّد أحمد، حمله على أن يراجع نفسه وعيها قائلاً: إنه ليس على

واضطرَّ إلى جاراتها أن يتصدع ما بينه وبين ابنه، وكان الله بكثير أن يخلق البنت على غير مثال الأم، وأن يهد

قلبه في الحق ارق من أن يتصدى لياسين بخصام ياسين في مريم زوجاً صالحه - بكل معنى الكلمة - وأن

جَدِّي فَضِيلاً عَنِ الْقِطْعَةِ، فَقَبِلَ أَنْ يَسْلُمَ بَيْنَهُ ابْنَهُ بِقِيَةِ نَزَقِ أُمِّهَا، ثُمَّ سَأَلَ اللَّهَ السَّعَادَةَ

البكر إلى بنت بهجة، وأن يبارك - بنفسه - العلاقة وكان ياسين أخذاً زيته، بإدي السرور رغم

التي ستضمّ عائلته السابقة إلى صميم أسرته! بل لم تواضع الحفل المقام لزوجاته، ونسبه - على وجه

يقبل تدخل أمينة حين أعربت له عن رجائها في أن الخصوص - أن لم يتخلف أحد من إخوته عن

ممنوع «اخوة فهمي» عن شهود زواج ياسين من مريم، الحضور، وكان يشق من أن تؤثر الأم في بعضهم

فَقَالَ لَهَا بِلَهْجَةٍ حَاسِمَةٍ وَفِكْرَةٍ مَسْخُفَةٍ، مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَخَلَّفُ! أَكَاثُنَ فِي وَسْعِهِ أَنْ يَسْتَفْخِي عَنْ مَرْيَمَ إِكْرَامًا

يَتَزَوَّجُ مِنْ أَرْمَلَةٍ أَحْبَبَهُ عَلَى حُبِّهِ وَالْوَفَاءُ لَهُ، وَمَرِيحُ لَمْ يَهْمُ؟ كَلَّا، أَحْبَبَهَا، وَلَمْ يَعْمَلْ هِيَ مِنْ سَبِيلِ إِلَهِهَا إِلَّا

تكن زوجة لهي ولا حق خطيته، وذلك تاريخ قديم الزواج فلم يكن من الزواج بد، لم لا ليست

مضى عليه ستة اشهر، لست أنكر أنه لم يوفق في اعتراضات والده أو زوجه بعائلة أو عما يكثر

اختياره ولكنه حسن النية بقدر ما هو بطل، ولم يبق لعواقبها، ثم إن مريم تولد امرأة يربح الزواج منها

إلى أحد كما أساء إلى نفسه، أسرة كان يوسعه أن عن معرفة ونظر، وهو إلى هذا متفائل جدا بزواج

يصهر إلى خير منها، وفاتاة مطلقه، الأمر لله وفننه على ويرجوان تستقر به حيله زوجيه دائمه، اليس كذلك؟

جنبہ... سکت اُمینہ کا نما سلامت بحجہ، فانہا بل وهو یسفر انه سیخون زوجا عیبا وستحون زوجا

وإن كانت اكتسبت مع الأيام السود بعض جراثيمها طية وسجدة رسولان في مقبل الأيام ييا سجد

على الإنصاح من رأيها للسيد إلا أنها لم تكن من القوة

بحيث يجعلها تراجعه أو يحافظه، ولذلك فمعلمنا رازيها العروق التي اكتسبها من بين بقايا

خديجة تخبرها بأن ياسين دعاهما إلى حضور رواجه،

وأما تفكر في ادعاء المرض لتختلف عن التعذب م

توافقها على رأيها ونصحتها بقبول دعوة أحيائها.

وَجَاءَ يَوْمَ أَحْمَسَ، فَمَدَّ السَّيِّدُ أَحْمَدُ عَبْدَ الْجَبْرِ

وكان لقاء مريم بخديجة وعائشة - بعد فراق طلال

وكان - الذي سببه إليه - في السجن، ثم سعى لهم  
أمراماً - مؤثراً على تحفظه ولم يخلُ من حرج يثب

بعد قليل إبراهيم سؤقت وسكوت سكوت سكوت  
مخاطبة ماثلة، ما يكن في البيت من آل مريم سوى

بضم ناء، فاطماتُ السِّدِّ أحدُ إلى مرورِ اليومِ  
وغيرين، ولكنَّهم تَحْنِنُ الماضي ما استمكن إلى قُلَّةِ

سلاماً. وكان في طريقه إلى حجرة الاستقبال قد رأى سيلاً. وكانت اللحظات الأولى أخرجها جميعاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فتوَّعت كلَّ واحدة منهمْ ترفيدًا للكرى ماضية على نحو يثير عتًا أو ملأًا، ماذا دعا إلى تقاطعهنَّ أو لمْ تعكر الجوّ، ولكنّها مَرَّت بسلام، ثُمَّ وَجَّهت مريم الحديث بلباقة إلى ثياب خديجة ورفاقة عائشة التي لا زالت تحافظ عليها رغم إنجابها ثلاثة، ثُمَّ سألت مريم وأتها عن «والدة»، فكان الجواب أنّها بخير ولم يزدن حرقًا. ونظرت عائشة إلى صديقتها القديمة بعين ملوَّها الموقّة والحنان وقلب متعكّش إلى حبِّ الناس دومًا، ولولا إحساس بالإشفاق لاسقت الكلام إلى الذكريات الماضية ولمسحت ملىء فيها، أمّا خديجة فجعلت تسترق إليها نظرات متخصّصة، ومع أنّ مريم ظنّت سنوات لا تحطّر لها على بال فإنّ أنباء زواجها من ياسين أخلقت لسانها بالملاحظات المرّة، وراحت تذكّر عائشة بواقعة «الإنجليزية» وتساءل عمّا أعمى ياسين وأصمّمه على أنّ شعور خديجة العائليّ المرفه الذي يتقدّم سائر مزايها، لم يسمح لها بلوّك شيء من ذلك على مسمع من آل شوكت غير مستبثة زوجها نفسه، حتّى نبّئت أنّها إلى ذلك قاتلة وسواء رضينا أم لم نرضَ فستصبح مريم من أسرتنا... ولا عجب، فما زالت خديجة حتّى بعد إنجاب عبد المنعم شوكت وأحمد شوكت تعدّ آل شوكت «أغربًا» لدرجة ما.

وجاء المادّون في مطلع المساء، ثُمَّ عقد الزواج، ودارت أكواب الشربات، وانطلقت زخرفة واحدة، وتلقّى ياسين التهاني والدعوات الصالحات، ودُعيّت العروس إلى مقابلة «سَيِّدها الكبير» وآل زوجها، فجاءت محاطة بأنّها وخديجة وعائشة وتبّلت يده وصافحت الآخرين وعند ذاك قدّم السيّد لها هنيئة الزواج، أسورة ذهبية ذات فصوص دقيقة من اللّاس والزمرّد، واستمرّت الجلسة العائليّة وقتًا غير قصير، وحوالي التاسعة أخذ الحاضرون في الانصراف تباها، ثُمَّ جاء حنطور فحمل العروسين إلى بيت ياسين بقصر الشوق الذي جُمِّع دوره الثالث لاستقبال العروس، وظنّ الجميع أنّ السّار قد أسدل على الزواج الثّاني لياسين بخيره وشرّه؛ ولكن حدث بعد مرور أسبوعين من تاريخ الزواج أن شهد بيت المرحوم عمّد رضوان

حفلاً آخر لزواج جديد، حدّ بحق مفاجأة غريبة في بيت السيّد أحمد والسّكرية وقصر الشوق بل في حيّ بين القصرين جميعًا!! فعل حين غرة - ودون سابق إنذار - لم يذر الناس إلّا وبهيجة تعقد زواجها على يوميّ الشربلي... عجب الناس لهذا الزواج كلّ المعجب، وكأنّما كانوا يفسنون - لأوّل مرّة - إلى أنّ دكان يوميّ الشربلي تقع على ناصية عطفة بيت آل رضوان تحت إحدى مشرّبات البيت العتيلة مباشرة، فوقوا أمام هذه الحقيقة يتساءلون، وحقّ للناس أن يعجبوا، فالمروس أرملة رجل عُرف في حياته بينهم بالطيبة والفقوى، وهي معدودة من «سَيِّدات» الحيّ المحترّيات رغم ولعها بالتبجّج، فضلًا عن بلوغها الخمسين من عمرها، بينما كان الزوج من العائمة ذوي الجلابيب يبيع الخُروب والتمر هندي في دكان صغير، ولم يحلّز الأرمعين من عمره إلى كونه زوجًا رسخت قدمه في الحياة الزوجية عشرين عامًا، أنجب خلالها تسعًا من الإناث والذكور كلّ ذلك أثار القيل والقال! فغاض الناس - دون توجّع - في مقدّمات الزواج التي لم يشعر بها أحد، متى وكيف بدأت ثُمَّ كيف نضجت حتّى انتهت بالزواج؟! وأيّ الطرفين كان البادئ الداعي وأنّما كان المستجيب للمتي...؟

قال عمّ حسين الحنّاق، وكان دُكانه يقع في الجانب الآخر من الطريق لصق سيل بين القصرين أنّه كثيرًا ما كان يرى ستّ بهيجة واقفة أمام دكان يوميّ تشرب الخُروب، ربّما تبادل حديثًا قصيرًا، فلا يظنّ - لحسن نية - إلّا خيرًا... وقال أبو سريع صاحب الملق، وكان دُكانه يتأخّر مهعد إخلافه عن بقية الدكاكين: بأنّه - استغفر الله - لاحظ مرّات أنّ قومًا يتسلّون بلبل إلى داخل البيت، ولكنّه لم يكن يعلم أنّ يوميّ بينهم! وتكلّم درويش بائع الفول، وتكلّم الفوليّ اللّبان، ومع أنّهم تظاهروا بالرائة للأب المعيل وانتقلوا - بمجراة - الرجل الآخر الذي تزوّج امرأة في سنّ أمّه، فإثمهم في قرارة النّفس نفسوا عليه حظه ونقموا عليه ارتفاعه عن طبقتهم بهذه الحيلة «غير المناسبة»، ثُمَّ طال الحديث بعد ذلك عن تقدير

دفع بهجة إلى هذا الزواج الغريب، خاصة وهو يعلم علم اليقين أنه لم يكن يعز عليها إرضاء قلبها لو كان به رغبة إلى بيومي الشربلي دون حاجة إلى تعريض نفسها وآلها لشق الفلال بالاقتران منه، لم أقمت على هذه الحيلة غير مبالية بزواج الرجل وعياله ولا عابئة بمواقف ابتها وآلها الجلد كأنها قد أصابها مس؟ ألا يكون الإحساس المحزن بالكبر هو الذي جعلها تفرغ إلى الزواج، بل والتضحية بكثير مما تملك جرأ وراء سعادة كان يضمها لها الشباب الذي تحل عنها؟ تأمل هذه الفكرة في حزن واكتئاب، وكرر مدلته بين يدي زئوبة العودة التي أبت أن تجرد عليه نظرة عطف حتى حملها إلى المومة، تلك المدلة التي زعزت ثقتي بنفسه وحلته - على طمأنينته الظاهرة - على التجهّم للزمان الذي سبق فتجهّم.

على أي حال لم تمتع بهجة بزواجها طويلاً! مع نهاية الأسبوع الثالث منه شكت متلاً في ساقها، ثم تبيّن بالكشف الطبي أنها مصابة بمرض السكر فقلت إلى قصر العيني، وتراحت الأخبار عن خطورة حالها آنها، ثم وألها الأجل المحتم.

## - ١٧ -

امام سراي آل شداد وقف كمال متأنها حقية صغيرة، في بقعة وملاية أنيقة، وحذاء أسود لامع، وقد استقام طربوشه فوق رأسه الكبير. . . بدا طويلاً نحفاً، وبرز عنقه من فوق بقعة القميص غير عاتٍ بحمل الرأس الكبير والألف العظيم. وكان الجوف لطيفاً تتخلله نسائم باردة تؤذن باقتراب ديسمبر، وكان في السماء سحب متفرقة ناصع البياض يتحرك وانها فيحجب شمس الصباح حيناً بعد حين. وقف كمال وقفة المنتظر وعينه متجهتان نحو الجراج، حتى خرجت منه الغيات يسوقها حسين شداد ثم دارت في شارع الرايات ووقفت أمامه، وأخرج حسين شداد رأسه من نافلتها وهو يسأل كمال:

- ألم نبحثا بعد؟

تفخ في البوق ثلاثاً، ثم عاد يقول وهو يفتح الباب:

«مراثيه» المنتكر في البيت، وعن الفنائم المحتملة من نفود وحلي!

أما بيت السيد وبيت السكرية بل وبيت قصر الشوق قد زلزلوا زلزلاً شديداً، يا للفضيحة! ... هكذا هتفت ألسنتهم، وغضب السيد أحمد غضباً أروع آل بيته فتجنبوا مخاطبته أياماً متتابعات، أليس من حق بيومي الشربلي أن يذهي قرايته من الآن فصاعداً؟ ملعون ياسين وملعون شهواته، بيومي الشربلي أصبح «عصه» وألف الجميع في الرغام، وصاحت خديجة عندما تلقت النبا «يا خير أسود»، ثم قالت لماتشة ومنذا يلوم نينة بعد الآن؟ إن قلبها لا يكذبها أبداً، وأقسم ياسين - بين يدي أبيه - على أن الأمر وقع على غير علم منه ولا من زوجه، وأنه أحزنها حزناً فاق كل تصور، ولكن ما حملتها؟ ولم تقف الفضيحة عند هذا الحد، فإنه ما كانت زوجة بيومي الأولى تعلم بالخبر حتى طاش عقلها، فغادرت بيتها كالمجنونة سائلة أمامها ذريعتها جميعاً، ثم انقضت على بيومي في دكانه، فتشب بيتها هراك عفيف استعمل فيه اللسان واليد والقدم والزعزعة والصراخ على مرأى ومسمع من الأطفال الذين جعلوا يمولون ويستجدون بالسلابة حتى تمهمر الناس أمام الدكان السابلة وأصحاب الدكاكين والنساء والأطفال، فخلصوا بين الزوجين وجروا المرأة جرأ إلى الطريق، فوقفت تحت مشربة بهجة مشقوقة الجلباب مرمقة الملاة منفوشة الشعر دامية الأنف، ثم رفعت رأسها إلى النوازل المخلقة وأطلقت لسانها كالسوط الممثلة أطرافه بالرماس المتروحة في السم، والادى من هذا كله أنها برحت موقفها رأساً إلى دكان السيد أحمد بصفته والد زوج بنت زوجها، وتوسلت إليه بلهجة عظامية باكية أن يستعمل نفوذ لإقناع زوجها في الرجوع عن غيئه، فاستمع السيد إليها وهو يحكم غيظه وحزنه على ما آل إليه أمره، ثم أفهمها برقة - ما استطاع - أن هذا الأمر كله خارج عن دائرة نفوذه بخلاف ما تتصور، وما زال بها حتى صرفها عن الدكان وهو يغلي من الحنق، على أنه رغم حنقه فكري طويلاً وهو بين الحيرة والتساؤل فيما

- تعال اجلس إلى جانبي...

ولكن كمال اكتفى بإدخال الحقيبة وهو يغمغم «صبراً». وترامى إليه صوت يلدور من ناحية الحديقة، فالتفت صوبه فأراها مقبلة تركض وفي أثرها عابدة... أجل، المعبودة تحط بقوامها البديع في فستان سنجابي قصير على أحدث موضة، توارى أعلاه تحت دُرّاعة من الحرير كحليّة اللون كشفت عن ساعديها الخمريتين الصافيتين، وكانت هالة شعرها الأسود تحلق بقذاتها وعارضها وتوسّس بحركة مشيتها نوسائاً تموجياً، أما أسلاك قصبتها الخمرية فاستكثت على الجبين كاستنان المشط، وفي وسط هذه الحالة بدا الوجه البدرى في طابع من الحسن أتقى ملائكي كأنه سفير سام للدولة الأحلام السعيدة. تسرّ في موضعه تحت تأثير التيار المغناطيسي، حل حال بين الحيلة والنوم، ولم يبق من الدنيا في وعيه إلا عاطفة امتنان وجيشة وجدان، وجعلت هي تقرب في خفة وتبخر كأنها نعمة حلوة مجسّمة حتى سطع من أعطافها حير باريس، ولما التفت الأعين لعت في ناظرها وشغفها المضموتين ابتسامة موسومة بالبشاشة والهدوء والأستقرار طمّاً فرّد عليها كمال بابتسامة حائرة وسجدة من رأسه، عند ذاك خاطبها حسين قائلاً:

- اجلسي أنت وولدور في المقعد الخلفي.

تأخّر كمال خطوة ففتح باب السيّارة الخلفيّة ووقف منتصب القامة كأحد الحاشية، فكانت مكافئته ابتسامة وكلمة شكر بالفرنسيّة، وانتظر حتى دخلت يلدور فالمعبودة، ثم أغلقه واندمج إلى جانب حسين، ونفخ حسين مرّة أخرى وهو ينظر صوب القصر، فما لبث أن جاء البواب حاملاً سلّة صغيرة فوضعها لصق حقيبة كمال فيها بينه وبين حسين، فقال الأخير ضاحكاً وهو ينظر بأصبعه على السلّة والحقيبة:

- ما جدوى رحلة بلا طعام؟!

وزجّرت السيّارة وهي تتحرّك، ثم انطلقت إلى شارع المباسية وحسين شدّد يقول خاطباً كمال:

- عرفت منك أشياء كثيرة، اليوم ينح لي أن أضيف إليها معلومات جديدة عن مملتك، وولدور لي

أنتك رغم نحاتك أكول، فهل تراني غطّناً؟

فقال كمال بأسياً، وكان سعيداً متشرّحاً فوق مطعم البشر:

- انتظر حتى تعرف بنفسك...

سيّارة واحدة تحملها معاً، مشاركة من نوع ما تمرّ فيها عدا الأحلام، تهمس الأمانى: لو جلست أنت في المقعد الخلفي وجلست هي في المقعد الأمامي للمأت عينيك منها طوال الطريق ولا رقيب، لا تكن طمّاحاً جحوداً واسجد حدّاً وشكرّاً، استنقل رأسك من شقّ الفكر وخلص نفسك من تبار الوجد وعش بكلّ وعيك في الساعة الراحة، أليست ساعة بالصر أو أكثر؟

- لم أستطع أن أدهو حسن وإسمايل إلى رحلتنا هذه!

نظر كمال إليه كالمتسائل دون أن ينس. بيد أنّ قلبه خفق في سرور وحياه لهذا الامتياز الذي تحسّ به وحده، حل حين استطرد حسين قائلاً بلهجة المعتذر:

- السيّارة كما ترى لا يمكن أن تتسع للجميع...

فقال كمال بصوت خافت:

- هذا واضح...

فعاد الآخر يقول بأسياً:

- وإذا لم يكن من الانتخاب بدّ فانتخب من يشايك، ولا شك أنّ ميولنا متقاربة في هذه الحياة، اليس كذلك؟

فقال كمال بوجه وشت أساريره بالفرحة التي غمرت قلبه:

- بل...

ثم وهو يضحك:

- غير أنّي قانع بالرحلة الروحية، أمّا أنت فيبدو أنّك لن تقنع حتى تصل الرحلة الروحية بالرحلة حول الأرض...

- ألا تنفخ نفسك إلى الساحة في جنبات الأرض الواسعة؟

فكر كمال قليلاً، ثم قال:

- يجيّل ليّ آتي مطير على حبّ الاستقرار وكأني



الزمالك في سرعة عدّها كمال جنونيّة:

- في الساء غيم، ولكنّا في حاجة إلى مزيد منه  
لتضمن نهارًا سعيّدًا في سفع الهرم.  
وعلا الصوت البديع وهو يخاطب بدور فيها بدا  
قائلًا:

- انتظري حتّى نصل إلى الهرم، وهناك اجلسي  
معه كيفما يحلو لك...

فسأله حين ضاحكًا:

- ماذا تريد بدور؟

- تريد يا سيدي أن تجلس مع صاحيك...

صاحيك! لم لم تقولي ذلك؟ هلا أسعدت الاسم  
بما لا يطمح إليه صاحبه؟ وشاطبه حين قائلًا:

- أمس سمعنا بابا وهي تسألني: هل يجي معنا  
أنتك كمال إلى الهرم؟ فسألني من يكون كمال؟ ولما  
أجبت سأله: «الخبين أن تتزوجي أنتك كمال؟» فأجابته  
بكل بساطة «نعم!».

فالتفت كمال إلى الورد، ولكنها تراجعت حتّى  
التصقت بمسد اللقعد وأغشت وجهها في كف أختها،  
فتزوّد كمال من الوجه البديع بنظرة خاطفة ثمّ أهاد  
رأسه، وهو يقول بلهجة الرجاء:

- لعلّها عند الجذ لا تنسى كلمتها!

ولما بلغت السيّارة طريق الجزيرة ضاعف حسين من  
سرعتها فعلا أزيّزها وساد الصمت، وشبّ كمال  
بالصمت ليغرق إلى نفسه ويتملّ سعادته، كان أس  
حديث الأسرة فلخّاره ربّما زوبجًا للصغيرة، يا أغاريد  
الزهور والسعادة، احفظ من ظهر قلب كلّ كلمة  
تقال... أصلا نفسك بعير باريس، زوّه أذنك  
بالمديّل والبنام، هلك تصود إليها إذا عادت لبالي  
السهاد، كلمات المصودة عاصلة من حكمة الحكماء  
ودور الأدباء، فما بالها تتحرك حتّى الأحباقي وفي فؤادك  
تفجّر ينابيع السعادة! هذا الذي جمل السعادة سرًا  
تته فيه العقول والأفهام، أيّما المجنون اللاهثون وراء  
السعادة لئلي وجدتها في الكلمة الفارغة والرطانة  
الغامضة والصمت أيضًا ولا في شيء، ربّما ما أعظم  
هذه الأشجار الباسقة على الجانبين تتعاقب أعاليها فوق

أجسل من فكرة الرحلات، أعني من الحركة  
والاضطراب لا من الرؤية والاستطلاع، وددت لو كان  
من الميسور أن يطوف بي العالم حيث أنا!  
ضحك حين شدّاد ضحكته اللطيفة المنبئة من  
القلب، وقال:

- قف في منطاد ثابت إن استطعت، وانظر إلى  
الأرض وهي تدور من تحتك!

تملّ كمال ضحكة حسين اللطيفة الجذابة مليًا،  
فوردت ذهنه صورة حسن سليم وراح يقارن بين  
هذين اللوين من الأرستقراطية: أحدهما يمتاز بالطف  
والبشاشة، والآخر يتسم بالتحفظ والكبرياء، وكلاهما  
بعد ذلك جليل. وقال كمال:

- من حسن الحظّ أنّ الرحلات الفكرية لا تقتضي  
التقلّ حتّى...

فوقع حسين شدّاد حاجبيه فيها يشبه الشكّ، غير  
أنّه عدل عن متابعة الموضوع قائلًا بانتهاج:

- المهمّ الآن أنّنا نقوم برحلة قصيرة معًا، وأنّ ميونا  
مقارية في هذه الحيلة...

وما يدري إلّا والصوت المذبذب يجي من الورد  
قائلًا:

- وبالاختصار فإنّ حسين يحبّك كما تحبّك  
بدور...

نفلت هذه الجملة المعطرة بالحبّ الملتصقة بالصوت  
الملاكي في قلبه فطوّرت نشوة وطربًا، كلثمة الساحرة  
التي تنفّ فجأة في تضاعف أخيرة فوق المنتظر والمألوف  
والتخيّل من الانغام، فتترك السامع بين العقل  
والجنون. المعبود يعبث بالفاظ الحبّ ساذجًا، يلقيها  
عليك غافلًا من أنّه يلقي مفسّوسًا على قلب يمتدقّ،  
استرجع صداها لتستعيد رنين الحبّ في أوتار ثغره،  
والحبّ لحن قديم غير أنّه يهضيّ جليدًا صبيّا في  
زنجمة خالقة، يا لحي؟ إني أفنى من فرط السعادة.  
قال حين معلقًا على قول أمته:

- عابدة تترجم أفكاري بلفتها النسائية الخاصة...  
انطلقت السيّارة إلى السكاكيني فلل شارع الملكة  
نازلي ثمّ إلى شارع فؤاد الأوّل، ومنه مرقت إلى

حال من الأمر.

وقت السيّارة غير بعيد من سفح الهرم الأكبر منضّمة إلى صفّ طويل من السيّارات الفارغة، ولاح خلق كثيرون هنا وهناك، تفرّقوا جماعات صغيرة، ومنهم من امتطى حماراً أو جلاً أو تسكّن الهرم، غير باعة ومكاريين وجمالين، أرض واسعة لا تحُد إلّا أنّ الهرم انطلق في وسطها كإرد خرافيّ، أمّا تحت المنحدر من الناحية الأخرى فقد تراعت المدينة، رعوس أشجار وخك مياه وأسطح حيارات، ترى أين يقع بين القصرين من هذا كلّ؟ والبيت القديم؟ أين أمّه وهي تسقي الدجاج تحت سقيفة الياصمين؟

- فلنترك كلّ شيء في السيّارة لتتجول أحراراً...  
غادروا السيّارة، ومضوا صفّاً واحداً بدأ من السيّارة بعابدة فحسين ثم بدور، وأخيراً كمال الذي أمسك بيد صديقته الصغيرة، وطفافوا بالهرم الأكبر متفحصين أركانه ثمّ أوغلوا في الصحراء. وكانت الرمال تقاوم أقدامهم فتعرقل انطلاقهم، غير أنّ الهوا هفاً لطيفاً منعشاً وراوحت الشمس بين الظهور والاختفاء، وانتشرت تجمّعات السحب في آفاق السماء ترسم في اللوحة العليّة صوراً تلقائيّة تبعث بها يد الهوا كيفما اتفق. قال حسين وهو يملأ رتيبه بالهوا:

- جميل... جميل...

ورطنت عابدة بالفرنسيّة، فأدرك كمال بمعلوماته المحدودة في تلك اللغة أنّها تترجم قول أخيها، وكانت الرطانة عادة مألوفة لديها، فحفقت من غلوائه في التعصّب للغة القومية من ناحية، وفرضت على ذوقه كأمارة من أمارات الحسن النسائي من ناحية أخرى. قال كمال بتأثر، وهو يتأمل ما حوله:

- جميل حقّاً، سبحانه الله العظيم!

فقال حسين ضاحكاً:

- إنك تهمّد دائماً وراء الأمور إمّا الله وإمّا سعد زغلول...

- أظنّ أنّه لا خلاف بيننا فيما يتعلّق بالأول!  
- ولكنّ ذلك على ذكره يضفي عليك مسحة دينيّة خاصّة كلّك من رجال الدين، (ثمّ بلهجة تسليم) قيم

الطريق فتتشر سياه من الحضرة البانمة، وفلذا التيل الجاري مكسباً من وفي الشمس غلالة من اللائ، متى رأيت هذا الطريق آخر مرّة؟ في رحلة إلى الهرم وأنا في السنة الثالثة، في كلّ رحلة عاصدت نفسي بالعودة إليه منفرداً، ورامك تجلس من ترى بوحيا كلّ شيء جليداً وجميلاً حتّى يجري الحيلة الأثرية في الحيّ العتيق، هل لك أمنية فوق ما أنت فيه؟... نعم: أن تواصل السيّارة انطلاقها على هُله الحال التي نحن عليها إلى الأبد، ربّه أهذا هو الجائب الذي ظلما أحيالك وأنت تتسامل حيّاً تريد من هذا الحبّ؟ هبط عليك من وحي الساعة يكتشفه المحال، اسعد بالساعة المتاحة، ها هو الهرم يلوح من بعيد صغيراً، وحيّاً قليل تقف عند قلميه كالنملة عند أصل الشجرة الفارعة...

- نحن ذاهبون إلى زيارة قراقة جدّنا الأول!  
فقال كمال ضاحكاً:

- لنقرأ الفاتحة بالهيوغليفيّة...

فقال حسين ساخرّاً:

- وطن أجل غلّفاته قبور وجثث!... (وهو يشير صوب الهرم) انظر إلى الجهد الضائع...

قال كمال بحماس:

- ذلك الخلود!

- أوه... سوف تشط كعادتك للدفاع، أنت وطنيّ لحذّ المرض، لن نختلف في هذا، ربّما كان أحبّ إليّ أن أكون في فرنسا من أن أكون في مصر...

فقال كمال وهو يوارى الله تحت ابتسامة رقيقة:

- ستجد هنالك الفرنسيّين أحظم أمّ الأرض وطنيّة...

- نعم، الوطنيّة مرض عالميّ، لكنّي أحبّ فرنسا نفسها، وأحبّ في الفرنسيّين مزايا لا تمتّ إلى الوطنيّة بسبب...

هذا عزن مؤسف حقّاً بيد أنّه لا يثير حفيظته، لآله صادر عن حسين شدّاد... إسماعيل لطيف يحنقه أحياناً باستهائته... حسن سليم يفضبه أحياناً بتكبّره... أمّا حسين شدّاد فيحظى برضاه على أيّ

- هذا هو رأي الإنجليز، ألم تقرأ برقيات الأهرام؟  
فليس عجيبي أن يركّده الأحرار الدستوريون، إن من  
مفاتيح سعد أن يثير العداوة ضدّ الإنجليز...  
تدخلت عابدة متسائلة، وفي عينيها نظرة عتاب أو  
تحذير مازجتها ابتسامة جذابة:  
- رحلة أم سياسة؟  
فأشار كمال إلى حسين، وهو يقول معتذراً:  
- إليك المستول عن فتح هذا الموضوع...  
فقال حسين ضاحكاً، وهو يتخلّل شعره الحريري  
الأسود بأصابعه الرشيقة:  
- رأيت أن أقدم تمزيق في استقالة الزعيم، هذا  
كلّ ما هنالك!  
ثمّ متسائلة بلهجة جليّة:  
- ألم تشترك في المظاهرات الخطيرة التي كانت تقوم  
في حاكم على عهد الثورة؟  
- كنت دون السنّ القانونيّة!  
فقال حسين بلهجة لم تخلّ من سخرية لطيفة:  
- على أيّ حال تُعدّ واقعة دقان البسوسة اشتراكاً  
في الثورة!  
وضحكوا جميعاً، حتّى بدور اشتركت في الضحك  
عاكاة لهم، فصدر عنهم أوركسترا رياهيّ مكوّن من  
يوقين وكيان وصقارة، وبعد هنيهة صمت، قالت  
عابدة كأنّها لتدافع عنه:  
- كفاية أنّه فقد أخاه...  
فقال كمال مدغولاً بشعور الفخار الذي دبّ في  
قلبه، واستزادة من عطفها:  
- أجل، فقلنا خير أستاذنا...  
فعادت تسالّه باهتمام:  
- كان في الحقوق... أليس كذلك؟ كم كان يكون  
عمره لو عاش حتّى الآن؟  
- كان يكون في الخامسة والعشرين... (ثمّ بلهجة  
أسيفة)... كان نابغة بكلّ معنى الكلمة...  
فقال حسين، وهو يفرّق بأصبعه:  
- كان... هله هي الوطنية، كيف تتعلّق بها بعد  
ذلك؟

المعجب وأنت من حرم الدين؟!  
أتكمن وراء هذه الجملة سخرية ما؟ وهل يمكن أن  
تشاركه عابدة في سخريته؟ ترى ما رأيها في الحزبي  
القديم؟ وبأيّ عين تنظر المباسية إلى بين القصرين  
والنحاسين؟ هل منك الحجل؟ مهلاً إنّ حسين لا  
يكاد يبدي أيّ اهتمام بالدين، المعبودة فيها يبدو أقلّ  
اهتماماً منه، ألم تقلّ يوماً إنّها تحضر دروس الدين  
المسيحي في الميردي ديه وإثنا تشهد الصلاة وتترنّم  
بأناشيدها؟ ولكنّها مسلمة! مسلمة رغم أنّها لا تعرف  
عن الإسلام شيئاً يذكر! ما رأيك في هذا؟ أحبّها،  
أحبّها لحّد العبادة، وأحبّ دينها رغم وعزّ الضمير،  
أعترف بهذا مستغفراً ربّي!  
أشار حسين بيده إلى ما يحيط بهم من أيّ الجبال  
والجلال، ثمّ قال:  
- هذا ما يستهويني حقاً، أمّا أنت فمجنون  
بالوطنية، قارن بين هله الطبيعة الجليّة وبين  
المظاهرات وسعد وعدي واللوريات المحمّلة بالجنود!  
فقال كمال باسماً:  
- الطبيعة والسياسة كلتاهما شيء جليل...  
تساءل حسين فجأة كأنّها قد تذكر بتداعي اللماضي  
أمراً هاماً:  
- كنت أنسى، لقد استقال زعيمك!  
فابتسم كمال ابتسامة حزينة ولم يجيب، فقال الآخر  
بقصد إغاضته:  
- استقال بعد أن ضيّع السودان والدستور، هههه  
قال كمال بهدوء لم يكن يُنتظر منه في غير هله  
الظروف:  
- كان قتل سير لي ستاك ضربة موجّهة إلى وزارة  
سعد...  
- دعني أكثّر على سمحك ما قاله حسن سليم،  
قال: إنّ هذا الاحتفاء مظهر للكراهية التي يضرها  
البعض - ومنهم الفتلة - للإنجليز، وسعد زغول هو  
المستول الأول عن تبييض هله الكراهية!  
كظم كمال الغيظ الذي أثّره «رأي» حسن سليم في  
نفسه، وقال بالهدوء الواجب في حضرة المعبودة:

فقال كمال باسماً:

- سوف نكون جميعاً في خبر كان، ولكن شتان بين مئة ومئة!

فرجع حسين بأصبعه مرة أخرى دون تعليق، يبدو أنه لا يرى في قوله معنى، ماذا أقحم حديث السياسة عليهم؟ لم يعد به ما يسرّ، شغل الشعب بمداوته الحزبية عن الإنجليز، سحقاً لهذا كله، يخلق من يتسم الفردوس ألا يكرب صدره بهوم الأرض، ولو إلى حين، أنت عشي في معية عايدة في صحراء الهرم، تأمل هذه الحقيقة الرائعة واحضرها حقاً تسمع بناة الهرم، معبود وعابده يسيران ممّا فوق الرمال، العابد من شدة الوله يكاد يذروه الهواء والمعبود يتسلّ بعدد الحصى، لو كان مرض الحب معدّياً، ما باليت بالآله، الهواء يغمر بأهداب فستانها ويتخلّل حالة شعرها ويسري في أحياق صدرها... ألا ما أسمعدها أرواح العاشقين فوق الهرم تبارك الغافلة معجبة بالمعبود رائية للعابد مكرّدة بلسان الزمان: ليس أقوى من الموت ألا الهوى، تراها على بعد أشبار منك ولكنّها في الحق كالأفق تحلق منتطباً على الأرض وهو في ذروة السياء يخلق... كم مئت النفس بأن تجسّ في هذه الرحلة راحتها، ولكن يبدو أنك سترحل عن هذه الدنيا قبل أن تعرف مسها، لم لا تكون شجاعاً فتعبري إلى انطباعة قدمها فتلكمها؟... أو تأخذ منها حفنة فتجعلها حجاباً يقي من آلام الحب في ليالي الفكر؟ وأسفاه! كل الدلائل تشير إلى أنه لا اتصال بالمعبود إلا بالتراثل أو الجنون، فرثل أو مجنّ...

شعر باليد الصغيرة تجلب يده، فنظر إليها، فرفعت نحوه فزاعبها داعية إياه إلى حملها، فانتحى فوقها ثم رفعها بين يديه غير أنّ عايدة قالت معترضة:

- كلاً، بدأ التعب يساورنا، فلنستريح قليلاً...

هل صخرة عند رأس المتحدر اللقيضي إلى أبي المول جلسوا على نفس الترتيب الذي ساروا عليه، مدّ حسين ساقيه غلوراً كميمه في الرمال، جلس كمال واضعاً رجلاً على رجل ضامّاً يده إلى جنبه، على حين قعدت عايدة إلى يسار أخيها فتناولت مشطها وراحت

تسرح شعرها وترتّب خصلاته بأناملها.

وحانت من حسين نظرة إلى طربوش كمال، فسأله متقدماً:

- لماذا تلبس الطربوش في هذه الرحلة؟  
فتزع كمال طربوشه ووضعه في حجره قائلاً:  
- ليس من المألوف عندي أن أسير بدون...  
فضحك حسين قائلاً:

- إنك مثلك طيب للرجل المحافظ!

تساءل كمال: ترى هل يعني بقوله مدحاً أم ذمّاً؟ وأراد أن يستدرجه للإيضاح، ولكنّ عايدة مالت إلى الأمام قليلاً ملتفتة نحوه لتلقي نظرة على رأسه فنبسي ما كان بسيطه، وتحول انتباهه إلى منطقة الرأس في قلق، إن رأسه يبدو الآن حاسراً فيكشف عن ضخامته ويعرض شعره الأجرد العاطل عن الزينة، وما هما الصنمان الجميلتان ترتوان إليه، فأي أثر يعكسه عليهما؟ تسامد الصوت الموسيقي:

- لماذا لا تترّي شعر رأسك؟

سؤال لم يخطر له على بال من قبل، هكذا رأس فؤاد جميل الحزواوي وجميع الرفاق بالحق العتيق، ياسين لم يترّ يطق شعره وشاربه حتى تولّف، هل يتصوّر أن يلقى أباه كلّ صباح على مائدة الفطور بشعر مصفّف؟

- ولم أزيّه؟

فصاح حسين مغفراً:

- ألا يكون أجمل؟

- ليس هذا بذّي بال...  
حسين ضاحكاً:

- يتجمل لي أنك خلقت لتكون معلماً.

مدح أم ذمّ، على أيّ حال ليهنا رأسك بالرعاية السامية.

- أنا خلقت لآكون طالباً...

- جواب جميل... (ثم رفع طبقه صوته متسائلاً)... لم تحفثي عن مدرسة المعلمين حديثاً شافياً، كيف وجدتها بعد مرور ما يقرب من الشهرين؟  
- أرجو أن تكون مدحلاً لا بأس به للدنيا التي

- إنها تعبت!

قال حسين ذلك وهو يضحك، فبادرت تقول:

- كلاً، إذا كان الشاعر لا يمجح فلا تَكُنْه ...

النحلة فطرتها الطبيعة ملكة، البستان مغناها،

وحق الزهر شرابها، الشهد نقتها، وجزء الأدمي

الطائف بعرشها... لسعة... لكنّها قالت وكلاء.

عادت تسأله:

- هل قرأت من القصص الفرنسية شيئاً؟

- بعض ما تُرجم عن ميشل زيفاكو، لا أستطيع

أن أقرأ الفرنسية كما تعلمين...

فقالت بحماس:

- لن تكون مؤلفاً حتى تتقن الفرنسية، اقرأ بلزك

وجورج صاند، ومدام دي ستال ولوتي، واكتب بعد

ذلك قصة...

فقال كمال باستنكار:

- قصة؟ إنها فنّ حلّ الهامش، إنما أنطلق إلى عمل

جديّ...

فقال حسين جاداً:

- القصة في أوروبا عمل جديّ، ثمة كتّاب يترغّون

لها دون غيرها من فنون الكتابة فترفعهم إلى درجة

الحالدين، لست أهرف بما لا أهرف، ولكن أستاذ

اللغة الفرنسية أكّد لي ذلك...

هزّ كمال رأسه الكبير في شكّ، فاستطرد حسين

قائلاً:

- حاذر أن تغضب عابدة، إنها قارئة معجبة بالقصة

الفرنسية، بل إنها بطلة من بطلانها!

فقال كمال إلى الامام قليلاً، ومدّ إليها بصره ليراقب

أثر قول حسين فيها مفتتاً الفرصة المتاحة ليملا عينه

من متفرها البهيج، ثم تسأل:

- كيف كان ذلك؟

- إنَّ القصة تستغرقها استغراقاً غريباً، فرأسها

مغمم بحيلة خيالية، مرة رأيتهما تحتال أمام المرأة،

فسألتهما عاباً؟ فاجابني وهكذا كانت تسير أفرويت

حل ساحل البحر بالإسكندرية!

قالت عابدة وهي تقطب تقطية باسمه:

أنطلق إليها، وتراني أحاول الآن أن أهرف عن سيل  
الأساتذة الإنجليز معاني للكليات المحيرة مثل «أدب»

وفلسفة» وفكر...

- هذه هي الثقافة الإنسانية التي نتطلع إليها...

فقال كمال بحيرة:

- ولكنّها خضمّ مضطرب فيها يبدو، ينبغي أن

نعرف الحدود، ينبغي أن نعرف ما نريد على نحو

أوضح، إنها مشكلة...

لاح الاهتمام في عيني حسين الجميلتين وهو يقول:

- الأمر بالنسبة إليّ لا يَعدُّ مشكلة، إليّ أقرأ قصصاً

ومسرّحات فرنسية مستعياً بعابدة حل فهم الصعب

من تصوصها، وأستمع معها أيضاً إلى غشّارات من

الموسيقى الغربية تعزف هي بعضها بمهارة حل البيانو،

وقد طالعت أخيراً كتاباً يلخّص الفلسفة الإغريقية في

يسر وسهولة، لست أبغى إلّا السباحة للعقل

والجسم، أمّا أنت فتريد أبشاً أن تكتب، وهذا

يقضيك أن تعرف الحدود والأهداف...

- الأدهى من ذلك أنّي لا أدري فيم أكتب حل

وجه التحديد!

تسألت عابدة بلهجة باسمه:

- أتريد أن تكون مؤلفاً؟

فقال وهو يتلخّى موجة عالية من السعادة التي حرّز

حل البشر:

- ربّما...

- شاعراً أم ناثراً... (وهي تجمل إلى الامام لتتمكن

من رؤيته)... دهني أحنّ بفراسي...

استفدّت الشعر في مناجاة طيفك، الشعر لغتك

المقدّسة فلا أمتنه، غاضت دعوي بتايحه في سواد

الليالي، ما أسعدني في رمي ناظريك وما أتمسني، إليّ

أحيا تحت نظرتك كما نحيا اليأس بمقلة الشمس...

- شاعر، أجل أنت شاعر...

- حقاً؟ كيف عرفت هذا؟

اعتذلت لي جلستها، فلتت عنها ضحكة خافتة

كأنّها وسوسة الأمانى، ثم قالت:

- الفراسة بداهة، فكيف تطالب بتضير لها؟

فرازا من الألم أو ضئلاً بالسعادة تراهي الموت أمتية.  
قال كالسخر:

- شيء مؤسف حقاً...

- ألم تكن تعرف هذا؟ يبدو أنك لم تجرّب الغرام  
بعد...!

من لحظات الحياة الحية لحظة يقوم البكاء فيها مقام  
البنج في العملية الجراحية، وعاد حسين يقول:

- المهم عندي ألا تنسى أن محجزاً لي مكاناً أيضاً في  
كتابك ولو كنت بعيداً عن الوطن...

حدجه كمال بنظرة طويلة، ثم سأله:

- ألا تزال تراودك فكرة السفر؟

فانساب الجدة في هجة حسين شداد، وهو يقول:

- كل ساعة، أريد أن أرحل، أريد أن أسبح على  
وجهي طويلاً وعرضاً وارتفاعاً وصمقاً، ثم ليأت الموت  
بعد ذلك...

وإن جاء قبل ذلك؟ هل يمكن أن يحدث هذا؟ ما  
للحزن بكاد أن يقتلك؟ أنسيت فهمي؟ الحياة لا  
تقاس بالطول والعرض دائماً، كانت حياتك لحظة  
ولكنها كانت كاملة، أو لها جدوى الفضيلة والخلود؟  
لكنك حزين لسبب آخر، كأنما عزّ عليك أن يهون  
فراقك على الصديق المشتوق إلى السفر، كيف تكون  
دنياك من بعده؟ كيف تكون إذا حال رحيله بينك  
وبين القصر الحبيب؟ ما أكذب ابتسامة اليوم، إنها  
الآن قريئة، صومها في أذنك وصيرها في أنفك فهل  
تستطيع أن توقف حجلة الزمن؟ هل تعيش بقية العمر  
حائلاً من بعيد حول القصر كالجانين...  
- إن أردت رأيي سأجلّ سفرك حتى تشمّ  
دراسك...

فألت عائدة بحماس:

- هذا ما قاله له بابا مراراً...

- هو الرأي الصواب...

فصاحل حسين متهمكاً:

- أمن الضروري أن أحفظ المديني والروماني كي  
أتلوّق جمال دنياي؟

عادت عائدة تخاطب كمال قائلة:

- لا تصدّقه، إنه أغرق مَنّي في الخيال، ولكنّه لا  
يرتاح حتى يرميني بما ليس فيّ...  
أفروديت؟... ما أفروديت يا معبودتي؟! يجزني  
وحقّ كمالك أن تتخيّل نفسك في صورة غير ذاتك!  
قال يانغلاص:

- لا عليك من هذا، إنّ أبطال المفلوطي وريدر  
هيجارد يستأثرون بخيالي...

فضحك حسين ضحكة رائعة، وهو يهتف:

- ما أحرى أن يجمعنا كتاب واحد! لماذا تبقى على  
الأرض ما دمتا غفوك هكذا إلى الخيال؟ عليك أنت أن  
تحقّق هذا الحلم، لست كاتباً ولا أريد أن أكون كاتباً،  
ولكن في وسعك أنت أن تجمعنا إذا شئت في كتاب  
واحد.

عائدة في كتاب تكون أنت مؤلفه! صلاة أم تصوّف  
أم جنون؟!

- وأنا؟!

علا صوت بدور فجأة متسائلاً في احتجاج فضجّ  
ثلاثتهم بالضحك، وقال حسين في هجة تنبيه:

- لا تنس أن محجزاً مكاناً لبدور!

فقال كمال وهو يهضم الصغيرة بساعده في حنان:

- ستكونين في الصفحة الأولى...

تساءلت عائدة وهي ترمي بنظرها إلى الأفق:

- ماذا تكتب هنا؟

لم يدر ماذا يقول، فدارى ارتباكاً بضحكة وانية،  
ولكنّ حسين أجاب عنه قائلاً:

- كما يكتب المؤلفون، قصّة غرامية عنيفة تنتهي  
بالموت أو الانتحار!

يقذفون كرة قلبك بالأقدام وهم يلعبون.

- أرجو أن تكون هذه النهاية من نصيب البطل  
وحده؟

قالت عائدة ذلك ضاحكة.

البطل أعجز من أن يتصوّر معبوده قائماً، وتساءل:

- هل حقّ أن تنتهي بالموت أو الانتحار؟

فاجاب حسين ضاحكاً:

- هي النهاية الطيمنية لقصّة غرام عنيف!

أسرته، أجل لم يشك في قوله أنه لا يعبد المال وأنه يؤثر الحياة عليه، وأبى - إلى ذلك - أن يُرجع هذا الخلق إلى وفرة المال وحدها ولكن إلى اتساع آفاق صاحبه أولاً ما دام الثراء لا يحول دون عبادة المال عند الكثيرين ولكنه عُيِّل إليه أن ما ورد في حديثه عن الخديو والألقاب واستقبال الأمراء إنما ورد على سبيل الفخر المدغم في الانتقاد، لا الفخر وحده ولا الانتقاد وحده، كأنما كان يفاخر بها بقلبه ويستقدها بعقله، أو لعله كان يسخر منها حقاً، ولكنه لم يجد غضاضة في التشهير بها أمام شخص لا يشك في أنها تبهره وتفتنه مهياً يكن من مجاراته له في انتقادها. حاد حسين يتسامل في هدوء باسم:

- أيتها سيكون بطل الكتاب، أنا أم عايدة أم بدور؟  
هفت بدور وأنا، فقال لها كمال وهو يشد عليها وأقفنا... ثم أجاب حسين:

- سيبنى هذا سراً حتى يولد الكتاب!

- وأبى عنوان ستختار له؟

- حسين حول العالم!

فصيح ثلاثتهم بالضحك بما ذكروهم هذا العنوان المفتوح باسم تمثيلية «البربري» حول العالم التي كانت تمثَّل في الماسيتيك، وسأله حسين بالمناصفة قائلاً:

- ألم تعرف الطريق إلى المسرح بعد؟

- كلاً، في السينا الكفاية الآن...

قال حسين مخاطباً عايدة:

- إن مؤلف كتابنا غير مسموح له بالسهر خارج البيت إلى ما بعد التاسعة مساءً!

فأقلت له عايدة متهمكة:

- على أي حال فهو خير من الذين يُسمح لهم

بالطواف حول العالم!

ثم التفتت صوب كمال، وسألته برقة خليقة بهجبه إلى رأيها سلفاً:

- أمن العيب حقاً أن يتمنى أب أن ينشأ ابنه على

مشاله في النشاط والجاه؟ أمن العيب أن نسعى في

الحياة إلى المال والجاه والألقاب والقيم العالية؟

أبقي حيث أنت يسعى إليك المال والجاه والألقاب

- شد ما يسخر أبي من أحلامه، إنه يتمنى أن يراه قضائياً أو عاملاً معه في دنيا المال...

- الغضاء... المال! لن أكون قضائياً، حتى إذا نلت الليسانس وفكرت جدتياً في اختيار وظيفة فيكون السلك السياسي وجهتي، أما المال فهل تطعمون في مزيد منه؟ إننا أغنى مما يطيق الإنسان...

ما أصعب أن تكون ثروة الإنسان أعظم مما يطيق، قدماً تحمَّلت أن تكون تاجراً كأيك وأن تملك عزائنة كعزائنته، لم تعد الثروة من أحلامك، ولكن ألا تتمنى أن تكون قادراً على تجريد نفسك للمغامرات الروحية؟ ما أتعس حياة تستغرقها مطالب الرزق.

- إن أسرتي جميعاً لا تفهم أمالي، يروني طفلاً مدللًا، قال غالي مرة متهمكاً على مسمع مني ولا ينتظر أن يكون الذكر الوحيد في الأسرة خيراً من هذا، لم هذا كله؟، لأني لا أعبد المال ولأنني أؤثر الحياة عليه، أرايت؟ إن أسرتنا تؤمن بأن أي نشاط لا يؤدي إلى أي زيادة في الثروة ضرب من العبث الباطل، وقراهم يملعون بالألقاب كأنها الفردوس المفقود، أتندري لم يحبون الخديو؟ طاماً قالت لي ماما: ولو بقي أفضلنا على العرش لنال أبوك الباشوية من زمن بعيد، والمال العزيز يون ويُفق بلا حساب في استقبال أمير إذا شرفنا بزيارته... (ثم وهو يضحك)... لا تنس أن تسجل هذه الغرائب إذا فرغت يوماً لتأليف الكتاب الذي اقترحت عليه.

لم يكد يفرغ من حديثه حتى بادرت عايدة بمخاطبة كمال قائلة:

- أرجو ألا تتأثر في تأليفك بتحامل هذا الأخ العاق حتى لا تنظلم أسرتنا!

فقال كمال بلهجة ساجدة:

- معاذ الله أن ينال أسرتك ظلم حل يدي! وفضلاً عن ذلك فليس فينا قال ما يشين...

فضحكت عايدة في ظفر، على حين ارتسمت على شفتي حسين ابتسامة ارتياح رغم ارتضاع حاجبيه كالداهش. وكان الأثر الذي تركه حديث حسين في نفسه أنه لم يكن صادقاً ككل الصديق في حملته على

- حسين! ...

هتفت به بصوت لم يسمعه من قبل، بصوت نَمَّ عن الكبرياء والاستياء والتأنيب، كأنما أرادت أن تنبيهه إلى أنَّ هذا الكلام لا يجوز أن يقال أو في الأقل أن يجر به حل مسجع من «غريب» فاحرّ وجهه خجلاً وألماً وفترت السعادة التي حلّت في أجوائها ساعة

بالاندماج في هذه الأسرة الحبيبة. وكانت هامتها مرفوعة وشفتاها مضمومتين وفي عينيها نظرة موحية بالتعطيل وإن لم يلح له أثر في جبينها، كانت بالجملة غضبي ولكن كما يخلق بالملكة العريفة أن تغضب، ولم يكن رآها من قبل مضطلة، ولم يكن يتصوّر أنّها تنفعل، فورا إلى وجهها في دعش وارتياح، واستلا إحساساً بالخروج حتّى ودّ لو يتحلّ عدلاً ينتحى به من متابعة الحديث، ولكن لم يمضِ على ذلك ثوان حتّى أفاق من غشيته وراح يتعلّ جمال الغضب الملكي في الوجه الملائكي، ويتلوّق لفحة الكبرياء واستعلاء الإباء ونجهم الساء، ثمّ عادت كأنما تسمعه هو:

- إنَّ صداقة بابا لمن ذكرت تعود إلى تاريخ قديم سابق على خلق الخديو...

عند ذلك رغب كمال صادقاً في أن يسدّ هذه السحابة، فسأل حسين مدايحاً:

- إذا كان هذا رأيك فكيف تحتر سعد لأنّه كان أزهرياً؟

فضحك حسين ضحكته الصافية وهو يقول:  
- إنّي أكره التزوّد إلى الكبراء، ولكن لا يعني هذا أن أحترم العاقبة... إنّي أحبّ الجبال وأزدري القيع، ومن المؤسف أنّ الجبال قلّ أن يوجد في العاقبة... ولكنّ عابدة تدخّلت في الحديث قاتلة بصوت معتدل:

- ماذا تعني بالتزوّد إلى الكبراء؟ إنّه سلوك يُعاب على من ليس منهم، ولكنّ أظننا من الكبراء أيضاً، وليس توذّنا إليهم دون توذّهم إلينا...

فتطوّل كمال للإجابة عن حسين قاتلاً بإيمان:  
- هذا حق لا مرأ فيه...

وما لبث أن نهض حسين وهو يقول:

والقيم العالية كي تسمو جميعاً بلثم موطن قلبيك، كيف أجيب وفي الجواب الذي توثّق انتحاري؟ يا وبع قلبك من مرأ لا يُرام!

- لا عيب في هذا أبداً... (ثمّ بعد انقطاع قصير) على شرط أن يوافق مزاج الشخص! فاستطردت قائلة:

- وأيّ مزاج لا يوافقه هذا؟! والعجيب أنّ حسين لا يزهّد في هذه الحياة الرقيقة طموحاً إلى ما هو أرفع منها، كلّاً سيدي، إنّه يعلم بأن عينا بلا عمل، في فراخ وبطالة! أليس هذا بعجيب؟!...

تبادل حسين ضاحكاً في سخرية:

- ألا يعيش هكذا الأمراء الذين تعبدونهم؟

- لأنه ليس فوق حياتهم حياة يتطلّع إليها، أين أنت من أولئك يا تبتل؟

التفت حسين ناحية كمال قاتلاً بصوت لم يخل من أثر للغيظ:

- الفائدة المثبتة في أسرتنا هي العمل على زيادة الثروة ومصادقة ذوي النفوذ فتأمل من وراء ذلك في رتبة البكورية، وعليك بعد ذلك مضاعفة الجهد لإثراء الثروة ومصادقة النخبة الممتازة حتّى تنال الباشوية وأخيراً أن تجعل حياتك العليا في الحياة التزوّد إلى الأمراء والقتاعة بلئلك ما دامت الإمارة لا تُنال بالعمل أو اللباقة، أتندري كم كلّفتنا زيارة الأمير الأخيرة؟...

عشرات الألوف من الجنيهات ضاهت في ابتياح أثاث جديد ونحف نادرة من باريس!

فعارضته عابدة قائلة:

- لم يُنفق ذلك المال توفّداً لأمر من حيث هو أمير فحسب، ولكن لكونه شقيق الخديو، فالدافع إلى المجاملة كان الولاء والصداقة لا التزوّد والزلفى، وهو بعد شرف لا يماري فيه عاقل.

ولكنّ حسين فمّدي في عناده قاتلاً:

- ولكنّ بابا لا يفتأ يوطّد علاقته بعنلي وشروت وورشدي وغيرهم ممّن لا يمكن أن يتهموا بالإخلاص للخديو!... أليس في ذلك تسليم بالحكمة القاتلة بأنّ الغاية تبرّر الوسيلة؟...



- حسينا جلوسا، هلموا نواصل السير...  
نهضوا فاستأنفوا السير متجهين نحو أبي الهول في  
جزء ظليل انتشرت مجتمعات السحب في أفاقه حتى  
تعانقت وحجبت الشمس بستر شفاف فاكتسى منها  
لوناً أبيض ناصعاً يقطر صفاء وملاحة، والتقوا في  
طريقهم بجاهات من الطلبة والأوربيين نساء ورجالاً،  
فقال حسين مخاطباً عابدة، ولعله أراد أن يسترضيها  
بطريق غير مباشر:  
- إن الأوربيات يفرسن في فستانك باهتمام،  
وأشرفة النور...  
- جفت...  
نلت الشكوى عن ثغر بلود، فقال حسين:  
- أن لنا أن نعود، ما راياكم؟ على أي حال أمامنا  
مسافة طويلة سيجوع في نهايتها من لم يبع...  
ولما بلغوا السيارة أخرج حسين الحقيبة والسلة  
المملوءتين بالطعام، فوضعها على مقدمة السيارة وراح  
يزيح الغطاء عن سلة، غير أن عابدة اقترحت أن  
يتناولوا الطعام على درجة من درجات الهرم، فعضوا  
إليه وارتقوا درجة من درجات الأساس فحطوا الحقيبة  
والسلة في وسطها، وجلسوا على حافتها تاركين  
أرجلهم تتلنى. بسط كمال جريدة كانت في حقيقته  
وطرح عليها الطعام الذي جاء به، دجاجتين ويطاوس  
وجبناً وموزاً وبرتقالاً، ثم تابع يئس حسين وهو  
يستخرج من السلة طعام الملائكة، فإذا به:  
سندوتشات أنيقة، وأكواب أربع، وقرموت... ومع  
أن طعامه كان أدمس فلهذا بدا - في نظريه على الأقل -  
عاطلاً عن حلية الأناقة فساوره قلق وسياء، وتساءل  
حسين وهو يرمق الدجاجتين بنظرة ترحاب عما إذا كان  
صاحبه قد أحضر أدوات مائدة، فأخرج كمال من  
الحقيبة سكاكين وشوكاً وشرع يقطع الدجاجتين  
شرائح، وهنا زعزت عابدة سداة الترموت وراحت  
تملأ الأكواب الأربع، فإذا بها تمثل بسائل أصفر  
كالدهب، فلم يملك كمال أن يسأل داهشاً:  
- ما هذا؟

فضحكت عابدة ولم تجب، أما حسين فقال ببساطة  
وهو يخمز أخته بعينه:

فافتت ثغرها عن ابتسامة حجب وارتياح، وقالت  
بلهجة تنم عن ثقة مكينة بالنفس وهي ترفع رأسها في  
كبرياء لطيف:

- طبعي...!

فضحك حسين وابتسم كمال، ثم قال الأول  
مخاطب الآخر:  
- عابدة تتمدّ مرجحاً للدوق الباريسي في حيناً  
جميعه...  
فقال كمال وهو لا يزال يبتسم:

- طبعي...!

فكافاته عابدة بضحكة رقيقة خافتة كسجع الحمام،  
مسحت عن قلبه الأثر الخفيف الذي تركه النزاع  
الأرستقراطي البديع... العاقل من يعرف لقدمه  
قبل الخطو موضعها. فاصرف أين أنت من هؤلاء  
الملائكة، المصود الذي يشرف عليك من فوق السحاب  
يتعالى حتى على أهله المقربين، فما وجه العجب في  
هذا؟! ما كان ينبغي أن يكون له أهل أو أسرة، فلعله  
أجلهم ليكونوا وسطاء بين ذاته وبين عابديه، أصعب  
به في هدوئه وحلته وتواضعه وتكبره وإقباله وإدباره  
ورضاه وفضبه، كل أولئك صفاته فارو بالمشق قلبك  
الظالم... انظر إليها، إن الرمال تعوق مشيتها فتوانت  
خطتها وأتسمت خطواتها وتمايل أحلامها كالغصن الشمل  
بالنسيم الزاوي ولكنها وهبت الأبصار صورة جديدة من  
عاسن التي تضارع في جمالها مشيتها المعروفة فوق  
فسيفساء الحديقة، وإذا انتفت إلى الوراء فرأيت آثار

ومع أنَّ كلامها لم يختلف في جوهره عن كلام حسين، فإنه نزل على قلبه المتألم بردًا وسلامًا، وإلى هذا فقد صالط منه نفسًا حريصة كلَّ الحرص على ألا تكثر لهم صفوة أو تحلش لهم شعورة، فابتسم في تسامح رقيق، ومضى يتناول طعامه وهو يقول:

- دصولي أكل الطعام الذي آلفه، وأكرموني بالمشاركة فيه.

ضحك حسين، ثم قال مخاطبًا كمال وهو يشير إلى أخته:

- اتفقنا في البيت على أن نقاطع طعامك إذا قاطعت طعامنا، ولكنَّ يجئني إليَّ أنا لم نسنن تقدير ظروفك، حل هذا فأنني سأمسك من ذلك الاتفاق إكرامًا لك، ولعلَّ عابدة أن تقتدي بي...

فنظر كمال نحوها براءه، فقالت باسمه:

- إذا وعدتني بالأمر تسيه الظنَّ بنا...

فقال كمال بابتهاج:

- لا عاش من أسماء بكم الظنَّ...

أكلوا بشهوة عظيمة، حسين وعابدة أولًا ثم تشجع كمال فيما فتابعهما، وكان يقدِّم الطعام بنفسه إلى بدور التي اكتفت بسندوتش وقطعة من صدر الدجاجة ثم أقبلت على الفاكهة، ولم يستطع كمال أن يقاوم الرغبة في استراق النظر إلى حسين وعابدة وهما يأكلان ليرى كيف يتناولن طعامهما، أما حسين فكان يلتهم الطعام دون مبالاة كأنه مفرد، غير أنه لم يفقد طابعه الممتاز الذي يمثل في حضي كمال الأرستقراطية المحبوبة المطلقة على سجيئتها، وأما عابدة فقد كشفت عن أسلوب جديد من الرشاقة والأناقة والتهديب في طيعتها الملاكيَّة سواء في قطع اللحم أو القبض بأطراف الأنازل على السندوتش أو حركات الثغر عند المضغ، ومضى هذا كله يسيرًا هيَّا لا أثر للتكلف أو الغلق فيه، الحقُّ أنه انتظر هذه الساعة يتشوّف وإنكار كأنما كان في شكٍّ من أنها تأكل الطعام كسائر البشر...

ومع أنَّ معرفته لنوع الطعام أزعجت ضميره الدينيَّ أيما إزعاج فإنه وجد في «فراشه» وعروجه عن مألوف ما يتناوله الناس الذين عهدهم مشابهة تربطه بأكمله،

- بيرة...!

- بيرة؟!

هتف كمال كالحائف، فقال حسين بتحدٍّ وهو يشير إلى السندوتشات:

- ولحم خنزير...

- أنت تميت بي! لا أصدِّق هذا...

- بل صدِّق وكُل، يا لك من جحود! جئتكَ بأنفس ما يؤكل والدَّ ما يُشرب!

أصصت حينما كمال عن دهش وانزعاج، وانعقد لسانه فلم يدر ماذا يقول، وكان أشدَّ ما يزعجه أنَّ هذا الطعام والشراب يُجهز في البيت، وبالتالي عن علم أهله ورعاها!

- ألم تلق شيئًا من هذا من قبل؟

- سؤال في غير حاجة إلى جواب.

- إذن ستلوقه لأول مرة، والفضل لنا!

- هذا حال...

- له؟

- له؟ سؤال في غير حاجة إلى جواب أيضًا...

رفع حسين وعابدة ويدور أكوابهم وشربوا جرعات ثم أعلوها، ونظر الأولان إلى كمال مبسمين كأنما يقولان له «أرأيت أنه لم يحدث لنا شيء!»، ثم قال حسين:

- الدين! هه؟ كوب البيرة لا يُسكر، ولحم الخنزير كله لله وفوائد، لست أدري ما حكمة الدين في شئون الطعام!

تقلَّص قلب كمال لوقع هذا الكلام، بيد أنه لم يخرج عن رفقه وهو يقول معاتبًا:

- حسين. لا تجهِّف...

ولأول مرة صدَّ افتتحت المأدبة تكلمت عابدة فقالت:

- لا تسيِّ بنا الظنَّ، نحن نشرب البيرة لفتح النفس ليس إلَّا، ولعلَّ مشاركة بدور لنا تقنمك بحسن نيتنا، أما لحم الخنزير فلنزيد جدًّا، جرِّبه ولا تكن حنبيًّا، لا تزال أمامك فرصة كبيرة كي تطيع الدين فيها هو أهم من هذا كله...

يكن عند بابا وماما معلومات تستحق الذكر، وكانت مريتنا يونانية، وهابدة تعرف عن المسيحية وطقوسها أكثر مما تعرف عن الإسلام، نحن بالقياس إليك في حكم الوثنيين... (ثم خاطبنا هابدة)... إنه يقرأ القرآن والسيرة...!

فقلت بلهجة رثما دللت على شيء من الإعجاب:  
- حقاً؟! براغو، ولكن أرجو ألا تنسي بي الظن أكثر مما ينبغي، فإني أحفظ أكثر من سورة...!

فغمغم كمال كالحالم:

- بديع، بديع جداً، مثل ماذا؟

فكفّت عن الأكل حتى تذكّر، ثم قالت باسمه:

- أعني ألي كنت أحفظ بعض السور، لا أدري ماذا تبقى منها... (ثم رفعت صوتها فجأة شأن من تذكّر شيئاً أمياه طلابه مثل السورة التي يقول فيها إنّ ربنا واحد إلخ...)

ابتسم كمال، وقمّم لها شريحة من صدر الدجاجة فتناولتها شاكراً، ولكنها اعترفت بأنها أكلت أكثر مما تأكل عادة، ثم قالت:

- لو كان الناس يتناولون الطعام عادة كما في الرحلات لاختفت الرشاقة من الوجود...  
فقال كمال بعد تردد:

- إنّ نساءنا لا تستهوين النحافة...

فوافقه حسين على رأيه قائلاً:

- لما نفسها من هذا الرأي، ولكن هابدة تمدّ نفسها باريصة...!

عفا الله عن استهانة معبودي، شدّ ما أزعجت نفسك المؤمنة، كما أزعجتها من قبل خطرات الشك التي صادفتها في مطالعتك، هل تستطيع أن تلقى استهانة المعبود بما لقيت به من خطرات الشك من نقد وغضب؟ هيهات، نفسك لا تطوي لها إلّا على الحب الخالص، حتى عيوبها فانت تحبها، عيوبها؟ لا حوب لها ولو كان ما بها خفة في الدين واجترأ على المحرمات، تلك عيوب لو رجعت في غيرها، أنشئ ما أنشأه ألا تروقي في حفي حسنة بعد اليوم إذا لم يكن بها خفة في الدين واجترأ على المحرمات، هل منك القلق؟

فارتاح لها خياله الخائر المتسائل، وتتلوه شعوران متناقضان، قلق بادئ الأمر وهو يواها تقوم بهله الوظيفة التي يشترك فيها الإنسان والحيوان، ثم داخله شيء من الارتياح لما قرّبت هذه الوظيفة بينه وبينها ولو درجة واحدة! على أنّ نفسه لم تعفه من علامات الاستهزام عند هذا الحدّ، فوجد لها تدفقه إلى التساؤل عما إذا كانت تؤدّي سائر الوظائف الطبيعية الأخرى؟ لم يسمعه أن يقول لا، ولم يبين عليه أن يقول نعم، فأضرب عن الإجابة وهو يعاني إحساساً لم يعرفه من قبل تضمّن - فيما تضمّن - احتجاباً صامتاً على نواويس الطبيعة!

- إني مصعب بشعورك الدنيوي ومشائيتك الأخلاقية...!

نظر كمال إليه في حذر المرتاب، فقال حسين بتوكيد:

- عن صدق تكلمت لا عن دهابة...

ابتسم كمال في حياء، ثم أشار إلى ما تبقى من السندوتشات والبرية قائلاً:

- بالرغم من هذا، فإنّ احتفالكم بشهر رمضان يفوق كلّ وصف، أنوار تضاء، قرآن يتلى في جيو الاستقبال، المؤنّنون يؤنّنون في السلامك، هه؟  
- إنّ أبي يحيي ليالي رمضان حياً وكرامة واستمساكاً بالتقاليد التي أتبعها جدّي، وإلى هذا فهو وماما يوظبان على الصوم...

قالت هابدة باسمه:

- وأنا...!

فقال حسين بجذّ أريد به السخرية:

- هابدة تصوم يوماً واحداً من الشهر، ورثاً أفلست قبيل العصر!

فقالت هابدة على سبيل الانتقام:

- وحسين يأكل في رمضان أربع وجبات يومياً، الوجبات الثلاث المعتادة ووجبة السحورا!  
فقال حسين ضاحكاً، وقد كاد الطعام يسقط من فيه لولا أن رفع رأسه بحركة سريعة:  
- أليس غريباً ألا نعرف من ديننا شيئاً ذا بال؟! لم

استغفر الله لنفسك ولها، وقل إنَّ هذا كُلُّه عجيب،  
عجيب كأبي الهول، ما أشبه حَبَّكَ به أو ما أشبهه  
بحَبِّكَ، كلاهما لغز وغلودا!

أضرغت عابدة آخر ما في الترموث في الكوب  
الرابع، ثم قالت لكالم بإفراء:

- هلَّا خَبَرْتَ رأيك؟ ما هي إلَّا شراب منعش...  
فابتسم ابتسامة اعتذار وشكر، وعند ذاك خطف  
حسين الكوب ورفعه إلى فيه، وهو يقول:

- أنا بدل كمال... (ثم وهو يتأوه)... يجب أن  
نمسك ولَّا متنا امتلاء...

فرخوا من الطعام، ولكن فضل منه نصف دجاجة  
وثلاثة سندوتشات، فخطر لكالم أن يوزعها على  
العلمان اللذين يتجوّلون في المكان، غير أنه رأى عابدة  
وهي تمعد السندوتشات مع الأكواب والترموت إلى  
السلة، فلم يرَ بلداً من أن يعيد بقية طعامه إلى الحقيبة  
وقد وردته ذكرى حديث إسحاق لطيف عن الروح  
الاقتصادية لال شدّاد! وثبَّ حسين إلى الأرض وهو  
يقول:

- لدينا مفاجأة سائرة لك، أحضرنا معنا فونوغرافاً  
وبعض الأسطوانات لتساعدنا على المضم، نستمع  
أسطوانات أوروبية من غنارات عابدة وأخرى مصرية  
مثل «حزّز فزّز»، و«بعد العشي»، و«حوود من  
هنا»... ما رأيك في هذه المفاجأة؟...

## - ١٨ -

انتصف ديسمبر، غير أنَّ الجوَّ لم يماز حدَّ  
الاعتدال إلَّا قليلاً على رغم أنَّ الشهر حلَّ بمعاينة من  
الرياح والأمطار والبرد القارس. وكان كمال يقترّب من  
سراي آل شدّاد في خطوات متحمدة سعيدة طارحاً  
معطفه المطريّ على ساعده الأيسر وقد دلَّ مظهره  
الأنيق - خاصّة مع ملاحظة ميل الجوّ إلى الاعتدال -  
على أنّه جاء بمعطفه استكمالاً لمظاهر الأناقة والوجاهة  
أكثر منه حيطة لتلقّب الجوّ، وكانت شمس الضحى  
ساطعة فرجع عنده أنَّ مجلس الأصدقاء سينعقد في  
كشك الحديقة - لا في النوى حيث يجتمعون في الأيام

الباردة - وأنَّ الفرص بالتالي ستسمح لرؤية عابدة التي  
لا يتاح لقاءها إلَّا في الحديقة، عل أنَّ الشتاء إذا كان  
يحرّم من لقاءها في الحديقة، فإنّه لم يحلّ دون رؤيتها  
في النافذة المشرقة على المسرّ الجانبيّ للحديقة أو في  
الشرقة المطلّة على مدخل القصر، في هذه أو تلك،  
عند مقلّمه أو حال منصرفه، ربّما لمحها وهي معتمدة  
الحافة برفقتها أو مقترنة راحتها بذقنها، فيرلح نحوها  
هنيهة حائثاً رأسه في ولاء العابد، فترة تحيَّته بابتسامة  
رفيقة ذات وميض يغنيء له أحلام اليقظة وأحلام  
النام. عل أمل رؤيتها اختلس من الشرقة نظرة وهو  
يدخل القصر، ثمّ من النافذة وهو يقطع المسرّ الجانبيّ  
ولكنّه لم يبعدها لا في هذه ولا في تلك، فأنجبه - وهو  
يمشي النض باللقاء في الحديقة - نحو الكشك حيث  
رأى حسين جالساً بمفرده على غير العادة. تصافحا  
وقلبه يشرق ببهجة المودة التي تبعثها في نفسه مطالعة  
هذا الوجه الصبح، أليف روحه وعقله، واستمع إليه  
وهو يرحّب به في لهجة المرحّة الصافية قائلاً:

- أهلاً بالمعلّم! الطربوش والمعطف! لا تنس في  
المرة القادمة الكوكية والعصا، أهلاً... أهلاً...

خلع كمال طربوشه ووضعه على المنضدة، وطرح  
المعطف على كرسيّ وهو يتساءل:

- أين إسحاق وحسن؟

- إسحاق سافر إلى البلد مع والده فلن تراه اليوم،  
أمّا حسن فقد تلقى في صباحاً بأنّه سيتأخّر ساعة أو  
أكثر لكتابة بعض المحاضرات... أنت تعلم أنّه

طالب مثاليّ مثل حضرتك، وهو مصمّم على نهل  
الليسانس هذا العام...

جلسا على كرسيّين متقابلين مولين القصر ظهرهما  
وقد وعد انفرادهما كمال بجلسة هادئة لا شقاق فيها،  
جلسة يرحب صدرها بالتأملات غير أنّها ستخلو في  
الوقت نفسه من النضال المتعب للليل الذي يدعو  
إليه حسن سليم، والملاحظات التهكميّة اللاذعة التي  
يعثرها إسحاق لطيف دون حساب، استورد حسين  
قائلاً:

- أنا على العكس منك يا طالب رديء، أجل إنّي

المنصب إلى حدّ التقليس، فلم يكن بدّ من أن يتبادل المنصب الرفيع والمال الوفير نظرات الشزر أحياناً. ألقى حسين على الحديقة المتزامية أمام ناظره نظرات هادئة يشوبها شيء من الأسف، فقد تجرّدت جداول النخيل وتعرّت شجيرات الورد، وشجبت الحفرة اليانعة واختضت ابتسامات الزهور من لغور البراعم، ويدت الحديقة غارقة في الحزن حيال زحف الشتاء، ثمّ قال وهو يشير أمامه:

- انظر إلى فعل الشتاء، هذه آخر جلسة لنا في الحديقة، ولكنك من هواة الشتاء...  
إنّه يهوى الشتاء حقاً، ولكنّ هائلة أحبّ إليه من الشتاء والصيف والحريف والربيع ممّا، فلن يغفر للشّاء حرمانه من مقابلات الكشك السعيدة، غير أنّه قال موافقاً:

- الشتاء فصل جميل وقصير، ولي البرد والغيم والرياح حياة يستجيب لها القلب.  
- يجئني إلّي أنّ هواة الشتاء يكونون عادة من ذوي النشاط والاجتهاد، فهكذا أنت، وهكذا حسن سليم...

ارتاح كيال إلى هذا الشتاء ولكنّه أراد أن يتحقّق - من دون حسن سليم - بأكثره، فقال:  
- ولكنّي لا أعطي وإجباتي المدرسيّة إلّا نصف نشاطي فحسب، الحقّ أنّ حياة العقل أوسع من المدرسة بكثير...

هزّ حسين رأسه مستحسنًا، وقال:  
- لا أظنّ أنّ ثمة مدرسة يمكن أن تستهلك الوقت الطويل الذي تكرّسه للعمل يوميًا... عل فكرة: أنا لا أوافقك على هذا الإسراف وإن أكن أغبطك أحيانًا، خبّرني ماذا تقرأ الآن...؟

ابتهج كيال بهذا الحديث الذي كان - بعد هائلة - أحبّ شيء إلى نفسه وأجاب قائلاً:

- أستطيع أن أقول لك الآن: إنّ مطالعاتي أخذت تتبع نوعاً من النظام، لم تعد قراءة حرّة كيفما أشفق ما بين قصص مترجمة ومختارات شعرية ومقالات نقدية، أصبحت ألتصّل سبيلي على قدر من الضوء لا ينأس

أستمع إلى المحاضرات مفيداً من قدرتي على تركيز الانتباه، غير أنّي لا أكاد أطيق مراجعة كتيبي المدرسيّة، قالوا لي كثيراً: إنّ دراسة القانون تتطلب ذكاءً نادرًا، الأخرى أن يقولوا: إنّها تتطلب غباءً وصبرًا. حسن سليم طالب مجدّد شأن الذين يحلوهم الطموح، طالما تسادلت عمّا يجعله يحمل نفسه فوق ما تطيق من العمل والسهر، وهو لو شاء - كما مثاله من أبناء المستشارين - لفتح من العمل بما يكفل له النجاح اعتماداً على نفوذ أبيه الذي سيضمن له في النهاية نيل الوظيفة التي يتطلّع إليها، فلم أجد تفسيراً لذلك إلّا كبرياءه الذي يجيب إليه التفوق ويدفعه إليه دفعا لا هواة فيه، أليس كذلك؟ ما رأيك فيه؟

قال كيال في صدق:

- حسن شابّ جدير بالإعجاب لحلقه وذكاؤه...  
- سمعت أبي يقول مرّة من أبيه سليم بك صبري: إنّهُ مستشار فعّد عادل، فيها عدا القضايا السياسيّة...  
صادف هذا الرأي هوى في نفس كيال، لما سبق إلى علمه من تشييع سليم بك صبري إلى الأحرار الدستوريين، فقال سائلاً:

- معنى هذا أنّه قانونيّ بارع، ولكنّه خير أهل للقضاء.

فضحك حسين ضحكة عالية، وقال:

- نسيت أنّي أعطاطب وفدياً...

فقال كيال وهو يرفع منكبيه:

- لكنّ والدك ليس وفدياً! تصوّر أن يجلس سليم بك صبري للمفصل في قضية عبد الرحمن فهمي والنقراشي!

هل صادف قوله عن سليم بك صبري ارتياحاً في نفس حسين؟ نعم، هذا يبدو جلياً في العينين الجميلتين اللتين لم تألفا الكذب أو الرياء، ولملّه راجع إلى المنافسة التي تقوم عادة - مهما اتسمت بالتهذيب وآداب اللياقة - بين الأنداد، وقد كان شدّاد بك مليونيراً ومن رجال المال ذوي المكانة والجله فضلاً عن صلته التاريخيّة بالخير حَيّاس، غير أنّ سليم بك صبري مستشار في أكبر هيئة قضائيّة وفي بلد تفتتها

بالإفلاخ ولكنك تريد أن تفكر وأن تكتب، ولن يتاح لك - فيما أعتقد - أن تكون فيلسوفاً وأديباً في آنٍ...  
- لن ينقطع ما بيني وبين الأدب، إنَّ حبَّ الحقيقة لا يناقض تذوّق الجبال، ولكنَّ العمل شيء والراحة شيء آخر، وقد عزمت على أن أجعل الفلسفة عملي والأدب راحتي...

فضحك حسين فجأة، ثم قال:  
- هكذا تتملّص من تعهدك لنا بأن تكتب عنا قصّة جامعة!

فلم يملك كمال أن يضحك قائلاً:  
- ولكنّي أأمل أن أكتب يوماً عن «الإنسان» فيشملكم ضمناً!  
- لا يبتغي الإنسان بقدر ما يبتغي أشخاصاً، انظر حقّ أشكوك إلى عايدة!

خفق قلبه لدى سماع الاسم غفقة تهمّة وحنان وشوق، فانقلب نشوان كأنما قد نزل روحه بلحن معريد بالطرب، هل يرى حسين حقاً أنّه ابن من الأمر ما يستأهل عليه مؤاخلة عايدة؟ ما أجمل حسين! كيف غاب عنه أنّه ما من شعور يستشره أو فكرة يتأملها أو شوق يستشره إلّا وأفاقها تفرّق بيهاء عايدة وروحها!  
- انتظر أنت، وسوف تثبت لك الآيام أنّي لن أنحلّ عن عهدي ما حييت...

ثمّ متسائلاً بعد قليل بلهجة جدية:  
- لم لا تفكر في أن تكون كاتباً؟ كلّ الظروف الراحنة والآتية تنهّ لك التفرّغ لهذا الفنّ!  
فهزّ حسين كتفيه استهانة، وقال:  
- أكتب ليقرا الناس؟ ولم لا يكتب الناس لأقرا أنا؟

- أيّما أعظم شأنًا؟  
- لا تسألني أيّما أعظم شأنًا، ولكن سألني أيّما أسعد حالاً، إلّى أعدّ العمل لمة البشرية، لا لأني كسول، كلّاً، ولكن لأنّ العمل مضيق للوقت وسجن للفرد وحائل منيع دون الحياة، الحياة السعيدة هي الفراغ السعيد...

به، فعمدت أخيراً إلى تخصيص ساعتين كلّ مساء للقراءة في دار الكتب وهناك أنظر في دائرة المعارف باحثاً عن معاني الكلمات الغامضة الساحرة، كالأدب والفلسفة والفكر والثقافة، مسجّلاً في الوقت نفسه أسماء الكتب التي تصادفني، إنّه عالم بديع تلوب فيه النفس شغفاً واستطلاعاً...

كان حسين يصغي إليه بانتباه واهتمام طارحاً ظهروه على مسند الكرسيّ الخيزران، وأضماً يديه في جيبي جاكته الكحلّية الإنجليزية، وعلى شفثيه المميّتين ابتسامة مشاركة وجدانيّة صافية، قال:

- جبل جدّاً، بالأمر كنت أحياناً تسألني عمّا ينبغي أن يقرأ، اليوم جاءت نوبتي لأسألك أنا، هل وضع لك الطريق؟  
- رويداً... رويداً، يظلب على ظني أنّي سألجحه نحو الفلسفة!

ارتفع حاجبا حسين كالتسائل، ثمّ قال بآسأ:  
- الفلسفة؟ إنّها كلمة مثيرة، حذار أن تذكرها على مسمع من إسماعيل! طالما اعتقدت أنّك ستجّه نحو الأدب...

- لا لوم عليك، الأدب متعة سامية بيد أنّه لا يملا عيني، إنّ مطلبي الأوّل الحقيقة، ما الله، ما الإنسان، ما الروح، ما المادّة؟ الفلسفة هي التي تجمع كلّ أولئك في وحدة منطقية مضنية كما عرفت أخيراً، هذا ما أروم معرفته من كلّ قلبي، وفله هي الرحلة الحقيقية التي تُؤدّ رحلتك حول العالم بالقياس إليها مطلباً ثانوياً، تصوّر أنّه سيمنكني أن أجد أجوبة شافية لهذه المسائل جيّهاً...

نور الشوق والحماس وجه حسين وهو يقول:  
- هذا بديع حقاً، لن أتوان من مرافقتك في هذا العالم الساحر، بل لقد طالمت بالفعل فصولاً عن الفلسفة الإضرقيّة وإن لم أخرج منها بشيء يمتدّ به، لست أحبّ الاندفاع مثلك، ولكنّي ألتفت زهرة من هنا وزهرة من هناك وأسلك بين هذا وذاك سبيلاً، والآن دهني أصارحك بأنّي أخاف أن تقطع الفلسفة ما كان بينك وبين الأدب من أسباب، فأنت لا تقنع

صمت لم يسمع خلالها إلا خفيف الفصون وخشخشة أوراق جالفة متتارة وزقزقة عصفور، فبدأ المكان فيها لمحت عيناه من أرضه وسياه وأشجاره وسوره البعيد الفاصل بين الحديقة والصحراء وقصّة المعبودة المسيلة على جبينها والنور البليغ المنبثق من حور مقلتها، بدأ كل أولئك كآله منظر بهيج من حلم سعيد، لم يدري - على وجه اليقين - إن كان حقيقة ماثلة أمام ناظره أم خيالة ملوحة حياك ذاكرته، حتى سجع الصوت الرخيم وهو يقول غمطاً بدور فيها يشبه التحذير: «لا تضايقني يا بدور» فكان جوابه أن ضمّ بدور إلى صدره قائلاً: «إن تكن هذه هي المضايقة فما أحبها إلى نفسي»، ودنا إليها وفي عينيه أشواق، وراح يتمثل منظرها أمناً هذه المرة من الرقابة متمناً فيها التآكل كأنها يستكنه أسرارها وطبع على صفحة غمّائه ملاحظها ورموزها، فناه في سحر المنظر حتى بدأ ذاهلاً أو غائباً، وما يدري إلا وهي تسامد:

.. ما لك تنظر لي هكذا...؟!!

فأفاق من غيبته، وتحلّى في عينيه الارتباك فابتسمت متسائلة:

- هل تريد أن تقول شيئاً؟  
هل يريد أن يقول شيئاً؟ إنه لا يدري ماذا يريد، حقاً إنه لا يدري ماذا يريد، وتسامد بدور:

- هل قرأت في عينيّ هذا؟  
أجابته وثغرها يفتّر من ابتسامة غامضة:

- نعم...  
- ماذا قرأت فيها؟  
فرلعت حاجبيها كالنسيجة، وهي تقول:

- هذا ما أزدت معرفته...

أبوح لها بسرّه المكتون قائلاً بكلّ بساطة «أحبك» وليكن ما يكون! لكن ما جدوى البوح؟ وماذا يكون من أمره لو قطع الاعتراف ما بينه وبينها من صداقة ومودة - كما هو الراجح - إلى الأبد؟! وانتبه - وهو يتأمل - إلى النظرة التي تلوح في عينيها الجميلتين، نظرة مطمئنة شديدة الثقة بنفسها جريئة لا يتورعها ارتباك أو عجل، نظرة كأنها تحيط عليه من علّ بالرغم

حده كمال بنظرة دلّت على أنه لم يأخذ قوله مأخذ الجذّ، ثم قال:

- لا أدري ماذا كانت تكون حياة الإنسان لولا العمل؟! إن ساعة من الفراغ المطلق تنقضي أثقل من عام حافل بالعمل...  
- يا للتأسف! إن صديق قولك نفسه هو ما يؤكّد هذه التأسف، هل حسبتي أطيّق الفراغ المطلق؟ كلّاً والسفاه، لا أزال أشغل وقتي بالنافع والضارّ، ولكنّي أمل يوماً أن أحاشر الفراغ المطلق معاشره سعيدة...  
همّ بالتعليق على قوله، ولكن جاء صوت من ورانها يتسامد «فهم يتحدثان يا تري»، صوت أو باخريّ نغمة حلوة ما إن تترقّد في سمعه حتى تعزف أوتار قلبه مجاورة لآها من الأصاقي كأنها عناصر مؤتلفة في لحن واحد وسرّحان ما خلّت نفسه من متوالب الفكر فغمرها فراغ مطلق - ترى أهو الفراغ المطلق الذي يحلم به حسين؟ - هو ذاته لا شيء، ولكنّه السعادة كلّها...

والثقت إلى الرّواء، فرأى عابدة قادمة على بعد خطوات تتقدمها بدور حتى وقفنا أمامهما، كانت ترتدي فستاناً كوثنيّاً وسترة صوفية زرقاء ذات أزوار ملقّبة، وقد تجلّت بشرتها السمراء في صمغ السياه الصافية وصفاء الماء المقطر. وهرعت بدور إليه فتلقّتها بين ذراعيه وضمتها إلى صدره كأنها ليواري في عناقها ما اعتراه من هيبان، وعند ذاك جاء غلام مسرعاً فوقف أمام حسين وهو يقول بأدب «التليفون». فقام حسين مستأذاً، ومضى نحو السلامك والخدام يتبعه...

وهكذا وجد نفسه معها على انفراد - وجود بدور لم يكن ليغيّر من هذا المعنى - لأول مرة في حياته، تسامد في إشفاق: ترى أتبقى أم تلعب؟ ولكنّها تغمّست عيطوتين حتى صارت تحت مظلة الكشك جاعلة المنضدة بينا وبينه، فدعاها إلى الجلوس بإشارة من يده، ولكنّها هرّت رأسها بالرفض باسمه، فقام واقفاً ورفع بدور بين يديه فأجلسها على المنضدة، ولبت برّت رأس الصغيرة في ارتباك وهو يبذل كلّ قوّته كي يملك عواطفه ويتغلّب على انتعاليه... مضت فترة

المتعلق وحده، فلو صيغ منطق لوجب أن يكون أسعد الناس حبّه وعيونه، ولكن، أين هو من ذلك؟! الحقُّ أن تاريخ حبّه الطويل لم يعلم لحظات أمل خلت كان يغني ظلمات قلبه بسعادة وهمية على أثر ابتسامة حلوة يجد بها المحبوب أو كلمة عابرة قابلة للتأويل أو حلم سعيد عقب ليلة فكر وسهاد ولوإذا بقول سائر له احترامه في نفسه مثل «من القلب للقلب رسول»، فكان يتعلّق بالأمل الخلب في إصرار الهائس حتّى تمليه الحقيقة إلى وجهه، ها هو الساعة ينطق بهذه الجملة الساحرة الحاسمة كالدماء المرّ ليتداوى بها مُستبْكِلًا من كواذب الآمال، وليعرف على وجه اليقن موضعه أين يكون، وليأْمُرْ جَوَابًا على سؤالها الذي تحدّته به، هتفت معبودة ومعلّبة بلهجة المتعصر:

- حُيِّت...!

واستحكم الصمت مرّة أخرى، فعاود مسمعيه حفيف الغصون وعشخشة الأوراق الجافّة وزقزقة العصفور، غير أنّه تلقّاها هذه المرّة بوجود فائر وقلب خائب، ولاحظ أنّ حينها تنفّصانه بإيمان لا داعي له، وأنّ نظريتها تزداد جرأة وثقة وما يوحى بالعبث، وأتيا أبعد ما يكون عن منظر أنثى تصدّعت للذكر، ف شعر بغمز في قلبه وبرودة، وتساءل هل قُدِّر له أن ينفرد بها لتقبّض أحلامه دفعة واحدة؟! ولاحظت قلعه، فضحكت ضحكة لاهية، وقالت في دهابة وهي تومئ إلى رأسه:

- لا يبدو أنّك شرعت في تربية شعرك؟

فقال باقتصاب:

- كلّ...

- ألا يروقك ذلك؟

وهو يحدّ بوزّه باستخفاف:

- كلّ...

- قلنا لك إنّه أجل...

- هل ينبغي للرجل أن يكون جميلًا؟...

فقالت باستغراب:

- طبعًا الجمال محبوب، سواء في الرجال

والنساء...

من أتيا في مستوى نظره، فلم يرتجح لها وزادته تردّدًا، ماذا وراعا يا ترى؟ وراعا فيها رأى شعور بالاستهانة، وربما العبث كأنها هي بالغ ينظر إلى طفل، ولعلها لم تحلّ كذلك من تعال لا يمكن أن يتردّ فارق السنّ وحده إذ لم تكن تكبره إلّا بسمين على أكثر تقدير، أفلا تكون هذه النظرة الخليفة بأن يلقبها هذا القصر الشامخ بشارع السرايات على البيت القديم بين القصرين؟ ولكن لمّ لم يلمحها في حينها من قبل ذلك؟ ربّما لأنّها لم تنفرد به من قبل أو لأنّه لم يتج له أن ينعم فيها النظر إلّا هذه الساعة، وآله ذلك وأحزنه حتّى فترت نشوته أو كادت. ورفعت بدور نحوه يديها داعية إياه لحملها، فتناولها في حضنه، وإذا بسائدة تقول:

- يا للمعجب!، لماذا تحبّك بدور كلّ هذا الحبّ؟

فقال وهو ينظر في حينها:

- لأنّي أكثر لها مثله وأكثر...

فتساءلت كالمرتاب:

- أهذا قانون يُركن إليه؟

- الحكمة السائرة تقول «من القلب للقلب رسول»...

فجعلت تنقر المنضبة بالملتها وهي تتساءل:

- هب فتاة جميلة أحبّها كثيرون، فهل تحبّهم جميعًا؟

أرني كيف يصدق قانونك في هذه الحال...

فقال وقد أنهله سحر الحوار عن كلّ شيء حتّى أحزانه:

- يكون من أمرها أن تحبّ أحدتهم حبًا لها!...

- وكيف تفرّغ من الآخرين؟...

لو يدوم هذا الحوار إلى الأبد!

- أحيك نسرة أخرى إلى الحكمة السائرة «من

القلب للقلب رسول»!

فضحكت ضحكة مقتضبة مثل رنة الوتر، وقالت في تحدّ:

- لو صيغ هذا ما خاب عجب صادق في حبّه! فهل

هذا صحيح؟

صدمه قولها كما تصدم حقائق الحياة المستقيم إلى



فأغرقت عايدة في الضحك وهي تميل برأسها إلى الورداء، ولم يملك هو أيضًا إلا أن يضحك، ثم سأل بدور مداراة لأرتياكه:

- وأنت يا بدور، هل هالك أنفي؟ ...

وتراسى إليهم صوت حسين وهو يهبط سلم الفراندا، ففئرت عايدة من لهجتها فجأة، وقالت له بصوت جمع بين الرجاء والتحذير:

- إلهك أن تزعل من مزاحي! ...

عاد حسين إلى الكشك، فجلس على كرسيه داعيًا كيال إلى الجلوس فالتفتى به - بعد تردد - واضعًا بدور على حجره، غير أن عايدة لم تلبث بعد ذلك إلا قليلًا فأدخلت بدور وحيتها، ثم انصرفت وهي تلحظ كيال بنظرة ذات معنى غاص، وكأنها تكرّر لمحديره من الزعل، لم يجد من نفسه أي رغبة في استئناف الحديث فالتفتى بالإصغاء أو بالنظائر بالإصغاء مع المشاركة فيه بين حين وآخر بسؤال أو تعجب أو استحسان أو استهجان للإثبات وجوده ليس إلا، وكان من حسن حظه أن عاد حسين إلى طرق موضوع قديم لا يتطلب انتباهًا أكثر مما عنده، وهو رغبته في السفر إلى فرنسا ومعارضة أبيه التي يأمل في التغلب عليها قريبًا. أما الذي كان يشغل قلبه وفكره ممًا فهو ذلك المظهر الجليد الذي تبدت به عايدة في الدقائق التي جمعت بينها على انفراد أو على شبه انفراد، ذلك المظهر الموسوم بالاستخفاف والسخرية والقسوة، أجل القسوة! فقد عشت به بدون رحمة وأعملت فيه دعابتها كما يُعمل المصور ريشته في الحلقة الأدمية ليستخرج منها صورة كاريكاتورية فذة في قبحها وصدقها ممًا.

ذكر ذلك المظهر ذاهلاً، ومع أن الألم كان يسري في روحه كما يسري السم في الدم ناضراً فيها ظلًا قليلًا من القنوط والكتابة، فإنه لم يجد في نفسه سخطًا أو غضبًا أو احتقارًا له، أليس هو صفة جديدة من صفاتها؟ بل، لعله أن يكون غريبًا كرمها بالرمطانة وشرب البيرة وأكل لحم الخنزير، ولكنه ككل أولئك صفة منسوبة إلى ذاتها، خلقية بأن تتشرف بهذا الاتساع وإن عُدت في غيرها نقيصة أو استهتارًا أو

هم بأن يردّد عضوظاته مثل «جمال الرجل في أخلاقه» الخ، ولكن غريزة من غرائزه أوحى إليه بأن مثل هذا القول - مع صدوره عن شخص في صورته - لن يلقى عند معبوده إلا الهزء والسخرية، فقال وهو يعاني وخيرًا في قلبه داراه بضحكة مصطنعة:

- لست من رايك. ...

- أو لعلك تغر من الجبال كما تغر من البيرة ولحم الخنزير!

فضحك ضحكة يعالج بها بأسه وفهره، فعادت تقول:

- الشعر الطبعي غطاء طبيعي أحفظه أن رأسك في حاجة إليه، ألا تعلم أن رأسك كبير جدًا؟  
فو الراسين! أنسيت ذلك النداء القديم؟ ... يا للنعاسة!

- هو كذلك ...

- له؟ ...

أجاب وهو يمز رأسه في إنكار:

- سلبه بنفسك فأنتي لا أدري.

ضحكت ضحكة خافتة، أعجبها صمت، معبودك جميل فائن ساحر، ولكنه ذو جبروت كما ينبغي له، فُت جبروته وتلغى شق أنواع الألم. ولم ترعه فيما بدا، لم نزل عنانها الجميلتان تصعدان البصر في وجهه وتصويان حتى ثبتتا على ... أجل على أنفسه! ... هنالك وجد قشعرية في أعماقه حتى فُت شعره وغض البصر وهو خائف يترقب، وسمعها تضحك، فرفع عينيه وهو يتساءل:

- ماذا يُضحكك؟

- ذكرت أمورًا مثيرة طالعنها في مسرحية فرنسية معروفة، ألم تقرأ «سيرانو دي جبراك»؟.

أنسب الأوقات للاستخفاف بالألم وقت يزيد فيه الألم عن حده، قال بهوده واستهانة:

- لا داعي للمداراة، أنا أعرف أن أنفي أكبر من رأيي، ولكن أرجو ألا تسألني مرة أخرى «له؟» عليه بنفسك إن شئت. ...

وإذا ببذور غمّ يلهها فجأة فتقبض على أنفه،

معصية، ولا ذنب لها هي أن نشأ عن صفة من صفاتها  
 ألم في قلبه أو يأس في نفسه ما دام اليبس عيه هو لا  
 عيبها هي، وهل كانت هي التي كثرت رأسه أو  
 غلظت أنفه؟ أو هل تراها جارت بدهاياتها على  
 الصدق والواقع؟ لم يحدث شيء من هذا فانتفى عنها  
 اللام وحق عليه الألم، وعليه أن يتقبله بتسليم صوفي  
 كما يتقبل العابد القضاء وهو أصدق ما يكون إيماناً بأنه  
 قضاء عادل مهما يكن من قسوته، وأنه صادر عن  
 معبود كامل لا مظنة في صفة من صفاته أو إرادة من  
 إراداته... هكذا خرج من التجربة القصيرة العنيفة  
 التي صهرته منذ دقائق وهو أشد ما يكون ألماً وحداً  
 ولكن دون أن ينال ذلك من قوة حبه وافتنانه  
 بالحبيب!... الساعة يحظى بمعرفة ألم جديد، ألم  
 الرضى بحكم قاس. ففى عليه بعدم الأهلية، كما  
 عرف من قبل - من طريق الحب أيضاً - ألم الفراق وألم  
 الإغضاء وألم الوداع وألم الشك وألم اليأس، وكما عرف  
 أيضاً ألماً يُحتمل وألماً يُستلذ وألماً لا يسكن مهما قدم  
 له من قرايين التأوهات والدموع، كأنما أحب ليعقفه في  
 معجم الألم، ولكنه على التسارع الشرر المتطير من  
 ارتطام آلامه يرى نفسه ويعرف أشياء، ليس الله  
 والروح والمادة - فحسب - ما يجب أن تعرفه، ما  
 الحب؟... ما البغض؟... ما الجسال؟... ما

الفتح؟... ما المرأة؟... ما الرجل؟... كل أولئك  
 يجب أن تعرف أيضاً، أقصى درجات الهلاك تماس أولى  
 درجات النجاة، اذكر ضاحكاً أو اضحك ذاكرة أنك  
 هممت بالإلفاض إليها بمكنون سر؟ اذكر باكياً أن  
 أحسب نوتردام ملاحيته وحباً وهو يمنو عليها  
 مواسياً، وأنه - أحسب نوتردام - لم يشتر عطفها  
 البريء إلا وهو يلفظ آخر أنفاسه الأخيرة، وذلك أن  
 نزعل من مزاحي؟! حتى راحة اليأس تضر بها  
 عليك، فليفصح للمعبود عن ذات نفسه هلنا نخرج من  
 جحيم الحيرة ونطمئن في قبر اليأس، هيئات أن يقتلع  
 اليأس جذور الحب من قلبي، ولكنه على أي حال  
 مناجاة من كواذب الآمال!...  
 والتفت حسين نحوه ليسأله عن سر صمته، ولكنه

### - ١٩ -

غادر حسن وكمال سراي آل شذاد والساعة تدور في  
 الواحدة، وهم كمال بالفتراق عن صاحبه أمام باب  
 القصر، ولكن الآخر قال له برجاء:

- هلاً تمسّيت معي قليلاً من الوقت!...

فلقى كمال الدعوة عن طيب خاطر، وسارا في  
 شارع السرايات جنباً إلى جنب... كمال بسانته  
 الطويلة، وحسن لا يكاد يبلغ رأسه منكب صاحبه، لم  
 يكن يخلو من تساؤل! خاصة وأن الوقت لم يكن  
 أنسب الأوقات للمشي الذي ليس وراءه هدف، وما  
 يدري إلا وحسن يلتفت إليه متسائلاً:

- فهم كتبنا تحفلاً؟

فاجاب كمال وهو يزداد تساؤلاً:

- في أمور شتى كالعادة، سياسة... ثقافة الخ...  
 فكانت مفاجأة حقاً أن يقول له بصوته الهادئ  
 المترن:

- أعني أنت وعالمية!...

فاستولت الدهشة على كمال، حتى لبث ثواني لا  
 يتكلم، ثم تمالك نفسه فسأله:

- كيف عرفت هذا ولم تكن معنا؟

فقال حسن سليم دون أن يلوح في وجهه أي  
 تغير:

- جئت في أثناء حديثكما، فترامى لي أن أذهب إلى  
 حين حتى لا أقطع عليك!...

ترى أكان يسلك مسلكه لو وجد نفسه في موقفه؟  
 واشتدّت به الحيرة وخالطه شعور بأنه مقبل على حديث  
 مثير فخي شجون، قال:

- لا أدري ماذا حلك على ذلك التصرف، ولو  
 لمحك ما تركتك تذهب!...

- لثبات احكاما اعترف بانني شديد الحساسية في  
هذه الناحية...

آداب ارسنطراطية!... اين انت من إدراكها.  
- لا تؤاخذني إذا صارحك بذلك تدق أكثر مما  
ينبغي...

ابتسم حين ابتسامة خفيفة لم تمكث على شفته،  
ثم بدا كالمتظر، ولما طال به الانتظار عاد يتسائل:  
- نعم؟... فما كتبنا تحدثان؟

كيف إذن ارتفعت آداب اللياقة مثل هذا  
الاستجواب؟! وفكر لحظات في توجيه هذه الملاحظة  
إليه، غير أنه دق في اختيار الصياغة الجديرة بالاحترام  
الذي يكتفه له - احترام يرجع إلى شخصيته أكثر مما  
يرجع إلى سته - حتى قال:

- المسألة أبسط من أن تحتاج إلى هذا كله، غير أنني  
أتسائل عن مدى التزامي بالإجابة!  
فبادره حسن قائلاً بلهجة المعتبر:

- أرجو ألا ترميني بلهجة المتطفل أو بدس أنني في  
خاصة شغورك، فإن لدي من الأسباب ما يبرر هذا  
السؤال، وسوف أحذرك من أمور لم تعرض مناسبة  
تجملني أحذرك منها من قبل، غير أنني اعتقدت -  
اعتماداً على ما بيننا من صداقة - أنك لن تضيق  
بسؤالي، أرجو ألا تفهم الأمر على غير هذا

الوجه...!

خفت التوتر، ولعلهُ سرُّ لتلقي هذا الكلام الرقيق  
عن حسن سليم بالذات، الشخص الذي طالما رآه  
مثالاً للارستقراطية والنبل والكبرياء، فضلاً عن أنه  
كان أرغب منه في استفادة أوجه الحديث عن أمر يتصلق  
بعبودته. لو كان إسمايل لطيف هو صاحب السؤال

ما احتاج الأمر إلى شيء من هذا اللف والدوران حول  
ما يجب وما لا يجب وما يليق وما لا يليق، وربما كان  
أففى إليه بكل شيء وما يتضاحكان، ولكن حسن

سليم لا يخرج عن تحفظه أبداً ولا يغفل بين الصداقة  
ورفع الكلفة، فلا بأس من أن يؤقني ثمن تحفظه!  
قال:

- أشكرك على حسن ظنك، وثق بالله لو كان ثمة ما

يستحق أن أخبرك به ما كتبتك عنه، ليس إلا أننا  
تكلمنا بعض الوقت في شئون عادية وهذا كل ما  
هناك، غير أنك أيقظت حب الاستطلاع في نفسي  
فهل لي أن أسألك - ولو من باب العلم بالشئ - عن  
الأسباب التي تراها مبررة لسؤالك؟ لست أتحب بطبيعة  
الحال، بل إلى حل أتم الاستعداد للزول عن سؤالي  
إذا لم يصادف منك قبولاً...!

قال حسن سليم بهدوء وأثرانه المألوفين:  
- سأحذرك عما تسأل عنه، ولكن أرجو أن تنتظر  
قليلاً، يبدو أنك لا تود إخباري عما دار بينكما من  
حديث، وهذا حقك لا ريب فيه، بل لا أجد فيه  
إخلالاً بواجب الصداقة، ولكنني أود أن ألفت نظرك  
إلى أن كثيرين يجدون حديث عادية ويفسرون تفسيراً  
لا يمت للواقع بسبب، وربما أهدأوا لأنفسهم بسبب  
ذلك متاعب لا داعي لها...!

أفصح عما تريد قوله، في الجواب نلر فهم لا يلبث  
أن يغلب إصراراً فيعصف بقلبك المطعون، كأن به  
موضماً سلباً لم يطمئن! أنت أنت المندوع يا صاح،  
ألا تدري أنه الحياء وحده الذي يمنني من أن أفصح  
إليك بما كان؟ فلتصحبني الصراخ إن أرحمت لك  
بألاً.

- لم أفهم مما قلت حرفاً...!

علا صوت حسن قليلاً، وهو يقول:  
- لسانها يجود في يسر بالطف الكلام، فيحببه  
السامع ذا مغزى أو أن وراءه عاطفة ما، ولكنه محض  
كلام لطيف تخاطب به كل من يجادها سرا أو جهراً!!  
وكم خلع كثيرين...

برح الخفاء، صاحبك مصاب بالداء الذي مصرك!  
من يكون حتى يذعي العلم بالبوطن؟ شد ما يشير  
حنفي! قال بأساً وهو يتظاهر بعدم الاكتراث:

- يبدو أنك واثق مما تقول؟!  
- إلى أعرف عادية حتى للمعرفة، نحن جيران منذ  
بعيد...

الاسم الذي يجب النطق به في السر فضلاً عن  
الجهر ينطق به هذا الشاب المقتون بلا مبالاة، كأنه

الآخرين أيضًا...

هزّ حسن رأسه كأنما يتحقّق لو يستطيع أن يؤمن برأيه في «الآخرين»، غير أن كيال لم يمنّ بالتعليق على ملاحظته الصائبة، كان سعيدًا بالدفاع عن معبودته، سعيدًا بالفرصة التي تبيّنت له لإعلان رأيه في طهارتها وبراءتها، أجل لم يكن صادقًا في حماسه، لا لأنه كان

يظنّ غير ما يعلن - فطلمّا آمن بأنّ معبودته فوق منال الشبهات - ولكنّ حزنًا على الأحلام السعيدة التي قامت على الافتراض وجود «سر» وراء دهايات المعبودة وتلميحاتها الرقيقة، إنّ حسن يبدّد تلك الأحلام كما

يبدّد ما حدثت اليوم تحت الكشكش، وسع أنّ قلبه المكسّر كان يجاهد سرًا للاستمسك ولو بخيط واه من خيوط الأمل، فإنّه جارى حسن سليم مجارة الزمن برأيه تنظية لموقفه ومداراة لهزيمته وإبطالاً لآدعاه الآخر بأنّه «العارف» وحده لحقيقة المعبودة! عاد حسن يقول:

- لا غرابة في أن تدرك هذا فإنّك شابّ لبيب، الواقع كما قلت إنّ عابدة بريئة ولكن... معدلة إذا صارحك ببخلة فيها رَمًا بدت غريبة في عينيك، ورَمًا كانت مسئلة لحَدّ كبير عن سوء فهم الكثيرين لها، أعني شغفها بأن تكون «فتاة أحلام» كلّ من يتصل بها من الشباب... لا تنس أنّه شغف بريء، فإنّي أشهد بأنّي لم أصادف فتاة أحفظ لكرامتها منها، ولكنّها مولعة بقراءة الروايات الفرنسية، كثيرة التحدّث عن بطلانها، مقعمة الرأس بالخيال!

ابتسم كيال ابتسامة مطمئنة أراد بها عن أنّه لم يسمع جديدًا فيما قال صاحبه، ثمّ قال مدلولًا برغبة في إغاضته:

- عرفت هذا كلّ من قبل، دار حديثنا يومًا - أنا

وحسين وهي - عن الموضوع ذاته!

تمكّن أخيرًا أن يخرج من وقاره الارستقراطيّ، فتعلّقت أساريره بالحش وتساءل كالمنزعج:

- متى كان ذلك؟ لا أذكر أنّي حضرت هذا الحديث! هل قيل أمام عابدة أنّها تودّ أن تكون «فتاة أحلام» كلّ شابّ...؟

رمى كيال ما طرأ عليه من تغيّر بعين الظفر

اسم فرد من خيار الملايين! هذه الجراءة فيه تخفّضه في قلبه درجات وترفعه في خياله درجات، وجلة ونحن جيران منذ بعيد، حرّرت في قلبه كالخنجر فأطاحت به كما تطيح النوى بالغريب. سأله بلهجة مؤدّبة وإن لم يخلّ مدلولها من سخرية:

- ألا يجوز أن تكون خُدعت أيضًا كالآخرين؟

فتراجع رأس حسن في كبرياء، وهو يقول في يقين:

- لستُ كالآخرين...

شدّ ما احتفه عطرسته، شدّ ما احتفه جماله وثقته بنفسه، هذا الابن المدلّل للمستشار الخطير الذي ترتقي الشبهات إلى أحكامه السياسية! وتنتّ عن حسن «هه» كأنّه ذبل ضحكة وإنّ لم تضحك أساوره، أراد أن يميّذ بها للانتقال من طبقة صوتيّة متغطرسة إلى طبقة أخرى لطيفة، ثمّ قال:

- إنّ فتاة ممتازة لا تشوبها شائبة، ولو أنّ مظهرها

وحديثها وأنسها تجر عليها الظنون أحيانًا!

فبادره كيال قائلاً بحماس:

- إنّ مظهرها وخبرها حلّ السواء لفوق كلّ غلّ!

فصلى حسن رأسه بامتنان كأنما يقول له «أحسنّت»،

ثمّ قال:

- هذا ما ينبغي أن تراه عين بصيرة سليمة، غير أنّ

ثمة أمورًا تحيّر بعض الأفهام، سأضرب لك أمثلة على

سبيل التوضيح: إنّ البعض يسمّي فهم اختلاطها في

الحديقة بأصدقاء أخيها حسين، نافلة ما جرت به

التقاليد الشرقيّة، والبعض الآخر يقف متسائلًا حيال

عادتها هذا وملاطفتها لذلك، وآخرون يتوصّون وراء

الدعابة اللطيفة - تصدر عنها عفواً - سرًا خطيرًا، هل

أدركت ما أعني؟!

فقال كيال بنفس الحساس السابق:

- لئني أدرك ما تعني، طبّاه، ولكنّي أعشى أن تكون

مغاليًا في ظنونك، عني أنا شخصيًا لم يساورني شكّ

قطّ في أيّ تصرّف من تصرّفاتنا، لأنّ أحاديثنا ودعابتنا

ظاهرة البراءة، ولأنّا من ناحية أخرى لم تتلقّ تربية

شرقيّة خالصة حتّى تطلّب بالحفاظ على التقاليد أو

تؤاخذ على الخروج عليها، وأظنّ أنّ هذا هو رأي

- ولكنك لا تستطيع أن تؤكد أنها لا تحب إطلاقاً؟!

- لم يقل هذا...

فرمقه بالعين التي يتطلع بها الإنسان إلى المراف، ثم سأل:

- أتدري إذن أنها تحب؟

فحن رأسه بالإيجاب، وقال:

- إنما دعوتك إلى المشي لأحدثك عن هذا...!

خاص قلبه في أحقاد صدره كأنها يحاول الفرار من الألم ولكنه خرق في حجاب الألم، كان قبل ذلك يتألم لأنها لا يمكن أن تحبه، ها هو معطيه يؤكد له أنها تحب... إن المصودة تحب... إن قلبها الملائكة يضيئ لنواميس الشوق والحنين والرغبة واللهفة الموجهة جميعاً إلى شخص معين! أجل كان عقله - لا شعوره - يسلم أحياناً بإمكان ذلك، ولكن كما يسلم بالموت كفكرة مجردة لا كحقيقة باردة ناشبة في جسد عزيز أو في جسده هو بالذات، لذلك فاجأه الخبر كأنه يتحقق لأول مرة في الوجود والفكر ممّا، تتألم هذه الحقائق جميعاً واعترف بأنّ ثمة آلاماً في هذه الدنيا لم تحطرك حل بال رغم غيرتك العميقة بالألم، استطرده حسن قائلاً:

- قلت لك من بادئ الأمر إنّ لديّ من الأسباب ما يبرّر هذا الحديث معك، وإلا ما سمحت لنفسني بالتدخل في خاصّ شئونك... ينبغي أن تلتهمه النار المقدّسة حتّى آخر ذرّة من رماد.

- إنّي مقتنع بما تقول، وها أنا مصغر إليك... ابنم حسن إبسامة خفيفة أوحّت بهركه حيال الكلمة الأخيرة الفاصلة، فصر كمال، ثمّ تمجّله - رغم أنّ قلبه استشفّ الحقيقة المضيئة - قائلاً:

- قلت إنّك تدري أنها تحب...؟!

فنبذ حسن التردد قائلاً:

- نعم، يوجد بيتنا ما يجعل لي الحقّ في ادّعاء ما قلت...!

عابدة تحب آيتها السواوات! أوتار قلبك تنقيض باعده نحنًا جثائزًا، هل يكرّ قلبها لهذا الشاب السعيد

والارتياح، خير أنّه أشفق من التهاوي، فقال بحلو:

- لم يرد ذكر هذا بلفظه ولكن بالمعنى الذي يؤتني إليه خلال حديث دار حول ولعها بالروايات الفرنسيّة وإغراقها في الخيال!

استردّ حسن هلوه وأثّرانه، ولزم الصمت ملأياً كأنه يحاول أن يستجمع فكره الذي نجح كمال في تشتيته إلى حين، وبدأ كالتردد لحظات حتّى شعر كمال بأنّه يؤدّ أن يعرف كلّ شيء عن الحديث الذي دار بينه وبين عابدة وحسين، متى وقع؟ وماذا جعلهم يطرقون هذه الشئون الحساسة؟ وما تفصيل ما قيل فيه؟ لولا أنّ كبرياءه كان يمنعه من السؤال، وأخيراً قال:

- ها أنت نفسك تشهد لصديق رأيي، ولكن من سوء الحظّ أنّ كثيرين لم يفهموا سلوك عابدة كما فهمته أنت، فلم يفتنوا إلى حقيقة هامّة وهي أنّها تحبّ حبّ الشخص لما لا الشخص نفسه!

لو أطلعك اللاحق حل الواقع ما تحمّم كلّ هذا التعب الضائع، ألا يعلم بأنّي لا أطمع حقّ في أن تحبّ حبّي؟ انظر إلى رأيي وأنتي وانعم بالألم قال بصوت لم يخل من تهكم:

- تحبّ حبّ الشخص لما لا الشخص نفسه! يا لها من فلسفة!

- هي حقيقة أنا بها عليم!

- ولكنك لا تستطيع أن تضمن صدقها في جميع الأحوال؟!

- بل أستطيع وأنا مضمض العينين.

غالب كمال حزنه وهو يتساءل متظاهراً بالدهش: - أستطيع أن تؤكد أنها لا تحبّ لهذا الشخص أو ذاك؟

فقال حسن بقة وأطمئنان:

- أستطيع أن أؤكد أنها لم تحبّ أحداً من يتوهّمون أحياناً أنها تحبّهم!

اثنان يحنّ لها أن يتكلّم بهذه الثقة: المؤمن واللاحق، وهو ليس باللاحق، ترى لم يتحرّك الألم ولا جديد فيها سمعت! الحقّ أنّي تلك اليوم تألم عام من أعوام الحبّ.

مثل ما يكنه لها قلبك، إن صحَّ أنَّ هذا من الممكنات  
فاحرى بالعالم أن يتصدَّع، ليس صاحبك بكاذب لأنَّ

النبييل الجميل لا يكذب، قصارى أملك أن يكون  
حيثما من جنس خلاف حبِّك، وإذا لم يكن من  
الفاجمة بدَّ فمن العزاء أن يكون حسن هو المحبوب،  
من العزاء أيضًا أنَّ الحزن والغيرة لا يطمسان الحقيقة  
أمام عينيك، هذا الغنى الساحر المصيب! قال كالدي  
بضغط على زناد المسدس وهو يعلم أنَّه فارغ:

- يبدو أنَّك مطمئنٌ إلى أنَّها تحبُّ - هذه المرَّة -  
الشخص نفسه لا حبَّ الشخص لها!  
فندت عنه وهذه مرَّة أخرى ليعرب بها عن ثقته.  
ولمحه بنظرة سريعة ليرى مدى إيمانه بما يقول، ثمَّ  
قال:

- لم يكن حديثنا فكَّ - أنا وهي - من النوع الذي  
يحتمل معنيين!  
أي نوع من الحديث هو؟ حياتي كلها أمهيا ثمَّنا  
لكلمة منه، أعرف الحقيقة كلها وأنزع العذاب حتَّى  
الثالثة، ترى هل سمع الصوت المطرب وهو يقول له  
«أحبِّك؟» بالفرنسية قلها أم بالبريَّة؟ بمثل هذا  
المداب تشتمل التريان، قال بهود:

- اهتبك، كلاهما فيا أرى جدير بصاحبه!  
- شكرًا...  
- غير أنَّ أسأله ممَّا دهلك إلى الإفضاء إلَّيَّ بهذا  
السرِّ الثمين؟  
فرع حاجبيه حسن، وهو يقول:

- لئما وجدتكما تتحدَّثان على انفراد أشفتك أن  
تُجذع ببعض القول كما تُجذع كثيرون، فصممت على  
مصارحتك بالحقيقة، لأنَّي كرهت فكرة انخداعك أنت  
بالذات...!

غمغم كمال قائلاً «شكرًا» تأثُّرًا بالمعطف السامي،  
عطف الشابِّ الموهوب الذي تحبُّه عائدة، الذي كره له  
الانخداع فقتله بالحقيقة، ترى ألم تكن أوهام الغيرة  
بين البواحت التي أغرت بمصارحته بسرِّه؟ ولكنَّ أليس  
له عينان يرى بهما رأسه وأنه؟! استطرد حسن قائلاً:  
- إنَّها ووالدها كثيرًا ما تزوران بيتنا، وهناك تسج

لنا فرص للحديث...  
- على انفراد؟

أفلتت العبارة منه بلا وعي، فارتبك نادماً وتورَّد  
وجهه، ولكنَّ الآخر قال ببساطة:

- أحيانًا...

كم يؤدُّ أن يراها في هذا الدور - دور المحبة - الذي  
لم يخطر له في خيال، كيف تتجلَّى في العيون الساجية  
التي تلقي إليه بنظرها من علِّ لمعة الوجد والحنان؟  
منظر يضيء العقل بقبس من الحقيقة المقدَّسة ويقتل  
القلب قتلاً، بهذا تُستباح لعنة الكفر الأبديَّة، روحك  
يتملح كطائر سجين يؤدُّ أن ينطلق، العالم ملقى  
خرابات يستمدح عنه الرحيل، لكنَّك حتَّى إذا صحَّ  
عندك أنَّ الشفاء تلاشت في قبلة وردية فلن تُعلم في  
دوام الجنون للذة الحرَّة المطلقة، وسأله مدفوها برغبة  
انتحارية أن يستطع مقاومتها فضلاً عن فهمها:

- كيف إذن توافقي على اختلاطها بأصدقاء حسين؟  
ترث حسن قليلاً قبل أن يجيب قائلاً:  
- لعلي لا أرتاح إلى ذلك كلِّ الارتياح، ولكنِّي لا  
أجد فيه مأخذاً، وهي تمارسه على مرأى من أخيها ومن  
الجميع ويحكم تربيته الأوديَّة، ولا أخفي عليك أنَّي  
فكرت أحياناً في مكاشفتها بامتعاضي ولكنِّي كرهت أن  
ترميني بالغيرة، وكم تؤدُّ لو تثير غيبتها! أنت تعرف  
طبعاً هله الجميل النسائيَّة وأعترف لك بأنِّي لا  
أستسيغها...

لا عجب أنَّ إثبات دوران الأرض حول نفسها  
وحول الشمس قد أطاح بأوهام ودوَّخ رعوماً.  
- كأنَّها تتعمَّد مضايقتك!  
فقال حسن بلهجة الناطقة بالثقة:

- هل أنَّه في وصفي دائماً أن أحلها على الإذعان  
لمشيئتي إذا أردت!  
أثارت هذه الجملة واللمجة التي قبلت بها إلى حدِّ  
الجنون، وتمنَّى لو يجد سبباً يتعلَّ به على ضربه ليمرَّغه  
- وإنَّه لقادر - في القرب، ولحظه من علِّ فلاح له  
الفارق بين طولبها أكثر من الواقع بكثير، لمَّ لم تحبِّ  
أيضاً الذي دونها سناً؟ وأمن قلبه بأنَّه خسر الدنيا.

ودعاه حسن إلى تناول الغداء على مائدته، فاعتذر وشاكراً، ثم تصافحا واقتربا.

عاد فاطر النفس مثقل القلب بالحنوط، وكان يرد أن يخلو إلى نفسه ليحتضن أحداث يومه متأسلاً حتى يستصفي معانيها كلها، بدت الحياة متلعة بشوب حداد، ولكن ألم يكن يعلم من أول الأمر أن هذا الحب ضائع؟ فأي جديد جلبت به الحوادث؟ على أي حال ليكن عزائه أن الآخرين يتكلمون عن الحب، أما هو فيحب مله قلبه. إن الحب الذي يتوز روحه لا يستطيع أحد سواه، فهذا هو امتيازه وتفوقه، ولن يتخلل عن حلمه القديم بأن يظفر بحبيوته في السماء، في السماء حيث لا فوارق مصطنعة ولا رأس كبير ولا أنف غليظ، في السماء ستكون عابدة لي وحدي بحكم قوانين السماء...

#### - ٢٠ -

كأنه لم يعد له وجود، تجاهلته بحال لا يمكن أن يثاق إلا من تعمد، فطن إلى ذلك أول ما فطن إليه صباح الجمعة التالي - بعد مضي أسبوع على حديث حسن سليم بشارع السرايات - في اجتراح الأصدقاء بكشك الحديقة بسراي آل شداد. كانوا يتحدثون فجاءت عابدة كعادتها مصطحبة بدور، لبثت عندهم قليلاً تخاطب هذا وتداعب ذاك دون أن تعمده الضائقة، فظن أول وهلة أن دوره سيجيء.. ولكن طال به الترقب، ولاحظ إلى هذا أن عينيها لا تتردد أن تلتصقا بعينه أو لعلها تجتنبه فخرج عن موقفه السلمي واعترض حديثها بملاحظة عابرة ليحملها على مخاطبته، ولكنها واصلت الحديث متجاهلة إيّاه، ومع أن أحداً لم يتنبه فيها بدا إلى مناوآته الفاضلة - لاهمهم في الحديث المحبوب - فإن ذلك لم يخفف من وقع اللطمة التي تلقاها من غير أن يدرك لها سبباً، غير أنه مال إلى تكذيب ما قام بنفسه وداري شكوكه، وجعل يتحين الفرص لتجربة حظّه من جديد وهو من الإشفاق في غاية، وإذا بيدور تحاول الإفلات من يد عابدة ملوثة

له بيدها المطلقة، فتقدم منها ليأخذها بين ذراعيه، ولكن عابدة جذبتها نحوها وهي تقول: «وَأَنْ لَنَا أَنْ نذهب»، ثم حثمت ومضت إلى حال سبيلها!

آه، ما معنى هذا؟ إن عابدة غضبانة عليه وما أودت بحبيبتها إلا أن تصالنه بغضبها، ولكن فيم آخضته؟ أيّ ذنب جنى؟ أيّ هفوة كبيرة أو صغيرة أن؟ يا لها من حيرة هزلت بمنطقه وشئت يقينه، بيد أنه قبض على زمام نفسه بيد قوية أن تفضحه شجونته، وكان على ضبط النفس قادراً، فمثل دوره المألوف تمثيلاً حسناً وباري أثر الضربة القاصمة عن أعين الصحاب، وقال لنفسه بعد تقوُّض المجلس: إنّه يحسن به أن يواجه الحقيقة مهما تكن قاسية، وأن يسلم بأن عابدة حرمته - اليوم على الأقل - من نعمة صداقتها... إن في قلبه العاشق مسجلاً كهربائياً دقيقاً لا يترك للمحبيب همة أو خطرة أو لمة إلا سجلها. حتى التوايا يطلّع عليها وحتى الآلي البعيد يتدسس،

ليكن السبب ما يكون أو ليكن الأمر بلا سبب كمرض استعصى على الطب سرّه، فإنّه في الحالين يرى كأنه ورقة شجر انتزعته ريح عاتية من فتن غصن وألقت بها في غث الثغايات.

ووجد فكره يعموم حول حسن سليم، ألم يحنم حديثه معه بقوله وحل أنه في وسعي دائماً أن أحلها على الإذعان لمشيئتي إذا أردت؟ ولكنها جاءت اليوم كعادتها، إن بلواه من تجاهلها إيّاه لا من غيابها، ثم إنه وحسن افتقرا على صفاء، وليس ثمة ما يذو حسن إلى مطالبتها بتجاهله، وليست هي بالتي تمثل أمر إنسان مهما يكن شأنه، وليس هو بالمذنب، فما سرّ التجفّف يا ربّ السماوات؟! إن لقاء الكشك - بينه وبينها - على قسوته وجهه الجارح برأسه وأنفه وكرامته لم يخل من موقفة ودعابة ثم حُتم بما يشبه الاعتذار، رُعا يكون قد قضى على أمله في الحب ولكنّه لم يكن في حبه أصلاً، أمّا لقاء اليوم قاتله بالتجاهل، بالنبذ، بالصمت، بالموت، ولأن ينفو الحبيب أو يقسو غير على أيّ حال من أن يزع بعابده وكأنه شيء لم يكن، يا للمتعة! ألم جديد يضاف إلى معجم الآلام الذي

يحمله هل صدوره، ضريبة جديدة للحب، وما أفدح ضرابته، يؤذي بها ثمن النور الذي يضيئه ويمرقه. واحتقن بالغضب صدوره، عزّ عليه جدًا ألا يحظى على حبّ العظيم إلا بهذا الإعراض البارد للمتجرف، وحسّر في نفسه ألا يتمخض غضب إلا عن الحب والولاء، وألا يردّ اللطمة إلا بالابتهال والدعاء، ولو كان المتجني عليها شخصًا آخر ولو كان حسين شَدَّاد نفسه لقطعه دون تردّد، أمّا وهو المعبود فقد رُذِّت شظايا الغضب إلى نحره، وانصبت العداوة على هدف واحد هو نفسه، فنزعت به الرغبة في الانتقام إلى إنزال العقاب بالجاني - الذي هو نفسه - قضي عليها بالحرمان من الدنيا، وامتألاً بشعور عنيد عزّون أسلّ عليه الإعراض عنها إلى الأبد! رضي فيما رضي بصداقتها، بل اعتبرها فوق أسلام مطمح بالرحم من أنّ قوّة حبّ تضيئ عنها الساعات والأرض، ورضي أكثر من هذا بالياس من حبّها قانعاً من عريضة الأمان بابتسامة حلوة أو كلمة رقيقة ولو تكون ابتسامة الوداع وكلمته، غير أنّ التجاهل أحزنه وأذهله وخبله ثمّ من الدنيا جميعاً نبذه، ولعلّه أتاح له أن يشعر بشعور الميث لو كان ميت يشعر، لم ترحه الفكر ساعة من ساعات يقظته طول الأسبوع الذي قضاه بعيداً عن قصر آل شدّاد، وتهاكّل شعوره في اجتراح الحيلة التي قرعته لحظة بعد أخرى، وهو في البيت صباحاً يفطر على مائدة أبيه، وهو في الطريق يسير بحواسّ زائفة، وهو في مدرسة المعلمين يسمع بعقل غائب، وهو يقرأ مساءً بانتباه مشتت، وهو يتلألأ للنوم كي يقبله في ملكوته، ثمّ وهو يفتح عينه في الصباح الباكر فإذا بالفكر تتخاطفه كأنما كانت على حتبة الوحي ترصده أو كأنما هي التي طرقته بجزع النهم كي تواصل التهامه كزّة أخرى، ألا ما أقطع النفس إذا خانت صاحبها...

ويوم الجمعة ذهب إلى قصر الحب والمذاب، قبله قبل الميعاد المتأدّ بقليل. لماذا ترقّب هذا اليوم بصبر نالداً؟ ماذا يرجو عنده؟ هل يطمح أن يجد ولو نبضاً بطيئاً ضعیفاً ليومهم نفسه بأنّ جفّة الأمل لم تفارقها الحياة بعد؟ هل يحلم بمعجزة تردّ معبودة إلى الرضی

هل غير انتظار ويلا سبب كما غضب هل غير انتظار ويلا سبب؟ أو أنّه يستريد من الجحيم ناراَ ظمأ إلى برودة الرماد؟ سار في ممرّ الذكريات إلى الحديقة، وإذا به يرى حابئة جالسة على كرسيّ واضعة بلور على حافة المائدة أمامها، وليس في الكشك سواها أحداً توقّف عن المسير وفكر في العودة إلى الخلوّج قبل أن تلصق ناصيته، ولكنّه نبذ هذه الفكرة بتحدّ وازدراء، وتقدّم صوب الكشك تدفّعه رغبة شديدة في مواجهة المذاب وكشف النقاب عن اللغز الذي فتك بأمّنه وسلامه، هذا الكائن اللطيف الجميل، هذا الروح الشفّاف المتشكّر في فستان امرأة، هل يدري ماذا فعل به جفا؟ هل ينأى ضميره قهر العين لو شكّا إليه ما عاتاه، ما أشبه استبداده باستبداد الشمس بالأرض الذي قضي عليها بأن تدور حولها في دائرة مرسومة - لا تقترب منها فتندمج ولا تبعد عنها فتنتهي - إلى الأبد! لو تجود بابتسامة فيتداوى بها من آلامه جميعاً؟! وكان يقترب منها متعمّداً أن يُحدث في مشيته صريراً لتنتبهها، فداورت رأسها نحره كالسائلة، ثمّ لم تقصص أسرارها عن شيء، فوقف هل بعد خراصين من مجلسها، وحفى رأسه في خشوع، وقال بأساً:

- صباح الخير...

نظرت فيما أمامها. لم يعد ثمة شكّ في أنّ الأمل جفّة هاملة، وخيّل إليه أنّها تصيح به وأذهب عنيّ برأسك وأنتك حقّ لا يجيبني عنيّ ضوء الشمس!، غير أنّ بدور لُزحت له يديها، فبالت عينه إلى وجهها الجميل المشرق ومضى نحرها ليداري في عطفها البريء هزيمته فتعلّقت بليّاحيه، فهو رأسه إليها وقبّل خدّها قبله حنان وامتنان، وإذا بالصوت الذي فتح له فيما مضى أبواب الموسيقى الإلهيّة يقول بجفا:

- من فضلك لا تقبلها، القبلة تحمّية غير صحيّة...!

نذّت عنه ضحكة حائرة لم يدري كيف ولا لم نذّت، ثمّ امتنع لونه، وبعد دقيقة واجبة ذاهلة قال منكراً:



فقال بانزعاج:

.. ماذا قلت منك؟ ولن قلته؟ أقسم لك...

فقاطعته بضيق قائلة:

.. لا يمتحن القسم في كثير أو قليل، وكفه لنفسك،

إنّ الذي يفتاب الناس لا يؤمن على قسم، المهم أن تذكر ماذا قلت حقاً...!

رمى بمحفقه على مقعد قائماً ليأخذ كامل أهبيه للتضال، وابتعد خطوة عن بدور ليتخلص من محاولتها البرية في الاستئثار بانتباهه، ثم قال بحرارة ناطقة بالصدق:

.. لم أقل منك كلمة أسجل من إعادتها الآن على سمعك، لم أفتوه منك بكلمة سوء لي حياتي وما كان ذلك في وسعي لو تعلمين، وإذا كان بعضهم قد أبلغك حقاً ما أفضبك، فهو واثق حقير لا يستحق ثقتك، وإني على استعداد لمواجهة أمانك لثري بنفسك مبلغ صدقه أو بالمجري مدى كذبه. ماذا بك من عيب حتى أعتدت به؟ لشدة ما أسأت به الظن!

فقالته بهتكم:

.. شكراً على هذا التواء الذي لا أستحقه، لا أظنني أغلو من نقص، على الأقل فإني لم ألتق تربية شرقية خالصة!

نشبت هذه الجملة الأخيرة في انتباهه، فذكر كيف وردت على لسانه وهو يحاور حسن سليم دافئاً الشبهات من معبودته، فهل يكون حسن أعادها بطريقة أثارت الشك في حُسن مقصده؟ حسن سليم النيل؟ هل يتأتى هذا حقاً؟ شد ما يدور رأسه قال وعينه تنطقان بالدعش والامس:

.. ماذا تقصدين؟ أعترف لك بأنني قائل هذه الجملة، ولكن سلي حسن سليم يهزرك، أو ينبغي له أن يهزرك، بأنني قلتها وأنا أنوء بمزايك...

فحدجته بنظرة باردة، وتساءلت:

.. مزايي؟ وهل رضيتي في أن أكون دفنة أحلام؟

كل شاب من بين هذه المزاي؟!

فهت كمال بانزعاج وغيظ:

.. هو قائل هذا منك لا أنا، هلأ انتظرت حتى

.. إنبا ليست القيلة الأولى فيها أذكرا

فرفعت كنفها قائماً تقول وهذا لا يغير من الحقيقة شيئاً.. أه، أمضي إلى أسبوع جديد من العذاب دون أن ينطق بكلمة دافئاً عن نفسه؟

.. اسمحي لي أن أسألك عن سر هذا التنفير الغريب، فقد جعلت أسألك عنه طوال الأسبوع الماضي دون أن أظفر بجواب؟!

لم يبد عليها أنها سمعته، وبالتالي لم تمن بالرد عليه، فعاد يقول وقد وشى صوته بصعيرته وأله:

.. إن ما يحزنني حقاً هو أنني بريء ما أستحق عليه العقاب!

ولم تزل مصرة على الصمت، فضاف أن يجيء حين قبل أن يستدرجها إلى الكلام، فبادر يقول بلهجة جمعت بين التشكي والترجي:

.. ألا يستحق صديق قديم مثلي أن يكشف على الأقل بلذنه؟

فرفعت نحوه جانب رأسها، ولحظته بنظرة مكفهرة اكضرار السحاب المثلر بالمطر، ثم قالت بلهجة غاضبة:

.. لا تدع البراءة الكاذبة...

يا رب السواط هل تتركب الذنوب بلا وعي من الجاني؟ قال في نبرات متدافعة، وهو يرتب بحركة آلية يدي بدور التي حاولت أن تجلبه إليها وهي لا تدرك مما يدور شيئاً:

.. صدقت ظنوني وأسفاه! هذا ما حدثني به قلبي فكذبت، إني مذنب في نظرك، أليس كذلك؟ ولكن بأي ذنب تهمني؟ عتيتي وحياتك، لا تنتظري أن أكون البادئ بالاعتراف، مهما أنقب في زوايا نفسي وحياتي وتاريخي فلن أعتز على نية أو كلمة أو فعل أو جهة ضدك بسوء، إني أصعب كيف لا تأخذين هذا مأخذ البدييات من الأمور؟!

فقالته بازدهاء:

.. لست ممن يؤثّر فيه التمثيل، سل نفسك حتماً

قلت حقاً!

يحضر لائحته أمامك؟ ...

فواصلت تساؤلها الذي تتابع في مرارة وسخرية قائلا:

- وهل ملاطفي لك من بين هذه المزاي أيضا؟

قال بانسا وقد عجز، حيال انصباب التهم، عن الدفاع:

- ملاطفتك لي أي؟ أين؟ ومتى؟

- في هذا الكشك؟ هل نسيت؟ أنكر أنك أومته ذلك؟

آلته سخرتها وهي تتسالم «هل نسيت؟» وأدرك

نصره أن حسن سليم - يا للحيلة - قد ظن بلفاء الكشك الظنون، فكاشف حبيته بشكوكه أو نسبها إليه ليتحقق منها... جيل خبيث راح هو ضحيتها! قال بحزن وحق:

- أنكره أنكر بكل قوة وصلد، لي نادم على حسن ظني بحسن!

فقال بكبرياء، كأنها اعتبرت جلته الأخيرة موجّهة إليها هي:

- إنه عند حسن الظن دائما...

زفر فهاذا، وخيل إليه أن أبا الهول قد رفع قبضته الجبرائيلية المائلة التي لم تتحرك منذ آلاف السنين، ثم هوى بها عليه، فهوره وواراه تحتها إلى الأبد، قال بصوت مهتج:

- إذا كان حسن هو الذي أبلغك عني هله الاكاذيب فهو كاذب وضيع، ويكون هو الذي اغتابني لا أنا الذي اغتبتك...

لاحظ في عينيها الجميلتين نظرة قاسية، وتساءلت بحدة:

- أنتكر أنك انتقدت أمامه اختلاطي بأصدقائه حسين؟

أهكذا يعرف النبل الاستراتيجي الكلام؟ قال بتأثر شديد:

- كلا، لم يحصل ذلك، علم الله أنني لم أقله مستغذًا، ولكنه أذى أذهلات كبيرة، قال... قال إنك تحببته! وقال إنه إن شاء منكم من الاختلاط بنا!

ولم أكن أقصد...

قاطعت قائلة بازدياد وهي تقف متصبية القائمة في كبرياء، حتى تجوّجت حالة شعرها الأسود بحركة رأسها الرفوع:

- أنت مهذي لا يتخي ما يقال عني، لي فوق هذا كله، ولا خطأ لي فيما اعتقد إلا أنني أحب صداقتي دون تمييز...

وأنزلت بدور إلى الأرض وهي تتكلم، فتناولت يدها ثم ولته ظهرها، وغادرت الكشك، فهتف بها متوسلاً:

- انتظري لحظة من فضلك كي...

ولكنها كانت قد ابتعدت، وكان صوته قد علا أكثر مما ينبغي حتى خيل إليه أنه أسمع الحقيقة كلها، وأن الأشجار والكشك والكراسي ترمقه بنظرة جامدة ساخرة، فأطبق فاه واعتمد برأسته حافة المائدة، فمال فرعه الطويل كأنما انحنى تحت ضغط الفهر، لم يكت وحده طويلاً، فما لبث أن جاء حسين شذاً طلق المحيا كعادته، فدمياه تحمته الصافية الحلوة وجلسا على كرسيين متجاورين، وتبعه بعد قليل إسمايل لطيف، وأخيراً جاء حسن سليم يسير في خطواته المتهمة وحركاته المترقعة. وتساءل كمال في حيرة: ترى ألم يلحقها حسن من بعيد كما لمحها في المرة السابقة؟ ومتى - وكيف - يدري بما دار بينهما من حديث قاطع

أسيف! وانفجر في صدره الغيظ والغيرة كما تنفجر الزائلة، بيد أنه آلى على نفسه ألا يُشمت به غرباً، وألا يضع شخصه موضع السخرية أو المعطف الزائف، وألا يمتن أحداً من أن يطالع في صفحة وجهه أثرًا مما تضطرب به جوانحه، فالتقى بنفسه في تيار الحديث، ضحك للملاحظات إسمايل لطيف، وعلق طويلاً على تكون حزب الاتحاد وخروج الحارجين على سعد زغلول والوفد ودور نشأت باشا في هذا كله، بالاختصار مثل دوره خير تمثيل حتى انفص المجلس بسلام، وغادر كمال وإسمايل وحسن سراي آل شذاً عند الظهر، وكان كمال لم يعد يحتمل مزيداً من الصبر، فخطب حسن قائلاً:

- أريد أن أحدثك قليلاً...

فقال حسن بهدوء:

- تفضّل...

فنظر كيال إلى إسماعيل كالمتخير، وقال:

- حل انفراداً

همّ إسماعيل بالانسحاب، فلوّقه حسن بإشارة من يده، وقال:

- لست أخفي عن إسماعيل شيئاً...

فاحتقنت هذه الحركة فاستشفت وراءها سريعاً يتوسّس، غير أنه قال دون ميلالة:

- إذن فليسمعنا، فلست أخفي عنه شيئاً أيضاً...

وانتظر قليلاً حتى باعد المشي بينهم وبين سراي آل شدّاد، ثم قال:

- قبل حضوركم اليوم اتفق لي أن قابلت عائدة في الكشك على انفراد، فدار بيننا حديث غريب أدركت

منه أنك نقلت إليها بعض حديثنا في شارع السرايات - أذكره؟ - مشوّماً عرقاً حتى دخل في روحها أنني

حملت عليها حملة ظالمة باغية...

ردّد حسن بين شفتين متعشّتين لفظي ومشوّه وعرفّ، ثم قال ببرود وهو يلقي عليه نظرة كأنما يريد

بها أن يذّكره بأنّه إنما يخاطب «حسن سليم» لا شخصاً آخر:

- يحسن بك أن تكلف نفسك بعض الجهد في تحيّر الالفاظ...

فقال كيال بانفعال:

- هذا ما فعلته! فالحق أنّ كلامها لم يدع في شكّي في أنك أردت الوقعة بي وبينها!

حال لون حسن غضباً، ولكنّه لم يستسلم له، فقال بصوت آمن في البرود:

- يؤسفني أنني أحسن الظنّ طويلاً بفهمك وتقديرك للأمور (ثمّ بهلجة ساخرة) هلّا أخبرتيّ بما عسى أن

أجنبه من وراء هذه الوقعة المزعومة؟ الحقّ أنك تتلفع بلا روية أو عقل...

فاشتدّ الغضب بكيال، وهض قائلًا:

- بل سوّلت لك نفسك سلوكًا شائناً...

وهنا تدخّل إسماعيل قائلاً:

- إني أقترح عليكما تأجيل الحديث إلى وقت آخر تكونان فيه أملك لأعصابكما!

فقال كيال بإصرار:

- إنّ الأمر من الجلاء بحيث لا يحتاج إلى مناقشة، وهو عارف وأنا عارف!

فعاد إسماعيل يقول:

- قصّ علينا ما دار في الكشك بينك وبينها لعلنا...

ولكنّ حسن قال بكبرياء:

- أنا لا أقبل محاكمة!

فهض كيال منقّساً عن غيظه، وإن كان يعلم أنّه من الكاذبين:

- حل أيّ حال أخبرني بالحقيقة لتعلم أيّنا أصدق قولاً!

فصاح حسن بوجه متعجّب:

- فلتنعها توازن بين ما قال ابن التاجر وما قال ابن المستشار!

اندفع كيال نحوه مكوِّراً قبضته لفعال إسماعيل بينهما، وكان أقوى الثلاثة رغم ضآلة حجمه، ثمّ قال بحزم:

- لا أسمح بهذا، كلاكما صديق، عتّم ابن عتّم، دعانا من هذا العبث الخلق بالاطفال...

عاد ثائراً هائلياً جريماً يقطع الطريق بخطوات حادة احتدائية ويباطه يستمر بالآلم، طعن في قلبه وكرامته،

معبودته وأبيه، فما بقي له في الدنيا؟ وحسن، الذي لم يحترم زميلاً كما يحترمه ولا أعجب بخلق أحد كما

أعجب بخلقه، كيف انقلب في ساعة من الزمان وقاعاً سيّئاً؟ الحقّ أنّه رغم حقّه عليه لم يستطع أن يؤمن

بالتهمة التي اتهمه بها إيماناً خالصاً من كلّ شك أو تردّد، فلم يزل يعاوده التفكير في الأمر، فيستائل

نفسه: ألا يجوز أن يكون من وراء ذلك الموقف الأليم ما وراءه من أسرار؟ أليكون حسن شوّه كلامه، أم

تكون عائدة قد أساءت الفهم أو بالغت في التكهن أو استسلمت للغضب؟ غير أنّ الموازنة بين ابن التاجر

بل عن الحزن كله، بل عن الدنيا كلها فما عاد يجد لها طعمًا، أيمن أن يطول هذا الفراق إلى ما لا نهاية؟... وة لو كان قصدها أن تعاقبه حينًا ثم تغفو، أو في الأقل أن يذكر حسين شذاد سببًا لنجاها يكذب غافوه، ودَّ هذا أو ذلك كثيرًا، وانتظر وطال انتظاره بلا فائدة.

كان إذا مضى لزيارة السراي أقبل عليها بمعينين قلفتين تضطربان في هجرتهما بين اليأس والرجاء، فيسترق إلى شرفة المدخل نظرة، وإلى نافذة الممر الجانبية نظرة، ثم يلحظ شرفة الحديقة وهو في طريق الكشك أو السلامك، ويجلس بين الأصدقاء ليلهم طويلًا بالمفاجأة السعيدة التي لا تريد أن تقع، ويفضّ المجلس فيخاطبه ليختلس نظرات متتعبة حزينة من النافذة والشرفات، غاصّة نافذة الممر الجانبية التي كثيرًا ما تظهر في أحلام يقظته إطرًا للصورة المعبرة، ثم يذهب متجرّحًا اليأس زاهرًا الكرب، وبلغ به اليأس أن كاد يسأل حسين شذاد عن سرّ اختفاء عايده، غير أن تقاليد الحزن العتيق الذي تشبّع بها عقله فلم ينطق، وجعل يتأمل في قلق عن مدى إلام حسين بالظروف التي أقتت إلى توارى المعبودة، أما حسن سليم فلم يشر إلى «الماضي» بكلمة ولم يبد في صفحة وجهه أنه يفكر حل أي وجه فيه، ولكن لا شك أنه كان يرى في كلّ جلسة تجمعهم شاهدًا على هزيمته - كمال - المصيبة، وكم كان يتأمّل كمال هذا الحاضر، تعذب كثيرًا، شعر بالعذاب ينغذ إلى نخاعه، ويهذيان العذاب يخالط عقله، وكان شرّ ما يعذبه لوعة الفراق ومرارة الهزيمة وشيقة اليأس، وأفزع من هذا كله الإحساس بالهوان، بأنّه المنبوذ من روضة الرضى، المحروم من أنغام الميود وأصواته، فجعل يردد وروحه تلدرف دموع الأمل والقهر «أين أنت من أولئك السعداء أيّنا المخلوق المشوّء»، ما معنى الحياة إن أصررت على الاختفاء؟ أين نجد عيانه النور؟ ويتلقّى قلبه الحرارة؟ وتنمّ وروحه بالخبطة؟ فلتبّد المعبودة بأيّ ثمن ترضاه، فلتبّد لتحبّ من تشاء حسن كان أو غيره، فلتبّد، ولتهزأ برأسه وأنفه ما شاء لها المزاح

وابن المستشار رمت به في جحيم من الغضب والألم جعلًا من محاولة إنصاف حسن ضربًا من العيث. وقد ذهب بعد ذلك إلى سراي آل شذاد في موعد اللقاء المهود، فوجد حسن معتذرًا عن التخلف بطارئ، وأخبره إسماعيل لطيف عقب انقضاء المجلس: بأنّه - حسن - أسف جدًا على ما بدر منه حين الغضب عن وابن التاجر وابن المستشار، وأنه مؤمن بأنّه - كمال - ظلمه ظلمًا فادحًا باستنتاجاته الواهمة وأنه يرجو ألا تقطع هذه الحادثة العارضة أسباب الصداقة بينهما، وأنه - حسن - كلّفه إبلاغه ذلك عن لسانه، ثم تلقى منه خطابًا بهذا المعنى مشدّدًا الرجاء في ألا يعودا إلى الماضي إذا تلاقيا وأن يسدلا عليه ستار النسيان، ويختمه بقوله «اذكر جملة ما أسأت به إليّ وجملة ما أسأت به إليك لعلك تنتنع معي بأنّ كلانا خطئ» وأنه لا يصح لأحدنا تبكًا للآخر أن يرفض اعتذار صاحبه». وطابت نفس كمال بالرسالة حينًا، بيد أنّه لاحظ أنّ ثمة تناقضًا بين كبرياء حسن المعروف وبين هذا الاعتذار الرقيق غير المتوقع، أجل غير المتوقع!! فما كان يتصوّر أنّه يعتذر لأيّ سبب من الأسباب؟ فإذا غيره؟ لا يمكن أن يكون لصداقته هو هذا التأثير الضخم في كبرياء صاحبه، فلعلمه - حسن - أراد أن يستردّ سمعته المهذّبة أكثر ممّا أراد استرداد صداقته، ولعلمه حرص أيضًا على ألا يستغل الشقاق فتراعى أنباؤه إلى حسين شذاد أن يستاء الشاب لوقف شقيقته من النزاع أو يغضب بدوره إذا بلغه ما قيل عن ابن التاجر - وهو ابن تاجر - وابن المستشار أيّ سبب من أولئك له وجاعته وهو أدنى إلى المنطق في حال حسن من اعتذار لا يرد به إلّا وجه الصداقة وحدها؟! كلّ شيء، بيون، فليصلحه حسن أو فليخافه، المهمّ حقًا أن يعرف هل قرّرت عايده -الاختفاء؟ لم تعد تطوف بمجلسهم، أو تبدو في النافذة، أو تلوح في الشرفة. لقد أفضى لها قول حسن بأنّه إذا شاء منغها من الاختلاف بأحد ليضمن - اعتدًا على كبريالها - حصريًا، على زيارة الكشك فلا تجرم من رؤيتها. لكنّها اختفت رغم ذلك، كأنها رحلت عن البيت كله،

للعب، إنَّ اشتياقه إلى اجتلاء طلعتها وسياح صوتها  
أق طاقة النفس على الاشتياق، فأين منه نظرة راتية  
نسمح من صدره سخام الكتابة والوحشة، ولتسرَّ قلبًا  
مسي مفقد السرور منه كالنور من فقيد البصر، فلتبدُّ  
إن تتجاهله، فإنه إن خسر سعادة القول عندما فلن  
نضيع سعادة رؤيتها ورؤية الدنيا بعد ذلك في مجتل  
نموها البهيج، أما بغير ذلك فلن تكون الحياة إلا  
لحظات متصلة من الألم المخلخل بالجنون، وهل كان  
غروبها من حياته إلا كخروج العمود الفقري من  
الجسم الإنساني يتركه من بعد توازن وتكامل إلى شبه  
جثة ناطقة؟

وأخرجه الألم والقلق عن الصبر، فلم يعد يحتمل  
الانتظار حتى يبيء يوم الجمعة فكان يلعب مع  
الأصدقاء إلى العباسية فيحوم حول السراي من بعيد  
لعله يلعبها في نافذة أو شرفة أو في خطراتها وهي  
تظن أنها بمنأى عن عينه، هل أنَّ الانتظار في بين  
القصرين كان من فضائل اليأس بخلاف حومان  
المحوم حول مقام المعبودة، كحومان مجموعة من  
الديناميت حول عمود من النيران. لم يرها، ولكنه رأى  
مرآت أسد الخدم وهو ذاهب إلى الطريق أو عائد منه،  
فكان يبعثه عينا مضحكة متعجبة كأنها تُسأل المقلد  
عيا جعلها تخص هذا الإنسان بحظوة القرب من  
المعبودة والاختلاط بها والاختلاص على شئ أحوالها  
مستأنفة أو مترعة أو لاهية، كل ذلك من حكا هذا  
الإنسان الذي يعيش في المحراب ولا تشغل قلبه  
العبادة!

وفي جولة من جولاته رأى عبد الحميد بك شذاد  
وحرمة المصور وهما يشاهدان القصر ليركبا الخراف التي  
كانت في انتظارهما أمام الباب، رأى الشخصين  
السعيدين اللذين تقف عابدة أمامهما - من دون  
العلمين - بإجلال واحترام، اللذين يخاطباني بلسان  
الأمر أحيانا فلا تملك إلا أن تطيع! وهذه الأم للفتنة  
التي حلتها في بطنها تسمه أشهر، فها من ريب في أنَّ  
عابدة كانت جيتا فوليدة كنتك المخلوقات التي كان  
يرنو إليها طويلا في فراشي عائشة وخديجة. وليس من

إنسان هو أعرف بطفولة معبودته من هذه الأم السعيدة  
المقدسة! سوف تبقى الآلام ما بقي في متاهة الحياة أو  
في الأقل لن تحمي آثارها. أين تلعب ليالي يناير  
الطوال وهو دافئ في الوسادة عينه الدامعة؟ وسط  
راحته إلى رب الساعات وهو يدوم من الأحياق والألم  
قل هذا الحب كجرح رماذا كما قلت لنار إبراهيم كوني  
بردا وسلانا؟! وقتنه لو كان للحب مركز معروف في  
الكائن البشري لعله يستره كما يستر العضو الشاشر  
بالجراسة؟ وعناقه باسمها المحبوب ليتلقى صدها في  
سكون الحجرة الصامتة بقلب خاشع كأنها كان غيره  
النادي؟ وبما كانت لصوتها حينها دعت باسمه ليستعيد  
حلم السعادة المفقودة؟ وتقليبه البصر في كراسية  
الذكريات للثبث من أنَّ ما كان حقيقة لا وهما من  
الحياة؟!

ولأول مرة منذ أعوام تطلع إلى ما قبل الحب من  
الماضي بلهفة كما تطلع السجين إلى ذكريات الحرية  
الضائعة، أجل لم يتصور شخصا هو أشبه بحاله من  
السجين، غير أنَّ قضبان السجن بدت أطوع للتعظيم  
وأرق أمان الزملم من أهلال الحب الأثرية التي تستأثر  
المشاعر في القلب والأفكار في العقل والأعصاب في  
الجسد ثم لا تؤذن بانحلال، ووجد نفسه يوما  
يتساءل: ترى هل ذاق فهمي مثل هذا العذاب الذي  
يعانيه؟ وفقت عليه ذكريات أخيه الراحل مثل لحن  
كاسن حزين، تتبد في أحياء النفس. لذكر كيف قص  
يوما على سمعه مغامرة مريم مع جوليون، فأغمد  
خنجرا مسموما في قلبه بلا حيلة أو حذر. وجعل  
يستحضر في ذاكرته وجه فهمي، فتخيل إليه هلوده  
الذي انخدع به وقتذاك، ثم تصدَّر تقصصات الألم في  
تسماته الجميلة حين خلا إلى نفسه، ومناجاته الشاكية  
التي لا شك فرق فيها كما هو يفرق الآن في تأثراته  
وأنيته. فحسر بقض في قلبه وزاح يقول: لقد عانى  
فهني ما هو أشد من الرصاص قبل أن يستقر  
الرصاص في صدره! ومن عجب أنه وجد في الحياة  
السياسية صورة مكبرة لحياته. فكان يطالع أنبامها في  
الصحف وكأنها يطالع مواقف عما مرَّ به في بين

هل كئيبين متقابلتين، وكانت الوجوه جادة، وكانت خديجة متجهمة، وكانوا يتبادلون نظرات ذات معنى، ولكنَّ أحدًا منهم لم يشأ أن يطور الأمر الذي جمعهم حتى قالت خديجة ببرة شاكية حائرة مآ: .

- هله المنازعات تقع في كل بيت، هكذا كانت الدنيا منذ خلقها ربنا وليس معنى هذا أن نشر متاعينا على الناس، خصوصًا أولئك الذين لا ينبغي أن يشغلوا بالكلام الفارغ، ولكنَّا أبت إلا أن نجعل من شئون بيتنا فضائح عامة، حسبي الله ونعم الوكيل... . تحرك إبراهيم في محطته كأنه يستوي في مجلسه، ثم ضحك ضحكة مختزلة لم يذّر أحد على وجه الدقة ماذا أراد بها، فحذجته خديجة بنظرة ارتباب وهي تساءل: - ماذا تعني بهنَّ هنَّ؟... ألا يتم قلبك بشيء في الدنيا؟

وأعرضت عنه كالبائسة، ثم استطردت تقول مخاطبة خليل وعائشة:

- هل يرضيكما ذهبا إلى أبي في الدكان لتشكوني إليه؟ هل يجوز إقحام الرجال - خاصة من كان على شاكلة أبي- في منازعات النسوان؟ ما كان ينبغي أن يعلم بشيء من هذا، ولا شك أنه تضايق من زيارتها وشكواها، ولولا أدبه لصارحها بذلك... . ولكنها ما زالت تلج عليه حتى وصلها بالمجيء، ما أبشع تصرفها، لم يخلق أبي هذه الصغائر، فهل يرضيك هذا التصرف يا سي خليل؟

فغضب خليل في استياء، وقال:

- اتقي أعطلت، صارحتها أنا نفسي بذلك حتى صبت على غضبها، غير أنها ست كبيرة، وأنت تعلمين أن الإنسان في مثل سنّها يحتاج إلى المداواة والحلم كالأطفال، حبذا... .

فقاطعه إبراهيم في ضجر قائلاً:

- حبذا... . حبذا... . كم كرّرت حبذا هذه حتى مللتها، أمك كما قلت ست كبيرة، ولكن قرعتها وقتت على من لا ترحم... .

التفتت خديجة إليه بحدة وقد عبس وجهها وأبسع منخراها، وقالت:

القصرين أو العباسية. هذا سعد زغلول - مثله هو - شبه سجين وهدف للطعنات الباغية والحملات الظالمة وخيانة الأصدقاء وغدرهم، وكلاهما - هو وسعد - يكابدان أحزانًا من انصهارهما بأناس علوا بأرستقراطيّتهم وسفلوا بفصلهم. تقصص شخص الزعيم في كدره كما تقصص حال الوطن في قهره، وكان يلاقي الموقف السياسي وموقفه الشخصي بعاطفة واحدة وانفعال واحد، فكانما كان يعني نفسه وهو يقول عن سعد زغلول وأتليق هذه المعاملة الظالمة بهذا الرجل المخلص؟، وكانما كان يعني حسن سليم وهو يقول عن زيور وعنان الأسانة واستحلّ القبيح في سبيل الاستيلاء على الحكومة، وكانما كان يعني عائدة وهو يقول عن مصر وهل تخلّت عن زجلها الأمين وهو يلود عن حقوقها؟! .

## - ٢١ -

كان بيت آل شوكت بالسكينة من البيوت التي لا تحظى بنعمة الهدوء والسكينة، لا لأن أدواره الثلاثة أصبحت مأهولة بالسكان من آل شوكت فحسب، ولكن بسبب خديجة قبل أي شيء آخر. كانت الأم المعجزة تقيم في الدور التحتاني، وخليل وعائشة وأبنائهما: نعمة، وعثمان، وعهد في الدور فوقاني، ولكنّ ضوضاء أولئك جميعًا لم تكن شيئًا بالقياس إلى ضوضاء خديجة وحدها. سواء ما يصدر عنها مباشرة أو ما يصدر عن الآخرين بسببها، وقد حدثت تغيرات في نظام البيت كانت خليفة بحصر أسباب الضوضاء في أضيق الحدود، كاستقلال خديجة ببيتها ومطبخها، وكاستئجارها بالسطح لترية دواجنها، وغرس بستان متواضع في جانب منه على مثال بستان البيت القديم بعد أن أجنّت عنه حاميها ودواجنها، كان كلّ ذلك خليقًا بتخفيف الضوضاء إلى حدّ كبير، ولكنّ الضوضاء لم تنقص، أو لعلها خفّت بقدر لم يلحظه أحد، على أن روح خديجة اعتورها هذا اليوم فتور، ولم يكن يبرء - فيما بدا - خاليًا، فإنّ عائشة وخليل انتقلوا إلى شقتها لمشاركا في تفريج الأزمة - أجل الأزمة التي أرتمها، جلسوا: الأخوان، والاختان في الصلاة

وقال خليل بعطف:

- هَذَنِي رَوْحَكَ حَقِّي تَلَقِي وَاللَّكْ بِنَفْسٍ مَطْمَئِنَّةٍ  
من أين لها بالنفس المطمئنة؟ لقد انتقمتم المعجزة  
منها شرَّ انتقام، وحقاً قليل تُدْعَى إلى لقاء أبيها في  
موقف يفرّ منه قلبها ودمها. وهنا تراسل إليهم صياح  
عبد المنعم وأحمد من وراء باب حجرتهما وأحبه صوت  
أحمد وهو يبيكي. فقامت حل عجول رغم سائنها  
وانجذبت نحو الحجر، فلدغت الباب ودخلت وهي  
تصيح بدورها:

- ما معنى هذا؟ ألم أنبئكما عن الشجار ألف مرة؟  
خصيمي المتندي منكبا...

قال إبراهيم بعد أن توارت وراء الباب:

- مسكينة كأن بينها وبين الراحة عداوة مستحكمة،  
منذ الصباح الباكر تبدأ يخوض معركة طويلة تستغرق  
النهار كله فلا تسكن حتى تأوي إلى الفراش، يجب أن  
يلعن كل شيء إلى إرادتها وتفكيرها، الخادم، الأكل،  
الشرب، الأثاث، الدجاج، عبد المنعم، أحمد، أنا،  
الكل يجب أن يلعن لتنظيمها، إني أشفق عليها،  
وأؤكد لكم أن بيتنا يمكن أن ينعم بأحسن حال من  
النظام والدقة دون حاجة إلى هذه الوسوسة...

فقال خليل بأساً:

- ربّنا يعينها...

- ويعيني معها!

قال إبراهيم ذلك وهو يبرز رأسه بأساً أيضاً، ثم  
أخرج من جيب معطفه الأسود علبه سجائره، وبهض  
متجهاً إلى أخيه فقدمها له لتناول خليل سيجارة، ودعا  
عائشة لتناول واحدة ولكنها رفضت ضاحكة، وأومأت  
إلى الباب الذي توارت وراءه خديجة، وهي تقول:

- غلّ الساعة ثمّ يسلم...

فعاد إبراهيم إلى مجلسه وهو يشعل سيجارة، ويقول  
مشيراً إلى الباب نفسه:

- عكمة، في الداخل الآن عكمة، ولكنها تستعمل  
خلدين التهمين بالرحمة ولو على رضعها...

عادت خديجة وهي تقول متألفة:

- كيف يمكن أن أدنق طعام الراحة في هذا البيت!  
كيف ومتى؟

- الله... الله... لم يبق إلا أن تعيد هذا الكلام  
لفاتر أمام بابا...!

فقال إبراهيم وهو يلوح بيده أسفاً:

- بابا ليس معنا الآن، وهو إن جاء فلن يبيء  
بسمع إلى أنا، ولكنني أقرّر الحقيقة التي يسلم بها  
لجميع ولا تستطيعين أنت إنكارها، أنت لا تطيقين  
نبي ولا محتملين ظلّها، أعوذ بالله، لم كلّ هذا يا  
سحفة؟ بشيء قليل من الحلم والكماسة كان يسلك أن  
أسريها، ولكنّ القمر أقرب منكلاً من حلمك، هل  
ستطيعين أن تنكري كلمة واحدة مما قلت؟

فردت عينيها بين خليل وعائشة تشهدهما على هذا  
الظلم الصارخ، فبدأا حائرين بين الحقّ والسلامة،  
حتى نمت عائشة وهي من الإشفاق في نهاية:

- سي إبراهيم يقصد أن تغضي قليلاً عما يسدر  
منها...

وهزّ خليل رأسه بالموافقة في ارتياح من ظفر أخيراً  
بسلم النجاة، ثمّ قال:

- هو ذلك، أمي سرمة الغضب ولكنها بمنزلة  
والدتك، وبشيء من الحلم تعفين أعضابك من مشقة  
المشاحة...

فنفخت خديجة وهي تقول:

- الأصوب أن يقال إنّي هي التي لا تحتمل في ظلّها،  
لقد أنفست أعضائي، وما من مرة تتلاقى إلّا وتسمعني  
- تصرّيحاً أو تلميحاً - كلمة مبيح الدم وتسمّ البدن،  
ثمّ أطالب أنا بالحلم! كاتّي مخلوقة من ليج، أليس  
يكفني عبد المنعم وأحمد اللذان استغفدا صبري  
وحلمي؟ يا هو أين أجد منصفاً؟

فقال إبراهيم في نهجهم وهو يتشم:

- لعلك تجدني هذا المنصف في شخص أريك؟  
فهفت قائلة:

- أنت شامت بي، أنا أفهم كلّ شيء، ومع ذلك  
فرّبنا موجود!

فقال إبراهيم بصوت معطوط يمدّ على التسليم  
والتحذير في آن:  
- ربّنا موجود!

وجلست وهي تتبهد، ثم قالت غامضة عائشة:

- نظرت من المشرية فوجدت الطين المتخلف من  
مطر الأس لا يزال يغطي أرض الحارة، فخبرتني  
وربك كيف يشق أبي سبيله... ولم هذا المناد  
كله؟

فسألتها عائشة:

- والساه؟ كيف حالها الآن؟

- قطران! متجمل الحارات بحورًا قبل الليل،  
ولكن هل أجدى ذلك في حل حائك هل تأجيل ما  
يبت من شر ولو إلى يوم آخر؟ كلاً، ذهبت إلى  
الدكان رغم ما يسببه المشي لها من متاعب، وما زالت  
بالرجل حتى تمهد لها بالخضور، ولو سمعها سامع في  
الدكان وهي تشكو في هذه الظروف الصيرة الحسني  
رباً أو سكيناً!

وضحكوا جميعاً مفتحين الفرصة التي أناحتها لهم  
للتفيس عن صدورهم، وتساءل إبراهيم:

- المحسين نفسك أقل شأناً من ربنا وسكيناً؟

وسمع نقر على الباب، ولما فتحت الحادم لاح وجه  
الجارية سويدان فنظرت إلى خديجة بخوف، وقالت:

- سيدي الكبير حضر...

ثم سرعان ما توارت، وقامت خديجة شاحبة اللون  
وهي تقول بصوت خالت:

- لا تركونا وحدنا...

فقال خليل ضاحكاً:

- مملك إلى النهاية يا خديجة هائم...

فقال بلهجة وشت بالرجاء والتوسل:

- كونوا في جانبي...

وغادرت الشقة بعد أن ألقت عائشة نظرة متفحصة  
على صورتها في المرأة لتؤكد من خلج وجهها من أي أثر  
للأصباغ.

كان السيد أحمد عبد الجواد يجلس على كفة في صدر  
الحجرة القديمة تحت صورة كبيرة للمرحوم شوكت،  
على حين جلست الأم على مقعد قريب في معطف  
كثيف لم تجدي كثافته في إخفاء ضالة جسمها الذي  
احلحوب أعلاه، وقد نحل وجهها وصمكت تجاهيده

وتكاثر جف جف جلد فلم يبق شيء منه على ما كان  
عليه إلا أسناتها الذهبية، ولم تكن هذه الحجرة بالغريبة  
على السيد أحمد، ولم يؤن يقمها من فخامتها، وإذا  
كانت الستائر قد بيّت وقطيفة بعض المقاعد والكتبات  
قد انجذرت أو تهكت عند المقابض والمساند، فإن  
بساطها المعجمي قد صان رونقه أو استجد نفاسته،  
إلى أن جوها تنسم برائحة بخور لطيفة مما تولع به  
العجوز، وكانت المرأة تميل على مظلتها وتقول:

- قلت لنفسي إذا لم يحضر السيد أحمد كما وعدني،  
فلا هو ابني ولا أنا أمه...

فابتسم السيد قائلاً:

- لا سمح الله، لئي طوع أمرك، فانا ابنك وخديجة  
ابنتك!

فمطت بوزها، وقالت:

- كلكم أبنائي! أمينة هائم ابنتي الطيبة، أنت سيد  
الناس، أما خديجة (ورثت إليه وعيناها تسعمان) فلم  
ترث سجة واحدة من سجايا والديا الطيبين... (ثم  
وهي تمز رأسها) يا لطيف الطفل...

فقال السيد بلهجة المثير:

- إني أعجب كيف أهضبتك لهذا الحد؟ كان الأمر  
كله مفاجأة شديدة عليّ، لا أقبل هذا مطلقاً، ولكن  
هلاً حدثني حياً فملت؟

فقال المرأة مقبلة:

- هذا شيء قديم، كنا نخفي عنك كل شيء إكراماً  
لتوسلات والدتها التي أميتها الحيل في إصلاحها،  
ولكني لن أقول كلمة واحدة إلا في وجهها، في وجهها  
يا سي السيد كما عزمت أمامك في الدكان...

عند ذلك جاءت الجارية، دخل إبراهيم في المقدمة،  
وتبعه خليل، فعاثشة، ثم خديجة، وصافحوا السيد  
واحدًا فواحدًا حتى جاء دور خديجة، فالتحت في أدب  
مثالي حتى لثمت يده، فلم تتمالك العجوز من أن  
تقول في عجب:

- رباه ما هذه البوليتيكا، آتت خديجة حقاً؟! لا  
تخدعك الظواهر يا سيد أحمد...

فقال خليل معاتباً أمه:



واحتمك وصبرت عليه، وقد ظننت بعد الانفصال أنَّ أسباب الشقاق مستتبي، ولكن هل صدق ظني؟ كلا وحياتك.

انقطعت عن الحديث لسعال غلبها، وراحت تسعل حتى انتضخت أوداجها، وخديجة تلحظها وهي تدعو الله في سرها أن يخلعها قبل أن تتم حديثها، ولكن السعال سكث فازددت ريقها وتشهدت، ثم رفعت إلى السيد عينيَّ دامتين، وسألته بصوت لم يخلُ من يخ:

- أنتسكتف أنت يا سيد أحمد أن تقول لي يا أمي؟ فقال الرجل الذي تظاهر بالمبوس رغم ابتسام إبراهيم وخليل:

- معاذ الله يا أمي...

- عوفيت يا سيد أحمد، لكن ابتكت تستسكتف من هذا، تدهوي «نينة»، أقول لها مرارًا ادعيني «نينة»، فتقول لي «وماذا أدهو التي لي بين القصرين؟»، أقول لها أنا نينة، وأنتك نينة، فتقول لي «ليس لي إلا نينة واحدة ربنا يغلبها لي». انظر يا سي السيد، أنا التي تلقيتها يدي من عالم الغيب!

آلتي السيد أحمد على خديجة نظرة غاضبة، وسألها هتدًا:

- صحيح هذا يا خديجة؟ يجب أن تتكلمي...

كانت خديجة كأنها فقدت القدرة على التلطي، كانت من الغيظ في نهاية، وكانت من الحوف في نهاية، وإلى هذا كله كانت يائسة من نتيجة المناقشة فحدتها فرائز الدفاع عن النفس على التلزع بكافة ضروب الضراعة والمسكنة، قالت بصوت خافت:

- أنا مظلومة، كل واحد هنا يعلم باقي مظلومة، مظلومة والله يا بابا...

كان السيد أحمد في دهر مما يسمع، ومع أنه فطن من أول الأمر إلى حال «الكبر» التي تسيطر على المرأة، ومع أنه لم يخف من ملاحظته ما يكتنف الجؤ من فكامة بلدت آثارها في وجهي إبراهيم وخليل، فإنه صمَّ على التظاهر بالجد والصرامة إرضاء للمعجز وإرهابًا لخديجة، وكان يعجب لما يتكشَّف له من عناد

- هلا تركت والدنا حتى يستريح! ليس ثمة ما يدعو إلى محاكمة على الإغلاق!

فعلًا صوت المرأة وهي تحييه قاتلة:

- ما الذي جاء بك؟ ما الذي جاء بكم؟ دعوها وادعوا عنا بسلام...

فقال إبراهيم برقة:

- وتخلي الله...

فصاحت به:

- أنا موخلة أحسن منك يا بغل! لو كنت رجلاً حقًا ما أخرجني إلى استدعاء هذا الرجل الطيب، ما الذي جاء بك؟ وكان يجب أن تكون غاطًا في نومك كالعادة!

ابتل صدر خديجة ارتياحًا إلى هذه البداية، فتمنَّت لو تشتدَّ حتى تغطي حل قضيتها، ولكن السيد سألها بصوت مرتفع سدَّ الطريق في وجه المعركة المأمولة:

- ما هذا الذي سمعته منك يا خديجة؟ أحقَّ أنك

لست الابنة المؤذبة المطبعة لوالدتك، أستغفر الله، بل لوالدتنا جميعًا؟

خاب أمل خديجة، فغضت بصرها، وحركت شفتها في همس دون أن تين وهي عزَّ رأسها نفيًا، ولكن الأم لومت بيدها للجميع كي ينصتوا، ثم أنشأت تقول:

- هذا تاريخ قديم لن أستطيع أن أسرده عليك في هذه الجلسة، منذ أول يوم لها في هذا البيت وهي تخصمي بلا سبب، ولخاطبي بأطول لسان عرفته في حياتي، لا أحب أن أهد عليك ما سمعته طوال خمس سنوات، أو يزيد، كثير كثير، وقبح قبيح!! عابت إشارتي على البيت وتقصت طمهي - هل تصوّر هذا يا سي السيد؟ وما زالت حتى انفصلت بشقتها حتى فاشطر البيت الواحد بيتين، حتى الجارية سويدان حرّمت عليها دخول شقتها لآتها جاريتي، وجماعت بخادم خصوصية لها، السطح، السطح على سمته يا سي السيد، ضيقته علي حتى اضطرت إلى نقل دراجتي إلى الفناء!! ماذا أقول أيضًا يا بني؟ هذا قليل من كثير، ولكن ما علينا، قلت لنفسي ما فات فات،

وهل تعرفين عن بيتنا أكثر مما نعرف؟، فقلت لها: إني أعرف بيتكم من قبل أن تعرفيه أنت بعمر مديد، فصرخت قائلة: «أنت لا تحيين لنا الخير ولا تطيقين أن يُنسب لنا شيء حميد ولو كان طهي الشوكية، الشوكية تؤكل في بيتنا قبل أن تولد زينب وعيب أن تكلم واحدة في مثل سَكِّه أي والله هذا يا سي السيد ما قلته في به أمام الجميع، فألقينا الكاذبة بريك وصلاتك؟

قال السيد غاضباً ساخناً:  
- رمتك بالكذب في وجهك! يا رب الساعات والأرض، ما هله ابنتي...  
غير أن خليل قال لأمه باستياء:  
- ألهذا جئت بوالدنا؟! أبصَح أن تكدر خاطره ونضج وقته بسبب نزاع صباي حول الشوكية؟  
هذا كثير يا أمه...

فحملت المرأة في وجهه مقابلة وصاحت به:  
- اخرس، اهرب عن وجهي، لست كاذبة، ولا يصح أن يرمني غلو بالكذب، إني أعرف ما أقول ولا حياء في الحق، لم تكن الشوكية بالطعام المعروف في بيت السيد قبل أن تدخله زينب، وليس في ذلك ما يعيب أحداً أو ينتقصه، ولكننا الحقيقة، هاكم السيد فليكني إن كنت كاذبة، إن طواجن بيته مضرب الأمثال ويلها الأرز المحشوق، أما الشوكية فلم تقدم على مائدته قبل مجيء زينب، تكلم يا سي السيد أنت وحده الحكم...

قارم السيد أحمد إغراء الضحك طيلة حديث المرأة، ثم قال بلهجة عنيفة:  
- ليت ذنبها اقتصر على الكذب والادعاء الباطل من دون أن تضيف إليه سوء الأدب، هل شجعتك على هذا السلوك السيئ ابتعاك عن قبضة يدي؟ إن يدي تمتد إلى حيث يجب أن تمتد بلا تردد، من المؤسف حقاً أن يجد أب ابنته مستحقة للنادب والعقاب بعد أن اكتمل نفعها واستوت بين النساء زوجة وأماً...  
واستطرد ملوفاً بيده:  
- إني غاضب عليك، والله إنه ليؤذي أن أرى

خديجة وحده طباها، الأمر الذي لم يخطر له في خيال من قبل، أكانت على هذا الخلق مذ كانت في بيته؟ أتعلم أمينة من أمرها ما لا يعلم؟ هل يكشفك على آخر الزمن صورة جديدة لابنته مناقضة للصورة التي كونها كما سبق أن اكتشف لياسين؟

- أريد أن أعرف الحقيقة؟ أريد أن أعرف حقيقتك، إن التي تتحدث عنها والدتنا امرأة أخرى غير التي عهدتها، فأيتها تكون الصادقة؟  
ضمت المرأة أناملها وهزّت يدها داعية إياه إلى الصبر حتى تتم حديثها، ثم استطردت قائلة:  
- قلت لها: إني تلقيتك بيدي من عالم الغيب، فقلت لي بلهجة شريرة لم أسمع بمثلها من قبل: «إذن أكون نجت من الموت بأعجوبة!».

ضحك إبراهيم وخليل، وخففت عائشة رأسها لتخفي ابتسامتها، فقالت المعجوز غاطبة ابنها «اضحكا، اضحكا، اضحكا من أمكنا»، ولكن السيد تجهّم وإن يكن باطنه ضحك، ترى أشعلت بناته حل مثله أهنأ؟ أليس هذا مما يستحق أن يروى على إبراهيم الفار وعليّ عبد الرحيم وهمد عفت؟  
قال لخديجة بغلظة:  
- كلا... كلا، لأعرفن كيف أحاسبك على هذا حساباً عسيراً...

فواصلت المعجوز حديثها بارتياح قائلة:  
- أما سبب شجار الأمر، فهو أن إبراهيم دعا بعض أصدقائه إلى وليمة فقدّمت لهم الشوكية فيها قُدّم من أطعمة، وفي المساء سهر عندي إبراهيم وخليل وعائشة وخديجة، وجاء ذكر الوليمة فنوّه إبراهيم ببناء المدعوين حل الشوكية، فانبطحت ستّ خديجة، ولكنّها لم تقنع بذلك، بل راحت تؤكد أن الشوكية هي الصنف المأثور عن بيتنا الأول، فقلت بحسن نية: إن زينب زوجة ياسين الأولى هي التي أدخلت الشوكية في بيتكم، وإن خديجة لا بد وأن تكون تعلمتها منها، أقسم لك أنّي ما تكلمت إلا عن حسن نية وإني ما قصدت أحداً بسوء، ولكن أبارك الله يا حبيب، انتفضت غاضبة وصاحت في وجهي

- لم أسمع من قبل أن إسخا دُعيت للشهادة على

أختها...!

فصاحت به أتمه:

- ولم أسمع من قبل أن أبناء يتكلمون ضدّ أمهم كما

تفعلون. (ثمّ ملفتني إلى السيّد) ولكن حسي صمتها،

إنّ صمت عائشة شهادة لي يا سي السيّد...

ظننت عائشة أنّ عذابها قد انتهى عند هذا الحدّ،

ولكنّها ما تدري إلّا وخديجة تقول لها يرجاء وهي

تخفّ حينها:

- تكلمي يا عائشة، هل سمعتي أشتماها؟

لمتتها في سرّها من صميم قلبها، وراح رأسها

الذهبي يترّ اهتزازة حسيّة، فهتفت المعجوز:

- جامنا الفرج، هي التي تطالب بالشهادة، لم يبق

لك عذر يا شوشو. يا ربّي إذا كنت ظلمة حقّاً كما تقول

خديجة فلمّ لم أظلم عائشة؟ لم تسير الأمور بيني وبينها

على غير حال، لم يا ربّي لمّ؟

نفض إبراهيم شوكت من مجلسه، ثمّ جلس إلى

جانب السيّد، وقال له:

- يا والدي، يؤسفني أنّا أتميناك واضعنا وقتك

الذين هباء، فلندع الشكوى والشهادة جانباً، لنندع

الماضي كلّ جانباً ولننظر فيها هو أمّ وأجدي، ينبغي

أن يكون عجزك غيراً وبركة، فلنعتقد الصلح بين أمّي

وزوجي، ولنتمهّدا لك بأن نحافظا عليه صل

الدوام...

ارتاح السيّد أحمد إلى هذا الاقتراح، غير أنّه قال

بلباقة وهو يترّ رأسه معترساً:

- كلّاً، لن أقبل أن أعقد صلحاً، فإنّ الصلح لا

يكون إلّا بين نذيين، والطرفان هنا هما والدتنا من

ناحية وابنتنا من ناحية أخرى، وليست الابنة كالأمّ،

فيجب أوّلأ أن تعترف خديجة إلى أنّها عمّا سلف، لتعفو

أمّها عنها إذا شامت، ثمّ تتكلّم بعد ذلك في

الصلح...

ابتسمت المعجوز حتّى تضلّت تجاهيدها، غير أنّها

نظرت نحو خديجة بحذر، ثمّ أعادت بصرها إلى

السيّد ولم تنبس، فاستطرد السيّد قائلاً:

وجهك أمامي...

أجهشت خديجة بالبكاء فجأة، جاء ذلك عن تأثير

وتدبير ممّا، ولم يكن ثمة وسيلة أخرى للدفاع، ثمّ

قالت بصوت متهدّج تخفّفه المعبرات:

- أنا مظلومة، والله أنا مظلومة، إلّا أنّا لا ترى وجهي

حقّ ترميني بكلمات قاسية، ولا تفتأ تقول لي (لولاي

لغضيت العمر عائشة وأنا لم أتلها بسوء أبداً، وكلهم

شهود على ذلك...

لم تعدم الحركة التمثيليّة - المصادقة الكاذبة - أنّا

تركته في النفوس: قطب خليل شوكت حانقاً، ونكس

إبراهيم شوكت رأسه، والسيّد نفسه ولو أنّ مظهره لم

يمتوره تغيير إلّا أنّ قلبه انقبض عند سماعه ما قيل عن

العنوس كعنده من قديم، أمّا المعجوز فجعلت تنظر

إلى خديجة نظرات نافذة من تحت حاجبيها الأشيين،

وكأنّها تقول لها ومثلي دورك يا مكاره لن يموز علىّ،

ولمّا استشعرت في الجوّ عطفاً على المثلثة قالت بتحدّ:

- هاكم عائشة أختها؟ إلى استخلفك بعينك،

استخلفك بالقرآن الشريف إلّا ما شهدت بما سمعت

ورأيت، ألم ترميني أختك بالكذب في وجهي؟ ألم

أصف نزاع الشكسيّة دون مبالغة أو تجاوز، تكلمي يا

بنّة تكلمي، إنّ أختك ترميني الآن بالظلم بعد أن

رمتني بالكذب، تكلمي ليعلم السيّد من الظالم ومن

المعتدي...

روّعت عائشة بجرحها المباغت إلى حرمة القضية التي

ظنّت أنّها ستقف موقف المشاهد إلى النهاية،

وشعرت بالخطر يحيط بها من كلّ جانب، فرقدت

عينها الجميلتين بين زوجها وأخيه كالستيفشة، فهمّ

إبراهيم بالتدخل، ولكنّ السيّد أحمد سبقه إلى الكلام،

فخاطب عائشة قائلاً:

- إنّ والدتنا تستشهد بك يا عائشة، فيجب أن

تكلمي...

فاضطربت عائشة حتّى شحب لونها، ولكنّ شفيتها

لم تتحرّك إلّا عند ازدراد ريقها، وغمضت عينها فراراً

من عيني أبيها وأصرّت على الصمت. قال خليل

عنتجاً:

- ٢٢ -

- يبدو أن اقتراحي لم يصادف قبولا...

فقلت المجوز بامتان:

- إنك لا تنطق إلا من الصواب: سلم فوك،  
وبارك الله في عمرك...وأشار السيد إلى خديجة فقامت دون تردد واقرئت  
منه في انكسار لم تشمر بمثله من قبل حتى مثلت بين  
يديه، فقال لها بحزم:- قبل يد والدتك، وقولي لها: اصفي عني يا  
نية...آه، ما كانت تتخيل - ولا في الكابوس - أنها يمكن  
أن تقف هذا الموقف أبداً، ولكن أباه - أباه المعبود -هو الذي قضى به، أجل قضى به من لا تستطيع  
لقضائه رداً، فلنكن مشيئة الله. تحولت خديجة إلى  
المجوز، ومالت نحوها، ثم تناولت اليد التي رفعتها  
إليها - إي والله رفعتها إليها دون عمامة ولو في الظاهر  
- ولتمتها، وهي تشمر باشمزاز وتفزز وقهر الهم، ثم  
خمنمت قائلة:

- اصفي عني يا نية!...

فنظرت المجوز إليها ملياً وقد شاح البشر في  
وجهها، ثم قالت:- صفحت عنك يا خديجة، صفحت عنك إكراماً  
لايك، وقبولاً لتوبتك...ونذت عنها ضحكة صبيانية، ثم استطردت تقول  
بتحذير:- لا جدال بعد اليوم في الشركية، ألا يكفيكم  
أنكم فقمتم الدنيا في الطواجن والأرز المحشو؟

قال السيد بمرور:

- الحمد لله على الصلح (ثم وهو يرفع رأسه إلى  
خديجة)... نية دائماً ليست تيزة، هذه نية كالأخرى  
سواء بسواء...

ثم بصوت خفيض أضيف:

- من أين جئت بهذا الخلق يا خديجة؟ ما كان

ينبغي لأحد نشأ في بيتي أن يعرفه، أنسيت أمك وما  
تتحل به من أدب وجماعة؟ أنسيت أن أي شر تأتيه إنما  
يسوء وجهي أنا؟ لقد عجبت والله وأنا أستمع إلى  
حديث أمك، ولسوف أصعب طويلاً...رقيت الجماعة في السلم عائدة إلى مساكنها عقب  
رحيل السيد أحمد عبد الجواد، كانت خديجة تنظّم  
القافلة بوجه مريد تملوه صفرة الغضب والحق، وكان  
الآخرون يشعرون بأن الصفاء لم يزل أبعد ما يكون  
من القلوب فأشفقوا غما سيمتص عنه صمت  
خديجة، لذلك سحب خليل وعائشة خديجة وإبراهيم  
إلى شقتها، رغم أن زياط نعيمة وعثمان وعبد كان  
حرباً بأن يعيدها إلى شقتها فوراً، ولما عادوا إلى  
جلسهم بالصالة قال خليل - وهو يسيل جس النض  
غاطلاً أخاه:- كانت كلمتك الاحتامية حاسمة فأتت بخير  
النتائج...

فتكلمت خديجة لأول مرة قائلة بانفعال:

- أنت بالصلح أليس كذلك؟ هي السبب فيما نزل  
بي من ملّة لم أتعرض لملتها من قبل...

فتساءل إبراهيم كالمتكر:

- لا ملّة في أن تقبلي يد أمي أو تستصفيها...  
فقلت دون مبالاة:- إنّا أمك أنت، ولكنّها عدوّتي أنا، ما كنت  
لأدعوها نية لولا أمر بابا، أجل فما هي إلا نية بأمر  
بابا، وبأمر بابا وحده!مال إبراهيم إلى مسند الكنية وهو يتنهد بائساً،  
وكانت عائشة قلقة ولا تدري أي أثر تركه امتناعها عن  
الشهادة في نفس أخيها، وزاد من قلقها تهجّب خديجة  
النظر إليها، صمّت على عبادتها لتحملها على  
معالمتها بحقيقة مشايعها، فقلت برقة:- ليس في الأمر ملّة وقد تصافيتا، ويجب ألا  
تذكرني إلا حسن الحقام...فتصلّب جذع خديجة ورمقتها بنظرة غاضبة، ثم  
قالت بحدة:- لا تكلميني يا عائشة، أنت آخر شخص في الدنيا  
يحقّ له أن يكلمني...فتظاهرت عائشة بالدهش، وتساءلت وهي تقلّب  
عينها بين إبراهيم وخليل:

نصيراً في هذه الدنيا!

فابتسمت الأم ابتسامة عتاب، وقالت:

- لا تقولي هذا، لا تتصورني هذا يا بنية، ولكن

خبريني ماذا وجدت من عائشة؟

وهي تدفع بيدها الهواء كأنها تلطم عدواً:

- كل شرّ، شهدت عليّ، فأوقعت بي شرّ هزيمة...

- ماذا قالت؟

- لم تقل شيئاً...

- الحمد لله...

- إنّ المصيبة جاءت من أمّها لم تقل شيئاً...

تساءلت أمينة، وهي تبسم في عطف:

- وماذا كان في وسعها أن تقول؟

وكأنما كبر عليها تساؤل أمّها، فقالت بعبوس

وحدة:

- كان في وسعها بأن تشهد بأنّي لم احتدّ على المرأة،

لَمْ لَا، لو فعلت ما جاوزت وأجابت الأخوة، كان في

وسعها على الأقل أن تقول إنّها لم تسمع شيئاً، الحقّ

إنّها أثرت المرأة عليّ، خلعتني وتركتني أقع تحت رحمة

الماكرة الشائعة، لن أنسى هذا لعائشة ما حيت...

قالت أمينة، بإشفاق وألم:

- عذبة لا ترعيني، كان يجب أن يكون كل شيء

قد نسي في الصباح...

- نسي؟! لم أنم من الليل ساعة، سهلت ويراسي

مثل النار، كلّ مصيبة كانت تبون لو لم نجيء من

عائشة، من أخوتي؟! لقد ارتضت أن تنضمّ إلى حزب

الشیطان، حسناً، ولكن ما تشاء! كان في حماة فأصبح

لي انتتان، عائشة!... رياء طلما سترتها، لو كنت

خائنة مثلها لقصصت على أبي ما تزخر به حياتها من

قلّة الأدب، إنّها تحب أن يعرف عنها أنّها ملك كريم

وأني شيطان رجيم. كلّاً، أنا خير منها ألف مرّة، إنّ

لي كرامة لا يعلو إليها التراب، ولولا أبي (وهنا اشتدت

نبراتها حدّة) لما استطاعت قوّة في الأرض أن تحملي

هل أن أقبل يد عدوّي أو أن أدعوها نية!

ريّت أمينة كضها برقّة، وهي تقول:

- أنت غصبي، دائماً غصبي، هدّئي من روعك،

- أنا؟! لماذا لا سمح الله؟

فقالت بصوت كالرصاص برودة وحدة:

- لأنك خنتني وشهدت بمصنك عليّ! لأنك أثرت

إرضاء الأخرى على مظاهرة أختك، هذه هي الحياة

بعبها...!

- أمرك عجيب يا عذبة!... كلّ واحد يعلم بأنّ

الصمت كان في صالحك!

فقالت بنفس اللهجة أو أشدّ:

- لو رايت صاحبي حقاً لشهدت لي بلحق أو

بالباطل لا يهيم، ولكنك أثرت التي تُطعمك على

أختك، لا تكلميني، ولا كلمة واحدة، لنا أم يكون

عندها الكلام.

وفي ضحى اليوم التالي ذهبت عذبة لزيارة أمّها

رغم توشل الطرقات وامتلأه منخفضاتها بالمياه

الراكدة، ومضت إلى حجرة الفرن، فبهتت أمّها

لاستقبالها في سرور وحرارة، وأقبلت نحوها أمّ حنفي

مهللة، ولكنّها رقت السلام بكلمات مقتضبة حتى

تفحصتها أمّها بنظرة متسائلة، فقالت دون تمهيد:

- جئتك لتري رأيك في عائشة... فلم يعد بي

طاقة لأحمل أكثر مما تحملت...

لاح في وجه أمينة اهتمام مفروق بالأمسى، فقالت

وهي تشير إليها برأسها كي تسبقها إلى الخارج:

- ماذا حدث كفى الله الشرّ! حدثني أبوك بما كان

في السكينة، فما دخل عائشة في ذلك؟ (ثمّ وهما

تترفان في السلم)... رياء يا عذبة، طلما روجت

أن توصي من صدرك، حانك عجوز ينهي مراعاة

منها، إنّ ذهابها إلى الدكان وحده في جوّ كبير أس

برهان على ضعف عقلها، ولكن ما الحيلة؟ كم غضب

أبوك! لم يكن يصدق أنّه يمكن أن تنذّ عنك كلمة

سوء، ولكن ماذا أغضبك من عائشة؟ لقد صمتت

أليس كذلك؟ لم يكن في وسعها أن تخرج عن

الصمت...

وجلسنا في الصالة - مجلس القهوة - على كتبة جنباً

إلى جنب، وعذبة تقول عدوة:

- نية أرجو ألا تنضمّي إليهم، ما لي يا ربّي لا أجد

سبقيين معي حتى تنفسي معاً ثم تحدثت في

هدوء...

- إني في كامل عقلي وأعرف معنى ما أقول، أريد أن أسأل أبي، أيتها خير من الأخرى: التي تلزم بيتها، أم التي تزور بيت الجيران فتفني وترقص ابتها؟

تهدأت أمانة، وقالت بحزن:

- إن رأي أبيك في هذا لا يحتاج إلى سؤال، ولكن عاتشة سيّدة متزوجة والرأي الأصل في سلوكها لزوجها، وما دام يسمح لها بزيارة الجيران ويعلم بأنها تفني بين صديقاتها اللاتي يحبين وعيبن صوتها فما شأننا نحن؟ لك الله يا خديجة... أتمسّين هذا قلّة أدب؟ هل يُغضبك خطأ أن ترقص نعمة؟ إني في السادسة وما رقصها إلا لعباً، لست إلا غاضبة يا خديجة، ساعدك الله...

فقال خديجة بإصرار:

- إني أهي كل كلمة قلتها، وإذا كان يعجبك أن تفني ابتك عند الجيران وترقص ابتها، فهل يعجبك أيضاً أن تدخن، كالرجال؟ نعم، ها أنت تدخين! أكرّر حل مسمك أن عاتشة تدخن، وإن التدخين صار لها كيلاً لا تملك الامتناع عنه، وإن زوجها يعطيها العلبة ويقول لها بكل بساطة «علبتك يا شوشو»، رأيها بنفسها وهي تأخذ النفس وهي تخرجه من فمها وأنفها، أنفها أتمسعين؟ لم تعد تخفي عني ذلك كما كانت تفعل أوّل الأمر، بل دهني إليه مرّة بحجة أنه مهتئ للأعصاب الحامية. هذه هي عاتشة، فما قولك؟ وما قول أبي يا ترى؟

ساد الصمت، وبدت أمانة في حيرة شائكة، غير أنها صمّت حل خطة التهدة التي التزمها، قالت:

- التدخين عادة قبيحة بالقياس إلى الرجال أنفسهم، أبوك لم يدخن قط، فإذا أقول عليه بالنسبة إلى النساء؟ ولكن ما القول أيضاً إذا كان زوجها هو الذي أغراها به وعلمها إياه؟ ما الحيلة يا خديجة؟ إني لزوجها لا لنا، ولم يبق إلا النصيح إن كان يجدي... فجعلت خديجة تنظر إليها في صمت وثى بتردها

قبل أن تقول:

- إن زوجها يدلّكها تدليلاً معيها حتى أفسدها وأضرّكها في كافّة معاصيه، ليس التدخين بشرّ عاداته، ولكنّه يشرب الخمر في بيته دون حياء، إن بيته لا يخلو من الزجاجة كأنها ضرورة من ضرورات الحياة وسوف يوقعها في الخمر كما أوقعها في التدخين، لم لا؟ المعجوز تعلم بأن شقّة ابنها حانة ولكنّها لا تكثرث لذلك، سوف يسقيها الخمر، بل إني أقطع بأنه فعل فإني شممت مرّة في فمها رائحة غريبة، وسألتها عنها وضيق عليها رغم إنكارها، أؤكد لك أنها شربت الخمر وأتت بسبيل اعتيادها كالتدخين...

صاحت الأم في يأس:

- إلا غدا يا رب، ارحمني نفسك وارضعني، أنقي الله يا خديجة...

- إني تقية وزيّنا عالم، لا أدخن ولا تفوح من فمي روائح مريّة! ولا أسمح للخمر بأن تدخل شفتي! ألم تعلمي بأنّ البخل الآخر حاول أن يقتني هذه الزجاجة المحرّمة؟ ولكنّي وقفت له بالمصايد، قلت له بصريح العبارة: إني لا أبغى مع زجاجة خمر في شقّة واحدة، فتراجع أمام تصميمي، وجعل يحضض بزجاجته عند أخيه في شقّة الهانم التي خاتني بالأمس، وكلّما صرخت لأعنة الخمر وشاربيها، قال لي - قطع الله لسانه - «من أين جئت بهذه الحنبليّة؟ هذا أبوك منبع الأناس كله وقلّ أن يخلو له مجلس من الكأس والمواد، أسمعتم ماذا يقال عن أبي في بيت آل شوكت؟

لاحت في عيني أمانة نظرة حزن وجزع، وجعلت تقبض راحتها وتبسطها في اضطراب وقلق، ثم قالت بصوت نمت نبراتهنّ عن التشكي والتألم:

- رحماك يا ربّي، لم نخلق لشيء من هذا، عندك العفو والرحمة، يا ويل النساء من الرجال، لن أسكت ولا يصحّ أن أسكت، ساحاسب عاتشة حساباً صيراً، ولكنّي لا أصدّق ما تقولين عنها، إن سوء ظنك بها جعلك تتخيلين ما لا أصل له، ابنتي طاهرة ومستظلّ طاهرة ولو انقلب زوجها شيطاناً رجيماً، ساحظتها حديثاً صريحاً، وسأحدث سيّ خليل نفسه إن

لزم الأمر، فليشرب كما يشاء حتى يتوب الله عليه...  
أما ابنتي فحدّ الله بينها وبين الشيطان...  
هتّت على نفس خديجة نسمة راحة لأزل مرّة،  
فتابعت جزع أمّها بعين راضية واطمأنّت إلى أنّ عائشة  
ستشعر قريباً بمدى الخسران الذي مُنيت به جزاء  
خيانتها، ولم تأبه كثيراً لما أضفت على الوقائع من مبالغة  
في التصوير أو حدة في الوصف ممّا جعلها تسمّي شقّة  
أختها حانة، وهي تعلم بأنّ إبراهيم وخليل لا يقربان  
الخمر إلّا في أحوال نادرة وفي اعتدال لم يبلغ حدّ  
السكر أبداً، ولكنها كانت حانقة ثائرة، أمّا ما قيل عن  
أبيها من أنّه منيع الانس... إلخ، فقول أجدته على  
أمّها بلهجة استتكار لا تدع مجالاً للشكّ في كفرها به،  
ولكنّ الحقيقة أنّها اضطرتّ من زمن إلى التسليم بما  
يقال أمام إجماع إبراهيم وخليل وأههما العجوز،  
خصوصاً وأنهم كاشفوها بما يعلمون عنه في غير ما  
تحامل عليه أو انتقاد له، بل وهم يتوهّجون بأريجته  
ويعقدون له زعامة الظرف في عصره، قابلت ذلك  
الإجماع بادئ الأمر بعناد غليظ، ثمّ دأخلها الشكّ  
رويداً وإن لم تلتعه، ووجدت عسراً شديداً في مزج  
هذه الصفات الجديدة بالشخصيّة الوقور الجبّارة التي  
أمنت بها طوال حياتها، غير أنّ هذا الشكّ لم يبيّث من  
شأنها وجلاها، بل لعلّها أثّرت في نظرها بما انضاف  
إليها من ظرف وأريحيّة. لم تقنع بما أحرزت من نصر،  
فعدت تقول بلهجة التحريض:

لزم الأمر، فليشرب كما يشاء حتى يتوب الله عليه...  
أما ابنتي فحدّ الله بينها وبين الشيطان...

هتّت على نفس خديجة نسمة راحة لأزل مرّة،  
فتابعت جزع أمّها بعين راضية واطمأنّت إلى أنّ عائشة  
ستشعر قريباً بمدى الخسران الذي مُنيت به جزاء  
خيانتها، ولم تأبه كثيراً لما أضفت على الوقائع من مبالغة  
في التصوير أو حدة في الوصف ممّا جعلها تسمّي شقّة  
أختها حانة، وهي تعلم بأنّ إبراهيم وخليل لا يقربان  
الخمر إلّا في أحوال نادرة وفي اعتدال لم يبلغ حدّ  
السكر أبداً، ولكنها كانت حانقة ثائرة، أمّا ما قيل عن  
أبيها من أنّه منيع الانس... إلخ، فقول أجدته على  
أمّها بلهجة استتكار لا تدع مجالاً للشكّ في كفرها به،  
ولكنّ الحقيقة أنّها اضطرتّ من زمن إلى التسليم بما  
يقال أمام إجماع إبراهيم وخليل وأههما العجوز،  
خصوصاً وأنهم كاشفوها بما يعلمون عنه في غير ما  
تحامل عليه أو انتقاد له، بل وهم يتوهّجون بأريجته  
ويعقدون له زعامة الظرف في عصره، قابلت ذلك  
الإجماع بادئ الأمر بعناد غليظ، ثمّ دأخلها الشكّ  
رويداً وإن لم تلتعه، ووجدت عسراً شديداً في مزج  
هذه الصفات الجديدة بالشخصيّة الوقور الجبّارة التي  
أمنت بها طوال حياتها، غير أنّ هذا الشكّ لم يبيّث من  
شأنها وجلاها، بل لعلّها أثّرت في نظرها بما انضاف  
إليها من ظرف وأريحيّة. لم تقنع بما أحرزت من نصر،  
فعدت تقول بلهجة التحريض:

- عائشة لم تحقّ فحسب، ولكنها خانتك أيضاً...  
وصحنت ريشاً يتخلخل قسوها في الأعيان، ثمّ  
استطردت قائلة:

- إنّها تزور ياسين ومريم في قصر الشوق...  
هتفت أمانة وهي تتحمل فيها بفزع:  
- ماذا قلت؟

فقالته وهي تشعر بأنّها تسوّرت ذروة الظفر:  
- هذه هي الحقيقة المحزنة! زارنا ياسين ومريم أكثر  
من مسرة، زارا عائشة وزاراني، أقول الحقّ إنّني  
اضطرتّ لاستقبالها وما كاد يسعي إلّا أن أفعل  
إكراماً لياسين غير أنّه كان استقبلاً متحقّقاً، ودعاني

تنبّهت أمانة من الأعيان، ورمقت خديجة بعينين  
فاترتين، ثمّ قالت بصوت خافت:  
- عائشة طفلة تأتي أن يكون لها عقل أو وزن، وإن  
تزال كذلك مهما امتدّ بها العمر، فهل يعني أن أقول  
غير ذلك؟ لا أودّ ولا أستطيع، هل هانت عليها  
ذكرى فهمي؟ لا أستطيع أن أصدّق ذلك، ألم يكن في  
وسمها أن تقتصد في عواطفها حيال تلك المرأة ولو  
إكراماً لي؟ لكن لن أسكت عن هذا، سأقول لها إنّها  
أسادت إليّ وإنّني غاضبة حزينة لأرى ما يكون منها  
بعد ذلك...

فأسكت خديجة بخصلة من سوافها، وقالت:  
- أحلق هذا لو صلح لها حال! إنها تعيش في دنیا

- هذا أفضل، فهيئات أن تعترف بحسن نيتي  
ورغبتي في إصلاح أمرها... ١٠٠

- ٢٣ -

- ١٠٠٠ -

نَدَّت عنه بغثة مفعمة بالحرارة والانفعال عندما رأى  
حايطة خالصة من باب القصر. كان يقف كعادته كلَّ  
أصيل على طوار العباسية يراقب البيت من بعيد وغاية  
أمانه أن يلحمها في شرفة أو نافذة. وكان يرتدي بدلة  
وصاصية أنيقة كأنها أراد أن يجاري البحر الذي بعثت  
فيه الآلام الأخيرة من مارس أرمنية ولطفًا ورياضة،  
فضلاً عن أنه كان يزداد تأثلاً كلما ازداد السَّاء وقنوطاً.  
وكانت عيناه لم ترياها مَدَّ خاصمته في الكشك، ولكنَّ  
الحياة لم تكن تيسِّر له إلَّا أن يحدِّج كلَّ أصيل إلى  
العباسية فيطوف بالقصر من بعيد في متابعة لا تعرف  
البأس، مملَّكاً نفسه بالأحلام، قائماً إلى حين باجتماع  
المقام واجترار الذكريات. وكان الألم في الآلام الأولى  
للفراق كالجنون في هذيانه ووسوسته، ولو طال به  
الأمَد على ذلك لفضى عليه، ولكنَّه نجا من تلك  
المرحلة الخطيرة بفضل البأس الذي وطَّن النفس عليه  
من قديم، فانتسب إلى الألم إلى مستقرِّ له في الأحقاد يؤذي  
فيه وتلفته من غير أن يعكس سائر الوظائف الحسية  
كأنه عضو أصيل في الجسم أو قوَّة جوهرية في الروح،  
أو أنه كان مرضاً حاداً هائِجاً ثم أزمَن فزايكه  
الأعراض العنيفة واستقرَّ، غير أنه لم يتعزَّ - وكيف  
يتعزَّى عن الحبِّ، وهو أنجل ما كاشفته به الحياة؟ -  
ولكنَّه كان يؤمن إيماناً عميقاً بخلود الحبِّ، فكان عليه  
أن يصبر كما ينبغي لإنسان مقدور عليه بأن يصاحب  
داه إلى آخر العمر.

ولمَّا رآها وهي تغادر القصر فجأة نَدَّت عنه هذه  
الآهة، وتابعت عيناه عن بعد مشيتها الرشيقية التي  
طال تشوُّقه إليها حتى رقعت وروحه رقعة قطر هيأها  
حنيناً وطرباً، ومالت المعبودة إلى اليمين وسارت في  
شوارع السرايات، فشَبَّت في روجه ثورة اجتاحت

غير الدنيا التي نعيش فيها، لست أتحمَّل عليها ودينا  
يعلم، إنني لم أعاصمها ولا مرَّة مَدَّ تزوَّجت - حقَّ أني  
طالما حلت عليها لا يقع منها من إحمال لأطفالها أو تملُّن  
مزج لحياها وغير ذلك ممَّا حدَّثك عنه في حبه، ولكنَّ  
حملتي لم تجاوز حدَّ التصح الحازم أو التقد الصريح،  
هذه أوَّل مرَّة يضيق بها صدري فأعانها الخصام:

فقلت الأمِّ برجاه وإن ظلَّ وجهها ممتعناً:

- دعي الأمر لي يا خديجة، أمَّا أنت فلا أحب أن  
يفصل بينك وبينها خصام أبداً، لا يصحَّ أن يفترق  
قلباكما وأنتما تعيشان ممَّا في بيت واحد، لا تنسي أنَّا  
أختك وألَّك أختها، بل أختها الكبرى، إنَّ قلبك  
أبيض والحمد لله، وهو مترع بالحبِّ لأهلك جميعاً، إنِّي  
كلِّما اشتدَّ أمر لم أجد عزاء إلَّا في قلبك، وعالشة مهما  
يكن من هفواتها هي أختك، لا تنسي هذا... ١٠٠  
لهتفت في تأثّر:

- إنِّي أغفر لها كلَّ شيء إلَّا شهادتها عليّ... ١٠٠

- لم تشهد عليك، خافت أن تغضب كما خافت أن  
تغضب حاتم فلاذت بالصمت، إنَّها تكره أن تغضب  
أحدًا - كما تعلمين - وإن كانت رهوتها كثيراً ما  
تغضب الكثيرين، لم تقصد الإسامة إليك أبداً، فلا  
تحملي تصرُّفها أكثر ممَّا يحتمل، سأزورك هذا لأصنِّي  
حسابي معها، ولكنِّي سأصلح بينكما وإنَّك أن تفتني  
عن الصلح...

ولأوَّل مرَّة تتجلى في عيني خديجة نظرة قلقة مشففة  
حقَّ أنَّا غصَّت حينها لتغفها من أمها، وصمتت  
قليلًا، ثمَّ قالت بصوت خافت:

- ستجيبين هذا؟...

- نعم، لم يعد الحال يحتمل الصبر.

خديجة كأنها تحدَّثت نفسها:

- سوف تتهمني بأنني أفشيت أسرارها... ١٠٠

- ولو!...

ولمَّا أنست منها مزيداً من القلق والإشفاق، عادت  
تقول:

- حل أيَّ حال أنا أعرف ما يقال وما لا يقال... ١٠٠

فقلت خديجة بارتياح:



- أحابقتك أنا؟!

تغاضى عن الحديث لحظة خاطفة كي يتملّ سحر الحال، فقد رضى أن تحاوره، وأن تتملّ في خطواته السعيد، وسواء أكان هذا لأنّها تؤدّ أن تستمع إليه أم لأنّها تتملّد إطلاقة المسافة حتّى تتخلّص منه قبل بلوغ هدفها فلن يغيّر هذا من الحقيقة الباهرة، وهي أنّها يسيران جنبًا إلى جنب في شارع السرايات، تحفّ بها أشجار الطريق الباسقة، وترنو إليهما من فوق أسوار القصور عيون النرجس الساجية وتغور الياسمين الباسمة، في هدوء عميق يتعشّش قلبه المستر إلى نفضة منه، وقال:

- عاقبتني أشدّ عذاب باخضائك حتّى ثلاثة أشهر كاملة وأنا أعذب عذاب القهقهه البريء...  
- يحسن الآ نعود إلى ذلك...

في انفعال وضراعة:

- بل يجب أن نعود إليه، إلّا نُعبر على ذلك وأتوسّل إليك باسم العذاب الذي عانيته حتّى لم يعد بي قوّة لتحمل المزيد منه...  
تساءلت في هدوء:  
- ما فني أنا في ذلك؟

- أريد أن أعرف: ألا تزالين تعذبني معتدًا؟ الأمر المؤكّد أنّي لا أستطيع أن أسيء إليك بحال، ولو تذكّرت موتى طوال الأحوام الماضية لاكتنعت برأيي دون عناء، ذهني أفصل لك الأمر بكلّ صراحة، لقد دهاني حسن سلهم إلى مقابلة عجب الحديث الذي دار بيننا في الكشك.

قاطعتها فيها يشبه الزجاء:

- دعنا من هذا، إلّا ماضى انتهى...

وقعت الجملة الأخيرة من أفنّه موقع النياحة من أفنّ الميت لو كان ميت يسمع، ثمّ قال بتألّف بدا في نبراته كالنغمة إذا هبطت من الجواب إلى القرار:

- انتهى... أعلم أنّه انتهى، لكنّي أطمع في حسن الختام، لا أريد أن تلميحي وأنت تظنين بي الغدر، أو الغيبة، إلّا بريء ويمرّ حليّ أن تسيهي الظنّ بشخص يكلّ إعزاز واحترام، فلا يجري

الحزبة التي راضٍ عليها النفس قرابة ثلاثة أشهر ففرغ به قلبه إلى أن يطرح مومسه عند قدميها ولكن ما يكون. وأنّه دون تردّد إلى شارع السرايات. كان في الماضي يحلّل الكلام أن يفقدوها، الآن ليس ثمة ما يضاف عليه، إلى أنّ العذاب الذي عاناه طيلة الأشهر الثلاثة الماضية لم يدع له سبيلًا إلى التردّد أو التراجع. ولم تلبث أن انتهت إلى اقتراب خطاه، فالتفتت إلى الوراء فرائته حلّ بعد خطوات منها، ولكنّها أصادت رأسها إلى وضعه الأوّل دون مبالاة. لم يكن يتوقّع استقبالا لطف، ولكنّه قال معاتبًا:

- أهكذا يكون اللقاء بين الأصدقاء القدماء؟!

فكان الجواب أن حثّ الحظي دون أن تعيره أدنى اللغات، فأوسع خطوه مستمدًا من الله عناقًا، ثمّ قال وهو يوشك أن يجلّيتها:

- لا تتجاهليني فهذا شيء يفوق الاحتمال ولا داعي له لو راعيت الإنصاف...

وكان أخوف ما يضاف أن تصرّ حلّ تجاهله حتّى تبلغ هدفها المقصود، ولكنّ الصوت الرخيم خاطبه قائلاً:  
- من فضلك ابتعد عني، وذهني أسير في سلام.  
فقال بإصرار وتوسّل ممّا:

- ستمسرين بسلام، ولكن بعد أن نصفّي الحساب...

فصالت بصوت تردّد عميقًا واضعًا في صمت الطريق الأرستقراطي الذي بدا غاليًا أو شبه خال:

- لا أدري شيئًا عن هذا الحساب، ولا أريد أن أدري، أرجو أن تسلك سلوك الجنتليان...

فقال بحرارة ووجد:

- أحسك بأن أسلك سلوكًا يُعتبر بالقياس إلى الجنتليان نفسه مثاليًا، وليس في وسعي أن أفعل خير هذا، إذ إنّك أنت التي توحين إليّ بسطوكي.

قالت ولم تكن تنظر إلى ناحيته:

- أعني أن تتركني في سلام، هذا ما عنيته...

- لا أستطيع، لا أستطيع قبل أن تعلن براقي من انهم الظلمة التي عاقبتني عليها دون استماع إلى دفاعي...

- ساعك الله، لقد اهتممتُ أكثر مما تتخيلين،  
وساقي جدًّا أن أجد الشقة بيننا واسعة، فلم يقف  
الأمر عند حدِّ أنك تجهلين ما أكنه لك من... من  
مودة، ولكّنه جاوز ذلك إلى الصالح التهم الظلمة بي،  
فانظري أين كنتُ وأين كنتِ؟ هل أُنّي أصارحك بأنّ  
اللائم الجائر لم يكن أسوأ ما عانيت من ضروب  
الأم... الأم...

باسمة:

- لم يكن ضربيّ واحدًا من ضروب الأم إذن؟  
فشجّعته الابتسامة - كما تشجّع الطفل - حل  
الاسترسال في عاطفته، فقال بوجود وانفعال:  
- بل، وكانت التهمة أخفّ الآلام، أنا أشدّها  
فكان اخضاعك، كان لكلّ ساعة من ساعات الأشهر  
الثلاثة الماضية نصيبها من الآمي، عشت أشبه ما  
يكون بالمجانين، لهذا أدعو الله صادقًا ألاّ يتحنك  
بالآلم، دهاء مجرّب، فإنّ لي بالآلم تجربة وأنيّ تجربة،  
وأضعني هذه التجربة القاسية بأنّه إذا كان مقدورًا عليّ  
أن تخفّني من حياتي، فمن الحكمة أن أبحث لي عن  
حيلة أخرى، كان كلّ شيء كلمنة طويلة مقيسة، لا  
تهزلي بي، أنا أتوجّس من ناحيتك شيئًا كهذا دائمًا،  
ولكنّ الأم أجلّ من أن يُهزا به، لا أتصور أن يهزا  
ملك كرم مثلك من عذاب الآخرين ودهي جانبًا  
ألك سبيه، لكن ما الحيلة؟ فُهي عليّ من قديم أن  
أحبك بكلّ قوّة نفسي...

ساد صمت مقطّع بأنفاسه المترددة، وكانت تنظر  
إلى الأمام فلم يطلع عينها ولكّنه وجد في صمتها  
راحة لأنّه حلّ أيّ حال أخفّ من كلمة صادرة وهذه  
توفيّقًا. تصوّر أن يبيحك صوبها ناعيًا عبدًا معربًا من  
الشعور نفسه! يا له من مجنون! لماذا سكب ماء قلبه  
المكنون؟ لم يكن إلّا كفافز رأمّ الارتفاع قدّمًا فوجد  
نفسه يعلّق فوق هامة الجوّ! ولكن أيّ قوّة تستطيع أن  
تشكّمه بعد ذلك؟

- لا تذكريني بما لا أحبّ سهاهه فإنّي في غنى عن  
ذلك، لن أنسى رأسي لأنّي أحله ليل نهار، ولا أنفي  
فإنّي أراه مرّات كلّ يوم، ولكن عندي شيء لا نظير له

لك ذكر على لسانه إلّا مقرونًا بكلّ ثناء...

ألقت عليه نظرة وهي تميل برأسها إلى الناحية  
الأخرى كأنّها تداعبه قائلة ومن أين لك بهذه البلاغة  
كلّها؟، ثمّ قالت بشيء من الرقة:  
- يبدو أنّه وقع سوء تفاهم غير مقصود، ولكن ما  
فات فات...

بحساس وأمل:

- بل لا يزال في النفس شيء من الشكّ فيما أرى.

فقال بتسليم:

- كلاً، لا أنكر أنّي أسأت الظنّ حينًا، ولكن تبيّن  
لي الحقّ بعد ذلك...

لفظًا قلبه فوق موجة من السعادة ترتجّح لوفها  
كاشمل، ثمّ تسأل:

- متى عرفت ذلك؟

- منذ زمن غير قصير...

ورنا إليها بامتنان، وعبرته حال من الوجد يحلو  
معها نوع من البكاء، ثمّ قال:

- عرفت أنّي بريء؟...

- نعم...

هل يستردّ حسن سليم احترامه عن جدارة؟

- وكيف عرفت الحقيقة؟

فألت بعملة توشي الرغبة في إنهاء التحقيق:

- عرفتها... وهذا هو المهم...

تجنّب الإحراج أن يضايقها، ولكنّ خاطرها خطر  
فاظلمت على قلبه سحابة من الكدر حتّى قال منشكّيًا:

- ومع ذلك أصرت على الاختضاء لم تكلفي  
نفسك إعلان العفو ولو بإشارة أو كلمة مع أنّك  
اقتننت في إعلان الغضب! ولكنّ حذرک واضح، وهو  
عندي مقبول...

- أيّ حذر هذا؟

بصوتّ حزين:

- إنك لا تعرفين الأم، وإنّي أسأل الله غلصًا ألاّ

تعرفه أبدًا...

قالت كالمعترة:

- ظننت أنّه لا يَمَك أن تكون متّها... 1

الأنغام الكامنة في نفسه حتى برز منها لحن مليح، عند ذلك ترامت قسبات المعبودة رموزاً موسيقية للحن ساوئي مرموقة على صفحة الوجه اللالكي.

- ستجديني قائماً بما دون الرجاء، لأنني كما قلت لك: أحبك...

والتفت صوبه في رشاقة طبيعية، فألفت عليه نظرة باسمة ثم استركتها على عجل قبل أن يتمكن من قراءتها، أية نظرة كانت يا ترى؟... نظرة رضى؟ تأثر؟ عطف؟ استجابة؟ سخرية مهذبة؟ وهل أصابت الوجه جملة أم اختصت بالراس والأنف؟ وجاءه صوتها قائلاً:

- لا يعني إلا أن أشكرك، واعتذر لك عن إيلامك الذي لم أتعمده، أنت رقيق وكريم... وزعت به النفس إلى الارتقاء في أحضان الأحلام السعيدة، ولكنها استطردت قائلة بصوت خافت:

- الآن دعني أتأمل حياً وراء ذلك؟

ترى أسمع صوت مبعودة أم صدى صوته هو؟ هذه الجملة بنصها محلفة في مكان ما من سماء بين القصرين محفوفة بتهداته، هل آن له أن يجد لها جواباً؟... تسأل في حيرة:

- هل وراء الحب شيء؟!

ها هي تبسم، ترى ما معنى ابتسامتها؟ لكذلك غير الابتسام تروم، عادت تقول:

- إن الاعتراف بداية وليس نهاية، إلي أتساءل حياً تريد...؟

فاجاب بحيرة أيضاً:

- أريد... أريد أن تأثني في بأن أحبك...

فها ملكت أن ضحكك، ثم تسألت:

- أفذا ما تريد حقاً؟ ولكن ماذا أنت فاعل إذا لم أذن لك؟

فقال وهو يتنهد:

- في هذه الحال أسبك أيضاً.

فتسألت فيها يشبه الدعابة، الأمر الذي أرحبه:

- فهم إذن كان الاستئذان؟

حسباً ما أسخف هفوات اللسان، إن أخوف ما

عند الآخرين، حتى لا نظير له، إلي فخوره به، ويجب أن تكوني به فخوراً أيضاً ولو زهدت فيه، هكذا كان مذ رايتك أول مرة في الحديقة، ألم تشعرى به؟ لم أفكر في الاعتراف من قبل لأنني خفت أن يقطع ما بيننا من مودة وأن يطردني من الفردوس، لم يكن من اليسر علي أن أخامر بسعادتي، أما وقد كُردت من الفردوس فعلاً أخاف؟!

سال سره على لسانه كأنه دم تعلم منته، ولم يكن يرى من الوجود إلا شخصها البديع، كأن الطريق والأشجار والقصور والقلعة الصابرة قد غابت وراء سحابة شاملة لم تنحسر إلا عن فرجة لاحت منها المعبودة الصامتة بقامتها الهيفاء وهالتها السوداء وعارضها المرسوم باللاحة المنطوي على الأسرار، يبدو في الظل حيناً أصمر صائلاً، وحيناً - إذا مرّاً بطريق جانبي - وضاً منيراً تحت شعاع الشمس المسائلة للغروب، ولم يكن يبالي أن يسترسل في الحديث حتى الصباح!

- أقلت لك أنني لم أفكر في الاعتراف من قبل؟ في هذا تجاوز، الواقع أنني همت بالاعتراف يوم التقينا في الكشك ونودي حسين للتليفون، كنت أعترف لولا أن هاجلتي بهاجة رأسي وأثني، فكنت (وهو يضحك ضحكة مقتضبة) كالطبيب الذي همّ بفتح فيه فأنهال عليه الحصى من جمهور المستمعين؟

هادئة صامتة كما ينبغي لها، ملاك من عالم آخر لا يطيب له التحدث بلغة البشر أو الاهتمام بشؤونهم، أما كان من الأكرم له أن يصون سره؟... الأكرم؟! الكبرياء حيال المعبود كفر، مواجهة القاتل بالقتل فن من الحكمة، أتذكر الحلم السعيد الذي استيقظت منه ذات صباح فبكيت عليه؟... الحلم سرعان ما يتلعه النسيان، أما الدموع أو بالحرى ذكراها فتبقى رمزاً خالداً، وإذا بها تقول:

- لم أقل ما قلت إلا على سبيل الدعابة، ورجوتك حينذاك ألا تغضب...

هذا الشعور الرطيب جليد بالتلذذ، كالفرحة السعيدة على أثر وجع فرس وضرباته، وتداغت

يناف أن ينحط على الأرض فجأة كما ساء عنها فجأة،  
وسمعها تقول:

- أنت تحبيني، ويدوي أنك تحب نفسك أيضًا...  
قال ببجزع:

- إني... حائر؟ ربما، ولكنني أحبك، ماذا وراء  
ذلك؟ يجئ لي أحيانًا أنني أطعم إلى أسود تعجز  
الأرض عن حملها، ولكنني إذا تأملت قليلًا عجزت عن  
تحميد هدف لي، تحبيني أنت عن معنى هذا كله،  
أريد أن تحدثني وأن أستمع، هل عندك ما يتشلىني  
من حيرة؟...

قالت باسمه:

- ليس عندي مما تسأل شيء، كان ينبغي أن تكون  
أنت المتحدث وأنا المستمع، ألسن فيلسوفًا؟

قال وابتسامة وجهه يتودد:

- أنت تسخرين مني...!

فكانت بمجلة:

- كلاً، غير أنني لم أكن أتوقع هذا الحديث عندما  
غادرت البيت، فاجتاني بما لم أتوقع، وهل أتي حال  
فاني شاكراً محنة، ولا يسع إنسان أن ينسى هواطك  
الرفيقة الملهبة، أما أن يسخر منها فهذا ما لا يحظر على  
بال...

نخمة أسرة ومناخمة علية، ولكنه لا يدري أي  
المعبود أم يلهو، وهل تفتح أبواب الأمل أم توحد في  
خفة النسيم، وقد سأله عما يريد فما أجاب لأنه لا  
يدري ماذا يريد، ولكن ماذا عليه لو قال إنه يطمح  
إلى الموصل، وصال الروح بالروح، وأن يترك باب  
السر المغلق بمنافق أو قلة، ألا يكون هذا هو  
الجواب؟ وعند مفترق الطرق الذي ينتهي عند شارع  
السرائيات، توقفت عابدة عن السير، ثم قالت برقة  
ولكن بلهجة قاطعة:

- هنا...!

فتوقفت عن السير أيضًا وهو يملق في وجهها  
بدعش، وهنا تعني أنه يجب أن نفرق هنا، لم يكن  
لحملة «أحبك» هذا الامتداد في المعنى الذي يغني عن  
السؤال، قال دون تدبر أو تفكير:

- كلاً...!

ثم هاتفاً، كمن ظفر بكشف مضيء بفتة:

- ماذا وراء الحب؟ اليس هذا سؤالك؟ هاك

الجواب: ألا نفرق...!

قالت يلهو باسم:

- ولكن يجب أن نفرق الآن...!

تسأل بحرارة:

- لا كدر ولا سوء ظن؟

- كلاً...!

- أتعودين إلى زيارة الكشك؟

- إذا سمحت الظروف.

بقلق:

- كانت الظروف تسمح في الماضي!

- الماضي غير الحاضر...

آله الجواب بإيلاً حقيقياً، فقال:

- يبدو أنك لن تعودي...

فكانت كأنما تنبهه إلى وجوب الافتراق:

- سأزور الكشك كلما سمحت الظروف،

سعيدة...

وغادرت موقفها متجهة نحو شارع المدرسة فوفق  
يرنو إليها كالسحور، وعند منعطف الطريق التفتت  
نحوه فألقت عليه نظرة باسمه ثم غابت عن ناظره.  
ماذا قال ولماذا سمع؟ سيخلو إلى هذا عيلاً قليل،  
بعد أن يفيق، متى يفيق؟ إنه يسير الآن وحده،  
وحده؟ وخضفات القلب وهيبان الروح وأصداء النغم؟  
ومع ذلك شعر بالوحدة بقوة هزت صميم فؤاده،  
وفضه شداً يأسمين ساحراً أسراً ولكن ما هوئته؟ ما  
أشبهه بالحب في سحره وأسرته وغموضه، لعل سر هذا  
يفضي إلى ذاك، ولكنه لن يحل هذا اللغز حتى يأتي على  
تراتيل الحيرة...

- ٢٤ -

قال حسين شذاد:

- غلبه جلسة الوداع والأسفاه!

امتعض كمال لدى ذكر كلمة الوداع، ورمق حسين

بنظرة سريعة ليرى إن كان وجهه ينطق بالأسف حقًا

كما نطق به لسانه! هل أنه استشعر جو الروداع منذ أكثر

من أسبوع، إذ إنَّ مجيئه يوميه يؤذّن عادة برحيل

الأصدقاء إلى رأس البر والإسكندرية، فما هي إلّا أيام

حقّ تغيب عن أفقه الحديقة والكشك والأصدقاء، أمّا

المعبودة فقد ارتضت الاختفاء من قبل أن يقضي به

الرحيل، وأصرّت عليه رغم الصلح الذي تُوجّه به

حديث شارع السرايات، لكن هل يمضي يوم الروداع

دون زيارة؟ هل هانت المروة إلى حدّ الضنّ بنظرة

عابرة قبل سفر ثلاثة أشهر؟ تسأل كمال ياسيًا:

- لم قلت «وأسفاه»؟

فقال حسين شذاد باهتمام:

- وددت لو سافرت معي إلى رأس البر، يسا

سلام!... أيّ تصنيف كان يكون؟...!

كان يكون عجبًا بلا ريب، حسب أنّ المعبودة لا

تستطيع مواصلة الاختفاء هناك! وخاطبه إسماعيل

لطيف:

- كان الله في عونك! كيف تحتمل حرّ الصيف هنا،

إنّ الصيف لم يكد يبدأ بعد، ومع ذلك أنظر إلى حرّ

اليوم!.

كان الجوّ شديد الحرارة رغم تقلّص ذيل الشمس

عن الحديقة والصحرَاء للمتنّة وراعها، غير أنّ كمال

قال بهدوء:

- لا شيء في الحياة لا يمكن احتياله...

وفي اللحظة التالية كان يسخر من إجابته ويتساءل

كيف أجاب بها، وإلى أيّ حدّ يمكن اعتبار أنّ أقوالنا

تعبير صادق عمّا في نفوسنا؟ ونظر فيها حوله فرأى أناسًا

سعداء ما في ذلك ريب، بدلوا في قمصانهم ذوات

الأكمام القصيرة وبتلوناتهم الرمادية كأنّما يتحدّون

الحرّ، كان هو وحده الذي يرتدي بدلة كاملة - وإن

تكن بدلة خفيفة بيضاء - وطربوشًا وقد وضعه على

المنضدة، وإذا بإسماعيل لطيف يتوّه بنتيجة الامتحان

قائلًا:

- نتيجة نجاح مائة في المائة، حسن سليم نال

الليسانس، كمال أحمد عبد الجواد منقول، حسين

شذاد منقول، إسماعيل لطيف منقول...

قال كمال ضاحكًا:

- لو اكتفيت بذكر النتيجة الأخيرة لعرفنا الآخرين

بداعة!

فقال إسماعيل وهو يرفع منكبيه استهانة:

- كلانا بلغ هدفًا واحدًا، أنت بعد كدّ وتعب

تواصل طول العام، وأنا بعد تعب شهر واحد!

- هذا دليل على أنّك عالم بالفطرة!

فتسائل إسماعيل ساخرًا:

- ألم تقل مرّة في أحد أحاديثك التالية إنّ برنارد شو

كان أصيب تلميذ في عصره؟

فقال كمال ضاحكًا:

- الآن أمنت بأنّ عندنا نظيرًا لشو، على الأقلّ في

حيته...!

هند ذلك قال حسين شذاد:

- عسلي خبر بيني إذاعته قبل أن يسرقنا

الحديث...

ولمّا وجد أنّ قوله لم يجذب كثيرًا في لفت الأنظار إليه

بعض فجأة، ثمّ قال بلهجة لم تخلّ من تمثيل:

- دهوني أزلت إليكم خبرًا طريفًا وسمعيًا (ثمّ

مستدركًا وهو ينظر نحو حسن سليم) أليس كذلك؟

(ثمّ وهو يعود برأسه نحو كمال وإسماعيل) تمّت أمس

خطبة الأستاذ حسن سليم حلّ أعني هائلة...

وجد كمال نفسه أمام هذا الخبر بفته كما يجد إنسان

نفسه تحت التزام وكان أنعم ما يكون حينًا بالسلامة

والأمن، خفق قلبه خفقة عنيفة كسقطّة طائرة متطلقة

في فراغ هوائي، بل هي صرخة فرح باطنية تصدّعت

الضلوع دون تسرّبها إلى الخارج، وقد عجب -

خصوصًا فيما بعد - كيف استطاع أن يضبط مشاعره

ويلاحي حسين شذاد بابتسامة التهتة، فلمع شغل عن

القاعة - ولو إلى حين - بالصرع الذي نشب بين

نفسه وبين اللهول الذي طوّقها، وكان إسماعيل

لطيف أوّل من تكلم فردّد صوته بين حسين شذاد

وحسن سليم الذي بدا هدفًا رزيًا كعادته وإن شابه

هذه المرّة شيء من الحياء أو الارتباك، ثمّ هتف:

الكتاب، وياسم الكبرياء هجر إيليس الجنة. قال كمال باسًا:

- العذر مقبول والوعد مأمول.

لصاح إسماعيل لطيف عتجًا:

- غله بلاحة أزهرية إذا لاحت لها في الأفق مائدة  
تتاست دواحي العتاب، وتغنت بالتسامع والثناء، كل  
ذلك في سبيل لقمة دسمة! حقًا إنك أديب أو فيلسوف  
أو ما شاكل ذلك من ضروب الشحافة، أمّا أنا فلست  
كذلك...

ثم مواصلة حملة الاتهام على حسين شذاد وحسن  
سلم:

- يا لكما من داهيتين، صمت طويل يعقبه فجأة  
إعلان خطبة، هه؟ حقًا يا أستاذ أنك الخليفة المنتظر  
لثروت باشا...

قال حسن سلم وهو يتسم معتذرًا:

- إنّ حسين نفسه لم يعلم بالأمر إلّا قبله أيام  
معدودات...

فتسائل إسماعيل:

- خطبة من جانب واحد كتصرّح ٢٨ فبراير؟

رفضته الأمة المغلوبة على أمرها بإيهاء ولكنه فُرض  
عليها وما كان كان، وضحك كمال ضحكة عالبة،  
فقال إسماعيل وهو يغمز حسن سلم بعينه:

- استمعنوا على قضاء... لا أذكر ماذا بالكتبان!  
قالا عمر بن الخطاب، أو عمر بن أبي ربيعة، أو عمر  
أفندي، والله أعلم...

وقال كمال فجأة:

- جرت العادة بأن تنضج هذه الأمور في صمت،  
على أنّي أقرّ بأنّ الأستاذ حسن أشار في حديث له معي  
مرة إلى شيء كهذا!

فرمقه إسماعيل بارتياح، على حين ألقي عليه حسن  
نظرة واسعة، وقال مستدرّكًا:

- كان كلامًا أشبه بالعناوين...

تسامل كمال في دهش كيف ندّ عنه ذلك القول؟ إنّه  
كذب أو شبه كذب على أحسن تقدير، كيف يطمع -  
بهذا الأسلوب الشاذّ - أن يقتنع حسن بأنّه كان على

- حقًا! يا له من خبر ساو، ساو ومفاجئ، ساو  
ومفاجئ وخادرا غير أنّي ساوّل الحديث عن الغدر  
إلى حين، حسبي الآن أن أقدم خالص التهنئة...

وبهض فصائح حسين وحسن، فقام كمال من فوره  
للتهنئة كذلك، وكان مأخوذًا رغم ابتسامته الظاهرة  
بسرعة الحوادث وغرابة الأقوال حق. خيل إليه أنّه في  
حلم غريب وإنّ المطر ينهمر فوق رأسه وإنّه يتلقّت  
باحًا من ماوى، وقال وهو يصالح الشاتين:

- غير ساو حقًا، نهائي القلية...

عاد المجلس إلى سابق هيشه، واختلس كمال من  
حسن سلم نظرة على رسمه فرآه هادئًا ورئيًا، وكان  
يشفق من أن ينده غتالًا أو شامتًا - كما تصوّر هذا -  
فدأخله شيء من الارتياح الصابر، وراح يستجدي  
نفسه أقصى ما لديها من قوّة ليسترجحه الداهي عن  
العيون الواظقة ويتضادى من موضع المفزعة والزرابة،  
لجملدي يا نفسي وأنا أعذك بأن نعود إلى هذا كله فيما  
بعد، بأن نتألم معًا حقّ بهلك، وبأن نفكر في كلّ شيء  
حقّ نحن، ما أمتع هذا الموعد في هذه الليل حيث لا  
هين ترى ولا أذن تسمع، حيث يبلع الالم والهذيان  
والدموع دون زرابية زار أو لومة لائم. وثمة البشر  
القدية أزعج من فوحتها الغطاء وأصرّح فيها غاطبًا  
الشياطين ومنابجيا الدموع المتجمعة في جوف الأرض  
من أعين المحزونين، لا تستسلم، حذار، فالدنيا تبدو  
لناظريك حراء كمين الجحيم. عاد إسماعيل لطيف  
يقول متخذًا لهجة الاتهام:

- مهلاً، لنا عندك حساب، كيف حدث هذا  
ودون سابق إنذار؟ أو فلندع هذا إلى حين، ولنسأل  
كيف تمت الخطبة دون حضورنا؟

قال حسين شذاد مدافعًا عن موقفه:

- لم يكن هناك حفل كبير أو صغير، اقتصر الجمع  
على خاصّة الأهل، موعدنا يوم الكتاب وعليك خير،  
مستكونان من الداعين لا المدعوين...

يوم الكتاب! كأنه عنوان لحن جنازتي، حيث يتشيع  
قلب إلى مقرّه الأخير عفوًا بالورود مودعًا بالزغاريد،  
وياسم الحبّ تنويرية باريس لشيخ معمم يتلو فاتحة

- ينبغي أن أعرف أولاً إن كنت سابقى في مصر أم لا...؟

فقال حسين شذاد مطعياً:

- إما أن يصرِّح في النياابة، أو في السلك السياسي... .

هكذا يبدو حسين شذاد مسروراً بالخطبة، فاستطيع أن أزعم أنني كرهته ولودقيقة عابرة، كأنه خاتني فيمن خانوني، إخواني أهدأ؟ اختلطت الأمور عليّ، غير أن هذا المساء يعدني بخلوة حافلة... .

- أيتها تفضل يا أستاذ حسن؟

فليختر ما يحلو له، النياابة... . السلك السياسي... . السودان... . سوريا إن أمكن... .

- النياابة جيدة، إنّي أفضل السلك السياسي... .

- يحسن أن نفهم والدك ذلك جيّداً حتّى يركّز عنايته في إلحاقك بالسلك السياسي... .

أفكنت هذه الجملة أيضاً؟ ولا شكّ أنّها أصابت الهدف، ينبغي أن يتمالك أعضابه وألاّ وجد نفسه مشتتاً مع حسن في نزاعٍ عليّ، ثمّ ينبغي أن يراعي خاطر حسين شذاد، فهنا الآن أسرة واحدة، ما ألقى هذه الشكّة من الألم. هرّ إسماعيل رأسه كالأسف، وقال:

- هذه آخر أهتمامك معنا يا حسن، بعد عشرة العمر كله، يا لها من نهاية حزينة! .

يا للحياة! يحسب أنّ الحزن يمسّ قلباً واحة المعبود مرتمة.

- الواقع أنّها نهاية حزينة يا إسماعيل... .

كذب في كذب، مثل تهنتك له، يستوي في هذا ابن التاجر وابن المستشار. قال:

- أيعني هذا أنّك ستضيّ عمرك كله خارج القطر؟

- هذا هو الخوف، لن نرى مصر إلّا في القليل النادر... .

قال إسماعيل متعجباً:

- حياة غريبة! هلّا فكرت فيها ينتظر أولادك من متاعب؟

واقبلها! أيلقى هذا الحبّ بالمعاني! يحسب الشرير

علم بنواياه وآلته لم يفاجأ بها أو يكثر لها؟ يا للحياة! أمّا إسماعيل فقد قال لحسن وهو يحدّجه بنظرة عتاب: - ولكنّي لم أحظّ بعنوان واحد من هذه العناوين! قال حسن بجذ:

- أوكد لك أنّه إذا كان كمال قد وجد في حديثي معه ما اعتبره إشارة إلى الخطبة، فإنّما يكون قد استمعنا على ذلك بخياله لا بكلّيان.

ضحك حسين شذاد ضحكة عالية، وقال مخاطباً حسن سليم:

- إسماعيل زميلك القديم، وهو يريد أن يقول لك إنّّه إذا كنت سبقته إلى اللسان ثلاث سنوات فلا يعني هذا أن تضنّ عليه بأسرارك أو أن تؤثر بها غيره! فقال إسماعيل باسمًا، وكأنّما كان يداري مضايقته: - إنّي لا أرتاب في زمالته القديمة، ولكنّي أحاسبه حتّى لا يعود إلى الوقوع في الإهمال يوم الغرام! فقال كمال باسمًا:

- نحن أصدقاء الطرفين، فإذا حملنا العريس فلن حملنا العروس... .

إنّه تكلم ليثبت أنّه حيّ، لكنّه حمّ يتألم، شدّ ما يتألم، ترى هل جرى في خاطره يومًا أن يكون لحبه نهاية خير هذه النهاية؟ كلّ، غير أنّ الإيمان بأنّ الموت حتم مقدّر لا يمنع من الجزع حين حضوره، وهو ألم مفترس لا يعرف المنطق أو الرحمة، لو يستطيع أن يشكّسه ليعلم في أيّ موضع يكمن أو هن أيّ ميكروب يصدر؟ وبين نوبات الألم يرشح بالللل والفتور... .

- متى يُعقد الغرام؟

إنّ إسماعيل يسأل عيّا بدور بخاطره كأنّه موكل بأفكاره، ولكنّه لا ينبغي له أن يصمت. قال: - نعم، هذا مهمّ جدًّا حتّى لا نؤخّذ على غرة، متى يُعقد الغرام؟

تساءل حسين شذاد ضاحكًا:

- لمّ تتمتّلان الأمر؟ فليهنّا العريس بما بقي من عهد عزوبيته... .

وقال حسن ببلونه المعتاد:

- هو الكتاب...

فقال حسين في ثقة وإيمان:

- لن يقطع الرجل ما بيننا من أسباب...

فخفق قلب كمال رغم تنوره، وقال:

- هل أنّ قلبي يحدّثني بأنك لن تحتمل الغربة إلى

الأبد...

- لهذا هو الراجع، ولكنك ستزيد من رحلتي بما

سأرسله لك من كتب، ستواصل أحاديثنا بالرسائل

والكتب...

هكذا يتكلّم حسين كما لو كان السفر قد بات أمراً

مفروغاً منه، هذا الصديق الذي يسعد ببقاءه سعادة

فاتنة فحقّ الصمت يستمتع به في عمره، ولكلّ عزاء

فلهاب للمبودة سيعلمه كيف يستهين بالخطب وإن

جلّ، هكذا هانت وفاة جدّته المحبوبة على النفس التي

اكتوت بنار الحزن على فهمي، غير أنّه ينبغي أن يذكر

دائماً أنّه في جلسة الدواعي كي يلا عينيه من الورد

والأزهار الثملة بالنضرة لا تبالي في أيّ حزن يهيم،

وثمة مشكلة ينبغي أن يحلّها حلاً: كيف يسمو بشر

إلى معاشره للمبود أو كيف يبيط المبود حتّى يعاشره

بشر؟ فإذا لم يجد لذلك حلاً فسوف يسير في طريقه

بقدمين ترسّفتان في الأغلال وفي حلقه شجاً، والحبّ

حل ذو مقبضين متباعدين تحلق لتحمله يدان...

فكيف يحمله وحده؟ وكان الحديث يطرّد ويتفرّع وهو

يتابعه بعينه وهزّات رأسه وكلّيات يثبت بها أنّ الخطب

لم يقض عليه بعد، وكان الأمل معقولاً بأنّ قاطرة

الحياة تسير وأنّ عكّلة الموت في الطريق على أيّ حال،

وما هي ساعة الغروب... ساعة الظلام والهدوء...

تحبّها كما تحبّ الفجر، وعائدة والألم لفظان لمعنى واحد

فينبغي أن تحبّ الألم وأن تطرب للهزيمة منذ اليوم؛ ولا

تزال عجلة الحديث في دوران غير منقطع والأصدقاء

يتفاحكون ويتناظرون كأنّ واحداً منهم لم يعرف الحبّ

قلبه... حسين ضحكة الصبحة والصفاء، وإسمايل

ضحكة العريدة والعدوان، وحسن ضحكة التحفّظ

والاستعلاء، ويلى حسين إلّا أن يتحدث عن رأس

البرّ، أعدك بأنّ أسجّ إليها يوماً وإن أسأل عن الرمال

أنّ المبودة تحبل وترحم وتنداح بطنها وتكثّر ثمّ يميّتها

المخاض لتلد! أنذكر خديجة وعائشة في الأشهر

الأخيرة؟ هو الكفر، لم تشترك في جمعيّة الكفّ

السوداء؟ الاغتيايل خير من الكفر وأنجح، وتجد نفسك

يوماً في قصص الاتهام وعلى المنصة سليم بك صبري

والد صديقك الدبلوماسي وهو معبودك، كما مثل بين

يديه قتلة السرّار في هذا الأسبوع، الحاتن!...

حسين شدّاد ضاحكاً:

- أنقطع الدول علاقتها السياسيّة حتّى يروى أولاد

الدبلوماسيين في بلادهم!

بل تقطع الرموس! عبد الحميد حنايت...

الخراط... محمود راشد... عليّ إبراهيم... راغب

حسن... شفيق منصور... محمود إسمايل...

كمال أحمد عبد الجواد الإعدام شقاً، القاضي الوطنيّ

سليم بك صبري، القاضي الإنجليزيّ مستر كرشو،

الاغتيايل هو الجواب، أتريد أن تقتل أم تقتل!...

وتخاطب إسمايل حسين قائلاً:

- رحيل أختك سيحمل والدك على الإصرار على

رفض فكرة سفرك أنت!...

فقال حسين شدّاد بأطمئنان:

- نصّيتي تقرب من الحلّ الموقّع بخطي ثابتة...

عائدة وحسين في أوروبا! إنسان يفقد في ساعة حبيبه

وصديقه، تفقد روحك محبوبها فلا تجدّه ويفتقد

عقلك أليفه فلا يجده، وفي الحريّ العتق تمشي وحيداً

مهجوراً كأنك صدى حنين هائم منذ أجيال، تأمل

الآلام التي ترصدك، آن لك أن تحصد ثمار ما زرع

من أحلام في قلبك الغرّ، توّسل إلى الله أن يجعل

الدموع دواء للأحزان، وعلّق إن استطلعت جسمك

بجبال المشائق أو وضعه على رأس قوّة مدّرة تقهر بها

على العدو، غداً تلقى روحك خلاد كما لقيت بالأمس

ضريح الحسين، يا نخبة الأمال، والمخلصون قتل أمّا

أبناء الخونة فسفّروا. قال إسمايل لطيف وكأنّما يخاطب

نفسه:

- لن يبقى في مصر إلّا أنا وكمال، وكمال غير مأمون

الجانب، لأنّ صديقه الأوّل - قبل أو بعد أو مع حسين



- نعم أنت، لم يكن حسن يرتاح إلى صداقتكما، فلما يبدو لي محققاً رغم أنه لم ينس لي عنه بكلمة، إنه ذو كبرياء شديد - كما تعلم - ولكني أعرف كيف أصل إلى ما أريد، أؤكد لك أنه لم يكن يرتاح إلى صداقتكما، أتذكر ما نشب بينكما ذلك اليوم؟ الظاهر أنه طالبها بأن تحذف من حزينتها في الاختلاط بالاصدقاء، والظاهر أنها ذكرت له بأنه لا حق له في مطالبة فأقدم على هذه الخطوة الكبيرة ليكون من أصحاب الحقوق!

قال كمال وخفان قلبه يكاد يعلو على صوته:  
- لكنني لم أكن الصديق الوحيد! كانت هاندة صديقتنا جميعاً!

فقال إسحاق متهمكاً:  
- ولكننا اختارتك أنت لتثير قلقه! ربما لأنها آتت في صداقتك حرارة لم تجدها عند غيرك، على أي حال، إنها لا تلتقي الأمور ارتباطاً، وقد صممت منذ قديم على الظفر بحسن فجئت أخيراً ثمرة صبرها! والظفر بحسن؟! ذممة صبرها! ما أشبه هاتين العبارتين يقول ماثون (شرق الشمس من الغرب، قال وقلبه يثأر):  
- ما أسوأ ظنك بالناس! إنها ليست على شيء مما

تتصور!  
فقال إسحاق دون أن يفعل إلى شعور صاحبه:  
- لعل الأمر وقع اتفاقاً أو لعل حسن كان واحداً، على أي حال جاءت العواقب في صالحها...  
هض كمال غاضباً:

- صالحها! ماذا تفكر؟! سبحان الله، إنك تتحدث عنها كما لو كانت خطبتها لحسن تعتبر ظفراً لها لا له!! فحججه إسحاق بنظرة غريبة، ثم قال:  
- إنك فيها يبدو غير مقتنع بأن أمثال حسن قليلون؟ أسرة ومركز ومستقبل، أمّا مثيلات هاندة فلسن قليلات، هن أكثر مما تتصور، ترى هل تقدرها أكثر مما تستحق؟ إن أسرة حسن ارتفعت زواجه منها لشرة أبيها المائلة فيها اعتقد، إنها فتاة... (ثم بعد تردد)... ليست بارعة الجمال على أي حال!...

التي وطنتها أقدام المعبودة لآلتها ساجداً، الآخرين يتغيثان بسان استغاثو وتحذثان عن أمواج كالجبال، حقاً؟ تصدّر جنة تقلب بها الأمواج إلى الشاطئ وقد امتص البحر الرهيب جماعها ونبلها؟ ولتعترف بعد هذا كله بأن الملل يطوق الكائنات وأن السعادة ربما كانت وراء أبواب الموت، وتواصل السمر حتى أن للجمع أن يتفرق، فتصانفوا بحرارة... شد كمال على يد حسين، وشد حسين على يد كمال، ثم مضى وهو يقول:

- إلى اللقاء... في أكتوبر!

كان في مثل هذا الموقف من العام الماضي وما قبله يتساءل في لهفة متى يصود الاصدقاء؟ الآن ليست أشواقه رهينة بعودة أحد، ستتظل مستمرة جاء أكتوبر أو لم يجر، عاد الاصدقاء أو لم يعودوا. لن يلوم شعور الصيف بعد الآن لأنها تُباعِد بينه وبين عابدة، فافرة التي تفصل بينهما أعمق من الزمن، وقد كان يعالج الزمن بجراحات الصبر والأمل، ولكنه يتخاصم اليوم عدواً مجهولاً وقوة خارقة غامضة لا يدرى من تعاونها ورتابها حرفاً واحداً... فليس أمامه إلا الصمت والتعاسة حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. تراءى له حبه معلّقاً فوق رأسه كالقدر، يشده إليه بأسلاك من الألم المبرح، أشبه ما يكون في جبرته وقوته بالظاهرة الكونية، فتأمله بعين ملؤها الإكبار والحزن.

افترق الاصدقاء الثلاثة أمام سراي آل شداد: فسار حسن سليم إلى شوارع السرايات، وألججه كمال وإسحاق نحو الحسيّة في طريقهما المعهود الذي يفترقان في نهايته، فيمضي إسحاق إلى غمرة، ويمضي كمال إلى الحى العتيق، وما إن انفردا حتى ضحك إسحاق ضحكة عالية طويلة، فسأله كمال عما أضحكك، فقال في خبث:

- ألم تظن بعد إلى أنك كنت في الأسباب الجوهرية التي دعت إلى الإسراع في إعلان الخطبة؟

- أنا؟!

نلت من كمال وعينه تتسعان في دهول، فقال إسحاق في استهانة:

إِنَّمَا أَنْ يَكُونَ مَجْنُونًا وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ مَجْنُونًا أَنْتَ! حَزَنُ  
أَلَمْ كَهَذَا مِنْ قَبْلِ يَوْمِ أَطْلَعَ عَلَى كَلِمَةِ جَارِحَةٍ تَهْجُمُ بِهَا  
كَاتِبَهَا عَلَى نِظَامِ الزَّوْجِ فِي الْإِسْلَامِ، إِلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى  
الْكَافِرِينَ جَمِيعًا، تَسَامَلُ يَهْدُوهُ يَهْطُلِي بِهِ عَلَى لَوْعَتِهِ:  
- لَمْ أَذَنْ جُمُورَ الْمُعْجَبِينَ مِنْ حَوْلَهَا؟

أَبْرَزَ إِسْحَاقُ فَكَّهُ الْأَسْفَلِ فَارْتَفَعَ ذَقْنُهُ فِي حَرَكَةٍ  
اسْتَهَانَةٍ، ثُمَّ قَالَ:

- لَمَلَّكَ تَعْنِيهِ فِيمَنْ تَقْصِدُ! لَا أَنْكَرُ أَنَّهَا خَفِيفَةُ  
الرُّوحِ، وَطَرَّازُ وَحْدَهَا فِي الْأَتَاقَةِ، إِلَى أَنَّ أُسْلُوبَهَا  
الْغَرَبِيَّ فِي اللَّبَاقَةِ الْاجْتِنَاحِيَّةِ يَرِينُ عَلَيْهَا فَتَنَةٌ وَإِغْرَاءُ،  
لَكُنَّهَا بَعْدَ ذَلِكَ سَمَرَاءُ نَحِيلَةٍ لَا شَيْءَ فِيهَا يُشْتَهَى، أَوْ  
تَعَالَى مَعِيَ إِلَى غَمْرَةٍ تَرَى الْوَلَوَاتُ مِنَ الْجِبَالِ تَزْوِي بِجِبَالِهَا  
جِلَّةً وَتَفْصِيلًا، هُنَالِكَ تَرَى الْمَلَاةَ الْحَلْقَةَ فِي الْبَشَرَةِ  
الْوَضِيعَةِ وَالنَّهْدَ الْكَاهِبَ وَالرَّدْفَ الْمُرْدَّ، هَذَا هُوَ الْجِبَالِ  
إِنْ أَرَدْتَهُ... لَا شَيْءَ فِيهَا يُشْتَهَى!...

كَانَتْهَا شَيْءٌ يُشْتَهَى فَكَلَّمَ مَرْيَمَ أُنْهَدَ كَاثِبٌ وَرَدَفَ  
مِلْهٍ... كَمَنْ يَصِفُ الرُّوحَ بِصِفَاتِ الْجَسَدِ! يَا لَشِدَّةِ  
الْأَلَمِ، كُتِبَ عَلَيْهِ الْيَوْمُ أَنْ يَتَجَرَّعَ كَأْسَ الْأَلَمِ حَقًّا  
ثَمَالَتَهَا، إِذَا تَوَالَتْ الضَّرَبَاتُ الْقَاتِلَةُ فَمَنْ الْخَيْرِ أَنْ  
تَرْحَبَ بِالْمَوْتِ...  
وَعِنْدَ الْحَسِينَةِ افْتِرَاءً، فَسَارَ كُلٌّ إِلَى سَبِيلِهِ...

#### - ٢٥ -

تَنْقُضِي السَّنُونَ وَلَا يَفْتَرِ حَبِّهِ لِهَذَا الطَّرِيقِ، قَالَ  
لِنَفْسِهِ، وَهُوَ يَلْقَى عَلَى مَا حَوْلَهُ نَظْرَةً ضَبَّيَّةً: «لَوْ شَاءَ  
حَبِّي لِلْمَرْأَةِ الَّتِي يُخَارِعُنِي قَلْبِي حَبِّي لِهَذَا الطَّرِيقِ  
لَأَرَاكِ مِنْ مَتَابَعِبِ جَنَّةٍ، أَحَبَّتْ بِهِ مِنْ طَرِيقِ  
كَالْتِهِ، لَا يَكَادُ يَمْتَدُّ بَضْعَةُ أَمْتَارٍ طَوْلًا حَتَّى يَنْعَطِفَ مِثْلَ  
أَوْ يَسِرَّةٍ، وَفِي أَيِّ مَوْضِعٍ مِنْهُ يَطَالَعُكَ مَنْحَى يَطْوِي  
وَرَاءَهُ مَجْهُولًا، وَضَيْقٌ مَا بَيْنَ جَانِبَيْهِ يَرِيقُ عَلَيْهِ تَوَاضُعًا  
وَأَلْفَةً فَهُوَ كَالْخِيَارِ الْأَلِيفِ، وَاجْتِنَالِيسَ فِي دُكَّانٍ عَلَى  
يَمِينِهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصَافَحَ الْجَالِسَ فِي دُكَّانٍ عَلَى يَسَارِهِ،  
سَقُوفَ مِظَلَّاتِ الْحَيْشِ تَحْتَهُ بَيْنَ أَهْوَائِ الْحَوَانِيتِ  
فَتَحْبِبُ أَشْعَةَ الشَّمْسِ الْمَحْرَقَةَ وَتَنْفَتِ فِي الْجَوِّ الرَطْبِ

سَمَرَةٍ حُلَّةٍ، وَعَلَى الْأَرَاكِ وَالرُّغُوفِ جَوَالِقُ مَرْصُومَةٍ  
مُتَرَعَّةٍ بِالْحَتَاءِ الْخَضِرَاءِ وَالشَّطَّةِ الْحُمْرَاءِ وَالْفُغْلُفُ الْأَسْوَدُ  
وَقَرَارِيرُ الْبُورْدِ وَالْعَطَرُ وَالْقِرَاطِيسُ الْمُلَوَّنَةُ وَالْمُوزَانِ  
الصَّغِيرَةُ، وَتَتَدَلَّى مِنْ حُلِّ الشَّمُوعِ فِي أَحْجَامٍ وَأَلْوَانٍ  
شَقَّى كَاتِبُهَا التَّهَاقُوتُ، فِي جَوْ مَقْعَمٍ بِشَدَا الْعَطَارَةِ  
وَالْعَطَرُ كَأَنَّهَا أَنْفَاسُ حُلُمٍ قَدِيمٍ ثَالِثٌ لَا يَذْكُرُ مَتَى رَأَاهُ،  
أَمَّا الْمَلَاءَةُ الْلَفْتُ وَالْبَرَاقِعُ السُّودُ وَالْعُرَاسُ الذَّهَبِيَّةُ  
وَالْأَعْيُنُ الْكَحِيلَةُ وَالْأَرْدَافُ الثَّقِيلَةُ فَمِنْهَا جَمِيعًا أَسْتَعْمِدُ  
بُوَاهِبِ النِّعَمِ، سِيرَ الْحَالِمِ فِي تَهَابُلِ حُلُمٍ جَمِيلٍ رِيَاضَةٍ  
مُحِبَّةٍ يَبْدُو أَنِّي أَشْكُو ضَعْفِي الْقَلْبِ وَالْعَيْنِ، إِنْ تَعَمَّدُ  
النِّسْوَانُ هُنَا لَا تَحْصِيهِنَّ، مَبَارَكُ الْمَكَانِ الَّذِي يَضْمَنُ  
وَلَا مَتَجَى لَكَ إِلَّا أَنْ تَتَبَّعَ مِنْ أَصْصَاقِ الْفَوَادِ: يَا  
خِرَابَ بَيْتِكَ يَا يَاسِينَ، هُنَالِكَ يَجِيبُكَ صَوْتُ أَنْ تَفْتَحَ  
دُكَّانَ فِي التَّرْبِيعَةِ وَاسْتَغْرِزْ أَبْيُوكَ تَاجِرَ سَيِّدِ نَفْسِهِ...  
يَنْفَقُ فِي مَسَرَّاتِهِ أَضْعَافَ أَضْعَافٍ مَرْيَمُكَ، افْتَحَهَا  
وَتَوَكَّلْ وَلَوْ بَعَثَ لِلْمَلِكِ رِيحَ الْغُورِيِّ وَدُكَّانَ الْحَمْزَاوِي،  
نَحْمِيهِ مَعَ الصَّبْحِ كَالسُّلْطَانِ لَا مِعَادَ يَرْبِطُكَ وَلَا رَيْسَ  
يَرْحَبُكَ، تَجَلَّسْ وَرَاءَ الْمِيزَانِ فَيَجِيبُكَ النَّسْوَانُ مِنْ كُلِّ  
فَجٍّ: صَبَاحَ الْخَيْرِ يَا سَيِّ، يَاسِينَ، وَأَقْعِدْ بِالْعَاقِفَةِ يَا سَيِّ  
يَاسِينَ، حَلِيٍّ وَعَلِيٍّ إِنْ تَرَكْتَ مَصُونَةَ دُونِ نَحْمَةٍ أَوْ  
مَتَهَنَكَةٍ دُونَ مِعَادٍ! مَا أَلَدَّ الْخِيَالِ وَأَقْسَاهُ عَلَى مَنْ  
سَيِّقِي إِلَى آخِرِ الْعُمُرِ ضَابِطًا بِمَدْرَسَةِ النَّحَاسِينَ،  
وَالْمَشَقُّ دَاءُ أَمْرَاضِهِ جُوعٌ دَائِمٌ وَقَلْبٌ قَلْبٌ فَوَارِحَتَاهُ  
لَنْ خُلِقَ بِشَهْوَةِ خَلِيفَةٍ وَسُلْطَانٍ ضَابِطٍ مَدْرَسَةٍ، تَهْتَمُّ  
الرَّجَاءُ فَلَا جُنْدَى مِنَ الْكَلْبِ، وَيَوْمَ حَمَلَتْهَا إِلَى قَصْرِ  
الشُّوْقِ كَانَ الْأَمَلُ يَمْدُكَ بِحِيلَةٍ هَادِنَةٍ مَطْمَئِنَّةٍ، قَاتِلِ  
اللَّهُ الْمَلَلَ. كَيْفَ يَمَازِجُ النَّفْسَ كَيْمَا تَمَازِجُ مَرَارَةَ الْمَرَضِ  
الْعُلَّابِ! عَدَوْتُ وَرَاءَهَا عَائِدًا ثُمَّ مَلَّتْهَا فِي أَصَابِعِ قِيَا  
الْتِمَاسَةِ إِنْ لَمْ تَكُنْ هَذَا؟ بَيْتِكَ أَوَّلَ بَيْتٍ يَضْجُرُ  
بِالشُّكُورِ فِي شَهْرِ الْعَصَلِ، سَلِّ قَلْبَكَ أَيْنَ  
مَرْيَمَ!... أَيْنَ الْمَلَاةِ الَّتِي لَوْعَتْكَ؟... يَجِيبُكَ  
بِضَحِكَةٍ كَالْتَاوَةِ وَيَقُولُ أَكَلْنَا وَشَبِعْنَا وَصَرْنَا نَتَقَرَّزُ مِنْ  
رَائِدَةِ الطَّعَامِ، وَهِيَ مَآكِرَةٌ يَسْتَعْلِبُ اللَّعِبُ بِهَا وَلَا  
تَفُوتُنَا شَارِدَةٌ، مَرَّةً بَعَثَ مَرَّةً، أَذْكُرُوا حَسَنَاتِ مَوْتَاكُمُ  
هَلْ كَانَتْ أَتْلُكَ خَيْرًا مِنْ أَتْمَهَا؟! الْمَهْمُ أَنَّهَا لَيْسَتْ

- أوجعتي! كأنك تبت أو تزوجت...  
 - لا شيء على الله بكثير...  
 - أأنا التوبة فهذا المعطف الأبيض يكذبها، وأنا  
 الزواج فلا يبعد أن تسوك قلة العقل يومًا إليه!  
 - حاسب، إني متزوجة تقريبًا...  
 ضحك - وكانا يبلان إلى الموسيقى - قائلًا:  
 - مثلًا تمامًا...  
 - لكنك متزوج بالفعل، أليس كذلك؟  
 - كيف عرفت هذا؟... (ثم مستدركًا) أوه...  
 كيف نسيت أن أسرارنا عندكم أول باؤل!  
 وضحك مرة أخرى ضحكة ذات معنى، فابتسمت  
 ابتسامة خامضة، وقالت:  
 - تقصد بيت السلطنة؟  
 - أو بيت أبي، أليس الود متصلاً؟  
 - تقريبًا!  
 - كل شيء عندك الآن بالتعريب! أنا كذلك متزوج  
 تقريبًا، أعني آلي متزوج وأبحت عن رفيعة...  
 هتت بيدها ذباة حل وجهها، فوسوست أساورها  
 اللحية المحيطة بإساعدها وهي تقول:  
 - أنا مرافقة وأبحت عن زوج!  
 - مرافقة؟! من السيد ابن الـ...  
 قاطعته وهي تشير إليه بحلوة:  
 - إناك والسب، إنه رجل ذو مقام...  
 فقال وهو يلحظها ساخرًا:  
 - ذو مقام؟! حق حق، زئوبة!... أو ذل لسر  
 أنطحك...  
 - أتذكر متى تقابلنا آخر مرة؟  
 - أوه، ابني رضوان عمره الآن ستة أعوام، فنكون  
 قد قابلنا آخر مرة منذ سبعة أعوام... تقريبًا!  
 - عمر طويل...  
 - ولكن لا ينبغي لحي أن يياس في هذه الدنيا من  
 اللقاء...  
 - ولا الفراق...  
 - الظاهر أنك خلعت الرفاء مع الملامة اللف!  
 فحجته بنظرة مقبلة وهي تقول:

كزيت يسهل خداعها وما أثقل غضبها إذا غضبت،  
 لا هي بالتي تغضي ولا أنت بالذي يقنع، هيهات أن  
 تشجع جوعك المستعر امرأة أو يعرف الاستقرار قلبك،  
 ومع ذلك توهمت أنك ستظفر بحبة زوجية سعيدة! ما  
 أعظم أبالك وما أعمرك! لم تستطع أن تكون مثله  
 ودواؤك أن تكون مثله؟! ربه ما هذا الذي أرى؟!  
 أهذه امرأة حقًا؟! كم قطعًا يا ترى تزن؟! اللهم إني  
 لم أز من قبل طولًا كهذا الطول ولا عرضًا كهذا  
 العرض، كيف تملك هذه الضبعة؟! إني أنذر إذا  
 وقعت بين يدي امرأة في قدرها أن أنيها في وسط  
 الحجر عارية، وأن أدور حولها سبًا وأنا أفر...  
 - أنت...!  
 جاء الصوت من وراء فاهتر له قلبه، وسرهان ما  
 تحولت عيناه عن المرأة الضخمة إليه، فرأى شابة في  
 معطف أبيض، فما تمالك أن هتف:  
 - زئوبة!...  
 وتصافحا في حرارة وهي تضحك، غير أنه حثها  
 حل السير حتى لا يلتفتا إليهما الأنظار، فسارا جنبًا إلى  
 جنب يشان الزحام. هكذا التقيا بعد طول الفراق،  
 ولم تكن ترد على خاطره إلا في القليل النادر بعد أن  
 شغلته عنها الشواغل، ولكنّه وجدها جميلة كيوم  
 هجرها أو لعلها ازدادت جمالًا، ثم ما هذا الزئ  
 الحديث الذي استبدلته بالملامة اللف؟! وابتعث فيه  
 موجة من النشاط والسرور، وإذا بها تتسائل:  
 - كيف حالك؟  
 - حال، وأنت؟  
 - كما ترى...  
 - حال جدًا والحمد لله، أنت خيرت ذلك، لم أكن  
 أعرفك عند أول نظرة، لا أزال أذكر مشيتك في الملامة  
 اللف...  
 - وأنت لم تتغير، لم تكبر، ازدادت سيطرة، هذا كل  
 ما في الأمر...  
 - أنت الآن شيء آخر! بنت أفرنجية!... (وهو  
 يتسم في حذر)... إلا أن ردفها من الغوية!  
 - لسانك!

- فعلت تقول بصوت أعلى من سابقه:
- قلت لك ودائي رجل غيور...  
فاستطرد قائلاً دون اكتراث:
- توفايان، ما رأيك؟ إنه مكان لطيف وابن حلال، سأنادي هذا التاكسي...
- فندّ عنها صوت احتجاج، ثم تساءلت في استياء وشر وجهها بنيره قائلة: «بالقوة؟!» ثم نظرت في ساعتها بمعصهما - وقد كادت هذه الحركة الجديدة تُفصحه - وقالت بلهجة الشارط:
- هل ألا أتاخر، الساعة الآن السادسة، وينبغي أن أكون في البيت قبل الثامنة...
- تساءل والتاكسي يطوي بها الطريق: ترى هل لمحتها عين ما بين التريعة والموسكي؟ غير أنه هز كتفيه استهانة وهو يرحل طربوشه المائل فوق حاجبه الأيمن إلى الوراء بمقبض منشته العاجية، ماذا يصحّ؟!
- مريم وحيدة وليس ورامها وحش مثل محمد عفت الذي قوّض آوّل بيت زوجية بناه، وأما أبوه فرجل لبق وهو يعلم أنه لم يعد الطفل الغرير الذي نجل به في فناء البيت القديم. وفي حديقة توفايان جلسا حول مائدة متقابلين، كان المشرب غاصاً بالنساء والرجال، والبيانو الميكانيكي يعزف مقطوعاته الرتيبة، حل حين هفت والحة الشواء مع نسيم الأصيل من ركن قصي.
- وأدرك من ارتباكها أنها تجلس في مكان عام لأوّل مرة فدأخله سرور حريف، ثم أيقن في اللحظة التالية أن ما به حنيناً حقاً لا محض رغبة عابرة، ويدت له أمامها الغابرة أسعد الأيام كلها. وطلب قارورة كونياك ثم طلب شواء، وجرى ماء الحية في خذّيه، ثم خلع طربوشه فبدأ شعره الأسود مفروقاً من الوسط على جانبي الرأس كشعر أبيه، فيما إن لمحت زئوبة حتى ارتسمت على شفيتها ابتسامة خفيفة لم يفتن بطبيعة الحال إلى ما ورامها. كانت أوّل مرة يجالس فيها امرأة في حانة غير حانك وجه البركة، وكانت أوّل مغامرة له بعد زواجه الثاني مع استثناء الإمامة واحدة بدرب عبد الخالق. وربما كانت أوّل مرة كذلك يشرب فيها كونياك «راقياً» خارج البيت، إذ أنه لا يتناول الجنيّد
- أنتحدث من الوفاء يا ثورا  
فسرّه رفع الكلفة إلى غذا الحّد وشجع مطامعه،  
نقال:
- الله وحده يعلم كم سُررت بلقائك، كثيراً ما كنت تخطين بيالي، ولكنّها الدنيا!  
- دنيا النّسوان، هه؟  
فقال متظاهراً بالتأثر:
- دنيا الموت، ودنيا المتاعب...
- لا يبدو أنّك تحصل للمتاعب هه، إنّ البغال لتحسّدك على صحتك...
- لولا أنّ العين الجميلة لا تحسّد...
- تخاف على نفسك! كاتك عبد الحليم المصري طولاً وعرضاً...
- فضحك هتالاً، وصمت قليلاً، ثم قال بلهجة جديدة جادة:
- أين كنت ذاهبة؟  
- لم تذهب الواحدة إلى التريعة؟ أم ظلت الناس مثلك لا همّ لهم إلا التحكك بالنسوان؟  
- مظلوم والله...
- مظلوم! ليا لمحتك وجدتك تفوس بعينيك في امرأة كالبرّاة...
- بل كنت شاردًا أفكر لا أحيي ليم أنظر...
- أنت! إني أنصح من يروم لفاهك أن يتقّب في التريعة عن أضخم امرأة، وأنا كضيلة بأنّه سيجلدك ورامها لا يبدًا كما تلبّد القراضة في الكلب...
- أنت يا ولّة لسانك كلّ يوم يطول عن يوم...
- اسم الله على لسانك أنت...
- ما علينا، خيلنا في الأهمّ، أين أنت ذاهبة الآن؟  
- سأتوق قليلاً، ثم أعود إلى بقي!
- فصمت لحظة كالتردد، ثم قال:
- ما رأيك في أن نقضي ممّا بعض الوقت؟  
فلحظته بعينها السوداوين اللوميتين، وقالت:
- ودائي رجل غيور...
- فقال وكأنّه لم يسمع اعتراضها:
- في مكان لطيف لنشرب كأسين!...

- لم كفى الله الشر؟ ناوي تعمل حادثة؟  
 - الطفت يا ربّ بي وبها...  
 وعند ذاك قالت في شيء من الاهتمام:  
 - لم تحبّثني عن زوجك الجديدة...؟  
 فرّبت ياسين شاربه وهو يقول:  
 - حزنه المسكينة! ماتت أمّها هذا العام...  
 - العمر الطويل لك، كانت غنيّة؟  
 - تركت بيتاً، البيت المجاور لبيتنا، أعني المجاور  
 لبيت والدي، ولكنّها تركت في نفس الوقت شريكاً  
 لزوجي فيه وهو زوجها  
 - لا بدّ أنّ زوجك جميلة، فانت لا تقع إلا على  
 النقاوة...  
 فقال بحذر:  
 - لها جمالها، غير أنّه لا يقاس بجمالك أنت...  
 - آه منك آه...؟  
 - هل عرضتي كاذباً أبداً؟  
 - أنت؟ أنا أشكّ أحياناً في أنّ اسمك هو ياسين  
 حقاً...  
 - إذن فلشرب هذه الكأس أيضاً...  
 - تُسكرني كي أصبّك؟  
 - إذا قلت لك أنّي أرغب فيك وأحنّ إليك فهل  
 تشغين في صدفني؟ انظري في عيني، وجنتي  
 نبضي...  
 - أنت خلق بآن تقول هذا الكلام لأية امرأة  
 تصادفك...  
 - هذا كما يقال إنّ الجماع يودّ ألوان الطعام جيّماً،  
 ولكنّ للملوحة مثلاً قد تستأثر بمنزلة خاصّة...  
 - الرجل الذي يحبّ امرأة حقاً لا يتردّد عن الزواج  
 منها...  
 فنفخ، ثمّ قال:  
 - أنت خططة، بوتي لو ألق فوق هذه المائدة  
 وأصرخ بأعلى صوتي: من يجبّ منكم امرأة فلا  
 يتزوّجها، أجل، لا شيء يقتل الحبّ كالزواج.  
 صدّقي، إنّ محبّ، وقد تزوّجت مرّة أخرى وأعرّس  
 مدى صدق ما أقول...

منه إلّا فيما يقتني من زجاجات في البيت للاستعمال  
 والشرعيّ، على حدّ تعبيره. ملأ الكأسين في زهو  
 وارتياح، ثمّ رفع كأسه وهو يقول لها:  
 - صحّة زّوية مارتل!  
 فقالت بكبرياء خفيف الظلّ:  
 - إنّني أشرب الديوارس مع البك...  
 فقال متلقّفاً:  
 - دهينا من سيرته، ربّنا يقدّرنا على جعله في غير  
 كان...  
 - بعلك!...  
 - سنرى، كلّما شربنا كأساً تفتحت لنا أبواب  
 وانحلت عذد...  
 وإلحاحهما يقضّر الوقت المتاح تعبّلاً الشراب  
 فامتلا الكاسان وفرغاً تباطأ، وهكذا أخذ الكونيك  
 يزغرد بلسانه الناريّ في معدتيها فيرتفع زليق النشوة في  
 ترمومتر العروق، أمّا الأوراق الخضراء المتطلّمة من  
 الأصص وراء سور الحديقة الخشبيّة فالتزّت لثورتها  
 من بساط متألّف، وأخيراً وجد البيانو أذناً متساعدة،  
 والوجوه الحاملة المريدة تلاحقت أمهتها مراراً في أنس  
 ومودة، وجوّ الأسبيل سح في موجات موسيقيّة  
 صامتة، وبدا كلّ شيء مليّاً وجيلاً:  
 - أتعرف ماذا طفر إلى لساني أوّل ما رأيتك اليوم  
 وأنت تهللني في المرأة كالسعود؟  
 - أفنعم؟... ولكنّ المرغي كاسك أوّل حقّ  
 أملاه...  
 وهي تتناول ريشة شواء:  
 - كنت أصبح بك: يا بن الكلب...  
 وهو يضمك ضحكة ريانة:  
 - ولمّ لم تفعلني يا بنت القارحة؟  
 - أصلي لا أشتّم إلّا الأحباء! وكنت وقتها غريباً أو  
 كالغريب!  
 - والآن ماذا تريخي؟  
 - ابن ستين...  
 - يا سلام، الشقيقة تُسكر أكثر من الخمر أحياناً،  
 هذه الليلة المباركة ستحدّث عنها الجرائد غداً...

والحركات وغيرها تغري جميعاً بالضحك، والوقت يمر كالشهاب، وحاملو ميكروب العريضة يوزعون بين الموائد بوجوده أنفثتها الرزاة، أما أنغام البيانو فتترامى من بعيد فيكاد ينطفي عليها صليل عجلات الترام، وغلجان الطوار ولاقطو الأعقاب ينشرون حولهم لغطاً كطين الذباب، وجحافل الليل تعسكر فوق الربوع وتستقر، كأنك تنتظر حتى يجيئك الساعي فيسألك: ليس للشوان مقر؟ وأنت من ذاك وما هو أجل لاو

سأدره لو تسجد مرهم بين يديك هامسة: حسي غرفة أمارس فيها طاعتك وأملأ الحجرات بن تهوى من النساء، أو يرتت ناظر المدرسة كتف كل صباح قائلاً: كيف حال والدك يا بني؟ لو تشق الحكومة طريقاً جديداً أمام دكان الحمزاوي وبيع الغوريّة، أو تقول لك زئويّة: سأهجر هذا بيت صاحبي وأكون طوع بئانك، لو حدث هذا لاجتمع الناس عقب صلاة الجمعة يتبادلون كُئيل الصفاء، أما حكمة الليلة فهي أن تجلس حل الكبة وأن ترقص زئويّة عارية بين ينيك، هنالك يتاح لك أن ترعى شامة الحسن النابتة فوق سرتها:

- كيف حال الشامة المحبوبة؟

تساءل وهو يشير إلى بطنه بأسفاً، فقالت ضاحكة: تبوس يلك...

فألقي نظرة زائفة حل المكان، وقال:

- أترين هؤلاء الناس، ما منهم إلا فاسق وابن

فاسق، هكذا كل الناس السكجيين...

- تشرّفنا، أمّا أنا فمسيّ يتطايرو...

- أرجو أن يطير الجزء الذي يقيم فيه رفيقك...

- آه لو علم بما هو حاصل لنا سوف يظعنك يوماً بفرقة شاريه.

- أهو شاميّ من ذوي الشوارب الجبّارة و...

- شاميّ؟! ... (ثم تركت بصوت مسموع) برهوم يا برهوم.

- هس، لا تلفني إلينا الأنظار...

- أيّ أنظار يا أعمى! لم يبق إلا نفر قليل...

وهو مسح على بطنه نافحاً:

- لعلك لم تهتد بعد إلى المرأة التي تناسبك...

- تناسبي؟ كيف تكون هذه المرأة؟ وبأيّ حاشة يُبتدى إليها؟ وأين تكون هذه المرأة التي لا تُخلّ؟

فضحكت في فتور، وقالت:

- كأنك تتحق أن تكون ثوراً في حديقة أبقار، هذا هو أنت!

ففرغ بأصبعه طرباً، وقال:

- الله... الله، منذ الذي كان في زمان مضى يدهوني بالثور؟... إته أبي ربنا يمسّه بالخبر، كم أود لو أكون مثله، حظي بامرأة هي آية الطاعة والقناعة، وانطلق حل هواه لا يجيد في حياته المتعاب، موفّقاً في زواجه، موفّقاً في عشقه... هذا ما أريد...

- ما عصره؟

- أظنه في الخامسة والخمسين، بيد أنه أقوى من الشباب...

- لا عظيم أمام السنين، ربنا يمتّه بصحته...

- إلا أبي، إته معشوق المشوقات من النساء، ألا تريه الآن في بيتكم؟

فقالت ضاحكة وهي ترمي بعظمة إلى قطعة حموه تحت قدميها:

- هجرت ذلك البيت منذ أشهر، الآن لي بقي الخاص وأنا سيّده!

- حقاً؟! حسبك تمزحين، وهل هجرت التخت أيضاً؟

- هجرته، إنك تحدّث سيّدة بكلّ معنى الكلمة... ففقهه في انبساط، ثم قال:

- إذن اشربي ودهني اشرب، وربنا يلطّف بنا... في النفس فتنة وفي الجوف فتنة، ولكن أيّما الصوت وأيّما الصدى؟ وأعجب من هذا أن الحياة تدبّ في الجهادات، الأصص ترتجّ هامسة والأركان تتسلج، السماء ترنو إلى الأرض بأعين النجوم الناعسة وتتكلّم، وبينه وبين صاحبه رسائل متبادلة تصح عن المكنون في جوّ مشحون بالأضواء المنظورة وغير المنظورة يهر الفؤاد ويغلغل العين، وفي الدنيا شيء يدغدغ البشر فلا يتركها حتى تفرق بالضحك، الوجوه والكلمات

- الحمر مجنونة...  
- المجنونة أمك...  
- صوتك يعلو أكثر مما ينبغي، قومي بنا...  
- إلى أين؟  
- عمرك أطول من عمري، لنسرع الأمر إلى قدمينا...  
- وهل يفلح من يترك قياده إلى قلمي؟  
- إننا آمن على كل حال من مع مبعثر...  
- ففكر قليلا في...  
- فقاطعها وهو ينهض مترنحا:  
- علينا أن نذكر أمورنا بلا تفكير، لأن التفكير لن يذهن لنا قبل صباح الغد، قومي بنا...  
- ٢٦ -  
أسبلت المساكن جفونها، وأقفرت الطرقات إلا من نسمة شاردة أو ضوء مصباح مهوم، أما الصمت فقد خلا له الجوف فتاة ونشر جناحيه، وما جدوى الفنادق إذا كان أصحابها لا يلقونك إلا بالنظرة الشزواء، كأنك مريض بترنح فهم يجنبوه، أجل إنك تلاقي الإعراض بالازدراء ولكنك تستظل بلا مأوى، وقد ضم الرفاد الماشقين فلا تم تهمهم على وجهك، وما هو حوزتي يرفع رأسه المثلث بالنعاس ويرنو إليك بنظرة ترحاب، فوارحهته للذي يسحب المرأة في أذيال الليل وهو يتساءل إلى أين...؟  
- إلى أين؟  
أجاب الحوزتي بأسفا:  
- تحت الأمر...  
فقال له ياسين:  
- لم أقصدك بسؤالي...  
فقال الرجل:  
- تحت الأمر على أي حال...  
عند ذاك قالت زئوبة:  
- لا تسألني أنا سأل نفسك، لم تفكر في ذلك قبل أن تسكر؟  
عاد الحوزتي يقول متشجعا برقوقها أمام العربية:  
- النيل! أحسن مكان، هل أذهب بكما إلى شاطئ النيل؟  
فتساءل ياسين محتذا:  
- أحوزتي أنت أم نوتي؟ ماذا تفعل عند النيل في هذا الوقت من الليل؟  
قال الحوزتي بإغراء:  
- هنالك النور ضئيل والمكان خال...  
- جو مناسب لقطاع الطرق!  
زئوبة بخوف:  
- يا خير أسود، أذناي وعيني ومساعداي عملة بالذهب!  
فقال الحوزتي وهو يمز منكيه:  
- الدنيا بخير، أنا كل ليلة أذهب إلى هناك بأناس طيبين مثلكما، ونعود على أحسن حال...  
زئوبة بحلّة:  
- لا تذكر النيل على لسانك، إن يديني يقشعر لذكره!  
- بعد الشر هن يديني...  
صاح ياسين وكان قد اتخذ مجلسه في العربية إلى جانب زئوبة:  
- كلمني أنا، مالك أنت ويديني!  
- يا بك أنا خدامك...  
- الليلة كل شيء متعقد...  
- رينا يحل صيرها، إن أردت فندقا ذهبنا إلى فنلق...  
- تشاجرنا في ثلاثة فنادق، ثلاثة أم أربعة يا زئوبة؟ شفت غيرها.  
- نرجع إلى النيل...  
زئوبة بغضب:  
- الذهب يا عمر...  
ياسين وهو يطرح ساقيه على المقعد الخلفي:  
- فضلا عن أنه ليس هناك مكان...  
فقال الحوزتي:  
- أما عن المكان فلديك العربية...  
هضت زئوبة:

- هل أنزلتما مضايقتي؟

فقال ياسين وهو يفتل شاربته:

- لك حق، لك حق، ثم إن العربة مكان غير صالح، ولن أرضى بعبت الأطفال على آخر الزمن، اسمع...

مد الرجل أذنه، فصاح ياسين بنفخة أمرة:

- إلى قصر الشوق!

طلق طلق طلق، تخوض الظلمات ولا أنيس إلا النجوم، في الأفق قلبي يلوح، ثم لا يلبث أن يفرق في بحر النسيان كالذكرى المستعصية، ذلك أن الإرادة ذاتية في كأس من الحمر، وإذا رفقة الهناء تساءلت بلسان ملثم عن: أين يقصد في قصر الشوق؟ أجاب إلى بقي الذي ورثته من أمي، قضت مقادير بأن تعيش فيه للغرام وأن توقفه بعد عجاتها على الغرام، استقبل بقلب شوق أم مريم ومريم، والليلة يحتضن سيّدة الليالي الخوالي، وزوجك أيها السكران؟ في النوم مفرقة، أليس لكل شيء حساب... وأنت مع رجل لا يعرف الخوف قلبه، اقتظني من لائي النجوم ما ترصّون به جبينك، وغني في أفني وحدي: هاتيلي حبي يا نية الليلة...

- وأين أقضي بقية الليل...؟

- سأوصلك إلى حيث تريدان...

- لن نستطيع أن توصل نقشة.

- ياريس في الوجه البحري...

- لولا أنني أخافه!

- من هو؟

بصوت منكسر وهي تلقي برأسها إلى الوراء:

- من يدري؟ نسيته...

غشي الجسدية ظلام دامس، حتى القهوة أغلقت أبوابها. وقفت العربة عند مدخل قصر الشوق ففادها ياسين وهو يتجشأ، وتبته زئوة معتمدة على ذراعه، ثم مضيا معًا في حذر لم يغني عن الترنّح، يتعقبها

سمال الحوذني وأطيط حذاء الحفير الذي مرّ بالعربة وهي تدور مستطلما، وقالت له: إن الطريق وعر، فقال لها: لكنّ الدار أمان، وقال لها أيضًا: لا تشغلي

البال. وحينًا حاولت أن تذكّره بأنّ زوجها في الشقة التي إليها يسبحان، فضلًا عن أنّها كانت تحاول تذكّره وهي تبتسم في الظلام ابتسامة بلهاء، وكادت قلمها تسرّ مرتين وهي ترقى السلم، حتى وقفا أمام الشقة وهما يلتهان، بعث رهبة الموقف في شعورهما المبهر بقفزة عابرة حاولت أن تلمّ شتاته بقبضة واثبة، فادار المفتاح في القفل بحذر ثمّ دفع الباب برفق بالغ، وبحث في الظلام عن أذن زئوة حتى هتر عليها، فقال نحوها وممس أن تخلع الحذاء، وفعل مثلها، ثمّ تقدّمتها خطوة فوضع راحتها على كتفه ثمّ مضى إلى حجرة الاستقبال لقاء المدخل، ثمّ دفع بابها وانسلّ إلى الداخل وهي في أثره. تنهّدا معًا بارتياح، ورة الباب ثمّ قادها إلى الكنية وجلسا معًا، قالت متضايقه:

- الظلام شديد، أنا لا أحب الظلام!

فقال وهو يضع الحذاءين تحت الكنية:

- ستألفينه بعد قليل...

- بدأ غي ليورأ...

- الآن فقط؟!

وقام فجأة دون أن يلقي إلى ما أجابت به بالأ وهو يحبس في ارتياح:

- لم أخلق الباب الخارجي...

ومدّ يده ليخلع طربوشه فهتف:

- نسيت الطربوش أيضًا! في العربة يا ترى أم في

توفايان؟

- الطربوش في داهية، أخلق الباب يا عمر...

تسلّل مرة أخرى إلى الصالة، ثمّ إلى الباب الخارجي فأغلقه بحذر شديد، وفي طريق هودته غطرت له فكرة مغرية، فالته نحو الكنصول وهو يمدّ يده أمامه رائدة لتحيه الاصطدام بكرسيّ السفر، ثمّ عاد إلى حجرة الاستقبال قابضًا على زجاجة كونياك مملوءة حتى نصفها، وضع الزجاجة في حجرها وهو يقول:

- جئتكم بدواء لكل شيء...

فتحصّست يدها الزجاجة، وقالت:

- حمرأ! حمرأ! تريد أن نطفح؟!



بحق، ثم تكلمت لأول مرة وكان صوتها جافاً متهدجاً  
خشوشناً بالحد والغضب، قالت:

- في بقي!... في بقي!؟، في بقي يا مجرم يا ابن  
الشياطين!

ودوى صوتها كالرعد يصب على اللعنات وينته  
بكل شيء، صرخت وصوتت حتى شق صوتها  
الجدران، ونادت السكان والجيران وهي تحلف  
لتفضحته وتشهد عليه النائم. وكان ياسين يندرها  
بشق الوسائل ليسكتها، لئلا لها يده وحقق فيها  
بعينه، وصاح بها مزجراً، فلما خابت وسائله نهض  
منفعلاً وأجبه نحوها بخطوات واسعة ليبلغها في أقصر  
وقت دون اندفاع خشية أن يخلل توازنه، ثم انفض  
عليها مسدداً راحته إلى فيها ليسده، ولكنها صرخت في  
وجهه كاهرة اليائسة وركلته بقدمها في بطنه، فتراجع  
مرتجعا مكفهاً الوجه من الحق والألم ثم سقط على  
وجهه كالبيان المهتم، انطلقت من زئوبة صرخة  
مدوية فجرت مريم نحوها وارتجت عليها، وجذبت  
شعرها بيدها وأثبتت أظفارها الأخرى في عنقها  
وجعلت تبصق في وجهها وهي تسب وتلعن، وما لبث  
ياسين أن نهض ثائلاً هائلاً رأسه يصف كائناً ليطرد عنه  
الحمار، فتحوّل إلى الكنية وسدّ نحو ظهر زوجته  
الراقدة فوق غرمتها قبضة شديدة فصرخت مريم  
وتراجعت زائفة عنه، فتبعها وقد أعماه الغضب موجهاً  
إليها ضربات متتابعة حتى فصلت بينها السفارة، وعند  
ذاك تناولت الشبشب من قدمها وقذفته به فأصاب  
صدره فجري نحوها، وراحا يدوران في الصالة وهو  
يصيح بها «اخري عن وجهي»، أنت طالقة...  
طالقة... طالقة...، وإذا بيد تنقر الباب وصوت  
الجارة القيمة في الدور التالي ينادي «ست مريم...  
ست مريم»، فتوقّف ياسين عن الجري وهو يلهث،  
أما مريم فتفتحت الباب وبادرت تقول بصوت مלא  
السلم كله:

- تعالي انظري داخل الحجرة وخبريني هل رأيت  
مثل هذا من قبل؟! عاهرة في بقي تسكر وتعريد،  
ادخلي وانظري.

- جرعة نسترده بها أنفاسنا بعد هذا الجهد!  
شرب حتى ظن أنه قادر على كل شيء، وأن الجنون  
حالاً تستطاب، وهاج البحر فعلاً مع موجه وسفل ثم  
دار في دوامة ما لها من قرار، وسلت في أركان الحجرة  
السنة تنطق في الظلماء لغواً وهذراً، وتند عنها  
ضحكات معرودة، في ضجة كضوضاء السوق حتى  
الغناء جرى في أثيرها، وهوت الزجاجية على الأرض  
فأحدثت صوتاً كالنلير، ولكن كان أمامه شوط عليه  
أن يقطعه ولو في بحر من العرق، طال الوقت أم قصر  
فليس الزمان في حسبان، لذلك تحرك الظلام وشاب  
إهابه والجفون المخلقة عنه خائلة، وكما يستيقظ الحالم  
السعيد وهو على اليد ليقطف للذيلة استيقظ هو  
على صوت وسرعة، فتح عينه فرأى نوراً وظلاً  
يتراقص على الجدران، وثق رقبته فلمح عند الباب  
مريم قابضة على مصباح قد جلا من وجهها ملامح  
عابسة وعينين تشعان شر الغضب. تبدل بين  
المنطرحين على الكنية والواقفة عند الباب نظرات  
طويلة هربية، زائفة بالدهول من ناحية مستعرة  
بالغضب من الناحية الأخرى، ثم لم يعد الصمت عما  
يُستطاع. أهرمت زئوبة عن قلفها بأن فتحت فاهها  
لتتكلم ولكنها لم تقل شيئاً، ثم غلبها بغتة ضحك  
طارئ فأغرقت فيه حتى اضطرت إلى إخفاء وجهها  
بكفها، وإذا بياسين يصيح بها بلسان لئيل:

- كفي من الضحك!... هذا بيت محترم!  
ويدا أن مريم أرادت أن تتكلم فلم يسعها لسانها  
أو أصغرها الغضب، فقال لها ياسين ولم يكن يدري  
ماذا يقول:

- وجدت هذه «الست» في حالة سكر شديدة،  
فجئت بها إلى هنا حتى تفيق...

ولم تسكت زئوبة، فقالت معترضة:

- هو السكران كما ترين، وقد جاء بي بالقوة...  
نذت عن مريم حركة خطيرة كأنها همت بأن تقلبها  
بالمصباح، فتصلبت قامة ياسين ونظر إليها متحفظاً،  
ولكنها سرعان ما تراجعت متأثرة بخطورة الإقدام،  
فوضعت المصباح على منضلة وهي تصر على أسنانها

فقال الجارة باستحياء:

- هتني نفسك يا ست مريم، تعالي معي حتى الصباح...

هت ياسين دون مبالاة:

- اذهبي معها، لا حق لك في البقاء في بيتي...

فصرخت مريم في وجهه:

- يا فاسق، يا مجرم، تخيطني بعاهرة في بيت الزوجة...

فضرب الجدار بقبضته وصاح بها:

- أنت العاهرة، أنت وأهلك...

- تسب أمي وهي بين يدي الله!

- أنت عاهرة، أنا أعلم ذلك عن يقين، ألا تذكرين الجنود الإنجليز؟ الحق عليّ لاني لم استجب إلى تحذير الناس الطيبين!

- أنا سأك ونأج رأسك، أنا أشرف من أهلك ومن أمك، سل نفسك عن الرجل الذي يتزوج امرأة وهو يعلم أنها عاهرة كما قلت! هل يكون إلّا قوادًا خبيثًا؟... (وهي تشير إلى حجرة الاستقبال)... تزوج من هذه، إنها من النوع الذي يوافق مزاجك القذر...

- كلمة أخرى، وسيل دمك حيث تقفين...

ولكن حنجرتها عادت تصرخ وتغلف اللهب حتى تدخلت الجارة لتحول بينها إذا دها دام، وجعلت تربت منكبها متوسلة إليها أن تمضي معها حتى يطلع الصبح، واشتد الضيق ياسين فصاح بها:

- خلني ثيابك واخرجي، ابعدني عن وجهي، لا أنت زويبي ولا أنا أعرفك، أنا داخل الحجرة الآن ولأنك أن أجدك إذا عدت...

واندفع إلى حجرة الاستقبال ودفع الباب ورامه دفعة عنيفة ارتجت لها الجدران، ثم ارتمى على الكتبة وهو يهف عرق جبينه، همست زئوبة قائلة:

- إني خائفة...

فقال بخشونة:

- اسكتي، مم تخافين؟! (ثم بصوت مرتفع) أنا حر... أنا حر...

فقالت وكأنها تخاطب نفسها:

- ماذا أصابي في عقلي حتى طاوعتك وبحثت معك إلى هنا؟

- اسكتي!... ما كان كان ولست أسفًا على شيء... آت...

وترامت إليهما الأصوات خلال الباب المغلق، فدخلت على أن أكثر من جارة قد أحاطت بالزوجة الغاضبة، ثم سمع صوت مريم وهي تقول بلهجة باكية:

- هل سمعتم عن هذا من قبل؟ عاهرة من عرض الطريق في بيت الزوجة؟ استغفلت على ضوابطها وهما يضحكان ويغنيان! إي والله كانا يغنيان بلا حياء بعد أن أدخلهما السكر، خبروني أهذا بيت أم مأخور؟!

وإذا بصوت امرأة تقول عتجة:

- أجمعين ثيابك وتغادرين بيتك؟! هذا بيتك يا ست مريم ولا يصح أن تغادره، فلتنادره الأخرى...

فهتف مريم:

- لم يعد بيتي، لقد طلقني المحترم!

فقالت أخرى:

- لم يكن في وجهه، تعالي الآن معنا ولنزجل الحديث إلى الصباح، ومها يكن من أمر فياسين أفندي رجل طيب وابن ناس طيبين، لعنة الله على الشيطان، تعالي يا ابنتي ولا تحزلي...

فصاحت مريم:

- لا كلام ولا حساب، لا طلع الصباح عليه المجرم ابن المجرمة...

ثم تابع وقع الأقدام مبتعدًا حتى لم يعد يسمع من المتحدثات إلّا أصوات مبهمه، ثم دوت صفقة الباب وهو يخلق. نفخ ياسين طويلًا ثم استلقى على ظهره...

عندما فتح عينه كان نور الضحى قد ملا الحجرة، وجد في رأسه ثقلًا لا عهد له به رغم أنها لم تكن أول

يقول هنك الناس أتبيا المقري؟! وشعر بحاجة ماسة إلى فنجان قهوة يُعَمِّش به حواسه، فغادر الحطام إلى المطبخ، وفي أثناء سيره الدليلز الذي يفصل بينهما لمح الكنصول في الصلاة فذكر زجاجة الكونياك المهرقة في غرفة الاستقبال، وتساءل لحظة عَيَا أصاب السجادة، ثُمَّ ذكر في اللحظة التالية وفي أسف ساخر أَنَّ أثاث الشقة كُلُّهُ لم يمد ملكه وآلِه سِلْحَتِي عَسًا قليل بصاحبه، وبعد دقائق معدودات كان يحمل كويًا عملاً حتى نصفه بالقهوة ويسير نحو حجرة النوم، وهناك وجد زُتُونَة جالسة في الفراش تتمكّي وتتساب، فالتفتت نحوه وقالت:

- صباحنا خير، وإن شاء الله نغيّر ريفتنا في القسم! فرشفت رشفة وهو ينظر إليها من فوق الكوب، ثُمَّ قال:

- قولي يا فتاح يا حلِيم...  
فلوحت يديها حتى وسوست الأساور الذهبية حول ساعديها، وقالت:

- أنت السبب في كُلِّ ما حصل...  
فجلس على حافة السرير ليسا يلي ساقيهما المملودتين، وقال بضيق:

- محكمة! هه! قلت لك قولي يا فتاح يا حلِيم! فربّئت سلسلة ظهره يكعب قديمها، وهي تقول متأوّهة:

- خربت بيتي، الله وحده يعلم ما ينتظرون هناك...

فوضع ساقاً على ركبته حتى انحصر الجلباب من الأخرى فبدت مكتنزة مفكّكة بغابة من الشعر الفاحم، وقال:

- رفيقك؟ خيبة الله عليه! ما يكون هذا إلى طلاق زوجي؟! أنت التي خربت بيتي، ويبقى أنا السذي خرب...

قالت وكأثما تحدّثت نفسها:

- ليلة سوفاء لم أعرف لي فيها رأساً من قدمين، لا تزال الضوضاء تدوي في رأسي، لكنّ الحقّ عليّ، ما كان ينبغي لي أن أطاوعك من بادئ الأمر...

مرّة يستيقظ بعد ليلة غمورة، وبحركة من رأسه غير مقصودة وقعت عيناه حل زُتُونَة وهي تنفّك في نومها إلى جانبها، هنالك استعادت ذاكرته حوادث الليلة الماضية في لقطة واحدة: زُتُونَة في فراش مريم، ومريم؟! عند الجيران، والفضيحة؟! في كُلِّ مكان، يا لها من وثبة جبارة في هاوية التدهور، ما جدوى الغضب أو الندم الآن؟ ما كان كان وكلّ شيء قد يتغيّر إلّا أسر، أبوظفها؟ ولكن له؟ فلتمتلئ نوباً حتى تشيع، ولتبق حيث هي لسا ينبغي أن تغادر البيت قبل أن يُقبل الغلام، ولم يكن بدّ من استعادة شيء من حيويته ليلاقي به يومه العسير، فازاح الخطأ الخفيف عن جسمه وانزلت إلى أرض الغرفة ثُمَّ مضى إلى الخارج تفيحلاً مغموش الشعر متفخخ الجفون عَمَر العينين.

تتابد في الصلاة بصوت كالخوار ثُمَّ نفخ وهو ينظر إلى باب حجرة الاستقبال المفتوح ثُمَّ أخضع عينيه متوقفاً من ثقل رأسه وقصد إلى الحطام. أمامه يوم عسير حقاً، مريم عند الجيران والأخرى عتلة فراشها وقد أدركها النهار قبل أن ينفخ آثار جرمته، فيا للمجنون! كان يجب أن يسرّها قبل أن يؤولي إلى فراشه فكيف توان عَيَا يجب؟! أيّ غاشية غشيت؟! بل ومتى وكيف مضى بها من حجرة الاستقبال إلى حجرة النوم؟! إنّه لا يذكر شيئاً، لا يذكر حتى كيف ومتى استجاب للنوم، والجملة أنّها فضيحة كبرى بلا ثمن، وليلة بريئة ولكنها منقطة بالعار مثل رأسه المتقل بالهم والصداع... ولكن لا عجب فهذه الشقة مسكونة من قديم بشياطين الفضائح، تركلة أم غفر الله لها، مضت الّلم وبقي الابن ليكون مضغة الأسوله ونادرة السكّان والجيران وهذا يبرع الأنباء إلى بين القصرين... فلأى الأماما قرار هاوية سحيفة من العريضة والسفالة فليت هذا الماء البارد الذي تنفسل به يظهر النفس من ذكريات السوء، ومن يدري فلعلّك إذا أطلت من النافذة وجدت أمام بابك لمة ترصد خروج المرأة التي كرّدت الزوجة واحتلت مكانها، كلّاً لن تسمح لها بالخروج معها يكن من أمر، أمّا مريم فقد طلقها! طلقها وما أردت ذلك وأمّها لم يهت ماؤما في قبرها بعد، فهذا

- كانت تستطيع أن تعالج الأمور بحكمة لو كانت عاقلة، الغرياء في الطريق يتساعون مع السكارى المرعدين، هي التي جئت على نفسها بالطلاق، وماذا كنت تقول لها؟... يا حاهرة يا بنت العاهرة، هه؟ وكلام آخر عن الجنود الإنجليز...؟  
تذكر هذا الآن فقط وهو يسجد بها بنظرة محنته متسائلاً كيف رسخت هذه الألفاظ في ذاكرتها، وغمغم في ضيق:

- كنت غاضباً لا أدري ماذا أقول!

- إحم!

- إحم في يافوخك!...

- الجنود الإنجليز؟... هل جثت بها من بارفتشي؟!

- استغفر الله، إنها بنت ناس وجيران العمر، ولكنه الغضب عليه ألف لعنة...

- لولا الغضب ما انكشفت الأسرار!

- وحياة خاتلك حسناً ما لعن به...

- خبّرني عن الجنود الإنجليز وعلم شعراً رأي... بصوت عالٍ عتد:

- قلت إنه الغضب وكفى...

- شققت ساخرة، ثم قالت:

- أندافع عنها؟... اذهب فاسترقعها...

- ملعون أبو البارد الذي لا يستحي...

- ملعون أبوه...

غادرت الفرائش إلى المرأة فتناولت مشط مريم، وراحت تمشط شعرها بحجل وهي تتسادل:

- ما جسي أن أفعل لو قطع الرجل علاقته بي؟

- قولي له مع السلامة، أمّا بقي لمفتوح لك على الدوام...

فالتفت إليه قائلة بلهجة أسيفة:

- أنت لا تفقه معنى ما تقول! كنّا بسبيل التذكير الجذّي في الزواج.

- الزواج! وهل ما زلت تفكرين فيه بعد ما رأيت

من أحواله في الليلة الماضية؟!

قالت في دهاء:

خيّل إليه أنّها راضية رغم تشكيها، أو أنّها تذهي التشكي إذعاء، ألم يعرف في الأزنيّة نساء يتباهين بكلّ عراك دمويّ ينشب من أجلهنّ؟! عل أنّه لم يغضب، كانت الأمور قد بلغت حدّ اليأس فأعفته من مشقة النهوض لمعالجتها، فلم يملك إلّا أن يضحك وهو يقول:

- شرّ البليّة ما يضحك! اضحك، خربت بيتي واحتلته، قومي فاصلحي من شأنك واستعدي لإقامة طويلة حتّى يُقبل الليل، لن تغادري البيت حتّى يأتي الليل...

- يا خير أسود! سجين! أين زوجك؟

- لم يعد لي زوجة...

- أين هي؟

- في المحكمة الشرعيّة إن صدق ظنيّ...

- أخاف أن تعطيني حلّي عند خروجي...

- تخافين؟! ربّنا يرحمنا! إنّ ليلة أمس على فظاعتها

لم توهم من مكرك وخبثك يا بنت أخت زبيدة!

ضحكت ضحكة طويلة فبدأ أنّها تقرّ بالتهمة الموجهة إليها، وفي مباهاة أيّها، ثمّ ملّت يدها إلى كوب القهوة فتناولته واحتست قليلاً منها، ثمّ ردّتها إليه وهي تتسادل:

- والآن؟

- كما ترين، لا علم لي أكثر منك، ولكنّ يحزّ في نفسي أن انكشف أمام الناس كما انكشفت في الليلة الماضية...

هرّت منكبيها في استهانة قائلة:

- لا تهتمّ بذلك، ما من رجل إلّا ويظنيّ تمت ذقته غازي تضيق عنها الأرض.

- رغم هذا فالفضيحة فضيحة، تصوّري الشجار والعويل والطلاق عند الفجر! تصوّري الجيران وقد فزعوا إلى شقّتي مستظلمين فرأت أعينهم كلّ شيء.

فكّبت قائلة:

- كانت هي البادئة!

لم يملك أن يضحك ضحكة ساخرة، فعادت تقول بإصرار:

- افسحي...  
 - قلت ما فيه الكفاية...  
 يا له من هجوم غير متوقع، أجل إنه يبدو أول ما يبدو مضحكاً، غير أنه يبدو فلا يسهه أن يرد على الهجوم بمثله، قال بعد صمت:  
 - لا أخفي عنك آتي بث أنطير من الزواج...  
 - كما أنطير من الحرام...  
 - لم تكوني كذلك أمس!  
 - كان في قبضة يدي زوج، أما اليوم...  
 - قليل من الرونة حتى نتلاقي، شيء واحد لا ينبغي أن يغيب لك عن بال، وهو آتي معها تطل بي عشرتك فلن أنقل عنك...  
 فهضت عنته:  
 - سوابك تشهد على صدقك...  
 فقال بلهجة جدية يداري بها ضعف مركزه:  
 - الإنسان لا يتعلم بلا ثمن...  
 - لم تعد تغزري الأقوال، أه منكم يا رجال!  
 ومنكن يا نساء اليس ثمة أه؟! يا بنت أخت زينة رحمتك، جاءت بعد منتصف الليل سكرو وفي الصباح ضاقت بالحرام، لعلها قالت لنفسها: إذا كانت زوجة الثانية هاهرة فلم لا أكون زوجة الثالثة؟! هان ياسمين، أنسيت ما ينتظرك في الخارج من المتاعب؟ دع المتاعب تنتظرك ولكن لا تفقد زهوة بكلمة نابية، كما فقدت مريم، مريم؟ الآن كُتِرَ هن ذنبي يا أخي، قال بهدوء:  
 - يجب ألا ينقطع ما أنصل بيننا...  
 - بيلك انقطاعه وأصله...  
 - يجب أن نلتقي كثيراً ونفكر كثيراً...  
 - من جانبي لا حاجة بي إلى تفكير جديد!  
 - فليسا أن أنقصك برأيي، وإسا أن تقنعني براك...  
 - لن أقنع براك...  
 وغادرت الحجره وهي تداري عنه ابتسامة فاتتبع ظهرها المتأود نظرة استشراب، أجل كل شيء يبدو غريباً، ولكن أين مريم؟ وسيلة على أي حال ولن

- أنت لا تفهمي! لقد ضقت ذرعاً بالحياة الحرام، ليس وراها إلا البوار، إن مثلي إذا تزوجت قلوت الحياة الزوجية خير قدرها!  
 من اللغفل يا ترى؟! التخت لم يكن يعدّها باكثر من عوادة، وحياة الهوى ليس وراها بعد الثلاثين - وستبلغها قريباً - إلا التلف، فالزواج هو الأمل الموعود، هل تصدق بهذا الحديث؟... ما ألدّ الشيطان! لا أنكر أنني أريدها، أريدها بكلّ قوّة، وفضيحتي تشهد على ذلك...  
 - أهنيّه؟  
 كالغاضبة:  
 - لو كنت أحبه ما وجدتي الآن سجيّة هنا...  
 اهتز صدره حناناً رغم ارتياحه في صدقها، أجل إذا لم يكن يعرف الإخلاص قلبها أبدت له ميلاً لا شك فيه.  
 - لا غنى لي عنك يا زهوة، في سيلك ارتكبت جنوناً غير مهال بالعواقب، أنت لي وأنا لك من قديم الزمان...  
 وساد الصمت، بدت كأنها تنتظر مزيداً حل فف، ولكنّه لم ينس ففالت:  
 - هل أقطع أسباي ببلدك الرجل؟ لست من اللاتي يستلمن أن يجمن بين رجلين...  
 - من هو؟  
 - تاجر من ناحية القلمه يدعي عمّد القلي...  
 - متزوج؟  
 - وله أولاد، ولكنّه كثير المال...  
 - وعليك بالزواج؟  
 - يفريني به، ولكنني متردّة، لأن ظروفه وكونه زوجاً وإباً مما ينلر بالمتاعب...  
 احتمل مكرها من أجل جمال حينها.  
 - لمّ لا نعود كما كنا؟... لست فقيراً على أيّ حال...  
 - لا يعني مالك، ولكن ضقت بحياة الحرام!  
 - والعمل؟  
 - هذا ما أسأل عنه...

صح عنه صدق هذه الشيطانة، فليصح له صدقها ولو يفقد ما بقي من عمره، هل آذ له أن يثوب إلى رشده؟ مهلاً...

- متى عدت إلى العوامة؟

فرفعت ساقها حتى مستوى المقعد، وراحت تتأمل شبيها البيهقي ذا الوردة البيضاء وأصابعها المخضبة بالحناء، ثم قالت:

- هلاً جيلت أولاً وغلعت طربوشك لأرى مفرق

شعر رأسك؟ عدت يا سيدي مع الضحى...

- كذابة!

انطلقت من فيه كالرصاص مفعمة غضباً وبأساً، ثم استعرد قائلاً في عuf قبل أن تفتح فاهها:

- كذابة، لم تعودي مع الضحى ولا مع العصر،

لقد جئت إلى هنا أثناء النهار مرتين فلم أجده... وجمت قليلاً ثم قالت بلهجة جمعت بين التسليم والغضب:

- الحق آتي عدت قبيل المغرب، منذ ساعة تقريباً،

لم يكن ثمة ما يدعوني إلى اختلاق الكذب لولا أنني لمحت في عينيك استياء لا أساس له فأردت أن أزيله، الحق أن ياسمينة آتت علي في الصباح كي أتسوق معها، ولياً علمت بانفصالي عن خالتي عرضت علي أن أنضم إلى تحتها على أن تتبني عنها في بعض الأفراس، وطبعاً لم أوافق، لسابق علمي بأنك لن ترضى عن سهري مع التخت، المقصود أنني بقيت معها لعلمي بأنك لن تجيء إلى هنا قبل التاسعة مساءً، هذه هي الحكاية فاجلس وصل على النبي...

حكاية غشقة أم صادقة؟ لو يطلع أصحابك على موقفك هذا؟ لشد ما حمزاً بك المقادير، على أنني أعفو على أضعاف هذا في سبيل قطرة من الراحة، تشحذ الراحة وما اعتلت الشحافة من قبل، هكذا هانت عليك نفسك أمام العوامة، كانت موكلة يومياً بخدمتك تقدم لك في مجلس الأنايس الفاخرة وتنصرف في صمت وأدب، إما الراحة أو فلتستمر نيران الجحيم.

- ياسمينة العالة ليست في جبال الواق، سوف أسأله عن حقيقة الحكاية...

تلدق نفسه الراحة والسلام، وسؤال غداً في بين القصرين وبعد غد في المحكمة الشرعية، ولكن كانت حياتها في الأيام الأخيرة نضالاً متواصلًا، حتى قالت له بصريح العبارة: كرهتك وكرهت عيشتك، لم أخلق كي أوفق في الزواج، وهكذا كانت حياة جدي؟ إني أشبه الأسرة فيما يقال، ورغم هذا كله تريد المجنونة أن تنزّج مني...

- ٢٨ -

كانت الشمس تؤذن بالغيب عندما عبر السيد أحمد عبد الجواد القنطرة الخشبية المؤدية إلى العوامة، ودفق الجرس ففتح الباب بعد قليل عن زوينة في فستان من الحرير الأبيض تفت شفافته عن عمام جسدها، فلما رآته هفت:

- أهلاً... أهلاً، قل ماذا فعلت أمس؟ تصورت حضورك ودفق الجرس دون نتيجة ووقوفك حيناً ثم ذهابك... (وهي تضحك) ووساوسك، قل ماذا فعلت؟

بالرغم من أناقة مظهره والعرف الطيب الذي يتطاير منه بدا وجهه متجهماً وعينه جامدتين تعكس حذقتهما استياء، سأل قائلاً:

- أين كنت أمس؟

فتقدمته إلى حجرة الجلوس وتبعها حتى وسط الحجرة بين نافذتين مفتوحتين على النيل ولم يجلس، أما هي فجلست على مقعد بين النافذتين وهي تتظاهر بالهدوء والظقة والابتسام، ثم قالت:

- خرجت - كما تعلم - أمس لاستبضع، فقابلت في بعض الطريق ياسمينة العالة فدعني إلى بيتها، وهناك آبت علي أن أنصرف، وما زالت بي حتى أجبرتني على المبيت عندها، لم أكن رأيته منذ انتقلت إلى هذه العوامة، لو سمعتها وهي تطعن في وفائي وتسلني عن سر الرجل الذي أنساني عشرين وجيراني! صادقة أم كاذبة؟ هل عانى آلام أمس واليوم بلا سبب حقاً؟ إنه لا يريح ملياً ولا يضر ملياً بلا سبب، فكيف عانى تلك الآلام المروعة بلا سبب؟! دنيا مأكرة... خير أنه على استعداد لأن يلثم ترابها إذا

وأن ترميني بالهثم كلما حلا لك، فمن الخير لي ولك  
أن تنتهي...

وأدارت عنه وجهها فتأمل عارضها وصفحة عنقها  
في هدوء غير طبيعيٍّ بالدهول أشبه. أنصى ما أسأل  
الله من مساعدة أن أبذلها دون مبالاة، هي ذلك  
وحشك ولكن تطيق أن تعود إلى هذا المكان فلا تجد  
ها من أثر؟!

- لم أكن شديد الثقة في نيلك، ولكني لم أتصور أن  
يلهب بك الجحود هذا اللهب!

- تريدني حبراً لا شعور له ولا كرامة!

أنت أحقر من هذا لو تعلمين!...

- بل أريدك شخصاً يعرف للجمل حقه وللمشرة  
حقها...

مفيرة لمجتها من الغضب إلى السخط والتشكي:

- فعلت لك أكثر مما تتصور، ارتضيت أن أهجر  
أهلي وعلمي لأبقى حيث تريد، حتى الشكوى كنتها  
كي لا أكدر صفوك فلم أشأ أن أصارحك بأن بعض  
الناس يودّ في حياة خير من هذه فلم أني إليهم بالألأ  
أثمة متاعب أخرى لم تقع لي في حسابان؟ تسامد  
كالجريح:

- ماذا تعنين؟

فصكفت على أسورة ذهبية تديرها حول ساعدها  
الأسير، وهي تقول:

- رجل محترم يريد أن يتزوجني ويلج في ذلك بلا  
ملل...

الحرارة والرطوبة يخفانك خفناً أنا والمكنة فقد  
فغرت فاعا لتبتلك، ما أسعد هذا الملاح الذي يطوي  
شراعه أمام النافذة!...

- من هو؟

- رجل لا تعرفه، فسّمه كيف شئت!

تراجع خطوة، ثم جلس على كبة تتوسط مقعدين  
كبيرين، وشبك راحتيه فوق مقبض عصاه وهو يسألها:

- متى رأك؟ وكيف علمت برغبتك؟

- كان يراني كثيراً حينما كنت أقيم مع خالتي، وفي  
الأيام الأخيرة كان يحاول مكائلي كلما صادفني في

قالت وهي تلوح بيدها في استهانة واستياء:  
- سلها كيف بدأ لك...

وغلبته أعضابه النائرة المنهكة فجأة، فقال بعناد:

- سوف أسألك هذا المساء، إنّي ذاهب إليها،  
الآن... حققت لك كلّ رغباتك فبنيغي أن تحترمي  
حقوقك كاملة...

وانتقلت إليها عدوى هياجها، فقالت بحدة:

- مهلاً، لا ترميني في وجهي بالهثم، فقد اتسع لك  
حلمي حتى الآن، ولكن لكلّ شيء حدّ، أنا إنسانة  
من لحم ودم، ففتح عينك وصلّ على أبي فاطمة!...

تسامد في ذهول:

- أبهله اللهجة تخاطبيني؟!

- نعم ما دمت تخاطبني بمثلها!

اشتدّت قبضة يده على مقبض عصاه وهو يتف:

- أنا أستاذك، فأنا الذي خلقت منك سيّدة وهيأت  
لك حياة تحسدك عليها زبدة نفسها!...

واستغفها قوله فبدت كالبرق الماتجة، وصاحت:

- خلفني الله سيّدة لا أنت، لقد ارتضيت هذه  
الحياة بعد توسلاتك الحارة، فهل نسيت هذا؟! لست

أسيرة أو عبدة لك، تحقيق وعطش، ماذا نظنّ بي؟ هل  
اشتريتني بمالك؟ إذا كانت حياتي لا تعجبك فليذهب

كلّ منّا إلى حال سبيله...

يا ربّ السماوات أفكدا! تستحيل الأظافر المدللة إلى  
خالب؟ إن كنت في شك من الليلة الباردة فاستخبر

هذه اللهجة الوقعة، جنس ثمود ابتليت به فتجرّع  
الأم حتى النجالة، أهل من الإهانة حتى تكفي، والآن

ما جوابك! بأعلى صوتك اصرخ في وجهها: اخرجني  
إلى الطريق الذي التقطتلك منه. اصرخ، أجل

اصرخ، ماذا يمنعك؟! لعنة الله على ما يمنعك، خيانة  
القلب شرّ من ألف خيانة، هذا هو ذلّ القلوب الذي

كنت تسمع عنه وتهزأ منه، شدّد ما أكره نفسي إذ  
تجبتها!...

- تطرديني؟!

بنفس التبرات المحتنة الغاضبة:

- إذا كان معنى هذه الحياة أن تحبسنى هنا كالرقيق

طريقه، ولكنني تجاهلته فحزّس إحدى صديقاتي على إبلاخي رغبته، هذه هي الحكاية!

ما أكثر حكاياتك، عندما اقتضدتك أسس قاتلني ألم واحد، لم أظن وتقدك إلى كلّ هذه الآلام والمتاعب، أتركها إن استطعت، أهجرها فهجرتها هو سبيل السلام. أليس الناس ضحطين في تصوّره أنّ الموت شرّ ما يتلون؟

- أحبّ أن أعرف صراحة، هل تؤكّين قبول هذا المرض؟

تركت ساعدها بحركة عصبية وشخصت إليه بوجهها فيها يشبه الكبرياء، ثمّ قالت بتوكيد:

- قلت لك إنّني تجاهلته، يجب أن تفهم معنى ما أقول...

يجب ألا تعود الليلة إلى فراشك بأفكار قاتلة حتّى لا تتكرّر ليلة أسس، غريل نفسك من الهواجس.

- صارحيني هل زارك أحد في العوامة؟

- أحد؟ أيّ أحد تعني؟ لم يدخل هذه العوامة أحد سواك...

- زبونة، إنّني أستطيع أن أعرف كلّ شيء، لا تخفي عني شيئاً، صارحيني بكلّ كبيرة وصغيرة ولك عندي بعد ذلك العفو مهما يكن من أمرك...

قالت محتجة غاضبة:

- إذا أصررت على الشك في صديقي فخير لنا أن نفرّق...

أذكر اللبابة التي رأيتها تحضر في صباح اليوم في خيط المنكبوت؟

- حسينا، دعيني أسألك الآن، هل قابلتك هذا الرجل أمس؟

- أخبرتك أين كنت أمس...

نافحاً على رغبته:

- لماذا تعذبيني، وما حرصت على شيء حرصي على سعادتك؟

ضربت كفّاً بكفّ، كأنما قد كبر عليها شئها، ثمّ قالت:

- لم لا تريد أن تفهمني؟... إنّني أرفض كلّ غالٍ طريقه، ولكنني تجاهلته فحزّس إحدى صديقاتي على إبلاخي رغبته، هذه هي الحكاية!

ما أجل هذه النعمة، اللامسة أنّها يمكن أن تصلر عن قلب فارغ، كالغفّي الذي يلوب في نعمة حزينة شاكية وقلبه ثمل بالسعادة والفوز.

- إنّني أشهد الله على قولك، صارحيني الآن: من يكون هذا الرجل؟

- ماذا يملّك منه؟ قلت لك إنّك لا تعرفه، تاجر من غير حيتنا ولكنّه كان يجلس من حين لآخر في قهوة سي عليّ...

- اسمه؟

- عبد التّوّاب ياسين، هل عرفته؟...

اكثرته هذه العوامة لفضاء وقت سعيد، هل تذكر أوقاتك السعيدة؟ إنّها الدنيا هل تذكرين أحد عبد الجسود الذي لم يكن يبالي شيئاً؟، زبيدة...

جليلة... بيبيجة... سليهنّ عنه، إنّهُ بلا ريب غير هذا الرجل الخاطر الذي اشتعل الشيب في فؤاده...

- إنّ شيطان النكد هو أنشط الشياطين...

- بل هو شيطان الشك لأنه يخلق من لا شيء...

جعل ينظر الأرض بطرف عصاه، ثمّ قال بصوت عميق:

- لا أريد أن أعيش أعمى، كلّ ولا شيء يقادر على أن يجعلني أعمى من رجولتي وكرامتي، بالاختصار لا أستطيع أن أهضم ميتك في الخارج ليلة أمس...

- رجعتنا مرة أخرى!

- وثالثة ورابعة، لست طفلة، أنت امرأة ناضجة عاقلة، واليوم تحدّثيني عن ذلك الرجل! هل غرّك حقاً وعنه بالزواج منه؟

أجابته بكبرياء قاتلة:

- إنّني أعلم أنّه لا يخدعني، وآي ذلك أنّه وعندي بالأمر يقيني حقّ يعقد زواجه متى...

- أترغبين في هذا الزواج؟

فعلت في استيهاد، ثمّ قالت بلهجة المتعجب:

- ألم تسمع ما قلت؟ إنّني أعجب لما تبدي اليوم من كسل، لكن على أيّ حال لست الساعة كالمعهد بك، أيقن من الكدر الذي جلبته على نفسك بلا سبب



الأمل، لآني مستعد أن أنسى ليلة أمس المشوثة...  
أنسى شغبي ولسي... على أن تطلع عن هذا المكر  
الخيث...

- كنتا نعيش في سعادة ووثام، فهل هانت عليك  
العشرة؟

- لم تهن ولكني أريد أن أجعل منها شيئاً أفضل،  
ليس الحلال خيراً من الحرام؟

- تقلصت شفته السفلى محدثة ابتسامة لا معنى لها،  
ثم قال بصوت خافت:

- الأمر بالنسبة لي مختلف جداً...

- كيف؟

- أنا زوج، وياي زوج، وبناتي أزواج، الأمر دقيق  
جداً كما ترين... (ثم بلهفة) ألم تكن نعيش في سعادة  
كاملة؟

قالت بضمجر:

- لم أفل لك طلق زوجتك وتبرأ من ذريتك!  
كثيرون هم الذين يجمعون بين أكثر من زوجة!

لفقال بإشفاق:

- ليس الزواج في مثل... حالي عما يكون أمره، أو  
يعرض في حياة الإنسان بلا قيل وقال.

ضحكت ساخرة، ثم قالت:

- كل الناس يعلمون أنك عشيق وأنت لا تبالي  
بهم، فكيف تشفق من قبلهم وقالم على زواج مشروع  
إن أردت الزواج...؟

قال بأساً في ارتباك وضيق:

- قليل من الناس من يطلع على أسراري، إلى أن  
أهل بيتي هم أهد الناس عن الشك في أمري...

رفضت ساجبها المزججين في إنكار، ثم قالت:

- هذا ظنك، أما الحقيقة فلا يعلمها إلا الله، أي  
سر يسان ووراه ألسنة الناس؟

ثم استدركت غاضبة قبل أن يتكلم:

- أم لعلك لا تراني أهلاً للتشرف بالانتساب  
إليك؟

استغفر الله، زوج زبوية العوامة على سن ورمح!

- ما قصبت هذا يا زبوية...

واسمع مني للمرة الأخيرة: لقد تجاهلت الرجل ورغبته  
إكراماً لك...

رغب أن يعرف سنه ولكنته لم يدرك كيف يصوغ  
السؤال، الشباب والمكهولة أمور لم تجر له في حساب  
من قبل، قال بعد تردد:

- لعل من الأغرار الذين يلغون القول بلا تردد!

- ليس طفلاً، إنه في الثلاثين من عمره!

أي أنه يتأخر عنه بربع قرن، والتأخر مكروه إلا في  
العمر، أما الغيرة فتقتلنا بلا حياة.

وعادت هي تقول:

- تجاهلته رغم أنه وعدني بالحياة التي أتمناها!

يا بنت القديسة! فات زبيدة أن تتعلم منك  
الكثيرا...

- حقاً؟...

- دعني أصارحك بماي لم أعد أطيق هذه الحياة...  
اذكر مرة أخرى اللبابة والمكبوب...

- حقاً!

- أجل، أريد حياة مطمئة في ظل الحلال، أم  
تراني غططة؟

جئت للتحقيق معها فأين تقف الآن؟ هي التي  
طردتك فمن أين لك هذا الحلم كله؟ انجبل من  
نفسك ما بقي لك من أيام، أفهم ما تعني إكهاماتها؟  
ما أجل الأمواج المتلاطمة في ساحة المنجبا ولسا طال  
به الصمت استعردت قاتلة يهدوه:

- لن بغضبك هذا، أنت رجل تقي رغم كل  
شيء، فلا يمكن أن تحول بين امرأة وبين الحلال الذي  
تروده، لا أود أن أكون بردعة لكل ركب، لست  
كخائلي، لي قلب مؤمن وأخاف الله، وقد صلق عزمي  
على هجر الحرام...

استمع إلى قولها الأخير بدهشة وانزعاج، وجعل  
يتفحصها بحث دواءه بالبتسامة باهتة، ثم قال:

- لم تحدثني عن هذا من قبل، كنتا حتى أول أمس  
على خير حال!

- لم أكن أدري كيف أكاشفك بما في نفسي...  
إنها تبعد عنك بسرعة خيفة خيفة، يا خيبة

فقلت باستياء:

- لن تخفي عني مشاعرك طويلاً، سأعرفها غداً إن لم أعرّفها اليوم، فإني كان زواجي يمزك فمع السلامة...

- تعالي إلى جانبي...

فترجعت في مقعدها إلى الورااء بإصرار وهي تقول:  
- عندما يأذن الله...

- ٢٩ -

غادر العوّامة يشقّ سبيله في ظلام وسار وشاطئ النبل في طريق مقفر متجهاً إلى جسر الزمالك. كان الهواء يهول لطيفاً فنفض رأسه الملتهب، وبعث في أغصان الأشجار الهائلة المشابكة حركة وانية نذ عنها هسيس كالمس، وكانت تبدو في الظلام كالكتبان أو السحب الجون، كلّها رفع رأسه وجعلها مطبقة عليه كالمهمّ الجائهم على صدره، وهذه الأضواء المنبثقة من نوافذ العوّامات هل تنبعث من بيوت خلّت من أهم؟ ولكن ليس كهكهمهم، ليس من هويت كمن يتنحر، وأنت بلا جدال قد وافقت على الانتحار. وأصل السير، لم يكن أحبّ إليه وقتذاك من المشي ليربح أعصابه ويستعيد أفكاره قبل أن يغشي إلى الإخوان، وهناك يغلو إليهم ويكشفهم بكل شيء، لن يقدم على هذه الخطوة حتى يشاروهم وإن طُن سلفاً ما سيقولون، ولكنه سيترف أمامهم مهما كلفه الأمر، وإنه ليجد إلى مكاشفتهم رغبة دافعة كأنها استئفاة غريق يتخطفه الموج العاتي، لم ينبغ عنه آله يمدّ في حكم المواقف على الزواج من زئوبة، ولم ينكر شعوره الدليل بالرغبة فيها والحرص عليها ولكنه لم يتصور كيف يمكن أن يتحقّق هذا في صورة زواج رسمي ولا كيف يزفّ البشرى إلى الأهل والأبناء والناس جميعاً. ومع آله كان يريد أن يطيل المشي ما وسعه ذلك إلا آله اندفع يسير بسرعة وفي خطوات واسعة وعصاه تضرب الأرض الترية كأنها تتجملّ الذهب إلى هدف ولا هدف له. تأبّت عليه وصدّته، هل تغيب عن تجربته وحكته هذه الأساليب؟... ولكن الضعيف يقع في الشرّ وهو يدرى. ومع آله استجذّ بالمشي والهواء النقي بعض الراحة إلا أنه لم يزل مشغول الفكر مشغول الوجدان، ولم تزل الأفكار تطرق رأسه بشير انتظام

تحي لتطردوا فطررك، لم تعد تسألها أين كانت ولكنّها تخمّرك بين الزواج أو الذهب، ماذا أنت صانع؟ ماذا يقيقك بلا حراك؟ إنّه القلب الخائف، إنّ نزع عظامك من لحمك أهون من هجر هذه العوّادة، ليس من المحزن ألا تبني بهذا الحبّ الأسمى إلا هل كبراً؟

تساءل في عتاب:

- أهذا هو قدرى عندك؟  
- لا قدر عندي لمن يأنف مني كأني بصقة معدية!  
قال بهدوء حزين:  
- أنت أهز عليّ من نفسي...  
- كلام سمعنا منه الكثير...  
- ولكنه صدق وحق...  
- أن لي أن أرف هذا من غير اللسان!

غضّ بصره في كرب وبأس، لم يكن يدري كيف يقبل ولم يكن يوسعه أن يرفض، وكان حرصه عليها من واء فذلك يغله ويشغّ فكره، قال بصوت خفيض:

- أعطني مهلة كي أدبر أمري...  
فقلت بهدوء وهي تخفي ابتسامة مآكرة:  
- لو كنت تحبني حقاً ما تركت...  
فقال بعجلة:

- ليس هذا، أعني أموري الأخرى...  
وحرك يده كأنها يفسّر بها قوله وإن كان لا يدري على وجه التحديد ما تعني فابتسمت قائلة:  
- إذا كان الأمر كذلك فأنا ومن انتظارك...

فشعر براحة وقتية، كالراحة التي يجدها الملائم الموشك على السقوط إذا أدركه الجرس المؤذن بانتهاء الجولة غير الأخيرة، وانبعثت في نفسه رغبة إلى الترويح عن همّه والتنفيس عن قلقه، فقال لها وهو يمدّ نحوها يده:

في كهولتنا! لنشرب هذه الليلة حتى يرفعوك على الأعناق، ما أحته إلى الشراب، كأنك لم تشرب منذ عام الفول، إنَّ الآلام التي تجرعتها في عامك هذا خليقة بأن تحمو حسنات السعادة التي تمتعت بها العمر كله.

ضرب بعصاه الأرض، ثم توقف عن السير، ضاق بالظلام والسكون والطريق الحاشد والأشجار وفزع قلبه إلى الإخوان، ليس هو بالذي يستطيع أن يخلو إلى نفسه طويلاً، فما هو إلا عضو في جماعة وجزء من كل، وهناك تحمل المشكلات كما اعتادت أن تحمل. واستدار ليرجع إلى الجسر، وعند ذلك انتفض جسمه غضباً وتفزعاً، فقال بصوت غريب غمرته الشكوى والألم والحنق: دليلة كاملة تبينها في الخارج... في مكان مجهول... ثم توافق على الزواج منها، وطه إحساس ثقيل بازدياد النفس عصر جلدعه وعصر قلبه. يasmine؟... يا للسخرية! بل أمضت ليلتها في حضن الرجل الذي لم يزايلها حتى وافقها عصر اليوم التالي، لبث عنده وهي عالة بمواعيد حضوره فإذا يعني هذا؟ ليس إلا الغرام أنساها الوقت. يا جحيم الآخرة! أو أنك هت للحد الذي لا تبالي عنده بغضبك، كيف حاورتها مسترضياً بعد ذلك أنها المسحورة وكيف تمضي حاملاً وعد الزواج بها يا حار الدنيا والآخرة، كأنك لم تشعر بالقرن الذي ارتفضته من شدة ضغط الهَم على رأسك، قرن تكلم به هامة أسرة لتخزي به جيلاً بعد جيل، ما عسى أن يقول الناس عن هذا القرن فوق الجبين الآخر؟ إنَّ الغضب والمقت والدم والدموع لا تكفي للتكفير عن استسلامك وضعفك، لشدة ما تضحك منك الآن وهي مستلقية على ظهرها في العوامة، ولعلها لم تقتل بعد من عرق رَجُلها الذي سيفضحك منك بدوره، لا ينبغي أن يطلع الغد ولم يضحك منك، اعترف بكزرك وأعرضه على مائلة الإخوان لتسمع قهقهاتهم... اعلروه كبر وغرّف... اعلروه فقد جرب كل شيء إلا متعة القرون! زينة: آيت أن تكون سيِّداً في بيتي وارفضيت أن تكون قواذاً في بيت

حق لم يعد يحتمل حاله فخيَّل إليه آتة سيجن إن لم يحسم الأمر يصل ولو يكن الضلال نفسه.

في هذا الظلام يستطيع أن يخاطب نفسه بلا تردد أو حياء، تحجبه الأغصان المتلاحمة من السماء، وتواري غواطره الحقول المترامية إلى يمينه، ويتلغ مشاعره ماء النيل الجاري إلى يساره، ولكن حذار من النور، حذار أن تكتشفه هالة منه فينطلق كعربة السيرك داعياً وراه الغلمان وهواة العجائب، أما سمته وجلاله وكرامته فسلام الله عليها، كان ولم يزل ذا شخصيتين، يعيش بوحدة بين الإخوان والأحباب، ويطالع بالأخرى الأهل وسائر الناس، وهذه الأخيرة التي تمسك عليه جلاله ووقاره وتقرّر له منزلة لا يطعم إليها أحد، وهي هي التي تتأمر نزواته عليها وتهذبا بالفناء الأبدى. وترادى له الجسر بمصايحه الوحشية فساد إلى أين؟... بيد أنه رغب في مزيد من الوحدة والظلام فمر أمام الجسر إلى طريق الجزيرة. ياسمين! ذكره يربحك، جبينك يحترق عجباً، لم؟ سيكون أول من يفهمك ويتسامح معك أم تراه يثمت بك ويتندّر؟ طالما زجرته وأدبته ولكن قلعه لم تنزل بعد إلى مثل هاويك؟ كمال؟ يجب أن تلقاه منذ الساعة بقناع غليظ أن يكلمك على اللذبة في أسارك، خديجة وهائشة؟ سينكس منها الجبين في بيت آل شوكت، زُوبة امرأة أهلك، زفاف يصقّ له أهل المجون. في صدرك غوايات فاخر مسرّحاً غير دنياك لها، هل ثقة ملكة ظلام بعيداً من متناول البشر كي تمارس ردائكك في سلام؟ غداً فلتنظر إلى نسج العنكبوت لترى ماذا تبقى من الدباب؟ استمع إلى نقيق الضفادع وزفرات الصراصير، ما أسعد هذه الحشرات، كن حشرة لتسعد بلا حساب، أما فوق سطح الأرض فلن يسلك إلا أن تكون والسيد أحمد، مَرّ الليلة بأهل بيتك جيماً... زوجك... كمال... ياسمين... خديجة... عائشة... ثم كاشفهم بيتك إن استطعت، وإن استطعت فاعقد زواجك بعد ذلك. هيّا! أتذكر كيف نبذتها على حياء؟ لم تحب امرأة كما أحبتها، ولكن يبدو - وأأسف - أننا نضر العقول

عزادني، جليلة: لست أخني ولا حتى أخوتي! إلى أشهد

هذا الطريق الرهيب وهذا الظلام الكثيف وفله الأشجار الهرمة على هرواني في الظلام باكياً كالطفل الغرير، لا بت ليثي حتى أرى الإحانة إلى الطافية وتمتعت عليك! لم ألتها ضاقت بالحرام الحرام الذي لم تغتسل منه، قل إنهما لم تمد تطبيقك وكفى، ما أظن

الأم، ولكنه حتى حلّ وعبداء، كمن ينطح الجدار حتى يحكم رأسه تكفيراً عن ذنب، الشيخ متولي عبد الصمد يظن أنه يعرف أموراً كثيرة، ألا ما أجهله! مرّ

بجسر الزمالك مرّة أخرى إلى طريق أمابة، وجعل يحدّ خطاه بعزم وعناد مصمّلاً حل غسل ما فلكه من غزي، وكلّما ألغ عليه الألم جدّ في السير ضارباً بعصاه الأرض كأنها يسير على ثلاث.

وبدت له العوامة يلوح من نافذها الضوء فاشتدّ هياجه بيد أنه كان قد استعاد ثقته بنفسه وشعوره ببرجونه وكرامته واطمأنّ خاطره بعد أن استقرّ على رأي، وانحدر على السلم فمرّ فوق الجسر الخشبيّ ثم طرق الباب بعصاه، وكرّر ذلك بعنف، حتى جابه الصوت متسائلاً في انزعاج:

- من الطارق؟

فأجاب بقوة:

- أنا...

انفتح الباب عن وجهها المتعجب، فالتفت له وهي تغمغم «خير»، فغرق إلى حجرة الجلوس حتى تورطها ثم استدار ووقف ينظر إليها وهي تقترب منه متسائلة حتى وقفت حياله وراحت تتفحص وجهه المستهجم بقلق، قالت:

- خير إن شاء الله! ما عاد بك؟

فقال بهنو مريب:

- خير والحمد لله كما ستعلمين...

جعلت تتساءل بعينها دون أن تتكلم، فاستطرد قائلاً:

- جئت لأخبرك بالأمر، بما قلت، لأن الأمر كله لم يكن إلا دعابة سخيفة. هبط جذعها هبوط الحية ونطق وجهها بالإنكار

والحق، ثم هتفت:

- دعابة سخيفة! كيف لا تفرّق بين دعابة سخيفة وبين كلمة شرف ارتبطت بها؟ قال ووجهه يزداد اكفهاً:

- يحسن بك وأنت تخاطبيني أن تلتزمي حدّ الأدب الواجب، فإنّ نساء من طبقك يرتزقن في بيتي خادعات...

صاحت وهي تحملق في وجهه:

- هل رجعت لتسمعي هذا الكلام؟ لم لم تفلح من قبل؟ لم وعدتني واستعظمتني وتوددت إلي؟ أنحسب أنّ هذا الكلام يخيفني؟ لم بعد بي متسع للدعابات السخيفة.

لوح لها بيده غاضباً فأسكتها، ثم هتف:

- جئت كي أقول لك إنّ الزواج من واحدة مثلك غزي لا يليق بكرامتي، وإنه لا يصلح أكثر من أن يكون دعابة ينتظر بها هواة الدعابات المخجلة، وإنه ما دامت أمثال هذه الأفكار تدور برأسك فانت لم تعودي أهلاً لمعاشرتي، إذ لا يصح أن أعاشر المجانين...

كانت تصفي إليه وشرر الغضب يتطاير من حدقتيها، بيد أنّها لم تستسلم لتيار الغضب كما تمّ، ولعلّ منظر غضبه بثّ في حناياها خوفاً وتقديراً للعواقب، فقلت بلهجة أخفّ من السابقة:

- لن أتزوجك بالقوّة، لقد كاشفتك بما يحول بخاطري تاركة لك الخيار، الآن تريد أن تتحلّل من وعدك، لك ما تشاء، ولا داعي لسبي وإهانتي، ليذهب كلّ منّا إلى حال سبيله في سلام...

أفذا قصاري جهنّها في الخرص عليك؟ ألم تكن تكون أسعد حالاً لو - في سبيل امتلاكك - أنشبت فيك الأظافر؟ استمدّ من الملك غضباً:

- سيذهب كلّ منّا إلى حال سبيله، غير أنّي أردت أن أصارحك برأيي فيك قبل أن أذهب، لا أنكر أنّي سعيت إليك بنفسي، ربّما لأنّ النفس تولع أحياناً بالفانوسات، فهجرت من كنت تسعين بخدمتهنّ كي أرفعك إلى هذه الحاية، لذلك لا أدهش لأنّي لم أسطع عندك بما حظيت به عندهنّ من الحبّ والتقدير، ذلك

من الفكر، وكان كلما نزع به الخيال إلى منظر من مناظر حياته القرية أو الماضية صده بعزم، اللهم إلا منظرًا واحدًا رغب باستعادته عن طيب خاطر، ذلك هو للمنظر الأخير الذي سجل انتصاره على المرأة وعلى نفسه معًا، وراح يؤكد الأمر لنفسه فيقول: «انتهى كل شيء والحمد لله ولاكونن شديداً الحذر فيها يُقبل من أيام حياتي».

بدا اليوم هادئاً في مطلعه، فاستطاع أن يفكر في فوزه المبين وأن يبقى نفسه عليه، ولكن انقلب اليوم بعد ذلك عاملاً بل خامداً، فلم يجد من تفسير لذلك إلا أنه رد الفعل للجهد العصبي المضني الذي بذله في اليومين الماضيين، بل في الأشهر الماضية حل تغاوت في الدرجة، إذ الحق أن معاشرة زنتوية بدت لعينه في تلك اللحظة مأساة خاسرة من أولها لأخراها. لم يكن من الهين عليه أن يسلم بأول هزيمة تلحقه في حياته الغرامية الطويلة، كان لذلك رجع شديد الأثر في قلبه وخياله، وكان يشور كلما حس له عقله بأن الشباب قد ولى، معترًا بقوته وجماله وحيويته، ثم يصرّ على ذلك التعليل الذي جاهر به المرأة أمس وهو أنها لم تحبه لأن القدر لا يقدر إلا القدر! لشدة ما تشوّق طوال يومه إلى مجلس الإخوان، فلما دنا مواعده نفذ صبره فمضى متصجلاً إلى بيت عمه عفت بالجالية، فاجتمع به قبل أن يتوافد الإخوان، وسرعان ما قال له:

- انتهيت منها...

فتسائل محمد عفت:

- زنتوية؟

قاوماً بالإيجاب، فتسائل الآخر باسمًا:

- بهله السرعة؟

ضحك كالساخر، ثم قال:

- هل تصنّفي إذا قلت إنها طالبتني بالزواج حتى

ضقت بها؟

فضحك كالساخر، ثم قال:

- زبيدة نفسها لم تفكر في ذلك! يا للعجب! لكنها معلومة، لقد وجدتك تدلّها أكثر مما تحلم به فطمعت في المزيد...

أن القدر لا يقدر إلا من كان حل شاكلته، وقد آن في أن أربأ بنفسي عنك، وأن أعود إلى حظيرتي الأولى...

بدا في وجهها القهر، قهر من يحجزه الخوف عن التنفّس من صدره المستعر، وتتمت بصوت مرتعش النبرات:

- مع السلامة، اذهب ودعني في سلام...

قال بحق وهو يكظم آلامه:

- لقد نزلت فهنت...

هنا أفلت الزمام، فصاحت به:

- حسبك، كفاية، ارحم الحشرة القذرة واحلرها، اذكر كيف كنت تقبل يدها والخشوع في عينك، نزلت فهنت؟... هه... الحق أنك كبرت، قبلتك على كبرها أنا أتلقى الجزاء...

لوح بمصاه وهو يصيح بغضب:

- اخبرني يا بنت الكلب، اخبرني يا دون، لسي ثيابك وغادري العوامة...

فصاحت بدورها وهي ترفع رأسها في تشنج:

- املا أذنك بما أقول، كلمة أخرى أملا عليك العوامة والنبل والطريق صوائها حق تحضر الحكمدارية كلها، سامع؟... لست لقمة سائغة، أنا زنتوية والأجر على الله، اذهب أنت، هذه العوامة عوامتي وعقد إيجارها باسمي، فاذهب بالسلامة قبل أن تلعب في زفة...

لبث قليلاً كالتردد ينظر إليها باحتقار وازدراء، ولكنه عدل عن مغامرة قاسية تفادياً من الفضيحة، ثم بصق على الأرض ومضى إلى الحارج في خطوات واسعة ثابتة...

- ٣٠ -

ذهب من توه إلى الإخوان، فوجد عمه عفت وعليه عبد الرحيم وإبراهيم الفار وآخرين. شرب حتى سكر كعادته وتعذّى عادته، وضحك كثيراً وأضحك كثيراً، ثم مضى في المزيج الأخير من الليل إلى بيته فنام نوماً عميقاً. واستقبل مع الصباح يوماً هادئاً، خلا في أوله

فغمغم السيد أحمد قائلاً باستهانة:

- مجنونة...

فضحك عمّد عفت مرّة أخرى، وقال:

- لعلّها تعالكت في حبك؟

يا لها من طعنة! اضحك بقدر ما تجد من ألم...

- قلت إنّها مجنونة وكفى...

- وماذا فعلت؟

- صارتها بآثني ذاهب إلى غير رجعة،

وذهبت...

- كيف تلقّت ذلك؟

- سيّمت مرّة، وهذّدت أخرى، وقالت في داهية

ثالثة، ثم تركتها كالمجنونة، كانت غلطة من بادئ

الأم.

قال عمّد عفت وهو يهزّ رأسه مقتنّاً:

- نعم، ما مثلاً إلاّ من ضاجعها، ولكنّ أحدًا لم

يفكر حتى في عمّد معاشرتها...

تصوّل ويحوّل في مادين الأسود ثمّ تهزم أمام قارة،

أخبر عارك حتى عن أقرب المقرّين واحد الله على أنّ

كلّ شيء قد انتهى...

لكنّ شيئاً في الواقع لم يته، لم تريح همّته، وصحّ

لديه فيها تلا ذلك من آهَام أنّ تفكيره فيها لم يكن مجرداً

ولكنّه اقترن بالهم صمق تزايد وتشتّى، وصحّ لديه أيضاً

أنّ ذلك الألم لم يكن غضباً لكرامته فحسب ولكن كان

ألم الحسرة والحنين، وآله فيها بدا عاطفة طاحية لا تقتنع

بالفّل من تدمير من يعانيتها. بيد أنّه كان شديد الاحتراز

بما سجّل ساعة انتصاره، فمقّ نفسه بغير مشاعره

المستبثة الخاتنة في مهلة تطول أو تقصر كيفما اتفق.

ومها يكن من أمر فقد غادره السلام فأمضى وقته

متفكّراً جعّاً أحزانه معدّباً بخيالاته وذكرياته. وكان

يبلغ به الضعف أحياناً أن يفكر في مصارحة عمّد

عفت بما ينوء به من آلام، بل تحدّى به الخطاطر مرّة إلى

حدّ الاستعانة بزييدة نفسها، ولكنّها كانت فترات

ضعف كنويات الحمى ثمّ يفيق إلى نفسه وهو يهزّ رأسه

متعجباً متحيراً.

وقد صبغت أزمته سلوكه العامّ بلون من القسوة

قوامه ما استطاع بحلمه وكياسته، فلم يفلت منه

الزمام إلّا قليلاً، وهذا القليل لم يلحظه إلّا الأصداق

والمعارف الذين ألفوا منه الدعابة والتسامح والرفقة، أمّا

أهل بيته فلم يفتنوا إلى شيء، لأنّ سلوكه حالهم بقي

هو هو لم يكده يتغيّر، إذ أنّ الذي تغيّر حقّاً هو العاطفة

المسترة وراءه فاستحالت من شدّة مصطنعة إلى شدّة

حقيقية لم يدرك مداها سواء. على أنّه هو نفسه لم ينبج

من قسوته هذه، بل لعلّه كان هدفها الأوّل، فيما حل

به على نفسه من تقريع وما عبرها به من مهانة، وأخيراً

بما أخذ يقرّ به رويداً رويداً من ذلك وتعباته وهجران

شبابه، ثمّ يمزّي نفسه فيقول: لن أتحرك، لن أسيم

نفسى مزيداً من الدلّ، فلتنزّل بي الأفكار كلّ مدار،

ولتنقلب بي المواطف كلّ منقلب، ولايقينّ حيث أنا لا

يعلم بألمي إلّا الله الغفور الرحيم. لكنّه ما يدري إلّا

وهو يسائل نفسه: ترى ألا تزال في العوامة أم تركتها؟

وإذا كانت بها، فهل ما يزال لديها بقيّة من ماله تغنيها

عن الناس، أم يكون الرجل قد لحق بها هنالك؟

تساءل كثيراً وفي كلّ مرّة يلقى عذاباً ينفذ من روحه

إلى لحمه وعظمه فيهره مصرّاً، لم يكن يجد شيئاً من

القرار إلّا عند استحضاره المظهر الأخير في العوامة

الذي أومها فيه - وتوهم - أنّه نلها وعلا عليها،

ولكنّه كان يستدعي مناظر أخرى سجّلت ذلك وضعفه،

ومناظر غيرها سجّلت ألواناً من السعادة لا تنسى.

ويخلق الخيال له مناظر جديدة التقي فيها، فتشاجر،

ومحاسباء، وتعتائب، ثمّ أدركها سلام الصلح

والوصال... حلم كثيراً ما يتراءى له في عالم الباطن

الزاجر بما لا يحصى من ألوان الشفاء والسعادة، لم لا

يتأكّد بنفسه ممّا طرأ على العوامة وسكّانها؟ في الظلام

يستطيع أن يسير هنالك دون أن يراه أحد...

وذهب مسترّاً بالظلام كاللصّ، فمرّ أمام العوامة

ورأى النور يوصوص من خصائص النافذة، ولكنّه لم

يلوّ إن كانت هي التي تستضيء به أم ساكن جديد،

بيد أنّ قلبه شعر بأنّ النور نورها هي دون غيرها،

وتخيّل إليه وهو يتطلّع إلى العوامة أنّه يستشفت روح

صاحبها، وآله ليس بينه وبين رؤيتها رؤية العين إلّا

فتبعها على بعد مرتجياً بظلمة الطريق، ترى هل عاودت الاتصال بخالتها؟ أم تراها ماضية إلى السيد الجديد؟ ولكن ماذا دعاهما إلى الذهاب إليه وعندها عروامة تسادي الماشقين؟! وبلغت حرم الحسين فضاضع انتباهه أن تضع منه في زحمة الملامات اللث. لم تستن له غاية وراء هذه المطاردة الخفية، ولكن كان مدفوعاً برغبة في الاستطلاع الأيمة وعقيمة وإن تكن في نفس الوقت عنيفة لا تجني معها المقاومة... سارت أمام الجامع فأنجحت إلى حارة الوطواط حيث يقف المازة ويولد الشخافون المتعبون، ثم إلى الجمالية حتى سالت إلى قصر الشوق فتبعها مشفقاً من أن يلقاه ياسين في الطريق أو يراه من نافذة، فارتأى إن صادفه أن يزعهم له أنه ذاهب لزيارته صديقه غنيم حميدو صاحب معصرة الزيتون وجار ياسين بقصر الشوق، وما يدري إلا وهي تعطف إلى أول حارة، تلك الحارة التي لم يكن بها من بيت إلا بيت ياسين، فدفق قلبه بغزة وثقلت قدماء كان يعرف سكان الدورين الأول والثاني، وهما أستان لا يمكن أن تربطها بزئوية رابطة! وزاغ يصره قلقاً واضطراباً، غير أنه وجد نفسه يميل إلى العطفة غير مقلد للعواقب، فأنجحه نحو الباب حتى تراسى إلى سمعه وقع الأقدام الصاعدة، ثم دخل بثر السلم رافقاً رأسه منتصباً إلى وقع الأقدام فثعمر بمرورها بالباب الأول ثم الثاني، ثم وهي تطرق باب ياسين!...

تسمر في مكانه وهو يلهث، فدار رأسه وشعر بخور وتعلم، ثم تهذب من الأحياق وانتزع نفسه من موضعه راجعاً من حيث أتى وقد غاب الطريق عن عينيه في زحمة الانكوار وارتظام الخواطر...

ياسين كان الرجل! فترى هل علمت زئوية بعلاقته الأبوية ياسين؟! وراح يذبح الطمانينة في نفسه كما يدفع سداً خليلاً في فوعة ضيقة قائلاً: إنه لم يجر على لسانه ذكر لأحد أبنائه أمامها، فضلاً عن أنه من غير المعقول أن يكون واقفاً على سره، وأنه ليدكر كيف جاءه منذ أيام ليهي إليه طلاق مريم، فطالعه بوجه الملبس المرتبك ولكن في براعة وإخلاص لا تشوبها

أن يترك الباب فيفتح عن وجهها كما كان يفتح في الأيام اللذاهية، السعيد منها والتعيس على السواء، ولكن ما عسى أن يفعل لو طالعه وجه الرجل! حقاً أنها قريبة ولكن ما أبعداه، وقد حرم عليه هذا المبر إلى الأبد... أهـ. هل مرت به هذه الحالة في حلم من الأحلام! قالت له اذهب، قالتها من قلبها ثم مضت في سبيلها كأنه لم يعرض لها يوماً وكأنها لا تشعر له بوجود! إذا كان الإنسان بهذه القسوة فكيف يتطلع إلى طلب الرحمة أو المغفرة!

وذهب مرّات ومرّات حتى صار التردد أمام العروامة بد جثوم الليل عادة يمر بها قبل فحابه إلى مجلس الإغوان، ولم يبدُ عليه أنه يريد أن يفعل شيئاً ذا بال، وكأنه كان يرضي بها حب استطلاع عقيم جنوني. وكان يممّ بالمودة مرة إذ انفتح الباب وخرج شيخ لم يتبينه في الظلام فلحق قلبه في خوف ورجاء، ثم عبر الطريق مسرعاً ووقف في جوار شجرة وعيناه تحمقان في الظلام. قطع الشيخ المبر الحشوي إلى الطريق ثم سار في اتجاه جسر الزمالك، فوضع له آله امرأة... وحذّته قلبه بأنّها هي. وتبعها عن بعد وهو لا يدري هل أتى وجهه تنتهي الليلة. هي أو غيرها فسادا يقصده! غير أنه واصل سيره مركزاً انتباهه في شيعها، ولما بلغت الجسر ودخلت في مرمى مصابيحها توكد إحساس قلبه وأيقن أنها زئوية، غير أنها كانت ملتفة في الملاة اللث التي تحلّت عن ارتدائها طوال معاشرتها له. عجب لذلك وتساءل عن مناه فظن - ما أكثر ظنونه - وراها أمراً. رآها تتجه إلى عكة ترام الجزيرة وتنتظر، فسار عذائياً للحقول حتى جاوز الموضع قبلتها، ثم عبر إلى ناحيتها ووقف بعيداً عن مرمى بصرها. وجاء الترام فاستقلته، وعند ذلك هروا إليه فركب جاعلاً مجلسه في نهاية المقعد المطلّة على السلم ليراقب النازلين، وعند كل عكة راح يتطلع إلى الطريق وقد زايله الإشفاق من اكتشاف أمره لأنه حتى إذا وقع فقد فاتها أن تعلم أنه كان يصردها أمام العروامة متجسّساً. نزلت في العتبة المحضراء فنزل وراها ورآها تتجه إلى الموسكي مشياً على الأقدام

دوره، أنت سعيد، لا داعي للندم، ينبغي أن تواجه الحياة بخطة جديدة وقلب جديد وعقل جديد، دع الذاكرة في يد ياسين، وسوف تفهم من دوارك وعرضي كل شيء وكأنه لم يكن، لن يُخلع لك أن تجعل من حوادث الأيام الأخيرة حديثاً يدار على مائدة الإخوان كسابق ههنا، علمتكم هذه الأيام المخفية أن تطوي الصدر على أمور كثيرة، آه... ما أعظم تشوّقي إلى الشراب!...

أثبت السيد أحمد في الأيام التالية أنه أقوى مما اعتراه من أحداث، فسار في طريقه قدماً، وقد ترامت إليه أنباء طلاق ياسين على حقيقتها من السيد عليّ عبد الرحيم نقلاً عن خنيم حميد وآخرين، وإن لم يتصرّف الراوي على حقيقة المرأة التي نجم عن مفارقتها طلاق الزوجية... وباتسم السيد، وضحك طويلاً من كل شيء، وكان ماضياً إلى بيت عمه عفت - ذات مساء - حين شعر بقليل قبيح في أعلى الظهر والرأس حتى هت. لم يكن الأمر جديداً كل الجدة، فقد جعل الصداق يتباه كثيراً في الأيام السابقة ولكنه لم يشتد عليه كهذه المرة، ولما شكّا حاله إلى عمه عفت أمره بلقدح من شراب الليمون المخلوج، وأمضى سهرته حتى نايتهما، ولكنه استيقظ في اليوم التالي أسوأ حالاً من الأمس، وبلغ به الضجر أن فكر في استشارة الطبيب، والواقع أنه لم يكن يفكر في استشارة الطبيب إلا حين الضرورة القصوى.

### - ٣١ -

تتطور الأشياء بالمناسبات كما تتطور الألفاظ بما يستجد من معاني جديدة، لم يكن قصر آل شداد في حاجة جديدة كي يزداد في عيني كمال جلالاً، ولكنه بدا في ذلك المساء من ديسمبر في زئي جديد من أزياء الحياة. أريقت عليه الأنوار حتى غمرته. أجل: كان كل ركن من أركانه وكل موضع من جدرانها يتقلد عقداً من اللاتينية... مصابيح كهربائية مختلفة الألوان تومض فوق رقعة جسده من أعلى السطح إلى أسفل الجدار، كذلك السور الكبير، والباب الضخم،

شالبة، وإنه ليفترض كل شيء إلا أن يقدم ياسين، حل حياته وهو عالم بما يفعل، بل من أين لياسين أن يعلم بأن أباه ذو صلة أو كان ذا صلة بأي امرأة في الوجود، لده أن يطمئن من هذه الناحية، وحتى إذا كانت زئوة قد عرفت علاقته بياسين، أو إذا عرفت يوماً من الأيام، فلن تطلع ياسين على سرّ خليف ثان يقطع ما بينها، وواصل السير موجلاً الذهب إلى الإخوان ريثما يسترد أنفاسه ويملك جنته فمضي في اتجاه العتبة على تعبه وإعيائه.

أردت أن تصرف بها أنت قد عرفت، ألم يكن الأفضل أن تنفض يديك من الأمر كله قائماً بالصبر؟ أحمد الله على أن الظروف لم تجمعك بياسين وجهاً لوجه في بؤرة الفضيحة، كان ياسين هو الرجل، متى عرفته؟ وأين؟ وكم من مرة خاتته معه وهو لا يدري؟ أسئلة لن تبحث لها عن جواب، افترض إذا شئت أسوأ الفروض فلن يغير هذا من الأمر شيئاً، وهل عرفها قبل أن يطلق مريم أم بعد الطلاق أم كانت الشيطانة الباحث على الطلاق؟ أسئلة أخرى لن تعرف الجواب عنها ولن تبحث عنه، فافترض أسوأ الفروض أيضاً لإراحة لرأسك المصدوع، ياسين كان الرجل! قال إنه أطلقها لقلّة أدبها! كلام كان يمكن أن يملأ به طلاق زينب لو لم يطلع هو على السبب الحقيقي حال وقوعه، سوف تعرف الحقيقة يوماً، ولكن ماذا يهلك من أمرها؟ ألا زلت مشغولاً بالجري وراء الحقيقة؟ أنت مبعثر الرأس معذب القلب، أمكن أن تغار من ياسين؟ كلاً ليست هذه بالغيرة، على العكس مما تظن أنت خليف بالتمزيق، إذا لم يكن بدّ من أن يكون لك قاتل فليكن ابنك هو قاتلك، ياسين جزء منك، جزء منك انجزم وجزء منك انتصر، أنت المغلوب وأنت الغالب، ياسين قلب مغزى المعركة، كنت تشرب كأساً مزاجها الألم والمزجة فصار مزاجها الألم والمزجة والفوز والعزاء، لن تتحسر على زئوة بعد اليوم، غاليت في الاعتداد بنفسك، عاهد نفسك على ألا تسقط الزمن من حسابك بعد الآن، ليتك تستطيع أن توجّه هذه النصيحة إلى ياسين حتى لا يؤخذ على غرة إذا جاء



تغنيه، كان حسين يفكر في دعوة بعض الزملاء إلى هنا ولكنني منعه فاكفي بأن يدعوهم إلى مائلتنا، سيكون لنا مائدة خاصة، هذا أهم خبر أُرثه إليك الليلة...  
هناك ما هو أهم، سوف أعجب من نفسي طويلاً لقبولي هذه الدعوة، لم قبلتها؟! تبدو كاتك لا تبالي، أم لائك غدت مفرماً بالمغامرات المخيفة؟  
- هذا حسن، ولكن لم لا نذهب ولو قليلاً إلى البهو الكبير لنشاهد المدعوين؟...

قال إسمايل لطيف بازدراد:

- لن نحطى بما تريد حتى لو ذهبنا، فإن الباشوات والبكوات خصوصاً بالبهو الأمامي وحدهم، فإذا ذهب تستجد نفسك بين الشباب من الأهل والأصدقاء في البهو الخلفي وليس هذا ما تريد، وددت لو أمكن أن ننسح في الحجرات العليا التي تموج بالفخر مثل الجبال...

مثال واحد يعينني، مثال أكل، الذي لم تقع عليه عيني منذ يوم الاعتراف، هناك سرّي وذهب.  
- لا أكتسك آتي مشوّق إلى رؤية الكبراء، قال حسين لي إن والده قد دعا كثيرين ممن أقرأ عنهم في الصحف...

ضحك إسمايل ضحكة عالية، وقال:

- أحلم بأن ترى كبيراً وله أربع أمهات أو ست أرجل؟! إتهم أناس مثلي ومثلك فضلاً عن أتهم طاعون في السرّ وفوق منظر لا يسرّ كثيراً، إني أهتم سرّ تطلمك إليهم، ما هو إلا ذيل لاهتمامك المفرط بالسياسة...

يجدري ألا أهتم بشيء ما في هذه الدنيا، لم تعد لي ولم أعد لها، غير أن اهتمامي بالكبراء مستند في الحقيقة من هيامي بالمعظمة، أنت تدوّ أن تكون عظيمًا لا تنكر، ولك مؤقلااتك الواحدة من خلقة سقراط وآلام بتهوفن، أنت مدني بهذا التطلع للهي حرمتك النور بلهاياها، غداً لن نجد لها أثراً في مصر كلها، يا جنون الألم إن لك لسكرة!... قال بتشوّف:

- قال لي حسين إن الحفلة ستجمع بين رجال من جميع الأحزاب...

كذلك أشجار الحديقة بدت كأنها استحالت أزهارها وثياريها أنواراً حمراً وخضراً وبيضاء، ومن النوافذ جيماً انبثجت الأصواء، فكل شيء يبعث مؤثناً بالفرح، وعندما رأى كمال وهو مقبل فلك المنظر آمن بأنّه يبيح إلى مملكة النور لأزل مرّة في حياته. وأزدهم الطوار المواجه لدخل البيت بالخيلان، وفُرش المدخل برمل قاقع لونه كالذهب، وفُتح الباب على مصراعيه، كذلك باب السلامك فلاحت من داخله نجفة كبيرة في سقف البهو المدّ لاستقبال المدعوين، على حين امتلات الشرفة العليا الكبيرة بمجموعة وضيفة من الخيد في ثياب السهرة البهجة. ووقف شدّاد بك وجعاعة من رجال الأسرة في مدخل السلامك يستقبلون الوافدين، أما شرفة السلامك فقد ازدادت برجال أوركسترا عجيب ترامت أنغامه إلى حدود الصحراء.

ألقى كمال على المنظر كله نظرة شاملة سريعة، ثمّ تسأل: ترى أعاندة في الشرفة العليا بين المطّلات؟ وهل وقعت حينها عليه وهو يقبل مع المقبلين بقلته الفارعة وزنته الكاملة والمعطف على ساحده يتقلّعه رأسه الكبير وأنفه الشهير؟ لم يجرّ من إحساس بالارتباك وهو يجتاز الباب، ولكنّه لم يتجه إلى السلامك كالآخرين، وإنما مال إلى ومزّه القديم المفضي إلى الحديقة كما أنّه حسين شدّاد من قبل كي يتاح لجماعتهم البقاء ممّا أطول مدّة ممكنة في الكشك المحبوب. كأنها كان يخوض بحرًا من نور، وقد وجد السلامك الخلفي - كالأمامي - مفتوح الباب، مضاء بالأنوار، يبعث بالمدعوين، كذلك الشرفة العليا معمورة بأسراب الحسان، أما في الكشك فلم يجد سوى إسمايل لطيف في بدلة سوداء أنيقة أضفت على منظره العدواني هيئة لطيفة لم يره في مثلها من قبل، ألقى إسمايل عليه نظرة سريعة، ثمّ قال:

- بديع، لكن لم آتيت بالمعطف؟ حسين لم يمكث معي إلا ربع ساعة ولكنّه سيعود إلينا حين يفرغ من الاستقبالات، أما حسن فقد لبث معي دقائق ولا أظنه سيتمكن من مجالستنا كما نودّ، لهذا يومه وله عتّا أمور

كتب، كنت أمتطلع إلى سماع حديثهم لأفهم أمرين هائليْن: أولهما الموقف السياسي على حقيقته وهل بات من المأمول حقاً بعد الائتلاف أن يعود الدستور والحياة النيابية؟ والثاني كلام هؤلاء الناس العاديين الذي يتبادلونه في مناسبة سعيدة كهذه، أليس بديهاً أن تصغي إلى ثروة باشا مثلاً وهو يثرثر ويمزح؟!

قال إسحاق لطيف وهو يتظاهر بالاستهانة وإن تمت حركات الاستهانة نفسها عن مباهاة:

- أنتج لي أكثر من مرة أن أجلس مع أصدقائه أهي من أمثال سليم بك والد حسن وشداد بك، أؤكد لك أنك لن تجد لديهم ما يستحق هذا الاهتمام...

من أين جاء الفارق إذن بين ابن المستشار وابن التاجر؟ كيف كان جلّ حكم أحدهما أن يعيد المعبود هل حين يتزوّج الآخر منه؟ أليس هذا الزواج آية على أن هؤلاء القوم من طينة غير طينة البشر؟... لكنك لا تدري كيف يتكلم أبوك بين أصحابه وأقرانه...!

- هل أجيّ حال سليم بك ليس من العظايا الذين أحيي...!

ابتسم إسحاق لهذه الملاحظة الأخيرة دون أن يعلّق عليها. هذه الضحكات تحيي من الدواخل مفعمة بالهبة، وأخرى تهيّط من الشرفة العليا مبعبة بشدا الأتوة الساحر، وبين هذه وتلك تجاوب كالذي بين أنغام الآلات المترامية من بعيد تستقبلها الأذن وحده حيناً وطاقة من ألحان شقّ حيناً آخر، ثم تكون كلها - الضحكات والأنغام - إشاراً وردّها يبدو فيه القلب الحزين المترج بالوحشة كبطاقة سوداء في طاقة ورد... وما لبث حسين شداد أن جاء مهتلاً بقامته الفارعة ووجهه المتألق يخالل في الرندنجوت، فضع ذراعيه عندما اقترب ففعل كمال مثله وتعانقا بحرارة، ثم لحق به حسن سليم في بزّته الرسمية، جيلاً في كبريائه الطبيعي الملفوف في مظهره المؤنّب المهلّب وإن بدا إلى جانب حسين قصيراً صغيراً، فتصافحا أيضاً بحرارة، وهتأ كمال من أحياك لسانه. وقال إسحاق لطيف بصراخه المبهودة التي لا تكاد في أغلب الأحيان تتميز

- صحيح، بالأس دما سعد الأحرار والوطنيين إلى حفلة الشاي المعروفة بالنادي السعدي، واليوم شداد بك يدعوهم إلى زفاف كرمته، رأيت من أصدقائك الوفديين، فصح الله بركات، وحده الباسل، وجاء من الآخرين: ثروت، وإسحاق صديقي، وعبد العزيز فهمي. شداد بك يعمل بهمة عالية، وحسناً فعل، لقد ولّى عهد أفندينا، كان الشعب يهتف منشداً: والله حي... عباس جيه، ولكن الحقيقة أنه ذهب إلى غير رجعة فكان من الحكمة أن يعمل شداد بك للمستقبل حساباً، ويجب أن يسافر كلّ أعوام قلائل إلى سويسرا ليقدم إلى الحديدي فروض طاعة كاذبة من باب الحيلة، ثم يعود ليواصل سيره الموفق...

قلبك يمتك هذه الحكمة، إن عنة سعد بالأس القريب أثبت أن الوطن مليء بهؤلاء الحكهاء، ترى أشداد بك واحد منهم؟ والد المعبودة؟ مهلاً، إن المعبودة نفسها نزلت من عليها السماء لتقرن بواحد من البشر، ليضمت قلبك حتى يصحركم أم أجزائه المتناثرة. - تصوّر أن حفلة كهذه تخفي بلا مطرب ولا مطربة!

قال إسحاق بلهجة ساخرة:

- آل شداد نصف باريسين، ينظرون إلى تضاليد الأفراح بازدياد غير قليل، ولا يسمحون لعائلة بأن تحيي حفلة في بيتهم ولا يعترفون بمطرب من مطربينا، ألا تذكر حديث حسين عن هذا الأوركسترا الذي أراه الليلة لأول مرة في حياتي؟ إنه يعزف مساء الأحد من كل أسبوع في جروهي، وسيستقل إلى البهو بعد العشاء ليطلب الكبراء، دع هذا واعلم أن زينة الليلة هي العشاء والشمبانيا!

جيلة وصابر وزفاف عائشة وخديجة؟ شتان بين الجوين، كم كنت سعيداً في تلك الأيام! الليلة يتشبع الأوركسترا حلقك إلى القبر، أتذكر الذي رأيت من ثقب الباب؟... أسفي على الآلة التي تتمرّع في الثراب...!

- هذا شيء يون، الذي أسف عليه حقاً وسأسف عليه طويلاً هو أنني لم أتمكن من مشاهدة الكبراء من

عن المكر السوء :

- كمال آسف لأنه لم تفتح له مجالسة ثروت باشا وصحبته!

فقال حسن سليم يهرج غريب أطاح بتحصن المهرود:

- فليتظر حتى يسجل مؤلفاته المنتظرة، وعندما يجد نفسه واحدًا منهم!...

أما حسين شذاد فقال عجبًا:

- أهاري تزمت أنت؟! إنما أريد أن تمر الليلة كلها

ونحن مستمتعون بحريرتنا الكاملة...

وقبل أن يجلس حسين استاذن حسن سليم منصرفًا، إذ كان في الواقع كالفراسة لا يستقر بموضع.

ومدّ حسين ساقه أمامه، وراح يقول:

- غداً يسافرون إلى بروكسل، سبقي إلى أوروبا، ولكن بقيتي هنا لن يطول، وغداً تكون ملهاتي التنقل ما بين باريس وبروكسل...

وتنتقل أنت ما بين النمامين والغورية، بلا حبيب ولا صديق، هذا جزء من يتطلع إلى السماء، سترقد بصرك بين أركان المدينة حائرًا ولن تبرا عينك من لوحة الشوق، أملا وتبتك من هذا الهواء الذي تعبته أنفاسها، غداً سوف تترني لنفسك.

- يجئني إليّ أيّ ساحلق بك يوما...

تسادل حسين وإسماعيل معًا:

- كيف؟

لنكن كلبتك ضخمه كالك...

- ثمة اتفاق بيني وبين أبي على أن أسافر في بعثة على حسابي الخاص بعد إتمام دراسي...

هتف حسين بسرور:

- لو تحقق هذا الحلم!

أما إسماعيل فقال ضاحكًا:

- أخاف أن أجد نفسي وحيدًا بعد بضع سنين!

تلاقت آلات الأوركسترا جميعًا في حركة متدفقة سريعة، أعلنت - فيما أعلنت - عيًا في كل آلة من مرونة وقوة، كأنها تشترك كلها في سياق عنيف بات الهدف منه في رمي العين ومتناول الطموح، فسأبها

اللعن إلى فروته العليا، تلك اللزوة التي توحى بتداني الختام. انجذب وجهه إلى الأنغام المستمرة رغم استغراقه بالشجن، فانهط في علوها حتى تدافع حبه ولهتت منه الأنفاس، وسرعان ما دخلته وقته وأسكرته أريجية جعلت من حزنه نشوة دامعة، فتهد مع النهاية من الأصايق، وتغل أصداء اللحن المترنمة في روحه بانفعال وثائر، فعجل إليه أنه يتسائل: ألا يمكن أن تنتهي عواطفه المتأججة في فروتها إلى ختام كذلك؟ ألا يمكن أن يكون للحب - كهذا اللحن وككل شيء - نهاية؟! وذكر أحوالاً مرت به في أوقات نادرة، فترامت من الفتر حتى بدا وكأنه لم يبق من هائلة إلا اسمها، أتذكر هذه الفترات؟ وكان يترأس حيرة ثم يتسائل: هل انتهى حقًا كل شيء؟ وإذا بخيال يطوف أو فكرة تحضر أو منظر يرى فيستيقظ من غفوته ويلقى نفسه هربًا في بحر الهوى مكبلًا بأصفاة الأشر. جرب إذا حلت بك فترة من هذه الفترات أن تقبض عليها بكل قواك وألا تدعها تفلت حتى يستقر بك الشقاء، أجل حاول أن تغني خلود الحب. قال حسين شذاد بأسًا:

- بدأت الحفلة بثلاثة سورة على سبيل البركة! القرآن؟! ما ألتطف لهذا البارسية الحسناء نفسها لا تستطيع أن تعقد قرانها إلا بماذون وقرآن! وهكذا سيقترن زواجها في هذلك بالقرآن والشهبان.

- حدثنا عن نظام الحفلة؟

قال حسين وهو يشير بإصبعه إلى البيت:

- عيًا قليل يُعقد القران، وبعد ساعة يُدعى الجميع إلى الموائد، ثم ينتهي كل شيء، وتبيت هائلة هذه الليلة في بيتنا لآخر مرة ثم تسافر مع الصباح إلى الإسكندرية لتستقل بعد غد الباهرة إلى أوروبا...

ستضيق منك مناظر ما أخلفها بالتسجيل لتكون زاءًا لألك الشره، كروية اسمها الجميل وهو يكتب في الوثيقة الشرعية، ومنظر وجهها المتطلع إلى إعلان النبا السعيد، ولون الابتسامة التي يفرحها بها فخرها عند زفاف البشرى، ثم منظر العروسين وهما يتلاكيان، حتى لك يعوزه الزاد...

- وهل يعقد القران ماذون؟! -

- طيباً!

هكذا أجاب حسين، أما إسماعيل فضحك ضحكة

عالية، وقال:

- بل قسيس!

أيّ سخافة في سؤالك!... سَلْ أيضاً هل يبيتان الليلة معاً! أليس من المحزن أن يسدّ مجرى حياتك رجل لا شأن له كهذا المأذون؟ ولكنّ دودة حقيرة هي التي تأكل جدت أكبر الكبراء، فكيف ستكون جنازتك حين يحمّ القضاة؟ شيء هائل يملأ الطريق أم لمة محضي؟... وإذا بالصمت يشمل البيت حتى استحال نوراً بلا تغايرد فشمع بخوف وانقباض. الآن، في مكان ما، لعلها غله الحجرية أو تلك، ثمّ لعلت زغرودة طويلة مجلجلة أحييت ذكرى قديمة، زغرودة كتلك الزغايرد التي هرفها من قبل فلا ثمت إلى باريس بسبب، ثمّ تبعها زغايرد مجتمعة كالصواريخ، لشدّ ما يبدو هذا القصر الليلة كأيّ بيت من بيوت القاهرة. وتابعت دقات قلبه الزغايرد حتى لُحِث، ثمّ سمع إسماعيل يقيّ فهتأ بدوره، ونمّق عند ذاك لو كان منفرداً، ثمّ تعزّى بأنّه سيفرند بنفسه أيّاماً وليالي فرود أله بزاد لا يفي. وانبعثت الأوركسترا تعزف مقطوعة يعرفها حتى المعرفة هي «المغويا سيد الملاح» فنادى قدرته المائلة على التحمّل والتصبّر وإن كانت كل قطرة من حمه تطرق جدران حروفه مؤقنة بأنّ كل شيء قد انتهى، إنّ التاريخ نفسه قد انتهى، إنّ الحقيقة جميعاً قد انتهت، إنّ الأحلام التي فوق الحياة قد انتهت، وإنّه يواجه الصخر للدهب الأطراف ولا شيء غيره. قال حسين متأثراً:

- كلمة ثمّ زغرودة ويدخل الواحد معاً في دنيا جديدة، سوف نعرف ذلك كلنا يوماً ما...

فقال إسماعيل لطيف:

- سوف أباعد ما استطعت بيني وبين ذلك

اليوم...

كلّنا؟! إنّما السياه وإنّما لا شيء!

- لن أذهن لذلك اليوم أبداً...

بدا عليها أنّها لم يكثرنا لقله أو أنّها لم يجملاه على

عمل الجدة، بيد أنّ إسماعيل عاد يقول:

- لن أتزوج حتى ألتنع بأنّ الزواج ضروري لا يحس عنها...

وبله نوبتاً حادلاً أكواب الشرابات، ثمّ تبعه آخر بصبيّة عملة بعلب الحلوى الفاخرة. علية من البلور على قوائم أربع ملقبة، عمه زجاجةا الكحلي بزخارف فضيّة، وقد انعد عليها شريط أخضر من الحرير سجل على لافتة حلالية في عقدته الحرفان الأولان لاسمي العروسين «ع. ح». شعر وهو يتناول العلبة بارتياح لعلّه كان أوّل شعور بالارتياح يمحى به في ذلك اليوم. فقد وعدته العلبة الفاخرة بأنّ محبوبته ستترك وراءها أثراً خالداً كحبّها، وأنّ هذا الأثر سيبقى ما بقي هو على الأرض رمزاً لماضي غريب وحلم سعيد وفتنة سلمية ونخبة رائعة. ثمّ لُحِث شعور بأنّه ضحية اعتداء منكر تأمر به عليه القدر وقانون الوراثة ونظام الطبقات وعابدة وحسن سليم وقوة خفية غامضة لم يشأ أن يستبها... وترأى له شخصه التمس وهو يقف وحده أمام هذه القوى مجتمعة وجرحه يتزف فلا يظفر بأسي، ولم يجد ما يردّه به على هذا الاعتداء إلاّ لورة مكتوبة حرمت من الإنصاح، بل أجيّرت الظروف على التظاهر بالسرور كأنما يقيّ القوى الباغية على تنكيلها به وببذله خارج حدود البشريّة السعيدة، فاضمر لها جميعاً حقناً خالداً ترك للمستقبل أمر تكيفه وتوجيهه، أجلّ شعر بأنّه لن يأخذ الحياة بعد تلك الزغرودة الفاصلة مأخذاً سهلاً أو يرضى فيها بالغريب أو يتسامح معها تسامح الكرم والصفاء، وأنّ طريقه سيكون شاقاً صعباً ملتوياً خاصاً بالمضض والغضاضة والألم، ولكنّه لم يفكر في التراجع. قبل الحرب وأهى الصلح، وأندّر وتوقّد، غير أنّه ترك للقدر اختيار الغريم الذي سينزله والوسيلة التي سيحارب بها. قال حسين شتّاد وهو يزدد ريقه المشرب بالشرابات:

- لا تملن القوة على الزواج، اعتقد - إذا أتيت لك أن تسافر كما تقول - أنّك ستجد زوجة تمجيك...

كأنك لم تمجد التي تمجيك هنا، ابحت عن وطن

وقالت له نفسه واشرب! لا رغبة في الشراب فلأنه لم يعرفه ولكن رغبة في الثورة، بيد أن إيمانه كان أقوى من حزنه وغرده، قال مبتسماً:

.. أما هله فلا، شكراً ..

قال إسحاق لطف وهو يرفع كأساً مرتعة:

.. لا حق لك في هذا، حتى الوديع يبيع نفسه السكر في حفلات الزفاف ..

مضى يتناول طعامه الشهوي في هدوء، وكان يراقب بين حين وآخر الأكلين والشارين أو يشترك معهم في الحديث والضحك. إن سعادة المرء تتناسب تناسباً طرئياً مع عدد مرآت شهوده لمقاصف الأفراح، ولكن هل مقصف الباشوات مثل مقصفنا؟! نلتهم طعامهم ونحقق معهم! شمانيا! .. هله فرصة لتلذذ الشمانيا .. شمانيا آل شداد ماذا قلم؟ ما للاستاذ كمال لا يقرب الخمر؟ لهله ملا بطنه فلم تعد تتسع لمزيد، الحق آلي أكل بشهوة لا تجارى، كأنما أعصاب معدني لا تتأثر بالحنز أو أنها تتأثر به تأثيراً عكسياً ..

هكذا تغذيت في مائتم فهمي، نعموا إسحاق! عن الأكل والشرب ولأ نفق. موت المغلوطي وسيد درويش وضباع السودان أحداث كملت زماننا بالسواد، لكن الائتلاف وهذا المقصف من أنباء زماننا السارة، أكلنا ثلاثة من الديكة الرومية وثمة رابع لم يمس بعد .. هو هذا! رياه إنه يشير إلى أنفي فيضجون جميعاً بالضحك! إنهم سكارى فلا تغضب! اضحك معهم مظاهراً بالاستهانة والمرح، أما قلبي فيتفتش غيباً، إن استطعت أن تنزرو العالم فاغزه، أما آثار هله الليلة البهجة فهيهات أن تنجو منها أبد الدهر، وهناك اسم فؤاد الحمزاوي تتناقله الألسن، عن تصوفه ونبوته يتحدثون فهل لذعتك الغيرة؟ سيكون حديثك عنه مدعاة لإكبارك ولو حل نحو ما:

.. كان طالباً عبداً منذ طفولته!

.. أنعرفه؟

أجاب حسين شداد عنه:

.. والده موكل في متجر والد كمال ..

في قلبي ارتياح لمن الله القلوب ..

جديد لا يتأذى جنسه اللطيف بمنظر الروموس الشاذة، والأنوف الكبيرة، إنا المساء وإنا الموت. قال وهو يبرأ رأسه كالمقنعة:

.. هذا رأيي ..

فقال إسحاق لطف ساخراً:

.. أنعرف ماذا يعني الزواج من أوروية؟ إنه كلمة واحدة والظفر بامرأة من أحط طبقات الشعب، امرأة ترضى بأن تكون تحت رجل تشعر في أعياها بأنه عبد من العبد.

حظيت بهذه العبودية في وطنك الكريم لا في أوربا التي لن تراها.

قال حسين مستكزراً:

.. مغالاة! ..

.. انظر إلى المدرسين الإنجليز كيف يعاملونا!

قال حسين شداد بحماس هو بالرجاء أشبه:

.. الأوروبيون في بلادهم غيرهم في بلادنا!

هل من سبيل إلى قوة قاهرة تبيد الظلم والظالمين؟!

يا رب العالمين أين عدالتك السبوية؟!

دعا الهادي إلى المواليد فمضى الأصقاء الثلاثة إلى السلاسل، ثم إلى حجرة جانبية تفرع عن البهو الخلفي، فوجدوا مقصفاً صغيراً يتسع لمشرة على الأقل، ولحق بهم شبان بعضهم من أقرباء آل شداد والبعض من أصدقاء المدرسة، ومع أن العدد دون الحد المقرر للمقصف وهو ما شكر عليه حسين من الأعيان، إلا أنهم سرعان ما اندفعوا إلى الطعام بقوة وعنف حتى ساد الجو نشاط السباق، وكان يبنني لهم أن يتحركوا دواشاً ليطوفوا بشق ألوان الطعام التي امتدت صفاها على طول المائدة تفصل بين كل مجموعة منها وأخرى طاقة صغيرة من الورد. ولوح حسين بإشارة من يده إلى السفريجي، فجاء بقوارير الويسكي وزجاجات الصودا، فهض إسحاق لطف:

.. أقسم آلي تفاملت خيراً بهذه الإشارة من قبل أن أعرف مغزاها.

ومال حسين على أذن كمال قائلاً برجاء:

.. كأساً واحدة من أجل خاطري ..

قال كمال:

- كان والده ولا يزال الرجل المجّد الأمين.

- وما تجارة والذك؟

كم أحبط «التاجر» في خيالي بهالة الإكبار، حتّى  
تقبل لك ابن تاجر وابن مستشار:

- تاجر جملة للبقالة...

الكلب أداة نجاة حقيرة، انظر إليهم كي تستشف  
ما يدور وراء أقمعة وجوههم ولكن أيّ رجل في هذا  
البيت يضارب أبك جلاً وقوّة؟!

وعقب الانصراف عن الموالد عادت الأكثرية إلى  
مجالسها في البهو، وانطلق كثيرون إلى الحديقة  
بتمشّون، فمرّ وقت هادئ خامل، ثمّ أخذ المدعوّون  
في الانصراف، أمّا الأهل فصعدوا إلى الدور الثاني  
ليقدّموا التهانّي إلى العروسين، وما لبث الأوركسترا أن  
انتقل إليهم ليعزف مختاراته الرائعة في المجلس  
السعيد. ارتدى كمال معطفه وحمل عبية الحلوى  
الفائضة ثمّ تأبّط ذراع إسمايل وغادر سراي آل  
شدّاد، قال إسمايل وهو يلقي حل صاحبه نظرة  
خمورة:

- الساعة الحادية عشرة، ما رأيك في أن نتمكّن في  
شارع السرايات حتّى ألتقي قليلاً؟ فوافق كمال عن  
طيب خاطر، لأنّه وجد في المشي وقتل الوقت فرصة  
مواتية يبتها، سارا ممّا في نفس الطريق الذي سار فيه  
من قبل إلى جانب حايطة، يحترف لها بحبه وريبتها  
الأمه. لن يغيب عن رأسه منظر هذا الطريق ذي  
القصور الجليلة الصامتة، والأشجار الباسقة على جانبيه  
تطالع المساء بهدوء النفس المطمئنة وروعة الخيال  
السامي، ولن يفتأ قلبك كلّما وطئت قدمك أو استدعاه  
خيالك يرعش باعثاً بخففت الحنين والوجد والالم  
كالشجرة المقلقلة بالرياح ترمي أوراقها وثأرها، ومهما  
يكن من فشل رحلتك القديمة حلّ أدعيه فلن يزال  
يذخر لك ذكرى حلم غابر وأمل ضائع وسعادة  
موهومة وحياة دافقة مترعة بالمشاعر هي على أسوأ  
التقديرات خير من راحة العدم ووحشة الهجر وخمود  
العاطفة، وهل أنت واجد في مستقبلك زاداً للقلب إلّا

أماكن تتطلّع إليها بعين الخيال وأساه تجمّد لها أذان  
الشوق؟! تسامد كمال:

- ترى ماذا يحدث الآن في الدور الأعلى؟

فاجاب إسمايل بصوت مرتفع أزعج الصمت  
الجائم:

- أوركسترا يعزف مقطوعات غربية، العروسان  
فوق المنصة ييسان وحولها آل شدّاد وآل سليم، رأيت  
مثل هذا الجمع مرّات عديدة...

حايطة في ثياب العرس! يا له من منظر! هل رأيت  
شيئاً كهذا ولو فيها يرى النائم؟!

- وإلامّ يمتدّ الحفل؟

- ساعة حلّ الأكثر كي يتمكّن العروسان من النوم  
ما داموا سيسافران في الصباح إلى الإسكندرية.

كلّيات كالتاجر، اغرز منها ما تشاء في قلبك...  
خير أنّ إسمايل عاد يقول متسائلاً:

- ولكن متى عرفت ليالي الزفاف النور؟!  
وضحك ضحكة عالية معربة، ثمّ تمجّساً ونفخ  
أبخرة الحمر وهو يفتكّب متأنّقاً ثمّ بسط صفيحة وجهه،  
وقال:

- ربّنا لا يحكم عليك بنوم العشاق، لا نوم لهم يا  
عيني، لا يفترنك تحفّظ حسن سليم، سيحصل ويجول  
كالفحول حتّى مطلع الصبح، هذا قضاء لا نجاة  
منه...

تلوّق هذا النوع الجديد من الألم المقطر، روح الألم  
أو ألم الألم، ليكن عزائك أنّك انقردت بألم لم يشمر به  
إنسان قبلك، وأنّه سيهون عليك الجحيم إذا قدّر  
عليك يوماً أن تحملك الزبانية وترقص بك فوق السنة  
لهيه، ألم! لا تفقد الحبيب فإنّك ما طمحت يوماً في  
امتلاكه، ولكن لتزوله من حياه سأكه، لتزمره في  
الوحل بعد حيلة عريضة فوق السحاب... لأنّه رضي  
لحقّه أن يفبّل، ودمه أن يسفح! وبجسده أن يتنل. ما  
أشدّ حسرتي وألمي!...

- أحقّ ما يقال عن ليلة الذخلة؟

هفّ إسمايل:

- أتجهل بالله هذه الأمور؟

- الجميع!؟ من هم!؟ من اقترى هذا علي؟  
- عابدة!  
- عابدة؟  
- عابدة هي التي اذاعت سرّك...  
- عابدة؟ لا أصدّق هذا، أنت سكران.  
- نعم أنا سكران ولكنّ هذه هي الحقيقة أيضًا، من فضائل السكران أنّه لا يكذب... (ثمّ بعد ضحكة رقيقة)... هل أغضبك هذا؟ عابدة كما تعلم شابة لطيفة، حللنا لغتت الأناظر سرًّا إلى عينيك المغرمتين وأنت لا تدري، لا بدافع السخرية ولكن لاقتها تبه دلالًا بالمفرمين، وقد كاشفت حسن أوّل الأمر فوجّه حسن نظري إليك مرّات، ثمّ أغضى بالسرّ إلى حسين، بل علمت أنّ سنيّة هاتم سمعت عن العاشق الوهّان كما كانوا يدعونك! وغير مستبعد أن يكون الخدم قد استرقوا السمع إلى ما دار حثك بين سادتهم، فالكلّ يعرف قصّة العاشق الوهّان...  
شعر بغور، وتخيّل إليه أنّ الأقدام المتحرّكة تمثّل كرامته بقسوة، فانطبلت شفته على حزن مريع، أهكذا يبحث السرّ الموصون. وعاد الآخر يقول:  
- لا تتأثّر، كان الأمر كلّه دعابة بريئة صدرت عن قلوب تكنّ لك الودّة، حتّى عابدة لم تلغ سرّك إلّا بدافع المباهاة!  
- توقّعت فانخدعت!...  
فقال إسحاق ضاحكًا:  
- إنكار حبّك عبث كإنكار الشمس في رابعة النهار!...  
صمت كمال صمتًا مليًّا بالشجن والاستسلام، وفجأة تسامد:  
- ماذا قال حسين؟  
ارتفع صوت إسحاق وهو يقول:  
- حسين!؟ إنّه صديقك الأمين، طالما أعلن من عدم ارتياعه لاسلوب أخته البريء، وكان يجيئها مؤثّمًا بمزايك!  
تنهّد في ارتياح. إذا كان في الحبّ قد خاب أمل، فقد بقيت له الصداقة، آه، كيف يسعه أن يدخل

كيف يقدّسون الدنس؟...  
- لا أجعلها طبعًا، كنت حتّى زمن قريب لا أدري عنها شيئًا، وثمّة أمور أودّ أن تعاد على مسمعي...  
قال إسحاق ضاحكًا:  
- إنك تبدو لي أحيانًا أعمق أو أبه...  
- دعني أسألك، أهيون عليك أن يُفعل هذا بشخص تقدّسه؟  
تجنّسًا مرّة ثانية حتّى تطايرت رائحة الخمر اللعينة إلى أنف كمال، وقال:  
- لا يوجد شخص يستحقّ أن يقدّس...  
- ابتكت مئلاً، لو كان لك ابنة...؟  
- لا ابنتي ولا أمّي، كيف جئتنا نحن؟ هذا هو قانون الطبيعة...  
نحن! الحقيقة نور للألاء، ففُضّ الطرف، وراء ستار القداسة الذي سجّلت أمامه طيلة حياتك يعبثان كالأطفال، ما لكلّ شيء يسو عاويًا! الأم... الأب... عابدة، كذلك ضريح الحسين... مهنة التجارة... أرستقراطية شذاد بك، يا لشدة الألم.  
- ما أقدر قانون الطبيعة!...  
تجنّسًا إسحاق للمرّة الثالثة، وقال وقد نمّ صوته عن الضحك وإن لم يُسمع له ضحك:  
- الحقيقة أنّ قلبك موجد، إنّه يخفي مع المطربة الجسدية أمّ كلثوم وأفنديه إن حفظ المسوى أو ضياع...  
كمال في انزعاج:  
- ماذا تعني؟  
فقال إسحاق بلهجة تمعّد أن تشي بسكره أكثر من الواقع:  
- أهنيّ أنّك تحبّ عابدة!  
رثاه! كيف اتضح سرّه؟...  
- أنت سكران!...  
- هي الحقيقة والجميع يعرفونها!  
هتف وهو يحمق صوته في الظلام:  
- ماذا تقول؟  
- أقول إنّها الحقيقة، والجميع يعرفونها.

سراي آل شدّاد بعد الليلة؟

وقال إسمايل بلهجة جدّية كأنما يشجع صاحبه على مواجهة الموقف:

- كانت عائدة في حكم المخطوبة لحسن من قبل إعلان الخطوبة بأعوام، ثم إنّها أكبر منك سنًا، وهذه العواطف تنسى عقب النوم، فلا تهتمّ ولا تحزن.

هذه العواطف تنسى! تسامح باهتمام غير خاف:

- أكانت تسخر منّي وهي تنوّه بهذا الغرام المزعوم؟

- كلّما قلت لك إنّها تسعد بالحديث عن عقاقها!

كانت معبودتك إلهاً قاسياً ساخرًا ينشر صمدوه للهزة بعابديه، أتذكر يوم مثلث برأسك وأنفك؟ ما أشبهها بقانون الطبيعة في قوّته وقسوته، كيف هرعت بعد ذلك متهلّكة إلى ليلة الدخلة كأيّ فتاة؟ أمّا أمك فشممتها الحياء كأنما تشر بذنبيها!

وكانا قد توغّلا في الطريق فاستدارا راجعين في صمت كأنما قد تعبنا من الحديث وشجعونه، وما لبث إسمايل أن اندفع يفتي بصوت رديء: «يا ما شاء الله ع التضحية»، ولكن الآخر لم يخرج عن صمته فضلاً عن أنّه لم يبد عليه أنّه انتبه إلى غثائه، ما أحجّله! أحسنه كان، وكأنّه بأهل البيت والأصدقاء والحلم وهم يتغامزون من وراء ظهره وهو عنهم غافل، معاملة نفقة لا يستحقّها، فهل يكون هذا جزاء الحبّ والعبادة؟ ما أنسى المعبودة وما أظنّ الألم! لعلّ نيرون عندما حقّ وروما تحترق كان يتنعم لحال كحاله هذه. كن قائداً غازياً يخطل على متن جواد، أو زعيماً يحمل على الأعناق، أو تمثالاً من صلب فوق سارية، أو ساحراً يتصوّر في أيّ صورة شاء، أو ملاكاً يطير فوق السحاب، أو راهباً منزوياً في صحراء، أو مجرمًا خطيراً يزلزل الآسنة، أو مهرجاً يأسر الضاحكين، أو متحرراً يبرّ الرايين. لو علم فؤاد الحمزاوي بقصته لقال له وهو يوارى سحرته تحت طلاء أدبه المعهود: الحقّ عليك، فانت الذي هجرتنا من أجل هؤلاء الناس، احتقرت قمر ونرجس قلّتي هجر الألهة. الساء أو لا شيء هذا هو جوابي. فلتنوّج كما تحبّ، وتذهب إلى بروكسل أو باريس، وليتقدّم بها العمر حقّ يدوي

حودها الرّيان، فلن تظفر بحبّ كحبي. لا تنس هذا الطريق فتوق أدبته سكوت يخلّب الآمال ثمّ تحزمت غصص اليأس، لم أعد من سكان هذا الكوكب، غريب أنا وينبغي أن أحيا حياة الغرباء.

عندما مرّا بسراي آل شدّاد في طريق العودة وجدنا العمّال عاكفين على نزع الزينات وأسلالك المصاييح الكهربائية من فوق الجدران والأشجار، فتجرّد البيت الكبير من حلية الزفاف واشتمل بالظلام، إلّا حجرات ظلّ النور ينبعث من شرفاتها ونوافلها. انتهى الحفل وتفرّق الجمع وأذن الحال بأنّ لكلّ شيء نهاية، وبها هو يعود حاملاً حلبة الحلوى كأنه طفل يلهى عن البكاء ببضع قطع من الشيكولاتة، وواصل السير على مهل حقّ بلغا مطلع الحسنيّة، فتصافحا، واقتربا...

لم يكد كمال يتقدّم في شارع الحسنيّة امتاراً حقّ توقّف، ثمّ انقلب عائداً إلى العباسيّة التي بدت مفرقة مفرقة في النوم، وحثّ خطاه صوب سراي آل شدّاد، وعندما شارف البيت مال بمنّة إلى الصحراء التي تكتنفه وأدخل فيها حقّ بلغ موضعاً فيها وراء السور الخلفيّ للحديقة يطلّ على السراي على بعد، وكان الظلام كثيفاً شاملاً يطمشّ الرهبان ستاره، ولأوّل مرّة في ليته شعر بالبرودة في ذلك الحلاء العاري، فحبك المعطف حول جسده النحيل الطويل... تراءى له شبح البيت وراء سور العالي كالثقلمة الضخمة، فجالت عيناه باحثة عن هدف خالٍ حقّ استقرنا على نافذة مغلقة يوصوص النور من خلال غصاصها في أقصى الجناح الأيمن من الدور الثاني، تلك غرفة العرس، الغرفة الوحيدة اليقظى في هذا الجانب من القصر، كانت بالأسس حجرة نوم عائدة وينور، وأزّنت الليلة لشهود أصعب ما جرت به المقادير. تطلّع إليها طويلاً، أوّل الأمر بلهفة كأنه طائر مقصوص الجناح يتطلع إلى عشّه فوق الشجرة، ثمّ بحزن عميق كأنما يرى بعينه مصرعه فيها وراء الغيب، ماذا يدور وراء هله النافذة؟... لو يتاح له أن يتسلّق هذه الشجرة في الحديقة ليرى! إنّ البقيّة الباقية من عمره ثمّن زهيد يؤكّبه عن طيب خاطر لقاء نظرة خلال هذه النافذة،



- جنتك بحتطور، وكان الأسلم أن نجيشك بقارب... .

وكانت الأمطار قد انهملت يومًا ونصف يوم حتى سالت الأرض وغرقت الحواري والأزقة، ومع أن السياه أمسكت - بعد ذلك - إلا أن نهمهما لم ينكشف، وظل وجهها متواربًا وراء سحب جون أطلت الأرض بمظلة قائمة بعثت في الجوّ عكارة كأنها نلير ليل يميم. واستقبل أحمد عبد الجواد صاحبه بترحاب ودعاه إلى الجلوس، وما كاد محمد عفت يطمئن إلى مجلسه عند ركن المكتب حتى قال كأنما ليجلسر جيت:

- لا تعجب لحيثي في هذا الجور رغم أننا سنلتقي في مجلسنا المعتاد بعد ساعات، ولكنني اشتقت إلى الافراد بك!

وضحك محمد عفت، كأنما ليعتذر عن غرابة قوله، فضحك السيد أيضًا، ولكنّها كانت ضحكة إلى التساؤل أقرب. وقعب جيل الحمزوي - وكان ملتصقًا بكوثية ضمت قمر رأسه وما تحت ذقنه - إلى الباب، فنادى صبيّ قهوة قلاوون ليحضر قهوة، ثم عاد إلى كرسيه وقد أصفاه المطر والبرد من العمل، أما السيد أحمد فقد حدثه قلبه بأن وراء الزيارة أمرًا، فقد وقعت في وقت لا تدفع إليه إلا ضرورة، إلى أن الأزمان النفسية التي عاناها الرجل منذ قريب وما انتابه من مرض أخيرًا، كل أولئك جعله عرضة للقلق حل غير عادته، غير أنه دأري لقلقه بضحكة لطيفة، ثم قال:

- كنت قبيل حضورك أذكّر سهرة الأمس وأستعيد منظر الفار وهو يرقص! الله يقطع.

فقال محمد عفت بأسًا:

- كلنا تلاميذك! وبهذه المناسبة دعني أنقل إليك م يشيعه عليّ عبد الرحمن عنك، أنه يقول إن الصداق الذي انتابك في الأسابيع الماضية ما هو إلا هارضر خلّو حياتك من النساء في الأيام الأخيرة!...

- خلّو حياتي من النساء! وهل للصداق من سبب خير النساء! وجاء صبيّ القهوة بأقداح القهوة والماء حل صبيّ صفراء، فوضعها على ركن المكتب الذي يجلس حوال

وهل قليل أن ترى المعبود في خلوة زلفاه؟ كيف يقيان وكيف تلتقي العينان؟ وبأيّ حديث يتناجان؟ وفي أيّ مكان من الدنيا ينزوي الآن كرمياء عابدة؟ أنه يتحرّق شغفًا إلى الرؤية وإلى تسجيل كل كلمة تنذ أو حركة تصدر أو أمانة تنطق بها أسارير الوجه، بل إلى عطررات النفس وتصوّرات الخيال ونفثات العاطفة وفورات الغرائز... كل شيء ولو كان بشعًا مرعبًا أو عزنًا مؤلمًا، ولتذهب الحياة بعد ذلك دون أسف، وليث مكانه والوقت يمضي لا هو يبرح ولا النور ينطفئ ولا خياله يملّ التساؤل. ماذا كان يفعل لو كان في مكان حسن سليم؟ ودوّخته الحيرة دون الجواب، إنّ العبادة لن تغني عن هذه الليلة شيئًا، وخلا العبادة من مطالب النفس لم يتوجّه إلى عابدة، أما حسن سليم فمن طائفة لا تتقيّد بالعبادة. هكذا يتعلّب في الصحراء وهناك تبادل قيل ممّا عهدته الناس وتبدّات تصبّب عرقًا وغبوبة تنزّ دما وغلالة تحسر عن جسد لاني، كهذا العالم الفاني وآماله الحاسوبة وإحلامه الطائشة... فإليك ما بدا لك على هوان الآلهة، وليمتل قلبك بالأماسة، ولكن أين يمضي الشعور الباهر الرائع الذي نور قلبه أربعة أعوام؟ لم يكن وهما ولا صدى لوهم، إنه حياة الحياة، ولكن تسيطر الظروف على الجسد فأيّ قوّة تستطيع أن تتناول إلى الروح، وهكذا لتبقين المعبودة محبوبته، والحبّ هدابه وملانه، والحيرة ملهاته، حتى يقف أمام الخالق يومًا يسأله حيّا حيّره من معضلات الأمور، آه لو يكلّم حل ما وراء الناطلة، لو يكشف سرّ أسرار وجوده؟... وكان البرد يقرصه أحيانًا فيذكره بموقفه والوقت الذي يمرّ سادرا، ولكن لهم يتجمل العودة؟... أيطمع حقًا أن يطرّق النوم جفونه هذه الليلة؟

وقف الحتطور أمام دكان أحمد عبد الجواد، وقد لطنج عجلاته الوحل المتراكم في شارع النحاسين والمياه المتجمّعة في فجواته، فغادره السيد محمد عفت في جبة صوفية، ودخل الدكان وهو يقول بأسًا:

جعلت يسراه تعبث بشاويه بسرعة عصيئة، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه:

- لهذا الحدّ كيف أصنّق هذا! كيف أخفي عني الأمر؟!  
- الحال تقتضي الكتمان! اصبح ليّ، لقد أثرت أن

أكاشفك بالحقيقة قبل أن تفاجأ بها مفاجأة غير كريهة، ولكن لا يصحّ أن نعيّرها أكثر ممّا تستحقّ، وينبغي قبل كلّ شيء ألا تستسلم للغضب، لم يعد الغضب ممّا يحتمله، اذكر تعبك الأخير وارحم نفسك.

قال السيّد يائساً:

- في الأمر فضيحة؟! هذا ما حدّثني به قلبي، هات ما عندك يا سيّد عمّد...  
هزّ عمّد عفت رأسه أسفاً، لمّ قال بصوت منخفض:

- كن دائماً أحد عبد الجواد الذي عهدناه، لقد تزوّج من زُتوية العوادة!  
- زُتوية!...  
وتبادلا نظرة ذات دلالة، وسرعان ما بدا الارتباك

في وجه أحد والإشفاق في وجه صاحبه، ثمّ لم تعد مسألة الزواج ذاتها بالأولى في الأهمية، فتساءل السيّد أحد بلهجة لاهثة:

- ترى هل تعلم زُتوية بأنّه أبي؟!  
- لا يداعلني في هذا شكّ، غير أنّي أكاد أوقن بأنّها لم تطلعه على سرّك لتتمكن من إيقاعه في الشرك، وقد نجحت نجاحاً تستحقّ عليه كلّ تهينة!  
ولكنّ أحد عبد الجواد عاد يتساءل بنفس اللهجة اللاهثة:

- أم تراه أخفى عني الأمر لعلّمه بما كان؟  
- كلا، لا أصنّق هذا، لو سبق هذا إلى علمه ما أقدم على الزواج منها، إنّه شابّ طائش ما في ذلك من ريب، ولكنّه ليس ندلاً، وإذا كان قد أخفى عنك الأمر، فما ذلك إلّا لأنّه لم يجد الشجاعة ليصارحك بأنّه تزوّج من عوادة! يا ويل الآباء من الأبناء الطائشين، الحقّ أنّي تألّمت كثيراً، ولكنّي أكرّر الرجاء بالألا تستسلم للغضب، ذنبه على جنبه، وأنت بريء من فعلته ولا لوم عليك.

الصديقان، ومضى، وشرب عمّد عفت شربة ماء، ثمّ قال:

- شرب الماء البارد في الشتاء اللبذ، ما رأيك في هذا؟ لكنّ فيم سؤالي وأنت من عشاق الشتاء الذين يستحمّون كلّ صباح بالماء البارد حتّى في هذه الأيام من فبراير... الآن خبّرني، هل أعجبتك أنباء المؤتمّر الوطني الذي احتشد في بيت عمّد محمود؟ عشنا وشغنا مرّة أخرى سعد وعدني وثروت في جبهة واحدة!  
فتمتم السيّد قائلاً:

- ربّنا من حكمته أنّه يقبل التوبة...  
- إنّي لا أثنى في هؤلاء الكلاب...  
- ولا أنا، ولكن ما العمل؟ الملك فؤاد طيّها، ومن

المحزن أنّ الحركة لم تعد بيننا وبين الإنجليز.  
ثمّ مضى يحسّيان القهوة في صمت إن دلّ على شيء فعل أنّ الحديث العابر لم يعد له محلّ، وأنّ على عمّد عفت أن يدي بما عنده. واعتدل الرجل في جلسته، وخطب السيّد بلهجة جدّية متأنلاً:

- أعنك أخبار عن ياسين؟  
انعكس السؤال في حني السيّد الواسعتين احتمالاً مشوّباً بقلق، وفي الوقت ذاته خفق قلبه خفقة مروّعة، قال:

- غير! إنّه يزورني من حين لآخر، وكانت زيارته الأخيرة يوم الاثنين الماضي فهل من جديد؟ أمر يتعلّق بريم؟ لقد رحلت إلى جهة مجهولة، وعلمت أخيراً أنّ يوميو الشربتل اشترى نصيبها في بيت أمّها.  
قال عمّد عفت وهو يتكلّف ابتسامة:

- الأمر لا يتعلّق بريم، من يدري لعلّها غابت عن ذاكرته، المسألة دون لفّ أو دوران زواج جديد.  
فخفق قلبه مرّة أخرى فيما يشبه الفرع وهو يقول:  
- زواج جديد؟! ولكنّه لم يشر إلى ذلك بشأناً في أحاديثه معي!

هزّ عمّد عفت رأسه أسفاً، وقال:  
- لقد تزوّج بالفعل من شهر أو أكثر، حدّثني بلذلك غنيم حيدو منذ ساعة فقط، وكان يظنّ أنّك تعلم كلّ شيء!

حلق أحمد في وجهه، ثم قطب متغلاً، وهف حائناً:

- كأي غير موجود في هله الدنيا!... حق في هذا لا يشاورني!...

ثم وهو يضرب كفاً بكف:

- ضحكوا عليه بلا ريب، وجدوا في طريقهم لقية، بغلاً بلا سائس في ثياب أفندي... فقال محمد عفت متأثراً:

- تصرفات أطفال!... نبي أباه ونسي ابنه! ولكن ما الفائدة من الغضب؟! صاح أحمد عبد الجواد:

- يجئني إليّ أنه ينبغي أن أخله بالخزم مهما تكن العواقب...

مدّ محمد عفت ذراعيه كأنها يذبح رزية، وقال بتوسل:

- إن كسر ابنك أجسو، لا تحطرن وأنت سيد العارفين، ليس عليك إلا النصيحة وليتضر الله بما هو قاض...

وخفض محمد عفت عينيه متفكراً، وبدأ لحظات كالتردد، ثم قال:

- ثمة أمر يمتحي كما يمتك ألا وهو رضوان! وتبادل الرجلان نظرة طويلة، ثم استطرد محمد عفت قائلاً:

- سيلغ الغلام السابعة من عمره بعد أشهر، وأخاف أن يطالب به لينشأ بين أحضان زُوية، هذا شرّ يجب دفعه، ولا إخالك توافق عليه، فأثمنه بأن يترك الغلام عندنا حتى يقضي الله أمراً...

لم يكن من طبع أحمد عبد الجواد أن يرحب بأن يبقى ابن ابنه عند آل أمه بعد انقضاء فترة الحضانة الشرعية، ولكنه من ناحية أخرى لم يشأ أن يقتصر ضمه إلى بيته هو حتى لا يضيف إلى أعباء أمينة شيئاً جديداً لم تعد بحكم سنّها أهلاً لحمله، فقال في استسلام أسيف:

- لا يصح أن يترق رضوان في بيت زُوية هذا ما أفرك عليه...

تهد أحمد عبد الجواد بصوت مسمر، ثم سأل صاحبه:

- تخبرني كيف علّق غنيم حيدو على الخبر؟

فلوح محمد عفت بيده مستهيناً، وقال:

- سألني: كيف يرضى السيد أحمد عن هذا؟ فقلت له: إن الرجل لا يعلم شيئاً. فتأسف وقال لي: انظر إلى المدى البعيد بين الأب وابنه! كان الله في عونه. قال أحمد بلهجة رائية:

- أهله عاقبة تربيتي لهم؟ إني في حيرة شديدة يا سيد محمد، المصيبة أننا نفتقد السيطرة الفعلية عليهم في الوقت الذي تستوجب مصلحتهم الحظيعة سيطرتنا، إنهم بحكم العمر يتحملون مسؤولية أنفسهم، ولكنهم يسيئون استعمالها دون أن نستطيع تقويم ما يعوجّ منهم، نحن رجال ولكننا لم نلد رجالاً، من أين جاء العيب يا ترى؟ هذا الثور! امرأة في متناول كل يد فإذا دعاه إلى الزواج منها؟! فلنبيك على أنفسنا، لا حول ولا قوة إلا بالله.

وضع محمد عفت يده على منكب صاحبه بحنو، وقال:

- لقد آقينا ما علينا من واجب، الأمر بعد ذلك لصاحب الأمر، وهيهات أن يراك أحد مستحقاً للوم. عند ذاك جاء صوت الحمزاوي الأسيف وهو يقول:

- لا يستطيع منصف أن يلومك على أمر كهذا يا سي السيد، على أنه يجئني إليّ أن الأمل في الإصلاح لم ينعدم، انصحه يا سي السيد...

- إنه يبدو بين يديك طفلاً مطيعاً، وهو سيطلقها حتى غداً أو بعد غد فخير البرّ عاجله...

فتساءل السيد متشككاً:

- وإن كانت قد حبلت؟

فجاء صوت الحمزاوي وهو يقول جزعاً:

- لا قدر الله ولا سمح...

وبدا أنّ عند محمد عفت مزيداً من القول، فنظر إلى صاحبه بإشفاق، ثم قال:

- ومن المؤسف حقاً أنه باع دكانه بالحمزاوي ليؤثّر بيته من جديد!

عبد أو يدعوهُ إلى بيته حيث عرف الشاب مريم أولاً ثم زُتية أخيراً. أما أبوه فكان يزوره في دكانه مرة على الأقل كل أسبوع، وهنا أتبع ياسين أن يعرف شخصية أبيه الثانية التي يأسر الناس بها، فنشأت بين الرجلين صداقة وطيدة ومودة وثيقة، غلَّتْها صلة الرحم من ناحية وفرحة اكتشاف الأب على حقيقته من ناحية أخرى. غير أنَّ ياسين وهو يتخَرَّس في وجه أبيه ذلك اليوم لح فيه ما ذكَّره بالوجه القديم الذي ظلَّما بعث في أطرافه الرعب، ولم يتسَّهل عَمَّا طرأ عليه، لأنَّه كان واثقاً من أنَّه سيفقد حلَّ سرِّه عاجلاً أو آجلاً، فلم يشكَّ في أنَّه مُلاحٍ العاصفة التي تتوَقَّع هبوبها منذ أقدم حلِّ فعلته. بادره الرجل قائلاً:

- يحزنني أن أجد نفسي بهذا الهوان، وماذا وراه أن أحرف أنباه ابني من الآخرين؟

قطمان ياسين رأسه ولم ينس، فثار الرجل حلَّ طلاب المسكنة الكاذب الذي يطالعه به، وصاح:

- اطلع هُذا القناع، دعك من النفاق وأسمعي صوتك، طبعاً أنت تعلم ما أمته!

فقال ياسين بصوت لم يكده يسمع:

- لم أجد الشجاعة لإخبارك...

- هُذا شأن من يتسرَّ على ذنب أو فضيحة!

حدَّوته غريزته من أن يلجأ إلى أيِّ نوع من أنواع المعارضة، فقال باستسلام:

- نعم...

فسأله السيد ذاهلاً:

- إذا كان هُذا هو رأيك حقاً، فلمَ فعلته؟! لاذ ياسين بالصمت مرة أخرى، فخيَّل إلى الأب

أنَّه يقول له بصمته وعرفت أنَّها فضيحة ولكنَّه أذهنت للحب!»، وذكَّره هُذا بموقفه المخزي أمام المرأة ذاهبا، يا للعار! غسلت خزيك بغضبة كبرى، ولكنك عدت تسعى إليها! أمَّا هُذا الثور فما أغنيه!

- فضيحة ارتضيته أنت دون تقدير للمواقب لتتعلَّب بها نحن جميعاً!

هتف بسداجة قائلاً:

- أنتم جميعاً؟ معاذ الله...

فقال محمَّد عَفَت وهو يتتهد بارتياج:

- إنَّ جدَّتْه تحبُّ من كلِّ قلبها، وحقِّ لو دعت ظروف قهرية في المستقبل إلى أن ينتقل إلى بيت أمِّه فسوف يجد هناك جواً صالحاً، إذ أنَّ زوج أمِّه رجل في الأربعين أو جاوزها، وقد حرَّمه الله من نعمة اللزَّية...

فقال أحمد عبد الجواد برجاء:

- لكنِّي أفضل أن يبقى عندك...

- طبعاً... طبعاً، إنِّي تكلمت عن احتمالات بعيدة أسأل الله ألاَّ تضطرَّ إليها، الآن لم يبق لي إلَّا أن أرجوك أن تترقَّق في مخاطبته ومحاسنته حتَّى يتيسَّر إقناعه بترك رضوان لي...

وهنا جاء صوت الحمزاوي المسالم وهو يقول:

- السيد أحمد سيِّد الحكماء، وهل ينبغي عنه أنَّ ياسين رجل؟ وأنَّه مثل كافَّة الرجال حرَّ التصرف في شؤونه وأملاكه؟ هُذا ما لا يمكن أن يضب من السيد، وما عليه إلَّا النصيحة، والباقي حلَّ الله...

استسلم أحمد عبد الجواد بقيَّة النهار إلى التفكير والحزن. قال لنفسه: إنَّ ياسين في كلمة ابن غيِّب للأمال، وليس أضعف من ابن غيِّب للأمال، إنَّ ماله بيتٌ ويا للأسف! ولن يحتاج إلى قوَّة بصيرة كي يتصوَّره، أجل سوف يتحدَّر من سيِّئ إلى أسوأ وعند الله اللطف. وقد رجاء جميل الحمزاوي أن يؤجِّل مخاطبة ياسين إلى الغد، فانتصاع لرجائه يالسا أكثر منه قادراً لوجهة النصيح.

وعند عصر اليوم التالي استدعاه إلى مقابلته، فلقى ياسين مبادراً كما ينبغي للابن المطيع. وحقَّق أنَّ ياسين لم يقطع ما بينه وبين أهله من أسباب. كان البيت القديم المكان الوحيد الذي لم يجد الشجاعة للمودة إليه على شلَّة حنينه إليه، وما من مرة كان يلتقي فيها بأبيه أو خديجة أو عائشة إلَّا ويحملهم السلام إلى امرأة أبيه. أجل لم ينس قلبه غضبها عليه ولم نزع من صفحته آثار ما سمَّاه تغلُّتها معه، بيد أنَّه أيُّ أن ينسى كذلك العهد القديم، عهد لم يكن يعرف أمَّا إلَّاهما. ولم يقطع عن زيارة أخته، كما كان يقابل كمال أحياناً في قهوة أحمد

- طَلَّقَهَا؟ طَلَّقَهَا قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ أُمًّا وَتَفْضَحِنَا إِلَى أَبَدِ  
الْأَبَدِينَ!...

تَرْتَدُّ يَاسِينَ مَلِيًّا، ثُمَّ تَمُتُ:

- حَرَامٌ عَلَيَّ أَنْ أَطْلُقَهَا بِلا ذَنْبٍ!

يَا بَيْنَ الْكَلْبِ!... أَتُخْفِنِي بِنَكْتَةٍ بَارِعَةٍ لِسَهْرَةِ  
الْهَيْلَةِ!...

- سَوْفَ تَطْلُقُهَا عَاجِلًا أَوْ أَجَلًا، وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ  
تَتَجَبَّ لَكَ طِفْلًا يَكُونُ مَشْكَلَتُكَ وَمَشْكَلَتُنَا...

تَهْتَدُ بِصَوْتِ مَسْمُوعٍ مُسْتَعْتَبٍ بِذَلِكَ عَنْ الْكَلَامِ،  
حِينَ رَاحَ الْآبُ يَضْمُغُهُ فِيهَا يَسْبَحُ الْحَيَاةِ، فَهِيَ  
مَاتَتْ، كَمَا أَلْبَسَ أَوْ عَجُونًا، وَغَدَا يَاسِينَ لَا أَمَلَ فِيهِ.  
لِلْحُزَنِ أَنَّهُ أَهْرَ الْجَمِيعِ لَدَيْ. دَعِ الْأَمْرَ، رُبَّاهُ! مَاذَا  
يَكُونُ الْحَالُ لَوْ زِلْتُ قَدَمِي إِلَى الزَّوْجِ...

- بِكَمْ يَهْتَ الدُّغَانُ؟

- مَا لَيْتِي جَنِيهِ...

- تَسْتَحِقُّ ثَلَاثِيَّةً، مَوْقِعَهَا عَتَا زَجْدًا يَا جَاهِلُ، لِمَنْ  
بَعَثَهَا؟

- عَلَيَّ طُولُونَ، بِأَنْعِ الْخُرُودَاتِ.

- مَبَارَكُ مَبَارَكِ، هَلْ ضَاعَ الْمُبْلَغُ فِي الْجِهَازِ الْجَدِيدِ؟

- لَدَيْ مِنْهُ مَالَةٌ...

بِلَهْجَةٍ سَاحِرَةٍ:

- أَحْسَنْتِ، فَالْعَرِيسُ لَا يَسْتَفْنِي عَنْ النُّقُودِ...

ثُمَّ بِلَهْجَةٍ جَلَّةٍ حَزِينَةٍ:

- يَا يَاسِينَ أَسْمَحْ كَلَامِي، أَنَا أَبُوكَ، احْتَرِسْ وَفِطْرْ

سِرَّتِكَ، أَنْتَ نَفْسُكَ أَبُ، أَلَا تَتَفَكَّرُ فِي ابْنِكَ وَمُسْتَقْبَلِهِ؟!

فَقَالَ مَدَانًا مُتَحَمِّسًا:

- إِنَّ نَفَقَتَهُ الشَّهْرِيَّةَ تَصِلُهُ عَلَى آخِرِ مَلِيمٍ!

- أَهِيَ سَمَّالَةٌ تَجَارِيَّةٌ؟ إِنِّي أَتَكَلَّمُ عَنْ مُسْتَقْبَلِهِ، بَلْ

عَنْ مُسْتَقْبَلِ الْآخَرِينَ الَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ!

فَقَالَ يَاسِينَ بِأَطْمَئِنَّ:

- رُبَّنَا يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ...

هَتَفَ الرَّجُلُ بِأَسْتِيَاءِ:

- رُبَّنَا يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَحَضْرَتُكَ تَبْدَأُ قُلُوبَ لِي...

وَاحْتَدَلَ فِي جِلْسَتِهِ، ثُمَّ تَسَاهَلُ وَهُوَ يَرْتَجِرُ فِيهِ حِينِهِ

الْقَوَائِينَ:

عَاوَدَ السَّيِّدُ الْغَضَبُ، فَصَاحَ بِهِ:

- لَا تَنْتَصِبْ الْجَهْلُ، لَا تَلْعَجِ الْبَرَاءَةَ، أَنْتَ تَعْلَمُ  
أَنَّكَ فِي سَبِيلِ شَهَوَاتِكَ لَا تَبَالِي مَا يَصِيبُ سَمْعَ أَبِيكَ  
وَإِخْوَتِكَ، أَتَحْسَبُ عَلَى الْأَسْرَةِ عَوَادَةً لِتَكُونَ هِيَ وَمَنْ  
بَعْدَهَا ذَرْبًا مَنَاءً، لَا إِخْلَاقَ كُنْتَ تَجْهَلُ هَذَا قَبْلَ أَنْ  
أَذْكُرَهُ، وَلَكِنَّكَ تَسْتَهِينُ بِكُلِّ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ شَهَوَاتِكَ،  
هَانَتْ كِرَامَةُ الْأَسْرَةِ عَلَى يَدَيْكَ، وَأَنْتَ نَفْسُكَ تَنَاهَى  
حَجَرًا بِعَدِّ حَجَرٍ، وَسَوْفَ تَجِدُ نَفْسَكَ فِي النِّهَايَةِ  
خَرَابًا...

غَضِبَ الْبَصِيرُ لَأَكْثَرًا بِالصَّمْتِ حَتَّى نَطَقَتْ حَالَهُ  
بِالذَّنْبِ وَالتَّسْلِيمِ، لَنْ تَكْلُفَكَ هَذِهِ الْفَضِيحَةُ إِلَّا قَدْرًا  
مِنَ التَّمَثِيلِ كَمَا أَرَى، حَسْبُكَ هَذَا، أَنَا أَنَا فَسَارِزُ  
غَدَا بِحَفِيدِ أُمِّهِ زَلُوعَةٍ وَغَالَتِهِ زَيْبَةٍ، مَصَاهِرَةُ طَرِيفَةٍ  
بَيْنَ السَّيِّدِ أَحْمَدِ التَّاجِرِ الْمَعْرُوفِ وَزَيْبَةِ الْعَالَةِ الدَّائِمَةِ  
الصَّمْتِ، لَمَلْنَا نَكْفُرُ عَنْ ذُنُوبٍ لَا نَدْرِي!

- إِنَّ يَدَيَّ يَقْشَعُرُ كُلَّمَا فَكَّرْتُ فِي مُسْتَقْبَلِكَ، قُلْتُ  
لَكَ إِنَّكَ تَنَاهَى وَسَوْفَ تَنَاهَى أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ، خَبَّرَنِي مَاذَا  
فَعَلْتَ بِدُغَانِ الْحِمَاوِيِّ؟

رَفَعَ إِلَيْهِ عَيْنَيْنِ كَتِيئَتَيْنِ، وَتَرْتَدُّ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ:

- كُنْتُ فِي حُلَّةٍ مَاسَةٍ إِلَى الْمَالِ...

ثُمَّ وَهُوَ يَخْفَضُ عَيْنَيْهِ:

- لَوْ كَانَتْ الظُّرُوفُ غَيْرَ الظُّرُوفِ لَاقْتَرَضْتُ مَا  
أَحْتَاجُهُ مِنْ حَضْرَتِكَ وَلَكِنَّ الْأَمْرَ كَانَ عَرَجًا...

السَّيِّدُ حَانَقًا:

- يَا لَكَ مِنْ مَرَاءٍ! أَلَا تَحْجُلُ مِنْ نَفْسِكَ؟ أَرَاهُنِ  
عَلَى أَنَّكَ لَمْ تَجِدْ فِي كُلِّ مَا فَعَلْتَهُ أَيْ خَرَابَةً أَوْ إِذْكَارًا، أَنَا  
عَارِفُكَ وَفَافْهَمُكَ فَلَا تَحَاوُلْ أَنْ تُخَدِّعَنِي، لَيْسَ عِنْدِي إِلَّا  
كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ وَإِنْ كُنْتَ أَعْلَمُ مَقْدَمًا أَلَّا طَالُلَ لِحْتَهَا:  
أَنْتَ تُخَرِّبُ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ وَنَهَائِكَ سَوْدَاءَ...

عَادَ يَاسِينَ إِلَى صَمْتِهِ مُتَظَاهِرًا بِالْأَمْسِ. الثُّورَا هِيَ  
جَدَابَةٌ شَيْطَانَةٌ وَلَكِنْ مَاذَا اضْطَرَّكَ بِالزَّوْجِ مِنْهَا؟ كُنْتُ  
أَبْطَرُ أَنَّهَا طَالِبَتُنِي بِالزَّوْجِ طَعْمًا فِي تَقَدُّمِ عَمْرِي، لَكُنَّهَا  
أَوْقَعَتْ هَذَا الثُّورَ عَلَى شِبَاهِهِ. وَوَجِدَ عِنْدَ ذَلِكَ شَيْئًا مِنْ  
الْإِرْتِيَاعِ وَالْعِزَاءِ. كَانَتْ خَطَّتُهَا لِلدَّبْرَةِ أَنْ تَزَوِّجَ بِلَيْتٍ  
لَمَنْ إِلَّا أَنَّهَا أَثَرَتْ غَيْرِي عَلَيَّ، فَوَقَعَ هَذَا الْأَحَقُّ:

- مع السلامة. -

- ٣٣ -

قبل الخروج إلى صلاة الجمعة بساعة، دعا أحد عبيد الجواد كمال إلى حجرتة، لم يكن يدعو أحداً من أهل بيته إلى مقابلته إلا لأمر هام، والحق أنه كان مبلبل الفكر، متحفظاً لاستجواب ابنه صَاحِباً يشغله. وكان بعض أصحابه قد وجهوا نظره مساء أمس إلى مقال ظهر في البلاغ الأسبوعي بقلم الأديب الناشئ وكمال أحد عبيد الجواد، ومع أن أحداً منهم لم يقرأ من المقال إلا العنوان وهو «أصل الإنسان» والإمضاء وهو الأديب الناشئ «كمال أحد عبيد الجواد» فطعنوا فحللوا منه مادة للتعليل والتنهتة وممازحة السيد، حتى فُكر الرجل جائداً في أن يكلف الشيخ متولّي عبد الصمد بعمل حجاب للشاب. قال له محمد عفت «سجل اسم ابنك مع أسماء كبار الكتاب في مجلة واحدة، طب نفساً وادعُ الله أن يكتب له مستقبلاً باهراً كما كتب لهم»، وقال له عليّ عبد الرحيم «سمعت من شخص محترم أن المرحوم المنفلوطي ابتاع هزبة بقلمه فأبهر خيراً»، وحذّره آخرون عن القلم وكيف شقّ السبيل لكثيرين إلى حظوة الحكام والزعماء، ضارين الأمثال بشوقي وحافظ والمنفلوطي، وعندما جاء دور إبراهيم الفار داعبه قائلاً «سبحان الذي خلق من ظهر الجاهل عالمياً»، أما السيد فقد ألقي نظرة على العنوان ونظرة على «الأديب الناشئ»، ثم وضع المجلة فوق جبهته التي كان قد نزعهها بسبب حرارة يوفيه وحماً الويسكي مؤجلاً قراءتها حتى ينفرد بنفسه في البيت أو في الدكان، ثم واصل سيرته بصدر منشرح وضمير نياه فخور، بل جعل يراجع نفسه لأول مرة في سخطه المكثوم على إشار الشاب لمدرسة المعلمين قائلاً إن «الولد» فيما يبدو سيكون «شيكاً» رغم اختياره غير الموفق، وفي أسلاماً على ما قيل من «القلم» وحظوة الكبراء وهزبة المنفلوطي، أجل، من يدري؟ لعله لا يكون معلماً فحسب ولكن يشقّ

- رضوان هل عتبة السابعة، فلماذا أنت صانع به؟  
أناخذ لينشا في أحضان حرمكم؟  
لاح في الوجه الممتلئ الارتباك، ثم تساءل بنوره:  
- ماذا أفعل إذن؟ لم أحمل في الأمر فكري...  
هز الرجل رأسه في أسمى سائح، وقال:  
- دفع الله عنك شرّ الفكر! وهل لديك وقت لتبذره فيه؟! دعني أفكر عنك، دعني أقول إن رضوان يجب أن يبقى في حضنة جده...  
فكر قليلاً، ثم خفض رأسه بالإيجاب قائلاً بانصباح:  
- الرأي رأيك يا أبي، هذا في صاحبه ولا شك...  
قال الأب متهمكاً:  
- يبدو لي أنه في صالحك أيها كمال تشغل نفسك بأمور تافهة!  
ابتسم دون تعليق، كأنما يقول له «إني واثق من أنك فزح ولا بأس من ذلك».  
- ظننت أنه سيشتغل على إقناعك بالتخلي عنه!  
- إن بقي في رأيك هي التي جعلتني أبادر إلى الموافقة!  
تساءل السيد بدهشة سائحة:  
- أثنى حقاً في رأيي؟ لم تعمل به في الأمور الأخرى؟  
ثم وهو يتهدأ أسفاً:  
- القصد! ربنا يديك، وذنيك على جنبك، سأحدث محمد عفت الليلة في شأن الاحتفاظ برضوان، على أن تقوم بكل نفقاته فعسى أن يوافق...  
هند ذلك نفس ياسين وسلم على أبيه وألحجه نحو باب الدكان، وما إن خطا خطوتين حتى أدركه صوت أبيه وهو يسأله:  
- ألا تحب ابنك ككل الآباء؟  
فتوقّف ياسين متلفتاً نحوه، وهو يقول بإنكار:  
- وهل يحتاج هذا إلى قرار يا أبي! إنه أمر شيء في الحياة...  
فرغ السيد حاجبيه، وقال وهو يبرّز رأسه هزّة غامضة:

عاطفية، وهو آمن كل الأمن من ناحية اطلاع أبيه عليها، فلم يدبر بها أحد من أسرته إلا ياسين الذي كان هو نفسه يقرأها عليه فيصمت الآخر، ثم يقول له معلماً: «هذا ثمرة توجيهم الأول لك، أنا الذي علمتك الشعر والقصص، جميل يا أستاذ، ولكن هذه فلسفة عميقة جداً فمن أين جئت بها؟» أو يقول مداعباً: «ومن الحسنة التي ألهمتكم هذه الشكوى الرقيقة؟ ستعلم يا أستاذ يوماً أتتبن لا يجدي معهن إلا ضرب المراكيب»، ولكن ها هو يطلع على أخطر ما كتب، تلك المقالة التي شب التفكير فيها معركة جهنمية في صدره وعقله كاد يمترق في أتونها، فكيف حدث هذا؟ وهل يجد له من تفسير إلا عند أصدقائه أبيه الوفديين الذين يحرصون على اقتناء كافة الجرائد والمجلات الوفدية؟ وهل يطمع في أن يخرج سالماً من هذا المأزق؟ رفع حينه عن المجلة، ثم قال بلهجة لم يمكحها من الإنصاح عن اضطرابه:

- بل، خطر لي أن أكتب موضوعاً تشيئاً لمعلوماتي وتشجيعاً لنفسي على مواصلة الدروس...

قال السيد أحمد يهينه المصطنع:

- لا عيب في ذلك، الكتابة في الصحف كانت ولم تزال الوسيلة إلى الجاه والخطوة عند الكبراء، ولكن المهم للموضوع الذي يكتب فيه الكاتب، ماذا أردت بهذه المقالة؟ أقرأها وأشرحها لي، فقد غمضت عيني مرماك...

يا للتعاسة! ليس هذا المقال للجهر، وبخاصة على مسمع من أبيه!

- إنه مقال طويل يا بابا، ألم تقرأه حضرتك؟ إنني أشرح فيه نظرية علمية...

حذجه الرجل بنظرة بَرَاقَة متحفزة، أخذ ما يدعونه بالعلم الآن؟ ألا لعنة الله على العلم والعلماء...

- ماذا تقول في هذه النظرية؟ لقد لفتت نظري عبارات غريبة تقول إن الإنسان سلالة حيوانية، أو شيئاً من هذا القبيل، أحق هذا؟

بالأسى ناضل نفسه وعقليته وروبه نضالاً عنيفاً أحياناً روحه وجسده، واليوم عليه أن يناضل أباه، غير أنه

السيبل حقاً إلى حياة لم تخطر له هو على بال. وعند ضحى اليوم، وعند فراغه من الصلاة والإفطار، ترعع على الكنية وفتح المجلة باهتمام وراح يقرأ بصوت مرتفع ليمتلئ بجمانيتها، لكن ماذا وجد فيها؟ إنه يقرأ المقالات السياسية فيفهمها دون عناء، أما هذه المقالة فلأنها داوت برأسه وأفزعت قلبه، وأعاد تلاوتها بعناية فطالما عن عالم يدهي «دارون» ويجوده في جزر نائية، ومقارنات ثقيلة بين شقى الحيوانات حتى وقف مبهوئاً عند تقرير غريب يزعم أن الإنسان سلالة حيوانية! بل أنه متطور عن نوع من القردة! وكثر تلاوة الفقرة الخطيرة منزحجاً، ثم لبث ذاهلاً أمام هذه الحقيقة الأسيفة وهي أن ابناً من صلبه يقرر - دون اعتراض أو مناقشة - أن الإنسان سلالة حيوانية! انزعج الرجل انزعاجاً شديداً وتسامل في حيرة: هل حقاً يعلمون الأولاد هذه المعلومات الخطيرة في مدارس الحكومة؟ ثم أرسل في طلب كمال.

وجاء كمال وهو أبعد ما يكون عما ينتلج في رأس أبيه، وكان قد استدعاه قبل ذلك بأيام ليهتته على التعل إلى السنة الثالثة فظن بالدهوة الجليدية خيراً. وبدا صاحب الوجه ضامر الجسم كعمه في الفترة الأخيرة في حال علكتها الأسرة بالجهد الشديد الذي بذله قبيل الامتحان، ولكن غاب عنها سرها الحقيقي وهو ما عاتاه طيلة الأشهر الخمسة الماضية من ألم وعذاب أسيراً لعاطفة مستبينة جهنمية كادت تودي به، وأشار السيد إليه بالجلوس، فجلس على طرف الكنية متجهاً نحو أبيه بأدب، وعند ذاك لمح أمه جالسة أمام الصوان مشغولة بترتيب الثياب وخبطها، أما الرجل فقد رمى بالبلاغ الأسبوعي إلى الفراغ الذي يفصل بينهما على الكنية وقال بدهو مصطنع:

- لك مقال في هذه المجلة، أليس كذلك؟ خطف خلاف المجلة عيني كمال فرنا إليه بعين ذاهلة

دلت على أنه لم يكن يتوقع هذه المفاجأة قط... من أين لأبيه هذا الاعلاع المستجذ على المجلات الأدبية؟ لقد سبق أن نشر في الصباح «تأملات» بين النثر والشعر المنشور ضمنها نظرات فلسفية بريشة وإثبات

كان في الجولة الأولى معلبًا عمومًا... أمّا في هذه الجولة فهو خائف مرتعب، إنّ الله قد يؤجّل عقابه، أمّا أبوه فشيمته التعميل بالعقاب...

- هذا ما تقرّره هذه النظرية!

علا صوت السيد وهو يتسائل في انزعاج:

- وآدم أبو البشر الذي خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه، ماذا تقول عنه هذه النظرية العلمية؟

طالما طرح هذا السؤال على نفسه، لم يكن دون أية انزعاجات، ولم يغمض له عين ليلتها حتى الصباح، وتقلب في الفراش متسائلًا من آدم والحقائق والقرآن، وقال لنفسه مرّة وعشرًا: القرآن إمّا أن يكون حقًا كلّهُ أو لا يكون قرآنًا، إنك تحصل حلّ لآلك لم تدبر بعدي، لو لم أكن قد اعتدت العذاب وألقت لأدركني الموت تلك الليلة. قال بصوت خافت:

- دارون صاحب هذه النظرية لم يتكلّم عن

«سيدنا» آدم...

هتف الرجل غاضبًا:

- لقد كفر دارون ووقع في حبال الشيطان، إذا كان أصل الإنسان قرءًا أو أيّ حيوان آخر، فلم يكن آدم أبًا للبشر... هذا هو الكفر حينه، هذا هو الاجترار الولع على مقام الله وجلاله! إلى أهرف أقباطًا وصودًا في الصاغة وكلّمهم يؤمنون بآدم، كلّ الأديان تؤمن بآدم فمن أيّ ملّة دارون هذا؟ إنّه كافر وكلامه كفر، ونقل كلامه استهتار، خبرني أهو من أساتذتك في المدرسة؟

ما أدهى هذا إلى الضحك لو كان في القلب فراغ للضحك، لكنّه قلب أفعسته الآلام، ألم الحبّ الخائب، وألم الشكّ وألم العقيدة المحضرة، إنّ الموقف الرهيب بين الدين والعلم أحرقك، ولكن كيف يتّسع عاقل أن يتنكر للعلم، قال بصوت متواضع:

- دارون عالم إنجليزي مات منذ زمن بعيد...

وهنا نذ عن الأّم صوت يقول بتهجّج:

- لعنة الله على الإنجليزي أجمعين...

فالتفتا نحوها الفتاة قصيرة، فوجداهما قد تركت الشيا والإبرة وتاهت الحديث، ولكن سرعان ما

انصرفا عنها وعاد الأب يقول:

- خبرتي، هل تدرسون هذه النظرية في المدرسة؟  
التفت حبل النجاة الذي تدلّ إليه فجأة، فقال لاأدًا بالكلب:

- نعم...

- أمر غريب! وهل تدرّس هذه النظرية فيها بعد لتلاميذك؟

- كلاً، ساكون مدرّس آداب لا علاقة لها بالنظريات العلمية...

ضرب السيد كفًا بكفّ، وة في تلك اللحظة لو كان له على العلم بعض ما له على الأسرة من سلطان، وهتف محنقًا:

- إذن لماذا يدرّسونها لكم؟! هل الغاية إدخال الكفر في قلوبكم؟

فقال كمال بلهجة المحتجّ:

- معاذ الله أن يؤرّر في عقيدتنا مؤرّر...

فتخصّص بارتباب وهو يقول:

- ولكنك نشرت الكفر بمقالك!

- أستغفر الله، إنّّي أشرح النظرية ليلّم بها الفارئ لا ليؤمن بها، هيهات أن يؤرّر في قلب المؤمن رأي كافر...

- ألم نعهد موضوعًا غير هذه النظرية المجرمة لتكتب فيه؟

لماذا كتب مقالته؟ لقد تردّد طويلًا قبل أن يرسلها إلى المجلّة، ولكنّه كان كأنما يؤدّ أن يعنى إلى الناس عقيدته. لقد ثبتت عقيدته طوال العامين الماضيين أمام عواصف الشكّ التي أرسلها المعري والخيّام، حقّ هوت عليها قبضة العلم الحديث فكانت القاضية، هل أنّي لست كافرًا، لا زلت أؤمن بالله، أمّا السيد...؟ أين الدين؟ ذهب! كما ذهب رأس الحسين، وكما ذهبت عابدة، وكما ذهبت تقني بنفسني! ثمّ قال بصوت حزين:

- لمعلّي أخطأت، عذري أنّي كنت أدرس هذه النظرية...

- ليس هذا بعلو، عليك أن تصلح خطأك...



تفهمين، انتبهي إلى عملك، الله يقطعك...

ثم ملتفتاً إلى كمال بوجه متجهّم:

- خبّري، هل أنت فاعل ما قلت لك؟

عليك رقيب في البيت لم يتبلر الأحرار بمثله في

الدول، لكنك كما تحافه تحبه، فلن يطلعوك قلبك على

الإساءة إليه. تخرّج الألم فقد اخترت حياة النضال...

- كيف يمكن أن أرى هل هذه النظرية؟ لو

انحصرت مناقشتي في الاستشهاد بالقرآن لما جاءت

بجديدي، فالكلّ يعلم بما عندي ويؤمن به، أما

مناقشتها علمياً فشان المختصين من العلماء...

- ولماذا تكتب فيها لا شأن لك به؟

اعتراض وجهي في ذاته، غير أنّه من المؤسف أنّه لا

يحد الشجاعة للاعتراف لأبيه بأنّه آمن بالنظرية بصفتها

حقيقة علمية، وأتأ بهذه الصفة يمكن الاحتاد عليها

في إنشاء فلسفة قائمة للوجود خارج نطق العلم، أما

السيد فقد ظلّ صمته إلزاراً بالخطأ فتضاعف أسفه

وحقّه. إنّ الضلال في هذا الميدان شديد الخطورة

سرى العاقبة، وهو ميدان لا سلطان له عليه، وربما

وجد فيه نفسه مكتوف اليدين أمام الشاب الضالّ كما

وجد نفسه من قبل أمام ياسين بعد انقلابه من

وصايته، فهل يجري عليه ما جرى على الآباء الآخرين

في هذه الآيام الغريبة؟ إنّ أنباء كالأساطير تترامى إليه

عن شباب «اليوم»، منهم تلاميذ قد اعتادوا التدخين،

وأخرون يمشون بكرامات المدرسين، وغير هؤلاء

ولكنّ عمّ أسفر ذلك التاريخ الطويل من الحزم

والصرامة؟ ها هو ياسين يتدهور ويضمحلّ، وها هو

كمال يناقش ويجادل ويحاول التلمّص من قبضته:

- أصغ ليّ بكلّ وعيك، لا أريد أن أقسو عليك

فإنّك مؤدّب ومطيع، أمّا عن موضوعنا فلا أمك لك

يا له من رجل طبّبا أنّه يطمع في أن يحمله على

مهاجمة العلم في سبيل الدفاع عن أسطورة. حقّاً لقد

تملّعب كثيراً ولكنّه لن يقلل أن يفتح قلبه من جديد

للأساطير والخرافات التي طهره منها، كفى عذاباً

وخداحاً، لن تميت في الأوهام بعد اليوم، التور النور،

أبونا آدم! لا أب لي، ليكن أبي قسراً إن شأنت

الحقيقة، أنّه خير من آدميّ لا عدد لهم، لو كنت من

سلالة نبيّ حقّاً ما سمرت متي سمرتها القاتلة!...

- وكيف أصلح الخطأ؟

فقال السيد ببساطة وحنّة ممّا:

- عندك حقيقة لا شكّ فيها، وهي أنّ الله خلق

آدم من تراب، وأنّ آدم هو أبو البشر، هذا مذكور في

القرآن، فما عليك إلّا أن تبيّن أوجه الخطأ وهو عليك

هين، وإلّا فإثالة ثقافتك؟

وهنا جاء صوت الأمّ قائلاً:

- ما أيسر أن تبيّن خطأ من يعارض قول الرحمن،

قلّ هذا الإنجليزي الكاسر: إنّ الله يقول في كتابه

العزيم: إنّ آدم هو أبو البشر، كان جدّك من حلة

كتاب الله فعليك أن تنتهج سبيله، لقد سرّني أنّك

تبغي أن تكون مثله من العلماء...

لاح الضيق في وجه السيد، فانتهرها قائلاً:

- ماذا تفهمين أنت من كتاب الله أو من العلم؟

دهنا من جدّه وانتبهي إلى ما بين يديك...

فقال في حياء:

- أريد يا سيدي أن يكون كجدّه من العلماء الذين

يضيئون الدنيا بنور الله...

فصاح الرجل ساخطاً:

- ها هو قد بدأ ينشر الظلام...

فقال المرأة بإشفاق:

- معاذ الله يا سيدي، لملك لم تفهم...

حدجها السيد بنظرة قاسية. لقد خفّف من شدّته

في معاملتهم فإذا كانت النتيجة؟ ها هو كمال يلعب أنّ

أصل الإنسان قرد، وها هي أمّه تناقشه ويقول له لم

تفهم؟ صاح بها:

- دعني أتكلّم، لا تقاطعيني، ولا تتدنّلي. فيما لا

- ٣٤ -

العمر لكان رجلاً ناضجاً.

وهنا قالت الأم بصوت كالآنين:

- قتلوه الإنجليز، إثمهم إنما يقتلون وإنما يكفرون!  
وواصل السيد حديثه قائلاً:

- إذا وجدت في دروسك ما يخالف الدين، واضطرت إلى حفظه كي تنجح في الامتحان، فلا تؤمن به، ومن باب أولى لا تنشره في الصحف وألاً حملت وزره، لكن موقفك من علم الإنجليز كموقفنا من احتلالهم، وهو عدم الإقرار بشرعيته ولو فرض علينا بالقوة الجبرية...

تدخل الصوت الرقيق الحبيء مرة أخرى قائلاً:

- ولتكرس حياتك بعد ذلك لنضج أكاذيب هذا العلم ونشر نور الله...  
فصاح بها السيد:

- قلت ما فيه الكفاية دون الحاجة إلى أراكال!

فصعدت إلى ما بين يديها، وجعل السيد يحدق فيها متوعداً حتى اطمأن إلى صحتها، فالتفت إلى كمال متسائلاً:

- مفهوم؟

فقال كمال بلهجة موحية بالثقة:

- بكل تأكيد.

إذا أراد أن يكتب بعد اليوم فعليه بالسياسة الأسبوعية حيث لا تمتد يد أبيه الوفدي، أما عن أمه فقد وعدما في سره بأن يكرس حياته لنشر نور الله، أليس هو نور الحقيقة؟ بل، وسيكون في تحرره من الدين أقرب إلى الله مما كان في إيمانه به، فما الدين الحقيقي إلا العلم، هو مفتاح أسرار الكون وجلاله، ولو بعث الأنبياء اليوم ما اختاروا سوى العلم رسالة لهم، فكذلك يستقظ من حلم الأساطير ليوافق الحقيقة المجردة، تخلفاً وراءه تلك العاصفة - التي صارع فيها الجهل حتى صرعه - حذراً فاصلاً بين ماضٍ خرافي وغد نوراني، بذلك تنفتح له السبل المؤدية إلى الله، سبل العلم والخير والجمال، وبذلك يودع الماضي بأحلامه المخادعة وآماله الكاذبة وآلامه الباقية...

بمنية واهتمام جعل يتفحص ما تقع عليه عيناه وهو مقبل على سراي آل شداد، فلما عبر مدخلها تضاعفت عنانيه واهتمامه بتفحص ما حوله، فقد آمن أخيراً بأن هذه الزيارة ستكون آخر عهد بالبيت وآله وذكرياته، كيف لا وقد اتزعج حسين في النهاية موافقة أبيه حل سفره إلى فرنسا؟ تأمل بملء عينيه ووجدانه المر الجاني المفضي إلى الحديقة، والنافذة المطلّة عليه وكان طيفها الرقيق الأنيق يطالعه منها بنظرة حلوة لا تعني شيئاً كتنبؤات النجوم أو تحية رقيقة لا يقصد بها شخصه كتفريد الليل للشغول وفرحته من السامعين، ثم المنظر الكلي للحديقة البسوط بين مؤخر القصر والسور العريض المشرف على الصحراء، وما بين هذا وذاك من أعراس الياسمين وجماعات النخيل وشجيرات الورد، وأخيراً الكشك العتيق الذي غلّى تحت سقفه بنشوات الحب والصدقة. وذكر المشل الإنجليزي الذي يقول ولا تضع كل بيضك في سلة واحدة، وابتسم ابتسامة حزينة، فإنه وإن حفظه منذ عهد بعيد إلا أنه لم يتفحص به فوضع عن سهو أو حماقة أو قضاء وقدر كل قلبه في هذا البيت، بعضه للحب وبعضه للصدقة، وقد ضاع الحب وها هو الصديق يحزم أمتعته استعداداً للرحيل، ومن الغد سيلقى نفسه بلا حبيب ولا صديق، كيف يمكن أن يتعزى عن هذا المنظر؟ قد انطبع في صدره وعلق قلبه ويات ذا اللفة وحنين، القصر والحديقة والصحراء، جملة وتفصيلاً، كأنطباع أساءة عابدة وحسين شداد في حافظته، فكيف يتقطع عنه أو يقنع برؤيته من بعيد كسائر المآزة؟ هو الذي لشدة ولعه بالبيت دعا نفسه يوماً مداعباً بالوئي...!

وكان حسين شداد وإسحاق لطيف جالسين على كرسيين متقابلين أمام المنضلة التي وُضع عليها الدورق التقليدي والأكواب الثلاثة، وكانا كعادتهما في الصيف يرتديان قميصاً مفتوح الطوق وينطلون من الفانلة البيضاء، طفلان بوجهيهما المتناقضين: حسين بوجهه الجميل الوضيء، وإسحاق بوجهه الحامد القسبي

ونظراته التوجّهية، فأقبل عليها ببدلته البيضاء ممسكاً

بطربوشه الذي تدلّ دلّ زره، وتصافحوا، ثمّ جلس  
جاءلاً ظهره إلى البيت، البيت الذي ولّاه - من قبل -  
ظهوره! وسرعان ما قال إسماعيل غملاً كمال، وهو  
يضحك ضحكة ذات معنى:

- يتعيّن علينا من الآن أن نبحث عن مكان جديد  
نتقابل فيه...

ابتسم كمال ابتسامة باهتة. ما أسعد إسماعيل  
بسخريته التي لم تعرف الألم، وهو ولّوّد الحمزواوي  
اللدان بقيا له، صديقان يؤنس القلب ولا يمازجان،  
يهرج إليهما هرباً من الوحشة، ولا حيلة إلّا أن يرضى  
بما قسم له.

- سنتقي في المقاهي أو الطرقات ما دام حسين قد  
قرّر هجرنا...

هزّ حسين رأسه في أسف، أسف الفائز بأمنية  
عزيزة وهو يجمّل بإعلان حزنه على فراق بيون، ثمّ  
قال:

- سأغادر مصر وفي قلبي حيرة على فراقكيا،  
الصدّاقة عاطفة مقدّسة، إلّي أتقرّها من أمّ قلبي،  
والصديق هو القرن الذي يمسك نفسك فيكون  
صدي لمواطنك وأفكارك، لا ييمّ أن تختلف في كثير  
ما دام الجواهر متشابهاً، لن أنسى هذه الصداقة أبداً،

وستصل الرسائل ما بيننا حتّى نعود إلى اللقاء مرّة  
أخرى...

كلام جميل هو العزاء للقلب المكوم المهجور.  
ألم يكن ما أصابه على يد أخته كافياً؟ هكذا تتركي  
وحيداً بلا صديق حقيقي، وغداً يُقتل المهجور طمأً  
إلى الألفة الروحية الساخرة. تسامح في كتابة:

- متى نعود إلى اللقاء مرّة أخرى؟ لم أنس بعد  
تطلّعت الحارّ إلى السباحة الدائمة، فمن يضمن لي ألاّ  
يكون ذهابك إلى الأبد؟

فأمن إسماعيل على قوله قائلاً:

- قلبي يحدّثني بأنّ المصفرّ لن يعود إلى  
القصر...

ضحك حسين ضحكة قصيرة، غير أنّها وشت

بسروره، ثمّ قال:

- لم أظفر بموافقة أبي على سفري حتّى وعدته  
بمواصلة دراستي القانونية، ولكنّي لا أدري إلى أيّ  
مدى سيمكّنني المحافظة على وعدي؟ لا استلطف بيبي  
وبين القانون، أكثر من هذا يتخلّل إلّي أنّي لن أصبر على  
الدراسة النظامية، لا أريد إلّا ما أحبّه، وقلبي موزّع  
بين معارف شتّى لا تجمعها كلّية واحدة كما قلت مراراً  
وتكراراً، أريد أن أتلقّى محاضرات في فلسفة الفنّ،  
وأخرى في الشعر والنقص، وأن أرتاد المتاحف  
ومعارض الموسيقى، وأن أعشق وأهوى، فإني كلّية تحوي  
هذه الألوان جميعاً؟ وثمة حقيقة أخرى تعرفانها وهي  
أنّي أفضل أن أسمع على أن أقرأ، أريد أن يشرح  
غيري لأستمع أنا، ثمّ أنطلق بحواسّ مجلّوة وعقل  
مضيء إلى سفوح الجبال وشواطئ البحور والمشارب  
والمقاهي والمراقص، وسوف تصلكيا تباطؤاً تقاريري عن  
هذه التجارب الفلّدة!

كانّه يصف الجنة التي نبذ هو الإيمان بها! بيد أنّها  
جنة سلبية تأنط ولا تعطي، وهو يطمح إلى مثال  
آخر، أمّا حين فهمها أن يحنّ إلى مغناه القديم،  
إذا ضمّته تلك الحياة الوردية إلى صدرها الرغيد.  
وكانّ إسماعيل كان يردّد غواطره حين قال مخاطباً  
حسين:

- لن تعود إلينا، الدواع يا حسين! حلمنا واحد على  
وجه التقريب، دع جانباً فلسفة الفنّ والمتاحف  
والموسيقى والشعر وسفر الجبال... ألتخ، فنكون  
شخصاً واحداً! أدركك للمرّة الأخيرة بأنك لن تعود  
إلينا...

وحلجه كمال بنظرة متسائلة، كأنما تطالبه برأيه فيها  
قال إسماعيل، فقال:

- بل سأعود كثيراً، ستكون مصر ضمن سياحتي  
الطويلة لأرى الأهل والأصدقاء (ثمّ موجّهاً الخطاب  
إلى كمال) سوف أنتظر سفرك إلى الخارج بجزع أكاد  
أشعر به من الآن!

من يدري لعلّ كذبت تصدق فيجوب تلك الأفاق،  
مهما يكن من أمر قلبه يحدّثه بأنّ حسين سيعود يوماً

في معاملة التلاميذ ليحيمي شخصيته المهذبة! غير أنه تساءل: ترى هل يسهو أن يكون قاسياً على غيره كما يقسو على نفسه؟ قال ارتجلاً:

- لا أظن أنني سامت من مهنة التدريس إلى النهاية...

لاحقاً في عيني حسين نظرة حاملة وهو يقول:  
- من التعليم إلى الصحافة على ما أظن، أليس كذلك؟

وجد نفسه يفكر في المستقبل، فعاودته فكرة الكتاب الجامع الذي حلم كثيراً بتأليفه، ولكن ماذا بقي من موضوعه الأول؟ لم يعد الأنبياء أنبياء، ولا الجنة والجنة، وليس علم الإنسان إلا فصلاً من علم الحيوان، فعليه أن يبحث عن موضوع جديد، قال مرتجلاً أيضاً:

- لو أمكن يوماً من إنشاء مجلة للدراسة للفكر الجديد!

فقال إسحاق طيف بلهجة الوعظ والإرشاد:  
- بل السياسة هي السلعة الرائجة، خصص للفكر إذا شئت هاموشاً في الصفحة الأخيرة، وفي البلد متسع لكاتب وفدي هجاء جديد...

فضحك حسين ضحكة عالية، وقال:  
- لا يبدو أن صاحبنا سياسي إيماني، حسب أسرته ما قُعت من فدية، أما الفكر فالجمال أسامه واسع فيه... (ثم غاطباً كمال)... لديك ما تقوله، لقد كانت ثورتك الإلحادية طفرة مفاجئة لم أتوقعها من قبل...

ما أسعده بهذه الصفة الجديدة التي وجد فيها تحية لثورته وتملقاً لغوره، قال وقد تورّد وجهه:  
- ما أجل أن يكرّس الإنسان حياته للحق والخير والجمال...

صغّر إسحاق ثلاثاً، لكل قيمة صغيراً، ثم قال متهمكاً:

- اسمعوا وعوا!  
أما حسين فقال جاداً:  
- إني مثلك! ولكنني قانع بالمعرفة والمتعة!

وأن هذه الصداقة العميقة لن تضيق بهاء. إن قلبه الصدوق يؤمن بهذا كما يؤمن بأن الحب لا يُقتلع جذوره من القلب وأسفاه! قال برجاء:

- سافر وافعل ما تحب ثم عد إلى مصر لتجعلها مقامك، على أن تخرج منها سائحاً كلما طابت لك السياحة.

فأتم إسحاق على رايه:  
- لو أنك ابن حلال حقاً لقبلت هذا الحلّ الوجيه الذي يوثق بين رغبتك ورغبتنا...

قال حسين وهو يظلم رأسه كأنها قد اقتنعت:  
- سيستبيح بي اللطاف إلى هذا الحلّ فيها اعتقد...  
كان يصني إليه وهو يملأ من منظره ناظره، خاصة المينين السوداوين اللتين تشبهان عيني عابدة، ولفاته الجامعة بين السمو واللطف، وروحه الشفاف الذي يكاد يتشكل أمامه خلقاً يروى ويحس، إذا غاب هذا العزيز لماذا يبقى من نعمة الصداقة وذكرى الحب؟ الصداقة التي تلقّتها حل يديه ألفة روحية وسعادة عظيمة، والحب الذي ألهمه على يد أخته فرحة ساء وعذاب جسيم؟ وعاد حسين يقول وهو يشير إليها واحداً بعد الآخر:

- عندما أعود إلى مصر ستكون أنت محاسباً في وزارة المالية، وأنت مدرّساً، ولا يبعد أن أجدكنا والدين! ما أعجب هذا!  
تساءل إسحاق ضاحكاً:

- هل تستطيع أن تتخيلنا مولكتين؟ تصوّر كمال مدرّساً (ثم موجّهاً الخطاب إلى كمال) يجب أن تسمن كثيراً قبل أن تواجه التلاميذ، سوف تلقى جيلاً من العفاريات نحن نعدّ بالقياس إليهم من الملائكة، وسوف نحمد نفسك وأنت الوفدي العنيد مضطراً بحكم الوظيفة إلى معاقبة المضرين بأمر الوفا!

أخرجته ملاحظة إسحاق عن مجرى التفكير الذي كان مسترسلاً فيه، فوجد نفسه يتساءل: كيف يستطيع مواجهة التلاميذ برأسه وأفضه للمشهورين؟ وجد امتصاصاً ومرارة، وتخيل إليه - قياساً على شواذ المدرسين الذين عرفهم في حياته - أنه سيلتزم القسوة

- آثرت النفاق!

فقال ممتعضاً:

- ليس من ضرورة تدعوني إلى إسلام الذين أحبهم...

فتساءل إسحاق سائراً:

- أنظر! أنك بهذا القلب تستطيع أن تواجه المجتمع

يوماً بما يكرهه!؟

كليلة وممنة؟! بهجة الحساسة غطت على الامتناع، وراه هل عبرت على أساس الكتاب الذي لم يتبلور في ذهني بعد!؟

- مخاطبة الغراء شيء، ومخاطبة الدين على الفطرة شيء آخر!

فخاطب إسحاق حسين وهو يشير إلى كمال قائلاً:

- إليك فيلسوفاً من أسرة عريقة في الجهل!

لن يعوزك أن تجد أصدقاء للهو واللغو، ولكنك لن تحظى لروحك بصديق يحاورها، فأرض بالصمت أو حاول نفسك كالمجانين. وساد الصمت قليلاً. وكانت الحديقة صامتة أيضاً فلا نسمة تهفو، أما الورد والقرنفل والبنفسج فبدت وحدها سعيدة بالحضر، وحسرت الشمس ثوبها المضيء عن الحديقة فلم يبق منه إلا حاشية في أهل السور الشرقي. أنسى إسحاق الصمت بأن التفت إلى حسين شذاد، ورساله:

- ترى هل يتاح لك أن تزور حسن سليم وعائدة

هاتم؟

يا له!... خفقت قلب أم القيسية قامت في صدي!؟

- عندما يستقر بي المقام في باريس، سأفكر حتى في القيام برحلة إلى بروكسل...

ثم وهو يتشم:

- تلقينا خطاباً من عائدة الأسبوع الماضي، يبدو أنها

تعاني متاعب الوحام...

هكذا الألم والحياة توأمان، لست الآن إلا إلباً خالفاً في ثياب رجل، عائدة متداحة البطن سائلة الإفرازات!؟ مأساة أم مهزلة الحياة!؟ نعمة الحياة الفناء، ليتني أستطيع أن أعرف كنه هذا الألم. قال

فقال كمال بحماس وإخلاص:

- الأمر أجل من هذا، إنه كضاح في سبيل الحق يستهدف خير الإنسانية جمعاً، وبغيره لا يكون للحياة معنى في نظري...

ضرب إسحاق كفاً بكف - وقد ذكرته هذه الحركة بأية - وقال:

- إذن فالواجب ألا يكون للحياة معنى! كم تعبت وشغيت حتى تحزرت من الدين! لم أتعب أنا تعبك، ولكن الدين لم يكن شغل أبداً فهل تعذلي يا ترى فيلسوفاً بالفطرة!؟ حسبي أن أمشي الحياة التي لا تحتاج إلى تعريف، غير أن هذا الذي أتبعه بالفطرة لا تبخله أنت إلا بالكفاح المرير، استغفر الله، بل أنت لم تبخله بعد فلا زلت - حتى بعد إلحاذك - تؤمن بالحقيقة والحير والجهل وتريد أن تكسرها لما حياتك، أليس هذا مما يدعو إليه الدين!؟ فكيف تكفر بالأصل وتؤمن بالفرع؟

لا تبال. رفوق المزاج، لكن لم يبدو ما يؤمن به من الإيتم مثاراً للسخرية!؟ هيك خيّرت بين عائدة وبين الحياة السامية فأيتها تختار!؟... لكن عائدة تتخايل لعيني دائماً وراء الكُل!...

قال حسين يهيب عن كمال، إذ طال به الصمت: - المؤمن يستمد حبه لهذه القيم من الدين، أما الحر فيحبها لذاتها.

وباه متى أراك مرة أخرى؟ أنا إسحاق فضحك ضحكة وشت بانحراف تفكيره إلى ناحية جديدة، وسأل كمال:

- خبّرني ألا زلت تبصلي؟ وهل تنوي أن تصوم رمضان القادم؟

كان دعائي لها أمتع ما في الصلاة، وليالي هذا القصر أسعد ما في رمضان...

- لم أصد من الصائمين، ولن أكون من الصائمين...

- وهل تعلن إفطارك... ضاحكاً: - كلا...

إسمايل لطيف:

- سيكون أبنائها أجنب!

- من المفق عليه أن يرسلوا إلى مصر إذا جاوزوا طور الطفرة.

هل تراهم يوماً بين تلاميذك؟ سائل نفسك أين رأيت هذه الأعين فيجيب القلب الخائف أنها مقيمة هنا منذ قديم، وإذا سخر الصغير من رأسك وأنفك فيأتى قلب تعاقبه! أيها النسيان... هل أنت خرافة أيضاً؟ عاد حسين يقول:

- شذ ما أسهبت في الحديث عن حياتها الجديدة، لم تخف سرورها بها حتى بدا حينها إلى الأهل مجرد جمالة...

مثل هذه الحياة في الأوطان المثالية خلقت، أما مشاركتها في الطابع الأدمية فعبث من الأقدار التي صبت بشق مقدساتك، ترى ألم يخطر ببالها أن تشير في خطابها المسهب بكلمة إلى الأصدقاء القدامى؟! ولكن من أدراك بأنها لا زالت تذكركم؟! وعادهم الصمت مرة أخرى، بدا المغيب يقطر سمره هادئة، ولاحت في الأفق حداة مولية، وترامى إليهم نبلج كلب، وأقبل إسمايل على اللوزق يشرب، وراح حسين يصفر بفيه، أما كمال فكان يسترق إليه النظر بوجه هادئ وقلب يتحسر.

- الحز هذه السنة ملعون...

قال إسمايل ذلك، ثم جفّف شفتيه بمنديله الحريري المزركش ثم تحسّأ، وأعاد المنديل إلى جيب بنطلونه.

فراق الأحباب العن...

- متى تسافر إلى المصيف؟

- في آخر يونيه.

أجاب إسمايل بارتياح، فعاد حسين يقول:

- سنسافر غداً إلى رأس البر حيث أمكث أسبوعاً معهم، ثم أسافر بصحبة أبي إلى الاسكندرية فاستقل الباخرة في ٣٠ يونيه.

ويتهيأ تاريخ فترة من الزمن، وريماً انتهى قلب.

حلق حسين إلى كمال ملياً، ثم ضحك قائلاً:

- تترككم وأنتم عمل خير حال من الوحدة والاختلاف، فعسى أن تسبقنا أنباء الاستقلال إلى باريس...

فهتف إسمايل مخاطباً حسين وهو يشير إلى كمال:

- صاحبك خير راضٍ عن الاختلاف! عزّ عليه أن يضع سعد يده في يد الخونة، وعزّ عليه أكثر أن يتحاشى الاصطدام بالإنجليز فينزل عن الوزارة إلى خصمه القديم عدلي، هكذا تجده أشدّ تطرّفًا من زعيمه المقدّس نفسه!

مهانة الأعداء والخونة غيبة أخرى تتجرّعها، أي شيء في هذه الدنيا لم يخب فيه أملك؟ خير أنّه ضحك عاليًا، ثم قال:

- بل يشاء هذا الائتلاف أن يفرض على دائرتنا نائباً من الأحرار!

وضج ثلاثتهم بالضحك. وعند ذاك دبّت في مرمى البصر منهم ضفدعة ما لبثت أن توارت في العشب، وهفّت نسمة مؤذنة بتبدل المساء، وتخفّف العالم المصنق بهم من زياطه وضوضائه، فأذن المجلس بالختام، وملاء ذلك بالجزع فجعلت عيناه تتقلّبان في المكان لتتمتلكا من نظره. هنا بدت أول مرة يهتف شجاع الحب، وهنا صدح الصوت الملائكيّ بهما كمال، وهنا دار حوار العذاب حول الرأس والأنف، وهنا علّق المعبود بخصام التجني، وفي تضاعيف هذا الجوّ ترقد ذكريات عواطف ومشاعر وانفعالات لو مستها يد العيب يومئاً لأحيت الصحراء ونفثت وجوها، أملاً من هذا كله عينك وأزغته فإنّ حوادث كثيرة تبدو وكأنّها لم تقع لو لم يقيدها يوم وشهر وعام، إنّما نستعدي الشمس والقمر على خطّ الزمان المستقيم لننوره لتعود إلينا الذكريات الضائعة، ولكن لا شيء يعود أبداً، فلذّب في الدموع أو تسلّ بالابتسام.

وقف إسمايل لطيف وهو يقول:

- أنّ لنا أن نلعب...

ترك إسمايل يسبقه إلى عنق صاحبه، ثم جاء دوره فتعانقا طويلاً، طبع على خدّه قبلة وتلقّى مثلهما، فغمت خياشيمه رائحة آل شذاد ممّلة في صاحبه،

الحيال، الزبيب أقبحها رغم أنف صالح، فيه طعم  
الأنيسون الذي تجزع منه معدتي، فلا تقاطعي...

- معذرة...!

- وهناك البيرة، ولكنّها شراب الحرّ ونحن والحمد  
له في سبتمبر. وهناك النبيذ، غير أنّ عاقبتة لطسة بنت  
كلب...

- إذن... إذن... فهو الويسكي.

- برافوا! توستت فيك النجاة من قديم، ولعلّك  
توافقني بعد قليل على أنّ استعدادك للهلزل يشوق  
استعدادك للحقيقة والخير والجمال والوطنية والإنسانية  
إلى آخر هذه القائمة من الخزعبلات التي تصبّ بها  
قلبك دون جدوى...

ونادي التادل، فطلب كأسين من الويسكي.

- من الحكمة أن أقتع بكأس واحدة...

- قد تكون هذه هي الحكمة، غير أنّنا لم نجهز هنا  
لطلب الحكمة، وسوف تعلم بنفسك أنّ الجنون الّذ  
من الحكمة، وأنّ الحياة أضطر من الكتب والفكر،  
أذكر هذا اليوم ولا تنس صاحب الفضل عليك...

- لا أحبّ أن أفقد الوعي، أخاف أن...

- كن حكيم نفسك...

- المهمّ عندي أن أجد الشجاعة للسير في الدرب  
لئلاّ بلا تردّد، وأن أدخل عند الحاجة...

- اشرب حتّى تشمر بأنك لا تبالي أن تدخل...

- حسن، أرجو ألاّ أنتم على فعلتي فيها بعد...

- تندم؟! طالما دعوتك من قبل فكتت تعتدلو  
بالتقوى والدين، ثمّ جاهرّت بأنك لم تعد تؤمن  
بالدين، فكزّرت عليك الدعوة، فما أعجب إلاّ  
لرفضك باسم الحلق! لكن يجب أن أعترف بأنك  
اتبعت المنطق أخيراً...

أجل أخيراً. بعد فترة من التلق والحيرة بين أي  
العلاء والحلّام، أو بين التشفّ واللذّة. وقد نزح به  
طبعه إلى ملعب الأول، فرأته وإن بشّر بحياة قاسية إلاّ  
أنّها وافقت ما نشأ عليه من تقاليد، ولكنّه لم يدرك إلاّ  
ونفسه يهفر إلى الفناء، وكأنّ صوتاً خفياً راح يمس في  
أذنه: لا دين ولا عائدة ولا أمل، فليكن الموت. عند

زكيّة لطيفة كأنّها صير غير آدمي، أو نفثات حلم دؤم  
في سماء مليئة بالمسرات والألام، فأنعم بها حتاياء حتّى  
نمل، وليت صامتاً ملأ حتّى يملك عواطفه، غير أنّه  
عندما تكلم تهلّج صوته وهو يقول:

- إلى اللقاء ولو بعد حين...

- ٣٥ -

- لا يوجد أحد إلاّ الحلم!

- ذلك لأنّ ضوء النهار لم يكد يخضّي بعد، والزبائن  
يفقدون عادة مع الليل، هل ضابقت خلوّ المكان؟  
- أبداً. خلوّ المكان عامل مشجّع على البقاء،  
خاصّة وأنّها أوّل مرّة.

- للحانات هنا ميزات لا تقدر بثمن، فهي تقوم في  
طريق لا يفتحها إلاّ ساح وراه لئلاّ محزّمة، فلن يكدّر  
صفوك هنا لائم ولا زاجر. وإذا عثر بك شخص  
لمحترمه كأبيك أو وليّ أمرك، كان هو الآخر باللوم  
والأخلاق بأن يتجاهلك أو يفسّر من سبيلك إن  
استطاع...

- اسم الشارع وحده فضيحة!

- لكنّه أدعى إلى الطمأنينة من غيره، لو أنّنا ذهبتا  
إلى إحدى حانات شارع الألفي أو عهد الدين أو حتّى  
محمد عليّ، لما أمنا أن يرانا أب أو أخ أو عمّ أو ذو  
مال! ولكنّهم لا يهيئون إلى وجه البركة فيها أرجو.

- منطلق سليم، غير أنّي لا زلت مضطرباً.

- صبرك، الخطوة الأولى دائماً عصية، ولكنّ الحمر  
مفتاح الفرج، لذلك أمدك بأنك ستجد الدنيا عند  
ذهابنا اللطف وأحذب نما عهدنا قبل ذلك...

- حدثني عن أنواع الخمور، أيّا الأوفق أن أبدأ  
به؟

- الكونياك حنيف وإذا مرّج بالبيرة فقلّ على شارب  
السلام، الويسكي مقبول الطعم جيّد الأثر، أمّا  
الزبيب...

- لعلّ الزبيب اللذّا! ألم تسمع صالح وهو يخفي  
«وسقاني شراب الزبيب»...

- طالما قلت لك إنّّه لا يجب فيك إلاّ الإغراق في

فؤاد الحمزاوي ذكيّ ولكن لا فلسفة له؛ نفعي حتّى في تلوّن الجبال... يبيغي وراء الأدب بلاغة ينتفع بها في تحجير المرافعات، من لي بوجه حسين وروحه؟! وجاء النادل فوضح على المنضدة كأسين طوبلين مضلّعي الكعب، وفُضّ سداقة قارورة الصودا وصبّ في الكأسين فتحوّل الذهب إلى بلاتين عمّو باللائن، ورصّ أطبق السلطة والجبن والزيتون والمرتدلا، ثم ذهب. ردّد كمال بصره بين كأسه وبين إسماعيل، فقال الأخير بأسًا:

- الفعل كما افعل، ابدأ بجرعة كبيرة، صحتك... غير آله اكفى بحسوة وراح يتلوّقها، ثم لبث يرتقب... ولكنّ عقله لم يطر كما كان يتولّع فتجرّع جرعة كبيرة، ثم تناول قطعة من الجبن ليخفّر الطعم الغريب الذي انتشر في فيه.

- لا تتمعّليني!

- العجلة من الشيطان، المهم أن تترك مكانك وأنت حل حال ممّكتك من التحام ما تريد...

ما الذي يريد؟ امرأة غنّ استرّن تقزّزه ونفوره وهو مفقٍ فهل يحلّي الشراب مرارة الابتدال. كان يناضل الغريزة بالدين وعابدة، أمّا الآن فقد خلا للغريزة الجحر. غير أنّ حافزاً آخر للمغامرة هو أن يكتشف المرأة ذلك المخلوق الغامض الذي تنطوي عابدة نفسها تحت جنسه ولو كره. لمصّ في ذلك عزاء عن السهاد والدموع المطويّ سرّها في جوف الليل المكتوم، وتكفيراً عن العذاب الدامي الذي لا أمل في التداوي منه إلّا بالياس والذهول. الآن يستطيع أن يقول إنّه خرج من وزناته الاستسلام ليخطر الخطوة الأولى في طريق الخلاص وإن يكن طريقاً ضيقاً مغموراً محفوقاً بالشهوات والمكاره. وتجرّع جرعة أخرى وانتظر، ثم ابتسم... أمّا باطنه فكان يحضل بمولد إحساس جديد ينثث حرارة وصبوة، فتابعه مستملاً كما يتابع نغمة حلوة. وكان إسماعيل يراقبه بإمعان، فقال بأسًا:

- أين حسين بنفسه هذا المنظر؟

أين حسين أين؟

- سوف أكتب له عنه بنفسي، هل رددت على

ذاك ناداه الحَيّام بلسان هذا الصديق قلّبي عتقاً ببادته السامية رغم هذا، وإن يكن قد وسّع من معنى الخير حتّى وسع مسرات الحياة جميعاً، قائلاً لنفسه: إنّ الإيمان بالحقيقة والجبال والإنسانية أسعى أنواع الخير، وإنّه لذلك كان ابن سينا يثبم يوم الفكر بالشراب والحسان، ومهما يكن من أمر فإنّه لم يجد سوى هذه الحياة الواحدة منفذاً من الموت...

- إني معك في هذا، ولكنّي لم أقفل عن مبادئي... - أعلم أنّك لن تتخلّ عن أوامرك، طول العشرة جعلها حقيقة أكثر من الحقيقة نفسها، لا بأس أن تقرّأ بل وأن تكتب ما وجدت قراءه، اجعل من الكتابة وسيلة للشهرة والثروة، ولكن لا تانلها مأخذ الجذ، كنت متدينّاً عتيقاً، وأنت الآن ملحد عتيف، دائماً عتيف، قلق كأنك مشوّل عن البشرية، الحياة أبسط من هذا كلّ، مركز في الحكومة يرضي النفس ويصنّ مستوى لا بأس به من المعيشة، استمتع بلذات الحياة بقلب متفتح خالٍ من الموم، استمسك بقدر من القوة والاعتدال عند اللزوم يضمن لك الكرامة والفوز، فإذا فلتت هذه الحياة الدين فيها ونعمت، وإلا فلتبه على جنبه...

الحياة أعمق وأعرض من أن تنحصر في شيء واحد ولو يكون السعادة نفسها، اللذة ملائي ولكن ارتقاء الجبال الصعبة سيظلّ مطلب، عابدة ذهبت فوجب أن أخلق عابدة أخرى بكلّ ما ترمز إليه من معاني، أو فلتذهب الحياة غير مأسوف عليها.

- ألم تشغل فكري أبداً بما فوق هذه الحياة من معاني؟

- حق! شغلت عن ذلك بالحياة نفسها أو بالحري بحياتي أنا، ليس في بيتنا كافر وليس فيه متدين، وهكذا أنا!

صديق ضروريّ مثل وقت الفراغ، شادّ المنظر مثل منظر، موصول الذكريات بعابدة فهو في القلب، رائد هذه اللذوب الغشاء، جيّار إذا تحدّثته، يُقصد في المسرات دون الجسد والمليّات، ليس فيه لزوج موضوع، غاب وراء البحار صديق الروح والعقل...



## رسائله الأخيرة؟

- نعم، رددت برسالة موجزة كرسائله...

له وحده أسهب وأفاض حتى سجل كل خاطرة، يا للمساعدة التي خص بها وحده، ولكن لا ينبغي أن ييوج بسرّ رسالته أن يشير غيرة ملزميه...

- كانت رسالته إليّ موجزة أيضًا فيها عدا الحديث الذي تعرفه ولا تحبه!

- الفكرة (ثمّ وهو يضحك)... ما حاجته إلى هذا هو الذي سيرث ثروة غلا المحيط، ما سرّ ولعه بيله الخزيريات؟ التكلف أم الغرور أم اللانان معاً؟

جاء دور حسين ليُمدّ تحت المطرقة، ترى ماذا تقول عني في غيابي؟

- لا تناقض بين الفكر والغنى كما تظنّ، لقد ازدهر الفكر في اليونان القديمة بفضل بعض السادة الذين لم يشغلهم طلب الرزق عن التفرّغ للعلم...

- صحتك يا أرسطو...

أفرغ بقية كأسه وترقّب. ثمّ تسامح هل مرّت به حال كهذه من قبل؟ نالت الحرارة الوجدانية ينطلق في الدورة الدموية، يجرف في طريقه الفجوة التي تتجسّع بها نفايات الاكدار، قمقم النفس يتفكك لحام أحزانه فتطير منه عصائير المسرات مترنمة، وهذا صدى نغمة مطرية، وهذه ذكرى أسمل واحد، وذلك طيف بهجة عابرة، الحمر لعاب كله السعادة.

- ما رأيك في كاسين آخرين؟

- عمرك أطول من عمري...

ضحك إسحاق ضحكة عالية وهو يرمي إلى النادل بإصبعه، ثمّ قال بارتياح:

- أنت سريع الاعتراف بالجميل...

- هذا من فضل ربّي...

وجاء النادل بالكاسين والمزّة. وأخذ الزبائن ينفذون مطربين ومقّمين ومعمّمين، فيستقبلهم النادل بمسح وجوه المناضد بالمناشف إذ كان الليل قد أقبل وأضيت المصابيح فتألقت المرايا المتصققة بالجلدران مصوّداً على أسطحها قوارير الديوارس والجون ووكرو، وترامت من الخارج ضحكات ململمة كالآذان غير أنّها تدعو

للفجور، وصوّت نحو منضلة الصديقين المراهقين

نظرات إنكار متسامع باسم، ثمّ ورد من الطريق بالغ جبري صعلبيّ فباشعة فلول ذات ثنتين ذهبيتين، وماسح أحذية، وصبيّ كياجيّ هو في الوقت ذاته قواد كما دلّ ترحيب الجلوس به، وقارئ كتف هنديّ، ثمّ لا تسمع هنا وهناك إلّا «صحتك» وماها، وفي مرّة تلي رأس كمال مباشرة نظر فرأى وجهه موزّداً ويصره لامعاً باسماً، وفيها ودا صورته عكست المرأة منظر رجل عجوز وهو يرفع كأسه إلى فيه ثمّ يتمضمض بحركة أرنبيّة ويزود الشراب، ثمّ يقول بلجلمه بصوت مسموع «المضغفة بالويسكي سكّة عن جدّ لي مات وهو يسكر» فحوّل كمال وجهه عن المرأة، وقال لإسحاق:

- نحن أسرة محافظة جداً، أنا أوّل ذاتي للخمر ليهها...

فهو إسحاق منكبه هازلاً، ثمّ قال:

- كيف تحكم هل ما ليس لك به علم؟ هل شاهدت شباب والدك؟ أنا أيّ فيتناول كأساً مع الغداء وأخرى مع العشاء، وقد أمسك عن الشراب في الخارج، أو هذا ما يذمّه أمام والدي...

لعاب إله السعادة يتسرّب إلى علكة الروح، وهذا الانقلاب الغريب الذي حدث في لحظات لا تقدر البشرية على إدراكه في أجيال وأجيال، وهو في جلته يهود بمعنى باهر جديد الكلمة «السحر»، وأصعب شيء أنّه لم يكن جديداً كلّ الجديّة فلعلّه طاف بالروح مرّة ولكن متى وكيف وأين؟ أنّه موسيقى باطنية تعزفها الروح وما للموسيقى المعهودة بالقياس إليها ألاّ ككشور التّضاح بالقياس إلى لبابه، ترى ما سرّ السائل الذهبيّ الذي صنع هذه المعجزة في لحظات معدودات؟ لعلّه

طهر مجرى الحياة من الزيد والرواسب فانطلقت وثبة الحياة المكبوتة كما انطلقت أوّل مرّة حرّية مطلقة ونشوة خالصة، فهذا هو الشعور الطبيعيّ بوثبة الحياة إذا تحرّرت من ريقه الجسد وأغلال المجتمع وذكريات التاريخ وخلفو المستقبل، موسيقى راققة نقيّة تقطر طرباً وتصدر عن طرب، مثلها طاف بروحي من قبل

ولكن متى وكيف وأين؟ آه... يا للذكرى... إنها  
الحب! يوم نادت «يا كمال» أسكرتك وأنت لا تدري  
ما السكر فقرّ بآئك سكير قديم، وآئك صرّدت دهرًا  
في طريق الهوى المخمور المعبّد بالأزهار والرياحين،  
كان ذلك قبل أن يتحوّل قطر الندى الشفاف إلى  
وحل، فالخمر روح الحب إذا انجابت عنه بطانة  
الآلام، فحبّ تسكر أو اسكر تحبّ...  
- الحياة جميلة مهما قلت وأعدت...  
- ها ها، أنت الذي تقول وتعيّد...

طبع المقاتل على غدّ غريمه قبله صافية فعلّ السلام  
على الأرض، وغرّد الببليل فوق غصن ريان، فطرب  
العاشقون في أربعة أركان المصورة، وطار طائر  
الأشواق من القاهرة إلى بروكسل مارًا بباريس فاستقبل  
بالحنان والأناشيد، وغمّس الحكيم شباة قلعه في مداد  
قلبه فسجّل وحيا منزلا، ثم أوى المجرّب إلى  
شيخوخته فالتصّت به ذكرى دامعة بعثت في صدره ريبًا  
مكتئبًا، أمّا أسلاك الشعر الأسود المسدل على الجبين  
فكعبة يتجه إليها الثملون في حانث الوجد.

- كتاب وكأس وحناء وارمني في البحر  
- ها ها، سيفسد الكتاب الكأس والحناء  
والبحر.

- لستنا متفقين في فهم معنى اللذة، تراها أنت فؤًا  
وعبقًا وهي عندي الجذّ كلّ الجذّ، هذه نشوة الأسرة  
هي سرّ الحياة وغايتها العليا، وما الحمر إلّا بشيرها  
والمثال المحسوس المتاح لها، وكما كانت الحداثة مقدّمة  
لاختراع الطائرات، والسكّة تمهيدًا لاختراع  
الغواصة، فالخمر ينبغي أن تكون رائد السعادة  
البشرية، والمسألة تتلخّص في هذه الكلمة: كيف  
نجعل من الحياة نشوة دائمة كنشوة الخمر دون  
الالتجاء إلى الخمر؟ لن نجد الجواب في النضال  
والتعمير والقتال والسعي، فكلّ أولئك وسائل وليست  
بغايات، السعادة لن تتحقّق حتّى نفرغ من استغلال  
الوسائل كلّها لتتمكن من أن نحيا حياة عقلية وروحية  
خالصة لا يكثرها مكثّر، هذه هي السعادة التي  
أعطينا الخمر مثالها، كلّ عمل وسيلة إليها أمّا هي

فليست وسيلة لشيء... .

- الله يخرّب بيتك...

- له؟...

- كان أملي أن أجعلك في نشوتك محدثًا طريفًا  
لطفًا، ولكنك كالمرّض يزيد مرضه الخمر استفعالًا،  
فيم تتحدّث يا ترى إذا شربت الكأس الثالثة؟  
- لن أشرب أكثر ممّا شربت، إنّني الآن سعيد وفي  
وسعي أن أدعو آية امرأة تعجبي...  
- هلّا انتظرت قليلًا؟

- ولا دقيقة واحدة...

سار متابعًا ذراع صاحبه غير هيّاب ولا متردّد،  
يتنظمه تيار من البشر يتلاطم مع تيار آخر قادم من  
الوجهة المضادة، في طريق ملتصق ضيق برّواده. كانت  
الرهوس تدور إلى اليمين تارة وإلى اليسار أخرى،  
وعلى الجانبين بدت مضيفات الطريق قائمات وقاعدات  
يقلّين في وجوههنّ المقتنعات بالزواق الفائق أصين  
الترحيب والإغراء، ولا تحضّ آونة حتّى يهرق أحدهم  
من التّيار إلى إحداهنّ فتنبه إلى الداخل وقد مسحت  
عن عينيها نظرة الإغراء لتحلّ محلّها نظرة الجذّ  
والمعل. وكانت المصاييح المرجّبة فوق أبواب البيوت  
والمقاهي تضيء الطريق بأنوار ساطعة انعدت في  
أحاليها سحب الدخان المتطاير من بخور المجامر وتبغ  
الجوز والنارجيلات، أمّا الأصوات فقد تلاقت  
واختلطت في دوّامة صاخبة دارت بها الضحكات  
والهناجات وصرير الأبواب والنوافذ وهزف البيانو  
ومزّكة اليد وتصفيق الأيدي الراقصة وزعيق الشرطي  
والشخير والتخير وسعال الحشّاشين وصراخ السكّاري  
واستغاثات مجهولة وقرق عصيّ وغناء لردّي وجماعي،  
وفوق الجميع لاحت السماء قريبة من أسطح البيوت  
البالية تنزو إلى الأرض بأعين لا تطرف. كلّ حسناء  
هنا في متناول اليد، تمجّد بحسنها وأسراها نظير عشرة  
قروش لا غير، فمن كان يصدّق هذا قبل أن يراه؟  
وخاطب إسمايل قائلاً:

- هارون الرشيد يخطّر في هو الحريم...

فتساءل إسمايل ضاحكًا:

- ألم تعجبك جارية يا أمير المؤمنين؟

فأشار كمال إلى بيت، وقال:

- كانت تقف عند هذا الباب الخالي، ترى أين

ذهبت؟

- مع زبون في الداخل يا أمير المؤمنين، فليتنظر

مولانا حتى يقضي أحد رعاياه وطره...

- وأنت ألم تجد ضالتك؟...

- إني قديم عهد بالطريق وأعلمه، ولكني لن أمضي

إلى وجهتي حتى أسلمك إلى صاحبك، ماذا أعجبك

فيها؟ يوجد أجل منها كثيرات...

سمراء لم يطمس الزواق سمرتها، وفي حنجرتها وتر

يذكر من بعيد تلك الموسيقى الخالدة، وقد تمجد العين

نوعاً من الشبه بين بشرة المختق وأديم السياه

الصفافية:

- أتعرفها؟

- تدهي هنا وردة، واسمها الحقيقي حيوشة.

حيوشة - وردة! لو يستطيع الإنسان أن يغير ماهيته

كما يغير اسمه! في عالمة نفسها شيء يشبه مركب

حيوشة - وردة، وفي الدين، وفي عبد الحميد بك

شداد، وفي الآمال العريضة، آواه! لكن الأحمر

نرفعك إلى عرش الآلهة فترى هذه المتناقضات غارقة في

أمواج الفكاهة المقهقة، مستحقة للعطف، وشعر

بكوج إسحاقيل ينهز في جنبه وهو يقول (دورك)، فنظر

صوب الباب فرأى رجلاً يفكر البيت متعجباً، وإذا

بالمرأة تعود إلى موقفها كما رآها أول مرة، فأنهز نحوها

بقدمين ثابتتين فتلقته بانسامة، ثم مضى إلى الداخل

وهي في أثره تغني «ارخي الستارة اللي في رجبنا»...

ووجد سلكاً ضيقاً فرقي فيه وقلبه يخفق حتى انتهى إلى

دهليز يقضي إلى صالة، وصوبها يلاحقه قاتلاً من حين

لاخر «مينك»، «شالك»، وهذا الباب الموارب.

حجرة صغيرة موزقة الجدران، مكوّنة من فرائش

وتسريحة ومشجب وكوسى خشب وطست وإسريق.

ووقف في وسط الحجر كالمربك وعيناه تراقبانه.

ومضت هي تغلق الباب والنافذة التي كان يترامى منها

صوت دفّ وصقارة وتصفيق، ولاح وجهها في أثناء

ذلك جاذباً بل أقرب إلى العيوس والصرامة حتى تسامل

سائراً عينا نيتته له، ثم واجهته وراحت تقيسه بعينيها

طولاً وعرضاً، ولما مرّتا برأسه وأنفه داخله قلن، غير

أنه أراد أن يتغلب على قلقه فالتقرب منها فأنما ذراعيه،

ولكنها استنظرته بحركة جافة من يدها وهي تقول

«انتظرو» فتسمّر في مكانه. بيد أنه كان مصمماً على

تلليل المراقيل، فقال باسمًا فيها يشبه السداجة:

- أنا اسمي كمال...

فحدجته بنظرة داهشة وهي تقول:

- تشرناب!...

- ناديني! قول لي ديا كاله!

فقال: وما تزدد إلا دحشة:

- لماذا أناديك وأنت أمامي كالرزية؟!

أعود بالله! ترى أهازجه؟ وازداد تصميماً على إنفاذ

الموقف، فقال:

- قلت لي انتظر، لماذا أنتظر؟

- في هذا لك حق...

قالت ذلك، ثم نزع ثوبها بحركة بهلوانية ووثبت

إلى الفراش فزقعت تحت ثقلها، واستلقت على ظهرها

وراحت ترتّب بطنها بأناملها المهضبة بالحناء. أسمع

حينها إنكاراً، لم يكن يتوقع هذه المفاجأة البهلوانية،

وشعر بأن كلّ منها في وادٍ، وما أبعد المدى بين وادي

اللثة ووادي العمل... اجتمع في لحظة ما أقامه الخيال

في أيام، وجرت حرارة الاعتراض في ريقه، خير أن

الرضية في الاكتشاف لم تفتّر فغالب انزعاجه ثم حرك

ناظريه صوب الجسد العاري حتى استقرّ على هدف

ويذا حيناً كأنه لا يصلق عينيه، وأحد بصره في انزعاج

وتقرّز حتى شعر في النهاية بما يشبه الرعب. أهله هي

الحقيقة أم أنه أساء اختيار المثال؟ ولكن مهما يكن من

سوء اختياره فهل يفتّر هذا من الجوهر؟! ونزع أننا

نحبّ الحقيقة! شدّ ما ظلّموا رأسك وأنفك! وحديثه

نفسه بالهرب، وأوشك أن يصني إليها، ولكنه تسادل

فجأة لماذا لم يهرب الرجل الذي سبقه؟ وماذا يقول

لإسحاقيل إذا عاد إليه؟ كلّا لن يهرب، لن يتراجع أمام

المحنة...

- ما لك واقعًا كالتمثال؟

الأبد. أبعيد من الإعراض عن هذه الحقيقة مذهبه؟  
سار متفكرًا في طريق الحانة يكاد لا يلقى بالآ إلى ثروته  
إسمايل. إذا كانت الحقيقة قاسية فالكذب دميم،  
ليست الحقيقة قاسية ولكن الانفلات من الجهل مؤلم  
كالولادة، أجبر وراء الحقيقة حتى تنقطع منك  
الأنفاس. ارضُ بالآلم حتى تخلق نفسك من جديد،  
هذه المعالي تحتاج إلى عمر لاستيعابها. عمر من التعب  
تتخلله سويحات من الحمر...

هذه الثبة التي هزّت الفؤاد، لم تكذب الأذننان  
ولكن الجهل كذاب، سوف تضحك كثيرًا من نفسك  
ولكن وأنت ظافر لا هارب، هب الحياة مأساة فعليك  
أن تلعب دورك.

- أتقف هكذا حتى الفجر؟

قال بهدوء غريب:

- نطفئ النور...

فهبت جالسة في الفراش وهي تقول بهيئة وحلر:

- بشرط أن أراك في النور!

تسامل في إنكار:

- له؟

- حتى أطمئن إلى صحتك!

وتجرد للاختبار الصحي في منظر بدا له آية في  
الجزل، ثم ساد ظلام دامس.

وعندما عاد إلى الطريق كان يحمل بين جنبيه قلبًا  
فاترًا مليئًا بالخزن، ويخيل إليه أنه وسائر البشر يمانون  
تدهورًا مؤسفًا وأن الخلاص منه بعيد. ورأى إسمايل  
مقبلًا نحوه راضيًا سائرًا متعبًا وهو يتسامل:

- كيف حال الفلسفة؟

فتأبط ذراعه وسار به يسأله بدوره جلدًا:

- هل النساء جميعًا متشابهات؟

فألقي عليه الشاب نظرة متسائلة، فافصح له كمال  
عن شكوكه وخاوفه في عبارة موجزة، فقال إسمايل  
بأسيا:

- صلي العموم الأصل واحد وإن اختلفت  
الأعراض! إنك مضحك لدروجة تستحق الرثاء، هل  
أستنتج من حالك أنك لن تعود إلى هنا مرة أخرى؟  
- بل سأعود أكثر مما تظن، دعنا نشرب كأسًا  
أخرى...

ثم وكأنه يحدث نفسه:

- الجيال... الجيال!... ما هو الجيال؟

تاقت نفسه في هذه اللحظة إلى التطهر والانزعال  
والتاقل، وحنّ إلى ذكرى الحياة التي عاشها معذبًا في  
ظل المعبودة، ثم بدا وكأنه آمن بقسوة الحقيقة إلى

- ٣٦ -

أما هذا المساء فقد جاء كمال الدرب وحده، جاء  
ثملًا يترنم بصوت هامس، غير هيّاب وهو يشق بين  
تبار البشر الصائعب سيلاً، ووجد باب وردة خاليًا  
ولكنه لم يتردد كما فعل أول عهده بالدرب، وأما قصد  
البيت ودخل دون استئذان فارتقى السلم حتى انتهى  
إلى الدهليز، وهناك مدّ بصره إلى الباب المغلق الذي  
بدا ضوءه في ثقب مفتاحه، ثم مال إلى حجرة انتظار  
فألفها لحسن الحظ خالية وجلس على مقعد خشبي  
مأدًا ساقيه في ارتياح. وبعد مرور دقائق سمع صرير  
الباب وهو يفتح فتوَّج للقيام، وغادر الرجل الآخر  
الحجرة كما تجت عليه أقدامه متجهاً نحو السلم،  
فترت لحظات ثم نهض وذهب إلى الدهليز، فرأى  
وردة خلال باب حجرتها المفتوح وهي تعيد ترتيب  
الفراش، فلما لمحتة ابتسمت وهضت به أن يعود إلى  
مجلسه دقية واحدة، فعدا من حيث أتى وهو يتشم في  
ثقة، ثقة الزبون الذي جاز فترة الحضنة. ولم تذكر مرّة  
دقية على جلوسه حتى تراسى إليه وقع أقدام صاعدة  
فاستقبلها بضييق، لأنه يكره البقاء مع غيره من  
المتظرين غير أن القادم أنجم نحو حجرة وردة، وما  
لبث كمال أن سمع المرأة وهي تخاطب القادم قائلة  
برقة:

- عندي زيون فاذهب إلى الحجرة وانتظر...

ثم رفعت صوتها منادية إياه وهي تقول «تفضل»،  
فقام كمال وغادر الحجرة دون تردد فالتقى بالقادم في  
الدهليز، وجد نفسه وجهًا لوجه مع ياسمين! التفت

من ذلك فالسكوان لا يشم رائحة السكوان، خبرني الآن: ما رأيك في هذه الحكمة التي تعلمتها من الحياة لا من الكتب؟... (ثم وهو يشير إلى وردة)... إن زيارة واحدة لبنت المسومة هذه تعادل مطالعة عشرة كتب محرمة، إذن فانت تسكري يا كمال؟ يا ألف نهار \* أبيض! نحن أصدقاء من قديم الزمان، أنا أول من عد...

- الله الله!... هل أنتظر حتى مطلع الفجر! دفع ياسين كمال وهو يقول:  
- ادخل معها وسوف أنتظر أنا... ولكن كمال تتهقر وهو يترأسه بالرفض القاطع، ثم تكلم لأول مرة قائلاً:  
- كلاً... ليس... ليس الليلة.

ودسّ يده في جيبه فأخرج نصف ريال ثم أعطاه المرأة. فهتف ياسين بإعجاب:  
- تحيا الشهامة! لكنني لن أتركك وحدك... وريت كتف وردة موقفاً، ثم تلبّط ذراع كمال وذهبها ممّا حتى غادرا البيت، قال ياسين:

- يجب أن نحصل بسببها الليلة، فلنمض بعض الوقت في بار، إليّ عادة أشرب في شارع محمد عليّ مع نفر من المؤلفين وغيرهم، ولكن المكان غير مناسب لك فضلاً عن بعده، فلنغتر مكاناً قريباً حتى تتمكن من العودة مبكرين، بئ حريصاً مثلك على العودة للمبكرة منذ زواجي الأخير، أين سكوتت يا بهل؟... خضع كمال في حياء:

- فتش...  
- عا! هلم بنا إليه، نمتج بروقتك دون هباون، فغداً حين تصبح معلماً سيتعذر عليك زيارة هذا المحي بيوتته وحاناته (ثم وهو يضحك): تصوّر أن يلقاك هنا أحد تلاميذك! هل أنّ ميدان اللهور واسع وسوف تتلّوج فيه من حسن إلى أسخن...

ومضيا إلى فتش صامتين. كان من حسن الحظ أنّ العلاقة بين ياسين وكمال لم تقترب بعد هجرة ياسين للبيت القديم، ولم يكن بينهما كلفة، إذ كان من طبع ياسين ألا يعنى بحقوقه التي تكفلها له مكانته في

عينهما في نظرة ذاهلة، وسرعان ما غصّ كمال جفنيه وهو يلدّب خجلاً وارتباكاً واضطراباً، وأوشك أن يندفع هارباً لولا أن عاجله ياسين بضحكة عالية رئت في سقف الدهليز رنباً عجباً، فرقع الشاب إليه عينيه فراه فاتحاً ذراعيه وهو يهتف في سرور:

- يا ألف ليلة بيضا!... يا ألف نهار سلطاني! وقهقه عالياً فتعلّق به نظر كمال في دهول، ولما طالع فيه المرح الصافي جعل يفتيق إلى نفسه حتى ارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة متسائلة، ثم رجعت إليه الطمأنينة وإن لم يفارقه الحياء. وراح ياسين يقول بصوت خطيب:

- هذه ليلة سعيدة، الخميس ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٦، ليلة سعيدة طيّاً، ويجب أن نحفل بها كلّ عام، ففيها تكاثفت أغوار، وفيها ثبت أنّ صغير الأسرة يتقدّم حاسلاً لواء تعاليمها المجيدة في عالم اللذات!...

وعند ذلك جاءت وردة وهي تسال ياسين:  
- صديقك؟

فقال ياسين ضاحكاً:  
- بل أخي ابن أبي... كلاً ابن أبي فقط، أرايت أنّك معشوقة الأسرة يا بنت اللدين؟  
فتمتمت قائلة وعفارم، ثم خاطبت كمال قائلة:  
- واجب الأدب يقضي بأن تنزل لأخيك الأكبر عن دورك يا نونو...

فضحك ياسين ضحكته الكبيرة، وقال:  
- واجب الأدب! منلدا الذي علّمك آداب الوصل؟ تصوّري أنّا ينتظر أخاه على الباب!... ها... ها...  
فرمته بنظرة تملّير وهي تقول:

- اضحك بصورتك المخيف حتى تسمع البوليس يا سكير، ولكّتك تملر ما دام أخوك النونو لا يجيئي إلّا مترنحاً!

حذج ياسين كمال بنظرة دهش وإكبار، ثم قال:  
- أعرفت هذا أيضاً! ريه حطاً إنّنا أولاد حلال، أولاد حلال بالمعنى، قُرب فك لاشمه! ولكن لا فائدة

سريع صاحب المقل، تارة بالعين وتارة بالإشارة، هه؟  
 هذه الأمور لا تخفى على الخبير يا عكرت، ولكن لا  
 شك أنك قتعت بالعبث السطحي حتى لا تمجد نفسك  
 مضطراً إلى مصاهرة عم أبو سريع، كما صاهرت حماتي  
 السابقة بيومي الشربل، هه؟ وما هو قد أصبح من  
 ذوي الأسلاك وجاركم الملاصق! ترى أين اختفت  
 مريم؟ لا أحد يعلم عنها شيئاً، كان أبوها رجلاً طيباً،  
 ألا تذكر السيد محمد رضوان؟ فانظر ما آل إليه بيته؟  
 لكنّها الأخلاق لا تستهين بها امرأة إلا هانت!

فيا تمالك كمال أن ضحكك متسائلاً:

- والرجل ألا يلحقه من استهاته شيء؟

فضحك ياسين ضحكته الكبيرة، وقال:

- الرجل غير المرأة يا طويل اللسان، خبرني كيف  
 حال والدتك؟ الست الطيبة، ألا زالت حافظة على  
 حتى بعد طلاق مريم؟

- لا أظنها تذكر شيئاً من الأمر كله، قلب أبيض كما  
 تعلم...

فأثن على قوله، ثم هز رأسه كالأسف. وجاءه  
 النادل بالشراب والمزّة، وسرعان ما رفع ياسين كأسه  
 وهو يقول: «صحة آل أحمد»، فرفع كمال كأسه ثم  
 شرب نصفها على أمل أن يسترد ما ذهب من مرحه،  
 وقال ياسين بضم ملووه بالخيز الأسود والجبن:

- كان يخيّل لي أنك ستكون أقرب إلى خلق  
 والدتك، كما كان المرحوم، فتبّأت لك بالاستقامة،  
 ولكنك... ولكنك...

وحججه كمال بنظرة متسائلة، فعاد يقول باسماً:

- لكننا خلقنا على مثال أبينا...

- أيها! إنه الجلد الذي لا تطلق معه الحياة!

فقهقه ياسين عاليًا، وتربّت قليلاً، ثم قال:

- إنك لا تعرف أبائك، وقد كنت أجهله مثلك، ثم  
 تكشف لي عن رجل آخر قل أن يعود الزمان بمثله.  
 وتوقّف عن الكلام، فقال كمال بحبّ استطلاع  
 واهتمام:

- ماذا عرفت عما لم أعرف...؟

- عرفت أنه قطب اللطافة والطرب، لا يحملق في

الأسرة، إلى أن غالطه كمال له وإطلاعه على سيرته عن  
 كتب واستناده إلى ما يقال عنه جعلته يؤمن بولع أخيه  
 بالنساء وميله مع الأهواء، ولكنّه رغم هذا كله قد  
 بوغت لمقاتته في بيت وردة مباحثة عنيفة، إذ لم يذهب  
 به الخيال إلى حدّ تصوّر ياسين سكيراً أو متسكّفاً في  
 هذا الدرب! وعمور الوقت أخذ يتخفّف رويداً رويداً  
 من وقع المفاجأة، كما مضى الشعور بالانزعاج يزايله،  
 ثم حلّ محله إحساس بالطمأنينة بل بالارتياح. ولما  
 بلغا فنش وجداه مكثّفاً بالجلوس، فاقترح ياسين أن  
 يجلسا في الحارح، واختار مائدة عند طرف الطوار على  
 ناصية الطريق ليتعدا ما أمكن عن الناس، ثم جلسا  
 متقابلين وهما يتسنان:

- أشربت كثيراً؟

أجاب كمال بعد تردّد:

- كاسين...

- لا شك أن لقاءنا غير المتوقع طيّر أثرهما، فلنؤيد  
 الكثرة، أمّا أنا فلا أشرب إلا قليلاً، سبعة أو  
 ثمانية...

- يا خير! أبعد هذا قليلاً؟

- لا تدهش كالسجّ فإنك لم تعد ساذجاً...

- حل فكرة، قبل شهرين لم أكن أدري شيئاً عن  
 طمعها...

فقال ياسين كالمتسكّر:

- شهرين؟! يبدو أنّي أحترمك أكثر مما تستحقّ!

وضحكما ممّا. ثم طلب ياسين كأسين، وعاد  
 يتسائل:

- ومتى عرفت وردة؟

- عرفت وردة والويسكي في ليلة واحدة...

- وما خبرتك بالنساء عدا ذلك؟

- لا شيء...

فحقّ ياسين رأسه وهو ينظر إليه من تحت حاجبيه  
 مقطّباً في ابتسام، كأنما يقول له «اطلع من دول»، ثم  
 قال:

- إنّاك وأدعاه البلاء، لم يفتني أن أطلع في زمن

مضى على مناورات كانت تلور بينك وبين بنت أبو

عابدة المعبودة وعابدة الحيل؟ أنا نفسي ما أنا؟ لماذا  
تأملت ذلك الأمل الرحسني الذي لم أبرأ منه بعد؟  
أضحك حتى تنفخ.

- ما عسى أن يقع لو رأنا يجلسنا ههنا؟  
فرقع ياسين بأصبعه، ثم قال:  
- أعوذ بالله!  
- وهل زبيدة جميلة حقًا؟  
فصفر ياسين وهو يرفع حاجبيه.  
- أليس من الظلم أن يتمتع أبونا بالدمسم، على  
حين لا نجد نحن إلا الفئآت؟  
- انتظر حطك، ما زلت في أول الطريق.  
- ألم يتغير سلوكك معه بعد وقوفك على سريره؟  
- إلا هذا!  
لاحظ نظرة حالة في عيني كمال وهو يقول:  
- ليته أعطانا من لطفه نصيبًا!  
- ليته...

- ما كان أمرنا ليفسد أكثر مما فسدنا  
- حب النساء والخمر ليس من الفساد في شيء...  
- وكيف تفسر سلوكه على ضوء إيمانه العميق؟  
- وهل أنا كافر؟ وهل أنت كافر؟ وهل كان  
الخلفاء كفرة؟ الله غفور رحيم...  
ما عسى أن يكون جواب أبي؟ شد ما أتوق إلى  
مناقشته، كل شيء محتمل إلا أن يكون منافقًا، كلًا  
ليس هو بالمنافق، وما أزداد له إلا حياءً وغمرته الجورة  
الأخيرة رغبة في الدعابة، فقال:  
- من المؤسف أنه لم يتعلم فن التمثيل!  
فضحك ياسين ضحكة عالية، وقال:  
- لو علم بما يتهيأ للممكّل من حياة حافلة بالنساء  
والخمر لكرّس حياته للفن...

أهذا الكلام المازي عن السيد أحمد عبد الجواد  
حقًا؟ ولكن هل يكون هو أجل من آدم؟ ومع ذلك  
فالمصادقة وحدها هي التي عرفتك بحقيقة الرجل،  
والمصادقة هي التي لعبت في حياتك أخطر الأدوار، لو  
لم أصادف ياسين في الدرب لما انقضت عن عيني  
غشاوة الجهل، لو لم يجلبني ياسين على جهله إلى

كالمعتوه، ولا تظنني سكران، والدك عملة الفكاهة  
والطرب والعشقا  
- أبي؟...

- أول ما عرفته في بيت زبيدة العالة...  
- زبيدة ماذا؟... ها... ها...  
ولكن وجه ياسين يدا أبعاد ما يكون من الهزل،  
فكفت كمال عن الضحك قبل أن تزايل أسأريه هيئة  
الضحك، ثم أخذ فمه يضيّق رويدًا رويدًا حتى  
انطبقت شفاهه فحمل في وجه أخيه صامتًا وهذا يحذّثه  
عما رأى أو سمع عن أبيها في تبسط وإسهاب. هل  
يفترى ياسين على أبيه كذبًا؟ كيف يمكن أن يقع هذا  
وأبي بواحد تبرّه؟ كلّا إنه لا ينطق إلا بما علم،  
وهذا إذن هو أبوه، ربّه، والجذّ والجلال والوقار ما  
أمرها؟! إذا سمعت غداً أنّ الأرض مسطحة أو أنّ  
أصل الإنسان هو آدم فلا تدهش ولا تنزعج، وأخيرًا  
تسأل:

- أتدري والذي بذلك؟  
ياسين وهو يضحك:  
- لا شك أنّها تدري بسكره على الأقل...  
تري كيف كان أثر ذلك في نفسها هي التي تفرغ  
من لا شيء؟! أنكون أمي - مثلي - ظاهرًا من السعادة  
وباطنًا من الشقاء؟ قال وكأنه يتنحل أسبابًا للدفاع لا  
يؤمن بها:  
- الناس هواة مبالغة فلا تصنّق جميع ما يزعمون،  
ثم إنّ صحتهم تدلّ على أنّه رجل معتدل في حياته.  
فقال ياسين بإعجاب، وهو يشير إلى النادل أن يعيد  
الكرة:

- إنه أعجوبة! جسمه معجزة، وروحه معجزة،  
كل شيء فيه معجزة، حتى طول لسانه (ضحك منها  
منا)... تصوّر أنّه بعد هذا كله يحكم آله كما تعلم  
ويحافظ على جلاله واحترامه كما تری... ما  
أضحني!...

تأمل هذه العجائب: أنت وياسين تشاريان! أبوك  
شيخ ماجن! هل ثمة حقيقي وغير حقيقي؟! ما علاقة  
الواقع بما في رموسنا؟ ما قيمة التاريخ؟ ما العلاقة بين

فماد كمال يسأل وعيناه تلمعان بالأمل :

- ماذا ترى من اختلاف بين امرأة وأخرى؟

هو ياسين رأسه في زهو إدلالاً بالمكانة التي وضعته فيها أسئلة كمال، ثم أجاب بلهجة خبير:

- درجة المرأة تتقرر في كادر النساء تبعاً لمزاياها الأخلاقية والعاطفية بصرف النظر عن أسرتها ومركزها، فزئوة أفضل عندي من زينب لأنها أعمق عاطفة وأشد إخلاصاً وحرصاً على الحياة الزوجية، ولكنك في النهاية تجهن شيئاً واحداً، عاشر الملكة بلفس نفسها فلا يحصى من أن تجهدها آخر الأمر منظرًا معادًا ونعمة مكثرة...

خبا للمعان في عيني كمال، ترى هل أمست عابدة منظرًا معادًا ونعمة مكثرة؟ ما أبعد هذا التصور عن التصديق! ولكن ما أنت إلا صريح الواقع، وحق الشبهة بها تكبر عليك وتعز، وإنه لما يبعث على الجنون أن يعلم المعبود الذي تذهب النفس حيرة عليه أنه كان في وسع الآيام أن تجعل منه منظرًا معادًا ونعمة مكثرة، بل أيّ الخالسين أحب إليك إن استطعت جواباً؟ غير أنني انحسر أحياناً على الملل من شدة الشوق كما يتحسر ياسين على الشوق من شدة الملل، وأرفع رأسك أخيراً إلى ربّ السواوات وسله عن حلّ سعيد:

- ألم تحب أبداً؟

- إذن ما هذا الذي أنا غارق فيه؟

- أعني حباً حقيقياً لا هذه الشهوة العابرة...؟

أفرغ كاسه الثالثة، ومسح على فمه بظاهر كفّه، ثم قتل شاربه وقال:

- لا تؤاخذني، الحب يترجم عندي في بعض مواضع كالقم واليد ألغ ألغ.

ياسين جميل، ما كانت لتسخر من رأسه أو أنفه، ولكنّه بما قال يبدو حقيقياً بالرتاء، كأنّ الإنسان لا يكون إنساناً إلاّ أن يحب، ولكن ما جدوى ذلك وما جنيت من الحب إلاّ الألم؟! واستطرد ياسين قائلاً، وهو يحثّ بالإشارة على الفراغ من كاسه:

- لا تصنّق ما يقال عن الحب في الروايات، الحب

الفرادة لكنت اليوم في مدرسة الطبّ كما تحقّ أبي، ولو التحقت بالسعيديّة ما عرفت عابدة، ولو لم أعرف عابدة لكنت إنساناً غير الإنسان ولكن الكون غير الكون، ثم يحلو للبعض أن يعيب على دارون اعتاده على المصادفة في تفسير آلية مذهبه. قال ياسين مستعيراً لهجة الحكيم:

- سوف تعلّمك الآيام ما لم تعلم...

ثم وهو يسخر من نفسه:

- ما هي تعلّمني أن أقضي لذاتي مبكراً حتّى لا أثير شكوك زوجتي...

وهو رأسه وهو ينظر إلى عيني كمال المتأملتين الباسمتين، ثم استطرد:

- إننا أقوى زوجاني الثلاث، ويحتمل إليّ أنني لن أخلّص منها!

لساله كمال باهتمام وهو يشير ناحية الدرب:

- ما الذي جاء بك إلى هذا وأنت متزوّج للمرأة الثالثة؟

لرّكد ياسين الجملة المشهورة من الأغنية التي سمعها كمال أوّل ما سمعها في دخلة عائشة:

- علشان كده... علشان كده... علشان كده... ثم قال مبتسماً في شيء من الارتباك:

- قالت لي زئوة مرة وأنت لم تتزوّج قط، كنت تعتبر الزواج نوعاً من العشق، وقد أد لك أن تنظر إليه بعين الجذّة، أليس غريباً أن يصدر هذا القول من عرّادة؟

ولكنّها فيها يبدو أحرص على الحياة الزوجية من سابقتها، وهي مصمّمة على أن تبقى زوجة في حقّ تنفض عينيّ، لكنّي لا أستطيع أن أقوم النسوان، سرعان ما أحيهنّ وسرعان ما أمهلنّ، لذلك عملت إلى هذه الدروب لأقضي اللبنة مبكراً دون التورط في عشق طويل، ولولا الملل ما سمعت إلى امرأة في درب طياب!

فسأله كمال باهتمام متزايد:

- أليست هي امرأة ككلّ النساء؟

- كلا، إننا امرأة بلا قلب، الهوى عندها سلمة!



وحياً ملائكةً ولكن لم يعد للملائكة وجود فابحث في ذات الإنسان واسلكه ضمن الحقائق الفلسفية والعلمية التي تشوّق إلى اقتحامها، بذلك تنف على سرّ مأساتك وتكشف النقاب عن سرّ عابدة المكتون، لن نحمدها ملائكة ولكن باب السحر سيفتح لك مصراعيه، أما الوحش والحبل والمنظر للمعاد وسائر الروائح فما أتمضي!

قال كمال بأسى لم يفتن إليه أخوه:  
- الإنسان مخلوق قلدر، ألم يكن من الممكن أن يُخلق خيراً وأنظف مما كان؟!  
رفع ياسين رأسه دون أن ينظر إلى شيء بالذات، وقال بسرور عجيب:

- الله... الله، النفس شعشت واستحالت أغنية، وانقلبت الأعضاء آلات طرب، والدنيا حلوة، والكائنات حبيبة للقلب، والجو عذب، والحقيقة خيال، والخيال حقيقة، أما النقصات فأسطورة، الله... الله، ما أجل الحمر يا كمال، الله يطول عمرها ويدبها علينا ويعطينا الصحة والعافية لنشرها حتى آخر العمر، ويخرب بيت الذي يمسها بسوء أو يتقول عليها بغير الحق، تأمل هذه النشوة الحلوة، تأمل، أحمض حينك، هل وجدت لذة كهذه؟... الله... الله... الله، (ثم وهو يخفض رأسه ناظراً إلى كمال)... ماذا قلت يا ولدي؟ الإنسان مخلوق قلدر؟ أساءك ما قلت عن المرأة؟ لم أتكلّم لأثير استمزازك منها، الواقع أنّ أحبّها، أحبّها بكل ما فيها، ولكنّي أردت أن أبرهن لك هل أنّ المرأة الملاك لا وجود لها بل لا أدري إن كنت أحبّها إن وجدت! فإني مثلاً - كأيك - أحبّ الأهداف القليلة، ولو كان الملاك ذا أهداف ثقيلة لتعلّد عليه الطيران، انهمني جيّداً ولا تمنى فهماً وحياة أبنينا السيد أحمد...

وما لبث كمال أن شاركه نشوته، فقال:  
- لشّد ما تبدو الدنيا مجبوبة إذا سرت الحمر في الروح!...

- يسلم فمك، حتى النغمة المألوفة يترنم بها شحاذ الطريق تقع من الأذن موقع السحر...

عاطفة أيام أو أسابيع مع حسن الظن!  
كفرت بالخلود ولكن هل نسيان الحبّ ممكن؟ لم أهد كما كنت، إنّني أتسلّل من جحيم العذاب فتشغلني الحياة حيناً حتى أرجع إليه، وكان الموت قبلي واليوم ثمة حياة ولو بلا أمل، العجب أنّك تنور على فكرة النسيان كلياً خطرت، كأنما تعاني تبيكت الضمير، أو لعلك تخاف أن ينكشف أجلّ ما قلّست عن وهم، أو أنّك تأمل على يد العلم أن تعبت بالحياة الرائعة التي بدونها تغدو ومن لم يولد سواء، لكن ألا تذكر لمّ بسطت الراحتين داعياً الله أن يتشكّل من العذاب وأن يلهمك النسيان؟!

- ولكنّ الحبّ الحقيقيّ موجود، نقرأ حوادثه في الصحف لا في الروايات...

ابسم ياسين ابتسامة ساخرة، ثمّ قال:  
- بالرغم من أنّي مبتلّ بحبّ النسوان فإني لا أعترف بهذا الحبّ، إنّ المآسي التي تقرأ أخبارها تتحدّث في الواقع عن شبّان غير مجرّبين، أسمعت عن جنون ليل؟ لعلّ له نظائر في هذه الحكايات، ولكنّ المجنون لم يتزوّج من ليل؟ دلّني على شخص واحد جنّ بحبّ زوجته! وأسفاه! إنّ الأزواج عفلاء جدّاً، عفلاء ولو كرهوا، أمّا الزوجة فيبدأ بالزواج جنونها، لأنّها لا تفتن بأهل من أن تزود زوجها، ويخجل إلى أنّ المجانين يصيرون عشاقاً لأنهم مجانين لا أنّ العشاق يصيرون مجانين لأنهم عشاق، تراهم يتحدثون عن المرأة كأنّها يتحدثون عن ملك، والمرأة ليست إلّا امرأة، طعام للبهل سرعان ما تشبع منه، دعهم يشاركونها الفرائس ليكلّموا على منظرها عند الاستيقاظ وليشتموا رائحة عرقها وسائر الروائح التي قد تصدر عنها وليحدّثوني بعد ذلك عن الملاك. فتنة المرأة ما هي إلّا طلاء أو أداة إغراء حتى تقع في الشرك وعند ذاك يبدو لك المخلوق الآدمي على حقيقة: لذلك فالأبناء ومؤخّر الصداق والثقة الشرعية هي سرّ قوة الزواج لا الجمال أو الفتنة...

ما كان أجدره أن يغيّر رأيه لو رأى عابدة، غير أنّه ينبغي أن تفكّر من جديد في أمر الحبّ. كنت تراه

فقال كمال في شيء من القلق:

- أرجو أن أصل البيت قبل أبي...

- الحظوظ شرّ أنواع النعاسة، لتحيا الثورة!

- أجل لتحيا الثورة!

- لتسقط الزوجة المستبدّة!

- ليسقط الأب المستبد!

### - ٣٧ -

طرق كمال الباب في خفة حتى نُفّح عن شبح أم

حنفي، ولما عرفته قالت بصوت هامس:

- سيدي الكبير عل السّلم...

فانتظر وراء الباب حتى يطمئن إلى وصول أبيه إلى

الدور الأعلى، غير أن صوته جاء من داخل السّلم وهو

يسأل بشدة:

- من الطارق؟

فمخفق قلبه ولم ير بدأ من التقدّم وهو يجيبه:

- أنا يا بابا...

ترامى له شبح أبيه على بسطة الدور الأوّل على

حين لاح ضوء المصباح الذي تمسك به الأم في أهل

السّلم، ونظر السيّد إليه من فوق الدرابزين، وهو

يتساءل في دهش:

- كمال؟! ... ما اللي أُخْرِك خارج البيت حتى

هذه الساعة؟

أخبرني الذي أُخْرِك...

قال بإشفاق:

- ذهبت إلى المسرح لأشهد التمثيلية المقرّة علينا

هذا العام...

فصاح ساخكًا:

- هل أصبحت المذاكرة في المسارح؟! ألا يكفي أن

تقرأ وتحفظ؟ كلام فارغ سمع، ولم لم تستأذني؟

توقّف كمال على بعد درجات من موقف أبيه، وقال

معتذرًا:

- لم أتوقّع أن تمتدّ السهرة إلى هذه الساعة المتأخّرة.

فقال الرجل بغضب:

- حتى أحزاننا تبدو كأنها أحزان شخص آخر...

- بخلاف نساء الشخص الآخر، فإثنا تبدو وكأنها نساؤنا...

- هما شيء واحد يا بن أبي...

- الله... الله، لا أريد أن أفیق...

- من رذالة الحياة أنّها لا تمكّننا من الاستمرار في السكر كما نهوى...

- لكن في معلومك أنني لا أرى في السكر لهوًا،

ولكن غاية سامية للمعرفة والمثل الأعلى...

- إذن فأنا فيلسوف كبير!

- عندما تؤمن بما قلت وليس قبل ذلك...

- الله يطول عمرك يا أبي، فقد أنجبت فلاسفة مثلك!

- لم يبدو الإنسان تميّسا مع الله لا يطلب أحسن من كأس وما أكثر الفواير، وامرأة وما أكثر النساء؟! ... له... له...

- ساجيك عندما أشرب كأسًا أخرى...

- كلًّا...

قال ياسين ذلك بصوت وقى بصحوة طارئة، ثم استطرد محذّرًا:

- لا تفرط، إني شريكك الليلة فأنا مشرول عنك، كم الساعة الآن؟...

وأخرج ساعته فنظر فيها، ثم هتف:

- منتصف الواحدة، وقع المخلوط يا بطل، كلانا قد تأخّر، وراك أبونا وورائي زنتوية، قم بنا...

ولم تمس دقائق حتى غادرا البار، فاستقلاّ حربة انطلقت بهما صوب العتبة، دارت العربة حول سور

الأزبكية في طريق يسوده الظلام، وبين آونة وأخرى يُرى عابر مهوّلًا أو مترنّحًا، وكلّما مرّت العربة بشارع

مقاطع تراس إلى إليها صوت غناء محمله نسمة رطبية، أمّا فوق المباني وأشجار الحديقة الباسقة فقد تألّقت

النجوم اليواظ.

قال ياسين ضاحكًا:

- أستطيع الليلة أن أحلف غير متحرّج بأنني لم أتبع منكرا...

يواظب هو عليه؟

حال الظلام دون رؤية ما ارتسم على وجهها من دهش وإنكار، لكنه سمعها تضحك من أنفها لتومه بأنّها لم تحمل قوله على عمل الجذّة، وقالت:

- كلّ الرجال يسهرون، وسوف تصير رجلاً عينا قريب، أما الآن! وأنت طالب...

فقاطعا قاتلاً بلهجة من يؤدّ الفراغ من الحديث: مفهوم... مفهوم، لم أقصد بقولي شيئاً، لماذا نعتت نفسك بالساجي إليّ؟ عودي مصحوبة بالسلامة...

قالت برقة:

- خطت أن تكون متكبراً، سأتركك الآن ولكن عدني بأن تنام صافي النفس، اقرأ الصلوة حتى ياتيك النوم...

وشعر بابتعادها، ثمّ سمع الباب وهو يغلّق وصروها يقول «ساء الخير»، نفخ مرّة أخرى، وراح يمسح صدره ويطنه وهو يحلق في الظلام... أمّا مذاق الحياة كلّها فكان مرّاً، أين ذهبت نشوة الفجر الساحرة؟ وما هذا الكرب الخائق الذي حلّ محلّها؟ ما أشبهه بخيبة الحبّ التي ورثت أحلامه الساوية، ومع ذلك فلولا الأب ما انقلب حاله. هذه القوّة الجبّارة التي يخافها كلّ الخوف، يخافها ويحبّها معاً، ما كنهها؟ ليس إلّا رجلاً لولا مرحة الذي خصّ به الغرباء لم يكن شيئاً، فكيف يخافه؟ وحتى متى يدنّ لقوّة هذا الحوف؟ إنّه وهم كسائر الأوهام التي امتحن بها، ولكن ما جدوى النطق في مقاومة العواطف الثابتة؟ وقد قرعت يده يوماً أبواب عابدين في المظاهرة الكبرى التي تحدّت الملك هاتمة «سعد أو الثورة»، فراجع الملك واستقال سعد من الوزارة... أمّا حيال أبيه فإنه يصير لا شيء. كلّ شيء تفتّر ملولوه ومعناه، الله... آدم... الحسين... الحب... عابدة نفسها... الخلود. قلت الخلود؟ نعم، فيها يجري على الحبّ وفيها جرى على فمعي، ذلك الأخ الشهيد الذي استضافه الفناء إلى الأبد، أتذكر التجربة التي قمت بها وأنت في الثانية عشرة من عمرك لتعرف

- شئت لك طريقة أخرى للمذاكرة ودمك من الأعداد السخيفة...

ومضى يرقى في السلم وهو يندلم، فترامت إليه كليات من دمنمته مثل «مذاكرة المسارح على آخر الزمن»، «الساعة واحدة بعد منتصف الليل»، «حتى الأطفال»، «ملعون أبوك وأبو التمثيلية المقرّة». ارتقى السلم حتى الدور الأخير ومضى إلى الصالة، فتناول مصباحاً مضاء من فوق متضدة ودخل حجرته مكشّراً الوجه، وضع المصباح على المكتب ووقف مستنذاً بكلتا يديه يتسامك عن تاريخ آخر شتمة قلّده بها أبوه فلم يتذكره على وجه التحديد، ولكنه كان وثقاً من أنّ سنوات دراسته العالية مرّت في سلام وكرامة، ولأنّك وقعت اللعنة من نفسه - رغم أنّه لم يواجه بها - موقفاً أليماً. وتحوّل من مكتبه فخلع طربوشه وشرع في نزع ملابسه، وهل حين فجأة شعر بدوار في رأسه وجزع في معدته، فغادر الحجره مسرعاً إلى الحمام حيث قلب جوفه بما فيه في عنف ومرارة، وعاد إلى الحجره مرّة أخرى منبوك القوى متقرّز النفس يجد في صدره شيئاً أشدّ وأعمق، وخلع ملابسه وأطفأ المصباح ثمّ استلقى على الفراش وهو ينفخ في ضيق وضجر، ولكن لم تمض دقائق حتى سمع الباب وهو يفتّح برقع، ثمّ جابه صوت أمّه متسائلاً في إشفاق:

- نمت...؟

فقال بلهجة طبيعيّة راضية بصرفها عنه ويخلو إلى ما هو فيه:

- نعم...

فنداق شبحها من الفراش حتى وقفت فوق رأسه، ثمّ قالت كالمعتدة:

- لا تتكدر، أنت أعلم الناس بأبيك...

- مفهوم... مفهوم!

فقالت وكأنّها أرادت أن تقصص عينا سالورها هي:

- إنّه مطلع على جدك واستقامتك، ومن هنا جاء إنكاره لتأثرك غير المألوف حتى هذه الساعة... فركبه الغيظ حتى لم يتمالك من أن يقول:

- إذا كان السهر يستوجب كلّ هذا الإنكار، فلماذا

معبيره المجهول؟... يا للذكرى الحزينة!...  
 اقتنصت عصفورة من عشها ثم خنقتها، وكفقتها  
 وحفرت لها قبرا صغيرا في فناء البيت على كتب من  
 البثر القديم ثم دفنتها فيه، ويعد أيام أو أسابيع نبشت  
 القبر وأخرجت الجثة، فيأذا رأيت وماذا شممت؟  
 وذهبت إلى أمك باكيا تسأله عن مصير الميت، كل  
 ميت، ومصير فهمي خاصة فلم يصدك عنها إلا  
 إضحامها في البكاء، فيأذا بقي من فهمي بعد سبع  
 سنوات؟ وماذا سيبقى من الحب؟ وهم غطس الأب  
 الجليل؟  
 ألفت عيناه غلام الحجرة فترامى المكتب والشجب  
 والكرسي والصوان أشباحا قائمة، ونذت عن الصمت  
 نفسه أصوات مبهمة، وامتلأ رأسه بالأرق المحموم،  
 أما مذاق الحياة فازداد مرارة، وتساءل هل غط ياسين  
 في نومه؟ وهل أتى حال كان لقاء زوية له؟ وهل أوى  
 حسين إلى فراشه الباريسي؟ وعلى أي جانب تنام هابدة  
 الآن؟ وهل تكوّر بطنها واندها؟ وماذا يفعلون في  
 نصف الكرة الآخر الذي تتربّع الشمس في كبد  
 سيئه؟... والكواكب المنيرة، أليس ثمة حياة تعمرها  
 خالية من التعاسة؟ وهل يمكن أن يُسمع أنهيه الحلفت  
 في ذلك الأوركسترا الكوني اللانهائي؟  
 أيها دعني أكاشفك بما في نفسي، لست ساعطا على  
 ما تكشف في من شخصك، فإن ما كنت أجهله منك  
 أحب إلي مما كنت أعرف، إلي معجب بلطفك وظرفك  
 وجونك وحريبتك ومغامراتك، ذلك الجانب النعيم  
 منك الذي يعيشه جميع عارفيه، وهو إن دل على شيء  
 فعل حيونتك وهيامك بالحياة والناس، ولكني أسألك  
 لم ارتضيت أن تطالعنا بهذا القناع الفظ المخيف؟ لا  
 تتعلّ بأصول التربية فانت أجهل الناس بها، وأي ذلك  
 ما ترى وما لا ترى من سلوك ياسين وسلوكي، فيا  
 فعلت إلا أن أذبتنا كثيرا وعلمتنا كثيرا بجهل لا يشفع  
 لك فيه حسن نيتك، لا تجزع فلاني ما زلت أحببك  
 وأعجب بك، وسأبقى على الدوام مخلصا لحبك  
 والإعجاب بك، غير أن نفسي تضمر لك لومًا شديدا  
 يعادل ما جرّعتني من ألم، لم نعرفك صديقا كما عرفك

الغريباء، ولكن عرفناك حاكما مستبدا شرسا طاغية،  
 كأننا كنت أول مقصود للبلل القاتل (عدو عاقل غير  
 من صديق جاهل)، لذا ساكره الجهل أكثر من أي  
 شيء في الحياة، فهو المفسد لكل شيء حتى الأيوة  
 المقدسة. خير منك أب له نصف جهلك ونصف حبك  
 لابناتك، وإني أعاهد نفسي - إذا صرت يوما آبا - أن  
 أكون لابناتي الصديق قبل أن أكون المرء، غير أنني ما  
 زلت أحببك وأعجب بك حتى بعد أن زابتك صفات  
 الألوهية التي توهمتها فيها مغى عيني المسحورتان.  
 أجل لم تعد قوتك إلا أسطورة، فلست مستشارا  
 كسليم بك ولا غنيا كشداد بك ولا زعيما كعمد  
 زغلول ولا داهية كزوت ولا نبيل كعليل. ولكنك  
 صديق محبوب وحبيبك هذا، وما هو بالقابل، فليتك  
 لم تضن علينا بصداقتك، ولكن لست وحدهم الذي  
 تغيرت فكرته، الله نفسه لم يعد الله الذي عبده قديما،  
 إلي أهزل صفات ذاته لأنفها من الجبروت والاستبداد  
 والفهر والدكتاتورية وسائر الغرائز البشرية، ولست  
 أدري أين ينيخ أن أشكم الفكر ولا إن كان من  
 الفضيلة أن أشكمه، بل إن نفسي تحذني بأنني لن أقف  
 عند حد ويأذ النضال على عذابه غير من الاستكانة  
 والنوم. قد لا يبتك هذا بقدر ما يبتك أن تعلم أنني  
 قررت أن أضع حدا لاستبدادك، استبدادك الذي  
 ينشاني كما ينشاني هذا الظلام المحيط، والذي يؤلني  
 كما يؤلني هذا الأرق اللعين، أما الحمر فلن أدوقها  
 جزاء خيانتها لي، وأسأله إذا كانت الحمر أبشأ وهما  
 خادعا فما بقي للإنسان؟ أقول لك أنني قررت أن أضع  
 حدا لاستبدادك، لا بالتحدّي والمصهان فانت أكرم  
 على نفسي من أن أفعل بك هذا، ولكن بالهجرة! أجل  
 لأهاجر من بيتك حال أقف على قدمي، وفي أحياه  
 القاهرة متّسع لكل مضطهد، أتدري ماذا كانت  
 عواقب حبي لك رغم استبدادك بي؟ أتى عبدت  
 مستبدا آخر ظلما ظلمي بظاهره وباطنه معا، استبد بي  
 دون أن يحبني، ورغم ذلك كله عبدته من أمالي ولا  
 زلت أعبده، فانت أول مشغول عن حبي وعذابي.  
 ترى ما نصيب هذه الفكرة من الحقيقة؟ لست مرتاحا

مثلي من الحيار والغثيان قاذعٌ لها بالشفاء العاجل...

- ٣٨ -

فترحمس ياسين حال انفراده بنفسه في العربة بعد  
ذهاب كمال، وبدأ كالمشغور رغم سكره، إذ جاوزت  
الساعة الواحدة ودخل الوقت منذ كثير في الهزيع  
المريب من الليل، وسوف يجد زئوبة إنا يقظى تنتظر  
وتغلي وإنما مستيقظ حين دخوله، وعلى أي حال فلن  
نمر الليلة بسلام، بسلام كامل على الأقل.

غادر العربة عند متعطف قصر الشوق ومضى  
يخوض الظلام الدامس وهو يتر كتيبه المربطين في  
استهانة ويقول لنفسه بصوت هامس وليس ياسين  
الذي يعمل حاسباً لأمراه، وكثر هذا القول وهو  
يرقى في الدرج مسترشداً في الظلام بالدرابزين، غير  
أن تكراره إياه لم ينم عن طمأنينة قاطعة. وفتح الباب  
ودخل، ثم مضى إلى حجرة النوم على ضوء مصباح  
الصالة، وألقى على الفراش نظرة فراها نائمة، فردّ  
الباب ليحول دون تسرب الضوء الخافت الآتي من  
الصالة، وراح يخلع ملابسه في هدوء وحذر وهو يزداد  
اطمئناناً إلى استراقها في النوم، ويرسم في ذهنه خطة  
للتسلل إلى موضعه في الفراش دون أن يحدث صوتاً.

- أشعل المصباح لأكمل عيني برويتك!

التفت رأسه نحو الفراش ثم ابتسم في تسليم،  
وأخيراً تساد كالداهش:

- آنت يقظى؟! ظننتك نائمة فلم أشأ أن

أزعجك!

- فليك طيب، كم الساعة الآن؟

- الثانية عشرة على الأكثر، فإني غادرت المجلس  
حوالي الحادية عشرة، وجئت ماشياً واحدة واحدة...

- لازم كان جالسك في بنتا!

- لماذا؟... هل تأخرت؟

- انتظر حتى يبيك ديك الفجر بنفسه.

- لعلة لم ينم بعد!

وجلس على الكتبة ليخلع حذاءه وجواره ولم يكن  
عليه إلا القميص والروال، وعند ذلك نلت من

إليها ولا متحمساً لها، ومهما يكن من واقعية الحب فلا  
شك أنه يرجع إلى أسباب أعمق أصالة في النفس،  
فلتركتها الآن معلقة حتى نعود إليها بالدرس فيما بعد،  
وعلى أي حال فانت يا أبي الذي هونت على الإحساس  
بالظلم بمدامتك على الاستبداد بي، وأنت يا أمي لا  
تحملي في وجهي بإنكار أو تسادلي ما ذنبي وما جنيت  
على أحد، إنه الجهل. هو جنتك. الجهل...  
الجهل... الجهل... أي هو اللفظاظلة الجاهلة،  
وأنت الرقة الجاهلة، وسوف أظل ما حييت ضحية  
خدين الضمدين، وجهلك أيضاً هو الذي ملا روعي  
بالأساطير، فانت همزة الوصل بيني وبين عالم  
الكهوف. وكما أشقى اليوم في سبيل التحرر من آثارك  
كما ساشقى غداً في سبيل التحرر من أبي، وما كان  
أحراكنا أن نقرأ على هذا الجهد المضي، لذلك أقترح  
- وظلام هذه الحجرة شهيد - أن تلغي الأسرة - هذه  
الحفرة التي يتجمع فيها الماء الأسن - وأن تزول الأبوة  
والأمومة، بل مبي وطناً بلا تاريخ وحية بلا ماضٍ،  
ولننظر الآن في المرأة فإذا نرى؟ هذا الأنف الضخم  
وهذا الرأس الكبير. أعطيتي أنفك يا أبي دون مشورة  
أو راحة فانت تستبد بي حتى قبل أن أولد، ومع أنه  
يبدو في وجهك مهيأً جليلاً فإنه - بذاة وشكله - يلوح  
مضحكاً في صفحة وجهي الضيقة كأنه جندي  
إنجليزي في حلقة ذكر، وأعجب منه رأسي لأنه لا إلى  
فصيلة رأسك ينتمي ولا إلى فصيلة رأس أمي فعن أي  
جد بعيد انحدر إلي؟ فليظل ذنبه معلقاً فوق رأسيكما  
حتى يتضح لي الحق. قليل النوم يجب أن نقول  
والوداع فقد لا يطلع الصبح علينا. إني أحب الحياة  
رغم ما فعلت بي على طريقة حيي إناك يا أبي. وفي  
الحياة أشياء جديرة بالحب وصفحة وجهها مليئة  
بعلامات الاستهزام مثيرة للشغف، غير أن النافع فيها  
لا نفع فيه وما لا نفع فيه عظيم الشأن، والراجع آتي  
لن أعود إلى تقبيل الكأس فقل وداعاً أيها الحمر،  
ولكن مهلاً. أذكر ليلة غادرت بيت عيشة عاقداً  
المزم على ألا أقرب النساء ما حييت وكيف انقلبت  
بعد ذلك زبونها الأثير، ويحلي إلي أن الإنسانية تن

السرير طقطقة ورأى شبحها يستوي جالساً، ثم سمعها تقول في حدة:

- أشعل المصباح.

- لا داعي لذلك، فقد فرغت من خلج ملابسي.

- أريد أن نصقّي حساننا في النور...

- تصفية الحساب في الظلام اللطيف!

وصدوت عنها نفخة غيظ ثم غادرت الفراش، ولكنّه مدّ ذراعيه من مجلسه القريب فأصاب منكبها فجذبها إلى الكنبه وأجلسها إلى جانبه وهو يقول:

- لا تشعلي الفتنة...

تخلّصت من يده، وقالت:

- أين ما تعاهدنا عليه؟ لقد قبلت أن تسكر في

الحانات كما تحبّ على شرط أن تعود إلى بيتك في وقت

مبكر، قبلت هذا على رضي لآنك لو سكرت في بيتك

لوقرت على نفسك مآلاً كثيراً يضيع هباء، ومع ذلك

فها أنت تعود قبيل الفجر غير مبال بما تعاهدنا عليه!

من يستطيع أن يخادع ربيبة التخت والموعد؟ وإذا

ثبت لها خيانتك يوماً فهل تقف عند حدّ الشجار

أم...؟ فمُرّ مرتين، ولا تنس كذلك أنّ فقدنا لا

ييون، إنّها أحبّ زوجاتي إليّ، خبيرة بما يسعدني،

متمسكة بحياتنا، لولا الملل...!

- كنت في مجلس كلّ ليلة لم أخلّاه إلا إلى بيتي،

وعندي شاهد تعرفينه، اتلرين من هو؟ (وضحك)

بصوت عالٍ

ولكنّها قالت ببرود:

- تكلم في الموضوع!

فقال وهو لا يزال يضحك:

- كان جليسي الليلة أخى كمال!

فلم تدهش كما توقّع، وقالت في نفاذ صبر:

- من يشهد للعروس؟!

- لا تكابري...! برامعي كالشمس...! (ثمّ

متألفاً)... يجزني والله أن ترتأي في سلوكي، شبت

من الدوران حتّى المرض، ولا رغبة لي الآن إلا الحياة

الحادة، أمّا الحانة فتسليّة بريئة لا غبار عليها، ولا بدّ

للإنسان من مخالطة الناس...

فقال بصوت دلّت نبراته على الانفعال:

- آه منك. أنت تعلم أنّي لست طفلة، وأنّ

الضحك عليّ مطلب عسير، وآله من الخير لكلينا ألا

تدخل بيننا الريبة!...

مزعطة أم وعيد؟! أين متّى حيلة أبي المثالية، الرجل

الذي يفعل ما يشاء فإذا رجع إلى بيته وجد الاستمرار

والحبّ والطاعة، لم يتحقّق في هذا الحلم على يد زينب.

ولا مريم وأعلق به ألا يتحقّق على يد زئوبة، لا ينبغي

لهذه العزّة الجميلة أن تأس طلالها هي ذقني! قال

بحزم:

- لو كان بي رغبة إلى مزيد من الحرام ما

تزوّجتك!...

فهفت بحدة:

- ولكنك تزوّجت من قبل مرّتين، فلم يمنعك

الزواج من الحرام!

نفخ ناسراً أنفاساً ضمورة، ثمّ قال:

- حالتك غير الحالتين السابقتين يا غيبة، الزوجة

الأولى اختارها أبي وفرضها عليّ، والزوجة الثانية لم

تجعل لي من سبيل إليها إلا بالزواج فتزوّجتها، أمّا

أنت فلم يفرضك أحد عليّ، ولم يغلق بابك دولي قبل

الزواج، ولم يكن الزواج منك ليعني بشيء جديد لم

أعرفه، فلمّ تزوّجتك يا غيبة إن لم يكن الزواج نفسه -

أي الحياة المستقيمة المستقرّة - مطلباً؟! والله لو كان

بك ذرة من عقل ما سمحت لنفسك بالشكّ فيّ

أبدًا...

- حتّى إن جيتني عند الفجر؟!

- حتّى إن جيتك عند الصبح!

فهفت بحدة:

- نه، قل كلاماً آخر أو فعل الأمن السلام!

فقال بحدة وهو يقطّب في نرفزة:

- ألف سلام!

- أرحل، أرض الله واسمة والرزق على الله...

فقال في استهانة متعمّداً:

- أنت وشأنك...

فقال بصوت واضح بالوعيد:

الدوران ولم يبق لي في حياتي إلا أنت!  
تهدئت بصوت مسموح، وكأنما أردت أن تقول له  
وأود أن تكون صادقاً فيما تقول، فمدّ يده لاحقاً وهو  
يقول:

- يا سلام، هذه التهيئة حرقّت قلبي، الله  
يقطعني...

قالت برجاء وهي تستجيب ليه رويداً رويداً:  
- لو ربنا يديك!

من يصدق أنّ هذه الأمنية صادرة عن عوادة!  
- لا تقابليني بالشجار أبداً، إنّ الشجار يشط  
النشاط!

علاج ناجح ولكنه لا ينفع في جميع الأحوال، لو  
نلت حويشة الليلة ما تيسر...

- أرايت أنّ ارتباكك لم يكن في محله؟

- ٣٩ -

كان السيد أحمد عبد الجواد منهمكاً في عمله وإذا  
بياسين يدخل الدكان مقبلاً على مكتبه، فما إن تصفح  
وجهه حتى أدرك أنّه جاء مستجداً: كانت في حنيه  
نظرة حائرة شاردة، ومع أنّه تسمّ له في أدب ومال  
على يده ليقبلها إلا أنّه شعر أنّه يقوم بهذه الحركات  
التقليدية بلا وعي، وأنّ وجدانه كله خالط في مكان لا  
يعلمه إلا الله. أشار إليه بالجلوس فترّب الكرسي من  
مجلس آية ثم جلس، وجعل ينظر إليه حيناً ثم يخفض  
بصره أو يتنسم ابتسامة باهتة، تساءل السيد عمّا دها  
إلى هذه الزيارة، وكأنّما أشفق من أن يترك ابنه  
الصامت إلى صمته، فقال كالتسائل:

- خير؟... ماذا بك؟ لست كمادتك...

فنظر ياسين إليه طويلاً كأنّما يستثير عقفه، ثم قال  
وهو يخفض عينيه:

- سيتقلوني إلى آتاهي الصعيد!

- الوزارة؟

- نعم...

- له؟

- أرحل غير أنّي كالشوكة لا تنتزع بيسر.

فتدأى في الاستهانة بها قائلاً:

- خزعبلات! تذهمين بايسر عما يُخلع الخلاء...

ولكنّها غيرت النغمة من التحدي والتهديد إلى  
التشكي، فهضت:

- أرمي بنفسي من النافذة فأريح وأستريح...

فهزّ كتفيه استهانة، ثمّ نهض وهو يقول بلهجة  
أخف:

- ثمة طريق أفضل هو أن تقومي إلى الفراش،

هلمّي لننام واخزي الشيطان...

أجّه نحو الفراش فاستلقى عليه وهو يتأوه كأنّما طال  
به الشوق للرقاد، أمّا هي فعادت تقول وكأنّها تحدّث  
نفسها:

- مكتوب على من يعاشرك التعب...

التعب مكتوب عليّ أنا أيضاً، جنسك هو المشول،  
لا واحدة تغني عن الآخرين وقهر الملل فوق  
طاقتهنّ، ولكن لن أعود إلى العزوبة مختاراً، لا  
استطيع أن أبيع كلّ عام دكاناً في سبيل زواج جديد،  
فلتبق زنوبة على شرط ألا تركبني، الرجل المجنون  
يحتاج إلى امرأة عاقلة، زنوبة وعاقلة؟

- أنبهي على الكتبة حتى الصباح؟

- لن يغمض لي جفن، دعني لما بي وتمتع أنت  
بالنوم...

لا بدّ ممّا ليس منه بدّ، مدّ ذراعيه حتى قبض على  
منكبتها، ثمّ جذبها إليه وهو يغمغم:

- فراشك!

فقاومت مقاومة غير عسيرة، ثمّ استسلمت ليه  
فلمضت إلى الفراش وهي تقول متأوّمة:

- متى تتاح لي راحة البال كسائر النساء؟

- اطمئني، ينبغي أن تضعي في كلّ فثتك، إنّ  
أهل اللقطة، مثلي لا يكون سعيداً إلا إذا سهر، ولن

تسعدني أنت إذا أتممتي بوجع الدماغ، حبك أن  
تؤمن ببراءة سهري، صديقي ولن تنعمي، لست جباناً  
ولا كذاباً، ألم أجي بك ليلة إلى هذا البيت وفيه  
زوجتي؟ فهل يفعل هذا جبان أو كذاب؟ شبعتم من

يستعطفه ويمتلئ له عن إزعاجه ويؤكد له أنَّ كلَّ  
اعتيائه بعد الله عليه، ولم ينادر الدُّكان حتَّى وعده  
الرجل بالسعي في وقف نقله.

وعند مساء اليوم نفسه ذهب السيّد أحمد إلى قهوة  
الجنديّ بيدان الأويرا لمقابلة ناظر المدرسة، فما إن رآه  
الرجل حتَّى دعاه إلى الجلوس وهو يقول له:  
- كنت منتظرًا جيّك، فياسين جاوز كلَّ حدّ، إنّني  
أسف لما يسيّبه لك من متاعب...

فقال السيّد وهو يجلس قبالة في الشرفة المطلة على  
الميدان:

- على أيّ حال فياسين ابنك أيضًا...  
- طبعًا، ولكن لا شأن لي بالمسألة كلّها، إنّها  
محسورة بينه وبين الوزارة...

فقال السيّد كالمتحمّس وإن بدا وجهه مبسّطًا:  
- أليس عجيبًا أن يعاقبوا موكّلاً لأنّه تزوّج من  
عواذة! أليس هذا شأنًا بعينه وحده؟ ثمّ إنّ الزواج  
علاقة شرعيّة لا يصحّ أن يتعرّض لها أحد بسوء...  
تكلّب الناظر متفكرًا متساقلاً، كأنّه لم يفهم ما قال  
صاحبه، ثمّ قال:

- لم يحنّ ذكر الزواج إلّا عرضًا وأخيرًا! أما علمت  
بالخبر كلّهُ؟ يَحْتَلِلُ إلى أنّك لم تعلم بكلّ شيء!  
انقبض صدر الرجل، فتسامل في إشفاق وقلق:  
- أيوجد مطعم آخر؟

فقال الناظر نحوه قليلًا، وقال بأسف:  
- المسألة يا سيّد أحمد أنّ ياسين تمارك في درب  
طياب مع ساطعة، فحرّره له محضر بلغت صورته إلى  
الوزارة...

بهت الرجل فاشتعلت حدقاته واصفرَّ وجهه، حتَّى لم  
يتمالك الناظر من أن يبرّز رأسه أسفًا وهو يقول:  
- هذه هي الحقيقة، وقد بذلت قصارى جهدي  
لأخفّف العقوبة، حتَّى وقّعت إلى إلغاء فكرة إحالته إلى  
مجلس تاديب فاكنتني بنقله إلى الصميد...

تنهّد السيّد مغمضًا:  
- الكلب...!  
فقال الناظر وهو يرمقه بمطف:

هزّ رأسه كالمتعريض، وقال:  
- سألت الناظر لحدّثني عن أمور لا علاقة لها  
بالعمل، ظلم...

سأله الرجل بارتباب:  
- أيّ أمور؟ أوضح.  
- وشايات وضيفة... (ثمّ بعد تسرّد) عن  
زوجتي...

تضاعف اهتمام السيّد، فسأله فيها يشبه الإشفاق:  
- ماذا قالوا؟

لاح الضيق في وجه ياسين حينًا، ثمّ قال:  
- قال السفهاء إنّني متزوّج من... عواذة!

ألغى السيّد نظرة جزعة على الدُّكان، فرأى جميل  
الحمزايوي يعمل بين رجل قائم وامرأة جالسة لا  
يفصلهم عنه إلّا أذرع، فكظم غيظه وقال بصوت  
منخفض وإن لم يخلّ انخفاضه من هيج الغضب:  
- لعلهم سفهاء حقًا، ولكن هذا ما حدّرتك من  
عواقبه، إنَّك تركب كلَّ كبيرة دون مبالاة ولكنّ  
العواقب لن تغفل عنك إلى الأبد، ماذا أقول؟ إنَّك  
ضابط مدرسة ويجب أن تكون سمعتك يمتلئ من  
الشبهات، طالما قلت لك هذا مرارًا وتكرارًا، فلا  
حول ولا قوّة إلّا بالله، كاذب يجب أن أخلص من هموم  
الدنيا جميعًا لأتفرّغ لهمومك أنت وحدها!  
فقال ياسين في ارتباك وحيرة:

- ولكنّها زوجتي الشرعيّة، ولا لوم على الإنسان في  
حدود الشرع، فما شأن الوزارة في ذلك؟  
قال السيّد بغيظ مكتوم:

- يجب أن تحرص الوزارة على سمعة موكّليها...  
هلّا تركت الكلام عن السمعة لغيرك!  
- ولكن هذا تمّحّن وظلم بالنسبة لرجل متزوّج!  
وهو يلوّح بيده ساخطًا:  
- أتريدني أن أرسم لوزارة المعارف سياستها؟  
فقال بانكسار ورجاء:

- كلّاه، ولكنّي أرجو أن توقّف النقل بنفوذك...  
وجعلت يسراه تعبت بشاوبه وهو يمدج ياسين  
بنظرة لم تره لأنّها بدت مشغولة بالتفكير، وراح ياسين



تماشى السيد أن يطرق في حديقته مع ياسين موضوع  
الفضيحة الحقيقي، واكتفى بأن قال له حين وثق إلى  
إلغاء النقل:

- ما كل مرة تسلم الجرة لقد أتيتني وأعجلتني،  
ولن أتدخل في أمورك بعد اليوم، فافعل ما بدا لك،  
وويتنا بيني وبينك!...

ولكنه لم يستطع أن يسقط أمره من حسابه، فدهاء  
يومًا إلى الدكان، وقال له:

- أن لك أن تفكر في حياتك تفكيرًا جديدًا يعود  
بك إلى طريق الكرامة ويتشكك من الحياة المبهوة التي  
لجهاها، لا يزال في الوقت متسع كي تبدأ عهدًا  
جديدًا، وإني أستطيع أن أهيئ لك الحياة التي تليق  
بك فاصح إلي وأطعني...

ثم عرض عليه مقترحاته قائلا:

- طلق زوجك وعُد إلى بيتك، وإني، أتعهد بأن  
أزوجه زوجًا لائقًا فتيًا حياة كريمة!

فتورد وجه ياسين، وقال بصوت خافت:

- إني أقدر رغبتك الصادقة في إصلاح شأني،  
وسوف أحصل من ناحيتي على تحقيق هذه الرغبة دون  
إيذاء أحد...

فهتف الرجل ساخطًا:

- وعد جديد كعود الإنجليز! الظاهر أن نفسك  
تراوكت على زيارة السجن، أجل سيجيتي صراحتك  
المرّة القادمة من وراء القضبان، لا زلت أكزّر عليك  
أن تطلق هذه المرأة وتعود إلى بيتك...

فقال ياسين وهو يتهدّد، متعمدًا أن يسمع أباه  
تهدّد:

- إننا حبل يا أبي، ولا أريد أن أضيف ذنبًا جديدًا  
إلى ذنوبي!...

اللهم احفظنا! في بطن زئوبة حفيد لك يتكوّن!  
أكان في وسعك أن تصوّر ما يدور لك هذا الشاب  
من متاعب ساعة تلقّيته وليدًا في يوم غد من أسعد أيام  
حياتك!؟

- حبل!؟

- نعم...

- إني آسف جدًّا يا سيد أحمد، غير أن هذا السلوك  
لا يليق بموقفك، لا أنكر أنه شاب طيب ومثابر على  
عمله، بل أصارحك بأنني أحبه، لا لأنه ابنك فحسب  
ولكن لشخصه أيضًا، ولكن ما أعجب ما يقال عنه!  
ينبغي أن يصلح من شأنه ويقوم سلوكه وإلا عسر  
مستقبله!

صمت السيد طويلًا والغضب مرتسم على وجهه،  
ثم قال وكأنه يخاطب نفسه:

- ممركة مع ساقطة! فليذهب إذن في داهية!...  
ولكنه لم يتركه للداهية وإنما يادر إلى مقابلة معارفه  
من الثّواب وعيئة القوم مستشفعًا بهم في وقف النقل،  
وكان عمّده عفت على رأس الساعين معه، فتوالى  
الشفاعات على كبار رجال المعارف حتى أثمرت فألني  
النقل، ولكن الوزارة أصرت على نلبيه للعمل  
بديوانها، ثم أعلن رئيس المخطوطات - صهر عمّده  
عفت أو زوج زوجة ياسين الأولى - عن استعداده  
لقبوله في إدارته - بإيعاز من عمّده عفت - فتّمت  
الموافقة على ذلك، ونُقل ياسين في أوّل شتاء سنة  
١٩٢٦ إلى إدارة المخطوطات. ولم تَز المسألة في سلام  
تمام فقد سجّل عليه عدم صلاحيته للعمل في  
المدارس، كما صُرف النظر عن بحث ترقيته إلى  
الدرجة السابعة رغم أقدميته في الثامنة التي جاوزت  
عشرة أعوام، ومع أن عمّده عفت قصد من إلحاقه  
بإدارة صهره ألا تساء معاملته فإن ياسين لم يترجّع إلى  
وضعه الجديد تحت رياسة زوج زينب، وقد عبّر عن  
مشاعره حين قال يومًا لكمال:

- لعلها سُرت بما وقع لي، ووجدت فيه تأليدًا  
لوقوف أبيها حين رفض إرجاعها إليّ، إني خير بعقول  
النساء ولا شك في أنها شئت بي وإنه لن سوء الحظ  
ألا أجد مكانًا كريمًا إلا تحت رياسة هذا التيس! ما هو  
إلا كهل لا خير فيه للنساء، وما أعجزه عن أن يسدّ  
الفراغ الذي تركه ياسين، فلتشتت الجمعاء فإني  
شامت...

ولم تقف زئوبة على سرّ النقل، وقصاري ما علمت  
أن زوجها تُدب للعمل بمركز أفضل في الوزارة، كذلك

- وتحلف أن تضيف خنبًا جديدًا إلى ذنوبك؟

ثم متفجرًا قبل أن يفتح الآخر فاه:

- لم لم يؤذيك ضميرك وأنت تعتدي على الطيِّبات

من بنات الطيِّبين! أنت لعة وحقّ كتاب الله...

وعند انصرافه من الدكان أتبعه عنيّن مليتين

بالرثاء والازدراء. لم يكن يوسعه إلّا أن يعجب بمظهره

الذي ورثه عنه، أمّا غيره الذي ورثه عن أمّه...!

وذكر بخته كيف أوشك هو يومًا أن يتردى في الهاوية

على يد زُوبة نفسها! ولكنّه ذكر في الوقت نفسه كيف

شكّم نفسه في اللحظة المناسبة. شكّم نفسه؟! وشعر

بامتصاص وقلق، فلمن ياسين، ثم لمن... ياسين!

- ٤٠ -

جاء يوم ٢٠ ديسمبر فشرع بآته يوم لا كِبَيةَ الأيام،

على الأقلّ بالقياس إليه هو، ففي ساعة منه وجد نفسه

في هذه الدنيا، وسجّل ذلك في شهادة حتّى لا يمكث

أكثر أو أقلّ ممّا تمّ الاتفاق عليه... وكان يرتدي

معطفه ويقطع حجرته ذهبا وبجيشته، ثم يلقي نظرة على

مكتبه فيرى كشكول الذكريات مفتوحًا على صفحة

بيضاء رُغم أعلاها بتاريخ الميلاد، فيفكر فيها يريد أن

يكتبه لمناسبة الذكرى، ويواصل حركته مستمداً منها

شيئًا من الدفء يستعين به على مقاومة البرودة

القارسة. وكانت السماء كما تبلو من زجاج النافذة -

مشاورية وراء سحاب متجهّم والمطر ينزل قليلاً

ويسكت قليلاً محرّكًا في نفسه بواعث التثقل والحلم.

لا بدّ من الاحتفال بالميلاد ولو اقتصر الحفل على

صاحب الميلاد وحده، فُلك أنّ البيت القديم لم يعرف

تقاليد الاحتفال بأعياد الميلاد. وأمّه نفسها لم تدر أنّ

اليوم من الأيام التي لا ينبغي أن تنساها، فلم يبق من

تواريخ الميلاد نفسها إلّا ذكريات غامضة عن الفصول

التي وقعت فيها والألام التي صاحبها فهي لا تعرف

عن ميلاده إلّا أنّه وكان في الشتاء وكانت الولادة

عسيرة فجعلت أتويج وأصرخ يومين متتابعين» قديماً

كان يذكر أنباء ميلاده فيملأ الرثاء لأمّه قلبه، ثم

نضاض شعوره بالرثاء عندما شاهد ميلاد نعيمة فنفق

قلبه ألماً لعائشة، أمّا اليوم فإنّه يفكر في ميلاده بعقل

جديد، عقل قد حلّ من منهل الفلسفة المادّيّة حتّى أمّ

في شهرين بما تمخّص عنه تفكير الإنسانيّة في قرن من

الزمان. تساءل عن عسر ولادته وعمل يرجع بعضه أو

كلّه إلى الإصمّل أو الجهل، وكان يتساءل وكأنا

يستجوب متهمًا قائمًا بين يديه. فكّر في عسر الولادة وما

عسى أن ينجم عنه من آثار تلحق بالمخ أو الجهاز

العصبيّ فتلعب دورًا خطيرًا في حياة الوليد ومصيره وما

قد يساق إليه من خير أو شرّ. ألا يمكن أن يكون

عناك في الحبّ نتيجة لصدمات أصابت يافوخه أو

جدار رأسه الكبير في غيابات الرسم منذ تسعة عشر

عشًا؟ أو أن تكون تلك المثلثة التي أضلّته طويلاً في

جماهل الخيال وأسالت منه الدمع مدرارًا فوق مذبح

العذاب ما هي إلّا عاقبة محزنة لمبت دابة جاهلة؟!

وفكر فيما قبل الولادة، بل فيما قبل الحمل، في المجهول

الذي تنبثق منه الحياة، في تلك المعادلة الكيميائية

الآليّة التي تستري كائنًا حيًّا فيور أوّل ما يثور على

أصله مزدوجًا، ويتطلّع إلى النجوم مدّحًا له نسبًا في

مداراتها. بيد أنّه قد عرف له بداية قريبة دعاها

بالنطفة، فهو على ذلك لم يكن قبل تسعة عشر عامًا

وتسعة أشهر إلّا نقطة، نقطة قدّفت بها رغبة بريئة في

اللذة أو حاجة ملحة إلى العزاء أو صولة هياج بمشها

سكرة غاب فيها الرشد أو حتّى مجرد إحساس بالواجب

نحو الزوجة القابعة في البيت، فابن أيّ حال من تلك

الأحوال كان! لعلّه جاء إلى هذه الدنيا نتيجة

الواجب، فإنّ الشعور بالواجب لا يزياله، وحتّى

اللذات لم يُقبل على ممارستها إلّا بعد أن ثقلت له

فلسفة تتّبع ورأيًا يُعتق، إلى أنّه لم يخلُ من الصراع

والألم ولم يأخذ الحياة أخذًا سهلاً، ومن النطفة مرق

حيوان فالتقى ببهوضة في البوق ونقيها، ثم انزلقا إلى

الرحم معًا، فتحوّلا إلى حلقة، فكسيت الحلقة لحماً

وعظمًا، ثم خرجت إلى النور والألم بين يديها يسير، ثم

بكت قبل أن تستين معالمها، ومضت الغرائز المودعة

بها تنمو وتتطور مستجّلة على مرّ الأيام عقائد وآراء

حتّى اتّحمت، وعشقت عشقًا زعمت لنفسها به نوعًا

من الألوهية، ثم رُزِلَتْ فتهاوت عقائدها وانقلبت أفكارها ونخاب قلبها فُرِدت إلى مكانة أذلّ من التي جاءت منها أوّل مرّة! إذن فقد مضى من العمر تسعة عشر عاماً يا له من عهد طويل! ويا للشباب الذي يتطوي بسرعة البرق، هل من عزاء إلا أن تتملّ الحياة ساعة فساحة بل دقيقة ف دقيقة قبل أن يتنقّ غراب الغروب؟ مضى عهد السراة، ولحق به العهد الذي كانت تؤرّخ فيه الحياة بالحبّ - ق. ح. ب. ح. - اليوم الأشواق كثيرة إلا أنّ المحبوب مجهول الكنه، فلم يجد على محبّه إلا ببعض أسائه الحسن، فهو الحقيقة ومسرّة الحياة ونور العلم، والسفر فيها يسو طويلاً، وكأنّ المحبّ قد استقلّ قطار أوجست كونت فمسّر بمحطة اللاهوتية التي كان شعارها ونعم يا أمّاه، وما هو يطوي الأرض في إقليم المتنافسية التي شعارها وكلاً يا أمّاه وعن بعد تترامى خلال المنظار الكثير الواقعية وعلى قمّتها سجلّ شعارها وفُتح عينك وكن شجاعاً.

وتوقّف عن السير أمام المكتب فثبت عيناه على كشكول الذكريات، وتساءل: أجلس ليسود صفحة الميلاد كيفما يرحي القلم، أم يؤجّل ذلك حتى يتبلور الأفكار في رأسه؟ وعند ذاك طرق أذنيه وقع المطر على الجدران كالندندنة، فالجّه بصره إلى زجاج النافذة المطلّة على بين القصرين فرأى لأني عالقة برقعة الموهبة برطوبة الجوّ، وما لبثت لؤلؤة أن اتسابت إلى حافة الإطار السفلي راسمة على الرقعة الموهبة خطّاً ناصباً منعطفاً كالشهاب لمضئ إلى النافذة ورفع عينيه يتابع الأمطار المنهبة من السحب المترعة وقد وصلت السماء بالأرض بأسلاك لؤلؤية، على حين لاحت المآذن والقباب غير عابئة بالمطر وقد بدا الأفق ورامداً إطاراً من ففصة، واكتنف المنظر كله لسن أبهى مشرب بسمرة ساجية يقطر جلالاً وأحلاماً... وترامت من الطريق صيحات أطفال، فألقى نظرة إلى تحت ليرى الأرض تسيل بالمياه والأركان تنجّ بالوحل وقد تعمّرت العربات وتطاير الرشايش من عجلاتها وخلت معارض الدكاكين من السلع ولأذ المارّة بالخوانيت والمقاهي وما تحت الشرفات.

هنا منظر السماء يخاطب الوجدان بلسان الوجد فما أجدره أن يستلهمه طويلاً ليتأمل موقفه من الحياة في مطلع عامه الجديد. لم يعد يجد رفيقاً يحاوره بمكنون روحه مذ غادر حسين شذاد أرض الوطن، فلم تبق له إلا نفسه ليحاورها إذا استشعر حاجة إلى الحوار، فأخذ من روحه صديقاً بعد أن فارق صديق الروح، وسأل روحه: هل تؤمن بوجود الله؟ فسأله بدورها لماذا لا تحاول أن تثب من نجم إلى نجم ومن كوكب إلى كوكب كما تثب من درجة إلى درجة فوق السّم؟ وعن الصفوة المختارة من أبناء السماء فقد رفعوا الأرض إلى مركز الكون وجعلوا الملائكة تسجد للطين حتى جاء أخوهم كير نيكرس فانزل الأرض بحيث أنزها الكون جارية صغيرة للشمس، ثم تلاه أخوه داروين فهتك سرّ الأمير الزائف وأعلن حلّ الملأ أنّ أباه الحقيقيّ هو حبيس قفصه الذي يدهو الأصداق للترجّح عليه في الأعياد والمواسم، ولي الأصل كان السديم فتناثرت منه النجوم كالرشاش التطاير من عجلة الدراجة، ونجّابت النجوم في لهوها الأزيّ فأنجبت الكواكب، وانطلقت الأرض كرة سائلة والقمر في أثرها يعابها وهي تقطّب له بجان من وجهها وتبسم له بجان آخر حتى فتر حاسها فاستقرّت سباتها جبلاً ونجوداً وقبحاً وصخوراً ثم حياة تدبّ، وجاء ابن الأرض يحزق على أربع وسائل من يصادفه من المثل الأعلى. لا أخفي عنك آني ضقت بالأساطير فرحاً، غير أنّي في خضمّ المروج العاني عثرت على صخرة مثقلة الأضلاع سادوها من الآن فصاعداً صخرة العلم والفلسفة والمثل الأعلى. ولا تقل إنّ الفلسفة كالدين أسطورية المزاج، فالحقّ أنّها تقوم على دعائم ثابتة من العلوم وتتّجه بها إلى غايتها، أمّا الفنّ فمتعة سامية وامتداد للحياة غير أنّ مطمعي أبعد من الفنّ مثلاً، لأنّه لا يرتوي إلا بالحقيقة، والفنّ بالقياس إلى الحقيقة يذوقنا اثنو، وفي سبيل هذه الغاية تراني مستعدّاً للتضحية بكلّ شيء إلا ما يحسك عليّ الحياة، أمّا عن مؤقّلاتي للدور الحظير فسرّاس كبير وألف ضخم وحبّ خائب وأمل في

بالتفلب عليها إذا كُوتًا عنها فكرة واضحة متميزة. أسرك أن وجدت الحب ينسى؟ ... سرّي لأنه يعدني بالنجاة من الأسر، وأحزني بما كان تجربة خبرت بها الموت قبل حضوره، ومهما يكن من أمر فسأملت ما حبيت الأثر وأشقت الحزينة المطلقة.

سعيد من لا يفكر في الانتحار أو يتمنى الموت، سعيد من تتوَجّع في قلبه شعلة الحياض، وبخالد من يحمل أو يتعبأ صادقًا للمصل، حيّ من يتأثر الحياض بكتاب وكأس ومعشوق، والقلب اللهب بالأمال ينسى أو يتناسى الزواج كالكأس المترعة بالويسكي لا تتسع للصودا، وحسبك أنّ غرامك بالشراب يسير سيرًا حسنًا وإنّ إقبالك على المرأة لا تتمرّض عقبت من تفرّز أو نفوره، أمّا حينك من حين لأعمر إلى الطهر والتفتّش فلعله بقيّة من تديّك القديم.

ولم ينقطع الطر عن الانهلال لحظة، وقطع الرعد، ولع البرق، وأقفر الطريق، وسكت الصباح، وخطر له أن يلقي نظرة على فناء الدار فغادر الحجر إلى الصالة ثمّ إلى النافذة، ونظر من خلال خصاصها فرأى المياه تحرف سطح الأرض اللين فتخلّده ثمّ تتدفّق صوب البشر القديمة، وفاض عنها جانب فتجمّع في نفرة بين حجرة الثفن والمخزن، هذه النفرة التي ينجم فيها حبّ الجفاف - ممّا يتساقط عمقًا من حنطة أو شعير أو حلبة من يدي أمّ حنفي - نبت يكسوها حلّة سندسية فيترجع ألبانًا حتّى تدوم الأقدام، وقد كانت على عهد دولة الطفولة حقل تجاربه ومراح أحلامه، ومن ينبوع ذكرياتها يمثل قلبه الآن شوقًا وحنينًا، ومسرّة يمشاها حزن وإنّ كسحابه شقافة تفتش وجه القمر. وتحول عن النافذة ليعود إلى حجرته فانبه إلى وجود من كان بالصالة، إلى الذكرى الباقية من مجلس القهوة القديم، إلى أمّه متربّعة على الكتبة باسطة ذراعها فوق المجرة ولا جالس لها إلا أمّ حنفي وقد تربّعت على فروة قبلتها. فلذكر للمجلس القديم في أيامه الزاهرة وما أودعه من جيل الذكريات، وكانت المجرة هي الأثر الوحيد فيه الذي لم يكد يطرأ عليه تغير ينكره الراي.

المرض. واحذر أن تسخر من أحلام الشباب فيها السخرية منها إلا عارض من أعراض مرض الشيخوخة يدعو المرضي بالحكمة، وليس من تناقض في أن تعجب بسعد زغلول كما تعجب بكوير نيكوس واستولد وملخ، فالبهادر في سبيل ربط مصر للشأفة بركب الإنسانية عمل نبيل وإنسانيّ كذلك. والوطنية فضيلة ما لم تتلوّث بالكرامية العدوانية، غير أنّ كره إنجترا نوع من الدفاع عن النفس، وليست الوطنية على ذلك إلا إنسانية عمليّة، وتساغي هل أومن بالحبّ؟ فاجيب: بأنّ الحبّ لم يبرح فؤادي بعد، فلا يسعني إلا أن أقرّ بحقيقة الإنسانية، ومع أنّ جذوره كانت مشبّكة بجلود الدين والأساطير فإنّ تقوُّس المعابد المقدّسة لم يزعزع أركانه أو يقلّل من خطورة شأنه اقتحام عرابه بالدراسة والتحليل، وفرز عناصره البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية، فكلّ أولئك لم يوهن من خفة القلب إذا هفت ذكرى أو تخاللت صورة، ألا زلت تؤمن بخلود الحبّ؟ ليس الخلود أسطورة. فلعلّ الحبّ ينسى كلّ شيء في هذه الدنيا، وقد انقضى على زواج.... صابنة - لم تتردّد قبل التزوُّه باسمها - عام فقطعت شوكًا في طريق النسيان، مروت بطور الجنون فطور الدهول فطور الألم الحادّ ثمّ طور الألم المتقطع، الآن قد يمضي يوم بأكمله فلا تخطر لي على بال إلا حين الاستيقاظ وحين النوم ومرة أو مرتين في أثناء النهار، ويضاوت تأثري بالتذكّر ما بين حين ينبعث ممتدلاً أو حزن يمزّ مرور السحاب أو حسرة تلسع ولا تحرق إلا أن تشور النفس بفتنة كالبركان فتندور بي الأرض، وعمل أيّ حال خلوت أومن بأنّي سأواصل الحياة بلا عابدة. علام تُحوّل في طلب النسيان؟... على دراسة الحبّ وتعليله كما سلف، والتفهين من الآلام الفردية بالتأثلات الكونية التي يبدو عالم الإنسان في مداراتها حياة تافهة، والترويح عن النفس بالشراب والجنس، والتهاس العزاء عند فلاسفة العزاء كإسبينوزا الذي يرى الزمن شيئًا غير حقيقيّ وبالتالي فالانفعالات المرتبطة بحدوث في الماضي أو المستقبل مضائق للعقل، ونحن خليقون

فقلت جليلة كأنما تشجعه:

- لا شأن لك به فلا حجاب بيتنا وبينه...

وسرعان ما صحتك زبيدة قلالة بتهكم:

- أنا أحق الناس بأن أقول ذلك، أليس هو بنسبي؟!

ففظن السيد إلى ما تُعرض به، وتساءل في قلبه عن مدى ما أتصل بعلمها في هذا الشأن كله، ولكنه قال بركة:

- لي الشرف يا سلطنة!

فضاءت زبيدة وهي ترمقه بنظرة ارتياب:

- أنت مسرور حقاً بما كان؟

فقال بلبات:

- ما دمت خائفاً...

فقلت وهي تلوح بيدها في استياء:

- أما أنا فلن يرضى عنها قلبي أبداً...

وقبل أن يسألها السيد عن السبب، هف حليّ عبد الرحيم وهو يفرق يده:

- أجلسوا الحديث حتى نمرّ رؤسنا...

ونفض إلى المائدة ففضّ زجاجة وملأ الكؤوس ثم قدّمها إليهم واحداً واحداً بعناية ثمّ عن ارتياحه المعهود إلى القيام بهمة الساتي، ثم انتظر حتى عيّا كلّ للشرب، وقال وصحة الأحباب والإخوان والطرب دامت جميعاً لنا، فرفعوا الكؤوس إلى شفاههم باسمين، ونظر أحمد عبد الجواد من فوق حافة كأسه إلى وجوه أصحابه... هؤلاء الأصحاب الذين شاطروه حل الموقّة والوفاء قرابة الأربعين عاماً، فكان كأنه يرى قلادات من صميم نفسه، ما ملك أن جاش صدره بمواطف الأخترة الصادقة. ومالت عيناه إلى

زبيدة، فعاد إلى حديثها متسلاً:

- ولماذا لا يرضى عنها قلبك؟

فالتجّمت إليه بنظرة أشعرته بترجيحها بالحديث معه، وأجابته:

- لآتيا خائنة لا ترضى المعهود، خائنتي منذ أكثر من عام ففادرت بقي دون استئذان ونهبت إلى حيث لم أعلم...

- ٤١ -

كان أحمد عبد الجواد يسير الموفى على شاطئ النيل في طريقه إلى عوامة محمد عتّ، وكان الليل ساجياً والسياء صافية متألفة النجوم، والهواء مائلاً للبرودة، فلمّا انتهى إلى هدفه وهمّ بالميل إليه لم ينس - بحكم العادة وحدها - أن يرمي ببصره بعيداً إلى حيث تقوم العوامة التي دعاها يوماً «عوامة زُتوبة». كان قد انتهى على الذكريات الأليمة عام فلم يعد يخي في قلبه إلا الامتناع والحجل، وكان من آثارها المتخلّفة أن هجر مجالس النساء كما فعل عقب مصرع فهمي، فتأبر على ذلك عاماً حتى ضجر، فرجع عن عزمه وعاد ساعياً على قدميه إلى المجلس المحرم، وما هي إلا دقيقة حتى أبلّ على المجلس فطالع المجموعة المحبوبة المؤلفة من أصدقائه الثلاثة والمرأتين، أمّا الأصدقاء فكان آخر لقاء بينه وبينهم ليلة أمس، وأمّا المرأتان فلم تقع عليهما عيناه منذ نحو عام ونصف أو - على وجه التحديد - منذ تلك الليلة التي أقحم فيها زُتوبة في حياته. ولم يكن شيء قد بدأ بعد، فالقوارير لم تفض والنظام لم يمس، وكانت جليلة مهتلة كنية الصدارة، تعبت بأساورها الذهبية وكأنما تنصت إلى وسوستها، على حين قامت زبيدة تحت المصباح المتدلي من السقف، تنظر في امرأة صغيرة بيدها، متخصّصة زيتتها، جاعلة ظهرها إلى المائدة الحافلة بقوارير الويسكي وصحافة المزة. وتفرّق الأصدقاء حاسري الرؤوس وقد غلغلو جباههم فصاصحهم أحمد عبد الجواد ثم صافح المرأتين بهمرارة، فرحبت به جليلة قلالة وأهلاً بأخي الحبيب، أمّا زبيدة فقلت له بأسامة في عتاب وأهلاً بالذي لولا الأدب ما استحقّ منا السلام. ونزع الرجل جيّته وطربوشه، ثم ألقى نظرة على الأماكن الخالية. وكانت زبيدة قد جلست إلى جانب جليلة - وترقد قليلاً قبل أن يمضي إلى كنية المرأتين ويتخذ مجلسه عليها، ولم ينب تركه عن عين حليّ عبد الرحيم، فقال:

- هكذا تبدو كأنك تلميذ مبتدئ!

بأمة لطيفة وشت بانيساطه، غير أنّ عليّ عبد الرحيم  
نفض مرّة أخرى وهو يقول:

- لحظة سكوت حتى نستوعب هذه الكاس...

وملاً الكئوس وورّعها بينهم، ثمّ عاد بكأسه إلى  
مجلسه. وقبض أحمد عبد الجواد على كأسه وحفظ  
زبيدة، فالتفت نحوه باسمه ورفعت يدها بكأسها  
كأنّها تقول له «صحتك»، ففعل مثلها وتشابها،  
وجعلت في أثناء ذلك ترنو إليه بنظرة باسمه. مضى  
عام دون أن تثب به رغبة إلى طلاب امرأة، كأنّ  
التجربة القاسية التي أمّحن بها قد أهدت حساسه، أو  
لعله الكبرياء أو لعله المرض، غير أنّ نشوة الخمر  
ونظرة التودّد حركتا فؤاده فاستشعر حلوبة الإقبال بعد  
مرارة الصّد، واعتدّها تحيّة طيبة من الجنس الذي هام  
به حياته، لعلّها تفضّد جرح كرامته التي قست عليها  
الحياة وتقلّم العمر، وكأنّ ابتسامه زبيدة الناطقة  
كانت تقول له: «لم يوكّ عهدك بعداً» فلم يحول عن  
نظرتها عنه ولم يلبّج ابتسامه.

وجاء محمد فعثّ بمود ووضعه بين المراتين،  
فتناولته جليّة وراحت تلعب بأوتاره، ولما أنست من  
السامعين انتباهاً غثت «وعدي عليك بالي بحبك»،  
وتظاهر أحمد عبد الجواد بالانسجام كعادته كلّما سمع  
جليّة أو زبيدة، وذهب مع النعمة برأسه وجاء، كأنّها  
يريد أن يخلق الطرب بتمثيل حركاته. والحقّ أنّه لم  
يعد يبقى له من عالم الغناء إلاّ ذكريات، فقد ذهب  
الحامولي وعثمان والميلادي وعبد الحمي، كما ذهب  
شبابه وكما ولّت أيام النصر، ولكن ينبغي أن يسوكن  
النفس حل الرضى بالموجود وأن يبتعث عاطفة الطرب  
ولو بتمثيل حركاته، وقد دهاه حبّ للغناء وغرامه  
بالطرب إلى ارتياد مسرح منيرة المهديّة غير أنّه لم يحو  
الغناء التمثيليّ، فضلاً عن أنّه ضاق بجلسه المسرح  
الذي شبيهه بالمدرسة، كما استمتع في بيت محمد فعثّ  
إلى أسطوانات المطربة الجديدة ثمّ كلثوم ولكنّه أعارها  
أذنًا حذرة مضمرة سوء الفنّ، فلم يتلقّفها رغم ما  
قيل من أنّ سعد زغلول أثنى على جمال صوتها. بيد أنّ  
مظهره لم يشر بحقيقة موقفه من الغناء، فما زال يتعلّق

تري ألم تعلم حقّاً أين ذهبت في ذلك الوقت؟ ولم  
ينشأ أن يملّك على قولها بحرف، فعادت تسأله:

- ألم يبلغك ذلك؟

فقال بهدوء:

- بلغني في حينه!

- أنا التي كفلتها من الصغر ورعيتها بقلب الأمّ،  
فانتظر كيف كان الجزاء! سفخص حل الدم النجس!

فقال عليّ عبد الرحيم مازحاً، وهو يتظاهر  
بالاحتجاج:

- لا تسيّ دماها فإنّ دماها هو دمك!...

ولكنّ زبيدة قالت جاذبة:

- دمي بريء منها!

وهنا سأله السيّد أحمد:

- من كان أباهما يا تري؟

- أباهما؟!

نذت هذه الكلمة عن إبراهيم الفار بصوت أنذر  
يسيل من السخريات، ولكنّ عمّد فعثّ بادره قائلاً:

- تذكّر أنّ الحديث عن حرم ياسين!

فزابت وجه الفار هيئة المزاح ولاذ بالصمت في  
شيء من الارتباك، حل حين عادت زبيدة تقول:

- أمّا أنا فلا أمزّل فيما أقول عنها، وطالما رمقتني  
بعين الحسد وطمعت في مناسفتي وهي في رعائتي،  
فكنت أداريها وأخضّر من مساوئها (ثمّ وهي تضحك)  
كانت تحلم بأن تكون عائلة!

وردّت عينيها في الحاضرين، ثمّ قالت بلهجة  
ساخرة:

- لكنّها أفلست فزوّجت!...

تسائل عليّ عبد الرحيم في إنكار:

- هل الزواج في عرفك إفلاس؟!

فضبّقت له عينا، ورفعت حاجب الأخرى، وهي  
تقول:

- نعم يا عمرا!... العالة لا تعجز التخت حتى  
تفلس...

وهنا غثت جليّة هذا المقطع «أنت اللدام يا وحي  
أنت أنستاه، فابتسم السيّد ابتسامه عريضة وحيّاها

- الصبّ تفضحه عيونہ...  
وتسائل إبراهيم الفار منكراً:  
- أم تحسین تفك في زاوية العميان؟  
فقال أحمد عبد الجواد متظاهراً بالأسف:  
- بهذه الصراحة لن تكونوا قوادین كما تحبون!  
أنا زیبة فقد أجابت عمّد عفت:  
- أنا لا أنظر إليه لغرض لا سمح الله ولكني  
أحسده على شبابه؟ انظروا إلى رأسه الأسود بین  
رموسكم البیض وأجوبی هل تعطونه يوماً واحداً فوق  
الأربعین؟  
- أنا أعطیه قرناً...  
فقال أحمد عبد الجواد:  
- من بعض ما عندكم!  
وعند ذاك ترنمت جلیلة بمطلع الأغنية وهین الحسود  
لها عود یا حليلة، فقالت زیبة:  
- لا خوف علی من الحسد، فإن عینی لا تؤذیه؟!  
فقال عمّد عفت وهو یبزر رأسه هزّة ذات معنى:  
- أصل الأذى كلّ من عیونك!  
وهنا قال أحمد عبد الجواد موجّهاً الخطاب إلى  
زیبة:  
- أتحتسین عن شباهی؟ أما سمعت بما قال  
الطیب؟  
فقالت كالمتكررة:  
- أعیننی عمّد عفت، ولكن ما هذا الضبط الذي  
یتهمك به؟  
- لفّ حول ذراعی قریة غریبة، وراح ینفخ بمفخاخ  
جلدی، ثم قال لی «هناك ضغطه»...  
- ومن أين جاء الضغط؟  
فأجاب السید ضاحكاً:  
- لا أظنه جاء إلا من ذات النخ!  
قال إبراهيم الفار وهو یضرب كلاً بكف:  
- لعلّه مرضی معی، فلهذا لم یکد یضی شهر علی  
إصابة المحروس به حتّى فزعنا جیماً تبارعاً إلى الطیب  
وكانت نتیجة الكشف فی جمیع الحالات واحدة:  
الضغط!...

إلى جلیلة راضیاً سعیداً ویرقد مع الجمیع لازمة  
ووعدی علیک بصوته الرخیم، حتّى حط الفار  
بحسرة:  
- أبین أبین الدف؟ أبین الدف لنسمع ابن عبد  
الجواد؟  
سأل أبین أحمد عبد الجواد الذي كان ینقر علی  
الدف؟ أه، لم یفترنا الزمان؟ وختمت جلیلة غنامها  
فی حالة من الاستحسان، ولكنّها قالت فی لهجة اعتذار  
وهی تتسم شاکرة:  
- إلی متعبة...  
ولكن زیبة کثرت لها الشاء كما یدور بینها کثیراً  
على سبیل للمجاملة أو حرصاً على السلام العام، ولم  
یکن یفشی علی أحد أنّ نجم جلیلة کاملة أخذ فی  
الأفول السریع الذي كان آخر آیاته هجر الدفّالة فینو  
لتختها والتحاقها بتخت آخر، وهو أفول طیبی إذ  
كان اللبول قد أدرك كافة المزایا التي قام علیها مجلها  
القدم من الفتنة وجمال الصوت، ولذلك لم تعد زیبة  
تجد نحرها غیرة تذکر فوسمها أن تجاملها دون  
مضطر، خاصة وأنها كانت بلغت ذروة حیاتها، تلك  
الدروة التي لا خطوة بعدها إلا نحو الانحدار. وكان  
الأصدقاء کثیراً ما ینسألون عیاً إذا كانت جلیلة قد  
أخذت العنت لهذه المرحلة الخطیرة من الحیة، وكان  
رأي أحمد عبد الجواد أنها لم تفعل، واتهم بعض من  
عشقتهم بتبلید اکثر من ثروتها، ولكنّه جاهر فی  
الوقت ذاته بأنّها امرأة تعرف کیف تحصل علی المال  
بأيّ سبیل، وأیّد علی ذلك علی عبد الرحیم قائلاً:  
إنّها تتاجر بجمال نساء تحتها وإن یتها ینحوّل رويداً  
رويداً إلى شیء آخر. أما زیبة فقد انعقد إجماعهم  
علی أنّها - رغم مهاراتها فی ابتزاز الأموال - جوادة  
مفتونة بالمظاهر التي تمحرق المال حرقاً، إلى ولعها  
بالشراب والمخدرات وخاصة الكوکابین. قال عمّد  
عفت مخاطباً زیبة:  
- اسمعی لی بأن أبیدی إصجابی بنظرانك الحلوة  
التي تحسین بها بعضنا؟  
فضحكت جلیلة، وقالت بصوت خافت:

نتعيش نحن العوالم من الأفراح، ولا غناء لهم عن  
القرية والمتفاح والأوامر والنواهي كما لا غناء لنا عن  
الدث والعود والأغاني...

فقال السيد بارتياح وحماس:

- صدقت، فالمرض والصحة والحياة والموت بأمر  
الله وحده، ومن توكل على الله فلا يحزن...  
إبراهيم الفار ضاحكًا:

- أشهدوا يا ناس على هذا الرجل، إنه يشرب بقية  
وفسق بعينه ويعط بلسانه!

أحمد عبد الجواد مقهقها:

- لا عليّ من ذلك ما دمت أعط في مأخوذا...  
محمد صفت وهو يتخص أحمد عبد الجواد، ويبرّ  
رأسه متعجبًا:

- وجدت لو كان كمال بيتنا ليتنفع معنا  
بوعظك!...

فصاح عليّ عبد الرحيم:

- حل فكرة، ألا يزال على رأيه من أن أصل  
الإنسان هو القرد؟!

فضربت جليلة صدرها بيدها هاتفة:

- يا ندامي!...

زبيدة في دهش:

- قرد؟... (ثم كالستدركة) لعلّه يقصد أصله  
هو!

قال لها السيد محذّرًا:

- وأثبت أيضًا أن المرأة أصلها لبؤة!

فقالت وهي تنهأ:

- ليتني أرى سليل القرد واللبؤة!

فقال إبراهيم الفار:

- سيكبر يومًا فيخرج عن محيط أسرته، ويقتنع بأن  
البشر من آدم وحوّاه...

فبادره أحمد عبد الجواد:

- أو أحضره معي يومًا إلى هنا ليقنع بأن الإنسان  
أصله كلب!

وقام عليّ عبد الرحيم إلى المائدة ليملا الكؤوس،  
وهو يسأل زبيدة:

فقال عليّ عبد الرحيم:

- أنا أقول لكم سرّ، إنّه عرض من أعراض  
الثورة، وأي ذلك أنّه لم يسمح به أحد قبل اشتغالها!  
وسألت جليلة السيد أحمد:

- وما أعراض الضغط؟

- صداح ابن كلب، وتعب في التنفّس عند  
المشي...

فتعتمت زبيدة وهي تجسم ابتسامة دارت بها شيئًا  
من الفلق:

- ومن يخلو ولو مرّة من هذه الأعراض؟ ما رأيكم  
أنا عندي ضغط أيضًا!...

فسألها أحمد عبد الجواد:

- من فوق أم من تحت؟

وضحكوا بلا استثناء زبيدة نفسها، حتى قالت  
جليلة:

- ما دمت قد عبرت الضغط، فاكشف عليها لعلك  
تعرف علتها!

فقال أحمد عبد الجواد:

- عليها أن تحضر القرية وعليّ أن أحضر المتفاح!  
فضحكوا مرّة أخرى، ثم قال محمد صفت  
كالمحتج:

- ضغط... ضغط... ضغط... لا نسمع الآن  
إلا الطيب وهو يقول كأنما يامر عيده: لا تشرب

الحمر، لا تأكل اللحوم الحمراء، احذر البيض...

فصاح أحمد عبد الجواد ساخرًا:

- وماذا يصنع إنسان مثلي لا يأكل إلا للحوم  
الحمر والبيض ولا يشرب إلا الحمر؟!

فقالت زبيدة من فورها:

- كل واشرب واهنا والشفاء، الإنسان طيب نفسه،  
وربّنا هو الطيب...

ومع ذلك فقد أتبع تماثيل الطيب في الفترة التي  
اضطرّ فيها إلى الرقاد، فلما نهض تناسى نصيح الطيب  
جملة وتفصيلًا. عادت جليلة تقول:

- أنا لا أومن بالأطباء، ولكنّي أقيم لهم العذر فها  
يقولون ويفعلون، فليتهم يتعيشون من الأمراض كما



- أنت أحرف منا بالسيد فللى أي حيوان ترجعينه؟  
فتفكرت قليلاً وهي تتابع يدي على عبد الرحيم  
وهما تصبان الويسكي في الكئوس، ثم قالت باسمه:  
- الجهار!

فتساءلت جلييلة:

- فَمَ هذا أم مدح؟

فقال أحمد عبد الجواد:  
- المعنى في بطن القاتل!  
وعادوا الشراب على أصفى حال، وتناولت زبيدة  
العمود وغتت «ارسخي الستارة اللي في ريمناه».

وفي نشوة غامرة راح جسد أحمد عبد الجواد يرقص  
مع النغمة، رافعاً الكأس التي لم يبق فيها إلا الثيلة  
أمام عينيه، ناظرًا خلالها إلى المرأة كأنها يروم أن يراها  
بمنظار حرّي. وبرح الخفاء إن كان ثمة خطأ ووضح  
أن كل شيء - بين أحمد وزبيدة - قد عاد إلى قديمه،  
وركدوا الغناء وراح زبيدة، فعلا صوت أحمد في طرب  
وسرود حتى خضعت الأغنية بالتهليل والتصفيق. وما  
لبث محمد عفت أن قال لجلييلة:

- لمناسبة «السبب» تفصححه عينوه» ما أريك في أم  
كلثوم؟  
فكانت جلييلة:

- صوتها - والشهادة لله - جميل، غير أنها كثيراً ما  
تصرع كالأطفال!

- البعض يقولون أنها ستكون خليفة منيرة المهديّة،  
ومنهم من يقول بأن صوتها أصعب من صوت منيرة  
نفسها! ...

فهفت جلييلة:

- كلام فارغ! أين هذه الصرصعة من بحة منيرة؟  
وقالت زبيدة بازدراء:

- في صوتها شيء يذكّر بالمقرئين، كأنها مطربة  
بعمامة!

فقال أحمد عبد الجواد:

- لم أستطعها، ولكن ما أكثر اللحن يبعث بها،  
والحق أن دولة الصوت زالت بموت سي غبله ...

فقال محمد عفت مداعباً:

- أنت رجل رجيم، تتعلّق دائماً بالماضي ... (ثم)  
وهو يغمز بيمينه) ... أأنت تصرّ على حكم بيتك  
بالحديد والنار حتى في عهد الديمقراطية والبرلمان؟

السيد سخرًا:  
- الديمقراطية للشعب لا للأمة ...  
عليّ عبد الرحيم جافاً:

- أأنتظنّ أنه يمكن التحكّم بالطريقة القديمة في شبّان  
اليوم؟ هؤلاء الشبّان الذين اعتادوا القيام بالمظاهرات  
والوقوف في وجه الجنود؟  
فقال إبراهيم الفار:

- لا أدري عمّا تتكلّم، ولكنني متفق في الرأي مع  
أحمد، كلانا أب للذكور، والله المستعان ...  
محمد عفت مداعباً:

- كلاهما متحمّس للحكم الديمقراطيّ باللسان  
ولكنكنا مستبدّان في بيتكما ...!

فقال أحمد عبد الجواد كالمتحمّ:

- أتريدني على ألا أبتّ في مسألة حتى أجمع كمال  
وباسين ولمّ كمال، ثم نأخذ الأصوات؟

فهاهات زبيدة قائلة:

- لا تنس زبوة من فضلك ...  
وقال إبراهيم الفار:

- إذا كانت الثورة هي سبب ما نعاني من أولادنا،  
فالله يسامح سعد باشا ...

وتواصل الشرب والسر والغماء والمزاح، وتعالى  
الضجّة واختلطت الأصوات، وتقدّم الليل غير هابٍ  
بشيء، وكان ينظر إليها فيجدها تنظر إليه أو تنظر إليه  
فتجده ينظر إليها، وقال لنفسه: إنه ليس في هذا  
الوجود إلا لذة واحدة، وأراد أن يفصح عن فكرته  
ولكنّه لم يفصح، إمّا لأنّ حماسه للإفصاح فتر أو لأنّه لم  
يستطع، ولكن كيف جاء هذا ... الفتور؟ وتساءل  
مرة أخرى: أأكون لذة ساعة أم معاشرة طويلة؟  
ونزعت نفسه إلى التماس التسلية والعزاء، ولكنّ ثمة  
وش كأنّ أمواج النيل تهمس في أذنيه، ومع ذلك  
فمعتصف الحلقة السادسة في متناول اليد، سلّ

الحكيماء كيف ينطوي العمر ونحن نندري دون أن نندري...  
من دمه، دم أسود كما قالت خديجة في وصفه

وجوارحها ترتعش، وكانت أمينة تعود من الحجرة بين  
الحين والحين كشبح يهيم على وجهه، على حين بدا

كحال ذاهلاً كأنها يتساءل كيف تقع هذه الأمور الخطيرة  
في أقل من غمضة عين، وكيف استسلم الرجل الجبار

يدعون لك لحظة واحدة تنعم فيها بالسلام، وهذه  
النظرة ليست فاتنة ولكن هملت الأمواج تعلو فكيف

تسمع الغناء؟  
- كلا، لن نتركه حتى يزف، ما رأيكم؟  
الزفة... الزفة...!

يوجد فيه الأب، فضاء صدره وجزع قلبه، وتساءل  
في إشفاق كيف يمكن أن تتحمل هذه النهاية أمه؟ إنها

تبدو الآن كلمتهمة ولها يقع شيء، ثم وردت ذهنه  
ذكرى فهمي، فتساءل: أميكن أن ينسى هذا كما نسي

ذاك؟ وتراءت له الدنيا ظلمات فوق ظلمات.  
وعلّم ياسين بالحادث في اليوم التالي لوقوعه، فجاء

إلى البيت لأول مرة منذ خادته عند زواجه من مريم،  
وقصد حجرة أبيه رأساً فالتقى عليه نظرة طويلة صامتة

ثم انسحب إلى الصالة ملهولاً، فالتقى بأمنية  
فتصالحا بعد طول فراق، واشتد تأثره وهو يصفها

فامتلات عيناه بالدموع. وابث السيد راقداً، ولم يكن  
أول الأمر يتكلم أو يتحرك، فلما حُجِم دُب فيه شيء

من الحياة فاستطاع أن ينطق بكلمة أو عبارة مقتضبة  
يفصح بها عما يريد، ولكنه في الوقت ذاته شعر بالآلم

لفصده عن الأنين والثآلها. ولما خفت حدة الآلام  
لكرضية أخذ يضيق برفاده الإبرائي الذي حرمة نعمة

الحركة والنظافة، وقضى عليه بأن يأكل ويشرب ويفعل  
ما تعافه نفسه في مكان واحد هو فراشه. وكان نومه

متقطعاً، وكان ضجره متصلاً، غير أن أول ما سأل  
هنا كان خاصاً بكيفية إحضاره إلى البيت مغشياً عليه،

وأجابته أمينة بأنه جيء به في خنطور مع صحبه محمد  
عفت وحلي عبد الرحيم وإبراهيم الفار، وأنهم حملوه

يرفق إلى فراشه، ثم أحضروا له الطبيب رغم تأخر  
الوقت. وسأل بعد ذلك باهتمام عن عواده فقالت له

المرأة إنهم لا ينقلون ولكن الطبيب منع الغالبية إلى  
مضى أسبوع على «حادث» الأب، وكان الطبيب

بزيوره يومياً، وكانت الحال من الشدة بحيث لم يسمح  
لأحد بمقابلته، حتى الأبناء كانوا يتسللون إلى الحجرة  
على أطراف أصابعهم فيلقون بنظرة على الراقدة  
متحفظين ما يكسو وجهه من خيول واستسلام، ثم  
ينسحبون وفي الوجوه اكفهرار وفي الصدور انقباض،  
يتبادلون النظرات ويتهمزون منها في ذات الوقت. قال

حين مرض ويرئ معه حين من الله عليه بالشفاء. فتطلق وجه الرجل الشاحب بالبشر وحديثهم طويلاً عن قضاء الله ورحته ولطفه وأن على المؤمن أن يواجه مصيره بصبر وإيمان متوكلًا على الله وحده، وغادروا الحجر إلى حجرة كمال - غلين الصالة لمرور العواد للتلطز توافدهم - وهناك أقبل ياسين على أمينة، فشذ على يدها وهو يقول:

- لم أحذك بما في نفسي طيلة الأسبوعين الماضيين، لأن مرض بابا لم يترك لي عقلًا أفكر به، أما الآن وقد أمر الله بالسلمة فأود أن أحضر عن رجوعي إلى البيت دون استئذائك، الحق أنك استبقيتني بالعطف الذي عهدته منك في الأيام السعيدة الخالية، ولكن عليّ الآن أن أقدم فروض الاعتذار...

فتورد وجه أمينة وهي تقول بتأثر:

- ما فات فات يا ياسين، هذا بيتك محلّ فيه أهلاً وسهلاً حين تشاء...  
فقال ياسين عمتًا:

- لا أحب أن أعود إلى الماضي، ولكن أحلف برأس أبي وحياة رضوان أبي أن قلبي لم يعمل قط سواً لأحد من أهل هذا البيت، ولقي أحببتهم جميعاً كما أحب نفسي، ربّما يكون الشيطان قد دفعني إلى خطأ، وكُنّ إنسان عرضة لهذا، ولكن قلبي لم تشبه شائبة أبداً... فوضعت أمينة يدها على منكبيه العريض، وقالت بإخلاص:

- كنت دائماً واحداً من أبنائي، ولا أنكر أقي غضبت مرة، ولكن زال الغضب والحمد لله، فلم يبق إلا الحب القديم، هذا بيتك يا ياسين، أهلاً بك أهلاً...

وجلس ياسين عمتًا، فلما غادرت أمينة الحجر، قال للحاضرين بملحة خطائية:

- ما أطيب هذه المرأة، إن الله لا يفر من شيء إليها، لعن الله الشيطان الذي أودعني يوماً نيا جرح مشاعرها...

فقال له خديجة وهي تحدجه بنظرة ذات معنى:  
- لا يكاد يضي علم حتى يورطك الشيطان في

حين. وكان يرتد بصوت خافت والأمر لله من قبل ومن بعده و«نسال الله حسن الختام»، ولكن الحق أنه لم يستشعر اليأس، ولم يحسّ بدنو النهاية، ولم تضعف ثقته بالحياة التي يحبها رغم آلامه وخوفه، عاوده الأمل بمجرّد عودة الزوي إليه، فلم يحثّ أحداً بحديث الراحلين كان يوصي أو يودّع أو يعهد لمن يعمه الأمر بأسرار عمله وثروته، وعلى العكس من ذلك استدعى جميل الحمزاوي وكلفه ببعض أعمال المبادلة التي لم يكن يعلم عنها شيئاً، كما أرسل كمال إلى خياطة البلديّ بخان جعفر ليحضّر ملابس جديدة كان عهد بها إليه وليبلغ ثمن خطتها، لم يكن يذكر الموت إلا بتلك العبارات يرددها كأنها يداري بها قسوة الأقدار. وعند ختام الأسبوع الأول صرح الطبيب بأن مريضه اجتاز المرحلة الدقيقة بسلام، وأنه لم يعد يلزمه إلا بعض الصبر كي يستردّ صحته كاملة ويستأنف نشاطه. وأعاد الطبيب على سمعه ما سبق أن حدّوه منه عند ارتفاع ضغطه أوّل مرة فوعده بالطاعة وعاهد نفسه صادقاً على الإقلاع عن الاستهتار بعد ما تبين له من عواقبه الوخيمة التي أقنعت بأن الأمر جدّ لا هزل، وجعل يتعزّى قائلاً: إن الحياة السليمة مع شيء من الحرمان خير على أيّ حال من المرض.

وهكذا مرّت الأزمة بسلام، فاستردّت الأسرة أنفاسها ولجعت قلوبها بالشكر، وعند نهاية الأسبوع الثاني سُمع للسيد بمقابلة عواذ فكان يوم سعيد، وكانت أسرته أوّل من احتفل بهذا اليوم فزاره أبناؤه وأصهاره وتحدّثوا إليه أوّل مرة منذ الرقاد، وقبّل الرجل حينه في وجوههم - ياسين وخديجة وصائفة وإبراهيم شوكت وغيليل شوكت - وراح بلباقته - التي لم تخنه في موقفه هذا - يسأل عن الأطفال ورضوان وعبد المنعم وأحمد ونميّة وعثمان ومحمّد، فقالوا له: إنهم لم يميّثوا بهم حرصاً على راحته، ودعوا له بطول العمر وقام الصحة والعافية، ثمّ حدّثوه عن حزينهم لما آلم به ومرورهم بسلامته، تكلمت خديجة بصوت متعجّج، وتركت عائشة على يده وهي تقبّلها دعة تغني عن كلّ بيان، أما ياسين فقال بزلقة لسان: إنّه مرض معه

مصيبة، كأنك لعبة في يديه...  
فنظر إليها بعين كأنها يتوسل إليها أن تعفيه من مباحاة:

- زوّار من الأكابر!

وتابع وصول العوّاد من الأصدقاء الكثيرين الذين امتلأت بهم حياة الأب، موظفين وخدامين وأعيان وتجّار، وكانت منهم قلة لم تحمى البيت من قبله، وآخرون لم يأتوا إلّا مدعوين لبعض الولائم التي يولمها السيد في المناسبات، وغير هؤلاء وأولئك رجال ثرى وجوهمهم كثيراً في الصافّة والسكّة الجديدة، والجميع أصدقاء ولكنهم ليسوا من طبقة عمّد عفت وصاحبه.

وقد مكثوا قليلاً مراعاة لظروف الزيارة، ولكنّ الأبناء وجدوا في مظاهرهم الفاخرة وهرباتهم ذوات الجهاد المطلّمة ما أشجّع غيلاهم وزهوهم، وقالت عائشة المبارك؟

فقال ياسين في كبرياء مصطنع:

- لم تعد زوجتي تحبني أفراحاً بعد، إنها الآن سيّدة بكلّ ما في هذه الكلمة من معنى...

فقالّت خديجة بلهجة جدّية، لا أثر للتهكم فيها:

- يا خسارتك يا ياسين، ربّنا يتوب عليك ويهديك...

قال إبراهيم شوكت، كأنها يمتلئ عن صراحة زوجته:

- لا تؤاخذني يا سي ياسين، ولكن ما حيلتي إنّي أخشك!

فقال ياسين بأساً:

- كان الله في عونك يا سي إبراهيم!

وهنا قالّت عائشة وهي تتهدّد:

- الآن وقد أخذ الله بيد بابا، فلاّني أصارحكم بأنّي

لن أنسى ما حيت منظره أوّل يوم رأيته، ربّنا لا يحكم على أحد بالمرض...

خديجة بصدق وحماس:

- هذه الحياة لا تساوي ببلونه قلامة ظفر...

فقال ياسين بتأثّر:

- إنّه ملاذنا عند كلّ شتّة، رجل ولا كلّ

الرجال...

وأنّا! أنذكر موقفك يركن الحجرة وقد أطبق عليك

البأس؟ وكيف تقطع قلبي وأنا أرى تهاافت أمي،

نعرف الموت معنى من المعاني أمّا إذا هلّ ظلّه من بعيد

فتدور بنا الأرض، ومع ذلك لمستوالى طعنات الألم

بعدد من نفقد من الأحباء، وستموت أنت أيضاً غلغلاً

وراءك الأمال، والحياة رغبة ولو ابتليت بالحب.

وتعالى من الطريق زنين جرس حنطور، فوثبت عائشة

إلى النافذة ثمّ نظرت من خصاصها، التفتت قائلة في مباحاة:

- زوّار من الأكابر!

وتابع وصول العوّاد من الأصدقاء الكثيرين الذين امتلأت بهم حياة الأب، موظفين وخدامين وأعيان وتجّار، وكانت منهم قلة لم تحمى البيت من قبله، وآخرون لم يأتوا إلّا مدعوين لبعض الولائم التي يولمها السيد في المناسبات، وغير هؤلاء وأولئك رجال ثرى وجوهمهم كثيراً في الصافّة والسكّة الجديدة، والجميع أصدقاء ولكنهم ليسوا من طبقة عمّد عفت وصاحبه.

وقد مكثوا قليلاً مراعاة لظروف الزيارة، ولكنّ الأبناء وجدوا في مظاهرهم الفاخرة وهرباتهم ذوات الجهاد المطلّمة ما أشجّع غيلاهم وزهوهم، وقالت عائشة

وهي لا تزال بموقف المراقبة:

- ها هم الأحباب قد وصلوا...

وترامت أصوات عمّد عفت وهلّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار وهم يتضاحكون ويرفعون أصواتهم بالشكر والحمد، فقال ياسين:

- لم يعد في الدنيا أصدقاء مثل هؤلاء...

فأمّن على قوله إبراهيم شوكت وخليل، على حين قال كمال بحزن لم يظنّ إليه أحد:

- قلّ أن تصح الحياة لأصدقاء أن يجتمع شملهم طويلاً كما اتّاحت هؤلاء!

وعاد ياسين يقول كالتمجّب:

- لم يمرّ يوم دون أن يزوروا البيت، وما غادروه في أيّام الشتّة إلّا والدموع في أعينهم...

فقال إبراهيم شوكت:

- لا تعجب، فقد عاشروه أكثر منكم أنتم!

وهنا ذهبت خديجة إلى المطبخ لتقدّم مساعداتها. أمّا تيّار العوّاد فلم ينقطع، وقد جاء جميل الحمزاوي بعد أن أخلق الدكان، وتبّه غنيم حيدو صاحب مصصرة الجبالية، ثمّ عمّد العجبي تابع الكسكسي بالصالحية.

وإذا بمعايشة تتهف وهي تشير إلى الطريق من وراء النافذة:

- الشيخ متولّي عبد الصمد! ترى يستطيع أن

يصعد إلى الدور الفوقاني؟!

وراح الشيخ يقطع الفناء متوكِّفاً على عصاه، متنحنِّحاً - من حين لآخر - لينبِّه من في طريقه إلى حضوره. وأجاب ياسين:

- إنه يستطيع أن يصعد إلى قُمة مثلذنة... (ثمَّ جيباً خليل شوكت الذي تساءل عن عمر الرجل بعينه وأصابه)... بين الثائنين والتسعين! ولكن لا تسل عن صحَّته!...

وتساءل كمال:

- ألم يتزوَّج في حياته الطويلة؟

فقال ياسين:

- يقال إنَّه كان زوجاً وإباً، ولكنَّ زوجه وأبنائه انتقلوا إلى رحمة الله.

وهضت عائشة مرَّة أخرى، ولم تكن برحت موقفها من النافذة:

- انظروا! هذا خواج! ما يكون يا ترى؟...

كان يقطع الفناء ملقياً حل ما حوله نظرة مترقِّدة متسائلة، واضعاً على رأسه قُبعة مستديرة من الخوص لاح تحت حافتها أنف مجلدور مقوس وشارب منقوش، فقال إبراهيم:

- لعلَّه صالغ من تجار الصاغة!...

فتتمت ياسين في حيرة:

- ولكنَّه يوناني السحنة، أين يا ترى رأيت هذا الوجه؟!

وجاء شابٌ ضمر ذو نظارة سوداء، مجرَّه من يده رجل من أهل البلد مثقلاً بكوفيةٍ رافلاً في معطف أسود طويل يهز من تحت طرفه جلباب معلَّم، فعرفها ياسين - من أوَّل نظرة - وهو من الدهش في نهاية: أمَّا الشابُّ الضمير فكان عبده عازف القانون بتخت زيلية، وأمَّا الآخر فصاحب قهوة مشهورة بوجه البركة يدعى الهاديوني، فتوةً وبلطجي ويرجي الخ...، وسمع خليل وهو يقول:

- الضمير قانونجي العائلة زيلية!...

فتساءل ياسين متصنِّعاً الدهش:

- وكيف عرف بابا؟

فابتسم إبراهيم شوكت وهو يقول:

- والدك من السَّيِّمة القدامى، ولا غرابة في أن يعرفه جميع أهل القرى!...

وابتسمت عائشة دون أن تدبر رأسها التجه إلى الطريق لتنداري ابتسامتها، ياسين وكمال رأيا ابتسامته إبراهيم وطفناً إلى ما وراءها. وأخيراً جاءت سويدان جارية آل شوكت تتنمَّر في خطوات الكبر، فتمتم خليل وهو يشير إليها «رسول أمَّنا للسؤال عن السيِّدة». وكانت حرم المرحوم شوكت قد زارت السيِّدة مرَّة، ولكنَّها لم تستطع أن تعيد الكرة لما اعترافها في الآيام الأخيرة من الآم رومانيزمية تحالفت مع الكبر عليها. وما لبثت خديجة أن عادت من المطبخ وهي تقول مبدية التشكي مضرة المبالاة:

- يلزنا قهوجي ليقمَّ القهوة بنفسه!...

كان السيِّد جالساً في فراشه، مسند الظهر إلى وسادة منكسرة، ساحباً الغطاء حتَّى عنقه، حل حين جلس الموائد على الكنية والكراسي التي أهدقت بالفراش، ويذا سعيداً رغم ضعفه، فلم يكن يسمعه شيء كالتضاف الأصدقاء حوله وتسايقهم إلى عجايلته ورعاية عهده، وإذا كان قد بلاد المرض بالشرِّ فإنَّه لم ينكر حسنة فيها وجد من جزع إخوانه لما أصابه وتحمَّسهم حل غيابه ومدى إحساسهم بالوحشة في مجالسهم أثناء احتكافه، وكانوا أراد أن يستزيد من المطف، فجعل يقصُّ عليهم ما لاقى من الآم وسأم، واستباح في سبيل ذلك أن يزل ويبال، فقال متنبِّهاً:

- في الآيام الأولى من المرض اقتنمت فيها ببني وبن نفسي بأنِّي انتهيت، فجعلت أتشهد وأقرأ الصلوة، وفيها بين هذا وذاك أتذكركم كثيراً فتصوَّعوني فكرة فرائكم...

فعلا أكثر من صوت قائلًا:

- لا كانت الدنيا بدونك يا سيِّد أحمد...

وقال عليُّ عبد الرحيم بتأثر:

- سيِّدكم مرضك هذا في نفسي أثرًا لن يزول مع الآيام...

وقال محمَّد عَمَّت بصوت خافت:

مض الشيخ متوًلي عبد الصمد، وهو يلمت نحو  
الخوفا مسندًا نحوه بصراً لا يكاد يرى:

- الآن عرفتك يا وجه المصائب، عندما سمعت  
صوتك في المرة الأولى تساءلت أين سمعت هذا  
الشیطان؟!

وسأل محمد المجدي بائع الكسكي الخوفا  
مانولي، وهو يغمز بعينه ناحية الشيخ متوًلي:

- ألم يكن الشيخ متوًلي من زياتك يا مانولي؟

فقال الخوفا بأساً:

- فمه ملان بالطعام، فاین يضع الحمر يا حبيبي؟  
وصاح عبد الصمد وهو يشد على مقبض عصاه:

- تأقب يا مانولي!

فصاح به المجدي:

- أنتكر يا شيخ متوًلي أنك كنت أكبر حشاش قبل

أن يقطع الكبر أنفاسك؟

فلوح الشيخ بيده محشياً، وهو يقول:

- ليس الحشيش حراماً، أجريت صلاة الفجر وأنت

مسلول؟ الله أكبر.. الله أكبر!

ووجد أحمد عبد الجواد المهابوني صامقاً، فالتفت

إليه بأساً وهو يقول على سبيل المجاملة:

- كيف حالك يا معلم؟ والله زمان...

فقال المهابوني بصوت كالتمير:

- والله زمان زمان والله أنت السبب يا سيد أحمد

وأنت الحاجر، ولكن لما قال لي السيد عليّ عبد الرحيم

إنّ حنوك راند ذكرت أيام الصبوات كأنها لم تنقطع،

وقلت لنصي: لا كان الوفاء إن لم أزر بنصي الرجل

الحبيب، رجل المروءة والفرشة والأنس، ولولا الملامة

لجئت معي بفكومة وقملي ودولت ونهاوند، كلهنّ

مشتقات إلى رؤيتك، يا سلام يا سي أحمد، أنت أنت

سواء شرفتنا كل ليلة أم هجرتنا ستين...

ثم وهو يحيل عينه الحديديتين:

- هجرتمونا كلكم، البركة في السيد عليّ، ربنا يحلّ

لنا ستية القلي التي تجلبه إلينا، من فات قدمه تاه،

هتندا أصل الأنس، ماذا يحكم حنا؟ لو كانت التوبة

لعذرناكم، ولكنّ التوبة لم يثن أوانها، ربنا يبعدها

- أتذكر تلك الليلة؟ رباه لقد شيتنا!...

فقال غنيم حيدو نحو الفراش قليلاً، وقال:

- نتجك الذي نتجانا من الإنجليز ليلة بؤابة  
الفتوح!...

تلك الأيام السعيدة، أيام الصحة والعشق، وفهمي  
كان التجابة والأمل الموعود.

- الحمد لله يا سيد حيدو!...

وقال الشيخ متوًلي عبد الصمد:

- إني أسألك كم أعطيت الطيب بدون وجه حق؟!

ولا داهي للجواب، ولكنّي أدعوك إلى إطعام أولياء  
الحسين...

فقاطعه محمد عفت متسائلاً:

- وأنت يا شيخ متوًلي، ألسنت من أولياء الحسين؟!

وضّح هذه النقطة...

فاستطرد الشيخ - دون مبالاة - وهو يضرب الأرض

بعصاه عقب كل عبارة:

- أطعم أولياء الحسين وأنا حل رأسهم، أراد محمد

عفت أم لم يرد، وعليه هو أيضاً أن يطعمهم إكراماً

لك، وأنا حل رأسهم، وعليك أن تؤذي فريضة الحجّ

هذا العام، ويا حيدو لو أخلفتني معك ليضاحف الله

لك الجزاء...

ما أطيبك وأقربك إلى قلبي يا شيخ متوًلي، أنت

من معالم الزمن.

- أعدك يا شيخ متوًلي بأن آخلك معي إلى الحجاز،

إذا أذن الرحمن.

هتد ذاك قال الخوفا، وكان قد خلع قمّته عن شعر

خفيف ناصع البياض:

- شوية زعل، الزعل سبب كل شيء، اترك الزعل

ترجع مثل البمب.

مانولي الذي باعك الحمر طيلة خمسة وثلاثين عاماً،

بائع السعادة ومسار القرافة.

- هذه عاقبة بضاعتك يا مانولي!

فنظر الخوفا في بقية وجوه الزبائن، وقال:

- لم يقل أحد إنّ الحمر تأتي بالمرض، كلام فارغ،

الانبساط والضحك والفرشة تسبب المرض؟!

بطول العمر والأفراح!

أحمد عبد الجواد وهو يشير إلى نفسه:

- ها أنت ترى أننا قد انتهينا!...

فقال المعلم بحماس:

- لا تقل لهذا يا سيّد الرجال، وعكة وقضي إلى غير رجعة، لن أتركك حتى تنذر أن تعود إلى وجه البركة - ولو مرة - إذا أخذ الله بيدك وقمت بالسلامة!...

فقال محمّد عفت:

- الزمن تغير يا معلّم همايوني، أين وجه البركة الذي عرفناه قديماً؟ أبحث عنه في التاريخ، أما ما بقي منه فمراح الشبان من أهل اليوم، كيف نسير بينهم وفيهم أبناؤنا؟

وقال إبراهيم الفار:

- ولا تنس أننا لا نستطيع أن نغالب ربنا في العمر والصحة، انتهينا كما قال سي أحمد، ما شأنا إلا من اضطر إلى زيارة الطبيب ليقول له عندك وعندك، لا تشرب... لا تاكل... لا تتنفس، وغير ذلك من الوصايا المقررة، ألم تسمح عن مرض الضغط يا معلّم همايوني؟

فقال المعلّم وهو يحدّجه بنظرة:

- داي أي مرض بسكرة وضحكة ولعبة، وإن وجدت له أثراً بعد ذلك الزقة في كبدي!

فصاح مانولي:

- قلت له هذا وحياتك أنت!

وقال محمّد العجمي، كأنما يمت ما بدأ صاحبه:

- ولا تنس المنزول الأصيل يا معلّم...

فهزّ الشيخ متولي عبد الصمد رأسه متعجباً، وتساءل في حيرة:

- دلّوني يا أهل الخير أين أنا، أي بيت ابن عبد الجواد أم في غرزة أم في حانة؟ دلّوني يا هوه!...

تساءل الهمايوني وهو يرمق الشيخ متولي شزراً:

- من صاحبكم؟

- وليّ كلّ خير...

فقال له متعجباً:

- اقرأ لي الطالع إن كنت وليّاً!

فهتف متولي عبد الصمد:

- إمّا السجن وإمّا المشقة!...

فلم يتمالك الهمايوني من أن يضحك عاليّاً، ثم قال:

- حقّاً إنّه وليّ، فهذه هي النهاية المتوقّعة (ثم غمطاً الشيخ) لكن اضبط لسانك، وإلا حققت بك نبوءتك!...

صليّ عبد الرحيم، وهو يقرب رأسه من وجه السيّد:

- قم يا حبيبي، الدنيا لا تساوي قشرة بصلّة من خبزك، ماذا جرى لنا يا أحمد؟ أترى أنّه يحسن بنا ألا نستعين بالمرض بعد ذلك؟ كان أبناؤنا يتزوّجون وهم فوق السبعين، فماذا جرى؟!

متوليّ عبد الصمد بعنف تطهير معه الرذاذ من فيه: - كان أبناؤكم مؤمنين طاهرين، لم يسكروا ولم يفسقوا، في هذا الجواب الذي تريد...

وأجاب أحمد عبد الجواد صنيعة قائلاً:

- قال لي الطبيب إنّ التليّدي في الاستهانة مع الضغط عاقبته الشلل واليّاذ بالله. هذا ما وقع لصاحبنا الوديّني أكرمه الله بحسن الختام، إنّ أسأل الله إذا حمّ القضاء أن يكرمني بالموت، أنا الرقاد أحوالاً بلا حراك...! اللهمّ رحمتك!

وهنا استأذن العجمي وحيدو ومانولي في الانصراف، وذهبوا وهم يدهون للسيّد بالصمّة والعمر المديد. ومال محمّد عفت على السيّد، ثمّ همس بصوت هامس:

- جليّة تقرّك السلام، وكم وقت لو تراك بنفسها!...

فالتقطت أذن عبده القاتونجي مقالته، ففرّغ بأصابعه، وقال:

- وأنا مبعوث السلطنة إليك، وقد كانت أن تتزى بزّي الرجال لتحضر إليك بنفسها لولا أن أشفت عليك من العواقب غير المتوقّعة، فأرسلتني وقالت لي قل له:

وتنتحب مرةً ثمّ مرةً، وغنى بصوت خافت:

الحسين والصلاة في مسجده شكراً لله. وكان نبأ وفاة عليّ فهمي كامل قد نشر في الصحف، فتأمله السيد أحمد طويلاً وخطب ابنه - وهم يغادرون البيت - قائلاً: - سقط ميتاً وهو يخطف في جمع حافل، وها أنا أسعى على قدمي بعد رقاد كنت أرى فيه الموت رؤية العين، فمتلداً يستطيع أن يعلم الغيب؟! حلاً إن الأعمار بيد الله، وإنه لكل أجل كتاب...

كان عليه أن يصبر أياماً وأسابيع حتى يسترد وزنه، غير أنه بدا رغم ذلك مستوفياً أي وقاره وجماله. وقد سار في القلعة وتبعه ياسين وكيال. وهو منظر لم يُر بهيته الكاملة منذ وفاة فهمي. وفي الطريق ما بين بين القصرين والجامع لمس الشبان المكناة التي يحظى بها أبوهما في الحرم كله، فما من تاجر من أصحاب الدكاكين القائمة على جانبي الطريق إلا وقد صافحه وتلقاه بين ذراعيه وهو يبتسمه بالسلامة. واستجابت نفسا ياسين وكيال لهذه المودة الحارة المتبادلة، فملكها السرور والزهو وارتسمت على ثغريهما ابتسامة لم تفارقهما طوال الطريق، غير أن ياسين تساهل في برامة: لم يُحظ بمثل مكانة أبيه وكلامها في الجلال والجمال والحبوب سواء؟! أما كيال فبالرغم من تأثره الوثيق استدعى أفكاره الشائرة عن هذه المكانة المرموقة ليسبرها بعين جديدة. كانت في الماضي تتمثل لعينه الصغيرتين آية للجلال والعظمة أما الآن فإنه يراها لا شيء أو لا شيء بالقياس إلى مثله العليا، ما هي إلا المكانة التي يحظى بها رجل طيب القلب لطيف المشرب جَمِّ المروءة، والعظمة شيء قد يناقض ذلك كل المناقضة، فهي دويّ يزلزل قلوب الخاملين ويطيّر النوم عن أهين الراقدين، وهي حسيّة بأن تستثير الكراهية لا الحب، والسخط لا الرضى، والعداوة لا المودة، إنها الكشف والهدم والبناء، ولكن أليس من السعادة أن يتم الإنسان بمثل هذا الحب والإجلال؟ بلى وآي ذلك أنّ عظمة العظماء تقاس أحياناً بمقدار تضحياتهم بالحب والطمانينة في سبيل أهداف أسمى، هل أيّ حال هو رجل سعيد فليهنأ بسعادته. انظر إليه ما أجمله! كذلك ياسين ما أظفاه! وما أصعب منظري

أمانة يا رايح يّه تبوس لي الحلو من قمه  
وقل له عينك المخرم ذليل  
لأبتسم الهياوي كائنفاً عن طاقم ذهبي، وقال:  
- يّم الدواء، جَرَبْ هذا ولا تلقِ بالأ إلى وليّ الله  
المتّين بالشائق.  
زبيدة؟! لا شوق بي إلى شيء. دنيا المرض شيء  
كرهه، ولو وقع المحذور لمت سكران، ألا يعني هذا أنه  
لا بدّ من صفحة جديدة؟!

وقال له إبراهيم الفار بصوت خافت:  
- تعاهدنا على ألا نلوق الحمر وأنت راقد...  
- إنّي أعفيتكم من تعهدكم، وسأعوفي عمّا فات  
عليّ عبد الرحيم ميتاً في إغراء:  
- لو كان في الإمكان أن احتفل هنا الليلة بشفاك!  
متولّي عبد الصمد موجّهاً خطابه للجميع:  
- أَدْعُوكم إلى التوبة والحيّج...  
الهياوي عتفاً:  
- كائنك عسكري في غرزة.  
وبإشارة متفق عليها من الفار، تقاربت رموس  
محمد عتف وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار فوق رأس  
السيد، وراحوا يبتلون بصوت خافت:  
أما أنت مش قد الحمرة بس تسكر ليه.  
على نغمة:

أما أنت مش قد الهوى بس تمشق ليه.  
على حين جعل الشيخ متولّي عبد الصمد يتلو آيات  
من سورة التوبة، أما أحمد عبد الجود فقد أغرق في  
الضحك حتى دمت عيناه، ومزّ الوقت بلا حساب  
حتى بدا في وجه الشيخ متولّي عبد الصمد الجزع،  
فقال:

- ليكن في معلومكم أنّي آخر من سيفادر هذه  
الحجرة، لأنّي أريد أن أدخل إلى ابن عبد الجواد...

غادر أحمد عبد الجواد البيت بعد أسبوعين آخرين،  
فكان أول ما فعله أن صحب ياسين وكيال إلى زيارة



مكان فمق يشب الإنسان عن طوقه ويعتمد على نفسه؟ وبهذا الصوت الجهوري الذي يترامى من أقصى الجامع يذكر الناس بالأخرة فمق كان للزمن آخر؟ وما أجل أن ترى إنساناً يغالب الأوهام ليخلصها ولكن مقق ينتهي القتال ويعلن المقاتل أنه سعيد؟ وإن الدنيا لتبدو لمعني غريبة فهل تراها حُلقت أسس؟ وفلذان الرجلان هما أبي وأخي فلم لا يكون جميع الناس آبائي وأخوتي؟ وهذا القلب الذي أحله بين جنبي كيف ارتضى أن يسوفي العذاب الوثاق؟ وما أكثر أن أرتطم كل ساعة بشخص لا أوتيه فلماذا نزع الذي أهواه من دونهم إلى أقصى الأوص؟

ولمّا فرغوا من صلواتهم، قال الأب:

– لنسكت قليلاً قبل أن نقوم للطواف.

وظلّوا متربّعين صامتين، حتى عاد الأب بقول بصوت رقيق:

– لم نجتمع هنا منذ ذلك اليوم!

فقال ياسين بتأثر:

– الفاتحة على روح فهمي...

وتليت الفاتحة، ثم سأل الأب ياسين فيها شبه الأرتياب:

– ترى هل شغلتك أمور الدنيا هن زيارة الحسين؟

فقال ياسين الذي لم يزر الجامع طوال هذه الأعوام إلا مرّات معدودات:

– لا يمكن أن يمرّ أسبوع دون أن أزور سيدي!

فالتفت الأب نحو كيال، وورقه بنظرة كأنها تسأله: «وأنت؟»، فقال كيال وهو يجيد استحياء:

– وأنا كذلك!

فقال الأب بخشوع:

– إنه حيننا وشفيئنا إلى جلّه يوم لا ترجى فيه أمّ

ولا أب...

قام من المرض هذه المرّة – بعد أن ألقى عليه درساً لا يُنسى – وهو يؤمن ببطشه ويخاف عواقبه فصدمت نيته على التوبة، وقد كان يؤمن دائماً بأنّ التوبة آتية مهما طال بها الانتظار، فانتزع بأنّ تاجليها بعد ذلك ضرب من السفه والكفر بنعمة الله الرحيم. وكان كلّما

بينها كآتي صورة تنجّرية في كرتفال، ازمع ما شاء لك الزعم أنّ الجمال حلية النساء لا الرجال فلن يحوّ هذا من ذاكرتك موقف الكشكك الرهيب. وقد برئ أبي من الضغط فمق أبراً من الحب؟ والحب مرض غير أنه كالسرطان لم تُكتشف جرثومته بعد. إنّ حسين شدّاد يقول في رسالته الأخيرة: «إنّ باريس عاصمة الجمال والحب، فهل هي أيضاً عاصمة العذاب. وقد بدأ العزيز يخل برساله كأنها يقطرها من دمه الغالي، أريد عالمياً لا تُخضع فيه القلوب ولا تُخضع.

عند متعطف خان جعفر لاح لهم الجامع الكبير، فسمع أباه وهو يقول من الأحياق بصوت جمع بين رقّة التحيّة وحرارة الاستفافة «يا حسين» ثمّ حتّ خطله فتبعه ياسين وهو ينظر إلى الجامع وحلّ شفتيه ابتسامة غامضة. أيلود بخلد أبيه أنّه لم يتبعه إلى هذه الزيارة المباركة إلا استجابة لرغبته هو دون أدنى مشاركة في عقيدته! أمّا هذا الجامع فلم يعد في نظره إلا رمزاً من رموز الحبيبة التي ابتلي بها قلبه. كان في الماضي يقف تحت مثلثته وقلبه خفاق ودمعه متحفّز وصدوره مرتعش لجيشات الوجد والإيمان والأمل، واليوم يقرب منه وهو لا يراه إلا مجموعة ضخمة من الأحجار والحديد والخشب والطلاء تحتل مساحة واسعة من الأرض بشير وجه حقّ! بيد أنّه لا مناص من تمثيل دور المؤمن حتى تنتهي الزيارة رعاية لحقوق الأبرّة واحتراماً للناس أو اتقاء لشُرهم، وهو سلوك ينافي الكرامة والصدق، أريد عالمياً يعيش فيه الإنسان حرّاً بلا خوف ولا إكراه!

وغلغوا أحليتهم ودخلوا تباحاً، فالتفت الأب إلى المحراب ودعا ابنه إلى الصلاة تحية للمسجد، ثمّ رفع يديه إلى رأسه مقبلاً الصلاة فاتتاً به. استغرق الأب في الصلاة كعادته فارغى جفونه وامتلأ، ونسي ياسين كلّ شيء إلا أنّه بين يدي الله الغفور الرحيم. وجعل هو يحرّك شفتيه دون أن يقول شيئاً، وانحنى واستوى ثمّ ركب وسجد وكأنّه يؤتّي بعض الحركات الرياضية الفاترة، وقال لنفسه: إنّ أقدم الآثار المتخلفة على وجه الأرض أو في باطنها معابد وحتى اليوم لا يخلو منها

طالمت به ذكريات اللهور تمرّى بما ينتظره في حياته من مسرّات بريئة، كالصدقة والطرب والفكاهة، لذلك دعا الله أن يحفظه من وسوس الشيطان وأن يثبت قدميه فيها اعترّ من توبة وراح يتلو ما تيسر من السور الفصار التي يحفظها.

ونفض فنهضا وراءه، ثم مضوا إلى الضريح، وهناك استقبلهم عرف طيب يذكر في المكان وهممة تلاوات تهمس في الأركان، نطافوا بالضريح بين جموع الطائفين، وارتفعت عندها كمال إلى العمامة الكبيرة الخضراء، ثم استقرتا ملأ فوق الباب الخشبي الذي طالما لثمته شفتاه. فقارن بين عهد وعهد، وحال وحال، وذكر كيف انجل سر هذا القبر عن أول ماسة في حياته، ثم كيف تتابعت الماسي بعد ذلك غير مبقية على حب أو عقيدة أو صداقة، وكيف آله رغم ذلك كله لا يزال واقفاً على قدميه، يرنو إلى الحقيقة رنو العابد، غير آبه لطعنات الألم، حتى المراته انداحت على شفثيه فارستمت ابتسامه، أما السعادة العمياء التي تضيء وجوه الطائفين من حوله فقد نيلها غير آسف، وكيف يشترى السعادة بالنور وقد عاهد نفسه على أن يعيش مفتّح العينين، مؤثرا القلق الحثي على الطمانينة الخاملة، ويظف السهاد على راحة النوم.

ولسأ فرغوا من طوافهم دعاهما الأب إلى الجلوس ملأ في منوى الضريح، فالتجهوا إلى ركن وجلسوا متقاربين، ولح السيد بعض معارفه، فاثبلوا عليه مصافحين مهتئين، وبجالبه نغم منهم، وكان أكثرهم يعرفون ياسين - إما عن طريق دكان والده وإما عن طريق مدرسة النحاسين - أما كمال فلم يكده يعرفه أحد منهم، وقد لفتت نحاتته أنظار بعضهم فداعب السيد قائلا:

- ما لابنك هذا كالبرص؟

ليادته السيد قائلا، وكأنه يرد تحية بأحسن منها:

- أنت الأبرص!

وابتسم ياسين، وابتبسم كمال، وكان أول مرة يكلع فيها على شخصيته أبيه «السريّة» التي سمع عنها الكثير. هكذا بدا الأب رجلاً لا تفوته النكتة حتى وهو

- ٤٤ -

كانت أم حنفي مترّمة على الحصيرة بالصالة، بينما جلست نعمة ابنة عائشة وعبد المنعم وأحد ابنا خديجة على الكنية قبالتها. وكانت النافذتان المطلتان على فناء البيت مفتوحتين ليطلقا من جو أغسطس المغمم بالحرارة والرطوبة، غير أنه لم تكده تهنو نسمة واحدة فظل المصباح الكبير المتدلّي من السقف يرسل نوره على الصالة وهو ثابت، أما الحجرات فبدت مظلمة صامتة. وكانت أم حنفي خائضة الرأس، شابكة ذراعها فوق صدرها، ترلع عينيها إلى الصغار الجالسين على الكنية لحظة ثم تغمضها، ولم تكن تتكلم ولكن شفثها لم تتوقفا عن الحركة، وتساءل عبد المنعم:

- إلى متى يبقى غالي كمال فوق السطح؟

فتمتعت أم حنفي:

- الجوّ حارّ هنا، لم لم تبقوا معه؟

- الدنيا ظلام، ونعمة تخاف الحشرات.

وهنا قال أحمد في صجر:

- إلى متى تبقى هنا؟ هذا هو الأسبوع الثاني، إني

أعدّ الأتام يوماً يوماً، وأريد أن أعود إلى بابا وماما...

أم حنفي يرد:

- إن شاء الله تعودون جميعاً وأنتم على أسعد حال،

ادعوا الله فإنّه يستجيب للصغار الأطلهار...

فقال عبد المنعم:

- إتنا تدعوه قبل النوم وعقب الاستيقاظ كما

توصينا...

فقال المرأة:

- ادعوه في كلّ وقت، ادعوا الآن، هو رحمة القادر

على كشف غمّتنا...

سي عبد المنعم وبني أحمد ليعلبا معك، وخالك كمال  
يحبك قد عينه، وستومدين قريبا إلى ماما وبابا وعثمان  
وعحمد... لا تبكي يا ستي الصغيرة وادعي لبابا  
واخويك بالشفاء...

أحمد متأقفا:

- أسبوعان عديتها على أصابعي، ثم إن شفتنا في  
الدور الثالث والمرض في الدور الثاني، لم لا نعود إلى  
شفتنا ونأخذ معنا نعيمة؟

أم حنفي كاللحذرة وهي تفسح أصبعها على  
شفتها:

- سيفضب خالك كمال إذا سمع بما قلت، إنه  
يشترى لكم الشكولاتة واللّب، فكيف تقول إنك لا  
ترهب في البقاء معه؟ لم تعودوا صغارا، أنت يا سي  
عبد المنعم ستدخل المدرسة الابتدائية بعد شهر،  
وكذلك أنت يا نعيمة!

فقال أحمد متراجعا بعض الشيء:

- دعونا على الأقل نخرج لنلعب في الطريق!

فلئن عبد المنعم على الاقتراح قائلا:

- كلام معقول يا أم حنفي، لم لا نخرج إلى  
الطريق لنلعب؟

فقلت أم حنفي بحزم:

- عندكم الفناء وهو يسع الدنيا والآخرة، وعندكم  
السطح أيضا، ماذا تريدون أكثر من ذلك؟ كان سي  
كمال وهو صغير لا يلعب إلا في البيت، وعندما أفرغ  
من شغلي أنصّر عليكم الحكايات... ألا تحبون  
ذلك؟

أحمد عتجبا:

- أمس قلت لنا إن حكاياتك انتهت!

نعيمة وهي تجفّف عينها:

- خالتي خديجة عندها حكايات أكثر، وأين ماما  
لنغني ماما؟

أم حنفي باستعطاف:

- طمأنا رجوتك أن تغني لنا وأنت ترفضين!

- لا أخفي هنا لا أخفي وعثمان وعحمد مرضى...

المرأة وهي تنهض:

ويسط عبد المنعم راحته، ثم نظر إلى أحمد داعيا  
إياه إلى مشاركته، ففعل الآخر مثله دون أن يزايل  
الضجر وجهه، ثم قال ماما كما تعودا أن يقولوا في الأيام  
الأخيرة:

- يا رب اشفِ عَمّا خليل، وعثمان وعحمد ابني  
عَمّا، حتى نعود إلى بيتنا عجوري الحاطر...

وبدا التأثر في وجه نعيمة فأرخت أساريرها في حزن  
واغبرورت حينها الزرقاوان بالدموع، وهتفت:

- بابا وعثمان وعحمد كيف حالهم؟ وماما أريد أن  
أراها، أريد أن أراهم جميعا...

فتحول عبد المنعم إليها قائلا بصوت اللواسي:

- لا تبكي يا نعيمة. قلت لك كثيرا لا تبكي،  
عَمّي بخير، عثمان بخير، محمد بخير، وسنعود قريبا  
إلى بيتنا، جذتي تؤكد هذا، وخالي كمال أگده أيضا منذ  
قليل...

فقلت نعيمة وهي تجهش في البكاء:

- كل يوم أسمع هذا، ولكنهم لا يسمعون لنا  
بالعودة إليهم، أريد أن أرى بابا وعثمان وعحمد، أريد  
ماما...

قال أحمد بتلّخر:

- أنا أريد بابا وماما أيضا...

عبد المنعم:

- سنعود عندما يشفون.

هتفت نعيمة بجزع:

- لنعد الآن، أريد أن أراجع، لم يبعدونا عنهم؟

فأجابها عبد المنعم:

- إنهم يخافون أن نشم المرض!

قلت نعيمة بحناء:

- ماما هناك، وخالتي خديجة هناك، وعَمّي إبراهيم  
هناك، وجذتي هناك، فلماذا لا يشمون المرض؟

- لأنهم كبارا...

- إذا كان الكبار لا يشمون المرض، فلماذا مرض  
بابا؟...

تنهدت أم حنفي، وقالت برفقة:

- هل ضايقت سي؟... هذا بيتك أيضا، وما هو

اشهر؟ وما هو أبوه يسمى في كامل صحته وعافيته، وقد استردت عضلاته قوتها، وحينها يرفقها الجذاب، ثم رجع إلى أصحابه وأحابيه كما يرجع الطير إلى الشجرة الغناء، فمنذا يعترض على أنه يمكن أن يتغير كل شيء في غمضة عين؟  
- أنت هنا وحلك؟

عرف كمال الصوت، فقام متلفتًا صوب باب السطح، ومدّ يده للقدام وهو يقول:  
- كيف حالك يا أخي؟ تفضل...

وقدّم له مقعدًا، فتّس ياسين تنفّسًا عميقًا ليعيد إلى رتيبه توازنه الذي اضطرب بصعود السلم، فامتلا صدره بشدا الياسمين، ثم جلس وهو يقول:  
- الأولاد ناموا، وأمّ حفي نامت كذلك...

فسأله كمال وهو يتخذ جلسه مرة أخرى:  
- مساكين، لا يستريحون ولا يريحون، كم الساعة الآن؟

- في الحادية عشرة، الجوّ هنا ألطف من الطريق بكثير...

- وأين كنت؟  
- متردّدًا ما بين قصر الشوق والسجّرية، وهل فكرة والدتك لن تعود الليلة...

- سويدان أبلغتني ذلك، ماذا جدّد؟ كنت من القلق في نهاية...

ياسين وهو يتنهد:  
- كلنا في القلق سواء، وربّنا هنده اللطف، والدك هناك أيضًا...

- في هذه الساعة؟  
- تركته في البيت... (ثمّ مستطردًا بعد قليل)... كنت في السجّرية حتّى الثامنة مساء، وإذا برسول يحضر من قصر الشوق ليخبرني بأنّ زوجي قد جاءها الطلق، فذهبت من فوري إلى أمّ عليّ الداية ومضيت بها إلى البيت حيث وجدت زوجي في رعاية بعض الجارات، ومكثت هناك ساعة غير أنّي لم أطلق سماع الانين والصراخ طويلًا، فعدلت إلى السجّرية مرة أخرى فوجدت والدك جالسًا مع إبراهيم شوكت...

- سأجّهز لكم العشاء ثمّ ننام، جين ويطيخ وشّام، هه؟

كان كمال جالسًا على كرسيّ في جانب السطح المكشوف فيما يلي سقفة الياسمين واللباب، لا يكاد يُرى في الظلام لولا جلبابه الأبيض الفضفاض، وكان ماضيًا ساقيًا في استرخاء، مصعّدًا رأسه إلى الأفق المرصّع بالنجوم، مستغرقًا في التفكير، يكتشفه صمت لا يكذّره شيء إلّا أن يرتفع صوت من الطريق أو تبتعث قوقلة من حجرة الذجاج، وكان في وجهه أثر عمار طرأ على الأسرة في الأسبوعين الأخيرين، فقد اختلّ نظام البيت المهود واختضت منه أمّه إلّا في أوقات نادرة، وتشبّع جوّه بتلّمر المساجين الصغار الثلاثة الذين يهيمون في رحبائه متسائلين عن «بابا» و«ماما» حتّى أميته الحليل في ملاطفتهم وملاعببتهم.

أمّا في السجّرية فإنّ عائشة لم تعد تغني وتضحك كما ليل كثيرًا عنها، ولكنّها تقضي الليل ساهرة بين أسرة المرضى الأعزّاء، زوجها وطفليها، وكم تحبّ صغيرًا لو تعود عائشة إلى بيتها القديم، وكم يشفق اليوم من أن تضطرّ إلى العودة مهية الجناح كسيرة القلب، وأمّا أمّه فتهمس في أفنّه «لا تزر السجّرية، وإذا زرعنا فلا تمكث طويلاً» وإنّه ليزورها من حين لآخر، ثمّ يغادرها تفوح من راحته والحة المظهرات الغريبة ويستحوذ القلق على فؤاده، وأصعب شيء أنّ جرائم النفود - كسائر الجرائم - آية في الضلالة، لا تراها العين، ولكنّها تستطع أن توقف تيار الحياة، وأنّ تتحكّم في مصير العباد، وأنّ تشبّت إذا أودت الأسرة. عمّد المسكين كان أوّل المرضى، ثمّ تبعه عثمان، وأخيرًا - وعلى غير توقّع - وقع الأب، والليلة جاءت الجارية سويدان لتخبره بأنّ أمّه ستبيت في السجّرية، ثمّ قالت - عن أمّه وعن نفسها - إنّه ليس ثمة ما يدعو إلى القلق! إذن لم تبيت الأمّ في السجّرية؟ ولمّ ينفض صلوده؟ هل أنّه - رغم هذا كلّ - من الممكن أن يصفو الجوّ في غمضة عين، فيشفى خليل شوكت وطفلاه العزيزان، ويتألّق وجه عائشة ويضيء، وهل نسي كيف ابتلي بيته بمثل هذه المحنة منذ ثمانية

تلاقيه بالابتسام إذا تصبّت له دوائاً بالتأمل الصادق  
والفهم الصحيح والتجرّد الأصل، ذلك هو الانتصار  
على الحياة والموت معاً، ولكن أين من عاتشة ذلك  
كله؟

- رأيي يدور يا أخي!  
فقال ياسين بلهجة الحكيم، ولأول مرّة فيها سمع  
كيال:

- هذه هي الدنيا، ويجب أن تعرفها على  
حقيقتها...

ثم قام فجأة وهو يقول:

- يجب أن أذهب الآن...

فقال كيال كالستغث:

- ابقْ معي بعض الوقت...

ولكنه قال كاللتلير:

- الساعة الحادية عشرة، ويجب أن أذهب إلى قصر  
الشوق لأطمئن على زُنية، ثم أعود إلى السكّرية  
لأكون إلى جانبهم، لن أنام من الليل فيها يبدو ساحة  
واحدة، والله أعلم بما ينتظرنا غداً...

فقام كيال وهو يقول في جزع:

- إنك تتكلّم كما لو كان كلّ شيء قد انتهى،  
سأذهب من فودي إلى السكّرية...

- بل يجب أن تبقى مع الأطفال حتى مطلع النهار،  
وحاول أن تنام وألا ندمت على مصارحتي إليك  
بالحقيقة!

وغادر ياسين السطح فتبعه كيال ليوصله إلى باب  
البيت، وعندما مرّ بالدور الأعلى حيث بنام الأطفال،  
قال كيال بأسف:

- يا لهم من مساكن هؤلاء الأطفال، وشيء ما يكت  
نعمة في الأيام الأخيرة كأنّ قلبها حدس ما  
هنالك...

فقال ياسين باستهانة:

- الأطفال سرعان ما ينسون، ادعُ بالرحمة  
للكبار...

ولمّا خرجا إلى الفضاء، تراءى إليهما من الطريق

- ماذا يعني هذا، خبّرني بما عندك...

ياسين بصوت منخفض:

- الحال خطيرة جداً...

- خطيرة؟

- نعم، جئت إلى هنا لأريح أعصابي قليلاً، ألم تجد  
زُنية ليلة تلد فيها إلّا هذه الليلة؟ لشدّ ما تعبت بين  
قصر الشوق والسكّرية، وبين الدابة والدكتور، والحال  
خطيرة، وقد نظرت حرم المرحوم شوكت في وجه ابنها  
وهضت وأمان يا ربّ... كان يجب أن تأخذي قلبه!  
فانزعجت أمك انزعاجاً شديداً، ولكنّها لم تحفل بها،  
وقالت بصوت مبسوح: «هذه صورة آل شوكت إذا  
حضرهم الموت، رأيت أباه وعمّه وجده من قبل»، لم  
يبقَ من خليل إلّا خيال، وكذا الطفلان، لا حول ولا  
قوة إلّا بالله...

أزدد كيال ريقه، ثمّ قال:

- عسى أن تخبّ الظنون!

- عسى! كيال... لست صغيراً، ينبغي أن تعلم  
بما أعلم أنا على الأقلّ، الطبيب يقول إنّ الأمر جدّ  
خطيراً...

- عن الكلّ؟

- الكلّ... خليل وعثمان ومحمّد، ربّه! ما أنسى  
حظّك يا عائشة...

تمثّلت لعينيه في الظلام أسرة عائشة الضاحكة كما  
كانت تبدو له في الماضي. السعداء الضاحكون الذين  
مارسوا الحياة كأنّها لم خالص، متى تضحك عائشة  
من قلبها مرّة أخرى؟ كما اختطف فهمي، الإنجليز أو  
التيفود سيّان، أو غير ذلك من الأسباب، الإيمان بالله  
هو الذي جعل من الموت قضاءً وحكمةً يبعثان على  
الحيرة، وهو ليس في الحقيقة إلّا نوعاً من العبث.

- أطفح ما سمعت في حياتي...

- هو ذلك، ولكن ما الحيلة؟ وماذا جنت عائشة

حقّ تستحقّ هذا كله؟ اللهمّ عفوك ورحمتك...

هل ثمة حكمة رقيقة يمكن أن تبرز القتل بالجملة؟  
إنّ الموت يتبع قوانين «النكته» بدقة، ولكن كيف لنا  
أن نضحك ونحن هدف النكته؟ ولعلّك تستطيع أن

صوت يصيح بقوة «ملحق المقطم» فتتم كمال  
مسائل:

- ملحق المقطم؟!

فقال ياسين بلهجة أسيفة:

- أوه إني أعرف عما ينادي فقد سمعت الناس

يتناقلونه وأنا قادم إليك... سعد زغلول مات!...

هتف كمال من الأعماق:

- سعد؟!!

فتوقّف ياسين عن السير، والتفت نحوه قائلاً:

- هون عليك وحسبنا ما نحن فيه!...

فحمل كمال في الظلام دون أن ينطق أو يأتي

حراكًا، كأنما قد ذهل عن تحليل وعشان وعمد

وعائشة، عن كلّ شيء إلا أنّ سعد زغلول قد مات،

وواصل ياسين السير وهو يقول:

- مات مستوليًا حظه من العمر والعظمة فإذا تريد

له أكثر من ذلك! ليرحمه الله...

فتبعه صامتًا وليّا يرق من ذعوله، لو في غير هذا  
الظرف الحزين ما درى كيف يتحمّل النبأ، ولكنّ  
المصائب إذا تلاقت تمحّدي بعضها بعضًا، هكذا ماتت  
جذته في أحقاب مصرع فهمي فلم تجد لها باكيًا - إذن  
مات سعد. النفي والثورة والحزينة والدمشور مات  
صاحبها، كيف لا يحزن وخير ما في روحه من وحيه  
وتربيته!

ووقف ياسين مرة أخرى ليفتح الباب، ثمّ مدّ يده  
له فتصافحا، وعند ذلك تذكّر كمال أمرًا طال نسيانه  
له، فقال لأخيه وهو يجهد من نسيانه حياء:

- أذكر الله أن تجد زوجك قد ولدت بالسلامة...

فقال ياسين وهو ييمّ بالذهاب:

- إن شاء الله، وأرجو أن تنام نومًا هادئًا...

السُّكْرِيَّة





من عمرها، مجلّة الشعر بهالة ذهبية، مزينة الوجه بعينين زرقاوين، كماشة في شباهها أو أفن ملاحه، ولكتّنها كانت نحيفة وثيلة كالخيل، تمكس عينها نظرة ودية حلة تقطر طهارة وسداجة وغرابه عن هذا العالم، وكانت ملتصقة بمنكب أمها كأنها لا توة أن تفارقها لحظة. وقالت أم حنفي وهي تفرك يديها فوق المجرمة:

- سيتزل البنّامون عن العارة في هذا الأسبوع بعد عام ونصف من العمل...

فقالَت نعمة في نعمة ساخرة:

- عارة عمّ بيومي الشرباتي...

ارتفعت عينا عائشة عن المجرمة إلى وجه أم حنفي لحظة ولكتّنها لم تعلق بكلمة، قد علموا في حينه بهم البيت الذي كان يومًا بيت السيد محمد رغبون ثم إعادة بنائه عارة مكوّنة من أربعة أدوار باسم عمّ بيومي الشرباتي، تلك الذكريات القديمة، مريم وياسين ولكن ترى أين مريم، وأمّ مريم ويومي الشرباتي الذي استولى على البيت بالورثة والشراء، أيام كانت الحياة حياة والقلب ناعم البالا وعادت أم حنفي تقول:

- أجل ما فيها يا سَيّ دكان عمّ بيومي الجديدة، ثريّات وندفرة وحلوى، كلها مرايا وكهرباء، والراديو ليل نهار، يا حنفي على حسين الحلاق وهريش باع القول والفولي اللبان وأبر سريح صاحب المقلي وهم ينظرون من دكاكينهم البالية إلى دكان زميلهم القديم وعارته...

فقالَت أمية وهي تشبك الشال حول منكبها:

- سبحان ربّك الوَلَب...

فعدت نعمة تقول وهي تحيط عنق أمها بذراعها:

تقاربت الرموس حول المجرمة وانبسبت فوق وهجها الأيدي، يدا أمية النحيلتان المعروقتان، ويذا عائشة المتحجّرتان، ويذا أمّ حنفي اللتان بدتا كغطاء السلحفاة، وأما هاتان اليذدان الناصعتا البياض الجعيلتان فكانتا يدي نعمة. وكان برد يناير يكاد يتجمّد ثلجًا في أركان الصالة، تلك الصالة التي بقيت على حالها القديم يحضرها الملونة وكتابتها الموزّعة على الأركان، إلّا أنّ الفانوس القديم بمصباحه الخائزي قد اختفى وتدلّى مكانه من السقف مصباح كهربائي، كذلك تغيّر المكان فقد رجع مجلس القهوة إلى الدور الأول. بل انتقل الدور الأعلى جميعه إلى هذا الدور تيسيرًا للأب الذي لم يعد قلبه يسفه على ارتقاء السلم العالي. ثمّة تغيّر أدرك أهل البيت أنفسهم، فقد جفّت عود أمية واشتعل رأسها شيئًا، ومع أنّها لم تكذب تبلغ الستين إلّا أنّها بدت أكبر من ذلك بعشر، ولكنّ تغيّر أمية كان لا شيء بالقياس إلى ما جرى لعائشة من تدهور وانحلال، كان ممّا يندعو إلى السخرية أو الرقاد أنّ شعرها لم يزل مدّنيًا وعينها زرقاوان، ولكنّ هذه النظرة الخاملة لا توحى بحياة، وهذه البشرة الشاحبة بأيّ مرض تنضج؟ وهذا الوجه الذي نتأت عظامه وغارت فيه العيان والوجتان أهو وجه امرأة في الرابعة والثلاثين؟ وأما أم حنفي فبدا أنّ الأعوام تتراكم عليها ولا تنال من جوهرها، لم تكذب تمسّ لحمها وشحمها فتكاثفت كالغبار أو كالقشور فوق جلدها وحول رقبتهَا وفُغرها، غير أنّ عينيها الساهيتين لاحتا مُشاركيتين لأهل البيت في حزنهم الصامت. نعمة وحدها بدت في هذه المجموعة كالوردة المغروسة في حوش مقبرة، استوت شابة جميلة في السادسة عشرة

- سَدَّ جدار العازة سطحنًا من هذه الناحية، وإذا عمرت بالسكان فكيف نستطيع أن نغني الوقت فوق السطح؟

لم يكن في وسع أمينة أن تتجاهل سؤالاً توجَّهه حفيدتها الجميلة مراعاة لحاظ عائشة قبل كل شيء فقالت:

- لا يَحِلُّكَ السكان، ارحمني كيف شئت...

واستقرت النظر إلى عائشة لترى وقع إجابتها اللطيفة، إذ إنَّها باتت من شدَّة الحزن عليها وكأنَّها تخافها، ولكنَّ عائشة كانت مشغولة في تلك اللحظة بالتطلع إلى امرأة فوق نضد بين حجرة السيد وحجرها، لم تزلها عادة التطلع إلى المرأة وإن لم يعد لها معنى، وهرور الزمن لم يعد يرونها منظر وجهها الضمحل، وكلَّما سألها صوت باطني «أين عائشة زمان؟» أجابت دون اكتراث «أين عمَّد وعشان وغليل؟»، وكانت أمينة تلاحظ ذلك فيتنبَّض قلبها، وسرعان ما يسري الانقباض إلى أم حنفي التي اندجبت في الأسرة حتَّى وُوت عنها مومها. ونهضت نعيمة إلى الراديو القائم ما بين حجرة الاستقبال وحجرة السفرة وأدارت مفتاحه وهي تقول:

- ميعاد إذاعة الأسطوانات يا ماما...

وأشعلت عائشة سيجارة وأخذت نفسًا عميقًا، وجعلت أمينة ترنو إلى اللخان وهو ينسطح سحابة خفيفة فوق الحجرة، وانبعث من الراديو صوت يغني «يا عشرة الماضي الجميل يا ريت تموتي». وهللت نعيمة إلى مجلسها وهي تحبك الروب حول جسمها. كانت - كأنَّها في الزمان الحالي - تهوى الغناء. وُجِّيت كيف تسمعه وكيف تحفظه وكيف تميده بصوت حسن. لم ينل من هذا الهوى شعورها الديني الذي غلب على كافَّة مشاعرها، فهي تواظب على الصلاة، وتصوم رمضان مذ بلغت العاشرة، وتعلم كثيرًا بعالم الغيب، وترحب بغبطة لا حدَّ لها بزيارة الحسين إذا دعتهما جلتها إليها، ولكنَّها في الوقت نفسه لم تغل عن حبِّ الغناء، فهي تغني كلما خلت إلى نفسها في حجرتها أو في الحنَّام. وكانت عائشة ترضى عن كلِّ ما

يصدر عن وحيدتها، الأمل المضيء في أفقها المظلم، تعجب بتبليتها كما تعجب بصورتها، وحقَّ عن التصاق الفتاة بها - ذلك الالتصاق الذي بدأ عارًا للحدِّ - فهي تشجَّعه وتحبُّه ولا تطيق أن تسمع عنه آية ملاحظة، بل هي تضيق بالنقد عاتية وإن هانَّ وحسن القصد فيه. من ذلك أنه لم يكن لها من عمل في البيت غير القعود وحسو القهوة والتدخين، فإذا دعتهما أنَّها إلى المشاركة في عمل - لا لحاجتها إلى مساعدتها ولكن لتخلِّق لها ما تتسلَّ به عن أفكارها - امتعضت وقالت جملتها الشهورة «أف... دهني وشأني». ولم تكن تسمح لنعيمة بأن تمُدَّ للعمل بدًّا، كأنَّما كانت تخاف عليها أقلَّ حركة، ولو أمكن أن تصلِّي نيابة عنها لفعلت وكفتها جهد الصلاة. وكم من مرَّة حدَّثتها أنَّها في هذا الشأن قاتلة إنَّ نعيمة أصبحت «عروسة» وينبغي لها أن تلمَّ بواجبات «مست البيت» فكانت تقول لها بصوت ينمُّ عن الضجر «ألا تريدنا كالحالي؟. إنَّ ابنتي لن تتحمَّل أيَّ جهد فدهيها وشأنها، لم يعد في من أمل في الدنيا سواه». ولم تكن أمينة لتتعد القول. كان قلبها يتقطع حزناً عليها، وتنظر إليها فتجدها مثلاً مجسِّداً لحبيبة الأمل، وترى وجهها التمس الذي فقد كلَّ معنى للحياة فتلهب نفسها حشرات، لذلك أشفقت من مضايقتها، ولذلك اعتادت أن تتحمَّل ما قد ينمُّ عنها من جفاء في الردِّ أو قسوة في الملاحظة بصدر رحيب وعطف سمح. لم يزل الصوت يغني «يا عشرة الماضي الجميل». وجعلت عائشة تدخن سيجارتها وتصفني إليه. هذا الغناء الذي كانت تحبُّه، ولا زالت تحبُّه، فالخزون واليأس لم يقتلا الإحساس به، بل لعلَّها قوّاه في نفسها بما يرقِّده عادة من معاني الشجن والحسرات، ولو أنَّ شيئاً في الوجود ليس بمستطیع أن يعيد عشرة الماضي الجميل، بل إنَّها لتتساءل أحياناً أكان هذا الماضي حقيقة لا حلمًا ولا خيالاً؟ إذن أين البيت العمار؟ وأين الزوج الكريم؟ وأين هشان وأين عمَّد؟ وهل لا يفصلها عن ذلك الماضي إلاَّ ثمانية أعوام؟. ولم تكن أمينة ترتاح إلى هذه الأغاني إلَّا في النادر. إنَّ فضيلة الراديو الأولى في

اليوم كالصبيان... فقالت أم حنفي باحتقار:  
- يتعلمن لآتهن لا يحدن العريس، أما الجميلة  
منك...

فهزت أمينة رأسها موافقة ثم قالت:  
- وأنت متعلمة بما ست البنات. حائزة حل  
الابتدائية، ماذا تريدن أكثر من ذلك؟، ولست في  
حاجة إلى الوظيفة، فلندع الله أن يفرك وأن يكسو  
جالك الفتان بالعافية واللحم والدهن.  
فقالت عائشة بحدّة:

- أريد لها العافية لا السانة، السانة من العيوب  
خاصة في البنات، أمها كانت زين أبامها ولم تكن  
سمينة.

فاضمت أمينة وقالت برقة:  
- حقا أمك يا نعمة كانت زين أبامها...  
فقالت عائشة وهي تتبهد:  
- ثم صارت عبرة الآيام  
فغضمت أم حنفي:  
- ربنا يفركك بنعمة...  
فقالت أمينة وهي ترتع على ظهر نعمة بحنان:  
- آمين يا رب العالمين...

وعُذّن إلى الصمت، وإلى سماع الصوت الجديد  
الذي كان يغني «أحب أشوك كل يوم»، وإذا بباب  
البيت يفتح ثم يُغلق فقالت أم حنفي «سيدي الكبير»  
وقامت مسرعة إلى الخارج لتغني مصباح السّلم. وما  
لبش أن سمعن دقات عصاه للمهودة، ثم تراءى عند  
مدخل الصالة فوقفن جميعا في أدب. ووقف قليلا ينظر  
إليه خلال أنفاسه المبهورة ثم قال: «مساه الخير»  
فرقدن في صوت واحد: «يسعد سلك»، وسبقت أمينة  
إلى حجرته فأضاءتها، ومضى الرجل على أثرها في حالة  
من وقار الشيخوخة البيضاء. وجلس كي يستردّ  
أنفاسه. ولم تكن الساعة قد جاوزت التاسعة مساء.  
ظلت أناته كما كانت في الماضي، فالجبة الجوخ  
والقفطان الشاهي والكوفية الحرير كالعهد القديم، أما  
هذا الرأس للرّصع بالبياض، والأشارب الفخّي،  
والجسم النحيل الذي خلا من سكّانه، فكانت جميعا -

نظروا أنه أتاح لها سماع القرآن الكريم والأخبار، أما  
الأغاني فكانت مجزعة عند تلقّي معانيها الحزينة وتشفق  
على ابتها من سماعها حتى قالت مرّة لأم حنفي «أليس  
هذا هو النواج؟». كانت لا تفي عن التفكير في عائشة  
حتى كادت تنسى ما أدخل يتأهبها هي من أعراض  
الضغط ومتابعيه، ولم تكن تجد فرجة إلا في زيارة  
الحسين وغيره من الأولياء، وشكرا للسيد الذي لم يعد  
يحجر عليها فتركها تنطلق إلى بيوت الله كما تحب. لم  
تعد هي أيتها - أمينة المهد الماضي. غيّرنا كثيرا  
الحزن والتوسك. وقد فطنت مع الزمان مشابرتها  
المحببة حل العمل وطاقتها الحارقة في التنسيق  
والتنظيف والتدبير، ففيا عدا شئون السيد وكال لم  
تكن تعنى بشيء. عهدت بحجرة الفرن والمخزن لأم  
حنفي، قائمة بالإشراف وحده، وحتى الإشراف كانت  
تتهاون فيه. وكانت تفتها في أم حنفي لا حد لها،  
فليست هي بالغريبة عن الدار وأهلها، ثم إننا شريكة  
العمر ورقيقة السراء والضراء، وقد اندمجت في الأسرة  
حتى صارت قطعة منها، وتقلّت بكل قلبها مسراتها  
وأحزائها. وساد الصمت حينما كأنما استأثر الغشاء  
بوهيم، حتى قالت نعمة:

- لمحت في الطريق اليوم صديقتي سلمى، كانت  
معي في الابتدائية، وستتقدم العام المقبل في امتحان  
البكالوريا...

فقالت عائشة بامتعاض:

- لو سمع جديك لك بالاستمرار في الدراسة لتفوّقت  
عليها، ولكنك لم تسمح!  
وفطنت أمينة لما أوحى به جملة «ولكنك لم تسمح»  
من الاحتجاج فقالت:

- جدّنا لم أراه التي لا ينزل عنها، ترى أكنت  
ترخين باستمرارها في التعليم رغم ما في ذلك من  
تعب وهي العريضة الرقيقة التي لا تتحمّل  
التعب!؟...

فهزت عائشة رأسها دون أن تنبس، أما نعمة  
فقالت بحسرة:

- وددت لو أهتمت تعليمي، كل البنات يتعلمن

من المأكّل والمشرب والمناهة؟، وأين مسيره في الأرض كالجمل وضحكته المجلجلة من الأعصاق؟ وطلوع القمر عليه وهو ثمل بشقّ المرات؟، اليوم يقضى عليه بأن يعود من سهرته في التاسعة كي ينام في العاشرة والأكل والشرب والمشي بحساب دقيق مسجّل في دفتر الطبيب، وهكذا البيت الذي غشاه الزمن بالكآبة هو قلبه ومقامه، وعائشة التعيّسة شوكة في جنبه لا يستطيع أن يصلح ما فسد من حياتها وهيئات أن يطمئنّ على حالها، أليس قد يتكشف عنها الغد وحيلة بائسة بلا أب ولا أم؟ وما يعانيه من قلق على صحّته هو المهذّبة للبضاعفات وأخوف ما يخاف أن تخونه قواه فيلزم الفراش كالميت وليس يبيت مثل الكثيرين من أصدقائه وأحبابه، وهذه الأفكار التي تحوم حوله كالذباب فيستعيد بالله من شرّها، أجل ينبغي أن يسمع الأغاني القديمة ولولينام على الأنعام...

- اتركي الراوي مفتوحاً حتى لو شئت...

فهزّت رأسها بالإيجاب باسمه، فعاد يقول متنبّهاً:

- ما أشقّ السّلم عليّ!

- استرح يا سيدي عند كلّ بسطة...

- لكنّ جوّ السّلم شديد الرطوبة، ما ألعن هذا الشتاء... ولّمّ متسألًا... أراهن على أنّك زرت الحسين كالعادة رغم هذا البرد...

فقال في حياء وارتباك:

- في سبيل زيارته يوزن كلّ صعب يا سيدي...

- الحقّ عليّ وحدي...

فقال في استرضاء:

- إني أطوف بالزهرج الطاهر وأدهو لك بالصّحة

والعافية.

ما أمسّ حاجته إلى صادق الدعاء، فكّل طبّيب يدبر عنه، حقّ الدشّ البارد الذي اعتاد أن ينعش به جسده كلّ صباح حُرّم عليه لخطورته - فيها قيل - حلّ شرايينه، وإذا صار كلّ طبّيب ضارًّا فليرحمنا الله. ومضى وقت قصير ثمّ ترامت إلى الحجرة صفقة باب البيت وهو يفلن فرغت أمانة عينها متممة «كإل». ولم تكد تمّر دقائق حتى دخل كمال الحجرة في معطفه

كمودته المبخّرة - من طوارئ الزمن الجليد. ومن طوارئ هذا الزمن أيضًا سلطانيّة اللين الزباديّ والبرتقالة اللتان أهدتا لعشائه، فلا خر ولا مرّة ولا لحوم ولا يبيض، وإن بقي برقيق عينيه الزرقاوين الواسعتين آية على أن رغبته في الحياة لم تنفّر ولم تن. ومضى يخلع ملابسه بمعاونة أمانة كالمتاد، ثمّ ارتدى جلبابه الصوفيّ وتلقّع بالمعابة وليس طاقته ثمّ تروّج على الكتبة. وقدّمت له صينيّة العشاء فتناولته دون حماس، ثمّ قلّمت له أمانة قدحًا علويًا حتى نصفه بالماء فأخذ زجاجة الدواء وسكب في القدح ستّ نقط، ثمّ تحرّعه بوجه مقبّط متقرّز، ثمّ تحمّم والحمد لله ربّ العالمين. طالما قال له الطبيب إنّ الدواء مؤثّر أّما والرجيم» لندائم، وطالما حدّره من الاستهتار أو الإهمال، فالضغط قد استفضل، والقلب قد تأثّر به.

وأجبرته التجربة على الإيمان بتعليمات الطبيب بعد أن عان من الاستهانة بها ما عانى، فما من مرّة خرج عن حدّه حتى تدركه الجزاء، وأخيرًا أذهن لحكمه، لا يأكل ولا يشرب إلّا ما يسمح به، ولا يسهر إلى ما بعد التاسعة، ولكنّ قلبه لم يتخلّ عن الأمل في أن يستردّ يومًا - بقدره قادر - صحّته وأن ينعم بحياة جيّدة هادئة، وإن تكن حياة الماضي قد ولّت إلى الأبد. ولامتلت أفضّه إلى الغناء المترامي من الراوي في ارتياح، وكانت أمانة تحدّثه من مجلسها فوق الشلّة عن برد اليوم والمطر الذي امهر في الضحى فلم يلقَ إليها بالأ وقال في سرور:

- فهل لي أنّك سنّذاع الليلة بعض الأغاني القديمة...

فابتسمت المرأة في ترحيب إذ كانت تحبّ هذا اللون من الغناء، ربّما متأبهة حبّ السيّد له أكثر من أيّ شيء آخر، ولبت السرور متألقًا في عيني الرجل لحظات حتى أدركه فتور. لم يعد بمستطيع أن ينعم بشعور ساژدون تحفّظ، أو دون أن يتقلب عليه فجأة فيستيقظ من حلمه مرتعّطًا بالواقع، الواقع يمدق به من جميع النواحي، أمّا الماضي فحلّم، فيمّ السرور وقد ولّت إلى الأبد أيام الأُنس والطرب والعافية؟. وانطوى اللذيل

فلم ينس كمال بكلمة وإن نطق وجهه بالرغرض  
المؤقَّب، فعاد الرجل يقول متأسفاً:

- تأي هذا كي تضيق رقتك في قراءة لا نهاية لها  
وكتابة بلا أجر، أيصح هذا من عاقل مثلك؟  
وهنا خاطبت أمانة كمال قائلة:

- ينبغي أن تحب المال كما تحب العلم (ثم موجَّهة  
الخطاب إلى السيد وهي تبسم في خيلاء) إنه كجده لا  
يعدل بحب العلم شيئاً... .

فقال السيد متأسفاً:

- رجعنا إلى جلد... . يعني كان الإمام محمد  
صه؟

ومع أنها لم تعرف شيئاً عن الإمام إلا أنها قالت  
بحماس:

- لم لا يا سيدي؟ . كان كل الجيران يقصدونه في  
شئون دينهم ودنياهم!

فقلت روح الفكاهة على السيد فقال ضاحكاً:

- مثله الآن كل عشرة بقرش!

واحتج وجه المرأة دون لسانها. وابتسم كمال بمطف  
وارتيابك، واستأن في الانصراف ثم غادر الحجر. وفي  
الصالة اعترضت نعيمة طريقه لترى فستانها الجديد،  
وذهبت لتحي به، فجلس إلى جانب عائشة ينتظر،  
كان- كبقية أهل البيت- يهامل عائشة في شخص  
نعيمة، ولكنّه إلى هذا كان معجباً بالفستان الحسناء  
إعجابه بأنّها قديماً. وجاءت نعيمة بالفستان ببسطه  
على يديه وراح يتضمّنه وهو يبتلي الإعجاب، وكان  
يتأمل صاحبة الفستان بمطف وحب. مأخوذاً بجهاها  
البنيع المادى الذي اكسى من صفاتها ورقتها نورانية  
ذات بهاء. ومضى عن المكان بقلب لا يحلو من  
شجن، إن مصاحبة امرأة حتى شيخوختها لشيء يجزن.  
ليس عما يور أن يرى أباه في وهه بعد سطوة وجبروت  
أو يرى ذبول أمه وتواربها وراء الكبر، أو يرى انحلال  
عائشة وتدهورها، هذا الجلو المشحون بنذر التعاسة  
والنهاية. وورقي في السلم إلى الدور الأعلى- شقته كما  
يسميه- حيث يعيش منفرداً بين حجرة نومه ومكتبته  
المطلّتين على بين القصرين. وخلع ملاپسه ومضى

الأسود الذي نَم على نحافته وطوله، يتطلع إلى أبيه  
خلال نظارته الذهبية، وقد أضفى عليه شاربهِ المرتع  
الغزير الأسود وقاراً ورجولة. اتحنى على يد والده  
مسكلاً فدعاه إلى الجلوس وهو يسأله كالمادة بأسياً:  
- أين كنت يا أستاذ؟

وكان كمال يحب هذه اللهجة الوثقة اللطيفة التي لم  
يحفظ بها إلا بعد عمر طويل، فأجاب وهو يجلس على  
الكتبة:

- كنت في القهوة مع الأصحاب.

ترى أي نوع من الأصحاب؟ بيد أنه يبدو جاداً  
رزناً وقوراً أكثر من سته، ثم إن أكثر لياليه تقضى في  
مكتبته، شأن ما بينه وبين ياسين، وإن كان لكل  
أفته، وعاد يسأله بأسياً:

- أشهدت اليوم المؤتمر الوفدي؟

- نعم، وسمعتا خطبة مصطفى النحاس، كان يوماً  
مشهوراً.

- قيل لنا إنه كان حدثاً عظيماً ولكني لم أستطع  
حضوره فنزلت عن بطاقة الدعوة لأحد الأصقاء، لم  
تعد الصلحة تحتمل التعب...

فداخل كمال العطف وتتم:

- ربنا يقولك...

- ألم تقع حوادث؟

- كلا مر اليوم بسلام، واكتفى البوليس بخلاف  
عادته بالمراقبة...

فهز الرجل رأسه في ارتياح، ثم قال في لهجة ذات  
معنى:

- نعود لموضوعنا القديم، ألا زلت عند رأيك  
الخاطئ عن الدروس الخصوصية؟

لم يزل يشعر بالارتباك والخرج كلما وجد نفسه  
مضطراً إلى إعلان مخالفته لرأي والده، فقال برقة:

- لقد انتهينا من هذا الموضوع!

- في كل يوم يطلب إليّ أصدقاء أن تعطي دروساً  
خصوصية لابنائهم، لا ترفض الرزق الحلال، إن  
الدروس الخصوصية مصدر رزق واسع للمدرسين،  
والذين يطلبونك من أعيان الحي...

مرتدياً جلبابه متلفعاً بالروب إلى المكتبة، وكانت مكونة من مكتب كبير فيها علي المشربية وصلين من خزانات الكتب على جانبيها. وكان يريد أن يقرأ فصلاً على الأقل في كتاب «منها الدين والأخلاق» لبرجسون، وأن يراجع مراجعة أخيرة مقاله الشهري لجلة «الفكر» الذي اتفق أن كان عن البراجزيم. هذه السويحات للموهوبة للفلسفة، التي تمتد حتى منتصف الليل هي أسعد أوقات يومه، وهي التي يشعر فيها - على حدّ تعبيره - بأنه إنسان، أما بقية اليوم الذي ينقضي في عمله كمدّرس بمدرسة السليحدار الابتدائية أو في إشباع شقّ مطالب الحياة الضرورية، فمداره الحيوان الكامن فيه، المستهيف أبداً تأسين ذاته وتحقيق شهواته، ولم يكن يحبّ عمله الرسمي ولا يحترمه، ولكنّه لم يعلن سخطه، خاصة في بيته، أن يشتت به الشامتون، ومع ذلك فقد كان مدوّساً عنّازاً حائزاً للتقدير، وكان الناظر يمهّد إليه ببعض النشاط المدرسي، حتى روى نفسه متفكّها بالمبودية، اليس هو العبد الذي يتن العمل الذي لا يجده ١٩. ولحق أنّ ولعه بالتفوق الذي اعتاده منذ الصغر هو الذي دفعه إلى الاجتهاد والامتياز دفعا لا هواة فيه. وقد صمّم من بلائ الأمر على أن يكون شخصية محترمة بين التلاميذ والمدرّسين فكان له ما أراد، بل كان شخصية محترمة ومحبوبة معاً، رغم رأسه وأفنه العظيمين... ولا شك أنّه كان لها - رأسه وأفنه - أو كان لإحساسه الاليم بها الفضل الأوّل في هذا التصميم القوي الذي خلق منه هذه الشخصية الهابة. كان يعلم بأنّ رأسه وأفنه سيثيران من حوله الفتن فاستلّ حزمه ليرة عليها وعنه كبد العائنين. أجل لم ينجح أحياناً من غمز وتعرض في أثناء الدرس أو في ملعب المدرسة، فكان يلقي الهجوم بحزم شديد، ثمّ يلفّقه بعبق المطبوع، إلى ما أثار عنه من مقدرة في الشرح والضحيم، وما يأخذ فيه بين آونة وأخرى من موضوعات طريفة حماسية تمسّ القومية أو ذكريات الثورة، كلّ أولئك جعله يستميل إليه والرأي العام بين التلاميذ، وكان ذلك إلى حزمه الخوّب عند الضرورة - كنيلاً بالقضاء - على الفتن في مهادنا. ولشّد ما آله أول الأمر الغمز

فخفف الحمزوي عينه وقال:

- موطني لا أحمد عليه، ولا أدري كيف  
أتكلم...

فقال السيد مشجعاً:

- ولكني عاشرتك أكثر مما عاشرت أهل فتبتطيع أن  
تفني إلي بكل ما في نفسك...

- العشرة هي التي تصعب علي يا سي السيد...

العشرة ١٢. لم يخطر له هذا على بال...

- أتريد؟... حقاً!

قال الحمزوي بحزن:

- أن لي أن أعزل، الله لا يكلف نفساً إلا  
وسعها...

وانقبض قلب السيد، فاعتزل الحمزوي للعمل  
ليس إلا لتلويح له بالاعتزال، كيف ينهض بأعباء العمل  
في دكانه وهو على ما هو عليه من مرض وكبر، ونظر  
إلى وكيله في حيرة فعاد الرجل يقول متأثراً:

- إني آسف جداً، ولكني لم أجد أطيع العمل، ولئى  
ذلك الزمان، غير آتي دبر الأمر لمن أتركك وحيداً،  
سيماً مكان من هو أقدر مني...

إن ثقته في أمانة الحمزوي قد رفعت عن كاهله  
نصف متاعه، فكيف يعود ابن الثالثة والسّتين إلى  
ملازمة الدكان من طلعة الشمس إلى مغيبها؟ قال:  
- ولكنّي اعتزل العمل والبيع في البيت يسهان  
بالإنسان إلى التدهور، ألا ترى هذا في أصحاب  
المعاش من المرفقين؟

فقال الحمزوي بأساً:

- التدهور موجود قبل الاعتزال.

وفضح السيد فجأة كأنه ليداري المخرج الذي  
شعر به مقدماً قبل أن يقول له:

- يا صجوز يا مكار، أنت تهجرني تلبية لإلحاح  
ابنك فؤاد.

فهتف الحمزوي متأثراً:

- معاذ الله، إن حالي الصعيّة لا تخفى على أحد،  
وهي السبب الأوّل والأخير...

من يدري؟. فؤاد وكيل نيابة ومثله لا يرتاح لبقاء  
أبيه عاملاً بسيطاً في دكان ولو كان صاحب الدكان هو

اليوم السابق، كل ذلك كان أحمد عبد الجواد يؤثبه  
على خير الوجوه وبالدقة المهدودة فيه من قديم غير أنه  
يؤثبه اليوم بمشقة لم يكن يجهلها من قبل أن يركبه العمر  
والمرض. وكان منظره وهو منكب على دفاتره تحت  
لافتة البسملة، وشاويه الفظي يكاد يخفي تحت أنفه  
الكبير الذي زاحه ضمور الوجه ضخامة، كان ذلك  
المنظر ممّا يستحقّ المصطف، غير أن منظر وكيله  
ومساعدته جميل الحمزوي الذي كان يسلط إلى  
السبعين كان ممّا يستحقّ الرثاء، ولم يكن يفرغ من  
زبون حتى يتهاكك على مقعده وهو يلهث فكان أحمد  
يقول لنفسه في شيء من الامتناع ولو كنّا موظفين  
لاخنانا المعاش في مثل سنّا من الكد والعمل! ورفع  
السيد رأسه عن الدفتر وهو يقول:

- لا زالت الحالة متأثرة بعض الشيء بالآزمة  
الاقتصادية...

فارتسم الامتناع على شفي الحمزوي الباهتين  
وقال:

- بدون شك، غير أن هذا العام خير من العام  
السابق، والعام السابق خير من الذي قبله، الحمد لله  
على أي حال...

عام ١٩٣٠ وما تلاه من أعوام، تلك الفترة التي  
كان التجار من أصحابها يستمونها أيام الرعب. حين  
استبدّ إسماعيل صدقي بالحياة السياسيّة وسيطر القمط  
على الحياة الاقتصاديّة، ويثّلون الأكتف وهم يتساملون  
حماً يمتحنهم الغد، وقد كان من المحظوظين بغير شك  
لأن ضيقته لم تبلغ به الإفلاس الذي تهذبه عائلاً بعد  
عام.

- أجل الحمد لله على أي حال...

ووجد جميل الحمزوي يرنو إليه بنظرة غريبة، فيها  
تردد وخرج، ماذا عنده يا ترى؟. وقام الرجل فقرب  
مقعده من المكتب ثم جلس وهو يبتسم في ارتباك.  
وكان البرد قاسياً رغم سطوح الشمس، وكان للهواء  
حملات قويّة ارتجت لها الأبواب والنوافذ وتعالى  
الصفير. قال السيد وهو يعتدل في جلسته:

- هات ما عندك، إني موقن بأنك ستقول شيئاً  
هاشاً.

- لا أحب أن أضيع وقتك وأنت مشغول، ولكنك أنبل من عرفت في حياتي، فلما أن عمّدتى بسلفة أخرى، ولما أن عهد لبيتي شاربًا، وما حَبَدًا لو تكون أنت الشاري!

فقال أحد عبد الجواد متنبِّهًا:

- أنا؟! يا ليت، الزمن غير الزمن يا سلطنة، طلالا صارحك بالحقيقة ولكن يبدو أنك لا تصدّقين يا سلطنة...

فضحكت ضحكة دارت بها خيبة أملها وقالت:

- السلطنة مفلسة، فما العمل؟

- في المرة السابقة أعطيتك ما قدرت عليه، ولكن الحال لا يسمح بتكرار ذلك...

فتساءلت في قلق:

- ألا يمكن أن عهد لبيتي شاربًا؟

- سأبحث لك عن شارب. أعدك بذلك.

فقالت غمّة:

- هذا ما يُنتظر منك يا سيّد الكرماء (ثمّ بلهجة حزينة) ليست الدنيا وحدها التي تغيّرت ولكنّ الناس تغيّروا أكثر، سامح الله الناس، في أيام الحرّ كانوا يستبقون إلى تقبيل حذائي، والآن إذا لمحوي صل جانب الطريق مالوا إلى الجانب الآخر.

لا بدّ أن يتنكر للإنسان شيء، بل أشياء، الصّحة أو الشباب أو الناس، أمّا أيام الحرّ، أيام الأنعام والحبّ فإين هي؟!

- ومن ناحية أخرى فأنت يا سلطنة لم تعلمي للأيام حسابًا...

فتنبّدت أسفة وهي تقول:

- نعم، لست كأخحك جليّة التي تتاجر بالأعراض وتفتني المال والبيوت، وفضلاً عن ذلك فقد ابتلاني الله بأولاد الحرام حتى بلغ الفجر بحسن غير أنّه كان يبيعي شمة الكوكابين - عندما ندر في الأسواق - بجنيه!

- لمنه الله.

- حسن عنبر؟... ألف لعنة!

- بل الكوكابين.

- والله الكوكابين أرحم من الإنسان.

الذي مهّد له السيل ليتبوّأ مركزه في النيابة، ولكنّه شعر بأنّ تصرّجه قد ألم وكيهه الطيّب فترجع متسائلاً في لطف:

- متى يُنقل فؤاد إلى القاهرة؟

- في صيف هذا العام أو في صيف العام القادم على الأكثر...

ومضت فترة سكون مشحونة بالحرج حتى قال الحمزاوي مجازيًا السيّد في لطفه:

- وإذا أقام معي في القاهرة وجب التفكير في تزويجه، أليس كذلك يا سي السيّد؟ إنّهُ ابني الوحيد على سبع بنات، ولا بدّ من تزويجه، وكلّما تذكّرت في ذلك جرت في خاطري الأنسة المهذّبة حفيدتك...

واسترق إلى وجه السيّد نظرة استطلاع ثمّ نتم:

- لسا قد المقام طيبًا...

فلم يتّسع السيّد إلّا أن يقول:

- استغفر الله يا عمّ جميل، نحن اخوان من قديم الزمن...

تري أمرضه فؤاد على جسّ النفض؟. وكيل نيابة شيء، عظيم والعبرة في الأصل بالطيبة، ولكن أفدا وقت التحدّث في الزواج؟

- حدّثني أوّلًا أنّت مصمّم على اعتزال العمل؟

وجاءه صوت من باب الدكان يقول:

- يا ألف صباح الخير...

- أهلاً وسهلاً... (ثمّ وهو يشير إلى المقعد الذي

أخلاه الحمزاوي) تفضلي...

جلست زينة بجسم قد ترقّل، ووجه قد تنعّج بالأصباغ، أمّا الحليّ فلم يعد لها أثر في عظمها أو أذنيها أو ساعديها، ولا للجيّال القديم مكان، وجعل السيّد يرحّب بها كعادته مع كلّ زائر لا أكثر، أمّا قلبه فلم يرتع للزيارة، فما من مرّة تحيّه إلّا وترهقه بالمطالب.

سألها عن الصّحة فأجابته وهي لا تعني شيئاً «والحمد لله» وقال لها بعد هنيهة صمت... أهلاً... أهلاً، فابتسمت شاكرة ولكن بدا أنّها استشعرت الفتور الكامن في مجاملاته. وضحكت متجاهلة الجوّ الذي يكتنفها. وكانت الأيام قد علّمتها البرود، ثمّ قالت:



بصوت حقيق يتعالى من الباب قائلاً في هجة الغزل:

- من هذا الذي يجلس وراء المكتب كالقمر؟

بدا الشيخ متولي عبد الصمد في جلاب خشن رث لا لون له، ومركوب متفزز، معصوب الرأس بتلفيفة من وير، مستند القاعة على عكاز، وكان يرش بعينه الحمرابين مسلماً بصره نحو الجدار الملاصق لمكتب السيد وهو يظن أنه يستدنه نحوه... فابتسم السيد رغم همه قائلاً:

- تعال يا شيخ متولي، كيف حالك؟

فكشف الرجل عن فم لم يبق فيه ناب واحد وهو ينف:

- يا ضغط زُل، يا صخرة عودي إلى سيد الناس...

وقام السيد فالتفت نحوه فاحتدل بصر الشيخ إليه ولكنه تراجع في الوقت نفسه كالحارب، ثم جعل يدور حول نفسه، مشيراً إلى الجهات الأربع وهو يصيح ومن هنا تفرج... ومن هنا تفرج... ثم تحوّل إلى الطريق قائلاً:

- ليس اليوم، غداً، أو بعد غد، قل الله أعلم... ومضى في خطوات واسعة لا تناسب نشاطها مظهره البالي...

### ٣

يوم الجمعة رجعت الفروع إلى الأصل وعصر البيت القديم بالأبناء والأحفاد، ذلك تقليد سديد لم ينقطعوا عنه. ولم تعد أمينة «بطة» يوم الجمعة كما كانت قديماً، فأم حنفي تبوّلت للمركز الأول في المطبخ، ولم تكن أمينة تني عن تذكير القوم بأن أم حنفي تلميذتها فإن غرامها بالثناء كان يتشجع على الإفصاح عن ذاته كلها شعرت بقلّة استحقاقها له، إلى أن خدجته - رغم أنها في حكم الضيفة - لم تقصّر في إهداء معونتها. وقيل ذهب السيد إلى الدكان التفت به الضيوف، إبراهيم شوكت وابناه عبد المنعم وأحمد، وباسين وابناه رضوان وكرمة، يكتفهم فلك الخشوع الذي يجعل من ضحكهم ابتساماً ومن حليهم همساً. وكان السيد يحيد في حضبهم سروراً يزداد تعلّقاً به كلما تقدّم به

- لا... لا، من المحزن حقاً أنك وقعت في شره.

فقال بتسليم وقنوط:

- هدّ حيلي وضيق مالي، ما علينا، متى نجد في شاربنا؟

- إن شاء الله عند أوّل فرصة.

فقال في عتاب وهي تنهض:

- اسمع، إذا زرتك في المرة القادمة فابتسم من قلبك، كلّ إسماء تيون إلا التي تجيئي من ناحيتك، أنا عارفة أنّ أضيافك بمطالبي ولكنّي في ضيق لا يعلم به إلا الله، وأنت أنبل الناس في نظري.

فقال لها معتذراً:

- لا تتوهمي ما ليس فيّ، الأمر أنّي كنت مشغولاً بمسألة هامة عند قدومك، وهموم التجار لا تنتهي كما تعلمين!

- رفع الله عنك الهموم.

فحنى رأسه شاكراً وهو يوصلها، ثم ودّعها قائلاً:

- أهلاً بك من القلب في كلّ حين...

ولج في عينيها نظرة خائبة تفيض غماً فرق لها، وعاد إلى مجلسه متقبض الصدر فالتفت إلى جميل الحمزاوي وقال:

- دنيا...

- كفّاك شرّها وأطعمك خيرها.

غير أن نبرات الحمزاوي قست وهو يستدرك قائلاً:

- ولكنّها عاقبة عادلة لامرأة مستهترّة!

فهو أحمد عبد الجواد رأسه هزة مقتضية سريعة كأنها يعلن بها احتجاجاً صامداً على قسوة هذه الملاحظة، ثم سأل بصوت رجع به إلى النشمة التي قطعها مجيء زبيدة:

- ألا تزال مصمّماً على رأيك في هجرنا؟

فقال الرجل في حرج:

- ليس هجراً ولكنّه تقاعد وأنا أسف من كلّ قلبي.

- كلام كاللّي داريت به زبيدة منذ دقيقة!

- أستغفر الله، إنّّي أتكلّم من قلبي، ألا ترى يا سيدي أنّ الكبر يكاد يعجزني؟

ثم دخل الدكان زبون فمضى الحمزاوي إليه، وإذا

الكهربياني. وكان إبراهيم شوكت كعادته التي لم يغيرها الزمن ينوّه بالوان الطعام التي أصعبته، غير أنّ تنويعه اقتصر في الفترة الأخيرة على فضل الاستفادة على تلميحها النجيب، وكانت زئوبة تعيد ثنائه كالمصدي فإثما لم تكن تحمل فرصة يمكن أن تتوّج بها إلى أحد من أهل زوجها. والحق أنّها قد فُتحت لها أبواب آل زوجها وأُتيحت لها مخالطتهم وهي تعمل بلباقة على توثيق علاقتها بهم، لأنّها عدّت ذلك اعتزازاً بمكانتها بعد أن انقضت أحوام وهي تعيش في عزلة كالنبوة.

وكان موت وليد لياسين السبب الحقيقي في زيارة أهله لبيته للتمزية، فصاغت بعدها أيديهم لأول مرة منذ زواجها، وتشجعت بذلك فزارت السكرية، ثم زارت بين القصرين عند اشتداد المرض على السيد، بل أقدمت على زيارته في حجرته فتقبلا كشخصين جليدين لا تاريخ مشتركاً بينهما. هكذا اندجبت زئوبة في آل أحمد حتى غدت مخاطب أمينة فتقول لها يا نيرة وتنادي خديجة فتقول لها يا أنسي، ويدت دائماً مثالا للاحتشام، وعلى خلاف نساء الأسرة أنفسهن تجتبت التبرّج خارج بيتها، حتى بدت أكبر من سنّها، إذ بادر الدبول إلى جالها قبل الأوان، فلم تصدّق خديجة أبداً أنها في السادسة والثلاثين، ولكنها استطاعت أن تفوز من الجميع بشهادة طيبة لها حتى قالت عنها أمينة يوماً ولا شك أنّ أصلها طيب، ربّما أصلها البعيد، فليكن،

ولكنّها بنت حلال، هي الوحيدة التي عصرت مع ياسين<sup>١</sup>. وولدت خديجة في شعما ولحمها أضخم من ياسين نفسه، ولم تكن تنكر أنّها سعيدة بذلك، كما كانت سعيدة بعبد المنعم وأحمد وحياتها الزوجية الموفقة عاقمة، بيد أنّها لم تكفّ يوماً عن التشكيّ أثناء العيون.

وقد تغيّرت معاملتها لعاشة تغيّراً كلياً فلم تندّ عنها طوال ثمانية أحوام كلمة واحدة تنمّ عن سخرية أو عشونة ولو على سبيل المازحة، بل حرصت الحرص كله على الترقّق بها والتوتّد إليها وملاطفتها، خشوعاً حيال تعاسها وخوفاً من الأقدار التي قضت عليها بما قضت، وإشفاقاً من أن تضع المرأة المحزونة حلقها موضع المقارنة، وقد وفقت موقفاً كريماً يوم حُتمت على

المرء، فحسب على ياسين انقطاعه عن زيارته في الدكان اكتفاء بزيارة يوم الجمعة، ألا يريد هذا البغل أن يفهم أنّه يتوق إلى رؤيته كلّ حين؟. وابنه رضوان جميل المحيا ذو العينين المحكولتين والبشرة الوردية الذي يعكس جماله الرأثاً متزوّجة تذكره مرة ياسين ومرة بهنية أم ياسين وثالثة بصديقه الحبيب عمّاد عفت فهذا أحبّ الأحفاد إلى قلبه، وكرهية أخته مصغر شابة في الثامنة من عمرها سوف تنضج نضجاً عجيباً كما تشهد حينها السوداوان - عينا زئوبة أنّها - اللتان يسم لها عظامه ابتسامة نديّة بالحياه والذكريات. أمّا عبد المنعم وأحمد فحسب أن يرى في وجهيهما قدراً لا يُستهان به من أفضه العظيم كما يرى عيني خديجة الصغيرتين، غير أنّها أجراً من الآخرين في هابطته، وكلّهم - هؤلاء الأحفاد - يشقون طريق دراستهم بنجاح يدهو إلى الفخار، لكنّهم يبدون مشغولين بأنفسهم عن جدّهم، فمن ناحية يحزونه بأنّ حياته لم ولن تنقطع ومن ناحية أخرى يذكّرونه بأنّ شخصه يتراجع رويداً عن مركز الاهتمام الذي كان يستأثره، ولم يكن ذلك لهجزنه، فإنّ الإقبال بالمرء يجمي بالحقمة كما يجمي بالوهن والمرض. ولكن هيهات أن يمنع ذلك الذكريات من أن تصدّق، عندما كان مثل هؤلاء في مطلع العمر، وعندما كان العام ١٨٩٠، وكان يتعلّم قليلاً ويلهو كثيراً ما بين مغالي الجاهلية ومرتاد الأزكيّة، وفي ركابه يجرى عمّاد عفت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار، وكان أبوه يملأ الدكان نفسهما يزجر وحيداً قليلاً، ويرقّ له كثيراً، وكان العمر صفحة مطوية مكتكة بالأمال، ثمّ كانت هنية... ولكن مهلاً! لا ينبغي أن تستغفّر الذكريات.

وقام ليصلّي المرء فكان ذلك إيذاناً بالانصراف، ثمّ ارتدى ملابسه ومضى إلى الدكان، وتجمّعوا هم في مجلس القهوة حول جمجمة الجلبة، في جوّ التلاقي والسر. احتلّت الكبة الرئيسية أمينة وعائشة ونعيمة، أمّا الكبة اليمنى فجلس عليها ياسين وزئوبة وكرهية، وعلى الكبة اليسرى قعد إبراهيم شوكت وخديجة وكيال، على حين أخذ رضوان وعبد المنعم وأحمد مجالسهم على كراسي توسّطت الصالة تحت المصباح

يتنفس في جَرِّ الآمال القلعية، بيد أن الحيلة يجبهه  
بصدمات قاسية كل يوم، فوكيل النيابة مثلاً لا يحتاج  
إلى تعريف أمّا كاتب مقالات مجلة «الفكر» فربما احتاج  
إلى تعريف أكثر من مقالاته الغامضة نفسها. ولم يدعه  
أحمد إبراهيم شوكت لحيرة فنظر إليه بعينه الصغيرتين  
البارزتين وهو يقول:

- إني أترك الجواب لخالي كمال...

وابتسم إبراهيم شوكت ابتسامة يداري بها حرجه،  
أمّا كمال فقال دون حماس:

- ادُرْسْ ما تشعّر بأنّه يوافق موهبتك.

ويدا الطفر في وجه أحمد لردّد رأسه الرشيق بين  
أخيه وأبيه غير أن كمال عاد يقول:

- ولكن ينبغي أن تعلم أن الحقوق تفتح لك مجالاً  
من الحياة العملية الممتازة لا تستطيعه الآداب. سيكون  
مستقبلك إذا اخترت الآداب في التعليم وهو مهنة شاقة  
ولا جأها...

- بل سألتهم إلى العمل في الصحافة.

- الصحافة... «صاح إبراهيم شوكت»... إنّه  
لا يدري ماذا يقول.

فقال أحمد مخاطباً كمال:

- إنّ قيادة الفكر وقيادة عربية كارو شي واحد في  
أُسرتنا!

فقال رضوان ياسين بأساً:

- إنّ أكبر قادة الفكر في وطننا من الحقوق...

فقال أحمد في كبرياء:

- إنّ الفكر الذي أعنيه شيء آخر!

فقال عبد المنعم شوكت حابساً:

- وهو شيء خفيف هذّام، إني أعلم وأسفاه بما  
تعني...

وعاد إبراهيم شوكت يقول لأحمد وهو ينظر إلى  
الآخرين كأنهم يشهدهم حل ما يقول:

- نكّر قيل أن تقدم، إنك لا زلت في السنة  
الرابعة، لن يعدو ميراثك المائة جنيه في العام، وإنّ  
بعض أصحاب يشكون مرّ الشكوى من أن أبناءهم  
الجامعيّن لا يجلدون عملاً، أو يعملون كتباً مجرّبات  
تافهة، وأنت حرّ بعد ذلك فيما تختار...

إبراهيم شوكت أن ينزل عن حقّه المشروع في ميراث  
أخيه المتوفى لتعمية قال الميراث كلّ لعائشة وكرّميتها  
دون شريك. وأملت خديجة أن يذكر صنيعة في حينه  
ولكنّ عائشة استغرقتها ذمول غيب عنها كرم أختها فلم  
يقعد ذلك بخديجة عن غمرها بالمطف والرحمة  
والترسام كأنها انقلبت أمّا أخرى لها، ولم تكن تطمع  
في أكثر من رضاها وموتها كي تطمئن على أسباب  
التوفيق التي هيأها لها الله. وأخرج إبراهيم شوكت  
علبة سجائره وقدمها لعائشة فتناولت سيجارة شاكراً،  
وتناول أخرى وراحا يدخنان. كثيراً ما يكون إفراط  
عائشة في التدخين وتعاملي القهوة ملتقى ملاحظات  
وإن تكن تقابل منها عادة جرّ الكتفين. أمّا أنها فتنع  
بأن تقول في لهجة الدعاء «ربّنا يصبرها» وأمّا ياسين  
فكان أجراً الأهل في نصحتها كأنها قد أهله لذلك فقدّ  
وليده، غير أن عائشة لم تكن تعدّه مصاباً مثلها وتضنّ  
عليه بمكانة مرموقة في دولة المبتليين إذ إنّ ابنه مات وهو  
دون العام لا كعثان أو عُمّدد، والواقع أنّ حديث  
المصائب كان يبدو كثيراً هوائيتها المفضّلة، كأنها كانت  
تعزّز بدرجتها الممتازة في دنيا المشقاء، واستمع كمال إلى  
ما يدور من حديث عن المستقبل بين رضوان وعبد  
المنعم وأحمد فأرهف السمع بأسماً، وكان رضوان  
ياسين يقول:

- كلّنا من القسم الأدبي، فليس أمامنا كلّية جديدة  
بالاختيار إلّا الحقوق.

فأجابه عبد المنعم إبراهيم شوكت بصوته القويّ  
المعقم بنبرات التوكيد، وكان يبرّز رأسه الضخم الذي  
جعله أقرب الشبان شبهاً إلى كمال:

- مفهوم... مفهوم، ولكنّه لا يريد أن يفهم!

وأوماً عند عبارته الأخيرة إلى أخيه أحمد الذي  
ارتسمت على شفّته ابتسامة ساخرة، فانتفض إبراهيم  
شوكت الفرصة وقال مشيراً إلى أحمد أيضاً:

- ليدخل الآداب إذا شاء ولكن عليه أن يقتضي  
بقيمتها، أنا أفهم الحقوق ولكنّي لا أفهم الآداب!  
وغضّ كمال بصره فيها يشبه الأعمى، إذ عاودته  
أصداء نقاش قديم عن الحقوق والمعلّمين. إنّه لا زال

شعر كمال كأنَّ هذا القول انتقاد مرَّ موجه إلى شخصه، أمَّا عائشة فقالت لأوَّل مرَّة:

- إنَّه يريد أن يضطرب نعيمة.

وفي فترة الصمت التي استقبل بها الخبر قالت أمينة:

- أبوه فاتح جنبًا أمس...

وتساءل ياسين جادًا:

- وهل وافق أبي؟

- لهذا سابق لأوانه.

فتساءل إبراهيم شوكت بجلو وهو ينظر إلى عائشة:

- وما رأي عائشة هانم؟

فقالت عائشة دون أن تنظر إلى أحد:

- لا أدري...

فقالت خديجة وهي تتفحصها بعين:

- ولكيَّك أنتِ الكلُّ في الكلِّ...

وأراد كمال أن يشهد بشهادة طيبة لصديقه فقال:

- فؤاد شابٌ ممتاز حقًا...

فقال إبراهيم شوكت بحذر كالتسائل:

- أظنَّ أهله من السوق؟

فقال عبد المنعم شوكت بصوته القوي:

- نعم، خاله مغاري، وخاله الآخر قرآن، وهما

كاتب عمام (ثم بلهجة استنراقية ضعيفة) ولكن هذا

لا ينقص من قدر الإنسان فالإنسان بنفسه لا بأهله!

وأدرك كمال أنَّ ابن أخته يريد أن يشرَّ حقيقتين

يؤمن بهما على تنافرهما، أوَّلًا وضاعة أصل فؤاد، وثانيًا

أنَّ وضاعة الأصل لا تنقص من قدر الشخص. بل

أدرك أكثر من هذا أنه يعمل في الأولى على فؤاد وأنه

يكفِّر في الثانية عن حملته الظلمة مرضاة لعقيدته الدينية

القوية. ومن حجب أنَّ تقرير هاتين الحقيقتين أراحه

وكفاه شرَّ الإفصاح عما به نفسه، فلوَّه كباين أخته لم

يكن يؤمن بفوارق الطبقات، وكان مثله أيضًا دليل

للمحلمة على فؤاد والحكم من شأنه الذي يدرك خطورته

وتفاهته هو بالقياس إليه. والظاهر أنَّ أمينة لم ترتح

لهذه المحلمة فقالت:

- أبوه رجل طيب، نَحَلَمْنَا العمر كله بأمانة

وإخلاص.

فجمعت خديجة شجاعتها وقالت:

وتدخل ياسين في المناقشة بأن اقترح قائلاً:

- لنسنع رأي خديجة، إنَّها للدرسة الأولى لاحد،

وهي أقدرنا على الاختيار بين الحقوق والآداب...

وامتلات الغفور بالابتسام، حتَّى أمينة ابتمت

وهي عاكفة على كتبة القهوة، بل حتَّى عائشة

ابتمت، فتشجعت خديجة بابتسامة عائشة فقالت:

- سأقصَّ عليكم قصَّة طريفة، أمس بعد العصر

بقليل - والدنيا تظلم بسرعة في الشتاء كما تعرفون -

كنت راجعة من الدرب الأحمر إلى السكينة، فشرعت

كأنَّ رجلاً يتبعني، وإذا به يمرُّ بي تحت قبة التوتلي وهو

يقول «هل فين يا جميل»، فالتفت نحوه قائلة: «هل

البيت يا سي ياسين!»

وضجبت الصالة بالضحك. ونظرت إليه زئوبة

نظرة ذات معنى تجل فيها الانتقاد والياس، أمَّا ياسين

فجعل يشير للمضحكين بيده حتَّى عاد السكون، ثم

تساءل:

- أمن المقول أن يصيبي العمى إلى هذا الحد؟

لحذرته إبراهيم شوكت قائلاً:

- حاسب!

أمَّا كريمة فأمسكت بيد أبيها وضجعت كأنها رغم

كوبها بنت ثانية قد فهمت المقصود من قصَّة عمَّها،

وقالت زئوبة تعليقاً على الحال:

- شرَّ الأمور ما يضحك.

وحجج ياسين خديجة بنظرة مغيظة وهو يقول

«حفرت لي حفرة يا بنت الإيه» فقالت خديجة:

- إذا كان أحد في الموجودين في حاجة إلى الآداب

فهو أنت لا أحد ابني المجنون!

وسدَّت زئوبة على قولها، أمَّا رضوان فدافع عن

أبيه ودعاه بالبريء المظلوم، وظلَّ أحد ينظر إلى كمال

متعلِّقاً به كالأمل، أمَّا عبد المنعم فكان يسترق النظر

إلى نعيمة التي تبلت لصق أمَّها كالودعة البيضاء،

وكانت كلها شعرت بعينيه الصغيرتين تورَّد وجهها

الشاحب الرقيق، حتَّى عاد إبراهيم شوكت يقول مقبلاً

جري الحديث مخاطباً أحمد:

- انظر إلى الحقوق وكيف جمعت من ابن الحمزاوي

وكيل نيابة قَد الدنيا...

- ولكن ربما عاشرت نعمة - لو تمَّ هذا الزواج -  
 أناسًا ليسوا أهلًا للمعاشرة، الأصل كلُّ شيء.  
 وجاءها تأييد من حيث لم يتظر أحد، فقالت  
 زئوبة:  
 - صدقت، الأصل كلُّ شيء!  
 واضطرب ياسين، واسترق إلى خديجة نظرة سريعة  
 وهو يتساءل عن رجوع قول زوجته في نفسها، وتعليقها  
 الباطني عليه وما يستدعيه ذلك إلى غواطرها من عالم  
 العوالم والتخت. حقَّ لمن زئوبة في سرِّه صل  
 «قنرحها» الفارغة واضطرَّ أن يتكلم ليغطي على كلام  
 زوجته، فقال:  
 - تلذَّجوا أنكم تتحدَّثون عن وكيل نيابة...  
 فقالت خديجة متشجِّعة بسكوت عائشة:  
 - أبي الذي جعل منه وكيل نيابة، أموالنا نحن التي  
 صنعته!  
 فقال أحمد شوكت في سخرية نطقت بها عنده  
 البارزتان اللتان تلذَّجان بالمرحوم خليل شوكت:  
 - نحن مدينون لآبيه أكثر ممَّا هو مدين لنا!  
 فأشارت إليه خديجة بسبابتها وهي تقول بلهجة  
 ملؤها الانتقاد:  
 - أنت دائمًا ترمينا بكلام غير مفهوم.  
 فقال ياسين بلهجة من يأمل في إنهاء الموضوع:  
 - أريحوا أنفسكم فالكلمة الأخيرة لآباء...  
 وزَّعت أمانة فنانيل القهوة، وألهمت أمين الشهاب  
 إلى حيث جلست نعمة لصق أمتها. قال وضوان  
 لنفسه: بنت لطيفة وجيلة، ليه كان في الإمكان أن  
 أصادقها وأزاملها، لو مشينا في الطريق ممَّا لاحتار  
 الرجال آتينا الأجل، وقال أحمد لنفسه أيضًا: جيلة  
 جدًّا، وليكنَّا كأنما هي ملزوقة في خالتي بالفرا، ولا  
 حظَّ لها من الثقافة. أمَّا عبد المنعم فقال: جيلة وست  
 بيت وشديدة التقوى، لا يعيها إلا ضحفا، وحقَّ  
 ضحفا جميل، خسارة في حين فؤاد، ثمَّ جاوز الحديث  
 الباطني نسألها:  
 - وأنت يا نعمة خبِّرنا عن رأيك؟  
 فتورَّد الوجه الشاحب، وقطبت ثمَّ ابتسمت، وتوتَّر  
 حالمها وهي تنزعج بالابتسام بالتعطيل لتخلص منها ممَّا،
- ثمَّ قالت في حياء واستيلاء:  
 - لا رأي لي، دعني وشأننا...  
 فقال أحمد ساخرًا:  
 - الحياء الكاذب...  
 ولكنَّ عائشة قاطعتة متسائلة:  
 - الكاذب؟!  
 فاستدرك قائلاً:  
 - الحياء موضة قديمة، ينبغي أن تتكلمي ولأ  
 ضاعت منك الحياء...  
 فقالت عائشة بجمرة:  
 - إننا لا نعرف هذا الكلام.  
 فقال أحمد متشكِّكًا دون أن يعيَّ بنظرة أمه المتلونة:  
 - أراهن على أنَّ أسرتنا متأثرة عن العصر الحديث  
 بأربعة قرون!  
 فسأله عبد المنعم ساخرًا:  
 - لمَّ حدَّثتها بأربعة؟  
 فقال دون اكتراث:  
 - حل سبيل الرافة!  
 وإذا بخديجة توجَّه الخطاب إلى كمال متسائلة:  
 - وأنت!... متى تتزوَّج أنت؟  
 بوهت كمال بالسؤال فتَهَرَّب قائلاً:  
 - حديث قديم!  
 - وجددي في الوقت نفسه، ولن نتركه حتى يجمع  
 الله شملك على بنت الحلال...  
 تابعت أمانة الحديث الأخير باهتمام مضاعف،  
 فزواج كمال أمرُ أمانتها، وكم رجته أن يحقِّق أمنيته  
 حتى تقرَّ حينها بحقيده من صلب ابنها الوحيد، قالت:  
 - عرض عليه أبوه عرائس من أحسن الأسر، ولكنَّه  
 يتكلَّم دائمًا بعذر أو بأخر...  
 - أهدار واهية، كم عمرك الآن يا سي كمال؟...  
 تساءل إبراهيم شوكت ضاحكًا...  
 - ثمانية وعشرون عامًا... قلت الوقت...  
 أنصتت أمانة إلى رقم العمر بدعش كأنما لا تريد أن  
 تصدِّق، أمَّا خديجة فاحتَّت وهي تقول:  
 - أنت مغرم بتكبير عمرك!  
 أجل فهو الأخ الأصغر، فالكشف عن عمره كشف

فابتسمت زئوبة ابتسامة أرجعتها إلى الوراء عشرة  
أعوام وتساءلت:

- ولمَ لا ترغب في الزواج؟

فقال كمال فيها يشبه الضجر:

- الزواج حبة وأنتم تجمعون منه قبة...

ولكنه كان يؤمن في أحافه بأن الزواج قبة لا حبة،

وكان يساوره شعور غريب بأنه يوم يذهن للزواج

فسيُفنى عليه قضاء مبرماً. وأثقله من موقفه صوت

أحمد وهو يقول له:

- أن لنا أن نصعد إلى المكتبة.

فنهض مرشحاً بدهوته، ومضى خارجاً وعبد المنعم

وأحمد ورضوان في أثره، وصعدوا إلى حجرة المكتب

لاستعارة بعض الكتب كعادتهم كلما جاءوا إلى البيت

القديم زائرين. وكان مكتب كمال يتوسط الحجرة تحت

المصباح الكهربائي بين صُئيين من خزائن الكتب،

فجلس إلى مكتبه على حين رأى الشبان يطالعون

عناوين الكتب المصفوفة على الأرفف، ثم اختار عبد

المنعم كتاب وعاضرات في تاريخ الإسلام، وجاء

أحمد بكتاب «مبادئ الفلسفة»، ثم وقفوا حول مكتبه

وهو يردد بصره بينهم صامتاً، حتى قال أحمد متضامناً:

- لن أقرأ كما أحب حتى أتقن لغة إنجليزية واحدة

على الأقل.

ونتم عبد المنعم وهو يقرأ صفحات كتابه:

- لا أحد يعرف الإسلام على حقيقته.

فقال أحمد سائحاً:

- أخي يتلقى حقيقة الإسلام على يد رجل شبه

عائني في خان الخليلي...

فصاح به عبد المنعم:

- صه يا زنديق!

ونظر كمال إلى رضوان متسائلاً:

- وأنت ألا تريد كتاباً؟

فأجاب عنه عبد المنعم:

- وقته مشغول بقراءة الجرائد الوفدية!

فقال رضوان وهو يوميء إلى كمال:

- في هذا يتفق معي عني!

عنه لا يؤمن بشيء ورغم ذلك فهو وفدي! كما أنه

غير مباشر عن عمرها. مع أنَّ زوجها بلغ السنين إلا

أنها كانت تكبره أن تذكر بأنها في الثامنة والثلاثين، أما

كمال فلم يكن يدري ماذا يقول، ولم يكن الموضوع في

نظره مما يُجسم بكلمة، ولكنه كان يشعر دائماً أنه

مطالب بإيضاح موقفه فقال بلهجة المعتدل:

- إني مشغول نهاري بالمدرسة وإيلي يمكثني!

فقال أحمد بحماس:

- حياة عظيمة يا خالي، ولكنَّ الإنسان ينبغي مع

ذلك أن يتزوج.

وقال ياسين الذي كان أعرف الجميع بكمال:

- أنت تتجنب الشواغل حتى لا تشغل عن طلب

الحقيقة! ولكنَّ الحقيقة في هذه الشواغل، لن تعرف

الحياة في المكتبة، ولكنَّ الحقيقة في البيت والشارع...

فقال كمال ممعناً في الحرب:

- تعمدت أن أتفق مرتبي لأخر ملهم، ليس عندي

مخبر، كيف أتزوج؟!

فقالت خديجة محاصرة:

- ألي الزواج مرة وستعرف كيف تستعد له.

وقال ياسين ضاحكاً:

- إنك تنفق مرتبك لأخر ملهم حتى لا تتزوج...

كانت شيء واحد. ولكن لم يتزوج رغم استجابة

الظروف ورغبة والوالدين؟ أجل مضت فترة في ظلِّ

الحب فكان الزواج ضرباً من العبث، وتبعته فترة حلَّ

محلَّ الحب فيها بدليل هو الفكر فاستغرق الحياة بينهم،

وكانت فرصة الأفراس أن يثر على كتاب جميل أو يظفر

بنشر مقالة. وقال لنفسه إنَّ الفكر لا يتزوج وما ينبغي

له. كان ينظر إلى فوق ويظن أنَّ الزواج سيحمله على

النظر إلى تحت. وكان - وما زال - يلدُّ له موقف

المشاهد المتأمل بقدر ما ينفر من الاندماج في ميكانيكية

الحياة. وإنه ليضنَّ بحرَّته كما يضنَّ البخيل بماله، ثمَّ

إنه لم يبقَ عنده من المرأة إلا شهوة تُقضى، وإلى هذا

كله فالشباب لم يضع هبلاً ما دام لا ينقضي أسبوع

دون مسرات فكرية ولذات جسدية، ثمَّ إنه حائر

يداخله الشك في كل شيء، والزواج نوع من الإيمان،

قال:

- أريحو أنفسكم، سأتزوج عندما أرغب في الزواج.

وقد انحسر كمال بين الواقفين وكأنه يطلّ عليهم بقائه الطويلة التحيلة. كانوا مثله - فيما بدا له - يقصدون مكان الاحتفال بالعيد الوطني- عيد ١٣ نوفمبر- فردّ عينه في الوجوه مستطعمًا ومرتبًا.

والحقّ أنّه يشارك في هذه الأعياد كأشدّ المؤمنين بها وإن آمن في الوقت نفسه بالأّ إيمان له. وكان الناس يتحادثون معلقين على الموقف دون سابق تعارف مكتفين بوحدة الهدف ورابطة «الوطنيّة» التي ألّفت بين قلوبهم، قال أحدهم:

- عيد الجهاد هذا العام عيد جهاد بكلّ معنى الكلمة، أو هذا ما يجب أن يكون...  
فقال آخر:

- يجب أن يُردّ فيه على هور وتصريحه المشؤم.  
وثار ثالث للذكر هور فصاح:  
- ابن الكلب قال: نصنعنا بأن لا يعاد دستور ١٩٢٣، ولا دستور ١٩٣٠، ما شأنه هو ودستورنا؟  
فأجاب رابع:

- لا تنس أنّه قال قبل ذلك: وصل أئنا عندما استشارونا نصنعناه إلخ...

- أجل، من الذين استشاروه؟  
- سلّ عن ذلك حكومة القوادين!

- توفيق نسيم... كلّي! أُنسيتموه؟ ولكن لماذا هادنه الوفد؟

- لكلّ شيء نهاية، انتظروا خطبة اليوم.

أصغى كمال إليهم، بل اشترك في حديثهم، وأعجب من هذا أنّه لم يكن من دويهم حماسًا، وكان هذا ثامن عيد جهاد يشهده، وكان كالأخريين قد امتلا بمرارة التجارب السياسيّة التي خلفتها الأعوام السابقة. أجل ولقد عاشرت عهد محمّد محمود الذي عكّل الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد واغتصب حرّيّة الشعب في نظير وعده له بتجفيف البرك والمستنقعات! كما عشت سنين الإرهاب التي فرضها إسماعيل صدقي على البلاد، كان الشعب يتقن في قوم ويريدهم حكمًا له ولكنّه يجد فوق رأسه دائمًا أولئك الجيلايين البغضاء، تمحيهم هراوات الكونسيبلات الإنجليزي ورصاصهم، وسرعان ما يقولون له بلغة أو

يشكّ في الحقيقة عامّة، ورغم ذلك فهو يتعامل مع الناس والواقع. تسامل وهو يردّد عينه بين عبد المنعم وأحد:

- وأنتا وفديّان كذلك فما وجه الغرابة؟. وكلّ وطنيّ فهو وفديّ، أليس كذلك؟

فقال عبد المنعم بصوته اليقينيّ:

- الوفد أفضل الأحزاب بلا ريب، ولكنّه في ذاته لم يعد مقتنًا كلّ الإقناع...

فقال أحمد ضاحكًا:

- إنّي أوافق أخي على رأيه هذا، أو بالأحرى لا أوافق على رأيي إلاّ هذا، وربما اختلفنا في درجة الإقناع الخاصّة بالوفد، أكثر من ذلك فإنّ الوطنيّة نفسها يجب أن تكون موضع استهزام، أجل إنّ الاستقلال فوق كلّ نزاع، أمّا معنى الوطنيّة بعد ذلك فينبغي أن يتطوّر حتّى يغني في معنى أشمل وأسمى، وليس يبعد أن ننظر في المستقبل إلى شهداء الوطنيّة كما ننظر الآن إلى ضحايا الممارك الحمقاء التي تنشب بين القبائل والأسرا

معارك حمقاء يا أحمق! فهمي لم يستشهد في معركة حمقاء، ولكن أين وجه اليقينيّ؟. ورغم عواطره قال بحمّة:

- أيّ قتيل في سبيل شيء فوق نفسه فهو شهيد، وقد تتغيّر قيم الأشياء أمّا موقف الإنسان منها فهو قيمة لا تتغيّر...

وغادروا حجرة المكتب ورضوان يقول مخاطبًا عبد المنعم ردًا على ملاحظة له:

- السياسة أخطر وظيفة في المجتمع...  
وكما عادوا إلى مجلس القهوة كان إبراهيم شوكت يقول لياسين:

- وهكذا فنحن نرث ونويّج ونصح ولكن كلّ ولد ينمّج في مكتبة، وهي عالم مستقلّ عتّا، يزحمنا فيه أناس غريباء، لا نلدي عنهم شيئًا فما عسى أن نصنع؟.

كان التزام مكتبًا حتّى لم يعد به موضع لواقف،

فشارك في حياتهم ويمتق آمالهم وآلامهم. إنه بطبعه لا يطيق أن يتخذ من هذه الحياة حياة ثابتة له ولكن لا بد منها بين حين وآخر حتى لا ينقطع ما بينه وبين الحياة اليومية، حياة الناس، فلتؤجل مشكلات المآلة والروح والطبيعة وما وراء الطبيعة، وليمثل اهتمامًا بما يجب هؤلاء الناس وما يكرهون، بالدستور... بالأزمة الاقتصادية... بالموقف السياسي... بالقضية الوطنية. لذلك لم يكن صعبًا أن يتف والفرد عقيدة الأئمة، غداة ليل قضاء في تأمل عتب الوجود وقبض الريح، والعقل يجرم صاحبه نعمة الراحة، فهو يمشق الحقيقة ويوى النزامة وتطلع إلى التسامح ويرطم بالشك ويشقى في نزاعه الدائم مع الغرائز والانفعالات، فلا بد من ساعة يأوي فيها أكتف إلى حضن الجبهة ليجدد دماؤه ويستمد حرارة وشبابًا. في المكتبة أصدقاء قليلون يمتازون مثل دارون وبرجسون ورسل. في هذا الهراق آلاف من الأصدقاء، يبدون بلا عقول، ولكن يمثل في مجتمعهم شرف الغرائز الواعية، وليسوا في النهاية دون الأول خُلُقًا للحوادث وصنًا للتاريخ. في هذه الحياة السياسية يجب ويكره ولاضى ويغضب ويبدو كل شيء ولا قيمة له. وكلما واجه هذا التناقض في حياته زعره القلق. ولكن ليس ثمة موضع في حياته يخلو من تناقض وبالتالي من قلق. لذلك شد ما يحزن قلبه إلى تحقيق وحدة منسجمة تنسم بالكمال والسعادة، ولكن أين هذه الوحدة؟! ويشعر بأن الحياة العقلية لا مفر منها ما دام به عقل يتكر فلا يقعه ذلك عن التطلع إلى الحياة الأخرى تدفعه كافة القوى المعقدة المكبوتة، فهي صخرة النجاة. فلعله لذلك بدا هذا الجمع رائعًا، وكلما ازداد كثرة ازداد روعة. وما هو القلب ينظر ظهور الزعماء بنفس الحرارة واللفتة كالآخرين. وقد جلس عبد للنعم وأحمد على مقعدين متجاورين، أما وضوان وصاحبه حلمي عزت فيسيران في الممر الذي يشق السراق ذهابًا وجيئة أو يقفان عند المدخل يتبادلان الحديث مع بعض المشرفين على الاحتفال فيما لها من شائين ذوي نفوذ. وكانت مسسات القوم تتجمع فتحدث لفظًا عامًا أما الأركان التي احتلها الشباب

بأخرى أنت شعب قاصر ونحن الأوصياء، والشعب يخوض المعارك دون توقف فيخرج من كل وهو يلهث، حتى الخمد في النهاية موقفًا سلبيًا، شعاره الصبر والسخرية، فخلًا المولدان إلا من الوفنتين من ناحية والطغاة من ناحية أخرى، وقنع الشعب بمجلس المتفرج وراح يشجع رجاله في هس دون أن يد لهم بداء. إن قلبه لا يستطيع أن يتجاهل حياة الشعب، إنه يخفق معه دائمًا، رغم عقله الثاثة في ضباب الشك. غادر الترام عند شارع سعد زغلول، وسار في طابور غير منظم نحو سراق الاحتفال المقام في جوار بيت الأئمة، تغلبهم بين كل عشرة أمتار مجموعة من الجنود تحت رئاسة كونستبل إنجليزي تتلق وجوهم بالصرامة والبلافة. والتقى قبيل السراق بعبد المنعم وأحمد ورضوان وشاب لا يعرفه وقد وقفوا معًا يتحدثون، فاقبلوا نحوه مسلمين ولبثوا معه بعض الوقت. منذ شهر تقريبًا ورضوان وعبد المنعم بين طلبة الحقوق أما أحمد فقد انتقل إلى السنة النهائية بالثانوي، وأنه ليراهم في الطريق درجاله بخلاف ما يراهم في البيت فليسوا إلا أبناء أخيه وأخيه. وما أجل رضوانا، كذلك جبل، صاحبه الذي لفته إليه باسم حلمي عزت وقد صدق من قال إن الطيور على أشكالها تتبع. وكان أحمد يسره، ويتنظر منه دائمًا قولًا غريبًا متمًا أو سلوكًا لا يقل عنه غرابة، إنه أقرب الجميع إلى روحه، أما عبد المنعم فما أشبهه به لولا ميله إلى القصر والامتلاء، لذلك فحسب يحبه، أما يقينه وتمسبه لما أرضها!.

واقبل على السراق الضخم، واللى نظرة شاملة على الجميع الحاشدة، مسرورًا بكثيرها المائلة، وتطلع مليًا إلى المنصة التي سحلو عندها صبا قليل صوت الشعب، ثم أخذ يجلسه. إن وجوده في مثل هذا الجمع الحاشد يطلق من أعماق ذاته الغارقة في الوحدة شخصًا جديدًا يتنفض حياة وحاشا. هنا ينحس العقل في مقع إلى حين وتنطلق قوى النفس المكبوتة طامحة إلى حياة مفعمة بالعواطف والأحاسيس دالعة إلى الكفاح والامل، وعند ذاك تتجدد حياته وتنبعث غرائزه وتتبدد وحشته ويتصل ما بينه وبين الناس



للقاعد ترتجّ من فوقها، فما الخطوة التالية؟ ما يدري إلا والجموع تشبه نحو الخارج. وغادر موضعه وهو يلقي نظرة عاتمة باحثاً عن شباب أسرته ولكنه لم يثر لهم على أثر. وغادر السرايق من الباب الجانبى، ثم سار مستهدفاً شارع قصر العيني في خطوات سريعة حتى يسبق الجموع. ومَرَّ في طريقه بيت الأمة وكان كلياً مَرَّ به يعلق به بصره وردّد حينه بين الشرفة التاريخية والقناة الذي شهد أجمل الذكريات الوطنية، أجل لهذا البيت مثل السحر في نفسه، فما هنا كان يقف سعد، وما هنا كان يقف فهمي وأقرانه، وفي هذا الطريق الذي يسير به الآن كان يطلق الرصاص ليستقرّ في صدور الشهداء، إنَّ قومه في حاجة دائمة إلى الثورة ليقاوموا موجات الطغيان التي ترصد سبيل نهضتهم، في حاجة إلى ثورات دورية تكون بمثابة التطعيم ضدّ الأمراض الحبيثة، والحقّ أن الاستبداد هو مرضهم المزمع. هكذا نجح اشتراكه في العيد الوطني في تجديد نفسه فلم يكن يميّز في تلك اللحظة إلا أن تحجب مصر على تصريح هور إجابة حاسمة كاللكمة القاضية. وانتصبت قائمته النحيلة الطويلة، وارتفع رأسه الكبير، واشتدّ وقع خطاه وهو يتقدّم أمام الجامعة الأمريكية متخيلاً أموراً جلية وفعلاً عظيمة. حتى المدرّس ينهي أن يثور أحياناً مع تلاويله، وابتم في شبه الكأبة... مدرّس كبير الرأس مفهق عليه بأن يعلم مبادئ الإنجليزنية - المبادئ فحسب - رغم أنّه يعلّق بها على أسرار وأسرار، يحتلّ جسمه من مزدحم الأرض موضعاً ضئيلاً كما خياله فيضطرب في الدوامة التي تحيط بمخالف الطبيعة. يسأل في الصباح عن معنى كلمة وهجاه أخرى ويتساءل بالليل عن معنى وجوده ذلك للجزر القلزم بين لغزتين، وفي الصباح أيضاً يضطرب فؤاده بالثورة على الإنجليز وفي الليل تدعوه الأخوة العاتبة المعبّدة - أخوته لبي الإنسان - للتعاون أمام لغز القضاء. وهزّ رأسه في شيء من العنف كأنما ليظرد عنه هذه الخيالات، وقد ترامت إلى مسامعه أصوات المئات وهو يقترب من ميدان الإسماعيلية فأدرك أنّ للتظاهرين قد وصلوا إلى شارع قصر العيني، ودعاه الشعور بالفضال الذي يعمر صدره

فملا ضجيجها وتخلّلتها المئات، ثم تراسى هتاف قويّ ذو دلالة من الخارج فتطلّعت الرسوم إلى مدخل السرايق الخلفي، ثم هبوا واقفون، وتعالى هتاف بصمّ الأذان، ثم لاح مصطفى النحاس فوق المنصة وهو يحمي الألوف بابتسامة وضيفة ويذّين قوتبين. وتطلّع إليه بهمينون اخضت منها نظرة الشكّ إلى حين، وكان يتساءل كيف أومن بهذا الرجل بعد أن فقدت الإيمان بكلّ شيء؟. ألاته رمز الاستقلال والديموقراطية؟. مهما يكن من أمر فإنّ التجاوب الحارّ المتبادل بين الرجل والشعب ظاهرة جديرة بالنظر، وهي بلا شكّ قوّة عظيمة تلعب دورها التاريخي في بناء القومية المصرية. وتشتّع الجوّ بالحماس والحرارة، وتعب المشرفون على الحفل حتى نشروا السكون في الأركان، كي يسمع الناس المقرئ وهو يتلو ما تيسر من القرآن مرقدًا فيما يتلو دما أنّها النبيّ حرّض المؤمنين على القتال، وكان الناس ينتظرون هذا النداء فتعالى الهتاف والتصفيق حتى احتجّ بعض المتزمتين وطالبوا بالصمت احتراماً لكتاب الله. وأثار قولهم في نفسه ذكريات قديمة يوم كان يقدّ واحدًا من هؤلاء المتزمتين فارسمت على شفّته ابتسامة ما واستشعر من توهّ عله الحاضن الحافل بالتناقضات الذي يبدو من تعارض متناقضاته وكأنه فراخ. ووقف الزعيم وراح يلقي خطابه. ألقاه بصوت وثان ويهان نافذ فاستغرق إلقاؤه ساعتين، ثمّ ختمه جاهرًا في عصف سافر بالدعوة إلى الثورة، وبلغ الحماس من القوم مداه فوقفوا على المقاعد، وجعلوا يبتغون بحماس جنونيّ. ولم يكن دوعهم حشاشاً وهتافاً، نسي أنّه مدرّس مُطالب بالوقار وخيّل إليه أنّه رجع إلى الأيام المجيدة التي سمع عنها وحال عمره دون الاشتراك فيها. أكانت الخطب تلقى بهذه القوّة؟. أكان الناس يتلقونها بمثل هذا الحماس؟. أكان الموت لذلك يهون؟. من مثل هذا الموقف بدا فهمي دون ريب، ثمّ اندفع إلى الموت، إلى الخلود أم إلى القنات؟. أمن الممكن أن يشهد رجل في مثل حاله من الشكّ؟. لعلّ الوطنية - كالحبّ - من القوى التي تلحّن لها وإن لم تؤمن بها... إنّ ثورة الحماس عالية، المئات حرارة متوحدة،

الجنود المصريين ليسوا دونهم وحشية، إنها مذهبة مدبرة يا لحي! وجاء صوت من آخر المقهى يقول: «كان قلبي يحدني بأن اليوم لن يمضي على خير، فأجاب آخر: «آه تندر بالشر» فمضد أعلن هور تصريحه والناس تتوقع أحداثاً خطيرة، هذه معركة وستلونها معارك، وأؤكد لكم هذا».

- الضحايا الطلبة دائباً، أعز أبناء الأمة، وا أسفاه!...

- ولكن الضرب سكت اليس كذلك!؟، أنصتوا...

- المظاهرة الأصلية عند بيت الأمة، وسيستمر الضرب هناك ساعات طويلة!...

ولكن الصمت ساد الميدان، ومضى الوقت ثقيلًا مشحونًا بالتوتر، وأخذت الظلمة تدنو حتى أصبحت أنوار المقهى ثم لم يعد يُسمع صوت كأنما حلّ بالميدان والشوارع المحيطة به الموت، وفتح باب المقهى على مصراحيه قترامى الميدان خاليًا من المارة والمركبات. ثم جاء طابور من فرسان البوليس ذوي الحوذات الفولاذية فطاف بالميدان يتقدمه الرؤساء الإنجليز. وكان باطن كمال لا يكف عن التساؤل عن مصير الأبناء. وكادبت الحركة في الميدان غادر المقهى متعجلًا، ولم يعد إلى بيته حتى مرّ بالسكينة وقصر الشوق واطمأن على عهد المنعم وأحمد ورضوان.

وغلا إلى نفسه في مكتبته بقلب مليء بالحزن والأسى والغضب، لم يقرأ كلمة ولم يكتب كلمة وظلّ عقله غائبًا في منطقة بيت الأمة، في هور والحظية الشائرة والحناف الوطني وأريز الرصاص وصراخ الضحايا، ووجد نفسه يحاول أن يتذكر اسم صاحب دكان البسبوسة التي اختبأ بها قديمًا ولكن الدكرة لم تسفه!

## ٥

كان منظر بيت محمد عفت بالجبالية من المناظر المألوفة المحيوة لدى أحمد عيد الجواد. هذه البوابة الخشبية التي تبلمن الخارج كأنها مدخل وكالة قديمة، وذلك السور العالي الذي يخفي ما وراءه خلا رموس

إلى التوقف لعله يشترك على نحو ما في مظاهرة ١٣ نوفمبر. شدّ ما طال بالوطن موقف الصابر الذي يتلقى الضربات. اليوم توفيق نسيم وأمس إسماعيل صديقي وأول أمس عمّده عمود، تلك السلسلة المشقومة من الطفلة التي تمتد إلى ما قبل التاريخ، كل ابن كلب غرته قوته يزعم لنا أنه الوصي المختار وأن الشعب قاصر.

مهلاً!... إن المظاهرة تغلي وتضور، ولكن ما هذا!؟، التفت كمال إلى الوداء في اضطراب. سمع صوتًا اهتز له قلبه، وأنصت في انتباه فصكّ الصوت مسامحه مرة أخرى. إنه الرصاص. ورأى المظاهرين عن بعد يضطربون في دوامة خطيرة لا يتضح له أمرها، ولكن جماعات كانوا يسيرون نحو الميدان، وآخرين إلى الشوارع الجانبية، وكثير من الكونستبلات الإنجليز فوق الجياد يهبون الأرض. وحلا الحتاف واختلط بأصوات الغضب والصراخ واشتدّ انطلاق الرصاص. وشفق قلبه وتساءلت دقّاته عن عهد المنعم وأحمد ورضوان، واحتل اضطرابًا وغضبًا، وتلقّت بمنة وبسرة فرأى قهوة غير بعيد على الناصية فالتجأ إليها. وقد أخلق بابها نصف إخلاق - وما إن مرق منها حتى تدجّر دكان البسبوسة بالحسين حيث سمع طلقات الرصاص لأول مرة، وشاع الاضطراب في كل مكان. وانطلق الرصاص في غزارة خفيفة ثم متقطعة. وتراكت أصوات كسر زجاج وصهيل خيل، وعلت أصوات مزججة دلت على أن تجمّعات ثائرة تتنقل من مكان إلى مكان بسرعة خافتة. ودخل الشروب شيخ وقال قبل أن يسأله أحد عما وراءه: «إن رصاص الكونستبلات ينهال على الطلبة والله أعلم بمدد الضحايا، ثم جلس وهو يلهث وعاد يقول بصوت متهدج: «غدروا بالأبرياء غدرا» لو كان تضيق المظاهرة غايتهم لأطلقوا الرصاص في الهواء من مواقعهم البعيدة، ولكنهم سايروا المظاهرة في هدوء مصطنع، وجعلوا يوزعون أنفسهم على شوارع الطريق، ونجاة أشهروا المستدسات وأطلقوا الرصاص، على الكفائل أطلقوا بلا رحمة، وسقط الصغار يتخبطون في دمهم، الإنجليز وحوش ولكن

بصينة عليها ثلاثة أقداح شاي وكأس ويسكي بالصودا فتناول محمد عقت الكأس بأساً وتناول الثلاثة الآخرون أقداح الشاي. وكان هذا التوزيع الذي يتكرر كل مساء كثيراً ما يضحكهم؛ فقال محمد عقت وهو يلوح بالكأس في يده ويشير إلى أقداح الشاي في أيديهم:

- عفا الله عن الآثام التي أذبتكم!

فقال أحمد عبد الجواد متنبهاً:

- إننا آتينا جميعاً، وأنت أولنا، غير أنك قليل الأدب...

وكان صدى إلهام أمر طي واحد في أوقات متقاربة من عام واحد بالامتياز عن تناول الخمر، غير أن طيب محمد عقت سمح له بكأس واحدة في اليوم، وظن أحمد عبد الجواد برمذاك أن طيب صديقه يتسامح فيها بتشدد فيه طيبه هو، فما كان منه إلا أن عرض نفسه عليه ولكن الطيب حذر في جد وحزم قائلاً: «إن حالتك غير حالة صديقك»، وقد انفضح أمر سميه إلى طيب محمد عقت فكان موضع نقاش وتندر طويلين. وعاد أحمد يقول ضاحكاً:

- لا شك أنك نعت طيبك برسوة كبيرة حتى سمح لك بهذه الكأس!

فقال الفار متأوفاً وهو يرنو إلى الكأس بيد محمد عقت:

- كدت والله أنسى نشوبها!

فقال له علي عبد الرحيم حازحاً:

- فسدت توبتك بهذا القول يا عريذ.

فاستغفر الفار ربه ثم تحم في استسلام:

- الحمد لله...

- بتنا نحمد على كأس واحدة!... أين... أين

النشوات!

فقال أحمد عبد الجواد ضاحكاً:

- إذا ندمت فاندنوا على الشر لا على الخير يا أولاد

الكلب!

- إنك كاسر الوعظ، ألسنتهم في دنيا وقلوبهم في

دنيا أخرى...

الأشجار العالية، أما هذه الحديقة المظلة بأشجار التوت والجيميز والمهندسة بأشجار الحناء والليمون والفن والياسمين فشأنها عجيب، وعجيب أيضاً بركة المياه التي تنوسطها، ثم الفراندا الخشبية التي تمتد بعرض الحديقة. وكان محمد عقت واقفاً على سلم الفراندا ينتظر القادم وهو يحك عباءته المنزلية، أما علي عبد الرحيم وإبراهيم الفار فقد جلسا على كرسيين متجاورين. وسلم أحمد علي الإخوان ثم تبع محمد عقت إلى الكنبة التي تنوسط الفراندا وجلسا معاً. وكانت بدانتهم قد زابتهم جميعاً فبدأ محمد عقت الذي بدأ مترعلاً كما بدأ وجهه شلبد الاحمرار، وقد صلح علي عبد الرحيم واشتعلت رموس الآخرين شيئاً، وانتشرت في صفحات الوجوه التجاهيد، وبدأ علي عبد الرحيم وإبراهيم الفار أشد إذهالاً للكبر، غير أن حمرة وجه محمد عقت كانت بالاحتقان أشبه، وبقي أحمد رغم ضموه وشبهه جيلداً صاباً. وكان أحمد يحب هذا المجلس حباً جماً، كما يحب منظر الحديقة التي تترامى حتى السور العالي المشرف على الجبلية، وقد مال برأسه إلى الزواء قليلاً كأنما ليتمكن أنفه العظيم من الارتواء بعير الفن والياسمين والحناء، ودعا أحمض حينه أحياناً ليخلص لساح زرقعة المصافير اللاهية فوق أخصان التوت والجيميز. غير أن أنبل ما خالط قلبه في تلك اللحظة كان شمسور الأضوة والصداقة الذي يكتنه هؤلاء الرجال. كان يرنو بعينه الزرقاوين الواسعتين إلى وجوههم المحيية التي نكرها الكبر فينفض قلبه بالأسمى وأختان عليهم وهل نفسه، وكان أشدهم تعلقاً بالماضي وذكرياته، يفتنه كل ما يذكر بجبال الشباب وصبوة المواقف ومغامرات الفتوة. وقام إبراهيم الفار إلى خوان قريب وضع عليه صندوق النرد فجاء به وهو يتسائل:

- من يلاعبني؟

فقال أحمد مستنكراً وكان قليلاً ما يشترك في

المايم:

- أجل اللعب إلى حين، لا يجوز أن نشغل به عن أنفسنا من أول الجلسة.

فأعاد الفار الصندوق إلى مكانه، ثم جاء نوب

- إذا ذهب الإنجليز فلن يبقى لأحد من هؤلاء  
شأن، ستصبح الانقلابات في خبر كان...

- نعم، وإذا فكر الملك أن يلعب بذيله فلن يجد  
من يساتده!

وعاد محمد حَفَّت يقول:

- سيجد الملك نفسه بين اثنتين فأما احترام الدستور  
وأما السلام عليكم!

وتساءل إبراهيم الفار فها يشبه الشك:

- وهل يتخلل عنه الإنجليز إذا طلب حاجتهم؟

- وإذا سلم الإنجليز بالجلالة فلماذا يحمون الملك؟  
فتساءل الفار مرة أخرى:

- وهل يسلم الإنجليز بالجلالة حقاً؟

قال محمد حَفَّت لي ثقة من يعتز بثقافته السياسية:

- لقد دهونا بتصریح هور فكانت المظاهرات،

وكان الشهداء رحمة الله عليهم، ثم كانت الدعوة إلى

الاتلاف، ثم عاد دستور سنة ١٩٢٣، أؤكد لكم أن

الإنجليز راغبون الآن في المفاوضات، حقاً لأن الإنسان لا

يسري كيف تنكشف فيه الغمة، كيف يمكن أن

يلدب الإنجليز أو ينتهي نفوذ الخواجات، ولكن ثقتنا

في مصطفى النحاس لا نهاية لها...

- ثلاثة وخمسون عاماً من الاحتلال تنتهي بشسوة

كلام حول مائدة؟!

- كلام قد سبق بدم زكي مسفوح...

- ولوا...

فقال محمد حَفَّت وهو يغمز بعينه:

- سيجلون أنفسهم في مركز حرج وسط حالة دولية

خطيرة!

- يستطيعون أن يجدوا دائماً من يؤمن ظهريهم،

واسماعيل صدقي حي لم يمُت!

فعاد محمد حَفَّت يقول بلهجة العارف:

- حادلت كثيرين من المكلعين فوجدتهم متفائلين،

يقولون إن العالم مهتد بحرب طاحنة، وإن مصر في

فوهة المدفع، وإن من صالحي الطرفين الاتفاق

المشرف...

ثم واصل حديثه بعد أن مسح على كرشه في ثقة

واطمئنان:

وإذا بعلي عبد الرحيم يقول رافعاً صوته إلى درجة  
جديدة منلثة بتغير مجرى الحديث:

- يا رجال! ما رأيكم في مصطفى النحاس؟!

الرجل الذي لم تؤثر فيه دموع الملك الشيخ المريض

فأبى أن ينسئ ثانية واحدة مطلبه الأسمى ودستور سنة

١٩٢٣...

ففرق محمد حَفَّت بأصابعه وقال في سرور:

- برافوا... برافوا! إنه أصعب من سعد

زغلول نفسه، من كان يرى الملك الجبار مريضاً باكياً

ثم يصمد أمامه بهذه الشجاعة النادرة ويرد في ثبات

صوت الأمة التي أولته زعامتها قائلاً: «دستور سنة

١٩٢٣ أولاً، وهكذا عاد الدستور، فمن كان يتصور

ذلك؟

فقال إبراهيم الفار وهو يترأس رأسه في عجب:

- تصوّروا هذا النظر، الملك فؤاد وقد حطّمه

المرض والشيخوخة، يضع يده على كتف مصطفى

النحاس في مودة بالغة! ثم يدهو إلى تأليف وزارة

ثلاثية، فلا يتأثر النحاس لذلك كله، ولا ينسئ

واجبه كزعيم أمين، يخفل لحظة واحدة عن الدستور

الذي تولف الدموع الملكية أن تغطي عليه، لا يتأثر

لشيء من هذا ويقول بشجاعة وصلابة: دستور سنة

١٩٢٣ أولاً يا مولاي.

عليّ عبد الرحيم محاكياً نفس اللهجة:

- أو الحازقي أولاً يا مولاي!

أحمد عبد الجواد ضاحكاً:

- قسماً بمن جرت مقاديره بأن نرى الويسكي بيننا

ونتجنّبه إنه لوقف عظيم!

وشرب محمد حَفَّت بآية كاش ثم قال:

- نحن في عام ١٩٣٥، ثلثي سنوات مَرّت على

موت سعد، وخمسة عشر عاماً على الثورة، ولا يزال

الإنجليز في كلّ مكان، في الثكنات والبوليس والجيش

ورشق الوزارات، الامتيازات الأجنبية التي تجعل من

كلّ ابن لبوة سيّداً مهائياً ما زالت قائمة، ينبغي أن

تنتهي هذه الحال المؤسفة...

- ولا تنس الجلاّدين أمثال إسماعيل صدقي ومحمد

عمود والإبراهيم!

الجامع الحرام، فقلت في نفسي خُفّ الوطء يا بن المركوب!

وعلا الضحك، أما أحد عبد الجواد فلم يكن أفاق من ذهوله ولكنّه رأى أن يتخفّف منه بالمشاركة في الضحك. وتساءل عمّد عتّ بلهجة ذات مغزى وهو يمتلئ في وجه أحد:

- ما وجهه العجب في ذلك اليس هو ابن حضرتك؟

فقال أحد عبد الجواد وهو يبرّ رأسه عجباً:  
- عرفته دائماً مؤدّباً مهذباً هادئ الطبع، لا يرى إلا في مكتبته وهو يقرأ أو يكتب حتّى أشفت عليه من الإغراق في الانزواء والإنزواء في عمل لا جدوى منه...

فقال إبراهيم الفار مداعباً:  
- من يدري فلعلّ في بيت جليطة لمرمّماً من دار الكتب!

وقال عليّ عبد الرحيم:  
- أو لعله يمتلئ في مكتبته لمطالعة كتاب رجوع الشيخ، ماذا تنتظر من رجل بدأ حياته بتقريب الإنسان أصله قرد؟

وضحكوا فضحك معهم أحد عبد الجواد الذي كان يعلم بخبرته أنّ الاستسلام للجدّ في أمثال هذه الأحوال يجعل منه هدفاً سهلاً للمزاح والقفز، ثمّ قال:

- لهذا لا يفكر الملعون في الزواج حتّى ظننت به الظنون!...

- ما عمر المحروس الآن؟  
- في التاسعة والعشرين!...

- يا سلام!... يجب أن تزوّجه، لهذا يربض عن الزواج؟

تمحّناً عمّد عتّ ثمّ مسح على كرشه وهو يقول:  
- هذه موضة لحسب ولكنّ ثبات اليوم يزعم الشوارع فضضعت الثقة بين، ألم تسمعوا الشيخ حسنين وهو يفتي دياً ما نشوف حاجات تمحّتن، اليه والهانم عند مزين؟  
- ولا تنس الأزمة الاقتصادية وضيق المستقبل أمام

- إليكم خبراً هاماً، وُعدت بأن أرتفع في دائرة الجسالة في الانتخابات القادمة، وعندي التقراشي نفسه.

وتهلّلت وجوه الأصدقاء سروراً، ثمّ كما جاء دور التعليق قال عليّ عبد الرحيم متصنّفاً الجذ:

- لا يعيب الوفد إلّا أنّه يرفّح حيوانات أحياناً باسم نواب!

فقال أحد عبد الجواد كنّفاً يدافع عن عيب الوفد:  
- وماذا يفعل الوفد؟ إنّهُ يريد أن يمثّل الأمة كلّها، أبناء حلال وأبناء سفلة، فمن يمثّل أولاد السفلة إلّا الحيوانات!؟

فلكره عمّد عتّ في جنبه وهو يقول:  
- عجوز وقارح، أنت وجليلة شخص واحد، كلاهما عجوز وقارح!...

- إني أرضى لو رُشعوا جليطة، فهي عند الزوم قد تفرش الملاية للملك نفسه!

وهنا قال عليّ عبد الرحيم بأساً:  
- قابلتها أوّل أسس أمام عطفتها، ما زالت كاللحمول ولكنّ الكبر أكل عليها ويال!.  
فقال الفار:

- صارت معلّمة قدّ الدنيا، بيتها شقّال ليل نهار، ويحوت الزمّار وصباحه ييلعب.

فضحك عليّ عبد الرحيم طويلاً ثمّ قال:  
- كنت ماؤاً أمام باب بيتها فرايت رجلاً يتسلّل إليه وهو يظنّ أنّه يأمّن من الرقباء، فمن تظنّونه كان؟...  
(ثمّ أجاب وهو يهزّ يمينه صوب أحد عبد الجواد)... المحروس كمال أفندي أحد عوجة مدرسة السلحدار!...

ضحك عمّد عتّ والفار ضحكة عالية، أمّا أحد عبد الجواد فقد اتّسعت عيناه دهشاً وانزعاجاً، ثمّ تسادف في ذهول:  
- كمال ابني؟!...

- أي نعم، كان ملتصقاً في معطفه، وعل عينه نظّارته اللعمية، وشاربه الغليظ يمتلئ وقاراً، كان يسير في رزاة ومهابة كأنّما ليس هو ابن وضحكجي أخاه، وينفس الوقار انعطف إلى البيت كأنّما ينعطف إلى

متعزياً إنه رثاه فأحسن تربيته حتى حصل على الشهادة العليا وصار مدرّساً محترماً فله أن يفعل ما يشاء. ولعلّه من حسن التوفيق أن يعرف كيف يلهو رغم عوده الرفيع ورأسه وأفقه العظيمين! ولو أنصف الحظك لتزوّج كمال منذ سنوات، ولما تزوّج ياسين أبداً، ولكن من يذمّي القدرة على حلّ هذه الرموز؟ وإذا بالفار يسأله:

- متى رأيت زبيدة آخر مرة؟

فاجاب أحمد بعد تدكّر:

- في يناير الماضي، أي منذ عام تقريباً، يوم جهادتي في الدكان لأبيع لها البيت...  
فقال إبراهيم الفار:

- اشترته جلييلة، ثم وقعت المجسونة في حبّ هرجي كارو فتركها على الحدييدة، وهي الآن تقيم بحجرة على سطح بيت سوسن العاللة في حال من الاضمحلال يرمى لها!

فهو أحمد عبد الجواد رأسه في أسف، ولثم:

- السلطانة في حجرة فوق السطح!.. سبحان من له الدوام. فقال عليّ عبد الرحيم:

- نهاية محزنة، بيد أنّها كانت متوقّعة...  
فندت عن محمد عفت ضحكة رثاء وقال:

- فليرحم الله من يأمن إلى هذه الدنيا  
ثم دعا الفار إلى اللعب فتحذاه محمد عفت،

وسرعان ما التفتوا جميعاً حول النرد، وأحمد عبد الجواد يقول:

- تسرى من يكون حظّه كجلييلة، ومن يكون كزبيدة!

٦

في إحدى حجرات قهوة أحمد عبده، جلس كمال وإسماعيل لطيف. وهي نفس الحجرة التي كان كمال يجالس فيها فؤاد الحمزاوي في مطلع شبابه. وبالرغم من برودة ديسمبر كان جوّ القهوة دافئاً، إذ إنه بإغلاق مدخلها يسدّ المنفذ الوحيد لها إلى سطح الأرض، فكان من الطبيعي أن تدفأ وإن انتشرت الرطوبة في جنباتها بدرجة محسوسة. ولم يكن إسماعيل لطيف

الشباب. إن غربي الجامعة يتوكفون بعشرة جنهات إن وجدوا وظيفة بطلوع الروح!.

وتساءل أحمد عبد الجواد في قلق يئن:

- أخاف أن يعرف أنّ جلييلة كانت يوماً صاحبي أو نعرف هي أنّه ابني!.

فتساءل عليّ عبد الرحيم ضاحكاً:

- أحسبها تستجوب الزبائن؟

فقال محمد عفت وهو يغمز بعينه:

- لو عرفته الفاجرة لقضت عليه قصّة أبيه من الألف إلى الياء.

فهبط أحمد عبد الجواد وهو ينفخ:

- لا قدر الله ولا كان...

فتساءل إبراهيم الفار:

- الحسب أنّ الذي يستطيع أن يعرف أنّ جدّه الأوّل فرد يعجز عن معرفة أنّ أباه فاسق فاجر؟

فضحك محمد عفت ضاحكاً حتى سعل، وصمت لحظات ثم قال:

- الحقّ أنّ منظر كمال خذاع، رزين هادئ متزمت، خروجة بكلّ معنى الكلمة...

فقال عليّ عبد الرحيم بلهجة الترضية:

- يا سيدي ربّنا يجلّيه ويطول عمره، ومن شابه أباه فما ظلم... فعاد محمد عفت يتساءل:

- المهمّ أمر. وحلّج كأيّه؟... أعني هل يجيد معاملة النساء والاستحواذ عليهنّ؟

فقال عليّ عبد الرحيم:

- أمّا هذا فلا أظنّ!.. يجيّل لي أنّه يظنّ متحكماً برزائته ووقاره حتى يغلق الباب عليه وعلى صاحبة النصيب، ثمّ يأخذ في نزع ثيابه بنفس الرزاة والوقار، ثمّ يرمي عليها، وهو في الغاية من الجدّ والرزاة كأنما يلقي درساً خطيراً!

- يجلّق من ظهر الخلنج دهل!

وسأله أحمد عبد الجواد نفسه فيها يشبه السخط: لهذا يبدو لي الأمر غريباً؟... وصمّم على أن يتناسى الخبر. وكما رأى الفار يذهب إلى صندوق النرد ويعود به، قال دون تردد أنّه أن هم أن يلعبوا. بيد أنّ أفكاره ظلّت تدور حول الخبر الجديد. وقال لنفسه

الذي زامله فيها بين عامي ١٩٢١ و ١٩٢٧، تلك الفترة الفلّة في حياته التي عاشها بكلّ جوارحه، فلم تمض دقيقة من زمانها دون سرور عميق أو ألم شديد، فكانت عهد الصداقة الحقة متمثلة في حسين شُداده وعهد الحب الصادق متبلوراً في عايدة، وعهد الحماة العارمة مستمدة من شعلة الثورة المصرية الرائعة، ثم عهد التجارب العنيفة التي خلف بها الشكّ والمجون والأهواء، وقد كان إسحاق لطيف هذا رمز العهد الأخير، ودليله الخطير، فإن هو اليوم من ذلك؟

وعاد إسحاق لطيف يقول في شيء من التلغز:

- بيد أن هناك أموراً تشغل بالنا باستمرار، كالكاكر الجديد ووقف الترقّيات والعلاوات، وأنت تعلم أنني تموت على الحياة الرغيدة في كنف أبي، ولكنّ أبي لم يترك ميراثاً، ووالدتي بدورها تستهلك كلّ معاشها، لذلك وضيت في سبيل الرزق أن أعمل في طنطا، وهل كان مثلي يرضى بذلك؟

فضحك كمال قائلاً:

- مثلك ما كان يرضى بشيء!

فابتسم إسحاق فيها يشبه الزهو اعتزازاً بماضيه الحافل الذي هجره بمحض اختياره. وسأله كمال:

- ألا تنازعك نفسك إلى معاودة شيء من الماضي؟

- كلّاً شئت من كلّ شيء، وأستطيع أن أقول بأنني لم أضجر من حياتي الجديدة بعد، كلّ المطلوب مني أن أبدي شيئاً من المهارة بين حين وآخر، حتى أفوز ببعض النقود من والدتي، كذلك على زوجي أن تلعب نفس الدور مع أبيها، إذ إنّي لا زلت مفروماً بالحياة الرغيدة...

فلم يملك كمال أن يقول ضاحكاً:

- علمتنا وتركنا وحدها على الطريق...

فضحك إسحاق ضحكة عالية أعادت إلى وجهه الوزن كثيراً من ملامح الماضي المآكرة، وقال:

- آسف أنت على ذلك؟ - كلاً، أنت تحبّ هذه

الحياة بإخلاص عجيب، غير أنّك رجل معتدل، إنّي فعلت في سنوات لحي الفلال ما لن تفعل مثله مدى عمرك «ثمّ بلهجة جدّية»... تزوّج وشيّ حياتك!

ليرضى بالجلوس في قهوة أحمد عبده، لولا رغبته في عجالة كمال. إنّه الصديق القديم الذي لم تنقطع بكمال أسبابه، رغم أنّ مطالب الرزق دفقت به إلى طنطا غريباً عاصباً لم تخرّج في مدرسة التجارة. فكان إذا عاد إلى القاهرة في إجازة اتصل به تليفونياً بمدرسة السليحدار، ونال منه موعداً للقاء في هذا الركن الأثري. وجعل كمال ينظر إلى صديقه القديم، كما بدا له بمنظره المدمج وملامحه المذبذبة الحادة. ويعجب لما آل إليه حاله من رزانة وأدب واستقامة، جعلته مثلاً طيباً للزوج والأب، الذي كان يوماً مثلاً فظاً للفتاة والاشتهار والفظاظة. وصبّ كمال الشاي الأخضر في قندس صاحبه ثمّ في قندسه وهو يقول بأساً:

- يبدو أنّ قهوة أحمد عبده لا تعجبك!

فارتفع رأس إسحاق في تناول المهدود، وقال:

- إنّها غريبة حقاً، ولكن لماذا لا نختار مكاناً فوق

سطح الأرض؟

- على أيّ حال هي أنسب مكان للناس المستقيمين

أمثالك.

فضحك إسحاق وهو يزيّ رأسه في تسليم، كأنما يقرّ بأنه أصبح جدّياً حقاً بفضيلة الاستقامة، هو الذي كان وكان، وعند ذلك سأله كمال بجملاً:

- كيف الحال في طنطا؟

- عال، أمّا النهار فعمل متواصل في المصلحة، وأمّا

الليل فأتقيّه مع زوجي وأولادي.

- وكيف حال الأبنجال؟

- نعمه، إنّ راجهم دائماً على حساب تعبنا،

ولكن نعمه في جميع الأحوال...

فسأله كمال مدفوعاً بحبّ الاستطلاع الذي يثيره في نفسه حديث الأسرة بصفة عامة:

- وهل تجدّتهم حقاً السعادة الحقيقية، كما يقول

المعارفون؟

- نعم، إنهم لكلّك.

- رغم متاعهم؟

- رغم كلّ شيء!

وجعل كمال ينظر إلى صاحبه بفضول أشدّ. هذا شخص جديد لا يكاد يمتّ بصلة إلى إسحاق لطيف

فقال كمال بلهجة عاينة :

- هذا أمر جدير بالتفكير

ما بين ١٩٢٤ و ١٩٣٥ خُلِقَ إسمايل لطيف جديد جدير بأن يزوره غوة الأحاجيب. هل أتى حال أنه الصديق القديم الباقي، أما حسين شذاد فقد اختطفته فرنسا من وطنه، وكذلك حسن سليم أمسى الخارج مقامه ومعايشه، لم يعد لها من سبب في القلب والأسفاه، لم يكن إسمايل لطيف يوماً صديق الروح. ولكنه ذكرى حية من الماضي العجيب، لذلك فهو خليف بأن يعتر به، واعتز به أيضاً لوفائه، لا سريرة روحية في مصاحبه، ولكنه آية حية على أن الماضي لم يكن خيالا، ذلك الماضي الذي أحرص على إثبات حقيقته حرصى على الحياة نفسها، ترى ماذا تصنع عايدة في هذه اللحظة من الزمان؟. وأين هي في عالم المكان؟. وكيف استطاع القلب أن يبرأ من مرض حبه؟... كل أولئك أحاجيب... .

- إني معجب، يا سيد إسمايل، أنت شخص جدير بكل توثيق.

ولقى إسمايل نظرة على ما حوله، استعرض بها السفف والفسوانيس والحجرات والوجوه الحسالة والعاكفين على السمر واللعب، ثم تسامل:

- ماذا يعجبك في هذه القهوة؟

فلم يجبه كمال على سؤاله، ولكنه قال بلهجة أسفة:

- أما علمت؟. سوف تهدم في القريب ليقام على

إنقاضها حجارة جديدة، سيخفي هذا الأثر إلى الأبد!

- مع ألف سلامة، فلتخلف هذه المقبرة ليقوم فوقها

عمران جديد.

أنطق بالحق؟. ربما، ولكن للقلب لواعجه، يا

قهوتي العزيزة أنت قطعة من نفسي، فيك حملت كثيراً

وفكرت كثيراً، وفيك سكن ياسين أعراساً، واجتمع

فهني بالثرثار ليفغروا ويعملوا من أجل عالم أفضل،

ثم إني أحبك لأنك مصنوعة من مائة الحلم، ولكن ما

جدوى هذا كله؟. وما قيمة الحنين إلى الماضي؟. ربما

ظل الماضي أفبونة أصحاب القلوب، وأشقى ما تصاب

به أن تكون ذا قلب حنون وعقل شاك: فلنقل أي

كلام ما دعنا لا نؤمن بشيء.

- في هذا صدقت، إني أقترح أن يهدموا الحرم إذا

وجدوا لأحجاره فائدة ما للمستقبل!

- الحرم! ما دخل الحرم في قهوة أحمد عبده؟!

- أعني الآثار، أعني أن نهدم كل شيء في سبيل

اليوم والغد.

فضحك إسمايل لطيف، وتطاول بمنقه - كما كان

يفعل قديماً كلما تحدى - ثم قال:

- أحياناً تكتب كلاماً يتناقض هذا القول، إني كما

تعلم أقرأ بين حين وآخر مجلة الفكر إكراماً لك،

وسبق أن صارحك برأيي، أي نعم، مقالاتك

عسيرة، المجلة كلها جائلة والعباد بالله، لم استطع

المثابرة على اتقنتها لأن زوجتي لا تجد فيها شيئاً يقرأ،

ولا تؤاخذني فهذا قولها. أقول إني وجدت أحياناً فيها

تكتب نفيس ما تقول الآن، ولكني لا أزعج أي أفهم

كثيراً - ويبي وبينك ولا قليلاً - فما تكتب، ويهله

للمناسبة أليس من الأفضل أن تكتب كما يكتب الكتّاب

المحبسون؟، لو فعلت لوجدت جمهوراً كثيراً،

ولربحت مالا وليرا.

في زمن مضى كان يحضر هذا الرأي في عناد وثورة،

الآن لا زال يحضره ولكن دون ثورة، لكنه يشك في

هذا الاحتقار، لا لشبهة في أنه في غير موضعه، ولكن

لأنه يرتاب أحياناً في قيمة ما يكتب، وربما ارتاب في

ارتياحه نفسه، وسرعان ما اعترف فيما بينه وبين نفسه

بأنه قد ضاق بكل شيء ذرعاً، وأن الدنيا تبدو أحياناً

كلفظة قديمة اندثر معناها.

- إنك لم ترض يوماً عن عقلي!

إسمايل وهو يقهقه:

- أتذكر؟. يا ها من أيام!

أيام مضت، لم تعد نيراناً تحرق، لكنها مصنوعة في

موضعها كالجثة العزيزة، أو كعملة اللبس المستكنة في

مكانها منذ ليلة عاتلة...

- ألم يبلغك شيء عن حسين شذاد أو حسن

سليم؟!

رفع إسمايل حاجبيه الكثيفين، وقال:

- ذكرت! حدثت أمور في العام الماضي الذي

قضيته بعيداً عن القاهرة...



- لا شك أنه عاد عقب الحادث، كذلك حسن سليم وعائدة، ولكن لا أحد منهم في مصر الآن.  
- وكيف عاد حسين تاركاً أسرته على حالها؟ ومن

أين له أن ينفق بعد إفلاس والده؟

- سمعت أنه تزوج هناك، ولا يبعد أن يكون قد وجد عملاً في أثناء إقامته الطويلة في فرنسا، لا أدري شيئاً عن هذا، فانا لم أره منذ ودعناه معاً، كم مضى على ذلك؟ عشرة أعوام على وجه التقريب. اليس كذلك؟ إنه تاريخ قديم، كم أثار شجولي!

كم وكيم، أما هو فالمعروف لا تزال تطرق أبواب عينية الخلفية، إنها لم تفتح منذ ذلك العهد وصلها الصدا، وقلبه يقطر حزناً، فيذكر بذلك القلب الذي انحلل من الحزن شعراً، إن هذا الحبر قد ربه رجلاً حقيقياً حتى كاد ينفذ عنه الحاضر كله، ويكشف عن الإنسان القديم الذي كان حياً خالصاً وحزناً خالصاً، أغداه هي نهاية الحلم القديم؟ الإفلاس والانتحار. كأنما قضى بأن يؤذيه هذه الأسرة بأبواب الألهة الساقطين. الإفلاس والانتحار، وإذا كانت عائدة لا تزال في بحيرة من العيش بفضل مكانة زوجها، فهذا طراً على كبرياتها الملائكة؟ وهل هبطت الأحداث بشقيقتها الصغيرة...  
- كان حسين أخت صغيرة. ما اسمها؟ إني أذكره

حيثاً وإنساء أحياناً كثيرة!

- بدور، إنها تعيش مع والدتها وتقاسمها متاعب الحياة الجديدة...  
تصور آل عائدة في حياة متواضعة! كحياة هؤلاء

الناس حولنا، فهل تخفي بدور يوماً بجوارب مرفوق؟ وهل تتخذ من التزام مركباً؟ أه... لا تغالط نفسك فأنت اليوم حزين وبها يكن لعقلك من رأي في الطيقت وفوارقها، فذلك تشمر من جرّاء هذا الانقلاب بانعيار خفيف، ويعز عليك أن تسمع بأن مثلك العليا تتبرخ في التراب، فلتعنا على أي حال بأنه لم يبق من الحب شيء، أجل... ماذا بقي من الحب القديم؟ إذا قال لا شيء فإن قلبه ينفق في حنان حبيب عند تردد أي أغنية من أغاني ذلك العهد، رغم ابتذال ألفاظها ومعانيها وأنفاسها، فما

ثم استطرد في اهتمام متزايد:

- علمت حال عودتي من طنطا أن أسرة شذاد انتهت.

تفجرت في قلب كمال ثورة اهتمام طاغية، وعان كثيراً وهو يغالب آثارها الظاهرة، ثم تساءل:  
- ماذا تعني؟

- أخبرني والدتي أن شذاد بك أفلس، التهمت البورصة آخر مليم في حوزته، انتهى شذاد، ثم إنه لم يتحمل الصدمة فانتحرا!

- يا له من خبر! متى حدث ذلك؟

- منذ أشهر، وضاع القصر الكبير فيها ضاع من متاع، ذلك القصر الذي عشنا في حديقته زمناً لا ينسى...

أي زمن وأي قصر، وأي حديقة، أي ذكريات، أي ألم نسي، أي نسيان مؤلم، الأسرة الرفيعة، الرجل العظيم، الحلم الكبير، اليس هذا الجيشان أضخم مما ينبغي أن يستدعيه الحال؟! وفله الحقيقة التي تمحّص عنها القلب أشدّ مما تستحقّ ذكريات عفى عليها النسيان؟

قال كمال بصوت حزين:

- انتحر البيك، وضاع القصر، ولكن ما مصير أهله؟

قال إسماعيل في امتعاض:

- لم تعد لأم صديقنا إلا خمسة عشر جنيهاً شهرياً من ربح وقف، وقد انتقلت إلى شقة متواضعة بالمباسة، وقد زارها والدتي فعادت تصف حالها وهي تبكي، تلك السيدة التي تقلبت في نعم لا يتصوره الخيال، ألا تذكر؟

يلدرك ولا شك، أم يظنه نسي؟. يذكر الحديقة والكشك والنعم الذي كان يترنم به الهواء، ويذكر السرور والحزن، بل إنه الساعة حزين حقاً، إن الدموع تطرق أبواب عينية الخلفية، ولن يحق له أن يجرن بعد الساعة على قهوة أحد عبده التي يتهددها الزوال، فكأن شيء ينبغي أن يقلب رأساً على عقب.  
- إنه لشيء محزن، ومما يضاعف الحزن أننا لم نقم

بواجب العزاء، ترى ألم يعد حسين من فرنسا؟

## ٧

ملبح هذا المجلس... غير أنَّ اليد قصيرة، من هذا الموضع الدافئ ترى الغدافي والرائع... من شارع فاروق وإليه... ومن الموسكي وإليه... ومن العتبة وإليها، ولولا بركة ينابر القاسية لما توارى للمشتاق وراء زجاج القهوة، تاركًا رغم أنه الركن البديع التابع للقهوة على الطوار المقابل، ولكن سيأتي الربيع يوتًا... أجل سيأتي غير أنَّ اليد قصيرة، ستة عشر عامًا أو يزيد وأنت حبيب الدرجة السابعة، دكان الحمزاوي يبيع بأبخس الأثمان... وبيع الغورية على ضخامته لا يندر إلا جنهات... أما بيت قصر الشوق فمُسكني وملاوي، وإذا كان لرضوان جدٌ غني فكمية لا عائل لها غيري، رب أسرة وعشيق، ولكن للأسف اليد قصيرة.

وفجأة وقعت عيناه الحائرتان على شاب طويل نحيل ذي شارب مريح ونظارة ذهبية، يخطر في محطته الأسود قادمًا من الموسكي متجهًا نحو العتبة، فابتسم ونهض بنصفه الأهل كالهما يعم بالقيام، ولكنه لم يفارق مجلسه. ولولا أنَّ الشاب كان مسرعًا لمضى إليه ودعاه إلى مجالسته. كمال غير سميع حين الضجر، لم يخطر الزواج له على بال رغم اقترابه من الثلاثين، لم تصحَّلت الزواج قبل الآن؟. ولم وقعت فيه مرة أخرى قبل أن أفيق من لطمته الأولى؟. ولكن من ذا الذي لا يشكو: أعزب كان أم متزوجًا؟. وكانت الأزيكة ملاذًا وممتعة، ثم حلَّ بها البوار فهي اليوم بؤرة الخثالة والسفلة، لم يبقَ لك من عالم المرات إلا لذة المشاهدة في هذا المرقق من الطريق ثم، الصيد الرخيص، وغير الصيد الرخيص خادمة مصرية منعاملات في الأمر الإفريقية... فهي في الغالب مهذبة المظهر نظيفة، أما سيد مزايها دون منازع فضصف الحلق، وتوجد أكثر ما توجد بسوق الخضار بميدان الأزهار.

كان قد فرغ من حسو قهوته، وجلس وراء زجاج النافذة المخلقة يرسل طرفه إلى ملتقى الطرق، يتابع كل ذات حسن، فتتطبع على عذسة عينه صور النساء

معنى ذلك؟. لكن مهلاً، إنها ذكرى الحب لا الحب نفسه، ونحن نحب الحب في جميع الأحوال خاصة الأحوال التي لا حب فيها، أما في هذه اللحظة فإني أشعر كأني غريق في بحر المسوى، ذلك أنَّ المرض الكامن ينفض سمومه حين الضعف الطارئ، وما الحيلة ما دام الشك زلزل الحقائق جميعًا يقف عند الحب في حدره، لا لأنه شيء فوق الشك، ولكن احتراثًا للحزن، وحرصًا على حقيقة الماضي.

وعاد إسمايل إلى الماسة سائقًا كثيرًا من التفاصيل، حتى ضاق بها فيما بدا، فقال بلهجة من يؤذ الفراغ من السيرة كلها:

- الدوام لله إنه شيء مؤسف حقًا، ولكن حسبتنا نكد...

ولم يحاول كمال أن يدهوه إلى مزيد. كان فيما قال الكفاية، إلى أن وجد رغبة إلى الصمت والتأمل. وكان ييكي بكاة صامتًا بدموع غير منظورة يذررها قلبه. وأدهشه ذلك بصفته مريضًا قديمًا قد برئ من مرضه، وقال لنفسه متعجبًا: تسعة أعوام أو عشرة! ما أطولها وما أقصرها، ترى ما صورة عابدة الآن؟. كم يؤذ أن يديم إليها النظر ليكبح على سرِّ ذلك الماضي الساهر. بل ليقف على سرِّ نفسه. إنه الآن لا يراها إلا لها خاطفًا في نغمة قديمة معادة، أو صورة في إعلان صابون. أو من سباته كالفرع وهو يمس: هذه هي ا. ولكن ما هي على الحقيقة قسمة من قسيت نجمة سينية، أو ذكرى متسللة، فيستيقظ والواقع؟! ونبا به مجلسه، فتأثت نفسه إلى رحلة مغفرة في دنيا الغيب، فقال لإسمايل:

- أتقبل دعوتي إلى كأسين في مكان لطيف مأون؟ فقهقه إسمايل قائلاً:

- إن زوجتي تنتظري لنذهب معًا إلى زيارة خالتها...

ولم يكثر لرفض دعوته. طلالا كانت نفسه نديته. وغادرا المكان وهما يتبادلان الحديث. أي حديث. وفيما بين ذلك قال كمال لنفسه: قد تضيق بالحب إذا وُجد، ولكن شدًا ما نفتقده إذا ذهب.

يكن بها إلا نافذة واحدة ذات قضبان حديدية تطلّ على عطفة الموردي، قد صُفّت بها ثلاث موائد متفرقة في الأركان، خلت الثتان وأحرق بالشائكة أصحابه الذين استقبلوه مهللين، شابههم كلّ مساء. كان ياسين - رغم شكواه - أصفرهم ساءً، أمّا أكبرهم فكان أحزب من أصحاب الممشات، يلعب في مجلسه باشكاتب بالأوقاف، فريس المستخدمين بإدارة الجامعة، ثمّ حامٍ من ذوي الأملاك غير مشغل. كان الإدمان يلوح في سحناتهم نظرة ذابلة وبشرة عطنة أو بالغة الشحوب، وكانوا يتوافدون إلى الحانة فيما بين الثامنة والتاسعة فلا يفارقونها إلا في المزيح الأخير من الليل، يتجشّعون أردًا أنواع الخمر واشتدّ مفعولاً وأرخصها ثمنًا، غير أنّ ياسين لم يكن بلازمهم من البداية إلى النهاية، أو لم يكن يفعل ذلك إلا في القليل النادر، وفيها عدا ذلك فكان يُعْضِي معهم ساعتين أو ثلاثًا كيما اتفق، وكالعادة استقبله الأحزب المعجوز قائلًا:

- أهلاً بالخاص ياسين...

وكان يصرّ على وصفه بالخاص إكرامًا لاسمه المبارك، أمّا المحامي وكان أشدّهم إيمانًا فقال:

- تأخّرت يا بطل، حتّى قلنا لقد عثر في امرأة ستحرمنا من أنسه الليلة كلها...

فعلّق الأحزب المعجوز على كلام المحامي متفلسفًا:

- لا يفرّق بين الرجل والرجل إلا امرأة!

فقال له ياسين مدامها، وكان قد جلس فيما بينه وبين باشكاتب الأوقاف:

- لا خوف عليك من هذه الناحية...

فقال المعجوز وهو يرفع الكأس إلى فيه:

- ألا لحظات شيطانية، فقد تستثيرني بنت في الرابعة عشرة.

فقال الباشكاتب:

- الاسم لطوية والفعل لأمشيا.

- لا أفهم ما تقصد بهذا الكلام البارد.

- ولا أنا فاهم!

وجاء خالو بالكأس والتمس، فتناول ياسين

الكأس وهو يقول:

من ذوات المعاطف والملاعات اللفّ، يَمرّهُنَّ كلّاً وأجزاء في مثابة لا تعرف الكلال. كان يجلس أحيانًا فيطول به الجلوس حتّى العاشرة، وفي أحيان أخرى ربّما لم يطل به الجلوس إلا ريثما يشرب قهوته، ثمّ ينهض مسرعًا في أثر صيد قد آنس منه استجابة ورغصًا، كأنه تاجر روبيايكيا. ولكنّه يفتن في الغالب بالمشاهدة، وربّما تبع الحسنة دون مقصد جدّي، أمّا الإقدام الحقّ، كان يصطاد خلدًا خليعة أو أرملة فوق الأريعين، فكان يقع على قترات وفي حرص شديد. إذ إنّه لم يعد الرجل الذي كان، لا لأنّ الموارد ناست بالاعباء فحسب، ولكنّ لسنّ الأريعين التي نزلت به ضيقًا دون دعوة أو استدذان. يا لها من حقيقة مرعبة! «وصمرة يبيض في عارضي طالما أوصيت الخلاق بمعالجتها، وقال الخلاق إنّ أمر الشرة هيّن، ولكنّ الشيب لا يلبث أن ينضجر. ثبّا لهما، للخلاق وللشيب، ووصف الرجل صبغة مفيدة ولكنّي لن ألجا إليها. بيد أنّ أيّ بلغ الخمسين دون أن تحترق له شعرة، أين أنا من أيّ؟ لا في الشيب وحده، كان شابًا في الأريعين، وكان شابًا في الخمسين، أمّا أنا! ربّاه لم أفرط أكثر ممّا أفرط أيّ». أرخ رأسك وأصب قلبك، ترى أكانت حياة هارون الرشيد حقًا كما يروى الرواة؟ أين زُفوة من هذا كله؟ جانب من الزواج خدمة بنت كلب، ولكنّ قوّته في أنّك تحضن الخلد ما حييت، وسوف تدول دول وتقلب أزمان، ولم يزل الدهر يتمخض عن امرأة سارحة ورجل جاذ في أثرها، الشباب لينة، والكهولة لعنات، فأين راحة القلب أين؟ وأنس ما في الدنيا أن تتسامل يومًا ذاهلاً أين أنا؟

وغادر القهوة في منتصف العاشرة، لقطع العتبة منهملًا إلى شارع عمّاد عليّ، ثمّ مال إلى حانة والنجم، وحيّا وخالو المائل وراء البار في وقفته التقليدية، فردّ الرجل تحيته بانسامة عريضة كشفت عن أنياب صفر مرثمة، ثمّ أشار يلقنه إلى الحجرة الداخلة كأنما ليخبره بأنّ أصحابه في الانتظار. وكان يمتدّ أمام البار دهليز ينتهي إلى ثلاث حجرات متداخلة يضيّج جوها بالمريدة، فمضى إلى الأخيرة منها، ولم

وهكذا كان جدّي من قبل، وأعاد هذا القول في هذه السهرة، فتساءل المحامي مازحاً:  
- وأمك؟... أكانت كذلك أيضاً؟

وضحكوا كثيراً وضحك ياسين، غير أنّ قلبه خاص في صدره متوجّساً وأفرط في الشراب. وتخيّل إليه رغم نشوته أنّه يتلهو، فلا المكان مكانه، ولا الخمر خمره، ولا اليوم يومه «وفي كلّ مكان يتغامزون عليّ، فأين أنا من أيّ؟» ليس أتعص من أن يزيد عمرك وتنقص نفودك، بيد أنّ رحة الشراب واسعة، تفيض عليك أنشأ، أنشأ رقيقاً وهزاً جيلاً يهون عنده كلّ خطب، فقل ما أعظم مسرّي، لن يعود العقار الذي ضاع، ولا الشباب الذي انفضى، ولكنّ الخمر تصلح أن تكون غير رفيق على مدى العمر، رضعها شائباً يافئاً، وها هي تؤنس رجولي، وسوف يترّ لها طرباً رأسي أكلجّل بالشيب، يلك يفرح منّي القلب رغم الغناء، وغداً عندما يستوي رضوان رجلاً وتهادى كريمة عروساً، أشرب أتعاب السعادة في العتبة الخضراء، فما أعظم مسرّي».

وإذا بالجماعة تفقّي وأسير العشق ياما يشوف هوانه ثم غتت «يا جارة الوادي» في جرّ صانعب وأصوات معربة، فردّد الغناء ألقوام من سائر الحجرات والسدليز، ثمّ ساد صمت مرهق فعاد رئيس المستخدمين يتحدّث عن استقالة توفيق نسيم، ويتساءل عن المعاهدة التي تعهد إلى حماية مصر من خطر إيطاليا، ذلك الجار الثقيل القائم في ليبيا، فما كان من الجماعة إلّا أن ردّدت في صوت واحد وإرغعي الستارة التي في ريمنا... أحسن جيرانا ترحنا». ورغم إفراط المعجوز في الشراب والعبدة، فقد احتجّ على هذه الإجابة المجنّة، ورماهم بالهذر فيها يليق به الجذّ. فأجابوه في صوت واحد مرّدين «صحيح خصامك وألا هزارة فلم يسع الشيخ إلّا أن يضحك، وأن يعود إلى مشاركتهم بلا تحقّق.

وغادر ياسين الحانة عند منتصف الليل، فبلغ بيته في قصر الشوق حوالى الواحدة صباحاً. وكعادته كلّ ليلة جعل يمرّ بحجرات شقّته كأنّها يقوم بجولة تفشّية، فوجد رضوان في حجرته يذاكر، وقد رفع

- يناير هذا العام شايف كيفه.

فقال رئيس المستخدمين:

«الله في خلقه شئون، جاء يناير بالعبدة ولكنّه ذهب بتوفيق نسيم إلى غير رجعة».

فصاح المحامي:

- أنقلونا من السياسة، ما زلنا نسكّر وغرّ بالسياسة حتى أخلدنا أنفسنا، شوفوا حكاية ثانية... .

فقال رئيس المستخدمين:

- حياتنا في الواقع سياسية ولا شيء غير هذا... .  
- أنت رئيس مستخدمين درجة سادسة، مالك أنت والسياسة؟

فقال الرئيس عتداً:

- درجة سادسة قديم من فضلك، من أيّام سعدا فقال الأعزب المعجوز:

- أنا درجتي السادسة من أيّام مصطفى كامل، لذلك أخلت بها حل المعاش إكراماً للذكراء... .  
اسمعوا، أليس من الأفضل أن نسكّر ونفقي؟

فقال ياسين وهو يهيم بإفراخ كاسه:

- نسكّر أو لا والذي...

لم يتسّع ياسين في حياته بنعمة الصداقة العميقة، ولكنّه كان له في كلّ مجلس - قهوة أو حانة - أصحاب، وكان يأنف بسرعة ويؤلف بأسرع من ذلك. ومنذ التخلّد هذه الحانة - تبنّى لتطوّر حاله المادّيّة - مجلساً ليلياً يختاراً عرف هذه الجماعة، وتوثّقت أسباب السمر بينهم، غير أنّه لم يقابل أحداً منهم في الخارج، ولم يسع إلى ذلك، جمع بينهم الإيمان والاسترخاء، وكان رئيس المستخدمين أرقاهم مركزاً، ولكنّه كان كثير الضياع، أمّا المحامي فقد جاء هذه الحانة جرياً وراء سمعة خمرها القويّة، بعد أن لم تعد تؤثّر فيه الخمور النظيفة إلّا في التادر، ثمّ ألفها واعتادها. وجعل ياسين يشرب ويثرثر، قاذفاً بنفسه في دوامة العبدة التي تتجلى المكان وترتطم بآركانه. وكان المعجوز الأعزب أحبّ أفراد الجماعة إليه. ولم يكن يشيع من مذهبته خاصّة فيما يتعلق بالرموز الجنسيّة، فكان الرجل يحذّره من الإفراط. ويذكره بمسؤوليّاته العائليّة، فيقول له ياسين في استهانة ومباهاة، نحن قوم خلقنا لهذا، هكذا أيّ،

الليل كان يفصح عن ولعه بهم دون تحفظ، وهو في نشوة من الحمر والحب، كان يمزجهم ويسامرهم، وربما قص عليهم نوادر السكاري اللين صادفهم في الحانة، غير عابئ بأثر ذلك في الأنفس البرية، مستهيناً باحتجاجات زئوبة التي تومئ بها إليه من وراء وراء، فيبدو وكأنها نسي نفسه وجري على سجيته دون حذر أو مبالاة.

وفي حجرته وجد زئوبة - كالعادة - نائمة وليست بنائمة. هكذا كانت أبداً، فقبل أن يبلغ الحجرة يترامى إليه شخيرها، حتى إذا توسلها تحركت وفتحت عينها وقالت بلهجتها الساخرة وحداً لله صل السلامة. ثم تهض لمعاوته على خلع ثيابه وتزويجها. وقد بدت في صورتها الطيحية أكبر من سبها، وكثيراً ما ظلتها تماثل سناً. ولكنّها باتت البهتة واشتكت جلورها بجلورها، تلك الغانية القديمة التي نجحت في معاشرته فيما لم تنجح فيه سيّدة من قبل، فأرست حياته الزوجية على أساس متين، نعم لقد انتابت حياها في أول الأمر معارك وعلا بها زئير ولكنّها بدت دائماً حريصة على حياها الزوجية كلّ الحرس. ومع الأيام صارت أمّاً، ومنيت بالثكل، فلم يبق لها غير كريمة، غير أنّ ذلك دعاها إلى مضاعفة الاستمسك بحياتها الزوجية، خاصة بعد أن تهددها البول ونالوها الكبر المبكر، ثم علمتها الأيام أن تتحلّى بالصبر والمهادنة، وأن تتمرّس بدور والسيدة بكلّ معنى الكلمة، وغالت في ذلك إلى حدّ أنّها لم تكن تتبرّج خارج بيتها حتى فازت أغبيراً باحترام بين القصرين والسكينة إلى حدّ ما، وكان من حسن سياستها أن تحمل نفسها على معاملة رضوان معاملة كريمة بالغة الرقة والمودة، على الرغم من أنّها لم تكن تجد نحوه حبّاً، خاصة بعد أن تكلمت في الذكر الوحيد الذي أنجبت له ياسين، وكانت رغم تغيرها شديدة العناية بحسن هندامها وأناقته ونظافتها، وقد لاحظها ياسين بامسا وهي تعيد ترتيب شعرها أمام المرأة، ومع أنّه كان يضيّق بها أحياناً إلى حدّ الضجر، إلا أنّه كان يشعر بحبّ باتّها أصبحت شيئاً ثميناً في حياته لا يمكنه الاستغناء عنه بحال. وجاءت بشال فطلعت به وهي تتفققف من البرد، وقالت متشكّية:

الشابّ رأسه عن كتاب القانون ليتبادل مع والده ابتسامة. وكان الحبّ بينهما عميقاً، كذلك الاحترام رغم أنّ رضوان كان يعلم أنّ والده لا يعود هذه الساعة إلّا نملًا. أمّا ياسين فكان يحبب بجمال ابنه أنّها إعجاب، كما يعجب بذكائه واجتهاده، ويرى فيه وكيل نياحة المستقبل الذي سيرفع من شأنه، ويحزّ من كبريائه، ويحزّ من أمور كثيرة، سأله:

- كيف تجد دروسك؟

وأشار إلى نفسه كأنّما يقول له «نحن هنا». فابتسم رضوان، وابتسمت فيه عينا هنيئة المكحولتان، فصاد أبوه يسأل:

- أيزعجك إذا أدت الفونوغراف؟

- أمّا عني فلا. ولكنّ الجيران نائمون في هذه الساعة المتأخرة.

فابتعد عن الحجرة وهو يقول هازئاً:

- نوم العالقة!

ومرّ بحجرة نوم والأولاد فوجد كريمة نفضت في نومها على فراش صغير، على حين بقي فراش رضوان في الجانب الآخر من الحجرة خالياً ينتظر فراغه من مذاكرته. وخطر له لحظة أن يوقظها ليداعها، ولكنّه ذكر ما يصحب إيقاظها في تلك الساعة من تلرّ فعلد عن خاطره. وأنّهم صوب حجرته. أجل الليالي في هذا البيت حقّاً هي ليلة الجمعة، تلك العطلة المقدّسة، فإذا عاد إلى بيته ليلة الجمعة - بصرف النظر عن الساعة التي يعود فيها - فإنّه لا يتردّد في أن يدعو رضوان إلى مجلسه بالصلاة، ثم يوقظ كريمة وزئوبة ويدير الفونوغراف، ويضي في محادثتهم وممازحتهم حتى المزمع الأخير من الليل. كان مغرماً بأسرته - خاصة رضوان - أجل لم يكن يشغل نفسه - أو لم يكن لديه من الوقت - ليتابعهم برعايته وتوجيهه، تاركاً أمرهم لعناية زئوبة وحكمتهم الفطرية. ومهما يكن الأمر فإنّه لم يطق لحظة واحدة أن يمثّل حياهم الدور القاسي الذي مثله أبوه حياله، وكره من صميم قلبه أن يخلق في قلب رضوان شعور الرهبة والخوف الذي كان يجده نحو أبيه! والحقّ أنّه لم يكن يستطيع ذلك حتى لو أراد. وعندما كان يجتمعهم حوله بعد منتصف

- ما أشد البرد!.. هلا رحمت نفسك من السهر في الشتاء؟

فقال سائراً:

- الخمر تغثّر القصور كما تعلمين، لم تتعين نفسك بالاستيقاظ؟

فنفخت قائلة:

- فعلك متعب وكلامك متعب!

بدا في جلبابه كالنطاد، ومسح يده على كرشه وهو يرنو إلى المرأة في ارتياح، وكانت عيناه السوداوان تشعلان، ثم ضحك فجأة قائلاً:

- لو رأيتي وأنا أتبادل التحية مع العساكرا أسي عساكر آخر الليل أصدقائي الأعزاء!

فغمضت وهي تتنهد:

- يا فرحي!

## ٨

كان منظر رضوان ياسين وهو يسير في الغروب بخطواته المتثنية عما يلتفت الأنظار حقاً. كان في السابعة عشرة من عمره، مكحول العينين، متوسط القامة مع ميل خفيف إلى الامتلاء، أثني اللبس إلى حد التبرج، يتسبب بشرته الوردية إلى آل عفت، فهو يشع بهاء ونوراً، وتتم حركاته عن دلال من لا يخفى عليه جماله، وعندما مرّ بالسكّرية ألهمه رأسه إليها فيا يشبه الابتسام، وذكر لثوّه عفته خديجة وإبنها عبد المنعم وأحمد، فوجد لذكرهما شعوراً لا يخلو من فتور، والحق أنه لم يجد من نفسه مشجعاً - ولو مرة - على أن يتخذ أحداً من أقربائه صديقاً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة. وسرعان ما اجتاز بوابة المتولي، ثم مال إلى الدرب الأحمر، حتى بلغ به السير باب بيت قديم فطره وانظر، وفتح الباب عن وجه حلمي عزّت، صديق صباه، وزميله اليوم بكلية الحقوق، ومنافسه - فيما بدا - في الجمال. وتخلل وجه حلمي لرواياه، ثم تمانقا وتبادلا قبله كعادتهما عند اللقاء. ومضيا معاً يصعدان السلم، وفي أثناء ذلك جعل حلمي ينوّه بربطة رقية صديقه وتجاوّب لونها مع قميصه وجوريه، وكان يضرب بها المثل في الأناقة وحسن الذوق، فضلاً عن

أن اهتمامهما باللباس والموضة لم يكن دون اهتمامهما بالسياسة أو دراسة القانون. وانتهيا إلى حجرة كبيرة عالية السقف، دلّ وجود الفراش والمكتب بها على أنها معدة للنوم والمذاكرة معاً. والحق أنّهما طالما سهرتا بها يذاكران، ثم ناما جنباً إلى جنب على الفراش الكبير ذي الأعمدة السوداء والنموسية. ولم يكن بيت رضوان خارج البيت بالشيء الجديد، فقد اعتاد منذ صباه أن يدهى إلى أكثر من بيت لقضاء عدّة أيام، كبيت جدّه محمد عفت بالجالية، أو بيت أمّه بلنيرة التي لم تنجب غيره رغم زواجها من محمد حسن، ولذلك ولبل أبيه الطبيعي إلى اللامبالاة، وترحيب زنوبة الحفني بكلّ ما يبعده عن بيتها ولو إلى حين، لم يجد معارضة في البيات عند صديقه في مواسم المذاكرة، ثم صار الأمر بعد ذلك مألوفاً فلم يكن أحد ليعيره أيّ اهتمام، وفي مثل هذا الجو من اللامبالاة نشأ حلمي عزّت. تولّى أبوه - وكان مأمور قسم - منذ عشرة أعوام. وفي ذلك الوقت كانت أخواته الست قد تزوّجن، فعاش وحده مع أمّه المعجوز، ووجدت المرأة صعوبة في بدئي الأمر في السيطرة عليه، ثم ما لبث أن صار هو المسيطر على البيت كله. وكانت المرأة تعيش حل معاش زوجها الصغير، وإيجار الدور الأول من بيتها القديم، فلم تعرف الأسرة الحياة الرفيعة منذ وفاة الأب، ولكن حلمي لم يهجز عن مواصلة حياته المدرسية حتى التحق بكلية الحقوق، محافظاً في أثناء ذلك كله على ما تتطلبه حياته من مظاهر الاحترام. وكان سرور حلمي بلقاء صديقه لا يعادله سرور، ولم تكن تطيب له أوقات العمل أو الراحة إلا به، لذلك بحث وجوده في نفسه نشاطاً وحماسة، فأجلسه على الكنية الملاحقة لباب المشربية وجلس إلى جانبه، وراح يفكر في اختيار موضوع - وما أكثر المواضيع لمحدثته - غير أن نظرة راجمة لامت في عيني رضوان اعترضت تيار حماسه، فرنا إليه متسائلاً، ثم نحن ما هنالك فتمتم:

- زوت والدتك؟ أراهن أنك قادم من هناك...

أدرك رضوان أن صديق تخمين صاحبه يرجع إلى وجهه هو، فلاح الضمير في عينيه، وهزّ رأسه

الصمت وهما يلقيان السكينة. وتغير تعبير وجه وضوان  
فأذن ذلك بإنهاء السيرة المحزنة، ورغب حلمي بذلك  
فقال في ارتياح:

- تمودت المذاكرة معك، فلا أدري كيف أذاكر  
وحلمي...

فابتسم وضوان متجاوزًا مع هذا الشعور الرقيق،  
ولكنه سأل فجأة:

- هل أطلعت على المرسوم الصادر بتأليف وفد  
المفاوضة؟

- نعم. ولكن كثيرين يلغطون متشالين بالجر  
الذي يحيط بالمفاوضة، ويبدو أن إيطاليا - التي عُدت  
حدودنا - هي محور المفاوضة الحقيقي، والإنجليز من  
جانبهم يحدون في حال فشل الاتفاق.  
- إن مصاه الشهداء لم تجرد بعد، وعندنا مصاه  
جديدة!

فهز حلمي رأسه قائلًا:  
- هذا كلام يقال، لقد سكت القتال وبدأ الكلام،  
ما رأيك؟

- على أي حال فإن للوفد أغلبية ساحقة في هيئة  
المفاوضة، تصور أنني سألت محمد حسن زوج أمي عن  
رأيه في الموقف، فقال لي ساخراً: «أنتوهم حقاً أن  
الإنجليز يمكن أن يخرجوا من مصر؟»، هذا هو  
الرجل الذي ارتضت أمي زوجها!

فضحك حلمي عزت عاليًا رساله:  
- وهل يختلف رأي أبيك عن ذلك؟  
- إن أبي يكره الإنجليز، وحسبه ذلك.

- أكرههم من صميم قلبه؟  
- إن أبي لا يكره ولا يحب شيئًا من صميم قلبه!  
- إنني أسألك عن رأيك أنت، فهل أنت مطمئن؟  
- لم لا، حتى متى تبقى القضية معلقة؟ أربعة  
وخمسون عامًا من الاحتلال، أف، لست أنا التعيس  
وحلمي!

فتناول حلمي عزت آخر رشقة من قلدحه وقال  
باسمًا:

- يبدو لي أنك كنت تحادثني بهذه الحماسة عندما  
وقعت عينه عليك!

بالإيجاب دون أن يتكلم، فسأله حلمي:

- وكيف حالها؟

- عال...

ثم وهو يتتهد:

- ولكن هذا المدعو محمد حسن!، أنت لم تعرف  
معنى أن يكون لأهلك زوج غير أبيك!  
فقال حلمي موسيًا:

- كثيرًا ما يقع هذا، لا عيب فيه، ثم إنه شيء  
قديم!

فهتف وضوان حائقًا:

- لا لا لا، إنه دائمًا في البيت، لا يرحله إلا إلى  
عمله في الوزارة، نفسي مرة أزورها فأجدها وحدها،  
ويطبخ له أن يمثل دور الوالد والمرشد، سحقًا له،  
وعند كل مناسبة يذكري بأله رئيس أبي في إدارة  
المحفوظات، ولا يتردد عن انتقاد مسلكه في عمله،  
ولكنني من ناحيتي لا أسكت له...

وصمت دقيقة حتى يبدأ انفجاله، ثم واصل  
حديثه:

- أمي حقا إذ رضيت أن تتزوج من هذا الرجل،  
لم يكن من الأفضل أن تعود إلى أبي؟  
وكان حلمي يعرف الكثير عن سيرة ياسين  
المشهور، فقال باسمًا:

- في العشق يا ما كنت أنوح!  
فلوح وضوان بيده معانداً وهو يقول:  
- ولوا إن فوق النساء سرّ خيف والأدهى من ذلك  
أنتا ليما يبدو راضية!

- لا تسع وراء ما ينقص صفوك.  
فقال وضوان في نبرات حزينة:

- يا للعجب، إن جاني عريضًا من حياتي ينضج  
بالتعاسة، إنني أمقت زوج أمي ولا أحب امرأة أبي،  
جور مشحون بالغيضاء، إن أبي - كأمي - لم يحسن  
الاختيار، ولكن ماذا في وصمي أن أفعل؟، وامرأة  
أبي تحسن معاملتي ولكن لا أتصور أنها تحبني، هله  
الحياة ما أرذلها!

وجاءت خدام عجوز بالشاي، فتحلب ريق وضوان  
الذي عانى في الطريق من رياح فبراير القاسية. وساد

- من؟

فابتسم حلمي عزّت ابتسامة غريبة، وقال:

- كلّما تحمّست تورّد وجهك ويرزّ جمالك في أحسن أحواله، وفي لحظة من تلك اللحظات السعيدة رآك ولا شكّ وأنت تحدّثني، كان ذلك يوم ذهب وفد الطلبة إلى بيت الأئمة داعين إلى الاتحاد، ألا تذكر ذلك اليوم؟

فتساءل رضوان باهتمام لم يحاول إخفاؤه:

- نعم، ولكن من هو؟

- عبد الرحيم باشا عيسى!

فتفكر رضوان قليلاً ثمّ ختم:

- رأيته مرّة من بعد...

- أنا هو فقد رآك اليوم لأوّل مرّة.

وارتسمت على وجه رضوان علامة استهزام، فماد حلمي يقول:

- وعندما قابلني عقب انصرافك سألني عنك،

وطلب إليّ أن أقدمك إليه في أوّل فرصة!

وتبسّم رضوان ثمّ قال:

- مات كلّ ما عندك.

فقال حلمي وهو يرتّب منكب صاحبه:

- دهاني وسألني بحفّته - حل فكرة هو خفيف جداً - ومن المالح الذي كان يحدّثك؟ فاجبته أنّه

زميل في الحفروق وصديق قديم واسمه كذا ألخ. فسألني باهتمام: «ومنى تقدّمه إليّ؟» فسألته بدوري متجاهلاً غرضه: «وليه يا باشا؟» فانفجر قائلاً كالغضب: «هكذا تبلغ به حقّة الروح أحياناً -» ولاعطيه درساً في الهذانة بما ين الكلب، فضحكّت بدوري حتّى كتم فمي بيده...

وساد الصمت لحظة دوّت فيها الريح في الخارج، وتراعى صوت ارتطام ضلفة شيك بجدار، ثمّ علا صوت رضوان وهو يتساءل:

- سمعت عنه كثيراً، أهو كما يقال؟

- وأكثر...

- لكّته عجزاً!

فقال حلمي عزّت وأسايره تنطق بالضحك دون صوت:

- هذا في المرتبة الاعيرة من الأهمية، إنّه رجل كبير المقام، ظريف، ذو نفوذ ولعلّ شيخوخته أجّل فائدة من الشباب...

فماود رضوان الابتسام، ثمّ تساءل:

- أين منزله؟

- فيلا هادئة في حلوان.

- آه نكتكّ بالقاصدين من كافّة الطبقات!

- ستكون ضمن مرعيه، لم لا؟، إنّه من شيوخ

الساسة ونحن من شبابهم!

فتساءل رضوان في شيء من الحذر:

- وزوجه وأولاده؟

- يا لك من جاهل، إنّه أعزب، لم يتزوّج قطّ ولا

يحبّ هذه السيرة، كان وحيد أبوه، وهو يعيش وحده مع خلمه كائنه مقطوع من شجرة، وإذا عرفته فلن تسلو عنه أبداً...

وتبادلا نظرة باسمة طويلة تفيض بالمؤامرات، حتّى

قال حلمي عزّت في شيء من الجرح:

- سألني متى نذهب لزيارته من فضلك؟

فقال رضوان وهو ينظر إلى ثالة الشاي في قدحه:

- متى نذهب لزيارته؟

٩

لاح بيت عبد الرحيم باشا عيسى على ناصية شارع النجاة بحلوان آية في البساطة والأناقة. فيلاً سمراء مكوّنة من دور واحد يعلو عن الأرض بمقدار ثلاثة أمتار تكتنفه حديقة أزهار، ويستهلّ بسلامك. وكان البيت والطريق والمنطقة المحيطة به غارقة في صمت مريع. وكان يجلس على أريكة عند الباب البوّاب وسائق السيارة، بوّاب نوره بارع القسيات ومشوق القوام، وسائق في ريق الشباب موزّد الحديّن. وهمس حلمي عزّت في أذن رضوان وهو يمدّ بصره نحو السلامك:

- صدق الباشا فيما وعد، فلا زائر اليوم غيرنا!

وكان حلمي عزّت معروفاً لدى البوّاب والسائق، فوفقا لاستقباله في أدب، وكما داعيها مازحاً انطلقا



- المخابرة يا سعادة الباشا مع وليّ الأمر؟  
فضحك عبد الرحيم باشا واكتفى بمصافحة  
رضوان، ثمّ دحاهما إلى الجلوس وهو يجلس على مقعد  
كبير على كتب منها، وقال باسمًا:  
- وليّ أمرك هذا ملعون يا رضوان، أليس هذا هو  
اسمك؟ أهلاً وسهلاً، لقد رايتك في صحبة هذا  
الولد الشقي، فراقي أدبك وتقيت لفاك، وما أنت لم  
تصنّ عليّ به...

- إنّي سعيد بالشرف بمعرفتك يا سعادة الباشا.  
فقال الرجل وهو يدير خاتماً ذهبياً كبيراً في يده  
يسراه:

- أستغفر الله يا بنيّ، لا تستعمل عبارات التعظيم  
واللقاب التضخيم، إنّي لا أحب شيئاً من هذا كله،  
الذي يحكي حقاً هو الروح اللطيف والنفس الصافية  
والإخلاص، أمّا سعادة الباشا وسعادة البك لكننا أبناء  
آدم وحواء، الواقع لقد راقي أدبك فوددت لو أدعوك  
إلى بقي، فأهلاً وسهلاً، أنت زميل حلمي في كلّيّة  
الحقوق، أليس كذلك؟  
- نعم يا فندم، إنشا زلماء من عهد خليل آخا  
الابتدائية...

فرفع الرجل حاجبيه الأشيبين في إعجاب قائلاً:  
- زماله صبا... (ثمّ وهو يبرّ رأسه) .. جميل،  
جميل، لعلك مثله من حيّ الحسين؟  
- نعم يا سيدي، ولدت في بيت جدّي السيّد محمّد  
حقّت بالجماليّة، وأقيم الآن بمنزل والدي بقصر  
الشوق...  
- أحياء مصر الأصيلة، البقاع الطيبة، ما رأيك لقد  
عشت فيها دهرًا مع المرحوم أبي في يربجوان، كنت  
وحيد أبويّ، وكنت حزينًا، وظللت جمعت الصبيان في  
شبه زقة ومضينا من حارة إلى حارة نعاكس طوب  
الأرض، ويا ويل الدنف لو رماه القدر إلى طريقنا،  
وكان أبي يثور غضبه فيجري ورائي بالمصا... قلت  
يا بنيّ إنّ جدك هو محمّد حقّت؟  
فقال رضوان بفخار:

- نعم يا سيدي...  
فتفكر الباشا قليلاً ثمّ قال:

يفضحكان دون كلفة. وكان الجوّ قارص البرودة ورغم  
جفافه، فدخلوا بهو استقبال آية في الفخامة، تنصّره  
صورة كبيرة لسعد زغلول في بللة التشرقية، ومال  
حلمي عزّت إلى امرأة عتمة طولاً حتى السقف تتوسط  
الجدار الأيمن، فالتقى على صورته نظرة متخصّصة  
طويلة، فلم يتردّد رضوان أن يلحق به. وأن يمتحن  
منظره بنظرة مثلها، حتى قال حلمي باسمًا:  
- قمران يرتديان بللة وطربوشاً، والي يشق جمال  
النبيّ يصلي عليه!

وجلسا متجاورين على كتبة مذهبة ذات غطاء أزرق  
وثير. ومرت دقائق ثمّ سُمعت حركة آية من وراء  
الستار المسدل على باب كبير تحت صورة سعد، فالتجّه  
ناحيةها رأس رضوان وقلبه يخفق بأهتمام. وما لبث أن  
ترامى الرجل في بللة سوداء أنيقة، تنتشر بين يديه  
رائحة زكيّة، وقد بدا دكان السمرة، حليق الوجه،  
نحيل الجسم، مائلاً إلى الطول نوعاً، ذا قسيت دقيقة  
براها الكبر، وعينين صغيرتين ذابلتين، أمّا طربوشه  
فقد مال إلى الأمام حتى كاد يمسّ حاجبيه، وكان يتقدّم  
هادئاً وقوفاً في خطوات متقاربة وبطيئة ممّا، فانعكس  
منه إلى قلب الشابّ إجلالاً وطمأنينة. ولازم الصمت  
حتى وقف أمام الشابّين اللذين وقفا لاستقباله، ثمّ  
تفحصهما بنظرة ثابتة ثبتت على رضوان طولاً حتى  
اختلج جفناه، ثمّ ابتسم فجأة، فشاع في الوجه  
القديم إنسان وجاذبة قُرّبت المسافة التي تفصل بينه  
وبينها حتى لم تعد شيئاً. ومدّ حلمي يده لتتناولها الآخر  
واستبقاها في يده، ثمّ مدّ يده وانتظر، فادرك حلمي  
غرضه، وسرعان ما عرض له خدّه فقبّله، ثمّ نظر  
صوب رضوان قائلاً بصوت رقيق:

- لا تؤاخذني يا بنيّ، فهذه هي طريقة السلام  
عندي...

ومدّ رضوان يده في حياء، فتتناولها الرجل وهو  
يتساءل ضاحكاً:  
- وخذك؟

فتورّد وجهه رضوان، وهتف حلمي مشيراً إلى  
نفسه:

وسوف تتحدث طويلاً وتندارس العبر كىا تكون لنا حياة موفورة الكمال والسعادة. . .

فنظر حلمي إلى رضوان قائلاً:

- ألم أقل لك إنَّ صداقة الباشا كنز لا يفنى؟

فقال عبد الرحيم عيسى موجِّهًا الخطاب إلى رضوان الذي لم تكذ تتحوَّل عنه حينه:

- إني أحب العلم وأحب الحياة وأحب الناس، وديني أن أخلد بيد الصغير حتى يكبر، وأني شيء في الدنيا غير من الحب؟. يجب إذا واجهتنا مشكلة قانونية أن نحلها معاً، وإذا فكرنا في المستقبل أن نفكر معاً، وإذا نازعنا أنفسنا إلى الراحة أن نرتاح معاً، ما وجدت رجلاً حكيمًا مثل حسن بك هيد، اليوم هو من رجال السلك السياسي المعنودين، ودعك أنه من أعدائي السياسيين. ولكنه كان إذا تفرَّج لبحث قتله، وإذا طرب رقص عارياً، الدنيا حلوة على شرط أن تكون حكيمًا واسع. . . الإدراك! ألت واسع الإدراك يا رضوان؟

فأجاب عنه حلمي عزت من فوره:

- إذا لم يكن فنحن على استعداد لتوسيعه! . . .

فأشرق وجه الباشا ابتسامة طفولية بُثت عن رغبته التي لا حدَّ لها في المسرة، وقال:

- هذا الولد عفريت يا رضوان، ولكن ما حيلتي؟ إنَّه زميل صباك يا بخته، ولست أنا القاتل إنَّ الطيور حل أشكاهها تقع. لازم أنت أيضًا عفريت، خبِّري يا رضوان من أنت؟. هه. إنَّك تركتي أتكلَّم بلا وهي وأنت صامت كلمة السياسة، هه؟ قل يا رضوان ماذا تحب وماذا تكره؟.

عند ذلك دخل الخادم حاملاً صينية القهوة، وكان فقى أمد شيبها باليُوب والسائق، فشرَبوا أكواب الماء المزوجة بالزهر، وجعل الباشا يقول:

- للماء بالزهر شراب أهل الحسِن، أليس كذلك؟.

فغمغم رضوان بآسًا:

- نعم يا سيدي.

فقال الباشا وهو يبرِّز رأسه طرفًا:

- يا أهل الحسِن مدد!

وضحكوا جميعًا، حتى الخادم ابتسم وهو ينادر

- أذكر أنني رأيته مرة في بيت نائب الجبلية، رجل وجهه ووطني صادق، كاد يرشَّح نائبًا في الانتخابات القادمة لولا تنحيه في آخر لحظة لصديقه النائب القديم، إنَّ الأتُّحاد الأخير أوجب الصداقة في الانتخابات حتى يظفر إخوتانا الأحرار الدستوريون ببعض المقاعد، إذن أنت زميل حلمي في الحقوق! جميل، القانون سيّد الدراسات، وهو يتطلَّب لدراسته ذكاه كاشًا، أما عن المستقبل فما عليك إلا الاجتهاد وجد في نبراته الأخيرة ما يرحي بالوعد والتشجيع، لدبِّي في قلبه الطموح والحماسة فقال:

- نحن لم نفشل ولا مرة واحدة في حياتنا الدراسية!.

- براهو، هذا هو الأساس، بعد ذلك نجيء الناية ثم القضاء وسوجد دائمًا من يفتح الأبواب المغلقة أمام المجتهدين، حياة القضاء شيء عظيم، عيادها الذكاء اليقظ والضمير الحري، لقد كنت بفضل الله من أبنائها الصادقين، وقد تركت القضاء للاشتغال بالسياسة، فالوطنية تحمَّمت علينا أحيانًا أن نهرج أهاليها المحبوبة ولكن إلى اليوم نجد من يضرب بنا المثل في العدالة والنزاهة، فضع نصب عينيك في الاجتهاد والنزاهة وأنت حر بعد ذلك في حياتك الخاصة، قم بواجبك وافعل ما تشاء، أما إذا فُضرت في الواجب فلن يرى الناس فيك إلا النفاث، ألا ترى أنه لا يحلو لكثير من الفضوليين إلا أن يقولوا فلان الوزير به الداء الفلاني. وفلان الشاعر به الداء السلاني. حسن، ولكن ليس كلَّ المصابين وزراء وشعراء، لكن وزيرًا وشاعرًا أوَّلًا وافعل بعد ذلك ما تشاء، لا يغيُّنُ من ذكائك هذا الدرس يا أستاذ رضوان. . .

وهنا قال حلمي عزت بخبث:

- كفى المرء نبلاً أن تعدَّ معاييه، أليس كذلك يا سعادة الباشا؟

فثنى الرجل رأسه إلى منكبيه الأيمن، وقال:

- طبعًا، سبحانه من له الكيال وحده، الإنسان

ضعيف جدًّا يا رضوان، ولكن عليه أن يكون قويًّا في الجوانب الأخرى. مفهوم؟. لو تشاء أحدثك عن كبار الرجال في الدولة ولن نجد واحدًا خاليًا من داء،

فؤاد هو الذي عارض في ترفيقي يوماً، والملك فؤاد آخر من يتكلم في الأخلاق، وعلى أي حال سأقابلك غداً في النادي، سلام عليكم يا باشا. . .

وعاد الرجل متجهماً الوجه، ولكنه ما كاد يرى وجه رضوان حتى عاوده الانشراح فواصل حديثه قائلاً:

- نعم يا سيد رضوان، تعارفنا وما أجل التعارف، أنصحك بالاجتهاد، أنصحك بالألا تتخل من الواجب والمثل الأعلى، بعد ذلك أحدثك عن العرب والهنا.

وهنا نظر رضوان في ساعته، فلاح الجزع في وجه الباشا وقال:

- إلاً هذا الساعة عذر مجالس الأنا.

فتمتم رضوان في شيء من الارتباك:

- ولكننا تأخرنا يا سعادة الباشا.

- تأخرنا! أنمي أنه تأخري العمر! أخطأت يا بني، ما زلت أحب السهر والمجالس والغناء بعد الساعة الواحدة، السهرة لم تبدأ بعد، لم نقل إلاً بسم الله الرحمن الرحيم، لا تعترض. السهرة تحت أمركما حتى الصباح، ويلقي أنك تبيت خارج البيت للمذاكرة، قلنداك، إسم لا؟ ما أحل أن أعود إلى المدخل في القانون العام أو شيء من الشريعة، بهذه المناسبة من يدرس لكم الشريعة؟ الشيخ إبراهيم نديم، مشاهه الله بالخير، إنه كاتب عظيم، لا تلحش، سنؤرخ يوماً لكل رجال العصر، يجب أن تفهم كل شيء، ليلتنا ليلة هبة وصدقة، عتري يا حلمي ما أنسب شراب لمثل هذه الليلة؟

فقال حلمي باطمئنان:

- ويسكي وصودا وشواء.

فقال الباشا ضاحكاً:

- وهل الشواء شراب يا شقي؟

١٥

عقب الغداء من يوم الخميس يلتئم شمل أسرة خديجة عل نحو لا يكاد يتغير. وهكذا جمعت الصلاة بين الأب إبراهيم شوكت وعبد الصم وأحمد، ولياً كان من النادر أن تبقى خديجة بدون عمل فقد جلست

البهوء واستطرد الباشا متسائلاً:

- ماذا تحب؟ ومذا تكره؟ تكلم بصراحة يا رضوان، دعني أيسر لك الجواب، آلت مهتم بالسياسة؟

فقال حلمي عزت:

- كلانا في لجنة الطلبة.

- هذا أول سبب للمقاربة بيننا، وهل لك في الأدب؟

فأجاب حلمي عزت:

- إنه مغرم بشوقي وحافظ والمفلوطي. . .

فهر الباشا قائلاً:

- اسكت أنت، أريد يا أخي أن أسمع صوته. . .

فضحكوا، وقال رضوان باسماً:

- إني أموت في شوقي وحافظ والمفلوطي. . .

فقال الباشا بإعجاب:

- وأموت في، يا له من تعبير، لا تسمح له إلا في الجمالية، أي نسبة إلى الجمال يا رضوان؟ إذن أنت من هواة «فنية ذهب» وفي الليل كما خل، ومن يكن ووفن يشيله وفن يحطه، الله. . . الله، هذا سبب آخر للمقاربة بيننا يا جمالية، وهل تحب الغناء؟

- إنه من غواة. . .

- اسكت أنت.

فضحكوا مرة أخرى، وقال رضوان:

- أم كلثوم.

- جميل، لمي من عشاق القديم، ولكن الغناء كله جميل، فانا أحبه، فليله ونضيفه، كما يقول للمري، وأموت فيه كما تقول حضرتك. جميل جداً، الليلة صعب.

وفق جرس التليفون، فنهض الباشا إليه، ووضع الساعة على أذنه وهو يقول: آلو.

- أهلاً أهلاً محالي الباشا.

. . . . .

- أنا قلت رأيي للزم صراحة، وهو رأي ماهر والنقاشي أيضاً.

. . . . .

- أسف يا باشا، لا أستطيع. أنا لا أنسى أن الملك

للنعم وأحد لم تكن تعجبها كثيراً، كما أنَّ نحاساتها كانت تفيظها فقالت باستياء:

- قلت ألف مرة إنه يجب أن تغيراً ويقكما على البابونج ليفتح شهيتكما، يجب أن تأكلا جيّداً، ألا تريان أباكما كيف يأكل؟

وابتسم الشابان وهما ينظران نحو أبيهما، فقال الرجل:

- ولماذا لا تضربين المثل بنفسك، وأنت تأكلين كالطاحونة؟

فقالت باسمّة:

- إني أترك لها الحكم والحيار.

فقال إبراهيم محتجاً:

- عينك يا شخيرة أصابتي! لذلك نصحني الدكتور بأن أخلع أسناني...

فلاحت في عينها نظرة رقيقة، وقالت:

- لا تخزع، ستذهب بشرها، ولن تشكو لك بعد ذلك إن شاء الله...

وهنا خاطبها أحد قائلاً:

- جارنا ساكن الدور الثاني يرجو أن يؤجل دفع الأجرة حتى الشهر القادم، قابلي على السلم فرجاني في ذلك!

فسأته وهي تنظر إليه مقبلة:

- وماذا قلت له؟

- وعدته بأن أحدث أبي...

- وهل حدثت أباك؟

- ها أنا أحدثك أنت!

- إننا لا نشاركه في شقته فلا يجوز له أن يشاركنا في رزقنا، ولو تساهلنا معه لتيه ساكن الدور الأول، أنت لا تعرف الناس فلا تتدخل فيها لا عينك...

فنظر أحمد إلى أبيه متسائلاً:

- ما رأيك يا بابا؟

فابتسم إبراهيم شوكت قائلاً:

- في عرضك لا تصدع دماغي، عندك أمك...

فعاد أحمد إلى أمّه قائلاً:

- إذا تساهلنا مع رجل مزنون فلن نجوع...

فقالت خديجة بامتعاض:

بينهم وهي تطرّز غطاء مائدة، وقد بدا الكبر أخيراً على إبراهيم شوكت يصد مقاومة طويلة جيّارة، فشاب شعره وترهل بعض الشيء، وإن حافظ فيها عدا ذلك على صحة يُحسد عليها، وكان يدخن سيجارة، ويأخذ مكانه بين ابنه في هلدوه وطمانينة. تعكس عيناه البارزتان نظرة الحمول والالامبالاة التقليدية، على حين لم ينقطع الشابان عن الحديث، فيها بينهما حيناً، أومع الأب أو الأم التي شاركت في الحديث دون أن ترفع رأسها عن عملها، وقد بدت كتلة عظيمة من الشحم واللحم. لم يعد في الجوّ ما ينقص على خديجة صفوها، إذ لم يبقَ من ينازعهما السيادة في بيتها مذهباً. كانت تقوم بواجباتها بهمة لا تحفلها أبداً، وترعى سبلاتها بعناية فائقة وهي جوهر جاهلها كله، وتحاول فرض رعايتها على الجميع، الأب والابن، فيطّارح الرجل، وأما عبد المنعم وأحد فليش كل سبله كما يرى مستعدين يحميها من سطوتها. وقد نهجت منذ سنوات في حل زوجها على احترام تقاليد الدين، فإرس الرجل الصلاة والصوم واعتادها، وكان عبد المنعم وأحد قد شبّا على ذلك من قبل، غير أن أحد توقّف عن أداء الفريضة منذ عامين، وجعل يتهورّب من استجواب أمّه كلما استجوبته أو يتعلّل بمرض أو بآخر. وكان إبراهيم شوكت يحبّ ابنه حبّاً جماً، ويعجب بها أشدّ الإعجاب، ويتوّه في كلّ فرصة بنجاحها المتواصل الذي بلغ بعد المنعم كلّية الحقوق وبأحد نهاية المرحلة الثانوية، وفي ذلك كانت خديجة تقول في مباحة:

- كلّ هذا ثمرة اهتمامي أنا، لو ترك الأمر لك ما فلع أهدمها ولا كان له شأن...

وقد ثبت أخيراً أنّها نسيت مبادئ القراءة والكتابة لعدم الاستعمال ممّا جعلها هدفاً لسخرية إبراهيم، حتى اقترح ابنها أن يذكّرها بما نسيت ردّاً لجميلها الذي تباهي به، ففضبت قليلاً وضحكت كثيراً، ثمّ حققت الحال في كلمة قائلة:

- لا حاجة بأمراة إلى الكتابة والقراءة ما دامت لا تكتب رسائل غرام! بدت في أمرتها سعيدة راضية، ولعلّ شهية عبد

- بالصراحة إن رأسه يحتاج إلى تطهير من الداخل...  
- إله...  
- اسمعي، هذا الشاب لا دين له، هذا ما بت أعتقد...

فلوح أحمد يبله كالغاضب، وهض متسائلاً:  
- من أين لك الحق في الحكم على القلوب؟  
- الأفعال تنم عن السرائر (ثم وهو يداري ابتسامة)  
يا عندو الله!  
فقال إبراهيم شوكت دون أن يخرج من هدوه وطمأنينته:  
- لا تتهم أخاك ظلاً.

وقالت خديجة غاطية عبد المنعم وهي تلحظ أحمد:  
- لا تسلب أخاك أحراراً ما يملك الإنسان، كيف لا يكون مؤمناً؟، إن آل أمه لا تنقصهم إلا الميائيم ليكونوا من رجال الدين، وكان جدّه من صميم رجال الدين، لقد نشأنا فوجدنا من حولنا يصلون ويتعبون كأننا في جامع!  
فقال أحمد متهمكاً:

- مثل خالي ياسين...  
ونلت عن إبراهيم شوكت ضحكة، فقالت خديجة متظاهرة بالغضب:  
- تكلم عن خالك بأدب، ماله؟ قلبه عامر بالإيمان وربنا بيديه، انظر إلى جدك وجدتك.  
- وخالي كيال؟  
- خالك كيال من محاسب الحسين، أنت لا تدري شيئاً.

- بعض الناس لا يدرون شيئاً...  
فسأله عبد المنعم عتداً:  
- لو كان الناس جميعاً مهملين في دينهم، فهل يشفع لك ذلك؟

فقال أحمد في هدوء:  
- على أي حال اطمئن، فلن تؤخذ يوماً بذنبي!  
وهنا قال إبراهيم شوكت:  
- كفأك يا خبيثاً، نفسي أراكها كرضوان ابن خالك...!

- لقد حدثني زوجة وأجلت لها الدفع فليترع بالك، ولكنني أفهمتها أنّ أجرة المسكن واجبة كمصروفات الأكل والشرب، أي ذلك خطأ؟، إني ألام أحياناً لأنني لم ألتذ من جاراتي صديقات، ولكن من يعرف الناس يحمد الله على الوحدة...

فعاد أحمد يتساءل وهو يغمز بعينه:  
- وهل نحن خير الناس؟  
فعبست خديجة قائلة:  
- نعم، إلا إذا كان لك في نفسك رأي آخر!  
فقال عبد المنعم:  
- رأيي في نفسه أنه خير الناس جميعاً، لا رأيي إلا رأيي، والحكمة موقوفة على رأسه!

فقال خديجة متهمكة:  
- ومن رأيي أيضاً أن يستأجر الناس البيوت دون دفع أجرتها!  
فقال عبد المنعم ضاحكاً:  
- إله خير مقتنع بأنه من حقّ بعض الناس أن يملكوا بيوتاً على الإطلاق...

فقال خديجة وهي تهرّ رأسها:  
- يا عيني على الرأي الفقير...  
وحجج أحمد أخاه بنظرة غاضبة، فهزّ عبد المنعم منكبيه باستهانة وهو يقول:  
- راجع نفسك قبل أن تغضب...  
فقال أحمد عتجاً:

- يحسن بنا ألا نتناقش معاً!  
- بل انتظر حتى تكبر...  
- إنك أكبر منّي بعام لا أكثر...  
- أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة...  
- هذا المثل لا يؤمن به!  
- اسمع، لا يتعيّن إلا شيء واحد، هو أن تعود إلى الصلاة معي...

فهزّت خديجة رأسها بأسف وهي تقول:  
- صدق أخوك، الناس تكبر تعقل أمّا أنت فأعوذ بالله منك، حتى أبوك صلب وصام، فكيف فعلت بنفسك ما فعلت؟، إني أنساء ليل نهاراً  
فقال عبد المنعم بصوت قويّ شليد اللقّة بنفسه:

السائكة في الدور الأول، فقالت خديجة وهي تمتم  
بالقيم:

- ماذا تريد يا ترى؟... إن كان في الأمر تأجيل  
دفع أجرة فلن يفصل بيننا إلا قسم الجمالّة ١.

## ١١

كان الموسكي شليد الزحام، اكتظّ بأهله وما  
أكثرهم فضلاً حتّى استجدّ عليه ذلك اليوم من تيارات  
بشرية تدفّقت من ناحية العتبة. وكانت شمس إبريل  
الصافية تغلف شياً، فسقّ عبد المنعم وأحمد سبلها في  
جهد غير يسير وهما يتصبّبان عرقاً. وقال أحمد وهو  
يتأبط ذراع أخيه:

- حدّثني عن شعورك...

فتعكر عبد المنعم قليلاً، ثمّ راح يقول:

- لا أدري، الموت رهيب، فما بالك بموت ملك،  
وكان طريق الجنّازة مكتظّاً بالناس بصورة لم أشهدها  
من قبل، أنا لم أشهد جنازة سعد زغلول حتّى استطيع  
المقارنة بين الجنّازتين، ولكن يبدو لي أنّ أكثر الناس  
كان متأثراً على نحو ما، وبعض النساء يبكين، نحن  
المصريّين قوم عاطفيّون...

- لكّني أسألك عن شعورك أنت؟

فصاد عبد المنعم بفكر وهو يتضادى من الارتطام  
بالناس، ثمّ قال:

- لم أكن أحبه، وفداً اعتقناه جميعاً فانا لم أحزن،  
ولكّني لم أشرّ كذلك، تابعت النش بعين من لا قلب  
له، لا له ولا عليه، غير أنّ فكرة الجبّار في النعش  
أثّرت فيّ، لا يمكن أن يمرّ منظر كهذا دون أن يؤثر فيّ،  
له الملك جميعاً، هو الحيّ الباقي فليت الناس  
يعلمون، غير أنّه لو مات الملك قبل أن تتغيّر الحالة  
السياسية التي كانت قائمة لزغرد كثيرون وكثيرون  
جداً، وأنت ما شعورك؟

- أنا لا أحبّ الطغاة أيّاً كانت الحالة السياسية ١.

- هذا حسن، ولكن منظر الموت؟

- ولا أحبّ الرومانتيكية المريضة ١

فتسادل عبد المنعم في ضجر:

فحدّثته خديجة بنظرة استياء، كأنها حرّ عليها أن  
يعدّ رضوان خيراً من ابنها، فقال إبراهيم موضوعاً  
رأيه:

- هذا الشابّ على صلة بكبار الساسة، شابّ  
ذكيّ، وقد ضمن بذلك مستقبلًا باهرًا...

فقالت خديجة غاضبة:

- لست من رأيك، رضوان شابّ سيّئ الخطّ،  
ككلّ شابّ يحرّمه سوء الخطّ من رعاية أمّه، وذنوبه  
دهانم، لا يتممّ في الواقع بأمره، أنا لا أنخدع بحسن  
معاملتها له فهذه سياسة كسياسة الإنجليز، لذلك لا  
يقرّ للمسيكين قرار، وأكثر ليّامه يبيتها خارج بيته، أمّا  
صلته بالكبراء فلا معنى لها، إنّّه طالب مع عبد المنعم  
في سنة واحدة، فما معنى هذا التدخّل الخطير؟ أنت لا  
تعرف كيف تضرب الأمثال...

فرمها إبراهيم بنظرة كأنها يقول لها: ولا يمكن أن  
تقرّني على رأيي، ثمّ قال مواصلاً لإيضاح رأيه:

- ليس الشبان اليوم كما كانوا في الزمن الماضي،  
السياسة هيّئت كلّ شيء، فكلّ كبير له مريدوه منهم،  
والطموح الذي يريد أن يشقّ سبيله في الحياة لا بدّ له  
من كبير يرجع إليه، إنّ مكانة والدك الكبيرة تقوم على  
اتّصالاته الوثيقة بالكبراء!

فقالت خديجة بكبرياء:

- أيّ يسمى الناس إلى التعرّف به ولا يسمى هو إلى  
أحد، أمّا عن السياسة فابتنائي لا شأن لهم بها، لو  
أتبع لها أن يربها خالها الشهيد لأدركا من نفسها معنى  
كلامي، بين يحيى فلان ويسقط فلان يملك أبناء  
الناس، ولو عاش للرحوم فهمي لكان من أكبر القضاة  
اليوم...

فقال عبد المنعم:

- لكلّ طريقته، نحن لا نقدّ أحداً، ولو أردنا أن  
نكون كرضوان لكنا...

فقالت خديجة:

- أحسنت!

وقال له أبوه بأساً:

- أنت كأمّك، وكلاهما لا تساويان شيئاً...

ودقّ الباب، فجاءت الخادم تؤذّن بقدوم الجارية

- صعيكيا مشكوراً

ثم صافحها ومضى كل إلى حال سبيله، وأتبعه أحد نظره قليلاً، ثم قال:

- جئنا ظريف وأتق، لقد ملا أنفي شداً طيباً...

- نية تروي عن جبروته الأعاجيب...

- لا أظنه جباراً، هذا شيء لا يصدق.

فضحك عبد المنعم قائلاً:

- إنَّ الملك فؤاد نفسه بدا في أواخر عهده لطيفاً طيباً...

وضحكا معاً. ومضيا إلى قهوة أحد عيله. وفي الحجرة المواجهة للنافورة رأى أحد شبحاً مرسل اللحية حاذق البصر يتوسط جمّاً من الشبان يتطلعون إليه في اهتمام، فتوقّف وهو يقول لأخيه:

- الشيخ عليّ المنوفي صديقك، أخرجت الأرض أنفالحا، ينبغي أن أتركك هنا...

فقال عبد المنعم:

- تعال اجلس معنا، أحب أن نجالسه ونسمع له، ناقشه كيفما شئت، كثير عن حوله من طلبه الجامعة...

فقال أحد وهو يخلّص ذراعه من ذراع أخيه:

- لا يا عمّ، كدت مرّة أشتبك معه في حراك، أنا لا أحبّ المتعصّين، مع السلامة...

فحلّجه عبد المنعم بنظرة انتقاد، ثم قال بحدّة:

- مع السلامة، ربّنا يهديك...

وأقبل عبد المنعم على مجلس الشيخ عليّ المنوفي ناظر مدرسة الحسين الأولى، فهض الرجل لاستقباله. وقد نهض معه جميع الجلوس حوله. وتماثقا، ثم جلس الشيخ وجلّسا وهو يتبادل متضخّضاً عبد المنعم بعينه الحادّتين:

- لم نرك أمس؟...

- المذاكرة...

- الاجتهاد حذر مقبول، وما لأخيك قد تركك

وزهب؟.

فابتسم عبد المنعم ولم يجب، فقال الشيخ عليّ المنوفي:

- ربّنا الهادي، لا تعجبوا له، لقد صافد مرشدنا

- أشررت إذن؟

- تمثيت أن يمدّ بي العمر حتى أرى العالم وقد خلص من كافّة الطفلة على اختلاف أساليبهم وأوصافهم...

وسكتا قليلاً وكان الثوب قد نال منها كلّ منال، ثم عاد أحد يتساءل:

- وماذا عمّا بعد ذلك؟.

فقال عبد المنعم بلهجة اليقين التي اشتهر بها:

- فاروق غلام، ليس له دعاء أبيه ولا نابه الأزرق، فإذا سارت الأمور سيراً حسناً، فنجمت المفاوضات، وعاد الوفد إلى الحكم، فسوف تستقرّ الأمور ويتفهي عهد المؤامرات... المستقبل حسن فيما يبدو... والإنجليز؟

- إذا نجمت المفاوضات انقلب الإنجليز أصدقاء، وبالتالي يتقطع التحالف القائم بين السراي والإنجليز ضدّ الشعب، فلا يجد الملك بداً من احترام الدستور.

- الوفد خير من غيره...

- بلا شك، إنّه لم يحكم طويلاً حتى يعرف مدى قدرته، وقريباً تكشف التجربة عن إمكانيّاته الحقيقيّة، إنّي أوافقك على أنّه خير من غيره، ولكنّ طموحنا لن يقف عنده!

- طبعاً، إنّي أؤمن بأنّ حكم الوفد نقطة ابتداء حسنة لتطوّر أعظم، ولهذا كلّ ما هنالك، ولكن هل تتفق مع الإنجليز حقاً؟

- إنّا الاتفاق وإنّا المودة إلى حكم صديقي، في أمّتنا احتياطيّ من المودة لا ينصد، كلّ مهمّته دائماً تأديب الوفد إذا قال للإنجليز ولا، ولأنهم لفي الانتظار، هله هي المأساة...

وعندما بلغا السكّة الجديدة وجدا نفسيهما فجأة أمام جدّهما أحد عبد الجواد الذي كان متّجهاً صوب الصاغة، فتصدّما إليه وسكّيا عليه بإجلال، فسألها بأساً:

- من أين وإلى أين؟.

فقال عبد المنعم:

- كنّا نترجّع على جنازة للملك فؤاد...

فقال الرجل دون أن تضارق الابتسامة شفّيته:

يكون مسلمين فعلاً، لقد منّ الله علينا بكتابه فتجاهلناه فحقت اللّنة علينا، فلنعد إلى الكتاب، هذا هو شعارنا، العودة إلى القرآن، بلّلك نادى المرشد في الإسماعيلية، ومن ساحتها ودعوته تسري في الأرواح، غازية القرى والدساكر حتّى عملاً القلوب جميعاً . . .  
- ولكن أليس من الحكمة أن تتجنّب السياسة؟

- الدين هو العقيدة والشريعة والسياسة، إنّ الله أرحم من أن يترك أخطر الأمور الإنسانية دون تشريع وتوجيه، وهذا في الواقع هو درسنا الليلة . . .

كان الشيخ شديد الحامسة، وكانت طريقته أن يقرّر حقيقة ما، ثمّ تدور حولها المناقشات ما بين أسئلة من مرئيه وأجوبة عليها منه، يقوم أكثرها على الاستشهاد بالقرآن والحديث. وكان يتحدث وكأنه يخاطب، أو كأنه يخاطب الجالسين في القهوة جميعاً، فسمعه أحد وهو جالس في أقصى المكان، يحسّي الشاي الأخضر، وعلى شفّته ابتسامة ساخرة. وكان يقبس الشقّة بينه وبين هذه المجموعة المتحمّسة في عجب، ويحدّ نحوها ازدهاء وفضباً، وثار به التحديّ مرّة فهم بأن يطلب من الشيخ أن يخفض من صوته حتّى لا يعلج على رواد القهوة صفاء راحتهم، ولكنّه عدل عباً هم به في اللسطة التي تلذّر وجود أنبيهم. وأخيراً لم يجد بداً من مغادرة القهوة، فقام ساعكاً وغادرها . . .

## ١٢

عاد عبد المنعم إلى السجّرية حوالي الثامنة مساء. وكان الجو سكت حقه فمال إلى اللطافة وشاعت فيه رقة الريح. كان الدرس ما يزال يكبر في رأسه ويترّد في قلبه، ولكن أهياه الجهد والفكر. وعبر حوش البيت في ظلام داس ثمّ انجّه إلى السلم، وفي تلك اللحظة فتح باب الدور الأوّل، وعلى الضوء المنبث من داخل الشقّة رأى شيئاً يتسلّل إلى الخارج ثمّ أغلق الباب وراءه وسبقه إلى السلم. وخطق قلبه وجرى دمه حارّاً كحشرة هيّجها القيط. رآها في الظلام تنتظر عند أوّل بسطة وتتطلّع نحره فتطلّع نحرها، ولم يتحوّل عنها رأسه. وصعب كيف يستغلّ الصغار الكبار، فهذه الصغيرة غادرت بيتها بحجّة زيارة الجيران، وسوف

كثيرين من أمثاله هم اليوم من أشدّ المخلصين لدعوته، ذلك أنّ الله إذا أراد لقوم هداية فلن يكون للشيطان عليهم من سلطان، ونحن جنود الله، ننشر نوره، ونحارب عدوّه، وهبنا أرواحنا له من دون الناس، فما أسعدكم جنود الله . . .

وقال أحد الجالسين:

- ولكنّ مملكة الشيطان كبيرة!

فقال الشيخ على المتوالي معاتياً:

- انظروا إلى من يخاف دنيا الشيطان والله معه!

ماذا نقول له؟ نحن مع الله والله معنا فإذا نخاف؟ من بين جنود الأرض يتّمع بفؤككم؟ وأي سلاح أحد من سلاحكم؟ الإنجليز والفرنسيون والألمان والطلبان جلّ اعتادهم على الحصار المائيّة، أمّا أنتم فاعتادكم على الإيمان الصادق، إنّ الإيمان يملّ الحديد، الإيمان أقوى قوّة في العالم، املاؤا قلوبكم الطامعة بالإيمان تخلف الدنيا لكم . . .

فقال آخر:

- نحن مؤمنون، ولكننا أمّة ضعيفة.

فكّور الشيخ قبضته وشدّ عليها وهو يعيب:

- إذا كنت تستشعر ضعفاً فليأتك يعنونه نقص وأنت لا تدري، الإيمان خالق القوّة وباعثها، إنّ القنابل تصنعها أيدي كأيدينا وهي ثمره القوّة قبل أن تكون من مسبباتها، كيف انتصر النبيّ على أهل الجزيرة؟ وكيف قهر العرب العالم كلّهُ؟

فقال عبد المنعم بحماسة:

- الإيمان . . . الإيمان . . .

غير أن صوّراً رابحاً تسامح:

- ولكن كيف كان للإنجليز هذه القوّة وهم قوم غير مؤمنين؟

فابتسم الشيخ متخلّلاً لحجته بأصابعه وهو يقول:

- لكلّ قوّة إيمانية، إنهم يؤمنون بالوطن وبالصلحة، أمّا الإيمان بالله فهو فوق كلّ شيء، وأحرى بالمؤمنين بالله أن يكونوا أقوى من المؤمنين بالحياة الدنيا، فتحت أيدينا نحن المسلمين ذخيرة مدفونة يجب أن نستخرجها. يجب أن يُبعث الإسلام كما بُعث أوّل مرّة، نحن مسلمون أسياً فيجب أن



- نحن في بيتنا، في غرفتنا، هُله البسطة هي غرفتنا!.

- العصر وأنا ذاهبة إلى خالتي نظرت إلى فوق لملي أراك في النافذة، فإذا بالذئب تطلّ على الحارة فالتقت عيني بعيني فارتعدت من الخوف.

- ماذا خفت؟

- خجلت إلى أبنا حرلت عَمَن أبحث وأنا كشفت

سرّي...

- تعنين سرّاً، إنّه شيء واحد يربطنا، ألسنا الآن

شيئاً واحداً؟

وضمّتها إلى صدره بعنف في رغبة جامحة، وفي الوقت نفسه كأنها كان يجذّ هارباً من أصوات المعارضة الحاخنة في أحباله باستسلام يائس، فللمحة نيران متأججة، واحتوته قوّة قادرة على إذابة النين في دوامة واحدة...

ونذّ عن الصمت تنهيدة ثمّ تردّد أنفاس، وشعر أخيراً بأنّه هو وأبنا هي وأنّ الظلام يسمّ شبحين. ثمّ جاءه همسا الرقيق يقول في استحياء:

- تقابل غداً؟

فرّد في امتعاض حاول ما استطاع التسرّع عليه:

- نعم... نعم، نعم، ستمليون في حينه...

- أخبرني الآن...

فقال والامتعاض يزداد ثقلاً على قلبه:

- لا أدري كيف يكون ولقي غداً!

- كه؟...

- انهي بالسلامة، سمعت صوتاً!

- كلا، لا صوت هناك...

- لا ينبغي أن يجيئنا أحد هكذا...

وريت كضياء كأنما برئت خرقه ملوثة، وتخلص من ذراعها في رقة مفتعلة ثمّ رقي في السلم على عجل. كان والداه جالسين في الصالة يستمعان إلى الراديو، وكانت حجرة المكتب مغلفة الباب مضادة للشرارة مما دلّ على أنّ أحمد يذكر، فحيّاهما تحيّة المساء وقصد حجرة النوم ليخلع ملابسه. واستحمّ، وتوضّأ، وعاد إلى حجرته فصلّ، ثمّ ترنّع على سجادة الصلاة وراح في تملّك عميق. كانت عيناه ترنوان بنظرة حزينة،

تزداد الجيران، ولكن بعد غرض مغامرة خطيرة فوق بسطة السلم المستكنّة في الظلام. ولتوّ وجد رأسه فارغاً، تبسّر ما كان يصطرح فيه من أفكار وتطايير، وتركز هو في رغبة واحدة هي أنّ يشبع التهم الذي بات يؤرّق أعصابه وأعضائه. أمّا ذلك الإيمان الصادق يبدو أنّه وليّ غاضباً، أو خاص في الأحكام يدملم حانقاً ولكنّ صوته ضامع في أزيز النار المستعرة. أليست هي فتاته؟. بلى، تشهد بذلك حنايا الحوش وبثر السلم وركن السطح المطلّ على السكينة. وكانت بلا ريب ترقب حودته لتلتقي به في اللحظة المناسبة. كلّ هذا العناء من أجله هو! ومضى متجنّلاً حذرًا حتى وقف إزاءها على البسطة، لا يكاد يفصل بينهما شيء، وقد سطع أنفه شذا شعرها، وهدغ عنقه تردّد أنفاسها. ورّيت منكبها برقة هامساً:

- نصعد إلى البسطة الثانية فنكون في موضع آمن

من هذا.

تقدّمته دون أن تنبس فتبعها عازراً. وبلغا البسطة الثانية فيها بين الدورين. فوقفت مستندة إلى الجدار ووقف بين يديها، ثمّ أحاطها بذراريه فقاومت بحكم العادة مقدار ثانية ثمّ سكنت في حضنه...

- حبيبي...

- انتظرتني في النافذة، نيتة مشغولة باستعدادات

شمّ النسيم.

- كلّ سنة وأنت طيبة، دعيني أشمّ النسيم بين

شفقتك...

ولتقت شفتاهما في قبلة طويّلة جائحة. ثمّ

تساءلت:

- أين كنت؟

ذكر في سرعة خاطفة درس السياسة في الإسلام،

ولكنّه أجاب:

- مع بعض الأصدقاء في القهوة...

قالت بلهجة تشي بالاحتجاج:

- القهوة ولم يبق على الامتحان إلّا شهر؟

- ولكنّي أحرف وإجبي، سأبذلّ قبلة ثانية جزاء

سوء ظنّك به...

- صوتك عال، أنسيت. أين نحن؟

ثم جلس بعد أن جلس الرجل وأذن له في الجلوس..  
شعر بالارتياح والزهو وهو يزور إلى الأستاذ الكبير الذي  
تلقى عنه النور والعرفان في الأعوام الثلاثة الماضية،  
سواء عن مؤلفاته أم بحلته، فراح يملأ عينيه من الوجه  
الشاحب الذي وسط الشيب شعره وعلاه الكبر فلم  
يبق له من أمارات الفتوة إلا حينان عميقتان تشعان  
بريقاً ناعماً. هذا أستاذه، أو أبوه الروحي كما يدهو،  
ولأنه الآن في حجرة الوحي التي لا جدران لها ولكن  
رفوف الكتب تمتد عالمياً حتى السقف.

وقال الأستاذ بلهجة المتأمل:

- أهلاً وسهلاً؟

فقال أحمد بلباقة:

- جئت لأسعد الاشتراك.

وكما اطمأن إلى الأمر الطيب الذي أحدثه قوله  
استدرك قائلاً:

- وأسأل عن مصير مقالة أرسلتها إلى المجلة من  
أسبوعين.

فابتسم الأستاذ عدلي كريم وهو يتسائل:

- اسم حضرتك؟

- أحمد إبراهيم شوكت.

فارتسمت على جبين الأستاذ تقطعية التذكر ثم قال:  
- إني أذكرك، أنت أول مشترك في مجلتي، نعم،  
وجئتني بثلاثة مشتركين، هه؟ إني أذكر اسم شوكت،  
وأظنني أرسلت لك خطاب شكر باسم المجلة؟

فقال أحمد بارتياح عمتاً هذا التذكر الجميل:  
- جاهدني كتاب حضرتك، اعتبرتي فيه «صديق  
المجلة الأول»!

- هذا حق، إن مجلة الإنسان الجديد مجلة مبدأ ولا  
بدء لها من أصدقاء مؤمنين لتشرق طريقها في زمة  
مجلات الصور والاختكار، فأنت صديق المجلة، أهلاً  
وسهلاً. ولكنك لم تشرفنا بالزيارة من قبل؟

- كلاً، إني لم آخذ البكالوريا إلّا في هذا الشهر.

فضحك الأستاذ عدلي كريم قائلاً:

- أنت فاهم أن المجلة لا يزورها إلّا الحاصل على  
البكالوريا؟

فابتسم أحمد في ارتباك وقال:

وكان صدره يضطرب شجناً، وهفت نفسه إلى البكاء،  
ودعا ربّه أن يطرد الشيطان عن سبيله وأن يشدّ أزوره  
في مقاومة الغواية. ذلك الشيطان الذي يعتزّضه في  
صورة فتاة ويندفع في دمه رغبة جاسعة. ودائماً أبداً  
يقول عقله لا فيقول قلبه نعم، ثم يتلقفه ذلك الصراع  
المخيف الذي ينتهي بالهزيمة والندم. كل يوم تجربة  
وكل تجربة جسيم فتى يتغشى هذا العذاب؟، إن  
نضاله الروحي كله مهتد بالحراب وكأنما يبني قصوراً  
في الهواء وإن يترّ قرار لغارق في الطين، فليت الندم  
يستطيع أن يرجع ساعة مضت.

### ١٣

أخيراً اهتدى أحمد إبراهيم شوكت إلى مبنى مجلة  
«الإنسان الجديد» بغمرة. كان المبنى يقع في مكان  
وسط بين عتق الترام، وكان مكوناً من دودين  
ويذروم، فأدرك لأول وهلة أن الدور الأعلى مسكن كما  
استدل من الخسيل المعلق في شرفته، أما الدور الأول  
فقد ثبت لافتة باسم المجلة على بابه، وأما الدور  
فقد خصص للمطبعة التي رأى ألامها خلل قضبان  
النوافذ. وصعد درجات أريشاً إلى الدور الأول، ثم  
سأل أول من التقى به - وكان حليماً يجعل بروفت -  
عن الأستاذ عدلي كريم صاحب المجلة، فأشار الرجل  
إلى باب مغلق في نهاية صالة خالية من الأثاث حيث  
ترامت لافتة رئيس التحرير، فمضى وهو يتلفت فيما  
حواليه على يجد حاجباً ولكنه ألقى نفسه متفرّداً بالباب  
فتردّد لحظة ثم طرق برقة حتى جاءه صوت من الداخل  
يقول «ادخل» ففتح الباب ودخل، فالتقت عيناه في  
نهاية الصالة بميتين واسمتين محفّتان به متساثلتين من  
تحت حاجبين كثيفين أشبيين، فردّ الباب وواجه وقال  
بصوت المتندر:

- لا مؤاخذه، دقيقة واحدة...

فقال الرجل بصوت رقيق:

- تفضل...

وتقدّم أحمد من مكتب عُذست فوقه الكتب  
والأوراق، ثم سلّم على الأستاذ الذي قام لاستقباله،

- كلاً طبعاً، أعني أنّي كنت صغيراً.

فقال الأستاذ جاداً:

- لا يلبق بقارئ الإنسان الجديد أن يحسب العمر بالسنين، في بلادنا شيخ جاوزوا الستين ولكنهم ما زالوا شباباً بمقولهم، وفيها شبّان في ربيع العمر ولكنهم معشرون - منذ ألف سنة أو أكثر - بمقولهم، وهذا هو داء الشرق... (ثمّ بلهجة أرقّ) وهل أرسلت إلينا مقالات من قبل؟

- ثلاث مقالات كان مصيرها الإهمال، ثمّ مقالة أخيرة كنت أطمح في نشرها.

- عن ماذا؟، لا تؤاخذني فإني أتلقّى عشرات المقالات يومياً؟

- عن رأي لوبون في التعليم وتعليقي عليه  
- هل أيّ حال ستبحث عنها في السكينة -  
الحجرة المجاورة لحجري - وتعلم مصيرها...

وهمّ أحمد بالقيام ولكنّ الأستاذ عدلي أشار إليه بالاستمرار في الجلوس وهو يقول:

- المجلّة اليوم في شبه إجازة، أرجو أن تمكث معي قليلاً لتحدّث.

فتمتم أحمد بارتياح عميق:

- بكلّ سرور يا فندم.

- قلت إنّك أغلقت البكالوريا هذا العام، كم سنّك؟

- سنّة عشر عاماً.

- سنّ ميّجرة، حسن، هل المجلّة منتشرة في المدارس الثانوية؟

- كلاً للأسف...

- أعلم هذا، أكثرية قرائنا في الجامعة، القراءة في مصر ملهية رخيصة، ولن تتطوّر حتى تؤمن بأنّ القراءة ضرورة حيوية.

ثمّ بعد قليل من الصمت:

- وما حال التلاميذ؟

نظر إليه أحمد متسائلاً كأنّما يستريده تفسيراً لقوله، فقال الرجل:

- إني أسأل عن الناحية السياسية باعتبارها أوضح من غيرها...

- الأغلبية الساحقة من التلاميذ وغديّون...

- ولكنّ ثمة كلام عن حركات جديدة؟

- مصر الفتاة...؟ لا وزن لها، فرقة تُعدّ حل الأصابع، الأحزاب الأخرى لا انتصار لها إلاّ اقارب زعمائها، وهناك قلّة لا يتمّ بشؤون الأحزاب كافة، وآخرون - وأنا منهم - تفضل الولد على غيره ولكننا نطمح فيها هو أكمل...

فقال الرجل بارتياح:

- هذا ما أسأل عنه، الولد حزب الشعب، وهو خطوة تطوّرية خطيرة وطبيعية في آن واحد، كان الحزب الوطني حزباً تركيّاً دينيّاً رجعيّاً، أمّا الولد فهو ميلود القوميّة المصريّة ومظهرها من الشواوب والحباث، إلى أنّه مدرسة الوطنيّة والديمقراطية، ولكنّ المسألة أنّ الوطن لا يقنع وما ينبغي له أن يقنع ببلده للمدرسة، نريد مرحلة جديدة من التطوّر، نريد مدرسة اجتهادية، لأنّ الاستقلال ليس بالغاية الأخيرة، ولكنّه الوسيلة لنيل حقوق الشعب الدستورية والاقتصادية والإنسانية.

فهفّ أحمد بهماس:

- ما أجل هذا الكلام!

- ولكنّ ينبغي أن يكون الولد نقطة البدء، أمّا مصر الفتاة فحركة فاشستية رجعية مجرمة، ليست دون الرجعية الدينيّة خطراً وهي ليست إلاّ عدليّ للمصريّة الألمانية والإيطالية التي تعبد القوّة وتقوم على الاستبداد وتزوي بالقيم الإنسانية والكرامة البشريّة، إنّ الرجعية داء مستوطن في الشرق كالكلوليرا والتيفود فينغي استئصاله...

فعاد أحمد يقول متحمّساً:

- إنّ جماعة والإنسان الجليده تؤمن بهذا كلّ الإيمان...

فهزّ الرجل رأسه الكبير في أسف وهو يقول:

- ولذلك فالملجّة هدف للمرجعيّين من كافة النحل،

إنهم يرمونني بإفساد الشباب!

- كما اتهموا سقراط من قبل...

فابتسم الأستاذ عدلي كريم في ارتياح وقال:

- وما وجهتك؟ أعني أيّ كنيّة تقصد؟

- الآداب...

فاحتل الأستاذ في جلسته، وقال:

- الأدب وسيلة من وسائل التحرير الكبرى، ولكنّه

قد يكون وسيلة للرجعية، فاحرص سبيك، فمن

الأزهر ودار العلوم خرجت آداب سرّية عملت

أجبالاً على تجميد العقل وقتل الروح، ومهما يكن من

أمر - ولا تدهش أن يصارك بهذا الرأي رجل معلود

في الآداب - فالعلم أساس الحياة الحديثة، ينبغي أن

ندرس العلوم وأن نشيع بالمعلية العملية، الجاهل

بالعلم ليس من سكان القرن العشرين ولو كان

عقرياً، وعمل الآداب أن ينالوا حَقّهم منه. لم يعد

العلم وفقاً على العلماء، أجل هؤلاء التصلع والتعمق

والبحث والكشف، ولكن على كلّ مثقف أن يضيء

نفسه بنوره وأن يعتنق مبادئه ومناهجه ويتحلّى

بأسلوبه، ينبغي أن يحلّ العلم محلّ الكهانة والدين في

العالم القديم...

فقال أحد مؤنّثي على قول أستاذة:

- ولذلك كانت رسالة «الإنسان الجديده» هي تطوير

المجتمع على أساس علمي...

فقال عدلي كريم باهتمام:

- أجل على كلّ منا أن يقوم بواجبه، ولو وُجد

وحيثاً في الميدان...

فهو أحمد رأسه موافقاً فعاد الآخر يقول:

- ادرس الآداب كما تشاء، واهنّ بعقلك أكثر ما

تعمى بالمحفوظات، ولا تنسّ العلم الحديث، ولا يجب

أن تخلو مكتبتك - إلى جانب شكسبير وشونهور - من

كونت ودارون وفرويد وماركس وإنجلز، لتكون لك

حاسة أهل الدين ولكن ينبغي أن تذكر أنّ لكلّ عصر

أنبياءه، وأنّ أنبياء هذا العصر هم العلماء.

وابتسم الأستاذ ابتسامة أوحث بأنّها تحية الختام

لنفض أحد ماؤد يده، وسلّم ثمّ غادر الحجرة متمثلاً

حياة وسعادة. وفي الصالة الخارجية ذكر الاشتراك

والمقالة فبال إلى الحجرة المجاورة، وطرق الباب

مستأذناً ثمّ دخل. رأى حجرة بها ثلاثة مكاتب، اثنان

غاليان، والثالث جلست عليه فتاة. لم يكن يترقّع هذا

لوقوف ينظر إليها في حيرة وتساؤل. كانت في

العشرين، عميقة السمرة، سوداء العينين والشعر،

وكان في أنفها اللطيف وذقنها المدبّب وفمها الرقيق ما

يوشي بالقوّة، دون أن يفسد ملاحظتها. ساءلت وهي

تتخصّص:

- أفندم؟

فقال يعزّز مركزه:

- الاشتراك...

ودفع المبلغ وأخذ الإيصال، وفي أثناء ذلك كان قد

تغلّب على ارتباكها فقال:

- كنت قد أرسلت مقالة إلى المجلة، وأخبرني

الأستاذ عدلي كريم بأنّها في السكرتارية.

وهنا دعت للجلوس على كرسيّ أمام المكتب فجلس

ثمّ سألت:

- عنوان المقالة من فضلك؟

قال دون أن يشعر بارتباك لموقفه هذا أمام فتاة:

- التعليم عند لويون.

فتفتحت دوسيهها، وقُرّت أوراقاً حتّى استخرجت

المقال، ولوح أحد خطّه فخفف قلبه، وحاول أن يقرأ

التوقيع الأحمر عليه من مجلسه غير أنّها وقُرّت عليه عناء

المحاولة إذ قالت:

- موقع عليه بما يأتي «يلخصّ ويُشرّ في باب رسائل

القراء».

فشعر أحمد بخيبة أمل، ولبت لحظات ينظر إليها

دون أن ينبس، ثمّ تساءل:

- في أيّ عدد؟

- في العدد القادم.

فسأل بعد تردّد:

- ومن الذي يلخصّه؟

- أنا.

وداخله شعور بالامتعاض، ولكنّه سأل:

- ويوقع عليه باسمي؟

فقال ضاحكة:

- طبعاً، يُنشر عادة ما يفيد بأنّه جاءتنا رسالة من

الأديب (ثمّ وهي تنظر إلى الإمضاء) أحمد إبراهيم

شركت ثمّ نورد تلخيصاً وافياً لفكرتك!

فتردّد قليلاً ثمّ قال:

أتمه وهي تهمس قائلة:

- سوف يطلب يد نعيمة. . .

وكما شعرت بوجوده التفتت إليه قائلة:

- صديقك بالداخل، ما أظن، أراد أن يقبل يدي  
فمنعته!

ورأى والده مترنماً على الكنية وفؤاد جالساً على  
مقعد قبالة، فتصالح الصديقان القديمان وكما يقول:  
- هذا هو السلام، أهلاً وسهلاً، . . . أنت في

إجازة؟

فاجاب عنه السيد أحمد بامتياز:

- بل نفل إلى نياحة القاهرة، نفل أخيراً بعد غربة  
طويلة في الصعيد. . .

فجلس كمال على الكنية وهو يقول:

- مبارك، من الآن فصاعداً نرجو أن نراك من آن  
لآخر.

فقال فؤاد:

- طبعاً، وسقيم من أول الشهر القادم بالعباسية،  
استأجرنا شقة بجوار قسم الوايلي. . .

لم تتغير هيئة فؤاد كثيراً، ولكن صحته تحسنت  
بل درجة محسوسة فامتلا عوده ونور وجهه، أما حينه  
فلا زالتا تشقان ذلك الوميض الذكي. وسأل السيد  
أحمد الشاب قائلاً:

- وكيف حال والدك؟ . . . لم أره منذ أسبوع.

- ليست صحته حل ما يرام، إنه لا يزال أسفاً حل  
ترك المحلل، لكن المأمول أن يكون خليفته قائماً  
بالواجب.

- الأمر يقتضي اليوم بقظة متواصلة، كان والدك  
يقوم بكل شيء شاء الله وعالله. . .

واحتل فؤاد في جلسته ووضع رجلاً على رجل  
فلفتت هذه الحركة انتباه كمال ليا يشبه الانزعاج، أما  
السيد فلم يبد عليه حتى أنه لاحظها. أفكدا تتطور  
الأمور؟ أجل إنه وكيل نياحة قد الدنيا، ولكن أنسي من  
يكون الشخص المترجع أصابعه؟، ربه ليس هذا  
فمحسب، لقد أخرج عليه سجالاً وقدمها للسيد فاعتل  
شاكراً! حقاً إن النياحة تسي، ولكن من المؤسف أن  
تمتد نسيانها إلى ولي النعمة الذي يبدو أن فضله تبدد

- كنت أفضل لو نشرت بأكملها. . .

فقالت باسمه:

- المرة القادمة إن شاء الله. . .

فجعل ينظر إليها صامتاً ثم سألها:

- حضرتك موظفة هنا؟

- كما تراه!

نازعتة نفسه أن يسألها عن مؤملاتها ولكن شجاعتها  
خلت في اللحظة الأخيرة فسألها:

- اسم حضرتك من فضلك لأطلبك في التليفون

إذا لزم الأمر!

- سوسن حاد.

- متشكر جداً.

ونفض عيناها بيه، وقبل أن يغادر الحجرة  
التفت نحوها قائلاً:

- أرجو أن تلخصيها بمنية.

فقالت دون أن تنظر إليه:

- إني أعرف واجبي!

فغادر الغرفة نادماً على قوله. . .

## ١٤

كان كمال في حجرة مكتبه عندما جاءت أم حنفي  
لتقول له:

- سي فؤاد الحمزاوي عند سيدي الكبير. . .

ونفض كمال بجلبابه الفضفاض وغادر الحجرة  
مسرّعاً إلى تحت. إذن عاد فؤاد إلى القاهرة بعد ضيعة  
عام، عاد وكيل نياحة قنا المتعبد. وكانت نجش  
بصدوره مشاعر صداقة ومودة بيد أن شوايب عدم  
الارتياح شابتها، فصدافته لفؤاد كانت ولا تزال  
تنطوي على نوع من الصراع، صراع من الحب  
والنفور، بين المودة والغيرة، ومهما يحاول أن يتسامى  
بعقله فالغرائز تشده على رغمه إلى الإسفاف الدنيوي.  
فلم يكن يشك وهو يبط السلم في أن هذه الزيارة  
ستثير عنده ذكريات سعيدة ولكنها في الوقت نفسه  
ستنكحاً جروحاً كانت أن تتنمل. وعندما مر في الصلاة  
بمجلس القهوة المكون من الأم وعائشة ونعيمة سمع

السياسية، ولعلّه لم يتغيّر، ولكنّه يبدو مائلًا إلى الوفد، أمّا أنا فظننا كنت متدنّفًا مع العاطفة، ثمّ انقلبت لا أومن بشيء، والسياسة نفسها لم تسلم من شغبي النهم، ولكن قلبي لا يزال ينبض بالوطنية رغم عقلي. وعاد فؤاد يقول صاحكًا:

- إنّ النيابة في عهود الانقلاب تنكمش إلى الوراء حل حين يحتل البوليس المقمّة، إذ إنّ عهود الانقلاب عهود بوليسية، فإذا عاد الوفد إلى الحكم زوّدت للنيابة مكانتها ولزم البوليس حدوده، ففي عهد الحكم الطبيعي يكون القانون هو الكلمة العليا. فعلق السيّد على ذلك قائلًا:

- وهل يمكن أن ننسى عهد صدقي ١٩، لقد كان الجنود يجمعون الأهالي بالمعصيّ أيام الانتخابات، وكثير من الأعيان من أصدقائنا خربت بيوتهم وأشهرؤا وإفلاسهم ثمنًا لثابهم على مبدأ الوفد، ثمّ إذا بنا نرى «الشیطان» ضمن هيئة المفاوضات في لباس الوطنيين الأحرار!

فقال فؤاد:

- كانت الظروف توجب الاتحاد، ولم يكن هذا الاتحاد ليكمل دون أن ينضمّ إليه الشيطان وأعرؤه، والعبرة بالخواتيم.

وليث فؤاد في حضرة السيّد فترة غير يسيرة، احتسى في أثناها القهوة، وجعل كمال يتخصّصه بعباية فانتبه إلى بذلته الحريرية البيضاء الأنيقة، والوردة الحمراء التي تزین عروبتها، وإلى الشخصية القويّة التي أضفتها عليه الوظيفة، فشمّر في أحافه بأنّه سيبر- رغم كلّ شيء- إذا طلب هذا الشاب يد بنت أخته، غير أنّ فؤاد لم يطرق هذا الموضوع، وبدأ عليه أنّه يرغب في اللهاب وما لبت أن قال للسيّد:

- أن وقت ذهابك إلى الدكان، سأمكت بقيّة الوقت مع كمال، وسوف أزور حضرتك قبل سفري إلى الاسكندرية، حيث إني قرّرت أن أقضي بقيّة أغسطس وبعض سبتمبر في الصيف.

وبهض قائمًا فصالح السيّد مودّعًا ثمّ غادر الحجرة يتقمّنه كمال، وصعدا ممّا إلى الدور الأعلى حيث استقرّا في حجرة المكتب، وجعل فؤاد يتصفّح الكتب

في الهواء كدخان هذه السجارة الفاخرة. ولم يكن في حركات فؤاد تكلف من أيّ نوع كان، كان سيّدًا قد تعود السيادة، وقال السيّد خاطبًا كمال:

- وهنّك أيضًا فقد رُفّي من مساعد إلى وكيل نيابة. فقال كمال হাসيًا:

- مبارك. مبارك، أرجو أن أهنّك قريبًا بكسرسيّ القضاء.

فقال فؤاد:

- الخطوة التالية إن شاء الله.

رّمًا استباح لنفسه - عندما يصير قاضيًا - أن يبول أمام الرجل المترع امامه! أمّا مدرّس ابتدائي فيظنّ مدرّسًا ابتدائيًا، وحسبه شاربه الغليظ وأطنان الثقافة التي عرجت رأسه.

ونظر السيّد أحمد إلى فؤاد باهتمام وهو يسأل:

- وكيف حال السياسة؟

فقال فؤاد بارتياح:

- وقّعت المعاهدة! وقّعت المعاهدة في لندن، أصبحت إلى الراديو وهو يعلن استقلال مصر وانقضاء عهد التحفّظات الأربعة فلم أصنّق أنفني، من كان يصنّق هذا؟

- إذن أنت من الراضين على المعاهدة؟

فقال وهو يبرّز رأسه هزّة أصحاب الشأن:

- في الجملة نعم، للمعاهدة أعداء خالصون وآخرون غير خالصين، فإذا تأملنا الظروف التي تحيط بنا، وذكرنا أنّ شعبنا صبر على عهد صدقي رغم مرارته دون أن يثور عليه، فينبغي أن نعدّ للمعاهدة خطوة موقّفة، أزالنا التحفّظات ومهدت الطريق لإلغاء الامتيازات الأجنبية، وحدّدت مدّة الاحتلال بعد قسّره على منطقة معيّنة، إثنا خطوة عظيمة بلا شكّ.

كان حماس السيّد أحمد للمعاهدة أقوى وإحاطته بظروفها أقلّ، وكان يؤدّ أن يتجاوب الآخر معه مجاويًا أشدّ، فليّا خاب ظنّه قال بعناد:

- على أيّ حال ينبغي أن نذكر أنّ الوفد قد أعاد إلى الأمانة دستورها وحقّق لها الاستقلال ولو بعد حين... ونغمر كمال: كان فؤاد دائمًا «باردًا» في الناحية

- ولوا... .

فستأمل كمال بعينه من معنى هذا فعاد الأخير يقول:

- كلانا يجري نحو الثلاثين دون أن يتزوج، جيلنا مكتظ بالمرزب، جيل الأزمة، ألا زلت عند رأيك؟

- لا أنزعج... .

- لا أدري لم أعتقد بأنك لن تتزوج أبدًا.

- أنت بعيد النظر طول عمرك.

فقال وهو يتنسم ابتسامة رقيقة كأنها ليعتدل بها سلفًا حين يقول:

- أنت رجل أناني، تأي إلا أن تستأثر بكل حياتك لنفسك، يا أخي لقد تزوج النبي ولم يمنعه ذلك من ممارسة حياته الروحية العظيمة... .

ثم مستدركًا وهو يضحك:

- لا تؤاخذني حل ضرب المثل بالنبي، كنت أنسى أنك... . ولكن مهلاً، إنك لم تعد للمحدث القديم، أنت الآن تشك حق في الإلحاد، وفله خطوة كسب للإيمان... .

فقال كمال يدهو:

- دعنا من التأمل فإنك لا تحبه وخبرتي لم تم تزوج أنت ما دام هذا هو رأيك في الزموية؟

وشعر لثو بأنه ما كان ينبغي له أن يطرح هذا السؤال عشية أن يفسره الأخير بأنه استدرج إلى الكلام في خطبة نعيمة! ولكن فؤاد لم يبذ عليه أنه فكر في هذا، بل ضحك ضحكة عالية وإن لم تخرج به عن حد الوفاق، وقال:

- أنت تعلم أنني لم أفسد إلا متاعراً، لم أفسد مثلك في زمن مبكر، فانا لم أضيع بهذا!

- أتزوج إذا شئت؟

فضرب فؤاد الهواء بظاهر يده كأنما يطرد الكذب وقال بلهجة المتعرف:

- ما دمت قد صيرت حق اليوم فلأصبر فترة أخرى، أصبر حتى أرتى قاضيًا مثلاً فيسعي أن أصاهر وزيرًا إذا شئت... .

يا ابن جيل الحمزوي! حروس من صلب وزير وحماتها من الميضة! أتحلى ليتين أن يبر هذا ولو كما

المصروفة على الأرفق باسمًا ثم تسامح:

- ألا أستطيع أن أستعير منك كتابًا؟

فقال كمال وهو يداري عدم ارتياحه:

- بكل سرور، ماذا تقرأ عادة في أوقات فراغك؟

- عندي دواوين شوقي وحافظ ومطران، وبعض كتب الجاحظ والمعري، وأحب بصفة خاصة وأدب الدنيا والدين، إلى مؤلفات كتأبنا المعاصرين، هذا إلى بعض مؤلفات ديكنز وكونان دويل، ولكن انكباي على القانون يلتهم أكثر وفي... .

ثم نهض فجاء جولة استعراضية بين الكتب قارنًا عناوينها ثم عاد وهو يتفح قائلًا:

- مكتبة فلسفية قحة، لا ناقة لي فيها ولا جمل، إنني أقرأ جملة الفكر التي تكتب فيها، وأتابع مقالاتك التي تظهر تباهًا منذ سنوات، لا أزعم أنني قرأتها جميعًا، أو أنني أذكر منها شيئًا، إن المقالة الفلسفية أثقل ما يقرأ، ووكيل النياحة رجل مرهق بالعمل، لماذا لا تكتب في الموضوعات الجذابة؟

طالما سمع بأفذه نعي مجهوده، ولكنه لم يجزئ لذلك كثيرًا كأنما اعتاده، إن الشك يلتهم فيها يلتهم الحزن نفسه، والشهرة ما هي؟ والجاذبية ما هي؟ ولكن مما يسره حقًا ألا يجد فيه فؤاد تزجية لأوقات فراغه. وسأله:

- ماذا تعني بالموضوعات الجذابة؟

- الأدب مثلاً.

- قرأت لطائف منه منذ كنا صبا ولكنني لست أدبياً... .

فضحك فؤاد قائلًا:

- إذن ابق في الفلسفة وحلك، ألست فيلسوفًا؟

ألست فيلسوفًا؟ عبارة مطبوعة في أعماقه، ارتجف من هول وقعها قلبه، هكذا هي منذ ألفت عليه في شارع السرايات من ثغر عائدة. ولكي يداري جيشة صدره ضحك ضحكة عالية، ثم ذكر الأيام التي كان فؤاد يتودده ويتهمة كظله، ها هو الآن يطلقه رجلاً خطيرًا جديرًا بالتودد والولاء. ماذا جئت من حيائي؟ وكان فؤاد يتفحص شارب صاحبه ثم ضحك فجأة قائلًا:

يُذكر وجود الشرِّ في الخليقة!.

- أنت تنظر إلى الزواج نظرة...

فقاطعه قبل أن يكمل كلامه ضاحكاً:

- غير من الذي لا يغيره نظرة على الإطلاق!...

- ولكنَّ السعادة...

- لا تتلفس! السعادة فنٌّ ذاتي، قد تجدها عند

كرجة وزير بيتنا لا تجد إلا التعاسة في وسطك، الزواج

معاهدة كاثي وقَّعها النخاس بالأمس، مساومة وتقدير

ودهاء ويُعدَّ نظر وفوائد وخسائر، وفي بلدنا لا تأتي

الرغبة إلا عن هذا السبيل، في الأسبوع الماضي عُيِّن

مستشاراً رجل لم يبلغ الأربعين من عمره، وقد أخذ

القضاء عمري مجتهداً ناصباً دون أن أظفر بهذا المركز

السامي!

ومعلم ابتدائي ما قوله؟ في الدرجة السادسة

ينفهي عمره، ولو طُفح بالفلسفة رأسه...

- إنَّ مركزك يفتيك عن أمثال هذه المغامرات...

- لولا هذه المغامرات ما استطاع رئيس أن يؤلف

وزارته!

فضحك كمال ضحكة لا طعم لها وقال:

- أنت في حاجة إلى شيء من الفلسفة، تحتاج إلى

جرعة من سينوزا...

- اشبع منه أنت، لكن دعنا من هذا، وخبرني عن

أماكن اللهو والشراب، في قنا كنت أجلس اللذة في

حذر، إنَّ مركزنا يحتم علينا الانزواء وبصانة البشر،

والصرع الأبدي بيتنا وبين البوليس يوجب الحذر

أكثر، وكيل النيابة مركز خطير متيب...

عودة إلى الحديث الذي هدَّ مرارتي بالانفجار،

حياتي في ضوئك تأديب وبهذيب وأشدَّ امتحاناً لفلسفي

الحائرة في هذه الحياة...

- تصوّر أنَّ الظروف تجمعني بكثير من الأعيان، ثمَّ

يدعونني إلى سراياتهم، فأجد أنَّ الواجب يقضي بأنَّ

أرفض دعويتهم كيلا يؤثّر مؤثّر في قياي بواجبي، ولكنَّ

عقليتهم لا تفهم هذا، فاعيان الإقليم جميعاً يرموني

بالكبر وأنا منه براء.

«بل أنت غرور وكبر وغيرة على الواجب معاً».

وقال موافقاً:

- نعم...

- ولتفس الأسباب خسرت رجال البوليس، أنا لا

أرضى عن طرفهم المتتوية، لذلك أقف لهم بالمرصاد،

ورائي القانون، ووراءهم هجبة القرون الوسطى، إنَّ

الجميع يكرهوني ولكنَّ الحقَّ معي...

الحقَّ معك، هذا ما أعرفه فيك من قديم، لذلك

والنزاعة، ولكنك لا تحبُّ ولا يمكن أن تحبَّ، أنت لا

تتمسك بالحقَّ لوجه الحقَّ وحده ولكن لوجه الحقَّ

والغرور والكبرياء والشعور بالنقص، هكذا الإنسان،

إنَّي أصطدم بأمثالك حقَّ في الوظائف الخفية،

الإنسان الملب القويَّ أسطورة، ولكن ما قيمة

الحب؟ وما المثالية؟ وما أي شيء؟!

وهكذا طال بهما الحديث، وعندما همَّ فؤاد

بالذهاب مال على أذن كمال متسائلاً:

- أنا جديد في القاهرة، طبَّما أنت تعرف بيتنا بل

بيوتنا، مستورة طبَّما؟.

فقال كمال بأسياً:

- إنَّ المدرِّس كوكيل النيابة يتحرَّى السرَّ دائماً...

- حال. سنلتقي قريباً، إنَّني مشغول الآن بترتيب

الشقة الجديدة ولا بدَّ أن نسهر كم مرَّة معاً.

- اتفقنا...

وغادرا الحجرة ممَّا فلم يتركه حقَّ أوصله إلى باب

السكَّة، وعندما مرَّ بالدور الأوَّل في أثناء عودته التقى

بأمته واقفة تنتظره عند المدخل، فسأته بلهفة:

- ألم يكلمك؟.

فأدرك ما تسأل عنه، وشعر لذلك بالأم لم يشعر

بمثل، ولكنَّه تجاهل الأمر وتساءل بدوره:

- عن ماذا؟

- نعمة!...

فاجاب متحمساً:

- كلا...

- صعبة!...

وتبادلا نظرة طويلة، ثمَّ حادث أمينة تقول:

- ولكنَّ الحمزوي كلَّم أبك!.

فقال كمال وهو يداري ما استطاع من ثورة حقنه:

- لعلَّه لم يكن فيها قال نابئاً عن ابنه...



إليه بمقالاته الفلسفية، ثم مضت ستة أعوام وما حل تعاون صادق غير ماجور، والواقع أن جميع كتّاب المجلة كانوا من المتعاونين في سبيل الفلسفة والثقافة لوجه الله وحده... .

وكان عبد العزيز يرشح بكافة الكتّاب المتطوعين حتى المختصين - مثله - في الفلسفة الإسلامية، ومع أنه كان أزهرية النشأة إلا أنه سافر إلى فرنسا حيث قضى هنالك أربعة أعوام محصلاً ومستمعاً دون أن يحصل على درجة علمية، وكان في غنى عن السعي للرزق بعقار يملكه ينز عليه شهرتها حسين جنبها ولكنه أنشأ مجلة «الفكر» في عام ١٩٢٣، ونابر على إصدارها بالرغم من أنها لم تكن تزيد دخله شيئاً يضاهي بعض ما يبله فيها من جهد. وما كاد يستقر المجلس بكامل حتى دخل الحجرة رجل في مثل سنه، يرتدي بللّة من التيل الرمادي، طويل القامة، وإن كان دون كمال طولاً، نحيفاً، ولكنه أكثر امتلاء منه، مستطيل الوجه، متوسط الجبين، عمتل الشفتين، ذو أنف دقيق وذقن مثبّط أنفخى على سمته طابهاً خاصاً. تقدّم خفيهاً باسم الثغر فمدّ يده إلى الأستاذ عبد العزيز فصاحبه هذا ثم قدّمه إلى كمال قائلاً:

- الأستاذ رياض قللس مترجم بوزارة المعارف، انضمّ حديثاً إلى جماعة كتّاب «الفكر»، وقد امدّ جلّتنا العلمية بلم جليل بتلخيصه الشهري للمصريات العالمية وكتابة القصة القصيرة.

ثم قدّم كمال قائلاً:

- الأستاذ كمال أحمد عبد الجواد، لعلكم من قرّاه مقالاته!

فتصالح الرجلان ورياض يقول بإيجاب:

- إنّي أقرأ مقالاته منذ سنوات، مقالات قيمة بكل معنى الكلمة... .

فشكر كمال متطعاً ثمّاه بجلده، ثمّ جلسا على كرسيّين متقابلين أمام مكتب الأستاذ عبد العزيز الذي مضى يقول:

- لا تنتظرا أستاذ رياض أن يرّد عليك بالمثل قائلاً إنّه قرأ قصصك القيمة، إنّه لا يقرأ قصصاً البتّة... .

فضحك رياض ضحكة جذابة كشفت عن أسنان

فقال أمينة غاضبة:

- هذا عبث لا يليق... ألا يدري من يكون هو ومن تكون هي؟ كان ينبغي أن يفهمه جتك حقيقة مركزه.

- إنّ فؤاد بريء، لعلّ والده أسرع دون تدبير بحسن نية... .

- ولكن حدث ابنه دون شكّ فهل رفض الآخر؟ ذلك الذي جعلناه موكلاً محترماً بنقودنا... .

- لا داعي للكلام في هذا الموضوع... .

- إنّ هذا يا بنيّ أمر لا يتصوره العقل، ألا يدري أنّ مصاهرته لا تشرّفنا!...

- إذن لا تأسفي عليها... .

- لست آسفة ولكنّي غاضبة للإهانة... .

- لا إهانة هنالك، ليس إلا سوء تفاهم... .

وعاد إلى حجرته حزناً خجلاً، وجعل يحدّث نفسه: نعمة وردة جميلة، بيد أنّي رجل لم يبق لي من الفضائل إلا حبّ الحقيقة فينبغي أن أسأل نفسي أمي حقاً كيف لو كبل نياحة؟ يستطيع رغم وضاعة أصله أن يشرك في حياته من هي أجل ثقافة وأحرّ عتداً وأكثر مالاً وجالاً أيضاً، لقد تسرّع أبوه الطيّب وليس هذا خطاه، ولكنه كان ولعاً في حديثه معي، وهو وقع بلا شكّ، إنّه رجل ذكيّ نزيه كيف وقع مغرور، وما هذا بلذبه ولكنّ اللذّب ذنب هذه الفوارق التي تخلق فينا شقّ الأمراض.

كانت مجلة «الفكر» تشغل الدور الأرضي بالمعارة رقم ٢١ بشارع عبد العزيز، وكان حجرة صاحبها الأستاذ عبد العزيز الأسبوعي تطلّ نيافة ذات قضبان على حطّفة يركبات الظلمة فكانت تضاه ليل نهار، والحقّ أنّه كلّما أقبل كمال على إدارة المجلة ذكره موضعها الأرضي ورثاة أثاثها بمكانة «الفكر» في بلده، وبمكانته هو في مجتمعه. واستقبله الأستاذ عبد العزيز بابتسامة ترحيب وودّ، ولا عجب فقد اتّصلت بينهما أسباب المعرفة منذ عام ١٩٣٠ أي منذ بدأ كمال يبحث

نضيدة لامة فلجاء الشيتين ثم قال:

.. ألا تحب الأدب إذن؟ ما من فيلسوف إلا وله فلسفة خاصة عن الجمال، وهي لا تتأثر له إلا بعد اطلاع واسع على شتى الفنون ومنها الأدب طبعاً...

فقال كمال في شيء من الارتباك:

.. لست أكره الأدب، طالما ارتحت في جئات شعره ونش، ولكن أوقات الراحة قليلة!

.. معنى ذلك أنك قرأت ما استطعت من القصص إذن! الأدب الحديث يكاد يقتصر على القصة والتشيلة...

فعاد كمال يقول:

.. قرأت عددًا وفيرًا منها على مدى العمر، بيد أنني...

وهنا قاطعه عبد العزيز الأسويطي قائلاً وهو يتسم ابتسامة ذات معنى:

.. عليك يا أستاذ رياض من الآن فصاعدًا أن تقتنه بأفكارك الجديدة، وحسبك أن تعلم الآن أنه فيلسوف، وأن ولعه مركّز في الفكر.

ثم التفت إلى كمال متسألًا:

.. جئت بمقال الشهر؟

فأخرج كمال ظرفًا متوسطًا ووضعه في سكون أمام الأستاذ الذي تناوله بدوره فاستخرج منه أوراق المقالة ثم تصفح العنوان وهو يقول:

.. عن برجسون؟ ... حسن!

فقال كمال:

.. فكرة تقديم عامة تبيّن الدور الذي لعبته فلسفته في تاريخ الفكر الحديث، وربما ألحقها بمقالات أخرى تفصيلية...

وكان رياض قلّص يتابع الحديث باهتمام فتبيّنا وهو يحدّج كمال بنظرة لطيفة:

.. تبثت مقالاتك منذ سنوات، منذ بدأت تكتب عن فلاسفة الإغريق، وهي مقالات متنوعة وأحيانًا تكون متناقضة بالقياس إلى ما تعرض من فلسفات، فأدركت أنك مؤرّخ، بيد أنني حاولت عينا أن أهتدي إلى موقفك أنت ممّا تكتب، وأي فلسفة تنتمي إليها...؟

فقال عبد العزيز الأسويطي:

.. نحن حديثو عهد بالدراسات الفلسفية فيجب أن نبدأ بالعرض العام، ولعلّ الأستاذ كمال يتمخّص فيها بعد عن فلسفة جديدة، ولعلّك تكون يا أستاذ رياض من دعاة الكلاسيكيزم!

فضحكوا جميعًا، وخلع كمال نظارته وراح يحلو ناظرهما، وكان سرعان ما يتلمّج في الحديث خاصة إذا أنس إلى محدّته، وبدأ الجوّ صافيًا عذبًا، وقال كمال:

.. لقي سائح في متحف لا أملك فيه شيئًا، مؤرّخ فحسب، لا أدري أين أقف...

فقال رياض قلّص في اهتمام يتزايد:

.. أي في مقترب الطريق، وقتت في ميدانك عهدًا قبل أن أعرف وجهي، ولكنّي أرجّح أنه موقف ذو قصة، لأنه حادثة يكون نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة، ألم تعرف ألوانًا من الإيمان قبل موقفك هذا؟ نعمة هذا الحديث تعيد إليّ ذكرى أختية قديمة عالقة جلورها بالقلب، هذا الشاب وهذا الحديث، خلت سنين ناضبة من الصداقة الروحية حتّى اعتاد أن يحدث نفسه كلّما افتقد من محدّته، ومنذ عهد بعيد لم يستطع أن يبحث هذا النشاط الروحي في صدره، لا إسماعيل لسطيّف ولا فؤاد الحمزاوي ولا عشرات المدرّسين، هل آن للمكان الذي خلا بلهَاب حسين شدّاد أن يُشغل؟! وأعاد وضع النقارة على عينيه وابتسم قائلاً:

.. لذلك قصة طبعًا، وكالعادة كان لي إيماني الديني، ثم إيماني بالحقيقة...

.. أذكر أنك عرضت الفلسفة المادّية بحماس يدهو للزبية...

.. كان حاسمًا صادقًا ثم لم ألبث أن حرّكت رأسي مرتابًا...

.. لعلّها الفلسفة العقلية؟

.. ثم لم ألبث أن حرّكت رأسي مرتابًا، الفلسفات قصور جميلة ولكنها لا تصلح للسكنى...

فقال عبد العزيز بأسًا:

.. وشهد شاهد من أهلها!

- ألا يحتاج الحب إلى شيء من الإيمان؟  
فقال رياض قللس ضاحكاً:  
- كلاً، إنَّ الحب كالزلازل الذي يَرَجُّ الجِصَّاح  
والكتيبة والماعور على السواء...  
زلازل؟ ما أصدق من تشبيهه، زلازل يسدِّم كلَّ  
شيء يفرقه في صمت الموت.  
- وأنت يا أستاذ قللس، لقد أظريت الشكَّ، فهل  
أنت من أهله؟  
فقال عبد العزيز ضاحكاً:  
- إنَّه ذلك نفسه!  
وضجَّوا بالضحك، ثم قال رياض وكأنما كان يقدِّم  
نفسه:  
- لبثت فيه فترة ثم مرقت منه، لم أجد أشكَّ في  
الدين لأنِّي كُفرت به، ولكنِّي أؤمن بالعلم والقرن، إلى  
الأبد إن شاء الله!  
عبد العزيز متساقلاً في عهجم:  
- إن شاء الله الذي لا تؤمن به؟  
فقال رياض قللس بأساً:  
- الدين ملك الناس، أمَّا الله فلا يُلَمُّ لنا به، منذ  
الذي يستطيع أن يقول لا أؤمن بالله، أو يقول أؤمن  
بالله؟. الأنبياء هم المؤمنون الحقيقيون، وفلك أتهم  
راؤه أو سمعوه أو خاطبوا رسل رحيه!  
فقال كمال:  
- ولكنك تؤمن بالعلم والقرن؟  
- نعم...  
- الإيمان بالعلم له وجاهته، ولكن القرن...؟ أنا  
أفضل أن أؤمن بالأرواح على أن أؤمن بالقصة مثلاً!  
فحدجده رياض بنظرة عاتية، وقال بهدوء:  
- العلم لغة العقول، والقرن لغة الشخصية  
الإنسانية جيماً!  
- ما أشبه هذا الكلام بالشعرا  
فتعجَّل رياض عهجم كمال بابتسامة متساعفة، وقال:  
- العلم يجمع البشر في نور أفكاره، والقرن يجمعهم  
في عاطفة سامة إنسانية، وكلماها يطور البشرية  
ويدفعها إلى مستقبل أفضل...  
يا للفرود! يكتب قصَّة من صفحتين كلَّ شهر،

فهو كمال كفيه استهانة، أمَّا رياض فواصل تحقيقه  
قللاً:  
- هنالك العلم فلملَّه نجا من شكك؟  
- إنَّه دنيا متقلبة حيالنا لا نعرف إلَّا بعض نتائجها  
الغريبة، ثمَّ اكلمت على آراء نخبة من العلماء يرتابون  
في مطابقة الحقيقة العلمية للحقيقة الواقعية، وآخرين  
يتوهون بقانون الاحتمال، وغيرهم ممن تراجعوا عن  
أدهاء الحقيقة المطلقة، فلم ألبث أن حرَّكت رأسي  
مرتباً!  
فابتسم رياض قللس دون أن ينبس فصلا الأعر  
يقول:  
- حتَّى مفامرات الروحية الحديثة وتحضير الأرواح  
فرقت ليها حتَّى أخفى، ودار رأسي، وما زال يدور في  
فضاء خيف، ما الحقيقة؟ ما القيم؟ ما أي شيء؟  
إني أحياناً أشعر بتأنيب ضمير لفعل الخير كالذي أشعر  
به عند الوقوع في الشر!...  
فضحك عبد العزيز ضحكة عالية، وقال:  
- لقد انتقم الدين منك، هجرته جبراً وراه الخفاقات  
الحليا فعدت صفر الديدان!  
وقال رياض قللس، وكان يبدو في قوله مجاملاً لا  
أكثر:  
- موقف الشكِّ هذا للجدِّ! مشاهدة وتأمُّل وحرِّية  
مطلقة، وأخذ من كلِّ شيء أخذ السائح!  
فقال عبد العزيز غاطباً كمال:  
- أنت أعزب في فكرك، كما أنت أعزب في حياتك!  
وانتبه كمال إلى هذه الملاحظة العابرة باهتمام، ترى  
أعزوبته نتيجة لفكره أم العكس هو الصحيح؟ أم إنَّ  
الاثنتين نتيجة لشيء ثالث؟. وقال رياض قللس:  
- العزوبة حال مؤقتة، وريماً كان الشكُّ كذلك!  
فقال عبد العزيز:  
- ولكنَّه فيما يبدو لن يميل إلى الزواج أبداً...  
فقال رياض متعجباً:  
- ما الذي يحول بين الشكِّ والحبِّ؟ وما الذي يمنع  
عجاً من الزواج؟، أمَّا الإصرار على العزوبة فليس من  
الشكِّ في شيء، الشكُّ لا يعرف الإصرار!  
فتمسَّك كمال، وهو غير جاد في باطنه:

افترق الصديقان الجديدان عند العتبة، فعاد كمال  
من الموسيقى والساعة تلود في الثامنة مساءً، يتنفس  
جواً خائفاً شديد الحرارة، وتَهَلُّل عند عطفة الجوهري  
ثم مال إليها، ومرق من ثالث باب على يسار  
الدخول، ودقي في الدرج حتى الدور الثاني، ثم دقَّ  
الجرس، ففتحت الشراة من وجه امرأة قد جاوزت  
الستين، حثته بابتسامة كشفت عن أسنان ذهبية،  
وفتحت الباب فدخل صامتاً، أما المرأة فكانت ترحب  
به:

- أهلاً بابن الحبيب، أهلاً بابن أخي...

وتبعتها إلى صالة تتوسط حجرات، فيها كتبان  
متقابلتان يهتبا سجادة قصيرة مزركشة وخوان  
ونارجيلة، وشذا بخور في الأركان، كانت المرأة بديئة،  
حثة من كبر، عاصبة الرأس بتعديل منعم يترسر،  
مكحولة العينين تلوح فيها نظرة ثقيلة تشي بوطأة  
الكيف، وفي تضاعف وجهها آثار جمال داير واستتار  
مقيم، تربت على الكتبة أمام النارجيلة، وأومأت إليه  
ليجلس إلى جانبها، فجلس وهو يسأل بأساً:  
- كيف حال الست جليلة؟

فهضمت محتجة:

- قل عمتي...

- كيف حالك يا عمتي؟

- الحال معدن يا بن عبد الجواد، ... (ثم بصوت

مرتفع أجش) ... بنت يا نظلة...

ويعد دقات جسامت الخادم بكاسين مترعنين  
ووضعتها على الخوان، فقالت جليلة:

- اشرب، طامنا قلها لأبيك في الأيام الحلوة

الماضية...

فتناول كمال الكأس، وهو يقول ضاحكاً:

- من المؤسف حقاً أنّي جئت بعد فوات الأوان!

وهي تلمحه لكمة وسوست لها الأساور الذهبية التي

تفكي ساعدتها:

- يا عيب الشوم، أكنت تريد أن تعيث فساداً حيث

سجد أبوك؟!

ويظنّ أنّه يطوّر البشرية، وأنا لست دونة سباحة،  
فلأنتي ألخص فصلاً من كتاب تاريخ الفلسفة لفلنج،  
أطالب في أعمالي بالمساواة على الأقلّ بفؤاد جيل  
الحزبوي وتكيل نيابة الدرب الأحمر، ولكن كيف تطلق  
الحيلة دون ذلك؟ مجانين نحن أم عقلاء أو مجرد أحياء؟  
أف من كلّ شيء!

- وما قولك في العلماء الذين لا يشاركونك في  
حماستك للعلم؟.

- لا ينبغي أن نفتر توافيق العلم بالمعجز أو  
اليسار، العلم سحر البشرية ونورها ومرشدنا  
ومعجزاتها، وهو دين المستقبل...

- والقصّة؟

بدا رياض لأول مرة وهو يداري استياءه، فاستترك  
الأخر كالمتندر:

- أعني الفن عمومًا؟

فقال رياض قللس متسائلاً في حماسة:

- أأستطيع أن تعيش في وحلة مطلقّة؟ لا بدّ من  
التجريب، من الزملاء، من السرعة، من الهداية، من  
النور، من الرحلة في أنحاء المعمورة والنفس هذا هو  
الفن...

وهنا قال الأستاذ عبد العزيز:

- خطر لي خاطر... أن نجتمع نحن وبعض  
الزملاء مرة كل شهر للحديث في شقّ الفكر، على أن  
ينشر حديثنا بعنوان «محاورة شهر كذا»...

فقال رياض قللس وهو يرمق كمال بنظرة وقية:

- إنّ حديثنا لن ينقطع، أو هذا ما أودّه، أتعذّر  
أنفسنا أصدقاه؟

فقال كمال بحماسة صادقة:

- بكلّ تأكيد، يجب أن نتقابل في كلّ فرصة...

شمل كمال إحساس بالسماعة هذه «الصدقة  
الجديدة»، كان يشعر بأنّ جانباً سامياً من قلبه استيقظ  
بعد سبات عميق، فاقترح أكثر من قبل بخطورة الدور  
الذي تلعبه الصدقة في حياته، وبأنّها عنصر حيويّ لا  
غنى له عنه، أو يظنّ كالظالم المحترق في صحراء...

وكلما جئت بي الحيرة، إن الحيرة تلفني إليك قبل الشهوة.

- كلما ماذا يا سيد نينة؟

- كلما فرغت من العمل...

- قل غير هذا الكلام. أت من زمانكم أت، كانت فلوسنا من الذهب وفلوسكم من الحديد والنحاس، وطربنا كان من لحم ودم وطريكم راديو، وكان رجالنا من صلب آدم ورجالكم من صلب حواء، عندك كلام يا خوجة البنات؟

وأخذت من النارجيلة نفساً ثم غثت:

يا خوجة البنات علمهم ضرب الآلات ونغمهم فضحك كمال، ومال نحوها فقبل خذها قبله جمعت بين الملوكة والمداعبة، فنهضت:

- شارك كالكشوك، كان الله في عون عطية!

- إنها تحب الأضواء...

- بهذه المناسبة كان عندي بالأمس ضابط المنطقة على سنّ وريح، ولا فخر، كاتبة زباني من سادة القوم، أم تظن أنك تتصق على بنارتك؟

- يا ست جلييلة، إنك جلييلة...

- أحبك إذا سكوت، فإن السكر يذهب منك وقار الحوجة ويرتك إلى شيء من أبيك، لكن خبرني ألا تحب عطية؟... إنها تحبك!

هذه القلوب التي حجرتها فظافة الحياة كيف تحب؟ ولكن ماذا كان نصيبه من القلوب التي تجود بالحب وتستطيعه؟ فلما أن تحب بنت صاحب المظلي فيعرض عن حبها، وإما أن يحب عايلة فتعرض عن حبه، فقاموس حياته لم يعرف للحب من معنى سوى الألم، ذلك الألم العجيب الذي يمحرق النفس حتى تبهر على ضوء نيرانه القنطرة عجائب من أسرار الحياة، ثم لا تحلف ورامها إلا حطاً، قال يملأ على قولها متهمكاً:

- أحبك العافية...

- لم تعمل في المغر إلا منذ طلاقها!

- الحمد لله الذي لا يحمي على مكروه سواه...

- الحمد لله في جميع الأحوال.

وايتمسك بسلامة ذات معنى، فأدركت معناها وقالت كلمته:

ثم مستدركة:

- ولكن أين أنت من أبيك؟ كان متزوجاً للسرة الثانية حين عرفته، تزوج ميكرًا على عادة أهل زمان، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يرافقني زمناً كان أحل الحيلة، ثم رافق زبيدة ربنا يأخذ بيدها، ثم عشرات غيرنا ساعه الله، أما أنت فلا تزال أعزب، ولا تزود بقي مع ذلك إلا كل ليلة جمعة، يا عيب الشوم، أين الرجولة أين؟

أبوه الذي عرفه عن لسانها غير أبيه الذي عرفه بنفسه، بل غير أبيه الذي حدثه عنه ياسين، رجل الغريزة، والحيلة العارمة، لم تشغل هموم الفكر قلبه فإن هو منه؟ حتى ليلة الجمعة التي يزود فيها هذا البيت لا يصفو له «الحب» فيها إلا بالحمر، فلولا السكر لبدأ له الجوّ متجهماً باعثاً على الانزعاج، وأول ليلة رمت به المقادير إلى هذا البيت ليلة لا تنسى، رأى المرأة لأول مرة فدخلت إلى مجالسها ريشاً تفرغ له فتاة، وكما جرّه الحديث إلى ذكر اسمه بالكامل هفت المرأة: أأنت ابن السيد أحمد عبد الجواد التجبر بالنحاسين؟ نعم أنتعرفون أبي؟ يا ألف أهلاً وسهلاً... أنتعرفون أبي!... أعرفه أكثر مما تعرفه أنت... مزاج عرفه عرفتي... وزفت له أحبك... كنت في أيامي كأم كلثوم في أيامك الكالحة... سل حق طوب الأرض، تشرفنا يا سقي، اختر من بناتي من تعجبك وليس بين الخبيرين حساب، هكذا فسق أول مرة في هذا البيت حل حساب والده. وجعلت تنظر إلى وجهه طولاً حتى انقبض قلبه، ولولا الألب لاعلنت دهشتها، إذ أين هذا الرأس الشريب وذلك الأنف العجيب من الوجه البديهي المورّد؟ ثم طال الحديث كل مطال، فصرف عنها تاريخ أبيه السري، ميزاته وجلال أعماله ومغامراته وخفي صفاته، وأنا من شدة الحيرة متردد أبداً بين وهج الغريزة ونسمة التصوف!

فقال كمال يمينها:

- لا تبالي يا عتي، أنا مدرّس والمدرّس يحب السرة، ولا تنسي أنني في العطلة أزودك كل أسبوع مرات لا مرة، ألم أكن عندك أول أمس؟ لني أزودك كلما...

والنحافة ما ارتضى أن يتناها برمال، فكيف كان هذا الحب؟ وكيف ظَلَّت ذكراه مصونة بالإجلال والتقدير رغم ازدهاره لكل شيء؟!

- الدنيا حرّ، آف...

- إذا لمستنا الخمر استوى لدينا الحرّ والبرد...

- لا تأكلني بعينيك، وارفع نغارتك!

مطلقة ذات بَيْن، تغلّي كآبتها الممتعة بالعريضة، وتمحص الليالي النعمة أنوثتها وإنسانيتها دون مبالاة، يخلط في أنفاسها الوجد الكاسب بالمتى، وهي للاستيعاب شرّ صورة، لذلك كانت الخمر نجاة من العذاب كما هي نجاة من الفكر!

وارتمت إلى جانبه ومثّت يدها البقّة إلى الزجاجة وأخلت حملا الكاسين، هذه الزجاجة تباع في هذا البيت بضعف ثمنها، كل شيء هنا خال إلا المرأة، إلا الإنسان، ولولا الخمر ما أمكن ذلك المجلس، كي يغيب عن عين البشرية المحملة في اشتزاز، غير أن حياتنا لا تخلو من موبسات من نوع آخر، منهم وزراء وكتاب!

ويحول الكأس الثانية في جوفه لاحت بشائر النسيان والمرة. «هذه المرأة اشتبهتني منذ زمن وحتى متى لا أدري، الشهوة سلطان مستبد أما الحب فتنيء آخر، وكمن يبدو لي لباس عجب إذا برئ من الشهوة، وإذا أتبع في يومنا أن أجدهما في كائن بشري عرفت الاستقرار المنشود، ولذلك فلن تزال الحياة تبدو لي عناصر يعوزها الانسجام، أنا أنشد (الزواج) في الحياتين العائمة والخاصة، لا أدري أيهما أصل الأخرى، ولكنني متأكد أنني تمس رغم سلوكي في الحياة الذي ضوّى لي حطلي من مسرات الفكر ولذات الجسد، كالقطار الذي ينطلق في قوّة ولكنه لا يدري من أين ولا إلى أين. والشهوة حسنة طافية سرعان ما يصرعها القرف، ويصف القلب ناشداً في يأس الهم السعادة الرملية، عبثاً، لذلك فلا يشكوى لا تنقطع، والحياة خدعة كبرى، وبينني أن نتجاول مع حكمتها الخفية كي نتقبل هذه الخدع راضين، فنكون كالممثل الذي يُعي دوره الكاذب على المسرح، ولكنه رغم ذلك يعبد فته».

- أمتكثر عليّ أن أنوّه بحمد الله؟. آم منك يا بن عيد الجواد، اسمع لا ابن لي ولا بنت، وقد شيعت من الدنيا، وعند الله العفو.

من عجب أنّ حديث المرأة تتروّد فيه كثيراً هذه النغمة الموحية بالزهة! وجعل يخلّص إليها النظر وهو يتجرّع بقية كأسه. وكانت الخمر تأخذ في نفث سحرها معه من أزل كاس. ووجد نفسه يتلخّر عهداً مضى أيام كان للكأس فرحة مبالوة، ما أكثر الأفراح التي ولّت، في البلد كانت الشهوة ثورة وانتصاراً، ثم انقلبت مع الزمن فلسفة حراء، ثم أهدت نشواتها الزمن والعلة، ولم تفل في أحايين كثيرة من عذاب التردّد بين السماء والأرض، فُلك قبل أن يسري الشك بين الأرض والسماء.

ودقّ الجرس. ودخلت عطية، يبيض لدة عمتلة، لحذاتها أطيب ولضحكتها رنين، فقبلت يد المعلمة، ثم ألقت نظرة باسمه على الكاسين الفارغتين وهي تقول مداهية كمال:

- ختني!

ومالت على أذن المعلمة فهمست للولاء، ثم رمقت كمال بنظرة ضاحكة، وسارت إلى الحجرة إلى عيون مجلس المعلمة، فلكرته جليلة قائلة:

- قم يا نور العين...

تناول طربوشه ومضى إلى الحجرة، ولم تلبث نظرة أن لحقت به حاملة صبيّة عليها زجاجة وكأسان ومزّة خفيفة، فقالت لها عطية:

- هاتي لنا رطلين من المجاتي، أنا جوعانة!

خلع الجاحكة ومذّ ساليه في ارتياح، ثم جلس يراقبها وهي تخلع حذاءها وقستانها، ثم وهي تسوّي قميصها أمام المرأة وتسرح شعرها. الجسم الذي يجبه، الأبيض اللدن الممتلئ، ترى كيف كان جسم عابدة؟ كثيراً ما تبدو لذاكرته وكأنها لم يكن لها جسم، وحتى ما يذكره من نحافتها وسمرتها ووشاقتها فإنما تستقر في روحه كالمعاني المجردة، أمّا ما يلتصق عافة بالذاكرة من محاسن الأجساد كالصنوبر والسيفان والأرداف فلا يذكر البتة أنّ حواسّه ألجّحت إلى شيء منها، واليوم لو عرضت له حسناء كلّ ميزات الرشاقة والسمرّة

- مساء الخير...  
فجاء الصوت الرقيق يقول:  
- مساء الخير، أشكرك لأنك سمعت نصيحتي  
ولست معطفاً...  
فغلب التأثر لرقعتها، ذابت في حلقة كلمة أوشك أن  
يجهها بها، ثم قال مدارياً ارتباكاً:  
- خشيت أن تعطر الساء...  
فرفعت رأسها إلى أصل كأنها تنظر إلى الساء،  
وقالت:

- ستمطر عاجلاً أو آجلاً، ليس في الساء نجم،  
وقد ميّزتكم بصعوبة عندما دخلت الحارة.  
فاستجمع قواه الملاحظة، وقال فيها يشبه التحليل:  
- الجُرْ يارد، وجوَّ السَّلم خاصّة شديد الرطوبة!  
فقال الصغيرة بصراحة تملّمتها على يديه:  
- لا أشعر بالبرد في قربك!...

فلفحت وجهه حرارة منبهة من الداخل، ونمّ حاله  
على أنّه سيعاود الخطأ على رغبته، وجعل يستعدي  
إرادته ليتغلب على الرغبة السارية في بدنه، فسأله:  
- ما لك لا تتكلم؟  
واحتسب يدها على منكبه تضغطه برقّة، فما تمالك أن  
طوّفها بذراعه، وقبّلها قبلة طويلة، ثمّ أمطرها قبلات  
حقّ سمع صوتها الرقيق يقول لهاها:  
- لا أطيق البعد عنك...  
فواصل عناقها متداوياً في حضنها، وهي تجمس في  
أذنه:

- اتّفق لو أبقي هكذا إلى الأبد...  
فشدّ عليها الوثاق قائلاً بصوت متهدّج:  
- يا للأسف!  
فتباحث رأسها في الظلام قليلاً، وهي تتساءل:  
- هلام تأسف يا حبيبي؟  
فقال بعد تردّد:  
- على الخطأ الذي ترتكبي فيه...  
- أيّ خطأ باله؟

تخلّص منها برقّة، وراح يخلع معطفه، فطواه، ثمّ  
همّ بأن يضعه على الدرابزين، ولكنّه عدل عن فكرته  
في اللحظة الأخيرة - لحظة ماثلة - فتناء على ذراعه ثمّ

وتجوّع كاسه الثالثة دفعة واحدة حتّى أغرقت عطية  
في الضحك، وهي تحبّ السكر من صميم قلبها ولكنّه  
يفعل بها الأفاعيل، فإذا لم يوقفها عند حدّها علا  
صوتها لتشتجّت ثمّ بكت وتقايات. ولعبت الحمر  
برأسه فاهتزّ طرباً، ومدّ إليها بصره فانبسّطت  
أساريه. هي الآن امرأة فحصب لا مشكلة، وكأنّه لم  
تمدّ ثمة مشكلة في الوجود، الوجود نفسه - أنقل  
مشكلة في الحياة - لم يعد مشكلة، ولكن اشرب واغرق  
في القَبَل...

- ما الطفك إذا ضحكك بلا سبب!  
- إذا ضحكك بلا سبب فاعلمي أنّ الأسباب أجل  
من أن تُذكر...

## ١٧

عاد عبد النعم إلى السجّرة ملطّاً في معطفه، يجك  
من أن لاخر طاقته ليتغي بها يرد الشتاء الفارص،  
وكان الظلام شاملاً رغم أنّ الساعة لم تجاوز السادسة  
مساء، وما كاد يبلغ مدخل السّلم حتّى فتح باب الدور  
الأول وتسلّل الشيخ اللطيف الذي كان ينتظر. وخفق  
قلبه وجعل يميلق في الظلام بعينين متقدّتين، وتابع  
شبهها وهو يرى في السّلم في خفّة وحذر أن يحدث  
صوتاً، فوجد نفسه موزّعا بين رغبة تفرّغه بالاستسلام  
وارادة تحفّسه على السيطرة على أعصابه التي تلوح  
بالخيانة والانهار. وكرر - الآن فقط! - أنّها واحدته  
الليلة من قبل، وقد كان يوسعه أن يقدم موعد هودته  
أو يؤخّره فيتجنّب هذا اللقاء، ولكنّه نسي ذلك كله،  
لشدّ ما ينسى! ولم يكن ثمة وقت للتدبّر والتدبّر،  
فليترك هذا إلى حينه، عندما يغلر إلى نفسه في  
حجرته، إلى تلك اللحظة التي ستشهده. متصرّاً  
ظافراً أو منهزماً مغلوباً على أمره، وأرتقى السّلم في  
أعقابها دون أن يعزم على أمر، ملفّياً بنفسه في خضمّ  
الامتحان، ولم يكن شيء لينسه آلام صراعه الأبديّ.  
وفوق البسطة خيّل إليه أنّ شبهها يضخم حتّى ملا  
عليه المكان والزمان. وقال وهو يخيّن قلقه ويضمر  
الصمود مهما كلّفه الأمر:

درسًا لك، احلدي الظلام قد تكون فيه نهايتك، أنت صغيرة، فمن أين لك هذه الجراءة؟

تردّد في الظلام انتحاجها، ولكنّه لم يرق قلبه، كان متشبّثًا بلذّة نصر قاسية:

- عي كلّ كلمة، ولا تغضبي، واذكري أنّي لو كنت نذلًا ما ارتضيت أن أتركك قبل أن أقضي عليك، أستودعك الله...

ورقي في السّلم وثيّا، انتهى من العذاب، ولن يكون طعمة لأنياب النّدم، ولكن ليذكر قول استأنفه الشيخ عليّ المنوفي: إنّ مغالبة الشيطان لن تكون بتجامل سنن الطّبيعة. أجل ليعذر هذا. وخلع ملايسه على حجل وارندى الجلباب، ثمّ قال لأخيه أحمد وهو ينادي بالحجرة:

- أريد أن أدخل قليلًا إلى والدي في حجرة المكتب، فانتظر قليلًا من فضلك...

وفي طريقه إلى الحجرة زجا والده أن يتبعه، فرفعت خديجة رأسها إليه متسائلة:

- خير؟...

- سأحدّث أبي أوّلًا، ثمّ يأتي دورك...

وتبعه إبراهيم شوكت صامتًا، كان الرجل قد رغب طاقم أسنانه الجليد، وعادته طمأنينته الحاملة بعد أن واجه الحمية بلا أسنان ستة أشهر كاملة. وجلسا جنبًا إلى جنب والأب يقول:

- خير إن شاء الله!

فقال عبد النّعم دون تردّد أو تمهيد:

- أريد يا أبي أن أتزوّج!

لمحمّل الرجل في وجهه، ثمّ قطب بابسًا كأنه لم يفهم شيئًا، وهزّ رأسه في حيرة ثمّ قال:

- الزواج؟ كلّ شيء رهن بوقت، لماذا تحدّثني عن ذلك الآن؟

- أريد أن أتزوّج الآن...

- الآن؟! ما زلت في الثامنة عشرة من عمرك، ألا تنتظر حتّى تأخذ شهادتك؟

- لا أستطيع...

وهنا فُتح الباب ودخلت خديجة، وهي تتسامل:

- ماذا يدور وراء ذلك الباب؟ هل توجد أسرار

تراجع إلى الرّواء خطوة. كانت أنفاسه تضطرب ولكنّ عزيمة اصترضت ثيّر استسلامه فقلّبت كلّ شيء. وعادت يدها تتلصّص السيل إلى عنقه فأمسك بها، وانتظر حتّى هدأت أنفاسه، ثمّ قال يدهو:

- هذا خطأ كبير...

- أيّ خطأ؟! لست أفهم شيئًا...

صغيرة لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها، أنت تعبت بها إشباعًا لرغبة لا ترحم، ولن يكون لهذا الحب من غاية، ليس إلّا عيبًا تجلب به غضب الله ومقته.

- يجب أن تفهمي، أستطيع أن نعلن ما نفعل؟

- نعلنه؟

- انظري كيف تستكرين! ولكن لماذا لا نعلنه إن لم يكن عيبًا مزريًا؟

وشمر يدها بتصميده، فارقتى إلى أولى درجات السّلم التالية، وكان مطمئنًا إلى أنّه جاز منطقة الخطر بسلام:

- احترلي بأنّنا غطّكان، فلا ينبغي أن نصرّ على الخطأ...

- صحيح أن أسمع منك هذا الكلام...

- لا عجب، إنّ ضميري لم يعد يحمل الخطيئة، إنّها تعذبني وتفسد عليّ صلاحي.

وصامتة! أذيتها فليسامحي الله، يا للألم، ولكنّي لن أتراجع، احبب الله على أنّ الخطأ لم يدفعك إلى ما هو شرّ منه...

- يجب أن يكون ما حصل درسًا لنا فلا نعود إلى مثله، أنت صغيرة، وقد أخطأت، فلا تجرّ مرة أخرى وراء الخطأ.

وقالت في نبرات باكية:

- لم أخطئ... أتتوي هجري؟ ماذا تقصد؟

وكان قد تمالك قوّته فقال:

- عودي إلى بيتك، لا تفعلي شيئًا تسرين وجوب التصرّ عليه، لا تقابلي أحدًا في الظلام...

فقال الصوت مهذّبًا:

- أمهجري؟ أنسيت كلامك عن حبّنا؟

- كلام من لا عقل له، أنت غطّكة، ليكن هذا



- أبداً صدّقي، اختاري لي بنفسك...  
 - وما الداعي إلى السرعة إذن؟ دعي أختار لك،  
 أعطني مهلة، إنّا مسألة عام أو عامين!  
 فعلا صوته وهو يقول:  
 - أنا لا أمزّل، دعيني فهو يفهمني غيراً منك!  
 فسأله أبوه يلهو:  
 - ما وجه السرعة؟  
 فقال عبد المنعم وهو يخضّ بصره:  
 - لا أستطيع البقاء دون زواج.  
 فتساءلت خديجة:  
 - وآلاف الشبان أمثالك كيف يستطيعون؟  
 فقال الشاب غاطباً أباه:  
 - لا أقبل أن أفعل ما يفعله الآخرون!  
 فتفجّر إبراهيم قليلاً، ثم قال حسناً للموقف:  
 - يكفي هذا الآن، وسنعود إلى الموضوع في فرصة  
 أخرى...

وهمت خديجة بالكلام ولكن زوجها منعها، وأخذها  
 من يدها فنادرا الحجرية إلى مجلسها في الصلاة.  
 وتحدث الزوجان مقلّين الأمر على جميع وجوهه، وبعد  
 أخذ وردة طويلين مال إبراهيم إلى تأكيد طلب ابنه،  
 وتولّى بنفسه إقناع زوجته، حتى سلّمت بالبداء، وعند  
 ذلك قال لإبراهيم:  
 - عندنا نعمة بنت أخي، فلن نعتب في البحث  
 عن عروس...  
 فقالت خديجة باستسلام:

- أنا التي أقنعتك بالنزول عن نصيبك من ميراث  
 المرحوم إكراماً لعائشة، فلا اعتراض لي على اختيار  
 نعمة زوجة لابني، إنّ سعادة عائشة تبني جدّاً كما  
 تعلم، ولكنّي أخاف تفكيرها، وأحسب ألف حساب  
 للشعوذ الذي طرأ عليها، ألم نلجج أمامها مرّات من  
 رغبتنا في تزويج نعمة من عبد المنعم؟ ومع ذلك خيّل  
 إلّي أنّها كانت ترهب بآبن جبل الحمزاوي عندما قيل  
 إنّ والده طلب له يدها...

- هذا تاريخ قديم، مضى عليه عام أو أكثر،  
 والحمد لله أنّه لم يتمّ، فما كان يشرفني أن يأخذ بنت  
 أخي شاب مثله مها تكن وظيفته، الأصل عندي كلّ

نعلّ لأبيك وتحرم عليّ؟

فقطّب عبد المنعم مترفّزاً، حل حين راح إبراهيم  
 يقول وهو لا يكاد يفقه معنى ما يقول:

- عبد المنعم يريد أن يتزوّج...  
 فضصّته خديجة كأنّها تخاف عليه الجنون،  
 وهضت:

- يتزوّج؟ ماذا أسمع؟ هل قرّرت أن تترك  
 الجامعة؟

فقال عبد المنعم بصوت قويّ غاضب:  
 - قلت إلّي أريد أن أتزوّج لا أن أصوب من  
 المدرسة، سأواصل الدراسة متزوّجاً، هذا كلّ ما  
 هنالك...

فقالت خديجة وهي ترتدّ عندها بينه وبين أبيه:  
 - عبد المنعم أنت جاد حقّاً؟  
 فصاح:  
 - كلّ الجّد...

فضربت المرأة كلّاً على كلّ وقالت:  
 - أصابتك عين، ماذا حصل لمقلّك يا ابني؟  
 فنهض عبد المنعم غاضباً وهو يقول:  
 - ما الذي جاء بك؟ كنت أريد أن أعطي بابي أولاً  
 ولكنت لا صبر لك، أصغيا إلّي، أريد أن أتزوّج،  
 أمامي عامان حتّى أنتهي من دراستي، وأنت يا أبي  
 تستطيع أن تموليّ هذين العامين، لولا تأكّدي من  
 هذا، ما عرضت طلبتي...

فجعلت خديجة تقول:  
 - يا لطف الله! أكلوا عقله!  
 - من هم الذين أكلوا عقلي؟  
 - الله بهم أعلم... منهم الله، أنت أدري بهم،  
 وسنعرّفهم عمّا قليل...

فخاطب الشاب أباه قائلاً:  
 - لا تصغ إليّ، إنّ لا أدري حتّى الساعة من التي  
 ستكون من نصيبي، اختاروها بأنفسكم، أريد زوجة  
 لائقة، أيّ زوجة!  
 فسأله داهشة:

- أتعني أنّه لا توجد واحدة بالذات هي السبب في  
 هذه البلوى؟

شيء، نعمة عندنا على العين والرأس...

فقلت خديجة وهي تتنكب:

- على العين والرأس، ترى ماذا يقول أبي عن هذا

اللعب إذا علم به؟

فقال إبراهيم:

- سيرحب به دون شك، كل شيء يبدو كالعلم،  
ولكن لن أندم، فإنني موثق بأن تجاهل رغبة عبد المنعم  
خطأ لا يتضرر، ما دام في الإمكان تحقيقها...

## ١٨

لم يطأ على البيت القديم في بين القصرين أي تغيير  
يذكر، إلا أن الجيران بما فيهم حسنين الحلاق ودرويش  
الغوال والغولي اللبان وأبو سريع صاحب المقلل ويوسي  
الشرباتي، كل أولئك قد علموا بطريقة أو بأخرى أن  
اليوم تزوج حفيذة السيد أحمد من ابن صتها -  
وختاتها - عبد المنعم. حافظ السيد أحمد على تقاليده  
القديمة فمضى اليوم كثيره من الأيام، فاقصر على  
دهرة الأهل، وضاية الأمر أن أعدت المنة لوليمة  
عشاء. وكان الوقت في مطلع الصيف، وقد اجتمعوا  
جميعًا في حجرة الاستقبال، السيد أحمد عبد الجواد  
وأمنة وخديجة وإبراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد  
وباسين وزنوبة ورضوان وكريمة، ما عدا نعمة التي  
كانت تأخذ زيتها في الدور الأهل بمملونة عائشة.  
ولعل السيد قد شعر بأن وجوده بينهم يلقي على  
الاجتماع العائلي ظلًا من الوفاة الذي لا تستيفه  
المناسبة السعيدة، فانتقل عقب الاستقبال بقليل إلى  
حجرته، حيث لبث ينتظر حضور المأفون. وكان  
السيد قد صنع تجارته وبيع الدكان مؤثرًا الراحة  
لشيخوخته، لا لأنه بلغ الخامسة والسبعين فحسب،  
ولكن لأن استعفاء جميل الحمزوي اضطره إلى بذل  
نشاط مضاعف لم يعد يحتمله، فقرّر إنهاء حياته  
العملية، فأنما بما تخلف له من تصفية دكانه وما أذكر  
من مال من قبل قلر أن يكفيه بقية العمر. وكان حدثًا  
هاشًا في حيلة الأسرة، جعل كمال يتساءل عن حقيقة  
الدور الذي كان يلعبه جميل الحمزوي في حياته

وحياة أبيه خاصة، ولبث السيد في حجرته منفردًا،  
يتأمل أحداث اليوم في صمت، كأنما لا يصدق حقًا أن  
العريس هو عبد المنعم حفيده. ويوم فاتحه إبراهيم  
شوكت في الأمر عجب، واستنكر، كيف تسمح لابنك  
بأن يحذلك بهذه الصراحة وأن يمل إرادته عليك،  
إنكم أباء خلقتكم لإفساد الأجيال، ولو في غير الظرف  
الذي يدرك ذقته لقال لا، ولكن كانت هناك عائشة،  
فحيال تعاستها تخفى عن عناده التقليدي كله، ولم  
يقط - خاصة بعد ما ثار حول صمت فؤاد الحمزوي  
من تعليقات - أن يجيب لها رجاءه، وإذا كان زواج  
نعمة يخفف من لوعة قلبها فأهلًا به وسهلاً. هكذا  
دفعه الحرج إلى أن يقول نعم، وأن يسمح للصبيان أن  
يملوا إرادتهم على الكبار وأن يتزوجوا قبل أن يتجاوزوا  
مرحلة التلمذة.

ودعا عبد المنعم إلى مقابلته، وطلب إليه أن يتعهد  
بإتمام دراسته، فتكلم عبد المنعم كلامًا جميلًا مريضًا  
مستشهدًا في أثناء ذلك بالقرآن والحديث، فترك في  
نفس جده آثارًا متباينة من الإحجاب والسخرية،  
هكذا يتزوج التلميذ اليوم على حين أن كمال لم يفكر  
في الزواج بعد، وعلى حين رفض هو يومًا أن تعلن  
خطبة المرحوم فهمي - مجرد إعلان خطبة - الذي مات  
قبل أن يجني ثمرة شبابه الغفص، وهكذا يبدو أن العالم  
قد انقلب على رأسه، وأن دنيا عجيبة أخرى تشب،  
وأنا غريباء بين أهلينا، اليوم يتزوج التلميذ ولا ندري  
ماذا يصنعون غدًا.

وفي حجرة الاستقبال كانت خديجة تقول من ضمن  
حديث طويل:

- لذلك أعلينا الدور الثاني من سگانه، وسيستقبل  
الليلة العروسين وهو على أحسن حال.

فقال لها ياسين بلهجة غادرة:

- عندك كافة المواهب التي تجعل منك وحشة لا  
نظير لها، ولكنك لن تستطعي استغلال مواهبك الفذة  
مع هذه العروين!

فأدركت ما يرمي إليه، ولكنها تجاهلته قائلة:

- العروس ابنتي وأبنة أعني...

وقالت زنوبة تلطف من تعريض ياسين:

منذ تسع سنوات تحلّت بثوب جميل وعقصت شعرها.  
وكانت ترقب ابتها التي تبثت كقبضة من نور بعينين  
حالتين، فإذا غلبها الدمع أخفت عنها وجهها الشاحب  
الذابل، وقد لاحتها أمها مرة وهي تبكي، فنظرت  
إليها معاتباً وهي تقول:

- لا يصح أن تترك نعمة البيت وفي قلبها حزن!  
فانتحيت عائشة قائلة:

- ألا ترينها وحيدة في هذا اليوم لا أب ولا أخ؟  
فقالت أمينة:

- البركة في أمها، ربنا يحلبها هاء، وهي ذاهبة إلى  
خالتها وعمها، ولها بعد ذلك الله خالق الملك كله...  
فجففت عائشة عنينا وهي تقول:

- ذكريات الأسرات الأعرّاء نغمس من طلعة  
الصباح، ووجوههم تلوح لي، ثم إنني بعد ذهابها  
سأبقى وحيدة...

فقالت أمينة في صمت:

- لست وحيدة...

وكانت نعمة تربّت خدّ أمها وتقول:

- كيف أستطيع أن أغيب عنك يا ماما؟

فتجيبها عائشة بسخن وهي تبسم:

- سيمسك بيت زوجك كيف تستطيعين!

فقالت نعمة بقلق:

- سترويني كل يوم، كنت تتحاشين الاقتراب من  
السكينة، ولكن يجب أن تتخلّي عن هذه العادة منذ  
اليوم.

- طبعاً، هل تشكين في ذلك؟

وإذا بكالم يقبل عليها قائلاً:

- استعدّوا جاء المأذون!...

وعلقت عيناه بنعمة في إصجاب. يا للجمال،  
والرقة، والشفافية، كيف يكون للحيرانية دور في هذا  
الكائن اللطيف؟!

وكما عرف أنّ الكتاب قد نُجّب، تبذلت التهانئ،  
وإذا بزغردة تقصم على البيت وقاره وتلعب في جوّه  
الصامت، فأنجّمت الرموس في دهب إلى حيث وقفت  
أم حنفي في نهاية الصالة. وكما جاء وقت الوليمة وتوارد  
للمدعوون إلى المائدة، انقبض صدر عائشة وترنّز

- خديجة هانم سيّدة كاملة!

فشكرتها خديجة، وكانت تقابل ترددها بالشكر  
والاحترام إكراماً لياسين. على الرغم من احتقارها  
الباطني لها، وكانت كريمة تتألق في سنّها العاشرة ممّا  
جعل ياسين يؤثّر بانوثتها المنتظرة. أما عبد النعم  
فراح يحدّث جدّه أمينة للمحبة بتديّته، وكانت تقطع  
حديثه بالدعاء له. وسأل كمال أحمد عازحاً:

- وأنت تتزوّج في العام المقبل؟

فقال أحمد ضاحكاً:

- إلّا إذا أتيحت سنّك يا خالي!

وكانت زُتوية تتابع حديثها، فقالت موجّهة الخطاب  
إلى كمال:

- لو سمح لي سي كمال فإني أريد بأن أزوجه في  
أيّام!

فقال لها ياسين وهو يشير إلى نفسه:

- إنّي مستعدّ لأن أسمح لك عن نفسي.

فقالت وهي تهرّ رأسها تهكمّاً:

- لقد تزوّجت بما فيه الكفاية، وأخذت نصيبك  
ونصيب أخيك...

وانتهت أمينة إلى موضوع الحديث، فقالت  
لزُتوية:

- إذا زوّجت كمال، فسأحاول أن ازهرّد لأوّل مرة  
في حياتي.

وتخلّل كمال أمّه وهي تزهرّد فضحك، ثمّ تخلّل  
نفسه في مجلس عبد النعم ينتظر المأذون فوجم. الزواج  
يبيح دوامة في أحباقه كما يبيح الشفاء الربو عند  
المريض، وهو يرفضه عند كلّ مناسبة، لكنّه لا  
يستطيع أن يتجاهله، وهو غالي القلب ولكنّه يضيّق  
بخلقه كما كان يضيّق قديماً بامتلائه، واليوم إذا أراد  
الزواج فليس أمامه إلّا الطريق التقليديّ الذي يبدأ  
بالخطوبة، وينتهي بالأمرة والأطفال والاندماج في  
ميكانيزم الحياة، فلا يكاد يجد المولى بالتأمّل موضعاً  
للتأمّل، وسوف يرى الزواج دائماً أبداً في مركز عجيب  
بين الحنين من ناحية والاشمئزاز من ناحية أخرى، أمّا  
في نهاية العمر فلن تجد إلّا الوحشة والكآبة...  
السعيدة حقّاً في ذلك اليوم كانت عائشة، لأوّل مرة

السكيرة، طوال الأعوام التسعة المتقضية لم تغادر البيت القديم إلا لزبارة القرافة، فها هذا زيارات معدودات لقصر الشروق حين وفاة أبي ياسين الصغيرين. وقفت قليلاً عند مدخل السكيرة تلقي على المكان نظرة شاملة، حتى غشى الدمع ناظرها. على الأرض أمام مدخل البيت التي أشبهتها أقدام عثمان ومحمد جرياً ولعباً، والحوش الذي ازدان يوماً بحفل عرسها البهيج، والمنظرة التي كان يجلس فيها خليل يدخن غليونيه ويلعب الطاولة والدومينو، ذلك شذا الماضي العطر المشبع بالحنان والحب المقصودين، وهي سعيية، سعادة سارت مسير الأمثال، حتى قيل عنها الضاحكة المترعة التي لا شغل لها إلا مضاحكة المرأة ومصاحبة الزينة، والزوج يناجي والأطفال يبنون، تلك الأيام الماضية. وجففت عينها حتى لا تلقى المروس باكية. جففت عينين ما تزالان زرقاوين وإن تساقطت أهدابها وذبلت جفونها. ووجدت الشقة قد جُلِّدت مراقفها وكُلِّدت جدرانها فبدت ثغراً باسماً في جهاز العروس الذي أُنْفِق عليه بسخاء. واستقبلتها نعيمة في فستان أبيض ههههه، وقد أرسلت شعرها اللهي حتى مَسَّتْ أهدابه باطن السالقين، رائقة حلبة وضيفة ينبت من أردائها عرف ساحر، فتماثلتا عناقاً طويلاً حائراً، حتى قال عبد المنعم، وكان ينتظر دورهُ في السلام في روبر جنزاريّ شمل به جليابه الحريريّ: - كفاية، أقلّ سلام يكفي هذا الفراق الوهمي! ثم عاتق خاتله، ومضى بها إلى مقعد وثير فاجلسها وهو يقول:

- كفا في سيرتك يا خاتني، فقد قرّ رأينا على أن ندعوك للإقامة معنا. ١٩٠٠

فابتسمت عائشة قائلة:

- أمّا هذا فلا، سأزورك كلّ يوم فتكون فرصة للفسحة، ما أحوجني إلى الحركة!

فقال عبد المنعم بعمرارته المبهودة:

- نعمة قالت لي إنك لا تحمليين المكوث هنا خشية أن تطاردك الذكريات، إنَّ الذكريات الحزينة لا تطارد المؤمن، وذلك أمر الله وقد مضى منذ عهد بعيد، ونحن أولادك فقد عوضك الله!

تفكيرها في الفراق الروشيك، فلم تفتح نفسها للطعام، ثم جاءت أم حنفي فابلغت أنَّ الشيخ متولّي عبد الصمد جالس على الأرض في الحوش، وآله طلب عشائه خاصّة من اللحوم، فضحك السيّد وأمر بأن يُبَيِّدَ له صينيّة ويُحْمَلَ إليه. وما لبث أن تراسى إليهم صوته صاعداً من الحوش وهو يدعو بطول العمر لحبيه «ابن عبد الجواد» ويتساءل في الوقت نفسه عن أسياه أبنائه وأحفاده ليدعو لهم، فقال السيّد باسماً:

- يا للخسارة!... نسي الشيخ متولّي أسياهكم، سامح الله الشيخوخة...

فقال إبراهيم شوكت:

- إنه في المائة من عمره، أليس كذلك؟ فاجاب أحمد عبد الجواد بالإعجاب، وعند ذلك تعالي صوت الشيخ مرّة أخرى وهو يصيح:

- باسم الحسين الشهيد أكثروا من اللحم! فضحك السيّد قائلاً:

- سرّ ولايته قاصر اليوم على اللحوم!

وحين ساعة الوداع سبق كمال إلى الحوش ليتجنّب ذلك المنظر، ومع أنّه لم يزد على انتضال سير إلى السكيرة إلا أنّه كان ذا وقع شديد كالصداع في قلبي الأمّ وابتنتها. والواقع أنَّ كمال كان ينظر إلى هذا الزواج بعين ملوّهة الشك، بالنظر إلى جدارة نعيمة للحياة الزوجية. وفي الحوش رأى الشيخ متولّي عبد الصمد جالساً على الأرض تحت المصباح الكهربائيّ المثبت في جدار البيت ليضيء المكان، سائداً ساقيه، مرتدياً جلباباً أبيض باهتاً وطاقيّة بيضاء، خالفاً نعليه مستنداً إلى الجدار كالتائم ليربح جوفه نما امتلاً به من طعام، ورأى بين ساقيه ماء يسيل، فاندرك من النظرة الأولى أنَّ الشيخ يبول وهو لا يشعر، وكانت أنفاسه تتردّد فتسمع كالفحيح. حده كمال بنظرة جمعت بين التفرّز والراء، ثم خطر له خاطر فابتسم على رضعه، وقال لنفسه:

- لعله كان طفلاً مدللًا عام ١٨٣٠ م.

في اليوم التالي مباشرة ذهبت عائشة لزبارة

رضوان وكريمة، تدارك نفسك بالتي هي أحسن.  
وسأله أحمد:

- بدأت العطلة المدرسية يا خالي؟

فأجاب كمال وهو يتزح طربوشه ويرنو إلى العروس الجميلة:

- لم تبق إلا فترة يسيرة للمراقبة والتصحيح في الابتدائية!

وغابت نعمة لتعود مرة أخرى بصبيبة فضية حافلة بشق أنواع الحلوى، مخطفة الألوان والطعوم، فمضت فترة لم يسمع خلالها إلا التنطق والمصصة، ثم راح إبراهيم يحكي ذكريات فرحه، الحفل، والمغني، والعللة. وتابته عائشة بوجهه باسم وقلب عزون، وتابعه كمال بشغف إذ كان يعيد عليه صوراً ما زال يذكر بعضها ويودّ لو يعرف ما فاتته منها. قال إبراهيم ضاحكاً:

- السيد أحمد كان كما هو اليوم أو أشدّ، ولكنّ آتي رحها الله قالت بحزم: ليفعل السيد ما يشاء في بيته، أنا عندنا فنحن نفرح كما نشاء، وقد كان. وجاء السيد يوم الفرح ومعه أصحابه ساهم الله بالخير جميعاً، أذكر منهم السيد محمد عفت جدّ رضوان، فجلسوا جميعاً في النظرة بعيداً عن الزباطا.

وقالت خديجة:

- أحييت الليلة جلييلة أشهر عالة في عصرها...

وابتسم قلب كمال، وذكر البدرونة المجوز التي ما تزال تنوّه بهد أبيه...

وقال إبراهيم مسترقاً النظر إلى عائشة:

- وكان لنا عالة خصوصية لبنتنا، ولكنّ صوتها كان أجمل من العالة اللعينة، كان يلذغتنا بصوت منيرة المهدية في عزّها.

فتورّد وجه عائشة، وقالت يهدوء:

- سكّت صوتها منذ عهد بعيد، حتى نسيت الغناء...

فقال كمال:

- نعمة تفني كذلك، ألم تسمعها؟

فقال إبراهيم:

- سمعت عنها ولكنّي لم أسمعها بعد، الحقّ أنا

هذا الشاب طيب صريح ولكنّه لا يبالي أين يقع كلامه من القلوب الجريحة.

- طبّما يا عبد المنعم، ولكنّي مرتاحة في بيتي، هذا أفضل...

وإذا بخديجة وإبراهيم وأحمد يدخلون، ليصافحونها، ثم تقول خديجة لعائشة:

- لو عرفت أنّ هذا الذي يعيدك إلى زيارتنا لزوّجتها قبل البلوغ!

فضحكت عائشة، وقالت تلذّع خديجة بالماضي البعيد:

- المطبخ واحد؟ أم تطالب العروس بالاستقلال من حاتها؟

فضحكت خديجة وإبراهيم معاً، وقالت خديجة بلهجة لم تغفل من معنى:

- العروس كاتما لا تعنى بالسفاسف! وقال إبراهيم ليغفر لابنائه ما غفص من تلميح عائشة:

- بدأت للمعارك بين أتكما وأتي بسبب مشكلة المطبخ الذي كانت آتي تستغلّ به، ومطلّبة أتكما بالاستقلال المطبخي...

فقال العريس متعجباً:

- كنت تتماكرين يا نيتة بسبب المطبخ...

فقال أحمد ضاحكاً:

- وهل من سبب للمعارك التي تدور بين الأمم إلا هذا المطبخ؟

فقال إبراهيم في تحمّ:

- أتكما قومية كإنجلترا، أما آتي فرحة الله عليها...

وجاء كمال، كان يرتدي بلّلة بيضاء أنيقة، أما وجهه فيتكوّن من الطاقم المألوف المرّكب من جبينه البارز وأنفه العظيم ونظارته الذهبية وشاربه المربع الغليظ، وكان يحمل بيده لفّة كبيرة بكرت يهدية ممتازة، فقالت خديجة باسمه وهي تتخصّص الهدية:

- حدّاري يا أخي، إذا لم تشارك نفسك بالزواج فتستغلّ تحمي بالهدايا دون أن يردّ لك الجميل، الأسرة كلّها اليوم مشكّة على الزواج، هذا أحمد، وهناك

عرفناها شيخه لا عالة! وبالأمر قلت لها: زوجك شيخ للمؤمنين، ولكن ينبغي أن تؤجلي الصلاة والعبادة إلى حين!

وضحكوا جميعاً، وقال أحمد مخاطباً أخاه:

- لا ينقص عروسك إلا أن نضمها إلى شعبة الشيخ علي النوني معك.

فقال العريس:

- إن شيخنا أول من نصحتني بالزواج...

فقال أحمد مخاطباً أخاه:

- لعل الإخوان يعتبرون الزواج مائة من دستورهم السياسي!

والتفت إبراهيم إلى كمال قائلاً:

- أما أنت فكانت - أقصد إمام دخلتي - صغيراً، وكان شعرك خضراً لا كما هو اليوم، وكنت تنهنا بسرقة أخيتك فلم تغفر لنا ذلك أبداً...

وكانت مبدئاً خائلاً لم تبدأ به المعارك بعد، يتحدثون عن سعادة الزواج، لو يعرفون ما يحدث به الأزواج الشاكرون؟ نعمة أمر علي من أن يملأها خلوق، أي شيء لا يتكشف عن خديعة في هذه الحياة؟!

فقال خديجة معلقة حل قول زوجها:

- كنا نظن ذلك حياً لنا، ولكن أنفصح مع الآلام أنه ليس إلا عداوة للزواج نشأت معه منذ الصغرة!

وضحك كمال كما ضحكوا جميعاً. إنه يحب خديجة،

ويزيد من حبه علمه بحبها الشديد له، أما تعصب

العريس فشذ ما يزعجه، ولكنه من ناحية أخرى يحب

أحمد ويعجب به، وهو نافر من الزواج ولكن يطيب له

أن تذكره خديجة به في كل مناسبة، وكان قلبه شديد

التأثر بجو الزواج المحيط به، فانتشى قلبه وحواسه،

ووجد حنيناً وإن يكن بلا هدف، ثم تسامل كأنما

يتسامل لأزل مرة: ماذا يمنعني من الزواج؟... حياة

الفكر كما كان يزعم قديماً؟! إنني أشك اليوم في

الفكر والمفكر مثلاً، أم الخوف، أم الانتقام، أم

المرغبة في الألم، أم ردّ الفضل الصادر من الحب

القديم؟. في حياتي مسوغ لأي من هذه الأسباب!

وسأل إبراهيم شوكت كمال:

- أندري لماذا أسف على عزوبتك؟

- نعم؟...

- إنني أعتقد أنك زوج مثالي إذا تزوجت، فأنت رجل بيت مطبعم، منظم، مستقيم، موثقف محترم، ولا شك أنه توجد فتاة في مكان ما من الأرض تستحقك، وأنت مُصَيِّع عليها خطفها!

حتى البغال أحياناً تنطق بالحكم، فتاة في مكان ما

من الأرض، ولكن أين؟ أما عن اتهامه بالاستقامة فما

هو إلا كافر فاسق سكير منافق! فتاة في مكان ما من

الأرض، فلعله غير بيت جلييلة بعطفة الجوهري،

وهذه الآلام التي تتطاحن في قلبه ما حلَّتْها؟. والحيرة

التي لا مهرب منها إلا بالخمير والشهوات!، ويقولون

تزوج حتى تنجب فتخلد، وشذ ما طمع إلى الخلود في

شئ أشكاه وألوانه، فهل يركن يائساً في النهاية إلى

هذه الوسيلة الفطرية المبتذلة؟ وثمة أمل أن يحيى

الموت بلا ألم يشوّه راحته الأبدية، كم هذا الموت خيفاً

لا معنى له، ولكنه... بعد أن فقدت الحياة كل معانيها -

يبدو اللذة الحقيقية في الحياة، ما أعجب العاكفين على

الولم في معاملهم، ما أعجب الزعماء الذين يلقون

بأنفسهم بالمهالك في سبيل الدستور، أما الذين

يدورون حول أنفسهم في حيرة وهذاب فالرحمة لهم!

وركد بصره بين أحمد وعبد المنعم، في إعجاب مقرون

بالفضيلة، إن الجيل الجديد يشقّ سبيله العسير إلى

هدف يَبْون دون شك أو حيرة، ترى ما سرّ دأبي

الويل؟!

قال أحمد:

- ساعدو العروسين والديني وخالتي إلى لوج في

الربحاني الخميس القادم.

فتساملت خديجة:

- الربحاني؟

فقال لها إبراهيم مفترساً:

- كشكش بك!

فضحكت خديجة وقالت:

- كاد ياسين يُطرد من بيتنا وهو عريس بسبب أخذه

أُم رضوان ليلة إلى كشكش!

فقال أحمد باستهانة:

- كان زمان وجير، جيتي الآن لا يمانع في ذهاب

- جمعة دينية تهدف إلى إحياء الإسلام علمًا وصلاحًا،  
لم تسمع بشعبها التي بدأت تتكون في الأحياء؟

- غير الشبان المسلمين؟

- نعم...

- وما الفرق؟

فأجاب وهو يشير إلى عبد المنعم شوكت:

- سَلِّ الأَخ...

فقال عبد المنعم بصوته القوي:

- لسنا جمعية للتعليم والتأهيل لمصعب، ولكننا

نحاول فهم الإسلام كما خلقه الله، دينًا ودنيا وشرعية

ونظام حكم...

- أهذا كلام يقال في القرن العشرين؟...

فقال الصوت القوي:

- وفي القرن العشرين بعد المائة...

- احترنا يا هو بين الديمقراطية والفاشية

والشيوعية، هذا خازوق جديد!

فقال أحد ضاحكًا:

- لكنه خازوق رائع!

فعلت ضجة ضحك، إلا أن عبد المنعم حدّجه

بنظرة غاضبة، وكأنّ رضوان ياسين ساءه التعبير،

فقال:

- خازوق تعبير غير موفق...

وعاد الطالب يسأل عبد المنعم:

- وهل ترجون الناس إذا خالفوكم؟

- إنّ الشبان يتهدّهم زيف في العقيدة، وانحلال في

الحلق، وليس الرجيم بأشدّ ما يستحقونه، ولكننا لا

نرجم، وأنما بالموعظة الحسنة والمثال الطيب نهدّي

ونرشد، وآية ذلك أنّ بيتنا فيهم، أمّا نحن يستحقون

الرجيم، وما هو يرح أمامكم، ويتناول حلّ خالقه

سبحانه!

فضحك أحد، وقال حلمي عزّت غاطبًا لِيّاه:

- إذا أنت من أخيك خطرًا، فإنّي أدعوك للإقامة

معي في الدرب الأحمر...

- أنت مثله؟

- كلاً، ولكننا معشر الوغدّيين قوم متساهلون،

المستشار الأوّل لزعميتنا قبلي، هكذا نحن...

جدّي إلى كشكش بك!

فألت خديجة:

- نخذ العروسين وأباك، أمّا أنا فكضاية عليّ

الرايو...

وقالت عائشة:

- وكضاية عليّ أنا بيتكم...

وراحت خديجة تقصّ قصّة ياسين وكشكش بك

حتى حانت من كمال نظرة إلى ساعته فتدّكر موعد

رياض قلنس، فنهض مستأذناً في الانصراف.

## ٢٠

- أتستطيع أن تستمتع بجمال الطبيعة حقًا بالرغم

من أنّ الامتحان لم يبق عليه إلا أيام؟

كان السائل طالبًا، والمسئول طالبًا كذلك، في

جامعة من الطلاب افترشت المشب حل هبة نصف

دائرة فوق هضبة خضراء في أحلاها كشك خشبيّ

احتله طلاب آخرون، وهل مرمى البصر تراءت

جماعات النخيل وحيضان الأزهار تتخلّلها تماشي

الفسيساء، قال الطالب المسئول:

- كما يستمتع عبد المنعم شوكت بالحياة الزوجية،

رغم اقتراب الامتحان.

كان عبد المنعم شوكت جالسًا في محيط نصف

الدائرة، وكذلك أحمد شوكت، فقال عبد المنعم:

- الزواج بخلاف ما تظنون، يبيّن للطالب أحسن

فرصة للنجاح.

فقال حلمي عزّت، وكان يجلس لصق رضوان

ياسين في الطرف الآخر من نصف الدائرة:

- هذا إذا كان الزوج من الإخوان المسلمين!

وضحك رضوان عن ثغره اللؤلؤيّ، رغم ما أثاره

الحديث في نفسه من غمّ، أجل إنّ سيرة الزواج تثير

قلقه، فلا يدري إن كان يقدم يومًا على هذه المغامرة

أم لا، مغامرة خيفة بقدر ما هي ضرورية، ولكن ما

أبعدها عن روحه وجسده! وتساءل طالب:

- وما الإخوان المسلمون؟

فأجابه حلمي عزّت:

وعاد الطالب الأول يقول:

- كيف تدعون إلى هذا الهراء في نفس الشهر الذي ألغيت فيه الامتيازات الأجنبية؟

فقال عبد المنعم متأنلاً:

- أنيطل ديننا إكراماً للأجانب؟

وإذا برضوان ياسين يقول وكأنما كان في وإد آخر:

- ألغيت الامتيازات، فدع الذين انتقدوا المعاهدة يتكلمون...

فقال حلمي عزت:

- هؤلاء النقاد غير مخلصين، إنها الكراهية والحسد،

إن الاستقلال الحقيقي الكامل لا يؤخذ إلا بالحرب؛

فكيف يطمعون في أن نثال بالكلام أكثر مما نلنا؟

لجاء صوت يقول في ضجر:

- دعونا نتساءل عن المستقبل...

- المستقبل لا يُبحث في شهر مايو والامتحان على

الأبواب، أرمجوناً... لن أعود إلى الكلية بعد اليوم

حتى يتسع لي الوقت للمذاكرة...

- مهلاً، إن الوظائف لا تنتظرنا، ما مستقبل

الحقوق أو الآداب؟ التسكع أو الوظائف الكتابية،

تساملوا عن المستقبل إذا شتم...

- أما وقد ألغيت الامتيازات فتضع الأبواب!

- الأبواب؟! السكان أكثر من الأبواب!

- اسمعوا... النحاس أدخل الطلبة الجامعة

وكانت أبوابها مغلقة، وأتاح لهم التسلل بعد أن

أهزمهم المجموع المتسكع فهل يعجز عن توظيفنا؟

ولاح في أفقي الحديقة سرب، فانتعقدت الألسنة

والجهت نحوه الروموس، كان مكوئاً من أربع فتيات

قائدات من الجامعة متجهات صوب مديرية الجيزة، لم

تكد تميزهنّ الألباس بعد، ولكنهنّ تقلعنّ متنهلات

يسفن الأمل في رؤيتهنّ عن قرب، إذ كان المرء الذي

يبرز فيهنّ ينطفف أمام مجلس الصحاب في مسيره نحو

السيال. وصرنّ في مجال البصر، وردت الألسن

أسيافهنّ وأسياف كليتهنّ، واحدة من الحقوق وثلاث

من الآداب، وقال أحمد لنفسه وهو ينظر إلى إحداهنّ:

«علوية صبري»، وجذب الاسم شوارده نفسه، فتاة

ذات جمال تركي عمره، معتدلة الطول نحيلة، بيضاء

ذات شعر أسود فاحم، وعينين سوداوين واسعتين

عاليتي الجفون، مقرونة الحاجبين، ذات سمت

أرستقراطي وفتنت رفيعة، وإلى ذلك كله فهي زميلة

في القسم الإعدادي، وقد علم - والباحث يظفر

بمعلومات شتى - أنها سجلت اسمها مثله في قسم

الاجتماع، ولم تكن تبيّث فرصة ليبادلها كلمة واحدة،

ولكنها أثارت اهتمامه من أول نظرة، طالما رمق ملامح

نعمة بإصجاب ولكنها لم تبرز أحماقه، هذه الفتاة لها

شان، فيشر قريباً بصداقة العقل، والقلب... ١٩...

قال حلمي عزت عقب تسواري السرب عن

الانظار:

- عمّا قرب تصبّح كلية الآداب وكأنا كلية

بنات!

فقال رضوان ياسين وهو يردد بصره بين طلاب

الآداب في نصف الدائرة:

- لا تتقوا بصداقة طلاب الحقوق الذين يكثرون

من زيارتكم في كليتكم بين الحصص، فالغرض

مفروض!

ثم ضحك ضحكة عالية، ولكنه لم يكن سعيداً في

تلك اللحظة، فإن حديث الفتيات يثير في نفسه

اضطراباً وحزناً.

- لم تقل الفتيات حلّ كله الآداب؟

- لأن وظيفة التدريس هي أوسع الوظائف صدرًا

لهنّ...

فقال حلمي عزت:

- هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فدراسة

الآداب دراسة نسائية، الروج والمناكير والكحل

والشّمر والقصص، كلها باب واحد!

فضحكوا جميعاً حتى أهد، وبقية طلاب الآداب

ضحكوا رغم توبيههم للاحتجاج، ثم قال أحمد:

- يصدق هذا الحكم الجائر حلّ الطب، فطالما كان

التمريض نسائياً، أما الحق الذي لم يستقر بعد في

نفوسكم فهو الإيمان بالمساواة بين الرجل والمرأة.

فقال عبد المنعم بأساً:

- لا أدري إن كان مدحاً أم فحاً أن نقول للنساء

إنهنّ مثلنا؟



التفكيرية، ما عدا ذلك فهو نوع من التراميل الضاغطة  
على عجلة الإنسانية الحرة

فقال عبد المنعم، وكان في تلك اللحظة يكره فكرة  
أخوة أهد له:

- الإلحاد سهل، حلّ سهل هروبي، هروبي من  
الواجبات التي يلتزمها المؤمن حيال ربّه ونفسه  
والناس، وليس من برهان على الإلحاد يمكن أن يتدّ  
أقوى من الدهان على الإيمان، فنحن لا نختار هذا أو  
ذلك بمقولنا بقدر ما نختاره بأعلاقنا...  
وتدخل رضوان قائلاً:

- لا تستسلموا لعنف المناقشة، كان من الأفضل لكما  
كلّ حين أن تكونا من حزب واحد...  
وإذا حلّمني عزّت يتدلع قائلاً، وكان أحياناً تعتريه  
نوبات ثائرة غامضة:

- إيمان... إنسانية... الغدا. كلام فارغ،  
النظام القائم على الألم وحده ينبغي أن يكون كلّ  
شيء، يجب أن تؤمن بشيء واحد هو استئصال  
الضعف البشري بكافة أنواعه، ومهما بدا جليماً  
قاسياً، وذلك للوصول بالبشرية إلى مثال قويّ نظيف!

- أهله مبادئ الورد الجديدة بعد المعاهدة  
فضحك حلّمني عزّت ضحكة حادت به إلى حالته  
الطبيعية، وقال عنه رضوان:

- إنّه حقاً وفديّ، ولكن تطوف به أحياناً مذاهب  
طارئة غريبة يدعو إلى القتل بالجملة، وربما دلّ ذلك  
على أنّه لم ينم أس نوماً مرغواً

وكان لشدة الحسام ردة فعل فساد الصمت، فسرّ  
بذلك رضوان، وسرّح بصره فيها حوله ليراجع  
بعض الحدّ المألوف في الساء، أو يمرّن إلى أسراب  
النخيل، الكلّ يعلن رأيه حتى ما يتهمّج به على  
الحقائق، ولكنّه لا يسمع إلا أن يكتم ما يضطرم في  
أصباح نفسه، ويبطل سرّاً مرجعاً يتهكّد، فهو  
كالطارد، أو كالغريب، من الذي قسم البشر إلى  
طبيعيّ وشاذّ، وكيف تكون الحسم والحكم في آن؟،  
ولم نرَ كثيراً بالتصاؤ؟. قال رضوان غاطباً عبد  
المنعم:

- إذا تعلّق الأمر بالحقوق والواجبات فهو مدح لا  
فم...

فقال عبد المنعم:

- لقد سوى الإسلام بين الرجل والمرأة فيما عدا  
الميراث.

فقال أحمد متعجباً:

- حقّ في الرقّ ساوى بينهما!

فاحتدّ عبد المنعم قائلاً:

- أنتم لا تعلمون دينكم، هذه هي للأسفة!...  
والثقت حلّمني عزّت إلى رضوان ياسين، وسأله  
باسماً:

- ماذا تعرف عن الإسلام؟

فسأله الآخر بنفس لهجة:

- وماذا تعرف أنت عنه؟

فسأل عبد المنعم أخاه أحمد:

- وأنت ماذا تعرف عنه حتى لا مهرّب بما لا تعرف؟

فقال أحمد بدهو:

- أصرف آله دين، وحسيّ ذلك، لا أؤمن  
بالأديان...

فتساءل عبد المنعم مستكراً:

- أليس لديك برهان على بطلان الأديان؟

- أليس أنت برهان على حقيقتها؟

فقال عبد المنعم وقد ارتفع صوته حتى جعل الشاب  
الذي يجلس بينه وبين أخيه يردّد رأسه بينهما كالمتزعج:  
- هندي، وعند كلّ مؤمن، ولكن دعني أسألك  
أولاً كيف تعيش؟

- إليّاني الخاص، إليّاني بالعلم والإنسانية وبالغد،  
وما ألتزمه من واجبات ترمي في النهاية إلى تهديد  
الأرض لبناء جديد.

- خدمت كلّ ما الإنسان إنساناً به...

- بل قل بقاء عقيدة أكثر من ألف سنة آية لا حلّ  
قوتها، ولكن على خطّة بعض بني الإنسان، ذلك ضدّ  
معنى الحياة المتجدّدة، ما يصلح لي وأنا طفل يجب أن  
أخبره وأنا رجل، طالما كان الإنسان عبداً للطبيعة  
والإنسان، وهو يقاوم عبوديّة الطبيعة بالعلم  
والاختراع، كما يقاوم عبوديّة الإنسان بالمذاهب

الجالسين، وكان قد توقّف عن الحديث أثناء استقبال الشاين:

- شدّ ما فوجئ الرأي العامّ وهو يطلّع على أسماء الوزراء الجدد، فلا يجد بينهم النقراشي!  
فقال عبد الرحيم باشا عيسى:

- توقّعنا عند الاستقالة أمرًا، خاصّة وأنّ الاختلاف كان قد ذاع حتّى تحدّثت به المقاهي، ولكنّ النقراشي ليس كغيره من أعضاء الوفد. لقد فصل الوفد من قبله كثيرين فلم تقم لهم قائمة، أمّا النقراشي فله شأن آخر، ولا تنسوا أنّ النقراشي معناه أحد ماهر أيضًا، هما الوفد، الوفد المجاهد المتاضل المحارب، سلوا المشائق والسجون والقنابل، وليس الخلاف هذه المرّة بالذي يشين الخارج، هي نزاهة الحكم، قضيّة القنابل، وإذا وقع المخلوط وانشقّ الوفد، فالوفد هو الذي سيخرج لا النقراشي ولا ماهر...

- لقد كشف مكرم حبيد عن وجهه أخيرًا...  
ووقع هذا القول من أفني رضوان موقعًا غريبًا، فلم يكن ممّا يسهل تصديقه أن يهاجم قطب الوفد بهذا الأسلوب في بيّنة وفديّة صميّة، وإذا بأخر يقول:  
- مكرم حبيد هو رأس هذا الشرّ كلّ ما سعادة الباشا...

فقال عبد الرحيم باشا:

- ليس الآخرون أصفاء...  
- لكنّه هو الذي لا يطيق منافسه، إنّه يريد أن يستحوذ على النحاس وحده دون شريك، وإذا خلا له الجزء من ماهر والنقراشي فلن يقف في سبيله شيء...  
- لو أمكنه إزالة النحاس نفسه لأزاله...  
فقال شيخ من المجلس:

- أرجوكم، لا تسرفوا في القول، قد تعود المياه إلى مجاريها.

- بعد أن تألّفت الوزارة دون النقراشي؟

- كلّ شيء ممكن...

- كان من الممكن هذا على عهد سعد، أمّا الانحطاس فرجل عنيد، وهو إذا ركب رأسه...  
وهنا دخل البهو رجل مهزولًا، فاستقبله الباشا وسط المكان وتعاونا بحرارة والباشا يتساءل:

- لا تزعل، إنّ للدين رأيًا جميعه، أمّا أنت فبعد تسعة أشهر على الأكثر ستكون آباء!

- حقًا... ١٩...

فقال أحد مداعبًا أخاه ليمسح عنه آثار الحفّة:  
- أهون عليّ أن أتمرّض لغضب الله من أن أتمرّض لغضبك!

ثمّ مضى أحد يحدث نفسه: غضب أم لم يغضب فسجد عند عودته إلى السكّرية صدرًا حانيًا، أمن المستحيل أن أعود يومًا فأجد علويّة صبري في الدور الأوّل بالسكّرية؟  
ونذت عنه ضحكة، ولكنّ أحدًا لم يخفّن السبب الحقيقي لضحكته...

## ٢١

بدأ بيت عبد الرحيم باشا عيسى في حركة غير مألوفة، فمضى الحديقة وقف أناس كثيرون، وفي الفراتدا جلس آخرون، وكثر الداخل والخارج، فلكر حلّمي عزّت ذراع رضوان ياسين وهما يقتربان من البيت، وقال له بارتاح:

- لسا بلا أنصار كما تزعم جرائدهم...

وعندما أخذوا يشقان سبيلهما إلى الداخل، هتف بعض الشبان وبميا النحاسين: فتوزّد وجهه رضوان تأثّرًا. كان متحمّسًا تأثّرًا ملهم، بيد أنّه ساد نفسه في قلّق: ترى ألا يشكّ أحد في الجانب غير السياسي من زيارته؟ وقد أفضى مرّة بمخاوفه إلى حلّمي عزّت، فقال له: وإنّ الرية لا تلتحق إلّا بالخوف! سرّ مرفوع الرأس ثابت الأقدام، يجرد بالذين يصدّون أنفسهم للحياة العامّة ألا يكتثروا لأراء الناس أكثر مما يجب. وكان بهو الاستقبال مكتفًا بالجالسين، منهم طلبة وعيال وبعض أعضاء الهيئة الوفديّة، وفي صدر المكان جلس عبد الرحيم باشا عيسى، متجهّيًا على غير عادته، جاذبًا صرًا، تكتفه هالة الرجل السياسي الخطير، وتقدّما إليه نهض لاستقبالها في رزاة، وصافحها ثمّ أشار لها بالجلوس. وقال أحد

وراه، وجلس ثلاثتهم حول منضلة، وسرعان ما  
حملت إليهم أقداح الليمون، وما لبث أن تراءى عند  
الباب رجل في الأربعين، عرفه رضوان في بعض  
زياراته السابقة، يدعى عليّ مهران، يعمل وكيلًا  
للباشا، وكان منظره يوحى بما كُبح عليه من ميل  
للمزاح والمجون، وكان يصحب معه شابًا في العشرين  
من عمره، جميل المَعيّا، يبدو من منظر شعره الحاج  
وسولقه الطويلة وربطة عنقه العريضة أنّه من أهل  
القرن. وقد أتبل عليّ مهران باسم الثور فقبِل يد  
الباشا، وصافح الشابين، ثمّ قَلَم الشاب قائلاً:

- الأستاذ عطية جوت، مُثَنٍّ ناشئ لكثرة موهوب،  
وقد سبق أن حدّثتك عنه يا عملي الباشا!  
فلبس الباشا نظارته التي كان وضعها على المنضلة،  
وتفحص الشاب بعناية، ثمّ قال باسم:

- أهلاً وسهلاً يا سي عطية، سمعت عنك كثيراً،  
فلعلنا نسمةك هذه المرة...

فدعا الباشا باسمًا، ثمّ جلس، على حين مال عليّ  
مهران على الباشا وهو يقول:

- كيف حال عمي؟  
هكذا كان يخاطب الباشا إذا زالت دواحي الكلفة،  
وأجابه الرجل باسمًا:  
- أحسن منك ألف مرّة!

فقال عليّ مهران جادًا على خلاف عادة:  
- يتهايمسون في بار الأنجلو عن وزارة قومية قربية  
برئاسة القراشي...

فابتسم الباشا ابتسامة سياسية وقتم:  
- لسنا من المستوزرين!...

وتسامل رضوان باهتمام وقلق:  
- على أيّ أساس؟ طبعا لا أستطيع أن أنصّر أن  
يقوم القراشي بانقلاب سياسي كمحمد محمود أو  
إسمايل صديقي!

فقال عليّ مهران:  
- انقلاب! كلا، للسألة تنحصر الآن في إقناع  
أكثرية الشيخ والنواب بالانقسام إلينا، ولا تنس أنّ  
الملك معنا، فعلى ماهر يحمل بحكمة وأناة!  
وعاد رضوان يتسامل في كتابة:

- متى حدث؟ كيف الحال في الإسكندرية؟  
- حال... حال، استقبل القراشي في محطة سيدي  
جابر استقبالًا شميًا منقطع النظير، هتفت له الجماهير  
المظفنة من الأضواء، الجميع غاضبون، الكلّ ثائر  
لنزاهة الحكم، هتفوا: يحيا القراشي الزيه... يحيا  
القراشي ابن سعد... وهتف كثيرون يحيا القراشي  
زعيم الأمة...

وكان الرجل يتكلّم بصوت مرتفع، فردّد هتافه  
كثيرون حتّى اضطرّ عبد الرحيم باشا أن يلوّح لهم  
داعيًا إلى التزام الهدوء. وعاد الرجل يقول:

- الرأي العامّ ساعط على الوزارة، غاضب لإخراج  
القراشي منها، لقد خسر النحاس خسارة لا تموّس،  
وارتضى أن يؤيّد الشيطان ضدّ الملاك الطاهر...  
وهنا قال عبد الرحيم باشا:

- نحن الآن في أضطرس، وفي أكتوبر تفتح  
الجامعة، فليكن افتتاح الجامعة موقعة فاصلة، يجب أن  
نستمدّ منذ الآن للمظاهرات فلما أن يشوب النحاس  
إلى رشده، وإنا فليذهب إلى الجاوية...

فقال حلمي عزّت:  
- أستطيع أن أوكد أنّ مظاهرات الجامعيين ستتدفّق  
على بيت القراشي...  
فقال عبد الرحيم باشا:

- كلّ شيء يحتاج إلى التنظيم، اجتمعوا بأنصارنا  
من الطلبة وأعدوا العدة، وفضلاً عن هذا فإنّ الأخبار  
التي عندي تؤكّد أنّ كثرة لا تصلّق من النواجب  
والشيوخ سينضمّون إلينا...

- القراشي هو خالق لجان الوفد، لا تنسوا ذلك،  
إنّ تفرقات الولاء تصابح إلى مكتبه صباح مساء...  
وتسامل رضوان ماذا يحدث في الدنيا؟ ترى أينقسم  
الوفد مرّة أخرى؟ وهل يتحمّل مسؤولية ذلك حقًا  
مكرم عبيد؟ وهل تتفق مصلحة الوطن وانقسام  
الحزب الذي نهض برسالة ثمانية عشر عامًا؟ وطال  
الأخذ والردّ، وبحثّ المجمعون اقتراحات شقّ خاصة  
بالدعاية وتبدير المظاهرات، ثمّ أطلوا في الانصراف  
حقّ لم يبق في البهو إلّا الباشا ورضوان وحلمي  
عزّت، وعند ذلك دعاهما للجلوس في الفراندا، فمضيا

- أنكون في النهاية من رجال السراي؟

فقال عبد الرحيم باشا:

- العبارة واحدة، ولكن المعنى تتغير، فأروق غير فؤاد، والظروف غير الظروف، الملك شلب وطفي متحمس، وهو يجني عليه أمام هجمات النحاس الجائرة!

ففرح عليّ مهراڤ في حيز وهو يقول:

- ترى متى يهنيّ الباشا بالوزارة؟ وهل تختارني وكيلاً لوزارةك كما اخترتني وكيلاً لأعمالك؟

فقال الباشا ضاحكاً:

- بل أميكن مديراً عاماً للسجون، إن مكانك الطبيعي هو السجن.

- السجن؟ لكنهم يقولون إن السجن للجذعان؟

- ولغيرهم، فليطعن بالك!

ثم ركب الصخر فجأة فهض:

- خشنا سياسة، غيروا الجور من فضلكم!...

والفتت نحر الأستاذ عطية متسائلاً:

- ماذا تُسمعن؟

فاجاب عنه عليّ مهراڤ:

- الباشا سمع وابن حك، وإذا رقت في نظره فتفتحت لك أبواب الإذاعة...

فقال عطية جويته برقة:

- لحنت أغنيةً أغنيةً وشبكوني وشبكوه، وهي من

تأليف الأستاذ مهراڤ!

فرمق الباشا وكيله، وسأله:

- منذ متى تألف أغاني؟

- ألم أجاور في الأزهر سبع سنوات، غرقت فيها في

مفاعيل وفلعلن؟

- وما للأزهر وأغانيك الخليفة؟، شبكوني وشبكوه!

من هو يا حضرة المجاور؟

- المعنى يا معالي الباشا في ذقن الباشا!

- يا ابن الهرمة!...

ونادى عليّ مهراڤ السفرجي، فسأله الباشا:

- لماذا تناديه؟

- ليهنيّ لنا مجلس الطرب!...

فقال الرجل وهو ينهض:

- انتظر حتى أصل العشاء!...

فتسائل مهراڤ باسماً في خبث:

- ألم ينقض سلامنا وضوءك؟!.

## ٢٢

غادر أحمد عبد الجواد بيته، ناقلاً خطاه على مهل، متوتراً على حصاه، لم يعد اليوم كالأمس، فمئذ أن صفي دكانه لم يكن ليغادر بيته إلا مرة واحدة في اليوم، كي يعفي نفسه ما استطاع من الجهد الذي يتحمّله قلبه عند ارتقاء السلم. ومع أن الوقت لم يعد سيمر إلا أنه رأى أن يرتدي الملابس الصوفية، إذ إن الجسم التحل لم يعد يطيق الجور اللعيف الذي كان يرح فيه الجسم البدين القوي الذي كان. والعصا التي صاحبه منذ الصغر رمزاً للرجولة وآية على الأناقة باتت متوكة في مشيته الشميلة، التي لا يطبقها قلبه إلا بجهد ومشقة، ولكن بقي له رونقه وأناقته، لما زال يحرص على انتقاء الأزياء الفاخرة، ويتطّيب بالمطر الفوّاح متمتاً بهيكل الشيوخنة ووقارها، وعندما اقترب من الدكان مالت نحوه عيناه بحركة لا إرادية. رُفعت اللافة التي حملت اسمه واسم أبيه أعضاماً وأعضاماً، وتغير مظهر الدكان وخبره، فانقلب دكان طرابيش للبيع والكوي، وتقلّصت الوابور والقوالب النحاسية، وتحالفت لهنيهة لافة وهمية، لم ترها عين سواه، حالته بأن زمانه قد ولى، زمان الجهد والكفاح والمسرات، وما هو في ركن المعاش ينزوي، يستدير دنيا الآمال ويستقبل دنيا الشيوخنة والمرض والانتظار، وتقضى القلب الذي طالما - وما زال - يهيم بحبّ الدنيا وأفراحها، حتى إن الإيمان نفسه لم يكن في نظره إلا مسرة من مسراتها ودافعا إلى أحضانها، فلم يعرف - حتى اليوم - العبادة الزاهدة التي تدير الظهور للدنيا وتطلع إلى الآخرة وحدها. لم يعد الدكان دكانه ولكن كيف نغمي ذكره من ذهنه وهو الذي كان مركز النشاط، وعكس الأنظار، وملتقى الأصحاب والأحباب، ومبعث المزة والجاه؟. وذلك أن تمرّزي نفسك فتقول: زوّجنا البنات، وزيّنا الصبيان، ورأينا

- تأخرتم عن ميعادكم، ساعدكم الله...  
بأن ضجر الرقاد في حينه، فلم يعد يعرف الابتسام  
إلا ساعة اجتاعه بهم، وجعل يقول:  
- لا عمل لي طول اليوم إلا الاستماع إلى الراديو،  
ماذا كنت أصنع لو تأخر استماعي في مصر حتى اليوم؟  
كل ما يلهمه يطلب لي حتى المحاضرات التي لا أكاد  
أفهمها، ومع ذلك فلم تكبر إلى الحد الذي يستوجب  
هذا العذاب، أجدادنا كانوا يتزوجون في مثل  
أعمارنا...  
فغلبت روح الفكاهة أحمد عبد الجواد، فقال:

- فكرة! ما رأيكم في أن ننزّج من جديد، لعل  
ذلك يجدد شبابنا وينفض عنا الأمراض؟  
فابتسم عليّ عبد الرحيم - كان يتجنب الضحك أن  
تدركه نوبة السعال فتؤدي قلبه - وقال:  
- ممكن! اختاروا لي عروسة، ولكن صارحوا بأن  
المرضى لا يستطيع الحركة، وعليها البالي...  
وهنا غاطبه الفار وكأها تذكر أمرًا فجأة:  
- أحمد عبد الجواد سيسبقك إلى رؤية وليد حفيدته،  
ربنا يمدّ في عمره!.

- مبارك مقدمًا يا بن عبد الجواد!...  
ولكن السيد أحمد تجهّم قائلًا:  
- نعمة حبل حقًا ولكنني غير مطمئن، ما زلت أذكر  
ما قبل عن قلبها يوم مولدها، طلالًا حاولت أن أنسى  
ذلك عيبًا...  
- يا لك من رجل جاحدا منذ متى تؤمن بنبوءات  
الأطباء؟...

فضحك السيد أحمد قائلًا:  
- منذ باتت اللقمة التي أتناولها على غير مشورهم  
تؤزّقي حتى مطلع الفجر...  
فتساءل عليّ عبد الرحيم:  
- ورحمة ربنا؟...  
- الحمد لله رب العالمين.  
ثم مستدركًا:

- لست بالخائف من رحمة الله، ولكن الخوف يبعث  
على الخوف، والحق فإن نعمة لا تمنّي بقدر ما تمنّي  
عائشة يا عليّ، عائشة هي مركز الفلق في حياتي،

الأحفاد، ولنا مال موفور يسترنا حتى الموت، وفننا حلو  
الدنيا سنين - سنين حقًا - وأن لنا أن نشكر، والشكر  
له واجب، دائمًا، ولكن آه من الحنين، وسامع  
الله الزمن، الزمن الذي مجرد حياته - حياته التي لا  
تتوقف لحظة - خيانة وأي خيانة للإنسان. لو أن  
الأحجار تنطق لسألت هذه الأماكن أن تحفّظني من  
الماضي، لتخبرني أحيانًا كان هذا الجسم يمدّ الجبال؟،  
وهذا القلب المريض لا يكفّ عن الحفّظ؟، وهذا  
الثغر لا يسكّ عن الضحك؟، وهذا الشعور لا يعرف  
الأم؟، وهذه الصورة معلّقة في كل قلب؟ ومرة أخرى  
سامع الله الزمن!.

وعندما انتهى به المسير الرئيد إلى جامع الحسين،  
خلع حذاءه ودخل وهو يتلو الفاتحة، ومضى إلى المنبر  
حيث وجد في انتظاره محمد حنّ وإبراهيم الفار  
فصلّوا المغرب جميعًا، ثم غادروا المسجد متجهين نحو  
الطبيخشة لزيارة عليّ عبد الرحيم، كان ثلاثتهم قد  
اعتزلوا العمل ليتفرّغوا لمقاومة الأمراض، غير أنهم  
كانوا أحسن حالًا من عليّ عبد الرحيم الذي لم يعد  
يوسعه أن يفارق الفراش، وقال السيد أحمد متنبّذًا:  
- يجئ إليّ آتي عمّا قريب لن أستطيع اللهاب إلى  
الجامع إلا راكبًا...  
- الحال من بعضه...

فعاد الرجل يقول في قلق:  
- شدّ ما أخاف أن أضطرّ إلى ملازمة الفراش  
كالسيد عليّ، إلى أدمع الله أن يكرمني بلووت قبل أن  
يدركني السجّز...  
- ربنا يكتفيك ويكتفينا كلّ سوء...

فبدأ كالحاتف وهو يقول:  
- غنيم حميدو لبث مشلولًا في الفراش زهاء العام،  
وصادق الماوردي عانى العذاب شهورًا، فآلهم أكرمنا  
بالبهاية السريعة إذا حمّ القضاء.  
فضحك محمد حنّ قائلًا:

- إذا خلّيتك الأفكار السوداء انقلبّت امرأة، وحدّ  
الله يا أخي!...  
ويكأ بلغوا بيت عليّ عبد الرحيم أدخلوا إلى حجرته،  
فبأدهم يقول في جزع:

التعيسة المسكنية، سائرَها إذا تركتها وحيدة في هذه الدنيا...

فقال إبراهيم الفار:

- ربنا موجود، وهو الراعي الأكبر...  
وساد الصمت ملياً، حتى قطعه صوت عليّ عبد  
الرحيم قائلاً:

- وسباني دوري بملك في رؤية وليد حفيظي...  
فضحك السيد أحمد قائلاً:

- سامح الله البنات، فلئن يكنن أهلن قبل  
الأران.

فهتف محمد عفت:

- يا حوزوا اعترفوا بالكبر وكفاك مكابرة...

- لا ترفع صوتك خشية أن يسمعك قلبي فيسوق

العوج، أصبح قلبي كالطفل للدلل...

فقال إبراهيم الفار وهو يزي رأسه أسفاً:

- يا له من عام ذلك العام الماضي، كان علينا  
شدليداً، لما ترك واحداً منا سلباً كائننا كنا على ميعادا.

- على رأي عبد الوهاب: لنعيش سوا لنصوت  
سوا...

فضحكوا معاً، وإذا بعليّ عبد الرحيم يغير لهجته  
ويتساءل جازاً:

- أهذا يصح؟ أهي ما فعله النقراني؟

فتجهّم وجه أحمد عبد الجواد وقال:

- كم أملنا أن تعود المياه إلى مجاريها، أستغفر الله  
العظيم...

- أخوة الجهاد والعمر ضاعت هباء.

- في هذا الزمن كلّ جميل يضيع هباء...

وعاد أحمد عبد الجواد يقول:

- لم أحزن لشيء كما حزنت لخروج النقراني، ما  
كان ينبغي أن يذهب به الخصام إلى هذا الحد...

- ترى ما هي النهاية التي تنتظره؟

- النهاية المحتومة، أين الباسل والشمسي؟ لقد  
قضى الرجل المجاهد على نفسه وأخذ في رجله أحمد  
ماهر.

وهنا قال محمد عفت متفرّفاً:

- دعونا من هذه السيرة! أنا أكاد أطلق السياسة!

وخطر للفار خاطر، فتسائل هامساً:

- لو اضطررنا - لا سمح الله - إلى ملازمة الفراش

كالسيد عليّ، فكيف نتقابل ونتحدث؟

فتمتم محمد عفت:

- فال الله ولا فالك...

فضحك أحمد عبد الجواد وقال:

- لو وقع المخلود تتخاطب بالراديو، كما يخاطب

بابا «سخام» الأطفال!...

وضحكوا جميعاً، وأخرج محمد عفت ساعته ونظر

فيها، ولكنّ عليّ عبد الرحيم جزع وقال:

- ستبقون معي حتى يحضر الطبيب لتسمعوا ماذا

يقول، ملعون أبوه، وأبو آتاه...

## ٢٣

كانت الفورية تغلق أبوابها، ففكّلت السابعة  
واشتدّت البرودة، وكان الزمن في أواسط ديسمبر،

ولكنّ الشتاء جاء متعجلاً لهذا العام. ولم يكن كمال قد  
وجد صعوبة في جلب رياض قلندس إلى حيّ

الحسين، أجل كان الشاب غريباً عن الحيّ، ولكنه  
وجد من نفسه شوقاً للتعلّب في أنحائه، والجلوس في

مقاهيه. وكان قد مضى على تمارفها في جملة الفكر أكثر  
من عام ونصف عام، ثم يمرّ أسبوع خلاله دون أن

يتقابلا مرّة أو مرتين، بخلاف العطلة التي تجمع بينهما  
كلّ مساء على وجه التقريب في جملة الفكر، أو بيت

بين القصرين، أو بيت رياض بمنشئة البكري، أو  
مقاهي عباد الدين، أو قهوة الحسين الكبرى التي لجأ

إليها كمال بعد أن أتت للمعامل على قهوة أحمد عبده  
التاريخية لمحتما من الوجود إلى الأبد. كانا سعيدين

بصداقتهما، وقد قال كمال لنفسه مرّة وجعلت أنفقد  
حسين شذاد أحوالاً، وظلّ مكانه شافراً، حتى ملأه

رياض قلندس، ففي محضره تستيقظ روحه وتستشعر  
ذلك الايثاق الذي يبلغ نشوته في عناق الفكر

المتبادل، هذا على الرغم من أنّها لم يكونا شيئاً واحداً،  
وإن كانا متكاملين فيما بدا. وظلّت صداقتهما شعوراً

متبادلاً في صمت، لم يتوفا به، فلم يقل أحدهما للآخر

فقال رياض دون تردد:

- إن الأقباط جميعًا وفديون، ذلك أن الوفد حزب القومية الخالصة، ليس حزبًا دينيًا تركيًا كالخزب الوطني، ولكنه حزب القومية التي تجعل مصر وطنًا حرًا للمصريين على اختلاف عناصرهم وأديانهم، أعداء الشعب يعلمون ذلك، ولذلك كان الأقباط هدفًا للاضطهاد السافر طوال عهد صدقي، وسبعانون ذلك منذ اليوم...

ورحب كمال بهذه الصراحة التي تشهد لصداقتها بالكمال، غير أنه راق له أن يساهل في دعاية: - ها أنت تتحدث عن الأقباط! أنت الذي لا يؤمن إلا بالعلم والفن!...

فلاذ رياض بالصمت. وكان قد بلغا شارع الأزهر حيث يتدافع الهواء البارد في شيء من العنف. ثم مرا في طريقهما بلدان بسبوسة فدهاء كمال إلى تناول شيء منها، وما لبث أن أخذ كل منها طبقًا صغيرًا واتحيا ناحية باكلا، وعند ذلك قال رياض:

- إني حُرّ وقبطي في آن، بل إني لا ديني وقبطي معًا، أشعر في أحيان كثيرة بأن المسيحية وطني لا ديني، وربما إذا عرضت هذا الشعور على عقلي اضطربت. ولكن مهلاً، ليس من الجين أن أنسى قومي؟ شيء واحد خلقت بأن ينسبني هذا النزاع، ألا وهو الفناء في القومية المصرية الخالصة كما أرادها سعد زغلول، إن النحاس مسلم دينًا، ولكنه قومي بكل معنى الكلمة أيضًا، فلا نشعر حاله إلا بأننا مصريون لا مسلم ولا قبطي، بوسعي أن أمشي سعيدًا دون أن أكثر صغوي بهذه الأفكار، ولكن الحياة الحقة مستوية في الوقت نفسه.

كان كمال يتملق ويفكر وصدرة يهيش بالعواطف، كانت سحنة رياض المصرية الصميمة التي تلذزته بالصور الفرعونية تثير تأملات شتى في نفسه. وإن موقف رياض له وجهاته التي لا تحجد، وأنا نفسي - بين عقلي وقلبي - شخص يعاني انقسام الشخصية، فكذلك هو، كيف يتأتى لأفكته أن تمش وسط أغلبية تضطهدها؟ وجدارة الرسائل السامية تقاس عادة بما تحققة من سعادة للبشر تتمثل أول ما تتمثل في الأخذ

«أنت الصديق» ولا قال له ولا أتصور الحياة بدونك» ولكن كان ذلك كذلك، وصلى برودة الجور لم تقتر رغبتها في السير، فقررا أن يسيرا على الأقدام حتى قهوة عباد الدين. ولم يكن رياض قلنس سعيدًا ذلك المساء، كان يقول بانفعال شديد:

- انتهت الأزمة الدستورية بهزيمة الشعب، فليست إقالة النحاس إلا هزيمة للشعب في نصاله التاريخي مع السراي...

فقال كمال في أسف:

- ثبت الآن أن فاروق كأيته...

- فاروق ليس المستول وحده، ولكن دبرها أعداء الشعب التقليديون، فهذه يد علي ماهر ومحمد محمود، ومن المبكي أن ينضم إلى أعداء الشعب اثنان من أبنائه، ماهر والنراشي، ولو تطهر الوطن من الخونة لما وجد الملك من يمكنه من هضم حقوق الشعب...

ثم استطرد بعد صمت قليل:

- ليس الإنجليز اليوم في الميدان، ولكن الشعب والملك وجهًا لوجه، الاستقلال ليس كل شيء، هنالك حق الشعب المقدس أن يتمتع بسيادته وحقوقه، ليحيا حياة الإنسان لا حياة العبيد...

لم يكن كمال غارقًا في السياسة كرياض، أجل لم يستطع الشك أن يدمرها فيما دمر فلبث حية في عواطفه، كان يؤمن بحقوق الشعب بقلبه، وإن كان عقله لا يدري أين الحق. عقله يقول حيتا «حقوق الإنسان» وحيتا آخر يقول «بل البقاء للأصلح وما الجماهير إلا قطع» وربما قال «والشيوعية أليست تجربة جديرة بالاختيار؟». أما قلبه فلم يتخلص من عواطفه الشعبية التي صاحبت منذ صباه متميزة بذكرى فهمي، أما رياض فكانت السياسة جوهرا أصيلًا في نشاطه الذهني. وعاد رياض يقول:

- أمكن أن ننسى الإهانة التي تلقاها مكرم في ميدان عابدين؟. وهذه الإقالة المجرمة، سب وقذف ووصقة في وجه الأمة؟. والحقد الأهمي يجعل البعض يمللون، واحسرتاه...

فقال كمال مداعبًا:

- أنت غاضب لمكرم!

بيد المظطهدين». قال:

- لا تؤاخذني، فقد حشت حتى الآن دون أن اصطلم بمشكلة المنصرية، فعند البدء لقتني أنني أن أحب الجميع، ثم شيت في جو الثورة المظفر من شوائب التعصب، فلم احرف هذه المشكلة.

فقال رياض وهما يستأنفان المسير:

- المرجو ألا تكون ثمة مشكلة على الإطلاق، يوسفني أن اصارك بأننا نشأتا في بيوت لا تخلو من ذكريات سود عذرة، لست متعصباً، ولكن من يستهين بحق إنسان في أقصى الأرض - لا في بيته - فقد استهان بحقوق الإنسانية جميعاً...

- جهل هذا القول، لا عجب أن رسالات الإنسانية الحقة كثيراً ما تبث من أوساط الأقلية، أو من رجال مشغولي الضمائر بالأقلية البشرية، ولكن ثمة متعصبون دائماً...

- دائماً وفي كل مكان، الإنسان حديث والحيوان قديم، وهم عندكم يعتبروننا كثيراً ملاحين، وهم عندنا يعتبرونكم كثيراً منتصبين، ويقولون عن أنفسهم أنهم سلالة من ملوك مصر الذين استطاعوا أن يحافظوا على دينهم بلغة الجزية...

فضحك كمال ضحكة عالية، وقال:

- هذا قولنا وذاك قولكم، ترى الأصل في هذا الخلاف الدين أم الطبيعة البشرية المتطلعة أبداً إلى الخصام؟! لا المسلمون على وفاق، ولا المسيحيون على وفاق، وتستجد نزاعاً مستمراً بين الشيعة والسنة، وبين الحجازي والعماني، كالذي بين الوفدي والدمستوري، وطالب الآداب وطالب العلوم، والنادي الأهلي والترسانة، ولكن رغم ذلك كله شئنا ما نحزن إذا ما طالعنا في الصحف عبر زلزال اليابان! اسمع، لماذا لا نتعالج ذلك في قصصك؟

- مشكلة الأقباط والمسلمين...

فصمت رياض قلداً ملياً، ثم قال:

- أخاف سوء الفهم...

ثم مستطرداً بعد فترة صمت أخرى:

- ثم لا تنس أننا رغم كل شيء في عصرنا الذهبي، كان الشيخ عبد العزيز جاويش يقترح في الماضي أن

يصنع المسلمون من جلودنا أحليتهم...

- وكيف نستأصل هذه المشكلة من جلودها؟

- من حسن الحظ أنها ذابت في مشكلة الشعب كله، مشكلة الأقباط اليوم هي مشكلة الشعب، إذا اضطهد اضطهدنا وإذا تحرر تحررنا...

«السعادة والسلام... ذلك الحلم المنشود، قلبك يحيا بالحُب وعده، فمضى يعرف حقل سبيله؟ متى أقول بلهجة ابن أعني عبد النعم ونعم. نعم»، إن صداقتي لرياض علمتني كيف أقرأ قصصه، ولكن كيف أومن بالفن، في الوقت الذي وجدت الفلسفة نفسها قصوراً غير صالحة للسكنى؟»

وسأله رياض فجأة، وهو يسترق إليه النظر:

- فم تفكر الآن؟... أصدقني!

وظلن إلى ما وراء سؤاله، فاجابه بصراحة:

- كنت أفكر في قصصك.

- ألم تتألم لصراحي؟

- أنا، ساعك الله...

فضحك كالمعتل، ثم سأله:

- أفراحت قصتي الأخيرة؟

- نعم، وهي لطيفة، ولكن يجئني إلى أن الفن نشاط غير جنسي، مع ملاحظة أنني أخطئ في حياة الإنسانية: الجدل أم اللهو؟، أنت متفقد ثقافة علمية صالية، ولملك أدري «غير العلماء بالعلم، ولكن نشاطك كله يضيع في كتابة القصص وأنا لانسأل أحياناً: ماذا ألتد من العلم؟

فقال رياض قلداً في حماسة:

- أخلصت من العلم للفن عبادة الحقيقة، والإخلاص لها، ومواجهتها بشجاعة مهما تكن مرة، والنزاهة في الحكم، والتسامح الشامل مع المخلوقات...

كليات ضخمة، ولكن ما علاقتها بلهجة القصص؟ ونظر رياض قلداً إليه، فقرأ الشك في وجهه، فضحك كالياً ثم قال:

- أنت تسمي الفن بالفن، ولكن عزائي أن شيئاً في الدنيا لا يمكن أن يسلم من شكك، نحن نرى بعقولنا ولگتنا نعيش بقلوبنا، أنت مثلاً - رغم موقفك



خالياً من ماضي الخلافات المتصرفة والدينية  
والمنازعات الطبقية، بيد أن الاهتمام الأول مركّز في  
فني... .

لقال كمال وكان في صوته دعابة:

- ولكن الإسلام قد خلق هذا العالم الذي تحدثت  
عنه منذ أكثر من ألف عام... .  
- لكنّه دين، الشيوعية علم أمّا الدين  
فأسطورة... .

ثمّ مستدركاً وهو يتسم:

- ونحن نتعامل مع المسلمين لا الإسلام... .  
وجدا شارع فؤاد كثير الزحام رغم شدة البرودة،  
تتوقف رياض فجأة وهو يتساءل:  
- ما رأيك في حشاه من المكرونة والتبيل الجيد؟  
- لا أشرب في الأماكن المأهولة، فلنذهب إلى قهوة  
صكاشة إذا شئت... .

فضحك رياض قللس قائلاً:

- كيف تطيق هذا الورد كله؟ نظارة وشارب  
وتقاليداً حرّرت عقلك من كل قيد، أمّا جسمك فكأنّه  
يهود، أنت غلقت - بجسمك على الأقل - لتكون  
مدرّساً... .

وذخّره تنويه رياض بجسمه بحادثة اليمّة، فقد  
اشترك في حفل ميلاد أحد زملائه، وشربوا جميعاً حتى  
سكروا، وهناك تحلّ أحدهم عليه معزّضاً برأسه وأفنه  
حقّق أضحك الجميع. وإذا ذكر أنّه أو رأسه فقد ذكر  
عائدة، وتلك الأيام، عائدة خالقة أفنه ورأسه، ومن  
عجب أن ينفي الحبّ فيسي لا شيء، ثمّ تبقى هذه  
الرواسب المؤلمة... .

وجلبه رياض من ذراعه وهو يقول:

- هلّمّ نشرب نبيلاً وتحدثت عن فنّ القصة، ثمّ  
نلعب بعد ذلك إلى بيت الستّ جليّة بمطرفة  
الجوهريّ، وإذا كنت تقول لها يا عتيّ، فساقول لها يا  
خالتي... .

الشخصيّة - تحبّ وتتعاقل وتشارك مشاركة ما في حياة  
بملك السياسية، ووراء كلّ ناحية من هذه النواحي  
مبدأ شعوريّ أو لا شعوريّ لا يقلّ عن الإيمان قوّة،  
الفنّ هو المعبر عن عالم الإنسان، وإلى هذا فمن الأدباء  
من أسهم بفنّه في معركة الآراء العالمية، فانقلب الفنّ  
على يديه حدة من حشد الكفاح في ميدان الجهاد  
العالميّ، لا يمكن أن يكون الفنّ نشاطاً غير جدّيّ... .  
دفاع عن الفنّ أم عن قيمة الفنّان؟ لو أنّ لبائع  
اللبّ قدرة على الجدل لدلّل أنّه يلعب دوراً خطيراً في  
حياة البشر، ولا يبعد أن يكون لكلّ شيء قيمة ذاتيّة،  
ولا يبعد كذلك ألا يكون لشيء قيمة آليّة، كم مليوناً  
من البشر يلفظون أنفسهم في هذه اللحظة؟! في  
الوقت نفسه يرتفع صوت طفل بالبكاء على فقد لعبة،  
أو صوت عاشق يبتّ الليل والكون متاعب قلبه،  
أضحك أم أبكى؟ قال:

- مناسبة ما قلت عن معركة الآراء العالمية، دعني  
أخبرك بأنّها تتمكّل على صورة مصغّرة في أسرّتنا، في  
ابن أخت من الإخوان، والآخر من الشيوعيين!  
- ينهني أن يكون لها صورة في كلّ بيت، عاجلاً أو  
آجلاً، لم نعد نعيش في قمقم، وأنت ألم تفكر في هذه  
الأمور؟

- قرأت عن الشيوعية ضمن دراسي للفلسفة  
المادّيّة، كما قرأت كتاباً عن الفاشستيّة والنازيّة... .  
- تقرأ وتفهم، مؤرّخ بلا تاريخ، أرجو أن تعدّ يوم  
خروجك من هذا الموقف يوم عيد ميلادك السعيد.  
فاستاء كمال هذه الملاحظة، لأنّها نقد لاذع من  
ناحية، ولأنّها لا تخلو من حقّ من ناحية أخرى، ثمّ  
قال متهمّاً من التعقيب عليها:

- كلّ من الشيوعيّ والإخوانيّ في أسرّتنا على غير  
علم مكيّن بما يؤمن به! .  
- الإيمان إرادة لا علم، إنّ أفنه مسيحيّ اليوم  
يعرف عن المسيحيّة أضعاف ما عرف الشهداء، كذلك  
عندكم في الإسلام... .

- وهل يؤمن بملك من هذه المذاهب؟

- لا شكّ في احتقاري للفاشيّة والنازيّة وكأفّة النظم  
الديكتاتوريّة، أمّا الشيوعيّة فخلقة بأنّ تخلق عالمًا

- آه لو تذكر الآلام التي تتحملها الأم!

فقال أحمد ضاحكاً:

- كيف تطالب الجنين بأن يتذكر يا بابا؟

فقال الرجل مويخاً:

- إذا أردت أن تعترف بالجميل فلا تعتمد على

الذاكرة وحدها...

وانقطع الطلق، وخيم على الحجرة المغلقة السكون

فانجبت الرووس إليها، ومرت فترة نفد صبر عبد

النعيم فقام ماضياً إلى الباب ونقره، ففتح ربع فتحة

عن وجه عذبة المكتنز، فطالعها بمينين متساثلتين،

وهم بإدخال رأسه، ولكنها صدته براحتها وهي

تقول:

- لم ياذن الله بالفرج بعد...

- طال الوقت، ألا يكون طلقاً كاذباً؟

- الحكمة ادري بذلك منأ، اطمئن وادع لنا

بالفرج...

وأغلقت الباب، فعاد الشاب إلى مجلسه بجرار أبيه

الذي علق على قلقة بقوله:

- اهدروه فرأه يحدث ولادة.

وأراد كمال أن يتسل، فخرج من جيبه جريدة

البلاغ حيث كانت مطوية فيه وراح يفتحها، فقال

أحمد:

- أعلنت في الراديو النتائج الأخيرة للمعركة

الانتخابية... (ثم وهو يتسم في سخرية)... ويا لها

من نتائج مضحكة!

فتساءل والده دون اكتراث:

- ما مجموع الناجحين من الوفدين؟

- ثلاثة عشر على ما أذكر!

ثم قال أحمد مويخاً خطابه إلى خاله ياسين:

- لملك مسرور يا خالي إكراً لسرور رضوان؟!.

فقال ياسين وهو يبر منكنية باستهانة:

- لا هو وزير ولا هو نائب، لماذا يسمي من الأمر

كله؟

وقال إبراهيم شوكت ضاحكاً:

- كان الوفديون يظنون أن عهد الانتخابات المزورة

قد انتهى، ولكن شهاب الدين أضرب من أعياه...

كانت شقة عبد النعم شوكت، في حجرة النوم

اجتمعت حول فراش نعيمة أمينة وعذبة وعائشة

وزنوة والحكمة الولدة، أما في حجرة الاستقبال فقد

جلس مع عبد النعم والده إبراهيم وأخوه أحمد وياسين

وكمال، وكان ياسين يداهب عبد النعم قائلاً:

- اعمل حسابك أن تكون الولادة القادمة في غير

هذا الوقت الذي تستعد فيه للامتحان...

كانوا في أواخر إبريل، وكان عبد النعم متعباً بقدر

ما كان منهجاً، بقدر ما كان قلقاً. وكان صوت الطلق

يتنامى من وراء الباب للغلق حاداً يجعل كل معاني

الأم، فقال عبد النعم:

- إن الحمل أتمها جدأ، وبلغ بها درجة من

الضعف لا يتصورها عقل، وكان وجهها لم تعد به

نقطة دم واحدة...

فتجسأ ياسين في ارتباك، ثم قال:

- هذه أمور عادية، وكلهن سواء...

وقال كمال بأساً:

- ما زلت أذكر ولادة نعيمة، كانت ولادة عسيرة

عانت منها عائشة ما عانت، وكنت متألماً، وكنت

واقفاً في هذا المكان مع المرحوم خليل...

فتساءل عبد النعم:

- هل أفهم من هذا أن صر الولادة وراثي؟

فقال ياسين وهو يشير بأصبعه إلى فوق:

- عنده اليس...

فقال عبد النعم:

- جئت بحكمة معروفة في الحي كله، كانت أمي

تفضل إحضار الداية التي ولدتها، ولكني أصريت على

الحكمة، فهي أنظف وأهمر بلا ريب.

فقال ياسين:

- طبياً، ولو أن الولادة بجملتها بأمر الله وعنايته.

فقال إبراهيم شوكت وهو يشعل سيجارة:

- جامدا الطلق في الصباح الباكر، والساعة تدور

الآن في الخامسة مساءً، مسكنة، إنها رقيقة كالخيال،

ربنا يأخذ بيدها.

ثم وهو يردد عينيه الحاملتين في الجبالين عاتية،

وابنيه عبد النعم وأحمد خاصة:

بحكم الطفلة من أشبال عمود وإسماهيل  
صلي... .

ولاحظ كمال أنّ عبد النعم لا يشترك في الحديث  
كمادته، فأراد أن يبرّه إليه فقال:

— لماذا لا نخدّثنا عن رأيك؟

فاجتمع عبد النعم ابتساماً لا معنى لها، وقال:

— دهني اليوم أستعج... .

فضحك ياسين قاتلاً:

— فزوّش حتى لا يهدك المولود واجماً، فيفكر في

العودة من حيث أتى... .

ونذت عن ياسين حركة أدرك كمال منها أنّه يسمّ  
بانتحال عذر للدّلعاب، أجل جاء وقت الفوهة، ونظام  
والسهره عنده لا يمكن أن يغيّر شيء، وفكر كمال في  
الخروج معه حيث لا ضرورة لوجوده، وجعل يراقبه  
متوجّهاً، وإذا بصريّة تنطلق من حجرة نيمية عتيقة  
قاسية تحمل في طياتها أنغام الأحقاد البشرية، وتتاهت  
الصرخات في عنف، وتطلّعت العين نحو باب  
الحجرة، وساد بينهم صمت، حتى همس إبراهيم في  
رجاء:

— لعله الطلق الأخير إن شاء الله... .

حقاً؟ بيد أنّه تواصل حتى وجوا، وامتنع لون عبد  
النعم، ثمّ عاد الصمت مرّة أخرى ولكن إلى حين،  
ودجع الطلق ولكنّه كان خواء، تقلّب به حجرة  
بُحّت وصدر تصدّع فكانه النزح. ودلّت حال عبد  
النعم على أنّه في حاجة إلى تشجيع، فقال له ياسين:

— كلّ ما تسع أحوال مأسوفة في الولاية  
العسيرة... .

فقال عبد النعم بصوت متهدّج:

— العسيرة! العسيرة! ولكن لماذا كانت عسيرة؟

وفُتح الباب فخرجت زوّة ثمّ أغلقت، فتطلّعوا  
إليها، فاقتربت حتى وقفت أمام ياسين وقالت:

— كلّ شيء على ما يرام، فبر أنّ الحكمة زيادة في

الحيلة ترجو أن تحضروا الدكتور سيّد محمد... .

فوقف عبد النعم قاتلاً:

— لا شك أنّ الحال استوجبت إحضاره، خبّري عمتا

بها؟

فقال أحد في امتعاض:

— الظاهر أنّ الاستثناء هو القاعلة في مصر!

— حتى النّسّاس ويكرم قد سقطا في الانتخابات،

أليس هذا هزلاً؟

وهنا قال إبراهيم شوكت في شيء من الحنة:

— لكن لا ينكر أحد أنّها أساء الأدب حيال الملك،

إنّ للحلوك مقامهم، وليس على ذلك النحو تساس

الأمور... .

فقال أحمد:

— إنّ بلادنا في حاجة إلى جرعات قويّة من قلّة

الأدب حيال الملوك، حتى تنفيق من إضالها

الطويل... .

فقال كمال:

— ولكنّ الكلاب يعيدونها إلى الحكم المطلق، تحت

ستار برلمان مزيف، وفي نهاية التجربة ستجد فاروق في

قوّة فؤاد واستبداده أو أشدّ، كلّ هذا يُركب بأيدي

بعض أبناء الوطن... .

فضحك ياسين، وقال وكأنّه يفسّر ويوضّح:

— كمال ولو أنّه كان على صباه من عجم الإنجليز

كشاهين وهندي وثروت وسعيد، إلّا أنّه انقلب وفلّينا

بعد ذلك... .

فقال كمال جاداً، وهو ينظر إلى أحمد خاصّة:

— انتخابات مزوّرة، كلّ شخص في البلد يعلم بأنّها

مزوّرة، ومع ذلك يُمتدّح بها رسمياً ولحكم بها البلاد،

ويعني هذا أن يستقرّ في ضمير الشعب أنّ نزّابه

لصوص سرقوا كراسيهم، وأنّ وزراهم لصوص سرقوا

بالتالي مناصبهم، وأنّ سلطانه وحكومته مزوّرة،

وأنّ السرقة والتزيف والتضليل مشروعة رسمياً، أفلا

يُعلم الرجل العاديّ إذا كفر بالمبادئ والخلق وأمن

بالنزيف والانتهازية؟

فقال أحمد متحمّساً:

— دعهم يحكمون، في كلّ شرّ جانب خير، ومن

الأفضل لشعبنا أن يسلم الخسف من أن يُخلّد بحكم

يحبه ويثق به دون أن يحقّق له... هذا الحكم... أماله

الحقيقيّة، طامنا فُكرت في هذا حتى انتقلت أرخب

فقلت زُتوية بصوت هادئ مؤكّد:

- كلّ شيء على ما يرام، وإذا أردت أن تزيدنا اطمئنانًا فاسرع في إحضار الطبيب...

ولم يُغيخ عبد المنعم وقته فمضى إلى حجرته ليستكمل ملابسه، ومضى في أثره أحمد، ثم خرجا معًا ليأتيا بالدكتور، وعند ذلك قال ياسين:

- ماذا هناك؟

فقلت زُتوية، وقد نمّ وجهها لأزّل مرّة عن قلق:

- تعبة المسكينة كان الله في حوتها.

- والحكيمة ألم تقل شيئًا؟

فقلت زُتوية بتسليم:

- قالت إنها تريد الدكتور...

وعادت زُتوية إلى الحجرة تاركة واماها ظلًا ثقيلًا من القلق...

تساءل ياسين:

- ألهذا الطبيب بعيد؟

فاجابه إبراهيم شوكت:

- في العماره التي فوق قهوتك بالعبه.

ودوت صرخه فانطلقت الألسن، هل عاد أطلق الألام؟ ومعى يحضر الطبيب، ودوت الصرخه مرّة أخرى، فازداد التوقّر، وإذا بياسين يهبط مرتاحًا:

- هذا صوت عائشة!

لأرهقوا السمع، وعرفوا صوت عائشة، فقام إبراهيم في الحجرة ونظر الباب، ففتحت زُتوية بوجه باهت، سالها بلهفة:

- ما لكم؟ مال عائشة هانم؟ أليس من المستحسن أن تغادر الحجرة؟...

فقلت زُتوية وهي تزدد ريقها:

- كلاً... الحال شديده يا سي إبراهيم...

- ماذا حدث؟!

- فجأة، إنّا... انظر...

في أقل من ثانية كان الرجال الثلاثة على باب الحجرة ينظرون. كانت نعمة مغلفة حتّى الصدر، خالتها وجدها والحكيمة حولها في الفراش، أمها واقفة وسط الحجرة تحمّلن في بنتها من بعيد بعينين زائغتين وكأنتها فقدت الوعي، وكانت نعمة مغمضة العينين،

صدرها يعلو وينخفض كأنها قد أفلت زمامه من بيّة الجسد الساكن، أمّا الوجه فأبيض باهت كاللوت.

هفتت الحكيمة: «الدكتور!». وجعلت أمينة تهبط:

«يا ربّ!» وخديجة تنادي بصوت مدهور «نعمة ربي عليّ»، أمّا عائشة فلم تنطق كأنّ الأمر لا يعنيتها في شيء. تسامد كيال «ماذا هنالك؟» وسأل أخاه في ذهول: «ماذا هنالك؟» ولكنّه لم يجبه، أيّ ولادة صيرة؟!

ودار بصره بعائشة وإبراهيم وياسين فتقهقر قلبه في صدره، ليس هنالك إلّا معنى واحد...

ودخلوا الحجرة جميعًا، لم تعد حجرة ولادة وإلّا ما دخلوا، وكانت عائشة في حال بالغ الشدّة ولكنّ أحدًا لم يوجّه إليها كلمة، وفتحت نعمة حينها فبدت منظرًا مقلّمين، وأتت حركة كأنها تريد أن تجلس فأجلستها جدّتها وحوتها في حضنها، شهقت الفتاة، ونذت عنها أمة حميقة، ثمّ بفتة هفتت كأنها تستغيث:

- ماما... أنا ذاهبة... أنا ذاهبة...

ثمّ سقط رأسها على صدر جدّتها، وضجّت الحجرة بالصوات، ولطمت خديجة خديسا، وشهدت أمينة في وجه الفتاة، أمّا عائشة فرمت بناتريسا من النافذة المطلة على السكّرة، وثبتت حينها على ماذا؟ ثمّ تردّد صوتها كالخشرجة:

- ما هذا يا ربي؟ ما هذا الذي تفعله؟، لماذا؟،

لماذا؟، أريد أن أفهم...

واقترب منها إبراهيم شوكت ومدّ لها يده، فأبعدتها بحركة عصبية وهي تقول:

- لا يلجسي متكم أحد، دعوني، دعوني...

ثمّ ردت بصرها بينهم قائلة:

- اخرجوا من فضلكم، لا تكلموني، هل عندكم كلام يجلي؟ لن يضعني الكلام، ماتت نعمة كما ترون، كانت كلّ ما تبقى لي فلم يبق لي شيء في الدنيا، اذهبوا من فضلكم...

كان الظلام حالًا عندما مضى ياسين وكيال في طريقهما إلى بين القصرين، وكان ياسين يقول:

- ما أقتل أن أبلغ والدك الخبر!

فأجاب كيال وهو يحفّف عينه:

- نعم...

الأمر الذي لم ينجح له هذا العام في زجة طلبة القسم الإعدادي. حل أنه لم يسبق له أن وجدها هكذا قريبة منه دون كثرة من الرقباء، فحدثه نفسه بأن يغني إلى رفوف المراجع كأنما ليطلع على أحدها، ثم يبيها في طريقه. وألقى نظرة على ما حوله فرأى حداً من الطلاب متشربين هنا وهناك لا يتجاوز عددهم أصابع اليد، فغلم دون تردد وسار في الممر بين المقاعد، وعندما مرّ بها التقت عينها فحن رأسه تحية مؤدبة، لبدا في ملاعبها وقع المفاجأة، ولكنها ردت تحيته برأسها ونظرت فيما أمامها. وتساءل ترى هل أنعم؟. كلاً إني زميلة منذ عام طويل، ومن واجبه أن يبيها إذا التقيا هكذا وجهاً لوجه في مكان يكاد يكون خالياً. وواصل سيره إلى خزنة الكتب الحاسوبية لدائرة المعارف، ثم اختار مجلداً وراح يقلب صفحاته دون أن يقرأ كلمة. كان سروره برد التحية عظيماً فزايه التعب واهتز صدره تشاكاً. يا لها من حسنة ملأت عليه جوانب نفسه إصجاباً وانجذاباً حتى صارت شغله الشاغل. إن كافة أحوالها تدل على أنها من أسرة كما يقولون، وأغنى ما يمشاه أن يكون لها من كبرياء الطبقة نصيب يخفيه أدبها الجرم، وإنه يستطيع أن يعترف لها - صادقاً - بأنه من أسرة كذلك إذا دعا الأمر، أليس آل شوكت وأسرته؟. بل... وذات ملك، فسيكون له يومًا ريع ومرتب مفا. وافتّر ثغره عن ابتسامة ساحرة، ريع... مرتب... أسرة! إذن فإين مبادؤه؟. وشعر بشيء من الحجل. إن القلب في أهواءه لا يعرف المبادئ، فالتاس يجنون ويتزوجون خارج دائرة مبادئهم ودون مراعاة لها، وعليهم أن يظلوا أنصافهم الجميلة خلقاً جليداً، كمن يدخل بلدًا غريباً فعليه أن يتكلم ببلته حتى يبلغ ما يريد. ثم إن الطبقة والمليكة حقيقتان واقبتان لم يخلقها هو ولا أبوه ولا جدّه، فليس هو بالمستور عنها، والعلم والجهد هما الكفيلان بمحو هذه السخافات التي تفرق بين البشر. من الممكن ربما أن يغير نظام الطبقات، ولكن كيف يستطيع أن يغير الماضي وهو أنه من أسرة مولودة الدخول؟. وههنا أن تتعارض المبادئ الشعبية مع الحبّ الأرستقراطي، وكارل ماركس نفسه تزوج

- لا تلك، أعصابي لم تعد تتحمل...  
فقال كمال متبذلاً:  
- كانت عزيزة جداً عليّ، أنا حزين جداً يا أخي، وعائشة المسكينة...  
- هذه هي الكارثة! عائشة! سنسني جميعاً إلا عائشة!...  
وسنسنني جميعاً؟ لا أدري. إن وجهها لا يغيب عني مدى العمر، ولو أن لي مع النسيان تجربة فلة، هو نعمة كبرى، ولكن متى يجود بيلمسه؟. وعاد ياسين يقول:  
- كنت متشاكاً عند زواجها، ألا تدري؟ لقد تنبأ لها الدكتور يوم مولدها بأن قلبها لن يسعها على الحياة بعد العشرين! والدك يذكر هذا في الغالب...  
- لا أدري شيئاً، أكانت عائشة تدري؟  
- كلاً، إنه تاريخ قديم، ونضاه الله لا بدّ منه...  
- ما أتصلك يا عائشة!...  
- أجل ما أتصلها المسكينة!...

## ٢٥

كان أحمد إبراهيم شوكت جالساً في قاعة المطالعة بمكتبة الجامعة، مكباً على متابعة كتاب بين يديه. لم يكن بقي على الامتحان إلا أسبوع، وكان الجهد قد نال منه كلّ مثال، وشعر بأن شخصاً قد دخل القاعة وجلس خلفه فالتفت إلى الوراء مستظلاً فرأى حلوبة صبري. نعم هي، ولملها جلست تنتظر كتاباً استعارته، وعند تلك الالتفاتة التقت عيناه باليتين السوداوين، ثم أعاد رأسه إلى وضعه الأوّل متشبي القلب والحواس. ما من شك في أنها باتت تصرف شكله، كما تعرف أنه مغرم بها، فمثل هذه الأمور لا تخفى، إلى أنها كلياً التفتت هنا أو هناك - سواء في فصول المحاضرات أم حديثاً الأورمان - وجلته مسترقاً إليها النظر. وقد حال حضورها بينه وبين متابعة ما يقرأ، ولكن فرحته فاقته حتى ما كان يقدر. وكان - منذ أن علم بأنها مستخصص في الاجتاج مثله - يؤمل أن يتمّ التعارف بينهما في غضون العام الدراسي المقبل،

- بكل سرور، ولكن معذرة، متجدين أكثر الدراسات بقسم الاجتماع بالإنجليزية...  
فتساءلت وهي تداري مؤلدة ابتسامة:  
- أتعرف أنني اخترت قسم الاجتماع؟  
ابتسم كأنها ليداري حياءه، ولم يكن ثمة حياء  
ولكنه شعر بأنه «وقع» ولكنه قال ببساطة:  
- نعم!  
- لمناسبة آية مصادفة!  
فقال بجرأة:  
- بل سألت فعلمت...  
وضغطت شفيتها القرمزيتين، ثم قالت وكأنها لم

تسمع جوابه:

- غداً نتبادل المذكرات...  
- صباحاً...  
- إلى اللقاء وشكراً...  
فبادرها:

- لاني سعيد بالتعرف إليك، إلى اللقاء.  
لبث واقفاً حتى واراها الباب ثم جلس. ولحظ أن  
البعض كان ينظر مستطعاً نحوه، ولكنه كان ثملاً  
بالسعادة. ترى أكان حليتها استجابة لما بدا من إعجابه  
بها، أم حاجتها الملحة إلى مذكراته؟ لم تسع قبل  
الساعة فرصة للتعارف. كان يجدها دائماً بصحبة  
الأتراب. هذه أول فرصة، وقد فاز بما تحق طويلاً فيها  
يشبه المعجزة. إن كلمة من ثغر نحب خليفه بأن يحمل  
من كل شيء كلا شيء...

٢٦

بدا ياسين قلقاً رغم إراحته. وكان قد تظاهر طويلاً  
بأنه لا يهتم شيء، لا الدرجة ولا الماهية ولا الحكومة  
نفسها، لا أمام زملائه الموقنين فحسب ولكن حيال  
نفسه أيضاً. إن الدرجة السادسة - إذا رُقي إليها -  
ستزيد مرتبه جنهين لا غيراً. وبما ما ضيق ياسين!  
ويقولون إنها ستجعل منه رئيس قلم بعد سزاجع،  
ولكن متى كان يكتزح ياسين للرايات؟ بيد أنه كان  
قلقاً، خاصة بعد أن استدعى مدير الإدارة محمد

من جيبي فون وستفال خفيصة الدوق برونشويك،  
وكانوا يستونها «الأميرة الساحرة» و«ملكة الرقص»،  
وما هي أميرة ساحرة أخرى ولو رقصت لكانت ملكة  
الرقص. وأعاد المجلد إلى موضعه ثم رجع، وجعل  
ملاً ناظره بما بدا من قاستها، جانب من أهل الظهر،  
وصفحة العنق الرقيق، والفضال المزدان بالشعر  
المعقوص، ما أجمل المنظر، ومز بها خفيفاً إلى مقعده  
وجلس. ولم تخسر دقائق حتى سمع وقع أقدامها  
الخفيفة، فنظر إلى الوراء أسفاً وهو يظنها منصرفه  
ولكنه رآها قادمة، فلما حاذته وقفت بشيء من  
الارتباك، وهو لا يصدق عينه، وقالت:  
- لا مؤاخلة، هل أجد عندك عفاشرات التاريخ؟

نهض كالجنني، وبادر بقول:

- بكل تأكيد...  
فقالت كالمتطرة:

- لم أستطع متابعة الأستاذ الإنجليزي كما يجب،  
لفاتني تعيد كثير من النقط المهمة، وأنا لا أرجع إلى  
المراجع إلا في المواد التي سأخصص فيها فيما بعد، ولا  
يُسع الوقت للمراجعة في سائر المواد...

- مفهوم... مفهوم...

- وقد علمت أن مذكراتك مستوفاة، وأنت أحرمتها  
لكثيرين ليتلقوا منها ما فاههم...  
- نعم، ستكون تحت أمرك غداً...

- متشجرة جداً (ثم وهي تبسم) لا تظن بي  
الكسل، ولكن إنجليزي متوسطة...

- لا بأس، أنا بدوري دون المتوسط في الفرنسية،  
ولمعه نتاح لنا الفرص للتعاون، ولكن معلومة تفضلي  
باجلوس، قد يمسك الاكلعاع على هذا الكتاب،  
مدخل الاجتماع لماكتر...

ولكنها قالت:

- متشجرة، لقد رجعت إليه مرات، قلت إنك دون  
المتوسط في الفرنسية، فلعلمك في حاجة إلى مذكرات  
السيكولوجي؟

فاجاب دون تردد:

- أكون شاكرًا لو تفضلت...

- غداً نتبادل المذكرات؟

- تولد تزهي، كل واحد وقسمته ...

- والكفاءة؟ ...

فقال ياسين متغفلاً:

- الكفاءة؟ هل نقيم جسوراً أو ننشئ عسكيات كهربائية؟، كفاءة! ماذا يتطلب عملنا الكتابي من كفاءة؟. كلانا بالابتدائية، وفضلاً عن ذلك فانا رجل مثقف ...

فضحك إبراهيم أفندي ضحكة ساخرة، وقال:

- مثقف؟ أهلاً يا سي مثقف! ... أنتظن نفسك مثقفاً بالشعر الذي تحفظه؟. أو بالإنشاء الذي تكتب به خطابات الإدارة كأنك تدرّس امتحان الابتدائية من جديد؟. أنا تارك أمري ...

وافترق الرجلان على أسوأ حال، وعاد ياسين إلى مكتبه، كانت الحجرة كبيرة، وضعت الجدران بالرفوف المكتظة بالملفات. وكان البعض مكباً على الأوراق والآخرين يتحدثون ويدخنون، على حين ذهب وجاء عدد من السعاة بالملفات، قال جبار ياسين له:

- ستأخذ ابنتي البكالوريا هذا العام، وسأحضرها بمعهد التربية فارتاح من نائمتها، لا مصروفات ولا تعب قلب في البحث عن وظيفة بعد التخرج.

فقال ياسين:

- غير ما تفعل ...

فسأله الرجل مجادلاً:

- وماذا أعدت لك مرة؟. كم بلغت من العمر على فكرة؟

فابتسمت أسلور ياسين رغم انفعاله، وقال:

- في الحادية عشرة، وسوف تأخذ الابتدائية في الصيف القادم إن شاء الله (وهو بعداً على أصابعه): نحن في نوفمبر قبلي سبعة أشهر بالتمام والكمال ...

- ما دامت تنجح في ابتدائي فستنجح في ثانوي، البنات أضمن اليوم من الصبيان ...

ثانوي؟. هذا ما تريده زنوبة. كلا إنه لا يطيق أن يرى ابنته تسير في الطريق ويندهاشا بستران. ثم المصروفات؟ ...

أفندي حسن - زوج زينب أم رضوان - لمقابلته وكيل الوزارة، وذاع بين موظفي المحفوظات أنّ الوكيل استدعاه ليسمع رأيه في موكلفيه للمرة الأخيرة قبل توقع الكشف الخاص بالترقيات. محمد حسن؟.

خلفته اللدود الذي لولا السيد محمد عفت لبطش به من زمن بعيد! . أمكن أن يشهد له هذا الرجل شهادة طبية؟. وانتظر فرصة خلّو حجرة المدير فخرج إلى التليفون، وطلب كتيبة الحقوق، وكان يتصل بها ذلك اليوم للمرة الثالثة، مستعجلاً رضوان ياسين ...

- آلو، رضوان؟، أنا والدك.

- أهلاً وسهلاً، كل شيء عال.

كان صوته ينم عن ثقة، الابن واسطة للأب ...

- الحركة ومن التوزيع الآن؟

- اطمئن، الوزير نفسه هو الذي أوصى بك، كلمه نواب وشيوخ ووعدهم بكل خير.

- ألا تحتاج المسألة لتوصية أخيرة؟

- أبداً، الباشا هتاني هذا الصباح كما أصدرتك، اطمئن جداً.

- أشكرك يا ابني، سلام عليكم.

- وعليكم السلام يا بابا، مبارك مثقفاً ...

وضع الساعة وغادر الحجرة، فالتقى بإبراهيم أفندي فتح الله - زميله ومنافسه في الدرجة - قادماً يحمل بعض الملفات، فتبادلا التحية في تحفظ، وعند ذلك قال ياسين:

- لكن بيننا مباراة رياضية يا إبراهيم أفندي، ولتقبل النتيجة أيما كانت بشهامة ...

فقال الرجل في امتعاض:

- على شرط أن تكون مباراة شريفة!

- ماذا تعني؟

- أن يكون الاختيار لوجه الله لا لوسطة! ...

- غريب رأيك! وهل يوجد رزق بدون واسطة في هذه الدنيا؟. اسع كما تشاء واسعى كما أشاء، وسأخذ الدرجة صاحب القسمة والنصيب! ...

- أنا أقدم منك ...

- كلانا موظف قديم، سنة لا تقدم ولا تؤخر! ...

- في سنة تولد نفوس وتزهر نفوس!.

- لو صبحت هذه النظرية، لاستحققت همّ حنين  
فراش مكتبة أن يكون وزير المعارف!...

وحارب إبراهيم فتح الله كُتًا بكفت، وقال مسائلاً  
زملائه جميعاً:

- يا إخوان، هذا الرجل (مشيراً إلى ياسين) طيب  
وظريف وابن حلال، ولكن هل يشتغل بكم؟... أنا  
راضٍ بكم...!

فقال ياسين هازئاً:

- دقيقة عمل مني تساوي شغل يوم منك!...  
- الحكاية أن المدير يترقب بك، وأنت تتوكل على  
ابنك في هذا العهد الأغبى...!

فقال ياسين مدججاً في إخطائه:

- وفي كل عهد وحياتك، ابني في هذا العهد، فإذا  
جاء الوفد عندك ابن أخي وأبي، قل من عندك  
أنت؟.

فقال الرجل وهو يرفع رأسه إلى السقف:

- عندي ربنا!...

- وهو سبحانه عندي أيضاً، أليس برّب الجميع؟

- ولكنك لن يرضى عن زبائن همد علي!...

- وهل يرضى عن مدعي الأفون والمنزول؟

- ليس أشبع في الوجود من السكر!...

- الخمر شراب الوزراء والسفراء، ألا تراهم في  
الصحف وهم يشربون الأناجب؟ ولكن هل رأيت  
سياسياً يقدّم قطعة أفون في حفل سياسي في صفة  
عقد معاهدة مثلاً؟

فقال جار ياسين وهو يخالط الضحك:

- حس يا جماعة، وإلا قضيت مدة خدمتكم في  
السجن!.

فبادر ياسين مشيراً إلى غريمه:

- كان يقرني في السجن وحياتك، ويقول لي أنا  
أقلم منك!...

وإذا بمحمد حسن يعود من مقابلة وكيل الوزارة،  
فساد الصمت وتطلعت نحوه الرموس.

والجّه الرجل نحو حبرته لا يلوي على شيء،  
فتداخلوا النظرات متساقلين. لا يبعد أن يكون أحد  
المتخاصمين الآن رئيس قلم، ولكن من صاحب الحظ

- نحن لا نلحق بناتنا بالثانوي، ولماذا؟... إنها  
لن تتوكل!...

فسأل ثالث:

- أخذنا يقال في عام ١٩٣٨؟

- يقال في أسرتنا ولو في عام ١٩٣٨.

فضحك رابع وهو يقول:

- قل إنك لا تستطيع أن تتفق عليها وعلى نفسك  
معاً! قهوة العتبة وخمار عمّد عليّ، وحب البنات  
البحاري هذ مني الحيل. هذه هي الحكاية...

فضحك ياسين ثم قال:

- ربنا سائرهما... ولكن كما قلت لك نحن لا  
نعلم البنت أكثر من الابتدائية...

وتعالت سعة من الركن القصي فيما يلي مدخل  
الحجرة، فالتفت ياسين إلى صاحبها، ثم وقف وكأه  
تذكر أمراً هاماً، فمضى إلى مكتبه حتى شعر الرجل به  
فرفع نحوه رأسه، فبال ياسين فوقه قائلاً:

- وعدني بالوصفة...

فمدّ الرجل أذنه متسائلاً:

- نعم؟...

فتضيق ياسين من أذن الرجل الثقيلة، واستحي  
أن يرفع من صوته وإذا بصوت عجيء من وسط الحجرة  
عالياً وهو يقول:

- أراهم على أنه يسألك عن الوصفة، وصفتك التي  
ستذهب بنا جميعاً إلى القبر...

وتراجع ياسين متربّحاً إلى مكتبه، فقال له الرجل  
دون مبالاة بإحراجيه، وبصوت سمعته الحجرة كلها:

- أنا أقول لك عنها: هات قشر مانجو، اغله غلياً  
شديداً، وادوم على ذلك حتى يصير سائلاً لزجاً  
كالعسل، وخل منه ملقحة على غيار الرقيق...

وضحكوا جميعاً، غير أن إبراهيم فتح الله قال  
متهمّجاً:

- فابق رواق، انتظر حتى تأخذ الدرجة السادسة  
وهي تشدّ حيلك؟...

فتسائل ياسين ضاحكاً:

- وهل تنفع الدرجة في هذه المسألة؟...

فقال جار ياسين ضاحكاً أيضاً:



فاستاء ياسين بالتعريض بسريته، وقال:  
- لا أقبل أن يمس إنسان سلوكي الخاص بكلمة،  
أنا حر خارج الوزارة...  
- وداعها؟

- سأعمل ما يجعله رؤساء الأقسام، أنا اشتغلت في  
ماضي ما يكفي طوال العمر...  
عاد ياسين إلى مكتبه متكلفاً الابتسام رغم جيشان  
صدره بالغضب، وذاع النبا فطلق التهاني...  
وكان إبراهيم فتح الله يميل على أذن جاره هامساً في  
خفد:  
- ابنه... هذه هي الحكاية! عبد الرحيم باشا  
عيسى... فهمت؟... اسفخص...!

## ٢٧

كان السيد أحمد عبد الجواد جالساً على كرسي كبير  
في المشربية ينظر إلى الطريق حيناً، وحيناً في جريدة  
الأهرام المبسوطة على حجره، وكانت ثوب المشربية  
تمكس على جلبابه الفضفاض وطائفته نطقاً من  
الضياء، وقد ترك باب حجرته مفتوحاً ليتنغمس من  
سماع الراديو القائم في الصالة، خير الله بدا ناحلاً  
ضامراً، كما لاحظت في عينه نظرة ثقيلة تنم عن  
استسلام حزين. وكان كأنما يكتشف الطريق - من  
مجلسه بالمشربية - لأول مرة في حياته، فلم يسبق له أن  
رأه من هذه الزاوية في أيام حياته الماضية، إذ إنه لم  
يمكث في البيت إلا ساعات النوم على وجه التقريب،  
لأن اليوم فلم تعد له من تسليته - بعد الراديو - إلا هذه  
الجلسة في المشربية، ينظر من ثقبها شمالاً وجنوباً،  
وإنه لطريق حي، مسلّ لطيف، وله إلى هذا طابعه  
الذي يميّزه عن طريق النحاسين الذي ألف رؤيته من  
دكانين حسنين الحلاق ودروش الغوال والغولي اللبان  
ويومي الشرباتي وأبو سريع صاحب اللقي، تقوم في  
الطريق كالفسات في الوجه حتى عُرف بها وعُرفت به،  
أي عشرة وأبي جوار، ترى ما أهال هؤلاء الناس؟  
حسنيين الحلاق ملمج الحلق، من نوع قل أن يسبو

السعيد؟! وفتح باب المدير، وظهر رأسه الأصلع وهو  
ينادي بصوت جلف «ياسين أفندي». فنهض ياسين  
بجسمه الضخم، ومضى نحو الحجرة وقلبه يخفق،  
وتنحّصه المدير بنظرة غريبة ثم قال:

- وُقيت إلى الدرجة السادسة!...  
فقال ياسين وقد انشرح صدره:  
- شكراً يا أفندي!...  
فقال الرجل بلهجة لا تخلو من جفاف:  
- من الإنصاف أن أصارحك بأنّه يوجد من هو  
أحقّ بها منك... ولكنّها الوساطة!  
فغضب ياسين، وكان كثيراً ما يغضب حيال هذا  
الرجل، وقال:

- الوساطة! ما لها؟ هل تتم حركة كبيرة أو صغيرة  
دون وساطة؟ هل ترقى مخلوق في هذه الإدارة، في هذه  
الوزارة، بما يفهم حضرتك، دون وساطة؟  
فكظم الرجل غيظه، ثم قال:

- لا يأتي من ناحيتك إلا وجع الدماغ، تترقى  
بدون وجه حق، ثم تتور لأقلّ ملاحظة عادلة، ما  
عليها، مبارك، مبارك يا سيدي، فقط أرجو أن تشدّ  
حيلك، أنت الآن رئيس قلم!...

فتشبع ياسين بتراجع المدير، وقال دون أن يخفّف  
من حدته:

- أنا مولّف منذ أكثر من عشرين عاماً، وعصري  
إنسان وأربعون عاماً، فهل تستكثر عليّ الدرجة  
السادسة؟ إنّ الغلمان يمتنون فيها بعمّدهم فخرّهم من  
الجامعة!...

- المهمّ أن تشدّ حيلك، أرجو أن اعتمد عليك  
كبقيّة زملائك، فقد كنت وأنت ضابط مدرسة  
النحاسين مثال المولّف المجذّب، ولولا تلك الحادثة  
القديمية...!

- شيء قديم فلا داعي للذكره الآن، وكلّ واحد له  
أخطائه...!

- أنت الآن في سنّ الرجولة الناضجة، فإذا لم  
يستقم سلوكك تملّز عليك أن تقوم بواجبك، كلّ  
ليلة سهر، فبأنّي متى تعمل في الصباح؟ أريد أن  
تبض بالإدارة، هذا كلّ ما هنالك!...

المصحف، واسمع الراديو وانعم بأسرتك، ويوم الجمعة زر الحسين راجياً، حسبك هذا!، الأمر لصاحب الأمر، متولي عبد الصمد لا يزال يتخبط في الطرقات!، ويقول وانقَمْ بأسرتك! لم تعد أمينة تمكث في البيت، انقلبت الآية، أنا في المشربية وأمنية تجول في القاهرة من مسجد إلى مسجد، كمال يجالسني خفيّاً كالضيف، عائشة؟ أه يا عائشة، أمن الأحياء أنت أم من الأموات؟ ثم يرسلون من قلبي أن يسبوا ويستريح!...

- سيدي...

والثقت إلى الوراء صوب الصوت، فرأى أم حنفي حاملة صينية صغيرة عليها قارورة الدواء وفنجان قهوة فارغ وكوب ماء مملوء لتصفه.

- الدواء يا سيدي...

رائحة المطبخ تتطاير من ثوبا الأسود، هذه المرأة التي صاوت مع الزمن واحدة من أسرتنا. وتناول الكوب وسلا الفنجان حتى نصفه، وفضّ سدّاد القارورة ونظّط منها أربع نقط في الفنجان، وقلّص وجهه قبل أن يتقلّص من طعم الدواء، ثم تجرّعه.

- بالشفاء يا سيدي...

- متشكر، أين عائشة؟

- في حجرتها، الله يصبر قلبها!

- ناديا يا أم حنفي...

في حجرتها، أو على السطح، ثم ماذا؟. وكان الراديو ما زال يذيع أغانيه ساعراً من حزن البيت الصامت ولم يكن السيّد اضطرّ إلى ملازمة البيت إلا منذ شهرين، وكان قد مضى على وفاة نعمة عام وأربعة أشهر، فاستأذن الرجل في سماع الراديو لحاجته الملحة إلى التسلية، فقالت له عائشة: وطبعاً يا بابا، ربنا يكفيك شرّ قسلة البيت. وسمع حفيف ثوب فالتفت فراها قابعة في ثوب أسود، متشعبة بخيار أسود وضم حرارة الجوّ، تشوب بشرتها البيضاء زرقة غريبة، عنوان التعاسة يا ابنتي، قال برقة:

- هاتي الكرسى واجلسي معي قليلاً.

ولكنّها لم تتزحزح عن موقفها قائلة:

- مرناحة هكذا يا بابا.

عليه أثر الزمن، لم يكذّ يتنخّر منه شيء إلا شعره، ولكنّه جاوز الخمسين بلا ريب، من لطف الله بؤلاء الناس أنّه يحفظ عليهم صحتهم! ودرويش؟. أصلح، هكذا كان دائماً، ولكنّه في السّتين، ما أقوى جسمه! كذلك كنت أنا في السّتين، ولكنّي أصبحت في السابعة والسّتين فما له من عمرا. وأعدت تفصيل ثيابي لتتناسب ما تبقى من جسدي، وإذا نظرت إلى هذه الصورة المعلقة في حجرتي أنكرت نفسي. القولبي أصغر من درويش، ذلك الأعمش المسكين، ولولا غلامه ما عرف كيف يتنحى إلى سبله، أبو سريع رجل عجوز، عجوز! ولكنّه ما زال يعمل، لم يفارق واحد منهم دكانه، ألا إنّ فراق الدكان لشديد! ثم لا يبقى لك إلا هذا المجلس، والقبوع في البيت ليل نهار، لو استطعت أن أخرج ساعة واحدة كلّ يوم! ولكن عليّ أن أنتظر يوم الجمعة، ثم لا بدّ من العصا، ولا بدّ من كمال ليسبحني، الحمد لله ربّ العالمين، يسومي أصبرهم وأسدعهم خطاً، من أم مريم بدءاً، أنا أنا فعندما انتهيت، وهو اليوم مالك أحدث حمارة في الحيز، هكذا كان مصير بيت السيّد وضوان، أنشأ هذا المشرب المضاء بالكهرباء، حطّ وجعل يبدأ بخداع اسرعة، سبحان الماطي وجلّت حكمته! كلّ شيء يتجدّد، الطريق ممهد بالأسفلت، وأهني بالمصابيح، أنذكر ليالي عودتك آخر الليل في الظلام الدامس؟ لكن أين متّي هاتيك الليالي؟ وفي كلّ دكان كهرباء وراديو، كلّ شيء جديد، إلا أنا، عجوز في السابعة والسّتين، لا يستطيع مغادرة داره إلا يوماً واحداً في الأسبوع وهو يلهث. القلب! كلّ من القلب، القلب الذي ظلّا عشق وظلّا ضحك وظلّا انبسط وغنى، يقضي اليوم بالعودة ولا راداً لقضائه. قال الطبيب وخذ الدواء والزم البيت واتبع نظامي الغذائي»، حسن، ولكن هل يعيد ذلك إليّ قوّتي؟... أهني بعض قوّتي؟ فأجاب الطبيب وحسبنا أن نغني المضاعفات، ولكنّ الجهد أو الحركة شيء خطير... (ثم ضاحكاً)...

لماذا تريد أن تستردّ قوّتك؟ أجل لماذا؟ إنّه لشيء عجز مضحك ممّا، ومع ذلك قال «أريد أن أذهب وأجيء» فقال الطبيب، ولكلّ حال مسراتها، جلسة هادئة، اقرأ

معتقاً، وعلى وجهها يشة، وتظل خطاطما في بعل.  
شد ما ركبها الكبر. كان يحسن الظن بصحتها متذكراً  
أما المعترّة، ولكن ها هي تبدو أكبر من سنّها - اثنين  
وستين عامًا - بعشرة أعوام على الأقل، ومرّ وقت غير  
قصير قبل أن تدخل عليه وهي تسامل:

- كيف حال سيدي؟

فقال بصوت مرتفع نفخ فيه نبرات الحدة المطلوبة:

- كيف حالك أنت! ما شاء الله! إن طُلعة الصبح

يا ولبة!؟

فابتسمت قائلة:

- زرت سيّدتك، وزرت سيّدك، ودعوت لك

وللجميع...

عادته بعودتها طمأنينة وسلام، وبشر بأنه يستطيع  
الآن أن يطلب ما يشاء دون حرج:

- أبيض أن تركني وحدي كلّ هذا الوقت!؟

- أنت أذنت لي يا سيدي، لم أذهب طويلاً، ولكنّها

الضرورة يا سيدي، ما أحوجنا إلى الدماء، تولّست

إلى سيدي أن يرّد إليك صحتك حتّى تروح وتغدو كما

تشاء، كما دعوت لعائشة وللجميع...

وجاءت بكريمي وجلست، ثمّ سألت:

- هل تناولت الدواء يا سيدي؟ أنا نُهت على أمّ

حنفي...

- ليتك نُهتها على شيء أحسن!

- بالشفا يا سيدي، سمعت في المسجد درساً جيلاً

من الشيخ عبد الرحمن، تحدّث يا سيدي عن الكفّارة

عن اللذّب وكيف تمسح السيّات، كلام جميل جدّاً يا

سيدي، ليتني أستطيع أن أحفظ كآيām زماناً...

- وجهك شاحب من الشّي، كلّها كم يوم

وتصبحين من زبائن الدكتور...

- ربّنا الحافظ، أنا لا أخرج إلّا لزيارة آل البيت،

فكيف يقع لي سوء!؟

ثمّ متدركة:

- آه يا سيدي، كدت أنسى، يتحدثون في كلّ

مكان عن الحرب، يقولون إنّ منار هجم...

تسامل الرجل باهتمام:

- متأكّدة؟...

علمته الأيام الأخيرة ألاّ يحاول أن يعسل بها عن رأي.

- ماذا كنت تفعلين؟

فقال دون أن ينمّ وجهها عن أيّ معنى:

- لا شيء أفعله يا بابا.

- لماذا لا تخرجين مع نيتك لتزوي الأضرحة

المباركة، اليس هذا أفضل من بقاءك هنا وحدك؟

- ولماذا أزور الأضرحة؟

وكأنّها فوجئ بقولها، بيد أنّه قال بهدوء:

- تتوسّلين إلى الله أن يصبر قلبك.

- الله هنا معنا في البيت!

- طبعاً، أقصد أن تركي هذه العزلة يا عائشة،

زوي أمتك، زوي الجيران، زوّحي صن

نفسك...

- لا أستطيع أن أرى السكزية، ولا معارف لي، لم

يعد لي معارف، لا أطيق زيارة أحد...

قال الرجل وهو يولي عنها رأسه:

- أحبّ أن تصبّري، وأن تنهّي بصحتك...

- صحتي!...

قالتها لبها يشة العجب، فقال بتوكيد:

- نعم، ما فائدة الحزن يا عائشة!؟...

فقال وتكانت رغم حالها تحافظ على الأدب الذي

تعوّدت أن تلتزمه حياله:

- وما فائدة الحياة يا بابا؟

- لا تقولي هذا، إنّ أجرك عند الله عظيم!...

فحنت رأسها لتخفي عينيها الدامعتين، وقالت:

- أودّ أن أذهب عنده لأنّ هذا الأجّر، ليس هنا يا

بابا!...

ثمّ انسحبت برقّة، وقبل أن تغادر الحجرة توقّفت

قليلاً كأنّها تذكّرت أمراً، فسألت:

- كيف صحتك اليوم؟

فابتسم قائلاً:

- الحمد لله، المهمّ صحتك أنت يا عائشة...

وغادرت الحجرة، من أين تأتية الراحة في هذا

البيت!؟ وراح يردّد بصره في الطريق حتّى ثبت على

أمنية وهي راجعة من جولتها اليومية، كانت ترتدي

الدرجة السادسة، على حين يتعين تحريجو الجامعات في  
الدرجة الثامنة الكتائية، وقد حصل عبد المنعم على  
الليسانس في نفس التاريخ، ولكنه لم يكن يدري ما  
الصير، قالت خديجة باسمه، وكانت تشعر بشيء من  
الغيرة:

- رضوان صديق الحُكَّام، ولكنَّ العين لا تملو على  
الحاجب...

فقال ياسين في سرور لم يفلح في مداراته:  
- ألم تروا صورته مع الوزير في أهرام أمس؟...  
بتا لا ندري كيف تكلمه!...

فاشار إبراهيم شوكت إلى عبد المنعم وأحد قائلًا:  
- هذان الولدان غاليان، ضِعْما عمرهما في مناقشات  
حادة لا معنى لها، وكان خير من عرفا من رجالات  
البلد الشيخ علي المتوفي ناظر مدرسة الحسين الأولى،  
وسخام البرك علي كرم صاحب مجلة الضوء أو  
الحباب لا أدري!

وكان أحد ساخكا وإن بدا طبعيا. آثاره زهو خاله  
ياسين كما آثاره تعليق والده، أما عبد المنعم فقد غطى  
ما كان يتظنه من وراء هذه الزيارة الجامعة على  
الغضب الذي كان غليظا أن يشتعل في صدره في  
ظروف أخرى. وكان يسترق النظر في وجه رضوان  
متسائلا عما وراءه، غير أنَّ قلبه استشرخ خيرا بالزيارة،  
فلعلها لم تكن تقع لولا أنها تحمل البشري. وعاد  
ياسين يقول معلقا على كلام إبراهيم:

- لو سألتني عن رأيي لقلت لك يُثم الولدان! ألم  
يقولوا في الأمثال: السلطان من ابتعد عن باب  
السلطان؟

كلَّام يفلح ياسين في مداراة سروره، كما لم يفلح  
في إقناع أحد بإيمانه بما قال، غير أنَّ خديجة قالت  
مشيرة إلى رضوان:

- ربنا يطعمه خيرهم ويكفيه شرهم...  
وأخيرا التفت رضوان إلى عبد المنعم قائلًا:

- أرجو أن اهتُكَّ عما قريب...  
فتطلع إليه عبد المنعم متسائلا وقد تورَّد وجهه،  
فعاد رضوان يقول:

- وعلمي الوزير بأن يميَّك في إدارة التحقيقات...

- سمعتها بدل المَرَّة مائة مَرَّة، هلتر هجم... هلتر  
هجم...

فقال الرجل لثُفهمها أنَّها لم تسبقه بالأخبار:

- كان هذا متوقفا من لحظة لأخرى...

- بعيد عَنَّا إن شاء الله يا سيدي؟...

- قالوا هلتر فقط؟ وموسوليني؟ ألم تسمعي هذا  
الاسم؟...

- اسم هلتر فقط...

- ربنا يلطِّف بنا، إذا سمعتم نداء عن ملحق  
البلاغ أو المفكَّم فاشتروه...

فقالت المرأة:

- كأيَّام خليم وزبلن، أتذكر يا سيدي؟. سيحان  
من له الدوام!...

## ٢٨

كانت زيارة جامعة وذات معنى كما قالت خديجة فيما  
بعد، فعندما فُتح باب الشقة ملا فراهه ياسين في بلدة  
بيضاء من تيل الحلة، تتقدَّمه الوردة الحمراء والمنشقة  
العاجية، يكاد جسمه الضخم يذبح الهواء بين يديه،  
وتبعه ابنه رضوان في بلبلة الحريرية آية في الأناقة  
والجمال، ثم زُوبة في ثوب سنجابي تملؤها الحشمة  
التي صارت جزءا لا يتجزأ منها، وأخيرا كريمة في  
فستان أزرق يديع كشف عن أعلى النحر والذراعين،  
وقد تبلورت أنوثتها للبكرة - لم تكن تزيد عن الثالثة  
عشرة - فبلدت جانبيَّتها صارخة. وضمتهم حجرة  
الاستقبال مع خديجة وإبراهيم وعبد المنعم وأحد،  
وسرعان ما قال ياسين:

- أسمعتم عن شيء كهذا من قبل؟ ابني سكرتير  
الوزير الذي أتى في وزارته بجمرد رئيس قلم في  
المحفوظات، تَنَبَّأ له الأرض إذا سار، وأنا لا يكاد  
يشعر بي إنسان!

كان مدلول كلامه الاحتجاج، ولكن لم يجفَّ على  
أحد ما انطوت عليه نفسه من تيه وفخار بانه. وفي  
الحق قد حصل رضوان على الليسانس في مايو من هذا  
العام، وما لبث أن تعيَّن في يونيه سكرتيرا للوزير، في

- قعدة البيت لعنة، إلّا من كان صاحب ملك لهو سلطان! ...

فقال أحمد وفي عينيه بسة خيبة:

- خلالي ياسين صاحب بك، ولكنّه صاحب وظيفة أيضًا! ...

فضح ياسين ضحكة عالية، وقال:

- صاحب وظيفة ويس من فضلك، أنا الملك! كان يا ما كان، كيف يحفظ يملكه من كان له أسرة كاسري!؟

فهتفت زُتوية في ارتياح:

- أسرتك!؟

والثفت رضوان - قاطعًا الحديث الذي لا يجيّه - إلى أحمد قائلاً:

- إن شاء الله نجعلنا في خدمتك في العام المقبل عندما تأخذ اللباس! ...

فقال أحمد:

- أشكرك جدًّا، لكنّي لن أتولّف! ...

- كيف؟ ...

- الوظيفة خفيفة بقتل أمثالي، مستقبلي في الميدان الحر! ...

ومّت خديجة بالاحتجاج، ولكنّها ألّفت تساجيل العراك إلى حبه، أمّا رضوان فقال بأسًا:

- إذا غيّرت رأيك فستجدني في خدمتك!

فرفع أحمد يده إلى رأسه شاكراً. وجاءت الخدام بأكواب الليمون الثلّجة، وفي فترة الصمت التي جعلوا فيها يحسون، حانت التفاتة من خديجة نحو كريمة فكانما كانت تراها لأول مرّة منذ إفاقتها من مسألة عبد المنعم، فقالت برقة:

- كيف حالك يا كريمة؟

فأجابتها الفتاة بصوت فيه رخامة:

- بخير يا عمّي، متشكّرة ...

وكادت خديجة تأخذ في إطراره جامها، ولكنّ شيئاً كالخدر - أوقفها. الواقع أنّها لم تكن أوّل مرّة نجيها زُتوية معها من حجوزت في البيت بعد أنحلها الابتدائيّة. وقالت خديجة لنفسها إنّ غلب الأمور تُنمّم

كانت أسرة خديجة تتربّع على هف هذا التفرير، فرجّزت أبصارهم في رضوان، طالبة المزيد من التأكيد، فمضى الشاب يقول:

- أوّل الشهر القادم على أكثر تقدير ...

وقال ياسين معقّباً على قول ابنه:

- إنّها وظيفة قضائيّة، لقد عيّنّ عندنا في إدارة المحفوظات شابان من حملة الليسانس في الدرجة الثامنة بثانوية جنهات!.

وكانت خديجة هي التي طليت من ياسين أن يكلم ابنه بشأن عبد المنعم، فقالت في امتنان:

- الشكر لله ولك يا أخي (ثمّ) وهي تلتفت إلى رضوان وطبعًا جميل رضوان فوق رؤوسنا ...

وأمن إبراهيم على قولها قائلاً:

- طبعًا، إنّهُ أخوه، ونعم الأخ.

وقالت زُتوية بأسمة، لكي تخرج من هامش الجلسة:

- رضوان أخو عبد المنعم وعبد المنعم أخو رضوان، ما في ذلك كلام.

وتساءل عبد المنعم الذي كان يشعر بحياء لم يشعر به من قبل حيال رضوان:

- أعطاك كلمة جدّيّة؟

فقال ياسين باهتمام:

- كلمة وزير! ... إلني متّيح المسألة!

وقال رضوان:

- وأنا من ناحيتي سأفكّل لك الصعاب في إدارة المستخدمين، ولي فيهم أصدقاء كثيرون، ولو أنّ مولّغي المستخدمين لا صديق لهم!

فقال إبراهيم شوكت وهو يتبّد:

- الحمد لله. لقد أراحنا الله من الوظيفة والمولّفين! ...

فقال ياسين:

- عشت ملكًا يا أبا خليل ...

ولكنّ خديجة قالت متهمّة:

- ربّنا لا يحكم على أحد بقعدة البيت! ...

وتدخلت زُتوية مجاملة كعادتها، فقالت:

أيها، وهكذا كانت تخاطب عمك جئك! .  
 فقالت خديجة متهمّة:  
 - المسألة تتوقّف على الآباء حقاً! ...  
 فبادرتها زُتوبة قائلة:  
 - البنت معذورة، آه لو سمعت حديثه بين  
 أولاده! .

فقالت خديجة:  
 - أنا عارفة وفاهمة! ...  
 فقال ياسين:  
 - أنا رجل له آراؤه في التربية، أنا الأب الصديق،  
 لا أحب أن يرتعد أبنائي خوفاً في عشري، أنا حقّ  
 اليوم ينتابني الارتباك أمام أبي! ...  
 فقال إبراهيم شوكت:  
 - الله يقوّيه ويصمّره على قاعدة البيت! السيّد أحمد  
 جيل وحده، وليس مثله أحد في الرجال! ...

فقالت خديجة متطلعة:  
 - قل له! .  
 فقال ياسين كالمتلّز:  
 - أبي جيل وحده، وأسفاه أصبح هو وأصحابه  
 قصيدي بيوتهم، ولم تكن الدنيا لتسمهم على  
 رحابها! ...

وكان رضوان يقول لأحمد في حديث جانبي  
 مستقلّ:

- بدخول إيطاليا الحرب أصبح الموقف بالنسبة لمصر  
 شديد الخطورة! ...

- ربّما تحوّلت هذه الغارات الإسميّة إلى غارات  
 فعلية! ...

- ولكن هل لدى الإنجليز قوّة كافية لصدّ الزحف  
 الإيطاليّ المتروّع؟ لا شكّ أنّ هتلر سيرتك مهمة  
 الاستيلاء على قناة السويس لموسليبي! ...

فتساءل عبد المنعم:  
 - هل تقف أمريكا مقترّجة؟

فقال أحمد:  
 - مفتاح الموقف الحقيقي في يد روسيا! .

- لكنّها حليلة هتلر؟ ...  
 - الشيوعية عدوة النازية، ثم إنّ الشرّ الذي يتهدّد

في الهواء شيئاً! . وإنّ كريمة إذ كانت ابنة زُتوبة فهي في  
 الوقت نفسه ابنة ياسين، ومن هنا نحى دقّة المسألة! .  
 ولم يكن حيد المنعم يوفي كريمة حقّها من النظر لانشغاله  
 بموضوعه، ولكن كان يعرفها حقّ المعرفة، على أنّه لم  
 يكن قد برأ كلّ البرء من أثر وفاة زوجها، أمّا أحمد فلم  
 يكن في فؤاده متّسع! وقال ياسين:

- كريمة ما زالت أسفة على عدم التحاقها بالمدرسة  
 الثانوية! .

فقالت زُتوبة مقطّبة:  
 - وأنا أسفة أكثر! ...

فقال إبراهيم شوكت:  
 - إليّ أشفق على البنات من جهد الدراسة، ثم إنّ

البنت في النهاية ليبتها، فلن يمض عام أو آخر حتى  
 تزوّج كريمة إلى صاحب القسمة السعيد! ...

يا مقطوع اللسان، هكذا قالت خديجة لنفسها،  
 يفتح المواضيع الخطيرة وهو في غفلة عن نتائجها، يا له

من موقف! . كريمة ابنة ياسين وأخت رضوان صاحب  
 الفضل، لعلّه لا يكون لهذا القلق من سبب إلّا

الوهم!، ولكن لماذا تكثر زُتوبة من زيارتنا جازئة في  
 بلدها كريمة؟ ياسين لا يسمح له وقته بالتفكير

والتدبير، أمّا ربيعة التخت! ...  
 وقالت زُتوبة:

- هذا الكلام كان يقال في الزمن الماضي، أمّا اليوم  
 فالبنات كلّهنّ يذهبن إلى المدارس! ...

فقالت خديجة:  
 - في حاروتنا بستان في المدارس الصالية، ولكنّ

شكلهما والعباد بالله! ...  
 فسأل ياسين أحمد:

- أليس في بنات كلّيتك جمال؟  
 وخفق قلب أحمد، وتعلّمت لعينه الصورة الممتّعة

في قلبه، ثمّ أجاب:  
 - حبّ الولم ليس قاصراً على الدميّات! ...

فقالت كريمة باسمه، وهي تنظر صوب أبيها:  
 - المسألة تتوقّف على الآباء! .

فضحك ياسين قاتلاً:  
 - عفارم يا ابنتي! فكذلك تتحدّث البنت الطيبة عن

التي كانت من سكان المعادي. وألقى نظرة على الحديقة فرأى مائدة طويلة ممتدة في أرض فضاء معشوبة، تكتفها من الجانبين أشجار الصفصاف والنخيل، وقد صُغت فوقها أبريق الشاي وأربعة اللبن وأطباق الحلوى. ثم سمع طالبًا يتساءل:  
- نلزم بالآداب الإنجليزية أم نقف على المائدة كالنور؟

فاجابه آخر فيها يشبه الأمف:

- آه لو لم توجد لادي فورستر!

كان الوقت أصيلًا، ولكن الجو كان لطيفًا رغم شخصية يونيه الثقيلة، ثم ما لبث أن لاح السرب المنتظر عند مدخل القلعة. جئن مُمَّا كائنٌ على معاد، وكان أيضًا من جملة الطالبات بالقسم وسدت علوية صبري وهي تخطر في فستان ناصع البياض مهفف، جعل من كائنات اللطيف لونًا واحدًا بديعًا فيها عدا الشعر الأسود الفاسم، وعند ذلك شعر أحمد بقدم هائلة تحك بقدمه كأنها تنهيه إن كان في حاجة إلى من ينهيه، وكان سره قد ذاع من زمن... وتابعه حتى استقر بين المجلس في ركن أعلى من بالفراندا، ثم جاء مستر فورستر وزوجه، وقالت الزوجة موجهة الخطاب إلى الطلبة، وهي تشير إلى الفتيات:

- هل تحتاجون إلى تعارف؟

فارتفع الضحك، وقال الأستاذ وكان ذا شخصية

فاخرة رغم مشاركته الخمسين:

- الأجدر أن تعرفهم بي أنا!

وضجوا بالضحك مرة أخرى، حتى عاد مستر فورستر يقول:

- في مثل هذا الوقت من كل عام كنا نغادر مصر إلى إنجلترا لقضاء العطلة، هذه المرة لا ندرى إن كنا سنرى مصر مرة أخرى أم لا...!

فقاطعت زوجته قائلة:

- ولا حتى إن كنا سنرى إنجلترا...!

وأدركوا أنها تلعب إلى خطر الغواصات، فقال لها أكثر من صوت:

- حط سعيد يا سني...!

وعاد الرجل يقول:

العالم بانتصار الألمان أضعاف ما يتهدده بانتصار الديموقراطيات...  
فقلت خديجة:

- اظلموا لنا الدنيا يظلم عيشتهم، وما هذه الأشياء التي لم نعرفها من قبل؟... صمائر إنذارا...  
مدافع مضادة... كشافات، مصائب تشب الإنسان قبل الألوان!

فقال إبراهيم في سخرية هادئة:

- على أي حال الشيب في بيتنا ليس قبل

الألوان...

- هذا عندك أنت وحك!

كان إبراهيم في الخامسة والستين، ولكنه يبدو بالقياس إلى السيد أحمد - الذي لم يكن يكبره إلا بثلاث سنوات - كأنما يصغره بعشرات السنين.

وعند انتهاء الزيارة، قال رضوان لعبد المنعم:

- زولي في الوزارة.

وكما أغلق الباب وراء الداهيين، قال أحمد لعبد المنعم:

- خذ بالك أن تدخل عليه دون استئذان، ادرس

كيف تزور سكرتير وزير!

فلم يبه ولم ينظر ناحيته...

## ٢٩

لم يجد أحمد مشقة تذكر في الاهتداء إلى فيلا مستر فورستر - أستاذ علم الاجتماع - بالمعادي. وقد أدرك حال دخوله أنه جاء متأخرًا بعض الوقت، وأن كثيرًا من الطلبة الذين دُعووا مثله إلى الحفل الذي أقامه الأستاذ لمناسبة سفره إلى إنجلترا قد سبقوه إليه، واستقبله الأستاذ ورحمه، وقد قلّمه إليها باعتباره طالبًا من غير طلبة القسم، ثم مضى الشاب إلى حيث جلس الطلبة في الفراندا، كان المجلس يتكوّن من طلبة قسم الاجتماع كافة، وكان أحمد ضمن القلة المنقولة للسنة النهائية، يشاركهم ذلك الشعور بالامتياز والتفوق. ولم تكن واحدة من الطالبات قد حضرت، ولكنه كان مطمئنًا إلى جبهته، أو إلى عي - وصديقه

الشيء بعد!  
ومال مستر فورستر هل أذن أحمد - وكان يجلس إلى يساره - رساله:

- كيف تخفي المظلة؟ أعني ماذا تقرأ؟  
- كثيرًا في الاقتصاد وقليلًا في السياسة، وأكتب بعض المقالات في المجلات.

- أنصحك بأن تقلّم في الماجستير بعد الليسانس.  
فقال أحمد بعد الانتهاء ممّا في فيه:  
- ربّما فيما بعد، سأبدأ بالعمل في الصحافة، هذه خطّتي من قديم.  
- حسن!

الصديقة العزيزة تحدث لادي فورستر بطلاقة، ما أسرع ما أتقنت الإنجليزية، والورود والأزهار تنضج بالحمرة والألوان كما ينضج القلب بالحبّ، في عالم الحرّة يزدهر الحبّ كالأزهار، الحبّ لا يكون عاطفة صحيحة طبيعيّة إلّا في بلد شيوعي. وقال مستر فورستر:

- من المؤسف أنّي لم أستكمل دراستي لآلئة العربية، كنت أودّ أن أقرأ مجنون ليل دون مساعدة أحد منكم!

- المؤسف أنّك ستقطع عن دراستها...

- إلّا إذا سمحت الظروف فيما بعد...

وربّما وجدت نفسك مضطّرًا إلى تعلّم الألمانية، إلّا يكون مضحكًا لو شهدت لندن مظاهرات تطالب بالجلاء ويهتف له؟ في أخلاق الإنجليز الشخصية فتنة، أمّا فتنة الصديقة العزيزة فمن نوع لا مثيل له، هيّا قليل تغيب الشمس فيجمعنا الليل في مكان واحد لأوّل مرّة، وإذا لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام عليّ! وسأل أستاذة:

- وماذا أنت فاعل عقب وصولك إلى لندن؟

- دُعيت للعمل في الإذاعة.

- إذن لن ينقطع عنّا صوتك.

وجاملة تفتقر في هذا المجلس الذي تزينته صديقتي، إنّنا لا نسمع هنا إلّا الإذاعة الألمانية، شعبنا يحبّ الألمان ولو على سبيل الكراهية للإنجليز، والاستعمار أهل مراحل الرأسمالية، اجتباها باستاذنا يخلّق موقفًا

- ساحل معي ذكريات جميلة من حياتنا المشتركة في كلّية الآداب، وعن مقاطعة المعادي الهادئة الجميلة، وعنكم أنتم اللّين ساعتر حقّ ببلدكم!  
فقال أحمد بجملاً:

- أمّا ذكراك فستبقى في نفوسنا دوائماً، ونتمو بنموّ عقولنا...

- شكراً... (ثمّ غاطباً زوجه وهو يبتسم)...  
أحمد شابّ جامعيّ كما ينبغي، وإن تكن له آراء ممّا تسبّب المتاعب عادة في بلده!  
فقال زميل موضوعاً:

- يعني أنّه شيوعيّ!

فرفعت السيّدة حاجبها باسمه، أمّا مستر فورستر فقال بلهجة ذات معنى:

- لم أقل أنا ذلك، ولكنّ زميلي الذي قال!

ثمّ نهض الأستاذ وهو يقول:

- آن وقت الشاي، يجب ألا يسرقنا الوقت، وسوف نجد بعد ذلك متسماً للسمر واللّهو...

وكان عمّال جروهي قد أحلّوا المائدة ووقفوا متأمّنين للخدمة... وتوسّطت لادي فورستر جانب المائدة الذي جلس إليه الفتيات، على حين توسّط الأستاذ الجانب الآخر، وهو يقول معلّقاً على نظام الجلوس:

- كنا نودّ أن تكون الجلسة أكثر اختلاطاً، ولكنّا

راعينا الآداب الشرقيّة، أليس كذلك؟

فاجابه طالب بلا تردّد:

- للأسف هذا ما لاحظناه يا سيّدي!

وصبّ الخادم الشاي واللبن وبدأت المائدة. لاحظ أحد اختلاصاً أنّ حلويّة صبري كانت أربع زميلاتها عارسة لأدب المائدة وأقلّهنّ ارتباكاً، بدت ألفة للحياة الاجتماعية، كأنّها في بيتها، وشعر بأنّ ملاحظة تناوّلها للحلوى أنّ من الحلوى نفسها، هذه صديقتها العزيزة التي يتبادل الصداقة والمودة دون أن تشجّع على عبور حدودهما، وقال لنفسه: إن لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام عليّ! وعلا صوت لادي فورستر وهي تقول:

- أرى ألا تؤثّر قيود الحرب في تناولكم للحلوى! فملّقن طالب على قولها قائلاً:

- من المصادفات السعيدة أنّ الرقابة لم تفرّض على



بالتقدم خطيتك؟

فارتفع رأسها الجميل كرد فعل لوتع المفاجأة، ولكن لم يتدعها صوت كائنات لم تجهد ما تقول، وكان الطريق خاليًا وأضواء المصابيح متوارية خلف الظلام الأزرق، فعاد يسألها:

- أسمع مني؟

فقالت بصوت خافت لم يزل من عتاب:

- هله طريقتك في الكلام وسا لها من طريقة،

الواقع أنك أنعلتني!

فضحك ضحكة خفيفة، وقال:

- أعتذر عن ذلك، وإن كنت أظن أن تاريخ

صدقتنا الطويل لا يميل من قولي مفاجأة تذهل.

- تعني صدقتنا وتعاوننا الثقافي؟

فلم يرتع لقولها، ولكنه قال:

- أهني عاطفتي غير الحفية التي انحلت شكل

الصدقة والتعاون الثقافي كما قلت...

فتسلمت في صوت باسم غير خال من اضطراب:

- عاطفتك الحفية؟!

فقال بمتاد وإخلاص:

- أهني حبي! الحب لا ينفى، إنا عادة لا نتكلم

لنعلنه، وإنما لنسعد بسبح إعلاننا...

فقالت ملاحظة حتى تستر هدمها:

- الأمر كله مفاجأة لي...

- يؤسفني أن أسمع هذا.

- لماذا تأسف؟ الواقع أنني لا أحري ماذا أقول...

ضاحكًا:

- قولي وأسمع لك ودعي الباقي لي...

- ولكن، ولكن... أنا لا أحرف شيئًا، معدرة،

كنا أصدقاء حقًا ولكنك لم تحدثني عن... أهني لم

تسمح الظروف بأن تحدثني عن شخصك...

- ألم تحدثني؟

- عرفتك طبعا، ولكن ثمة أمور أخرى ينبغي أن

تعرف...

أنهي هذه الأمور التقليدية؟ يا لها من أسئلة خلية

بقلب لم يأسره الحب! وشعر بامتاض، بيد أنه ازداد

عنادًا فقال:

جديرًا بالتأمل، نبره بالروح العلمية ولكن ثمة ارتطام بين حبنا لاستاذنا ويصنعا لجنسه، والمأمول أن تقضي الحرب على النازية والاستعمار معًا، هنالك انخلص للحب وحده.

ثم عادوا إلى مجالسهم بالفراندا التي أضيفت مصابيحها، ولم تلبث لادي فورستر أن قالت:

- إليكم البيانو فليقتضئ أحدكم بإسعادنا لحنا.

فرجأها طالب قائلًا:

- تفضلي أنت بإسعادنا...

فنهضت في رشاقة الشباب الذي جاوزته بأهوام،

ثم جلست إلى البيانو وفتحت النوبة وراحت تعزف

لحنا، لم يكن أحد منهم ذا إلمام باللويسيقى الغربية أو

تلوق لها، ولكنهم أنصتوا في اهتمام بدافع الأدب

والمجاملة. وحاول أن يستمد من حبه قوة سحرية

يفتح لها مغاليق اللحن، ولكنه نسي اللحن في استراق

النظر إلى وجه فتاته، والتفت عينها مرة، فتبادلا

إبتسامة من تغب عن كثيرين، ولي نشوة الفرحة قال

لنفسه: «أجل، إذا لم أنتهز فرصة اليوم المتلحة لسلام

عزفي، وهل أثر فراخ لادي فورستر من عزفها، عزف

طالب لحنا شرقًا، ثم اخلصوا للسمر وقتًا غير قصير،

وحوالى الساعة الثامنة مساء ودعوا أستاذهم وأخذوا في

الانصراف. ولبد أحد عند منعرج طريق في ليل بالغ

في جماله وحنانه، تحت مظلة من الأشجار الباسقة،

حتى رأها قادمة وحيدة في طريقها إلى مسكنها، فبرز لها

من المتعطف قاطعًا عليها الطريق، فتوقفت في دهش

وقالت:

- ألم تذهب معهم؟

فنفخ فيها يشبه التهدد ليخفف صدره من جيشانه،

وقال بهدوء:

- تحدثت عن الغافلة لأقاربك!

- ترى ماذا يظنون بتخلفك؟

فقال باستهانة:

- هذا شأنهم!

وسارت في بطنه وسار إلى جانبها، ثم تمخض صبر

الأيام الطويلة عنه وهو يقول:

- أريد أن أسألك قبل عودتي: هل تسمحين لي

مُتَّفِقُونَ عَلَى هَذَا، لَنْ أَشْتَغَلَ.

وكان قد برزت عواطفه واستغرقه البحث، فقال:

- ليكن، أَشْتَغَلُ أَنَا...

فَقَالَتْ بِصَوْتٍ كَأَنَّهَا تَعْمَلُ أَنْ يَكُونَ رَقِيقًا فَوْقَ  
العادة:

- أَسْتَاذُ أَحْمَدَ، فَلْنُتَوَسَّلِ الْحَدِيثَ، أُعْطِنِي مَهَلَةً  
لِلتَّفَكُّرِ...

فَضَحِكَ ضَحِكَةً فَائِزَةً، وَقَالَ:

- قُلْنَا الْأَمْرَ عَلَى كَأَفَّةٍ وَجْوهه، وَلَكِنَّكَ فِي حَاجَةٍ  
إِلَى مَهَلَةٍ لَتُدَبِّرِي الرَّفْضَ!

فَقَالَتْ بِصَوْتٍ حَيٍّ:

- يَنْبَغِي أَنْ أَحَادِثَ وَالِدِي.

- هَذَا بَدِيعِي، وَلَكِنْ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ نَنْتَهِيَ إِلَى  
رَأْيٍ قَبْلَ ذَلِكَ!

- مَهَلَةً وَلَوْ قَصِيرَةً...!

- نَحْنُ فِي يَوْمِنَا، وَنَسْتَأْذِنُ إِلَى الْمَصِيفِ، وَلَنْ  
نَلْتَمِيزَ إِلَّا فِي أَكْثَرِ الْقَادِمِ فِي الْكَلْبَةِ؟

قَالَتْ بِإِصْرَارٍ:

- لَا بَدْءَ مِنْ مَهَلَةٍ لِلتَّفَكُّرِ وَالتَّشَاوُرِ!

- إِنَّكَ لَا تَرِيدِينَ أَنْ تَتَكَلَّمِي...

وَإِذَا بِهَا تَوَقَّفَتْ عَنِ الْمَسِيرِ فَجَاءَتْ، وَتَقُولُ فِي دَأْبٍ  
وَعَزَمَ مَعًا:

- أَسْتَاذُ أَحْمَدَ، إِنَّكَ نَأَى إِلَّا أَنْ تَحْمِلَنِي عَلَى  
الْكَلَامِ، أَرْجُو أَنْ تَقْبَلَ كَلَامِي بِصَدْرٍ سَمِيعٍ، لَقَدْ

فُكِّرْتُ فِي مَوْضُوعِ الزَّوْجِ مِنْ قَبْلِ كَثِيرٍ، لَا بِالْقِيَاسِ  
إِلَيْكَ وَلَكِنْ بِصِفَةِ عَائِمَةٍ، وَانْتَهَيْتُ مِنْهُ - وَوَافَقَنِي عَلَى

ذَلِكَ وَالِدِي - بِأَنْ حَيَاتِي لَنْ تَسْتَقِيمَ، وَإِنِّي لَنْ أَحَافِظَ  
عَلَى مَسْتَوًى، إِلَّا إِذَا تَمَّيَا لِي مَا لَا يَقْدِرُ مِنْ خَمْسِينَ

جَنَّتِيهَا شَهْرِيًّا...

وَتَجَرَّعَ خَبِيرَةً مَرَّةً لَمْ يَتَوَقَّعْ - عَلَى أَسْوَأِ الْفُرُوضِ -  
أَنْ تَبْلُغَ مَرَاتِبَاتِ هَذِهِ الدَّرَجَةِ، وَتَسْأَلَ:

- وَهَلْ يَمْلِكُ مَوْظِفٌ - أَحْيَى فِي سَنَةِ الزَّوْجِ - هَذَا  
الْمَرْتَبَ الضَّخِيمَ؟

وَلَكِنَّهَا لَمْ تَنْسَ، فَعَادَ يَقُولُ:

- إِنَّكَ تَرِيدِينَ زَوْجًا ثَرِيًّا!

- أَسَفٌ جَدًّا، وَلَكِنَّكَ أَجْبَرْتَنِي عَلَى مَصَارِحَتِكَ بِرَأْيِي.

- سَجِيحٌ، كُلُّ شَيْءٍ فِي حِينِهِ...

فَصَادَمَتْ، وَكَانَتْ قَدْ مَلَكْتَ زِمَامَ نَفْسِهَا:

- أَلَيْسَ الْآنَ حِينُهُ؟

فَأَبْتَسَمَ ابْتِسَامَةً فَائِزَةً، وَقَالَ:

- لَكَ حَقٌّ، تَعْنِينَ الْمُسْتَقْبَلَ؟

- طَبَعًا!

وَأَحْتَفَتْهُ وَطَبَعًا. أَمَلُ أَنْ يَسْمَعَ أَهْنِيَةً لِمَسْمَعٍ  
مُحَاضِرَةٍ مُعَادَةٍ. وَلَكِنْ يَجِبُ إِلَّا أَنْ يَتَوَقَّعَ فِي نَفْسِهِ  
مَهْمًا يَكُنُ الْأَمْرَ. الْمَرْزُوقَةُ الْبَارِدَةُ لَا تُدْرِي كَمْ يَسْمَعُهُ  
إِسْعَادَهَا.

- سَاجِدٌ بَعْدَ تَخَرُّجِي عَمَلًا...

ثُمَّ بَعْدَ لَحْظَاتٍ مِنَ الصَّمْتِ:

- وَسَيَكُونُ لِي يَوْمًا دَخَلَ لَا يَأْسَ بِهِ!

فَتَمَتَّتْ فِي حَيَاةٍ:

- كَلَامَ عَالِمٍ...

فَقَالَ وَهُوَ يَدَارِي اللَّهَ بِالْهَوْنِ:

- سَيَكُونُ الْمَرْتَبُ فِي الْحِنُودِ الْمَعْرُوفَةِ، أَمَّا الدَّخْلُ  
فَعَوَالِي عَشْرَةِ جَنَّتِيهَا...

وَسَادَ الصَّمْتُ. لَهَا تَزَنُ الْأُمُورُ وَتَفَكَّرَ. هَذَا هُوَ  
التَّضْيِيقُ الْمُنَاقَشُ لِلْحَبِّ. كَانَ يَحْلُمُ بِالْجَنَّةِ الْمَذْبُوبَةِ  
وَلَكِنْ أَتَيْنَ مِنْ هَذَا. هَذَا الْبَلَدُ عَجِيبٌ يَنْدَلِجُ فِي  
السِّيَاسَةِ وَرَاءَ الْعَاطِفَةِ، وَيَتَجَسَّعُ فِي الْحُبِّ دَقَّةً  
الْمَحَاسِينِ. وَأَخِيرًا جَاءَ الصَّوْتُ الرَّقِيقُ قَائِلًا:

- لَدَعِ الدَّخْلَ جَانِبًا، فَلَا يَجْعَلُ أَنْ تَرْتَبَ حَيَاتَكَ  
عَلَى أَسَاسٍ تَقْدِيرِ اخْتِصَافِ الْأَعْزَاءِ مِنْ حَيَاتِكَ...

- أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ لَكَ إِنَّ وَالِدِي مِمَّنْ ذَوِي  
الْأَمْلَاقِ...

فَقَالَتْ بِجَهْدٍ بَرَّ فَرَّةَ التَّرْقُدِ الَّتِي سَبَقَتْهُ:

- فَلَنَكُنْ وَالْقَتِينِ...

- قُلْتُ إِنَّ سَاجِدَ عَمَلًا، وَنَسْتَجِدُّ مِنْ نَاسِيتِكَ  
عَمَلًا أَيْضًا...

فَضَحِكَتُ ضَحِكَةً غَرِيبَةً:

- كَلَّا لَنْ أَشْتَغَلَ، لَمْ أَذْهَبْ إِلَى الْجَامِعَةِ لِأَتَوَكَّلَ  
كَسَائِرَ الزَّمِيلَاتِ...

- لَيْسَ الْعَمَلُ حَيًّا...

- طَبَعًا، وَلَكِنْ وَالِدِي... الْوَأَقِعْ أَنَّنَا جَمِيعًا

فضحك رياض قللس، وقال خاطبًا إسماعيل لطيف، وكانت هذه ثاني مقابلة بينهما في مدى تعارف عام:

- أنت تخاطب رجلًا لا يشمر بمسئولية الزوج!  
فسأله إسماعيل متهمًا:  
- وهل تشعر بها أنت؟  
- حطًا أنا أعزب مثله، غير أنني لست عدوًا للزواج...

كانوا يسيرون في شارع فؤاد الأول، في مطلع الليل، في ظلام لم تخففه الأضواء الضئيلة التي تسرب من أبواب المحال العاتقة، وكان الشارع رغم ذلك مكتسبًا بالنساء والرجال والجنود البريطانيين على اختلاف أنواعهم. وكان الحريف يبعث أنفاسًا رطبية، ولكن أكثر الناس مضوا في الملابس الصيفية. ونظر رياض قللس إلى جماعة من الجنود الهنود وقال:  
- من المحزن أن يعتمد الإنسان عن وطنه هذه المسافة المدينة، ليقتل في سبيل غيره!

فقال إسماعيل لطيف:  
- ترى كيف يتأق هؤلاء التمساح أن يضحكوا؟!  
فقال كمال مختصًا:  
- كما فضحك نحن في هذه الدنيا الغريبة، الحمر والمختلرات والباس.

فضحك رياض قللس قائلًا:  
- إنك تعاني أزمة فريدة، كل ما عندك مزروع الأركان، حيث وقبض الريح، نضال الهم مع أسرار الحيلة والنفس، وملل وسقم، إنني أرثي لك.  
فقال إسماعيل لطيف ببساطة:

- تزوج، إنني مرتت بهذا الملل قبل زواجي...  
فقال رياض قللس:  
- قل له!...

فقال كمال، وكأنما يخاطب نفسه:  
- الزواج هو التسليم الأخير في هذه المعركة الفاشلة...

وأخطأ إسماعيل في المقارنة، إنه حيوان مهذب، ولكن مهلاً لعله الغرور، فيم الغرور وأنت ترقد فوق تل من الحية والقتل، إسماعيل لا يدري شيئاً عن

فقال بصوت خفيض:  
- هذا أفضل على أي حال...  
فعاودت تخمغم:  
- أسفة!...  
ونار غضبه، ولكنه بذل جهداً صادقاً كيلا يخرج من حدود الأدب، ثم وجد رغبة لا تقاوم في أن يصارحها برأيه فتساءل:  
- أسمحين لي أن أصارحك برأيي؟  
فبادرت قائلة:

- كلاً، إنني أعرف الكثير من آرائك، وأرجو أن ينهي صديقين كما كنا...  
ورثي رغم غضبه حالها، هذه هي الحقيقة العارية قبل أن يلففها الحب. التي تجرب مع خادمها امرأة طبيعية وإن عدت - بعين التقاليد - شائعة. في المجتمع المختل يبدو الصحيح مريضاً والمريض صحيحاً، إنه غاضب ولكن تعاسته أكبر من غضبه، إنها على أي حال محدس رأيه ولي هذا عزاء، ومذت يدها للمصافحة فتلقاها بيده، ثم أبقاها فيها حتى رسعه أن يقول:

- قلت إنك لم تدخل الجامعة لتتوكلني، قول جميل في ذاته، ولكن إلى أي مدى انتفعت بالجامعة؟  
وارتفع ذقنها كالتسائلة، لكنه قال بلهجة لم تخل من سخرية:

- معلومة عن سخاقي، لعل المسألة أنك لم تحمي بعد، مع السلامة...  
ودار على عقبه، ثم وثى مسرعاً.

### ٣٠

قال إسماعيل لطيف:  
- لعل أخطأت بحمل زوجي إلى القاهرة كي تلد فيها، كل ليلة تنطلق صفارة الإنذار، أما طنطا فلم تكن تعرف شيئاً عن أهوال هذه الحرب.  
فقال كمال:

- إنها غارات رمزية لو أرادوا بنا شرًا ما منعهم قوة!

دنيا الفكر، ولكن السعادة المستمدة من العمل والزوجة والأولاد، ليست سعادة جذيرة. بأن تسخر من احتقاركها؟ قال رياض:

- إذا قررت يوماً أن أؤلف رواية، فستكون أحد أبطالها.

فألقه كمال نحوه في اهتمام صبياني، وسأله:

- ماذا ستصنع متى؟

- لا أدري، ولكن ينبغي أن توطن نفسك على ألا تزهل، فإن كثيرين ممن قرأوا أنفسهم في أقاصيصي قد زعلوا...

- لماذا؟...

- لعله لأن لكل إنسان فكرة عن شخصه من خلقه هو، فإذا جرّده الروائي منها أبى وغضب؟...

فتساءل كمال في قلبي:

- أليدك فكرة عني غير ما تعلن؟

فبادره في توكيد قائلاً:

- كلا، ولكن الروائي قد يبدأ من شخص ثم ينسده ككبة وهو يصدد خلقاً ثموج بشري جديد، لا صلة بينه وبين الأصل إلا الإيحاء، وأتذكر توسمي للمي بشخصية الرجل الشرقي الحائر بين الشرق والغرب، الذي دار حول نفسه كثيراً حتى أصابه الدوار.

«يتكلم عن الشرق والغرب، ولكن من أين له أن يعرف حابذة؟» قد تكون النعاسة متعددة الجوانب.

وقال إسحاق لطيف في بساطة مرة أخرى:

- طول عمرك تخلق لنفسك المتاهة، الكتب في نظري أساس بلوك، لماذا لا تجرب الحيلة الطبيعية؟

ويلبوا في سيرهم منعطف صناديق الدين فمالوا إليه، وقد اعترضهم جماعة كبيرة من الإنجليز فضاؤوا منها، وقال إسحاق لطيف:

- إلى جهنم، من أين لهم بهذا الأمل؟ ترى هل يصدقون أنفسهم؟

فقال كمال:

- يجئ للمي أن نتيجة الحرب قد تقررت غايتها الربيع القادم...

فقال رياض قللس عمتصاً:

- النازية حركة رجعية غير إنسانية، وسوف

يتضاعف شقاء العالم تحت أقدامها الحديدية...

فقال إسحاق:

- ليكن ما يكون، المهم أن نرى الإنجليز في نفس

الموضع الذي فرضوه على العالم الضعيف!...

وقال كمال:

- ليس الألمان بخير من الإنجليز...

فقال رياض قللس:

- ولكننا انتهينا مع الإنجليز إلى بر، والاستعمار

البريطاني يورغل في الشيخوخة، ولعله قد تلطف ببعض

المبادئ الإنسانية، ولكننا ستعامل غداً مع استعمار فني

مغرور شره غنى حرب، فما العمل؟

فضحك كمال ضحكة تحمل نعمة جديدة، وقال:

- نشرب كاسين ونحلم بعالم واحد تسيطر عليه

حكومة واحدة عادلة!...

- سنحتاج حقاً إلى أكثر من كاسين...

ووجدوا أنفسهم أمام حانة جديدة لم يروها من

قبل، لعلها من الحانات «الشيطنية» التي تخلفها ظروف

الحرب بين يوم وليلة، وحانت من كمال نظرة إلى

داخلها فرأى امرأة بيضاء ذات جسم شرقي تقوم على

إدارة الحانة، ثم جدت قنماه فلم يتحرك من موقفه،

أو بالأحرى لم يستطع أن يتحرك حتى اضطّر صاحبه

أن يتوقفاً عن السير وينظرا إلى حيث ينظر...

مرم. لم تكن إلا مريم دون غيرها، مريم الزوجة

الثانية لياسين، مريم جارة العمر، في هذه الحانة بعد

اختفاء طويسل، مريم التي ظن بها أنها لحقت

بأمها!...

- أتريد أن تجلس هنا؟. هلم فليس بالداحل

إلا أربعة جنود...

وتركّد ملياً، ولكن شجاعته لم تواته فقال وكما يفق

من ذهنه:

- كلا...

وألقي نظرة على المرأة التي ذكرته بأمها في إتمامها

الأخيرة، ثم انطلقوا في طريقهم، متى رآها آخر

مرة. منذ ثلاثة أو أربعة عشر عاماً على الأقل، إنها

معلم من معالم الماضي الذي لا يُنسى، ماضيه...

تاريخه... ماهيته... كل أولئك شيء واحد، وقد

فقال له كمال مداعباً:

- قد لا تتمكن من اللعب بشخصي في روايتك...  
فضحك ضحكة عصبية وقال وهو يرمي إلى  
الناس:

- البشرية مثقلة بنسبة عاحلة في هذا المخبأ...

فقال كمال متهمكاً:

- لو اجتمعوا على خير كما يجتمعون على  
الخرق!...

وهنف إسحاق مترففاً:

- زمان زوجي نازلة على السلم تتلصص طريقها في  
الظلام، إني أفكر جدياً في العودة إلى طنطا غداً...  
- إن عشنا!

- مساكن حقاً أهل لندن!

- لكنهم أصل البلاء كله...

وكان وجه رياض قللس يزداد شحوباً، ولكنه  
دارى اضطرابه بالكلام فسأل كمال:

- سمعتك تتسائل مرة أين عكة الموت لأخادير  
مركبة الحياة للملء، فهل يكون عليك أن تسفنا قبلة  
الآن؟

فابتسم كمال، وكان يرفف السمع في قلق متزايد  
متوقفاً بين لحظة وأخرى أن يتطلق مدلع فيصك  
الأذان، وأجاب:

- كلاً... (ثم كالسائل)... لعله الخوف من  
الأم؟

- أم ثمة أمل خامس في الحياة ما زال يضطرب في  
أصعق؟

لماذا لم يتحرر؟ ولم يبدو ظاهر حياته كائناً يتغل  
حاشاً وإيماناً؟ طالما نازعته النفس إلى التقيضين: وكر  
الشهوات والتصوف، ولكنه لم يكن ليطلق حياة  
خالصة للذة والشهوات، ومن ناحية أخرى كان ثمة  
شيء في أصعقه يفر من فكرة السلبية والمروء،  
ولعله - هذا الشيء - الذي حال بينه وبين الانتحار،  
ولي ذات الوقت فإن استمساكه بحبل الحياة المضطرب  
في يديه مناقض لصميم شكه القاتل، والخلصة في  
كلمتين: حيرة وعذاب!

وفجأة انطلقت المدافع كالطر، لا تتيح للصدر

استقبلته في قصر الشوق في آخر زيارة لهذا البيت قبل  
طلائها، وما زال يذكر كيف شكت إليه اعوجاج أخيه  
وارتداده إلى حياة العريلة والمجون، شكوى لم يكن  
يقدر عواقبها وقد انتهت بها إلى ذلك الدور الذي تلعبه  
في هذه الحانة «الشيطنية»، ومن قبل ذلك كانت كريمة  
السيد محمد رضوان، وكانت صديقته وملهمة أحلامه  
في الصبا الأول، في ذلك الزمان الذي شهد البيت  
القديم عاصراً بالافراح والسلام، كانت مريم وردة  
وكانت عائشة وردة ولكن الزمن صدو لدود للورود،  
وربما كان من المحتمل أن يثمر عليها في بيت من هذه  
البيوت كما عثر بالسك جليطة، ولو وقع هذا لكان وجد  
نفسه في مأزق وأني مأزق، فكذا بدأت مريم  
بالإنجليز وانتهت بالإنجليز...

- أعترف هذه المرأة؟

- نعم...

- كيف؟

- امرأة من هاتيك النسوة، ولعلها نسيتي!...

- أوه، الحانات ملأى بهن، مومسات قديمات،  
وخادمات متحركات، ومن كل لون...

- نعم...

- ولم أ تدخل فلملها كانت ترحب بنا إكراماً  
لك...؟

- لم نعد في طور الشباب ولدينا أماكن أفضل...  
تقتّم به العمر وهو لا يدري، منتصف الحلقة  
الرابعة، وكأنا قد استهلك نصيبه من السعادة، وإذا  
قارن بين تعاسه الراحة وتعاسه الماضية لم يدري أيها  
أشد، ولكن ماذا يعم العمر وقد ضاق بالحياة؟ حقاً إن  
الموت للذة الحياة، ولكن ما هذا الصوت؟

- غارة!...

- أين نذهب؟...

- إلى غيباء قهوة ركس...

لم يجدوا في المخبأ مكاناً خالياً للجلوس فوقفوا،  
وكان ثمة أفندية وخراجات وسيدات وأطفال، وكان  
الكلام يدور بشئ اللغات والهجمات. وأصوات  
رجال المقاومة المدنية في الخارج تهف «أطفي النور»،  
وبدا وجه رياض شاحباً، وكان يحقت دوي المدافع،

الآخرين، وما زالت أمينة أوّل من يستيقظ، فتوقظ بلورها أم حنفي، ثم تتوضأ وتصلّي، وتبشّ أم حنفي - وكانت نسيًا خير الجميع صحّة - فتقصد حجرة القرن، وتفتح عائشة عينين ثقيبتين فتقوم لتحمس أقداح القهوة تباهاً وتحرق السجائر الواحدة تلو الأخرى حتّى إذا دُهمت للطور تناولت لقها. وقد اضمحلّت أهما اضمحلال، وانقلبت هيكلًا عظيمًا كسي جلدًا باهتًا، وأخذ شعرها في السقوط حتّى اضطرت إلى اللجوء إلى الطبيب قبل أن يدركها الصلع، وتكألت عليها الملل حتّى أشار عليها الطبيب بالتخلّص من أسنانها، فلم يبق من شخصها القديم إلّا الاسم. ولم تكن أقلعت عن عادة النظر في المرأة، لا لتأخذ زيتة، ولكن بحكم العادة من ناحية، وللإيمان في الحزن من ناحية أخرى، ورغبًا بدت أحيانًا وكأنّها أذهنت للمقادير في استسلام لطيف، فتطيل من جلستها مع أمّها، وتشارك في الحديث الدائر، ورغبًا انترت شفاها الذلالتان عن ابتسامة، أو تزود والدها لتسال عن صحته، أو تتصنّى في حديقة السطح وترمي بالحطب إلى الدجاج، هناك تقول أمّها ببراءة:

- كم أسعدت قلبي يا عائشة، ليتني أراك دائمًا على هذه الحال!

على حين تحفّف أم حنفي عينيها قائلة:

- فلنذهب إلى حجرة القرن لنصنع شيئًا جميلًا

ولكن عند منتصف الليل استيقظت أمّها على صوت يكاء آت من حجرتها، فهرعت إليها محاذرة أن توقظ الرجل النائم، فوجدتها جالسة في الظلام تنتحب، وكأ شعرت بدنو أمّها تعلقت بها هاتفة:

- لو تركتني يا ما كان في بطنها غلاً منها! يداي فارغتان، والدنيا لا شيء فيها...

فاحتضنتها أمّها وهي تقول:

- إني أعلم الناس بحزنك، حزن يحلّ عن العزاء، ليتني كنت غداهم، ولكنّ الله جلّ وعلا حكمته، وما جلوى الحزن يا مسكينة؟!...

- كلّما كنت حلمت بهم، أو حلمت بالحياة الأولى...

سًا، وزاغت الأبصار، وضلّت اللسن، ولكنّ رب لم يستمرّ أكثر من دقيقتين بالحساب الزمني، فمّ الناس عودة بغيفضة إلى الدويّ المرعب، واستبدّ به بالنفوس، غير أنّ الصمت ساد وعمق، وتساءل بإعيل لطيف:

- إني أتحلّل حال زوجي الآن، ترى متى تنتهي أرة؟

فتساءل رياض قلّس:

- متى تنتهي الحرب؟

وما لبث أن انطلقت صفارة الأمان فنذ عن المخبأ د صميّ، وقال كمال:

- ليست إلّا مداعبة إيطالية!...

وغادروا المخبأ في الظلام كالحفايش، ولفظت بواب ألباحًا وراء أشباح، ثم تساقط الضوء الباهت نابهاً من التوافد، وملأت الضجّة الأركان...

و أنّ الحياة - في هذه اللحظة السريعة المعتمة - زوت كلّ خافل بمدى قيمتها الذي لا يقاس به شيء الوجود...

### ٣١

أخذ البيت القديم مع الزمن صورة جديدة تنلر لانحلال والتدهور. انفرط نظامه وتقوّر مجلسه، كان النظام والمجلس روحه الأصيل. ففي نصف نهار الأوّل يغيب كمال في المدرسة، وفي نصف دولها الروحية ما بين الحسّين والسيدة، وتنزل أم حنفي إلى حجرة القرن، ويتمدّد السيد على الكنية في صجرته أو يجلس على كرسيّ في المشربية، ويهمهم عائشة مل وجهها ما بين السطح وحجرتها، ويظنّ الراديو في لصالة يصف وحده، وعند الأصيل تجتمع أمينة وأم حنفي في الصالة، وتلبث عائشة في حجرتها، أو تمكث معها بعض الوقت ثمّ تذهب، أمّا السيد فلا يغادر سجرته، وكما إن عاد من الخارج مبكرًا فليكن يقيم الدور الأهل في مكتبه. وكان اعتكاف السيد أوّل أمر محزنًا، ثمّ صار عادة عنده وعند الآخرين، وكان وزن عائشة مفاجئًا ثمّ صار عادة عندها وعند

- وحُدي الله، فقت ما تعانين طويلاً، أنسيت  
بمي؟ ولكنّ المؤمن لأصعب مطالب بالصبر أين  
نالك؟

فهمت في امتعاض:

- إيماني! ...

- نعم، اذكري إيمانك، وتوسّلي إلى ربك تنزل  
ليك الرحمة من حيث لا تدريين ...  
- الرحمة! ... أين الرحمة أين؟! .

- رحمة وسعت كلّ شيء، طابعتني وتعالى معي إلى  
الحسين، ضمي يلك على الضريح واتلي الفاتحة تتحوّل  
ارك إلى برد وسلام كنار سيّدنا إبراهيم ...

ولم يكن موقفها حيال صحتها دون ذلك اضطراباً،  
حيثاً تتردّد على الأطباء في ماثرة وانتظام حقّ يظنّ بها  
لعودة إلى الاستمسك بأهداب الحياة، وحيثاً تحمل  
فسها وتزدرى كافّة الصالح لدرجة الانتحار. أمّا  
بإارة القرفة فهي التقليد الوحيد الذي لم تشذّ عنه مرّة  
إحدة، وكانت تنفق فيها بسخاء وتبها عن طيب  
عاطر كلّ ما ملكت يمينها من ميراث زوجها وابنتها  
حقّ استحال حول المقبرة حليقة غناء موشاة بالأزهار  
والرياحين. ويوم جاءها إبراهيم شوكت لإتمام  
إجراءات الميراث ضحكت ضحكة مجنونة وقالت  
لأمّها:

- هتيفي على ميراثي من نعمة ...

وكان كمال يصرّ بها كلّما أنس منها استقراً،  
ليجالسها مليّاً ملاطفاً متوقّفاً. كان يتألّمها طويلاً  
صامتاً، ويحتلّل عزونها الصورة اللاذعة التي أبدع الله  
صنعها، ثمّ يتخصّص ما آلت إليه. لم تكن هزيلة  
لحسب، ولا مريضة فحسب، ولكنّ عزنة بكلّ ما  
تحمّل غلّة الكلمة من معنى، ولم يغب عنه ما يبينها من  
أوجه الشبه في الحنك، فهي قد فقدت ذرّيتها وهو قد  
فقد أمّاه، وانتهت إلى لا شيء كما انتهى إلى لا شيء،  
بل كان أبناؤها لحماً ودمّاً أمّا أمّاه فكانت كلباً  
وأوهاماً. وقال لهم يوماً:

- أليس من الأفضل أن تلعبوا إلى المخبأ إذا  
أطلقت صفارة الإنذار؟

فكانت عائشة:

- لن أغادر حجري ...  
وقالت الأم:

- إنّها غارات آمنة ومدافع كالصواريخ ...

أمّا أبوه فجاء صوته من الداخل وهو يقول:

- لو أنّ بي قدرة على الذهاب إلى المخبأ لذهبت إلى  
الجامع أو إلى بيت عمّد عتّ ...

ويوماً جاءت عائشة من السطح مهولة وهي تلهث  
وقالت لأمّها:

- حدث شيء عجيب! ...

فقطرت إليها أمّها في استطلاع مشوب بالرجاء،  
ضلعت تقول وهي ما تزال تلهث:

- كنت في السطح أراقب غروب الشمس، وكنت  
على حال من اليأس لم أشعر بمثلها من قبل، وفجأة  
فتحت في الساء نافذة من نور بهيج فصعّت بأصل  
صوتي «يا ربّ».

أنسمت حيناً الأم في تساؤل، أمي الرحمة المنشودة  
أم هاوية جميلة من الأحران؟ وتحدثت:

- لعلّها رحمة ربّنا يا ابنتي! ...

فكانت وجهها يتهلّل بشراً:

- نعم، صحت يا ربّ، وكان النور يملأ الدنيا ...

وراحوا جميعاً يفتخرون في الأمر ويراقبون الحال في  
قلق بالغ. أمّا عائشة فكانت تقف الساعات بموقفها  
من السطح مترقبة النور أن يومض مرّة أخرى، حقّ  
قال كمال لنفسه «ترى أمي النهاية التي بيون إلى جانبها  
الموت؟» ولكن من حسن الحنك - حنك الجميع - أمّا  
تناسلت الأمر مع الآلام ولم تعد تذكره، ثمّ لم تزل توغل  
في دنيا خاصّة خلقتها لنفسها، وعاشت فيها وحدها،  
وحدها سواء أكانت مضطربة في حجرتها أو جالسة  
بينهم، إلّا ساعات متباعدة تثوب فيها إليهم كالعائلة  
من سفر، ثمّ لا تلبث أن تواصل الرحيل. والتصقت  
بها عادة جميلة هي عداوة نفسها، خاصّة حين  
انفرادها، وشدّ ما أثارت ببلّك القلق، غير أنّها كانت  
تخاطب أمواتاً وهي مدركة لحال موتهم، ولم تتخيّل  
أموئاً أو أئشباحاً، وفي ذلك كان عزاء المحيطين  
بها ...

طريقه إلى مخدعه، هكذا انطوى حبيب العمور. وعلى  
عبد الرحيم الذي احتضر ثلاثة أيام كاملة، سعال حاد  
متقطع حتى فزعنا إلى الله أن يحسن خاتمة ويربعه من  
الأم، واخفى من دنياي أليف الروح عليّ عبد  
الرحيم، وقد ودّع هذين الحبيبين أمّا إبراهيم الفار فلم  
يودّعه، كان اشتداد المرض قد أفضله في فراشه ومنعه  
عن عيادته فتناه إليه خادمه، وحتى الجنائز لم يشيعها  
فشيّعها عنه ياسين وكسال. فللى رحمة الله يا ألطف  
الناس طرّاً، ومن قبل هؤلاء مات حيدو والحمازاري  
وعشرات من المعارف والأصحاب، تركوه وحيداً كأنه  
لم يعرف من الناس أحداً، لا زائر له ولا عائد،  
وجنائزته لن يشيعها صديق، حتى الصلاة حمل بينه  
وبيتها، وهل يتمتّع بالظهر إلاّ ساعات عقب استحمام  
لا يهود به أولياء الأمر إلاّ مرة كلّ أشهر؟ فحرم من  
الصلاة وهو أشدّ ما يكون حاجة إلى مناجاة الرحمن في  
هذه الوحشة الموحشة. هكذا تخفي الأيّم، الراديو  
يتكلّم وهو يسمع، وأمنية تذهب ونحي، وشدّ ما  
ركبها الوهن، غير أنّها لم تعد الشكوى، إنّها مرّضته  
وأخوف ما يخاف أن نحتاج غذاً إلى من يرضعها، وهي  
كلّ ما بقي له، أمّا ياسين وكسال فيمكننا عنده ساعة  
ثمّ يذهبان، وء لو لم يفارقاه، ولكنّها أمانة لا يستطيع  
أن يعلنها ولن يستطيعا أن يحققاها، أمانة وحدها التي  
لا تمّله، وإذا ذهب لزيرة الحسين فلكي تدعو له،  
والمالم بعد ذلك فراغ. وإنّ يوم زيارة خديجة له ليوم  
يستحقّ الانتظار، نحي. وفي صحبتها إبراهيم شوكت  
وعبد المنعم واحد، فتمنّى الحجر بالآحياء وتبذّر  
وحشتها، وقليل ما يتكلّم هو أمّا هم فيتكلّمون كثيراً،  
ومرّة خاطبهم إبراهيم قائلاً: «أرغصوا السيّد من  
ثرتكم»، فقال له معاتبا: «ودعهم يتكلّموا... أريد  
أن أسمعهم!». ودعا لابنته بالصحة وطول العمر ودعا  
لزوجها وابنيها، وكان يعلم بأنّها توفّر لو تسهر على  
راحته بنفسها، وكان يطالع في عينها حنائاً ما وراءه  
حنان، ويومئاً سأل ياسين في شوق واستطلاع بأساً:

- أين تخفي سهراتك؟

فقال في حياء:

- اليوم الإنجليز في كلّ مكان كلّهم زمان...

ما أقسى البرد هذا الشتاء! يذكر بشتاء قديم ظلّ  
الناس يؤرّخون به جيلاً، شتاء أنّي عام يا ترى؟ ربّاه  
أبن الذاكرة التي تعي ذلك أين؟ غير أنّ القلب  
المجوز يحنّ إليه في مجهوله، فهو جزء من الماضي الذي  
تبيح ذكره الدموع في مكانها، الماضي الذي كان  
يستيقظ فيه مبكراً فيستحمّ تحت الدشّ غير مبالي يرد  
الشتاء ثمّ يملا بطنه وينطلق إلى دنيا الناس، دنيا  
الحركة والحركة التي لا يعرف اليوم عنها شيئاً اللهمّ إلاّ  
ما يهود به الرواة، وكأنّهم يحشّون عن عالم في أقصى  
الأرض. كانت له الحرّة والقدرة على أن يجلس على  
الكتبة في الحجر أو على الكرسيّ في المشربة وكان مع  
ذلك يضيّق بسجن البيت، وكان يذهب حين الحاجة  
إلى الحمام أو يشترّ ملابسه بنفسه ومع ذلك لمن قعدة  
البيت، وكان له يوم في الأسبوع يستطيع أن ينادر  
البيت متوجّهاً على حصاه أو ركباً حرة فيزور الحسين أو  
بيت أحد الأصدقاء ومع ذلك فظلالاً دها الله أن ينقله  
من محبس البيت. أمّا اليوم فلم يسهه أن ينادر  
الفرش، ولم تعد حدود حاله تجاوز أطراف هذه  
الحشّة، حتى الحمام يجيء إليه ولا يذهب هو إليه،  
قدارة لم تكن في الحسبان، حتى استقرّ الامتعاض على  
شفتيه، وأسكنت المראה في لعابه، على هذه الحشّة  
يرقد نهاراً وينام ليلاً ويتناول طعامه ويقضي حاجته.  
وهو من كان يضرب بأناقته المثل ويسير الشذا الطيب  
بين يديه، وفي هذا البيت الذي استكان عمره لإرادته  
المطلقة غذا ينظر فلا يلقى إلاّ نظرات الرثاء أو يرجو  
لعبات كالأطفال، وذهب الأحياء في فترات متقاربة  
من الزمن كلّهم كانوا على ميعاد، ذهبوا وتركوه  
وحيداً، عليك رحمة الله يا محمّد يا حقّت، كان آخر  
المهد به سهرة من ليالي رمضان في السلاسل المظلمة  
على الحقيقة، ثمّ ودّعه ومضى وضحكته العالية توصله  
إلى الباب، وما كاد يأري إلى حجرته حتى طرق الباب  
طارق ومرع إليه رضوان وهو يقول وجديّ مات يا  
جديّ، يا سبحان الله... متى؟ وكيف؟...  
لم يضاكنا منذ دقائق؟ ولكنّه سقط على وجهه وهو في



أن يكون مدرّساً أعزب وقعيّاً مقطوعاً في حجرته.  
وكان يتجسّب أن ينقل عليه بسيرة الزواج أو الدروس  
الخصوصية، كما كان يدعو الله أن يكفيه مَنخره من  
التقود حتى الرمح الأخير كيلا يكون يومًا عالة عليه،  
ويومًا سأل:

- هل تحببك هذه الأيام؟

فابتسم كمال ابتسامة حائرة، وترنّد في الجواب،  
فاستطرد الرجل قائلاً:

- الأيام الحقيقية كانت أياماً! كانت يسراً ورغداً،  
وصحة وعافية، شهدنا سعد زغلول، وسمعنا سي  
حيد، ماذا في أيامكم؟!

فاجاب كمال مُسرعاً بتداعي معاني الحديث  
لحسب:

- لكلّ زمان محاسنه ومعاييه...

فهزّ الرجل رأسه المسند إلى حذّة مكسورة وراء  
ظهره وقال:

- كلام يقال ليس إلّا...

ثمّ بعد فترة صمت ودون تمهيد:

- عجزني عن الصلاة يحزّ في نفسي حزاً، فالعبادة  
عزاء الوحدة، ومع ذلك قرّبي أوقات غريبة أنسى فيها  
كافة وجوه الحرفان التي أحانها من مأكّل ومشرب  
وحريّة وعافية، تصفو نفسي صفاء صبيّاً حتى يمثّل إلى  
آلّي متّصل بالساعات، وأنّ ثمة سعادة مجهولة تزوي  
بالحيلة وما فيها...

فضمّ كمال:

- ربّنا يحدّ في همرك ويردّ إليك العافية...

فهزّ رأسه مرّة أخرى في استسلام، وقال:

- هذه ساعة طيبة، لا ألم في الصدر، ولا ضيق في  
التنفس، وودم ساقي أخذ في الزوال، وموعداً في  
الرايو مع ما يطلبه المستمعون...

وإذا بصوت أمينة يقول:

- سيدي بخير؟

- الحمد لله.

- هل آتي بالعشاء؟

- العشاء؟ أما زلت تسمّيه العشاء؟ هاني

سلطانية اللين!...

أيام زمان! أيام الغوّ والبأس، والضمحك الذي يهزّ  
له الجدران، وسهرات الغوريّة والجلالّة، والناس  
الذين لم يبق معهم إلّا أسماء، زبيدة وجلييلة وهنية،  
تري ألا تذكر أمّك يا ياسين؟ وما هي زُتوبة وكريمة  
تجلسان إلى جانب والدما، ودواماً ستطلب الرحمة  
والغفران...

- من بقي من معارفنا القدامى في وزارتك يا  
ياسين؟

- أحيلوا جميعاً إلى المعاش، ولم أعد أدري عنهم  
شيئاً!

ولا هم يدرون عنّا شيئاً، أصدقاء القلب ماتوا فما  
لنا نسأل عن المعارف، ولكن ما أجل كريمة! فالت  
أتمها في زمانها، ومع ذلك لم تمُدّ الرابعة عشرة، ونعمية  
ألم تكن آية في الجبال؟!

- ياسين إن استطعت أن تُقنّع حائشة بزيارتك  
فافعل، انتشلوها من وحدتها فإني أخاف عليها  
مها...

فقال زُتوبة:

- طالما دعوتها لزيارة قصر الشوق ولكنتها... كان  
الله في عونها!...

ولاحت في عيني الرجل نظرة قائمة، ثمّ إذا به يسأل  
ياسين:

- ألا تصادف في طريقك الشيخ متوكّي عبد  
الصمد؟

فقال ياسين بإسّا:

- أحياناً، إنّه لا يكاد يعرف أحداً، ولكنّه ما زال  
يسر على قديمين قويتين!...

يا للرجل! ألم تنازعه نفسه مرّة إلى زيارتي؟ أم  
نسوي كما نسي أبنائي من قبل؟!

وكما ذهب الأصدقاء أخذ الرجل من كمال صديقاً،  
ولعلّه فاجأه بصداقته، لم يعد الأب الذي عهد، وغدا  
صديقاً بناجيه ويتشوّق إلى مناجاته، وكان يقول عنه  
أسفاً: «أعزب في الرابعة والثلاثين من عمره، يعيش  
أكثر حياته في حجرة مكتبه، كان الله في عونه»، ولم  
يكن يحدّ نفسه مشوّلاً عنّا صبار إليه أمره، فقد أبى من  
أول الأمر أن يصنع نفسه بنفسه، وانتهى به الحال إلى

فقال كمال في لهجة ساخرة:

- كفاه الله شَرَّ مهنة التدريس!

فقالت خديجة في انزعاج:

- وهل يسرك أن يشتغل جورنالجيًا؟

وهنا قال عبد المنعم ملغفًا الجُرَّ:

- لم تعد الوظيفة بالمطلوب السعيد!

فقالت أمّه بحدة:

- لكنك مؤلف يا سي عبد المنعم...

- في كادر ممتاز، ولكني لا أرضى له وظيفة كتابية،

وها هو خالي كمال يستعبد في مهنته...

- في أي نوع من الصحافة تريد أن تعمل؟

- الأستاذ عدلي كريم موافق على قبولي في مجلته

تحت التمرين لأقوم بالترجمة أولاً ثم بالتحضير فيها بعد...

- ولكن «الإنسان الجديد» مجلة ثقافية محدودة الموارد

والمجال؟...

- هي خطوة أولى للتمرين حتى يتيسر لي عمل

أهم، وعلى أي حال فني وسمي أن أنتظر دون أن أجرح...

فنظر كمال إلى خديجة قائلاً:

- دعي الأمور تجري كما يشاء، إنه راشد مثقف

وأدري بما يفعل.

ولكن خديجة لم تسلم بالهزيمة بسهولة، وعادت

تحاول إقناع ابنها بقبول الوظيفة حتى علا صوتها واحتد

فتدخل كمال ليخلص بينهما، ثم تكثرت جَوَّ المجلس

وساد صمت ثقيل حتى قال كمال ضاحكاً:

- جئت طامعاً في شرب الشراب فكانت هذه

المكنتة نصيبي.

وفي أثناء ذلك ارتدى أحد ملايه ليخادر البيت،

فاستأذن كمال وخارجاً ماءً وساراً في شارع الأزهر،

وقد صارح أحمد خاله بأنه ماضٍ إلى مجلة «الإنسان

الجديد» ليتسلم عمله كما وعد الأستاذ عدلي كريم،

فقال له كمال:

- افعل ما تشاء ولكن تجنب إيذاء والديك...

فقال أحمد ضاحكاً:

- إني أحبهم وأجلهم ولكن...

بلغ كمال بيت أخته بالسكّرية حوالي العصر

فوجد الأسرة مجمعة في الصالة بكامل هيئتها،

فصاحهم وهو يقول مخاطباً أحمد:

- مبارك اللبائس...

فأجابته خديجة بلهجة خالية من معاني الابتهاج:

- مبارك عليك، ولكن تعال اسمع آخر خبر، البك

لا يريد أن يتوقف...

وقال إبراهيم شوكت:

- ابن خاله رضوان مستعدّ لتوظيفه إذا وافق ولكنه

يصرّ على الرضخ، كلمه يا أستاذ كمال لعله يقتنع

برأيك أنت...

خلع كمال طربوشه، ونزع - من شدة الحر - الجاكete

البيضاء فألبسها مسند كرسي، ومع أنه كان يتوقع

مكره ألا أنه قال بأسياً:

- حسب أن اليوم سيكون خالصاً للتهنئة، ولكن

هذا البيت لا يسلو النزاع أبداً!

فقالت خديجة بلهجة أسيفة:

- قسمي، الناس كلهم حال ونحن وحلنا حال.

وغاطب أحمد خاله قائلاً:

- الأمر بسيط، ليس أمامي الآن إلا وظيفة كتابية،

فقد أخبرني رضوان أنه يمكن تصفيي الآن في وظيفة

كتابية خالية بإدارة المحفوظات عند خالي ياسون،

واقترح عليّ أن أنتظر ثلاثة أشهر حتى بدء العام

الدراسي الجديد لعلّ أعيّن مدرّس لغة فرنسية في

إحدى المدارس، ولكني لا أريد الوظيفة أيّا كان

نوعها!!

فهتفت خديجة:

- قل له ماذا تريد؟

فأجاب الشاب ببساطة وحزم:

- ساعمل في الصحافة.

فنفخ إبراهيم شوكت قائلاً:

- جورنالجي! كذا نسمع هذا الكلام فنظّنه ضحكاً

وصيحاً، يأي أن يكون مدرّساً مثلك وسمي إلى أن

يكون جورنالجيًا...

في العقد الأخير من الشباب، وكان مظهره يتمّ عن الحلق والذكاء. ودمى يصبره إلى سوسن حصاد وهو يسأل نفسه ترى هل تذكره؟. ولم يكن وأما منذ أول مقابلة عام ١٩٣٦. والتقت عندها فسلها بأسيا مدفوعا برغبة في الخروج عن صمته:

- قابلت حضرتك هنا منذ خمس سنوات...

فلاح التذكر في عينها اللامعتين فاستدرك قائلا:

- كنت أسأل عن مصير مقالة تأخر نشرها!

فقلت باسمه:

- أكاد أدرك، وحل كلّ فقد نشرنا منذ ذلك التاريخ مقالات كثيرة...

فقال يوسف الجميل معلقا:

- مقالات تنمّ عن روح تقنيّة طيبة...

وقال إبراهيم رزق:

- إنّ الوحي اليوم خيره بالأسس، كلّما نظرت في الطريق قرأت على الجدران عبارة «الحبّز والحرقية» هذا شعار الشعب الجديد.

فقلت سوسن حصاد بهاتين:

- ما أجمله من شعار، خاصة في هذا الوقت الذي أطبق فيه الظلام على العالم...

وأدرك أحد ما يحبه قولها فاستجابت نفسه سريعا - وفي حماس وسرور - للجرّ المحيط به وقال:

- الظلام يطبق على العالم حقا، ولكن ما دام هنتر لم يهجم على بريطانيا فثمة أمل في النجاة.

فقلت سوسن حصاد:

- إني أنظر إلى الموقف من زاوية أخرى، ألا ترى أنّ هنتر لو هاجم بريطانيا فمن المحتمل أن يهلكا معا أو في الأقلّ أن ينتقل مركز القوة إلى روسيا؟...

- وإذا حدث العكس؟ أمهي أن يحتاج هنتر الجزيرة ويبلغ ذروة القوة؟...

فقال يوسف الجميل:

- كان نابليون كهتزر غازي أوروبا ولكن روسيا كانت مقبرة.

ووجد أحد نشاطا وحماسا لم يشعر بمثلها من قبل. هذا الهواء النقي، وغولاه المزملة الأحرار، وفله الزميلة المستنيرة الحسناء. ولداع أو لآخر ذكر حلوية

- ولكن...؟

- من الخطأ أن يكون للإنسان والدان.

كحال ضاحكا:

- كيف هان عليك أن تقول ذلك؟

- لا أعني حرفيته، ولكن ما يرمز إليه والدان من تقاليد الماضي، فالأبوة على وجه العموم فسرّلة، وما حاجتنا في مصر إلى الفرامل ونحن نسير بأرجل مكبلة بالأغلال؟!

ثمّ مواصلا الحديث بعد تفكير:

- إنّ مثلي لن يعرف الكفاح بمعناه المرّ ما دام في بيت ولا يلاي دخل، ولا أنكر آتي مطمئن ببلّك ولكن في الوقت نفسه خجل منه!

- متى ينتظر منك أن تزجر على عمك؟

- لم يحلّد الأستاذ وقتا...

وعند العتبة الخضراء الترقا، فمضى أحد إلى مجلة «الإنسان الجديد»، وقد استقبله الأستاذ عدلي كريم مشجعاً، وذهب معه إلى حجرة السكرتارية حيث خاطب من فيها قائلا:

- زميلكم الجديد الأستاذ أحد إبراهيم شوكت...

ثمّ قدّم إليه زملاء قائلا:

- آنسة سوسن حصاد، الأستاذ إبراهيم رزق، الأستاذ يوسف الجميل... وصالحوه مرحّبين، ثمّ قال إبراهيم رزق بجملا:

- اسمه معروف في مجلّتنا...

وقال الأستاذ عدلي كريم بأسيا:

- إنّهُ الابن البكر للإنسان الجديد... (ثمّ وهو يشير إلى مكتب يوسف الجميل)... ستعمل على هذا المكتب فإن عمل صاحبه في الخارج إلّا فيا ندر... وغادر عدلي كريم الحجرة فدعا يوسف الجميل أحد إلى الجلوس على كرسيّ قريب من مكتبه، وانتظر حتى جلس ثمّ قال:

- ستوجّهك الآنسة سوسن إلى العمل الذي سيناط بك، ولا بأس الآن أن تشرب فنجان قهوة... وضغط على زرّ الجرس على حين راح أحد بتصنّح الوجوه والمكان، كان إبراهيم رزق كهلا مهلّسا يبدو أكبر من سنّه بمشرة أهوام، أمّا يوسف الجميل فكان

- إنَّ الرقابة تقف لنا بالمِرصاد...  
فقال بصوت يَدُلُّ على الخلق والازدراء:  
- أنت لم تر شيئاً بعد، مجلَّتْنا «مشبوهة» في الدوائر  
العليا. ولها الشرف!  
فقال أحمد ياسين:  
- تذكرين طبعاً افتتاحيات الأستاذ عدلي كريم قبل  
الحرب؟  
- لقد حُطِّلت مجلَّتْنا مرّة في عهد عليّ ماهر بسبب  
مقال عن ذكرى الثورة العراقيّة اتهم فيه الأستاذ الخديو  
توفيق بالحيانة.

ويومًا سألته ضمن حديث عابر:  
- لماذا اخترت الصحافة؟  
فتفكّر قليلاً، إلى أيّ درجة يجوز له أن يكشف عن  
ذات نفسه هذه الفتاة التي تبدو طرازاً وحدها بين من  
عرف من بنات جنسها:

- لم أدخل الجامعة لأتولّف، ولكن عندي أفكار  
أريد التعبير عنها ونشرها وما من سبيل إلى ذلك خير  
من الصحافة...

فقالت باهتمام سرّ له من أمهاته:  
- أمّا أنا فلم أدرس في الجامعة، أو بالحرى لم تتح  
لي فرصة (سرّته صراحتها كذلك وإن أكثرت في نفسه  
مخالفتها لبنات جنسها)... إلّني متخرّجة في مدرسة  
الأستاذ عدلي كريم، وهي ليست دون الجامعة منزلة،  
درست عليه منذ حصولي على البكالوريا، وأصارحك  
بأنك أحسنت تعريف الصحافة، أو الصحافة التي  
نعمل فيها، بيد أنّك تنقّس عن أفكارك - حتى الآن -  
عن طريق غيرك، أعني بالترجمة، ألم تفكّر في اختيار  
الشكل الذي يناسبك من أشكال الكتابة؟  
فصمت مفكّراً كأنما أخلق عليه المعنى المقصود ثمّ  
تساءل:

- ماذا تعنين؟  
- المقالة، الشعر، القصّة، المسرحيّة؟  
- لا أدري، المقالة أوّل ما يتبادر إلى الخاطر...  
فقالت بلهجة ذات معنى:  
- نعم، ولكنّها لظروفنا السياسيّة، لم تعد مطلباً  
يسيراً، لذلك يضطرّ الأحرار إلى إذاعة آرائهم

صبري، وعام المذاب الذي صار فيه الحبّ الخائب  
حقّ صرعه، حين كان يصبح وعسي وهو يلحن الحبّ  
من صميم قلبه حين تطاير في الهواء تاركاً في أعالي  
النفس آثاراً من الامتناع والتمرد لا تزول. إنَّها الآن  
في بيتها في الممادي تنتظر زوجاً ذا خمسين جنيهاً شهريّاً  
على الأقلّ، أمّا هذه الفتاة التي تدعو بالنصر لروسيا  
فإذا تنتظر يا ترى؟...

وإذا بسوسن تلوح برزمة أوراق في وجهه وهي  
تقول برقة:  
- تسمع!...  
فنهض، ثمّ مضى إلى مكتبها ياسيناً ليهذا عمله  
الجديد...

## ٣٤

لم يكن يوسف الجميل يمرّ بالمجلة إلّا يومًا في  
الأسبوع أو يومين إذ كان جلّ نشاطه موجّهاً  
لإعلانات والاشتراكات، كذلك إبراهيم رزق لم  
يمكث في السكترتارية أكثر من ساعة ثمّ يدور على بقية  
المجلات التي يعمل بها، فكان أكثر الوقت مضى وهما  
منفردان. أحمد وسوسن. ومرّة جاء رئيس عمّال المطبعة  
ليأخذ بعض الأصول لها راحة إلّا أن يسمعها وهي  
تدعو «أبي!». وعلم بعد ذلك أنّ ثمة صلة قرى  
تربط الأستاذ عدلي كريم نفسه برئيس عمّال المطبعة.  
كان ذلك مفاجئاً ومثيراً، وراحه أكثر من سوسن  
مشاربها على العمل، كانت محور التحرير ومركز  
نشاطه، بيد أنّها كانت تعمل أكثر ممّا يستوجب تحمير  
المجلة، فما تزال تقرأ أو تكتب. وبدأت جالقة حاقّة  
شديدة الذكاء، وشعر من أوّل الأمر بقوة شخصيّتها،  
حتىّ كان يخيّل إليه بعض الأحيان - رغم حينها  
السوداوين الجذّابين وجسمها الأنثويّ اللطيف - أنّه  
حيال رجل قويّ الإرادة حسن التنظيم، ثمّ تأثّر  
بنشاطها فثار على عمله بيّمة لا تصرف الكلل أو  
الملل، وقد أخذ على عاتقه ترجمة المختارات من مجلات  
العالم الثقافيّة، إلى ترجمة بعض المقالات ذات الشأن،  
وقد قال لها يوماً:

فقلت سومن في جلس:

- هذا مناقض لما تكتب، فأراهن على أنك متأثر بالوفاء لخالك! عندما يكون الإنسان متأثراً يركز اهتمامه في إزالة أسباب الألم، مجتمعنا متألم جداً فيجب أن نزيل الألم قبل كل شيء، ولنا بعد ذلك أن نلهم ونفلسف! ولكن تصوّر إنساناً يتفلسف لاهياً وبه جرح يتنز لا يعيره أدل الصفات، ماذا تقول عن مثل هذا الإنسان؟!

أهذا خاله حقاً؟ لكن فليقر بأن كلامها يلقي تحدياً كاملاً في نفسه، وبأن عندها جبلتان، وبأنها رغم غرابتها وجذبتها جذابة... جذابة...  
- الواقع أن خالي لا يعير هذه الأمور التفاتاً جدّاً، لقد حدثت كثيراً عنها فوجدته إنساناً يدرس النازية كما يدرس الديمقراطية أو الشيوعية، ولكنه لا هو بارد ولا هو حار، ولم أستطع أن أتبين موقفه...

فالت باسم:

- لا موقف له، إن موقف الكاتب لا يمكن أن يخفى، إنه مثل من المثقفين البورجوازيين يقرأ ويستمتع ويتساءل، وقد تجده في حيرة أمام «الطلق»، وربما بلغت به الحيرة حدّ الألم، ولكنه يمرّ سادراً بملفتين الحقيقتين في طريقته...  
فقال ضاحكاً:  
- ليس خالي كذلك...

- أنت أدرى، كذلك قصص رياض قللمس ليست بالقصص المشوقة، إنها واقعية وصفية تحليلية، ولا تتقدم عن ذلك خطوة، لا توجيه بها ولا تبشيراً  
ففكر أحمد قليلاً ثم قال:

- ولكنه كثيراً ما يصف حال الكادحين من العمال والفلاحين، ومعنى هذا أنه يهب مسرح البطولة في أقاصيصه للطبقة الكادحة!

- ولكنه يقتصر على الوصف والتحليل، إنه لعمل سليمٍ بالنسبة للمعركة الحقيقية!...

يا لها من فتاة تروم المراكاة شديدة الجذ في يبدو، ولكن أين المرأة؟!

- وكيف تريدين أن يكتب؟

- أقرأت شيئاً من الأدب السوفيتي الحديث، بل

بالمشورات السرية، للقصة صريحة ومباشرة ولذلك فهي خطيرة، خاصة وأن الأعين عميقة فيها، أما القصة فلديت جيل لا حصر لها، إنها فنّ مكر، وقد خدمت شكلاً أدبياً شائعاً سوف ينتزع الإمامة في عالم الأدب في وقت قصير، ألا ترى أنه ما من كبير من شيوخ الأدب إلا وهو يشب وجوهه في مجال نشاطها ولو بمؤلف واحد؟

- نعم، قرأت أكثر هذه المؤلفات، ألم تقرني للأستاذ رياض قللمس الكاتب بمجلة الفكر؟

- هذا واحد من كثيرين، وليس غيرهم!  
- ريثما، لقد لفتني إليه خالي الأستاذ كمال أحمد عبد الجواد الكاتب بنفس المجلة...

فالت باسم:

- هو خالك؟ قرأت له مؤامرات، ولكن...  
- ؟...

- مصادرة لأنه من الكتاب الذين يهيمنون في تيه المتألفين بها.

فتمسك فيها يشبه القلق:

- ألم يعجبك؟

- الإعجاب شيء آخر، لأنه يكتب كثيراً عن الحقائق القديمة: الروح... المطلق... نظرية المعرفة، هذا جميل، ولكنه - فيها عدا للثمة الذهنية والترتب الفكري - لا يفي إلى غاية، ينبغي أن تكون الكتابة وسيلة محدّدة الهدف، وأن يكون هدفها الأخير تطوير هذا العالم والصمود بالإنسان في سلم الرقي والتحرر، الإنسانية في معركة متواصلة والكاتب الخلق بهذا الاسم حقاً يجب أن يكون على رأس المجاهدين، أما وثبة الحياة فلنذهبها لبرجسون وحده...

- ولكن كارل ماركس نفسه بدأ فيلسوفاً ناشئاً يهيم في تيه المتألفين بها.

- وانتهى بعلم الاجتماع العلمي، فمن هنا بدأ لا من حيث بدأ.

لم يرتع أحمد إلى نقد خاله على هذا النحو، فقال بغية الدفاع عنه قبل كل شيء:

- الحقيقة جديرة دائماً بأن تعرف، مهما تكن، ومهما يكن الرأي في آثارها...

أقرأت مكسيم جوركي؟

فصمت ياساً، لا داعي للخجل، كان طالب اجتماع لا طالب أدب، ثم إنَّها تكبره بسنوات، ترى ما صمرها؟ ربَّما كانت في الرابعة والعشرين أو أكثرًا. وعادت تقول:

- هذا ما ينبغي أن تقرأ من ألوان الأدب، سأعيرك بعضه إذا شئت...

- بكلِّ سرور...

فابتسمت قائلة:

- ولكنَّ الإنسان والحرَّة لا يكفي أن يكون قارئًا أو كاتبًا إنَّ المبادئ تتعلَّق بالإرادة قبل كلِّ شيء، الإرادة أولاً وقبل كلِّ شيء.

مع ذلك وآها أنيقة، أجل ليس في وجهها زواق، ولكنَّ عنايتها بظهورها وأناقتها ليست دون غيرها من بنات جنسها، هذا الصدر الحثي مؤثِّر كثيره من الصدور الفاتنة، ولكن مهلاً هل يختلف هو عن غيره من الرجال بما يعتق من مبدأ؟ طبعنا غريبة تأبى أن تنظر إلى المرأة إلَّا من زاوية خاصَّة!...

- لئي سرور بمعرفتك، وأرى أنه أمامنا أكثر من مجال للعمل ممَّا كيد واحدة...

فكالت باسمه، وكانت عند الابتسام تبدو أنثى قبل كلِّ شيء:

- هذا إطراد!

- لئي سرور بمعرفتك حقًا...

أجل إنَّه كذلك، ولكن ينبغي ألاَّ يسيء فهم ما يفعل به صدره فلملَّه الاستجابة الطيبة لمراحم مثله، واصطنع الحذر حتَّى لا ترمي بنفسك إلى مثل موقفك بالمعادي، فإنَّ الحزن لم يَجَّ بعد من صفحة قلبي...

### ٣٥

- مساء الخير يا حَمِي.

وتبع جلييلة إلى مجلسها المختار في الصالة، وما استقرَّ بها المجلس فوق الكتبة حتَّى نادى المرأة خادمتها فجاءت حاملة الشراب وجعلت ترقبها وهي تعدُّ الحوان حتَّى فرغت من مهمَّتها وذهبت، وعند ذلك

التفت جلييلة إلى كمال قائلة:

- يا ابن أخي، أقسم لك أنني لم أهد أشرب إلَّا معك، كلَّ ليلة جمعة، كما كان يحلو لي أن أشارب أباك في الزمن القديم، ولكن في ذلك الزمن أشارب الكثيرين أيضًا...

وقال كمال في نفسه: «ما أحوجني إلى الشراب، لا أدري ماذا كانت تكون الحياة بدونها» ثمَّ قال بمجاورها:

- ولكنَّ الويسكي اعطى يا حَمِي، وكذلك كافَّة المشروبات النظيفة، ويقال إنَّ الغارة الألمانية الأخيرة على اسكتلندا أصابت مخزن خور عالمي حتَّى سالت الوديان بالويسكي الأصيل...

- يا روجي على غارة من هذا النوع! ولكنَّ خبرني قبل أن تسكر كيف حال السيِّد أحمد؟

- لا تقذِّم ولا تأخر، يمزَّ عليَّ يا ستَّ جلييلة مرقده، ربَّنا يلطِّف به...

- يا ما نفسي أزوده، ألاَّ تحمد الشجاعة فبئله عَمِي السلام؟

- يا غيرا. لم يبق إلَّا هذا حتَّى تقوم الساعة!

فضحكت العجوز ثمَّ قالت:

- ألحسب أنَّ رجلًا مثل السيِّد أحمد يمكن أن يتصوَّر البراءة في إنسان خاصَّة إذا كان من صلبه؟

- ولو يا زين السَّنات!... صحتك...

- صحتك... ربَّما تأخَّرت عطية إذ إنَّ ابنها

مريض...

فقال كمال في شيء من الاهتمام:

- في آخر مرَّة لم يكن بها شيء!...

- نعم ولكنَّ ابنها مريض يوم السبت الماضي، روحها للمسكينة في ابنها، وإذا مسَّه سوء طارات أبراج

عقلها...

- يا لها من امرأة طيبة حائرة الحظِّ، طلما أقنعتني

أحوالها بأنَّها لا تمارس هذه الحياة إلَّا مضطَّرة...

فكالت جلييلة باسمه أو ساخرة:

- إذا كان مثلك يضيق بمهتته الشريفة فكيف ترضى

هي بمهتتها؟

ومرَّت الحادام بمجمرة تنفث بخورًا لطيفًا، وكان جوُّ

- وهل تحسني أشرب الآن؟ مضى فُلك الزمان، لا طعم لها اليوم ولا أثر، كالقهوة لا أكثر ولا أقل، في الزمان الأول سكوت مرّة في فرح ببيرجوان حتى اضطرّ التخت أن يحملني إلى حريمي آخر الليل، ربّنا يكتيك شرّها!...

ولكنّها خير من لا خير له!...

- وفروة النسوة هل عرفتّها؟ كنت أبلغها بكاسين، اليوم يلزمني ثيابة كتوس كي أبلغها، ولا أدري كم غداً، ولكنّها ضروريّة يا عتي، فعندها يرقص القلب للكلم طرباً..

- فليك طروب يا بن أخي دون الحاجة إلى الخمر...!

قلبه طروب! وبهذا الحزن الصديق؟ والرماد المتخلف من محرق الآمال؟ لم يبق للملوك إلا الامتلاء بالخمر، في هذه الصلاة أو في تلك الهجرة إذا جاءت التي تدادي ابنها، هو وهي في موضع واحد من الحياة، حيلة من لا حيلة لهم.

- أخشى ألا تحمي عطيّة!...

- ستجيء حتّى، أليس المرض في حاجة إلى النقرة؟ يا له من جواب! بيد أنّها لم تكنه من التذكير إذ مالت نحوه في اتهام، ونظرت إليه ملياً، ثم قالت بصوت منخفض:

- لم يبق إلا آلام!...

فقال دون أن يدرك حقيقة مرادها:

- ربّنا يطوّل عمرك ولا يجرمني منك!

فالتت باسمه:

- سأهجر هذه الحياة!

فانتصب نصفه الأهل في دهشة وهتف:

- ماذا قلت؟!

فضحكت ثم قالت بلهجة لم تخل من سخرية:

- لا تخف، ستلعب بك عطيّة إلى بيت آمن كهذا

البيت...!

- ١٤...!

- ولكن ماذا حدث؟

- كبرت يا ابن أخي، وإغاثني الله فوق حاجتي، وبالألماس ضُبط بيت قريب وسيقت صلابته إلى

الخريف يفور رطبياً من نافذة في نهاية الصلاة، وكانت الخمر شديدة المرارة ولكنّها قويّة الأثر، غير أنّ كلام جلييلة عن المهنة دكّره بأمور كاد ينساها فقال:

- كنت أنقل من مصر يا عتي، ولو وقع المحظور

لكنت الآن أعدّ الخفاف للسر إلى أسبوط!...

فغريت جلييلة صدرها بكفّها وقالت:

- أسبوط يا بلع! أسبوط في عين عدوك، وماذا حصل؟

- سليمة والحمد لله!

- معارف والدك يملأون الدواوين كالنمل...!

فهو رأسه كالمرافق دون تعليق. إقبا ما زالت ترى أباه في حالة المجد القديم، لا تلدي أنّه - حين أخبره حتّى تقترّ عن نقله - قال عزوئاً أسفاً ولم يعد يعرفنا أحد، أين أصدقاؤنا أين؟، وقبل ذلك مضى إلى صديقه القديم غواد جميل الخمزوي لعلّه يعرف أحدًا من كبار رجال المعارف ولكنّ القاضي الخطير قال له: «إني أسف جداً يا كمال فانا بصفتي قاضياً لا أستطيع أن أرجو أحدًا». وأخيراً لجأ إلى رضوان ابن أخيه وهو يتدبّر بسجله، وفي نفس اليوم عدل عن نقله! ديا له من شاب خطيراً كلاهما موثّق في وزارة واحدة وفي درجة واحدة رغم أنّه في الخامسة والثلاثين والشاب في الثانية والعشرين، ولكن كيف يتنظر من خوجسة ابتدائي أفضل من هذا؟ ولم يعد من الممكن أن يتزمى بالفلسفة أو يدّعيها، فليس الفيلسوف من ردد قول الفلاسفة، كالبيهاق، واليوم كلّ متخرج في كنيّة الآداب يستطيع أن يكتب كما يكتب هو أو أحسن، وقد كان هناك ثمة أمل في أن يجمع ناشر مقالاته في كتاب، ولكن لم يعد لثل هذه المقالات التعليمية من قيمة تذكر، وما أكثر الكتب هذه الأيام، وهو في هذا الخضم لا شيء، وقد ملّ حتى طلع بالملل. فسق يدرك قطاره عمكة الموت؟. ونظر إلى الكأس في يد عتي، ثم إلى وجهها الناطق بعمرها الجديد فلم يسعه إلا الإعجاب بها، ثم تسامح:

- ماذا تمجدين في الشراب يا عتي؟

فافتّر فورها عن أسنان ذهبيّة وهي تقول:

- ساعك الله، هذا بيتك ما دام بقي، وكل بيت  
أحل فيه فهو بيتك يا ابن أخي...

أثمة لمة قديمة مجهولة قفي عليه بأن يكفر  
عنها؟. كيف المخرج من هذه الحيرة التي تنشى  
حياتها؟. حتى جليلة تفكر جاعة في تغيير حياتها فلم لا  
يتخذ منها أسوة؟ لا بد للفرق من صخرة يلوذ بها أو  
فليفرق، وإذا لم يكن للحياة معنى فلم لا نخلق لها  
معنى؟...

- ربنا كان من الخطأ أن نبحث في هذه الدنيا من  
معنى بيتنا أن مهنتنا الأولى أن نخلق هذا المعنى...  
وحلجته جليلة بنظرة غريبة فأنته بعد فوات الوقت  
إلى ما بدر منه دون شعور. وضحكت جليلة متسائلة:

- سكرت بهذه السرعة؟  
فدارى ارتباكك بضحكة عالية، وقال:  
- لم الحرب كالسم، لا تؤاخذيني، ترى متى تأتي  
عطية؟

### ٣٦

خادر كمال بيت جليلة عند منتصف الساعة الثانية  
صباحاً، كان كل شيء غارقاً في الظلام، وكان الظلام  
خارقاً في الصمت، وسار على مهل نحو السجدة الجديدة  
ثم مال إلى الحسين. حتى متى يعيش في هذا الحرم  
المقدس الذي لم يمت إليه بصلة؟. وابتنس ابتسامة  
فاترة، لم يكن بقي من الحرم إلا خارها، أما الجسد  
فقد خدمت لواعجه، فنقل خطاه في إهواء وكسل.  
عادة في مثل هذه اللحظة الحامدة يصرخ شيء في  
أعياقه - لا هو التوبة ولا الندم - ناشداً التطهر،  
ملتصماً الخلاص من قبضة الشهوات إلى الأبد، كأن  
موجة شهواته تنحصر عن صخور تقشّف كاملة. ورفع  
رأسه إلى السماء، كأنها ليستأنس بالنجوم فانطلقت في  
السكون صقارة الإنذار. ودق قلبه دقة عتيقة ثم  
حلفت عيناه النائمات، ثم بدافع غريزي مال إلى  
أقرب جدار وسار بحذاءه، ونظر إلى السماء مرة أخرى  
فرأى أضواء الكشافات الكهربائية تمسح صفحاتها في  
سرعة شديدة، تلتقي أحياناً ثم تتفرق في جنون.

القسم، حسبي، إني أنكر في التوبة، ينبغي أن أقابل  
ربّي على غير ما أنا عليه  
أني صلي بغير كاسه، وملاء كأنما لم يصنق ما  
سمعه:

- لم يبق إلا أن تستقلي السفينة إلى مكة!!  
- ربنا يقدرني على فعل الخير...  
وتسائل وكما يفق من دهشته:  
- أجاه هذا كله فجأة؟  
- كلا، إني لا أبرح بسرّ إلا عند العمل، طالما  
تجرت في هذا من زمن...

- جدي؟  
- كل الجدي، ربنا معنا  
- لا أدري ماذا أقول، ولكن ربنا يقدر على فعل  
الخير.  
- آمين...  
ثم ضاحكة:  
- ولكن اطمئن فلن أخلق هذا البيت حتى اطمئن  
على مستقبل...

فضحك ضحكة عالية وقال:  
- ميهات أن أجد بيتاً أرتاح فيه كهذا البيت.  
- لك حلّ أن أوصي بك الهدونة الجديدة ولو كنت  
في مكة  
كل شيء يبدو مضحكاً ولكن الحرم منتظّل قبلة  
المحزون، وتغير الأوضاع ليعلو فؤاد جميل الحمزاوي  
ويسفل كمال أحمد عيد الجواد، ولكن الحرم منتظّل  
بشاشة المكروب، ويوماً يحمل كمال رضوان على كتفه  
ليدلكه ثم يميء يوم فيحمل رضوان كمال ليقبله من  
عثرته ولكن الحرم منتظّل نجدة الملهوف، وحتى الست  
جليلة تفكر في التوبة في الوقت الذي يبحث هو عن  
ماخوذ جديد ولكن الحرم منتظّل الماوي الأخير، وعلى  
السقم كل شيء حتى يمل الملل ولكن الحرم منتظّل  
مفتاح الفرج.

- يسعدني أن أسمع منك دائماً ما يسرّ.  
- الله يهديك ويسعدك...  
- إذا كان وجودي يضايقك؟...  
وسدت فاه بأصبعها، وقالت:



لم يجب أبوه، وكان ملتفتاً بظهوره في إعياء إلى جدار القبر بين الأم وعائشة، أما الأم فقالت:

- كمال؟. الحمد لله، شيء فطخ يا بني، ليست ككل مرة، خيل إلينا أن البيت سينقض فوق رؤوسنا، وربنا شد حبل أهلك فنفض وجاء بيننا، لا أدري كيف جاء ولا كيف جئنا. . .

وغصمت أم حنفي:  
- عنده الرحمة، ما هذا الحول؟! ريتا يلفظ بنا. . .

ولجأة هتفت عائشة:  
- متى تسكت هذه المدافع؟!.

وخيل إلى كمال أن صوبها ينزل بانهباء عصي فاقرب منها وأمسك بكعها بين يديه وكأنه قد استرد بعض وصيه المفقود عندما وجد نفسه حالاً من هم في حاجة إلى تشجيعه. وكانت المدافع ما تزال تنطلق في غضبها الجنوني، غير أن وطأتها انحلت نكتت بدرجة غير محسوسة، ومال كمال نحو أبيه وسأله:

- كيف حالك يا أبي؟  
فجاءه صوته وهو يحس في خور:  
- أين كنت يا كمال؟. أين كنت حين وقعت الغارة؟. . .

فقال يلمتته:  
- كنت على مقربة من القبر، كيف حالك؟  
فاجاب بصوت متقطع:

- الله أعلم. . . كيف غادرت فراشي وهرولت في الطريق؟. الله أعلم. . . لم أشعر بشيء. . . متى تعود الحال إلى الهدوء؟

- آأأأ لك جاكنتي تجلس عليها؟  
- كلاً، أنا قادر على الوقوف، ولكن متى تعود الحال إلى الهدوء؟. . .

- الغارة انتهت فيما يبدو، أما قيامك المفاجئ فلا تحفه. إن المفاجآت كثيراً ما تصنع المعجزات مع المرض. . .

وما كاد ينتهي من قوله حتى زلزلت الأرض بثلاثة انفجارات متتابعة فثار جنون المدافع المضادة مرة أخرى وضج القبر بالصراخ:

وحث خطاه دون أن يفارق الجدران وقد شعر شعوراً موحشاً بوحشته كأن وجه الأرض قد خلا إلا منه. وإذا بصغير مبسوح يتهاوى لم يطرق أذنه من قبل، يحقب انفجار شليد ارتجت له الأرض تحت قدميه، قريب أم بعيد؟ ولم يتسع له الوقت لمراجعة معلوماته عن الغارات، إذ تابعت الانفجارات بسرعة تكتم الأنفاس، وانطلقت المدافع المضادة جماعات جماعات، والتمتع الجو بأضواء كالبرق لم يعرف مصدرها ولا كتبها فخلل إليه أن الأرض تتطاير. وانطلق يعدو بسرعة لا يلوي هل شيء صوب درب قمرز ملتصقاً في قبوها التاريخي غيا. وكانت المدافع تنطلق في غضب جنوني، والقنابل تنك مراميها دكاً، والأرض تمهد. وفي ثوانٍ من الفزع بلغ القبر، فاندس بينهم وهو يلهث. وكان جوه يسوده الرعب ويمتل بهمهمات الفزع في ظلام داس، أما مدخل القبر وخرجه فيضيان من أن لآخر باتكاسات الإشعاعات المنطلقة في الفضاء، وقد توقفت سقوط القنابل أو هذا ما خيل إليهم، أما المدافع فلم ينف جنونها ولم يكن رجعها في الضوض دون رجوع القنابل، واختلطت أصوات صراخ وبكاء وزجر وانتهاز صادرة عن نسوة وأطفال ورجال.

- هذه غارة جديدة وليست كالسابقات. . .  
- وهذا الحفي القليم هل يتحمل الغارات الجديدة؟!

- اهفونا من هذه الثثرة وقولوا يا رباً!  
- كلنا يقول يا رباً. . .  
- استكرو. . . استكرو يرحمكم الله!

وكان كمال يلاحظ الضوء الذي ينير مخرج القبر حين رأى جماعة جديدة قادمة فخيّل إليه أنه لمح هبة أبيه بينها، وعفق قلبه، أيكون حقاً أباه؟ وكيف استطاع أن يقطع الطريق إلى القبر؟ بل كيف استطاع أن يغادر فراشه؟ وشق طريقاً إلى نهاية القبر غترقاً الكتل البشرية المضطربة، فتتج على التجاع الضوء أسرته جميعاً: أباه وأمه وعائشة وأم حنفي؟ والجمه نحوهم حتى وقف بينهم وهو يحس:  
- أنا كمال! كلكم بخير؟

الأطفال عقب مدافع الأعياد، وضجّ المكان وما حوله بحركة ما لها من آخر. صفقات أبواب ونوافذ، هدير كلام عصبي، ثم تتابع انصراف المنحشرين في القيو، وقال كمال وهو يتهدّ:

- فلنعد...

وضع الأب ذراعًا على كتف كمال والأخرى على كتف الأم وسار بينهما خطوة خطوة. ويدوا يتساءلون عن الرجل، كيف هو، وماذا أصابه أثر مغامرته الخطيرة. غير أنّ الأب تتوفّ عن المشي وهو يقول بصوت ضعيف:

- أشعر بأنني يجب أن أجلس...

فقال له كمال:

- دعني أحملك.

فقال في إعياه:

- لن تستطيع...

ولكنّ كمال أحاطه بلذراع من وراء ظهره ووضع الأخرى تحت ساقيه، ورفع. لم يكن حملًا خفيفًا ولكنّ ما بقي من أبيه كان على أيّ حال ميتًا. وسار في بطة شديد، والأخرون يتبعونه مشفقين. وانتحبت عائشة فجأة فقال الأب بصوت متعب:

- لا داعي للفضيحة!

فكتمت فاهها بيدها، وكما بلغوا البيت حاولت أمّ حنفي في حل السيد، فصعدا به السلم على مهل وحذر، وكان مستسلمًا ولكنّ مهمته الاستفسارية المتواصلة نمت عن حزنه وضيقه، حتّى طرحاه بعناية على فراشه، وكما أمّهي نور الحجر بدا وجه الأب شديد الشحوب كأنّ الجهد قد استصفى دمه، وكان صدره يملو وينخفض بمنف، فأغمض عينيه إعياه، ثمّ راح يتأوّه، ولكنّه غالب الله حتّى استطاع أخيرًا أن يلوذ بالصمت. وكان الجميع يقفون صفاً بإزاء فراشه ويتطلّعون إليه في وجل وإشفاق، وأخيرًا تسادلت أمانة بصوت متهدّج:

- سيّلي بخير؟

ففتح عينيه، وجعل ينظر في الوجوه ملأها، وبدأ لحظات كأنّه لا يعرفها، ثمّ تتهدّ وقال بصوت لا يكاد يسمع:

- إنّا فوق رموسنا!

- وخذ الله...

- أسكنوا هذا الشؤم!

وترك كمال يد عائشة ليأخذ يدي أبيه بين يديه، وكان يفعل ذلك لأول مرّة في حياته، وكانت يدا الرجل ترتجفان، وكانت يدا كمال ترتجفان كذلك، أمّا أمّ حنفي فقد انبطحت على الأرض وهي تولول. وعاد الصوت العصبي يصيح في هياج:

- إنّاكم والصراخ، سأقتل الصراخ...

وعلا الصراخ، وتلاقت طلقات المدافع، واشتدّ تؤثر الأعصاب، في توقّع لازل جديدة، ولكنّ المدافع استمرت تنطلق وحدها، وظلّ توقّع انفجارات جديدة يفتق الأرواح.

- انتهت القنابل!

- إنّا تغيب ثمّ لنفجر...

- إنّا بعيدة، لو كانت قريبة ما سلمت البيوت من حولنا!

- بل سقطت في النحاسين!

- هكذا يجلّ إليك ولعلّما في الأورنس!

- ألهتوا يا هوه، ألم تحفّ للمدافع؟

بل غفّت طلقاتها، ثمّ لم تعد تسمع إلّا من بعيد، ثمّ مقطعة ثمّ متباعدة، ثمّ بين الطلقة والأخرى دقيقة كاملة، ثمّ أناخ الصمت، وامتدّ، وطال وعمق، ثمّ انعمدت اللسن، حتّى مضت تتعالى همسات الأمل الباكي، وأخذ كثيرون يتذكّرون أشياء وأشياء، ويحيون من جديد، ويتبدّلون في ارتياح حشر مشوب بالإشفاق، وبعثًا حاول كمال أن يرى وجه أبيه بعد أن حادت التهاجات الضوء الحافظ وخيم الظلام...

- أبي، متعود الحال إلى الهدوء...

فلم يجيب الرجل ولكنّه حرّك يديه بين يدي ابنه كأنّها ليقنمه بأنّه ما زال حيًا...

- هل أنت بخير؟...

فحرّك يديه مرّة أخرى، وشعر كمال بحزن لوشك أن يبيح دمعه.

وانطلقت صفارة الأمان...

وأعقبها صياح تهليل من جميع الأركان كصياح

- ولَكِنْ التعب قد أنهك قوى بابا... .

فقال ياسين:

- ولكنه سيسترده صحته بالنوم...

- وما عسى أن نفعل به إذا وقعت غارة أخرى؟... .

ولم يُجِر أحد جوابًا فساد صمت ثقيل حتى قال أحمد:

- بيوتنا قديمة ولن تتحمل الغارات...

وعند ذاك أراد كمال أن يبتدئ سحب الكأبة المخيمة التي أرهقت أعضابه فقال منتزحًا من شفته ابتسامة:

- إذا خدمت بيوتنا فحسبها شرًا أن أهلها سيكون بأحدث أساليب العلم الحديث...

### ٣٧

أوصل كمال زوار آخر الليل حتى الباب الخارجي، ولم يكد يعود إلى باب السلم حتى ترامت إليه من فوق ضجة مريبة، وكانت أعضابه ما تزال متوترة فذاخلته كآبة ورتي السلم وثبات. وجد الصلاة خالية، وسجدة الأب مغلفة، وغليظًا من الأصوات يملأ خلف بابها المغلق، فهرع إلى الحجرة ودفع الباب ثم دخل، وكان يتوقع شرًا أي أن يفتكر في كتبه. كان صوت الأم المبحوح يهتف «سيدي»، وكانت عائشة تنادي بصوت غليظ «بابا» على حين تسمرت أم حنفي عند رأس الفراش فدهم شعور بالفزع والياس والاستسلام الحزين؟ رأى نصف أبيه الأسفل مطروحًا على الفراش، ونصفه الأعلى ملقى على صدر الأم التي ترميت وراء ظهره، وصدره يطو وينخفض في حركة آلية تنذ عنها حشرة غريبة ليست من أصوات هذا العالم، وعينيه مفتوحتين عن نظرة مظلمة جديدة لا ترى ولا تمي ولا تملك أن تقهر حيا يتلجج وراءها، فتسمرت قدماء وراء شباك السرير، وانعقد لسانه، وتحجرت عيناه، لم يجد شيئًا يقوله أو شيئًا يفعله، وعال شعورًا قاهرًا بالسجود المطلق، والياس المطلق والنضاعة المطلقة وكأنه فقد الوعي لولا إدراكه أن أباه يوقّع الحيلة. وركدت عائشة بعصرًا زائفًا بين وجه أبيها

- الحمد لله...

- ثم يا سيدي... . ثم كي تستريح...

وترامى إليهم زبون الجرس الخارجي فمضت أم حنفي لتفتح الباب، وتبادلوا نظرات متائلة فقال كمال:

- لعل أحدًا من السكرية أو قصر الشوق قد جاء ليطمئن علينا.

وصدق حدسه فيما لبث أن دخل الحجرة عيد التعم وأحد ثم تبعهما ياسين ورضوان فأقبلوا على فراش الأب وهم يحسبون الموجودين، فوجه إليهم الرجل نظرات فائرة، وكان الكلام لم يسغه فاكثى برفع يده النحيله تحية، وقص عليهم كمال في اقتضاب ما عاتله والده في ليلة المزعجة، ثم قالت أمينة همسا:

- ليلة فظيعة ربنا لا يعبدها...

وقالت أم حنفي:

- الحركة أتمته قليلاً ولكنه سيسترده بالراحة حالته...

ومال ياسين فوق أبيه وهو يقول:

- ينبغي أن تنام، كيف حالك الآن؟

فرنا الرجل إليه ببصر خاب وضمغم:

- الحمد لله... . أشعر بتعب في جنبي الأيسر...

فسأله ياسين:

- أحضر لك الطبيب؟

فاشار بيده في ضجر ثم همس:

- كلًا خير لي أن أنام...

فاشار ياسين إلى الموجودين بالخروج، وتراجع إلى وراء قليلاً فرفع الرجل يده النحيله مرة أخرى. وغادروا الحجرة واحداً في إثر واحد فلم يبق فيها مع الرجل إلا أمينة، وكما جمعهم الصلاة سأل عبد التعم خاله كمال:

- ماذا فعلتم؟ أما نحن فقد هرعنا إلى المنطرة في الحوش.

وقال ياسين:

- ونحن نزلنا إلى شقة الدود الأرضي عند جيراننا...

فقال كمال في قلق:

أن يوجه كمال ثم هتفت:  
 - أهي، هذا كمال يريد أن يتحدث؟  
 وخرجت أم حنفي عن غمغمها المتصلة قائلة في  
 نبرات عذرة:  
 - احضروا الطيب...  
 فأنت الأم في حزن غاضب:  
 - أي طيب يا حقاه؟  
 ثم نلت عن الأب حركة كأنها يحول الجلوس،  
 وازداد صدره تشنجًا واضطرابًا، ومد سبابة مناه ثم  
 سبابة يسراه، فلما رأت الأم ذلك تقلص وجهها من  
 الألم ثم سالت هل أذنه وتشهدت بصوت مسموع  
 وكزرت ذلك حتى سكنت يده. وأدرك كمال أن أباه لم  
 يعد يستطيع النطق وأنه دعا الأم لتشهد نهاية عنه،  
 وإن كنه هذه الساعة الأخيرة سيبقى سرًا إلى الأبد،  
 وإن وصفه بالألم أو القزع أو الغيبوبة رجم بالغيب،  
 ولكنه على كل حال لا ينبغي أن تطول، إنها أجل  
 وأخطر من أن تبتل، أما أصعابه فقد انهارت حوالها،  
 وسجل من نفسه إذ نزعحت لحظات إلى تحليل الموقف  
 ودراسته، كأن احتضار أبيه يجوز أن يكون زائدًا لتأمله  
 وملاحة لمعرفته، وضاعف ذلك من حزنه ومن آله، وقد  
 اشتدت حركة الصدر وعلت حشرجته، ثم ما هذا؟  
 أجم بالقيام؟ أم يحاول الكلام؟ أم يخاطب شيئًا  
 مجهولًا؟ أيتالم؟ أم يفزع؟... أه...  
 وشق الأب شهقة عميقة ثم ادعى رأسه على  
 صدره.

صرخت عائشة من الأعياق: «يا أبي... يا  
 نصيمة... يا عثمان، يا محمد، فهرعت إليها أم حنفي  
 ودفعتها أمامها برقة إلى الخارج، ودفعت الأم وجهها  
 الشاحب إلى كمال وأشارت إلى الخارج، ولكنه لم  
 يتحرك، فهمت في يأس:  
 - دعني أتم بواجبي الأخير نحو أبيك...  
 فتحوّل عن موقفه ومضى خارجًا، وكانت عائشة  
 مرعجة على الكنية وهي تمول، فمضى إلى الكنية المقابلة  
 لها وجلس، أما أم حنفي فذهبت إلى الحجرة لتساعد  
 سيديتها وأغلقت الباب ورامها. ولم يعد بكاء عائشة مما  
 يُحتمل فقام واقفاً وراح يقطع الصلاة ذهابًا وإيابًا دون

وجه كمال ثم هتفت:  
 - أهي، هذا كمال يريد أن يتحدث؟  
 وخرجت أم حنفي عن غمغمها المتصلة قائلة في  
 نبرات عذرة:  
 - احضروا الطيب...  
 فأنت الأم في حزن غاضب:  
 - أي طيب يا حقاه؟  
 ثم نلت عن الأب حركة كأنها يحول الجلوس،  
 وازداد صدره تشنجًا واضطرابًا، ومد سبابة مناه ثم  
 سبابة يسراه، فلما رأت الأم ذلك تقلص وجهها من  
 الألم ثم سالت هل أذنه وتشهدت بصوت مسموع  
 وكزرت ذلك حتى سكنت يده. وأدرك كمال أن أباه لم  
 يعد يستطيع النطق وأنه دعا الأم لتشهد نهاية عنه،  
 وإن كنه هذه الساعة الأخيرة سيبقى سرًا إلى الأبد،  
 وإن وصفه بالألم أو القزع أو الغيبوبة رجم بالغيب،  
 ولكنه على كل حال لا ينبغي أن تطول، إنها أجل  
 وأخطر من أن تبتل، أما أصعابه فقد انهارت حوالها،  
 وسجل من نفسه إذ نزعحت لحظات إلى تحليل الموقف  
 ودراسته، كأن احتضار أبيه يجوز أن يكون زائدًا لتأمله  
 وملاحة لمعرفته، وضاعف ذلك من حزنه ومن آله، وقد  
 اشتدت حركة الصدر وعلت حشرجته، ثم ما هذا؟  
 أجم بالقيام؟ أم يحاول الكلام؟ أم يخاطب شيئًا  
 مجهولًا؟ أيتالم؟ أم يفزع؟... أه...  
 وشق الأب شهقة عميقة ثم ادعى رأسه على  
 صدره.

صرخت عائشة من الأعياق: «يا أبي... يا  
 نصيمة... يا عثمان، يا محمد، فهرعت إليها أم حنفي  
 ودفعتها أمامها برقة إلى الخارج، ودفعت الأم وجهها  
 الشاحب إلى كمال وأشارت إلى الخارج، ولكنه لم  
 يتحرك، فهمت في يأس:  
 - دعني أتم بواجبي الأخير نحو أبيك...  
 فتحوّل عن موقفه ومضى خارجًا، وكانت عائشة  
 مرعجة على الكنية وهي تمول، فمضى إلى الكنية المقابلة  
 لها وجلس، أما أم حنفي فذهبت إلى الحجرة لتساعد  
 سيديتها وأغلقت الباب ورامها. ولم يعد بكاء عائشة مما  
 يُحتمل فقام واقفاً وراح يقطع الصلاة ذهابًا وإيابًا دون

\*\*\*

وبجاء ياسين مهرولًا تتبعه زئومة ورضوان، ثم  
 ترامى إليهم من الطريق الصامت صوت خديجة.  
 ويوصل خديجة استعرت النار في البيت جميعًا فاختلط  
 الصوت بالصراخ والبكاء. وتعدّل حل الرجال البقاء  
 في الدور الأول فصعدوا إلى المكتبة في الدور الأعلى  
 وجلسوا واجمين، وغشيم الصمت والوجوم حتى قال  
 إبراهيم شوكت:

كان الأب في الساعة الخامسة اليوم في فراشه يتابع الراديو أمّا في نفس الساعة غداً... إلى جانب فهمي وابتني ياسين الصغيرين، ترى ماذا تبقى من فهمي؟ لم يخفّف العمر من رغبته القديمة في التطلّع إلى جوف الليل، ترى هل كان الأب حقاً يرغب في قول شيء كما نتبّا له؟ ماذا كان يريد أن يقول؟ والتفت ياسين إليه متسائلاً:

- هل شهدت احتفاره؟

- نعم، عقب انصرافك مباشرة.

- تألم؟

- لا أدري، من يدري يا أخي؟ ولكنّه لم يستغرق

أكثر من خمس دقائق...

تنهّد ياسين ثمّ تسأل:

- ألم يقل شيئاً؟

- كلا، والغالب أنّه فقد النطق...

- ألم تشهّد؟

فقال كمال وهو يغمض بصره ليداري تأثّر:

- قلت أمّي بذلك نياحة عنه...

- ليرحمه الله...

- آمين...

وساد الصمت ملياً حتى عرقه رضوان قائلاً:

- يجب أن يكون السراقق كبيراً ليتّسع

للمعزّين...

فقال ياسين:

- طبعاً، أصدقاؤنا كثيرون... (ثمّ وهو ينظر نحو

عبد المنعم)... وهناك شعبة الإخوان المسلمين!...

ثمّ متنبّها:

- لو كان أصحابه أحياء لحملوا النش على

أكتافهم!...

\*\*\*

ثمّ كانت الجنازة كما رسموا، وكان أصدقاء عبد

المنعم أكثر عدداً، أمّا أصدقاء رضوان فكانوا أقل

مقلّماً، ولفت نفر منهم الأنظار بشخصياتهم المعروفة

لقراء الجرائد والمجلات، وكان رضوان بهم مزهواً حتى

كاد يخطي زهوه على حزنه. وشيخ أهل الحيّ «جار

العمر» حتى الذين لم يصلهم به سبب من أسباب

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله، قضت عليه الغارة،

رحمه الله رحمة واسعة كان رجلاً ولا كلّ الرجال...

ولم يتمالك ياسين نفسه فبكى، وعند ذلك انفجر

كمال باكياً، فعاد إبراهيم شوكت يقول:

- وسُخِّدوا الله، لقد ترككم رجلاً...

وكان رضوان وعبد المنعم وأحمد يتعلّمون إلى

الرجلين الباكيين في حزن ووجوم وشيء من اللعش.

وسرعان ما جفّف الرجلان دموعهما ولاذّا بالصمت،

فقال إبراهيم شوكت:

- الصباح قريب، فلنغفر فيها يجب عمله...

فقال ياسين في اقتضاب حزين:

- لا جديد في الأمر فقد جربناه مرّات...

فقال إبراهيم شوكت:

- يجب أن تكون الجنازة جديرة بمقامه...

فقال ياسين بتوكيد:

- هذا أقلّ ما يجب!

وهنا قال رضوان:

- الشارع أمام البيت ضيق لا يتّسع للسراقق

المناسب فلننضم سراقق العزاء في ميدان بيت

القاضي...

فقال إبراهيم شوكت:

- ولكنّ المادّة جرت بأن يقام سراقق العزاء أمام

بيت المتوفّى!...

فقال رضوان:

- ليس هذا المكان الأوّل من الأهميّة خاصّة وإنّه

سيؤمّ السراقق وزراء وشيوخ ونواب!

وأدرك المستمعون أنّه يشير إلى معارفه هو فقال

ياسين دون مبالاة:

- نقيمه هناك...

وكان أحمد يفكر في الدور المتوط به فقال:

- لن نتمكّن من نشر النعيّ في جرائد الصباح...

فقال كمال:

- جرائد المساء تصدر حوالي الساعة الثالثة بعد

الظهر فلنجعل موعد الجنازة في الساعة الخامسة...

- ليكن، القرافة قريبة على أيّ حال...

وتأمّل كمال يجري الحديث في شيء من العجب.

الذي تدور حوله فكيف أطبقها ولم يعد له فيها ظل؟ وأنا أول من اقترح تغيير معالم الحجرة العزبة... ما حياتي ما داموا لا يدخلونها حتى تتلحق أبصارهم بمكانه الخالي ويجهشون بالبكاء... وسيدي يستحق الدموع التي تسيل من أجله، ولكني لا أطيق بكاءهم وأخاف على قلوبهم الغضة فأعزيم بما تعزني به أم حنفي وأطالبهم بالتسليم لله وقضائه، ولذلك أحليت الحجرة من أثاثها القديم وانتقلت إلى حجرة عائشة، ولكني لا تهجر الحجرة وتستوحش فنقلت إليها أثاث الصالة فانتقلت إليها مجلس القهوة حيث نجتمع حول المجرمة نتحدث كثيراً ونقطع أحاديثنا الدموع، ولا يشغلنا شيء كما يشغلنا الأعداد للفرقة وأشرف بنفسي على تجهيز الرحمة فلملأه الواجب الأوجد الذي لم أتحل عنه لأم حنفي كما تحللت لما عن كل شيء، تلك المرأة العزبة الوحيدة التي دخلت بجدارية في صميم أسرتنا، فنحن نعد الرحمة معاً ونبكي معاً ونتذكر الأيام الجميلة معاً فهي دائماً معي بروحها وذاكرتها، وأمس جرت الحديث إلى ذكر ليالي رمضان فبادرت تحدث عن سيرة سيدي في رمضان منذ ساعة استيقاظه في الضحى حتى حين عودته إلينا عند السحور، فذكرت بلوري كيف كنت أهرع إلى المشرية لأرى الخطبوط الذي يحبه وأستمع إلى ضحكاته راكميه أولئك الذين ذهبوا تباعاً إلى رحمة الله كما ذهبت الأيام الخلوة وكما ذهب الشباب والصحة والعالية فاللهم متع الأبناء بطول العمر وقز أعيانهم بأفراح الحياة، وهذا الصباح رأيت فقطنتنا تشتم الأرض تحت الفرائش حيث كانت ترضع فلذات كبدها التي أهديتها إلى الجيران فقطع قلبي منظرها الخائر الحزين وهضت من أحساكي قلبي الله بصبرك يا عائشة... عائشة المسكينة التي هاج موت أبيها حزنها فهي تبكي أباها وابنتها وابنها وزوجها فما أحرر الدموع وأنا التي تجرعت مرارة الكحل قديماً حتى سال قلبي دماً واليوم أفجع بوفاة سيدي وتحلوا حياتي منه وكان مله حياتي جيماً ولا يبقى لي من الواجبات إلا أن أمد له الرحمة أو أتلقاها من السكينة وقصر الشوق فهذا كل ما بقي لي، كلاً يا بني، اختر لنفسك هذه الأيام مجلساً غير مجلسنا الحزين حتى لا تسري إليك عدواه... لماذا

التعارف الشخصي، فلم تكذب الجنائز تحلو إلا من أصدقاء المرحوم نفسه الذين سبقوه إلى الدار الآخرة. وعند باب النصر ظهر الشيخ متوكلي عبد الصمد في الطريق، وكان يرتفع من الكبر فرفع رأسه نحو التمش وهو يفتق عينيه ثم سال:

- من هذا؟

فاجابه رجل من أهل الحي:

- المرحوم السيد أحمد عبد الجواد!

فجعل وجه الرجل يترنم ويرة في ارتعاش، وملاحه تتسائل في حيرة، ثم إذا به يسأل:

- من أين؟...

فاجابه الرجل وهو يترنم رأسه في شيء من الحزن:

- من هذا الحي، كيف لا تعرفه! ألا تذكر السيد أحمد عبد الجواد؟...

ولكن لم يد عليه أنه تذكر شيئاً، وألقى نظرة أخيرة على التمش ثم سار في سبيله...

### ٣٨

خلا البيت من سيدي فليس هو البيت الذي عاشته أكثر من حسين عائداً، والجميع يكون حولي، وتعدية لا تضارني فهي قلبي العاصر بالحزن والذكريات وهي قلب كل قلب بل هي ابنتي وأختي وأمي أحياناً، وأكثر بكائي غلصة حين أدخل إلى نفسي إذ ينبغي أن أشجعهم على النسيان فما بيون حل أن يمزقوا أو... لا قدر الله - أن ينال منهم الحزن شيء من مال. أما إذا خلوت إلى نفسي فلا أجد عزاء إلا في البكاء فابكي حتى تجف دموعي، وأقول لأم حنفي إذا تسلفت إلى وحدتي الباكية دعيني وشأني يرحك الله. فتقول لي كيف أتركك وأنت على هذه الحال؟ أنا عارفة بحالك... ولكنك ست مؤمنة بل أنت ست المؤمنات فعندك تعلم العزاء والتسليم لغضاه الله... قول جميل يا أم حنفي ولكن ألق للقلب المحزون أن يفقه معناه، ولم يعد لي شأن في هذه الدنيا ولم يعد لي عمل وكل ساحة من ساحات يومي مرتبطة بذكرى من ذكريات سيدي... لم أعرف الحياة إلا وهو محورها

الملابس إلى سعة ديوانه وفراشي ملوثة كمال فليس  
أحق بها من الفقراء أمثالهم الذين سيدعون له بالرحمة  
في مقره الأخير، أما المسبحة العزیزة فلن تفارق يدي  
حتى أفارق الحياة، والفقر كم يبدو حلو المزارع لما  
يثير من شجن ولم أكن أنقطع عنه منذ انتقل إليه  
الشهيد الغالي، ومنذ ذلك الوقت وأنا اعتبره حجرة من  
بيتنا لكتبتها في أطراف حيفا، ويجمعنا القبر جيئاً كما كان  
يجمعنا مجلس القهوة في الزمن الحالي، وتتوح خديجة  
حتى ينال منها الإعياء ثم نؤمر بالسكوت تأكيذاً لاستماع  
القرآن، ثم يشغلهم الحديث حيناً فأتى بها بصرف  
أصراخي عن الحزن، ويشبك روضان وعبد المنعم  
وأحمد في نقاش طويل وتنضم إليهم كريمة أحياناً فذاك  
ما يفري كمال بمشاركتهم الحديث ويلطف من كآبة  
المقام، ويسأل عبد المنعم عن غلته الشهيد ليقص  
ياسين القصص تتبعث الحياة في الأيام القديمة ويعود  
غالب الذكريات ويخفق قلبي فلا أدري كيف أداري  
دموعي، وكثيراً ما أرى كمال وأبناً فأسأله عما به يقول  
لي إن صورته لا تفارقتي خاصة منظر الاحتضار فلو  
كانت نهايته أخيراً.. فقلت له برقة عليك أن تتسنى  
هذا كله. فتساءل كيف يكون النسيان؟ فقلت له  
بالإيمان فابتسم ابتسامة حزينة وقال: كم كنت أخافه  
في مطلع حياتي ولكنه تكشف لي في عهد الأخير من  
إنسان جليد بل صديق حبيب. ألا ما كان أطرفه  
وأرقه وأطفه، لم يكن لي الرجال مثله. ويأسين يبكي  
كلها أملاجه الذكرى... كمال حزنه في صمته الواجم  
أما ياسين الضخم فيبكي كالأطفال ويقول لي إنه  
الرجل الوحيد الذي أحببه في حياتي، أجل كان أباه  
وكان أمه ولم ينعم بالمطف والحنان والرعاية إلا في  
كنفه حتى شلته كانت رحمة ولن أنسى يوم صفا عني  
ورفني إلى بيته فصلى غرامة أمي رحمها الله التي ما  
انفكت تقول لي إن السيد ليس بالرجل الذي يقطع أم  
أولاده، وكان يجمعنا حبه فاليوم يجمعنا ذكراه، أما بيتنا  
فلا يخلو من الزوار غير أن قلبي لا يسكن حتى أجد  
خديجة ويأسين وألحيا حولي... حتى وثوبة فما أصدق  
حزناً، وقالت لي كريمة الصغيرة الجميلة: يا جدتي  
تعالي عندنا فهذه أيام مولد الحسين ولحت بيتنا تقام

أنت واجم؟. الحزن لم يخلق للرجال فالرجل لا  
يستطيع أن يعمل الأعباء والأحزان مثلاً... اصعد إلى  
حجرتك وتسل بالقرامة والكتابة كما تفعل أو انطلق إلى  
أصحابك فاسهر، ومن بده الخليفة فالأعزاه يفارتون  
ذويهم، فلو كان الاستسلام إلى الحزن هو المتبع لما بقي  
على ظهر الأرض شيء... لست حزينة كما تتوهم وما  
ينبغي لمؤمن أن يحزن، وسوف نعيش إذا أراد الله  
وسوف ننسى ولا سبيل إلى العزيز الذي سبق إلا حين  
يشاء الله، فكذا أقول له ولا آلو أن أتكلف ما ليس بي  
من التصبر والتجمل إلا إذا هلت خديجة قلب بيتنا  
الحبي وخرفت الدموع بلا حساب هنالك لا أملك أن  
أجهش في البكاء، وقالت لي عائشة إنها رأت أباهما في  
النام قابضاً على ساعد نعمة بيدٍ وعلى ساعد محمد بيدٍ  
حاملاً عثمان على كتفه وقال لها إنه بخير ولأنهم بخير  
فسأله عن سر النافذة التي نورت لها في الساء ثم  
توارت إلى الأبد فتجلت في عينيه نظرة عتاب ولم  
ينس. ثم سألتني عن معنى الحلم. يا حيرة أنك يا  
عائشة... غير أنني قلت لها إن العزيز مات وهو  
مشغول القلب بها ولذلك زارها في الحلم وجاءها  
بأولادها من الجنة لتقر برؤيتهم حيناً فلا تنفسي عليهم  
صفوهم باستسلامك للحزن، ليت عائشة الزمان  
الأول تعود ولو ساعة، ليت الذين حولي يبرعون من  
حزنيهم حتى لا يشغلني شأغلهم عن واجب الحزن  
المعيق، وجمعت ياسين وكمال وقلت لهما: فلهذه  
المخلفات العزیزة ماذا نفعل بها؟ فقال ياسين: آخذ  
الحلالم فإنه على قد أصبهي، ولك الساعة يا كمال أما  
السبحة فلك أنت يا نعمة... والحبس  
والقفاطين؟... وذكرت من توي الشيخ متولي عبد  
الصمد الذكرى الباقية من عهد العزيز فقال ياسين:  
لقد انتهت الرجل فهو في غيبوبة ولا يعرف له مقر،  
وقال كمال مقطوعاً: لم يعرف أبي... نسي اسمه وتوئى  
عن الجنائز دون اكتراث. فازدججت وأنا أقول: يا  
للمعجب متى حلت هذا؟ كان سيدي يسأل عنه حتى  
آبائه الأخيرة وكان دائماً يبه به يرمه إلا مرة أو مرتين  
مد زار بيتنا ليلة دخلة نعمة، ولكن رباه أين نعمة  
وأين ذلك التاريخ كله؟ ثم اقترح ياسين أن تهدي

دلّت على أنّه لم يفلجاً بالخبر، على حين تركت خديجة الشال الذي تطرّزه وحججه بنظرة غريبة غير مصدّقة ثمّ نظرت إلى زوجها وهي تتساءل:

- ماذا قال؟

فعاد عبد النعم يقول:

- سأتوكّل على الله وأخطب كريمة بنت أخيك...

فبسطت خديجة يديها في حيرة وقالت:

- هل أفلست الدنيا من الذوق؟ ألهذا الوقت

مناسب لحديث الخطبة حتّى مع صرف النظر عن المخطوبة؟!

فقال عبد النعم بأساً:

- كلّ الأوقات مناسبة للخطبة...

فهزّت رأسها في حيرة وهي تتساءل:

- وجئتكم؟... (ثمّ وهي تردّد عينها بين أحمد وإبراهيم)...

هل سمعتم عن شيء كهذا من قبل؟

فقال عبد النعم في شيء من الحدة:

- خطبة لا زواج ولا فرح، وقد انقضى على وفاة

جدي أربعة أشهر كاملة...

وقال إبراهيم شوكت وهو يشعل سيجارة:

- كريمة ما زالت صغيرة، مظهرها أكبر من سنّها فيما

أعتقد...

فقال عبد النعم:

- هي في الخامسة عشرة ولن يُكتب الكتاب قبل

عام...

فقال خديجة في تهكم ومرارة:

- هل أطلعتك زوّية هانم على شهادة الميلاد؟

فضحك إبراهيم شوكت، وضحك أحمد، أمّا عبد

النعم فقال جاداً:

- لن يتمّ شيء قبل عام، ويعدّ عام سيكون قد

مضى على وفاة جديّ حوالي السام والنصف وتكون

كريمة قد بلغت سنّ الزواج...

- ولماذا توجع دماغنا الآن؟

- لأنّه لا بأس من إعلان الخطبة في الوقت الحاضر.

تساءلت خديجة في سخرية:

- وهل تحمّض الخطبة إذا أُجّلت عامًا؟

- أرجوك... أرجوك أن تكفّي عن المزاح...

الأذكار وأنت تحيّن ذلك، فقبّلتها شاكراً وقلت لها: يا بنتي جدّتك لم تمتدّ البيات خارج بيتها... إنّها لا تلدي شيئاً عن آداب بيت جدّها في تلك الأيام التي خلت. ما أجل ذكرها والمشريّة آخر حدود دنياي حيث أنتظر عودة سيدي آخر الليل وهو من قوّته يكاد يهذ الأرض عند مفادته للمنطور ثمّ يملأ الحجرة بطوله وعرضه والمافية تكاد تثب من وجهه أمّا اليوم فلا يعود ولن يعود وقبل ذلك ذبل وانزوى ولزم الفراش ورؤى جسمه وخفّ وزنه حتّى لم يجد أحده. يا حزني الذي لن يذهب! وقالت عائشة في غضب إنّ هؤلاء الأحماد لم يمزّنوا على جدّهم، إنهم لا يمزّنون، فقلت لها بل حزنوا ولكنهم صغار ومن رحمة الله بهم ألا يفرّقوا في الحزن، فقلت: انتظري إلى عبد النعم لا يتهمي نقاشه، وهو لم يمزّن على ابنتي وسرعان ما نسيها كأنّها شيء لم يكن. فقلت لها: بل حزن عليها طويلاً وبكى كثيراً وحزّن الرجال غير حزن النساء وقلب الأمّ غير القلوب جيّماً، ومذا الذي لا ينسى يا عائشة، ونحن ألا نتسلّ بالحديث أو يدركنا الابتسام أحياناً وسوف يأتي يوم لا يكون فيه صموغ، ثمّ أين فهمي أين؟. وقالت لي أمّ حنفي: لماذا امتنعت عن زيارة الحسين؟ فقلت: نفسي فاترة عن كلّ شيء أحبته وسأزور سيدي عندما يبرأ الجرح. فقلت لي: وهل يبرأ الجرح إلا بزيارة سيّدك؟ فكذلك ترعاني أمّ حنفي وهي ربّة بيتنا ولولاها ما كان لنا بيت، إنك يا ربّي ربّ الجميع أنت القاضي ولا رادّ لقضائك ولك أصلّي، وددت لو أبقيت على سيدي قوّته حتّى النهاية فما ألّني شيء كما ألّني رقاذه، هو الذي كانت الدنيا تضيق عن مراحه... حتّى الصلاة عجز عنها وما عاناه قلبه الضعيف وعودته محمّلاً على الأيدي كالطفل لذلك تسيل دموعي ويتكاثف حزني...

- سأتوكّل على الله وأخطب كريمة بنت خالي...

رفع إبراهيم شوكت عينه إلى ابنه في شيء من الدهش، أمّا أحمد فأعفى رأسه وهو يتسم ابتسامة



الدعوات للتبعية إلى ولائم قصر الشوق، وإذا بك  
تقع كالجرذل!

فرقد عبد المنعم عينيه غاضباً بين أبيه وأخيه ثم  
تسامل:

- أهذا الكلام يليق بنا؟ اسمعاني رأيكما...  
فقال إبراهيم شوكت متثاقلاً:

- لا داعي لكثرة الكلام، عبد المنعم سيتزوج إن  
اليوم أو غداً، وأنت توثقن هذا، وكرمة ابتناء، وهي  
بنت جميلة ولطيفة، لا داعي للشوشرة...  
وقال أحمد:

- أنت يا نينة أول من يؤد إرضاء خالي ياسين!  
فقالت خديجة حنينة:

- كلكم ضلتي كالعادة، ولا حجة لكم إلا خالي  
ياسين، ياسين أخي، وكان خطوه الأول أنه لم يعرف  
كيف يتزوج، وعنه ورث ابن أخيه هذا المزاج  
الغريب!...

فتسامل عبد المنعم في حجب:

- أليست امرأة خالي صديقتك؟! من يراكما وأنتما  
تتاجيان بظنكما شقيقتين!...

- ما سبيلتي في امرئة سياسية مثل النسي؟ لكن لو  
ترك لي الأمر أو لو لم أزع خاطر ياسين ما سمحت لها  
بدخول بيتي، وماذا كانت النتيجة؟... أكلت حُك  
بالولائم المفروضة، وعليه العروض؟  
عند ذلك قال أحمد غامطاً أخاه:

- اعطيتها وقتها تشاء، نينة لسانها كثير الكلام ولكن  
قلها طيب...  
فضحكت ضحكة عصبية وقالت:

- صافرم يا ولداً! تختلفان في كل شيء... في الدين  
والملة والسياسة، أما علي فتتحدان!...  
فقال أحمد في مزح:

- خالي ياسين أفضل الناس عندك، وسوف ترشحين  
بكرميته كاحسن ما يكون الترحيب، الحكاية أنك  
توثقن صروساً غريبة حتى تمنغي - كحكمة - من  
اضطهادها، حسن، علي أنا أن أحقق لك هذا الأمل،  
سوف أجيئك بالمعروس الغريبة لتشفي غليلك!

فصاحت خديجة:

- لو وقع هذا لكان فضيحة.

فقال عبد المنعم في هدوء ما استطاع:

- دعي جدتي لي، ستفهمني خيراً منك، إنَّها جدتي  
وجدة كريمة على السواء.

فقال بغيضة:

- ليست جدّة لكريمة...

فسكت عبد المنعم وقد تجهّم وجهه فبادره أبوه  
قائلاً:

- المسألة مسألة فوق فيحسن أن تنتظر قليلاً...

فهضت خديجة حانقة:

- يعني أنه لا اعتراض لك إلا على الوقت؟

فتسامل عبد المنعم متغافلاً:

- هل ثمة اعتراض آخر؟

فلم تجب خديجة وعادت تتشاكل بطريز الشال  
فاستطرد عبد المنعم قائلاً:

- كريمة ابنة ياسين أخيك أليس كذلك؟

فتركت خديجة الشال وقالت بمرارة:

- هي ابنة أخي حقاً ولكن كان ينبغي أن تذكر أنها  
أيضاً!

وتبادلوا النظرات في إشفاق، ثم انطلق عبد المنعم  
قائلاً في حنة:

- أمها زوجة أخيك كذلك!

فارتفع صوتهما وهي تقول:

- أحلم هذا، وهو ما يؤسف له!

- ذلك الماضي المنسي! من يذكره الآن؟! لم تعد إلا  
سيّدة معترمة مثلك!

فقالت بصوت خفيض:

- ليست مثلي ولن تكون مثلي أبداً!

- ماذا يعيبها؟! عرفناها منذ صغرنا سيّدة معترمة  
بكل معنى الكلمة، والإنسان إذا تاب واستقام محيت  
صفحة سوابقه فلا يذكرها بها بعد ذلك إلا...

وأمسك، فقالت وهي تهرز رأسها في أسف:

- نعم؟ فينفي! سب أمك إكراماً لهذه المرأة التي  
عرفت كيف تأكل حُك، طالما تساملت عمّا وراء

وكان إسمايل لطيف يقول:

- أنا في إجازة للاستعداد ومن ثم أسافر...

تسامل كمال في أسف:

- مستغيب عتاً ثلاثة أموام؟

- نعم، لا بد من المغامرة، مرتب ضخم لا أنجّل

أن أتاله يوماً هنا، ثم إن العراق بلد عربي لا يختلف  
عن مصر كثيراً...

سيخلف وحشة، لم يكن صديق الروح ولكنه  
صديق العمر، وتسامل رياض قللس ضاحكاً:

- ألا يحتاج العراق إلى مترجم؟

لسأله كمال:

- أتأسفر إذا سئمت لك فرصة كفرصة إسمايل؟

- لو حدثت في الماضي ما تركت أمّا اليوم فلا...

- وما الفرق بين الماضي والحاضر؟

فقال رياض قللس ضاحكاً:

- بالنسبة لك لا شيء، أمّا بالنسبة لي فهو كلّ  
شيء، الظاهر أنني سأنضمّ قريباً إلى جماعة المتزوّجين!  
دهش كمال للخبر الذي وقع عليه دون تمهيد وقد  
ساوره قلق لم يدرك كنهه:

- حقاً؟ لم تُخبرني بذلك من قبل!

- بل، جاء بقتة، في آخر مقابلة، في آخر مقابلة  
بيننا لم يكن في البال شيء!

ضحك إسمايل لطيف في ظفر، أمّا كمال فتسامل  
وهو يحاول أن يتسم:

- كيف؟

- كيف؟ كما يحدث كلّ يوم، مدرّسة جاءت لزيارة

أخيها في إدارة الترجمة فاجبته، فجمست النبض  
فوجدت من يقول: «تفصّل»...

تسامل إسمايل ضاحكاً وهو يتناول خرطوم  
النارجيلة من كمال:

- ترى متى يمسّ هذا (مشيراً إلى كمال) النبض؟

هكذا إسمايل لا يفتّر فرصة أبداً لإثارة هذا  
الموضوع المعاد، ولكن ثمة أمر أخطر من هذا، فجميع  
الأصدقاء المتزوّجين يقولون إن الزواج «زناقة»، فمن  
للحمل جداً ألا يرى رياض - إذا تزوّج - إلا في  
القليل التادر، وربما تغيّر وتبدّل فيصبح صديقاً

- لا عجب إن جئني غداً براقصة! سلام

تضحكون؟. لهذا شيخ الإسلام سيصاهر عائلة فإذا  
أتوقع منك أنت لفهم في دينه والعياذ بالله!

- نحن في حاجة إلى راقصة بالفعل!

وإذا بخديجة تقول وكأنها تذكّرت أمراً خطيراً:

- وعائشة يا ربّي ترى ماذا تقول عتاً؟

فقال عبد المنعم محضاً:

- ماذا تقول؟ لقد توقّعت زوجتي منذ أربع سنوات  
كاملة فهل تودّ أن أبقي أرملي مدى العمر؟

فقال إبراهيم شوكت في ضجر:

- لا تخلقوا من الحبّة قبة، للسؤال أبسط من هذا  
كله، كريمة ابنة ياسين، ياسين أخو خديجة وعائشة،  
حبسنا هذا. ألف. كلّ شيء عندكم نغلو حقّ  
الأفراح؟.

واختلس أحد من أمّه نظرة باسمة، وجعل يراقبها  
حقّ قامت كالغاضبة وهاذرت الصالة، وراح يقول  
لنفسه: هذه الطليعة البورجوازية كلّها عقد، تحتاج إلى  
محلل نفساني بارع ليكشفها من كافّة حللها، محلل له  
قوة التاريخ نفسه. لو هادني الحظّ لسبقت أنهي إلى  
الزواج ولكنّ البورجوازية الأخرى اشترطت مرتباً لا  
يقلّ من خمسين جنيهاً، هكذا تمّرح قلوب الأمور لا  
شأن لها بالقلوب، ترى ماذا يكون رأي سوسن حداد لو  
علمت بمغامرتي الفاشلة؟.

## ٤٠

كان الجو شديد البرودة، ولم يكن خان الحليلي  
الربط ممّا يؤثر شتاء، ولكنّ رياض قللس نفسه الذي  
أشار ذلك المساء بالدهاب إلى قهوة خان الحليلي التي  
شيّدت مكان قهوة أحمد عبده فوق سطح الأرض، أو  
كما قال: «علمني كمال عليّ آخر الزمن أن أكون من  
غرة الغرائب». كانت قهوة صغيرة، بابها يفتح حل  
سمي الحسين، ثمّ تمتدّ طويلاً في شبه محرّ تصفّ حل  
جانبيه الموائد ويتهي بشرفة خشبية تطلّ على خان  
الحليلي الجديد. جلس الأصدقاء في جناح الشرفة  
الأمن يحضون الشاي ويدخنون نارجيلة بللناوية.

- دعونا من حديث الزواج، لقد انتهيت منه وصحى لك، على أن ثمة أحداثاً سياسية هامة هي التي ينبغي أن تستأثر اليوم باهتمامنا.

وكان كمال يشاركه مشاعره هذه غير أنه لم يستطع أن يفنى من المفاجأة تعلقى دعوة الآخر بفتور ظاهر ولم ينس، أما إسمايل لطيف فقال ضاحكاً:

- عرف النحاس كيف ينتقم لإكالة ديسمبر سنة ١٩٣٧ فالتصم هابدين على رأس الدبابات البريطانية وترث رياض قليلاً لمعطي كمال فرصة للرؤ غير أن هذا لم ينشط للكلام، فقال رياض في لهجة متجومة: - انتقام! إن خيالك يصور لك المسألة على وجه هو أبعد ما يكون عن الحقيقة...

- فما الحقيقة؟

والقى رياض نظرة على كمال كأنما يحته على الكلام فلياً لم يستجب استطرده قائلاً:

- ليس النحاس بالرجل الذي يتأمر مع الإنجليز في سبيل العودة إلى الحكم، إن أحمد ماهر مجنون، هو الذي خائن الشعب وانضم إلى الملك، ثم أراد أن يفتكي مركزه المضطرب بتصريحه الاحق الذي أعلنه أمام الصحفيين!

ثم نظر إلى كمال مستظلاً رايه، وكان حديث السياسة قد جذب أخيراً بعض اهتمامه غير أنه شعر برغبة في معارضة رياض ولو بعض الشيء فقال:

- لا شك أن النحاس قد أنفذ الموقف، ولست أشك في وطنيته مطلقاً، إن الإنسان لا يتقلب في هذه السن إلى خائن ليتولى وظيفة تولّاها خمس مرّات أو ستاً من قبل، ولكن هل كان تصرفه هو التصرف المثالي؟...

- أنت شكاك لا نهاية لشكك، ما الموقف المثالي؟ - أن يصّر على رفض الوزارة حتى لا يخضع للإنذار البريطاني ولكن ما يكون.

- ولو عزل الملك وتولى أمر البلاد حاكم عسكري بريطاني؟

- ولوا...

تهدّ رياض في غيظ وقال:

- نحن نلهو بالحديث أمام النارجيلة، أما السياسي

بالمراعاة، وهو وديع رقيق فما أسهل هضمه، ولكن كيف تمضي الحياة بدونها؟ وإذا جعل الزواج منه شخصاً جديداً كإسمايل فسلام على كافة مسرات الحياة وسأله:

- ومضى تتزوج؟

- في الشتاء القادم على أبعد الفروض.

كأنما أقضي عليه أن يفقد دواشاً صديقاً لروحه المملّة:

- عند ذاك ستكون رياض قلنس آخر!

- له!... أنت واهم جداً...

فقال وهو يداري قلقه بابتسامة:

- واهم! رياض اليوم شخص لا يُشبع روحه شيء ويقنع جبهه بلا شيء، أما الزوج فلن يشبع جبهه أبداً ولن يجد فرصة لمناخ الروح...

- يا له من تعريف جبار للزوج! ولكني لا أوافقك عليه...

- كإسمايل الذي اضطرّ إلى الهجرة إلى العراق، لست أسخر من هذا، فهو طبعي فوق أنه بطولة، ولكنني في الوقت نفسه بشع، تصدّر أن تفرق حتى قمة رأسك في هوم الحياة اليومية، ألا تفكر إلا في مشكلات الرزق، أن يحسب وقتك بالقروش أو الملائيم، أن تمسي شاعرية الحياة ضياع وقت!

فقال رياض في استهانة:

- أوهاهم مبعثها الخوف!

وقال إسمايل لطيف:

- آه لو تعرف الزواج والأبوة! لقد فاكك حتى اليوم أن تعرف حقيقة الحياة...

لا يبعد أن يكون الصواب رايه، ولو صحّ هذا فحياته مأساة سخيفة، ولكن ما السلعة وماذا يروم على وجه التحقيق؟ غير أن الذي يكرهه الآن أنه بات مهذّباً بالوحدة المرحبة مرّة أخرى، كما عان عقب اختفاء حسين شدّاد من حياته، لو كان من الممكن أن يجد زوجة لها جسم عطية وروح رياض! هذا ما يروم حقاً، جسم عطية وروح رياض في شخص واحد يتزوّجه فلا يتهبّد الشعور بالوحدة حتى الموت، هذه هي المشكلة، وإذا برياض يقول في ضجر:

فقال رياض بإيحاء:

- الرجل تقدّم لحمل أكبر مسئولية في أحرَج الظروف...

فقال كمال باسمًا:

- كما ستقدّم لحمل أكبر مسئولية في حياتك!...  
فضحك رياض، ثم نهض قائلاً «عن إنذكم»  
ومضى في اتجاه دورة المياه، وعند ذاك مال إسماعيل نحو كمال وقال وهو يتبسّم:

- في الأسبوع الماضي زار والدني وجاعة! لا شك أنك تذكرهم!

فنظر كمال إليه مستطعمًا وهو يتساءل:

- من؟...

فقال الآخر وهو يتبسّم ابتسامة ذات معنى:

- عايدة!

وقع الاسم من أذنيه موقفًا غريبًا، ففطت غرابية موقعه على كافة الانفعالات التي كان حزينًا بأن يثيرها، وبدا حينًا كأنما هو صادر من أمياله هو لا من لسان صاحبه، وكل شيء كان متوقعًا إلا هذا، ومغبت لحظات وكأن الاسم ليس له معنى، من عايدة؟ أي عايدة؟ يا للتاريخ! كم عامًا مضى دون أن يطرُق هذا الاسم مسامعه منذ ١٩٢٦، أو ١٩٢٧؟ ستة عشر عامًا أو عمر شاب بالغ بالكمال لعله أحبّ وميَّ بالإنخفاق! لقد طعن في السنّ حقًا، عايدة؟ ترى ماذا أصابه بهذه الذكرى؟ لا شيء! ليس إلا اهتمامًا عاطفيًا مشويًا بشيء من الانفعال كمن لمسّ يده موضع عملية جراحية ملثم من قديم فيذكر ما اكتنفها من ظرف خطير مضى وانقضى، وتحمّت متسائلًا:

- عايدة؟!

- نعم، عايدة شدّاد ألا تذكرها؟ أخت حسين شدّاد!...

وشر بمضايقة تحت عيني إسماعيل فقال متهمزًا:

- حسين! ترى ما أخبار حسين؟

- من يدري؟

وشر بسخف تمرّيه، ولكن ما حيلته وقد أحسّ بوجهه يسخن رغم براءة فبراير الشديدة؟ وبدا له الحبّ على مثال غريب بعض الشيء... كالطعام!

فأمامه مسئولية خطيرة، في هذه الظروف الحربية الدقيقة كيف يقبل النّحاس أن يمزّل الملك ويحكم البلاد حاكم عسكريّ إنجليزيّ؟ وإذا انتصر الحلفاء - ويجب أن نفترض هذا أيضًا - فنكون في صفوف الأعداء المنزّمين، السياسة ليست مثالية شعريّة ولكنّها واقعيّة حكيمة...

- لا زلت أومن بالنّحاس، ولكن لعله أخطأ، لا أقول تأمر أو خاف...

- المسئولية تقع على العابثين اللين مالوا الفاشست من وراء ظهور الإنجليز كأنّ الفاشست سيحترمون استقلالنا، أليس بيننا وبين الإنجليز معاهدة؟ وأليس الشرف يقضي علينا باحترام كلمتنا؟ ثمّ ألسنا ديموقراطيّين يميّنا أن نتصر الديموقراطية على النازية التي تضعتنا في جنول الأمم والأجناس في أحكّ طبقة وتثير شعناء الجنسية والعنصرية والطائفية؟!

- معك في هذا كله، ولكنّ الخصوص للإنذار البريطانيّ جعل من استقلالنا وهماً!...  
- استجّ الرجل على الإنذار ونزل الإنجليز عند رايه...

فضحك إسماعيل عاليًا ثمّ قال:

- يا صبي على الاحتجاج الانجلو أجنبيّان!...

غير أنّه سرعان ما قال جادًا:

- إني أقرّه على ما فعل، ولو كنت مكانه لفعلته، وجل أبعد رغم أغليته وأهين فعرف كيف يتقم لنفسه، والواقع أنّه ليس هناك استقلال ولا كلام فارغ، ففي سبيل أيّ شيء يمزّل الملك ويحكمنا حاكم عسكريّ إنجليزيّ؟!

وزاد وجه رياض حميها، أمّا كمال فابتسم قائلاً في هدوء بدا غريبًا:

- أخطأ الآخرون وتحمل النّحاس نتيجة الخطأ، لا شك أنّه أنقذ الموقف، أنقذ العرش والبلاد، ثمّ إنّ العبرة بالخاتمة، فإذا ذكر له الإنجليز صنيعه بعد الحرب فلن يذكر أحد ٤ فبراير!...

إسماعيل هازنًا وهو يصنّف طالبًا جرات للنارجيلة:  
- إذا ذكر الإنجليز صنيعه! وأنا أقول لك من الآن بأنهم سيقيمونه قبل ذلك!.

وعاد رياض إلى مجلسه فخاف كيال أن يقطع  
إساعيل حديثه ولكنه واصله قائلاً:

- وسألوا عنك!

وقد رياض نظره بينها فأدرك أن حديثاً خاصاً يدور  
بينها فعدل عنها إلى التارجيلة، أما كيال فقد شعر بأن  
جملة وسألوا عنك توشك أن تؤدي بقوة مناعته كاشد  
الميكروبات فتكاً، وتسامد وهو يبلل أقصى ما يملك من  
قوة ليبدو طبعاً:

- لماذا؟

- سألوا عن فلان وعلان من أصحاب زمان ثم  
سألوا عنك فقلت مدرس مدرسة السلحدار وفيلسوف  
كبير ينشر مقالات لا أهمها في جملة الفكر التي لا  
أفتحها فضحكوا ثم سألوا «هل تزوج؟» فقلت  
كل...

فوجد نفسه يسأل:

- ماذا قالوا؟

- لا أذكر ماذا حولنا عن هذا الحديث؟

إن المرض الكامن يبدد بالانفجار، والذي مرض  
قديماً بالسل يجب أن يعمر البرد، أما جملة سألوا عنك  
فما أشبهها بأنغام الصبا في بساطة معناها وشديد نفاذها  
في النفس، وقد يطرا طرف تفتت النفس حال عاطفة  
مندثرة بكامل قوتها الماضية ثم تنقطع... كالسطر في  
غير أوانه، حل ذلك شعر في هذه اللحظة العابرة بأنه  
انقلب ذلك الماشق القديم، وأنه يصاني الحب حياً  
بكافة أنفاسه السارة والخزينة، ولكن الخطر لم يكن  
يتهدده بصفة جذبة فهو كالخالم المكروب الذي يداخله  
شعور ملطف بأن ما يراه حلم لا حقيقة، لكنه تمخى في  
تلك اللحظة لو تقع معجزة من السماء فيلقاها ولو  
لبضع دقائق فتعترف له بأنها بادلته عاطفته يوماً أو  
بعض يوم وأن غارق السر أو غيره هو الذي فرق  
بينها لو وقعت هذه المعجزة لمرته عن كافة آلامه  
قديماً وحديثاً ولعد نفسه سعيداً في الخلق وأن الحياة  
لم تمض عبثاً، بيد أنها صحوه كاذبة كصحو الموت،  
والأخرى به أن يقع بالنيان، وهو نصر ولو انطوى  
على هزيمة، وليكن عزاءه أنه ليس الوحيد في البر الذي  
مُنّي بخيبة الحياة، وتسامد:

تشعر به بقوة وهو على المائدة، ثم وهو في المائدة، ثم  
وهو في الأمعاء على نحو ما، ثم وهو في الدم على نحو  
آخر، حتى يستحيل خلايا ثم تتجدد الخلايا بمرور  
الزمن فلا يبقى منه أثر، لكن ربما بقي منه صدى في  
الأعناق هو ما نسميه بالنيان، وقد يعرض للإنسان  
وصوت قديم فيدفع بهذا النيان إلى قريب من  
منطقة الوعي فيسمع الصدى على وجه ماء، وإلا فما  
هذا الاضطراب؟ أم لعله الحنين إلى عايلة لا باعتبارها  
المحبوبة التي كانت - فقد انتهى هذا إلى غير رجعة -  
ولكن باعتبارها رمزاً للحب الذي كان كثيراً ما  
يستوحش غيبته الطويلة، مجرد رمز كالحرية للمهجورة  
التي تثير ذكريات تاريخية جلية.

وعاد إساعيل يقول:

- وتحادثنا طويلاً - أنا وعايلة وأمي وزوجي - فروت  
لنا كيف هربت هي وزوجها بل وجميع ممثلي الدول  
السياسيين أمام الجيوش الألمانية حتى لاذا بأسانيها،  
وأنها نقلت أخيراً إلى إيران، ثم رجعت إلى أيام زمان  
وضحكنا كثيراً...

مهما يكن من أمر الحب الذي مات فقلبه يمت  
حنيناً مسكراً، وأوتار الأعناق التي تهتكت أصحلت  
تصعد أنفاساً بالغة في الحفوت والحزن، وتسامد:

- ما شكلها الآن؟

- لعلها في الأربعين، كلا أنا أكبر منها بسامين،  
عايلة في السابعة والثلاثين، وامتلأت قليلاً عما كانت،  
لكنها ما زالت محضلة برشاقها، ووجهها هو هو تقريباً  
ليسا عدا نظرة عينها التي أصبحت توسحي بالجلد  
والرزانة، وقالت إنها أنجبت ابناً في الرابعة عشرة وبناتاً  
في العاشرة...

هذه هي عايلة إذن، لم تكن حلاً ولم يكن تاريخها  
وهمًا، فقد تمرر لحظات فيدو ذلك الماضي كاته لم يكن،  
وهي زوجة وأم وتذكر الماضي وتضحك كثيراً، ولكن  
ما حقيقة صورتها؟ وماذا بقي من هذه الحقيقة في  
الذاكرة؟ فلشد ما تتغير المناظر في أثناء حفظها  
بالذاكرة، وهو يود أن يلقي نظرة ثابتة على هذا الكائن  
البشري لعله يقف على السر الذي مكته قديماً من أن  
يفعل به الأفاعيل.

- متى يسافرون إلى إيران؟

- سافروا أمس أو هذا ما أخبرني به في زيارتها...

- وكيف تلقت كارثة أسرتها؟

- تجبّت هذا الحديث بطبيعة الحال ولم تشر هي

إليه!

وإذا برياض قلنس بيتف مشيراً أمامه وانظروا

فنظروا إلى الجناح الأيسر من الشرفة فرأوا امرأة غريبة

الشكل، كانت في الحلقة السابعة، نحلة الجسد،

حافية القدمين، ترتدي جلباباً غماً يرتدي الرجال،

وتضع على رأسها طاقية لا يبدو تحت حافظتها أي أثر

للشعر فهي صلعاء أو قرعاء، أما وجهها فبدا غارقاً في

أصباغ الزواق على هيئة مزربة مضحكة ممّا، ولم يكن

فيها ناب واحد على حين راحت عينها ترسلان في

جميع الجهات نظرات تؤدّد واستعطاف بايسم. تساءل

رياض باهتمام:

- شخصاً؟

فقال إسمايل:

- مجلوبة على الأرجح!

وقفت تنظر إلى المقاعد الخالية في الجناح الأيسر ثم

اختارت مقعداً وجلست، عند ذلك انتهت إلى أمين

المحتفلين فيها فابتسمت ابتسامة عريضة وقالت:

- مساء الخير يا رجال!

لرحّب رياض بتحيتها وقال بحرارة:

- مساء الخير يا حاجة!

فندّبت عنها ضحكة ذكّرت إسمايل - على حدّ

قوله - بالأزيّة في عزّها!.. وقالت:

- حاجة! نعم أنا كذلك إن كنت تعصد المسجد

«الحرام»!

وضحكوا ثلاثهم فتشجّعت وقالت بإغراء:

- اطلبوا في الشاي والتأرجيلة ولكم الأجر عند

الله...

فصنّف رياض بحماس ليطلب لها ما أرادت ومال

على أذن كمال هامساً «هكذا تبدأ بعض القصص» أما

المعجوز فقد ضحك في سرور وقالت:

- هذا كرم أيتام زمان!... أهنياء حرب يا

أولادي؟...

فقال كمال ضاحكاً:

- نحن فقراء حرب، أي مؤكلفين يا حاجة...

وسألها رياض:

- ما الاسم الكريم؟

فارتفع رأسها في كبرياء مضحك وقالت:

- السلطنة زبدة على سنّ وريح!

- السلطنة؟!

- نعم... (ثمّ وهي تضحك)... ولكنّ رعيتي

ماتوا!

- الله يرحمهم!

- الله يرحم الأحياء أمّا الأموات فحسبهم أتهم بين

يدي الله...، خبروني من أنتم؟

وجاء النادل بالتأرجيلة والشاي وهو يتبسّم، ثمّ

اقترّب من مجلس الأصحاب وسألهم:

- تعرفونها؟

- من هي؟

- زبيدة العالة، أشهر عالة في زمانها، ثمّ انتهت بها

العمر والكوكابين إلى ما ترون!

ختم إلى كمال أنّه لا يسمح هذا الاسم للمرة الأولى

أمّا رياض قلنس فقد ارتفع اهتمامه إلى الذروة فجعل

يبحث أصحابه على أن يعرفوها بأنفسهم كما طلبت حتى

تفتّح نفسها للكلام فقال إسمايل مقدّماً نفسه:

- إسمايل لطيف.

فقال ضاحكة وهي ترشف الشاي قبل أن يبرد:

- عاشت الأسياء ولو أنّه اسم لا معنى له...

فضحكوا، وفي ذات الوقت سبّها إسمايل بضوت

لم تسمعه، أمّا رياض قلنس فقال:

- رياض قلنس.

- كافر؟! حشقي واحد منكم كان تاجرًا في

الموسكي اسمه يوسف فطّاس، كان قدّ الدنيا، وكنت

أصلبه على السرير حتى يطلع الصبح!...

وشاركهم ضحكهم وقد لاحت التبعة في وجهها

ثمّ ألجأهم إلى كمال فقال:

- كمال أحمد عبد الجواد.

وكانت تقرب قدح الشاي من فيها فتوقّفت يدها في

يقظة طارئة ثمّ حملت في وجهه متسائلة:

- قلت ماذا؟

فأجاب عنه رياض قللس:

- كمال أحمد عبد الجواد.

فأخذت نفسها من التارجيلة وقالت وكأنها تخاطب

نفسها:

- أحمد عبد الجواد! ولكن ما أكثر الأسماء!

كالفروش أيام زمان... (ثم خاطبة كمال)... والدك

تاجر النحاسين؟

فدهش كمال وقال:

- نعم.

فقامت من مجلسها واقتربت منه حتى وقفت أمامه

ثم ضحكت ضحكة عالية أقوى من هبكتها بأجيال

وهضت:

- أنت ابن عبد الجواد يا ابن الرفيق الضال!

ولكنك لا تشبه! هذا أنفه حقاً، ولكنه كان كالبدن في

ليلته، ما عليك إلا أن تذكره بالسلطنة زينة وهو

يحذرك عني بما فيه الكفاية!

أهرق رياض وإسماعيل في الضحك، حل حين

استسم كمال وهو يغالب ما ركب من ارتباك، وهنا فقط

تذكر حديث ياسين في الزمن الحالي، بل أحده من

أبيه وزيدة العالة! وعادت تسأله:

- كيف حال السيد؟ انقطع من زمن طويل من

حكم الذي نلني، أنا الآن من أهل الإمام، ولكنني

أحن إلى الحسين فأزوره كل حين ومين، وكنت مريضة

وطال بي المرض حتى ضاق بي الجيران فلولا الملام

لرموني في القبر حية، كيف حال السيد؟

فقال كمال في شيء من الوجوم:

- توفي منذ أربعة أشهر...

فقطبت قليلاً وقالت:

- إلى رحمة الله، يا حسرة، كان رجلاً ولا كل

الرجال...

ثم عادت إلى مجلسها، وبنته ضحكت ضحكة

عالية، وما لبث أن ظهر صاحب القهوة عند مدخل

الشرقة وهو يقول لها منديلاً:

- كفاية ضحك، سكتنا له دخل بحاره، كثر خير

البكوات على إكرامهم لك، ولكن إن عدت إلى

الزياد فالباب من هنا...

فلافتت بالصلمت حتى ذهب الرجل، ثم نظرت

إليهم باسمه، ثم سألت كمال:

- وأنت كايك أم لا...؟

وأنت يدها حركة شاذة فضحك الأصدقاء وقال

إسماعيل:

- إنه لم يتزوج بعدا...

فقلت في لهجة ارتباب عابث:

- الظاهر أنك ابن لونة!...

فضحكوا، ثم مضى رياض، ومضى إليها فجلس

إلى جانبها وهو يقول:

- حصل لنا الشرف يا سلطنة، ولكنني أود أن

أسمع لك وأنت تحدثنا عن أيام السلطنة!...

## ٤١

لم يبق إلا ثلث ساعة ثم تلقى المحاضرة، أما قاعة

ليوارت فقد قاربت الانقلاء، إذ مستر روجر - كما قال

رياض قللس - أستاذ خطير، وهو كأعطر ما يكون

حين يتكلم عن شكسبير. أجل قيل إن المحاضرة لن

تخلو في النهاية من نوع من الدعاية السياسية ولكن ماذا

يهم في ذلك ما دام المحاضر هو مستر روجر والموضوع

هو ولهم شكسبير. غير أن رياض كان مفتناً واجماً،

ولولا أنه هو الذي دعا كمال إلى سماع المحاضرة

لتخلف عن شهودها، وكان حزناً كما ينبغي لرجل

مثله تستأثر السياسة باهتمامه كل هذا الاستئثار. وكان

يمس في أذن كمال بانفعال غير خاف:

- يُفصل مكرم من الولد! كيف تقع هذه الحوارق؟!!

ولم يكن كمال قد أفاق من الخبر كذلك فهز رأسه في

وجوم دون أن ينبس:

- إنها كارثة قومية يا كمال، ما كان ينبغي أن

تتهوى الأمور حتى هذا الحضيض...

- نعم، ولكن من المستول؟

- النحاس! قد يكون مكرم عصياً، ولكن الفساد

الذي تسرب إلى الحكومة أمر واقع ولا يصح السكوت

عليه.

فقال كمال بأسياً:

- دعنا من الفساد الحكومي، ثورة مكرم ليست على الفساد بقدر ما هي لضياح النفوذ...  
- فتساءل رياض في شيء من التسليم:  
- أبيع مكرم المجاهد بعاطفة زائلة؟...  
- فلم يتالك كمال أن ضحك قائلاً:  
- لقد بعث نفسك أنت بهذه العاطفة الزائلة!...  
ولكن رياض قال دون أن يبتسم:  
- أجبني!...

- مكرم عصبي، شاعر ومغزٍ! عنده أن يكون كل شيء أو لا يكون شيئاً على الإطلاق، وجد نفوذه المأثور يتقلص فثار، ثم وقف لهم وقفته في مجلس الوزراء منذاً علانية بالاستقالات فاستحال التضام أو التعاون، حدث يوسف له!..  
- والنتيجة؟

- هناك السراي تبارك ولا شك هذا الانشقاق الجديد في الوفد، ومستحسن مكرم في الوقت المناسب كما احتضنت غيره من قبل، سئري من الآن فصاعداً مكرم وهو يلعب دوره الجديد مع الأقليات السياسية ورجال السراي، إما هذا وإما المذلة، لعلهم يكرهونه كما يكرهون النحاس أو أكثر، ومنهم أناس لم يكرهوا الوفد إلا كراهة في مكرم ولكنهم سيحتضنونه ليهدموا به الوفد، أما عن المصير بعد ذلك فلا يمكن التنبؤ به...  
فعبس رياض وقال:

- صورة بشعة، أخطأ الاثنان، النحاس ومكرم، إن قلبي متشائم من هذه الحركة...  
ثم بصوت أشد انخفاضاً:

- سيجد الأقباط أنفسهم بلا مأوى، أو يأوون إلى حصن عدوهم اللدود «الملك» وهو مأوى لن يدوم لهم طويلاً، وإذا اضطهدنا الوفد كما تضطهدنا الأقليات فكيف يكون الحال؟

فتساءل كمال متغابياً:

- لماذا تدفع بالأمر خارج حدود الطبيعة؟ مكرم ليس الأقباط والأقباط ليسوا مكرم، إنه شخص ذهب أما مبدأ الوفد القومي فلن يذهب...

فهز رياض رأسه في أسف ساخر وقال:

- هذا ما قد يكتب في الجرائد، أما الحقيقة فهي ما أعني، لقد شعر الأقباط بأنهم طردوا من الوفد، وهم يتلمسون الأمان وأخشى ألا يظفروا به أبداً، لقد جامعتي السياسة أخيراً بمقدنة جديدة كمقدنة الدين، فكما كنت أنبذ الدين بعقلي وأميل إليه بعقلي بصفته رابطة قومية فكذلك سأنبذ الوفد بعقلي وأميل إليه بعقلي، إذا قلت إنني وفدي فقد كُلبت قلبي وإذا قلت إنني عدو للوفد خنت عقلي، إنها كارثة لم تقطر لي على بالي، والظاهر أنه مقضي علينا نحن الأقباط بأن نمش في شخصيات متقسمة أبداً، لو كانت مجموعتنا فرداً واحداً لجأ!...

شعر كمال بامتعاض وألم، ويدت له لحظتك ذلك جماعات البشر وكأنتها تمقل مهزلة ساخرة ذات نهاية مضجعة، ثم قال في صوت لا يمتن عن إيمان:

- عسى أن تكون مشكلة وهمية، إذا نظرتم إلى مكرم كرجل سياسي لا الأمة القبطية جميعاً!...  
- هل ينظر إليه المسلمون أنفسهم على هذا النحو؟  
- هكذا أنظر إليه أنا!

فابتسمت شفتا رياض رغم كآبته وقال:  
- إنني أتساءل عن المسلمين لما دخلك أنت؟  
- ليس موقفنا واحداً أعني أنا وأنت؟  
- بلى مع فاروق بسيط، وهو أنك لست من الأقلية... (ثم وهو يبتسم) لو عشت في عصر الفتح الإسلامي وتكشفت في الغيب لدعوت الأقباط جميعاً إلى الدخول في دين الله!...

ثم في شيء من الاحتجاج:  
- إنك لا تصغي إليّ!...!  
أجل! كانت عيناه مصوّبتين نحو مدخل القاعة، ونظر رياض إلى حيث ينظر فرأى فتاة في مقبل العمر، ترتدي فستاناً راديائياً بسيطاً، في هيئة الطالبات، وقد جلست في المقاعد الأمامية المخصصة للسيدات.

- تعرفها؟...

- لا أدري!...

وانتظمت فرصة الكلام إذ ظهر الأستاذ المحاضر على المنصة ودوت القاعة بالتصفيق الحاد، ثم ساد



الصمت الذي تبدو فيه السعلة كالذبذب الفاضح، ثم قدّمه مدير الجامعة الأمريكية بكلمة مناسبة، ثم بدأ الرجل في إلقاء محاضرتة. وظلّ كإل أكثر الوقت متّجه العينين نحو رأس الفتاة في تساؤل واحتياهم. وكان قد رآها مصادفة عند دخولها، فدهمه منظرها، وانزعته بقوة من تيار أفكاره، ثم قلبت به في الماضي عشرين عامًا ثم استردته إلى الحاضر وهو يلهم. خيّل إليه أول الأمر أنّه يرى عابدة، غير أنّها لم تكن عابدة دون ريب... هذه الفتاة التي لا يمكن أن يجاوز العشرين، ولم يتح له وقت كافٍ كي يتخصّص قسائنها ولكنّ جملة منظرها كان فيه الكفاية، هيئة الوجه والقلمة والروح وبجمل العينين، أجل لم ير هاتين العينين في غير وجه عابدة من قبل. أمكن شقيقتها؟ خطر له هذا الرأي أول ما خطر، بدور، ولم يغب عنه الاسم هذه المرة، وسرعان ما ذكر صداقتها له في الماضي البعيد، ولكن هيهات - أن تكون حقًا هي - أن تتذكّره، المهمّ أنّ صورتها أبغضت قلبه، رفته ولو إلى حين إلى شيء من تلك الحياة العنصرة التي اكتظ بها رُشًا، فهو في اضطراب، يسمح إلى الأستاذ المحاضر دقائق ثم ينظر إلى رأس الفتاة أكثر الوقت، ثم يفرق في موجة الذكريات، مستشعرًا في آناء جملة المشاهد التي تتلاحم وتصطرح في وجدانه. فلا تبعها لأهرف حقيقتها، لا غاية لي ولكنّ الملوك مشاء، إلى أتوق لأيّ شيء قد يمسح عن روحي الصدا المتكاثف فوقها. وترتص مبيتًا هذه النية، ترى أطالت المحاضرة أم قصرت؟. لا يدري. ولكنّه عند انتهائها أفشى بغرضه إلى رياض ثم ودعه وسار في أثر الفتاة. تابع بعناية مشيتها، مشية رشيقة، قائمة هيفاء، لا يستطيع أن يقارن بين المشيتين لأنّ الأخرى لم يعد متوكّدًا منها، أمّا القائمة فأغلب الظنّ أنّها هي هي، وكان شعر الأخرى والأجرسون أمّا هذا الشعر فغزير معقوص، ولكنّ اللون الأسود واحد في الحالين ما في ذلك شكّ، ولم يستطع أيضًا أن يتخصّص وجهها على عكّة الترام لأزدهامها بجمهور المستمعين، ولكنّها استقلّت الترام رقم ١٥ الذهاب إلى العتبة وانحشرت في الحريم فاستقلّه وراها وهو يتساءل ترى أمي في طريقها إلى العباسية أم إنّ ما

يفترضه ليس إلّا أضفك أحلام؟. عابدة لم تستقلّ ترامًا في حياتها قطّ، كان رهن أمرها سيارتان، أمّا هذه المسكينة... ودخله حزن كحزنه يوم استمع إلى قصّة اللّاس شلّك بك وانتحاره. وأفرغ الترام أكثر حولته في العتبة فاختر موقفاً غير بعيد منها فوق طوار المحطة، وجعلت تنظر صوب الناحية التي ترتقب هي، الترام منها فرأى جديها الطويل النحيل، فذلّ العهد القديم، ثم لاحظ أنّ بشرتها قمحية اللون مع ميل إلى البياض، ليست خربة كالصورة الداهية، فشر لذلك بلؤلّ أسف مند تبها، كأنّها تبها ليرى الأخرى. ثمّ جاء ترام العباسية فتألمت للركوب. وكما وجدت الحريم مزدهمة استقلّت حربة الدرجة الثانية، ولم يتردّد فكان في أعقابها، وجلست فجلس إلى جانبها، ثمّ امتلأت المقاعد على الصّدين، ثمّ امتلأ ما بينهما بالواقفين. ووجد لتوفيقه في الجلوس إلى جانبها ارتياحًا لا مزيد عليه، غير أنّ جلوسها بين جمهور الدرجة الثانية أحزنه مرّة أخرى، ربّما لما يجده ذلك من تباين عند مطابقة الصورتين، القديمة الخالدة والمائلة إلى جانبها. وكان منكبه يلامس منكبها ملاصقة خفيفة كلّما نذّ عن الترام حركة مفاجئة خاصّة عند القيام والوقوف، وجعل يلاحظها كلّما أمكن ويتخصّصها ما استطاع. هاتان العينان السوداوان الساجستان، والحاجبان المقرونان، والأنف السويّ اللطيف، والوجه البديع، كأنّه ينظر إلى عابدة. حقًا كلّ، ثمّة تباين في لون البشرة، ولمّة اختلاف هنا أو هناك، لا يذكر إن كانت إلى الزيادة هي أم إلى النقصان، ومع أنّ تباينها كان يسيرًا إلّا أنّ إحساسه به كان خطيرًا فهو كدرجة الحرارة الواحدة التي قد تكون فاصلاً بين الصبّة والمرض، ولكنّه كان في الوقت نفسه حيال أقرب مثال إلى عابدة التي خيّل إليه أنّه بات يذكرها أوضح من أيّ وقت مضى على ضوء هذا الوجه الجميل. والجسم لعنه هو هو، ما أكثر ما تسال عن، فلملّه الآن يراه، وهو رشيق نحيل، صدره آية في الحياة، كذلك هو في جملة، لا يمتّ بسبب إلى جسم عطية البيض المملع الذي يتعشّقه! فهل لصد ذوقه على مرّ الأيام؟ أو إنّ حبّه القديم كان نثارًا على غريزته

انحدوت إلينا نحن جمهور الدرجة الثانية، ألا نذكرين صديقك الذي كنت تتملّقين بمنقه وتبادلينه القبل؟ كيف تعيشين اليوم يا صغيرتي؟ وهل تعملين مثلي في النهاية مدرّسة في إحدى المدارس الابتدائية؟ ومَرّ الترام بمكان القصر القديم الذي قام في موضعه بناء ضخم جديد، وقد رآه قبل ذلك في المَرّات القلائل التي زار فيها المَبايَسة منذ انقطاعه التاريخي عنها خاصّة في المعهد الأخير وهو يتردّد على بيت لؤاد جميل الحمزاوي. المَبايَسة نفسها تغيّرت كييتكم يا صغيرتي، اختضت قصورها وحدايقها التي حاصرت حبي وحزني، وقلمت مكانها المصارات الضخمة المكتنزة بالسكان والحوائث والمقاهي والسينمات، فليسَ بذلك أحمد المفتون بجماعة صراع الطبقات أمّا أنا فكيف أضمت بالقصر وآله هل حين أنّ قلبي مطمور في أنفاقه؟ أو كيف أحترق المخلوق البديع الذي لم يلق نكد العيش ولا زحمة الشعب إذ كان يحضر كالمعنى الجميل وقلبي له ساجد؟

وعندما توقّف الترام في المحطة التالية لقسم الوايلي خلدته فتيحة ووقف على طوار المحطة يراقبها، فراها وهي تعبر الطريق إلى شارع «ابن زيدون» الذي يواجه المحطة مباشرة. كان شارحاً ضيقاً تقوم على جانبيه بيوت قديمة من بيوت الطبقة الوسطى وتفكي وجهه الممهّد بالأسفلت الأتربة والحصى والأوراق المبعثرة وقد دخلت ثالث بيت إلى اليسار من باب ضيق تلاصقه دكان كزّاء. ووقف ينظر إلى الطريق والبيت في صمت واجم، ذلك المكان الذي تقام فيه اليوم سيّة هاتم حرم شدّاد بك! وهذه الشقّة لا يزيد إيجارها على ثلاثة جنيهات، وليت سيّة هاتم تخرج إلى الشرفة ليلقي عليها نظرة ويقس ما حاق بها من تغيّر لا شك أنّه خطير، ولعله لم ينس بعد منظرها النقيس حين كانت تغادر السلاسل متباطئة ذراع زوجها إلى حيث تنتظر السيّارة، كانت تحتال عجباً في معطفها الوثير وتلقي على ما حولها نظرات مليئة بالسؤدد والطمأنينة، ولن يبنى الإنسان بعدوً أشدّ فتكاً من الزمن. في هذه الشقّة نزلت عابدة في أثناء إقامتها بالقاهرة، ولعلّها جلست بعد المصايرى في هذه الشقة البالية، ولعلّها قاسمت

الكمامة؟. بيد أنّه كان حبّاً سميحاً حالماً ثمل القلب بنشوات الذكريات، وكانت ملاساته للخططة لها تزيده نشوة وإغراقاً في التأمّلات، إنّه لم يمسّ عابدة، كان يراها أبداً مستحيلة المثال، أمّا هذه الصغيرة فهي تسير في الأسواق وتجلس في تواضع بين جمهور الدرجة الثانية، فما أشدّ حزنه! وذلك التباين الطفيف الذي أحفقه وغيب أمله، وقضى على حبه القديم بأن يغى لغزاً إلى الأبد. وجاء الكمساري منادياً «التذكّر والأبونيّهات» ففتحت حقيبتها وأخرجت تذكرة الاشتراك وانتظرت حتّى يصل الرجل إليها. فاسترق إلى التذكرة النظر حتّى عثر على اسمها «بلدور عبد الحميد شدّاد... طالبة بكلّيّة الآداب»، لم يعد ثمة شك، إنّ قلبي يخفق أكثر ممّا ينبغي، لو أستطيع أن أنشل هذا الاشتراك! كي أحفظ بقترب صورة لعابدة، آه لو كان في الإمكان هذا، مدرّس في السادسة والثلاثين ينشل طالبة بكلّيّة الآداب! يا له من عنوان مثير تتمناه الجرائد، فيلسوف فاشل في حدود الأربعين! ترى ما سرّ بلدور؟ لم تكن تجاوز الخامسة عام ١٩٢٦ فهي في الواحدة والعشرين من عمرها السعيد، السعيد! لا قصر ولا سيّارة ولا خدم ولا حشم، ولم تكن دون الواحدة عشرة حين حلّت الكارثة بأسرتها، وهو عمر حرّيّ بأن يدرك معنى الكارثة ويلذوق الألم، تألّكت المسكنة وذهرت، ابتليت بهذا الشعور القاسي الذي أصبحت به جدّ خبي، جمعاً الألم على تفاوت في الزمن كما جمعتنا الصداقة القديمة المنسيّة، وجماعها الكمساري فسمعها وهي تقول له «تفضّل» ثمّ ناولته التذكرة. وطرق الصوت مسمعه كنخمة قديمة عبوية طواها النسيان دهوراً طويلاً ثمّ انبثت في السمع بكلّ حلاوتها وجميع ذكرياتها فأصحت فترة ساوية من الزمن، دوّمت أذنه في عملة الطرب الإلهيّة مستهدفة أحلام الزمان الغابر، هذه النغمة الدافقة الرخيمة المفعمة ببحر الطرب. أسمعيني صرّتك وما هو بصرّتك، يا صديقتي القديمة السيّة الحظّة، من حسن الحظّ أنّ صاحبة هذا الصوت الأصليّة ما زالت تنعم بمثل حياتها الأولى، لم ترتق إليها الأحزان التي أغرقت أسرتها، أمّا أنت فقد

طريق مخفوف بالترنم والتقاليد من ناحية، وبالسباب المتوكل للسخرية من ناحية أخرى. كان غاروفا في اليأس والملل فحري ملفوفاً وواه هذا الشيء الذي لا يشك في أنه تسليه وأي تسليه، وحيمة وأي حياة، ويحبسه أنه انقلب بيتهم بالزمن وينشد الأمل ويأمل في المسرة، بل وما هو قلبه يخفق وكان قبل ذلك ميتاً، وكان يشعر بضيق الوقت، فالصام الدراسي يشارف نهايته المحتومة، بيد أن نهايته لم تضع هباء، فلبور قد رآته كما رآه الجميع، ولعلها شاركت لها يلدور من همس حوله، إلى أن عنيها قد تلاقيا أكثر من مرة، ولعلها طالعت في عينيها ما يضطرم في ذاته من الاهتمام والإعجاب، من يدرى؟ فضلاً عن هذا كله فعند العودة يستقلان ترام الجزيرة ممّا ثم ترام العباسية، وكثيراً ما يجلسان في مكان واحد، فباتت تعرفه جيّداً، وهو نجاح لا بأس به لشخص بعيد عن حيها كله، خاصة إذا كان مدرّساً حرصاً على مظاهر مهته وما تقتضيه من استقامة ووقار. أمّا عن غايته من هذا كله فلم يشقّ على نفسه في تحقيقها، لقد دبت فيه الحياة بعد موت فتهاك عليها، وهو توافّق بكلّ قوّة نفسه المصدّبة إلى أن يعود ذلك الإنسان الذي تمتلج في وجدانه للمشاعر وتهيم في عقله الحواطر وتنجلي في حواسّه المناظر، وأن ينسج بهذا السحر ضجيره وسقمه وحيوته أمام ألفاظ لا تحلّ، كاتبا الحمر ولكتبا أعمق متاعاً والطف عاقبة. وفي الأسبوع الماضي حدث شيء تأثر له قلبه أمّا تأثر، فقد عاقه إشرافه على النشاط الرياضي بمدرسة السليحدار عن الوصول إلى الكلية في الوقت المناسب، فدخل حجرة الدرس متأخراً، والتقت عينهما عند دخوله وهو يسير على أطراف أصابعه أن يجلد صوته، التقت عينهما التقاء خاطفاً سحريراً وسرهاناً ما أرخت جفونها فيها يشبه الحياة. لم تكن إذن مجرد نظرة تلقني فيها عيناه عايدتان، وبات مرجحاً أنّها استشعرت شيئاً من الحياة، فهل كان يقع هذا لو كان نشاط عينيّه قد ضاع عيباً؟ الصغيرة باتت تستحي من نظراته فلعلها أخذت تترك أنّها ليست بالنظرات البرية التي توجهها المصادفة، وأثار ذلك في نفسه جملة من الذكريات واستدعى كثيراً من الصور،

أتها وأعتها فراشها الواحد ما في ذلك ريب، فليتي علمت بوجودها في الوقت المناسب، وليتي رأيها بعد ذلك التاريخ الطويل، كان ينبغي أن أراها وأنا متحرّر من استبدادها، كي أعرفها على حقيقتها، وبالتالي كي أعرف نفسي أنا ولكن ضاعت هذه الفرصة النادرة. . .

## ٤٢

جلس كمال بين طلبة وطالبات قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب يصغي إلى الدرس الذي يلقيه الأستاذ الإنجليزي، لم تكن أول مرة يحضر فيها هذا الدرس ولا آخر مرة فيها بدا له، ولم يكن قد وجد صعوبة تذكر عند الاستئذان في الحضور - كمتسمع - لمتابعة الدروس المسائية التي تلقى ثلاث مرّات في الأسبوع، وأكثر من هذا فإنّ الأستاذ قد رتب به عندما علم بأنه مدرّس لغة إنجليزية. أجل كان غريباً بعض الشيء أن يعنى بمتابعة هذه الدروس في أواخر العام الدراسي ولكنّه علّل ذلك أمام الأستاذ بأنه يقوم ببحث استدعي متابعة هذه المحاضرات رغم ما فاته منها، وكان قد علم بوجود يلدور في هذا القسم من طريق رياض قلّس الذي عرفه بدمره عن طريق صديقه سكرتير الكلية. وبدا منظره، ببذله الأنيقة ونظاراته الذهبية وطوله ونحوه وشاربه الغليظ وشعيراته البيضاء التي تلتصق في سوائله إلى رأسه الضخم وأنفه الكبير، بدا كلّ أولئك ملفّتا للأنظار خاصة وهو يجلس بين حشد محدود من الشباب الفضّ، فكّم بدوا كالتسائلين وكهم حذوهم بنظرات لم يترج لها، حتّى خيّل إليه أنّه يسمع ما يلدور في نفوسهم من ملاحظات وتعليقات هو أدري بها وأخبراً. هو نفسه كان يحبب هذه الخطوة الحارقة التي أقدم عليها دون مبالاة على ما جسّمته من جهد وخرج، ما بواعثها الحقيقية وما هدفها؟ لا يدرى شيئاً على وجه التحقيق ولكنّه ما إن رأى بارقة نور في ظلمة حياته الدائكة حتّى انزلق بتسمّته وهو لا يلوي على شيء مدفوعاً بقوى هائلة من اليأس والأشواق والأمل، غير مبالي بما قد يعثر به في

مع أخذها بهذه الجراءة، ولكنها كانت الكبرى وكان الصغير الساذج.

- حضرتك من العباسية فيها اعتقد؟

- نعم...

لا تريد أن تدفع الحديث من ناحيتها!

- من المؤسف أنني لم أتابع المحاضرات إلا أخيراً...

- نعم...

- أرجو أن أعوض ما فاتني في المستقبل...

فاستمت دون أن تبس، «زيدني من سماع صوتك فإنيك النعمة الوحيدة من الماضي التي لم يفترها الزمن»...

- ماذا تتبين بعد الليسانس؟ معهد التربية؟

فقلت باهتمام لأول مرة:

- لا حاجة بي إلى ذلك لأن الوزارة محتاجة إلى مدرّسات ومدرّسين بسبب ظروف الحرب والتوسع الجديد في التعليم...

طمع في نعمة واحدة فذهب لحقاً كاملاً!

- إذن ستعملين مدرّسة!

- نعم، لم لا؟

- إنها مهنة شاقّة، سلبني عنها.

- حضرتك مدرّسة فيها سمعت؟

- نعم، أوه، نسيت أن أقلم نفسي، كمال أحمد عبد الجواد.

- تشرّفنا...

فقال بأسياً:

- ولكنك لم تشرّفني بعد؟

- يدور عبد الحميد شذّاد!

- تشرّفنا يا أفندي...

ثمّ مستترجاً كمن فوزج بشيء فريد:

- عبد الحميد شذّاد! ومن العباسية؟ حضرتك

أعنت حسين شذّاد؟

فلمعت حينها في اهتمام وقالت:

- نعم.

فضحك كمال كأنما يضحك عجباً من غرابية

المصادفات وقال:

حقّ وجد نفسه يتذكّر عابدة ويتخيّلها، ولكنّه لم يدري ماذا، فإنّ عابدة لم تغض الطرف حياله حينها ففكّر، فلمل شيئاً آخر الذي ذكره بها، لفظة أو رنوة أو ذلك السرّ الساحر الذي ندوهه بالروح. وأول أمس حدث شيء آخر له خطورته كذلك، انظر كيف ودّت الحياة إليك! قبل ذلك لم يكن لشيء خطورة ففكّر، أو لم تكن تضفي الخطورة إلا على هذه الألفاظ العقيمة كالإرادة عند شوبنهاور أو المطلق عند هيجل أو وثبة الحياة عند برجسون، كانت الحياة كلها صمّاء لا خطر لها، انظر اليوم كيف أنّ رنوة أو لفظة أو ابتسامة قد تزلزل لها الأرض جيّماً! حدث ذلك وهو ماضٍ إلى الكلية قبل الخامسة مساءً مخترقاً حديقة الأورمان، فما يدري إلا ويدور وثلاث فتيات يطالعهن على أريكة ينتظرن عليها معاد الدرس، والتفت حينها التقاء عميقاً كما وقع في حجرة الدرس، وكان يؤدّ أن يجيّهنّ عند الاقتراب ولكنّ المشي الذي يسير فيه خرج به بعيداً عنهنّ كأنه أيّ أن يشترك في هذه المؤامرة العاطفية المرتجلة، وكما ابتعد قليلاً التفت وراه فسرّاهنّ يمسّن في أذنها بأسيات وهي مسندة رأسها إلى راحتها كأنها تحفي وجهها! ما هذا المنظر البديع؟! لو كان رياض معه لأحسن تحليله وتفسيره، ولكنّه لا يحتاج إلى براعة رياض، لا شكّ أنّهنّ يمسّن لها عنه حقّ أخفت وجهها حياله! هل ثمة معنى غير هذا؟! فلمل الصبّ فضحته عيون، ولملّه جاوز المدى وهو لا يدري حقّ صار أحدونه، وماذا يكون من أمره لو انقلب الحمس تمصّصاً يتنازع به الطلبة الشياطين؟! وفكّر جاداً في الانقطاع عن الكلية، ولكنّه وجدها تجلس إلى جانبه في ترام العباسية ذلك المساء كما حدث أول يوم تبعها إليه! وترصد الثغابا ناحيته ليحييها وليكن ما يكون، فلمّا طال انتظاره بعض الشيء التفت هو ثمّ تظاهر بأنّه فوجئ بجولوسها لصقه فهمس في أذن:

- مساء الخير...

ف نظرت نحوه كالداهشة - لم تترك له عابدة ذكرى

تصنّع أنثوي من أيّ نوع كان - ثمّ همست:

- مساء الخير...

زميلان يتبادلان التحية ولا غبار على ذلك، لم يكن

الذكرات وعلية الميس التي أهدت إليه ليلة الزفاف. ثم جاش صدره بالحزن حتى تساءل ترى أيمن أن يقع الإنسان في الحب وهو يحسن فهمه ولم يتناصر تركيبه البيولوجية والاجتماعية والنفسية؟ ولكن هل بقي الكيميائي علمه بالسوم من أن يموت بها كضحاياها الآخرين؟ أو فليذا يعيش صدره هذا الجيشان؟ رغم ما مئى به من خيبة الأمل، رغم الفارق الكبير بين الماضي والحاضر، رغم أنه لا يدري إن كان من أهل الماضي أم من أهل الحاضر، رغم هذا كله فصدره جشاش وقلبه يخفق...

#### ٤٣

هنا حديقة الشاي، سائرها أفرع وغصون رنانة، ومزود النظر البك السابح في البهجة المرسدية، والجليلة فيها وراء ذلك، واليوم عطلة جملة الإنسان الجليل، وما هي سوسن حداث تدور راقعة في لستان أزرق خفيف كشف عن فراعها السراوين، وهي آخذة زيتها ولكن في لباقة وحلر، وكان قد مضى على زمالتها عام فجلسا متقابلين يضيء وجهها ابتسام الضام، بينهما مائدة عليها دوق ماء وكأسا دنلومة لم يبق فيها إلا ذوب لينة الحليب الموزد بالفراولا، وإثنا أمز شيء لدي في هذه الدنيا، أدين لها بمسراتي جيما وهي قبلة آمالي أيضا، ونحن زميلان مخلصان، لم ينطق الحب بيننا ولكنني لا أشك في أننا متحابان، ومتعاونان كاحسن ما يكون التعاون، بدأنا رفيقين في ميدان الحزينة، وصلنا يدا واحدة، وكلانا مرشح للسجن، وكنت كلما توتمت بجهلها خلعت في وجهي عتجة وزجرتني مقلبة كأن الحب شيء لا يليق بنا فابتسم وأعود إلى ما كنت فيه من صل، ويوما قلت لها: «لني أحبك... لني أحبك... فافعل ما بدا لك»، فقالت لي: «وله الحياة هي الجسد كل الجسد وأنت تعبت»، فقلت لها: «لني مشكل أرى أن الراسالية في طور الاحتضار وإثنا استفتدت كأفة أغراضها، وأن حل الطبقة العليلة أن تطلق إرادتها لتعود آلة التطور إذ إن الثمرة لن تسقط وحدها، وإن

- يا سلام! كان أمز أصداقائي، وقضينا مفا أياما سعيدة جدا، رياه أنت أخته الصغيرة التي كانت تلعب في الحديقة؟

فعدجته بنظرة استطلاع. هيات أن تذكره! وفي ذلك العهد كنت مغرمة في كما كنت مغرما بأختك.

- لا أذكر شيئا طبعاً...

- طبعاً، هذا تاريخ يرجع إلى عام ١٩٢٣ وما بعده حتى عام ١٩٢٦، تاريخ سفر حسين إلى أوروبا، ماذا يفعل الآن؟

- في فرنسا في القسم الجنوي الذي انتقلت إليه الحكومة الفرنسية عقب الاحتلال الألماني...

- وكيف حاله؟ من زمن طويل انقطعت عني أخباره ورسائله...

- بخير...

نظمت بها في لهجة نمت عن رغبة في الخوض في الموضوع أكثر من ذلك، وتساهل كمال والتمام يمر بمكان القصر القديم: ترى ألم يخلع بكاشفتها بصداقته القديمة لأخيها؟ أليس في ذلك حداً من حرته فيها هو بسيله؟ وكما جاءت المحطة التالية لقسم الوايلي حته وغادرت الترام، فلبث في مكانه كأنما نسي نفسه. كان طوال الطريق يتفحصها كلما سنحت فرصة لعله يتندي إلى السر الذي سحره قديماً، ولكنه لم يحده وإن شعر مراراً بأنه منه قريب. وكانت تبدو لطيفة وديعة، وكانت تبدو قريبة النال، وهو الآن يشعر كأنما يعاني خيبة أمل خامضة وحزناً غير يُع الأسباب، لو أراد الزواج من هذه الفتاة ما احترضه عائق جلي. أجل إنها تبدو مستجيبة مليّة، ورغم فارق السن المحسوس أو بسبب فارق السن؟ ثم إن التجارب قد علمته أن شكله لن يعوقه عن الزواج إذا أراد. وهو إذا تزوجها انتقل بقدرة قادر إلى عضوية أسرة عابدة، ولكن ما كنه هذا الخيال السخيف؟ وما عابدة الآن بالنسبة إليه؟ الحق أنه لا يريد عابدة، ولكنه لا يكف عن التطلع إلى معرفة سرها، لعله يقتنع في الأقل بأن أزهي عصور العمر لم يضع هباء. ووجد رغبة - طلالاً أحت عليه على فترات من العمر - في مراجعة كرامة

الإخوانية فكرة تقمعية تزري بالاشتراكية المادية...  
 - قد يكون في الإسلام اشتراكية، ولكنها اشتراكية  
 خيالية كالتي بشر بها توماس مور ولويس بلان وسان  
 سيمور، إنه يبحث عن حلّ للظلم الاجتماعي في ضمير  
 الإنسان بينما أن الحلّ موجود في تطور المجتمع نفسه،  
 إنه لا ينظر إلى طبقات المجتمع ولكن إلى أفرادها،  
 وليس فيه بطبيعة الحال آية فكرة عن الاشتراكية  
 العلمية، وفضلاً عن هذا كله فتعاليم الإسلام تستند  
 إلى ميتافيزيقا أسطورية تلعب فيها الملائكة دوراً  
 خطيراً، لا ينبغي أن نبعث عن حلول لمشكلات  
 حاضرنا في الماضي البعيد، قل هذا لأخيك...

فضحك أحمد في سرور غير خافٍ وقال:  
 - أخي شاب مثقف وقانوني ذكي، إلى أعجب  
 كيف يتحمس أمثاله للإخوان!  
 فقالت بازدراء:

- الإخوان يصنعون عملية تزيف هائلة، فهم  
 حيال المثقفين يقدمون الإسلام في ثوب عصري، وهم  
 حيال البسطاء يتحدثون عن الجنة والنار، فيتشرون  
 باسم الاشتراكية والوطنية والديموقراطية.

حبيبي لا تململ الحديث عن مبادئها، قلت حبيبي؟  
 نعم فمنذ القبلية التي اختلستها دأبت على أن ادعواها  
 بحبيبي وكانت تحجج بالكلام تارة وبالإشارة تارة أخرى  
 ثم جعلت تتجاهله كأنها قد يشتت من إصلاحها،  
 وعندما قلت لها إني تواق إلى سماع كليتها الحب من  
 ثغرها المشغول بالاشتراكية وُتختي قاتلة باحتقار:  
 «هذه النظرة البورجوازية العتيقة إلى المرأة... ١٩١٥هـ»  
 فقلت لها جزعاً: إن احترامي لك فوق كل كلام وإني  
 لأعترف بأنني تلميذك في أنبل ما صنعت في حياتي  
 ولكنني أحبك كذلك وما في ذلك من بأس. فذهب  
 غضبها فيما شعرت ولكنها استبقت مظهره فيما رايت،  
 واقترعت منها مضمراً تقبيلها فلا أدري كيف حذرت  
 غرضي فلغضتي في صدري ولكنني رغم ذلك لثمت  
 غلتها وما دام المحلور قد وقع - وقد كان يوسعها منه  
 جذباً - فقد اعتبرتها راضية، وإثنا لكائن بديع جميل  
 العقل والجسم معاً رغم إفراقتها في السياسة، وعندما  
 دعوتها للزهوة في الحديقة قالت: «على شرط أن نأخذ

علينا أن نخلق الوعي ولكن بعد ذلك أو قبل ذلك  
 أحبك» فقطبت تقطيعاً متكلفة بعض الشيء وقالت:  
 «إنك تصرّ على إسعائي ما لا أحب»، وشجعتني خلوّ  
 حجرة السكرتارية فهويت إلى وجهها فجأة ولثمت  
 غلما فمدحتني بنظرة قاسية وأكثت على ترجمة ما تبقى  
 من الفصل الثامن من كتاب نظام الأسرة في الاتحاد  
 السوفيتي الذي كنّا نترجمه معاً.

- هذا الحرف كله في يونيو فكيف إذا جاء يوليو  
 وأغسطس يا عزيزي؟  
 - يبدو أن الإسكندرية لم تخلق لأمثالنا!  
 فضحك قائلاً:

- ولكن الإسكندرية لم تعد مصيفاً، كانت كذلك  
 قبل الحرب أمّا اليوم فالإشاعات قد جعلتها غراباً...  
 - الأستاذ عدلي كرم يؤكد أن أغلبية سكانها قد  
 هجروها وأن طرقاتها ملأى بالقطط الهائمة على  
 وجهها؟

- هي كذلك، وحباً قليل يدخلها رومل  
 بجيوشه...  
 ثم بعد صمت قصير:

- وسوف يلتقي في السويس بالجيش السابانية  
 الزاحفة على آسيا ويهود العهد الفاشستي كما كان في  
 العصر الحجري!

فقالت سوسن في شيء من الانفعال:  
 - روسيا لن تهزم، وإن آمال البشرية مصونة خلف  
 جبال الأورال...

- نعم لكنّ الألمان على أبواب الإسكندرية!  
 تسامت وهي تتفخ:  
 - لماذا يحب المصريون الألمان؟

- كراهة في الإنجليز، وسوف يمتدحونهم في الغد  
 الغريب، إن الملك يبدو اليوم كالسجين ولكنه سيتطلق  
 من سجنه ليستقبل رومل ثم يشراب معاً نخب وأد  
 الديموقراطية الناشئة في بلدنا، ومن المضحك أن  
 الفلاحين يظنون أن رومل سيوزع الأرض عليهم!

- أعداؤنا كثيرون، الألمان في الخارج، والإخوان  
 والرجعية في الداخل وكلاهما شيء واحد...  
 - لو سمعك أخي عبد المنعم لثار على رأيك، يعتبر

فقال بلهجة لم تخل من حدة:

- أنت غططة يا ظلة! لا يعينني ما ورثته، فكما أن الفقر لا يعيك فالغنى لا يعينني، أهني الدخيل القليل الذي عاشت به أسرنا حيشة التناقلة، لا يعيب أحدا أن يجد نفسه بورجوازيًا، ولا عيب إلا في الجمود والتخلف عن روح العصر...

فقالت وهي تبسم:

- لا تغضب، كلانا ظاهرة طبيعية علمية، لا نسال عيًّا وجدلنا أنفسنا عليه ولكننا مشغولون عيًّا نعتق ونفعل، إنني أحتل إليك يا إنجلز، ولكن خبيري هل أنت على استعداد لمواصلة إلقاء المحاضرات على العمال

مهما تكن العوائب؟

فقال بإدلال:

- لقد حضرت حتى أمس لحس مرّات، وحزوت منشورين خطيرين، وودعت عشرات المنشورات، وللحكومة دين في عني جاوز المائين سجنًا...

- وما في عني أضعاف ذلك!...

مدّ يده في خفة فوضعها على يدها السمراء البضة في حنان وإعجاب. نعم إنه يجيها، ولكنه لا يندفع في جهاده باسم الحب، ترى ألم تكدّ أحيانًا وكأنها تشكّ فيه؟ أهني مداعبة من المداعبات أو توجس خيفة من البورجوازية التي تحسبها كامة فيه؟ إنه مؤمن بالمبدأ كما إنه مغرم بها، لا غنى له عن هذا ولا ذاك، وليس من السعادة أن تحظى بشخص يفهمك حتى الفهم وتفهمه حتى الفهم؟ وآلا يحول بينك وبينه أي نوع من المكر؟ إنني أعبداه إذ قالت ولقد ذقت الفقر طويلاً، هذا القول الصريح الذي ساء بها عن بنات جنسها جميعًا ومزجها بنفسي، لكننا عمّرون غافلون والسجن يترصّ بنا، ويوسعنا أن نتزوج وأن نتجنّب المتاعب ونقتنع برغد العيش، ولكنّها تكون حياة بلا روح، لشدّ ما يبدو لي المبدأ أحيانًا كأنه لمة مصرية علينا من القضاء والقدر، إنه دمي وروحي، كائنني المشغول الأول عن الإنسانية جميعًا...

- أحبك...

- ما المناسبة لهذا؟

- في كلّ مناسبة وبلا مناسبة...

معنا الكتاب لنواصل الترجمة قلت لها: بل للفرجة والمناجاة وآلا كضرت بالاشتراكية جميعًا! ولعلّه نما يزعمني كثيرًا حيال نفسي المشتبّة بالسكوية التي ما زلت أنظر أحيانًا إلى المرأة بالعين التقليدية البورجوازية فينبئني إليّ في بعض ساحات التزهق والخبور أنّ الاشتراكية عند المرأة التقدّمية ليست إلا نوعًا من الفتنة كضرب البيانو والتبرّج ولكن من المسلم به كذلك أنّ العام الذي زاملت فيه سوسن قد غيّرت كثيرًا وطهّرت لدرجة محمودة من البورجوازية المستوطنة في أحيائي...

- من الموصف أنّ زملائنا معتقلون بلا حساب!...

- نعم يا حبيبي، الاعتقال موضوعة تشيع أيام الحروب وآهّام الإرهاب على السواء، غير أنّ القانون لا يرى بأسًا في اعتناق المبدأ إذا لم يقرن بالدموية إلى العنف...

فضحك أحد وقال:

- سيلقى القبض علينا إن أجبلاً وإن عاجلاً!...

فحدثت بنظرة متسائلة فعاد يقول:

- إلا إذا أدبنا الزواج!

فهزّت منكبيها في ازدراء وقالت:

- من أدراك بأنني أوافق على الزواج من رجل من زفّ مثلك؟

- مزفّ!؟

ففكرت قليلاً ثمّ قالت باهتمام جدّي:

- لست من طبقة العمال مثلي! كلانا يحارب عدوًّا واحدًا ولكنك لم تحبّه كما تحبّه، لقد ذقت الفقر طويلاً، ولمست آثاره الكريهة في أسرتي، وغالبت أخت لي حتى غلبها لفتات، أما أنت فلست... لست من طبقة العمال!

فقال بهدوء:

- ولا كان إنجلز من هذه الطبقة...

فضحكت ضحكة قصيرة بعثت أنوثتها وقالت:

- كيف أدعوك؟ البرنس أمحدوف!؟ هه لا أنكر

عليك مبدأك، ولكن بك بقايا بورجوازية عتيقة، يجئني إليّ أنّك تُسرّ أحيانًا لكونك من آل شوكت!

- إنك تتحدث عن الجهاد ولكن قلبك يتفق بالهناة...

- الضريق بين هُلمين سخف كالضريق بيني وبينك...

- ألا يعني الحب الهناء والاستقرار وكرامة السجين؟

- ألم تسمعي عن النبي الذي كان يجاهد ليل نهار دون أن يمنعه من أن يتزوج تسعاً؟...

فترقت بأصابعها هاتفة:  
- ها هو أعوك قد أمارك فاه، أي نبي يا هذا؟

فقال ضاحكاً:  
- نبي المسلمين!

- دعني أحدثك عن كارل ماركس الذي عكف على تأليف ورأس المال» تاركاً زوجته وأولاده للجوع والبهدة!

- كان متزوجاً على أي حال...  
كان ماء البركة عصير زمرد، وهذه النسمة اللطيفة

عمفو في خلسة من يوينه، والبهك يسبح مسنداً مقاره لالتقاط فئات الحيز، وأنت سعيد جداً، والحبوبة المتعبة

ألك من الطيبة، يجتلي إلي أن وجهها تورد، فلعلها تناست السياسة قليلاً وأخذت تفكر في...

- كان المأمول يا زميلتي العزيزة أن نحظى في هذه الحديقة بحديث غلب!

- أحلب ممّا كنّا نتحدث به؟  
- أهني حبتنا...

- حبتنا؟...  
- نعم وأنت تعلمين!

وساد الصمت ملياً حتى غصّت عينها مسائلة:  
- ماذا تريد؟

- قولي إننا نريد شيئاً واحداً!  
فقال كائماً لتطبعه فحسب:

- نعم، ولكن ما هو؟  
- حسبنا لفت ودوران!

كأنها تفكر، فما أمر الانتظار على قصره، وإذا بها تقول:

- ما دام كل شيء واضعاً فلم تعذبني؟

فتتبد في ارتياح عميق وقال:  
- ما أبهج حبي!

وساد الصمت مرةً أخرى كاللازمة بين النعمة والنعمة، ثم قالت:

- يعني شيء واحد.  
- أفنتم!

- كرامتي!  
فقال كالمنزعج:

- هي وكرامتي شيء واحد!  
فقالت بامتعاض:

- أنت أدري بقاليد أناسك! ستمسح كثيراً عن الأصل والفصل...

- كلام فارغ، أنتظني طفلاً؟  
وتردّت قليلاً ثم قالت:

- لا يحدنا إلا شيء واحد هو «العقلية البورجوازية»!

فقال بقوة جعلته في تلك اللحظة أشبه ما يكون بأخيه عبد المنعم:

- لست منها في شيء!  
- هل تترك مدى خطورة قولك؟... لقد عنيت

أشياء تخص علاقة الرجل بالمرأة في صميمها الشخصي والاجتماعي!

- مفهوم جداً.  
- سوف تطالب بقمبوس جديد عند الكشف عن

الكلمات الماثورة مثل: حب، زواج، غيرة، الوفاء، الماضي...

- نعم!...  
قد يعني هذا لا شيء، وقد يعني كل شيء، وكـم

من مرةً خطرت له أفكار، ولكن الموقف يتطلب شجاعة فائقة، ما هو إلا امتحان لعقليته اللوروة

والكتسية جيماً، امتحان رهيب، غيّل إليه أنه أدرك ما تعني، ولعل الأمر لا يعدو أنها تقتضه، ولكن حتى لو

كان الذي أدركه فلن يتراجع، لقد اعتراه ألم ودبت في أعماقه الغيرة ولكنه لن يتراجع...

- إني مسلم بما تعنين، ولكن دعيني أمارحك بأنني كنت آمل أن أحظى بفتاة عاطفية لا يفكر بحاسب مدقق!



عقلك وحده؟

- أبداً، والمشورة جائزة في كل شيء إلا الزواج فهو كالطعام سواء بسواء! ...

- الطعام! ... إنك لا تتزوج من فتاة فصيح ولكن من أسرته كلها، ونحن - أهلك - نتزوج بالتبعية معك ...

فضحك أحمد ضحكة عالية وقال:

- كلكم! هذا أكثر مما يُحتمل، خالي كمال لا يريد أن يتزوج، وخالي ياسين يود لو يتزوجها وحده ... وضحكوا جميعاً إلا خديجة، ثم قال ياسين قبل أن تزايل وجهه هيئة الضحك:

- إذا كان في هذا فتن المشكلة فأننا حل أنتم استعداد للتضحية. فهضت خديجة:

- اضحكوا، إنه يشجع بضحككم، خير من ذلك أن تصارحوه بأرائكم، فبا رأيكم ليمن يربط في الزواج من «كرامة» عامل الطبعة التي يعمل بمجنتها؟ إنه يعز علينا أن نعمل بالمجلة «جورنالجي» فكيف وأنت تريد أن تصاهر عائلها! أليس لك رأي يا سي إيرايم؟

لرفع إيرايم شوكت حاجبه كأنما يريد أن يقول شيئاً، ولكنه سكت، فمادت تقول:

- لو وقعت هذه المصيبة فسيتمل بيتك ليلة الزفاف بصيال الطبعة والعنابر والحرفية، والله أعلم بما خفي! ...

فقال أحمد بتأثر:

- لا تتكلمي هكذا عن أهل! - يا رب السلاوت، أنتكر أن هؤلاء هم أهلها؟ - سأتزوجها هي وحدها، إنني لا أتزوج بالجملة ...

فقال إيرايم شوكت في ضجر:

- لن نتزوجها وحدها، الله يتبعك كما تبعنا!

فقالت خديجة متشجمة بممارسة زوجها:

- ذهبت لزيارة بيتها كما تقضي العادة، قلت أرى حروس ابني، فوجدتهم يقيمون في بدوم في شارع كله يسود على الصيغين، وأنها لا تفرق في هبتها عن

لصاقلت وهيئتها تتابعان البط السابح:

- لنقول لك أحببك وأوافق على الزواج منك!؟ - نعم! ... ضاحكة:

- وهل تراني كنت أدخل في التفاصيل ما لم أكن موافقة على المبدأ!؟

فضغط على راحتها في رقعة، فمادت تقول:

- وأنت تعرف كل شيء، ولكنك تود سماعه! - ولا أمل سماعه! ...

## ٤٤

- إنها سمعة أسرتنا جميعاً، وهو حل أي حال ابنكم، وأنتم بعد ذلك أحرار فيها ترون! ...

كانت خديجة تخطب وهيئتها تتقلان بسرعة وقلق من وجهه إلى وجهه، من زوجها إيرايم الذي جلس إلى يمينها إلى ابنها أحمد في الناحية المقابلة من الصالة، مازين ياسين وكيال وعبد المنعم ...

وقال أحمد مداعباً وهو يقلد لهجتها:

- انتبهوا جميعاً، إنها سمعة أسرة، وأنا حل أي حال ابنكم!

فقال له بصوت متشكك مليء بالمرارة:

- ما هذا البلاء يا ابني؟ أنت لا ترضى أن يحكمك أحد ولو كان أباك، وأنت للمشورة ولو كانت في صالحك، دائماً أنت حل صواب والناس جميعاً حل خطأ، تركت الصلاة قلنا ربنا يهديه، رفضت أن تدخل الحقوق كأخيك قلنا المستقبل بيد الله، قلت أشتغل جورنالجي قلنا اشتغل عربي! ... فقال بأسياً:

- والان أريد أن أتزوج!

- تزوج، قلنا يسر لهذا، ولكن الزواج له شروط ...

- ومن يضع شروطه؟

- العقل السليم.

- عقل اختار لي ...

- ألم تثبت لك الآلام بعد أنه لا يصنع الاعتدال على

من نفسه، أنا لم يستقرّ بي بيت إلا بزئوبة كما تعلمين! فمسي أن يكون الخير فيها اختار، ثم إنّنا لا نعل بالكلّام ولكن بالتجارب.

ثمّ مستدرّكا وهو يضحك:

- ولو أنّه لا الكلام ولا التجارب عقّلتني!

وعلق كمال على قول ياسين قائلا:

- الحقّ فيما قال أخي...

فحدّثه بنظرة عتب قاتلة:

- أهذا كلّ ما عندك يا كمال؟ إنّهُ يجبُك فلو أنّك

حدّثته على انفراد...

فقال كمال:

- إنّني خارج معه وسأحدّثه، ولكن كُفّي عن

الشجار، إنّهُ رجل حرّ، ومن حقّه أن يتزوّج من

يشاء، أنتستطيعين منعه أم تتنوين مقاطعته؟

وقال ياسين بأسًا:

- الأمر بسيط يا أخي، يتزوّج اليوم ويطلق غدًا،

نحن مسلمون لا كاثوليك...

فصيّقت عينها الصغيرتين وقالت بضم شبه منلق:

- طبعًا، من حمام غيرك يدافع عنه؟ صدق من قال

إنّ الولد لحاله!

فضحك ياسين فضحكه العظيمة وقال:

- الله يسامحك، لو ترك النساء تحت رحمة النساء لما

تزوّجت امرأة قطًا...

فأشارت إلى زوجها وقالت:

- أمّه الله يرحمها هي التي اختارتني بنفسها!

فقال إبراهيم وهو يتنهد بأسًا:

- ودلعت الثمن، الله يرحمها ويعفو عنها!

ولكنّها لم تأبه لتعليقه وحادت تقول متحرّرة:

- لو كانت جميلة... إنّهُ أحمى!

فقال إبراهيم ضاحكًا:

- مثل أبيه!

فالتفتت نحوه غاضبة وقالت:

- أنت جاحد كجنس الرجال!

فقال الرجل يهدوء:

- بل نحن صابرون ولنا الحفّة...

الخادِمات المحترقات، والعروس نفسها لا يقبلُ صبرها من ثلاثين عامًا، أي والله، ولو كان بها ذرة من جمال لعذرت، لماذا يريد أن يتزوّجها؟ إنّهُ مسحور، سحرته بحيلة، إنّها تعمل معه في المجلّة المشؤومة، لمّلها غافلته فوضعت له شيئًا في القهوة أو الماء، اذهبوا وشوفوا واحكموا، أنا خلّبت، لقد عدت من الزيارة لا أكاد أرى الطريق من حزني وأسفي...

- إنّك تفصّيني، لن أخفر لك كلامك هذا...

- العفو، العفو يا سيّد الملاح! الحقّ علّي، أنا طول

عمري عيابة فرساني ربّنا في أولادي بكلّ العيوب،

أستغفر الله العظيم.

- مهما تقوّلت عنهم فليس ليهن من يرمي الناس

بالباطل... مثلك!

- بكورة يا ما تسمع، ويا ما تعرف، سامحك الله على

إهانتي.

- أنت التي أمتني بما فيه الكفاية!...

- إنّها تطمع في مالك، ولولا غيبتك ما طمعت في

أحسن من يتّاح جرائد...

- إنّها محرّرة في المجلّة برّكب ضعف مرتّبي...

- جورنالجيّة هي الأخرى!... ما شاء الله، وهل

تتوكّلف إلا الفتاة البائرة أو القبيحة أو المسترجلة!...

- سامحك الله...

- فليسامحك أنت على ما تصبّ علينا من عذاب!

وهنا قال ياسين الذي كان يتابع الحديث ويده لا

تمسك عن قتل شاربوه:

- اسمني يا أخي لا داعي للنفار، سنصارح أحمد

بما ينفي قوله ولكن لا جدوى من الشجار...

ونبض أحمد كالغاضب وهو يقول:

- عن إذنكم سارندي سلابي لأذهب إلى

عملي...

ولما ذهب انتقل ياسين إلى جانب أخته ومال عليها

قائلًا:

- لن يفيدك الشجار شيئًا، نحن لا نحكم أبناءنا،

إنّهم يرون أنفسهم خيرًا منّا وأذكى، إذا كان لا بدّ من

الزواج فليتزوّج، فإن سعد كان بها ولّا فهو المستول

- خالي، ستمجيك جداً، ستري وتحكم بنفسك،  
إنها شخصية ممتازة بكل معنى الكلمة.

فصاحت به:  
- إذا كنت ستدخلها بفضلي... أنا التي علمتك  
دينك! ...

## ٤٥

\*\*\*

يا لها من حيرة! كأنها مريض مزمن، فكل أمر يبدو  
ذا وجوه متعددة متساوية يتعلم فيها الاختيار، تستوي  
في ذلك المسألة الميتافيزيقية والتجربة البسيطة من الحياة  
اليومية، فإزاء كل تمرض الحيرة والتردد، أبتزج أم  
لا؟، كان ينبغي أن يقطع برأي لكنه يدور حول  
نفسه حتى يهيمه الدوار ويخزل منه ميزان الروح  
والعقل والحواس ثم تنجلي الدوامة عن موقف لم يتغير  
وسؤال لم يظفر بال جواب بعد وهو: أبتزج أم لا؟ قد  
يضيق أحياناً بحرته فيضل عليه الشعور بالوحدة أو  
يضجر من معايشرة الأشباح الفكرية الخاوية فيحن إلى  
الآليف وتتقن في عجب غرائز الأسرة والحب تروم  
متنقساً، ثم يتخيل نفسه زوجاً قد برأ من التركيز في  
ذاته وتبدلت أوهامه لكنه في في الوقت نفسه في الأبناء  
واستغرقه الرزق ومطالبه فترامت عليه مشاغل الحياة  
اليومية فيهنج أهما انزعاج ويفرر الاستمساك بانطلاقه  
مهما تحس من وحشة وعذاب، بيد أنه لا ينعم  
بالاستقرار طويلاً فلا يلبث أن يعود إلى التساؤل كثة  
أخرى، وهكذا، وهكذا، فابن المرقز؟ وبدور فتاة ممتازة  
حقاً، لا يميها اليوم أن تترك الترام ما دامت قد  
ولدت وشبت في جنة الملاكمة التي شغفت قلبه قديماً،  
فهو كالشباب الساقط، وهي فتاة ممتازة حقاً في حسنها  
وخلفها وثقاتها، ثم إنها ليست عسيرة المنال فهي  
الزوجة الواعدة بكل معنى الكلمة إذا أراد أن يتقدم،  
وما عليه إلا أن يتقدم، وإلى هذا كله فهو لا يسمع إلا  
أن يسلم باحتلالها مركز الاهتمام من وعيه، فهي آخر  
ما يوقع من أطيفاف الحياة قبل النوم وهي أول من  
يستقبل من أطيفافها عند الاستيقاظ، ثم لا تكاد تغادر  
خياله طوال يومه، وما إن يحظى برؤيتها البصر حتى  
ينفخ الفؤاد مرتدداً أنفاساً شجيّة من أوتار علامها  
الصداء، ثم إن ذياه لم تبق كما كانت، دنيا حيرة  
وعذاب ووحشة، داخلتها تسالم وجري فيها ماء

غادر كمال وأحمد السكينة معاً، وكان يقف من  
مشروع هذا الزواج موقف الشك والتردد، إنه لا يمكن  
أن يتهم نفسه بالمحافظة على التقاليد السخيفة، أو  
بالفتور حيال مبادئ المساواة والإنسانية، ومع ذلك  
فالواقع الاجتماعي الذي لا يد له في بشاعته حقيقة  
واقعة لا يجوز أن يتجاهلها إنسان، وقديماً ولع عهداً  
يقمر بنت أبي سريح صاحب القلي، فكادت - رغم  
جاذبيتها - تحدث له عقدة براحة جسدها المحزنة. غير  
أنه كان رغم هذا معجباً بالشاب، غابكاً له شجاعته  
وقوة إرادته وغيروها من المزاي التي حرم هونها وعلى  
رأسها الإيمان والمصل والزواج، كأنما قد بعث في  
الأسرة كسافة عن جوده وسليته. ما الذي يعمل  
للزواج هذه الخطورة في نظره بينما هو في نظر الآخرين  
لا يزيد عن السلام عليكم... وعليكم السلام؟

- إلى أين يا فقي؟  
- المجلة يا خالي، وأنت؟  
- مجلة الفكر لأقابل رياض قلديس، ألا تفكر قليلاً  
قبل أن تخطو هذه الخطوة؟  
- أي خطوة يا خالي! لقد تزوجت بالفعل! ...  
- حقاً؟  
- حقاً، وسوف أقيم في الدور الأول من بيتنا نظراً  
لأزمة المساكن...  
- يا له من تحدٍ سافر! ...  
- نعم، ولكنها لن توجد في البيت إلا حين تكون  
أمي قد نامت...  
ويعد أن أفاق من وقع الخبر سألها بأساً:

- وهل تزوجت على سنة الله ورسوله؟  
فضحك أحد أبشاً وقال:  
- طبعاً، الزواج والدفن على سنن ديننا القديم، أما  
الحياة فعل دين ماركس!  
ثم وهو يودعه:

الحياة، فإن لم يكن هذا هو الحب فما حسى أن يكون؟! وطوال الشهرين الماضيين جعل من شارع ابن زيدون مقصده كل أصيل، يقطعه على مهل، مستلذاً حينه إلى الشرفة حتى تلتقي بعينيها ثم يتبادلان الابتسام كما يجدر بزميلين، وقد بدا ذلك كما تقع للمصادفات، ثم تكرر وقوعه كأنما عن عمد، فما يجد معاده حتى يجدها بمجلسها من الشرفة تقرأ في كتاب أو تسرح الطرف، فابتن أنما تنتظره، إذ لو شادت أن تحو هذا المعنى من ذهنه ما كلفها ذلك إلا تحبب الشرفة دقائق كل أصيل. ولكن ماذا تظن بمروره وابتسامه ونحيته؟! لكن مهلاً، إن الفرائز لا تخطئ، كلامها يود أن يلقي صاحبه، وقد استخذه للذك الطرب وأسكره السرد، وبلاء إحساس يجردى الحياة لم يشعر به من قبل، غير أن هذا الهناء كله لم يحس دون قلق يشوبه، كيف لا وهو لم يجمع بعد على حزم، ولم يتفصح له سبيل، ولكن ثباتاً جره فاستسلم له وهو لا يدري كيف يجراه ولا أين مرساه قليل من العقل يوجب عليه أن يتدبر أمره ولكن فرحة الحياة صدفته في إشفاق. فحمل مسروراً دون أن يخلو من قلق. وقال له رياض: أقيم فلهذه فرصتك، ورياض منذ أن لبس خاتم الخطوبة وهو يتحدث عن الزواج كأنه غاية الإنسان الأولى والأخيرة في هذه الحياة، فيقول مزهراً! إنه سيقنعهم هذه التجربة الفريدة غير حباب لفتاح له أن يفهم الحياة فهماً جديداً صادقاً ومن ثم يفتح أبواب قصصه للحياة الزوجية والأطفال... أليست هذه هي الحياة أيها الفيلسوف السابح فوق الحياة؟ فاجابه متزهاً: أنت اليوم خصم فانت آخر من يصلح حكماً وسوف أفقد فيك المشير الصادق! وبدا له الحب من ناحية أخرى «دكتوراه» وقد علمته الحياة السياسية في مصر أن محقت الدكتوراه من صميم قلبه. فقي بيت حتمت جليلا كان ييب عطية جسده ثم سرعان ما يسترده وكأن ما كان لم يكن، أما هذه الفتاة المستكنة في حياها فلن تقع بما دون روحه وجسده جميعاً إلى الأبد، ولن يجد من شعار ياتم به بعد ذلك إلا الكفاح المرير في سبيل الرزق ليؤمن حياة الأسرة والأبناء، مصير خريب يحمل من الحياة الحافلة بالجلال مجرد وسيلة «لتحصيل» الرزق، وقد يكون

الفقير الهندي سخيماً أو مجنوناً ولكنه أحكم ألف مرة من الغارق حتى أفنيه في سبيل الرزق، فانيوم بالحب الذي كنت تفتقده وتحسّر عليه... ها هو يبعث حياً في فؤادك جازاً وراحم المتأصبا وقال له رياض: «أمن المحقول أن تحبها وأن يكون في وسعك أن تتزوجها... ثم تمتنع عن زواجها؟»، فأجابه بأنه يحبها ولكنه لا يحب الزواج! فقال محتجاً: «إن الحب هو الذي يسلمنا للزواج فما دمت لا تحب الزواج كما تقول فانت لا تحب الفتاة»، فاجابه بإصرار: «بل أحبها وأكره الزواج»، فقال: «ولمك تحاف المسؤولية»، فاجابه محتجاً: «وأي أهل من أعباء المسؤولية في بيتي وفي عملي ما لا تحمل بعضه»، فقال: «ولمك أناني أكثر مما أتصور»، فقال ساخراً: «وهل يتزوج الفرد إلا مدفوعاً بأنانيته الظاهرة أو الخفية؟»، فقال باسماً: «ولمك مريض فاذهب إلى دكتور نفساني لعله يملكك»، فقال له: «ومن الطريف أن مقالتي القادمة في مجلة الفكر عن: كيف تحمل نفسك»، فقال له: «أشهد لقد حترتني»، فقال له: «وأنا الحائر إلى الأبد». ومرة وهو يقطع كعادته شارع ابن زيدون صادف في طريقه أم حبيبة متجهة نحو البيت، عرفها من أول نظرة رغم أنه لم يرها منذ سبعة عشر عاماً على الأقل. ولم تكن «الهانم» التي عرفها قديماً. ذبلت ذبولاً عجزاً وركبها الهرم قبل الكبر ولم يكن في وسع إنسان أن يتصور أن هذه المرأة الساعية في هزالها هي نفس الهانم التي كانت تخطو في حديقة القصر في نهاية من الجمال والكمال! ورغم هذا كله قد ذكرته هيئة رأسها بعناية ففقط قلبه منظرها، وكان حسن الحظ أنه تبادل مع بدور الابتسام قبل رقيتها وإلا ما استطاع أن يتسم، ثم ما يدري إلا وهو يتذكر عائشة! ثم يذكر كيف أثارت عاصفة من النكد هذا الصباح في البيت وهي تبحث عن طاقم أسنانها التي نسيت أين أودعته قبل نومها. وأول أمس رأى بدور واقفة في الشرفة على غير عادتها ثم تبين أنها متجهة للخروج! وتساءل أخرج وحدها؟! وما لبث أن غابت من الشرفة فمضى في سبيله متمهلاً متفكراً. حقاً لو جاءت وحدها فلما نجيء له، هذا الظفر للسكر لعله يفضل إهانة حلت

... فرصة سعيدة!

... شكرًا!

ثم ماذا؟ يبدو أنها تنتظر خطوة جديدة من ناحيته،  
وها هي نهاية الطريق تقترب، يجب أن يقطع برأيي  
فأما التورط وأما الدواع، لعلها لا تتصور أبدًا أن  
يفترقا ببساطة، ولو كلمة واحدة، وها المفرق حل بعد  
خطوات، إنه يشعر شعورًا مؤلمًا بمدى الحيلة التي  
ستمنى بها، وبأى لسانه أن ينطق، أم يتكلم وليكن ما  
يكون! وتوقفت عن المسير واتسمت ابتسامة مرتبكة  
كأنما تقول أن لنا أن نفترق فيبلغ به الاضطراب نهايته،  
ثم مدت يدها، فتلقاها بيده وصمت فترة رهبة، ثم  
غمغم:

... مع السلامة!

واستمرت يدها ثم مالت إلى عطفة جانبية. أوشك  
أن يتأدبا، إن ذهباها متمعة بالحيلة والحجل كابوس لا  
يُحتمل، وأنت أدري بهذه المواقف النعيسة، غير أن  
لسانه اتعقد. فهم كانت متابعتها لها طوال الشهرين  
الماضين؟ أمن الذوق أن ترفضها وقد جاءتك  
بنفسها؟ أمن الرحمة أن تعاملها نفس المعاملة التاريخية  
التي عاملتك بها أختها؟ وأنت تحبها؟ وهل تلقى من  
ليلها ما لقيت من ليلتك التي خلقتها وراك كالجمرة  
المتقدة تضيء في غيايب الماضي بالألم المنصهر؟!

وواصل سيره وهو يتساءل ترى أريد حقًا أن يبقى  
أهزب لكي يكون فيلسوفًا أم أنه يدعي الفلسفة ليغى  
أهزب؟ وقال له رياض: هذا شيء لا يصدق وسوف  
تندم! وهو شيء لا يصدق حقًا ولكن هل يندم أيضًا؟  
وقال له: كيف هان عليك أن تقطعها وقد كنت  
تتحدث عنها وكأنها فضاء أحلامك؟ ليست فضاء  
أحلامه... إن فضاء أحلامه لم تكن لتسعى إليه أبدًا.  
وأخيرًا قال له: إنك في نهاية السلسلة والثلاثين من  
عمرك وإن تكون بعد ذلك صاحبًا للزواج. فامتعض  
لقوله وداخلته كابة...

جاءت كريمة إلى السكرة في حلة العروس في عربة

منذ سنين! ولكن هل كانت عابدة تفعل هذا ولو  
انتش القم؟. وعندما بلغ منتصف الطريق التفت  
إلى الوراء فرأها قائمة... وحدها! وخيل إليه أن  
خفقان قلبه يسوطق مسامع الجيران. وسرعان ما شعر  
بخطورة الموقف الوشيك الحدوث حتى نازعته بعض  
جوانب نفسه إلى الهروب! كان تبادل الابتسام قبل  
ذلك لهوا عاطفيًا بريقًا أما اللقاء فيكون له شأن وأثر  
شأن. هو مسئولية وخطورة ومطالبة بالحلم في  
الاختيار. ولو هرب الآن لنح نفسه مزيدًا من  
الترويض ولكنّه لم يهرب، وتقدم في خطه المتحملة  
كالخدر حتى أدركته عند منعطف الطريق إلى شارع  
الجلال، وفي التفاتة منه التفت حينها في ابتسامة،  
فقال:

... مساء الخير...

... مساء الخير...

وتساءل وشعوره بالخطورة يتزايد:

... إلى أين؟

... عند واحدة صاحبي، هناك في هذا الأتجاه...

وأشارت صوب شارع الملكة نازلي، فقال في  
استهتار:

... إنه طريقي فهل تسمحين بأن نسير معًا...؟

فقال وهي تداري ابتسامة:

... تفضل...

وسارا جنبًا إلى جنب، إثمًا لم تتحل بهذا الضتان  
الجميل لتقابل واحدة صاحبتهما ولكن لتقابل هـ، وها  
هو قلبه يستقبلها بالوجد والحنان، ولكن كيف يكون  
مسلكه؟ لعلها ضالقت بهجومه فجاءت بنفسها لتنهض  
له فرصة مروّنة فإثمًا يتهمها إكرامًا لها وإثمًا يتجاهلها  
فيفتقدتها إلى الأبد، هي كلمة قد تقال فيتورط قائلها  
مدى العمر أو تحبس فيندم حابسها مدى العمر، هكذا  
دُفع إلى مازق وهو لا يدري، وها هو الطريق يطوى  
ولعلها تترقب، وهي تبدو مستجيبة ملّية كأنها ليست  
من آل شداد، أجل ليست من آل شداد في شيء، لقد  
انتهى آل شداد، وولّى زمانهم، وليست التي تسيرك  
إلا فتاة سيئة الحظ، والتفت نحوه كالباسمة فقال  
برقة:

- عن معركة العلمين، وقد ارتجت جدران المنطرة بأصواتهم.

- وكيف شعورهم حيال انتصار الإنجليز؟

- الغضب طبعًا، إثم أعداء الإنجليز والألمان والروس جميعًا، وفككنا لم يرحوا العريس حتى في ليلة زفافه...

وكان ياسين جالسًا إلى جانب زُئوبة، يبدو في زنته كأنما يصفرها بعشرة أهوام، فقال:

- فليأكلوا بعضهم البعض بعيدًا هنا، ومن رحة ربنا أنه لم يجعل من مصر ميدان حرب...

فقالت خديجة بأسمة:

- لملك تريد السلام حتى تفرغ لمزاجك!

ومقت زُئوبة بنظرة مأكرة حتى ضحك الجميع، وكان قد ذاع في الأيام القريبة الماضية أن ياسين غازل سائنة جديدة في بيته، وأن زُئوبة ضبطته متلبسًا أو كالتلبس فما زالت بالسائنة حتى اضطرَّها إلى إخلاء الشقة. فقال ياسين بداري ارتباكها:

- كيف أفرغ لمزاجي وبقي عكسوم بالأحكام العرفية!

فقالت زُئوبة في امتعاض:

- هلأ استحييت أمام ابتك؟

فقال ياسين في توسل:

- إني بريء والجارة المسكينة مظلومة!

- أنا الظلالة! أنا التي شُبطت وأنا أطرق شقتها بليل ثم اعتذرت بأنني ضللت سبيلي في الظلام! هه؟ أربعون هنا في البيت ثم لا تعرف أين تقع شقتك؟!؟

فتعالى الضحك حتى قالت خديجة في تهكم:

- إنه كثير الخطأ في الظلام!

- وفي النور حل السواء...

وإذا بإبراهيم شوكت يخاطب رضوان قائلاً:

- وأنت يا رضوان كيف حالك مع محمد أفندي حسن؟

فقال ياسين مضحكًا:

- محمد أفندي زفت!

وأجاب رضوان حائلاً:

مع والديها وأخيها. وكان في استقبالهم إبراهيم شوكت وخديجة وأحمد وزوجه سوسن حقاد وكبال. ولم يكن ثمة ما يدل على زفاف إلا طاقات الورد التي طوّقت الصالة، أما المنطرة فقد امتلأت بلووي اللحى من الشبان يتوسطهم الشيخ علي المنزوي. ومع ذلك كان قد مرَّ عام ونصف على وفاة السيد إلا أن أمانة لم تشهد الزفاف ووعدت بالحضور للتهنئة فيها بعد، أما عائشة فلما عندنا دعيتها خديجة إلى شهود النخلة الصامنة هزت رأسها عجبًا وقالت بلهجة عصبية:

- أنا لا أشهد إلا الماتام!

وقد تأملت خديجة لقولها ولكنَّها كانت قد اعتادت أن تتحلَّ بالحلم المثالي حيال عايشة. وقد جُهِز الدور الثاني بالسكرية للمرة الثانية بأثاث العرس. وبجهاز ياسين ابنته كما ينهي وياع في سبيل ذلك آخر أملاكه فلم يعد يبقى له إلا بيت قصر الشوق. وعلت كريمة آية في الجبال، وقد شابت أنها في عهدا الزاهر خاصة في منيها الدافنتين، ولم تكن بلغت سن الزواج إلا في الأسبوع الماضي من أكتوبر. ولاحت خديجة سعيدة كما ينهي لأم العريس، وقد انتهزت فرصة انفرادها بكامل مرة فالت على أذنه قائلة:

- هل أي حال فهي ابنة ياسين، ومها يكن من أمر فهي خير ألف مرة من عروس المتابر!

وقد مدَّ بوليبي صغير في حجرة السفارة للأسرة، ومدَّ آخر في الفناء لدعوي عبد المنعم من فوي اللحى، ولم يكن يتميز عنهم إذ أرسل بلوزة لحية حتى قالت له خديجة يومذاك:

- الدين جميل ولكن ما ضرورة هذه اللحية التي تبدو فيها مثل محمد العجمي يباع الكسكي؟!

وجلس أفراد الأسرة في حجرة الاستقبال ما عدا عبد المنعم الذي جالس أصحابه، وأحمد الذي شاركه في الترحيب بهم بعض الوقت، ثم انتقل إلى حجرة الاستقبال حيث انضمَّ إلى أهله وهو يقول بأسياً:

- تراجعت المنطرة في الزمان ألف عام!

فسأله كمال:

- فيم يتحدون؟

متعجبة من «استرجالها» في الحديث، فما تمالكت أن  
قالت:

- المفروض أننا في فرح، تكلموا في أمور مناسبة!  
ولا جت سوسن بالصمت دون اصطدام، هل حين  
تبادل أحد وكيال نظرة باسمه، أما إبراهيم شوكت  
فقال ضاحكاً:

- عندهم أن أفراحتا لم تعد أفراحتا، الله يرحم  
السيد أحمد ويسكنه فسيح جناته...

فقال ياسين متحسراً:  
- تزوجت ثلاث مرّات ولكنني لم أزل مرة واحدة!  
فقلت زئوبة في انتقاد مرّ:  
- أتذكر نفسك وتنتسى ابتك؟  
فقال ياسين ضاحكاً:

- زوّج في الرابعة إن شاء الله...  
فقلت زئوبة في تهكم:  
- أجلسها حتى تزف رضوان!

فغضب رضوان دون أن ينس. لعنة الله عليكم  
جميعاً وعل الزواج أيضاً، ألا تذكرون أنني لن أتزوج  
أبدًا! وأني أود أن أقتل من يفانيني بهذه السمة  
اللعينة. وعقب صمت قصير قال ياسين:

- ليتني أبقي في بوليبة السيدات حتى لا ألق بين  
أصحاب اللحن الذين يثيغوني!  
أدركته زئوبة قائلة:

- لو عرفوا سيرتك لرجوك!  
فقال أحمد سائراً:

- ستخوض لحام في الصحاف، وتكون معركة،  
وخالي كمال هل يحب الإخوان؟  
فقال كمال باسمًا:

- أحبّ منهم واحدًا هل الأقل!  
والضفت سوسن إلى العروس وسانتها مرمقة:  
- وما رأي كريمة في لحية زوجها؟

فدارت كريمة ضحكة خفيفة بحني رأسها المتوج ولم  
تتكلم، فأجابته عنها زئوبة قائلة:  
- قليل من الشبان من هم في تدخين عبد للنعم...  
فقالت خديجة:

- إنه ينعم الآن بثروة جني التي آلت إلى أمي!  
وقال ياسين عتجًا:

- ميراث لا يستهان به، وكلّما قصصها رضوان في  
معونة للترفيه أو خلافه تصدّى له الصفيق وناقشه  
الحساب!

فقالت خديجة غاطبة رضوان:  
- إنها لم تنجب غيرك، وغيرها أن تمكّ بماها في  
حياتها... ثم مستدركة:

- وقد أد لك أن تتزوج، أليس كذلك؟  
فضحك رضوان ضحكة فاترة ثم قال:  
- عندما يتزوج عمي كمال!  
- لقد يشت من عمك كمال ولكن لا ينبغي أن  
تقلده...

وأصغى كمال لما يدور حوله بلمتاعاض وإن لم يبدُ  
آثـره في وجهه. لقد يشت منه ويش هو من نفسه.  
وكان قد انقطع عن المورد بشارع ابن زيدون معلشًا  
بذلك من شعوره بذنبه، غير أنه كان يقف عند طرف  
المحكمة ليراه في شرفتها من حيث لا تراه، لم يستطع  
أن يقاوم رغبته في رؤيتها، ولا أن ينكر حبّه لها، أو  
يتجاهل نفوره وجفوله من فكرة التزوج منها! حتى قال  
له رياض إنك مريض وتبلى أن تبرا!

وسأل أحمد شوكت رضوان بلهجة ذات معنى:  
- أكان عمّد حسن يناقشك الحساب لو كان  
السعديون في الحكم؟

فضحك رضوان ضحكة حانقة وقال:  
- إنه ليس الوحيد الذي يناقشني الحساب اليوم،  
ولكن صبرًا، إن هي إلا أيام أو أسابيع...  
فسأله سوسن حماد:

- أنظّر أيام الوفد معلودة كما يشيع خصومه؟  
- أيامه رهن بمشيئة الإنجليز، وعل أيّ حال فلن  
تطول الحرب إلى الأبد... ثم يجيء وقت الحساب!  
فقالت سوسن في جدّ ظاهر:

- المشول الأوّل عن الماساة هم الذين ظاهروا  
الفاشيست لطمع الإنجليز من الجلف...  
وكانت خديجة ترمق سوسن بنظرة ساخرة منتقدة،

- نفضلوا إلى اليوفيه، احتفالنا اليوم قاصر على  
المعدة...

## ٤٧

كان كمال يسير مستكثما في شارع فؤاد الأول،  
وكانت الساعة تدور في العاشرة من صباح الجمعة  
فلقي طريقا غامضا بالمرآة والواقفين، نساء ورجالا،  
وكان الجو لطيفا كآثار أيام نوفمبر، يفري بالمشي، وقد  
ألف أن يتخفف من عزلة القلبية بالاندساس بين  
الناس في يوم عطلة، فيمضي على وجهه بلا غاية،  
متسلقا لمشاهدة الناس والأشياء، وصادفه في طريقه  
أكثر من واحد من تلاميذه الصغار فحيوه برفع أيديهم  
إلى رؤوسهم فرد تحيتهم بأحسن منها باسما. ما أكثر  
تلاميذه! منهم من تسوّف، ومنهم من لا يزال  
بالجامعة، وغالبيتهم بين الابتدائي والثانوي فليس  
بالعمر القصير أن تحمّد العلم والتعلم أربعة عشر  
عاما. وكان منظره الطفولي لا يكاد يتغير، البلدة  
الأنيقة والحذاء اللامع والطربوش المستقيم والنظارة  
الشيحية والشارب الغليظ، حتى درجته السادسة لم  
تتغير أربعة عشر عاما رغم ما يشاع عن تفكير الولد في  
إنصاف الهيئات المظلومة، شيء واحد تغير هو رأسه  
الذي انتشر المشيب في سوائه. وبدا سعيدا بتحيات  
تلاميذه الذين يجيئون ويحترمون، وتلك منزلة لم يظفر  
بمثلها أحد من المدرسين، ظفر بها هو رغم رأسه  
وأفنه، وبالرغم مما اعتري تلاميذه هذه الأيام من شيطنة  
وجوح!

وعندما بلغ تسكّمه تقاطع عماد الدين مع فؤاد  
الأول ما يدرى إلا ويدور تظالعه وجهها لوجه،  
وخفت جوانحه كأنها انطلقت بها صفارة الإنذار،  
وجحد بصره لحظات، ثم همّ بالابتسام ليضادى من  
الموقف المخرج، غير أنها حوّلت عنه عينها في تجاهل  
يئٍ ودون أن تلين أساريرها ثم مرقت من جانبه،  
وعند ذلك فحسب رأى أنها تتأبط ذراع شاب تسير في  
صحته وتوقّف عن المسير، ثم اتبعها ناظره، أجل  
هي بدور، في معطف أسود أنيق، وغدا صاحبها في

- يعجبني تديته، هذا خلق في دم أسرتنا، ولكن لا  
تعجبني لحيته...

فقال إبراهيم شوكت ضاحكا:

- أعتز بأن ابني- المؤمن والمبارق على السواء-

مجنونان!

فضحك ياسين ضحكته العظيمة وقال:

- المجنون خلق في دم أسرتنا أيضا!

لمحجته خديجة بنظرة احتجاج فلما جها قائلًا قبل

أن تنس:

- أهني آتني مجنون، وأظن كمال أيضا مجنون، وإن

شئت فأننا للمجنون وحدي!

- هذا هو الحق دون زيادة.

- وهل من العقل أن يقضي إنسان على نفسه  
بالعزوبة ليخزغ للقراءة والكتابة؟

- سيتزوج عاجلا أو آجلا ويكون سيد العقلاء.

فسأل رضوان عنه كمال قائلا:

- لم لا تتزوج يا عني؟ أريد أن أقف على الألف

على وجه اعتراضك لأدافع به عن نفسي حين

الضرورة!

فقال ياسين:

- أنتوي الإضراب عن الزواج؟ لن أسمح بهذا ما

حييت، ولكن انتظر حتى تعودوا للحكم ثم تزوج

زواجًا سياسيًا وأتمًا!

أما كمال فقال له:

- إذا لم يكن عندك مانع فتزوج في الحال...

هذا الشاب ما أجله! هو مرشح للجاء والمال! لو

رأته عابدة في زمانها لعشقه، ولو ألقى نظرة عابرة على

بدور لشغفها حيًا، أما هو فيدور على نفسه والدنيا

كلها تتقلم، ولا يزال يتساءل: أتزوج أم لا أتزوج؟!

والحياة تبدو حيرة مظلمة، فلا هي فرصة سانحة ولا

هي فرصة ضائعة، والحب عسير طبعه الحصام

والعذاب، فليتها تتزوج حتى يخلص من حيرته

وعذابه!

وإذا يعبد النعم يدخل عليهم تتقلم لحيته وهو

يقول:



توقّف تخفي تارة وراء المازة وتبدو تارة، ويرى منها جانب مرة ثم يرى جانب آخر. وكان كل وتر من أوتار قلبه يغمغم: «وداعاً». ونفذ إلى أمهاته شعور العذاب مصحوباً بأنغام حزينة ليست بالجديدة. فذكر بها حالاً مماثلة ماضية، دبت في أمهاته جلاوة ورامها شقى ذكرياتها المدخمة، كاتبا لحن خامض مثير لأجل الألم وهو في الوقت نفسه لا يخلو من لذة خفيفة مبهمة! شعور واحد يلتقي فيه الألم باللذة كالنجم تلتقي عنده حاشية الليل بأهداب النهار. ثم اختضت من ناظره، ورثما اختضت إلى الأبد، كما اختضت أخت لها من قبل! ووجد نفسه يتسالم من صبي أن يكون خطيبها؟ لم يستطيع أن يتخصه وكم يؤذ أن يفعل، وودّ - أن يكون موثقاً - أن يكون من طبقة أدنى من طبقة المعلمين! ولكن ما غلبه الأفكار الصبيانية؟ إنّه لأمر مضجل، أمّا عن الألم فجدير بالخيير به أن يطمئن إذ إنّه عرف بالتجربة أنّ مصيره - ككل شيء - إلى الموت. وانتبه أول مرة إلى مرض اللعب الذي ينسبط تحت عينه، كان آية في التنسيق والجمال، حاولنا لشقى فنون اللعب التي يقيم بها الأطفال من لطارات وسيارات وأراجيح وأدوات موسيقية وبيوت وحدائق، فالتجلب إلى للنظر أمامه بقوة غريبة تفجّرت عنها نفسه المعبّدة حتى تشبّثت بها عينه، لم ينج له في طفولته أن ينعم بهذه الجملة فكبر طويلاً نفسه على غريزة لم تشع وفات أوان إشباعها. وهؤلاء الذين يتحدثون عن سعادة الطفولة من أذراهم بها؟ ومنذا يستطيع أن يجرم بأنّه كان طفلاً سعيداً؟ لذلك فما أسفّف هذه الرغبة الطارئة البائسة التي تحلم بأن تتركه طفلاً مثل هذا الطفل الحشيشي الذي يلعب في هذه الحديقة الوهمية الجميلة! إنّا رغبة سخيفة وعزينة في آن. ولعلّ الأطفال في الأصل كانتات لا تحتمل، ولعلّها المهنة وحدها التي علّمت كيف يمكن التضام معهم وتوجيههم. ولكن كيف كانت تكون الحياة لو رُدّ إلى الطفولة محضاً في ذات الوقت بعقله النامي وذاكتره؟ فيعود إلى اللعب في بستان السطح بقلب عامر بذكريات عائدة، أو يمضي إلى العباسية عام ١٩١٤ فيرى عائدة وهي تلعب في الحديقة ويعرف في الوقت

مثل أناعتها، ولملّه لم يبلغ الثلاثين بعد. وبذل جهداً صادقاً لبتالك نفسه التي هزّتها المفاجأة ثمّ تسالم في اهتمام من يكون هذا الشاب؟ ليس أحداً لها، ولا هو بالماشوق إذ إنّ العشاق لا يجامرون بجهنم في شارع فؤاد الأول خاصة صباح الجمعة، فهل يكون...؟! وتتابعت دقات قلبه في إشفاق، ثمّ تبعها دون تردّد، وعيناه لا تفارقانها، ووعي مركز فيها حتى شعر بأنّ حرارته ترتفع وأنّ ضغطه يصعد وأنّ دقات قلبه تنعاه، ورامها يتوقّعان أمام معرض علّ ليبس الحجاب فدنا منها متباطئاً مصوّباً عينه نحو يد الفتاة اليمنى حتى استقرّ بصره على الخاتم الذهبي! ولفحه إحساس حارّ كأنّه مزيج من الألم العميق، وكان قد مضى على موقف شارع ابن زيدون أربعة أشهر، فهل كان هذا الشاب يرصد في نهاية الطريق ليحصل على حمله؟ وما ينبغي أن يدهش فإنّ أربعة شهور زمن طويل قد تغلب فيه الدنيا رأساً على عقب، ووقف أمام علّ اللعب على بعد يسير من موقفها، يلحظها وكأنّه يتسرّع على اللعب. إنّا اليوم تبدو أجمل ممّا كانت في أيّ يوم مضى، كالمرسوس بكلّ معنى الكلمة! ولكن ما هذا السواد الذي يشيع في كافّة ملابسها؟ إنّ سواد المعطف أمر مألوف بل فاضح ولكن ما بال فستانها أسود كذلك؟ موضة أم حداد؟ أتكون أمّها قد توفّيت؟ ليس من عادته تصفّح الورقيات في الصحف ولكن ماذا يعمّه من ذلك؟ الذي يعمّه حقاً أنّ صفحة بلور قد انطوت في كتاب حياته، انتهت بدور، وعرف السؤال الحائر «أتزوّج أم لا أتزوّج» جوابه المحتم! فليهنّا بالعثمانية بعد الحيرة والعذاب! وكم تحقّ لو تزوّجت ليخلص من عذابه فما هي قد تزوّجت فليهنّا بالخلاص من العذاب! ويخلّ إليه أنّ إنساناً لو بُعيع لعاق مثل الإحساس الذي يعانيه في موقفه. إنّ أبواب الحياة تغلق في وجهه وقد نبذ خارج أسوارها. ثمّ رامها يتحوّلان عن موقفها، ويتجهان نحوه، ومراً به في سلام وتابعتها عينه وهمّ بالمسير في أثرها ولكنّه عدل عن ذلك فيما يشبه الضجر، ولبت أمام معرض اللعب، ينظر ولا يرى شيئاً، ونظر صوبها مرة أخرى كأنّها ليلقي عليها نظرة الدواج، وكانت تتبعد دون

- كم يوافق أحدنا الآخر!  
فقلت له بسخرية مستسلمة:  
- ما أطفك في سرك!...  
فاستطرد:  
- ما أسعدنا من زوجين لو تزوجنا!...  
فقلت مقبلة:  
- لا تهزأ بي فقد كنت «سيدة» بكل معنى الكلمة...  
- نعم، نعم، إنك ألد من الفاكهة في إناها!...  
فقرصته هازلة وقالت:  
- هذا قولك ولكنني إذا سألتك رباً فوق ما تعطني هربت!  
- إن ما بيننا ليسمو فوق النقود!  
فحدثت بنظرة احتجاج وقالت:  
- ولكن لي طفلان يفضلان النقود على ما بيننا!  
فبلغ به السكر والحزن غايتهما وقال ساخراً:  
- أنا أفكر في التوبة أسوء بالسَّ جليلة، ويوم يختارني التصوُّف فسأزل لك عن ثروتي!  
فقلت ضاحكة:  
- إذا وصلت التوبة إليك فقل علينا السلام...  
فضحك ضحكة عالية وقال:  
- لا كانت التوبة المهرّة بميلائك!  
إلى هذا يفزع من السهاد ثم شعر بأن وقفته أمام معرض اللعب قد طالت فتحوّل عنه وذهب... .

## ٤٨

تساءل خالو صاحب حانة النجمة:  
- حقيقي؟ يا حبيبي أنهم سيفلقون الحفارات؟  
فاجاب ياسين بثقة واطمئنان:  
- لا سمح الله يا خالو! من عادة الثواب أن يثرروا عند نظر الميزانية، ومن عادة الحكومة أن تُبَد بالنظر في تحقيق رغبات الثواب في أقرب فرصة، ومن عادة هذه الفرصة ألا تقترب أبداً...  
واستبقت جماعة ياسين بحانة عمّد على المشاركة في التحقيق، فقال رئيس المستخدمين:

نفسه ما لقيه منها عام ١٩٢٤ وما بعده! أو يخاطب أباه وهو يبلغ فيقول له إنّ الحرب ستع عام ١٩٣٩ إنّه سيفضي عليه عقب إحدى غاراتها! يا لها من أفكار سخيفة ولكنها خير على أيّ حال من التركيز في هذه الحية الجديدة التي ارتطم بها الآن في شارع فؤاد، خير من التفكير في بدور وخطيئها وموقفه منها، ولعلّ ثمة خطأ في الماضي يكثر عنه وهو لا يدري، كيف وقع هذا الخطأ! لعلّه حدث عرضي أو كلمة قيلت أو موقف كابهه، هذا أو ذاك هو المشوّل عن هذا المذهب الذي يعاني. يجب أن يعرف نفسه حقّ يتيسر له أن يخلصها من آلامها، فللمعركة لم تنته بعد، والتسليم لم يقع، وما ينبغي له أن يقع، ولعلّه المشوّل عن ذلك التردّد المجهّم الذي انتهى به إلى قضم الأظفار على حين مضت بدور متأبّلة ذراع خطيئها وينبغي التفكير مرتين في هذا المذهب المبكّن بلذّة خاضعة، أليس هو الذي ذاق قديماً في صحراء العباسية وهو يتطلّع إلى الضوء المنبعث من نافذة حجرة الزفاف؟ فهل كان تردّد حبال بدور حيلة لدفع نفسه إلى موقف مائل ليستمد مشاعر قديمة فيشمل بعلاها ولذتها ممّا ١٩٢٤ يحسن به قبل أن يجرّك يده للكتابة عن الله والروح والمادة أن يعرف نفسه، بل شخصه المفرد، كمال أفندي أحمد، بل كمال أحمد، بل كمال فقط، حقّ يتسنى له أن يتخلّف من جديد، وليبدأ اللبلة بمعاودة كراسة الذكريات ليتفحص الماضي جيّداً، وستكون ليلة بلا نوم، ولكنها ليست الأولى من نوعها، فعمته منها ذخيرة يصحّ جمعها في مؤلّف واحد تحت عنوان «ليالي بلا نوم»، ولن يقول إنّ حياته عبث، ففي النهاية سيخلّف عظاماً قد تصنع منها الأجيال القادمة أداة للهو! أمّا بدور فقد ولّت من حياته إلى الأبد، يا لها من حقيقة مألوفة بالشجن، كاللحن الجنائزي، ولم تترك ذكرى حنان واحدة، لا عناق ولا قبّل، حقّ ولا لمسة أو كلمة طيبة، ولكنه لم يعد يجشّي السهاد. قديماً كان يلقيه وحيداً، أمّا اليوم فدون ذلك أفانين تغيب فيها العقول والقلوب، ثمّ يذهب إلى عطية في البيت الجديد بشارع عمّد عليّ، ثمّ يواصل أحاديثها التي لا تنفسي. وفي آخر مرّة قال لها بلسان أثقله السكر:

- إتيها عروس كالوردة، زينة السكينة، ولكتها أول  
فتة في أسرتنا يمر عليها عام على زواجها دون أن  
تعمل، لهذا جزعت أيتها

- وأبوها فها يندوا

فقال ياسين وهو يتشم ابتسامة بلهاء:

- إذا جزعت الزوجة جزع زوجها...

- لو يندكر الإنسان يرف الأولاد لكره الحبل...

- ولوا الناس يتزوجون عادة لإنجاب الذرية...

- لم حمى لولا الأطفال ما طاق الحياة الزوجية  
أحد...

فشرب ياسين كأسه وهو يقول:

- أئشى أن يكون ابن أختي من أتباع هذا

الرأي...

- بعض الرجال ينجبون الأطفال ليشغلوا زوجاتهم

بهم فيسترقوا شيئاً من حريتهم المفقودة!

فقال ياسين:

- هيهات! المرأة ترضع طفلاً وتهدهد آخر ولكتها في  
نفس الوقت تحمق في زوجها وأين كنت؟ لماذا هبت  
إلى هذه الساعة؟ ومع ذلك فالحكاه لم يستطيعوا أن  
يفتروا هذا النظام الكوني.

- ماذا منهم؟

- أزواجهم لم يمدحهم لهم فرصة للتفكير في  
ذلك...

- اطمئن يا ياسين أفندي، فإن زوج ابنتك لا يمكن  
أن ينسى فضل ابنتك في توظيفه.

- كل شيء يئس...

- ثم - وهو يضحك - وقد دغدغت الخمر رأسه:

- ثم إن والحروس - نفسه خارج الحكم الآن

- آه! والولد سيحمر هذه المرة فيها يندو...

وإذا بالمحامي يقول بلهجة خطابية:

- لو سارت الأمور سيراً طبيعياً في مصر لحكم الوفد

إلى الأبد!...

فقال ياسين ضاحكاً:

- هذا القول له وجهاته لولا خروج ابني على الوفد!

- ولا تنسوا حاجات القضاة! إذا مات الملك فقل

على أعداء الوفد السلام!

- طول عمرهم يولدون بإخراج الإنجليز، ويفتح  
جامعة جديدة، ويتوسيع شارع الخليج، فهل تم شيء  
من هذا يا خالو؟

وقال حميد ذوي المعاشات:

- لعل النائب مقدم الاقتراح قد شرب حمراً زعافاً

من مخور الحرب فانتقم بتقديم اقتراحه...

وقال المحامي:

- ومهما يكن من أمر، فإن حائنت الشوارع

الإفريقية لن تمس بسوء، فما عليك يا خالو إذا وقع

المحذور، إلا أن تسهم في تافرن أو غيرها... والختار

للختار كالبنان يشد بعضه بعضاً...

وقال باشكاتب الأوقاف:

- إذا كان الإنجليز قد دفعوا بدباباتهم إلى عابدين

لمسألة تافهة هي إعادة النحاس إلى الحكم، فهل تظنهم

يسكتون عن أخلاق الختارات؟!

وكان بالحجرة - إلى جماعة ياسين - نفر من أهل

البلد من التجار، ولكن على الرغم من ذلك اقترح

الباشكاتب أن يمزجوا سكرهم بشيء من الغناء قائلًا:

- هلموا نغني «أسير العشق».

فيادر خالو بالمودة إلى موقفه وراء الطاولة، وراح

الأصدقاء يفتنون: «أسير العشق يا ما يشوف هوان»،

ويدت نفحة السكر أوضح الأنفاس في أصواتهم حتى

لاحت في وجوه أهل البلد بسيت ساعرة، غير أن

الغناء لم يستمر طويلاً، وكان ياسين أول المنسحقين،

ثم تبعه الآخرون فلم يمت الدور إلا الباشكاتب، ثم

ساد سكوت تقطعه من حين إلى حين مصمصة أو

لمطق أريد تصفق في طلب كأس أو مزة، وإذا بياسين

يقول:

- أما من وسيلة ناجحة للحبل!

فقال المؤلف العجوز كالمتحج:

- لا تفتأ تسأل هذا السؤال وتعيده!... صبرك

بالله يا أخي!...

وقال باشكاتب الأوقاف:

- لا داعي للجزع يا ياسين أفندي، ومسير بتك

تجبل!

فقال ياسين وهو يتشم ابتسامة بلهاء:

يوم المعركة الكبرى سرت على رأس المظاهرة أنا وأخي  
أول شهداء الحركة الوطنية، فسمعت أنيز الرصاص  
وهو يهز ليصق لأذني ويستقر في أخي، يا للذكرى! لو  
امتدّ به العمر للمحق بركب الوزراء المجاهدين!

- ولكنّ العمر امتدّ بك أنت!

- نعم، ولكن ما كان بسوعي أن أكون وزيراً  
بالاتحادية، ثمّ إننا في جهادنا توقّعنا الموت لا  
المناصب، غير أنّه لا بدّ أن يموت أناس ويتبوأ المناصب  
آخرون، وفي جنازة أخي مشى سعد زغلول فقذمني  
إليه زعيم الطلبة، هذه ذكرى عظيمة أخرى!  
- ولكن كيف وجدت - رغم جهادك - متّسلاً  
للعبدة والمثق؟

- اسمعوا يا هوى، وهؤلاء الجنود الذين يضاجعون  
النساء في الطرق أليسوا هم الذين ردّوا روميل على  
أعقابهم؟! فالجهاد لا يكره الفرفة، والخمر لو علمتم  
روح القروسية، والمجاهد والسكران أخوان يا أولي  
الالباب!

- وسعد زغلول ألم يقل لك شيئاً في جنازة  
أخيك...؟

فاجاب عنه المحامي قائلاً:

- قال له ليترك كنت الشهيد أنت...!

وضحكوا، وكانوا في هذه الحال يضحكون أولاً ثمّ  
يتسائلون عن السبب، وضحك معهم ياسين في أريحية  
صافية ثمّ واصل حديثه قائلاً:

- لم يقل هذا، كان رحمه الله مؤثّقاً لا كحضرتك،  
وكان ابن حنّك أيضاً، ولذلك كان واسع الآفاق، فكان  
سياسياً ومجاهداً وأديباً وفيلسوفاً وقانونياً، وكانت كلمة  
منه تحيي وتحيث!

- الله يرجمه.

- ويرحم الجميع، كلّ ميت يستحقّ الرحمة، بحسبه  
آثمه فقد الحياة، حتّى المومس وحتّى القوّاد، وحقّ الأثم  
التي كانت تبعث بابننا إلى رفيقها ليمود إليها به...

- وهل يمكن أن توجد هذه الأم؟

- كلّ ما تتصوّر وما لا تتصوّر يوجد في الحياة!

- ألم تجد إلاّ أبنتها؟

- الملك بسلام!

- الأمير عمّد عليّ يميّد بليلة الشريعة! وهو منسجم  
مع الولفد طول عمره...

- الجالس على العرش - أيّا كان اسمه - هو علوّ  
للفوفد بحكم مركزه كالويسكي والحلوى لا يتفقان!  
فقال ياسين وهو يضحك نشوة:

- لعلّ الحقّ معكم، فأكبر منك اليوم يعرف أكثر  
منك بسنة، وأنتم منكم من بلغ أرفذل العمر ومنكم  
من يوشك أن يدركه!

- اسم الله عليك يا بن السبعة والأربعين!

- على أيّ حال فانا أصغرهم سنّاً...

ثمّ فرقع بأصابعه وهو يتهايل نشوة وخيلاء،  
واستطرد:

- ولكنّ العمر الحقيقي لا يقاس بالسنين، ولكن  
بالنشوة ينبغي أن يقاس، والخمر قد انحطكت نوحها  
ومداقاً في أيام الحرب ولكنّ نشوتها هي هي، وعند  
الاستيقاظ صباحاً يدقّ رأسك الصداق فتفتح عينيك  
بكفاشة ثمّ تتجشّأ كحولا، غير أنّي أقول لكم إنّ في  
سبيل النشوة يكون أيّ شيء، وربّ إنح يتسامح  
والصحة؟ أجل لم تعد الصحة كما كانت، وابن السبعة  
والأربعين غير مثيله في الزمن الأوّل فما يدلّ على أنّ كلّ  
شيء قد خلا لثمنه في الحرب إلاّ العمر فلا ثمن له، في  
الزمن الأوّل كان الرجل يتزوّج في السنين من عمره أمّا  
في زماننا الغادر فابن الأربعين يسأل أهل العلم عن  
الوصفات المفترية، والعريس في شهر العسل قد يرحل  
في شهر ماء!

- الزمن الأوّل، أهل الدنيا جميعاً يسألون عنه!  
فعاد ياسين يقول وقد أخذت أنفاس السكر تردّ في  
أوتار صوته:

- الزمن الأوّل، اللهمّ ارحم أبي، شدّ ما ضربني  
ليمنعني من الاشتراك الممويّ في الثورة! ولكنّ الذي  
لا تُرهبه قنابل الإنجليز لا يُرهبه الزجر! وفي قهوة أحد  
عبيد كذا نلتجسّم لتدبير المظاهرات وقذف القنابل...

- هذه الأسطوانة من جديد! خبّرني يا ياسين أفندي  
أكان وزنك أيام الجهاد كوزنك اليوم؟

- وأثقل، غير أنّي كنت حين الجدل كالنحلة، وفي

كشب، وكان لي منهم أصدقاء على عهد الثورة!  
فهتف المحامي:

- ولكنك كنت تجاهلهم... أنسيت؟!

- نعم... نعم، لكل حال ما يناسبها، وفي مرة ظنوني جاسوساً لولا أن سارع إليّ زعيم الطلبة في اللحظة المناسبة فدلّ القوم على حققتي فهتفوا لي، وكان ذلك في جامع الحسين!

- يعيش ياسين... يعيش ياسين! ولكن لماذا كنت تفعل في جامع الحسين؟

- أحب، هذه نقطة هامة جداً...

فضحك ياسين ثم قال:

- كنا نصلي الجمعة، وكان من عادة أبي أن يأخذنا معه لصلاة الجمعة، ألا تصدّقون؟ سلوا أهل الحسين! - كنت تعمل زلفى لآبي؟

- والله، لا تسبوا الظن بنا، نحن أسرة دينية، أجل كلنا سكيرون فاسقون، ولكن في النهاية نتظرنا التوبة! وهنا تأرّه المحامي قائلاً:

- ألا نعاود الغناء قليلاً؟

فيأخذه ياسين قائلاً:

- أمس غادوت الحانة وأنا أغني فأعترضني شرطياً وهتف بي محلاً: «يا الفندي!» فسألته: «ألا يحق لي أن أغني؟»، فقال: «منع الزحف بعد الساعة ١٢» فقلت عتجاً: «ولكنني أغني!» فقال بحدّة: «كله زحف أمام القانون»، فسألته: «والقنابل التي تنفجر بعد الساعة ١٢ ألا تُعدّ زحفاً؟» فقال مهذّباً: «والظاهر أنك ترغب في البيت في القسم» فابتعدت عنه وأنا أقول: «وبل الأفضل أن أبيت في البيت»، كيف تكون أمة متحضرة والمساكر تحكمتنا؟! وفي البيت تلقى زوجك بالمرصاد وهناك في الوزارة رئيسك، حتى في التربة يستقبلك ملاكان بالهراوات...

وهذا المحامي يقول:

- فلنمّر بشيء من الغناء...

فتتحنح عميد ذوي المشايات ثم راح يترنم:

جوزي الجوز عليه

ولسه الحقة في ليديه

يوم ما جه وجبها عليه

دي نار يا ناس وأدت فيه

- ومن أرضي للآثم من الابن؟! ثم إنكم جميعاً أبناء المضاجعة!

- الشرعية!

- هذه شكائات أمّا الحقيقة فواحدة، وقد هرفت مومسات بالسات كان فراشهن يخلو من صجيج أسبوعاً أو أكثر، دلوني على أم من أمتهاكم قضت مثل هذه الفترة بعيداً عن قرينها!

- لا أعرف شعباً كالشعب المصري ولما بالخفوض في أعراس الأتومات!

- نحن شعب قليل الأدب...

فقال ياسين ضاحكاً:

- إنّ الزمن آتينا أكثر ممّا ينبغي، والشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده، ولذلك فنحن خير مؤثمين! ولكن تغلب علينا الطيبة رغم ذلك، فالتوبة عادة ختامنا...

- ها أنا من ذوي المماشات ولكنني لم أتب بعد! - التوبة لا تخضع لكادر المؤثمين، ثم إنك لا تفعل شيئاً ضاراً، أنت تسكر ساعات كل ليلة وليس في ذلك من بأس، وسوف يمنعك عن السكر يوماً المرض أو الطبيب وكلاهما شيء واحد، ونحن بطبعنا ضعفاء، ولولا ذلك ما ألفنا الخمر ولا صبرنا على الحيلة الزوجية، ونزداد بمرور الأيام ضعفاً ولكن رغائبنا لا تقف عند حد، هيئات، فتتعذب ثم تسكر مرة أخرى، وشيئ شعرتنا فيفصح منا المستور وإذا بصديق يحترض سبيلك في الطريق وهو يقول: «حبيب أن تطارد امرأة وشعرك شابه!» يا سبحان الله ما لك أنت إذا كنت شاباً أو شيخاً، أتبع امرأة أم أتبع حارة! حتى تخال حيناً أنّ الناس متآمرون مع زوجك عليك، وهنالكَ إلى ذلك كله الدلال بقله والمسكرى بهراوته، حتى الخادمة تسيه دلالاً في سوق الخضار، وهكذا تمجد نفسك في عالم مشاكس لا صديق لك فيه إلا الكاس، ثم يجيء دور المرتزة من الأطباء فيقولون لك بكل بساطة: «لا تشرب!»

- ومع ذلك أنتكر أننا نحب الدنيا بكلّ قلوبنا؟

- بكلّ قلوبنا! والشّرّ نفسه لا يخلو من خير، حتى الإنجليز لا يخلون من خير، لقد هرفتهم يوماً عن

وسرعان ما رقدوا المطلع في حمار هجين، وكان  
باسين يفرق في الضحك حتى دمعت عيناه...

## ٤٩

كثيراً ما كانت تشعر خديجة بأنّها وحيدة. ومع أنّ  
إبراهيم شوكت - خاصة منذ أن قارب السبعين - كان  
يعتكف في بيته طوال أيام الشتاء، إلّا أنّه لم يستطع أن  
يبدّد وحشتها، ولم تهن في القيام بواجبات بيتها، غير  
أنّها - الواجبات - باتت أهون من أن تستغرق حيويتها  
ونشاطها، فعل تمأزها السادسة والأربعين لم تزل قوة  
نشيطة وازدادت جسمية. وأسوأ من هذا أنّ وظيفتها  
كأمّ قد انقطعت حل حين أنّ دورها كحبة لم ولن يبدأ  
أبدًا فيها بدا. فإحدى الزوجتين ابنة أخيها، والأخرى  
موكفة لا تكاد تلتقي بها إلّا فيما ندر من الأوقات  
والمناسبات. فكانت تروّج عن صدرها المكبوت فيها  
يدور بينها وبين زوجها المتلفع بمباهته.

- معنى أكثر من عام على زواجها ولم تولد شموخاً!  
لهزّ الرجل منكيه استهانة دون تعليق فعادت  
تقول:

- لعلّ عبد المنعم وأحد بعدّان الدرّة موضة قديمة  
كطاعة الوالدين!

فقال الرجل في ضجر:

- أرحني نفسك فيها سيدان وحسبنا هذا.

فتساءلت في حدة:

- إذا كانت العروس لا تحبل ولا تلد فما فائدتها؟

- لعلّ إنيك بخالفانك في هذا الرأي!

- لقد خالفاني في كلّ شيء، ما أمسيح نعي  
وأمل...

- أيجزئك ألا تكوني جدّة؟

فقالت في حدة تعالت درجتها:

- إنّ حزني عليها لا حل نفسي!

- لقد عرض عبد المنعم كريمة على الطبيب قبّره  
خيبراً...

- أنفق المسكين كثيراً وسيفرق غداً أكثر، إنّ عرائس  
اليوم غالية الثمن كالطماطم واللحوم!

فضحك الرجل دون تعليق فاستطردت تقول:

- أمّا الأخرى فاستمين عليها بسندي المتروّي.

- اعترفي بأنّ لسانها كالشهد!

- مكر وجهاء، ماذا تتوقّع من ابنة العنابر؟

- أنقي الله يا شيخه!

- ترى متى يلهب بها - والأستاذة إلى الطبيب؟

- إنّيها زاهدان في هذا!

- طبّقاً، إنّيها موكفة، فمن أين نجد الوقت للحبل

والولادة؟

- إنّيها سيدان ما في ذلك شكّ.

- الموكفة لا يمكن أن تكون زوجة صالحة،

وسيعرف ذلك بعد فوات الأوان...

- إنّه رجل ولن يضره ذلك...

- ليس في هذا الخرج كلّ شأنان كولديّ فيا عسارة!

\*\*\*

وكان عبد المنعم قد تبلور طابعه وأتمّجه، فأثبت أنّه  
موكف كنه وأخّر نشيط، وقد انتهى الإشراف على  
شعبة الجباليّة إليه فتحوّل مستشاراً قانونياً لها، وأسهم في  
تحرير المجلّة، وكان يلقي المواظ أحياناً في المساجد  
الأهليّة. وجعل من شقته نادياً لإخوانه يسهرون عنده  
كلّ ليلة وعلى رأسهم الشيخ عليّ المنولي. وكان الشاب  
شديد التحمّس وموثر الاستعداد كي يضع جميع ما  
يملك من جهد ومال وعقل في خدمة الدعوة التي آمن  
بكلّ قلبه - على حدّ تعبير المرشد - بأنّها دعوة سلفيّة  
وطريقة سنّيّة وحقيقة صوفيّة وهيئة سياسيّة وجماعة  
رياضيّة ورابطة علميّة ثقافيّة وشركة اقتصاديّة وفكرة  
اجتماعيّة، وكان الشيخ عليّ المنولي يقول:

- تعاليم الإسلام وأحكامه شاملة تنظيم شؤون  
الناس في الدنيا والآخرة، وإنّ الذين يظنون أنّ هذه  
التعاليم إنّما تتناول الناحية الروحيّة أو العبادة دون  
غيرها من النواحي مخطئون في هذا الظنّ، فالإسلام  
عقيدة وعبادة ووطن وجنسيّة ودين ودولة وروحانيّة  
ومصحف وسيف...

فيقول شابّ من المجتمعين:

- هذا هو ديننا، ولكنّا جاملدون لا نفعل شيئاً  
والكفر يحكمنا بقوانينه وتقاليده ورجاله...

العمال المجاهدين، وكلا العاملين واجب لا غنى

عنه...

فقال الأستاذ:

- ولكن المجتمع الفاسد لن يتطور إلا باليد العاملة، وحين يمتلئ وعيها بالإيمان الجديد، وعسى الشعب كله كتلة واحدة من الإرادة، فهناك لن تقف في سبيلنا القوانين المهيمنة ولا المدافع...

- كلنا مؤمنون بذلك، غير أن كسب العقول المثقفة يعني السيطرة على الفئة المرشحة للتوجيه والحكم...

وإذا بأحد يقول:

- سيدي الأستاذ، ثمة ملاحظة أود إبداءها، عرفت بالتجربة أنه ليس من العسير إقناع المثقفين بأن الدين خرافة وأن الغيبات تخدير وتضليل، ولكن من الخطورة بمكان مخاطبة الشعب بهذه الآراء، وإن أكبر تهمة يستغلها أعداؤنا هي رمي حركتنا بالإلحاد أو الكفر...

- إن مهمتنا الأولى أن نحارب روح القنصاعة والحمول والاستسلام، أما الدين فلن يتأتى القضاء عليه إلا في ظل الحكم الحر، ولن يتحقق هذا الحكم إلا بالانقلاب، وعلى العموم فالفقر أقوى من الإيمان، ومن الحكمة دائماً أن تحاسب الناس على قدر عقولهم...

ونظر الأستاذ إلى موسن باسماً وهو يقول:

- كنت تؤمنين بالعمل فهل بتّ تقنعين بالنقاش في ظل الزواج؟...

وكانت تدرك أنه يدايعها وأنه لا يعني ما يقول، ومع ذلك فقد قالت جادة:

- إن زوجي يحاضر العمال في الحرايات النائية، وأنا لا أرى أوزع المنشورات بنفسى...

ثم قال أحمد مضطرباً:

- إن عيب حركتنا أنها تجلب إليها كثيرين من النفعيين غير المخلصين، من هؤلاء من يعمل بغية الأجر أو من يعمل للمصلحة الحزبية!

فقال الأستاذ عدلي كريم وهو يبرأ رأسه الكبير في استهانة واضحة:

- أعلم هذا حق العلم، ولكني أعلم أيضاً أن

يقول الشيخ علي:

- لا بد من الدعاية والتبشير، وتكوين الأنصار

المجاهدين، ثم نجيء مرحلة التنفيذ...

- وإلاّ نتنظر؟

- لنتنظر حتى تنتهي الحرب. إنّ الحقل مهيباً لدعوتنا، وقد نزع الناس ثقتهم من الأحزاب، وعندما يبتغ الداعي في الوقت المناسب يبّ الإخوان وكلّ مدوّع بقرانه وصلاحه...

عبد النعم يصوته القويّ العميق:

- فلنمكن النفس على جهاد طويل، إنّ دعوتنا ليست موجّهة إلى مصر وحدها. ولكن إلى كافة المسلمين في الأرض، ولن يتحقق لها النجاح حتى نجتمع مصر والأمم الإسلامية حول هذه المبادئ القرآنية، فلن نغمد السلاح حتى نرى القرآن دستوراً للمسلمين أجمعين...

الشيخ عليّ المنولي:

- أبشركم بأنّ دعوتنا تنتشر بفضل الله في كلّ بيت، لها اليوم مركز في كلّ قرية، إنها دعوة الله، والله لا يخذل قوماً ينصرونه...

وفي نفس الوقت، كان يستمر نشاط آخر في الدور التحتاني وإن اختلف الهدف، ولم يكن وغير العدد كهذا، فإنّ أحمد وسوسن كانا يجتمعان في كثير من الليالي بعدد محدود من الأصداغ مختلفي التحل والملل، أكثرهم من الشيعة الصحفية. وقد زارهم الأستاذ عدلي كريم ذات مساء، وكان على علم بما يدور بينهم من مناقشات نظرية. فقال لهم:

- حسن أن تدرسوا الماركسية، ولكن تذكروا أنّها وإن تكن ضرورة تاريخية إلا أنّ حتميتها ليست من حتمية الظواهرات الفلكية. إنّها لن توجد إلا بإرادة البشر وجهادهم، فواجبنا الأول ليس في أن نتخلف كثيراً ولكن في أن نغلا وهي الطبقة الكادحة بمعنى الدور التاريخي الذي عليها أن تلعب لإنقاذ نفسها والعالم جميعاً...

أحد:

- إنّنا نترجم الكتب القيّمة عن هذه الفلسفة للخاصة من المثقفين، ونلقي المحاضرات الحماسية على

كانت فيلاً عبد الرحيم باشا عيسى بحلوان تودع  
الفوج الأخير من الزوّار الذين جاءوا يؤدّونه قبيل  
سفره إلى الأراضي الحجازية لأداء فريضة الحجّ...  
- إنّ الحجّ أمنية قدّعة، لمن الله السياسة فهي التي  
شغلني عنه عاماً بعد عام، ولكن في مثل حمري يجب  
أن يفكر المرء في أداء اللقاء القريب برّته.

فقال عليّ مهراڤ وكيل الباشا:

- لمن الله السياسة!

فرّد الباشا عينيه الداهيتين بين رضوان وبين حلمي  
متفكراً ثم قال:

- قل فيها ما شئت، غير أنّها جيلاً في عيني لا  
أنساه وهو أنّها سلتني عن وحشي، إنّ الأعراب المجوز  
مثلي يلتصق الأنس ولو في الجنهم!

فلعب عليّ مهراڤ حاجبيه وقال:

- وتحن يا باشا ألم نغم بواجبنا في تسليتك؟

- دون شك، ولكن يوم الأعراب طويل قليل  
الشتاء، ولا بدّ للإنسان من رفق، وإني لأعترف بأنّ  
المرأة ضرورة خطيرة، وكما ذكر أنّي هذه الآيام إنّ  
المرأة ضرورة حتّى لمن لا يتعقّقها!

وكان رضوان يفكر في أمور بعيدة فإذا به يسأل  
الباشا:

- حبيب النحاس باشا يسقط أفلا تعدل عن السفر؟!

فلوّح الباشا بيده ساخطاً وقال:

- فليبق بنحسه حتّى أعود أصل الأقلّ من  
الحجّ...!

ثمّ وهو يبرّز رأسه:

- كلّنا ملتب، والحجّ يغسل الذنوب...

فصحك حلمي عزّت قائلاً:

- إنّك يا باشا مؤمن، وإنّ إيمانك كما يميّز الكثيرين!

- له؟ إنّ الإيمان واسع الصدر، والمنافق وحده

الذي يذّهي البراءة المطلقة، ومن الغباء أن تظنّ أنّ  
الإنسان لا يقترب الذنوب إلّا على جفّة الإيمان، ثمّ إنّ

ذنوبنا أشبه بالبعث الصيباني البريء!

فقال عليّ مهراڤ متنبّها في ارتياح:

الأمويّين قد ورثوا الإسلام وهم لا يؤمنون به ومع  
ذلك لهم الذين نشره في بقاع العالم القديم حتّى  
إسبانيا! فمن حقّاً أن نستعيد من هؤلاء، علينا أن  
نحلّهم في الوقت نفسه، ولا ننسوا أنّ الزمن معنا  
على شرط أن نبدل ما في وسعنا من جهد وتضحية...  
- والإخوان يا أستاذ! لقد بنتا نشر بآتهم عقبة  
خطيرة في سبلنا!

- لا أنكر هذا، ولكنهم ليسوا بالخطورة التي  
تتخلّوها، ألا ترى أنّهم يخاطبون العقول بلغتنا فيقولون  
اشترأكيّة الإسلام؟ حقّق الرجسّون لم يجدوا بداً من  
استعارة اصطلاحاتنا، وهم لو سبقونا إلى الانقلاب  
فسوف يحقّقون بعض مبادئنا ولو تحقيقاً جزئياً، ولكنهم  
لن يوقفوا حركة الزمن المتخلّمة إلى هدفها المحتوم، ثمّ  
إنّ نشر العلم قليل بطردهم كما يطرد النور الحفايش!

\*\*\*

ومضت خديجة تراقب مظاهر هذا النشاط الغريب  
في دهشة مقرونة بالامتعاض والسخط، حتّى قالت يوماً  
لزوجها:

- لم أر بيتاً كبيتك عبد النعم وأحد، لمألها قهوتان  
وأنا لا أدرى، فلا يبيد المساء حتّى يمتلئ الطريق  
بالزوّار من أصحاب اللحي والحواجات، لم أسمع عن  
شيء كهذا من قبل...

فهزّ الرجل رأسه قائلاً:

- أن لك أن تسمعي...

فغالت بحدّة:

- إنّ مرئيتيها لن يكفها ثمن القهوة التي تقدّم  
للضيف!

- هل اشتكيا إليك المفقر؟

- والناس؟ ماذا يقولون وهم يرون أفواجاً تدخل  
وأفواجاً تخرج؟

- كلّ واحد حرّ في بيته...

فغضت قائلة:

- إنّ أصوات أحمديهم التي لا تنتهي تملو أحياناً  
حتّى تخرج إلى الحارة...

- فلتخرج إلى الحارة أو فلتصعد إلى الساء...

وتنهلت خديجة من الأعياق وهي تضرب كفّاً بكفّ.



- فشر! إذا تحدّثني فسوف أستقبلك حين العودة من الحج بقر ولا كلّ الأقدار ثمّ ننظر ماذا يكون من أمرك!

فقال الباشا بأسياً:

- ستكون النتيجة مثل وجهك يا بوز الإخص، أنت شيطان يا مهران، شيطان لا غنى للإنسان عنه...

- أحمد الله على ذلك...

رضوان وحلمي في وقت واحد تقريباً:

- ونحمده عليه...

فقال الباشا في خيلاء وسرور:

- أنتم أنسي، ما الحياة بدون المودة والصداقة؟ الحياة جميلة، الجبال جميلة، الطرب جميل، العفو جميل، أنتم شباب وتتنظرون إلى الدنيا من زاوية خاصّة، وسوف يعلمكم العمر الكثير، إليّ أحيكم وأحبّ الدنيا، وإنّ زيارتي لبيت الله للشكر والاعتدار وطلب الهداية...

فقال رضوان بأسياً:

- ما أجل منظر! إنك تقطر صفاء...

فقال عليّ مهران بمكر:

- ولكنّ حركة صغيرة تجعله يقطر أشياء أخرى، حقاً يا باشا إنك معلم الجبل!

- وأنت إبليس نفسه يا ابن الهرمة! اللهم إني إذا قدمت يوماً للحساب فسأشير إليك وكفى!

- أنا! مظلوم والله، لست إلاّ عبداً مأموراً!...

- بل أنت شيطان...

- ولكن لا غنى للإنسان عنه؟

فضحك الباشا قاتلاً:

- نعم يا حكروت...

- كنت وما أزال في حياتك العامرة نشأ مطرباً ووجّهاً مليحاً وهناء متجلّداً، وأخيراً لا تنس أّيّام شباهي يا سعادة الغلاد!...

فتأوّه الباشا قاتلاً:

- أّيّام زمان! أه من الزمان! يا أولاد لم تكبر!؟ جلّت حكمتك يا ربّي وعظمت!...

- يا له من قول جميل! والآن دعني أصارحك بأنّي تشامت كثيراً حين حدّثني عن اعتزامك الحجّ، وساملت نفسي ترى أهي التوبة!؟ وهل تنتهي بالنسبة لنا مسرّات الحياة!؟

فضحك الباشا حتى اهتزّ جذعه وقال:

- أنت شيطان من صلب شيطان، أنتزون حقاً إذا علمتم أنّها التوبة؟

فقال حلمي متأزماً:

- كمن ذبح وليدها يا حجرها!...

فضحك عبد الرحيم باشا مرّة أخرى وقال:

- آه منكم يا أولاد الإله، هل مثلي إذا أراد التوبة حقاً أن ينأى بنفسه عن العمون التجل والحندود الوردية، وأن يحكف على مجاورة قبر النبيّ عليه الصلاة والسلام...

لهتف مهران في شياطة:

- الحجاز وما أدراك ما الحجاز، لقد حدّثني عنها العارفون، ستكون كالمتجبر من الرمضاء بالنار! فقال حلمي عزّت كالمحتجّ:

- لعلها دهابة كاذبة كالدعابات الإنجليزية، وهل يوجد في الحجاز كلّ وجه كوجه رضوان!؟

لهتف عبد الرحيم عيسى:

- ولا في الجنة!.. (ثمّ مترجماً).. لكننا يا أولاد الحرام بصدّد حديث التوبة! فقال عليّ مهران:

- مهلاً يا باشا، لقد أخبرني يوماً عن الصوفيّ الذي تاب سبعين مرّة، أليس معنى هذا أنّه أذنب سبعين مرّة؟

فقال رضوان:

- أو مائة مرّة!

فقال عليّ مهران:

- أنا راض بسبعين!

ففساد الباشا ووجهه يتهلّل بشراً:

- وهل في العمر بقية؟

- ربّنا يطوّل عمرك يا باشا، طمئننا وقل إنّها التوبة الأولى!

- والأخيرة!

الثانية أو الثالثة لا أذكر، وأظنه الآن معتكفاً في عزبة  
بكم حمادة...

- يا عني على آيame! وحامد النجدي؟  
- هذا أسوأ أحياناً حقاً! خسر الجلد والسقط،  
وأنه ليطوف الآن ليلاً بالمراحيض المموية...  
- كان خفيهاً ظريفاً ولكنه كان كذلك مقامراً  
وعريداً. وعلى رأفت؟  
- لقد بلغ «باجتهاده» أن صار عضواً في مجلس إدارة  
عدة شركات، ولكن سمعته ضيقت عليه الوزارة فيما  
يقال!...

- لا تصدق ما يقال، ولمى الوزارة أناس تجاوزت  
شهرهم حدود المملكة، غير أن هذا الرأي الذي طلما  
نُوت لكم عنه وهو أن التحلي بالفضائل العامة واجب  
علينا أكثر من بقية الناس! فإذا تحقق لأحدكم هذا فلا  
تشرب عليه بعد ذلك، لقد حكم المهاليك مصر  
أجبالاً، وما زالت ذرايعهم تنعم بالبلح والمال، وما  
الملوك؟! هو ذلك نفسه! سأقص عليكم قصة عظيمة  
المغزى...  
وصمت الباشا قليلاً كأنما ليجمع شتات فكره ثم  
قال:

- كنت في ذلك الوقت رئيس محكمة، وحدث أن  
عُرضت علي قضية مدنية من ميراث مختلف عليه،  
وقبل نظر القضية عُرِفني بعضهم بشاب جميل له وجه  
رضوان وقوام حلبي... (ثم مشيراً إلى مهران)  
ورشاقة هذا الكلب في عز آيame! فصادقنا عهداً وأنا  
لا أدري من سره شيئاً، حتى إذا كان يوم نظر القضية  
ما أدري إلا وهو يقف أمامي ممثلاً لأحد طرفي النزاع!  
ماذا تظنون فعلت؟

فصمت رضوان:  
- يا له من موقف!...  
- تنحيت عن نظر القضية دون تردد!  
وأبدى رضوان وحلمي عن إعجابها أما مهران  
فقال كالمحتج:

- وضيت عليه كفاحه؟!  
فقال الباشا دون إكترات هلهو مهران:  
- ليس هذا فحسب، ولكني قطعتة احتقاراً لسوء

كانت قناني لا تميل لغلماز  
فالأما الإصباح والإسماء

فقال مهران ملقياً حاجبيه:  
- لغامز؟! بل قل لا تميل لمهران!  
- يا ابن الكلب لا تفسد الجوز بهلرك! لا يجوز أن  
تعبث عند ذكر الأيام الجميلة، النوع أحياناً أجل من  
الابتسام وأضخم إنسانية وأشد حرافة بالجميل،  
اسمعوا هذا أيضاً:  
واستكرتني وما كان الذي نكرت

من الحوادث إلا الشيب والصلحا  
- ما رأيكم في قول ومن الحوادث؟  
وإذا مهران يتأدى على طريقة باعة الصحف:  
- الحوادث والأهرام والمصري...  
الباشا يأنس:  
- الحق ليس عليك ولكن ع...  
- عليك أنت!

- أنا! أنا بريء منك، عندما عرفتك كنت على  
حال يمسك عليها إبليس، ولكني لن أسمح لك أن  
تتزهني من جو الذكريات، نعم اسمعوا إلى هذا  
أيضاً:

عريت من الشباب وكان ضففاً  
كما يعمري من السورق القضيبي  
فتساءل مهران كالمنزعج:  
- القضيبي يا باشا.

الباشا وهو يردد ناظره بين رضوان وحلمي  
المترفين في الضحك:

- صاحبكم جئت لا يؤثر فيها الشعر! ولكنه سيبلغ  
قريباً فترة الحسرات، حين يصير كل جميل خيراً لكان  
أو إحدى أخواتها، (ثم متلفاً إلى مهران) وأصحاب  
زمان يا ابن الهرمة هل نسيتم؟  
- أوه، الله يسيهم بالخير... كانوا الجمال كله  
والدلال كله...

- ماذا تعرف عن شاكر سليمان؟  
- كان وكيل الداخلية وفرخة بكشك عند الإنجليز  
حتى أحيل على المعاش قبل الألوان في وزارة النحاس

ودعوي تتساقط فوق جيبيها وغنيها، وكم أود لو تتغلب على متاعبك يا رضوان...

فقال رضوان وكان يبدو شارقاً ساهماً:

- يستطيع الإنسان أن يعيش بلا امرأة... ليس الأمر مشكلة!

- يستطيع الإنسان أن يعيش بلا امرأة، ولكن الأمر مشكلة، وقد لا تبالي بتساؤل الناس ولكن ماذا عن تساؤل أنت؟ من الممكن أن تقول إن المرأة مشيرة للاشمئزاز، ولكن لماذا هي لا تثير اشمئزاز الآخرين؟ هنالك يركبك إحساس كالمرض، مرض لا تعرف له دواء، فتعزل العالم به، وهو شرّ رفيق في الوحدة، وربما أعجبك بعد ذلك أن تحضر المرأة وإن تكن مضطراً إلى مواصلة احتقارها!

وهنا نفخ عليّ مهراً لها يشبه اليأس ثم قال:

- منيت النفس بليلة مرحة جدية بالوداع!

فضحك عبد الرحيم باشا ثم قال:

- ولكنه وداع حاج! ماذا تعرف أنت عن توديع

الحجاج؟

- سأودعك بالدعاء ثم استقبلك بالودود والحدود،

ويومئذ نرى ماذا أنت فاعل!

فضرب الباشا كفّاً بكف وهو يقول ضاحكاً:

- إني مفوّض أمري إلى الله ذي الجلال...!

## ٥١

عند تقاطع شارعي شريف وقصر النيل، أمام مقهى رتّز، وضجّة، وجد كمال نفسه أمام حسين شذاد! وتوقّف عن السير وكلامه يملق في وجه صاحبه حتى هتب كمال:

- حسين...!

فهتب الآخر بدوره:

- كمال!

ثم تصافحا في حرارة وهما يضحكان ضحكة القبلة والسرور.

- آية مفاجأة سعيدة بعد ذلك التاريخ الطويل!

- آية مفاجأة سعيدة! تغيّرت كثيراً يا كمال، ولكن

خلفه، أجل، لا قيمة للإنسان بلا خلق، ليس الإنجليز بأذكى الناس، الفرنسيون والإيطاليون أذكى منهم ولكنهم سادة الخلق فهم سادة العالم! لذلك أنشد الجبال التائه المتحطّ:

فسامد عليّ مهراً ضاحكاً:

- هل أنهم من إيفالك عليّ آتي ذو خلق؟...

فاشار الباشا نحوه جاداً وهو يقول:

- الأخلاق متزوّجة، فالقاضي مطالب بالنزاهة والعدل، والوزير بالواجب والشعور بالمسؤولية العامة، والصديق بالصفاء والوفاء، وأنت هريبد بلا شك ووجد في أحامين كثيرة، ولكنك أمين وفي...!

- أرجو أن يكون وجهي قد تورد!

- الله لا يكلف نفساً إلا وسعها! والحقّ آتي قانع بما فيك من خير، ثم إنك زوج وأب وفله فضيلة أخرى، وهي سعادة لا يقدّرها إلا من عان صمت البيوت، إلا أن صمت اللقائم عذاب الشيوخة!

فقال رضوان كالنكر:

- حسبت الشيوخة عجة للهدوء.

- تمخّلات الشباب عن الشيوخة ضلال، تمخّلات الشيوخة عن الشباب حسرات، ختملي يا رضوان عن رأيك في الزواج؟

وانقبضت أسارير رضوان وهو يقول:

- هو الرأي الذي حدّثتك عنه من قبل يا باشا.

- لا أمل في العدول عنه؟

- لا أظنّ.

- لمه؟

تردّد رضوان قليلاً ثم قال:

- شيء عجيب، لا أدري كتبه، ولكن المرأة تبدو

لي مخلوقاً مثيراً للاشمئزاز!...

فتجلّت في العينين اللذابتين نظرة حزينة وقال:

- يا للأسف، ألا ترى أنّ عليّ مهراً زوج وأب؟

وإنّ صديقك حلبي من أنصار الزواج؟ إني أدري لك رثاء مضاعفاً إذ إنه رثاء لنفسي أيضاً، طلالاً حزيناً ما قرأت وما سمعت عن جمال المرأة، غير آتي طويت نفسي حل رأيي الخاص إكراماً لذكرى أمي، كنت أحبها حباً جماً، وقد أسلمت الروح بين ذراعي

والذي... وجدت الموم في انتظاري كما قلت، ثم كان علي أن أصعل، وأن أصعل ليل نهار  
هذه حسين شذاد طبعة ١٩٤٤! ذلك الذي يعد العمل جريمة إنسانية، أحقّ وجد ذلك الماضي؟ لعله لا دليل عليه إلا خفان هذا القلب.

- أتذكر آخر مرة تلاقينا؟

- أوه!...

وجاء النادل بالشاي والقهوة قبل أن يتم كلامه هير أنه لم يبد متحمسًا للذكريات!...

- دعني أذكرك، كان ذلك عام ١٩٢٦.

- عفادم هل ذاكرتك... (ثم شاردًا)... سبعة عشر عامًا في أوروبا!...

- حدثني عن حياتك هناك!

فهو رأسه الذي لم يشب منه إلا سوائفه وقال:

- دع ذلك إلى حينه، واقنع الآن بهذه العناوين:  
أعوام سياحية وفرحة كالحلم، حب فزواج من باريسية من أسرة محترمة، الحرب والهجرة إلى الجنوب، إفلاس أبي، العمل في متجر حماتي، هودتي إلى مصر دون زوجي حتى أتعين لها حياة مستقرة، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

- أنجب أطفالًا!

- كلا...!

كأنما لا يؤد أن يتكلم، ولكن ماذا بقي من الصداقة القديمة حتى يأسف على ذلك؟ ورغم هذا وجد رغبة قوية في طرق أبواب الماضي فصار:

- وماذا من فلسفتك القديمة؟

وتفكر حسين مليًا، ثم ضحك ضحكة ساخرة وقال:

- إني غارق في العمل منذ أعوام وأعوام، لست إلا رجل أعمال!

أين روح حسين شذاد الذي كان يأوي منها إلى ظل ظليل من الغبطة الروحية؟ ليست في هذا الرجل الضخم، لعلها استقرت في رياض قلندس، أما هذا الرجل فإنه لا يعرفه، ولا يربطه به إلا ماضٍ مجهول، ماضٍ ودّ في تلك اللحظة لو كان يحفظ له بصورة حيّة لا صورة فوتوغرافية باردة.

مهلاً لعلّ أبلغ! عودك هو هو، جملة منظر، ولكن ما هذا الشارب المحترم؟! وغدّة النظارة الكلاسيكية وغدّة العصا! وهذا الطربوش الذي لم يعد أحد يلبسه غيرك!

- وأنت شذّ ما تغيرت! سمعت أكثر مما كنت أتصور، أخذاً يتفق وتقاليد باريس؟ أين حسين زمان؟

- وأين باريس زمان؟ أين هتلر وموسوليني؟ ما علينا، كنت ذاهباً إلى ريتز لأشرب قنح شاي فهل هناك مانع من الجلوس معي قليلاً؟  
- بكل سرور...

فها لا إلى ريتز ثم جلسا حول مائدة وراء النافذة الزجاجية المطلّة على الطريق، وطلب حسين شذاد الشاي وطلب كيال قهوة ثم عادا يتخصصان ببعضهما البعض في ابتسام. لقد ضخم حسين فامتدّ طولاً وعرضاً. ولكن ماذا فعل بحياته يا ترى؟ هل سلح في الأرض والسياء كما كان يودّ قديماً؟ لكنّ عينه تمكّسان رغم ابتسامهما نظرة غليظة كأنما بدلت من طفولة الحياة جدّاً. وكان قد مضى عام على التفتاة بيدور في شارع فؤاد الأوّل فبرئ في أنثاه من نكسة الحب وانزوى آل شذاد جميعاً في ركن النسيان، هير أنّ ظهور حسين قد أبهق النفس من سباتها، فهذا الماضي وكأنه يتمسك ناشراً أفراده وآلامه.

- حتى عدت من الخارج؟

- منذ عام تقريباً...

ولم يحاول مقابلة على الإطلاق!؟ ولكن علام يلموه وهو نفسه قد نسيه وفرغ من صداقته منذ دهر؟  
- لو علمت أنك عدت إلى مصر لسمعت إلى

لغائك!

ولم يبد على حسين أنه أخرج أو ارتبك ولكنّه قال ببساطة:

- عدت فوجدت الموم في انتظاري، ألم تلبثك أشياء عتاً؟

فتجهّم وجه كيال وقال باقتضاب وأسف:

- بلى، من طريق صديقنا إسماعيل لطيف.

- لقد سافر إلى العراق منذ عامين كما أخبرتني

- لا اختيار لي، ومرجوي الوحيد أن أستعيد شيئاً من مستوى الماضي...  
وساد الصمت ملياً، وكان كمال يفتحص حسين باهتمام، وكانت صورة من الماضي تبتعث خلال تفحصه، حتى وجد نفسه يسأله قائلاً:  
.. وكيف حال الأسرة؟  
فقال دون اكتراث:  
.. بخير...  
فتردد كمال قليلاً ثم قال:  
.. كانت لك أخت صغيرة نسيت اسمها فكيف صارت اليوم؟  
.. بلورا، تزوجت في العام الماضي...  
.. ما شاء الله، أولادنا يتزوجون!  
.. وأنت ألم تزوج؟  
تري ألم تعالوه الذكريات؟  
.. كلا...  
.. أسرع وألا فأتك الفطار...  
فقال ضاحكاً:  
.. فإني بأهيا...  
.. ربما تزوجت من حيث لا تدري، صئفي، لم يكن الزواج ضمن خطتي ولكنني متزوج منذ أكثر من عشر سنوات...  
فهز كمال كتفيه دون اكتراث وقال:  
.. أخبرني كيف تمهد الحياة هنا بعد إقامتك الطويلة في فرنسا؟  
.. لم تكن الحياة في فرنسا عقب الفوز مما يسر، أما هنا فالحياة سيرة بالقياس إلى هناك. (ثم يحنان)  
ولكن باريس، أين أين باريس؟  
.. لم آت ببق في فرنسا؟  
فقال باستنكار:  
.. أعيش كلاً على حدي؟، كلاً، كان ثمة حذر عندما حالت ظروف الحرب دون السفر، أما بعد ذلك فلم يكن من السفر بديلاً  
.. تری أهو شذا من الكبرياء القديم؟ ثم وجد نفسه مدفوعاً إلى مغامرة خطيرة علبه مقاً، فتسامل بمكر:

- وماذا تعمل الآن؟  
.. الحظني أحد أصدقاء أبي بوظيفة في الرقابة حيث أعمل ابتداء من منتصف الليل حتى الفجر، وإلى هذا فإني أقوم بالترجمة في بعض الصحف الإنرجية...  
.. ومضى يتخلو من العمل؟  
.. فيما ندر، والذي يؤن علي المشقة أنني لن أدهو زوجي إلى مصر حتى أمضى لها حياة تناسيها، فهي من أسرة محترمة، وكنت حين تزوجت منها معدوداً من الأغنياء...  
قال ذلك وضحك ضحكة كأنها يسخر بها من نفسه فابتسم كمال ابتسامة كأنها يشجعها بها، وراح يقول لنفسه: من حسن حظي أنني سلوتك من زمن طويل، ولولا ذلك لبيكت عليك من أحقاد قلبي!  
.. وأنت يا كمال ماذا تعمل؟  
ثم مستدرجاً:  
.. أذكر أنك كنت مفرطاً بالطفلة؟  
ما أجدره بالشكر على هذا التذكّر! فهو ميت بالنسبة إليه كما أنا الآخر ميت بالنسبة إليه هو، وأنا لنموت ونحيا كل يوم مرّات! وأجابته:  
.. إني مدرّس لغة إنجليزية...  
.. مدرّس! نعم... نعم. تدعّرت الآن أشياء، وكنت ترغب في أن تكون مؤلفاً؟  
يا للترغبات الخائبة...  
.. إني أنشر مقالاتي في مجلة الفكر، ولحملي أجمع بعضها في كتاب عما قريب!  
فابتسم حسين ابتسامة كئيبه وقال:  
.. أنت سعيد لأنك حققت أحلام صباك، أما أنا... أنا...  
وضحك مرة أخرى، أما كمال فقد وقعت جملة وأنت سعيد من أذنيه موقعاً غريباً، ولم يكن أغرب منها إلا اللهجة التي قيلت بها الدالة على الحسد، فوجد نفسه مرة واحدة سعيداً ومحسوداً! وتغن؟ من صمد آل شذاد! غير أنه قال على سبيل المجاملة:  
.. حياتك العملية أجل حياة!  
فقال الآخر بأسياً:

الأهل لميته التعليمية، ولمعه تشرف بمقابلته مَرَات  
وهو زوج عابدة. رياته... إته ليذكر الآن أنه شيع  
جنازة حرم المراقب منذ عام أفكانت هي عابدة؟  
ولكن كيف لم يلتقي بحسين؟

- هل حضرت وفاتها؟  
- كلا، توفيت قبل عودتي إلى مصر...  
فقال وهو يمز رأسه تعجباً:

- لقد سرت في جنازتها وأنا لا أدري أنها أخطك!  
- كيف؟

- علمت في المدرسة فُلك اليوم بأن حرم كبير  
المفتشين قد توفيت وأن الجنازة ستشيع من ميدان  
الإسكندرية، فذهبت مع زملائي المدرسين دون أن  
أطلع على النعي في الصحف، وسرنا بين المشيعين  
حق جامع جركس، كان ذلك منذ عام...  
فايتسم حسين ابتسامة حزينة وهو يقول:  
- معكم مشكور...

لو وقعت هذه الوفاة عام ١٩٢٦ لجن أو انتحر،  
اليوم نمر به كخبر من الأخبار، ومن عجب أن يشيع  
جنازتها وهو لا يدري، وكان وقتذاك ما يزال أسيراً  
لمراة التجرية التي تخلفت عن زواج بدور فلعل  
صاحبة النعش طافت برأسه فيها طاف به من خواطر  
بدور وأسرتها، وما زال يذكر يوم الجنازة حين تقدم من  
أنور بك زكي معزياً ثم جلس بين المشيعين، قالوا  
قبلاً لقد حضر النعش فمدّ عينيه فرأى نعشاً جميلاً  
مكلاً بالحرير الأبيض حق تهاوس بعض زملائه إتها  
عروس... الزوجة الثانية للمفتش... وقد ذهبت  
ضحيةً للالتهاب الرئوي، ووقع النعش وهو لا يدري  
أنه يوقع ماضيه، ومن كان زوجها؟ رجل فوق  
الحسين ذو زوجة وأبناء فكيف رضي به ملاك الزمان  
الحالي؟ وكنت تظنها فوق الزواج فإذا هي تمتن للطلاق  
ثم تقنع بنصيب الزوجة الثانية! وسوف يمضي وقت  
طويل قبل أن يسكن جيشان هذا الصدر لا من الحزن  
أو الألم ولكن من الذهول والذهشة، ومن غلّو العالم  
من مباحج الأحلام، ومن ضياع سر الماضي الساحر إلى  
الأبد، وإن كان ثمة حزن فعل أنك لم تحزن كما كان  
يجدر بك!

- وما أخبار صاحبنا حسن سليم؟  
لمحله بنظرة ارتباب لحظة ثم قال ببرود:  
- لا أدري عنه شيئاً!  
- كيف؟

فقال وهو يمدّ بصره إلى الطريق خلل الزجاج:  
- انتهى ما بيننا وبينه منذ حوالي العامين!  
فقال كمال في دهشة لم يستطع إخفاءها:  
- أنتهي...؟

ولم يتم كلامه. غلبه المفاجأة. هل عادت عابدة  
إلى العباسية مرة أخرى؟ امرأة مطلقة؟ فليؤجل  
التفكير في هذا كله إلى حين، وقال يلهو:  
- كان سفره إلى إيران آخر ما حدثني به إسمايل  
لطيف عنه!

فقال حسين بكابة:  
- لم تحدث أختي معه في هذه الرحلة إلا شهراً  
واحداً، ثم عادت مفردة... (ثم بصوت منخفض)  
يرجعها الله!

- هه...!  
نلت عن كمال في صوت تراس إلى الموائد القريبة  
من حوهم. فنظر إليه حسين كالداهش وقال:  
- لم تكن تدري! لقد ماتت منذ عام!  
- عابدة؟

لهز الآخر رأسه بالإيجاب، وفي نفس الوقت خجل  
كمال من نطقه الاسم مجرداً بصوت مسموع، ولكنه لم  
يقف عند هذا إلا أقل من لحظة. وبدت الألفاظ جيماً  
وكان لا معنى لها. وشعر يدوم الفناء تدور برأسه.  
وكان ما به دهشة وارتباك، لا حزن ولا ألم، وتكلم  
أخيراً فقال:

- يا له من خبر عزن! البقية في حياتك!  
فقال حسين:

- عادت من إيران وحيدة، ومكثت مع أمي شهراً،  
ثم تزوجت من أنور بك زكي كبير مفتشي اللغة  
الإنجليزية ولكنها لم تعاشره إلا شهرين، ثم مرضت،  
ثم توفيت في المستشفى القبطي.  
كيف لرأسه أن يتابع هذه الأحداث في سرعتها  
الجنونية! ولكنه يقول أنور بك زكي، وهو المراقب

إبراهيم المقيمين في هذا البيت؟

فأجاب الرجل وقد امتنع وجهه:

- بل...

- عندنا أوامر بغتيش البيت جميعه...

- لماذا يا حضرة المأمور؟

فلم يأبه له والتفت نحو معاونيه أمراً:

- فتشوا...

واندفع الرجال إلى الحجرات صادعين بالأمر على

حين تسامد إبراهيم شوكت:

- لماذا تفتشون شقي؟

ولكن المأمور تجاهل، وعند ذلك اضطرت خديجة

إلى مضادة حجرة النوم - التي اتجمعت فيها المخبرون -

متلعة بشال أسود وهي تنهف غاضبة:

- أليس للنساء حرمة؟! هل نحن لصوص يا حضرة

المأمور؟!

كانت تحقّق في وجهه غاضبة، وإذا بها تشعر بفتة

بأنّها رأت هذا الوجه من قبل، أو بمعنى أصح أنّها رأت

صورته الأولى قبل أن يتورّعا تقدّم السنّ، متى وأين؟

ربّاه إنّهُ هو دون ريب، لم يكذب بتغيّر كثيراً، واسمه؟

وقالت دون تردّد:

- حضرتك كنت ضابطاً بقسم الجساليّة، منذ

عشرين عاماً، بل منذ ثلاثين عاماً لا أذكر الزمن

بالضبط...

فرفع المأمور إليها عيّن متساكتين، وردّد إبراهيم

شوكت ناظريه بينهما متساكلاً كذلك، وإذا بها تقول:

- اسمك حسن إبراهيم، أليس كذلك؟

- حضرتك تعرفيني؟

فكانت برجاء:

- أنا بنت السيّد أحمد عبد الجواد وأخت فهمي

أحد الذي قتلته الإنجليز أيام الثورة، ألا تذكره؟

فلاحت الدهشة في عيني المأمور وقتم بصوت

مهذب لأوّل مرّة:

- رحمه الله رحمة واسعة...

فكانت برجاء أشدّ:

- أنا اخته فهل ترضى ليّني هذه البهدة؟

فأشاح المأمور عنها بوجهه وهو يقول كالمتندر:

- لكن ماذا غير حسن سليم؟

فهزّ حسين رأسه بازدياد وقال:

- عشق الرغد موكفة بمفوضيّة بلجيكا بديران

فغضبت المرحومة لكرامتها وطلابت بالانفصال...

ومّا يعزّي المرء في مثل هذا الموقف أنّ بديهيّات

إقليدس لم تعد بالبدهيّات المطلقة!.

- وأولادها؟

- عند جدّهم لأبيهم.

وهي أين هي؟ وماذا جدّ عليها في هذا العام؟

وهل يمكن أن يعرفها فهمي أو السيّد أحمد عبد الجواد

أو نعيمة؟

وإذا بحسين شدّاد ينهض وهو يقول:

- أن لي أن أذهب، دهني أراك، إنّني أتناول عشايتي

عادة في رتزي.

فنهض بدوره، وتصافحا وهو يتمتم:

- إن شاء الله...

وافترقا عند ذلك وهو يشعر بأنّه لن يراه مرّة أخرى،

وبأنّه ليس به حاجة إلى معاودة رؤيته، كما ليس بالأخر

حاجة إلى ذلك، وغادر المشرب وهو يقول لنفسه: «إنّني

حزين يا عايدة لأنّني لم أحزن عليك كما كان يجب»

١٩٠٠.

## ٥٢

في سكّون المزيح الأخير من الليل طرق طارق باب

بيت آل شوكت بالسكينة، ثمّ تتابع الطرق حتّى

استيقظ النائمون، وما إنّ فتحت خادم الباب حتّى

تدافعت إلى الداخل أقدام ثقيلة شديدة الوقع،

انتشرت في الفناء والسلم وأطبقت على الشقق

الثلاث. وخرج إبراهيم شوكت إلى الصالة مقل

الرأس بالنوم متعباً بالكبر فرائ ضابطاً كبيراً يتوسّط

مجموعة من الجنود والمخبرين، فدش الرجل وتسامل

منزعجاً:

- ماذا هنالك كفى الله الشرّ؟!

فساله الضابط الكبير بخشونة:

- أأنت والد أحمد إبراهيم شوكت وعبد المنعم

- هذني روعك، لم يعثروا على شيء مريب، ولن  
يثبت ضلما شيء، لا تجري وراهم حفظا لكرامة  
عبد المنعم وأحد...

فصاحت بها:

- هذا الهدوء تحسدن عليا

فقالت سوسن برقة وصبر:

- سيعودان إلى بيتها بخير، اطمئني...

فتساءلت بحدة:

- من أدراك؟

- إني واثقة مما أقول...

فلم تكثر لفرها والتفت نحو زوجها ثم ضربت  
كفا بكف وهي تقول:

- انعمد الوفاء، أقول لها إنها ابنة أخت لهمي  
فيقول لي عندي أوارم، لماذا يأخذ ربنا الناس الطيبين  
ويترك الأردال؟

والجبت سوسن نحو إبراهيم وقالت:

- سينشئون بيت الجناحة في بين القصرين! سمعت  
خبرا يقول للسامور إنه يعرف بيت جدما في بين  
القصرين فاقترح عليه الغابط المساعد تفتيشه تنفيذا  
للأوامر على سبيل الخيطة أن يكونا قد أخفيا فيه  
منشورات!

فصاحت خديجة:

- إني ذاهبة إلى أمي، لعل كمال يستطيع شيئا، آه  
يا ربّي إني أحترق...

وجاءت بمعطفها وغادرت السكرية في خطوات  
متلاحقة مضطربة، كان الجو باردا والظلام ما يزال  
كثيفا، وكانت الديكة تصيح في تجارب متواصل،  
انطلقت من الغورية هترة الصاحبة إلى النحاسين.

ووجدت عند باب البيت خبرا، ووجدت في الفناء  
خبرا آخر، ثم صعلت السلم وهي تلهث...

وكانت الأسرة قد استيقظت مضطربة على رنين  
الجرس، ثم جاءهم أم حنفي وهي تقول في ذعر:  
«بوليس»، وهرع كمال إلى الحوش حيث التقى بالسامور  
فتسائل منزعا:

- أفندم؟

فساله السامور:

- إنا ننقذ الأوامر يا هاتم.

- ولكن لماذا يا حضرة السامور، نحن أناس طيبون!  
فقال السامور برقة:

- نعم، ولكن ليس كذلك نجلناك...

فهتفت خديجة باضطراب:

- إنها ابنة أخت صديقك القديم!

فقال السامور دون أن ينظر نحوها.

- إنا ننقذ أوامر الداعية.

- لم يفعل شيئا ضارا، إنها ولدان طيبان وأقسم لك  
على ذلك...

وعاد الجنود والمخبرون إلى الصالة دون أن يعثروا  
على شيء فأمرهم السامور بمغادرة الشقة، ثم التفت إلى  
الزوجين المائلين أمامه وقال:

- أبلغنا عن اجتراحات مريبة تمعد في شقتيها...

- هذا كذب يا حضرة السامور!

- أرجو أن يكون الأمر كذلك، لكنني مضطر الآن  
إلى القبض عليهما وسوف يبقان حتى يتم التحقيق

معها، ولعل العاقبة أن تكون سليمة!

هتفت خديجة بصوت متهذج وهي بدموعها:

- أتسوقها حقاً إلى القسم؟ هذا... لا

أنصؤ... أعف عنها وحيات أولادك!

- ليس بوسمي ذلك، لدي أوامر صريحة بالقبض  
عليها، طاب مساؤكما!

وغادر الرجل الشقة، وما لبث أن غادرت خديجة  
وفي أحقابها الرجل العجوز ونزلا السلم لا يلويان على  
شيء، ورائها كرامة وكانت واقفة أمام شقتها في حال  
شديدة من الفزع فهتفت:

- أخلوه يا عني، أخلوه إلى السجن...

فالتفت خديجة على الشقة نظرة متعجبة، وزلت  
مسرعة إلى الشقة الأولى حيث وجدت سوسن على

باب شقتها كذلك تتطلع إلى الفناء بوجه كالح،  
فنتظرت حيث تنظر فرأت القوة تمهط بعبد المنعم

وأحد، متجهة بها إلى الخارج، فلم تتمالك أن تصرخ  
من أحيا قلبها وهمت بالانطلاق في أثرها لولا أن

أمسكت بها يد سوسن، فالتفتت نحوها هائجة، غير  
أن سوسن قالت لها بصوت هادئ حزين:



فصافحه الرجل قائلاً:  
 - حسن إبراهيم مأمور قسم الجبلية! بدأت فيه ملازماً وهدت إليه في آخر المطاف مأموراً...  
 ثم وهو يبرّ رأسه:  
 - كانت الأوامر صريحة، أرجو ألا يثبت عليها ما يدينها.  
 وهنا تراسى إليهما صوت خديجة وهي تحدث أمها وعاشقة بما كان وتبكي فقال:  
 - هذه أمها، حرفتي بذكرها العجيبة ثم ذكرتي بالمرحوم ولكن بعد أن كان التفويض الدقيق قد وقع، طمئنتها ما أمكنت.  
 ثم نزلا ممّا جنباً إلى جنب، وعند مرورهما بالدور الثاني مرقت عاتقة من الباب في حلة باكية وحلجت المأمور بنظرة قاسية وصاحت به:  
 - لماذا تقبضون على أولاد الناس بلا سبب؟ ألا تسمعون بكاء أمها؟ فانحرف بصر المأمور إليها كردّ فعل للمفاجأة ثم غشّ بصره تأذّباً وهو يقول:  
 - سيطلق سراحها عمّا قريب إن شاء الله...  
 ثم سأل كمال بعد أن ابتعدا عن مدخل الدور الثاني:  
 - والدتك؟  
 - بل شقيقي! لم تجاوز الزابطة والأربعين ولكنها عانت من سوء الحظ ما حطّمها...  
 وانضت المأمور إليه كالدهش، وغيّل إليه بأنه همّ أن يطرح سؤالاً، ولكنه تردّد لحظة ثم عدل عمّا كان همّ به، وتصافحا في الفناء، وقبل أن يمضي الرجل إلى سبيله سأل كمال:  
 - أمن المستطاع أن أزورها في السجن؟  
 - نعم...  
 - شكراً...  
 وعاد كمال إلى الصالة فانضمّ إلى أمه وشقيقته وهو يقول:  
 - سأزورها غداً، لا داعي للخوف، وسوف يطلق سراحها عقب التحقيق معها...  
 وكانت خديجة لا تسلك من البكاء فصاحت عاتقة في نرفزة:

- أتعرف عبد النعم إبراهيم وأحمد إبراهيم؟  
 - أنا خالهما!  
 - صناعتك؟  
 - مدرّس بمدرسة السلاحدار...  
 - عندنا أوامر بفتيش البيت!  
 - ولكن لماذا؟ أيّ حمة توجّهها إلي؟  
 - إننا نفثش هن منشورات تخصّ الشاين لملأها أخفاها هنا!  
 - أوكد لحضرتك أنّه ليس في بيتنا منشورات، تفضّل فثش كما تشاء...  
 ولاحظ كمال أنّه أمر القوّة بإحلال السلم والسطح وأنه مضى معه بمفرده، وما كان تفتيشاً بقلب البيت رأساً على عقب ولكنّ للمأمور اكتفى بتفقد الحجرات وإلقاء نظرة سطحية على المكتب وخزانات الكتب فاستردّ أنفاسه، واستطاع أن يسأله وقد أنس إليه:  
 - فثشتم بيتها؟  
 - طبعاً...  
 ثم بعد لحظة قصيرة:  
 - إنهما الآن في سجن القسم!  
 فسأله كمال في انزعاج:  
 - هل ثبت عليهما شيء؟  
 فأجاب الرجل برقة غير معهودة في أمثاله:  
 - أرجو ألا يصل الأمر إلى هذا الحدّ، غير أنّ التحقيق متروك للنباية.  
 - أشكر لك جميل عواطفك!  
 فقال المأمور يدهو وهو يتسم:  
 - ولا تنس أنّي لم أبذل البيت!  
 - نعم يا سيدي، إلني لا أدري كيف أشكرك!  
 وإذا به يلتص نحوهم متسائلاً:  
 - حضرتك أخو للمرحوم فهي؟  
 فأتسعت عينا كمال دهشة وقال:  
 - نعم، أكنت تعرفه؟  
 - كنّا أصدقاء رحمه الله...  
 فقال كمال ببرجاء:  
 - مصادفة سعيدة... (وهو يمدّ له يده)... كمال  
 أحمد عبد الجواد...

.. لا تيك، كفانا بكاء، سيمودان إليك ألا

تسمعين؟

فولوت خديجة قائلة:

.. لا أدري... لا أدري. في السجن يا ولدا!

ركانت أمينة صامدة كأن الحزن أغرسها، فقال كمال في هجة توحى بالعلمانية:

.. المأمور يعرفنا، كان صديق المرحوم فهمي، وقد تلطف بنا في التفتيش لدرجة لا تصدق، ولا شك أنه سيعرأها بمطغه!

فرفعت الأم رأسها كالتسائلة فقالت خديجة في حق:

.. حسن إبراهيم، ألا تذكرينه يا أمي؟ وقد أخبرتني بأنني أعنت فهمي فيما كان منه إلا أن قال: إنا ننقد الأوامر يا هانم! أوامر في عينه...!

والجهد حيناً الأم نحر عائشة ولكتها لم يبد عليها أنها ذكرت شيئاً...

ثم انتحلت أمينة بكمال جانباً وراحت تقول له في قلق بالغ:

.. لم أفهم شيئاً يا بني، لماذا قبض عليها؟

فتفكر كمال فيها ينهي قوله، ثم قال:

.. الحكومة نظن خطأ أنها يعملان ضدّها!

فهزّت رأسها في حيرة وقالت:

.. أخشك تقول إنهم قد قبضوا على عبد المنعم لأنه

من الإخوان المسلمين، لماذا يقبضون على المسلمين؟

.. الحكومة تظنهم يعملون ضدّها...

.. وأحد؟، قالت أمينة... نسيت الكلمة يا

بني؟

.. شيوعي؟. الشيوعيون كالإخوان في ظن

الحكومة!

.. الشيوعيون؟ أشياء سيئنا حلّي؟

فداري كمال ابتسامة وقال:

.. الشيوعيون لا الشيعة، هم حزب ضدّ الحكومة

والإنجليز!...

فتهدّدت المرأة في حيرة وقالت:

.. متى يفرج عنها؟ انظر إلى أخشك المسكينة!

الحكومة والإنجليز لم يجلوا إلا بيتنا المهاب؟!

كان أذان الفجر يسري في الصمت الشامل حين استدعى مأمور قسم الجبلية عبد المنعم وأحمد إلى حجرته، ومثلاً أمام مكتبه يسوقهما جندي مسلح، فأمره المأمور بالانصراف، ومضى يتفحصهما باهتمام، ثمّ نظر إلى عبد المنعم وسأله:

.. اسمك وسنك وصناحتك؟

فأجاب عبد المنعم بجلوه وثبات:

.. عبد المنعم إبراهيم شوكت، خمسة وعشرون عاماً، عحقق بإدارة التحقيقات بوزارة المعارف.

.. كيف تحرق قوانين الدولة وأنت من رجال القانون؟!

.. لم أعرق قانوناً، ونحن نعمل جهاراً فنكتب في الصحف ونخطب في المساجد، إن الذين يدعون إلى الله لا يجدون ما ينفون.

.. ألم تحدث في بيتك اجتهادات مريبة؟

.. كلاً، كانت اجتهادات صادقة مما تجمع بين الأصناف لتبادل الرأي والمشورة والتضيق في الدين...

.. وهل يدخل ضمن هذه الأغراض التحريض على معاداة دول حليفة؟

.. أتعي بريطانيا يا سيدي؟ إنها علوّ غادر، الدولة التي تدوس كرامتنا بالدبابات لا يمكن أن تكون دولة حليفة...

.. إنك رجل مثقف، وكان ينبغي أن تدرك أن

للحرب ظروفاً تبيح المحظورات!

.. إني أدرك أن بريطانيا هي عدونا الأول في هذا الوجود!

والفتت المأمور إلى أحمد متسائلاً:

.. وأنت؟

فأجاب أحمد وحلّ شفّيته شبه ابتسامة:

.. أحمد إبراهيم شوكت، أربعة وعشرون عاماً، محرّر بمجلة الإنسان الجديد...

.. هنالك تقارير خطيرة عن مقالاتك المتطرفة، فضلاً عن أنه من السليم به أن يجلسك سيئة السمعة...

- مقالاي لا تلعو الدفاع عن مبادئ العدالة الاجتماعية...

- شيوخى حضرتكى؟

- إني اشتراكي، وكثير من النواب يدعون إلى الاشتراكية، والقانون نفسه لا يؤخذ الشيوعي حل رأيه ما دام لا يلجأ إلى أساليب العنف...

- أكان ينبغي أن ننتظر حتى تتمخض الاجتماعات التي تعقد كل مساء في شقتك عن العنف؟

وتساءل في نفسه ترى هل وقفوا على سر المنشورات والمحاضرات الليلة؟ وأجاب:

- إني لا أجتمع في بيتي إلا بالأصدقاء المقربين، ولم يزد عدد زوّاري يوماً عن أربعة أو خمسة، وكان تفكيرنا أبعد ما يكون عن العنف...

ورقد الأمور نظره بينما ثم قال بعد تردد:

- إنكم مثقفان... مهذبان، ومتزوجان أليس كذلك؟ حسن، أليس من الأفضل لكما أن تهتما بشئونكم الخاصة وأن تخبأ نفسيكما المهلاك...

فقال عبد المنعم بصوته القوي:

- إني أشكر لك نصيحتك التي لن أعمل بها... فتدّت عن الأمور ضحكة مفتضبة كأنها حل رغمه، ثم قال:

- علمت في أثناء التفتيش أنكما حفيدا المرحوم أحمد عبد الجواد، وقد كان خالكما المرحوم فهمي صديقاً حميماً لي، وأظنكيا تعلمان أنه فقد حياته في ربيع العمر على حين أن زملاء ظلوا على قيد الحياة حتى تَبَوَّأوا أكبر المناصب...

فقال أحمد وقد أدرك السر في لطف المأمور الذي حثّره:

- دعني أسألك يا سيدي عما كانت تكون عليه مصر لولا تضحية خالي وأمهاله؟

فهز الرجل رأسه وقال:

- فكراً في نصيحتي بعقل وروية ودعكم من هذه الفلسفة المهلكة!

ثم وهو يقف:

- ستبقان ضيفين في سجننا حتى تُثَقَّصوا إلى التحقيق، أرجو لكما حظاً سعيداً...

وغادرا الحجرة حيث تسلمها أونياني وجندتان مسلحان، ومضوا جيئاً إلى الدور الأرضي، ثم مرّجوا إلى بيو مظلم شديد الرطوبة فساروا فيه قليلاً حتى استقبلهم السجان بكفّاه الكهربائي كأنما ليديكم على باب السجن، وفتح الرجل الباب وأدخلهما، ثم صوّب ضوءه إلى الدخّل ليهتديا به إلى برّشيهما، وأضاء الكشاف المكان بهذا مشوّط المساحة عالي السقف، ذا نافذة صغيرة في أهل جداره تعرّضها القضببان الحديدية. وكان عامراً بالضيق، فيهم شابان على هيئة الطلبة، وثلاثة رجال حفاة مجفوي المنظر شالهي الخلفة. وما لبث أن أطلق الباب وساد الظلام، غير أنّ الضوء وحركة القادمين كانت قد أيقظت النائمين، وقال أحمد لأخيه هسّا:

- لن أجلس وألا قتلتي الرطوبة، فلنتنظر الصبح واقفين!

- سنغشّط إلى الجلوس عاجلاً أو آجلاً، أعلمت متى نبرح هذا السجن؟

وإذا بصوت - أدركا بالبدامة أنه لأحد الشابين - يقول:

- لا تَد من الجلوس، ليس هو بالشئ السار ولكنّه أخفّ من الوقوف أيّها...

- هل مكتبا طويلاً؟

- منذ ثلاثة أيّام!

وساد الصمت حتى عاد الصوت يسأل:

- لماذا قبض عليكما؟

لأجاب عبد المنعم بالتضاب قائلًا:

- أسباب سياسية فيما يبدو...

فقال الصوت ضاحكًا:

- صارت الأغلبية أعزيراً للسياسيين في هذا السجن، كنّا قبل تشريفكيا أقلية...

فسأله أحمد:

- وما بهمتكما؟

- تكلّما أننا أوّلًا، فأننا أحدث مقاملاً وإن يكن لا داعي للسؤال بعد أن رأينا حية أحذكيا الإخوانية؟!

فسأله أحمد وهو يشتم في الظلام:

- وأنتما؟

- كلانا طالب في الحقوق متهم بتوزيع منشورات  
هدامة كما يقولون...

فثار أحد وسأله:

- اضبطنا متلبسين!

- نعم...

- وماذا كان في المنشورات؟

- بيان بتوزيع الثروة الزراعية في مصر...

- هذا مما تنشره الصحف في ظل الأحكام العرفية

نفسها!

- يضاف إليه شوية توجيهات حماسية!

فابتسم أحد مرة أخرى في الظلام وقد تحفف من  
وحشته لأول مرة، وعاد صاحب الصوت يقول:

- إننا لا نخاف القانون بقدر ما نخاف  
الاعتقال...

- إن الأمور تبشر بتغير شامل...

- لكننا سنظل الهدف في جميع العهود...

إذا بصوت غليظ يملو في خشونة قاتلاً:

- كفافكاً كلاماً ودعونا ننام...

ولكن صوته أيقظ زميلاً من زميله فتسابه  
مستائلاً:

- طلع الصبح؟

فاجابه الأول هائلاً:

- كلا، ولكن أصحابنا يصبون أنفسهم في  
غرزة...

تهدد عبد المتم وممس بصوت لم يسمعه إلا أحد:  
- أيقظ بي إلى هذا المكان لا لسبب إلا أنني أريد

الله!؟

فهمس أحد في أذنه باسماً:

- وما ذنبى أنا الذي لا أعبده؟!

لم يشأ أحد بعد ذلك أن يرفع صوته، وراح أحد

يسأل نفسه عما دعا إلى القبض على الآخرين، سرقة

أم مشاجرة أم سكر وهريفة؟ طلالا كتب عن الشعب

وهو مدثر بمطفي في حجرة مكتبه الجميلة، جا هو

الشعب يلمن أو ينكف في نومه، وهذه الوجوه الكالحة

الباسية التي رآها على ضوء الكشافات لحظات، وتلك

الرجل الذي كان يحك رأسه وما تحت إبطيه. فلعل

قلمه يزحف نحوهما دائماً، هذا هو الشعب الذي

تعيش من أجله فكيف تجزع عن فكرة ملاسته؟ هذا

الرجل المناط به خلاص الإنسانية ينبغي أن يملك عن

شخيره وأن يمي موقفه التاريخي حتى ينهض لإنقاذ

العالم جميعاً! وقال لنفسه: «إن موقفاً إنسانياً واحداً

هو الذي جمعنا على اختلاف مشاربنا في هذا المكان

المظلم الرطب. الأخ والشيوعي والسكوير والسارق على

السواء، كلنا واحد على تضارعت في قوة المناعة أو

الحظوة. وحديث نفسه مرة أخرى فقال: لماذا لا تعنى

بشئونك الخاصة، هكذا يقول المأمور، ولي زوجة

محبوبة وورق موفور، والحق أن الإنسان قد يسعد بما

هو زوج أو موكف أو أب أو ابن ولكنه مقضي عليه

بالتأهب أو بالموت نفسه بما هو إنسان. وسواء أقضي

عليه بالسجن هذه المرة أم أطلق سراحه فهاب السجن

الغليظ المتجهم هو ما يترادى لعينه في أفق حياته،

وعاد يتساءل: ماذا يدعيني في هذا السيل الخطير

الباهر؟ ألا أنه الإنسان الكامن في أعماقي، الإنسان

الواهي لذاته المدرك لموقفه الإنساني التاريخي العام،

وإن ميزة الإنسان على سائر المخلوقات هي أنه يستطيع

أن يقضي على نفسه بالموت بمحض اختياره ورضاه...

وشعر بالروطوبة تسري في ساقيه والإعياء يتخلل

مفاصله، وكان الشخير يتردد في الأركان بلهيقاع

موصول، ثم لاحت خلال قضبان النافذة الصغيرة

طلالعت من النور وانية رقيقة...

## ٥٤

غادر الطبيب الحجرة وكمال يتبعه واجماً، ثم لحق به

في الصالة وسدجه بعينين متسائلتين، قال الطبيب

بهدوء:

- يوسفى أن أخبرك بأننا حالة شلل كلّي...

فانقبض صدر كمال انقباضاً شديداً وسأله:

- حالة خطيرة؟

- طبشاً! وقد أصيبت في الوقت نفسه بالتهاب

رئوي، ولذلك فالخفق ضرورية لإزاحتها.

- أليس هناك أمل في الشفاء؟

وكان هذا آخر عهده بيقظتها، وقد جاءه نبأ مرضها  
ظهرًا في المدرسة فعاد مصطحبًا الطبيب الذي ناعها  
إليه سلفًا منذ دقائق. أجل لم يبق إلا ثلاثة أيام! ترى  
كم يومًا تبقى له هو؟ واقترب من عائشة وسأها:

- متى وكيف وقع لها ما وقع؟

فأجبت عنها أم حنفي قائلة:

- كنا جالسين في الصلاة، ثم قامت متجهة نحو  
حجرتها لترتدي معطفها وتخرج وهي تقول لي وعندما  
أفرغ من زيارة الحسين سأزور خديجة، وذهبت إلى  
الحجرة، وبعد دخولها مباشرة تراسى إلى أفتر صوت  
وقوع شيء فهرعت إلى الداخل فوجدتها ملقاة على  
الأرض بين السرير والدولاب، فجريت نحوها وأنا  
أنادي ست عائشة...

وقالت عائشة:

- جئت مسرعة فوجدتها في هذا المكان، فحملناها  
إلى السرير، وجعلت أسألهما عما بها ولكنهما لم يجبي، ولم  
تتكلم، متى تتكلم يا أخي؟  
فأجبت في ضيق:

- عندما يشاء الله...

وتراجع إلى الكنية ثم جلس، ومضى ينظر في حزن  
إلى الوجه الشاحب الصامت، أجل لينظر إليه طويلًا  
فمًا قريب لن يكون له إلى رؤيته سبيل. هذه الحجرة  
نفسها ستغير معالمها وستغير بالتالي معالم البيت في  
مجموعه، ولن ينادي به أحد «أني»، لم يكن يتصور أن  
موتها سيحصل قلبه هذا الألم كله، ألم يالف الموت  
بعد؟... بل، ولديه من العمر والتجربة ما يقبه  
الجزع، ولكن لدعة الفراق الأبدي موجعة، ولعله ثما  
يلام عليه قلبه أنه رغم ما كابد من ألم يتألم كالقلب  
الغض. وكم أحبت، وكم أحببت الجميع، وكم أحببت  
كل شيء في الوجود، ولكن هذه السجيا الطيبة لا  
تصيحها النفس إلا عند الفراق، ففي هذه اللحظة  
الخطيرة تزدهم ذاكرتك بصور أماكن وأزمنة وحوادث  
يتزها من أعمقه، وما هي يغالب نورها الظلام،  
وتتجرج فيها زرقعة الفجر بحديقة السطح، وبجمرة  
جلس القهوة بالأساطير، وهذيل الحمام بأغنيات حلوة،  
وكان حبًا رائيًا أتبها القلب الجاحد، ولعلك تقول غدا

فصمت الطبيب قليلًا ثم قال:

- الأعمار بيد الله، أما الطبيب فيقرر في حدوده أن  
هذه الحال لا يمكن أن تستمر أكثر من ثلاثة أيام...  
وتلقى كمال نذير الموت بتجلده، وأوصل الطبيب إلى  
الباب الخارجي ثم عاد إلى الحجرة. وكانت الأم  
نائمة، أو كالتائمة، لا يبدو من الضطهاد الكثيف إلا  
وجهها الشاحب ونفوسها المطبق في شيء من الاعوجاج،  
وكانت عائشة واقفة حياء السرير فأقبلت نحوها  
متسائلة:

- ما لها يا أخي؟ ماذا قال الطبيب؟

وقالت أم حنفي من موقفها عند مقدم الفراش:

- إنها لا تتكلم يا سيدي، لم تتكلم كلمة واحدة.

وقال لنفسه: ولن يُسمع لها صوت بعد الآن، ثم  
قال مجيبًا أخته:

- حالة ضغط مصحوبة بإصابة برد خفيفة، سوف  
تريحها الحقن!

فألت عائشة، ولعلها كانت تخاطب نفسها:

- إني خائفة، وإذا كانت سترقد هكذا طويلًا فكيف  
أحتمل الحياة في هذا البيت؟

فتحول عنها إلى أم حنفي وسأها:

- هل أخبرت الجماعة؟

- نعم يا سيدي، وستحضر ست خديجة وسي  
ياسين في الحال، ما لها يا سيدي؟ كانت في الصباح في  
تمام الصحة والعافية...

كانت!... وهو يشهد بذلك! وقد مر بالصالة  
كمادته كل صباح قبل انطلاقه إلى مدرسة السلحدار،  
فتناول فنجان القهوة الذي قمت له وهو يقول:

- لا تغادري البيت اليوم فالجو بارد جدًا...

فابتسمت ابتسامتها الرقيقة وقالت:

- وكيف يطيب لي اليوم دون زيارة سيديك؟

فقال عتجًا:

- افعل ما يحلو لك، إنك عنيدة يا أمها!

فصمت:

- ريك الحافظ...

ثم وهو يغادر المكان:

- ربنا يسعد أيامك...

- ستلد في بحر هذا الأسبوع، أو هذا ما تؤكدك الحكيمه...

فتتم كمال:

- ريتا يأخذ بيدها...

فقال ياسين:

- سيخرج الوليد إلى الدنيا وأبوه في المعتقل...

ودقّ الجرس، فكان القادم رياض قلندس، وقد

استقبله كمال وضفى به إلى حجرة مكتبه، وفي الطريق

إلى الحجرة قال رياض:

- سألت عنك في المدرسة فأخبرني السكرتير بالخبر،

كيف حالها؟

- أصبحت بشلل وأخبرني الطبيب بأنها ستتهي في

ظرف ثلاثة أيام...

فوجم رياض وتساءل:

- أليس هنالك حيلة ما؟

فهزّ كمال رأسه يائساً، وقال:

- لعله من حسن الحظ أنّها في غيبوبة لا تدري عمّا

ينتظرها شيئاً...

ثمّ في لحظة ساعرة وهما يجلسان:

- ولكن هل ندري نحن عمّا ينتظرنا شيئاً؟

وابتسم رياض دون أن ينبس، فعاد الآخر يقول:

- كثيرون يرون أنّ الحكمة أن تتخذ من الموت

ذريعة للتفكير في الموت، والحقّ أنّه يجب أن تتخذ من

الموت ذريعة للتفكير في الحياة...

فقال رياض باستيا:

- هذا أفضل فيما أرى، كذلك فلنسأل أنفسنا عند

الموت - أيّ موت - ماذا صنعنا بحياتنا؟

- أمّا أنا فلم أصنع بحياتي شيئاً، هذا ما كنت أفكر

فيه...

- بيد أنّك ما زلت في منتصف الطريق!...

ريّما نعم، وريّما لا، غير أنّه من المستحسن دائماً أن

يتخلّل الإنسان ما يراود نفسه من أحلام، على ذلك

فالتصوّف هروب، كما إنّ الإيمان السليبيّ بالجلم

هروب، وإذن فلا بدّ من عمل، ولا بدّ للعمل من

إيمان، والمسألة هي كيف نخلق لأنفسنا إيماناً جديراً

بالحياة. قال:

بحقّ إنّ الموت استأثر بأحبّ الناس إليك، ولعلّ عينيك أن تلدعا حتى يزجرك المشيب. والنظر إلى الحياة كمأساة لا يخلو من رومانتيكية طفلة والأجدر بك أن تنظر إليها في شجاعة كدراما ذات نهاية سعيدة هي الموت. ثمّ سألت نفسك إلام تضيع حياتك هباء؟ إنّ الأمّ تموت وقد صنعت بناء كاملاً فهذا صنعت أنت؟

\*\*\*

واستيقظ على صوت أندام، وإذا بخديجة تدخل الحجرة مرتاحة ورتبة نحو الفراش وهي تنادي أمها وتسلم عمّا حلّ بها. وتضاعف ألمه حتّى خاف أن يخنقه تمهلده فغادر الحجرة إلى الصلاة، وما لبث أن جاء ياسين وزئوبة ورضوان، فصافحوه، وأخبرهم عن مرضها دون التفاصيل، فذهبوا إلى الحجرة ولبت وحيداً حتّى عاد إليه ياسين وهو يسأله:

- ماذا قال لك الطبيب؟

فقال في وجوم:

- شلل والتهاب رئويّ، سيتهي كلّ شيء في خلال

ثلاثة أيام...

لمعش ياسين على شفته وقال بحزن:

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله...

ثمّ جلس وهو يشتم:

- مسكينة، كان كلّ شيء مفاجئاً! ألم تشكّ تعباً في

الإنّهام الأخيرة؟

- كلا، إنّما لم تُعتدّ الشكوى كما تعلم، ولكنّها

كانت تبدو أحياناً كالتعب...

- ليتك عرضتها على الطبيب من قبل!

- لم يكن أبغض إلى نفسها من سيرة الطبيب!

وانضمّ إليها رضوان بعد حين فقال لكيال:

- أرى أن نُنقل إلى المستشفى يا عمّي!

فقال كمال وهو يهزّ رأسه في حزن:

- لا داعي إلى ذلك، وسيرسل الصيدليّ مرصّة

يعرفها لتحققها...

ولاذلّا بالصمت والرجوم يملو وجوههم، وعند ذاك

ذكر كمال أمراً تقتضي المجاملة ألاّ يحمله فسأل ياسين:

- كيف حال كريمة؟...

بمذاب الضمير الخلق بكل خائن، قد يبدو يسيراً أن تعيش في قسمة أنانيتك ولكن من العسير أن تسعد بذلك إذا كنت إنساناً حقاً. . .

فأشرق وجه رياض على رغم كآبة المناسبة وقال:

- هذا بشر بانقلاب خطير يوشك أن يقع!

فقال كمال في حذر:

- لا تسخر مني، إن مشكلة الإيمان ما زالت قائمة

بدون حل، وغاية ما أستطيع أن أعزي به نفسي هو

أن المعركة لم تنته، ولن تنتهي ولو لم يبق من صجري إلا

ثلاثة أيام كآتي. . .

ثم وهو يتتهد:

- أتعلم ماذا قال أيشا؟ قال: إن أومن بالحياة

وبالناس، وأرى نفسي ملزماً بالتباع مثلهم العليا ما

دمت أعتقد أنها الحق إذ النكوص عن ذلك جن

وهروب، كما أرى نفسي ملزماً بالثورة على ملهم ما

اعتقدت أنها باطل إذ النكوص عن ذلك خيانة، وهذا

هو معنى الثورة الأبدية!

وجعل رياض يصمت وهو يبرأ رأسه موافقاً، ثم بدا

على كمال الإحياء والضييق فقال رياض:

- أنا مضطر إلى الذهاب لما رأيك في أن تصحيني

إلى عكة الترام لعل المشي يريح أعصابك!

ونبضا ممّا وضاعدا الحجر، وقابلا بياضين عند

مدخل الدور الأول - وكان على معرفة سطحية

برياض - فدعاه كمال إلى مصاحبته. غير أنه استأذن

منها دقائقاً ريثما يلقي نظرة على أمه، ومضى إلى

حجرتها فوجدها كما تركها في غيبوبة. وكانت خديجة

جالسة في الفراش عند قدميها وقد أحمرت عينها من

البكاء، وعلت وجهها الكتابة التي لم تفارقه منذ امتدت

يد الحكومة إلى ابنها، أما زئوبة وعائشة وأم حنفي

فقد جلسن على الكتبة صامتات، وكانت عائشة تدخن

سيجارة في سرعة وقلق، على حين راحت عينها

تجولان في المكان في اضطراب عصبي، وسألن:

- كيف حالها؟

فأجابت عائشة بصوت مرتفع ينم عن الضيق

والاحراج:

- لا تريد أن تصحوا

- حسبتني قد آتيت للحياة وإجيبها بالإخلاص لهنتي

كمعلم وكتابة المقالات الفلسفية. . .

قال رياض بعطف:

- وقد آتيت وإجياً بلا شك!

- ولكنني عشت معذب الضمير كما ينبغي لكل

خائن!

- خائن؟!

فتتهد كمال وقال:

- دعني أعبرك بما قال لي أحد ابن أخوتي عندما زرته

في سجن القسم قبل نقله إلى المعتقل. . .

- على فكرة، أما من جليد عنها؟

- لقد رحل مع كثيرين إلى معتقل الطور. . .

فتساءل رياض بآسفاً:

- الذي بعيد الله والذي لا يعبده؟

- يجب أن تعبد الحكومة أولاً كي تعيش

مطمئناً. . .

- على أي حال الاعتقال أخف في نظري من

المحاكمة!

- هذا رأي، ولكن متى تنكشف هذه الغمة؟ متى

ترفع الأحكام العرفية؟ متى يعود السلطان إلى القانون

الطبيعي والدستور؟ متى يعامل المصريون كالأدبيين؟!

فجعل رياض يعبث بختام الزواج في يسه، ثم

قال بحزن:

- نعم متى؟ ما علينا، ماذا قال أحمد في سجن

القسم؟

- نعم، قال لي إن الحياة عمل وزواج وإيجاب

إنساني عام، وليست هذه المناسبة للحديث عن واجب

الفرد نحو مهته أو زوجه أما الواجب الإنساني العام

فهو الثورة الأبدية، وما ذلك إلا العمل الدائب على

تحقيق إرادة الحياة عتلة في تطورها نحو المثل

الأعلى. . .

فتفكر رياض قليلاً ثم قال:

- رأي جميل، ولكنه يتسع لكافة المتناقضات. . .

- نعم، ولذلك واقفه عليه أخوه ونفيغه عبد

النجم، ولذلك فهمته على أنه دعوة إلى الإيمان أيًا كان

مشربه وأيًا كانت غايته، ولذلك فليكن عملنا تعاسي

وكان كمال من أحرف الناس بمزاج أخيه، فقال:

- لا داعي إلى ذلك ألبتة...

فدفعه ياسين أمامه وهو يقول:

- إني أهي كما إني أملك!

وداخل كمال بذنة شعور بالخوف على ياسين! حقًا  
إنه يسير مكتفًا بالحياة في ضخامة الجمل ولكن إلّا  
يحتل حياته المقعنة بالأهواء؟ وطفح فؤاده بالكآبة،  
غير أنّ فكره طار فجأة إلى الطور، إلى المعتقل. إلى  
أومن بالحياة وبالناس، هكذا قال، وأرى نفسي ملزمًا  
بالتباعد عنهم العليا ما دمت أعتقد أنّ الحقّ إذ  
النكوص عن ذلك جبن وهروب، كما أرى نفسي ملزمًا  
بالثورة على هؤلاء ما اعتقدت أنّها باطل إذ النكوص  
عن ذلك عيانة! وقد تسال ما الحقّ وما الباطل، ولكن  
لملّ الشكّ نوع من الهروب كالنصوّف والإيمان السلمي  
بالعلم. فهل تستطيع أن تكون مدبرًا مثاليًا وزوجًا  
مثاليًا وثائرًا أبدنيًا؟!

وعندما مرّا بدكان الشرقاوي توقّف ياسين وهو  
يقول:

- كلّفتني كريمة بأنّ أستبضع لها بعض اللوازم  
للمولود المنتظر... عن إذنك...

ودخلا الدكان الصغير، وراح ياسين يتقي ما يريد  
من لوازم المولود المنتظر: قماطًا وطاليت ومنامة، وعند  
ذلك تذكّر كمال أنّ رباط عنقه الأسود الذي استعمله  
علمًا حدادًا على والده قد استهلك، وإنّه يلزمه آخر  
جديد ليواجه به اليوم الحزين، فقال للرجل حين فرغ  
من ياسين:

- رباط عنق أسود من فضلك...

وتناول كلّ لفافته، وغادرا الدكان.

وكان المغيّب يقطر سمرة هادئة لفضها جنبًا إلى  
جانب وهو البيت...

وحانت منه الفتاة إلى خديجة فتبدلا نظرة طويلة  
دلت على تفاهم حزين وبأس مشترك فلم يتمالك إلا  
أن يغادر الحجرة ويلحق بصاحبيه...

وساروا في الطريق متلهّلين، فقطعوا الصاغة إلى  
الغورية في شبه صمت، وعندما بلغوا الصناديق  
صادفوا الشيخ متولي عبد الصمد ينحدر منها إلى  
الغورية متوكّئًا على عصاه، في خطوات غلخلة، وقد  
كفّ بصره وارتعشت أطرافه، وكان يتلقّف فيها حوله  
مستأثلاً في صوت مرتفع:

- من أين طريق الجنة؟

فاجابه مارّ وهو يضحك:

- أوّل عطفة على يمينك...

وقال ياسين لرياض قلنس:

- أتصدّق أنّ هذا الرجل قد جاوز المئة بما يقرب  
من عشرة أهوام؟...

فقال رياض بأسًا:

- إنّه لم يعد رجلاً على أيّ حال...

وكان كمال ينظر نحو الشيخ متولي بحطف، كان  
يذكر به أباه، وكان يعدّه معلمًا من معالم الحريّ كالسبيل  
القديم وجامع قلاوون وقبر قرمز، ووجد كثيرين وهم  
يعطفون عليه، غير أنّ العجوز لم يسلم من شقاوة  
بعض الغلمان الذين راحوا يصقّرون في وجهه أو  
يتبعونه محاكين حركاته.

وأوصلا رياض حقّ عكّة الغرام، وانتظرا معه حقّ  
ركب، ثمّ عادا معًا إلى الغورية، وتوقّف كمال عن  
السير فجأة وقال لأخيه:

- آه لك أن تذهب إلى القهوة...

فقال ياسين بحدّة:

- كلا، سأبقى معك...









